رواية

مكتبة

كين فوليت

أعمدةُ الأرضِ



ترجمة: عزّة حسون

أعمدةُ الأرضِ

رواية 

اسم المؤلف: كين فوليت | Author: **Ken Follett**

عنوان الكتاب: أعمدةُ الأرضِ | Title: **The Pillars of the Earth**

ترجمة: عزّة حسون | Translated by: **Azza Hassoun**

الناشر: دار المدى | P.C.: **Al–Mada**

الطبعة الأولى: **2023** | First Edition: **2023**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+ 964 (0) 770 2799 999 · + 964 (0) 780 808 0800 · + 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+ 961 175 2617 · + 961 706 15017 · + 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+ 963 11 232 2276 · + 963 11 232 2275 · + 963 11 232 2289 · ص.ب: 8272

كين فوليت

أعمدةُ الأرضِ

ترجمة : عزّة حسون



أعمدةُ الأرضِ

كان كين في السابعةِ والعشرين عندما ألّفَ رواية «خُرم الإبرة» وهي رواية تشويقية حصدَت الكثيرَ من الجوائزِ، وعلى قائمةِ أكثرِ الكتبِ مبيعاً. بعد تأليفِ الكثيرِ من الروايات التشويقية، والناجحة فاجأ فوليت الجميع بروايةِ *أعمدةُ الأرضِ* التي تتحدث عن بناءِ كاتدرائيةٍ في القرون الوسطى. نجحت الرواية في أسرِ ملايين القُرَّاء، ومن جميع أصقاعِ العالمِ، ثمَّ جاءَ الجزءُ الثاني من السلسلةِ بعنوان *عالمٌ بلا نهايةٍ*، وكان أيضاً من أكثر الكتب مبيعاً في الولايات المتحدة، وبريطانيا العظمى، وألمانيا، وإيطاليا، وإسبانيا، وفرنسا. تعدُّ ثلاثيتهُ الثانية بعد ثلاثيةِ كينغزبريدج من أكثر مشاريعه طموحاً وهي بعنوان *ثلاثيةُ القرنِ*. ستقدمُ الثلاثية وصفاً كاملاً لتاريخِ القرنِ العشرين بعيون خمسِ عائلاتٍ مرتبطةٍ بعضها ببعض: عائلةٌ أمريكيةٌ، وعائلةٌ إنكليزية، وعائلةٌ ألمانية، وواحدة روسية، وأخيرة ويلزية. يأتي الجزءُ الأولُ من الثلاثيةِ بعنوان *سقوطُ العمالقةِ*، ويتناول مرحلة الحربِ العالميةِ الأولى، والثورةِ الروسيةِ.

إشاداتٌ بروايةِ أعمدةُ الأرضِ

«حكايةٌ مسلّية جداً، وتستحضرُ بروعةٍ الحقبة التي تتناولها».

صانداي تايمز

«كتابٌ ملحمي سميكٌ، ومكثفٌ... أبدع فوليت حقاً في الجمعِ بين الضخامةِ، ودقةِ التفاصيلِ، وأخرجَ روايةً مصبوغةً بالقسوةِ، والعنفِ، والإيمانِ الأعمى الذي طبعَ تلك الحقبة».

صانداي إكسبريس

«روايةٌ ضخمةٌ، ومذهلةٌ... إنَّها تلامسُ جميعَ المشاعرِ الإنسانيةِ من حُبٍّ، وحقدٍ، وإخلاصٍ، وخيانةٍ، وأملٍ، ويأسٍ. اقرؤوها، واكتشفوا بأنفسكم. روايةٌ كفيلةٌ *بإغراقِ* القارئ فيها بكلِّ ما لكلمةِ غرق من معنى».

كوزموبوليتان

إلى قُرَّة عيني، ماري كلير

أقدِّمُ فائق شكري إلى جين غيمبل، وجوفري هيندلين ووارين هولستر، ومارغريت ويد لابارج. كانت معرفتهم الموسوعية القروسطية خيرَ عونٍ لي.

أرغب أيضاً بشُكرِ إيان ومارجوري تشابمان على صبرهما، وتشجيعهما، وإلهامهما لي.

مقدمة

لم أنجح قط في إنجازِ أيّ شيءٍ مما خططتُ لهُ.

فوجئ كثيرون، وأنا من بينهم، بروايةِ *أعمدةُ الأرضِ*؛ فقد كنتُ معروفاً ككاتبِ رواياتٍ تشويقيةٍ، وفي صناعةِ الكتبِ إن حققت نجاحاً في صنفٍ أدبي ما فمن الذكاءِ أن تلتزم بهِ، وتضعَ روايةً كلَّ عامٍ إلى نهايةِ حياتك. لا يمكن للمهرجين أن يخاطروا بتأديةِ دورِ هاملت، ولن يجرؤ نجومُ البوب على تأليفِ السيمفونيات، وأنا مثلهم أيضاً، لم يكن بوسعي المخاطرةُ بسمعتي من خلالِ كتابةِ شيءٍ مختلفٍ، وطموحٍ جداً.

ولكن هذا ليس كلَّ ما في الأمرِ فأنا لست مؤمناً، ولا من النوع الذي يمكن أن تسموه شخصاً روحانياً. ووفقاً لوكيلِ أعمالي فإنَّ مشكلتي الحقيقية ككاتبٍ هي أنني لستُ روحاً معذبةً، ولذلك فإن آخر شيءٍ يمكن أن يتوقعه أحدٌ مني هو أن أكتبَ حكايةً عن بناءِ كنيسةٍ.

لهذهِ الأسبابِ بدا تأليفُ روايةِ *أعمدةُ الأرضِ* أمراً مستبعداً، بل كدتُ ألا أكتبها لأنني عندما بدأتُ بها تخليتُ عنها، ولم أعد إليها إلَّا بعدَ عشرِ سنواتٍ.

سارت الأمورُ بهذهِ الطريقةِ.

أتذكرُ في صباي أنَّ عائلتي كانت من طائفةٍ دينيةٍ بيورتانية تدعى «بليمث بريذرن»، والكنيسة بالنسبة إلينا أشبه بغرفةٍ فارغةٍ مع صفوفٍ من المقاعدِ حولَ طاولةٍ في المنتصفِ ومن دونِ أيّةِ لوحاتٍ، أو تماثيل، أو أيّ شكلٍ من أشكالِ الزينةِ لأنها كانت مُحرَّمةً. لم تسمح طائفتنا لأفرادِها بزيارةِ كنائسِ طوائف أخرى، وبذلك كبرنا جاهلين بالثروةِ المعماريةِ الكنسيةِ المذهلةِ في أوروبا.

أتت محاولاتي الأدبية الأولى عندما كنتُ في منتصف العشرينات من عمري، وبدأتُ العملَ كمراسلٍ لجريدةِ «إيفيننغ نيوز» اللندنية. أدركتُ حينها

أنني لم أكن مهتماً جداً بالعمارةِ المدينية من حولي، ولم يكن لدي مخزونٌ من المفرداتِ اللازمةِ لوصفِ الأبنيةِ التي ستعيشُ فيها شخصياتي مغامراتها، ولذلكَ اشتريتُ كتاباً بعنوان موجز *العمارة الأوروبية* لنيكولاس بيفسنر، وقد فتحَ هذا الكتابُ عيني على الطريقةِ التي يجب أن أنظرَ بها إلى الأبنيةِ، عموماً، وإلى الكنائسِ، على وجه الخصوص. كتبَ بيفنسر بحماسةٍ حقيقيةٍ عن الكاتدرائياتِ الكاثوليكية، وذكرَ في الكتابِ أنَّ اختراعَ القنطرةِ المدببةِ جاءَ كحدثٍ فريدٍ في التاريخ، واستنتجَ أنَّ هذه التقنيةَ التي جاءت كحلٍ لمشكلةٍ تقنيةٍ في البناءِ -مشكلةِ بناءِ كنائس أطول- جعل هذهِ الكنائس أجمل وأكثر أبهةً.

بعد الانتهاءِ من قراءةِ كتاب بيفسنر أرسلتني الصحيفةُ في مهمةٍ إلى مدينة بيتربورو شرقَ إنكلترا. نسيت القصةَ التي أرادوا مني تغطيتها آنذاك، ولكنني لن أنسى ما حدث بعد أن أرسلتُ التقرير. كان عليَّ أن أنتظرَ قطارَ العودةِ إلى لندن لساعةٍ، وعندها تذكرتُ توصيفَ بيفسنر المذهل والحماسي للعمارة القروسطيةِ فذهبتُ لمعاينةِ كاتدرائيةِ بيتربورو.

وكانت لحظةً من تلكَ اللحظاتِ.

كان للواجهةِ الأماميةِ الغربيةِ لكاتدرائية بيتربورو ثلاث قناطر ضخمة على الطرازِ القوطي كأنَّها مداخلُ عمالقةٍ، أمَّا القسمُ الداخلي من الكاتدرائية فقد كان أقدم من الواجهةِ مع صفوفِ القناطر النورماندية المدورة بشكلٍ مهيبٍ على طولِ الممرّ، وكأيِّ كنيسةٍ كبيرةٍ كانت الكنيسةُ هادئةً وجميلةً، بل كانت أكثرَ من ذلكَ؛ فبسبب كتابِ بيفسنر كانت لدي فكرةٌ ما عن العمل الذي بُذل لبناءِ الكنيسةِ، وكنتُ أعلمُ بقصَّةِ الجهدِ البشري لبناءِ كنائس أطول وأجمل، وفهمتُ مكانةَ هذا البناء في التاريخ، في تاريخي.

سحرتني كاتدرائيةُ بيتربورو.

ومنذئذٍ باتت زيارةُ الكاتدرائياتِ هوايتي فلا تمرُّ بضعةُ أشهرٍ إلَّا وأتوجه إلى إحدى المدنِ الإنكليزيةِ القديمةِ، وأنزلُ في فندقٍ، وأخرج وأدرس كنيسةَ هذه المدينة وتلك، وبهذهِ الطريقةِ زرتُ كنيسةَ كانتربيري وسالزبيري ووينشستر وغلوستر ولينكولن. إنَّ جميعَ تلكَ الكنائس فريدةً، وخلفَ بناءِ كلِّ واحدةٍ منها قصَّةٌ مشوقةٌ. عموماً، لا يقضي الناس أكثرَ من ساعةٍ أو ساعتين في معاينةِ الكاتدرائيةِ ولكنني أحببتُ معاينةَ الكاتدرائيات لأيامٍ.

تكشفُ حجارةُ البناءِ عن تاريخِ البناءِ: البداية، والنهاية، والأضرار، والترميمات، والإضافات خلال فتراتِ الرخاءِ، والنوافذ الملونة التي قدَّمها رجالٌ موسرون. علاوةً على هذا كان موقعُ الكنائسِ في المدنِ حكاية أخرى فكنيسة لينكولن تقعُ قبالةَ القلعة -القوةُ الدينيةُ والقوةُ العسكريةُ وجهاً لوجه، ولكنيسةِ وينشستر شبكةٌ من الشوارعِ بناها أسقفٌ قروسطي حلمَ أن يكون بنَّاءَ مدينةٍ، ونُقلت كنيسةُ ساليزبري في القرن الثالث عشر من أعلى هضبة محصَّنةٍ- وما زالت بقايا الكاتدرائيةِ القديمةِ مرئيةً - إلى مرجٍ مفتوحٍ في إعلان عن أنَّ السلام يعمُّ البلاد.

خلالَ كل ذلكَ الوقتِ الذي قضيته في هذهِ الكنائسِ طاردني سؤالٌ: لمَ بُنيت هذهِ الكنائس؟

هناك أجوبةٌ بسيطةٌ على هذا السؤالِ. يمكننا القولُ إنَّها بُنيت لإعلاءِ مجدِ الرَّبّ، أو لإرضاءِ خُيلاءِ الأساقفةِ، وإلى ما هنالك من أجوبةٍ من هذا النوع، ولكنهاَ لم تكن قط أجوبةً مُرضيةً لي. إنَّ الكاتدرائياتِ القروسطيةَ ظاهرةٌ أوروبيةٌ مذهلةٌ. لم يملك البناؤون آنذاك أدواتٍ كهربائيةً، ولم تكن لديهم معرفةٌ برياضياتِ هندسةِ البناءِ وكانوا فقراء؛ فأغنى الأمراءِ لم يعش برفاهيةِ سجينٍ حالياً، ورغمَ هذا أتقنوا البناءَ، ويشهدُ على هذا بقاءُ هذهِ الأبنيةِ حتَّى بعد مرور مئاتِ السنين لندرسها، وتأخذنا بسحرها.

بدأتُ أقرأ عن هذهِ الكنائسِ، ولكنَّ الكتبَ لم تكن كافيةً فقد كان هناك الكثيرُ من الحشو الجمالي حولَ رفعةِ هذه الكنائسِ ولكن ليسَ الكثير عن عمليةِ البناءِ، ثمَّ وقعَ بين يدي كتاب *بناؤو الكاتدرائية* لجان غيمبل. كان جان البطةَ السوداء في عائلةٍ من تُجارِ التحفِ الفنيةِ، وسَقماً مثلي من النقاشاتِ حولَ جماليات الكنائسِ، وإن كان للنافذةِ العلويةِ في الكنيسةِ دورٌ جمالي أم لا. تحدثَ جان في كتابهِ عن العمالِ المُعفرين بالترابِ، ومن سكنوا الأكواخَ خلال عملهم على هذهِ المباني المُذهلةِ، وقد اطلعَ على سجلاتِ الرواتبِ في الأديرةِ الفرنسيةِ، وأبدى اهتماماً بهويةِ البنائين والمبالغِ التي تقاضوها، وهو أولُ شخصٍ يُلاحظ أنَّ أقليةً مُهمةً بين هذهِ الأسماءِ تعودُ إلى نساءٍ رغمَ أنَّ الكنيسةَ القروسطية متحيزةٌ جنسياً، ولكن يبدو أنَّ نساءً ورجالاً على حد سواء كانوا على قوائمِ العمالِ.

هناك كتابٌ آخر لجان غيمبل بعنوانِ *الآلةُ القروسطيةُ*، وعلمتُ منه أنَّ القرونَ الوسطى شهدت حركةَ ابتكارٍ سريعةً سُخِّرَت فيها الطواحين المائية في صناعاتٍ عديدةٍ، وسرعان ما بدأتُ أهتمّ بالحياةِ القروسطيةِ بشكلٍ عام، وبدأت أفهمُ كيف أن بناءَ كاتدرائياتٍ مهيبةٍ بدا أمراً صائباً للناسِ خلالَ القرونِ الوسطى.

لم يكن إيجاد تفسيرٍ لهذا بالأمرِ الهيِّن بل أشبه بمحاولةِ فهمِ سببِ ضخِّ البشر في القرنِ العشرين للكثير من الأموال في مجالِ اكتشافِ الفضاءِ الخارجي. في كلتا الحالتين هناك شبكةٌ كاملةٌ من العواملِ كالفضولِ العلمي، والمصالحِ التجاريةِ، والمنافسةِ السياسيةِ، والمطامحِ الروحيةِ للبشرِ على كوكبِ الأرضِ، وخُيلَ إلي أنَّ الطريقةَ الوحيدةَ لرسم هذهِ الشبكةِ هي بتأليفِ روايةٍ.

في وقتٍ ما من عام 1976 وضعت ملخصاً، وكتبتُ أربعةَ فصولٍ ثمَّ أرسلتُ ما كتبته إلى وكيلي آل زوكرمان الذي كتبَ إلي قائلاً: «ما كتبتهُ يشبهُ لوحةً مفعمة بالصورِ، وكل ما تحتاجُ إليه الآن هو سلسلةٌ من الأحداثِ المثيرةِ المرتبطةِ بعضها ببعض».

بالعودةِ إلى تلك الأوقاتِ أرى أنني، وبعمر السابعة والعشرين، لم أكن قادراً على كتابةِ مثل هذه الروايةِ. كنت آنذاك أشبه برسَّام متدربٍ على الألوان المائية، ويخططُ لرسمِ لوحةٍ كبيرةٍ بالألوانِ الزيتيةِ، وللأمانة، ستكون الروايةُ طويلةً جداً لأنَّها ستُغطي مرحلةً تمتد لعقودٍ عديدةٍ، وستقدمُ مسحاً واسعاً لأوروبا القروسطية، ولأنني كنت أؤلف كتباً أبسط من هذا الكتاب لم أكن بعد قد أتقنتُ حرفةَ الكتابةِ كما يجب.

انطلاقاً من هذهِ الأسباب تخليتُ عن فكرةِ روايةٍ تتناولُ بناءَ كاتدرائيةٍ لمصلحة فكرةٍ أخرى وهي رواية تشويقية عن جاسوسٍ ألماني في إنكلترا إبان فترةِ الحربِ. لحسنِ الحظِّ امتلكت القدراتِ اللازمةَ لتأليف مثل هذا الكتاب. نشرتُ رواية *خُرم الإبرة* وأصبحتْ أول كتابٍ لي يحقق أفضلَ المبيعات.

خلال العقدِ التالي لم أكتب شيئاً سوى الروايات التشويقيةِ إلا أنني لم أتوقف عن زيارةِ الكاتدرائياتِ، ولذلك لم تفارقني يوماً فكرةُ كتابةِ روايةٍ عن

بناءِ كاتدرائيةٍ. في كانون الثاني/ يناير من عام 1986 وبعد أن أنهيت روايتي السادسة *النّوم مع الأُسود*، بدأتُ أفكر جدياً بتأليفِ الروايةِ.

أبدى الناشرون ممن عملتُ معهم قلقاً حيالَ نجاحِ هذه الروايةِ، وعبروا لي عن رغبتهم في أن أكتبَ رواية أخرى عن الجاسوسيةِ. كان أصدقائي قلقين أيضاً لعلمهم أنني أستمتعُ بالنجاحِ، وأنني لستُ من ذلكَ النوعِ من الكُتّابِ الذين يتعاملون مع فشلِ كُتبهم بالقولِ إنَّ الكتابَ جيدٌ، ولكن القارئ غير كفؤ. أنا أكتبُ لأُمتع الآخرين، ويُسعدني هذا، ولذلك سيجلبُ الفشلُ لي التعاسةَ. لم يحاول أحدٌ حثِّي على العدولِ عن قراري، ولكنّ الكثيرين أبدوا تحفظاً شديداً.

بغضِّ النظرِ عن كلِّ هذا لم أكن أنوي تأليف كتابٍ «صعبٍ». أردت أن أؤلفَ قصةَ مغامراتٍ مليئة بشخصياتٍ نابضةٍ بالحياةِ، وطموحةٍ، وشريرةٍ، ومثيرةٍ، ومغوارةٍ، وذكيةٍ. أردت أن يكون القارئ العادي مأخوذاً برومانسيةِ كاتدرائياتِ القرون الوسطى.

بحلول ذلكَ الوقت كنت قد طورتُ منهجيةَ عملٍ سألتزم بها حتَّى هذا اليوم. وضعت أولاً ملخصاً للقصةِ وضحت فيه ما سيحدثُ في كل فصلٍ مع توصيفٍ سريعٍ للشخصياتِ، ولكن هذا الكتاب لم يكن كأيٍّ مما سبقهُ. كانت البدايةُ سهلةً، ولكن ولأنَّ الحكاية تمتدُ على عقودٍ من الزمنِ تنضجُ فيها الشخصيات عمرياً، وجدتُ صعوبةً مطردةً في اختراعِ حبكاتٍ في حيواتهم. وأدركتُ وقتها أنَّ كتاباً واحداً طويلاً أصعبُ بكثيرٍ من ثلاثة كتبٍ قصيرةٍ.

أردتُ أن يكون بطلُ القصةِ رجلاً متديناً بطريقة ما، وهذا أمرٌ وجدت صعوبةً في تحقيقهِ لأنني لم أكن مهتماً بمثلِ هذهِ الشخصيةِ التي تهتمُ بالحياةِ الآخرةِ، كما سيكون حالُ الكثيرِ من القُرَّاءِ، ولكن وكي أجعلَ رئيسَ الديرِ فيليب شخصيةً أكثر تعاطفاً منحتُه معتقداتٍ دينيةً عمليَّةً وواقعيةً تعنى بخلاصِ أرواحِ الناسِ على الأرضِ أكثر مما تهتمُّ بخلاصِها في الآخرة.

أمَّا المشكلةُ الثانية التي وقعت فيها فكانت اختيار ما ستكون عليهِ الحياة الجنسية لرئيسِ الديرِ فيليب. نظرياً، يُفترض أن يكون جميعُ الرهبانِ والكهنةِ في العصور الوسطى مُتبتلين، ولذلك كانت الحبكةُ الأقوى والأوضح هي وضعهُ في معركةٍ شعواء مع رغباتهِ، ولكني لم أكن مُتحمساً

لهذهِ الثيمةِ. وبما أنني ترعرتُ في فترةِ الستينات لطالما تعاطفت مع أولئك الذين يستسلمون للإغواءِ. قررتُ في النهايةِ أن أصورهُ كواحدةٍ من تلك الشخصيات القليلةِ التي لا تنظرُ إلى الجنسِ كمسألةٍ مهمةٍ، وكانت شخصيةُ فيليب الشخصيةَ المتبتلةَ الوحيدةَ، من بين جميعِ الشخصياتِ التي صنعتها، سعيدةً بتبتلها.

تواصلت مع جين غيمبل الذي ألهمني قبل عقدٍ من الزمنِ، وتفاجأت بحقٍ عندما علمت أنَّه لا يعيشُ في لندن فحسب بل في الشارعِ الذي أقطنُ فيه أيضاً. استعنت بهِ كمستشارٍ، وأصبحنا صديقين وغريمين في لعبةِ تنس الطاولةِ حتَّى وفاتِهِ.

بحلولِ شهر آذار/ مارس من عام 1987 لم أكن قد وضعت سوى مُلخصٍ لثلثي الكتاب، ولكنني قررتُ أنَّ ذلكَ كافٍ للبدءِ بالكتابةِ.

في شهرِ كانون الأول/ ديسمبر انتهيت من كتابةِ مئتي صفحةٍ من الروايةِ.

كان الأمرُ كارثياً بحقٍ.

كنت أعمل على القصةِ منذُ عامين، ولكن كل ما لدي ملخصٌ مبتورٌ لبضعةِ فصولٍ. لم أرغب في قضاءِ بقيةِ حياتي أؤلفُ هذا الكتاب، ولكن ما الحل؟ حسناً، كان بوسعي التخلي عنه، والبدء بالعملِ على روايةٍ تشويقيةٍ أخرى، أو العمل بجدٍ أكبر. في تلك الأيام كنت معتاداً على العمل من الإثنين وحتَّى الجمعة، ثمَّ أردّ على رسائلِ العملِ صباحَ السبتِ، ولذلك بدءاً من كانون الثاني/ يناير من عام 1988 بدأت أكتبُ من الإثنين وحتَّى السبت، وأردُّ على رسائلِ العمل يومَ الأحدِ. ارتفعت إنتاجيتي بشكلٍ كبيرٍ، ويعود هذا في جزءٍ منه إلى عملي ليومٍ إضافي، غيرَ أنَّ السببَ الرئيسي كان الكثافة التي وضعتها في عملي. أمَّا مشكلةُ اختيار نهايةٍ للرواية، وهي التي لم أكن قد فكرت بها خلال عملي على الملخصِ، فقد حُلَّت بإلهامٍ خاطفٍ نزلَ علي. خطرت ببالي فكرةُ توريطِ الشخصياتِ المركزيةِ في جريمةٍ شنعاء حدثت في الحقيقةِ، وراحَ ضحيتها توماس بيكيت.

أتذكرُ أنني أنهيت المسوّدة الأولى بحلولِ منتصفِ العام، وغمرني مزيجٌ من الحماسةِ، ونفاد الصبر للعملِ بجدٍ أكبرَ على إعادة كتابةِ العملِ، ولذلك بدأت أعملُ طوالَ أيامِ الأسبوعِ، وأهملتُ الردَّ على رسائلِ العملِ. أنهيت

العملَ بحلولِ شهر آذار/ مارس من عام 1989، أي بعدَ ثلاثةِ أعوام وثلاثةِ أشهرٍ على بدءِ العملِ.

على الرغمِ من أنني كنتُ مُنهكاً جداً فإنني كنتُ سعيداً، وشعرت أنَّه يتحتمُ علي كتابةُ شيءٍ مميزٍ، وليسَ بالضرورةِ أن يحققَ أفضلَ مبيعاتٍ. أردت من الروايةِ أن تحقّقَ شعبيةً عظيمةً.

ولكن لم يوافقني في هذا كثيرون.

طبعَ ناشري الأمريكي وليم مورو وشركاؤه الكميةَ ذاتها التي طبعَها من روايةِ *النومُ مع الأُسودِ* وكانوا قانعين ببيعِ العددِ ذاتِهِ من النسخِ، أمَّا ناشري الإنكليزي فقد كان أكثر حماسةً، وحققت روايةُ *أعمدةُ الأرضِ* مبيعاتٍ أفضل من كُتبي السابقةِ، ولكن ردَّ الفعلِ الأولي بين الناشرين الدوليين هو التنهد بارتياحٍ لأنَّ كين فوليت قد أنهى مشروعهُ الجنوني، ونجا بجلدِهِ. لم يفز العمل بأيَّة جوائز، ولم يُرشح لأيٍّ منها أيضاً. نظرَ إليه بعضُ النُقادِ بعينِ الإعجابِ ولكن غالبيتهم لم ينبهروا به. وصلت الرواية إلى قائمةِ أفضل الكتبِ مبيعاً في إيطاليا، بقُرَّائها اللطفاءِ معي على الدوام، ولأسبوع تصدَّرت القائمة في بريطانيا.

وبدأت أفكرُ أنني ربما أخطأتُ، وأنَّ الرواية كغيرها من الرواياتِ جيدةٌ ولكن ليست عظيمة.

على أيِّ حالٍ كان هناك شخصٌ واحدٌ آمنَ بقوةٍ أنَّ هذا الكتاب مميزٌ، وهذا الشخص هو ناشري الألماني والتر فريتز من دار غوستاف لوبيه الذي لطالما حلمَ بنشرِ روايةٍ عن بناء كاتدرائيةٍ. كان قد تناول الفكرةَ مع بعضِ المؤلفين الألمان، ولكن لم يُفلح في تحقيقِ مرادِهِ، ولذلك أبدى حماساً تجاه روايتي، وعندما وصلهُ مخطوطُ الروايةِ شعرَ أنَّ أمنيته أخيراً قد تحققت.

حتَّى هذا الوقت لم تحقق أيّ من رواياتي في ألمانيا إلّا نجاحاً متواضعاً (كانت غالبيةُ الأشرارِ في رواياتي من الألمان، ولذلك لم يكن بوسعي الشكوى). كان فريتز متحمساً جداً، ورأى أنَّ رواية *أعمدةُ الأرضِ* ستكون سبَّاقةً، وستجعلني الكاتب الأكثرَ شهرةً في ألمانيا.

حتَّى أنا لم أكن مؤمناً بهذا، ولكن تبينَ أنَّ فريتز كان على حقٍ.

نشرت دار لوبيه الروايةَ بذكاءٍ. استعانوا برسّام شابٍ يُدعى آخيم كيل

لتصميمِ الغلافِ، ولكنه أصرَّ على تصميمِ الكتابِ بأكملِهِ كأنَّه بصددِ القيامِ بعملٍ فنيٍ متكاملٍ، وأبدت دار لوبيه شجاعةً كافيةً للقبولِ بفكرتِه. كانَ يتقاضى أجراً عالياً جداً، ولكنه نجحَ في إيصالِ حماسِ فريتز حيال الكتابِ إلى الشُّراة، وإقناعِهم أنَّ الكتابَ مميزٌ بحقٍ، وقد تابع آخيم تصميمَ كلِّ النسخِ الألمانيةِ من كتبي لسنواتٍ عديدةٍ لاحقةٍ، وقدَّمَ لدار لوبيه بصمةً خاصَّةً ستستخدمها مُستقبلاً.

كانت أولى بوادرِ إدراكِ القارئ أنَّ الروايةَ تحوي على شيءٍ مميزٍ هو عندما نشرت دار لوبيه إعلاناً عن احتفاليةِ بيعِ مئةِ ألفِ نسخةٍ منها، وأنا لم أحقق مثلَ هذه المبيعات في أيِّ بلدٍ، عدا الولايات المتحدة التي كان عددُ سكانِها أكبر بثلاثِ مرَّاتٍ من عددِ سكانِ ألمانيا.

بعد مرورِ عامين بدأت روايةُ *أعمدةُ الأرضِ* تظهرُ على قائمةِ الكتبِ التي ما زالتُ تباعُ. ظهرت ثماني مرَّاتٍ على قائمةِ أفضلِ الكُتبِ مبيعاً في ألمانيا، وبقيت على هذه القائمة لوقتٍ طويل. وحتَّى هذه اللحظةِ ظهرت الروايةُ 300 مرَّةٍ على هذهِ القائمةِ الأسبوعيةِ.

في أحدِ الأيَّامِ وبينما كنتُ أراجعُ عقدَ حقوقِ النشرِ الخاصَّةِ بي مع دارِ النشرِ الأمريكيةِ نيو أمريكان لايبراري -كانت مثلُ هذه العقودِ مصممةً بعنايةٍ لمنعِ الكاتب من فهم ما يحصل لكتابِهِ، ولكن بعدَ عقودٍ من المثابرةِ تعلَّمت كيفيةَ فكِ طلاسمها- لاحظتُ أنَّ روايةَ *أعمدةُ الأرضِ* تحققُ مبيعاتٍ تبلغُ خمسين ألف نسخة كلَّ ستةِ أشهرٍ، بينما روايةُ *خُرمِ الإبرةِ* ورواياتي الأخرى تحققُ مبيعاتٍ بحدودِ الخمسةِ والعشرين ألف نسخة.

راجعت المبيعات في المملكة المتحدة ووصلتُ إلى النتيجةِ نفسها: روايةُ *أعمدةُ الأرضِ* تحقق ضعفَ مبيعاتِ الرواياتِ الأخرى.

علاوةً على هذا بدأتُ ألاحظ أنَّ الرواية تُذكرُ كثيراً في بريدِ المعجبين، وعندما أذهبُ لتوقيعِ نسخ من رواياتي في المكتباتِ ألاحظُ أنَّ مزيداً من القرَّاء يخبرونني أنَّ رواية *أعمدةُ الأرضِ* روايتهم المفضلة. طلب العديدُ منهم تأليفَ جزءٍ ثانٍ – وهذا ما سأفعله في يومٍ من الأيام، وقال البعض إنَّها أفضلُ روايةٍ، وهذه مجاملةٌ لم أتلقَّها على أيّ روايةٍ من رواياتي السابقة. وقد عرضت إحدى الشركات السياحية البريطانية برنامج وجهةٍ سياحيةٍ، وحملَ

هذا البرنامج اسمَ «أعمدةُ الأرضِ»، وكانت هذه بداية نشوءِ جماعةِ أتباعٍ مُخلصين للروايةِ. وأخيراً أدركت ما حدث.

تحولت الروايةُ إلى روايةٍ شعبيةٍ يتناقل الناس خبرها، وفي قطاعِ النشر هناك بديهيةٌ تقول إنَّ أفضل دعاية هي تلك التي لا تشتريها بالمالِ، وهذا الشكلُ من أشكالِ الدعايةِ قائمٌ على تزكيةِ الكتابِ من قارئ إلى آخر. هذهِ هي الطريقةُ التي حققت بها الروايةُ كل هذه المبيعات. لقد فعلتموها أيُّها القرَّاء الأعزاء. فشل الناشرون، والوكلاء، والنُقاد ومانحو الجوائز، أولئكَ الذين لم يهتموا بالكتاب قط، في تصديرِ الروايةِ، وأنتم نجحتم، أنتم من رآها روايةً مختلفةً، ومميزةً، وأخبرتم أصدقاءكم لينتهي بها المطاف روايةً مشهورةً.

هذا ما حدث.

بدأتُ الروايةَ كروايةٍ تعدُ بالفشلِ وكخيارٍ خاطئٍ، وكدت أتخلى عنها، إلا أنَّها كانت أفضل كتبي، وأنتم من أوصلها إلى هذا المصاف.

أُقدّر لكم هذا، وأشكركم جزيلَ الشُكرِ.

كين فوليت

ستيفنيج، هارتفوردشير

كانون الثاني/ يناير 1999

قائمة الشخصيات

كينغزبريدج

البنَّاء جاك
البنَّاء توم
آلفرد، ابن توم
مارثا، ابنة توم
جوناثان، أصغر أبناءِ توم
آغنيس، زوجة البنَّاء توم الأولى
إيلين، والدة جاك وزوجة البنَّاء توم الثانية

دير كينغزبريدج

رئيس الديرِ فيليب من غويند
أسقف كينغزبريدج ويلارن بيغاد
ريميجوس، نائب فيليب
الراهبُ كوثبرت، أمين المؤن
الراهب ميليوس، مسؤول المطبخ والخزينة

شايرنغ

بارثيميلو، إيرل شايرنغ
الليدي آليانا، ابنته
اللورد ريتشارد، ابنه
اللورد بيرسي هاملي
ريغان، زوجة بيرسي
اللورد وليم، ابنهما

إسبانيا

رشيد الهارون، تاجر فلفل
عائشة، ابنته الصُغرى

شخصيات تاريخية

(إنكلترا)

الملك ستيفن، أحدُ أبناءِ شقيقةِ الملكِ هنري الأول
الأسقف هنري بليوس، أسقف وينشستر وشقيقُ ستيفن
الإمبراطورة مود، ابنةُ الملكِ هنري الأول
هنري الثاني، ابن مود وملك إنكلترا
الإيرل رانولف تشستر
روبرت غلوستر، أحد أبناءِ الملكِ هنري الأول اللقطاء
ثيوبولد كبيرُ أساقفة كانتربري وشقيقُ الملكِ ستيفن
توماس بيكيت، كبيرُ أساقفةِ كانتربري في عهد الملكِ هنري الثاني
وليم ماندفيل، إيرل إسيكس الثالث ومستشار الملكِ هنري الثاني
إنجيغور دي بون، نبيلٌ إنكليزي في عهد هنري الثاني
وليم مالفيسين، مستشارٌ ملكي
ريجينالد فيتزورس، فارسٌ إنكليزي
ريتشارد لي بريتون، فارسٌ إنكليزي
رانولف دي بروك، نبيلٌ إنكليزي وموظف ملكي في عهد هنري الثاني

شخصيات غير تاريخية

فرانسيس، شقيق فيليب وكاهن روبرت غلوستر

(فرنسا)

سوجير، رئيس دير سان دينيه
وليم ذو اليدِ البيضاءِ، رئيسُ أساقفةِ سينس وابن أخي الملك ستيفن

في ليلةِ الخامس والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1120 انطلَقت سفينةُ «وايت شِيب» باتجاهِ إنكلترا إلَّا أنَّها وقبالةَ سواحلِ مدينة بارفلور الفرنسية غرقَت مع كاملِ طاقمِها باستثناءِ واحدٍ. كانت السفينة آنذاك تُعدُ من أحدثِ بدعِ وسائطِ النقلِ البحريَّةِ، ومُصممة وفقَ أفضلِ تقنيات البناءِ التي عرفَها بناؤو السفنِ في تلكَ الحقبةِ... ومردُّ حادثِ الغرقِ الشنيع وجودُ عددٍ كبير من عليةِ القومِ على متنِها، فإضافةً إلى ابن الملكِ ووريثه كانت هناك شخصيتان ملكيَّتان ولكن لقيطتان، والعديدُ من الإيرلات، والبارونات، ومعظمُ أفرادِ العائلةِ الملكيَّةِ... تكمنُ الأهميةُ التاريخيةُ لهذا الحدثِ في أنَّه تركَ الملكَ هنري دونَ وريثٍ شرعي، وقادَ بعدَ وفاةِ هنري إلى صراعٍ على العرشِ، وحقبةٍ من الفوضى.

أوستن لين بول

من كتاب دومزدي إلى الماغنا كارتا[1]

1- يُعتبر *كتاب دومزدي* أو *كتاب وينشستر* أول كتاب يُقدم مسحاً جغرافياً لإنكلترا، ببلداتها ومدنها وأملاكها، وقد تم وضعه في عام 1086، أي في عهد الملك وليم الأول. أمَّا الماغنا كارتا أو «الوثيقة الأعظم» فهي من أهم الوثائق القانونية في تاريخ الحريات السياسية، وقد وقع عليها الملك جون ورئيس أساقفة كانتربري آنذاك ستيفان لانغتون، وصادق عليها نبلاء إنكلترا في عام 1215. بموجب هذه الوثيقة ضمنَ الملك للنبلاء حقوقهم الأساسية، وتبنى القانون الإقطاعي، وحرر الكنيسة من التدخلات الملكية، وقيَّد نفوذه وسلطته على المملكة. (المترجمة)

تمهيد

1123

توجَّه الصبيةُ إلى الساحةِ باكراً لمشاهدةِ الإعدام.

عندما تسللَ ثلاثةٌ أو أربعةٌ منهم في جزمهم بخفَّةِ الهررةِ خارجَ الأكواخ كان الظلام ما زال مُخيماً. غطت طبقةُ ثلج خفيفة وحديثة كطلاءِ البلدة الصغيرة، ولذلكَ كانت آثارُ أقدامِ الفتيةِ أول الآثارِ التي شوهت هذا السطح الأبيض المثالي. شقَّ الصبيةُ طريقهم عبرَ الأكواخِ الخشبيةِ المكتظةِ، والشوارعِ الموحلةِ والمتجمدةِ باتجاهِ ساحةِ السوقِ حيث نُصبت المشنقةُ.

ازدرى الصبيةُ كلَّ شيءٍ أجلَّه واحترمهُ أهلهم. احتقروا الجمالَ، والطيبةَ المزيفةَ، وكانوا يصيحون ساخرين كلما صادفوا كسيحاً، وإن رأوا حيواناً جريحاً رجموه حتَّى الموتِ. تباهوا بإصاباتهم، واعتزوا بجروحِهم، وضمروا احتراماً خاصَّاً لأيِّ تشوهٍ يصيبهم، وإن فقد أحدهم إصبعاً نصبوه ملكاً عليهم. أحبّوا العنف، وكانوا مستعدين لقطع أميالٍ كي يشهدوا على عملٍ دموي، ولذلك لم يكونوا ليفوتوا رؤيةَ الإعدامِ اليوم.

تبولَ أحدُ الصبيةِ على قاعدةِ المشنقةِ، وصعدَ آخر على الدرجِ ثمَّ وضعَ إبهامي يديهِ على عنقِهِ، وفي محاكاةٍ ساخرةٍ ومرعبةٍ لحالةِ الإعدامِ تظاهرَ أنَّه يقع أرضاً بوجهٍ متلو، وهللَ له الآخرون في إعجابٍ. ركضَ كلبانِ إلى ساحةِ السوقِ، وأخذا ينبحان، وهناك صبي صغيرٌ يقضمُ تفاحةً بلا مبالاةٍ باردة؛ فتلقى ضربةً على أنفهِ من أحد البالغين، وسلبهُ تفاحتهُ؛ فما كان من الولدِ الصغيرِ إلَّا أن نفَّسَ عن غضبه على الكلبِ راجماً إياه بحجرٍ غليظٍ؛ فاستدار الحيوانُ عائداً إلى المنزلِ وهو يهرُّ من الألمِ. ولأن ما من شيءٍ آخر يمكنهم القيام به جلسوا القرفصاء على الرصيفِ الجافِ لرواقِ الكنيسةِ الكبيرةِ بانتظارِ حدثٍ ما.

خلفَ ستائرِ منازل خشبيةٍ وحجريةٍ كبيرةٍ في الساحةِ تراقصَت ذؤاباتِ

الشموعِ. كانت هذهِ منازلَ الحرفيين والتجار الموسرين، ولا بد أنَّ الخادمات والمُتدربين فيها انشغلوا بإشعالِ النارِ، وتسخين المياه، وإعدادِ العصيدةِ. تغيَّرَ لونُ السماءِ من الأسود إلى الرمادي، وخرج سكانُ المدينةِ من مداخلِ منازلهم الواطئةِ مُلتفعين بعباءاتٍ ثقيلةٍ من الصوفِ الخامِ، وتوجهوا إلى النهرِ لجلبِ المياهِ وهم يرتعشون برداً.

سرعان ما تدرَّجَت بخيلاءٍ مجموعةٌ من الشبانِ، والساسةِ، والعمالِ، والمُتدربين إلى ساحةِ السوق، وطردوا الصبيةَ الصغار من رواقِ الكنيسةِ ركلاً ثمَّ اتكأوا على الجدرانِ الحجريةِ المزخرفةِ للقناطرِ وهم يحكّون أنفسهم، ويبصقون أرضاً، ويتكلمون بثقةٍ مصطنعةٍ عن الموتِ شنقاً. قالَ أحدُ الحاضرين إنَّ المحكومَ عليهِ سيكون محظوظاً إن انكسرَ عنقُهُ حالما يسقط، ويموت موتاً سريعاً غيرَ مؤلمٍ، ولكن إن لم يحدث هذا فسيظلُّ مُعلقاً ممتقعَ الوجهِ فاتحاً ومُغلقاً فمهُ كسمكةٍ خارج المياهِ إلى أن يموتَ خنقاً، وقالَ آخر إنَّ الموت بهذهِ الطريقةِ قد يستمرُ لفترةٍ تعادلُ مسيرَ ميلٍ، وقال ثالثٌ إنَّ الأمرَ قد يسوء أكثر؛ فقد شهدَ على شخصٍ ماتَ بهذهِ الطريقةِ، وقال إنَّ عنقه بحلولِ الوقتِ الذي فارقَ فيهِ الحياةَ باتَ بطولِ قدمٍ.

في الجهةِ المقابلةِ من ساحةِ السوقِ تحلَّقت النساء العجائز بعيداً عن الشبان، وملاحظاتهم الفظَّة عن جدَّاتهم اللواتي كُنَّ ما يزلن يستيقظن باكراً حتَّى بعد أن كبرَ أطفالهن، ولم يعد لديهن أيُّ أعباءٍ. كنَّ أوّلَ من ينهضُ من النومِ؛ فينظفنَ المواقدَ ويشعلنَ النارَ فيها. انضمت إليهن قائدتهنّ الأرملةُ المسترجلةُ بروستر وهي تُدحرجُ برميلاً من الجعةِ بالسهولةِ ذاتها التي يُدحرج بها طفلٌ طوقاً شبيهاً بالدولابِ، وقبلَ أن تفتحَ غطاءَ البرميلِ كان حشدٌ صغيرٌ من الزبائن قد تحلَّقَ حولها حاملين الكؤوسَ والدلاء.

فتحَ وكيلُ الشريفِ البوابةَ الرئيسيةَ كي يدخل الفلاحون القادمون من الضواحي، ومن يعيشون في الأكواخِ المتوزعةِ حولَ سورِ المدينةِ. أحضرَ بعضهم البيضَ والحليبَ والزبدةَ الطازجةَ لبيعها، وآخرون أتوا لشراءِ الجعةِ أو الخبزِ، بينما وقفَ آخرون في الساحةِ بانتظارِ عمليةِ الإعدامِ.

بينَ الفينةِ والأخرى يهزُّ الناس رؤوسهم كسنونوات قلقةٍ، ويحدقون إلى القلعةِ أعلى التلِّ. كانوا يراقبون الدخان المتصاعد باطرادٍ من مدخنة

المطبخ، وومضات المشاعلِ التي تظهرُ وتختفي وراء النوافذِ الطولانيةِ للمنزلِ الحجري. بحلول الوقتِ الذي أشرقت فيهِ الشمسُ من وراءِ الغيومِ الرماديةِ فُتحت البوابات الخشبيةُ العظيمةُ لبيتِ الحارسِ، وخرجَت مجموعةٌ صغيرةٌ. تقدَّم المأمور المجموعة على صهوةِ فرسٍ أسود سريعٍ وأصيلٍ، ومن خلفهِ جرَّ ثورٌ عربةً فيها السجين المُقيَّد، ووراءَ العربةِ كان ثلاثةُ رجالٍ على صهواتِ جيادِهم، وعلى الرغمِ من أنَّ معالمَ وجوههم لم تكن واضحةً من هذهِ المسافةِ غيرَ أنَّ ملابسهم كشفت عن هوياتهم: كانوا فارساً وكاهناً وراهباً، وفي مؤخرةِ المجموعةِ سار جنديان.

كانوا قادمين من محكمةِ المقاطعةِ التي عُقدت جلستها البارحة في صحنِ الكنيسةِ. كان الكاهنُ قد أمسكَ باللص مُتلبساً يسرقُ كأسَ القربانِ العائدة إلى الديرِ، وتعرَّف الراهب على الكأسِ، أمَّا الفارس فقد كان سيدَ اللص، وقال عنه إنَّه هاربٌ، والشريف أصدرَ الحُكمَ بإعدامهِ.

وبينما كانت المجموعةُ تهبطُ التلَّ بدأ سكان المدينةِ يتحلقون حولَ المشنقةِ، إلا أنَّ علّيةَ القوم كانوا آخر الواصلين: القصَّاب والخبَّاز ودباغا جلودٍ وحدادان وصانع سكاكين وصانع أقواس وسهامٍ، وقد أتوا جميعاً برفقةِ زوجاتهم.

سيطرَ على الحشدِ مزاجٌ غريبٌ. عموماً، يستمتعُ الحشدُ بمشاهدةِ مثلِ هذهِ الأحداثِ، لأنَّ السجين عادةً ما يكون لصَّاً، ومن الطبيعي أن يكون اللصوص مكروهين كرهاً شديداً من الناسِ الذين يجنون ما يملكونه بعرقِ الجبين، إلَّا أنَّ هذا اللص كان مختلفاً؛ فما من أحدٍ يعرفهُ أو يعرفُ من أين أتى، وهو لم يسرق من سكانِ المدينةِ بل من ديرِ الرهبانِ الذي يبعد عن المدينةِ عشرين ميلاً. علاوةً على هذا، سرقَ الرجلُ كأسَ القربان المطعّمة بالجواهرِ، وهو غرضٌ ثمينٌ جداً إلى درجةِ أنّ بيعه أمرٌ شبه مستحيل، وهذه سرقةٌ لا تشبه سرقةَ اللحمِ أو سكينٍ جديدةٍ أو حزامٍ جيدٍ من أحدٍ قد يتألمُ لخسارتِهِ، ولذلك لم يكن بوسعهم كرهُ شخصٍ على جرمٍ على هذه الدرجةِ من العبثيةِ. حالما دخلَ السجينُ إلى ساحةِ السوقِ علَت بعضُ الملاحظاتِ الساخرةِ وتعالى الصفير، إلا أنَّها افتقرت إلى الحماسةِ، باستثناء الصبية الصغار الذين سخروا من السجين بحميةٍ.

لا يأتي إلى المحاكماتِ أناسٌ كثر فلم تكن الأيام التي تُعقد فيها الجلسات عُطلاً. كانوا بحاجةٍ إلى العملِ لكسبِ قوتِهم، ولهذا كانت هذه المرَّة الأولى التي يرون فيها لصَّاً في مطلعِ الشبابِ، بين العشرين والثلاثين من العمر، له طولُ وبنيةُ شخصٍ عادي ولكن بمظهرٍ بدا لهم غريباً. كانت بشرته بيضاء كالثلج الذي يتجمعُ على أسطحِ المنازلِ، وعيناه الجاحظتان بلونٍ أخضر زاهٍ مميزٍ، أمَّا شعرهُ فكان بلون جزرة مُقشَّرةٍ. عدَّته الفتياتُ بشعاً، أمَّا النساءُ العجائزُ فشعرن بالأسى عليه، بينما ضحكَ الصبيةُ الصغار ملء أشداقهم عليه.

كان الشريف شخصيةً معروفةً، ولكن الرجال الثلاثة الآخرين ممن قادوا اللصَّ إلى هلاكهِ غرباء عن المدينةِ. كان الفارسُ رجلاً سميناً أشقر الشعرِ، وبدا على قدرٍ كبيرٍ من الأهميةِ لأنَّه امتطى جواداً حربياً من النوعِ العملاق الذي يفوقُ ثمنُهُ ما يكسبهُ نجارٌ في عشرةِ أعوام. أمَّا الراهبُ فقد بدا أكبرَ عُمراً من الفارسِ، ربما في العقدِ الخامسِ أو أكبر بقليل، وكان رجلاً طويلاً ونحيلاً، وقد جلسَ على سرجِ جوادهِ في ضيقٍ كأنَّ الحياةَ بالنسبةِ إليهِ عبءٌ مضن، أمَّا الكاهنُ فقد بدا لافتاً للنظرِ أكثر من الرجلين الآخرين. كان شاباً بأنفٍ مدببٍ وشعرٍ أسود طويلٍ وخفيفٍ وقد ارتدى رداءً أسود أيضاً وامتطى جواداً كستنائي اللون. كان له مظهرٌ حذرٌ وخطرٌ كهرٍ أسود يتشمم وكرَ صغارِ فأرةٍ.

بصقَ أحدُ الصبيةِ الصغارِ على السجينِ. كانت إصابتُه مُحكمةً فقد أصابته بين عينيه. أطلقَ السجين السبابَ عالياً، واندفعَ باتجاه الصبي الذي بصقَ عليه، ولكن الحبال التي تقيِّده إلى جانبي العربةِ منعتهُ. لم يكن الحدثُ بحد ذاتهِ مُهماً بل حقيقة أنَّ السجين تحدَّث بالفرنسية النورماندية التي تعدُّ لغةَ السادةِ. هل كان السجينُ نبيلاً؟ أم كان قادماً من النورماندي؟ ما من أحدٍ امتلكَ جواباً على هذا.

توقفت العربةُ التي جرَّها الثورُ تحتَ منصَّةِ المشنقةِ، وصعدَ وكيلُ الشريفِ إلى العربةِ حاملاً أنشوطةً في يدهِ. بدأ السجينُ يقاومهُ، وهلّلَ الصبيةُ الصغار الذين كانوا سيصابون بالخيبةِ لو أنَّ السجين التزمَ الهدوءَ. على الرغمِ من أنَّ حركة الشابِ كانت محدودةً بسببِ الحبالِ حولَ معصميهِ وكاحليهِ فإنّه هزَّ رأسه على كلا الجانبين كأنَّه يتفادى الأنشوطة. قاومَ السجين لفترةٍ

إلى أن تراجع الوكيلُ الذي كانَ رجلاً ضخماً إلى الوراءِ ولكمَه على بطنِهِ. تلوى الشابُ ومال إلى جانبِهِ فانتهز الوكيلُ الفرصةَ ولفَّ الأنشوطةَ حولَ عنقِهِ وأحكمَ العُقدة ثمَّ قفزَ من العربةِ إلى الأرضِ وسحبَ الحبلَ المشدودَ وثبَّتَ الطرفَ الآخر إلى خطافٍ عندَ قاعدةِ المشنقةِ.

كانت هذهِ لحظةً حرجةً فإن حاولَ السجينُ المقاومةَ الآن فسيموت على الفور.

حلَّ الجنود الحبلَ حول قدمي السجينِ، وتركوه واقفاً وحيداً على متنِ العربةِ، ويداه مقيدتان خلف ظهرِهِ.

حلَّ صمتٌ مطبقٌ على الحشدِ.

عادةً وفي مثلِ هذه اللحظةِ تسودُ حالةُ اضطرابٍ كأن تبدأ والدةُ السجين بالصراخِ أو تنطلق زوجتهُ حاملةً سكيناً باتجاهِ المنصةِ في محاولةٍ أخيرةٍ لإنقاذهِ، وأحياناً يبدأ السجين بمناجاة الرَّبِّ طالباً المغفرة أو يكيل سيولَ الشتائمِ على جلاديهِ.

تمركز الجنودُ على جانبي منصة الإعدامِ على استعدادٍ للتدخل في حال حدثَ شيءٌ ما.

وهنا بدأ السجين بالغناءِ.

كان له صوتٌ رجولي جميل وصافٍ جداً. غنَّى بالفرنسية، ورغم أنَّ الناس لم يفهموا اللغة فإنهم عرفوا من إيقاعِ الأغنيةِ أنَّها تتحدث عن الحزنِ والفقدانِ.

في شباكِ أحد الصيادين قُبَّرةٌ
تغني بعذوبةٍ لا مثيل لها،
كأنَّ النغمةَ الحزينةَ
قد تطيرُ وتقطع الشبكةَ.

غنَّى السجينُ وهو ينظرُ بشكلٍ مباشر إلى امرأةٍ وسطَ الحشدِ، وتدريجياً بدأ الناسُ يبتعدون عنها إلى أن باتَ الجميعُ قادراً على رؤيتها.

كانت فتاةً في حدود الخامسة عشرة، وعندما نظرَ الناسُ إليها تساءلوا في ما بينهم عن سببِ عدم ملاحظتهم لها من قبل. كان شعرها

الكستنائي الداكن طويلاً وغزيراً وخطُ الشعرِ على جبهتها العريضةِ مثلّثياً في ما يُدعى بخطِ «قمة الشيطان»، أمَّا ملامحها فكانت عادية إلا أنَّها كانت شهوانية وتمتعت بشفتين ممتلئتين. حدَّقت النساء العجائز إلى خصرها المُكتنز وثدييها الممتلئين وتكهنَّ أنَّها حامل، وأنَّ السجينَ والدُ طفلها، غيرَ أنَّ الجميع كان مأخوذاً بعينيها. ربما كانت جميلةً ولكن عينيها الغائرتين باللونِ العسلي الفاتح الأخّاذ ونظرتهما الحادةِ، بدتا مُشعتين ونفَّاذتين كأنَّهما إن نظرتا إلى المرءِ في عينيهِ ستخترقان قلبه ويضطرّ معها إلى الإشاحةِ بنظرهِ مخافةَ أن تكشفَ أسرارهُ. كانت الفتاة في ثوبٍ بالٍ، ودموعها تترقرقُ على وجنتيها الناعمتين.

نظرَ سائقُ العربةِ إلى الوكيلِ بانتظارِ أوامرهِ، والوكيل بدورهِ نظرَ إلى الشريف بانتظارِ إيماءةٍ من رأسهِ. وكزَ الكاهنُ الشاب ذو المظهرِ الشرير الشريف، ولكن الأخير لم يُلقِ بالاً، وتركَ السجين يتابع الغناءَ. حلَّ صمتٌ رهيبٌ فيما الصوتُ الجميل للرجلِ البشعِ يدفعُ بالموتِ بعيداً.

عندَ الغسقِ أخذَ الصيَّاد طريدتهُ
وفقدت القُبَّرة حريتها.
قد يكون الموتُ قدرَ الطيرِ والبشرِ
لكنّ قدرَ الأغاني البقاءُ إلى الأبدِ.

عندما انتهى الرجلُ من الغناءِ نظرَ الشريفُ إلى الوكيلِ، وأومأ برأسهِ، وهنا صرخَ الوكيل قائلاً: «إلى اليمين!» ثمَّ ساطَ الثور على خاصرتهِ بحبلٍ طويلٍ، وفي الوقتِ عينهِ فرقعَ سوطُ سائقِ العربة. تقدَّمَ الثورُ إلى الأمامِ فترنحَ السجين على العربةِ، وعندما جرَّ الثورُ العربةَ بعيداً سقطَ السجين عالقاً بالحبلِ وقدماه في الهواءِ. استوى الحبلُ وانكسرَ عنقُ اللصِّ بلمحِ البصرِ.

علت صرخةٌ، ونظرَ الجميعُ إلى الفتاةِ.

لم تكن الفتاةُ من صرخت بل زوجةُ صانعِ السكاكين التي وقفت بجانبها، ولكن الفتاة من دفعتها بصراخها. ركعت الفتاة على ركبتيها أمامَ المشنقةِ، ومدَّت ذراعيها إلى الأمام في وضعية يأخذها من يوشكُ على إلقاءِ لعنة. ابتعدَ الناس عنها في خوفٍ؛ فهم يعلمون أنَّ لعناتِ المظلومين فعَّالة جداً، وإضافة إلى هذا كانَ الجميعُ مرتاباً من عدالةِ إعدامِ هذا الشابِ.

بدا الصبيةُ الصغار مُرتعبين.

حدَّقت الفتاةُ بعينيها العسليتين الساحرتين إلى الغرباء الثلاثة: الفارس، والراهب، والكاهن، ثمَّ ألقت بلعنتها والكلماتُ الرهيبةُ تخرجُ من فمها بنبرةٍ رنانةٍ: « فليحلَّ عليكم السقمُ، والبلوى، والجوع والألم، ولتحترق منازلكم، ويموت أطفالكم على المشانقِ، وينتصر عليكم أعداؤكم، ولتشيخوا في حزنٍ وندم، ولتموتوا من النتانةِ والكربِ...» وبينما كانت تنطقُ بالكلماتِ الأخيرةِ مدَّت الفتاةُ يدها إلى كيسٍ على الأرضِ بجانبها، وسحبت ديكاً صغيراً حيَّاً، وفي اليد الأخرى رفعت سكيناً لم يلحظها أحدٌ، وبضربةٍ واحدةٍ نحرت الديكَ.

عندما رمت الفتاةُ بالديكِ على الكاهنِ ذي الشعرِ الداكنِ كان دمه ما زالَ يتدفق من رأسِهِ المنحورِ كنافورةٍ، ورغمَ أنَّها لم تُصب الكاهن فإنَّ الدم لطخهُ، ولطخَ الراهبَ والفارسَ الواقفين إلى جانبيه. تراجعَ الرجالُ الثلاثة إلى الوراءِ في تقززٍ، ولكن الدمَ لطخَ وجوههم وثيابهم.

استدارت الفتاة وركضت بعيداً.

فتحَ لها الحشد الطريقَ وأغلقوه وراءها. عمَّ الهرجُ والمرجُ لبرهةٍ، ولكن الشريف نجحَ أخيراً في لفت نظرِ الجنود، وأشارَ عليهم باللحاقِ بها. واجه الجنود صعوبةً في شقِّ طريقهم بين الحشدِ وهم يدفعون بالرجال والنساء والأطفال بعيداً بكلِّ خشونةٍ، غير أنَّ الفتاة كانت غابت عن الأنظارِ في طُرفة عين. ورغمَ علمِ الشريف أنَّهُ سيستمرُ بالبحثِ عنها فإنَّه كان واثقاً من أنَّه لن يجدها أبداً.

أشاحَ الشريفُ بوجههِ في قرفٍ. لم يشاهد الفارسُ، والراهبُ، والكاهنُ الفتاةَ وهي تهرب فقد كانوا يحدقون إلى المشنقةِ. نظرَ الشريف إلى حيثُ كانوا ينظرون. كان اللصُّ الميت متدلياً من نهايةِ الحبلِ، ووجهه الشاب والشاحب بدأ يميل إلى الزرقةِ، وتحتَ جثتهِ التي ما تزال تتأرجحُ الديكُ المنحورُ يتلوى دائرياً فوقَ الثلجِ المُشبعِ بالدماءِ.

الجزء الأول

من عام 1135 وحتَّى عام 1136

الفصل الأول

- 1 -

في سفحِ وادٍ رحبٍ قربَ جدولِ ماءٍ رقراقٍ بنى توم منزلاً.

وصلَ ارتفاعُ الجدران حتَّى الآن إلى ثلاثةِ أقدامٍ، والعاملان اللذان استعان بهما توم لم يتوقفا عن العملِ بمجارفهما منذ الفجر، أمَّا العامل الذي أتى برفقتهما، فقد بدأ يتصببُ عرقاً تحتَ وطأةِ الحجارةِ الكبيرةِ التي ينقلها. مزجَ آلفريد بن توم الملاط، وهو يعدُّ بصوتٍ عالٍ، ويحملُ الرملَ، ويضعهُ على اللوحِ، وجلسَ نجارٌ على المقعدِ قرب توم يعملُ بعنايةٍ على تشذيبِ قطعةٍ من خشبِ الزان.

يبلغُ آلفريد من العمرِ أربعة عشر عاماً، ويتمتعُ بقامةٍ طويلةٍ كوالده توم الذي كان طويلاً جداً مقارنةً بغالبيةِ الرجال. لم يكن آلفريد أقصر من توم سوى ببضعة إنشاتٍ، وهو ما زال في مرحلةِ النمو. يشبهُ الأبُ والابن بعضهما بعضاً أيضاً؛ فكلاهما يملكُ شعراً بنياً فاتحاً، وعينين خضراوين ببقعٍ بنية، ويقول الناس عنهما إنهما وسيمان. كان الفرق الوحيد بينهما هو أنَّ لحية توم بنية مجعدةٌ، بينما لحية آلفريد شقراء زغبة وناعمة. يتذكر توم بُحبٍ أنَّ شعرَ رأسِ آلفريد كان أشقر عندما ولدَ، على أيِّ حالٍ فإنّ آلفريد الآن في طور الرجولة. أملَ توم أن يهتمّ آلفريد جدياً بالعملِ في البناءِ؛ لأنَّ الطريق أمامه حتَّى يصبح بنَّاءً كوالدهِ ما زال طويلاً، إلا أنَّ آلفريد ما يزال يقفُ سئماً، وحائراً أمامَ أساسيات البناء.

عندما ينتهي المنزلُ سيكون أفخمَ منازلِ الجوارِ فالطابقُ الأرضي أشبه بسردابٍ واسعٍ من أجل تخزين الموادِ، والسقفُ خشبي بقنطرةٍ عريضةٍ

حتَّى لا تصلَ إليها النار وتشتعل. أمَّا القاعة الرئيسة حيثُ سيعيش سكانُ المنزلِ فكانت في الطابقِ العلوي ويُمكن الوصول إليها عبرَ درجٍ خارجيٍّ ستكون القاعةُ على ارتفاعٍ كبيرٍ مما سيجعل الهجوم عليها واقتحامها صعباً، وقبالة القاعةِ سيكون هناك مدخنةٌ لسحبِ دخان الموقدِ. كان التصميم ثورياً، ولم يرَ توم منزلاً بمدفأةٍ سوى مرّة واحدة. اعتقدَ أنَّ الفكرةَ جيدةٌ، ولذلكَ قررَ نسخَ التصميمِ. في إحدى زوايا المنزلِ فوقَ القاعةِ ستكون غرفةُ نومٍ صغيرةٌ؛ لأنَّ هذا ما طالبت بهِ بنات الإيرلات هذه الأيام، فقد كنَّ يعتقدنَ أنفسهن أعلى مرتبةً على النومِ في القاعةِ مع الرجال، والخادمات، وكلابِ الصيدِ. سيكون المطبخُ في مبنى آخر، لأنه عاجلاً أم آجلاً، سيحترقُ، ولذلك من الحكمةِ بناؤهُ بعيداً حتَّى وإن كان الثمنُ وصول الطعامِ فاتراً.

يعملُ توم الآن على بناءِ مدخلِ المنزلِ، ستكون عضاداتُ البابِ مدورةً، وأشبه بالأعمدة، وهذهِ لمسةٌ مميزةٌ تليقُ بالعروسين اللذين سيعيشان فيهِ، وبالنظرِ إلى القالبِ الخشبي الذي استخدمه كأداةٍ لإرشادهِ في عملهِ، وضعَ توم إزميله بشكلٍ مائلٍ على الحجرِ، وضربَ عليهِ بلطفٍ بمطرقتهِ الخشبيةِ الكبيرةِ، فتطايرت شظايا من سطحِ الحجرِ، وتشكّلت فجوةٌ مدورةٌ. كررَ توم الحركة ذاتها مرَّةً أخرى بكل رقةٍ، كأنَّه يبني كاتدرائيةً.

عملَ توم على بناءِ كاتدرائيةٍ قبلاً، وكانت كاتدرائية إكستير. في البداية عدَّ توم العملَ في الكاتدرائيةِ كأيِّ عملٍ عادي آخر، وغضبَ بشدةٍ عندما حذَّره كبيرُ البنَّائين من أنَّ عملَهُ لم يكن يرقى إلى المعايير المطلوبةِ، وهو الذي كان أكثر حرصاً من البنَّائين العاديين، ولكن عندها فقط أدركَ أن جدران الكاتدرائيةِ لا يجب أن تكون جيدةً فحسب، بل مثالية. كان مردّ هذا الاعتقاد أن الكاتدرائية ملكٌ للرَّبِّ، وأنَّ البناءَ كبيرٌ جداً، ولذلك فأقلُّ ميلانٍ في الجدرانِ، وأبسطُ تغييرٍ عمّا هو مستقيمٌ ومستوٍ يمكن أن يُضعف البنية بشكلٍ خطرٍ، وهنا تحول امتعاض توم إلى افتتانٍ، وفتح المزج بين البناءِ الضخمِ جداً، والدقةِ الصارمةِ حتَّى أصغرِ التفاصيل، عينَي توم على أعاجيبِ حرفتهِ. فقد تعلَّم من مُعلمه أثناء بناء كاتدرائية إكستير أهميَّةَ التناسبِ، ورمزيةَ مختلفِ الأرقامِ، والصّيغَ السحريةَ اللازمةَ لتحديدِ العرضِ الصحيحِ للجدارِ

أو زاويةِ العتبةِ في سُلمٍ حلزوني. لطالما افتتنَ بمثلِ هذهِ الأمورِ، وتفاجأ عندما علمَ أنَّ العديد من البنَّائين يعجزون عن فهمها.

وبعد فترةٍ من الزمنِ أصبح توم اليدَ اليمنى لكبير البنَّائين، وقد حدثَ هذا عندما بدأ يلحظُ أخطاءَ الرئيسِ. كان الرجل بنَّاءً ماهراً غير أنَّه افتقرَ إلى التنظيم في عملِهِ وحار أمام مشاكلِ التزودِ بالكمياتِ المناسبةِ من الحجارة لمجاراةِ وتيرةِ عمل البنَّائين أو الحرصِ على أن يصنع الحدادون ما يكفي من الأدوات اللازمة أو تجهيز الجيرِ أو نقلِ الرملِ إلى خالطي الملاطِ أو قطعِ الأشجارِ أو الحصول على ما يكفي من المالِ من مجلسِ الكاتدرائيةِ لتسديدِ تكاليف الموادِ وعمليةِ البناءِ.

لو أنَّ توم بقي في إكستير إلى حين وفاةِ مُعلمِهِ لأخذَ مكانه وأصبح كبير البنَّائين، ولكن المال نفد من مجلسِ الكنيسةِ، وهذا في جزءٍ منه يعود إلى سوءِ تدبير كبير البنَّائين. اضطرَّ البناؤون إلى مغادرةِ إكستير والبحث عن عملٍ في مكانٍ آخر. تلقى توم عرضاً للعملِ مع آمرِ قلعةِ إكستير حيثُ سيقوم بأعمالِ البناءِ والإصلاحِ وتعزيزِ أسوارِ المدينةِ. كانت فرصةَ العمرِ -وإن نجا من الحوادثِ سيعملُ حتَّى يبلغَ أرذلَ العمرِ، ولكن توم رفضَ العرض لرغبتهِ ببناءِ كاتدرائيةٍ أخرى.

لم تفهم زوجته آغنيس يوماً قراره هذا، فذلك العمل كان سيكفل لهم الحصولَ على منزلٍ حجري جيدٍ وخدمٍ وإسطبلات ولحمٍ على الغداء كل يومٍ، ولذلك لم تسامح توم على رفضه هذه الفرصة. لم تفهم آغنيس قط ذلك السحرَ الذي لا يقاوم لبناءِ الكاتدرائيات، ولا ذلك التعقيد الأخاذ في التنظيم، ولا التحدي العقلي الذي تفرضهُ الحساباتُ، ولا حجمَ الجدرانِ الكبير، ولا الجمال الخلَّاب، والعظمةَ التي يبدو عليها البناء بعد الانتهاءِ منه، فمنذ أن تذوقَ توم من تلك الكأس لم يعد يسعدهُ أيُّ شيءٍ آخر أقلُ روعةً منه.

حدثَ هذا منذُ عشرةِ أعوامٍ، ومنذئذٍ لم يستقرّ في أي مكانٍ لوقتٍ طويلٍ. كان توم قد صممَ قاعةَ اجتماعات في أحدِ الأديرةِ، وعملَ لعامٍ أو عامين على بناءِ قلعةٍ، وبنى منزلاً في المدينةِ لأحدِ التجارِ الأغنياءِ، ولكنه حالما يجني ما يكفي من المال يغادر مع زوجتهِ، وطفليه في رحلةٍ بحثٍ عن كاتدرائيةٍ أخرى.

من مكانهِ على مقعدهِ رفعَ توم ناظريه، ورأى آغنيس عندَ طرفِ موقعِ البناءِ حاملةً سلَّة طعامٍ في يدٍ، وأسندت إلى وركها المقابلِ إبريقاً كبيراً من الجعة. ها قد حلَّ منتصفُ النهار. نظرَ إليها بُحبٍ، لم يقل لها أحدٌ في يومٍ من الأيامِ إنَّها جميلة إلا أنَّ وجهها، بجبينها العريض، وعينيها العسليتين الكبيرتين، وأنفها المستقيم، وفكها القوي، لطالما فاضَ بالقوةِ، كانت تفرقُ شعرها الداكن، والمتشابك عندَ المنتصفِ، وتربطه إلى الخلفِ. كانت توأمَ روحِ توم.

سكبت آغنيس الجعة لتوم وآلفريد، ووقفوا ثلاثتهم لبرهةٍ، رجلان ضخمان، وامرأةٌ قويةٌ يشربون الجعةَ من أكوابٍ خشبيةٍ. تقدَّم الفردُ الرابع في العائلة قفزاً عبرَ حقلِ القمحِ، كانت مارثا فتاةً في السابعةِ، وجميلة كنرجسةٍ، ولكنها نرجسةٌ تعوزها بتلةٌ من بتلاتها، فقد كان هناك فراغٌ في فمها حيث سقطَت سنّان لبنيتان، ولم تنمُ الجديدتان بعد. ركضت مارثا نحو توم، وقبَّلت لحيتَهُ المُعفرَّةَ بالترابِ، ورجتهُ أن يسمح لها بأخذِ جرعةٍ من كأسِ الجعةِ خاصته، احتضنَ توم جسدَ مارثا النحيل، وقال لها: «لا تُكثري من الشرابِ، أو ستقعين في خندقٍ ما»، بدأت مارثا تدور في المكانِ مترنحةً، وهي تتظاهر أنَّها ثملة.

جلسوا جميعاً على كومةٍ من الخشبِ، ناولت آغنيس توم قطعةً كبيرةً من خبزِ القمحِ، وشريحةً سميكةً من لحمِ الخنزيرِ المسلوقِ، وبصلةً صغيرةً، ثمَّ قدَّمت الطعام للولدين، وبدأت تأكل بدورها أيضاً، وفكر توم أنَّ رفضهُ لذلك العملِ المملِ في إكستير، والبحثِ عن كاتدرائيةٍ تصرفٌ غير مسؤول، ولكنه قال لنفسه إنَّه رغمَ تهورهِ لم يفشل قط في تأمين الطعامِ لهم.

أخذَ توم سكينَ الطعامِ من الجيب الأمامي لمئزرهِ الجلدي، وقطَّعَ البصلةَ، ثمَّ أخذَ قضمةً من الخبزِ، كان للبصلةِ طعمٌ حلو، ولاذع في فمهِ.

قالت آغنيس: «أنا حاملٌ مجدداً».

توقفَ توم عن المضغِ، وحدَّقَ إليها، ثم شعرَ أن رعشةَ سرورٍ تسري في جسدِهِ، ولأنَّه عجزَ عن إيجاد الكلماتِ المناسبةِ ليرُدَّ عليها اكتفى بالابتسامِ لها بحُمقٍ، بعدَ عدةِ لحظاتٍ احمرّت آغنيس خجلاً، وقالت: «الأمر ليسَ مُفاجئاً لهذهِ الدرجةِ».

عانقها توم، وقال لها وهو ما يزال يبتسمُ من البهجةِ: «حسناً، حسناً، طفلٌ صغيرٌ يشدُّ لحيتي، وأنا الذي كنتُ أعتقدُ أن الطفل التالي سيكون طفلَ آلفريد».

«لا تتحمس بسرعةٍ»، حذرته آغنيس: «إنَّ التفكيرَ بتفاصيلِ الطفلِ قبلَ ولادتهِ فألُ شرٍّ».

أومأ توم موافقاً، فقد عانت آغنيس من إجهاضاتٍ سابقةٍ، وولدت طفلاً ميتاً أيضاً. كانت قد أنجبت فتاةً سموها ماتيلدا إلا أنَّها لم تعش سوى عامين.

«على أيِّ حالٍ أرغبُ بصبي»، قال توم: «بما أنَّ آلفريد كبيرٌ الآن، ولكن متى ستلدين؟»

«بعد عيد الميلاد».

وبدأ توم يقوم بحساباتِهِ، سيكون الهيكلُ الخارجي للمنزلِ جاهزاً بحلولِ الصقيعِ الأول ثمَّ سيُغطى المبنى بالقشِّ لحمايتِهِ خلالَ فصلِ الشتاء، سيقضي البناؤون الأشهرَ الباردةَ في تقطيع الحجارةِ من أجلِ النوافذ والقناطرِ والعضادات العلوية للأبواب والمدافئ بينما سيعملُ النجارون على ألواحِ الأرضيةِ، ومصاريع النوافذِ، وسيصنعُ توم السقالة من أجل بناءِ الطابقِ العلوي، في الربيع سيُنهون العمل على السردابِ، وأرضيةِ القاعةِ فوقه ثمَّ سيبنون السقف. سيؤمن هذا العمل طعامَ العائلةِ حتَّى عيد العنصرةِ حيثُ سيكون عمرُ الطفلِ آنذاك ستةَ أشهرٍ، ولكن عندها سيضطرون إلى الانتقالِ.

«هذا جيدٌ» قال توم في رضا: «هذا جيدٌ»، ثمَّ تناولَ قطعةً أخرى من البصلِ.

«أنا عجوزٌ جداً على إنجابِ الأطفالِ»، قالت آغنيس، «لا بد أن يكون هذا آخرَ طفلٍ قد أنجبهُ».

فكرَ توم بما قالته، ورغمَ أنَّه لا يعرف بالضبط عمرها، فإنَّ الكثيرَ من النساءِ يحملن في مثلِ عمرِ آغنيس. على أيِّ حالِ النسوة في هذا العمرِ يعانين أكثر خلالَ الحمل، ولا ينجبنَ أطفالاً أقوياء، ولذلك كان كلامها صحيحاً، ولكن كيف لها أن تكون واثقة من أنها لن تحملَ مجدداً؟ تساءلَ توم في نفسهِ، ثمَّ أدركَ كيف عرفت واربدَّ وجهه، وغدا عكرَ المزاجِ.

«قد أحصلُ على عملٍ في المدينةِ»، قال محاولاً ملاطفتها: «بناءُ كاتدرائيةٍ أو قصرٍ، وقد نحظى ببيتٍ كبيرٍ بأرضية خشبيةٍ، وخادمةٍ لمساعدتكِ في رعايةِ الطفلِ».

اكتسى وجهها بالقسوةِ، وقالت في تشكيكٍ: «ربما»، إذ لم تحب سماع أي كلامٍ عن الكاتدرائيات، ولاحَ على وجهها ما أرادت قوله، أرادت أن تقول إنَّها تفضلُ العيشَ في منزل في المدينةِ مع مدخراتٍ مدفونةٍ تحت الموقدِ، ومن دونِ شيءٍ تقلق بشأنهِ.

أشاحَ توم بنظرهِ بعيداً، وأخذَ قضمةً أخرى من لحمِ الخنزير، رغمَ أنَّهما الآن يملكان سبباً للاحتفالِ، فإنهما كانا على خلافٍ. مضغَ توم اللحمَ القاسي لبرهةٍ، ثمَّ سمعَ صوتَ حوافرِ جواد، فرفعَ رأسهُ ليُصغي جيداً، أتى صوتُ وقعِ حوافرِ الجوادِ من بينِ الأشجار، وكان قادماً من جهةِ الطريقِ. يبدو أن راكبهُ أخذَ طريقاً مختصراً ليتجنب المرورَ بالقريةِ.

بعد برهةٍ لاح شابٌ على جوادٍ قصير القوائمِ يخبُّ ثمَّ نزلَ عن مطيتهِ، بدا الشاب كمرافق في طورِ التدريبِ الفروسي.

«إن سيّدكَ قادمٌ»، قال الشاب.

وقفَ توم وسأل: «أتعني اللورد بيرسي؟»

كان بيرسي هاملي من أهمِّ الشخصيات في ويلتشر، ويمتلك هذا الوادي، والكثير من الأراضي، وهو أيضاً من كلَّفه ببناءِ هذا المنزلِ.

«ابنه»، أجاب المرافق.

«الشاب وليم».

سيسكن وليم ابن بيرسي هذا المنزل بعد زواجهِ من الليدي آليانا ابنة إيرل شايرنغ.

«هو نفسهُ»، قال المرافق، وأضاف: «وهو غاضبٌ».

غارَ قلبُ توم في صدرهِ ففي أحسنِ الأوقات كان التعامل مع مالكِ أيِّ منزلٍ أمراً صعباً، فكيفَ بالتعامل مع مالكٍ غاضبٍ: «وممَّ هو غاضبٌ؟»

«لقد رفضتهُ عروسهُ».

«ابنةُ الإيرل؟» قال توم متفاجئاً، وشعرَ بألمٍ كالطعنةِ، فقد كان للتو يفكرُ أنَّ مستقبلهُ مضمونٌ. «اعتقدتُ أنَّ الأمورَ منتهيةٌ»، أضاف توم.

«جميعنا اعتقدنا هذا باستثناء الليدي آليانا على ما يبدو»، قال المرافق: «ففي اللحظةِ التي قابلتهُ فيها أعلنت أنَّها لن تتزوج بهِ، ولو بمُلكِ العالم أجمع».

تغضّنَ وجه توم في قلقٍ، وتمنى لو أنَّ هذا الكلام لم يكن حقيقياً.

«ولكن الفتى ليسَ قبيحاً كما أتذكر»، قال توم.

قالت آغنيس: «كأنَّ هذا سيشكلُ فرقاً في حالتها، لو كان مسموحاً لبناتِ الإيرل بالزواج بمن يُردن لتزوجن مغنّين جوالين، أو خارجين عن القانون وسيمين».

«قد تغير الفتاة رأيها»، قال توم في أملٍ.

«ستفعل إن قامت أمها بضربها بعصا مجدولةٍ من أغصانِ البتولا»، قالت آغنيس.

قال المرافق: «أمّها متوفاةٌ».

أومأت آغنيس برأسها وقالت: «هذا سبب عدم معرفتها بحقائقِ الحياةِ، ولكن لا أفهم لمَ والدها لا يجبرها».

قال المرافق: «يبدو أنَّه وعدَها ألا يزوجها أبداً بشخصٍ تكرهه».

«يا له من وعدٍ غبي!»، قال توم بغضبٍ: «كيف يمكن لرجلٍ قوي مثل الإيرل أن يرضخَ لأهواءِ فتاةٍ بهذه الطريقة؟ فقد يؤثر زواجها على التحالفات العسكرية، والموارد المالية من البارونات... بل قد يؤثر على بناء هذا المنزلِ أيضاً».

قال المرافق: «لديها شقيقٌ، ولذلك لا يهم بمن ستتزوج».

«حتَّى وإن».

«والإيرل رجلٌ عنيدٌ»، تابع المرافق: «ولذلك لن يتراجع عن وعدهِ حتَّى وإن كان لطفلٍ»، ثمَّ هزَّ كتفيهِ، وتابع: «هذا ما يُقال عنه».

توجه توم بنظرهِ إلى الجدران الحجرية الخفيضة للمنزلِ الذي يبنيه، وأدركَ في رهبةٍ أنَّه لم يدخر ما يكفي من المال لتتجاوز العائلة الشتاء. «قد يجد الفتى عروساً أخرى تشاركه هذا المنزل، فلديه مقاطعةٌ كاملةٌ ليختار منها ما يشاء من فتيات»، قال توم.

تحدّث آلفريد بذلكَ الصوتِ الأجشّ لمراهقٍ: «بحقِّ المسيح أعتقد أنَّه وصلَ»، نظروا جميعاً إلى حيث كان ينظر آلفريد عبرَ الحقلِ. كان هناكَ جوادٌ يعدو بسرعةٍ قادماً من جهةِ القريةِ، وخلفهُ غمامةٌ غباريةٌ من ترابِ الطريقِ،

وما أثار دهشةَ آلفريد هو حجمُ، وسرعةُ الجوادِ، فقد بدا ضخماً جداً. رأى توم قبلاً جياداً عملاقةً، ولكن آلفريد لم يرَ مثله قط، كان جواداً حربياً، ومثل هذه الجيادِ لا تُربّى في إنكلترا، بل تُجلبُ من وراء البحارِ، ولذلك كانت باهظةَ الثمنِ جداً.

وضعَ توم ما تبقى من قطعةِ الخبزِ في جيبِ مئزرهِ، ومن وهجِ الشمسِ زرَّ عينيهِ مُحدّقاً عبر الحقلِ، كانت أذنا الجواد إلى الوراء، ومنخراه على اتساعهما، ولكن توم لاحظَ أنَّه رفعَ رأسه عالياً، وهذا يعني أنَّه ما زال تحتَ سيطرةِ راكبهِ، ومع اقتراب الجواد مالَ راكبهُ إلى الوراءِ، وهو يشدُّ اللجامَ، وهنا بدأ الجواد يُبطئ من عدوهِ، وبات توم الآن يشعرُ بوقعِ الحوافرِ على الأرضِ تحت قدميهِ. نظرَ توم إلى مارثا، وفكرَ برفعها عن الأرضِ حتَّى يحميها، وقد خطرت الفكرةُ عينها لآغنيس، ولكن ما من أثرٍ لمارثا في الجوارِ.

«في حقلِ الذرةِ»، قالت آغنيس إلَّا أنَّ توم كان قد اكتشفَ هذا، وبدأ يعبرُ الموقعَ باتجاهِ تخومِ الحقلِ. مسحَ بناظريهِ الحقلَ المتموجَ، والخوفُ يأكلُ قلبه، ولكنه لم يرَ أثراً للطفلةِ.

كان الحلُّ الوحيدُ الذي خطرَ له الآن هو إبطاء الجواد. خرجَ إلى الطريق، وبدأ يمشي باتجاه الجوادِ الضخم المندفعِ فاتحاً ذراعيهِ. رأى الجواد توم، ورفعَ رأسَهُ كي يرى بشكلٍ أفضل ثمَّ أبطأَ على الفورِ، ولكن توم أصيبَ بالهلع عندما رأى الفارس يحثُّ الجوادَ على متابعةِ الجري.

«أيُّها الأحمق!» زأرَ توم رغم أنَّ الفارس لم يكن قادراً على سماعهِ.

وهنا خرجت مارثا من الحقلِ إلى الطريقِ، ولم تكن بعيدةً عن توم سوى بضع ياردات.

وقفَ توم في مكانهِ لبرهة، وقد تملَّكهُ رعبٌ قاتلٌ، ثمَّ قفزَ إلى الأمامِ صارخاً، وملوحاً بذراعيهِ، لكن، ولأن الجوادَ جوادٌ حربي، ومدربٌ على الاندفاعِ باتجاهِ الجموعِ الهادرةِ لم يجفل قط. وقفت مارثا في منتصفِ الطريقِ الضيّق كالمسحورةِ بالجوادِ الضخمِ المندفعِ باتجاهها، ولوهلةٍ أدركَ توم في يأسٍ أنَّه لن يتمكن من الوصول إليها قبل الجوادِ، فانحرفَ جانباً، ولامست ذراعهُ سنابلَ القمحِ الممشوقة، وفي اللحظة الأخيرةِ انحرفَ الجواد إلى الجهةِ الأخرى. لامسَ ركاب سرجِ الفارسِ شعرَ مارثا الناعم،

وتركَ حافرُ الجواد على الأرضِ بالقربِ من قدمها الحافيةِ حفرةً مدورةً، ثمَّ ابتعدَ الجواد، وترك توم ومارثا معفَّرين بالترابِ، حملَ توم مارثا على ذراعيهِ، وضمَّها بقوةٍ، وقلبهُ يخفقُ بعُنفٍ.

وقفَ توم برهةً في مكانه بلا حراكٍ، غارقاً في بحرٍ من الراحةِ والاسترخاءِ، ثمَّ شعرَ بدفقٍ من الغضبِ من تهورِ الشابِ الأحمقِ على جوادهِ الحربي العملاقِ. رفع ناظريه في غضبٍ، ورأى اللورد وليم يُبطئ جواده الآن، وقد تراجع بظهرهِ فوقَ السرجِ، ودفعَ بقدميهِ داخلَ الركابِ إلى الأمامِ وجذبَ الرسنَ. انحرفَ الجواد ليتجنبَ موقعَ البناءِ ثمَّ رفعَ رأسه بحركةٍ مفاجئةٍ، وشبَّ عالياً ولكن وليم بقي على صهوتهِ. انتقلَ الجوادُ من الجري إلى الخببِ، وقادهُ اللورد في الأرجاءِ في دائرةٍ واسعةٍ.

انخرطت مارثا في البكاءِ؛ فسلمها توم إلى آغنيس، وانتظرَ وليم. كان اللورد الشاب طويلاً، وحسنَ البنيةِ، في العشرين من العمرِ تقريباً، بشعرٍ أشقر وعينين ضيقتين تجعلانه يبدو كأنَّه ينظر مباشرةً إلى الشمس. كان في سترةٍ سوداء قصيرةٍ، وسروالٍ أسود أيضاً، وينتعلُ حذاءً جلدياً بأحزمةٍ متقاطعةٍ حتَّى الركبتين، بدا مرتاحاً على صهوةِ جوادهِ كأنَّ شيئاً لم يكن.

«لا يعرف هذا الفتى الأحمق ما اقترفهُ، أرغبُ حقاً بكسرِ عنقهِ على فعلتهِ»، فكرَ توم بمرارةٍ.

أوقفَ وليم الجواد أمام كومةٍ من الحجارةِ، ونظرَ إلى البنَّائين.

«من المسؤول هنا؟» سألَ وليم.

أراد توم أن يقول له: «كنتُ سأقتلكَ لو أنَّك ألحقت الأذى بابنتي الصغيرة»، ولكنه كبحَ غضبهُ وشعرَ كأنَّه يبتلعُ لقمةً مُرَّةً. اقتربَ توم من الجواد، وأمسكَ بلجامهِ ثم قال بصرامةٍ: «أنا كبير البنَّائين وأدعى توم».

«لم يعد هناك حاجةٌ لهذا المنزلِ»، قال وليم وتابع: «فلتصرف رجالكَ».

لقد تحقق ما خشي منه توم، ولكنه تمسَّك بالأملِ. قد يكون وليم طائشاً عندما يغضب، ولكن ربما يُمكن إقناعهُ بتغيير رأيهِ، وبكثيرٍ من الجهدِ تحدَّثَ توم بلهجةٍ وديَّةٍ وعقلانيةٍ: «ولكن قطعنا شوطاً كبيراً في العملِ، لمَ ستهدر المالَ الذي دفعتهُ حتَّى الآن؟ قد تحتاج المنزلَ في المستقبلِ».

«لا تُملي عليَّ الطريقةَ التي يجبُ أن أدير بها شؤوني أيُّها البنَّاء توم»، قال

وليم، وأضاف مُخاطباً البنَّائين: «جميعكم مُسرَّحون»، ثمَّ جذبَ رسنَ جوادِهِ مستعداً للمغادرةِ، ولكن توم أحكمَ قبضتهُ على اللجامِ.

«اترك جوادي»، قال وليم بلهجةٍ وعيدٍ.

ابتلعَ توم ريقه من الخوفِ، لأنَّ وليم بعد قليلٍ سيحاول إجبارَ الجواد على رفعِ رأسهِ، تحسسَ توم جيبَ المئزر، وأخرجَ قطعةَ الخبزِ التي كان يأكلها قبلَ قليلٍ، ثمَّ قدَّمها إلى الجواد الذي أحنى رأسَه وأخذَ قضمةً. «ما زال لدي كلامٌ أرغبُ بقولهِ قبل أن تغادر يا سيدي»، قال توم بلطفٍ.

قال وليم: «اترك جوادي، أو سأقطع رأسكَ»، ولكن توم نظرَ مباشرةً إليه محاولاً إخفاء خوفهِ. كان أضخم من وليم، ولكن هذا لن يشكلَ فرقاً إن سحبَ اللورد الشاب سيفَهُ واستخدمهُ.

دمدمت آغنيس بقلقٍ: « فلتفعل ما يطلبه منكَ اللورد يا زوجي».

حلَّ صمتٌ مطبقٌ على الموقعِ، ووقفَ العمالُ الآخرون في أماكنهم كالتماثيل يراقبون ما يجري. علمَ توم أنَّه من الحكمةِ الآن الاستسلام وتركُ الجوادِ، ولكن وليم كاد أن يطأ بجوادهِ ابنتهُ الصغيرة، وأثارَ التفكيرُ بهذا الأمر غضبَ توم فقال بقلبٍ واجفٍ: « يجبُ عليكَ أن تدفعَ أجورنا».

جذبَ وليم لجامَ جوادهِ، ولكنَّ توم أحكمَ قبضتهُ على اللجامِ، وبدا الجواد حائراً، وهو يتحسسُ بأنفهِ جيبَ مئزرِ توم باحثاً عن المزيدِ من الطعامِ. «فلتذهب إلى والدي، ولتطلب منه أجركَ»، قال وليم بغضبٍ.

سمعَ توم النجار يقول بصوتٍ ينضحُ رعباً: «سنقوم بذلك أيُّها اللورد، الشكر الجزيل لكَ».

«أيُّها الجبان التعس!» فكرَ توم رغمَ أنَّه هو نفسهُ كان يرتعدُ خوفاً، ولكنه أجبرَ نفسه على القولِ: «إن أردت تسريحنا يجب أن تدفع لنا أجرنا وفقَ العرفِ السائدِ. يبعد منزلُ والدكَ عن هنا مسيرَ يومين، وقد لا نجده هناك إن ذهبنا».

«رجالٌ كثرٌ ماتوا لأسبابٍ أتفه من هذهِ»، قال وليم وقد احمرّت وجنتاه من الغضبِ.

من زاويةِ عينهِ رأى وليم المرافقَ يضعُ يدهُ على مقبضِ سيفهِ، وعلمَ أنَّ عليه الآن الاستسلام والتصرف بتواضعٍ، إلَّا أنَّ غضباً عارماً عصفَ بجسدهِ،

ورغمَ أنَّه كان خائفاً فإنَّه لم يستطع إجبار نفسهِ على تركِ اللجامِ. «ادفع لنا أولاً ثمَّ اقتلني»، قال توم في تهورٍ وتابع: «قد تُعدمُ لقتلي، أو ربما لَن تلقى أيَّ عقابٍ، ولكني سأموت عاجلاً أم آجلاً، وعندها سأذهب إلى الجنةِ، وأنتَ ستذهبُ إلى الجحيم».

وهنا تصلَّبت ملامحُ وليم الهازئة وشحبَ لونه فأثارَ هذا عجبَ توم، وتساءلَ في نفسهِ عمَّا أخافَ الشاب. بالطبعِ ليست سيرةُ الإعدامِ، فاحتمال أن يُعدم سيد لقتلهِ حرَفي ضعيفٌ حقاً. هل كان خائفاً من الجحيم؟

حدَّقا ببعضهما لبرهةٍ، وراقبَ توم في دهشةٍ وراحةٍ تراجع تعابير الغضبِ والبغضِ عن وجه وليم، وكيفَ حلَّت محلها تعابير القلقِ والخوفِ، في النهايةِ أخذَ وليم محفظةً جلديةً من حزامهِ ورمى بها إلى المرافقِ قائلاً: «فلتدفع لهم».

وهنا قررَ توم استغلال الحظّ الذي حالفه إلى الأخير، وعندما جذبَ وليم اللجام مجدداً، ورفعَ الجواد رأسه القوي، وتحرَّكَ جانباً تحرَّكَ توم معه، وهو ممسك باللجامِ، ثمَّ قال: «أجرَ أسبوعٍ كامل عندَ التسريحِ كما هو العرفُ»، وهنا سمعَ شهقةً حادةً تصدر عن آغنيس التي تقف خلفه، فعلمَ أنَّها رأت في إطالتهِ لأمدِ هذهِ المواجهةِ ضرباً من الجنون، ولكن توم أمعنَ في جرأتهِ قائلاً: «وهذا يعني ستة بنسات للعاملِ، واثني عشر لكلِّ نجارٍ وبنَّاءٍ، وأربعة وعشرين بنساً لي، وهذا يعني أنَّ المبلغ الإجمالي هو ست وستون بنساً. كان سريعاً جداً في الحسابِ.

نظرَ المرافقُ بفضولٍ إلى وجه سيّده الذي قالَ في غضبٍ: «حسناً».

أفلتَ توم اللجامَ، وتراجع إلى الخلفِ.

استدار وليم بالجواد، ووكزه بقوةٍ، فاندفعَ بسرعةٍ على الطريقِ عبرَ حقلِ القمحِ.

وفجأةً رمى توم بنفسهِ على كومةِ الخشبِ متسائلاً عمَّا تملّكه ليفعلَ ما فعلهُ. إنّ تحدي اللورد وليم بهذهِ الطريقةُ ضربٌ من الجنونِ، وشعرَ أنَّه محظوظ لأنَّه ما زال على قيد الحياةِ.

تراجعَ وقعُ حوافر جوادِ وليم الهادرة إلى أن باتت أشبهَ برعدٍ بعيدٍ، وأفرغَ مرافقه المحفظةَ على الطاولة. شعرَ توم بالنصرِ، وهو يشاهد البنسات الفضية

تتدحرج تحتَ أشعةِ الشمسِ. ورغمَ أنَّ ما فعلهُ جنوني، فإنَّه نجحَ في تحقيق مرادهِ، وأمَّنَ أجرَه، وأجرَ عمالهِ.

«حتَّى السادة عليهم احترامُ العادات»، قال هذا لنفسه وللآخرين.

سمعته آغنيس، وقالت بفظاظةٍ: «آملُ ألا تضطرَّ إلى العمل لمصلحة اللورد وليم أبداً».

ابتسم توم لها مُدركاً أنَّها تتصرف بفجاجةٍ؛ لأنَّها شعرت بالخوفِ، ثمَّ قال لها: «لا تتجهمي كثيراً، وإلا امتلأ ثدياكِ بالحليب الخاثرِ عندما تلدين الطفل».

«لن أتمكن من إطعامِ أحدٍ إن لم تعثر على عملٍ من أجلِ الشتاء».

«ما زال لدينا وقتٌ طويلٌ قبلَ حلولِ الشتاءِ»، أجابها توم.

– 2 –

بقيت عائلةُ توم في القريةِ طوالَ الصيفِ، وفي وقتٍ لاحقٍ اكتشفوا أنَّهم ارتكبوا غلطةً فادحةً لقيامهم بهذا رغمَ أنَّ القرار وقتئذٍ بدا لهم عقلانياً. كان توم وآغنيس وآلفريد يجنون بنساً يومياً من العملِ في الحقولِ خلال موسمِ الحصادِ، وعندما حلَّ الخريف واضطروا إلى الانتقالِ كان لديهم كيسٌ ثقيلٌ من البنساتِ الفضيةِ، وخنزير سمين.

قضوا الليلةَ الأولى في رواقِ كنيسةِ إحدى القرى، ولكن في اليوم التالي عثروا على ديرٍ ريفي وباتوا فيهِ، في اليوم الثالث وجدوا أنفسهم في قلبِ غابةِ شوت فوريست، وهي غابةٌ واسعةٌ من الأشجارِ، والشجيراتِ على طريقٍ بالكادِ يتسعُ لعربةٍ يجرها ثور، والنباتاتِ الصيفيةِ الكثيفةِ الذاويةِ بينَ أشجارِ البلوط على كلا الجانبين.

وضعَ توم معداته الصغيرةَ في حقيبةٍ، وعلَّقَ مطارقهُ بحزامِه، وطوى عباءتهُ تحتَ ذراعِهِ اليسرى، وحملَ أداةً تشبه مسماراً معدنياً ضخماً في يدهِ اليُمنى مستخدماً إياه كعُكازٍ، كان سعيداً لعودتهِ إلى الترحالِ مجدداً؛ فهذا يعني أنَّه قد يحظى بفرصةِ العملِ على بناءِ كاتدرائيةٍ، وقد يصبح كبيرَ بنَّائيها، ويستقر هناك حتَّى مماتهِ، ويبني كنيسةً مذهلةً، وبذلك يضمن ذهابَهُ إلى الجنةِ.

كانت آغنيس قد وضبت الممتلكاتِ المنزلية الثمينة في قدرِ طهو ربطتهُ إلى ظهرها، أمَّا آلفريد فقد حملَ معداتِ بناءِ منزلٍ جديدٍ لهم من فأس وبلطة ومنشار، ومطرقةٍ صغيرةٍ، ومِخرز لصنعِ فتحاتٍ في الجلدِ والخشبِ ومجرفةٍ. كانت مارثا صغيرةً جداً على حملِ أيِّ شيءٍ باستثناءِ الوعاء الذي تتناول فيه طعامها، وثبتت سكينَ الطعام إلى حزامها، وعباءتها الشتوية مربوطةٌ إلى ظهرِها، ولكن كُلفت بمهمةِ سوقِ الخنزيرِ إلى أن يتمكنوا من بيعهِ في أحدِ الأسواقِ.

خلال تنقلهم بينَ الغابات الشاسعةِ لم يُفارق توم بنظرهِ آغنيس. كانت الآن في منتصف فترةِ الحملِ إلَّا أنَّها، وعلى الرغم من وطأةِ الحملِ الذي تَرَّكز على بطنها وظهرها، لم تعرف الكلل والمللَ. آلفريد أيضاً كان على ما يرامُ فقد كان في ذلكَ العمرِ الذي يمتلكُ فيه الصبيانُ طاقةً فائضةً لا يعرفون ما يفعلون بها. أمَّا مارثا فقد كانت الوحيدة التي تعبت فلم تُخلق ساقاها النحيلتان للمشي الطويلِ بل للقفز بمرحٍ، ولهذا كانت تتأخر عنهم باستمرارٍ، فيضطرون إلى التوقف، وانتظارها هي والخنزير حتَّى يلحقان بهم.

خلال مسيرهم غرقَ توم في التفكيرِ بأمرِ الكاتدرائيةِ التي يتمنى بناءها في يومٍ من الأيامِ. وكعادتهِ بدأ بتخيلِ ممرّ مقنطرٍ بسيطٍ جداً أشبه بدائرتين قائمتين داعمتين، ثمَّ ممرّ مقنطر ثان شبيه بالأولِ، وفي مخيلتهِ دمجَ الممرّين معاً في ممرّ واحدٍ طويلٍ، ثمَّ إضافة ممرّ تلو الآخر إلى أن تشكَّلَ صفٌّ من الممرّاتِ على شكلِ نفقٍ. هذا هو جوهر البناءِ؛ أن يكون له سقفٌ يقي من المطرِ، وجداران يحملان السقفَ. لم تكن الكنيسةَ أكثر من مجرَّدِ نفقٍ مع بعض الإضافات التحسينيةِ.

ولأنَّ السرداب مُظلمٌ ستكون النوافذ أولى هذهِ الإضافاتِ، وإن كان الجدار قوياً بما يكفي سيتمكن من فتحِ فجواتٍ فيه وستكون مدورةً في الأعلى، ومتساويةً على كلا الجانبين في المنتصف، وقاعدتها مستوية، أي سيكون لها شكلُ الممرّ المسقوفِ ذاته. إن استخدامَ الشكل ذاته في بناءِ القناطرِ، والنوافذِ، والأبواب سيجعل المبنى جميلاً، لقد كان التناسق مسألةً أخرى، وقد تخيلَ توم اثنتي عشرة نافذةً متماثلةً بأبعادٍ متساويةٍ على طولِ جدارِ السردابِ.

حاول توم أن يتخيلَ شكلَ القوالبِ فوقَ النوافذِ، ولكنه استمرَّ بفقدانِ تركيزه بسببِ إحساسٍ رابضٍ أنَّ شخصاً ما يراقبهم. قال لنفسهِ إنَّها فكرةٌ سخيفةٌ، فهو مراقبٌ بالطبعِ من قبلِ الطيورِ، والثعالب، والقططِ، والسناجيبِ، والجرذان، والفئران، وبناتِ عرس، وفئرانِ الحقلِ التي تكتظُّ بها الغابةُ.

عندَما حلَّ منتصفُ النهار توقفوا قربَ جدولِ ماءٍ، شربوا، وتناولوا لحمَ الخنزيرِ البارد، وتفاحاً برياً كانوا قد قطفوه من الغابة.

بعدَ الظهرِ بدا التعبُ واضحاً على مارثا، وفي مرحلةٍ ما كانت بعيدةً عنهم لمئةِ ياردةٍ، وعندما توقفوا ينتظرونها لتلحقَ بهم، تذكرَ توم كيف كان آلفريد عندما كان في مثلِ عُمرِ مارثا. كان فتى أشقر جميلاً قوياً، وشجاعاً، شعرَ توم بمزيجٍ من مشاعرِ الحبِّ والغضبِ، وهو يراقب مارثا تزجرُ الخنزير على بُطئهِ. فجأةً خرجَ شخصٌ من وراءِ أجمةٍ، ووقفَ أمام مارثا. أمَّا ما حدثَ بعد ذلك فقد حدثَ بسرعةٍ كبيرةٍ بالكادِ كان توم قادراً على تصديقها. أفلتت من توم صيحةُ رعبٍ عندما أدركَ أنَّ الرجلَ الذي ظهرَ فجأةً أمامَ مارثا يحملُ هراوةً على كتفيهِ، ولكن قبلَ أن يتمكن من التفوه بكلمةٍ كان الرجل قد رفعَ هرواتهُ فوقَ مارثا، وأنزلها بقوةٍ على أحدِ جانبي رأسها. سمعَ تومَ صوتَ الضربةِ المثيرَ للغثيانِ، وسقطت مارثا على الأرضِ كدميةٍ.

وجدَ توم نفسهُ يركضُ باتجاههما، وقدماه تضربان الأرضَ كحوافرِ جوادِ وليم، وساقاه تساعدانهِ على الجري بسرعةٍ أكبر، خلال ركضهِ أبقى نظرهُ على ما كان يحدثُ، وكأنه يمعنُ النظرَ إلى لوحةٍ مرسومةٍ أعلى جدارِ كنيسةٍ؛ فهو يستطيع رؤيتها لكنه عاجزٌ عن تغييرها. لم يكن هناك شكٌّ أنَّ المُعتدي رجلٌ خارجٌ عن القانون، فقد كان قصيراً، ومربوعاً في رداءٍ بني وحافي القدمين. لوهلةٍ نظرَ الرجلُ بشكلٍ مباشرٍ إلى توم، وبدوره نظرَ توم إلى وجهه، ولاحظَ أنَّه مشوه على نحو شنيعٍ، فقد كانت شفتاه مقطوعتين، ربما قُطعتا كعقابٍ له على جريمةِ الكذبِ، وبدا فمه كأنَّه مُفترٌ عن ابتسامة مقززةٍ لا تفارقهُ، ويحيط بها نسيجُ الندبة الشوهاء. كان هذا المشهدُ المرعبُ كفيلاً بإيقافِ توم عن متابعةِ طريقِهِ، لولا جسدُ مارثا المُسجى أرضاً.

أشاحَ الخارجُ عن القانون نظرهُ بعيداً عن توم، وركز على الخنزير، وبلمحِ البصرِ انحنى، والتقطَ الخنزير، ووضعَ الحيوان الذي كان يتلوى

تحت ذراعِهِ، ثمَّ اندفعَ عائداً إلى الأجمةِ الكثيفةِ آخذاً معهُ الملكيةَ القيِّمةَ الوحيدةَ لدى عائلةِ توم.

جثَمَ توم على ركبتيه قربَ مارثا، ثمَّ وضعَ يدَهُ الضخمةَ على صدرِها الصغيرِ، وشعرَ بنبضاتِ قلبها مستقرةً، وقويةً فانحسرت أسوأ مخاوفِهِ، ولكنه وجدَها مغمضة العينين، ورأى بقعةَ دمٍ على شعرِها الأشقرِ.

وبعد برهةٍ كانت آغنيس قد أصبحت قربه، وأخذت تتحسسُ صدرَ مارثا، ومعصمَها، وجبهتها، ورمقت توم بنظرةٍ قاسيةٍ، ومباشرةٍ.

«ستعيش»، قالت بصوتٍ حازمٍ ثم تابعت: «فلتُعد الخنزيرَ الآن».

أمسكَ توم على الفورِ بحقيبةِ معداتِهِ، ووضعها على الأرضِ، ثمَّ بيدِهِ اليسرى أخذَ المطرقة الحديدية الضخمة من حزامِهِ، وحملَ بيدِهِ اليمنى الإزميلَ، كان بوسعِهِ رؤية الأجمةِ التي دخلَ وخرجَ منها اللصُّ، وسماعُ قُباع الخنزيرِ في الغابة.

ودخلَ توم إلى الأجمةِ.

وجد توم الطريق أمامه مفتوحاً، كان اللّصُ رجلاً ضخماً، وعلاوةً على ذلك ركضَ حاملاً تحت ذراعه الخنزير الذي كان يتلوى ساحقاً الزهور، والشجيرات، والأشجار الصغيرة، فاتسعَ الطريق بين النباتات. اندفعَ توم وراءَ الرجلِ تملأه رغبةٌ وحشيةٌ في الإمساك به، وضربه ضرباً مُبرحاً، ودخل في أجمةٍ من شجيرات البتولا، ثمَّ هبطَ منحدراً، وخاضَ مستنقعاً يُفضي إلى ممرّ ضيقٍ وهناك توقفَ. لم تعد أمامه على الطريق نباتاتٌ مسحوقةٌ، ولن يعرف إن كان اللصُّ قد ذهبَ يميناً أو يساراً، ولكن توم وقفَ وأصاخ السمعَ. سمعَ قُباع الخنزير قادماً من جهةِ اليسار، وسمعَ أيضاً وقعَ أقدامِ شخصٍ وراءه، ربما كان آلفريد، وانطلق توم في الجهةِ التي أتاه منها قُباعُ الخنزيرِ.

قاده الطريقُ إلى منحدرٍ، ثمَّ زوايةٍ حادةٍ وبعدها إلى مرتفعٍ. كان بوسعِهِ الآن سماع قُباعِ الخنزيرِ بكلِّ وضوحٍ، فركضَ صاعداً التلَّ، وهو يلهثُ، فقد كانت رئتاه ضعيفتين؛ بسبب سنواتٍ من تنشّقِ غبارِ الحجارةِ، وفجأة بات الطريق مستوياً، ورأى اللصَّ على بعدِ عشرين، أو ثلاثين ياردةً يركض كأنَّ الشيطان في إثره. غذَّ توم من عدوهِ وراءَ اللصِّ، كان سيلحق بهِ دونَ شك إن استمرَّ بالعدو، فقد كان الرجلُ يحملُ خنزيراً، ولا يمكنه الركض بسرعةِ

رجلٍ لا يحمل شيئاً، ولكن صدرَهُ بدأ يؤلمه. بدأت المسافة بينه وبين اللصِّ تتقلصُ، وهنا رفعَ توم إزميله فوقَ رأسِهِ كرمحٍ. كان سيرمي بهِ الرجل حالما يقتربُ منه أكثر، وأخذت المسافةُ بينهما تتقلصُ أكثر وأكثر. وقبلَ أن يرمي توم بالإزميل، لمحَ بطرفِ عينهِ وجهاً نحيلاً في عباءةٍ خضراء يخرج من الأجمةِ قربَ الطريقِ، ولكن الوقت كان قد تأخر كثيراً لكي يتحايلَ، وباغته صاحبُ الوجهِ بضربةٍ بهراوةٍ على وجهه، فترنّح بفعلِ الضربةِ، وسقطَ أرضاً.

سقطَ الإزميلُ من يدِ توم إلّا أنَّه كان ممسكاً بمطرقتهِ، تدحرجَ ونهضَ على ركبتيه. كان أمامهُ رجلان خارجان عن القانون؛ رجلٌ بقبعةٍ خضراء، ورجل أصلع ذو لحيةٍ بيضاء مُلبّدة، وركضَ الرجلان باتجاه توم.

مالَ توم جانباً، ولوّحَ بمطرقتهِ باتجاهِ صاحبِ القبعةِ الخضراء. تفادى الرجلُ الضربةَ، ولكن رأسَ المطرقةِ الحديدي الكبير نزلَ بقوةٍ على كتفهِ، فأطلقَ الرجلُ صرخةً عاليةً من الألمِ، ووقعَ أرضاً ممسكاً بذراعهِ كأنَّها كُسرت. لم يكن لدى توم وقتٌ ليرفعَ المطرقةَ، ويعاجلهُ بضربةٍ أخرى قبلَ اقترابِ الرجلِ الأصلعِ منهُ، ولذلك غرزَ الرأسَ المعدني في وجهِ الرجلِ فالقاً وجنتيهِ.

تراجعَ الرجلان يلملمان جراحهما، وبات توم واثقاً من أنَّ القتال انتهى فاستدار. كان اللص ما زال يولي الأدبارَ هارباً، فلحقَ بهِ توم مجدداً متجاهلاً الألمَ في صدرهِ. لم يكن قد قطعَ مسافةً كبيرةً عندما سمعَ خلفهُ صرخةً، كان الصوتُ مألوفاً، كان صوتُ آلفريد. توقفَ توم، ونظرَ إلى الوراءِ.

كان آلفريد يصارعُ الرجلين بيديهِ وقدميهِ، وقد لكمَ الرجلَ ذا القبعةِ الخضراء على صدغيهِ ثلاث أو أربعَ مرّاتٍ، ثمَّ ركلَ الرجل الأصلع على ذقنهِ، ولكن الرجلين حاصراه، واقتربا منه أكثر حتّى لا تعود ركلاتهُ، ولكماتهُ مؤلمةً جداً. أبدى توم تردداً، فقد كان ممزقاً بين ملاحقةِ الخنزيرِ، وإنقاذِ ابنه، ولكن الرجل الأصلع وضعَ قدمَهُ وراء ساقِ آلفريد ليوقعه أرضاً، وحالما وقعَ آلفريد أرضاً رمى الرجلان بنفسيهما عليه، وأمطراه باللكماتِ على وجههِ وجسدهِ.

ركضَ توم باتجاه آلفريد، وهجمَ على الرجلِ الأصلع، فركضَ الأخير هارباً بين الشجيراتِ، ثمَّ استدارَ توم نحو الآخرِ، ولوحَ بمطرقتهِ فوقَ القبعةِ الخضراء، ولأنَّ هذا الرجل شعرَ بألمِ ضربةِ المطرقةِ قبلاً، وما زال قادراً على

استخدامِ ذراعٍ واحدةٍ، تفادى الضربةَ ثمَّ استدار، واندفعَ باتجاه شجيرةٍ قبلَ أن يلَوّحَ توم بضربةٍ أخرى.

استدارَ توم ورأى الرجلَ الأصلع يركضُ هارباً، ثمَّ نظرَ في الاتجاهِ المعاكسِ، ولم يرَ أثراً للصِّ الذي حملَ الخنزير. أخذَ نفساً عميقاً، وهو يشعرُ بالمرارةِ، ثمَّ أطلقَ لعنةً. كان ذلك الخنزيرُ يساوي نصفَ مدخراتِهم لهذا الصيف.

انهار توم على ركبتيه يلتقطُ أنفاسهُ بصعوبةٍ.

«ضربنا ثلاثةً منهم!»، قال آلفريد بحماسةٍ.

نظرَ توم إليه وقال: «ولكنهم أخذوا الخنزير»، وشعرَ بغضبٍ يحرقُ أحشاءَهُ، وكأنهُ شربَ عصيرَ تفاحٍ حامضٍ. كانوا قد اشتروا الخنزير في الربيع، بعد أن ادخروا ما يكفي من المالِ، وقاموا بتسمينه طوال فصل الصيفِ. يصلُ ثمن الخنزيرِ السمين ستين بنساً، ويمكن لخنزيرٍ سمينٍ مع بضعة رؤوسٍ من الملفوف، وكيسٍ من الحبوبِ، إطعامُ العائلة طوال فصلِ الشتاء. أمَّا جلدهُ فهو كافٍ لصُنعِ زوجٍ من الأحذيةِ الجلديةِ، وحقيبةٍ أو حقيبتين. كانت خسارةُ توم كارثيةً.

نظرَ توم بحسدٍ إلى آلفريد الذي تعافى الآن من جهدِ المطاردةِ والقتالِ، ووقفَ الآن ينتظرُ التالي في نفاد صبرٍ. فكرَ في نفسهِ أنَّه مضى وقت طويل على تلكَ الأيام التي كان يركضُ فيها بسرعةِ الريحِ، وبالكادِ يشعرُ بضرباتِ قلبهِ. كان في العشرين من عمرهِ، وبدت له العشرون كالبارحة.

نهضَ توم على قدميهِ، ووضعَ ذراعَه على كتفِ آلفريد العريضة وسارا على الطريق عائدين. كان الفتى ما يزال أقصرَ قامةً من والدهِ بشبرٍ، ولكنه سرعان ما سيغدو في مثلِ طولهِ، وقد يغدو أطولَ منه.

«آمل أن يزدادَ حكمةً أيضاً»، قال توم في نفسهِ.

«يُمكن لأيِّ رجلٍ أحمق أن ينخرط في قتالٍ، ولكن الرجلَ الحكيم من يعلم كيف يتجنبه»، قال توم، ورمقهُ آلفريد بنظرةٍ تخلو من أي تعبيرٍ.

انحرفا عن الطريقِ وعبرا مستنقعاً، وبدآ بصعودِ المنحدر عائدين من الطريق الذي أخذَه اللصُّ، وبينما كانا يشقان طريقهما عبرَ دغلٍ من شجيرات البتولا فكرَ توم بمارثا، وعاودهُ ذلكَ الغضبُ الذي اعتملَ في

داخلهِ قبلَ قليلٍ. لقد ضربها ذلك المجرم بلا رحمةٍ، رغمَ أنَّها لم تكن تشكل تهديداً لهُ.

غذَّ توم الخطى، وبعد برهةٍ خرجَ هو وآلفريد إلى الطريق الرئيس، كانت مارثا ما تزال مستلقيةً في مكانها بلا حراكٍ، وعيناها مغمضتان، والدمُ قد جفَّ على شعرها، ووجدَ آغنيس راكعةً قربها. وتفاجأ توم عندما رأى إلى جانبها امرأةً أخرى وصبياً، وهنا خطرَ بباله أنَّه في وقتٍ سابقٍ شعرَ كأنَّ أحداً ما يراقبه، وبدت له الغابةُ تعجُّ بالناسِ. ركعَ توم، ووضعَ يده على صدرِ مارثا مجدداً، ووجدها تتنفسُ بشكلٍ طبيعي الآن.

«ستصحو قريباً»، قالت المرأةُ الغريبةُ بحزمٍ، وتابعت: «وستتقيأ، وبعد ذلك ستكون على ما يرامُ».

نظرَ توم إلى المرأةِ الراكعةِ قربَ مارثا في فضولٍ. بدت شابةً، ربما أصغر منه بعشرين عاماً، وكشفت سترتها الجلديةُ القصيرةُ أطرافها السمراء الرشيقة. كان وجهها جميلاً، والخطُ الأمامي لشعرِها البني الداكن، يأخذُ شكلاً مُثلثياً في جبهتها العريضةِ في ما يُدعى بخطِ «قمة الشيطان». شعرَ توم برغبةٍ تعتملُ في داخلهِ، ثمَّ رفعت المرأة نظرها، وحدَّقت بهِ فحدَّقَ بها مذهولاً. رمقته بنظرةٍ حادةٍ وعميقةٍ، ولون عينيها العسلي الضارب إلى اللون الذهبي أضفى على وجهها مظهراً سحرياً. شعرَ توم أنَّها عرفت ما كان يجول في ذهنهِ.

أشاحَ توم بنظرهِ بعيداً ليُخفي حرجهُ، والتقت عيناه بعيني آغنيس. بدت مستاءةً وقالت: «أين الخنزير؟»

«واجهنا رجلين خارجين عن القانون»، قال توم.

قال آلفريد: «لقد أبرحناهما ضرباً، ولكن من سرقَ الخنزيرَ هربَ».

تجهمت آغنيس ولم تتفوه بكلمةٍ.

وهنا قالت المرأةُ الغريبةُ: «يمكننا نقلُ الفتاةِ إلى الفيء، ولكن يجب أن نحملها بلُطفٍ»، ثمَّ وقفت ولاحظَ توم أنَّ بنيتها ضئيلةٌ، وأقصر منهُ بقدمٍ على الأقلِّ. انحنى توم ورفعَ مارثا بعنايةٍ، كان جسدها الطفولي خفيفاً جداً، حملها لبضعِ ياردات على الطريقِ، ووضعها أرضاً على العشبِ في فيءِ شجرةِ بلوطٍ عتيقةٍ، وهي ما تزال بلا حولٍ ولا قوةٍ.

كان آلفريد يجمع الأدوات التي تبعثرت على الطريقِ خلال الشجارِ، وابن المرأةِ الغريبةِ يراقبُهُ بعينين متسعتين، وفمٍ مفتوحٍ، ولكن دون أن يتفوه بكلمةٍ. لاحظَ توم أنَّ الفتى أصغر من آلفريد بثلاثِ سنواتٍ، ومظهرهُ غريبٌ، ولا يملكُ أيّاً من قسماتِ والدتهِ الجذَّابة. بدت بشرتُهُ شاحبةً، وشعرهُ أحمر ضارباً إلى اللون البرتقالي، وعيناه الزرقاوان جاحظتين قليلاً، وله مظهرُ الغبي. كان من ذلك النوعِ من الأطفال الذي إمَّا أنه يموت في الصغرِ، أو يكبر ليغدو أحمقَ القريةِ، ولاحظَ توم أن آلفريد لم يكن مرتاحاً لنظراتِ الفتى.

وبينما كان توم يراقبُ الفتى اقتنصَ الأخيرُ المنشارَ من يدِ آلفريد من دونِ كلمةٍ، وتفحصَهُ كأنَّه شيءٌ عجيبٌ، وقام آلفريد الذي شعرَ بالإهانة من سلوك الفتى بأخذِ المنشار منه، ولكن الفتى أفلته دون مقاومةٍ، وهنا قالت والدة الفتى: «جاك! أحسن التصرُّف»، وبدت محرجةً من تصرُّفِ ابنها.

نظرَ توم إلى المرأةِ، ولاحظَ أنَّ الفتى لم يكن يشبهها على الإطلاق، ولذلك سألها: «هل أنتِ والدتُه؟»

«أجل وأدعى إيلين».

«وأين زوجكِ؟»

«متوفى».

تفاجأ توم وسألها في ريبةٍ: «أتسافرين وحدَكِ؟».

إنْ كانت الغابةُ مخيفةً لرجلٍ مثله، فكيف ستكون بالنسبةِ إلى امرأةٍ تسافرُ وحدها. لا يمكنها أن تأملَ في عبورها بسلامةٍ.

«لسنا مسافرين»، قالت إيلين، وتابعت: «بل نعيشُ في الغابةِ».

صُدمَ توم بما سمعه، وعاجلَ إلى القولِ: «أنت تعنين أنَّكما...»، ولكنه توقف عن الكلامِ مخافةَ أن يسيءَ إليها.

«خارجان عن القانون» . قالت له: «أجل أتعتقدُ أنَّ جميعَ الخارجين عن القانون يشبهون فارموند أوبنماوث الذي سرقَ خنزيركَ؟»

«أجل»، أجابَ توم على الرغمِ من أنَّه أرادَ القولَ لها إنَّه لم يعتقد قط أنَّ امرأةً جميلةً مثلها قد تكون خارجةً عن القانون، ولأنَّه لم يتمكن من كبحِ فضوله سألها: «ما جُرمكِ؟»

«إلقاءُ لعنةٍ على كاهنٍ»، أجابت وأشاحَت بنظرها بعيداً.

لم يعدّ توم فعلتها جريمةً، ولكن قد يكون الكاهنُ شخصيةً قويةً جداً، أو حساسةً جداً، أو ربما لم تكن إيلين راغبةً بقولِ الحقيقةِ.

نظرَ توم إلى مارثا التي فتحت عينيها الآن. بدت الفتاةُ مضطربةً وخائفةً قليلاً، ركعت آغنيس بقربها، وقالت لها: «أنتِ بخيرٍ، كل شيءٍ سيكون على ما يرامُ».

جلست مارثا وبدأت تتقيأ، فعانقتها آغنيس إلى أن تجاوزت نوبةَ الإقياءِ. انبهرَ توم بما رآه فقد كانت إيلين على حقٍ في ما توقعتهُ، وبما أنَّها قالت أيضاً إنَّ مارثا ستكون على ما يرامُ، هذا يعني أنَّها ستكون على ما يرامُ أيضاً. غمرَه شعورٌ كبيرٌ بالراحةِ، وتفاجأ قليلاً من قوَّةِ هذا الشعورِ، قال في نفسهِ إنَّه لا يمكنه تحملُ فقدان طفلتهِ الصغيرةِ، وكبحَ دموعاً كادت تنهمرُ رغماً عنه. نظرَ إلى إيلين، ولاحظَ أنَّها ترمقه بنظرةِ تعاطفٍ، ومجدداً شعرَ أنَّ عينيها العسليتين الضاربتين إلى اللون الذهبي تخترقان قلبَهُ.

كسرَ توم غصناً من شجرةِ البلوط، وعرَّاها من أوراقها التي استخدمها لمسحِ وجهِ مارثا. كانت ما تزال تبدو شاحبةً.

«تحتاجُ إلى الراحةِ»، قالت إيلين وتابعت: «دعها تستلقي لمدةٍ تعادلُ المدَّةَ التي يأخذها رجلٌ في قطعِ مسافةِ ثلاثةِ أميالٍ».

نظرَ توم إلى الشمسِ، ورأى أنَّ النهار ما زال أمامهم، فجلسَ أرضاً منتظراً، بينما هدهدت آغنيس مارثا بحنو على ذراعيها. انتقلَ الآن اهتمامُ الفتى جاك إلى مارثا، وحدَّقَ إليها بتلكَ النظرةِ الشديدةِ البلاهةِ. تساءل توم في داخلهِ إن كان يستطيعُ إقناعَ إيلين بروايةِ حكايتها. لم يكن يريدها أن تغادر، ولهذا سألها على نحو مُبهمٍ: «كيف حصلَ ذلك؟»

نظرت في عينيه مجدداً وتحدثت. أخبرتهم أنَّ والدها كان فارساً ضخماً، وقوياً، وعنيفاً، وأنَّه أرادَ أبناءً يرافقونه على صهوةِ الجيادِ في رحلاتِ الصيد والمصارعة، رفاقاً يثملون ويحتفلون معه بصخبٍ طوال الليل، ولكنه لم يكن محظوظاً لأنَّه حصلَ على إيلين، ثمَّ توفيت زوجته فتزوجَ مجدداً، ولكن زوجتهُ الثانية كانت عاقراً، فكرهها جداً، وتخلَّصَ منها في نهايةِ المطافِ. صورت والدها كرجلٍ قاسٍ، ولكن يبدو أنَّه لم يُعامل إيلين

بقسوةٍ؛ لأنَّه أحبها بشدةٍ، وقاسمها احتقاره لزوجته الثانية. بعد مغادرةِ زوجةِ والدها، بقيت إيلين في منزلٍ غالبيته من الرجال فاعتادت تقصيرَ شعرِها، وحمل خنجرٍ، وتعلَّمت عدمَ اللعبِ مع القططِ الصغيرةِ، أو الاهتمامِ بالكلابِ العمياءِ. وعندما أصبحت في مثلِ عمرِ مارثا كانت تبصقُ على الأرضِ كالصبيةِ، وتتناول قلبَ التفاح، وترفسُ الجوادَ على بطنهِ بقوةٍ تجعله يشهق وتشدّ السرجَ بقوةٍ أكبر. كانت قد تعلَّمت أنَّ جميعَ الرجال خارج دائرةِ والدها لوطيون، والنساء اللواتي لا يجارين الرجال في هذهِ الصحبةِ عاهراتٍ، ولكنها لم تكن واثقةً من معنى هذهِ الإهاناتِ، ولم تهتم كثيراً بها.

مُصغياً إلى صوتِها في الهواء العليلِ لظهرِ هذا اليوم الخريفي أغمضَ توم عينيهِ، وتخيلها فتاةً بصدرٍ مسطحٍ، ووجهٍ قذرٍ، جالسةً إلى طاولةٍ طويلةٍ مع رفاقِ والدها الأجلاف، يشربون جعةً قويةً، ويتجشأون، ويغنون أغاني تُمجدُ المعارك، والسلب، والاغتصاب، والجياد، والقلاع، والعذارى، إلى أن تخرَّ برأسها ذي الشعرِ كشعرِ الصبيان على الطاولةِ الخشنةِ مستسلمةً للنومِ.

ولو أنَّها بقيت بصدرٍ مسطحٍ للأبد، ربما لعاشت حياةً سعيدةً، ولكن الزمن مرَّ، وبدأ الرجال ينظرون إليها بطريقةٍ مختلفةٍ، وتوقفوا عن الضحك بضراوةٍ عندما كانت تقول: «ابتعد عن طريقي، أو سأقتلعُ خصيتيكَ، وأُلقي بهما إلى الخنازيرِ». حدَّقَ بعضهم إليها عندما خلعت سترتَها الصوفية، واستلقت في قميصها القطني الداخلي الطويلِ لتنام، وفجأةً توقفوا عن التبولِ أمامها في الغابةِ، وباتوا يديرون ظهروهم لها.

في أحدِ الأيام رأت والدها يتحدَّثُ بحميَّةٍ مع كاهن الأبرشيةِ، وكان هذا حدثاً نادراً. حدَّقَ الرجلان إليها طوال الوقتِ كأنَّها محورَ حديثهما، وفي صباح اليوم التالي قال لها والدها: «اذهبي برفقةِ هنري، وإيفيريد، وافعلي ما يقولانه لكِ»، ثمَّ قبَّلها على جبهتها. تساءلت في نفسها عمَّا أصابَ والدها، وإن كانت عريكتهُ قد بدأت تلين مع الكبرِ. أسرجت جوادَها السريع فقد رفضت ركوب جواد بِلفري الذي تركبه النساء، أو الجواد القزم الذي يركبه الأطفال، وانطلقت برفقةِ الجنديين.

أخذها الجنديان إلى دير راهبات، وتركاها هناك.

عندما رأت إيلين الجنديين يبتعدان زلزلت أرجاءَ الدير باللعناتِ، وكيلِ

السبابِ، ثمَّ طعنَت رئيسةَ الديرِ، وسارت عائدةً إلى منزلِ والدها الذي أرسلها مجدداً مربوطةَ اليدين، والقدمين إلى سرجٍ فوقَ حمارٍ. في الديرِ عاقبوها بالحبسِ في زنزانةٍ إلى أن شُفيت رئيسة الدير من جُرحِ الطعنةِ. كانت الزنزانةُ باردةً، ورطبةً، وحالكة السوادِ كالليلِ، ورغمَ أنَّهم قدموا لها ماءً للشرب، فإنهم لم يطعموها. عندما أفرجوا عنها هربت عائدةً إلى المنزل، فأرسلها والدها مجدداً إلى الديرِ، وهناك جلدوها قبلَ أن يلقوا بها في الزنزانةِ.

نجحوا في النهايةِ في كسرها، وارتدت ثوبَ الراهبات، وأطاعت القوانين، وتعلَّمت الصلاة رغم أنها كرهت في قلبها الراهبات، واحتقرت القديسين، وشككت في كل ما أخبروها بهِ عن الرَّبِّ. تعلَّمت القراءة، والكتابة، والموسيقى، والعدَّ، والرسم، وأضافت إلى الفرنسية، والإنكليزية، اللتين تحدثت بهما في منزلِ والدها اللغة اللاتينية.

لم تكن حياةُ الديرِ سيئةً بالمطلقِ بل تشبهُ حياتها في منزلِ والدها، حيثُ يطغى على المجتمعِ جنسٌ واحدٌ، ويُدارُ وفقَ قوانين وطقوس غريبة. كان على جميع الراهباتِ أن يقمنَ بأعمالٍ جسديةٍ، وسرعان ما كُلِّفت إيلين بالعملِ مع الجيادِ، ولم يطل الوقتُ إلى أن باتت المسؤولةَ عن الإسطبلات.

في الديرِ لم تعبأ بقانونِ الفقرِ، ورغمَ أنَّها وجدت صعوبةً في الالتزامِ بالطاعةِ فإنَّها نجحت في ذلك في نهاية المطافِ، أمَّا القانون الثالث، والمتعلق بالعفةِ، فهذا أيضاً لم يُقلقها كثيراً رغمَ أنَّها بين الفينةِ والأخرى، وبهدفِ إغاظةِ رئيسةِ الدير، عرَّفت إحدى الراهبات الجدد على كيفيةِ إمتاعِ أنفسهن.

وهنا قاطعت آغنيس إيلين، وأخذت مارثا إلى جدولِ ماءٍ لتغسلَ وجهها، وتنظِّفَ عباءتها، وأخذت معها آلفريد أيضاً من أجلِ الحمايةِ. رغم أنَّها قالت إنَّها لن تبعدَ كثيراً، نهضَ جاك ليلحقَ بهم، ولكن آغنيس طلبت منه بحزمٍ أن يبقى، وبدا كأنَّه فهمَ ما قالته؛ لأنَّه عاد إلى الجلوسِ. لاحظَ توم أنَّ آغنيس نجحت في سحبِ طفليها؛ كيلا يسمعا المزيد عن التفاصيلِ التجديفيةِ، وغير اللائقةِ لهذه الحكاية، ولكن دون أن تتركَ توم وحده مع المرأة .

تابعت إيلين حكايتها.

في أحدِ الأيام أُصيبَ جواد رئيسةِ الديرِ عندما كانت على بُعدِ مسير بضعةِ أيامٍ عن الدير. كان دير كينغزبريدج قريباً منها، ولهذا استعارت رئيسةُ الديرِ

جواداً آخر منه، وعندما عادت إلى الديرِ طلبت من إيلين إعادةَ الجوادِ الذي استعارته إلى ديرِ كينغزبريدج، وإحضار الجوادِ المصابِ.

في إسطبلاتِ الدير قربَ كاتدرائية كينغزبريدج القديمةِ، والمتهالكةِ التقت إيلين بشابٍ له هيئةُ حيوانٍ مُعذَّبٍ، وامتلكَ وداعةَ جروٍ ويقظتهُ، إلَّا أنَّه بدا خائفاً، ومرعوباً كأنَّ كل المرح بداخلهِ ميتٌ. عندما تحدَّثت معه لم يفهم ما قالتهُ، فحاولت الحديث معهُ باللاتينية، ولكنه لم يكن راهباً، وأخيراً قالت شيئاً بالفرنسيةِ، وأضاءَ وجهه بهجةً ثمَّ أجابها بالفرنسيةِ أيضاً.

ومنذئذٍ لم تعد إيلين إلى الديرِ.

ومنذ ذلك اليوم عاشَت في الغابة في خيمةٍ من الأغصان والأوراق أولاً، ثمَّ في كهفٍ جافٍ لاحقاً. لم تكن قد نسيت كلَّ المهاراتِ الذكوريةِ التي تعلَّمتها في منزل والدِها، فهي ما زالت ماهرةً في صيدِ الغزلانِ، ونصبِ الفخاخِ للأرانب، وصيدِ البجعِ بالقوسِ، وتنظيف أحشاءِ الطرائدِ، وطبخِ اللحمِ، بل كانت تعلمُ كيفية تنظيف، ومعالجة الجلودِ، والفراءِ، وصنعَ الثيابِ. إضافة إلى الطرائدِ تناولت الفاكهة البرية، والمكسراتِ والخضارِ، أمَّا الحاجيات الأخرى، كالملح، والثياب الصوفيةِ، والفؤوس، والسكاكين الجديدةِ، فقد كانت تسرقها.

كانت الفترةُ التي ولدَ فيها جاك أسوأ فترةٍ عاشتها.

أرادَ توم أن يسألها عن مصيرِ الرجلِ الفرنسي، وإن كان والدَ جاك الحقيقي؟ ومتى توفي؟ والطريقة التي توفي بها؟ ولكنه وبالنظرِ إلى وجهها، عرفَ أنَّها لا تريدُ التحدثَ عن هذا الجزءِ من الحكايةِ، وبدت كشخصٍ لا يُمكن إجبارهُ على القيامِ بشيءٍ رغماً عنهُ، ولهذا لم يطرح عنيه هذه الأسئلةَ.

عندما توفي والدُها تفرَّقَ رجالهُ، ولم يعد لديها أيُّ أقارب، أو أصدقاءٍ في العالمِ. آنذاك كانت على وشك ولادةِ جاك، فأشعلت ناراً كبيرةً أمامَ الكهفِ، وبقيت تُغذيها طوالَ الليلِ. كان لديها طعامٌ وماءٌ، وبجانبها قوسٌ، وسهامٌ، وسكاكين لطردِ الذئاب، والكلابِ البريةِ، بل كان لديها عباءةٌ حمراء ثقيلة سرقتها من أسقفٍ، لتلُفَّ بها الطفلَ عندما يولد، ولكن وعلى الرغم من كلّ هذه الاستعدادات، لم تكن مستعدةً لألمِ وخوفِ عمليةِ الولادةِ التي، وطوالَ فترتها، اعتقدت أنَّها ستموت، إلَّا أنَّ الطفلَ ولدَ سليماً، وقوياً، ونجَت من الموتِ.

عاشت إيلين وجاك لأحدَ عشرَ عاماً حياةً بسيطة ومُقترةً. أمنَّت لهما الغابةُ كل ما احتاجاه، وحرصا على تخزين ما يكفي من التفاح، والمكسراتِ، ولحمِ الطرائدِ المملحِ، والمُدخنِ من أجل أشهرِ الشتاءِ، قالت إيلين إنَّها غالباً ما كانت تفكرُ أنه يمكنُ للناسِ أن يحيوا بهذهِ الطريقةِ، من دون ملكٍ، وسيدٍ، وأسقفٍ، ومأمورٍ، وأن يكونوا سعداء حقاً.

سألها توم عن الطريقةِ التي تتعامل بها مع بقيةِ الخارجين عن القانون كفارموند أوبنماوث، وما قد تفعله إن تسللوا ليلاً، وحاولوا اغتصابها. عندما فكرَ توم بهذا السؤالِ شعرَ بعضوهِ ينتصبُ رغمَ أنَّه لم يضاجع امرأة رغماً عنها قط، بما في ذلكَ زوجتهُ.

أخبرته إيلين وهي تحدقُ إليهِ بعينيها العسليتين اللامعتين أنَّ الخارجين عن القانونِ يهابونها، وعلمَ توم السببَ. كانوا يعتقدون أنَّها ساحرة، أمَّا المسافرون الذين يمرون في الغابةِ، الناس الذين يعلمون أنَّهم يستطيعون سرقةَ، واغتصاب، وقتل الخارجين عن القانونِ، والإفلات من العقوبةِ، اختبأت إيلين منهم، وسألها عن سببِ عدمِ اختبائها من توم، فأجابته لأنَّها رأت طفلةً مصابةً، وبحاجةٍ إلى المساعدةِ فهي أيضاً لديها طفلٌ.

أخبرته أنَّها علَّمت جاك كلَّ شيءٍ تعلَّمتهُ في منزلِ والدِها عن الأسلحةِ، والصيدِ، وفي ديرِ الراهباتِ كالقراءةِ، والكتابةِ، والموسيقى، والرسم، والعد، واللغة الفرنسية، واللاتينية بل أخبرته بقصصِ الإنجيلِ، وأخيراً وفي ليالي الشتاءِ الطويلةِ، نقلت لهُ إرثَ الرجلِ الفرنسي الذي كان يعرفُ، وأكثر من أيِّ شخصٍ آخر في العالم، ما لا يُحصى من قصصٍ، وأشعارٍ، وأغانٍ.

لم يكن بوسعِ توم التصديق أنَّ الفتى جاك قادرٌ على القراءةِ، والكتابةِ، فهو نفسهُ بالكادِ يكتبُ اسمه، وبضع كلماتٍ أخرى كبنسٍ، وياردات، وبوشل[1]، أمَّا آغنيس التي كانت ابنةَ كاهن فقد كانت تعرفُ أكثرَ منه، رغمَ أنَّها كانت تكتب ببطءٍ، وجهدٍ بينما طرفُ لسانها ينتأ من زاويةِ فمها وهي تفعل هذا. أمَّا بالنسبةِ إلى آلفريد فلم يكن يعرف كتابةَ كلمةٍ واحدةٍ، وبالكادِ يمكنهُ تمييز

1- وحدة قياس للحبوب (المترجمة)

اسمهِ عند رؤيتهِ، ومارثا أيضاً مثلهُ. تساءلَ في نفسهِ كيف يمكن لهذا الطفلِ الأحمقِ أن يكون مُتعلماً أكثر من جميعِ أفرادِ عائلةِ توم.

طلبَت إيلين من جاك أن يكتبَ شيئاً، فسوى الأخيرُ رقعةً من الترابِ، ونقشَ فوقها أحرفاً. عرفَ توم الكلمةَ الأولى، وكانت «آلفريد»، ولكنه لم يعرف بقيةَ الكلماتِ، وشعرَ بالغباءِ، ثمَّ أنقذته إيلين من حرجهِ، أن قرأت الجملةَ بصوتٍ عالٍ: «آلفريد أكبرُ من جاك»، وسارع الفتى إلى رسمِ شكلين أحدهما أكبرُ من الآخرِ، وعلى الرغم من بساطةِ الرسمِ فإنَّ أحد الشكلين كان عريضَ المنكبين وتعابيره تنمُّ عن البلادةِ، أمَّا الشكلُ الآخرُ، فكان أصغر ويبتسم. ذُهلَ توم الذي يملكُ موهبةً في الرسمِ من بساطةِ، وقوَّةِ التصوير في رسمةِ جاك على الأرضِ، ولكن الصبي بدا أحمق.

تكهَّنَت إيلين بما جالَ في ذهنِ توم، فاعترفت له أنَّها مؤخراً بدأت تدركُ هذا، وأنَّ جاك لا يستمتع أبداً بصحبةِ أطفالٍ آخرين، أو حتَّى كائناتٍ بشرية أخرى غير والدتهِ. لقد رُبيَّ كحيوانٍ بريٍّ، وعلى الرغم من كلِّ التعليم الذي تلقاه، فإنَّه لا يعرف كيف يتعاملُ مع الناسِ، ولهذا السبب لزمَ الصمتَ، واكتفى بالتحديقِ، وانتزاعِ الأشياءِ.

وبينما كانت تخبره بهذا بدت له ضعيفةً لأول مرّة، وتلاشى ذلك المظهر الذي يوحي بالاكتفاءِ الذاتي المنيعِ، ورآها توم كشخصٍ مهمومٍ ويائسٍ، وأنَّها ومن أجلِ مصلحةِ جاك يجب عليها أن تعود إلى المجتمعِ، ولكن لا تعلمُ سبيلاً. لو أنَّها كانت رجلاً، لأقنعت أحدَ السادةِ أن يمنحها مزرعةً، وقد تنجح إن كذبت، وقالت إنَّها عائدةٌ من الحجِّ إلى القدسِ، أو إلى سانتياغو دي كومبوستيلا[1]، مزارعات أرامل لديهن أبناء بالغون، لكن يقبل أيّ سيدٍ بمنحِ أرضٍ إلى امرأةٍ لديها طفلٌ صغيرٌ، ولن يستعين بها أحد، لا في المدنِ، ولا في الأريافِ، علاوةً على هذا لم يكن لديها مكانٌ تعيش فيه، ونادراً ما يُعرضُ على الأيدي العاملة غير الخبيرةِ مكانٌ للمبيت. لم يكن لديها هويةٌ.

1- مدينة في شمال غرب إسبانيا، ويُقال إنَّ تلميذ المسيح يعقوب الزيدي، أو المعروف بيعقوب الكبير، مدفون فيها. تعدُّ هذه المدينة من مناطقِ الحج الرئيسية التي يؤمها المسيحيون الكاثوليكيون. (المترجمة)

تعاطفَ معها توم، فقد قدَّمت لابنها كلَّ ما يمكنها تقديمهُ، ولكن هذا لم يكن كافياً، ولم يُفلح توم في التفكيرِ بحلٍ لمعضلتها. على الرغم من جمالِها، وسعةِ حيلتِها، وإمكاناتها الهائلةِ، ولكن يبدو أنَّه مقدرٌ لها أن تقضي بقيةَ حياتها متخفيةً في الغابةِ، برفقةِ ابنها الغريبِ الأطوارِ.

***

عندما عادت آغنيس ومارثا وآلفريد نظرَ توم إلى مارثا في قلقٍ غيرَ أنَّها بدت بخيرٍ، وكأنَّ أسوأ ما حصل لها هو غسلُ وجهها رُغماً عنها. ولوهلةٍ بدا توم مأخوذاً بمشاكل إيلين، ولكنه الآن تذكرَ مصابَ أنَّه عاطلٌ عن العمل، وسُرِقَ منهُ خنزيره. ومع حلولِ فترةِ ما بعد الظهر بدأ توم يجمعُ ما تبقى من ممتلكاته.

سألته إيلين: «إلى أين ستتجهون؟»

«إلى وينشستر»، أجابها توم: «في وينشستر قلعةٌ، وقصرٌ، والعديد من الأديرة، ولكن الأهمّ من ذلك هناك كاتدرائيةٌ».

«سالسبيري أقرب»، قالت إيلين، وتابعت: «في آخر زيارةٍ لي إليها، كانوا يعيدون بناءَ الكاتدرائيةِ، ويوسعونها».

شعرَ توم بقلبهِ يخفقُ فقد كان هذا ما يبحثُ عنه. إن كان بوسعهِ الحصولُ على عملٍ في مشروع بناءِ الكاتدرائيةِ، فقد يصبحُ كبيرَ البنائين في نهايةِ المطافِ، «ما الطريقُ الذي يجبُ أن أسلكهُ إلى سالسبيري؟» سألها في حماسٍ.

«عُد من الطريق الذي أتيت منه مسافةَ ثلاثة، أو أربعة أميال، هل تتذكر تقاطع الطريقِ عندما انعطفت يساراً؟»

«أجل، قربَ بركة مياه آسنةٍ».

«هذه هي، إن أخذتَ الطريقَ الأيمن، فسيقودك إلى سالسبيري».

جهزوا أنفسهم للانطلاقِ، ورغمَ أنَّ آغنيس لم تستلطف إيلين، فإنَّها نجحت في القول لها بكلِّ لباقةٍ: «شكراً لكِ على مساعدتي في العنايةِ بمارثا».

ابتسمت إيلين، وبدت حزينةً عندما غادروا.

ساروا على الطريقِ لبضعِ دقائق ثمَّ استدار توم إلى الوراءِ. كانت إيلين

ما تزال تراقبهم من مكانِها واقفةً على الطريقِ بساقين متباعدتين، وكفها فوق حاجبها لتحجبَ أشعة الشمسِ، وابنها الغريبُ الأطوارِ يقفُ قربها، لوحَ توم لها، ولوحت له بالمقابلِ.

«إنَّها امرأةٌ مثيرةٌ للاهتمام»، قال توم لآغنيس.

ولكن آغنيس لم تتفوه بكلمةٍ.

قال آلفريد: «ذلك الفتى غريبُ الأطوارِ».

ساروا تحت أشعةِ الشمسِ الخريفيةِ الغاربةِ، تساءلَ توم في نفسهِ كيف سيجدُ مدينةَ سالسبيري. بالطبع كان يحلم ببناءِ كاتدرائيةٍ جديدةٍ من الصفرِ، ولكن مثل هذا الأمرِ نادرُ الحدوثِ، فالشائع هو العثورُ على كاتدرائيةٍ قديمةٍ يتمُّ تجديدها، أو توسيعها، أو بناؤها بشكلٍ جزئي، ولكن بالنسبةِ إليه هذا أمرٌ جيدٌ أيضاً، طالما أنَّه في المستقبلِ سيتمكن من وضعِ تصاميمِهِ الخاصَّةِ.

«لمَ ضربني ذلك الرجل؟» سألت مارثا.

«لأنَّه أراد سرقةَ خنزيرنا»، أخبرتها آغنيس.

«كان عليه أن يشتري خنزيره الخاص»، قالت مارثا بسخطٍ كأنَّها أدركت للتو أنَّ الخارج عن القانون ارتكبَ غلطةً.

وفكرَ توم أنَّ معضلةَ إيلين كانت ستُحل لو أنَّها امتلكت حرفةً، فالبنَّاء، أو النجار، أو الحائكُ، أو الدباغُ لن يجدوا أنفسهم في وضعٍ كوضعها، فهو كبناءٍ يستطيع دوماً الذهاب إلى مدينةٍ والبحث عن عملٍ فيها، علاوةً على ذلك لم يكن هناك نساءٌ حِرفيات كثيرات.

«ما تحتاجهُ...»، قال توم بصوتٍ عالٍ، وتابع: «هو الحصولُ على زوجٍ».

وأجابته آغنيس بحزمٍ: «حسناً، لا يمكنها الحصولُ على زوجي».

– 3 –

كان اليوم الذي سُرقَ منهم الخنزير آخر أيام فصلِ الخريفِ المعتدلِ. قضوا الليلةَ في حظيرةٍ، وعندما خرجوا في صباحِ اليومِ التالي كانت السماء بلونٍ رصاصيٍ كسقفٍ، والرياح باردةً مع زخاتٍ من المطرِ، فأخرجوا عباءاتهم وثيابهم السميكة، وارتدوها مُحكمين ربطها تحت ذقونهم، وشدوا القلنسوات فوق رؤوسهم لحمايةِ وجوههم من المطرِ. انطلقوا بمزاجٍ كئيبٍ،

أربعة أشباحٍ كئيبةٍ تحتَ عاصفةٍ مطرية، يخوضون بقباقيبهم الخشبيةِ الطريقَ الموحلَ، والمليء بالبركِ المطريةِ.

تساءلَ توم في نفسه عن شكلِ كاتدرائية سالسبيري. نظرياً، تعدُّ الكاتدرائيةُ كنيسةً عاديةً إلَّا أنَّ الكاتدرائية تحوي على عرشِ الأسقفِ، أمَّا عملياً فقد كانت الكاتدرائياتُ أكبر من الكنائسِ العاديةِ، وأكثرَ فخامةً، وترفاً، وبناؤها أكثر إتقاناً، وفيما ندر تُبنى الكاتدرائيات بسردابٍ واحدٍ مع نوافذ؛ فغالبيتها تُبنى بثلاثةِ سراديب: سردابٌ طويلٌ يتفرعُ عنه سردابان أصغر في ما يشبه الرأس والكتفين، ويقع صحنُ الكاتدرائيةِ في منتصفِ الممرّاتِ الداخليةِ، التي تُستخدم من أجلِ المواكبِ المهيبةِ، وتتضمن مساحةً كافيةً لبناءِ مُصلَّيات جانبيةٍ صغيرةٍ، مُكرَّسة لقديسين محددين من أجل جذبِ المزيد من التبرعاتِ المُعتبرةِ. تعدُّ كلفة بناءِ الكاتدرائيات الأعلى في العالم، وتتفوق بذلكَ على كلفةِ بناءِ القصورِ والقلاع، ولهذا السببِ يجب أن تبنى بطريقةٍ تسمحُ بكسبِ المالِ منها.

كانت سالسبيري، وعلى عكسِ ما توقعه توم، قريبةً لأنهم وبحلولِ منتصفِ الصباح وصلوا إلى تلٍ ووجدوا الطريق أمامهم ينحدرُ بلطفٍ، ويتعرَّج طويلاً عبر الحقولِ المشبعةِ بماءِ المطر. على قمةٍ مستويةٍ لتلٍ كسفينة فوقَ بحيرةٍ رأوا مدينة سالسبيري المُحصَّنة. ورغمَ أنَّ المطرَ أخفى الكثيرَ من معالمِها فإنَّ توم رأى العديدَ من الأبراجِ، أربعةَ أو خمسةَ أبراجٍ ترتفعُ عالياً فوقَ أسوارِ المدينةِ. عندما وقعَ نظرهُ على الأبنيةِ شعرَ بمعنوياتهِ ترتفعُ مجدداً.

عصفت ريحٌ باردةٌ بقوةٍ عبرَ السهلِ شعروا معها بوجوههم، وأيديهم تتجمدُ خلالَ سيرهم على الطريق الذي ينتهي عندَ البوابةِ الشرقيةِ للمدينةِ. أسفلَ الهضبةِ تتقاطعُ أربعةُ طرقٍ وسطَ حفنةٍ من المنازلِ المتناثرةِ هنا وهناك خارجَ أسوارِ المدينةِ. انضمَّ إليهم مسافرون آخرون يسيرون بأكتافٍ محنيةٍ، ورؤوسٍ مطأطئةٍ يسعون وراءَ ملاذٍ من الطقسِ القاسي خلفَ أسوارِ المدينةِ.

أثناءَ صعودهم الطريقَ المنحدر الذي يُفضي إلى بوابةِ المدينةِ رأى توم بارقةَ أملٍ. شاهدَ عربةً خشبيةً بسيطةً مُحمّلَةً بالحجارةِ يجرها ثوران، وسائقها يقفُ وراءَها يدفعها بكتفيه مُساعداً الثورين على صعود التلِّ، ورأى

توم في الأمرِ فرصةً لعقدِ صداقةٍ معه، فاندفعَ هو، وآلفريد باتجاهِ العربةِ ووضعا كتفيهما خلفها، وساعدا السائقَ على دفعها.

تحرَّكت الدواليبُ الخشبيةُ الكبيرةُ بصخبٍ على جسرٍ خشبي فوقَ خندقٍ مائي كبير، ولكن جاف. كان الخندقُ الترابي كبيراً جداً، وفكر توم أن حفرَ الخندقِ ورمي الترابِ من فوقِ أسوارِ المدينةِ عملٌ تطلَّبَ جهدَ مئاتِ الرجال، وأعمال الحفرِ هذهِ أكبرُ بكثيرٍ من أعمالِ حفرِ أساساتِ كاتدرائيةٍ. نمَّ عن الجسرِ فوقَ الخندقِ صريرٌ بفعلِ وزنِ العربةِ، والثورين العملاقين اللذين كانا يسحبانها.

أخيراً عندما اقتربوا من البوابةِ، وباتَ الطريقُ مستوياً، تحرَّكت العربةُ بسهولةٍ أكبرَ، فاستقامَ السائقُ، وتوم وآلفريد معه أيضاً.

«أشكركَ جزيلَ الشكرِ»، قال السائقُ.

سأل توم: «لمَ الحجارةُ؟»

«من أجلِ الكاتدرائيةِ الجديدةِ».

«كاتدرائيةٌ جديدةٌ؟ سمعتُ أنَّهم يقومون بتوسيعِ القديمةِ، فحسب».

أومأ السائقُ برأسهِ وقال: «هذا ما قالوه منذُ عشرِ سنواتٍ، ولكن الجديدَ في هذهِ الكاتدرائيةِ بات أكثر من القديمِ فيها».

كانت هذهِ أخباراً طيبة بحقٍ، وسألَ توم: «ومن كبير البنَّائين هنا؟»

«جون من شافتسبيري، رغمَ أنَّ الأسقفَ روجر تدخَّلَ كثيراً في عمليةِ وضعِ التصاميمِ».

إنَّ مثلَ هذا التدخلِ شائعٌ، فنادراً ما يتركُ الأساقفةُ البنَّائين وحدهم ليقوموا بعملهم، ومن بين المعضلاتِ التي تواجه كبارَ البنَّائين، كبحُ جماحِ خيالِ رجالِ الدينِ، ووضع حدودٍ منطقيةٍ لمخيلتهم الخصبةِ، وبما أنَّ كبار البنَّائين مسؤولون عن توظيفِ العمالِ، هذا يعني أنَّ جون شافتسبيري المسؤول هنا.

أشارَ السائق إلى حقيبةِ توم، وسأله: «هل أنتَ بنَّاء؟»

«أجل، وأنا أبحثُ عن عملٍ».

«قد تجدهُ»، قال السائق بحياديةٍ، وتابع: «إن لم تجدهُ في الكاتدرائيةِ فقد تجدهُ في القلعةِ».

«ومن يحكمُ القلعةَ؟»

«روجر نفسه فهو الأسقف، وآمرُ القلعةِ معاً».

«لا بدَّ أن يكون كذلك»، فكرَ توم في نفسهِ فقد سمعَ عن روجر سالسبيري وكيف أنَّه متنفذٌ، ومُقرَّبٌ من الملكِ منذ زمنٍ طويلٍ جداً.

عبروا البوابةَ إلى داخلِ المدينةِ. كان المكانُ مُكتظّاً جداً بالأبنيةِ، والناسِ، والحيوانات إلى درجةِ الانفجارِ خارجَ السورِ الدائري، والوقوع في الخندقِ. احتشدت المنازل بعضها قربَ بعض كجمهورٍ يتدافع لرؤيةِ عمليةِ إعدام. استُغلَّت كلُّ مساحةٍ ممكنةٍ، ففي كل زقاقٍ بين منزلين بنى أحدهم منزلاً صغيراً من دونِ نوافذَ لأنَّ البابَ أخذَ الواجهة الأمامية بأكملها، وإن كانت المساحةُ أصغر من أن يُبنى فيها منزل نَصبوا كشكاً لبيعِ الجعةِ، أو الخبزِ، أو التفاحِ، وإن كانت المساحةُ أصغر من أن يُنصبَ فيها كشكٌ أُستُغلَّت لبناءِ إسطبلٍ، أو زريبةِ خنازير، أو مكبِّ روثٍ، أو مخزنٍ لبراميل المياهِ.

كانت المدينةُ صاخبةً أيضاً، ولم يخفف هطولُ المطرِ من صخبِ ورشاتِ الحرفيين، وأصواتِ الباعةِ المتجولين، وهم ينادون على بضائِعهم، ولا من أصواتِ الناسِ يحييون بعضهم بعضاً، ويساومون، ولا من صهيلِ الجياد، أو نباحِ الكلاب، أو قتالها.

قالت مارثا بصوتٍ حاولت أن يكون مسموعاً وسطَ هذهِ الضجةِ: «ما هذهِ الرائحة النتنة؟»

ابتسم توم فهي لم تدخل إلى مدينةٍ منذُ سنتين، وأجابها: «هذهِ رائحةُ الناسِ».

كانَ عرضُ الشارعِ أكبر بقليلٍ من عرضِ العرباتِ التي تجرها الثيران، ولكن سائقَ العربةِ لم يسمح للثوران بالتوقفِ مخافةَ ألا يتمكن من حثّهما على معاودةِ السيرِ مجدداً، ولذلك لم يكفَّ عن سَوطهما متجاهلاً كلَّ العقباتِ التي ظهرت أمامهما، تابع الثوران السيرَ على الطريقِ الموحلِ بين جموعِ الناسِ، وهما يدافعان بلا تمييز فارساً على جوادٍ حربي، وحارسَ غابةٍ يحملُ قوساً، وراهباً سميناً على جواد قصير القوائمِ، وجنوداً، ومتسولين، وربات منازل، وبائعات هوى.

استمرَّت العربةُ بالتقدمِ إلى أن أصبحت وراءَ راعٍ يصارعُ لجمعِ قطيعهِ

الصغير، وأدركَ توم أنَّ اليومَ يومُ السوقِ في المدينة. وعندما تقدَّمت العربةُ اندفع أحد الخرافِ عبرَ باب حانةٍ مفتوحٍ، وسرعان ما لحقت به بقيةُ الخراف إلى داخلِ الحانة تثغو في رعبٍ، وتقلبُ الطاولات والكراسي، وجرارَ الجعةِ.

كانت أرضُ الشارعِ أشبه ببحرٍ من الوحلِ والقمامةِ. حدَّقَ توم إلى المطرِ المنهمرِ على الأسطحِ، وإلى الميازيب التي يُفترضُ بها أن تتخلصَ من المطرِ، فلاحظَ أنَّ ماءَ المطرِ في هذا الجزء من المدينةِ، يتمُّ تصريفه إلى الشارعِ، وفكرَ أنَّه في حالِ هطولِ مطرٍ غزيرٍ سيحتاج المرءُ إلى قاربٍ لعبورِ الشارعِ.

وبينما كانوا يقتربون من القلعةِ الجاثمةِ على قمةِ الهضبةِ غدت الشوارعُ أكثرَ اتساعاً، ورأوا بيوتاً حجريةً. لاحظ، توم أن بيتاً، أو بيتين منها بحاجةٍ إلى بعضِ الإصلاحاتِ. هذهِ بيوتُ الحرفيين والتجار حيث يعيشون في الطابق العلوي ويعملون في ورشهم ومتاجرهم في الطابقِ الأرضي. وبعينِ الخبير التي يملكها توم لاحظَ من البضائعِ المعروضةِ أنَّه كان في القسمِ الثري من المدينةِ؛ فالجميع يشتري السكاكين، والقدور، ولكن الموسرين فقط من يشترون الأوشحةَ المطرَّزةَ، والأحزمةَ المزخرفةَ، والمشابك الفضيَّةَ.

عندما وصلَ السائقُ إلى القلعةِ انحرفَ بالعربةِ إلى اليمين فلحقَ به توم وعائلتُه. أخذَ الشارع منعطفاً حاداً عندَ حوافِ خندقِ القلعةِ، وعندَ عبورهم لبوابةٍ أخرى أصبحوا بعيدين عن هرجِ ومرجِ المدينةِ، ولكنهم دخلوا إلى جزءٍ آخر من المدينةِ بنوعٍ مختلفٍ من الهرجِ والمرجِ. كانوا في موقعِ بناءٍ كبيرٍ صاخبٍ، ولكن مُنَّظم.

باتوا الآن داخلَ سورِ موقعِ بناءِ الكاتدرائيةِ، الذي يشغلُ الجزءَ الشمالي الغربي بأكملِهِ من المدينةِ ذات الشكلِ الدائري. وقفَ توم لبرهةٍ كي يستوعب ما يراه أمامهُ، وبمجردِ رؤيةِ وسماعِ وشمِّ الروائحِ في المكانِ غمرتهُ بهجةٌ كبيرةٌ. عندما وصلوا خلفَ عربةِ الحجارةِ كانت هناك عربتان أخريان تغادران فارغتين، وعلى طولِ الجدرانِ الجانبيةِ المائلةِ للكنيسةِ، وجدَ توم البنائين ينحتون الحجارةَ بأزاميل، ومطارق خشبيةٍ كبيرةٍ في أشكالٍ ستستخدم كقواعد تماثيل، وتيجان، وأعمدة، وقواعد أعمدةٍ، ودعائِم،

وقناطر، ونوافذ، وعتبات نوافذ وأبراج وحواجز. في وسطِ الموقع، بعيداً عن الأبنيةِ الأخرى هناك ورشةُ حدادٍ، ومن البابِ المفتوحِ لاحَ وهجُ النارِ في الداخلِ، وترددَ في الساحةِ صوتُ الطرقِ على السندان، بينما الحداد يصنعُ أدوات جديدة لاستبدالِ ما بَلي من أدوات البنَّائين. بالنسبةِ إلى معظمِ الناسِ كان المشهدُ فوضوياً، ولكن توم نظرَ إليهِ كمن ينظرُ إلى آلة كبيرة معقدة يتوقُ بشدةٍ إلى التحكمِ بها. عرفَ ما يقوم بهِ كلُّ رجل، ورأى على الفورِ مرحلةَ العملِ التي وصلوها، وأنهم الآن يعملون على بناءِ الواجهةِ الشرقيةِ من الكاتدرائيةِ.

في القسمِ الشرقي من الموقعِ، وعلى ارتفاع خمسة وعشرين، أو ثلاثين قدماً، هناك صفٌ من السقالاتِ. كان البناؤون في الرواقِ ينتظرون توقفَ المطرِ، ولكن العمَّال استمروا بصعودِ السلالم حاملين الحجارة على أكتافهم، وعالياً في الجزءِ الخشبي من السقفِ رأى السبَّاكون، وهم يُثبتون الصفائحَ المعدنيةَ الرقيقةَ إلى الدعائمِ، وقنواتِ التصريفِ، والميازيبِ، كعناكب تدبُّ فوقَ شبكةٍ خشبيةٍ عملاقةٍ.

أدركَ توم بأسىً أنَّ عمليةَ البناءِ في نهايتها، وأنَّه إن حصلَ على عملٍ هناك، فلن يعملَ لأكثرَ من عامين، وهذهِ بالكاد مدةٌ كافيةٌ، ليأخذَ منصبَ كبيرِ البنائين، غيرَ أنَّه سيقبل بالعمل إن عُرِضَ عليهِ؛ لأنَّ الشتاء على الأبوابِ. لو أنَّ الخنزير ما زال بحوزتهم، لما قلقَ حيال نجاته هو عائلته خلالَ فصلِ الشتاءِ، ولكن من دون الخنزير كان لزاماً على توم أن يعملَ.

لحقوا بالعربةِ عبرَ الساحةِ إلى حيثُ تُكدس الحجارة. أحنى الثوران رأسيهما بامتنانٍ فوقَ ترعةٍ مائيةٍ، ونادى السائق على أحدِ البنَّائين المارين بالمكان سائلاً إياه: «أين كبيرُ البنَّائين؟»

«في القلعةِ»، أجابَ البنَّاء.

أومأ السائق، واستدارَ نحو توم ثمَّ قال: «أعتقدُ أنَّك ستجدهُ في قصرِ الأسقفِ».

«شكراً».

«شكراً لكَ أيضاً».

غادرَ توم الساحةَ مع آغنيس ولحق بهِ ولداه. عادوا إلى الشوارع المكتظةِ

والضيقةِ أمامَ القلعةِ. كان هناكَ خندقٌ جافٌ آخر ومتراس ترابي كبير آخر يطوقُ وسطَ القلعةِ. عبروا الجسرَ المتحرّكَ، وفي بيتِ الحارس على أحدِ جانبي البوابةِ جلسَ رجلٌ قصير، وبدينٌ في سترةٍ جلديةٍ على كرسي يراقبُ هطولَ المطرِ، كان يحملُ سيفاً. خاطبه توم قائلاً: «طابَ يومكَ، أدعى البنَّاء توم، وأرغبُ بمقابلةِ كبيرِ البنَّائين جون شافتسبيري».

«إنَّه برفقةِ الأسقفِ»، أجابَ الحارس بلامبالاةٍ.

دخلوا جميعاً إلى القلعةِ، التي وكأيِّ قلعة أخرى، مؤلفةً من مجموعةٍ من الأبنيةِ، يطوقها سورٌ ترابي. تصلُ مساحةُ الفناء إلى ما يقارب المئةَ ياردةٍ، وقبالةَ البوابةِ في الجانبِ الآخرِ قلعةٌ هائلةٌ – آخر المعاقل في حال هجومِ الأعداءِ –تستقرُّ فوقَ قمةٍ أعلى من سورِ القلعةِ من أجلِ استطلاع تحركات الأعداء، وإلى اليسار احتشدت مجموعةٌ من الأبنيةِ الخفيضةِ بعضها قريب من بعض، وكانت معظمها أبنيةً خشبية: إسطبلات طويلةٌ، ومطبخٌ، ومخبزٌ، والعديدُ من المخازنِ، وبئرٌ في المنتصف، وإلى اليمين منزلٌ حجريٌ كبيرٌ، شغلَ معظمَ النصفِ الشمالي من المكانِ وبدا كقصرٍ مبني على طرازِ الكاتدرائياتِ بمداخل، ونوافذ صغيرة ومدوّرة في الأعلى، ومؤلفاً من طابقين. كان المبنى حديثاً، فما زال البنَّاؤون يعملون عندَ أحدِ أطرافهِ، ويبدو أنهم يبنون برجاً. وعلى الرغمِ من المطر، فإنَّ أعداداً كبيرةً من الناسِ في الفناءِ تدخلُ، وتخرجُ، أو تهرعُ تحتَ المطرِ من مبنى إلى آخر. كانوا جنوداً، وكهنةً، وتجاراً، وعمالَ بناءٍ، وخدمَاً للقصرِ.

رأى توم مداخلاً كثيرةً للقصرِ، ورغمَ المطر كانت جميعها مفتوحة. لم يكن واثقاً مما عليه القيام بهِ الآن، لا بدَّ أنَّ كبير البنَّائين بصحبةِ الأسقفِ، وقد لا يكون من الحكمةِ مقاطعتهما، ولكن من جهةٍ أخرى لم يكن الأسقف ملكاً، وتوم رجلٌ حرّ، وبنَّاءٌ حقيقي، وليس مجرَّد قِنٍ أتى ليتذللَ من أجلِ شكوى. قررَ توم أن يتصرفَ بجرأةٍ، ولذلك تركَ آغنيس، ومارثا، وعبرَ مع آلفريد الفناءَ الموحلَ باتجاهِ القصر، ثمَّ دخلَ من أقربِ بابٍ.

وجدَ توم وآلفريد نفسيهما في مصلى صغيرٍ بسقفٍ مقنطرٍ، ونافذةٍ في نهايةِ المصلى فوق المذبحِ، قربَ البابِ جلسَ كاهنٌ إلى مكتبٍ عالٍ يكتبُ بسرعةٍ فوقَ رقٍ.

رفعَ الكاهن نظرَه.

قال توم على عجلٍ: «أين الرئيس جون؟»

«في حجرةِ الاجتماعاتِ»، قال الكاهن، وأشارَ برأسِهِ إلى باب في جدارٍ جانبي.

لم يطلب توم رؤيةَ الرئيسِ، فقد اكتشفَ أنَّه لو تصرفَ كأنَّ الرئيس يتوقع مقابلته، فهو لن يضيع الكثيرَ من الوقتِ في الانتظارِ، ولذلكَ عبرَ المصلى الصغير بخطوتين ودخلَ إلى قاعةِ الاجتماعاتِ.

في غرفةٍ صغيرةٍ مربعةٍ تضيئها شموعٌ كثيرةٌ، وأرضيتها مفروشةٌ بطبقةٍ رقيقةٍ من الرملِ الناعمِ، الذي كان ممهداً بشكلٍ جيدٍ باستخدامِ أداةٍ تشبه المسطرةَ، وجدَ توم رجلين. ألقى كلا الرجلين نظرةً سريعةً إلى توم، ثمَّ عادا بأنظارهما إلى الأرضيةِ الرمليةِ. وقفَ الأسقفُ الذي كان رجلاً عجوزاً تغطيه التجاعيد، وله عينان سوداوان، يرسمُ على الرملِ بعصا مدببةٍ، أمَّا كبيرُ البنّائين فقد كان في مئزرٍ جلدي يراقب الأسقف بأناةٍ، وعلى وجههِ تعبيرٌ يشي بالتشكيكِ.

انتظرَ توم في صمتٍ، وترقبٍ، فقد كان يجب أن يتركَ انطباعاً جيداً، وأن يكون لبقاً ولا يستجدي، وعليهِ أن يستعرضَ مهارتهُ، ومعرفته، ولكن دون أن يبدو كمتعجرفٍ، فجميعُ الرؤساءِ يريدون ممن يعملون تحت إمرتهِم أن يكونوا مطيعين وماهرين، وتوم يعرف هذا من خبرتهِ كرئيسِ بنَّائين سابقٍ.

كان الأسقف روجر يرسمُ مبنى بطابقين، ونوافذ كبيرةٍ على الجوانبِ الثلاثةِ للمبنى. كان بارعاً في الرسمِ، فقد رسمَ خطوطاً مستقيمةً، وزوايا صحيحةً، ورسمَ أيضاً تصميماً لمبنى مع منظرٍ جانبي، وبالنظرِ إلى الرسمِ رأى توم أنَّ بناءهُ مستحيلٌ.

أنهى الأسقف الرسم وقال: «إليكَ».

استدارَ جون نحو توم وسأله: «ما الأمر؟»

تظاهر توم كأنَّ جون سألهُ عن رأيه في الرسم وقال: «لا يمكنُ بناء نوافذ بهذا الحجمِ في سردابٍ».

نظرَ الأسقف إلى توم مغتاظاً، وقال: «إنَّها مكتبةٌ، وليست سرداباً».

«غير مهم لأنَّ النافذة ستنهارُ على أيّ حالٍ».
قال جون: «إنَّه على حقٍ».
«ولكن يجب أن تكون الغرفةُ مضاءةً من أجلِ الكتابةِ».
هزَّ جون كتفيه، واستدارَ نحو توم، ثمَّ قال: «ومن تكون أنتَ؟»
«أدعى توم وأنا بنَّاء».
«تكهنت بهذا، ولكن ما سببُ قدومكَ إلى هنا؟»
«أبحثُ عن عملٍ»، قال توم، وحبسَ أنفاسَهُ.
هزَّ جون رأسَه على الفور، وقال: «لا يمكنني الاستعانة بكَ».
شعرَ توم بقلبِهِ يغوصُ في صدرِهِ، وأراد أن يستديرَ على أعقابِهِ، ويغادرَ، ولكنَّه انتظرَ بأدبٍ سماعَ الأسباب.
«إننا نقوم بأعمالِ البناء هنا منذُ عشرِ سنواتٍ»، قال جون، وتابع: «ومعظمُ البنَّائين يسكنون في المدينةِ، ولدي الآن ما يفيضُ على حاجتي من البنَّائين».
علمَ توم أنَّ الوضعَ ميئوسٌ منه، ولكنه قال: «وماذا عن القصرِ؟»
«الأمرُ عينه»، قال جون وأضاف: «فأنا هنا أستخدمُ فائضَ البنائين لدي، ولولا العمل على بناءِ قلاعٍ أخرى للأسقف روجر، لكنت سرَّحت أولئكَ البنَّائين بحلولِ الآن».
أومأ توم برأسِهِ وقال بصوتٍ حيادي حاول معهُ ألا يبدو يائساً: «هل سمعتَ عن أعمالِ بناءٍ في أمكنةٍ أخرى؟»
«بدؤوا أعمالَ بناءٍ في دير شافتسبري مع بدايةِ هذا العام، وربما مازالوا يقومون بالبناءِ. لا تبعد شافتسبري عن هنا سوى مسير يومٍ واحدٍ».
«شكراً»، قال توم، واستدارَ ليغادر.
«أنا آسفٌ»، قال جون خلفه وتابع: «أنتَ تبدو كرجلٍ طيبٍ».
خرجَ توم دون أن يجيبَ، فقد كان يشعرُ بالخذلان لأنَّه سمحَ لآمالِهِ أن تكبر قبلَ أوانها. لم يكن ما حدث غريباً، ولكنه كان متحمساً جداً للعملِ مجدداً على بناءِ كاتدرائيةٍ. ها هو الآن قد يضطر إلى العملِ على سورِ مدينةٍ مملٍ، أو بناءِ منزلٍ بشعٍ لصائغ فضَّةٍ.
شدَّ كتفيه إلى الوراءِ في طريقِهِ خارجاً من القلعةِ عبرَ الفناءِ حيث انتظرته

آغنيس ومارثا. لم يرغب بإظهارِ خيبةِ أملهِ أمامَ زوجتهِ، التي يحاول على الدوامِ إعطاءها الانطباعَ أنَّ كلَّ شيءٍ على ما يرام، وأنَّه مسيطرٌ على الأمورِ، وأنَّه ما من عواقب وخيمةٍ لعدمِ إيجادهِ عملاً، بل إنَّه حتماً سيجدُ عملاً في المدينةِ التاليةِ أو التي بعدَها. علِمَ أنَّه لو أظهرَ أيَّ قلقٍ أو ضيقٍ، فإنَّ آغنيس ستحثه على إيجادِ مكانٍ ليستقروا فيه، وهو لم يكن راغباً بهذا ما لم يكن هذا المكان مدينةً تُبنى فيها كاتدرائيةٌ.

«لا يوجد عملٌ لي»، قال لآغنيس ثمَّ أضاف: «فلنتابع طريقنا».

بدت آغنيس كئيبةً وقالت: «من اعتقدَ أنَّه بوجودِ كاتدرائيةٍ، وقصرٍ قيد الإنشاءِ، لن يكون هناك مكانٌ لبنَّاءٍ آخر».

«إن أعمالَ البناءِ في الموقعين على وشكِ الانتهاءِ»، شرحَ لها توم، «لذلك لديهم فائضٌ من البنَّائين».

عبرَت العائلةُ الجسر المعلَّقَ عائدةً إلى الشوارعِ المزدحمة للمدينةِ. كانوا قد دخلوا المدينة من البوابةِ الشرقية، وسيغادرونها الآن من البوابةِ الغربيةِ؛ لأنَّها تُفضي إلى طريقِ شافتسبري. انعطفَ توم يميناً، وقادهم عبرَ جزءٍ من المدينة لم يروه عندما دخلوها.

وقفَ توم أمامَ منزلٍ حجري بدا في حاجةٍ ماسةٍ إلى الإصلاح. كان ملاطُ البناءِ رقيقاً جداً، وقد بدأ الآن بالتداعي، وتغلغلَ الصقيعُ عبرَ الفجواتِ، وتسببَ بتصدعِ بعضِ الحجارةِ، وإن تُركَ المبنى دونَ إصلاحٍ لشتاءٍ آخر، فسيتداعى بشكلٍ أسوأ مما هو الآن. قررَ توم أن يطرحَ هذهِ الملاحظةَ على صاحبِ المنزلِ.

كانَ لمدخلِ الطابق الأرضي قنطرةً واسعةً، والباب الخشبي مفتوحاً، وفي المدخل جلسَ حرفي بمطرقةٍ في يدهِ اليمنى، ومخرزٍ، وأداةٍ معدنيةٍ صغيرةٍ لها نهاية حادة في يدهِ اليسرى. كان ينقشُ تصميماً مُعقداً على سرجٍ خشبي، وضعهُ أمامه على مقعدٍ. في الخلفِ رأى توم مخازنَ الخشبِ، والجلدِ، وصبياً يكنسُ النشارة المتناثرة بمكنسةٍ.

قال توم: «طابَ يومكَ أيّها المعلم».

رفعَ صانعُ السروجِ نظرَهُ، وبعد أن رمقَ توم بنظرةٍ فاحصةَ أدركَ أنَّ الأخيرَ قادرٌ على صُنعِ سرجٍ لنفسهِ، ولهذا أحنى رأسَهُ سريعاً.

«أنا بنَّاء»، تابع توم: «وأرى أنَّك بحاجةٍ إلى خدماتي».

«ولم قد أحتاجها».

«إن ملاطَ منزلك يتداعى، والحجارة متصدعة، وهو لن يصمدَ شتاءً آخر».

هزَّ صانع السروجِ رأسه، وقال: «المدينةُ مليئةٌ بالبنَّائين، فلمَ قد أستعين بغريبٍ؟»

«حسناً»، قال توم، واستدارَ ثمَّ أضاف: «فليرعك الرَّبُّ».

«آمل هذا»، أجابَ صانعُ السروجِ.

«يا لهُ من رجلٍ جلفٍ»، دمدمت آغنيس وهم يخرجون.

قادَهم الطريقُ إلى ساحةِ السوقِ التي تصلُ مساحتها إلى نصف فدان، وكانت أشبه ببحرٍ من الوحلِ وفلاحين قادمين من القرى المجاورةِ لتبادلِ فائضِ منتجاتهم الشحيحِ من لحم، وحليبٍ، وبيضٍ، وذرة مقابلَ أشياء يحتاجونها، أو لا يستطيعون صنعها بأنفسهم، كالقدور، ونصالِ المحاريث، والحبال، والملح. عادةً ما تكون الأسواقُ نابضةً بالحياةِ أكثر مما هي صاخبةً، ويسودها جو من المساوماتِ الوديَّةِ، ومظاهرِ التنافسِ بين أصحابِ الأكشاكِ الملاصقةِ بعضها لبعض، والكعكِ الرخيصِ للأطفالِ، وأحياناً يمرُّ عازفٌ، أو مجموعةٌ من البهلواناتِ، والكثيرُ من العاهرات وربما جندي كسيح يحملُ حكايا عن صحارى شرقية، وقبائل عربية همجية. في كثيرٍ من الأحايين يستسلمُ من عقدوا صفقاتٍ جيدةٍ لإغراءِ الاحتفال، ويُنفقون جلَّ أرباحهم على جعةٍ قويةٍ، بينما يخسرُ آخرون أموالهم في لعبةِ النرد. عندَ منتصفِ النهارِ يخيمُ على السوقِ جو من التوتر يُفضي دوماً إلى شجاراتٍ، ولكن الآن وفي هذا الصباحِ الماطرِ، وبعد أن يباع أو يخزن محصولُ العامِ تتراجع حركة السوقِ، والفلاحون المُشبعون بماءِ المطرِ يعقدونَ صفقاتٍ هادئة مع باعةِ الأكشاكِ المرتجفين برداً، والجميع يتطلعُ قدماً إلى العودةِ إلى المنزلِ، والجلوس أمامَ نارٍ قويةٍ.

شقَّت عائلةُ توم طريقها عبرَ الحشودِ العبوسةِ متجاهلةً المُداهنات الفاترة لباعةِ النقانقِ، ومن يشحذون السكاكين، وعندما اقتربوا من نهايةِ السوقِ رأى توم خنزيرَهُ.

تفاجأ في البداية، ولم يصدق عينيه، ثمَّ همست له آغنيس: «توم! انظر!» وعلمَ أنَّها تعرَّفت على الخنزير أيضاً.

لم يكن هناك أدنى شكٍ في ما رأياه. يعرفُ توم ذلك الخنزير كما يعرفُ ابنهُ آلفريد، وابنته مارثا. كان الخنزيرُ بينَ يدين خبيرتين لرجلٍ ببشرةٍ موردةٍ، وبطنٍ مدورٍ، رجل يبدو عليهِ كأنَّه يتناولُ الكثيرَ من اللحومِ، كان جزاراً دون أدنى شكٍ. وقفَ كلٌّ من توم، وآغنيس يُحدقان إلى الرجلِ، وبما أنهما كانا يقفان في طريقهِ، لم يكن هناك من مجال ألا يلاحظهما.

«حسناً؟» قال الرجلُ الذي أربكته النظرات، ونفد صبره بسببها.

وهنا مارثا كسرَت الصمت قائلةً بحماسةٍ: «هذا خنزيرنا!»

«إنَّه كذلك»، قال توم وهو ينظرُ بشكلٍ مباشرٍ إلى الجزارِ.

ولوهلةٍ اكتسى وجهُ الرجل بنظرةٍ ماكرةٍ، فأدركَ توم أنَّه يعرفُ أن الخنزيرَ مسروقٌ، ولكنه قال: «لقد دفعتُ ثمنه خمسينَ بنساً، ولذلك فهو خنزيري».

«أيّاً يكن الشخص الذي دفعتَ له هذا المبلغ فهو ليس صاحبَ هذا الخنزير، ولذلك حصلتَ عليه بهذا السعرِ الرخيصِ، ولكن ممن اشتريته؟»

«من فلاحٍ».

«هل تعرفهُ؟»

«لا. أنا جزارُ القلعةِ، ولا يمكنني الطلب من كل مزارعٍ يبيعني خنزيراً، أو بقرةً أن يجلبَ معه اثني عشر رجلاً ليُقسموا أنَّه يملكُ الحقَّ ببيعِ حيوانهِ».

التفتَ الرجلُ جانباً كأنَّه يهمُّ بالمغادرةِ، ولكن توم أمسكَهُ من ذراعهِ، وأوقفه، ولوهلةٍ بدا الرجلُ غاضباً، ولكنه أدركَ أنَّه إن دخلَ في شجارٍ؛ فإن عليهِ إفلات الخنزير وعندئذٍ ستتمكن عائلةُ توم من الإمساكِ بهِ، وسيتغير توازن القوى، وسيكون على الجزارِ إثباتُ أحقيته بملكية الخنزير، ولهذا كبحَ نفسه قائلاً: «إن أردت أن توجهَ اتهاماً لي، فلتذهب إلى المأمورِ».

فكَّر توم بالأمرِ سريعاً، ولكنَّه تخلى عن الفكرةِ، فهو لا يملك أيَّ دليلٍ، ولذلك قال: «كيف بدا الرجلُ الذي باعكَ خنزيري؟»

علَت وجهَ الجزارِ نظرةٌ مرواغةٌ، وقال: «كأيِّ شخصٍ آخر».

«هل كان يُغطي فمَه؟»

«دعني أفكر. أجل، كان يُغطي فمه».

«إنَّه خارجٌ عن القانونِ، ووجهه مشوه لذلك غطّاه»، قال توم بمرارةٍ وتابع: «أفترضُ أنَّك لم تفكر بهذا».

«كان المطرُ غزيراً!» احتجّ الجزار قائلاً. «ولذلك كان الجميعُ مُلثمين».

«أخبرني، هل مضى على رحيلهِ وقتٌ طويلٌ؟»

«رحلَ للتو».

«وإلى أين توجه؟»

«إلى الحانةِ كما أعتقد».

«ليُنفق مالي»، قال توم بتقززٍ ثمَّ أضاف: «هيا، فلتغرب من هنا. إن سُرقتَ في يومٍ من الأيامِ ستتمنى وقتها من الذي اشترى ما سُرقَ منكَ ألا يعقدَ صفقةً من دونِ طرحِ أسئلةٍ أولاً».

بدا الجزار غاضباً، وأبدى تردداً كأنَّه أراد أن يرد، ولكنه فكرَ بالأمرِ جيداً، وقررَ المغادرةَ.

قالت آغنيس: «لمَ تركتهُ؟»

«لأنَّه معروفٌ هنا وأنا غريب»، قال توم: «إن تشاجرتُ معه سيُلقى اللوم علي، ولأنَّ الخنزيرَ لا يملكُ بطاقةً على أذنهِ تحملُ اسمي، فمن سيعرفُ إن كان الخنزيرُ لي أم له؟»

«ولكنه كل ما نملك...»

«قد نتمكنُ من استعادةِ مالِ الخنزيرِ»، قال توم، وتابع: «اصمتي الآن ودعيني أفكر». أثارت المواجهةُ مع الجزارِ غضبه، وفرَّغَ عن هذا الغضبِ بالتحدثِ بقسوةٍ إلى آغنيس، «في مكانٍ ما في هذهِ المدينة هناك رجلٌ من دون شفتين، وبخمسين بنساً فضياً في جيبهِ. كل ما علينا فعلهُ هو إيجادهُ، وأخذُ المالِ منه».

«حسناً»، قالت آغنيس بحزمٍ.

«فلتعودي من حيث أتينا. توجهي إلى ساحةِ الكاتدرائيةِ، وأنا سأتابع الطريقَ وأعودُ إلى الكاتدرائيةِ من الجهةِ الأخرى، ثمَّ سنأخذ الشارع الذي يليه. إن لم نجده في أحدِ الشوارعِ، فهو حتماً سيكون في حانةٍ. عندما ترينه ابقي قربهُ، وأرسلي مارثا لإحضاري، سآخذ آلفريد معي. حاولي ألا تلفتي نظرَهُ إليك، وتثيري ريبتهُ».

«لا تقلق»، قالت آغنيس بتجهمٍ، «أريدُ ذلكَ المال لإطعامِ أطفالي».

لمسَ توم ذراعها وابتسم: «أنتِ قويةٌ كلبوةٍ يا آغنيس».

ولوهلةٍ نظرَت في عينيه، وعلى حين غرَّة وقفت على رؤسِ أصابعها، وقبَّلته قبلةً سريعةً، ولكن قويةً، ثمَّ استدارت، وقطعت الساحةَ بصحبةِ مارثا. راقبها توم تغيبُ عن أنظارهِ، وشعرَ بالقلقِ عليها رغمَ الشجاعةِ التي أبدتها ثمَّ أخذَ مع آلفريد الاتجاه المعاكسِ.

يبدو أنَّ اللص ظنَّ أنَّه في أمانٍ تامٍ؛ لأنَّه عندما سرقَ الخنزير اعتقدَ أنَّ توم متوجه إلى وينشستر.

ذهبَ اللص في الاتجاهِ المعاكس -إلى سالسبيري- لبيعِ الخنزير، ولكن المرأة إيلين أخبرت توم عن إعادةِ بناءِ كاتدرائية سالسبيري، ولذلك غيَّرَ مخططاتهِ، والتقيا مصادفةً. على أيِّ حالٍ اعتقدَ ذلكَ الرجلُ أنَّه لن يرى توم مجدداً، ومنحَ هذا توم فرصةَ اللحاق بهِ دون علمهِ.

سارَ توم ببطءٍ عبرَ الشارعِ الموحلِ، وحدَّقَ إلى الأبوابِ المفتوحةِ، وهو يحاولُ أن يتصرفَ بشكلٍ طبيعي. لم يرغب بإثارة الشكوك؛ لأنَّ هذا الجزء قد ينتهي بشكلٍ عنيفٍ، ولم يرغب أن يتذكر سكانُ المدينةِ بنَّاءً طويلَ القامةِ يفتشُ في أرجائها. كانت معظمُ المنازلِ أكواخاً عاديةً من الخشبِ، والطينِ، وسقفٍ من القشِّ، وموقدٍ في المنتصف، وبعض الأثاثِ المصنوعِ منزلياً. إن كان هناك برميلٌ، وبعضُ المقاعدِ يعني أن المكانَ حانةٌ، وإن كان هناكَ سريرٌ، وستارةٌ فاصلةٌ فهو منزل دعارةٍ، وإن كانَ هناك حشدٌ صاخبٌ حول طاولةٍ، فهذا يعني أنّه مكان للعبِ النردِ.

كشفَت امرأةٌ بشفتين مُلطختين باللونِ الأحمر ثدييها لتوم فهزَّ رأسه وتجاوزها عجلٍ. أثارته سِرَّاً فكرة ممارسةِ الجنسِ مع امرأةٍ غريبةٍ في وضحِ النهارِ، والدفع لها، ولكنَّه لم يجرب هذا في حياته قط.

فكرَ مجدداً بإيلين، المرأة الخارجة عن القانونِ، وكيفَ أثارتهُ بطريقةٍ ما، لكن وعلى الرغم من أنَّها كانت مثيرةً بشكلٍ طاغٍ، فإنَّ عينيها الغائرتين، والحادتين مرعبتان. شعرَ توم بالضيقِ من دعوةِ العاهرةِ، ولكن هذا الضيق لم يدم سوى لوهلةٍ، أمَّا سحرُ إيلين فبقي، وانتابتهُ رغبةٌ حمقاء مفاجئةٌ بالركضِ إلى الغابةِ والبحثِ عنها ثمّ إلقاءِ نفسه فوقها.

وصلَ إلى ساحةِ الكاتدرائيةِ، ولكن لم يجد أثراً للخارجِ عن القانونِ.

نظرَ إلى السباكين، وهم يُثبتون الألواحَ الرفيعةَ إلى السطحِ الخشبي ذي الشكلِ المُثلثي فوقَ صحنِ الكاتدرائية. لم يكونوا قد بدأوا بعد بتغطيةِ السطوحِ المائلةِ فوقَ الممرّاتِ الجانبية للكنيسةِ، ولذلك ما زالَ بالإمكان رؤيةُ أنصافِ الأقواسِ الداعمةِ التي تصلُ الحافةَ الخارجيةَ للممرِّ بجدارِ الصحنِ الأساسي، وتدعمُ النصفَ العلوي للكنيسةِ. أشارَ توم إليها، وشرحَ لآلفريد: «من دونِ هذهِ الدعامات سيميلُ جدارُ الصحنِ إلى الداخلِ بسببِ وزنِ القناطرِ الحجرية. انظر إلى الطريقةِ التي تتوزعُ فيها أنصافُ الأقواسِ مع الكتائف في جدارِ الممرّ، إنها متوازيةٌ أيضاً مع الأعمدةِ الداخليةِ لممرِ الصحنِ المقنطرِ، ويتوازى صفُّ نوافذِ الممرّ مع أقواسهِ المقنطرةِ، وهذا يعني أنَّ القوي يتوازى مع القوي والضعيف مع الضعيف»، ولكن آلفريد بدا حائراً وممتعضاً، فتنهد توم في أسى.

رأى توم آغنيس قادمةً من الجهةِ المقابلةِ، وعادَ إلى التفكير بمشكلتهِ. كانت قلنسوةُ آغنيس تُخفي وجهها، ولكنَّهُ ميَّزها من ذقنها الناتئ، ومشيتها الواثقةِ. ابتعدَ عمالٌ ضخام عن طريقها، وفكرَ توم في تجهمٍ أنَّ آغنيس لو قابلت الخارجَ عن القانونِ، وتطورَ الأمرُ إلى عراكٍ، فإنَّ قتالها معه سيكون متكافئاً.

«هل رأيته؟» قالت آغنيس.

«لا، ويبدو أنَّك لم تريهِ أيضاً»، قال توم، وهو يأملُ ألَّا يكون الرجلُ قد غادرَ المدينةَ. بالطبعِ لن يعودَ الرجل أدراجهُ من دونِ إنفاقِ القليلِ من المالِ، فلا فائدة من المالِ في الغابةِ».

وخطرت الفكرةُ ذاتها لآغنيس لذلك قالت: «لا بدَّ أن يكون في مكان ما، فلنتابع البحثَ».

«سنعودُ ونجوبُ شوارع أخرى ثمَّ نلتقي مجدداً في ساحةِ السوقِ».

عادَ توم وآلفريد أدراجهما عبرَ ساحةِ الكاتدرائيةِ، وخرجا من البوابةِ. كانت عباءتاهما الآن تقطران ماءً من المطرِ، وانشغلَ توم لوهلةٍ بالتفكيرِ في إبريقٍ من الجعةِ، وصحنٍ من حساءِ اللحمِ البقري قربَ موقدٍ في حانةٍ، ثمَّ تذكرَ كلَّ العمل القاسي الذي بذلهُ لشراءِ الخنزيرِ، وكيفَ لوحَ الرجلُ المشوه الشفتين بهراوتهِ فوقَ رأس مارثا البريئة، واعتملَ الغضبُ في أحشائهِ.

كان البحثُ بشكلٍ ممنهجٍ في شوارع عشوائية أمراً صعباً. تجولوا هنا، وهناك حيثُ بنى الناسُ منازلَهم، وكان هناك الكثيرُ من المنعطفاتِ الحادةِ، والأزقةِ المسدودةِ. كان الطريقُ المستقيمُ الوحيدُ هو الطريق الذي يمرُّ من البوابةِ الشرقيةِ، وحتَّى جسرِ القلعةِ المتحركِ. عندَ مسحِ المكانِ لأولِّ مرَّةٍ أبقى توم نظرَهُ على سورِ القلعةِ، ثمَّ بدأ يتفحص الضواحي منتقلاً بنظرهِ بين سورِ المدينةِ، وداخلها حيثُ يقعُ الحيُّ الفقيرُ من المدينة، بأبنيتهِ المتداعيةِ، وحاناتهِ الصاخبةِ، وعاهراتِهِ العجائزِ، ولأنَّ طرفَ المدينةِ أسفلَ التلِّ لذلك كان المطرُ يسحبُ مخلفات الأحياءِ الأكثر ثراءً إلى الشوارع السفليةِ لتستقرَ أسفلَ الأسوارِ. بدا لتوم أنَّ قدراً مشابهاً حدثَ للناس هناك، فقد كانت المنطقةُ موبوءةً بالعجزةِ، والمتسولين، والأطفالِ الجائعين، والنساءِ المُعنفاتِ، والثمالى الضعفاءِ.

ولكن لم يكن هناكَ أثرٌ للرجلِ المشوه الشفتين.

لمحَ توم مرتين رجلاً له البنيةُ والهيئةُ العامةُ للخارجِ عن القانون، ولكن بعدَ النظرِ جيداً اكتشفَ أنَّ الوجه طبيعي في كلتا المرَّتين.

أنهى توم بحثَهُ في ساحةِ السوقِ حيث وجدَ آغنيس بانتظارهِ بفارغِ الصبرِ، بدت متوترةً، وعيناها تبرقان.

«لقد وجدته»، قالت بصوتٍ كالفحيح.

شعرَ توم بدفقِ حماسٍ ممزوجٍ بخوفٍ وسألها: «أين هو؟»

«لقد توجه إلى كشكِ طعامٍ قربَ البوابةِ الشرقيةِ».

«فلتقوديني إلى هناك».

التفوا حولَ القلعةِ باتجاهِ الجسرِ المتحرك، وتوجهوا بشكلٍ مباشرٍ إلى البوابةِ الشرقية، ثمَّ انعطفوا، ودخلوا متاهةً من الأزقةِ تحتَ الأسوارِ، وهناك رأى توم كشكَ طعامٍ. لم يكن منزلاً حتَّى بل مجردَ سقفٍ مائلٍ على أربع دعائم قبالةَ سورِ المدينةِ، مع نارٍ قويةٍ في الخلف يشوى فوقها خروفٌ على سيخٍ وإلى جانبهِ قدرٌ يغلي، كان الوقت الآن ظُهراً، ولذلك اكتظَّ المكانُ بالناسِ، وكان معظمهم من الرجالِ. أثارت رائحةُ اللحمِ المشوي جوعَ توم وهو يتفحص الحشدَ بنظرةٍ قلقةٍ من أن يكون الخارجُ عن القانون قد غادر خلالَ الوقتِ القليل الذي استغرقه ليصلَ إلى هنا. لمحَ توم الرجلَ على

الفورِ. وجده جالساً على كرسي بعيداً قليلاً عن الحشدِ يأكل بالملعقةِ من وعاء يحوي على يخنةٍ، ويشدّ الوشاح إلى وجهه لإخفاءِ فمِهِ.

أشاحَ توم بنظرهِ بعيداً حتَّى لا يراهُ الرجل، وباتَ عليهِ الآن أن يقررَ كيفَ سيعالجُ هذا الموقف. اعتملَ في داخلِهِ غضبٌ كافٍ لطرحِ الرجلِ أرضاً، وأخذِ محفظتِهِ، ولكنَّ الحشدَ لن يسمح له بالهربِ. كان يستطيع شرحَ موقفه للمارة، وللمأمورِ أيضاً، ويقول إنَّ تصرفهُ قانوني لأنَّ اللصَّ خارجٌ عن القانون، وهذا يعني أنَّه لن يجدَ أحداً يشهدُ لمصلحتِهِ، بينما توم الذي يبدو كرجلٍ محترم وبنَّاء سيجدُ من يشهدُ معه إلا أنَّ تحقيق كلّ ذلكِ سيأخذ وقتاً، وقد يستمر لأسابيع إن كان المأمورُ مسافراً إلى مقاطعةٍ أخرى في البلادِ، علاوةً على هذا، إن افتعلَ شجاراً فقد يواجه تهمةَ تعكيرِ صفو سلامِ الملكِ.

لذلكَ كان الحلُّ الأفضلُ الانفرادَ باللصِّ.

لن يبيت الرجلُ الليلةَ في المدينةِ، لأنَّه لا يملك مكاناً فيها، ولا يمكنهُ الحصول على مكانٍ من دونِ أن يثبتَ بطريقةٍ ما أنَّه رجلٌ محترمٌ، ولذلك سيتعينُ عليهِ المغادرة قبلَ أن تُقفلَ بوابات المدينةِ عندَ هبوطِ الظلامِ.

لم يكن للمدينةِ سوى بوابتين.

«على الأرجحِ سيعودُ من الطريقِ الذي أتى منه»، قال توم لآغنيس، وتابع: «سأنتظرُ خارجَ البوابةِ الشرقيةِ، وأدع آلفريد يراقبُ البوابة الغربية، فلتبقي في المدينةِ ولتراقبي تحركات اللص. فلتبقَ مارثا برفقتكِ، ولا تدعي اللص يراها، إن أردتِ إخطاري أنا، أو آلفريد بشيءٍ أرسلي مارثا».

«حسناً»، قالت آغنيس بإيجازٍ.

قال آلفريد وقد بدا مُتحمساً: «ما الذي يجبُ علي فعله إن صادفته؟»

«لا شيء»، قال توم بحزمٍ، وأضاف: «راقب الطريقَ الذي سيأخذه الرجل، وانتظر حتَّى تخطرني مارثا بذلكَ، ثمَّ سننقض عليهِ معاً». بدا آلفريد مُحبطاً فقال توم: «افعل ما أطلبهُ منكَ، لا أريد خسارةَ ابني، وخنزيري».

أومأ آلفريد برأسهِ على مضضٍ.

«لنفترق إذاً قبل أن يلاحظنا الرجلُ مجتمعين، ونتآمر. هيا».

غادرَ توم على الفور دون أن ينظر خلفه، فقد كان يستطيعُ الاعتماد

على آغنيس في تنفيذ الخطةِ. هرعَ إلى البوابةِ الشرقيةِ، وغادرَ المدينة عبرَ الجسرِ الخشبي المتداعي الذي مرَّت عليه العربةُ، والثوران هذا الصباح. امتدَّ الطريقُ أمامهُ شرقاً إلى وينشستر كسجادةٍ طويلةٍ مفتوحةٍ فوق الهضابِ والوديان، إلى يساره امتدَّ طريق بورتوي الذي سلكهُ توم، واللص إلى سالسبيري. التفَّ الطريقُ فوقَ الهضبةِ، واختفى. لا بدَّ أنَّ اللصَّ سيأخذُ طريقَ بورتوي.

هبطَ توم هضبةً بين مجموعةٍ من المنازلِ، وتقاطعاتِ طُرقٍ ثمَّ استدار باتجاهِ طريق بورتوي. أرادَ أن يُخفي نفسه، ولذلك استطلعَ الطريقَ بحثاً عن نقطةٍ مناسبةٍ للاختباء. بحثَ لمسافةٍ مئتي ياردةٍ، دون أن يوفقَ إلى إيجادِ نقطةِ اختباءٍ جيدةٍ، نظرَ إلى الوراء، وأدركَ أنَّه ابتعدَ كثيراً فلم يعد قادراً على رؤيةِ وجوهِ الناسِ عندَ التقاطعات، وهذا يعني أنَّه لن يميزَ الرجلَ المشوه الشفتين إن أتى على طريق وينشستر. تفحصَ توم المكان مجدداً ورأى أن الطريقَ على كلا الجانبين محاطٌ بالخنادق، وستؤمن له تغطيةً جيدةً، لو أنَّ الطقسَ جافٌ، ولكنها كانت تمطرُ اليوم. كانت الأرضُ خلفَ كلَ خندق عاليةً كرابيةٍ، وفي الحقول جنوبَ الطريقِ كانت هناك بضعُ بقراتٍ ترعى بقايا الحصادِ. لاحظَ توم أنَّ إحداها مستلقية على حافةٍ مرتفعةٍ من الحقلِ تُطلُّ على الطريق وتخفيها الرابية جزئياً. تنهدَ توم، وعادَ أدراجه ثمَّ قفزَ فوقَ الخندقِ، وركلَ البقرةَ فنهضت وابتعدت. استلقى على الأرضِ الدافئةِ، والجافةِ حيث كانت البقرةُ جاثمةً، وسحبَ قلنسوتهُ فوقَ وجهِهِ، ثمَّ جلسَ منتظراً، ونادماً على عدمِ شرائهِ بعض الخبزِ قبلَ مغادرةِ المدينةِ.

كان يشعرُ بالقلقِ، وبشيءٍ من الخوفِ، فعلى الرغمِ من أنَّ الخارج عن القانون رجلٌ ضئيلٌ، ولكنه سريعٌ وعنيفٌ، كما اتضح من ضربهِ لمارثا، وسرقتهِ للخنزير. كان توم خائفاً بعضَ الشيء من التعرضِ للأذى، ولكن أكثر ما أقلقه هو احتمال عدم استعادتهِ لماله.

أملَ أن تكون آغنيس، ومارثا على ما يرام، ولكنه يعلمُ أن آغنيس تستطيعُ العنايةَ بنفسها، وحتَّى إن لمحها الخارجُ عن القانونِ، فما الذي سيفعلهُ الرجل؟ سيتصرف بحذرٍ، هذا كل ما في الأمرِ.

ومن مكانه رأى توم أبراجَ الكاتدرائيةِ. تمنَّى لو أنَّه حظي بفرصةِ مشاهدتِها من الداخلِ، فقد كان لديه فضول لمعرفةِ الطريقةِ التي بنوا بها دعائمَ الممرّ المُقنطر. هناك أعمدةٌ ضخمةٌ، ومن قمةِ كلِّ عمودٍ تتفرعُ أقواسٌ: قوسان شمالاً، وجنوباً لربطِ العمودِ بالعمود الذي يليه في الممرّ المقنطرِ، وقوسان شرقاً وغرباً فوقَ الممرّ الجانبي. كان لهذا التصميمِ تأثير بشعٌ، ويبدو القوس المتفرعُ من أعلى عمودٍ مدورٍ غير صحيح. عندما بنى توم كاتدرائيته، كانت كلُّ دعامةٍ مجموعةً من الأعمدةِ مع قوسٍ يتفرع من أعلى كل عمودٍ، وهذا الترتيب المنطقي أكثر فخامةً.

عادَ توم بذاكرته إلى هندسةِ الأقواسِ. كانت الأشكالُ الهندسيةُ الأكثر استخداماً تلكَ التي لا تتطلبُ مهارةً كبيرةً في نحتها بشكلٍ متعرجٍ ومعينٍ، ولكن توم أحبَّ الشكلَ الورقي، لأنَّه يمنحُ المكان رقةً، ولمسةً طبيعيةً على خلفيةِ الحجارة المبنيةِ وفقَ ترتيبٍ صارمٍ.

شغلَت كاتدرائية أحلامهِ تفكيره حتَّى فترة ما بعد الظهر، عندما رأى مارثا بجسدها النحيل، وشعرها الأشقر، قادمةً تقفز فوقَ الجسر، وبينَ المنازل، ترددت عندَ التقاطع، ثمَّ أخذَت الطريقَ الصحيح. راقبها توم تتجاوزهُ، ورأى أنَّها بدأت تعبس، وتنظرُ بحيرةٍ لأنَّها لم تجدهُ، وعندما اقتربت منه ناداها بلطفٍ: «مارثا».

أطلقَت صرخةً قصيرةً، ثمَّ رأته وركضت باتجاهه قافزةً فوقَ الخندق، «أرسلت لكَ أمي هذا»، قالت، وأخرجت شيئاً من تحتِ عباءتها.

كانت فطيرةَ لحمٍ ساخنة: «بحقِ المسيح أنَّ والدتك امرأةٌ صالحةٌ!» قال توم، وقضمَ قضمةً كبيرةً جداً من فطيرةِ اللحمِ والبصلِ. كان طعمها رائعاً.

قرفصَت مارثا قربَ توم على العشبِ، وقالت: «هذا ما حدثَ للرجلِ الذي سرقَ خنزيرنا». تنشقت من أنفِها، وركزت على تذكر ما يجبُ عليها قوله. بدت حلوةً جداً وفتنَ توم بها. «خرجَ الرجل من كشكِ الطعامِ، وقابلَ سيدةً على وجهها طلاء، ثمّ دخلا إلى منزلها بينما انتظرناه في الخارجِ».

وفكرَ توم بمرارةٍ أنَّ الخارج عن القانون قد أنفقَ مالهم على عاهرةٍ، ولكنه قال لمارثا: «تابعي».

«لم يمكث طويلاً في منزلِ السيدةِ، وعندما خرجَ توجهَ إلى حانةٍ، وهو هناك الآن. إنَّه لا يشرب كثيراً، ولكنه يلعبُ بالنردِ».

«آمل أن يفوز»، قال توم بتجهمٍ، ثمَّ أضاف: «هل هذا كل ما حدث؟»

«هذا كلُّ ما حدث».

«هل أنتِ جائعة؟»

«تناولت كعكعةً محلاةً».

«هل أعلمتِ ألفريد بهذا أيضاً؟»

«ليسَ بعد، سأذهب إليه الآن».

«أخبريه أن يحاول البقاءَ جافاً».

«أن يحاول البقاءَ جافاً»، كرّرَت من بعدهِ، ثمَّ أضافت: «وهل أخبره بهذا بعد أن أخبره بما كان يفعله الرجل الذي سرقَ خنزيرنا؟»

لم يكن الأمر مهماً بالطبعِ، ولكن توم شعرَ أنَّها تحتاج إلى جوابٍ محددٍ، ولهذا قال لها: «بعد»، ثمَّ ابتسم لها، وتابع: «أنتِ فتاةٌ ذكيةٌ، هيا انطلقي».

«أحبُّ هذه اللعبة»، قالت مارثا، ولوحت له ثمَّ غادرت. بدت ساقاها، وهي تقفز فوقَ الخندقِ برشاقةٍ، وتركض عائدةً إلى المدينةِ، كأنهما تبرقان. راقبها توم بمزيجٍ من الحبِ والغضبِ اعتملَ في قلبهِ، لقد عملَ هو، وآغنيس جاهداً لكسبِ المال من أجلِ إطعام طفليهما، ولذلكَ كان مستعداً لقتلِ الرجلِ كي يستعيد ما سُرقَ منه.

قد يكون الخارجُ عن القانونِ مُستعداً للقتلِ أيضاً. كما تشي التسميةُ فإنَّ الخارجين عن القانون لا يحميهم القانون، ولذلك كانوا يعيشون في عنفٍ مُطلقٍ، وقد لا تكون هذه المرَّةَ الأولى التي يلتقي بها فارموند أوبنماوث بإحدى ضحاياه، ولذلك فهو خطيرٌ دونَ أدنى شكٍ.

بدأ ضوءُ النهارِ يخفو باكراً، وبشكلٍ مُفاجئ كما يحدث أحياناً في فتراتِ ما بعد الظهرِ الخريفيةِ الرطبةِ. وتملكَ توم شعورٌ بالقلقِ من إمكانيةِ رؤيةِ اللصِّ في المطرِ، ومع اقترابِ وقتِ هبوطِ الظلامِ تراجعَت حركةُ الدخولِ، والخروجِ من المدينةِ، فمعظم الزوار غادروها مبكراً للوصول إلى قراهم قبلَ الليل. كانت أضواءُ الشموعِ، والمصابيحِ قد بدأت تلوح في منازل الأحياء المرتفعة من المدينةِ، وأكواخ الضواحي. تساءل توم في تشاؤمٍ، إن كان اللصُّ سيبيتُ الليلةَ في المدينةِ، قد يكون لديه أصدقاء مخادعون في المدينة يستقبلونه، رغمَ علمهم أنَّه خارجٌ عن القانون، وقد...

وهنا رأى توم الرجلَ ملتفعاً بالوشاح مُخفياً وجهه.

رآه يعبرُ الجسرَ الخشبي برفقةِ رجلين آخرين، وفجأةً تذكر توم أنَّ اللصَّ كان برفقةِ متواطئين آخرين؛ رجلٌ أصلع، ورجلٌ في قبعةٍ خضراء، وربما أتيا معه إلى سالسبيري. لم يرَ توم أيّاً من الرجلين في المدينةِ. ربما انفصل الثلاثة لفترةٍ، ثمَّ اجتمعوا مرَّة أخرى من أجلِ رحلةِ العودةِ. بدأ توم باطلاقِ السبابِ، فهو لم يفكر أنَّه سيُقاتل ثلاثةَ رجالٍ، ولكن عندما اقتربَ الرجالُ الثلاثةُ منه تفرقوا مجدداً، فأدرك توم بارتياحٍ أنَّهم لم يكونوا معاً.

كان الرجلان الآخران أباً وابنه، وكانا فلّاحين بعيون غائرةٍ، وداكنةٍ، وأنفين معقوفين. أخذَ الأبُ والابن طريق بورتوي، ولحقَ بهما الرجل ذو الوشاحِ.

تفحصَ توم مشيةَ اللصِّ وهو يقترب، واكتشفَ أنَّه لم يكن ثملاً، وقال في نفسهِ: «يا له من أمرٍ مؤسف!»

عادَ توم بنظرهِ إلى المدينةِ، ورأى امرأةً وفتاةً تظهران على الجسرِ. كانتا آغنيس ومارثا، وشعرَ بالإحباطِ؛ فهو لم يفكر قط بمواجهةِ الرجلِ في حضورهما، ولكنه تذكر أنَّه لم يخبرهما بألا تأتيا.

توترَ توم مع اقتراب الجميعِ باتجاههِ. كان توم ضخماً جداً، وعندَ المواجهةِ يستسلمُ معظمُ الناسِ أمامهُ، ولكن الخارجين عن القانون مستميتون، ولا يمكن التكهن بما قد يحدث خلالَ الشجارِ.

عبرَ الفلّاحان بابتهاجٍ، وهما يتحدثان عن الجياد أخذَ توم المطرقةَ ذات الرأسِ الحديدي من حزامهِ، وأمسكها بيدهِ اليمنى. كان يكره اللصوص؛ لأنهم لا يعملون بل يسرقون خبزَ الناسِ الطيبين، ولذلكَ لن يتردد أبداً في ضربِ هذا اللصِّ بمطرقتهِ.

عندما اقترب اللصُّ من توم أبطأ في سيره كأنَّه شعرَ بخطرٍ مُحدقٍ. انتظره توم إلى أن بات على بعدِ أربعِ، أو خمس ياردات عنه، وكانت مسافةً قريبةً كافيةً كيلا يعود أدراجه هارباً، وبعيدةً جداً عن مكان توم.

تدحرجَ توم من فوق الرابيةِ، وقفزَ عبرَ الخندقِ ثمَّ وقفَ في طريقِ اللصِّ.

توقفَ الرجلُ في مكانهِ، وحدَّق إلى توم، ثمَّ قالَ بتوترٍ: «ما هذا؟»

وفكرَ توم أنَّ الرجل لم يتذكره، فقال له: «لقد سرقتَ خنزيري البارحة وبعته إلى جزارِ اليوم».

«أنا لم...».

«لا تنكر الأمرَ»، قال توم: «أريد فقط المالَ الذي حصلتَ عليه لقاءَ الخنزيرِ، ولن أقوم بإيذائكَ».

ولوهلةٍ اعتقدَ توم أنَّ اللصَّ سيفعل ما طلبَهُ منه، وعندما رأى اللص متردداً شعرَ أنَّ الأمر قد ينتهي على الفورِ، ولكن اللصَّ استدارَ على عقبيهِ، وركضَ باتجاه آغنيس مباشرةً.

لم يكن مُسرعاً كفاية لإيقاعها، وعلاوةً على هذا كانت آغنيس امرأةً معتادةً على مثلِ هذهِ الاصطدامات. ترَّنح اللصُّ، وآغنيس من جهةٍ إلى أخرى كأنهما يرقصان بشكلٍ أخرقٍ، ثمَّ أدركَ اللصُّ أنَّها كانت تقومُ عمداً بإعاقتهِ، فدفعها جانباً فما كان منها إلا أن وضعت قدمها أمامه، وهو يحاولُ تجاوزها. استقرت قدمها على ركبتي اللصِ، فوقعا أرضاً معاً.

شعرَ توم أنَّ قلبُه يكاد يخرجُ من صدرِهِ، وركضَ بسرعةٍ لمساندتها. كان اللصُّ يحاولُ النهوض وقد وضعَ إحدى ركبتيه على ظهرها، سارعَ توم إلى إمساكِهِ من ياقتهِ، وأبعدَه عنها ثمَّ سحبه إلى جانبِ الطريق قبلَ أن يستعيدَ توازنهُ بالكاملِ، ورماه في الخندقِ.

وقفت آغنيس على قدميها، وسارعت مارثا إليها، وهنا قال توم على عجلٍ: «هل أنتِ بخير؟»

«أجل»، أجابت آغنيس.

توقفَ الفلاحان الآن، واستدارا إلى الوراءِ يحدقان إلى ما كان يحدث، ويتساءلان عمَّا كان يجري. كان اللصُّ الآن داخل الخندقِ. «إنَّه خارجٌ عن القانون»، قالت آغنيس للفلاحين بصوتٍ عالٍ لمنعهما من التدخلِ، «وقد سرقَ خنزيرنا»، لم يتفوه الرجلان بكلمةٍ، ولكن بقيا في مكانيهما يراقبان ما سيحدث.

تحدَّثَ توم إلى اللص مجدداً: «أعطني مالي، وسأدعكَ تذهب».

خرجَ الرجلُ من الخندقِ، وبيدهِ سكين ثمَّ انطلقَ بسرعةِ جُرذٍ مُنقضاً على عنقِ توم، صرخت آغنيس، ولكن توم تفادى الضربةَ. أحسَّ بنصلِ السكين يلمع قبالة وجههِ، وشعرَ بألمٍ حارقٍ على طولِ فكهِ.

تراجع توم إلى الوراءِ، ولوح بمطرقتهِ في الوقتِ الذي لوحَ فيه اللصُّ

بالسكين مجدداً، تراجعَ اللصُّ إلى الوراءِ، وفي هواء الليلِ الباردِ علا صوتُ حركةِ السكين والمطرقةِ في الهواءِ، ولكن دون أن يشتبكا.

وقفَ الرجلان لبرهةٍ بعضهما في مواجهةِ بعض، وهما يتنفسان بصعوبةٍ. كان توم يشعرُ بألمٍ في خدهِ، وأدركَ الآن أنهما كانا خصمين متكافئين، فعلى الرغمِ من ضخامةِ توم، فإنَّ اللصَّ يحملُ سكيناً، وهي سلاح فتاك أكثر من مطرقةِ البنَّاء. أحسَّ توم بقبضةِ الخوفِ الباردةِ تمسكه عندما أدركَ أنَّه على وشكِ الموتِ، وفجأة شعرَ بصعوبةٍ في التنفس.

ومن زاويةِ عينهِ رأى حركةً مفاجئةً، وقد رآها اللصُّ أيضاً لأنَّه ألقى نظرةً سريعةً نحو آغنيس ثمَّ أخفضَ رأسهُ عندما طارَ الحجر من يدها باتجاهه.

كان ردُّ فعل توم سريعاً كرّد فعل رجلٍ خائفٍ على حياتهِ، ولوحَ بمطرقتهِ على رأسِ اللصِّ عندما أحناه.

أصابَت الضربةُ رأسَ اللصِّ بينما كان يرفعه مجدداً، واستقرت المطرقةُ الحديديةُ في جبهته عندَ خطِ الشعرِ. كانت ضربةً قويةً، ولكن توم لم يضع كاملَ قوتهِ فيها، فترَنَّحَ اللصُ، ولكنه لم يقع.

ضربهُ توم مجدداً.

أتت الضربةُ هذهِ المرَّة أقوى من سابقتها، فقد كان لدى توم الوقتُ الكافي لرفعِ المطرقةِ فوقَ رأسهِ، وتحديدِ مكانِ الضربةِ بينما اللصُّ الدائخُ من الضربةِ الأولى يحاولُ تركيزَ نظرهِ. فكرَ توم بمارثا، وهو يلوحُ بمطرقتهِ، فضربَ بكلِّ قوتهِ، وسقطَ اللصُّ أرضاً كدميةٍ مرميةٍ.

ولأنَّ توم كان متوتراً جداً على الشعورِ بالأمانِ الآن ركعَ بجانبِ اللصِّ وفتشه: «أين محفظته؟ أين محفظته؟ اللعنة!» كان تحريكُ الجسد الرخو صعباً، ولكن توم تمكنَ أخيراً من قلبهِ على ظهرهِ، وفتح عباءتهِ، ووجدَ محفظةً جلديةً كبيرةً تتدلى من حزامهِ. فكَّ توم المحفظةَ، ووجدَ داخلها كيساً صوفياً ناعماً مربوطاً بخيطٍ، سحبَ توم الكيسَ، ووجدَه خفيفاً. «إنَّه فارغ!» قال توم: «لا بدَّ أن لديه محفظةً أخرى».

سحبَ توم العباءةَ بعنايةٍ من تحتِ الرجلِ وتحسسها، لم يكن هناك أيُّ جيوب خفيةٍ، أو أجزاءٍ صلبةٍ. نزعَ حذاءي اللص، ولكنه لم يجد شيئاً

بداخلهما، ثمَّ أخذَ سكينَ الطعامِ خاصته من حزامِهِ، وفكَّ نعلَ الحذاءِ، ولكن ما من شيءٍ في الداخلِ.

وبنفاد صبرٍ غرزَ توم سكينهُ في ياقة سترةِ اللصِّ الصوفيةِ، ومزقها، ولكن لم يجد أيَّ مالٍ مخبأ.

كان اللص ممدداً وسطَ الطريق الموحلِ عارياً إلَّا من جواربه. حدَّق الفلَّاحان إلى توم كأنهما يحدقان إلى رجلٍ مجنونٍ، وهنا قال توم لآغنيس في غضبٍ عارمٍ: «ليسَ لديه أيُّ مالٍ!»

«لا بدَّ أنَّه خسرَه في لعبِ النردِ»، قالت آغنيس بمرارةٍ.

«آمل أن يحترقَ في نيرانِ الجحيم»، قال توم.

ركعَت آغنيس، وتحسست صدرَ اللص، ثمَّ قالت: «إنَّه هناك الآن. لقد قتلتهُ».

- 4 -

بحلولِ عيدِ الميلادِ كانت عائلةُ توم تتضور جوعاً.

حلَّ الشتاء هذا العام باكراً، وكان بارداً، وقاسياً بلا رحمةٍ كالإزميلِ المعدني الذي يستخدمهُ البنَّاءُ. عندما اكتسحت موجة الصقيع الأولى الحقول كانت أشجارُ التفاحِ ما تزالُ مُثمرةً، وأطلقَ الناسُ على هذهِ الموجة اسمَ «العضَّة الباردة» معتقدين أنَّها لن تطول، ولكن كانت أكثر من مجرَّدِ عضةٍ عابرةٍ. وفي القرى حيثُ أجّل الفلاحون الفلاحةَ الخريفية إلى وقتٍ متأخرٍ، وكُسرت نصالُ المحاريث بسببِ قساوةِ الأرضِ المتجمدةِ. سارعَ الفلاحون إلى ذبحِ خنازيرهم، وتمليحها من أجلِ الشتاءِ، وذبحَ السادةُ قطعانَهم لأنَّ العشبَ خلالَ الشتاءِ لن يكفي المواشي كما هو في الصيف. قضى الصقيع المستمر على الأعشابِ، وما تبقى من القطعان نفقَ في نهايةِ المطافِ، ومن اليأسِ دخلت الذئابُ إلى القرى بعد غروبِ الشمسِ؛ لاقتناصِ الدجاجاتِ الهزيلةِ، والضعفاءِ من الأطفالِ.

أمَّا في مواقع البناءِ على امتدادِ البلادِ، فحالما ضربت موجةُ الصقيعِ الأولى، غُطيت الجدرانُ التي رُفعت خلالَ الصيفِ على عجلٍ بالقشِّ، والروثِ لعزلها عن البردِ، فالملاط لم يجف تماماً بعد، وإن تجمَّدَ فسوف

يتصدّع، وأيُّ عملٍ يتطلبُ استخدامَ الملاطِ سيؤجلُ إلى الربيعِ، ولأنَّ بعضَ البنَّائين قد وظفوا للعملِ خلالَ الصيفِ فقط، اضطروا إلى العودة إلى قراهم حيث كانوا معروفين كصُنَّاع أكثر مما كانوا معروفين كبنَّائين، وسيقضون الشتاءَ في صُنعِ المحاريثِ، والسروجِ والأرسنةِ، والعرباتِ، والمجاريف، والأبوابِ، وأيِّ شيءٍ يتطلبُ صنعهُ عاملاً ماهراً في استخدامِ المطرقةِ، والإزميل، والمنشارِ. أمَّا بقيةُ البنَّائين فقد انتقلوا إلى منازلَ بسطوحٍ مائلةٍ في موقعِ البناءِ، وقضوا ساعاتِ النهارِ في نحتِ الحجارةِ، لكن بسببِ قدومِ الصقيعِ باكراً، لم يُحرزوا تقدماً كبيراً، ولأنَّ الفلاحين كانوا يتضورون جوعاً، والأساقفة، وآمري القلاعِ، والسادة لا يملكون أموالاً كثيرةً لإنفاقها على البناءِ، كما كانوا يأملون سرَّحوا بعضِ البنائين مع انقضاءِ الشتاءِ ببطءٍ.

سافرَ توم وعائلتهُ من سالسبيري إلى شافتسبري، ومن هناك إلى شيربون وولز، وباث، وبريستول، وغلوستر، وأوكسفورد، وويلنغفورد، وويندسور، وفي جميع هذهِ المدنِ تلظت نيران المواقدِ في المنازل، ورددت أفنيةُ الكنائسِ، وأسوارُ القلاعِ أغنيةَ الحديدِ، والحجرِ، وصممَ كبارُ البنَّائين بأيديهم الماهرةِ، والمقفّزة نماذج دقيقةً، وصغيرةً من الأقواسِ والقناطر. عاملَ بعضُ كبارِ البنَّائين توم بتململٍ، وجفافٍ، وفظاظةٍ بينما نظرَ آخرون إلى طفليهِ الهزيلين، وزوجتهِ الحاملِ في حزنٍ، وتحدثوا معهُ بلطفٍ، وأسفٍ، ولكن جميعهم قدموا إجابةً واحدةً: «لا، لا يوجد عملٌ لكَ هنا».

وأينما حلّوا بحثوا عن الأديرةِ، حيثُ يمكن للمسافرينِ أن يحظوا بوجبةٍ وبمكانٍ للنوم لليلةٍ واحدةٍ فقط، وعندما نضجت ثمارُ التوتِ البري عاشوا عليها لأيام طويلةٍ كالطيور. في الغابة كانت آغنيس توقدُ النارَ، وتضعُ القدرَ فوقها وتطبُخُ عصيدةً، ولكن في معظمِ الأحيانِ كانوا يضطرون إلى شراءِ الخبزِ من الخبازين، والسمكِ المخللِ من باعةِ السمكِ، أو تناولِ الطعامِ في الحاناتِ أو أكشاكِ الطعام، وكان هذا مُكلفاً أكثر من تحضيرِ الطعام بأنفسهم، ولهذا السببِ بدأ المالُ يشحُّ بسرعةٍ.

رغمَ أنَّ مارثا كانت فتاةً نحيلةً، فإنَّها غدت أكثر نحولاً الآن، أمَّا آلفريد الذي كانت قامته تزدادُ طولاً كعشبةٍ ضارةٍ في تربةٍ سطحيةٍ، فقد بدا طويلاً وهزيلاً. لم تكن آغنيس أكولةً، ولكن الطفلَ في بطنها كان جشعاً، وكان

بوسعِ توم أن يرى العذاب الذي سببهُ لها الجوعُ. أجبرها أحياناً على تناولِ المزيدِ، وحينها كانت إرادتها الحديدية تلين أمامَ سلطةِ زوجها، والجوع الذي يفرضُهُ عليها جنينها، ولكنها لم تزدد ضخامةً، أو تتورد وجنتاها كما حدثَ في حملها السابق، فرغمَ بطنها المنتفخِ، فإنَّها بدت نحيلةً كطفلٍ يعاني من المجاعةِ.

منذُ مغادرتهم لسالسبيري ساروا في دائرةٍ كبيرةٍ، وبحلولِ الآن كانوا قد قطعوا ثلاثةَ أرباعها، ومع نهايةِ العامِ عادوا إلى الغابةِ الشاسعةِ، والممتدةِ من ويندسور إلى ساوثهامبتون. كانوا في طريقهم إلى وينشستر، وقد باعَ توم أدوات البناءِ خاصته، وأنفقَ معظمَ المبلغ الذي أخذهُ لقاءها. سيتعين عليه الآن، أن يستعيرَ الأدوات، أو يستدينَ المالَ من أجلِ شراءِ أدواتٍ جديدةٍ حالما يعثرُ على عملٍ. لم يكن لديه أدنى فكرة عمَّا سيفعلهُ إن لم يجد عملاً في وينشستر. رغم أنه يملك أخوةً في مدينته، ولكن المدينة تقعُ في الشمالِ، والرحلةُ إلى هناك تستغرقُ أسابيع من المشي، وهذا يعني أنَّ العائلة ستتضور جوعاً قبل الوصول إلى هناك. أمَّا آغنيس فقد كانت طفلةً وحيدةً، ووالداها متوفيان. لم يكن هناك أعمالٌ زراعيةٌ في منتصف الشتاءِ، قد تنجحُ آغنيس في الحصولِ على بضعِ جنيهاتٍ بالعملِ كغاسلةِ أطباقٍ في منزلِ أحدِ الأثرياءِ في وينشستر، فهي حتماً لن تستطيعَ الاستمرار بالتجوالِ على الطرقات لوقتٍ أطول مع اقتراب موعدُ ولادتها.

ولكن وينشستر تبعدُ مسيرَ ثلاثةِ أيامٍ، وكانوا جوعى الآن. لم يعد هناك توت بري، ولا أديرةٌ قريبةٌ من المكانِ، ولم يكن لدى آغنيس الكثيرُ من الشوفانِ في قدرِ الطبخِ الذي تحملهُ على ظهرها. في الليلةِ السابقةِ قايضوا السكينَ برغيفٍ جودار، وأربعة صحونٍ من المرقِ، من دونِ لحمٍ، ومكان للنوم قربَ موقدٍ في كوخِ أحدِ الفلاحين، ولكن مُذ أن غادروا منزلَ الفلاحِ لم يروا قريةً واحدةً حتَّى نهاية فترةِ ما بعد الظهرِ حيثُ رأى توم دخاناً متصاعداً من فوق الأشجارِ، وعثروا على منزلٍ منعزلٍ لحارس الغابةِ الذي يعملُ على حمايةِ غابات الملكِ. أعطاهم الحارسُ كيساً من اللفتِ مقابلَ فأسِ توم الصغيرة.

لم يقطعوا سوى ثلاثة أميال بعيداً عن منزلِ الحارس عندما قالت آغنيس

إنَّها متعبةٌ جداً على متابعةِ السيرِ. تفاجأ توم بما سمعه فهو لم يسمعها قط تقول إنَّها متعبةٌ جداً على القيامِ بشيءٍ.

اختارت آغنيس شجرةً كبيرةً يُطلق عليها اسم «كستناء الجواد» قربَ الطريقِ، وحفرَ توم حفرةً صغيرةً من أجلِ إضرامِ النارِ مُستخدماً مجرفتهُ الخشبيةَ المهترئةَ، وكانت واحدةً من المعداتِ القليلةِ المتبقيةِ لديهِ، فما من أحدٍ أرادَ شراءَها، جمعَ الطفلان الأغصانَ، وأشعلَ توم النارَ ثمَّ أخذَ القدرَ، وذهبَ للبحثِ عن جدولٍ. عادَ والقدرُ ممتلئ بماء مثلجٍ ثمَّ جلسَ عندَ طرفِ النارِ. قامت آغنيس بتقطيعِ بعضِ اللفتِ، بينما جمعت مارثا ثمارَ الكستناء المتساقطةِ من الشجرةِ على الأرض، وعلَّمتها آغنيس كيفَ تقوم بتقشيرها، وطحنِ لبها الطري وتحويله إلى ما يشبهُ الطحينَ الخشنَ لتكثيفِ حساءِ اللفت. أرسلَ توم آلفريد لجلبِ المزيدِ من الحطبِ، بينما أخذَ هو عصا، وبدأ بالتنقيب بينَ الأوراقِ الجافةِ، والمتساقطةِ على أرضِ الغابةِ على أملِ أن يجدَ قُنفذاً أو سنجاباً في حالةِ سباتٍ، وإضافتهما إلى الحساءِ، ولكن الحظ لم يحالفه.

جلسَ توم قربَ آغنيس بينما الظلام يهبطُ، والحساء يُطهى، وسألها: «ألم يبقَ لديكِ أيُّ ملح؟»

هزّت رأسها بالنفي، وقالت: «لم نأكل العصيدةَ بالملحِ منذُ أسابيع، ألم تلاحظ هذا؟»

«لا».

«الجوعُ أفضلُ التوابلِ».

«حسناً، لدينا الكثيرُ من هذا»، قال توم، وشعرَ بتعبٍ كبيرٍ مفاجئ، وعبء كثيرٍ من الخيباتِ المتراكمةِ على مدارِ الشهورِ الأربعةِ الماضيةِ. شعرَ أنَّه لم يعد قادراً على التظاهرِ بالشجاعة، وبصوتٍ مهزوم قال: «ما سبب كل هذا يا آغنيس؟»

«كل شيءٍ»، أجابته وتابعت: «لم تحصل على عملٍ خلالَ الشتاءِ الماضي، بل حصلت على واحدٍ في الربيع، ثمَّ ألغت ابنةُ الإيرل الزفافَ، ولذلك ألغى اللورد وليم مشروعَ بناءِ المنزلِ، وبعدها قررنا أن نبقى، ونعمل في الحصادِ، وهنا كانت غلطتنا».

«بالطبع كان سيسهلُ علي إيجاد عملٍ في الصيفِ مقارنةً بالخريفِ».

«وحلَّ الشتاءُ باكراً، ولكن كنا سنكون بخير رغم هذا كله، لو لم يُسرق الخنزير منا».

أومأ توم برأسه ضجراً، وقال: «الشيءُ الوحيد الذي يعزيني هو علمي أنَّ اللصَّ الآن يعاني من عذابِ الجحيم».

«آمل هذا».

«هل تشكين في الأمرِ؟»

«يتظاهر الكهنةُ أنَّهم على قدرٍ كبيرٍ من المعرفةِ لكنهم في الحقيقةِ ليسوا كذلك. كان والدي واحداً منهم، ألا تتذكر؟»

يتذكرُ توم جيداً أنَّ أحدَ جدرانِ أبرشيةِ والدها كان متداعياً، ولا يمكن إصلاحهُ، فاستعانوا بهِ لإعادةِ بنائهِ. يُمنع على الكهنةِ الزواج، ولكن كان لهذا الكاهن مدبرة منزلٍ، ولهذهِ المدبرة ابنة، وكان معلوماً لجميعِ سكانِ القريةِ أنَّ الكاهن والدُ الفتاةِ. لم تكن آغنيس يوماً جميلةً، ولكن آنذاك كان لبشرتها ألقُ الشبابِ، وتفور بطاقةٍ كبيرةٍ. عندما كانت تتحدث إلى توم وهو يعمل كانت الريحُ أحياناً تجعلُ ثيابها تلتصق بجسدها، فيرى توم تضاريسهُ، بما في ذلك حلمة ثديها، بوضوحٍ شديدٍ كأنَّها عاريةٌ أمامه. وفي إحدى الليالي أتت إلى الكوخِ الصغيرِ الذي ينامُ فيهِ، ووضعت يداً على فمه ثمَّ طلبت منه عدمَ التكلمِ. رفعت فستانها ليراها عاريةً في ضوءِ القمر فما كان منه إلا أن سحبَ جسدَها الفتي، والقوي ضاماً إياها بين ذراعيه، ومارسا الحبَّ.

«كلا كانت عذراء»، قال بصوتٍ عالٍ.

وعرفت بما كان يدور في ذهنِهِ فابتسمت ولكن شبحَ الحزنِ عادَ ليخيم على وجهها مجدداً: «يبدو هذا كأنَّه حدثَ منذُ وقتٍ طويلٍ»، قالت له.

«هل يمكننا تناولُ الطعامِ الآن؟» سألها.

أثارت رائحة الحساءِ جوعَ توم فغرف بصحنه من القدرِ الذي كان يغلي، وأخرجَ بضعَ قطعٍ من اللفتِ، وبعضَ المرقِ الخفيف معها، ثمَّ استخدمَ طرفَ السكين الحاد لاختبار استواءِ اللفت. لم يكن اللفتُ قد وصلَ إلى

درجةِ الاستواءِ التامِ، ولكن توم قررَ ألا يجعلهم ينتظرون أكثر، فقدَّم لآلفريد ومارثا حصتهما، ثمَّ سكبَ لنفسهِ ولآغنيس.

بدت آغنيس مسلولةً وغارقةً في التفكيرِ. نفخت على حسائها ليبردَ، ثمَّ رفعت الصحنَ إلى شفتيها.

كان آلفريد ومارثا قد أنهيا حصتهما على الفورِ، وطلبا المزيدَ. أمسكَ توم القدرَ، ورفعهُ عن النارِ بطرفِ عباءتهِ كيلا يحرقَ يدهُ، ثمَّ أفرغَ ما تبقى من الحساءِ في صحني الولدين.

عندما استدارَ توم نحو آغنيس سألته: «وماذا عنكَ؟»

«سآكل غداً»، أجابها توم.

بدت متعبةً جداً على مجادلتهِ.

غذَّ توم وآلفريد النارَ، وجمعا ما يكفي من الحطبِ لبقية الليلةِ، ثمَّ التفعوا بعباءاتهم، واستلقوا على الأوراق ليناموا.

نامَ توم نوماً خفيفاً، وعندما سمعَ آغنيس تئنُّ استيقظ على الفور، وسألها همساً: «ما الأمر؟»

أخذت تئنُّ مجدداً، وبدا وجهها شاحباً، وعيناها مطبقتين، وبعد وهلةٍ قالت: «الطفل قادمٌ».

غارَ قلبُ توم في صدرهِ، فهو لا يريد للطفلِ أن يأتي على أرضيةِ الغابةِ الباردةِ: «ولكن لم يحن موعد ولادتكِ».

«إنَّها ولادة مبكرةٌ».

حاولَ توم أن يتحدثَ بصوتٍ هادئ قائلاً: «هل نزلَ ما أ مسِ؟»

«بعد أن غادرنا كوخ حارس الغابة»، لهثت آغنيس دونَ أن تفتحَ عينيها.

وتذكرَ توم أنَّها توجهت فجأة إلى ما وراء الشجيرات كأنَّها تلبي نداء الطبيعةِ: «وماذا عن الانقباضات؟»

«منتظمة».

كان من شيمها التزامُ الهدوء حيالَ كلِّ شيءٍ.

استيقظَ الآن كلٌّ من مارثا وآلفريد.

«ما الخطب؟» سأل آلفريد.

«الطفل قادمٌ»، قال توم.

وانخرطَت مارثا في البكاءِ.

تجهمَ توم وسأل آغنيس: «هل يمكنكِ السير إلى كوخِ الحارسِ؟» هناك سيكون لديهم على الأقلّ قشٌ لتستلقي عليهِ آغنيس، وسقفٌ فوق رؤوسهم، وشخصٌ لمساعدتهم.

هزَّت آغنيس رأسها بالنفي وقالت: «بدأ الطفل يخرجُ».

«لن يطول الأمرُ إذاً!»

كانوا في أكثر أجزاءِ الغابةِ قفراً، ولم يروا قريةً منذُ الصباح، وقد قال لهم الحارسُ إنهم لن يروا أيةَ قريةٍ في الغدِ، وهذا يعني أنهم لن يجدوا امرأةً تساعدُ آغنيس على الولادةِ. كان على توم أن يساعدها في إنجابِ الطفلِ، بنفسهِ ووسطَ البردِ، وبمساعدةِ الطفلين ومن دون أدويةٍ في حالةِ احتاجت إليها، ولا معرفةٍ...

وفكرَ توم، أنَّ الأمرَ برمتهِ غلطتهُ، فهو من جعلها تحملُ، ومن جعلها تعيش في فاقةٍ. لقد وثقت به كمعيلٍ لها، وها هي الآن تنجبُ الطفلَ في العراءِ، وفي منتصفِ الشتاءِ. لطالما بغضَ توم الرجال الذين ينجبون أطفالاً ويتركونهم ليتضوروا جوعاً، وها هو الآن، وبسبب ما فعله بآغنيس، ليسَ بأحسنَ منهم، وشعرَ بالخجلِ من نفسهِ.

«أنا متعبةٌ جداً»، قالت آغنيس، وتابعت: «لا أعتقدُ أنني أستطيعُ إنجابَ الطفلِ، فأنا بحاجةٍ إلى الراحةِ»، وفي ضوءِ النارِ بدا وجهها لامعاً من قطراتِ العرقِ الصغيرةِ التي تجمَّعت على وجهها.

أدركَ توم أنَّ عليهِ تمالكَ نفسهِ، وأنَّ عليهِ منحَ القوة لآغنيس، ولذلكَ قال لها: «سأساعدكِ». لم يكن هناك أيُّ شيءٍ غامضٍ أو معقدٍ في ما سيحدث الآن، فقد شاهدَ ولادةَ العديدِ من الأطفالِ، ورغمَ أنَّ النساءَ عادةً من يقمن بالمساعدةِ لأنهنَّ يعلمن ما تشعرُ به الأم، وبذلك يكنَّ خيرَ عونٍ لها ولكن إن تطلّبَ الأمرُ ذلكَ فما من سببٍ يمنع الرجالَ من المساعدةِ. كان عليهِ أولاً جعلها مرتاحةً ثمَّ التحقق من مرحلةِ عمليةِ الولادةِ، والقيام بتجهيزاتٍ، وتهدئتها، وتطمينها إلى أن تلد.

«بماذا تشعرين؟» سألها توم.

«بالبردِ»، أجابت.

«اقتربي من النارِ»، قالَ لها ثمَّ خلعَ عباءتهُ، وفرشها على الأرضِ على بُعدٍ ياردةٍ من النارِ. جاهدت آغنيس لتحرّكَ قدميها، ولكن توم رفعها بسهولةٍ، ووضعها بلطفٍ على عباءتهِ.

ركعَ توم بقربِ آغنيس. كان للسترةِ الصوفية التي ترتديها تحتَ عباءتها أزرار على طولِ منطقةِ الصدرِ، فحلَّ توم زرَّين، وأدخلَ يدهُ، فشهقت آغنيس.

«هل آلمتكِ؟» قال لها متفاجئاً وقلقاً.

«لا»، قالت مع ابتسامة مقتضبةً، وتابعت: «يداك باردتان فحسب».

تحسّسَ بطنها، وشعرَ أنَّ الانتفاخ غدا أكثرَ علواً، وبروزاً مما كان عليهِ الليلة الماضية عندما ناما جنباً إلى جنب في كوخِ الفلاح. ضغطَ توم بشدةٍ أكثر متحسساً شكلَ الجنين، فاكتشفَ أنَّ أحدَ طرفي الجسدِ تحتَ سُرَّة آغنيس تماماً، ولكنه فشلَ في تحديدِ مكانِ الطرفِ الآخرِ.

«أتحسسُ مؤخرته، ولكن لم أعثر على الرأسِ»، قال توم.

«هذا لأنَّ الرأس في الأسفلِ»، قالت آغنيس.

قام بتغطيتها، ولفَّها جيداً بعباءتها، كان عليه الإسراع بالتحضيرات. نظرَ إلى الطفلين، ورأى مارثا تتنشق من أنفها أما آلفريد فقد بدا خائفاً. قررَ توم أنَّه من الأفضل أن يُكلفهما بمهامّ لينشغلا بها.

«آلفريد فلتأخذ القدرَ إلى الجدولِ، ولتغسله ثمَّ املأه بالماءِ العذبِ. مارثا اجمعي بعضَ الأغصانِ اللدنةِ، واصنعي منها حبلين كلٌّ واحدٍ منهما بطولٍ كافٍ لصنعِ طوقٍ. فلتُسرعا الآن فعندَ انبلاجِ الفجرِ سيُصبح لديكما أخٌ أو أختٌ».

انطلقَ الطفلان لتأديةِ المهام التي كُلفا بها. وهنا أخذَ توم سكينَ الطعامِ، وحجراً صغيراً، وبدأ يشحذ النصلَ. بدأت آغنيس تئنّ مجدداً فوضعَ توم السكين من يدهِ وأمسكَ بيدها.

كان قد جلسَ في ذات الوضعيةِ عندما ولدت أطفالهما السابقين: آلفريد وماتيلدا التي ماتت بعد عامين، ومارثا، وطفل ولدَ ميتاً. كان صبياً، وقد

خططَ توم سراً لتسميتِهِ هارولد، ولكن في جميع هذه الولادات كان هناك من يساعدُ آغنيس، ويطمئنها، سواء أكانت والدة آغنيس كما حدثَ عندَ ولادةِ آلفريد، أو قابلةَ القريةِ في حالةِ ماتيلدا، وهارولد، أو زوجةَ السيدِ عندما ولدت مارثا. كان عليه هذه المرة أن يقومَ بكلِّ شيءٍ وحده، ولكن لا يجب أن تراه قلقاً، بل عليهِ الحرصُ على شعورها بالسعادةِ والثقةِ.

عندما انحسرت الانقباضة استرخت آغنيس، وقال لها توم: «أتتذكرين عندما ولدت مارثا، وعملت الليدي إيزابيل كقابلةٍ؟»

ابتسمت آغنيس وقالت: «كنتَ تبني مصلى للورد روبرت، وقد طلبتَ منها أن ترسلَ خادمةً لإحضار القابلةِ من القريةِ...»

«وقالت لكَ وقتها: «تلك الساحرة العجوز السكيرة! أنا لن أسمحَ لها حتَّى بمساعدةِ كلبةِ صيدٍ على إنجابِ جرائها!» أخذتنا إلى حجرتها، ولم تسمح للورد روبرت بالنوم فيها إلى أن ولدت مارثا».

«كانت امرأةً طيبةً».

«لا يوجد الكثيرُ من أمثالها».

عادَ آلفريد وقد ملأ القدرَ بالماءِ الباردِ فوضعه توم على النار، ولكن ليسَ قريباً جداً كيلا يغلي بل لتدفئتِه فقط. مدَّت آغنيس يدها إلى داخلِ عباءتها، وأخرجت كيساً كتانياً صغيراً بداخلِهِ خرقٌ نظيفة كانت قد جهزتها.

عادت مارثا بحملٍ من الأغصانِ اللدنةِ، وعندما جلست تضفرها سألت: «لمَ أنتَ بحاجةٍ إلى الخيوطِ؟»

«لشيءٍ مهمٍ جداً، سترين»، قال توم، وتابع: «فلتضفريها جيداً».

بدا آلفريد متوتراً ومحرجاً فقال له توم: «اذهب، واجمع الحطبَ، يجب أن نجعلَ النارَ أكبر». انطلقَ الصبي سعيداً بتكليفهِ بمهمةٍ ليقوم بها.

عندما حاولت آغنيس مجدداً دفعَ الطفلِ ارتسمَ الألمُ على وجهِها، وأصدرت أنيناً مكموماً كشجرةٍ تصرُّ في وجهِ عاصفةٍ. لاحظَ توم أنَّ الألمَ يستنفد ما تبقى من طاقتها، وتمنَّى لو أنَّه يستطيعُ الدفعَ بدلاً منها، وتحمل الألمِ بنفسه، وإراحتها. وأخيراً لاحظَ أنَّ ألمَها يتراجعُ فأخذَ نفساً، وبدت آغنيس كأنَّها تستسلمُ لإغفاءةٍ.

عادَ آلفريد، ومعه حملٌ من الحطبِ.

استفاقت آغنيس مجدداً، وقالت: «أشعرُ ببردٍ شديدٍ».

قال توم: «آلفريد فلتُغذِّ النار. مارثا ارقدي بجانب والدتكِ، ولتبقيها دافئةً»، أطاعَ الولدان والدهما، ونظرات القلق تغطي وجهيهما. احتضنت آغنيس مارثا وجذبتها إليها وهي ترتجفُ.

شعرَ توم بالغثيان من شدةِ التوترِ. كانت النار الآن مستعرةً، ولكن الهواء ازدادَ برودةً. كان بارداً جداً إلى درجةٍ قد يقتل معها الطفلَ عندما يأخذ أولَ نفسٍ له. لم تكن ولادةُ الأطفالِ في العراءِ أمراً غريباً فهي تحدثُ كثيراً في مواسمِ الحصاد عندما يكون الجميعُ مشغولاً جداً، والنساءُ يعملن حتَّى ساعةِ الـولادةِ، ولكن في وقتِ الحصاد تكون الأرضُ جافةً، والعشبُ ناعماً، والهواءُ منعشاً، ولم يسمع توم قط عن امرأةٍ تلدُ في العراءِ، وفي منتصفِ الشتاءِ.

رفعَت آغنيس نفسها، واتكأت على مرفقيها، وباعدت بين ساقيها.

«ما الأمر؟» سأل توم بصوتٍ يفيضُ ذعراً.

كانت تحاول جاهدةً أن تجيبَ على سؤالهِ.

قال توم: «آلفريد، اركع وراءَ والدتكَ كي تتكئ عليكَ».

عندما أخذَ آلفريد الوضعيةَ التي أمره بها والده فتحَ توم عباءة آغنيس وحلَّ أزرارَ تنورةِ فستانها، ومن بين ساقيها رأى توم أنَّ فتحةَ قناةِ الولادةِ بدأت تتوسع قليلاً: «لن يطول الأمرُ يا عزيزتي»، دمدمَ توم، وهو يجاهد كيلا تُفتضح رعشةُ الخوفِ في صوته.

استرخت آغنيس مجدداً ثمَّ أغمضت عينيها، وألقت بوزنها على آلفريد، بدت الفتحةُ كأنَّها تتقلصُ قليلاً، ووسطَ الصمتِ التام الذي غرقت فيه الغابةُ، باستثناءِ صوتِ طقطقةِ حطبِ النارِ الكبيرةِ، فكرَ توم فجأةً بالطريقةِ التي أنجبت فيها إيلين، المرأة الخارجة عن القانون، طفلها في الغابةِ، ووحدها. لا بدَّ أن الأمرَ كان مخيفاً. قالت له إنَّها خشيت أن يباغتها ذئبٌ، وهي خائرةُ القوى، ويسرقَ مولودها. تداول الناسُ أنَّ الذئاب هذا العام غدت أكثر جرأةً ووقاحةً من العادةِ، ولكنها حتماً لن تهاجم مجموعةً من أربعةِ أشخاص.

توترت آغنيس مجدداً، وظهرت قطراتُ عرقٍ جديدة على وجهها المتلوي من الألمِ، وفكرَ توم أنَّ الأمرَ سينتهي الآن، وشعرَ بالخوفِ. راقبَ فتحةَ الولادةِ مجدداً، وهذهِ المرة رأى على ضوءِ النارِ الشعرَ الأسود الرطب لرأسِ الطفلِ المندفع إلى الخارجِ. خطرَ له أن يُصلي، ولكن لم يكن هناك وقت كافٍ لهذا الآن فقد بدأت أنفاسُ آغنيس تتسارع في شهقاتٍ، واتسعت فتحةُ الولادةِ أكثر وأكثر، ومن ثمَّ بدأ الرأسُ بالخروجِ عبرها، والوجه للأسفلِ، وبعدَ برهةٍ رأى توم الأذنين المجعدتين ملتصقتين إلى جانبي رأسِ الطفلِ ثمَّ رأى جلدَ العنق في طياتٍ. لم يكن بوسعهِ في هذهِ المرحلةِ التأكد من سلامةِ الطفلِ.

«لقد خرجَ الرأس»، قال توم، ولكن آغنيس تعرف هذا لأنَّها تشعرُ به، واسترخت مجدداً، وببطء استدارَ الطفلُ، ورأى توم العينين، والفم رطباً من الدم، والسوائلِ الزلقةِ للرحمِ.

صرخَت مارثا قائلةً: «أوه، انظروا إلى الوجهِ الصغيرِ!»

سمعتها آغنيس، وابتسمت ابتسامة مقتضبةً، ثمَّ بدأت بالدفعِ مجدداً. انحنى توم إلى الأمامِ بين ساقيها، ووضعَ يده على الرأسِ الصغيرِ بينما خرجَت الكتفان، الواحدة تلو الأخرى، ثمَّ خرجَ باقي الجسد دفعةً واحدةً، وضعَ توم يدهُ اليمنى تحت وركِ الطفل، ورفعه بينما انزلقت الساقان خارج الرحمِ إلى العالمِ الباردِ.

انغلقت فتحةُ الولادةِ حولَ حبلٍ مُزرقٍ ونابضٍ ينتهي عندَ سُرَّةِ الطفلِ.

رفعَ توم الطفلَ متفحصاً إياه بقلقٍ ووجده مُغطى بالكثير من الدماءِ. لوهلةٍ خشي أنَّ يكون هناكَ خطبٌ ما، ولكن بعدَ فحصٍ دقيقٍ لم يلمح أيَّة إصابةٍ، ثمَّ نظرَ بين ساقيه. كان صبياً.

«يبدو بشعاً!» قالت مارثا.

«إنَّه مثالي»، قال توم وهو يشعرُ بقواه تخور من شدةِ الراحة، ثمَّ أضاف: «صبي مثالي».

فتحَ الطفلُ فمهُ، وبكى.

نظرَ توم إلى آغنيس، والتقت عيناهما ثمَّ ابتسما.

حملَ توم الطفلَ الصغيرَ قريباً من صدرهِ وقال: «مارثا، اجلبي وعاءً من الماءِ من القدرِ»، وقفزت مارثا لتفعل ما أُمرت به. «أين تلكَ الخرق يا آغنيس؟» سألها، وأشارت إلى حقيبةٍ كتانيةٍ على الأرضِ قربِ كتفِها، تناولَ آلفريد الحقيبةَ، وأعطاها لتوم. كان وجهُ الفتى مغطى بالدموعِ فهذهِ المرةُ الأولى التي يشهدُ فيها على ولادةِ طفلٍ.

غمسَ توم إحدى الخرقِ في وعاءِ الماءِ الدافئ، ومسحَ بلطف الدمَ، والمخاطَ عن وجه الطفلِ. حلَّت آغنيس مقدمةَ سترتها، ووضع توم الطفل على ذراعيها. كان الطفلُ ما يزال يصرخُ. راقبَ توم الحبلَ الأزرقَ الذي يصل بينَ بطنِ الطفلِ، وفرجِ آغنيس يتوقف عن النبضِ، ويذوي ويتحول إلى اللون الأبيض.

«أعطني الخيطين اللذين ضفرتهما. سترين الآن ما الفائدة منهما»، قال توم لمارثا.

ناولته مارثا الخيطين، وشدَّهما توم حولَ الحبل السِري من مكانين، ثمَّ أحكمَ العقدةَ جيداً، واستخدمَ سكينهُ لقطعِ الحبلِ بين العُقدتين.

جلسَ توم على فخذيه. لقد فعلها، والأسوأ مرَّ، والطفلُ سليمٌ. كان يشعرُ بالفخرِ.

حرَّكت آغنيس الطفلَ حتى باتَ وجهه على ثدييها. بحثَ الطفلُ بفمهِ الصغير عن حلمةِ ثديها الكبيرةِ الآن، وعندما وجدها توقفَ عن البكاءِ وبدأ يرضع.

قالت مارثا بصوتٍ ذاهلٍ: «كيف له أن يعرف أنَّ عليه فعل هذا؟»

«هذا لغزٌ»، قال توم، ثمَّ ناولها الوعاءَ، وأضاف: «أحضري لأمّك ماءً عذباً لتشربه».

«أوه أجل»، قالت آغنيس بامتنانٍ كأنَّها أدركت للتو كم كانت عطشةً. أحضرت مارثا الماءَ، وشربته آغنيس دفعةً واحدةً.

«هذا رائع»، قالت آغنيس: «شكراً لكِ». نظرت إلى الطفل، وهو يرضع ثمَّ إلى توم، وقالت بهدوءٍ: «أنتَ رجلٌ طيبٌ. أحبكَ».

شعرَ توم بالدموعِ تترقرقُ من عينيه. ابتسم لها ثمَّ أخفضَ ناظريه. كانت

آغنيس ما تزال تنزفُ كثيراً، والحبلُ السري الذاوي الذي كان خرجَ ببطءٍ تكومَ في بركةٍ من الدماءِ على عباءةِ توم بين ساقي آغنيس.

رفعَ توم نظره مجدداً، ورأى أنَّ الطفلَ توقفَ عن الرضاعةِ، وغطَّ في النومِ. سحبت آغنيس العباءةَ فوقه، وغطته، ثمَّ أغلقت عينيها.

بعد وهلةٍ قالت مارثا لتوم: «هل تنتظر شيئاً؟»

«المشيمة»، أخبرها توم.

«وما هي؟»

«سترين».

غطَّت الأمُ والطفلُ في النومِ لبرهةٍ، ثمَّ فتحت آغنيس عينيها مجدداً. تشجنت قليلاً، وتوسعت فتحة الولادةِ قليلاً ثمَّ خرجت المشيمةُ. حملها توم بيديه، ونظرَ إليها، كانت أشبه بشيءٍ يراه المرءُ على لوح التقطيعِ الذي يستخدمهُ الجزار. عندَ النظرِ إليها عن قربٍ رأى أنَّها كانت ممزقةً كأنَّ جزءاً منها مفقودٌ، ولكنه لم يشاهد قبلاً مشيمةً من هذا القربِ، ولهذا افترضَ أنَّ هذا شكلها الافتراضي عندما تنسلخ عن الرحمِ. وضعَ المشيمة على النار، فأطلقت عند احتراقها رائحةً مزعجةً. فعلَ توم هذا لأنَّه خشي إن رماها، أن تجذبَ الثعالب، أو حتَّى الذئاب.

كانت آغنيس ما تزال تنزف، وتذكرَ توم أنَّ الدمَ يستمرُ بالتدفقِ مع خروجِ المشيمةِ، إلَّا أنَّه لا يتذكر كميتهُ، وهنا أدركَ أنَّ الأزمةَ لم تنتهِ بعد. شعرَ بالدوار لوهلةٍ من التعب وقلةِ الطعامِ، ولكن الشعور مرّ، وتمالك نفسه مجدداً.

«ما زلتِ تنزفين بعضَ الشيء»، قال توم لآغنيس محاولاً ألا يبدو قلقاً.

«سيتوقف النزيف قريباً»، قالت له ثمَّ تابعت: «فلتُغطني».

زرّرَ توم تنورةَ فستانها، ولفَّ ساقيها بعباءتِها.

قال آلفريد: «هل يمكنني الاستراحةُ الآن؟»

كان ما يزال على وضعهِ راكعاً خلفَ آغنيس، وفكر توم أنَّ قدميه لا بدَّ خدرتان الآن من البقاءِ طويلاً على هذهِ الوضعيةِ. «سآخذ مكانكَ»، قال له توم. ستشعر آغنيس براحةٍ أكبر مع الطفلِ إن بقيت على هذهِ الوضعيةِ، علاوةً على هذا سيساعد وجود جسدٍ خلفَ ظهرِها على بقائها دافئةً، وحمايتها من

الريحِ، تبادل توم الأماكن مع آلفريد الذي أخذَ يئن من الألم عندما مددَ ساقيهِ. أحاط توم آغنيس، والطفل بذراعيهِ، وسألها: «كيف تشعرين؟»

«بالتعبِ فقط».

بكى الطفل فأدنتهُ آغنيس قريباً من ثديها كي يجدَ الحلمةَ، وبينما كان الطفلُ يرضعُ بدت آغنيس كأنَّها تغرقُ في النومِ.

شعرَ توم بالقلقِ، فعلى الرغم من أن تعبَ المرأةِ بعدَ الولادةِ أمرٌ عادي، فإنَّ تعبَ آغنيس ضايقهُ. بدت ضعيفةً جداً.

نامَ الطفلُ، وبعدَ وهلةٍ غطَّ الولدان في النوم، وقد تكورت مارثا قربَ آغنيس، وتمددَ آلفريد عند الجانبِ الآخر من النارِ. احتضنَ توم آغنيس بين ذراعيه، وهدهدها بلطفٍ، وبين الفينةِ، والأخرى يقبلُ أعلى رأسها. شعرَ بجسدها يسترخي، وهي تغط في نومٍ عميقٍ جداً، وقرر في نفسهِ أنَّ هذا للأفضل على الأرجح. تحسسَ خدَّها، ووجدَ بشرتها باردةً، ودبقةً رغم كلِّ محاولاتهِ لإبقائها دافئةً، ثمَّ مدَّ يده إلى داخلِ عباءتها، ولامسَ صدرَ الطفلِ. كان الطفلُ دافئاً، وقلبه ينبضُ بقوةٍ، ابتسم توم، وفكر في نفسه: «إنَّه فتى قوي ومقاتل».

تحركت آغنيس، ونادت: «توم؟»

«أجل».

«أتتذكر الليلة التي أتيت فيها إلى مسكنكَ عندما كنتَ تعمل في كنيسةِ والدي؟»

«بالطبع»، قال لها، وهو يُربّت عليها، ثمَّ أضاف: «كيف لي أن أنسى!»

«لم أندم قط على منحِ نفسي لكَ.. قط.. لم أندم ولو للحظةِ، وفي كل مرَّةٍ أفكرُ فيها بتلكَ الليلةِ أشعرُ بالسعادةِ».

ابتسم توم فقد كان من الجيدِ أن يعلمَ هذا.

«وأنا أيضاً»، قال لها: «أنا سعيدٌ لأنَّكِ فعلتِ هذا».

عادَت إلى النوم مجدداً، ولكنها استيقظت بعدَ برهةٍ، وقالت له: «آمل أن تتمكن من بناء كاتدرائيتك».

تفاجأ بما سمعهُ وقال لها: «اعتقدت أنَّك تعارضين الأمرَ».

«صحيح لكني كنتُ مخطئةً. أنتَ تستحق شيئاً جميلاً».

لم يعلم ما الذي عنتهُ بكلامِها.

«فلتبنِ كاتدرائيةً جميلةً من أجلي»، قالت له.

لم يكن كلامها منطقياً، وسرَّ عندما عادت إلى النومِ مجدداً، ولكن هذهِ المرةِ بات جسدها بالكاملِ رخواً، وأمالت رأسها جانباً، فاضطرَّ توم إلى إمساكِ الطفلِ، كيلا يقعَ عن صدرِها.

بقيا على هذهِ الوضعية لوقتٍ طويلٍ إلى أن استفاق الطفلُ مجدداً، وبكى، ولكن آغنيس لم تستيقظ. أيقظَ البكاءُ آلفريد فاستدارَ، ونظرَ إلى أخيهِ الرضيع.

هزَّ توم آغنيس بلطفٍ: «انهضي»، قال لها ثمَّ أضاف: «الطفلُ يريد الرضاعةَ».

«أبي!» قال آلفريد بصوتٍ مرتعبٍ ثمَّ أضاف: «انظر إلى وجهها».

شعرَ توم بنذير شؤمٍ، فهو يعلمُ أنَّها نزفت كثيراً.

«آغنيس!» ناداها توم: «انهضي!» ولكن آغنيس لم تُجب كأنَّها لم تكن واعيةً. نهضَ توم وهو يُسندُ ظهرها بيدِهِ ثمَّ وضعها أرضاً. بدا وجهها شاحباً جداً.

ومرتعباً مما سيراه، أفردَ توم طيَّات العباءةِ حول فخذيها.

كان الدم يغطي المكان.

شهقَ آلفريد، وأشاحَ بنظرِهِ.

وقال توم في ما يشبه الهمس: «رحمتكَ يا يسوع المسيح».

أيقظَ بكاءُ الطفلِ مارثا التي عندما رأت الدمَ بدأت تصرخ، فحملها توم وصفعَها على وجهها، فصمتت. «لا تصرخي»، أمرها بهدوءٍ ووضعها أرضاً.

قال آلفريد: «هل أمي تحتضرُ؟»

وضعَ توم يدهُ على صدرِ آغنيس تحت ثديها الأيسر، ولكنه لم يشعر بأيِّ نبضٍ.

لا نبض.

ضغطَ بقوةٍ أكبر. كان جسدها دافئاً، وباطنُ ثديها الثقيل يلامس يدهُ، ولكنها لم تكن تتنفس، ولا وجود لنبضٍ.

خيَّم برودٌ خدرٌ على توم كسحابةٍ ضبابيةٍ. ماتت آغنيس. حدَّقَ إلى وجهها غير مصدقٍ أنَّها لم تعد حيَّةً. أرادها أن تتحرك، أن تفتح عينيه، أن تأخذ نفساً، أبقى يدَه على صدرها، فأحياناً يعاودُ القلب الخفقان كما بقول الناس، ولكنها نزفت كثيراً...

نظرَ توم إلى آلفريد، وهمسَ: «إنَّها ميتة».

حدَّقَ إليه آلفريد فاغرَ الفم، وبدأت مارثا تبكي وانضمَّ إليها المولود. فكرَ توم أنَّ عليه الاعتناء بهم، وأنَّ عليه أن يكون قوياً من أجلهم.

ولكنه أراد أيضاً أن يبكي، أن يطوقها بذراعيهِ، ويحتضنَ جسدها، وهو يبرد، ويتذكرها عندما كانت فتاةً تضحك وتمارسُ الحبّ. أراد أن يبكي من الغضبِ، ويلوح بقبضتهِ نحو السماءِ الظالمةِ، ولكنه تمالكَ نفسه؛ فقد كان عليهِ أن يبقى قوياً من أجلِ الأطفالِ.

وجافاه الدمعُ.

«ما الذي يجبُ عليَّ فعله أولاً؟» فكرَ في نفسهِ.

أحفر قبراً.

يجب أن أحفرَ قبراً عميقاً وأسجيها فيه لإبعادِ الذئابِ عنها، وحمايةِ عظامها حتَّى يومِ الدينونةِ، ثمَّ أتلو صلاةً على روحها، أوه يا آغنيس! لمَ تركتني وحدي؟

كان المولودُ ما يزال يبكي بعينين مُغلقتين بشدةٍ، ويفتح فمه ويُغلقهُ بالتناوبِ كأنَّه يحاول التغذي على الهواءِ. كان يحتاج إلى الطعامِ، وثديا آغنيس ممتلئان بالحليب الدافئ، «ما المانع؟» فكرَ توم، ونقلَ الطفلَ إلى ثدي آغنيس فوجدَ الطفلُ الحلمةَ، وبدأ يرضع، ثمَّ سحبَ توم العباءةَ، وأحكمها حولَ الطفل.

كانت مارثا تراقبُ في عجبٍ وتمصُّ إصبعها، فقال لها توم: «هل يمكنكِ أن تحملي الطفل، وتثبتيه هنا كيلا يقع؟»

أومأت برأسها، وركعت بجانبِ جثةِ المرأة الميتة، والطفلِ.

أخذَ توم المجرفةَ. كانت قد اختارت هذهِ البقعة من أجل الراحةِ، وجلست تحتَ أغصانِ شجرةِ الكستناء، فلتكن إذاً مرقدها الأخير. ابتلعَ

ريقه بصعوبةٍ، وهو يقاوم رغبةً عارمةً بالجلوسِ على الأرضِ والنواحِ. حددَ منطقةً مستويةً وبعيدةً عدةَ ياردات عن جذعِ الشجرةِ حيث لن يكون هناك جذورٌ قريبة من السطحِ، وبدأ بالحفرِ.

ساعدَه الحفرُ على استعادةِ رباطة جأشِهِ، فعندما ركزَّ على دفعِ المجرفةِ في التربةِ الصلبةِ، وإزاحةِ الترابِ توقفَ عن التفكير، وتمالكَ أعصابَهُ. تبادلَ الأدوارَ مع آلفريد كي يهدئه العملُ الجسدي أيضاً. حفرا سريعاً، وأجهدا نفسيهما، ورغمَ الهواءِ القارس جداً فإنهما تعرَّقا كأنَّهما يحفران في عزِّ الظهرِ.

وبعدَ فترة قال آلفريد: «أليسَ هذا كافياً؟»

أدركَ توم أنه كان يقفُ في حفرةٍ بطولِهِ، ولكن لم يرد لهذا العملِ أن ينتهي. أومأ على مضضٍ، وقال: «أعتقد هذا»، ثمَّ خرجَ.

بدأ الفجرُ ينبلجُ، وتوم لا يزال يحفرُ. كانت مارثا لا تزالُ جالسةً قربَ النار تحملُ الطفلَ وتهزهه. توجه توم نحو آغنيس، وركعَ بجانبها ثمَّ أحكمَ عباءتها حولها، ولكنه لم يغطّ وجهها ثمَّ حملها إلى القبرِ، ووضعها قربه، وقفزَ إلى الحفرةِ.

رفعها، ووضعها أرضاً بكلِ رقةٍ، ثمَّ نظرَ إليها مطولاً، وهو راكعٌ هناك قربها في القبرِ البارد. قبَّلها على شفتيها بحنو، ثمَّ أغلقَ عينيها.

خرجَ من القبرِ وقال: «أيُّها الولدان تعالا إلى هنا». جاءَ الولدان ووقفا على كلا جانبيه. كانت مارثا تحمل الطفلَ، أحاطهما توم بذراعيه، ونظروا جميعاً إلى القبرِ، ثمَّ قال توم: «فلتكررا معي، ربَّاه بارك الأمَّ...»

وكلاهما قال: «ربَّاه بارك الأمَّ».

كانت مارثا تنشجُ، والدموع تطفرُ من عيني آلفريد. عانقهما توم، وابتلعَ دموعه.

حررَ توم الطفلين، وحملَ المجرفةَ، وعندما أهالَ أولَ دفعةٍ من الترابِ في القبرِ صرخَت مارثا، عانقَ آلفريد أخته، واستمرَّ توم في إهالةِ الترابِ. لم يكن قادراً على تحملِ فكرةِ رمي الترابِ على وجهها، ولهذا بدأ بتغطيةِ قدميها، ثمَّ ساقيها وجسدها مكوماً التراب في كومةٍ، ومع كلِ رميةٍ كان يسوي الترابَ إلى أن وصلَ إلى عنقها، ثمَّ إلى فمها الذي قبَّله قبلَ قليلٍ.

حالما اختفى وجهها أهالَ الترابَ كله في القبر وبسرعةٍ.

عندما انتهى من العملِ وقفَ ينظرُ إلى القبر وهمسَ: «وداعاً يا عزيزتي، لقد كنت زوجةً صالحةً. أحبكِ».

وبكثيرٍ من الجهدِ أجبرَ نفسه على الاستدارةِ بعيداً.

وجدَ عباءتهُ على الأرضِ حيث استلقت آغنيس عليها، وأنجبت الطفل. كان القسم السفلي منها مُشبعاً بالدمِ المتخثرِ، والجافِ فأخذَ سكينه، وقصَّ العباءةَ من منتصفها، ورمى بالقسمِ المدمى إلى النارِ.

كانت مارثا ما تزال تحملُ الطفلَ، وقال لها توم: «أعطني الطفل». حدَّقت إليه مارثا والخوف في عينيها. لفَّ الطفل بالنصفِ النظيفِ من العباءةِ، وعندما وضعه على القبرِ بدأ يبكي.

استدار توم نحو الولدين، ورأى أنَّهما كانا ينظران إليه ببلاهةٍ، فقال لهما: «لا نملكُ حليباً لإبقائِه على قيد الحياة، ولهذا يجب أن يبقى هنا مع أمّه».

قالت مارثا: «ولكنه سيموت!»

«أجل»، قال توم محاولاً بجدٍ التحكمَ بصوتهِ، وتابع: «أياً يكن ما سنفعله، فهو سيموت»، وتمنّى لو أنَّ الطفل يتوقف عن البكاءِ.

جمعَ كلَّ متاعهم، ووضعه في القدر ثمَّ ربطه إلى ظهرهِ، كما اعتادت آغنيس أن تفعل.

«فلننطلق»، قال توم.

بدأت مارثا تنشجُ، وبدا وجه آلفريد شاحباً. انطلقوا على الطريق في الضوءِ الرمادي لصباحٍ باردٍ، وبالتدريج بدأ صوتُ الطفلِ يخفت تدريجياً حتّى لم يعد مسموعاً.

لم تكن ملازمة جانبِ القبرِ مفيدةً، لأنَّ الولدين لن يتمكنا من النوم هناك، ولم يكن هناك أيُّ فائدةٍ من السهرِ على القبرِ. علاوةً على ذلك من الأفضل لهم أن يتابعوا التحرُّكَ.

سارَ توم بخطى سريعةٍ، ولكن أفكارَه الآن أفلتت من عِقالها، وفقد السيطرةَ عليها. لم يكن هناك ما يمكنه القيامُ به سوى المشي. ليسَ عليهِ القيامُ بأيّ ترتيباتٍ، أو أعمال، أو أيِّ شيءٍ يتطلب تنظيماً؛ لا شيء

أمامهُ سوى الغابة الكئيبة، والظلال المتراقصة في ضوءِ المشاعلِ. فكرَ بآغنبس، وعاد بذاكرتهِ إلى الماضي، فابتسم لنفسهِ ثمَّ استدار ليخبرها بما تذكره، ولكنهُ صُدمَ عندما أدركَ أنَّها ميتة الآن، وتسبب له هذا الإدراك بألمٍ كالألم الجسدي، وشعرَ بالاضطراب كأنَّ شيئاً غير مفهوم أبداً قد حدث. رغمَ أنَّ وفاةَ امرأةٍ في مثلِ عمرِ آغنيس خلال الولادةِ، وتراكَ رجل مثلهُ أرملاً أمرٌ شائع، ولكنه شعرَ بالخسارةِ كجرحٍ. سمعَ توم عن أناسٍ فقدوا إحدى أصابع أقدامهم وعجزوا عن الوقوف، واستمروا بالسقوطِ ولكنهم تعلَّموا السيرَ مجدداً. تملكهُ الشعور ذاته، فقد أحسَّ أنَّ جزءاً منه قد بُترَ، ولم يكن قادراً على الاعتياد على فكرةِ فقدان هذا الجزءِ إلى الأبدِ.

حاولَ ألا يفكر فيها ولكن شكلها قبل موتها لم يغادرهُ. مذهلٌ بحقٍ كيفَ أنَّها كانت على قيدِ الحياةِ منذُ بضعِ ساعاتٍ، وهي ميتةٌ الآن. تخيلَ وجهها، وهي تلدُ، وابتسامة الفخرِ عندما نظرت إلى الصبي الصغيرِ. تذكرَ ما قالته له بعد ذلك: «آمل أن تتمكن من بناءِ كاتدرائيتك، ولتبنِ كاتدرائيةً جميلةً من أجلي». تحدَّثت إليه كأنَّها علمت أنَّها تحتضرُ.

تابعَ المشي، وشغلَ تفكيرهُ الآن الطفل الذي تركه ملفوفاً بنصفِ عباءةٍ فوق قبرٍ حديثٍ. لا بدَّ أنَّه ما زال على قيدِ الحياةِ ما لم يشم ثعلبٌ رائحته، ولكنه على الأرجحِ سيموت بحلولِ الصباحِ. سيبكي لبرهةٍ، ثمَّ سيُغلقُ عينيه، وستغادرُه الحياةُ عندما يبردُ جسده في نومِهِ.

لم يكن هناك ما يمكنُ لتوم فعله بشأنِ الطفلِ، فهو بحاجةٍ إلى الحليب كي يعيش، ولم يكن بوسع توم تأمينهُ له، وما من قريةٍ قريبةٍ يُمكنه فيها إيجاد مُرضعةٍ، أو على الأقل الحصولُ على حليب نعجةٍ، أو ماعزٍ أو بقرةٍ. لم يكن لديه ما يقدمهُ للطفلِ، سوى اللفت الذي سيقتله، كما قد يقتله الثعلبُ.

ومع انحسارِ الظلمةِ تدريجياً بدأت فكرةُ التخلي عن المولود تبدو مروعةً أكثر فأكثر. يعلمُ أنَّ مثل هذا الفعل شائعٌ جداً؛ فالفلاحون في العائلات الكبيرةِ، والمزارعِ الصغيرةِ غالباً ما يتركون الأطفالَ ليموتوا، وأحياناً يغضُّ الكهنةُ النظرَ عن مثلِ هذا الفعلِ، ولكن توم لم يكن مثلهم، ولا من نوعهم. كان الأجدى بهِ أن يحملَه بين ذراعيهِ، إلى أن يموت ثمَّ يدفنُهُ، بالطبع لم تكن

هناك فائدةٌ ترجى من حملِ الطفلِ، ولكن هذا هو التصرّفُ الصائبُ الذي كان عليه القيام بهِ.

وهنا أدركَ أنَّ الوقتَ الآن نهار.

وتوقف فجأةً.

تجمَّد الولدان في مكانيهما، وحدَّقا إليه، ينتظران ما سيقوم به. كانا جاهزين للقيام بأيِّ شيءٍ، فلم يعد أيّ شيءٍ مما يحدثُ الآن طبيعياً.

«لم يكن علي تركُ الطفلِ»، قال توم.

قال آلفريد: «ولكننا لا نستطيعُ إطعامه، وسيكونُ مصيرهُ الموت».

«أياً يكن، لم يكن علي تركُهُ»، قال توم.

قالت مارثا: «فلنعد، ونحضره».

كان توم ما يزال متردداً؛ فالعودة الآن تعني أنَّه كان مخطئاً بتخليهِ عن الطفلِ.

ولكنه كان مخطئاً.

استدار توم، وقال: «حسناً، سنعود ونحضره».

وفجأةً باتت جميعُ المخاطرِ التي فكرَ فيها مسبقاً محتملةً جداً. لا بدَّ أنَّ ثعلباً شمَّ رائحةَ الطفلِ الآن، وجرَّه إلى وجاره، وقد يكون ذئباً. كانت الخنازيرُ البريَّةُ خطرةً أيضاً رغم أنَّها لا تتغذى على اللحم، وماذا عن البوم؟ لا يمكن للبومةِ أن تحملَ طفلاً، وتطير به ولكنها تستطيع فقأ عينيهِ...

غذَّ توم السيرَ، وشعرَ بفراغٍ في عقلهِ جرَّاء التعبِ والجوعِ. كان على مارثا أن تركضَ لتجاريه، ولكنها لم تتذمر.

خشي مما قد يراه عندما يعودُ إلى القبرِ، فالحيوانات الضاريةُ شرسة، ويمكنها أن تشعرَ بعجزِ الكائناتِ الحيَّةِ.

لم يكن واثقاً من المسافةِ التي قطعوها لأنَّه فقد إحساسَهُ بالزمنِ، وبدت الغابةُ على الطرفِ الآخرِ غير مألوفة رغمَ أنَّهَ مرَّ بها قبلاً. كان يتحرَّقُ للوصولِ إلى المكان الذي كان فيهِ القبرُ. لا بدَّ أنَّ النار ما زالت مشتعلةً في المكانِ الذي كانوا فيهِ، فقد بنوا ناراً قويةً. تفحَّصَ الأشجارَ بحثاً عن الأوراقِ المميزةِ لشجرة «كستناءِ الجواد»، ومروا قربَ منعطفٍ جانبي لم

يتذكره، وهنا تساءل في جنونٍ إن كان قد تجاوزَ القبرَ دون أن يراه، ثمَّ تخيلَ أنَّه يرى وهجاً برتقالياً ضعيفاً أمامه.

شعرَ بقلبهِ يخفقُ باضطرابٍ، وسارعَ الخطو، وقد زرَّ عينيه ليرى جيداً. أجل، كان الوهجُ ناراً، وانطلقَ ركضاً. سمعَ مارثا تصرخُ، لا بدَّ أنَّها اعتقدت أنَّه سيتركها فصاحَ من فوق كتفه: «لقد وصلنا!» وسمعَ الولدين يركضان في إثرِهِ.

اقتربَ من شجرةِ الكستناءِ، وشعرَ بقلبهِ يدقُّ بسرعةٍ، كانت النارُ لا تزال قويةً، وهناك كومةٌ من الحطبِ، وبقعةٌ ملطخةٌ بالدماءِ على الأرضِ حيثُ نزفت آغنيس حتَّى الموتِ، وهناك القبر الذي كان أشبه بهضبةٍ من الترابِ المحفورِ، وفي داخله آغنيس مُسجاة، ولكن لم يكن فوق القبر شيءٌ.

نظرَ توم من حولهِ في ذعرٍ، وشعرَ بالاضطربِ. لم يجد أثراً للطفلِ، وترقرت دموعُ العجزِ واليأسِ من عينيه. ورغمَ أنَّه لم يكن هناك أثرٌ حتَّى لنصفِ العباءةِ التي لفَّ بها الطفلَ، غيرَ أنَّ القبرَ بدا سليماً. لم يكن هناك آثارُ حيوانٍ على الترابِ الطري، ولا دماءٌ، ولا ما يشير إلى أنَّ الطفلِ جُرَّ بعيداً...

بدأ توم يشعر بالعجزِ عن التفكيرِ بوضوحٍ، وأدركَ الآن أنَّه ارتكبَ عملاً رهيباً بتركِهِ للطفلِ، وهو ما يزال على قيدِ الحياةِ. لو أنَّ الطفلَ ميتٌ لكان سلَّم بالأمرِ وارتاح، ولكنه قد يكونُ في مكانٍ ما، مكانٍ قريبٍ، وحيَّاً. وهنا قررَ أن يتجول في المكانِ، ويستطلع.

سألهُ آلفريد: «إلى أين أنت ذاهب؟»

«يجب أن نبحثَ عن الطفلِ»، أجابَ من دون أن يلتفتَ إلى الوراءِ. تجولَ في أطرافِ المنطقةِ باحثاً تحتَ الشجيرات، وهو ما يزالُ يشعرُ ببعضِ الدوار، وأنَّه على وشك الإغماءِ. لم يرَ شيئاً ولا حتَّى أثراً للاتجاه الذي أخذَهُ الذئب حاملاً الطفلَ. كان واثقاً الآن من أنَّه ذئبٌ، وقد يكون وجاره قريباً من المكانِ.

«يجب أن نوسعَ حلقةَ البحثِ»، قال توم للطفلين.

قادَهما مجدداً، وتحركوا مبتعدين أكثر، فأكثر عن النار، وهم يبحثون بين الأجماتِ، والشجيراتِ الكثيفةِ. بدأ توم يشعرُ أنَّه مشوشٌ، ولكنه تحكمَ بنفسهِ بأن ركزَ تفكيرهُ على شيءٍ واحدٍ ألا وهو حاجتهُ المُلحةُ إلى إيجاد

الطفلِ. لم يعد الآن يشعرُ بالحزنِ، بل بتصميم غاضبٍ؛ ففي عقله دارت فكرةٌ مروعةٌ وهي أنَّ كلَّ ما حدثَ خطأهُ. سارَ بتخبطٍ عبرَ الغابةِ يفتشُ الأرضَ بعينيهِ، ويتوقف بين الفينةِ، والأخرى علّه يسمعُ بكاءَ الطفلِ الذي لا يمكن إخطاؤه، ولكن عندما يتوقف، ويلتزم هو والطفلان بالصمتِ تغرقُ الغابةُ في الصمتِ معهم أيضاً.

كان توم الآن قد فقدَ إحساسَهُ بالزمنِ، وبين الفينةِ والأخرى أعادهُ الدوران المستمر في دوائر إلى الطريقِ نفسه. أحسَّ توم لاحقاً أنَّ الزمن كان أطول، وفي مرحلةٍ ما تساءلَ في نفسه عن سببِ عدم مرورهِ ببيت حارسِ الغابةِ. خطرَ له أنَّه ربما أضاعَ الطريقَ، ولم يعد يدور حولَ منطقةِ القبرِ بل يدور في الغابة بشكلٍ عشوائي، ولكن أيّاً من هذا لم يكن مهماً حقاً ما دامت عمليةُ البحثِ مستمرةً.

«أبي»، قال آلفريد.

نظرَ توم إليه في ضيق لأنَّه قطعَ عليهِ تركيزَه. كان آلفريد يحملُ مارثا التي غطَّت في النومِ على ظهرهِ.

«ماذا؟» قال توم.

«هل يمكننا أن نرتاح؟» قال آلفريد.

ترددَ توم فهو لم يكن راغباً في التوقفِ، ولكن آلفريد بدا كأنَّه على وشكِ الانهيارِ: «حسناً»، قال توم على مضضٍ: «ولكن ليس طويلاً».

لمحَ توم منحدراً، وهذا يعني أن جدولَ ماءٍ في أسفلهِ. كان يشعرُ بالعطشِ. أخذَ مارثا من آلفريد وشقَّ طريقَهُ إلى أسفل المنحدر ومارثا على ذراعيه، وتماماً كما توقع فقد وجدَ جدولَ ماءٍ صافٍ صغيراً متجمداً عندَ أطرافهِ، وضعَ توم مارثا عندَ ضفةِ الجدولِ، ولكنها لم تصحُ، ثمَّ ركعَ هو، وآلفريد، وشربا الماءَ الباردَ بأيديهما.

استلقى آلفريد إلى جانبِ مارثا، وأغلقَ عينيهِ. تفحصَ توم المكانَ من حولهم. كانت منطقةً خاليةً من الشجرِ تغطيها أوراقٌ متساقطةٌ، والأشجار التي تحفُّ بالمنطقةِ من نوع البلوطِ المتين، والقصير بأغصانٍ عارية متشابكة. عبرَ توم هذهِ المساحةَ الخاليةَ وهو يفكرُ بالطفلِ خلفَ الأشجار، ولكن عندما وصلَ إلى الجانبِ الآخرِ خارت قواه فاضطر إلى الجلوسِ بسرعةٍ.

كان ضوءُ النهارِ الآن قوياً رغمَ الضبابِ الذي لفَّ المكان، ولكن الطقسَ لم يكن أكثرَ دفئاً مما كان عليهِ في منتصفِ الليلِ. كان يرتجفُ جداً، واكتشفَ أنَّه كان يسيرُ في سترتِهِ الداخليةِ فحسب، وتساءل عمَّا حدثَ لعباءتِهِ، ولكنه لم يتذكر، وفجأة شعرَ أنَّ الضباب ازدادَ كثافةً، أو أنَّ خطباً ما أصابَ بصرَهُ، لأنَّه لم يعد قادراً على رؤيةِ الطفلين عند الجانبِ الآخرِ من الفسحةِ. أرادَ أن ينهض ويتوجه إليهما، ولكنه شعرَ بخطبٍ ما بساقيه.

بعدَ برهةٍ تسللت أشعةُ الشمسِ الضعيفةِ عبرِ الغيمةِ، وسرعان ما رأى أمامهُ ملاكاً.

من الشرقِ أتى الملاكُ وعبرَ الفسحةِ في عباءةٍ شتوية طويلةٍ من الصوفِ الناصع البياضِ. راقبَ توم الملاكَ يقتربُ، ولكنه لم يُفاجأ به، أو يُثر فضوله، لأنَّه كان عاجزاً في هذهِ اللحظةِ عن الشعورِ بالدهشةِ، أو الخوفِ. ألقى على هذا الملاك نظرةً غير عابئةٍ وعرضيةٍ كأنَّه ينظرُ إلى الجذوعِ الكبيرةِ لأشجار البلوطِ المحيطةِ به. كانَ الملاكُ امرأةً رأسها مطوقٌ بشعرٍ داكنٍ، وكثيفٍ، وعباءتها تُغطيها حتَّى قدميها، فبدت كأنَّها تنزلقُ فوقَ أوراقِ الأشجارِ الميتةِ. توقفت المرأة أمامَهُ، وبدت عيناها اللتان كانتا بلونٍ عسلي فاتح كأنَّهما تخترقان روحهُ، وتفهمان ألمَهُ. بدت مألوفةً، وشعرَ أنَّه رأى صورةً لهذا الملاكِ في كنيسةٍ دخلها مؤخراً ثمَّ فتحت المرأةُ عباءتَها. كانت عاريةً. كان الملاكُ في جسدِ امرأةٍ فانيةٍ في منتصفِ العشرين، ببشرةٍ شاحبةٍ، وحلمتين ورديتين. لطالما تخيلَ توم أجسادَ الملائكةِ غير مشعرة، ولكن هذا الملاك لم يكن كذلك.

ركعَت المرأة على ركبةٍ واحدةٍ أمامَه حيث جلسَ مُقاطعاً ساقيه قربَ شجرةِ البلوطِ. انحنت فوقهُ وقبَّلته على فمهِ، ولأنَّ توم كان مُخدراً من كلِّ الصدماتِ التي تعرَّضَ لها، لم يُفاجأ بما فعلتهُ المرأةُ. دفعتهُ على ظهرهِ بلطفٍ إلى أن استلقى على الأرضِ، ثمَّ فتحت عباءتها، واستلقَت فوقه وجسدها العاري فوقَ جسدهِ. شعرَ توم بحرارةِ جسدها تتسلل إلى جسدهِ، من فوقِ سترته الداخليةِ، وبعدَ وهلةٍ توقفَ عن الارتجافِ.

أمسكَت وجهه المشعرَ عندَ منطقةِ اللحيةِ بين يديها وقبَّلته مجدداً وبنهمٍ كأنَّها تشربُ من ماء ينبوعٍ باردٍ بعدَ يومٍ طويلٍ وجافٍ. بعد برهةٍ مررت يديها

على ذراعيهِ، وعلى معصميهِ، ثمَّ أمسكت يديه، ووضعتهما على ثدييها. قبضَ توم على ثدييها بشكلٍ غريزي، ووجدهما طريين ولدنين، ورأى حلمتيها تكبران عندما عصرَهما بأطرافِ أصابعِهِ.

اعتقدَ أنَّه ميتٌ، ولكنه يعلمُ أنَّ الجنةَ لا يفترض أن تكون كذلك، إلَّا أنَّه وفي هذهِ اللحظةِ لم يعبأ كثيراً حيال الأمرِ. كانت ملكاته العقليةُ قد غادرته لساعاتٍ، واختفت معها أيُّ قدرةٍ على التفكير بعقلانيةٍ، واستلمَ جسدهُ زمامَ الأمور. دفعَ بجسدهِ نحو جسدها مُستمداً القوة من حرارةِ عُريها. فتحت فمَها وأقحمَت لسانَها في فمهِ باحثةً عن لسانهِ، فاستجاب لها في توقٍ.

سحبَت نفسها قليلاً، وأبعدَت جسدَها عن جسدِهِ. راقبها توم في ذهولٍ وهي ترفعُ الجزءَ السفلي من سترتِهِ الداخليةِ الطويلةِ التي تحيطُ بخصرهِ، ثمَّ جلسَت فوقَ وركيهِ، نظرَت في عينيهِ بتلك النظرةِ الثاقبةِ، ونامت فوقه، وكانت اللحظةُ التي تلامسَ فيها جسداهما أشبه بثمرةٍ صعبة المنالِ. أبدَت المرأة تردداً ثمَّ شعرَ توم بنفسهِ يخترقها. كان الإحساس مذهلاً، وشعرَ كأنَّه سينفجرُ من النشوةِ، وحرَّكت المرأة وركيها، وهي تبتسمُ له وتقبلُ وجههُ.

وبعدَ برهةٍ أغلقت عينيها، وبدأت تلهثُ. عرفَ أنَّها الآن فقدت السيطرة على نفسها، وراقبها في بهجةٍ وذهولٍ. نمَّت عنها صيحاتٌ إيقاعيةٌ قصيرةٌ، وهي تتحرك أسرع، وأسرع وحرَّكت نشوتها توم في صميمِ روحهِ المجروحةِ إلى درجةٍ حار معها. هل ينتحب من اليأسِ، أم يصرخ من الفرحِ، أو يضحك بشكلٍ هستيري؟ ثمَّ هزهما انفجارُ نشوةٍ كشجرتين في مهبِ عاصفةٍ مراراً، وتكراراً إلى أن تراجعَ دفقُ الأحاسيسِ، وألقت المرأةُ بنفسها فوقَ صدرهِ.

بقيا على هذهِ الوضعيةِ لوقتٍ طويلٍ، وأدفأت حرارةُ جسدِها جسده، بينما استسلمَ هو لنومٍ خفيفٍ. كان الأمرُ أشبهَ بحلمِ يقظةٍ قصيرٍ أكثر مما كان نوماً حقيقياً، ولكن عندما فتحَ عينيه عادَ إليه صفاؤهُ.

نظرَ إلى المرأةِ الجميلةِ المستلقيةِ فوقهِ، وعلمَ على الفورِ أنَّها لم تكن ملاكاً، بل تلك المرأةُ الخارجةُ عن القانون، إيلين، التي التقاها في الغابةِ يومَ سُرقَ الخنزيرُ. شعرت بحركتهِ، ففتحت عينيها، وتأملته، وعلى وجهها مزيجٌ

من الحبِّ والقلقِ. فجأةً تذكرَ أطفاله، فأبعدَ إيلين عنه بلطفٍ وجلسَ. كان آلفريد، ومارثا مستلقيين على الأوراقِ ملتفعين بعباءتهما، وأشعةُ الشمسِ على وجهيهما الغافيين، وعندها اجتاحتهُ أحداثُ البارحةِ كنوبةِ ذعرٍ، وتذكر أنَّ آغنيس ميتةٌ، والمولود –ابنه – اختفى، فدفنَ وجهه بين يديه.

سمعَ توم إيلين تصفّر صفرةً غريبةً بطبقتين مُختلفتين، فرفعَ رأسه ورأى خيالاً يخرجُ من الغابةِ، وهنا تذكرَ توم جاك –ابن إيلين الغريب الأطوار– ببشرتهِ البيضاء بياض بشرةِ الأموات، وشعرهِ النحاسي، وعينيه الزرقاوين جداً والشبيهتين بعيونِ الطيورِ. نهضَ توم، وسوى ثيابهُ، فوقفت إيلين، وأغلقَت عباءتها.

كان الفتى يحملُ شيئاً، وعندما وصلَ أراه لتوم الذي عرفَهُ على الفورِ، كان نصفَ العباءةِ التي لفَّ بها الطفلَ قبل أن يضعه على قبر آغنيس.

وفي عجزٍ عن فهمِ أيِّ شيءٍ حدَّقَ توم إلى الصبي، ثمَّ إلى إيلين التي أخذت يديه بين يديها، ونظرَت في عينيه، وقالت: «طفلكَ على قيدِ الحياةِ».

لم يتجرأ توم على تصديقِها. كان ما قالته رائعاً ومفرحاً جداً لكي يحصلَ في هذا العالم.

«لا يمكن أن يكون حيّاً»، قال توم.

«إنَّه كذلك».

وعادَ الأملُ إلى توم الذي قال: «حقاً؟ حقاً؟»

أومأت برأسِها وقالت: «حقاً، وسآخذك إليه».

فهم توم الآن أنَّها تعني ما قالتهُ، وغمرته موجةٌ من الراحةِ، والسعادةِ خرَّ معها أرضاً على ركبتيه ثمَّ تدفقت الدموع من عينيه كأنَّ سَداً فُتحَ، وانهارَ مُنتحباً.

– 5 –

«سمعَ جاك بكاءَ الطفلِ»، قالت إيلين لتوم، وتابعت: «كان في طريقهِ إلى النهرِ الذي يجري شمالاً من هنا حيث يمكنُ اصطيادُ البطِّ بحجرٍ إن كنت ماهراً في الرمي. حارَ جاك في ما يجب فعلهُ لذلك ركضَ عائداً إلي ليُحضرني، لكن في طريقنا إلى المكانِ الذي وجدَ فيه الطفل رأينا كاهناً على جوادٍ قصيرِ القوائمِ يحملُ الطفل».

قال توم: «يجبُ أن أجدَهُ...».

«لا تهلع»، قالت إيلين ثمَّ أضافت: «أعلمُ إلى أين ذهبَ فقد أخذَ مُنعطفاً قريباً جداً من القبرِ يُفضي إلى صومعةٍ في قلبِ الغابةِ».

«يحتاجُ الطفلُ إلى الحليبِ».

«يربي الرهبانُ الماعز».

«الشكرُ للرَّبِّ»، قال توم بحماسةٍ.

«سآخذكَ إلى هناك بعد أن تتناولَ بعضَ الطعامِ»، قالت إيلين، «ولكن...» وعبست، «لا تُخبر طفليكَ بشأنِ الديرِ».

نظرَ توم عبرَ الفسحةِ، ورأى أنَّ آلفريد ومارثا ما يزالان يغطان في النومِ. كان جاك قد انسلَّ إلى حيث ناما، ووقفَ يحدق إليهما بطريقتِهِ البلهاءِ.

«لم لا؟» سأل توم.

«لست واثقةً... أعتقدُ فقط أنَّه من الحكمةِ أن ننتظرَ».

«ولكن ابنك سيُخبرهما».

هزَّت رأسَها في نفي، وقالت: «رأى الكاهن، ولكنه لم يستوعب ما حدثَ بعدَ ذلكَ».

«حسناً»، قال توم برصانةٍ ثمَّ أضاف: «لو كنتُ أعلم أنَّك قريبةٌ لطلبتُ مساعدتكِ في إنقاذِ آغنيس».

هزَّت إيلين رأسَها، وتراقصت خصلاتُ شعرِها الداكنِ حولَ وجهها، ثمَّ قالت: «ليسَ هناك ما يمكنُ القيام به أكثر من إبقاءِ المرأةِ دافئةً، وقد حرصتَ أنتَ على فعلِ ذلكَ. عندما تنزفُ المرأة من الداخل، فإمَّا أن يتوقفَ النزيفُ، وتتحسن، أو لا يتوقف وتموت»، رأت إيلين الدموعَ تنهمرُ من عيني توم، فقالت: «أنا آسفةٌ».

هزَّ توم رأسَه بصمتٍ.

قالت إيلين: «ولكن على الأحياءِ أن يعتنوا بالأحياءِ، وأنتَ بحاجةٍ إلى طعامٍ دافئ، ومعطفٍ جديدٍ»، ثمَّ وقفت.

أيقظَ توم الطفلين، وأخبرهما أنَّ المولود على ما يرامُ، وأنَّ إيلين وجاك رأيا كاهناً يحملهُ، وأنَّ توم وإيلين سيقومان بالبحثِ عن الكاهنِ

لاحقاً لأنَّ إيلين ستقدم لهما الطعام أولاً. تلقى الطفلان الأخبارَ المفاجئةَ بهدوءٍ فلم يعد هنا ما قد يصدمهما الآن. لم يكن توم أقلَّ ارتباكاً منهما؛ فقد كانت الحياة تتغيرُ بسرعةٍ كبيرةٍ، ولم يكن قادراً على استيعابِ كلِّ هذهِ التغيرات. كان الأمرُ أشبهَ بامتطاءِ جوادٍ هاربٍ يركضُ بسرعةِ البرقِ. حدثَ كلُّ شيءٍ بسرعةٍ كبيرةٍ، ولم يحظَ بوقتٍ كافٍ لاستيعابِ ما جرى، ولذلكَ كان كل ما يسعهُ القيامُ بِهِ الآن هو تمالك نفسه جيداً، ومحاولة الحفاظِ على قواه العقليةِ. أنجبت آغنيس مولودَها في العراءِ، وفي ليلةٍ باردةٍ، وبأعجوبةٍ ولدَ الطفلُ سليماً. وقتئذٍ بدا كلّ شيءٍ على ما يرام، ولكن آغنيس، توأمَ روحِه، نزفَت حتَّى الموتِ بين ذراعيهِ. عندئذٍ فقدَ عقلَهُ وقررَ أن الطفل سيموت لا محالة، ولهذا تخلَّى عنه، وغادرَ ثمَّ حاولَ أن يعثر عليه مجدداً ففشلَ، وعندها ظهرت إيلين، واعتقدَ توم أنَّها ملاك، ومارسا الحبَّ في ما يشبه الحلمَ، ثمَّ قالت له إنَّ الطفلَ ما زال على قيدِ الحياةِ، وبصحةٍ جيدةٍ. هل ستُبطئ الحياة من زخمِها ليستوعب كل هذهِ الأحداثِ المريعةِ؟

انطلقوا جميعاً مع إيلين وجاك. لطالما اعتقدَ توم أنَّ الخارجين عن القانون يعيشونَ وسط القذارةِ، ولكن إيلين كانت أبعدَ من أن تكون كذلكِ، وتساءل توم في نفسهِ عن شكلِ المنزلِ الذي تعيش فيهِ. قادتهم عبرَ الغابةِ بشكلٍ متعرجٍ، فلم يكن هناك طريقٌ مفتوحٌ. قفزت إيلين فوقَ الغدران، وانحنت تحتَ الأغصانِ الواطئةِ، وخاضت في مستنقعٍ متجمدٍ، ودخلت بين الأجماتِ، وتجاوزت جذع شجرةٍ بلوط ضخماً على الأرضِ، وأخيراً دخلت في دغلٍ من نباتِ العُليقِ ثمَّ اختفت فيه. دخلَ توم الدغلَ، وعلى عكس ما تصوره للوهلةِ الأولى، رأى ممرّاً ضيقاً عبرهُ. لحق بإيلين تحتَ نباتات العليقِ المتشابكةِ فوق رأسِهِ ثمَّ وجدَ نفسهُ وسطَ عتمةٍ شبه تامَّةٍ. وقفَ مكانَه بانتظار أن تعتادَ عيناه على الضوءِ، وتدريجياً أدركَ أنَّه كان في كهفٍ.

كان الهواءُ في الداخلِ دافئاً؛ فقد كان أمامه موقدٌ من الحجارةِ المُسطحةِ، ودخانُ النارِ يصعدُ إلى الأعلى كأنَّ هناك مدخنة طبيعية في مكان ما، وعلى كلا جانبي توم فراء ذئبٍ وجلد غزال مُثبتان إلى جدرانِ الكهفِ بأوتادٍ

خشبيةٍ. رأى فخذَ غزال مدخناً متدلياً من السقفِ فوقه، ثمَّ لمحَ صندوقاً منزلي الصُنعِ مليئاً بالتفاحِ الصغيرِ الحامضِ، وعلى الأطرافِ شموعاً مصنوعةً من الشحمِ، والأرضية مفروشةً بالقصبِ. عندَ طرفِ الموقدِ قدرٌ للطبخِ تماماً كما في أيِّ منزلٍ عادي، ومن الرائحةِ عرفَ توم أنَّ القدرَ يحوي على نوعٍ من العصيدةِ العاديةِ المكونةِ من الخضارِ المسلوقةِ مع العظام، والأعشابِ العطرةِ، ذُهلَ توم مما رآه؛ فقد كان منزلاً مريحاً جداً بل مريحاً أكثر من معظمِ منازلِ الأقنانِ.

خلفَ الموقدِ رأى توم فراشين مصنوعين من جلدِ الغزالِ، وهما على الأغلبِ محشوان بالقصبِ، وعلى كل فراشٍ فراءُ ذئبٍ مُرَّتبٌ بعنايةٍ. لا بدَّ أنَّ إيلين وجاك ينامان على الفراشين، والنار بينهما عندَ مدخلِ الكهف. في أقصى زاويةٍ من المكانِ مجموعةٌ كبيرةٌ من الأسلحةِ، وأدواتِ الصيدِ كقوسٍ، وبعضِ السهامِ، والشباكِ، وفخاخ الأرانبِ، ومجموعةٌ من الخناجرِ الممتازةِ، ورمحٌ خشبي متقنُ الصنعِ بطرفٍ مسفوعٍ بالنارِ، ومن بين هذهِ الأدواتِ البدائيةِ ثلاثةُ كتبٍ. صُعق تومَ عندما رأى الكتبَ، فهو لم يرها قبلاً في منزلٍ فكيف في كهفٍ. كانت الكتبُ ممتلكات لا تُرى إلا في الكنائسِ.

التقطَ الفتى جاك وعاءً خشبياً، وأخذَ بعضَ العصيدةِ من القدرِ، وبدأ يشربُ. راقبهُ كلٌّ من آلفريد ومارثا، وهما يتضوران جوعاً. نظرت إيلين إلى توم معتذرةً وقالت: «جاك، عندما يكون لدينا غرباء نقدمُ لهم الطعام أولاً».

حدَّقَ الفتى إليها مستغرباً وسأل: «لماذا؟»

«لأنَّ هذا هو السلوك المهذب. فلتقدم للولدين بعضَ العصيدةِ».

لم يقتنع جاك بما سمعَهُ، ولكنه أطاعَ والدتَه التي قدَّمت بعضَ العصيدةِ إلى توم، فجلسَ على الأرضِ وشربها. كان طعمها كطعمِ اللحمِ، وشعرَ بها تدفئهُ من الداخلِ. وضعت إيلين الفراءَ حول كتفيه، وعندما انتهى من شُربِ العصيدةِ، أخرجَ قطعَ الخضار واللحم بيدهِ من قعرِ الوعاءِ. مرَّت أسابيع كثيرة مُذ تناولَ اللحمَ الذي بدا له كلحمِ البطِ. لا بدَّ أنَّ جاك اصطاده بالحجارةِ والمقلاعِ.

أكلوا وأكلوا إلى أن فرغَ القدرُ ثمَّ استلقى آلفريد، ومارثا على القصب المفروشِ على الأرضِ، وقبلَ أن يغطا في النومِ أخبرهما توم أنه وإيلين

سيذهبان للبحثِ عن الكاهنِ. طلبت إيلين من جاك أن يبقى معهما، ويهتم بهما إلى أن يعودا، أومأ طفلا توم موافقين، وأغلقا أعينهما.

خرجَ توم وإيلين، وقد وضعَ توم الفراءَ الذي غطته بهِ إيلين على كتفيه ليبقى دافئاً. حالما خرجا من دغلِ نباتِ العليق توقفت إيلين، والتفتت نحو توم ثمَّ جذبت رأسه نحو رأسها، وقبّلته على فمِهِ.

«أحبّك»، قالت بضراوةٍ: «أحببتكَ من اللحظةِ التي رأيتكَ فيها. لطالما تمنيتُ رجلاً قوياً ولطيفاً. كنتُ اعتقدُ أنَّه لا وجود لمثلِ هذا الرجل إلى أن التقيت بكَ. أردتك آنذاك، ولكن عرفتُ أنَّك متزوج. يا إلهي كم حسدت زوجتك! يؤسفني أنَّها توفيت، ويؤسفني حقاً أن أرى حزنكَ عليها في عينيك، وكلّ الدموعِ التي تنتظرك أن تذرفها عليها، وأشعرُ أنَّ قلبي ينفطرُ حزناً على رؤيتك وأنت على هذهِ الحال، ولكن الآن وبعد رحليها أريدكَ لنفسي».

لم يعرف توم ما يجب قولهُ، ووجدَ صعوبةً في التصديقِ أنَّ امرأةً جميلةً جداً، وواسعةَ الحيلةِ، ومكتفيةً قد تقع في حبهِ من النظرةِ الأولى، ولكنّ الصعوبةَ الحقيقية التي واجهها كانت التأكدَ من شعوره حيالَ الأمرِ. حطّمتهُ خسارةُ آغنيس، وكانت إيلين على حقٍ عندما قالت إنَّ هناك دموعاً تنتظرهُ ليذرفها، فهو يشعرُ بثقلها في عينيهِ، ولكن الرغبةَ بإيلين، وبجسدِها المثيرِ، وعينيها العسليتين، وشبقها الصارخِ يستنفدانه. شعرَ بالذنبِ الشديدِ لرغبته بإيلين بعد مرورِ ساعاتٍ فقط على دفنِ آغنيس.

حدَّقَ فيها، ومجدداً اخترقت نظرةُ عينيها قلبَه، وهنا قالت له: «لا تقل شيئاً، ليسَ عليك أن تشعرَ بالخجلِ. أعلمُ أنَّكَ أحببتها، وأعرفُ أنها تعلمُ هذا أيضاً، أعلمُ أنَّك مازلت تحبها، بالطبعِ ما زلت تحبها، وستظلُ تحبها».

رغمَ أنَّها طلبت منه ألا يقول شيئاً فإنَّه لم يكن لديه ما يقولهُ. كان عاجزاً عن الكلامِ بسببِ هذه المرأةِ الاستثنائيةِ التي بدت قادرةً على تصويبِ أيِّ أمرٍ، وبطريقةٍ ما جعله هذا يشعرُ بشعورٍ أفضل كأنَّه الآن لم يعد خجلاً من أيِّ شيءٍ.

تنهّد توم.

«هذا أفضل»، قالت له، وأمسكته من يده ثمَّ خرجا من الكهف معاً.

شقَّا طريقهما عبرَ الغابةِ المُقفرةِ لمسافةِ ميلٍ، ثمَّ خرجا إلى الطريقِ، وأثناءَ سيرهما استرقَ توم النظرَ إلى وجهِ إيلين بجانبهِ، وتذكرَ أنَّه عندما التقى

بها اعتقدَ أنَّها لم تكن جميلةً بسببِ شكلِ عينيها الغريب، ولكنه عجزَ الآن عن فهمِ سببِ شعورِه بذلك آنذاك. رأى الآن أنَّ هاتين العينين المُذهلتين تعكسان بصدقٍ شخصيتها الفريدة. بدت له مثاليةً جداً، ولم يعد هناك ما يُحيرُ فيها باستثناءِ سببِ رغبتها بهِ.

سارا لثلاثةِ أو أربعةِ أميالٍ. كان توم ما يزال مُتعباً، ولكن العصيدةَ منحته القوةَ، وعلى الرغمِ من أنَّه الآن بات يثقُ بإيلين ثقةً عمياء فإنَّه شعرَ بالقلقِ إزاء رؤيةِ الطفلِ بعينيهِ.

حالما لمحا ديرَ الرهبانِ من بين الأشجار قالت إيلين: «دعنا لا نكشف عن أنفسنا أمامَ الرهبان على الفورِ».

بدا توم محتاراً وسألها: «ولماذا؟»

«لقد تخليتَ عن طفلٍ ويُعتبرُ هذا العملُ جريمةً. فلنراقب المكانَ من هنا، ونكتشف أيّ نوعٍ من الناس هم».

بالنظرِ إلى الظروفِ التي مرَّ بها توم لم يعتقد قط أنّه قد يقع في المتاعبِ، ولكن لم يكن هناك ضررٌ في التصرفِ بحذرٍ. أومأ برأسهِ موافقاً، ولحقَ بإيلين التي تسللت وراءَ شجيراتٍ، وبعد برهةٍ وصلا إلى طرفِ فُسحةٍ خاليةٍ من الشجرِ.

كان الديرُ صغيراً. بنى توم أديرةً كثيرةً، وبالنظرِ إلى هذ الديرِ تكهنَ أنَّه من النوعِ الذي يدعى صومعةً، والذي يعد فرعاً، أو قاعدةً لديرِ رهبانٍ كبيرٍ، أو كنيسةٍ ما. لم يكن فيهِ سوى بناءين حجريين: مصلى، وغرفة نومٍ جماعية، أمَّا بقيةُ الأبنيةِ كالمطبخِ، والإسطبلاتِ، والحظيرةِ، ومجموعة من المباني الزراعيةِ الصغيرةِ فكانت مبنيةً من الأغصانِ والطينِ. بدا المكان نظيفاً، ومُعتنى به جيداً، ويُعطي للناظرِ انطباعاً أنَّ الرهبان يعملون بقدرِ ما يُصلون.

لم يكن هناك أناسٌ كثرٌ في المكانِ. «خرجَ معظمُ الرهبانِ للعملِ»، قالت إيلين، وتابعت: «إنَّهم يبنون حظيرةً أعلى التلةِ»، وحدَّقت عالياً نحو السماءِ ثمَّ أضافت: «سيعودون بحلولِ الظهرِ لتناول الغداءِ».

تفحصَ توم المكان، ووجدَ إلى يمينه، وبشكلٍ مخفي تقريباً، خلفَ قطيعٍ صغيرٍ من الماعزِ المحبوسِ شخصين: «انظري»، قال توم مشيراً إلى الشخصين. أمعنَ النظرَ جيداً، ورأى شيئاً آخر: «الرجلُ الجالسُ كاهنٌ و...».

«وهو يحملُ شيئاً في حضنِهِ».

«لنقترب أكثر».

تحرَّكا بين الأشجارِ على أطرافِ الفسحةِ، وخرجا إلى منطقةٍ قريبة من الماعزِ. شعرَ توم بقلبِهِ يخرجُ من صدرِهِ وهو ينظرُ إلى الكاهنِ الجالسِ على كرسي. كان يحملُ طفلاً في حضنِهِ، والطفلُ ابنه. وهنا شعرَ توم بغصَّةٍ في حلقِهِ. إذاً، كان الأمرُ حقيقياً. كان الطفلُ حيّاً، وشعرَ برغبةٍ في احتضانِ الكاهنِ، ومعانقتِهِ.

إلى جانبِ الكاهنِ راهبٌ شابٌ. رأى توم الراهبَ الشابَ يغمس خرقةً في دلو حليبِ الماعزِ على الأغلب، ويضعُ طرفَ الخُرقةِ المُشبعةِ بالسائلِ في فمِ الطفل، كان هذا عملاً ذكياً.

«حسناً»، قال توم في وجلٍ، وتابع: «من الأفضلِ أن أذهب، وأتحملَ مسؤوليةَ ما فعلته، وأسترجع ابني».

نظرَت إيلين إليه مباشرةً، وقالت: «تمهل يا توم، وفكر قليلاً بما ستفعله بعدها؟»

لم يفهم ما الذي رمت إليه بكلامها، وقال لها: «سأطلب من الرهبان الحليبَ، يمكنهم التكهنُ أنني فقيرٌ، وهم يمنحون الصدقات».

«وماذا بعد؟»

«حسناً، آمل أن يعطوني ما يكفي من الحليبِ لإبقاءِ الطفلِ حيّاً لثلاثةِ أيام إلى أن أصلَ إلى وينشستر».

«وبعد ذلكَ؟» احتَجّت ثمَّ تابعت: «كيفَ ستتطعم الطفل بعد ذلك؟»

«حسناً، سأبحثُ عن عملٍ».

«أنتَ تبحثُ عن عملٍ مُذ رأيتكَ لأولِ مرَّةٍ في نهاية فصلِ الصيف»، قالت له وبدت غاضبةً منه بعضَ الشي، ولكن توم لم يفهم السببَ، «أنتَ لا تملكُ مالاً، ولا أدوات»، تابعت كلامها. «ما الذي سيحدثُ للطفلِ إن لم تجد عملاً في وينشستر؟»

«لا أعلم»، قال توم وقد آلمتهُ قسوة كلامها: «ما الذي يجب أن أفعلهُ... أن أعيش مثلك؟ لا يمكنني صيدُ البطِّ بالحجارةِ، فأنا بنَّاءٌ».

«يمكنكَ أن تترك الطفل هنا»، قالت له.

صُعقَ توم مما سمعه وقال: «أتركه هنا؟ وبعد أن وجدته؟»

«فلتكن على ثقةٍ أنَّه سيكون دافئاً وشبعان هنا، ولن تكون مضطراً إلى حمله معكَ عندما تبحث عن عملٍ، وعندما تجد عملاً يمكنكَ العودة إلى هنا، واسترجاعُ الطفلِ».

شعرَ توم بتمردٍ غريزي على الفكرةِ برمتها، وقال: «لا أعلم. ما الذي سيعتقدُهُ الرهبان عندما يعلمون أنني تخليتُ عن الطفلِ؟»

«إنهم يعلمون هذا الآن»، أجابتهُ بنفاد صبرٍ، وأضافت: «ولذلكَ فإنَّ المسألةَ هنا هي رغبتكَ بالاعتراف الآن أم لاحقاً».

«هل يعرفُ الرهبان كيف يعتنون بالأطفال؟»

«يعلمون تماماً بقدرِ ما تعلم أنت».

«أشكُّ في هذا».

«حسناً، لقد عرفوا كيفَ يُطعمون طفلاً حديث الولادةِ».

وبدأ توم يدرك أنَّها مُحقةٌ في ما قالتهُ، وبقدرِ ما كان يتوق إلى احتضانِ ذلكَ الطفلِ الصغيرِ بين ذراعيه، لم يكن بوسعهِ الإنكار أنَّ الرهبان سيعتنون بالطفلِ بشكلٍ أفضلٍ مما قد يفعل هو. لم يكن لديه طعامٌ أو مالٌ، ولم يكن واثقاً من إمكانيةِ الحصول على عملٍ. «أتركه مجدداً؟» قال توم بحزنٍ، وتابع: «أعتقدُ أنه عليَّ القيامُ بهذا». لازم توم مكانَه، وهو يحدق عبرَ الفسحةِ إلى الطفلِ الصغيرِ على حضنِ الكاهنِ. كان شعرهُ داكناً كشعرِ آغنيس، ورغمَ أن توم قد حسمَ أمرهُ فإنَّه لم يستطع الابتعادَ عن المكانِ.

ظهرَت مجموعةٌ كبيرةٌ من الرهبانِ في الجانبِ الآخرِ من الفسحةِ، وكان عددهم بين الخمسة عشر إلى العشرين، ويحملون فؤوساً ومناشير. وهنا أدركَ توم وإيلين أنَّ أحداً ما قد يراهما فأخفضا رأسيهما، وعادا إلى الأجمةِ التي خرجا منها، ومن هناك لم يعد توم قادراً على رؤيةِ الطفلِ.

تسللا خارجين من الأجمةِ، وعندما وصلا إلى الطريقِ انطلقا ركضاً لثلاثةِ أو أربعةِ ياردات ممسكين بعضهما بأيدي بعض إلى أن شعرَ توم بالتعبِ. كانا على مسافةٍ آمنةٍ الآن، خرجا عن الطريق ووجدا مكاناً لأخذِ قسطٍ من الراحةِ بعيداً عن الأعينِ.

جلسا على حافةٍ معشوشبةٍ تضيئها بقعُ ضوءِ الشمسِ. نظرَ توم إلى إيلين،

وهي مستلقية على ظهرها تتنفس بصعوبةٍ، وإلى خديها الموردين، وشفتيها اللتين تبتسمان له. كان ثوبها مفتوحاً عندَ الياقةِ كاشفاً عن عنقها وطرفِ أحدِ الثديين. وفجأةً شعرَ توم برغبةٍ قويةٍ في رؤيتها عاريةً مجدداً، وكانت هذه الرغبة أقوى من شعوره بالذنبِ. انحنى فوقها، وقبَّلها ثمَّ تردد. بدت جميلةً جداً. وهنا تحدَّث دون تفكيرٍ، وتفاجأ بنفسهِ يسألها: «إيلين، أتقبلين أن تكوني زوجتي؟»

الفصل الثاني

- 1 -

كان بيتر ويرهام شاباً مشاغباً بالفطرةِ.

نُقلَ بيتر من الديرِ الأساسي في كينغزبريدج إلى الصومعةِ الصغيرةِ في الغابة، ولن يصعب على المرءِ فهم سبب توقِ رئيس دير كينغزبريدج إلى التخلصِ منه. كان بيتر شاباً طويلاً وممشوقاً في نهاية عقدهِ الثاني، ويتمتعُ بذكاءٍ متوقدٍ مع شيءٍ من التهكمِ. كان ورعاً وساخطاً على الدوامِ، وحالما وصلَ إلى الصومعةِ انبرى إلى العملِ في الحقلِ بهمّةٍ عاليةٍ، واتهمَ بقيةَ الرهبانِ بالتقصير، ولكنه دُهشَ عندما اكتشفَ أنَّ معظمهم نجحوا بمجاراته إلى أن تمكنَ أصغرُ الرهبانِ عُمراً في إجهادهِ خلالَ محاولته مجاراتهم، وعندها بحثَ بيتر عن رذيلةٍ أخرى غير الكسلِ فوقع خياره على خطيئةِ الشرهِ.

بدأ بيتر بتناولِ نصفِ رغيف الخبزِ المخصصِ له وتخلّى عن اللحمِ، وشربَ الماء من الجداول خلالَ النهار وخففَ جعتهُ بالماءِ ورفضَ شرب النبيذ، ووبخَ راهباً شاباً في أتمّ الصحةِ على طلبهِ المزيدَ من العصيدةِ، ودفعَ بصبي إلى البكاء عندما شربَ نبيذَ أحدهم من بابِ المزاحِ.

«ما من شيء في سلوكِ الرهبانِ يشي أنَّهم شرهون»، فكرَ رئيسُ الديرِ فيليب بينما ساروا عائدين عبر طريقِ التلةِ إلى الديرِ بحلولِ موعدِ الغداءِ. على الرغمِ من هزالِ الرهبان الصغار فإنّهم كانوا أقوياء، أيضاً الرهبان الأكبر عمراً ممن سفعت أشعةُ الشمسِ جلودهم، كانوا نحيلين غير أنَّهم كانوا بأتمِّ صحةٍ، ولم يكن أحدٌ منهم شاحباً أو ببطنٍ كبيرٍ من الإفراطِ في الأكلِ والكسلِ. لطالما اعتقدَ فيليب أنَّ جميع الرهبان يجب أن يكونوا

نحيلين؛ فالرهبان البدن يوقظون الحسدَ لدى الفقراء، ويحرضون على كُرهِ خَدمِ الرَّبِّ.

وكعادتهِ وجّهَ بيتر اتهامه للرهبانِ على شكلِ اعترافٍ، «أنا مذنبٌ بخطيئةِ الشره»، قال هذا الصباح أثناء استراحةِ الرهبانِ عندَ جذوعِ أشجارٍ متساقطةٍ وبينما كانوا يتناولون خبز الجودار ويشربون الجعة. «لقد خرقت قاعدةَ القديس بينديكت حولَ ضرورةِ التزامِ الرهبان عدمَ أكلِ اللحمِ أو شربِ النبيذِ»، ونظرَ حوله إلى البقيةِ رافعاً رأسه، وعيناه الداكنتان تشعان فخراً لتستقر أخيراً على فيليب، «وجميعُ الحاضرين هنا مذنبون بهذهِ الخطيئةِ أيضاً»، اختتمَ كلامه.

فكرَ فيليب في نفسهِ أنَّه من المؤسفِ حقاً أن يتصرفَ بيتر على هذا النحو، فالرجلُ كرَّسَ نفسَه لخدمةِ الرَّبِّ، ويملكُ عقلاً نيراً، وإرادةً عظيمةً إلَّا أنَّه لا يستطيع كبحَ جماحِ حاجتهِ المُلِحّةِ إلى الشعورِ بالتميزِ، وأن يكون مركزَ اهتمامِ الآخرين على الدوامِ، وهذا بدورهِ قاده إلى افتعال مثل هذه المواقفِ طوال الوقت، ورغمَ أنَّه كانَ مصدرَ إزعاجٍ حقيقي فإنَّ فيليب أحبَّه كثيراً كما أحبَّ البقيةَ فقد رأى أن تحتَ هذا التعجرف والتهكمِ روحاً معذبةً لا تؤمن حقاً أنَّ أحداً قد يهتم لأمرِها.

قال فيليب: «يدعونا هذا الكلام إلى استعادةِ ما قاله القديس بينديكت حولَ الأمرِ، أتتذكر ما قاله حرفياً يا بيتر؟»

«قال: على الجميعِ، باستثناء المرضى، أن يتخلوا عن تناولِ اللحمِ، ثمَّ قال: النبيذُ ليسَ مشروبَ الرهبان على الإطلاقِ»، أجابَ بيتر.

أومأ فيليب برأسهِ عندما تحققَ من صحةِ شكوكِه. لم يكن اطّلاعُ بيتر على القاعدةِ دقيقاً كاطلاعِ فيليب. «قاربت الصواب يا بيتر ولكن ليسَ تماماً»، قال فيليب وتابع: «عندما تحدَّث القديسُ عن اللحمِ قال: «لحم ما يسير على أربعِ قوائم»، ولم يكن الاستثناءُ حكراً على المرضى بل استثنى الضعفاء أيضاً، ولكن من هم الضعفاء هنا؟ في مجتمعنا الصغير الرجالُ الذين يُجهدون أنفسهم في العملِ في الحقول ضعفاء، وبحاجةٍ إلى اللحمِ البقري بينَ الفينة والأخرى لاستعادةِ قواهم».

أصغى بيتر إلى ما قاله رئيس الدير فيليب في صمتٍ وتجهمٍ، وظهرَ

رفضه لهذا الكلامِ من خلال تقطيبِ حاجبيه الكثَّين فوقَ جسرِ أنفه الكبيرِ، ولاحَ على وجهه تمردٌ مكبوح.

تابع فيليب كلامه: «وبالنسبةِ إلى موضوعِ النبيذِ يقول القديس: «قرأنا أنَّ النبيذ ليسَ شراباً للرهبان على الإطلاق»، ونفهم من كلمةِ «قرأنا» أنَّه لم يكن متحمساً لهذه المقولةِ، وهو يقول أيضاً إنَّ كأساً من النبيذ يومياً كافية للفرد، وهو يحذرنا من الشُربِ حتَّى التخمةِ، إنَّ كلامهُ واضحٌ، أليس كذلك؟ إنَّه لا يطلب من الرهبان الامتناعَ عن النبيذ تماماً».

«ولكنه يقول إنّه يجبُ الاقتصاد في كلِّ شيءٍ»، قال بيتر.

«أتعني بكلامك أننا هنا مبذرون؟» سأله فيليب.

«أجل هذا ما أعتقده»، أجاب بيتر بنبرةٍ رنانةٍ.

«دعْ من يمنَّ عليهم الرَّبُّ بنعمةِ التقشفِ يعلمون أنَّهم سيتلقون الثوابَ المناسبَ»، اقتبسَ فيليب من كلامِ القديس وتابع: «إن كنتَ تشعر أنَّ الطعام هنا كثيرٌ جداً يمكنكَ أن تقللَ من تناوله، ولكن تذكر ما قاله القديس أيضاً»، وهنا اقتبس فيليب من الرسالة الإنجيلية الأولى إلى الكورنثيين، «يقولُ الرسول بولس: «لأني أريدُ أن يكون جميعُ الناس كما أنا لكن كلّ واحد له موهبته الخاصة من الله الواحد هكذا والآخر هكذا[1]» ويخبرنا الرسول أيضاً: «لذلك إن كان طعام يُعثرُ أخي، فلن آكل لحماً إلى الأبدِ لئلا أعثرَ أخي».[2] فلتتذكر هذا من فضلك يا بيتر وأنت صائم، وتفكر في خطيئةِ الشرهِ».

عادَ الرهبان إلى العملِ وعلت وجه بيتر نظرة كنظرةِ الشهداءِ. أدركَ فيليب أنَّ بيتر لن يقبل بإسكاته بهذهِ السهولة، لأنَّه ومن بين النذور الثلاثة التي يأخذها الرهبان –الفقر والعفة والطاعة– وجدَ بيتر نذرَ الطاعةِ أصعبها.

بالطبع هناكَ طرقٌ يمكن فيها لرئيسِ الديرِ التعاملِ مع الرهبانِ المتمردين كالحجز الانفرادي، وتقديم الماء والخبز فقط، أو الجَلدِ أو العَزلِ، أو الطرد من الديرِ.

ولأنَّ فيليب لم يتردد قط في اللجوءِ إلى مثلِ هذهِ العقوبات خاصَّةً إن

1- الإصحاح السابع: الآية السابعة من رسالة الرسول بولس الأولى إلى أهل كورنثوس (المترجمة).

2- الإصحاح الثامن: الآية الثالثة عشرة. (المترجمة)

بدا الراهب كأنَّه يتحدى سلطتهِ. على الرغم من أنَّ فيليب يُعدّ رئيساً قاسياً، لكنه كرهَ فكرةَ العقابِ لاعتقادهِ أنَّه يعبثُ بتناغمِ الأخويةِ الرهبانيةِ ويجلبُ التعاسةَ على الجميع، على أيِّ حالٍ وبما يتعلق ببيتر لن تكون العقوبةُ مُجديةً لأنَّها ستجعلهُ أكثرَ خيلاءً وقسوةً. كان على فيليب أن يجدَ طريقةً للتحكم ببيتر وتليين عريكتهِ في آنٍ معاً، لن يكون الأمرُ سهلاً، ولكن فيليب يؤمن أنَّ لو كل شيء سهل لما احتاجَ البشرُ إلى هدايةِ الرَّبِّ.

عندما وصلوا إلى الديرِ الذي يقعُ في فسحةٍ خاليةٍ من الأشجارِ في الغابةِ رأى فيليب الأخ جون عندَ حظيرةِ الماعز يلوحُ له بحماسةٍ. يُدعى الراهب جوني إيتبنس، وكانَ أحمقاً بعضَ الشيء. تساءلَ فيليب في نفسهِ عمَّا كان جوني متحمساً حياله الآن، ورأى إلى جانبهِ رجلاً في ثيابِ كاهنٍ. بدا الرجلُ لفيليب مألوفاً بعضَ الشيءِ، ولذلكَ هرعَ نحوه.

كان الكاهن في منتصف العشرين قصيرَ القامةِ مُكتنزاً، وبشعرٍ أسود قصير، وعينين زرقاوين تبرقان ذكاءً وقاداً. عندما نظرَ فيليب إليهِ شعرَ كأنَّه ينظر إلى نفسهِ في المرآةِ، وأدركَ على الفورِ وبما يشبه الصدمةَ أنَّ الكاهن شقيقهُ الصغير فرانسيس.

كان فرانسيس يحملُ طفلاً حديثَ الولادةِ.

لم يعلم فيليب ما الذي أثارَ دهشتهُ في هذا المشهد، فرانسيس أم الطفل؟ احتشدَ بقيةُ الرهبان حولهم. وقفَ فرانسيس وسلَّمَ الطفلَ إلى جوني ثمَّ عانقه فيليب، «ما الذي تفعله هنا؟» قال فيليب بسعادةٍ وتابع: «ولمَ تحملُ طفلاً؟»

«سأخبركَ عن سببِ مجيئي إلى هنا لاحقاً»، قال فرانسيس، «أمَّا بالنسبةِ إلى الطفلِ فقد عثرت عليهِ في الغابةِ وحده قربَ نارٍ مشتعلةٍ»، وتوقف فرانسيس عن الكلامِ.

«و...» حثَّه فيليب.

هزَّ فرانسيس كتفيه وقال: «هذا كلّ ما لدي لأخبركَ بهِ. كنت آمل أن أصلَ إلى هنا الليلةَ الفائتةَ، ولكنني لم أوفق في ذلكَ، لهذا توقفت وقضيتُ الليلةَ في كوخِ حارسِ الغابةِ. غادرتُ الكوخَ فجر هذا اليوم، وعلى الطريق سمعتُ صوتَ بكاءِ طفلٍ، وبعد وهلةٍ رأيتهُ فحملتهُ، وأحضرتهُ إلى هنا، هذهِ هي الحكايةُ بأكملها».

نظرَ فيليب إلى الصُرَّةِ الصغيرةِ بينَ ذراعي جوني في ريبةٍ، ثمَّ مدَّ يدَهُ ورفعَ طرفَ الغطاءِ، ووقعت عيناه على وجهٍ موردٍ ومجعدٍ، وفمٍ مفتوحٍ بلا أسنانٍ، ورأسٍ أصلع صغير. كان أشبه بنسخةٍ مُصغرةٍ عن راهبٍ عجوزٍ. أفردَ فيليب الغطاءَ قليلاً ورأى كتفين صغيرتين وهشّتين، وذراعين تلوحان وقبضتين مُحكمتين، ثمَّ تفحصَ عن كثبٍ بقيةَ الحبلِ السريِّ المتدلي من سُرَّةِ الطفلِ. بدا الحبلُ مقززاً بعضَ الشيء، وتساءل فيليب في داخلهِ إن كان هذا طبيعياً، يبدو أنَّ الجرحَ يلتئم بشكلٍ جيدٍ، ولذلك من الأفضلِ عدمُ العبثِ به ثمَّ سحبَ الغطاءَ للأسفل أكثر.

«إنَّه صبي»، سعلَ فيليب في حرجٍ، وغطّى الطفلَ فضحكَ أحدُ الرهبان المبتدئين.

وفجأة انتابَ فيليب شعورٌ بالعجز، وتساءلَ في نفسه عمَّا قد يفعله بالطفلِ وكيفَ سيُطعمه.

بكى الطفل، وضربَ بكاؤهُ وتراً حساساً في صميمِ فيليب كأنَّه سمعَ ترنيمةً محببةً جداً، «إنَّه جائع»، قال وتساءلَ في نفسهِ كيفَ له أن يعرف هذا.

وقال أحد الرهبان: «لا يمكننا إطعامهُ».

وكان فيليب على وشكِ سؤاله: «لِم لا؟» ثمَّ أدرك السببَ. ما من امرأةٍ مُرضعةٍ في الجوارِ.

ولكن فيليب اكتشفَ الآن أنَّ جوني وجدَ حلّاً للمشكلةِ، فقد جلسَ على كرسي، والطفل على ذراعيه وفي يدهِ خُرقةٌ قماشيَّةٌ لفَّ طرفها بشكلٍ حلزوني ثمَّ غمسَ الطرفَ في دلو حليبٍ، وتركه ليتشبع بال. ائل ثمَّ وضعه في فمِ الطفلِ الذي فتحَ فمه، وبدأ يمصُّ القماشَ المُشبعَ بال ـ ـ ـبِ ثمَّ ابتلعهُ.

شعرَ فيليب بالبهجةِ وقال بدهشةٍ: «هذا عملٌ ذكي يا جوني».

ابتسم جوني وقال بفخرٍ: «قمتُ بهذا قبلاً عندما ماتت إحدى النعجات المرضعات قبلَ فطامِ رضيعها».

راقبَ بقيةُ الرهبانِ باهتمامٍ جوني يقوم بهذا العملِ البسيطِ: يُغمس القماشِ ويقدمه للطفلِ ليمصه. لاحظَ فيليب أنَّه عندما كان يضع القماشَ على شفتي الطفلِ أن بعضَ الرهبان نظروا بأفواهٍ فاغرةٍ. كانت طريقةُ جوني بطيئةً، ولكن إطعام الأطفال عملٌ يتطلبُ وقتاً.

أمّا بيتر ويرهام الذي استسلمَ للإعجابِ العامِ بالطفلِ، وغفلَ لبعض الوقتِ عن إبداءِ أيِّ نقدٍ عادَ إلى طبيعته وقال: «من الأفضلِ أن نعثرَ على والدةِ الطفلِ».

قالَ فرانسيس: «أشكُّ أننا قد ننجح في إيجادها؛ فهي على الأغلب غير متزوجة، وتعرفُ أنَّها ارتكبت خطيئةَ الزنا. أعتقد أنَّها شابة وربما تمكنت من إخفاءِ الحمل، ولكن عندما حلَّ موعدُ الولادةِ أتت إلى الغابةِ، وأشعلت ناراً، وأنجبت ثمَّ تخلَّت عن الطفل لذئاب الغابةِ، وعادت من حيث أتت، وهي ستحرص على ألا يكتشفَ أحدٌ أمرها».

غطَّ الطفل في النومِ، وبشكلٍ غريزي أخذه فيليب من جوني، وحملهُ على ذراعهِ ثمَّ ضمَّه إلى صدرهِ، وبدأ يهزَّه. «أيّها المسكين»، قال فيليب، «أيّها المسكين»، وكموجةٍ تملكتهُ الرغبةُ في حمايتهِ والعنايةِ بهِ، ثمَّ لاحظَ أنَّ الرهبان يحدقون إليهِ في عجبٍ من هذا الحنو المُفاجئ؛ فهم لم يروه قط يدللُ أحداً. بالطبع لم يروه لأنَّ التلامس الجسدي ممنوعٌ بشدةٍ في الديرِ، لا بدَّ أنَّهم اعتقدوا أنَّه عاجز عن إبداءِ مثلِ هذا الحنو، وفكرَ فيليب في نفسهِ: «حسناً، ها هم يعلمون الحقيقةَ الآن».

تحدَّثَ بيتر ويرهام مجدداً قائلاً: «يجب أن نأخذ الطفل إلى وينشستر، ونحاول إيجادَ أمٍ بديلةٍ له».

لو أنَّ أحداً آخر غير بيتر تفوه بهذا الكلام لما سارع فيليب إلى تفنيدهِ، ولكن القائلَ كان بيتر، ولذلك قال فيليب على عجلٍ كلاماً سيغير حياتهُ إلى الأبدِ. «لن نعطيه إلى أمٍ بديلةٍ»، قال بحزمٍ ثمَّ أضاف: «إنّ الطفل هديةٌ من الرَّبِّ»، ثمَّ نظرَ إلى البقيةِ من حوله، ورآهم ينظرون إليه في دهشةٍ منتظرين كلماته: «سنعتني بهِ»، تابع فيليب: «سنطعمهُ، ونعلمهُ، ونربيه على تعاليم الرَّبِّ، ثمَّ عندما يكبر سيُصبح راهباً، وبذلك نكون قد أعدناه إلى الرَّبِّ».

سيطرَ صمتٌ ذاهلٌ على الجميع.

قال بيتر بغضبٍ: «هذا مستحيل! لا يُمكن للرهبان أن يُربوا أطفالاً!»

التقت عينا فيليب بعيني شقيقهِ، وابتسم كلاهما كأنهما يستعيدان ذكرى ما. عندما تحدَّثَ فيليب مجدداً خرجَ صوتهُ مُثقلاً بذكريات الماضي: «مستحيل؟ على العكسِ تماماً يا بيتر، فأنا واثقٌ من أنَّ الأمرَ

ممكنٌ بل، وشقيقي واثقٌ من هذا أيضاً، فكلانا عاشَ التجربةَ، أليسَ كذلك يا فرانسيس؟»

***

في اليومِ الذي باتَ فيليب الآن يعدهُ آخرَ يوم لعائلتِهِ، عادَ والدهُ إلى المنزلِ مصاباً.

كان فيليب أولَ من رآه قادماً عبرَ طريقِ الهضبة الملتوي إلى القريةِ الصغيرةِ في منطقةٍ جبليةٍ في شمال ويلز. ركضَ فيليب الذي كان في السادسة للقاءِ والدهِ كما هي عادتهُ، ولكن الأب هذهِ المرّةَ لم يحمل الصبي الصغير، ويرفعه ليضعه على الجوادِ أمامه، بل تحرك ببطءٍ وبعدمِ اتزانٍ على السرجِ ممسكاً اللجام بيدهِ اليمنى بينما أرخى يدهُ اليسرى. بدا وجهه شاحباً، وثيابهُ ملطخةً بالدماءِ. انتاب فيليب على الفورِ الفضول والخوف؛ فهو لم يرَ والده ضعيفاً من قبل.

قال له والدهُ: «استدعِ والدتك».

أدخلوا الأبَ إلى المنزلِ. وعندما مزَّقت الأمُّ قميصهُ أصيبَ فيليب بالهلع من منظرِ والدتهِ المُدبرةِ تدمرُ عمداً ثياباً فاخرةً، وصدمهُ الأمرُ أكثر من مشهدِ الدمِ. «لا تقلقي بشأني الآن»، قال الأب ولكن ليسَ بلهجتهِ الآمرة المعتادةِ بل أشبه بالهمسِ، ولذلكَ لم ينتبه أحدٌ إلى ما قاله، وكان هذا بمنزلة صدمةٍ أخرى لأنَّ طلباته عادةً ما تكون أوامر. «اتركيني وخُذي الجميعَ إلى الديرِ»، قال الأبُ وتابع: «سيصلُ الملاعين الإنكليز قريباً». هناك ديرٌ للرهبان مع كنيسةٍ على قمةِ هضبةٍ، ولكن فيليب عجزَ عن فهمِ ضرورةِ ذهابهم إلى الكنيسةِ بما أنَّ اليوم لم يكن أحداً، وقالت الأم: «إن نزفت أكثر ستعجز عن الذهابِ إلى أيّ مكانٍ أيضاً»، ولكن العمَّة غوين قالت إنَّها ستقرعُ جرسَ الإنذارِ وخرجت.

كانت سنواتٌ كثيرةٌ قد مرَّت على حدوثِ هذا، وعندما يعودُ فيليب بذاكرتهِ إلى سلسلةِ الأحداثِ التي حدثت بعد ذلك يُدرك أنَّ الجميعَ في تلكَ اللحظةِ نسوا أمره وأمرَ شقيقهِ فرانسيس، ولم يفكروا بأخذهما إلى الديرِ وحمايتهما. كان الناس مشغولين بأطفالهم، وافترضوا أنَّ فيليب وفرانسيس سيكونان على ما يرام مع والديهما، ولكن الأب كان ينزفُ حتَّى الموتِ، والأم تحاول انقاذهُ، ولذلكَ وقعوا أربعتهم في أسرِ الإنكليز.

آنذاك لم يكن في حياةِ فيليب القصيرةِ أيّة تجاربَ سابقةٍ قد تجهزهُ لاستيعاب منظرِ الجنديين وهما يركلان الباب، ويقتحمان بيته المؤلّف من غرفةٍ واحدةٍ فقط. ولو أنَّ الظرفَ كان مختلفاً لما رآهما مخيفين؛ فقد كانا أشبه بمراهقين ضخمين وأخرقين من النوع الذي يسخرُ من العجائزِ، ويهين اليهود، ويتورط في عراكٍ بالأيدي خارجَ حانةٍ في منتصفِ الليلِ، أمَّا الآن وبعد مرورِ سنواتٍ، وبعد أن بات فيليب قادراً على التفكير في ما حدثَ ذلك اليوم بشكلٍ موضوعي، اكتشفَ أنَّ ما دفع الجنديين إلى التصرفِ بتلكِ الطريقةِ هو شهوة الدمِ، فقد كانا في معركةٍ، وسمعا الجنود يصرخون من الألمِ، ورأيا أصدقاءهما يُقتلون، وأصيبا بالرعبِ، ولذلك لم يكونا بكامل قواهما العقليةِ. ولكن المعركة انتهت لمصلحتهما ونجيا، فانطلقا في سعي حثيثٍ وراء أعدائهما، ولا يُمكن لشيءٍ أن يرضيهما سوى سفك المزيدِ من الدماءِ، والتسببِ بالمزيدِ من الصراخِ، والجراحِ، والوفياتِ. بدا كلّ ذلكَ واضحاً على وجهيهما الغاضبين عندما دخلا إلى المنزلِ كما تدخلُ الثعالبُ إلى قنِ دجاجٍ.

تحرَّكَ الجنديان بسرعةٍ، ولكن فيليب لن ينسى كلَّ خطوةٍ قاما بها بعد ذلك كأنَّ كلَّ شيءٍ حدثَ ببطءٍ شديدٍ. كان الجنديان في دِرعين خفيفين -سترةٍ قصيرةٍ من الزردِ- وخوذتين جلديتين بأربطةٍ معدنيةٍ. دخلا مُشهرين سيفيهما. كان أحدهما قبيحاً بأنفٍ ضخمٍ معقوفٍ، وبدا مصاباً بالحولِ، وقد افترَّ فمهُ عن ابتسامة مريعةٍ كابتسامةِ قردٍ تكشف عن أسنانه، أمَّا الآخر فقد كانت لحيتهُ الكثَّةُ ملطخةً بالدماءِ، دماء شخصٍ ما على الأغلب، لأنَّه لم يبدُ مجروحاً. ذرعَ الجنديان الغرفةَ بخطواتٍ كبيرةٍ، وتجاوزت نظرات عيونهما القاسية فيليب وفرانسيس لتستقرَّ على الأمِّ والأبِ، وعاجلا الأخيرَ بسرعة البرقِ.

كانت والدةُ فيليب منحنيةً فوقَ زوجها تعالجُ ذراعهُ اليسرى فاستقامت واستدارت عندما دخلَ الجنديان، وفي عينيها لاحَ بريقُ شجاعةٍ مستميتةٍ. قفزَ الأب على قدميهِ، ووضعَ يده على مقبضِ سيفهِ، وأطلقَ فيليب صيحةَ رعبٍ.

رفعَ الجندي القبيح سيفه فوقَ رأسهِ، وبعقبهِ ضربَ الأمَّ على رأسها ثمَّ دفعها جانباً، ولكنه لم يطعنها، وهو على الأغلب لم يفعل ذلك لأنَّه لم يكن

يريد لسيفهِ أن يعلقَ في جسدها بينما الأب ما يزال على قيدِ الحياةِ. لم يدرك فيليب هذا إلا بعدَ سنواتٍ، ولكنه في ذلك الوقتِ ركضَ نحو والدتهِ دونَ أن يفهم سببَ عجزها عن حمايتهِ في تلكِ اللحظةِ. ترنَّحت الأمُّ مأخوذةً بالضربةِ، ولكن الجندي القبيح تجاوزها، ورفعَ سيفه فوقَ رأسهِ مجدداً. أمسكَ فيليب بتنورةِ فستانِ والدته، وهي تترنح دائخةً ولكن دونَ أن يفارق بنظرهِ والده.

استلَّ الأبُ سلاحَهُ، ورفعَهُ ليدافع عن نفسهِ فما كان من الجندي القبيح إلا أن رفعَ سيفهُ. تصادمَ السيفان وصدرَ عنهما صوتٌ كقرعِ جرسٍ، وكأيِّ صبي صغيرٍ اعتقدَ فيليب أنَّ والدَهُ لا يُقهر، ولكن في تلك اللحظةِ انزاحت تلكَ الغشاوة عن عينيهِ، وأدركَ الحقيقةَ، كان والده ضعيفاً بعد أن نزفَ كثيراً. وعندما اصطدمَ السيفان مرةً أخرى وقعَ سيفُ والدهِ أرضاً، فرفعَ الجندي المُهاجم سيفَه مجدداً، وعاجله بضربةٍ أصابت العضلات الضخمةِ التي تصلُ عنقه وكتفيهِ العريضتين. صرخَ فيليب عندما رأى السيفَ الحاد يشقُّ جسدَ والدهِ. سحبَ الجندي القبيحُ سيفَه ليوجه طعنةً أخرى، ثمَّ غرزَ طرفَ السيفِ في بطنِ والدِ فيليب.

نظرَ فيليب الذي شلَّه الرعبُ إلى والدتهِ، فالتقت أعينهما، وعندها سارعَ الجندي الآخر ذو اللحيةِ الكثَّةِ إلى صرعها. سقطت الأمُّ على الأرضيةِ قربَ فيليب، والدمُ يتدفقُ بغزارةٍ من جرحٍ في رأسِها، ثمَّ أمسكَ الجندي ذو اللحيةِ الكثَّةِ السيفَ بطريقةٍ مختلفةٍ، مُحكِماً كلتا قبضتيهِ عليهِ وموجهاً طرفهُ إلى الأسفلِ، ثمَّ رفعَه عالياً كأنَّه على وشكِ طعنها، ثمَّ غرزه عميقاً في جسدِ الأمّ. أتاه صوتُ السيفِ وهو يخترقُ عظام صدرِ والدتهِ وينغرزُ عميقاً جداً في جسدها مثيراً للغثيانِ. لاحظَ فيليب وهو في حالة خوفٍ هستيري أنَّ طرفَ السيفِ خرجَ من ظهرِها وعلقَ بالأرضِ وثبتها كأنَّه مسمار.

عادَ فيليب بنظرهِ إلى والده، ورمقهُ بنظرةٍ وحشيةٍ. رآه يتهاوى أمامَ سيفِ الرجلِ القبيحِ، ويتقيأ الكثيرَ من الدماءِ ثمَّ تراجعَ مهاجمه وحرَّك السيفَ في محاولةٍ لسحبهِ. ترنَّح والدُ فيليب مرَّةً أخرى، وعندما عجزَ الجندي عن سحبِ السيفِ أطلقَ صيحةَ غضبٍ، وحرَّك السيف في بطنِ الأبِ فخرجَ هذهِ المرّة. سقطَ والدُ فيليب أرضاً ويداه على بطنهِ المبقور، كأنَّه يُغطي جرحهُ المفتوح. لطالما تخيلَ فيليب أنَّ أحشاءَ الإنسانِ صلبةٌ بشكلٍ ما، وقد حيّرهُ

وأثارَ تقززه منظرُ تلك القناة البشعة، والأعضاء التي تساقطت من بطنِ والدهِ. رفعَ المُهاجم سيفه مجدداً، ووجهَ ضربةً قاضيةً إلى جسدِ الأبِ تماماً كما فعلَ الجندي ذو اللحيةِ الكثَّةِ مع أمّهِ.

تبادل الجنديان الإنكليزيان النظراتِ، وقرأ فيليب على وجهيهما شعوراً بالراحةِ، ثمَّ استدارا نحو فيليب وفرانسيس. أومأ أحدهما برأسهِ، ولكن الآخر هزَّ كتفيهِ. وهنا أدركَ فيليب أنهما سيقتلانهما هو وشقيقه بسيفيهما الحادين، فتملكهُ الرعبُ من الألمِ الذي سيشعر بهِ، وأحسَّ بهِ يغلي في داخلهِ إلى درجة شعرَ معها أنَّ رأسه سينفجر.

انحنى الرجلُ ذو اللحيةِ المُخضبةِ دماً بسرعةٍ، وأمسكَ بفرانسيس من كاحلهِ ثمَّ رفعه رأساً على عقبٍ في الهواءِ، فصرخَ الولدُ الصغير منادياً أمَّه دونَ أن يستوعبَ أنَّها ميتةٌ. سحبَ الرجلُ القبيح سيفه من جسدِ الأبِ، وجهزَ نفسهِ لطعنِ فرانسيس في قلبهِ.

ولكن الجندي لم يطعن فرانسيس فقد أتاهُ صوتٌ آمرٌ من الوراءِ تجمَّد معه الجنديان في مكانهما. توقفَ الصراخُ في المكانِ، وهنا أدرك فيليب أنَّه من كان يصرخُ، نظرَ إلى الباب ورأى رئيسَ الديرِ بيتر واقفاً في رداءٍ منزلي، وفي عينيهِ غضبُ الرَّبِّ، ويحملُ صليباً خشبياً في يدهِ كأنَّه يحملُ سيفاً.

يعيشُ فيليب ما حدثَ ذلكَ اليوم في كوابيسهِ، وفي كلِّ مرَّةٍ يستفيق متعرقاً وصارخاً في الظلامِ ينجحُ دوماً في تهدئةِ نفسهِ والاسترخاءِ في النهايةِ، والاستسلامِ للنومِ عندما يتذكر ما حدثَ في النهايةِ، وكيفَ أنَّ الصراخَ والجراحَ أنهاها رجلٌ أعزل يحملُ صليباً.

تحدَّثَ رئيسُ الديرِ بيتر، ولكن فيليب لم يفهم اللغةَ التي تحدَّثَ بها. كانت الإنكليزية بلا شكٍ. لم يفهم فيليب ما قالهُ رئيسُ الدير، ولكن معنى كلامه كان واضحاً لأنَّ الرجلين نظرا إليه في خجلٍ، ووضعَ الرجلُ ذو اللحيةِ الكثَّةِ فرانسيس أرضاً بكلِّ لطفٍ. تابعَ الراهبُ كلامه وهو يذرعُ الغرفةَ في ثقةٍ، فتراجع الجنديان إلى الوراءِ كأنهما خافا منه رغمَ أنَّهما يحملان أسلحةً، ويرتديان دروعاً، أمَّا هو فقد كانَ في رداءٍ صوفي ويحملُ صليباً. أدارَ الراهبُ ظهره لهما في حركةٍ تشي بالكثيرِ من الاحتقارِ، وقرفصَ متحدثاً إلى فيليب بصوتٍ جديٍّ: «ما اسمكَ؟».

«فيليب».

«آه، أجل. أتذكركَ، وما اسم شقيقكَ؟»

«فرانسيس».

«هذا صحيح»، قالَ رئيسُ الديرِ، ونظرَ إلى الجثتين المُثخنتين بجراحهما على الأرضيةِ الطينيةِ للمنزلِ، «وهذهِ والدتكَ، أليس هذا صحيحاً؟»

«أجل»، أجابَ فيليب وشعرَ بالرعبِ يسيطرُ على جسدهِ، وهو يشير إلى جثةِ والدهِ المشوهةِ ثمَّ تابع: «وهذا والدي!»

«أعلم»، قال الراهبُ بلهجةٍ لطيفةٍ، «يجب أن تتوقف عن الصراخِ، وتجيبَ على أسئلتي، هل تعي أنَّهما ميتان؟»

«لا أعلم»، أجابَ فيليب في بؤسٍ، فقد كان يعلم ما يعنيه موتُ الحيوانات، ولكنه لم يعِ أنَّ هذا قد يحدثُ لوالدتِهِ ووالدِهِ.

وقالَ رئيسُ الديرِ بيتر: «إنَّ الأمرَ أشبه بالخلودِ إلى النومِ».

«ولكن عيونهما مفتوحةٌ!» صرخَ فيليب.

«صه! إذاً، من الأفضلِ أن نُغلقها».

«أجل»، قال فيليب وشعرَ أنَّ إغلاق عيونهما سيحلُّ شيئاً ما.

وقفَ رئيسُ الديرِ بيتر، وأمسكَ بفيليب وفرانسيس من أيديهما ثمَّ قادهما عبرَ الغرفةِ إلى حيثُ كانت جثةُ والدهما، ثمَّ ركعَ وأمسكَ يدَ فيليب اليمنى وقال: «سأريك كيفَ تقومُ بهذا»، وحرَّك بيتر يدَ فيليب فوقَ وجهِ والدِهِ، ولكن فيليب الذي انتابه فجأة شعورٌ بالخوفِ من لمسِ والدِهِ لأنَّ الجسد بدا غريباً جداً وشاحباً ورخواً ومُثخناً بجروحٍ شنيعةٍ سحبَ يدَهُ بعيداً، ونظرَ بقلقٍ إلى وجهِ الراهبِ بيتر الذي لا يتجرأ أحد على عصيانِهِ، ولكن الراهب لم يبدُ غاضباً منه بل قالَ له بلطفٍ: «تعال»، وأمسكَ يدَ فيليب مرَّةً أخرى، وهذهِ المرة لم يقاوم فيليب، وممسكاً أطراف أصابعِ فيليب بإبهامِهِ وسبابتِهِ وضعَ الراهبُ أصابعَ فيليب على جفنِ والدِهِ، وأنزله إلى أنَّ غابت النظرةُ المريعةُ في عينيهِ تحتَ الجفنِ ثمَّ أفلتَ بيتر يدَ فيليب، وقال: «فلتُغلق العينَ الأخرى». ومن دونِ مساعدةِ بيتر هذهِ المرَّة أغلقَ فيليب الجفنَ الآخر، وشعرَ أنَّه أفضل الآن.

قال رئيس الدير بيتر: «هلّا أغلقنا عيني والدتكَ أيضاً؟»

«أجل».

ركعوا قربَ جثةِ الأمِّ ومسحَ الراهبُ بكمهِ الدمَ عن وجهها.

«ماذا عن فرانسيس؟» قال فيليب.

«ربما عليهِ تقديمُ يدِ المساعدةِ أيضاً»، قال الراهب.

«فلتفعل ما فعلتهُ يا فرانسيس»، قال فيليب لشقيقهِ وتابع: «أغلق عيني والدتنا كما أغلقتُ عيني والدنا حتّى تخلدَ إلى النومِ أيضاً».

«هل هما نائمان ؟» سألَ فرانسيس.

«لا، بل الأمرُ أشبه بالنومِ»، قال فيليب بصوتٍ آمرٍ وأضاف: «ولهذا يجب أن نغلقَ عينيها».

«حسناً إذاً»، قال فرانسيس، ومن دونِ ترددٍ مدَّ يداً مكتنزةً، وبعنايةٍ أغلقَ عيني والدتِهِ.

ثمَّ حملَ الراهب كلا الصبيين، كلّ واحدٍ على ذراعٍ، ومن دونِ أن يُلقي نظرةً أخرى إلى الجنديين حملهما وأخرجهما من المنزلِ، وسارَ على طريقِ الهضبةِ المرتفعةِ باتجاهِ الديرِ.

قدَّم لهما بيتر الطعامَ في مطبخِ الديرِ، وقررَ ألا يتركهما عاطلين عن العملِ كيلا يغرقا في التفكير لذلك طلبَ منهما مساعدة الطبَّاخ في تجهيزِ عشاءِ الرهبانِ، وفي اليومِ التالي أخذهما لرؤيةِ جثتي والديهما بعد غسلهما، وتغييرِ ثيابهما، وتنظيفِ جراحهما، ومعالجتهما، وإخفائِهما بشكلٍ جزئي، ووضعهما في كفنٍ في صحنِ الكنيسةِ. إضافةً إلى جثتي والديهما كانت هناكَ الكثيرُ من جثثِ أقاربهما، فلم ينجح جميعُ سكانِ القريةِ في اللجوءِ إلى الديرِ والهربِ من جحافلِ الغزاةِ الإنكليزِ. اصطحبهما رئيسُ الديرِ بيتر إلى الجنازةِ، وحرصَ على أن يريا النعشين ينزلان في قبرٍ واحدٍ. وعندما بكى فيليب بكى فرانسيس أيضاً، فطلبَ منهما أحدُ الحاضرين التزام الصمت، ولكن الراهب بيتر قال للرجلِ: «دعهما يبكيان». في تلكَ اللحظةِ وبعد أن أيقنا أنَّ والديهما غادرا إلى الأبدِ، تحدثَ الراهب عن مستقبلهما.

من بين أقاربهما لم تبقَ عائلة كاملة لترعاهما. هناك عوائل خسرت الأبَ،

وأخرى فقدت الأمَّ، ولذلك لم يكن هناكَ أقرباء ليرعوا الصبيين، وهذا يعني أنَّه لم يكن أمامهما سوى خيارين: أن يُمنحا إلى الرَّبِّ، أو يُباعا إلى مَزارع يعملان فيها كالعبيد إلى أن يكبرا ويهربا منها.

لم يكن دخولُ الفتيةِ الصغارِ إلى الديرِ أمراً غريباً. كان العمرُ الذي يُسمح فيهِ للصبيةِ بدخولِ الدير هو أحد عشر عاماً، أمَّا الحدُّ الأدنى لقبولهم فقد كانَ خمسةَ أعوامٍ لأنَّ الرهبان غير مُجهزين للعنايةِ بالرُّضَّع. في بعضِ الأحيانِ يكون أولئكَ الصبيةُ أيتاماً، وفي أحيانٍ أخرى مجرَّد صبية فقدوا أحدَ الأبوين، أو لدى ذويهم الكثير من الصبيةِ، ويريدون التخلص من بعضهم. عادةً ما تقدمُ هذهِ العوائلِ إلى الديرِ عطيةً مُجزيةً لقبولِ الطفل كأن يقدموا مزرعةً، أو كنيسةً، أو قريةً بأكملها، وفي حالات الفقرِ المدقعِ يقبلُ الديرُ بالولدِ من دونِ هذهِ العطيةِ. على أيِّ حالٍ كان والدُ فيليب قد تركَ لهما مزرعةً متواضعةً أعلى تلةٍ، ولذلكَ لن يكون قبولُ الصبيين في الدير عملاً خيرياً. اقترحَ رئيسُ الدير بيتر أن يأخذَ الدير الصبيين مع الأرض، ووافقَ من تبقى من أقربائهما على هذا الاقتراحِ. تمَّت المصادقةُ على هذا الاتفاق من قبلِ أمير غويند، غريفيد آبكنان، الذي هُزم مؤقتاً، ولكن من دون أن يُخلع عن عرشهِ، على يدِ الجيش الإنكليزي الغازي بقيادةِ الملكِ هنري، والمسؤول عن قتلِ والدِ فيليب.

يعلمُ رئيسُ الديرِ بيتر الكثيرَ عن الحزنِ غيرَ أنَّه، وعلى الرغمِ من كلِّ خبرتهِ في هذا الأمرِ، لم يكن مستعداً لمواجهةِ ما سيحدثُ لفيليب بعدَ ذلك. بعدَ مرورِ عامٍ أو أكثر على الحادثِ، وعندما بدا أنّ حالةَ الحزنِ قد انحسرت، واستقرَّ الصبيان في حياةِ الديرِ، تملَّكَ فيليب نوعٌ من الغضبِ الأسودِ. لم تكن ظروفُ مجتمعِ الديرِ سيئةً إلى درجةٍ تسمح بظهورِ هذا الغضبِ؛ فقد كان الطعامُ والكساءُ متوفرين، والمهاجعُ دافئة خلالَ الشتاءِ، بل ويتوفر القليلُ من الحبِّ والعاطفةِ رغمَ الانضباطِ الصارمِ والشعائرِ المملّةِ، وفي المكانِ نظامٌ واستقرار، ولكن فيليب بدأ يتصرفُ كأنَّه سجينٌ مظلومٌ. كان يعصي الأوامرَ، ويتطاولُ على سُلطةِ الرهبانِ المسؤولين كلما أُتيحت له الفرصةُ، ويسرقُ الطعامَ، ويكسر البيضَ، ويُفلت الجيادَ، ويسخرُ من العاجزين، ويسيء إلى كبارِ السنِ. كان التجاوز الوحيد الذي لم يقم به

هو تدنيس المقدساتِ، ولذلكَ سامحهُ رئيسُ الديرِ على كلِّ شيءٍ فعلَهُ. في نهايةِ المطافِ بدا فيليب كأنَّه سئمَ من كل هذه الأفعالِ، وفي عيدِ الميلادِ عادَ بذاكرتهِ عاماً إلى الوراء، وأدركَ أنَّه لم يقضِ ليلةً واحدةً في زنزانةِ العقابِ.

لم يكن لعودةِ فيليب إلى حالتهِ الطبيعيةِ سببٌ محددٌ ومباشرٌ. قد يكون اهتمامُهُ بدروسهِ ما ساعدهُ في ذلكَ فقد كان مسحوراً بالنظريةِ الرياضيةِ في الموسيقى، بل حتَّى اشتقاقاتُ الأفعالِ اللاتينيةِ قدَّمت له، بالمنطقِ الذي يحكمُ تصريفها، نوعاً من الرضا. أُرسلَ للعملِ مساعداً لوكيلِ المؤنِ الذي يؤمن للديرِ كلّ احتياجاتهِ، بدءاً من الأحذيةِ، وانتهاءً ببذارِ الذرةِ. هذا العملُ أيضاً أثارَ اهتمامَ فيليب، وطوَّرَ معهُ علاقةَ تمجيدٍ للأخِ جون الذي كان راهباً شاباً وسيماً وقوياً، وتجسيداً لحبِّ التعلّم، والقداسةِ، والحكمةِ، والرقةِ. وتدريجياً بدأ فيليب يجدُ شيئاً من السلوانِ في أداءِ الصلواتِ والعباداتِ اليوميةِ، ربما تأثراً منه بالأخِ جون، أو ربما انطلاقاً من قناعتهِ الشخصيةِ، وهكذا دخلَ فيليب عالمَ البالغين وحياة الديرِ في ذهنهِ، والتناغم الإلهي في أذنيهِ.

تفوقَ فيليب وفرانسيس على بقيةِ الفتيةِ في الدراسةِ، ولكن الفضل في هذا يعود إلى حياتهما في الديرِ، وتلقيهما تعليماً مُكثفاً، ولكنهما في هذهِ المرحلةِ لم يعرفا أنَّهما مميزان إلى أن بدآ بالتعليمِ في مدرسةِ الصغارِ، وتلقي الدروسِ من رئيس الدير نفسهِ بدلاً من أستاذِ الرهبانِ المبتدئين العجوز والصارم، ولم يعتقدا أنَّ سببَ تفوقهما على الآخرين سوى أنهما بدآ التعلّم باكراً.

عندما يعودُ فيليب بالذاكرةِ إلى شبابهِ يُخيلُ إليهِ أنَّه عاشَ عصراً ذهبياً قصيراً، عاماً أو أقل، بين نهايةِ مرحلةِ عصيانهِ، وهجومِ رغبات الجسدِ، التي كانت مرحلةً مُضنيةً من الأفكارِ الدنسةِ، والاحتلامِ، والاعترافاتِ المُحرجةِ جداً أمام كاهنِ الاعتراف، الذي كان رئيسَ الديرِ، والكفارات التي لا تحصى، والخجلِ من آثارِ جلدهِ لنفسهِ للجمِ الرغبةِ.

لم تتوقفِ الرغبةُ عن التأثيرِ على فيليب، ولكنها تدريجياً غدَت أقلَّ أهميةً، ولهذا لم تعد تزعجه إلَّا في أوقاتٍ نادرةٍ يتعطلُ فيها جسدُهُ وعقله عن العملِ، كما حدثَ عندما أصيبَ بجرحٍ ما زال يؤلمه عندما يغدو الطقسُ رطباً.

بعد فترةٍ قصيرةٍ تورطَ فرانسيس في المعركةِ ذاتها، ورغمَ أنَّه لم يتحدث مع فيليب في الأمرِ لكن فيليب شعرَ أنَّ فرانسيس لم يعان كثيراً في صراعهِ مع الرغباتِ الشريرةِ، وتلقى هزائمه ببهجةٍ أكبر. على أيِّ حالٍ، نجحا في نهايةِ المطافِ بالتصالحِ مع أهواءِ الجسدِ التي كانت ألدَّ عدو في حياةِ الرهبنةِ.

في الوقتِ الذي عملَ فيهِ فيليب مع وكيلِ المؤنِ، عملَ فرانسيس مع نائبِ رئيسِ الدير، وعندما توفي وكيلُ المؤن كانَ فيليب في الواحدة والعشرين، ورغمَ صغرِ سنهِ فإنَّه عُينَ خَلفاً للوكيلِ السابقِ. وعندما بلغَ فرانسيس الواحدة والعشرين اقترحَ رئيس الدير منصباً جديداً من أجلهِ، وهو منصب نائب رئيس الديرِ، ولكن هذا الاقتراحِ خلقَ أزمةً، وتوسلَ فرانسيس إليه أن يُعفيه من المسؤوليةِ، وطلبَ أيضاً أن يُسمحَ له بمغادرةِ الدير. كان يريد أن يُرسم كاهناً، ويخدمَ الرَّبَّ في العالمِ الخارجي.

ذُهلَ فيليب وارتعبَ من هذا القرار فلم يخطر بباله قط أن يغادر أيّ منهما الديرَ. أثارت الفكرةُ قلقهُ كأنَّه علمَ لتوه أنَّه وريثُ أحدِ العروش، ولكن بعدَ قدرٍ كبيرٍ من الألمِ والتأملِ وقعَ المحظور وغادرَ فرانسيس الديرَ إلى العالمِ الخارجي، ولم يطل الوقت حتَّى أصبح فرانسيس راعي أبرشيةِ إيرل غلوستر.

قبلَ مغادرةِ فرانسيس الدير كانت نظرةُ فيليب إلى المستقبلِ بسيطةً، فهو سيصبح راهباً، ويعيشُ حياةً من التواضعِ والطاعةِ، وعندما يشيخ قد يصبحُ رئيسَ الديرِ، ويجاهدُ ليصبحَ قدوةً كرئيسِ الديرِ الحالي بيتر، ولكن بعدَ مغادرةِ فرانسيس بات يتساءل في نفسهِ إن كان الرَّبُّ قد أرادَ له قدراً مختلفاً. يتذكر فيليب تلكَ الحكايةَ الرمزيةَ عن سببِ وجودِ المواهبِ، وكيف أنَّ الرَّبَّ لا يريدُ من عبادهِ صونَ مملكتهِ على الأرضِ فحسب بل توسيعها أيضاً، وبشيءٍ من الخوفِ طرحَ فيليب هذهِ الأفكارَ مع رئيسِ الديرِ بيتر، وهو يعي أنَّ عملهُ ينطوي على مخاطرةٍ، وأنَّه قد يتعرضُ إلى التوبيخِ من قبلِ رئيسِ الديرِ، لأنَّ كلامه يفضحُ غروراً.

ولكن فيليب تفاجأ عندما قال لهُ رئيسُ الديرِ: «كنت أتساءلُ في نفسي كم من الوقتِ ستأخذهُ حتَّى تدرك هذا. إنَّ قدركَ القيامُ بشيءٍ آخر، فقد ولدت قربَ دير، وأصبحتَ يتيماً في السادسةِ، وترعرتَ على يدِ الرهبان، وأصبحتَ وكيلَ المؤنِ وأنتَ في الواحدة والعشرين من العمرِ. لن يُكلّف

الرَّبُّ نفسه كلَّ هذا العناءِ في تكوينِ رجلٍ سيقضي بقيةَ حياتهِ في ديرٍ صغيرٍ أعلى تلةٍ جرداء في مقاطعةٍ جبليةٍ نائيةٍ. لا يمكن لهذا المكان أن يقدّم لكَ الكثير، ولذلكَ عليكَ أن تغادره».

ذُهلَ فيليب مما سمعه، وقبلَ أن يهمَّ رئيسُ الديرِ بالمغادرةِ خطرَ ببالهِ سؤالٌ: «إن كان هذا الدير على هذا القدرِ من عدمِ الأهميةِ، لمَ اختاركَ الرَّبُّ لتخدمَ فيهِ؟»

ضحكَ رئيسُ الديرِ بيتر وقال: «ربما لأعتني بكَ».

في وقتٍ لاحقٍ من ذلكَ العامِ توجهَ رئيسُ الديرِ إلى كانتربري لزيارةِ رئيسِ الأساقفةِ، وعندما عادَ قالَ لفيليب: «لقد منحتكَ إلى رئيسِ ديرِ كينغزبريدج».

ارتعدَ فيليب مما سمعهُ، فقد كان دير كينغزبريدج من أكبرِ وأهمِّ الأديرةِ في البلدِ، وهو ديرٌ وكاتدرائيةٌ في الوقتِ ذاته، وكنيسته كنيسةٌ كاتدرائية ويرأسها أسقفٌ. نظرياً، يعدُّ هذا الأسقفُ رئيسَ الدير، ولكن عملياً يُدارُ الدير من قبلِ رئيسِ ديرٍ عادي.

«رئيسُ الديرِ جيمس صديقٌ قديمٌ»، قال بيتر لفيليب، وأضاف: «إلّا أنَّه في السنواتِ الأخيرةِ الماضيةِ استسلمَ إلى الإحباطِ، ولا أعرفُ سبباً لهذا. على أيِّ حالٍ، تحتاجُ كينغزبريدج إلى دماءٍ جديدةٍ، ولكي أكون أكثرَ دقة يواجه جيمس متاعب جمَّة مع إحدى الصوامعِ، وهو ديرٌ صغيرٌ في الغابةِ، ولذلكَ فهو بحاجةٍ إلى رجلٍ كفؤ لإدارةِ هذه الصومعةِ، وإعادتها إلى جادةِ الصلاحِ».

«إذاً، سأصبحُ رئيسَ صومعةٍ؟» سألَ فيليب متفاجئاً.

أومأ بيتر برأسهِ وقال: «وإن كنا على حقٍ حولَ القدرِ الذي رسمَهُ لكَ الرَّبُّ يسعنا التوقع أنَّه سيساعدك على حلّ مشكلاتِ هذه الصومعة».

«وإن كنا على خطأ؟»

«يمكنك دوماً العودةُ إلى هنا والعملُ كوكيل للمؤنِ، ولكننا لسنا مخطئين يا بني، وسترى هذا».

جلبَ الوداعُ الكثيرَ من الدموعِ فقد قضى فيليب في هذا المكانِ سبعةَ

عشرَ عاماً، وكانَ الرهبانُ بمنزلة عائلتِهِ، بل عائلتهُ الحقيقية أكثر مما كان أبواه اللذان حُرِمَ منهما بكلِّ وحشيةٍ، ولأنَّه على الأغلبِ لن يلتقي بهم مجدداً شعرَ بالحزنِ على فراقهم.

في البدايةِ أوقعت كينغزبريدج الرهبةَ في قلبِهِ؛ فقد كانت مساحةُ الديرِ المسورِ أكبر من مجموعةٍ من القرى، وبدت الكاتدرائيةُ ككهفٍ كبيرٍ وكئيبٍ، ومنزلُ رئيس الدير أشبه بقصرٍ صغيرٍ، ولكن حالما اعتادَ على حجمها، لاحظ فيليب ما أشارَ إليهِ رئيسُ الديرِ بيتر بعلائمِ القنوطِ على صديقهِ القديمِ رئيسِ ديرِ كينغزبريدج. بدت الكنيسةُ في حاجةٍ ماسَّةٍ إلى إصلاحاتٍ كبيرةٍ، وكانت الصلوات تتم على عجلٍ، وقاعدةُ الصمتِ تخترقُ على الدوامِ، وعددُ الخدمِ يفوقُ عددَ الرهبانِ، ولذلكَ سرعان ما تغلَّبَ الغضب على الذهولِ في سريرةِ فيليب، ورغبَ حقاً بإمساكِ رئيس الديرِ جيمس من ياقتِهِ وهزِّه، والقول له: «كيفَ تجرؤ على هذا؟ كيف تجرؤ على الاستعجالِ في صلواتِ الرَّبِّ؟ كيف تسمحُ للرهبان المبتدئين بلعبِ النردِ، وللرهبان بتربيةِ الكلابِ؟ كيف تجرؤ على العيشِ في قصر، ومن حولكَ خدمٌ بينما كنيسةُ الرَّبِّ تتداعى». لم يقل فيليب شيئاً بل اكتفى بلقاءٍ سريعٍ ورسمي مع رئيسِ الدير جيمس الذي كان رجلاً طويلاً ونحيلاً ومحدودبَ الظهرِ كأنَّ همومَ العالمِ أجمع على كتفيهِ المدورتين، ثمَّ تحدَّثَ إلى نائبِ رئيسِ الدير وكان يدعى ريميجوس، في بدايةِ المحادثةِ ألمحَ فيليب إلى ريميجوس أنَّ الدير بحاجةٍ ماسَّةٍ إلى بعضِ التغييراتِ السريعةِ متوقعاً من النائبِ أن يوافقه بطيبِ خاطرٍ، ولكن ريميجوس نظرَ إلى فيليب بتعالٍ كأنَّه أراد القول: «ومن تعتقد نفسكَ لتقول هذا؟» فغيَّرَ فيليب الموضوع.

أخبرَهُ ريميجوس أنَّ الصومعةَ تدعى سانت جون إن ذا فوريست، وأنَّها أُسست منذُ ثلاثةِ أعوامٍ مع أرضٍ ومبنى، ويجب أن تكون مكتفيةً بحلول الآن، إلا أنَّها ما زالت تعتمدُ على المؤنِ التي يرسلها الديرُ الرئيسي، وألمحَ إلى وجودِ مشاكل أخرى، كانتقادِ أحدِ الشمامسة الخدمةَ هناك بعدَ قضاءِ ليلةٍ في الديرِ، وادعاءِ المسافرين أنَّهم تعرضوا للنهبِ على يدِ رهبانٍ في المنطقةِ، وهناك إشاعات عن سلوكياتٍ مشينةٍ. وجدَ فيليب في تحفظِ ريميجوس، أو عدم قدرتهِ على تقديمِ تفاصيل أدق، إشارةً أخرى إلى التراخي في إدارةِ

الصومعةِ، ولذلكَ غادرَ وهو يغلي غضباً. يُفترضُ أن يكون الدير مكاناً لتمجيدِ الرَّبِّ، وإن لم يكن كذلكَ فهذا يعني أنَّه فشلَ في تأديةِ الغرضِ الذي بُني لأجلِهِ وبات نكرةً. كانَ ديرُ كينغزبريدج أسوأ من أن يكون نكرةً، ورغم التراخي المُخزي فيه فإنَّ فيليب كان عاجزاً عن القيام بشيءٍ حيالَ الأمرِ، وأفضلُ ما يمكن أن يتمناه هو إصلاحُ أحدِ أفرعهِ.

على مدارِ اليومين اللذين قضاهما فيليب على طريقِ العودةِ إلى الديرِ قلَّبَ كلَّ المعلوماتِ غير الكافيةِ التي أُعطيت له، وفكرَ في منهجيةِ العملِ التي سيتبعها حالما يصل، وقررَ أنَّه من الأفضلِ أن يتعامل مع الرهبانِ بلطفٍ في البداية، لأنَّ رئيسَ الديرِ عادةً ما يكون مُنتخباً من قبلِ الرهبانِ، ولكن في حالةِ ديرٍ فرعي، فإنَّ رئيسَ الديرِ الأساسي من يختارهُ، ولكن فيليب لم يطرح نفسهُ مرشحاً، وهذا يعني أنَّ الرهبان لن يقابلوه بالترحابِ، وسيتعين عليهِ أن يشقَّ طريقهُ بحذرٍ. كان بحاجةٍ إلى معرفةِ المزيدِ عن المشاكلِ التي يعاني منها المكان ليأتي بأفضلِ طرقِ الحلِّ، وعليهِ أيضاً أن يكسبَ احترامَ وثقةَ الرهبانِ، خاصة أولئكَ الذين كانوا أكبر سِناً منه ومستائين من استحواذهِ على المنصبِ، وحالما يحصلُ على كلِّ المعلوماتِ الكافيةِ، ويضمن القيادة، سيبدأ بأخذِ خطواتٍ أكثر حزماً.

ولكن الأمور لم تسر كما خططَ لها فيليب.

مع نهايةِ اليومِ الثاني أوقفَ جوادَهُ الصغيرَ على أطرافِ مساحةٍ خاليةٍ من الشجرِ. عندما تفحَّصَ منزلَهُ الجديدَ لم يرَ أمامهُ سوى مبنى حجري ومصلى، ولكنه لاحقاً سيبني مهجعاً حجرياً جديداً للرهبانِ. بدت المباني الخشبيةُ الأخرى آيلةً للسقوطِ، ولم يُعجب فيليب بما رآه فكلّ ما يصنعه الرهبانُ يُفترضُ بهِ أن يبقى قائماً، سواءَ أكان زرائبَ خنازير أم كاتدرائيات. وعندما ألقى نظرةً من حولهِ لاحظَ علائمَ التراخي والإهمال ذاتها التي صدمتهُ في ديرِ كينغزبريدج. لم يكن هناك أسوارٌ، وكانَ القشُّ مُبعثراً خارجَ الحظيرةِ، وهناك كومةٌ من الروثِ قربَ بركةٍ لتربيةِ الأسماكِ. شعرَ فيليب بغضبٍ كبيرٍ مكبوتٍ وقال لنفسهِ: «بهدوءٍ، بهدوءٍ».

لم يرَ فيليب أحداً في البدايةِ، ولم يكن هذا غريباً؛ فقد كان الآن موعدُ صلاةِ المساءِ، وسيكون معظمُ الرهبانِ في المصلى. ساطَ فيليب جوادهُ ليتحرَّك،

وتوجه إلى كوخٍ بدا كإسطبلٍ. من وراءِ بابِ الإسطبلِ ظهرَ شابٌ بقشٍّ عالقٍ في شعرهِ، ونظرةٍ حمقاءَ على وجههِ. حدَّقَ الفتى إلى فيليب بدهشةٍ.

«ما اسمكَ؟» سألهُ فيليب، ثمَّ بعد لحظةٍ من الترددِ سببهُ شعوره بالحياءِ أضافَ: «يا بني».

«يطلقون علي اسم جوني إيتبنس»، قال الفتى.

ترجّل فيليب عن جوادهِ، وسلَّمَ اللجامَ إلى جوني ثمَّ قال: «حسناً يا جوني إيتبنس يمكنكَ أن تهتمَّ بجوادي».

«أجل يا أبتاه»، قال جوني وربطَ اللجامَ على حاجزٍ ثمَّ غادرَ.

«إلى أين أنتَ ذاهب؟» قال فيليب بحدَّةٍ.

«لأخبرَ الأخوةَ بوصولِ غريبٍ إلى هنا».

«يجبُ أن تتدربَ على الطاعةِ يا جوني. فلتهتم بجوادي الآن، وأنا سأخبرُ الأخوةَ بوصولي».

«أجل يا أبتاه»، بدا جوني مرتعباً، وانبرى إلى أداءِ المهمةِ التي كُلّف بها.

نظرَ فيليب من حوله، ورأى في وسط المكانِ مبنى طويلاً أشبه بقاعةٍ وبقربه مبنى دائري صغير مع دخانٍ متصاعدٍ من فتحةٍ في السقفِ، وهذا يعني أنَّه المطبخ، وقررَ فيليب أن يتفقدَ ما كانوا يعدونه على العشاءِ. في الأديرةِ المُتزمتةِ لا يقدمون في اليوم سوى وجبة الغداءِ عندَ الظهرِ، ولكن هذا الدير لم يكن منها. سيحظى بعشاءٍ خفيف بعدَ صلاةِ المساءِ، بعض الخبزِ والجبنةِ والسمكِ المملحِ، أو ربما صحن من حساءِ الشعيرِ المطبوخ مع الأعشابِ. على أيّة حالٍ وحالما اقتربَ فيليب من المطبخِ شمَّ تلكَ الرائحة المميزة والزكية للحمٍ يشوى. توقفَ عن السيرِ عابساً ثمَّ دخلَ.

في الداخلِ وجدَ راهبين وفتى جالسين حولَ موقدٍ في الوسطِ. راقبَ فيليب أحدَ الراهبين يمررُ إبريقاً إلى الراهبِ الآخر، والأخيرُ يشربُ منه بينما الفتى يحرّكُ خِنزيراً صغيراً على قضيبٍ معدني فوقَ النارِ.

رفعوا أنظارهم جميعاً نحو فيليب حالما دخلَ، ومن دون أن يتفوه بحرفٍ أخذَ فيليب الإبريقَ من الراهبِ، وشمَّ ما يحتويهِ ثمَّ قال: «لمَ تشرب النبيذَ؟»

«لأنَّه يُسعد قلبي أيّها الغريب»، قال الراهب وتابع: «فلتشرب بعضاً منه... اشرب جيداً».

اتضح لفيليب أنَّهم لا يعلمون بأمرِ رئيسهم الجديد، وهم أيضاً لم يخشوا عواقبَ مرورِ أحدِ الرهبانِ، ومعرفةِ دير كينغزبريدج بما كانوا يفعلونهُ. أراد فيليب بشدةٍ أن يكسرَ الإبريقَ على رأسِ الرجلِ، ولكنه أخذَ نفساً عميقاً، وتحدّث بهدوءٍ: «أطفالُ الفقراءِ يتضورون جوعاً ليؤمنوا لنا اللحمَ والشرابَ، وهذا كلّهُ من أجلِ مجدِ الرَّبِّ، وليس من أجلِ متعنا الشخصيةِ. لا مزيدَ من النبيذِ الليلةَ»، وأشاح بنظرهِ بعيداً حاملاً معه الإبريقَ.

عندما أدارَ ظهرَهُ سمعَ الراهبَ يقول: «ومن تعتقدُ نفسك؟» ولكن فيليب لم يُجب لأن الراهبَ عاجلاً أم آجلاً سيعرفُ.

تركَ فيليب الإبريقَ على الأرضِ خارجَ المطبخِ، وتوجهَ إلى المصلى وهو يصرُّ على أسنانهِ من الغضبِ، ويحاول تمالكَ نفسهِ، والسيطرة على غضبهِ. قال لنفسِهِ إنَّه لا يجب أن يتهورَ بل أن يتصرفَ بحذرٍ، ويأخذَ وقته.

توقفَ لبرهةٍ في رواقِ المصلى محاولاً تهدئةَ نفسهِ قبلَ الدخولِ، ثمَّ وبكلِّ لطفٍ دفعَ البابَ الكبيرَ المصنوعَ من خشبِ البلوطِ، ودخلَ بهدوءٍ.

في صفوفٍ غير منظمةٍ وقفَ بضعةُ رهبانٍ ورهبانٍ مبتدئين وظهورهم إلى البابِ، وقبالتهم وقفَ الكشماسُ[1] يقرأ من كتابٍ مفتوحٍ. أدّى الكشماسُ الصلواتِ على عجلٍ، ودمدمَ الرهبان خلفهُ بشكلٍ مكانيكي. كانت الشموع بأطوالٍ غير متساويةٍ ومبعثرة على قماشِ المذبحِ القذرِ.

في الخلفِ وقفَ راهبان شابان يتحدثان في أمرٍ ما بحيويةٍ متجاهلين الصلاةَ، وعندما اقتربَ فيليب تفوه أحدهما بشيءٍ مُضحكٍ، فضحكَ الآخرُ بصوتٍ عالٍ غطى على صوتِ الكشماسِ، وكان هذا بالنسبةِ إلى فيليب بمنزلةِ الشعرةِ التي قصَمَت ظهرَ البعيرِ، وتبخرت معها كلُّ خططهِ عن التعاملِ بلطفٍ وهدوءٍ. صرخَ بأعلى صوتهِ قائلاً: «هدووووء!»

توقف الضحكُ وتوقفَ الكشماس عن القراءةِ، وحلَّ الصمتُ في أرجاءِ المصلى. استدارَ الرهبانُ إلى الوراءِ وحدَّقوا إلى فيليب.

توجهَ فيليب إلى الراهبِ الذي أطلقَ الضحكةَ، وأمسكَهُ من أذنِهِ. كان في مثلِ عمرِهِ ولكنه أطول قامةً، ولأنَّه كان متفاجئاً جداً لم يقاوم فيليب عندما

1- شخص مكلّف برعاية خزانة الكنيسة ومحتوياتها (المترجمة)

أمسكَ بهِ من أذنِهِ. «على ركبتيكَ!» صرخَ بهِ فيليب، ولوهلة بدا الأمرُ كأنَّ الراهب سيحاولُ المقاومةَ وتحريرَ نفسهِ، إلَّا أنَّه علمَ أنَّه مُخطئ، وكما توقع فيليب قمعَ شعورُ الذنبِ عند الراهبِ أيَّةَ رغبةٍ بالمقاومةِ. عندما شدَّ فيليب بقوةٍ أكبرَ ركعَ الراهبُ الشابُ أخيراً.

كانوا جميعاً قد أخذوا نذرَ الطاعةِ، ويبدو أنَّ الانضباط المخزي الذي يعيشون فيهِ مؤخراً لم يقضِ على عادةٍ ساروا عليها لسنواتٍ. ركعَ نصفُ الرهبان وجميعُ الرهبانِ المبتدئين.

«لقد خرقتكم نذوركم»، قال فيليب، وسمحَ لنفسهِ بالتحدثِ بنبرةِ إزدراءٍ: «أنتم مُجدِّفون، جميعكم»، ونظرَ في أعينِ الرهبانِ بشكلٍ مباشرٍ ثمَّ ختمَ: «وستبدأ كفَّارتكم الآن».

ركعَ الجميعُ تباعاً، الواحدَ تلو الآخر، ولم يبقَ أحدٌ واقفاً سوى الكشماس الذي كان رجلاً مربوعاً وفي عينيهِ نظرةٌ ناعسةٌ، ويبدو أكبر من فيليب بعشرين عاماً. تقدَّم فيليب من الكشماسِ متفادياً الرهبان الراكعين، وقال: «أعطني الكتاب».

حدَّق الكشماس إليهِ في تحدٍ دون أن يتفوه بكلمةٍ.

مدَّ فيليب يده وأمسكَ المجلدَ الضخمَ بهدوءٍ.

أحكمَ الكشماس قبضتهُ على المُجلدِ، فأبدى فيليب تردداً. كان قد قضى يومين وهو يخطط للتصرفِ بحذرٍ وبهدوءٍ، ولكنَّ ها هو وغبارُ الطريق يُغطي حذاءهُ ومخاطراً بكلِّ ما خططَ له في مواجهةٍ مباشرةٍ مع رجلٍ لا يعرف عنه شيئاً.

«أعطني الكتابَ ولتركع أيضاً»، كررَ فيليب.

علت وجه الكشماسِ مسحةُ سخريةٍ، وقال: «ومن تعتقد نفسكَ؟»

ترددَ فيليب مجدداً. بالنظرِ إلى ردائهِ وتسريحةِ شعرهِ لم يكن هناك أدنى شك أنَّه راهبٌ، ورغمَ أنَّ الجميعَ استنتجوا من سلوكهِ أنَّه صاحبُ سُلطةٍ غيرَ أنَّهم لم يعرفوا بعد إن كانت مرتبتهُ أعلى من مرتبةِ الكشماسِ، لم يكن بحاجةٍ سوى إلى القولِ: «أنا رئيسُ الديرِ الجديدِ»، ولكنه لم يرغب بذلك، فقد شعرَ على حين غرَّةٍ بضرورةِ الهيمنةِ عليهم بثقلِ السُلطةِ الأخلاقيةِ.

شعرَ الكشماس بحيرةِ فيليب، واستغلَّ الأمر قائلاً بلهجةٍ لبقةٍ مبطنةٍ بالسخريةِ: «هيا أخبرنا، من هذا الذي يأمرنا أن نركع في حضرتِهِ؟»

وبلمحِ البصرِ تبخّر كلُّ الترددِ الذي شعرَ به فيليب، وفكر في نفسهِ قائلاً: «إنَّ الرَّب معي فممن سأخاف؟» وأخذ نفساً عميقاً ثمَّ تحدَّثَ بصوتٍ كالزئيرِ تردد صداه بين الأرضيةِ المرصوفةِ والسقفِ الحجري المقنطرِ: «إنَّه أمرُ الرَّبِّ أن تركعَ في حضرتهِ!»

بدا الكشماس كأنَّه فقدَ بعضاً من ثقتهِ بنفسهِ، فانتهزَ فيليب الفرصةَ وانتزعَ الكتاب، وبذلك خسرَ الكشماس كلَّ سلطته الآن، واضطرَ أخيراً، وعلى مضضٍ إلى الركوعِ.

أمَّا فيليب الذي أخفى شعورهُ بالراحةِ فنظر من حولهِ، وقال: «أنا رئيسُ ديركم الجديد».

أجبرهم على البقاءِ راكعين بينما تابعَ أداءَ الصلواتِ التي أخذت وقتاً طويلاً، لأنَّه أجبرهم على الإعادةِ وراءه إلى أن رددوا الصلواتِ بانسجامٍ تامٍ، ثمَّ قادَهم في صمتٍ خارجَ المصلى عبرَ الفسحةِ باتجاهِ غرفةِ الطعامِ الجماعيةِ. أمرَ بإرسالِ اللحمِ المشوي إلى المطبخِ، وجلبِ الخبزِ والجعةِ المخففةِ، ثمَّ طلبَ من أحدِ الرهبانِ القراءةَ بصوتٍ عالٍ خلالَ تناولِ الطعامِ.

طلبَ فيليب إحضارَ فراشِ رئيسِ الديرِ من منزلهِ المنفصلِ عن المهجعِ، فهو سينام في الغرفةِ ذاتها مع الرهبانِ. كانت هذهِ الطريقةُ الأسهل والأكثر فاعليةً لمنعهم من ارتكابِ الخطيئةِ ليلاً.

لم يتمكن فيليب في الليلةِ الأولى من النومِ بل جلسَ، وبقربهِ شمعة يصلي بصمتٍ إلى أن حلَّ منتصفُ الليل، وحانَ موعدُ إيقاظِ الرهبانِ لأداءِ صلاةِ منتصفِ الليلِ. لم يُطل فيليب في صلاةِ الفجرِ حتَّى لا يعتبروه شخصاً قاسياً. عادَ الرهبان إلى أسرَّتهم، ولكن فيليبَ عجزَ عن النومِ.

عندَ الفجرِ وقبل أن يستيقظ الرهبانُ خرجَ ونظرَ من حوله، وهو يفكرُ في اليومِ الذي ينتظره. وجدَ أرضاً جديدةً أُقتطعت من الغابةِ، وفي وسطها تماماً جذعٌ ضخمٌ، لشجرةِ بلوطٍ عملاقةٍ على الأغلبِ، وهنا خطرت ببالِهِ فكرةٌ.

بعدَ الانتهاء من صلاةِ الصُبحِ، وتناولِ الفطورِ قادَ فيليب الرهبانَ إلى الحقلِ مع حبالٍ وفؤوسٍ، وقضوا الصباحَ بأكمله يقتلعونَ جذعَ الشجرةِ

الضخمَ حيثُ أمسكَ نصفهم بالحبالِ بينما ضربَ البقيةُ الجذورَ بالفؤوسِ، وهم يرددون بصوتٍ واحدٍ: «اسسسححححببب». وعندما نجحوا أخيراً في اقتلاعِ الجذعِ، وزَّعَ فيليب عليهم الجعةَ والخبزَ وقطعاً من لحمِ الخنزيرِ الذي حرمَهم منه البارحةَ.

لم يكن ما حدثَ نهايةً للمشاكلِ التي تصدَّى لها فيليب بل بدايةً للحلولِ. رفضَ منذ البداية الطلبَ من ديرِ كينغزبريدج أيّ شيءٍ باستثناءِ الحبوبِ لصنعِ الخبز، والشموع من أجلِ المصلى، ولأنَّ الرهبان باتوا الآن يعلمون حقَّ العلمِ أنَّهم لا يستطيعون تناولَ اللحمِ سوى الذي ينتجونه، أو يصطادونه بأنفسهم، باتوا مُربين مُعتبرين للمواشي وصيادين، وتوقفوا عن اعتبارِ الصلواتِ أو حضورِ المراسمِ طريقةً للتهربِ من العملِ بل باتوا يفرحون عندما يختصرُ فيليب الساعات التي يقضونها في المصلى ليكسبوا المزيدَ من ساعاتِ العملِ في الحقولِ.

بعدَ مرور عامين أصبحوا مُستقلين في احتياجاتهم عن الدير الرئيسي، وبعد عامين آخرين، باتوا يزودون ديرَ كينغزبريدج باللحمِ، والطرائدِ، والجبنةِ المصنوعةِ من حليبِ الماعزِ، التي أصبحت من الرفاهيات المطلوبةِ. ازدهرَت أحوالُ الصومعة، وباتت الصلوات تتمُّ بطريقةٍ لا يشقُّ لها غبارٌ، والرهبان بصحةٍ جيدةٍ وسعداء.

كان فيليب سيشعر بالرضا عن كلِّ هذا لو لم يكن حالُ ديرِ كينغزبريدج ينتقلُ من السيئ إلى الأسوأ.

يُفترضُ بديرِ كينغزبريدج أن يكون أهمَّ المراكزِ الدينية في المملكةِ، وأن يكون نابضاً بالحياةِ، وأن تكون مكتبته مقصداً للدارسين الأجانب، ورئيسه مستشاراً للبارونات، ومقدساته وجهةً للحجاجِ من جميع أنحاءِ البلادِ، وأن يكون معروفاً بين النبلاءِ بحُسنِ ضيافتهِ، ومشهوراً بين الفقراءِ بأعمالهِ الخيريةِ، ولكن كنيسةَ الديرِ كانت متداعيةً، ونصفُ أبنيتها فارغةً، والدير مديوناً للكثيرِ من الدائنين. عادةً ما يزورُ فيليب ديرَ كينغزبريدج بالمنتجاتِ مرَّةً في العامِ على الأقلِّ، وفي كلِّ مرَّةٍ يعود غاضباً من الاستهتار الطائش بالثروةِ التي تبرَّعَ بها مؤمنون ورعون، وزادها الرهبانُ الملتزمون كأنَّها إرثٌ ورثهُ ابن مُبذرٌ.

إنَّ أحدَ أسبابِ المشكلةِ هو موقعُ الديرِ بحد ذاتِهِ؛ فقد كانت كينغزبريدج بلدةً صغيرةً على كتفِ طريقٍ لا يُفضي إلى أيِّ مكانٍ، ومنذُ زمنِ الملكِ وليم الأول المُلقب بالغازي أو باللقيط، تتوقفُ التسميةُ هنا على هويةِ المُتحدثِ، تحولت مناطقُ معظمِ الكاتدرائيات إلى مدنٍ كبيرةٍ، وهذا ما حدث لجميعها باستثناءِ كينغزبريدج، ولكن فيليب لم ينظر إلى هذا التفصيل كمشكلةٍ حقيقيةٍ؛ فأيُّ ديرٍ نشطٍ فيهِ كاتدرائية يجب أن يكون مدينةً بحدِّ ذاتِهِ.

كانت المشكلةُ الحقيقيةُ تراخي رئيسِ الديرِ العجوزِ جيمس، ولأنَّ ربَّانَ السفينةِ متراخٍ؛ فإنَّ المخاطر ستتقاذفُ السفينةَ وتحيدها عن مسارها.

ولكن أكثرَ ما أثارَ أسفَ فيليب الشديدَ هو أنَّ حال كينغزبريدج سيستمرُ بالتردي ما دام رئيسُ الديرِ جيمس حيّاً.

***

لفَّ الرهبان الطفلَ في قماشٍ جديدٍ، ووضعوه في مهدٍ كان سلَّةَ خبزٍ كبيرةً. غطَّ الطفلُ في النومِ بعدَ أن ملأ بطنَهُ بحليبِ الماعزِ، وكلَّفَ فيليب جون إيتبنس بمهمةِ العنايةِ به. على الرغمِ من أنَّ جوني أبله بعضَ الشيءِ، إلا أنَّه معروفٌ بحنوهِ على الكائناتِ الصغيرةِ والضعيفةِ.

تحرَّقَ فيليب شوقاً إلى معرفةِ السببِ الذي جاءَ من أجلِهِ فرانسيس إلى ديرِ الرهبانِ، وخلالَ الغداء ألمحَ كثيراً إلى هذا الموضوع، ولكن فرانسيس تفادى التلميحات، فاضطرَّ فيليب إلى كبحِ فضولِهِ.

عادةً بعدَ الغداء هناك ساعةٌ مخصصةٌ للقراءةِ، ولأنَّه ما من ممرّاتٍ مسقوفةٍ في الديرِ جلسَ الرهبانُ في رواقِ المصلى ليقرؤوا أو يمشوا في الفسحةِ، ويُسمحِ لهم بالدخولِ إلى المطبخِ بينَ الفينةِ والأخرى للتدفئةِ قربَ الموقدِ. تمشّى فيليب وفرانسيس على أطرافِ الفسحةِ جنباً إلى جنب كما اعتادا فعلَ هذا في ممرّاتِ الديرِ في ويلز، وهنا بدأ فرانسيس بالكلامِ.

«لطالما عدّ الملكُ هنري الكنيسةَ جزءاً ثانوياً من مملكتِهِ، وهو يُصدرُ الأوامرَ على الأساقفةِ ويفرضُ عليهم الضرائب، ويمنعُ التطبيقَ المباشرَ للسلطةِ البابويةِ».

«أعلمُ هذا»، قال فيليب ثمَّ أضاف: «وما الجديدُ في الأمرِ؟»

«لقد توفي الملكُ هنري».

توقفَ فيليب في مكانهِ؛ فهو لم يتوقع هذا الخبر.

تابع فرانسيس كلامَهُ: «مات في كوخِ الصيدِ في ليون لا فورت في النورماندي بعد وجبةٍ من سمكِ الحنكليس الذي يحبُ تناوله رغمَ اعتراضِ حاشيتهِ».

«متى توفي؟»

«في أوّلِ يومٍ من العامِ الجديد، وهذا يعني أنَّه مضى شهرٌ بالضبطِ على وفاتِهِ».

صُدمَ فيليب بالخبرِ؛ فقد كان هنري الملكَ منذ أن أبصرَ النور، وهو لم يشهد في حياتهِ على وفاةِ ملكٍ، ولكنه عرفَ أنَّ مثلَ هذا الحدث يعني أوقاتاً عصيبةً قد تودي إلى نشوبِ حربٍ.

«ما الذي سيحدث الآن؟» سأل فيليب بقلقٍ.

استأنفا سيرهما وقال فرانسيس: «إنَّ المشكلةَ هي أنَّ وريثَ الملكِ قُتلَ في البحرِ منذُ سنواتٍ كما تتذكر».

«أتذكرُ».

كان فيليب آنذاك في الثانية عشرة، وكانت حادثةُ غرقِ وريثِ العرشِ أولَ حدثٍ على أهميةٍ وطنيةٍ في وعيهِ الطفولي، وما جعلهُ يُدرك أنَّ هناك عالماً آخر خارجَ ديرِ الرهبانِ. توفي ابن الملكِ في غرقِ سفينةِ «وايت شيب» قبالةَ ساحلِ مدينةِ تشريبورغ، ورئيسُ الديرِ بيتر قد أخبرَ فيليب آنذاك أنَّه قلقٌ من نشوبِ حربٍ، وحدوثِ فوضى بعدَ موتِ وريث عرشٍ، ولكن الملك هنري سيطرَ على زمامِ الأمور بعد وفاةِ ابنهِ، وتابعَ فيليب وفرانسيس حياتهما في سلامٍ.

«بالطبع لدى الملكِ أولاد آخرون بل وكثيرون»، تابع فرانسيس « وهناك ما لا يقل عن العشرين منهم بمن في ذلك سيِّدي الإيرل روبرت غلوستر، لكن وكما تعرف، جميعهم لقطاء، وعلى الرغمِ من خصوبةِ الملكِ فإنّه لم يُنجب سوى طفلٍ شرعي آخر وهي فتاةٌ. لا يمكن للابنِ اللقيطِ أن يرثَ العرشَ، ولكن أن ترثهُ امرأةٌ فهذا بسوءِ أن يرثهُ لقيطٌ».

«ألم يُسمّ الملكُ وريثاً له؟» قال فيليب.

«أجل، لقد اختار ابنتهُ مود فهي لديها ابنٌ واسمه هنري، ورغبَ الملكُ

المتوفى بشدةٍ أن يرثَ حفيده العرشَ، ولكن الصبي ما زال في الثالثةِ، ولذلك أجبرَ الملكُ البارونات على القسمِ بالولاءِ لابنته مود».

بدا فيليب مرتبكاً، وقال: «إن نصَّبَ الملكُ مود وريثةً له، وأدى البارونات قسمَ الولاءِ لها فما المشكلةُ إذاً؟»

«لا تسيرُ الحياةُ في البلاطِ بالسهولةِ التي تتصورها»، قال فرانسيس وتابع: «إنَّ زوجَ مود، جوفري، من مقاطعة أونجو[1]، ولطالما كان هناك عداءٌ بين أونجو والنورماندي، وهذا العداء مستمرٌ منذُ أجيالٍ، وسادتنا النورمانديون يكرهون الأونجويين. بصراحةٍ، كان الملكُ المتوفى متفائلاً جداً بشأن تسليمِ مجموعةٍ من البارونات الأنغلونورمانديين إنكلترا والنورماندي إلى شخصٍ من أونجو، سواءَ أكان هذا بقسمِ ولاءٍ أم لا».

بدا فيليب مذهولاً من سعةِ اطلاعِ شقيقهِ الأصغر، وموقفِهِ الساخطِ من أهمِّ شخصياتِ البلادِ

«كيف لكَ أن تعلمَ كلَّ هذا؟»

«اجتمعَ البارونات في لينيوبورغ من أجلِ تداولِ ما يجبُ القيامُ بهِ. من نافلِ القولِ أنَّ سيِّدي الإيرل روبرت كان موجوداً، وهذا يعني أنني رافقتهُ لأكتبَ له رسائلَهُ».

رمقَ فيليب شقيقه بنظرةٍ فضوليةٍ، وفكرَ بالاختلافِ الكبيرِ بين حياتِهِ، وحياةِ فرانسيس، ثمَّ تذكرَ أمراً وقال: «الإيرل روبرت أكبر أبناءِ الملك المتوفى، أليسَ هذا صحيحاً؟»

«أجل، وهو طموحٌ جداً ويتفقُ مع الرأي العامِ القائلِ إنَّ الأبناءَ اللقطاءَ يجب أن يحصلوا على ممالكهم بالحربِ وليس بالإرثِ».

«ومن كان هناك أيضاً؟»

«لدى شقيقة الملكِ هنري ثلاثةُ أبناء، ويدعى أكبرهم ثيوبولد من بلويس، ثمَّ ستيفن الذي كان محبوباً جداً من قبلِ الملكِ هنري، وقد منحهُ مُلكيةً

1- مقاطعة في حوض اللوار الأدنى غرب فرنسا. خضعت المنطقة لسيطرةِ التاج البريطاني منذ عام 1151 وحتَّى 1199 عندما ورثها الملك هنري الثاني الذي بدورهِ أورثها إلى ابنه ريتشارد، وإضافة إلى ألقابهما الأخرى، حصلا على لقبِ كونت أونجو. (المترجمة)

شاسعةً هنا في إنكلترا، ثمَّ آخر أفراد العائلةِ هنري، والمعروف أنه أسقف وينشستر. يميلُ البارونات إلى الابن الأكبر ثيوبولد بسببِ عُرفٍ لا بدَّ أنَّكَ تعدّه منطقياً جداً»، ونظرَ فرانسيس إلى فيليب وابتسم.

«منطقي جداً»، قال فيليب مع ابتسامة وتابع: «إذاً، ثيوبولد ملكنا الجديد؟»

هزَّ فرانسيس رأسه وقال: «أعتقدُ أنَّه كذلك، ولكن الأخوين الأصغرين يحاولان شقَّ طريقهما إلى الخطِّ الأمامي». كانا قد وصلا إلى أبعدِ نقطةٍ في الفسحةِ، ولذلكَ استدارا عائدين. «وبينما رحَّبَ ثيوبولد بحفاوةٍ بتأييد البارونات له عبرَ ستيفن القناةَ إلى إنكلترا ثمَ إلى وينشستر، وبمساعدةِ شقيقه الأصغر، الأسقف هنري، وضعَ يدَهُ على القلعةِ هناك وعلى ما هو أهمُّ منها. لقد وضعَ يده على الخزينةِ الملكيةِ».

كان فيليب على وشك القولِ: «إذاً، ستيفن ملكنا الجديد»، ولكنه لجمَ نفسهُ في اللحظةِ الأخيرةِ، فقد تسرَّعَ قبلاً، وقال هذا عن مود وعن ثيوبولد، وكان مخطئاً في كلتا المرَّتين.

وتابع فرانسيس: «لم يكن ستيفن بحاجةٍ إلّا إلى أمرٍ أخير لضمانِ نصرِهِ، ألا وهو دعمُ الكنيسةِ. إن لم يتوج في كنيسة ويستمنستر على يدِ رئيسِ الأساقفةِ لن يكون ملكاً شرعياً».

«ولكن لا بد أن يكون هذا أمراً سهلاً»، قال فيليب ثمَّ تابع: «لأنَّ شقيقهُ هنري واحدٌ من أهمِّ رجالِ الدينِ في البلادِ، فهو أسقفُ وينشستر ورئيسُ ديرِ غلاستونبيري، وهذا يعني أنَّه غني كالملكِ سليمان وقوي كرئيسِ أساقفةِ كانتربري، وإن لم يكن لدى الأسقفِ هنري نيَّة بدعمِ شقيقِهِ فلن يساعده إذاً على كسبِ دعمِ وينشستر».

أومأ فرانسيس برأسِهِ وقال: «يجدرُ بنا القول إنَّ تحركاتِ الأسقف هنري خلال هذهِ الأزمة تتسم بالذكاءِ، فهو لم يساعد ستيفن بدافعِ الحبِّ الأخوي».

«وما كان دافعهُ إذاً؟»

«قبلَ قليلٍ أشرتُ إلى أنَّ الملكَ هنري عدّ الكنيسةَ كأيِّ جزءٍ آخر من أجزاءِ مملكتِهِ، ويريدُ الأسقفُ هنري أن يضمنَ ملكاً جديداً يعاملُ الكنيسةَ بطريقةٍ أفضل، ولذلكَ وقبلَ أن يؤمنَ الدعمَ لشقيقِهِ ستيفن أجبرهُ على التعهدِ بحمايةِ حقوقِ وامتيازاتِ الكنيسةِ».

ذُهلَ فيليب مما سمعهُ. ها هي علاقةُ ستيفن بالكنيسة تُحددُ منذُ البدايةِ، ووفقَ شروط الكنيسةِ ذاتها، ولكن ما هو أكثرُ أهميةً من هذا هو أنَّ الحدثَ برمتهِ يعدُّ سابقةً، فعلى الرغمِ من أنَّ الكنيسةَ من تتوج الملوكَ فإنَّها، وحتَّى الآن، لم يكن لديها الحقُّ في وضعِ الشروطِ، وهذا يعني أنَّه قد يأتي وقتٌ لن يتوج فيه أيُّ ملكٍ قبلَ عقدِ صفقةٍ مع الكنيسةِ أولاً.

«هذا يعني الكثيرَ بالنسبةِ إلينا»، قال فيليب.

«قد يحنثُ ستيفن بوعدهِ بالطبعِ»، قال فرانسيس وتابع: «ولكنكَ على حقٍ، فلن يُعامل ستيفن الكنيسة بذات الطريقةِ المُجحفةِ التي عاملها بها الملكُ هنري، ولكن هناك خطراً آخر. أثارَ قسمُ ستيفن غضبَ بارونين، وأحدهما بارثيميلو، إيرل شايرنغ».

«أعرف شايرنغ فهي لا تبعد سوى مسيرِ يومٍ واحدٍ من هنا، ويُقال إنَّ بارثيميلو رجلٌ تقي».

«قد يكون كذلك، ولكن كلّ ما أعرفه هو أنَّه بارون متشددٌ، ويعتقدُ نفسهُ الأقوم أخلاقياً، ولذلك لن يتراجع عن قسمِ الولاءِ الذي قدَّمه إلى مود، حتَّى إن وعدتهُ الكنيسةُ بمنحهِ الغفرانَ على حنثهِ بالقسمِ».

«ومن هو البارون الساخط الآخر؟»

«سيَّدي روبرت غلوستر. أخبرتكَ أنَّ روبرت رجلٌ طموحٌ، وتمزقهُ فكرةُ أنَّه لو كان ابناً شرعياً لأصبحَ الملكَ، وهو يريدُ أن يوصلَ أخته غير الشقيقة إلى العرشِ ظناً منه أنَّها ستعتمد بقوةٍ على رأيهِ ومشورتهِ، وأنَّه سيصبح، وإن لم يكن بالاسم، الملكَ الفعلي للبلادِ».

«هل سيفعلُ شيئاً حيال الأمرِ؟»

«أخشى هذا»، قالَ فرانسيس بصوتٍ واطئ رغمَ أنَّه ما من أحدٍ كان في الجوارِ: «سيبدأ روبرت وبارثيميلو مع مود وزوجها عصياناً، ويخططون لخلعِ ستيفن ووضعِ مود مكانَهُ على العرشِ».

توقفَ فيليب عن السير وقال: «وهذا يعني أنَّ هذا سيقوض كلَّ ما حققه أسقفُ وينشستر!» ثمَّ أمسكَ ذراعَ شقيقهِ وقال: «ولكن يا فرانسيس...»

«أعلم بما تفكرُ بهِ»، وفجأةً اختفت تعابيرُ الغطرسةِ عن وجهِ فرانسيس،

وبدا قلقاً ومرتعباً: «إن علمَ الإيرل روبرت أنني أخبرتكَ بهذا فسيعدمني. إنَّه يضع ثقتهُ المُطلقة بي، ولكن ولائي الكامل هو للكنيسةِ... ويجب أن يكون كذلك».

«ولكن ما الذي يمكنكَ فعله؟»

«كنتُ أفكرُ بمقابلةِ الملكِ الجديدِ وإخباره بكلِّ شيءٍ. بالطبعِ سيُنكرُ الإيرلان المتمردان الأمر وسأُعدم بتهمةِ الخيانةِ، ولكن هذا سيُحبطُ العصيانَ وأذهبُ إلى الجنةِ».

هزَّ فيليب رأسهُ وقال: «لقد تعلَّمنا أنَّ السعي وراءَ الشهادةِ غرورٌ».

«وأعتقد أنَّ الرَّبَّ يريدني على الأرضِ. أنا موضعُ ثقةِ بارونٍ عظيمٍ، وإن بقيتُ معهُ فقد أترقّى بالعملِ الجادِ، هناكَ الكثيرُ مما يمكنني القيامُ بهِ لدعمِ حقوقِ الكنيسةِ، وسُلطةِ القانونِ».

«وهل هناك طريقةٌ أخرى...؟»

نظرَ فرانسيس إلى فيليب بشكلٍ مباشر، وقال: «لهذا السببِ أنا هنا».

شعرَ فيليب برعشةِ خوفٍ تسري في أوصالهِ، فقد علمَ أن فرانسيس سيطلبُ منه التورطَ في هذا الأمرِ، وإلّا لما كشفَ له هذا السرَّ الرهيبَ.

تابع فرانسيس: «لا يمكنني أن أكشفَ أمر العصيانِ، ولكنكَ تستطيع».

قال فيليب: «يا يسوع المسيح وجميع القديسين!»

«إن فُضحَ أمرُ المؤامرةِ هنا في الجنوبِ فلن تحومَ الشكوكُ حولَ فضحها من منزلِ غلوستر. لا أحد يعلم أنَّني هنا، ولا أنَّك شقيقي. يمكنكَ أن تجدَ تفسيراً منطقياً لكيفيةِ حصولكَ على المعلوماتِ. يمكنكَ القول إنَّك رأيتَ جنوداً يتجمعون، أو أنَّ شخصاً ما من منزلِ الإيرل بارثيملو كشفَ المؤامرةَ أثناءَ الاعترافِ بخطاياه لكاهنٍ تعرفه».

فجأةً غدا الطقسُ أبرد فأحكمَ فيليب عباءتَه حوله. ينضوي العملُ الذي يطلبهُ منه فرانسيس على مخاطرةٍ كبيرةٍ، فهما ينويان التدخل في السياسةِ الملكيةِ التي يذهبُ ضحيتها على الدوامِ سياسيون محنَّكون، ولذلك تورطُ شخصٍ دخيلٍ كفيليب عملٌ غبي.

ولكن من جهةٍ أخرى هناكَ أمورٌ كثيرةٌ على المحكِّ، فلا يمكن لفيليب

أن يقفَ مكتوفَ اليدين أمامَ عصيانٍ على ملكٍ اختارتهُ الكنيسة، وهو في الوقتِ نفسهِ يملكُ فرصةً لإيقافِ هذا العصيان. قد يكون تدخلُ فيليب عملاً خطيراً، ولكن إن تدخّل فرانسيس، وفضحَ المؤامرةَ فسيكون الأمرُ أشبه بالانتحارِ.

قال فيليب: «ما هي خطةُ الثوارِ؟»

«إنَّ الإيرل بارثيميلو الآن في طريقِ عودتِهِ إلى شايرنغ، ومن هناك سيرسلُ الرسائلَ إلى أتباعهِ في جميع أرجاءِ جنوبِ إنكلترا. سيصلُ الإيرل روبرت إلى غلوستر بعد يومٍ أو يومين، ويحشد قوّاته في ويست كانتري، وأخيراً سيُغلقُ مسؤول عن قلعةِ ويلنغفور بريان فيتزكاونت بواباتها، وبذلك سيصبحُ كلُّ الجنوب الغربي الإنكليزي تحتَ قبضةِ الثوار، ومن دونِ قتالٍ».

«إذاً، سيكون الوقتُ قد تأخرَ!» قال فيليب.

«ليسَ تماماً، فما زال أمامنا أسبوعٌ، ولكن يجب أن تتحرك بسرعةٍ».

أدركَ فيليب في ضيقٍ شعرَ بهِ رابضاً على صدره أنَّه قد قررَ القيامَ بالأمرِ: «لا أعرف من عليَّ إطلاعهُ على الأمرِ. عادةً وفي مثلِ هذا الموقفِ يذهبُ المرءُ إلى إيرلٍ، ولكن الإيرل في هذه الحالةِ هو الطرف المتواطئ، وسيكون المأمورُ إلى جانبهِ دونَ أدنى شكٍ. علينا أن نفكرَ بشخصٍ ما نثقُ أنَّه إلى جانبنا».

«رئيسُ ديرِ كينغزبريدج؟»

«إنَّ رئيسَ الديرِ عجوزٌ منهكٌ، واحتمال أن يفعل شيئاً حيالَ الأمرِ يكاد يكون معدوماً».

«لا بدَّ من أن هناك أحداً ما يمكنكَ إخبارهُ».

«ربما أسقفُ كينغزبريدج»،

لم يتحدث فيليب مع أسقفِ كينغزبريدج قط، ولكنه كان واثقاً من أنَّه سيستقبله، ويُصغي إليهِ وأنَّه سيكون إلى جانبِ ستيفن لأنَّه خيارُ الكنيسةِ، وهو يتمتعُ بشخصيةٍ قويةٍ بما يكفي ليقوم بشيءٍ حيالَ الأمرِ».

قال فرانسيس: «أين يعيشُ الأسقفُ؟»

«على بعدِ مسيرِ يومٍ ونصفٍ من هنا».

«من الأفضلِ أن تغادرَ اليومَ».

«أجل»، أجاب فيليب بقلبٍ مُثقلٍ.

بدا فرانسيس نادماً وقال: «أتمنى لو لم تكن الشخصَ الذي يقومُ بهذا».

«وأنا أيضاً»، قال فيليب بتأثرٍ: «وأنا أيضاً».

***

استدعى فيليب الرهبانَ إلى المصلى، وأطلعَهم على خبرِ وفاةِ الملكِ.

«يجب أن نُصلي من أجلِ انتقالٍ سلسٍ للعرشِ، ومن أجل ملكنا الجديدِ الذي سيحترمُ الكنيسةَ أكثرَ مما فعلَ الملكُ الراحلُ هنري»، قال فيليب للرهبانِ ولكنه لم يخبرهم أنَّ مفتاح هذا الانتقالِ السلسِ بينَ يديهِ، بل اكتفى بالقولِ: «هناكَ أخبارٌ أخرى تجبرني على زيارةِ ديرنا في كينغزبريدج، ولذلكَ لا بد لي من المغادرةِ على الفورِ».

سيتكفلُ نائبُ رئيسِ الديرِ بإجراءِ الصلواتِ والمراسمِ، ووكيل المؤن بإدارةِ الأرضِ، ولم يكن أيّ منهما ندّاً لبيتر ويرهام، ولذلكَ خشي فيليب أن يتسببَ بيتر بالكثيرِ من المتاعبِ إن غابَ طويلاً، وألا يعود هناكَ ديرٌ عندَ عودتهِ. لم يتوصل فيليب بعد إلى طريقةٍ للسيطرةِ على بيتر عدا استهدافِ اعتدادِهِ بنفسهِ، وبما أنَّه لا يملكُ الوقتَ الآن لإيجادِ طريقة لم يكن أمامهُ سوى ارتجال أفضل ما لديهِ.

«باكراً هذا اليوم تحدثنا عن خطيئةِ الشرهِ»، قالَ فيليب بعد فترةِ صمتٍ وجيزةٍ، ثمَّ تابع: «ويستحق الأخ بيتر شكرنا على تذكيرنا أنَّ الرَّبَّ قد أكرمَ علينا بهذهِ المزرعةِ، وأغدقَ علينا بالثراءِ، ولكن ليسَ لنُسمنَ بطوننا، ونتكاسل بل من أجل مجدٍ أكبر، ولذلكَ فإنَّ مشاركةَ ثرواتنا مع الفقراءِ جزءٌ من واجبنا المقدسِ، ونحن، وحتَّى هذهِ اللحظةِ، تجاهلنا هذا الواجب، ويعود ذلك بشكلٍ رئيسي إلى أننا هنا في الغابةِ، وما من أحدٍ حولنا يمكننا مشاركته. لقد ذكَّرنا الأخُ بيتر اليوم أنَّ واجبنا هو الخروجُ والبحثُ عن الفقراءِ حتَّى نقدم لهم يدَ المساعدةِ».

تفاجأ الرهبان مما سمعوه فقد اعتقدوا أنَّ موضوع خطيئةِ الشرهِ قد انتهى، وحتَّى بيتر نفسه بدا حائراً رغمَ أنَّه كان سعيداً لأنه عادَ ليكون محورَ الاهتمامِ، ولكنه بدا يقظاً حيال وجودِ خدعةٍ ما في كلامِ فيليب، وكان محقاً في يقظتهِ.

«ولذلكَ قررتُ»، قال فيليب وتابع: «أنّنا وفي كلِّ أسبوعٍ سنقدمُ إلى الفقراءِ بنساً واحداً عن كلِّ راهبٍ في ديرنا، وهذا يعني أنّه على الجميع تقليلُ حصصِ الطعامِ، ولكننا ستَتَنعمُ في الآخرةِ بالثوابِ، والأهمُّ من ذلكَ يجبُ أن نحرصَ على إنفاقِ مالنا في المكانِ الصحيحِ. إن أعطينا رجلاً فقيراً بنساً لشراءِ الخبزِ لعائلتِهِ، فقد يذهبُ إلى الحانةِ، ويثملُ بالمالِ، وبعدها يعود إلى منزلِهِ، ويضرب زوجته التي كانت في حالٍ أفضلٍ من دون هذا العملِ الخيري الذي قدمناه. إذاً من الأفضلِ أن نقدمَ له الخبزَ، أو بالأحرى أن نقدمَ الخبزَ إلى أطفالِهِ. الزكاةُ فريضةٌ مقدسةٌ؛ ولذلك يجبُ تأديتها بالدأبِ ذاته الذي نعالجُ بهِ المرضى، أو نُعلم الصغارَ، وللسببِ ذاتِهِ العديدُ من الأديرةِ تقوم بتعيين مسؤولٍ عن الزكاةِ يتكفلُ بتوزيعها، ونحن سنحذو حذوها».

ألقى فيليب نظرةً من حولِهِ، ورأى على وجوهِ الجميعِ علائمَ الحذرِ والاهتمامِ، وعلى وجهِ بيترِ نظرةَ حبورٍ في دليلٍ واضحٍ على أنّه اعتبر ما يحصلُ الآن نصراً له، ولكن ما من أحدٍ توقعَ ما حدثَ بعدَ ذلكَ.

«إنَّ عملَ مسؤول الزكاةِ صعبٌ، لأنّه عليهِ التوجه إلى أقربِ المدنِ والقرى، ويتردد باستمرارٍ إلى وينشستر، وهناك سيكون بين أحقرِ وأقذرِ وأقبحِ وأعنفِ طبقاتِ الناس ألا وهي طبقةُ الفقراءِ. يجبُ أن يصلي لهم عندما يُجدفون، ويزورهم عندما يمرضون، ويسامحهم عندما يحاولون الاحتيالَ عليهِ وسرقتِهِ. سيحتاجُ إلى القوةِ والتواضعِ، وإلى صبرٍ لا حدودَ له، وسيفتقدُ الراحةَ التي يعيشها في ديرنا، لأنّه سيكون بعيداً عنه أكثر مما سيكون قريباً منهُ».

ونظرَ فيليب إلى الرهبانِ مجدداً ورآهم ينظرون في قلقٍ، فما من أحدٍ منهم أرادَ مثلَ هذا العملِ، ولكن فيليب سمحَ لنفسهِ أن يطيلَ النظرَ إلى بيتر ويرهام الذي بدأ يدركُ ما سيحدثُ الآن، وغارَ قلبُه في صدرِهِ.

«كان بيتر من لفتَ انتباهنا إلى تقصيرنا في هذا الأمرِ»، قال فيليب ببطءٍ ثمَّ أضاف: «ولهذا قررت أنَّ بيتر من سيحظى بشرفِ هذا المنصبِ»، وابتسم ثمَّ أضافَ: «بيتر، يمكنكَ البدء من اليومِ».

اربدَّ وجه بيتر كسماءٍ غائمةٍ.

وفكرَ فيليب في نفسِهِ: «ستكون بعيداً بما يكفي لعدمِ التسببِ بمتاعب،

وسيساعدكُ التواصلُ المباشرُ مع فقراءِ أحياءِ وينشستر القذرين، والوضيعين على تهذيبِ إزدرائك للحياةِ المريحةِ».

على أيِّ حالٍ بدا واضحاً أنَّ بيتر نظرَ إلى الأمرِ كعقابٍ له، عقابٍ صرفٍ وبسيطٍ، ولذلكَ رمقَ فيليب بنظرةٍ تفيضُ كرهاً شديداً شعرَ معه الأخير بشيءٍ من الرهبةِ.

أبعدَ فيليب ناظريهِ عن بيتر، ونظرَ إلى البقيةِ ثمَّ قال: «عندما يموتُ أيُّ ملكٍ يتربصُ الخطرُ والمجهولُ في الزاويةِ. صلّوا من أجلي في غيابي».

– 2 –

في ظُهر اليومِ الثاني على الرحلةِ لم يكن رئيسُ الديرِ فيليب إلّا على بُعد أميالٍ من قصرِ الأسقفِ، وعندما اقتربَ منهُ انتابهُ قلقٌ شديدٌ. كان قد فكرَ بقصَّةٍ لتوضيحِ كيفيةِ علمهِ بخطةِ العصيانِ، ولكن الأسقفَ قد لا يصدقُ قصتهُ، أو قد يصدقها ويطلب منه دليلاً، ولكن هناك احتملاً آخر أسوأ لم يخطر ببال فيليب إلَّا بعد أن غادرَ فرانسيس. خطر ببالِ فيليب احتمالٌ معقولٌ، وإن كان مُستبعداً، وهو أن يكونَ الأسقفُ أحدَ المتواطئين والداعمين للعصيانِ. قد يكون صديقاً مُقرباً من إيرل شايرنغ، فليسَ غريباً أن يضعَ الأساقفةُ مصالحهم الشخصية أمامَ مصلحةِ الكنيسةِ.

قد يقومُ الأسقفُ بتعذيبِ فيليب لإجبارهِ على فضحِ مصدرِ معوماتهِ، ورغم أنَّه لا يملكُ الحقَّ في فعلِ هذا فإنَّه أيضاً لا يملك الحقَّ في التواطؤ على الملك. واسترجعَ فيليب في ذاكرتهِ أدوات التعذيب التي رآها في اللوحاتِ التي تصور الجحيم فمثلُ هذهِ اللوحات تستقي الإلهامَ مما يجري في زنازين البارونات والأساقفةِ، وشعرَ فيليب أنَّه لا يملك القوةَ على الموتِ شهيداً.

على الطريق رأى أمامَهُ مجموعةً من المسافرين على الأقدامِ، وبشكلٍ غريزي أرادَ تجاوزهم لأنَّه كان وحيداً، وهناك الكثيرُ من قطاعِ الطرقِ الذين لن يترددوا في سرقةِ راهبٍ، ولكن عندما رأى من بعيدٍ أنَّ الأشخاص كانوا طفلين وامرأةً، وعادةً ما تكون العائلاتُ المسافرةُ غير مؤذية، تدرَّج على جوادهِ ولحقَ بهم.

عندما اقتربَ منهم رآهم بوضوحٍ أكبر، كانت المجموعةُ مؤلفةً من رجلٍ

طويلٍ وامرأةٍ ضئيلةِ القامةِ وشابٍ يافعٍ بطولِ الرجلِ وطفلين. بدوا فقراء ولا يحملون سوى صررٍ صغيرةٍ تحوي على أثمنِ ممتلكاتهم على الأغلب، وكانت ثيابهم رثّةً. بدا الرجلُ الضخم نحيلاً جداً كأنّه يحتضرُ من مرضٍ عضالٍ، وعندما رأى فيليب جذبَ الأطفالَ إليه، ودمدمَ بشيءٍ ما. للوهلةِ الأولى اعتقدَ فيليب أنَّ الرجل في الخمسين، ولكن الآن، وبعدَ أن رآه عن كثبٍ تكهنَ أنّه ورغمَ تجاعيدِ التعبِ التي تغطي وجهه أنّه في الثلاثين.

«مرحباً أيّها الراهبُ»، قالت المرأة.

نظرَ فيليب إليها بحدَّةٍ؛ فقد كان غريباً أن تتحدث المرأةُ قبل زوجها، ورغم مناداتها له بالراهبِ لا تدلُ على قلَّةِ احترام فإنَّها كانت يجب أن تناديه بالأخِ أو الأبِ. بدت المرأةُ أصغر من الرجلِ بعشرةِ أعوامٍ، وعيناها الغائرتان بلونٍ عسلي فاتح أضفى عليها بريقاً لافتاً. انتاب فيليب شعورٌ أنّها امرأةٌ خطرةٌ.

«طابَ يومكَ أيّها الأب»، قال الرجل كأنّه يعتذر عن فظاظةِ زوجتهِ.

«باركَكَ الرَّبُّ»، قال فيليب وهو يحثُّ مهرتهُ على الإبطاءِ. «من تكون؟»

«أدعى توم وأنا معلمُ بناءٍ، وأبحثُ عن عملٍ».

«يبدو لي أنّك لم تجد عملاً».

«هذا صحيح».

أومأ فيليب برأسِهِ فلم يكن تجوال البنَّائين بحثاً عن عملٍ غريباً، رغمَ أنَّهم أحياناً قد لا يجدونه، وقد يكون هذا بسببِ سوءِ الحظِ، أو بسبب وفرةِ البنَّائين في مواقعِ البناءِ، ولذلك يتنعمُ أمثالهُ من الناسِ بحسنِ الضيافةِ في الأديرةِ، فعندما ينزلون في الأديرةِ بعد حصولهم على أجورهم يتركون تبرعاتٍ سخيّةً عندَ مغادرتهم، ولكن إن كان قد مضى عليهم فترةٌ طويلةٌ من دون عملٍ لا يقدمون شيئاً، ولهذا السببِ كان الترحيبُ الحارُّ بهم في أيِّ حالةٍ من الحالتين بمنزلة اختبارٍ لإحسان الأديرةِ.

لم يكن لدى فيليب أدنى شك أنَّ هذا البنَّاء من النوعِ المُعدمِ رغم أن زوجتهُ بدَت بصحةٍ جيدةٍ، قال فيليب: «حسناً، لدي طعام في السرجِ، وقد حان الآن موعدُ الغداءِ، وبما أنَّ الإحسانَ للناس فريضةٌ مقدسةٌ فما رأيكَ بمشاركتي أنتَ وعائلتك الطعامَ، وسأحصل على ثوابي في الجنةِ إضافة إلى بعضِ الصحبةِ أثناءَ الطعامِ».

«هذا كرمٌ منكَ»، قال توم ونظرَ إلى المرأة التي هزَّت بكتفيها هزَّة بالكادِ تُرى ثمَّ أومأت برأسِها، وبعدها ومن دون ترددٍ قال الرجل: «سنقبلُ عطيتكَ. شكراً لكَ».

«لا تشكرني بل اشكر الرَّبَّ»، قال فيليب تلقائياً.

وهنا قالت المرأة: «اشكر الفلاحين على ضرائبِ العشر التي يقدمونها لنحصلَ على هذا الطعام».

ولاحظَ فيليب مجدداً النبرةَ الحادَّةَ، ولكنه لم يتفوه بكلمةٍ.

توقفوا قربَ فسحةٍ صغيرةٍ خاليةٍ من الشجرِ حيثُ تستطيع مُهرةُ فيليب رعي العشبَ الشتائي الذاوي. كان فيليب سعيداً بهذا العذرِ، لأنَّه سيؤخر وصوله إلى القصرِ، ويؤجل لقاءَهُ الرهيبَ مع الأسقفِ. كان البنَّاء قد قال له إنَّه متوجه إلى قصرِ الأسقفِ أيضاً على أملٍ أن يكلّفه الأسقفُ بالقيام ببعضِ الإصلاحاتِ أو التوسعات في المباني، وخلال الحديثِ مع الرجلِ تفحصَ فيليب العائلةَ خفيةً. بدت المرأةُ صغيرةً جداً على أن تكون والدةَ الفتى الكبير الذي بدا قوياً وغبياً كعجلٍ، أمَّا الفتى الآخر فكان ضئيل القامة، ويبدو غريبَ الأطوارِ بشعرٍ أصهب وبشرةٍ بيضاء كالثلج وعينين جاحظتين بلونٍ سماوي. لاحظَ فيليب أنَّ الفتى يحدّق بقوةٍ إلى الأشياءِ، وعلى وجههِ تعبيرٌ أخرق ذكَّره بالمسكينِ جوني إيتبنس، باستثناء أنَّ هذا الفتى سيحدق إليكَ بنظرةٍ ناضجةٍ جداً وعاقلةٍ عندما يراكَ تنظرُ إليه، ووجدَه فيليب بطريقةٍ ما مُزعجاً كوالدتهِ. أمَّا الطفلُ الثالث فكان فتاةً في حدودِ السادسةِ تنخرطُ في البكاءِ أحياناً، ولا يحيدُ نظرُ والدها عنها، وبدا كأنَّه يرعاها باهتمامٍ كبيرٍ، ويربّت عليها بينَ الفينةِ والأخرى، رغم أنَّه لم يوجه لها كلمةً واضحةً. بدا واضحاً أنَّه يحبها حبَّاً جمَّاً. رغمَ أنَّ الرجل لم يلمس زوجتهُ إلّا مرَّةً واحدةً لكن فيليب لاحظَ نظرة الشبقِ التي تبادلاها عندما تلاقت أعينهما.

أرسلت المرأةُ الأطفال للبحثِ عن أوراقٍ عريضةٍ يمكن استخدامها كأطباقٍ، فتحَ فيليب السرجَ وقال توم: «من أيِّ ديرٍ أنتَ قادم أيّها الأب؟»

«من ديرٍ في الغابةِ يبعد مسيرَ يومٍ من هنا باتجاه الغربِ»، ورفعت المرأة ناظريها بحدةٍ بينما بدا توم مذهولاً.

«هل تعرفه؟» سأل فيليب.

ولسبب ما بدا توم مضطرباً، ولكنه قال: «لا بدَّ أننا مررنا بهِ في طريقنا من سالسبيري».

«أوه، أجل لا بد أنك مررت بهِ، ولكنه بعيدٌ جداً عن الطريقِ الرئيسي، ولهذا لا يمكن أن تكون قد رأيتهُ ما لم تكن تقصدهُ».

«آه، فهمت»، قال توم في شرودٍ.

وفجأة خطرَ لفيليب أمرٌ فقال: «أخبرني بشيء. هل مررتَ بامرأة شابةٍ على الطريقِ؟ قد تكون يافعةً جداً، ووحيدةً ومعها طفلٌ؟»

«لا»، قال توم ورغمَ أنَّ لهجته بدت عاديةً، فإنَّ فيليب شعرَ أنَّه مهتمٌ جداً: «لمَ تسأل؟»

ابتسم فيليب وقال: «سأخبركَ. في وقتٍ باكرٍ من صباحِ البارحة عُثرَ على طفلٍ في الغابةِ، وأُحضرَ إلى ديري، إنَّه صبي ولا أعتقدُ أنَّ عمره يتجاوز اليومَ، لا بدَّ أنَّه ولدَ في تلكَ الليلةِ، وهذا يعني أنَّ الأمّ كانت في المنطقةِ نفسها التي كنتَ فيها».

«لم نرَ أحداً»، كررَ توم وسألَ: «وما الذي فعلتَه بالطفلِ؟»

«أطعمناه حليبَ الماعزِ، ويبدو أنَّه يتغذى عليه».

نظرَ الرجلُ والمرأةُ إلى فيليب باهتمامٍ، وفكرَ الأخيرُ أنَّ القصةَ ستؤثر على أيِّ شخصٍ يسمعها، وبعد برهةٍ قال توم: «وأنتَ تبحثُ عن الأمِّ؟»

«أوه، لا. كان سؤالي سؤالاً عرضياً. إن عثرتُ عليها فسأعيدُ لها الطفل حتماً، ولكن يبدو أنَّها لا تريده، ولذلك ستحرصُ على ألا يجدها أحدٌ».

سأل توم: «وما الذي سيحدثُ للصبي؟»

«سنربيهِ في الدير وسيكون طفلَ الرَّبِّ. لقد تربيتُ بهذهِ الطريقةِ، وشقيقي أيضاً، فقد حُرمنا من والدينا عندما كُنا صغيرين، وبعد ذلك أصبح رئيس الدير والدنا، والرهبان بمنزلةِ عائلتنا التي تغذينا وتدفأنا، وتعلمنا».

قالت المرأة: «وأصبحتما راهبين»، كان هناك شيءٌ من السخريةِ في كلامها، كأنَّها أرادت القولَ إنَّ الإحسانَ في الديرِ قائمٌ على المصلحةِ.

وسرَّ فيليب لأنَّه يستطيع الآن أن يختلف معها: «لا، لقد تركَ شقيقي الرهبنةَ».

عادَ الأطفالُ، ولكنهم لم يجدوا أيَّةَ أوراقٍ عريضةٍ فلم تكن هذهِ بالمهمةِ

السهلةِ، خاصةً في الشتاءِ، ولهذا تناولوا الطعام من دونِ أطباقٍ، قدَّم لهم فيليب الخبزَ والجبنةَ، فانقضوا على الطعامِ كحيواناتٍ جائعةٍ. «نصنع هذه الجبنةَ في الديرِ»، قال فيليب وتابع: «معظمُ الناسِ يفضلونها طازجةً كما هي الآن، إلّا أن طعمها يغدو أفضل عندما تُعتَّق». كانوا جائعين جداً على الاهتمامِ بهذا التفصيل، وأنهوا الخبزَ والجُبنَ بسرعةٍ. كان بحوزةِ فيليب ثلاثُ إجاصاتٍ، فأخرجها من حقيبتهِ، وقدمها إلى توم، فقدَّم بدورهِ ثمرةً إلى كلِّ طفلٍ.

نهضَ فيليب على قدميه، وقال: «سأصلي من أجلكَ لتجد عملاً».

قال توم: «إن سنحت لكَ الفرصةُ يا أبتاه فلتزكيني أمام الأسقفِ. أنتَ تعرفُ أننا مُحتاجون، وقد وجدتنا أشخاصاً أمناء».

«سأفعلُ».

أمسكَ توم المُهرة بينما امتطاها فيليب: «أنتَ رجلٌ طيبٌ يا أبتاه»، قال توم، وتفاجأ فيليب عندما رأى في عيني توم دموعاً.

«فليكن الرَّبُّ معكَ»، قال فيليب.

أبقى توم يدهُ على رأسِ المُهرةِ قليلاً، ثمَّ قال: «الطفلُ الذي أخبرتنا عنه.. الطفلُ اللقيطُ...»، تحدَّث بصوتٍ كالهمسِ، كأنَّه لم يكن يريدُ للأطفالِ أن يسمعوه: «هل أعطيتَهُ اسماً؟»

«أجل، لقد أسميناه جوناثان. الاسمُ يعني عطيةً من الرَّبّ».

«جوناثان. أحببتُ الاسمَ»، قال توم، وأفلتَ رأسَ المُهرةِ.

حدَّقَ فيليب إليه بفضولٍ لبرهةٍ ثمَّ همزَ الجواد وابتعدَ.

***

لا يعيشُ أسقف كينغزبريدج في كينغزبريدج، بل في قصرٍ على هضبةٍ جنوبيةٍ وسطَ وادٍ خصبٍ، وهي تبعد مسيرَ يومٍ عن كاتدرائيةِ كينغزبريدج الحجريةِ ورهبانها المُتجهمين. كان الأسقفُ راضياً عن هذا الترتيب؛ لأنَّه إن بقي في الكاتدرائيةِ فسوف يلتزمُ بالكثير من الصلواتِ والمراسمِ، وسيعيقه هذا عن القيام ببقيةِ واجباتهِ في جمعِ الإيجارات، وإحقاق العدالةِ، والمناورةِ في البلاطِ الملكي، وكان أيضاً مناسباً للرهبان؛ لأنَّ بُعدَ الأسقف عنهم يعني تدخلاً أقل من قبلهِ.

كان الطقسُ بارداً جداً يبشرُ بهطولِ الثلج بعدَ ظُهرِ اليومِ، وعصفَت ريحٌ قارسةٌ عبرَ الوادي حيثُ يقيمُ الأسقف، وأحاطت سحبٌ رمادية خفيضةٌ بالقصرِ أعلى الهضبةِ، وعلى الرغمِ من أنَّ البناءَ لم يكن قلعةً فإنّه كان مُحصَّناً، فهو مطوقٌ بسياجٍ خشبي متينٍ بارتفاعِ قامةِ رجلٍ وخارجه خندقٌ من أجلِ مياهِ المطرِ. عندَ البوابةِ وقفَ حارسٌ في ثيابٍ رثَّةٍ وحملَ سيفاً ثقيلاً.

كان قصراً مبنياً من أفخمِ الحجارةِ، وله شكل حرفِ (E)، والطابقُ الأرضي سردابٌ وفي جدرانِهِ المتينةِ لاحت أبوابٌ كثيرةٌ ولكن من دونِ نوافذ. وجدَ فيليب باباً مفتوحاً ولمحَ في لُجةِ العتمةِ وراءه براميل وأكياساً، أمَّا الأبوابُ الأخرى فقد كانت مُغلقةً بالسلاسلِ. تساءلَ فيليب في نفسهِ عمَّا كان وراءها، واستنتجَ أنَّه عندما يكون للأسقفِ سجناء، فإنَهم يقاسون العقوبةَ هنا حتماً.

هناك سلّم خارجي يُفضي إلى الطابق العلوي حيثُ القسم المنزلي من القصرِ. كانت الغرفةُ الثانيةُ قاعةً، أمَّا الغرفتان الباقيتان فقد تكهن فيليب أنَّهما المصلى وغرفةُ النومِ. رأى أيضاً نوافذاً مُغلقةً كعيون الطيورِ تطلُّ بحذرٍ على العالمِ الخارجي.

هناك أيضاً مطبخٌ ومخبزٌ حجري، وإسطبلات خشبية وحظيرةٌ. كانت جميع الأبنيةِ في حالةٍ جيدةٍ، وفكرَ فيليب في نفسهِ أنَّ هذا سيكون من سوءِ حظِ البنَّاءِ توم.

رأى في الإسطبلِ العديدَ من الجيادِ الجيدةِ، ومن بينها بضعةُ جيادٍ حربيةٍ، ومجموعةٌ من الجنودِ هنا وهناك يقتلون الوقتَ، وهذا يعني أنَّه قد يكون لدى الأسقفِ زوار.

تركَ فيليب جواده مع فتى في الإسطبل، وصعدَ الدرجَ متوجساً. خيَّمَ على المكانِ جو عسكري مزعجٌ، وتساءلَ فيليب في نفسهِ أين صفوفُ أصحابِ العرائض، والأمهات مع أطفالهن بانتظار مباركةِ الأسقفِ. شعرَ أنَّه يدخلُ مكاناً غريباً، وأنَّه سجينُ سرٍ خطيرٍ، وهنا خطرَ له خاطرٌ مخيفٌ، وهو أنَّه قد يبقى في هذا المكان لوقتٍ طويل، وتمنَّى في سريرتِهِ لو أنَّ فرانسيس لم يلجأ إليه.

وصلَ إلى أعلى الدرجِ، وقال لنفسهِ إنَّ الأفكارَ التي خطرت له تافهةٌ، فهو يملكُ فرصةَ خدمةِ الرَّبِّ والكنيسةِ، وها هو يقلق حيال سلامتِهِ، وأن هناك

رجالاً يواجهون الخطر كلَّ يومٍ في ساحات المعارك، وفي البحارِ، وعلى طرقِ الحجِ الخطيرةِ، وفي الحملات الصليبيةِ، بل وحتّى الرهبان أنفسهم يختبرونَ الخوفَ والرعبَ أحياناً.

أخذَ فيليب نفساً عميقاً ودخلَ.

كانت القاعةُ مظلمةً وضبابيةً. أغلقَ فيليب البابَ بسرعةٍ كيلا يدخلَ الهواءُ الباردُ ثمَّ حدَّق في العتمةِ. رأى ناراً قويةً في موقدٍ في الجانبِ الآخرِ من الغرفةِ، وكانت تلك النار مع النوافذ الصغيرةِ مصدرَ الضوءِ الوحيدِ في المكانِ. حول الموقدِ احتشدت مجموعةٌ من الرجالِ، وبعضهم كان في ثيابٍ كهنوتيةٍ، وآخرون في ثيابٍ باذخةٍ ولكن مهترئة، وهذا يعني أنَّهم كانوا سادةً عاديين. كانوا في خضمِّ حديثٍ جادٍ وأصواتهم خفيضة، ويتحدثون بلهجةٍ عمليَّةٍ، ورغمَ أنَّهم جلسوا بشكلٍ عشوائي فإنَّهم جميعهم كانوا ينظرون، ويخاطبون كاهناً جلسَ في المنتصف كعنكبوتٍ وسط شبكةٍ. كان الكاهنُ نحيلاً وبالنظرِ إلى ساقيهِ الطويلتين اللتين باعدهما وذراعيهِ الطويلتين أيضاً على جانبي الكرسي بدا كأنَّه على وشكِ القفزِ واقفاً على قدميهِ. كان شعرهُ الأسود الفاحم مسترسلاً، ووجهه بأنفهِ المدببِ شاحباً، وبدا في ثيابِهِ السوداء وسيماً وخَطِراً.

نهضَ بوابٌ عن كرسيهِ قربَ البابِ وقال لفيليب: «طابَ يومكَ أيُّها الأبُ، هل ترغب بمقابلةِ أحدٍ؟» وفي الوقت عينه رفعَ كلبُ صيدٍ مستلقٍ قربَ النارِ رأسَهُ، وبدأ يُزمجرُ فلاحظَ فيليب أنَّ الرجلَ في الثيابِ السوداءِ رفعَ ناظريه على الفورِ، وقطعَ الحديثَ بتلويحةٍ من يدِهِ.

«ماذا هناك؟» قال بجفاءٍ.

«طابَ يوملكَ»، قال فيليب بتهذيبٍ ثمَّ تابع: «أتيت لمقابلةِ الأسقفِ».

«إنَّه ليسَ هنا»، قال الكاهنُ بازدراء.

وشعرَ فيليب بقلبهِ يغوص في صدرهِ. خشي هذهِ المقابلة وأخطارها، ولكن ها هو الآن يشعرُ أنَّه مخذولٌ، ما الذي يستطيعُ فعلَهُ بهذا السرِّ الرهيبِ؟ وقال للكاهن: «متى تتوقعُ عودتَهُ؟»

«لا نعلم، ولكن بما تريده؟»

تحدَّثَ الكاهن بلهجةٍ فظَّةٍ باغتت فيليب.

«بعملٍ من أجلِ الرَّبِّ»، قال فيليب بحدَّةٍ ثمَّ سأل: «ومن تكون؟»

رفعَ الكاهن حاجبيه كأنَّه متفاجئ من صفاقةِ فيليب، وفجأة حلَّ الصمتُ بين الرجالِ حوله، كأنَّهم يتوقعون انفجاراً ما. لم يدم الصمتُ طويلاً؛ لأنَّ الكاهنَ أجابَ بكلِّ هدوءٍ: «أنا رئيس الشمامسةِ وأدعى ويلارن بيغاد».

فكَّرَ فيليب أنَّه اسمٌ مناسبٌ لكاهنٍ، وقال: «اسمي فيليب وأنا رئيسُ صومعةِ سانت جون إن ذا فوريست، وهو ديرٌ فرعي تابعٌ لديرِ كينغزبريدج».

«سمعتُ بكَ»، قال ويلارن. «تدعى فيليب وأنتَ من غويند».

تفاجأ فيليب؛ فهو لم يتخيل قط أنَّ رئيسَ شمامسةٍ قد يعرفُ اسمَ شخصٍ ذي مكانةٍ أقلّ شأناً. على الرغمِ من ضعةِ مكانةِ فيليب لكن سلوك ويلارن معه تغير، وغابت معالم الضيقِ على وجههِ.

«اقترب من المدفأةِ»، قال ويلارن، «ولتشرب بعضاً من النبيذِ الساخنِ لتدفئةِ جسدكَ»، ثمَّ أشارَ إلى شخصٍ يجلسُ على مقعدٍ قبالة الحائطِ، فقفزَ شخصٌ بهيئةٍ مهلهلةٍ لينفذَ ما طلبه.

اقترب فيليب من النارِ، وقال ويلارن شيئاً في صوتٍ واطئ، فنهضَ الرجالُ وغادروا. جلسَ فيليب وأدفأ يديه بينما رافقَ ويلارن ضيوفَهُ إلى البابِ. تساءل فيليب في سِّرهِ عمَّا كانوا يتحدثون بهِ، ولمَ لم يختتم رئيسُ الشمامسةِ الحديثَ بصلاةٍ.

قدَّم له الخادمُ المهلهلُ كوباً خشبياً، فتجرَّعَ فيليب بعضاً من النبيذِ الساخنِ، والمنكه بالتوابلِ، وهو يفكر بخطوتهِ التاليةِ. إن لم يكن رئيسُ الأساقفة موجوداً فإلى من سيلجأ؟ وفكرَ بالذهابِ إلى الإيرل بارثيميلو، والتوسل إليهِ كي يتراجع عن عصيانِهِ. كانت الفكرةُ سخيفةً فالإيرل سيسجنُه في زنزانةٍ، ويتخلص من مفتاحها، وهذا يعني أنَّه لم يبقَ أمامه سوى المأمور الذي كان نظرياً ممثل الملكِ في المقاطعةِ، ولكن لا يمكن التكهن بموقفِ المأمور في الوقتِ الذي لم يتحدد فيه بعد من سيكون الملك. وأخيراً استنتجَ فيليب أنَّ عليهِ المخاطرةَ على أيِّ حالٍ، وشعرَ بالحنين إلى حياةِ الدير البسيطةِ حيثُ أخطرُ أعدائهِ هو بيتر ويرهام.

غادرَ الضيوفُ وأُغلقَ البابُ على صوتِ وقعِ حوافرِ الخيلِ في الساحةِ. عادَ ويلارن إلى المدفأةِ، وسحبَ كرسياً كبيراً.

كان فيليب غارقاً في التفكير بمشكلتهِ، ولم يرغب بالكلامِ مع رئيسِ الشمامسةِ، ولكنه شعرَ بضرورةِ التصرفِ بلباقةٍ فقال: «آمل ألّا أكون قد قاطعت اجتماعك».

قامَ ويلارن بحركةٍ تنمُّ عن الاستنكارِ، وقال: «كان الاجتماعُ في نهايتهِ، فمثلُ هذه الأمور تأخذُ وقتاً أطولَ مما تحتاجهُ بحقٍ. كنا نناقشُ تجديدَ عقودِ إيجار أرضِ الأبرشيةِ، ومثلُ هذا الأمرِ لا تستغرق تسويتهُ سوى دقائق بشرط أن يكون الناسُ حازمين»، ولوحَ بيدهِ النحيلةِ كأنَّه ضاقَ ذرعاً من الحديث عن عقود أرضِ الأبرشيةِ والمستأجرين، ثمَّ أضاف: «سمعتُ أنَّك قمتَ بعملٍ جيدٍ في الدير الصغير في الغابةِ».

«تُفاجئني معرفتكَ بالأمرِ»، قال فيليب.

«عملياً الأسقف رئيسُ دير كينغزبريدج، ولهذا فهو مُلزمٌ بالاهتمام بهذهِ الأمورِ أيضاً».

وفكرَ فيليب في نفسهِ: «أو ربما لأنّك رئيس شمامسةٍ حسنُ الاطلاعِ» ولكنه قال: «حسناً، فليباركنا الرَّبُّ جميعاً».

«بالطبعِ».

كانا يتحدثان بالفرنسيةِ النورماندية، وهي اللغةُ التي تحدَّثَ بها ويلارن مع ضيوفِهِ ولغةُ الدولةِ، ولكن لكنةَ ويلارن كانت تتغيرُ أحياناً وتغدو غريبةً، وبعد برهةٍ اكتشفَ فيليب أنَّ ويلارن يملكُ لكنةَ شخصٍ تربَّى على التحدُّثِ بالإنكليزيةِ، وهذا يعني أنَّه لم يكن أرستقراطياً نورماندياً بل مواطناً أصلياً ترقَّى بجهودهِ تماماً كما حدثَ مع فيليب.

بعد وهلةٍ تأكدَ فيليب من هذا عندما انتقلَ ويلارن إلى التحدثِ بالإنكليزيةِ، «أرجو أن يمنَّ الرَّبُّ بالبركاتِ أيضاً على ديرِ كينغزبريدج».

إذاً، لم يكن فيليب الشخصَ الوحيدَ المتضايق من الحالة التي وصلَ إليها ديرُ كينغزبريدج، وعلى الأرجحِ يعرفُ ويلارن بأمور أكثر من تلكَ التي يعرفها فيليب.

«كيف هو حال رئيسِ الديرِ جيمس؟» سأل فيليب.

«مريضٌ»، أجابَ ويلارن بإيجازٍ.

وفكرَ فيليب بكآبةٍ أنَّ هذا يعني أنَّ رئيسَ ديرِ كينغزبريدج لن يكون قادراً على القيامِ بشيءٍ حيال عصيانِ الإيرل بارثيميلو، ولذلك لم يكن أمامَه سوى المجازفة بالذهابِ إلى شايرنغ، وتجربةِ حظهِ مع المأمور.

وهنا خطرَ له أنَّ ويلارن يبدو كشخصٍ يعرفُ جميعَ الشخصياتِ المُهمةِ في المقاطعةِ. «كيف هي شخصيةُ مأمورِ شايرنغ؟» سأل فيليب.

هزَّ ويلارن كتفيه وقال: «شريرٌ ومتكبرٌ وجشعٌ وفاسدٌ، كما هو حال من هم في منصبهِ، ولكن لمَ تسأل؟»

«إن لم يكن بوسعي التحدثُ إلى الأسقفِ، فربما ينبغي علي الذهابُ لمقابلةِ المأمورِ».

«أنتَ تعلم أنني موضعُ ثقةِ الأسقفِ»، قال ويلارن بابتسامةٍ مقتضبةٍ وتابع: «إن كان بوسعي مساعدتكَ...» وفتحَ يديهِ في حركةٍ سيقوم بها رجلٌ يتصرّف بكرمٍ، وهو يعلمُ أنَّ كرَمَه سيُرفض.

كان فيليب قد استرخى قليلاً بعد أن علمَ أنَّ الكارثةَ ستؤجلِ ليومٍ أو يومين، ولكنه الآن بدأ يشعرُ بالذعرِ مجدداً. هل يمكنه الوثوقُ برئيس الشمامسةِ؟ كان سلوكُ ويلارن الذي يشي باللامبالاةِ مقصوداً، وفكرَ فيليب أنَّ رئيسَ الشمامسةِ يبدو غير مهتم، ولكنه في الحقيقةِ لا يطيق صبراً ليعرفَ ما الأمرُ الهام الذي لدى فيليب، لكن لم يكن هذا سبباً كافياً لعدمِ الثقةِ به، فقد بدا شخصاً حصيفاً. تساءل فيليب في نفسهِ إن كان ويلارن قوياً بما يكفي للقيام بشيءٍ حيالَ التمردِ المُزمعِ، وحتى إن لم يكن قادراً على القيامِ بشيءٍ، فقد يكون قادراً على تحديدِ موقفِ الأسقفِ. وفجأة خطرَ ببالهِ أنَّ إفشاءِ السر لويلارن قد يحقق فائدةً كبيرة، ففي الوقتِ الذي سيُجبر فيهِ الأسقفُ فيليب على كشفِ مصدرِ المعلوماتِ، لم يكن رئيس الشمامسةِ صاحبَ سُلطةٍ كافيةٍ لإجبارهِ على ذلك، وسيكتفي بسماعِ القصةِ التي سيُخبره بها سواء صدَّقها أم لم يفعل.

ابتسم ويلارن ابتسامة مقتضبةً أخرى، وقال: «إن تابعت التفكير بالأمرِ لوقتٍ أطول، فسأبدأ بالاعتقاد أنَّك لا تثق بي!»

شعرَ فيليب أنَّه يفهم ويلارن فهو يشبهُهُ؛ شابٌ حسنُ التعليمِ، ووضيعُ المنشأ، وذكي، ولكنه قد يكون أقلَّ تديناً من فيليب، ويمكن عزو هذا إلى

حقيقةِ أنَّه يُمضي الكثيرَ من الوقتِ مع السادةِ والسيدات، ولا ينعم بحياةِ الرهبانِ المُحصنةِ من هذهِ الأمورِ. وفكرَ فيليب، أنَّ ويلارن رجلٌ تقي في داخلهِ، وسيقوم بما يصبُّ في مصلحة الكنيسةِ.

وعندما كان فيليب على وشكِ أخذِ القرارِ تردد، فحتَّى الآن لم يعرف بالسرِّ أحدٌ سواه هو وفرانسيس، وحالما يعلمُ شخصٌ ثالثٌ به يمكن لأيِّ شيءٍ أن يحدثَ، ولهذا أخذَ نفساً عميقاً.

«منذُ ثلاثةِ أيامٍ وصلَ رجلٌ مصابٌ إلى ديرنا في الغابةِ»، بدأ فيليب وهو يُصلي في سرِّهِ كي يسامحه الرَّب على الكذبِ، «كان رجلاً مسلحاً على جوادٍ سريعٍ وباهظٍ وقد وقعَ عن صهوتهِ على بعد ميلٍ أو ميلين من الديرِ. لا بدَّ أنَّه كانَ مسرعاً عندما سقطَ، فقد كُسرت ذراعُه، وهُشِّمت أضلاعه جرَّاء السقطة. عالجنا الذراعَ ولكن لم يكن بوسعنا القيامُ بشيءٍ حيال أضلاعهِ المكسورة، وكان يبصق دماً مع سعاله، وهذا يعني أنَّه عانى من نزيفٍ داخلي»، تحدَّث فيليب وراقبَ وجهَ ويلارن الذي لم يُبدِ شيئاً حتَّى الآن سوى اهتمام مهذب. «نصحتُهُ أن يعترفَ بخطاياه لأنَّه كان على حافةِ الموتِ فأطلعني على سرٍ».

وترددَ فيليب مرَّةً أخرى، فلم يكن واثقاً من سعةِ إطلاعِ ويلارن على آخرِ الأخبارِ السياسيةِ.

«أتصور أنَّك تعرف أنَّ ستيفن من بليوس قد وضعَ يدَه على عرشِ إنكلترا بمباركةِ الكنيسةِ».

ولكن ويلارن لم يكن يعلم بهذا فحسب بل أكثر مما علمَ فيليب، ولذلك أضافَ: «وتُوِّج في كنيسةِ ويستمنستر قبلَ ثلاثة أيام على عيد الميلاد».

«بهذهِ السرعة!» لم يكن فيليب على علمٍ بهذا.

«ما السرُّ؟» قال ويلارن بشيءٍ من نفاد الصبرِ.

وهنا قررَ فيليب أن يجازفَ وقال: « قبل أن يموت أخبرني الفارسُ أنَّ سيدَهُ بارثيميلو إيرل شايرنغ تواطأ مع روبرت غلوستر للبدءِ بتمردٍ على ستيفن»، أنهى فيليب كلامه، وهو يراقب وجهَ ويلارن حابساً أنفاسه.

بدت وجنتا ويلارن الشاحبتان أكثر شحوباً، وانحنى إلى الأمامِ من على كرسيه، ثمَّ سألَ فيليب بإلحاحٍ: «هل تعتقد أنَّه كان يقولُ الحقيقةَ؟»

«المحتضرون عادةً ما يقولون الحقيقةَ لكهنةِ الاعترافِ».

«ربما كان يعيدُ على مسامعكَ إشاعةً متداولةً في قلعةِ الإيرل؟»

لم يتوقع فيليب من ويلارن أن يشكك في صحةِ كلامهِ، ولهذا سارعَ إلى القولِ: «أوه لا، لقد كان رسولاً أرسلهُ الإيرل بارثيميلو لحشدِ قواتهِ في هامبشاير».

ألقى ويلارن بعينيه اللتين تشعان ذكاءً نظرةً خاطفةً على وجه فيليب، وسألَ: «هل كانت بحوزتِهِ رسالةٌ مكتوبةٌ؟»

«لا».

«ختمٌ؟ أو شيءٌ ما يدلُّ على أنَّه مبعوثُ الإيرل؟»

«لا شيء»، وبدأ فيليب يتعرق قليلاً، ثمَّ أضاف: «ما فهمتهُ هو أنَّه رجلٌ معروفٌ من قبلِ من أُرسلَ إليهم بصفته ممثلاً للإيرل».

«وما كان اسمه؟»

«فرانسيس»، أفلتَ فيليب بغباءٍ، وأراد أن يقضمَ لسانَهُ.

«فرانسيس فقط؟»

«لم يُخبرني بما كان يُدعى»، وانتاب فيليب إحساسٌ أنَّ كذبته ستُكشف تحتَ وطأةِ التحقيقِ الذي كان يجريه معه ويلارن.

«قد نتعرفُ إليهِ من أسلحتهِ ودرعِهِ».

«لم يكن يحملُ درعاً»، قال فيليب في يأسٍ. «وقد دفناه مع أسلحتِهِ؛ فلا حاجةَ للرهبانِ إلى السيوفِ، يمكننا أن نحفرَ القبرَ وننبشها، ولكن أوكدَ لكَ أنَّها أسلحةٌ عاديةٌ وغير مميزةٍ. لا أعتقد أنَّك ستجدُ أي أدلةٍ هناك». كان عليهِ أن يشتتَ ويلارن الآن ولذلك سألَهُ: «ما الذي يمكنني القيام بهِ حيالَ الأمر برأيكَ؟»

ارتسمَت على وجهِ ويلارن تقطيبةٌ وقال: «يصعبُ الآن أن نعرفَ ما يجبُ القيامُ بهِ من دون وجودِ دليلٍ. يمكنُ للمتآمرين أن ينكروا التهمةَ، وعندها قد يُدان صاحبُ الاتهامِ»، ورغم أنَّ ويلارن لم يتابع قائلاً: «بالأخص إن كانت القصَّةُ ملفقةً»، ولكنَ فيليب تكهن أنَّ ويلارن فكرَ بهذا.

«وهل أخبرتَ أحداً آخر؟» تابع ويلارن.

هزَّ فيليب رأسه نفياً.

«إلى أين ستذهب عندما تغادرُ الآن؟»

«إلى كينغزبريدج. غادرتُ الصومعة بحجةِ أنني سأزور دير كينغزبريدج، وعليَّ الآن أن أزوره كيلا أكون كاذباً».

«لا تخبر أحداً بما سمعته».

«لن أفعل». ورغمَ أنَّ فيليب لم يكن ينوي فعلَ هذا فإنَّه تساءلَ في نفسه عن سببِ إصرارِ ويلارن على هذهِ النقطة. قد يكون في هذا خدمةٌ لمصالحهِ، فإن كان سيُخاطر في كشفِ المؤامرةِ؛ فالأغلب أنّه يرغبُ بنسبِ الفضلِ إليه. كان رجلاً طموحاً وهذا يخدُمُ مصلحةَ فيليب أكثر.

«دع الأمرَ لي»، تحدَّثَ ويلارن بلهجةٍ فظَّةٍ مجدداً ومُناقضاً سلوكَهُ السابقَ، فأدركَ فيليب أنَّ ويلارن يرتدي ويخلع قناعَ الدماثة كمعطفٍ. تابع ويلارن كلامه قائلاً: «توجه الآن إلى كينغزبريدج، ولتنس أمرَ المأمور».

«أجل»، قال فيليب، وأدركَ الآن أنَّ الأمور ستكون على ما يرام، على الأقلِّ لفترةٍ من الزمنِ، وشعرَ أنَّ عبئاً قد أُزيلَ عن كاهلهِ. لن يُرمى في زنزانةٍ، ولن يُعذبه أحدٌ تحتَ التحقيقِ، أو يتّهمَه بالتحريضِ على التمردِ، وفي الوقتِ عينهِ سلَّمَ مسؤوليةَ هذا السرّ إلى شخصٍ آخر... شخصٍ بدا سعيداً بحملِ هذا العبءِ.

نهضَ فيليب وتوجهَ إلى أقربِ نافذةٍ. كان الوقت منتصفَ بعد الظهر، وما زال لديه ما يكفي من ضوءِ النهارِ ليتابعَ رحلتهِ. كان يتوقُ إلى الخروجِ من هذا المكان، وتركِ السرِّ وراءه.

«إن غادرتُ الآن يمكنني أن أقطعَ ثمانيةَ أو عشرةَ أميال قبلَ هبوطِ الظلامِ»، قال فيليب.

لم يُلح عليه ويلارن للبقاء بل قال: «وهذا سيوصلك إلى قريةِ باسينغبورن، يمكنك المبيتُ هناك، وإن انطلقتَ باكراً في الصباح ستصل إلى كينغزبريدج بحلولِ منتصفِ النهارِ».

«أجل»، قال فيليب واستدار بعيداً عن النافذة ثمَّ نظرَ إلى ويلارن. كان رئيسُ الشمامسةِ غارقاً في التفكيرِ وهو يحدق بعبوسٍ إلى النارِ، وراقبه

فيليب لوهلةٍ. لم يشاركه ويلارن أفكارَه، وتمنَّى فيليب معرفةَ ما يجول في رأس ويلارن الذكي.

«سأغادر الآن»، قال فيليب.

استفاق ويلارن من لُجةِ أفكارهِ، وعادَ إلى التصرف بلطفٍ. ابتسم ووقف ثمَّ قال: «حسناً»، وسارَ مع فيليب إلى الباب، ثمَّ هبطَ معه الدرجَ باتجاه الساحةِ.

أحضرَ فتى منَ الإسطبلِ مُهرة فيليب وأسرجَها. كان بوسعِ ويلارن توديعَ فيليب، والعودة للجلوسِ قربَ نارِ المدفأةِ، ولكنه وقفَ منتظراً، وتكهنَ فيليب أنَّه يريدُ التأكدَ من أنَّ فيليب سيأخذ طريقَ كينغزبريدج، وليسَ طريقَ شايرنغ.

امتطى فيليب جوادَهُ، وبدا الآن أكثر سعادةً مما كان عند وصولهِ، وبينما كان يوشكُ على المغادرةِ رأى البنَّاء توم يدخلُ من البوابةِ برفقةِ عائلتِهِ، فقال لويلارن: «هذا الرجلُ بنَّاءٌ قابلته على الطريقِ، ويبدو أنَّه رجلٌ نزيهٌ، ولكنه يمرُّ بوقتٍ عصيبٍ. إن كنتَ بحاجةٍ إلى أيَّة إصلاحاتٍ فستكون مسروراً منه».

لم يُجب ويلارن بل حدَّقَ إلى العائلةِ، وهي تعبرُ الساحةَ. وفجأةً بدا كأنَّه فقدَ توازنَهُ ورباطةَ جأشِهِ. كان يحدَّقُ بفمٍ مفتوح، وبدا كأنَّه يعاني من صدمةٍ.

«ما الأمر؟» قال فيليب في قلقٍ.

«تلكَ المرأةُ!» تحدَّثَ ويلارن في صوتٍ أقرب للهمسِ.

نظرَ فيليب إلى المرأةِ.

«إنَّها جميلة»، قال فيليب وقد أدركَ الآن هذهِ الحقيقة، «ولكن تعلمنا أنَّ على الكهنة التزامَ العِفة، فلتُشح بنظرِكَ يا رئيسَ الشمامسةِ».

لم يُصغِ ويلارن إلى أيِّةِ كلمةٍ تفوه بها فيليب. «اعتقدت أنَّها ميتة»، دمدمَ ويلارن، ولكن عندما تذكرَ وجودَ فيليب فجأةً توقفَ عن النظرِ إلى المرأةِ، وعاد إليهِ بعد أن تمالكَ نفسَهُ: «أوصل تحياتي إلى رئيسِ ديرِ كينغزبريدج»، قال ويلارن ثمَّ صفعَ مُهرةَ فيليب على كَفلها فانطلقت خبباً عبر البوابةِ، وبحلولِ الوقتِ الذي تمكنَ فيه فيليب من استعادةِ السيطرةِ على لجامِ المُهرةِ كان قد أصبحَ بعيداً جداً على التلويحِ مودعاً لويلارن.

- 3 -

في ظهرِ اليومِ التالي لاحت ضواحي قريةِ كينغزبريدج أمام فيليب كما أنبأهُ رئيسُ الشمامسةِ ويلارن. وصلَ إلى قمة هضبةٍ محاطةٍ بالشجرِ تشرفُ على حقولٍ جرداء ومتجمّدةٍ تتخللها أحياناً جذوعُ أشجارٍ عاريةٍ. لم يكن هناكَ فلاحون في تلكَ الأراضي فهم لا يعملون خلالَ أشهرِ الشتاءِ القاسيةِ، وعلى بُعدِ عدَّةِ أميالٍ من أراضي الريفِ الباردِ برزت كاتدرائيةُ كينغزبريدج فوقَ المرتفع بناءً ضخماً ورابضاً كقبرٍ فوقَ رابيةٍ.

أخذَ فيليب الطريقَ نزولاً فاختفَت كينغزبريدج عن أنظاره، أمَّا مهرتهُ الوديعةُ، فقد سارت على الطريق متجنبةً بحذرٍ آثارَ العجلاتِ المتجمدةِ. كان فيليب يفكرُ برئيسِ الشمامسةِ ويلارن الذي كان متزناً وواثقاً من نفسه وكفؤاً، وجعله هذا يشعرُ أنَّه ما زال صغيراً وساذجاً على الرغمِ من أنَّ الفارق العمري بينهما لم يكن كبيراً إلى هذهِ الدرجةِ. كان ويلارن مُسيطراً سيطرةً كاملةً على لقائهما، فقد تخلَّصَ من ضيوفِهِ بكلِّ لباقةٍ، وأصغى باهتمام إلى حكايةِ فيليب، وركزَ فوراً على المشكلةِ الرئيسيةِ وهي انعدامُ الدليلِ، وأدركَ على الفورِ أنَّ الإمعانَ في الاستجوابِ لم يكن مجدياً ثمَّ أرسلَ فيليب إلى كينغزبريدج من دونِ إبطاءٍ أو تردد، ورأى فيليب في هذا خيرَ دليلٍ على أن ويلارن سيقوم بشيءٍ ما حيال الأمرِ.

ابتسم فيليب بأسى عندما أدركَ أنَّ ويلارن تلاعبَ بهِ، بل لم يقطع عليهِ حتَّى وعداً بإخبارِ الأسقفِ بما أخبرَه بهِ، إلَّا أنَّهَ كان واثقاً من أنَّ الطموحَ الكبيرَ الذي رآه في ويلارن يعني أنَّ المعلومات ستُستخدم بطريقةٍ ما، ودغدغَ خياله خاطرٌ أنَّ ويلارن قد يشعرُ ببعضِ الامتنانِ له أيضاً.

رغمَ افتتان فيليب بشخصيةِ رئيس الشمامسة ويلارن، فإنَّه كان مهتماً جداً بنقطةِ الضعفِ الوحيدةِ التي رآها فيه، ألا وهي ردُّ فعلهِ عندما رأى زوجةَ البنَّاءِ توم. بدت زوجةُ البنَّاءِ لفيليب خطيرةً، وعجزَ عن فهم سبب هذا الشعور. يبدو أنَّ ويلارن وجدها مغريةً، وهذا بالطبعِ أمرٌ خطيرٌ كأيِّ أمرٍ آخر. على أيّةِ حالٍ يبدو أنَّ الحكاية أكبر مما تبدو عليهِ، لا بدَّ أنَّ ويلارن التقاها قبلاً لأنَّه قال: «اعتقدت أنَّها ميتةٌ»، وبدا لفيليب أنَّ ويلارن ربما زنا معها في الماضي البعيد، وحتماً كان يشعرُ بذنبٍ ما، وقد تكهنَ فيليب بهذا

من الطريقةِ التي حرصَ فيها ويلارن على إبعادهِ عن المكانِ قبلَ أن يفهمَ الموضوع تماماً.

ولكن حتَّى هذا الشعور الخفي بالذنبِ لم يقلل من شأنِ ويلارن لدى فيليب. كان ويلارن كاهناً وليسَ راهباً، ورغمَ أنَّ العفَّةَ جزءٌ أساسي من أسلوبِ حياةِ الرهبانِ فإنَّها لم تكن مفروضةً بقوةٍ على الكهنةِ. كان للأساقفةِ عشيقات، ولكهنةِ الأبرشياتِ مُدبرات منزلٍ، وكما أن تحريم الأفكارِ الشريرةِ قانونٌ تصعبُ طاعتهُ، كانت العفةُ الدينيةُ كذلكَ قانوناً قاسياً. وإن لم يكن الرَّبُّ قادراً على مسامحةِ الكهنة الشبقين، فلن يذهب الكثير منهم إلى الجنةِ.

عندما بلغَ فيليب مرتفعاً آخر ظهرَت أمامهُ كينغزبريدج مرَّةً أخرى. هيمنت الكنيسةُ الضخمةُ بقناطرها المدورةِ، ونوافذها الصغيرةِ، والعميقةِ على المشهدِ تماماً كما هيمنَ ديرُ قريتهِ على مشهدها. للطرفِ الغربي من الكنيسةِ والذي وقفَ قبالته فيليب برجان ضخمان وقصيران، وكان أحدهما مُنهاراً بسببِ عاصفةٍ رعديةٍ ضَربته منذ أربعِ سنواتٍ، ولكنهم لم يعيدوا بناءَهُ حتَّى الآن، أمَّا الواجهةُ الأماميةُ فقد بدا مظهرها مُزرياً. في كل مرَّة يرى فيها فيليب هذا المشهد ينتابه الغضب. بالنسبةِ إليه كانت كومةُ الركامِ عندَ مدخلِ الكنيسةِ رمزاً مُخزياً على انهيارِ الاستقامة الرهبانيةِ في الديرِ. تكتلت الأبنيةُ التابعةُ للديرِ والمبنية من حجارةٍ كلسيةٍ كالحةٍ حول الكنيسةِ كفرقةٍ تتآمرُ على العرشِ، وخلفَ السورِ الواطئ الذي يطوقُ الديرَ توزعت أكواخٌ عاديةٌ مبنيةٌ من الخشبِ والطينِ، وبسقوفٍ قشيَّةٍ يشغلها فلَّاحون يزرعون الحقولَ القريبةَ، وخدمٌ يعملون لمصلحة الرهبان، وعندَ الطرفِ الجنوبي الغربي من القريةِ نهرٌ ضيقٌ، وسريعٌ يزودُ الديرَ بالمياهِ العذبةِ.

عبرَ فيليب الجسر الخشبي القديم فوق النهرِ، وهو يرزحُ تحتَ وطأةِ شعورٍ بالكمدِ. كان ديرُ كينغزبريدج وصمةَ عارٍ على كنيسةِ الرَّبِّ والحياةِ الرهبانيةِ، ولكن لم يكن هناك ما يُمكن لفيليب فعله، وأثارَ الغضبُ والعجزُ أمام هذا المنظرِ تقززه.

كان الجسر تابعاً للديرِ، ويتقاضون تعرفةً على استخدامِ الناسِ له. صرَّت الألواحُ الخشبيةُ تحتَ وزنِ فيليب، ومُهرتهِ فخرجَ راهبٌ عجوزٌ من كُشكٍ على الضفةِ الأخرى من النهرِ، وتقدَّمَ لرفعِ الحاجزِ الذي كان عبارةً عن جذعٍ

صفصافة، عرفَه الراهبُ ولوَّح له ثمَّ لاحظَ فيليب أنَّه يعرجُ فسأله: «ما خطبُ قدمكَ أيُّها الأخ بول؟»

«مجرَّد تقرُّح في القدمِ، وسيخف مع قدومِ الربيعِ».

رأى فيليب أنَّ بول ينتعلُ صندلاً. كان عجوزاً قوياً، ولكن رجلاً في مثلِ عمرهِ لا يجب أن يقضي اليومَ بأكملِهِ في الخارجِ، وفي هذا الطقسِ.

«يجب أن تحظى ببعضِ الدفء»، قال فيليب.

«سيكون الدفء رحمةً لي»، قال بول، «ولكن الأخ ريميجوس يقولُ إنَّ إشعالَ نارٍ مكلف مقارنةً بعوائد التعاريفِ».

«كم تتقاضون؟»

«بنساً على كلِّ جواد، وفارذنع على كلِّ رجلٍ».

«هل يستخدمُ الكثيرُ من الناسِ الجسرَ؟»

«أجل، كثر يفعلون».

«إذاً، كيف لا يمكننا تحملُ كلفةِ إشعالِ نارٍ؟»

«حسناً، لا يدفع الرهبانُ وخدمُ الديرِ ولا القرويون، وهذا يعني أنَّ من يدفعَ هو فارسٌ مسافر، أو عاملٌ أميّ يمرُّ كل يومٍ أو يومين، وفي الأعياد عندما يأتي الناسُ من جميعِ أرجاءِ المقاطعةِ لحضورِ مراسمِ الاحتفالِ في الكاتدرائيةِ نجمعُ الكثيرَ من المالِ».

«أرى أننا لا يجب أن نضعَ شخصاً يتقاضى التعاريفَ سوى أيام الأعيادِ، ونريحكَ من هذا العمل».

بدا بول قلقاً وقال: «من فضلكَ لا تقل شيئاً لريميجوس؛ فإن عرفَ أنني اشتكيت لن يكون مسروراً».

«لا تقلق»، قال فيليب ووكزَ مُهرته لتتحرك كيلا يرى بول التعبيرَ الذي ارتسمَ على وجهِهِ. لطالما أثارَ غضبَهُ مثلُ هذا النوعِ من الأفعالِ الحمقاءِ. لقد قدَّمَ بول حياتَهُ خدمةً للرَّبِّ والديرِ، وها هو الآن، في خريف عمرهِ، يعاني من الألمِ والبردِ من أجل فارذنع أو اثنين يومياً. لم يكن هذا عملاً قاسياً فحسب بل مضيعة للوقتِ لأنَّ رجلاً عجوزاً وصبوراً مثل بول قد يقومُ بعملٍ مثمرٍ كتربيةِ الدجاجِ، وهذا سيعودُ على الديرِ بمردودٍ أكبر من مجرَّدِ

بضعة فارذنات، ولكن رئيسَ دير كينغزبريدج عجوزٌ ومريضٌ جداً على رؤيةِ هذا، ويبدو أنَّ الأمرَ ذاته ينطبقُ على نائبهِ ريميجوس، وفكر فيليب بمرارةٍ أنَّ التبذيرَ بهذه الطريقةِ اللامباليةِ للمُقدراتِ البشريةِ والماديةِ التي قُدمت إلى الرَّب من أتقياء مُحبين خطيئةٌ خطيرةٌ.

قادَ فيليب مُهرتهُ بينَ الأكواخ باتجاهِ بوابةِ الديرِ وهو في مزاجٍ عكرٍ. يمتدُّ الديرُ على أرضٍ مستطيلةِ الشكلِ، وتقعُ الكنيسةُ في منتصفها. كانت الأبنيةُ منظمةً، وكلّ شيءٍ من شمالِ إلى غربِ الكنيسةِ أبنية للعمومِ حيث تدار الأمور العملية والدنيوية، أمَّا ما كان باتجاه الجنوبِ والشرق فقد كان روحياً ومقدساً، وهذا يعني أنَّ مدخلَ الديرِ يقعُ في الشمال الغربي من هذه الأرضِ المستطيلةِ. وجدَ فيليب البوابةَ مفتوحةً، وفي بيتٍ صغيرٍ للحارسِ راهبٌ شابٌ. لوحَ الراهب لفيليب خلال عبورِ الأخيرِ البوابةَ. في الداخلِ وقبالةَ الجدارِ الغربي عثرَ فيليب على الإسطبلِ، وكان بناءً خشبياً متيناً وأفضل من بعضِ البيوتِ في الجانبِ الآخرِ من السورِ، وداخلَ الإسطبل عاملان جالسان فوقَ أكوامِ القشِّ. لم يكونا راهبين بل عاملين لمصلحة الديرِ. نهضَ العاملان على مضضٍ، كأنَّهما امتعضا من الزائرِ الذي أتى وجلبَ معه عملاً إضافياً. شعرَ فيليب كأنَّه لُسع بهذا الاستقبالِ اللاذعِ، ولاحظَ أنَّ مرابطَ الجيادِ لم تُنظف منذُ ثلاثةٍ أو أربعةٍ أسابيع. لم يكن اليوم مستعداً لغضّ نظرِهِ عن إهمال عُمالِ الإسطبلِ، ولذلك وبينما كانَ يُسلِّم رسنَ مُهرتهِ قال: «قبل أن تضع مُهرتي يمكنكَ أن تنظفَ أحدَ المرابطِ، وتفرشَ الأرضَ بقشٍ طازجٍ، ثمَّ تكرر الأمرُ ذاته مع بقيةِ مرابط الأحصنةِ، إن كانَ مربط الخيلِ رطباً على الدوامِ فسيصاب الجواد بُنخرٍ في حافرهِ، وأنتما لا تملكان عملاً آخر غير هذا العملِ ليشغلكما عن إبقاءِ الإسطبل نظيفاً»، تجهمَ العاملان وهنا أضاف فيليب: «افعلا ما طلبتهُ منكما، أو سأحرصُ على عدمِ حصولكما على أجرِ يومكما بسببٍ لتراخيكما». وعندما كان على وشك تركهما تذكرَ أمراً وقال: «يوجد جبنٌ في سرجِ الجوادِ، خُذاه إلى المطبخ، وسلّماه إلى الأخِ ميليوس».

تركهما فيليب دونَ أن ينتظرَ ردّاً. في الديرِ يعملُ ستون عاملاً، وهم يهتمون بأمورِ خمسة وأربعين راهباً، ويرى فيليب أنَّ هذا الفائض من العمالِ أمرٌ مُخزٍ؛ فعندما لا يمتلك الناسُ عملاً كافياً يشغلهم يغدون كُسالى جداً،

ويتلكؤون في أداءِ العملِ القليلِ الذي كُلفوا بهِ، وهذا بالضبط ما حدث مع عاملي الإسطبلِ. كان هذا غيضاً من فيضِ أمثلةٍ على تقصيرِ رئيسِ الديرِ جيمس.

سارَ فيليب على طول الجدارِ الغربي للديرِ، وعبرَ نزل الضيوفِ في فضولٍ لمعرفةِ ما إن كان في الديرِ زوارٌ، ولكنه وجدَ البناء المؤلف من غرفةٍ واحدةٍ كبيرةٍ بارداً ومهجوراً، وعتبتُهُ تغطيها أوراقٌ يابسةٌ حملها الهواء منذُ العامِ الفائتِ، استدارَ يساراً باتجاه الكنيسةِ، وهو يسير فوقَ بقعةٍ واسعةٍ من الأعشاب المتفرقةِ، التي تفصلُ الكنيسة ونُزلِ الضيوف حيثُ يبيتُ أحياناً أناسٌ أشرارٌ، بل وحتَّى نساءٌ. تابعَ السيرَ إلى الطرفِ الغربي للكنيسةِ حيث المدخلُ الأساسي للكاتدرائيةِ، وركامُ الحجارةِ المُحطَّمةِ للبرجِ المُنهارِ في كومةٍ أعلى بمرتين من قامةِ رجلٍ.

كجميع الكنائسِ كانت كنيسةُ كاتدرائيةِ كينغزبريدج مصممةً على شكلِ صليبٍ بجناحين يمتدان شمال وجنوب طرفي مذبحِ الكنيسةِ، وعندَ الطرفِ الشرقي للكنيسةِ، بعيداً عن التقاطعِ مذبحٌ خاصٌ بالرهبانِ فقط، أمَّا في أقصى الطرفِ الشرقي فيوجدُ ضريحُ القديسِ أدولفوس الذي ما زال يجذبُ بعضَ الحُجاجِ.

دخلَ فيليب إلى صحنِ الكنيسةِ، وألقى نظرةً على ممرٍ بقناطر مدورةٍ وأعمدةٍ ضخمةٍ، ولكن المشهدَ جعلَه أكثر إحباطاً. كان المكان شديد الرطوبةِ، وكئيباً وأكثر تداعياً مما رآه سابقاً، والنوافذ في الممرّاتِ المنخفضةِ على كلا جانبي الصحنِ أشبهَ بقنواتٍ ضيقةٍ في جدرانٍ سميكةٍ جداً، وعلى مستوى السقفِ أضاءت النوافذُ العلويةُ الكبيرةُ السقفَ الخشبي المطلي بطريقةٍ فضحَت شدَّةَ تدهورهِ، وبدت تماثيلُ الحواريين والقديسين والرُسل كامدةً ومتماهيةً جداً مع الخلفيةِ. عصفت في المكانِ ريحٌ باردةٌ إذ لم يكن هناكَ زجاجٌ على النوافذِ، وملأت الجو رائحةٌ خفيفةٌ لأرديةٍ كهنوتيةٍ. تناهت من الطرفِ الآخرِ للكنيسةِ تراتيلُ مراسمِ القداسِ باللاتينيةِ في أصواتٍ غنائيةٍ، وأصوات جوقة الترتيل ترددُ وراءها في غناءٍ أيضاً. سارَ فيليب عبرَ الصحنِ، ولأنَّ الأرضيةَ لم تكن مرصوفةً نمَت الطحالب عندَ الزوايا التي بالكادِ يطؤها الفلاحون بقباقيبهم والرهبانُ بصنادلِهم. في ما مضى كانت خطوطُ ونقوشُ

الأعمدةِ الضخمةِ ونقوشُ القناطر بينها والتي لها شكلُ الحرفِ (V) ملونةً ومُذَّهبةً، ولكن لم يبقَ منها اليوم سوى قشور ذهبية رقيقة، وبقايا أو لطخاتٍ من الدِهانِ. كان الملاطُ بين الحجارة متفتتاً، وتساقطَ في أكوامٍ صغيرةٍ قربَ الجدرانِ، وهنا شعرَ فيليب بغضبٍ أليفٍ يدهمه مجدداً. يُفترضُ بهذا المكانِ أن يُذهلَ زوارهُ، ويذكرهم بعظمةِ الرَّبِّ. إنَّ الفلاحين أناسٌ بسطاءٌ يبنون أحكامهم على المظاهرِ، ولهذا عندما يأتون إلى هنا ويرون المكانَ على هذا الحال سيعتقدون أنَّ الربَّ مهملٌ وغير مبالٍ، وهم على الأرجحِ لن يُظهروا أيَّ تقديرٍ لعبادتهِ، أو يهتموا بأمرِ خطاياهم. علاوةً على هذا، الفلاحون من يدفعون للكنيسةِ الأموال، وهم يكسبونها بعرقِ جباههم، ومن الشائنِ بحقٍ أن يكافأوا على ما قدموه بهذه الكنيسةِ المتهالكةِ.

ركعَ فيليب أمامَ المذبحِ، ولبثَ برهةً على هذهِ الوضعيةِ، وهو يفكر أنَّ المؤمنَ لا يجب أن يكون في حالةِ نقمةٍ ورعةٍ. عندما عندما هدأ قليلاً نهضَ وتابعَ السيرَ.

كان الجانبُ الشرقي للكنيسةِ حيثُ يقع مذبحُ الرهبان مؤلفاً من قسمين: القسمُ الأقربُ إلى المعبرِ مخصصٌ لجوقةِ الترتيلِ حيث توجدُ مقاعد خشبيةٌ يجلس عليها الرهبان، ويقفون خلالَ المراسمِ، أمَّا في القسمِ الأبعدِ فهناكَ ضريحُ القديسِ أدولفوس. توجهَ فيليب إلى ما وراء المذبحِ بنيَّةِ أن يجلسَ على أحد المقاعدِ، ولكنه فوجئ بوجودِ تابوتٍ.

توقفَ في مكانهِ مذهولاً. لم يُخبره أحدٌ أنَّ راهباً قد توفي، بالطبعِ لم يتحدث إلّا مع ثلاثةِ أشخاصٍ حتَّى الآن؛ بول الذي كان عجوزاً وشارداً قليلاً، والعاملان في الإسطبلِ، وهو لم يُعطهما الفرصةَ لبدءِ حديثٍ. اقتربَ من الكفنِ للتحققِ من هويةِ المتوفى، وعندما نظرَ إلى داخلهِ غاصَ قلبه في صدرهِ.

كان رئيسُ الديرِ جيمس.

حدَّقَ فيليب إلى التابوتِ في دهشةٍ كبيرةٍ. ها هو كلُّ شيءٍ يتغيرُ الآن، وسيكون هناك رئيسُ ديرٍ جديد وهذا يعني أملاً جديداً...

لم يكن الابتهاجُ على موتِ أخٍ مريضٍ، أيّاً كانت عيوبُه وخطاياه التي وقعَ فيها، ردَّ الفعلِ المناسب، ولذلكَ تمالكَ فيليب نفسَهُ، وأخذَ وضعيةَ الحدادِ ثمَّ تفحَّصَ الرجلَ الميتَ. كان رئيسُ الديرِ أبيضَ الشعرِ ونحيلَ الوجهِ

ومحدودبَ الظهرِ، وقد غاب الآن عن وجهِهِ ذلكَ التعبيرُ الضجرُ الثابت، وحلَّ محلَّ مظهرِهِ القلقِ والبائسِ سلامٌ. ركعَ فيليب بجانبِ التابوت، وهو يدمدمُ بصلاةٍ ما ثمَّ تساءلَ في نفسِهِ إن كان رئيسُ الدير في سنواتِهِ الأخيرةِ ينوءُ تحتَ عبءٍ همٍ عظيمٍ؛ خطيئةٍ لم يعترف بها، أو امرأة ندمَ عليها، أو رجل بريء ظلمهُ. أياً يكنْ هذا الهمُّ فهو لا يستطيع البوحَ بِهِ الآن بل في يومِ القيامةِ.

وهنا لم يستطع فيليب منعَ نفسهِ من التفكيرِ بالمستقبلِ. كان لرئيسِ الديرِ المترددِ والقلقِ والضعيفِ تأثير قاتل على الديرِ، وسيأتي الآن شخصٌ جديدٌ، شخصٌ يضبطُ العمَّال الكُسالى، ويُصلحُ الكنيسةَ المتداعيةَ، ويُحسن إدارةَ ممتلكاتِ الكاتدرائيةِ العظيمةِ، ويحول الديرَ إلى أداةٍ قويةٍ لإحقاقِ الخيرِ. كان فيليب مُتحمساً جداً إلى درجة أنَّه عجزَ عن الوقوفِ في ثباتٍ. نهضَ أخيراً مُبتعداً عن الكفنِ، وسارَ كأنَّ نوراً جديداً يهديه في خطواتِهِ إلى المقاعدِ الخشبيةِ، وجلسَ في الصفِّ الخلفي.

كان آندرو، الكشماسُ من يورك، يؤدي المراسمَ، وهو رجلٌ حادُ الطباعِ بوجهٍ موردٍ، ويبدو دوماً كأنَّه على وشكِ الإصابةِ بسكتةٍ دماغيةٍ. كان رهبان الديرِ، وتشملُ مسؤولياته كلَّ شيءٍ مقدسٍ كالصكوك والكتبِ والذخائرِ المقدسةِ والأرديةِ الكهنوتيةِ والحُلي، ولكن الأهمّ من كلِّ ذلك هو أبنيةُ الديرِ. يعملُ تحت إمرة آندرو قائدُ جوقةِ الترتيلِ الذي يشرفُ على الشؤون الموسيقية، وأمينُ الصندوق الذي يهتمُّ بالشمعداناتِ الذهبيةِ والفضيةِ المُطَعّمةِ بالحُلي، وكؤوسِ القربان، وأوانٍ مقدسةٍ أخرى. لم يكن هناك من يعلوه مقاماً سوى رئيس الديرِ، ونائبه ريميجوس الذي كان صديقاً مقرباً منه.

أدى آندرو المراسمَ بنبرةِ صوتهِ العاديةِ والشبيهةِ بنبرةِ من يتحدثُ كاتماً غيظه. كان ذهنُ فيليب مضطرباً، ولهذا مرَّ وقتٌ لا بأسَ بِهِ قبلَ أن يلاحظَ أنَّ المراسمَ تسيرُ على نحو غير لائقٍ. لاحظَ مجموعةً من الرهبانِ الشُبانِ تُحدثُ ضجةً بأحاديثهم وضحكاتهم. كانوا يسخرون من راهبٍ عجوزٍ مسؤولٍ عن الرهبانِ المبتدئين لأنَّه غطَّ في النومِ في مكانِهِ. كان أولئك الرهبانُ الشُبان حتى ذلك الوقت رهباناً مبتدئين في عهدةِ هذا الأستاذ العجوز، ويبدو أن ذكرى آلام سياطِهِ ما زالت طريةً. رموه بكُراتٍ من الترابِ، وفي كلِّ مرةٍ أصابوه فيها على وجهه انتفضَ، وتحرَّكَ ولكن دونَ أن يستيقظَ. بدا آندرو

غافلاً عمَّا يجري، فألقى فيليب نظرةً من حوله بحثاً عن الراهبِ المسؤولِ عن الانضباطِ خلال المراسمِ، ووجده في الجانبِ الآخرِ غارقاً في الحديثِ مع راهبٍ آخر ولاهياً عن المراسمِ وعن سلوكِ الرهبانِ الشُبانِ.

راقبَ فيليب المشهدَ لبُرهةٍ إلَّا أنَّه، وحتَّى في أفضلِ الأوقات، لا يستطيع كبحَ غضبِهِ حيال مثلِ هذه الأفعالِ. نظرَ إلى أحدِ الرهبانِ وقد بدا له كأنَّه قائدُ العُصبةِ. كان شاباً وسيماً في مطلعِ العشرين، وله ابتسامة ماكرةٌ. لمحهُ فيليب يغمسُ طرفَ سكينِ الطعامِ خاصته في شمعةٍ محترقةٍ، ويقذفُ الشمعَ الذائبَ على صلعةِ المُعلمِ العجوزِ، وعندما لامسَ الشمعُ رأسَ الراهبِ استفاقَ وأنَّ مُتألماً؛ فغرقَ الشبانُ في الضحكِ.

تنهّد فيليب وتركَ مكانَهُ. اقتربَ من الشابِ من وراء وأمسكَهُ من أذنِهِ، ثمَّ أخرجَهُ على مهلٍ من بين المقاعدِ باتجاهِ الجناح الجنوبي. رفعَ آندرو ناظريه عن الكتابِ، وعبسَ عندما رأى فيليب والراهبَ الشابَ، ولكنه لم يكن قد لاحظَ الجلبةَ التي عمَّت المكانَ.

عندما بات فيليب والراهب بعيدين عن مرمى أسماعِ البقيةِ توقفَ فيليب، وأفلت أذنَ الفتى ثمَّ سأله: «ما اسمكَ؟»

«وليم بوفيس».

«وما الذي تلبَّسكَ حتَّى تفعل ما فعلتَه خلالَ مراسم القداسِ؟»

عبسَ وليم وقال: «كنتُ تَعباً من المراسمِ».

لا يحصلُ الرهبانُ الذين يشتكون من مشاكلٍ كهذهِ على تعاطفِ فيليب: «تَعباً؟» قال فيليب بصوتٍ أعلى قليلاً ثمَّ أضاف: «ما الذي فعلتَهُ اليومَ؟»

أجاب وليم بلهجةٍ دفاعيةٍ: «صلاةُ الفجرِ والتسابيح عندَ منتصفِ الليلِ وصلاةُ الصبحِ قبلَ الفطورِ ثمَّ صلاةُ الظهر، وبعدها الاجتماعُ والدراسةُ والآن القُداسُ».

«وهل تناولتَ الطعامَ؟»

«تناولتُ الفطورَ».

«وأنتَ تتوقع تناولَ الغداء».

«أجل».

«معظمُ من هم في مثلِ عُمركَ يقومون بأعمالٍ شاقةٍ تقصمُ الظهر في

الحقولِ منذُ الفجرِ وحتّى المغيب من أجل طعامِ الفطورِ والغداء، وليقدموا لكَ الخبزَ الذي تأكلُه، هل تعلم سبب قيامِهم بهذا؟»

«أجل»، قال وليم محرّكاً قدميه ومُطرقاً بناظريه أرضاً.

«تابع».

«إنَّهم يفعلونَ هذا لأنَّهم يريدونَ الرهبان أن يُصلوا للرَّبِّ نيابةً عنهم».

«هذا صحيح. إذاً، يقدمُ لكَ الفلاحون المُجدون الخبزَ واللحمَ، ومهجعاً حجرياً مع نارٍ في الشتاءِ، وأنتَ مُتعبٌ جداً على الجلوس ساكناً من أجلهم خلال القداسِ!»

«أعتذرُ أيّها الأخ».

أمعنَ فيليب النظرَ إلى وليم ولم يرَ فيه شاباً خَطراً. كان الخطرُ الحقيقي في من هم أعلى منه، ومن كانوا متراخين جداً حيال مثل هذا المزاحِ الخشنِ داخلَ الكنيسةِ، وهنا قال فيليب بُلطفٍ: «إن كانت المراسمُ تتعبكَ فلمَ أصبحتَ راهباً؟»

«لأبي أربعةُ أبناءٍ غيري».

أومأ فيليب برأسهِ وقال: «ولا شكَّ أنَّه قدَّم للدير أرضاً كي يأخذوكَ؟»

«أجل، قدَّمَ مزرعةً».

عموماً، من الشائعِ أن يقومَ رجلٌ لديه أبناءٌ كُثر بتقديمِ أحدِهم إلى الربِّ، وكيلا يرفضَ الرَّبُّ العطيةَ يُقدم الرجل مُلكيةً كافيةً لإعانةِ الفتى على تحملِ مشاقِ الفقرِ الرهباني، ويغدو الكثيرُ من أولئكَ الصبيةِ الذين لا ينسجمون مع الحياةِ الرهبانيةِ متمردين.

قال فيليب: «إن نُقلتَ إلى مزرعةٍ على سبيل المثال، أو إلى صومعةِ سانت جون إن ذا فوريست ستقومُ بأعمالٍ كثيرةٍ في الخارجِ، وستقضي وقتاً أقلَّ في العبادةِ، هل تعتقد أنَّ هذا الكلام قد يساعدكَ على متابعةِ المراسمِ كما يليق بأيِّ راهبٍ تقي؟»

أضاءَ وجه وليم وقال: «أجل أيّها الأخ، أعتقدُ أنَّه سيساعدني!»

«هذا ما اعتقدتُهُ. سأرى ما يمكنني فعلُهُ، ولكن لا أريدكَ أن تتحمسَ كثيراً؛ لأنَّك قد تضطرُ إلى الانتظار إلى أن يُنتخبَ رئيسُ الديرِ الجديدِ، وعندها يمكنكَ أن تطلبَ منهُ نقلكَ».

«شكراً لكَ على أيِّ حالٍ!»

انتهَت مراسمُ القداسِ، وبدأ الرهبانُ بمغادرةِ الكنيسةِ في رتلٍ. وضعَ فيليب إصبعَه على شفتيهِ في إشارةٍ لوليم أنَّ المحادثة قد انتهت. وحالما دخلَ الرهبانُ الجناح الجنوبي انضمَّ إليهم فيليب ووليم، وخرجَ الجميعُ من الممرّاتِ المسقوفةِ إلى الباحةِ المُقنطرةِ الملاصقةِ للطرفِ الجنوبي من صحنِ الكنيسةِ، وهناكَ تفرَّقَ الرهبانُ. استدارَ فيليب باتجاهِ المطبخِ، ولكنَّ الكشماس وقفَ في طريقهِ بطريقةٍ عدائيةٍ، ويداه على وركيه وقد باعد بين قدميهِ، ثمَّ قال: «أيُّها الأخ فيليب».

«أخ آندرو»، قال فيليب وهو يفكر بما أصابَ آندرو ليفعلَ هذا.

«ما الذي قصدتهُ بتعطيلِ مراسمِ القداسِ؟»

بدا فيليب مذهولاً وقالَ في ريبةٍ: «تعطيل المراسم؟ لقد أساءَ الفتى التصرَّفَ، وكان...»

«يسعني التعامل مع الشغبِ خلالَ المراسمِ التي أشرفُ على تأديتها!» قال آندرو بصوتٍ عالٍ، وتوقف الرهبانُ القريبون من آندرو وفيليب في أماكنِهم لسماع ما يقوله الراهبان.

لم يفهم فيليب سببَ كلِّ هذهِ الجلبةِ التي يثيرها آندرو حول هذا الأمرِ فغالباً ما يؤدبُ الرهبانُ الشُبان من قبلِ الأخوةِ الأكبر خلال المراسمِ، ولا يوجد قانونٌ ينصُّ على أنَّ الكشماس وحدهُ من يمكنه القيام بهذا.

«ولكنكَ لم ترَ ما كان يحدثُ...» قال فيليب.

«أو ربما رأيتهُ ولكنني قررتُ التعاملَ معه لاحقاً».

كان فيليب واثقاً من أنَّ آندرو لم يرَ شيئاً مما كان يحدث، ولذلك تحداه قائلاً: «ما الذي رأيته إذاً؟»

«لا تستجوبني!»، صرخَ آندرو، وتحولَ وجهه الوردي إلى اللونِ الأرجواني: «قد تكون رئيسَ ديرٍ صغيرٍ في الغابةِ، ولكنني الكشماس منذُ اثني عشرَ عاماً، وسأقيمُ مراسم الكاتدرائيةِ بالطريقة التي أراها مناسبةً، ومن دونِ مساعدةِ دخيلٍ غرٍ!»

وهنا بدأ فيليب يفكرُ أنَّه ربما اقترف خطأً، ولهذا السببِ استشاطَ آندرو

غضباً، ولكن الأهمّ من ذلك كله هو أنَّ جدالهما في الممرّاتِ المسقوفةِ، لم يكن مفيداً للرهبانِ، ولذلكَ لا بدَّ من إنهائهِ الآن. ابتلعَ فيليب كبرياءهُ وأحنى رأسَهُ خاصعاً، ثمَّ قال: «أنا مخطئ أيّها الأخ وأطلبُ المعذرة منكَ».

كان آندرو قد جهزَ نفسهُ للصراخِ عالياً، ولذلكَ لم يكن هذا الانسحاب المُبكرِ من جانبِ غريمهِ مُرضياً.

«لا تفعل هذا مجدداً»، قال آندرو بوقاحةٍ.

لم يتفوه فيليب بشيءٍ. إنَّ آندور صاحبُ الكلمةِ الأخيرةِ، ولو أنَّ فيليب تفوهَ بكلمةٍ لردَّ عليهِ آندرو ولاستمرَّ الجدال. وقفَ فيليب في مكانهِ مُطرقاً بنظرهِ أرضاً وكابحاً نفسهُ كيلا يتفوه بكلمةٍ. حدَّقَ آندرو إليهِ لوهلةٍ ثمَّ استدارَ أخيراً على عقبيهِ، وابتعدَ برأسٍ مرفوعٍ.

حدَّق بقيةُ الرهبانِ إلى فيليب الذي ضايقه الإذلال الذي تعرَّض له على يدي آندرو، ومن دونِ أن ينطقَ بكلمةٍ واحدة غادرَ الممرّاتِ المسقوفة.

يشغلُ القسمُ المنزلي للرهبان الطرفَ الجنوبي لساحةِ الممرّاتِ المسقوفةِ، حيثُ يشغلُ المهجعُ جنوب شرقهِ، وقاعةُ الطعامِ جنوبَ غربهِ. توجه فيليب غرباً وعبرَ قاعةَ الطعامِ ثمَ عادَ مجدداً إلى الطرفِ المخصصِ للعمومِ من ساحةِ الدير، والمُطلِ على نُزلِ الضيوفِ والإسطبلاتِ. في الزاويةِ الجنوبية للساحةِ فناءُ المطبخِ، وتحده من ثلاثِ جهاتٍ غرفةُ الطعامِ، والمطبخ، والمخبز ومصنع الجعةِ. نظرَ فيليب إلى عربةٍ مُحمَّلةٍ بالقرنبيطِ تقفُ في الفناء بانتظارِ تفريغِ حمولتها، ثمَّ صعدَ الدرجَ ودخلَ المطبخِ.

فاجأهُ الجو داخلَ المطبخِ كصفعةٍ؛ فقد كان الهواءُ ساخناً وثقيلاً يعبقُ برائحةِ السمكِ، وصاخباً من قرقعةِ الأواني والأوامرِ. رأى ثلاثةَ طباخين غاضبين وعجولين يحضرون الغداء بمساعدةِ ستة أو سبعةِ خدمِ مطبخ صغار. هناك موقدان في كلِ طرفٍ من أطرافِ المطبخِ، والنارُ في كلِ واحدٍ منهما مشتعلةٌ بقوةٍ، وعلى كلِّ موقدٍ عشرون سمكةً على أسياخٍ يُقلبها فتى متعرقٌ. أثارَت رائحةُ السمكِ جوعَ فيليب. في قدورٍ حديدية كبيرة فوقَ النارِ جزرٌ كاملٌ يُسلق، وهناك شابان وراءَ لوحِ تقطيعٍ يُقطعان أرغفةَ خبزٍ بطولِ ياردةٍ إلى شرائحَ سميكةٍ. كان ميليوس -مسؤول المطبخِ- وهو راهبٌ

في مثلِ عمرِ فيليب يراقبُ الفوضى في المطبخ. وكان رجلاً في مثلِ عمرِ فيليب. جلسَ ميليوس على كرسي عالٍ يراقبُ الحركةَ الجنونيةَ من حوله بابتسامةٍ هادئةٍ، وبعينهِ المُدربةِ ينظرُ برضا إلى سيرِ الأمورِ بانتظامٍ وترتيبٍ.

ابتسم ميليوس لفيليب وقال له: «شكراً لكَ على الجُبنِ».

«آه، أجل»، قال فيليب وقد نسي أمرَ الجبنِ بسببِ كلِّ ما حدث منذُ وصولِهِ، «إنَّه مصنوعٌ من الحليبِ الذي يُجمع صباحاً فقط، ولذلك ستجدُ أنَّ طعمَهُ مختلفٌ قليلاً».

«سالَ لعابي لمجرد سماعِ هذا، ولكنك تبدو متجهماً، هل من خطبٍ ما؟»

«ليسَ بالأمرِ الجللِ، تجادلت مع آندرو فحسب»، أجابَ فيليب ولوحَ بيدِهِ، كأنَّه فرغَ من الحديثِ في أمرِ آندرو، «هل يمكنني أخذُ حجرٍ ساخنٍ من موقدكَ؟»

«بالطبعِ».

يتوفر على الدوامِ في موقدِ المطبخِ حجارةٌ ساخنةٌ وجاهزةٌ لتسخين كمياتٍ صغيرةٍ من الماءِ المخلوطِ بالصابون. شرحَ فيليب لميليوس سببَ طلبِهِ: «يعاني الأخ بول الذي يقفُ على الجسرِ من تقرحاتٍ، وريميجوس لا يسمحُ له بإشعالِ نارٍ»، وأخذَ فيليب ملقطاً كبيراً، والتقطَ بِهِ حجراً من الموقدِ.

فتحَ ميليوس خزانةً، وأخذَ منها قطعةَ جلدٍ قديمةً كانت في ما سبق جزءاً من مئزرٍ: «إليكَ. قُم بلفِ الحجرِ بهذا».

«شكراً لكَ»، قال فيليب ووضعَ الحجرَ في قطعةِ الجلدِ ثمَّ رفعَها من أطرافها بحذرٍ شديدٍ.

«فلتُسرع»، قال ميليوس ثمَّ أضاف: «سيجهزُ الطعامُ قريباً».

غادرَ فيليب المطبخَ ملوحاً بيدِهِ لميليوس ثمَّ عبرَ فناءَهُ إلى البوابةِ، وأخذَ يساره حيثُ السورُ الغربي ومطحنةُ الديرِ. هناكَ حُفرت قناةٌ باتجاه الأعلى منذُ سنواتٍ عديدةٍ لجرِّ الماءِ من النهرِ إلى بركةِ المطحنةِ. يُحرّكُ الماءُ في قناةٍ سفليةٍ عجلةَ المطحنةِ باتجاهِ مصنعِ الجعةِ، والمطبخِ، والنافورةِ في الممرّاتِ المسقوفةِ حيثُ يغسلُ الرهبان أيديهم قبلَ الوجباتِ، وأخيراً يصلُ إلى المرحاضِ بجانبِ المهجعِ، وبعدها يتجه جنوباً ليصبَّ في النهرِ، لا بدَّ أنَّ أحد رؤساءِ الديرِ الأوائلِ كانَ مُخططاً ذكياً.

رأى فيليب كومةً من القشِّ القذرِ خارجَ الإسطبلاتِ، ولاحظَ أنَّ العاملين يقومان بما أمرهما بِهِ، ويُنظفان الإسطبل. خرجَ فيليب من البوابةِ ثمَّ عبرَ القرية باتجاهِ الجسرِ.

سألَ فيليب نفسهُ وهو يعبرُ الأكواخ إن كانَ تأنيبهُ للشابِ وليم بيوفس عملاً وقحاً، ولكن بعدَ إمعانٍ في التفكيرِ وجدَ أنَّه لم يكن كذلك؛ فتجاهلُ الإزعاجِ الذي تسببَ به وليم خلالَ المراسمِ عملٌ خاطئ.

وصلَ فيليب إلى الجسرِ ووضعَ رأسهُ داخلَ الكشكِ الصغيرِ الذي يقفُ فيهِ بول، «فلتُدفِئ قدميكَ بهذا»، قال فيليب وهو يقدمُ لبول الحجرَ الساخنَ والملفوف بقطعةِ الجلدِ: «عندما يبردُ قليلاً انزع القطعةَ الجلديةَ وضع قدميكَ على الحجرِ مباشرةً، سيكفيكَ هذا حتَّى هبوطِ الظلامِ».

عبَّرَ الأخ بول عن امتنانه الشديد، وسارعَ إلى خلعِ صندلِهِ ثمَّ وضعَ قدميهِ على الصُرَّةِ وقال: «أشعرُ أنَّ الألم قد بدأ يتراجعُ».

«إن أعدتَ الحجرَ إلى المطبخِ، ووضعتهُ في الموقدِ الليلة، فسيكون ساخناً بحلولِ الصباحِ»، قال فيليب.

«ألن يُمانع الأخ ميليوس؟» سأل بول في قلقٍ.

«أضمنُ لكَ أنَّه لن يُمانع».

«أنتَ تعاملني بطيبةٍ أيُّها الأخ فيليب».

«لا تهتم»، قال فيليب، وغادرَ قبلَ أن يتابعَ بول إغداقَ المزيدِ من الشكرِ وإحراجِهِ، فهو لم يفعل شيئاً سوى إحضارِ حجرٍ ساخنٍ.

عادَ فيليب إلى الديرِ، وتوجه إلى الممرّاتِ المسقوفةِ ثمَّ غسلَ يديهِ في الجرنِ الحجري في الممرّ الجنوبي، ودخلَ قاعةَ الطعامِ. كان هناك راهبٌ عندَ المنصةِ يقرأ. يُفترضُ بالرهبانِ أن يتناولوا الطعامَ في صمتٍ وهم يصغون إلى القراءةِ، ولكن إضافة إلى أصواتِ الأكلِ التي صدرت عن أربعين راهباً علت أصوات همسٍ كثيرةٌ رغمَ قانون الصمتِ الذي يُفترضُ بهم الالتزامُ بِهِ. توجهَ فيليب إلى إحدى الطاولاتِ الطويلةِ وجلسَ. كان الراهبُ الذي يجلسُ بجانبِهِ يأكلُ بمتعةٍ كبيرةٍ، فانتبه إلى أن فيليب ينظرُ إليه وقال: «سمكٌ طازجٌ اليوم».

أومأ فيليب برأسهِ موافقاً فقد رأى السمكَ في المطبخِ، وبدأ يشعر بقرقرةِ معدتهِ.

قالَ الراهب لفيليب بشيءٍ من الحسدِ في صوتهِ: «سمعنا أَنَّكم في ديركم الصغير في الغابةِ تتناولون السمكَ الطازجَ كلَّ يومٍ».

هزَّ فيليب رأسهُ وهمسَ: «ونتناول الدجاج أكثر من مرَّةٍ في الأسبوع».

نظرَ الراهب بحسدٍ أكبر وقال: «نتناول السمك المملحَ ستَ مرَّاتٍ أسبوعياً».

وضعَ خادمٌ شريحةً كبيرةً من الخبزِ أمامَ فيليب ثمَّ وضعَ فوقها سمكةً مُتبلةً بأعشابِ الأخِ ميليوس. سال لعابُ فيليب لهذا المنظرِ، وكان على وشكِ الانقضاضِ على السمكةِ بسكين الطعامِ عندما وقفَ راهبٌ عندَ نهايةِ الطاولةِ وأشارَ إليهِ. كان الراهبُ المسؤول عن الانضباطِ، وفكرَ فيليب في نفسهِ: «ما الأمرُ الآن؟»

خرقَ الراهبُ المسؤولُ عن الانضباطِ قانون الصمت، فقد كان الوحيد الذي يُسمح له بهذا وقال: «أيُّها الأخ فيليب!»

توقفَ بقيةُ الرهبانِ عن تناولِ الطعامِ، وخيمَ على المكانِ الصمتُ.

توقفَ فيليب وسكينهُ فوقَ السمكةِ ثمَّ نظرَ في ترقبٍ.

قال مسؤولُ الانضباطِ: «لا يسمحُ للمتأخرين بتناولِ الطعامِ».

تنهدَ فيليب، وفكرَ في نفسهِ أَنَّه لم ينجح في فعلِ أيِّ شيءٍ صائبٍ هذا اليوم ثمَّ وضعَ سكينهُ وسلَّمَ شريحةَ الخبزِ والسمكةَ فوقها إلى الخادمِ، وأحنى رأسَهُ وهو يصغي إلى القراءةِ.

خلالَ فترةِ الراحةِ بعدَ الغداءِ توجهَ فيليب إلى المخزنِ تحتَ المطبخِ، وتحدَّثَ إلى أمين المؤن كوثبرت وايتهيد. كان المخزنُ أشبهَ بكهفٍ كبيرٍ، ومظلمٍ بأعمدةٍ قصيرةٍ وضخمةٍ، ونوافذ صغيرةٍ، والهواءُ بداخلِهِ جافٌّ وعابقٌ بروائحِ ما خُزنَ فيهِ من زهور الجنجل[1] وعسلٍ وتفاحٍ وأعشابٍ مجففةٍ وجبنٍ وخل. عادةً ما يتواجد الأخ كوثبرت في المخزنِ طوالَ الوقتِ؛ فعملهُ لا يسمحُ له بحضورِ المراسمِ، وكان هذا مناسباً له. كان كوثبرت رجلاً ذكياً

1- نبتة تُستخدم لتثبيت وتنكيه الجعة. (المترجمة)

ومتواضعاً، ولا يهتمُ كثيراً بالأمورِ الدينيةِ. يعدُّ أمينُ المؤنِ النظيرَ المادي للكشماسِ؛ فعلى كوثبرت أن يؤمنَ للرهبانِ حاجاتهم العمليَّة، ويجمعَ المنتجاتِ من حقولِ ومزارعِ الدير، وأن يذهبَ إلى السوقِ لشراءِ ما يحتاجهُ العاملون ولا يمكنهم تأمينه، ويتطلبُ عملُه حساباتٍ وتخطيطاً دقيقاً، غيرَ أنَّ كوثبرت لم يكن المسؤولَ عن كلِّ شيءٍ لأنَّ ميليوس -مسؤولَ المطبخِ- يساعدُه في تحضيرِ الوجباتِ، وهناك أيضاً أمينُ الخزانةِ - المسؤول عن كسوةِ الرهبانِ. يعملُ ميليوس وأمين الخزانةِ تحتَ إمرةِ كوثبرت إضافةِ إلى ثلاثةِ موظفين آخرين يعملون بأمرهِ، ولكن مع درجةٍ من الاستقلاليةِ وهم: مسؤول نُزلِ الضيوف، والمُعالج الذي يعنى بصحةِ الرهبانِ العجائز والمرضى في مبنى مستقلٍ، ووكيلُ الصدقاتِ. ورغم المساعدين الذين يعملون تحت إمرتهِ فإنَّ كوثبرت جبارٌ في عملهِ، وعيبهُ أنَّه يعتمدُ على الحفظِ أكثرَ مما يعتمدُ على التدوينِ معللاً ذلكَ بقولهِ إنَّه من المخجلِ تضييع الورقِ والحبرِ على هذهِ الأمور، وهنا تكهن فيليب أن كوثبرت لم يتعلم الكتابةَ والقراءةَ جيداً. كان شعرُ كوثبرت قد شابَ مُذ كان يافعاً، ولهذا السبب حصلَ على لقبِ «وايتهيد[1]» ولكنه الآن تجاوزَ الستين من العمرِ، وفقد كلَّ شعرهِ باستثناءِ الشعر الأبيضِ السميك في أذنيهِ، ومنخريهِ كأنَّ في ذلكَ تعويضاً له عن خسارةِ شعرِ الرأسِ. في الديرِ حيثُ ترعرعَ فيهِ فيليب في ويلز شغلَ منصبَ رئيسِ المؤن، ولذلك يتفهم مشاكلَ كوثبرت، ويتعاطفُ معه رغمَ مزاجهِ العكرِ، وبدورهِ أحبَّ كوثبرت فيليب لأنَّه يقدرُ صعوباتِ عملهِ. علمَ كوثبرت أنَّ فيليب حُرمَ من غدائهِ، لذلكَ توجهِ إلى برميلٍ وأخذَ منه ستَ إجاصات ذابلةٍ، ولكنها بدت شهيةً، وقدمها إلى فيليب الذي تناولها بامتنانٍ بينما كوثبرت يتذمرُ من أحوالِ الديرِ الماليةِ.

«لا أفهمُ السببَ الذي يجعلُ الديرَ مديوناً»، قال فيليب وهو يمضغُ إجاصةً.

«وهذا أمرٌ لا يجبُ أن يحدث»، قال كوثبرت: «فالديرُ يمتلكُ الكثيرَ من الأراضي، ويجمعُ ضرائبَ عشرٍ من الأبرشياتِ أكثر من ذي قبلٍ».

«إذاً، لماذا لسنا أغنياء؟»

1- ذو الرأسِ الأبيض

«أنتَ تعلم كيفَ تسيرُ الأمورُ هنا. إنَّ معظمَ مُلكياتِ الديرِ موزعةٌ بين أصحابِ المناصبِ العليا؛ فللكشماس مُلكياتهُ المسؤول عنها، وأنا لي مُلكياتٌ، وهناك أيضاً بعض المُلكياتِ الصغيرةِ التابعةِ لمعلمِ الرهبانِ المبتدئين، ورئيس المستشفى، وطبيبِ الرهبانِ، ووكيل الصدقاتِ أمَّا ما تبقى من المُلكياتِ فهي للديرِ، وكلٌّ واحدٍ ممن ذكرتهم يستخدم مدخولَ مُلكيتهِ لتلبيةِ مُتطلباتِ منصبهِ».

«ما الخطبُ إذاً؟»

«حسناً، تحتاجُ كلّ هذهِ المُلكياتِ إلى العنايةِ. لنفترض على سبيلِ المثال أننا نملكُ أرضاً، وأننا نؤجرها لقاءَ مبلغ نقدي، لا يجب علينا أن نؤجرها إلى الشخصِ الذي سيعطينا أعلى إيجارٍ، ونكتفي بجمعِ المالِ، بل علينا أن نختارَ مستأجراً جيداً، وأن نشرفَ عليهِ حِرصاً منا على زرعها بشكلٍ جيدٍ، أو ستتحول إلى مستنقعٍ وتُستنزف التربةُ، ولن يعود المستأجرُ قادراً على دفعِ الإيجارِ، وعندها سيعيدُ إلينا الأرضَ في حالةٍ سيئةٍ. ولو أخذنا مثالاً آخر كمزرعةٍ مثلاً يزرعها عاملون لدينا، ويُشرف عليها رهبانٌ، إن لم يزر أحدٌ المزرعةَ سوى لتحصيلِ المنتوجاتِ سيتقاعسُ الرهبانُ، ويسرق العمالُ المحاصيلَ، وسيتراجع إنتاجُ المزرعةِ شيئاً فشيئاً، وعاماً بعد آخر. حتَّى الكنائس بحاجةٍ إلى عنايةٍ. لا يجب أن نكتفي بتحصيلِ ضريبة العشرِ بل يجب أن نقومَ بتعيين كهنةٍ يتقنون اللاتينية وأتقياء، أو سينزلق الناسُ إلى المعاصي، ويتزوجون وينجبون أطفالاً، ويموتون من دونِ مباركةِ الكنيسةِ، ويتحايلون في دفعِ الضرائبِ المفروضةِ عليهم».

«على أصحابِ المناصبِ العليا أن يعنوا بمُلكياتهم جيداً»، قال فيليب وهو يقضمُ آخرَ إجاصةٍ.

ملأ كوثبرت كأسَ نبيذٍ من برميلٍ وقال: «يتحتمُ عليهم فعلُ هذا، ولكنهم مشغولون بأمورٍ أخرى. على أيِّ حالٍ لا يعرفُ معلمُ الرهبانِ المبتدئين شيئاً عن الزراعةِ، ولا يفهمُ طبيبُ الرهبانِ في إدارةِ المُلكياتِ. يمكنُ لرئيسِ ديرٍ قوي أن يجبرهم على الاهتمامِ بمواردِهم إلى حدٍ ما، ولكن رئيس ديرنا شخصٌ ضعيفٌ، وهو يحكمُ منذُ ثلاثة عشرَ عاماً، ولا نملك المالَ اللازم لإصلاحِ الكاتدرائيةِ، ونتناول السمكَ المملحَ ست

مرّاتٍ أسبوعياً، وتكادُ المدرسةُ تخلو من الرهبانِ المبتدئين، ولا أحد ينزلُ في نزل الضيوفِ»».

تجرَّع فيليب النبيذَ في صمتٍ كئيبٍ؛ فقد وجدَ صعوبةً في قبولِ مثلِ هذا التبذير لممتلكاتِ الرَّبِّ، ورغبَ بإمساكِ الشخصِ المسؤول عن الأمرِ، وإعادتِهِ إلى جادةِ الصوابِ، ولكن هذا الشخص مُسجى في تابوتٍ خلفَ المذبحِ، وهذا يعني أنَّ هناكَ بارقةَ أملٍ.

«قريباً سنحظى برئيسِ دير جديدٍ»، قال فيليب. «وقد يضعُ الرئيسُ الجديدُ الأمورَ في نصابها».

رمقَ كوثبرت فيليب بنظرةٍ غريبةٍ وقال: «من؟ ريميجوس سيضعُ الأمورَ في نصابِها؟»

لم يفهم فيليب ما الذي عناه كوثبرت بكلامهِ وقال: «لن يكون ريميجوس رئيسَ الديرِ الجديد».

«على الأرجح سيكون كذلك».

شعرَ فيليب بخيبةِ أملٍ وقال: «ولكنه ليسَ أفضلَ حالاً من رئيسِ الديرِ جيمس! لمَ قد يصوتُ له الأخوةُ؟»

«حسناً، إنهم مُرتابون جداً حيالَ الغرباءِ، ولذلك لن يصوتوا لشخصٍ لا يعرفونه، وهذا يعني أنَّ الرئيسَ يجب أن يكون واحداً منا».

«ولكن لا يوجد قانونٌ يُلزمنا باختيارِ أكبرنا عُمراً رئيساً لنا»، احتجّ فيليب ثمَّ تابع: «ويمكن أن يكون أيّ واحدٍ من أصحابِ المناصبِ العليا. بوسعكَ أنتَ أن تصبح رئيس الدير».

أومأ كوثبرت برأسهِ وقال: «لقد طُلبَ مني ولكني رفضت».

«ولكن لماذا؟»

«أنا عجوزٌ يا فيليب، وكان العملُ الذي أقوم بهِ الآن ليقضي علي لو لم أكن مُعتاداً عليه، وإن تحمَّلت أعباءً جديدةً فسيكون الحملُ ثقيلاً عليِ. لا أملكُ الطاقةَ اللازمةَ لإصلاحِ ديرٍ في حالةٍ مترديةٍ، وهذا يعني أنني لن أكون أفضلَ حالاً من ريميجوس».

لم يكن فيليب قادراً على تصديقِ ما سمعهُ حتَّى الآن وجادل: «ولكن هناك آخرين، الكشماس، ومسؤول الانضباط، ومعلم الرهبان المبتدئين...»

«إنَّ معلم الرهبان المبتدئين عجوزٌ ومتعبٌ أكثر مني، أمَّا مسؤول نُزلِ الضيوفِ فهو شخصٌ نهمٌ وسكيرٌ، والكشماس ومسؤول الانضباط مواليان لريميجوس، وأنا لا أعرف سبباً لولائهما، ولكني أعتقدُ أنَّ ريميجوس وعدَ بترقيةِ الكشماسِ إلى منصبِ نائبِ رئيسِ الديرِ، ومسؤول الانضباطِ إلى منصبِ الكشماس مكافأةً لهما على دعمهما».

جلسَ فيليب على كيسٍ من الطحينِ وقال: «أتعني بكلامكَ أنَّ ريميجوس رتبَ أمرَ فوزهِ بالمنصبِ؟»

لم يُجب كوثبرت على الفورِ بل وقفَ، وتوجّه إلى الطرفِ الآخرِ من المخزنِ حيثُ حوضٌ خشبي بداخلهِ سمكُ حنكليس حي، ودلو ماءٍ عذبٍ، وبرميلٌ ممتلئٌ حتَّى ثلثهِ بماءٍ مالحٍ. «ساعدني بهذا»، طلبَ كوثبرت من فيليب، وأخذَ سكيناً ثمَّ اختارَ سمكةً من الحوضِ، وهشمَ رأسها بالأرضيةِ الحجريةِ ثمَّ نظّفها بالسكين، وسلمها إلى فيليب وهي ما تزال تتحرك، «اغسلها في الدلو وضعها في البرميلِ»، قال كوثبرت: «ستتكفلُ هذهِ الأسماكُ بالقضاءِ على شهيتنا خلالَ فترةِ الصيام».

غسلَ فيليب السمكةَ شبه الميتة في الدلو بكلِّ عنايةٍ ثمَّ ألقى بها في الماءِ المالحِ.

نظّفَ كوثبرت سمكةً أخرى وقال: «لدينا خيارٌ آخر، هناك مرشحٌ آخر وقد يكون مُصلحاً جيداً، قد يكون أقلَّ مرتبةً من نائبِ رئيسِ الدير إلَّا أنَّه في مرتبةِ الكشماسِ ورئيسِ الخزانةِ».

رمى فيليب بالسمكةِ في الدلو وسأل: «من؟»

«أنتَ».

«أنا!» قالَ فيليب في دهشةٍ كبيرةٍ أسقطَ معها السمكةَ التي يحملها أرضاً. عملياً، كان فيليب صاحبَ منصبٍ عالٍ في الديرِ، ولكنه لم يعدّ نفسهُ أبداً مساوياً للكشماسِ أو لغيرهِ لأنَّهم جميعاً يكبرونه عمراً: «أنا صغيرٌ جداً...»

«فلتُفكر بالأمرِ»، قال كوثبرت وتابع: «قضيتُ مُعظمَ حياتكَ في الأديرةِ، وأصبحتَ أمينَ خزانةٍ وأنتَ في مطلعِ العشرين، وتشغلُ الآن منصبَ رئيسِ ديرٍ صغيرٍ منذُ أربعِ أو خمسِ سنواتٍ، وقد نجحت في إصلاحهِ. الجميع يعتقدُ أنَّ الرَّبّ يمدُّ لنا يده من خلالكَ».

التقطَ فيليب السمكةَ الهاربةَ عن الأرضِ ورماها في برميل الماءِ المالحِ: «يمنُّ الرَّبّ بعونهِ علينا جميعاً»، قال فيليب بشكلٍ عرضي رغم أنَّه ما زال مذهولاً مما اقترحهُ كوثبرت. أرادَ رئيساً جديداً لديرِ كينغزبريدج، ولكنه لم يفكر قط أن يشغلَ هذا المنصب: «سأكون حقاً رئيساً أفضل من ريميجوس»، قال فيليب مُفكراً.

لاحت علائمُ رضا على وجهِ كوثبرت، وقال: «إن كان لديكَ عيبٌ وحيدٌ يا فيليب فهو براءتكَ».

لم يفكر فيليب في نفسهِ كشخصٍ بريءٍ، ولذلكَ سألَ كوثبرت: «ما الذي تعنيه؟»

«أنتَ لا تبحثُ عن الدوافعِ الحقيقيةِ وراءَ أفعالِ الناسِ كما يفعل معظمنا. على سبيل المثال جميعُ من في الديرِ يعتقدُ أنَّكَ مرشحٌ، وأنَّكَ هنا لكسبِ الأصواتِ».

وهنا انتاب فيليب شعورٌ بالسخطِ وسأله: «وعلى أيِّ أساسٍ بنيتَ قولكَ هذا؟»

«انظر إلى سلوككَ كما سينظرُ إليهِ شخصٌ منحطٌ ومرتابٌ، لقد وصلتَ خلالَ أيامٍ على وفاةِ رئيسِ الديرِ جيمس، كأنَّ شخصاً ما موالياً لكَ أطلعكَ على ما يجري، وأرسلَ لكَ رسالةً سريَّةً أخبركَ فيها بما حدثَ».

«ولكن كيف لهم أن يتصوروا أنني خطَّطتُ لهذا؟»

«إنَّهم لا يعلمون ولكنهم مؤمنون أنَّك أذكى مما تبدو»، قال كوثبرت وتابع تنظيفَ سمكِ الحنكليس: «فلتُراجع سلوككَ اليومَ، دخلتَ إلى الديرِ وأمرتَ عمالَ الإسطبلِ بتنظيفهِ، ثمَّ وضعتَ حداً للهرجِ والمرجِ خلالَ القُداسِ، وتحدَّثت عن نقلِ الشابِ وليم بيوفيس إلى ديرٍ آخر في الوقتِ الذي يعرفُ فيهِ الجميع أنَّ نقلَ راهبٍ من ديرٍ إلى ديرٍ آخر من صلاحياتِ رئيسِ الديرِ، وأنتَ أيضاً انتقدت ريميجوس بشكلٍ غير مباشرٍ من خلالِ أخذِ حجرٍ ساخنٍ إلى الأخِ بول على الجسرِ، وأخيراً، أحضرتَ إلى المطبخِ جبناً لذيذاً وتناولنا منه جميعاً بعدَ الغداءِ، ورغمَ أنَّ ما من أحدٍ منا تحدَّث عن مصدرِ هذا الجبنِ فإنَّ ما من أحدٍ سيخطئ طعمَ جبنِ صومعةِ سانت جون إن ذا فوريست».

وانتابَ فيليب شعورٌ بالحرجِ لأنَّ سلوكَه قد يفسرُ بهذهِ الطريقةِ ولذلكَ قال: «يمكن لأيِّ شخصٍ أن يقوم بما قمتُ بهِ».

«ربما. يمكنُ لأحدِ الرهبانِ الكبارِ أن يقومَ بكلِّ هذهِ الأعمالِ، ولكن ما من أحدٍ منهم قام بها. دخلتَ، واهتممتَ بالأمورِ، وبدأت بإصلاحِ المكانِ، ولذلكَ ردَّ حلفاءُ ريميجوس هجومكَ، وسارع الكشماس آندور إلى توبيخكَ علناً في الممرّاتِ المسقوفةِ».

«إذاً، هذا هو السبب! وأنا الذي كنت أتساءلُ عمَّا جرى له». غسلَ فيليب السمكةَ بعنايةٍ وتابع: «إذاً، لهذا السببِ أيضاً حرمني مسؤولُ الانضباطِ من الغداءِ».

«تماماً، وقد فعلَ هذا لإذلالكَ أمامَ الرهبانِ. بالمناسبة أعتقدُ أنَّ الأمرَ ارتدَّ عليهما لأنَّ كلا التوبيخين لم يكونا مبررين، ولأنَّك قبلتَ بهما بكلِّ لباقةٍ. في الحقيقةِ لقد بدوت كقديسٍ بسببِ ما حصلَ».

«لم أقم بذلك للفتِ النظرِ».

«والقديسون لا يحاولون لفتَ النظرِ أيضاً. ها هو الجرسُ يُقرعُ إيذاناً بصلاةِ بعدَ الظهرِ، من الأفضلِ أن تتركَ بقيةَ سمكِ الحنكليس لي. بعدَ الصلاةِ هناك ساعةٌ مخصصةٌ للدراسةِ يسمح فيها بالنقاشِ في الممرّاتِ المسقوفة، سيرغبُ الكثيرُ من الأخوةِ بالتحدثِ إليكَ».

«ولكن ليسَ بهذهِ السرعةِ!» قال فيليب في قلقٍ. «قد يعتقدُ الناس أنني أسعى وراءَ منصبِ رئيسِ الديرِ، ولكنني لا أنوي الترشّحِ للانتخاباتِ». تملَّك فيليب شعورٌ بالرهبةِ من فكرةِ المنافسةِ الانتخابيةِ، وهو لم يكن واثقاً من أنَّه يرغبُ حقاً في تركِ ديرهِ المُنظم في الغابةِ، ومواجهةِ المشاكلِ العظيمةِ التي يعاني منها دير كينغزبريدج. «أحتاجُ إلى وقتٍ للتفكيرِ»، التمسَ فيليب إلى كوثبرت.

«أعلمُ»، قالَ كوثبرت وهو يرفعُ ظهرَه ثمَّ نظرَ إلى فيليب مباشرةً وقال: «عندما تفكرُ في الأمرِ رجاءً لا تنسَ أنَّ الغرور خطيئةٌ كبيرة، وأنَّ الإنسان قد يقفُ في طريقِ إرادةِ الرَّبِّ بسببِ تواضعهِ الشديدِ».

أومأ فيليب برأسهِ وقال: «سأتذكر هذا، شكراً لكَ».

غادرَ فيليب المخزنَ، وهرعَ إلى الممرّاتِ المسقوفةِ. كانت الأفكارُ تعصفُ في ذهنهِ عندما انضَمَّ إلى الرهبانِ الآخرينِ، ودخلَ إلى الكنيسةِ.

أدركَ أنَّه مُتحمسٌ جداً حيالَ فكرةِ أن يصبح رئيسَ ديرِ كينغزبريدج؛ فقد كان غاضباً لسنواتٍ من الطريقةِ المُشينةِ التي يُدار بها الدير، وها هو الآن يملكُ فرصةَ تقويمِ كلِّ شيءٍ بنفسهِ، وفجأةً شعرَ أنَّه قد لا ينجح في فعلِ هذا. لم تكن المشكلَةُ كفاءتهُ في تسييرِ الأمورِ، وفعل ما هو صائب، بل إقناعُ الناس، وإدارةُ الممتلكاتِ وتأمين النقودِ. سيحتاجُ هذا العمل إلى شخصٍ حكيمٍ لأنَّ المسؤوليات ستكون ثقيلةً.

وكما يحدثُ عادةً ساعدت الصلوات فيليب على كبحِ جماحِ الأفكارِ الذي اجتاحه، وقد لاحظَ الآن أن الرهبانَ، بعدَ سلوكهم السيئ هذا الصباح، بدوا هادئين ورزينين. وبينما كان يُصغي إلى الصلواتِ المألوفةِ، ويتابع سيرها وهو يدمدم وراءها كما فعلَ لسنواتٍ عديدةٍ شعرَ أنَّه استعادَ القدرةَ على التفكيرِ بوضوحٍ.

«هل أرغب حقاً بأن أصبح رئيسَ ديرِ كينغزبريدج؟» سأل فيليب نفسَهُ، وتفاجأ عندما أتاه الجوابُ سريعاً: «أجل! أريد أن أتسلم زمامَ هذهِ الكنيسة المتداعية، وأقوم بإصلاحها وإعادةِ طلائها، وملئها بأصواتِ مئةِ راهب، وآلافِ المُتعبدين وهم يرددون: «آبانا»، ورغمَ أنَّ فيليب أرادَ المنصبَ لهذا السبب بالتحديد فإنَّ هناك أيضاً مُلكيات الديرِ التي كانت بحاجةٍ إلى إعادةِ تنظيم، وتجديد، وحرص على البقاءِ سليمةً ومُنتجةً. كان يرغب برؤية حشدٍ من الصبيةِ الصغار يتعلمون القراءة والكتابة في إحدى زوايا الممرّاتِ المسقوفةِ، وأرادَ أن يكون نُزل الضيوفِ مُناراً ودافئاً كي يزورهم البارونات والأساقفة، ويُقدّموا للديرِ العطايا الثمينة عندما يغادرون. أراد أن يكون هناك غرفةٌ جانبيةٌ خاصةٌ ليستخدمها كمكتبة، ويملؤها بكتبِ الحكمةِ والجمالِ. أجل، إنَّه يريدُ أن يصبح رئيسَ ديرِ كينغزبريدج.

«هل هناك أسبابٌ أخرى؟» سألَ نفسَه: «عندما أتخيل نفسي رئيساً للديرِ، وأقوم بكلِّ هذهِ التحسينات من أجلِ إعلاءِ مجدِ الرَّبِّ هل سأشعر بالخيلاءِ؟»

«أوه، أجل».

شعرَ بالعجزِ عن خداعِ نفسهِ وهو يدخلُ الرحب البارد والمقدس للكنيسةِ. إنَّ هدفَه هو إعلاءُ مجدِ الرَّبِّ، ولكن المجد الذي سيحققه هو أيضاً سيشعره بالرضا، فقد أحبَّ إصدارَ أوامر لا يمكن لأحدٍ عصيانها، وتخيلَ نفسه يأخذُ قراراتٍ، ويحققُ العدالةَ، ويُعطي النصائحَ، ويُشجع،

ويأمر بأعمالِ الكِفارةِ، ويُعطي الأذونات كما يراه صائباً، وتخيلَ الناس وهم يقولون: «إنَّ فيليب من غويند من أصلحَ هذا المكان الذي كان في وضعٍ مُخزٍ قبلَ أن يأتي، فلتنظروا إلى حالهِ الآن».

«ولكني سأكون رئيسَ ديرٍ جيّداً؛ فقد منحني الـرَّبُّ العقلَ لإدارةِ الممتلكاتِ والقدرةَ على قيادةِ جموعِ الرجالِ. نجحت في هذا قبلاً عندما كنتُ أمينَ الخزنةِ في غويند، وفي عملي الآن كرئيس لصومعةِ سانت جون إن ذا فوريست، وحيثُ أعملُ الرهبانُ سعداءٌ، ولن يصابَ الرهبانُ العجائزُ بالتقرحاتِ، ولا الشبابُ بالإحباطِ من قلَّةِ العملِ، فأنا أهتمُ بالناسِ».

ولكن من جهةٍ أخرى لا يمكن مقارنةُ غويند وصومعةِ سانت جون إن ذا فوريست بديرِ كينغزبريدج. كان ديرُ غويند في حالةٍ جيدةٍ، أمَّا الصومعةُ في الغابةِ، فكانت مشاكلها صغيرةً، وتمكن من السيطرةِ عليها بكلِّ سهولةٍ، ولكن إصلاح ديرِ كينغزبريدج سيكون تحدي حياتهِ، وسيأخذ منهُ جردُ مواردهِ أسابيع: عدد الأراضي ومواقعها وما تحويهِ، وإن كانت غابات أو مراعي أو حقول ذرةٍ. سيأخذهُ تنظيمُ هذهِ المُلكيات المتفرقةِ، واكتشافُ المشاكلِ التي تعاني منها، وتصويبها وجمعها بعضها مع بعض كملكيةٍ واحدةٍ سنواتٍ في الوقتِ الذي كل ما فعلهُ في الصومعةِ هو إجبارُ مجموعةٍ من الشباب على العملِ بجدٍ في الحقولِ، والصلاةِ بورعٍ في الكنيسةِ.

اعترفَ فيليب لنفسهِ: «دوافعي ليست نبيلةً تماماً، ولست واثقاً من قدرتي على فعلِ كل هذا. ربما علي رفضُ الترشحِ، فأنا على الأقلِّ سأتجنبُ خطيئة الغرور، ولكن ماذا عن كلامِ كوثبرت؟! 'يمكن للرجلِ أن يقفَ في طريقِ إرادةِ الرَّبِّ بسببِ تواضعهِ الشديدِ.'»

«ما الذي يريدُه الرَّبُّ؟» سأل فيليب نفسه أخيراً، «هل يريدُ ريميجوس؟ لا يملكُ ريميجوس قدراتي، وقد لا تكون دوافعه بريئة تماماً، هل هناك مرشحٌ آخر؟ لا، إلى أن يكشفَ الرَّبُّ عن مرشحٍ آخر لا بد لنا من حصرِ الخيارِ بيني وبين ريميجوس، لا شكَّ أنَّ ريميجوس سيديرُ الديرَ بالطريقةِ ذاتها التي دارهُ بها عندما كان جيمس مريضاً، وهذا يعني أنه سيكون متكاسلاً ومُهملاً، ويترك المكان لتهالكهِ. ماذا عني؟ أنا مغرورٌ، ولم أثبت نفسي بمقدراتي بعد، ولكني سأحاول إصلاحَ الديرِ، وإن منحني الرَّبُّ القوةَ فسأنجح».

«حسناً إذاً»، توجه فيليب إلى الرَّبِّ قائلاً عندما شارفت الصلاةُ على نهايتها: «حسناً. سأقبلُ الترشحَ، وسأقاتل بكلِّ ما أوتيت من قوةٍ للفوزِ في الانتخاباتِ، ولكن إن لم تكن ترغب بي لهذا المنصبِ، لسببٍ قد لا ترغب في كشفهِ لي، عندها سيكون عليكَ أن توقفني بأيِّ طريقةٍ ممكنةٍ».

***

رغم أنَّ فيليب قضى اثنين وعشرين عاماً في الأديرةِ فإنَّه وطوالَ هذهِ السنواتِ خدمَ في ظلِّ رؤساء لم يتغيروا، ولذلك فهو لم يشهد قط انتخابات. تعدُّ هذهِ المناسبةُ فريدةً في الحياةِ الرهبانيةِ؛ لأنَّ الرهبان يتحررون فيها من نذرِ الطاعةِ، وبوسعهم اختيار من شاؤوا، وفي تلكَ اللحظةِ يغدو الجميعُ متساوين.

هناك أسطورةٌ قديمةٌ تقول إنَّ جميعَ الرهبانِ متساوون في كلِّ شيءٍ، حيثُ تقررُ مجموعةٌ من الرجالِ تركَ عالمِ الرغباتِ الجسديةِ وراءَ ظهورهم، وبناء ملاذٍ في الغابةِ يمكنهم فيهِ قضاءُ حياتهم في عبادةِ الرَّبِّ وإنكار الذاتِ، ويسعهم أيضاً أن يضعوا أيديهم على قطعةِ أرضٍ جرداء، وتنظيف أرضٍ من الغابةِ، وتجفيف مستنقعٍ، وعندها يحرثونَ الأرضَ ويبنون معاً كنيستهم، في تلكَ الأزمنةِ كان الرهبان كالأخوة، وكان رئيسُ الديرِ[1]، كما يوحي اسمهُ، أولَ أولئكَ المتساوين الذين يُقسمون على طاعةِ كما جاءَ في كتابِ «مبادئ القديس بينديكت»[2] وليس على طاعة كبارِ الرهبانِ، ولكن كل ما بقي الآن من تلكَ المنظومة الديمقراطية هو انتخاباتُ رئيسِ الديرِ.

هناك بعض الرهبان ممن لا يحبذون امتلاكَ مثلِ هذهِ القوة، ويرغبون بأن

1- الكلمة هي «prior» وهي تعني المتقدم أو السابق. (المترجمة)

2- بينديكت النورسي قديس مسيحي كرَّمته الكنيسة الرومانية الكاثوليكية بمنحه لقب «شفيع أوروبا والدارسين». قام بينديكت بتأسيس اثني عشر مجتمعاً للرهبان في سوبياكو، إيطاليا، وذلك قبل انتقاله إلى مونتي كاسينو في جبال جنوب إيطاليا. إن نظام القديس بينديكت قائم على اتحاد أبرشيات مستقلة، وأهم إنجازٍ له كتابه «مبادئ القديس بينديكت» الذي يحوي على تعاليمه لرهبانه، التي وعلى الرغم من أنها تعكس تأثراً كبيرًا بكتابات جون كاسيان في انسجامها المتين مع مبادئ الرَّب، فإنَّها أيضًا تمتلك روحًا فريدة من التوازن، والاعتدال، والعقلانية، وهذا أقنع معظم الطوائف الدينية التي تأسست على مدارِ العصور الوسطى باعتناقها. لاحقاً، أصبحت مبادئه الأكثر تأثيرًا في العالم المسيحي الغربي، وبات بينديكت يُعرف بمؤسس الرهبنة الغربية. (المترجمة)

يخبرهم الآخرون بكيفيةِ التصويت، أو يقترحون أن يكون القرارُ بيدِ لجنةٍ من الرهبان الأكبر عمراً، لكن من جهةٍ أخرى هناك رهبان يستغلون هذا الامتياز، ويغدون وقحين أو يطلبون مقابلاً ما على دعمهم، لكن، وبغضِ النظرِ عن هذا، تشعر الغالبية بالقلقِ حيالَ اتخاذِ القرار المناسب.

خلال فترة بعد الظهرِ وفي الممرّاتِ المسقوفةِ تحدَّث فيليب إلى معظمِ الرهبانِ، إمَّا فرادى أو في مجموعاتٍ صغيرةٍ، وأخبرهم بكلِّ صراحةٍ أنَّه يرغب في المنصبِ، وأنَّه وعلى الرغمِ من صغرِ سنهِ، سيُبلي أفضل من ريميجوس، وأجابَ على أسئلتهم، التي كانت بمعظمها عن حصصِ الطعامِ والشرابِ التي سيحصلون عليها مُستقبلاً. «إن أخذَ كلُّ فردٍ فينا قرارَهُ بعنايةٍ، وتفكرٍ فإنَّ الرَّبَّ حتماً سيباركُ نتيجةَ الانتخاباتِ»، قال فيليب بحكمةٍ يؤمنُ بها حقاً.

«إننا نربحُ»، قالَ مسؤولُ المطبخِ ميليوس في صباحِ اليوم التالي عندما كان يتناول هو وفيليب إفطاراً مكوناً من الخبزِ والجعةِ المُخففةِ، بينما عمالُ المطبخِ يُذكون النارَ في المواقدِ.

أخذَ فيليب قضمةً كبيرةً من الخبزِ القاسي والداكن ثمَّ تجرَّع بعضَ النبيذ لتطريتهِ. كان ميليوس شاباً متوقدَ الذهنِ، ونشيطاً وهو تلميذُ كوثبرت ومعجبٌ بفيليب. كان شعره داكناً ومسترسلاً، ولوجههِ الصغيرِ تقاسيم ناعمةٌ ومتناسقةٌ. كان يشبهُ كوثبرت في سعادته بخدمةِ الرَّبِّ على الصعيدِ العملي، وتفادي معظمِ الصلواتِ. أبدى فيليب ريبةً في التفاؤل الذي أبداه ميليوس قائلاً في تشكيكٍ: «كيف وصلتَ إلى هذهِ النتيجة؟»

«جميع من يدعمُ كوثبرت في الديرِ يدعمونكَ: أمين الخزانةِ، والمُعالج، ومعلمُ الرهبان المبتدئين، وأنا، فنحنُ نعلمُ أنَّك معيلٌ جيدٌ، ومشكلتنا الكبرى في النظامِ الحالي هو المؤن، سيصوتُ لكَ العديدُ من الرهبان العاديين للسببِ ذاتهِ، فهم يعتقدون أنَّك ستدير مواردَ الديرِ بشكلٍ أفضل، وهذا سيعودُ عليهم براحةٍ أكبر، وطعامٍ أفضل».

اكفهرَّ وجه فيليب وقال: «لا أرغب بتضليلِ أحدٍ، فهدفي الأول والأساسي هو إصلاحُ الكنيسةِ وتنظيم الصلواتِ، وهذا أهمُّ من الطعامِ».

«تماماً وهم يعلمون هذا»، قال ميليوس على عجلٍ، «ولهذا سيقومُ

المسؤول عن نُزلِ الضيوفِ وراهبان آخران بالتصويتِ لريميجوس، فهم يفضلون النظام المتراخي، والحياة الهادئة، أمَّا بقية من يدعمون ريميجوس فهم من المُقربين، ويتوقعون منه منحهم امتيازاتٍ خاصة عندما يفوز بالمنصبِ كالشماس، ومسؤول الانضباطِ، وأمين الخزنةِ وغيرهم. قائدُ جوقةِ الترتيلِ صديقٌ للكشماس، ولكني أعتقد أننا نستطيع إقناعهُ بأخذِ صفنا خاصَّة إن وعدناه بتعيين أحدٍ أميناً للمكتبةِ».

أومأ فيليب برأسهِ موافقاً؛ فقد كان رئيسُ جوقةِ الترتيل مسؤولاً عن الموسيقى، ويشعر أنَّه لا يستطيع الاهتمامَ بالكتبِ، وبواجباتهِ الأخرى في الوقتِ نفسهِ. «إنَّها فكرة جيدة على أيِّة حالٍ»، قال فيليب: «فنحنُ بحاجةٍ إلى أمين مكتبةٍ من أجلِ مجموعةِ الكتبِ الخاصةِ بنا».

نهضَ ميليوس عن كرسيه، وبدأ بشحذِ سكينِ المطبخِ. لاحظ فيليب أنَّ ميليوس يمتلكُ طاقةً فائضةً، ولا يستطيعُ الجلوسَ من دونِ إشغالِ يديهِ بعملٍ ما. «لدينا أربعة وأربعون راهباً مخولون بالتصويتِ»، قال ميليوس. قبلَ وفاةِ جيمس كان عددُ الرهبانِ خمسة وأربعين راهباً، وقد باتوا الآن أربعة وأربعين. «وفقاً لتوقعاتي فنحنُ نملكُ ثمانيةَ عشرَ صوتاً، أمَّا ريميجوس فلديه عشرةُ أصواتٍ، وهذا يعني أنَّه لدينا ستةَ عشرَ راهباً رماديون، نحتاجُ إلى ثلاثةٍ وعشرين صوتاً كي نصبح أكثرية. عليكَ كسبُ خمسةِ أصواتٍ أخرى».

«وفقاً لما أخبرتني بهِ يبدو الأمرُ سهلاً»، قال فيليب: «كم لدينا من الوقت؟»

«لا أعرف، فالأخوة من يدعون إلى الانتخاباتِ. إن أقمناها باكراً جداً، قد لا يوافقُ الأسقفُ على خيارنا، وإن تأخرنا أكثر سيقومُ هو بها لأنَّه أيضاً يملكُ الحقَّ في تسميةِ مرشحٍ، ولكنه على الأغلب لم يسمع بوفاةِ رئيسِ الديرِ العجوز بعد».

«قد يطول الأمرُ إذاً».

«أجل، وحالما نضمنُ حصولنا على أغلبيةِ الأصواتِ عليكَ العودة إلى صومعتكَ، وتبتعد عن هنا إلى أن ينتهي كلُّ شيءٍ».

دُهشَ فيليب مما قاله ميليوس وسأله: «ولكن لماذا؟»

«الألفةُ الزائدةُ تخلقُ البغضاءَ»، قال ميليوس ملوحاً بالسكين المشحوذِ بكلِّ حماسةٍ. «فلتسامحني إن كان في كلامي شيءٌ من الوقاحةِ، ولكنكَ سألتني وأنا أجبتكَ. حالياً أنتَ تملكُ هالةً لأنَّك بعيدٌ، ولكَ شخصيةٌ مقدسةٌ، خاصَّةً بالنسبةِ إلينا نحن الرهبان الشباب. لقد صنعتَ المعجزاتِ في الصومعةِ الصغيرةِ، وأصلحتها ونجحت في جعلها مكتفيةً بذاتها، ورغمَ أنكَ رئيسٌ قاسٍ فإنَّ رهبانكَ يأكلون جيداً. أنتَ قائدٌ بالفطرةِ، ولكنكَ أيضاً ستحني رأسكَ، وتتقبل التوبيخَ كراهبٍ مبتدئ، تملكُ معرفةً جيدةً بالكتابِ المقدسِ، وتصنع أفضلَ جبنٍ في البلادِ».

«وأنتَ تبالغ».

«ليسَ كثيراً».

«لا أصدق أنَّ الناس ينظرون إلي بهذهِ الطريقةِ. هذهِ نظرةٌ غير طبيعيةٍ».

«إنَّها كذلك حقاً»، أقرَّ ميليوس وهزَّ كتفيه مرَّة أخرى. «ولكنها لن تدوم إن عرفوكَ عن كثبٍ، إن بقيت هنا ستفقدُ هالتكَ، وسيرونكَ وأنتَ تخللُ أسنانكَ، وتحكُّ مؤخرتكَ، وسيسمعونكَ وأنتَ تشخرُ وتطلقُ ريحاً. سيكتشفون أنَّك مثلهم عندما يسوءُ مزاجكَ، أو تُجرحُ كبرياؤكَ، أو يؤلمكَ رأسكَ، ونحن لا نريدهم أن يفعلوا هذا. دعهم يشاهدون ريميجوس يقوم بكلِّ هذا يومياً، في الوقتِ الذي ستبقى فيهِ صورتكَ مشرقةً ومثاليةً في أذهاننا».

«أنا لا أحبُّ هذا»، قال فيليب بصوتٍ متهدجٍ، وأضاف: «فهو يفوحُ برائحةِ الخداعِ».

«لا خداع في ما قلتهُ»، احتجَّ ميليوس. «إنَّه تعبيرٌ صادقٌ عن الطريقةِ الجيدةِ التي ستخدمُ بها الرَّب والديرَ إن أصبحتَ الرئيسَ، والطريقةِ السيئةِ التي سيحكمُ بها ريميجوس».

هزَّ فيليب رأسَه وقال: «أرفضُ التظاهر أنني ملاكٌ. حسناً، أنا لن أبقى هنا لأنه عليَّ العودة إلى الغابةِ على أيَّة حالٍ. يجبُ أن نكون صادقين مع الأخوةِ، فنحن نطلبُ منهم أن ينتخبوا رجلاً خطَّاءً سيحتاج إلى عونِهم وصلواتِهم».

«أخبرهم بذلك»، قال ميليوس بحماسةٍ. «هذا الكلامُ رائعٌ وسيحبونه».

وفكرَ فيليب أنَّ ميليوس عنيدٌ، ولذلكَ غيَّرَ الموضوع قائلاً: «ما هو رأيكَ بالرماديين، أولئكَ الأخوة الذين لم يأخذوا قرارَهم بعد؟»

«إنهم محافظون»، قال ميليوس بلا ترددٍ، «وهم يعدون ريميجوس رجلاً عجوزاً، ولن يقوم سوى بتغييراتٍ قليلةٍ. بالنسبةِ لهم إنَّه رجلٌ متوقعٌ، وهو المسؤول الفعلي عن الدير حالياً».

أومأ فيليب برأسِهِ موافقاً وقال: «وهم ينظرون إليَّ بحذرٍ كأنني كلبٌ غريبٌ قد يعضهم».

قُرِعَ الجرسُ إيذاناً بموعدِ الاجتماعِ، وتجرَّع ميليوس ما تبقى في كأسِهِ من الجعةِ. «فيليب، ستواجه الآن هجوماً من نوعٍ ما. لا يمكنني توقع شكل هذا الهجوم، ولكنهم سيحاولون تصويركَ كشخصٍ غرٍّ ومعدوم الخبرةِ وعنيدٍ وغير كفؤ. عليكَ أن تبقى هادئاً وحذراً وحكيماً، ولتترك لي ولكوثبرت مهمةَ الدفاعِ عنكَ».

وهنا بدأ فيليب يشعرُ بالقلقِ فلم يكن معتاداً بعد على هذهِ الطريقةِ الجديدةِ في التفكيرِ -التفكير خطوةً بخطوةٍ- وكيف سيفسرها الآخرون ويحكمون عليها، وبنبرةٍ تفضحُ بعضَ الاستنكارِ قالَ: «عادةً لا أفكر إلّا بحُكمِ الرَّبِّ على سلوكي».

«أعلمُ، أعلمُ»، قال ميليوس بنفادِ صبرٍ، وأضاف: «ولكن مساعدة الناسِ البسطاءِ على فهم سلوككَ جيداً ليسَ بالخطيئةِ».

اكفهرَّ وجهُ فيليب، فقد كان كلام ميليوس مقنعاً بشكلٍ مُقلقٍ.

غادرا المطبخ، وعبرا قاعةَ الطعامِ باتجاهِ الممرّاتِ المسقوفةِ. كان فيليب قلقاً جداً حيالَ مسألةِ الهجومِ. ما هو هذا الهجوم؟ هل سيطلقون الأكاذيب؟ كيف يجب أن أتصرف؟ إن سمعَ الناسَ يطلقون الأكاذيب عنه سيغضبُ، هل عليهِ أن يكبحَ غضبه ليبدو أكثر هدوءاً والتزاماً وما إلى هناك؟ ولكنه إن فعلَ هذا ألن يعتقدَ الأخوةُ أنَّ هذه الأكاذيب صحيحةٌ؟ وقرّرَ أنه سيكون على طبيعتهِ، وربما أكثر رزانةً ووقاراً من المعتادِ.

كانت قاعةُ الاجتماعاتِ غرفةً مدورة وصغيرة مُتصلة بالممراتِ الشرقيةِ المسقوفةِ، والقاعةُ مؤثثة بمقاعد مرتبة في حلقاتٍ متداخلةٍ. لم يكن فيها موقدٌ ولذلك وجدها فيليب باردةً جداً خاصَّةً بعدَ مغادرةِ المطبخِ الدافئ. يتسللُ الضوءُ إلى القاعةِ من نوافذَ طويلةٍ أعلى من مستوى النظرِ، ولهذا لم يكن بالإمكان النظر خارجاً، بل فقط إلى الرهبان الآخرين في الغرفةِ.

وهذا ما فعله فيليب.

أتى جميعُ من في الدير تقريباً إلى القاعةِ، وكانت أعمارهم تتراوح بين السابعة عشرة والسبعين، بينهم الطويلُ والقصيرُ، والداكن الشعرِ والأشقر، وكانوا جميعاً في أرديةٍ خشنةٍ منسوجةٍ من الصوفِ الخامِ، وانتعلوا صنادلَ جلديةً. كان مسؤولُ نُزل الضيوفِ حاضراً ببطنهِ المدورِ، وأنفه الأحمرِ الذي يفضحُ خطيئةَ حُبهِ للشرابِ، وفكرَ فيليب أنَّه كان سيلاقي العذرَ على هذا الخطيئةِ لو أنَّه كان يستقبلُ زواراً. أتى أيضاً أمينُ الخزانةِ الذي يُجبرُ الرهبان على تغيير أرديتهم، وعلى الحلاقةِ في عيد الميلادِ وعيد العنصرةِ، وهو مسؤولٌ عن الاستحمام أيضاً إلا أنَّ الاستحمام لم يكن إجبارياً، وفي أقصى الغرفةِ اتكأ أكبرُ الأخوةِ عمراً، وهو رجلٌ عجوزٌ نحيلٌ ووقورٌ ورزينٌ لا يتحدث إلا نادراً، وعندما يفعلُ يكون كلامهُ حاسماً. كان من المفترضِ أن يصبحَ رئيسَ الديرِ لو لم يكن رجلاً مُفرطاً في تواضعِهِ. حضرَ أيضاً الأخُ سيمون بنظرتِهِ الماكرةِ، ويديهِ المضطربتين، وهو راهبٌ مُدمنٌ على الاعترافِ بارتكابِ خطيئة الزنا، ولكن -وكما همسَ ميليوس لفيليب- يبدو أنَّه يستمتعُ بالاعترافِ أكثر مما يستمتع بالخطيئةِ نفسها، ومن بين الحاضرين كان وليم بيوفيس بكاملِ تهذيبهِ، والأخ بول الذي لم يعد يعرج كالسابقِ، وكوثبرت وايتهيد برزانتهِ، وجون سمول أمينُ الخزنةِ الضئيلُ البنيةِ، وبيير مسؤولُ الانضباطِ الذي كان رجلاً لئيماً، ولم يسمح لفيليب بتناول غدائهِ البارحةَ. وبينما عاينَ فيليب من حوله، أدركَ أنَّ الجميعَ ينظرُ إليه، فأطرقَ بناظريه أرضاً مُحرجاً.

دخلَ ريميجوس مع الكشماسِ آندرو، وجلسا قربَ جون سمول وبيير، ولذلكَ اعتقدَ فيليب أنَّهم سيحاولون تقديمَ أنفسهم كحلفٍ.

بدأ الاجتماعُ بقراءةٍ عن القديس سمعان العمودي الذي يصادف اليومَ عيده. كان سمعان ناسكاً قضى معظمَ حياتهِ متعبداً على قمةِ عمودٍ، وعلى الرغم من أنَّ قدرةَ سمعان على إنكارِ الذات لا يمكن أن تكون موضعَ تشكيكٍ، فإنَّ فيليب لطالما شككَ سِرَّاً بالقيمة الحقيقية لشهادةِ سمعان، وتساءلَ في نفسِهِ إن كانت الحشودُ التي تحلَّقت حولَ القديسِ

قد أتت من أجلِ القيمةِ الروحيةِ للقديسِ، أم من أجلِ مشاهدةِ شخصٍ غريبِ الأطوارِ؟

انتهت الصلاةُ، وقُرئ فصلٌ من كتابِ القديس بينديكت. كانت هذه القراءةَ اليوميةَ خلال الاجتماع ما أعطى هذا المبنى الصغير والاجتماع اسميهما[1]، وقفَ ريميجوس ليقرأ وعندما توقفَ عن القراءةِ لبرهةٍ، والكتابُ أمامه أمعنَ فيليب النظرَ إلى وجههِ، وراقبهُ لأوّلِ مرّةٍ بعينِ الخصمِ. يتحرك ريميجوس ويتحدّثُ بسرعةٍ وحيويةٍ، وأسبغَ عليهِ هذا هيئةَ الشخصِ الكفؤ إلّا أنَّ شخصيتهُ الحقيقية تتناقضُ بشكلٍ صارخٍ مع هذهِ الهيئةِ، وإن أمعنَ المرءُ جيداً، فسيرى علائم على هذهِ الشخصيةِ تحتَ ظاهر هذهِ الهيئةِ. كانت عيناه الشديدتا الزرقةِ تتحركان بسرعةٍ وقلقٍ، وفمه الرخو يرتعشُ قليلاً قبلَ البدءِ بالكلامِ كأنَّه متردّدٌ، أمَّا قبضتا يديه فكان يشدُّهما ويفتحمها باستمرارٍ على الرغمِ من أنَّه وقفَ ساكناً. أيّاً تكن السلطةُ التي شعر بها، فإنَّ مصدرها الغرور والنكدُ، وازدراءُ من هم أدنى منه مرتبةً.

تساءلَ فيليب في نفسهِ عن سبب قراءةِ ريميجوس للفصلِ بنفسهِ، وسرعان ما فهمَ السببَ.

«إنَّ أولى درجاتِ التواضعِ هي الحضُّ على الطاعةِ»، قرأ ريميجوس. لقد اختارَ الفصلَ الخامس الذي يتحدث عن فضيلةِ الطاعةِ كي يُذكرَ الجميعَ أنَّه الأعلى مقاماً وهم الأدنى. كان هدفهُ من وراءِ هذا التكتيك ترهيب البقيةِ، وفضحت هذه الحركة مكرَه. «وهم لا يعيشون وفقَ مشيئتهم، ولا يخضعون لرغباتهم ومتعهم، بل يلتزمون بطاعةِ وتوجيهِ الآخرين، ويُخلصون لديرهم، ويرغبون أن يحكمهم رئيسُ الديرِ، لا شكَّ أنَّ أولئكَ يعيشون بمقولةِ ربنا: «لأنّي قد نزلت من السَّماءِ، ليسَ لأعملَ مشيئتي، بل مشيئةَ الذي أرسلني[2]». بدا واضحاً أن ريميجوس ذاهبٌ بالمعركةِ في اتجاه متوقعٍ وهو ترسيخ السلطة الراهنة.

1- تعني chapter فصلاً من كتاب، ولأنَّ اجتماع الرهبان يُستهل بقراءةِ فصلٍ من كتابِ القديس بينديكت أطلق عليه chapter meeting، وعلى المبنى الذي يجري فيه الاجتماع بالـ chapter building. (المترجمة)

2- إنجيل يوحنا، الإصحاح الثامن، الآية الثالثة والستون. (المترجمة)

بعدَ الانتهاءِ من قراءةِ فصلٍ من كتابِ القديس بينديكت حان وقتُ الصلاةِ على من توفوا، وكانت الصلاةُ اليومَ على روحِ رئيسِ الديرِ الراحلِ، أمَّا الجزءُ الأكثر حيويةً في هذا الاجتماع فقد تُركَ للأخير حيثُ ستُناقش الأعمال، ويُعترف بالأخطاءِ، وتوجه الاتهاماتُ بإساءةِ التصرفِ.

بدأ ريميجوس الكلام قائلاً: «البارحة خلالَ القداسِ وقع شغبٌ».

شعرَ فيليب بالراحةِ فقد باتَ واثقاً الآن من أنَّ الهجومَ عليهِ قد بدأ، ورغمَ أنَّه لم يكن واثقاً من صوابيةِ ما فعلهُ البارحة، فإنَّه علمَ السببَ الذي دفعَهُ إلى القيامِ بهِ، وكان مستعداً للدفاعِ عن نفسهِ.

تابعَ ريميجوس كلامَهُ: «أنا عن نفسي لم أكن حاضراً، فقد كنت في منزلِ رئيسِ الديرِ أعالجُ قضيةً طارئةً، ولكن الكشماس أخبرني بما حدث».

وهنا قاطعَهُ الأخ كوثبرت وايتهيد قائلاً بصوتٍ لطيفٍ: «لا تلم نفسكَ على هذا أيُّها الأخ ريميجوس، فنحنُ نعلمُ أنَّه لا يجب أن تكونَ لأعمالِ الديرِ الأولوية على حضورِ القداسِ، ونتفهمُ أنَّ موتَ رئيسِ ديرنا المحبوب اضطرَّكَ إلى التعاملِ مع العديدِ من الأمورِ التي تفوقُ قدرتَكَ الحقيقيةَ على التعاملِ معها. أنا واثقٌ من أننا جميعاً متفقون على عدمِ حاجتك إلى طلبِ التوبةِ».

وفكرَ فيليب: «يا لكَ من عجوزٍ محتالٍ يا كوثبرت». بالطبعِ لم يكن لدى ريميجوس النيّةُ في الاعترافِ أنَّه اقترفَ خطأً، ولكن كوثبرت غفرَ له، وبذلك دفعَ الجميع إلى الاعتقادِ أنَّ ريميجوس اقترفَ خطأً، ولذلكَ إن أُدينَ فيليب الآن بارتكابهِ خطأً، فسيكون مخطئاً بقدرِ ريميجوس، علاوةً على ذلكَ ألمحَ كوثبرت بكلامهِ هذا إلى أنَّ ريميجوس يواجه صعوبةً في التعاملِ مع واجباتِ رئيسِ الديرِ. كان كوثبرت قد قوَّضَ سلطةَ ريميجوس بالكاملِ ببضعِ كلماتٍ بدت لطيفةً في ظاهرِها. تملَّك ريميجوس غضبٌ شديدٌ، وشعرَ فيليب بنشوةِ النصرِ تكاد تُطبقُ على حلقهِ.

ألقى الكشماسُ آندرو على كوثبرت نظرةً اتهاميةً وقال: «أنا واثقٌ من أنَّ ما من أحدٍ يرغبُ بانتقادِ نائبِ رئيسنا المحترم، والشغب الذي تحدَّثَ عنه سببهُ الأخُ فيليب القادمُ من صومعةِ سانت جون إن ذا فوريست. لقد سحبَ فيليب الشابَ وليم بوفيس من مكانهِ في الجوقةِ، وقادَهُ إلى الجناحِ الجنوبي وهناكَ وبخهُ والمراسم ما تزال قائمةً».

وهنا تمالكَ ريميجوس نفسه، وتظاهرَ أنَّه يستنكرُ بحزنٍ ما حدث: «جميعنا نتفقُ أنَّه كان على فيليب الانتظار حتَّى نهايةِ المراسمِ».

تفحَّصَ فيليب تعابيرَ وجوه بقيةِ الرهبان، ولاحظَ أنَّهم لم يبدوا موافقين أو مُستنكرين، بل تابعوا مُجريات الأمرِ كمن يشاهد مباراةً لا خطأ فيها ولا صواب، واهتمامهم مُنَّصبٌ على من سيفوز.

أرادَ فيليبُ الاحتجاجَ بالقولِ إنَّه لو انتظرَ لاستمرَّ الشغبُ حتَّى نهايةِ المراسمِ، ولكنَّه تذكرَ نصيحةَ ميليوس ولزمَ الصمتَ. وهنا تحدَّثَ ميليوس بالنيابةِ عنه قائلاً: «أنا ولسوءِ حظي كالعادةِ لم أحضر القداس الذي يُقامُ قبلَ الغداءِ، ولذلك هلَّا أخبرتني أيُّها الأخ آندرو عمَّا حصلَ في الجوقةِ قبلَ أن يتدخل الأخُ فيليب، أكان كلُّ شيءٍ يسيرُ على نحو منتظمٍ ولائقٍ؟»

«كان هناك بعض الرهبانِ الشبان المتململين»، أجابَ الكشماس بعبوسٍ، وتابع: «وكنتُ أنوي التحدث إليهم لاحقاً».

«أتفهم جهلكَ بتفاصيلِ ما كان يجري بما أنَّكَ كنتَ مشغولاً بإجراءِ المراسمِ»، قال ميليوس بلطفٍ ثمَّ تابع: «ولكن لحسنِ الحظِ لدينا مسؤولٌ عن الانضباطِ، ومهمتهُ الأساسيةُ هي التعاملُ مع من يسيء السلوكَ بيننا، أخبرني أيُّها الأخ بيير، ما الذي لاحظتهُ وقتها؟»

أجاب مسؤول الانضباط بعدائيةٍ: «ما أخبركَ به الكشماسُ للتو».

قال ميليوس: «يبدو أنَّه علينا سؤالُ الأخِ فيليب عن التفاصيلِ».

وفكرَ فيليب في نفسهِ أنَّ ميليوس ذكي جداً فقد أثبتَ للتو أنَّ الكشماس ومسؤولُ الانضباطِ لم يريا ما فعله الرهبان الشبّان خلالَ المراسم. أُعجبَ فيليب بقدرةِ ميليوس على الجدالِ غيرَ أنَّه تردد في الانخراطِ في هذهِ اللعبةِ، فلم يكن انتخابُ رئيسِ ديرٍ مسابقةً لإثبات الأذكى، بل لمعرفةِ ما يريده الرَّبُّ. تردد فيليب في التدخلِ، ورمقه ميليوس بنظرةٍ كأنَّه يقول له: «الآن فرصتكَ!» لكن هناك شيئاً من العنادِ في شخصيةِ فيليب، ويظهر هذا بوضوح عندما يضعه أحدٌ في موقفٍ أخلاقي مشبوهٍ. نظرَ فيليب إلى ميليوس مباشرةً وقال: «كانَ الأمرُ كما وصفهُ الأخوان».

اكفهرَّ وجه ميليوس، وحدَّقَ في ريبةٍ إلى فيليب وكادَ يتفوه بأمرٍ، إلَّا أنَّه بدا كأنَّه لا يعلم ما الذي يريدُ قولَهُ. شعرَ فيليب بالذنبِ لأنَّه خيبَ أملَ

ميليوس، ولكنه قال في نفسهِ إنَّه سيشرح له سبب قيامهِ بهذا ما لم يكن غضبُ ميليوس منه عظيماً.

كان ريميجوس على وشكِ إصدارِ حُكمِ إدانةٍ بحقِّ فيليب عندما علا صوتٌ آخر قائلاً: «أرغبُ بالاعترافِ».

نظرَ الجميعُ إلى مصدرِ الصوتِ، وكانَ وليم بوفيس -مثير المتاعب الحقيقي- قد وقفَ والخجلُ مرتسمٌ على وجههِ. «كنتُ أنقفُ معلمَ الرهبانِ المبتدئين بكراتِ الطينِ وأضحكُ»، قال وليم بصوتٍ خفيضٍ وواضحٍ: «وبخني الأخُ فيليب وجعلني أشعرُ بالخجلِ من فعلتي. ألتمسُ الصفحَ من الرَّبِّ، وأرجو من أخوتي أن يسمحوا لي بالتكفيرِ عن ذنبي»، أنهى وليم كلامَهُ وجلسَ على الفورِ.

وقبلَ أن يقومَ ريميجوس بأيِّ ردِ فعلٍ وقفَ راهبٌ شابٌ آخر، وقال: «وأنا أريدُ الاعتراف أيضاً. لقد اقترفت الفعلةَ ذاتها، وأطلبُ السماحَ لي بالتكفيرِ عن ذنبي»، ثمَّ جلسَ مجدداً. وهنا انتشرت هذهِ الصحوةُ المفاجئة للضميرِ كالنارِ في الهشيمِ؛ لأنَّه سرعان ما وقفَ راهبٌ ثالثٌ، واعترفَ ثمَّ رابعٌ، وخامسٌ.

ها هي الحقيقةُ تظهر، وتحفَّظَ فيليب على إظهارِ شعورهِ بالرضا. لاحظَ أنَّ ميليوس يصارعُ لكبحِ ابتسامة ظفرٍ كادت تفلتُ منه. مع هذهِ الاعترافات لم يعد هناك أدنى مجال للشكِ حيالَ مسألةِ الشغبِ الذي جرى تحتَ أنفي الكشماسِ، ومسؤولِ الانضباطِ.

أمَّا ريميجوس الذي بدا ممتعضاً جداً من الحالِ الذي آلت إليه الأمورِ، فقد حكمَ على المتورطين في الشغبِ بالتزامِ الصمتِ لأسبوعٍ. لن يُسمح لهم بالتحدثِ إلى أحدٍ، ولا أن يخاطبهم أحدٌ. يتذكرُ فيليب بحُزنٍ هذهِ العقوبةَ فقد ذاق مرارتها عندما كان صغيراً، وإن كانت العزلةُ ليومٍ واحدٍ قاسيةً فقضاءُ أسبوعٍ كاملٍ من العزلةِ بؤسٌ ما بعدَهُ بؤسٌ.

بهذهِ العقوبةِ القاسيةِ كان ريميجوس يُنفسُ عن غضبهِ على هزيمتهِ. فحالما اعترفَ المشاركون في الشغبِ لم يعد لديه أيُّ خيارٍ آخر سوى معاقبتهم، وهو بذلكَ أقرَّ أنَّ فيليب كان على صوابٍ في ما فعله. لم تسر الأمور، خلاف ما خططَ له فحسب بل ساءت أكثر، وانتصرَ فيليب الذي وعلى الرغمِ من شعورهِ بالذنبِ استمتع باللحظةِ.

ولكن إذلال ريميجوس لم ينتهِ بعد.

تحدَّث كوثبرت مجدداً قائلاً: «هناك حالةُ شغبٍ أخرى وقعت في الممرّاتِ المسقوفةِ بعد القداسِ وعلينا مناقشتها». تساءلَ فيليب في نفسهِ عمَّا سيحدث الآن. «واجه الأخ آندرو الأخ فيليب واتهمَهُ بإساءةِ التصرفِ». وفكرَ فيليب في نفسهِ أنَّه حقاً أساءَ التصرف، والجميع يعلمُ بهذا. تابعَ كوثبرت كلامه قائلاً: «ونعلمُ جميعاً أنَّ زمانَ ومكانَ مثلِ هذهِ الاتهامات، هو هنا، في قاعةِ الاجتماعِ، وهناكَ أسبابٌ وجيهةٌ لفرضِهِ علينا من قبلِ سَلفنا؛ فالغضبُ يبردُ بمرور الوقتِ، وتُناقش الشكوى في صباحِ اليومِ التالي، في جو هادئٍ وعقلاني، وحينها يتسنى لمجتمعنا بأكملهِ أن يساهمَ في حلِّ المشكلةِ، ولكن يؤسفني القولُ إنَّ آندرو ضربَ بهذهِ القاعدةِ الحكيمةِ عرضَ الحائطِ، وتصرَّفَ بانفعالٍ في الممرّاتِ المسقوفةِ فأزعجَ الجميعَ عندما تحدَّثَ بانفعالٍ، وإن غضضنا الطرفَ عن هذا السلوكِ سنكون بذلكَ قد ظلمنا الرهبان الشبان ممن تلقوا عقاباً على فعلتِهم».

«يا لها من حركةٍ قاسيةٍ وذكيةٍ»، فكرَ فيليب بسعادةٍ. لم تُناقش مسألةُ امتلاكِ فيليب الحقَّ بإخراجِ وليم من جوقةِ المرتلين خلالَ المراسم، وها هي كلُّ محاولةٍ لطرحِها تُقمعُ بتوجيهِ تُهمٍ إلى المتهمين، ولكن هذا ما يجبُ أن يحدثُ، لأنَّ شكوى آندرو من فيليب غير صادقةٍ. وها هما كوثبرت وميليوس يقوضان سلطةَ ريميجوس الآن من خلالِ تقويضِ حليفيه، آندرو وبيير.

امتُقعَ وجهُ آندرو المتورد، وأصبحَ قانياً من شدةِ الغضب ثمَّ نظرَ في ذعرٍ إلى ريميجوس. شعرَ فيليب بالسرورِ لأنَّهم استحقوا ما يحدثُ لهم، ولكن ما أقلقه الآن هو أن يتم التمادي بهذا الإذلال ولذلكَ قال: «من غير اللائقِ أن يناقشَ الأخوةُ الصغار عقوبةَ من يكبرهم عمراً، فلنترك إلى نائبِ رئيسِ الديرِ التعاملَ مع المسألةِ بشكلٍ شخصي». نظرَ فيليب من حوله، ورأى على وجوهِ الرهبان الرضا عن شهامتِهِ، فأدركَ أنَّه، ومن دونِ أدنى نيةٍ، قد أحرزَ انتصاراً آخر.

بدا أنَّ الأمرَ منتهٍ فقد صبَّ الاجتماع في مصلحة فيليب، وكان واثقاً من أنَّه ربحَ معظمَ أصواتِ الرماديين، وهنا قال ريميجوس: «هناك مسألةٌ أخرى أرغبُ بطرحها».

أمعنَ فيليب النظرَ إلى وجهِ رئيسِ الدير، ولاحظَ اليأسَ على وجههِ، ثمَ حدَّقَ إلى الكشماس آندرو ومسؤولِ الانضباطِ بيير، ورأى الدهشة على وجهيهما، فعرفَ أنَّ أمراً لم يخطط له سيحدث، هل سيلتمسُ ريميجوس للرهبان؟ قد يفعلُ هذا.

«يعلمُ معظمكم أنَّ الأسقف يملكُ الحقَّ في تسميةِ المرشحين للانتخاباتِ»، بدأ ريميجوس كلامَهُ ثمَّ تابع: «ويمكنُه أيضاً رفضُ المصادقةِ على خيارنا. يمكن لانقسامِ القوى أن يقودَ إلى نشوبِ خلافٍ بين الأسقفِ والديرِ، وهذا أمر قد يتذكره بعضُ الرهبان الأكبر عمراً. في نهايةِ المطافِ لا يمكن للأسقفِ أن يجبرنا على القبولِ بمرشحِهِ، ولا يمكننا أيضاً الإصرار على مرشحنا. وإن كان هناك خلاف فيجب أن يحلَّ بالمفاوضات، وفي هذهِ الحالةِ فإنَّ النتيجة تعتمدُ كثيراً على إصرارِ الأخوةِ ووحدتهم، وأشددُ هنا على وحدةِ صفِّ الرهبانِ».

انتابَ فيليب شعورٌ سيئ عندما سمعَ هذا الكلام. لقد قمعَ ريميجوس غضبهُ، واستعادَ مجدداً هدوءَهُ وتعجرفَه، وكان فيليب حتَّى الآن عاجزاً عن توقعِ ما سيحدث، وشعور الظفرِ الذي خامره قبلَ قليلٍ تبخر.

«ما دفعني إلى التطرقِ إلى هذا الموضوع اليوم، هو أنني علمتُ بأمرين»، تابع ريميجوس: «الأول هو وجود أكثر من مرشحٍ بيننا في هذهِ الغرفةِ». وفكرَ فيليب في نفسهِ أنَّ الأمرَ لم يكن مفاجئاً لأحدٍ البتة: «أمَّا الثاني فهو أنَّ الأسقف سيُسمي مرشحاً أيضاً».

حلَّ صمتٌ يحملُ الكثير من المعاني، فقد كان هذا خبراً سيئاً لكلا الطرفين، وقال أحدهم: «هل تعلمُ من هو مرشحُ الأسقفِ؟»

«أجل»، قال ريميجوس وفي تلكَ اللحظةِ أيقنَ فيليب أنَّ الرجل يكذبُ: « لقد وقعَ اختيارُ الأسقفِ على الأخِ أوزبرت من نيوبري».

وهنا شهقَ راهبٌ أو راهبان من بينِ الحضورِ. أصيبَ الجميع بالذعرِ فهم يعرفون أوزبرت عندما شغلَ منصبَ مسؤولِ الانضباطِ في كينغزبريدج لبعضِ الوقتِ. كان الرجلُ الابن غير الشرعي للأسقف، وهو يستغل الكنيسةَ لقضاءِ الحياةِ في عطالةٍ ودعةٍ، ولم يقم بمحاولاتٍ جادةٍ للالتزامِ بنذورهِ، إلا أنَّه حافظَ على ظاهر الطهارةِ. يعلمُ الجميعُ أنَّه استغلَ وضعَهُ كابن غير

شرعي للأسقفِ كيلا يقع في المتاعبِ. كانت فكرة أن يصبحَ أوزبرت رئيسَ الديرِ مروعةً حتَّى لحلفاءِ ريميجوس، ولم يكن هناك سوى مسؤول نُزل الضيوف وآخرين من أعوانهِ الفاسدين يفضلون أوزبرت على أملِ العيشِ في ظلِّ نظامٍ يفتقرُ إلى الانضباطِ، ومنغمس في الموبقاتِ.

تابعَ ريميجوس كلامَهُ قائلاً: «إن كان لدينا مرَّشحان أيّها الأخوة، فإنَّ الأسقف سيقول إننا منقسمون، ولا يمكننا أن نحسمَ قرارنا بخصوصِ أحدٍ، وآنذاك سيقرر عنا، وسنُجبر على القبول بخيارهِ، ولذلك إن رغبنا بإبعادِ أوزبرت يتوجب علينا اختيار مرشحٍ واحدٍ فقط، وأريدُ الإشارةَ هنا إلى أنَّه علينا الحرص على ألا يكون هناك ما يعيبُ مرشحنا كأن يكون صغيراً في العمر، أو غِرّاً».

سرَت همهمةٌ بالموافقةِ بين الحاضرين، وأُصيبَ فيليب بالاحباطِ التام، فمنذُ برهةٍ كان واثقاً من النصرِ، ولكن ها هو النصرُ يُنتزع من بين يديهِ الآنَ. أصبحَ جميعُ الرهبان الآن في صفِّ ريميجوس بصفتهِ المرشّح الأكثر أماناً، المرشح الذي يمثلُ وحدتهم، والرجل الذي سيهزمُ أوزبرت. كان فيليب واثقاً من أنَّ ريميجوس يكذب بأمرِ أوزبرت، ولكن هذا لن يُشكل فرقاً؛ فالرهبان الآن خائفون، وسيدعمون ريميجوس، وهذا يعني استمرار تداعي ديرِ كينغزبريدج.

وقبلَ أن تتسنى الفرصةُ لأيِّ أحدٍ كي يُبدي تعليقاً قال ريميجوس: «دعونا ننهي الاجتماع الآن، ولنفكر ونصلي كي نتجاوز هذهِ المشكلة ونحنُ نتابع عملَ الرَّبِّ لليومِ»، ثمَّ وقفَ وغادرَ، لحقَ بهِ آندرو وبيير وجون سمول وسيماءُ الظفرِ على وجوههم.

حالما غادرَ ريميجوس وأعوانهُ علت همهمةُ الأحاديثِ بين بقيةِ الرهبانِ، وقال ميليوس لفيليب: «لم يخطر لي قط أن يلجأ ريميجوس إلى هذه الحيلةِ».

«إنَّه يكذبُ»، قال فيليب بمرارةٍ. «أنا واثقٌ من هذا».

انضمَّ كوثبرت إليهما وعندما سمعَ ما قاله فيليب قال: «لا يهمُّ حقاً إن كان يكذب أم لا. إن مجرَّد التلويحِ بهِ كافٍ».

«ستظهرُ الحقيقةُ في نهايةِ المطاف»، قال فيليب.

«ليسَ بالضرورةِ»، أجاب ميليوس وتابع: «فلنفرض أنَّ الأسقف لم يرشحِ أوزبرت سيقولُ ريميجوس إنَّ الأسقف تراجع بعدَ أن عرفَ أن الديرَ وحدَ صفهُ لمصلحة ريميجوس».

«لست مُستعداً للاستسلامِ بعد»، قال فيليب بعنادٍ.

قال ميليوس: «ولكن ما الذي يسعنا القيام به؟»

«يجب أن نكتشفَ الحقيقةَ»، قال فيليب.

«لا يمكننا»، قال ميليوس.

أعملَ فيليب ذهنهُ مُفكراً ووجدَ اليأسَ مُضنياً، ثمَّ قال أخيراً: «لمَ لا نسأل عن الأمرِ بكلِّ بساطةٍ؟»

«نسأل؟ ما الذي تعنيه؟»

«نسأل الأسقفَ عن نواياه».

«كيف؟»

«يمكننا أن نرسلَ رسالةً إلى قصرِ الأسقفِ. ألا يمكننا فعلُ هذا؟» قال فيليب وهو يفكرُ بصوتٍ عالٍ ثمَّ نظرَ إلى كوثبرت.

كان كوثبرت غارقاً في التفكيرِ ولكنه أجاب: «أجل، فأنا أرسلُ الرسائلَ على الدوامِ، ويمكنني أن أرسلَ رسالةً إلى القصرِ».

قال ميليوس مُشككاً: «وستسأل فيها الأسقفَ عن نواياه؟»

اكفهرَّ وجهُ فيليب فهنا تكمنُ المشكلةُ.

اتفقَ كوثبرت مع ميليوس قائلاً: «لن يخبرنا الأسقفُ بنواياه».

وفجأة أشرقَ وجهُ فيليب وانفرجت أساريرَهُ وهزّ رأسه من شدةِ الحماسةِ عندما أدركَ أنَّه عثرَ على الحلِّ. «لا»، قال فيليب وتابع: «لن يخبرنا الأسقف، ولكن رئيس شمامستهِ سيخبرنا».

***

في تلكَ الليلةِ حلمَ فيليب بالطفلِ جوناثان الذي وجدوه في الغابةِ. في منامه، رأى الطفلَ في رواقِ كنيسةِ سانت جون إن ذا فوريست بينما هو في الداخلِ يقرأ خلالَ مراسمِ صلاةِ الصبحِ، ثمَّ رأى ذئباً يتسللُ من الغابةِ، ويعبرُ الحقلَ بمُكرِ أفعى باتجاهِ الطفل. شعرَ فيليب بالخوفِ من التحركِ في مكانه مخافةَ التشويشِ على المراسمِ، والتعرضِ للتوبيخِ من قبلِ ريميجوس وآندرو

الموجودين أيضاً في الكنيسةِ، رغمَ أنهما لم يزورا الصومعةَ قط، وهنا قررَ أن يصرخَ ولكن ورغمَ كل محاولاتهِ للصراخِ فإنَّ صوته لم يخرج كما يحدثُ في الأحلامِ عادةً. وأخيراً نجحَ في إيقاظِ نفسهِ من الحلمِ، وبقي مستلقياً في الظلامِ يرتجفُ، وهو يصغي إلى تنفسِ الرهبان النائمين من حوله، وببطءٍ أقنعَ نفسهُ أنَّ الذئب غير حقيقي.

لم يفكر فيليب بأمرِ الطفلِ منذُ وصولهِ إلى كينغزبريدج، وتساءل في نفسهِ عمَّا سيفعله بالطفلِ إن أصبحَ رئيسَ الديرِ؛ لأنَّ كل شيءٍ وقتئذٍ سيكون مختلفاً. رغمَ أنَّ وجود طفلٍ في ديرٍ صغيرٍ وسطَ الغابةِ ليس بالأمرِ الجللِ فإنَّه يبقى أمراً غريباً، ولذلك سيحدثُ وجودهُ هنا، في ديرِ كينغزبريدج، جلبةً، ولكن من جهةٍ أخرى ما الخطبُ في الأمرِ؟ إنَّ منحَ الناسِ موضوعاً للتكلمِ بهِ ليسَ بالخطيئةِ، وبما أنَّه سيكون رئيسَ الدير يستطيع فعلَ ما شاء. يمكنه أن يُحضرَ جوني إيتبنس إلى الديرِ للاعتناءِ بالطفلِ، وسُرَّ فيليب بهذهِ الفكرةِ أيما سرور، ثمَّ فكرَ أنَّ هذا ما سيفعله إن أصبحَ رئيسَ ديرِ كينغزبريدج.

بقي صاحياً حتَّى الفجر، وقد أُصيبَ بالأرقِ من نفاد صبره. لم يكن هناك ما يسعهُ القيام بهِ الآن سوى الدفاع عن قضيتهِ؛ فالحديثُ مع الرهبانِ الآن لم يكن مُجدياً، لأنَّهم مشغولون بالتفكيرِ في تهديدِ أوزبورت، بل وتحدَّثَ البعضُ منهم إلى فيليب قائلين له إنَّهم آسفون لخسارته كأن الانتخابات قد أُجريت والنتيجة حُسمت. قاومَ فيليب إغراءَ القولِ لهم إنَّهم جبناءِ خائنون، ولكنه ابتسم لهم، وأخبرهم أنّ الأمر لم ينته بعد، وأنَّهم قد يتفاجأون. على الرغمِ من الثقةِ الكبيرةِ التي تحدث بها فإنه لم يشعر بها حقاً. قد لا يكون رئيسُ الشمامسةِ ويلارن في قصرِ الأسقفِ، أو قد يكون في القصرِ ولكنه يقررُ، لسببٍ من الأسبابِ، ألا يخبرَ فيليب بخططِ الأسقفِ، أو من المرجحِ جداً، وبالنظرِ إلى شخصيةِ رئيسِ الشمامسةِ، أن يكون لديه مخططٌ خاصٌ بهِ.

عندَ الفجرِ نهضَ فيليب مع بقيةِ الرهبانِ، وتوجه إلى الكنيسةِ لحضورِ صلاةِ الصبحِ التي كانت أولى صلوات اليوم. بعد ذلكَ توجه إلى قاعةِ الطعامِ من أجلِ تناولِ الإفطارِ مع الآخرين، ولكن ميليوس اعترضَ سبيله، وأومأَ له بحركةٍ عابرةٍ ليلحقَ بهِ إلى المطبخ فلحقَ به فيليب في توترٍ. يبدو

أنَّ الرسولَ قد عادَ. كان هذا سريعاً، لا بد أنَّه حصلَ على الجوابِ فوراً، وعادَ ظُهرَ البارحةِ، ولكن هذا غيرُ ممكن لأنَّ فيليب يعلمُ أنَّ الديرَ لا يملكُ جواداً قادراً على القيام برحلةٍ سريعةٍ إلى هذهِ الدرجةِ، ولكن ما الجواب الذي أتى بهِ الرسول؟

في المطبخِ لم يجد فيليب ما توقعه، وبدلاً من الرسول وجد رئيسَ الشمامسة نفسه، ويلارن بيغاد.

حدَّقَ فيليب إلى ويلارن في دهشةٍ. كان رئيسُ الشمامسةِ بجسدهِ النحيلِ وثيابهِ السوداءِ جالساً على الكرسي كغرابٍ على جذعِ شجرةٍ، وطرفُ أنفِهِ قد احمرَّ من البردِ، وقد لفَّ يديهِ البيضاوين النحيلتين حولَ كوبٍ منِ النبيذِ الساخن والمُنكه بالتوابلِ لتدفئة نفسه.

«من الجيدِ أنَّك أتيتَ!» اندفعَ فيليب قائلاً.

«سررتُ لأنَّك كتبتَ إلي»، قال ويلارن ببرودٍ.

«هل الأمرُ صحيح؟» سألَ فيليب بنفاد صبرٍ. «هل سيُرشح الأسقفُ أوزبرت؟»

رفعَ ويلارن يداً لمنعهِ من الاستمرارِ في الكلامِ وقال: «سأتطرقُ إلى هذا لاحقاً، كوثبرت هنا ليُطلعني عمَّا جرى البارحة».

أخفى فيليب خيبةَ أملِهِ؛ فلم يجد في ما قاله ويلارن جواباً مباشراً على سؤالِهِ، وأمعنَ النظرَ إلى وجهِ ويلارن في محاولةٍ لقراءةِ ما يجولُ في ذهنِهِ. يبدو أن ويلارن يملكُ حقاً مخططاً خاصاً بهِ، ولكن فيليب لن يتمكن من التكهن بهِ.

كان كوثبرت الذي لم يلحظه فيليب عندَ دخولهِ جالساً قربَ النارِ يغمّسُ قطعةً من الخبزِ القاسي في الجعةِ كي يَسهلَ عليه مضغها بأسنانهِ العجوز، ويروي على ويلارن ما حدثَ البارحة في غرفة الاجتماع. تململَ فيليب في قلقٍ، وهو يحاول التكهنَ بما يخططُ له ويلارن، وحاولَ أن يتناولَ قضمةً من الخبزِ، ولكنه لم يتمكن من بلعها من شدةِ توترهِ؛ فتجرَّعَ بعضَ الجعةِ المخففةِ كي يشغلَ نفسه بشيءٍ ما.

«وبذلكَ»، ختمَ كوثبرت، «يبدو أن فرصتنا الوحيدة هي أن نتأكد من نوايا الأسقفِ، ولحسنِ الحظِ شعرَ فيليب أنَّه يستطيعُ الاعتماد على معرفتهِ بكَ للتحققِ من الأمرِ، ولذلك أرسلنا لكَ الرسالةَ».

وهنا قال فيليب في نفاد صبرٍ: «والآن هل ستخبرنا بما نريد معرفته؟»

«أجل، سأخبركم»، قالَ ويلارن، ووضعَ كأسَ النبيذِ من يدهِ دونَ أن يشربَ منها.

«يرغبُ الأسقفُ أن يكون ابنه رئيسَ ديرِ كينغزبريدج».

وغاصَ قلبُ فيليب في صدرهِ، «إذاً، لم يكذب ريميجوس في هذا الشأنِ».

وتابع ويلارن كلامه قائلاً: «ولكن الأسقفَ غير مستعدٍ لخلقِ نزاعٍ مع الرهبانِ».

اكفهرَّ وجه فيليب فقد كان هذا ما أشارَ إليهِ ريميجوس البارحةَ، ولكنه شعرَ أنَّ شيئاً ما غير صائبٍ تماماً، وهنا قال لويلارن: «هل قطعتَ كل هذهِ المسافة لتخبرنا بهذا؟»

رمقَ ويلارن فيليب بنظرةِ احترام، وعلمَ فيليب أنَّ تخمينه صحيحٌ. «لا»، أجابَ ويلارن. «لقد طلبَ مني الأسقف استطلاع أجواءِ الديرِ، ومنحني سلطةَ تسمية مرشحٍ بالنيابةِ عنه. في الحقيقةِ، أنا أحملُ ختمَ الأسقفِ، وهذا يعني أنني أستطيع كتابةَ رسالةِ الترشيح، وأجعل الأمرَ رسمياً ومُلزماً. إذاً وكما ترى، أنا أملكُ كاملَ سلطتهِ في الأمرِ».

أخذَ فيليب بضعَ لحظاتٍ لاستيعابِ ما سمعه. كانَ ويلارن مخولاً بتسميةِ مرشحٍ، وختمِ الترشيح بختمِ الأسقفِ، وهذا يعني أنَّ الأسقفَ وضعَ الأمرَ برمتهِ بينَ يدي ويلارن، وها هو الآن هنا يتحدث كمفوضٍ عن الأسقفِ.

أخذَ فيليب نفساً عميقاً وقال: «هل توافق على ما أخبركَ بهِ كوثبرت للتو؟ أنَّ ترشيح أوزبرت سيخلق النزاع الذي يحاول الأسقف تجنبه؟»

«أجل، وأنا أعي هذا»، قال ويلارن.

«إذاً، لن تُرشح اسمَ أوزبرت».

«لا».

وشعرَ فيليب بالتوترِ يخنقهُ. سيكون الرهبان مسرورين جداً بالتخلصِ من تهديدِ أوزبرت، وهذا يعني أنَّهم وبامتنانٍ شديدٍ سيصوتون لمرشحِ ويلارن.

كان ويلارن الآن يملكُ سلطةَ اختيارِ رئيسِ الديرِ الجديدِ.

قال فيليب: «إذاً، من هو الذي ستقوم بتسميته؟»

قال ويلارن: «أنتَ... أو ريميجوس».

«إنَّ قدرةَ ريميجوس على إدارةِ الدير...»

«أنا على علمٍ بقدراتِهِ وقدراتكَ»، قاطعه ويلارن بحركةٍ من يده البيضاءِ. «أعلمُ من سيكون الرئيس الأفضل»، وتوقفَ لبرهةٍ ثمَّ أضاف: «ولكن هناكَ مسألة أخرى».

«ما الأمرُ الآن؟» تساءلَ فيليب في نفسِهِ: «ما الأمرُ الآخرُ الذي يجبُ أن يؤخذَ بعينِ الاعتبارِ غيرَ قضيةِ من سيكون الرئيس الأفضل؟» ونظرَ فيليب إلى البقيةِ فرأى الحيرة على وجه ميليوس أيضاً، ولكنه لاحظَ شبحَ ابتسامة على وجهِ كوثبرت العجوز كأنَّه علمَ ما هو قادم.

قال ويلارن: «أنا أشبهك، ويُهمني أن تذهبَ المناصبُ المهمةُ في الكنيسةِ إلى رجالٍ أقوياء وحيويين بغضِّ النظرِ عن أعمارهم، بدلاً من ذهابها كجوائز على الخدمةِ الطويلةِ إلى عجائز هالتهم القدسية أكبر من قدراتِهم الإداريةِ».

«بالطبع»، قال فيليب بنفاد صبرٍ دونَ أن يرى لما قاله ويلارن أيَّة صلةٍ بالموضوعِ.

«يجب أن نعملَ معاً لنحققَ هذا الهدف، أنتم الثلاثة وأنا».

قال ميليوس: «لا أفهم ما الذي ترمي إليهِ».

«أنا أفهم»، قال كوثبرت.

ابتسم ويلارن لكوثبرت بسرعةٍ، وعادَ بنظرهِ إلى فيليب ثمَّ قال: «اسمح لي بالتوضيح. إنَّ الأسقفَ رجلٌ عجوزٌ أيضاً، وفي يومٍ من الأيامِ سيموت، وعندها سنحتاج إلى أسقفٍ جديدٍ، كما نحن اليوم بحاجةٍ إلى رئيسِ ديرٍ جديدٍ. يملكُ رهبان كينغزبريدج الحقَ باختيارِ الأسقفِ الجديدِ لأنَّ أسقفَ كينغزبريدج هو رئيسُ ديرها أيضاً».

اكفهرَّ وجه فيليب فكلٌّ هذا لا علاقة له بالموضوع ألا وهو اختيار رئيس دير وليسَ أسقفاً.

وتابعَ ويلارن كلامه قائلاً: «بالطبعِ لن يكون الرهبان أحراراً تماماً في اختيارِ من شاؤوا؛ لأنَّ رئيسَ الأساقفةِ والملكَ سيكون لهما رأي في هذهِ المسألةِ أيضاً، ولكن الرهبان في نهايةِ الأمرِ هم من يجعلون الأمرَ شرعياً،

وعندما يأتي ذلكَ الوقت سيكون لكم أنتم الثلاثة تأثير قوي على قرارِ الرهبانِ».

كان كوثبرت يهزُّ برأسِهِ كأنَّه تأكدَ الآن من ظنونهِ، وهنا بدأ فيليب يفهم ما يحدثُ.

أنهى ويلارن كلامه قائلاً: «أنتَ تريدني أن أجعلكَ رئيسَ دير كينغزبريدج، وأنا أريدكَ أن تجعلني الأسقفَ».

إذاً، هذا هو الأمر.

حدَّقَ فيليب في صمتٍ إلى ويلارن فقد اتضح له كل شيءٍ الآن.

أتى رئيسُ الشمامسةِ لعقدِ صفقةٍ.

كان فيليب مصدوماً، ورغمَ أنَّ الأمرَ لا يشبه شراءَ منصبٍ كهنوتي، وهو الذي يعدُّ خطيئةً، فإنّ فيليب شعرَ أنَّ الأمرَ تفوح منه رائحةُ تجارةٍ ما.

حاولَ فيليب أن يفكرَ بحياديةٍ في هذا العرضِ. سيصبحُ فيليب رئيسَ الديرِ، وعندما عبرت هذه الفكرة خاطره شعرَ بضرباتِ قلبهِ تتسارعُ من الحماسةِ، ولكنه كان متردداً حيال اللجوءِ إلى التحايلِ للوصولِ إلى هذا المنصبِ.

هذا يعني أيضاً أنَّ ويلارن سيصبحُ الأسقفَ في مرحلةٍ ما، هل سيكون أسقفاً جيداً؟ سيكون كفوءاً حتماً فهو لا يبدو كأنه يعاني من أيِّ رذائل خطيرةٍ. كانت طريقته في خدمةِ الرَّبِّ عمليَّةً، ولكن فيليب كان كذلك أيضاً. شعرَ فيليب أنَّ ويلارن يمتلكُ ما يفتقر إليهِ هو نفسهُ ألا وهو الاستعداد للتصرفِ بعدمِ رحمةٍ، ولكن فيليب أدركَ أنَّ مردَّ هذهِ السمةِ إرادةٌ حقيقية لحمايةِ ورعايةِ مصالحِ الكنيسةِ.

من قد سيكون المرشح الآخر عندما يتوفى الأسقف؟ قد يكون أوزبرت. لم يكن غريباً البتة أن يُمرر المنصب الكهنوتي من الأبِ إلى الابن رغمَ وجودِ شرطِ التبتلِ على رجالِ الدينِ. بالطبعِ سيكون أوزبرت مسؤولاً بشكلٍ أكبر عن الكنيسةِ بصفتهِ أسقفاً أكثر مما هو رئيس ديرٍ، وعندها قد يكون دعمُ مرشحٍ أسوأ من ويلارن أفضلَ من دعمِ أوزبرت.

هل سيترشح آخرون للمنصبِ؟ من المستحيل التكهن بالأمرِ فقد تمرُّ سنواتٌ طويلةٌ قبلَ أن يموتَ الأسقفُ.

قال كوثبرت لويلارن: «لا يمكننا أن نضمنَ انتخابكَ».

«أعلم»، قال ويلارن، وتابع: «ولذلك جلَّ ما أطلبه هو ترشيحكَ، وهو الأمرُ الذي أعرضهُ عليكَ بالمقابل. أنا أرشحكَ وأنتَ ترشحني».

أومأ كوثبرت برأسهِ وقال بوقارٍ: «أنا أوافق على هذا».

«وأنا كذلك»، قال ميليوس.

نظرَ رئيسُ الشمامسةِ والراهبان إلى فيليب الذي بدا متردداً وممزقاً. يعلمُ فيليب أنَّ هذهِ الطريقة في اختيارِ أسقفٍ لم تكن صائبةً، ولكن الديرَ بأكمله كان في قبضتهِ، ولم تكن مقايضة منصبٍ كهنوتي بآخر كأنَّها تجارةُ أحصنةٍ عملاً أخلاقياً، ولكنه إن رفضَ سيصبحُ ريميجوس رئيسَ الديرِ وأوزبرت الأسقف!

على أيِّ حالٍ يبدو أن المحاججات العقلانية الآن قد أضحت محاججاتٍ أكاديميةً، وباتت لديه رغبة لا تقاوم في أن يصبح رئيسَ ديرٍ. بغضِ النظرِ عن مثالبِ ومناقبِ الأمرِ لم يكن بوسعهِ الرفضُ، وهنا تذكرَ صلاةَ البارحةِ التي تضرعَ فيها إلى الرَّب أن يخبره إن كان يريده أن يقاتل من أجلِ المنصبِ، أم لا. رفعَ فيليب ناظريهِ نحو السماء وتضرَّعَ مجدداً: «إن لم تكن ترغب بحدوثِ ما سيحدث، فلتُمسك لساني وفمي، واحبس النفسَ في حلقي، وامنعني من الكلام».

ثمَّ نظرَ إلى ويلارن وقال: «أقبل».

***

كان سريرُ رئيس الديرِ ضخماً، وأكبر بثلاث مراتٍ من أيِّ سريرٍ نامَ عليهِ فيليب قبلاً. يبلغُ ارتفاعُ القاعدةِ الخشبيةِ نصفَ قامةِ رجلٍ، وفوقه فراشٌ محشو بالريشِ، وتحيطه ستائر لردّ التيارات الهوائيةِ، وعلى قماشِ الستائرِ مشاهد من الإنجيلِ مطرزة بيدي امرأةٍ ورعةٍ. تفحَّصَ فيليب السريرَ في ريبةٍ، وبدا له أنَّ حصولَ رئيسِ الدير على غرفةِ نومٍ لنفسهِ ترفٌ كبيرٌ. لم يحظَ فيليب يوماً بغرفةِ نومٍ، وستكون هذهِ الليلة الليلةَ الأولى التي ينام فيها وحدَه. كان السريرُ كبيراً جدّاً، ولهذا فكرَ بطلبِ فراشٍ من القشِّ من غرفةِ النومِ الجماعيةِ، ونقلِ السريرِ إلى المستشفى حيثُ يمكن لراهبٍ مريضٍ أن يريح عظامَهُ العجوز عليهِ، ولكن السرير لم يكن لفيليب وحده، فعندما يزور الدير ضيفٌ بارزٌ كالأسقفِ، أو لوردٌ عظيمٌ، أو حتَّى الملك، عندها سيأخذُ هذا

الضيف غرفةَ رئيسِ الديرِ الذي سيذهبُ للنومِ في مكانٍ آخر، ولهذا السببِ لا يستطيع فيليب التخلصَ من السريرِ.

«ستنام قريرَ العين الليلةَ»، قال ويلارن بيغاد بشيءٍ من الحسدِ.

«أفترضُ كذلكَ»، قال فيليب بريبةٍ.

حدثَ كلُّ شيءٍ بسرعةٍ. كتبَ ويلارن رسالةً إلى الديرِ، في مطبخِ الديرِ، يأمرُ فيها الرهبان بإقامةِ الانتخابات على الفورِ، وأنَّه يُرشحُ فيليب. كان ويلارن قد وقعَ الرسالةَ باسمِ الأسقفِ، وختمها بختمهِ، ثمَّ انطلق الأربعة إلى قاعةِ الاجتماعاتِ.

حالما رآهم ريميجوس يدخلون القاعةَ علمَ أنَّ المعركةَ انتهت. قرأ ويلارن الرسالةَ، وهللَ الرهبان عندما نطقَ ويلارن باسم فيليب. تعاملَ ريميجوس مع هذا التصويت بحكمةٍ، فقد قبلَ بهِ رسمياً، وأعلنَ هزيمتَهُ.

وأصبحَ فيليب رئيسَ الديرِ.

تابعَ فيليب بقيةَ الاجتماعِ كالدائخِ، ثمَّ عبرَ حديقةَ الديرِ إلى منزلهِ الجديد الذي يقعُ في الزاويةِ الجنوبيةِ الشرقيةِ من ساحةِ الديرِ واستقر فيه.

عندما رأى السرير أدركَ أنَّ حياتهُ تغيرت تغيراً لا رجعةَ فيهِ. كان مختلفاً ومميزاً عن بقيةِ الرهبانِ؛ فقد امتلكَ القوةَ والامتيازَ، وكان وحده صاحبَ المسؤوليةِ عن سلامةِ وازدهارِ هذا المجتمعِ الصغيرِ المؤلفِ من أربعة وأربعين رجلاً. فإن جاعوا ستكون هذهِ غلطته، وإن أصابهم الفقر فسيقع اللوم عليهِ، وإن أساؤوا إلى كنيسةِ الرَّبّ سيُسألُ فيليب عن ذلكَ أمامَ الرَّبِّ، وقال لنفسهِ إنَّه من سعى وراءَ هذا العبءِ، ولذلك عليهِ الآن أن يتحمله.

كان واجبُهُ الأول كرئيسٍ للديرِ هو قيادة الرهبانِ إلى الكنيسةِ من أجلِ القداسِ. سيحضر سكانُ القريةِ المراسم، وسيأتي أناسٌ من مناطق مجاورةٍ. يُمكن لكاتدرائيةٍ جيدةٍ بمجموعةٍ قويةٍ من الرهبانِ، وسمعةٍ طيبةٍ إقامة مراسم مميزةٍ تجذب آلاف الناس، وربما أكثر، فحتَّى كينغزبريدج الموحشة يمكن أن تجذبَ السادةَ المحليين لأنَّ القداس يعد مناسبةً اجتماعيةً أيضاً حيث يمكن لأولئكَ السادةِ أن يلتقوا بجيرانهم ويناقشوا أعمالَهم.

ولكن قبلَ القداس كان لدى فيليب أمرٌ آخر أرادَ مناقشتَهُ مع ويلارن، وها هما وحدهما أخيراً.

«تلك المعلومات التي قدمتها لكَ»، بدأ فيليب ثمَّ أضاف: «حولَ إيرل شايرنغ...»

أومأ ويلارن برأسِهِ وقال: «لم أنسَ. في الحقيقةِ قد تكون تلكَ المسألةُ أهمُّ بكثيرٍ من مسألةِ من سيكون رئيسَ ديرٍ أو أسقفٍ. وصلَ الإيرل بارثيميلو إلى إنكلترا، ويتوقعون وصولَهُ إلى شايرنغ غداً».

«وما الذي ستفعله؟» سأل فيليب بقلقٍ.

«سأحاولُ استغلالَ اللورد بيرسي هاملي. في الحقيقة آملُ أن أراهُ في مراسمِ قداسِ اليوم».

«لقد سمعتُ عنه، ولكني لم أره قط»، قال فيليب.

«ستعرفهُ عندما ترى لورداً سميناً برفقةِ زوجةٍ قبيحةٍ وابن وسيم. لا يمكنكَ أن تخطئ زوجته فهي قبيحةٌ جداً».

«وما الذي يجعلك تعتقد أنَّه سيأخذ صفَ الملكِ ستيفن ضدَّ الإيرل بارثيميلو؟»

«إنَّه يكره الإيرل كرهاً شديداً».

«لماذا؟»

«خطبَ الابن وليم ابنةَ الإيرلِ، ولكنها تركته، وأُلغي الزفاف، وتسببَ هذا بإحراجٍ لعائلةِ هاملي، وهم ما زالوا غاضبين مما حدث، ولذلك سينتهزون أيَّةَ فُرصةٍ للانتقامِ من بارثيميلو».

أومأ فيليب برأسِهِ برضا، وشعرَ بالسعادةِ لأنَّه تخلصَ من تلكَ المسؤولية فقد كانت مشاكلُ كاتدرائيةِ كينغزبريدج تكفيهِ، ويمكن لويلارن أن يهتم بمسائلِ العالمِ خارجها.

غادرا منزلَ رئيسِ الديرِ عائدين عبرَ الممرّاتِ المسقوفةِ، ووجدا الرهبان ينتظرون. أخذَ فيليب مكانَهُ في أولِ الرتل، وسارَ بهم.

كان سعيداً عندما دخلَ الكنيسةَ والرهبان خلفَه يغنون، وأحبَّ هذهِ اللحظة أكثر مما توقع. قالَ لنفسهِ إنَّ مكانتهُ العليا الجديدة هي السلطةُ التي سيحقق بها الخيرَ الآن، ولهذا كان سعيداً سعادةً جمَّةً، وتمنى لو أنَّ رئيسَ ديرِ غويند هنا ليراه. سيكون الرجلُ العجوزُ فخوراً جداً بِهِ.

قادَ فيليب الرهبانَ إلى أماكنِهم في الجوقةِ. غالباً ما يؤدي الأسقفُ

المراسمَ الكبيرةَ، ولكن اليوم سيؤديها مبعوثُ الأسقفِ رئيسُ الشمامسةِ ويلارن، وحالما بدأ ويلارن بالمراسمِ عاينَ فيليب الرعيةَ بحثاً عن عائلةِ هاملي وفقَ المواصفاتِ التي قدمها له ويلارن. كان هناك ما يقاربُ المئةَ والخمسين شخصاً في صحنِ الكنيسةِ: الأثرياء في عباءاتِهم الشتويةِ الثقيلةِ وأحذيتهم الجلديةِ، والفلاحون في معاطِفِهم الخشنةِ وأحذيتهم اللبادية أو قباقيبهم الخشبيةِ. لم يجد فيليب صعوبةً في إيجاد عائلةِ هاملي، فقد كانوا في الصفِ الأمامي قربَ المذبحِ. رأى المرأة أولاً، وعلى الرغمِ من أنَّها ارتدت قلنسوةً فإنَّ وجهها كانَ ظاهراً، ولاحظَ فيليب أن جلدَها مغطى بالثآليل المُقززةِ، وأنَّها تتحسسها بعصبيةٍ طوال الوقتِ،وبجانبِ المرأةِ وقفَ رجلٌ سمينٌ في عقدهِ الرابعِ تقريباً، لا بد أنَّه بيرسي، ومن ثيابه بدا كرجلٍ ذي ثروةٍ وسلطةٍ معتبرتين، ولكنها لا تشي أنَّه بارون أو إيرل. اتكأ الابنُ إلى أحدِ الأعمدةِ الضخمةِ في صحنِ الكنيسة، وكان شاباً وسيماً بشعرٍ أشقر خفيفٍ ونظراتٍ متغطرسةٍ. كان الزواجُ من عائلةِ الإيرلِ سيُمكن عائلةَ هاملي من قطع ذلكَ الحدِ الفاصل بين مكانتهم كسادةٍ والارتقاءِ إلى مستوى نبلاءِ المملكةِ، ولذلك لا عجب أنَّهم غاضبون من إلغاءِ هذاالزواج.

عادَ فيليب باهتمامِهِ إلى المراسمِ، ووجدَ أن ويلارن يتقدمُ بها بسرعةٍ لم يُحبذها، وتساءلَ مجدداً إن كان على حقٍ في موافقتِهِ على تسميةِ ويلارن أسقفاً عندما يتوفى الأسقفُ الحالي. كان ويلارن رجلاً مُلتزماً، ولكنه يبدو كأنَّه لا يهتم كثيراً بقيمةِ العبادةِ، وبالنسبةِ إليهِ كان ازدهارُ وقوةُ الكنيسةِ مجرَّد وسيلةٍ لتحقيقِ غاياتِهِ، بينما الغرضُ الأساسي منها تحققُ خلاصِ الأرواحِ. وقررَ فيليب أنَّه لا يجب أن يقلقَ كثيراً بخصوصِ ويلارن؛ فالأمر قد قضي الآن، وعلى الأرجحِ سيُحبطُ الأسقفُ مخططاتِ ويلارن، ويعيش طويلاً.

عمَّت الضجةُ بين أفرادِ الرعيةِ؛ فما من أحدٍ عرفَ كيف يرددُ وراءَ الجوقةِ، وهذا بدورهِ يعود إلى أنَّ الرهبانَ والكهنة من يقومون بهذا على الدوام، إلّا عندما يردد الناس الصلواتِ المعروفةَ جداً وكلمة آمن. هناك أفرادٌ من الرعية تابعوا المراسمَ في صمتٍ رزينٍ بينما تجولَ آخرون في الأرجاءِ يحييون بعضهم ويتسامرون، وفكرَ فيليب في نفسهِ أنَّهم أناسٌ بُسطاء، وأنَّ على المرءِ أن يقوم بشيءٍ لكسبِ اهتمامهم.

اقتربَت المراسمُ من نهايتها، وتوجهَ رئيسُ الشمامسةِ إلى الرعيةِ قائلاً: «معظمكم يعلمُ أنَّ رئيسَ دير كينغزبريدج العزيز قد توفي، وسيوارى جثمانه الموجودُ في الكنيسةِ هنا إلى مثواه الأخير في مقبرةِ الديرِ اليومَ بعد الغداءِ، وقد اختارَ الأسقفُ والرهبان الأخَ فيليب من غويند خليفةً له، وهو الذي قادنا صباحَ اليومِ إلى الكنيسةِ».

توقفَ ويلارن، ووقفَ فيليب كي يقود صفَّ الرهبانِ خارج الكنيسةِ، ولكن ويلارن تابع قائلاً: «لدي إعلانٌ آخر».

فوجئ فيليب بما سمعه وجلسَ على الفورِ.

«وصلتني رسالةٌ للتو»، قال ويلارن.

يعلمُ فيليب أنَّ ويلارن لم يتلقَ أيَّةَ رسائل؛ فقد كان برفقته طوالَ فترةِ الصباحِ، وتساءلَ في نفسهِ عمَّا يخططُ له رئيسُ الشمامسةِ.

«جاءَ في الرسالةِ خبرٌ سيحزننا جميعاً وبشدةٍ»، وتوقف ويلارن عن الكلامِ مجدداً.

من الذي توفي؟ لا بدَّ أنَّ ويلارن عرفَ بهذا قبلَ أن يصل، ولكنه أبقى المعلومةَ سِراً، وها هو يتظاهرُ أنَّه عرفَ بالخبرِ للتو، ولكن ما هو هذا الخبر؟

وهنا لم يخطر ببال فيليب سوى احتمال وحيد، وإن صحَّ فهذا يعني أن ويلارن أكثرُ طموحاً وشراً مما تخيلهُ. هل خدعهم وتلاعبَ بهم جميعاً؟ هل كان فيليب مجرَّد بيدقٍ في لعبةٍ يلعبها ويلارن؟

وأتت كلماتُ ويلارن الأخيرة لتؤكد شكَّ فيليب.

«أعزائي»، قال ويلارن برزانةٍ، ثمَّ تابع: «لقد توفي أسقفُ كينغزبريدج».

الفصل الثالث

- 1 -

«ستكون تلك العاهرةُ هناك»، قالت والدةُ وليم وتابعت: «أنا واثقةٌ من أنها ستأتي».

نظر وليم بمزيجٍ من الرهبةِ والشوقِ إلى واجهةِ كاتدرائيةِ كينغزبريدج تلوح في الأفقِ، وخطر بباله أنَّ حضور الليدي آليانا مراسمَ عيد الغطاس سيتسببُ بالإحراجِ للجميعِ، غير أن مجرَّدَ احتمال رؤيتها مجدداً جعلَ قلبَهُ يطيرُ فرحاً.

كانوا في طريقِهم إلى كينغزبريدج، وقد امتطى كلٌّ من وليم ووالده جوادين حربيين، وإلى جوارهما تمايلت أمّه على صهوةِ فرسٍ سريعٍ، وخلفهم سارَ ثلاثةُ فرسانٍ، وثلاثةُ ساسةِ خيلٍ. بدوا كمجموعةٍ مهيبةٍ، بل ومخيفةٍ، وسُرَّ وليم بهذا لأنَّ القرويين سيبتعدون عن الطريقِ أمامَ جيادهم القويةِ، إلَّا أنَّ والدتَهُ كانت تغلي غضباً.

«جميعهم يعلمون، بمن في ذلكَ أولئكَ العبيدُ البائسون»، قالت وهي تصرُّ على أسنانها ثمَّ تابعت: «حتَّى إنَّهم يُلقون بدعاباتٍ عنا. متى لا تكون العروس عروساً؟ عندما يكون وليم هاملي العريس! أمرتُ بجلدِ الرجل الذي ألقى بهذه الدعابةِ، ولكن لا فائدة من ذلكَ. كم أرغب بإمساكِ تلك العاهرةِ وسلخِها حيّةً ثمَّ تعليقها حتَّى تنهش الغربانُ لحمَها».

تمنَّى وليم أن تتوقف والدته عن التحدُّثِ في الأمرِ. تعرَّضَت العائلة إلى إهانةٍ شنيعةٍ، وألقت أمّه باللومِ عليه، وعدَّت أنَّ كلَّ ما حصل خطأه، ولذلك لم يشأ أن يُذكَّر بالأمرِ. تهادى موكب آل هاملي فوق الجسرِ الخشبي

المتهالكِ إلى قرية كينغزبريدج، وحثّوا جيادهم على الطريقِ الرئيسي الذي يؤدي مباشرةً إلى الديرِ. كان هناك ما يقاربُ عشرين أو ثلاثين جواداً على الطرفِ الشمالي من الكنيسة ترعى العشبَ المتفرق هنا وهناك في أرضِ المقبرةِ، ولكنها لم تكن جيدةً كفاية بالنسبة إلى عائلةِ هاملي. قادوا جيادهم إلى الإسطبلِ، وتركوها هناك مع سائسي الدّير. عبروا جميعهم حديقةَ الديرِ في تشكيلةٍ: وليم ووالده على جانبي والدتِهِ، والفرسانُ والسائسون في الخلفِ. وقفَ الناسُ على جانبي الطريقِ لاستقبالهم، ولكن وليم نظرَ إليهم بذهولٍ، وهم يتدافعون ويشيرون بأصابعِهم نحوهم حتَّى تيقنَ أَنَّهم كانوا يتهامسون حولَ زفافهِ المُلغى، ثم خاطر بإلقاءِ نظرةٍ خاطفةٍ على والدتِهِ، وعرفَ من النظرةِ المُرعبةِ على وجهها أَنَّها كانت تفكرُ في الأمرِ عينِهِ.

دخلَت العائلةُ إلى الكنيسة. لطالما كرهَ وليم الكنائسَ؛ فقد كانت باردةً ومظلمةً حتَّى في الطقسِ الجيِّدِ، وتفوحُ دوماً من زواياها المظلمةِ وأنفاقِ الديرِ الضيقةِ رائحةٌ فاسدةٌ خفيفةٌ، ولكن الأسوأ من ذلك كلِّه أنَّ الكنائس تجعلهُ يفكرُ بعذابِ الجحيمِ، وأرعبتهُ هذهِ الفكرةُ.

ألقى نظرةً خاطفةً على الحاضرين. وجدَ في البداية صعوبةً في تمييزِ وجوه الناسِ بسببِ الظُّلمةِ، ولكن بعد لحظاتٍ قليلةٍ ألفت عيناه ما حولها، ومع ذلك لم يرَ آليانا. تقدَّموا بخطواتٍ ثابتةٍ إلى المذبح، ولكنها لم تكن هناك أيضاً فشعرَ بالراحةِ والخيبةِ في آنٍ معاً، ثُمَّ لمحَها، وشعرَ بقلبهِ يتوقف. كانت تقفُ في الجهةِ الجنوبيةِ من ممرّ الكنيسةِ بالقربِ من الواجهةِ برفقة فارسٍ لم يعرفهُ وليم، ومحاطةً بالوصيفاتِ والجنودِ. رغم أنَّ ظهرها كان له، فإنَّه عرفها من شعرِها الداكنِ والمُجعدِ الذي لن يخطئهُ أحد، كما أَنَّها استدارت عندما كان يراقبها فلاحت له وجنةٌ مدورةٌ وناعمةٌ وأنفٌ مستقيمٌ ومتعجرفٌ، أما عيناها فقد كانتا داكنتين للغايةِ تكاد تكونان سوداوين. التقت أعينهما فحبسَ أنفاسَهُ، أمَّا تلكَ العيون الواسعة والداكنة فقد اتسعت أكثر عندَ رؤيتِهِ. أرادَ الإشاحةَ بنظرهِ بلا مبالاةٍ، والتظاهر أَنَّه لم يرها، لكنه لم ينجح في إجبارِ نفسهِ على إبعادِ نظرِهِ عنها. أرادَها أن تبتسمَ له، حتَّى لو ابتسامة لبقةً خاطفةً من شفتيها الممتلئتين. أحنى رأسه قليلاً نحوها. كانت إيماءةً أكثر مما كانت تحيةً، لكنها أشاحت بوجهها بقسوةٍ بعيداً إلى الواجهة.

جَفلَ وليم كأنَّ ألماً ألمَّ بهِ، وأحسَّ أنَّهُ كلبٌ يُطردُ عن قارعةِ الطريقِ. أرادَ التكورَ على نفسِهِ في زاويةٍ حتَّى لا يلفتَ الأنظارَ إليهِ، وفي محاولةٍ لإخفاءِ ألمهِ استدارَ إلى الجهةِ الأخرى متسائلاً في نفسهِ إن كان أحدٌ قد رأى تبادلَ النظراتِ المثيرَ للشفقةِ مع آليانا. مشى برفقةِ والديهِ في الممرّ، ولاحظَ أنَّ الناسَ يُحدقون بهِ وبآليانا، ويوكزون بعضهم بعضاً ويتهامسون، فثبّتَ نظرَهُ مباشرةً إلى الأمامِ لتجنبِ أعينهم، وأجبرَ نفسَهُ على إبقاء رأسِهِ عالياً. فكرَ وليم في نفسهِ: «كيف فعلت هذا بنا ونحن من أشرفِ العائلاتِ وأعلاها مرتبةً في جنوبِ إنكلترا. لقد جعلتنا نشعرُ بالضآلةِ». ولأنَّ التفكيرَ بالأمرِ زادَ من حنقهِ تاق إلى سحبِ سيفِهِ ومهاجمةِ أيِّ أحدٍ.

رحَّبَ مأمورُ شايرنغ بوالدِ وليم، وتصافح الرجلان بحرارةٍ، وهنا أشاح الناسُ بنظرهم بعيداً بحثاً عن شيءٍ جديدٍ للهمهمةِ بهِ، أمَّا وليم والغيظُ ما زالَ يأكلهُ فقد تابع مراقبةَ آليانا تبتسمُ لسيلِ النبلاءِ الشُّبانِ الذين اقتربوا منها، وانحنوا لها بكياسةِ النبلاءِ الكبارِ. تحرَّق في صميمهِ ورغبَ بقوةٍ أن تعيره الاهتمامَ ذاتَهُ، وأن تبتسم له بدلاً من أولئكَ الشبان البُلهاء.

بدأت المراسمُ، وتساءلَ وليم في نفسهِ كيف ساءت الأمورُ. لدى الإيرل بارثيميلو ابن سيرثُ لقبَهُ وثروتَهُ، ولذلكَ فإنَّ الاستثمار الوحيد لوجود ابنةٍ هو عقدُ التحالفاتِ مع الأعداءِ، أو مع من قد يصبحون أعداءً. تبلغُ آليانا السادسةَ عشرة وهي عذراء، ولم تظهر أيَّ رغبة في أن تصبحَ راهبةً، لذلكَ يفترضُ أن تكون مسرورةً لزواجها من نبيلٍ في التاسعةِ عشرة وفي أوجِ صحتهِ وشبابهِ. في نهايةِ المطافِ قد تُجبر الاعتبارات السياسية والدها على القبولِ بتزويجها من إيرلٍ سمينٍ يعاني من النقرس وفي عقدهِ الرابعِ، أو حتَّى من بارونٍ أصلع في الستين من العمرِ.

وبمجرَّدِ أن عُقدت صفقةُ زواج وليم بآليانا لم يبدِ وليم أو والداه تحفظاً تجاه الأمرِ، بل لم يبذلوا أيَّ جهدٍ يذكر للتكتمِ على الأمرِ؛ فقد نشروا الخبرَ بكل فخر في جميعِ أرجاءِ المقاطعاتِ المُحيطةِ، وعدَّ الجميعُ اللقاءَ بين وليم وآليانا إجراءً شكلياً، باستثناء آليانا كما اتضح لاحقاً.

بالطبعِ لم يكونا غريبين بعضهما عن بعض؛ فهو يتذكرها عندما كانت فتاةً صغيرةً. آنذاك كانت مشاكسةً، ومتعاليةً، وشعرها الكثيفُ قصيراً. لطالما

كانت مُتسلطةً، وعنيدةً، ومولعةً بالخصامِ وجريئةً. اعتادت تنظيمَ ألعابِ الأطفال، وتحديد ما سيلعبونهُ، ومن سيكونُ في فريق من، وحلّ الخصامات، وحفظَ النتائجِ. فُتنَ بها آنذاك ولكنه أيضاً استاء من الطريقةِ التي سيطرت فيها على اللعبِ. كان تعكيرُ الأجواءِ عليها أمراً سهلاً، ولا يحتاجُ سوى تحويلِ محورِ الاهتمامِ عنها لفترةٍ، وذلكَ بافتعالِ شجارٍ بكلِّ بساطةٍ، ولكنها سرعان ما تستعيدُ سيطرتها، وتتركهُ مع شعورٍ بالحيرةِ، والهزيمةِ، والصدِّ، والغضبِ، ولكن أيضاً مع شعورٍ بالافتتانِ كالذي يشعر بهِ الآن.

بعد وفاةِ والدتها سافرت كثيراً برفقةِ والدها، ولم يرها وليم منذئذٍ. على أيِّ حالٍ، التقى بها بما يكفي ليعرفَ أنَّها كانت تكبرُ، وتتحولُ إلى شابةٍ فاتنةٍ، وسرَّ كثيراً عندما عرفَ أنَّها ستكون عروسهُ. افترضَ أنَّها ستتزوجُ بهِ سواء أُعجبت به أم لا، وحاولَ التوددَ إليها على أملِ أن يمهدَ هذا طريقهُ إلى مذبحِ الكنيسةِ معها.

قد تكون آليانا عذراء، ولكن وليم لم يكن كذلك، فقد سُحرَ ببعضِ الفتياتِ اللواتي كنَّ بجمالِ آليانا، ولكن ما من واحدةٍ منهن كانت من عائلةٍ نبيلةٍ، ومن خلالِ تجربتهِ اكتشفَ أنَّ الكثيرات انبهرنَ بثيابهِ الفاخرةِ، وجيادهِ المغوارةِ، وعفويته في إنفاقِ المالِ على النبيذ الحلو والشرائطِ، وإن اختلى بهنَّ في حظيرةٍ كنَّ يرضخنَ له دوماً وبطواعيةٍ في نهايةِ المطافِ.

لطالما تعامل وليم مع الفتياتِ بطريقةٍ ارتجاليةٍ. بدايةً، كان يسمحُ لهن بالاعتقاد أنَّه لم يكن مهتماً بهنَّ على وجهِ الخصوصِ، ولكن حالما وجد نفسهُ وحيداً مع آليانا غادره برودهُ. آنذاك كانت ترتدي ثوباً حريرياً بلونٍ أزرق فاتح، ولأنَّه كان فضفاضاً تمايل مع حركتها، ولكن جلَّ ما فكرَ به وليم طوال الوقتِ هو جسدها تحتَ الثوبِ، وأنَّه قريباً سيتمكن من رؤيته عارياً متى شاء. وجدها تقرأ كتاباً، وكان هذا اهتماماً غريباً على النساءِ اللواتي لم يكنَّ راهباتٍ. سألها عن الكتابِ في محاولةٍ لصرفِ ذهنهِ عن التفكير بثدييها اللذين كانا يتحركان تحتَ القماشِ الحريري الأزرق.

«يُدعى «مغامرات الإسكندر» ويتحدثُ عن قصةِ ملكٍ يدعى الإسكندر الكبير وكيفَ غزا أراضيَ مُدهشة في الشرقِ حيثُ تنمو الأحجارُ الكريمةُ على شجيراتِ الكرمةِ والنباتاتُ تتحدثُ».

لم يكن بوسعِ وليم تخيل أحدٍ قد يرغبُ بهدرِ وقته على هذا الهراء، لكنه لم يقل شيئاً، وحين استلم زمامَ الحديثِ أخبرها عن خيولِهِ، وكلابِهِ، وعن إنجازاتِهِ في الصيدِ، والمصارعةِ، والمبارزةِ، ولكنها لم تبدُ مهتمةً كما تمنى. ولم يعرف لماذا باغتَهُ شعورٌ مفاجئٌ أنَّه خسرَ فرصتَه في الفوزِ باهتمامها. أخبرها أنَّ والده يبني لهما منزلاً ممهداً لها فكرةَ أنَّها ستديرُ منزلَهُ، وأعطاها الخطوطَ العريضةَ للطريقةِ التي يريدُ أن تتمَ بها الأمورُ. وهنا شعرَ أنَّه فقد اهتمامها مجدداً، ولم يعرف السببَ. جلس قريباً منها قدرَ الإمكان لأنَّهُ أراد احتضانها ومداعبتها حتَّى يعرف ما إن كانت تلك الأثداءُ كبيرةً كما تخيل، ولكنها ابتعدت عنهُ، وطوت ذراعيها، وقاطعت ساقيها في حركةٍ دفاعيةٍ اضطرتهُ إلى التخلي على مضضٍ عن الفكرةِ برمتها. لم يجد أمامه سوى مواساة نفسه بالتفكيرِ أنَّه عمَّا قريب سيتمكن من فعل أيِّ شيءٍ يريدُهُ بها، ولكن حتَّى آنذاك لم تُبدِ أيَّة علامةٍ على الجلبةِ التي ستثيرها لاحقاً. فتحت فمها للتحدثِ وخرجت الكلماتُ منه بهدوءٍ شديدٍ: «لا أظنُّ أننا ملائمان بعضنا لبعض». لم يُدهش من كلامها بل عدَّهُ جزءاً من خجلِها الجذَّابِ، وأكَّد لها أنَّها تناسبه حتماً. لم يكن لديه أدنى فكرة أنَّها، وبمجرد خروجِهِ من المكان، ستذهبُ إلى والدها كعاصفةٍ هوجاء، وتعلنُ له بوضوحٍ أنَّها لن تتزوج من وليم، وأنَّ لا شيء سيغيرُ رأيها، حتَّى إنها تفضلُ دخولَ الديرِ مُكبلةً بسلاسل حديدية، ومقتادةً بالقوةِ إلى المذبح على تقديمِ نذورِ الزواجِ بهِ. «العاهرة، تلك العاهرة»، فكرَ وليم، لكنه فشلَ في نطقها بذات السُميةِ التي تنطقها بها والدته عندما تتحدثُ عن آليانا، فهو لم يرغب بسلخِ آليانا حيةً كما قالت والدتهُ، بل أراد أن يُلقي بجسدهِ فوقَ جسدها المثيرِ، وطبع قبلةٍ على فمها. انتهت المراسم مع إعلانِ وفاةِ الأسقفِ، وعندها أملَ وليم أن تطغى هذه الأنباءُ المحزنةُ على حزنهِ بإلغاءِ الزفافِ. غادرَ موكبُ الرهبانِ، وبات للمُصلين الذين توجهوا إلى المخارجِ الكثيرُ من الأحاديثِ المثيرةِ لفتحها. تجمعُ العديدَ منهم روابط مادية وروحانية مع الأسقفِ سواء كمستأجرين رئيسيين، أو مستأجرين فرعيين، أو موظفينَ على أراضيهِ، ولذلكَ كانَ الجميعُ مُهتماً بمسألةِ من سيخلفهُ، وما إن كان خلفهُ سيحدث أي تغييراتٍ جديدةٍ. عبرَ التاريخ عادةً ما تكون الفترةُ التي تلي موتُ حاكمٍ ذي شأنٍ فترةً خطرةً، لا سيما للخاضعين لحكمه.

لحق وليم بوالديه عندما خرجا من الكنيسة، وتفاجأ برؤيةِ رئيسِ الشمامسةِ ويلارن قادماً بخفةٍ نحوهم من بين حشودِ الناس ككلبٍ أسود كبير داخل مزرعةِ أبقارٍ. وكما تنظرُ الأبقارُ نظرَ الناسُ بتوترٍ من فوق أكتافِهم إلى ويلارن، وابتعدوا عن طريقه. ألقى التحيَّةَ على كلِّ نبيلٍ صادفه أمامه، وتحدَّثَ معه قليلاً بينما تجاهلَ الفلاحين تماماً، وعندما وصل إلى آل هاملي، ألقى تحية على والد وليم، وتجاهل وليم ثمَّ وجه انتباهه إلى الأم قائلاً لها: «إنَّه لأمرٌ مؤسفٌ ما حلَّ بالزفاف».

احمرّ وجه وليم غضباً. هل ظنَّ هذا الأحمق أنّه يتصرَّف بلباقةٍ بمواساته؟ لم تكن والدةُ وليم أحرص منه على عدمِ الحديثِ في هذا الأمرِ، ولذلك كذبت قائلةً: «أنا لستُ شخصاً يحملُ الضغينةَ»، تجاهل ويلارن ذلك وقال: «سمعتُ بعضَ الأمور عن الإيرل بارثيميلو ربما ستثير اهتمامك». أصبحَ صوته فجأة أكثر هدوءاً وبالكاد مسموعاً، وتحتّمَ على وليم بذلُ جُهدٍ ليسمعَ ما يقولهُ. «يبدو أن الإيرل لن يتراجعَ عن عهدِهِ للملكِ الميتِ».

قال والدُ وليم: «لطالما كان بارثيميلو شخصاً منافقاً وعنيداً».

بدا ويلارن متضايقاً فقد أرادهم أن يستمعوا إليهِ لا أن يُعلقوا على كلامِهِ. «لن يقبلَ بارثيميلو والإيرل روبرت من غلوستر بالملكِ ستيفن الذي وكما تعلم اختارته الكنيسةُ والبارونات».

تساءلَ وليم عن سبب إخبار رئيس شمامسةٍ للوردٍ بهذا الشجارِ الباروني المعتاد، وكان والدهُ يفكرُ في الأمرِ عينهِ ولذلكَ قال: «لكن لا يمكن للإيرلات فعلُ شيءٍ حيالَ الأمرِ».

شعرت والدةُ وليم بالضيقِ ذاتهُ الذي شعرَ بهِ ويلارن من ردِّ زوجها لذلك همست في أذنِهِ آمرةً: «فلتُصغِ».

قال ويلارن: «ما سمعتهُ هو أنَّ هناك خطةً للقيامِ بتمردٍ، وتنصيبِ مود ملكةً».

لم يصدق وليم ما سمعهُ. كيف يتجرأ هذا الكاهن على الإدلاءِ بهذا التصريحِ المتهوّر، هنا، في هذا المكانِ الهادئ والمقدس؟ قد يُشنق على ذلكَ سواء أكان صَحيحاً أم لا.

بدا والده مذعوراً أيضاً ولكن الأم قالت بتروٍ: «إنَّ روبرت غلوستر أخو مود غير الشقيق... يبدو الأمرُ منطقياً».

تساءل وليم في نفسهِ كيفَ يُمكن لوالدتهِ أن تتحلى بكل هذا الثباتِ وهي تتلقى أخباراً مريعةً وفضائحية، لكنها لطالما كانت فطنةً، ودوماً ما تكون محققةً حيالَ كلِّ شيءٍ. قال ويلارن: «من ينجح في التخلصِ من الإيرل بارثيميلو وإيقاف حركةِ التمرد قبل أن تبدأ من شأنه أن يكسب الامتنان الأبدي من الملكِ ستيفن والكنيسةِ».

«حقاً؟» قال الأبُ بصوتٍ خفيضٍ، ولكن زوجتهُ أومأت برأسها بحكمةٍ.

«يعتقدُ بارثيميلو أنه سيتمكنُ من العودةِ إلى منزلهِ في الغدِ»، قال ويلارن وهو يلتفتُ من حوله كأنَّه يشكُّ أنَّ أحداً يراقبهم ثمَّ عادَ بنظرهِ إلى والدةِ وليم وقال لها: «ظننت أنكِ، ومن بين الجميع، ستكونين مهتمةً بهذه الأخبار»، ثم ابتعدَ، وألقى التحيةَ على شخصٍ آخر.

حدّقَ وليم إلى ويلارن، وفكر في نفسهِ: «هل هذا كلُّ ما أرادَ ويلارن قوله حقاً؟»

لحق وليم بوالديه عبر مدخلِ الكاتدرائيةِ المُقنطرِ إلى الخارج. كانوا ثلاثتهم صامتين. خلال الأسابيعِ الخمسةِ الماضيةِ سمعَ وليم كلاماً كثيراً حولَ من سيصبحُ الملكَ القادمَ ويعتلي العرشَ، ولكن يبدو أنَّ المسألةَ قد سويّت عندما تُوِّجَ ستيفن ملكاً في كنيسةِ وستمنستر قبلَ ثلاثةِ أيام من عيد الميلاد. إن كان ويلارن على حقٍ، فإنَّ المسألةَ ما تزالُ إشكاليةً، ولكن لماذا أطلع ويلارن آل هاملي على هذا الخبرِ؟

عبروا حديقةَ الديرِ في طريقهم إلى الإسطبلات، وبمجرد أن ابتعدوا عن الحشدِ خارجَ رواقِ الكنيسةِ وبعيداً عن مسامعِ أحدٍ قالَ الأبُ بحماسةٍ: «يا لها من ضربةِ حظٍ رائعةٍ! الرجلُ الذي أهان عائلتنا متهمٌ بالخيانةِ العظمى».

لم ير وليم في الأمرِ ضربةَ حظٍ رائعةً، ولكن يبدو أنَّ والدتهُ اعتقدت هذا لأنَّها أومأت برأسها موافقةً، وتابع والدهُ: «يمكننا القبضُ عليهِ بقوةِ السلاحِ، وتعليقِ مشنقتِهِ على أقربِ شجرةٍ».

لم يفكر وليم في ذلك قبل قليل، لكنَّه الآن وعلى حينِ غرَّةٍ فهم كلَّ شيءٍ. إذاً، كان بارثيميلو خائناً، وهذا يعني أنَّهم يمتلكون كلَّ الحقِّ بقتلِهِ. «يمكننا أن نحصلَ على انتقامنا!» صاحَ وليم: «وعوضاً عن العقابِ على ذلكَ سنحصلُ على مكافأةٍ من الملكِ!» سيتمكنون بعدَ ذلكَ من السير بينَ الناسِ برؤوسٍ شامخةٍ و.....

«أيُّها الأحمقان الغبيان»، قاطعتهما الأمُّ بوحشيةٍ مُفاجئةٍ ثمَّ تابعت: «أنتما حقاً أعميان وأبلهان. أترغبان بشنقِ بارثيميلو في أقرب شجرةٍ؟ هل أخبركما بماذا سيحدثُ بعد ذلك؟»

لم يتفوه أيٌّ منهما بكلمةٍ؛ فقد كان هذا أفضلَ عملٍ يمكنهما فعلهُ عندما تصبح والدةُ وليم في هذا المزاج العكر. يغدو من الحكمةِ عدمُ الردِّ على أسئلتِها.

قالت والدة وليم: «سينكرُ روبرت غلوستر وجودَ أيِّ مؤامرةٍ ثمَّ سيعانقُ الملكَ ستيفن، ويقسم له بالولاءِ، وبذلكَ ينتهي الأمرُ بينهما بينما تُشنقان أنتما الاثنين كقاتلين».

سرت رعشةٌ في جسدِ وليم عندَ سماعِهِ هذا؛ فقد أثارت فكرةُ شنقه فزعهُ، وتحولت إلى كابوسٍ يلاحقهُ في مخيلتِهِ، ولكنه أخيراً أدركَ أنَّ والدتهُ على حقٍ. قد يصدقُ الملكُ، أو يدَّعي التصديقَ أنَّ ما من أحدٍ يتحلى بجرأةِ التمردِ عليهِ، ولن يفكر في التضحيةِ ببضع حيواتٍ من أجلِ المصداقيةِ.

قال الأب: «أنتِ مُحقةٌ. سوف نقيدُهُ مثلَ خنزيرٍ يُجرُّ إلى المذبحةِ، ونحمله حياً إلى الملكِ في وينشستر، ثم نوجه له التهمَ ونرحل وفي جعبتنا المكافأة».

قالت والدة وليم باحتقارٍ لزوجها: «ألا تفكر أبداً؟» بدت ريغان متوترةً للغاية، وشعرَ وليم أنَّها متحمسةٌ كوالدهِ حيالَ الموضوعِ، ولكن بطريقةٍ مختلفةٍ. أكملت ريغان كلامها قائلةً: «ألا يبدو رئيسُ الشمامسةِ ويلارن كأنَّه راغبٌ بتقديمِ الخائنِ مُقيداً إلى الملكِ بنفسهِ لأخذِ المكافأة؟ ألا تعلم أنَّ جلَّ ما يرغبُ بهِ هو أن يكون أسقفَ كينغزبريدج؟ لماذا إذاً منحكَ امتيازَ إلقاء القبضِ عليه؟ لماذا خططَ للقائنا في الكنيسةِ كأنَّه لقاءٌ بالصدفةِ بدلاً من الذهابِ لمقابلتنا في هاملي؟ ولماذا كان حوارنا قصيراً جداً وغير مباشر؟»

توقفت لبرهةٍ كأنَّها تنتظرُ إجابةً، ولكن وليم ووالده يعلمان أنَّها لم تكن كذلك، وهنا تذكرَ وليم أنَّه لا ينبغي على القساوسةِ سفك الدماءِ، وفكرَ بهذا كسببٍ لنأي ويلارن عن توريطِ نفسِهِ مباشرةً في اعتقال بارثيميلو، ولكن وليم وبعد تمحيصٍ في الأمرِ أدركَ أنَّ ما من شيءٍ قد يردع ويلارن.

استطردت ريغان: «سأخبركما بالسببِ. لأنَّه غير واثقٍ من أنَّ بارثيميلو

خائنٌ، ويعرفُ أنَّ مصدرَ معلوماته غير موثوق. لا يسعني التخمينُ بالكيفيةِ التي حصلَ عليها، ربما سمعَ محادثةً بين ثمالى، أو وقعت في يدهِ رسالةٌ غامضةٌ، أو تحدَّثَ إلى جاسوسٍ غير جديرٍ بالثقةِ. إنَّه وعلى أيِّ حالٍ ليس مستعداً لفضحِ نفسهِ واتهامِ الإيرل بارثيميلو بالخيانة علانيةً. فحال تبيّنَ أنَّ التهمةَ زائفةٌ سيُتهمُ ويلارن بالافتراء. لهذا يريدُ لشخصٍ آخر أن يُقدمَ على المجازفةِ، ويقوم بالعملِ القذرِ بالنيابةِ عنه، وبعد ذلك، إن ثبتت تهمةُ الخيانةِ، فسيستمتعُ بنصيبِهِ من امتنانِ الملكِ، ولكن إن ثَبتَ أنَّ بارثيميلو بريءٌ فهو وبكلِّ بساطةٍ سيُنكرُ ما قاله لنا اليومَ».

بعد أن صاغت ريغان الأمورَ على هذا النحو بدا كلُّ شيءٍ واضحاً. من دونها كان وليم ووالده سيقعان في فخِ ويلارن والعملِ بطيب خاطر كعملاء له، وتحملِ المخاطرِ نيابةً عنهُ. كانت ريغان ثاقبةً في آرائها السياسيةِ.

وهنا سألها زوجها: «أتقصدين بكلامكِ أنه علينا وبكلِّ بساطةٍ نسيان الأمرِ؟»

لمعَت عيناها وقالت: «بالتأكيد لا، فلا تزال لدينا فرصةٌ لتدميرِ الناسِ الذين أذلونا». أخذَت لجامَ جوادها من السائسِ لكنها لم تمتطِهِ على الفورِ بل أخذت تُربِّتُ على رقبته وهي تفكر ثمَّ قالت بصوتٍ خفيضٍ: «نحنُ بحاجةٍ إلى دليلٍ على المؤامرةِ، حتَّى لا يتمكن أحدٌ من إنكارها عندما نوجه اتهامنا. يتعينُ علينا الحصولُ على هذا الدليلِ سِرَّاً ودون فضحِ ما نقومُ بهِ. وعندما نحصلُ عليهِ يمكننا إلقاءُ القبضِ على الإيرل بارثيميلو واقتياده إلى الملكِ. سيعترفُ عندما نجابههُ بالدليلِ، وسيستجدي الـ حمةَ، وعندئذٍ نُطالبُ بمكافأتنا. سيكون الملكُ مديناً لنا، وسيصبُّ هذا في ـملحتنا».

قال الأبُ بقلقٍ: «ولكن كيف سنبدأ في البحثِ عن دليلٍ على المؤامرةِ؟»

قالت الأمُّ بعبوسٍ: «علينا أن نجدَ طريقةً للتفتيشِ في قلعةِ بارثيميلو». لن يكون الأمرُ سهلاً لأنَّ ما من أحدٍ سيصدقُ أننا نقوم بزيارتِهِ فالجميع يعلمُ بكُرهنا لبارثيميلو».

وهنا خطرَت لوليم فكرةٌ وقال: «يمكنني الذهابُ». بدا والداه مذهولين بعضَ الشيءِ وقالت والدتهُ: «أظنُّ أنَّ ذهابكَ سيكون أقلَّ إثارة للشكوكِ من ذهابِ أبيكَ، ولكن بأي ذريعةٍ ستذهبُ؟» عندما فكرَ وليم بالذريعةِ التي

سيذهبُ بها شعرَ بقلبهِ يخفقُ لمجرَّدِ التفكيرِ بها. «يمكنني الذهابُ لرؤيةِ آليانا، والتوسلِ إليها لإعادةِ النظرِ في قرارها، فقد ادعت أنَّها لا تعرفني جيداً، وأساءَت الحكمَ علي عندما التقينا. يمكنني أن أثبتَ لها أنني سأكونُ زوجاً صالحاً لها بأن أتوددَ إليها أكثر قليلاً». وابتسم وليم ابتسامة ساخرةً كيلا يشكَّ أحدٌ أنَّهُ عنى كلَّ كلمةٍ تفوهَ بها.

قالت ريغان: «هذهِ ذريعةٌ مُقنعةٌ»، ثمَّ نظرت بجديَّةٍ إلى وليم وقالت: «بحقِّ المسيحِ، لطالما تساءلت متى سيُظهر الصبي شيئاً من ذكاءِ والدتِهِ».

***

في اليوم التالي على عيدِ الغطاسِ انطلقَ وليم إلى قلعةِ إيرل شايرنغ وهو يشعرُ لأوَّلِ مرةٍ منذ شهورٍ بالتفاؤلِ. كان صباحاً صافياً وبارداً لسعَت فيه رياح الشمالِ أذنيه، وسحقت حوافرُ جوادهِ العُشبَ المتجمدَ تحتها. ارتدى وليم سترةً قرمزيةً، وفوقها عباءة رمادية مصنوعة من القماشِ الفلاندري الفاخرِ بحواف من فراءِ الأرانبِ. رافقهُ سائسهُ والتر الذي علَّمه عندما بلغَ الثانية عشرة من عمرهِ القتالَ، وركوبَ الجيادِ، والصيدَ، والمبارزةَ، والمصارعةَ، وقد باتَ الآن سائسه، ورفيقه وحارسه الشخصي. كان والتر طويلَ القامةِ كوليم ولكن أكثر ضخامةً ومهابةً، وهو يكبرُ وليم بتسعِ أو عشر سنواتٍ. كان وليم صغيراً على الذهاب للشربِ ومطاردةِ الفتياتِ إلاَّ أنَّ والتر كان كبيرًا بما يكفي لإبعادهِ عن المتاعبِ، ولذلك أصبح من أصدقاءِ وليم المُقربين.

كان وليم متحمساً جداً وبشكلٍ غريبٍ لاحتمالِ رؤيةِ آليانا على الرغم من علمه أنَّه قد يواجه الرفضَ والإذلال مجدداً. عندما لمحها في كاتدرائيةِ كينغزبريدج، ونظرَ لبرهةٍ في عينيها الداكنتين استعرت رغبتهُ بها مجدداً. تطلَّع بشغفٍ إلى التحدثِ معها، والاقترابِ منها ورؤيةِ خصلِ شعرِها تهتزُ كلَّما تحدثت، وجسدها يتحرَّكُ تحتَ ثوبِها.

ولكن في الوقتِ عينهِ صبَّت فرصةُ الانتقامِ منها الزيتَ على نارِ كراهيتهِ. كان متوتراً من شدّةِ الحماسة لفكرة أنَّه قد يمحو الإذلال الذي عانى منه هو وعائلته.

تمنَّى لو أنَّه امتلكَ فكرةً أوضح عما يجب أن يبحثَ عنهُ في قلعةِ الإيرل. كان واثقًا إلى حد ما من أنَّه سيتأكد من صحةِ ما قاله لهم ويلارن عندما يرى

في القلعةِ ما يشيرُ إلى الاستعدادِ لحربٍ كتجهيزِ الجيادِ، وتنظيفِ الأسلحةِ، وتخزين الطعامِ، رغمَ أنَّهم قد يقولون إنَّهم يقومون بالاستعداداتِ من أجلِ أمرٍ آخر تماماً كالقيامِ برحلةٍ استكشافيةٍ مثلاً لخداع الناسِ العاديين. على أيِّ حالٍ لم تكن قناعتهُ بوجود مؤامرةٍ كعثورهِ على دليل يُثبتها. لم يوفق وليم إلى التفكيرِ في أيِّ شيء يمكن اعتبارهُ دليلاً، ولذلكَ خططَ للبقاءِ حذراً ويقظاً، ولأنَّ هذه لم تكن بالخطةِ العظيمةِ ساورهُ قلقٌ مزعجٌ من أن تضيعَ عليهِ فرصةُ الانتقامِ.

عندما اقترب وليم من القلعةِ بدأ يشعرُ بالتوترِ، وتساءل في نفسهِ إن كانوا سيسمحون له بدخولِها، وأصيبَ بالذعرِ لبرهةٍ، ثمَّ أدركَ أنَّ هذا مستبعدٌ فالقلعةُ مكانٌ عامٌ، وسيكون إغلاقها في وجهِ النبلاءِ المحليين بمنزلة الإعلانِ عن خيانةٍ تلوحُ في الأفقِ. عاشَ الإيرل بارثيميلو على بعد أميالٍ قليلةٍ من بلدةِ شايرنغ، ولأنَّ مأمورَ المقاطعةِ استولى على قلعتها كان للإيرلِ قلعةٌ خاصةٌ به خارج حدودِ البلدةِ، أمَّا القريةُ الصغيرةُ التي كانت عندَ أسوارِ القلعة فكانت تُعرف بقريةِ «قلعة إيرل». ورغمَ أنَّ وليم أتى إلى هنا قبلاً فإنَّه الآن، ولأولِ مرَّةٍ، ينظرُ إليها بعين العدو.

يوجد خندقٌ عريضٌ وعميقٌ له شكلُ الرقمِ (8)، وكانت الدائرةُ العُلويةُ منه أصغرَ من السفليةِ، أمَّا التراب الذي أُزيلَ من الخندقِ فقد راكموه داخلَ الدائرتين المزدوجتين في ما يشبه المتاريس.

أسفلَ الدائرةِ السفلية جسرٌ فوقَ الخندقِ، وفجوةٌ في الجدارِ تُفضي إلى المُجمع السفلي، وكان هذا المدخلَ الوحيد، ولا يمكن الدخولُ إلى الدائرة/ المُجمع العلوي إلا عبرَ المُجمع السفلي، وعبورِ جسرٍ آخر فوق الخندقِ المقسوم إلى دائرتين. في المُجمع العلوي يقع معقلُ الإيرلِ.

أثناءَ عبورِ وليم ووالتر الحقولَ المفتوحةَ التي تحيطُ بالقلعةِ رأيا كثيرين يدخلون ويخرجون منها، ومن بينهم جنديان على جوادين سريعين ذهبا في اتجاهين مختلفين، وأمامَ وليم ووالتر على الجسرِ تقدَّمت مجموعةٌ مؤلفةٌ من أربعةِ فرسانٍ.

لاحظَ وليم أنَّ الجزءَ الأخيرَ من الجسرِ يُمكن رفعهُ باتجاهِ بيتِ الحارسِ الحجري الضخمِ وبذلك يتحول إلى بوابةٍ لمدخلِ القلعةِ. رأى أبراجاً

حجريةً موزعةً على طولِ السورِ بحيث يمكن أن يُغطي رماةُ السهام كلَّ جزءٍ من محيطِ القلعةِ، واستنتج وليم في يأسٍ أن الاستيلاءَ على هذه القلعةِ في هجومٍ مباشرٍ سيكون عملاً مُستنزفاً ودموياً، علاوةً على هذا لن ينجح آل هاملي في حشدِ العدد الكافي من المقاتلين لضمانِ نجاحِ الهجومِ.

كانت القلعة اليوم مفتوحةً للناسِ من أجلِ العملِ. أعطى وليم اسمَهُ إلى الحارسِ في بيت الحراسةِ، وأُدخلَ من دونِ طرحِ أيِّ أسئلةٍ. في المُجمعِ السفلي المحمي بالأسوارِ عددٌ من المباني العاديةِ كالإسطبلاتِ، والمطابخ، وورشِ العملِ، وبرجٌ خاصٌ، وكنيسةٌ صغيرةٌ. لاحظَ وليم أنَّ المكان يسيطرُ عليهِ جو من الحماسة والنشاطِ: سائسون، وحملةُ دروعٍ، وخدمٌ وخادمات يمشون بخفَّةٍ، ويتحدثون بصوتٍ عالٍ، ويحيون بعضهم بعضاً، ويطلقونَ الدعاباتِ. قد يبدو للعينِ الغافلةِ والمطمئنةِ أنَّ الجو طبيعي بسببِ عودةِ الإيرلِ، ولكن لعين وليم لم يبدُ طبيعياً.

تركَ وليم والتر في الإسطبلِ مع الجيادِ، وعبرَ إلى الجانبِ الآخرِ من المبنى حيث يوجد جسرٌ فوقَ الخندقِ يُفضي إلى المُجمعِ العُلوي قبالةَ بوابةِ الحراسةِ مباشرةً. عبرَ الجسرَ، وأوقفهُ حارسٌ آخر أمامَ بوابةٍ أخرى، ولكن هذهِ المرة سُئل عما يريدهُ فأجاب: «جئت لمقابلةِ الليدي آليانا».

لم يعرفه الحارسُ، ولكن عندما لاحظَ عباءتَهُ الجميلةَ وسترتهُ الحمراء ظنَّه أحدَ عشاقِ الليدي آليانا المتفائلين، ولذلكَ قال بابتسامةٍ مُتكلّفةٍ: «قد تجد الليدي في الصالةِ الكبرى».

في منتصفِ المُجمعِ العُلوي مبنى حجري بارتفاعِ ثلاثةِ طوابقَ وجدرانٍ سميكةٍ. كان الطابق الأرضي مخزناً أمَّا القاعةُ الكبرى فكانت فوقَه، ويمكنُ الوصولُ إليها عن طريقِ درجٍ خشبي خارجي يمكن سحبهُ إلى داخلِ المبنى. تقعُ غرفةُ نومِ الإيرل في الطابقِ العلوي وسيكون هذا المكان الذي سيكون فيه الإيرل عندما يأتي آل هاملي للنيلِ منه.

كانَ تصميمُ القلعةِ بأكملِهِ أشبه بسلسلةٍ كبيرةٍ من العوائقِ أمامَ أيِّ عدو محتملٍ، وبالطبع هذا هو المطلوب، ولكن الآن وبعد أن حاول وليم اكتشافَ طريقةٍ لتجاوزِ هذهِ العقباتِ رأى بوضوحٍ كبيرٍ وظيفةَ كلِّ عنصرٍ من هذهِ العناصرِ المختلفةِ في التصميم، وحتى لو استطاع المهاجمون دخولَ

المُجمعِ السفلي، فما يزال يتعينُ عليهم تجاوز جسرٍ آخر وبوابةٍ أخرى ثمَّ السورِ الداخلي المُحصنِ. سيتعيّن عليهم أيضاً الوصولُ إلى الطابق العلوي بطريقةٍ ما، ربما عن طريقٍ بناءِ سُلّمٍ خاصٍ، ولكن في جميع الأحوالِ سيقعُ قتالٌ آخر. أدركَ وليم أنَّه، ومن أجلِ الانتقالِ من القاعةِ ثمَّ أعلى الدرجِ مباشرةً إلى غرفةِ نوم الإيرل، فإنَّ الطريقةَ الوحيدةَ للسيطرةِ على هذه القلعةِ هي خلسة، وبدأ يُقلّبُ الأفكارَ في رأسِهِ باحثاً عن طريقةٍ للتسللِ.

صعدَ وليم الدرجَ ودخلَ صالةً مليئةً بالناسِ ولكن لم يكن الإيرل من بينهم، وفي أقصى الزاوية اليسرى رأى وليم الدَّرجَ الذي يُفضي إلى غرفةِ نومِهِ وقد جلسَ عند قاعدتِهِ ما يُقارب الخمسة عشر أو العشرين فارسًا وجنديًا يتحدثون معاً بأصواتٍ خفيضةٍ. كان الفرسانُ والجنود طبقتين مُنفصلتين بعضهما عن بعض؛ فالفرسان من مُلّاكِ الأراضي ويعيلون أنفسَهم من الإيجارات في حين يتقاضى الجنود رواتبهم بشكلٍ يومي.

كانت العلاقةُ الآن بين المجموعتين قويةً بسببِ رائحةِ الحربِ العالقةِ في الأجواءِ. تعرَّفَ وليم على بعضٍ منهم كغيلبرت كات وهو مقاتلٌ عجوزٌ سيئ المزاجِ ذو لحيةٍ مشعثةٍ وشاربٍ طويل، ورغمَ أنَّه تخطى الأربعين فإنَّه ما زال قوياً؛ ورالف من لايم الذي يُنفقُ على الملابسِ أكثر مما قد تنفقُ عروسٍ على جهازها، وكان اليوم في عباءةٍ زرقاء ببطانةٍ من الحريرِ الأحمرِ؛ وجاك فيتزغيوم الذي لا يكبر وليم كثيراً إلا أنَّه فارس، إضافة إلى العديدِ من الأشخاصِ الآخرين الذين كانت وجوههم مألوفةً بطريقةٍ ما.

أحنى وليم برأسِهِ لهم، ولكنهم لم يعبؤوا به فعلى الرغمِ من أنَّه شخصيةٌ معروفةٌ فإنَّه كان يافعاً جداً على أن يكون صاحبَ شأنٍ. استدارَ، ونظرَ إلى الجانبِ الآخرِ من القاعةِ، ولمح آليانا فوراً.

بدَت مُختلفةً اليوم. بالأمس في الكاتدرائيةِ كانت في ثيابٍ من الحريرِ، والصوفِ الناعمِ، والكتانِ مع خواتم، وشرائط، وجزمةٍ بطرفٍ مدببٍ، أمَّا اليومَ فكانت في سترةٍ قصيرةٍ كأيِّ امرأةٍ، أو طفلةٍ قرويةٍ. كانت حافيةَ القدمين، وتجلسُ على مقعدٍ تراقبُ لوحةَ لعبٍ بألوانٍ مختلفةٍ وأفياشٍ. راقبها وليم وهي تشدُّ سترتها، وتضعُ ساقاً على ساقٍ كاشفةً عن ركبتيها ثم تعبس.

بالأمسِ فقط بدت راقيةً للغايةِ، أمَّا اليوم فتبدو كطفلةٍ ضعيفةٍ، ولكن

وجدها وليم أكثر جاذبيةً ثمَّ شعرَ فجأة بالخجلِ من أنَّ هذه الطفلة قادرةٌ على إقلاقهِ إلى هذهِ الدرجةِ، وشعرَ بالتوقِ إلى إيجادِ طريقةٍ ما ليُثبتَ لها أنَّه قادرٌ على السيطرةِ عليها. كان شعوراً بقوةِ شعورِ النشوةِ.

كانت تلعبُ مع صبي أصغر منها بثلاث سنواتٍ أو أقل، ويبدو قلقاً ومتضايقاً كأنَّ اللعبةَ لا تعجبهُ. رأى وليم شبهاً في الملامحِ بينهما، فقد بدا الصبي بأنفهِ المستدقِ، وشعرهِ القصيرِ شبيهاً بآليانا كما يتذكرها وليم منذُ أيامِ الطفولةِ. لا بدَّ أنه شقيقها الأصغر، ريتشارد، وريث إيرل شايرنغ.

اقتربَ وليم أكثر فنظرَ إليه ريتشارد ثم عادَ بنظرهِ إلى اللوحةِ أمّا آليانا فكانت منغمسةً في اللعبةِ. كان للوحِ الخشبي المطلي شكلُ الصليب، المقسّم إلى مربعاتٍ بألوانٍ مختلفةٍ، وبدت الأفياش مصنوعةً من العاجِ الأبيضِ والأسودِ. كانت لعبةً مختلفةً نوعاً ما عن لعبةِ الطاحونةِ[1] وربما كانت هديةً جلبها والد آليانا معه من النورماندي.

كان وليم مهتماً بآليانا أكثرَ من اهتمامهِ باللعبةِ، وعندما انحنت إلى الأمامِ فوقَ اللوحِ مالت ياقةُ ثوبها فرأى وليم أعلى ثدييها. كانا تماماً بالحجمِ الذي تخيله فشعرَ بفمهِ يجفُّ، وعجزَ عن التحدثِ.

نقلَ ريتشارد فيشةً على اللوحِ فقالت له آليانا: «لا، لا يمكنك فعلُ هذا».

بدا الصبي مُرتبكاً واحتجَّ: «ولِم لا؟»

وأجابتهُ: «لأنَّ هذا مخالفٌ للقواعدِ أيُّها الغبي».

فقال ريتشارد بفظاظةٍ: «أنا لا أحبُّ القواعد».

وهنا انفجرت آليانا في وجههِ قائلةً: «يجبُ أن تمتثلَ للقواعد!»

«لماذا يجب عليّ هذا؟» استطردَ الصبي.

قالت إيليانا: «عليكَ أن تمتثلَ فحسب، هذا هو السبب!»

قال ريتشارد: «حسناً، أنا لا أمتثلُ للقواعدِ»، ورمى باللوحِ عن المقعدِ إلى الأرض فطارت الأفياش، وعاجلتهُ آليانا بصفعةٍ على وجههِ.

صرخَ ريتشارد من جرحِ كبريائهِ وألمِ الصفعةِ ثمَّ قالَ متردداً: «أيتها الشيطانةُ البلهاء» ثمَّ صرخَ، وهربَ بعيداً، ولكنه اصطدمَ بوليم.

1- لعبة طاولة قديمة تعود بالزمنِ إلى الإمبراطورية الرومانية ولها أسماء كثيرة كالطاحونةِ وعادةً ما يلعبها لاعبان. (المترجمة)

أمسكهُ وليم من إحدى ذراعيهِ ورفعهُ ثمَّ قال: «لا تدع الكاهن يسمعكَ تنادي أختكَ بهذهِ الألقابِ»، وتلوّى ريتشارد صارخاً: «أنتَ تؤذيني أفلتني!» ولكن وليم لم يفلتهُ، وعندها توقفَ ريتشارد عن المقاومةِ، وبدأ يبكي أنزلَهُ وليم أرضاً فركضَ ريتشارد باكياً.

كانت آليانا تحدقُ إلى وليم الآن، وقد نسيت أمرَ اللعبةِ. نظرت إليهِ، وارتسمت تقطيبةٌ على جبهتها ثمَّ قالت: «لماذا أنت هنا؟» تحدَّثت بصوتٍ منخفضٍ وهادئ كصوتِ شخصٍ أكبر سنًا.

جلسَ وليم على المقعدِ، وشعرَ بالسرورِ من نفسهِ على الطريقةِ البارعةِ التي تعاملَ بها مع ريتشارد ثمَّ قالَ: «جئتُ لرؤيتكِ».

علت وجه آليانا نظرةٌ حذرةٌ وسألتهُ: «لماذا؟»

جلسَ وليم بطريقةٍ مكنتهُ من مراقبةِ الدَّرجِ إلى الطابقِ العلوي، ورأى رجلاً في الأربعين من عمره ينزلُ الدرجَ إلى القاعةِ. كان في زيٍّ خادمٍ رفيعِ المستوى بقُبعةٍ مستديرةٍ، وسترةٍ قصيرةٍ مصنوعةٍ من قماشٍ ناعمٍ. أشارَ الخادمُ إلى أحدهم فصعدَ فارسٌ وجندي الدرجَ معاً. نظر وليم إلى آليانا مرة أخرى وقال: «أريدُ التحدثَ إليك».

«بخصوصِ ماذا؟»

«بخصوصنا»، ولاحظَ من فوقِ كتفِها أنَّ الخادمَ يقتربُ منهما، وهو يسير بطريقةٍ مخنثةٍ بعضَ الشيءِ. كان يحمل بإحدى يديهِ رغيفاً من السُكرِ مخروطي الشكلِ وبني اللون كالترابِ، أمَّا في يده الأخرى فكان معَهُ جذرٌ ملتوٍ يشبه جذرَ الزنجبيلِ. من الواضحِ أنَّ الرجلَ وكيلُ المنزلِ وقد ذهبَ إلى خزانةِ التوابلِ المُقفلةِ في غرفةِ نومِ الإيرلِ لجلبِ مؤنِ اليومِ من المكوناتِ الثمينة، وهو الآن سيأخذها إلى الطبَّاخِ الذي سيستخدمُ السكرَ لإعدادِ كعكعةِ التفاحِ الحلوةِ، والزنجبيل لتتبيلِ سمكِ الحنكليس.

نظرت آليانا إلى حيثُ نظرَ وليم وقالت: «مرحباً ماثيو».

ابتسم الوكيلُ، وكسرَ لها قطعةً من السُكرِ. انتابَ وليم شعورٌ أنَّ ماثيو مولعٌ جدًا بآليانا. لا بدَّ أنَّ شيئًا ما في سلوكِها أشعرهُ أنَّها غيرُ مرتاحة لأنَّ ابتسامتهُ تحولت إلى تقطيبةٍ وقالَ لها بصوتٍ رقيقٍ: «هل كلُّ شيءٍ على ما يرام؟»

وأجابتهُ: «نعم شكراً لكَ».

نظرَ ماثيو إلى وليم مشدوهًا وقال: «وليم هاملي الصغير، أليس كذلك؟»

ورغمَ أنَّه لم يكن هناك مناص من التعرفِ عليهِ فإنَّ وليم شعرَ بالحرجِ لأنَّ الوكيلَ عرفَه. لم يعرض عليه ماثيو سُكراً إلا أنَّ وليم قال: «احتفظ بسكاكركَ للأطفالِ فأنا لا أحبها».

نظرَ ماثيو إلى وليم بطريقةٍ تكشفُ أنَّ الرجلَ لم يصل إلى المكانةِ التي وصلها اليومَ من خلال إثارةِ المتاعبِ مع أبناءِ النبلاءِ وقال: «حسناً يا سيدي»، ثمَّ نظرَ إلى آليانا وقال: «أحضرَ والدكِ بعضَ الحريرِ الناعمِ والرائع. سأريكِ إياه لاحقاً».

وأجابتهُ آليانا: «شكراً».

ثمَّ غادرَ ماثيو.

قال وليم: «مُخنثٌ أحمق».

قالت آليانا: «لماذا عاملتهُ بهذهِ الفظاظةِ؟»

«لا أسمحُ للخدمِ بأن ينادوني بـ(وليم الصغير)».

انتابَ وليم شعورٌ قوي أنَّه بدأ بدايةً سيئةً، وأنَّها لم تكن الطريقةَ المناسبةَ للتوددِ إلى سيدةٍ، وعندما أدركَ هذا قررَ أن يتصرفَ بشكلٍ ساحرٍ فابتسم لآليانا وقال: «لو كنتِ زوجتي لناداكِ عبيدي بالليدي».

سألتهُ: «هل جئت إلى هنا للحديثِ عن الزواجِ؟» واعتقدَ وليم أنَّه شعرَ بنبرةِ تشكيكٍ في صوتِها.

أجابَ وليم بنبرةٍ احتجاجيةٍ: «أنتِ لا تعرفينني»، ثمَّ أدركَ بيأسٍ أَنَّهُ فشلَ في السيطرةِ على المُحادثةِ. كان قد خططَ للبدءِ بحديثٍ عادي وسريعٍ قبل الدخولِ في الموضوعِ الأساسي، ولكنَّها كانت صريحةً جداً إلى درجةٍ اضطرَّ معها إلى الدخولِ في صلبِ الموضوعِ على الفورِ. «لقد أسأتِ الظنَّ بي. لا أعرف ما الذي فعلتُه في آخرِ مرَّةٍ التقينا فيها حتَّى تكرهيني إلى هذهِ الدرجةِ، ولكن أيّاً يكن السبب يبدو لي أنَّكِ تسرَّعتِ جداً...»

وفي ردّ على ما قالهُ أشاحت بنظرها، ومن وراءِ ظهرها رأى وليم الفارسَ والجندي ينزلان الدرجَ، ويخرجان من البابِ كأنهما عازمان على القيامِ بشيءٍ. بعد وهلةٍ ظهرَ رجلٌ في ثيابِ رجل دين، وهو على الأغلب سكرتير

الإيرل، وأومأ برأسِهِ. نهضَ فارسان آخران وصعدا إلى الطابقِ العلوي. كانا رالف من لايم في عباءةٍ ببطانةٍ حمراء زاهيةٍ، ورجلاً أصلع مُسنّاً. لم يكن هناك شكٌ أنَّ الرجالَ المنتظرين في القاعةِ أتوا لمقابلةِ الإيرلِ، فُرادى وأزواجاً، ولكن لماذا؟

وهنا تحدَّثت آليانا قائلةً: «بعدَ كلِّ هذا الوقتِ؟» كانت تكبح مشاعر، ربما مشاعر الغضب، ولكن انتابَ وليم شعور مُبهم أنها تكبحُ ضحكةً.

«الآن وبعد أن انحسرت كلُّ المشاكلِ، والغضبِ، والفضيحةِ تأتي لتخبرني أنني ارتكبت خطأً؟»

عندما صاغت آليانا الأمرَ على هذا النحو أدركَ وليم أنَّ الأمرَ بدا غير منطقي بعضَ الشيءِ، ولذلكَ قالَ: «لم تنحسر على الإطلاقِ فما زالَ الناسُ يتحدثون، وما زالت أمي غاضبةً، ولا يستطيع أبي السيرَ برأسٍ مرفوعٍ في الأماكنِ العامةِ».

«إذاً، كل هذا من أجلِ شرفِ عائلتكَ، أليسَ كذلك؟»

قالت آليانا هذا في نبرةٍ خطيرةٍ، ولكن وليم تجاهلها؛ فقد أدركَ للتو ما كانَ الإيرل يفعلهُ مع كلِّ أولئكَ الفرسانِ والجنودِ. كان يرسلهم لإيصال رسائل، ومشتتاً بما اكتشفهُ قال وليم: «شرفُ العائلةِ؟ أجل».

قالت آليانا: «أعلمُ أنَّه ينبغي عليَّ التفكير في الشرفِ، والتحالفاتِ بين العائلاتِ، وكلِّ ذلكَ، ولكن هذا ليس جوهر الزواجِ»، توقفت عن الكلامِ لبعضِ الوقتِ كأنها تفكرُ بما ستقوله ثم توصلت إلى قرار وتابعت: «ربما يجدرُ بي أن أخبركَ عن والدتي. كرهت والدتي والدي، ورغمَ أنَّ والدي ليس بالرجلِ السيئ، بل في الحقيقةِ هو رجلٌ عظيمٌ وأنا أحبهُ، لكنه جادٌّ، وصارمٌ بشكلٍ مخيفٍ ولم يفهم قط والدتي التي كانت إنسانةً سعيدةً، ومرحةً، وتحبُ الضحكَ، وسردَ القصصِ، والاستماع إلى الموسيقى، وقد جعلها أبي بائسةً»، وهنا اغرورقت عيناها بالدموعِ.

التفت وليم إليها، ولكن كان يفكرُ في تلكَ الرسائلِ. استطردت آليانا: «ماتت أمي لأنَّ أبي لم يسمح لها أن تكون سعيدةً. أنا أعلم هذا، وهو كذلك يعلم، ولهذ السببِ وعدني أنه لن يُجبرني أبداً على الزواجِ من شخصٍ لا أحبهُ، هل تفهمُ هذا الآن؟»

كان وليم يفكرُ في أمرِ الرسائلِ، وإن كانت تحمل أوامر لأصدقاءِ وحلفاءِ الإيرل بارثيميلو يُخطرهم فيها بالاستعدادِ للقتالِ. كانت الرسائلُ الدليلَ الذي احتاجهُ.

وأدركَ الآن أنَّ آليانا تحدقُ إليهِ بشكلٍ مباشرٍ فقال مردداً كلماتِها الأخيرة: «الزواجُ من شخصٍ لا تحبينهُ؟ ألا تحبينني؟»

استشاطت آليانا غضباً وقالت: «أنتَ لم تكن مُصغياً إلي. أنتَ أناني جداً إلى درجةِ أنَّكَ لا تستطيعُ التفكيرَ في مشاعرِ أيِّ شخصٍ آخرِ. في آخرِ مرَّةٍ أتيتَ فيها إلى هنا، ماذا فعلت؟ ثرثرت عن نفسِكَ طوالَ الوقتِ، ولم تسألني سؤالاً واحداً عن نفسي!»

ارتفعَ صوتُها الآن إلى صراخٍ، وعندما توقفت لاحظَ وليم أنَّ الرجالَ في الطرفِ الآخرِ من القاعةِ صمتوا، وأصاخوا السمعَ إليهما فقالَ لها وهو يشعرُ بالحرجِ: «لا تتحدثي بصوتٍ عالٍ».

ولكنها لم تعبأ بطلبهِ، وتابعت: «أتريدُ أن تعرف لماذا لا أحبكَ؟ حسنًا، سأخبركَ. أنا لا أحبكَ لأنَّكَ لست مهذباً. أنا لا أحبّكَ لأنَّكَ بالكادِ تستطيعُ القراءةَ، ولستُ معجبةً بكَ لأنَّ جلَّ ما يهمكَ هو كلابك، وجيادكَ، ونفسكَ».

رأى وليم غيلبرت كات وجاك فيتزغيوم يضحكان بصوتٍ عالٍ فاحمرَّ وجهه من الخجلِ. كان الرجلان نكرةً، فارسين، ولكنهما يضحكان عليه، يضحكان على ابن اللورد بيرسي هاملي. وقف وليم لإيقافِ آليانا عن الصراخِ وقال مستعجلاً: «حسناً».

ولكن آليانا تابعت الصراخَ قائلةً: «أنا لا أحبكَ لأنَّكَ أناني، وبليد، وغبي». انخرطَ جميعُ الفرسانِ الآنَ في الضحكِ، ولكنها تابعت: «أنا لا أحبكَ بل أحتقركَ. أكرهكَ، وأشمئزُ منكَ، ولهذا لن أتزوجَ بكَ!»

هللَ الفرسانُ وصفقوا. انكمشَ وليم على نفسهِ من الذُلِ الذي ألحقتهُ بهِ آليانا، وجعلَهُ ضحكهم يشعرُ أنَّه تافهٌ، وضعيفٌ، وعاجزٌ كما اعتادَ أن يشعر عندما كان طفلاً صغيراً. ابتعدَ عن آليانا، وهو يُجاهدُ للسيطرةِ على تعابيرِ وجهِهِ، وإخفاءِ مشاعرِهِ، وعبرَ الغرفةَ ركضاً بينما أصواتُ الضحكِ ترتفعُ من ورائه. وصلَ أخيراً إلى البابِ، ورفسه ليفتح ثمَّ خرجَ مُتعثراً.

أغلقَ البابَ وراءه، ونزلَ الدرجَ مُختنقاً من الخزي الذي نالهُ، وأصواتُ الضحكاتِ الساخرةِ ترنُّ في أذنيهِ طوالَ الطريقِ عبرَ الفناءِ الموحلِ باتجاهِ البوابةِ.

***

يتقاطعُ الطريقُ إلى قلعةِ الإيرل باتجاهِ بلدةِ شايرنغ مع طريقٍ رئيسي على بُعدِ ميل واحدٍ من القلعةِ، وعند مفترقِ الطرقِ يمكنُ للمسافر أن يتجه شمالًا إلى غلوستر وويلز، أو جنوبًا إلى وينشستر والساحل، ولكن وليم ووالتر انعطفا جنوباً.

كان ضيقُ وليم مما حدث في القلعةِ مع آليانا قد تحولَ الآن إلى غضبٍ عظيمٍ عجز معه عن الكلامِ. أرادَ أن يؤذي آليانا، ويقتلَ كلَّ أولئكَ الفرسانِ بإقحامِ سيفهِ في أفواههم نزولاً إلى حناجرهم، وفكر أنَّه يستطيع الانتقام من واحد منهم على الأقلِّ. إن نجحَ ما خططَ له فسيحصلُ على إثباتِ خيانةِ الإيرلِ، وأعطاه هذا الأملُ عزاءً ضارياً.

كان عليه في البدايةِ أن يُمسكَ بواحدٍ منهم.

حالما خرجا من الغابة ترجلَ وليم عن ظهرِ جواده، وبدأ يمشي وهو يقوده. تبعه والتر في صمتٍ متجنباً مزاجَ سيدهِ العكرِ. وصل وليم إلى طريقٍ أضيق من الطريقِ الرئيسي، وتوقف ثمَّ التفتَ إلى والتر وقال: «من أفضلنا في القتالِ بالخنجرِ، أنتَ أم أنا؟»

قال والتر بحذرٍ: «أنا أفضل في القتالِ من مسافاتٍ قريبةٍ، ولكنكَ تضربُ بدقةٍ أكبر أيُّها اللورد». كان رجالُ وليم ينادونه باللورد عندما يكون غاضباً.

قال وليم: «أتستطيع جعل جوادٍ سريعٍ يتعثر ويسقط أرضاً؟»

فأجابه والتر: «أجل باستخدام عصا طويلةٍ جيدةٍ ومتينةٍ».

وهنا أمرهُ وليم قائلاً: «فلتذهب، ولتبحث عن شجيرةٍ صغيرةٍ. اقلعها، وشذبها وعندها، سيكون لديكَ عصا طويلة ومتينة».

وانطلقَ والتر.

قادَ وليم الجوادين عبرَ الغابةِ، وربطهما في فسحةٍ خاليةٍ من الشجرِ بعيداً عن الطريقِ، ثمَّ نزعَ عنهما السرجين، وأزالَ بعضَ الأربطةِ والأحزمةِ من عُدةِ

الجيادِ وبما يكفي لتقييد يدي وقدمي رجلٍ. لم يكن لديهِ وقتٌ لابتكارِ خطةٍ مدروسةٍ ولذلك كانت خطتهُ بسيطةً، ولم يكن أمامهُ سوى التمني أن تسيرَ الأمورُ نحو الأفضلِ.

في أثناءِ عودتهِ إلى الطريقِ وجدَ قطعة متينةً من شجرةِ السنديانِ. كانت جافةً، وقاسيةً، وتصلح كهراوةٍ.

كان والتر بانتظارهِ مع عصا، واختارَ وليم مكاناً لوالتر خلفَ جذعِ شجرةِ زانٍ عريضةٍ وقريبةٍ من الطريقِ ثمَّ حذَّره قائلاً: «لا تُخرجِ العصا مبكراً، وإلَّا سيقفزُ الجوادُ من فوقها، ولكن لا تنتظرُ طويلاً أيضاً لأنَّه من الصعبِ جعلُه يتعثر من قائمتيهِ الخلفيتين، ولذلكَ فإنَّ الحل الأمثل هو غرزها بين قدميهِ الأماميتين، ومحاولة دكِ نهايتِها بالأرضِ حتَّى لا يركلها جانباً».

أومأ والتر برأسهِ وقال: «رأيت أحدهم يقومُ بهذا قبلاً».

سارَ وليم لثلاثين ياردة إلى الوراءِ على الطريقِ باتجاه قلعةِ إيرل. سيكون دورهُ الحرصَ على إبطاءِ الجوادِ بحيث لا يكون عدوهُ أسرع من المطلوبِ، ويتجنب عصا والتر. اختبأ وليم قريباً قدرَ الإمكان من الطريقِ. عاجلاً أم آجلاً سيأتي أحدُ مبعوثي الإيرل بارثيميلو، وأملَ وليم ألا يطولَ حدوثُ هذا.

كان قلقاً حيالَ نجاحِ الخطةِ، ولذلك لم يطق صبراً حتَّى ينتهي منها.

قال لنفسهِ إن أولئكَ الفرسان لا يملكون أدنى فكرة أنَّه كان يتجسسُ عليهم بينما كانوا يضحكون عليه. وها هو أحدهم على وشكِ أن يدركَ ذلكَ، وسيندمُ لأنَّه ضحكَ عليهِ، ثمَّ سيتمنى لو أنه ركعَ أمامهُ، وقبّلَ حذاءهُ بدلاً من الضحكِ عليهِ. سيبكي، ويتوسل، ويتضرع كي يغفر له، ولكن وليم سينكل بهِ أكثر، وساعدهُ التفكيرُ في هذا السيناريو على تهدئةِ أعصابهِ قليلاً.

ولكن كان لوليم سلوانٌ آخر. فإن نجحَت خطتُهُ قد يؤدي ذلك في النهايةِ إلى سقوطِ الإيرل بارثيميلو، واستعادةِ آل هاملي لسمعتهم. سيرتجفُ خوفاً كلُّ من ضحكَ على زَفافهِ المُلغى، وسيعانون مما هو أكثر من مجرد خوفٍ.

سيكون سقوطُ بارثيميلو بمنزلةِ سقوطٍ لآليانا أيضاً، وهذا أفضلُ ما في الأمرِ برمتهِ. ستتخلى عن كبريائها، وسلوكها المتعالي بعد إعدامِ والدها لخيانتهِ، وإن أرادَت مخاريط من السُكرِ، وأثواباً من الحريرِ فيتعينُ عليها

الزواجُ من وليم للحصولِ عليها. وتخيلها مُهانةً ونادمةً، وهي تجلبُ له فطيرةً ساخنةً من المطبخِ، وتنظرُ إليهِ بعينيها الداكنتين والكبيرتين في توقٍ لإرضائِهِ وأملٍ ليداعبها وقد افترَّ ثغرها الناعم قليلاً مستجديةً قبلةً.

أتاه وقعُ حوافرِ جيادٍ على الطريقِ الشتوي الطيني والقاسي، وأخرجهُ الصوتُ من لجةِ أحلامِ اليقظةِ. سحبَ خنجرهُ، ورفعه مُذكراً نفسه بوزنِهِ وتوازنِهِ المختلفِ عن وزنِ السيفِ. كان قد شحذَ كلا جانبي الخنجرِ حتَّى يطعن بشكلٍ أفضل. وقفَ منتصباً، وأسندَ ظهرَهُ إلى الشجرةِ التي اختبأ خلفها، وقد أمسكَ الخنجرَ من نصلهِ، وانتظرَ بأنفاسٍ مبهورةٍ. كان قلقاً وخائفاً من أن يخفقَ في استخدامِ الخنجرِ، وألا يتعثر الجوادُ، أو أن يقتلَ الفارسُ والتر بضربةٍ محظوظةٍ فيضطر وليم إلى قتالهِ بمفردهِ... اقتربَ وقعُ الحوافرِ، ولكن لسببٍ ما أثارَ الوقعُ قلقهُ ثمَّ لمحَ والتر ينظرُ إليهِ من بينِ العُشبِ عابسَاً قلقاً. كان الأخيرُ قد سمعَ وقعَ الحوافرِ أيضاً.

وهنا أدركَ وليم سببَ قلقهِ؛ فقد كان وقعُ الحوافرِ لأكثرِ من جوادٍ، وتعينَ عليهِ هنا أن يأخذَ قراراً سريعاً بمهاجمةِ أو عدمِ مواجهةِ شخصين. ستكون معركةً متكافئةً، ولذلكَ قررَ السماحَ للفارسين بالمرورِ، وانتظار مرور فارسٍ وحيدٍ. كان الأمرُ برمتهِ مُخيباً للآمالِ، ولكنه القرارُ الحكيمُ في مثلِ هذا الموقفِ. لوحَ بيدِهِ لوالتر مشيراً إليهِ بالتراجعِ فأومأ الآخرُ برأسِهِ في إشارةٍ إلى أنَّه فهمَ المطلوبَ منه، وزحفَ عائداً مرَّةً أخرى فوق العُشبِ.

ثمَّ ظهرَ جوادان أمامَهُ، ورأى وليم الوميضَ الحريري الأحمر لعباءةِ رالف من لايم ثم رأسَ رفيقهِ الأصلع. ابتعدَ الرجلان، واختفيا عن الأنظارِ، وعلى الرغمِ من شعورِ الضيق الذي انتابه فإنَّه كان سعيداً لتأكده من أنَّ الإيرلَ يُرسلُ أولئكَ الرجال في مهماتٍ، ولكنهُ تساءلَ في قلقٍ عمَّا إذا كان بارثيميلو يتبعُ سياسةً معينةً في إرسالِهم في أزواجٍ، وهذا إجراءٌ احترازي طبيعي؛ فالجميع يسافرُ في مجموعاتٍ متى كان ذلكَ ممكناً من أجل الأمانِ. من جهةٍ أخرى كانت لدى بارثيميلو رسائلُ كثيرةٌ، وعددٌ محدودٌ من الرجالِ، ولذلكَ قد يرى إرسال فارسين معاً لإيصال رسالةٍ واحدةٍ إسرافاً. علاوةً على ذلك، كان الفرسانُ رجالاً عنيفين، ويمكن الاعتمادُ عليهم في قتالِ الخارجين عن القانون بضراوةٍ، ولن يكسب الخارجون عن القانونِ الكثيرَ من هذا القتالِ

لأنَّ الفرسان لا يحملون ما يستحقُّ عناءَ السرقةِ باستثناءِ سيوفهم التي إن سرقها الخارجون عن القانون لن يتمكنوا من بيعها بسهولةٍ ومن دونِ طرحِ الشاري لأسئلةٍ كثيرةٍ، وإضافة إلى سيوفِ الفرسان هناك جيادهم التي كانت عرضةً للإصابةِ في هذه الكمائن. كان عبورُ الفارسِ الغابةَ أكثرَ أماناً من مُعظمِ الناسِ.

حكَّ وليم رأسَهُ بمقبضِ خنجرهِ، وهو يُفكرُ أنَّه قد يلقى مصيرَ الفرسانِ أيضاً، وقررَ الانتظارَ.

كانت الغابةُ هادئةً، وشمسُ الشتاءِ الضعيفةِ تُلقي بنورٍ متقطعٍ عبرَ المساحاتِ الخضراءِ الكثيفةِ لبعضِ الوقتِ ثمَّ تختفي.

قرقرت معدةُ وليم مذكّرةً إياه أنَّ وقت الغداءِ قد مضى. قفزت غزلانٌ عبرَ الطريقِ على بُعد ياردات قليلة غيرَ مُدركةٍ أنَّ رجلًا جائعاً يراقبها.

كان صبرُ وليم قد نفد.

وقرر أنَّه يتعينُ عليهِ الهجوم حتّى إن جاءَ زوجٌ آخر من الفرسان. ورغمَ أنَّ الأمرَ محفوفٌ بالمخاطرِ، فإنه يمتلكُ عنصرَ المفاجأةِ، ووالتر إلى جانبِهِ وهو مقاتلٌ شرسٌ. إضافةً إلى ذلكَ، قد تكون هذهِ فرصتهُ الأخيرة. علمَ أنَّه قد يُقتل، ولذلكَ شعرَ بالخوفِ، ولكن هذا سيكون أفضل بكثيرٍ من العيشِ في ذلٍ مُقيمٍ؛ فهو على الأقلِّ سيحظى بنهايةٍ مُشرفةٍ، ويموت وهو يُقاتل.

فكَّرَ أنَّ الأفضلَ من هذا كلِّهِ الآن هو ظهور آليانا بمفردها على جوادٍ أبيض. ستندفعُ بسرعةٍ، وتصاب بالكدماتِ على ذراعيها وساقيها ثمَّ ستقعُ في أجمةِ العُلّيقِ، وتخدشُ الأشواكُ جلدَها الناعمَ ثمَّ سيسيلُ دمها. وعندما سيقفزُ وليم فوقها ويثبتها أرضاً. ستكون مذلولةً.

أمعنَ وليم في تخيلِ الأمرِ، وأضافَ تفاصيل أخرى إلى إصابتها. استمتع بتخيلِ الطريقةِ التي سيتحرك بها صدرها للأعلى وللأسفل وهو جالسٌ فوقها، وتخيَّلَ تعابيرَ الرُعبِ الشديدِ على وجهها عندما تدركُ أنَّها تحتَ سيطرتِهِ تماماً، وهنا سمعَ وقعَ حوافر جديدة.

هذه المرة أتاه وقعُ جوادٍ واحدٍ فقط. وقفَ وليم، وأخرجَ خنجرهُ ثمَّ أسندَ ظهرَهُ إلى الشجرةِ، وأصاخ السمعَ مجدداً.

كان الوقعُ لجوادٍ جيدٍ وسريعٍ، ورغم أنَّه لم يكن وقع جواد حرب فإنَّ هذا

لا يعني أنَّه لم يكن جواداً قوياً. بدا كأنَّه يحملُ وزنَ رجلٍ بلا دروعٍ ويركضُ بوتيرةٍ ثابتةٍ ويتنفسُ بسهولةٍ. نظرَ وليم إلى والتر، وأومأ برأسهِ أنَّ هذه هي اللحظة، وأعطاهُ إشارةً بأن رفعَ ذراعَهُ اليمنى ممسكاً بالخنجرِ من النصلِ.

ومن بعيدٍ صهلَ جوادُ وليم.

ترددَ الصهيلُ بوضوحٍ عبرَ الغابةِ الهادئةِ إلَّا من الوقعِ الخفيفِ لحوافرِ الجوادِ القادمِ الذي عندما سمعَ الصهيلَ تباطأ، وقالَ راكبه: «مهلاً»، فأبطأ الجوادُ، وباتَ يخبُّ. أطلقَ وليم السبابَ في سرهِ لأنَّ هذا يعني أنَّ الفارس سيكون حذراً الآن، وهذا سيُصعبُ الأمور، وتمنى وليم لو أنَّه وضعَ جوادهُ بعيداً، ولكن الأوان قد فات الآن.

لم يعد وليم قادراً على تقديرِ بُعدِ جوادِ الفارس بما أنَّ الجواد بات يسير الآن. كان كلُّ شيءٍ خاطئاً، وقاومَ إغراءَ النظرِ من وراءِ الشجرةِ، وأصغى بتوترٍ شديدٍ. وفجأةً سمعَ الجوادِ ينخرُ قريباً بشكلٍ مفاجئ ثم ظهر على بُعد ياردةٍ من المكانِ الذي اختبأ فيهِ.

لمح الجواد وليم بعدَ أن لمحهُ الأخيرُ أولاً فحاولَ الهرب، وأصدرَ الفارس صوتاً ينمُّ عن الدهشةِ والمفاجأةِ.

شتمَ وليم في سِرِّه فقد أدركَ على الفورِ أنَّ الجواد قد يستدير، وينطلق في الاتجاهِ الخاطئ. انحنى أكثر خلفَ الشجرةِ، وخرج من الجانبِ الآخرِ وراءَ الجوادِ رافعاً يدهُ التي يحملُ بها الخنجرَ. ألقى نظرةً خاطفةً على الفارسِ الذي كان مُلتحياً وعابساً وهو يجذب عنانَ الجوادِ. كان العجوز القوي غيلبرت كاتفيس، وقذفَ وليم بخنجرهِ.

كانت رميةً مثاليةً لأنَّها أصابت الجوادَ في ردفهِ، وانغرزت بمقدارِ بوصة أو أكثر في لحمِهِ.

جفلَ الجوادُ تماماً كما قد يجفلُ أيُّ رجلٍ من الصدمةِ، وقبل أن يتمكن غيلبرت من فعلِ شيءٍ اندفعَ الجوادُ مذعوراً وبأقصى سرعةٍ نحو كمين والتر.

ركضَ وليم خلفَ الجوادِ الذي لم يأخذ سوى لحظاتٍ ليصلَ إلى المكانِ الذي اختبأ فيهِ والتر. لم يكن غيلبرت يبذلُ أيَّ جهدٍ للسيطرة عليهِ؛ فقد كان مشغولاً جداً في محاولة البقاءِ على السرجِ. اقترب الجوادُ من والتر وفكر وليم في نفسهِ: «الآن يا والتر، الآن!»

وقّتَ والتر حركتَهُ بدقةٍ كبيرةٍ إلى درجةِ أنَّ وليم لم يرَ العصا تظهرُ من خلف الشجرةِ، وكل ما رآه قائمتا الجوادِ الأماميتان تنهاران كأنَّ الجوادَ يفقد القوةَ فجأةً، ثم بدا لوليم أنَّ قائمتيهِ الخلفيتين تواجهان المصيرَ ذاتهُ للأماميتين وتتشابك جميعها. أخيراً انخفضَ رأسُ الجوادِ، وارتفعت مؤخرته، وسقط بقوةٍ. طارَ غيلبرت في الهواءِ وراءَ الجوادِ، وتوقفَ وليم عن جريهِ باتجاه الجوادِ.

حطَّ غيلبرت أرضاً، وتدحرجَ راكعاً على ركبتيهِ، ولبرهة خشي وليمَ من أن يهربَ، ثمَّ اندفعَ والتر من بين الشجيراتِ بسرعةٍ، وضربَ بجسدهِ غيلبرت طارحاً إياه أرضاً.

وقعَ الرجلان أرضاً بقوةٍ، واستعادا توازنهما في الوقتِ عينهِ. أصيبَ وليم بالهلعِ عندما رأى أنَّ غيلبرت الماكر رفعَ بيدهِ خنجراً فقفزَ من فوق الجوادِ المطروح أرضاً، ورفعَ الهراوةَ التي صنعها من جذعِ البلوطِ فوقَ رأسِ غيلبرت في الوقتِ ذاتهِ الذي رفعَ فيهِ الأخيرُ خنجرهُ، وأصابت الهراوة غيلبرت على صدغهِ.

ترنّحَ غيلبرت، ولكنه نجحَ في الوقوفِ على قدميه. لعنهُ وليم في سرهِ لأنَّه كان قوياً جداً.

رفعَ وليم الهراوةَ مجدداً ليكيلَ لغيلبرت ضربةً أخرى إلّا أن الأخير كان أسرع منه، واندفع نحوه بخنجرهِ.

كان وليم في ثيابٍ أنيقةٍ لأنهَ أتى للتوددِ إلى آليانا، وليسَ للقتالِ. اخترقَ النصلُ الحادُ لخنجرِ غيلبرت عباءتهُ الصوفية الجميلة إلا أنه قفز إلى الوراءِ بسرعةٍ كافيةٍ لإنقاذِ نفسهِ. اندفعَ غيلبرت نحو وليم على الفورِ مستغلاً انعدامَ توازنهِ، وفقدانَه السيطرة على الهراوةِ. وفي كلِّ مرَّةٍ اندفعَ فيها غيلبرت تراجعَ وليم إلى الوراءِ أكثر، ولهذا لم يحظَ وليم بالوقتِ الكافي لاستعادةِ توازنهِ إلى أن حاصرهُ غيلبرت أخيراً، وفجأةً شعرَ وليم بالخوفِ على حياتهِ ثمَّ اندفعَ والتر من وراءِ غيلبرت، وركلَ ساقيهِ.

شعرَ وليم بالراحةِ فقد اعتقدَ لوهلةٍ أنَّه سيموت، وشكرَ الرَّبَّ على وجودِ والتر معه.

حاولَ غيلبرت النهوض لكن والتر ركلَهُ على وجههِ، وضربَهُ وليم بهراوتهِ

على سبيل الاحتياطِ، وهو لا يزالُ مطروحاً أرضاً. دحرجه والتر ووليم على بطنِهِ ثمَّ جلس والتر على رأسه بينما قيَّدَ وليم يديه خلفَ ظهرِهِ ثم نَزَعَ عنهُ جزمتهُ السوداء الطويلة، وربطَ كاحليهِ بحزامٍ جلدي.

ابتسم وليم ابتسامة عريضةً لوالتر، وبادله الأخير الابتسامةَ؛ فمن المريح حقاً أن يكون هذا المقاتل العجوز والشرسُ مربوطاً بشكلٍ آمنٍ.

كانت الخطوةُ التاليةُ هي جعل غيلبرت يعترف.

حالما بدأ غيلبرت يستعيدُ وعيه دحرجهُ والتر، وعندما وقعَ نظرُ غيلبرت على وليم فهمَ الأمرَ. في البدايةِ كان متفاجئاً ثمَّ بدا مذعوراً. كان وليم مستمتعاً لأن غيلبرت بدا نادماً على ضحكهِ عليهِ، وفكرَ في نفسهِ أنَّه خلالَ لحظاتٍ سيجعلهُ أكثر ندماً.

كان جوادُ غيلبرت قد وقفَ الآن، وأخذَ يبتعدُ لكنه توقفَ، ونظر خلفه وهو يتنفسُ بصعوبةٍ مع كلِّ حفيفٍ للرياحِ بينَ الأشجارِ. كان خنجرُ وليم قد سقطَ من ردفِ الحيوانِ أرضاً فالتقطه، وذهبَ والتر للإمساك بالجوادِ.

أصاخ وليم السمعَ فلعلَّ فرساناً آخرين قد يأتون في أيَّةِ لحظةٍ، وإن حدثَ هذا سيتعينُ عليهما سحبُ غيلبرت بعيداً عن الأنظارِ، وإبقاؤه هادئاً، ولكن ما من أحدٍ أتى، وتمكنَ والتر من السيطرةِ على جوادِ غيلبرت دونَ صعوبةٍ كبيرةٍ.

رفع وليم ووالتر غيلبرت على ظهر جوادِهِ ثم قاداه عبرَ الغابةِ إلى حيث تركا جواديهما. هاجَ جواداهما عندما شمّا رائحةَ الدماءِ التي تسيلُ من الجرح في ردفِ جوادِ غيلبرت لذلك ربطهما وليم بعيداً بعضهما عن بعض قليلاً.

بحث وليم حوله عن شجرةٍ مناسبة لغايةٍ ما فرصدَ شجرةَ دردار لها جذعٌ ثخين ناتئ بارتفاع ثمانية أو تسعة أقدامٍ ثمَّ أشارَ إلى والتر قائلاً: «أريدُ تعليقَ غيلبرت في هذا الغصنِ».

ابتسم والتر ابتسامة عريضةً وقال: «وماذا ستفعل له يا مولاي؟»

فأجابه وليم: «سترى».

شحبَ وجهُ غيلبرت المُغضن والقاسي من شدّةِ الخوفِ عندما مرّرَ وليم حبلاً تحتَ إبطِ الرجلِ وربطهُ وراءَ ظهرِهِ ثمَّ ألقى الحبلَ وقالَ لوالتر: «ارفعه».

رفعَ والتر غيلبرت فتلوى الأخيرُ في محاولةٍ للتحررِ من قبضةِ والتر، ووقعَ أرضاً. التقط والتر هراوة وليم، وضربَ غيلبرت على رأسهِ إلى أن ترنّح ثم رفعهُ مرَّة أخرى. رمى وليم طرفَ الحبلِ الحُرِّ على الغصنِ عدة مراتٍ ثمَّ سحبهُ بإحكام. أرجحَ والتر غيلبرت بلطفٍ على الغصنِ وقدماه في الهواءِ.

قال وليم: «اجمع بعضَ الحطبِ».

أضرما النارَ تحت غيلبرت، وقد أشعلها وليم باستخدام حجري صوانٍ. بعد بضعِ لحظاتٍ بدأت ألسنةُ النارِ تتصاعدُ، وأخرجت غيلبرت من حالةِ الدوارِ التي كان فيها.

عندما أدركَ غيلبرت ما كان يحدث له بدأ يئن من الرعبِ وقال «من فضلك، أرجـوكَ أنزلني. أنا آسفٌ لأنني ضحكتُ عليكَ. من فضلك كُن رحيماً».

لزمَ وليم الصمتَ فقد كان مستمتعاً جداً بتذللِ غيلبرت، ولكن هذا لم يكن هدفه الوحيد من تعذيبهِ.

عندما وصلت ألسنةُ اللهبِ إلى أصابعِ قدمي غيلبرت ثنى ساقيهِ ليُبعدهما عن النيران. تصببَ وجههُ عرقاً، وفاحت من ثيابهِ التي بدأت تسخنُ رائحةٌ خفيفةٌ لاذعةٌ. ارتأى وليم أنَّ الوقتَ قد حان لبدءِ الاستجواب فقال لغيلبرت: «لماذا كنتَ في القلعةِ اليوم؟»

حدَّق غيلبرت بعينين واسعتين وقال: «لتهنئةِ الإيرلِ، هل هذا مهمٌ؟»

«وعلى ماذا تهنئهُ؟»

«لقد عاد لتوهِ من النورماندي».

«ألم يستدعوكَ بشكلٍ خاصٍ؟»

«لا».

فكَّرَ وليم أنَّ الأمرَ قد يكون صحيحاً. لم يكن استجواب السجين أمراً بسيطاً كما تخيلَ، وغرقَ في التفكيرِ ثمَّ قال: «ما الذي قاله لكَ الإيرل عندما صعدت إلى غرفتِهِ؟»

«استقبلني، وشكرني على ترحيبي بهِ في منزلِهِ».

لم يكن وليم واثقاً من أنَّ النظرة التي رآها في عيني غيلبرت نظرة حذرٍ. فقال: «وماذا أيضاً؟»

«سألني عن عائلتي وعن قريتي».

«لا شيءَ آخر؟»

«لا شيء، لماذا أنتَ مهتمٌ بما قاله؟»

«ماذا قال لكَ عن الملكِ ستيفن والإمبراطورةِ مود؟»

«لا شيء كما أخبرتكَ!»

لم يستطع غيلبرت إبقاءَ ركبتيه مثنيتين لوقتٍ أطولٍ فأفلتهما فوقَ ألسنةِ اللهب المُستعرةِ، وصرخَ من الألم، وتشنّجَ جسدهُ. أبعدَ قدميهِ مجدداً عن ألسنةِ اللهبِ، ولكن للحظاتٍ فقط، وعندها أدركَ أنه يستطيع تخفيفَ الألمِ بأرجحةِ نفسهِ ذهابًا وإيابًا، ولكن في كلِّ مرَّةٍ يؤرجحُ نفسهُ تسفعهُ النيرانُ مجدداً، ويصرخُ.

تساءلَ وليم في نفسهِ مجدداً إن كان غيلبرت يقولُ الحقيقةَ. لم تكن هناك طريقةٌ لمعرفةِ ذلكَ. وفي مرحلة ما سيغدو الألمُ شديداً إلى درجةِ أنَّه سيقول ما يظن أنَّ وليم يريدُ سماعهُ في محاولةٍ يائسةٍ للخلاصِ من بؤسهِ، ولذلك كان من المهمِ عدم إعطائهِ فكرةً واضحةً عما هو مطلوبٌ منه، وفكر وليم بقلقٍ أنَّ تعذيبَ الناسِ أمرٌ صعبٌ للغايةِ.

قالَ وليم بصوتٍ هادئ وودي: «إلى أين أنت ذاهبٌ الآن؟»

صرخَ غيلبرت من شدةِ الألمِ والإحباطِ: «وما الذي يهمُّكَ في ذلكَ؟»

«إلى أين ذاهب؟»

«إلى المنزلِ!»

كان الرجل قد بدأ يفقدُ حذرهُ فوليم يعرفُ مكان إقامتِهِ، وكان إلى الشمالِ من هنا، وهذا يعني أنَّ غيلبرت كان يسيرُ في الاتجاهِ الخاطئ.

«إلى أين أنت ذاهبٌ؟» قال وليم مرَّةً أخرى.

«ما الذي تريده مني؟»

قال وليم: «أعلم فقط أنَّك تكذب. قُل لي الحقيقةَ».

وسمع والتر يُبدي موافقتهُ ففكر في نفسِهِ أنَّ أداءهُ بدأ يتحسن.

وطرحَ وليم السؤال ذاتهُ للمرةِ الرابعةِ: «إلى أين أنتَ ذاهبٌ؟»

كان غيلبرت قد شعرَ بالإرهاقِ من أرجحةِ نفسهِ ولكنه كان أيضاً يئن من الألمِ فتوقف، وثنى ساقيه مجدداً لإبعادهما عن النيران، لكن النار الآن كانت مستعرة جداً ووصلت إلى ركبتيهِ.

شمَّ وليم رائحةً مألوفةً بشكلٍ مُبهمٍ، ولكنها أيضاً كانت مقززةً بعضَ الشيء، وبعد وهلةٍ أدركَ أنَّها كانت رائحةُ لحمٍ مُحترقٍ. كانت مألوفةً لأنَّها تشبهُ رائحةَ الطعامِ. كان لون ساقي وقدمي غيلبرت قد تحولَ إلى البني وبدا جلده متشققاً، وباتَ الشعرُ على قصبتيه أسود، وبدأ الدهنُ يقطرُ منه ويسقطُ في النارِ. فُتنَ وليم بمشهدِ تعذيبِ غيلبرت.

في كلِّ مرَّةٍ صرخَ فيها غيلبرت شعرَ وليم بإثارةٍ عميقةٍ. كانت لديه سلطةُ التعذيبِ، ومنحتهُ هذه السُلطةُ الشعورَ بالرضا. كان الأمرُ يشبه كثيراً الشعور بالاختلاءِ مع فتاةٍ في مكانٍ لا يسمع فيه أحدٌ احتجاجها، وتثبيتها أرضاً، ورفعِ فستانها حتَّى خصرها وهو مدركٌ تماماً أنَّ ما من شيءٍ قد يمنعهُ من نيلِ مرادهِ منها.

سألَ وليم مرَّةً أخرى على مضضٍ: «إلى أين أنت ذاهبٌ؟»

قال غيلبرت في صرخةٍ مكبوتةٍ: «إلى شيربورن».

«لماذا؟»

«أنزلني بحقّ المسيح، وسأخبركَ بكلِّ شيءٍ».

شعرَ وليم أنَّ النصرَ أصبحَ في متناولِ يديهِ. كان شعوراً مُرضياً للغايةِ، ولكنه لم يحقق مرادَهُ بعد ولذلكَ قال لوالتر: «أخرج قدميهِ من النارِ».

أمسكَ والتر سترةَ غيلبرت ولفها حولَ ساقيه ثمَّ أبعدهما عن النيرانِ.

وهنا قال وليم: «أخبرني الآن».

قال غيلبرت في صرخةٍ مخنوقةٍ: «لدى الإيرل بارثيميلو خمسون فارساً في شيربورن وما حولها، وأنا ذاهبٌ لحشدهم، وإحضارهم إلى قلعةِ الإيرل».

ابتسم وليم فقد تأكّد الآن من أنَّ جميع تخميناته صحيحةٌ وشعرَ بالرضا.

«وماذا يخططُ الإيرل لفعلهِ بأولئكَ الفرسان؟» سألَ وليم.

«لم يقل».

قال وليم لوالتر: «أفلتهُ ليحترق قليلاً».
صرخَ غيلبرت قائلاً: «لا، سأخبركَ!»
بدا والتر متردداً.
حذَّر وليم قائلاً: «بسرعةٍ».
فقال غيلبرت أخيراً: «سيقاتلون إلى جانبِ الإمبراطورة مود ضدَّ ستيفن».
كان هذا هو الدليل الذي أرادهُ وليم، واستمتع بنجاحه في الحصولِ عليهِ.
«وعندما أطرحُ عليكَ السؤالَ ذاتهُ أمامَ والدي هل ستجيب الإجابةَ ذاتها؟»
«نعم نعم».
«وعندما يسألكَ والدي أمامَ الملكِ هل ستقول الحقيقةَ؟»
«نعم!»
«فلتُقسم بالصليبِ».
«أقسمُ بالصليبِ أنني سأقولُ الحقيقةَ!»
وهنا قال وليم في رضا: «آمين»، وبدأ يُخمد النيران.

***

قيَّدَ وليم ووالتر غيلبرت إلى سرجِ جوادهِ، وقادا الجواد من لجامهِ ثمَّ ساروا. بالكادِ كان غيلبرت قادراً على البقاءِ صاحياً. لم يرده وليم أن يموت لأنَّ ما من فائدةٍ قد يحققها بموته، وحاول ألا يقسو عليهِ، ولذلك عندما مروا بجانب جدول سكبَ ماءً بارداً على قدمي الفارس المحروقتين.

صرخَ غيلبرت من الألمِ، ولكن على الأغلبِ كان ذلك مفيداً له.

انتابَ وليم شعورٌ رائعٌ بالنصرِ الممزوجِ بنوعٍ غريبٍ من الإحباطِ. لم يقتل رجلاً قط، وكم تمنَّى لو أنَّه قتلَ غيلبرت.

كان تعذيبُ رجلٍ من دونِ قتلهِ أشبه بتجريدِ فتاةٍ من ملابسها دونَ اغتصابها، وكلَّما أمعنَ وليم في التفكيرِ بهذا شعرَ بحاجةٍ أكبر إلى النومِ مع امرأةٍ.

ربما عندما يعودُ إلى المنزلِ، ولكن لن يكون هناك وقتٌ. كان عليهِ أن يخبرَ والديهِ بما حدثَ، وسيرغبان بسماعِ غيلبرت يكررُ اعترافهُ أمامَ كاهنٍ، وربما أمامَ بعضِ الشهودِ الآخرين؛ وبعد ذلك سيتعين عليهم لتخطيطُ

للقبضِ على الإيرل بارثيميلو، وقد يقومون بهذا غداً قبل أن يحشدَ بارثيميلو عدداً كبيراً جداً من المقاتلين. لم ينجح وليم حتّى الآن في الوصولِ إلى طريقةٍ للاستيلاءِ على تلكَ القلعةِ خلسةً، ومن دونِ حصارٍ طويلٍ.

وبينما كان وليم يفكرُ بإحباطٍ أنَّ وقتاً طويلاً سيمرُّ قبل أن يرى امرأةً جذابةً ظهرَت واحدةٌ على الطريقِ أمامَهُ.

رأى مجموعةً من خمسةِ أشخاصٍ تسيرُ باتجاه وليم، وأحدُ أفرادها امرأةٌ بشعرٍ داكنٍ في الخامسةِ والعشرين من عمرها تقريباً. لم تكن فتاةً صغيرةً، ولكنها كانت شابةً، ومع اقترابِ المرأةِ ازدادَ اهتمامُ وليم بها، وتأكدَ من أنَّها جميلةٌ جداً. كان شعرها بنياً غامقاً، وخطُّ الشعرِ على جبهتها العريضةِ مثلثياً في ما يُدعى بخطِ «قمة الشيطان»، وعيونها الداكنة بلون ذهبي قاتم. كان قوامها رشيقاً ونحيلةً، ورغمَ أنَّ بشرتها كانت مسفوعةً من الشمس فإنَّها بدت ناعمةً.

قال وليم لوالتر: «ابقَ مكانك، وانتبه إلى الفارسِ خلفك بينما أتحدَّثُ معهم».

توقفت المجموعة، ونظرت إلى وليم بحذرٍ. بدوا كعائلة؛ فالرجلُ الطويلُ القامةِ يبدو كزوج، والصبي بالغٌ، ولكن لحيتهُ لم تظهر بعد، وهناك أيضاً طفلان صغيران. كان وليم ومنذُ البدايةِ يشعرُ أنَّ الرجلَ يبدو مألوفًا ولذلكَ سأله: «هل أعرفك؟»

قال الرجلُ: «أنا أعرفكَ وأعرفُ جوادكَ لأنكما كدتما تقتلان ابنتي».

وهنا تذكره وليم ولكنه تذكر أيضاً أنَّ جوادهُ لم يؤذِ الطفلةَ بل كان قريباً منها جداً.

«كنت تبني بيتي، وعندما طردتكَ هددتني كي أدفع لكَ»، قال وليم.

نظرَ الرجل بتحدٍ، ولم ينكر الأمرَ.

وهنا قال وليم ساخراً: «يبدو أنَّك لم تعد مغروراً». بدا واضحاً له أن أفرادَ العائلةِ يتضورون جوعاً. كان يوماً جيداً على وليم هاملي؛ فها هو يُصفي حساباتهِ مع الأشخاصِ الذين أساءوا إليهِ.

«هل أنتم جائعون؟»سألَ وليم.

قال البنَّاء بنبرةِ غضبٍ ممزوجٍ بالحزنِ: «نعم، نحن جائعون».

نظرَ وليم مرَّةً أخرى إلى المرأةِ، وقد وقفت الآن بساقين متباعدتين قليلاً وذقنٍ مرفوعٍ للأعلى تُحدّقُ فيهِ بجسارةٍ. كانت آليانا قد أثارتهُ، وهو الآن يريدُ إشباعَ شهوتِهِ مع هذه المرأةِ. كان واثقاً من أنَّها شرسةٌ، وستتلوى وتخدشه، ولكن هذا لم يكن بالأمرِ السيئ.

«أنتَ لست متزوجًا من هذه المرأةِ؟ أليس كذلك أيُّها البنّاء؟ أنا أتذكر زوجتك فقد كانت بقرةً قبيحةً»، قال وليم.

خيمت ظلالُ ألمٍ على وجه البنَّاء وقالَ: «زوجتي ماتت».

«ولم تأخذ هذه الفتاة إلى الكنيسةِ لتتزوجها بعد، أليسَ كذلك؟ فأنتَ لا تملكُ فلساً واحداً تدفعه للكاهنِ مقابل تزويجكما». ومن خلف وليم سعلَ والتر، وتململت الجيادُ في ضيقٍ.

قال وليم للبنَّاء في محاولةٍ لإثارة إعجابه: «لنفترض أنني أعطيتكَ مالاً من أجلِ الطعامِ».

«سأقبلهُ بامتنانٍ»، قال البنَّاء ولكن وليم لم يرَ ما يشي أنَّ الرجلَ متألمٌ لمعاملتهِ بهذهِ الطريقةِ.

«أنا لا أقصد بكلامي منحكَ عطيةً بل شراءَ امرأتك».

وهنا تحدَّثت المرأة قائلةً: «أنا لستُ للبيعِ يا فتى».

أثارَ ازدراؤها المباشر والواضح غضبَ وليم، وفكر في نفسهِ: «سأريك ما إن كنتُ رجلًا أم فتى عندما أختلي بكِ وحدنا»، وخاطبَ البنَّاءِ قائلاً: «سأعطيكَ جنيهاً من الفضةِ مقابلاً لها».

فرَّد عليه البنَّاء: «إنَّها ليست للبيعِ».

اشتعلَ غضبُ وليم أكثر؛ فقد كانَ من المهين حقاً أن يعرضَ ثروةً على رجلٍ يتضورُ جوعاً ويرفضها.

قال وليم: «أيُّها الأحمق، إن لم تأخذ المالَ فسأمزقكَ بسيفي، وأضاجعها أمامَ الأطفالِ!»

تحرَّكت ذراعُ البنَّاءِ تحتَ عباءتِهِ؛ فاعتقدَ وليم أنَّه يخبئ تحتها سلاحاً. كان الرجلُ ضخماً جداً، وعلى الرغم من أنَّه كان نحيلاً كالسيفِ فإنَّه بدا

مستعداً لخوضِ معركةٍ حتَّى الموتِ من أجلِ إنقاذِ امرأتِهِ. أزاحت المرأةُ عباءَتها جانباً، ووضعت يدَها على مقبض خنجرٍ طويل جداً مُثبت إلى حزامِها، وكان الصبي الأكبر ضخماً بما يكفي ليتسببَ لوليم بالمتاعبِ.

تحدَّث والتر بصوتٍ منخفضٍ ولكن مسموع: «رباه، لا يوجدُ وقتٌ لهذا».

أومأ وليم برأسه مؤيداً، ولكن على مضضٍ؛ فقد كان عليهِ الآن أخذُ غيلبرت إلى منزلِ آل هاملي، ولذلك سيتعينُ عليهِ التخلي عن المشاجرةِ من أجلِ امرأةٍ، والمعاناة في صمتٍ.

نظرَ إلى العائلةِ الصغيرةِ المكونةِ من خمسةِ أفرادٍ جائعين في ثيابٍ رثَّةٍ، ولكن المستعدين للقتالِ مع رجلين بدينين يحملان سيفين وعلى صهوةِ جوادين قتالاً حتَّى النهايةِ، ولم يفهم سبباً لهذا.

وأخيراً قال: «حسناً، فلتتضوروا جوعاً حتَّى الموتِ»، وركلَ وليم جوادهُ الذي انطلقَ مهرولاً، وبعد برهةٍ غابت العائلةُ عن الأنظارِ.

– 2 –

عندما أصبحوا على بُعدِ ميلٍ أو أكثر من المكانِ الذي التقوا فيه بوليم هاملي قالت إيلين: «هل يمكننا أن نتمهلَ الآن؟»

أدركَ توم أنَّه كان يسير بسرعةٍ رهيبةٍ من الهلعِ فلوهلةٍ اعتقدَ أنَّه وآلفريد سيُقاتلان رجلين مسلحين على ظهري جواديهما. لم يكن بحوزة توم أيُّ سلاحٍ، وعندما بحثَ تحتَ عباءتِهِ عن مطرقتِهِ تذكرَ بألمٍ أنَّه باعها منذُ أسابيع مضت مقابلَ كيسٍ من الشوفان، ولكن ما حيَّره حقاً هو السبب الذي دفعَ وليم إلى التراجعِ في النهايةِ. أرادَ أن يبتعدَ عن المكانِ قدرَ الإمكان تحسباً لاحتمالِ أن يغيرَ اللوردُ الشاب الشريرُ رأيهُ.

فشلَ توم في إيجادِ عملٍ في قصرِ أسقفِ كينغزبريدج، وفي كلِّ مكانٍ آخر قصدهُ. على أيِّ حالٍ هناك مقلع على أطرافِ شايرنغ، وعلى عكسِ مواقعِ البناءِ كانت المقالع بحاجةٍ إلى عمالٍ على الدوامِ، صيفاً وشتاءً. لا شكَّ أنَّ العملَ الذي يمارسه توم عادةً يتطلبُ مهارةً أكبر، ويعود بمالٍ أكثر من أيِّ عملٍ في مقلعٍ، ولكنه لم يعد الآن يعبأ بأيِّ شيءٍ لأنَّ جُلّ ما أرادهُ هو تأمينُ الطعامِ لعائلتهِ. تعود ملكيةُ المقلعِ في شايرنغ إلى الإيرل بارثيملو،

وعلمَ توم أنَّه يستطيع إيجادَ الإيرل في قلعتِهِ التي تقع على بعدِ بضعةِ أميالٍ من غربِ المدينةِ.

كان الآن يائساً بل وأكثر من أيِّ وقتٍ مضى؛ وذلكَ لأنَّ إيلين معه وهو يعلمُ أنَّها تسانده بدافعِ الحبِّ، ولكنه لم يفكر بعواقبِ الأمورِ جيداً، وهي بشكلٍ خاصٍ لم تكن تملكُ أدنى فكرةٍ عن الصعوبةِ التي يواجهها توم في إيجادِ عملٍ، بل لم تفكر قط باحتمال أنَّهم قد لا ينجون من فصلِ الشتاءِ. لم يحاول توم لفتَ نظرها إلى هذا الاحتمالِ لأنَّه أرادَها أن تبقى معه؛ فأيَّة امرأةٍ ستضع مصلحةَ طفلها قبلَ أيِّ شيءٍ آخر، ولذلك خافَ توم من أن تتركه إيلين.

إنهما معاً منذُ أسبوعٍ؛ سبعةُ نهاراتٍ من اليأسِ، وسبعُ ليالٍ من الفرحِ. كلَّ صباحٍ يستيقظُ توم وهو يفيضُ سعادةً وتفاؤلاً، ومع انقضاءِ ساعاتِ النهارِ، وعندما يبدو على الأطفالِ التعبُ والجوعُ تغدو إيلين نكدةً. في بعضِ الأيامِ كانوا يحصلون على الطعامِ كما حدثَ معهم عندما التقوا بالراهبِ الذي قدَّمَ لهم الجبنَ، وفي أيامٍ أخرى يمضغون لحمَ الطرائدِ المجففةِ من مخزونِ إيلين. كان الأمرُ أشبه بتناولِ جلدِ غزالٍ، ولكنه يبقى أفضل من لا شيءٍ. عندما يحلُّ الظلام يستلقي توم وإيلين، وهما يشعران بالبردِ والبؤس فيحضنان بعضهما بعضاً من أجلِ الدفءِ، وبعدَ وهلةٍ يبدآن بالمداعبةِ والتقبيلِ. في البدايةِ أراد توم إيلاجها فوراً، ولكنها كانت ترفضُ بلطفٍ لأنها أرادت إطالةَ فترةِ المداعبةِ والتقبيلِ. انصاعَ لها في افتتانٍ، وأتاح له هذا استكشاف جسدها بجرأةٍ، ومداعبتها في أماكن لم يداعب آغنيس فيها قط كإبطيها، وأذنيها، وفالقِ مؤخرتها. في بعضِ الليالي كانا يضحكان معاً، ورأساهما داخلَ عباءتيهما، أمَّا في ليالٍ أخرى فيكونان هادئين. في إحدى الليالي عندما كانا وحدهما في نُزل الضيوفِ في أحدِ الأديرةِ، والأطفال يغطون في نومٍ عميقٍ من شدةِ التعبِ لعبت معه بسيطرةٍ وإلحاحٍ، وأمرته بفعلِ أمورٍ معها وهي تريه كيفَ يمكنه أن يُمتعها بأصابعهِ فرضخَ لها، وشعرَ بالإثارةِ من شبقها وفحشها. وحالما انتهيا من ممارسةِ الحبِّ استسلما إلى نومٍ عميقٍ ومريحٍ، ومسحَ الحبُّ الذي تبادلاه خوفَ وغضبَ اليومِ.

كان الوقتُ الآن منتصف النهارِ، وتكهنَ توم أنَّ وليم هاملي قد بات بعيداً،

ولهذا قررَ التوقف من أجلِ استراحةٍ. لم يكن بحوزتهم أيُّ طعامٍ ما عدا لحم الطرائدِ المجفف. هذا الصباحِ استجدوا بعضَ الخبزِ من منزلٍ ريفي معزولٍ وسطَ أراضٍ، وقد قدَّمت لهم المرأة في المنزلِ بعضَ الجعةِ في قنينةٍ خشبيةٍ من دون سدادةٍ، وأخبرتهم أنهم يستطيعون الاحتفاظ بالقنينةِ. كانت إيلين قد احتفظت بنصفِ الجعةِ من أجلِ الغداءِ.

جلسَ توم على حافةِ جذعِ شجرةٍ عريضٍ وإيلين إلى جانبِهِ. كانت تأخذ جرعاتٍ كبيرةً من الجعةِ وتمررها له ثمَّ سألته: «هل تريد بعضَ اللحمِ أيضاً؟»

هزَّ رأسَه بالنفي، وتجرَّعَ بعضَ الجعةِ. كان بوسعهِ تناول اللحمِ كلّهُ، ولكنه تركه للأطفالِ. «لا تبقي شيئاً من اللحمِ»، قال لإيلين. «قد نتناول العشاء في القلعةِ».

وضعَ آلفريد القنينة على فمه، وشربَها حتَّى آخرِ قطرةٍ.

بدا جاك حزيناً، وانخرطت مارثا في البكاءِ، وافترت شفتا آلفريد عن ابتسامة مقتضبةٍ وغريبةٍ.

نظرَت إيلين إلى توم وبعدَ برهةٍ قالت له: «لا يجب أن تدع فعلةَ آلفريد تمرُّ مرورَ الكرامِ».

هزَّ توم كتفيه وقال: «إنَّه أكبر منهما، ولذلك فهو يحتاجه أكثر».

«ولكنه دوماً يحصلُ على الحصةِ الأكبرِ، ويجبُ أن يحظى الصغيران بشيءٍ».

«إنَّ الانخراط في مشاجرات الأطفالِ مضيعةٌ للوقتِ»، قال توم.

وقالت إيلين بصوتٍ أكثر قسوةٍ: «أتعني بكلامكَ أنَّ آلفريد يستطيعُ التنمرَ على الطفلين كما يشاء، وأنَّك لن تفعل شيئاً حيال الأمرِ».

«إنَّه لا يتنمر عليهما»، قال توم وتابع: «الأطفالُ يتشاجرون على الدوامِ».

هزَّت رأسها وبدت مضطربةً ثمَّ سألته: «لا أفهمكَ. أنتَ رجلٌ طيبٌ، ولكن عندما يتعلق الأمرُ بآلفريد تغضُ النظرَ».

شعرَ توم أنَّها تبالغ بردِّ فعلها، ولكنه لم يشأ إزعاجها فقال لها: «فلتُعطي الصغيرين بعضَ اللحمِ إذاً».

فتحَت إيلين الحقيبة، وهي ما تزال غاضبةً. اقتطعت بعضَ اللحمِ

المجففِ لمارثا ولجاك. مدَّ آلفريد يدَهُ لأخذِ بعضِ اللحمِ، ولكن إيلين تجاهلته. اعتقدَ توم أنَّها ستعطي آلفريد بعضَ اللحم. لم يكن هناك أيُّ خطبٍ في آلفريد، ولكن إيلين لا تفهمه، وفكرَ توم بفخرٍ أنَّ آلفريد أصبحَ الآن فتى بالغاً بشهيةٍ كبيرةٍ، ومزاجٍ سيئٍ، وإن كانت هذهِ خطيئة فإنَّ معظمَ الشُبانِ من أمثاله في العالمِ مصيرهم الجحيم.

استراحوا لبرهةٍ من الزمنِ ثمَّ استأنفوا السيرَ. تقدَّم جاك ومارثا وهما لا يزالان يقضمان اللحمَ المجففَ. كان الصغيران قد انسجما معاً رغمَ فارقِ العمرِ بينهما، فقد كانت مارثا في السادسة وجاك في الحادية عشرة، أو ربما في الثانية عشرة. كانت مارثا مأخوذةً جداً بجاك، وبدا الأخيرُ مستمتعاً بالتجربةِ الجديدةِ لوجودِ طفلٍ آخر يلعبُ معهُ. من المؤسفِ حقاً أنَّ آلفرد لم يستلطف جاك، وهذا كان مدعاة لاستغرابِ توم؛ فقد توقعَ أنَّ جاك الذي لم يصبح رجلاً بعد ألا يكون مثار امتعاضِ آلفريد، ولكن الأمر لم يكن كذلك. بالطبعِ كان آلفريد أقوى جسدياً، ولكن جاك الصغير أذكى.

لم يرغب توم بشغلِ بالهِ في هذا الأمر فهما مجرد فتيين، علاوةً على ذلكَ هناك الكثيرُ من الأمورِ الأخرى التي تقلقه، ولا يمكنه تضييعُ الوقتِ بالاهتمام بمشاجرات الأطفالِ. أحياناً يتساءل في نفسهِ إن كان سيعمل مجدداً. قد يهيمُ على الطرقاتِ إلى ما لا نهاية، وإلى أن يموتوا، الواحد تلو الآخر، ويكتشفوا في أحدِ الصباحات الصقيعيةِ أنَّ أحدَ الطفلين بارد وميت، والآخر ضعيف جداً على مقاومةِ الحمى، وإيلين تُغتصب، وتقتلُ على يدِ سفاحٍ عابرٍ كوليم هاملي، ويزداد توم نحولاً يوماً بعد يوم إلى أن لا يعود في أحد الصباحات قادراً على الوقوفِ، ويبقى ممدّداً على أرضِ الغابةِ إلى أن يغيبَ عن الوعي.

بالطبع ستتركُهُ إيلين قبلَ حدوث هذا، وتعود إلى كهفها فما زل لديها هناك برميلٌ من التفاحِ، وكيسٌ من المكسراتِ، وكلاهما كافيان ليتجاوز شخصان الشتاء حتَّى الربيع غيرَ أنَّه لن يكفي خمسةَ أشخاصٍ. إن عادت إلى الغابةِ فسينفطر قلبُ توم.

تساءلَ توم في نفسهِ عن أحوالِ الطفلِ. لقد أطلقَ عليهِ الرهبان اسم جوناثان، وأحبَّ توم الاسم الذي يعني «هديةٌ من الرَّبِّ» كما أخبرهما

الراهبُ الذي قدَّم لهما الجبنةَ. تخيَّلَ توم جوناثان الصغيرَ ببشرةٍ حمراء ومجعدة، ورأسٍ أصلعٍ تماماً كما رآه عندَ ولادتهِ. مضى أسبوعٌ على ولادتِهِ، ولا بدَّ أنَّه تغير الآن؛ فأسبوع زمنٌ طويلٌ بالنسبةِ إلى طفلٍ حديثِ الولادةِ. لا بدَّ أنَّه أكبر الآن، وفتحَ عينيه ولم يعد غافلاً عن العالمِ من حوله، وباتت تُجفله الضجةُ العاليةُ، وتهدئُهُ التهويدةُ، وعندما يرغب بالتجشؤ سيزمُ شفتيه. لن يعرف الرهبان أنَّه تجشؤ، وسيعتقدون أنّه ابتسامة حقيقيةٌ.

أملَ توم أن يعتني الرهبان بِهِ جيداً، وكما فهمَ من الراهبِ صاحب الجُبنةِ بدا الرهبان رجالاً لطفاء وأكفاء. على أيِّ حالٍ كانوا رعاةً أفضل للطفلِ من توم المشرّد والمُعدم، وفكر توم في نفسه أنَّه لو أصبحَ مسؤولاً عن موقعِ بناءٍ كبيرٍ، وكسبَ ثمانيةً وأربعين بنساً أسبوعياً إضافةً إلى المساعداتِ فسيُقدم المالَ إلى ذلكَ الديرِ.

حالما خرجوا من الغابةِ باتوا على مشارفِ القلعةِ.

شعرَ توم أنَّ معنوياتِهِ ترتفع، ولكنه كبح جماحها بقوةٍ. عانى من خيباتِ أملٍ متكررةٍ على مدارِ أشهرٍ، وبات يعلمُ أنَّها كلما ارتفعت في البدايةِ كان الرفضُ في النهايةِ أكثر إيلاماً.

توجهوا إلى القلعةِ عبرَ طريقٍ بين حقولٍ جرداء. وجدَ كلٌّ من جاك ومارثا عصفوراً مجروحاً، ووقفوا جميعاً لمشاهدتِهِ. كان عصفوراً من فصيلةٍ تدعى «طائر النمنمة»، وكان صغيراً جداً، ولذلكَ لم تكن رؤيتُهُ بالأمرِ السهلِ. انحنت مارثا فوقه فقفز مبتعداً. بدا واضحاً أنَّه لا يستطيعُ الطيران. أمسكتهُ مارثا، ورفعَت العصفور الصغيرَ بيديها.

«إنَّه يرتعشُ»، قالت مارثا. «يمكنني الشعورُ بذلك، لا بدَّ أنَّه خائفٌ».

لم يقم الطائر بأي محاولاتٍ أخرى للهربِ، بل جثمَ بلا حراكٍ بين يدي مارثا، وهو يحدق إلى الناسِ من حوله بعينيه البرَّاقتين.

قال جاك: «أعتقد أنَّ جناحهُ مكسورٌ».

قال آلفريد: «دعني أرى»، وأخذَ الطائر من مارثا.

«يمكننا أن نعتني بِهِ»، قالت مارثا. «فقد يتحسن».

«لا لن يتحسن»، قال آلفريد، وبحركةٍ سريعةٍ لوى عنقَ الطائرِ.

قالت إيلين: «أوه لا، بحقِ الرَّبِّ».

انخرطت مارثا باكيةً للمرةِ الثانية لهذا اليوم.

ضحكَ آلفريد، وألقى بالطائرِ على الأرضِ.

التقطَ جاك الطائرَ وقال: «لقد مات».

قالت إيلين: «ما خطبكَ يا آلفريد؟»

قال توم: «ليسَ بهِ خطبٌ فالطائر سيموتُ على أيِّ حالٍ».

تابع توم طريقهُ، ولحقَ بهِ البقيةُ. كانت إيلين غاضبةً مجدداً من آلفريد، وتوم متضايقٌ من إثارةِ كلِّ هذهِ الجلبةِ بسببِ طائرٍ صغيرٍ. يتذكرُ توم ما معنى أن يكون المرءُ فتى في الرابعة عشرة، وله جسدُ رجلٍ، وأن تكون الحياةُ محبطةً. قالت له إيلين إنَّه يغضُّ الطرفَ عندما يتعلقُ الأمر بآلفريد، ولكنها لا تفهم الأمرَ.

كان الجسرُ الخشبي فوقَ الخندقِ المُفضي إلى منزلِ الحارسِ متزعزعاً ومتهالكاً، ولكن قد يكون هذا مناسباً لقلعةِ إيرلِ لأنَّ المهاجمين سيستخدمون الجسرَ وكلما كان أكثر تداعياً كانت القلعةُ بأمانٍ أكبر. كانت أسوارُ القلعةِ طينيةً مع أبراجٍ حجريةٍ متباعدةٍ، وعند نهايةِ الجسرِ بيتٌ حجري للحارسِ، وله شكلُ برجٍ. فكرَ توم وهو يعاين المكان أنَّ جزءاً كبيراً منه مبني من الحجرِ، وأنَّ هذهِ القلعة ليست كغيرها من القلاعِ المبنيةِ من الطينِ والخشبِ. في الغد قد يبدأ عملاً في القلعةِ، وتذكرَ الأحاسيس التي كانت تنتابهُ عندما يستخدم أدواتٍ جيدةً كأن يسمعَ صريرَ الإزميلِ فوقَ قطعةٍ حجريةٍ وهو يقوم بتسويةِ جوانبها ووجهها، أو يشعر بالجفاف الذي يتسببُ بهِ الغبار في منخريهِ. غداً قد يمتلئ بطنه بطعامٍ كسبَهُ من عرقِ جبينهِ.

عندَ اقترابهِ أكثر لاحظَ بعينِ البنَّاءِ أنَّ سطحَ السورِ الشبيه بالمسننِ في وضعٍ سيئٍ؛ فقد سقطت بعضُ الحجارةِ، وانمحى السطحُ في بعضِ الأجزاءِ، وهناك أيضاً بعضُ الحجارةِ المُتقلقلةِ في قنطرةِ المدخلِ.

عندَ البوابةِ حارسان، وبدا كلاهما متيقظاً، ربما كانا يتوقعان حدوثَ متاعبٍ. سألَ أحدهما توم عن عملهِ.

«أنا بنَّاءٌ، وآملُ في الحصول على عملٍ في مقلعِ الإيرلِ»، أجابَ توم.

«فلتبحث عن وكيلِ الإيـرل»، قال الحارس في محاولةٍ للمساعدةِ وأضاف، «يدعى ماثيو، وستجده على الأغلب في القاعةِ الكبيرةِ».

«شكراً»، قال توم ثمَّ سألَ الحارس: «ولكن أيُّ نوعٍ من الرجال هو؟»

نظرَ الحارس إلى زميلهِ مبتسماً ثمَّ قال: «لا يشبه الرجال كثيراً»، وغرقا في الضحكِ.

وافترضَ توم أنَّه عاجلاً أم آجلاً سيعرف ما قصده الحارسُ بكلامهِ. دخلَ من البوابةِ، ولحقت بهِ إيلين والأطفال. كانت معظمُ الأبنية داخلَ أسوارِ القلعةِ خشبيةً رغمَ أنَّ بعضها بُني على قاعدةٍ حجريةٍ، ورأى مبنى حجرياً بالكامل، وهو على الأغلب الكنيسة. في أثناءِ عبورهم مُجمعِ المنازلِ لاحظَ توم أنَّ بعضَ حجارةِ السورِ متقلقلةٌ، أومكسورةٌ. عبروا الخندقَ الثاني الذي يُفضي إلى المجمع العلوي، وتوقفوا عندَ منزلِ آخر للحرسِ. أخبرَ توم الحارسَ أنَّه يبحثُ عن الوكيل ماثيو، ثمَّ دخلوا جميعاً المُجمعَ العلوي، وتوجهوا إلى بناءٍ حجري. رأوا باباً خشبياً عندَ مستوى الأرض من الواضحِ أنَّه يُفضي إلى سردابٍ، ثمَّ صعدوا درجاً خشبياً، ودخلوا إلى القاعةِ.

حالما دخلَ توم القاعةَ رأى الوكيل والإيرل. كان الإيرل بارثيميلو في رداءٍ طويلٍ أطرافُ أكمامهِ زاهية اللونِ، ومُطرزة عندَ الحوافِ، بينما الوكيل ماثيو في رداءٍ قصيرٍ يشبهُ الرداء الذي يرتديه توم، ولكنه مصنوعٌ من قماشٍ أنعم، ويعتمرُ قبعةً صغيرةً مدورةً. كانا قربَ الموقدِ: الإيرلُ جالسٌ والوكيل واقفٌ بقربهِ. اقتربَ توم من الرجلين، ووقفَ بعيداً عن مرمى سمعهما بانتظارِ أن يلحظا وجودَه. كان الإيرل بارثيميلو رجلاً طويلاً في عقدهِ الخامسِ بشعرٍ أشيبٍ، ووجهٍ شاحبٍ، وناحلٍ، ومتغطرسٍ. لم يبدُ كرجلٍ كريم الطباعِ، أمَّا الوكيل فقد بدا أصغر عُمراً، ويقفُ بطريقةٍ أعادت إلى ذاكرةِ توم ضحكةَ الحارسين وفهمَ الآن سببها. كان الوكيل يقف بطريقةٍ أنثوية، وشعرَ توم بالحيرةِ حيال رأيهِ بالوكيل.

كان هناك أناسٌ آخرون في القاعةِ، ولكن ما من أحدٍ منهم ألقى بالاً إلى توم الذي وقفَ منتظراً ويمزقه الأملُ تارةً والخوف تارةً أخرى. بدا له أنَّ حديثَ الإيرل مع الوكيل سيستمر إلى الأبدِ، إلَّا أنه فرغَ أخيراً، وانحنى

الوكيل للإيرل ثمَّ تنحى جانباً. تقدَّم توم وقلبهُ يخفقُ بسرعةٍ ثمَّ قال: «هل أنتَ ماثيو؟»

«أجل».

«أُدعى توم وأنا بنّاءٌ. أنا حرفي ماهرٌ وأطفالي جائعون. سمعت أنّه لديكم مقلعٌ»، قال توم ثمَّ حبسَ أنفاسَه.

«لدينا مقلع، ولكن لا أعتقد أننا بحاجةٍ إلى مزيد من العاملين في المقلعِ»، قال ماثيو، وحدَّقَ إلى الإيرلِ الذي هزَّ رأسهُ بطريقةٍ بالكادِ ترى.

«لا»، قال ماثيو. «لا يمكننا منحكَ عملاً».

لم يكن الرفضُ ما فطرَ قلبَ توم بل سرعتهُ. لو أنَّ الناس تصرفوا برويةٍ، وأخذوا وقتهم في التفكيرِ ثمَّ رفضوه بأسى ربما كان تحمّلَ مرارةَ الرفضِ بسهولةٍ أكبر. لم يبدُ ماثيو كرجلٍ قاسي القلبِ، ولكنه كان مشغولاً، وتوم وعائلتُهُ الجائعة مجرَّد تفصيلٍ يمكنُ تجاوزهُ بأسرعِ ما يمكن.

قال توم في يأسٍ: «يمكنني القيام ببعضِ الإصلاحاتِ في القلعةِ».

«لدينا صانعٌ يقوم بهذا العملِ»، أجابَ ماثيو.

عادةً ما يكون الصانعُ متمرساً في كلِّ الحرفِ، ولكنه مدربٌ بشكلٍ أساسي كنجارٍ.

«أنا بنَّاء وجدراني متينة»، قال توم.

بدا ماثيو متضايقاً من توم لأنَّه يجادل، وكادَ يتفوهُ بشيءٍ ما من الغضبِ، ولكنه نظرَ إلى الأطفالِ، ورَّقت معالمُ وجهه مجدداً. «أرغبُ بإعطائكَ عملاً ولكننا لا نحتاج إليكَ».

أومأ توم برأسهِ فقد كان عليهِ الآن وبكلِّ تواضعٍ أن يقبلَ بما قالَهُ الوكيل، ويتضرع من أجلِ وجبةٍ ومكانٍ لقضاءِ الليلةِ، ولكن إيلين كانت بجانبهِ، وانتابه الخوفُ من أن تتركه إن سمعته يتضرع ولذلك جرَّب حظَّه مرّةً أخرى، وقال بصوتٍ عالٍ بما يكفي ليسمعه لإيرل: «آمل أنكم لا تتوقعون حدوث معركةٍ قريبةٍ».

كان التأثير الذي تركه كلامُ توم مدوياً بل وأكثر مما توقع؛ فقد بوغتَ ماثيو، ونهضَ الإيرل على قدميهِ ثمَّ قالَ بحدَّةٍ: «ولماذا تقول هذا؟»

فهمَ توم أن كلامه قد لامسَ وتراً حساساً فقال: «لأنَّ دفاعاتكَ في حالةٍ سيئةٍ».

«سيئةً كيف؟» سأل الإيرل وتابع: «فلتكن واضحاً يا رجل!»

أخذَ توم نفساً عميقاً. كان الإيرلُ الآن مهتاجاً، وكله آذان صاغية، ولن يحصلَ توم على فرصةٍ أخرى غير هذهِ الفرصةِ. «إن ملاطَ جدرانِ بيتِ الحارس متخلخلٌ، وهذا يعني أنَّ السهامَ ستنفذُ منه، ويمكن للعدو أن يحرِّكَ حجراً أو حجرين، وحالما يفتح فجوةً سيسهلُ عليهِ هدمُ الجدارِ. علاوةً على هذا...» وتابع توم بأنفاسٍ مبهورةٍ قبلَ أن يُدلي أحدٌ بتعليقٍ أو يُجادل. «جميعُ حجارةِ سطحِ السورِ مدمرة، والسطحُ مستوٍ في أغلبهِ، وهذا سيترك الرماة والفرسان غير محميين من...»

«أعلمُ ما فائدةُ حجارةِ السورِ»، قاطعه الإيرل باهتياجٍ. «وهل هناك أمرٌ آخر؟»

«أجل، لسردابِ القلعةِ بابٌ خشبي. وإن كنتُ سأهاجمُ القلعة سأدخلُ من ذلكَ الباب، وأشعلُ النارَ في المخازنِ».

«وإن كنتَ الإيرل ما الذي ستفعله لمنع هذا؟»

«سأضع كومةً من الحجارةِ الجاهزةِ، وحملاً من الرملِ والكلسِ لصنعِ الملاطِ، وسأستعين ببنَّاءٍ على أهبةِ الاستعدادِ لسدِّ البابِ في وقتِ الخطرِ».

حدَّقَ بارثيميلو إلى توم بعينين حادتين، وتقطيبةٍ على جبهتهِ. عجزَ توم عن فهمِ تعابير وجههِ. هل كان غاضباً من توم لأنَّه انتقدَ دفاعات القلعةِ؟ لا يمكن للمرءِ أن يتكهن بردِّ فعلِ اللوردات على النقد، عموماً من الأفضلِ تركُ السادةِ لأخطائهم، ولكن توم كان يائساً.

في النهاية بدا الإيرل كأنَّه وصلَ إلى قرارٍ فاستدار نحو ماثيو وقال: «فلتستعن بهذا الرجل».

وهنا شعرَ توم بشهقةِ تهليلٍ تكادُ تفلتُ من فمهِ، ولكنه ابتلعها. لم يكن قادراً على تصديق ما حدث. نظرَ إلى إيلين، وتبادلا الابتسامات، أمَّا مارثا التي لم تعانِ خيبات البالغين فقد صرخت: «يييه!»

أشاحَ الإيرل بارثيميلو بنظرهِ، وبدأ يتحدث إلى فارسٍ قريبٍ منه. ابتسم ماثيو لتوم وسأله: «هل تناولت الغداء اليوم؟»

ابتلعَ توم ريقه فقد كان سعيداً جداً إلى درجةٍ كاد يبكي معها ولكنه قال: «لا، لم نتناول الغداء بعد».

«سآخذك إلى المطبخ».

وبحماسةٍ لحقوا جميعاً بالوكيلِ خارجَ القاعةِ، وعبروا الجسرَ إلى المُجمع السفلي للقلعةِ باتجاهِ المطبخِ الذي كان بناءً خشبياً كبيراً بقاعدةٍ حجريةٍ. طلبَ منهم ماثيو الانتظار خارجاً. فاحت في الأجواءِ رائحةٌ زكيةٌ؛ فقد كانوا يُعدون المخبوزات في الداخلِ. شعرَ توم بمعدتهِ تقرقر، وبلعابهِ يسيلُ إلى درجةٍ مؤلمةٍ. بعد وهلةٍ خرجَ ماثيو مجدداً مع إبريقٍ كبيرٍ من الجعةِ ناوله إلى توم ثمَّ قال: «سيحضرونَ بعضَ الخُبزِ واللحمِ المقددِ بعد قليل»، ثمَّ غادرَ.

تجرَّعَ توم الجعة من الإبريقِ ثمَّ ناوله إلى إيلين التي أعطت البعضَ منه إلى مارثا ثمَّ شربت مرَّةً أخرى، وناولته إلى جاك. حاولَ آلفريد أن يمسكَ بالإبريقِ قبلَ أن يمسكَ بهِ جاك، ولكن جاك استدار، وأبعدَ الإبريق عن متناولِ آلفريد. لم يكن توم راغباً بنشوبِ شجارٍ آخر بين الأطفال، وكان على وشكِ التدخلِ خارقاً بوضوحٍ قاعدتَهُ الخاصة حول عدم التدَخّلِ في شجارات الأطفالِ، ولكن جاك استدار مجدداً، وبكلِّ لطفٍ قدَّمَ الإبريقَ إلى آلفريد.

وضعَ آلفريد الإبريق على فمهِ وبدأ يشرب. لم يكن توم قد شربَ سوى القليل، ولذلك اعتقدَ أن الدورَ سيصلُ إليهِ مجدداً، ولكنه رأى أنَّ آلفريد قد وضعَ نصبَ عينيه إنهاءَ الجعةِ حتَّى آخر قطرةٍ، ثمَّ حدثَ أمرٌ غريبٌ. فبينما كان آلفريد يرفعُ الإبريق عالياً ليشرب كل ما فيه من جعةٍ فإنّ ما يشبه الحيوان الصغير سقطَ على وجههِ.

أطلقَ آلفريد صيحةَ رعبٍ، وأوقعَ الإبريقَ ثمَّ دفعَ بالحيوان ذي الفراءِ بعيداً عن وجههِ، وتراجع إلى الوراء يصرخُ عالياً: «ما هذا؟» ووقعَ الحيوان على الأرضَ. حدَّقَ آلفريد إلى الأرض ممتقعَ الوجهِ، مرتجفاً من التقززِ.

نظروا جميعاً إلى الأرضِ. كان الطائر الصغير الميت.

التقت نظراتُ توم بنظراتِ إيلين، وكلاهما نظر إلى جاك. كان جاك قد أخذَ الإبريقَ من إيلين وأدارَ ظهره كأنّه يحاول تفادي آلفريد ثمَ قدَّمَ الإبريقَ إلى آلفريد بطواعيةٍ مفاجئةٍ...

وها هو الآن يقفُ بهدوءٍ ينظرُ إلى آلفريد المذعور، وشبحُ ابتسامة رضا على وجههِ الفتي والذكي.

***

علمَ جاك أنَّه سيدفع ثمن فعلتهِ.

سيأخذ آلفريد بثأرهِ بطريقةٍ ما، وعندما يكون الآخرون غافلين قد يلكمه في بطنهِ؛ فقد كانت هذهِ ضربتَهُ المفضلة لأنَّها تؤلم جداً، ولا تترك آثاراً. كان جاك قد رآه يفعل هذا بمارثا مرَّاتٍ عديدةٍ.

ولكن رؤيةَ الصدمةِ والخوفِ على وجهِ آلفريد عندما سقطَ الطائرُ الميتُ على وجههِ تستحق كل ألمِ اللكمةِ في البطنِ.

كرهَ آلفريد جاك، وكانت هذهِ التجربة جديدة على جاك. لطالما أحبَّته والدتهُ، ولم يبادله أحدٌ آخر أيَّ شعورٍ آخر. لم يكن هناك سببٌ واضحٌ ومباشرٌ لعدائيةِ آلفريد تجاه جاك لأنَّه كان عدائياً أيضاً تجاه مارثا؛ فهو على الدوام يقرصها، أو يشدها من شعرها، أو يجعلها تتعثر وتقع، ويتحين أيَّة فرصةٍ لتدميرِ ما هو عزيزٌ عليها. لاحظت والدة جاك ما يجري وكرهته، ولكن بالنسبةِ إلى والدِ آلفريد بدا الأمرُ طبيعياً تماماً على الرغم من أنَّه رجلٌ لطيفٌ ودمثٌ، ومن الواضحِ أنَّه يحبُّ مارثا. شعرَ جاك بالحيرةِ، وبالذهولِ أيضاً، من الأمرِ برمتهِ.

كان كلُّ شيءٍ مذهلاً، ولم يحظَ جاك بمثلِ هذهِ المتعةِ في حياتهِ قط. وباستثناءِ آلفريد، والجوعِ معظمَ الوقتِ، والألمِ الذي شعرَ بهِ لأنَّ والدتهُ تولي توم اهتماماً أكبر، كانَ جاك مسحوراً بهذا الدفق المستمرِ من الأعاجيبِ، والتجاربِ الجديدةِ.

كانت القلعة آخر هذهِ الأعاجيب على الرغمِ من أنَّه سمعَ عنها قبلاً. في الليالي الشتائيةِ الطويلةِ في الغابةِ علّمته والدته كيفَ يُنشد قصائد بالفرنسية تتحدث عن فرسانٍ وسحرةٍ، وتتألفُ معظمُ هذهِ القصائد من آلافِ الأبياتِ، وتُذكرُ فيها القلاع كملاذٍ من الخطرِ، أو أماكن لتبادلِ الحبِ، ولأنَّه لم يرَ قلعةً في حياتهِ؛ فقد تخيلَ أنَّها أكبرُ بقليلٍ من الكهفِ الذي عاشَ فيهِ، ولكن عندما رآها على أرضِ الواقعِ ذُهل من حجمها الكبير جداً، وكثرةِ الأبنيةِ والناس فيها، وكيف أنَّ جميعهم بدوا مشغولين جداً بتركيبِ حدواتِ الجيادِ،

أو سحبِ الماءِ من البئرِ، أو إطعامِ الدجاجِ، أو صُنعِ الخُبزِ، أو نقلِ أشياء كالقشِّ من أجلِ الأرضياتِ والحطبِ من أجلِ المواقدِ، وأكياسِ الطحينِ، وأكداسِ القماشِ، والسيوفِ، والسروجِ، والدروع المعدنيةِ. أخبره توم أنَّ الخندقَ والسورَ ليسا جزءاً طبيعياً من المنظرِ بل من صنعِ عشرات الرجال. لم يشكك جاك في صحةِ كلامِ توم، ولكنه عجز عن تخيلِ أمرٍ كهذا.

عندَ نهايةِ الظهيرةِ توقف العمل بسببِ الظلامِ الشديد، وتحرّك جميع الناس المشغولين باتجاهِ القاعةِ العظيمةِ في القلعةِ حيث أُشعِلت مصابيحُ صغيرةٌ، وغُذيت النيرانُ في المواقدِ، ودخلت جميع الكلابِ إلى الداخلِ هرباً من البردِ. أخذَ بعضُ الرجال والنساء ألواحاً، وحوامل، ومصاطب من كومةٍ في طرفِ الغرفةِ، ونصبوا طاولاتٍ على شكلِ حرفِ (T) ومقاعد على الجوانبِ. لم يرَ جاك قبلاً مثلَ هذا العددِ من الناسِ يعملون معاً، وصعقَ عندما رآهم مستمتعين بهذا. ابتسموا، وضحكوا، وهم يرفعون الألواحَ الثقيلةَ ويصحيون: «هيَّا»، ويقولون: «لي، لي»، و«إلى أسفل بهدوء، الآن». حسدهم جاك على الروح الرفاقية التي كانت بينهم، وتساءل في نفسهِ إن كان سيحظى بهذا في يومٍ من الأيامِ.

بعدَ برهةٍ جلسَ الجميعُ على المقاعد، وقام أحدُ خدمِ القلعةِ بتوزيعِ أوعيةٍ خشبيةٍ كبيرةٍ، وملاعق خشبية، وهو يعدُّ بصوتٍ عالٍ ثمَّ أعادَ الكرَّة، وهو يضعُ قِطعاً سميكةً من الخبزِ البني البائت في قعرِ كلِّ صحنٍ، بينما جلبَ خادمٌ آخر أكواباً خشبيةً، وملأها بالجعةِ من أباريق كبيرة. جلسَ جاك ومارثا وآلفريد في آخرِ صفِ المقاعدِ، وحصلَ كلُّ واحدٍ منهم على كوبٍ من الجعةِ، ولذلك لم يكن من داعٍ للشجارِ على الحصصِ هذهِ المرة. التقطَ جاك كوبهُ ولكن والدته طلبت منه أن ينتظر قليلاً.

عندما سُكبت الجعةُ في الأكوابِ هدأت الضجةُ في القاعةِ. انتظرَ جاك في ذهولٍ كعادتهِ مُراقباً ما سيحدث. بعد برهةٍ ظهرَ الإيرل بارثيميلو على الدرجِ قادماً من غرفةِ نومهِ. توجهَ إلى القاعةِ برفقةِ الوكيل ماثيو، وثلاثة أو أربعة رجالٍ آخرين حسني الهندامِ، وفتى، ومخلوقٍ لم يرَ جاك أجمل منه في حياتهِ.

لم يكن واثقاً من أنَّها فتاة أو امرأةً. كانت في ثوبٍ أبيض، وكمّا عباءتها

الواسعة والجميلةِ جداً تصلان حتَّى الأرضِ، وتتحركُ خلفها على الدرجِ. كان شعرها كتلةً من الخصلِ الداكنةِ، والمتراقصةِ حولَ وجهها أمَّا عيناها فكانتا شديدتي الدُكنةِ. عندما رآها جاك أدركَ تماماً ما الذي عنته القصائدُ الفرنسية عندما تحدثت عن أميرةٍ في قلعةٍ، وقررَ أنَّه لا عجبَ من أنَّ الفرسان بكوا عند وفاتها.

عندما وصلَت إلى أسفلِ الدرجِ لاحظ جاك أنَّها صغيرةٌ في العمرِ، وقد تكون أكبر منه ببضعة أعوامٍ، إلَّا أنَّها رفعت رأسها عالياً، وتوجهت إلى رأسِ الطاولةِ كالملكةِ ثمَّ جلستْ بجانبِ الإيرل بارثيميلو.

«من تكون؟» همسَ جاك.

أجابت مارثا: «لا بدَّ أنَّها ابنة الإيرل».

«ما اسمها؟»

هزَّت مارثا كتفيها، ولكن فتاةً بوجهٍ قذرٍ تجلسُ بجانبِ جاك أجابت: «تدعى آليانا، وهي رائعة».

رفعَ الإيرل كوبَهُ نحو آليانا ثمَّ ببطءٍ ألقى نظرةً من حوله، وشربَ. كانت هذهِ الإشارةُ التي انتظرها الجميع الذين فعلوا ما فعلهُ الإيرل، ورفعوا أكوابهم ثمَّ شربوا.

أُحضرَ العشاء في قدور كبيرةٍ تغلي. قُدِّمَ الطعام أولاً إلى الإيرلِ ثمَّ إلى ابنته ثمَّ إلى الصبي ثمَّ إلى الرجالِ الآخرين الجالسين إلى رأسِ الطاولةِ، أمَّا البقية فقد سكبوا الطعام لأنفسهم. قُدِّمت يخنةُ السمكِ المملحِ، وقد ملأ جاك وعاءَهُ، والتهمه دفعةً واحدةً ثمَّ أخذَ شريحةَ الخبزِ المنقوعِ بالحساءِ الدسمِ في أسفلِ الوعاءِ. وبين كلِّ قضمةٍ وأخرى ألقى نظرةً على آليانا مسحوراً بكلِّ شيءٍ تقوم بهِ، بالطريقةِ الأنيقةِ في وضعِ قطعِ السمكِ على طرفِ السكين ثمَّ وضعها بينَ أسنانها البيضاء، إلى نبرتها الآمرة وهي تعطي التعليمات إلى الخدمِ. بدت محبوبةً من الجميع، وكانوا يسرعون حالما تنادي، ويبتسمون عندما تتحدث، ويهرعون إلى تنفيذ ما تطلبهُ. لاحظَ جاك أنَّ الشبان على الطاولةِ نظروا إليها كثيراً، وبعضهم بدأ بالتبجح عندما اعتقدوا أنَّها تنظرُ في اتجاههم، ولكن اهتمامها الرئيسي كان مُنصباً على الرجال الأكبر، وعلى والدها، وحرصت على أن يكون لديهم ما يكفي من الخبزِ والنبيذ،

وطرحت عليهم الأسئلة، وأصغت بعنايةٍ إلى أجوبتهم. تساءلَ جاك في نفسهِ عن شعورِ التحدثِ إلى أميرةٍ جميلةٍ، وأن تنظرَ إلى المرءِ بعينيها الداكنتين الكبيرتين وهو يجيبها.

بعد انتهاءِ العشاءِ عُزفت الموسيقى. كان هناك رجلان وامرأة يعزفون على أجراسِ الماعزِ، وطبلٍ ومزمار مصنوعٍ من عظام الحيوانات والطيور. أغمضَ الإيرل عينيهِ، وبدا مأخوذاً بالموسيقى، ولكن جاك لم يُحب الأنغامَ الشجيةَ والحزينةَ، فقد كان يُفضل الأغاني المرحة التي تغنيها والدته. لاحظَ أنَّ بقيةَ الناسِ في القاعةِ شاركوه الشعور فقد تململوا في أماكنِهم، وسادَ شعورٌ بالراحةِ عندما انتهى العزف.

تمنَّى جاك لو أنَّه يرى آليانا عن كثبٍ، لكن ولخيبةِ أملهِ غادرت الغرفةَ بعدَ انتهاءِ الموسيقى، وصعدت الدرجَ إلى الطابقِ العلوي حيثُ لا بدَّ أنَّها تملكُ غرفةَ نومٍ خاصة بها.

لعبَ الأطفال وبعضُ البالغين بالشطرنجِ ولعبةِ الطاحونةِ حتَّى حلولِ المساء، أمَّا الكادحون من الحاضرين فقضوا الوقتَ في صنعِ الأحزمةِ، والقبعاتِ، والجواربِ، والقفازاتِ، والأوعيةِ، والصفَّاراتِ، وأحجارِ النردِ، والمجارفِ، والسياطِ. لعبَ جاك بضعةَ أدوارِ شطرنج، وفاز في كل دورٍ منها، ولكن الجنود غضبوا لأنَّ طفلاً هزمَهم في اللعبةِ إلى أن أجبرته والدتُه في النهايةِ على التوقفِ عن اللعبِ. طافَ في أرجاءِ القاعةِ يُصغي إلى المحادثات المختلفةِ، ولاحظَ أنَّ البعضَ تحدثَ برزانةٍ عن الحقولِ، والحيواناتِ، أو عن الأساقفةِ، والملوكِ في الوقتِ الذي كان فيه آخرون يضايقون بعضهم بعضاً، أو يتبجحون، أو يروون حكايا مضحكة. وجدَ جاك جميعَ هذهِ الأحاديث مثيرةً للاهتمامِ.

في نهايةِ المطافِ أُطفئت المشاعل، وصعدَ الإيرل إلى غرفةِ نومهِ، وهنا ما يقاربُ الستين أو السبعين شخصاً تلفَّعوا بعباءاتهم، واستلقوا على الأرضيةِ المفروشةِ بالقشِّ للنومِ.

وكعادتها استلقت والدته مع توم تحت عباءةِ توم الكبيرةِ، وعانقته بتلكَ الطريقةِ التي اعتادت بها على معانقةِ جاك عندما كان صغيراً. راقبهما جاك بحسدٍ، وكان بوسعهِ سماعهما يتحدثان بهدوءٍ ثمَّ سمعَ والدته تطلقُ ضحكةً

خفيضةً وحميمةً. بعد وهلةٍ بدأ جسداهما بالتحركِ بتناغمٍ تحت العباءةِ. في المرَّةِ الأولى التي رآهما فيها جاك يقومان بهذا اضطربَ كثيراً، واعتقدَ، أيَّاً كان ما يفعلانهِ، فهو مؤلمٌ، ولكنهما كانا يقبلان بعضهما بعضاً، وهما يفعلان هذا، ورغمَ أنَّ والدته كانت تئنُّ إلَّا أنَّه حزرَ أنَّها تئنُّ من المتعةِ. ترددَ في سؤالها عن الأمرِ، ولم يعرف سبباً لتردده، والآن بعد أن بدأت النارُ تنطفئ رأى زوجين آخرين يقومان بالأمرِ عينهِ، ووصلَ إلى الاستنتاجِ أنَّ الأمرَ طبيعي، واعتبره مجرَّد لغزٍ آخر من الألغاز التي تحيطُ بهِ ثمَّ غطَّ في النومِ.

***

استيقظَ الأطفالُ باكراً في صباحِ اليوم التالي، ولكن لم يكن يُسمح بتقديمِ الفطورِ قبلَ القداسِ، ولا يمكن إجراءُ القداسِ قبلَ نهوضِ الإيرلِ من النومِ، ولهذا تحتمَ عليهم الانتظارُ. جنَّدهم خادمٌ ينهضُ باكراً لجلبِ الحطبِ من أجلِ اليومِ. همَّ البالغون بالنهوضِ حالما بدأ هواء الصباحِ الباردِ بالدخولِ من البابِ. عندما انتهى الأطفال من مهمةِ إحضارِ الحطبِ التقوا بآليانا.

كانت تهبطُ الدرجَ كما فعلت البارحة غيرَ أنَّها بدت مختلفةً فقد ارتدت سترةً قصيرةً، وجزمةً من اللباد، وقد ربطت خصلات شعرها إلى الوراءِ بشريطٍ كاشفةً عن تضاريسِ فكها الجميل، وأذنيها الصغيرتين، وعنقها الأبيض، أمَّا عيناها الكبيرتان والداكنتان اللتان بدتا رزينتين، وناضجتين البارحةَ فكانتا تشعان الآن بالمرحِ، وكانت هي نفسها تبتسمُ. كان برفقتها الفتى ذاته الذي جلسَ إلى الطاولةِ بجانبها وبجانبِ الإيرلِ الليلةَ الماضيةَ. بدا الفتى أكبر من جاك بعامٍ أو عامين، ولكنه لم يكن مكتملَ النضجِ كآلفريد. نظرَ الفتى بفضولٍ إلى جاك ومارثا وآلفريد، ولكن آليانا من تحدثت: «من تكونون؟»

أجاب آلفريد: «والدي البنَّاء الذي سيقوم بإصلاحِ القلعةِ. أنا آلفريد وهذهِ أختي مارثا وهذا جاك».

عندما اقتربت ذُهلَ جاك من رائحةِ الخزامى التي تضوعُ منها، وتساءل في نفسهِ كيفَ يمكن لأحدٍ أن تكون له رائحة زهورٍ.

«كم عمركَ؟» سألت آليانا آلفريد.

«أربعةَ عشرَ عاماً»، ورأى جاك أن آلفريد بدا مسحوراً بها ولكن بعدَ وهلة نجحَ في سؤالِها: «كم عمركِ؟»

«خمسةَ عشرَ. هل ترغبون ببعضِ الطعام؟»

«أجل».

«رافقوني».

لحقَ الجميعُ بآليانا خارجَ القاعةِ، وهبطوا الدرجَ.

قال آلفريد: «ولكنهم لا يقدمون الفطورَ قبلَ القداسِ».

«إنهم يفعلون ما أطلبه منهم»، قالت آليانا، وقامت بحركةٍ سريعةٍ برأسها.

قادتهم عبرَ البرجِ إلى المُجمع السفلي، وطلبَت منهم أن ينتظروا خارجَ المطبخِ ثمَّ دخلت. همست مارثا لجاك قائلةً: «أليست جميلة؟» وأومأ جاك برأسِهِ على نحو أخرق. خرجت آليانا بعد برهةٍ مع إبريقٍ من الجعةِ، ورغيفٍ من الخبزِ. قسَّمت الخبزَ إلى أجزاءٍ، ووزعتهُ ثمَّ مررت الإبريق بين الجميعِ.

بعدَ برهةٍ قالت مارثا بحياءٍ: «أينَ والدتكِ؟»

«والدتي متوفاة»، أجابت آليانا باقتضابٍ.

«ألستِ حزينة؟» سألت مارثا.

«كنتُ حزينة ولكن هذا حدث منذُ وقتٍ طويلٍ». وأشارت إلى الصبي بجانبها بحركةٍ من رأسها ثمَّ قالت: «إنَّ ريتشارد لا يتذكر ذلك حتى».

واستنتجَ جاك أنَّ ريتشارد شقيقها.

«توفيت أمي أيضاً»، قالت مارثا واغرورقت عيناها بالدموعِ.

«متى توفيت؟»

«الأسبوعَ الماضي».

لاحظَ جاك أنَّ آليانا لم تبدُ متأثرةً جداً بدموعِ مارثا إلَّا أنَّ هذا كان قناعاً أخفت تحتَهُ حزنها.

قالت آليانا على حينِ غرةٍ: «حسناً، من تكون المرأةُ التي برفقةِ والدكِ إذاً؟»

وقال جاك بحماسةٍ: «إنَّها والدتي». كان سعيداً جداً لأنَّه امتلكَ شيئاً ليقوله لها.

التفتت آليانا نحوه، ونظرت إليه للمرةِ الأولى ثمَّ قالت: «حسناً، وأين والدكَ؟»

«ليسَ لدي أبٌ»، أجابها وكان متحمساً جداً لمجرد أنَّها تنظر إليهِ.

«هل توفي أيضاً؟»

«لا»، قال جاك. «لم يكن لي أبٌ قط».

سادَ الصمتُ بُرهة ثمَّ انفجرت آليانا، وريتشارد، وآلفريد في الضحكِ. شعرَ جاك بالحيرةِ، ونظرَ ببلاهةٍ نحوهم، وعلا ضحكهم أكثر إلى أن بات يشعرُ بالحرجِ. تساءل في نفسهِ ما هو المضحك في عدمِ امتلاكِ أبٍ، حتَّى مارثا ابتسمت ويبدو أنَّها نسيت دموعها.

قال آلفريد بسخريةٍ: «ومن أين أتيتَ إذاً إنْ لم يكن لديكَ أبٌ؟»

«من والدتي. كلُّ الكائناتِ الصغيرةِ تأتي من أمهاتها»، قال جاك بحيرةٍ. «ولكن ما شأن الآباء في هذا؟»

وضحكوا أكثر هذهِ المرة ثمَّ أخذَ ريتشارد يقفز بمرحٍ مشيراً إلى جاكٍ بإصبعهِ في هزءٍ. قال آلفريد لآليانا: «لا يعرف شيئاً فقد وجدناه في الغابةِ».

واشتعلت وجنتا جاك من الخجلِ. كان سعيداً جداً بالحديثِ مع آليانا، وها هي الآن تعتقدُ أنَّه أحمق، وجاهلٌ قادمٌ من الغابةِ، ولكن أسوأ ما في الأمرِ هو أنَّه لم يفهم الخطبَ في الأمرِ حتَّى الآن. رغبَ بالبكاءِ، وزاد هذا من سوءِ الموقفِ. علَقَ الخبزُ في حلقهِ، ولم يتمكن من بلعِهِ. نظرَ إلى آليانا بوجهها النابضِ بالحياةِ والمستمتعِ، وشعرَ أنَّه لم يعد قادراً على تحملهِ فرمى بالخبزِ أرضاً، وغادرَ.

هامَ جاك على وجههِ إلى أن وصلَ إلى أطرافِ سورِ القلعةِ، وصعدَ منحدراً عالياً إلى قمتهِ، وهناك جلسَ على الأرضِ الباردةِ يحدقُ وراءَ السورِ، ويشعر بالأسى على نفسهِ وبالكرهِ نحو آلفريد وريتشارد، بل حتّى نحو مارثا وآليانا، وقررَ في صميمهِ أنَّ الأميرات قاسيات.

قُرِعَ الجرس إيذاناً بموعدِ القداسِ. كانت الطقوسُ الدينيةُ لغزاً آخر بالنسبةِ إليه، وفي لغةٍ لم تكن إنكليزية ولا فرنسية غنَّى الكهنةُ، وتحدثوا إلى تماثيل وصورٍ بل حتَّى إلى كائناتٍ غير مرئيةٍ أبداً. كانت والدتهُ تتجنبُ الذهابَ إلى مثلِ هذهِ المراسم قدرَ الإمكان، وبينما توجه سكانُ القلعةِ إلى الكنيسةِ هرعَ جاك إلى أعلى السورِ، وجلسَ في مكانٍ بعيدٍ عن الأنظارِ.

أحاطَت بالقلعةِ حقولٌ منبسطةٌ وجرداء، وحدودُ غابةٍ بعيدةٍ في الأفقِ. رأى زائرين مُبكرين يتوجهان إلى القلعةِ، وغيوماً رمادية في السماءِ، وتساءل في نفسهِ إن كانت ستثلج.

رأى زائرين مُبكرين آخرين. كانا على صهوةِ جوادين، وينطلقان بسرعة نحو القلعةِ، وقد تجاوزا الزائرين اللذين كانا قبلهما. عبرَ الرجلان بجواديهما الجسرَ الخشبي باتجاه منزلِ الحارسِ. كان على جميع الزوارِ، أيًا يكن السبب الذي أحضرهم إلى القلعةِ، أن ينتظروا انتهاءَ القداس قبلَ السماحِ لهم بمتابعةِ السيرِ فالجميع في القداسِ باستثناءِ الحُرَّاسِ.

وباغته صوتٌ قريبٌ فجفلَ في مكانه: «إذاً، أنتَ هنا». كانت والدته. التفتَ إليها ولاحظت على الفورِ أنَّه متضايق فسألته: «ما الأمر؟»

أراد أن يحتضنها ولكنه تمالكَ نفسهُ وقال: «هل لدي أبٌ؟»

«أجل»، قالت له. «الجميع يملكون آباءً». وركعت بجانبهِ.

أشاحَ بوجههِ بعيداً. إذاً الإحراج الذي تعرضَ له من فعلها؛ فهي لم تخبره يوماً عن والدهِ. «ما الذي حدث له؟» سألها.

«لقد توفي».

«عندما كنتُ صغيراً؟»

«قبل أن تولدَ».

«كيف له أن يكون والدي إن توفي قبلَ ولادتي؟»

«ينمو الأطفال من بذرةٍ، وتلك البذرة تأتي من عضو الرجلِ، وتُزرع في فرجِ المرأةِ، وتنمو البذرةُ لتتحولَ إلى طفلٍ في بطنِها ثمَّ عندما يصبح الطفلُ جاهزاً يخرج».

لزمَ جاك الصمتَ لبرهةٍ ليستوعب كلَّ هذهِ المعلومات التي سمعها. كانت لديه شكوكٌ حيالَ علاقةِ الأمرِ بما تفعلهُ والدته وتوم ليلاً.

«هل سيزرعُ توم بذرةً في داخلكِ؟» سألها.

«ربما».

«إذاً، سيكون لديك طفلٌ جديدٌ».

أومأت برأسها وقالت: «سيكون لديكَ أخٌ، ألا ترغبُ بهذا؟»

«لا أهتم»، قال لها. «ألا يكفي أن توم أخذكِ مني، فما الفرق الذي سيُحدثه وجود أخٍ؟»

أحاطَتهُ بذراعيها وعانقته ثمَّ قالت: «لن يأخذني أحدٌ منكَ».

وشعرَ جاك بشعورٍ أفضل.

جلسا معاً لبرهةٍ ثمَّ قالت له: «الطقسُ باردٌ هنا، فلنذهب ونجلس قربَ النارِ إلى أن يجهزَ الفطورُ».

أومأ برأسهِ ثمَّ نهضا، وعبرا سورَ القلعةِ، ونزلا منحدره ركضاً باتجاهِ المجمعِ. لم يلمح جاك أثراً للزوار الأربعة وهذا يعني أنَّهم ربما دخلوا الكنيسةَ.

وبينما كان جاك ووالدتهُ يعبران الجسرَ باتجاه المُجمعِ العلوي سألَ جاك: «وما كان اسم والدي؟»

«جاك وأنتَ تحملُ اسمه»، قالت له. «كانوا يطلقون عليه اسم جاك تشيربورغ».

وبثَّت فكرةُ أنَّه يحملُ اسم والدِهِ السرورَ في قلبِهِ. «إن كان اسم والدي جاك يمكنني أن أخبر الناس أنني جاك جاكسن[1]».

«يمكنكَ. قد لا يناديك الناسُ بالاسم الذي تريدهم أن ينادوكَ بِهِ، لكن بوسعكَ المحاولة».

أومأ جاك برأسِهِ فقد كان الآن يشعرُ على نحو أفضل. سيعتبر نفسه منذُ الآن جاك جاكسن، ولم يعد يشعر بالإحراجِ الآن؛ فهو الآن يعلمُ بأمرِ الآباءِ، ويعرف أنَّ اسم والدِهِ جاك تشيربورغ».

وصلا إلى بيتِ الحارسِ في المُجمعِ العلوي. لم يكن هناك حرسٌ، وتوقفت والدةُ جاك عابسةً ثمَّ قالت: «ينتابني شعورٌ عجيبٌ أنَّ أمراً غريباً يحدثُ». كان صوتها هادئاً وحيادياً، ولكن هناك شيئاً من الخوفِ فيهِ بعثَ الرعبَ في أوصالِ جاك، وانتابَهُ شعورٌ بقدومِ كارثةٍ.

تقدَّمت والدته باتجاه غرفةِ الحارسِ الصغيرة أسفلَ بيتِ الحارسِ، وبعد وهلةٍ سمعَها جاك تشهقُ، وهرعَ خلفها. كانت تقفُ في وضعيةِ شخصٍ مصدومٍ، ويدها على فمها، وتُحدّق إلى الأرض.

كانَ الحارسُ ممدداً على ظهرِهِ أرضاً، وذراعاه على كلا جانبيهِ لا تتحركان، وعنقهُ منحوراً وسطَ بركةٍ من الدماءِ الحديثةِ على الأرضِ من حولِهِ. لم يكن هناك مجالٌ للشكِ أنَّه ميتٌ.

1- سيُشار إلى جاك بعدَّةِ أسماء: جاك فيتزجاك، أو جاك جاكسن، أو جاك من كينغزبريدج. (المترجمة)

- 3 -

انطلقَ وليم هاملي ووالده في منتصفِ الليلِ مع ما يُقاربُ مئةَ فارسٍ وجندي على ظهور الجيادِ، وسارت والدته في المؤخرةِ. لا بدَّ أن هذا الجيشَ بمشاعلهِ وبوجوهِهِ المُلثمة في الليلِ البارد قد بثَّ الرعبَ في قلوبِ سكانِ القرى التي اندفعوا عبرَها باتجاه قلعةِ الإيرل. وصلوا إلى مفترقِ طرقٍ والليلُ ما يزال حالكاً، ومن هناك ترجلوا عن جيادهم، وقادوها سيراً كي ترتاح وكيلا تُصدر ضجةً. عندما انبلجَ الفجرُ تخفوا في الغابة التي تقع قبالةَ قلعة الإيرل بارثيميلو.

لم يُحصِ وليم جيداً عددَ المقاتلين في القلعةِ، وقد وبخته والدتهُ بلا رحمةٍ على فعلتهِ هذه رغمَ أنَّه حاولَ أن يوضح لها أنَّ الرجال الذين رآهم هناك إمَّا كانوا ذاهبين في مهماتٍ، أو عائدين من مهماتٍ بعد مُغادرتهِ؛ ولهذا لم يكن إحصاؤهم مجدياً، ولكن والده قال له إنَّ إحصاءهم على أيِّ حالٍ سيكون أفضل من لا شيءٍ. كان وليم قد أحصى ما يقاربُ الأربعين رجلاً، ولذلك إن لم يحدث تغيير كبير في العددِ خلالَ الساعاتِ القليلةِ الماضيةِ سيكون لجيشِ هاملي أفضلية مقاتلين مقابل مقاتلٍ.

بالطبعِ لم يكن عددهم كافياً لمحاصرةِ القلعةِ، ولكنهم وضعوا مخططاً لاحتلالها من دونِ حصارٍ. كانت المشكلةُ الحقيقيةُ هي أنَّ الجيش الغازي سيبدو كفرقةٍ استطلاعيةٍ، وبذلك ستُغلق القلعة أبوابها قبلَ أن يصلوا، وكان الحلُّ هو إيجاد طريقةٍ لتبقى أبوابُ القلعةِ مفتوحةً إلى أن يخرجَ الجيشُ من مخبأهِ في الغابةِ.

كانت والدةُ وليم من قدَّم لهم الحلَّ في نهايةِ المطافِ.

«إننا بحاجةٍ إلى مصدرِ إلهاءٍ»، قالت والدته وهي تحكُّ بثرةً في ذقنها. «شيءٌ ما يُرعبهم حتَّى لا يلاحظوا دخولَ الجيشِ حتَّى وقتٍ متأخرٍ. يمكننا أن نضرم ناراً».

قال اللورد بيرسي: «إن دخلَ غريبٌ ما، وأضرمَ ناراً فإنَّ هذا سيثير انتباههم».

«يجب القيام بالأمرِ خلسةً»، قال وليم.

«بالطبع يجب أن يكون خلسةً»، قالت والدتهُ بضيقٍ وأضافت: «يجب أن تقومَ بالأمرِ خلالَ حضورهم للقداسِ».

«أنا؟» قال وليم.

ترأسَ وليم الفرقةَ المتقدمةَ.

طلعَ الصباحُ ببطءٍ مؤلم، وشعرَ وليم بنفادِ صبرٍ وتوترٍ. خلالَ الليلِ كان هو ووالدته ووالدُه قد أضافوا إلى الخطةِ الأصليةِ، ولكن ما زال هناك احتمالٌ كبيرٌ أن تسوءَ الأمورُ؛ فقد لا تتمكن الفرقةُ المُتقدمةُ ولسببٍ من الأسبابِ من دخولِ القلعةِ، أو قد تثيرُ شكوكهم، أو قد لا يتمكنون من القيام بمهمتهم خلسةً، أو قد يُلقى القبضُ عليهم قبل أن يفعلوا أيَّ شيءٍ، وحتَّى إن نجحت الخطةُ ستقعُ معركةٌ حتماً، وستكون أولَ معركةٍ لوليم. سيُجرح الرجالُ، ويُقتلون، وقد يكون وليم من بين أولئك غير المحظوظين. شعرَ بألمٍ في بطنهِ من شدَّةِ الخوفِ. ستكون آليانا هناك، وستراه يُهزم. من جهةٍ أخرى، ستكون هناك أيضاً إن انتصرَ، وتخيلَ نفسهُ يقتحمُ غرفةَ نومها حاملاً سيفاً ملطخاً بالدماءِ، وعندها ستتمنى لو أنَّها لم تضحك عليهِ.

وأتى من بعيد صوت جرسِ القداسِ في القلعة.

أومأ وليم برأسهِ، وخرجَ رجلان من المجموعةِ ثمَّ سارا برفقةِ وليم عبرَ الحقولِ باتجاهِ القلعةِ. يُدعى الرجلان ريموند ورانولف، وكانا عنيفين وقويين، وأكبر من وليم بسنواتٍ. كان وليم قد اختارهما بنفسهِ؛ فقد أعطاه والدهُ السلطةَ الكاملةَ في هذا بما أنَّ الأول سيقود الهجومَ الأساسي.

شاهدَ وليم ريموند ورانولف يسيران بسرعةٍ عبرَ الحقولِ المتجمدةِ، وقبلَ أن يصلا إلى القلعة رمقَ وليم والتر بنظرةٍ، ووكزَ جوادهُ ثمَّ انطلقا عبرَ الحقول على جوادين يخبّان. سيرى الحرَّاس عندَ البابِ زوجين مختلفين من الناسِ، رجلين على ظهرِ جوادين، وآخرين راجلين يقتربون من القلعةِ مع بدايةِ الصباحِ. سيبدو الأمرُ عادياً وبريئاً.

كان توقيتُ وليم جيداً؛ فقد تجاوز ريموند ورانولف قبلَ أن يصلَ الأخيران إلى القلعةِ بمئةِ ياردةٍ، وعند الجسرِ نزلَ وليم ووالتر عن جواديهما. كان قلب وليم يخفق بسرعةٍ من شدةِ التوترِ. إن أفسدَ هذا الجزء من الخطةِ سينتهي أمرُ الهجومِ.

وجدَ وليم حارسين عند البوابةِ، وساورهُ شكٌ كابوسي أن يكون هناك كمينٌ من نوعٍ ما، وأن تخرج مجموعةٌ من الجنودِ من مخابئها ويقطعونه إرباً. بدا الحارسانَ يقظين، ولكن غير مرتابين، وكانا يرتديان درعيهما، وبدورهما وليم ووالتر ارتديا سترتين من الزردِ تحتَ عباءتيهما.

شعرَ وليم بالألمِ في أمعائهِ وأنَّه لم يعد قادراً على ابتلاعِ لعابهِ. عرفه أحد الحارسين وحيَّاه بمرحٍ: «مرحباً أيُّها اللورد وليم، هل أتيتَ للتوددِ إلى الليدي مجدداً؟»

قال وليم بصوتٍ ضعيفٍ: «يا إلهي!» ثمَّ غرزَ خنجراً في بطنِ الحارسِ، وسحبهُ حتَّى قفصِه الصدري باتجاه قلبهِ.

شهقَ الرجلُ، وارتخى فاتحاً فمهُ كأنَّه أرادَ الصراخَ. كانت إثارةُ أيَّة ضجةٍ كفيلة بتدمير كلِّ شيءٍ، ومن رعبهِ سحبَ وليم خنجره، وغرزه في فمِ الرجلِ المفتوحِ، وأقحمهُ عميقاً في حلقهِ لإسكاتهِ، وبدلاً من الصرخةِ انبجسَ الدمُ من فمِ الرجلِ الذي أغلقَ عينيهِ الآن. سحبَ وليم خنجره، وسقطَ الرجلُ أرضاً.

كان جوادُ وليم قد جفلَ مذعوراً من الحركاتِ المفاجئةِ فأمسكَ وليم بلجامهِ، ونظرَ إلى والتر الذي كان قد قضى على الحارسِ الآخرِ، ولكن بمهارةٍ أكبر مما فعلَ وليم؛ فقد نحرَ عنقه وقتلهُ في صمتٍ. فكرَ وليم في نفسهِ أنَّه يجب أن يتذكر هذا في المرةِ القادمةِ التي يضطر فيها إلى قتل رجلٍ ثمَّ قال في نفسهِ: «لقد فعلتها! لقد قتلتُ رجلاً!»

وأدركَ أنَّه لم يعد خائفاً.

سلَّمَ وليم لجامَ الجوادِ إلى والتر، وصعدَ الدرجَ الحلزوني في بُرجِ الحارسِ. في الأعلى وجدَ بكرةً لسحبِ الجسرِ، وبسيفهِ قطعَ الحبلَ السميكَ. كانت ضربتان بالسيف كافيتين لقطعهِ ثمَّ ألقى وليم بالطرفِ الرخو للحبلِ من النافذةِ فوصلَ إلى حافةِ الخندقِ، وبدأ يتحرَّك بهدوءٍ، ومن دون إصدارِ أيَّةِ ضجةٍ. لا يُمكن رفعُ الجسرِ الآن في مواجهةِ جيشِ والدهِ، وكان هذا أحدَ التفاصيلِ التي أضافوها الليلة الماضية.

كان ريموند ورانولف قد وصلا إلى بيتِ الحارسِ عندما هبط وليم درجَ برج الحارسِ. كانت مهمتهم الأولى هي تدمير البوابةِ الكبيرةِ المصنوعةِ من خشبِ البلوط، والمرصوصةِ بالمعدنِ في الممرّ المقنطرِ الذي يصل الجسر

بالمُجمعِ. أخذَ كلُّ واحدٍ منهم مطرقةً خشبيةً، وإزميلاً وبدأوا بحفرِ الملاطِ المحيطِ، بالمُفصلاتِ المعدنيةِ للبوابةِ. كان صوتُ الطرق بالمطرقةِ على الإزميل مكموماً، ولكن بدا عالياً جداً إلى وليم.

سحبَ وليم الحارسين المقتولين إلى غرفةِ الحرسِ بسرعةٍ، ولأنَّ الجميع في القداسِ كانت فرصةُ عثورِ أحدٍ على الجثتين قبلَ الأوانِ ضعيفةً.

تناولَ وليم لجام جوادهِ من والتر، وخرجا من الممرّ المقنطرِ ثمَّ توجها عبرَ المجمعِ باتجاه الإسطبلاتِ. أجبرَ وليم نفسه على التحرك بطبيعيةٍ، وبخطواتٍ هادئةٍ، وهو يحدقُ خلسةً إلى الحراس في أبراجِ المراقبةِ. هل رأى أحدٌ منهم حبلَ الجسرِ المعلقِ يسقط في الخندقِ؟ هل كانوا يتساءلون عن مصدرِ صوتِ المطارقِ؟ كان بعضُ أولئكَ الحراس ينظرون إلى وليم ووالتر، ولكن لم يبدُ عليهم التوتر، ولا بدَّ أنَّ صوت الطرقِ الذي كان صداه في أذني وليم لم يصل إلى على الأبراجِ. شعرَ وليم بالراحةِ فقد كانت الخطة تسيرُ على ما يرام.

وصلا إلى الإسطبلاتِ، ودخلا ثمَّ ألقيا بلجامي جواديهما على عارضةٍ كيلا يهرب الجوادين ثمَّ أخذَ وليم حجرَ صوانٍ، وقدحهُ ليشعلَ النار في القشِّ على الأرضيةِ، ورغمَ أنَّ القشَّ في بعضِ الأماكن كان قذراً ورطباً فإنَّه بدأ يشتعل. أشعلَ وليم النارَ في ثلاثةِ أماكن أو أكثر، وفعلَ والتر الأمر عينه ثمَّ وقفا يراقبان الأمرَ لبرهةٍ. شمَّت الجياد رائحةَ الدخانِ، وبدأت تتحركُ بتوترٍ في مرابطها. بقي وليم واقفاً لبرهةٍ، وهو يفكر أنَّ النارَ قد اشتعلت، وأنَّ الخطة قد تنجح.

غادرَ وليم ووالتر الإسطبلَ، وتوجها إلى المجمعِ. عندَ البوابةِ، وتحتَ القنطرةِ اختبأ كل من ريموند ورانولف، وكانا ما يزالان يحفران الملاطَ حولَ المُفصلات. استدار وليم ووالتر باتجاه المطبخِ متظاهرين أنَّهما ذاهبان إلى هناك لتناولِ شيءٍ ما. لم يكن هناك أحدٌ في المجمعِ؛ فالجميعُ كان في القداسِ، وبشكلٍ عرضي نظرَ وليم إلى السورِ، ولاحظَ أن الحرسَ ينظرون باتجاه الحقولِ، وليسَ إلى داخلِ القلعةِ كما يجب عليهم أن يفعلوا. على أيِّ حالٍ كان وليم يتوقع خروجَ أحدٍ من أحدِ الأبنيةِ في أيِّ لحظةٍ ومواجهتهم، وهذا يعني أنَّهم سيضطرون إلى قتلهِ هنا في العراءِ، وإن شهدَ أحدٌ على هذا سينتهي أمرُ الهجومِ.

طافا حولَ المطبخِ، وتوجها إلى الجسرِ الذي يُفضي إلى المُجمعِ العلوي من القلعةِ، وعندما مرَّا قربَ الكنيسةِ سمعا أصواتَ الصلواتِ المكمومة قادمةً من الداخلِ. كان الإيرل بارثيميلو في الداخلِ غافلاً عمَّا يجري، وفكرَ وليم في سعادةٍ أنَّ الإيرل لا يعرف أنَّ هناك جيشاً على بُعدِ ميلٍ من القلعةِ، وأنَّ هناك أربعةَ رجالٍ من ذلك الجيشِ في قلعتهِ، وإسطبلاتهِ تحترقُ، وآليانا في الداخلِ أيضاً تصلي راكعةً على ركبتيها. فكرَ وليم أنَّها عاجلاً أم آجلاً ستركعُ على ركبتيها أمامَهُ، ومن الحبورِ شعرَ وليم بالدوارِ.

وصلا إلى الجسرِ وعبراه. كانا قد حرصا على بقاءِ الجسرِ الأوَّلِ مفتوحاً بقطعِ الحبلِ، وتخريب البوابةِ حتَّى يتمكن الجيش من الدخول إلى القلعةِ، ولكن بوسعِ الإيرل أن يهرب من الجسرِ الثاني، ويتحصن في المُجمع العلوي. كانت مهمةُ وليم التالية هي منعُ الإيرلِ من فعلِ هذا من خلالِ رفعِ الجسرِ الثاني، وإغلاقهِ، وبذلك سيصبح الإيرل معزولاً وأعزل في المُجمع السفلي.

وصلا إلى البوابةِ الثانية، وخرجَ الحارسُ من غرفتهِ قائلاً: «أنتَ مُبكرٌ اليوم».

قال وليم: «أرسلَ الإيرل بطلبنا»، واقتربَ من الحارس، ولكنَّ الرجلَ تراجعَ إلى الوراءِ. لم يكن وليم يريده أن يبتعد كثيراً لأنَّه إن تراجعَ إلى ما وراءِ القنطرةِ سيراه الحرَّاسُ على سطحِ السورِ العلوي للقلعةِ.

«الإيرلُ في الكنيسةِ»، قال الحارس.

«سنضطرُ إلى انتظارهِ إذاً». كان يجبُ قتلُ هذا الحارسِ بسرعةٍ وبهدوءٍ، ولكن وليم لم يعرف كيف يقتربُ منه كفاية لقتلهِ. حدَّق إلى والتر كي يساعده، ولكن والتر وقفَ ينتظرُ بصبرٍ، وبدا رابطَ الجأشِ.

«هناك نارٌ في موقدِ القلعةِ»، قال الحارس. «فلتذهبا ولتتدفآ». تردَدَ وليم فالقلق كان بادياً على الحارسِ الذي قالَ بشيءٍ من السخطِ: «ما الذي تنتظرانه؟»

نظرَ وليم من حوله في يأسٍ محاولاً كسبَ الوقتِ لإيجاد شيءٍ ليقوله: «هل يمكننا الحصول على طعامٍ؟»

«ليسَ قبلَ انتهاءِ القداسِ»، قال الحارس وأضاف: «سيقدمون الطعامَ في القلعةِ».

لاحظَ وليم أنَّ والتر قد بدأ يتململُ في نفادِ صبرٍ. لو أنَّ الحارس يستدير قليلاً فقط لهرعَ والتر خلفه وقتلَهُ. خطا وليم بضعَ خطواتٍ في الاتجاه المعاكسِ متجاوزاً الحارس وهو يقول: «أنا لستُ معجباً جداً بكرمِ ضيافةِ إيرلكَ»، وعندما استدارَ الحارسُ قال وليم: «لقد قطعنا مسافةً طويلةً...»

وانقضَّ والتر على الحارسِ.

تسللَ وراءه، ووضعَ ذارعهُ فوقَ كتفي الرجل، وبيده اليسرى أمسكَ ذقنَ الحارسِ، ونحرَ عنقه بيدهِ اليمنى. أطلقَ وليم تنهيدةَ راحةٍ؛ فقد قُضي الأمرُ بسرعةٍ.

كان وليم ووالتر قد قتلا ثلاثةَ أشخاصٍ قبلَ موعدِ الإفطارِ. انتابَ وليم شعورٌ طاغٍ بالقوةِ، وفكرَ أنَّ ما من أحدٍ سيضحك عليه بعد اليوم!

جرَّ وليم جثةَ الحارسِ إلى داخلِ الغرفةِ. كانت هذهِ البوابة مشابهةً للبوابةِ الأولى، ولها درج حلزوني يُفضي إلى غرفةٍ لسحبِ حبلِ الجسرِ فوقَ الخندقِ. صعدَ وليم الدرجَ، ولحقَ به والتر.

لم يكن وليم قد استطلع هذه الغرفة البارحة عندما كان في القلعة، وهو لم يفكر بفعلِ هذا. على أيِّ حالٍ لم يكن إيجادُ عذرٍ مُقنعٍ لصعودها أمراً سهلاً، ولذلك افترضَ أنَّ هناك غرفةً لبكرةِ حبلِ الجسرِ، أو بكرةً مع مقبضٍ لرفعِ الجسرِ، ولكنه اكتشفَ الآن عدمَ وجودِ بكرةٍ أبداً بل حبل ولوح دوار فقط. كانت الطريقةُ الوحيدةُ لرفعِ الجسرِ هي بشدِّ الحبلِ. أمسكَ كلٌّ من وليم ووالتر بالحبلِ، وبدآ بالشدِّ ولكن الجسر لم يتحرك لأَنَّ مثلَ هذا العملِ يتطلبُ قوةَ عشرةِ رجالٍ.

وقفَ وليم حائراً لبرهةٍ فقد كان للجسرِ المتحركِ عندَ مدخلِ القلعة عجلةٌ كبيرةٌ، وكان بوسعهِ هو ووالتر أن يحركاها، ثمَّ أدركَ أنَّ الجسر الخارجي يُرفع كلَّ ليلةٍ بينما هذا الجسر لا يُرفع إلَّا في حالاتِ الطوارئ.

لم يكن هناك أيّة فائدةٍ من التفكير في الأمر، وباتت المسألة الآن هي الخطوة التالية. لو أنّه فقط ينجح في رفعِ الجسرِ لتمكن من إغلاقِ البوابات وهذا من شأنهِ أن يؤخرَ الإيرل.

هبطَ وليم الدرجَ بسرعةٍ وفي إثرهِ والتر، وعندما وصلا إلى أسفلِ الدرجِ أصيبَ بالصدمةِ عندما اكتشفَ امرأةً وطفلاً يخرجان من غرفةِ الحارسِ.

تعثرَ وليم عندما تعرَّفَ على المرأةِ. كانت زوجةَ البنَّاءِ التي حاول شراءَها بجنيهِ. نظرت إليه بعينيها العسليتين نظرةً اخترقته بشكلٍ مباشرٍ، ولم يفكر وليم بالتظاهرِ أنَّه زائر بريء ينتظر الإيرل فقد علمَ أنَّه لا يستطيعُ خداعها. كان عليهِ منعَها من إنذارِ سكانِ القلعةِ، والطريقة الوحيدة لفعلِ هذا هي بقتلها بسرعةٍ وبصمتٍ كما فعلَ مع الحرَّاسِ.

قرأ وليم في النظرةِ اليقظةِ التي رمقتهُ بها أنَّها عرفت ما ينوي فعله فأمسكت بيدِ طفلها واستدارت. حاولَ وليم إمساكها، ولكنها كانت أسرع منه. ركضت عبرَ المُجمعِ باتجاه القلعةِ، وركضَ وليم ووالتر في إثرِها.

كانت أسرع منهما فقد كانا يرتديان سترةَ زردٍ ويحملان أسلحةً. وصلت إلى الدرجِ الذي يُفضي إلى القاعةِ الكبرى، وبينما كانت تركضُ على الدرجِ صرخت. رفعَ وليم نظرَهُ باتجاهِ سورِ القلعةِ ولاحظَ أنَّ الصرخةَ قد أثارت انتباه الحارسين. انتهت اللعبةُ الآن. توقفَ وليم عن الركضِ، ووقفَ مكانَهُ أسفلَ الدرجِ يلتقطُ أنفاسهُ بصعوبةٍ، وفعلَ والتر مثله. ظهرَ حارسان ثمَّ ثلاثة ثمَّ أربعة، وجميعهم نزلوا من السورِ باتجاهِ المُجمعِ. اختفت المرأةُ في القلعةِ، وهي ممسكةٌ بالفتى من يدهِ، ولكنها بعدَ أن نبَّهت الحرَّاس لم تعد مهمةً، ولم يعد لقتلها جدوى.

سحبَ وليم ووالتر سيفيهما، ووقفا جنباً إلى جنب يقاتلان دفاعاً عن حياتِهما.

***

بينما كان الكاهن يمررُ خبزَ القربانِ فوقَ المذبحِ أدركَ توم أنَّ الجيادَ تشكو من خطبٍ ما فقد سمعها تصهل عالياً، وصوتُ حوافرها أقوى من المعتادِ. وبعد برهةٍ قاطعَ شخصٌ الكاهنَ وسطَ ترنيمةٍ باللاتينية قائلاً بصوتٍ عالٍ: «أشمُّ رائحة دخان!»

كان توم وبقيةُ الحاضرين قد شمّوا الرائحةَ ذاتها، ولأنَّ توم أطول من البقيةِ، ويمكنهُ الرؤية من نوافذِ الكنيسةِ إن وقفَ على رؤوسِ أصابعهِ. تنحى توم جانباً، ونظرَ إلى الخارجِ فرأى النيران مستعرةً في الإسطبلاتِ.

«حريقٌ!» قال توم، وقبلَ أن يتمكن من قولِ المزيدِ ضاعَ صوته وسطَ صراخٍ آخرين ثمَّ اندفعَ باتجاه البابِ. كان الجميع قد نسي أمرَ القداسِ. أمسكَ توم بمارثا، وأبعدها مخافة أن يطأها الحشدُ، وطلبَ من آلفريد أن يبقى قريباً منهما، وتساءلَ في الوقت نفسهِ عن مكانِ إيلين وجاك.

بعد وهلةٍ لم يعد أحدٌ في الكنيسةِ باستثناءِ الكاهنِ وتوم والطفلين.

أخرجَ توم الطفلين من الكنيسةِ، كان البعضُ يُطلقُ سراحَ الجيادِ لإنقاذها من الحريقِ، وآخرون يسحبونَ الماءَ من البئرِ، ويطفئون النارَ. لم يجد توم أثراً لإيلين. اندفعَت الجياد في أرجاءِ المُجمعِ هاربةً في رعبٍ من النارِ والناس الهلعين. كان وقعُ الحوافرِ رهيباً كوقعِ مئةِ جوادٍ، وليسَ عشرين أو ثلاثين، وفجأة خطرَ ببال توم خاطرٌ مرعبٌ فقال للطفلين: «مارثا، ابقي هنا قليلاً. فلتعتنِ بها يا آلفريد». وركضَ باتجاهِ سورِ القلعةِ. كان المنحدرُ شديداً، وكان عليهِ أن يُبطئ قبيلَ الوصول إلى الأعلى. وعندما وصلَ إلى الأعلى كانت أنفاسه مبهورةً، ونظرَ من حولِهِ.

عندما رأى توم ما اعتقدَ أنَّه سيراه أحكمَ الخوفُ عليهِ بقبضةٍ باردةٍ. رأى جيشاً يصلُ تعدادهُ إلى ثمانين أو مئة جندي على الجيادِ منطلقين عبرَ الحقولِ الجرداءِ باتجاهِ القلعةِ. كان المشهدُ مرعباً، وكان بوسعِ توم أن يرى اللمعان المعدني لستراتِ الزردِ والسيوفِ المسلولةِ.

كانت الجيادُ تعدو بسرعةٍ كبيرةٍ، وسحابُ أنفاسها الدافئةِ يطوق مناخرها، وانحنى الراكبون فوقَ الأسرجةِ عن قصدٍ، ولم يصرخوا أو ينادوا. لم يكن هناك صوتٌ سوى صوت هديرِ مئات الحوافرِ الصاخبةِ.

عادَ توم بنظرهِ إلى مجمعِ القلعةِ، وتساءل في نفسهِ عن سببِ عدمِ سماعِ أحدٍ لهديرِ هذا الجيشِ فاكتشفَ أنَّ أسوارَ القلعةِ حالت دون وصولِ الصوت إضافةً إلى الدورِ الذي لعبتهُ ضجَّةُ الهلعِ داخلَ المُجمعِ. ولكن لمَ لم يلحظ الحرَّاس شيئاً؟ لأنَّهم جميعاً غادروا مواقعهم لإطفاءِ الحريقِ. من خططَ لهذا الاعتداءِ شخصٌ ذكي، وكان على توم الآن قرعُ جرسِ الإنذارِ.

ولكن أين هي إيلين؟

حدَّق في أرجاءِ المُجمعِ بينما المهاجمون يقتربون، ولكنه لم يرَ شيئاً بسببِ الدخانِ الأبيض المتصاعدِ من الإسطبلات. لم يكن هناك أثرٌ لإيلين.

رأى توم الإيرل بارثيميلو قربَ البئرِ يُنظمُ عمليةَ سحبِ الماءِ، وإطفاءِ الحريقِ. هبطَ توم منحدرَ السورِ بسرعةٍ، واندفعِ بسرعةٍ نحو البئرِ، ثمَّ أمسكَ بكتفِ الإيرلِ بطريقةٍ لم تكن لطيفةً بأيِّ شكلٍ من الأشكالِ، وصرخَ في أذنهِ حتَّى يسمعه جيداً وسطَ الضجيجِ.

«إنَّه هجومٌ!»

«ماذا؟»

«إننا نتعرضُ إلى هجومٍ!»

كان الإيرل يفكرُ بأمرِ الحريقِ، ولهذا لم يعِ ما قاله توم: «هجوم؟ من قبل من؟»

«أصغِ إلي!» صرخَ توم. «هناك مئةُ جندي على ظهور الجيادِ».

رفعَ الإيرل رأسهُ، وراقبَ توم كيفَ تغيرَ وجه الإيرل الأرستوقراطي، وباتَ شاحباً عندما أدركَ ما قصده توم. «بحقِ المسيحِ أنتَ على حقٍ!» وفجأة بدا خائفاً وسأله: «هل رأيتهم؟»

«أجل».

«من...؟ لا تهتم. هل قلتَ مئةَ جندي على ظهور الجيادِ؟»

«أجل».

«بيتر! رالف!» التفتَ الإيرل بعيداً عن توم، واستدعى ضباطه، «إنَّها غارةٌ، وهذا الحريق من أجل الإلهاءِ. إننا نتعرضُ إلى هجوم!» في البداية، وكما حدثَ مع الإيرل، لم يستوعب الضابطان ما قاله لهما ثمَّ أصاخا السمعَ، وأخيراً تملكهما الخوف. صرخَ الإيرل: «اطلب من رجالكَ أن يحضروا السيوفَ. بسرعةٍ، بسرعة!» وعادَ إلى توم وقال: «فلتأتِ معي أيُّها البنَّاء. أنتَ قوي وبوسعكَ إغلاقُ الأبوابِ». ركضَ الإيرل عبرَ المُجمعِ، ولحقَ بهِ توم. إن تمكنا من إغلاقِ البوابةِ، ورفعِ الجسرِ في الوقتِ المناسبِ فقد نستطيعُ إيقافَ الجيشِ الغازي.

عندما وصلا إلى البوابةِ كان بوسعهم رؤيةُ الجيشِ، ولاحظَ توم أنَّه يبعد أقل من ميلٍ، وبدأ بالانتشارِ. كانت الجياد السريعةُ في المقدمةِ والبطيئة في المؤخرةِ.

«انظر إلى البوابات!» صرخَ الإيرل.

نظرَ توم ولاحظَ أن البوابة الخشبية المُدعمة بالمعدنِ على الأرضِ، ولاحظَ أنَّ مفصلاتها قد أزيلت بالإزميل. لا بدَّ أن بعضَ الأعداءِ دخلوا باكراً وخربوها، وهنا شعرَ توم أنَّ معدته تضطربُ من الخوفِ.

عادَ بنظرهِ إلى المُجمع وهو ما يزال يبحث عن إيلين، إلا أنَّه لم يرها. ما الذي حدثَ لها؟ أيُّ شيءٍ قد يحدث الآن. كان عليهِ إيجادها لحمايتها.

«الجسرُ المتحركُ!» قال الإيرل.

أدركَ توم أنَّ أفضل طريقة لحمايةِ إيلين هي صدّ المهاجمين. ركضَ الإيرلُ عبرَ الدرجِ الحلزوني الذي يُفضي إلى غرفةِ سحبِ الحبلِ، وأجبرَ توم نفسه على اللحاقِ بهِ. إن سحبا الجسرَ المُعلق، يمكن لبضعة رجالٍ أن يرفعوا البوابة، ولكن عندما وصلا إلى غرفةِ سحبِ الحبلِ غاصَ قلبُ توم في صدرهِ. كان الحبلُ قد قُطع، ولم يكن هناك طريقةٌ أخرى لرفعِ الجسرِ المُعلقِ.

بدأ الإيرلِ بإطلاقِ الشتائمِ بمرارةٍ: «أيّاً كان من خططَ لهذا فهو شيطانٌ ماكرٌ».

وفجأة خطرَ لتوم أنَّ من دمَّرَ البوابات، وقطعَ حبلَ الجسرِ المعلق، وأشعلَ النار لا بد أنَّه ما يزال في مكانٍ ما داخل القلعة، وبحثَ حوله في خوفٍ متسائلاً في نفسهِ عن مكان أولئك الدخلاءِ.

حدَّقَ الإيرل من النافذةِ الضيقةِ لغرفةِ السحبِ وقال: «يا إلهي، يكادون يصلون». وركضَ هابطاً السلالمَ.

ولحق بهِ توم.

في المدخلِ وجدَ توم العديدَ من الفرسان يُثبتون على عجلٍ أحزمةَ سيوفهم، ويضعون الخوذَ على رؤوسهم، وبدأ الإيرل بارثيملو بإلقاءِ الأوامرِ عليهم: «رالف، جون خُذا بعضَ الجيادِ السارحةِ إلى الجسرِ لعرقلةِ تقدّمِ الجيشِ. ريتشارد، بيتر وروبن أحضروا بعضَ الجنودِ، وتمركزوا هنا». كان المدخل ضيقاً، وبضعةُ رجالٍ يستطيعون إعاقةَ المهاجمين لبعضِ الوقتِ على الأقلِ. «أمَّا أنتَ أيُّها البنَّاء فلتقد الخدمَ والأطفال عبرَ الجسرِ إلى المُجمع العلوي».

سُرَّ توم بهذا لأنَّه سيتمكن الآن من البحثِ عن إيلين. ركضَ إلى الكنيسةِ

أولاً، ووجدَ مارثا وآلفريد في المكانِ الذي تركهما فيهِ منذُ برهةٍ وجيزةٍ. بدوا خائفين فصرخَ بهما: «انطلقا إلى القلعةِ. أخبرا أيَّ طفلٍ أو امرأةٍ تمران به أن يلحق بكما. هذهِ أوامر الإيرل. اركضا!» وركضَ الطفلان على الفورِ.

نظرَ توم حولهُ. سيلحقُ بهما قريباً فلم يكن يريدُ البقاء في المُجمعِ السفلي، ولكن ما زال لديه بعضُ الوقتِ، وسيستخدمُهُ في تنفيذِ أوامرِ الإيرل. ركضَ إلى الإسطبلاتِ حيثُ ما زال الناسُ يُلقون بدلاءِ الماءِ إلى النارِ فصرخَ بهم قائلاً: «انسوا أمرَ النارِ، القلعة تتعرض إلى الهجوم. خذوا أطفالكم إلى مبنى القلعةِ».

دخلَ الدخان في عينيهِ، وحجبت الدموع الرؤيةَ أمامهُ ففركَ عينيه، وركضَ باتجاه الحشدِ الصغير الذي وقفَ لمشاهدةِ النيران تلتهم الإسطبل. أعادَ أوامرَ الإيرل عليهم، وعلى مجموعةٍ من خدمِ الإسطبلِ الذين طوقوا بعضَ الجيادِ السارحةِ. ولكن ما من أثرٍ لإيلين.

بدأ يسعلُ من الدخانِ، وركضَ مختنقاً منها عبرَ المُجمعِ إلى الجسرِ الذي يُفضي إلى المُجمع العلوي. توقفَ هناك، وهو يلهثُ، ونظرَ إلى الوراءِ. كان الناس يتدفقون عبرَ الجسرِ، وبات الآن شبه واثق من أنَّ إيلين وجاك كانا في القلعةِ، وليسَ في المُجمعِ، ولكنه أُصيبَ بالرعبِ عندما فكرَ أنَّه ربما ضيعهما. نظرَ إلى البوابةِ السفليةِ، ورأى مجموعةً متراصةً من الفرسانِ في قتالٍ مباشرٍ، وما عدا ذلكَ لم يرَ شيئاً سوى الدخان. فجأةً ظهرَ الإيرل إلى جانبهِ والدمُ على سيفهِ والدموعُ تنهمرُ من عينيهِ، وصرخَ بتوم قائلاً: «فلتُنقذ نفسكَ!» في تلك اللحظةِ اندفعَ المهاجمون عبرَ ممرّ البوابةِ السفليةِ، وفرقوا الفرسانَ المدافعين. استدارَ توم وركضَ عبرَ الجسرِ.

وقفَ خمسة عشر أو عشرون رجلاً من رجالِ الإيرل عندَ البوابةِ الثانيةِ في استعدادٍ للدفاعِ عن المُجمع العلوي، وتفرقوا للسماحِ لتوم والإيرل بالمرورِ ثمَّ أغلقوا التشكيلة مجدداً. سمعَ توم حوافرَ الجيادِ تطأ الجسرَ الخشبي خلفَه. لم يكن لدى المدافعين الآن أدنى فرصة، وأدركَ توم أنَّه تمَّ التخطيط لهذهِ الغارةِ بذكاءٍ ودقةٍ، ولكن ما شغل باله بشكلٍ أساسي هو إيلين والأطفال. هناك ما يقارب مئة رجلٍ على وشكِ أن ينقضوا عليهم، وبدوا متعطشين لسفكِ الدماءِ.

عبرَ توم المُجمّعَ العلوي للقلعةِ.

وفي منتصفِ الطريقِ على الدرجِ الخشبي الذي يُفضي إلى القاعةِ العظيمةِ ألقى نظرةً إلى الوراء. كان المهاجمون، ومن على صهواتِ جيادهم، قد قضوا على مدافعي البوابة الثانيةِ بسرعةٍ، وكان الإيرل على الدرجِ وراءه. ما زال لديهم وقتٌ للدخولِ إلى القلعةِ ورفعِ الدرجِ الخشبيِ إلى الداخلِ. ركضَ توم عبرَ ما تبقى من درجٍ، وقفزَ إلى القاعةِ، وهنا أدركَ أنَّ المهاجمين كانوا أكثر ذكاءً مما توقع.

كانت الفرقةُ المتقدمةُ للمهاجمين قد دمرت البوابات، وقطعت حبالَ الجسرِ المُعلَّق، وأشعلت النارَ في الإسطبلات ونفذت مهمةً أخرى ألا وهي دخول القلعةِ ونصب كمينٍ لكل من لجأ إليها.

كانت الفرقةُ المتقدمةُ مؤلفةً من أربعةِ رجالٍ بوجوه كالحةٍ وفي ستراتِ زردٍ يقفون في وسطِ القاعةِ ومن حولهم جثثُ فرسان الإيرل المقتولين والمجروحين ممن ذبحوهم حالما دخلوا إلى القاعةِ. صُدمَ توم عندما رأى أنَّ قائدَ المجموعةِ المتقدمةِ وليم هاملي.

حدَّقَ توم إلى وليم في دهشةٍ من هولِ المفاجأةِ، ولاحظَ أنَّ عيني وليم واسعتان ومتعطشتان لسفكِ الدماءِ. اعتقدَ توم أنَّ وليم سيقتله ولكن قبلَ أن يتملكه الرعبُ من هذهِ الفكرةِ كان أحدُ أعوانِ وليم قد أمسكَ بتوم من ذراعِهِ، وسحبَهُ إلى الداخلِ بعيداً عن الطريقِ.

إذاً، عائلةُ هاملي من تقوم بالهجومِ على قلعةِ الإيرل بارثيميلو، ولكن لماذا؟

كان جميعُ الخدمِ والأطفالِ قد تجمعوا مرتعبين في أقصى زاويةٍ من القاعةِ. إذاً، لم يُقتلَ أحدٌ سوى الرجال المسلحين. ألقى توم نظرةً على الوجوه داخلَ القاعةِ، وغمره شعورٌ عظيمٌ بالراحةِ والامتنان عندما رأى آلفريد ومارثا وإيلين وجاك. كان الرعبُ بادياً على وجوههم غيرَ أنَّهم ما زالوا أحياءً، ومن دونِ إصاباتٍ كما يبدو.

قبلَ أن يتمكن توم من التوجه إليهم نشبَ قتالٌ عندَ المدخلِ. انخرطَ الإيرل بارثيميلو مع فارسين من فرسانهِ في القتالِ بعد أن فوجئوا بكمين فرسان هاملي. قُتلَ أحدُ فرسانِ الإيرلِ على الفورِ، ولكن الآخر عملَ على حمايةِ الإيرلِ بسيفهِ. دخلَ العديدُ من فرسانِ الإيرل بارثيميلو خلفه، وفجأةً

بدأت مناوشةٌ كبيرةٌ في مساحةٍ ضيقةٍ استخدمت فيها السكاكينُ والقبضات لعدمِ وجودِ مساحةٍ كافيةٍ لاستخدامِ السيوفِ. لوهلةٍ بدا الأمرُ كأنَّ رجالَ الإيرل سيهزمون رجال وليم ثمَّ التفتَ فرسانُ الإيرل إلى الوراءِ، وبدأوا يُدافعون عن أنفسِهم من الخلفِ. من الواضحِ أنَّ الجيشَ قد دخلَ المُجمعَ العلوي وصعدَ درجَ القلعةِ، وهنا علا صوتٌ آمرٌ: «توقفوا!»

أخذَ الرجال في كلا الطرفين وضعياتِ دفاعٍ، وتوقفَ القتالُ.

وعلا الصوت ذاته مجدداً: «بارثيميلو شايرنغ هل تستسلم؟»

رأى توم الإيرلَ يستدير، وينظر إلى البابِ. تراجع الفرسان ليفسحوا له المجال كي يرى من المتحدث. «هاملي!» دمدمَ الإيرل بنبرةِ ارتيابٍ هادىء ثمَّ رفعَ صوته قائلاً: «هل ستترك عائلتي وخدمها سالمين؟»

«أجل».

«هل ستقسمُ على هذا؟»

«أقسمُ بالصليبِ أنني سأتركهم سالمين إن استسلمت».

«أستسلمُ»، قال الإيرل.

ومن الخارجِ علا تهليلٌ كبيرٌ.

استدارَ توم، وركضت مارثا عبرَ الغرفةِ نحوه فرفعها ثمَّ عانقَ إيلين.

«نحن بأمانٍ»، قالت إيلين والدموع في عينيها. «جميعنا في أمانٍ».

«آمنون»، قال توم بمرارةٍ ثمَّ أضاف: «ولكننا مُعدمون مجدداً».

توقفَ وليم عن التهليلِ فجأةً فقد كانَ ابن اللورد بيرسي، ولا يليق بهِ التهليلُ كالجنودِ. تمالكَ نفسهُ، وارتسمَ على وجههِ تعبيرُ الرضا الذي يظهرُ على وجهِ الأسيادِ في مثلِ هذهِ المواقفِ.

لقد نجحَ في تنفيذِ الخطةِ على الرغمِ من العقباتِ التي واجهها وانتصروا. نجحَ الهجوم نجاحاً باهراً بسببِ عملهِ مع الفرقةِ المتقدمةِ. كان قد توقفَ عن عدِّ الرجالِ الذين قتلهم، أو شوههم دونَ أن يُصاب، وفوجئ عندما اكتشفَ أنَّ وجهه ملطخٌ بالكثيرِ من الدماءِ رغمَ أنَّه لم يصب بأذى. عندما مسحَ الدماءَ تدفقَ المزيد منها، واكتشفَ أنَّه كان ينزف. وضعَ يده على وجهه ثمَّ على رأسهِ. كان قد فقد بعضَ شعرهِ، وعندما لمسَ فروةَ الرأسِ شعرَ بألمٍ كالنارِ. لم يرتدِ

خوذةً عندما دخلَ لأنَّ ذلك كان سيثير الارتياب، والآن عندما انتبه إلى وجودِ الجرحِ بدأ يشعرُ بالألمِ. لم يعبأ بهِ فقد كان هذا الجرح بمنزلةِ وسامِ شجاعةٍ.

صعدَ والده الدرجَ، وواجه الإيرل بارثيميلو عندَ المدخل. قدَّم الإيرل بارثيميلو سيفه من مقبضهِ أولاً في إشارةٍ إلى أنَّه استسلم. أخذَ بيرسي السيفَ، وهللَ الرجالُ مجدداً.

مع تراجعِ ضجةِ التهليلِ سمعَ وليم بارثيميلو يقول: «لماذا فعلتَ هذا؟»

وأجاب والده: «لقد تآمرت ضدَّ الملكِ».

بدا بارثيميلو مذهولاً، ولاحت معالمُ الصدمةِ على وجههِ. حبسَ وليم أنفاسَه متسائلاً إن كان بارثيميلو اليائس من هزيمته سيعترفُ بالتآمرِ أمام كلِّ أولئك الناس، ولكن بارثيميلو استردَّ رباطة جأشهِ واستقامَ في وقفته ثمَّ قال: «لن أدافع عن شرفي هنا بل أمامَ الملكِ».

أومأ والد وليم برأسهِ وقال: «كما ترغب. اطلب من رجالكَ أن يُلقوا أسلحتهم أرضاً، ويغادروا القلعةَ».

وبصوتٍ خائفٍ أمرَ الإيرل كلَّ فرسانهِ بفعلِ ما طلبهُ بيرسي فاقتربوا الواحد تلو الآخر من والد وليم، ورموا سيوفهم أرضاً أمامه. استمتعَ وليم بمشاهدتهم، وفكرَ بكلِّ فخرٍ أنَّهم كانوا خاضعين أمامَ والدِهِ. «اجمعوا الجياد السارحة، وضعوها في الإسطبلات. اطلب من بعضِ الرجالِ أن يطوفوا في الأرجاءِ، ويجردوا القتلى والجرحى من أسلحتهم». كانت أسلحةُ وجياد المهزومِ من نصيب المنتصرِ، وسيُطلق فرسان بارثيميلو من القلعةِ عُزَّلاً ومن دونِ جيادهم. سيُفرغ رجال هاملي مخازنَ القلعةِ أيضاً، وستُحملُ المواد على ظهورِ الجيادِ المُصادرةِ من القلعةِ إلى قريةِ هاملي حيثُ تسكن العائلة. طلبَ والد وليم من فارسٍ آخر: «اجمع خدمَ المطبخ، واطلب منهم إعدادَ الغداء ثمَّ اطرد بقيتهم». بعدَ القتالِ يشعرُ الرجالُ بالجوع، وستقام الآن وليمةٌ من أفضلِ الأطعمةِ والنبيذِ لدى الإيرل بارثيميلو قبل أن يعود الجنود إلى منازلهم.

بعدَ برهةٍ تفرَّقَ الرجالُ حولَ والد وليم وبارثيميلو مُفسحين الطريقَ أمامَ والدتهِ.

بدت ضئيلةً جداً وسطَ الجنودِ الضخامِ، ولكن عندما أزاحت وشاحها الذي غطَّى وجهها صُعقَ الحاضرون، ممن لم يروها قبلاً، من بثورِ وجهها.

«نصرٌ عظيمٌ»، قالت بنبرةِ رضا.
أرادَ وليم أن يقول: «هذا بسببِ عملِ الفرقةِ المتقدمةِ، أليسَ كذلكَ يا أماه؟» ولكنه لزمَ الصمتَ وتحدَّث والده: «وليم من أدخلنا».
استدارت والدته نحوه، وانتظرَ بفارغ الصبرِ أن تهنئهُ. «هل فعل هذا حقاً؟»
«أجل»، قال الأب. «لقد قام الفتى بعملٍ جيدٍ».
أومأت والدته برأسها وقالت: «يبدو أنَّه فعل».
شعرَ وليم بالسعادةِ تغمرُ قلبه عند سماعهِ لمديحها، وابتسم ببلاهةٍ.
نظرت والدة وليم إلى بارثيميلو وقالت: «يجب على الإيرلِ أن ينحني لي».
قال الإيرل: «لا».
قالت الأمّ: «أحضروا الابنة».
نظرَ وليم من حوله، ولوهلةٍ كان قد نسي أمرَ آليانا. تفحصَ وجوهَ الخدمِ والأطفالِ ورآها على الفورِ تقفُ مع وكيلِ القصرِ المخنثِ ماثيو. توجه وليم نحوها، وأحضرها إلى والدتهِ فلحقَ ماثيو بهما.
قالت الوالدة: «اقطعوا أذنيها».
وصرخت آليانا.
شعرَ وليم باهتياجٍ غريبٍ في عضوهِ.
شحبَ وجه بارثيميلو الذي قال: «لكنكم وعدتم أنَّكم لن تؤذوها إن استسلمت. لقد أقسمتم على هذا».
قالت والدته: «وحمايتنا ستكون كاملةً كاستسلامكَ».
وفكرَ وليم أنَّها حركةٌ ذكيةٌ.
ولكن بارثيميلو بدا مُتعنتاً.
تساءل وليم في نفسهِ من ستختاره والدته لقطعِ أذني آليانا، قد تقوم بهذهِ المهمةِ بنفسها. كانت الفكرةُ بحدِّ ذاتها مثيرةً بشكلٍ غريبٍ.
قالت والدة وليم لبارثيميلو: «اركع».
وببطءٍ ركعَ بارثيميلو على ركبتهِ وأحنى رأسه.
شعرَ وليم ببعضِ الخيبةِ.
ورفعت والدته نظرها ثمَّ صرخت في الحشدِ: «انظروا إلى هذا! لا تنسوا

أبداً مصيرَ من يهين عائلةَ هاملي!» نظرت من حولها في تحدٍ، وشعرَ وليم بقلبه يكبرُ من الفخرِ. لقد استعادت العائلة شرفها.

استدارت الأم، واستلمَ الأبُ زمامَ الأمور. «خذوه إلى غرفةِ نومهِ. ولتحرسوه جيداً».

نهضَ بارثيميلو على قدميهِ.

قال اللورد بيرسي لوليم: «خُذ الفتاة أيضاً».

أمسكَ وليم آليانا من ذراعها بقوةٍ. كان يحبُّ لمسها. سيأخذها إلى غرفةِ النومِ، وهناك لن يعلم أحدٌ ما الذي سيحدث. إن بقي بمفردهِ معها يمكنه أن يفعلَ بها ما يشاء. بإمكانهِ أن يجرِّدها من ملابسها، وينظرَ إليها عاريةً. يستطيع...

قال الإيرل: «دع الوكيل ماثيو يرافقنا للاعتناءِ بابنتي».

نظرَ والد وليم إلى ماثيو وقال: «لا يبدو خطيراً»، وابتسم ثمَّ أضاف: «حسناً».

نظرَ وليم إلى وجهِ آليانا. كانت ما تزال شاحبةً، ولكنها بدت أجمل وهي خائفة، وأمتعته رؤيتها ضعيفةً. أرادَ أن يسحقَ جسدها الفتي تحتَ جسدهِ، ويرى الخوفَ على وجهها، وهو يجبرها على فتحِ ساقيها، وبشكلٍ غريزي اقتربَ بوجههِ من وجهها وقال بصوتٍ خفيضٍ: «ما زلتُ أريد الزواجَ بكِ».

ابتعدت عنه، وقالت بصوتٍ عالٍ يفيضُ احتقاراً: «تتزوجني؟ أفضلُ الموتَ على الزواجِ بكَ أيُّها التافه المغرور والمقرف».

ابتسم جميعُ الفرسان ابتسامة عريضةً بينما كتم بعضُ الخدمِ ضحكاتهم، وشعرَ وليم بوجهه يحمر خجلاً.

وفجأةً تقدَّمت والدتهُ، وصفعت آليانا على وجهها فتحرَّك بارثيميلو للدفاعِ عن ابنتهِ، ولكن الفرسان منعوه. «اخرسي»، قالت الأمُّ لآليانا. «لم تعودي سيدةً راقيةً، وأنتِ الآن مجرَّد ابنةِ خائن، وعاجلاً أم آجلاً ستعيشين في فاقةٍ وجوعٍ، ولذلك لم تعودي مناسبة لابني. اغربي عن وجهي، ولا تتفوهي بكلمةٍ أخرى».

استدارت آليانا فأفلتَ وليم ذراعها، ولحقت بوالدها. وبينما كان يراقبها تبتعدُ أدركَ أنَّ طعمَ الانتقامِ الحلو قد تركَ مرارةً في فمهِ.

***

عدَّ جاك آليانا بطلةً حقيقيةً كأميرةٍ في قصيدةٍ، وراقبها بافتتان وهي تصعد الدرجَ برأسٍ مرفوعٍ. عمَّ الصمتُ الغرفةَ إلى أن اختفت آليانا عن الأنظارِ. كان الأمرُ أشبه بانطفاءِ ضوءٍ، وأخذَ جاك يحدقُ إلى المكان الذي كانت تقفُ فيهِ.

أتى أحدُ الفرسانِ وقال: «من الطبَّاخ؟»

كان الطباخ نفسهُ متحفظاً جداً حيال التطوعِ للطبخِ لهم، ولكن أحدهم أشارَ إليهِ.

«ستعدُّ طعامَ الغداءِ»، أخبره الفارس ثمَّ أضاف: «خُذ مساعديك، وتوجه إلى المطبخِ». اختارَ الطباخُ ستة أشخاصٍ من الحشدِ. رفعَ الفارس صوته قائلاً: «أمَّا بقيتكم فلتغربوا عن هنا. اخرجوا من القلعة. غادروا بسرعةٍ، وإن كانت تهمّكم حياتكم لا تحاولوا أخذ شيءٍ ليسَ لكم. على سيوفنا جميعاً دماءٌ، وسفك المزيد منها لن يكون صعباً. هيا تحرَّكوا!»

اندفعَ الجميعُ باتجاه البابِ. أمسكَ جاك بيدِ والدتهِ، وأمسكَ توم بيد مارثا بينما سارَ آلفريد قريباً منهم. كانوا جميعاً يرتدون عباءاتهم، ولم يكن بحوزتهم ممتلكات باستثناءِ ثيابهم، وسكاكين الطعامِ. هبطوا الدرجَ مع بقيةِ الحشدِ، وعبروا الجسرَ ثمَّ المجمعَ السفلي، وساروا فوقَ البوابةِ المخلوعةِ، وخرجوا مغادرين القلعةَ من دونِ ترددٍ. عندما عبروا الجسرَ المُعلق باتجاه الحقلِ في الجانبِ الآخرِ من الخندقِ انفلت التوترُ كوترِ قوسٍ مقطوعٍ، وبدأوا يتحدثون عن محنتهم الحاليةِ بأصواتٍ عاليةٍ ومهتاجةٍ. أصغى جاك بلامبالاة وهو يسير. تحدَّث الجميع عن شجاعتهم خلالَ ما حدثَ، ولكنه هو لم يكن شجاعاً فقد هربَ بكلِّ بساطةٍ.

كانت آليانا الشجاعة الوحيدة. عندما دخلت إلى القلعةِ، وأدركت أنَّ المكان لم يكن ملاذاً بل فخاً تولت زمامَ أمورِ الخدمِ والأطفالِ، وطلبت منهم أن يجلسوا، ويلتزموا الهدوءَ، ويبتعدوا عن طريقِ المقاتلين، وصرخت في وجهِ رجال هاملي عندما عاملوا السجناءَ بخشونةٍ أو رفعوا سيوفهم في وجوه رجالٍ ونساءٍ عُزَّل، وتصرَّفت كأنَّها لم تكن في موقفٍ ضعيفٍ.

وضعت والدته يدها على شعرهِ ومسحته ثمَّ قالت: «ما الذي تفكرُ فيهِ؟»

«أفكرُ بما سيحدث للأميرةِ».

وعرفت إيلين الأميرةَ التي قصدها: «الليدي آليانا».

«إنَّها أشبه بتلك الأميرة التي تعيش في قلعةٍ في إحدى القصائد، ولكن الفرسان لم يكونوا شرفاء كالفرسان في القصيدةِ».

«هذا صحيح»، قالت والدتهُ في تجهمٍ.

«ما الذي سيحدث لها؟»

هزَّت والدته رأسها وقالت: «أنا لا أعلم حقاً».

«والدتها متوفاة».

«إذاً، ستعيشُ وقتاً عصيباً».

«هذا ما اعتقدته»، قال جاك، وتوقفَ لبرهةٍ ثمَّ أضاف: «رغم أنَّها ضحكت علي لأنني لم أكن أعلم بأمرِ الآباءِ فإنني أحببتها».

طوقته والدته بذراعها وقالت له: «أعتذر لأنني لم أخبرك عن الآباءِ».

لامسَ يدها كأنَّه يقبل اعتذارها. ساروا في صمتٍ، وبين الفينةِ والأخرى تنشقُّ إحدى العوائلِ عن المجموعة وتتوجه عبرَ الحقولِ، باتجاه منزلِ أحدِ الأقرباء أو الأصدقاء حيث يمكنهم استجداء وجبةِ فطورٍ، والتفكير في ما سيفعلونهُ الآن، ولكن الغالبية بقيت حتَّى تقاطعِ الطرقِ وهناك تفرقَ الجميع. البعضُ ذهبَ شمالاً، وآخرون جنوباً، وهناك من تابع الطريق بشكلٍ مستقيمٍ باتجاه مدينةِ شايرنغ. أفلتت والدة جاك ابنها، ووضعت يدها على ذراعِ توم لإيقافهِ. «إلى أين سنذهب؟»

بوغتَ توم قليلاً بهذا السؤال كأنَّه توقعَ منهم أن يلحقوا بهِ حيثما ذهب دون طرحِ الأسئلةِ.

لاحظَ جاك أن والدته أحياناً تتسبب بتلكَ النظرةِ المتفاجئةِ على وجهِ توم. ربما كانت زوجته السابقة مختلفةً عن والدتهِ.

«سنذهب إلى دير كينغزبريدج»، قال توم.

«كينغزبريدج!» بدت والدته مضطربةً، وتساءل جاك في نفسهِ عن السببِ.

لم يلاحظ توم اضطرابها وقال: «سمعتُ الليلةَ الماضية أنَّ للديرِ رئيساً جديداً»، ثمَّ تابع: «عادةً ما يرغبُ الرئيسُ الجديدُ بالقيامِ ببعضِ الإصلاحاتِ، أو التغييرات على الكنيسةِ».

«هل توفي رئيسُ الديرِ العجوزُ؟»

«أجل».

ولسببٍ ما هدأت والدته عندما سمعت الخبرَ، وفكرَ أنَّها حتماً عرفت رئيسَ الدير العجوز وكرهته.

وأخيراً لاحظ توم الاضطراب في صوتها فسألها: «هل من خطبٍ ما في كينغزبريدج؟»

«لقد كنت فيها وهي تبعد مسيرَ أكثر من يومٍ».

علمَ جاك أنَّ ما أثارَ اضطراب والدته لم يكن طولُ الرحلةِ، ولكن توم لم يعلم هذا.

«أكثر بقليل»، قال لها. «سنصلُ إلى هناك بحلول منتصفِ نهارِ الغد».

«حسناً».

وتابعوا السيرَ.

بعد برهةٍ وجيزةٍ بدأ جاك يشعرُ بألم في بطنهِ، وتساءل في نفسهِ عن السببِ فهو لم يُصب بأذى في القلعةِ، ولَم يلكمهُ آلفريد منذُ يومين، ولكنه في نهاية المطاف أدركَ سببَ هذا الألمِ.

كان يشعر بالجوعِ مجدداً.

الفصل الرابع

- 1 -

لم يكن مظهرُ كاتدرائيةِ كينغزبريدج يوحي بالودِّ؛ فقد بدت أشبهَ بكتلةٍ ضخمةٍ خفيضةٍ من الجدرانِ السميكةِ، والنوافذِ الصغيرةِ. كانت قد بُنيت قبل ولادةِ توم، وفي زمنٍ لم يدرك فيه البنَّاؤون أهميةَ تناسبِ الأبعادِ، أمَّا جيلُ توم فقد تعلَّمَ أنَّ الجدارَ المستقيم أقوى من الجدار السميكِ، وأنَّه يمكن فتحُ نوافذ واسعة ما دام قوسُ النافذةِ نصفَ دائري. من البعيدِ بدت الكنيسةُ مائلةً، وعندما اقتربَ توم أدركَ السبب. كان أحدُ البرجين التوأمين في الطرف الغربي منهاراً. سُرّ توم عندما رأى هذا لأنَّ رئيسَ الديرِ الجديد سيرغبُ بإعادةِ بنائهِ، ودفعَهُ هذا الخاطرُ إلى تغذيةِ الخطو نحو الكاتدرائيةِ. لم يرغب توم أن يتكررَ ما حصلَ معه في قلعةِ الإيرل؛ فقد وجدَ في الحصول على عملٍ ثمَّ رؤيةِ رئيسه يُهزم ويؤسر بعد معركةٍ أمراً مُحبطاً. شعرَ أنَّه لم يعد قادراً على تحملِ خيبةٍ أخرى كخيبتهِ الأخيرةِ.

حدَّقَ إلى إيلين في خوفٍ من قدومِ ذلكَ اليومِ الذي ستعتبرُ فيهِ توم عاجزاً عن إيجاد عملٍ، وإطعامهم فتتركه. ابتسمت له ثمَّ تجهمت مجدداً عندما نظرت إلى الكتلةِ المهيبةِ والقريبة للكاتدرائيةِ. كان توم قد لاحظَ أنَّها في حضرةِ الكهنةِ والرهبان تشعرُ بالضيقِ، وتساءلَ في نفسهِ إن كانت تشعرُ بالذنبِ لأنَّهما لم يكونا زوجين في عينِ الرَّبِّ.

غصَّت ساحةُ الدير بالحركةِ والنشاط، ورغمَ أنَّ توم قد رأى أديرةً مغمورةً وهادئةً وأخرى تعجُّ بالحركةِ، فإنَّ كينغزبريدج كانت استثنائيةً. بدت كأنَّها نُظفت تنظيفاً جادّاً منذُ ثلاثةِ أشهرٍ، وخارج الإسطبلات وقف راهبان يُنظفان

ويُمشطان الجيادَ، وراهبٌ ثالثٌ ينظفُ السروج بينما نظَّفَ رهبانٌ مبتدئون المرابضَ من الروثِ، وآخرون كنسوا ونظفوا نُزلَ الضيوفِ الذي يقع قربَ الإسطبلاتِ، وفي الخارجِ وقفت عربةٌ مُحمَّلةٌ بالقشِّ جاهزة لإفراغِ حمولتها على الأرضيةِ النظيفةِ.

رغم كل هذه الحركةِ والنشاطِ لم يكن هناك من يعملُ على البرجِ المتهدم. تفحَّصَ توم كومةَ الحجارةِ التي بقيت من البرجِ، وتكهنَ أنَّ الانهيار حدثَ منذُ بضعِ سنواتٍ لأنَّ الحواف المحطمة للحجارةِ أبلاها الصقيعُ والمطرُ، والملاطَ المسحوق باهتٌ، وكومة الحجارةِ قد غارت عميقاً لإنش أو أكثر في الأرضِ الطريةِ. من المذهلُ بحقٍ أنَّ البُرجَ لم يرمم حتَّى الآن بما أنَ كنائس الكاتدرائيات يُفترض بها أن تكون مهيبةً. لا بدَّ أنَّ رئيسَ الديرِ السابقَ كان مهملاً، وتعوزه الكفاءة، أو ربما لكليهما، ومن المرجحِ أن يتزامن وصولُ توم مع خطةِ الرهبان لإعادةِ بنائهِ. كان بحاجةِ الآن إلى بعضِ الحظِّ.

«لا أحد يتذكرني»، قالت إيلين.

«متى أتيتِ إلى هنا؟» سألها توم.

«منذُ ثلاثةَ عشرَ عاماً».

«لا عجبَ أنهم نسوا أمركِ».

وخلال مرورهم أمام الواجهةِ الجنوبيةِ للكنيسةِ فتحَ توم أحدَ الأبوابِ الخشبيةِ الكبيرةِ، وألقى نظرةً إلى الداخلِ. كان صحنُ الكنيسةِ مُعتماً ومُوحشاً بأعمدتهِ الثخينةِ، وسقفهِ الخشبي القديم، ورغم ذلكَ وجدَ توم العديد من الرهبانِ ينظفون الجدران بفراشٍ طويلةٍ، وآخرين يكنسون الأرضيةَ الطينيةَ، واتضح له أنَّ رئيسَ الديرِ الجديدِ مهتمٌ بأناقةِ المكانِ، ورأى في هذا بارقةَ أملٍ.

أغلقَ توم البابَ.

بعيداً عن الكنيسةِ، وفي فناءِ المطبخِ احتشدَ فريقٌ من الرهبانِ المبتدئين حولَ ترعةِ ماءٍ قذرٍ ينظفون السخامَ والدهنَ المتراكمَ على قدورِ الطبخِ، ويفركون أدواتِ المطبخِ بحجارةٍ حادةٍ. بدت مفاصلُ أيديهم متقرحةً، ومُحمرَّةً من غسل المواعين في الماءِ المتجمدِ، ولكنهم عندما رأوا إيلين قهقهوا، وأشاحوا بنظرهم بعيداً.

سألَ توم راهباً مبتدئاً له مظهرٌ خجولٌ عن مكانِ وكيلِ المؤن. عملياً، كان عليهِ أن يسألَ عن الكشماسِ لأنَّ إدارةَ الكنيسةِ من مسؤوليتهِ، غير أن وكلاء المؤنِ كانوا أكثر وداً، والتحدث إليهم أسهل بكثير، ولكن يبقى رئيسُ الدير صاحبَ القرارِ النهائي في جميعِ الأمورِ. أرشدهم الراهبُ المبتدئ إلى سردابٍ في أحدِ المباني يقع عندَ الفناءِ. دخلَ توم إلى الفناءِ، وعبرَ ممرّاً مفتوحاً، ولحقت بهِ إيلين والأطفال ثمَّ وقفوا جميعهم عندَ البابِ لبرهةٍ حتَّى تعتاد عيونهم على ظُلمةِ المكانِ.

ومن النظرةِ الأولى عرفَ توم أنَّ المبنى أحدث وأفضل مبنى في الديرِ. كان الهواء جافاً، وما من رائحةِ عفنٍ في المكانِ. في الحقيقةِ أثارت الروائحُ المختلفةُ للطعام المخزن آلاماً في بطنهِ؛ فهو لم يأكل منذُ يومين. حالما اعتادت عيناه على الظلمةِ لاحظَ أنَّ للسردابِ أرضيةً حجريةً جيدةً، وأعمدةً قصيرةً وثخينةً، وسقفاً أشبه بسقفِ نفقٍ، وبعدَ برهةٍ لمحَ رجلاً طويلاً وأصلع يغرفُ ملحاً من برميلٍ، ويضعه في قدرٍ.

«هل أنتَ وكيل المؤنِ؟» سأل توم، ولكن الرجل رفعَ يدَه في إشارةٍ لتوم بالتزام الصمتِ، وعرفَ توم أنَّه كان يعدُّ. انتظروا جميعاً في صمتٍ إلى أن فرغ من العدِّ، وقال أخيراً: «أربعون وتسعة عشر... ستون»، ووضعَ الملعقةَ من يدهِ.

وهنا قال توم: «أُدعى توم وأنا بنَّاءٌ. أرغب بإعادةِ بناءِ البرج الشمالي الغربي للكنيسةِ».

«أنا كوثبرت وايتهيد، وأنا وكيل المؤن، وأريدُ رؤيتك تفعل هذا»، أجاب الرجل. «ولكن علينا أولاً أن نسألَ الأبَ فيليب. ألم تسمعوا بأمرِ رئيسِ ديرنا الجديد؟»

«أجل»، أجاب توم وقد استنتجَ الآن أن كوثبرت شخصٌ ودود وعمليٌ ووديع، وسيسرُّ بتجاذب أطرافِ الحديثِ. «ويبدو أنَّ الرئيسَ الجديد عازمٌ على تحسين مظهرِ الديرِ».

أومأ كوثبرت برأسهِ وقال: «ولكنه ليس عازماً على دفعِ المالِ لقاءَ هذا. ألم تلاحظ أنَّ الرهبان يقومون بمعظمِ الأعمالِ هنا؟ إنَّه لا يستعين بأيِّ عمالٍ، وهو يقول إنَّ الدير يملكُ ما يكفي من الخدمِ».

كان هذا خبراً سيئاً، ولكن توم سألَ بلطفٍ: «وما رأي الرهبان بهذا؟»

ضحكَ كوثبرت، وتغضنَ وجهه أكثر مما كان متغضناً ثمَّ قال: «أنتَ رجلٌ لبقٌ أيُّها البنَّاء توم. إن رؤية رهبان كُثر يعملون بهذا الجدِّ ليست أمراً شائعاً. حسناً، لا يُجبر رئيسُ ديرنا الجديد أحداً على العملِ، ولكنه يفسرُ تعاليمَ القديس بينديكت بطريقتهِ قائلاً إنَّ من يقوم بعملٍ جسدي يستحقُ تناولَ اللحمِ الأحمرِ، وشربَ الخمرِ أمَّا من يكتفون بالدراسةِ والصلاةِ فيجب أن يعيشوا على السمكِ المملحِ والجعةِ المخففةِ، ويمكنه أن يقدمَ لكَ تبريراً نظرياً مُعقداً لهذا أيضاً، ولكن في نهايةِ المطافِ كان هناكَ الكثير من المتطوعين للعملِ الجسدي، خاصَّةً بين الرهبان الشبانِ». ومن كلامهِ لم يبدُ كوثبرت ممتعضاً من منهجِ رئيسِ الديرِ بل سعيداً بهِ.

قال توم: «أيًّا يكن الطعامُ الذي يأكله الرهبان فإنَّهم عاجزون عن بناءِ الأسوارِ الحجريةِ». خلالَ حديثهِ سمعَ بكاءَ طفلٍ. لامسَ الصوتُ وتراً في قلبهِ ثمَّ أخذَ بعضَ الوقتِ ليدركَ أنَّ وجود طفلٍ في الديرِ أمرٌ غريبٌ.

«سنتحدثُ إلى رئيسِ الديرِ بهذا الشأنِ»، قال كوثبرت، ولكن توم بالكادِ سمعَ ما قاله. كان صوتُ البكاءِ لطفلٍ بعمرِ الأسبوع أو الأسبوعين، وازداد الصوت قوَّةً. التقت عينا توم بعيني إيلين، ولاحظَ أنَّها هي أيضاً كانت مذهولةً. تحرَّكَ خيالٌ عندَ البابِ، وشعرَ توم بشيءٍ عالقٍ في حلقهِ. دخلَ راهبٌ يحملُ طفلاً، ونظرَ توم إلى وجهه ليكتشفَ أن الطفلَ طفلَهُ.

ابتلعَ توم لعابهُ بصعوبةٍ. كان وجه الطفلِ مُحمرًّاً، وقد أطبقَ على قبضتي يديه، وفتحَ فمهُ فظهرت لثتهُ الخاليةُ من الأسنانِ. لم يكن بكاؤهُ بكاءَ ألمٍ أو مرضٍ بل طلباً للطعامِ بكلِّ بساطةٍ. كان طفلاً طبيعياً، وسليماً، وممتلئاً، وهنا شعرَ توم بالوهن والراحةِ لدى رؤيةِ ابنهِ سليماً.

بدا الراهب الذي حملَ الطفلَ شاباً بشوشاً في العشرين من العمرِ تقريباً، وبشعرٍ أشعث، وابتسامةٍ عريضةٍ أقرب لابتسامةِ أبله. على عكسِ معظمِ الرهبان لم يبدِ هذا الراهبُ أيَّ ردِّ فعلٍ على وجودِ امرأةٍ بل ابتسم للجميع، وقال لكوثبرت: «يحتاج جوناثان إلى المزيدِ من الحليبِ».

أرادَ توم أن يحتضنَ الطفل بين ذراعيهِ، وحاول ألا يفضح وجهه ما كان يجول في خلدهِ ثمَّ ألقى نظرةً عابرةً على الأطفالِ. كانوا يعلمون أنَّ كاهناً

مسافراً عثرَ على الطفلِ الذي تركوه في الغابةِ، ولكنهم لم يعلموا أنَّ الكاهن قد أخذهُ إلى ديرٍ صغيرٍ في الغابةِ. لم يلحظ على وجوههم سوى فضول عادي، ولم يربطوا بين هذا الطفلِ، والطفل الذي تخلوا عنه في الغابةِ.

رفعَ كوثبرت مغرفةً، وإبريقاً صغيراً ثمَّ ملأ الإبريقَ من دلو يحوي على الحليب. قالت إيلين للراهب الشابِ: «هل يمكنني أن أحملَ الطفل؟» ومدَّت ذراعيها فسلَّمها الراهب الطفلَ. حسدها توم. كان يتوق إلى حملِ هذا الطفل الصغير، ومعانقتهِ بقوةٍ. هدهدت إيلين الطفلَ، وهدأ لبعضِ الوقتِ.

رفعَ كوثبرت نظره عالياً وقال: «آه، إن جوني إيتبنس مربي أطفالٍ جيد، ولكنه يفتقر إلى لمسةِ المرأةِ».

ابتسمت إيلين للراهبِ وقالت لجوني: «لماذا ينادونكَ بجوني إيتبنس؟»

أجابَ كوثبرت بالنيابةِ عن جوني قائلاً: «لأنَّه يعتقد أنَّ ثمانيةَ بنساتٍ تساوي شيلنغاً»، وضربَ على جانبِ رأسهِ في إشارةٍ إلى أن جوني أحمق. «ولكنه يبدو أنَّه يفهم احتياجات الكائنات غير العاقلةِ والمسكينةِ أفضلَ مما نفعل نحن الناسُ الأعقل. لا بدَّ أن هذا كله جزءٌ من خطةِ الربِّ الكبرى. أنا واثقٌ من هذا»، أنهى كوثبرت كلامه بغموضٍ.

مالت إيلين نحو توم، وناولتهُ الطفلَ. لا بدَّ أنَّها قرأت أفكاره. رمقها بنظرةِ امتنانٍ كبيرٍ، وأخذ الطفلَ الصغيرَ بين يديه الضخمتين، وشعرَ بنبضِ قلبِ الطفلِ تحت البطانيةِ التي لُفَّ بها. كان قماشُ البطانيةِ من النوع الفاخرِ، وتساءل في نفسهِ لوهلةٍ من أين للرهبان هذا الصوف الناعم. ضمَّ توم الطفلَ إلى صدرهِ، وهدهدَهُ. لم تكن طريقته بجودةِ طريقةِ إيلين، ولذلك بدأ الطفل يبكي مجدداً، ولكن توم لم يعبأ بالأمرِ؛ فقد كان ذلك الصراخ العالي والمستمر كالموسيقى لأذنيهِ وهو يعني أن الطفلَ الذي تخلى عنه سليم وقوي، وعلى الرغمِ من صعوبةِ الأمرِ فإنَّه شعرَ أنَّه اتخذ القرار الصحيح بترك الطفلِ في الديرِ.

سألت إيلين جون: «وأين ينام؟»

أجابها جوني هذهِ المرة بنفسهِ: «في مهدهِ في المهجع مع بقيتنا».

«لا بدَّ أنَّه يوقظكَ طوالَ الليلِ».

«على أيِّ حالٍ ينهضُ الرهبان عندَ منتصفِ الليلِ من أجلِ صلاةِ الفجرِ»، قال جوني.

«بالطبع بالطبع! لقد نسيت أنَّ الرهبان كالأمهات يقضون الليل صاحين».

ناول كوثبرت جوني إبريقَ الحليبِ. أخذَ جوني الطفلَ من توم بيدٍ خبيرةٍ. لم يكن توم مستعداً لإعطائهِ الطفل، ولكنه في عيون هذين الراهبين لا يملكُ الحقَّ بالاحتفاظِ بهِ أبداً، ولهذا كان عليه أن يسلّمهُ. بعد برهةٍ غادرَ جوني مع الطفل تاركاً توم يصارع رغبةً في الذهاب خلفه، والقول له: «انتظر هذا ابني، أعدهُ إلي». وقفت إيلين بجانبهِ، وعصرَت ذراعَه في تعاطفٍ خفي.

أدركَ توم أنَّه الآن يملكُ أملاً جديداً. إن تمكنَ من العملِ هنا فسيتمكن من رؤيةِ الطفلِ جوناثان طوالَ الوقتِ، وسيكون الأمرُ كأنَّه لم يتخلَ عنه قط. بدا الأمرُ أقرب للخيالِ منه إلى الحقيقة، ولهذا لم يجرؤ على تمنيه.

نظرَ كوثبرت بدهاءٍ إلى مارثا وجاك يراقبان بعيون جاحظة الإبريق الممتلئ بالحليب الدسمِ الذي أخذه جوني معه. «هل يرغب الأطفالُ ببعضِ الحليب؟»

«أجل من فضلكَ أيُّها الأب»، قال توم الذي أرادَ البعض منه أيضاً.

غرفَ كوثبرت بعضَ الحليب، ووضعَهُ في وعاءين خشبيين، وناولهما إلى مارثا وجاك. شرب الطفلان الحليب بسرعةٍ، وتركَ الحليب دائرتين كبيرتين بيضاوين فوقَ فمهما. «المزيد؟» عرض عليهما كوثبرت.

«أجل، من فضلك»، أجابا معاً. نظرَ توم إلى إيلين، وعلم أنَّها تشاركهُ الشعور بالامتنانِ الشديدِ لأنَّ الطفلين قد حصلا على الطعامِ أخيراً.

أعادَ كوثبرت ملء الوعاءين وسألهم بشكلٍ عرضي: «من أين أتيتم؟»

«من قلعةِ الإيرل بالقرب من شايرنغ»، قال توم. «لقد غادرناها البارحة».

«هل أكلتم منذئذٍ؟»

«لا»، قال توم بغلظةٍ. علمَ أنَّ سؤال كوثبرت بدافعِ اللباقة، ولكنه كرهَ الاعتراف أنَّه عاجزٌ عن تأمينِ الطعامِ لأطفالِهِ.

«فلتتناولوا بعضَ التفاحِ إلى أن يحين موعد العشاءِ»، قال كوثبرت مشيراً إلى برميلٍ قربَ البابِ.

توجه آلفريد وإيلين وتوم إلى البرميلِ بينما تابع جاك ومارثا شربَ الوعاءِ الثاني من الحليبِ. حاول آلفريد أن يملأ يديهِ بالتفاح، ولكن توم ضربه

فأوقعَ التفاحَ من يديهِ ثمَّ قال له بصوتٍ خفيضٍ: خُذ اثنتين أو ثلاثاً». وأخذَ آلفريد ثلاثَ تفاحاتٍ.

تناولَ توم حصَّتهُ من التفاح بامتنانٍ، وتراجعَ الألمُ في بطنهِ، ولكنه لم يستطع التوقف عن التفكيرِ بموعدِ تقديمِ العشاءِ، وتذكر بسعادةٍ أنَّ الرهبان عادةً ما يتناولون العشاءَ قبلَ هبوطِ الظلامِ من أجل توفيرِ الشموعِ.

كان كوثبرت ينظرُ بإمعانٍ إلى إيلين ثمَّ قال لها في نهايةِ المطاف: «هل أعرفك؟»

بدت مضطربةً وأجابته: «لا أعتقد هذا».

«تبدين مألوفةً»، قال لها بحيرةٍ.

«كنتُ أعيشُ في الجوارِ عندما كنتُ طفلةً»، قالت له.

«قد يكون هذا ما في الأمرِ»، قال لها وتابع: «لهذا اعتقدت أنَّكِ تبدين أكبر مما يُفترضُ بكِ».

«لا بدَّ أنَّك تملك ذاكرةً ممتازةً».

اكفهرَّ وجه كوثبرت وقال: «ليسَ إلى هذا الحدِّ، أنا واثقٌ من وجود أمرٍ آخر... لا يهم. لماذا غادرتم قلعة الإيرل؟»

«تعرَّضت القلعةُ إلى هجومٍ صباح البارحة واُحتلَّت»، أجاب توم ثمَّ تابع: «الإيرل بارثيميلو متهمٌ بالخيانةِ».

صُدمَ كوثبرت مما سمعه وقال متعجباً: «فليحمنا القديسون!» ثمَّ أضافَ فجأة كأنَّه امرأةٌ مسنةٌ فاجأها ثورٌ: «الخيانة!»

سمعوا وقعَ خطواتٍ في الخارجِ. التفت توم، ورأى راهباً آخر يدخل ثمَّ قال كوثبرت: «هذا هو رئيسُ ديرنا الجديد».

عرفَ توم الرئيسَ الجديدَ على الفورِ؛ فقد كان الراهب الذي التقوا بهِ في طريقهم إلى قصرِ الأسقفِ، ومن قدَّم لهم الجبنَ اللذيذَ. اتضح كلُّ شيءٍ لتوم الآن: كان رئيس دير كينغزبريدج الجديد الرئيسَ القديمَ للصومعةِ الصغيرةِ في الغابةِ، وقد أحضرَ جوناثان معه إلى الدير هنا. غمرَ التفاؤل قلبَ توم؛ فقد كان فيليب رجلاً لطيفاً، ويبدو أنَّه أحبَّ توم، ووثقَ به، وسيمنحه عملاً دونَ شكٍ.

عرفَ فيليب توم فحياه قائلاً: «أهلاً بك أيّها البنَّاء، ألم تحصل على عملٍ في قصرِ الأسقفِ؟»

«لا يا أبتاه. لم يمنحني رئيسُ الشمامسةِ عملاً، ولم يكن الأسقفُ في القصرِ».

«لم يكن في القصر بلِ في السماءِ، ولكننا لم نعلم ذلكَ آنذاك».

«هل توفي الأسقفُ؟»

«أجل».

«هذا خبرٌ قديمٌ»، تدخلَ كوثبرت في الحديثِ بعد أن نفدَ صبره وتابع: «جاء توم وعائلته من قلعةِ إيرل شايرنغ، وقالوا لي إنَّ الإيرل بارثيميلو أُسرَ واُحتلَّت قلعته».

بدا فيليب هادئاً جداً، ودمدم قائلاً: «بهذهِ السرعةِ!»

«بهذهِ السرعةِ؟» كررَ كوثبرت وراءه، «لماذا تقول هذا؟» بدا كوثبرت مُغرماً بفيليب، ولكنه أيضاً بدا مُرتاباً منه كأبٍ يرى ابنه عائداً من الحربِ بسيفٍ على حزامِهِ، ونظرةٍ خطيرةٍ في عينيهِ. «هل كنتَ تعلم أنَّ هذا ما سيحدث؟»

ارتبكَ فيليب بعضَ الشيءِ، وقال في ترددٍ: «لا، ليسَ بالضبطِ. سمعتُ إشاعةً مفادها أنَّ الإيرل بارثيميلو يعارضُ الملكَ ستيفن». واستعاد فيليب رباطة جأشِهِ وتابع: «يمكننا جميعاً أن نكون ممتنين على هذا؛ فقد وعدَ ستيفن بحمايةِ الكنيسةِ في الوقت الذي كانت فيه مود ستضطهدنا كما فعلَ والدها الراحل. أجل، هذهِ أخبارٌ طيبةٌ». وبدا راضياً كأنَّه من قامَ بالأمرِ.

لم يرغبْ توم بالحديثِ عن الإيرل بارثيميلو، ولذلك قال: «ولكنها ليست طيبةً بالنسبةِ إلي. كان الإيرل قد منحني مُهمةَ تمكين دفاعاتِ القلعةِ قبلَ يومٍ على الهجومِ، ولم أحصل على أجرِ يومٍ واحدٍ على الأقلِّ».

«يا لَها من خسارةٍ!» قال فيليب. «من هاجمَ القلعةَ؟»

«اللورد بيرسي هاملي».

«آه»، أومأ فيليب برأسه، ومجدداً شعرَ توم أنَّ فيليب رأى في هذهِ الأخبار برهاناً على صحةِ شكوكه.

«أنتَ تقومُ بتحسيناتٍ هنا»، قال توم في محاولةٍ للالتفافِ، والعودةِ بالحديثِ إلى موضوعهِ.

«أنا أحاول»، قال فيليب.

«لا بدَّ أنَّك ترغب بإعادةِ بناءِ البرجِ. أنا واثقٌ من هذا».

«أعيدُ بناءَ البرجِ، وأصلحُ السقفَ، وأرصف الأرضيةَ. أجل. أريدُ كلَّ هذا، وأنت بالطبعِ تريدُ عملاً». ثمَّ أضافَ كأنَّه أدركَ سببَ قدوم توم إلى هنا: «لم أفكر بهذا. كنتُ أتمنى لو أنني أستطيعُ منحكَ عملاً، ولكن يؤسفني القول إنَّني لا أستطيعُ دفعَ المالِ لكَ؛ فالديرُ مفلسٌ».

شعرَ توم كأنَّه تلقى لكمةً. كان واثقاً من أنَّه سيجدُ عملاً هنا، وأنَّ كلَّ الإشارات تدُلّ على ذلكَ. بالكاد كان قادراً على تصديقِ ما سمعَهُ، وحدَّق إلى فيليب غيرَ مُصدقٍ أنَّ الدير مفلسٌ. لقد قال له وكيل المؤن إنَّ الرهبان أنفسهم من يقومون بالعملِ الإضافي، ولكن رغمَ ذلك يمكن للدير دوماً أن يستدينَ المالَ من اليهود، وهنا شعرَ توم أنَّ هذه هي نهاية الطريقِ بالنسبةِ إليهِ.

بدا له أنَّ ما دفعهُ للمضي قدماً طوالَ الشتاءِ قد استنزفه الآن، وشعرَ بالضعفِ، وأنَّ قواه تخورُ، وفكرَ في نفسهِ: «لا أستطيعُ المضي قدماً. لقد انتهيت».

رأى فيليب مصابَهُ فعرضَ عليهِ: «يمكنني أن أقدمَ لكَ العشاء، ومكاناً للمبيت، وفطوراً في الصباح».

شعرَ توم بغضبٍ مريرٍ وأجابه: «سأقبله ولكن أفضلُ كسبَهُ بعرقِ جبيني».

رفعَ فيليب حاجبيهِ في عجبٍ من نبرةِ الغضبِ في صوتِ توم، ولكنه تحدَّث بهدوءٍ: «اقبلهُ من الرَّبِّ؛ فهذا ليس استجداء بل صلاة»، وخرج.

بدا الآخرون خائفين بعضَ الشيءِ، وأدرك توم أنَّ نبرةَ الغضبِ في صوتهِ كانت واضحةً جداً. بعد مغادرةِ فيليب بقليل خرجَ توم، ووقفَ في الفناءِ، ونظرَ إلى الكنيسةِ القديمةِ الكبيرةِ محاولاً التحكمَ بمشاعرهِ.

بعد وهلةٍ لحقت بهِ إيلين والأطفال. وضعت إيلين ذراعها حولَ خصره في محاولةٍ للترويحِ عنه، ولدى رؤيتهما بدأ الرهبان المبتدئون بالتهامس، ووكز بعضهم بعضاً. تجاهلهم توم وقال بمرارةٍ: «سأصلي. سأصلي للرَّبِّ كي يرسلَ صاعقةً، ويسوي الكنيسةَ بالأرضِ».

***

في اليومين التاليين تعلَّم جاك ما الذي يعنيهِ الخوفُ من المستقبلِ.

طوال حياته وحتَّى الآن لم يفكر يوماً بما هو أبعد من الغدِ، وإن فعلَ علمَ ما الذي يمكنهُ توقعُهُ. كانت الأيام تمرُّ متشابهةً في الغابةِ، والفصول تتغير ببطءٍ، ولكن الأيام الآن لا تشبه بعضها، ولم يعد يعرف ما الذي سيفعله اليوم، أو إن كان سيحصل على طعامٍ.

كان أسوأ ما في الأمرِ هو الشعور بالجوعِ. تناول جاك العشبَ والأوراقَ سِراً في محاولاتٍ للتخفيفِ من عضَّاتِ الجوعِ، ولكنها كانت تسبب له نوعاً مختلفاً من وجعِ البطنِ، وتجعله يشعرُ بشعورٍ غريبٍ. غالباً ما كانت مارثا تبكي بسببِ الجوعِ، وتسيرُ برفقةِ جاك على الدوامِ. كانت تقتدي بهِ، وهذا ما لم يفعله أحدٌ معه من قبلٍ. كان العجز على إراحتها من معاناتها أسوأ من ألم الجوعِ نفسه.

لو أنَّهم يعيشون في الكهفِ لعلمَ أين يذهب لصيدِ البطِ، أو للعثور على المكسراتِ، أو سرقةِ البيضِ، ولكن في المدنِ والقرى، وعلى الطرقات الغريبةِ التي تربط بينها شعرَ بالضياعِ. كل ما كان يعرفه هو أنَّ على توم إيجاد عملٍ.

قضوا فترةَ ما بعدِ الظهرِ في نُزلِ الضيوفِ التابعِ إلى الديرِ. كان المنزلُ بسيطاً، وبغرفةٍ واحدةٍ، وأرضيةٍ قذرةٍ، وموقدٍ في الوسطِ تماماً كمنازلِ الفلاحين التي عاشَ فيها، ولكن جاك الذي عاشَ جلَّ حياتهِ في كهفٍ نظرَ إلى الغرفة في ذهولٍ. كان فضولياً حيالَ طريقةِ بناءِ المنزلِ، وأطلعه توم على الطريقةِ. تُقطع شجرتان، وتنظفان، وتوضعان بشكلٍ مثلثي ثمَّ يوضع جذعان متشابهان بالطريقةِ ذاتها على بعدِ أربعةِ ياردات فيتشكل مثلثان متصلان عندَ القمةِ بعمودٍ أفقي. بالتوازي مع هذا العمود يتم توزيع الألواح الخشبيةِ حولَ الجذعين ويتشكل بذلك السقف المنحدر للمنزلِ ويصل إلى الأرضِ. توضع الأُطر المستطيلة المصنوعة من الخيزران المنسوجِ فوقَ الألواحِ الخشبيةِ ثمَّ تُعزل بالطينِ، أمَّا الجملون فيُصنع من أوتادٍ تُثبت إلى الأرضِ، وتُملأ الصدوع بينها بالطينِ، وهناك باب عندَ أحدِ الجملوناتِ، ولا وجود للنوافذِ في المكانِ.

فرشت والدة جاك قشَّاً جديداً على الأرضيةِ وأشعلَ جاك النارَ في الموقد بحجري الصوان اللذين يحملهما على الدوامِ. وعندما لم يكن هناك أحد

يسمعه سألَ والدته عن سببِ رفضِ رئيسِ الدير إعطاءَ توم عملاً رغمَ وجودِ عملٍ له. «يبدو أنَّه يفضلُ توفيرَ المالِ ما دامت الكنيسةُ بحالةٍ سليمةٍ»، ثمَّ أضافت: «إن تهدَّمت الكنيسةُ سيضطرون إلى إعادةِ بنائها، ولكن كل ما لديهم الآن برجٌ مُتهدمٍ ويمكنهم استخدام الكنيسةِ رغمَ هذا الضررِ».

عندَ الأصيلِ بدأ ضوءُ النهارِ يخفتُ وأتى خادم مطبخٍ إلى نُزل الضيوفِ حاملاً قدراً من عصيدةِ اللحمِ، ورغيفاً من الخبزِ بطولِ رجلٍ. كان هذا كله من أجلهم. كانت العصيدةُ مصنوعةً من الخضرواتِ، والأعشابِ العطرةِ، والعظامِ، والدسمُ يطفو لامعاً على وجهها، أمَّا الرغيفُ فكان من الخبزِ القاسي، ومصنوعاً من جميع أنواعِ الحبوبِ: الجودار، والشعير، والشوفان، والبازلاء، والفول المجففةِ. كان أرخص أنواعِ الخبزِ. هذا ما قاله آلفريد لجاك الذي لم يتناول خبزاً إلا منذُ يومين فقط ووجدَهُ لذيذاً. أكلَ جاك إلى أن آلمه بطنه، وقضى آلفريد على كلِّ شيءٍ.

جلسوا بقربِ النارِ بعد هذهِ الوليمة وسألَ جاك آلفريد: «لماذا سقطَ البرجُ؟»

«ضربته صاعقةٌ على الأرجح»، قال آلفريد. «أو قد نشبَ فيه حريقٌ».

«ولكن ليس فيه شيءٌ ليحترق»، قال جاك وأضاف: «إنَّه مصنوع من الحجارةِ».

«السقف ليسَ حجرياً أيُّها الغبي»، قال آلفريد باحتقارٍ. «بل مصنوعٌ من الخشبِ».

وفكرَ جاك في الأمرِ لبرهةٍ ثمَّ قالَ: «ولكن إن احترقَ السقف فهل ينهار المبنى على الدوام؟»

هزَّ آلفريد رأسَهُ بلامبالاةٍ وقال: «أحياناً».

جلسوا في صمتٍ لبرهةٍ من الزمنِ، وفي الجانبِ الآخر من المدفأة كان توم ووالدة جاك يتحدثان همساً.

قال جاك: «إنَّ أمرَ الطفلِ مريبٌ».

«ما الغريب فيهِ؟» قال آلفريد بعد وهلةٍ.

«حسناً، لقد أضعتم طفلاً في الغابةِ التي تبعد أميالاً عن هذا الدير، ويوجد طفلٌ في هذا الديرِ».

بدا آلفريد ومارثا كأنهما ينظران إلى الأمرِ كمصادفةٍ مذهلةٍ بينما نسي جاك الأمرَ على حينِ غرَّةٍ.

توجه جميعُ الرهبانِ إلى النومِ مباشرةً بعدَ العشاءِ، ولم يقدموا شموعاً إلى الضيوفِ البسطاءِ في المنزل لذلك جلست عائلةُ توم حولَ نارِ الموقدِ إلى أن انطفأت ثمَّ استلقوا على القشِّ.

لم يغمض جفنٌ لجاك وهو يفكر. لو احترقت الكنيسة الليلةَ فإنَّ كل مشاكلهم ستحلُّ. سيضطر رئيسُ الديرِ إلى الاستعانةِ بتوم لإعادةِ بناءِ الكنيسةِ، وسيعيشون في نُزل الضيوف الجيدِ، وسيتناولون عصيدةَ العظامِ والخبز القاسي إلى أبد الآبدين.

وفكرَ جاك أنَّه لو كان مكانَ توم لأشعلَ الكنيسةَ بنفسهِ، وقررَ أن يتسلل بهدوءٍ عندما ينام الجميعُ إلى الكنيسةِ ويُشعل حريقاً بحجرِ الصوان الخاص بهِ، ثمَّ يعود إلى هنا بينما الحريق ينتشرُ. سيتظاهر بالنومِ عندما يُطلق جرس الإنذارِ، وعندما يبدأ الناس برمي دلاءِ الماءِ لإطفاء النارِ كما فعلوا عندما احترقت الإسطبلات في قلعةِ الإيرل بارثيميلو سينضم إليهم كأنَّه يريد حقاً إطفاءَ النار مثلهم.

عرفَ جاك من تنفسِ آلفريد ومارثا أنَّهما كانا نائمين، وانتهى توم وإيلين من فعلِ ما يفعلانهِ دائماً تحتَ عباءةِ توم -كان آلفريد أخبره أنَّه هذا يدعى «مضاجعة»- ثمَّ غطَّا في النومِ. بدا لجاك أنَّ توم لن ينهض، ويشعل النار في الكاتدرائيةِ.

ولكن ما الذي سيفعله إذاً؟ هل ستعود العائلة مجدداً إلى التشرد على الطرقاتِ إلى أن يموتوا جوعاً؟

عندما غطَّ الجميع في النوم، وبات جاك واثقاً من إيقاع تنفسهم البطيء أنَّهم نائمون بعمقٍ خطرَ له أنَّ يشعلَ النار في الكاتدرائيةِ بنفسهِ.

وبعثت الفكرةُ الخوفَ في قلبهِ.

سيكون عليهِ أن ينهض بهدوءٍ، وقد يتمكن من فتح مزلاجِ البابِ والخروج دون إيقاظ أحدٍ. قد تكون أبواب الكنيسةِ مغلقةً، ولكن لا بدَّ أن يكون هناك طريقة للدخول إليها، خاصَّة بالنسبةِ إلى شخصٍ ضئيل القامةِ مثله.

عرفَ كيف يصعد إلى السقفِ حالما يدخلها. لقد تعلَّم الكثير في الأسبوعين الماضيين اللذين قضاهما مع توم الذي لا يكفُّ عن الحديثِ

عن الأبنيةِ، وهو يوجه بملاحظاته أغلب الوقتِ إلى آلفريد رغم أنَّ الأخيرَ لم يكن يبدو عليهِ الاهتمامُ إلَّا أنَّ جاك كان مُهتماً. ومن بين الكثيرِ من الأمورِ الجديدةِ التي علمها من توم أنَّ للكنائسِ الكبيرةِ سلالمَ داخلَ الجدران للصعودِ إلى الأجزاء العليا خلالَ عمليات الإصلاحِ. سيبحثُ عن الدرجِ، وعندما يجدهُ سيصعد إلى السقفِ.

نهضَ جاك في الظلام وهو يُصغي إلى تنفس البقيةِ. كان بوسعه تمييز صفير تنفس توم بسببِ سنواتٍ من تنشقِ غبارِ الحجارةِ، كما قالت له والدته. كان آلفريد يشخرُ بصوتٍ عالٍ غير أنَّه توقفَ عندما استدار جانباً.

عندما ينتهي من إشعالِ النارِ عليه أن يعودَ إلى النُزل على الفورِ. ما الذي سيفعله الرهبانُ إن أمسكوا بهِ؟ في شايرنغ رأى جاك ولداً في مثلِ عمرهِ يُربط ويُجلد على سرقتهِ كوزاً من السكرِ من متجرِ البهارات. صرخَ الفتى، وأدمى السوطُ اللدنُ مؤخرته، وبدا الأمرُ أسوأ من قتلِ الرجال بعضهم لبعض في معركةٍ كما حدث في قلعةِ الإيرل، وتملكته صورةُ الولد الذي نزفَ من مؤخرتهِ. كان مرعوباً من أن يحدث له هذا أيضاً.

وفكر في نفسهِ: «إن فعلت هذا فلن أخبرَ أحداً».

استلقى مجدداً، وأحكم عباءته حوله ثمَّ أغلقَ عينيهِ.

تساءلَ في نفسهِ إن كان بابُ الكنيسةِ مُغلقاً، ولكن إن وجدهُ مغلقاً فسيدخلُ من النافذةِ. لن يراه أحدٌ إن لازم الجانبَ الشمالي من الساحةِ؛ فقد كان مهجعُ الرهبان في الجانب الجنوبي، وتخفيه الممرّات المسقوفة، علاوةً على هذا لا يوجد في الجانب الشمالي سوى المقبرة.

قررَ جاك الذهاب وإلقاء نظرة كي يتأكدَ من الأمرِ.

ترددَ لبرهةٍ ثمَّ وقفَ.

طقطق القشُّ الجديدُ تحتَ قدميهِ. أصغى مجدداً إلى تنفس الأربعة النائمين. كان المكان هادئاً جداً؛ فقد توقفت الفئران عن التحرك على الأرضية المفروشةِ بالقشِّ، ثمَّ تقدَّم خطوةً، وأصاخ السمع مجدداً. مازال الجميع نياماً. فقدَ جاك صبرهُ، وخطا ثلاثَ خطواتٍ سريعةٍ باتجاه الباب، وعندما توقفَ بدا أنَّ الفئران شعرت بالاطمئنان، وبدأت تتحركُ مجدداً، ولكن الأربعة النائمين لم يستيقظوا.

لامسَ الباب بأطرافِ أصابعِهِ، ثمَّ مرر يده على الرتاجِ الذي كان عارضةً من خشبِ البلوطِ فوقَ حاملين كهلالين. وضعَ جاك يده تحتَ الرتاجِ، وأمسكَهُ ثمَّ رفعَهُ، ولكن تفاجأ عندما وجدَهُ أثقل مما تخيل، وبعدَ أن رفعَهُ قليلاً اضطرَ إلى إفلاتهِ فأحدَثَ سقوطُهُ ضجةً بدت عاليةً، وتجمَّد جاك في مكانهِ مُصغياً. تغيرَ شخير توم، وتساءل جاك في يأسٍ: «ما الذي سيقوله توم إن أمسكني مُتلبساً؟ سأقول له إنّني أريد الخروج... الخروج... أعلم أعلم... سأقول له إنني كنتُ أريد الخروج لقضاءِ حاجةٍ. استرخى جاك فقد كان لديه الآن حجةٌ للخروجِ. سمعَ توم يتحرَّك، وانتظر أن يسمع صوتَهُ العميق والغليظ، ولكنه لم يسمعه بل عاد توم إلى تنفسِهِ الطبيعي مجدداً.

كان لحوافِ البابِ إطارٌ بلون فضي باهت، وفكرَ جاك أنَّ هذا سببه ضوء القمرِ في الخارجِ. أمسك جاك الرتاج مجدداً، وأخذَ نفساً عميقاً، وجاهد لرفعهِ غير أنَّه هذهِ المرة كان مستعداً. رفعَ الرتاجَ، وسحبَهُ باتجاهه، ولكنه لم يرفعه عالياً بما يكفي وفشل في تحريرهِ من فوق الحاملين. رفعَهُ قليلاً وحررَهُ ثمَّ حملَهُ على صدرهِ ليُخففَ من عبءِ وزنِ الرتاجِ عن ذراعيه قليلاً ثمَّ، وبكلِّ بطءٍ ركعَ على ركبةٍ واحدةٍ، وبعدها على كلتا الركبتين، ووضع الرتاج على الأرضيةِ. بقي على تلك الوضعيةِ لبضعِ دقائق محاولاً التقاطَ أنفاسِهِ، وكي يخفَّ الألم في ذراعيهِ. لم يكن هناك أيُّ صوتٍ باستثناءِ تنفسِ النائمين.

فتحَ جاك البابَ قليلاً، وبحذرٍ شديدٍ أصدرَت المُفصلات صريراً، وعبرَ تيارٌ باردٌ من الفتحةِ أرسلَ القشعريرةَ في أوصالهِ فسارعَ إلى شدِّ عباءتهِ حولَهُ، وفتحَ البابَ قليلاً ثمَّ خرجَ وأغلقهُ مجدداً خلفَهُ.

انقشعت الغيومُ الآن، وكان القمر يظهر ويختفي وراءها على خلفيةِ السماءِ المُضطربةِ. كانت ريحُ باردةً، ولوهلةٍ شعرَ جاك بإغراء العودةِ إلى دفءِ المنزلِ. لاحت الكنيسةُ العظيمةُ ببرجها المتهدمِ فوقَ بقيةِ الديرِ، وتحتَ ضوءِ القمرِ. كانت بلونٍ فضي وأسود، وبسببِ أسوارها العظيمةِ، ونوافذها الصغيرةِ بدت كقلعةٍ قبيحةٍ.

عمَّ الهدوءُ المكانَ، وخارجَ أسوارِ الديرِ في القريةِ يبدو أنَّهم ما زالوا

ساهرين يتناولون الجعةَ قربَ المدفأةِ، أو يحيكون نباتَ السُمَّار[1]، وما عدا ذلك لم يكن هناك أيَّة حركة. أحسَّ جاك بالترددِ وهو ينظرُ إلى الكنيسةِ، وشعرَ أنَّها ترمقه بنظرةٍ اتهامية كأنَّها تعرفُ ما خططَ له. نفضَ عنه هذا الخوف، وعبرَ الحديقةَ الواسعةَ في الطرفِ الغربي من الديرِ.

ووجدَ البابَ موصداً.

استدارَ باتجاهِ الطرفِ الشمالي للديرِ، ونظرَ إلى نوافذ الكاتدرائيةِ. في بعضِ الكنائس يوضع قماش كتاني رقيق على النوافذِ لدرءِ البردِ، ولكن يبدو أنَّهم لم يفعلوا هذا في هذهِ الكنيسةِ. كانت النوافذُ كبيرةً بما يكفي للدخول عبرها إلا أنَّها كانت عاليةً جداً. تفحَّص جاك الحجارةَ بأصابعِهِ، وتحسس الصدوع في الجدار حيثُ بُلي الملاط، ولكنها لم تكن صدوعاً كبيرةً بما يكفي ليتمسك بها. كان بحاجةٍ إلى سُلمٍ.

فكَّر بنقلِ حجارةٍ من البرجِ المتهدمِ، وارتجال سُلم، ولكن الحجارة السليمة كانت ثقيلةً جداً عليهِ، والمكسورة غير متساوية. انتابه شعورٌ أنَّه رأى شيئاً خلالَ النهارِ قد يساعده في الصعود، وأمعنَ في التفكير كي يتذكره. كان الأمر أشبه بمحاولة رؤية شيءٍ من طرفِ العينِ فهو دوماً يبقى بعيداً عن مجال الرؤيةِ، ثمَّ حدَّق جاك إلى المقبرةِ المضاءة بنورِ القمرِ ثمَّ إلى الإسطبلات، وعندها تذكر أنَّه رأى سلّماً صغيراً من النوع الذي يحوي على درجتين أو ثلاث، ويستخدمهُ قصارُ القامةِ لامتطاءِ الجيادِ. تذكر جاك أنَّه رأى أحدَ الرهبانِ يقفُ عليهِ، ويُمشطُ عُرف فرسٍ.

توجهَ جاك إلى الإسطبلات.

لم يكن هذا السُلم من الأغراضِ التي توضع في الداخل ليلاً مخافةَ أن تُسرق فهو بالكاد يستحقُ جهدَ السرقةِ. سارَ بهدوءٍ، ولكن الجياد في الإسطبل أحسَّت بوقعِ خطواتهِ فشخرَ، وعطس جواد أو جوادان. توقف جاك في مكانه مرتعباً، وتذكر أنَّ الساسة ربما نائمون في الإسطبل، وبقي في مكانه ساكناً لبرهةٍ يُصيخ السمعَ إلى أيِّ حركةٍ بشريةٍ، ولكنه لم يسمع شيئاً، والجياد هدأت مجدداً.

1- في ذلكَ العصر اعتاد الناسُ على ضفر نبات السُمَّار ثمَّ تغميسِ طرفه بالشحمِ واستخدامه كمصباحٍ. (المترجمة)

لم يعثر على السُلمِ الصغيرِ، وفكر أنَّه قد يكون قبالةَ السورِ. حدَّق جاك في الظلالِ التي ألقاها ضوءُ القمرِ، وقررَ أنه من الصعبِ إيجاد شيءٍ فيها، وبحذرٍ قطعَ الإسطبل مجدداً. سمعتْه الجياد مجدداً فتوترت، وصهل أحدها. تجمَّدَ جاك في مكانِهِ عندما سمعَ صوت رجلٍ يقول: «هدوء، هدوء». وبينما لزمَ جاك مكانَهُ جامداً من الخوفِ كتمثالٍ رأى السُلم أمامه مباشرةً، وقريباً جداً إلى درجةِ أنَّه كادَ يقع بسببِهِ. انتظرَ لوهلةٍ، وعندما همدت الضجةُ في الإسطبلات، انحنى وحملَ السُلم على كتفِهِ، ثمَّ استدار، وسارَ عبرَ الحديقةِ باتجاهِ الكنيسةِ. كانت الإسطبلات هادئةً.

عندما جرَّب السُلم اكتشفَ أنَّه لم يكن عالياً كفايةً ليوصله إلى النوافذِ. أزعجهُ الأمرُ فقد كان عاجزاً عن الوصولِ إلى النافذةِ، والنظرِ إلى الداخلِ. حتَّى الآن لم يكن قد حسمَ قرارَهُ حيال ما خططَ له، إلا أنَّه لم يرغب للعوائقِ العمليةِ أن تمنعه من تنفيذ مخططهِ. أراد أن يكون من يحسم المسألةَ، وفي هذهِ اللحظة تمنَّى لو أنَّ قامتهُ كقامةِ آلفريد.

كان بوسعهِ تجريب حركةٍ أخرى. تراجعَ إلى الوراء، وركضَ ثمَّ قفز على قدمٍ واحدةٍ إلى الأعلى. وصلَ إلى إفريزِ النافذةِ بسهولةٍ، وأمسكَ بالحافة الحجريةِ ثمَّ بحركةٍ سريعةٍ سحب نفسه إلى أن جلسَ على الإفريز نصف جلوسٍ، وعندما حاولَ الزحفَ عبرَ النافذةِ إلى الداخلِ فوجئ. كانت النافذةُ مدعمةً بقضبانٍ حديديةٍ لم يرها عندما كان داخلَ الكنيسةِ بسببِ العتمةِ على الأغلب. تفحصها بكلتا يديه وهو راكع على الإفريزِ. لم يكن هناك من طريقةٍ أخرى للدخول، ولا بدَّ أن القضبان موضوعة لمنعِ الناس من الدخولِ عندما تكون الكنيسة مغلقةً.

وفي خيبةِ أملٍ قفزَ جاك أرضاً، وحملَ السلم الصغيرَ، وأعادَهُ إلى مكانِهِ، ولكن هذهِ المرة لم تُصدر الجياد أيَّة ضجةٍ.

حدَّق جاك إلى البرجِ الشمالي الغربي المتهدمِ إلى يسارِ البوابةِ الرئيسيةِ، ثمَّ تسلَّقَ بحذرٍ الحجارةَ عندَ حافةِ كومةِ الحجارةِ، وألقى نظرةً إلى داخلِ الكنيسةِ باحثاً عن طريقٍ بين الركام. اختفى القمرُ وراءَ غيمةٍ فاضطرَّ إلى انتظارِ ظهورهِ مجدداً وهو يرتجفُ. أقلقه أن يؤثرَ وزنُهُ، رغم أنَّه كان نحيلاً، على توازنِ الحجارةِ، ويتسببَ بانهيارٍ يوقظ الجميع أو يقتله. حالما ظهرَ

القمرُ مجدداً تفحَّص الكومةَ، وقررَ أن يُخاطرَ. بدأ بالصعودِ وقلبه يخفقُ بشدةٍ من الخوفِ. كانت معظمُ الحجارةِ ثابتةً بينما تقلقلت صخرتان أو ثلاث تحت وطأةِ وزنِهِ. كان سيستمتع بتسلقِ هذهِ الحجارةِ في وضحِ النهار، وبوجود أحدٍ إلى جوارهِ، وبدون شعورٍ قاتلٍ بالذنبِ، ولكنه الآن كان متوتراً جداً، ويفتقدُ الثقةَ في خطواتهِ. انزلق على سطحٍ ناعمٍ، وكادَ يسقط، وهنا قررَ أن يتوقف.

كان الآن على ارتفاع عالٍ كفايةً لينظرَ إلى أسفلِ سطحِ الممرّ الذي يمتدُّ على طولِ الجانبِ الشمالي من صحنِ الكنيسةِ. أملَ أن يكون هناك فجوةٌ في السطحِ، أو ربما بين السقفِ والركام، ولكنه لم يعثر على شيء؛ فالسطح كان مستوياً حتَّى ركام البرجِ، وبدا له أنَّ الطريق مسدودٌ فشعرَ بخيبةِ أملٍ، وببعضِ الراحةِ في آنٍ معاً.

نزلَ من الطريقِ الذي صعدَ منه، وهو ينظر من فوقِ كتفهِ بحثاً عن موطئ قدمٍ، وكلما اقتربَ من الأرضِ شعرَ بشعورٍ أفضل، ثمَّ عندما بات على بعدِ بضعِ خطواتٍ قفزَ، وحطَّ على العشبِ في سعادةٍ.

عادَ إلى الجانب الشمالي من الكنيسةِ، ودارَ حوله. كان قد رأى العديدَ من الكنائسِ في الأسبوعين الماضيين، وكان لجميعها تقريباً الشكلُ ذاته حيثُ الصحن يحتلُّ القسمَ الأكبرَ، وهو على الدوام في الجانب الغربي ثمَّ هناك ما يشبه الذراعين وكان توم يُطلق عليهما اسمَ جناحي الكنيسةِ، وكلاهما يمتدان على الجانبين الشمالي والجنوبي للكنيسةِ. كان يُدعى الطرفُ الشرقي المذبح، وهو أقصر من الصحنِ. كانت كنيسة كينغزبريدج مميزةً فقط لأنَّ لطرفها الغربي برجين، واحدٌ على كلِّ جانبٍ من جانبي المدخلِ، ويشبهان الجناحين.

وجدَ جاك باباً في الجناح الشمالي، وحاول فتحهُ إلا أنَّه وجده موصداً. توقف قليلاً، وحدَّق عبرَ الفناءِ المعشوشبِ. في نهايةِ الزاويةِ الجنوبية الشرقيةِ لساحةِ الديرِ رأى مبنيين: المشفى ومنزل رئيس الديرِ، وكلاهما كان مُظلماً وهادئاً. دارَ حول الطرف الشرقي وعلى طولِ الجانبِ الجنوبي للمذبحِ إلى أن وصلَ إلى الجناحِ الجنوبي البارز. عند نهايةِ الجناحِ، وفي ما يشبه اليدَ على ذراعٍ، وجدَ جاك مبنى مدوراً يدعى قاعةَ الاجتماعاتِ.

بين الجناح وقاعة الاجتماعات عثرَ على ممرّ ضيقٍ يُفضي إلى الممرّاتِ المسقوفةِ فدخله ثمَّ وجدَ نفسهُ في باحةٍ يتوسطها مرجٌ تحيط بها ممرّاتٌ مسقوفةٌ من جميع الجهاتِ. بدا الحجرُ الأبيض للأقواسِ تحت نورِ القمرِ بلونٍ أبيض شاحبٍ، والممراتُ المسقوفةُ غارقةً في عتمةٍ شديدةٍ. انتظر لبرهةٍ كي تعتاد عيناه الظلام.

خرجَ جاك من الجانب الشرقي للباحةِ. إلى يساره كانت بوابةُ قاعةِ الاجتماعات ثمَّ وعند النهايةِ الجنوبيةِ للممرِ الشرقي رأى باباً آخر اعتقد أنَّه على الأغلب يُفضي إلى مهجعِ الرهبانِ. إلى يمينهِ كان هناك بابٌ آخر يُفضي إلى الجناح الجنوبي للكنيسةِ. حاول أن يفتحه غير أنَّه وجده موصداً أيضاً.

أخذَ الممرّ الغربي، ولكنه لم يجد شيئاً إلى أن وصل إلى الزاويةِ الجنوبيةِ الغربيةِ حيثُ عثرَ على الباب الذي يُفضي إلى قاعةِ الطعام، وفكرَ في نفسهِ أنَّ هناك حتماً طعاماً كثيراً لإطعامِ كلِّ أولئكَ الرهبان يومياً. قريباً منه رأى نافورةً مع حوضٍ حيثُ يغسلُ الرهبان أيديهم قبل الوجباتِ.

تابعَ سيرَهُ على طولِ الممرّ الجنوبي، وفي منتصف الطريقِ وجدَ مدخلاً مُقنطراً فدخلَ عبرَهُ ليجد نفسَهُ في ممرّ صغيرٍ حيثُ قاعة الطعام إلى يمينهِ، والمهجع إلى يسارهِ. تخيَّلَ أنَّ كلَّ الرهبان على الجانبِ الآخرِ من الجدارِ الحجري يغطون في النومِ على الأرضيةِ. عندَ نهايةِ الممرّ لم يجد شيئاً سوى منحدر موحل يُفضي إلى النهرِ. وقف جاك هناك لبعضِ الوقتِ يُحدقُ إلى الماء الذي يبعد عنه مئة ياردةٍ، ولسببٍ غريبٍ تذكرَ تلك الحكاية عن فارسٍ مقطوع الرأسِ ولكنه حي، وتخيله يخرج من النهرِ ويتسلق المنحدر نحوه[1]. كان واثقاً من عدمِ وجود شيءٍ في الماءِ، ولكنه كان مرتعباً. استدارَ وهرعَ عائداً إلى الممرّاتِ المسقوفةِ، وهناك عادَ إليه الشعور بالأمان.

في الممرّ المقنطرِ تردد مجدداً وهو ينظر إلى الباحةِ المضاءةِ بنورِ القمرِ. لا بد من وجودِ طريقةٍ للتسللِ إلى الكنيسةِ الكبيرةِ، ولكنه لم يعرف أين يبحث. كان سعيداً بطريقةٍ ما فقد كان يخططُ للقيامِ بعملٍ خطيرٍ جداً، ولكن

1- الفارس المقطوع الرأس شخصية خيالية ظهرت في حكايات القرون الوسطى، وتصور فارساً بلا رأس راكباً جواده. تصور بعضُ الروايات الفارس حاملاً رأسه، وروايات أخرى تصوره من دونِ رأسهِ وفي رحلةٍ بحثٍ عنه. (المترجمة)

يبدو أن تنفيذه مستحيلٌ، وكان هذا للأفضلِ. من جهةٍ أخرى، كان مرتعباً من فكرةِ مغادرةِ الديرِ في الصباحِ، والتشردِ على الطرقاتِ مجدداً، واستئناف السير الذي لا ينتهي، والجوع، وخيبةِ أملِ توم، وغضبهِ، ودموعِ مارثا. كانت هناك طريقةٌ لتجنبِ كلِّ هذا، وهي إطلاقِ شرارةٍ واحدةٍ من حجري الصوان في جُرابِهِ المعلق بحزامِهِ.

ومن زاوية عينهِ رأى شيئاً ما يتحرك. بوغتَ بهذهِ الحركةِ، وبدأ قلبُه يخفقُ بسرعةٍ من الخوفِ. استدارَ إلى الوراءِ، وارتعد عندما رأى هيئةً شبحيةً تحمل شمعةً وتسيرُ بصمتٍ على طولِ الممرّ الشرقي باتجاهِ الكنيسةِ. شعرَ جاك بصرخةٍ عالقةٍ في حلقِهِ، ولكنه قاومها. لحق شبحٌ آخر بالشبحِ الأول. اختبأ جاك داخل الممرّ المقنطر، ووضعَ يده على فمِهِ، وعضَّ عليها لمنعِ نفسهِ من الصراخِ عالياً. سمعَ أنيناً غريباً، وحدَّق في رعبٍ كاملٍ، ثمَّ أدركَ فجأةً أن ما ينظرُ إليهِ هو رتلُ الرهبانِ الخارجين من المهجعِ باتجاهِ الكنيسةِ من أجلِ صلاةِ منتصفِ الليلِ، وهم يُنشدون ترنيمةً خلال سيرهم. رغم أنَّه فهم الآن ما كان ينظر إليه فإنَّ شعور الهلع لازمه، ثمَّ غمره شعورٌ بالراحةِ، وبدأ يرتجف دون توقفٍ.

فتحَ الراهبُ في مقدمةِ الرتل بوابةَ الكنيسةِ بمفتاحٍ معدني ضخمٍ ثمَّ دخلَ وتبعه الرهبان. لم يلتفت أحدهم إلى الوراء لينظر في اتجاه جاك الذي بدا له أنَّ معظمهم نصفُ نيامٍ. لم يغلقوا باب الكنيسةِ وراءهم.

عندما تمالكَ جاك نفسه أخيراً أدرك أنَّه بات الآن قادراً على الدخولِ إلى الكنيسةِ.

ولكنَّه شعرَ أنَّ ساقيه ضعيفتان جداً، ولا تساعدانهِ على السيرِ.

أقنعَ نفسهُ أنَّه يستطيع السيرَ، وأنَّه ليس مضطراً إلى القيام بشيءٍ عندما يُصبح في الداخلِ، وقال لنفسهِ: «سألقي نظرةً، وأرى إن كان بوسعي الصعودُ إلى السطحِ، وقد أتمكنُ من إشعالِ النارِ فيهِ. سألقي نظرةً فحسب».

أخذَ نفساً عميقاً ثمَّ خرج من الممرّ المقنطرِ وعبرَ الباحة. تردد عند البوابةِ المفتوحةِ، واختلسَ النظرَ إلى الداخلِ. رأى شموعاً على المذبحِ، وفي مكان الجوقةِ حيث أخذَ الرهبان مواقعهم، ولكن الضوء كان ضعيفاً جداً ولم يُغط المساحةَ الكبيرة والفارغة تاركاً الجدرانَ والممراتِ في ظُلمةٍ تامةٍ. كان

أحدُ الرهبانِ عند المذبح يقوم بشيءٍ لم يفهمه جاك، بينما الآخرون، بين الفينةِ والأخرى، غنوا ما بدا له أغاني تافهة. نظرَ جاك بعينِ الإعجابِ إليهم لنهوضهم من أسرَّتهم الدافئة في منتصفِ الليل، والقيامِ بأمرٍ كهذا.

تسلل عبر الباب، وبقي قريباً من الجدارِ.

عندما أصبح في الداخل، تخفَّى تحت جناحِ العتمةِ. على أيِّ حالٍ لم يكن بوسعهِ البقاء هناك لأنَّهم سيرونه عندما يخرجون. مشى بخفةٍ إلى الداخلِ، وأطلقَ لهيب الشموع المتراقص ظلالاً متراقصةً. إن رفع الراهبُ عند المذبحِ نظرَهُ فقد يرى جاك، ولكنه بدا غارقاً في ما كان يفعله. تحرَّك جاك بسرعةٍ من عمودٍ إلى آخر، وتوقف عند كلِّ عمودٍ حتَّى لا تبدو حركتُه مريبةً وتتسبب بظلالٍ غريبةٍ. عندما اقترب من التقاطعِ غدا الضوء أشد، وخشي أن يرفعَ الراهبُ عن المذبحِ ناظريهِ فجأةً، ويراه يعبرُ باتجاهِ الجناحِ، ويحملُهُ من قفا عنقهِ.

توقفَ لبرهةٍ، وانتابه شعورٌ بالراحةِ، ثمَّ سارَ على طولِ الممرّ باتجاه الطرف الغربي من الكنيسةِ متوقفاً بين الفينةِ والأخرى كأنَّه يطاردُ غزالاً. عندما وصلَ إلى أقصى وأحلكِ جزءٍ من الكنيسةِ جلسَ على قاعدةِ أحدِ الأعمدةِ منتظراً انتهاءَ الصلاةِ.

غطَّى رأسه حتَّى فمه داخل عباءتهِ وتنفسَ فوقَ صدره حتَى يُدفئ نفسه. كانت حياته في الأسبوعين الماضيين قد تغيرت كثيراً كأنَّ أعواماً مرَّت على حياتِهِ الرغيدةِ في الغابةِ مع والدتهِ. يعلم أنَّه لن يشعر بالأمانِ مجدداً، وها هو الآن وبعد أن عرف الجوعَ، والبردَ، والخطرَ، واليأسَ سيقضي بقيةَ حياتِهِ خائفاً منها.

ألقى نظرةً من وراءِ العمودِ إلى أعلى المذبح حيثُ الشموعُ الأكثر توهجاً، ورأى السقف الخشبي العالي. في الكنائس الأحدث قناطرُ حجرية، ولكن كنيسة كينغزبريدج قديمةٌ، وهذا السقف الخشبي سيحترق احتراقاً جيداً.

قال لنفسهِ إنَّه لن يقترف مثلَ هذا العملِ.

سيكون توم سعيداً جداً إن احترقت الكاتدرائية. لم يكن جاك واثقاً من أنَّه يحبُ توم؛ فقد كان الأخير عنيداً، ومتسلطاً، وقاسياً، وكان جاك معتاداً على أسلوب والدته الأكثر لطفاً، ولكن جاك كان معجباً بتوم بل حتَّى مفتوناً بهِ. كان الرجال الوحيدون الذين رآهم جاك في حياته هم الخارجين

عن القانون، وهم رجالٌ خطيرون، وأفظاظٌ لا يحترمون شيئاً سوى العنف والخداع، ويعتبرون أنَّ أعظم إنجازٍ لهم هو طعنُ أحدهم بالسكين في ظهرهِ، أمَّا توم فكان من النوعِ الذي يشعرُ بالفخرِ، والشجاعةِ من دونِ سلاحٍ. لن ينسى جاك الطريقةَ التي واجه فيها توم وليم هاملي عندما عرضَ اللورد وليم شراءَ والدته مقابل جنيهٍ. ولكن ما أذهل جاك حقاً في كلِّ ما حصل هو أنَّ اللورد وليم كان خائفاً. أخبرَ جاك والدته أنَّه لم يتخيل قط أن يرى رجلاً بشجاعةِ توم، وقالت له والدته: «ولهذا اضطررنا إلى تركِ الغابةِ. أنتَ بحاجةٍ إلى رجلٍ ليكون قدوةً لكَ».

أثارَت ملاحظة والدته حيرتَهُ، ولكنها كانت صحيحةً، وسيُحب جاك إبهار توم بطريقةٍ ما. لن يُبهرهه بالقولِ له إنَّه من أضرمَ النارَ في الكاتدرائيةِ لأنَّه من الأفضل ألا يعرف أحدٌ بالأمرِ، ليسَ قبلَ مرورِ سنواتٍ كثيرةٍ على الأقلِّ، ولكن قد يذهب إلى توم في يومٍ من الأيام ويقول له: «أتتذكر الليلة التي احترقت فيها كاتدرائية كينغزبريدج، واستعان بكَ رئيسُ الديرِ لإعادةِ بنائها، وبذلك أمنَّا طعامنا، وملجأنا في نهاية المطافِ؟ حسناً، لدي ما أخبرك بهِ بشأن الطريقةِ التي بدأت فيها النار...» ستكون لحظةً عظيمةً.

وقال جاك لنفسهِ إنَّه لن يجرؤ على إحراقِ الكنيسةِ.

توقفَ الغناءُ، وعلا صوتُ وقعِ أقدامِ الرهبان وهم يغادرون أماكنهم. ها هي الصلاة قد انتهت، واضطرَّ جاك إلى تغيير موقعه حتَى يبقى بعيداً عن أنظارهم وهم يغادرون.

أطفأوا الشموعَ في قسمِ الجوقةِ وهم مُغادرون، ولكنهم تركوا شمعةً واحدةً مشتعلةً على المذبحِ، ثمَّ أوصدوا الباب من ورائهم. انتظرَ جاك بعض الوقتِ تحسباً لأن يكون أحدهم قد بقي في الداخلِ. مرَّ وقتٌ طويلٌ من دون أن يسمعَ فيهِ صوتاً، وفي النهايةِ خرجَ من مخبئهِ وراءَ العمودِ.

توجهَ إلى صحنِ الكنيسةِ، وانتابهُ شعورٌ غريبٌ لوجودهِ وحيداً في مبنى كبيرٍ، وباردٍ، وفارغ. لا بدَّ أن هذا ما يشعر بهِ الفأرُ؛ لذلك يختبئ في الزوايا عندما يقتربُ الناسُ الضخامُ، ويخرج عندما يغادرون. وصلَ إلى المذبحِ، وأخذَ الشمعةَ الكبيرةَ المتوهجةَ، وجعله هذا يشعرُ بالتحسنِ.

حملَ جاك الشمعة، وبدأ يتفحّصُ الكنيسةَ من الداخلِ. عند الزاويةِ حيثُ

يلتقي الصحنُ بالجناح الجنوبي، وفي المكان الذي خشي من أن يلمحه الراهبُ عند المذبحِ، هناك باب في الجدارِ له مزلاجٌ عادي. حاول تحريك المزلاج، وفُتح البابُ.

كشفَ ضوءُ الشمعةِ عن سُلمٍ حلزوني ضيقٍ جداً لا يمكن لرجلٍ سمينٍ أن يستخدمه، وكان أيضاً واطئاً جداً إلى درجةِ أنَّ توم سيضطرُّ إلى الانحناء جداً ليصعدهُ.

صعدَ جاك الدرجَ.

خرجَ إلى بهو ضيقٍ على أحدِ جوانبهِ قناطرُ صغيرةٌ ومُطلّةٌ على الصحنِ. كان السقفُ في الجانب الآخرِ يميلُ من أعلى القناطرِ وحتّى الأرضيةِ التي لم تكن بحدٍّ ذاتها مستويةً بل منحنيةً على كلا الجانبين. أخذَ جاك بعضَ الوقتِ ليستوعب المكان الذي يقف فيهِ. كان فوقَ الممرّ الجنوبي من الصحنِ، وهو يقف على الأرضيةِ المنحنيةِ للسقف الشبيه بقناةٍ مُقنطرةٍ. من خارج الكنيسة يبدو الممرّ كأنَّ سقفه مائلٌ، وهو ذاتهُ السقف الذي يقفُ فوقه جاك الآن. كان الممرّ أكثرَ انخفاضاً من الصحنِ، وهذا يعني أنّه ما يزال بعيداً جداً عن السقف الأساسي للمبنى.

توجه جنوباً عبرَ البهو لاستكشاف المكانِ. كان الأمر مثيراً، وبما أنَّ الرهبان غادروا فهو لم يعد خائفاً من أن يروه. كان الأمر أشبهَ بتسلقِ شجرةٍ، والاكتشاف في القمةِ، بعيداً عن الأنظارِ، ووراءَ الأغصان المنخفضةِ، أنَّ جميعَ الأشجارِ متّصلةٌ بعضها ببعض، وتُفضي إلى عالمٍ سري على ارتفاعِ بضعةِ أقدامٍ عن الأرضِ.

عند نهايةِ البهو هناك بابٌ صغيرٌ آخر. دخلَ جاك من الباب، ووجدَ نفسَهُ في البرجِ الجنوبي الغربي المُتهدم. بدا له أنَّ المكانَ مخفي عن قصدٍ؛ فلم يكن العملُ عليه قد انتهى، وبدلاً من الأرضيةِ هناك عوارض تفصلها فراغاتٌ كبيرةٌ، ولكن في المساحةِ الداخليةِ للجدارِ هناك سلمٌ خشبي من دونِ درابزين، وصعده جاك.

وفي منتصفِ الطريقِ وجدَ فتحةً صغيرةً مقنطرة بمحاذاة الدرج. وضعَ جاك رأسه داخلَ الفتحةِ، ورفعَ شمعته ليرى ما بداخلها. كان المكانُ أشبه بغرفةٍ بينَ السقفِ الخشبي، والسقفِ المعدني.

في البدايةِ لم يلاحظ جاك أيَّ نمطٍ هندسي في كتلةِ العوارض الخشبيةِ، ولكنه بعد وهلةٍ فهمَ هيكيليةَ البناءِ. كانت العوارضُ الضخمةُ على طولِ الصحنِ من الشمالِ إلى الجنوبِ من خشبِ البلوطِ، وكلٌّ واحدةٍ منها بعرضِ قدمٍ، وعمقِ قدمين، وفوقَ كلِّ عارضةٍ عارضتان هائلتان تشكلان مثلثاً. يمتدُّ الصفُّ العادي من المثلثات إلى ما هو أبعد من مدى ضوءِ الشمعةِ. نظرَ جاك إلى الأسفلِ بين العوارضِ، ورأى الجانبَ الداخلي للسقفِ الخشبي المطلي فوق الصحنِ وقد كان مُثبتاً بالحوافِ المنخفضةِ لعوارضَ متقاطعةٍ.

في طرفِ هذهِ الغرفةِ، وفي زاويةِ المثلثِ، رأى جاك ممرّاً بارتفاع قامتهِ، ولو أنَّ رجلاً دخله لاضطرَّ إلى الانحناءِ. دخلَ جاك، وسارَ فيه قليلاً ثمَّ وجدَ أنَّه يحتوي على ما يكفي من الخشبِ لإضرامِ حريقٍ. تشممَ جاك الهواءَ لمعرفةِ ماهية الرائحةِ الغريبةِ في الجو، وقررَ أنَّها رائحة قطرانٍ، وأنَّ خشبَ السقفِ مطلي بالقطرانِ، وهذا يعني أنَّه سيحترق كالقشِّ.

بوغت بحركةٍ مفاجئةٍ على الأرضيةِ، وخفقَ قلبه بسرعةٍ من الرعبِ. عاد جاك بتفكيره إلى الفارس المقطوعِ الرأسِ في النهرِ، وأشباحِ الرهبانِ في الممرّاتِ المسقوفةِ، ثمَّ فكرَ أنَّها قد تكون حركةَ الفئران وهدأ. نظرَ حوله بحذرٍ، واكتشف أنَّها طيورٌ بنت أعشاشها تحتَ الأفاريزِ.

كان النمط الهندسي للمكانِ هنا شبيهاً بالنمط الهندسي لجناحي الكنيسةِ في الأسفل. تابعَ جاك طريقهُ داخلَ الممرّ إلى أن وصل إلى التقاطعِ، ووقفَ في الزاويةِ. وهنا أدرك أنَّه يقفُ مباشرةً فوقَ الدرجِ الحلزوني الصغير الذي يبدأ في الطابقِ الأرضي إلى البهو في الطابق العلوي. إن كان يخطط لإضرام النارِ فسيكون هذا المكان المناسب للقيام بذلك لأنَّ النيران ستمتدُّ في أربعة اتجاهاتٍ: إلى الغرب على امتدادِ الصحنِ، وإلى الجنوبِ على امتدادِ الجناح الجنوبي، ومن التقاطعِ وحتَّى مذبح الكنيسةِ والجناحِ الشمالي.

كانت العوارضُ الأساسيةُ للسقفِ مصنوعة من اللُبِّ الخشبي لشجرِ البلوطِ، ورغمَ أنَّها كانت مطليةً بالقطرانِ فإنَّه لا يمكن إشعالها بلهبِ شمعةٍ، ولكن جاك وجدَ تحت الأفاريز بعضَ نشارةِ الخشبِ القديمةِ، وبقايا حبالٍ، وأكياساً، وأعشاش طيورٍ مهجورةً، وجميعها ستكونُ حطباً مناسباً للنارِ. سيتحتم عليه جمعها، وتكديسها في كومةٍ.

كانت شمعته قد بدأت تنوسُ.

بدا له الأمرُ سهلاً جداً. سيجمع هذهِ البقايا، ويُشعلها بلهبِ الشمعةِ ثمَّ يغادر، ويعبر الساحةَ كالشبحِ، وينسلُ إلى نزل الضيوفِ، ويُغلق الرتاجَ ثمَّ يتكور على نفسهِ فوقَ القشِّ، وينتظر صوتَ الإنذارِ.

ولكن ماذا لو رآه أحدهم؟!

إن أمسكوا بهِ الآن سيقول إنَّه يستكشف الكاتدرائيةَ بكلِّ براءةٍ، ولن يعاقبوه سوى بالضربِ. ولكن إن أمسكوا بهِ يُضرمُ النارَ في الكنيسةِ؛ فستكون العقوبة أشدَّ من الضربِ، وتذكرَ جاك سارق كوز السُكرِ في شايرنغ، وكيف أدمى الضربُ مؤخرته، ثمَّ تذكرَ مشاهد عقوبات أخرى للخارجين عن القانون؛ فقد بُترت شفتا فارموند أوبنماوث، وجاك فلاتهات خسرَ يدهُ، وآلان كاتفيس قُيدَ، ورُجمَ ولم يعد بعدها قادراً على الكلامِ على نحو مفهومٍ، وكانت هناك قصصٌ عن عقوباتٍ أسوأ لم ينجُ الناس فيها كالمجرمِ الذي قُيِّدَ إلى برميلٍ مدروزٍ بالمسامير، وألقوا بهِ من أعلى تلٍ لتخترقَ جميع المسامير جسدهُ، وسارقِ الجيادِ الذي أُحرِق حيَّاً، والعاهرة اللصة التي عُلقت على خازوقٍ. فما الذي سيفعلونه بصبي أحرق كنيسةً؟

وبعنايةٍ بدأ جاك يجمع البقايا من تحت الأفاريزِ، ويكومها في الممرّ تحتَ إحدى العوارضِ الضخمةِ.

عندما غدت الكومة بارتفاعِ قدمٍ جلسَ جاك، ونظرَ إليها.

أخذَ لهبُ الشمعةِ يتمايل كحيوانٍ يتلوى ألماً، وهذا يعني أنَّه بعد بضعِ دقائق سيخسرُ فرصتَهُ.

وبحركةٍ سريعةٍ وضعَ اللهبَ على الكومةِ فاشتعلت، وانتشر اللهب بسرعةٍ إلى بقيةِ نشارةِ الخشبِ ثمَّ إلى أعشاش الطيورِ الجافةِ والمتفتتة، ثمَّ ارتفعت عالياً وبقوةٍ.

وفكرَ جاك أنَّه ما يزال قادراً على إطفائها.

كانت النار تشتعلُ بسرعةٍ أكبرَ بقليلٍ مما توقع، وبهذا المعدلِ ستنطفئ قبلَ اشتعالِ عوارضِ السقفِ. سارع جاك إلى جمعِ المزيد من البقايا، ووضعَها فوقَ الكومةِ المحترقةِ فارتفع اللهب عالياً. «ما زال بإمكاني إطفاؤها»، فكر جاك في نفسهِ، وحالَ لون القطران الذي يُغطي العارضة إلى

الأسودِ، وانبعثَ منه الدخان. بدأت نار كومةِ البقايا بالانطفاءِ، وفكرَ جاك أنّه ما زال قادراً على إطفاءِ النارِ، ثمَّ اكتشفَ أنَّ الممرّ نفسه بدأ يحترق. «ما زال بإمكاني إطفاء الحريق بعباءتي»، فكر جاك، ولكنه بدلاً من ذلكَ رمى بالمزيد من البقايا، وراقبَ اللهبَ يعلو.

على الرغمِ من هواءِ الليلِ القارسِ في الجانبِ الآخرِ من السقفِ فإنَّ الجو في هذهِ الزاوية غدا ساخناً وضبابياً من الدُخان. بدأت بعضُ الألواح الخشبية التي ثُبتت إليها الألواح المعدنية للسقفِ بالاحتراقِ، وأخيراً بدأت العارضة الضخمة الأساسية بالاحتراقِ.

الكاتدرائيةُ تحترقُ الآن.

انتهى الأمرُ، ولم يعد بوسعهِ التراجع.

شعرَ جاك بالرعبِ، وفجأةً أرادَ أن يخرج بأقصى سرعةٍ، والعودة إلى نزل الضيوفِ، والتكورِ على نفسهِ داخل عباءتهِ في مكانهِ على القشِّ، وإغلاق عينيهِ بإحكامٍ بينما البقية غارقون في النوم، ويتنفسون بشكلٍ طبيعي.

وعادَ جاك من الطريق الذي أتى منه عبرَ الممرّ.

عندما وصلَ إلى نهايةِ الممرّ ألقى جاك نظرةً إلى الخلفِ، واكتشفَ أنَّ النيران تمتدُ بسرعةٍ مفاجئةٍ، وقد يكون هذا بسببِ طبقةِ القطران التي تُغطي الخشبَ. كانت العوارض الصغيرة، والعارضة الأساسية مشتعلةً، وبدأت النيران تمتد على طولِ الممرّ. أدارَ جاك ظهرهُ لها وتابع سيره.

أخرجَ جاك رأسه من الفتحةِ في حائطِ البرجِ، وهبطَ الدرجَ ثمَّ ركضَ عبرَ البهو فوقَ ممرّ الكنيسةِ، وهرعَ هابطاً الدرجَ الحلزوني باتجاهِ صحنِ الكنيسةِ والبوابةِ التي دخلَ منها.

ووجدَ الباب موصداً.

أدركَ الآن مدى غبائهِ. إن كان الرهبان قد فتحوا البابَ بالمفتاحِ عندَ دخولهم فهم حتماً سيقفلونهُ عند مغادرتهم.

شعرَ بالخوفِ يصعدُ حلقهُ كطعمٍ مُرٍّ. كان قد أشعلَ النارَ في الكنيسةِ، وها هو الآن مسجونٌ في داخلها.

قاومَ شعورَ الهلعِ، وحاولَ أن يفكر بحلٍّ. كان قد حاولَ فتحَ كلّ الأبواب

من الخارجِ، ولكنه وجدها جميعها مغلقةً، وفكرَ أنَّ بعضها قد يكون مُغلقاً برتاجٍ، وليس بقفلٍ، وهذا يعني أنّه يستطيع فتحه من الداخلِ.

هرعَ عبرَ الممرّ باتجاه الجناحِ الشمالي، وتفحصَ باب الرواق الشمالي فوجده موصداً أيضاً.

ركضَ عبرَ صحنِ الكنيسةِ المظلمِ باتجاه الطرف الغربي، وحاولَ فتحَ البابِ الكبيرِ للعامَّةِ. كانت جميع هذهِ الأبواب موصدةً بأقفالٍ. وأخيراً حاولَ فتح بابٍ صغيرٍ يُفضي إلى الممرّ الجنوبي عبر الممرّ الشمالي لساحةِ الممرّات المسقوفةِ، ولكنه وجده مُقفلاً أيضاً.

وهنا رغبَ جاك بالبكاءِ، ولكنه قررَ أنَّ هذا لن يُجدي نفعاً. رفعَ نظرَهُ باتجاه السقفِ الخشبي، وتساءلَ في نفسهِ إن كان يتخيلُ أو أنَّه يرى بحقٍ في ضوءِ القمرِ الضعيفِ دخاناً ضعيفاً يتصاعدُ من السقفِ بالقربِ من الجناح الجنوبي.

«ما الذي سأفعله الآن؟» فكر جاك في نفسهِ.

هل سيستيقظ الرهبان، ويهرعون إلى إطفاءِ النيران في هلعٍ شديدٍ يمنعهم من رؤيةِ الفتى الصغيرِ المتسلل من الباب؟ أم سيرونه على الفورِ، ويُمسكون بهِ، وهم يصرخون موجهين أصابعَ الاتهامِ إليهِ؟ أم سيبقون نياماً وغير واعين إلى أن ينهار المبنى بأكملهِ، ويموت جاك تحت كومةٍ كبيرةٍ من الحجارةِ.

شعرَ جاك بالدموع في عينيهِ، وتمنَّى لو أنَّه لم يضع الشمعةَ فوقَ كومةِ البقايا.

نظرَ من حوله في جنونٍ، وتساءلَ في نفسهِ إن توجه إلى النافذةِ وصرخ فهل سيسمعه أحدٌ؟

سمعَ صوتَ تحطمٍ قادمٍ من الأعلى، ونظرَ فرأى فجوةً تظهر في السقفِ الخشبي حيثُ سقطتِ العارضة، واخترقت السقفَ. بدت الفجوةُ كرقعةٍ حمراء على أرضيةٍ سوداء، وبعد وهلةٍ سمعَ جاك صوتَ تحطمٍ آخر، صوت عارضةٍ كبيرةٍ تُحطمُ السقف، وتقع وهي تدورُ في الهواء ثمَّ ترتطم بالأرضِ بقوةٍ اهتزَّت معها أعمدةُ صحنِ الكنيسةِ. أصغى جاك علَّه يسمعُ صراخاً، أو نداءاتِ طلبِ العون، أو جرساً يُقرع، ولكنه لم يسمع شيئاً، وهذا يعني أنَّهم لم يسمعوا صوتَ التحطمِ. إن لم يوقظهم هذا فهم حتماً لن يسمعوا صراخَهُ.

وفكرَ جاك بهستيريةٍ أنَّه سيموت هنا محترقاً، أو مسحوقاً تحت الحجارةِ ما لم يفكر بطريقةٍ ما للخروجِ!

وهنا فكرَ بالبرجِ المتهدمِ. كان قد تفحصه من الداخلِ، ولكنه لم يجد طريقاً عبرهُ إلى داخلِ الكنيسةِ، إلا أنَّه تسلقه بحذرٍ مخافةَ أن يقع، أو أن يتسبب بانهيارٍ. ربما إن تحقق من الأمرِ مجدداً، من الداخل هذهِ المرَّة، فقد يرى ما لم يره من الخارجِ، أو ربما سيساعده اليأس على حشرِ نفسِهِ في فجوةٍ لم يعتقد أنَّه يستطيعُ المرور عبرها عندما كان في الخارجِ.

ركضَ باتجاه الطرفِ الغربي، وكان وهجُ النارِ المتسللِ عبرَ السقفِ ووهجُ ألسنةِ النيران التي تأكلُ العارضةَ على أرضيةِ صحنِ الكنيسةِ يلقيان بضوءٍ أقوى من ضوءِ القمرِ، وحواف الرواقِ المُقنطر للصحنِ بدأت تكتسب لوناً ذهبياً بدلاً من الفضي. تفحصَ جاك كومةَ الحجارةِ التي كانت في وقتٍ ما البرجَ الشمالي الغربي، وبدت له متينةً وما منفذٍ فيها، وبغباءٍ فتحَ جاك فمه، وصرخَ بأعلى صوتهِ: «أماه!» ولكنه علمَ أنَّها لن تسمعه.

قاومَ جاك شعورَ الخوفِ مجدداً. هناك شيءٌ ما حيال هذا البرجِ المتهدم يحيرهُ. لقد تمكن من الدخول إلى البرجِ الآخر الذي ما زال قائماً عبرَ الردهةِ فوقَ الممشى الجنوبي للكنيسةِ. إن سارَ على طولِ الردهة فوقَ الممشى الشمالي فقد يجد فجوةً بين ركامِ البرجِ المتهدم، فجوةً لم يرها قبلاً من مكانهِ في الأسفلِ.

ركضَ عبرَ التقاطعِ مُحتمياً بالممشى الشمالي في حال سقطت دعاماتٌ أخرى محترقةٌ عبرَ السقفِ. لا بد أن يكون هناك بابٌ صغيرٌ، وسُلمٌ حلزوني في هذا الجانبِ تماماً كما في البرجِ الآخر. توجه إلى طرفِ الصحنِ والجناح الشمالي، ولكنه لم يرَ الباب فنظرَ حوله إلى الزاويةِ، ولم يجده في الجانب الآخر أيضاً. لم يكن بوسعهِ تصديق حظِّه السيئ. كان الأمر جنونياً. لم يكن هناك طريقٌ إلى البهو.

حاول التفكيرَ جيداً مقاوماً شعورَ الخوف، ومتمالكاً أعصابهُ. هناك طريقٌ إلى البرجِ المتهدمِ ولكن عليهِ إيجادهُ. قد يستطيع العودةَ إلى المساحةِ فوقَ السقفِ عبرَ البرج الجنوبي الغربي السليم. حتماً هناك فتحة صغيرة في هذا الجانب للدخولِ إلى البرجِ الشمالي الغربي المُتهدم، وقد يجد مخرجاً من هناك.

رفعَ جاك نظرَهُ إلى السقفِ، ونظرَ في رعبٍ. لا بدَّ أنَّ النار الآن جحيميةٌ، ولكن لم يكن بوسعهِ التفكير ببديلٍ آخر.

كان عليهِ أولاً أن يعبرَ الصحن. نظرَ إلى الأعلى مجدداً، ولم يلمح شيئاً قد يسقط في هذهِ اللحظةِ. أخذ نفساً عميقاً، واندفعَ إلى الجانبِ الآخر، ولم يسقط عليهِ شيءٌ.

فتحَ باباً صغيراً في الممرّ الجنوبي، وركضَ عبرَ الدرج الحلزوني، وعندما وصلَ إلى أعلى الدرجِ دخلَ الردهةَ، وبدأ يشعرُ بحرارةِ النيرانِ فوقه. ركضَ عبرَ الردهةِ ثمَّ دخلَ من الباب إلى البرجِ السليمِ، وهرعَ عبرَ الدرجِ.

أحنى جاك رأسه، ودخلَ عبرَ الممرّ المقنطرِ إلى الغرفةِ في السقفِ. كان الخشبُ العلوي بأكملهِ مشتعلاً، وفي أقصى الزاويةِ كانت العوارض الأكبر تشتعل بضراوةٍ. سعلَ جاك من رائحةِ القطران المُحترقِ. تردد لوهلةٍ في صحنِ الكنيسةِ ثمَّ عبره، وبعد عدَّةِ دقائق وجدَ نفسهُ يقطرُ عرقاً من الحرارةِ، وبدأت عيناه تدمعان بالكاد كان معهما قادراً على رؤيةِ طريقهِ. سعلَ، وتعثرت قدمه فوق الدعامةِ فترنح وسقط بقدمٍ على العارضةِ وأخرى على أرضيةِ السقفِ. ارتعبَ عندما رأى قدمه تخترقُ الخشبَ المهترئ، وهنا تذكرَ في رعبٍ ارتفاع صحنِ الكنيسةِ، والمسافة بين السقفِ والأرضِ. عندما تعثرَ ماداًّ ذراعيهِ إلى الأمام صرخَ، وتخيلَ نفسه يدورُ في الهواءِ كما حدثَ لتلك العارضةِ، ولكن الخشبَ حملَ وزنهُ.

تجمَّدَ في مكانه من الصدمةِ. وضع يداً على ركبتهِ بينما القدم الأخرى ما زالت عالقةً في أرضيةِ السقفِ. أيقظتهُ شدةُ الحرارةِ من صدمتهِ، وبلطفٍ سحبَ قدمهُ من الفجوةِ ثمَّ جثا على أربعة، وبدأ يزحف إلى الأمامِ.

عندما اقتربَ من الجانبِ الآخر سقطت دعاماتٌ كبيرةٌ أخرى في صحنِ الكنيسةِ. بدا له كأنَّ المبنى بأكملهِ يهتز، والدعامة التي زحفَ عليها تهتز كوتر قوسٍ. توقفَ، وأحكمَ قبضتهُ ثمَّ شعرَ برعشةٍ تسري في أوصالهِ. تابع الزحفَ إلى أن وصلَ إلى الممرّ الضيقِ في الجانبِ الغربي.

إن لم يصح تخمينهُ، ولم يجد فتحةً في الحائط كتلك الموجودة في بقايا البرج الشمالي الغربي فسيتعين عليهِ التراجع إلى الوراءِ.

استقام، وشعرَ بنسيمِ الليلِ الباردِ فأيقن من وجودِ فجوةٍ في مكانٍ ما. لا بدَّ أنَّها كبيرةٌ بما يكفي ليعبرها صبي صغير؟

خطا ثلاث خطواتٍ باتجاهِ الغرب، وتوقفَ لبرهةٍ قبل أن يخطو باتجاهِ فجوةٍ في الظُلمةِ.

وجدَ نفسه ينظر إلى فجوةٍ كبيرةٍ تطل على بقايا البرج المتهدمِ والمضاءةِ بنورِ القمرِ. شعرَ بركبتيهِ تخونانهِ من الراحةِ. كان الآن خارجَ الجحيمِ.

وجدَ نفسهُ على السطحِ، وقمةُ ركامِ البرجِ المتهدمِ على مسافةٍ بعيدةٍ عنه في الأسفل. كانت عاليةً جداً على القفز نحوها. يمكنه النجاة من الموت حَرقاً الآن، ولكنه قد يصلُ إلى الأرضِ بعنقٍ مكسورٍ. من خلفه كانت ألسنةُ اللهبِ تقترب بسرعةٍ، والدخانُ يخرجُ من الفتحةِ التي وقفَ على حافتها.

كان لهذا البرجِ في ما مضى درج حولَ جدارهِ الداخلي تماماً كما في البرجِ السليمِ، ولكن معظم عتباتِ هذا الدرج تحطَّمت في الانهيارِ. لاحظَ جاك في الأماكنِ التي ثُبتت إليها العتباتُ الخشبية بالملاطِ قطعاً خشبيةً ناتئةً بطولِ إنشٍ أو أكثر وأحياناً أطول. تساءل في نفسهِ إن كان يستطيعُ النزولَ على هذهِ القطعِ. سيكون الأمرُ خطيراً، ثمَّ شمَّ رائحةَ شيءٍ يُسفع وشعرَ بعباءتهِ حارةً. في أيِّ لحظةٍ قد تشتعلُ عباءته، ولهذا لم يكن أمامه خيارٌ آخر.

جلسَ على الحافةِ، ومدَّ يده نحو أقربِ قطعةٍ خشبيةٍ ممسكاً إياها بكلتا يديه ثمَّ مدَّ قدماً إلى الأسفل إلى أن وجدَ موطئاً لها، ثمَّ وضعَ قدمه الأخرى. ومتحسساً طريقَهُ بقدميهِ دفعَ نفسه إلى العتبةِ، ثمَّ مدَّ قدميهِ إلى العتبةِ التاليةِ مُختبراً متانةَ القطعةِ الخشبيةِ التاليةِ قبل أن يضعَ وزنه عليها فشعرَ بها متقلقةً. خطا بحذرٍ شديدٍ، وأحكم قبضته بقوةٍ في حال زلَّت قدمه. كانت كلُّ خطوةٍ محفوفةً بالمخاطرِ تجعله أقرب من قمةِ ركامِ البرجِ المتهدم. لاحظَ جاك أنَّ القطعَ الخشبيةَ تزدادُ صغراً باتجاه الأسفل كأنَّ ضررَ العتباتِ السفليةِ أكبر. وضعَ قدمهُ على قطعةٍ خشبية لا تزيد طولاً عن إبهامهِ، وعندما أرخى بوزنهِ عليها زلَّت قدمه. كانت قدمُه الأخرى على قطعةٍ خشبيةٍ أكبر ولكن عندما أفلتَ كاملَ وزنه فجأة على قطعةِ الخشبِ انكسرت. حاولَ أن يتمسكَ بيديهِ ولكنَ قطعةَ الخشبِ كانت صغيرةً جداً ليُحكمَ قبضته عليها، وتعثرَ مرتعباً من وضعيتهِ الخطرةِ ثمَّ سقطَ في الهواءِ.

استقرَّ على يديهِ وركبتيه أعلى الركام. لوهلةٍ شعرَ بالصدمةِ والخوفِ فقد اعتقد أنَّه ميتٌ ثمَّ أدركَ أنَّه كان محظوظاً لأنَّه سقطَ سقطةً جيدةً. آلمته يداه وركبتاه. ستكون الرضوض هائلةً حتماً، ولكنه كان على ما يرام.

بعد أن استوعب ما حدث بدأ يهبط الركام، وعندما بات على ارتفاعِ بضعةِ أقدامٍ عن الأرضِ قفزَ.

أصبح في أمانٍ الآن. شعرَ بركبتيهِ تخونانه من شدةِ الراحةِ، وأرادَ البكاءَ مجدداً. لقد نجا، وشعرَ بالفخرِ. يا لها من مغامرةٍ!

ولكن الأمر لم ينتهِ بعد. هنا لا يوجد سوى الدخان الخارج من المبنى، وأتاه صوتُ النيران المخيفُ جداً في الداخل كعويل ريحٍ بعيدةٍ، وما من دليلٍ على احتراق الكنيسةِ سوى وهجٍ أحمر يظهرُ من وراء النوافذِ. على أيِّ حالٍ لا بد أنَّ الأصواتَ التي حدثت أخيراً أيقظت أحدهم من نومهِ، وفي أيِّ لحظة سيبدأ الرهبان الناعسون في التدفقِ خارجَ مهجعهم متسائلين في أنفسهم إن كان ما أحسوا به هزَّةً أرضية حقيقية، أم مجرَّد حُلمٍ. كان جاك قد أشعلَ النارَ في الكنيسةِ، وهذهِ جريمةٌ رهيبةٌ في عيون الرهبانِ، ولذلكَ كان عليه الهرب سريعاً.

ركضَ عبرَ الحديقةِ باتجاه نزل الضيوفِ. كان المكان هادئاً وساكناً. توقفَ في الخارجِ، وهو يلهث. إن دخلَ وهو يتنفس بهذهِ الطريقةِ فقد يوقظهم. حاول أن يتحكم بتنفسهِ، ولكن الأمرَ إزداد سوءاً. كان عليهِ أن يبقى في مكانهِ إلى أن يعود تنفسه إلى إيقاعهِ الطبيعي.

وهنا رنَّ جرسٌ مُخترقاً هدوءَ المكانِ، واستمرَّ مُجلجلاً بقوةٍ. كان رنينُ جرسِ إنذارٍ دونَ أدنى شكٍ. تجمَّدَ جاك في مكانهِ، فإن تابع إلى الداخلِ الآن سيعرفون ما اقترفتهُ يداه، ولذلك لم يدخل.

كان بابُ المنزلِ مفتوحاً، ومارثا في الخارج. حدَّق جاك إليها مُرتعباً.

«أين كنتَ؟» قالت له بلطفٍ. «تفوحُ منك رائحةُ دُخانٍ».

وهنا فكر جاك بكذبةٍ مقنعةٍ وقال في يأسٍ: «لقد خرجت للتو بعد أن سمعتُ ذلكَ الجرس».

«كاذبٌ»، قالت مارثا. «لقد خرجتَ منذ وقتٍ طويلٍ. أعلمُ هذا فقد كنت صاحيةً».

وأدركَ جاك هنا أنَّه لا يستطيعُ خداعها فسألها في خوفٍ: «هل كان أحدٌ آخر صاحياً؟»

«لا، أنا فقط».

«لا تخبريهم بأنني كنت في الخارج من فضلكِ».

شعرَت مارثا بالخوفِ في صوتهِ، ولذلك تحدثت بلطفٍ: «حسناً، سأحتفظ بهذا السرِّ. لا تقلق».

«شكراً لكِ».

وفي هذهِ اللحظةِ خرج توم يحكُّ رأسَهُ.

عندما رآه جاك ارتعب، وتساءلَ في نفسهِ عما سيفكر بهِ توم عندما يراه.

«ما الذي حدث؟» سأل توم ناعساً ثمَّ تنشق الهواء وقال: «أشمُّ رائحةَ دخانٍ».

أشارَ جاك إلى الكاتدرائيةِ بذراعٍ مرتعشةٍ وقال: «أعتقدُ أنَّ...» ثمَّ ابتلع لعابه، وقد انتابه شعورٌ كبيرٌ بالراحةِ عندما أدركَ أنَّ الأمور ستسير على ما يرام. سيعتقدُ توم أنَّ جاك نهضَ قبله تماماً كمارثا. تحدَّث جاك مجدداً، وبثقةٍ أكبر هذه المرة.

«انظر إلى الكنيسةِ»، قال جاك لتوم ثمَّ أضاف: «أعتقد أنَّها تحترق».

– 2 –

لم يكن فيليب قد اعتاد بعد على النومِ وحيداً، وافتقد جو المهجعِ، وأصواتَ الناسِ وهم يتحركون، ويشخرون، والضجةَ التي يُحدثها الرهبان العجائز عندما ينهضون للدخول إلى المرحاضِ–عادةً ما يلحقون بعضهم ببعض في رتلٍ منتظمٍ، ودوماً ما يكون منظرهم مسلياً للرهبانِ الأصغر. لم يكن البقاء وحيداً عندما يتعب كثيراً ما ضايق فيليب بل النهوضُ في منتصفِ الليلِ للصلاةِ؛ فقد بات الآن يجد صعوبةً في العودةِ إلى النومِ، وبدلاً من العودةِ إلى السريرِ الكبيرِ والناعمِ الذي يشعرُ ببعضِ الحرجِ الآن لاعتياده عليه، يُشعل النارَ في الموقدِ، ويقرأ على ضوءِ الشمعةِ، أو يركع ويصلي، أو يجلس ليفكر.

كان لديه الكثيرُ مما يشغل باله؛ فموارد الديرِ الماليةُ أسوأ مما توقع،

والمشكلةُ الحقيقيةُ هي أنَّ عوائدَ المؤسسة بأكملها شحيحةً جداً رغم أنَّها تمتلك الكثيرَ من الأراضي، إلَّا أنَّ العديد من المزارع مؤجرة لفتراتٍ طويلةٍ، ولقاءَ مبالغَ زهيدةٍ، وبعض المستأجرين يدفعون إيجاراتهم على شكلِ أكياسٍ من الطحينِ أو براميل من التفاحِ أو عرباتٍ من القرنبيطِ، أمَّا المزارع التي لم تكن مستأجرةً فأدارها الرهبان، ويبدو أنَّها لا تحقق فائضاً في المنتوجاتِ التي يمكنُ بيعها والاستفادةُ منها. كان المصدر الرئيسي الثاني لمواردِ الدير هو كنائسها التي تتلقى ضرائبَ العشرِ. لسوءِ الحظِ فإنَّ هذهِ الكنائس من صلاحيات الكشماس، وواجه فيليب صعوبةً في معرفةِ ما يتلقاه الكشماس منها، وأين يُنفق الأموالَ. لم يكن هناك أيَّة مستندات، ولكن يبدو أن مدخولَ الكشماس صغيرٌ جداً، أو ربما كان يدير هذه الأموال بشكلٍ سيءٍ جداً يمنعه من إصلاحِ كنيسةِ الديرِ، رغمَ أنَّ الكشماس وعلى مرِّ الأعوامِ قد جمع تشكليةً مذهلةً من الأواني والحلي المُطعمةِ بالجواهرِ.

لن يعرف فيليب كلَّ التفاصيل إلى أن تتسنى له فرصةُ زيارةِ جميعِ ممتلكاتِ الدير، ولكن الخلاصة التي وصلَ إليها كانت واضحةً: كان رئيسُ الديرِ الراحل، ولسنواتٍ عديدةٍ، يستدين المال من وينشستر ولندن من أجل تلبيةِ الاحتياجات اليوميةِ. عندما أدركَ فيليب هذا أصيبَ بالكآبةِ.

فكرَ بالأمرِ جيداً، وصلَّى للرَّبِّ من أجلِ الهدايةِ، وعندها تكشَّفَ الحلُّ أمامَ عينيهِ. كانت لديه خطةٌ من ثلاث مراحل. سيبدأ بوضعِ يدهِ شخصياً على جميعِ مواردِ الديرِ الماليةِ. في الوقتِ الراهنِ يُشرف كلُّ مسؤولٍ رهباني على جزءٍ من الممتلكاتِ، ويُنجز مهمته بتقديمِ المدخول الذي يعود بهِ هذا الجزء من الممتلكات: وكيل المؤنِ، والكشماس، ومسؤول نُزل الضيوفِ، ومُعلم الرهبانِ الجددِ، والمُعالج يملكون مزارع وكنائس خاصة بهم. بالشكلِ الطبيعي لن يعترف أيُّ واحدٍ من أولئك المسؤولين بامتلاكه للكثيرِ من المال، وإن كان لديه فائض فسينفقه خوفاً من أن يؤخذَ منه. كان فيليب قد عيَّن مسؤولاً جديداً يدعى المحاسب، ومهمتهُ تلقي كلّ الأموال المستحقة للديرِ، من دونِ أيِّ استثناءات، وتوزيعها على كلِّ مسؤولٍ وفقَ احتياجاتهِ.

لا شكَّ أنَّ فيليب سيختارُ شخصاً يثقُ به لهذا المنصبِ، ولذلكَ في البدايةِ أراد عرضهُ على وكيل المؤنِ كوثبرت وايتهيد، ولكنه تذكر كره كوثبرت

لتدوينِ الأشياءِ، وكيفَ أنَّه لم يكن جيداً في هذا، ولأنَّ كلَّ الإيرادات والمصاريف من الآن فصاعداً ستُدون في سجلٍ قررَ فيليب أن يكلف الراهب الشاب المسؤول عن المطبخ، الأخ ميليوس، بمنصبِ المحاسبِ. أيّاً يكن من يتسلم هذا المنصب لن يُحب المسؤولون الرهبانيون الآخرون هذه الفكرة، ولكن فيليب هو المسؤول عنِ الأمورِ هنا، علاوةً على هذا فإنَّ أغلبيةَ الرهبان الذين يعلمون، أو يشكون أنَّ الدير يعاني من متاعبَ يدعمون الإصلاحات.

عندما يضعُ فيليب يدَهُ على المالِ سيبدأ بتنفيذِ المرحلةِ الثانيةِ من الخطةِ.

سيقوم بتأجير جميعِ المزارعِ البعيدةِ لقاء مبالغ نقدية، وهذا سيضع حداً لكلفةِ نقلِ البضائعِ من هذهِ الأماكن البعيدةِ. كان للدير ملكية في يوركشاير، وإيجارها اثنا عشر حَمَلاً يرسلونها كل عام إلى كينغزبريدج رغمَ أن كلفةَ النقلِ أكبرُ بكثيرٍ من قيمةِ الحملان، إضافةً إلى ذلكَ نصفها يموت في الطريقِ. وفي المستقبل لن يحصلَ الديرُ على الطعامِ إلا من مزارعهِ القريبةِ.

خططَ فيليب أيضاً لتغييرِ المنظومةِ الحاليةِ لعملِ المزارع حيث كلُّ مزرعةٍ تنتجُ القليل من كل شيءٍ؛ القليلُ من الحبوب، وبعضُ اللحمِ والحليب، وما إلى هناك. لسنواتٍ عديدةٍ عدَّ فيليب هذه المنظومة هادرةً للمال. تنجح كل مزرعةٍ في إنتاجِ ما يكفي من هذهِ الأنواعِ وبما يكفيها، أو بالأحرى نجحت كلّ مزرعة في استهلاكِ كلِّ ما تنتجهُ تقريباً. أرادَ فيليب لكلِّ مزرعةٍ أن تركز على شيءٍ واحدٍ. ستُزرع جميع الحبوبِ في مجموعةٍ من القرى في سومرست حيث يمتلك الديرُ العديدَ من المطاحنِ، أما منحدرات هضاب ويلشاير المعشوشبة فستخصص لرعايةِ قطعان الأبقار، وإنتاج الزبدةِ واللحمِ، أمَّا صومعة سانت جون إن ذا فوريست فستربي الماعز، وتصنع الجبن.

ولكن أهمّ جزءٍ في خطةِ فيليب هو تحويلُ جميع المزارعِ العادية ذات التربة الفقيرة أو الرديئة، بخاصةٍ في مناطقِ الهضابِ، إلى مراعٍ لتربيةِ الخرافِ.

كان فيليب قد عاش صباه في ديرٍ يربي الخرافَ، والجميع في ذلكَ الجزءِ من ويلز يُربي الخراف، وقد رأى أسعار الصوفِ ترتفع ببطءٍ وباطرادٍ عاماً بعد آخر، وهي مستمرة بذلك حتَّى الوقت الراهن، وفي الوقتِ المناسبِ ستحلُّ الخرافُ مشكلةَ الديرِ الماليةَ وإلى الأبد.

هذهِ هي المرحلة الثانيةُ من الخطةِ، أمَّا المرحلة الثالثة فهي هدمُ الكنيسةِ، وبناءُ كنيسةٍ جديدةٍ.

كان مبنى الكنيسة الحالي قديماً وقبيحاً وغير عملي، وحقيقة أنَّ البرج الشمالي الغربي متهدمٌ خيرُ دليلٍ على أنَّ البنية بأكملها ضعيفة. كانت الكنائس الحالية أعلى وأطول، ولكن الأهم من هذا كلهُ، أنَّها أخف، ومصممةٌ لعرضِ رفات القديسين الذي يأتي الحجاجُ لزيارته. في هذهِ الأيام تقومُ الكاتدرائيات بإضافةِ المزيد من المذابحِ الصغيرةِ، ومُصليات خاصَّةٍ مُكرسة لقديسين معينين. ستستقطب الكنيسةُ الحسنةُ التصميم، التي تُلبي الاحتياجات المتزايدةَ لرعاياها اليوم، متعبدين وحُجاجاً أكثر مما تستقطبه كينغزبريدج حالياً، وبهذهِ الطريقة يمكن لكاتدرائية كينغزبريدج، وعلى المدى البعيد أن تساعدَ الديرَ على دعمِ نفسه بنفسهِ، وعندما يؤمنُ فيليب مواردَ الديرِ الماليّةَ، ويضعها على أرضيةٍ صلبةٍ سيبني كنيسةً جديدةً، وستكون رمزاً لنهضةِ كينغزبريدج.

ستكون الكنيسةُ الجديدةُ بمنزلةِ الكرزةِ فوق الكعكةِ.

تخيلَ فيليب أنَّه خلالَ عشرِ سنواتٍ سيمتلك ما يكفي من المال لإعادةِ بناءِ الكنيسةِ، وقد أحبطته هذهِ الفكرة لأنَّه آنذاك سيكون في عقدهِ الرابع. على أيِّ حالٍ كان يأمل خلال عامٍ أو عامين، أي بحلولِ عيد العنصرة بعد القادم، ببدءِ برنامج إصلاح المبنى الحالي كي يعود لائقاً، وإن لم يكن أكثر إبهاراً.

وها هو الآن بعد أن انتهى من وضعِ الخطةِ ابتهجَ وتفاءل مجدداً، وخلال تفكيرهِ بالتفاصيل الصغيرةِ للخطةِ تناهى إلى سمعهِ صوتُ قرعٍ بعيد أشبه بقرعٍ على بابٍ كبيرٍ، وتساءل في نفسهِ إن كان أحدهم مستيقظاً قربَ المهجعِ أو الممرّاتِ المسقوفةِ، واستنتج أنَّه لو وقع خطب فسيعلم بهِ عاجلاً، ولذلك عاد بأفكارهِ إلى الإيجاراتِ، وضرائبِ العشرِ. هناك مصدرٌ آخر مهمٌ من مصادرِ ثروةِ الأديرةِ ألا وهو عطايا الآباءِ عن الأبناءِ الذين يدخلون الديرَ كرهبان مبتدئين، ولكن من أجلِ جذبِ النوعِ الجيدِ من الرهبان الجددِ على الديرِ أن يمتلكَ مدرسةً ناجحةً...

وهنا انقطعَ سيلُ أفكارهِ مجدداً فقد بات صوتُ القرعِ أعلى بكثيرٍ إلى درجة أنَّ منزلهُ اهتزَّ بعضَ الشيءِ، واستنتجَ أنَّه لم يكن قرعاً على البابِ،

ثمَّ تساءل في نفسهِ عمَّا يحدث. توجه إلى النافذةِ وفتحَ المصراعَ الخشبي. عندما دخلَ الهواء الليلي البارد ارتجفَ فيليب. نظرَ إلى الكنيسةِ، ونُزل الضيوف، والممراتِ المسقوفةِ، ومهجعِ الرهبانِ وأبنيةِ المطبخِ الأبعد، وبدت له جميعها في ضوءِ القمرِ سليمةً وهادئةً. كان الهواء قارساً جداً إلى درجةِ أنّ أسنانه آلمته عندما تنفس. كان هناك خطبٌ في الهواء، وبدأ بتشممهِ. كان عابقاً برائحة دخانٍ.

اكفهرَّ وجهه رغمَ أنَّه لم يرَ أيَّة نيرانٍ.

أدخلَ رأسَهُ، وأخرجهُ مجدداً ثمَّ تشممَ الهواء مرَّة أخرى معتقداً أنَّه شمَّ رائحة الدخان من مدفأتهِ، ولكن الأمر لم يكن كذلك.

محتاراً وقلقاً ارتدى جزمته سريعاً، والتقطَ عباءتهُ، وركضَ خارجاً من المنزلِ.

غدَت الرائحة أقوى عندما هرعَ عبرَ الحديقة باتجاه الممرّات المسقوفة. لم يكن هناك أدنى شك أنَّ جزءاً من الديرِ مشتعلٌ. للوهلةِ الأولى اعتقدَ أن الحريق في المطبخِ فغالبية الحرائق تحدث في المطبخِ. ركضَ عبرَ الممرّ بين الجناحِ الجنوبي، وقاعة الاجتماعاتِ عبرَ ساحةِ الممرّاتِ المسقوفةِ. لو أنَّ الوقت كان نهاراً لكان ذهبَ عبرَ قاعة الطعام إلى فناءِ المطبخِ، ولكن في الليل المكان مُغلقٌ ولذلك دخلَ عبرَ الممرّ الجنوبي المُقنطرِ، واستدار إلى يمينه عائداً إلى المطبخِ. لم يجد ناراً في المطبخِ، أو مصنعِ الجعةِ، أو المخبزِ، وبدا له الآن أنَّ رائحة الدخان أخف. ركضَ لمسافةٍ أبعد بقليلٍ، وعبرَ زاويةَ مصنعِ الجعةِ ثمَّ نظرَ عبرَ الحديقةِ إلى نُزل الضيوفِ والإسط لات، ولكن كلّ شيءٍ بدا هادئاً هناك.

تساءلَ فيليب في نفسهِ إن كان الحريقُ في مهجعِ الرهبانِ؛ فقد كان المبنى الوحيد الآخر الذي يحوي على مدفأةٍ، وبعثت هذه الفكرة الرعبَ في أوصالهِ. وبينما ركض باتجاه الممرّات المسقوفةِ سيطرت عليه رؤية مروعةٌ للرهبان في أسرَّتهم، وقد أعماهم الدخان، وأفقدهم وعيهم بينما ألسنةُ اللهبِ تلتهم المهجع. ركضَ إلى بابِ المهجعِ، وعندما فتحه خرجَ كوثبرت وايتهيد حاملاً مشعلاً.

عاجلهُ كوثبرت قائلاً: «هل تشمُّ الرائحةَ؟»

«أجل، هل الرهبان بخير؟»

«لا يوجد حريقٌ في المهجع».

وشعرَ فيليب بالراحةِ فرعيته بخير على الأقل ثمَّ سألَ: «أين الحريق إذاً؟»

«ماذا عن المطبخ؟» قال كوثبرت.

«لا، لقد تفقدته». الآن وبعد أن علمَ أن ما من أحدٍ في خطرٍ بدأ يقلق حيال الممتلكاتِ فهو منذ برهةٍ كان يفكر بالمواردِ الماليةِ، ويعلم أنَّه لا يستطيع تمويلَ إصلاحِ الأبنيةِ الآن ثمَّ نظرَ إلى الكنيسةِ، وتراءى له وهجٌ أحمر خلفَ النوافذ.

قال فيليب: «كوثبرت، أحضر مفتاحَ الكنيسة من الكشماس».

كان كوثبرت قد سبقه إلى هذا: «لقد جلبته».

«رجلٌ صالحٌ!»

هرعَ الراهبان عبرَ الممرّ الشرقي باتجاه باب الجناحِ الغربي. فتحَ كوثبرت الباب بعجلةٍ، وحالما انفتح البابُ اندفعَ الدخان إلى الخارجِ.

شعرَ فيليب بقلبه يتوقف للحظةِ. كيف يُمكن للكنيسةِ أن تحترقَ؟

دخلَ فيليب إلى الكنيسةِ.

في البدايةِ أصيبَ بالحيرةِ مما رآه. على أرضيةِ الكنيسةِ حولَ المذبحِ وفي الجناحِ الجنوبي قطعٌ خشبيةٌ كبيرةٌ مشتعلةٌ. من أين أتت هذهِ القطعُ؟ وكيف لها أن تُطلق كلَّ هذا الدخان؟ وأينَ مصدرُ الصوتِ الهادر لحريقٍ أكبر بكثيرٍ؟

صرخَ كوثبرت: «انظر إلى الأعلى!»

نظرَ فيليب إلى الأعلى وحصلَ على جواب سؤالِهِ. كانت النيران تلتهمُ السقفَ بقوةٍ. حدَّق فيليب إلى الحريقِ في رعبٍ كأنَّه يقف تحتَ الجحيم. كان معظمُ السقف المطلي قد اختفى ولاحت الأخشاب المثلثية للسطحِ سوداء، ومشتعلةً، وألسنة النار وسحابات الدخان تدور وتتنقل كأنَّها تقوم برقصةٍ شيطانيةٍ. تجمَّدَ فيليب في مكانهِ من الصدمةِ إلى أن بدأ عنقه يؤلمه من النظرِ إلى الأعلى ثمَّ تمالك نفسه أخيراً.

ركضَ إلى منتصفِ التقاطعِ، ووقفَ أمامَ المذبح ثمَّ نظرَ حوله في الكنيسةِ. كان السقفُ بأكملهِ مشتعلاً من الباب الغربي إلى النهايةِ الشرقيةِ بل وفي الجناجين. وفي لحظةِ هلعٍ فكرَ بالطريقة التي سيوصلون الماء فيها

إلى الأعلى، وتخيلَ رتلاً من الرهبان يركضون عبر الردهةِ بدلاءٍ من الماءِ ثمَّ أدرك على الفور أنَّ الأمر مستحيل حتَّى وإن كان هناك مئة شخصٍ يؤدون هذه المهمة لن يكون بوسعهم نقل ماءٍ كافٍ إلى السطحِ لإخماد ذلك الجحيمِ المستعرِ، وهنا أدركَ بقلبٍ واجمٍ أنَّ السقفَ بأكملهِ سينهار، وأنَّ المطر والثلج سيتساقطان في الكنيسةِ إلى أن يجدَ المال الكافي لبناءِ سقفٍ جديدٍ.

سمعَ صوتَ شيءٍ يتحطم فوقَه مباشرةً فنظرَ إلى الأعلى ورأى قطعةً خشبيةً عظيمةً تتمايلُ ببطءٍ، وتوشك على السقوطِ فوقَ رأسِهِ تماماً فاندفعَ بسرعةٍ نحو الجناحِ الجنوبي حيث وقفَ كوثبرت مرعوباً.

كان السقفُ بأكمله -ثلاثةُ مثلثاتٍ من العوارضِ والعوارض الفرعية إضافة إلى الألواح المعدنيةِ- يسقطُ أرضاً.

راقبَ فيليب وكوثبرت المشهدَ متسمِّرَين في مكانيهما، ونسيا أمرَ سلامتهما. سقطَ السقفُ على إحدى القناطرِ الكبيرةِ المدورةِ في التقاطعِ، وتسببَ الوزنُ الكبيرُ للخشب والمعدنِ المتساقطِ في صَدعِ القنطرةِ الحجرية، وصدرَ عنها صوتٌ انفجاري طويل أشبه بصوتِ الرعدِ. كان كلُّ شيءٍ يحدث ببطء فالدعائم تساقطت ببطءٍ، والقنطرةُ تحطمت ببطءٍ، والحجارة المحطمة تتساقط من السقفِ عبر الهواءِ ببطءٍ أيضاً، وبدأ المزيد من الدعائم بالسقوطِ تباعاً، ثمَّ وبصوتٍ طويلٍ كرعدٍ بعيدٍ اهتزَّ كامل الجدار الشمالي لمذبحِ الكنيسةِ، ومالَ باتجاه الجناحِ الشمالي.

هلعَ فيليب مما رآه. كان مشهد مبنى عظيم كهذا المبنى ينهارُ أمام عينيهِ صادماً بشكلٍ غريبٍ. لم يكن بوسعهِ تصديقُ عينيهِ، وشعرَ بنفسهِ مشوشاً، وغير قادرٍ على التفكير بما عليهِ القيام بهِ.

كان كوثبرت يشدُّه من كُمهِ ويصرخ بهِ: «اخرج!»

عجزَ فيليب عن سحب نفسهِ خارجَ الكنيسةِ، وتذكرَ أنَّه قبلَ قليل كان يخطط لعشرِ سنين من التقشف، والعمل الجادِ لوضعِ الديرِ على أرضية ماليةٍ ثابتةٍ، ولكن الآن ومن دونِ سابقِ إنذارٍ كان عليهِ أن يبني سقفاً جديداً، وحائطاً شمالياً جديداً هذا إن لم يكن الدمارُ أكبر... وفكر أنَّ الأمرَ من عملِ الشيطانِ، وإلَّا كيف للسقفِ أن يشتعل في ليلةٍ باردةٍ من ليالي كانون الثاني/ يناير؟

«سنُقتل!» صرخَ كوثبرت، ولامست رنَّة خوفٍ بشري في صوتهِ قلبَ فيليب فاستدارَ الأخير مبتعداً عن النارِ، وركضا كلاهما خارجَ الكنيسةِ باتجاه الممرّاتِ المسقوفةِ.

كان الرهبان قد استفاقوا، وخرجوا من المهجعِ، وفي طريقهم نظروا بشكلٍ طبيعي إلى الكنيسةِ. استعجلهم مسؤولُ المطبخِ ميليوس الواقف عندَ البابِ لتجنبِ حدوثِ فوضى، وقادهم على طولِ الممرّ الجنوبي للممراتِ المسقوفةِ بعيداً عن الكنيسةِ. في منتصفِ الممرّ وقفَ البنّاء توم ليخبرهم بأن ينحنوا تحت القنطرةِ، ويخرجوا من ذلك الطريق فسمعَ فيليب توم يقول لهم: «سارعوا إلى نُزل الضيوفِ، وابتعدوا عن الكنيسةِ!»

وفكرَ فيليب أنَّ توم يُبالغ. بالطبعِ كانوا آمنين في الممرّاتِ المسقوفةِ، ولكن لا ضير من أخذِ المزيد من الاحتياطاتِ المنطقيةِ. في الحقيقةِ قال فيليب لنفسهِ إنّه كان سيفكر بذلكَ أيضاً.

ولكن تحذيرَ توم أثارَ تساؤله عن حجمِ الدمارِ. إن لم تكن الممرّات آمنةً حقاً فما الذي سيحدث لنُزل الضيوفِ؟ هناك في غرفةٍ جانبيةٍ بجدرانٍ حجرية سميكةٍ، ومن دون نوافذ يحتفظون بصندوقٍ من خشبِ البلوطِ مُدعم بالمعدنِ وفي داخلهِ ذخائر الكنيسة الشحيحة، إضافة إلى أواني الكشماس المطعّمة بالجواهرِ، وجميع صكوكِ الديرِ الثمينةِ، ومستنداتِ الملكيةِ. بعد برهةٍ رأى فيليب أمينَ الخزانةِ آلان وهو راهبٌ شابٌ يعمل تحتَ إمرةِ الكشماسِ ويهتمُ بالحُلي. ناداه فيليب ثمَّ قال له: «يجب نقلُ الذخائرِ من قاعةِ الاجتماعاتِ، أين الكشماس؟»

«لقد اختفى أيّها الأب».

«فلتذهب للبحثِ عنه، وأحضر المفاتيح ثمَّ أخرج الذخائر من قاعة الاجتماعات وخُذها إلى نُزل الضيوفِ. اركض!»

وركضَ آلان ثمَّ استدارَ فيليب نحو كوثبرت قائلاً: «من الأفضل أن تحرص على قيامِهِ بهذا». أومأ كوثبرت برأسهِ ثمَّ لحقَ بآلان.

عادَ فيليب بنظرهِ إلى الكنيسةِ، وخلالَ هذهِ الفترةِ الوجيزةِ التي انشغلَ فيها كان الحريق قد استعرَ أكثر، وتأججت النيران من وراءِ النوافذِ. كان على الكشماس أن يفكرَ بأمرِ الذخائر بدلاً من الفرارِ بجلدهِ، وتساءل فيليب إن

كان أغفلَ شيئاً، ولكنه وجدَ التفكير بشكلٍ ممنهجٍ وسطَ حدثٍ يتطور بسرعةٍ أمراً صعباً. كان الرهبان يتحركون بسرعةٍ، وهناك من يهتم بأمرِ ذخائرِ الديرِ.

ولكنه نسي أمرَ القديس.

في أقصى الزاويةِ الشرقيةِ للكنيسةِ خلفَ عرشِ الأسقفِ يقع ضريح القديس أدولفوس الذي كان من أوائل الشهداء الإنكليز. داخل الصندوقِ تابوت خشبي يحوي على رفاته. كانوا بشكلٍ دوري يرفعون غطاءَ القبرِ، ويعرضون التابوت. لم يعد أدولفوس مشهوراً الآن كما كان سابقاً، ولكن المرضى في الماضي شُفوا عندما لمسوا الضريح. يمكن لرفات قديسٍ أن يجذبَ الكثير من الزوارِ إلى الكنيسةِ، ويشجع على العبادةِ والحجِّ، وهذا بدورهِ سيدرُّ الكثيرَ من الأموالِ إلى درجةِ أنَّه وبشكلٍ مُخزٍ هناك رهبان ينهبون رفاتاً مقدساً من كنائس أخرى.

كان فيليب قد خططَ لبعثِ اهتمامِ الناسِ بأدولفوس، ولهذا عليه إنقاذُ رفاتِهِ.

سيحتاجُ إلى مساعدةٍ في رفعِ غطاءِ القبرِ، وحملِ التابوتِ. من المفترض أن يفكر الكشماس بهذا أيضاً، ولكن لا أثرَ له في الأرجاءِ. كان الراهبُ الآخرُ الذي خرجَ من المهجعِ نائب رئيسِ الديرِ المتغطرس ريميجوس. سيضطر فيليب للاستعانةِ بهِ، ولذلك ناداه قائلاً: «ساعدني على إنقاذ رفات القديس».

نظرَ ريميجوس بعينين خضراوين شاحبتين وخائفتين إلى الكنيسةِ المشتعلةِ، ولكن بعدَ لحظةِ ترددٍ لحقَ بفيليب على طولِ الممرّ الشرقي عبرَ البابِ.

توقفَ فيليب في الداخلِ، فلم يكن قد مضى سوى بضعِ دقائق على هروبهِ من النيرانِ، وبدا له أنَّ الحريقَ يمتدُّ بسرعةٍ. شمَّ رائحةً لاذعةً ذكرتهُ برائحةِ القطرانِ المحترقِ، وأدرك أنَّ خشبَ السقفِ مطلي بالقطران لحمايتِهِ من العفنِ. على الرغمِ من اللهبِ كان الهواءُ في الداخلِ بارداً لأنَّ الدخانَ خرجَ من فتحاتِ السقفِ وسحبت النيرانُ الهواءَ الباردَ إلى داخلِ الكنيسةِ من النوافذِ. كانت التيارات الهوائية العلوية تنشرُ اللهبَ، وتساقطَ الجمرُ المشتعلُ على أرضيةِ الكنيسةِ، ووصلت النيران إلى قطعِ الخشبِ الأكبر في السقفِ التي بدت كأنَّها على وشكِ السقوطِ في أيِّ وقتٍ. حتَّى هذهِ اللحظةِ تمحور خوفُ فيليب أولاً على الرهبانِ، ثمَّ على ممتلكاتِ الديرِ، وها هو

الآن، ولأولِ مرّةٍ، يخافُ على سلامتِه، ولذلكَ تردد في الدخولِ إلى هذا الجحيمِ المستعر.

قال لنفسهِ إنَّه كلما أطالَ الانتظار ازداد الخطرُ، وكلما فكرَ كثيراً في الأمرِ فقد شجاعته. رفعَ أطرافَ ردائِهِ وصرخَ: «اِلحق بي!» وركضَ عبرَ جناحِ الكنيسةِ. تفادى بضعَ أكوامٍ مشتعلةٍ على الأرضيةِ وهو يتوقع في أيِّ لحظةٍ أن يُسحق بعارضةِ سقفٍ مشتعلةٍ. ركضَ في خوفٍ، وسيطرت عليهِ رغبةٌ بالصراخِ من شدةِ التوترِ إلى أن وصلَ إلى الممرّ المقابل بأمانٍ.

توقفَ هناكَ لبرهةٍ فللممراتِ قناطرُ حجرية؛ ولذلك لم تكن مشتعلةً. كان ريميجوس إلى جانبِهِ. لهثَ فيليب، وسعلَ من الدخان الذي دخل إلى حلقهِ. وعلى الرغمِ من أنَّ عبورَ الجناحِ لم يأخذ منهما سوى بضعِ دقائق فإنَّه بدا أطول من صلاةِ الظهرِ.

«سنُقتل!» قال ريميجوس.

«سيحمينا الرَّبُّ»، قال فيليب ثمَّ فكر في نفسهِ: «إذاً، لماذا أنا خائف؟»

لم يكن هناك وقت للتفكيرِ في الأمور الدينيةِ.

سارَ فيليب على طولِ الجناحِ، واستدارَ عندَ الزاويةِ إلى مذبحِ الكنيسةِ وقد لزمَ الممرّ الجانبي. شعرَ بالحرارةِ القادمةِ من المقاعدِ الخشبيةِ التي تحترقُ بقوةٍ في وسطِ منطقةِ جوقةِ المرتلين وشعرَ بالحزنِ؛ فقد كانت المقاعد باهظة الثمنِ ومغطاة بنقوشٍ جميلةٍ. قررَ ألا يفكر بهذا الآن، وركزَ على المهمة التي كان بصددها فركضَ عبرَ الصحنِ إلى الطرفِ الشرقي.

كان قبرُ القديسِ في منتصفِ الكنيسةِ في صندوقٍ حجري كبيرٍ على قاعدةٍ منخفضةٍ. سيتعين على فيليب وريميجوس أن يرفعا الغطاءَ الحجري، ويضعاه جانباً ثمَّ يرفعا التابوتَ من القبرِ، ويحملاه عبرَ الممرّ والسقفُ يتداعى من فوقهما. نظرَ فيليب إلى ريميجوس، ورأى أنّ عيني نائب رئيس الديرِ الخضراوين اتسعتا من شدةِ الخوف، وقرر فيليب إخفاء خوفه من أجلِ تهدئةِ ريميجوس.

«أمسكه من هنا وسأمسكه من هذه الجهة»، قال فيليب مشيراً بيدهِ، ومن دون انتظار ردهِ ركضَ إلى القبرِ.

لحقَ بهِ ريميجوس.

وقفا بعضهما قبالةَ بعض، وأمسكا بالغطاءِ الحجري ثمَّ رفعاه.

لم يتحركْ الغطاء.

أدركَ فيليب أنَّه كان عليهِ إحضارُ المزيدِ من الرهبان، ولكنه لم يتوقف ليفكر، والوقت الآن قد تأخر. إن خرجَ الآن، واستدعى المزيد من الرهبان فقد لا يعود بإمكانهِ عبور جناحِ الكنيسةِ، ولكنه إن تركَ رفات القديس هنا فربما تسقط عليهِ دعامةٌ، وتحطمه ثمَّ يلتقط التابوت النارَ، ويشتعل، وتذرُ الرياح الرفات، وهذا تدنيس شنيعٌ للمقدساتِ، وخسارةٌ عظيمةٌ للكاتدرائيةِ.

وهنا خطرت ببال فيليب فكرةٌ. استدارَ إلى جانب القبرِ، وطلبَ من ريميجوس الوقوف قربهُ ثمَّ ركعَ، ووضعَ يديه على حافة الغطاءِ الناتئةِ، ودفعها بكلِّ قوتهِ. عندما قامَ ريميجوس بالمثلِ أيضاً تحرَّك الغطاء، وبدأ برفعِهِ ببطءٍ. كان على فيليب أن يركع على ركبةٍ واحدةٍ، وحذا ريميجوس حذوهُ إلى أن وقفا أخيراً. عندما بات الغطاءُ عمودياً دفعاه فتدحرج إلى الوراءِ، وسقطَ أرضاً على الجانبِ الآخرِ من القبرِ ثمَّ انكسرَ إلى نصفين.

نظرَ فيليب إلى داخلِ القبر، ورأى أنَّ التابوت ما زال بحالةٍ جيدةٍ، والخشب متين، والمقبضين المعدنيين مُلطخان قليلاً. وقفَ فيليب من جهةٍ، وانحنى ثمَّ أمسكَ بأحد المقبضين، وبدورهِ أمسكَ ريميجوس بالمقبضِ من الجهةِ الأخرى. رفعا التابوت بضعة إنشاتٍ، ولكنه كان أثقل مما تصور فيليب، وبعدَ برهةٍ أفلتَ ريميجوس المقبضَ من جهتهِ وقال: «لا أستطيع رفعَهُ فأنا أكبر عُمراً منكَ».

كبحَ فيليب رداً غاضباً كادَ يُفلتُ منه. كان التابوت مصنوعاً من الخشبِ ومدعمٌ بالمعدنِ، ولكنهما الآن كسرا الغطاء وبات التابوت مكشوفاً.

«تعال إلى هنا»، صرخَ فيليب بريميجوس وتابع: «سنحاول رفعه من جهةٍ واحدةٍ».

استدارَ ريميجوس حولَ القبرِ، ووقفَ بجانبِ فيليب. أمسكَ كلا الراهبين بمقبضٍ واحدٍ ورفعاه فتحرَّكَ طرفُ التابوتِ بسهولةٍ. رفعاه فوقَ مستوى القبرِ ثمَّ تقدَّما وجرَّا التابوت إلى أن أوقفاه على جانبهِ. أدركَ فيليب أنَّهما رفعا التابوت من أسفلهِ ولهذا كان القديس واقفاً على رأسهِ فاعتذرَ له فيليب في سرهِ. استمرَّت قطعٌ من الخشبِ المحترقِ بالتساقط من حولهما،

وفي كلِّ مرَّة تسقط فيها قطعةٌ محترقةٌ على رداءِ ريميجوس كان يضربها بيدهِ في رعبٍ إلى أن تختفي، وكلَّما تسنَّت له فرصةٌ ألقى نظرةً مرتعبةً على السقفِ المحترقِ، ولاحظ فيليب أن الرجل كان يفقدُ شجاعته بسرعةٍ.

قاما بإمالةِ التابوتِ إلى جانبِ القبرِ ثمَّ دفعاه قليلاً فخرجت النهايةُ الأخرى من القبرِ، وبات التابوتُ الآن يتأرجح على حافتهِ، ثمَّ دفعاه إلى الأسفلِ إلى أن ارتطمت الحافةُ الأخرى بالأرضِ ثمَّ دحرجاه مرَّةً أخرى إلى أن استقرَّ على الأرضيةِ، وفكرَ فيليب في نفسهِ: «لا بدَّ أنَّ العظامَ المقدسةَ تدحرجت في الداخلِ كنردٍ في كأسٍ، وهذا أكبر فعلٍ تدنيسي قمتُ بهِ، ولكن لم يكن بيدي حيلةٌ».

أخذا مواقعهما عندَ كلِّ طرفٍ من التابوت، وأمسكا بالمقابض، ورفعاه وبدآ بجرّهِ عبرَ الكنيسةِ إلى الممرّ الآمن. حفرت الزوايا المعدنية للتابوت أخاديد على طولِ الأرضيةِ الترابيةِ، وعندما كادا يصلان إلى الممرّ اِنهار قسمٌ من السقفِ، وتساقطت الأخشاب المستعرةُ، والمعدنُ الحار فوقَ قبرِ القديس الفارغ الآن. كان صوتُ السقطةِ يصُمُّ الآذان اهتزّت معه الأرضية، وتفتت حجارةُ القبرِ إلى قطعٍ صغيرةٍ. وقعت دعامةٌ كبيرةٌ على التابوتِ وارتدَّت قريباً من فيليب وريميجوس فأوقعا التابوتَ من أيديهما، وهنا فقد ريميجوس أعصابه وصرخَ بهستيرية: «هذا من عملِ الشيطان!» ثمَّ هرب.

كادَ فيليب أن يركض وراءه. إن كان ما يحدث الليلةَ من عملِ الشيطانِ فلا أحد يعلمُ ما الذي سيحدث الآن. لم ير فيليب عفريتاً في حياتهِ، ولكنه سمعَ الكثيرَ من الحكايا عن أناسٍ رأوا عفاريت، وفكر في نفسهِ متجهماً أنَّه يُفترضُ بالرهبان أن يُبعدوا الشيطان لا أن يهربوا منه، وحدَّق في لهفةٍ إلى الممرّ الآمنِ ثمَّ تمالك نفسهُ، وأمسكَ مقبض التابوت وجرَّه.

نجحَ في جرِّ التابوت بعيداً عن العارضةِ التي سقطت للتو. كان خشبُ التابوتِ قد رُضَّ، وتشظَّى غير أنَّه، وبما يدعو للدهشةِ، لم يتحطم حقاً. جرَّ فيليب التابوت قليلاً بعد، وهنا هطلَ عليهِ مطرٌ من جذواتٍ صغيرةٍ مشتعلةٍ فرفعَ ناظريه إلى السطحِ. هل هذا شخصٌ بقدمين يرقصُ بين ألسنةِ اللهبِ أم أنَّها نفحةُ دخانٍ؟ أخفض فيليب ناظريه مجدداً، ورأى حوافَ ردائهِ مشتعلةً. ركعَ وأخذَ يضربها بيديهِ، ومسحَ القماش المحترقَ بالأرضيةِ فانطفأت

النيران على الفورِ، ثمَّ سمع ضجةً سببها إمَّا خشب يحترق أو ضحكة عفريتٍ ساخرة.

«فلتحفظني أيّها القديس أدولفوس»، شهقَ فيليب، وأمسكَ بمقبضِ التابوت مجدداً.

جرَّ فيليب التابوتَ على الأرضية ببطءٍ. يبدو أنَّ الشيطانَ تركهُ وشأنه لبرهةٍ. لم ينظر إلى الأعلى كيلا يرى العفريتَ، وعندما وصلَ أخيراً إلى الممرّ شعرَ ببعضِ الأمانِ. كان قد أجبره الألم في ظهرهِ على التوقفِ، والوقوف لوهلةٍ.

بدا الطريقُ إلى بابِ الجناحِ الشمالي طويلاً، وعرفَ فيليب أنَّه لن يتمكن من جرِّ التابوتِ إلى هناك قبلَ انهيارِ السقف بأكملهِ. قد يكون هذا ما خططَ له الشيطانُ. لم ينجح فيليب في منعِ نفسهِ من النظرِ إلى ألسنةِ اللهبِ مجدداً فوقعت عيناه على الشكلِ ذي القدمين، وقد انتقل وأصبح وراء دعامةٍ اسودت من الدخانِ، وفكرَ في نفسهِ أنَّه لن يتمكن من الوصول إلى البابِ ثمَّ نظرَ إلى الممرّ وشعرَ بإغراء تركِ القديسِ والهربِ بحياتهِ، وهنا رأى الأخ ميليوس وكوثبرت وايتهيد والبنَّاء توم مندفعين نحوه لتقديمِ يدِ العونِ. أحسَّ بقلبهِ يطيرُ فرحاً، وفجأة شعرَ أنَّه لم يعد واثقاً من وجودِ عفريتٍ في السقفِ.

«الشكر للرَّبِّ!» قال فيليب وأضافَ مُسهباً: «ساعدوني في هذا».

ألقى البنَّاءُ توم نظرةً سريعةً إلى السقفِ المشتعلِ. لم يبدُ عليه كأنَّه رأى عفاريت ولكنه قال: «لنُسرع».

أمسكَ كلّ واحدٍ منهم بزاويةٍ، ورفعوا التابوت على أكتافهم، ورغم أنَّهم كانوا أربعة فإنَّ التابوت كان ثقيلاً. صرخَ فيليب قائلاً: «إلى الأمام!» وساروا على طولِ الممرّ بأقصى سرعةٍ وبظهورٍ محنيةٍ من وزنِ التابوتِ.

عندما وصلوا إلى الجناح الجنوبي صرخَ فيليب: «انتظروا!» كانت الأرضية أشبه بمسار عوائقَ من نيرانٍ صغيرةٍ إضافة إلى شظايا الخشبِ المحترقةِ والمتساقطةِ باستمرارٍ. ألقى فيليب نظرةً على الطريقِ محاولاً التفكير بطريقةٍ للمرورِ عبرَ ألسنة اللهبِ. خلالَ الدقائق القليلة لوقوفهم سمعوا ما يشبه القعقعة في الزاويةِ الغربيةِ للكنيسةِ فرفعَ فيليب ناظريهِ في خوفٍ صرفٍ، وتحولَ صوتُ القعقعةِ إلى هدير كالرعدِ.

قال البنّاء توم في غموضٍ: «إنَّه ضعيفٌ كالبرجِ الآخر».
«ما هو؟» صرخَ فيليب.
«البرج الجنوبي الغربي».
«أوه، لا».

وغدا صوت الرعدِ أقوى. نظرَ فيليب مرعوباً، ورأى كاملَ الطرف الغربي للكنيسةِ يتحرَّك إلى الأمام مسافةَ ياردةٍ كأنَّ يد الرَّبِّ تسحبه، ثمَّ ما يعادل عشر ياردات أو أكثر من السقفِ سقطت في صحنِ الكنيسةِ. كان الارتطام أشبه بهزَّةٍ أرضيةٍ، ثمَّ بدا كأنَّ كاملَ البرج الجنوبي الغربي يتداعى، وينهار إلى داخلِ الكنيسةِ.

شُلَّ فيليب من صدمتهِ لرؤيةِ كنيسته تنهار أمام عينيهِ. سيأخذ إصلاحها سنواتٍ، هذا إن تمكن من تأمين المالِ. ما الذي سيفعله؟ كيف سيستمرُّ الدير؟ هل هذهِ نهايةُ ديرِ كينغزبريدج؟

تحررَ من حالةِ الشللِ بسببِ حركةِ التابوت على كتفهِ عندما اندفع الرجال الثلاثة إلى الأمامِ. لحقَ فيليب بهم، وكان توم من قادَهم عبرَ متاهةِ النيران. وقعت جمرةٌ مشتعلةٌ على التابوتِ، ولكن ولحسنِ الحظِ ارتدت ووقعت على الأرضِ دون أن تمسَّ أحداً منهم. بعد وهلةٍ وصلوا إلى الجانب الآخر، وعبروا الباب خارجين من الكنيسةِ إلى هواءِ الليلِ الباردِ.

كان فيليب مُحطماً جداً من الدمارِ الذي لحقَ بالكنيسةِ إلى درجةِ أنَّه لم يشعر بالراحةِ لنجاته من الموتِ. هرعوا عبرَ الممرّاتِ المسقوفةِ إلى الممرّ المقنطرِ، وعندما باتوا بعيدين عن المبنى قال توم: «نحن بأمانٍ». وفي امتنانٍ أنزلوا التابوت على الأرضيةِ الباردة.

أخذَ فيليب بعضَ الوقتِ لالتقاطِ أنفاسهِ، وخلال هذا الوقتِ أدركَ أنَّ الوقت لم يكن مناسباً للتجمد في مكانهِ مذهولاً. كان رئيس الديرِ، وهو المسؤول هنا، ويجب أن يفكر بما عليهِ القيام به الآن. من الأفضلِ أن يحرصَ على نجاةِ جميعِ الرهبانِ. أخذَ نفساً عميقاً ثمَّ شدَّ كتفيهِ، ونظرَ إلى الرجال الثلاثة الآخرين. «كوثبرت، ابقَ هنا، ولتحرس تابوت القديسِ، أمَّا أنتما فاتبعاني».

قادَ فيليب الرجلين حولَ أبنيةِ المطبخِ، وعبرَ مصنع الجعةِ، والمطحنةِ ثمَّ الحديقة باتجاه نُزل الضيوفِ. وجدَ الرهبان، وعائلة توم، ومعظم أهلِ القريةِ

واقفين في مجموعاتٍ يتحدثون همساً، ويحدقون في ذهولٍ إلى الكنيسةِ المشتعلةِ. استدار فيليب لينظر إليها قبل أن يتحدث إليهم. كان المشهد مؤلماً. رأى الزاوية الغربية وقد استحالت إلى كومةٍ من الركام والشررُ يتطاير مما تبقى من السقفِ.

أشاح بنظرهِ بعيداً ونادى: «هل الجميع هنا؟ إن كنتم تعتقدون أن أحداً ما مفقود فلتسموه».

قال أحدهم: «كوثبرت وايتهيد».

«إنَّه يحرس رفات القديس، هل من أحدٍ غيره؟»

لم يكن هناك جواب.

قال فيليب لميليوس: «فلتقم من بابِ الاحتياط بعدِّ الرهبان. يجب أن يكون عددهم خمسة وأربعين بمن فيهم أنتَ وأنا». كان يثق بميليوس، ولذلك لم يشغل باله طويلاً بهذا الأمر ثمَّ استدار نحو البنَّاء توم: «هل عائلتكَ هنا؟»

أومأ توم برأسهِ وأشارَ بيدهِ. وقفت عائلةُ توم قربَ حائطِ نُزل الضيوفِ؛ المرأة، والفتى المراهق، والطفلان الصغيران. كان الفتى الصغير ينظر إلى فيليب في رعبٍ، وفكر فيليب أنَّ التجربة لا بد أن تكون مرعبةً لهم.

رأى الكشماس جالساً على صندوقِ الذخائر المُدعم بالمعدن. كان فيليب قد نسي أمره، وشعرَ بالراحةِ عندما رآه ثمَّ توجه بالحديث إليهِ قائلاً: «أيُّها الأخ آندرو، إنَّ تابوتَ القديس أدولفوس خلفَ قاعةِ الطعام. خُذ بعضَ الرهبان لمساعدتكَ على حملهِ...» ثمَّ توقف لبرهةٍ مُفكراً في أنَّ منزلَ رئيسِ الدير أكثر الأمكنةِ أماناً في الديرِ. «خذوه إلى منزلي».

«إلى منزلكَ؟» قال آندرو مُجادلاً ثمَّ تابع: «إن حمايةَ الرفات من مسؤوليتي وليسَ مسؤوليتكَ».

«إذاً، كان الأجدر بكَ إنقاذ رفات القديس من الكنيسةِ المحترقةِ!» انفجرَ فيليب وتابع: «فلتفعل ما أطلبهُ منكَ ومن دون اعتراض».

نهضَ الكشماس على مضضٍ وبدا غاضباً جداً.

قال فيليب: «أسرِع يا رجل، أو سأجرِّدكَ من منصبكَ الآن وهنا!» ثمَّ أدارَ ظهره لآندرو، وتحدَّثَ إلى ميليوس: «كم العدد؟»

«أربعة وأربعون إضافة إلى كوثبرت. أحد عشر راهباً مبتدئاً وخمسةُ ضيوفٍ، الجميع هنا».

«الحمدُ للرَّبِّ»، قال فيليب ونظرَ إلى النيرانِ المستعرةِ في الكنيسةِ. بدا له أنَّ نجاتهم جميعاً من دون إصاباتٍ أو أذى أشبهُ بمعجزةٍ، ثمَّ أدركَ أنَّه كان مرهقاً، ولكنه كان متوتراً جداً على الجلوسِ، وأخذِ قسطٍ من الراحةِ.

«هل من أشياء أخرى قيّمةٍ علينا إنقاذها؟» قال فيليب ثمَّ تابع: «لدينا الذخائر والرفات...»

وتحدث آلان أمين الذخائرِ الشاب: «ماذا عن الكتبِ؟»

تأوه فيليب وفكر في نفسه: «الكتبُ بالطبع». كانت الكتب محفوظةً في خزانةٍ مُقفلةٍ في الممرّ المسقوفِ الشرقي بجانب بابِ قاعةِ الاجتماعاتِ حيثُ يُمكن للرهبان أن يأخذوا الكتبَ منها خلال فترةِ الدراسةِ. سيأخذ منهم إفراغُ المكتبةِ كتاباً تلو الآخر وقتاً طويلاً بشكلٍ خطيرٍ. ربما يمكن لبضعة رهبان شبان أقوياء أن يحملوا المكتبة إلى برِّ الأمانِ. نظرَ فيليب من حوله، واكتشفَ أنَّ الكشماس أخذَ نصفَ الرهبانِ معه لحملِ التابوتِ، وكانوا يعبرون الحديقة. اختار فيليب الآن ثلاثة رهبان شبان وثلاثة رهبانٍ مبتدئين، وطلبَ منهم اللحاق به.

عادَ فيليب من حيثُ أتى عبرَ الفسحةِ المفتوحةِ أمامِ الكنيسةِ المحترقةِ. لم يكن قادراً على الركضِ من شدَّةِ التعب. عبروا المطحنة، ومصنع الجعةِ متوجهين إلى وراءِ المطبخِ، وقاعة الطعامِ. كان كوثبرت وايتهيد والكشماس ينظمان عمليةَ نقل التابوت. قادَ فيليب مجموعتهُ عبر الممرّ الذي يربط بينَ قاعةِ الطعامِ والمهجعِ ثمَّ عبرَ الممرّ المقنطرِ باتجاهِ الممرّاتِ المسقوفةِ.

شعرَ فيليب بحرارةِ النيرانِ تصلهُ إلى هنا. كانت لخزانة الكتبِ الكبيرةِ نقوشٌ على بابها تصور موسى وهو يُحطمُ ألواحَ الشريعةِ. أشارَ فيليب على الرهبان الشُبان بإمالةِ الخزانةِ إلى الأمام، ورفعِها على أكتافهم، وبهذهِ الطريقةِ حملوا الخزانةَ عبرَ الممرّاتِ المسقوفةِ باتجاه الممرّ المقنطرِ الجنوبي. هناكَ توقف فيليب، ونظرَ إلى الوراءِ بينما تابع الرهبانُ الشبانُ حملَ الخزانةِ. ملأَ مشهدُ الكنيسةِ المُدمرةِ قلبَ فيليب بالحُزنِ. كان الدخانُ والنيرانُ قد تراجعا الآن، وكشفا عن اختفاءِ السقفِ بأكملهِ، وفيما راقب المشهدَ بدا له أنَّ سقفَ

المعبرِ يميل، وأدركَ على الفورِ أنَّه سيلقى مصيرَ البقيةِ ويقع. سمعوا صوتاً كالرعدِ، وكان أقوى من أيِّ صوتٍ سمعوه حتَّى الآن ثمَّ رأوا سقفَ الجناحِ الجنوبي ينهار. شعرَ فيليب بألمٍ أشبه بألمِ جسدي كأنَّ جسدَهُ يحترقُ، وبعدَ بُرهةٍ بدا له جدارُ الجناحِ كأنَّه ينتفخ فوقَ الممرّاتِ المسقوفةِ، وفكر في نفسه: «رحمتكَ يا رباه، سيقعُ الجدارُ»، بدأت الحجارة تتداعى وتتساقطُ، ورأى فيليب أنَّ الجدار ينهار باتجاههِ فاستدار للهرب بحياتهِ، ولكن قبل أن يقطعَ أكثر من ثلاثِ خطواتٍ شيءٌ ما ارتطمَ برأسهِ وأفقده وعيه.

***

نظرَ توم إلى النارِ المستعرةِ تلتهمُ كاتدرائيةَ كينغزبريدج، ورأى فيها بارقةَ أملٍ.

حدَّقَ عبرَ الحديقةِ إلى ألسنةِ اللهبِ الهائلةِ والمتراقصةِ في الهواء فوقَ بقايا الكنيسةِ، ولم يفكر بشيءٍ آخر سوى أنَّ هذا يعني «فرصةَ عملٍ».

منذُ أن خرجَ من نُزل الضيوفِ وهو ما يزال ناعساً، ورأى وهجَ النيرانِ الخافت من وراءِ النوافذِ، بدأت الفكرةُ تختمرُ في ذهنهِ. قضى جلَّ الوقتِ في إبعادِ الرهبان عن الخطرِ، واندفع إلى داخلِ الكنيسةِ المحترقةِ لإيجادِ رئيسِ الديرِ فيليب، وأخرجَ تابوت القديس أدولفوس، وقلبُهُ طوالَ الوقتِ يخفقُ سعادةً وتفاؤلاً صفيقاً.

أمَّا الآن وبعد أنَّ تسنى له الوقتُ ليفكر جيداً خطرَ له أنَّه لا يجب أن يكون سعيداً لاحتراقِ الكنيسةِ، ولكن عندما فكرَ مجدداً قررَ أنَّ ما من أحدٍ تضررَ في الحريق، وأنَّ ذخائرَ الديرِ بأمانٍ، وأنَّ الكنيسةَ كانت قديمةً ومتداعيةً أصلاً فلمَ سيمنع نفسَه من الابتهاجِ.

عادَ الرهبان الشُبان عبرَ الحديقةِ حاملين خزانةَ كُتبٍ ثقيلةً، وفكرَ توم أنَّ كلَّ ما عليهِ القيام بهِ الآن هو ضمانُ الحصولِ على عملِ إعادةِ بناءِ هذهِ الكنيسةِ، وكان الآن الوقتُ المناسبُ للحديثِ مع فيليب في هذا الأمرِ.

ولكن فيليب لم يكن برفقةِ الرهبانِ الذين حملوا خزانةَ الكتبِ إلى نُزل الضيوفِ ووضعوها أرضاً.

«أين رئيس الديرِ؟» سألهم توم.

نظرَ أكبرهم إلى الوراءِ في عجبٍ وقال: «لا أعلم. اعتقدتُ أنَّه كان خلفنا».

وفكرَ توم أنَّ فيليب ربما بقي في الخلفِ ليراقبَ الحريقِ، وهذا يعني أنَّه قد يكون في خطرٍ.

ومن دون انتظارٍ ركضَ توم عبرَ الحديقةِ ثمَّ إلى وراءِ المطبخِ. كان يأمل أن يجدَ فيليب بخيرٍ، ليسَ لأنَّه يبدو كرجلٍ صالحٍ بل لأنَّه يعتني بجوناثان، فمن دونِ فيليب لا أحد يعلم ما الذي قد يحدث للطفلِ.

وجدَ توم فيليب في الممرّ بين قاعةِ الطعامِ والمهجعِ، وشعرَ بالارتياح عندما رآه جالساً. بدا كأنَّه مصابٌ بالدوار، ولكن من دون أذيةٍ واضحةٍ، وساعده توم على الوقوفِ على قدميهِ.

«شيءٌ ما ارتطمَ برأسي»، قال فيليب دائخاً.

نظرَ توم إلى الجناحِ الجنوبي للكنيسةِ الذي سقطَ في الممرّاتِ المسقوفةِ. «أنتَ محظوظ لأنَّك على قيدِ الحياةِ»، قال توم وتابع: «لا بدَّ أنَّ الرَّبَّ يريدكَ أن تعيشَ».

هزَّ فيليب رأسَهُ ليتخلص من شعور الدوارِ ثمَّ قالَ: «أُغمي عليَّ لبرهةٍ، ولكنني على ما يرام الآن، أين الكتب؟»

«أخذوها إلى نُزل الضيوفِ».

«لنتوجه إلى هناك».

أمسكَ توم بذراعِ فيليب وسارا. لم تكن إصابةُ رئيسِ الديرِ خطيرةً، ولكن توم لاحظَ أنَّه بدا حزيناً.

بحلولِ الوقتِ الذي أخذاه للوصولِ إلى نُزل الضيوفِ كان الحريق في الكنيسةِ قد تجاوزَ مرحلةَ السُعارِ، وبدأت ألسنةُ اللهبِ تخفتُ ببطءٍ. تفاجأ توم لرؤيةِ وجوهِ الناسِ بوضوحٍ شديدٍ مع انحسارِ الحريقِ ثمَّ أدركَ مصدوماً أنَّ الوقت الآن كان فجراً.

بدأ فيليب بترتيبِ الأمورِ مجدداً فطلبَ من ميليوس إعدادَ العصيدةِ، وأمرَ كوثبرت وايتهيد بفتحِ برميلٍ من النبيذِ القوي لتدفئةِ الجميعِ في هذهِ الأثناءِ ثمَّ أمرَ بإشعالِ الموقدِ في نُزل الضيوفِ، ولجأ الرهبانُ المسنون إلى داخلهِ هرباً من البردِ. أمطرت السماءُ، ورشقَت الرياحُ مياهَ المطرِ القارسة في كلِّ زاويةٍ، وبدأت ألسنةُ النيرانِ في الكنيسةِ المُدمَّرةِ تتراجع.

خلال انشغالِ الجميع في تأديةِ مهامهم خرجَ رئيسُ الديرِ فيليب من نُزل الضيوفِ وحدَه، وتوجه إلى الكنيسةِ.

رآه توم ولحق بهِ فقد كانت هذهِ فرصتهُ. إن تعاملَ مع الأمرِ بشكلٍ جيدٍ فسيضمنُ العملَ هنا لسنواتٍ.

وقفَ فيليب يحدّقُ إلى ما كان البارحة الطرفَ الجنوبي للكنيسةِ، ويهزُّ رأسَهُ في حزنٍ أمامَ مشهدِ الدمارِ، وبدا له أنَّ حياتهُ قد انتهت. وقفَ توم إلى جانبهِ صامتاً، وبعد وهلةٍ تحرَّكَ فيليب، وسارَ على طولِ الجانبِ الشمالي من صحنِ الكنيسةِ عبرَ المقبرةِ فسارَ توم بقربهِ مُتفحصاً الدمارَ الذي لحقَ بالمكانِ.

كان الجدارُ الشمالي لصحنِ الكنيسةِ ما يزال قائماً، ولكن الجناحَ الشمالي، وجزءاً من الجدارِ الشمالي لجوقةِ المرتلين مُدمران، أمَّا الجانب الشرقي للكنيسةِ فما زال سليماً. استدارا حولَ الجانبِ الشرقي، وتفحَّصا الجانبَ الجنوبي. كان معظمُ الجدارِ الجنوبي والجناحِ الجنوبي قد انهارا داخلَ الممرّاتِ المسقوفةِ، ولكن قاعة الاجتماعاتِ ما زالت قائمةً.

توجها إلى الممرّ المُقنطرِ الذي يُفضي إلى الممرّ الشرقي للممراتِ المسقوفةِ، وهناك أعاقت تقدمهما كومةٌ من الركامِ. بدا المكانُ في حالةِ فوضى، غير أنَّ توم وبعينهِ الخبيرة رأى أنَّ الدمارَ في الممرّاتِ المسقوفةِ لم يكن سيئاً إلى هذهِ الدرجةِ بل مُغطى بالبقايا المتساقطةِ فحسب. تسلَّقَ توم كومةَ حجارةٍ مُحطمةٍ إلى أن باتَ قادراً على رؤيةِ الكنيسةِ، ووجدَ خلفَ المذبحِ تماماً درجاً شبهَ مخفي يُفضي إلى سردابٍ في الأسفلِ. كان السردابُ تحتَ منطقةِ جوقةِ المُرتلين. ألقى توم نظرةً وتفحَّصَ حجارةَ أرضية السردابِ بحثاً عن تصدعاتٍ ولكنه لم يرَ شيئاً. هناك فرصةٌ كبيرةٌ أن يكون السرداب قد نجا من الدمارِ، وقررَ توم ألا يخبرَ فيليب بهذا الآن بل سيحتفظُ بالأخبارِ من أجلِ لحظةٍ حاسمةٍ.

تابع فيليب السيرَ، ودارَ حولَ المهجعِ، وهرعَ توم للحاقِ بهِ. وجدا المهجع سليماً ثمَّ تابعا السيرَ، ووجدا الأبنيةَ الأخرى سليمةً بشكلٍ أو بآخرٍ أيضاً؛ قاعةُ الطعامِ،، والمطبخُ، والمخبزُ، ومصنعُ الجعةِ. شعرَ فيليب ببعضِ العزاءِ، ولكن الحزنَ لم يفارق وجهَهُ.

عادا إلى النقطةِ التي انطلقا منها أمامَ الطرفِ الغربي المُدمرِ، وقد دارا حول ساحة الديرِ دورةً كاملةً دونَ التفوه بكلمةٍ. تنهَّدَ فيليب بقلبٍ مُثقلٍ بالحزنِ، وخرقَ الصمت قائلاً: «هذا من عملِ الشيطانِ».

وفكرَ توم في نفسهِ أنَّ فرصته قد حانت فأخذَ نفساً عميقاً وقال: «أو قد يكون من عملِ الرَّبِّ».

رفعَ فيليب ناظريهِ إلى توم وسأله: «كيف هذا؟»

قال توم بهدوءٍ: «لم يتأذّ أحد، والكتب والذخائر، ورفات القديس بأمانٍ. لم يُدمر شيءٌ باستثناءِ الكنيسةِ. يبدو أنَّ الرَّب يرغبُ بكنيسةٍ جديدةٍ».

ابتسم فيليب مشككاً وقال: «وأفترضُ أنَّ الرَّبَّ يريدكَ أن تبنيها». كان فيليب حاضرَ الذهنِ، وعلمَ أنَّ ما قاله توم نابعٌ من مصلحةٍ شخصيةٍ.

ولكن توم التزمَ بموقفهِ وقالَ بعنادٍ: «ربما. لم يكن الشيطانُ من أشارَ على بنَّاءٍ بالتواجدِ هنا في الليلةِ التي احترقت فيها الكنيسةُ».

أشاحَ فيليب بنظرهِ بعيداً وقال: «حسناً، سيكون هناك كنيسةٌ جديدةٌ، ولكن لا أعلم ما عليَّ القيامُ بهِ في هذهِ الأثناء. كيف ستتمكن من الاستمرارِ بالحياةِ الرهبانيةِ؟ إننا هنا لعبادةِ الرَّبِّ والدراسةِ».

كان فيليب غارقاً في اليأسِ، وهنا رأى توم فرصتهِ بتقديم أملٍ جديد لفيليب. «يمكنني أنا وابني أن ننظفَ الممرّاتِ المسقوفةِ، وتأهليها خلالَ أسبوع»، قال توم بصوتٍ يعكسُ ثقةً لم يكن يشعرُ بها حقاً.

بدا فيليب متفاجئاً وسأل: «هل يمكنكَ ذلكَ؟» ثمَّ تغيرت ملامحه، وارتسمَ الإحباطُ على وجههِ مجدداً، «ولكن أين ستكون كنيستنا؟»

«ماذا عن السردابِ؟» يمكنكَ أن تُقيمَ الصلوات هنا، أتستطيع ذلك؟»

«أجل، ستفي بالغرضِ المطلوبِ».

«أنا واثقٌ من أنَّ الدمارَ ليسَ كبيراً في السردابِ»، قال توم في شبهِ ثقةٍ.

حدَّقَ فيليب إلى توم كأنَّه ينظرُ إلى ملاكٍ رحمة.

«لن يأخذ فتحُ ممرّ عبرَ الحطامِ من الممرّاتِ المسقوفةِ إلى درجِ السردابِ وقتاً طويلاً»، تابعَ توم، «دُمرت الكنيسةُ من هذا الجانبِ دماراً كاملاً، وبما يدعو للغرابةِ فإنَّ هذا من حُسنِ الحظِّ لأنَّه يعني أننا لن نواجه خطرَ انهيارِ

الحجارةِ. يجب أن أتفقدَ الجدرانَ التي ما زالت قائمةً، وقد يكون هناك حاجةٌ إلى دعمِ بعضِها، وتفقدها كلَّ يومٍ بحثاً عن أيَّةِ صدوعٍ، على أيِّ حالٍ وبغضِ النظرِ عن هذا لا يجب أن تدخلَ الكنيسةَ خلال العواصفِ». على الرغمِ من أهميةِ ما قاله توم فإنَّ فيليب لم يكن يستوعب شيئاً مما قالهُ. ما كان فيليب يريده من توم الآن هو الأخبارُ الطيبةُ، شيئاً يرفعُ معنوياتهِ، وإن كان توم يرغبُ بالعملِ فعليهِ إعطاء فيليب ما يريده ولذلكَ غيَّر لهجته وقال: «وبمساعدةِ بعضِ رهبانك الشبابِ يمكنني إصلاحُ الأوضاعِ حتَّى تتمكن من متابعةِ الحياة الرهبانية العادية بطريقةٍ أو أخرى خلالَ أسبوعين».

حدَّق فيليب نحوه وقال له: «خلال أسبوعين؟»

«امنحني وعائلتي الملجأ والطعام، ويمكنكَ أن تدفع أجري عندما تحصل على المالِ».

«هل يمكنكَ أن تعيد لي ديري خلال أسبوعين؟» أعادَ فيليب مشككاً.

لم يكن توم واثقاً من قدرتهِ على إنهاءِ العملِ خلالِ أسبوعين، ولكن إن احتاجَ إلى أسبوعٍ ثالثٍ فلن يكون هذا بالأمرِ الجللِ. «أسبوعان»، قال توم بحزمٍ وتابع: «بعد ذلكَ يمكننا هدمُ بقيةِ الجدرانِ، وهذا عملٌ يتطلبُ مهارةً إن أردنا هدمها بطريقةٍ آمنةٍ، ثمَّ سننظفُ الركام، ونكوم الحجارةَ كي نستخدمها لاحقاً. في هذهِ الأثناءِ نستطيع وضعَ مخططِ الكاتدرائيةِ الجديدةِ»، أنهى توم كلامه حابساً أنفاسه. لقد قدَّمَ لفيليب أفضلَ ما لديهِ، ولا بدَّ أنَّ الأخيرَ سيستعين بهِ الآن.

أومأ فيليب برأسهِ، وابتسمَ للمرةِ الأولى طوال هذا الوقت. «أعتقدُ أنَّ الرَّبَّ أرسلكَ من أجلي. فلنذهب لتناول الفطورِ ثمّ نبدأ العمل».

تنفَّسَ توم الصعداء وقال لفيليب: «شكراً لكَ». كان هناك رعشةٌ في صوتهِ عجزَ عن كبحها، وفجأةً شعرَ أنَّه لا يعبأ بهذا، وبإجهاشةٍ كادت تفلتُ منهُ قال: «لا يسعني التعبيرُ عن شدةِ امتناني لكَ».

***

بعدَ الفطورِ عقدَ فيليب اجتماعاً مرتجلاً في غرفةِ المؤنِ تحت المطبخ، وكان الرهبان متوترين جداً. لقد اختاروا أو ارتضوا حياةَ الديرِ لأنها آمنةٌ، ومستقرةٌ، ومُضجرةٌ، وكان معظمهم في حالةِ إرباكٍ شديدةٍ. تأثر فيليب

بذلكَ، وشعرَ الآن بل وأكثر من أيِّ وقتٍ مضى أنَّه راع مسؤول عن كائناتٍ جاهلةٍ، وعاجزةٍ غيرَ أنَّ رعيته لم تكن حيوانات غير عاقلة بل أخوةً، وكان يُحبهم، وقررَ أنَّ الطريقة الوحيدةِ لإراحتهم من إرباكهم هي بإطلاعِهم على ما سيحدث، واستنفاد توترهم في الكدّ بالعملِ، واستعادةِ روتين حياتِهم بأسرعِ ما يُمكن.

رغمَ الظرفِ غير الاعتيادي الذي كانوا فيه فإنَّ فيليب لم يختصر أيَّ جزءٍ من أجزاءِ طقسِ الاجتماع، وافتتحهُ بطلبِ القراءةِ من سجلِ الشهداءِ[1] ثمَّ أداء صلواتٍ تذكارية. كانت الصلاةُ للرَّبِّ الغرضَ الذي وجدت من أجلهِ الأديرةُ. على أيِّ حالٍ بدا بعضُ الرهبانِ ضجرين، ولهذا اختار فيليب الفصل العشرين من كتاب القديس بينديكت والمعنون بـ «عن تبجيلِ الصلاةِ»، ثمَّ بعدَ ذلك فصلَ «الوفيات». هدَّأت هذهِ الطقوس المألوفةُ أعصابَ الرهبانِ، ولاحظَ فيليب أنَّ نظرةَ الخوفِ على وجوهِ الحاضرين بدأت تنحسر مع إدراكهم الآن أنَّ عالمَهم، وعلى عكس ما بدا لهم، لم ينتهِ.

وأخيراً نهضَ فيليب وخاطبهم: «إنَّ الكارثةَ التي حلَّت بنا الليلةَ الماضيةَ كارثةٌ ماديةٌ بامتياز»، بدأ كلامه، وحاولَ أن يعكسَ دفئاً وثقةً في صوتهِ قدرَ الإمكان، «حياتنا روحيةٌ، وعملنا هنا هو الصلاةُ، والعبادةُ، والتأملُ»، ثمَّ نظرَ حوله لوهلةٍ لشدِّ انتباه أكبرِ عددٍ من الحاضرين وتابع: «سأعاود عملي خلال بضعةِ أيامٍ، وأنا أعدكم بذلك».

توقفَ فيليب لبرهةٍ كي تتغلغل كلماته في أذهانهم، ولاحظَ أنَّ التوتر في الغرفةِ بدأ ينحسرُ تماماً. منحهم بعضَ الوقتِ ثمَّ تابع قائلاً: «والرَّبُّ الحكيمُ أرسلَ لنا البارحةَ بنَّاءً لمساعدتنا على تجاوزِ محنتنا، وقد أكّد لي البنَّاء أننا إن نفذنا ما سيشير علينا بهِ سنتمكن من إعادةِ تأهيلِ الممرّاتِ المسقوفةِ، وإعادةِ استخدامِها خلال أسبوعٍ».

سرت همهمةٌ خافتةٌ تنمّ عن المفاجأةِ والرضا.

«يؤسفني القولُ إننا لن نستطيعَ استخدامَ الكنيسةِ للصلاةِ مجدداً، ويجب علينا بناءُ كنيسةٍ جديدةٍ، وبالطبعِ هذا سيأخذ منا سنواتٍ عديدةً. على أيِّ حالٍ

1- فهرسٌ زمني بأسماءِ القديسين والشهداء المسيحيين وفقاً للكنيسةِ الكاثوليكيةِ. (المترجمة)

يعتقد البنَّاء توم أنَّ السرداب ما زالَ سليماً، وهو مرسوم دينياً، ولذلكَ يمكننا الصلاة هناك. يقول توم إنَّه يستطيع جعلَهُ آمناً خلال أسبوعٍ بعد الانتهاءِ من تأهيلِ الممرّاتِ المسقوفةِ، ولذلك وكما ترون، يمكننا معاودةُ حياةِ العبادةِ بحلولِ الأحد الأخيرِ قبل الصومِ الكبيرِ».

ومجدداً سرت همهمةٌ تنمُّ عن الراحةِ بين الحاضرين. رأى فيليب أنَّه نجح في تهدئتهم، وتطمينهم. عندَ بداية هذا الاجتماع بدا الجميع خائفين ومضطربين، وها هم الآن يبدون هادئين ومتفائلين. وأضاف فيليب: «من يشعرُ بنفسهِ ضعيفاً جداً على القيام بالعملِ الجسدي فهو مُعفى، ومن يعملُ طوالَ اليومِ مع البنَّاء توم سيُسمحُ له بتناولِ اللحم الأحمر والنبيذ».

جلسَ فيليب. كان ريميجوس أول من تحدث وسأل في ريبةٍ: «وما الأجرُ الذي سيتقاضاه البنَّاء؟»

كان ريميجوس تواقاً على الدوامِ لإيجادِ عيبٍ ما. «لا شيء بعد»، أجاب فيليب وتابع: «يعلمُ توم بأمرِ فاقتنا، وسيعملُ مقابلَ الطعامِ والمسكنِ له ولعائلتهِ إلى أن نتمكن من دفعِ أجرهِ». وهنا أدركَ فيليب أنَّ مثلَ هذا الكلامِ غامضٌ؛ لأنَّه يعني أنَّ توم لن يحصل على أجرهِ إلى أن يتمكن الدير من الدفعِ له، أمَّا في واقع الحالِ فسيكون الديرُ مديوناً له بأجرِ كلِّ يوم عملٍ بدءاً من اليومِ، ولكن قبلَ أن يتمكن فيليب من توضيح أمرِ الاتفاقيةِ بينه وبين توم تحدَّث ريميجوس مجدداً: «وأين سيسكن؟»

«منحته نُزل الضيوفِ».

«يمكنه العيشُ في منزلِ إحدى عوائلِ القريةِ».

«قدَّم لنا توم عرضاً سخياً»، قال فيليب بضيقٍ. «ونحن محظوظون لوجودهِ معنا، ولذلكَ لا أريده أن ينام في مكانٍ ضيقٍ مع الماعز والخنازير في الوقتِ الذي نملكُ فيهِ مكاناً شاغراً».

«هناك امرأتان في عائلتهِ...»

«امرأةٌ وفتاة»، صحح له فيليب.

«امرأةٌ واحدة إذاً، لا نريد امرأةً معنا في الديرِ!»

وهمهمَ الرهبان في ضيقٍ من مراوغةِ ريميجوس، وقال فيليب: «ليسَ غريباً أن تتواجد النساءُ في نُزل الضيوفِ».

«ولكن ليسَ تلكَ المرأة!» انفجرَ ريميجوس ثمَّ بدا نادماً على ما تفوه بهِ.

اكفهرَّ وجه فيليب وقال: «هل تعرف المرأة أيُّها الأخ؟»

«كانت تسكنُ في هذهِ الأرجاء سابقاً»، قال ريميجوس على مضضٍ.

أثار هذا اهتمام فيليب؛ فقد كانت هذهِ المرة الثانية التي تثار فيها شكوكه بخصوصِ زوجةِ البنَّاءِ. في المرة الأولى لاحظ أنَّ ويلارن بيغاد تضايق عندَ رؤيتها.

سأل فيليب: «ما خطبها؟»

وقبلَ أن يتمكن ريميجوس من الإجابةِ تحدَّث الأخ بول، الراهب العجوز الذي يحرس الجسر: «أتذكر ما حدث»، قال بول سارحاً. «عاشت في غابات هذه النواحي فتاةٌ متوحشةٌ.. أوه، كان هذا منذُ خمسةَ عشرَ عاماً. إنَّها تذكرني بتلك الفتاة، ربما كانت الفتاة نفسها، ولكنها بالغةٌ الآن».

«يقول الناس إنَّها ساحرة»، قال ريميجوس. «لا يمكننا السماح لساحرةٍ بالعيش معنا في الدير!»

«لستُ واثقاً من هذا الأمرِ»، قال الأخ بول بذاتِ الصوتِ البطيء والسارح وتابع: «يخيلُ إليَّ أنَّ أيَّةَ امرأةٍ تعيش في البريَّةِ ستتهم بالسحرِ عاجلاً أم آجلاً. إن ما يتداوله الناس ليس بالضرورةِ الحقيقة، وأنا راضٍ بحكمِ رئيسِ الدير في أمرِ خطورتها».

«لا تأتي الحكمة بالتوازي مع المنصبِ الرهباني»، انفجرَ ريميجوس.

«بالطبعِ لا»، قال بول ببطءٍ، ونظرَ بشكلٍ مباشرٍ إلى ريميجوس ثمَّ قال: «لأنَّها أحياناً لا تأتي أبداً».

ضحكَ الرهبان على هذا الرَّدِّ اللاذع، ووجدوه مُضحكاً جداً لأنَّ مصدرَهُ شخصٌ غير متوقع. تظاهرَ فيليب بالضيقِ مما يجري، وصفَّقَ بيديهِ كي يصمتَ الجميع ثمَّ قالَ: «كفى! هذهِ المخاوف شرعية، وسأسأل المرأة. دعونا الآن نستأنف واجباتنا. من أرادَ منكم أن يُعفى من العملِ فليذهب إلى المستشفى للصلاةِ والتأملِ، أمَّا بقيتكم فالتحقوا بي».

غادرَ فيليب المخزنَ، واستدارَ حولَ أبنيةِ المطبخِ باتجاهِ الممرّ المقنطرِ الجنوبي الذي يُفضي إلى الممرّاتِ المسقوفةِ. انفصلَ عددٌ صغيرٌ من الرهبان عن المجموعةِ، وتوجهوا إلى المستشفى، ومن بينهم كان ريميجوس

والكشماس آندرو. فكرَ فيليب في نفسِهِ أنَّهما لم يكونا ضعيفين إلَّا أنَّ انضمامهما إلى مجموعةِ العاملين سيتسببُ بالكثيرِ من المتاعبِ، ولذلكَ سُرَّ لرؤيتهما يذهبان إلى المستشفى، أمَّا بقيةُ الرهبان فلحقوا بفيليب.

كان توم قد حشدَ خدمَ الديرِ وبدأ العملَ. وقفَ على كومةٍ من الركامِ في باحةِ الممرّاتِ المسقوفةِ مع قطعةٍ كبيرةٍ من الطباشير بيدِهِ، وكتبَ أول حرفٍ من اسمهِ على الحجارةِ.

وهنا خطرَ ببال فيليب سؤالٌ لم يخطر له من قبل وهو كيفَ تُحرَّكُ مثلُ هذهِ الحجارةِ الكبيرةِ. كانت كبيرةً جداً، ولا يمكن لرجلٍ واحدٍ أن يُحركها، ولكنه سرعان ما حصلَ على جوابِ سؤالِهِ. كان هناكَ عصوان طويلتان متقابلتان على الأرضيةِ. تُجرُّ الحجارة إلى أن تستقر على العصوين، ثمَّ يحملُ رجلان العصوين من نهايتهما، ويرفعان الحجرَ. وقد عرضَ البنَّاء توم عليهم كيفيةَ القيامِ بالأمرِ.

بمساعدةِ خدمِ الديرِ الستين كان سيرُ العملِ يتقدمُ بوتيرةٍ سريعةٍ، واكتظَّ المكانُ بالناسِ الذين حملوا الحجارة، وعادوا من أجلِ المزيدِ. رفع هذا المشهد من معنوياتِ فيليب، وصلَّى في نفسهِ صلاةَ شكرٍ على وجودِ توم.

رآه توم، ونزلَ عن الكومةِ التي وقفَ فوقها، ولكنه قبلَ أن يُحدّثَ فيليب خاطب أحدَ الخدمِ وكان خياطَ أرديةِ الرهبانِ: «ابدأ بالرهبانِ الذين سيحملون الحجارةَ، ولتحرص على أن يحملوا الحجارةَ التي تحملُ علامةً، أو سينهارُ الركام ويقتلُ أحداً»، ثمَّ استدار نحو فيليب وقال: «لقد حددت ما يكفي من الحجارةِ ليعملوا على نقلها لفترةٍ من الزمنِ».

«إلى أين ستأخذُ الحجارةَ؟» سأل فيليب.

«تعالَ وسأريك. أريدُ أن أتأكد من أنهم يضعونها كما يجب».

سارَ فيليب مع توم. كانت الحجارةُ مكدسةً في الجانب الشرقي من ساحةِ الديرِ. «سيتوجب على بعضِ الخدمِ مزاولةَ أعمالهم الاعتيادية»، قال فيليب وهما يسيران. «الإسطبل بحاجةٍ إلى الخدمِ، والطبَّاخ أيضاً يحتاج إلى من يساعده في إعدادِ الطعامِ، ولا بدَّ من وجود من يجلب الحطبَ، ويُطعمُ الدجاجَ، ويذهبُ إلى السوقِ، ولكن ما من خادمٍ لدي يعملُ بشكلٍ مجهدٍ، ولهذا يمكنني التخلي عن نصفهم، إضافة إلى هذا سيكون لديك ما يقارب الثلاثين راهباً».

أومأ توم برأسِهِ وقال: «وهذا كافٍ».

عبرا الجانبَ الشرقي من الكنيسةِ. كان العمالُ مشغولين بتكديسِ الحجارةِ التي ما زالت دافئة من الحريقِ قبالةَ الحائطِ الشرقي لساحةِ الديرِ، وعلى بُعدِ عدَّةِ ياردات من المستشفى ومنزلِ رئيسِ الديرِ. قال توم: «يجبُ أن نحتفظَ بالحجارةِ القديمةِ من أجلِ الكنيسةِ الجديدة. لن تُستخدم لبناءِ الجدران لأنَّها لن تتحمل العوامل الجويةَ كالحجارةِ الجديدةِ، ولكنها ستفي بالغرض كأساساتٍ. يجب الاحتفاظُ بجميعِ الحجارةِ المحطمةِ أيضاً، فيمكننا مزجها بالملاطِ وصبُّها في الفجوةِ بين الجدرانِ الداخليةِ والخارجية الجديدةِ، وبذلك ستشكل الأساس الصلب».

«فهمت»، قال فيليب وهو يراقب توم يطلبُ من العمالِ تكديسَ الحجارةِ وفقَ نمطٍ متداخلٍ كيلا تنهارَ الكومةُ، وعرفَ على الفورِ أنَّ خبرةَ توم استثنائية.

عندما باتَ توم راضياً عن سيرِ العملِ أخذَهُ فيليب من ذراعِهِ، وقادَهُ حول الكنيسةِ إلى المقبرةِ في الجانبِ الشمالي. كان المطرُ قد توقف، ولكن شواهد القبر مازالت مبتلةً. يُدفنُ الرُهبان في الجانب الشرقي من المقبرةِ، وسكانُ القريةِ في الجانبِ الغربي، ويحدُّ المقبرةَ الجناحُ الشمالي البارز للكنيسةِ، الذي كان حطاماً الآن. وقفَ فيليب وتوم هناك، ومن بين الغيومِ تسللت أشعةُ الشمسِ الضعيفة. لم يكن هناك ما يشي بحضورٍ شريرٍ في الأخشابِ المتفحمةِ تحتَ ضوءِ النهارِ، وشعرَ فيليب ببعض الخجلِ من نفسِهِ لأنَّه اعتقدَ أنَّه رأى الشيطان الليلةَ الماضيةَ.

قال فيليب: «يشعرُ بعضُ الرهبان بعدمِ الراحةِ لوجود امرأةٍ تعيشُ على أراضي الديرِ». كانت النظرةُ التي علت وجه توم أكبر من أن تكون نظرةَ قلقٍ. بدا خائفاً بل وحتَّى مرتعباً، وفكرَ فيليب أنَّ توم يحبُّ امرأته حقاً، ولذلكَ تابع على عجلٍ: «ولكنني لا أريدكَ أن تعيشَ في القريةِ، وتتشارك كوخاً مع عائلةٍ أخرى. وتجنباً للمتاعب سيكون من الحكمةِ أن تتجنب زوجتك المتاعبَ. أخبرها أن تبقى بعيدةً عن الرهبان قدرَ الإمكان، بخاصةِ الرهبان الشبان، وإن اضطرت إلى السير في الدير يجب أن تُغطي وجهها، ولكن الأهمّ من هذا كلّه لا يجب أن تقومَ بأمرٍ يثير شبهات حول ممارستها السحر».

«سأحرصُ على هذا»، قال توم بنبرةٍ حازمةٍ، وبدا وجلاً بعضَ الشيءِ ثمَّ تذكرَ فيليب أنَّ الزوجة كانت متوقدةَ الذهنِ ومستقلة، وقد لا تتقبل بلطفٍ أن يخبرها أحد أنَّها مثارٌ للشبهاتِ. على أيِّ حالٍ كانت عائلتها فقيرةً في الأمس، وهي على الأرجحِ ستعتبرُ هذه القيود ثمناً زهيداً مقابل الملجأ والطعامِ.

تابعا سيرهما.

في الليلةِ الماضية نظرَ فيليب إلى هذا الدمار ككارثةٍ عجائبية، كهزيمةٍ رهيبةٍ لقوى الحضارةِ والدين الحقِّ، كضربةٍ لعملِ حياتهِ، إلا أنَّه الآن بدا كمشكلةٍ يجب عليه حلُّها، وقد تكون مشكلةً عظيمةً، أجل، بل ومُحبطةً، ولكنها ليست فوقَ الطاقةِ البشريةِ، ويعود الفضلُ في هذهِ الرؤيةِ إلى توم الذي شعرَ فيليب بالامتنانِ الشديدِ لوجودهِ بجانبهِ.

عندما وصلا إلى الطرفِ الغربي رأى فيليب جواداً سريعاً يُجهز في الإسطبلِ، وتساءل عمَّن سيذهبُ في رحلةٍ في هذا اليومِ بالذات. تركَ فيليب توم يعودُ إلى الممرّاتِ المسقوفةِ، وتوجه هو إلى الإسطبل لاستقصاءِ الأمرِ.

كان أحدُ معاوني الكشماس، الشاب آلان الذي أنقذَ صندوقَ الذخائرِ من قاعةِ الاجتماعات، قد طلبَ تجهيزَ جوادٍ له.

«إلى أين أنتَ ذاهبٌ يا بني؟» سأل فيليب.

«إلى قصرِ الأسقفِ»، أجاب آلان. «أرسلني الأخ آندرو لجلبِ الشموعِ، والمياه المقدسةِ، وخبز القربانِ المقدسِ لأننا فقدنا كلَّ هذهِ الأشياء في الحريق، وسنحتاجها لإحياء الصلواتِ بأسرعِ وقتٍ».

بدا كلامه منطقياً. جميع هذهِ الأشياءِ تُحفظُ في صندوقٍ مُغلقٍ في منطقةِ جوقةِ المرتلين، ولا بدَّ أنَّ الصندوق احترقَ. سُرَّ فيليب لأنَّ الكشماس، وعلى غيرِ العادةِ، يفكر بطريقةٍ عمليَّةٍ. «هذا جيدٌ»، قال فيليب وتابع: «ولكن انتظر قليلاً. إن كنت ذاهباً إلى القصرِ فأنا أريدكَ أن تُسلّمَ رسالةً مني إلى الأسقفِ ويلارن». كان ويلارن بيغاد المحتال قد أصبحَ الأسقفَ الآن، ويعود الفضلُ في هذا إلى مناوراتهِ الذكيةِ. لم يعد بوسعِ فيليب الآن التراجع عن دعمهِ له، وكان مُجبراً على احترامِ ويلارن كأسقفٍ. «يجب أن أبلغه بأمرِ الحريقِ».

«أجل أيُّها الأب»، أجاب آلان. «ولكن لدي رسالةٌ من ريميجوس إلى الأسقفِ».

«أوه!» قال فيليب متفاجئاً، وفكرَ أنَّ هذهِ حركةٌ تفضحُ سعةَ حيلةِ ريميجوس. «حسناً»، قال فيليب لآلان. «فلتنطلق بحذرٍ، وليكن الرَّبُّ معكَ».

«شكراً لكَ أيّها الأب».

سارَ فيليب عائداً إلى الكنيسةِ، وهو يفكر بغرابةِ تصرّفِ ريميجوس السريع، وتساءلَ في نفسهِ عن سببِ عجلتهِ هو والكشماس. أثارَ الأمرُ ريبةَ فيليب. هل كتبَ له في الرسالةِ عن الكنيسةِ المحترقةِ؟ أم عن شيءٍ آخر؟

توقف فيليب في منتصفِ طريقهِ عبرَ الحديقةِ، واستدارَ إلى الوراءِ. كان منصبهُ يخوله أخذَ الرسالةِ من آلان وقراءتها، ولكنه كان قد تأخر كثيراً لأنَّ آلان عبرَ بوابةَ الديرِ الآن. حدَّقَ فيليب في اتجاه آلان في شيءٍ من الإحباطِ، وفي تلكَ اللحظةِ خرجت زوجة توم من نُزل الضيوفِ تحملُ دلواً من رمادِ الموقدِ على الأغلبِ، وتوجهت إلى كومةِ الروثِ قربَ الإسطبلِ. راقبها فيليب، ولاحظَ أن طريقة مشيتها رائعة كمشيةِ فرسٍ أصيلةٍ.

فكرَ فيليب مجدداً برسالةِ ريميجوس لويلارن، ولم يفارقه شكٌّ ضمني أنَّ فحوى الرسالةِ الحقيقي لم يكن الحريق، ومن دونِ سببٍ واضحٍ شعرَ أنَّ فحواها عن زوجة البنَّاءِ.

– 3 –

استيقظ جاك عندَ صياحِ الديكِ، وعندما فتحَ عينيهِ رأى توم ينهضُ من نومهِ. بقي جاك مستلقياً يُصغي إلى توم يتبول في الخارج. كان يتوق إلى الانتقال إلى مكانِ توم الدافئ، ومعانقة والدتهِ، ولكنه علمَ أنَّ آلفريد سيسخرُ منه بلا رحمةٍ إن فعل هذا، ولهذا لزمَ مكانه. عادَ توم إلى الداخلِ، وأيقظَ آلفريد.

شربَ توم وآلفريد الجعةَ المتبقيةَ من عشاءِ الليلةِ الماضيةِ، وتناولا بعضَ الخبزِ القاسي ثمَّ خرجا. كان هناك بعضُ الخبز المُتبقي من الليلةِ الماضية، وأملَ جاك أن يتركوا بعضَهُ، ولكن أمله خابَ لأنَّ آلفريد كعادتهِ أخذَهُ معهُ.

عملَ آلفريد طوالَ اليومِ مع توم في موقعِ البناءِ. كان جاك ووالدته أحياناً يذهبان إلى الغابةِ خلال النهارِ حيثُ تنصبُ والدته الأفخاخَ بينما يصطاد جاك البطَّ بمقلاعهِ. وكانا يبيعان ما يصطادانه، أياً كان، إلى القرويين، أو إلى وكيلِ المؤن كوثبرت. كان هذا مصدرَ المال النقدي الوحيد لهما بما أنَّ توم

لم يكن يحصل على أيّةِ نقودٍ، وبهذا المال اشتروا القماش، أو الجلدَ، أو الشحمَ، وفي الأيام التي لم تكن والدته تذهبُ فيها إلى الغابةِ تصنعُ الأحذيةَ، أو القمصان الداخلية، أو الشموع، أو غطاءَ رأسٍ بينما يلعبُ جاك ومارثا مع أطفالِ القريةِ. في أيامِ الأحدِ بعدَ الصلاةِ يحبُّ توم ووالدة جاك الجلوسَ قربَ النارِ والتحدث. أحياناً كانا يُقبلان بعضهما بعضاً، ويضع توم يده داخل رداءِ والدتهِ ثمَّ يطلب من الأطفال الخروج لوهلة، ويُحكم إغلاقَ البابِ. بالنسبةِ إلى جاك كان هذا أسوأ وقتٍ خلالَ الأسبوع لأنَّ آلفريد يغدو عصبياً، ويبدأ باضطهادِهِ هو ومارثا.

على أيٍّ حال كان اليوم يوماً عادياً، وسيكون آلفريد مشغولاً من الفجرِ وحتّى الغروبِ. نهضَ جاك وخرجَ. كان الجو بارداً ولكن جافاً، وبعد وهلةٍ لحقت بهِ مارثا. اكتظت الكاتدرائيةُ المحترقةُ بعمالٍ يحملون الحجارةَ، ويجرفون الركامَ، وينصبون الدعامات الخشبيةَ من أجلِ الجدرانِ غير المستقرةِ، ويهدمون الجدران التي لا يمكن إنقاذها أبداً.

كان هناك إجماعٌ عامٌ بين سكانِ القريةِ والرهبان أنَّ الشيطان من حرقَ الكاتدرائيةَ، ولفترةٍ طويلةٍ نسي جاك أنَّه من قام بحرقها، ولكن كلما تذكر الأمرَ جفلَ ثمَّ غمره شعورٌ برضا هائلٍ عن نفسهِ؛ فقد قام بمخاطرةٍ رهيبةٍ ولكنه نجا منها، وأنقذَ عائلتَهُ من الموتِ جوعاً.

يتناولُ الرهبانُ الفطور أولاً، ولا يحصلُ العمال العاديون على طعامِهم إلا بعدَ أن يتوجه الرهبان إلى الاجتماعِ، وبالنسبةِ إلى جاك ومارثا كان الانتظارُ طويلاً. كان جاك على الدوامِ يستيقظُ جائعاً، وتزيد الصباحات الباردةُ من شهيتهِ.

«فلنذهب إلى فناءِ المطبخِ»، قال جاك على أملِ أن يعطيهم عمالُ المطبخِ بعضَ الفتاتِ، ووافقت مارثا على الفورِ؛ فقد كانت تعتقدُ أنَّ جاك رائعٌ؛ ولذلك كانت مستعدةً لفعلِ أيِّ شيءٍ يقترحه.

عندما وصلا إلى فناءِ المطبخِ اكتشفا أنَّ الأخ برنارد -المسؤول عن المخبزِ- يُعدُّ الخبزَ اليومَ، ولأنَّ مساعديه يعملون في الموقعِ فقد كان يحملُ الحطبَ بنفسهِ. كان برنارد شاباً سميناً ولهذا لهثَ من التعبِ، وتعرَّقَ تحتَ وطأةِ وزنِ الحطبِ. «سأحضرُ لكَ الحطبَ أيّها الأخ»، عرضَ جاك.

رمى برنارد حملَ الحطبِ بجانبِ الفرنِ، وناولَ جاك السلَّة الكبيرةَ والمسطحةَ. «طفلان صالحان»، قال برنارد لاهثاً ثمَّ أضاف: «بارككما الرَّبُّ».

حملَ جاك السلةَ، وركضَ مع مارثا إلى كومةِ الحطبِ خلفَ المطبخِ ثمَّ ملآ السلَّةَ بالحطبِ، وحملا السلةَ الثقيلة معاً.

عندما عادا كان الفرنُ مشتعلاً، ورمى برنارد بحملِ السلَّةِ مباشرةً في النارِ ثمَّ أرسلهما مجدداً لجلبِ المزيدِ. كانت ذراعا جاك تؤلمانهِ، ولكن معدتهُ آلمته أكثر، ولذلكَ هرعَ لملء السلَّةِ مجدداً.

عندما عادا هذهِ المرة كان برنارد يضعُ أرغفةً صغيرةً من العجينِ على صينيةٍ. «أحضرا لي حِملاً آخر، وسأعطيكما خبزاً ساخناً»، قال برنارد وبدأ لعابُ جاك يسيل.

في هذه المرة ملآ السلَّة بحملٍ كبيرٍ ترنحا تحتَ وطأتهِ في طريقِ العودة، ولذلك أمسكا السلَّة من كلا الطرفين. عندما اقتربا من الفناءِ قابلا آلفريد يسيرُ حاملاً دلواً، ويبدو أنَّه في طريقهِ لجلبِ الماءِ من القناةِ التي تأتي من بركةِ المطحنةِ، وتعبرُ الحديقةَ إلى أن تختفي تحتَ مصنعِ الجعةِ. كره آلفريد جاك، وكرهَهُ أكثر بعد أن وضعَ الأخيرُ طائراً ميتاً في جعتهِ. عادةً ما كان جاك يستدير، ويسيرُ في الاتجاه المعاكسِ عندما يرى آلفريد، ولكنه الآن تساءلَ في نفسهِ إن كان عليهِ تركُ السلة والهرب، ولكنه سيبدو جباناً إن هربَ، علاوة على هذا كانت رائحةُ الخبزِ الطازجِ تفوحُ من المخبزِ، وتاقَ إلى تناولِهِ ولهذا تابعَ طريقَهُ في خوفٍ.

ضحكَ آلفريد عليهما عندما رآهما يترنحان تحتَ حملٍ وزنٍ يستطيع حملَهُ بنفسهِ. حاولا أن يبتعدا عنه لمسافةٍ آمنةٍ، ولكن آلفريد تقدم منهما ثمَّ دفعَ جاك، وأوقعه أرضاً. سقطَ جاك بقوةٍ على مؤخرتهِ فآلمه ظهرهُ بشدةٍ، وأفلتَ طرفَ السلةِ فسقطَ جميعُ الحطبِ في السلَّةِ على الأرضِ. شعرَ بالدموعِ تملأ عينيهِ، وكانت دموع غضبٍ أكثر مما كانت دموعَ ألمٍ. لم يكن عدلاً أن يفعل آلفريد هذا بل ومن دونِ استفزازٍ وينجو بفعلتهِ. نهضَ جاك، وبأناةٍ أعادَ الحطبَ إلى السلةِ، ومن أجلِ مارثا تظاهرَ أنَّه لم يهتم بما حدثَ. حملا السلة مجدداً، وتابعا سيرهما إلى المخبزِ.

وهنا وجدا جائزتهما. صينيةٌ من أرغفةِ الخبزِ وضعت لتبرد على رفٍ حجري. عندما دخلا أخذَ برنارد رغيفاً والتهمه ثمَّ قال: «حسناً، فلتتفضلا، ولكن احذرا فالخبزُ ساخن».

أخذَ كلٌّ من جاك ومارثا رغيفاً. قضمَ جاك رغيفهُ بحذرٍ مخافةَ أن يحرقَ فمهُ، ولكن الرغيفَ كان لذيذاً جداً فأتى عليه بسرعةٍ ثمَّ نظرَ إلى بقيةِ الأرغفةِ. كان هناك تسعةٌ منها، ثمَّ رفع جاك نظرَه إلى الأخِ برنارد الذي ابتسم له وقال: «أعلم ما الذي تريدهُ»، قال الراهب. «هيا، فلتأخذها جميعها».

أمسكَ جاك أطراف عباءتِه، ورفعها ثمَّ لفَّ بقيةَ الأرغفةِ داخلَها. «سنأخذها إلى أمي»، قال لمارثا.

«أنتَ فتى صالح»، قال برنارد ثمَّ أضاف: «فلتذهبا الآن».

«شكراً لكَ أيّها الأخ»، قال جاك.

غادرا المخبز، وتوجها إلى نُزل الضيوفِ. كان جاك متحمساً جداً لأنَّ والدتهُ ستكون مسرورةً منه جداً على جلبهِ طعاماً. شعرَ بإغراءِ تناولِ رغيفٍ آخر قبلَ أن يُسلمَ الخبزَ لوالدتهِ، ولكنه قاومَ الإغراءَ. سيكون رائعاً أن يعطيها إياه كاملاً.

وبينما كانا يعبران الحديقة التقيا بآلفريد مجدداً.

يبدو أنَّه ملأ دلوه بالماءِ، وعادَ إلى الموقعِ، وأفرغه، وعادَ لملئهِ مجدداً. قررَ جاك أن يتظاهرَ باللامبالاةِ على أملِ أن يتجاهله آلفريد، ولكن نظراً إلى الطريقةِ التي حملَ فيها الخبزَ ملفوفاً داخل ردائهِ لن يكون صعباً على آلفريد التكهنُ أنَّ جاك يُخفي شيئاً، ومجدداً استدارَ آلفريد نحوهما.

كان جاك سيعطيه رغيفاً بكلِّ طواعيةٍ، ولكنه يعلم أنَّ آلفريد سيأخذُ جميعَ الأرغفةِ إن تمكنَ من ذلكَ، ولذلك بدأ جاك يجري.

ركضَ آلفريد، وسرعان ما لحقَ بجاك، ووضعَ قدمهُ أمامهُ لإعاقتهِ، وهنا طارَ جاك في الهواءِ فتطايرت الأرغفةُ الساخنةُ، وسقطت أرضاً.

التقطَ آلفريد رغيفاً، ومسحَ الوحلَ عنهُ ثمَّ التهمهُ واتسعَت عيناه متفاجئاً ثمَّ قال: «خبزٌ طازجٌ!» وبدأ يجمعُ البقيةَ.

نهضَ جاك على قدميهِ، وحاول التقاطَ أحدِ الأرغفةِ عن الأرضِ، ولكن

آلفريد صفعه صفعةً قويةً بباطنِ يدهِ أوقعته على الأرضِ مجدداً، وبسرعةٍ التقطَ آلفريد جميعَ الأرغفةِ عن الأرضِ، وابتعد وهو يلتهمها، وهنا انخرطَ جاك في البكاءِ.

نظرت إليهِ مارثا بتعاطفٍ، ولكن جاك لم يكن يريد التعاطفَ. كان يشعرُ بالإذلالِ أكثر من أيِّ شيءٍ آخر، وعندما انطلقَ لحقت بهِ مارثا ولكنه استدار وقال لها: «ابتعدي!» وبدت مجروحةً، ولكنها توقفت وتركته يذهب وحيداً.

توجه إلى حطامِ الكاتدرائيةِ وهو يجفف دموعهِ بكُمهِ. كان مستعداً لارتكابِ جريمةٍ، وفكرَ في نفسهِ: «دمَّرت الكاتدرائيةَ، ويمكنني قتلُ آلفريد».

عندَ الركام كانوا قد قاموا بالكثيرِ من أعمالِ التنظيفِ والترتيبِ، وتذكرَ جاك أنَّ ضيفاً رهبانياً رفيع المستوى قادمٌ لمعاينةِ حجمِ الدمارِ.

ما أثارَ جنون جاك هو تفوق آلفريد الجسدي، وأنَّه يستطيع القيامَ بأيِّ شيءٍ يريده لأنَّه ضخمٌ جداً. سارَ جاك في الأرجاءِ لبرهةٍ مهتاجاً ومتمنياً لو أنَّ آلفريد كان في الكنيسةِ عندما أحرقها.

في نهايةِ المطافِ التقى جاك بآلفريد مجدداً. كان في الجناحِ الشمالي للكنيسةِ يجرفُ بقايا الحجارةِ، ويضعها في عربةٍ، ويغطيهِ الغبارُ الرمادي. بالقربِ من العربةِ دعامة سقفٍ خشبيةٍ نجت من الدمار وبالكاد يظهرُ عليها علائمُ الحرقِ أو السخامِ. مسحَ جاك سطحَ الدعامةِ بإصبعهِ مُخلّفاً وراءه خطاً أبيض، وهنا خطرَ ببال جاك أن يكتب: «آلفريد خنزير».

لاحظَ بعضُ العمال ما يفعلَهُ جاك، وتفاجأوا من قدرتهِ على الكتابةِ. سألهُ أحدُ العمالِ الشبابِ: «ما الذي تعنيه؟»

«فلتسأل آلفريد»، أجاب جاك.

نظرَ آلفريد إلى الكتابةِ، وتجهمَ في ضيقٍ. يعلمُ جاك أنَّ آلفريد يميزُ اسمه، ولكنه لا يعرف بقيةَ الكلماتِ، ولذلكَ بدا مُغتاظاً جداً. علمَ أنَّه يُهان، ولكنه لم يعرف ماهيةَ الإهانةِ، وهذا بحدِّ ذاتهِ كان مهيناً أكثرَ. هدَّأت حيرةُ آلفريد من حدةِ غضبِ جاك. قد يكون آلفريد أضخم منه، ولكنه الأذكى.

لم يعرف أيٌّ من الحاضرين ما تعنيهِ الكلمات إلى أن أتى راهبٌ مبتدئ، وقرأ الكتابةَ ثمَّ ابتسم وقال: «من هو آلفريد؟»

«هو»، قال جاك مشيراً بابهامهِ إلى آلفريد الذي بدا أكثر غضباً، ولكنه

لم يعلم حتَّى الآن ما الذي يجب عليهِ فعله لذلك اكتفى بالاتكاءِ على مجرفهِ في غباءٍ.

ضحكَ الراهبُ وقال: «خنزيرٌ؟ هل يحفر الأرضَ بحثاً عن البلوطِ؟»

«لا بدَّ أنَّه كذلك!» قال جاك مسروراً بوجودِ حليفٍ.

أفلتَ آلفريد مجرفتهُ، وحاول الإمساك بجاك.

انطلقَ جاك بسرعةِ السهم فقد كان مستعداً له هذهِ المرَّة. وضعَ الراهبُ المبتدئ قدماً أمامَ جاك كأنَّه أراد أن يكون مزعجاً لكلا الولدين، ولكن جاك قفزَ فوقها بخفةٍ. هرعَ جاك عبرَ ما كان قبلاً جوقةَ المرتلين، وتفادى تلال الركام ثمَّ قفزَ فوقَ عوارضِ السقفِ المتساقطةِ على الأرضِ. كان بوسعهِ سماعُ وقعِ خطواتِ آلفريد الثقيلةِ ولهاثه خلفهُ تماماً، وحفّزه الرعبُ على الركضِ أسرع.

بعدَ برهةٍ أدركَ جاك أنَّه ركضَ في الاتجاهِ الخاطئ، وأنه لم يكن هناكَ مخرجٌ من تلكَ الزاويةِ في الكاتدرائيةِ، وأدركَ بحزنٍ أنَّه سيتعرضُ للأذى على يد آلفريد.

كان النصفُ الأعلى من الطرفِ الشرقي قد تهاوى، وتكومت الحجارةُ قبالةَ ما بقي من الجدارِ، ولأنَّ الطريق كان مسدوداً أمامهُ بدأ جاك بتسلُّقِ الكومةِ، وآلفريد في إثرهِ. وصلَ جاك إلى أعلى الكومةِ، ورأى أمامَهُ منحدراً شديداً بارتفاعِ خمسةَ عشرَ قدماً. وقفَ على الحافةِ في خوفٍ، ووجدَ أنَّ الارتفاع عالٍ جداً، ولن يستطيع القفزَ دونَ أن يؤذي نفسه. أمسكَهُ آلفريد من كاحلهِ، وفقدَ جاك توازنَه، ولبرهةٍ وقفَ على قدمٍ واحدةٍ على الجدارِ، وأخرى في الهواءِ وقد أفردَ ذراعيه كي يتوازن إلى أنْ يجد موطئ قدمٍ. لم يُفلت آلفريد كاحلهُ، وشعرَ جاك بنفسهِ أنَّه واقعٌ لا محالة في الجهةِ الخطأ. بقي آلفريد ممسكاً بكاحلِ جاك لبرهةٍ كي يفقدَ جاك توازنَهُ ثمَّ أفلته فسقطَ جاك في الهواء دون أن يتمكن من تعديلِ وضعيتهِ، وسمعَ نفسه يصرخُ. سقطَ على جانبهِ الأيسر سقطةً رهيبةً، ولسوءِ حظهِ ارتطمَ وجهه بحجرٍ.

ثمَّ اكتسى كلُّ شيءٍ حوله بالسوادِ.

عندما فتحَ عينيه كان آلفريد يقفُ فوقهُ. لا بدَّ أنه نزلَ الكومةَ بطريقةٍ ما، وبجانبِ آلفريد وقفَ أحدُ الرهبانِ العجائز، وتذكره جاك فقد كانَ الراهب

ريميجوس نائبَ رئيسِ الديرِ. التقت عيناه بعيني ريميجوس الذي قال له: «انهض يا فتى».

لم يكن جاك واثقاً من أنَّه يستطيعُ النهوضَ، وشعرَ بعجزٍ عن تحريكِ ذراعِهِ اليسرى. كان الجانب الأيسرُ من وجهِهِ مُخدراً، واستقامَ في جلستِهِ. اعتقدَ أنَّه سيموت، وتفاجأ من أنَّه قادرٌ على التحرّك أصلاً، وبمساعدةِ ذراعِهِ اليسرى أجبرَ نفسه على النهوضِ، وصارعَ بألمٍ للوقوفِ على قدميهِ وهو يضعُ كاملَ وزنهِ على ساقِهِ اليمنى، وعندما بدأ الخدرُ يتراجع باغتهُ شعورُ الألمِ.

أخذَهُ ريميجوس من ذراعِهِ اليسرى، وبدأ جاك يبكي من الألمِ، ولكن ريميجوس تجاهلهُ، وأمسكَ آلفريد من أذنِهِ. فكرَ جاك أنَّ ريميجوس سيأمرُ حتماً بعقابٍ شديدٍ لكليهما، ولكنه كان يشعرُ بألمٍ شديدٍ لم يبالِ معه بأيِّ شيءٍ آخر.

تحدثَ ريميجوس إلى آلفريد وسأله: «والآن يا فتى لماذا كنتَ على وشكِ قتلِ شقيقكَ؟»

«إنَّه ليسَ شقيقي»، قال آلفريد.

وتغيرت معالمُ وجهِ ريميجوس ثمَّ سألَ: «ليسَ شقيقكَ؟ ألستما من الأمِ والأبِ نفسيهما؟»

«إنَّها ليست والدتي»، قال آلفريد. «فوالدتي متوفاة».

وعلَت وجه ريميجوس نظرةٌ ماكرةٌ ثمَّ قال: «ومتى توفيت والدتكَ؟»

«في عيد الميلادِ».

«السابقِ؟»

«أجل».

رغمَ الألم الذي شعرَ بهِ جاك فإنّه ولسببٍ غير واضحٍ رأى اهتماماً على وجه ريميجوس. ارتعشَ صوتُ الراهب من الحماسةِ المكبوحةِ وهو يقول: «إذاً، والدكَ التقى بوالدةِ الفتى مؤخراً؟»

«أجل».

«ومنذُ أن اجتمعا... هل ذهبا لرؤيةِ قسٍ لعقدِ قرانهما؟»

«أوه... لا أعلم». ولاحظَ جاك أن آلفريد لم يفهم الكلمات التي قالها الراهب، وهو بدورِهِ أيضاً لم يفهمها.

وهنا قال ريميجوس في ضيق: «هل أقاما حفلَ زفافٍ؟»

«لا».

«فهمت». قال ريميجوس، وبدا مسروراً بهذا الخبرِ رغمَ أنَّ جاك توقعَ أن يتضايق من ذلكَ، بل وبدلاً من ذلكَ علت وجهَ الراهب نظرةُ رضا ثمَّ صمتَ، وغرقَ في التفكيرِ لوهلةٍ، وفجأة تذكرَ الولدين مجدداً. «حسناً، إن أردتما البقاءَ في الديرِ، وتناول خُبزِ الرهبانِ لا تتشاجرا حتَّى وإن لم تكونا شقيقين. لا يجب أن نرى، نحن خدمَ الرَّبِّ، دماءً تُسفكُ، ولهذا نعتزلُ العالمَ». وبهذا الخطابِ الصغيرِ أفلتهما ريميجوس، وابتعدَ، وتمكن جاك أخيراً من الركضِ إلى والدتهِ.

***

أخذَ تجهيزُ السردابِ ككنيسةٍ مرتجلةٍ من توم ثلاثة أسابيع، وليسَ أسبوعين كما قال. سيأتي الأسقفُ المنتخبُ اليوم لإقامةِ أولِّ صلاةٍ فيهِ.

كانت الممرّاتُ المسقوفةُ قد نُظفت من الركامِ، وأصلحَ توم الأجزاءَ المتضررةَ منها، وبسببِ تصميم الممرّاتِ المسقوفةِ كان العملُ فيها سهلاً، أمَّا بقيةُ الكنيسةِ فكانت عبارةً عن أكوامٍ وأكوامٍ من الركامِ. مازالت بعضُ الجدران قائمةً غيرَ أنَّها آيلةٌ للسقوطِ في أيِّ لحظةٍ، ولكن توم فتحَ ممرّاً من الممرّاتِ المسقوفةِ، وعبرَ ما كان قبلاً الجناح الجنوبي، يُفضي إلى درجِ السردابِ.

نظرَ توم حوله. يبلغُ حجمُ السرداب خمسينَ قدماً، وهو كبيرٌ بما يكفي لإقامةِ الصلواتِ. ورغمَ أنَّه كان مُظلماً بعضَ الشيءِ، وبأعمدةٍ ضخمةٍ، وسقفٍ مُقنطرٍ منخفضٍ، فإنّ أساسَهُ متينٌ، ولهذا نجا من الحريقِ. وضعوا حاملاً بمنزلة مذبحٍ، وسيجلسُ الرهبان خلالَ الصلاةِ على مقاعد من قاعةِ الطعامِ. عندما يُحضر الكشماس أغطيةَ المذبحِ المطرزةِ، والشمعداناتِ المطعمةِ بالجواهرِ سيبدو المكان أنيقاً.

حالما يُعاودُ الرهبان الصلوات سيتناقصُ عددُ عُمالِ توم، لأنَّ الرهبان سيعودون إلى حياةِ العبادةِ، أمَّا البقية فسيعودون إلى مهامِهم الزراعيةِ أو الإداريةِ، ولكن سيبقى لدى توم نصفُ خدمِ الديرِ. كان رئيسُ الديرِ فيليب يتعاملُ بصرامةٍ مع الخدمِ؛ فقد كان يعتقدُ أنَّ عددهم كبير، وإن أبدى أحدهم

عدم استعدادٍ للتنقل بين الأعمالِ سواء كساسةٍ في الإسطبلِ، أو كمساعدين في المطبخِ فلن يتردّد أبداً في طردِهم من الخدمةِ. كان البعضُ منهم غادرَ، ولكن معظمهم بقي.

يدينُ الديرُ لتوم بأجرِ ثلاثةِ أسابيع، ولأنَّ أجرَ رئيسِ البنَّائين أربعة بنساتٍ يومياً؛ فهذا يعني أنَّ المبلغ يبلغُ الآن اثنين وسبعين بنساً، ومع مرور كلّ يومٍ يتراكمُ دينُ الديرِ، وسيجدُ رئيسُ الديرِ فيليب صعوبةً في دفعهِ لتوم. بعدَ ستةِ أشهرٍ سيطلبُ توم من رئيسِ الديرِ أن يدفعَ له، وبحلول ذلك الوقتِ سيكون المبلغُ قد وصلَ إلى جنيهين ونصف الجنيه من الفضةِ، ويجبُ على فيليب أن يؤمنها كي يتخلى عن خدماتِ توم. منحَ هذا الدين توم شعوراً بالأمانِ.

كانت هناك بارقة أملٍ في أن يستمرَّ هذا العملُ حتَّى نهايةِ حياةِ توم، ولكنه بالكاد تجرأ على التفكيرِ بهذا، ومن جهةٍ أخرى فهذهِ كنيسةٌ، وإن أمرت القوى الحاكمة ببناءِ كنيسةٍ جديدةٍ مهيبةٍ، بعد تأمينِ المالِ لبنائها، فستكون أكبرَ مشروعِ بناءٍ في المملكةِ، وسيعملُ فيه عشرات البنَّائين لعقودٍ من الزمنِ.

في الحقيقةِ كان أملُ توم في محلّهِ؛ فبعدَ الحديثِ مع الرهبانِ وسكان القريةِ علمَ توم أنَّ كينغزبريدج لم تكن يوماً كاتدرائيَّةً مهمةً فهي بعيدةٌ، وفي قريةٍ مغمورةٍ في ويلتشير، ومرَّ عليها سلسلةٌ من الأساقفةِ غير الطموحين، وهي في حالةِ تداعٍ بطيء ومستمرٍ. ولم يكن الدير مشهوراً أو غنياً. تستقطبُ بعضُ الأديرةِ الملوكَ ورؤساءَ الأساقفةِ بحُسنِ ضيافتها، ومدارسِها الممتازةِ، ومكتباتها العظيمةِ، وبحوثِ الفلاسفةِ من رهبانها، أو سعة معرفةِ رؤسائها، ولكن كينغزبريدج لا تتمتع بأيٍّ من هذهِ الميزاتِ، ولذلك من المرجحِ أن يبني رئيسُ الديرِ فيليب كنيسةً صغيرةً وبسيطةً، ومتواضعةً، وقد يستغرق هذا عشرةَ أعوامٍ.

في كلتا الحالتين كان الأمرُ مناسباً لتوم الذي أدركَ، وقبلَ أن ينطفئ الحريق، أنَّ هذهِ فرصتُه لبناءِ كاتدرائيةٍ.

اعتقدَ فيليب أنَّ الرَّبَّ من أرسلَ توم إلى كينغزبريدج، وعلمَ توم أنّه فازَ بثقةِ فيليب بعد أنَّ أثبتَ له كفاءتهُ في تنظيفِ وتأهيلِ الديرِ، وعندما تحينُ اللحظةُ المناسبةُ سيتحدث إلى فيليب بشأنِ تصاميم الكنيسةِ الجديدةِ، وإن أدارَ الوضع جيداً؛ فمن المرجحِ أن يطلبَ منه فيليب وضعَ التصاميم، وحقيقةُ

أنَّ الكنيسةَ الجديدةَ ستكون متواضعةً زادت من حظوظِ توم في الحصولِ على عقدِ بنائها بدلاً من الاستعانةِ ببنَّاءٍ متخصصٍ في بناءِ الكاتدرائيات.

كانت معنوياتُ توم مرتفعةً جداً.

قُرِعَ الجرسُ إيذاناً ببدءِ الاجتماعِ، وكانت هذهِ إشارةً أيضاً ليذهب العمال العاديون لتناولِ الفطورِ. غادرَ توم السردابَ، وتوجه إلى قاعةِ الطعامِ، وفي طريقِهِ إلى هناك التقى بإيلين.

وقفت إيلين بعدائيةٍ أمامه كأنَّها بذلكَ تمنعه من متابعةِ طريقِهِ ثمَّ لاحظَ نظرةً غريبةً في عينيها. كان جاك ومارثا برفقتها. بدا جاك في حالةٍ مريعةٍ، وإحدى عينيه مُغلقة، والطرف الأيسر من وجههِ كان متورّماً ومرضوضاً، وقد ألقى بكاملِ وزنهِ على ساقه اليمنى كأنَّ ساقه اليسرى عاجزةٌ عن حملِ وزنهِ. شعرَ توم بالأسى على الفتى الصغير وسأل: «ما الذي حدثَ لكَ؟»

قالت إيلين: «آلفريد من فعلَ هذا».

وتأوه توم في داخلهِ، ولوهلةٍ شعرَ بالحرجِ من آلفريد الذي كان أكبر من جاك بكثيرٍ، ولكن جاك لم يكن ملاكاً، وربما قام باستفزازِ آلفريد. نظرَ توم في الأرجاءِ بحثاً عن ابنهِ، ورآه متوجهاً إلى قاعةِ الطعامِ مغطى بالغبارِ، وناداه بصوتٍ عالٍ: «آلفريد! تعال إلى هنا».

استدارَ آلفريد، ورأى العائلةَ بأكملها فاقتربَ ببطءٍ، والذنبُ بادٍ على وجههِ.

قال توم له: «هل فعلتَ هذا؟»

«لقد سقطَ عن الجدارِ»، قال آلفريد عابساً.

«هل دفعتهُ؟»

«كنتُ أطاردهُ».

«من بدأ هذا؟»

«لقد أهانني جاك».

وتحدثَ جاك من بين شفتيه المتورمتين: «لقد ناديتهُ بالخنزير لأنَّه أخذَ خُبزنا».

«الخبز؟» قال توم وتابع: «ومن أين حصلت على الخبزِ قبلَ الفطورِ؟»

«أعطانا إياه الخبَّاز برنارد بعدَ أن جلبنا له الحطب».

«كان يجب عليكَ أن تتشاركه مع آلفريد»، قال توم.

«كنتُ سأشاركه».

وقال آلفريد: «ولماذا هربت إذاً؟»

«كنتُ سآخذهُ إلى المنزلِ إلى أمي»، قال جاك. «ولكن آلفريد التهمه كلَّه».

من خبرةِ أربعة عشر عاماً في تربيةِ الأطفال تعلَّم توم أنَّ البحثَ عن الخطأ والصواب في شجاراتِ الأطفالِ عبثي. «إذهبوا ثلاثتكم لتناول الإفطارِ، وإن حصلَ أيُّ شجارٍ آخر يا آلفريد سينتهي بكَ المطافُ بوجهٍ كوجه جاك، وأنا من سيحرصُ على فعلِ هذا. هيا اذهبوا».

وذهبَ الأطفالُ.

لحقَ توم وإيلين بهم، ولكن بخطى أبطأ، وبعد وهلةٍ قالت إيلين: «هل هذا كل ما لديكَ لتقوله؟»

حدَّق توم إليها، ورأى أنَّها كانت ما تزالُ غاضبةً، ولكن لم يكن بوسعهِ القيامُ بشيءٍ، ولهذا هزَّ كتفيه وقال: «كالعادةِ كلا الطرفين مذنبٌ».

«كيفَ يسعكَ قولُ هذا يا توم؟»

«كلاهما مشاغبان».

«لقد أخذَ آلفريد الخبزَ، وناداه جاك بالخنزير، ولكن هذا لا يستدعي سفكَ الدمِ!»

هزَّ توم رأسهُ وقال: «الصبيةُ يتشاجرون على الدوامِ، وهذا يعني أنكِ ستقضين بقيةَ حياتكِ في حلِّ خلافاتهم؛ ولذلك من الأفضلِ تركهم لمشاكلِهم».

«هذا غيرُ كافٍ يا توم»، قالت بلهجةٍ جادة ثمَّ تابعت: «انظر إلى وجه جاك ثمَّ إلى وجهِ آلفريد، وسترى أنَّ هذا ليسَ شجارَ أطفال بل هجومٌ شرسٌ من رجلٍ ناضجٍ على فتى صغير».

امتعضَ توم من لهجتها. قد لا يكون آلفريد مثالياً، ولكن جاك ليسَ ملاكاً. لا يريد توم لجاك أن يصبح المدللَ والمفضلَ في هذهِ العائلةِ. «آلفريد ليسَ بالغاً، إنَّه في الرابعة عشرة، وهو يعملُ ويساهمُ في دعمِ العائلةِ على عكسِ جاك الذي يلعبُ طوالَ الوقتِ كطفلٍ، وبالنسبةِ إلي أرى أنَّ على جاك أن يُظهرَ الاحترامَ لآلفريد، وإن لاحظتِ فهو لا يفعلُ هذا».

«لا يهمني!» انفجرت إيلين وتابعت: «يمكنكَ قول ما تريدهُ، ولكن ابني

مصابٌ وإصابته سيئةٌ، وقد تكون خطيرةً وأنا لن أسمحَ بهذا!» وبدأت تبكي ثمَّ وبصوتٍ أهدأ، ولكن ما يزال غاضباً قالت: «إنَّه ابني ولا أحتملُ رؤيتهُ على هذهِ الحالةِ».

تعاطفَ توم معها، وشعرَ بإغراءِ محاولةِ الترويح عنها، ولكنه خافَ من الوقوعِ في هذا المطبِ. انتابه شعورٌ أنَّ هذهِ المحادثة ستكون نقطةَ تحولٍ. لم يعش جاك مع أحدٍ باستثناءِ والدته، ولهذا كانت تبالغُ في حمايتهِ. لم يكن توم مستعداً لقبولِ فكرةِ حمايةِ جاك من مطباتِ الحياةِ اليوميةِ، وإن رضخَ الآن فستكون هذهِ سابقة قد تجلبُ له متاعبَ لا تنتهي في السنواتِ القادمةِ. في الحقيقةِ علمَ توم أنَّ آلفريد تجاوزَ الحدَّ هذهِ المرَّة، وعزمَ على إجبارِ الفتى على تركِ جاك وشأنهِ، ولكن ليسَ من الحكمةِ أن يقول هذا لإيلين. «إنَّ الضربَ جزءٌ من الحياةِ»، قال توم لإيلين. «يجب أن يتعلمَ جاك تلقي الضربات، أو تفاديها فأنا لا أستطيع قضاءَ حياتي في حمايتهِ».

«يمكنكَ أن تحميهِ من ابنكَ المتنمرِ».

جفلَ توم فقد كره سماعها تصفُ ابنه بالمتنمرِ.

«يمكنني ولكن لن أفعل»، قال بغضبٍ ثمَّ تابع: «على جاك أن يتعلمَ حمايةَ نفسهِ».

«أوه، فلتذهب إلى الجحيم!» قالت واستدارت ثمَّ ابتعدت.

دخلَ توم إلى قاعةِ الطعامِ. كان الكوخُ الخشبي الذي يتناول فيه العمالُ العاديون طعامهم قد دُمرَ بسببِ البرجِ الجنوبي الغربي، ولهذا يتعين عليهم الآن تناول وجباتهم في قاعةِ الطعامِ بعدَ أن ينتهي الرهبان من وجبتهم ويغادروا. جلسَ توم بعيداً عن الجميعِ فلم يكن في مزاجٍ للاختلاطِ بالناسِ. أحضرَ لهم أحدُ خدمِ المطبخِ إبريقاً من الجعةِ، وبضعَ شرائح من الخبزِ في سلَّةٍ. غمسَ توم قطعةً خبزٍ في الجعةِ ليتمكن من مضغها، وبدأ بتناول فطورهِ.

«إنَّ آلفريد فتى ضخم ويتمتع بطاقةٍ كبيرةٍ»، فكرَ توم بولعٍ، وتنهد فوقَ جعتهِ. في صميمهِ يعرفُ توم أنَّ آلفريد متنمرٌ بطريقةٍ ما، ولكنه كان واثقاً من أنَّه سيغدو أهدأ مع الوقتِ، ولن يُجبر توم طفليهِ على معاملةِ قادمٍ جديدٍ معاملةً خاصةً؛ فلديهما ما يكفيهما من الأعباء. لقد خسرا والدتيهما، وأُجبرا على التشردِ على الطرقاتِ، واقتربا من حافةِ الموتِ جوعاً، ولذلك

لن يفرضَ عليهما أعباءً جديدةً إن كان هذا بمقدورهِ. كان يحقُّ لهما ببعضِ التساهلِ، ولن يموت جاك إن ابتعد عن طريقِ آلفريد.

لطالما تتركه خلافاته مع إيلين بقلبٍ واجمٍ. تشاجرا مرَّاتٍ عديدةٍ، وعادةً ما كان محورها الأطفالَ، ولكن كان هذا أسوأ شجارٍ لهما. عندما قطعت طريقهُ بوجهٍ متجهمٍ وعدائي قبلَ قليلٍ عجزَ عن تذكرِ ماهية أن يكون مغرماً بها بجنون، وبدت له كشخصٍ غريبٍ غاضبٍ يقتحمُ حياته الهادئة.

لم يدخل في مثلِ هذهِ الشجارات العنيفةِ والمريرةِ مع زوجتهِ الأولى، وبالنظرِ إلى الأمرِ الآن بدا له أنَّه وآغنيس لم يختلفا على أيِّ شيءٍ مهمٍ، وعندما كانا يختلفان لم يغضبا بعضهما من بعض. هذا ما يجب أن تكون عليهِ الأمورُ بين الزوج والزوجة، وعلى إيلين أن تدركَ أنَّها لا تستطيع أن تكون فرداً من العائلةِ، وأن تديرَ الأمور وفقَ أهوائها في الوقتِ نفسهِ.

ولكن حتَّى عندما تتصرف بشكلٍ مثيرٍ للغضبِ لا يتمناها توم تغادر. أحياناً يُفكرُ بآغنيس في ندم فقد كانت رفيقةُ عمرهِ، ومؤخراً تملَّكه إحساسٌ مقيمٌ أنَّ حياته ينقصها شيءٌ ما. عندما كانت على قيدِ الحياةِ لم يفكر قط أنَّه محظوظ جداً لوجودها معه، ولم يشعر بالامتنانِ على ذلكَ، أمَّا الآن فهو يفتقدها، وشعرَ بالخجلِ من نفسهِ لأنَّه عدَّ وجودها أمراً مُسلماً بهِ.

خلال ساعات النهارِ الهادئةِ، وعندما يكون العمال منشغلين في الموقعِ بتنفيذ تعليمات توم بهمَّةٍ بينما هو يقوم بعملٍ ما يتطلب مهارةً كإعادةِ بناءِ جزءٍ من الممرّاتِ المسقوفةِ، أو إصلاحِ عمودٍ في السرداب، يتخيلُ أحياناً أنَّه يتحدث إلى آغنيس. يحدِّثها غالباً عن طفلهما جوناثان فقد كان توم يراه معظمَ الأيام مع الرهبان وهم يطعمونه في المطبخِ، أو يحملونه في الممرّاتِ المسقوفةِ، أو يضعونهُ في المهدِ في المهجعِ. بدا الطفلُ في صحةٍ ممتازةٍ وسعيداً، ولم يعرف أحدٌ أنَّه طفله سواه هو وإيلين. تحدَّثَ توم إلى آغنيس عن آلفريد، ورئيسِ الديرِ فيليب، بل وحتَّى عن إيلين، وشرحَ لها مشاعره تجاههم، باستثناءِ مشاعرهِ نحو إيلين، كما كان سيفعل لو أنَّها ما زالت على قيد الحياةِ. أطلعها أيضاً على مخططاتهِ من أجلِ المستقبلِ، وأمله أن يحظى بعملٍ هنا لسنواتٍ قادمةٍ، وحلمِه بتصميم وبناءِ الكاتدرائيةِ الجديدةِ بنفسهِ، وكان في رأسهِ يسمع ردودها، وأسئلتها، ويتخيلها أحياناً إمَّا مسرورةً، أو

متحمسةً، أو مذهولةً، أو مرتابةً، أو مستنكرةً، وفي بعضِ الأحيانِ يشعرُ أنَّها على حقٍ وفي أحيانٍ أخرى أنَّها على خطأ، ولو أنّه أخبرَ أحداً عن هذهِ الأحاديث لقال عنه إنَّه يتحدث مع الأرواحِ، وسيكون هناك كهنةٌ ومياه مقدسةٌ لطردِ هذهِ الأرواحِ، ولكنه علمَ أنَّ ما من شيءٍ خارقٍ للطبيعةِ في ما كان يفعلهُ، بل كل ما في الأمر أنَّه عرفها جيداً، ولذلكَ يستطيع تخيل ما ستشعر به، أو تقوله في أيِّ موقفٍ.

لطالما خطرت آغنيس على بالهِ في أغربِ الأوقاتِ؛ فمثلاً عندما كان يُقشرُ إجاصةً لمارثا الصغيرة بسكينِ الطعام خاصتهِ تذكر أن آغنيس لطالما ضحكت على محاولتهِ إزالةَ القشرة قطعةً واحدةً، وكلما اضطُرَ إلى كتابةِ شيءٍ ما تذكرها فقد علمته كلَّ شيءٍ علَّمها إياه والدها الذي كان كاهناً، وما زال يتذكر كيف علَّمتهُ شحذَ طرف الريشةِ وكيف يكتب كلمة «بنَّاء» باللاتينيةِ، وفي أيام الآحاد عندما يغسل ويفرك لحيتهُ بالصابون يتذكر تلك الأوقات عندما كانا شابين، وعلمته كيفَ يغسل لحيتهُ، ويقي وجهه من القملِ والثآليل. لم يمر يومٌ واحدٌ من دونِ حدثٍ بسيطٍ يستعيد فيه ذكراها بقوةٍ.

ولكنه علمَ أيضاً أنَّه محظوظ لوجود إيلين معه، ولم يكن هناك خطرٌ في اعتبار وجودها أمراً مُسلماً بهِ. كانت فريدةً وغريبةً بعضَ الشيءِ، وهذهِ الغرابةُ فيها أَسَرتهُ. شعر بالامتنان على وجودها في حياتهِ؛ فقد روحت عنه، وخففت من حزنهِ في الصباحِ التالي على وفاةِ آغنيس، ولكنه أحياناً تمنَّى لو أنّه التقاها بعدَ أيام، وليسَ بعد ساعاتٍ على دفنهِ لزوجتهِ حتَّى يكون قد استنفدَ حزنَهُ وحيداً لفترةٍ من الزمنِ. لم يكن بوسعهِ أخذُ فترةِ حدادٍ كما يفعلُ اللوردات والرهبان فهو من العامةِ غيرَ أنَّه كان بحاجةٍ إلى مثلِ هذا الوقتِ كي يعتاد على غيابِ آغنيس قبلَ الاعتيادِ على العيشِ مع إيلين. لم تخطر بباله مثلُ هذهِ الأفكارِ خلال الأيام السابقةِ التي عاشها وسط خطرِ الموتِ جوعاً والاندفاع الجنسي الذي خلقَ نوعاً من النشوةِ الهستيرية كأنَّ العالم سينتهي قريباً، ولكن حالما حظي بالعملِ والأمانِ بدأ يشعرُ بالندمِ. أحياناً عندما يفكرُ بآغنيس لا ينتابه الحنين بل الحزن على مرورِ سنواتِ الشبابِ، فهو لن يعود ساذجاً، ولا مندفعاً، ولا جائعاً، ولا قوياً كما كان عندما وقعَ في غرامها.

انتهى من تناولِ الخبزِ، وغادرَ قاعةَ الطعامِ قبلَ الآخرين متوجهاً إلى الممرّاتِ المسقوفةِ. كان راضياً عن عملِهِ هناك، وسيصعبُ على المرءِ أن يتخيلَ أن الباحة كانت مدفونةً تحت أكوامِ الركامِ قبل ثلاثةِ أسابيع، والدليلُ الوحيدُ على وقوعِ كارثةٍ بعضُ الحجارةِ المرصوفةِ والمتصدعةِ التي عجزَ عن إيجادِ بديلٍ لها.

غير أنَّ المكان كان مليئاً بالغبارِ، ويجب كنسُ الممرّاتِ المسقوفةِ مجدداً ورشها بالمياهِ. سارَ في أرجاءِ الكنيسةِ المُدمرةِ، وفي الجناحِ الشمالي رأى دعامةً يغطيها السُخام مع كلماتٍ مكتوبةٍ عليها فقرأها توم ببطءٍ: «آلفريد خنزير». إذاً هذا ما أثارَ غضبَ آلفريد. كان هناك الكثيرُ من قطعِ خشبِ السقفِ التي نجت من الحرقِ، وهناك دعامات يغطيها السخام في كلِّ مكانٍ، وقررَ توم أن يُكلِّف مجموعةً من العمالِ بجمعِ الخشبِ ونقلِهِ إلى مخزنِ الحطبِ. «فلتجعل الموقع يبدو مرتباً»، هذا ما اعتادت آغنيس قولهُ كلما زارهم شخصٌ مهمٌ، وفكر توم: «أجل يا عزيزتي»، ثمَّ ابتسم لنفسهِ، وتابع عمله.

***

على بعدِ ميلٍ من الكاتدرائية لاحت جماعةُ ويلارن بيغاد وهي تقتربُ عبرَ الحقولِ. كانوا ثلاثةَ رجالٍ منطلقين بسرعةٍ على جيادهم، وويلارن نفسه في المقدمةِ على جوادٍ أسود، وعباءاتٌ سوداء تتطاير خلفه. انتظرهم فيليب وكبار الرهبانِ في الإسطبلِ.

شعرَ فيليب بالحيرةِ حيالَ كيفيةِ التعاملِ مع ويلارن بعد أن اتضحَ ومن دونِ أدنى شكٍ أنَّ الأخيرَ خدعَهُ عندما أخفى عنه خبرَ وفاة الأسقفِ، ولكن الحقيقة ظهرت، ولم يبدُ على ويلارن الحرجُ لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ. لم يعلم فيليب ما يجب عليهِ قوله، وشعرَ بالعجزِ عن إيجادِ الكلماتِ المناسبةِ، ولكنه علمَ أيضاً أنَّه لن يحقق أيَّ فائدةٍ من الشكوى. على أيِّ حالٍ غطى مصابُ حريقِ الكنيسةِ على هذا التفصيلِ، وسيكتفي فيليب بالتزامِ الحذرِ الشديدِ مع ويلارن في المستقبلِ.

كان جواد ويلارن الأسود جفلاً ومهتاجاً جداً رغمَ المسافةِ الكبيرةِ التي قطعها، ودخلَ إلى ساحة الدير برأسٍ مطاطأ، ولكن هذا لم يعجب فيليب.

لم يكن هناك من داعٍ لأن يحاول رجلٌ متدينٌ إبهارَ الناسِ بجوادِهِ؛ ولذلك تعينَ على معظمِ خدمِ الرَّبِّ اختيار مطايا أهدأ.

انحرفَ ويلارن بالجوادِ بحركةٍ رشيقةٍ ثمَّ سلَّمَ اللجام إلى خادمٍ من الإسطبلِ. حيَّاه فيليب برسميةٍ. استدارَ ويلارن، وعاينَ الدمارَ، ولاحتْ في عينِهِ نظرةٌ كئيبةٌ وقال: «كان هذا حريقاً مُكلفاً يا فيليب». تفاجأ فيليب لرؤيتِهِ منزعجاً بصدقٍ.

وقبلَ أن يتمكن فيليب من الإجابةِ تحدَّث ريميجوس: «إنَّه عملُ الشيطانِ يا سيدي».

«هل هو كذلكَ حقاً؟» قال ويلارن وتابع: «من خبرتي أعلمُ أنَّ مثلَ هذهِ الحوادثِ عادةً ما يتسببُ بها الرهبان عندما يُشعلون ناراً صغيرةً في الكنيسةِ طلباً للدفءِ خلالَ صلاةِ الفجرِ، أو عندما يتركون شمعةً مضاءةً في برجِ الجرسِ».

سُرَّ فيليب لرؤيةِ ريميجوس يسحقُ، ولكنه لم يكن ليسمح لتليمحاتِ ويلارن أن تمرَّ مرورَ الكرام. «أجريت تحقيقاً في الأسبابِ المحتملةِ التي أدت للحريقِ»، قال فيليب ثمَّ تابع: «ولم يشعل أحدٌ النارَ في الكنيسةِ تلكَ الليلة. يمكنني تأكيدُ هذا فقد كنتُ حاضراً بنفسي خلالَ صلاةِ الفجرِ، ولم يصعد أحدٌ إلى السقفِ منذُ أشهرٍ».

«إذاً ما هو تفسيركَ؟ البرق؟» قال ويلارن في تشكيكٍ.

هزَّ فيليب رأسه وقال: «لم يكن هناك عاصفةٌ يوم الحريقِ، ويبدو أنَّ النارَ بدأت قريباً من منطقةِ التقاطع فقد تركنا شمعةً مشتعلةً على المذبحِ بعدَ المراسمِ كما نفعل عادةً. على الأرجحِ التقطَ القماش الذي يغطي المذبح النارَ، وحملَ تيارٌ هوائي شرارةً من الأسفلِ إلى السقفِ الخشبي القديمِ جداً والجافِ»، ثمَّ هزَّ فيليب كتفيه وأضاف: «إنَّه ليسَ تفسيراً مُرضياً، ولكنه أفضل ما توصلنا إليهِ».

أومأ ويلارن برأسِهِ وقال: «فلنُلقِ نظرةً قريبةً على الدمارِ».

تحركوا باتجاهِ الكنيسةِ. كان برفقةِ ويلارن جندي وكاهنٌ شابٌ. بقي الجندي في الخلفِ للاهتمامِ بالجيادِ بينما رافقهم الكاهن الذي قُدِّمَ إلى فيليب باسمِ كبيرِ الكهنةِ بولدوين، وأثناءَ عبورهم الحديقةَ باتجاهِ الكنيسةِ

وضعَ ريميجوس يدهُ على ذراعِ ويلارن لإيقافهِ وقال: «نُزل الضيوفِ لم يُدمر كما ترى».

توقفَ الجميع واستداروا، وتساءلَ فيليب في نفسهِ متضايقاً عمَّا يدور في خلدِ ريميجوس. إن لم يكن نُزل الضيوفِ مُدمراً؛ فلمَ قد يطلبُ من الجميع التوقف والنظرَ إليهِ؟ كانت زوجةُ البنَّاءِ قادمةً من المطبخِ، وراقبوها جميعاً تدخل المنزل. حدَّقَ فيليب إلى ويلارن، ولاحظَ أنَّه بدا مصدوماً قليلاً، وهنا تذكر فيليب أنَّه عندما كان في قصرِ الأسقفِ رأى ويلارن يرتعب عندما وقعَ نظرهُ على زوجةِ البنَّاءِ، وتساءل في نفسهِ عن خطبِ تلك المرأة.

ألقى ويلارن نظرةً سريعةً إلى ريميجوس، وأومأ برأسهِ إيماءةً بالكادِ تُرى ثمَّ استدارَ نحو فيليب وسأله: «من يعيش هناك؟»

كان فيليب واثقاً من أنَّ ويلارن عرفَ المرأة، ولكنه قال: «البنَّاء وعائلته».

أومأ ويلارن برأسِهِ وتابعوا السيرَ. بات فيليب الآن يعلمُ بالسببِ الذي دفعَ ريميجوس إلى لفتِ نظرِ ويلارن إلى نُزل الضيوفِ. يريدُ لويلارن أن يرى المرأة، وهنا قررَ فيليب أن يستجوبها في أقربِ فرصةٍ.

دخلوا إلى الكنيسةِ المُدمرةِ، وكانت فيها مجموعةٌ من سبعةٍ أو ثمانيةِ رجالٍ: أربعةُ رهبانٍ، وأربعةُ خدمٍ يرفعون نصفَ دعامةِ سقفٍ محترقةٍ بإشرافِ توم، ورغمَ أنَّ الموقعَ بدا كخليةِ نحلٍ فإنَّه كان مُنظماً. شعرَ فيليب أنَّ هذا الجو من الكفاءةِ والحيويةِ يجعله يبدو كأنَّه صاحبَ الفضل فيهِ إلا أنَّه كان كله من عملِ توم.

تقدَّم توم لملاقاتهم، وبدا أطول من الجميع. قال فيليب لويلارن: «هذا هو كبير البنَّائين توم، وقد نجحَ في إعادةِ تأهيلِ الممرّاتِ المسقوفةِ والسردابِ مجدداً، ونحن ممتنون له أشدَّ الامتنان».

«أنا أتذكركَ»، قال ويلارن لتوم وتابع: «لقد زرتني بعدَ عيدِ الميلادِ، وطلبت مني عملاً، ولكن لم يكن لدي عملٌ من أجلكَ».

«هذا صحيح»، قال توم بصوتٍ منخفضٍ وأجشّ. «ربما كانت مشيئةُ الرَّبِّ أن آتي إلى هنا وأساعدَ رئيسَ الدير فيليب في هذا الوقتِ العصيب».

«بنَّاءٌ لاهوتي»، قال ويلارن ساخراً.

شعرَ توم بوجههِ المعفرِ بالترابِ يحمرُ خجلاً بعضَ الشيء، واعتقد فيليبُ أن ويلارن يتحلى بجرأةٍ كبيرةٍ لسخريتهِ من رجلٍ ضخمٍ على الرغمِ من أنَّ ويلارن أسقف وتوم مجرَّد بنَّاءٍ.

«ما الخطوة التالية هنا؟» سأل ويلارن.

«يجب أن نجعلَ المكان آمناً، وذلك بهدمِ ما تبقى من الجدرانِ حتَّى لا تقع على أحدهم»، أجاب توم بنبرةٍ مهادنةٍ قدرَ الإمكان وتابع: «ثمَّ علينا تنظيفُ الموقعِ من أجلِ بناءِ الكنيسةِ الجديدةِ، وعلينا بأسرعِ وقتٍ ممكن البحثُ عن أشجارٍ طويلةٍ من أجلِ السقفِ، وكلما كان الجذع طويلاً كان السقف أفضل».

وهنا سارع فيليب إلى القولِ: «قبلَ أن نبدأ بقطعِ الأشجارِ يجب أن نؤمنَ ثمنها».

«سنتحدثُ عن هذا لاحقاً»، قال ويلارن بغموضٍ.

أثارَت هذه الملاحظةُ اهتمام فيليب. كان يأملُ أن يكون ويلارن قد أتى مع خطةٍ لجمعِ المال من أجلِ الكنيسةِ الجديدةِ؛ لأنَّ الديرَ لا يستطيع الاعتماد على مواردهِ الحاليةِ لبناءِ الكنيسةِ، وقد أرَّقت هذه المشكلة فيليب لثلاثةِ أسابيع دون أن يصلَ إلى حلٍ لها بعد.

قاد فيليب المجموعةَ عبرَ الممرّ الذي نُظفَ ثمَّ عبرَ الركامِ باتجاهِ الممرّاتِ المسقوفةِ. لم يحتج ويلارن إلَّا إلى نظرةٍ واحدةٍ ليدركَ أنَّ هذهِ المنطقة عادت إلى حالتها الأصلية، ثمَّ غادروا المكانَ، وعبروا الحديقة إلى منزلِ رئيسِ الدير في الزاويةِ الجنوبيةِ الشرقيةِ للساحةِ.

حالما دخلَ ويلارن إلى منزلِ رئيسِ الديرِ خلعَ عباءته، وجلسَ، ومدَّ يديهِ الشاحبتين نحو الموقد طلباً للدفءِ. قدَّم لهم مسؤول المطبخ الأخ ميليوس نبيذاً منكهاً وساخناً في أوعيةٍ خشبيةٍ صغيرةٍ. تجرَّع ويلارن من وعائهِ وقال لفيليب: «هل خطر ببالك أن يكون البنَّاء توم من بدأ الحريق كي يحصل على عملٍ؟»

«أجل. خطر ببالي هذا الاحتمال»، قال فيليب وتابع: «ولكني لا أظنه فعلها لأنَّ عليهِ دخولَ الكنيسةِ أولاً، والكنيسةُ مقفلةٌ بإحكامٍ».

«ربما دخلَ خلال النهارِ، واختبأ في الداخلِ».

«ولكنه سيبقى محجوزاً في داخل الكنيسةِ بعدَ إضرامِ الحريقِ». أجابَ فيليب وهزَّ رأسه. لم يكن هذا السببَ الحقيقي لثقةِ فيليب ببراءةِ توم. «على أيِّ حالٍ لا أعتقد أنَّه قادرٌ على القيام بمثلِ هذا الأمرِ. قد يكون رجلاً ذكياً، بل وأذكى بكثيرٍ مما قد تعتقدُ للوهلَةِ الأولى، إلَّا أنَّه ليسَ شريراً. ولو أنه كان مُذنباً لرأيت هذا على وجههِ عندما سألته مباشرةً عن الطريقةِ التي بدأ فيها الحريق».

تفاجأ فيليب عندما وافقه ويلارن على الفورِ قائلاً: «أعتقدُ أنَّك على حقٍ. لا أعتقد أنَّه من أشعلَ الكنيسةَ؛ فهو ليسَ من هذا النوعِ».

«قد لا نعرف أبداً كيف بدأ الحريق»، قال فيليب ثمَّ تابع: «ولكن علينا أن نجد حلاً لمشكلةِ جمعِ المالِ من أجل بناءِ الكنيسةِ الجديدةِ. لا أعلم...»

«أجل»، قاطعهُ ويلارن، ورفع يدَه لمنعِ فيليب من متابعةِ الحديثِ ثمَّ توجهَ إلى بقيةِ الموجودين في الغرفةِ قائلاً: «يجب أن أتحدّث إلى رئيسِ الديرِ على انفرادٍ فهلَّا غادرتم جميعاً».

أثارَ هذا الطلبُ اهتمامَ فيليب، وعجزَ عن تخيلِ سببٍ يدفع ويلارن إلى التحدثِ معه على انفرادٍ.

قال ريميجوس: «قبل أن نغادرَ يا سيدي الأسقف لدي أمرٌ طلبَ مني الأخوةُ إطلاعكَ عليهِ».

وفكر فيليب في نفسهِ: «ما الأمر الآن؟»

رفعَ ويلارن حاجباً في عجبٍ وقال: «لمَ تُطلعني أنا، وليسَ رئيسكَ؟»

«لأنَّ رئيس الديرِ فيليب لا يسمع شكوانا».

شعرَ فيليب بالغضبِ والحيرةِ؛ فلم يكن هناك أيَّةُ شكاوي وما يحاول ريميجوس فعلهُ هو إحراجُ فيليب بافتعالِ مشكلةٍ أمامَ الأسقفِ الجديدِ. نظرَ ويلارن إلى فيليب نظرةً متسائلةً، ولكن فيليب هزَّ كتفيه متظاهراً باللامبالاة. «لا يمكنني الانتظار حتَّى أسمعَ هذهِ الشكوى»، قال فيليب. «هيا أيُّها الأخ ريميجوس، إن كنت واثقاً تماماً من أنَّ الأمرَ يتطلبُ التحدثَ إلى الأسقفِ».

قال ريميجوس: «في الدير امرأةٌ».

«ليسَ هذا الأمر مجدداً»، قال فيليب في ضيقٍ وتابع: «إنَّها زوجةُ البنَّاءِ، وهي تعيشُ في نُزل الضيوفِ».

«إنَّها ساحرة»، قال ريميجوس.

تساءل فيليب في نفسهِ عن سببِ قيام ريميجوس بهذا مجدداً رغمَ أنَّه جربه قبلاً وفشلَ. كان الموضوعُ قابلاً للنقاشِ، ولكن الكلمة الأخيرة هي لرئيسِ الديرِ وويلارن مُلزم بدعمِ فيليب ما لم يكن راغباً بأن يأتي إلى الديرِ في كلِّ مرَّةٍ يختلفُ فيها ريميجوس مع رئيسهِ.

قال فيليب في سأمٍ: «إنَّها ليست ساحرةً».

«هل استجوبتَ المرأة؟» ألحَّ ريميجوس.

وهنا تذَّكرَ فيليب أنَّه وعدَ باستجوابها، ولكنه لم يفعل بعد. لقد التقى بزوجها، وطلبَ منه إخبارها أن تتوخى الحذر إلَّا أنَّه لم يتحدث معها شخصياً، وفكرَ أنَّ هذا أمرٌ مؤسفٌ لأنَّه سمحَ لريميجوس بأن يسجل نقطةً لصالحهِ. كان فيليب واثقاً من أنَّ الأمرَ لم يكن على هذا القدرِ من الأهميةِ، ويستدعي تحيزاً لريميجوس. «لم أستجوبها»، اعترف فيليب وتابع: «ولكن لا يوجد دليلٌ على ممارستها السحرَ، والعائلة بأكملها نزيهة ومتدينة».

«إنَّها ساحرة وزانية»، قال ريميجوس وقد احمرَّ من شدّة تحفظهِ وورعهِ.

«ماذا؟» انفجرَ فيليب. «مع من تزني؟»

«مع البنَّاءِ».

«إنَّه زوجها أيّها الأحمق».

«لا، إنَّه ليس زوجها»، قال ريميجوس في ظفرٍ. «إنهما ليسا زوجاً وزوجةً، ولم يلتقيا سوى منذُ شهرٍ».

حطَّمَ هذا الكلامُ فيليب فهو لم يتوقعه، وباغته به ريميجوس تماماً.

إن كان ريميجوس يقول الحقيقة فالمرأة نظرياً زانية. يتم التغاضي عادةً عن مثلِ هذا النوعِ من الزنى لأنَّ العديدَ من الأزواجِ لا يقصدون كاهناً لمباركةِ زواجهم إلَّا بعد أن يعيشوا معاً لفترةٍ من الزمنِ، وعادةً ما يفعلون هذا بعد إنجابِ الطفلِ الأولِ، أمَّا في المناطقِ الفقيرةِ والبعيدةِ جداً من البلادِ فيعيشُ الأزواج بعضهم مع بعض، ويربون الأطفال، ويذهبون إلى كاهنٍ لمباركةِ زواجهم بحلولِ الوقتِ الذي يولدُ فيه الأحفادُ. على أيِّ حالٍ أن يقوم بهذا فلاحون فقراء على أطرافِ المملكةِ المسيحيةِ أمرٌ مختلفٌ عن قيامِ موظفٍ مهمٍ في الديرِ به خلالَ عمله في الديرِ.

«وما الذي يجعلكَ تعتقد أنَّهما ليسا متزوجين؟» سأل فيليب مُشككاً رغمَ شعورهِ أنَّ ريميجوس استقصى عن الأمرِ جيداً قبلَ أن يتحدث إلى ويلارن.

«وجدت الولدين يتعاركان وأخبراني أنَّهما ليسا شقيقين، وانكشفت القصةُ بأكملها».

شعرَ فيليب بخيبةِ الأملِ من توم. قد يكون الزنى خطيئةً شائعةً جداً، ولكن الرهبان بالتحديد، ولكونهم يتجنبون الشهوات يعتبرونه خطيئةً بغيضةً. كيف يمكن لتوم أن يفعل هذا؟ كان عليه أن يعرفَ أنَّ فيليب سيبغضُ هذا كثيراً. شعرَ فيليب بغضبٍ أكبر نحو توم مما شعرَ بهِ تجاه ريميجوس الذي فضحَ بعملهِ هذا مكره، وهنا سأله فيليب: «ولمَ لم تخبرني، أنا رئيسك، عن هذا؟»

«لم أسمع بهِ سوى هذا الصباحِ».

أسندَ فيليب ظهرَهُ إلى كرسيهِ، وهو يشعر بالهزيمةِ. ها هو ريميجوس يمسكُ بهِ ويجعله يبدو غبياً. كان هذا انتقام ريميجوس منه لأنَّه هزمه في الانتخاباتِ، ونظرَ فيليب إلى ويلارن منتظراً حكمه في هذهِ الشكوى.

لم يتردد ويلارن في نطقِ حكمهِ قائلاً: «إن القضيةَ واضحةٌ. يجب أن تعترفَ المرأةُ بخطيئتها، وتقومَ بكفارةٍ علنيةٍ ثمَّ تغادر الدير، وتعيش في تبتلٍ بعيداً عن البنَّاءِ لعامٍ كاملٍ، وبعدها يمكنها الزواج».

كان الحكمُ بفصلهما لعامٍ كاملٍ قاسياً، ولكن فيليب شعرَ أنَّها تستحقُ هذا لأنَّها دنَّست الديرَ، ولكنَّ ما أقلقه بحقٍ هو الطريقة التي ستتلقى بها هذا الخبرَ، ولذلكَ قال: «قد لا تنصاع لهذا الحكمِ».

هزَّ ويلارن كتفيه وقال: «إذاً، ستحترقُ في الجحيمِ».

«إن غادرت كينغزبريدج أخشى أن يغادر توم معها».

«هناك بنَّاؤون آخرون».

«بالطبعِ».

سيشعرُ فيليب بالأسفِ على خسارةِ تومٍ لكن، وبالنظرِ إلى وجه ويلارن، عرفَ أنَّ الأخيرَ لن يمانعَ مغادرةَ توم وامرأته لكينغزبريدج، وعدم العودةِ إليها أبداً، وتساءل في نفسهِ مجدداً عن سرِّ هذه المرأة.

وهنا قال ويلارن: «والآن اخرجوا جميعاً، ودعوني أتحدث إلى رئيسكم».

«مهلاً»، قال فيليب. كان هذا ديرهُ، وأولئكَ رهبانه، وهو من يستدعيهم ويصرفهم، وليسَ ويلارن. «سأتحدث إلى البنّاء بنفسي في هذا الأمرِ، ولذلكَ لا أريد لأحدٍ منكم أن يتحدث في الأمرِ مع أحدٍ، هل سمعتم؟ وسينال من يعصي أمري عقوبةً قاسيةً، هل هذا واضح يا ريميجوس؟»

«أجل»، قال ريميجوس.

نظرَ فيليب إلى ريميجوس مستفهماً دون أن يقولَ شيئاً، وحلَّ صمتٌ مُثقلٌ.

«أجل يا أبتاه»، قال ريميجوس أخيراً.

«حسناً، فلتخرجوا جميعاً».

اندفعَ ريميجوس، وآندرو، وميليوس، وكوثبرت، وكبيرُ الكهنةِ بولدوين خارجاً. تجرَّع ويلارن بعضَ النبيذ الدافئ ومدَّ قدميهِ نحو النارِ. «إنَّ النساء مصدرٌ دائمٌ للمتاعبِ»، قال ويلارن وأضاف: «عندما تكون هناك مُهرةٌ جاهزةٌ للتزاوجِ في الإسطبلاتِ تبدأ جميع الفحول بعضِّ السائسين، وركلِ مرابطها، والتسببِ بالمتاعب عموماً، وحتّى الجيادُ المخصيةُ تثيرُ المتاعبَ. إنَّ الرهبان كالجياد المخصيةِ فهم لا يستطيعون التزاوج، ولكنهم ما زالوا قادرين على شمِّ رائحةِ الفرجِ».

شعرَ فيليب بالحرجِ من هذا الكلامِ الفجِّ الذي لا داعي له؛ ولذلك طأطأ رأسه ينظرُ إلى يديهِ.

«ماذا عن إعادةِ بناءِ الكنيسةِ؟» قال فيليب.

«أجل، لا بدَّ أنَّك سمعتَ أنَّ ما أخبرتني بهِ عن الإيرل بارثيميلو والمؤامرةِ على الملكِ ستيفن قد صبَّ في مصلحتنا».

«أجل». وشعرَ فيليب أنَّ زمناً طويلاً قد مرَّ مُذ أن ذهبَ إل قصرِ الأسقفِ مرتعشاً من الخوفِ، وأخبرَ ويلارن بالمؤامرةِ على الملكِ الذي اختارته الكنيسة. «سمعتُ أن بيرسي هاملي هاجمَ قلعةَ الإيرل وأسرَهُ».

«هذا صحيح، وهو الآن في زنزانةٍ في وينشستر بانتظارِ سماعِ الحكمِ بحقهِ»، قال ويلارن في رضا.

«وماذا عن روبرت إيرل غلوستر، الرأس المدبر؟»

«ولأنَّه الرأس المدبر حصلَ على عقوبةٍ أخف. في الحقيقةِ لم يُعاقب قط بل تعهدَ بالولاءِ للملكِ ستيفن، ودورهُ في المؤامرةِ أصبح.. طيَّ النسيان».

«ولكن ما شأنُ كل هذا بالكاتدرائيةِ؟»

وقفَ ويلارن ثمَّ توجه إلى النافذةِ، ونظرَ إلى الكنيسةِ المُدمرةِ. رأى فيليب حزناً حقيقياً في عينيهِ، وأدركَ أنَّ ويلارن، ورغمَ كلِّ اهتماماتهِ الدنيويةِ، يمتلكُ ورعاً حقيقياً. «دورنا في هزيمةِ بارثيميلو جعل الملك ستيفن مديوناً لنا، ولن يطول الوقت قبل أن نذهب أنا وأنتَ لمقابلتهِ».

«أقابل الملك!» قال فيليب وشعرَ بالرهبةِ من هذا الاحتمالِ.

«سيسألنا عن المكافأةِ التي نرغبُ بها».

وهنا فهم فيليب ما رمى إليه ويلارن، وشعرَ بحماسةٍ عظيمةٍ في الصميمِ: «وسنخبرهُ...»

استدار ويلارن بعيداً عن النافذةِ، ونظرَ إلى فيليب بعينين كجوهرتين سوداوين تشعان طموحاً وقال: «سنخبرهُ أننا نرغب بكاتدرائيةٍ جديدةٍ لكينغزبريدج».

***

علمَ توم أنَّ إيلين لن تسكت عما جرى.

كانت غاضبةً جداً مما حدثَ لجاك، ولذلك احتاجَ إلى تهدئتها، ولكنه كان واثقاً من أنَّه عندما يخبرها أنَّها يجب أن تقوم بكفارةٍ سيشتعل غضبها أكثر، وتمنَّى لو أنّه يستطيع تأجيلَ الأمرِ ليومٍ أو يومين كي يمنحها بعضَ الوقت حتى تهدأ، ولكنه لا يستطيع فعلَ هذا لأن رئيسَ الديرِ فيليب أخبره بضرورةِ مغادرتها قبل هبوطِ الليلِ؛ ولذلك كان عليهِ أن يخبرها على الفورِ. أطلعهُ فيليب على الأمرِ ظُهراً، وبدورهِ توم أخبرها بحلول موعدِ الغداءِ.

توجهوا إلى قاعةِ الطعامِ مع بقيةِ العاملين في الديرِ وبعد أن انتهى الرهبان من تناول غدائهم وغادروا. كانت الطاولات مكتظةً، ولكن توم اعتقدَ أنَّ هذا ليسَ بالأمر السيئ؛ فقد يردعها وجود أناسٍ كثر في المكان.

ولكنه سرعان ما علمَ أنّه كان مخطئاً في هذا الشأنِ.

حاولَ أن يطلعها على الخبرِ تدريجياً ولذلك بدأ قائلاً: «يعلمون أننا غير متزوجين».

«ومن أخبرهم؟» قالت بغضبٍ. «أحدُ المشاغبين؟»

«آلفريد، ولكن لا تُلقي باللوم عليهِ فقد استجوبهُ ذلك الراهبُ الماكرُ ريميجوس، ولكننا لم نطلب من الأطفالِ أن يخفوا الأمرَ».

«أنا لا ألوم الفتى»، قالت بلهجةٍ أهدأ وتابعت: «وما الذي قالوه في الأمرِ؟»

انحنى فوقَ الطاولةِ، وتحدَّثَ بصوتٍ منخفضٍ على أملِ ألا يسمعهُ أحد: «قالوا إنَّك زانية».

«زانية؟» قالت بصوتٍ عالٍ. «وماذا عنكَ؟ ألا يعلم هؤلاء الرهبان أنَّ الزنى يحتاجُ إلى شخصين؟»

وانخرطَ الجالسون قريباً منهما بالضحكِ.

«صمتاً»، قال توم. «يقولون إنه علينا الزواج».

رمقته بنظرةٍ قاسيةٍ ثمَّ قالت: «إن كان هذا كلُّ ما في الأمرِ لمَ تبدو كأنَّك اقترفتَ ذنباً أيّها البنَّاء توم؟ أخبرني بالبقيةِ».

«يريدون منكِ أن تعترفي بخطيئتكِ».

«يا لهم من منحرفين مُرائين»، قالت في تقززٍ وتابعت: «يقضون معظمَ الليلِ ينكحون بعضهم بعضاً من المؤخرةِ، ويجرؤون على القولِ إنَّ ما نفعله زنى».

علت أصواتُ الضحكِ، وتوقفَ الناس عن التحدثِ فيما بينهم، وأصغوا إلى إيلين.

«فلتتحدثي بصوتٍ منخفضٍ»، التمسَ توم.

«أفترضُ أنهم يريدون أن أقوم بكفارةٍ أيضاً، إنهم يريدون إذلالي، ما الذي يريدونني أن أفعله؟ هيا أخبرني بالحقيقة فلا يمكنكَ الكذبُ على ساحرةٍ».

«لا تقولــي هــذا!» قال توم بصــوتٍ كالفحيــحِ وتابع: «أنــتِ تزيدين الطينَ بلَّةً».

«فلتخبرني إذاً».

«يجب أن نفترق لعامٍ ويجب أن تعيشي خلالها متبتلةً...»

«ما هذا الخراء!» صرخت إيلين.

وكان الجميع الآن ينظرون إليهما.

«تباً لكَ أيُّها البناء توم!» قالت إيلين ثمَّ أدركت أنَّ الجميع يحدقون إليها.

«تباً لكم جميعاً أيضاً». فابتسم معظم الحاضرين. من الصعبِ أن يشعرَ المرءُ بالإهانةِ منها، وهي تبدو جميلةً جداً بوجهها المُحمرِ غضباً، وعينيها الذهبيتين المتسعتين. وقفت إيلين وقالت: «سحقاً لديرِ كينغزبريدج!» ثمَّ قفزت على الطاولةِ، وعلت موجةُ تصفيقٍ. سارت على الطاولةِ بينما سحبَ الناس أوعيةَ الحساءِ، وكؤوسَ الجعةِ بعيداً عن طريقها، وأسندوا ظهورهم إلى الوراءِ وهم يضحكون. «سحقاً لرئيسِ الديرِ! سحقاً لنائبِ رئيسِ الديرِ، وللكشماسِ، ولرئيسِ جوقةِ الترتيلِ، ولأمين الخزنةِ، ولكلِّ المستنداتِ والوثائقِ، ولصناديقهم الممتلئةِ بالبنساتِ الفضيةِ!» ثمَّ وصلت إلى نهايةِ الطاولةِ حيثُ توجد بعدها طاولةٌ أصغر يجلسُ إليها أحدٌ ليقرأ أثناء تناول الرهبان وجباتهم. كان هناك كتابٌ مفتوحٌ على الطاولةِ، وقفزت إيلين من طاولةِ الغداءِ إلى طاولةِ القراءةِ.

وفجأةً أدرك توم ما كانت تنوي فعله. «إيلين! لا تفعلي أرجوكِ...»

«سحقاً لتعاليم القديس بينديكت!» صرخت بأعلى صوتها، ورفعت تنورتها ثمَّ ثنت ركبتيها، وتبولت على الكتابِ المفتوحِ.

انفجرَ الرجال ضاحكين، وضربوا على الطاولات، وصاحوا، وصفّروا وهللوا. لم يكن توم واثقاً مما إذا كان سلوكهم هذا سببه مشاركتهم لإيلين كرهها لتعاليم القديس، أو لأنَّهم كانوا مستمتعين بمنظرِ امرأةٍ جميلةٍ تتبول علناً. قد تكون فجاجةُ سوقيتها مثيرةً لهم، أو ربما قيامها بإهانةِ الكتابِ الذي يعاملهُ الرهبانُ بوقارٍ عظيمٍ. أيًا يكن السببِ فقد أحبَّ الناس ما شاهدوه.

قفزت إيلين عن الطاولةِ وسطَ عاصفةٍ من التصفيقِ ثمَّ اندفعت من البابِ خارجةً.

انخرطَ الجميع في الحديثِ دفعةً واحدةً؛ فلم يشهد أحدٌ منهم مثل هذا قبلاً، وشعرَ توم بالرعبِ والحرجِ. ورغمَ علمهِ أنَّ العواقب ستكون وخيمةً فإنَّ شيئاً في داخلهِ كان يقول: «يا لها من امرأةٍ!»

بعد وهلةٍ نهضَ جاك، ولحقَ بوالدتهِ، وشبحُ ابتسامة على وجههِ المتورمِ.

نظرَ توم إلى آلفريد ومارثا. بدا آلفريد مُربكاً، ولكن مارثا كانت غارقةً في الضحكِ.

«هيا أنتما الاثنين»، قال توم، وغادرَ ثلاثتهم قاعةَ الطعامِ.

عندما أصبحوا في الخارج لم يكن هناك أثرٌ لإيلين. عبروا الحديقة باتجاهِ نُزل الضيوفِ، ووجدوها هناك. كانت جالسةً على الكرسي في عباءتها، وتحملُ حقيبتها الجلدية الكبيرة. بدت هادئةً، ورابطةَ الجأشِ، ومتماسكةً. شعرَ توم بقلبهِ يغوصُ في صدرهِ عندما رأى حقيبتها، ولكنه تظاهر أنَّه لم يلاحظها.

«ستكون العواقب جحيميةً»، قال توم.

«أنا لا أؤمن بالجحيم»، قالت له.

«آمل أن يسمحوا لكِ بالاعترافِ والكفارةِ».

«أنا لن أعترف».

وهنا فقدَ توم أعصابه، وانفجرَ قائلاً: «لا تغادري يا إيلين!»

بدت حزينةً وقالت: «أصغِ إليَّ يا توم، قبلَ أن ألتقيكَ كان لدي طعام ومأوى. كنتُ آمنةً ومُكتفيةً، ولم أكن بحاجةٍ إلى أحدٍ، ولكن منذُ أن التقيتكَ، وأنا دائماً على شفا التضورِ جوعاً بل وأكثر من أيِّ وقتٍ مضى في حياتي. لديكَ عملٌ الآن، ولكنه ليسَ مضموناً فالدير لا يملكُ المالَ لبناءِ الكنيسةِ الجديدةِ، وقد تعود إلى التشردِ في الشتاءِ القادمِ».

«سيؤمنُ فيليب المال بأيَّةِ طريقةٍ»، قال توم وأضاف: «أنا واثقٌ من هذا».

«لا يمكنكَ أن تكون واثقاً»، قالت له.

«أنتِ لا تؤمنين بي»، قال توم بمرارةٍ ثمَّ وبكلِّ تهورٍ أضاف: «أنتِ مثلُ آغنيس لا تؤمنين بكاتدرائيتي».

«أوه يا توم، لو كان الأمرُ يخصني فقط لبقيت»، قالت بحزنٍ وتابعت: «ولكن انظر إلى ابني».

نظرَ توم إلى جاك. كان وجه الفتى الآن بلون أرجواني، ومليئاً بالرضوضِ، وبدت أذنه متورمةً جداً، وفتحتا أنفهِ مليئتين بالدمِ الجافِ، ولديه سنٌ أماميةٌ مكسورةٌ.

قالت إيلين: «كنتُ أخشى أن يكبرَ كحيوانٍ إن بقي في الغابةِ، ولكن إن كان هذا ثمنُ تعليمهِ العيشَ مع الناسِ؛ فالثمنُ باهظٌ جداً ولذلكَ سأعود إلى الغابةِ».

«لا تقولي هذا»، قال توم في يأسٍ. «فلنتحدث في الأمرِ، ولا تستعجلي في قرارِكِ...»

«أنا لا أستعجل، لا أستعجل يا توم»، قالت هذا بحزنٍ. «يحزنني حقاً أنه لم يعد بوسعي أن أغضب. أردتُ حقاً أن أكون زوجتكَ، ولكن ليسَ بهذا الثمنِ».

وفكر توم في نفسهِ: «لو لم يطارد آلفريد جاك لما حدثَ أيٌّ من هذا، ولكن ما حدثَ مجرّد شجار صبيةٍ، أليسَ كذلك؟ قد تكون إيلين على حقٍ عندما قالت إنه يغضُّ النظرَ عن أفعالِ آلفريد؟» وهنا بدأ توم يشعرُ بخطئهِ، وأنَّه كان يجب أن يتعاملَ مع آلفريد بحزمٍ أكبر. إن شجارَ الفتيةِ شيءٌ، ولكن جاك ومارثا أصغرُ من آلفريد. قد يكون آلفريد متنمراً بحقٍ.

ولكن الوقت الآن قد تأخر على فعلِ أيِّ شيء.

«فلتبقي في القريةِ»، قال توم في يأسٍ وأضاف: «فلتنتظري قليلاً ولتري ما سيحدث».

«لا أعتقد أنَّ الرهبان سيسمحون لي بالبقاءِ بعد الآن».

أدركَ توم أنَّها كانت على حقٍ. كانت القريةُ ملكاً للديرِ، وجميع سكانها يدفعون إيجاراتهم إلى الرهبانِ التي عادةً ما تكون على شكلِ أيامٍ من العملِ، ولذلك كان بوسعِ الرهبان رفضُ أيِّ شخصٍ لا يريدونهُ هنا، وبالكادِ يستطيعُ لومهم إن رفضوا وجود إيلين. لقد أخذت قرارها، وتبولت على جميعِ فرصها في تراجعهم عن قرارهم.

«سأرافقكِ إذاً»، قال لها. «يدين لي الدير باثنين وسبعين بنساً. سنعود إلى الطريق، نجونا من قبل و...»

«وماذا عن طفليكَ؟» قالت إيلين بلطفٍ.

وتذكرَ توم كيفَ بكت مارثا من شدةِ الجوعِ، وعرفَ أنَّه لا يستطيع تركها تمرُّ بهذا مجدداً. علاوةً على هذا هناك طفله الصغير جوناثان الذي يعيش هنا مع الرهبان، وأدركَ أنَّه لا يريد أن يتركه مجدداً؛ فقد فعلَ هذا مسبقاً وكره نفسهُ على ذلكَ.

ولكنه لم يكن قادراً على تحملِ خسارةِ إيلين.

«لا تحتر في الأمر»، قالت له وأضافت: «لن أعود للتشرد على الطرقات معكَ مجدداً. هذا ليسَ حلاً؛ لأننا سنكون في وضعٍ أسوأ مما نحن فيهِ الآن. سأعودُ إلى الغابةِ من دونكَ».

حدَّقَ توم إليها غير مُصدقٍ أنَّها عنت ما قالته، ولكن النظرةَ على وجهها جعلتهُ واثقاً من أنَّها مصممةٌ على تنفيذِ ما قررته، ووجدَ نفسه عاجزاً عن التفكيرِ بشيءٍ قد يقوله لها لتتراجع عن قرارها. فتحَ فمه ليتحدث، ولكن الكلمات خانتهُ، وشعرَ بالعجزِ. كانت تتنفسُ بصعوبةٍ وصدرها يعلو ويهبط بسرعةٍ. أرادَ أن يلمسها، ولكنه شعرَ أنَّها لا تريده أن يفعل هذا، وفكرَ في نفسهِ أنَّه قد لا يستطيع احتضانها مجدداً. لم يكن قادراً على تصديقِ الأمرِ. لقد نام معها كلَّ ليلةٍ لأسابيع، وبات جسدها مألوفاً له كما لو أنَّه جسده، وها هو الآن باتَ ممنوعاً من لمسها، وأصبحت غريبةً عنهُ.

«لا تحزن»، قالت له بعينين مغرورقتين بالدموعِ.

«لا أستطيع»، قال لها. «أنا حزين».

«يؤسفني أنني سببت لكَ الحزنَ».

«لا تأسفي على حزني بل على سعادتي فهي أكثر ما يؤلمني يا امرأة. لقد أسعدتني جداً».

وأفلتت من بين شفتيها شهقةٌ ثمَّ استدارت، وغادرت دون التفوه بكلمةٍ.

لحقَ بها جاك ومارثا أمَّا آلفريد فقد ترددَ قليلاً وبدا مُربكاً إلا أنَّه لحقَ بهم أخيراً.

وقفَ توم يحدق إلى الكرسي الذي كانت جالسةً عليهِ، وفكر في نفسهِ: «لا، لا يمكن أن يكون هذا حقيقياً فهي لم تتركني».

جلسَ على الكرسي الذي ما زال دافئاً من حرارةِ جسدها الذي يحبُّه بشدةٍ، وحاولَ تمالك دموعِه.

علمَ أنَّها لن تغيرَ رأيها الآن. لم تكن يوماً من النوعِ المترددِ بل حازمةً وتنفذُ ما تعقدُ العزمَ عليهِ.

قد تندمُ على قرارها هذا في نهايةِ المطافِ.

تمسَّكَ ببارقةِ الأملِ هذهِ؛ فهو يعلم أنَّها تحبه، وأنَّ هذا لن يتغير، والبارحة

فقط مارست الحب معه بجنونٍ كمن يعاني من ظمأ رهيبٍ، وبعد أن وصلَ إلى الذروة نامت فوقه، وتابعت وهي تقبلهُ بجوعٍ، وتمسك بلحيته وتنتشي مرَّةً بعد أخرى إلى أن تعبت أخيراً من المتعةِ. لم تكن المضاجعة فقط ما أحبته بل قضاء الوقت بأكمله معاً. كانا يتحدثان باستمرارٍ بل وأكثر مما كان يتحدث مع آغنيس في بدايةِ علاقتهما. ستفتقده بذات القوةِ التي سيفتقدها. بعد فترةٍ سينحسرُ غضبها، وتبدأ روتيناً جديداً، وحالما تشعرُ بالتوق إلى التحدثِ مع أحدٍ، وإلى جسدٍ تداعبهُ، ووجه بلحيةٍ تقبلهُ ستفكر فيهِ.

ولكنها معتدةٌ بنفسها، وقد تكون معتدةً جداً على التراجع عن قرارها، حتَّى وإن رغبت بذلكَ.

نهضَ عن كرسيه فجأةً، وشعرَ بضرورةِ إخبارها بهذا. غادرَ المنزلَ، ورآها عندَ بوابةِ الديرِ تودع مارثا.

عبرَ توم الإسطبلات، ولحقَ بها.

ابتسمت له ابتسامة حزينةً وقالت: «وداعاً يا توم».

أمسكها من يديها وقال: «هل ستعودين يوماً ما لرؤيتنا؟ لو أنني فقط أعلمُ أنَّك لن تغادري إلى الأبدِ، وأنني سأراكِ مجدداً في وقتٍ ما، ولو لبرهةٍ، لو أنني أعلم هذا فقط، لتحملتُ».

بدت إيلين مترددةً.

«من فضلكِ؟»

«حسناً»، قالت له.

«فلتُقسمي على هذا».

«لا أؤمن بالأيمانِ».

«ولكنني أؤمن».

«حسناً، أقسمُ لكَ».

«شكراً لكِ»، وجذبها بلطفٍ نحوه فلم تقاومه. عندما عانقها فقدَ السيطرة على نفسهِ، وانحدرت الدموع على وجههِ. سحبت نفسها أخيراً، وأفلتها هو على مضضٍ لتستدير باتجاهِ البوابةِ.

في تلكَ اللحظةِ أتت ضجةٌ من الإسطبلِ. كان صوتُ جوادٍ مهتاجٍ يركلُ

ويشخرُ، وبشكلٍ غريزي نظروا جميعاً باتجاهِ الضجةِ. كان جواد ويلارن بيغاد الأسود، والأسقف على وشكِ امتطائهِ.

التقت عينا ويلارن بعيني إيلين، وتجمدَ في مكانهِ.

وفي تلكَ اللحظةِ بدأت إيلين تغني.

لم يعرف توم الأغنية التي غنتها رغم أنَّه غالباً ما سمعها تغنيها. كانت الأغنيةُ حزينةً جداً، ورغمَ أنَّها كانت بالفرنسيةِ فإنَّ توم شعرَ أنَّه يفهمُ معانيها جيداً.

في شباكِ أحد الصيادين قُبَّرةٌ

تغني بعذوبةٍ لا مثيل لها،

كأنَّ النغمةَ الحزينةَ

قد تحلِّق وتقطع الشبكةَ.

وزعَ توم نظراته بينَ إيلين والأسقفِ، ولاحظَ أنَّ ويلارن بدا مذعوراً بفمهِ المفترّ، وعينيه المفتوحتين على اتساعهما، ووجهه الشاحبِ شحوبَ الأمواتِ. وفي ذهولٍ تساءلَ توم في نفسهِ كيف يمكن لأغنيةٍ بسيطةٍ أن تملكَ مثلَ هذهِ القوةِ على إخافةِ هذا الرجلِ؟

عندَ الغسقِ أخذَ الصيَّاد طريدتَهُ

وفقدت القُبَّرة حريتها.

قد يكون الموتُ قدرَ الطيرِ والبشرِ

لكن قدرَ الأغاني البقاءُ إلى الأبدِ.

ثم صرخت إيلين عالياً: «وداعاً يا ويلارن بيغاد، سأغادر كينغزبريدج، ولكني لن أغادرك لأنني سأرافقكَ في أحلامكَ».

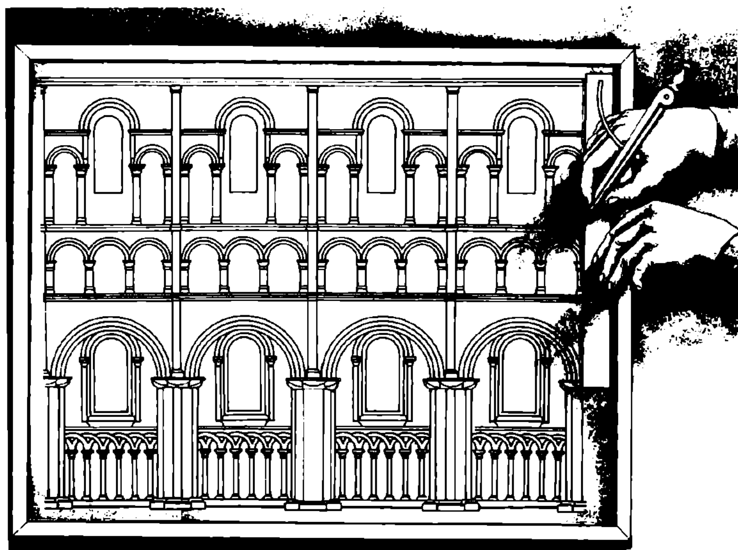
«وفي أحلامي»، فكرَ توم.

ولبعضِ الوقتِ تجمَّد الجميعُ في أمكنتهم.

استدارت إيلين، وأمسكت بيدِ جاك. راقبها الجميع في صمتٍ تخرج من بوابة الديرِ، ويبتلعها ضوء الغسقِ في الأفقِ.

الجزء الثاني

من عام 1136 وحتَّى عام 1137



الفصل الخامس

- 1 -

بعدَ رحيلِ إيلين غدت أيام الآحاد في نُزلِ الضيوفِ أكثر هدوءاً. يذهبُ آلفريد مع فتيةِ القرية للعبِ كرةِ القدمِ في مرجٍ في الجانبِ الآخرِ من النهرِ، ومارثا التي افتقدت صحبةَ جاك تختلقُ ألعاباً كقطفِ الخضارِ، أو صُنعِ العصيدة، أو إلباسِ دميةٍ، أمَّا توم فعملَ على تصميمِ الكاتدرائيةِ.

ألمحَ توم إلى فيليب مرَّةً أو مرتين أنَّ عليهِ التفكير بنوعِ الكنيسةِ التي يريد بناءها، ولكن فيليب لم ينتبه، أو ربما تجاهلَ التلميحَ عن قصدٍ؛ فعلى عكسِ توم الذي لم يكن لديهِ الكثير ليفكر بهِ، خاصَّةً أيام الآحادِ، كان فيليب مشغولاً بالكثير من الأمورِ.

أحبَّ توم الجلوس عند عتبةِ بابِ نُزلِ الضيوفِ، والتحديق إلى الحديقةِ في الكاتدرائيةِ المتهدمةِ. أحياناً يقوم برسوماتٍ على لوحٍ ولكن كان معظم التصميم في عقلهِ. علمَ أنَّه يصعبُ على الناس تخيّل الأشياء الملموسةِ والفراغات الرياضية، ولكنه وجد الأمرَ سهلاً.

فازَ بثقةِ وامتنانِ فيليبِ بسببِ الطريقةِ التي عالجَ بها الأمور بعد حريقِ الكاتدرائيةِ، ولكن فيليب ما زال يعدّهُ بنَّاءً مؤقتاً. كان على توم إقناع فيليب أنَّه قادرٌ على تصميمٍ وبناءِ الكاتدرائيةِ.

في أحدِ أيامِ الآحاد وبعدَ مرورِ شهرين على رحيل إيلين شعرَ توم أنَّه جاهز لوضعِ الرسوماتِ.

صنعَ حصيرةً بطولِ ثلاثة أقدامٍ، وعرضِ قدمين من القصبِ المجدولِ والأغصان اللدنةِ، ثمَّ أضافَ جوانب خشبيةً متقنةَ الصنعِ إلى الحصيرةِ

فبات لها حواف مرتفعة تماماً كالصينيةِ، ثمَّ حرقَ بعضَ الطبشورِ، ومزجه مع كميةٍ صغيرةٍ من الجصِّ، وملأ الصينية بهذا المزيجِ. وعندما بدأ الملاط يجف ويقسو رسمَ خطوطاً عليهِ بمسَّلةٍ. استخدمَ مسطرته المعدنية التي كانت بطولِ قدمٍ من أجلِ الخطوطِ المستقيمةِ، والمثلث لرسمِ الزوايا بشكلٍ صحيحٍ، والفرجار لرسمِ المنحنياتِ.

يتعين على توم وضع ثلاث مجموعات من الرسومات: رسومات مقطعية تُبين الطريقة التي ستُبنى بها الكنيسة، ورسومات رأسية لتوضيح الأبعاد الجميلةِ، ورسومات مسطحة لتوزيع المساحاتِ. بدأ توم أولاً بوضعِ الرسمِ المقطعي.

تخيلَ الكنيسةَ كرغيفِ خبزٍ طويلٍ وأنَّه يقطع الطرف الغربي منه كي يرى كيفَ ستبدو من الداخلِ، وبدأ بالرسمِ.

كان الأمرُ بسيطاً جداً. بدايةً رسمَ ممرّاً مقنطراً طويلاً وبسقفٍ مستوٍ. سيكون هذا صحن الكنيسةِ كما سيُرى من النهايةِ، وسيكون له سقفٌ خشبي مستو كما كان للكنيسةِ القديمةِ. سيفضل توم بناءَ قنطرةٍ حجريةٍ منحنيةٍ، ولكنه يعلم أنّ فيليب لا يمكنه تحملَ كلفتها.

رسمَ فوقَ الصحنِ سقفاً مثلثياً لأنَّ عرضَ السقفِ يحددُ عرضَ البناءِ، وهذا بدورهِ تحدده كميةُ الخشبِ المتوفرةِ. كان الحصولُ على دعاماتٍ خشبيةٍ بطولٍ يزيد على خمسة وثلاثين قدماً -هذا إن وجدت- صعباً بسبب غلاءِ ثمنها. الخشبُ الجيد باهظٌ جداً، والشجرةُ الجيدةُ سيقطعها صاحبها، ويبيعها قبلَ أن تصلَ إلى ذلكَ الطولِ بكثير. في الكاتدرائيةِ التي تخيلها توم كان عرضُ الصحنِ اثنين وثلاثين قدماً، أو ضعفَ عرضِ مسطرةِ توم المعدنيةِ.

رسمَ توم الصحنَ عالياً جداً إلى درجةٍ مستحيلةٍ. كان يعتقدُ أنَّ مظهر الكاتدرائيةِ يجب أن يكون دراميا، وحجمها مُدهشاً، وسماويةً في اتساعها. إن أحدَ الأسباب التي تدفعُ الناس إلى زيارةِ الكاتدرائيات هو أنها أكبر المباني في العالمِ، ومن لا يرى كاتدرائية سيعيشُ بقيةَ حياتهِ من دونِ أن يرى بناءً أكبر من الكوخِ الذي يعيشُ فيهِ.

لسوء الحظِّ فإنَّ الكنيسة التي يخطط توم لبنائها ستسقطُ؛ لأنّ وزن معدنِ وخشبِ السطحِ ثقيلٌ جداً على الجدرانِ التي ستميل إلى الأمامِ وتنهار، وبذلك ستحتاج إلى التدعيم.

لذلك رسمَ توم مدخلين مُقنطرين مدورين من الأعلى وبارتفاعٍ يعادل نصفَ ارتفاع الصحنِ على كلا الجانبين. سيكون هذان المدخلانِ بمنزلة ممرّين بسقفين حجريين منحنيين، ولذلكَ كلما كان الممرّ أخفض وأضيق قلَّت تكلفة القناطرِ الحجريةِ، وسيكون سقفُ كلِّ ممرّ منحنياً ومائلاً.

يلتقي كلا الممرّين الجانبيين في الصحنِ بالقناطر الحجريةِ التي تؤمن بعضَ الدعمِ غيرَ أنَّ علوها لن يكون كافياً. سيضطر توم إلى بناءِ دعاماتٍ إضافيةٍ بين الفراغاتِ، وفي المساحةِ السقفيَّةِ فوق الممرّات الجانبيةِ، وفوقَ السقفِ المُقنطرِ، وتحت السقفِ المائلِ. رسمَ توم إحدى هذهِ القناطرِ من أعلى جدارِ الممرّ إلى جدارِ الصحنِ، وعندَ جدارِ الممرّ حيث توجد الدعامةُ عززها بكتفٍ ناتئٍ وضخمٍ من جانبِ الكنيسةِ ثمَّ أضافَ برجاً تزييناً أعلى الكتفِ من أجلِ الوزنِ، وتحسين المظهرِ.

فكر توم في نفسهِ أنَّ الكنيسةَ الطويلةَ مع عناصرِ التدعيم كالممراتِ، والدعائمِ، والكتائفِ ستكون رائعةً، ولكن شرحَ هذا لراهبٍ سيكون صعباً ولذلكَ رسمَ توم رسماً توضيحياً.

رسمَ أيضاً الأساسات تحتَ الجدرانِ. لطالما تفاجأ الناس العاديون بعمقِ الأساساتِ.

كان الرسمُ بسيطاً جداً. في الحقيقةِ كان أبسط من أن يكون مفيداً للبنَّائين، ولكنه سيكون مناسباً لرئيسِ الديرِ فيليب. أرادَ توم من فيليب أن يفهم ما يعرضهُ عليه، ويتخيل المبنى، ويتحمس له. كان تخيل كنيسةٍ كبيرةٍ وحقيقيةٍ من رسمٍ بسيطٍ على الجصِّ أمراً صعباً، وسيحتاج فيليب إلى مساعدةٍ حقيقيةٍ من توم.

كانت الجدران التي بناها توم متينةً ونهايتها مرئية، ولكن هذا لا يكفي لذلك بدأ الآن برسمِ المنظرِ الجانبي لجدران الصحن كما ستُرى من داخل الكنيسة، وهو بذلك يعرض شكلها في ثلاثة مستويات. سيكون المستوى السفلي صفٌ من الأعمدةِ تربطها في الأعلى قناطر نصف دائرية، ويُدعى هذا بالمجاز المقنطر، ومن أعلى المداخل يمكن رؤية النوافذ المقنطرةِ للممرات. سيكون صفُّ النوافذ موازياً بأناقةٍ مع صفِّ المداخلِ كي يدخل

الضوء إلى الصحنِ بسهولةٍ، وسيكون صف الأعمدةِ موازياً لكتائفِ الجانب الخارجي للجدران.

أعلى كلِّ قنطرةٍ في المجازِ صفٌّ من ثلاثِ قناطر صغيرة، ويسمى هذا الجزء بشرفةِ المنبر، ولكن لن يصل هذه المنطقة أيُّ ضوءٍ بسبب السقفِ المائلِ للممرِّ الجانبي خلفها.

فوقَ شرفة المنبر جدارٌ بصفٍّ نوافذ علوية، وقد سمي كذلكَ لوجود نوافذ فيه تسمح بإضاءة النصف العلوي من الصحن.

خلالَ بناءِ كاتدرائية كينغزبريدج القديمة لجأ البنَّاؤون إلى الجدران السميكة من أجلِ المتانة، وأضافوا نوافذ صغيرةً وضيقةً على مضضٍ، ولكن هذا أعاقَ دخولَ الضوءِ إلى الكنيسةِ. أمّا اليوم فالبنَّاؤون المعاصرون يعرفون أنَّ الجدران المستوية والمتينة كفيلةٌ بجعلِ البناءِ قوياً كفايةً.

أنهى توم رسمَ المستويات الثلاثةِ لجدارِ الصحنِ، والمجازِ المُقنطرِ، وشرفةِ المنبرِ، وجدارِ النوافذِ العلويةِ وفقَ الأبعادِ التاليةِ المحددة 3:1:2. سيكون ارتفاعُ المجازِ المُقنطرِ نصفَ ارتفاع جدارِ الصحنِ، وارتفاعُ شُرفةِ المنبرِ ثلثَ ارتفاعِ البقيةِ. يُعدُّ التناسبُ في بناءِ الكنيسةِ أساسياً؛ فهو يُضفي مسحة استقامةٍ خفيَّةً على المبنى بأكملهِ. عندما أنهى توم الرسمَ تأملهُ، وقررَ أنَّه يبدو جميلاً جداً، ولكن ماذا سيكون رأي فيليب؟ يمكنُ لتوم، بعينِ البنَّاءِ التي يملكها، تخيلُ صفوفِ القناطِرِ على امتدادِ الكنيسةِ بأفاريزها وزخارفها مضاءةً بنور شمسٍ ما بعد الظهر، ولكن هل سيتمكن فيليب من تخيلِ هذا أيضاً؟

بدأ توم بالرسمةِ الثالثةِ، وكانت مخططاً لأرضيةِ الكنيسةِ. تخيلَ اثنتي عشرة قنطرةً في المجازِ المُقنطرِ فالكنيسةُ مقسمةٌ إلى اثني عشر قسماً تدعى بالحجيرات. سيكون عرضُ الصحنِ بعرضِ سِتّ حُجيراتٍ، والمذبح أربعَ حُجيراتٍ، وبينهما وعلى امتدادِ الحجيرةِ السابعةِ والثامنةِ سيكون تقاطع جناحي الكنيسةِ على كلا الجانبين والبرج الذي سيرتفع عالياً.

تُبنى معظمُ الكاتدرائيات الكنائس على شكلِ الصليبِ، ورغمَ أنَّه الرمزُ الأهمُّ في المسيحيةِ فإنَّ لاستخدامهِ غرضاً آخر عملياً. يوفرُ الجناحان مساحةً يمكن الاستفادة منها في بناءِ مُصليات، ومكاتب كغرفةِ المقدساتِ، وغرفةِ ثياب الرهبان.

عندما أنهى توم مخططَ الأرضية عادَ إلى الرسم الرئيسي لداخلِ الكنيسةِ كما سيُرى من الزاويةِ الغربيةِ، ورسمَ البرجَ خلفَ الصحنِ.

يجب أن يكون البرج أطول من الصحنِ بمرَّةٍ ونصف أو مرّتين. ستمنح الزيادة في الارتفاع بمرَّةٍ ونصفٍ الممرّاتِ والصحنَ وبرجَ المبنى مظهراً جانبياً متناسقاً وتصاعدياً وفقَ النسبة 1:2:3، أمَّا الارتفاع بمرتين فسيُضفي مسحةً دراميةً؛ لأنَّ حجمَ الصحنِ ضعفُ حجمِ الممرّاتِ، والبرجِ أكبر من الصحنِ بمرتين، ولذلكَ استخدمَ النسبة 1:2:4. اختار توم هذهِ النسبة الدرامية لإيمانه أن هذا ما يجب أن تكون عليهِ الكاتدرائيات. أراد للكاتدرائيةِ أن تصلَ إلى السماءِ، وأملَ أن يشعرَ فيليب بالمثلِ أيضاً.

إن وافقَ فيليب على التصميمِ سيتعين على توم رسمه مجدداً بدقةٍ وبتناسبٍ أكبر، وسيضعُ أيضاً الكثير من الرسومات، المئات منها: رسومات لقواعدِ الأعمدةِ، والأعمدةِ نفسها، والتيجان، والطنف، وأفاريزِ الأبوابِ، والأبراجِ التزيينية، والسلالمِ، والميازيب، وتفاصيل أخرى لا تُحصى. سيقضي توم سنواتٍ عديدة في الرسمِ، وما كان أمامه الآن مجرَّد مسودة لجوهرِ المبنى، ولكنها مسوّدةٌ جيدةٌ. سيكون المبنى بسيطاً، وغير مُكلفٍ، ومتناسقاً، ومتناسباً تماماً.

لم يكن بوسعهِ الانتظارُ حتَّى يعرضه على أحدٍ ما.

خططَ لإيجادِ اللحظة المؤاتية، وعرضه على رئيسِ الدير فيليب، ولكنه الآن، وبعدَ أن فرغَ منه شعرَ برغبةٍ في إطلاعِ فيليب عليهِ فوراً.

هل سيعدّه فيليب وقحاً؟ لم يطلب منه رئيسُ الديرِ تجهيز تصميمٍ للكنيسةِ، وربما أرادَ تكليفَ كبير بنَّائين آخر، شخصٍ سمعَ عنه، وعن عملهِ المُتقنِ في ديرٍ آخر، وقد ينتهي الأمرُ بازدراءِ فيليب لتوم على إظهارِ طموحِ ببناءِ الكاتدرائيةِ.

ولكن من جهةٍ أخرى إن لم يعرض عليه توم أيَّ تصميمٍ فقد يعتقد فيليب أنَّ توم عاجزٌ عن القيام بهذا العملِ، مما يعني أنَّه قد يستعين بشخصٍ آخر، ومن دونِ أخذِ توم بعين الاعتبار أبداً. لم يكن توم مستعداً للمخاطرةِ بحدوثِ هذا؛ لذلكَ قرّرَ أنَّه من الأفضلِ أن يبدو وقحاً على أن يخسر الفرصة.

كان ضوءُ شمسٍ ما بعدَ الظهرِ ما يزال قوياً، وهذا يعني أنَّ الرهبان ما زالوا

في الممرّاتِ المسقوفةِ يدرسون. سيكون فيليب في منزلهِ يقرأ في الإنجيلِ، ولذلك قررَ توم أن يتوجه إلى منزلهِ، ويطرق بابه.

حملَ توم لوحةُ بعنايةٍ، وغادر النُزل.

في أثناءِ مرورهِ بالكنيسة المحترقةِ فجأةً بدت له فكرةُ بناءِ كاتدرائيةٍ جديدةٍ مروعةً، مع كل الحجارةِ، والأخشاب، والعمال، والسنوات التي سيأخذها بناؤها. سيكون عليه أن يديرَ كلَّ هذا، ويحرص على تأمين الموادِ بشكلٍ ثابتٍ، ويراقب نوعية الأخشاب والحجارة، وتوظيف العمال وطردهم، وتفقد عملهم على الداومِ بالشاقولِ والمسطرةِ، وصُنع قوالب الأفاريز، وتصميم وبناءِ آلات الرفعِ، وهنا تساءل في نفسهِ إن كان بوسعهِ حقاً القيام بكل هذا العملِ.

وهنا فكرَ توم بالمتعةِ التي سيشعرها عندما يبني شيئاً من العدمِ، والسعادة التي ستغمره عندما يرى كنيسةً جديدةً هنا حيث لا شيء غير الركام ويقول: «أنا من بنى هذا».

ولكن في زاويةٍ مُظلمةٍ ومُغبرةٍ في عقلهِ جالت فكرةٌ أخرى، عجزَ على الاعتراف بها لنفسهِ. توفيت آغنيس دون أن يُصلي عليها كاهن، ودُفنت في قبرٍ غير مُباركٍ. أرادَ العودة إلى القبرِ مع كاهنٍ، والصلاة عليها، وربما يضع شاهداً صغيراً على القبرِ، ولكنه خشي أن يلفتَ النظرَ إلى قبرها بطريقةٍ قد تفضح القصة الكاملة لتخليهِ عن طفلهِ؛ فما زال التخلي عن طفلٍ جريمةً. مع مرورِ الأسابيع ازداد قلق توم حول روحِ آغنيس، وما إذا كانت في مكانٍ جيدٍ أم لا. خشي أن يسأل كاهناً عن الأمرِ فهو لم يرغب بالكشفِ عن تفاصيلِ ما حدث، غيرَ أنَّه عزَّى نفسه قائلاً إنه لو بنى كاتدرائية فإنَّه سينال حظوةً عندَ الرَّبِّ، وتساءل في نفسهِ إن كان بوسعهِ الطلبُ من الرَّب أن ينسبَ فضلَ بناءِ الكاتدرائيةِ إلى آغنيس، وعندها سيشعرُ أن روحها نجت وارتاح هو.

وصلَ إلى منزلِ رئيسِ الديرِ، وكان مبنى حجرياً صغيراً بطابقٍ واحد. لم يكن الباب موصداً رغمَ أن طقس اليوم كان بارداً. ترددَ أمامَ الباب لوهلةٍ ثمَّ قال لنفسهِ إنَّ عليه أن يكون هادئاً، وكفؤاً، وواسع المعرفةِ وخبيراً، وأنَّه يعرف أصول البناءِ الحديثِ، ورجلٌ سيُسعد أيُّ شخصٍ بالثقةِ بهِ.

دخلَ توم، ولكنه لم يجد أحداً في الغرفةِ. في إحدى الزوايا وجدَ سريراً

كبيراً بستائر مُترفةٍ، وفي زاويةٍ أخرى صليباً، وشمعداناً، ثمَّ رأى رئيسَ الدير فيليب واقفاً قربَ نافذةٍ يقرأ عابساً في رقٍّ.

رفعَ فيليب ناظريه وابتسم لتوم ثمَّ سأله: «ما الذي تحملهُ؟»

«رسومات أيُّها الأب»، قال توم بصوتٍ خفيضٍ وواثقٍ. «رسومات الكنيسة الجديدة، هل تريد رؤيتها؟»

بدا فيليب متفاجئاً ولكن مهتماً ثمَّ قال: «حتماً».

في زاويةِ الغرفةِ منصةُ قراءةٍ. حملَ توم المنصة، ووضعها قبالة النافذة ثمَّ وضعَ لوحَ الجصِّ على مسندها الموجه نحو الضوءِ. نظرَ فيليب إلى الرسمةِ، وراقبَ توم تعابير وجهه. عرفَ أنّ فيليب لم يرَ في حياتهِ رسماً منظورياً، ومخططاً، أو مقطعاً عرضياً لمبنى. وهنا لاحظَ توم على وجه فيليب تقطيبة تنمُّ عن الحيرةِ.

وبدأ توم بالشرح مشيراً إلى الرسم المنظوري: «تخيَّل هنا أنَّك تقف في وسطِ الصحنِ، وتنظر إلى الحائط. ها هي أعمدةُ المجازِ متصلة بعضها ببعض بقناطر، ومن المداخلِ تستطيع رؤية النوافذ في الممرّ، وفوقَ المجاز شرفة المنبر وفوقها النوافذ العلوية».

راقت معالم وجهِ فيليب عندما بدأ يفهم الرسم. كان سريعاً في التعلم. نظرَ إلى مخططِ الأرضيةِ، ورأى توم أنَّه كان محتاراً بشأنهِ أيضاً.

قال توم: «عندما نطوفُ الموقع، ونحدد أماكن الجدران، والأعمدةِ على الأرضية، ومواقع الأبوابِ والكتائف سيكون لدينا مخطط لأماكن الأوتاد والخيوطِ اللازمة لتحديد الأبعادِ».

وأشرقَ وجه فيليب مجدداً. فكر توم في نفسهِ أنَّ معاناة فيليب في فهم الرسومات لم تكن بالأمرِ السيئ وهذا منحَ توم الفرصةَ ليظهر بمظهرِ الواثق والخبير. وأخيراً ألقى فيليب نظرةً على المقطع العرضي وشرحَ له توم: «هنا في الوسط صحنُ الكنيسةِ بسقفٍ خشبي. وخلفَ الصحنِ البرج، وهنا على كلا جانبي الصحنِ الممرّات وعلى جوانبها الأخرى كتائف الجدران».

«تبدو بديعةً»، قال فيليب وعرفَ توم أن فيليب انبهر بالرسم المقطعي حيثُ الجزء الداخلي للكنيسةِ مرئي كأنَّ الجانب الغربي بابُ خزانةٍ مفتوحٌ ويكشفُ ما يوجد في الداخل.

نظرَ فيليب إلى مخطط الأرضية مجدداً وقال: «لا يوجد سوى ست حُجيرات في الصحنِ؟»

«أجل، وأربع منها للمذبح؟»

«أليست صغيرةً؟»

«أيمكنكَ تحملُ كلفةِ بناءِ حجيراتٍ أكبر؟»

«لا يمكنني تحملُ كلفةِ بنائها أصلاً»، قال فيليب. «ولا أعتقد أنه لديَّ أدنى فكرة عن كلفةِ كلِّ هذا».

«أعلمُ بالضبطِ كم قد تكلف»، قال توم، ورأى المفاجأة على وجهِ فيليب الذي لم يتوقع من توم أن يقوم بالحساباتِ أيضاً. قضى توم ساعاتٍ عديدةٍ في حسابِ كلفةِ تصميمهِ بدقةٍ، وقدَّمَ لفيليب رقماً كبيراً: «لن يزيد المبلغ عن ثلاثةِ آلاف جنيه».

أطلقَ فيليب ضحكةً جوفاء وقال: «قضيت الأسابيعَ الأخيرةَ أعمل على المدخول السنوي للديرِ»، ورفعَ ورقةً كان يقرأها باهتمامٍ عندما دخلَ توم. «ها هو الجواب. ثلاثةُ آلافِ جنيهٍ سنوياً، وقد أنفقنا المبلغ كله حتَّى آخر بنسٍ».

لم يتفاجأ توم بما سمعهُ فلم تكن معاناة الديرِ من إدارةٍ سيئةٍ في الماضي سِرَّاً. كان لديه إيمانٌ بفيليب وبقدرتهِ على إصلاحِ مواردِ الديرِ. «ستتمكنُ من جمعِ المالِ أيّها الأب»، قال توم ثمَّ تابع بورعٍ: «وبعونِ الرَّبِّ».

عادَ فيليب إلى الرسومات وبدا غير مقتنعٍ ولكنه سأل: «كم سيستغرقُ بناؤها؟»

«هذا يعتمدُ على عددِ العاملين»، قال توم وتابع: «إن استعنتَ بثلاثين بنَّاء، وعددٍ كافٍ من العمالِ، والمتدربين، والنجارين، والحدادين فقد تنتهي بعدَ خمسة عشر عاماً؛ عامٌ لبناءِ الأساساتِ، وأربعة أعوام لبناء المذبحِ، وأربعة أعوامٍ للجناحين، وستة أعوامٍ للصحنِ».

ومجدداً نظرَ فيليب إلى توم مبهوراً ثمَّ قال: «كم أتمنى لو أنَّ العاملين معي في الديرِ بكفاءتكَ في تقديرِ الأمور وحسابها»، وعادَ إلى تفحص الرسومات في حزنٍ. «إذاً، أحتاج إلى مئتي جنيه سنوياً. لا يبدو مبلغاً

كبيراً عندما تحسبه بهذهِ الطريقةِ»، قال فيليب وغرقَ في التفكير. شعرَ توم بالحماسةِ لأنَّ هذا يعني أنَّ فيليب بدأ يفكرُ بالأمرِ، ويعدّهُ مخططاً عملياً، وليس مجرَّد تصميم نظري. «فلنفترض أنني أستطيع دفعَ مبلغ أكبر هل يمكننا تسريع عمليةِ البناء؟»

«إلى حدٍ معينٍ»، قال توم بحذرٍ فلم يكن يرغب لفيليب أن يُغالي في التفاؤل، فهذا سيجعله يقع في مطبِّ الوهمِ. «يمكنكَ الإستعانة بستين بنَّاء، وبناءِ الكنيسةِ دفعةً واحدةً بدلاً من العملِ عليها تدريجياً من الشرقِ إلى الغربِ، وبذلك قد تنتهي بعد ثماني أو عشر سنواتٍ. إن زادَ عدد البنَّائين في مثلِ هذا الموقعِ عن ستين بناءً فسيبدأون بإعاقةِ بعضهم بعضاً، وهذا بدورهِ سيُبطئ وتيرةَ العملِ».

أومأ فيليب برأسهِ كأنَّه فهمَ الأمرَ من دونِ صعوبةٍ ثمَّ قال: «على أيِّ حالٍ وحتَّى إن لم يعمل معنا سوى ثلاثين بنَّاء يمكننا الانتهاء من الجانب الشرقي بعدَ خمسةِ أعوامٍ».

«أجل، ويمكنكَ استخدامهُ للصلواتِ، ونصب ضريحٍ مقدسٍ لترتاح فيه عظام القديس أدولفوس».

«تماماً»، وبدا فيليب الآن متحمساً ثمَّ تابع: «لطالما اعتقدت أننا نحتاج إلى عشرِ سنين لبناءِ كنيسةٍ جديدةٍ»، ثمَّ نظرَ بمكرٍ إلى توم وسأله: «هل بنيتَ كاتدرائيةً من قبل؟»

«لا، ولكنني صممتُ، وبنيت كنائس أصغر، وعملتُ على بناءِ كاتدرائيةِ إكسيتر لسنواتٍ عديدةٍ كنائب كبير البنَّائين».

«وأنتَ تريدُ بناءَ هذهِ الكاتدرائية وحدكَ، أليس كذلكَ؟

ترددَ توم في الإجابةِ، وقررَ أن يكون صريحاً مع فيليب لأنَّ الأخيرَ يتضايقُ من المراوغةِ. «أجل يا أبتاه. أريدك أن تقوم بتعييني كرئيس البنَّائين»، قال توم بكلِّ هدوءٍ ممكنٍ.

«لماذا؟»

لم يتوقع توم هذا السؤال. كان هناك العديد من الأسباب: «لأنني رأيت كاتدرائيات تبنى بشكلٍ سيئ وأعرف كيفيةَ بناءِ كاتدرائيةٍ بشكلٍ صحيحٍ»، أم «لأنه لا يوجد شيءٌ قد يبعثُ الرضا في قلبِ أيّ حرفي، باستثناءِ ممارسةِ

الحبِّ مع امرأةٍ جميلةٍ، أكثر من استغلالِ مهاراتهِ في مشروعٍ كبيرٍ»، أم «لأنَّ أمراً كهذا سيُعطي للحياةِ معنى». أيُّ جواب من هذهِ الأجوبةِ يريده فيليب؟ على الأغلب سيرغبُ رئيسُ الديرِ بجوابٍ فيه شيءٌ من التقوى والورعِ.

وفي لحظةِ تهورٍ قررَ توم أن يقول الحقيقة: «لأنَّها ستكون جميلةً».

رمقهُ فيليب بنظرةٍ غريبةٍ، ولم يعرف توم إن كانت هذهِ نظرةَ غضبٍ، أم شيئاً آخر. «لأنَّها ستكون جميلةً»، كررَ فيليب، وبدأ توم يشعر أنَّ جوابه سخيفٌ، وقرر أن يضيفَ شيئاً، ولكنه لم يعرف ما هو هذا الشيء. وهنا أدركَ توم أنَّ فيليب لم ينظر إلى جوابهِ بعينِ الريبةِ بل كان متأثراً بهِ، ولامست كلمات توم قلبه. وأخيراً أومأ فيليب برأسهِ كأنَّه احتاجَ إلى وقتٍ ليوافقهُ. «أجل، لا شيء أفضل من صنعِ شيءٍ جميلٍ من أجلِ الرَّبِّ».

بقي توم صامتاً بانتظار أن يسمعه يقول: «أجل ستكون كبير البنَّائين».

وبدا فيليب كأنَّه وصلَ إلى قرارٍ: «سأذهبُ مع الأسقفِ ويلارن لمقابلةِ الملكِ في وينشستر بعدَ ثلاثةِ أيامٍ. ليسَ لدي أدنى فكرة عن مخططاتِ الأسقفِ، ولكنني واثقٌ من أننا سنطلبُ من الملكِ ستيفن مساعدتنا في تمويلِ بناءِ كنيسةِ كاتدرائيةِ كينغزبريدج الجديدة».

«فلنأمل أن يحققَ لكَ مطلبكَ»، قال توم.

«إنَّه يدين لنا بمعروفٍ»، قال فيليب بابتسامةٍ غامضةٍ وتابع: «ولذلك يتوجب عليهِ مساعدتنا».

«وإن قبلَ بالمساعدةِ؟» قال توم.

«أعتقدُ أنَّ الرَّب قد أرسلكَ من أجلِ هذا الغرضِ أيّها البنَّاء توم»، قال فيليب وتابع: «إن أعطانا الملك ستيفن المالَ يمكنكَ بناءُ الكاتدرائيةِ».

وهنا جاءَ دور توم ليتأثر، ويعجز عن التفوه بكلمةٍ. ها هو يُمنحُ أمنيةَ عمرهِ، ولكن بشكلٍ مشروطٍ. إنَّ كلّ شيء متوقفٌ على حصولِ فيليب على المساعدةِ من الملكِ. أومأ توم برأسهِ في قبولٍ بالوعدِ والمخاطرةِ وقال: «شكراً لكَ يا أبتاه».

قُرِعَ الجرس إيذاناً بموعدِ صلاةِ المغربِ فالتقطَ توم لوحه.

«هل تحتاج إلى هذا؟»

وهنا أدركَ توم أنَّ تركَ اللوح هنا سيكون فكرةً جيدةً لتذكير فيليب دوماً بوعدهِ. «لا، لا أحتاجه»، قال توم وتابع. «فالمخطط موجود في رأسي».

«هذا جيد، فأنا أريد الاحتفاظ بهِ هنا».

أومأ توم برأسهِ وتوجه إلى الباب.

وهنا خطر بباله أنَّه إن لم ينتهز الفرصة الآن من أجلِ آغنيس فلن يفعل أبداً، ولذلكَ استدار وقال: «أبتاه؟»

«أجل؟»

«زوجتي الأولى آغنيس، هذا هو اسمها، توفيت من دون أن يصلي عليها كاهن ودُفنت في قبرٍ غير مباركٍ. لم تكن آثمةً ولكن... الظروف. كنتُ أتساءل... أحياناً قد يبني رجلٌ مصلى، أو يؤسس ديراً على أملِ أن يتذكرَ الرَّبّ ورعهُ في الحياةِ الآخرةِ. هل تعتقدُ أن تصميمي للكنيسةِ قد يُنقذ روح آغنيس؟»

اكفهرَّ وجه فيليب. «طُلبَ من إبراهيم التضحية بابنه الوحيد، ولم يعد الرَّبُّ يُطالب بتضحيات دمويةٍ لأنَّ إبراهيم قامَ بأعظمِ تضحيةٍ، ولكن ما تعلمناه من قصةِ إبراهيم هو أنَّ الرَّبَّ يطالبنا بتقديم أفضلِ وأثمن شيءٍ لدينا. هل هذا التصميم هو أفضل ما يمكن أن تقدمه للرَّبِّ؟»

«باستثناءِ أولادي، أجل».

«إذاً، فلتطمئن أيّها البنَّاء توم لأنَّ الرَّبَّ سيقبلهُ».

– 2 –

لم يكن لدى فيليب أدنى فكرة عن السببِ الذي دفعَ ويلارن بيغاد إلى طلبِ لقائهِ في أطلالِ قلعةِ الإيرل بارثيميلو.

اضطرَّ إلى السفرِ إلى شايرنغ، وقضاءِ الليلةِ هناك ثمَّ التوجه صباح اليوم إلى قلعةِ الإيرل. قررَ فيليب وهو على صهوةِ جوادهِ في طريقهِ إلى القلعةِ التي لاحت أمامه من وراءِ سحاباتِ الضباب أنَّ سببَ اختيارِ ويلارن لقلعةِ الإيرل هو موقعها القريب على الأغلبِ. يتنقلُ ويلارن كثيراً في الأرجاءِ، وتعدُّ قلعةُ الإيرل أقرب موقعٍ إلى كينغزبريدج، وهي أيضاً مَعلمٌ جيدٌ.

تمنى فيليب لو أنَّه يعلمُ ما يخطط له ويلارن؛ فهو لم يُقابل الأسقف منذُ قدومهِ إلى الكاتدرائيةِ لمعاينةِ آثار الحريقِ. لا يعلم ويلارن المبلغ الذي

يحتاجه فيليب لإعادةِ بناءِ الكنيسةِ، ولا يعلم فيليب ما يخطط ويلارن لطلبهِ من الملكِ؛ فهو يحبُّ الإبقاء على مخططاتهِ سريّةً، وهذا ما جعلَ فيليب متوتراً جداً في حضرتهِ.

كان فيليب سعيداً لأنَّ البنَّاء توم أخبرهُ بكلفةِ بناءِ الكاتدرائيةِ الجديدةِ رغمَ أنَّ ما أطلعه عليهِ الأخير لم يكن خبراً جيداً، ومجدداً شعرَ فيليب بالامتنان لوجودِ توم قربهُ. فجأةً أصبحَ توم بالنسبة لفيليب رجلاً عميقاً رغم أنَّه بالكادِ يقرأ أو يكتب، إلَّا أنَّه قادرٌ على تصميمِ كاتدرائيةٍ، ورسمِ مخططاتٍ، وحسابِ أعدادِ الرجال، والوقتِ اللازم الذي سيستغرقهُ بناؤها، وتكلفتها. كان رجلاً هادئاً، ولكن له هيئةٌ مهيبةٌ بقامتهِ الطويلةِ، ولحيتهِ، ووجهِه المسفوع من البردِ والحرّ، ونظرته الحادة، وناصيتهِ العالية. شعرَ فيليب أحياناً بالرهبةِ من توم، وحاولَ إخفاءَ هذا بالتحدثِ إلى توم بلهجةٍ وديةٍ، ولكن توم كانَ جاداً جداً، ولم يعلم قط أنَّ فيليب يجدهُ مروعاً. كان حديثه عن زوجتهِ رقيقاً، وكشفَ عن جانبٍ ورعٍ في شخصيتهِ لم يكن ظاهراً قبلاً. إنَّ توم من أولئكَ الناس الذين يُبقون إيمانهم في قلوبهم، وأولئك أحياناً هم الأفضل.

ومع اقتراب فيليب من القلعةِ شعرَ بضيقٍ مطردٍ. في ما مضى كانت القلعةُ مكاناً يعجُّ بالحياةِ، ويؤمن الحمايةَ لجميع القرى المحيطةِ بها، ويوفر الطعام للكثيرِ من الناس، ولكن ها هي الآن مُدمرةٌ، والأكواخ التي تحيط بها مهجورةٌ كأعشاشٍ طيور فارغةٍ على أغصان شجرةٍ في عزِّ الشتاءِ، وفيليب مسؤولٌ عن حدوثِ هذا لأنَّه من كشفَ المؤامرة التي حيكت فيها، وأنزل عليها وعلى سكانها غضب الرَّبِّ ولكن بصورةِ وليم هاملي.

لاحظَ فيليب أنَّ الجدران، ومنزلَ الحارس عندَ البوابةِ لم تتضرّر كثيراً خلالَ المعركة، وهذا يعني أنَّ المهاجمين على الأغلب دخلوا قبلَ إغلاقِ البواباتِ. عبرَ فيليب راكباً الجسرَ الخشبي، ودخلَ أولاً إلى المُجمعِ السفلي، وهنا رأى علائم أوضح على المعركةِ، وباستثناءِ الكنيسةِ الحجريةِ لم يتبق من مباني القلعةِ سوى قطعٍ خشبيةٍ محترقةٍ ناتئة فوقَ وجهِ الأرضِ، ودوامات رمادٍ تدور على امتدادِ قاعدةِ سورِ القلعةِ.

لم يجد فيليب في المكانِ أثراً للأسقفِ. عبرَ المُجمع السفلي ثمَّ الجسر، ووصلَ إلى المُجمعِ العلوي، وهنا وجدَ مبنى حجرياً كبيراً بسُلمٍ خشبي

متزعزعٍ، ويُفضي إلى مدخلِ الطابقِ الأول من القلعةِ. حدَّق فيليب إلى البناءِ الحجري، وإلى نوافذِهِ الضيقةِ جداً. قد تكون قلعةً عظيمةً، ولكن يبدو أنَّها لم تنجح في حمايةِ الإيرل بارثيميلو.

من خلالِ هذهِ النوافذ سيتمكن من النظرِ فوقَ أسوارِ القلعةِ، والبحث عن الأسقفِ. ربطَ فيليب جوادهُ إلى درابزين السُلمِ وصعدَ الدرجَ.

لمسَ فيليب الباب، وفَتحه ثمَّ دخلَ. كانت القاعةُ الكبيرةُ مُظلمةً، ومغبرّة، وجدائلُ نبات السمارِ التي تستخدم كفتائل جافةً وقاسيةً كالعظامِ. هناكَ موقدٌ باردٌ، ودرجٌ حلزوني يُفضي إلى الطابق العلوي. توجه فيليب إلى نافذةٍ، وجعله الغبار الذي يغطيها يعطسُ. لم يكن بوسعهِ رؤيةُ الكثيرِ عبرَ النافذةِ، ولهذا قررَ الصعودَ إلى الطابق العلوي.

أعلى الدرجِ الحلزوني وجدَ فيليب بابين، وتكهنَ أنَّ الباب الصغير للمرحاضِ، والكبيرَ لغرفةِ نومِ الإيرل الفارغة، ولذلكَ فتحَ البابَ الكبير.

ولكن الغرفة لم تكن فارغةً.

تجمَّدَ فيليب في مكانهِ مصدوماً. في وسطِ الغرفةِ وقبالتهُ تماماً وجدَ شابةً على قدرٍ مذهلٍ من الجمالِ. لوهلةٍ اعتقدَ أنَّه أمامَ رؤيةٍ، وشعرَ بقلبه يخفقُ بسرعةٍ. كانت شابةً بشعرٍ أسودَ داكنٍ، وكثيفٍ، ووجهٍ ساحرٍ. حدَّقت إليهِ بعينين داكنتين كبيرتين، وأدركَ أنَّها كانت متفاجئةً مثلهُ. استرخى، وعندما كان على وشكِ أخذِ خطوةٍ ثانيةٍ إلى الداخلِ شعرَ أنَّ أحدهم أمسكَ بهِ من الخلفِ، وبنصلٍ باردٍ لسكينٍ طويلةٍ على عنقهِ وصوتٌ ذكوري يقول: «ومن أنتَ بحقِ الشيطانِ؟»

اقتربت الفتاة منه وقالت بطريقةٍ مهيبةٍ: «فلتقل اسمكَ، أو سيقتلكَ ماثيو؟»

عرفَ فيليب من سلوكها أنَّها من مُحتدٍ نبيلٍ، ولكن حتَّى النبلاء لا يُسمح لهم بتهديد الرهبانِ. «أخبري ماثيو أن يُبعدَ يديهِ عن رئيسِ ديرِ كينغزبريدج، أو قد تكون العواقب وخيمةً»، قال فيليب بهدوءٍ.

عندما تحررَ فيليب من قبضةِ ماثيو نظرَ من فوقِ كتفيهِ، ورأى رجلاً نحيلاً في مثلِ عمرهِ. لا بدَّ أنَّ المدعو ماثيو كان في المرحاضِ.

نظرَ فيليب إلى الفتاةِ مجدداً، ورأى أنَّها في حدودِ السابعة عشرة، وعلى الرغم من سلوكها المتغطرسِ فقد كانت في ثيابٍ رثَّةٍ. وبينما كان يتفحصها

خرجَ من صندوقٍ قبالةَ الحائطِ خلفها صبي مراهقٌ مرتعبٌ يحملُ سيفاً. لا بدَّ أنَّه كان في الصندوقِ ينتظر أو يختبئ، ولم يعرف فيليب أيُّهما الصحيح.

«ومن تكونين؟» قال فيليب.

«أنا ابنة إيرل شايرنغ، وأدعى آليانا».

«الابنة! لم أكن أعلمُ أنَّها ما زالت تعيش هنا»، فكرَ فيليب، ونظرَ إلى الصبي. كان الفتى في الخامسة عشرة، ويشبه الفتاة في كلِّ شيءٍ باستثناء أنفه الأفطس، وشعره القصير. حدَّقَ بهِ فيليب مشدوهاً.

«أنا ريتشارد وريث الإيرل»، قال الفتى بذلكَ الصوتِ الأجشِّ للمراهقين.

وخلفَ فيليب قال الرجلُ: «وأنا ماثيو وكيلُ القلعةِ».

وأدركَ فيليب أنَّ ثلاثتهم يختبئون هنا بعدَ أسرِ الإيرل بارثيميلو، وأنَّ ماثيو يعتني بالطفلين، وهذا يعني أنَّه يملكُ مخزوناً من الطعامِ والمالِ في مكانٍ ما. توجه فيليب إلى الفتاة وقال لها: «أعلمُ أين هو والدكِ، ولكن ماذا عن والدتكِ؟»

«لقد توفيت منذُ سنواتٍ عديدةٍ».

شعرَ فيليب بالذنبِ فقد كان الطفلان يتيمين، وهو بطريقةٍ ما مسؤول عمَّا حدث لهما. «ولكن أليسَ لديكما أقارب يعتنون بكما؟»

«أنا أعتني بالقلعةِ إلى أن يعود والدي»، قالت آليانا.

وأدركَ فيليب أنَّ الطفلين يعيشان في عالمِ الأحلامِ. تحاول آليانا إكمالَ حياتها كأنَّها ما زالت ابنةَ عائلةٍ غنيةٍ وقويةٍ، وبما أنَّ والدها مسجونٌ، وسمعتهُ مُلطخةٌ فقد كانت الآن مجرَّد فتاةٍ عاديةٍ، ولم يكن الفتى وريثاً لأيِّ شي؛ فالإيرل بارثيميلو لن يعود إلى هذهِ القلعة أبداً إلا إن قررَ الملك إعدامهُ هنا. شعرَ فيليب بالشفقةِ على الفتاةِ إلَّا أنَّه نظرَ بعينِ الإعجابِ إلى قوةِ إرادتها في الإبقاء على هذا الوهمِ، وجرّ شخصين معها للاعتقادِ بهذا أيضاً، «لا بدَّ أنَّها كانت تتصرف كملكةٍ»، فكرَ فيليب.

وأتاهم من الخارجِ وقعِ أقدامٍ على الخشبِ، وجيادٌ كثيرةٌ تعبرُ الجسرَ. قالت آليانا لفيليب: «ما سببُ قدومكَ إلى هنا؟»

«إنَّه مجرَّد موعد»، قال فيليب ثمَّ استدارَ باتجاه الباب. كان ماثيو يقفُ في طريقهِ، ولبرهةٍ وقف الرجلان وجهاً لوجه ساكنين، وبات الأربعة في الغرفةِ

أشبه بشخوصٍ ساكنةٍ في لوحةٍ. تساءل فيليب إن كانوا سيحاولون منعه من المغادرةِ، ثمَّ تنحى الوكيلُ جانباً.

خرجَ فيليب ثمَّ رفعَ أطرافَ ثوبهِ، وهرعَ ركضاً عبرَ الدرجِ الحلزوني. عندما وصلَ إلى أسفلِ السلمِ سمعَ وقعَ خطواتٍ خلفهُ.

كان ماثيو.

«لا تخبر أحداً أننا هنا»، قال له.

ورأى فيليب أنَّ ماثيو فهمَ جنون الوضعِ الذي كانوا فيه ولذلكَ سأله: «وإلى متى تنوون البقاء؟»

«إلى أن لا نعود قادرين على ذلك»، أجابَ الوكيل.

«وعندما تضطرون إلى المغادرة ما الذي ستفعلونهُ؟»

«لا أعلم».

أومأ فيليب برأسهِ وقال: «سأبقي الأمرَ سِرَّاً».

«شكراً لكَ يا أبتاه».

عبرَ فيليب القاعةَ المُغبرَّةَ وخرجَ. ومن أعلى الدرجِ خارجاً رأى الأسقفَ ويلارن، ورجلين آخرين على جوادين بالقربِ من جوادهِ. ارتدى ويلارن عباءةً ثقيلةً بحواف فرائيةٍ سوداء، وقبعةً فرائيةً سوداء أيضاً. رفعَ ويلارن ناظريه، والتقت عيناه الفاتحتان بعيني فيليب. «سيدي الأسقف»، قال فيليب باحترامٍ، وهبطَ درجات السُلم الخشبي. كانت صورةُ الفتاةِ العذراءِ في الطابقِ العلويِ ما زالت حاضرةً في ذهنهِ، وشعرَ برغبةٍ في هزِّ رأسهِ للتخلصِ منها.

ترجّلَ ويلارن عن جوادهِ، ورأى فيليب أنه كان برفقتهِ الرجلان نفسيهما: كبير الكهنةِ بولدوين والجندي. هزَّ فيليب برأسهِ لكلا الرجلين في تحيةٍ، وركعَ ثمَّ قبَّلَ يدَ ويلارن.

تقبّلَ ويلارن بادرةَ التقديرِ التي قامَ بها فيليب، ولكنه لم يغرق فيها لأنَّه سحبَ يدهُ على الفورِ. ما أحبَّه ويلارن هو السلطة بحدِ ذاتها، وليسَ أبهتها.

«هل أتيت وحدكَ يا فيليب؟» قال ويلارن.

«أجل. إنَّ الدير فقير، ولا يمكنه تحملُ نفقاتٍ غير ضروريةٍ كإحضارِ مرافقٍ لي. عندما كنتُ رئيسَ صومعةِ سان جون إن ذا فوريست لم يكن لدي مرافق قط، وها أنا ما زلت على قيدِ الحياةِ».

هزَّ ويلارن كتفيه في عدمِ اهتمامٍ وقال: «رافقني. أرغبُ بإطلاعكَ على أمرٍ»، وعبر الفناءَ إلى أقربِ برجٍ فلَحقَ بهِ فيليب. دخلَ ويلارن من البابِ المنخفضِ عندَ أسفلِ البرجِ، وصعدَ الدرجَ الداخلي. كانت هناك الكثير من الوطاويط تحت السقفِ الواطئ مما اضطرَ فيليب إلى خفضِ رأسِهِ كيلا يلامسها.

وصلا إلى أعلى البرجِ، ووقفا على الأسوارِ المُطلةِ على الأراضي المحيطةِ بالقلعةِ.

«هذهِ أصغرُ مقاطعة في البلد»، قال ويلارن.

«حقاً»، قال فيليب مرتجفاً. كانت الريح في الأعلى باردةً ورطبةً، ولم تكن عباءتهُ سميكةً كعباءةِ ويلارن. تساءل فيليب في نفسهِ عما يرمي إليه الأسقف.

«إنَّ بعضَ هذهِ الأراضي خصبةٌ، ولكن الكثير منها غابات، ومرتفعات صخرية».

«أجل»، أجاب فيليب. لو أنَّ الجو اليوم كان صافياً لشاهدا مساحات شاسعةً من الغاباتِ والأراضي، ولكن ورغمَ أنَّ ضبابَ الصباحِ الباكرِ قد انقشعَ فإنَّهما بالكادِ تمكنا من رؤيةِ أطرافِ الغابةِ إلى الجنوبِ، والحقولِ المنبسطةِ حولَ القلعةِ.

«تمتلكُ هذه المقاطعة مقلعَ حجارةٍ ضخماً، وهو ينتج أفضلَ أنواعِ الحجارةِ الكلسيةِ»، قال ويلارن وتابع: «وخشبُ غاباته الشاسعة من أفضلِ الأنواعِ، وحقولهُ تدرُّ ثروةً مُعتبرةً. إن امتلكنا هذه المقاطعة يا فيليب سنتمكن من إعادةِ بناءِ الكاتدرائية».

«لو أن للخنازير أجنحةً لطارت»، قال فيليب.

«أوه، يا لإيمانكَ الضعيف!»

حدَّقَ فيليب إلى ويلارن وقال: «هل أنتَ جاد؟»

«جداً».

كان فيليب مشككاً، ولكن، ورغماً عنه، شعرَ ببارقةِ أملٍ. قاومَ شعورَ الأملِ في داخلهِ وقال: «يحتاج الملك إلى دعمٍ عسكري، ولذلك سيُقدم المقاطعة إلى شخصٍ يستطيع قيادة الفرسان في المعاركِ».

«يدين الملكُ بمنصبهِ إلى الكنيسةِ، ويعود الفضل في انتصاره على بارثيميلو إليكَ وإلي، وهذا يعني أنَّه لا يحتاج فقط إلى الفرسان».

رأى فيليب أن ويلارن يتحدث بجديَّةٍ، ولكن هل هذا ممكن؟ هل سيمنح الملك مقاطعة شايرنغ إلى الكنيسةِ من أجلِ تمويلِ إعادةِ بناءِ كاتدرائيةِ كينغزبريدج. إنّه لأمرٌ لا يُصدق. على الرغمِ من حججِ ويلارن فإنَّ فيليب لم يكن قادراً على منع نفسهِ من التفكيرِ بروعةِ الحصولِ على الحجارةِ، والخشبِ، والمالِ من أجلِ العمالِ، وكلُّ هذا على طبقٍ من فضةٍ، ثمَّ تذكرَ أنَّ البنَّاء توم قال له إنَّه يستطيع الاستعانة بستين بنَّاء، والانتهاء من بناءِ الكنيسةِ خلال ثمانيةٍ أو عشرة أعوامٍ. كانت الفكرة بحد ذاتها آسرةً.

«وماذا عن الإيرل السابق؟» سأل فيليب.

«اعترفَ بارثيميلو بخيانتهِ، ولم يُنكر دوره في المؤامرةِ، ولكنه أصرَّ لفترةٍ معينةٍ على أنَّ ما قام بهِ ليسَ خيانة محاججاً أنَّ ستيفن كان غازياً. على أيِّ حالٍ وفي نهايةِ المطافِ نجحَ تعذيب الملكِ له في جعلهِ يعترف».

ارتعشَ فيليب عندَ التفكيرِ بما قد فعلوه لبارثيميلو الصارم حتَّى رضخَ.

وضعَ فيليب هذا الفكرةَ جانباً، وهمهمَ لنفسهِ: «مقاطعة شايرنغ!» كان هذا طلباً طموحاً دونَ أدنى شكٍ، ولكن الفكرة بحد ذاتها مثيرةٌ، وشعرَ بتفاؤلٍ كبيرٍ.

حدَّقَ ويلارن إلى السماءِ وقال: «لنتحرك فالملك يتوقع وصولنا بعدَ الغدِ».

***

تفحَّصَ وليم هاملي رجلي الدينِ من مخبئهِ خلفَ سورِ البرجِ التالي. كان يعرفهما: الطويل الذي يشبه الشحرور بأنفهِ المدببِ وعباءتهِ السوداء هو أسقفُ كينغزبريدج، أمَّا الرجل الضئيل والنشيط ذو الرأسِ المحلوق، والعينين الزرقاوين الفاتحتين فكانَ رئيسَ الديرِ فيليب. تساءل وليم في نفسهِ عمّا كانا يفعلانهِ هنا.

كان يراقب الراهبَ إبان وصولهِ، وكيف نظرَ حوله كأنَّه يتوقع رؤية أناسٍ ثمَّ دخلَ إلى القلعةِ. لم يعرف وليم إن كان فيليب قد التقى بالأشخاص الثلاثة الذين يعيشون في القلعةِ؛ فهو لم يُطل البقاء في الداخلِ، ولا بدَّ أنَّ الثلاثة اختبأوا

منه. حالما وصلَ الأسقفُ خرجَ رئيسُ الديرِ فيليب من القلعةِ، وصعدَ الرجلان البرجَ معاً. وها هو الأسقف يشير إلى الأراضي حولَ القلعةِ كأنَّه يحددها، ومن مكانهِ ومن طريقةِ وقوفِ الرجلين وحركاتهما رأى وليم أنَّ الأسقف متحمسٌ، ورئيسَ الديرِ مشككٌ. كان وليم واثقاً من أنَّهما يحيكان مؤامرةً.

على أيِّ حالٍ لم يأتِ إلى هنا للتجسسِ عليهما بل للتجسسِ على آليانا.

كان يأتي للتجسس عليها كثيراً، فقد شغلت تفكيره طوال الوقتِ، وعانى بسببِ هذا من أحلامِ يقظةٍ قسريةٍ. تخيلها مُقيدةً، وعاريةً وسطَ حقلِ ذرة، أو متكورةً على نفسها كجروٍ خائفٍ في زاويةِ غرفتهِ، أو ضائعةً في غابةٍ عند هبوطِ الظلامِ. وتغدو هذهِ التخيلات مُلحةً جداً إلى درجةِ أنَّه يُضطرُّ للذهاب إلى القلعةِ لرؤيتها. كان ينطلق في الصباحِ الباكرِ إلى قلعةِ الإيرلِ، ويترك والتر، سائس الخيلِ، وراءه في الغابةِ للعنايةِ بالجيادِ، ويعبر الحقولَ إلى القلعةِ ثمَّ يتسلل إلى الداخل، ويختار مخبأً يمكنه منه أن يراقبَ القلعةَ والمُجمع العلوي، ولكنه يضطر أحياناً إلى الانتظار طويلاً لرؤيتها، ويكاد صبره ينفد إلَّا أنَّ احتمال العودة من دونِ لمحها لم يكن مقبولاً بالنسبةِ له، ولهذا ينتظر وطويلاً، ثمَّ عندما تظهر أخيراً يشعر بحلقهِ جافاً، وبقلبهِ يخفقُ بسرعةٍ، ويتعرقُ باطنُ يديهِ. غالباً ما تكون بصحبةِ شقيقها، أو الوكيلِ المخنثِ، ولكنها أحياناً تظهر وحدها. في إحدى المراتِ بعدَ ظهرِ أحدِ أيامِ الصيفِ، وعندما كان بانتظارها منذُ الصباحِ الباكرِ رآها تتوجه إلى البئرِ، وتسحبُ ماءً منها ثمَّ تخلعُ ثيابها وتستحم. إن مجرَّد ذكرى تلكَ الرؤيةِ كفيلةٌ بإثارتهِ في أيِّ وقتٍ. كان ثدياها كبيرين وناهدين، ويتحركان بطريقةٍ مثيرةٍ عندما ترفع ذراعيها لتفركَ شعرها بالصابون، وتتراقص حلمتاها عندما تسكبُ الماءَ الباردَ فوقَ جسدها. تفاجأ عندما رأى بين ساقيها دغلةً كثيفةً من الشعرِ الأسودِ المجعدِ، وعندما تنظفُ هذهِ الدغلة، وتدعكُ نفسها بهمةٍ بيدٍ مرغوة يفقدُ وليم السيطرة ويقذفُ في ثيابهِ.

ما عدا هذا لم يحدث شيءٌ آخر مثيرٌ، وهي بالطبعِ لن تستحم في الشتاءِ، ولكن الأمر لم يخلُ من بعضِ الملذات الصغيرةِ. عندما تكون وحدها تغني، أو تتحدث إلى نفسها. رآها وليم تجدلُ شعرها، وترقص، وتلاحق الحمامَ

عندَ أسوارِ القلعةِ كطفلةٍ صغيرةٍ. كانت مراقبتها سراً وهي تقوم بأشيائها الخاصة تمنح وليم شعوراً بالسلطةِ عليها، وكان شعوراً لذيذاً جداً.

إنَّها حتماً لن تخرج بوجودِ الأسقفِ والراهب هنا. لحسنِ الحظِ يبدو أنَّهما لن يُطيلا البقاء؛ فقد نزلا عن السورِ بسرعةٍ ثمَّ انطلقا مع المرافقَين خارجين من القلعةِ. هل أتيا إلى هنا لمشاهدةِ المنظرِ من فوقِ السورِ؟ إن كان الأمرُ كذلكَ فقد أحبطَ الطقسُ مخططهما.

كان الوكيلُ قد خرجَ قبلَ وصولِ الزوارِ لجلبِ الحطبِ؛ فهو من يقوم بأعمالِ الطبخِ في القلعةِ، ولا بدَّ أنَّه سيخرج قريباً لجلبِ الماءِ من البئرِ. تكهنَ وليم أنَّهم لا يتناولون سوى العصيدة بما أنَّهم لا يملكون فرناً لصنعِ الخبزِ. في وقتٍ لاحقٍ سيغادر الوكيل القلعة، وهو أحياناً يغادر برفقةِ الصبي، وعندها تصبح مسألة وقتٍ حتَّى تخرج آليانا.

عندما يصابُ وليم بالسأمِ من انتظارها يسترجع ذكرى رؤيتها تستحم. كانت الذكرى قويةً قوةَ الرؤيةَ الحقيقية، ولكنه اليوم كان مضطرباً فقد عبثت زيارةُ الأسقف ورئيس الدير بمتعةِ الأمرِ. حتَّى هذهِ اللحظةِ كان للقلعةِ، وسكانها الثلاثة سحرٌ، ولكن وصول أولئكَ الرجال غير الساحرين أبداً على جيادهم المُلطخةِ بالطينِ كسرَ تعويذة السحرِ. كان الأمرُ أشبه بسماعِ صوتٍ مزعجٍ وسطَ حُلمٍ رائعٍ؛ فمهما حاولَ المرء العودة للنوم بعدها لن يستطيع.

حاول لوهلةٍ أن يتكهن بما كان الزوار يخططون له، ولكنه لم يوفق بالوصول إلى نتيجةٍ. كانت والدتهُ الشخص الوحيد القادر على فهم ما يدور، ولذلكَ تخلى اليوم عن التجسس على آليانا، وعادَ إلى المنزلِ لإخبارِ والدتهِ بما رآه.

***

وصلا إلى وينشستر بحلولِ هبوطِ ظلامِ اليوم الثاني. دخلا من بوابة كينغزغايت الغربية، وتوجها مباشرةً إلى ساحةِ الكاتدرائيةِ، وهناكَ انفصلا. توجه ويلارن إلى منزلِ أسقفِ وينشستر الشبيه بقصرٍ قبالةَ ساحةِ الكاتدرائيةِ، وتوجهَ فيليب إلى رئيسِ الدير لتحيتهِ، واستجداءِ فراشٍ في مهجعِ الرهبانِ.

بعدَ ثلاثةِ أيامٍ من السفرِ المتواصلِ وجدَ فيليب هدوء وسكون الديرِ منعشين كنافورةٍ في يومٍ قائظٍ. كان رئيسُ ديرِ وينشستر رجلاً بديناً، ودمثاً

ببشرةٍ ورديةٍ، وشعرٍ أشيب، ودعا فيليب لتناولِ العشاء في منزلِهِ. وخلال العشاءِ تحدَّثا عن أسقفيهما. تبينَ لفيليب أنَّ رئيسَ ديرِ وينشستر يخشى الأسقف هنري وخاضع له، ووصلَ إلى استنتاجٍ مفاده أنَّ الأسقف عندما يكون ثرياً وقوياً كالأسقفِ هنري فلا فائدة من الجدالِ معه. على أيِّ حالٍ ليسَ لدى فيليب النيَّةَ في أن يكون طوعَ بنانِ أسقفهِ كرئيسِ ديرِ وينشستر.

عندما ذهبَ فيليب إلى كنيسةِ وينشستر لأولِ مرَّةٍ تملَّكه الرعبُ.

كان رئيسُ دير وينشستر قد أخبره أنَّ الكاتدرائية تعدُّ أكبر كنيسةٍ في العالمِ، وعندما رآها فيليب اعتقدَ أنَّها كذلك. كانت بطولِ ثُمنِ ميلٍ، ورأى فيليب أنَّها كانت كبيرةً كفاية لتتسع لسكان عدةِ قرى. هناكَ بُرجان عظيمان: الأول فوقَ التقاطعِ، والآخر عندَ الطرفِ الغربي. كان البرج الرئيسي قد انهارَ منذُ ثلاثين عاماً فوقَ قبرِ وليم روفوس -الملك غير الورع ومن لم يكن يجدر دفنه في كنيسةٍ قط- ولكن منذئذٍ أُعيدَ بناؤهُ. تحتَ البرجِ الجديد مباشرةً أدوا صلاة الفجرِ، وشعرَ فيليب أنَّ المبنى بأكملهِ يفيضُ جلالاً، وقوةً، ومهابةً. ومقارنةً بهذهِ الكاتدرائيةِ ستكون الكاتدرائية التي صممها توم، هذا إن بُنيت، متواضعةً جداً. أدركَ فيليب أنَّه الآن في أوساطِ عليةِ القومِ، وأثارَ هذا توتره؛ فهو لم يكن سوى فتى من قريةٍ على هضبةٍ في ويلز حالفه الحظ وأصبحَ راهباً. سيتحدث اليوم إلى الملكِ، وتساءل في نفسهِ عمَّن منحهُ الحقَّ بمخاطبةِ الملكِ.

عادَ إلى سريرهِ مع بقيةِ الرهبانِ، ولكن لم يغمض له جفنٌ من شدةِ القلقِ. كان خائفاً من التفوه، أو القيام بشيءٍ قد يجدهُ الملكُ أو الأسقف هنري مهيناً، وينقلبان ضدَّ كينغزبريدج. عادةً ما يهزأ ذوو الأصولِ الفرنسية من الطريقةِ التي يتحدث بها الإنكليز بلغتهم. كيفَ سينظرون إلى شخصٍ بلكنةٍ ويلزية؟ في عالم الرهبنةِ كان ورعُ فيليب، وطاعته، وتفانيه في خدمةِ الرَّبِّ معيار الحكمِ عليهِ، ولكن هذهِ المعايير لم تكن تعني شيئاً هنا – في عاصمةِ أعظمِ الممالكِ في العالمِ. شعرَ فيليب أنَّه خارجَ بيئتهِ، وغلبهُ شعورٌ أنَّه مخادع، ونكرة يتظاهر بالأهمية. كان واثقاً من أنَّ أمرهُ سيُكشف عاجلاً أم آجلاً، ويرسلونه إلى وطنه في خزي.

نهضَ فيليب فجراً، وذهبَ إلى صلاةِ الصبحِ ثمَّ توجه إلى قاعةِ الطعامِ. يتناول الرهبانُ هنا الجعةَ والخبزَ الأبيض؛ فقد كان ديرهم ثرياً.

بعدَ الفطورِ، وعندما توجه الرهبان إلى قاعةِ الاجتماعِ ذهبَ فيليب إلى قصرِ الأسقف الذي كان مبنى حجرياً جميلاً بنوافذ كبيرة، وتطوقهُ حديقةٌ كبيرةٌ مسورةٌ.

بدا ويلارن واثقاً من أنَّه سيحصل على دعمِ هنري في خطتهِ الجريئةِ؛ فقد كان هنري متنفذاً جداً، وبوسعهِ المساعدة. كان يدعى هنري بليوس، وهو أصغر أشقاءِ الملكِ، وصاحب أوسعِ شبكةِ علاقاتٍ في المملكةِ، وأثرى رجل. كان رئيسُ ديرِ كانتربري الثري، ولا يمكن لكينغزبريدج أن تحلمَ بحليفٍ أقوى منه، وفكرَ فيليب أنَّ الأمرَ قد ينجح حقاً، ويمنحهم الملكُ كاتدرائيةً جديدةً. عندما فكرَ بهذا شعرَ بقلبهِ يطيرُ فرحاً وأملاً.

قال وكيلُ قصرِ الأسقفِ لفيليب إنَّ الأسقف هنري قد لا يخرج قبلَ منتصفِ الصباحِ. كان فيليب يشعرُ بتوترٍ شديدٍ لم يكن قادراً معه على العودةِ إلى الديرِ، ومدفوعاً بشعورهِ بالضيقِ خرجَ ليعاين أكبر مدينةٍ يراها في حياتهِ.

يقعُ قصر الأسقف في الزاويةِ الجنوبيةِ الشرقيةِ للمدينةِ. سارَ فيليب على طولِ الجدار الشرقي، وعبرَ أراضي ديرٍ آخر يُدعى دير سانت ماري، ثمَّ خرجَ إلى حيٍّ يشغله العاملون في الجلودِ والصوفِ. كانت الجداول الصغيرة تقطعُ المنطقةَ، وبعد نظرةٍ عن كثبٍ أدركَ فيليب أنَّها ليست جداول طبيعية بل صناعية، وتجرّ مياه نهرِ إتشن في شوارعِ المدينةِ لتزودَ العاملين في الدباغةِ، ودعكِ الصوفِ بكمياتٍ كبيرةٍ من المياهِ. يعلمُ فيليب أنَّ مثل هذهِ الصناعاتِ عادةً ما تقامُ على ضفافِ نهرٍ، ولكنه تأمل في إعجابِ جرأةَ الإنسانِ على جلب النهرِ لعندهِ بدلاً من الذهاب إليهِ.

رغم أنَّ وينشستر مدينةٌ صناعيةٌ فإنَّها أكثر هدوءاً وأقل ازدحاماً من أيِّ مدينةٍ رآها فيليب. تبدو مدنٌ كسالسبيري أو هيرفورد ضيقةً كرجلٍ سمينٍ في سترةٍ ضيقةٍ؛ فقد كانت المنازلُ قريبةً جداً بعضها من بعض، والحدائق الخلفية صغيرة جداً، والسوق مزدحماً بالناس والحيوانات المتدافعةِ، ويطغى على الأجواءِ شعورٌ بالتوترِ كأنَّ شجاراً سينشبُ في أيِّ وقتٍ، أمَّا وينشستر فقد كانت كبيرةً جداً، ويبدو أنَّ هناك مساحةً كافية للجميعِ. خلالَ سيرهِ بدأ فيليب يُدرك أن السببَ في ذلكَ يعود جزئياً

إلى أنَّ الشوارع متساوية الأبعادِ، ومعظمها مستو، ويتقاطع عندَ الزوايا المناسبة. لم يكن قد رأى قبلاً مدينةً مبنيةً وفقَ مخططٍ.

هناك العديد من الكنائسِ المتنوعةِ الأحجامِ والأبعادِ، وبعضها من الخشبِ، وأخرى من الحجرِ، وكلُّ واحدةٍ منها تخدمُ حيّاً صغيراً. لا بدَّ أنَّ المدينة ثريةٌ جداً لتعيلَ الكثيرَ من الكهنةِ.

أصابه السيرُ في شارعِ باعةِ اللحمِ بالغثيان بعضَ الشيءِ فهو لم يرَ هذا القدرِ من اللحمِ النيء في مكانٍ واحدٍ من قبلٍ. كان الدمُ يندفعُ من دكاكين الجزارين إلى الشوارعِ، والجرذان تركضُ بينَ أقدامِ الشارين.

تُفضي النهاية الجنوبية لشارعِ باعةِ اللحومِ إلى وسطِ الشارع الرئيسي قبالةَ القصر الملكي القديم، وقد علمَ فيليب أنَ البناء لم يعد قيدَ الاستخدام بعدَ بناءِ القصرِ الجديدِ في القلعةِ، ولكن ما زال العاملون الملكيون في سكِّ العملةِ يصكّون البنسات الفضّيةَ في سردابِ المبنى وراءَ جدرانٍ سميكةٍ، وبوابات مقفلة بأقفال حديديةٍ. وقفَ فيليب عندَ البوابةِ المغلقةِ يراقبُ الشررَ يتطاير من المطارق فوقَ قوالبِ العملةِ، وفتنه حجمُ الثروةِ أمامَ عينيهِ.

بقربه وقفت مجموعة من الناسِ تراقب المشهد ذاته. ابتسمت امرأة قريبة من فيليب فابتسم لها ثمَّ قالت: «يمكنكَ فعلُ ما تشاء مقابلَ بنسٍ».

تساءل فيليب عمَّ عنته بكلامها، وابتسم لها ابتسامة حائرةً، ثم فتحت عباءتها، وأصابه الرعبُ عندما رأى أنَّها كانت عاريةً تماماً. «أيّ شيءٍ تريدهُ مقابل بنسٍ فضي»، قالت له.

راودهُ شعورٌ طفيفٌ بالرغبةِ كشبحِ ذكرى بائدة، وهنا أدركَ أنَّها كانت عاهرةً، وشعرَ بوجهه يحمرُّ خجلاً فاستدار على عجلٍ وابتعدَ. «لا تخف»، قالت له بصوتٍ عالٍ. «أنا أحبُّ الرؤوس المدورةَ الجميلة»، وألحقتها بضحكةٍ ساخرةٍ.

ومن ضيقهِ وانفعالهِ استدارَ من الشارع الرئيسي إلى زقاقٍ، ووجدَ نفسهُ في السوق، ومن هناك كان بوسعهِ رؤية أبراجِ الكاتدرائيةِ من فوقِ أسطحِ أكشاكِ السوق. هرعَ عبرَ الحشدِ غيرَ مبالٍ بمداهناتِ الباعة عائداً إلى الكاتدرائيةِ.

عندما وصلَ شعرَ بالهدوء المنضبط لجو الكنيسةِ كنسيمٍ عليلٍ. توقفَ عندَ المقبرةِ ليستوعب ما حدثَ، وقد تملكهُ شعور بالخزي والغضبِ. كيف

تجرَّأت تلكَ المرأة على إغراءِ راهبٍ؟ لا بدَّ أنَّها عرفت أنَّه غريبٌ... هل يعقل أن يكون الرهبان القادمون من أديرةٍ بعيدةٍ زبائنها؟ وأدركَ أنَّ الجواب هو نعم. يقترف الرهبان كلَّ أنواع الرذائل التي يقترفها الناس العاديون، وما صدمه حقاً هو قحةُ المرأةِ، ولم يفارقه مشهدُ عريها تماماً كما يحدث عندما ينظرُ المرءُ إلى قلبِ لهبٍ مشتعلٍ، ويشيح النظر ولكن يستمر برؤيتهِ عندما يغمضُ عينيه. وتنهدَ.

كان صباحاً مليئاً بالمشاهدِ القويةِ: القنواتِ الصناعية، والجرذان في دكاكين الجزارين، وأكوام البنسات المسكوكةِ حديثاً، والأعضاء الحميمة لامرأةٍ، وعلمَ أنَّ هذه الصورَ ستطارده لفترةٍ، وستعكر صفو تأمله.

دخلَ إلى الكاتدرائيةِ، وأحسَّ بنفسهِ قذراً جداً على الركوعِ والصلاةِ، ولكنه شعرَ أنَّ الدخولَ من البابِ الجنوبي للكنيسةِ والسير في صحنها قد طهّراه بطريقةٍ ما. عبرَ فيليب الديرَ، وتوجهَ إلى قصرِ الأسقفِ.

ولأنَّ الطابق السفلي مصلى توجه فيليب إلى الطابقِ العلوي حيثُ القاعة ودخلها. وجدَ هناك مجموعةً من الخدمِ ورجالِ الدين الشبان إمَّا مُتحلقين قربَ البابِ، أو جالسين على مقعدٍ قبالةَ الحائط. في أقصى الغرفةِ رأى فيليب ويلارن والأسقف هنري جالسين إلى طاولةٍ، وهنا أوقفه وكيلٌ قائلاً له: «الأسقفان يتناولان الفطور»، كأنَّه أرادَ بذلكَ أن يقولَ لفيليب إنّه لا يستطيع مقابلتهما.

«سأنضمُ إلى طاولتهما»، قال فيليب.

«من الأفضل أن تنتظر»، قال الوكيل.

وهنا رأى فيليب أنَّ الوكيل يظنُّ أنَّ فيليب راهبٌ عادي ولذلكَ قال: «أنا رئيسُ ديرِ كينغزبريدج».

هزَّ الوكيل كتفيهِ، وتنحى جانباً.

اقتربَ فيليب من الطاولةِ، ورأى أنَّ الأسقف هنري يجلس إلى رأسها وويلارن إلى يمينهِ. كان هنري رجلاً قصيراً عريضَ المنكبين، وتعابير وجهه توحي أنَّه مولع بالخصامِ. بدا في عمرِ ويلارن، أو أكبر بقليل من فيليب، في حدودِ الثلاثين لا أكثر. وعلى عكسِ ويلارن ببشرتهِ الشاحبةِ شحوبَ الأمواتِ، ووجه فيليب النحيل كانت بشرة هنري موردةً، وأطرافه ممتلئة،

ويتمتع بشهيةٍ طيبةٍ. عكست عيناه يقظةً وذكاءً، ووجهه حزماً راسخاً، ولأنَّه كان الأكبر بين أربعة أخوةٍ لا بدَّ أنَّه اضطرَ إلى القتالِ من أجلِ الحصولِ على كلِّ شيءٍ طوال حياتهِ. تفاجأ فيليب عندما رأى أنَّ رأس هنري حليقٌ، وهذا يعني أنَّه في وقتٍ مضى قامَ بنذورٍ رهبانيةٍ، وما زال يعدّ نفسه راهباً، ولكنه لم يكن في ثيابٍ صوفية بسيطة بل ارتدى سترةً مذهلةً من الحرير الأرجواني، بينما ارتدى ويلارن قميصاً كتانياً ناصع البياضِ تحتَ عباءتهِ السوداء المعتادةِ، وأدركَ فيليب أنَّ الرجلين أتيا في أفضلِ حلَّةٍ لأنَّهما يتوقعان لقاءَ الملكِ. كانا يتناولان لحماً بقرياً بارداً، ويشربان النبيذ الأحمر. شعرَ فيليب بلعابهِ يسيل من شدةِ الجوعِ بعدَ السيرِ في المدينةِ.

رفعَ ويلارن عينيهِ، وعندما رأى فيليب ارتسمت على وجههِ تكشيرةٌ بالكادِ تُرى.

«صباح الخيرِ»، قال فيليب.

قال ويلارن لهنري: «هذا رئيسُ ديري».

لم يستلطف فيليب مناداتهُ برئيسِ ديرِ ويلارن وقال: «فيليب من غويند رئيسُ دير كينغزبريدج يا سعادةَ الأسقفِ».

كان فيليب ينوي تقبيل يدِ الأسقفِ المزدانةِ بالخواتمِ، ولكن هنري اكتفى بالقولِ: «رائع»، وتناول لقمةً أخرى من اللحمِ البقري. بقي فيليب في مكانهِ واقفاً، وتساءل في نفسهِ إن كانا سيطلبان منه الانضمام إليهما.

«سنلقاكَ بعدَ قليلٍ يا فيليب»، قال ويلارن.

أدركَ فيليب أنّ ويلارن يطرده، فاستدار وهو يشعرُ بالإذلالِ، والوكيل الذي حاولَ منعه من الاقترابِ قبلَ قليلٍ ابتسم له ابتسامة هازئةً كأنَّه أراد القول له: «أخبرتكَ بهذا». كان فيليب مختلفاً عن الجميع حوله، وفجأة شعرَ بالخجلِ من ردائهِ البني المُلطخ الذي يرتديه ليلاً ونهاراً منذ ما يُقارب نصفَ عامٍ. عادةً ما يصبغُ الرهبان البينديكتيون أروابهم باللونِ الأسودِ، ولكن ديرَ كينغزبريدج تخلى عن هذهِ العادةِ منذُ سنواتٍ بهدفِ توفيرِ المالِ. لطالما آمن فيليب أن ارتداء ثيابٍ فاخرةٍ عملٌ ينضوي على غرورٍ، ولا يليق برجلِ دين مهما علت مكانته، غيرَ أنَّه الآن فهمَ الغرضَ من الأمرِ. ربما كان سيتلقى معاملةً مختلفةً لو أنَّه أتى في ثيابٍ حريرية أو فرائية.

ولكنه أيضاً قال لنفسهِ إنَّ على الراهب أن يكون متواضعاً، وأنَّ التواضع في الملبسِ مفيدٌ لروحهِ.

نهضَ الأسقفان عن الطاولةِ، وتوجها إلى البابِ. قدَّم أحد المرافقين إلى هنري رداءً قرمزياً بتطريزاتٍ جميلةٍ، وحواف حريريةٍ. وبينما كان هنري يضعُ الرداءَ خاطبَ فيليب قائلاً: «لن يكون عليكَ قولُ الكثير اليوم يا فيليب».

وأضافَ ويلارن: «دع الكلامَ لنا».

قال هنري: «دع الكلام لي»، مشدداً قليلاً على كلمةِ «لي». إن طرحَ الملكُ عليكَ سؤالاً أو سؤالين فلتُجب بوضوحٍ واختصارٍ، ولا تحاول تزيين الحقائقِ كثيراً، فهو سيتفهم حاجتكَ إلى كنيسةٍ جديدةٍ من دونِ بكاءٍ أو نواحٍ».

شعرَ فيليب بعدم ضرورةِ قولِ هذا له، ورغمَ أنَّ هنري خاطبهُ بتعالٍ مزعجٍ، فإنَّ فيليب أومأ برأسهِ موافقاً، وابتلعَ امتعاضه.

«من الأفضل أن نذهب»، قال هنري وتابع: «يستيقظ أخي باكراً، وهو أغلب الظن سيبدأ أعمالَ اليوم على الفورِ بدلاً من الذهاب للصيدِ في نيوفوريست».

خرجوا، وخلالَ عبورهم الشارع الرئيسي تقدَّم جندي يحملُ سيفَ وصولجان الأسقفِ أمامَ هنري ثمَّ صعدوا الهضبة باتجاه البوابةِ الغربيةِ. تنحى الناسِ أمام الأسقفين، ولكنهم لم يتنحوا لفيليب الذي انتهى بهِ المطافُ يشقُّ طريقهُ وراءهما. بين الفينةِ والأخرى يصيحُ أحدهم بطلبِ المباركة، ويقوم فيليب برسمِ الصليبِ في الهواءِ دون أن يُبطئ السيرَ. قبلَ أن يصلوا إلى منزلِ حارسِ القصرِ انعطفوا، وساروا على الجسر فوقَ خندقِ القلعةِ. ورغمَ أن هنري قد قال لفيليب إنَّه ليسَ عليهِ قول الكثير، فإنَّ الأخيرَ شعرَ برهبةٍ كبيرةٍ من مقابلةِ الملكِ.

تشغلُ القلعة الزاوية الجنوبيةَ الغربيةَ للمدينةِ. كانت جدرانها الغربية والجنوبية جزءاً من أسوارِ المدينةِ، ولكن الجدران التي تفصل القلعة منِ الخلف عن المدينة لم تكن بأقل ارتفاعاً وقوةً من الأسوار الخارجية كأنَّ الملك أرادَ حمايةَ نفسه من مواطنيه والعالم الخارجي على حدٍ سواء.

حالما عبروا بوابةً منخفضةً أصبحوا أمام مبنى ضخمٍ يشغلُ هذا الجانب

من المُجمعِ. كان برجاً مربع الشكلِ ومهيباً، وعندما عدَّ فيليب نوافذه الضيقة أدركَ أنَّه مؤلف من أربعة طوابقٍ. وكأي طابقٍ أرضي في أيِّ مبنى كان الطابق الأرضي مخزناً، وهناك درج خارجي يُفضي إلى مدخلِ الطابق العلوي، وعندَ أسفلِ الدرجِ يقفُ حارسان وكلاهما انحنيا لهنري عندما مرَّ.

دخلوا إلى القاعةِ. كانت الأرض مفروشةً بنباتِ السمارِ، وهناك مقاعد مثبتة في فجواتٍ داخلَ الجدران الحجريةِ، إضافة إلى بعضِ المقاعدِ الخشبيةِ، وموقد، في الزاوية درجٌ يُفضي إلى طابقٍ علوي يحرسه جنديان. التقت نظرات أحد الحارسين بنظرات الأسقفِ هنري على الفورِ؛ فأومأ الحارس للأسقفِ، وصعدَ الدرجَ ليُخبر الملكَ بوصولِ شقيقه.

شعرَ فيليب بالغثيان من شدةِ التوترِ؛ فخلالَ الدقائق القليلةِ القادمةِ سيتحددُ مستقبله بالكاملِ. تمنى لو أنَّه كان واثقاً من حليفيه، ولو أنَّه قضى ساعات الصباحِ الأولى في الصلاةِ على نيةِ النجاحِ بدلاً من التسكعِ في أرجاء وينشستر، وتمنى أيضاً لو أنَّه ارتدى رداءً نظيفاً.

كان في الغرفة عشرون أو ثلاثون شخصاً، وكانت غالبيتهم من الرجالِ. بدوا مزيجاً من الفرسانِ، والكهنةِ، وسكانِ المدينةِ الميسورين. وفجأة حدَّقَ فيليب في ذهولٍ باتجاهِ الموقدِ، ورأى بقربهِ شاباً يتحدثُ إلى امرأةٍ. كان بيرسي هاملي. تساءل فيليب في نفسهِ عمّا يفعله بيرسي هنا برفقةِ زوجتهِ القبيحةِ، وابنه الفظِّ. كانوا متواطئين مع ويلارن في إلحاقِ الهزيمةِ ببارثيميلو، وهذا يعني أن وجودهم هنا لم يكن من قبيلِ الصدفةِ. تساءل فيليب في نفسهِ إن كان ويلارن يتوقع وجودهم اليوم.

وقال فيليب لويلارن: «هل ترى...؟»

«أراهم»، انفجرَ ويلارن قائلاً في ضيقٍ واضحٍ.

شعرَ فيليب أنَّ وجودَ آل هاملي في المكان نذيرُ شؤمٍ، ولكن دونَ أن يعرفَ سبباً لذلك. تفحصهم بعنايةٍ، ولاحظَ أنَّ الأب والابن يُشبهان بعضهما بعضاً، فقد كانا ضخمين، ومفتولي العضلاتِ بشعرٍ أشقرٍ ووجهين متجهمين، أمَّا الزوجة فقد بدت أشبه بالشيطان الذي يعاقب الخطأة كما تصوره لوحات الجحيمِ، وكانت تتلمسُ البثور على وجهها باستمرارٍ، ويداها الناحلتان تتحركان في توترٍ. ارتدت ثوباً أصفر أضفى قُبحاً على قبحِها. كانت تتحركُ،

وتنقلُ وزنها من قدمٍ إلى أخرى، وتوزع النظرات حولها في الغرفةِ طوالَ الوقتِ. وعندما التقت نظراتها بنظراتِ فيليب أشاحت بعيداً على الفورِ.

تنقَّل الأسقف هنري في أرجاءِ الغرفةِ مُلقياً التحيةَ على معارفهِ من الحاضرين، وبارك من لا يعرفهم، ولكن دونَ أن تفارقَ نظراته الدرجَ، وحالما رأى هنري الحارس ينزلُ الدرجَ نظرَ إليهِ، ورآه يومئ له فتركَ الحديث في منتصفهِ.

صعدَ ويلارن الدرج وراءَ هنري، ولحقَ بهِ فيليب، والخوف يملأ قلبه.

كان للغرفةِ في الطابقِ العلوي مساحة وشكل قاعةِ الاستقبالِ، غير أنَّ جوها كان مختلفاً؛ فقد كانت الجدران مزينةً بالسجاجيد المزدانةِ بالرسومِ، وغطت جلود الخرافِ الأرضيةَ. كانت النار في الموقدِ قويةً، وأضاءت الغرفة الكثير من الشموعِ، وقربَ البابِ طاولةٌ من خشبِ البلوطِ، وأقلام، ومحبرة، وكومة من الأوراقِ من أجلِ الرسائلِ، وإليها جلسَ موظف ينتظرُ أن يكتبَ ما يمليهِ عليهِ الملك. قربَ الموقدِ، وفي كرسي خشبي كبير مغطى بالفراءِ جلسَ الملك.

كان أول شيءٍ لاحظهُ فيليب هو أنَّ الملك لا يضع تاجاً، ويرتدي سترةً أرجوانية فوقَ سروالٍ جلدي كأنَّه ينوي الخروجَ لامتطاءِ الخيلِ. عندَ قدميه استلقى كلبا صيد كأنَّهما حاشيةٌ من عليةِ القومِ. كان يشبه شقيقه الأسقف هنري، ولكن تقاطيع وجهِ ستيفن ألطف، وجعله هذا يبدو أكثرَ وسامةً، أمَّا شعره البني فكان ضارباً إلى الشُقرةِ. على أيِّ حالٍ كانت عيناه تعكسان الذكاءَ ذاتهُ الذي عكسته عينا شقيقهِ. جلس ستيفن مُريحاً ظهره إلى كرسيهِ الكبيرِ الذي افترضَ فيليب أنَّه عرشهُ. بدا مسترخياً فقد مددَ ساقيهِ أمامهُ، وأراح مرفقيه على ذراعي الكرسي، ولكن على الرغمِ من وضعيتهِ المسترخيةِ فإنَّ توتراً خيَّمَ على الغرفةِ. كان الملك الشخص الوحيد المسترخي في الغرفةِ.

أثناءَ دخول الأسقفين وفيليب كان رجلٌ ضخمٌ في ثيابٍ فاخرةٍ على وشكِ المغادرةِ. أومأ الرجلُ للأسقف هنري بودٍّ إلَّا أنَّه تجاهل ويلارن، وفكرَ فيليب في نفسهِ أنَّ الرجل على الأغلب بارون.

اقتربَ الأسقف هنري من الملكِ، وانحنى ثمَّ قال: «صباح الخيرِ يا ستيفن».

«لم أواجه ذلكَ اللقيط رانولف بعد»، قال ستيفن ثمَّ تابع: «إن لم يأتِ قريباً فسأقطع أصابعه».

قال هنري: «أعدكَ أنَّه سيأتي إلى هنا قريباً، ولكن اقطع أصابعهُ على أيِّ حالٍ».

لم يكن لدى فيليب أدنى فكرة عمَّن يكون رانولف، أو عن سببِ رغبةِ الملكِ في مقابلتهِ، ولكنه شعرَ أنَّه وعلى الرغمِ من ضيقِ ستيفن الواضح أنَّ الأخير لم يكن جاداً حيالَ تشويه الرجل.

لم يتسنَّ لفيليب وقتٌ ليفكر بالأمر لأن ويلارن تقدَّم، وانحنى وقال هنري: «أتتذكر ويلارن بيغاد، أسقف كينغزبريدج الجديد؟»

«أجل»، أجاب ستيفن ثمَّ أضاف وهو ينظر إلى فيليب: «ولكن من هذا؟»

لم يُجب ويلارن، ولذلك سارع فيليب إلى التعريفِ بنفسهِ قائلاً: «فيليب من غويند، رئيس ديرِ كينغزبريدج». شعرَ فيليب أنَّ صوته كان أعلى مما أراده أن يكون، ثمَّ انحنى للملكِ.

«فلتتقدم أيُّها الأب رئيس الديرِ»، قال ستيفن. «تبدو خائفاً، ما الذي يُقلقكَ؟»

كان فيليب عاجزاً عن التفكيرِ بجوابٍ على هذا السؤال؛ فقد كان قلقاً حيال الكثير من الأمورِ، ولذلك ومدفوعاً باليأسِ من عدمِ إيجادِ إجابةٍ جيدةٍ قال: «أنا قلقٌ لأنني لا أملكُ رداءً نظيفاً أرتديه».

ضحكَ ستيفن، ولكن لم تكن ضحكةً لطيفةً. «إذاً توقف عن القلقِ»، قال ستيفن ونظرَ إلى شقيقه في ثيابهِ الأنيقةِ وأضاف: «أحبُّ رؤيةَ الراهب كراهب وليسَ كملكٍ».

وشعرَ فيليب بالتحسنِ قليلاً.

قال ستيفن: «لقد سمعتُ بأمرِ الحريقِ. كيفَ تديرُ الأمور؟»

قال فيليب: «في يومِ الحريقِ أرسلَ الرَّبُّ لنا بنَّاءً أصلحَ الممرّات المسقوفةَ بسرعةٍ كبيرةٍ، ونحنُ نستخدم السرداب الآن من أجلِ الصلواتِ، وبمساعدتهِ ننظفُ المكان لإعادة بنائه، وقد رسمَ مخططات لكنيسةٍ جديدةٍ».

رفعَ ويلارن حاجبيه في استغرابٍ؛ فهو لم يعرف بأمرِ المخططاتِ. كان

فيليب سيخبره لو أنَّه سأله، ولكنه لم يسألهُ. وقال الملك: «يا لهُ من عملٍ سريعٍ مثيرٍ للإعجابِ، ومتى تخطط للبدءِ في البناءِ؟»

«حالما أتمكن من تأمين النقودِ».

وقاطعه الأسقف هنري هنا قائلاً: «ولهذا أحضرنا رئيس الديرِ فيليب، والأسقف ويلارن لمقابلتكَ. لا يملك الدير ولا الأبرشية الموارد المالية لمثلِ هذا المشروع».

«ولا التاج الملكي يا أخي العزيز»، قال ستيفن.

شعرَ فيليب بالإحباطِ فلم تكن هذهِ بالبدايةِ الواعدةِ.

قال هنري: «أعلم ولهذا بحثت عن طريقةٍ لإعادة بناءِ كينغزبريدج دون أن يكلفكَ هذا شيئاً».

بدا ستيفن مرتاباً وسأل: «وهل نجحتَ في إيجادِ مثل هذا المخططِ العبقري إن لم أقل السحري؟»

«أجل. أقترح أن تمنح أراضي إيرل شايرنغ إلى الأبرشية من أجلِ تمويل المشروعِ».

وحبسَ فيليب أنفاسهُ.

بدا الملكُ غارقاً في التفكيرِ.

فتحَ ويلارن فمهُ ليتحدث، ولكن هنري أشارَ له بالتزامِ الصمتِ.

قال الملك: «إنَّها فكرةٌ ذكيةٌ، وأحبها».

وشعرَ فيليب بقلبهِ يطير فرحاً.

قال الملك: «ولكن لسوءِ الحظِ قدَّمت وعداً *فعلياً* لبيرسي هاملي بمنحهِ أراضي الإيرل».

وأفلتت آهةٌ من فمِ فيليب. لقد اعتقدَ أنَّ الملك سيوافق، وشعرَ بخيبةِ الأملِ كجرحِ سكينٍ.

بدا هنري وويلارن مصعوقين؛ فلم يتوقع أيٌّ منهما هذا.

كان هنري أولَ من تحدثَ: «فعلياً؟»

هزَّ الملكُ كتفيه وقال: «يمكنني التملصُ منه، ولكن ليسَ من دونِ حرجٍ كبيرٍ. في نهايةِ المطاف كان بيرسي من وضعَ الخائن بارثيميلو في قبضةِ العدالةِ».

وانفجرَ ويلارن قائلاً: «ولكن ليسَ من دونِ مساعدةٍ يا سيدي!»

«أعلمَ أنَّكَ لعبتَ دوراً في ..».

«أنا من أخبرت بيرسي هاملي بالمؤامرةِ عليكَ».

«أجل، ولكن بالمناسبة كيفَ علمتَ بها؟»

نقلَ فيليب وزنه من قدمٍ إلى أخرى؛ فقد كان الوضعُ خطيراً. لا يجب أن يعلم أحدٌ أن مصدرَ تلك المعلومة شقيقه فرانسيس؛ لأنَّ فرانسيس مازال يعمل لمصلحة روبرت غلوستر الذي حصلَ على عفو على تواطئِهِ».

قال ويلارن: «إنَّ مصدرَ المعلومةِ اعترافٌ على سريرِ الاحتضارِ».

وشعرَ فيليب بالراحةِ عندما كررَ ويلارن الكذبة التي أخبرهُ بها فيليب. ورغمَ أنَّ ويلارن تحدَّثَ كأنَّه من تلقى الاعتراف، وليسَ فيليب، فإنّ فيليب كان سعيداً جداً لأنَّ الاهتمام لم يكن مُسلطاً على دورهِ في الأمرِ.

قال الملكِ: «ولكن بيرسي من هاجمَ قلعةَ بارثيميلو مُخاطراً بحياتهِ وبسلامتهِ، واعتقلَ الخائن».

«يمكنكَ أن تكافئ بيرسي بطريقةٍ أخرى»، قال هنري.

«لا يريد بيرسي شيئاً سوى الحصول على شايرنغ»، قال الملك. «إنَّه يعرف المنطقة، وسيحكمها بكفاءةٍ. يمكنني منحهُ كيمبريدجشاير ولكن هل سيتقبله الـفنيميون[1]؟»

أجابه هنري قائلاً: «عليكَ أن تكون شاكراً للرَّبِّ أولاً ثمَّ للناسِ ثانياً. إنَّ الرَّبَّ من نصَّبكَ ملكاً».

«ولكن بيرسي من اعتقلَ بارثيميلو».

شعرَ هنري بنفسهِ مُكبلاً بهذا الكلام الذي يفتقرُ إلى التوقير وقال: «الرَّبُّ يتحكم بكلِّ شيءٍ...»

«لا تُتابع الحديث في هذا الأمرِ»، قال ستيفن رافعاً يدهُ اليمنى.

«بالطبعِ»، قال هنري بخضوعٍ.

كان المشهدُ تجسيداً حيَّاً للسلطةِ الملكية. كان الرجلان ولبرهةٍ يتجادلان

1- منطقة فينملاند سهل ساحلي مستنقعي يقع شرق إنكلترا وشرق ميدلاندز، وفيها مقاطعات كمقاطعة كيمبريدجشاير ولينكولنشاير. (المترجمة)

كأنهما ندّان، غير أنَّ ستيفن في نهايةِ المطافِ يبقى صاحب اليد الطولى والكلمة الأخيرة.

شعرَ فيليب بخيبةِ أملٍ مريرةٍ. في البدايةِ اعتقدَ أنَّ هذا المطلب مستحيلٌ، ولكنه بالتدريج بدأ يأمل في الحصولِ عليهِ، بل أخذَ يتخيل كيفيةَ استخدامِ الثروةِ، وها هو الآن يعود إلى الواقعِ بهذهِ الضربةِ القاسيةِ.

قال ويلارن: «مولاي الملك أشكركَ على استعدادكَ لإعادةِ النظرِ في مستقبلِ شايرنغ، وسأنتظر قراركَ على أحرّ من الجمرِ والصلواتِ».

وفكرَ فيليب أنَّ ويلارن تحدَّثَ بلطفٍ، وبدا كأنَّه يستسلمُ بكلِّ لباقةٍ. في الحقيقةِ لخّص ويلارن الأمرَ من خلالِ القولِ إنَّ المطلبَ ما زال مطروحاً، وهذا ما لم يقله الملك الذي أتى جوابه بالنفي، ولكن ويلارن لم يُصر على الملكِ لاتخاذِ قرارٍ فوري، والمخاطرة بإهانتهِ. قال فيليب لنفسه إنَّه يجب أن يتذكر هذا: «عندما تواجه قراراً بالرفضِ فلتُدر دفةَ الحديثِ باتجاهِ التأجيل».

ترددَ ستيفن قليلاً، وبدا مشككاً حيالَ تعرضهِ للتلاعبِ من قبل ويلارن، ولكن يبدو أنَّه بعد وهلةٍ طردَ هذه الشكوك من رأسهِ لأنه قال: «شكراً لكم جميعاً على القدومِ لرؤيتي».

استدارَ فيليب وويلارن للمغادرةِ، ولكن هنري أصرَّ قائلاً: «ومتى سنعلم بقراركَ؟»

بدا ستيفن محاصراً مجدداً وقال: «بعدَ الغدِ».

انحنى هنري وغادروا ثلاثتهم.

***

إنَّ القرار غير الحاسم سيئٌ بقدرِ القرار بالرفضِ، ووجدَ فيليب الانتظار غير محتمل. قضى فترة ما بعد الظهرِ يتصفح مجموعةً من الكتبِ المذهلةِ التابعةِ لدير وينشستر، ولكن الكتب لم تنجح في إلهائهِ عن التفكير بما كان يجول في عقلِ الملكِ. هل يستطيع الملك التراجع عن وعدهِ لبيرسي هاملي؟ ما مدى أهميةِ بيرسي؟ كان بيرسي من السادةِ الذين يطمحون للحصول على لقبِ إيرل، وحتماً لم يكن لدى ستيفن سبب للخوف من إهانةِ بيرسي، ولكن إلى أيِّ درجةٍ يرغبُ ستيفن بمساعدةِ كينغزبريدج؟ عموماً، لا يصبح الملوك تُقاة إلا عندما يطعنون في السنِّ.

كان فيليب غارقاً في تقليبِ جميع الاحتمالاتِ في رأسه، وهو ينظر دون أن يقرأ في كتاب بوثيوس *عزاء الفلسفة* عندما اقتربَ منه وبخجلٍ راهبٌ مبتدئ بهدوءٍ وبمحاذاةِ جدار الممرّ المسقوفِ.

«هناك شخصٌ يريدُ مقابلتكَ في الباحةِ الخارجية أيّها الأب»، همسَ الفتى في أذنِ فيليب.

إن طُلبَ من الزائرِ أن ينتظر في الخارج فهذا يعني أنّه لم يكن راهباً.

«ومن يكون هذا الشخص؟» سألَ فيليب.

«إنّها امرأة».

وللوهلةِ الأولى عبرَ ذهنَ فيليب خاطرٌ رهيبٌ، وهو أن تكون هذه المرأة هي العاهرة ذاتها التي بادرته الكلامَ عندما كان يشاهد صكَّ البنسات الفضيةِ، ولكن شيئاً ما في ملامحِ الراهب المبتدئ يشي أنَّ الأمر لم يكن كذلكَ، وتذكرَ أنَّ عينيه التقتا بعيني امرأةٍ أخرى اليوم.

«كيف تبدو؟»

وارتسمت على وجهِ الفتى نظرةُ قرفٍ.

فهمَ فيليب ما عنتهُ هذهِ النظرة فأومأ برأسهِ وقال: «ريغان هاملي»، ثمَّ قال في نفسهِ: «ما الذي تخططُ له الآن؟» وعادَ إلى الراهب المبتدئ وقال له: «سآتي على الفورِ».

سارَ فيليب ببطءٍ حولَ الممرّاتِ المسقوفةِ باتجاه الفناءِ الخارجي. كان غارقاً في التفكيرِ؛ فهو يحتاجِ إلى كلِّ ذكائهِ للتعاملِ مع هذهِ المرأة.

وجدها فيليب واقفةً خارجَ مبنى وكيلِ المؤنِ، وتنظرُ بطريقةٍ تفيضُ شرَّاً مُطلقاً جعلت فيليب يفكرُ بالاستدارةِ والعودةِ على الفورِ، ولكنه خجلَ من الهربِ من امرأةٍ، ولذلكَ وقفَ وقال: «ما الذي تريدينه مني؟»

«أيُّها الراهب الغبي»، قالت وبصقت في وجههِ ثمَّ أضافت: «كيفَ لكَ أن تكون بهذا الغباء؟»

احمرَّ وجه فيليب من الخجلِ وقال: «أنا رئيسُ ديرِ كينغزبريدج، ومن الأفضلِ أن تنادي بـ «أبتاه»، ولكن كلامه بدا حادّاً أكثر مما بدا آمراً.

«حسناً يا «أبتاه» كيفَ لكَ أن تسمح لهذين الأسقفين الجشعين باستغلالكَ؟»

أخذَ فيليب نفساً عميقاً، وقالَ بغضبٍ: «فلتتحدثي بوضوحٍ».

«من الصعبِ إيجادُ كلمات واضحة كفايةً لشخصٍ غبي مثلكَ، ولكني سأحاول. يستخدم ويلارن الكنيسةَ المحترقةَ كحجةٍ للحصول على أراضي شايرنغ لنفسهِ، هل هذا واضحٌ كفايةً؟ هل فهمتَ الأمرَ؟»

استمرت لهجتها التهكمية في إزعاجِ فيليب، ولكنه لم يقاوم إغراءَ الدفاعِ عن نفسهِ. «ما من تلاعبٍ في الأمرِ»، قال فيليب وتابع: «لأنَّ إيرادَ الأراضي سيُستخدم لتمويل إعادةِ بناءِ الكاتدرائيةِ».

«وما الذي يدفعكَ إلى اعتقادِ هذا؟»

«هذا هو جوهرُ الأمرِ!» احتجَّ فيليب، ولكن في صميمهِ بدأ الشك يخامرهُ.

وهنا تغيرت لهجةُ ريغان من التهكميةِ إلى الخبيثةِ: «هل ستكون الأراضي الجديدة تابعةً للديرِ، أم للأبرشيةِ؟»

حدَّقَ إليها فيليب لوهلةٍ ثمَّ أشاحَ بنظرهِ. كان وجهها مقززاً جداً. لقد قام بكل هذا لأنَّهَ افترضَ أن الأراضي ستكون ملكاً للديرِ، وتحتَ سلطتهِ وليست مُلكاً للأبرشيةِ، وتحتَ سلطةِ ويلارن. وتذكرَ الآن أنَّهم عندما كانوا في حضرةِ الملك طلبَ الأسقف هنري الأراضي من أجلِ الأبرشيةِ، وافترضَ فيليب أنَّها زلةُ لسانٍ، ولكن هنري لم يصحح نفسه لا آنذاك، ولا لاحقاً.

نظرَ فيليب إلى ريغان بريبةٍ؛ فمن المستحيل أنَّها عرفت ما كان هنري يريدُ قولهُ للملكِ. قد تكون على حقٍ في هذا، ولكن من جهةٍ أخرى ربما كانت تسعى إلى إثارةِ المتاعبِ. إنَّ إثارةَ المشاكلِ بين فيليب وويلارن في هذا الأمرِ تصبُّ في مصلحتها، وقال فيليب: «إنَّ ويلارن الأسقف، ويجب أن يكون لديهِ كاتدرائية».

«يريد ويلارن أن يمتلكَ الكثيرَ من الأمورِ»، قالت بسرورٍ. بدت أقلَّ شراً، وأكثر إنسانية عندما بدأت تجادلُ بالمنطقِ، ولكن فيليب لم يعد قادراً على النظرِ إليها أكثر من ذلك. «بالنسبةِ إلى بعضِ الأساقفةِ سيكون الحصول على كاتدرائيةٍ جميلةٍ على قائمةِ الأولويات، ولكن لويلارن احتياجات أخرى. على أيِّ حالٍ عندما يكون مسيطراً على المالِ سيكون بإمكانهِ توزيعه كيفما شاء عليكَ وعلى بنَّائيك».

أدركَ فيليب أنَّها كانت محقةً في ما قالتهُ. إن كان ويلارن من سيجمع

الإيجاراتِ فهو، وبالشكلِ الطبيعي، سيحتفظُ بنصيبٍ لنفسهِ من أجلِ مصاريفه الخاصةِ، وهو الوحيد الذي سيحددُ مقدارَ هذا النصيب. وإن أراد فلن يمنعهُ شيءٌ من استخدامِ الأموال لأغراضٍ لا علاقة لها بالكاتدرائيةِ، وسيكون فيليب عاجزاً عن ضمانِ حصولهِ على المال الكافي للدفعِ للبنائين.

لم يكن هناك أدنى شك في أنَّ الوضع سيكون أفضل لو أنَّ الدير حصلَ على الأرضِ، غير أنَّ فيليب كان واثقاً من أنَّ ويلارن سيرفض هذهِ الفكرة، وأنَّ الأسقف هنري سيدعم ويلارن، وسيكون أملُ فيليب الوحيد هو الالتماس إلى الملكِ، ولكن عندما يرى الملك ستيفن الشقاق بين رجال الدين قد يلجأ إلى حلِّ المشكلةِ بمنحِ الأرضِ لبيرسي هاملي.

وهذا ما كانت ريغان تريده بالطبعِ.

هزَّ فيليب رأسهُ وقال: «إن كان ويلارن يحاول خداعي فلماذا أحضرني إلى هنا في المقامِ الأولِ؟ كان بوسعهِ القدوم إلى هنا وحدَه ويقدّم الالتماس الذي يريدهُ».

هزَّت رأسها وقالت: «كان يستطيع فعلَ هذا، ولكن عندها قد يطلب منه الملك إثباتاً على صدقهِ أنَّه يريدُ الأراضي لإعادة بناءِ الكاتدرائيةِ. بإحضارك إلى هنا أراد ويلارن تعزيز مطلبهِ، وتهدئة شكوك ستيفن». وعادت إلى لهجتها الساخرةِ: «وأنتَ في ردائك المتسخِ تبدو مثيراً للشفقةِ، وهذا يعني أن الملك سيُشفق عليكَ. لا، كانت حركةً ذكيةً من ويلارن أن أحضركَ إلى هنا».

انتاب فيليب شعورٌ رهيبٌ أنَّ المرأة على حقٍ في ما قالته، ولكنه لم يكن مستعداً للاعترافِ بهذا، ولذلكَ قال لها: «أنتِ تريدين أن يحصلَ زوجك على الأرض».

«إن كان لدي دليلٌ على ما قلتهُ، فهل أنتَ مستعد للسفر لنصفِ يومٍ ورؤية هذا الدليل؟»

إنَّ آخرَ شيءٍ قد يريدهُ فيليب هو أن تجرهُ ريغان إلى حبائلها، ولكن كان عليهِ أن يكتشفَ صدقَ إدعاءاتها، ولذلكَ قال لها على مضضٍ: «أجل، يمكنني السفرِ لنصفِ يومٍ».

«غداً؟»

«أجل».

«فلتكن مستعداً بحلولِ الفجرِ».

***

وجدَ فيليب وليم هاملي -ابن بيرسي وريغان- بانتظارهِ في الفناءِ الخارجي صباحِ اليوم التالي، وبعد أن بدأ الرهبان بترتيل صلاةِ الصبحِ. غادرا وينشسترِ من البوابةِ الغربيةِ ثمَّ انعطفا شمالاً على طريقِ أثيلينجي. أدركَ فيليب أنَّ قصرَ الأسقفِ ويلارن في هذا الاتجاهِ، ويبعدُ سفرَ نصفِ يوم. إذاً، كانت هذهِ وجهتهم، ولكن لماذا؟ كان مرتاباً جداً، وقررَ أن يبقى حذراً؛ فقد تكون هناك خدعةٌ ما في الأمرِ، وربما تحاول عائلة هاملي استغلاله، ولكنه تساءل في نفسهِ عن الطريقةِ التي قد يخدعونه بها. ربما في حوزةِ ويلارن وثيقةٌ تريدُ عائلةُ هاملي الاطلاع عليها، أو حتَّى سرقتها، وقد تكون صكاً أو عقداً. قد يقول اللورد الشاب وليم للعاملين لدى الأسقفِ إنَّهما أُرسلا لجلبِ الوثيقةِ، وسيصدقونه لأنَّ فيليب معهُ. بل قد يكون لوليم مخطط خاص، ولهذا يجب على فيليب التزامَ الحذرِ والحيطةِ.

كان صباحاً كئيباً وغائماً مع زخاتٍ مطريةٍ. خلالَ أولِ ميلين من الرحلةِ تحرَّكَ وليم بسرعةٍ ثمَّ خففَ، وتركَ الجوادان يسيران ببطءٍ كي يرتاحا. بعد وهلةٍ قال وليم: «إذاً، أيُّها الراهب، أنتَ تريد سلبي أرضَ الإيرلِ؟»

بوغتَ فيليب بنبرةِ صوتهِ العدائية؛ فهو لم يفعل شيئاً ليستحقها، ولذلكَ امتعضَ وأتى جوابهُ حاداً: «منكَ؟ أنتَ لن تحصل عليها يا فتى. قد أحصلُ عليها أنا، أو والدكَ، أو الأسقفُ ويلارن، ولكن ما من أحدٍ طلبَ من الملكِ أن يعطيكَ إياها. إنَّ الفكرةَ بحد ذاتها دعابةٌ».

«سأرثها».

«سنرى في هذا»، قال فيليب، وقررَ أنَّ الجدال مع وليم لم يكن مجدياً، ولذلكَ أضاف مهادناً: «لا أقصد التسببَ بأيِّ أذى. أريد فقط أن أبني كاتدرائيةً جديدةً».

«إذاً، فلتأخذ أراضي إيرل آخر»، قال وليم. «لمَ الناس دوماً يستهزئون بنا؟»

لاحظَ فيليب الكثير من المرارةِ في صوتِ الفتى، ولذلك سأله: «هل يستهزئ بكم الناس دوماً؟»

«قد تعتقد أنَّ ما حصلَ مع بارثيميلو سيمنعهم، ولكن هذا لم يحدث. أهان بارثيميلو عائلتنا، وانظر الآن أين هو».

«اعتقدت أنَّ الفتاة من تسببت لكم بالإهانةِ».

«تلكَ العاهرة متعاليةٌ، ومتعجرفةٌ كوالدها، ولكنها ستُعاقبُ على هذا أيضاً. جميعهم سيركعون لنا في النهاية. سترى».

وفكرَ فيليب في نفسهِ أنَّ مثل هذهِ المشاعر لم تكن طبيعية لفتى في العشرين من العمرِ، فقد بدا وليم كامرأةٍ في منتصفِ العمر يأكلها الحسدُ والحقدُ. لم يكنِ فيليب مستمتعاً بهذهِ المحادثة. يزين معظمُ الناس حقدهم بالمنطقِ، غير أنَّ وليم كان ساذجاً جداً على فعلِ هذا.

قال فيليب: «من الأفضل أن تتركَ الانتقام ليومِ القيامةِ».

«لمَ لا تنتظر يومَ القيامة لتبني كنيستكَ؟» أجابه وليم.

«لأنَّه آنذاك سيكون الوقت قد فات على إنقاذِ أورواحِ الخُطاة من عذاباتِ الجحيم».

«لا تبدأ الحديث عن هذا الموضوع!» قال وليم بنبرةٍ بدت هستيرية، وأضاف: «فلتوفره لعظاتكَ».

شعرَ فيليب بإغراءِ الإتيان بردٍ آخر حادٍ، ولكنه كبحَ نفسه. كان هناك شيءٌ غريبٌ جداً حيالَ هذا الفتى، وشعرَ فيليب أنَّ وليم يمكن أن ينفجر في نوبةِ غضبٍ أعمى في أي لحظةٍ، وإن حدثَ هذا فقد يغدو عنفه مميتاً. لم يكن فيليب خائفاً منه فهو لا يخاف من الرجال العنيفين، وقد يكون السبب لأنَّه عندما كان صغيراً رأى أسوأ ما يمكنهم فعلهُ، ونجا منه. عرفَ أنَّه لن يكسبَ شيئاً من إثارة غضبِ وليم بتأنيبه، ولهذا قال بلطفٍ: «ما أتعامل معه هو الجنة والجحيم، الفضيلة والخطيئة، التسامح والعقاب، الخير والشر. ويؤسفني القول إنَّه لا يسعني الصمتُ حيالها».

«فلتتحدث إلى نفسكَ إذاً»، قال وليم ثمَّ وكزَ جوادهُ ليحثَّه على التقدمِ.

عندما أصبح وليم على بُعدِ أربعين أو خمسين ياردة أبطأ مجدداً. تساءل فيليب في نفسهِ إن كان الفتى سيلين، ويعودُ للسيرِ بجانبهِ، ولكنه لم يفعل، وحتَّى نهاية فترةِ الصباحِ تقدما بشكلٍ منفصلٍ.

شعرَ فيليب بالتوترِ، وبشيءٍ من اليأسِ. لقد فقدَ السيطرة على مصيرهِ،

وتركَ ويلارن بيغاد يستلم زمامَ الأمورِ في وينشستر، وها هو الآن يدع وليم هاملي يقودهُ في رحلةٍ غامضةٍ، وفكرَ أنَّ الجميع يحاولُ التلاعب بهِ. لماذا يدعهم يفعلون هذا؟ لقد حان الوقتُ لأخذِ زمامِ المبادرةِ، ولكن لم يكن بوسعهِ فعلُ شيءٍ الآن سوى الاستدارة والعودة إلى وينشستر، وبدا له أنَّ مثلَ هذا العملِ بلا طائلٍ لهذا تابع اللحاقَ بوليم وهو يحدقُ بتجهمٍ إلى مؤخرةِ جواد وليم تهتز على كلا الجانبين.

قبلَ الظهيرةِ بقليل وصلا إلى الوادي الذي يقعُ فيهِ قصرُ الأسقفِ، وتذكرَ فيليب أنَّه أتى إلى هنا في بدايةِ العامِ يحملُ سراً قاتلاً، ويشعرُ بالرعبِ منه، ولكن الكثير تغير منذئذٍ.

تفاجأ فيليب عندما رأى وليم يتجاوز القصر، ويصعد التل. بدأ الطريق يضيق، ويتحول إلى ممرٍ ضيق بين الحقول، وعلمَ فيليب أنَّه لا يُفضي إلى مكانٍ مهمٍ. عندما اقتربا من أعلى التلِّ رأى فيليب بناءً قيدَ الإنشاءِ. تحتَ قمةِ التلِ بقليلٍ توقفا عندَ رابيةٍ بدت حديثةً، وهنا باغتت فيليب ريبةٌ رهيبةٌ.

انعطفا جانباً وسارا على طولِ ضفةِ النهر إلى أن وجدا منفذاً ودخلا. كان هناك خندقٌ جاف إلا أنَّه كان ممتلئاً بالتراب الآن كي يعبرهُ الناس.

قال فيليب: «هل هذا ما أتينا لرؤيتهِ؟»

اكتفى وليم بهزِّ رأسهِ.

ها هي شكوكُ فيليب تتحقق. كان ويلارن يبني قلعةً، وحطَّمه هذا الاكتشاف.

وكزَ فيليب جوادهُ، وعبرَ الخندق ثمَّ لحقَ بهِ وليم. أحاطَ الخندقَ والضفة بقمةِ التلةِ، وداخلَ أطرافِ الخندقِ جدارٌ حجري سميك بعرضِ أربعة أو ثلاثة أقدامٍ. لاحظ فيليب أنَّ العمل لم ينته بعد، وبالنظرِ إلى سماكةِ الجدارِ يبدو أنَّه سيكون جداراً عالياً.

إنَّ ويلارن يبني قلعةً، ولكن لم يكن هناك عمال في الموقع، ولا أدوات، ولا أكوام حجارةٍ وخشبٍ. يبدو أنَّ العملَ قد توقفَ فجأةً بسببِ إفلاسِ ويلارن على الأغلبِ.

قال فيليب لوليم: «أفترضُ أنَّه لا يوجد شكٌّ بشأنِ بناءِ الأسقفِ لقلعةٍ».

قال وليم: «وهل سيسمح ويلارن بيغاد لأحدٍ آخر ببناءِ قلعةٍ قربَ قصرهِ؟»

شعرَ فيليب بالألمِ والإذلالِ بعدَ أن فهمَ كلَ شيءٍ الآن. يريدُ الأسقف ويلارن الحصول على شايرنغ كي يستخدم مقلع حجارتها وأخشابها لبناءِ قلعتهِ، ولم يكن فيليب سوى مجرَّد أداةٍ لتحقيق هذا، وكاتدرائية كينغزبريدج المحترقة مجرَّد عذرٍ مناسبٍ. كان دورُ فيليب والكاتدرائيةِ إثارةَ شفقةِ الملكِ كي يمنح ويلارن مقاطعة شايرنغ.

وهنا رأى فيليب نفسهُ كما يراه ويلارن وهنري؛ شخصاً ساذجاً، ومُنصاعاً، وبشوشاً يهزُّ برأسهِ موافقاً وهو يُقادُ إلى المسلخ كحيوانٍ. لقد أحسنا الحكمَ عليهِ؛ فقد وثقَ بهما، وأذعن لهما، بل وتحملَ استخفافهما بهِ بابتسامةٍ شجاعةٍ لأنّه اعتقد أنّهما يساعدانهِ بينما في الحقيقةِ تلاعبا بهِ.

كان فيليب مصدوماً من انعدامِ الضميرِ لدى ويلارن، وتذكرَ نظرةَ الحزنِ التي رمقَ بها ويلارن الكاتدرائيةَ المحترقة، وآنذاك اعتقدَ فيليب أنّه رأى ورعاً متأصلاً في ويلارن. لا بدَّ أنَّ ويلارن يؤمن أنَّ الغايات الورعةَ من أجلِ خدمةِ الكنيسةِ تبررُ استخدام الوسائلَ الملتوية. لم يؤمن فيليب بهذا قط، وفكرَ في نفسهِ أنَّ لن يفعل أبداً ما يحاول ويلارن فعلهُ بهِ.

لم ينظر فيليب قبلاً إلى نفسهِ كشخصٍ ساذجٍ، وتساءل في نفسهِ أين بدأت الأمور تسوء. خطر بباله أنَّه استسلمَ للهلعِ الذي أثارته في نفسهِ الثياب الحريرية للأسقف هنري، وعظمة مدينة وينشستر وكاتدرائيتها، وأكوام الفضةِ المصكوكةِ. واللحم في دكاكين الجزارين، وفكرة مقابلةِ الملكِ. لقد نسي أنَّ الرَّبَّ يرى القلبَ الآثمَ تحتَ الثيابِ الحريرية، وأنَّ الثروة الحقيقية هي كنوزُ الجنةِ، وأنَّ الملكَ نفسهُ يركع في الكنيسةِ. لقد أعمتهُ رؤية الجميع أقوى وأرقى منه عن قيمهِ الحقيقيةِ، وعطَّلت ملكةَ التفكير لديه، وجعلته يثق بعماءٍ بمن هم أعلى منه، وكانت مكافأته على هذا هي الخيانة.

ألقى فيليب نظرةً أخرى على المبنى المُبتل بمطرٍ حديثٍ، ثمَّ أدارَ جوادهُ، وابتعد مجروحاً مما رآه. لحقَ به وليم وقال له ساخراً: «ما رأيك بهذا أيُّها الراهب؟» ولكن فيليب لم يُجب.

تذكرَ فيليب كيفَ ساعد ويلارن كي يصبح أسقفاً، وعندما قال له الأخير: «أنتَ تريدني أن أجعلكَ رئيسَ ديرِ كينغزبريدج، وأنا أريدكَ أن تجعلني

أسقفاً». لم يقل له ويلارن آنذاك أنَّ الأسقف متوفى، ولهذا بدا الوعدُ بلا قيمةٍ. كان مضطراً لإعطاءِ وعدٍ من أجلِ ضمان انتخابهِ كرئيس ديرٍ، ولكن هذا ليسَ سوى عُذرٍ. كان عليهِ تركُ مسألة اختيارِ رئيسِ الديرِ والأسقفِ للرَّبِّ.

لم يكن عليهِ التدخل في هذا القرارِ الديني، وها هو ينال عقابهُ على ذلك باضطرارهِ للتنافس مع الأسقفِ ويلارن.

عندما فكرَ كيفَ تعرضَ للاستخفاف، والتعالي، والتلاعب، والخداع تملكه الغضب، وفكر بمرارةٍ أنَّ الطاعة فضيلة رهبانية، ولكن خارج الممرّاتِ المسقوفةِ كان لهذهِ الفضيلةِ مثالب؛ فعالم السلطةِ والمالِ يفرضُ على المرءِ أن يكون مُشككاً، ومُتطلباً، وملحاحاً.

«لقد جعلكَ هذان الأسقفان أضحوكةً، أليسَ كذلك؟»

جذبَ فيليب لجام جوادهِ، وأشارَ بإصبعهِ إلى وليم وهو يغلي من الغضبِ ثمَّ قال: «فلتخرس أيّها الفتى. أنتَ تتحدث عن كاهنين مقدسين من قبلِ الرَّبِّ. إن تفوهت بكلمةٍ أخرى فستذهبُ إلى الجحيمِ، وأنا أعدكَ بذلكَ».

وشحبَ وجهُ وليم من الخوفِ.

وكزَ فيليب جوادهُ، وذكرتهُ ملاحظة وليم الساخرة أنَّ عائلةَ هاملي تملكُ دافعاً خفياً من وراءِ أخذهِ لرؤيةِ قلعةِ ويلارن. إنهم يريدون إثارةَ خصام بين فيليب وويلارن حتَّى لا يحصل أيٌّ منهما على شايرنغ. حسناً، لن يقع في شُركهم، ويسمح لهم بالتلاعبِ بهِ. لقد ضاقَ ذرعاً بمن يتلاعبون به، ولذلك من الآن وصاعداً سيكون هو المتلاعب.

كل هذا جيد، ولكن ما الذي يستطيع فعله؟ إن تخاصمَ فيليب مع ويلارن سيحصل بيرسي على الأراضي، وإن لم يفعل فيليب شيئاً فسيحصل ويلارن عليها.

ما الذي كان يريده الملك؟ يريدُ الملك تقديم يدِ المساعدة في بناءِ الكاتدرائيةِ الجديدةِ لأنَّ مثلَ هذا العمل يليق بالملوكِ، وسيفيد روحه في الحياةِ الآخرةِ، ولكن الملك يرغب بمكافأةِ بيرسي على ولائهِ أيضاً، وبما يدعو للدهشةِ لم يكن مضطراً بشكلٍ خاص لإرضاءِ الرجلين الأقوى، ألا وهما الأسقفان. وخطرَ ببال فيليب أنّه لا بد أن يكون هناك حلٌّ لهذهِ المعضلة التي يواجهها الملك، وهذا الحل سيرضى بهِ فيليب وبيرسي هاملي.

ثمَّ خطرت بباله فكرةٌ.

شعرَ بالرضا عن هذهِ الفكرةِ. كان التحالف بينه وبين عائلةِ هاملي آخر شيءٍ قد يتوقعه أحد، ولهذا قد ينجح الأمرُ. سيُفاجئ به الأسقفين لأنَّهما لا يتوقعانهِ، وعندها سيقعان في شرٍّ أعمالهما.

سيكون انقلاباً رائعاً للموازين.

ولكن هل يستطيع الوصول إلى صفقةٍ مع عائلةِ هاملي الجشعةِ؟ يريد بيرسي أراضي ويلتشاير الغنية، ولقب الإيرل، والسلطة، والهيبة، وقوةً من الفرسانِ تعمل تحت إمرتهِ، وفيليب أيضاً يريد الأراضي الغنيةَ، ولكنه لا يريد اللقب، ولا الفرسان فما يهمهُ حقاً هو المقلع والغابة.

بدأ شكلُ الصفقةِ يتبلور في ذهنِ فيليب، وشعر معها أنَّه لن يخرج خاسراً أبداً.

كم هو جميل أن يفوز الآن، خاصّةً بعد كلِّ ما حدثَ.

وبحماسةٍ متزايدةٍ فكرَ بمفاوضاتهِ مع عائلةِ هاملي. كان عازماً على عدمِ لعبِ دورِ المُذعن، وعلى جعلِ عرضهِ لا يقاوم.

بحلولِ الوقتِ الذي وصلا فيهِ إلى وينشستر كانت عباءةُ فيليب تقطرُ ماءً، وجوادهُ في مزاجٍ سيئٍ، ولكنه كان قد وصلَ إلى حلٍّ لمشكلتهِ.

وبينما كانا يعبران تحتَ قنطرةِ البوابةِ الغربيةِ قال فيليب لوليم: «فلنذهب لمقابلةِ والدتكَ».

تفاجأ وليم بما سمعه وقال: «اعتقدتُ أنَّكَ ستذهبُ لمقابلةِ الأسقفِ ويلارن على الفورِ».

لا شكَّ أنَّ هذا ما أخبرته بهِ ريغان. «لا يهمني ما تعتقدهُ»، انفجرَ فيليب في وجههِ. «خُذني إلى والدتكَ». وشعرَ بنفسهِ مستعداً لمواجهةِ الليدي ريغان. لقد خضعَ للجميعِ ولوقتٍ طويلٍ.

استدارَ وليم جنوباً، وقادَ فيليب إلى منزلٍ في شارعِ غولد الذي يقع بينَ القلعةِ والكاتدرائيةِ. كان منزلاً كبيراً بجدرانٍ حجريةٍ من الأسفلِ وخشبية من الأعلى. في الداخلِ قاعةٌ بغرفٍ عديدةٍ تدعى قاعة المدخلِ. لا بدَّ أنَّ عائلة هاملي تبيت هنا؛ فالعديد من مواطني وينشستر يؤجرون غرفاً للقادمين إلى بلاطِ الملكِ. إن أصبحَ بيرسي إيرلاً فسيكون له منزل خاص في المدينةِ.

قادَ وليم فيليب إلى غرفةٍ أماميةٍ بسريرٍ كبير وموقدٍ. كانت ريغان جالسةً قربَ الموقد، وبيرسي يقف قربها. رفعت ريغان ناظريها إلى فيليب، ونظرت إليهِ في عجبٍ، ولكنها تمالكت نفسها على الفورِ وقالت: «حسناً أيّها الراهب، هل كنتُ على حقٍ؟»

«كنتِ على خطأ كما أنتِ دوماً أيتها المرأة الغبية»، قال فيليب بقسوةٍ.

صدمتها لهجته الغاضبة إلى درجةٍ أنَّها لزمت الصمتَ.

استمتعَ برؤيتها وهو يذيقها من الكأسِ التي أذاقته إياها، ولذلك تابع كلامَه بنفسِ النبرةٍ: «اعتقدتِ أنَّه بعملكِ هذا ستثيرين الخصام بيني وبين ويلارن. هل اعتقدت أنني لن أفهم ما الذي ترمين إليهِ؟ أنتِ ثعلبةٌ ماكرةٌ، ولكنك لا تحتكرين التفكير في هذا العالم».

راقبَ وجهها ولاحظ أنَّها أدركت أنَّ خطتها لم تنجح، وأنَّها تفكرُ بغضبٍ في خطوتها التاليةِ، ولذلك تابع فيليب كلامه مستغلاً حالة الإرباك التي أصابتها.

«لقد فشلتِ يا ريغان، ولم يعد أمامكِ الآن سوى خيارين: الأول هو أن تنتظري على أملِ الأفضلِ. فلتنتظري قرارَ الملكِ، ولتُقامري على مزاجهِ في صباحِ الغدِ». ثمَّ توقفَ عن الكلامِ.

وقالت ريغان على مضضٍ: «وما هو البديل؟»

«البديل هو أن نعقدَ صفقةً، أنا وأنتِ، ونقتسمَ أرضَ الإيرل بيننا تاركين ويلارن بلا شيءٍ. يمكننا مقابلة الملكِ على انفرادٍ، ونخبره بما توصلنا إليه، ونحصل على مباركتهِ قبلَ أن يتمكن الأسقفان من الا عنٍ». جلسَ فيليب على المقعدِ متظاهراً أنَّ ما قاله أمرٌ عادي. «هذا أفضلُ حلولكِ فأنتِ لا تملكين خياراً حقيقياً». ونظرَ إلى النار كيلا تلحظَ توترهُ. اعتقدَ أنَّ الفكرةَ لاقت استحسانهم؛ فقد كان الحصولُ على شيءٍ أفضل من عدمِ الحصولِ على أيِّ شيءٍ، ولكنهم قد يكونون طمَّاعين، ويفضلون المقامرةَ.

كان بيرسي أوَّل من تحدثَ: «تقسيم أراضي الإيرل؟ ولكن كيف؟»

شعرَ فيليب بالراحةِ الآن لأنَّهم كانوا مهتمين. «سأقترح تقسيماً سخياً لا يمكن رفضهُ»، قال فيليب واستدار نحو ريغان. «أنا أقدمُ لكم القسم الأفضل».

نظروا إليه بانتظار أن يستفيضَ، ولكنه لم يزد شيئاً، وهنا قالت ريغان: «ما الذي تعنيه بالقسمِ الأفضل؟»

«ما هو الأفضلِ: الأراضي الزراعية أم الغابة؟»

«بالطبع الأراضي الزراعية».

«إذاً ستحصلون على الأراضي الزراعية وأنا سآخذ الغابة».

زررت ريغان عينيها وقالت: «وستحصل عندها على الخشبِ لبناءِ كاتدرائيتكَ».

«صحيح».

«وماذا عن المراعي؟»

«ما الذي تريدونه: مراعي الأبقار أم مراعي الخراف؟»

«مراعي الأبقار».

«إذاً سآخذ أراضي التلال مع خرافها. أترغبين أن يكون مدخولكم من السوقِ، أم من المقلعِ؟»

قال بيرسي: «السوق...»

قاطعته ريغان: «فلنفرض أنني أريدُ المقلع؟»

وعلمَ فيليب أنَّها أدركت ما الذي كان يفكر فيهِ.

يريد فيليب مقلعَ الحجارةِ من أجلِ إعادةِ بناءِ الكاتدرائيةِ، ولكنه يعلم أنَّها لا تريد المقلع فالأسواق تعود بأموالٍ أكثر وتتطلبُ جهداً أقل.

قال فيليب بثقةٍ: «لن تفعلي هذا، أليسَ كذلكَ؟»

هزَّت رأسها وقالت: «لا، سنأخذُ الأسواق».

قالَ بيرسي متظاهراً أنَّه تعرَّضَ للخداعِ: «أحتاجُ إلى الغابةِ من أجلِ الصيدِ؛ فالإيرل يحتاج إلى ممارسةِ الصيدِ».

«يمكنكَ أن تصيدَ في الغابةِ»، سارع فيليب إلى القولِ ثمَّ أضاف: «أريدُ الغابةَ من أجلِ الخشبِ فقط».

«اتفقنا»، قالت ريغان، ولكن فيليب شعرَ بعدمِ الراحةِ على موافقتها بسرعةٍ، وانتابه القلقُ. هل تخلى عن شيءٍ مهمٍ على غفلةٍ منه؟ أم هل وافقت بسرعةٍ كي تنتهي من هذا التفصيلِ المزعجِ؟ وقبلَ أن يسعفهُ الوقتُ للتفكير بالأمرِ أكثر تابعت قائلةً: «فلنفرض أننا فتشنا في الصكوك والعقودِ الموجودةِ

في خزانةِ الإيرل بارثيميلو القديمةِ، وعثرنا على بعضِ الأراضي التي نعتقد أنَّها خاصتنا وأنتَ تعتقد أنّها تخصُّكَ؟»

شجعه تطرقها إلى مثلِ هذا التفصيل على التفكيرِ في أنَّها كانت على وشكِ القبولِ بعرضِهِ، ولذلكَ أخفى حماسهُ وتحدثَ بلهجةٍ هادئةٍ: «سنضطرُ إلى وضعِ وسيطٍ، ما رأيكم بالأسقفِ هنري؟»

«كاهن؟» قالت بنبرةٍ فيها شيءٌ من الاحتقارِ المعهود منها. «هل سيكون حيادياً؟ لا، ولكن ماذا عن مأمورِ ويلتشاير؟»

وفكرَ فيليب أنَّ المأمور لن يكون أحسن حالاً، أو أكثر حياديةً من الأسقفِ هنري، ولكنه لم يستطع التفكير بأحدٍ يُرضي الطرفين ولذلكَ قال: «موافق ولكن بشرطٍ واحدٍ. إن اختلفنا على قرارهِ أملكُ الحقَّ في الالتماسِ إلى الملكِ»، وفكرَ في نفسهِ أنَّ هذا سيكون ضمانةً كافيةً.

«موافقة»، قالت ريغان ثمَّ حدَّقت إلى بيرسي وقالت: «إن أرادَ زوجي هذا».

قال بيرسي: «نعم، نعم».

علمَ فيليب أنَّه على مشارفِ تحقيقِ النجاحِ، ولذلكَ أخذَ نفساً عميقاً وقال: «إن اتفقنا على العرضِ بأكملهِ...»

«انتظر قليلاً»، أوقفته ريغان. «نحن لم نتفق».

«ولكن أعطيتكم كلَّ ما أردتموه».

«ولكن قد نحصل على كلِّ شيءٍ ومن دونِ تقسيمٍ».

«وقد لا تحصلون على شيءٍ أبداً».

وهنا ترددت ريغان مجدداً: «وكيفَ تقترح معالجةَ الأمرِ إن وافقنا؟»

كان فيليب قد فكرَ في الأمرِ، ولذلكَ نظرَ إلى بيرسي ثمَّ قال: «هل يمكنكَ مقابلة الملكِ الليلة؟»

بدا بيرسي متوتراً، ولكنه أجابَ: «أجل، إن كان لدي سببٌ وجيهٌ لذلك».

«فلتذهب إلى الملكِ، ولتطلعهُ على اتفاقنا. اطلب منه أن يعلنَ عنه صباحَ الغدِ كأنَّ الاتفاق فكرته، ولتؤكد له أننا، أنا وأنت، راضيان عن ذلكَ».

«ماذا لو سألني عن موافقةِ الأسقفين على هذا؟»

«أخبرهُ أنَّه لم يتسنَ الوقت لإطلاعهما على الاتفاقِ، ولتذكره أنَّ رئيسَ الديرِ وليسَ الأسقف من سيبني الكاتدرائية، ثمَّ ألمح له أنني إن كنتُ راضياً فسيكون الأسقفان راضيين».

«ولكن ماذا لو اشتكى الأسقفان عندما يعلنُ الملكُ عن الصفقةِ؟»

«كيف لهما الاعتراض؟» قال فيليب. «إنهما يتظاهران أنهما يطلبان شايرنغ لغرضٍ وحيد وهو تمويل بناءِ الكاتدرائيةِ. بالكاد يستطيع ويلارن الاعتراض بحجةِ أنَّه يريدُ استخدام مصدر التمويل لأغراضٍ أخرى».

وصدرَ عن ريغان صوتُ كقوقأةِ الدجاجِ فقد راقَ لها دهاءُ فيليب وقالت: «إنَّها خطةٌ مُحكمةٌ».

«هناك شرطٌ مهمٌ»، قال فيليب، ونظرَ إليها مباشرةً. «يجب أن يعلنَ الملكُ أنَّ حصتي ستذهبُ إلى الديرِ. إن لم يوضح هذا في إعلانهِ فسأطلبُ منه التوضيح. إن قال إنَّ الحصَّة ستذهب إلى الأبرشية، أو إلى أمين الذخائرِ، أو إلى رئيسِ الأساقفةِ، أو إلى أي أحدٍ آخر، سأتملصُ من الاتفاقِ بأكملهِ، ولا يساوركم الشكُ للحظةٍ أنني قد لا أفعلُ هذا».

«فهمت»، قالت ريغان بشيءٍ من النزقِ.

عندما رأى فيليب ضيقها تأكدَ من مخاوفهِ حيال نيتها تقديمَ صيغةٍ مختلفةٍ للاتفاقِ، وشعرَ بالسرورِ لأنَّه أوضحَ لها الأمر بحزمٍ.

نهضَ عن المقعد، وهمَّ بالمغادرةِ، ولكنه أرادَ أن يختمَ هذا الصفقة بطريقةٍ ما. «نحن متفقون إذاً»، قالها بلهجةٍ أقرب للسؤال. «اتفاقنا رسمي»، ثمَّ نظرَ إلى بيرسي وريغان.

أومأت ريغان برأسها إيماءةً بسيطةً وقال بيرسي: «نحن متفقون».

شعرَ فيليب بقلبهِ يدقُّ بسرعةٍ، وقال بحزمٍ: «هذا جيد. أراكم صباح الغدِ في القلعةِ». خلال مغادرتهِ الغرفةَ حاول إبقاءَ وجهه خالياً من أيِّ تعبيرٍ، ولكنه عندما وصلَ إلى الشارعِ المظلمِ استرخى، وسمحَ لنفسهِ بابتسامةِ ظفرٍ عريضةٍ.

***

بعدَ العشاءِ استسلمَ فيليب لنومٍ قلقٍ ومتقطعٍ. نهضَ عند منتصفِ الليلِ

من أجلِ صلاةِ الفجرِ ثمَّ استلقى على فراشهِ القشّي، وقد جافاه النوم، وراح يتساءل عمَّ سيحدث غداً.

راوده شعورٌ أنَّ الملكَ ستيفن سيوافق على العرضِ الذي سيحلُّ مشكلتهُ، ويمنحه إيرلاً وكاتدرائيةً. لكن وعلى الرغمِ مما قاله لليدي ريغان لم يكن واثقاً من أنَّ ويلارن سيقبل الأمرَ من دونِ قتالٍ. قد يقدم ويلارن اعتراضاً على الاتفاقِ، ربما إن فكرَ بسرعةٍ، واعترضَ على أنَّ الصفقة لن تؤمن المال الكافي لبناءِ الكاتدرائيةِ المبهرةِ والمهيبة والمزدانةِ بالزخارفِ التي يريدها، وهذا قد يدفع الملكَ إلى إعادةِ التفكيرِ بالأمرِ.

قبلَ انبلاجِ الفجرِ بقليلٍ خطرَ لفيليب مخاطرةٌ أخرى. قد تحاول ريغان خداعهُ بأن تعقدَ صفقةً مع ويلارن. ربما تعرضُ على ويلارن الصفقة ذاتها؟ وعندها سيحصلُ ويلارن على حاجتهِ من الخشبِ والحجارة لبناءِ قلعتهِ. أثار هذا الاحتمالُ غضبه، وبدأ يتقلبُ في فراشه من شدةِ القلقِ، وتمنى لو أنَّه ذهبَ إلى الملكِ بنفسهِ، ولكن الملكَ قد يرفضُ مقابلتهُ، علاوةً على هذا، ربما كان ويلارن سيعلم بهذا، ويرتاب من الأمرِ. لا، لم يكن هناك ما يسعهُ فعله لضمان عدم تعرضهِ للخداعِ، وكلُّ ما بوسعهِ فعلهُ الآن هو الصلاة.

وهذا ما فعلهُ حتَّى انبلجَ الفجرُ.

تناولَ الإفطارَ مع الرهبان، واكتشفَ أنَّ خبزهم الأبيض لا يشبع لفترةٍ طويلة كالخبزِ القاسي الذي يتناوله عادةً، غير أنَّه لم يتمكن من تناول الكثير من الطعامِ اليوم. توجه إلى القلعةِ باكراً رغمَ علمهِ أنَّ الملك لا يستقبل الزوارَ في مثلِ هذهِ الساعة. دخلَ إلى القاعةِ، وجلسَ منتظراً على أحدِ المقاعدِ الحجرية المثبتةِ إلى الجدارِ.

وشيئاً فشيئاً بدأت الغرفة تمتلئ بأصحابِ العرائضِ، ورجال البلاطِ. كان بعضهم في ثيابٍ زاهيةٍ جداً؛ ستراتٍ صفراء وزرقاء ووردية، وعباءاتٍ بحواف فرائية باذخة. وتذكر فيليب أنَّ كتاب *يوم القيامةِ* في مكانٍ ما في القلعةِ، وقد يكون في القاعة العلويةِ حيثُ استقبلَ الملكُ فيليب والأسقفين. لم يكن فيليب قد لاحظه لأنّ توتره الشديدَ منعه من ملاحظةِ الكثيرِ من الأشياءِ في الغرفةِ. كانت الأموال الملكية هنا أيضاً، ولكنها على الأغلبِ في الطابقِ العلوي في خزانةٍ في غرفةِ الملكِ. ومجدداً وجدَ فيليب نفسه مذهولاً

مما يجري في محيطِهِ غيرَ أنَّه هذهِ المرة قد قررَ ألا يسمحَ لرهبةِ المشهد أن تتملكهُ. إنَّ أولئكَ الناس في ثيابهم الفاخرةِ من فرسان وسادة وتجار مجرَّد رجال، وبالكاد يُمكن لمعظمهم كتابةِ اسمِهِ. علاوةً على هذا، كانوا هنا للحصول على شيءٍ لأنفسهم، ولكنه هو، فيليب، أتى إلى هنا بالنيابةِ عن الرَّبِّ. إنَّ المهمةَ التي أتى من أجلها في ردائِهِ البني المتسخ تضعه في مرتبةٍ أعلى من مرتبةِ أصحاب العرائضِ الآخرين.

وبثَّت فيه هذهِ الفكرة شجاعةً.

عندما ظهرَ كاهنٌ أعلى السُلم الذي يُفضي إلى القاعةِ العلويةِ سيطرَت على القاعةِ موجةُ توترٍ، وأملَ الجميع أن يكون الملكُ قد بدأ باستقبال الناسِ. تبادلَ الكاهن بضعَ كلماتٍ همساً مع الحرَّاسِ المسلحين ثمَّ صعدَ الدرجَ واختفى. اختارَ الحارس فارساً من الحشدِ. تركَ الفارسُ سيفه مع الحرَّاسِ، وصعدَ الدرجَ.

فكرَ فيليب بالحياةِ الغريبةِ التي يعيشها رجال الدين الملكيون. بالطبعِ يجب أن يكون للملكِ رجال دين، ومن لا تنحصرُ وظيفتهم في إحياءِ القداسِ، بل في القيامِ بكمٍ كبيرٍ من القراءةِ والكتابةِ من أجلِ إدارةِ المملكةِ. لم يكن هناكَ من أحدٍ آخر يمكنه فعلُ هذا عدا رجال الدين الخاصين بالملكِ؛ فحتى تلكَ النسبة القليلة من الناس العاديين المتعلمين لا يجيدون القراءة والكتابة بسرعةٍ كافيةٍ. ولكن لم يكن هناكَ ما هو مقدسٌ في حياةِ رجالِ الدين الملكيين. كان فرانسيس شقيق فيليب قد اختار هذهِ الحياة بعملِهِ لمصلحة روبرت غلوستر، وقررَ فيليب أنه عندما يقابل شقيقه سيسأله عن هذهِ الحياةِ.

بعدَ أن صعدَ أولُّ ملتمسٍ الدرجَ بقليلٍ دخلت عائلةُ هاملي.

قاوم فيليب دافعَ التوجه إليهم على الفورِ. لم يرغب بأن يعرف الناس أنهم حلفاء الآن. نظرَ إليهم بإمعانٍ، وتفحصَ تعابير وجوههم محاولاً قراءةَ أفكارهم، ووصلَ إلى نتيجةٍ مفادها أنَّ وليم بدا متفائلاً، وبيرسي قلقاً، وريغان متوترةً كوترِ قوسٍ مشدودٍ. بعدَ مرورِ بضعِ دقائق نهضَ فيليب، وعبرَ القاعةَ بشكلٍ عرضي قدرَ الإمكان ثمَّ حيَّاهم بتهذيبٍ وقال لبيرسي: «هل قابلته؟»

«أجل».

«وماذا قال؟»

«قالَ إنَّه سيفكر بالأمرِ ليلاً».

«ولكن لماذا؟» قال فيليب في خيبةِ أملٍ وضيقٍ. «ما الذي سيفكر بهِ؟»

هزَّ بيرسي كتفيهِ وقال: «اسأله».

شعرَ فيليب بالغضبِ وقال: «حسناً، كيف بدا؟ هل بدا مسروراً أم...؟»

وأجابته ريغان: «أعتقدُ أنَّه أحبَّ فكرةَ التحرر من هذهِ المعضلةِ، ولكنه ارتابَ من سهولةِ الأمرِ».

كان كلامها منطقياً، إلا أنَّ فيليب بقي منزعجاً لعدمِ انقضاضِ الملكِ ستيفن على الفرصة بكلتا يديهِ. «من الأفضلِ ألا نستمر بالحديثِ»، قال بعدَ وهلةٍ. «لا نريد للأسقفين أن يشعرا أننا نتواطأ عليهما، ليسَ قبلَ أن يعلنَ الملك عن قرارهِ». ثمَّ أومأ برأسهِ بكلِّ تهذيبٍ، وابتعد.

عادَ فيليب إلى مقعدهِ الحجري، وحاولَ قتلَ الوقتِ في التفكيرِ بما سيفعله إن نجحت الخطة، ومتى سيبدأ العمل على الكاتدرائيةِ الجديدةِ. يعتمد هذا بأكملهِ على السرعةِ التي سيحصل بها على المالِ من الملكيةِ الجديدةِ. سيكون لديهِ الكثير من الخرافِ، وهذا يعني الكثير من الصوفِ لبيعهِ في الصيفِ. سيؤجر بعضَ المزارع التي تقع على التلِّ، وسيحصلُ على معظم هذه الإيجارات بعدَ موسمِ الحصادِ. بحلولِ الخريفِ قد يكون لديهِ ما يكفي من المالِ لتوظيفِ حارس غابةٍ، ومديرٍ للمقلعِ، ويبدأ بتكديسِ الخشبِ والحجارةِ، وفي الوقتِ عينهِ سيبدأ العمال بحفرِ الأساسات تحتَ إشرافِ البنَّاءِ توم. ربما وبحلولِ العامِ القادمِ قد يكونون جاهزين للبدءِ بالبناءِ.

كان حلماً جميلاً.

صعدَ رجالُ البلاطِ، وهبطوا الدرجَ بسرعةٍ رهيبة. يبدو أنَّ الملكَ ستيفن يعملُ بسرعةٍ اليومَ، وهنا انتابَ فيليب القلقُ من أن يُنهي الملك أعمالَ اليومِ، ويذهب للصيدِ قبلَ وصولِ الأسقفين.

أخيراً وصلَ الأسقفان، ونهضَ فيليب ببطءٍ أثناء دخولهما القاعةَ. لاحَ على وجهِ ويلارن توترٌ، أمَّا هنري فبدا ضَجِراً. كان الأمرُ بالنسبةِ إليه ثانوياً، فعلى الرغمِ من أنَّه يدين لزميلهِ الأسقف بالدعمِ غيرَ أنَّ النتيجة لن تؤثر عليهِ، ولكن بالنسبةِ إلى ويلارن فإنَّ النتيجةَ مصيرية، وتحدد مستقبل خطتهِ لبناءِ قلعتهِ التي لم تكن سوى مجرد خطوةٍ على طريق ارتقائه سُلَّم السُلطةِ.

حارَ فيليب في الطريقةِ التي يجب أن يعاملهما بها. حاولا خداعهُ، وأرادَ توبيخهما، وإخبارهما أنَّه اكتشفَ خيانتهما، ولكن هذا سيثير ريبتهما حيالَ وجودِ خدعةٍ ما، ولم يرغب بإثارةِ شكوكهما حيال الأمرِ، بل أرادهما أن يعتقدا أنَّ القرار قرارُ الملكِ ستيفن قبلَ أن يستوعبا ما حدثَ، ولذلكَ أخفى مشاعرهُ، وابتسم بتهذيبٍ، ولكنه لم يكن مضطراً إلى ذلك لأنهما تجاهلاه بكلِّ بساطةٍ.

لم يطل الوقت حتَّى استدعاهم الحرَّاس. صعدَ هنري ووِيلارن أولاً، ولحقَ بهما فيليب ثمَّ عائلةُ هاملي في المؤخرةِ. كان قلبُ فيليب يدقُّ بقوةٍ من شدةِ التوترِ.

في الداخلِ وقفَ الملكُ ستيفن أمامَ نارِ الموقدِ، وقد بدا اليوم أسرع وعملياً أكثر من المرَّة الماضية، وهذه إشارةٌ جيدةٌ لأنَّه لن يحتمل أيَّ جدلٍ مع الأسقفين. توجه الأسقف هنري، ووقفَ بجانبِ أخيهِ قربَ النارِ بينما وقفَ البقية جنباً إلى جنب وسط القاعةِ. شعرَ فيليب بألمٍ في يديهِ، وأدركَ أنَّه كان يضغطُ بأظافرهِ على باطنِ يديهِ فأجبرَ نفسه على الاسترخاءِ.

تحدَّث الملكُ إلى الأسقف هنري بصوتٍ واطئ، ولم يسمع أحدٌ من الحاضرين ما كان يقوله. اكفهر وجه هنري، وقال شيئاً بصوتٍ غير مسموعٍ أيضاً. تحدثا لبعضِ الوقتِ إلى أن رفعَ ستيفن يدَه نحو شقيقهِ طالباً منه الصمتَ ثمَّ نظرَ إلى فيليب.

ذكَّر فيليب نفسه أنَّ الملكَ تحدَّث بلطفٍ معه في المرةِ السابقةِ عندما مازحه حيال توتره، وقال له إنَّه يحبُّ الراهب أن يبدو كراهبٍ.

على أيِّ حالٍ لم يكن هناك مجالٌ لتبادل المجاملات اليوم. سعلَ الملكُ وبدأ كلامه: «اليوم سيصبح خادمي المخلص بيرسي هاملي إيرل شايرنغ».

ومن زاويةِ عينهِ رأى فيليب وِيلارن يتقدَّم قليلاً كأنَّه يريدُ الاحتجاج، ولكن الأسقف هنري منعه بإيماءةٍ سريعةٍ.

تابع الملكُ كلامه: «ومن ممتلكات الإيرل السابقِ سيحظى بيرسي بالقلعة، وبكلِّ الأراضي التي يؤجرها للفرسانِ إضافة إلى الأراضي الزراعيةِ، ومراعي الأبقارِ».

لم يكن فيليب قادراً على تمالكِ نفسهِ من الحماسةِ. يبدو أنَّ الملكَ قبلَ بالصفقةِ. استرقَ نظرةً أخرى إلى وِيلارن، ورأى اليأس متجلياً على وجههِ.

ركعَ بيرسي أمامَ الملكِ، وضمَّ يديه معاً كأنَّه في وضعيةِ الصلاةِ. وضعَ الملكُ يديهِ على يدي بيرسي وقال: «أمنحكَ يا بيرسي، إيرل شايرنغ، الحقَّ بالاستمتاعِ بالأراضي والعوائد المذكورة».

قال بيرسي: «أقسمُ بكلِّ ما هو مقدس أن أكون طوعَ بنانكَ، وأن أُقاتل الآخرين من أجلكَ».

أفلتَ ستيفن يدي بيرسي، ووقفَ الأخير.

استدارَ ستيفن للتحدث إلى البقيةِ: «أمَّا جميعُ الأراضي الأخرى التي امتلكها الإيرل السابق فأنا أمنحها...» وتوقفَ لبرهةٍ موزعاً نظراتهِ بين فيليب وويلارن. «فأنا أمنحها إلى ديرِ كينغزبريدج من أجلِ بناءِ الكاتدرائيةِ الجديدة».

كبحَ فيليب صرخةَ فرحٍ كادت تُفلتُ منه. لقد ربحَ! لم يكن بوسعهِ منعُ نفسهِ من الابتسام بفرحٍ أمامَ الملكِ. ثمَّ نظرَ إلى ويلارن، ورآه مصعوقاً في الصميمِ، وقد توقفَ عن ادعاءِ التماسك بأن فغرَ فاه، واتسعت عيناه وهو يحدّق إلى الملكِ في ريبةٍ صريحةٍ ثمَّ ينتقل بنظرهِ إلى فيليب. كان يعلمُ أنَّه وبطريقةٍ ما فشلَ، وأنَّ فيليب من استفادَ من فشلهِ، ولكنه كان عاجزاً عن تخيلِ كيفيةِ حدوثِ هذا.

قال الملكُ ستيفن: «يملكُ ديرُ كينغزبريدج الحقَّ المُطلق في أخذِ الحجارةِ من مقلعِ الإيرلِ، والخشب من الغابةِ، وبالكميات التي يريدها من أجلِ بناءِ الكاتدرائيةِ الجديدةِ».

شعرَ فيليب بحلقه يجفُّ فهذا لم يكن الاتفاق! من المفترض أن يكون المقلعُ والغابة ملكيةَ الديرِ، وألا يملك بيرسي شيئاً سوى حقوق الصيدِ. لا بدَّ أنَّ ريغان غيرت في الصيغةِ، وها هو بيرسي يملكُ المقلع والغابةَ، ولا يملكُ الدير سوى الحقّ في أخذِ الحجارةِ والخشبِ. لم يكن أمام فيليب سوى بضع ثوانٍ لرفضِ الصفقةِ بأكملها، وتابع الملكُ كلامه: «في حال وقوعِ خلافٍ فإنَّ مأمور شايرنغ سيكون الحكم، ولكن يملكُ الطرفان الحقَّ في الالتماس إلي كحلٍ أخيرٍ». كان فيليب يُعملُ تفكيرهُ في حلٍ، وفكرَ أنَّ ريغان تمادت في فعلتها، ولكن ما الفرق الذي سيُحدثه هذا؟ فقد حصلَ على ما أرادهُ. ثمَّ قال الملكُ: «أعتقدُ أنَّ كلا الطرفين هنا متفقان على هذا».

لم يكن أمام فيليب الكثير من الوقتِ.

قال بيرسي: «أجل يا جلالةَ الملكِ».

فتحَ ويلارن فمهُ للتعبير عن جهلهِ بهذا الاتفاقِ، ولكن فيليب سارعَ إلى الكلام قائلاً: «أجل يا جلالة الملكِ».

أدارَ الأسقف هنري والأسقف ويلارن رأسيهما باتجاه فيليب وحدَّقا إليه، وكشفت معالم وجهيهما دهشةً مطلقةً عندما أدركا أنَّ فيليب، رئيس الدير الشاب، ومن يجهلُ أهمية ارتداء ثيابٍ نظيفةٍ في حضرةِ الملكِ قد عقدَ صفقةً مع الملكِ من وراءِ ظهريهما. بعد برهةٍ تحولت النظرة على وجهِ هنري من الدهشةِ إلى الاستمتاع كأنَّه يرمقُ طفلاً ساذجاً هزمهُ في لعبةِ الطاحونةِ، ولكن نظرةَ الدهشةِ على وجه ويلارن تحولت إلى نظرةٍ شريرةٍ. يعلم فيليب ما جال في ذهنِ ويلارن الآن، وأنَّ الأخير أدركَ أنَّه اقترف خطأً كبيراً في التقليلِ من شأن خصمهِ، ويشعر بالإذلالِ. أمَّا بالنسبةِ إلى فيليب فقد عوضت هذهِ اللحظة عن كلِّ ما تعرضَ له من خيانةٍ، وإذلالٍ، واستخفاف. رفعَ فيليب ذقنهُ مخاطراً بارتكابِ خطيئةِ الغرورِ، وألقى على ويلارن نظرةً أرادَ بها القول: «سيكون عليكَ أن تحاول بجدٍ أكبر للتفوقِ على فيليب من غويند».

قال الملكِ: «أطلعوا الإيرل السابق بارثيميلو عل قراري».

افترضَ فيليب أن بارثيميلو في زنزانةٍ قريبةٍ، وتذكرَ الطفلين اللذين يعيشان مع خادمهما في القلعةِ المُدمرةِ، وشعرَ بالذنبِ عندما فكرَ بما سيحدث لهما الآن.

طلبَ الملكُ من الجميعِ، باستثناءِ الأسقف هنري، المغادرة، وعبرَ فيليب الغرفةَ بخفَّةٍ كأنَّه يسيرُ على غيمةٍ. وصلَ إلى أعلى الدرجِ في نفس الوقتِ مع ويلارن، ولكنه أفسحَ الطريقَ لويلارن كي يمرَّ أولاً فرمقه الأخير بنظرةٍ تفور غضباً سامَّاً. عندما تحدثَ ويلارن خرجَ صوتهُ مخيفاً، وعلى الرغمِ من غبطةِ فيليب غيرَ أنَّ كلمات ويلارن بعثت القشعريرة في أوصالهِ. ومن تحت قناعِ الحقدِ على وجه ويلارن تحرَّكَ فمه هامساً بصوتٍ كالهسيسِ: «أقسمُ بكلِّ ما هو مقدس أنَّكَ لن تبني كنيستكَ». ثمَّ أحكمَ عباءتهُ حولَ كتفيهِ، وهبطَ الدرجَ.

وأدركَ فيليب أنَّه جعلَ من ويلارن عدواً له حتَّى آخر العمرِ.

لم يكن وليم هاملي قادراً على احتواءِ حماسهِ عندما لاحت أمامهُ مشارف قلعة شايرنغ.

كان الوقت ظهرَ اليوم التالي على قرارِ الملكِ، ورغمَ أنَّه ووالتر يتحركان منذ يومين فإن وليم لم يشعر بالتعبِ بل بقلبه يتضخمُ داخلَ صدره، ويضغط على حلقهِ. كان على وشكِ رؤيةِ آليانا مجدداً.

في ما مضى تمنَّى الزواج منها لأنَّها ابنة إيرل، ولكنها رفضتهُ، ثلاث مرَّاتٍ. ارتجفَ عندما تذكرَ احتقارها له، وكيفَ جعلته يبدو كنكرةٍ، كفلاح. تصرَّفت كأنَّ عائلة هاملي عائلةٌ حقيرةٌ، ولكن ها هي الأدوارُ تُقلبُ، وها قد أصبحت عائلتها في مرتبةٍ حقيرةٍ الآن. أصبحَ الآن ابن إيرل أمَّا هي فكانت مجرَّد نكرة، ومن دونِ لقبٍ، ولا مكانة، ولا أراض ولا ثروة. كان في طريقهِ لوضعِ يدهِ على القلعةِ، وطردها منها، وعندها لن يكون لديها مكان تذهب إليهِ. كان الأمرُ أقرب للخيال.

عندما اقتربا من القلعةِ حثَّ جواده على الإبطاءِ. لم يكن يريد لآليانا أن تشعرَ بوصولهِ. أراد أن يقع عليها الأمرُ كصدمةٍ مفاجئة رهيبة ومُدمرة.

عادَ الإيرل بيرسي والكونتيسة ريغان إلى قصرهما في هاملي لتنظيم أمرِ نقلِ الأموالِ، وأفضلِ الأحصنةِ، وخدمِ المنزلِ إلى القلعةِ. كانت مهمةُ وليم توظيف بعضِ السكانِ المحليين من أجل تنظيفِ القلعةِ، وإشعال النارِ في المواقدِ، وتجهيز المكان ليعود صالحاً للسكنِ.

اكتظت السماء بغيوم رمادية داكنة، وبدت قريبةً جداً من الأرضِ إلى درجةِ أنَّها تكاد تصطدمُ بأسوارِ القلعةِ. سيهطل المطرُ هذهِ الليلة وهذا للأفضلِ لأنه سيرمي بآليانا في وسطِ عاصفةٍ.

ترجّلَ وليم ووالتر عن جواديهما، وسارا معهما فوقَ الجسر الخشبي. فكرَ وليم في نفسهِ بكلِّ فخرٍ أنَّه في المرةِ الماضية التي كان فيها هنا احتلَّ المكان. كان العشب قد بدأ ينمو في المجمعِ السفلي لذلك ربطا جواديهما هناك كي يرعيا. قدَّم وليم لجوادهِ الحربي حفنةً من الحبوبِ، وخبأ السرجين في الكنيسةِ الحجريةِ فلم يكن هناك إسطبلٌ. نخرَ الجوادان، وأخذا يضربان

الأرضَ، ولكن الريح التي عصفت في المكانِ كممت صوتيهما. عبرَ وليم ووالتر الجسرَ الثاني إلى المُجمع العلوي.

بدا المكانُ مُقفراً، وفكرَ وليم أنَّ آليانا ربما غادرت المكان. ستكون خيبةً كبيرةً، وسيضطر إلى قضاء ليلةٍ موحشةٍ بمعدةٍ فارغةٍ في هذهِ القلعة الباردةِ والقذرةِ مع والتر. صعدا الدرجَ الخارجي إلى بابِ القاعةِ.

«بهدوءٍ!» قال وليم لوالتر. «إن كانوا هنا فأنا أريد مباغتتهم».

فتحَ وليم الباب. كانت القاعةُ العظيمةُ فارغةً، ومُظلمةً، ولها رائحةُ مكانٍ لم يُستخدم منذُ أشهرٍ. وصدقَ تخمينه في أن سكانَ القلعةِ يعيشون في الطابقِ العلوي. عبرَ وليم القاعة بهدوء باتجاهِ الدرجِ، وطقطقَ القصبُ الجافُ تحتَ قدميه. كان والتر في إثره تماماً.

صعدا الدرجَ، ولكن لم يسمعا صوتاً لأنَّ الجدران الحجرية السميكة كتمت كلَّ صوتٍ. في منتصفِ الطريقِ توقفَ وليم، واستدارَ نحو والتر واضعاً إصبعهُ على شفتيهِ، وأشارَ إلى ضوءٍ يتسللُ من تحتِ البابِ في أعلى الدرجِ. في الداخل أحدٌ ما.

وصلا إلى أعلى الدرجِ، وتوقفا قليلاً أمامَ البابِ. من الداخلِ تناهى صوتُ ضحكةٍ أنثويةٍ، وابتسم وليم بسعادةٍ. وضعَ يدَهُ على المقبضِ، وأداره بلطفٍ ثمَّ ركلَ البابَ وفتحه، وتحولت الضحكةُ إلى صرخةِ رعبٍ.

كان المشهدُ في الداخلِ أشبه بلوحةٍ جميلةٍ. جلست آليانا وشقيقها الصغير ريتشارد إلى طاولةٍ صغيرةٍ قربَ النارِ يلعبان لعبةَ طاولةٍ من نوعٍ ما، والوكيل ماثيو يقفُ وراءها ينظرُ من فوقِ كتفيها. أضفى وهجُ نارِ الموقدِ لوناً وردياً على وجهِ آليانا، وبريقاً نحاسياً على خصلاتِ شعرها الداكنةِ. كانت في ثوبٍ كتاني رقيقٍ، وتنظرُ إلى وليم في دهشةٍ كبيرةٍ. راقب وليم خوفها بمتعةٍ دونَ أن يتفوه بكلمةٍ، ولكن بعدَ برهةٍ تعافت من صدمتها ووقفت ثمَّ قالت له: «ما الذي تريده؟»

كان وليم قد تدرَّبَ في خياله على هذا المشهد كثيراً. سارَ عبرَ الغرفةِ بهدوءٍ، ووقفَ قربَ النارِ ليُدفئ يديهِ ثمَّ قال: «أنا أعيشُ هنا. ما الذي تريدينه أنتِ؟»

وزعت آليانا نظراتها بينه وبين والتر. وعلى الرغمِ من حالةِ الخوفِ

والاضطرابِ التي سيطرت عليها فإنّها تحدثت بنبرةٍ تحدٍ: «هذه القلعة ملكٌ لإيرل شايرنغ. قُل ما جئتَ من أجلهِ وغادر».

ارتسمت ابتسامة ظفرٍ على وجهِ وليم وقال: «إيرل شايرنغ هو والدي». تأوهَ الوكيل كأنَّ ما خشي حدوثه قد حدثَ، وبدت آليانا مضطربةً. تابع وليم كلامه قائلاً: «البارحة في وينشستر نصَّب الملك والدي إيرلاً لشايرنغ، والقلعة الآن ملكنا. أنا السيدُ هنا إلى أن يصلَ والدي»، وفرقع بأصابعه للوكيلِ ثمَّ قال: «أنا جائع. أحضر لي الخبزَ واللحمَ والنبيذ».

ترددَ الوكيلُ، ورمقَ آليانا بنظرةٍ قلقةٍ. كان خائفاً من تركها، ولكن لم يكن لديهِ خيارٌ آخر سوى تنفيذ ما طُلبَ منه، وتوجه إلى الباب.

أخذت آليانا خطوةً باتجاهِ البابِ كأنَّها تريدُ اللحاق بماثيو.

«فلتبقي هنا»، أمرها وليم.

وقفَ والتر بينها، وبينَ البابِ لمنعها من التقدمِ.

«لا تملكُ الحقَّ بإلقاءِ الأوامرِ علي!» قالت آليانا بنبرةٍ فيها شيءٌ من غطرستها القديمةِ.

وتحدَّث ماثيو بلهجةٍ خائفةٍ: «فلتبقي يا سيدتي ولا تغضبيهما. سأعود حالاً».

رمقته آليانا بنظرةٍ عابسةٍ، ولكنها بقيت في مكانها ثمَّ خرجَ ماثيو.

جلسَ وليم في كرسي آليانا فانتقلت هي إلى جانبِ شقيقها. تفحصهما وليم، ولاحظَ شبهاً بينهما، ولكن ملامح الفتاةِ تشي بقوةٍ أكبر. كان ريتشارد مراهقاً طويلاً، وأخرق، ولم تنبت له لحيةٌ بعد. أحبَّ وليم الشعور بأنهما تحتَ سطوتهِ.

«كم عمركَ يا ريتشارد؟» سألَ وليم.

«أربعةَ عشرَ عاماً»، أجاب الفتى متجهماً.

«هل قتلتَ رجلاً من قبل؟»

«لا»، أجاب ثمَّ أضافَ في محاولةٍ للتظاهرِ بالشجاعة: «ليسَ بعد».

وفكرَ وليم في نفسهِ: «ستعاني أنتَ أيضاً أيّها الأحمقُ الصغير المتغطرس»، ثمَّ عادَ باهتمامهِ إلى آليانا وسألها: «كم عُمركِ؟»

في البدايةِ بدت آليانا كأنَّها عازمةٌ على عدمِ التحدثِ إليه، ولكن يبدو أنَّها غيرت رأيها وقد يكون السبب نصيحةَ ماثيو لها قبلَ أن يُغادر.

«سبعة عشر»، أجابت آليانا.

«يا له من أمرٍ مثيرٍ للدهشةِ. العائلة بأكملها تستطيع العدَّ»، قال وليم ثمَّ سأل: «هل أنتِ عذراء يا آليانا؟»

«بالطبعِ!» انفجرت قائلةً.

وفجأة تحرّك وليم إلى الأمامِ، وأمسكها من ثديها الذي ملأ قبضتهُ الضخمة. عصرَ ثديها، وشعرَ بهِ رياناً ومطواعاً، ولكنها ابتعدت إلى الوراءِ، وتحررت من قبضتهِ.

تقدَّم ريتشارد في حركةٍ متأخرةٍ، وأبعدَ ذراع وليم. ما من شيءٍ آخر من شأنهِ أن يبعثَ السرور في نفسِ وليم أكثر من هذا. نهضَ عن كرسيهِ بسرعةٍ، ولكمَ ريتشارد على وجههِ. وكما توقع فقد كان ريتشارد ضعيفاً لأنَّه صرخَ، ووضعَ يديهِ على وجههِ.

«اتركهُ وشأنه!» صرخت آليانا.

نظرَ وليم إليها في دهشةٍ فقد بدت أكثر قلقاً على شقيقها مما كانت على نفسها. يجب ألا ينسى هذا.

عادَ ماثيو حاملاً صحناً خشبياً عليهِ رغيفٌ من الخبزِ مع لحمِ الخنزيرِ والنبيذِ. شحبَ وجههُ عندما رأى ريتشارد يضع يديهِ على وجههِ. وضعَ ماثيو الصحنَ على الطاولةِ، وتوجهَ إلى الفتى ثمَّ أبعدَ يدي الصبي عن وجههِ بلطفٍ، ونظرَ إلى وجههِ. كان وجه ريتشارد مُحمراً، ومنتفخاً حولَ العين. «طلبتُ منكما ألا تثيرا غضبهما»، دمدمَ، ولكنه بدا مرتاحاً لأنَّ الأمرَ لم يتطور أكثر من هذا. شعرَ وليم بخيبةِ أملٍ فقد أملَ أن يغضبَ ماثيو ولكن يبدو أنَّ الرجل هادم للمسراتِ.

أسالَ مشهدُ الطعامِ لعابَ وليم فسحبَ كرسيهُ إلى الطاولةِ، وأخرجَ سكين الطعام. قطعَ شريحةً كبيرةً من لحمِ الخنزيرِ ثمَّ جلسَ والتر قبالتهُ. بينما كان وليم يمضغُ لقمةً من الخبزِ واللحمِ قال لآليانا: «أحضري أكواباً وصُبي النبيذَ». وتحرَّك ماثيو لينفذ الأمرَ فقال وليم: «ليسَ أنتَ... بل هي». ترددت آليانا، ونظرَ إليها ماثيو في قلقٍ ثمَّ أومأ برأسهِ فاقتربت من الطاولةِ، ورفعت الإبريق.

عندما انحنت لتسكبَ النبيذَ مدَّ وليم يدهُ تحتَ طرفِ ردائها، ورفعه

بسرعةٍ إلى ما فوقِ ساقها. لامست أطرافُ أصابعهِ ربلةَ ساقٍ نحيلةٍ بشعرٍ ناعمٍ ثمَّ تحسسَ العضلاتِ وراءَ ركبتها ثمَّ البشرة الناعمةَ للجزء الداخلي من فخذها. ابتعدت آليانا، واستدارت ثمَّ لوحت بإبريق النبيذِ الثقيلِ على رأسهِ.

صدَّ وليم الضربةَ بيدهِ اليسرى، وصفعها بكلِّ قوةٍ على وجهها بيدهِ اليمنى. شعرَ بلسعةٍ ممتعةٍ في يدهِ. صرخت آليانا، ومن زاويةِ عينيهِ رأى وليم أنَّ ريتشارد قد تحرَّكَ. كان هذا ما تمنَّاه. دفعَ وليم بآليانا جانباً فسقطت على الأرضيةِ سقطةً رهيبةً. اندفعَ ريتشارد باتجاه وليم كغزالٍ يهاجمُ صيَّاداً. تفادى وليم أول لكمة عنيفة وجهها ريتشارد ثمَّ لكمه على بطنهِ، وبينما كان الفتى يترنح وجه له وليم سلسلةً من اللكماتِ على العينين والأنفِ. لم يكن هذا ممتعاً بقدرِ لكمِ آليانا، ولكنه كان مُرضياً بما يكفي، وخلالَ بضعِ دقائقَ أصبحَ وجه ريتشارد بالكاملِ مُدمى.

وفجأة نمّت عن والتر صرخةُ تحذيرٍ، ووقفَ على قدميهِ وهو ينظرُ إلى ما وراءِ ظهرِ وليم. استدارَ وليم ورأى ماثيو قادماً نحوه يرفع سكيناً في استعدادٍ لطعنهِ. بوغتَ وليم فهو لم يتوقع أيَّ عملٍ بطولي من الوكيل المخنثِ. لم يكن والتر قادراً على الوصولِ إليهِ في الوقتِ المناسبِ، وصدِّ الضربةِ، وكلُّ ما بوسعِ وليم القيام بهِ الآن هو رفعُ ذراعيهِ وحمايةُ نفسهِ، ولوهلةٍ اعتقدَ أنَّه سيقتلُ في لحظةِ انتصارهِ. لو أنَّ ماثيو كان مقاتلاً قوياً لأبعدَ ذراعي وليم عن وجههِ، إلَّا أن ماثيو كان ضئيلاً، وقد روضتهُ الحياةُ المنزليةُ، ولهذا لم تصل السكين إلى عنقِ وليم تماماً. شعرَ وليم بدفقٍ مفاجئ من الراحةِ، ولكنه لم يكن في أمانٍ بعد. رفعَ ماثيو ذراعيهِ ليوجهَ ضربةً أخرى فتراجع وليم خطوةً إلى الوراءِ، والتقطَ سيفهُ. التفَّ والتر حولَ الطاولة حاملاً خنجراً مدبباً في يدهِ، وطعنَ ماثيو في ظهرهِ.

ارتسمَ الهلعُ على وجهِ ماثيو، ورأى وليم طرفَ خنجرِ والتر ناتئاً من صدرِ ماثيو وقد مزَّق سترتهُ. أسقطَ ماثيو سكينه من يدهِ فارتطمت بالأرضيةِ الخشبيةِ. حاولَ أن يتنفس، ولكنّ صوتاً كالغرغرةِ خرجَ من حلقهِ، وبدا عاجزاً عن التنفسِ. ترنحَ وبدأ الدمُ يخرجُ من فمهِ ثمَّ أغلقَ عينيهِ وسقطَ. سحبَ والتر خنجره الطويلَ بينما الجثةُ تتهاوى أرضاً. انبجسَ الدمُ من الجرحِ كنافورةٍ ولكن، وعلى الفورِ، خفَّ تدفقه وبات يقطرُ.

حملقوا جميعاً -وليم ووالتر وآليانا وريتشارد- بالجثةِ الممدّدةِ على الأرضية. كان وليم ما يزال دائخاً من إحساسهِ باقترابِ أجلهِ قبل برهةٍ، وشعرَ أنَّه قادرٌ على فعلِ أيِّ شيءٍ فمدَّ يدهُ وأمسكَ آليانا من ياقةِ ردائها. كان القماش ناعماً وفاخراً جداً، وبحركةٍ سريعةٍ وقويةٍ تمزَّق الرداء. استمرَّ بشدهِ، وتمزيقهِ من الأمامِ إلى أن استقرت في يديهِ قطعةٌ بطولِ قدمٍ. صرخت آليانا، وحاولت أن تشدَّ أطرافَ ثوبها الممزقِ غير أنَّ الأطراف كانت قصيرةً جداً. شعرَ وليم بحلقهِ يجفُّ وأنَّ عجزها المفاجئ مثيرٌ، بل كان أكثر إمتاعاً من مراقبتها وهي تستحم؛ فهي الآن تعلمُ أنَّه يراقبها وشعرت بالحرجِ، وأثاره حرجها كثيراً. غطّت ثدييها بذراعها وعضوها باليدِ الأخرى. رمى وليم بقطعةِ القماشِ، وأمسكها من شعرها ثمَّ جذبها إليهِ، وأدارها ليمزقَ ما تبقى من ردائها من الوراءِ.

كانت كتفاها بيضاوين ورقيقتين، وخصرها نحيلاً، ولكن وركيها وبما يدعو للدهشةِ كانا ممتلئين. جذبها نحوه، وضغطَ بنفسهِ على ظهرها ثمَّ بدأ يفركُ حوضهُ بمؤخرتها. أحنى رأسهُ إلى الأمامِ وعضَّها من عنقها بقوةٍ إلى أن شعرَ بطعمِ الدمِ في فمهِ. صرخت آليانا، ورأى وليم ريتشارد يتحرَّك مجدداً.

«أمسكْ الفتى»، قال وليم لوالتر.

أمسكَ والتر بالفتى، وثبتهُ بذراعهِ كيلا يتحرك.

وبينما أحكمَ وليم ذراعهُ حولَ آليانا استكشفَ بيدهِ الأخرى جسدها. تحسسَ ثدييها بيدهِ، وعصرهما، وقرصها من حلمتيها الصغيرتين، ثمَّ مررَ يدهُ على بطنها، ونزلَ إلى مثلثِ الشعرِ بينَ ساقيها فوجدهُ كثيفاً ومجعداً كالشعرِ الذي على رأسها. استكشفها بأصابعهِ، وبكلِّ خشونةٍ، وبدأت تبكي. كان عضوه منتصباً جداً إلى درجةِ أنَّه شعرَ بهِ سينفجرُ.

ابتعدَ عنها، ورماها إلى الوراءِ وقد مدَّ ساقهُ أمامها فسقطت على ظهرها سقطةً قويةً. فاجأتها السقطةُ، وجعلتها تشهقُ من أجلِ نفسٍ.

لم يكن وليم قد خططَ لهذا، ولم يكن واثقاً تماماً من أنَّ هذا يحدث حقاً، ولكن ما من شيءٍ في العالم سيمنعهُ الآن.

رفعَ رداءهُ كاشفاً عن عضوهِ. نظرت إليه في رعبٍ فهي على الأغلبِ لم ترَ عضواً منتصباً قبلاً. كانت عذراء حقيقية، وهذا أفضل.

«أحضر الفتى إلى هنا»، قال وليم لوالتر. «أريده أن يرى كلَّ شيءٍ».

ولسببٍ ما بدت له فكرة أن يقومَ بالأمرِ أمامَ ريتشارد تنطوي على الكثير من التحدي والجرأةِ.

دفعَ والتر بريتشارد أمامهُ، وأجبرهُ على الركوعِ على ركبتيه.

ركعَ وليم على الأرضِ، وباعدَ بينَ ساقي آليانا. بدأت تقاومهُ فرمى بنفسهِ فوقها ليقمعها، ويضعها تحتَ سيطرتهِ، ولكنها استمرَّت بمقاومتهِ، ولم يتمكن من اختراقها. استشاط غضباً فهذا يفسدُ كلَّ شيء. رفعَ نفسهُ على مرفقهِ، ولكمها على وجهها. صرخت آليانا، واحمرَّ خدها بشدةٍ، ولكن عندما حاولَ اختراقها مجدداً عادت إلى مقاومتهِ.

كان يمكن لوالتر أن يثبتها، ولكنه كان يمسكُ بالفتى.

وفجأة نزلَ الإلهام على وليم وقال: «اقطع أذنَ الفتى يا والتر».

تجمَّدت آليانا في مكانها، وقالت بصوتٍ أجشٍ: «دعه وشأنهُ. لا تؤذهِ أكثر».

«افتحي ساقيكِ إذاً»، قال وليم.

حدَّقت إليه بعنين متسعتين من رهبةِ الخيارِ المريع الذي وضعه أمامها. استمتع وليم برؤيتها مكروبةً، أمَّا والتر الذي كان يؤدي دورهُ في اللعبةِ بمثاليةٍ فقد سحبَ سكينهُ، ووضعها على أذنِ ريتشارد اليُمنى. ترددَ أولاً ثمَّ وبحركةٍ شبه رقيقةٍ قطعَ شحمةَ أذنِ الفتى.

صرخَ ريتشارد. انبجسَ الدمُ من الجرحِ الصغيرِ، ووقعت قطعةُ اللحمِ على صدرِ آليانا.

«توقفْ!» صرخت وقالت: «حسناً، سأقوم بهذا»، وباعدت بينَ ساقيها.

بصقَ وليم على يديهِ، وفركَهما بين ساقيها ثمَّ دفعَ بأصابعهِ داخلها فصرخت من الألمِ، وأشعلَ هذا حماسته. نامَ فوقها بينما كانت مستلقيةً بلا حراكٍ وبتوترٍ. أغلقت عينيها، ورغم أنَّ جسدها مازال يقطرُ عرقاً من مقاومته فإنَّها كانت ترتجفُ. عدَّل وليم من وضعيتهِ ثمَّ توقفَ فقد كان مستمتعاً بالترقبِ وبخوفها. نظرَ إلى ريتشارد ووالتر، ورأى أن ريتشارد ينظرُ في رعبٍ بينما كان والتر يراقبُ بنهمٍ.

قال وليم: «أنتَ التالي يا والتر».

وتأوهت آليانا من شدةِ اليأسِ.

وفجأةً دفعَ بعضوهِ في داخلها بأقصى قوةٍ ممكنةٍ، وشعرَ بمقاومةِ غشاءِ بكارتها. كانت عذراء حقيقية. دفعَ مجدداً وبخشونةٍ. آلمهُ الأمرُ، ولكنه آلمها أكثر لأنَّها صرخت. دفع أكثر، وبقوةٍ أكبر إلى أن شعرَ بهِ يتمزق. شحبَ وجه آليانا، وأغمي عليها، ثمَّ قذفَ وليم في داخلها وهو يضحكُ ويضحكُ مأخوذاً بنشوةِ النصرِ والمتعةِ إلى أن استنفد كلَّ ما لديهِ.

***

اشتدّت العاصفةُ طوالَ الليلَ، ولكن عندَ الفجرِ توقفت. استيقظَ توم على الهدوءِ المفاجئ، واستلقى في العتمةِ يُصغي إلى التنفسِ الثقيل لآلفريد بجانبهِ، والتنفس الهادئ لمارثا في الجانبِ الآخر. تكهنَ أنّ الوقتَ الآن صباحٌ، وأنّه صباحٌ رائقٌ، وهذا يعني أنه يستطيع رؤية شروقِ الشمسِ لأولِ مرَّةٍ بعد أسبوعين أو ثلاثة من الطقسِ الغائمِ. كان ينتظر هذا الصباح بفارغ الصبرِ.

نهضَ توم وفتحَ البابَ. كان الظلام ما زال مُخيماً، وهناك المزيد من الوقتِ. وكزَ ابنه بقدمهِ وقال: «آلفريد؟ انهض! ستشرقُ الشمسُ اليوم».

تأوه آلفريد وجلسَ. استدارت مارثا دون أن تستيقظ. توجه توم إلى الإسطبل، ورفع غطاءَ جرَّةٍ فخاريةٍ ثمَّ أخرجَ نصفَ رغيفٍ من الخبزِ، وقطَّعه إلى قطعتين سميكتين: واحدة لنفسهِ، وأخرى لآلفريد. جلسا على المقعدِ، وتناولا الإفطار.

كان هناك إبريقٌ من الجعةِ. أخذَ توم منه جرعةً كبيرةً، ومرره إلى آلفريد. كانت آغنيس ستجبرهما على استخدامِ أكوابٍ، وكذلك إيلين، ولكن ما من امرأةٍ في المنزلِ الآن. وعندما يشربُ آلفريد كفايته من الإبريقِ سيغادران المنزلَ.

كانت السماء قد بدأت تتحول إلى اللونِ الرمادي عندما عبرا ساحةَ الديرِ. أرادَ توم التوجهَ إلى منزلِ رئيسِ الديرِ، وإيقاظ فيليب، ولكنه اكتشفَ أنَّ فيليب كان في الكاتدارئيةِ المحترقةِ في عباءةٍ ثقيلةٍ راكعاً على الأرضيةِ الرطبةِ يُصلي.

سيؤدون اليومَ مهمةَ تحديد خطٍ شرقي – غربي دقيق، وهو سيكون بمنزلة المحور الذي ستُبنى عليهِ الكاتدرائية الجديدة.

كان توم قد حضَّرَ لكلِّ شيءٍ منذُ مدةٍ؛ فقد وضعَ وتداً حديدياً مع فتحةٍ في الأعلى كخُرمِ الإبرةِ في الطرفِ الشرقي من أرضِ الديرِ. كان ارتفاع الوتد بارتفاع قامةِ توم، وخُرمه على مستوى عيني توم، وثبَّته في مكانهِ بمزيجٍ من الركامِ والملاطِ كيلا يتحرك لأيِّ سببٍ من الأسبابِ. سيضعُ توم وتداً آخر هذا الصباح قبالة الوتدِ الأولِ، وإلى غربِ الموقع.

«فلتقم بمزجٍ بعضِ الملاطِ»، قال توم.

ذهبَ آلفريد لإحضارِ الرملِ والكلسِ، أمَّا توم فتوجه إلى كوخِ عدتهِ بالقربِ من الممرّاتِ المسقوفةِ، وأحضرَ مطرقةً خشبيةً والوتد الثاني، ثمَّ توجهَ إلى الطرفِ الغربي من الموقعِ، ووقفَ بانتظارِ شروقِ الشمسِ. أنهى فيليب صلواتهِ، وانضمَّ إلى توم بينما تابعَ آلفريد مزجَ الرملِ والكلسِ مع الماءِ على لوحِ مزجٍ.

توهجت السماء أكثر، وغدا الرجال الثلاثةُ أكثرَ توتراً. كانوا يراقبون الجدارَ الشرقي لساحةِ الديرِ، وأخيراً ظهرَ القرصُ الأحمرُ للشمسِ من فوقِ الجدارِ.

غيَّرَ توم موقعهُ إلى أن باتَ قادراً على رؤيةِ الشمسِ من الخُرمِ الصغيرِ في الوتدِ الذي يقعُ على الطرفِ المقابلِ، ثمَّ بدأ فيليب يُصلي باللاتينيةِ، ووضعَ توم الوتدَ أمامهُ كي يحجبَ الشمسَ من أمامهِ، وبحذرٍ أخفضهُ أرضاً، وضغطَ نهايته المدببة في الأرضِ الرطبةِ وفي حرصٍ طوال الوقتِ على أن يبقى تماماً بينَ عينهِ والشمسِ، ثمَّ أخذَ المطرقة الخشبية من حزامهِ، وبحذرٍ بدأ يدقُّ الوتدَ في الأرضِ إلى أن بات خرمهُ على مستوى عينيهِ. إن قام بهذا كما يجب، ولم ترتعش يداه فستمرُّ أشعةُ الشمسِ من خُرمي الوتدين.

أغمضَ عيناً ونظرَ عبرَ الوتدِ القريبِ إلى الوتدِ البعيدِ. كانت الشمسُ مازالت تشعُّ في عينهِ من كلا الخرمين، وهذا يعني أنَّ الوتدين على خطٍ شرقي-غربي مثالي. سيكون هذا الخط بمنزلة الاتجاه التي ستُبنى بهِ الكاتدرائية الجديدة.

كان توم قد شرحَ الأمرَ مسبقاً لفيليب، ولذلكَ تنحَّى جانباً لرئيسِ الدير كي ينظر بدورهِ عبر الخرمين.

«ممتاز»، قال فيليب.

أومأ توم برأسِهِ وقال: «إنَّه كذلك».

«هل تعلم ما هو اليوم؟» سأل فيليب.

«الجمعة».

«إنَّه أيضاً عيد استشهاد القديس أدولفوس. ها هو الرَّبُّ يُرسلُ لنا في يومِ استشهادِ راعينا شروقاً كي نحددَ اتجاه الكنيسةِ. أليست هذهِ إشارةً جيدة؟»

ابتسم توم لفيليب، ولكن من خبرتِهِ يعلم أنَّ العمل المتقن في مجال البناءِ أهمُّ بكثير من أيِّ طالعٍ حسنٍ. أيّاً يكن شعرَ توم بالسعادةِ من أجلِ فيليب.

«أجل»، أجاب توم ثمَّ أضاف: «إنَّها حقاً إشارةٌ جيدةٌ جداً».

الفصل السادس

- 1 -

قررت آليانا ألّا تفكرَ بما حصلَ معها.

قضت الليل بأكملهِ جالسةً على الأرضيةِ الحجريةِ للكنيسةِ، وظهرها للحائطِ تحدقُ في العتمةِ. في البدايةِ لم يُفارقها هول ما مرَّت بهِ، ولكن الألم بدأ يخفُّ تدريجياً، وباتت قادرةً على التركيز على أصواتِ العاصفة والمطر المُنهمر على سطحِ الكنيسةِ، وعويل الرياح بينَ أسوارِ القلعةِ المهجورةِ.

في البدايةِ بقيت في مكانها عاريةً. بعدَ أن *انتهى* الرجلان منها عادا إلى الطاولةِ بينما بقيت مستلقيةً على الأرضيةِ، وريتشارد بجانبها ينزفُ. حالما بدأ الرجلان بتناول الطعامِ والشرابِ كأنَّهما نسيا أمرها انتهزت هي وريتشارد الفرصةَ، وهربا من الغرفةِ. كانت العاصفةُ قد بدأت وقتها، وتعينَ عليهما عبورُ الجسرِ تحتَ وابلِ مطرٍ غزيرٍ ثمَّ اللجوء إلى الكنيسةِ، ولكن ريتشارد عاد إلى القلعة على الفورِ، وتوجه إلى الغرفةِ حيثُ الرجلان، واختطفَ عباءتهُ وعباءة آليانا عن الخطافِ وراءَ البابِ ثمَّ هربَ مجدداً قبلَ أن ينتبه وليم وسائسهِ.

لزمَ ريتشارد الصمتَ طوال الوقت، ولم يتحدث إليها. قدَّمَ إليها العباءة ثمَّ لفَّ عباءته حول نفسهِ، وجلسَ على الأرضيةِ على بُعدِ ياردةٍ عنها، وظهره للحائط ذاتهِ الذي أسندت ظهرها إليهِ. كانت تتوقُ إلى أحدٍ يحبها، ويضمّها، ويروّح عنها، ولكن ريتشارد تصرَّفَ كأنَّه اقترفَ عملاً مشيناً جداً، وأسوأ ما في الأمر أنَّها شعرت بذلك أيضاً. شعرت بالذنبِ كأنَّها اقترفت خطيئةً، ولهذا تفهمت عدمَ رغبتهِ في الترويحِ عنها، أو لمسها.

سُرَّت ببرودةِ الطقس، فقد ساعدتها على الانسلاخِ من هذا العالمِ واعتزاله، وخففَ البردُ من حدَّةِ ألمها أيضاً. لم يغمض لها جفنٌ، وفي مرحلةٍ ما من الليلةِ يبدو أنَّهما كليهما دخلا في غشيةٍ، وجلسا ساكنين كالأمواتِ لوقتٍ طويلٍ.

انتهت العاصفةُ فجأةً، واستيقظا كأنَّهما كانا تحتَ تأثيرِ تعويذةٍ ما. أدركت آليانا أنَّ نوافذَ الكنيسةِ واضحة الآن، وكانت أشبه برقعاتٍ رماديةٍ صغيرةٍ في الاتجاه الذي كان مسربلاً بالعتمةِ قبلاً. وقفَ ريتشارد، وتوجه إلى البابِ. راقبته، وشعرت بالضيقِ من هذا الإزعاجِ؛ فقد أرادت أن تبقى في مكانها قبالةَ الحائطِ إلى أن تتجمدَ حتَّى الموتِ، أو تموتَ جوعاً. لم يكن هناك ما هو أكثر إغراءً من الاستسلام بسلامٍ لإغماءةٍ أبديةٍ. فتحَ ريتشارد الباب، وأضاءَ وجهه نورُ الفجرِ الضعيفِ.

خرجت آليانا من الغشيةِ التي كانت فيها، وبدا لها ريتشارد غريباً جداً، وبالكاد تمكنت من تمييز ملامحهِ؛ فقد كان وجههُ متورماً ومغطى بالدمِ الجافِ والرضوضِ. عندما رأت آليانا هذا أرادت أن تبكي. لطالما ادعى ريتشارد الشجاعةَ؛ فعندما كان صغيراً اعتاد التظاهر أنَّه يجول القلعةَ على جوادٍ خيالي، ويطعن الناسَ برمحٍ خيالي. كان فرسان والدها يشجعونهُ من خلالِ التظاهرِ أنّهم خائفون من سيفهِ الخشبي، ولكن ريتشارد كان جباناً جداً، ويخاف من هريرِ قطةٍ، ولكنه بذلَ قصارى جهدهِ الليلة الماضية، وقد أُبرحَ ضرباً بسبب ذلكِ. حان دورها الآن للعنايةِ بهِ.

نهضت آليانا على قدميها. آلمها جسدها، ولكن الألم الآن لم يكن بسوءِ ألمِ الليلةِ الماضيةِ. فكرت بما حدثَ في القلعةِ بعد مغادرتها. لا بدَّ أنَّ وليم وسائسه قد أنهيا إبريقَ النبيذِ في وقتٍ ما من الليلِ وناما، وقد يستيقظان بحلولِ شروقِ الشمس.

بحلولِ ذلكَ الوقت يجب أن تكون قد غادرت القلعة مع ريتشارد.

توجهت إلى الطرفِ المقابل للكنيسةِ، باتجاهِ المذبحِ. كان أشبه بصندوقٍ خشبي بسيطٍ مطلي بالأبيض، ويخلو من أيّ حُلي مرصّعة. اتكأت عليهِ ثمَّ وبحركةٍ مفاجئةٍ أزاحتهُ.

«ما الذي تفعلينهُ؟» قال ريتشارد بصوتٍ خائفٍ.

«هنا مخبأ والدنا السريّ»، قالت له. «أخبرني بأمرِهِ قبلَ أن يأخذوه». على الأرضيةِ تحتَ المذبحِ صُرَّةٌ قماشية. حلَّت آليانا الصُرَّةَ، وأخرجت سيفاً حقيقياً مع غمدِهِ وحزامِهِ وخنجراً حادَّاً بطولِ قدمٍ.

تقدَّم ريتشارد لينظرَ. لم يكن بارعاً في استخدامِ السيفِ؛ فعلى الرغمِ من أنَّه تعلَّمَ لعامٍ فإنَّه مازال أخرق. على أيِّ حالٍ لم يكن بوسعِ آليانا استخدامهُ، ولهذا ناولته إياه وثبَّت ريتشارد الحزامَ على خصرِهِ.

حملت آليانا الخنجرَ. لم تحمل سلاحاً يوماً فهناك من كان يحميها على الدوامِ، وعندما أدركت أنَّها بحاجةٍ إلى خنجرٍ حادٍ لحمايةِ نفسها باغتها شعورٌ مفاجئٌ باليُتمِ. لم تكن واثقةً من قدرتها على استخدامِهِ، وفكرت في نفسها أنَّها طعنت خنزيراً بريَّاً برمحٍ من قبلٍ فما الذي قد يمنعها الآن من طعنِ رجلٍ أو شخصٍ كوليم هاملي. تراجعت إلى الوراءِ خطوةً عندما فكرت بهذا.

كان للخنجرِ غِمدٌ جلدي مع حلقةٍ لتثبيتِهِ إلى حزامٍ. كانت الحلقةُ كبيرةً جداً، ويمكن أن تطوقَ خصرَ آليانا النحيل كسوار، فوضعتهُ على كتفها اليسرى، وأخفت النصلَ داخلَ الكُمِّ. كان الخنجر طويلاً، ووصلَ إلى مرفقها. إن لم يكن بوسعها طعنُ أحدٍ بهِ فإنها قد تتمكن من إخافتِهِ بهِ.

قال ريتشارد: «فلنهرب. بسرعةٍ».

أومأت آليانا برأسها ولكن في طريقها إلى البابِ توقفت. كان الضوءُ في الخارج يزدادُ قوةً بسرعةٍ، ورأت على أرضيةِ الكنيسةِ شيئين لم تلحظهما قبلاً. عندما أمعنت النظرَ رأت أنَّهما سرجان، أحدهما من الحجمِ العادي، وآخر ضخمٌ جداً، وفكرت أنَّ وليم وسائسه وصلا الليلةَ الماضيةَ منتشيين بالظفرِ الذي حقَّقاه في وينشستر ومتعبين من رحلتهما فألقيا السرجين بإهمالٍ هنا قبلَ أن يتوجها إلى القلعةِ. لم يفكرا قط في أنَّ أحداً قد يجرؤ على السرقةِ منهما، ولكن اليائسين سيجدون الشجاعةَ على فعلِ هذا.

توجهت آليانا إلى البابِ، وألقت نظرةً. كان الضوءُ في الخارج نقياً، ولكن ضعيفاً، ولم يكن هناك أيّة ألوانٍ. كانت الرياحُ قد توقفت، والسماءُ عادت صافيةً، وتساقطَت ألواحُ كثيرةٌ من سطحِ الكنيسةِ ليلاً. كان المُجمّعُ فارغاً إلَّا من جوادين يرعيان العشبَ الرطبَ. حدَّقَ الجوادان إلى آليانا ثمَّ طأطآ رأسيهما مجدداً. كان أحدُ الجوادين جواداً حربياً ضخماً، وهذا يفسرُ

سببَ وجودِ سرجٍ ضخمٍ، أمَّا الآخر فكان فحلاً أرقش، ورغمَ أنَّه لم يكن جميلاً فإنَّه كان مُكتنزاً وقوياً. حدَّقت آليانا إليهما ثمَّ إلى السرجين ثمَّ إلى الجوادين مجدداً.

«ما الذي تنظرينه؟» قال ريتشارد بقلقٍ.

وهنا حسمت آليانا قرارها وقالت بحزمٍ: «فلنأخذ الجوادين».

بدا ريتشارد مرتعباً وقال: «سيقتلاننا».

«لن يكون بوسعهما الإمساك بنا. إن لم نأخذ جواديهما فسيلحقان بنا ويقتلاننا».

«ماذا لو أمسكا بنا قبلَ أن نتمكن من الهرب؟»

«إذاً علينا أن نسرع»، قالت بثقةٍ لم تشعر بها حقاً، ولكنها نجحت في تشجيعِ ريتشارد. «لنُسرج الجواد الأرقش أولاً فهو يبدو ودوداً. أحضر السرج العادي».

ركضت عبرَ المجمعِ، واكتشفت أنَّ كلا الجوادين مربوطان إلى جذعين خشبيين لمبنيين مُحترقين. أمسكت آليانا بلجامِ الجوادِ الأرقشِ، وسحبتهُ بلطفٍ. لا بدَّ أنَّه جوادُ السائسِ. كانت آليانا تفضلُ لو أنَّه كان جواداً أصغر، وأكثر وداعةً، ولكنها رأت أنَّها تستطيع السيطرة عليهِ. سيتعين على ريتشارد امتطاء جوادِ الحربِ.

نظرَ الجواد الأرقشُ إلى آليانا في ريبةٍ، وأرجعَ أذنيهِ إلى الوراءِ مُستنفراً. كانت يائسةً ومستعجلةً جداً، ولكنها أجبرت نفسها على التحدثِ بلطفٍ، وجذبت عنانَ الجواد بلطفٍ فهدأ الجوادُ. أمسكت آليانا برأسهِ، وداعبت أنفهُ ثمَّ ثبتَ ريتشارد اللجام ووضعَ الشكيمةَ في فمهِ. شعرت آليانا بالراحةِ، ورفعَ ريتشارد أصغرَ السرجين، ووضعه على ظهرِ الجوادِ ثمَّ أحكمه بحركاتٍ سريعةٍ وواثقةٍ. كانا معتادين على الجيادِ منذُ نعومةِ أظفارهما.

وجدت آليانا كيسين مُعلقين بسرجِ جوادِ السائس، وأملت أن يحتويا على شيءٍ مفيدٍ: حجر صوان، وبعض الطعامِ، والقليل من الحبوبِ من أجلِ الجوادين، ولكن لم يكن هناك وقتٌ لتفقدِ ما فيهما. حدَّقت بقلقٍ إلى الجسرِ الذي يُفضي إلى القلعةِ. لم يكن هناك أحدٌ.

راقبَ الجوادُ الحربي الجوادَ الآخر وهو يُسرج، وعلمَ ما الذي سيحدث الآن، ولكنه لم يكن مستعداً للتعاون مع غريبين عنه فشخرَ، وقاومَ الحبلَ. «صمتاً!» قالت آليانا ثمَّ جذبت الحبلَ، وسحبته بثباتٍ إلى أن تحرَّك الجوادُ نحوها على مضضٍ، ولكنه كان قوياً ومصمماً على المقاومةِ، وهذا يعني أنَّ المتاعب قد تقع. تساءلت في نفسها إن كان الجواد الأرقش قادراً على حملها هي وريتشارد، ولكن هذا يعني أنَّ وليم سيلحق بهما على جوادهِ الحربي.

عندما اقتربَ الجوادُ منها لفَّت الحبلَ حولَ جذعٍ كيلا يبتعد، ولكن عندما حاولَ ريتشارد وضعَ اللجامَ هزَّ الجواد رأسهُ وتفاداه.

«حاول وضعَ السرج أولاً»، قالت آليانا. تحدَّثت إلى الجوادِ الضخم، وربتت على عنقهِ المهيب بينما رفعَ ريتشارد السرجَ الضخم وأحكمهُ. يبدو أنَّ الجواد في نهاية المطاف قد استسلمَ بطريقةٍ ما. «والآن، فلتُحسن التصرفَ»، قالت آليانا بصوتٍ حازمٍ، ولكن الجواد لم يُخدع بهذا؛ فقد شعرَ بالخوفِ الكامنِ تحتَ ظاهرِ الحزمِ التي تحدثت بهِ. تقدَّم ريتشارد حاملاً اللجامَ فشخرَ الجواد، وحاولَ الهروب. «لدي شيءٌ لكَ»، قالت آليانا ووضعت يدها في جيبها، وخُدعَ الجواد بحركتها. أخرجت يدها فارغةً، ولكن الجوادَ أخفضَ رأسه، وتشممَ اليدَ باحثاً عن الطعامِ، وشعرت بسطحِ لسانهِ الخشنِ على باطنِ يدها. وبينما كان رأسُ الجوادِ بهذهِ الوضعيةِ وفمهُ مفتوحاً مررَ ريتشارد الشكيمةَ، وأحكم اللجام.

ألقت آليانا نظرةً خائفةً أخرى نحو القلعةِ. ولكن كلّ شيءٍ كان هادئاً.

«اصعد»، قالت لريتشارد.

وضعَ ريتشارد قدمهُ على الرّكابِ، ورفعَ نفسه بجُهدٍ ثمَّ جلسَ على ظهرِ الجوادِ الضخمِ. فكَّت آليانا الحبلَ المربوط إلى الجذعِ.

وصهلَ الجوادُ بصوتٍ عالٍ.

شعرت آليانا بقلبها يخفق بسرعةٍ من شدةِ الخوفِ. لا بدَّ أن الصوتَ قد وصلَ إلى القلعةِ. إنَّ رجلاً كوليم سيميزُ صهيلَ جوادهِ، خاصةً إن كان جواداً باهظَ الثمنِ كهذا الجوادِ، وربما أيقظه الصوتُ.

هرعت نحو الجوادِ الآخر، وحلَّت العقدةَ. أثارَ احتمال استيقاظ وليم على صوت صهيلِ جوادهِ توترها. سيفتح عينيهِ، ويجلس ثمَّ سينظر من حولهِ،

ويتذكر أين هو ويتساءل في نفسهِ عن سببِ صهيلِ جوادهِ. سيأتي لتفقدهِ دونَ أدنى شكٍ، وشعرت أنَّها غير قادرة على رؤيةِ وجههِ مجدداً، واستعادتَ بهلعٍ الفعلَ المُخزي والوحشي والمؤلم الذي قامَ بهِ البارحةَ معها.

حثَّها ريتشارد قائلاً: «هيا يا آلي!» فقد غدا جوداهُ هائجاً وجزعاً، وكان يحاول تهدئتهُ بجدٍ. كان عليهِ أن يجعلهُ يعدو لميلٍ أو اثنين إلى أن يتعب، وعندها سيصبحُ مطواعاً أكثر. صهلَ الجوادُ مجدداً، وبدأ يتحركُ جانبياً.

وأخيراً نجحت آليانا في حلِّ العقدةِ. شعرت بإغراءِ رمي الحبلِ، ولكن إن فعلت هذا فلن تتمكن من ربطِ الجواد مجدداً، ولهذا لفتهُ بسرعةٍ كيفما اتفقَ ثمَّ ربطتهُ إلى سيرِ السرجِ. كانت بحاجةٍ إلى تعديلِ الركابِين فقد كانا مناسبين لمرافقِ وليم الذي كان أطول منها ببضعة إنشاتٍ، وهذا يعني أنَّهما سيكونان منخفضين، ولن تصلهما قدماها عندما تجلس على السرجِ، ولأنَّها لم تكن قادرةً على تخيلِ وليم يهبطُ الدرجَ، ويعبر القاعةَ ويخرج...

«لم يعد بإمكاني تثبيتُ هذا الجواد أكثر»، قال ريتشارد بصوتٍ متوترٍ.

كانت آليانا مهتاجةً كجوادِ الحربِ. رفعت نفسها على ظهرِ الفحلِ الأرقشِ، وآلمها الجلوسُ على السرجِ. كان ألماً من الداخلِ. ولكنها بذلت قصارى جهدها للبقاءِ على صهوتهِ. تحرَّكَ ريتشارد بجوادهِ نحو البوابةِ، ولحقَ بهِ جوادُ آليانا من دون أن تحثهُ. وتماماً كما توقعت آليانا فلم تصل قدماها إلى الركابين، ولهذا كان عليها أن تُثبت نفسها بشدِّ ركبتيها. عندما انطلقا سمعت صرخةً قادمةً من مكانٍ ما خلفها وزمجرت عالياً: «أوه، لا»، ثمَّ رأت ريتشارد يركلُ جوادهُ فانطلقِ الحيوانُ بسرعةٍ، ولحقَ بهِ جوادها. شعرت بالسعادةِ والامتنانِ لأنَّ جوادها يقوم بما يقوم بهِ جوادُ الحربِ؛ فهي لم تكن في وضعيةٍ تسمحُ لها بالتحكمِ بنفسها. ركلَ ريتشارد الجوادَ الحربي فأسرع أكثر وهما يعبران من تحتِ قنطرةِ البوابةِ. سمعت آليانا صرخةً أخرى أقرب، وعندما نظرت من فوقِ كتفيها رأت وليم وسائسه يركضان عبرَ المُجمعِ في إثرهما.

كان جوادُ ريتشارد متوتراً، ولكن حالما خرجَ، ورأى الحقول المفتوحة أمامهُ انطلقَ بسرعةٍ، واندفعَ فوقَ الجسرِ الخشبي المعلَّقِ. شعرت آليانا بشيءٍ يشدها من فخذها، ورأت من زاويةِ عينها يدَ رجلٍ ممتدةً باتجاهِ سيرِ

السرجِ، ولكن سرعان ما اختفت، وعلمت أنها وريتشارد قد هربا. غمرها شعورٌ بالراحةِ، ولكن شعور الألمِ عاودها مجدداً. اندفعَ جوادها عبرَ الحقلِ، وشعرت بألمٍ كالطعنةِ في داخلها، تماماً مثل ذلكَ الألم الذي شعرت به عندما اخترقها وليم، ورأت خيط دم دافئ على فخذها. حثَّت الجواد، وأطبقت عينيها بقوةٍ على الألم، ولكن أهوالَ الليلةِ السابقةِ عادت إليها، ورأتها تمرُّ كشريطٍ وراءَ جفنيها المُطبقين، وخلالَ عبورها الحقلَ أخذت تغني مع إيقاعِ وقعِ حوافرِ الجوادِ: «لا أتذكر. لا أتذكر. لا، لا، لا».

مالَ جوادها إلى اليمين قليلاً، وشعرت أنَّه يصعد مرتفعاً بسيطاً. فتحت عينيها، ورأت ريتشارد يتجنبُ بركةَ وحلٍ، ويأخذ طريقاً طويلاً إلى الغابةِ. فكرت أنَّه على الأغلب يريدُ الحرصَ على أن يصبحَ جوادُ الحربِ مطواعاً ومتعباً بما يكفي قبلَ أن يجعلهُ يُبطئ. سيكون التحكم بكلا الجوادين أسهل بعدَ عدو سريعٍ، وسرعان ما شعرت أنَّ جوادها يُبطئ فأرخت ظهرها إلى الوراءِ على السرجِ. بدأ الجواد يخبُّ ثمَّ يجري ويخبُّ ويسير. مازال لدى جواد ريتشارد طاقةٌ ليحرقها، ولذلكَ انطلقَ يعدو بسرعةٍ.

نظرت آليانا وراءها عبرَ الحقولِ. باتت القلعةُ الآن على بُعدِ ميلٍ، ولم تكن واثقةً من أنَّها تستطيعُ رؤيةَ خيال الشخصين الواقفين على الجسرِ المتحركِ ينظران إليها. فكرت أنَّ عليهما قطع مسافةٍ طويلةٍ كي يجدا جوادين بديلين، وشعرت بالأمانِ، للآن على الأقل.

شعرت بوخزٍ في يديها وقدميها عندما دبَّ الدفءُ فيهما؛ فقد صعدت الحرارةُ من جسدِ الجوادِ إليها كالنارِ، وغلفتها في شرنقةٍ هوائيةٍ ساخنةٍ، وأخيراً سمحَ ريتشارد لجوادهِ بالإبطاءِ، واستدارَ نحوها بينما جوادهُ يسير وهو يتنفسُ بصعوبةٍ. استدارا باتجاهِ الأشجارِ؛ فقد كانا يعرفان الغابةَ جيداً لأنهما عاشا هنا معظمَ حياتهما.

«إلى أين سنذهب؟» سألَ ريتشارد.

اكفهرَّ وجه آليانا، وفكرت بالسؤالِ. إلى أين سيذهبان الآن؟ لم يكن لديهما طعامٌ، أو شراب أو مال. لم يكن لديهما أيُّ ثيابٍ باستثناءِ العباءةِ التي كانت ترتديها: لا سترة ولا قميصٌ داخلي، ولا قبعة ولا حذاء. أرادت العنايةَ بشقيقها، ولكنها لا تعلم السبيل إلى ذلكَ.

رأت الآن أنَّها كانت تعيش في حلمٍ طوال هذهِ الأشهر الثلاثة الأخيرة، وأنَّ الحياةَ القديمة التي عاشتها قد انتهت، ولكنها رفضت مواجهة الأمرِ إلى أن أيقظها وليم هاملي من هذا الحلم. لم يكن لديها أدنى شكٍ في أنَّ وليم لم يكذب عليها عندما قال لها إنَّ الملك ستيفن قد نصَّب بيرسي هاملي إيرلاً على شايرنغ، ولكن قد يكون هناك ما يمكن فعلهُ حيال الأمرِ. ربما تركَ الملكُ لها ولريتشارد حصَّةً. إن لم يكن قد فعلَ هذا فيجب عليهِ أن يفعل، ويمكنهما الالتماس إليهِ. في كلتا الحالتين عليهما التوجه إلى وينشستر، فعلى الأقل يمكنهما معرفةُ ما حدثَ لوالدهما هناك.

وفجأة خطرَ ببالها: «يا أبتاه، أين ساءت الأمور؟»

منذُ وفاةِ والدتها ووالدها يوليها عنايةً خاصَّةً. علمت أنَّه اهتمَّ بها أكثر مما قد يفعلُ أيُّ أبٍ لابنتهِ، وشعرَ بالسوءِ لأنَّه لم يتزوج مرَّةً ثانيةً، ويجلب لها أمَّاً ثانيةً، وقال لها إنَّه أكثر سعادةً بحياتهِ مع ذكرى زوجتهِ بدلاً من العيش مع زوجةٍ بديلةٍ. على أيِّ حالٍ لم تكن آليانا راغبةً بوالدةٍ أخرى؛ فقد اعتنى بها والدها، وهي بدورها اهتمّت بريتشارد، وبهذهِ الطريقةِ لم يتعرض أحدٌ إلى أذى.

ولكن تلكَ الأيام ولَّت منذُ زمنٍ بعيدٍ.

«إلى أين سنذهب؟» سـأل ريتشارد مجدداً.

«إلى وينشستر»، قالت له. «سنذهب لمقابلةِ الملكِ».

كان ريتشارد متحمساً جداً. «أجل! عندما نخبره بما فعله وليم وسائسه الليلةَ الماضية، لا بدَّ أنَّ الملك...»

وهنا لم تعد آليانا قادرةً على لجمِ غضبها العظيم وصرخت بريتشارد: «فلتخرس!» بوغتَ الجوادان وتوترا. جذبت لجام جوادها بعنفٍ وقالت: «لا تقل هذا البتة!» كانت تختنقُ من الغضبِ، وبالكادِ خرجت الكلمات من فمها. «لن نخبر أحداً أبداً بما فعلاه البارحة. لا أحد. أبداً! أبداً! أبداً!»

***

وجدا داخل كيسي السرجِ قطعةً كبيرةً من الجبنِ القاسي، وبقايا نبيذ في زقٍ جلدي، وحجر صوان، ومادةً لإضرام النارِ بسرعةٍ، وكما توقعت آليانا، باونداً أو اثنين من الحبوبِ المخلوطةِ من أجلِ الأحصنةِ. ظُهراً تناولا بعضَ

الجبن، وشربا النبيذ، وعندما كان الجوادان يرعيان الأعشاب المتناثرة ومن شجيراتٍ دائمةِ الخضرةِ شربا من جدولٍ عذبٍ قريبٍ. توقفَ نزيفها الآن، وشعرت بخدرٍ أسفلَ جذعها.

كانا قد رأيا بعضَ المسافرين، ولكن آليانا طلبت من ريتشارد ألا يتحدث إلى أحدٍ. للمراقب العادي كانا يبدوان كزوجين قويين، خاصةً ريتشارد على جوادِهِ الضخم وسيفِهِ، ولكن بعدَ حديثٍ سريعٍ ستنكشف حقيقة أنهما مجرَّد طفلين، ولا أحد معهما للاعتناء بهما، مما يعني أنَّهما ضعيفان، ولذلك تجنبا الناس الآخرين.

عندما بدأ ضوءُ النهار يخفتُ بحثا عن مكانٍ لقضاءِ الليلةِ. وجدا فسحةً بين الأشجارِ قربَ جدول ماءٍ عذبٍ يبعد عن الطريق الرئيسي مئةَ ياردةٍ تقريباً. قدَّمت آليانا بعضَ الحبوبِ للجوادين بينما أشعلَ ريتشارد النار. لو كان بحوزتهما قدرٌ لحضّرا العصيدة باستخدامِ علفِ الجوادين، ولكن ليسَ أمامهما الآن سوى مضغ الحبوبِ النيئةِ ما لم يعثرا على بعضِ ثمارِ كستناء حلوة وشيّها.

وبينما كانت آليانا تفكرُ بهذا وريتشارد قد ابتعدَ في بحثِهِ عن الحطبِ أخافها صوتٌ عميقٌ قريبٌ منها: «ومن تكونين يا حلوتي؟»

صرخت آليانا، وجفلَ الجوادُ مرتعباً. استدارت آليانا، ورأت رجلاً ملتحياً قذراً في رداءٍ جلدي بني اللون. تقدَّم منها الرجلُ خطوةً فصرخت: «ابتعد عني!»

«لا تخافي مني»، قال لها.

ومن زاويةِ عينها رأت ريتشارد يتقدم وراءَ الرجلِ الغريب مع حملٍ من الحطبِ. وقفَ ينظرُ إلى آليانا والرجل وفكرت آليانا: «فلتسحبِ السيفَ!» ولكنه بدا خائفاً ومتردداً حيالَ القيامِ بأيِّ شيءٍ. تراجعت إلى الوراءِ في محاولةٍ لجعلِ الجوادِ يفصلُ بينها وبين الرجلِ الغريب. «لا نملكُ مالاً»، قالت له. «لا نملكُ شيئاً».

«أنا حارس الغابةِ الملكي»، قال لها.

كادت آليانا تنهار أرضاً من الراحةِ. كان الحارسُ موظفاً ملكياً يتلقى راتباً لفرضِ قوانين الملكِ الخاصةِ بالغابةِ.

«لمَ لم تقل هذا أيّها الرجل الأحمق؟» قالت له في غضبٍ لأنَّه أخافها. «اعتقدت أنَّك خارج عن القانونِ».

بوغتَ بما قالتهُ، بل بدا مستاءً كأنَّها تفوهت بشيءٍ وقحٍ إلا أنَّه اكتفى بالقولِ: «لا بدَّ أنَّكِ امرأةٌ نبيلةٌ».

«أنا ابنةُ إيرل شايرنغ».

«والفتى ابنهُ»، قال الحارسُ رغمَ أنَّه بدا كأنَّه لم يلحظ ريتشارد.

تقدَّم ريتشارد إلى الأمامِ الآن، ووضعَ حِملَ الحطبَ أرضاً.

«هذا صحيح»، قال ريتشارد. «ما اسمكَ؟»

«بريان. هل تخططان لقضاءِ الليلةِ هنا؟»

«أجل».

«لوحدكما؟»

«أجل». علمت آليانا أنَّ الحارس تساءل في نفسهِ عن سببِ عدمِ وجودِ مرافقةٍ معهما، ولم تكن تنوي إخباره بالسببِ.

«ولا تملكان المالَ كما فهمت».

عبست آليانا في وجههِ وقالت: «هل تشكُّ في كلامي؟»

«أوه لا، عرفتُ من سلوككِ أنَّكما من النبلاء». وتساءلت آليانا في نفسها إن كان في صوتِ الرجلِ شيءٌ من السخريةِ. «إن كنتما وحدكما وبلا مالٍ فقد تفضلان المبيتَ هذهِ الليلة في منزلي. إنَّه ليسَ ببعيدٍ عن هنا».

لم تكن آليانا تنوي وضع نفسها تحتَ رحمةِ هذا الشخصِ الفظِّ، وعندما كانت على وشكِ الرفضِ تحدَّثَ مجدداً: «ستُسر زوجتي بتقديم العشاء لكما، ولدي كوخٌ خارجي يمكنكما المبيت فيهِ إن كنتما تفضلان النومَ وحدكما».

وجودُ زوجةٍ غيرَ حساباتِ آليانا؛ فالمبيت في كنفِ عائلةٍ آمنٌ كفايةً، ولكن آليانا بقيت مترددةً، ثمَّ فكرت بمدفأةٍ وصحنٍ من العصيدةِ الحارَّةِ، وكوبٍ من النبيذ، وسريرٍ من القشِّ، وسقفٍ فوقه. «سنكون ممتنين لكما على هذا»، قالت آليانا. «لا نملكُ أيَّ شيءٍ لنقدمه لكما. أخبرتكَ بالحقيقةِ عندما قلتُ لكَ إنني لا أملكُ مالاً، ولكن في يومٍ من الأيام سنعود ونكافئكما».

«هذا جيدٌ كفايةً»، قال الحارس، وتوجه إلى النارِ، وأطفأها بقدمهِ.

امتطت آليانا وريتشارد جواديهما اللذين مازالا بسرجيهما. تقدَّم الحارس

وقال: «ناولاني الرسنَ»، ودونَ أن توفق في التفكير بسببِ لقولهِ هذا قدَّمت آليانا الرسنَ، وكذلكَ فعلَ ريتشارد. انطلقَ الرجلُ عبرَ الغابةِ يقودُ الجوادين. كانت آليانا تفضلُ لو أنَّها أمسكت بالرسنِ بنفسها، ولكنها قررت أن تسمحَ له بفعل ما يحلو له.

كان المنزلُ أبعد مما قال لهما الحارسُ، وقطعوا قرابةَ الثلاثةِ أو الأربعةِ أميالٍ، وكان الظلام قد حلَّ بحلولِ الوقتِ الذي وصلوا فيهِ إلى منزلٍ خشبي صغير بسقفٍ من القشِّ على أطرافِ حقلٍ، ولكن من مصاريع النوافذِ تسللَ ضوءٌ، ورائحةُ طعامٍ يُطبخ. ترجّلت آليانا عن جوادها بفرحٍ.

كانت زوجةُ الحارسِ قد سمعت صوتَ الجوادين فتوجهت إلى البابِ. قال الرجل لها: «سيدٌ وسيدةٌ شابان وحدهما في الغابةِ. قدّمي لهما شراباً»، واستدارَ نحو آليانا وقال: «فلتدخلي، وسأعتني بالجوادين».

لم تستلطف آليانا لهجتهُ الآمرة، وفضّلت أن تكون من يوجه التعليمات، ولكن لم يكن لديها أدنى نية في إزالةِ السرجِ عن جوادها، ولهذا دخلت، ولحقَ بها ريتشارد. رغمَ أنَّ الجو داخلَ المنزلِ كان ضبابياً وعابقاً بالروائحِ غيرَ أنَّه كان دافئاً، وهناك في الزاويةِ بقرةٌ مربوطةٌ. سُرَّت آليانا عندما أخبرها الرجلُ بوجودِ كوخٍ جانبي فهي لم تنم بجوارِ بقرةٍ من قبل. كان هناكَ قدرٌ يغلي فوقَ النار. جلست آليانا وريتشارد على المقعدِ، وسكبت الزوجة لكل واحد منهما حساءً من القدرِ. كان طعمهُ قوياً. عندما رأت الزوجة وجهَ ريتشارد في الضوءِ صُدمت وسألته: «ما الذي حدثَ لكَ؟»

فتحَ ريتشارد فمهُ ليجيب ولكن آليانا سبقتهُ قائلةً: «لقد واجهتنا سلسلةٌ من الأحداثِ المؤسفةِ، فقد كنا في طريقنا لمقابلةِ الملكِ».

«فهمتُ»، قالت الزوجة التي كانت امرأةً سمراء وضئيلةً وحذرةً، ولم تمعن في طرحِ المزيدِ من الأسئلةِ.

تناولت آليانا حساءها، وأرادت المزيد فرفعت وعاءها، ولكن المرأة أشاحت بنظرها، وأثارَ هذا حيرةَ آليانا. ألم تعلم ما الذي أرادتهُ آليانا؟ أو لم يكن لديها المزيد؟ كانت آليانا على وشكِ التحدث إليها بلهجةٍ قاسيةٍ عندما دخلَ الحارسُ وقال: «سأريكما الحظيرةَ حيث يمكنكما النومُ»، ثمَّ أخذَ مصباحاً من على الخطافِ قربَ البابِ. «فلترافقاني».

نهضت آليانا وريتشارد، وقالت آليانا للزوجةِ: «هناك شيءٌ آخر أحتاجهُ. هل يمكنكِ أن تعطيني ثوباً قديماً؟ فأنا لا أرتدي شيئاً تحتَ العباءةِ».

لسببٍ ما بدت المرأة منزعجةً، ودمدمت: «سأرى ما الذي يمكنني فعلهُ».

توجهت آليانا إلى الباب. كان الحارس يرمقها بنظرةٍ غريبةٍ، ويحدّقُ بإمعانٍ إلى عباءتها كأنَّه يتخيلُ ما يوجد تحتها.

«فلتتقدم!» قالت بحزمٍ فاستدارَ الحارس وعبرَ البابَ.

قادهما عبرَ حديقةِ خضرواتٍ إلى القسم الخلفي للمنزلِ، وكشفَ ضوءُ المصباحِ المتذبذب عن بناءٍ خشبي صغير أقرب للكوخِ منهُ للحظيرةِ. فتحَ الحارس البابَ فارتطمَ ببرميلٍ لجمعِ مياه المطرِ من السقفِ.

«ألقيا نظرةً»، قالَ الرجلُ. «إن كان يناسبكما».

دخلَ ريتشارد أولاً وقال لها: «أحضري الضوءَ يا آلي». استدارت آليانا لتأخذَ المصباحَ من الحارسِ، وبينما كانت تفعلُ هذا دفعها الحارسُ دفعةً قويةً. سقطت جانباً عبرَ المدخلِ باتجاهِ الحظيرةِ، ودفعت بأخيها إلى الداخلِ، وانتهى الأمر بكليهما مكومين على الأرضيةِ ثمَّ حلَّ الظلام، وأُغلقَ البابُ. سمعا ضجةً غريبةً في الخارجِ كأنَّ شيئاً ثقيلاً يتحرَّك أمامَ البابِ.

لم يكن بوسعِ آليانا تصديق ما حدث.

«ما الذي يجري يا آلي؟» صرخَ ريتشارد.

جلست آليانا مفكرةً. هل كان هذا الرجلُ حارساً، أم خارجاً عن القانونِ؟ لا يمكن أن يكون خارجاً عن القانون فمنزلهُ حقيقي، ولكن إن كانَ حارساً فلماذا سجنهما؟ هل خرقا القانونَ؟ هل تكهنَ أنَّ الجوادين ليسا لهما؟ أم لديهِ دافعٌ قذرٌ؟»

«آلي، لماذا فعلَ هذا؟» قال ريتشارد.

«لا أعلم»، قالت له بنزقٍ لعجزها الآن عن الشعور بالحزنِ أو بالغضبِ. نهضت، وبدأت تدفعُ البابَ، ولكنه لم يتحرك فتكهنت أنَّ الحارس وضعَ البرميلَ وراءَهُ. في الظلامِ تحسست جدرانَ الحظيرةِ، وكان بوسعها لمسُ السقفِ المائلِ أيضاً. كان المكان مبنياً بعنايةٍ من ألواحِ الخشبِ المرصوصةِ. هذا سجنُ الحارس حيثُ يحتفظُ بالمعتدين قبلَ أخذهم إلى المأمور.

«لا يمكننا الخروج»، قالت له.

جلست أرضاً. كانت الأرضُ جافةً، ومغطاة بالقشِّ. «إننا عالقان هنا إلى أن يسمح لنا بالخروجِ»، قالت في استسلامٍ. جلسَ ريتشارد بجانبها، وبعدَ برهةٍ استلقيا، وظهر كل منهما للآخر. شعرت آليانا بالعجزِ عن النوم. كانت محطمةً، وخائفةً، ومتوترةً جداً، ولكنها أيضاً كانت متعبةً، وخلالَ دقائق معدودةٍ استسلمت لنومٍ شافٍ.

***

عندما فُتحَ الباب، وسقطَ ضوءُ النهارِ على وجه آليانا استيقظت وجلست على الفورِ من الخوفِ. لم تتذكر أين كانت، ولا سببَ نومها على أرضيةٍ صلبةٍ، ثمَّ تذكرت ما حدثَ البارحة، وتملَّكها الرعبُ. ما الذي سيفعله الحارس بهما؟ على أيِّ حالٍ لم يكن الحارس من فتحَ البابَ بل زوجتهُ السمراء والضئيلةُ، ورغمَ أنَ وجهها مازال يبدو صارماً وحذراً كما في الليلةِ الفائتةِ فإنَّها حملت قطعةً كبيرةً من الخبزِ، وكوبين.

جلسَ ريتشارد أيضاً، ونظرا إلى المرأةِ بحذرٍ. لم تقل لهما شيئاً بل قدَّمت لكلٍّ واحدٍ منهما كوباً ثمَّ قطعت الخبزَ إلى نصفين، وأعطت لكلٍّ منهما نصفاً. فجأةً أدركت آليانا أنَّها تتضور جوعاً فغمست خبزها في الجعةِ، وبدأت تأكل.

وقفت المرأة عندَ البابِ تراقبهما إلى أن انتهيا من تناولِ الخبزِ والجعةِ ثمَّ قدَّمت لآليانا قطعةً مطويةً من قماش كتاني أصفر رثٍ. أفردت آليانا القطعةَ، ورأت أنَّها ثوبٌ قديمٌ.

قالت المرأة: «ارتدي هذا، وغادرا المكان».

أربكَ هذا المزيج بين اللطفِ والكلماتِ القاسيةِ آليانا غيرَ أنَّها لم تتردد في أخذِ الثوبِ. التفتت إلى الوراءِ، وخلعت عباءتها ثمَّ ارتدت الفستان بسرعةٍ، ووضعت العباءةَ عليها مجدداً.

وشعرت أنَّها الآن أفضل.

قدَّمت لها المرأةُ أيضاً زوجاً من القباقبِ، وكانا كبيرين.

قالت آليانا: «لا يمكنني الركوب، وأنا أرتدي القبقاب».

ضحكت المرأة بقسوةٍ وقالت: «ولكنكَ لن تركبي جواداً».

«لِم لا؟»

«لقد أخذَ الجوادين».

غارَ قلبُ آليانا في صدرها، وشعرت أنَّه لمن الظلمِ أن يُقاسيا المزيد من الحظِّ العاثر.

«إلى أين أخذهما؟» سألتها.

«لا يخبرني بمثلِ هذهِ الأمورِ، ولكن أعتقد أنَّه ذهبَ إلى شايرنغ. سيبيع الجوادين ثمَّ سيستقصي عن هويتكما، وما إن كنتما تساويان أكثر من مجردِ ثمنِ الجوادين».

«ولماذا تسمحين لنا بالهربِ؟»

رمقت المرأة آليانا بنظرةٍ فاحصةٍ من رأسها إلى قدميها وقالت: «لأنني لم أحب الطريقةَ التي نظرَ فيها إليكِ عندما أخبرتهِ أنَّكِ عارية تحتَ عباءتكِ. قد لا تفهمين هذا الآن، ولكنكِ ستفهمينهُ عندما تصبحين زوجةً».

آليانا فهمت ما رمت إليه المرأة، ولكنها آثرت عدمَ التفوه بشيءٍ.

قال ريتشارد: «ألن يقتلكَ إن اكتشفَ أنَّكِ سمحتِ لنا بالهرب؟»

أطلقت ضحكةً ساخرةً وقالت: «إنَّه لا يخيفني كما يخيفُ الآخرين. فلتُغادرا الآن».

خرجا من الحظيرةِ، وفهمت آليانا الآن أنَّ هذهِ المرأة تعلَّمت كيف تعيش مع رجلٍ متوحش وقاسٍ، ونجحت في الحفاظ على الحدِّ الأدنى من اللياقةِ والتعاطفِ.

«شكراً لكِ على الثوبِ»، قالت آليانا بإرباكٍ.

لم ترد المرأة شكرها واكتفت بالإشارةِ إلى طريقٍ ثمَّ قالت: «وينشستر من هذا الطريق».

سارا ولم ينظرا إلى الخلف.

لم تنتعل آليانا قبقاباً من قبلٍ؛ لأنّ الناس من طبقتها ينتعلون أحذية أو صنادل جلدية، ولذلكَ وجدتهما غير مُتقنَي الصنعِ ومزعجين. على أيِّ حالٍ كان المشي بهما على أرضٍ باردةٍ أفضل من المشي حافيةً.

عندما ابتعدا عن منزلِ حارسِ الغابةِ قال ريتشارد: «لمَ تحدثُ معنا مثلُ هذهِ الأمورِ؟»

عندما سمعته آليانا شعرت بالإحباطِ؛ فقد كان الجميع قساةً معهما، وسمحوا لأنفسهم بضربهما، وسرقتهما كأنَّهما حيوانان. لم يكن لديهما من يحميهما، وفكرت أنَّهما بالغا في الثقةِ بالآخرين. عاشا في القلعةِ لثلاثة أشهرٍ دون حمايةٍ ومن دون حتى إيصاد البوابات، وعزمت آليانا على عدمِ الثقةِ بأحدٍ بعدَ الآن، ولا السماح لأحدٍ بإمساك لجام جوادها حتَّى وإن اضطرت إلى الرفضِ بوقاحةٍ. لن تسمحَ لأحدٍ أبداً أن يقف خلفها كما فعلَ الحارس البارحةَ عندما دفعها إلى داخلِ الحظيرةِ، ولن تقبلَ دعوةَ غريبٍ، ولن تترك بابها مفتوحاً ليلاً، ولن تفترض أنَّ اللطفَ على الوجوه نابعٌ من الداخلِ.

«لنتحرك بسرعةٍ»، قالت لريتشارد. «قد نصلُ إلى وينشستر قبلَ حلولِ الليلِ».

سارا على الطريقِ إلى الفسحةِ التي التقيا فيها بالحارسِ، وشاهدا بقايا النارِ التي أضرماها البارحة. ومن هناك تمكنا من أخذِ طريقِ وينشستر. في الماضي سافرا كثيراً إلى وينشستر؛ ولذلك يعرفان الطريقِ. عندما أصبحا على الطريق تحركا بسرعةٍ أكبر. كان الجليد قد جمَّد الطين بعد العاصفةِ التي هبَّت منذُ ليلتين.

كان وجه ريتشارد يتعافى؛ فقد غسلهُ البارحةَ في جدولِ ماءٍ باردٍ في الغابةِ، وأزالَ معظمَ الدمِ الجافِ عنه. كان هناكُ قشرةٌ قبيحةٌ فوقَ ما كان قبلاً شحمةَ أذنِهِ اليمنى، أمَّا شفتاه فما زالتا متورمتين، ورغم أنَّ الانتفاخ اختفى الآن فإنَّه مازال يبدو مرضوضاً جداً، ومنحهُ لون رضوضهِ الغامق مظهراً مرعباً، ولكن هذا لن يضير في شيءٍ.

شعرت آليانا بالحنينِ إلى حرارةِ الجوادِ تحتها، وشعرت بيديها وقدميها خدرةً بشكلٍ مؤلمٍ من شدةِ البرد رغمَ أنَّ جسدها كان دافئاً من المشي. بقي الطقسُ بارداً طوالَ فترةِ الصباح ثمَّ عندَ منتصفِ النهارِ ارتفعت درجةُ الحرارةِ قليلاً، وبحلولِ هذا الوقتِ بدأت تشعرُ بالجوعِ، وتذكرت أنَّها البارحة فقط شعرت أنَّها لا تهتم إن تدفأت، أو تناولت طعاماً مجدداً، ولكنها لم ترغب في التفكيرِ بالأمرِ.

كانا في كلِّ مرَّةٍ يسمعان فيها صوتَ جيادٍ، أو يريان أناساً في البعيد

يدخلان إلى الغابةِ، ويختبئان إلى أن يمرَّ المسافرون. عبرا القرى بسرعةٍ، ولم يتحدثا إلى أحدٍ. أرادَ ريتشارد أن يستجدي طعاماً، ولكن آليانا لم تسمح له.

في منتصفِ الظهيرة كانا على بعدِ عدةِ أميالٍ عن مقصدهما، ولم يزعجهما أحدٌ حتَّى الآن، وبينما كانت آليانا تفكرُ أنَّ الأمرَ لم يكن بهذهِ الصعوبةِ، وتماماً في رقعةٍ معزولةٍ من الطريقِ ظهرَ رجلٌ على حينِ غرَّةٍ من بين الشجيرات، ووقفَ أمامهما.

كان الوقتُ على الاختباء قد تأخر؛ ولذلكَ قالت آليانا لريتشارد: «تابع المشي»، ولكن الرجلَ تقدَّم، ووقف في طريقهما فاضطرا إلى التوقفِ. نظرت آليانا إلى الوراءِ، وهي تفكر بالركضِ هرباً في ذلكَ الاتجاهِ، ولكن رجلاً آخر خرجَ من الغابة، ووقفَ على بعدِ عشر أو خمس عشرة ياردةً لمنعهما من الهربِ.

«ما الذي لدينا؟» قال الرجلُ في المقدمةِ بصوتٍ عالٍ. كان رجلاً سميناً بوجهٍ محمرٍ، وبطنٍ كبيرٍ، ولحيةٍ مُلبَّدةٍ قذرةٍ، ويحملُ هراوةً ثقيلةً. لم يكن لديها أدنى شك الآن أنَّه خارجٌ عن القانون، وعندما أدركت أنَّه من النوع العنيف ملأ الفزعُ قلبها.

«دعنا وشأننا»، قال له بصوتٍ متضرعٍ. «فنحن لا نملكُ شيئاً لتسرقه».

«لستُ واثقاً تماماً»، قال الرجلُ وتقدَّم من ريتشارد. «يبدو هذا سيفاً باهظَ الثمنِ».

«إنَّه لي!» احتجَّ ريتشارد، ولكن بصوتٍ طفولي خائفٍ.

وفكرت آليانا في نفسها: «لا جدوى من هذا. إننا ضعيفان. أنا امرأة وهو صبي، ويمكن للناس فعل ما يحلو لهم بنا».

وبحركةٍ رشيقةٍ مفاجئةٍ رفعَ الرجلُ السمين هراوتَه، وضربَ ريتشارد. حاولَ ريتشارد تفادي الضربةِ الموجهةِ إلى رأسِه، ولكنها أصابته في كتفِهِ. كان الرجلُ السمين قوياً، وأوقعت الضربةُ ريتشارد أرضاً.

وهنا فقدت آليانا أعصابها. تلقت ما يكفي من الظُلمِ، وأُسيءَ إليها بأبشعِ الطرقِ، وتعرضت للسرقةِ، وها هي الآن تشعرُ بالبردِ والجوعِ، وبالكادِ قادرة على التحكمِ بنفسها. منذُ يومين فقط تعرَّض شقيقها إلى ضربٍ مبرحٍ حدَّ الموتِ، ولذلك عندما رأت أحدهم يضربهُ فقدت صوابها، وحسَّ المنطقِ

والحذرِ. ومن دونِ أن تفكرَ سحبت خنجرها من تحتِ كُمها، وركضت باتجاه الخارج عن القانون ثمَّ أغمدت السكين في بطنِهِ الكبير وهي تصرخ: «اتركهُ وشأنهُ أيّها الحيوان!»

باغتته تماماً.

عندما ضربَ الرجل ريتشارد كانت عباءته مفتوحةً ويمسكُ بالهراوةِ بكلتا يديهِ. بوغتَ تماماً بحركةِ آليانا، ولا شكَّ أنّه اعتقدَ أنّه في أمانٍ من أيِّ هجومٍ من قبلِ هذهِ الشابةِ التي تبدو مسالمةً. اخترقَ رأسُ الخنجرِ سترةَ الرجلِ، وقميصهُ الكتاني الداخلي إلّا أنَّ جلدَ بطنِ الرجلِ المشدود أوقفهُ. شعرت آليانا بموجةِ تقززٍ، ولوهلةٍ تملكها الرعبُ من فكرةِ أنّها جرحت جلداً بشرياً، واخترقت لحمَ شخصٍ حقيقي، ولكن الخوفَ متّنَ عزمها؛ فدفعت بالخنجرِ عبرَ جلدهِ، وإلى داخل أعضاءِ بطنِهِ، وهنا شعرت بالخوفِ من ألا تكون ضربتها قاتلةً، ويبقى حيّاً، وينتقم منها، ولهذا استمرَّت بدفعِ الخنجرِ الطويلِ إلى الداخلِ إلى أن وصلت إلى المقبضِ، ولم يكن بالإمكان إدخالهُ أكثر.

وفجأة تحولَ الرجلُ المخيف والمتعجرف والقاسي إلى حيوانٍ مجروحٍ وخائفٍ. صرخَ الرجلُ من الألمِ، ورمى بهراوتهِ، ثمَّ حدّقَ إلى الخنجرِ في بطنِهِ، وهنا فهمت آليانا أنَّ الرجلَ علمَ أنَّ إصابته قاتلةٌ. سحبت يدها بسرعةٍ وهلعٍ. ترنحَ الخارج عن القانونِ إلى الوراءِ، وهنا تذكرت آليانا اللصَّ الآخرَ خلفها، وتملكها الرعبُ من أن ينتقم انتقاماً رهيباً لرفيقهِ الميتِ. أمسكت بمقبضِ الخنجرِ، وسحبته. كان الرجلُ السمين قد ابتعدَ عنها قليلاً، واضطرت إلى سحبِ السكين جانبياً، وشعرت بالخنجرِ يقطع أمعاءَ الرجلِ وهي تسحبهُ من بطنِهِ الكبيرِ. انبجسَ الدمُ كنافورةٍ على يدها، وصرخَ الرجلُ كحيوانٍ، ثمَّ وقعَ أرضاً. استدارت إلى الوراءِ والخنجرُ في يدها المُدماةِ، وواجهت الرجلَ الآخر. في هذهِ الأثناء كان ريتشارد قد نهضَ على قدميهِ، وسحبَ سيفهُ.

نقلَ اللصُ الآخر نظره بينهما وبين رفيقهِ المحتضرِ، ثمَّ ومن دونِ ترددٍ استدارَ وهربَ إلى الغابةِ.

راقبته آليانا في ريبةٍ. لقد أخافاه، ولم يكن بوسعهِ فعلُ شيءٍ.

نظرت آليانا إلى الرجلِ الممدّد على ظهرهِ أرضاً، وأمعائه الخارجة من

الجرحِ الكبير في بطنهِ. كانت عيناه مفتوحتين على اتساعهما، ووجهه ملتوياً من الألمِ والخوفِ.

لم تشعرْ آليانا بالراحةِ أو بالفخرِ لأنَّها دافعت عن نفسها وعن شقيقها من رجلين عنيفين، بل بالتقززِ والنفورِ من المشهدِ المريعِ.

لم يشعر ريتشارد بالتقززِ الذي شعرت به.

«لقد طعنتهِ يا آلي!» قال بصوتٍ حماسي وهستيري. «لقد دمرتهما».

نظرت آليانا إليهِ. كان يجب أن يتعلمَ درساً ولذلك قالت له: «اقتله».

حدَّق ريتشارد بها وقال: «ماذا؟»

«اقتلهُ»، كررت. «خلّصه من ألمهِ. أنهِ عليهِ».

«ولمَ أنا؟»

وتحدثت بلهجةٍ قاسيةٍ عن قصدٍ: «لأنكَ تتصرف كولدٍ، وأنا أحتاجُ إلى رجلٍ. لأنَّك لا تفعلُ شيئاً بالسيفِ سوى اللعبِ بهِ لعبةَ الحربِ، وعليكَ أن تبدأ في مكانٍ ما. ما خطبكَ؟ مما أنتَ خائف؟ إنَّه يحتضرُ بأيِّ حالٍ. لا يمكنه أن يؤذيكَ. استخدم السيف الآن كتدريبٍ. اقتلهُ!»

أمسكَ ريتشارد السيفَ بكلتا يديهِ، ولكنه بدا حائراً ثمَّ قال: «كيف؟»

صرخَ الرجلُ مجدداً.

وصرخت آليانا بريتشارد قائلةً: «لا أعلم كيف! اقطع رأسه أو اطعنه في قلبهِ! أيَّ شيءٍ لإسكاتهِ!»

لاحَ القلقُ على وجهِ ريتشارد، ورفعَ سيفَه ثمَّ أنزلهُ مجدداً.

قالت آليانا: «إن لم تفعل هذا أقسمُ بجميعِ القديسين أنني سأتركك وحدكَ. سأنهضُ في إحدى الليالي وأغادركَ، وعندما تستيقظ في صباحِ اليومِ التالي لن تجدني، وستكون وحدكَ. اقتلهُ!»

رفعَ ريتشارد سيفهُ مجدداً، ثمَّ وبما يدعو للدهشةِ توقفَ الرجلُ المحتضر عن الصراخِ، وحاولَ النهوضَ. استدار جانباً، ورفعَ نفسهُ على مرفقهِ. أطلقَ ريتشارد صرخةً، وكانت مزيجاً بين صرخةِ رعبٍ وصيحةِ حربٍ، وأنزلَ سيفهُ بقوةٍ على عنقِ الرجلِ المكشوفِ. كان السيف ثقيلاً وحادّاً فاخترقَ النصلُ نصفَ العنقِ السمين بقليل. انبجسَ الدمُ كنافورةٍ، ومال الرأسُ جانباً بشكلٍ مقززٍ ثمَّ انهارت الجثةُ أرضاً.

حدَّقت آليانا وريتشارد إلى الرجلِ، وشاهدا البخار يتصاعد من الدمِ الدافئ في هواءِ الشتاءِ البارِدِ. كانا مذهولين مما فعلاه، وفجأةً شعرت آليانا بالرغبةِ في الابتعادِ عن المكانِ، ولذلكَ بدأت تركضُ، ولحقَ بها ريتشارد.

توقفت عن الركضِ عندما عجزت عن الاستمرارِ، وأدركت وقتها أنَّها كانت تبكي طوال الوقت. سارت ببطءٍ، ولم تعد تبالي الآن حيال رؤيةِ ريتشارد لدموعها إلا أنَّ الأخيرَ بدا غير متأثرٍ.

ثمَّ تدريجياً بدأت تهدأ، وشعرت أنَّ القبقاب الخشبي يؤلمها فتوقفت وخلعتهُ، وسارت بقدميها العاريتين، وحملت القبقاب. سيصلان إلى وينشستر قريباً.

بعدَ برهةٍ قال ريتشارد: «نحن أحمقان».

«لماذا؟»

«ذلكَ الرجلُ الذي تركناه هناك. كان علينا أن نأخذَ جزمتهُ».

توقفت آليانا وحدَّقت في رعبٍ إلى شقيقها.

نظرَ إليها وضحكَ ضحكةً قصيرةً ثمَّ قال: «لا عيب في الأمرِ، صحيح؟»

– 2 –

عبرت آليانا البوابة الغربية لمدينةِ وينشستر مع هبوطِ الظلامِ، وشعرت بالأملِ يملأ قلبها مجدداً. عندما كانت في الغابةِ شعرت أنَّها قد تقتلُ دونَ أن يعرف أحدٌ ما حدث لها، ولكن ها هي تعود إلى حياةِ التحضرِ. بالطبع كانت المدينة مليئةً باللصوصِ والمجرمين، ولكنهم لا يستطيعون ارتكاب جرائمهم في وضحِ النهارِ، والإفلات من العقوبةِ. في المدينةِ قوانين تعاقبُ، أو تشوه، أو تعدم من يخرقها.

تذكرت أنَّها عبرت هذا الطريق مع والدها منذُ عامٍ أو أكثر. كانا وقتئذٍ على الجيادِ؛ والدها على جوادٍ أرقش بلونٍ كستنائي وعصبي جداً، وهي على جوادٍ جميل قصير القوائم. آنذاك ابتعدَ الناس عن طريقهما وهما يعبران الشوارع العريضة. كان لديهم منزلٌ جنوب المدينةِ، وعندما وصلا استقبلهما ثمانية أو عشرة خدم. كان المنزلُ نظيفاً وأرضيته مفروشة بطبقةٍ حديثةٍ من القشِّ، وجميع مواقدِهِ مشتعلةً. خلالَ إقامتهما ارتدت آليانا ثياباً جميلةً كلَّ

يوم؛ أثواباً من الكتانِ الفاخرِ، والحرير، والصوفِ الناعمِ، وجميعها مصبوغةٌ بألوانٍ جميلةٍ، والأحذية، والأحزمة مصنوعة من جلدِ البقرِ، وتزينت بدبابيس وأساور. كانت مهمتها الحرص على الترحيب الدائم بالزوار، والاهتمام بأيِّ ضيفٍ يزور الإيرل من خلالِ تقديم اللحمِ، والنبيذ للأثرياء، والخبز والجعة للفقراءِ، وإبتسامةً ومكاناً قربَ النارِ للجميع. كان والدها حريصاً على شكليات الضيافةِ، ولكنه شخصياً لم يكن ماهراً فيها، فقد وجدهُ الناسُ بارداً، ومتحفظاً، بل ومتغطرساً، ولكن آليانا عوضت عن هذا النقصِ.

احترمَ الجميعُ والدها، وزارتهُ عليةُ القومِ من أساقفةٍ، ورؤساءِ أديرة، ومأمورين، ومستشارين ملكيين، وبارونات البلاطِ. تساءلت في نفسها كيفَ سينظرُ إليها الآن كلُّ أولئكَ، وهي تخوض حافيةَ القدمين في أوحال وقذاراتِ الشارع الرئيسي ذاته، ولكن التفكيرَ بهذا لم يؤثر على تفاؤلها؛ فأهمُّ شيءٍ الآن هو أنَّها لم تعد ضحيةً. إنَّها الآن في عالم تحكمهُ قواعد، وقوانين، ولديها فرصة باستعادةِ السيطرةِ على حياتها.

مرَّا بالقربِ من منزلهما. كان فارغاً ومغلقاً؛ فعائلة هاملي لم تضع يدها عليهِ بعد، ولوهلةٍ شعرت آليانا بإغراءِ محاولةِ الدخولِ، وفكرت أنَّ المنزل منزلها، ولكنه بالطبعِ لم يكن كذلك، وقضاءُ الليلةِ فيه سيُذكرها بالحياةِ التي عاشتها في القلعةِ، وستعميها عن الحقيقةِ، ولذلك تجاوزته في حزمٍ.

كان الأمرُ الجيد الآخر في المدينةِ وجودُ ديرٍ فيها؛ فالرهبان يقدمون أمكنةً للمبيتِ لمن يطلبها. هذهِ الليلة قد تنام هي وريتشارد بأمانٍ، وعلى فراشٍ جافٍ.

عثرت على الكاتدرائيةِ، ودخلت إلى فناءِ الديرِ. كان هناك راهبان خلفَ منصةٍ يمرران الخبزَ القاسي والجعةَ إلى مئةِ شخصٍ أو أكثر. لم يخطر ببال آليانا وجودُ مثلِ هذا العدد من الناسِ ممن يستجدون الطعامَ والمبيت من الرهبان. انضمت هي وريتشارد إلى صفِّ المنتظرين، وفكرت في نفسها أنَّه من المذهلِ حقاً أنَّ الناس الذين عادةً ما يتدافعون من أجل طعامٍ مجاني يقفون بهدوءٍ وبانتظامٍ وهذا فقط لأنَّ راهباً طلبَ منهم هذا.

حصلا على عشائهما وتوجها إلى نُزل الضيوفِ. كان المبنى الخشبي أشبه بالحظيرة وغير مؤثث، ومضاءً بشكلٍ ضعيفٍ، وتفوح منه رائحةٌ قويةٌ

لأناسٍ كثرٍ محتشدين بعضهم قربَ بعض. جلسا على الأرضيةِ ليتناولا الطعام. كانت الأرض مفروشةً بنباتِ السمّارِ، ولكنه لم يكن طرياً جداً.

تساءلت آليانا في نفسها إن كان عليها أن تُطلعَ الرهبان على هويتها. قد يتذكرها رئيسُ الدير، وعادةً ما تحوي الأديرة الكبيرة على منزلٍ مخصصٍ للزوارِ النبلاء، ولكنها وجدت نفسها مترددةً حيال الأمرِ، وربما السببُ في هذا خوفها من التعرض إلى الطردِ، ولكنها أيضاً شعرت أنَّها قد تضع نفسها مجدداً تحتَ سيطرةِ شخصٍ آخر، ورغمَ عدم وجود ما تخشاه من رئيسِ ديرٍ، فإنَّها شعرت براحةٍ أكبر في البقاءِ مجهولةً ومتخفيةً.

كان معظمُ الزوارِ الآخرين من الحُجاجِ، وأصحاب المهنِ المتنقلين، وبعض الباعةِ المتجولين، ورجالاً يتنقلون من قريةٍ إلى أخرى يبيعون أشياء لا يستطيع الفلاحون صنعها بأنفسهم كالدبابيس، والسكاكين، وقدورِ الطبخِ، والتوابلِ. برفقةِ بعضهم زوجات وأطفال، وكان الأطفال مزعجين ومتحمسين يركضون في المكانِ ويقعون أرضاً. بينَ الفينةِ والأخرى يرتطمُ أحدُ الأطفالِ ببالغٍ، ويتلقى صفعةً على الرأسِ فينخرط في البكاءِ. لم يكن بعضهم مُدرّباً على التصرف بتهذيبٍ، ورأت آليانا العديد منهم يتبولون على الأرضيةِ المفروشةِ بنباتِ السمارِ، وفكرت في نفسها أنَّ مثل هذا السلوك عادةً لا يعاقب عليهِ في منزلٍ يعيشُ فيه الناسُ مع الحيوانات في نفسِ الغرفةِ، ولكن في قاعةٍ مكتظةٍ بالناسِ كان الأمرُ مقززاً، لأنَّهم سينامون على الأرضيةِ المفروشةِ بنباتِ السمارِ، وستكون الرائحة مريعة.

شعرت آليانا أنَّ الناس ينظرون إليها كأنَّهم يعلمون أنَّها فقدت عذريتها. بالطبعِ كانَ شعوراً سخيفاً، ولكنهُ لم يبارحها، ولذلك تفقدت نفسها باستمرارٍ إن كانت تنزف، وفي كلِّ مرَّةٍ تلتفتُ تلتقي نظراتها بنظرةٍ قاسيةٍ تخترقها، ولكن حالما يدركُ صاحبُ النظرةِ أنَّها رأته يشيح بنظره، وبعدَ برهةٍ تمسكُ بأحدٍ آخر يحدقُ بها. استمرَّت بالقولِ لنفسها إنَّ هذا سخيف، وإنَّهم لا ينظرون إليها بل ينظرون في أرجاءِ الغرفةِ المكتظةِ بفضولٍ، ولكن لم يكن هناك ما يستحق النظر على أيِّ حالٍ؛ فهي لم تكن مختلفةً عنهم في الشكلِ. كانت قذرةً، ومهلهلةَ الثيابِ، ومتعبةً مثلهم، ولكن الشعور لم يُبارحها، وتملكها الغضبُ رغماً عنها. كان هناك رجلٌ يحدّق نحوها باستمرارٍ وهو حاجٌ في

منتصفِ العمرِ مع عائلةٍ كبيرةٍ، وفي النهايةِ فقدت أعصابها وصرخت به: «ما الذي تنظرُ إليه؟ توقف عن التحديق بي؟» وبدا الرجلُ محرجاً فأبعد ناظريهِ دونَ أن يجيبها.

وقال ريتشارد بهدوء: «لمَ فعلتِ هذا يا آلي؟»

طلبت منه أن يصمتُ، وصمتَ.

بعدَ العشاءِ أتى راهبٌ، وأطفأ المصابيح؛ فقد أحبَّ الرهبان أن يخلدَ الناسُ إلى النومِ باكراً لإبقائهم بعيدين عن حاناتِ ومواخيرِ المدينةِ ليلاً، وللتخلصِ منهم باكراً في صباحِ اليومِ التالي. يُغادرُ العديد من الرجال العازبين القاعةَ عندما تُطفأ الأنوار، وهم من دونِ شكٍ يتوجهون إلى الأماكن التي تقدّمُ المباهج والرفاهيات، ولكن البقية يتكورون على أنفسهم داخلَ عباءاتهم ويخلدون للنومِ.

كانت قد مرَّت سنواتٌ كثيرةٌ مُذ أن نامت آليانا في قاعةٍ كهذهِ. عندما كانت صغيرةً لطالما حسدت الناس ممن ينامون في الطابق السفلي جنباً إلى جنبٍ أمامَ نارِ الموقدِ الضعيفةِ في غرفةٍ مليئةٍ بالدخانِ، ورائحةِ العشاءِ مع الكلابِ لحمايتهم؛ فقد كان جو من الوفاق يخيم على هذهِ القاعةِ، وتفتقدهُ الغرفُ الفارغةُ والرحبةُ التي تنام فيها عائلةُ السيدِ. في تلكَ الأيامِ اعتادت مغادرة سريرها، وهبوط الدرجِ على رؤوسِ أصابعها لتنامَ إلى جانبِ خادمتها المفضلة وغاسلة الثيابِ مادج أو مادج العجوز.

ومع رائحةٍ من أيامِ الطفولةِ استسلمت آليانا وحلمت بوالدتها. عموماً، وجدت صعوبةً في تذكرِ معالم وجهِ والدتها، ولكنها الآن تفاجأت عندما رأت وجهَ والدتها واضحاً، وبكاملِ تفاصيلهِ الصغيرةِ، وبابتسامتها الخجولةِ، وبأبعاد وجهها الرقيقة، وبنظرةِ القلقِ في عينيها. رأت والدتها تسير مترنحةً بعضَ الشيء كأنَّها تحاول الوصولَ إلى الجدارِ بينما ذراعها الأخرى ممدودةٌ من أجلِ التوازن. سمعت ضحكة والدتها رنانةً بشكلٍ غير متوقعٍ كأنَّها على وشكِ الانخراطِ في الغناءِ، أو الضحكِ إلَّا أنَّها بدت خائفةً من فعل هذا. وفي الحلم أدركت شيئاً لم تدركهُ في اليقظةِ قبلاً وهو أنَّ والدها أرعبَ والدتها، وقمعَ إحساسها بمتعةِ الحياةِ إلى أن ذوت، وماتت زهرةً عطشى. مرَّ كلّ هذا في عقلِ آليانا كذكرى أليفة، كحقيقةٍ لطالما كانت في عقلها ولكن

لا تدركها. على أيِّ حالٍ ما صدمها حقاً هو أنَّها رأت نفسها حاملاً، وبدت والدتها سعيدةً من أجلها. في الحلمِ جلست الأم والابنة في غرفةِ نومٍ، وكان بطنُ آليانا منتفخاً جداً اضطرت معهُ إلى الجلوس مباعدةً ساقيها قليلاً وقد عقدت يديها فوقَ بطنها في تلكَ الوضعية الخاصةِ بالحواملِ، ثمَّ دخلَ وليم هاملي الغرفةَ حاملاً بيدهِ خنجراً طويلاً، وعلمت آليانا أنَّه ينوي طعنها في بطنها بالطريقةِ ذاتها التي طعنت فيها الخارج عن القانونِ في الغابةِ فصرخت بصوتٍ عالٍ استيقظت معه من نومها، ونهضت ثمَّ أدركت أنَّ وليم لم يكن هنا، وأنَّها لم تصرخ، وأنَّ الصرخة كانت في عقلها.

استيقظت وبقيت مستلقيةً وهي تتساءل في سرِّها إن كانت حاملاً.

لم تكن الفكرة قد خطرت لها قبلاً، وها هي ترعبها الآن. سيكون مفزعاً جداً أن تنجبَ طفلَ وليم هاملي، ولكنه قد لا يكون طفلَ وليم بل طفلَ السائسِ. قد لا تتمكن من معرفةِ الوالد. كيف ستحبُ هذا الطفل؟ ففي كلِّ مرةٍ ستنظر فيها إليهِ سيذكرها بتلكَ الليلةِ الرهيبةِ. أقسمت لنفسها أنَّها ستنجبُ الطفلَ سرَّاً، وتتركه في العراءِ ليموت بعدَ ولادتهِ كما يفعل الفلاحون ممن يملكون الكثير من الأطفال، ومع هذا القرارِ عادت إلى النومِ مجدداً.

كان ضوءُ الصباحِ ما يزال ضعيفاً عندما أحضرَ الرهبان الفطورَ، أيقظت الضجةُ آليانا، ووجدت أنَّ معظمَ الزوارِ الآخرين صاحون فقد خلدوا إلى النومِ باكراً جداً، ولكن آليانا تأخرت في النومِ على الرغمِ من تعبها الشديد.

كانَ الفطور ثريداً ساخناً مع الملحِ. تناولت آليانا وريتشارد الإفطار بنهمٍ، وتمنيا لو أنَّهما حظيا ببعضِ الخبزِ معهُ. فكَّرت آليانا بما ستقوله للملكِ ستيفن. كانت واثقةً من أنَّه نسي تماماً أنَّ للإيرل طفلين، وفكرت أنَّه حالما يقابلانهِ، ويذكرانهِ بهذهِ الحقيقةِ سيتكفلُ بأمرهما. على أيِّ حالٍ إن احتاجت إلى إقناعِ الملكِ فقد جهزت لما ستقوله، وقررت أنَّها لن تصرَّ على براءةِ والدها لأنَّ هذا سيوحي أنَّ حكمَ الملكِ عليهِ خاطئ، وسيشعر بالإهانةِ، ولن تحتجَّ على تنصيب بيرسي هاملي إيرلاً؛ فأصحاب المناصبِ يكرهون الجدالَ في قراراتٍ قديمةٍ. «في الضَّرّاء أو السراء، إنَّ هذا الأمرَ محسومٌ»، هذا ما سيقوله والدها، ولكنها ستشيرُ بكلِّ بساطةٍ إلى براءتها هي وشقيقها، وتطلب منه منحها ملكيةَ فارسٍ حتَّى يعيلا نفسيها بتواضعٍ، ويمكن لريتشارد

أن يحضرَ نفسهُ ليصبحَ أحد فرسانِ الملكِ في السنواتِ القادمةِ. ستكون هذهِ الملكية كافيةً للعنايةِ بوالدها عندما يتكرم الملك، ويحرره من سجنهِ فهو لم يعد مصدرَ تهديدٍ بعدَ خسارتهِ اللقب، والأتباع، والأموال. ستُذكرُ الملكَ أنَّ والدها قد خدمَ عمَّه الراحل، الملك هنري، بكلِّ إخلاصٍ، ولن تتحدث بعنفٍ بل بثباتٍ، ووضوحٍ، وبساطةٍ، وتواضعٍ.

بعدَ الانتهاء من تناولِ الإفطارِ سألت الراهب أين يمكنها غسلُ وجهها فنظرَ إليها متفاجئاً. لا بدَّ أنَّه طلبٌ غير اعتيادي. على أيِّ حالٍ كان الرهبان يحبّونَ النظافة، ولهذا دلَّها إلى قناةٍ مفتوحةٍ تجري فيها مياه نظيفة باردة تحتَ أرضِ الديرِ، وحذرها من الاغتسالِ بطريقةٍ «غير محتشمةٍ» مخافةَ أن يراها أحدُ الأخوة وتتلوث روحهُ. ربما يقوم الرهبان بالكثير من أعمالِ الخير إلَّا أنَّ سلوكهم يمكن أن يغدو مزعجاً.

غسلت هي وريتشارد وسخَ الطريقِ عن وجهيهما، وغادرا الدير. أخذا الطريقَ الرئيسي باتجاهِ القلعةِ التي تقع على أحدِ جوانبِ البوابةِ الغربيةِ. أرادت آليانا الوصول باكراً على أملِ أن تصادق، أو تفتن المسؤول عن إدخالِ المُلتمسين، وتحرص على ألا ينساها مع حشدِ الناسِ المهمين الذين سيصلون لاحقاً. على أيِّ حالٍ كان الجو داخلَ جدرانِ القلعةِ أكثر هدوءاً مما توقعت، وتساءلت في نفسها إن كان الملكُ ستيفن هنا منذُ وقتٍ طويلٍ، ولذلكَ لم يأتِ سوى عدد قليلٍ من الناس لرؤيتهِ. لم تكن واثقةً من أنَّه موجود أصلاً. عادةً ما يتواجد الملكُ في وينشستر خلالَ فترةِ الصومِ الكبيرِ، ولكن لم تعرف متى بدأ الصيام؛ لأنَّها فقدت الإحساس بالزمن خلالَ الفترةِ التي عاشتها في القلعةِ مع ريتشارد وماثيو ومن دونِ كاهنٍ.

وجدت حارساً ضخماً بلحيةٍ رماديةٍ عندَ أسفلِ درجِ القلعةِ. جرَّبت آليانا تجاوزه كما فعلت عندما أتت برفقةِ والدها، ولكن الحارس أخفضَ رمحهُ وأعاقها.

نظرت إليهِ بغطرسةٍ وقالت: «نعم؟»

«وإلى أين تعتقدين نفسكِ أنَّك ذاهبة يا فتاة؟» قال الحارس.

أدركت آليانا بحزنٍ أنَّه من ذلكَ النوعِ الذي يختار مهنة الحراسة لأنَّها تمنحه شعوراً بالسلطةِ على الناس ومنعهم من الذهابِ حيثُ يشاؤون.

«إننا هنا لنلتمسَ إلى الملكِ»، قالت ببرودٍ ثمَّ أضافت: «فلتدعنا نمرُّ الآن».

«أنتِ؟» قال الحارسِ بسخريةٍ. «في قبقابٍ تخجلُ زوجتي من انتعاله؟ انصرفا».

«ابتعد عن طريقي أيّها الحارس»، قالت آليانا. «يحقُّ لأيٍّ مواطن الالتماس إلى الملكِ».

«ولكن الفقراء منهم ليسوا بهذا الغباءِ ليُجربوا هذا الحق...»

«لسنا فقراء!» انفجرت آليانا بغضبٍ. «أنا ابنة إيرل شايرنغ وشقيقي ابنه، ولذلك دعنا نمرُّ، أو سينتهي بكَ الأمرُ متعفناً في زنزانةٍ».

تخلى الحارس عن شيءٍ من خيلائهِ وقالَ بسخريةٍ: «لا يمكنكِ أن تلتمسي إلى الملكِ لأنَّه ليسَ هنا. إنَّه في ويستمنستر كما يُفترضُ بكِ أن تعرفي لو كنتِ ابنة إيرل».

صُعقت آليانا وقالت: «ولكن لماذا ذهبَ إلى ويستمنستر؟ يجب أن يكون هنا من أجلِ عيدِ الفصحِ!»

هنا أدركَ الحارس أنَّها لم تكن فتاةً فقيرةً من الشارعِ وقال: «يُقام عيدُ الفصحِ في ويستمنستر. يبدو أنَّه لن يقوم بكلِّ شيءٍ وفقَ طريقةِ الملكِ الراحلِ، وهذا ما يجدر بهِ فعله».

كان الحارس على حقٍ بالطبعِ، ولكن فكرة أنَّ يكون الملكُ قد اتبعَ جدولاً زمنياً مختلفاً لم تخطر ببالِ آليانا قط التي كانت صغيرةً جداً عندما جلسَ الملك هنري على العرشِ. اكتسحها اليأسُ فقد اعتقدت أنَّها تعلمُ ما الذي يجب القيام بهِ، ولكن يبدو أنَّها مخطئةٌ جداً، وشعرت بالرغبةِ في الاستسلامِ.

هزَّت رأسها كأنَّها تنفضُ عنها الشعورَ بالهزيمةِ. هذه عقبة وليست هزيمة. لم يكن الالتماس إلى الملكِ الطريقة الوحيدة التي يمكنها من خلالها الاعتناء بشقيقها وبنفسها. لقد أتت إلى وينشستر لغايتين، وكانت الغاية الثانية معرفةَ مآل والدها فهو يعلمُ ما الذي يجب عليها فعلهُ الآن.

«من هنا إذاً؟» قالت للحارس. «لا بد من وجود بعض الموظفين الملكيين. أريد رؤية والدي فحسب».

«يوجد موظف ووكيل هناك»، أجابَ الحارس. «هل قلتِ أنَّ إيرل شايرنغ والدكِ؟»

«أجل»، وشعرت بقلبها يتوقف لثانيةٍ ثمَّ قالت: «هل تعرف أيَّ شيءٍ عنه؟»»

«أعلمُ أين هو».

«أين؟»

«في السجن هنا في القلعةِ».

«إنَّه قريبٌ جداً!» قالت لنفسها. «وأين السجن؟» سألت الحارس.

أشارَ الحارس بإبهامهِ من فوقِ كتفيهِ. «أسفلَ التلِّ بعدَ الكنيسةِ الصغيرةِ وقبالةَ البوابةِ الرئيسيةِ». كان إبعادهما عن القلعةِ قد عززَ سمةَ اللؤمِ فيهِ، وباتَ الآن مستعداً لتقديمِ المعلوماتِ لهم: «من الأفضلِ أن تقابلا حارسَ السجنِ. يدعى أودو وهو ثري».

لم تفهم آليانا علاقةَ الثروةِ بهذهِ، ولكنها كانت متوترةً جداً على طلبِ توضيحٍ. حتَّى هذهِ اللحظةِ اعتقدت أنَّ والدها في مكانٍ مجهولٍ وبعيدٍ يُسمى «السجن»، ولكنها الآن وعلى حينِ غرَّةٍ علمت أنَّه هنا، في هذهِ القلعةِ بالتحديدِ، ونسيت أمرَ الالتماسِ إلى الملكِ، وبات جلّ رغبتها الآن رؤية والدها. جعلتها فكرةُ أنَّه قريبٌ وعلى استعدادٍ لمساعدتها تشعرُ بخطرِ وتشوشِ الشهورِ القليلةِ الماضيةِ بقوةٍ. أرادت أن تركض، وتحتضنه لتسمعه يقول لها: «كل شيءٍ على ما يرام الآن. سيكون كلُّ شيءٍ على ما يرام».

كانت القلعةُ على قمةٍ في أحدِ أطرافِ المجمع. استدارت آليانا ونظرت إلى بقيةِ القلعةِ، ورأت أنَّها تحتوي على تشكيلةٍ من المباني الحجرية والخشبية داخل الجدران العالية. أسفل التل حيث أشار الحارس بعدَ الكنيسةِ الصغيرةِ، رأت مبنى حجرياً أنيقاً يشبه الكنيسةَ، قبالةَ البوابةِ الرئيسيةِ. كان المدخلُ الرئيسي بوابةٌ في جدار خارجي يسمحُ للملكِ بدخولِ القلعةِ دون الاضطرارِ إلى دخولِ المدينة. قبالة ذلكَ المدخلِ في الجدارِ الخلفي الذي يفصلُ القلعةَ عن المدينةِ مبنى حجري صغير وقد يكون السجنَ.

هرعت آليانا وريتشارد عبرَ المنحدرِ، وهي تتساءل في نفسها عن الحالِ الذي ستجدُ والدها عليه. هل يُقدمون طعاماً لائقاً للناسِ في السجنِ؟

وتذكرت أنَّ سجناء والدها في القلعة حصلوا دوماً على خبزٍ قاسٍ وعصيدةٍ، ولكنها سمعت أنَّ السجناء أحياناً يتلقون معاملةً سيئةً في سجون أخرى، وتمنَّت أن يكون والدها على ما يرام.

شعرت بقلبها يخفقُ بقوةٍ خلال عبور المُجمع. كانت قلعةً كبيرةً غيرَ أنَّها مكتظةً بالأبنيةِ: مطابخ، وإسطبلات، وثكنات، وكنيستان. تعلمُ آليانا أنَّ الملك لم يكن موجوداً، ولكن هناك علائم على غيابهِ في كلِّ مكانٍ. لاحظت ذاهلةً هذهِ العلائم في طريقها إلى السجن؛ فهناك خنازير، وخراف تعبرُ البوابة من الضواحي، وتتجول في المكانِ، وتنبشُ في القمامةِ، والجنودُ المتكاسلون لا يفعلون شيئاً سوى ملاحقةِ النساءِ العابرات بملاحظاتهم الوقحةِ، وفي رواق إحدى الكنيستين يبدو أنَّ هناك رهاناً من نوعٍ ما. تضايقت آليانا من التراخي الذي يهيمن على المكانِ، وخشيت أن هذا يعني أنَّ والدها لا يتلقى معاملةً جيدةً، وبدأت تشعرُ بالخشيةِ مما ستكتشفه.

وجدت مبنى السجن حجرياً ومتداعياً، ويبدو أنَّه في وقتٍ مضى كان منزلَ أحدِ الموظفين الملكيين، ربما كان مستشاراً أو وكيلاً ما، قبلَ أن يصير إلى هذهِ الحالةِ السيئةِ؛ فالطابقُ الذي يُفترضُ أنه كان قاعةً في يومٍ من الأيامِ بدا منهاراً، ومعظمُ سقفهِ متداعٍ. لم يبقَ شيءٌ على حالهِ سوى السرداب. لم يكن هناك نوافذ بل مجرَّد بابٍ خشبي بمسامير حديدية. وجدت آليانا الباب موارباً قليلاً، وترددت في الدخولِ. عبرت بقربها امرأةٌ جميلةٌ في منتصفِ العمر، وفي ثيابٍ تبدو من نوعيةٍ جيدةٍ ثمَّ فتحت البابَ، ودخلت فلحقت بها آليانا وريتشارد.

كان المكان في الداخلِ معتماً، وتفوح منه رائحةُ قاذوراتٍ، وعفنٍ قديمٍ. في ما مضى كان هذا السرداب مخزناً مفتوحاً غيرَ أنَّه الآن مُقسَّمٌ إلى غرفٍ صغيرةٍ بجدرانٍ من الردمِ. ومن مكانٍ ما بعيدٍ في عمقِ المبنى تناهى صوتُ رجلٍ يئنُّ دونُ توقفٍ كراهبٍ يرتل صلواته وحيداً في كنيسةٍ. يُفضي الباب إلى فسحةٍ كردهةٍ صغيرةٍ تحوي على كرسي، وطاولةٍ، وموقدٍ في الوسطِ. هناك رجلٌ ضخمٌ له مظهرُ الأحمقِ، وفي حزامهِ سيفٌ يكنسُ الأرضية بلامبالاةٍ. عندما رأى الرجل المرأة الجميلة حيَّاها: «صباح الخير يا ميغ». نقدتهُ المرأةُ بنساً، واختفت في الظلمةِ. نظرَ الرجلُ إلى آليانا وريتشارد وقال: «ما الذي تريدانه؟»

«أتيت لمقابلةِ والدي»، قالت آليانا. «إنَّه إيرل شايرنغ».
«لا، إنَّه ليسَ كذلك»، قال السجّان. «إنَّه بارثيميلو فقط الآن».
«اللعنةُ على الألقاب أيّها السجّان، أين هو؟»
«كم لديكِ من المال؟»
«لا أملكُ المال لذلكَ لا تكلف نفسكَ عناءَ طلبِ رشوةٍ».
«إن لم يكن بحوزتك مالٌ فلا يمكنكِ رؤيةُ والدكِ»، قال الرجلُ، وتابع كنسَ الأرضية.

شعرت آليانا برغبةٍ في الصراخِ. كانت على بُعدِ بضعِ خطواتٍ من والدها، ومع ذلك تُحرم من رؤيتهِ. كان السجّان رجلاً ضخماً ومُسلحاً؛ ولذلك لم يكن هناك أدنى فرصةٍ في تحديهِ. لا تملك مالاً، وعندما رأت المرأة ميغ تنقدهُ بنساً خشيت أن يكون للمالِ دورٌ. بدايةً اعتقدت أنَّ هذا البنس من أجلِ الحصولِ على امتياز خاصٍ، ولكن يبدو أنَّه لم يكن كذلكَ فقد كان تعرفةَ الدخول.

قالت له آليانا: «سأحصلُ على بنسٍ، وأجلبهُ لكَ بأسرع ما يمكنني، ولكن هلَّا سمحتَ لنا برؤيتهِ سريعاً الآن؟»

«أحضري المال أولاً»، قال السجَّان ثمَّ أدارَ ظهرهُ، وعادَ إلى كنسِ الأرضيةِ.

قاومت آليانا رغبةً في البكاءِ، وإغراءً بالصراخِ برسالةٍ إلى والدها على أملِ أن يسمعها، ولكنها أدركت أنَّ مثلَ هذهِ الرسالةِ قد تُفزعهُ، وتحبطهُ، وتثيرُ قلقه، ودون أن تفيدهُ بأيَّة معلومةٍ. توجهت إلى البابِ وقد سيطرَ عليها شعورٌ تامٌ بالعجزِ.

عندَ العتبةِ استدارت، وسألت السجَّان: «كيف هو؟ أخبرني من فضلكَ. هل هو على ما يرام؟»

«لا، إنَّه ليسَ على ما يرام»، قال السجَّان. «إنَّه يحتضرُ. فلتخرجي الآن».

اغرورقت عيناها بالدموعِ، وعجزت معها عن الرؤيةِ بوضوحٍ فتعثرت في طريقها عبرَ البابِ. سارت جاهلةً بالوجهةِ التي يجب أن تأخذها ثمَّ اصطدمت بشيءٍ بدا كخروفٍ أو خنزيرٍ، وكادت تسقطُ، وهنا بدأت تنتحبُ. أمسكها ريتشارد من ذراعها، وشعرت به يقودها. خرجا من القلعةِ من البوابةِ

الرئيسيةِ باتجاهِ الأكواخِ المتفرقةِ، وحقولِ الضواحي الصغيرةِ، وفي النهايةِ وصلا إلى مرجٍ، وجلسا على جذعِ شجرةٍ.

«أكره رؤيتك تبكين يا آلي»، قال ريتشارد بتعاطفٍ.

حاولت أن تتمالك نفسها. ها هي قد عرفت مكان والدها الآن، وهذا تقدمٌ، ولكنها أيضاً علمت أنَّه مريضٌ. لا بدَّ أنَّ السجَّان القاسي قد بالغَ في تصويرِ خطورةِ مرضِ والدها. كل ما عليها فعلهُ الآن هو إيجاد بنسٍ، وستتمكن من التحدثِ إليهِ، وترى بنفسها وتسأله عمَّا يجب القيام به، من أجلِ ريتشارد ومن أجله.

«كيفَ سنحصلُ على بنسٍ يا ريتشارد؟» قالت له.

«لا أعلم».

«لا نملكُ ما نبيعهُ، ولن يُقرضنا أحدٌ المالَ. أنتَ لست قوياً بما يكفي لتسرق...»

«يمكننا أن نستجدي»، قال لها.

كانت هذهِ فكرةً جيدةً وهنا لمحا فلاحاً بدا ميسور الحالِ قادماً باتجاهِ القلعةِ على جوادٍ أسود قوي وقصير القوائمِ. نهضت آليانا على قدميها، وركضت باتجاهِ الطريقِ، وعندما اقتربت منه قالت: «هلَّا أعطيتني بنساً يا سيدي؟»

«اغربي من هنا»، انفجرَ الرجلُ، وهمزَ جواده ليُسرعَ.

عادتَ إلى جذعِ الشجرةِ حيثُ جلسَ ريتشارد. «عادةً يستجدي الناس الطعامَ، أو الثياب القديمة»، قالت آليانا بحزنٍ وأضافت: «لم أسمع قط عن أحدٍ يستجدي المالَ».

«حسناً، ولكن كيف يحصل الناس على النقودِ؟» قال ريتشارد بطريقةٍ بدا معها كأنَّه لم يفكر في هذا السؤال قبلاً.

«يحصلُ الملكُ على المالِ من الضرائبِ، واللوردات من الإيجاراتِ، والكهنة من ضرائبِ العشرِ، وأصحاب المتاجرِ من البضائع، والحرفيون من أجورهم، والفلاحون ليسوا بحاجةٍ إلى أموالٍ لأنَّهم يملكون أراضي».

«والمتدربون من أجورهم».

«وكذلكَ العمال. يمكننا العمل».

«لمصلحة من؟»

«وينشستر عامرةٌ بالمصانعِ الصغيرةِ لانتاجِ الجلدِ والأقمشةِ»، قالت آليانا وقد بدأت تشعرُ بالتفاؤلِ مجدداً. «والمدينةُ مكانٌ جيدٌ لإيجادِ عملٍ»، وبعد أن أنهت كلامها نهضت على قدميها ثمَّ أضافت: «تعال معي، لنبدأ!»

كان ريتشارد ما يزال متردداً وقال: «لا يمكنني العملُ كرجلٍ عادي فأنا ابن إيرل».

«لم تعد كذلكَ»، قالت آليانا بقسوةٍ. «سمعتَ ما قاله السجّان. من الأفضلِ أن تعي أنَّك لم تعد الآن أفضل من أيٍّ شخصٍ آخر».

حرنَ ريتشارد ولم يتفوه بكلمةٍ.

«حسناً، سأذهبُ أنا»، قالت آليانا. «يمكنكَ البقاءُ هنا إن أردتَ»، ثمَّ توجّهت إلى البوابةِ الغربيةِ. كانت تعرفُ أنَّ حُرونَه لن يدوم.

وتماماً كما توقعت لحقَ بها قبلَ أن تصلَ إلى المدينةِ. «لا تغضبي يا آلي»، قال لها. «سأعملُ. أنا قوي جداً في الحقيقةِ، وسأكون عاملاً جيداً».

ابتسمت له وقالت: «أنا واثقةٌ من أنَّكَ ستكون كذلكَ». لم تكن هذهِ حقيقة، ولكن ما من فائدةٍ يمكن أن تحققها بإحباطهِ.

عبرا الشارع الرئيسي، وهنا تذكرت آليانا أنَّ وينشستر مقسمةٌ بطريقةٍ عمليَّةٍ؛ فالقسم الجنوبي إلى يمينهم مقسمٌ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: القسم الأول هو القلعة، والثاني منطقةُ الأثرياءِ ثمَّ ساحةُ الكاتدرائيةِ، وقصرُ الأسقفِ في الطرفِ الجنوبي الشرقي، أمَّا القسم الشمالي فقد كان إلى يسارهم وهو بدورهِ أيضاً مُقسمٌ إلى قسمين: الأولِ الحي اليهودي، والأوسط حيثُ المتاجر، والمصانع في الطرف الشمالي الشرقي.

عبرت آليانا الشارعِ الرئيسي باتجاهِ الطرفِ الشرقي من المدينة، ثمَّ استدارت يساراً إلى شارعٍ يجري في منتصفه جدول ماءٍ. على أحد الطرفين منازل عادية، خشبيةٌ في الغالبِ، ولكن قلةٌ منها بقاعدةٍ حجريةٍ، أمَّا في الجانبِ الآخرِ فقد اكتظَّ المكانُ بمنازلَ مرتجَلةٍ، والكثير منها لم يكن أكثر من سقفٍ وأعمدةٍ، ومعظمها تبدو كأنَّها آيلةٌ للسقوطِ في أيِّ لحظةٍ. في بعضِ الأماكنِ جسرٌ صغيرٌ، أو بضعة ألواحٍ فوقَ الجدولِ أمام مبنى، ولكن بعضَ الأبنيةِ كانت فوقَ الجدولِ. في كلِّ مبنى أو فناءٍ رجالٌ أو نساءٌ

يقومون بعملٍ ما يتطلبُ كميةً كبيرةً من المياهِ كغسلِ الصوفِ، ودبغِ الجلودِ، أو دعكِ القماشِ المصبوغِ، أو تخمير الجعةِ، أو صناعات أخرى لم تعرفها آليانا. شمَّت روائحَ غير مألوفة، ومنها ما كان لاذعاً ومُخمراً وكبريتياً ومُدخناً وخشبياً وعفناً. بدا الناس مشغولين جداً. عموماً، يعملُ الفلاحون كثيراً وبجدٍ أيضاً، ولكنهم يقومون بأعمالهم بعجالةٍ أقل، ودوماً ما كانوا يتوقفون، ويتفحصون أمراً مثيراً للفضول، أو يتحدثون إلى عابرِ سبيلٍ، أمَّا من يعملون في الصناعات فأولئك لا يرفعون أنظارهم أبداً لأنَّ عملهم، وكما يبدو، يتطلبُ كلَّ تركيزهم وطاقاتهم. كانوا يتحركون بسرعةٍ، وهم يحملون الأكياس، أو يسكبون دلاءَ الماءِ، أو يدعكون الجلدَ أو القماشَ. كانوا أيضاً يقومون بأعمالٍ غامضةٍ في أكواخهم المتداعيةِ والمظلمةِ، وهذا جعلَ آليانا تتخيلُ أنَّ الشياطين تحرّك قدرهم كما رأت في إحدى اللوحات التي تصورُ الجحيم.

وقفت أمامَ مكانٍ يقومون فيهِ بعملٍ تعرفه وهو دعكُ القماشِ. رأت امرأةً لها مظهر رجولي تُعبئ الماءَ من الجدولِ، وتسكبهُ في جرنٍ حجري ضخم مبطن بالرصاصِ. كانت تتوقفُ بين الفينةِ والأخرى، وتأخذُ من كيسٍ مقداراً من مادةٍ تدعى «تُراب القصَّارين»، وفي قعرِ الجرنِ قطعةُ قماشٍ مغمورة تماماً بالماءِ. رأت أيضاً رجلين يحملان مضارب خشبية كبيرة، وتذكرت آليانا أنَّها تدعى «مخابط القصَّارين»، ويضربان القماشَ في الجرنِ. كان الهدفُ من العمليةِ أن ينكمش القماش ويتسمَّك حتَّى يتحمل العوامل الجويةَ القاسيةَ، أمَّا «تراب القصَّارين» فكان يسحب الزيوت من الصوفِ. في القسمِ الخلفي من المكانِ رأت آليانا أكواماً من القماشِ الجديد والمُحاكِ بقطبٍ واسعةٍ، وأكياساً من «ترابِ القصَّارين».

عبرت آليانا الجدول، واقتربت من العاملين عندَ الجرنِ. نظرا إليها، وتابعا العملَ. لاحظت أنَّ الأرضيةَ التي وقفا عليها رطبةً، وأنهما يعملان حافيين، وعندما أدركت أنَّهما لن يتوقفا، ويسألاها عمَّ تريدهُ قالت بصوتٍ عالٍ: «هل مُعلمكما هنا؟»

أجابت المرأة على سؤالها بأن هزَّت رأسها مشيرةً إلى القسم الخلفي من المكانِ.

أشارت آليانا إلى ريتشارد كي يلحقَ بها، ودخلا عبرَ بوابةٍ إلى فناءٍ حيثُ وضعت أثوابُ القماشِ على مناصب خشبية كي تجفَّ. فوقَ إحدى هذهِ المناصبِ رأت رجلاً منحنياً فوقَ أحدِ الأثوابِ يُعدله.

«أبحثُ عن المُعلم هنا»، قالت آليانا.

استقامَ الرجلُ ونظرَ إليها. كان رجلاً قبيحاً وأعور وأحدب بعضَ الشيءِ كأنَّه قضى أعواماً عديدةً منحنياً فوق المناصبِ، ولم يعد قادراً على الوقوفِ باستقامةٍ تماماً.

«ماذا؟» قال لها الرجلُ.

«هل أنتَ القصَّار المعلم؟»

«أعملُ في هذهِ المصلحةِ منذُ أربعين عاماً، أي عملتُ فيها صبياً ورجلاً، ولذلكَ آمل أن أكون المعلم»، قال لها وتابع: «وما الذي تريدينه؟»

أدركت آليانا أنَّها أمامَ رجلٍ يحاول على الدوامِ أن يثبت ذكاءهُ، ولذلك تحدثت بتواضعٍ وقالت: «أخي وأنا نرغبُ بالعملِ، فهل يمكنكَ منحنا عملاً؟»

لم يُجب الرجلُ بل تفحصهما من الأعلى إلى الأسفلِ لبرهةٍ. «بحقِ المسيح وجميع القديسين بماذا ستعملين؟»

«بأيِّ شيءٍ»، قالت آليانا بعزمٍ. «نحتاجُ إلى بعضِ المالِ».

«لن تفيديني في شيءٍ»، قال الرجلُ بازدراءٍ، وأشاحَ بنظرهِ ثمَّ استأنف عملهُ.

لم تكن آليانا لتقبلَ بهذا الجواب، ولذلكَ سألت بغضبٍ: «ولماذا؟ إننا لا نتسول بل نرغب بكسبِ المالِ بعرقِ جبيننا».

استدارَ الرجلُ مجدداً.

«من فضلكَ»، قالت رغم كرهها للاستجداء.

نظرَ إليها في ضيقٍ كأنَّه ينظرُ إلى كلبٍ، ويتساءل في نفسهِ إن كان يستحقُ عناءَ الركلِ، ولكنها رأت أيضاً أنَّه يشعرُ بإغراءِ الإثباتِ لها كم هي غبية وكم هو ذكي.

«حسناً، سأشرح لكِ»، تنهدَ قائلاً. «فلترافقيني».

قادهما إلى جرنٍ. كان العاملان والمرأة يسحبان قطعةَ قماشٍ من الماءِ ويلفانها خلال سحبها. تحدَّثَ المعلم إلى المرأةِ قائلاً: «تعالي يا ليزي، وأرينا يديكِ».

أطاعتهُ المرأةُ ومدَّت يديها. كانت يداها خشنتين، وحمراوين بتقرحاتٍ مفتوحةٍ حيثُ كان الجلدُ مُتقشباً، ومتهيجاً.

«المسيهما»، قال المُعلمُ لآليانا.

لمست آليانا يدي المرأةِ. كانت اليدان باردتين كالثلجِ وخشنتين جداً، ولكن أكثر ما أذهلها هو شدةُ قساوتهما. نظرت آليانا إلى يديها اللتين رفعت بهما يدي المرأةِ، وفجأةً شعرت أنَّهما ناعمتان، وبيضاوان وصغيرتان جداً.

قال المعلمُ: «إنَّها تعملُ في الماءِ مُذ كانت صغيرةً؛ ولذلكَ اعتادت عليه، أنتِ مختلفةٌ، ولن تتحملي هذا العملَ لنصفِ نهارٍ».

أرادت آليانا أن تجادله، وتقول له إنها ستعتاد على الأمرِ؛ ولكنها لم تكن واثقةً من أنَّ هذا صحيحٌ، وقبلَ أن تتفوه بكلمةٍ تحدثَ ريتشارد: «وماذا عني؟ أنا أكبر من هذين الرجلين، ويمكنني القيام بالعملِ».

في الحقيقةِ كان ريتشارد أطول وأضخم من الرجلين اللذين يضربان بالمخباطين، وتذكرت آليانا أنَّه سيطرَ على جوادِ الحربِ، ولهذا فقد يتمكن من العملِ في دعكِ القماشِ.

أنهى الرجلان لفَّ قطعةِ قماشٍ رطبةٍ، ورفعَ أحدهما اللفة على كتفهِ كي ينقلها إلى فناءِ التجفيفِ، ولكن المعلمَ أوقفهُ ثم قال له: «دع اللوردَ الشاب يحملُ القماشَ يا هاري».

أنزلَ الرجلُ الذي يُدعى هاري القماش عن كتفهِ، ووضعهُ على كتفِ ريتشارد. ترنحَ ريتشارد تحتَ وزن القماشِ الرطب، وعندما استقام بعدَ جهدٍ جهيد بدا وجهه شاحباً ثمَّ خرَّ على ركبتيهِ إلى أن لامست أطرافُ القماشِ الأرضَ.

«لا يمكنني حملهُ»، قال ريتشارد بأنفاسٍ مبهورةٍ.

ضحكَ المُعلمُ، ونظرَ الرجلان إلى ريتشارد في استعلاءٍ. أخذَ الرجلُ الذي يُدعى هاريُ القماشَ عن كتفِ ريتشارد، ورفعه على كتفهِ بحركةٍ خبيرةٍ ثمّ حملهُ إلى الفناءِ، وهنا قال المعلمُ: «يتطلبُ هذا العملُ نوعاً مختلفاً من القوةِ. إنَّها القوةُ التي تأتي مع الاضطرارِ إلى العملِ».

اشتعلت آليانا غضباً. كانوا يسخرون منها وهي في أمسِّ الحاجةِ إلى إيجادِ طريقةٍ شريفةٍ للحصولِ على بنسٍ. علمت أنَّ المعلمَ استمتعَ جداً في إظهارِ غبائها، وسيستمرُ في هذا ما دامت تسمح لهُ، وهو لن يعطيهما، لا هي ولا ريتشارد، عملاً، ولذلك قالت بسخريةٍ حادةٍ: «شكراً لكَ على لطفكَ»، ثمَّ استدارت وابتعدت.

كان ريتشارد مستاءً وقال لها: «كان ثقيلاً لأنَّه رطبٌ جداً! وأنا لم أتوقع هذا».

أدركت آليانا أنَّها يجب أن تبقى مبتهجةً كي تُبقي على معنوياتِ ريتشارد مرتفعةً.

«هذا ليسَ العملَ الوحيد هنا»، قالت له خلال عبورها الشارعَ الموحلَ.

«وهل من عملٍ آخر يمكننا القيام بهِ؟»

لم تجبهُ آليانا على الفورِ. وصلا إلى السور الشمالي للمدينةِ ثمَّ انعطفا يساراً متجهين غرباً حيثُ البيوت الأكثر فقراً قبالةَ السورِ. لم تكن هذهِ البيوت أكثر من أكواخٍ مائلةٍ، ولأنَّها افتقرت إلى الأفنيةِ كان الشارع قذراً. في نهايةِ المطافِ قالت آليانا: «ألا تتذكر كيف كانت الفتيات يأتين إلى القلعةِ أحياناً عندما لايعود لديهن مكانٌ في منازلِ أهلهنّ ولا يملكن أزواجاً. كان والدنا يستقبلهن على الدوامِ، ويسمحُ لهن بالعملِ في المطابخِ، أو الغسيلِ، أو الإسطبلاتِ، وكان ينقدهنَّ بنساً في أعياد القديسينِ».

«أتعتقدين أننا قد نعيش في قلعةِ وينشستر؟» قال ريتشارد في ريبةٍ.

«لا. لن يقبلوا بعمالٍ عندما يكون الملكُ غائباً فهم حتماً يملكون فائضاً، ولكن هناك الكثير من الأغنياءِ في المدينةِ، ولا بدَّ أنَّ بعضهم يرغبُ بخدمٍ».

«هذا ليسَ عملاً للرجالِ».

أرادت أن تقول له آليانا: «إذاً، لمَ لا تتحفنا بفكرةٍ من أفكاركَ بدلاً من البحثِ عن عيبٍ في كلِّ شيءٍ أقولهُ؟» ولكنها لجمت نفسها وقالت: «لن يتطلبَ الحصولُ على بنسٍ سوى عمل أحدنا ثمَّ سنقابلُ والدنا، ونسأله عمَّ يجب القيام بهِ بعد هذا».

«حسناً»، قال ريتشارد الذي لم يكره فكرةَ أن يعملَ أحدهما، وخاصةً أنَّ آليانا هي المرشح الأكبر ليقعَ عليها هذا العبء.

انعطفا يساراً مرَّةً أخرى، ودخلا إلى الحي اليهودي من المدينةِ. توقفت آليانا أمامَ منزلٍ كبيرٍ وقالت: «لا بدَّ أنَّهم يملكون خدماً هنا».

صعقَ ريتشارد وقال: «أنتِ لن تعملي عند اليهود، صحيح؟»

«لِم لا؟ أنتَ تعلم أنَّ هرطقات الناس لا تعدي كما تُعدي براغيثهم».

هزَّ ريتشارد كتفيه، ولحقَ بها إلى الداخلِ.

كان المنزلُ حجرياً، وكمعظمِ منازلِ المدينةِ مدخله ضيقٌ وطويلٌ. دخلا إلى قاعةٍ أماميةٍ بعرضِ المنزلِ فيها نارٌ وبعضُ المقاعدِ. شمَّت آليانا رائحةً قادمةً من المطبخِ سال معها لعابها. كانت رائحةً مختلفةً عن رائحةِ الطبخِ العادي ويبدو أنَّها تحوي على بهاراتٍ غريبةٍ. خرجت فتاةٌ صغيرةٌ من القسم الداخلي للمنزلِ وحيَّتهما. كانت بشرتها داكنة، وعيناها عسليتين، وتحدَّثت بتهذيبٍ: «هل تريدين مقابلةَ الصائغِ؟»

إذاً، هذه مهنةُ صاحبِ المنزلِ.

«أجل من فضلكِ»، قالت آليانا. اختفت الفتاة مجدداً، ونظرت آليانا حولها. بالطبعِ سيحتاج الصائغُ إلى منزلٍ حجري لحمايةِ ذهبهِ. هناك بابٌ بين هذهِ الغرفةِ والقسم الدخلي من المنزلِ، وكان مصنوعاً من ألواحِ خشبِ البلوطِ الثقيلةِ المرصصة بالحديدِ، أمَّا النوافذ فكانت ضيقةً وصغيرةً جداً لا يمكن لطفلٍ صغيرٍ المرور عبرها، وفكرت آليانا أنَّ امتلاكَ ثروةٍ من الذهبِ والفضةِ قد تُسرق وتختفي في لحظةٍ تاركةً صاحبها في فاقةٍ أمرٌ مرهقٌ، ثمَّ فكرت بوالدها، وكيف أنَّه كان غنياً ولكن ثروتهُ من النوع العادي -أراضٍ ولقبٍ- ورغمَ ذلكَ خسرَ كل شيءٍ، وفي يومٍ واحدٍ.

دخلَ الصائغ، وكان رجلاً ضئيلاً ببشرةٍ داكنةٍ. نظرَ إليهما عابساً كأنَّه يتفحصُ قطعةً من الجواهرِ، ويُثمنُ قيمتها. بعدَ برهةٍ بدا كأنَّه وصلَ إلى خلاصةٍ فسألهما: «ألديكما ما تريدان بيعهُ؟»

«أحسنتَ الحكمَ أيّها الصائغ»، قالت آليانا. «إننا من محتدٍ نبيلٍ، ولكننا نعيشُ الآن في فاقةٍ، وليسَ لدينا ما نبيعهُ».

نظرَ الرجلُ في وجلٍ وقال: «إن كنتما تريدان قرضاً أخشى...»

«لا نتوقع من أيِّ أحدٍ أن يقرضنا المالَ»، اندفعت آليانا قائلةً. «كما لا نملكُ ما نبيعهُ، ولا ما نرهنهُ».

ارتسمت علائم الراحةِ على وجههِ وقال: «إذاً كيف لي أن أساعدكما؟»
«هلَّا قبلتَ بي كخادمةٍ في منزلكَ؟»
بدا مصدوماً وقال: «مسيحية؟ أبداً!» وبدا مرتاعاً جداً من الفكرةِ.
أصيبت آليانا بخيبةِ الأملِ، وسألتهُ بنبرةٍ حزينةٍ: «ولِم لا؟»
«لن يكون الأمرُ مجدياً».
شعرت آليانا الآن بالسخط والإهانةِ لأن أحدهم يعتقد أنَّ دينها مقززٌ، وتذكرت العبارةَ المتذاكيةَ التي قالتها لريتشارد: «هرطقات الناس لا تعدي كما تُعدي براغيثهم».
«سيحتجُّ سكانُ المدينةِ».
كانت آليانا واثقةً من أنَّه يستخدمُ هذهِ الحجةَ كعذرٍ، ولكنها على الأغلبِ حجةٌ حقيقيةٌ. «أعتقدُ أنَّه من الأفضلِ أن نبحثَ عن مسيحي غني إذاً».
«هذا يستحقُ المحاولة»، قال الصائغُ بريبةٍ. «دعيني أخبركِ بأمرٍ وبكلِّ صراحةٍ. ما من رجلٍ حكيمٍ سيستعين بكِ كخادمةٍ فأنتِ معتادةً على إلقاءِ الأوامرِ، وستجدين صعوبةً في أن تكوني الشخصَ الذي يتلقى الأوامرَ».
وفتحت آليانا فمها لتحتجّ على كلامهِ، ولكنه رفعَ يداً لمنعها ثمَّ تابع: «أعلمُ أنَّكِ قادرةٌ على القيامِ بالعملِ، ولكنكِ عشتِ حياتكِ وهناك من يخدمكِ، وأنتِ الآن، ومن صميمِ قلبكِ، تشعرين أنَّ الأمور يجب أن تكون مجهزةً لإرضائك. إنَّ النبلاء خدمٌ سيئون؛ فهم متمردون وساخطون ولامبالون، وحساسون، ويعتقدون أنَّهم يعملون بجدٍ رغمَ أنَّهم، ومقارنةً بغيرهم يعملون بجدٍ أقل، ولهذا يصبحون مصدراً للمتاعبِ بين طاقمِ الخدمِ». وهزَّ كتفيهِ مضيفاً: «أتحدثُ من تجربتي الشخصيةِ».
نسيت آليانا الآن شعورها بالإهانةِ من تقززهِ من دينها. إنه أولَ شخصٍ يعاملها بلطفٍ منذُ أن غادرت القلعةَ، ولذلكَ قالت له: «ولكن ما الذي يمكننا فعلهُ؟»
«سأخبركِ بما قد يفعلهُ أيُّ يهودي. سيحاولُ العثور على شيءٍ لبيعهِ. عندما وصلتُ إلى المدينةِ بدأت بشراءِ المجوهراتِ من أناسٍ بحاجةٍ إلى نقودٍ ثمَّ قمت بإذابةِ الفضةِ والذهبِ، وبيعهما إلى العاملين في سكِ النقودِ».
«ولكن من أين حصلتَ على المالِ من أجلِ شراءِ المجوهراتِ؟»

«اقترضته من عمي. بالمناسبةِ دفعت له فائدةً أيضاً».

«لن يُقرضنا أحدٌ!»

بدا الرجلُ غارقاً في التفكيرِ ثمَّ قال: «ما الذي كنتُ لأفعله لو لم يكن لدي عمٌ؟ أعتقدُ أنني كنتُ سأتوجه إلى الغابةِ، وأجمعُ الجوزَ ثمَّ أعود بهِ إلى المدينة، وأبيعهُ إلى ربات المنزلِ اللواتي لا يملكنَ الوقتَ للذهاب إلى الغابةِ، ولا يمكنهنّ زراعةُ الأشجارِ في حدائقهن الخلفيةِ لأنَّها مكتظةٌ بالخردواتِ والقاذوراتِ».

«إنَّه ليسَ موسم الجوزِ»، قالت آليانا. «لا توجد ثمارٌ الآن».

ابتسم الصائغُ وقال: «يا لعجلةِ الشبابِ. فلتنتظري بعضَ الوقتِ».

«حسناً». قالت آليانا، وشعرت بعبثيةِ إخبارهِ عن والدها. فعلَ الصائغُ كلَّ ما بوسعهِ لمساعدتهما، ولذلك قالت له: «شكراً لكَ على النصيحةِ».

«الوداع»، قال الصائغ، وعادَ إلى القسم الداخلي للمنزلِ مُغلقاً البابَ الكبير المرصص بالحديدِ.

غادرت آليانا وريتشارد. كان الصائغ لطيفاً معهما، ولكنهما قضيا نصفَ يومٍ في البحثِ عن عملٍ، وتلقيا الرفضَ، وبحلول هذا الوقتِ تمكنَ الاحباطُ من آليانا. ولأنهما لم يعلما إلى أين يمكنهما الذهاب تجولا في الحيِّ اليهودي إلى أن خرجا إلى الشارع الرئيسي مجدداً. بدأت آليانا تشعرُ بالجوعِ الآن. إنَّه موعد وجبةِ الغداءِ الآن. إن كانت تشعرُ بالجوع فلا بدَّ أنَّ ريتشارد يتضور جوعاً. تجولا بلا هدفٍ في الشارع الرئيسي، وحسدا الجرذان السمينة التي اكتظت بها المزابلُ، وأخيراً وصلا إلى القصرِ الملكي القديم. توقفا هناكَ كما يفعل زوارُ المدينةِ، ونظرا من وراءِ القضبانِ إلى العاملين في سكِّ العملاتِ المعدنيةِ. حدَّقت آليانا إلى أكداسِ البنساتِ الفضيةِ، وفكرت في أنَّها لا تحتاج سوى إلى بنسٍ واحدٍ، ولكنها عاجزة عن الحصولِ عليهِ.

بعدَ برهةٍ لاحظت آليانا فتاةً في مثلِ عمرها تقفُ قريبةً منها، وتبتسم لريتشارد. بدت الفتاةُ ودودةً. ترددت آليانا، ورأتها تبتسمُ مجدداً فتحدثت إليها قائلةً: «هل تعيشين هنا؟»

«أجل»، قالت الفتاة التي كان اهتمامها مُنصباً على ريتشارد.

واندفعت آليانا قائلةً: «والدنا في السجنِ، ونحاول العثور على وسيلةٍ للعيشِ، وعلى المالِ لرشوةِ السجّان. هلّا أخبرتنا بمَ يمكننا القيام بهِ؟»

انتقلت الفتاة بنظرها من ريتشارد إلى آليانا وقالت: «أنتما مُعدمان، وتريدان وسيلةً للحصولِ على المالِ؟»

«هذا صحيح. إننا مستعدان للعملِ بجدّ وسنقوم بأيِّ عملٍ. هل يمكنكِ التفكيرُ بشيءٍ؟»

ألقت الفتاة نظرةً فاحصةً على آليانا، وقالت أخيراً: «أجل، يمكنني فعلُ هذا. أعرف أحداً يستطيع مساعدتكما».

تحمست آليانا. كان هذا أولَ ردٍ إيجابي يتلقيانهِ طوال النهارِ، وقالت بحماسٍ: «متى يمكننا مقابلتهُ؟»

«مقابلتها».

«ماذا؟»

«إنَّها امرأة، ويمكنكما مقابلتها الآن إن رافقتماني».

تبادلت آليانا وريتشارد نظرةَ رضا، ولم يكن بوسعِ آليانا تصديقُ هذا التغيير في حظهما.

استدارت الفتاةُ، ولحقا بها. قادتهما إلى منزلٍ خشبي كبير في الجانبِ الجنوبي من الشارع الرئيسي.

كان المنزل بشكلٍ أساسي مؤلفاً من طابقٍ أرضي، لكنْ هناك طابقٌ علوي صغيرٌ. صعدت الفتاة إلى الطابقِ العلوي عبرَ درجٍ خارجي، وأشارت لهما باللحاق بها.

كان الطابق العلوي عبارةً عن غرفةِ نوم. نظرت آليانا حولها في ذهولٍ، ووجدت الغرفةَ مؤثثةً بسخاءٍ كبيرٍ لم ترَ مثيلاً له في أيّةِ غرفةٍ من غرفِ قلعتهما، وحتّى عندما كانت والدتها على قيدِ الحياةِ. غطت الجدران منسوجات مزدانة بالرسومِ، والأرضية سجاجيد فرائية، وكان السرير مُحاطاً بستائرَ مطرزةٍ، وعلى كرسي أشبه بعرشٍ جلست امرأةٌ في منتصفِ العمرِ في ثوبٍ آخاذٍ. عندما نظرت إليها آليانا تكهنت أنّها كانت جميلةً في صباها رغمَ أنَّ وجهها الآن مليءٌ بالتجاعيد، وشعرها خفيفٌ.

«هذهِ السيدة كيت»، قالت الفتاة. «كيت، هذهِ الفتاة مُعدمة ووالدها في السجنِ».

ابتسمت كيت، وابتسمت لها آليانا ولكن ابتسامة مغتصبةً. كان هناكَ شيءٌ ما في كيت لم تُحبهُ آليانا.

قالت كيت: «خُذي الفتى إلى المطبخ، وقدمي له كأساً من الجعةِ بينما أتحدثُ إلى الفتاةِ».

قادت الفتاة ريتشارد إلى الخارجِ، وسُرَّت آليانا لأنَّ ريتشارد سيحظى ببعضِ الجعةِ، وربما ببعضِ الطعامِ أيضاً.

قالت كيت: «ما اسمكِ؟»

«آليانا».

«هذا اسمٌ غريبٌ ولكنني أحببته». وقفت كيت، واقتربت من آليانا قليلاً ثمَّ أمسكت ذقنها بيدها. «وجهكُ جميلٌ جداً». وشمت آليانا في أنفاسها رائحةُ نبيذٍ. «اخلعي عباءتكِ».

شعرت آليانا بالحيرةِ من هذهِ المعاينةِ، ولكنها فعلت ما قالته لها كيت فقد بدت لها غير مؤذيةٍ، وبعدَ كلِ الرفضِ الذي تلقتهُ منذُ الصباحِ لم ترغب في إضاعةِ فرصةٍ جيدةٍ بعدمِ التعاونِ. خلعت عباءتها، ووضعتها على المقعدِ ثمَّ وقفت في ثوبها الكتاني القديم الذي أعطتها إياه زوجة حارسِ الغابةِ.

دارت كيت حولها، ولسببٍ ما بدت مأخوذةً. «يا عزيزتي لن تكوني بحاجةٍ إلى المالِ أبداً، أو حتَّى إلى أيِّ شيءٍ آخر. إن عملتِ معي سنصبح من الأغنياءِ».

اكفهرَّ وجه آليانا فقد بدا كلامُ كيت جنونياً. أقصى ما أرادتْهُ المساعدةُ في الغسيلِ، أو الطبخِ، أو الحياكةِ، ولم تفهم كيفَ بوسعها جعلُ أحدٍ غنياً.

«ما نوعُ العملِ الذي تتحدثين عنه؟» سألت آليانا.

وقفت كيت خلفها، ومررت كلتا يديها على جانبي آليانا ثمَّ تحسست ردفيها، واقتربت منها جداً إلى درجة أن آليانا شعرت بثديي كيت يحتكان بظهرها.

«جسدك جميلٌ»، قالت كيت. «وبشرتكِ رائعةٌ. أنتِ نبيلةٌ، أليس كذلك؟»

«كان والدي إيرل شايرنغ».

«بارثيميلو! حسناً، حسناً. أتذكره رغمَ أنَّه لم يكن من زبائني قط. إن والدكِ رجلٌ شريفٌ. حسناً أفهمُ الآن سببَ الفاقةِ التي أنتِ فيها».

إذاً، لدى كيت زبائن.

«ما الذي تبيعينه؟» سألت آليانا.

لم تُجب كيت على الفورِ، بل دارت حولَ آليانا مجدداً، ونظرت إلى وجهها ثمَّ قالت: «هل أنتِ عذراء يا عزيزتي؟»

احمرّت آليانا خجلاً.

«لا تخجلي»، قالت كيت. «أرى أنَّك لستِ عذراء. حسناً، هذا أمرٌ غير مهم. للعذراوات قيمةٌ كبيرةٌ، ولكنها بالطبعِ لا تدوم طويلاً». ثمَّ وضعت يديها على رُدفي آليانا، وانحنت ثمَّ قبَّلت جبينها. «أنتِ شهوانيةٌ، ولكنكِ لا تعلمين بذلكَ. بحقِ القديسين أنتِ مغريةٌ جداً»، ثمَّ انتقلت بإحدى يديها من رُدفِ آليانا إلى ثدييها، وأمسكت أحدهما في يدها، وعصرتهُ بلطفٍ ثمَّ انحنت مجدداً، وقبَّلت آليانا على شفتيها.

وهنا فهمت آليانا كلَّ شيءٍ؛ السبب في ابتسامِ الفتاةِ لريتشارد قبالةَ دارِ سكِّ النقودِ، ونوعيةَ النساءِ من أمثالِ كيت، وكيفَ حصلت على نقودها، وشعرت بالغباءِ لأنَّها لم تفهم الأمرَ على الفور. ولبرهةٍ من الزمنِ سمحت لكيت أن تقبلها. كانت قبلتها مختلفةً عن قبلة وليم هاملي، ولم تشعر بالتقززِ منها، ولكن لن تكون هذهِ الطريقة التي ستكسبُ بها المالَ. أفلتت نفسها من عناقِ كيت. «أنت تريدينني أن أصبحَ عاهرةً»، سألتها آليانا.

«سيدةُ متعةٍ يا عزيزتي»، قالت كيت. «ستنامين حتَّى وقتٍ متأخر، وترتدين أثواباً جميلةً كلَّ يومٍ، وستجعلين الرجال سعداء، وستصبحين غنيةً. ستكونين واحدةً من أفضلِهن. فلديك تلكَ الهيئةُ... القدرة على التحكمِ بكلِّ شيءٍ، بأيِّ شيءٍ. صدّقيني فأنا أعلمُ هذا».

ارتجفت آليانا. عادةً ما كان في القلعة عاهرة أو اثنتان، وكان هذا ضرورياً بسببِ وجودِ عددٍ كبيرٍ من الرجالِ من دونِ زوجاتٍ، وكان يُنظر إليهن كحثالةِ الحثالةِ، وأحط أصنافِ النساءِ بل وحتَّى أدنى من الكنَّاسين، ولكن ما أثارَ القشعريرةَ في بدنِ آليانا لم يكن ضعةَ هذهِ المكانةِ، بل فكرةُ أن يدخلَ

رجالٌ من أمثالِ وليم هاملي، ومضاجعتها لقاءَ بنسٍ، وأعادت هذهِ الفكرة ذكرى جسدهِ الكبيرِ فوقَ جسدها الممدّد على الأرضِ وقد باعدت ساقيها وهي ترتعشُ من الهلعِ والقرفِ بانتظارِ أن يخترقها، وينتهي الأمرُ. عاودتها هذهِ الذكرى، وأصابتها بهلعٍ جديدٍ سلبها كلَّ اتزانها وثقتها، وشعرت أَنَّها إن أطالت البقاء في هذا المنزلِ أكثر فإنَّ الأمرَ سيحدثُ مجدداً، وتملكها دافعٌ جنوني للخروجِ. تراجعت إلى الوراءِ باتجاه البابِ. كانت تخشى إهانةَ كيت، وخافت من أن يغضبَ منها أحدٌ. «أنا آسفة»، همست قائلةً. «من فضلكِ اعذريني، ولكنني لا أستطيع القيام بهذا.. حقاً...»

«فلتفكري بالأمرِ!» قالت كيت بمرحٍ. «عودي إن غيَّرتِ رأيكِ. سأكون هنا».

«شكراً لكِ»، أجابتها آليانا مرتعشةً. وصلت أخيراً إلى البابِ، وفتحتهُ ثمَّ هرعت خارجاً. هبطت الدرجَ ركضاً وهي ما زالت مستاءةً. خرجت إلى الشارعِ، وتوجهت إلى الباب الأمامي للمنزلِ. دفعت البابَ إلَّا أَنَّها كانت مرتعبةً جداً من الدخولِ فنادت شقيقها من الخارجِ: «ريتشارد! ريتشارد! اخرج!» ولكن ما من جوابٍ. كانت الإنارةُ في الداخلِ ضعيفةً، ولم يكن بوسعها رؤية سوى أخيلة بضعِ نساءٍ.

«ريتشارد، أين أنتَ؟» صرخت آليانا بهستيرية.

أدركت أنَّ المارَّة يحدقون إليها، وأثارَ هذا توترها، وفجأةً ظهرَ ريتشارد يحملُ كوباً من الجعةِ بيدٍ، وفخذَ دجاجةٍ في اليدِ الأخرى.

«ما الأمرُ؟» سألها بفمٍ مليءٍ بلحمِ الدجاجةِ، وتحدثَ بنبرةٍ تشي بالضيقِ لمقاطعتهِ.

أمسكت بريتشارد من ذراعهِ وسحبتهُ ثمَّ قالت: «اخرج من هنا فهذا بيتُ دعارةٍ».

تعالت ضحكات المارَّةِ عندما سمعوها تقول هذا، وأبدى شخصٌ أو اثنانِ ملاحظات ساخرة.

«قد يقدمون لكِ بعضَ اللحمِ»، قال ريتشارد.

«يريدونني أن أصبحَ عاهرةً!» انفجرت في وجههِ.

«حسناً، حسناً»، قال ريتشارد، وتجرَّعَ ما تبقى في كأسهِ ثمَّ وضعهُ أرضاً في الداخلِ، ووضعَ ما تبقى من ساقِ الدجاجةِ داخلَ قميصهِ.

«هيا»، قالت آليانا بنفاد صبرٍ، وساعدها التعاملُ معِ شقيقها الصغيرِ وتوجيههِ إلى تهدئتها. لم يبدُ ريتشارد متضايقاً من فكرةِ أنَّ أحدهم يريد من شقيقتهِ أن تصبحَ عاهرةً، ولكنه بدا حزيناً لاضطرارهِ إلى مغادرةِ مكانٍ يُقدمُ الجعةَ والدجاجَ لمن يطلبهما.

انتهى المشهدُ، وتابعَ المارَّة طريقهم باستثناء امرأةٍ. كانت المرأة الأنيقة ذاتها التي صادفاها في السجنِ. وقتئذٍ ناداها الحارس باسم ميغ ثمَّ نقدتهُ بنساً. نظرت المرأةُ إلى آليانا بمزيجٍ من الفضولِ والتعاطفِ، ولكن آليانا كانت قد بدأت تمقتُ تحديقَ الناسِ بها، ولذلك أشاحت بنظرها بعيداً، وهنا تحدثت المرأة إليها قائلةً: «أنتما في ورطةٍ، أليسَ كذلك؟»

دفعت نبرةُ التعاطفِ في صوتِ ميغ آليانا إلى الاستدارةِ وقالت بعدَ صمتٍ وجيزٍ: «أجل، إننا في ورطةٍ».

«رأيتكما في السجنِ. زوجي هناك، وأنا أزوهُ كلَّ يومٍ. لمَ أنتِ هنا؟»

«والدنا مسجون».

«ولكنكما لم تدخلا».

«لم يكن بحوزتنا مالٌ لندفعهُ إلى السجّان».

نظرت ميغ من فوقِ كتفي آليانا إلى بابِ بيتِ الدعارةِ وقالت: «هل هذا سببُ وجودكما هنا؟ أتحاولان الحصولَ على المالِ؟»

«أجل، ولكنني لم أعرف أنَّه بيت... إلى أن...»

«أيتها المسكينة»، قالت ميغ. «كانت ابنتي آني ستكون في مثلِ عمركِ لو أنَّها بقيت على قيدِ الحياةِ... لمَ لا ترافقينني إلى السجنِ غداً صباحاً، وسنحاول إقناع أودو أن يتصرفَ كمسيحي حقيقي، ويتعاطف مع طفلين مُعدمين».

«أوه، سيكون هذا رائعاً»، قالت آليانا متأثرةً. لم يكن هناك ضمانةٌ أنَّ هذا سينجح، ولكن وجودَ شخصٍ مستعدٍ لتقديم المساعدةِ أبكتها.

كانت ميغ ما تزال تنظرُ إليها بإمعانٍ: «هل تناولت غداءكِ؟»

«لا، ريتشارد حصلَ على بعضِ الطعامِ في... ذلكَ المكانِ».

«من الأفضلِ أن ترافقيني إلى منزلي. سأقدمُ لكِ بعضَ الخبزِ واللحمِ». ثمَّ لاحظت أن آليانا بدت قلقةً فأضافت: «وليسَ عليكِ القيامُ بشيءٍ مقابلهما».

صدَّقتها آليانا وقالت لها: «شكراً لكِ. أنتِ لطيفةٌ. لم نحظَ بمعاملةٍ لطيفةٍ من أناسٍ كثرٍ، ولا أعرفُ كيفَ يمكنني شكركِ».

«لا حاجةَ إلى ذلكَ»، قالت ميغ ثمّ أضافت: «تعالا معي».

***

كان زوجُ ميغ تاجرَ صوفٍ، وفي منزلِهِ الذي يقعُ جنوبَ المدينةِ، وكشكهِ في السوقِ خلالَ أيامِ السوقِ، والمعرضِ السنوي العظيمِ الذي يُقام في سانت غيلز هيل يلتقي بالفلاحين من القرى المجاورةِ، ويشتري ما يحضرونه من صوفٍ، ويكدّسهُ في أكياسٍ كلُّ كيسٍ منها يتسع لصوفِ مئتين وأربعين خروفاً ثمَّ يخزنها في الحظيرةِ التي تقعِ في القسمِ الخلفي من منزلِهِ. وعندما يُرسل النسَّاجون الفلمنكيون وكلاءهم لشراءِ الصوف الإنكليزي الناعم والقوي مرَّةً في العامِ يبيعهم زوجُ ميغ كلَّ الصوفِ، ويرتبُ أمرَ نقلهِ على السفنِ عبرَ دوڤر وبولوني إلى بروج وغِنت ليتحولَ إلى قماشٍ ذي جودةٍ عاليةٍ في جميعِ أرجاءِ العالمِ، وبسعرٍ أكبر بكثير مما تلقاه الفلاحون الذين جلبوا الصوفَ. هذا ما قالته ميغ لآليانا وريتشارد أثناءَ تناولِ الغداءِ، وهي تبتسم لهما تلك الابتسامة الدافئة التي عنت بها إنَّه ومهما حدثَ فلا مبرر لمعاملةِ الآخرين بقسوةٍ.

كانت تهمةُ زوجها التلاعبَ بالوزنِ، وهذهِ جريمةٌ تأخذها المدينةُ بجديةٍ لأنَّ ازدهارَ أحوالها الماديةُ يعتمدُ على سمعتها النزيهة في التجارةِ. وبالنظرِ إلى الطريقةِ التي تحدثت بها ميغ رأت آليانا أنَّ الرجلَ مذنبٌ على الأغلبِ رغمَ أنَّ غيابهُ لم يؤثر كثيراً على سيرِ الأعمالِ كما يبدو؛ فقد أخذت ميغ مكانهُ بكلِّ بساطةٍ. خلالَ الشتاءِ لم يكن هناكَ الكثير من العملِ، ولهذا سافرت ميغ إلى الفلاندرز، وقدمت تطميناتٍ إلى جميعِ عملائه، وأكدت لهم أنَّ العملَ ما زالَ يسيرُ بشكلٍ طبيعي، وقامت بإصلاحاتٍ على الحظيرةِ، ووسعتها في الوقتِ عينهِ. عندما يبدأ موسمُ جزِّ الصوفِ ستشتري الصوفَ كما فعل زوجها. كانت تعرفُ كيفَ تُقيّم جودة الصوف وتثمينَه، ولذلك قبلوا بها عضواً في نقابةِ التجارِ في المدينةِ رغمَ اللطخةِ التي لحقت بسمعةِ

زوجها؛ فهناكَ تقليدٌ بينَ التجارِ يقومُ على مساعدةِ بعضهم عوائل بعض في أوقاتِ الشدةِ، وعلاوةً على هذا ما يزال الرجلُ مُتهماً، وليسَ مُداناً.

تناولت آليانا وريتشارد طعام كيت وشربا من نبيذها، وجلسا قربَ مدفأتها يتحدثون إلى أن خيَّم الظلامُ في الخارجِ، ثمَّ عادا إلى الدير ليناما. عاودت الكوابيس آليانا في نومها مجدداً، وحلمت هذهِ المرَّة بوالدها. وفي الحلمِ رأتهُ جالساً على عرشٍ في السجنِ، وبدا طويلاً وشاحباً وصارماً كعادتهِ. وعندما توجهت نحوهُ اضطرت إلى الانحناءِ له كأنَّه الملكُ، ثمَّ خاطبها بطريقةٍ اتهاميةٍ قائلاً لها إنها تخلَّت عنه هنا في السجنِ، وذهبت للعيشِ في بيتِ الدعارةِ؛ فاستشاطت غضباً من هذهِ التهمةِ الظالمةِ، وأجابتهُ في غضبٍ أنّه هو من تخلى عنها. أرادت أن تضيفَ قائلةً إنه تركها تحتَ رحمةِ وليم هاملي، ولكنها ترددت في إخبارِ والدها بما فعلهُ وليم بها. لاحظت أنَّ وليم في الغرفةِ أيضاً يجلس على سريرٍ، ويتناولُ الكرزَ من وعاءٍ، ثمَّ يبصقُ البذورَ على خدِّها مسبباً لها الألم. ابتسم والدها، وبدأ وليم برميها بالكرزِ فلطخت الثمارُ وجهها، وثوبها، وبدأت تبكي، ورغم أنَّها كانت في ثوبٍ قديمٍ، فإنه الثوبُ الوحيد الذي بحوزتها، وها هو الآن ملطخٌ بالكاملِ من عُصارةِ حباتِ الكرزِ ببقعٍ كبقعِ الدمِ.

شعرَت بحزنٍ لا يُحتمل في الحلمِ. عندما استيقظت، واكتشفت أنَّه لم يكن حقيقةً تملكها شعورٌ عارمٌ بالراحةِ رغمَ أنَّ الواقعَ -تشردها وفاقتها- كان أسوأ بكثير من قذفها بحباتِ الكرزِ الطري.

كان ضوءُ الفجرِ يتسللُ من بينِ شقوقِ جدرانِ منزلِ الزوارِ، وقد بدأ الناس حولها يستيقظون، ويتحركون في المكانِ، وسرعان ما دخلَ الرهبان، وفتحوا الأبوابَ، ومصاريع النوافذِ، ونادوا الجميعَ إلى تناولِ الإفطارِ.

تناولت آليانا وريتشارد الطعامَ بسرعةٍ ثمَّ توجها إلى منزلِ ميغ، ووجداها مستعدةً للمغادرةِ. كانت تسخنُ يخنة لحمٍ من أجلِ غداءِ زوجها، وطلبت آليانا من ريتشارد أن يحمل القدر الثقيل عن ميغ. تمنَّت آليانا لو أنهما يستطيعان أخذَ طعامٍ لوالدهما. لم تفكر بالأمرِ كثيراً لأنَّها حتَّى لو أرادت هذا فهي لا تملكُ المالَ لشرائه. كانت فكرةُ عدم قدرتهما على فعلِ شيءٍ من أجلِ والدها مريعةً جداً.

ساروا عبرَ الشارعِ الرئيسي، ودخلوا إلى القلعةِ من البوابةِ الخلفيةِ، ثمَّ مروا بساحةِ الديرِ، وهبطوا الهضبةَ باتجاهِ السجنِ. تذكرت آليانا أنَّها عندما سألت السجّان أودو البارحة عن صحة والدها أجابها: «لا، إنَّه ليسَ بخير. إنَّه يحتضر»، وتصورت أنَّ أودو وبدافعِ القسوةِ بالغ، ولكنها الآن بدأت تقلق من أن يكون ما قاله صحيحاً.

قالت آليانا لميغ: «هل هناك خطبٌ في والدي؟»

«لا أعلم يا عزيزتي»، قالت ميغ. «فأنا لم أره قط».

«قال السجّان إنَّه يحتضر».

«ذلك الرجلُ لئيمٌ كقطٍ. لا بدَّ أنَّه قال هذا ليضايقكِ. على أيِّ حالٍ سنعلمُ الحقيقةَ بعدَ قليلٍ».

رغمَ نوايا ميغ الطيبة فإنّ كلامها لم يُطمئن آليانا بل ملأها شعوراً بالرهبةِ وهي تجتازُ البوابة إلى داخلِ السجنِ المظلمِ والنتن.

وجدوا أودو يُدفئ يديهِ فوقَ نارٍ وسطَ البهو.

أومأ أودو رأسه لميغ، ونظرَ إلى آليانا ثمَّ قال: «هل حصلتِ على المالِ؟»

«سأدفعُ عنهما»، قالت ميغ. «إليك بنسين، واحدٌ عني، وواحدٌ عنهما».

علت وجه أودو الغبي نظرة ماكرة وقال: «بنسين عنهما. بنساً عن كلِّ واحدٍ».

«لا تكُن حقيراً»، قالت ميغ. «دعهما يدخلان، أو سأتسبب لكَ بالمتاعبِ في نقابةِ التجارِ، وتخسر عملكَ».

«حسناً، حسناً، لا داعي إلى التهديد»، قال أودو متذمراً، أشارَ إلى ممرّ مقنطرٍ باتجاهِ الجدارِ الحجري إلى يمينهم ثمَّ أضاف: «بار[illegible]يلو في ذلك الاتجاه».

قالت ميغ: «ستحتاجان إلى ضوءٍ»، وسحبت شمعتين من عباءتها، وأشعلتهما من النارِ التي يتدفّأ بها أودو، ثمَّ قدَّمت إحداهما إلى آليانا. بدت كيت مضطربةً وقالت: «أرجو أن تكون الأمور على ما يرام»، ثمَّ قبّلت آليانا، وهرعت عبرَ الممرّ المقنطرِ المقابل.

«شكراً لكِ على البنسِ»، قالت آليانا في إثرها، ولكن ميغ كانت قد اختفت في العتمةِ.

حدَّقت آليانا في خشيةٍ إلى الاتجاهِ الذي أشارَ إليهِ أودو. رفعت الشمعةَ المضاءةَ، وعبرت الممرّ المقنطرَ لتجدَ نفسها في ردهةٍ مربعةٍ صغيرةٍ. كشفَ ضوءُ الشمعةِ عن ثلاثةِ أبوابٍ ثقيلةٍ، وكلُّ واحدٍ منها موصدٌ برتاجٍ من الخارجِ، وهنا أتى صوتُ أودو: «أمامكما مباشرةً».

قالت آليانا: «ارفع الرتاجَ يا ريتشارد».

أمسكَ ريتشارد بالرتاجِ الخشبي الثقيل، ورفعهُ ثمَّ أسندهُ إلى الحائطِ. دفعت آليانا بالبابِ وهي تُرتل صلاةً سريعةً في سرِّها.

كانت الزنزانةُ حالكة الظلمةِ إلا من النور الذي ألقتهُ شمعتها. ترددت أمامَ المدخلِ، وحدَّقت إلى الظلالِ المتحركةِ. انبعثت من المكان رائحة كرائحةِ المرحاضِ وأتى صوتٌ قائلاً: «من؟»

قالت آليانا: «أبتاه؟» وتبينت خيالاً داكناً جالساً على الأرضيةِ المغطاةِ بالقشِّ.

«آليانا؟» أتى الصوتُ بنبرةِ تشكيكٍ. «هل هذهِ أنتِ؟» وبدا الصوتُ كصوتِ والدها ولكن أكبر عمراً.

اقتربت آليانا حاملةً الشمعةَ. رفعَ والدها ناظريهِ إليها، وسقط ضوءُ الشمعةِ على وجههِ؛ فشهقت في رعبٍ.

بالكاد ميزت معالمَ وجههِ.

لطالما كان بارثيميلو رجلاً نحيلاً، ولكنه الآن بدا كهيكلٍ عظمي. بدا قذراً جداً، وثيابه مهلهلةً. «آليانا!» قال لها. «هل هذهِ أنتِ!» وتلوى وجههُ عن ابتسامة كابتسامة في جمجمةٍ.

انخرطت آليانا باكيةً. لم تتوقع قط أن ترى هذا التغيير الكبير على والدها. كان الأمرُ رهيباً بما لا يتصوره عقلٌ، وعلمتْ فوراً أنَّه يحتضر حقاً. يبدو أنَّ ذلكَ الشرير أودو لم يكذب. كان ما يزال على قيدِ الحياةِ، ورغم معاناتهِ بدا مسروراً جداً لرؤيتها. قبل قدومها قررت الحفاظ على رباطة جأشها، إلَّا أنَّها الآن فقدت كلَّ سيطرتها على نفسها، وخرَّت على ركبتيها أمامهُ تبكي وتشهق عالياً، ومن أعماقها.

انحنى بارثيميلو إلى الأمامِ، وأحاطها بذراعيهِ، وربَّت على ظهرها كمن يهدهدُ طفلاً يبكي من جرحٍ في ركبتهِ، أو لأنَّ لعبتهُ تحطمت.

«لا تبكي»، قال لها. «لا تبكي بعدَ أن جعلت والدكِ سعيداً جداً».

شعرت آليانا بالشمعةِ تؤخذُ من يدها، وقال والدها: «هل هذا الشابُ ابني ريتشارد؟»

«أجل، يا أبي»، قال ريتشارد بخشونةٍ.

أحاطت آليانا والدها بذراعيها، وشعرت بعظامهِ كأنَّها عصي في كيسٍ. كان يذوي، ولم يعد تحتَ الجلدِ لحمٌ. أرادت أن تقول له شيئاً، كلمات حبٍ أو ترويحٍ، ولكنها عجزت من شدةِ بكائها.

«ريتشارد»، قال بارثيميلو. «لقد كبرتَ! هل ظهرت لحيتكَ؟»

«بدأت يا أبتاه، وهي شقراء».

أدركت آليانا أنَّ ريتشارد على وشكِ الانفجارِ بكاءً، ويقاومُ للحفاظِ على تماسكهِ. سيشعرُ بالعارِ إن بكى أمامَ والدهِ الذي وعلى الأرجح سيطلبُ منه أن يتصرف كالرجالِ، ويتوقف عن البكاءِ، وسيكون الأمرُ أسوأ. ولقلقها على ريتشارد توقفت آليانا عن البكاءِ، ثمَّ وبكثيرٍ من الجهدِ تمالكت نفسها، وعانقت جسدَ والدها النحيلَ بقوةٍ مرَّةً أخرى. أفلتته، ومسحت عينيها ثمَّ نظَّفت أنفها بكمها.

«هل أنتما على ما يرام؟» قال والدها بصوتٍ أبطأ من صوتهِ الطبيعي، ومتهدجٌ قليلاً. «كيفَ تدبرتما أمركما؟ أين كنتما تعيشان؟ لم يخبروني بأيِّ شيءٍ عنكما، وكان هذا أسوأ تعذيب لي. ولكنكما تبدوان على ما يرام وبصحةٍ جيدةٍ! هذا رائعٌ!»

عندما أتى والدها على ذكرِ التعذيبِ تخيلت آليانا أنَّه تعرَّضَ إلى تعذيبٍ جسدي، ولكنها لم تسأله مخافةً مما قد يخبرها بهِ، وبدلاً من ذلكَ أجابت على سؤالهِ بكذبةٍ: «إننا على ما يرام يا أبي». وعلمت أنَّ معرفةَ الحقيقةِ ستُدمرهُ، وستقضي على لحظةِ السعادةِ هذهِ، وستجعله يعيشُ أيامهُ الأخيرة في كربٍ ولومٍ لنفسهِ. «إننا نعيشُ في القلعةِ وماثيو يعتني بنا».

«ولكنكما لا تستطيعان العيشَ فيها بعدَ الآن»، قال بارثيميلو. «فقد قدمها الملكُ عطيةً مُجزيةً إلى بيرسي هاملي الذي أصبحَ الإيرل الآن، وهذا يعني أنَّه سيحظى بالقلعةِ».

إذاً كان يعلمُ بالأخبارِ.

«حسناً»، قالت له. «لقد انتقلنا منها».

تلمّس ثوبها الكتاني القديم الذي قدَّمته لها زوجةُ حارسِ الغابةِ وسألها: «ما هذا؟ هل بعتِ ثيابك؟»

لاحظت آليانا أنَّ والدها ما يزال ثاقبَ الملاحظةِ، ولن يكون خداعه سهلاً، ولذلكَ قررت أن تخبره جزءاً من الحقيقةِ.

«غادرنا القلعةَ على عجلٍ ولم نحمل معنا أيَّة ثيابٍ».

«وأين ماثيو الآن؟ لماذا ليسَ معكما؟»

ولأنَّها خشيت من هذا السؤال ترددت.

رغمَ أنَّها صمتت لبرهةٍ وجيزةٍ فإنه لاحظَ ترددها. «هيا، لا تحاولي إخفاءَ أيِّ شيءٍ عني!» قال بشيءٍ من النبرةِ الآمرةِ القديمةِ. «أين ماثيو؟»

«لقد قتلته عائلةُ هاملي»، قالت له. «ولكنهم لم يؤذونا». وحبست أنفاسها، وهي تتساءل في نفسها إن كان سيصدقها.

«ماثيو المسكين»، قال في حزنٍ. «لم يكن مقاتلاً في يومٍ من الأيام. أتمنى أن يكون في الجنةِ الآن».

صدَّقَ قصتها، وشعرت بالراحةِ فانتقلت بالحديثِ بعيداً عن هذهِ المنطقةِ الخطرةِ قائلةً: «قررنا أن نأتي إلى وينشستر لكي نطلب من الملكِ تدبيراً يعيلنا ولكنه...»

«لا فائدة من الأمر»، قاطعها والدها بسرعةٍ، وقبلَ أن تشرحَ له سببَ فشلهما في مقابلةِ الملكِ تابع: «لن يفعل شيئاً من أجلكما».

تألمت آليانا من لهجتهِ المُحبطةِ، فقد بذلت أفضل ما بوسعها، وتحدَّت جميع الظروفِ على أملِ أن يقولَ لها أحسنتِ صنعاً وليسَ أن يقول لها ما تقومين بهِ مضيعةٌ للوقتِ. لطالما كان سريعاً في التصويبِ، وبطيئاً في المدحِ، وقالت لنفسها إنَّه كان عليها توقع هذا، وبنبرةٍ محبطةٍ قالت له: «ما الذي سنفعله الآن يا أبتاه؟»

عندما غيّر وضعيةَ جلوسهِ سمعت آليانا صوتَ خشخشةٍ، وأدركت مصدومةً أنَّه كان مُقيداً.

قال لها: «لم تتسنَّ لي سوى فرصة واحدة لإخفاء بعضِ المالِ. لم تكن

فرصةً، ولكنني اضطررت إلى انتهازها. أخفيت خمسين قطعة نقدية بيزنطية في حزامي تحتَ قميصي، وأعطيتها إلى كاهنٍ».

«خمسون!» قالت آليانا متفاجئةً. كانت البيزنطيةُ عملةً ذهبيةً، ولم تكن مسكوكةً في إنكلترا بل في بيزنطة. لم ترَ آليانا في حياتها أكثر من قطعةٍ واحدةٍ، والقطعة الواحدة تساوي أربعاً وعشرين بنساً فضياً والخمسون تساوي...لم يكن بوسعها حساب ما تساويه خمسون قطعةً.

«من الكاهن؟» قال ريتشارد بلهجةٍ عمليّةٍ.

«الأب رالف في كنيسةِ سانت مايكل بالقربِ من نورث غيت».

«هل هو رجلٌ صالحٌ؟» سألت آليانا.

«لا أعلم ولكني آملُ أن يكون كذلك، ففي اليوم الذي أحضرتني فيهِ عائلةُ هاملي إلى وينشستر، وقبلَ سجني هنا وجدتُ نفسي وحيداً معهُ لبضعِ دقائقٍ، وعلمتُ أنَّه سيكون فرصتي الوحيدة. أعطيتهُ الحزامَ، وتوسلت إليهِ أن يحتفظَ بهِ من أجلكما، وهي تساوي خمسُ جنيهاتٍ من الفضةِ».

خمسُ جنيهات! عندما استوعبت آليانا هذا الخبرَ أدركت أنَّ المالَ سيغيرُ حياتهما. لن يكونا في فاقةٍ، أو يضطرا إلى العيشِ على الصدقاتِ. سيتمكنان من شراءِ الخبزِ وحذاء بدلاً من القبقابِ المؤلم وجوادين صغيرين إن أرادا السفرَ. لن يحلَّ المبلغُ جميعَ مشاكلهما، ولكن سيُبعدُ عنهما الشبح المرعب للعيشِ في قلقٍ دائمٍ على حياتهما. لن تضطرَ إلى التفكيرِ أبداً بكيفيةِ النجاةِ، بل ستحولُ تركيزها إلى التفكيرِ بأمورٍ بنَّاءةٍ كإخراجِ والدها من هذا المكانِ المريعِ. قالت له: «عندما نحصلُ على المالِ ما الذي يجبُ أن نقومَ بهِ؟ يجب أن نقومَ بتحريركَ».

«أنا لن أخرجَ من هنا»، أجابها والدها بقسوةٍ. «فلتنسي هذا. لو لم أكن أحتضرُ لأعدموني».

شهقت آليانا في رعبٍ مما قاله.

«لمَ أنتِ مصدومةٌ؟» سألها وأردف: «الملكُ مضطرٌ إلى التخلصِ مني، ولكن بهذهِ الطريقةِ لن يشعرَ بتأنيبِ الضميرِ».

قال ريتشارد: «أبي، بما أنَّ الملك غائب فالحراسةُ على هذا المكانِ ليست مشددةً. أعتقدُ أنَّه، وبمساعدةِ بضعةِ رجالٍ، يمكننا تحريركَ».

علمت آليانا على الفورِ أنَّ هذا مستحيل. لا يمتلك ريتشارد القدرة، أو الخبرة اللازمة لتنظيمِ عمليةِ إنقاذِ، وكان يافعاً جداً على إقناعِ رجالٍ بالانصياع له، وخشيت من أن يجرحَ والدها ريتشارد بصبِّ جامِ ازدرائه على هذا المقترحِ، ولكن والدها اكتفى بالقولِ: «لا تفكر بالأمرِ. فحتَّى لو اقتحمتَ المكانَ سأرفضُ الخروج معك».

تعلم آليانا أنَّ الجدالَ مع والدها يغدو عقيماً عندما يعقد عزمهُ على شيءٍ، وعندما فكَّرت أنَّه سيقضي بقيةَ أيامِهِ في هذا السجنِ النتنِ شعرت بقلبها يغوص في صدرها من شدَّةِ الحزنِ. «حسناً، إن قررتَ البقاءَ يمكننا أن ننظفَ المكانَ، ونجلبَ لك قشاً جديداً. سنحضرُ لك أيضاً طعاماً ساخناً كلَّ يوم. سنجلبُ بعضَ الشموعِ، وقد نتمكنُ من استعارة نسخة من الإنجيل كي تقرأَ فيها. يمكنكَ أن تحظى بنارٍ...»

«توقفي!» قال لها وتابع: «لن تقومي بأيٍّ من هذا. لن أقبلَ أن يُهدرَ طفلاي حياتهما في السجنِ بانتظارِ وفاةِ والدهما».

وترقرقت الدموع من عيني آليانا مجدداً: «ولكن لا يمكننا تركك على هذهِ الحال!»

تجاهلها كما يفعلُ عادةً مع من يعارضونهُ. «كانت لوالدتكِ العزيزة أختٌ وتدعى إيديث، وهي تعيشُ مع زوجها الفارسِ في قريةِ هانتلي التي تقعُ على طريقِ غلوستر. فلتذهبا إلى هناك».

وخطرَ لآليانا أنَّهما سيتمكنان من رؤيةِ والدها بين الفينةِ والأخرى، وربما سيسمحُ زوجُ خالتهما لقريبيهِ من طرفِ زوجتِهِ أن يجعلا إقامةَ والدها هنا مريحةً أكثر. حاولت آليانا أن تتذكر شكلَ الخالة إيديث والعمّ سايمون. لم ترهما منذُ وفاةِ والدتها، وتذكرت بشكلٍ ضبابي أنَّ خالتها إيديث كانت امرأةً نحيلةً وعصابيةً كوالدتها، وزوجها كان رجلاً ضخماً ولطيفاً ويحبُّ الطعام والشرابَ.

«هل ستعتني بنا؟» سألتهُ في ارتيابٍ.

«بالطبعِ. إنَّها قريبتكما».

تساءلت آليانا في نفسها إن كان هذا سبباً كافياً كي ترحّب عائلةُ فارسٍ متواضعةٌ بشابين كبيرين وجائعين في منزلها، ولكن والدها قال إنَّ الأمورَ ستكون على ما يرام وهي تثقُ بهِ.

«ما الذي سنفعله بعد ذلك؟» سألتهُ.

«سيُصبحُ ريتشارد مرافقاً لعمهِ، ويتعلمُ فنونَ الفروسيةِ، وأنتِ ستصبحين وصيفةً لخالتكِ إلى أن تتزوجي».

شعرَت آليانا أنَّها كانت تحملُ حملاً كبيراً لمسافةٍ طويلةٍ، ولم تشعر بالألمِ في ظهرها إلى أن وضعت حِملها. تسلَّمَ والدها الآن زمامَ الأمورِ، وبدت لها وطأة مسؤوليات الأيام القليلةِ الماضيةِ أكبر مما تطيق حملهُ. منحتها صرامتهُ وقدرتهُ على التحكمِ بالموقفِ، حتَّى وهو في السجنِ ومريض، الراحةَ وخففت عليها أساها، وبدا لها القلق على من يستلمُ زمامَ الأمورِ غير ضروري الآن.

ثمَّ تحدَّث بلهجةٍ أكثرَ صرامةً قائلاً: «قبلَ أن تغادراني أريدكما أن تقطعا عهداً».

صُدمت آليانا مما سمعتهُ. لطالما عارضَ والدها قطع العهودِ، واعتادَ القولَ إنَّ قطعَ عهدٍ يُعرض الروحَ إلى الخطرِ، وأنَّه على المرءِ ألا يتعهدَ بشيءٍ ما لم يكن واثقاً من أنَّه يفضلُ الموت على الحنثِ بهِ. وهو نفسهُ وصلَ إلى السجنِ بسببِ عهدٍ قطعه، في الوقتِ الذي حنثَ فيهِ البارونات بوعودهم، وقبلوا بستيفن ملكاً. رفضَ والدها الحنثَ بوعدِهِ، وفضَّل الموت على الحنثِ بهِ، وها هو هنا يحتضرُ بسببهِ.

«ناولني سيفكَ»، قال لريتشارد.

سحبَ ريتشارد سيفهُ، وقدَّمهُ له.

أخذَ بارثيميلو السيفَ، وعكسهُ حاملاً إياه من نصلهِ ثمَّ قال: «اركع».

ركعَ ريتشارد أمامَ والدهِ.

«ضع يدكَ على المقبضِ»، قال بارثيميلو ثمَّ توقفَ لبرهةٍ كأنَّه يستجمع قواه. وأخيراً خرجَ صوتهُ رناناً كجلجلةِ أجراسٍ: «فلتُقسم بخالقِ الكونِ، ويسوعَ المسيح، وجميع القديسين أنَّكَ لن ترتاح، ولن يهدأ لك بالٌ إلى أن تصبحَ إيرلَ شايرنغ، وسيِّدَ جميع الأراضي التي كانت لي».

تفاجأت آليانا، وصُدمت بعضَ الشيءِ مما سمعتهُ. توقعت أن يطلبَ والدها وعداً عادياً كقولِ الحقيقةِ دوماً وخشيةِ الرَّبِّ، ولكنه لم يفعلَ هذا بل أعطى ريتشارد مهمةً محددةً، مهمةً قد يستغرقُ تحقيقها العمرَ بأكملهِ.

أخذَ ريتشارد نفساً عميقاً، وتحدَّثَ بصوتٍ متهدجٍ بعضَ الشيءِ: «أُقسمُ بخالقِ الكونِ، ويسوع المسيح، وجميع القديسين أنني لن أرتاح، ويهدأ لي بالٌ إلى أن أصبح إيرلَ شايرنغ، وسيِّدَ جميع الأراضي التي كانت لكَ».

تنهدَ والدها كأنَّه فرغَ من أداءِ مهمةٍ متعبةٍ، ثمَّ فاجأ آليانا مجدداً بأن استدارَ، وأدارَ مقبضَ السيفِ نحوها. «فلتُقسمي بخالق الكونِ، ويسوع المسيح، وجميع القديسين أنَّك ستعتنين بشقيقكِ ريتشارد إلى أن يفي بعهدهِ».

سيطرَ على آليانا شعورٌ بالهلاكِ. إذاً، هذا مصيرهما. سيثأرُ ريتشارد لوالدهما، وهي ستعتني بريتشارد. سيكون الأمرُ بالنسبةِ إليها مهمةَ انتقام؛ فإن أصبحَ ريتشارد إيرلاً سيخسرُ وليم إرثهُ. وخطرَ ببالها أنَّ ما من أحدٍ سألها كيف تريدُ قضاءَ حياتها، ولكن هذهِ الفكرةَ الغبية عبرت بلمح البصرِ. كان هذا قدرها، وهو قدرٌ مناسبٌ، وملائمٌ. لم تعارضهُ، ولكنها علمتْ أنَّها لحظةٌ مصيريةٌ، وانتابها شعورٌ بأبوابٍ توصدُ خلفها، وأن طريقَ حياتها محددٌ بما لا رجعةَ فيهِ. وضعت يدها على المقبضِ، وتعهدت. تفاجأت بصوتها الذي خرجَ قوياً، وحازماً: «أقسمُ بخالقِ الكون، ويسوع المسيح، وجميع القديسين أنني سأعتني بأخي ريتشارد إلى أن يفي بعهدهِ». ثمَّ رسمت إشارةَ الصليبِ. لقد قُضي الأمرُ. وفكرت في نفسها أنَّها قطعت وعداً الآن، ومن الأفضلِ لها أن تموتَ على أن تحنثَ بهِ، وأشعلت الفكرةُ في داخلها نوعاً من الغضبِ المُرضي.

«إذاً»، قال والدها بصوتٍ ضعيفٍ مجدداً. «لم تعودا بحاجةٍ إلى القدومِ إلى هذا المكانِ مجدداً».

لم يكن بوسعِ آليانا التصديق أنَّه عنى ما قاله ولذلك قالت له: «سيُحضرنا العمُّ سايمون لرؤيتكَ بين الفينةِ والأخرى لتأمين الدفء والطعامِ لكَ...»

«لا»، قال والدها بصرامةٍ وتابع: «لديكما مهمةٌ تؤديانها، ولا يجبُ أن تُبددا طاقتكما في زيارةِ السجنِ».

سمعت آليانا في صوتهِ مجدداً تلكَ النبرة التي تعني أنَّه لا مجالَ للمناقشةِ، ولكن لم يكن بوسعها منعُ نفسها من الاحتجاجِ على قسوةِ قرارهِ.

«إذاً دعنا نزوركَ لمرةٍ واحدةٍ، ونجلبَ لكَ بعضَ وسائلِ الراحةِ!»

«لا أريد وسائلَ راحةٍ».

«من فضلكَ...»

«أبداً».

وهنا استسلمت آليانا. لطالما كان قاسياً على نفسهِ كما كان مع الجميع.

«حسناً»، قالت له وهي تختنق بدموعها.

«من الأفضلِ أن تغادرا الآن»، قال لهما.

«على الفور؟»

«أجل. هذا مكانٌ لليأسِ، والتحللِ، والموتِ، والآن وبعد أن رأيتماني، وعلمتُ أنّكما بخيرٍ، وأنّكما وعدتماني بإعادةِ بناءِ ما خسرتهُ فأنا راضٍ، والشيءُ الوحيدُ الذي قد يُدمرُ سعادتي هو أن أراكما تضيعان وقتكما في سجنٍ. اذهبا الآن».

«أبي، لا»، احتجّت آليانا رغمَ علمها أنَّ الجدال معه عقيمٌ.

«أصغي إلي»، قال لها وقد غدا صوتهُ أكثرَ لطفاً أخيراً. «عشتُ حياةً مُشرّفةً، وسأموت الآن. اعترفتُ بذنوبي، وأنا جاهزٌ للآخرةِ. صلّيا من أجلِ روحي. اذهبا».

انحنت آليانا إلى الأمامِ، وقبّلت والدها على حاجبهِ فسقطت دموعها على وجههِ.

«وداعاً أبي العزيز»، همست له، ونهضت على قدميها.

ركعَ ريتشارد، وقبّل والدهُ ثمَّ قال بصوتٍ مرتعشٍ: «وداعاً يا أبي».

«فليبارككما الرَّبُّ، ويعنكما على تنفيذ وعديكما»، قال بارثيميلو.

تركَ ريتشارد الشمعةَ في مكانها، وتوجّه مع آليانا إلى البابِ. عندَ العتبةِ استدارت آليانا، ونظرت إلى والدها في ضوءِ الشمعةِ الضعيفِ، ورأت على وجههِ الهزيلِ تعبيراً مألوفاً جداً، كان تعبيراً يشي بعزمٍ هادئ. بقيت تنظرُ إليهِ إلى أن غشيت الدموع بصرها، ثمَّ استدارت، وسارت متعثرةً عبرَ ردهة السجنِ إلى الهواءِ الطلقِ.

- 3 -

سارَ ريتشارد في المقدمةِ. كانت آليانا تشعرُ بالدوارِ من شدةِ الحزنِ كأنَّ والدها توفي للتو، ولكن الأمرَ كان أسوأ من ذلك؛ فهو لم يمت بل ما زال يعاني. سمعت ريتشارد يستفسرُ عن الاتجاهاتِ، ولكنها لم تعبأ بشيءٍ، ولم

تكن مشغولةً بوجهتهما إلى أن توقفَ ريتشارد أمامَ كنيسةٍ خشبيةٍ صغيرةٍ بجانبها كوخٌ له سقفٌ مائلٌ. نظرت آليانا حولها، وأدركت أنَّهما كانا في منطقةٍ فقيرةٍ بمنازلَ صغيرةٍ متهالكةٍ، وشوارع قذرة تطارد فيها كلابٌ شرسةٌ الجرذان بين أكوامِ القمامةِ، وأطفال حفاة يلعبون في الوحلِ.

«يجب أن تكون هذهِ كنيسةَ سانت مايكل»، قال ريتشارد.

وجدا منزلاً بسطحٍ مائلٍ إلى جانبِ الكنيسةِ، ولا بدَّ أنَّه منزلُ الكاهنِ. كانت إحدى نوافذ المنزل محطمةً. جرَّبا فتحَ الباب، ووجداه مفتوحاً فدخلا.

وجدا موقداً وسط الغرفةِ الوحيدةِ، ولا شيء في المكان سوى طاولة، وبضعةِ كراسٍ، وبرميل جعةٍ في الزاويةِ. كانت الأرض مفروشةً بنبات السُمارِ، وقرب الموقدِ جلسَ رجلٌ على كرسي يشربُ الجعةَ من كوبٍ كبيرٍ. كان رجلاً ضئيلَ البنيةِ، ونحيلاً في عقدهِ الخامس بأنفٍ مُحمرٍ وشعرٍ رمادي وخفيفٍ. كان في ثيابٍ عاديةٍ: قميص داخلي قذر، وسترة بنّية، وقبقاب.

«الأبُ رالف؟» سألَ ريتشارد.

«ماذا لو كنتُ هو؟» أجابَ الرجلُ.

تنهدت آليانا. ما السببُ الذي يدفعُ الناس إلى خلقِ المتاعب والعالم مليء بها أصلاً؟ لم تمتلك الطاقةَ الكافيةَ على التعاملِ مع شخصٍ بمزاجٍ عكرٍ، ولهذا تركت الأمرَ بينَ يدي ريتشارد الذي قال: «هل هذهِ إجابةٌ بالإيجابِ؟»

وسرعان ما حصلا على الإجابةِ عندما أتى صوتٌ من الخارجِ ينادي: «رالف؟ هل أنتَ في الداخلِ؟» وبعدَ برهةٍ دخلت امرأةٌ في منتصفِ العمرِ، وقدّمت للكاهنِ قطعةَ خبزٍ كبيرةً ووعاءً كبيراً تفوح منه رائحةُ يخنةِ اللحمِ، ولأولِ مرَّةٍ لم يسل لعابُ آليانا عندما شمَّت رائحةَ اللحمِ فقد كبحت حالةُ الصدمةِ التي كانت فيها كلَّ شعورٍ لديها، بما في ذلكَ شعور الجوع. لا بدَّ أن تكون المرأةُ من أفرادِ أبرشيةِ رالف؛ فقد كانت نوعيةُ ثيابها من نوعيةِ ثيابه السيئة. رمقت المرأة آليانا وريتشارد بنظرةٍ لا مباليةٍ، وخرجت.

قال ريتشارد: «حسناً أيّها الأبُ رالف. أنا ابن بارثيميلو، إيرل شايرنغ السابق».

توقفَ الرجلُ عن تناولِ الطعامِ لبرهةٍ، ورفعَ ناظريهِ نحوهما ثمَ ارتسمَ

على وجههِ تعبيرٌ يشي بالعداءِ، وتعبيرٌ آخر لم تنجح آليانا في قراءتهِ. هل كان الخوف؟ الشعور بالذنبِ؟ عادَ رالف إلى تناولِ طعامهِ، ولكنه دمدمَ قائلاً: «ما الذي تريده مني؟»

وشعرت آليانا بشيءٍ من الخوفِ.

«أنتَ تعلمُ ما الذي أريدهُ»، قال ريتشارد. «مالي. خمسين قطعةً بيزنطيةً».

«لا أعلمُ عمَّا تتحدث»، قال رالف.

أمعنت آليانا النظر إليهِ، وقالت لنفسها إنّ هذا غير ممكنٍ. تركَ لهما والدهما مالاً مع هذا الكاهن، كما قال لهما، ووالدها لا يُخطئ في مثلِ هذهِ الأمورِ.

«أعني، لا أعلمُ عمَّا تتحدث عنه. اغربا عن وجهي الآن»، وتناولَ لقمةً أخرى من اليخنةِ.

بالطبعِ كان الرجل يكذب، ولكن ما الذي يمكنهما فعلهُ حيالَ الأمرِ؟

أصرَّ ريتشارد بعنادٍ: «تركَ لي والدي مالاً معك، خمسين قطعة نقدية بيزنطية. أخبرني أنَّه أعطاك المالَ، فأين هو؟»

«لم يُعطني والدكَ شيئاً؟»

«قالَ إنَّه أعطاك...»

«لقد كذبَ إذاً».

لم يكن والدها كاذباً، وهنا تحدثت آليانا لأولِ مرَّةٍ قائلةً: «أنتَ كاذبٌ ونعلمُ بهذا».

هزَّ رالف كتفيهِ وقال: «فلتُقدمي شكوى إلى المأمور».

«ستقعُ في المتاعبِ إن شكونا؛ فمن يسرقُ في هذهِ المدينةِ تُقطع يداه».

عبرَ شبحُ خوفٍ وجهَ الكاهنِ، ولكنه لم يدم طويلاً. «ستكون كلمتي مقابل كلمةِ خائنٍ مسجون، هذا إن عاشَ والدكِ ليقدمَ دليلاً»، قال رالف في تحدٍ.

أدركت آليانا أنَّه كان على حقٍ. لا يوجد شاهدٌ مستقلٌ قد يشهد أنَّ والدها أعطى رالف المالَ؛ فالأمر برمتهِ حدثَ سِرّاً، وقد يؤخذُ المالُ من قبلِ الملكِ، أو بيرسي هاملي، أو من أيِّ «طيرٍ من طيورِ الرّمةِ» التي تحومُ حولَ ممتلكاتِ رجلٍ انتهى أمره. أدركت آليانا بمرارةٍ أنَّ الأمورَ الآن بالسوءِ

الذي كانت عليهِ عندما كانا في الغابةِ. يمكنُ للناسِ أن يسرقوهما، ومن دون خوفٍ من العقوبةِ لأنَّهما طفلا نبيلٍ فقدَ مكانتهُ، وسألت نفسها بغضبٍ: «لمَ أنا خائفةٌ من أولئكَ الرجالِ؟ لمَ لا يخافون مني؟»

نظرَ ريتشارد إليها، وقال بصوتٍ منخفضٍ: «إنَّه على حقٍ، أليسَ كذلك؟»

«أجل»، قالت له بحقدٍ وتابعت: «لا جدوى من تقديمِ شكوى إلى المأمور». كانت تفكرُ بالمرةِ الوحيدةِ التي كان فيها الرجالُ خائفين منها. حدثَ هذا في الغابةِ عندما طعنت الخارج عن القانون السمين، وهربَ الآخر خوفاً. لم يكن الكاهن بأفضلِ حالٍ من ذلكَ الخارجِ عن القانونِ. إنَّه عجوزٌ وضعيفٌ، وهو على الأغلب لم يعتقد أنَّه قد يلتقي بضحاياه قط، ولذلك قد يتمكنان من إخافته.

قال ريتشارد: «ماذا سنفعلُ الآن؟»

وفجأةً استسلمت آليانا لردِّ فعلٍ مفاجىء وغاضبٍ قائلةً: «احرق المنزلَ»، وتقدَّمت إلى وسطِ الغرفةِ ثمَّ ركلت النارَ بقبقابها الخشبي، وبعثرت الحطبَ المحترقَ فالتقطَ نباتُ السُمارِ حولَ الموقدِ النارَ على الفورِ.

«مهلاً!» صرخَ رالف، ورفعَ نفسهُ عن كرسيهِ فأوقعَ الخبز ووعاءَ اليخنةِ عن حضنهِ، ولكن قبلَ أن يتمكن من الوقوفِ على قدميهِ كانت آليانا قد انقضت عليهِ. شعرت الآن أنَّها فقدت كل سيطرةٍ على نفسها، وباتت مُقتادةً بغريزتها. دفعتهُ فارتطمَ بكرسيهِ، وسقطَ أرضاً على الفورِ، فذُهلت من سهولةِ إيقاعهِ. انقضَّت عليهِ، وثبتته بركبتيها فوقَ صدرهِ. اقتربت بوجهها من وجهه، وقد أعماها الغضبُ ثمَّ صرخت: «أيّها الزنديق الكاذب والسارق! يا من لا تخشى الرَّبَّ! سأحرقكَ حتَّى الموت!»

نظرَ رالف جانباً، وبدا مرتاعاً جداً. نظرت آليانا إلى حيثُ نظر، ورأت ريتشارد يسحبُ سيفهُ، ويستعد للهجومِ. شحبَ وجهُ الكاهنِ القذرِ وهمسَ: «أنتِ شيطانةٌ...»

«وأنتَ سارقُ نقودِ الأطفالِ الفقراءِ!» ومن زاويةِ عينها رأت عوداً محترقاً فالتقطتهُ، وقرَّبت الجانبَ المشتعلَ من وجه رالف ثمَّ قالت: «والآن سأحرقُ عينيكَ، الواحدة تلو الأخرى. سأبدأ أولاً بالعين اليسرى...»

«لا، من فضلكِ»، همسَ لها. «من فضلكِ لا تؤذيني».

ذُهلت آليانا من سرعةِ انهيارهِ أمامَ التهديدِ، وأدركت أنَّ عشبَ السُمارِ من حولها مشتعلٌ.

«أين المال إذاً؟» قالت بصوتٍ بدا طبيعياً بشكلٍ مفاجىء.

كان الكاهن ما يزال مرتعباً وأجاب: «في الكنيسةِ».

«أين بالضبطِ؟»

«تحتَ حجرِ المذبحِ».

نظرت آليانا إلى ريتشارد وقالت: «احرسهُ إلى أن أذهب، وأتحقق من الأمرِ»، ثمَّ أضافت: «إن تحرَّك اقتلهُ».

قال ريتشارد: «آلي، سيحترقُ المنزلُ».

توجهت آليانا إلى زاويةِ الغرفةِ، ورفعت غطاءَ البرميلِ الذي كان ممتلئاً حتَّى نصفهِ بالجعةِ، ثمَّ أمسكت بحافتهِ، وسحبتهُ إلى الأسفلِ فانسكبت الجعةُ على الأرضِ مبللةً نباتَ السمارِ، وانطفأت النيران.

خرجت آليانا من المنزلِ. كانت مستعدةً لحرقِ عيني الكاهنِ، ولكن بدلاً من الشعورِ بالخزي تملكها إحساسٌ بالقوةِ. قررت ألا تسمحَ للناسِ بتحويلها إلى ضحيةٍ، وها هي الآن تُثبت لنفسها أنَّها قادرةٌ على تنفيذِ هذا القرار. توجهت إلى واجهةِ الكنيسةِ الأماميةِ، وحاولت فتحَ البابِ، ولكن وجدته موصداً بقفلٍ صغيرٍ. كان بوسعها العودةُ إلى الكاهنِ وطلبِ المفتاحِ، ولكنها بدلاً من ذلكَ أخرجت خنجرها من تحتِ كُمها، وأقحمت النصلَ في شقِّ البابِ ثمَّ كسرت القفلَ. فُتحَ البابُ، ودخلت إلى الكنيسةِ. في الداخلِ لم تجد أيَّ أثاثٍ باستثناءِ المذبحِ، وما عدا بعض اللوحاتِ على الجدران الخشبيةِ المطليةِ بالكلسِ لم يكن هناكَ أيّةُ زينةٍ. في الزاويةِ تمثالٌ خشبي صغيرٌ، وهو في الأغلبِ يمثلُ القديسَ مايكل، وتحتهُ شمعةٌ وحيدةٌ تحترقُ. لوهلةٍ تعكرَ صفو إحساس آليانا بالنصرِ عندما أدركت أنَّ مبلغَ خمسة جنيهاتٍ إغراءٌ كبيرٌ لرجلٍ فقيرٍ كالأبِ رالف، ولكنها قررت ألا تفكرَ بتعاطفٍ.

كانت أرضيةُ الكنيسةِ ترابيةً، ولكنها رأت بلاطةً حجريةً كبيرةً خلفَ المذبحِ. كان أفضلَ مكانٍ للتخبئةِ؛ فما من أحدٍ سيُفكرُ بسرقةِ كنيسةٍ فقيرةٍ كهذهِ الكنيسةِ. ركعت آليانا على ركبةٍ واحدةٍ، وحاولت دفعَ البلاطةَ جانباً، ولكنها لم تتحرك من مكانها فقد كانت ثقيلةً جداً، وهنا بدأت آليانا تشعرُ

بالقلقِ. لا يمكنُ الاعتمادُ على ريتشارد في إبقاءِ رالف هادئاً لفترةٍ طويلةٍ، وقد ينجح الكاهن في الهربِ، وطلبِ المساعدةِ، وعندها ستضطرُ آليانا إلى الإثباتِ أنَّ المالَ مالها، ولكن هذا سيكون آخر همومها بعد تهجمها على كاهنٍ، واقتحامها كنيسةً. ارتجفت من الخوفِ عندما أدركت أنَّها خرقت القانونَ.

منحتها قشعريرةُ الخوفِ قوةً إضافيةً، وبحركةٍ قويةٍ حرَّكت البلاطةَ إنشاً أو أكثر. تحت البلاطةِ وجدت فجوةً بُعمقِ قدم. نجحت بتحريكِ البلاطةِ قليلاً بعد، ووجدت داخلَ الحفرةِ حزاماً جلدياً عريضاً فأمسكتهُ وسحبتهُ.

«ها هو! لقد وجدتهُ!» صرخت عالياً. منحتها فكرةُ هزيمةِ الكاهنِ المخادعِ، واسترجاعِ مال والدها شعوراً عظيماً بالرضا، ولكن وبينما كانت تهمُّ بالنهوضِ على قدميها أدركت أنَّ انتصارها لم يكن كاملاً فقد شعرت بالحزامِ، وبما يدعو للقلقِ، خفيفاً. حلَّت نهايتهُ وأخرجت العملات النقديةِ، ولكنها لم تجد سوى عشر قطعٍ، وهي تساوي جنيهاً فضياً واحداً.

تساءلت في نفسها عمَّا حلَّ ببقيةِ النقودِ. هل أنفقها الأبُ رالف! وشعرت بالغضبِ في داخلها يستعرُ مجدداً. هذا المالُ الذي تركهُ والدها كلُّ ما تمتلكهُ في العالمِ، وها هو كاهنٌ لصٌ يسلبها معظمهُ. اندفعت خارجَ الكنيسةِ حاملةً الحزامَ. في الشارعِ نظرَ إليها أحدُ المارّةِ في ذهولٍ كأنّه يرى شيئاً غريباً على وجهها. لم تلقِ بالاً للأمرِ، ودخلت إلى منزلِ الكاهنِ.

وجدت ريتشارد واقفاً قربَ الأبِ رالف وطرفُ سيفهِ على عنقهِ. «أين بقيةُ مال والدي؟»

«اختفى»، همسَ الكاهنُ.

ركعت بالقرب من رأسهِ، ووضعت خنجرها على وجههِ ثمَّ قالت: «أين اختفى؟»

«لقد صرفتهُ»، اعترفَ الكاهنُ بصوتٍ خرجَ خشناً من شدةِ الخوفِ.

أرادت آليانا أن تطعنهُ، أو تضربهُ أو ترميهِ في النهرِ، ولكنها أدركت أنَّه لا جدوى من فعلِ هذا. عرفت أنَّه يقولُ الحقيقةَ، ونظرت إلى البرميلِ المنقلوبِ وهي تفكرُ أنَّ رجلاً سكيراً سيشربُ الكثيرَ من الجعةِ، ثمَّ شعرت أنَّها على وشكِ الانفجارِ من شدةِ اليأسِ، وقالت بصوتٍ كالفحيحِ: «كنتُ

سأقطع أذنكَ لو أمكنني بيعها لقاء بنسٍ»، ونظر إليها الكاهن نظرةً تشي أنَّه صدَّقَ تهديدها.

قالَ ريتشارد في قلقٍ: «يبدو أنَّه أنفقَ المالَ. فلنأخذ ما تبقى منه، ونغادر».

أدركت آليانا على مضضٍ أنَّ ريتشارد محقّ، وبدأ غضبها يتبخرُ مُخلفاً وراءهُ شعوراً بالمرارةِ. لم تكن هناك فائدةٌ ترجى من الإمعانِ في إخافةِ هذا الكاهنِ، وكلما أطالا البقاءَ في المكانِ تعاظمت فرصُ دخولِ أحدهم فجأةً، ووقوعهما في المتاعبِ. وقفت آليانا وقالت: «حسناً»، ثمَّ أعادت النقود الذهبية إلى الحزامِ، وارتدتهُ حولَ خصرها تحتَ عباءتها، ثمَّ أشارت إلى الكاهنِ بإصبعٍ وقالت له: «قد أعودُ في يومٍ من الأيامِ وأقتلكَ»، ثمَّ بصقت عليهِ.

وخرجت.

اندفعت عبرَ الشارعِ الضيقِ، وهرعَ ريتشارد خلفها.

«أنتِ رائعةٌ يا آلي!» قال لها بحماسةٍ. «لقد أخفتهِ حدَّ الموتِ، وحصلتِ على المال».

أومأت برأسها وقالت بمرارةٍ: «أجل لقد فعلتُ». كانت ما تزالُ تشعرُ بالمرارةِ، ولكنها الآن وبعدَ أن تراجعَ خوفها شعرت بالخواءِ، وبالحزنِ.

«ما الذي سنشتريهِ؟» سألها ريتشارد بحماسةٍ.

«بعضَ الطعامِ من أجلِ الرحلةِ».

«ألا يمكننا شراءُ جيادٍ؟»

«ليسَ بالمبلغِ الذي بحوزتنا».

«ولكن يجبُ أن نشتري لكِ جزمةً».

كانت قد فكرت بهذا، فقد آلمتها قدماها من القبقابِ، والأرضيةُ باردة جداً على المشي من دونهِ، ولكن الأحذية غاليةٌ. ترددت في إنفاقِ المالِ بهذهِ السرعةِ، وقالت لريتشارد: «لا، يمكنني العيشُ لبضعةِ أيامٍ أخرى من دونِ جزمةٍ. سنحتفظُ بالمالِ الآن».

أصيبَ ريتشارد بالخيبةِ، ولكنه لم يجادلها.

«ما الطعامُ الذي سنشتريه؟» سألها.

«خبز قاس وجبنة قاسية والنبيذ».

«لنشترِ بعضَ الفطائرِ».

«لا، إنَّها باهظةُ الثمنِ».

«أوه». وصمتَ لبرهةٍ ثمَّ قالَ: «أنتِ نكدةٌ جداً يا آلي».

تنهدت آليانا وقالت: «أعلمُ»، ثمَّ فكرت في نفسها: «لماذا أنا في هذا المزاجِ العكرِ في الوقتِ الذي يجبُ أن أشعرَ فيهِ بالفخرِ؛ فقد نجحت بالوصولِ إلى هنا، ودافعت عن شقيقي، وعثرت على والدنا، واستعدت مالنا. أجل، لقد فعلتُ كلَّ هذا، ولكنني أيضاً طعنت رجلاً في بطنِهِ، وأجبرتُ شقيقي على قتلِهِ، وهددتُ كاهناً بإحراقِهِ، وكنتُ على استعدادٍ لفقوء عينيهِ».

«هل السببُ والدنا؟» سألَ ريتشارد في تعاطفٍ.

«لا، ليسَ كذلكَ»، قالت آليانا. «بل أنا».

***

ندمت آليانا على عدمِ شراء الجزمةِ.

استمرت بانتعالِ القبقابِ على الطريقِ إلى غلوستر إلى أن أدمى قدميها، ثمَّ سارت حافيةَ القدمين حتَّى لم تعد قادرةً على تحملِ البرد فانتعلته مجدداً. اكتشفت أنَّه من الأفضلِ ألا تنظرَ إلى قدميها لأنهما آلمتاها أكثر عندما رأت تقرحاتهما والدماء التي سالت منهما.

في القريةِ التي تقعُ على الهضبةِ هناك الكثير من مُلَّاكِ الأراضي الفقراء حيثُ الفلاحون يزرعون فداناً أو أكثر من الشوفانِ، أو الجودارِ، ويربون حيواناتٍ عجفاء. عندما اعتقدت آليانا أنَّهما اقتربا من منزلِ عائلةِ هانتلي توقفت عند أطرافِ القريةِ، وتحدثت إلى فلاح كان يجزُّ صوفَ خروفٍ في حديقةٍ مسورةٍ بجانبِ منزلٍ ريفي واطىء السقفِ، ومبني من أغصانٍ مضفورةٍ، وطينٍ. كان الفلاحُ قد وضعَ رأسَ خروفٍ في أداةٍ خشبيةٍ لتثبيتِهِ، وجزّ صوفهِ بسكين ذات نصلٍ كبيرٍ. هناك خروفان قريبان ينتظران بتململٍ دورهما، وخروف قُد جُزَّ صوفهُ يرعى في الحقلِ عارياً في هذا الجو البارِدِ.

«أليسَ الوقتُ باكراً على جزِّ الصوفِ؟» سألت آليانا.

رفعَ الفلاح نظرةُ نحوها، وابتسم بمرحٍ. كان شاباً أصهبَ الشعرِ بوجهٍ يغطيه النمش، ومن تحتِ كميهِ المرفوعين ظهرَ ساعداه المُشعران.

«ولكنني أحتاجُ إلى المالِ، ولذلك من الأفضلِ أن يبردَ الخروف على أن أجوع»، أجابها.

«كم تتقاضى مقابلَ الصوفِ؟»

«بنساً عن كلِّ خروفٍ. يجب أن أذهب إلى غلوستر لبيعهِ، ولأنني أضطرُ إلى التغيبِ عن العملِ في الحقلِ ليوم لا أجزهُ في الربيعِ بسببِ كثرةِ الأعمالِ في الحقلِ». على الرغمِ من تذمرهِ فإنَّه كان شاباً مرحاً.

«ما اسم هذهِ القريةِ؟» سألته آليانا.

«يدعوها الغرباءُ هانتلي»، أجاب الشابُ. لا يستخدم سكان القريةِ الاسمَ بل يشيرون إليها باسم القريةِ فقط؛ فالأسماءُ للغرباءِ».

«ومن تكونين؟» سألها بفضولٍ واضحٍ. «ما الذي أحضركِ إلى هنا؟»

«أنا نسيبةُ سايمون هانتلي»، قالت آليانا.

«حقاً. حسناً ستجدينهُ في المنزلِ الكبيرِ. ارجعي إلى الوراءِ قليلاً من هذا الطريقِ ثمَّ اسلكي طريقَ الحقولِ».

«شكراً لكَ».

توسطت القريةُ حقولها المحروثة كخنزيرٍ في بركةِ وحلٍ، وارتصَّ ما يزيدُ على عشرين منزلاً صغيراً حولَ منزلِ سيدِ القريةِ، الذي لم يكن أكبر من منزلِ فلاحٍ ميسورٍ. يبدو أنَّ الخالة إيديث والعمَّ سايمون ليسا ثريين جداً. أمامَ منزلِ السيدِ لاحظت آليانا مجموعةً من الرجالِ مع بضعةِ جيادٍ، وبدا أحدهم كأنَّه السيد فقد كان في معطفٍ قرمزي فأمعنت النظرَ إليه. مر اثنا عشر أو ثلاثةَ عشرَ عاماً منذُ أن رأت العمَّ سايمون، ولكنها اعتقدت أنَّ هذا الرجلَ هو عمها. تتذكره رجلاً ضخماً إلَّا أنَّه الآن بدا أصغر، ولكن آليانا كبرت كثيراً منذئذٍ. كان شعرهُ خفيفاً، وهناكَ طيةٌ تحتَ ذقنهِ لم تتذكر رؤيتها قبلاً، ثمَّ سمعتهُ يقول: «حاركُ[1] هذا الجواد الضخمِ عالٍ» وميزت صوتَ عمها الخشنِ وتنفسه المسموع قليلاً.

1- تقع هذهِ المنطقة أعلى كتفِ الجوادِ. (المترجمة)

وهنا شعرت آليانا بالراحة؛ فمن الآن فصاعداً ستحظى بالطعامِ، والثيابِ، والعنايةِ، والحمايةِ. لا مزيد من الخبزِ الرخيصِ، والجبنةِ القاسيةِ، ولا مزيد من النومِ في الحظائرِ، ولا السير على الطرقات ويدها لا تُفارقُ خنجرها. ستنام على سريرٍ ناعمٍ، وسترتدي ثوباً جديداً، وسيكون غداؤها لحماً بقرياً مشوياً.

التقت نظراتها بنظراتِ العمِّ سايمون. في البداية لم يعرفها وقال لرجالِهِ: «انظروا من أتى لزيارتنا! فتاةٌ جميلةٌ وجندي فتى»، ثمَّ تغيرَ شيءٌ في نظرتهِ، وعلمت آليانا أنَّه أدركَ أنَّهما ليسا غريبين.

«أنا أعرفكِ، أليسَ كذلك؟» سألها.

أجابت آليانا: «أجل، أنتَ تعرفني أيّها العم سايمون».

وقفزَ الرجلُ كأنَّ شيئاً ما أفزعهُ وقال: «بحقِّ القديسين! إنَّه صوتُ شبحٍ!»

لم تفهم آليانا ما عناه بكلامهِ، ولكنه شرحَ لها بعد برهةٍ. تقدَّمَ منها ممعناً النظرَ إليها كأنَّه على وشكِ معاينتها كجوادٍ ثمَ قال: «كان لوالدتكِ الصوت ذاته. كان صوتها كالعسلِ المسكوبِ في مرطبانٍ، وبحقِ المسيحِ أنت بجمالها أيضاً». ثمَّ لامسَ وجهها بيدهِ فسارعت إلى الابتعادِ. «ولكنني أرى أنكِ متغطرسةٌ كوالدكِ اللعين. أفترضُ أنَّه من أرسلكما إلى هنا، أليسَ كذلكَ؟»

تراجعت آليانا إلى الوراءِ بعدائيةٍ. لم تكن تحبُّ سماع أحدهم يشير إلى والدها بـ«والدكِ الملعون»، ولكنها إن اعترضت فسيعتبر العمُّ سايمون اعتراضها دليلاً إضافياً على غطرستها، ولهذا لجمت نفسها، وأجابته في رضوخٍ: «أجل».

«حسناً، لقد كان مخطئاً»، قال العمُّ سايمون ثمَّ تابع: «خالتك إيديث توفّيت، علاوةً على هذا ومنذُ العملِ المخزي الذي اقترفه والدكِ خسرتُ نصفَ أراضي لذلكَ الوغد السمين بيرسي هاملي. إنَّ الأمورَ عصيبةٌ هنا، ولذلكَ عليكِ أن تستديري، وتعودي إلى وينشستر فأنا لن أقبلَ بكما هنا».

صُدمت آليانا مما سمعت، وبدا لها عمها سايمون رجلاً قاسياً جداً.

«ولكننا أقرباء!» احتجَّت.

بدا مُحرجاً بعضَ الشيءِ، ولكنَّ جوابهُ أتى قاسياً: «كنا أقارب. كنتِ ابنةَ أختِ زوجتي الأولى، ولكن حتَّى عندما كانت إيديث على قيد الحياةِ لم ترَ أختها بسببِ ذلك الأحمق المتعالي الذي تزوجت بهِ».

«سنعمل»، التمست آليانا. «كلانا قادران...».

«لا تتعبي نفسكِ»، قال لها وتابع: «لن أقبل بكما».

صُدمت آليانا من حزمهِ الشديد، وأدركت أنَّه لا جدوى من مجادلته، أو استجدائهِ، ولكن ولأنَّها تلقَّت الكثير من الخيبات، والانتكاسات المشابهةِ شعرت بالمرارةِ أكثر مما شعرت بالحزنِ. ولو أنَّ أمراً كهذا حصلَ معها قبلَ أسبوعٍ لانفجرت باكيةً، ولكنها الآن شعرت برغبةٍ في البصقِ بوجههِ.

«سأتذكرُ هذا عندما يصبح ريتشارد الإيرل، ويستعيد القلعةَ»، قالت له.

وضحكَ سايمون ثمَّ قال: «إن عشتُ حتَّى ذلك الوقت».

قررت آليانا ألا تزيد شيئاً كيلا تُهان أكثر. «فلنذهب»، قالت لريتشارد ثمَّ أضافت: «سنعتني بأنفسنا». كان العمُّ سايمون قد أدارَ ظهرهُ الآن، وعادَ إلى تفحصِ الجواد ذي الحارك العالي، أمَّا بقيةُ الرجالِ معهُ فقد بدوا مُحرجين قليلاً.

غادرت آليانا وريتشارد.

عندما باتا بعيدين عن مرمى الأسماعِ قال ريتشارد بنبرةٍ حزينةٍ: «ما الذي سنفعلهُ يا آلي؟»

«سنُثبتُ لأولئكَ القساة أننا أفضلُ منهم»، أجابت بتجهمٍ رغمَ شعورها أنَّها لم تكن قويةً إلى هذهِ الدرجةِ. كان الحقدُ يملأ قلبها تجاهَ العمِّ سايمون، والأبِ رالف، والسَّجّان أودو، والخارجين عن القانون، وحارس الغابةِ، وفوقهم جميعاً، وليم هاملي.

«من الجيدِ أننا نملكُ بعضَ المالِ»، قال ريتشارد.

هذا صحيح، ولكن المالَ لن يدوم إلى الأبدِ. «لا يمكننا إنفاقهُ»، قالت آليانا خلال سيرهما على الطريق الفرعي عائدين إلى الطريقِ الرئيسي. «إن أنفقناه كلَّه على الطعامِ، وما إلى هنالكَ سنعيشُ في فاقةٍ مجدداً. يجب أن نستثمرهُ في شيءٍ ما».

«لا أرى سبباً قد يدفعنا إلى هذا»، قال ريتشارد. «أعتقدُ أنَّه علينا شراءُ جوادٍ صغيرٍ».

حدَّقت بهِ كأنَّها أرادت التحققَ من أنَّه لا يمزح، ولكنه لم يكن يبتسم. وهنا أدركت، وبكلِ بساطةٍ، أنَّه لم يفهم.

«لا نملكُ مكانةً ولا لقباً ولا أراضي»، شرحت له بأناةٍ. «والملكُ لن يُساعدنا، ولن نحصلَ على عملٍ؛ فقد حاولنا في وينشستر وما من أحدٍ أراد الاستعانة بنا. لذلك يتعين علينا إيجادُ طريقةٍ لكسبِ لقمةِ العيشِ، وجعلكَ فارساً».

«أوه»، قال ريتشارد. «فهمتُ الآن».

ورغمَ شعورِ آليانا أنَّ ريتشارد لم يفهم تماماً ما عنتهُ فإنَّها تابعت قائلةً: «يجب أن نؤسسَ لنفسنا مهنةً تدرُّ علينا المالَ الكافي لتأمين الطعامِ وشراءِ جوادٍ جيدٍ».

«هل تعنين بكلامكِ أنني يجبُ أن أصبحَ متدرباً عندَ أحدِ الحرفيين؟»

هزَّت آليانا رأسها وقالت: «يجب أن تصبح فارساً، وليسَ نجاراً. هل قابلنا أحداً له مصدرُ دخلٍ مستقلٍ، ولا يتمتع بأيَّةِ مهاراتٍ؟»

«أجل»، قالَ ريتشارد على نحو فجائي. «ميغ في وينشستر».

كان على حقٍ. رغمَ أنَّ ميغ لم تتلقَ تدريباً من تاجرِ صوفٍ فإنها تاجرة صوفٍ، وتمتلك كُشكاً في السوقِ. عبرا بالقربِ من الفلاحِ الأصهبِ الذي دلَّهما على الطريقِ إلى منزلِ العمِّ سايمون. كانت خِرافهُ الأربعة ترعى في الحقلِ، وهو يجمعُ الصوفَ في حزمٍ، ويربطهُ بحبلٍ مصنوعٍ من الخيزران. رفعَ الفلاح نظرهُ، ولوّحَ لهما. يأخذ الناس من أمثالهِ الصوفَ إلى المدنِ، ويبيعونهُ إلى تجارِ الصوفِ، ولكن ألا يجب أن يكون لتجارِ الصوفِ أمكنة يقومون فيها بأعمالهم... أو ربما لا؟

كانت الفكرةُ قد بدأت تتبلورُ في ذهنِ آليانا، واستدارت إلى الوراءِ بشكلٍ مفاجئٍ.

قال ريتشارد لها: «إلى أين أنتِ ذاهبةٌ؟»

كانت متحمسةً جداً على الإجابةِ على سؤالهِ.

توقفت عند سياجِ الفلاح وسألته: «كم قلتَ أنَّكَ تتقاضى عن الصوفِ؟»

«بنساً عن كلِّ خروفٍ»، أجابها.
«ولكن ستضطرُ إلى إضاعةِ يومٍ كاملٍ في الذهابِ والعودةِ من وينشستر».
«هذهِ هي المشكلة».
«لنفرض أنني اشتريت منكَ الصوفَ، ألن يريحكَ هذا من عناءِ الرحلةِ؟»
قال ريتشارد: «آلي! لسنا بحاجةٍ إلى الصوفِ!»
«فلتصمت يا ريتشارد». لم تكن لديها رغبةٌ في شرحِ الفكرةِ له الآن، فقد كانت متحمسةً جداً لعرضها على الفلاحِ.
قال الفلاح: «سيكون هذا من لطفكِ»، ولكنه نظرَ إليها بريبةٍ كأنَّه يشكُّ بوجودِ خدعةٍ في الأمرِ.
«ولكنني لا أستطيع أن أدفعَ لكَ بنساً عن صوفِ كلِّ خروفٍ».
«آه، تصورتُ أنَّ هناك خدعةً ما».
«يمكنني أن أدفعَ لكَ بنسين عن أربعةِ خرافٍ».
«ولكنها بنسٌ عن كلِّ خروفٍ!» احتجَّ الفلاحُ.
«في وينشستر، وليسَ في هانتلي».
هزَّ رأسهُ رافضاً وقال: «أفضلُ الحصولَ على أربعة بنساتٍ، وخسارةِ يومِ عملٍ في الحقلِ على الحصولِ على بنسين، وكسبِ يومِ عملٍ هنا».
«فلنفرض أنني أعطيتكَ ثلاثةَ بنساتٍ على صوفِ الخرافِ الأربعةِ».
«وأخسرُ بنساً».
«وأريحكَ من سفرِ يومٍ».
بدا الفلاحُ محتاراً وقال: «لم أسمع بأمرٍ كهذا من قبل».
«سأكون بمنزلة العربةِ وأنتَ ستدفعُ بنساً لقاءَ إيصالِ الصوفِ إلى السوقِ». كانت قد بدأت تجدُ بطئهُ في الفهمِ مُتعباً. «والسؤال هنا، هل كسبُ يومٍ إضافي في الحقولِ يساوي بنساً أم لا؟»
«هذا يعتمدُ على ما سأفعلهُ في هذا اليومِ»، قال مُفكراً.
خاطبها ريتشارد: «آلي، ما الذي ستفعلينهُ بصوفِ الخرافِ الأربعةِ؟»
«سنبيعهُ إلى ميغ»، قالت له بنفاد صبرٍ. «ببنسٍ على كلِّ خروفٍ، وبهذهِ الطريقةِ سنربحُ بنساً».

«ولكن سيكون علينا قطعُ كلِّ هذهِ المسافةِ إلى وينشستر من أجلِ بنسٍ!»

«لا أيّها الغبي. سنشتري الصوفَ من خمسين فلاحاً ونأخذهُ دفعةً واحدةً إلى وينشستر. ألا تفهم؟ يمكننا أن نجني خمسين بنساً، ونؤمن الطعامَ لأنفسنا، ونوفرَ مالاً من أجلِ جوادٍ جيدٍ!»

عادت إلى الفلاحِ، ووجدته يحكُّ شعرهُ الأصهب، وفارقت وجهه الابتسامة. شعرت آليانا بالأسى لأنَّها تسببت بحيرتهِ، ولكنها أرادتهُ أن يقبلَ بالعرضِ. إن قبلَ بالعرضِ ستعلمُ حينها أنَّها ستتمكنُ من الوفاءِ بوعدها لوالدها، ولكنّ الفلاحين عنيدون، وشعرت برغبةٍ في إمساكهِ من ياقتهِ، وهزِّه، ولكن بدلاً من ذلكَ وضعت يدها داخلَ عباءتها وهزَّت محفظتها. كانا قد صرَّفا العملات البيزنطيةِ إلى بنساتٍ فضيةٍ في منزلِ الصائغِ في وينشستر. أخرجت ثلاثةَ بنساتٍ، وعرضتها على الفلاحِ.

«ها هو المال»، قالت له ثمَّ أضافت: «إمَّا أن تقبلَ بالعرضِ، أو ترفضهُ».

عندما رأى الفلاحُ البنسات الفضية حسمَ قرارهُ وقال: «قبلت»، ثمَّ أخذَ المال.

ابتسمت آليانا، وبدت كأنَّها عثرت على ما تبحثُ عنه.

في تلكَ الليلةِ استخدمت إحدى حُزمِ الصوفِ كوسادةٍ، وذكرتها رائحةُ الخرافِ بمنزلِ ميغ.

عندما استيقظت في الصباحِ اكتشفت أنَّها لم تكن حاملاً.

كان الحظُ قد بدأ يبتسمُ لها أخيراً.

***

بعدَ مرورِ أربعةِ أسابيع على عيدِ الفصحِ دخلت آليانا وريتشارد مدينةَ وينشستر مع جوادٍ عجوزٍ، وعربة منزلية الصنعِ مع كيسٍ ضخمٍ يحوي على صوفِ مئتين وأربعين خروفاً، وهو ما كان الحملَ المتعارفَ عليهِ.

وفي هذهِ المرحلةِ اكتشفا مسألة الضرائب.

في المرةِ السابقةِ دخلا المدينةَ دون أن يوقفهما أحد، غير أنَّهما الآن علما سببَ ضيقِ بواباتِ المدينةِ، ووجودِ موظفي الجماركِ. كانت هناكَ تعرفةٌ مقدارها بنساً عن كلِّ حملٍ من البضائعِ يدخلُ المدينةَ. لحسنِ الحظِ ما

يزال بحوزتهما بعضُ البنساتِ، وتمكنا من دفعِ التعرفةِ، ولو أنهما لم يدفعا التعرفة لحُرما من دخولِ المدينةِ.

كلَّفهما حملُ الصوفِ ما بين النصف إلى ثلاثةِ أرباعِ البنسِ عن كلِّ خروفٍ. دفعا اثنين وسبعين بنساً لقاء الجوادِ العجوزِ، وحصلا على العربةِ المنزليةِ مجاناً معه، أمَّا بقيةُ المالِ فقد ذهبَ على الطعامِ، ولكن الليلة سيكون بحوزتهما جنيه فضي، وجواد، وعربة.

كانت آليانا قد خططت للمغادرةِ مجدداً، وشراءِ حملٍ آخر من الصوفِ، وتكرارِ الأمرِ إلى أن ينتهي موسم جزِّ صوفِ الخرافِ، وبحلولِ نهايةِ الصيفِ ستمتلكُ ما يكفي من المالِ لشراءِ جوادٍ قوي، وعربةٍ جديدةٍ.

كانت متحمسةً جداً وهي تقودُ جوادها العجوز عبرَ شوارعِ المدينةِ باتجاهِ منزلِ ميغ. بحلولِ نهايةِ اليومِ ستُثبت لنفسها أنَّها قادرةٌ على العنايةِ بنفسها وبشقيقها، ومن دونِ مساعدةِ أحدٍ، ومنحها هذا إحساساً بالنضجِ والاستقلاليةِ. كان مصيرها وقدرها بين يديها، ومن دون عطيةِ الملكِ، أو مساعدةِ قريبٍ، أو حتى زوجٍ.

تطلَّعت قُدماً إلى لقاءِ ميغ؛ فقد عدَّتها مُلهمتها. كانت ميغ من بين القلائل الذين ساعدوا آليانا دون محاولةِ سرقتها، أو اغتصابها، أو استغلالها. أرادت طرحَ الكثير من الأسئلة عليها بخصوصِ الأعمال بشكلٍ عامٍ، وتجارةِ الصوفِ بشكلٍ خاصٍ.

كان اليوم يومَ السوقِ، ولهذا تمهَّلا في قيادةِ العربةِ عبرَ المدينةِ المكتظةِ إلى الشارعِ الذي تسكنُ فيهِ ميغ. وصلا أخيراً إلى منزلها، ودخلت آليانا الردهةَ فظهرت أمامها امرأةٌ لم ترها قبلاً.

«أوه!» قالت آليانا وتوقفت فوراً.

«ما الأمرُ؟» قالت المرأة.

«أنا صديقةُ ميغ».

«لم تعد ميغ تعيشُ هنا»، قالت المرأة بغُلظةٍ.

«أوه يا إلهي». لم ترَ آليانا داعياً للردِ بهذهِ الغُلظةِ، وسألت المرأةَ: «وإلى أين انتقلت؟»

«غادرت المدينةَ مع زوجها بعدَ أن ثبتَ جُرمه، ولحقَ بهِ الخزي»، أجابت المرأة.

شعرت آليانا بخيبةِ الأملِ والخوفِ. كانت تعتمدُ على ميغ لبيعِ الصوفِ بسهولةٍ.

«هذهِ أخبارٌ سيئةٌ جداً!» قالت آليانا.

«كان زوجها تاجراً مُخادعاً، ولو كنتُ مكانكِ لما تفاخرت بصداقتي بها. فلتخرجي الآن».

استشاطت آليانا غضباً عندما سمعت المرأة تتحدثُ بالسوءِ عن ميغ. «لا يهمني ما فعلهُ زوجها. ميغ امرأةٌ رائعةٌ، وأرقى بكثيرٍ من اللصوصِ، والعاهرات الذين يسكنون هذهِ المدينةَ النتنة»، قالت آليانا، وخرجت قبلَ أن تتسنى الفرصةُ للمرأة في التفكيرِ بردٍ ما.

لم يمنحها الشعورُ بالنصرِ على المرأةِ بعد هذا الرَّدِ سوى عزاء مؤقت.

«لدي أخبارٌ سيئةٌ»، قالت لريتشارد. «غادرت ميغ وينشستر».

«هل الشخصُ الذي يسكنُ هنا الآن تاجرُ صوفٍ؟» سألها.

«لم أسأل المرأةَ فقد كنتُ مشغولةً بالرَّدِّ عليها»، وشعرت آليانا الآن بغباءِ ما فعلتهُ.

«ما الذي سنفعلهُ الآن يا آلي؟»

«يجب أن نبيعَ هذا الصوفَ»، أجابتهُ بقلقٍ. «من الأفضلِ أن نذهبَ إلى السوقِ».

أدارا العربةَ، وعادا إلى الشارع الرئيسي يشقانِ طريقهما بينَ الحشود باتجاهِ السوقِ الذي يقعُ بينَ الشارعِ الرئيسي والكاتدرائيةِ. قادت آليانا الجواد، وسارَ ريتشارد وراءَ العربةِ دافعاً إياها كلما احتاجَ الجوادُ إلى مساعدةٍ، وحدث هذا طوال الوقت. وجدا السوقَ أشبه بكتلةٍ مُتفجرةٍ من الناسِ المتراصين في ممرّاتٍ ضيقةٍ بينِ الأكشاكِ، وأعاقَ تقدمهما عرباتٌ كعربتهما. توقفت آليانا ثمَّ وقفت فوقَ كيسِ الصوفِ تبحثُ عن تجارِ الصوفِ. لم ترَ سوى تاجرٍ واحد فنزلت، وقادت الجواد باتجاهِ ذلك التاجر.

بدا الرجلُ تاجراً مُقتدراً. كانت لديهِ مساحةٌ كبيرةٌ، وفي الخلفِ زريبةٌ بأُطُرٍ خشبيةٍ خفيفةٍ من أغصانِ الخيزران المجدولةِ. ولاحظت آليانا أنّها أُرتجلت من

أجلِ يومِ السوقِ. أمَّا التاجر فكان رجلاً داكنَ البشرةِ، وذراعهُ اليسرى مقطوعة عندَ المرفقِ. هناكَ مشطٌ مثبتٌ في نهايةِ الطرفِ المقطوعِ، وكُلما قدّم له أحدهم صوفاً مدَّ ذراعهُ إلى الصوفِ، وأخذَ بعضاً منه بالمشطِ، وتحسسه بيدهِ اليُمنى قبلَ أن يُثمنه، ثمَّ استخدمَ المشطَ ويدهُ اليمنى لعدِّ النقود المتفقِ عليها. أمَّا بالنسبةِ للأحمالِ الكبيرةِ فكان يضعُ المالَ على الميزانِ، ويزنهُ.

حثَّت آليانا الجواد على التقدمِ عبرَ الحشدِ باتجاهِ كشكِ التاجرِ. كان هناكَ فلاحٌ يعرضُ على التاجرِ صوفاً خفيفاً لثلاثةِ خرافٍ، وكانت الحزمةُ مربوطةً بحزامٍ جلدي.

«خفيفٌ بعضَ الشيءِ»، قال التاجرُ. «ثلاثةُ فارذينغ عن كلِّ خروفٍ».

تساوي قيمة الفارذينغ ثلاثة أرباعِ البنسِ. عدَّ التاجر بنسين، وأخذَ فأساً صغيرةً، وبحركةٍ سريعةٍ ومُدربةٍ قطعَ بنساً ثالثاً إلى أرباعٍ. أعطى الفلاح بنسين وأحدَ الأرباعِ. «ثلاثة ضرب ثلاثة فارذينغ يساوي بنسين وفارذينغ». حلَّ الفلاحُ الحزامَ الجلدي، وسلَّمَ الصوفَ إلى التاجرِ.

بعدَ الفلاحِ تقدَّمَ شابان يجرَّان كيساً كبيراً من الصوفِ إلى المنضدةِ. تفحصَ التاجرُ الصوفَ بعنايةٍ وقال: «الكيسُ ممتلئٌ، ولكن النوعية سيئة. سأعطيكما جنيهاً».

تساءلت آليانا في نفسها كيفَ يمكنُ للتاجرِ أن يكون واثقاً من أنَّ الكيسَ ممتلئٌ، وفكرت أن سنواتِ الخبرةِ قد تكون السببَ، وراقبتهُ وهو يزنُ البنسات الفضيةَ.

اقتربت مجموعةٌ من الرهبانِ مع عربةٍ كبيرةٍ مُحملةٍ بأكياسِ الصوفِ. قررت آليانا أنَّ تسبقهم، وتبيع صوفها قبلهم. أشارت على ريتشارد بانزالِ كيسِ الصوفِ عن العربةِ، ووضعهِ على المنضدةِ.

تفحصَ التاجر الصوف وقال: «نوعيةٌ مختلطةٌ، نصفُ جنيه».

«ماذا؟» قالت آليانا في تشكيكٍ.

«مئةٌ وعشرون بنساً»، قال التاجرُ.

ارتاعت آليانا وقالت له: «ولكنكَ دفعت جنيهاً كاملاً لقاء كيسٍ من الصوفِ».

«السببُ نوعيته».

«دفعتُ جنيهاً كاملاً لقاءَ نوعيةٍ سيئةٍ!»

«نصف جنيه»، كررَ الرجلُ بعنادٍ.

وصلَ الرهبانُ إلى الكشكِ فاكتظَّ بهم، ولكنَّ آليانا لم تتحرك من مكانها؛ فقد كانت لقمةُ عيشها على المحكِّ، وخافت من الفقرِ أكثر مما خافت من التاجرِ.

«أخبرني بالسببِ»، أصرَّت آليانا. «ليسَ هناك خطبٌ في الصوفِ، أليسَ كذلك؟»

«لا».

إذاً فلتعطني ما أعطيت الرجلين اللذين كانا قبلي».

«لا».

«ولِم لا؟» قالت بصوتٍ أقرب للصراخ.

«لأنَّ ما من أحدٍ يدفع لفتاةٍ ما يدفعُ لرجلٍ».

أرادت أن تخنقهُ. كانَ يعرضُ عليها مبلغاً أقل مما دفعتهُ، وهذا مشينٌ. إن قبلت بهذا المبلغِ فسيذهبُ كلُّ ما فعلتهُ سُدىً، والأسوأ من هذا هو أنَّ مخططها في تأمين مصدرٍ دخلٍ لها ولشقيقها سيفشل، وفترةَ الاستقلاليةِ والاكتفاءِ الوجيزة ستنتهي. ولكن لماذا؟ لأنَّ الرجلَ لن يدفعَ لفتاةٍ ما يدفعهُ لرجلٍ!

كان رئيسُ الرهبانِ ينظرُ إليها. لطالما كرهت تحديقَ الناس بها، ولذلكَ قالت بقحةٍ: «توقف عن التحديقِ، ولتنهِ أعمالكَ مع هذا الرجل الذي لا يخشى الرَّبَّ».

«حسناً»، قال الراهبُ بلطفٍ، وأشارَ إلى زملائهِ فجرّوا كيساً من الصوفِ.

قال ريتشارد: «خُذي العشرَ شلناتٍ يا آلي، أو لن يكون لدينا شيءٌ سوى كيس من الصوفِ!»

حدَّقت آليانا بغضبٍ إلى التاجر وهو يتفحصُ صوفَ الرهبانِ.

«نوعيةٌ مختلطةٌ»، قال التاجرُ، وتساءلت آليانا في نفسها متى ستسمعهُ يقولُ نوعيةٌ جيدةٌ. «جنيهاً واثنا عشرَ بنساً للكيسِ».

«لمَ يحدثُ كلُّ هذا؟ لمَ غادرت ميغ؟ كانت الأمورُ ستسيرُ على ما يرام لو أنَّها كانت هنا»، فكّرت آليانا بمرارةٍ.

«ما عددُ أكياسِ الصوفِ التي بحوزتكم؟» قال التاجرُ.

أجاب راهبٌ شابٌ في ثيابِ الرهبانِ المبتدئين: «عشرة»، ولكن رئيسهم قال: «لا، أحدَ عشر». نظرَ الراهب المبتدئ إلى رئيسهِ كأنَّه أرادَ مجادلتهُ، ولكنه لم يتفوه بكلمةٍ.

«هذا يعني أحدَ عشرَ جنيهاً ونصفَ الجنيهِ إضافة إلى اثني عشرَ بنساً»، وبدأ التاجرُ بوزنِ المالِ.

«لن أستسلم»، قالت آليانا لريتشارد. «سنأخذُ الصوفَ إلى مكانٍ آخر، ربما إلى شايرنغ أو غلوستر».

«إنَّها مسافةٌ بعيدةٌ! ماذا لو لم نتمكن من بيعهِ؟»

كان على حقٍ. قد يواجهان المشكلةَ ذاتها في تلكَ الأمكنةِ. إنَّ المشكلةَ الحقيقيةَ التي يواجهانها هي عدمُ امتلاكهما لمكانةٍ، أو دعمٍ، أو حمايةٍ. لن يجرؤ التجارُ على إهانةِ الرهبانِ، بل حتَّى الفلاحون الفقراء قد يسببون للتجارِ متاعب إن تلاعبوا بهم، ولكن لن يواجهوا أيَّ خطرٍ إن خدعوا طفلين لا يملكان أحداً في هذا العالمِ.

كانَ الرهبان يجرّون أكياسهم إلى زريبةِ التاجرِ، ومع كلِّ كيسٍ يُدخلونه ينقدُ التاجرُ رئيسهم جنيهاً من الفضةِ واثني عشرَ بنساً. عندما أُدخلت جميعُ الأكياسِ استقرَّ على المنضدةِ كيسٌ من الفضةِ.

«هذهِ عشرةُ أكياسٍ فقط»، قال التاجرُ.

«أخبرتكَ أنَّها عشرةُ أكياسٍ فقط»، قال الراهبُ المبتدئ لرئيسهِ.

«هذا هو الكيسُ الحادي عشر»، قال الرئيس، ووضعَ يدهُ على كيسِ آليانا.

حدَّقت آليانا إليهِ في ذهولٍ.

كانَ التاجرُ مذهولاً بقدرِ آليانا ولكنه قال: «ولكني عرضتُ عليها نصفَ جنيهٍ».

«وأنا اشتريتهُ منها»، قالَ الراهبُ وتابع: «وأبيعهُ لكَ»، ثمَّ أشارَ على الرهبانِ الآخرين بجرِّ كيسِ آليانا إلى الزريبةِ.

بدا التاجرُ مستاءً، ولكنه سلَّم الراهبَ كيساً يحوي على جنيهٍ من الفضةِ واثني عشرَ بنساً. قدَّم الراهب المالَ إلى آليانا.

كانت آليانا مصدومةً. لم تسر الأمور كما خططت لها، ولكن هذا الرجل الغريب أنقذها رغمَ أنَّها عاملتهُ بفظاظةٍ.

قال ريتشارد: «شكراً لكَ على مساعدتنا أيّها الأبُّ».

«فلتشكر الرَّبَّ»، قال الراهبُ.

عجزت آليانا عن إيجادِ الكلماتِ المناسبةِ. كانت سعيدةً جداً، ومن شدةِ سعادتها احتضنت المالَ بقوةٍ على صدرها. كيفَ يمكنها شكرُ الراهبِ؟ نظرت إلى مُنقذها، ووجدتهُ رجلاً ضئيلَ البنيةِ، ونحيلاً، ويبدو حيوياً. كانَ يتحركُ بسرعةٍ، ويقظةٍ كعصفورٍ صغيرٍ بريشٍ كالح، ولكن بعينين مُتقدتين. في الحقيقةِ وعلى الرغم من عينيه الزرقاوين، وشعره المقصوصِ وفقَ تسريحةِ الرهبانِ أسود مع بعضِ الشيبِ، فإنَّ وجهه بدا شاباً، وهنا أدركت آليانا أنَّها تعرفهُ من مكانٍ ما، وتساءلت في نفسها أين رأتهُ.

كان الراهبُ يفكرُ بالأمرِ ذاته وقال لها: «أنتِ لا تتذكرينني، ولكني أعرفكِ. أنتما طفلا بارثيميلو، إيرل شايرنغ السابق، وأعلمُ أنكما واجهتما الكثيرَ من المتاعبِ، وأنا سعيدٌ لأنّي حظيتُ بفرصةِ مساعدتكما. سأشتري الصوفَ منكما، وفي أيِّ وقتٍ».

أرادت آليانا تقبيلهُ، ولكن ليسَ لأنَّه أنقذها اليوم، بل لأنَّه قدمَ لها ضمانةً للمستقبلِ. نجحت أخيراً في التفكيرِ بشيءٍ لقوله: «لا أعرف كيفَ أشكركَ. الرَّبُّ وحدهُ يعلمُ حاجتنا إلى من يحمينا».

«حسناً، لديكما الآن اثنان لحمايتكما»، قال لها وتابع: «الرَّبُّ وأنا».

تأثرت آليانا بشدةٍ عندما سمعت هذا وقالت له: «أنقذتَ حياتي، ولا أعرفُ من تكون».

«أدعى فيليب، وأنا رئيسُ دير كينغزبريدج»، أجابها الراهبُ.

الفصل السابع

- 1 -

كان اليومُ الذي أخذَ فيهِ البنَّاءُ توم قاطعي الحجارةِ إلى المقلعِ يوماً عظيماً.

توجهوا إلى هناكَ قبلَ أيامٍ على عيدِ الفصحِ، وبعدَ مرورِ خمسة عشرَ شهراً على احتراقِ الكاتدرائيةِ القديمةِ؛ وذلك لأنَّ رئيسَ الديرِ فيليب تأخر في جمعِ المال الكافي لاستئجارِ العمالِ.

عثرَ توم على خبيرِ أشجارٍ، ومعلمٍ في قطعِ الحجارةِ في سالسبيري حيثُ العملُ على قصرِ الأسقف روجر يكادُ ينتهي، ومنذُ أسبوعين بدأ خبيرُ الأشجارِ ورجالهُ في البحثِ عن أشجارِ صنوبرٍ طويلةٍ، وأشجارِ بلوط بالغةٍ وقطعها. كثفوا جهود البحثِ عندَ الغاباتِ القريبةِ من النهرِ وأعلاه قربَ كينغزبريدج لأنَّ نقلَ الموادِ على الطرقاتِ الموحلةِ والمتعرجةِ مُكلفٌ، ويمكنُ توفير هذا المبلغِ برمي الأخشابِ في الماءِ، وجعلها تطفو إلى موقعِ البناءِ. سيُستخدمُ هذا الخشب لبناءِ السقالاتِ والقوالب التي سيعملُ بها البنَّاؤون وقاطعو الحجارةِ، أمَّا جذوعُ الأشجارِ الطويلةِ فستوضع جانباً من أجلِ دعاماتِ السقفِ لاحقاً. كان الخشبُ الجيدُ يصلُ إلى كينغزبريدج الآن بمعدلٍ مستقرٍ، وكلّ ما على توم فعلهُ هو دفعُ المالِ إلى خبراء الأشجارِ مساءَ كلِّ سبتٍ.

وصلَ عمالُ المقلعِ قبلَ بضعةِ أيامٍ، وأحضر رئيسهم أوتو بلاكفيس ابنيهِ، وكانا كلاهما من قاطعي الحجارةِ، وأربعة أحفادٍ يعملون كمتدربين، وعاملين أحدهما نسيبهُ، والآخر صهرهُ. لم تكن محاباة الأقاربِ في هذهِ الحالاتِ أمراً غريباً، ولم يُمانع توم هذا لأنَّ العمال الذين يكونون من عائلةٍ واحدةٍ عادةً ما يشكلون فريقاً جيداً.

أمَّا في موقعِ البناءِ نفسهِ في كينغزبريدج فلم يعمل أحدٌ فيه بعد باستثناءِ توم ونجار الديرِ. كان تكديسُ الموادِ فكرةً جيدةً، ولكن عاجلاً ما سيقوم توم بتعيين البنَّائين -قوام فريقِ البناءِ- وأولئكَ سيرصفون الحجارةَ، ويبنون الجدران، وآنذاك سيكون العملُ الحقيقي قد بدأ. سارَ توم بسعادةٍ؛ فقد كان هذا ما حلمَ بهِ، وعملَ من أجلهِ منذُ عشرةِ أعوامٍ.

قررَ توم أنَّ أوَّلَ بنَّاءٍ سيُعينهُ ابنه آلفريد الذي يبلغ الآن السادسة عشرة تقريباً، واكتسبَ مهاراتِ البناءِ الأساسيةَ، ويمكنهُ تقطيعِ الحجرِ إلى مربعٍ، وبناءُ جدارٍ حقيقي، وحالما يبدأ توم في تعيين بقيةِ العمالِ سيحصلُ آلفريد على أجورهِ الكاملة.

أمَّا جوناثان -ابن توم الآخر- فقد بلغَ شهره الخامس عشر، وهو يكبر بسرعةٍ. كان طفلاً عنيداً، ومدللاً من قبل الجميع في الديرِ. في البدايةِ شعرَ توم بالقلقِ حيالَ تربيةِ رجلٍ أبله كجوني إيتبنس لطفلهِ، ولكنَّ الرجلَ كانَ يقظاً كأيِّ أمٍّ، ولديه وقتٌ أكبر للعنايةِ بالطفلِ مقارنةً بمعظمِ الأمهاتِ. مازال الرهبان يجهلون أنَّ توم والدُ جوناثان، ولن يشكوا بهذا أبداً.

أمَّا بالنسبةِ إلى مارثا التي بلغت الآن عامها السابع وفقدت أسنانها الأماميةَ فقد افتقدت جاك. شعرَ توم بالقلقِ عليها أكثر من ولديه الآخرين. كانت بحاجةٍ إلى أمٍّ.

لم يكن هناك نقصٌ في النساءِ اللواتي سيتزوجن بتوم، ويعتنين بابنتهِ الصغيرةِ. يعلمُ أنَّه رجلٌ جذابٌ، وأنَّ مصدرَ رزقهِ أصبح ثابتاً الآن بعدَ أن قررَ رئيسُ الديرِ جديَّاً بناءَ الكاتدرائيةِ. انتقلَ توم من منزل الضيوفِ إلى منزل من غرفتين، ومدخنةٍ بناه بنفسهِ في القريةِ. على أيِّ حالٍ، ولأنَّه كبير البنَّائين في هذا المشروعِ فإنَّ راتبهُ والفوائد التي ستعود عليهِ من عملهِ ستجعلهُ محطَّ حسدِ الكثير من السادةِ الصغارِ. على الرغمِ من ذلكَ عجزَ عن التفكير بالزواجِ من امرأةٍ أخرى غير إيلين، وشعر أنَّه من دونها أشبهَ برجلٍ اعتادَ على شربِ أفضلِ نبيذٍ، وباتَ يجدُ مذاقَ النبيذِ العادي كالخلِّ. في القريةِ أرملةٌ جميلةٌ، وممتلئةٌ، وبشوشةٌ، ولها صدر عارم، وطفلان حسنا التربيةِ، وقد خبزت له الكثيرَ من الفطائرِ، وقبَّلته مطولاً في وليمةِ عيدِ الميلادِ، وكانت مستعدة للزواجِ منه حالما يسألها، ولكنه علمَ أنَّه لن يكون

سعيداً معها لأنَّه سيتوقُ إلى إيلين المتقلبة، والمثيرة للجنونِ، والفاتنة، والانفعالية.

كانت إيلين قد وعدتهُ بالعودةِ للزيارةِ في يومٍ من الأيامِ، وكان لدى توم ثقةٌ كبيرةٌ من أنَّها ستفي بوعدها. تعلَّقَ بهذا الأملِ بكلِّ عنادٍ رغمَ مرورِ أكثرِ من عامٍ على مغادرتها كينغزبريدج، وقررَ أنَّه سيطلبُ منها الزواجَ حالما تعود.

فكرَ أنَّها ستقبلُ بِهِ الآن؛ فهو لم يعد فقيراً، ويمكنهُ تأمين الطعام لعائلتهِ وعائلتها، وشعرَ أنَّ الشجارات بين آلفريد وجاك يمكن حلُّها إن تعاملَ معها كما يجب. تخيلَ توم أنَّه لو أجبرَ جاك على العملِ؛ فإنَّ امتعاض آلفريد منه لن يكون بهذا السوء، وقررَ أنَّه سيعرض على جاك العملَ كمتدربٍ فقد أظهرَ الفتى اهتماماً بالبناءِ، وذكاءً شديداً، وخلالَ عامٍ أو أكثر سيكون كبيراً كفايةً للقيامِ بالأعمالِ الثقيلةِ، ولن يعود بإمكان آلفريد القول، إنَّ جاك كسولٌ، أمَّا المشكلةُ الأخرى فهي أنَّ جاك يستطيع القراءةَ، وآلفريد أميّ. سيطلبُ توم من إيلين أن تُعلّمَ آلفريد القراءةَ والكتابةَ، ويمكنها أن تعطيَه دورساً كلَّ أحد، وعندها سيشعرُ آلفريد أنَّه بارع تماماً مثل جاك. عندئذٍ سيصبحُ الصبيان متساويين، ومتعلمين، وعاملين، وبالحجمِ الجسدي ذاته في المستقبل.

علمَ توم أنَّ إيلين، ورغمَ كلِّ المحنِ التي أصابتهم، أحبَّت العيشَ معه. كانت تحبُّ عقلهُ، وجسدهُ، ولهذا سترغبُ بالعودةِ إليهِ.

ولكن المسألة الأخرى التي شغلتهُ هي إمكانيةُ إصلاحِ الأمورِ مع رئيسِ الديرِ فيليب. أهانت إيلين الدينَ صراحةً، ومن الصعب تخيلُ شيءٍ أكثر إهانة لرئيسِ ديرٍ مما فعلتهُ إيلين، ولكن توم لم يجرّب حلَّ المشكلةِ بعد.

في الوقتِ الراهن صبَّ كلّ طاقتهِ العقلية على خطةِ بناءِ الكاتدرائيةِ. سيبني أوتو وفريقهُ من قاطعي الحجارةِ كوخاً مرتجلاً لهم في المقلعِ حيثُ سينامون ليلاً، وعندما يستقرون سيبنون منازل حقيقية، والمتزوجون منهم سيحضرون عوائلهم ليعيشوا معهم.

من بينِ جميعِ الحرفِ التي تتطلبها مهنةُ البناء فإنَّ حرفة تقطيعِ الحجارةِ أقلها تطلباً للمهارةِ، وأكثرها حاجةً للعضلات، والمعلم في هذهِ الحرفةِ يخططُ ويحدد مناطق التقطيع، وبأيِّ ترتيب سيجري العمل، وهو أيضاً من ينظمُ أماكن وضعِ السلالم، ومعدات الرفعِ، وإن كانت هناك حاجةٌ إلى

التقطيع بشكلٍ عمودي ومنحدرٍ فهو من يصممُ السقالات، وهو أيضاً من يحرص على ألا يتوقف إمداد المعداتِ من دكانِ الحدادِ. في الحقيقةِ كانَ تكسير الحجارةِ أمراً سهلاً نسبياً؛ فكل ما يحتاج إليه قاطع الحجارةِ هو معول برأسٍ حديدي لحفرِ أخدودٍ أولي في الحجرِ ثمَّ توسيعه بالمطرقةِ والإزميلِ، وعندما يغدو الأخدود كبيراً بما يكفي ليُضعف الحجر سيضعُ وتداً خشبياً في الأخدودِ. إن كان اختيارهُ للحجرِ صحيحاً فسينفلقُ في المكان المناسبِ.

ينقلُ العمالُ الحجارةَ من المقلعِ إمَّا على الحمَّالات، أو يرفعونها بحبلٍ موصول إلى عجلةٍ دوارةٍ عملاقةٍ، وفي مسكنهم سينحتون الحجارةَ على عجلٍ وفقَ تصميمٍ يحددهُ رئيسهم، أمَّا نحتُ الحجارةِ بشكلٍ دقيقٍ فسيكون في موقعِ البناءِ.

كانت المشكلةُ الكبرى هي عملية النقلِ. يبعدُ المقلعُ عن موقعِ البناءِ في كينغزبريدج رحلةَ يومٍ، وسيتقاضى سائقُ العربةِ عن كلِّ رحلةٍ أربعةَ بنساتٍ، ولا يمكنه نقل أكثر من ثمانيةٍ، أو تسعةِ حجارةٍ كبيرةٍ في كلِّ رحلةٍ؛ لأنَّ الحمولةَ لو زادَت عن ذلكِ فستتحطمُ العربةُ، أو يموت الجواد. حالما يستقر قاطعو الحجارةِ في موقعهم سيتعين على توم استكشاف المنطقةِ، والبحث عن طرقٍ مائيةٍ يمكن استخدامها لتقصير الرحلةِ.

انطلقوا من كينغزبريدج عندَ الفجرِ، وخلالَ سيرهم عبرَ الغابةِ على طريقٍ مُشجرٍ من الجانبين فكَّرَ توم بدعاماتِ الكاتدرائيةِ التي سيبنيها. كانت أشجارُ الغابةِ قد بدأت تورقُ. تعلَّمَ توم تزيين تيجان الدعاماتِ بخطوطٍ متعرجةٍ، ولكنه فكَّرَ الآن أن تزيينها بأشكالِ أوراقِ الشجرِ سيكون لافتاً أكثر.

قضوا وقتاً طيباً خلالَ الرحلةِ، ومع حلولِ منتصفِ النهارِ وصلوا إلى المقلعِ. تفاجأ توم عندما سمعَ من بعيد طرقاً معدنياً على الحجارةِ كأنَّ أحدهم يعملُ في الموقعِ. عمليَّاً يُعدُّ المقلع مُلكاً لإيرل شايرنغ -بيرسي هاملي- ولكن الملكَ أعطى ديرَ كينغزبريدج حقَّ تقطيعِ الحجارةِ من أجلِ بناءِ الكاتدرائيةِ. تكهنَ توم أنَّ الإيرل بيرسي ينوي استخدامَ المقلعِ لأغراضهِ الشخصيةِ في الوقتِ ذاته مع الديرِ. قد لا يكون الملكُ منعَ هذا بشكلٍ خاصٍ، ولكن الأمرَ سيتسببُ بالكثيرِ من الإزعاجِ.

عندما اقتربوا أكثر امتقعَ وجه أوتو، وكان رجلاً أسمر البشرةِ غليظَ الخُلقِ.

عندما سمع أوتو الصوت لم يتفوه بكلمةٍ، وأخذَ بقيةُ الرجالِ يهمهمون في ضيقٍ. تجاهلهم توم إلَّا أنَّه غذَّ خطاه ليكتشف ما الذي يجري.

يلتفُّ الطريقُ حولَ غابةٍ صغيرةٍ، وينتهي عندَ قاعدةِ تلِ المقلع وقد اختفى قسمٌ كبيرٌ منه بسببِ أعمالِ التقطيعِ السابقةِ. كان انطباع توم الأولي هو أنَّ الأمر سيكون سهلاً؛ فالعملُ على تلٍّ أسهل من العملِ في حفرةٍ لأنَّ إنزالَ الحجارةِ من علو أسهل من رفعها من حُفرةٍ.

لم يعد لديه أدنى شكٍ أنَّ أحدهم يعملُ في المقلعِ بعد أن رأى كوخاً أسفلَ التلِّ، وسقالةً قويةً على ارتفاعِ عشرين قدماً أو أكثر على جانبِ التلِّ، وكومةً من الحجارةِ الجاهزةِ للنقلِ. رأى توم ما لا يقلُّ عن عشرةِ قاطعي حجارةٍ، وشعرَ بنذيرِ شؤم عندما رأى جنديين بوجهين قاسيين يتسكعان قربَ الكوخِ، ويرجمان برميلاً بالحجارةِ.

«لا يعجبني ما أراه»، قال أوتو.

وتوم أيضاً لم يُعجب بما رآه، ولكنه تظاهر أنَّ الأمرَ لم يزعجهُ. أسرع باتجاهِ المقلعِ كأنَّه ملكهُ، وتوجه على الفورِ نحو الجنديين. نهضَ الجنديان بسرعةٍ وقد بوغتا بقدومِ تومٍ، وعلا وجهيهما تعبيرٌ يشي بذلكَ الذنبِ الذي يرتسمُ على وجهِ الحرَّاسِ بعدَ أيامٍ طويلةٍ من المراقبةِ الهادئةِ. نظرَ توم سريعاً إلى أسلحةِ الجنديين، ولاحظَ أنَّ كلّ واحدٍ منهما يحملُ سيفاً وخنجراً، ويرتديان ستراتٍ جلديّةً طويلةً وثقيلةً من دونِ أكمامٍ، ولكنهما لا يضعان دروعاً. توم نفسهُ كان يحملُ مطرقةَ البناءِ خاصته في حزامِهِ، ولكنه لم يكن في موقعٍ يسمحُ له بالقتالِ. توجهَ بشكلٍ مباشرٍ إلى الرجلين من دونِ أن يتفوه بكلمةٍ، ولكنه قبل أن يصلَ إليهما بقليلٍ استدارَ جانباً، وتابعَ سيرهُ باتجاهِ الكوخِ. نظرَ الجنديان بعضها إلى بعض دون أن يعرفا ما عليهما القيام بهِ، ولو أنَّ توم أصغر عُمراً، ولا يحملُ مطرقةً لسارعا إلى إيقافهِ، ولكن الوقتَ الآن كان قد تأخر جداً.

دخلَ توم إلى كوخٍ خشبي واسع بموقدٍ وأدواتٍ نظيفةٍ مُعلَّقةٍ على الجدرانِ، وهناك حجرٌ كبيرٌ جاهزٌ للنحتِ في الزاويةِ، وعاملان جالسان على مقعدٍ خشبي ضخمٍ يُدعى «المائدة» ينحتان الحجرَ بالإزميل.

«سلامٌ أيّها الأخـوة»، بدأ توم بالتحيةِ المعتادة بين الحرفيين، «من المعلم هنا؟»

«أنا رئيسُ القاطعين»، قال أحدهما ثمَّ تابع: «أدعى هارولد، وأنا من شايرنغ».

«أنا رئيسُ البنَّائين في كاتدرائيةِ كينغزبريدج، وأدعى توم».

«سلامٌ أيُّها البنَّاء توم، ما سببُ قدومكَ إلى هنا؟»

قبلَ أن يجيبَ توم على سؤال هارولد تفحصهُ جيداً. كان رجلاً شاحباً، ومُغبراً بعينين خضراوين صغيرتين يغطيهما الغبار ويزررهما وهو يتحدث كأنَّه يحاولُ التخلصَ من غبارِ الحجارةِ العالقِ بهما. انحنى الرجلُ فوقَ المائدةِ باسترخاءٍ ولكنه لم يبدُ مسترخياً كما تظاهر بل كان متوتراً، وحذراً، ويقظاً، وتكهن توم أنَّ هارولد يعرف حقَّ المعرفةِ سببَ قدومِه إلى هنا، ولكنه قال: «أحضرت مُعلمَ قاطعي الحجارةِ للعملِ هنا».

كان الجنديان قد لحقا بتوم إلى الداخلِ الآن، وكذلكَ أوتو وفريقهُ، ودخلَ أيضاً رجلٌ أو رجلان من فريقِ هارولد بدافعِ الفضولِ لمعرفةِ سببِ الجلبةِ.

قال هارولد: «المقلعُ ملكٌ للإيرل، وإن أردت أخذَ الحجارةِ؛ فعليكَ مقابلتهُ والطلب منه».

«لا، لن يكون عليَّ فعلُ هذا»، قال توم وأضاف: «عندما منح الملك المقلعَ إلى الإيرل بيرسي أعطى ديرَ كينغزبريدج الحقَّ باقتطاعِ الحجارةِ منه، ولذلك نحن لسنا بحاجةٍ إلى إذنٍ إضافي».

«حسناً، ولكننا لا نستطيع جميعاً العملَ هنا، أليسَ هذا صحيحاً؟»

«قد نتمكن من ذلكَ»، قال توم. «لا نريد حرمانَ رجالكَ من العملِ، ولدينا تلةٌ كاملةٌ من الحجارةِ تكفي لبناءِ كاتدرائيتين، وربما أكثر. يجب أن نجدَ طريقةً لتسييرِ الأمورِ في المقلعِ حتَّى نتمكن جميعاً من قطعِ الحجارةِ هنا».

«لا يمكنني الموافقة على هذا»، قال هارولد. «فأنا مُكلفٌ من قبلِ الإيرل».

«حسناً، وأنا مُكلفٌ من قبلِ رئيسِ ديرِ كينغزبريدج، وسيبدأ رجالي العملَ هنا صباحَ الغدِ شئتَ أم أبيتَ».

وتقدَّمَ هنا أحدُ الجنديين قائلاً: «لن تعملَ هنا، لا غداً ولا في أيِّ يومٍ آخر».

حتَّى هذا اللحظةِ كان توم متمسكاً بفكرةِ أنَّ بيرسي خرقَ القرار الملكي

بقطعِ الحجارةِ من المقلعِ، ولكن إن أُجبرَ فسيلتزمُ بصكِّ الاتفاقِ، وسيسمح للديرِ بأخذِ الحجارةِ، ولكن اتضحَ له أنَّ الجنديين تلقيا أوامر مباشرة بمنعِ الديرِ من قطعِ الحجارةِ، وهذهِ مسألةٌ مختلفةٌ. وهنا أدركَ توم في خيبةِ أملٍ أنَّه لن يحصلَ على الحجارةِ دون قتالٍ.

كان الجندي الذي تحدَّثَ معه رجلاً قصيراً، وبديناً جداً في الخامسةِ والعشرين، وبدا مولعاً بالشجارِ، وغبياً، وعنيداً، ومن النوعِ الذي يصعبُ التحدثُ معه بالمنطقِ. نظرَ توم إلى الجندي في تحدٍ وقال: «ومن تكون؟»

«أنا وكيلُ إيرل شايرنغ، وطُلبَ مني حراسة هذا المقلع، وهذا ما أنوي فعلهُ الآن».

«وكيفَ تخططُ لفعلِ هذا؟»

«بالسيفِ». قال الجندي ولمسَ غُمدَ سلاحهِ على حزامهِ.

«وماذا تعتقدُ أنَّ الملكَ سيفعل عندما تقف أمامهُ بتهمةِ خرقِ سلمه؟»

«سأغامر بهذا».

«ولكنكما جنديان»، قال توم بلهجةٍ عقلانيةٍ. «ونحنُ سبعةُ رجالٍ، وأربعة صبيةٍ، ولدينا إذنٌ من الملكِ بالعملِ هنا، وإن قتلناكما لن نُعدم على هذا».

بدا الجنديان كأنَّهما غارقان في التفكيرِ، ولكن قبلَ أن يضغطَ توم أكثر تحدَّث أوتو إلى توم قائلاً: «مهلاً، أحضرتُ عمالي إلى هنا لقطعِ الحجارةِ وليسَ للشجارِ».

غاصَ قلبُ توم في صدرهِ. إن لم يكن الرجال جاهزين لأخذِ موقفٍ فلا أمل من الأمرِ.

«لا تتصرف بخنوعٍ!» قال توم. «هل ستسمحُ لصبيين متنمرين بحرمانكم من العملِ؟»

امتقعَ وجه أوتو وأجاب: «لن أقاتل جنديين مسلحين. أكسبُ رزقي دونَ انقطاعٍ منذُ عشرةِ أعوامٍ، ولستُ يائساً إلى هذهِ الدرجةِ. علاوةً على هذا، أنا لا أعلم حيثيات الموضوعِ هنا، وبالنسبةِ إلي فإنَّ كلمتكَ مقابل كلمتهم».

نظرَ توم إلى بقيةِ عمالِ أوتو، ورأى على وجهي عاملي القطعِ النظرةَ العنيدةَ ذاتها التي كانت مرتسمةً على وجهِ أوتو. بالطبعِ سيعملان بما

يأمرهما بهِ؛ فقد كانَ والدهما ومُعلمهما. تفهمَ توم موقفَ أوتو، ولو أنَّه كان في مكانهِ لأخذَ الموقفَ ذاتهُ على الأغلبِ، ولم يكن ليتورط في قتالٍ مع رجالٍ مسلحين ما لم يكن يائساً.

ولكن إدراكه لعقلانية موقف أوتو لم يجلب له الراحةَ بل جعلهُ أكثرَ يأساً، وقرر المحاولة للمرةِ الأخيرةِ. «لن يحدث أيُّ قتالٍ»، قال توم. «يعلمون أنَّ الملكَ سيشنقهما إن آذونا. لننصبَ موقدنا، ونبيت هنا الليلةَ، ونبدأ العملَ صباحَ الغدِ».

لم يكن اقتراحُ المبيتِ هنا موفقاً؛ لأنَّ أحد أبناءِ أوتو انبرى قائلاً: «كيف ستتمكن من النومِ قربَ هذين الوغدين القاتلين؟»

ودمدمَ الآخرون موافقين.

«سننظمُ نوبات حراسةٍ»، قال توم في يأسٍ.

هزَّ أوتو رأسه بحزمٍ وقال: «سنغادرُ الليلةَ... لا بل الآن».

نظر توم إلى الرجال من حوله، ورأى هزيمتهم متجليةً على وجوههم. انطلقَ هذا الصباح في رحلتهِ بمعنوياتٍ عاليةٍ، ولذلكَ بالكادِ كان قادراً على التصديقِ أنَّ خطتهُ تُحبطُ على أيدي أولئك الأوغاد التافهين. شعرَ بمرارةٍ كبيرةٍ منعتهُ من الكلامِ غير أنَّه لم يقاوم الصراخَ في وجهِ هارولد قائلاً: «أنتم تخالفون إرادةَ الملكِ، وهذا عملٌ خطيرٌ. أخبروا إيرل شايرنغ أنَّه حالما تتسنى الفرصةُ لتوم -بنَّاء كاتدرائية كينغزبريدج- إمساك عنقهِ السمينِ سيلويهِ له حتَّى الموت».

***

خاطَ الراهبُ جوني إيتبنس رداءً رهبانياً صغيراً بأكمامٍ عريضةٍ، وقلنسوةٍ من أجلِ الصغيرِ جوناثان. بدا الطفلُ الصغيرُ في الثوبِ لطيفاً جداً إلى درجةِ أذابِ معها قلوبَ الجميعِ، ولكن الرداءَ لم يكن عملياً جداً فقد استمرّت القلنسوةُ بإعاقتهِ عن الرؤيةِ، وكلّما دبَّ أرضاً التفَّ الثوبُ حولَ ركبتيهِ وأعاقه.

عندَ منتصفِ الظهرِ، وبعدَ أن استفاقَ جوناثان من قيلولته، وكذلكَ الرهبان، مرَّ رئيسُ الديرِ فيليب بالطفلِ الذي كان مع جوني إيتبنس في المكانِ الذي كان في ما مضى صحنَ الكنيسةِ، وتحول الآن إلى ملعبِ

للرهبانِ المبتدئين. يُسمحُ للرهبانِ المبتدئين في مثلِ هذا الوقتِ منَ النهارِ باللعبِ، وكانَ جوني إيتبنس يراقبهم وهم يلعبون لعبةَ المطاردةِ بينما الطفلُ جوناثان يستكشفُ شبكةَ الأوتادِ والحبالِ التي وضعها توم على أرضِ الطرفِ الشرقي من الكاتدرائيةِ الجديدةِ.

وقفَ فيليب بجانبِ جوني لبرهةٍ، وفي صمتٍ مؤنسٍ راقبا الصغارَ يركضون في الأرجاءِ. كانَ فيليب مغرماً جداً بجوني الذي عوَّض بقلبهُ الطَّيبِ جداً عن بلاهتهِ.

كان الطفلُ جوناثان يقفُ على قدميهِ الآن، وقد اتكأ على وتدٍ وضعهُ توم في الأرضِ حيثُ سيبني الرواق الشمالي. أمسكَ الطفلُ بالحبلِ المربوطِ بالوتدِ، وبمساعدةِ الحبلِ غيرِ الثابتِ خطا بضعَ خطواتٍ خرقاء ومتأنيةٍ.

«سيتمكن من السيرِ عمَّا قريب»، قال فيليب لجوني.

«إنَّه يستمرُّ بالمحاولةِ إلا أنَّه يقعُ على مؤخرتهِ في نهايةِ المطافِ».

قرفصَ فيليب ومدَّ يديهِ نحو جوناثان ثمَّ قالَ له: «سِر نحوي، هيا».

افترَّ وجهُ جوناثان عن ابتسامة تخللتها أسنانٌ متفرقةٌ. أخذَ خطوةً أخرى وهو لا يزال ممسكاً بالحبلِ، ثمَّ أشارَ إلى فيليب كأنَّه يطلبُ منه المساعدةَ، وبحركةٍ جريئةٍ وسريعةٍ عبرَ المساحةَ الفاصلة بثلاثِ خطواتٍ وئيدةٍ.

أمسكهُ فيليب من تحت ذراعيهِ قائلاً: «أحسنتَ!» وعانقه وهو يشعرُ بالفخرِ كأنَّ الإنجاز إنجازُهُ وليسَ إنجاز الطفلِ.

بدا جوني متحمساً أيضاً وقال: «لقد سار، لقد سار».

تلوى الطفلُ بين ذراعي فيليب في ضيقٍ. وضعهُ فيليب أرضاً ليرى إن كان سيمشي مجدداً، ولكن يبدو أنَّه اكتفى لهذا اليومِ لأنَّه خرَّ على ركبتيهِ، وعادَ حبواً إلى جوني.

عندما أحضرَ فيليب جوني والطفلَ جوناثان معهُ إلى كينغزبريدج تحدَّث بعض الرهبان بالسوءِ عن الأمرِ. كانَ التعاملُ مع جوني سهلاً ما لم ينس المرءُ أنَّه يتعاملُ مع طفلٍ في جسدِ رجلٍ، أمَّا الطفلُ جوناثان فقد قضى على كلِّ معارضةٍ على وجودهِ بفتنة شخصيتهِ.

لم يكن الطفلُ جوناثان سببَ القلاقلِ الوحيد خلالَ العامِ الأولِ من

رئاسةِ فيليب للديرِ. بعدَ أن صوَّت الرهبانُ لمصلحة فيليب لاعتقادهم أنَّه سيكون مُعيلاً جيداً شعروا بالغُبنِ عندما أظهرَ فيليب نزعةً للتقشفِ في مصاريفِ الديرِ اليوميةِ، وآلم هذا فيليب قليلاً؛ لأنَّه أوضحَ لهم أنَّ أولويتهُ العليا هي بناءُ الكاتدرائيةِ الجديدةِ. أيضاً عارضَ الرهبان الكبار خطتهُ بحرمانهم استقلاليتهم المالية رغمَ علمهم أنَّ الديرَ بحاجةٍ ماسَّةٍ إلى إصلاحٍ، أو سينتهي أمرهُ، وعندما أنفقَ المالَ على زيادةِ قطعانِ خرافِ الديرِ حصلَ ما يشبه العصيان، ولكن الرهبان بشكلٍ أساسي أناسٌ يُحبون أن يُملى عليهم ما عليهم القيام بهِ؛ ولأنَّ الأسقفَ ويلارن –المسؤول عن تشجيعِ المتمردين على الأغلب– قد قضى معظمَ العامِ متنقلاً بينَ روما وإنكلترا، لم يذهب الرهبان في هذا الأمر إلى ما هو أبعد من الجعجعةِ.

قاسى فيليب لحظاتٍ من الوحدةِ الموحشةِ، إلَّا أنَّه كان واثقاً من أنَّ النتائجَ ستعوضهُ عما قاساه. وبدأت سياستهُ تأتي بثمارها وبكلِّ الطرقِ الممكنةِ. ارتفعَ سعرُ الصوفِ مجدداً، وبدأ بجزِّ الصوفِ فأصبحَ يملكُ المالَ لدفعِ أجورِ خبراءِ الأشجارِ، وعمالِ قطعِ الحجارةِ، ومع تحسّنِ الوضعِ الماليِ وتقدّمِ أعمالِ بناءِ الكاتدرائيةِ الجديدةِ سيُرسخ وجوده في منصبهِ كرئيسِ ديرٍ.

ربَّت فيليب على رأسِ جوني إيتبنس بحنانٍ، وعبرَ موقعَ البناءِ. كان توم وآلفريد وببعضِ المساعدةِ من عُمالِ الديرِ، والرهبانِ الشبابِ قد بدآ بحفرِ الأساساتِ، ولكنهما لم يصلا حتَّى الآن إلى ما هو أعمق من خمسةٍ أو ستةِ أقدامٍ. كان توم قد أخبرَ فيليب أنَّ الأساسات يجبُ أن تكونَ بعُمقِ خمسة وعشرين قدماً بالضبطِ، وسيحتاجُ إلى قوةٍ كبيرةٍ من العاملين وبعضِ أداوتِ الرفعِ للحفرِ على هذا العمقِ.

ستكون الكنيسةُ الجديدةُ أكبر من الكنيسةِ القديمةِ، ولكنها ستبقى صغيرةً ككاتدرائيةٍ. تمنَّى فيليب في سرّه لو أنَّه يحظى بأطولِ، وأعلى، وأغنى وأجملِ كاتدرائيةٍ في المملكةِ، ولكنه كبح أمنيتهُ، وأقنعَ نفسَه بأنه سيكون ممتناً للكنيسةِ التي سيحظى بها.

توجهَ فيليب إلى كوخِ توم، ونظرَ إلى الأعمالِ الخشبيةِ التي كانت على المنضدةِ. كان البنَّاء قد قضى معظمَ الشتاءِ هنا يعملُ بمسطرةٍ معدنيةٍ،

ومجموعةٍ من الأزاميلِ الرفيعةِ على صنعِ القوالبِ، وهي نماذج خشبية سيستعين بها البنَّاؤون عندما ينحتون الحجارةَ. لطالما راقبَ فيليب بإعجابٍ توم -الرجل الكبير ذا اليدين الضخمتين- ينحتُ بدقةٍ وبعنايةٍ الخشبَ في منحنياتٍ دقيقةٍ، وأطرافٍ متساويةٍ، وزوايا محددةٍ. التقطَ فيليب أحدَ القوالب وتفحصهُ. كان للقالبِ طرف مستدير ربع استدارةٍ كزهرةِ الإقحوانِ مع نتوءاتٍ مدورةٍ تشبه البتلاتِ. تساءل فيليب في نفسهِ عن الحجرِ الذي سيأخذُ هذا الشكلِ، ولكنه وجدَ صعوبةً في تخيلِه تماماً كما يحدثُ معهُ في كلِّ مرةٍ، وتركه عجزهُ عن تخيل الأمرِ منبهراً بقوةِ مخيلةِ توم. نظرَ إلى رسوماتِ توم المحفورةِ على الجصّ داخل أُطرٍ خشبيةٍ، وتيقنَ أخيراً أنَّه يحملُ قالباً لدعامةٍ في المجاز المقنطرِ تبدو كمجموعةٍ من الرماحِ. اعتقدَ فيليب أنَّها ستكون رماحاً حقيقيةً ثمَّ أدركَ أنَّها وهمٌ؛ فالدعائم ستكون أعمدةً حجريةً ثابتةً بزخارفَ كالرماحِ.

قال له توم إنَّ العملَ على الطرفِ الشرقي سينتهي بعدَ خمسةِ أعوامٍ، وهذا يعني أنَّ فيليب سيتمكن من إقامةِ الصلواتِ في الكاتدرائيةِ مجدداً، وكلُّ ما عليهِ فعلهُ الآن هو تأمين المالِ. كان إدخارُ مالٍ كافٍ للبدءِ بدايةً متواضعةً في أعمالِ البناءِ هذا العام صعباً لأنَّ تأثير الإصلاحات التي قام بها كان بطيئاً، ولكن في العامِ القادمِ، وبعدَ بيعِ الصوفِ الذي سيجزّهُ في الربيعِ، سيتمكن من الاستعانةِ بمزيدٍ من الحرفيين، والبدء بجديةٍ في أعمالِ البناءِ.

قُرعَ الجرسُ إيذاناً بصلاةِ المغربِ، وغادرَ فيليب الكوخَ الصغيرَ باتجاهِ مدخلِ السردابِ. في طريقهِ إلى هناك حدَّقَ إلى بوابةِ الديرِ، وتفاجأ برؤيةِ البنَّاءِ توم عائداً مع قاطعي الحجارةِ. تساءل في نفسهِ عن سببِ عودتهم السريعة؛ فقد قال له توم إنَّه سيغيب لأسبوعٍ، وأنَّ عمَّال قطعِ الحجارةِ سيبقون هناك إلى أجلٍ غير مسمى. هرعَ فيليب لموافاتهم.

عندما اقتربَ فليب رأى علائمَ التعبِ، والإحباطِ على وجوههم، وعلمَ أنَّ أمراً سيئاً جداً وقعَ.

«ما الأمر؟» سألَ فيليب. «لماذا عدتم؟»

«لدي أخبارٌ سيئةٌ»، أجابهُ البنَّاءُ توم.

***

خلالَ صلاةِ المغربِ كان فيليب يغلي غضباً. ما قامَ بهِ الإيرل بيرسي عملٌ مشينٌ. لم يكن هناك شكٌّ في حيثيات القرارِ الملكي، وما من لغطٍ في تعليماتِ الملكِ، بل كان الإيرل حاضراً عندما وضحَ الملك في قرارِه حقَّ الديرِ في أخذِ الحجارةِ من المقلعِ. كان فيليب يضرب أرضَ السردابِ برجلهِ اليمنى في إيقاعٍ يشي بالضيقِ والغضبِ. كان يشعرُ أنَّه تعرَّض للسلبِ كأنَّ بيرسي سرقَ المالَ من خزينةِ الكنيسةِ، ومن دونِ أدنى مبررٍ. بفعلتهِ الوقحةِ هذهِ تحدَّى بيرسي الرَّبَّ والملكَ، ولكن أسوأ ما في الأمر هو أنَّ فيليب لن يتمكن من بناءِ الكاتدرائيةِ الجديدةِ ما لم يحصل على الحجارةِ مجاناً من المقلعِ فهو يعملُ وفقَ خطةٍ متقشفةٍ جداً، وإن اضطرَّ إلى شراءِ الحجارةِ بسعرِ السوقِ، ونقلها كلَّ هذهِ المسافةِ فلن يتمكن من تأمين تكاليفِ بناءِ الكنيسةِ أبداً، وسيضطر إلى الانتظارِ لعامٍ آخر أو أكثر، ولن يتمكن من إجراءِ الصلواتِ والمراسمِ في الكاتدرائيةِ الجديدةِ قبلَ ستةٍ أو سبعةِ أعوامٍ، ووجدَ صعوبةً في قبولِ مثلِ هذا الاحتمالِ.

دعا إلى اجتماعٍ طارئ على الفورِ بعدَ صلاةِ المغربِ، وأطلعَ الرهبان على الأخبارِ.

كان فيليب قد طوَّر تقنيةً في إدارةِ أمورِ الاجتماعِ. ما يزال نائب رئيس الدير ريميجوس يُعادي فيليب لهزيمةِ الأخير له في الانتخاباتِ، ولذلك غالباً ما يعبرُ عن امتعاضهِ خلالَ مناقشةِ أعمالِ الديرِ. كان ريميجوس رجلاً مُحافظاً وضحلاً، ومتحذلقاً، والمنهج الذي يريدُ للديرِ أن يُدارَ وفقهُ يتعارض مع منهجِ فيليب، والأخوة الذين دعموا ريميجوس في الانتخابات دعموه في الاجتماعاتِ: آندرو أمين الذخائرِ المقدسةِ الغضوب، وبيير مسؤول الانضباط الضيق الأفقِ ومن ناسبه منصبهُ، وجون سمول أمينُ الخزنةِ الكسول، وبالمثلِ كان أخلصُ معاوني فيليب الرهبان ومن ساعدوه في حملتهِ الانتخابيةِ أمين المؤنِ كوثبرت وايتهيد، والشاب ميليوس الذي عيَّنهُ فيليب في منصبٍ جديدٍ وهو أمينُ الحقيبةِ والمسؤول عن أموالِ الدير. يسمحُ فيليب لميليوس بالجدالِ مع ريميجوس، وعادةً ما يناقشهُ في جميعِ الأمورِ الهامة قبلَ الاجتماعِ، وإن لم يتسنّ له فعلُ هذا قبلاً يعتمد على ميليوس في عرضٍ وجهة نظرٍ قريبةٍ من وجهةِ نظرهِ ثمَّ يلخص نتائج

الاجتماع كحكمٍ حيادي. وعلى الرغمِ من أنَّ ريميجوس نادراً ما يحاجج فإنَّ فيليب أحياناً يقبلُ ببعضِ محاججتهِ، أو يتبنى جانباً من مقترحاتهِ لضمانِ جو من الاتفاقِ العام.

استشاطَ الرهبانُ غيظاً من فعلةِ الإيرلِ بيرسي. كانوا قد سُرّوا لأنَّ الملكَ ستيفن منحَ الديرَ خشباً، وحجارةً مجانيةً، وبكمياتٍ غير محدودةٍ، وها هم الآن مصدومون من تحدِّي بيرسي لأوامرِ الملكِ.

عندما تراجعَ صخبُ الاحتجاجاتِ بينَ الرهبان تقدَّم ريميجوس بوجهةِ نظرٍ أخرى. «أتذكرُ أنني قلتُ العامَ السابقَ إنَّ الاتفاق الذي منحَ الإيرلَ ملكيةَ المقلعِ، وأعطانا حقَّ استخدامهِ اتفاقٌ غير مُرضٍ، فقد كان علينا طلبُ حقّ ملكيةٍ كاملٍ».

ولم تُسهل ملاحظةُ ريميجوس التي لم تُجاف الحقيقة على فيليب تقبلَ الأمرِ. كان قد اتفقَ مع الليدي ريغان على حصولِ الديرِ على الملكيةِ الكاملة للمقلعِ، ولكنها خدعتهُ في اللحظةِ الأخيرةِ. شعرَ فيليب بإغراءِ القولِ لريميجوس إنَّه فاوضَ على أفضلِ صفقةٍ، وأنَّه يرغبُ برؤيتهِ يُبلي أفضل في المتاهات الغادرةِ للبلاطِ الملكي، ولكنه لجمَ نفسهُ فهو، وفي نهايةِ المطافِ، رئيسُ الدير، وعليهِ تحمّلُ عواقبِ الأمورِ عندما تسوء.

انبرى ميليوس إلى إنقاذهِ قائلاً: «لو أنَّ الملكَ منحنا ملكية كاملِ المقلعِ لكان هذا رائعاً، ولكنه لم يفعل، ولذلك فإنَّ المسألةَ الأساسيةَ هنا هي ما الذي سنفعلهُ الآن؟»

«أعتقدُ أنَّ الجوابَ واضحٌ»، انبرى ريميجوس قائلاً. «لا يمكننا طردُ رجالِ الإيرل بأنفسنا، ولذلك علينا أن نجعلَ الملكَ يفعلُ هذا. يجبُ أن نُرسلَ إليهِ وفداً، ونطلب منهُ فرضَ تنفيذِ المرسومِ».

علت همهمةٌ بالموافقةِ، وقال أمين الذخائرِ آندرو: «يجب أن نرسلَ أكثرنا حكمةً وفصاحةً».

وأدركَ فيليب أن ريميجوس وآندرو اعتقدا أنّهما قد يترأسان الوفدَ.

قال ريميجوس: «بعدَ أن يسمعَ الملكُ ما حدثَ لا أعتقدُ أنَّ بيرسي هاملي سيبقى إيرل شايرنغ لوقتٍ طويلٍ».

لم يكن فيليب واثقاً من أنَّ هذا ما سيحدث.

«وأين الملك؟» قال آندرو كأنَّه يفكرُ بينهُ وبين نفسهِ. «هل يعلمُ أحدٌ أين هو؟»

كان فيليب في وينشستر مؤخراً، وسمعَ عن تحركاتِ الملكِ فقال: «توجهَ إلى النورماندي».

وسارع ميليوس إلى القولِ: «سيأخذ اللحاق بهِ وقتاً طويلاً».

«يتطلبُ السعي وراءَ العدالةِ الصبرَ دوماً»، قال ريميجوس بأبهةٍ.

«ولكن مع كلِّ يومٍ يمرُّ في سعينا وراءَ العدالةِ نخسرُ يومَ عملٍ على كاتدرائيتنا الجديدةِ»، أجابَ ميليوس بلهجةٍ فضحت ضيقهُ من قبولِ ريميجوس بتأخير سيرِ أعمالِ البناءِ، وشاركهُ فيليب هذا الشعورَ أيضاً. تابع ميليوس كلامهُ قائلاً: «وهناك مشكلةٌ أخرى. عندما نعثرُ على الملكِ علينا اقناعهُ بسماعنا، وقد يأخذ هذا منا أسابيع مما يعطي بيرسي فرصةً للدفاعِ عن نفسهِ، وهذا يعني المزيدَ من التأخير...»

«كيف يُمكن لبيرسي أن يدافع عن نفسهِ؟» قال ريميجوس بتحدٍ.

أجاب ميليوس: «لا أعلم، ولكنني واثقٌ من أنَّه سيفكرُ بحجةٍ ما».

«ولكن الملكَ مُلزمٌ بالكلمةِ التي أعطاها».

وهنا علا صوتٌ جديدٌ قائلاً: «لا تكن واثقاً من هذا»، واستدارَ الجميع لينظروا إلى هذا الشخصِ. كان المتحدثُ الأخُ تيموثي أكبر الرهبانِ عُمراً، وكان رجلاً ضئيلاً، ومتواضعاً، ونادراً ما يتكلمُ، وإن تكلَّم كان كلامهُ هامَّاً، وأحياناً يفكرُ فيليب أنَّ تيموثي من يستحق أن يكون رئيسَ الديرِ. عادةً ما يقضي تيموثي الاجتماعاتِ نصفَ نائم، ولكنه اليومَ كان يقظاً، وعيناه تشعان إيماناً راسخاً. «الملكُ ابنُ اللحظةِ»، تابع تيموثي: «وهو في خطرٍ دائمٍ من المتمردين داخلَ مملكتهِ، ومن الممالكِ المجاورةِ، ولذلك يحتاجُ إلى حلفاءٍ، والإيرلُ بيرسي رجلٌ قوي ولديهِ الكثيرُ من الفرسانِ. إن كان الملكُ بحاجةٍ إلى بيرسي في الوقتِ الذي نقدمُ فيهِ التماسنا فسنواجهُ الرفضَ، بغضِّ النظرِ عن عدالةِ قضيتنا. الملكُ ليسَ كاملاً، فما من قاضٍ عادلٍ غير الرَّبّ»، أنهى تيموثي كلامهُ، وأراحَ ظهرهِ إلى الجدارِ ثمَّ أغلقَ عينيهِ كأنَّه غير مهتمٍ كيف سيؤخذ كلامهُ. كبح فيليب ابتسامة كادت تُفلت منه. عرضَ تيموثي بدقةٍ تحفظاتِ فيليب على الذهابِ إلى الملكِ، وطلبِ إحقاقِ العدلِ.

بدا ريميجوس متردداً حيالَ مسألةِ التخلي عن فكرةِ القيامِ برحلةٍ طويلةٍ، وممتعةٍ إلى فرنسا، والنزولِ في بلاطٍ ملكي، ولكنه في الوقتِ ذاتهِ لم يكن قادراً على نقضِ المنطقِ الذي تحدَّثَ بهِ تيموثي ولذلك قال: «وما عسانا أن نفعلَ إذاً؟»

لم يكن لدى فيليب جوابٌ. لا يُمكن للمأمورِ التدخل في هذهِ القضيةِ؛ لأنَّ بيرسي رجلٌ متنفذٌ جداً، ولا يمكنُ الاعتمادُ على الأسقفِ أيضاً. كانَ الأمرُ مُحبطاً، ولكن فيليب لم يكن مستعداً لقبولِ الهزيمةِ، وعدمِ التمامِ بشيءٍ حيالَ الأمرِ. سيضعُ يدهُ على المقلعِ، وإن اضطرَّ إلى فعلِ هذا بنفسهِ.

وهنا خطرت له فكرةٌ.

«مهلاً»، قال فيليب.

سيتطلبُ الأمرُ مساعدةَ بعضِ الرهبانِ الأقوياء جسدياً... ويجب أن يكون الأمرُ مُنظماً بدقةٍ كعمليةٍ عسكريةٍ، ولكن من دونِ أسلحةٍ... سيحتاجون إلى الطعامِ ليومين.

«لا أعلمُ إن كان الأمرُ سينجحُ، ولكنه يستحقُ المحاولةَ»، قال فيليب وتابع: «أصغوا إلي».

وأطلعهم على خطتهِ.

***

انطلقَ ثلاثون راهباً، وعشرةُ رهبانٍ مبتدئين، وأوتو بلاكفيس، وفريقهُ، والبنَّاء توم، وآلفريد مع جوادين وعربة على وجهِ السرعةِ بعد الاجتماعِ. عندما هبطَ الليل أضاؤوا المصابيح على الطريقِ أمامهم. توقفوا عندَ منتصفِ الليلِ لأخذِ قسطٍ من الراحةِ، وتناولِ الطعام الذي أعدَّه مطبخُ الديرِ على عجلٍ والمؤلف من الدجاجِ، والخبزِ الأبيضِ، والنبيذِ الأحمرِ. لطالما آمنَ فيليب أنَّ من يعملُ بجدٍ يستحق أن يُكافأ بالطعامِ الجيدِ. عندما استأنفوا المسير رتَّلوا الصلوات التي كان عليهم أن يؤدوها في مثلِ هذا الوقتِ في الديرِ.

في مرحلةٍ ما وفي أكثرِ ساعاتِ الليل حلكةً رفعَ البنَّاءُ توم في مقدمةِ المسيرِ يدهُ إيذاناً لهم بالتوقفِ وقالَ لفيليب: «يفصلنا ميلٌ عن المقلعِ».

«هذا جيد»، قال فيليب، واستدارَ نحو الرهبانِ. «اخلعوا قباقبكم،

وصنادلكم، وارتدوا جزمكم الصوفيةَ»، ثمَّ خلعَ صندلهُ، وارتدى جزمةً صوفيةً ناعمةً من النوعِ الذي يرتديهِ الفلاحون خلال الشتاءِ.

اختارَ فيليب راهبين مبتدئين وقال: «إدوارد وفيليمون ابقيا هنا مع الجيادِ والعربةِ، ولتبقيا هادئين إلى أن يطلع الصباح ثمَّ انضمَّا إلينا. هل هذا واضحٌ؟»

«أجل يا أبتاه»، قال الراهبان المبتدئان معاً.

«حسناً، أمَّا بقيتكم»، توجه فيليب بالحديثِ إلى الآخرين. «من فضلكم الحقوا بالبنَّاءِ توم في هدوءٍ تامٍ».

وتابع الجميعُ السيرَ.

عصفت ريحٌ غربيةٌ خفيفةٌ، وغطَّى صوتُ الأغصان التي حرَّكتها الريح على وقعِ أنفاسٍ، وأقدامِ خمسين رجلاً، وهنا بدأ فيليب يشعرُ بالتوترِ، وبدت له خطتهُ جنونيةً، وكان على وشكِ إيقاف العمليةِ، ولكنه رتَّلَ صلاةً في سرِّهِ على نيَّةِ النجاح.

أخذَ الطريقُ منعطفاً إلى اليسار، وكشفت أضواءُ المصابيحِ الضعيفةُ عن كوخٍ خشبي، وكومةِ حجارةٍ لم ينتهِ العملُ سوى على نصفها، وبعضِ السلالمِ والسقالاتِ، وفي الخلفيةِ ظهرت التلَّةُ مظلمةً، وتشوهها ندوبٌ بيضاء حيثُ تُجرى أعمالُ القلعِ، وفجأة خطرَ ببالِ فيليب أنَّه لم يفكر إن كان برفقةِ الرجالِ النائمين في الكوخِ كلاب. إن كان برفقتهم كلاب فسيخسرُ عاملَ المفاجأةِ، ويضع المخططَ بأكملهِ على المحكِّ، ولكن لم يعد هناك وقتٌ للتراجعِ الآن.

مرَّ الجميعُ بجانبِ الكوخِ، وحبسَ فيليب أنفاسهُ متوقعاً سماعَ ضجةٍ أو نباحاً في أيِّ لحظةٍ، ولكن لم يكن هناك كلابٌ في الموقع.

أوقفَ فيليب فريقهُ فجأةً عندَ قاعدةِ السقالةِ. كان فخوراً بهم لحفاظهم على الهدوءِ؛ فالناسُ يجدون صعوبةً في التزامِ الهدوءِ حتَّى في الكنيسةِ، أو ربما كانوا خائفين جداً على القيامِ بأيَّةِ ضجةٍ.

بدأ البنَّاء توم وأوتو بلاكفيس في صمتٍ بتوزيع فريقِ أوتو من قاطعي الحجارةِ على الموقعِ، وقد قسَّموهم إلى مجموعتين: مجموعة في الأسفلِ قبالة موقعِ القطعِ، والمجموعة الأخرى صعدت إلى السقالةِ. عندما أخذَ الجميعُ أماكنهم أومأ فيليب إلى الرهبانِ مشيراً عليهم بالوقوفِ، أو الجلوسِ

حولَ العمالِ، أمَّا هو فقد بقي بعيداً عن البقيةِ، ووقفَ في منتصفِ المسافةِ بينَ الكوخِ والتلِّ.

كان التوقيتُ ممتازاً. سينبلج الفجرُ بعدَ برهةٍ قصيرةٍ من قيامِ فيليب بآخر التعديلاتِ على المواقعِ. سحبَ فيليب شمعةً من داخلِ معطفِهِ، وأشعلَ مصباحاً ثمَّ وقفَ قبالةَ الرهبانِ، ورفعَ الشمعةَ. كانت هذهِ الإشارة المتفق عليها. أخرجَ كلُّ واحدٍ من الرهبانِ والرهبان المبتدئين الأربعين شمعةً، وأشعلها من أحدِ المصابيح الثلاثةِ معهم. كانَ التأثيرُ درامياً. طلعَ الصباح على مقلعٍ يُغلفه الصمتُ وعلى شخوص كالأشباحِ، كلُّ واحدٍ منها يحملُ شمعةً صغيرةً بذؤابةٍ متراقصةٍ.

استدارَ فيليب باتجاهِ الكوخِ، ولكن لم يكن هناكَ أيَّةُ حركةٍ، ولازم مكانه ينتظر بصبرٍ. كان الرهبانُ ماهرين في هذا؛ فقد كان الوقوف لساعاتٍ جزءاً من حياتهم اليوميةِ، غيرَ أنَّ العمالَ لم يكونوا معتادين على هذا، وبعد وهلةٍ بدأ صبرهم ينفد، وحرَّكوا أقدامهم، وتهامسوا بين بعضهم وبعض بأصواتٍ خفيضةٍ، ولكن لم يكن هذا مهماً الآن.

وأخيراً استيقظَ ساكنو الكوخِ، وقد يكون هذا بسببِ الهمسِ في الخارجِ، أو بسببِ ضوءِ الصباح. سمعَ فيليب أحدهم يسعلُ، ويبصق ثمَّ صوت رتاجٍ يُفتح وراءَ بابٍ. رفعَ يدهُ كي يلزمَ الجميعُ الهدوءَ التام.

فُتحَ البابُ، وما زالت يدُ فيليب عاليةً. خرجَ رجلٌ وهو يفركُ عينيهِ، ومن وصفِ توم علمَ فيليب أنَّه رئيسُ عمالِ القطعِ هارولد من شايرنغ. لم يلحظ هارولد أيَّ شيءٍ غريبٍ في البدايةِ، بل اتكأ على عضادةِ البابِ، وسعلَ مجدداً. كان سعاله قوياً، وأجشّ كسعالِ أيِّ رجلٍ رئتاه ممتلئتان بغبارِ الحجارةِ. أنزلَ فيليب يدهُ، ومن ورائه بدأ الرهبانُ بالغناءِ، وغرقَ المقلعُ في لجةِ أنغامٍ مخيفةٍ.

وقعَ الأمرُ على هارولدِ كالصدمة فقد رفعَ رأسهُ بسرعةٍ كأنَّه كان مشدوداً إلى وتدٍ، واتسعت عيناه، وفغرَ فاه عندما رأى جوقةَ الأشباحِ تظهرُ في مقلعهِ بشكلٍ سحري، وأفلتت من فمهِ المفتوحِ صرخةُ رعبٍ، ثمَّ تراجع إلى داخلِ الكوخِ مترنحاً.

سمحَ فيليب لنفسهِ بابتسامةِ رضا. كانت هذهِ بدايةً طيبةً.

على أيِّ حالٍ لن يستمر هذا التأثيرُ الخوارقي لفترةٍ طويلةٍ. رفعَ فيليب يدهُ مجدداً، ولوحَ بيدهِ دون أن يستديرَ، وبدأ عمالُ القطعِ بالعملِ، واختلطَ صوتُ المعدنِ على الحجارةِ بأصواتِ الجوقةِ.

استرقَ شخصان أو ثلاثة النظرَ عبرَ بابِ الكوخِ، وسرعان ما أدركَ الرجالُ أنَّهم ينظرون إلى رهبانٍ، وعمالٍ حقيقيين وعاديين وليسَ أشباحاً وأرواحاً، واندفعوا خارجين من الكوخِ ليروا بشكلٍ أفضل. خرجَ جنديان يحملان سيفين في حزاميهما، ووقفا يحدقان. كانت هذهِ اللحظة الحاسمة بالنسبةِ إلى فيليب، وتساءل في نفسهِ عمّ سيفعله الجنديان الآن.

أعادَ مشهدُ الجنديين الضخمين والملتحيين بأحزمتهما الشبيهة بالسلاسل وسيفهما وخنجريهما في سترتين بلا أكمامٍ إلى ذاكرةِ فيليب تلكَ الذكرى الحاضرة بقوةٍ للجنديين اللذين دخلا منزله عندما كانَ في السادسةِ، وقتلا والده ووالدته، وفجأةً ومن دونِ إنذارٍ طعنهُ شعورٌ بالحزنِ على والديهِ اللذين بالكادِ يتذكرهما. حدَّقَ ببغضٍ إلى رجلي الإيرل بيرسي كأنه لا يراهما جنديين بل رجلاً قبيحاً بأنفٍ معقوفٍ، ورجلاً أسمر بلحيةٍ مُلطخةٍ بالدمِ، وملأه الغضب والتقزز، والإصرار على هزيمةِ هذين النذلين الغبيين اللذين لا يخافان الرَّبَّ.

لوهلةٍ لم يفعل الجنديان شيئاً، وتدريجياً خرجَ جميعُ عمالِ القطعِ التابعين للإيرلِ من الكوخِ. أحصى فيليب اثني عشرَ رجلاً إضافة إلى الجنديين.

أشرقت الشمسُ من وراءِ الأفقِ.

كان عمالُ ديرِ كينغزبريدج يقطعون الحجارةَ، وإن أرادَ الجنديين إيقافهم فسيتعين عليهما الهجوم على الرهبان الذين أحاطوا بالعمالِ لحمايتهم. قامرَ فيليب بفكرةِ أنَّ الجنديين سيترددان في اللجوءِ إلى العنفِ مع الرهبانِ وهم يصلون.

وقد كان على حقٍ حتَّى الآن لأنَّ الجنديين أظهرا تردداً.

بحلولِ الآن وصلَ الراهبان المبتدئان اللذان بقيا مع الجيادِ والعربةِ في الخلفِ. نظرَ الراهبان حولهما في خوفٍ، وأشارَ لهما فيليب بإيماءةٍ أن يوقفا العربة ثمَّ استدارَ، ونظرَ إلى البنَّاءِ توم، وأومأ برأسهِ.

بحلولِ هذا الوقتِ كانَ عمالُ أوتو قد قطعوا العديد من الحجارةِ، وأمرَ

توم بعضَ الرهبان الشباب بحملِ الحجارةِ، ووضعها في العربةِ. راقبَ رجالُ الإيرل التطورات الجديدة باهتمامٍ. كانت الحجارةُ ثقيلة جداً على أن يحملها رجلٌ واحدٌ، ولهذا توجبَ عليهم إنزالها بالحبالِ عن السقالةِ إلى الأرضِ ثمَّ وضعها على حمَّالةٍ. وضعَ الرجال أولَ حجرٍ في العربةِ، ووقفَ الجنديان مع هارولد للتحدثِ. عندما وضعَ الرجالُ حجراً آخر في العربةِ ابتعدَ الجنديان عن الحشدِ حولَ الكوخِ، وتوجها إلى العربةِ. كان أحد الرهبان المبتدئين، ويدعى فيليمون، قد صعدَ إلى العربةِ، وجلسَ على الحجرين، وعلى وجههِ ارتسمَ تعبيرٌ ينمُ عن التحدي.

«فتى شجاع!» فكرَ فيليب في نفسهِ، ولكن كان أيضاً خائفاً على الفتى.

اقتربَ الجنديان من العربةِ أمَّا الرهبان الأربعة الذين ينقلون الحجرين إلى العربةِ فوقفوا أمامهما كمتراسٍ. شعرَ فيليب بالتوترِ. وقفَ الجنديان وجهاً لوجه أمامَ الرهبانِ. كانت أيديهما على غُمدِي سيفيهما. توقفت الجوقةُ عن الغناءِ، وراقبَ الجميعُ ما يجري حابسي الأنفاس.

فكرَ فيليب أنَّ الجنديين حتماً لن يواجها الرهبان العزَّلَ بسيفيهما، ثمَّ فكرَ أنَّه من السهلِ على هذين الرجلين الضخمين، والمعتادين على القتلِ والذبحِ في المعاركِ توجيه سيفيهما نحو أناسٍ لا يخيفونهما، ولا حتَّى من الانتقامِ لهم، كأولئكَ الرهبانِ. علاوةً على هذا لا بدَّ أنَّهما أخذا بعين الاعتبارِ العقوبةَ الإلهية التي يخاطران بتلقيها إن قتلا رجالَ الرَّبِّ. حتَّى الأوغاد من أمثال هذين الجنديين يعلمون أنَّهم في نهايةِ المطافِ سيقفون أمامَ الرَّبِّ يومَ القيامةِ. هل كانا خائفين من الجحيم؟ ربما، ولكنهما كانا خائفين من سيدهما، بيرسي هاملي، أيضاً. وتكهنَ فيليب أنَّ الفكرةَ الأساسيةَ التي تشغلهما الآن هي إن كان بيرسي سيجدُ حجتهما في فشلهما في إبعادِ عمالِ ديرِ كينغزبريدج عن المقلعِ مقنعةً. راقبهما فيليب يترددان أمامَ مجموعةِ الرهبانِ الشبابِ، وأيديهما على سيفيهما، وتخيلهما يزنان بين خطرِ خذلان بيرسي وخطرِ غضبِ الرَّبِّ.

نظرَ الجنديان بعضهما إلى بعض. هزَّ أحدهما رأسه للآخرِ فهزَّ الثاني كتفيهِ بلامبالاةٍ ثمَّ غادرا المقلعَ.

علا غناءُ الجوقةِ ولكن بنغمةٍ جديدةٍ، وانخرطَ الرهبانُ في ترنيمة تعكسُ

نشوةَ الظفرِ. علت صرخةُ انتصارٍ من عمالِ القطعِ، وتنهَّد فيليب في راحةٍ. لوهلةٍ بدا الأمرُ خطيراً جداً، ولم يكن بوسعهِ منعُ نفسهِ من الابتسام بسعادةٍ. ها هو يستعيد المقلع.

نفخَ على شمعتهِ، وسارَ باتجاهِ العربةِ، ثمَّ عانقَ الرهبان الأربعة الذين واجهوا الجنديين والراهبين المبتدئين اللذين أحضرا العربةَ إلى الموقعِ.

«أنا فخورٌ بكم»، قال فيليب بحنانٍ. «وأعتقدُ أن الرَّبَّ فخورٌ بكم أيضاً».

أمَّا بقيةُ الرهبان فصافحوا وهنأوا بعضهم بعضاً، وأتى أوتو بلاكفيس إلى فيليب وقال له: «أحسنتَ عملاً أيّها الأبُ فيليب. إن سمحتَ لي بالقولِ، أنتَ رجلٌ شجاعٌ».

«الرَّبُّ من رعانا»، قال فيليب، ووقعَ نظره على عمالِ الإيرلِ واقفين بحزنٍ عندَ بابِ كوخهم. لم يكن راغباً بتحويلهم إلى أعداءٍ؛ فعلى الرغمِ من أنَّ أمرهم لم يُسوَّ بعد غير أنَّ هناك دوماً خطر أن يستخدمهم بيرسي لإثارةِ المزيد من المتاعبِ، وقررَ فيليب التحدث إليهم.

أمسكَ فيليب بذراعِ أوتو، وقادهُ إلى الكوخِ.

«لقد تحققت إرادةُ الرَّبِّ اليوم»، قال فيليب لهارولد. «آمل ألا يكون هناك أيَّةُ ضغينةٍ».

«أصبحنا بلا عملٍ»، قال هارولد. «وهذهِ ضغينةٌ».

وفجأةً خطرَت ببالِ فيليب طريقةٌ لكسبِ رجالِ هارولد إلى جانبهِ فقالَ دونَ تفكيرٍ: «يمكنكَ معاودةُ العملِ اليومَ إن أردتَ. اعمل معي. سأستعين بكاملِ فريقكَ، ولن تضطروا إلى مغادرةِ كوخكَ».

تفاجأ هارولد من هذا التغير المفاجئ في سيرِ الأمورِ، وبدا مذهولاً ثمَّ تمالكَ نفسهُ وقال: «وما الأجرُ الذي تعرضهُ؟»

سارع فيليب إلى الرّدِ: «الأجر المتعارف عليهِ. بنسان يومياً للحرفيين، وبنس للعاملِ، وأربعة بنساتٍ لكَ بينما تتكفلُ أنتَ بأجرِ المتدربين».

استدارَ هارولد إلى الوراءِ، ونظرَ إلى بقيةِ فريقهِ بينما أخذَ فيليب أوتو بعيداً كي يُناقشوا العرضَ فيما بينهم. لم يكن بإمكانِ فيليب تحملُ كلفةِ اثني عشرَ رجلاً إضافياً. إن قبلوا بعرضهِ سيضطرُ إلى تأجيلِ الاستعانةِ بالبنائين،

وهذا يعني أنَّه سيقطعُ الحجارةَ بوتيرةٍ أسرع من وتيرةِ البناءِ. سيصبحُ لديهِ أكوامٌ من الحجارةِ، وسيعاني من نقصٍ في المالِ. على أيِّ حالٍ سيكون تعيين رجالِ بيرسي لمصلحة الديرِ حركةً دفاعيةً جيدةً. إن أرادَ بيرسي العملَ مجدداً على المقلعِ سيضطرُ إلى الاستعانةِ بفريقٍ جديدٍ، وقد يكون هذا صعباً بعد أن ينتشر خبر ما حدثَ اليوم. وإن حاولَ بيرسي اللجوءَ إلى خدعةٍ أخرى في المستقبلِ لإغلاقِ المقلعِ سيكون لدى فيليب أكوامٌ من الحجارةِ.

بدا هارولد كأنَّه يتجادلُ مع رجالِهِ، وبعدَ برهةٍ تركهم واقتربَ من فيليب مجدداً قائلاً: «من سيكون المسؤول هنا إن قبلنا بالعملِ؟» سألَ هارولد. «أنا أم رئيسُ فريقكَ؟»

«أوتو المسؤول هنا»، قال فيليب دونَ ترددٍ فهو لن يسمح لهارولد أن يكون المسؤول هنا في حال عاد إلى ولائهِ لبيرسي، ولا يمكن أن يكون هناك رئيسان في الموقعِ؛ لأنَّ هذا سيؤدي إلى نشوبِ خلافاتٍ.

«يمكنكَ أن تديرَ فريقكَ»، قال فيليب لهارولد. «ولكن أوتو سيكون المسؤول عنكَ».

لاحت الخيبةُ على وجهِ هارولد، وعادَ إلى رجالِهِ، واستمرَّ النقاش بينهم. انضمَّ البنَّاء توم إلى فيليب وأوتو. «نجحت خطتكَ أيّها الأب»، قال توم بابتسامةٍ عريضةٍ. «ووضعنا يدنا على المقلعِ مجدداً، ومن دونِ سفكِ قطرةِ دمٍ. أنتَ مذهلٌ».

شعرَ فيليب بالرغبةِ في موافقتهِ على كلامهِ، ولكنه أدركَ أنَّه بذلك سيقعُ في خطيئةِ الغرور. «ما حدث معجزةٌ من الرَّبِّ»، قال مُذكراً نفسهُ وتوم.

قال أوتو: «عرضَ الأبُ فيليب على هارولد الاستعانةَ برجالِه للعملِ معي».

«حقّاً!» قال توم وبدا متضايقاً؛ فقد كان رئيسُ البنائين من يعين الحرفيين والعمال وليسَ الدير. «اعتقدت أنَّك لا تستطيع تحمل كلفةِ الأمرِ».

«لا يمكنني»، اعترفَ فيليب. «ولكن لا أريد لأولئك الرجال أن يتسكعوا في الأرجاءِ من دونِ عملٍ، وبانتظارِ أن يفكرَ بيرسي بطريقةٍ لاستعادةِ المقلعِ».

بدا توم غارقاً في التفكيرِ ثمَّ أومأ برأسِهِ. «ولن يضرنا امتلاكُ مخزونٍ من الحجارةِ في الديرِ في حالِ نجحَ بيرسي في أخذِ المقلعِ مجدداً».

سُرَّ فيليب لأنَّ توم فهمَ ما رمى إليهِ.

بدا هارولد كأنَّه وصلَ إلى اتفاقٍ مع رجالهِ لأنَّه عادَ إلى فيليب قائلاً: «هل ستدفع الأجورَ لي كي أوزعها بالطريقةِ التي أراها مناسبةً؟»

أثارَ كلامُ هارولد ريبةَ فيليب لأنَّ هذا يعني أنَّ هارولد سيقتطعُ من الأجورِ، ويزيد على أجرهِ، ولكنه قال: «الأمرُ بيدِ رئيسِ البنَّائين».

«هذا إجراءٌ شائعٌ»، قال توم. «إن كان هذا ما يريدهُ فريقكَ فأنا لا أمانع».

«في هذهِ الحالةِ نقبلُ بعرضكم»، قال هارولد.

تصافحَ هارولد وتوم وقال فيليب: «حصلَ الجميعُ على ما يريدونهُ وهذا جيدٌ».

«هناك شخصٌ واحدٌ لم يحصل على ما يريدهُ»، قال هارولد.

«ومن هذا الشخص؟»سأل فيليب.

«ريغان زوجةُ الإيرل بيرسي»، قال هارولد بحزنٍ. «عندما تكتشف ما حدث سيكون هناك حمامُ دمٍ».

– 2 –

لم يخرج الرجالُ إلى الصيدِ اليومِ، ولهذا لعبَ الشبابُ في قلعةِ شايرنغ لعبةَ وليم هاملي المفضلة وهي رجمُ القططِ.

تتواجد القططُ بكثرةٍ في القلعةِ، وموتُ أحدها أو أكثر لن يُحدث فرقاً. كان الرجالُ يُغلقون الأبوابَ، والنوافذ في قاعةِ القلعةِ، ويسحبون الأثاث باتجاهِ الجدارِ حتَّى لا يختبئ القط في أيِّ مكانٍ ثمَّ يضعون كومةً من الحجارةِ في وسطِ الغرفةِ. كان القط الذي اختاروه عجوزاً بفراءٍ رمادي، وعندما شعرَ بشهوةِ الدمِ في الأجواء ربضَ قربَ البابِ على أملِ الهربِ.

كان على كلِّ رجلٍ وضعُ بنسٍ في قدرٍ عن كلِّ حجرٍ يرميهِ، والرجل الذي يقتلُ القطَّ بحجرهِ يأخذ القدرَ.

عندما أجروا القُرعةَ على ترتيب الرماةِ بدأ القط يشعرُ بالتوترِ، وذرعَ المكان أمامَ البابِ جيئةً وذهاباً.

رست القرعةُ على والتر أولاً. يمكنُ للضربةِ الأولى أن تكون محظوظةً؛ فعلى الرغمِ من أنَّ القط كان متوتراً فإنَّه لم يعلم طبيعةَ اللعبةِ، ولذلكَ ستأخذهُ

المفاجأةُ. أدارَ والتر ظهرهُ للحيوانِ، والتقطَ حجراً من الكومةِ، وأخفاه في يدهِ ثمَّ استدارَ ببطءٍ ورمى فجأةً.

أخطأ والتر القطَّ، وارتطمَ حجرهُ بالبابِ فقفزَ القطُّ وهربَ، وضحكَ البقية. لن تكون الضربةُ الثانية محظوظةً لأنَّ القطَّ انتبه وتيقظَ، ولكنه لاحقاً سيغدو متعباً، ومن المحتملِ أن يُصابَ. كان الآن دورُ مرافقٍ شاب. راقبَ المرافقُ القطَّ وهو يركضُ في الغرفةِ بحثاً عن مخرجٍ، وانتظرَه إلى أن أبطأ ثمَّ رماه بالحجرِ. كانت رميةً جيدةً، ولكن القطَّ رآها وتجنبها، وتأوهَ الرجالُ في خيبةٍ.

ركضَ القطُّ عبرَ الغرفةِ مجدداً وبسرعةٍ أكبر وقد تملكهُ الرعبُ. صعدَ على المنصاتِ، والطاولاتِ قبالةَ الجدارِ، ونزلَ إلى الأرضِ. كان الآن دورُ فارسٍ عجوزٍ. تظاهرَ الفارسُ أنَّه يرمي الحجرَ كي يعرفَ في أيِّ اتجاهٍ سيقفزُ القطُّ ثمَّ رماه أمامَ مسارِ القطِ بقليلٍ. صفقَ البقية لدهاءِ الفارسِ، ولكن القطّ رأى الحجرَ، وتوقفَ فجأةً متجنباً إياه.

وبدافعِ اليأسِ حاولَ القطُّ أن يحشرَ نفسهُ خلفَ صندوقٍ من خشبِ البلوطِ في الزوايةِ. رأى الرامي التالي فرصةً، واغتنمها فرمى بسرعةٍ بينما القطُ يحاول الاختباء، وأصابهُ في ردفهِ. علت صيحةُ تهليلٍ. تخلى القطُّ عن محاولةِ الاختباءِ وراءَ الصندوقِ، وركضَ في أرجاءِ الغرفةِ، ولكنه كان يعرجُ الآن، ولذلك باتت حركتهُ أبطأ.

كان دور وليم الآن.

اعتقدَ وليم أنَّه سيتمكن من قتلِ القطِّ إن رمى الحجرَ بعنايةٍ. وبهدفِ إعياءِ القطِّ أكثر صرخَ نحوه دافعاً إياه للركضِ أسرع لبعضِ الوقتِ ثمَّ تظاهرَ أنَّه يضربُ الحجرَ حقاً. ولو أنَّ أحداً آخر فعلَ هذا لاستهجن الآخرون فعلتهُ، ولكن وليم ابن الإيرل، ولهذا انتظروا في صبرٍ. أبطأ القطّ عدوه بسببِ ألمهِ دونَ شكٍ، واقتربَ من البابِ على أملِ الهروبِ. رفعَ وليم ذراعهُ، وبشكلٍ غير متوقعٍ وقفَ القطُّ قبالةَ الحائطِ قربَ البابِ، وهنا رمى وليم الحجرَ. قبلَ أن يُفلتَ وليم الحجرَ فُتحَ البابُ، ودخلَ كاهنٌ في ثيابٍ سوداء. رمى وليم الحجرَ، ولكن القطَّ اندفعَ كالسهم خارجاً وهو يلهثُ، ونجا بحياتهِ. أطلقَ الكاهنُ عندَ البابِ صرخةً عاليةً، وأمسكَ بأطرافِ ردائِهِ. انفجرَ الشبان

ضاحكين فقد اندفعَ القطّ كقذيفةِ مدفعٍ بين ساقي الكاهنِ ثمَّ حطَّ على قوائمهِ خارج البابِ. تجمَّد الكاهنُ في مكانهِ من الذعرِ كامرأةٍ عجوزٍ خائفةٍ من فأر، وضحكَ الشبابُ بصوتٍ عالٍ.

تعرَّفَ وليم على الكاهنِ. كان الأسقف ويلارن، وعلا ضحكُ وليم أكثر.

كانت حقيقةُ خوفِ كاهنٍ مخنثٍ وعدو للعائلةِ من قطٍ قد جعلت الموقفَ مضحكاً جداً.

تمالكَ الأسقفُ نفسهُ بسرعةٍ كبيرةٍ، واحمرّ وجهه من الغضبِ ثمَّ أشارَ إلى وليم قائلاً بنبرةٍ قاسيةٍ: «ستُقاسي أشدَّ العذابِ في أسفلِ دركِ الجحيمِ».

وبسرعةٍ توقفَ وليم عن الضحكِ، وتملكهُ الهلعُ. عندما كان صغيراً تسببت له والدتهُ بالكوابيس ليلاً بقصصها عمَّا تفعلهُ الشياطين بالناسِ في الجحيمِ، وكيفَ تحرقهم بالنارِ، وتفقأ عيونهم وتقطعُ أعضاءهم بسكاكين حادةٍ، ومنذئذٍ كرهَ سماعَ أيِّ شيءٍ عن الجحيمِ. «اخرس!» صرخَ وليم في وجهِ الأسقفِ ورانَ الصمتُ في أرجاءِ الغرفةِ. سحبَ وليم خنجرهُ، وسارَ باتجاهِ ويلارن. «لا تأتِ إلى هنا للوعظِ أيّها الثعبان!» لم يبدُ الرعبُ على وجهِ ويلارن بل الاهتمامُ كأنَّه اكتشفَ نقطةَ ضعف وليم، وزادَ هذا من غضبِ وليم. «سأقتلكَ إن...»

كان بغضبهِ الشديدِ مستعداً لذبحِ الأسقفِ، ولكن صوتاً من أعلى الدرجِ خلفهُ قال: «وليم! كفى!»

كان والدهُ.

توقفَ وليم ثمَّ أعادَ خنجرهُ إلى غمدهِ.

دخلَ ويلارن إلى القاعةِ، ولحقَ بهِ كاهنٌ آخر ثمَّ أغلقَ البابَ وراءه. كان كبيرُ الكهنةِ بولدوين.

قال بيرسي: «فاجأتني بزيارتكَ أيّها الأسقف».

«لأنَّك وفي آخر مرةٍ التقينا فيها دفعت برئيسِ دير كينغزبريدج إلى خيانتي. أجل، اعتقدتُ أنَّك ستتفاجأ. عادةً، أنا لستُ شخصاً سَمحاً». استدارَ ويلارن ورمقَ وليم بنظرةٍ باردةٍ أخرى ثمَّ عادَ بنظرهِ إلى الأبِ وتابع: «ولكنني لا أسمح للضغينة أن تتعارض مع مصالحي. أودُّ الحديثَ معكَ».

أومأ بيرسي مُفكراً وقال: «من الأفضل أن تلحقَ بي إلى الطابقِ العلوي. وأنتَ أيضاً يا وليم».

صعدَ الأسقفُ ويلارن، وكبيرُ الكهنةِ بولدوين الدرجَ إلى غرفةِ الإيرل، ولحقَ بهما وليم. شعرَ وليم بالإحباطِ لأنَّ القطَّ هربَ، ولكنه من جهةٍ أخرى أدركَ أنَّه أيضاً كان محظوظاً بانتهاءِ الأمر؛ فلو أنَّه قتلَ الأسقفَ لأُعدمَ على فعلتِهِ، ولكن وليم كرهَ تلكَ الهشاشة، والرفعة اللتين تحيطان بمكانة ويلارن.

دخلوا إلى غرفةِ والدِهِ وهي الغرفةُ ذاتها التي اغتصبَ فيها وليم آليانا. في كلِّ مرَّةٍ يدخلُ وليم الغرفةَ يستعيد مشهدَ الاغتصابِ، ويتذكرُ جسد آليانا البضَّ والشهي، والخوف على وجهها، والطريقةَ التي صرخت فيها، والتعبير الذي ارتسمَ على وجهِ شقيقها عندما أجبره على النظرِ إلى أختهِ وهي تُغتصب، وضربةَ المعلم التي قام بها وليم أخيراً عندما سمحَ لوالتر بالاستمتاعِ بآليانا. تمنَّى لو أنَّه أبقاها هنا سجينةً كي يتمتع بها متى أرادَ.

منذُ تلكَ الليلةِ ووليم مهووس بآليانا، بل حاولَ تعقبها أيضاً. كان قد أمسكَ بحارسِ غابةٍ يحاول بيعَ جوادِهِ الحربي في شايرنغ، واعترفَ الرجلُ تحتَ التعذيبِ أنَّه سرقهُ من فتاةٍ لها أوصاف آليانا، وعلمَ أيضاً من السجَّانِ في وينشستر أنَّ آليانا زارت والدها قبلَ موتهِ، وأخبرتهُ صديقتهُ السيدةُ كيت مالكةُ منزلِ الدعارةِ الذي يتردد إليهِ أنَّها عرضت على آليانا فرصةَ العملِ في منزلها، ولكن بعدَ ذلكَ انقطعَ الخيطُ. «لا تدعها تشغلُ بالكَ أيّها الفتى وليم»، قالت كيت في تعاطفٍ. «إن كنتَ تريدُ نساءً بأثداءٍ كبيرةٍ، وشعرٍ طويلٍ فلدينا منهن هنا في المنزلِ. فلتضاجع بيتي وميلي معاً الليلةَ، أربعةُ أثداءٍ لكَ وحدكَ الليلة، لمَ لا تفعل هذا؟» ولكن بيتي وميلي لم تكونا بريئتين وبيضاوين وخائفتين حدَّ الموتِ، ولذلكَ لم تُرضياهِ. في الحقيقةِ ومنذُ تلكَ الليلةِ مع آليانا هنا في غرفةِ الإيرل لم يشعر بالرضا من مضاجعةِ أيّة امرأةٍ أخرى.

أبعدَ وليم الفكرةَ عن ذهنهِ. كان ويلارن يتحدثُ إلى والدتهِ: «أفترضُ أنَّك تعلمين أنَّ رئيسَ ديرِ كينغزبريدج وضعَ يدهُ على المقلعِ؟»

لم يعلموا بهذا، وذُهلَ وليم من الخبرِ، وجنَّ جنون والدتهِ.

«ماذا؟» قالت ريغان. «كيف؟»

«يبدو أنَّ جُنديكما قد نجحا في صرفِ فريقِ عمالِ القطعِ التابع للديرِ،

ولكن في صباحِ اليوم التالي عندما استيقظَا وجدا المقلعَ محاطاً برهبانٍ يغنون، وخافا من عاقبةِ إلحاقِ الأذى برجالِ الرَّبِّ، ثمَّ استعانَ رئيسُ الديرِ فيليب بعمالك، وهم الآن يعملون معاً في تناغمٍ تامٍ. يُفاجئني حقاً أنَّ الجنديين لم يعودا ليطلعاك على الخبرِ».

«الجبانان، أين هما؟» صرخت ريغان وقد احمرَّ وجهها من الغضبِ. «سأتكفلُ بأمرهما. سأجبرهما على قطعِ خصاهما بنفسيهما...»

«أفهمُ الآن سببَ عدمِ عودتهما»، قال ويلارن.

«لا تهتمي بأمرِهما»، قال الإيرل. «إنَّهما مجرَّد جنديين، والمسؤول عن كلِّ ما حدث هو ذلك المخادع رئيسُ الديرِ. لم أتخيل قط أن يقومَ بخدعةٍ كهذهِ. لقد فاقنا ذكاءً دونَ أدنى شكٍّ».

«تماماً»، قال ويلارن. «فعلى الرغمِ من ظاهرِ براءتِه الشبيهِ ببراءةِ القديسين فإنَّه مخادعٌ كجرذٍ منزلي».

وفكرَ وليم أنَّ ويلارن مخادعٌ أيضاً كجرذٍ أسود بأنفٍ مدببٍ وفراءٍ أسود لامعٍ يجلسُ في زاويةٍ يحملُ في مخالبهِ قطعةَ خبزٍ ويلقي نظراتٍ حذرةً في أرجاءِ الغرفةِ وهو يقضمُ طعامه على مهلٍ. وتساءل وليم عن سببِ اهتمامِ ويلارن بمن يضعُ يدهُ على المقلعِ. كان مخادعاً كرئيسِ الديرِ فيليب، وهو أيضاً كان يخطط لشيءٍ ما.

قالت والدةُ وليم: «لا يمكننا أن نسمحَ له بالنجاةِ بفعلتهِ هذهِ. لا يجب أن تُهزمَ عائلةُ هاملي، ويجب أنَّ يُذلّ رئيسُ الديرِ».

لم يكن والدهُ واثقاً من هذا الكلامِ كوالدتهِ وقال: «إنَّه مجرَّد مقلعٍ، والملكُ...»

«الأمرُ لا يتعلقُ بالمقلعِ فقط بل بشرفِ العائلةِ»، قاطعتهُ ريغان. «لا تهتم بما يقوله الملكُ».

كان وليم متفقاً مع والدتهِ في ما قالتهُ. تحدَّى رئيسُ ديرِ كينغزبريدج عائلةَ هاملي؛ ولذلك يجب القضاءُ عليهِ لأنَّ الناس إن لم يكونوا خائفين من المرءِ فسيصبح نكرةً، ولكن وليم عجزَ عن رؤيةِ المشكلةِ في الموضوعِ ولذلكَ قال: «لم لا نأخذُ بعضَ الرجالِ، ونرمي برئيسِ الديرِ خارجَ المقلعِ؟»

وهزَّ والدهُ رأسهُ ثمَّ قال: «تمكنا من تجاوزِ أوامرِ الملك بشكلٍ سلمي من

خلالِ إرسال رجالنا للعملِ في المقلعِ، ولكن إرسال قوةٍ مسلحةٍ لطردِ عمالٍ يعملون بإذنٍ من الملكِ فهذا أمرٌ آخر، وقد أخسرُ لقبي بسببِ هذا».

وعلى مضضٍ فهمَ وليم المشكلة التي تواجههم. لطالما كان والدهُ حذراً، ولكن غالباً ما كان حذرهُ في مكانهِ.

وهنا قالَ الأسقفُ ويلارن: «لدي اقتراحٌ». وكان وليم واثقاً من أنَّ ويلارن يخططُ لشيءٍ ما. «لا يجب أن تُبنى الكاتدرائية في كينغزبريدج».

وشعرَ وليم بالحيرةِ مما سمعهُ، ولم يفهم علاقة هذا بالأمرِ، ووالدهُ أيضاً لم يفهم، ولكن عيني والدتهِ اتسعتا في اهتمامٍ، وتوقفت عن حكِّ وجهها لبرهةٍ ثمَّ قالت وهي غارقةٌ في التفكيرِ: «إنَّها فكرةٌ مثيرةٌ للاهتمامِ».

«قديماً بُنيت الكاتدرائيات في قرى ككينغزبريدج»، تابع ويلارن. «ومنذُ ستين أو سبعين عاماً، خلالَ عهدِ الملكِ وليم الأول، بدأت تنتقلُ العديد منها إلى البلدات. إنَّ كينغزبريدج قريةٌ صغيرةٌ مقفرةٌ، وليس فيها سوى ديرٍ متهالك وفقير إلى درجةٍ لا يستطيعُ معها صيانةَ كاتدرائية».

قالت ريغان: «وأين ترغبُ ببناءِ الكاتدرائيةِ؟»

«في شايرنغ»، قال ويلارن. «فهي بلدةٌ كبيرةٌ، ولا بدَّ أنَّ تعدادَ سكانها يزيد على الألفِ، وفيها سوقٌ أسبوعي، وسوقُ صوفٍ سنوي، وتقعُ على الطريقِ الرئيسي. إنَّ شايرنغ الخيار المنطقي، وإن تحالفنا معاً -الأسقف والإيرل- فقد ننجح».

قال بيرسي: «ولكن إن أصبحت الكاتدرائيةُ في شايرنغ؛ لن يتمكن رهبانُ كينغزبريدج من الاهتمامِ بها».

«وهذا هو المغزى»، قالت ريغان في ضيقٍ. «من دونِ الكاتدرائيةِ ستكون كينغزبريدج نكرةً، وسيغرقُ الديرُ في النسيانِ، ويعود فيليب مجدداً إلى ما كان عليهِ قبلاً، مجرَّد نكرةٍ، وهذا ما يستحقهُ».

«إذاً من سيهتمُّ بالكاتدرائيةِ الجديدةِ؟» قال بيرسي.

«مجموعةٌ جديدةٌ من رجالِ الدينِ»، قال ويلارن. «وأنا سأقوم بتعيينهم».

كان وليم محتاراً كوالدهِ، إلَّا أنَّه فهمَ الآن ما رمى إليهِ ويلارن؛ فمن خلالِ نقلِ الكاتدرائيةِ إلى شايرنغ سيتحكم بها ويلارن وحدهُ.

«وماذا عن المالِ؟» قال بيرسي. «من سيدفعُ كلفةَ الكاتدرائيةِ الجديدةِ إن لم يكن ديرَ كينغزبريدج؟»

«أعتقدُ أنَّ معظمَ أملاكِ الديرِ مخصصةٌ للكاتدرائيةِ»، قال ويلارن. «إن انتقلت الكاتدرائيةُ فإنَّ الأملاكَ ستنتقلُ معها. على سبيلِ المثالِ عندما قسَّمَ الملكُ أملاكَ إيرل شايرنغ قدَّمَ أراضي التلالِ إلى ديرِ كينغزبريدج كما هو معلومٌ للجميعِ، ولكنه فعلَ هذا من أجلِ تمويلِ بناءِ الكاتدرائيةِ الجديدةِ. إن أخبرناه أنَّ أحداً آخر سيقومُ بالبناءِ فسيطلبُ من الديرِ تسليم تلكَ الأراضي إلى البنَّائين الجدد. بالطبعِ سيُقاتلُ الرهبانُ من أجلِ هذا، ولكن قرار الملكِ سيحسمُ المسألةَ».

بدأت الصورةُ تتضحُ الآن في ذهنِ وليم. بهذهِ الخدعةِ لن يتمكن ويلارن من التحكمِ بالكاتدرائيةِ فحسب بل سيضع يدهُ على معظمِ ثروةِ الديرِ.

كان بيرسي يفكرُ بالأمر عينهِ. «إنَّها خطةٌ عظيمةٌ أيُّها الأسقف ولكن ما الذي سأكسبه أنا؟»

وجاءَ الجوابُ من ريغان التي قالت بعصبيةٍ: «ألا تفهم الأمرَ؟ لا تنس أنّك تملكُ شايرنغ، وبناءُ الكاتدرائيةِ الجديدةِ سيجعلُ أحوالها تزدهرُ. سيكون هناك مئاتُ الحرفيين، والعمال ممن سيقضون سنواتٍ كثيرة في بناءِ الكنيسةِ، وسيضطرون إلى استئجارِ بيوتٍ ليعيشوا فيها، وإلى شراءِ الطعامِ والكساءِ من سوقكَ، وهناك أيضاً رجالُ الدينِ الذين سيديرون الكاتدرائيةَ، والمُصلون الذين سيزورن شايرنغ بدلاً من كينغزبريدج في عيد الفصحِ وعيدِ العنصرةِ من أجلِ الصلواتِ، والحجاج الذين سيأتون من أجلِ الأضرحةِ.... وجميعهم سينفقون المال». كانت عيناها تشعان جشعاً، ولا يتذكر وليم أنَّه رآها بهذه الحماسة منذُ وقتٍ طويلٍ. «إن أحسنا التصرَّفَ سنتمكن من تحويلِ شايرنغ إلى إحدى أهمِّ المدنِ في المملكةِ!»

«وستكون لي عندما يموت أبي وأصبح الإيرل»، قال وليم في نفسهِ.

«حسناً»، قال بيرسي. «سأدمرُ فيليب وسأجعلكَ قوياً أيُّها الأسقف وهذا سيجعلني ثرياً. كيفَ يمكننا تحقيق هذا؟»

«نظرياً، قرار نقلِ موقعِ الكاتدرائيةِ بيد كبيرِ أساقفةِ كانتربري».

ونظرت إليه ريغان بحدةٍ ثمَّ قالت: «لماذا «نظرياً»؟»

«لأنَّه لا يوجد كبيرُ أساقفةِ الآن. توفي وليم كوربيل في عيدِ الميلادِ، والملك ستيفن لم يُسمِ خليفةً له بعد. على أيِّ حالٍ نعلم من سيحصلُ على المنصبِ، إنَّه صديقنا القديم أسقفُ وينشستر هنري. يريدُ هنري هذا المنصب، والبابا وشقيقةُ الملك منحاه إياه مؤقتاً».

«هل هنري صديق؟» قال بيرسي. «فهو لم يخدمني كثيراً عندما حاولنا الحصول على لقبِ الإيرل».

هزَّ ويلارن كتفيهِ وقال: «سيساعدني قدر الإمكان، ولكن يجب أن نقنعهُ بقضيتنا».

قالت ريغان: «إن كان يطمحُ للحصولِ على منصبِ رئيسِ الأساقفةِ فلن يرغب بأعداءٍ أقوياءٍ».

«صحيح، ولكن فيليب ليسَ قوياً إلى هذهِ الدرجةِ، وعلى الأغلبِ لن يُطلب رأيهُ في اختيارِ رئيسِ الأساقفةِ».

«إذاً، لمَ لا يعطينا هنري ما نريدهُ بكلِّ بساطةٍ؟» سألَ وليم.

«لأنَّه ليسَ رئيسَ الأساقفةِ بعد، وهو يعلمُ أنَّ الناس سيراقبونه خلالَ الفترةِ الانتقاليةِ؛ ولذلك يريدهم أن يعتقدوا أنَّه شخصٌ يتخد قرارتٍ عادلة، ولا يُحابي أصدقاءه. بعدَ الانتخاباتِ سيكون لديهِ ما يكفي من الوقتِ لفعلِ هذا».

وردَّت ريغان: «إذاً، أفضلُ ما يمكنكَ قولهُ هو الإصغاء بتعاطفٍ إلى قضيتنا، ولكن ما هي قضيتنا؟»

«لا يستطيع فيليب بناء الكاتدرائية ولكننا نستطيع».

«وكيفَ ستتمكن من إقناعهِ بهذا؟»

«هل زرتَ كينغزبريدج مؤخراً؟»

«لا».

«زرتها في عيدِ الفصحِ»، قال ويلارن. «لم يبدأوا بعد بأعمالِ البناءِ، وكلُّ ما لديهم الآن مجرَّد قطعة أرض محددة بأوتادٍ، وبضعةِ حبالٍ، وقد بدأوا بحفرِ الأساساتِ ولكنها ليست عميقةً كفايةً. هناك بنَّاء ومتدربُهُ يعملان مع نجارِ الديرِ، وبينَ الفينةِ والأخرى يقوم راهبٌ أو اثنانِ ببعضِ الأعمالِ. إنَّ المشهد غير مشجعٍ، وخاصةً بعدَ هطولِ المطرِ، ولذلكَ أرغبُ للأسقفِ هنري أن يراه».

أومأت ريغان متفهمةً، ورأى وليم أنَّ الخطةَ جيدةٌ رغمَ كرههِ لفكرةِ التعاونِ مع ويلارن بيغاد.

وتابع ويلارن كلامه: «سنضعُ هنري مسبقاً في صورةِ ضآلةِ، ووضاعة كينغزبريدج، وفقرِ الديرِ، ثمَّ سنريهِ الموقع، وكيفَ أنَّ حفرَ أساساتٍ غير عميقةٍ تطلَّبَ عاماً كاملاً، ثمَّ سنأخذهُ إلى شايرنغ، ونبهره بالسرعةِ التي سنبني فيها الكاتدرائية بتكاتفِ جهودِ الأسقفِ والإيرل وسكانِ البلدةِ».

«هل سيأتي هنري؟» سألت ريغان بقلقٍ.

«كل ما يمكننا فعلهُ هو الطلبُ منه»، أجابَ ويلارن. «سأدعوه أحدَ عيدِ العنصرةِ بوصفهِ رئيسَ الأساقفةِ المؤقت، وسأتودد إليهِ من خلالِ الإيحاءِ له أننا نعتبرهُ رئيسَ الأساقفةِ الرسمي».

قال بيرسي: «يجب أن نُبقي الأمرَ سِراً عن رئيسِ الديرِ فيليب».

«لا أعتقد أنَّ هذا ممكنٌ»، قال ويلارن. «فلا يمكن للأسقفِ أن يقومَ بزيارةٍ مفاجئةٍ إلى كينغزبريدج. سيكون الأمرُ غريباً جداً».

«ولكن إن علمَ فيليب أنَّ الأسقفَ هنري قادمٌ فقد يبذلُ جهداً كبيراً في دفعِ أعمالِ البناءِ».

«وكيفَ له أن يفعلَ هذا؟ إنَّه لا يملكُ مالاً، خاصةً بعدَ أن استعانَ بعمَّالكَ. لا يمكن لعمالِ قطعِ الحجارةِ بناء الجدرانِ». هزَّ ويلارن رأسهُ يمنةً ويسرةً بابتسامةِ رضا وأضاف: «في الحقيقةِ لا يمكنهُ فعلُ شيءٍ سوى الأملِ بألَّا تشرق الشمسُ أحدَ عيدِ العنصرةِ».

***

في البدايةِ سُرَّ فيليب عندما سمعَ بخبرِ زيارةِ أسقفِ وينشستر إلى كينغزبريدج، فهذا بالطبعِ يعني أنَّ الصلواتِ ستقامُ في الهواءِ الطلقِ في الكاتدرائيةِ القديمةِ. في حالِ هطول المطر سيبني نجار الديرِ سقيفةً مؤقتةً فوقَ المذبحِ، والمنطقةِ المحيطةِ بها لحمايةِ الأسقفِ من البللِ، ولكن المصلون سيتبللون. كانت زيارةُ الأسقفِ تأكيداً على أنَّه ما زال يعتبرُ كينغزبريدج كاتدرائية وأنَّ افتقارها إلى كنيسةٍ أمرٌ مؤقتٌ.

ولكنه أيضاً تساءل عن دافعِ هنري. عادةً ما يزور الأسقفُ الأديرة

للحصولِ على طعامٍ، وشرابٍ، ومسكنٍ مجاني له ولحاشيتِهِ، ولكن شهرةَ ديرِ كينغزبريدج، إنْ لم نقل عنها مشينةً، فهي أنّه ديرٌ بسيطٌ ومتقشفٌ في الطعامِ والخدماتِ، وأنَّ إصلاحاتِ فيليب قد رفعتهُ من مرتبةِ المريعِ إلى مرتبةِ مقبول بصعوبةٍ. يُعدُّ هنري أثرى رجالِ الدينِ في المملكةِ، ولذلكَ لم يكن قادماً إلى كينغزبريدج من أجلِ الطعامِ والشرابِ، وفوُجئ فيليب بقدومه لكونهِ رجلاً لا يفعلُ شيئاً من دونِ سببٍ.

وكلما فكرَ فيليب في الأمرِ أكثرَ زادت ريبته من أن يكون للأسقفِ ويلارن يدٌ في الأمرِ. توقع فيليب قدومَ ويلارن إلى كينغزبريدج بعدَ يومٍ أو يومين من وصولِ الرسالةِ من أجلِ مناقشةِ ترتيباتِ الصلاةِ، والاستقبالِ، والحرصِ على أن يكون هنري مسروراً ومبهوراً بكينغزبريدج، ولكن الأيامَ مرَّت، ولم يأتِ ويلارن، وبدأت مخاوف فيليب تزداد.

على أيِّ حالٍ، وحتّى في عزِّ شكوكهِ، لم يفكر فيليب أبداً في أنه قد يتعرَّضُ للخيانةِ كما كشفت له الرسالة التي وصلته قبلَ عشرةِ أيامٍ من عيدِ العنصرةِ من رئيسِ ديرِ كانتربري. كانت كانتربري كاتدرائيةً ككينغزبريدج، ويديرها رهبان بينديكتيون، وعادةً ما يساعدُ الرهبان بعضهم. بالشكلِ الطبيعي يعمل رئيسُ ديرِ كانتربري مع رئيسِ الأساقفةِ الفعلي، وفي الرسالةِ أطلعَ رئيسُ دير كانتربري فيليب على سببِ دعوةِ ويلارن لهنري إلى كينغزبريدج، وأنّه يأملُ بإقناعهِ في نقلِ موقعِ الكاتدرائيةِ إلى شايرنغ.

صُدمَ فيليب عندما علمَ بهذا، وشعرَ بقلبِهِ يخفقُ بقوةٍ، وارتعشت يدهُ التي حملَ بها الرسالة. كانت حركةً شيطانيةً من قبلِ ويلارن، ولم يتوقعها فيليب فحسب، بل لم يتخيل أن يقومَ ويلارن بمثلِ هذهِ الحركةِ.

ولكن أكثر ما صدمهُ هو قصرُ نظرهِ. يعلمُ جيداً أنَّ ويلارن مخادعٌ، وغدَّارٌ؛ فقد حاولَ خداعهُ منذُ عامٍ في مسألةِ شايرنغ، ولن ينسى أبداً غضب ويلارن الشديد عندما اكتشفَ فيليب أمره، وتذكرَ وجهَ ويلارن وكيفَ امتقعَ غضباً وهو يقول: «أقسمُ بكلِّ ما هو مقدسٌ أنّكَ لن تبني كنيستكَ». ولكن مع مرورِ الوقتِ تناسى فيليب هذا القسم، وتراخت دفاعاته، وها هي الرسالة الآن تذكرهُ أن ذاكرةَ ويلارن طويلة الأمدِ.

«يقولُ الأسقفُ ويلارن إنّكَ لا تملكُ المالَ، وإنّك خلالَ العامِ الماضي

لم تبنِ شيئاً»، كتبَ رئيسُ ديرِ كانتربري. «ويقول إنَّ الأسقفَ هنري سيرى بنفسهِ أنَّ الكاتدرائية لن تُبنى أبداً إن تُركَ الأمرُ لديرِ كينغزبريدج، وهو يجادل أنَّ الوقتَ الآن مناسبٌ لنقلِ الموقعِ إلى مكانٍ آخر قبلَ أيِّ تقدمٍ حقيقي في أعمالِ البناءِ».

كان ويلارن ماكراً جداً على أن يمسكهُ أحدٌ في كذبةٍ صريحةٍ، ولكنهُ بالغ في وصفِ الوضعِ. في الحقيقةِ لقد حققَ فيليب تقدماً كبيراً في أعمالِ البناءِ فقد انتهى من تنظيفِ البقايا، وأعطى موافقتهُ على الخططِ، وبدأوا العملَ على الطرفِ الشرقي، وعلى حفرِ الأساساتِ، وعلى تجهيزِ جذوعِ الأشجارِ والحجارةِ من المقلعِ، ولكن لم يكن هناك الكثير مما قد يعرضونهُ على الزائرِ. كان قد تحدى عقباتٍ كثيرةً ليحققَ كلَّ هذا التقدمِ بدءاً بإصلاحِ مواردِ الديرِ، والفوزِ بعطيةٍ كبيرةٍ من الأراضي من الملكِ، وهزيمةِ الإيرلِ بيرسي في المقلعِ. لم يكن هذا عدلاً!

توجهَ فيليب إلى النافذةِ المُطلَّةِ على الموقعِ، ورسالة رئيسِ ديرِ كانتربري في يدهِ. كانت الأمطارُ الربيعيةُ قد حولت كلَّ شيءٍ إلى بحرٍ من الوحلِ. شاهدَ راهبين بالقلنسوةِ على رأسيهما يحملان الخشبَ من ضفةِ النهرِ. كان البنَّاءُ توم قد صنعَ أداةً غريبةً بحبلٍ وبكرةٍ لرفعِ براميلِ الترابِ من حُفرِ الأساساتِ، ورآه يعملُ على الآلةِ بينما ابنه آلفريد في الحفرةِ يملأ البراميل بالوحلِ الرطبِ. بدا كأنَّهما قد يعملان على هذه الوتيرةِ إلى الأبدِ، ومن دونِ أن يحققا أيَّ تقدمٍ. أيُّ شخصٍ غير خبيرٍ سينظرُ إلى هذا المشهدِ، ويستنتجُ أنَّ ما من كاتدرائيةٍ ستُبنى هنا في أيِّ وقتٍ قريبٍ.

غادرَ فيليب مكانهُ عندَ النافذةِ، وعادَ إلى طاولةِ الكتابةِ، وهو يفكرُ بما يجبُ عليهِ فعلهُ الآن. ولبرهةٍ شعرَ بإغراءِ عدمِ القيامِ بشيءٍ، وفكرَ في نفسهِ: «فليأتِ الأسقف هنري ويرى وليأخذ قرارهُ. إن أرادَ بناءَ الكاتدرائيةِ في شايرنغ فليكن، وإن أرادَ ويلارن وضعَ يدهِ عليها، واستخدامها من أجلِ مصالحهِ فليكن، ولتجلبَ على شايرنغ، وعلى سلالةِ هاملي الشريرة الازدهارَ. ستكون هذهِ إرادةَ الرَّبِّ.

بالطبعِ علمَ أنَّ مثلَ هذا التفكير لن يُجدي نفعاً؛ فالإيمان بالرَّبِّ لا يعني الجلوس مكتوف اليدين، وعدم القيامِ بشيءٍ، بل الإيمان بتحقيقِ النجاحِ،

وبذلِ كلِّ الجهود اللازمة وبكلِّ أمانةٍ وهمَّةٍ. إنَّ واجبَ فيليب المقدس هو القيام بكلِّ ما بوسعهِ لمنعِ انتهاءِ الكاتدرائيةِ في أيدي أناسٍ جشعين، وبلا ضميرٍ سيستغلونها من أجلِ زيادةِ سلطتهم. وإن عنى هذا شيئاً فهو أنَّ على فيليبَ الإثبات للأسقفِ هنري أنَّ فيليب يسير بخطةِ البناءِ في كينغزبريدج كما يجب وبكلِّ همةٍ وتصميمٍ على إنهائهِ.

هل كان هذا صحيحاً؟ ولكن الحقيقةَ هي أنَّ فيليب وجدَ بناءَ الكاتدرائيةِ هنا أمراً صعباً، وكان على وشكِ التخلي عن المشروعِ بسببِ رفضِ الإيرلِ السماحَ له باستخدامِ المقلعِ، ولكنه علمَ أنَّه سينجح في نهايةِ المطافِ لأنَّ الرَّبَّ سيعينهُ على ذلكَ. على أيِّ حالٍ هذهِ القناعة لن تكون كافيةً لإقناعِ الأسقفِ هنري.

قررَ فيليب أن يبذلَ قصارى جهدهِ لجعلِ الموقع أكثر إبهاراً. سيطلبُ من جميعِ الرهبانِ العملَ خلالَ الأيام العشرة القادمةِ، وقبلَ حلولِ عيدِ العنصرةِ. قد ينتهون من حفرِ الأساساتِ، ويبدأ كلٌّ من توم وآلفريد برصفِ حجارتها، وبذلكَ سيكتملُ جزءٌ من الأساساتِ الأرضيةِ وبعدها سيبدأ توم ببناءِ جدارٍ. سيكون هذا أفضل ولكن ليسَ كثيراً. إنَّ فيليب بحاجةٍ إلى مئةِ عاملٍ، ولكنه لا يستطيع دفع المالِ حتَّى لعشرةِ منهم.

سيصلُ الأسقفُ هنري يومَ الأحدِ ولن يكون بوسعِ أحدٍ العملَ ما لم يطلبُ فيليب هذا من الرعيةِ، وهذا كفيلٌ بتأمينِ مئةِ عاملٍ. تخيلَ فيليب نفسهُ واقفاً أمامهم، وهو يعلنُ عن شكلٍ جديدٍ من مراسم الاحتفالِ بعيدِ العنصرةِ، وبدلاً من الترانيم والصلواتِ سيحفرون حفراً، ويحملون الحجارةَ. سيُذهلون، سيـ...

ما الذي سيفعلونه حقاً؟

على الأغلبِ سيتعاونون بكلِّ محبةٍ.

امتقعَ وجههُ. كانت فكرةً جنونيةً، وقد لا تنجح بكلِّ بساطةٍ.

أمعنَ في التفكيرِ بالأمرِ وقال لنفسهِ: «سأنهضُ عندَ نهايةِ الصلاةِ، وأقول لهم إنَّ كفارةَ الغفرانِ عن كلِّ خطاياهم هي نصفُ يومِ عملٍ في موقعِ بناءِ الكاتدرائيةِ، وأنَّهم سيحصلون على الخبزِ والجعةِ على الغداءِ.

وآنذاك سيقومون بالأمر من كلِّ بدٍ.

شعرَ فيليب بالحاجةِ إلى طرحِ الفكرةِ على أحدٍ آخر، وفكرَ بميليوس، ولكنَّ الأخيرَ يفكرُ بذات العقليةِ، ولهذا كانَ بحاجةٍ إلى شخصٍ له نظرةٌ مختلفةٌ قليلاً عن نظرتهِ، وقررَ استشارة أمين المؤنِ كوثبرت وايتهيد. ارتدى فيليب عباءتهُ، ووضعَ قلنسوتَه على رأسهِ لحمايتهِ من المطرِ ثمَّ خرجَ.

هرعَ عبرَ موقعِ البناءِ الموحلِ ملوحاً لتوم على عجلٍ، وتوجهَ إلى فناءِ المطبخِ. كان هذا النطاقُ الآن يتضمنُ قنَّ الدجاجِ، وزريبةَ الأبقارِ، ومصنعَ الألبانِ؛ لأنَّ فيليب لم يرغبِ بهدرِ الكثيرِ من المالِ على متطلباتٍ بسيطةٍ، كالبيضِ والزبدةِ، يمكنُ للرهبانِ أن يؤمنوها لأنفسهم.

دخلَ فيليب إلى مخزنِ المؤن وكان سرداباً تحتَ المطبخِ مباشرةً. تنشّقَ الهواءَ الجاف والعابق برائحةِ الأعشابِ والتوابلِ التي يُخزنها كوثبرت، ثمَّ وجدَه يُحصي الثومَ وهو ينظرُ إلى سويقاتِهِ، ويدمدمُ بالعددِ في صوتٍ خفيضٍ. صدُم فيليب قليلاً عندما لاحظَ أنَّ كوثبرت يطعنُ في السنِ، وأنَّ جسدهُ يبدو ذاوياً.

«سبعٌ وثلاثون»، قال كوثبرت بصوتٍ عالٍ. «هل ترغب بكأسٍ من النبيذِ؟»

«لا، شكراً لكَ». كانَ شربُ النبيذِ في النهارِ يصيبهُ بالكسلِ، ويجعلهُ سريعَ الغضبِ. لا شكَّ أنَّ هذا السببَ الذي دفعَ بالقديس بنيديكت إلى الإشارةِ على الرهبانِ بشربهِ في اعتدالٍ. «أتيتُ من أجلِ نصيحتكَ، وليسَ من أجلِ مؤونتكَ. تعال واجلس».

شقَّ كوثبرت طريقهُ بينَ الصناديق والبراميل، وتعثرَ فوقَ كيسٍ فكادَ يقع قبلَ أن يجلسَ على كرسي بثلاثِ قوائم أمامَ فيليب. لاحظَ فيليب في ذهولٍ أنَّ المخزنَ لم يكن مرتباً كما كان قبلاً. «هل تواجه مشكلة في النظرِ يا كوثبرت؟»

«لم يعد نظري قوياً كالسابقِ، ولكن لا بأس»، أجاب كوثبرت على عجلٍ.

لا بدَّ أنَّ نظرهُ كان ضعيفاً لسنواتٍ، وقد يكون هذا السبب في عدمِ اتقانهِ القراءةَ جيداً. على أيِّ حالٍ بدا كوثبرت حساساً جداً تجاه هذهِ المسألةِ، ولذلك لم يُضف فيليب شيئاً، ولكنه قالَ لنفسهِ إنَّه سيبدأ في البحثِ عن بديلٍ لكوثبرت.

«وصلتني رسالةٌ مزعجةٌ من رئيسِ دير كانتربري»، قال فيليب، وأطلعَ كوثبرت على خطةِ الأسقفِ ويلارن ثمَّ أنهى كلامهُ قائلاً: «الطريقةُ الوحيدةُ لجعلِ الموقعِ يبدو كخليةِ نحلٍ تعجُّ بالحركةِ هي بالطلبِ من الرعيةِ العملَ في الموقعِ. هل يمكنكَ التفكيرُ بسببٍ قد يمنعني من فعلِ هذا؟»

ومن دونِ تفكيرٍ سارعَ كوثبرت إلى القولِ: «على العكسِ إنَّها فكرةٌ جيدةٌ».

«إنَّ الأمرَ غريبٌ بعضَ الشيءِ، أليسَ كذلك؟» قال فيليب.

«ولكنه حدثَ قبلاً».

«حقاً؟» بدا فيليب متفاجئاً ومسروراً. «أين؟»

«سمعتُ بحدوثِهِ في أماكن كثيرة».

تحمس فيليب وسأل: «هل سينجح الأمرُ؟»

«نجح أحياناً. سيعتمدُ هذا على حالةِ الطقسِ».

«كيفَ سيتمُّ الأمرُ؟ هل يعلنُ الكاهنُ عنه في نهايةِ الصلاةِ أم ماذا؟»

«الأمرُ منظمٌ أكثر من ذلك. يُرسلُ الأسقفُ، أو رئيسُ الديرِ رُسلاً إلى كنائسِ الأبرشيةِ مُعلناً عن غفرانٍ عن الذنوبِ مقابلَ العملِ في موقعِ البناءِ».

«هذهِ فكرةٌ عظيمةٌ»، قال فيليب بحماسةٍ. «قد تُحفز هذهِ الفكرةُ الجديدة قدوم أناسٍ أكثر من المتوقع».

«أو أقل»، قال كوثبرت. «يُفضلُ بعضُ الناسِ تقديمَ المالِ إلى الكاهنِ، أو إشعالَ شمعةٍ لقديسٍ على قضاءِ اليومِ بأكملهِ يخوضون في الوحلِ، ويحملون الحجارةَ الثقيلةَ».

«لم أفكر بهذا قط»، قال فيليب، وشعرَ بالخيبةِ على حينِ غرَّةٍ. «قد لا تكون فكرةً جيدةً في نهايةِ المطافِ».

«ما هي الأفكارُ الأخرى التي لديكَ».

«ليست لدي أفكارٌ أخرى».

«إذاً، يجبُ عليكَ أن تجرّبَ هذهِ الفكرةَ وتتمنى النجاح، أليسَ كذلكَ؟»

«أجل»، قال فيليب وأردف: «أن أتمنى النجاح».

- 3 -

لم يغمض جفنٌ لفيليب طوالَ الليلةِ السابقةِ لأحدِ عيدِ العنصرةِ.

كان الجو رائقاً، والشمسُ مشرقةً طوالَ الأسبوعِ، وهذا يعني أنَّ مزيداً من الناس سيتطوعون للعملِ، ولكن مع غروبِ شمسِ يومِ السبتِ بدأت تمطرُ مجدداً. بقي صاحياً يُصغي بحزنٍ إلى وقعِ قطراتِ المطرِ على السقفِ، وصوت الأشجارِ في مهبِّ الريحِ. شعرَ أنَّه اكتفى من الصلاةِ؛ فقد بات الرَّبُّ الآن على معرفةٍ جيدةٍ بظروفهِ.

في الأحدِ السابقِ زار كلُّ راهبٍ في الديرِ كنيسةً، أو أكثر للتحدثِ إلى الرعيةِ، وإخبارهم أنَّهم يستطيعون الحصولَ على المغفرةِ على خطاياهم إن عملوا في موقعِ بناءِ الكاتدرائيةِ أيامَ الآحادِ، وأنَّهم في أحدِ عيدِ العنصرةِ سيحصلون على الغفران على خطايا العام الماضي، ولذلكَ كان العملُ ليومٍ واحدٍ لقاءَ أسبوعٍ من الخطايا، باستثناءِ خطيئةِ القتلِ وتدنيس المقدساتِ، يستحقُ كل الجهدِ. كان فيليب بنفسهِ قد ذهبَ إلى شايرنغ، وتحدَّثَ في كنائس الأبرشيةِ الأربعِ، وأرسلَ راهبين إلى وينشستر لزيارةِ أكبرِ عددٍ من الكنائسِ الصغيرةِ المنتشرةِ في المدينةِ. تبعدُ وينشستر عن كينغزبريدج رحلةَ يومين، والناس يقومون بهذهِ الرحلةِ من أجلِ سوقٍ كبيرٍ، أو مراسم دينيةٍ بارزة. في النهايةِ وصلت الدعوةُ إلى الآلاف من الناسِ، ولكن لم يكن بالإمكان تقديرُ عدد المتطوعين.

أمَّا بالنسبةِ لبقيةِ الوقتِ فقد قضوه بالعملِ في الموقعِ، وقد ساعدهم الصحو وطول النهارِ مع بدايةِ دخولِ فصلِ الصيفِ. انتهوا من أساساتِ الجدارِ الشرقي لمذبحِ الكنيسةِ، ووصلوا بأساساتِ الجدارِ الشمالي إلى عمقٍ كاملٍ، وباتوا جاهزين لرصفِ حجارةِ الأساسِ، وبنى توم ما يكفي من آلياتِ الرفعِ لإبقاءِ جموعِ الناسِ، في حال أتى الكثيرون، مشغولين بحفرِ بقيةِ الحفرةِ الواسعةِ. علاوةً على هذا كانت ضفةُ النهرِ مكتظةً بأكداسِ الخشبِ التي أرسلها خبراءُ الخشبِ عبرَ النهر، وبأكوامِ الحجارةِ من المقلعِ التي يجبُ نقلها من أسفلِ المنحدرِ إلى الأعلى حيثُ موقعُ بناءِ الكاتدرائيةِ. كان هناك عملٌ كافٍ للمئاتِ.

ولكن هل سيأتي أحدٌ؟

في منتصفِ الليلِ نهضَ فيليب، وسارَ تحتَ المطرِ باتجاهِ السردابِ من أجلِ صلاةِ منتصفِ الليلِ. عندما أنهى الصلاة، وعادَ إلى منزلِهِ كان المطرُ قد توقف. لم يخلد إلى النومِ بل جلسَ يقرأ. في هذهِ الأيام باتت الفترةُ الوحيدة المتاحة له للدراسةِ والتأملِ هي بينَ صلاةِ منتصفِ الليلِ والفجرِ لأنَّه كان يقضي النهارَ بأكملِهِ في تسيير أمورِ الديرِ.

على أيِّ حالٍ وجدَ الليلةَ صعوبةً في التركيز، وصرفِ ذهنهِ عن التفكيرِ بالغدِ، وبفرصِ نجاحهِ وفشلِهِ. في الغدِ قد يخسرُ كلَّ شيءٍ عملَ من أجلهِ طوال العامين الماضيين، وخطرَ له، ربما لأنَّه يشعرُ أنَّ كلَّ شيءٍ قضاءٌ وقدرٌ، أنَّه لا يجبُ أن يرغب بالنجاحِ من أجلِ النجاحِ، وتساءل في نفسهِ إن كان غرورهُ على المحكِّ هنا. كانت خطيئةُ الغرورِ أكثرَ الخطايا التي يجدُ فيليب نفسهُ ضعيفاً أمامها، ولكنه فكَّرَ بكلِّ الناسِ ممن يعتمدون عليهِ للدعمِ والحمايةِ والعملِ: الرهبان، وخدم الديرِ، وعمال المقلعِ، وتوم، وآلفريد، وسكان قريةِ كينغزبريدج والمُؤمنين في كافةِ المقاطعةِ. لن يهتمَّ بهم ويلارن كما يفعلُ فيليب؛ فهو يعتقدُ أنَّه يملك الحق باستخدامِ الناسِ بالطريقةِ التي يختارها، وبحجةِ أنَّ هذا من أجلِ خدمةِ الرَّبِّ، أمَّا فيليب فقد كان مؤمناً أنَّ خدمةَ الرَّبِّ تتحقق من خلالِ العنايةِ بالناسِ، وأنَّ هذا جوهرُ الخلاصِ. لا، لن تكون إرادةُ الرَّبِّ أن يفوز ويلارن بهذهِ المعركةِ. اعترفَ فيليب في نفسهِ أنَّ غرورهُ قد يكون على المحكِّ قليلاً ولكن أيضاً هناكَ أرواحُ آخرين.

وأخيراً انبلجَ الفجرُ– وتوجهَ فيليب مجدداً إلى السردابِ من أجلِ صلاةِ الفجرِ. كان الرهبانُ متوترين ومتحمسين؛ فهم يعلمون أنَّ الـ. مَ يومٌ حاسمٌ، وسيحددُ مستقبلهم. أدَّى أمين الذخائرِ المقدسةِ الصلو على عجلٍ، وسامحهُ فيليب على هذا.

عندما غادروا السردابِ، وتوجهوا إلى قاعةِ الطعام لتناولِ الفطورِ كانَ نورُ الصباحِ قوياً، والسماءُ زرقاء وصافية. يبدو أنَّ الرَّبَّ حققَ لهم ما صلَّوا من أجلِهِ، وأرسلَ لهم يوماً مشمساً. كانت هذهِ بدايةً مُبشرةً بالخيرِ.

***

علمَ البنَّاء توم أنَّ مستقبلهُ على المحكِّ اليوم.

كان فيليب قد عرضَ رسالةَ رئيسِ دير كانتربري عليهِ، وكان توم واثقاً من

أنَّ ويلارن سيستعين ببنَّائِهِ الخاص إن انتقلَ موقعُ الكاتدرائيةِ إلى شايرنغ، ولن يوافقَ على التصميمِ الذي وافقَ عليهِ فيليب؛ فهو لن يُخاطر بالاستعانةِ بأحدٍ موالٍ لفيليب. بالنسبةِ إلى توم كان الأمرُ إمَّا كينغزبريدج أو لا شيء، وهذه فرصتهُ الوحيدة لبناءِ كاتدرائيةٍ، واليوم هذهِ الفرصةُ عرضةٌ للخطرِ.

دُعي توم لحضورِ اجتماعِ الرهبانِ في الصباحِ، وهذا يحدثُ بين الفينةِ والأخرى، وعادةً ما يكون من أجلِ مناقشةِ برنامجِ بناءِ الكاتدرائية، أو طلباً لرأيِهِ كخبيرٍ في مسائلِ التصميمِ، والكلفةِ، وجدولِ العملِ. دعوه اليوم من أجلِ ترتيباتِ عملِ المتطوعين، هذا إن أتى أحدٌ منهم. أرادَ توم أنَّ يصلَ الأسقف هنري، ويرى الموقع يعجُّ بالحركةِ.

جلسَ توم بصبرٍ إلى أن فرغَ الرهبان من القراءةِ، والصلاةِ دونَ أن يفهم كلمةً واحدةً من الكلمات اللاتينيةِ التي قيلت، وقضى الوقتَ بأكملهِ يفكرُ بخططِهِ لهذا اليومِ، ثمَّ انتقلَ فيليب للكلامِ بالإنكليزيةِ، واستدعاه لتلخيصِ خطةِ العملِ اليوم.

«سأعملُ على بناءِ الجدارِ الشرقي للكاتدرائيةِ، وسيرصفُ آلفريد حجارةَ الأساساتِ»، بدأ توم كلامهُ. «والهدفُ من هذا الاثباتُ للأسقفِ هنري أننا تقدمنا في أعمالِ البناءِ».

«ما عددُ الرجال الذين تحتاجهم لمساعدتكَ؟» سألَ فيليب.

«سيحتاجُ آلفريد إلى عاملين لجلبِ الحجارة إليهِ. سيستخدمُ البقايا من الكنيسةِ القديمةِ، وسيحتاج إلى من يساعدهُ في خلطِ الملاطِ. سأحتاجُ أنا أيضاً إلى عاملٍ لخلطِ الملاطِ، وإلى عاملين آخرين. يُمكن لآلفريد استخدامُ الحجارةِ المكسورةِ في رصفِ الأساساتِ، ولكن يجب أن تكون مستوية في الأعلى والأسفل. أمَّا الحجارةُ التي سأستخدمها فيجب أن تكون كاملةً؛ لأنها فوقَ مستوى الأرضِ، وقد أحضرتُ من المقلعِ عاملين من عمالِ القطعِ لمساعدتي».

قال فيليب: «كلُّ هذا مهمٌ من أجلِ إبهارِ الأسقفِ هنري، ولكن معظمَ المتطوعين سيعملون في حفرِ الأساساتِ».

«هذا صحيحٌ. انتهيت من وضعِ حدودِ أساساتِ مذبحِ الكنيسةِ، ومعظمها قد حُفرت على عمقٍ بضعةِ أقدامٍ. سيعملُ الرهبانُ على آلةِ الرفعِ، وعلَّمت

العديدَ منكم كيفيةَ العملِ عليها، أمَّا المتطوعون فسيقومون بملء البراميلِ بالترابِ».

وقال ريميجوس: «ماذا لو أتانا متطوعون أكثر مما نحتاج؟»

«لدينا عملٌ كافٍ لأيِّ عددٍ من المتطوعين»، أجاب توم وتابع: «إن لم يكن لدينا ما يكفي من أدواتِ رفعِ الترابِ يمكن للناسِ رفعُ الترابِ من الحفرِ بالدلاءِ أو السلالِ. ويجب أن يكون النَّجّارُ على جهوزيةٍ تامةٍ من أجلِ صنعِ سلالم إضافيةٍ، ولدينا ما يكفي من الخشبِ».

«ولكن منطقة الأساسات لا تستوعب سوى عددٍ محددٍ من الناسِ»، أصرَّ ريميجوس.

شعرَ توم أنَّ ريميجوس من النوعِ الذي يحبُّ المجادلةَ ولذلكَ أجابه بنزقٍ: «الحفرُ كبيرةٌ، وتستوعب المئات».

وهنا قال فيليب: «هناك أعمالٌ أخرى يمكنُ القيامُ بها غير أعمال الحفرِ».

«تماماً»، قال توم. «إنَّ موقعَ العمل الرئيسي الثاني ضفةُ النهرِ حيثُ تُنقل الأخشابُ والحجارةُ من هناكَ إلى موقعِ البناءِ. عليكم أنتم الرهبان أن تحرصوا على تكديسها في الأماكن المناسبةِ في الموقعِ. يجبُ أن تكون الحجارةُ بجانبِ حفرِ الأساساتِ، ولكن على أطرافِ الكنيسةِ حتَّى لا تعيق أحداً، وسيخبركم النجار أين تضعونَ الأخشابَ».

قال فيليب: «هل سيكون جميعُ المتطوعين غير حرفيين؟»

«ليسَ بالضرورةِ. إن جاءنا أناسٌ من البلداتِ فآملُ أن يكون بعضهم من الحرفيين. يجبُ أن نستفسرَ منهم عن حرفهم حتَّى نستفيد منهم. يُمكن للنجارين بناءُ الأكواخِ من أجلِ العملِ خلالَ الشتاءِ، ويستطيع أيُّ بنَّاءٍ تقطيعَ الحجارةِ، ورصفَ الأساساتِ. إن أتانا حدادٌ فنستعين بهِ للعملِ في دكانِ حدادِ القريةِ. ستكون كلُّ هذهِ الحِرفِ مفيدةً جداً».

وقال أمينُ الصندوقِ ميليوس: «بعد أن اتضحَ كل شيءٍ فلنبدأ بالعملِ؛ فقد وصلَ بعضُ سكانِ القريةِ وهم بانتظارِ التعليماتِ».

أرادَ توم أن يضيفَ أمراً آخر مهماً وحساساً، ولكنه كان يبحثُ عن الكلماتِ المناسبةِ. يُمكن للرهبانِ أن يتصرفوا بتعالٍ، ويُشعروا المتطوعين

بالدونيةِ، وأرادَ توم للأمور اليومَ أن تسير بكلِّ سهولةٍ وجذلٍ. «عملتُ مع متطوعين من قبلٍ»، بدأ توم كلامهُ. «ولذلكَ من المهمِ ألا... ألا يُعاملوا كأنَّهم خدمٌ. ورغمَ شعورنا أنَّهم يعملون مقابلَ مكسبٍ في الآخرةِ، ولذلك يجب أن يعملوا بجدٍ أكبر مما لو أنهم يعملون مقابلَ المالِ، ولكن لا يجبُ أن نعاملهم من هذا المنطلقِ. إن اعتقدوا أنَّهم يعملون مجاناً، وأنَّهم يؤدون خدمةً طيبةً لنا، ونحن غير ممتنين لهم فقد يعملون ببطءٍ، أو قد يرتكبون الأخطاء، ولذلكَ أرى أنَّه من الأفضلِ أن نعاملهم بشيءٍ من الرِّقةِ».

التقت عينا توم بعيني فيليب، ورأى توم أنَّ رئيسَ الديرِ يكبحُ ابتسامة كأنَّه فهمَ الإيحاءَ من كلماتِ توم المعسولة. «هذهِ نقطةٌ جيدةٌ»، قال فيليب. «إن أحسنا التعاملَ معهم سيشعرُ أولئكَ الناسُ بالسعادةِ، وسترتفعُ معنوياتهم، وسيخلقُ هذا جو عملٍ جيداً، وسيتركُ انطباعاً إيجابياً لدى الأسقفِ هنري»، ثمَّ نظرَ فيليب حولهِ إلى الرهبانِ وتابعَ: «إن لم يكن هناكَ المزيدُ من الاستفسارات فلنبدأ العمل».



تمتعت آليانا بعامٍ كاملٍ من الأمان والازدهارِ تحتَ جناحِ رئيسِ الديرِ فيليب.

نجحت جميعُ خططها. طافت مع ريتشارد أنحاءَ الريفِ، واشترت الصوفَ من الفلاحين طوالَ الربيعِ والصيفِ الماضي، وباعتهُ إلى فيليب في كلِّ مرَّةٍ أصبحَ لديها كيسٌ كبيرٌ من الصوفِ، ومع نهايةِ موسمِ الصوفِ جمعا خمسَة جنيهاتٍ.

توفي والدها بعدَ بضعةِ أيام على زيارتهما له في السجنِ، ورغمَ أنَّ آليانا لم تعرفِ بالأمرِ إلَّا بعدَ عيدِ الميلادِ فإنّها عثرت على قبرهِ بعدَ أن دفعت رشوةً كبيرةً من المالِ الذي كسبتهُ بكثيرٍ من الكدِّ والتعبِ. كان مدفوناً في مقبرةِ الفقراءِ في وينشستر. بكت كثيراً، ولكن ليسَ على الحياةِ التي عاشاها معاً في أمانٍ ورخاءٍ فقط، بل على الحياةِ التي لن يتمكنا من مشاركتها بعدَ الآن، أيضاً. شعرت أنَّها ودعتهُ قبلَ وفاتهِ عندما غادرت السجنَ. عرفت آنذاك أنَّها لن تراه مجدداً. سيبقى حاضراً في حياتها بطريقةٍ ما فهي لا تزال مُلزمة بالوعدِ الذي أجبرها عليهِ، وكانت مصممة على قضاءِ حياتها في إيفائه.

خلالَ الشتاءِ عاشت مع ريتشارد في منزلٍ صغيرٍ عندَ جدارِ ديرِ كينغزبريدج. كانا قد صنعا عربةً بعدَ أن اشتريا العجلاتِ من صانعِ العرباتِ في كينغزبريدج، وفي الربيعِ اشتريا ثوراً لجرِّ العربةِ. كان موسمُ الصوفِ في عزِّهِ الآن، وقد جنيا ما يفوقُ قيمةَ الثورِ، والعربةِ الجديدةِ. في العامِ القادمِ ستستعينُ برجلٍ لمساعدتها، وستدبر أمرَ عملِ ريتشارد كخادمٍ في منزلِ نبيلٍ عادي حتَّى يبدأَ تدريبهُ كفارسٍ.

ولكن هذا كلَّه يعتمد على رئيسِ الديرِ فيليب.

كفتاةٍ في الثامنة عشرة من العمرِ، وتعمل وحدها ما تزال آليانا عرضةً للخداعِ من قبلِ اللصوصِ، والعديد من التجارِ الشرعيين. حاولت بيعَ كيسٍ من الصوفِ إلى تجارٍ في شايرنغ وغلوستر لترى ما سيحدث، وفي كلِّ مرَّةٍ عرضوا عليها نصفَ السعرِ. عادةً لا يوجد أكثر من تاجرِ صوفٍ واحدٍ في كلِّ بلدةٍ، ولأنهم علموا أنَّها لا تملك خياراً آخر حاولوا استغلالها. كانت تخططُ لبناءِ مخزنٍ للصوفِ ثمَّ بيعهُ بشكلٍ مباشرٍ إلى المُشترين الفلمنكيين، ولكن هذا لن يحدث قبلَ وقتٍ طويلٍ، وحتَّى ذلكَ الوقتِ ستبقى معتمدةً على فيليب.

ولكن وضع فيليب أصبح غير مستقر على حينِ غرَّةٍ.

كانت آليانا على الدوامِ حذرةً من مخاطرِ الخارجين عن القانون واللصوصِ، ولذلك وبعدَ أنَ سارت أمورها بسلاسةٍ، وبات لديها مصدرُ رزقٍ، صُدمت صدمةً كبيرةً أمامَ احتمالِ تعرّضِ كل هذا إلى تهديدٍ غير متوقعٍ.

لم يرغب ريتشارد بالعملِ في موقعِ بناءِ الكاتدرائيةِ أحدَ عيدِ العنصرةِ. كان شخصاً جاحداً، ولكن آليانا أجبرتهُ على الذهابِ، وتوجها عندَ شروقِ الشمسِ إلى ساحةِ الديرِ. كانت القريةُ بأكملها تقريباً هناك. أتى ما بين الثلاثين والأربعين رجلاً، ورافقَ بعضهم زوجاتهم وأطفالهم. تفاجأت آليانا بقدومِ الناسِ، ولكنها أدركت بعدَ ذلكَ أنَّ رئيسَ الديرِ فيليب سيدهم، ولذلكَ لم يكن من الحكمةِ رفضُ دعوةِ السيدِ للتطوعِ. كانت آليانا ومنذُ العامِ الماضي قد بدأت تنظرُ إلى حياةِ الناسِ العاديين من منظورٍ جديد ومدهشٍ.

كان البنَّاءُ توم يوزع على سكانِ القريةِ مهامهم، وتوجه ريتشارد على الفورِ للتحدثِ إلى ابن توم آلفريد. كانا في العمر ذاتهِ تقريباً فريتشارد في

الخامسة عشرة وآلفريد في السادسة عشرة، وهما يلعبان كرةَ القدمِ مع بقيةِ فتيةِ القريةِ كلَّ أحدٍ. كانت الفتاةُ الصغيرةُ مارثا حاضرةً أيضاً، ولكنْ لم يكن هناك أثرٌ لتلكَ المرأة المدعوة إيلين، أو لابنها ذي المظهرِ الغريبِ والشعرِ الأصهبِ، وما من أحدٍ يعرف أين اختفيا. تذكرت آليانا لقاءها بعائلةِ توم في قلعةِ الإيرل. كانوا فقراء جداً آنذاك، وقد أنقذهم فيليب تماماً كما أنقذَ آليانا.

أُعطي كل من آليانا وريتشارد معولاً، وطُلبَ منهما حفرُ الأساساتِ. كانت الأرضُ رطبةً، غيرَ أنَّ الشمسَ المشرقةَ جعلت سطحَ الأرضِ جافاً. بدأت آليانا بالحفرِ بهمَّةٍ، وعلى الرغمِ من أن ما يقارب الخمسين شخصاً بدأوا الحفرَ فإنهم أخذوا وقتاً طويلاً ليصلوا إلى عمقٍ ملحوظٍ. كان ريتشارد يأخذُ استراحاتٍ متكررةٍ على معولِهِ، وفي إحدى المرَّات قالت له آليانا: «إن أردتَ أن تصبحَ فارساً فعليكَ أن تحفرَ!» ولكن كلامها ذهبَ أدراجَ الرياحِ.

كانت أكثرَ نحولاً وقوةً مما كانت عليهِ العامَ السابقَ، والفضلُ في هذا يعودُ إلى التجوالِ على الطرقاتِ، ورفعِ أحمالٍ ثقيلةٍ من الصوفِ الخامِ. آلمَ الحفرُ ظهرها، ولذلكَ شعرت بالامتنانِ الشديدِ عندما قرعَ رئيسُ الديرِ فيليب الجرسَ إيذاناً بموعدِ الاستراحةِ. قدَّمَ لهم الرهبان خُبزاً طازجاً من المطبخِ وجعةً مخففةً. كانت الشمسُ تزدادُ حدَّةً، وبدأ بعضُ الرجالِ بالتعري حتَّى الخصرِ.

خلالَ الاستراحةِ عبرت مجموعةٌ من الغرباءِ بوابةَ الديرِ. نظرت آليانا بابتهاجٍ. كان عددهم قليلاً، ولكنهم قد يكونون طليعةَ حشدٍ أكبر. تقدَّمَ الزوارُ إلى الطاولةِ حيثُ قُدّمَ الخبزُ والجعةُ، ورحَّبَ بهم رئيسُ الديرِ فيليب.

«من أينَ أنتم؟» سأل فيليب بينما تجرَّعَ الزوار الجعةَ من الأكوابِ في امتنانٍ.

«من هورستيد»، أجابه أحدهم وهو يمسحُ فمهُ بكُمهِ. كان هذا خبراً واعداً؛ لأنَّ تعداد قريةِ هورستيد يتراوح بين المئتين والثلاثمئةِ، وهي لا تبعدُ عن كينغزبريدج كثيراً. هذا يعني أنَّ هناك أملاً في أن يصلَ مئةٌ آخرون من سكان القريةِ.

«ما عدد القادمين؟» سألَ فيليب.

بدا الرجلُ متفاجئاً بالسؤال وأجابَ: «نحنُ الأربعة فقط».

خلالَ الساعةِ التاليةِ تدفقَ الناسُ عبرَ بوابةِ الدير، وبحلولِ منتصفِ الصباحِ وصلَ عددهم إلى سبعين أو ثمانين متطوعاً بمن في ذلكَ سكانُ القريةِ ثمَّ توقفَ تدفقُ الناسِ دفعةً واحدةً.

لم يكن هذا كافياً.

وقفَ فيليب عندَ الزاويةِ الشرقيةِ يراقبُ توم وهو يبني الجدارَ. كان توم قد انتهى من بناءِ قواعدِ دعامتين، وكانتا بارتفاعِ ثلاثةِ حجارةٍ، وبدأ الآن ببناءِ الجدارِ بينهما. فكرَ فيليب في يأسٍ أنَّ توم لن ينتهي من بناءِ الجدارِ أبداً.

كانَ أول شيءٍ فعلهُ توم عندما زودهُ العمالُ بالحجارة هو أخذ أداةٍ حديديةٍ لها شكلِ الحرفِ «L» واستخدمها لقياسِ حوافِ الحجارةِ، والتأكد من أنَّها مربعةٌ، ثمَّ وضعَ طبقةً من الملاطِ على الحجر، ورسمَ أخدوداً في الملاطِ بطرفِ مجرفتهِ، ومستعيناً بخيطٍ مشدودٍ مربوطٍ بين الدعامتين وضعَ الحجرَ.

لاحظَ فيليب أنَّ السطحَ العلوي والسفلي للحجرِ حيثُ وضعَ توم الملاط ناعماً بقدرِ الجانب الظاهرِ للعيانِ. فاجأه الأمر واستفسرَ من توم عن السببِ فأجابهُ الأخيرُ قائلاً: «لا يجب أن تلمسَ الحجارة في الأعلى والأسفل بعضها بعضاً، وهذا سببُ استخدامِ الملاطِ».

«ولماذا يجب ألّا تلمس الحجارة بعضها بعضاً؟»

«لأنَّها ستتسببُ بالتصدعات»، استقامَ توم وتابعَ الشرح. «إن مشيتَ على سطحٍ مصنوعٍ من الألواحِ ستدخلُ قدمكَ بينَ الألواحِ ولكن إن وضعتَ لوحاً خشبياً على طولِ السطحِ ستتمكن من المشي عليهِ من دونِ تدميرِ ألواحهِ؛ لأنَّ اللوحَ سيوزعَ الوزنَ وهذهِ وظيفة الملاطِ أيضاً».

لم يفكّرْ فيليب بهذا قط. كان البناءُ عملاً مثيراً للاهتمامِ، خاصةً مع شخصٍ مستعدٍ لشرحِ ما يفعلهُ.

وفكرَ فيليبَ أنَّ الجانبَ الأكثرَ خشونةً للحجرِ سيكون إلى الداخلِ، وهذا يعني أنَّه سيكون مرئياً من داخلِ الكنيسةِ، ثمَّ تذكرَ أن توم سيبني جداراً مزدوجاً مع فراغٍ بينهما؛ ولذلكَ سيكون الجزء الخلفي من الحجارةِ على كلا الجانبين مَخفياً.

بعد أن وضعَ توم الحجرَ على الملاطِ أخذَ ميزانَ القياسِ، وكان مثلثاً حديدياً بسيرٍ جلدي مربوطٍ في أعلاهِ وفي قاعدتهِ بعضُ الوسومِ، وإلى

السيرِ رُبطت قطعةٌ من الرصاصِ حتَّى يبقى متدلياً إلى الأسفلِ. وضعَ توم قاعدةَ الأداةِ على الحجرِ، وراقبَ كيفَ يتحركُ السيرُ الجلدي. إن مالَ إلى جهةٍ ما أكثر من جهةٍ أخرى عن خطِ المركزِ يطرقُ توم على الحجرِ بمطرقتهِ إلى أن يصبح مستوياً تماماً ثمَّ ينقلُ الأداةَ ويرفعها بين الحجرين المتجاورين ليتحقق من أنَّ سطحيهما متساويان، وأخيراً يضعُ الأداة إلى جانبِ الحجرِ ليتأكد من أنَّ الحجرَ غير مائل. وقبلَ أن يأخذ حجراً جديداً يشدُّ الوترَ المشدود ليتأكد من أنَّ الحجارةَ في خطٍ مستقيمٍ. لم يدركْ فيليب أنَّ الحرصَ على أن تكون الجدران الحجريةُ في خطٍ مستقيمٍ وصحيحٍ على هذا القدرِ من الأهميةِ.

رفعَ فيليب أنظارهُ، ومسحَ موقعَ البناءِ بنظرهِ. كان كبيراً جداً إلى درجةِ أن ثمانين رجلاً وامرأةً وبضعة أطفالٍ بدوا ضائعين فيهِ. عملَ الجميعُ تحتَ أشعةِ الشمسِ بمرحٍ، ولكن بسببِ عدم تناسبِ عددهم مع حجمِ الموقعِ الكبيرِ بدت جهودهم عبثيةً. أمل فيليب أن يأتي مئة شخصٍ، ولكنه شعر الآن أنَّ حتَّى هذا العدد لن يكون كافياً.

دخلت مجموعةٌ أخرى صغيرةٌ من بوابةِ الديرِ، وأجبرَ فيليب نفسهُ على الذهابِ لتحيتهم مع ابتسامة. لم يكن هناك حاجةٌ لإخبارهم أنَّ جهودهم عبثيةٌ؛ فهم سيحصلون على الغفران عن خطاياهم.

عندما اقتربَ منهم رأى أنَّ المجموعة كبيرة. أحصى اثني عشرَ شخصاً ثمَّ دخلَ شخصان آخران. قد يصلُ عدد المتطوعين إلى مئةِ شخصٍ بحلولِ منتصفِ النهارِ، أي عندما يصل الأسقفُ. «باركَكم الرَّبُّ»، حيَّاهم فيليب، وعندما كان على وشكِ الطلب منهم بالبدءِ بالحفرِ، قاطعه أحدهم صارخاً بصوتٍ عالٍ: «فيليب!»

تجهمَ فيليب غاضباً فقد عرفَ أنَّ الصوتَ صوتُ الأخِ ميلِيوس، ويُفترضُ بهِ أن يناديهِ بـ«أبتاه» أمامَ الناس. نظرَ فيليب في الاتجاهِ الذي أتى منه الصوتُ، ورأى ميليوس يقفُ على جدارِ الديرِ بطريقةٍ لا تليق براهبٍ، وبصوتٍ هادئٍ ولكن حازمٍ قال فيليب: «أيُّها الأخ ميليوس فلتنزل عن الجدارِ».

ولكن فيليب تفاجأ عندما لم ينصع ميليوس لطلبهِ وصرخَ: «تعال وانظر إلى هذا».

رغمَ أن القادمين الجددَ سيأخذون انطباعاً سيئاً عن انضباطِ الرهبانِ في الدير، فإنَّ فيليب لم يكن بوسعهِ إلا التساؤل عن سببِ حماسِ ميليوس الشديد إلى درجةٍ نسي معها آدابَ السلوكِ. «تعالَ إلى هنا وأخبرني بهِ يا ميليوس»، قال فيليب بصوتٍ عادةً ما يستخدمه مع الرهبانِ المبتدئين.

«يجبُ أن تأتي وترى!» صرخَ ميليوس.

فكرَ فيليب أنَّه من الأفضلِ أن يكون لدى ميليوس سببٌ وجيهٌ لقيامه بهذا، ولكنه لم يرغب بتوبيخِ أخلصِ أصدقائهِ أمامَ كل أولئك الغرباءِ؛ ولذلك أجبرَ نفسهُ على الابتسامِ، والقيام بما طلبهُ ميليوس. خاضَ فيليب بغضبٍ عظيمِ الأرض الموحلة قبالةَ الإسطبلِ ثمَّ قفزَ على الجدارِ الواطئ.

«لماذا تصرَّفتَ بهذهِ الطريقةِ؟» قال فيليب لميليوس بصوتٍ كالهسيسِ.

«انظر فقط!» قال ميليوس، وأشارَ بيدهِ.

نظرَ فيليب إلى حيث أشارَ ميليوس فوق سطوحِ منازلِ القريةِ والنهرِ إلى الطريقِ الذي يعلو وينخفضُ باتجاهِ الغربِ. في البدايةِ لم يصدق فيليب ما رآه. على الطريقِ المتعرجِ بينَ حقولِ المحاصيلِ الخضراءِ رأى كتلةً كبيرةً من الناسِ، المئات منهم، قادمةً باتجاهِ كينغزبريدج.

«ما هذا؟» قال فيليب في عجزٍ عن فهمِ ما يراه. «جيشٌ؟» ثمَّ أدركَ أنَّهم المتطوعون الذين طلبهم. شعرَ بقلبهِ يقفزُ من الفرحِ صرخَ: «انظر إليهم! لا بدَّ أن عددهم خمسمئةٍ... ألف... أو أكثر!»

«هذا صحيح!» قال ميليوس بسعادةٍ. «يبدو أنهم في نهايةِ المطافِ قرروا القدوم».

«ها قد أتى خلاصنا». قال فيليب بحماسٍ كبيرٍ نسي معه غضبهُ من ميليوس. اكتظَّ طريقُ الجسرِ بحشودِ الناسِ ممن تدفّقوا على طولِ الطريقِ الذي يمرُّ بالقريةِ إلى بوابةِ الديرِ. كانت المجموعةُ التي حيَّاها فيليب قبلَ قليلٍ طليعتهم، وقد بدأوا الآن بالتدفقِ عبرَ بوابةِ الديرِ، والتجمع في الطرفِ الغربي من موقعِ البناءِ بانتظار أن يخبرهم أحدٌ بما عليهم فعلهُ.

«هللويا!» صرخَ فيليب بتهورٍ.

قررَ فيليب أنه اكتفى من التهليلِ، وحانَ الوقت لتكليف أولئكَ الناسِ

بأعمالٍ. قفزَ عن الجدارِ، وصرخَ بميليوس: «هيا! اطلب من الرهبان التوقف عن العملِ. سنحتاجهم ليشرفوا على الناسِ. اطلب من مسؤولِ المطبخِ أن يخبزَ أكبرَ قدرٍ من الخبزِ، ويُخرج المزيد من براميلِ الجعةِ. سنحتاج إلى المزيد من الدلاءِ والمجارفِ. يجب أن نُكلف كلَّ أولئكَ الناس بمهام قبلَ وصول الأسقف هنري!»

***

خلالَ الساعةِ التاليةِ على وصولِ الناسِ انشغلَ فيليب بشكلٍ محموم. في البداية، ولمنعِ الناسِ من إعاقةِ سيرِ العملِ، كلَّفَ مئةَ شخصٍ أو أكثر بمهمةِ نقلِ الموادِ المكدسة عندَ ضفةِ النهرِ، وحالما انتهى ميليوس من تنظيمِ مجموعةِ المراقبين من الرهبانِ بدأ بإرسالِ المتطوعين إلى حُفرِ الأساساتِ، وسرعان ما نفدَت المجارف، والبراميل، والدلاءِ. طلبَ فيليب إحضارَ جميع أدواتِ الطبخِ من المطبخِ، وطلبَ من بعضِ المتطوعين صُنعَ علبٍ خشبيةٍ مرتجلةٍ وسلال لرفعِ الترابِ. لم يكن هناكَ ما يكفي من السلالم أو أدواتِ الرفعِ، ولهذا صنعوا منحدراً طويلاً عند أحدِ أطرافِ أكبرِ حفرةِ أساسٍ حتَّى يتمكن الناسُ من النزولِ والخروجِ منها. أدركَ فيليب أنَّه لم يفكر جيداً في مسألةِ مكانِ وضعِ كمياتِ الترابِ الكبيرةِ التي يتمُ إخراجها من حُفر الأساساتِ، وقد تأخرَ الوقتُ الآن على التفكيرِ بالأمرِ، ولهذا ارتجلَ حلاً بأن أشارَ على المتطوعين برمي الترابِ في قطعةِ أرضيةٍ صخريةٍ قربَ النهرِ، وفكرَ أنَّه قد يزرعها لاحقاً. وبينما كان يعطي التوجيهات تقدَّم منه مسؤول المطبخِ برنارد في هلعٍ وقال له إنَّه لم يستطع تقديم الطعامِ سوى لمئتي شخصٍ، وأنَّ هناك ما يقاربُ الألفَ شخصٍ. «فلتشعل ناراً في فناءِ المطبخِ، ولتصنع الحساءَ في حوضٍ حديدي»، قال فيليب. «ولتخفف الجعةَ، ولتستخدم كلَّ المؤن، واطلب من بعضٍ سكانِ القريةِ تحضيرَ الطعامِ على مواقدهم. فلترتجل!» واستدارَ بعيداً عن مسؤولِ المطبخِ، وتابعَ تنظيم أمورِ العمالِ.

كان لا يزال يُعطي الأوامر عندما ربَّتَ أحدهم على كتفهِ وقال بالفرنسيةِ: «رئيسُ الديرِ فيليب هل يمكن أن أحظى باهتمامكَ لبعضِ الوقتِ؟» كان بولدوين كبيرَ الكهنةِ، ومساعد ويلارن بيغاد.

استدارَ فيليب ورأى أنَّ الزوار وصلوا، وجميعهم على ظهورِ الجيادِ وفي أبهى حلَّةٍ، ويحدقون في دهشةٍ إلى المشهدِ من حولهم. رأى فيليب الأسقفُ هنري. كان رجلاً قصيراً، وبديناً، وله مظهرُ شخصٍ مولعٍ بالخصامِ، وتتعارض تسريحةُ شعرهِ الرهبانيةِ بشكلٍ غريبٍ مع معطفهِ القرمزي المُطرز. بجانبهِ كان الأسقف ويلارن في رداءٍ أسود كالعادةِ غيرَ أن نظرةَ الازدراءِ الاعتيادية التي تعلو وجهه لم تنجح في إخفاءِ خيبةِ أملهِ، وبرفقتهما كان الإيرل السمين بيرسي هاملي، وابنه الضخم والقوي وليم، وزوجتهُ القبيحة ريغان. بدا بيرسي ووليم مستمتعين بالمشهدِ على عكسِ ريغان التي فهمت بالضبطِ ما فعلهُ فيليب، وكانت تستشيط غيظاً.

عادَ فيليب بنظرهِ إلى الأسقفِ هنري، وبما يدعو للدهشةِ لاحظَ أنَّ الأسقفَ ينظرُ إليهِ باهتمامٍ شديدٍ. نظرَ إليهِ فيليب أيضاً، ورأى على ملامحِ الأسقف هنري تعبيراً يشي بالمفاجأةِ والفضولِ، وشيئاً من التقدير اللطيفِ. اقتربَ فيليب من الأسقفِ بعدَ برهةٍ، وأمسكَ برأسِ جوادهِ، ثمَّ قبَّلَ يدهُ المزدانة بالخواتمِ.

ترجَّل هنري عن مطيتهِ بحركةٍ رشيقةٍ، وفعلَ البقيةُ مثله. نادى فيليب على راهبين لأخذِ الجيادِ إلى الإسطبلِ. كان هنري في مثلِ عمرِ فيليب تقريباً، ولكن بشرته الموردة، والثياب التي ارتداها جعلتهُ يبدو أكبر عُمراً. «حسناً أيّها الأب فيليب»، قال هنري. «أتيت لأتحقق من التقارير التي وصلتني حول عدم قدرتكَ على بناءِ كاتدرائيةٍ جديدةٍ هنا في كينغزبريدج»، وتوقفَ عن الكلام لبعضِ الوقتِ وهو ينظرُ حوله إلى مئاتِ العمالِ ثمَّ عادَ بنظرهِ إلى فيليب وقال: «ولكن يبدو أنَّها معلوماتٌ خاطئةٌ».

خفقَ قلبُ فيليب من السعادةِ. بالكادِ يمكن لهنري أن يجعلَ الأمرَ أكثر وضوحاً. لقد فازَ فيليب.

استدارَ فيليب نحو الأسقفِ ويلارن، ولاحظَ أنَّ وجهه يشي بغضبٍ مكبوتٍ. ها هو يهُزم مجدداً. ركعَ فيليب، وأحنى رأسهُ ليُخفي بهجةَ الانتصارِ التي علت وجههُ، وقبَّلَ يدَ ويلارن.

***

كان توم مستمتعاً ببناءِ الجدارِ، فقد مضى وقتٌ طويلٌ منذُ أن فعلَ هذا،

وشعرَ أنَّه كاد ينسى ذلكَ الشعور العميق بالسكينةِ الذي يجتاحهُ عندما يرصفُ الحجارةَ بعضها فوقَ بعض في خطٍ مستقيم، ويراقبُ كتلته تكبر.

عندما تدفقَ مئاتُ المتطوعينَ عبرَ بواباتِ الدير أدركَ توم أنَّ خطةَ فيليب ستنجح، وأضفى هذا مزيداً من المتعةِ على متعةِ البناءِ. ستكون هذهِ الحجارة جزءاً من كاتدرائيةِ توم، وهذا الجدار الذي لا يتجاوز ارتفاعه الآن قدماً سيرتفع إلى السماءِ في نهايةِ المطافِ. شعرَ توم أنَّ هذهِ هي بداية نهايةِ حياتهِ.

عندما وصلَ الأسقف هنري لم يره توم، ولكنه أحسَّ بقدومهِ كالتموجات التي يتسبب بها حجرٌ أُلقي به في البركةِ غير أنَّ البركة هنا كانت كتلة العمالِ. توقفَ الناسُ عن العملِ قليلاً لينظروا إلى الشخصيات في الثيابِ الباذخةِ تشقُّ طريقها عبرَ الوحلِ. تابعَ توم رصفَ الحجارة. لا بدَّ أن الأسقف قد ذُهلَ لرؤيةِ ألف متطوع يعملون بمرحٍ وحماسٍ على بناءِ كاتدرائيتهم الجديدةِ، وعلى توم الآن أن يتركَ انطباعاً جيداً أيضاً. ورغمَ أنَّه لم يشعر يوماً بالراحةِ في التعاملِ مع أناسٍ في ثيابٍ باذخةٍ، فإنّه يجب أن يبدو ماهراً، وحكيماً، وهادئاً، ومتماسكاً، رجلاً يمكن للمرءِ ائتمانهُ على التعقيدات المزعجةِ لمشروعِ بناءٍ كبيرٍ ومُكلفٍ.

راقبَ توم مجموعةَ الزوارِ، ووضعَ مجرفتهُ عندما اقتربت منه. قادَ رئيسُ الديرِ فيليبِ الأسقفَ هنري إلى توم الذي بدورهِ ركعَ وقبَّلَ يدَ الأسقفِ.

قال فيليب: «توم بنّاؤنا. أرسله الرَّبُّ في اليوم الذي احترقت فيهِ الكنيسةُ القديمةُ».

ركعَ توم مجدداً، ولكن للأسقفِ ويلارن، ثمَّ وزعَ نظراتهِ على بقيةِ المجموعةِ. ذكَّرَ نفسهُ أنّه كبير البنّائين، ولا يجب أن يبدو شديدَ الخنوعِ. عرفَ بيرسي هاملي الذي بنى له في ما مضى نصفَ منزلٍ. «سيدي اللورد بيرسي»، قال توم مع انحناءةٍ بسيطةٍ، ثمَّ انتبه إلى زوجةِ بيرسي القبيحة. «أيتها الليدي ريغان»، ثمَّ وقعَ نظره على الابن، وتذكر كيفَ كادَ أن يطأ مارثا بجوادهِ الحربي الضخمِ، وكيفَ حاولَ شراءَ إيلين في الغابةِ. كان الشابُ شخصاً بغيضاً، ولكن توم أجبرَ نفسهُ على التحدث بتهذيبٍ معه: «تحياتي أيّها اللورد الشاب وليم».

كان الأسقفُ هنري ينظرُ إلى توم بعنايةٍ وسأله: «هل وضعت المخططات أيّها البنَّاء توم؟»

«أجل يا سيدي الأسقف، هل ترغبُ برؤيتها؟»

«من كلِّ بدٍ».

«ربما يمكنكَ مرافقتي من هذا الطريق».

أومأ هنري برأسِهِ، وتقدَّمه توم باتجاه كوخهِ الذي يبعدُ بضعَ ياردات. دخلَ توم إلى المبنى الخشبي الصغير، وخرجَ مع المخطط الذي رسمهُ على الجصِّ داخلَ إطارٍ خشبي كبيرٍ ثمَّ وضعهُ قبالة جدارِ الكوخِ، وتراجع إلى الوراءِ.

كانت هذهِ لحظةً حاسمةً. يعجزُ معظمُ الناسِ عن فهمِ المخططاتِ، ولكن الأساقفة، والسادة لا يحبون الاعتراف بهذا، ولذلك من الضروري شرحُ المخطط لهم بطريقةٍ لا تفضح جهلهم أمامَ بقيةِ الناسِ. بالطبعِ هناك أساقفة يستطيعون فهمَ المخططاتِ، ويشعرون بالإهانةِ إن قام بناءٌ وضيع بالشرحِ لهم.

أشارَ توم إلى المخطط بتوترٍ ثمَّ قال: «هذا هو الجدار الذي أقوم ببنائهِ».

«أجل، من الواضحِ أنَّها الواجهة الشرقية»، قال هنري، وحصلَ توم على جوابٍ. بوسعِ هنري قراءة المخططِ جيداً.

«لمَ لا توجد مجازات بين جناحي الكنيسةِ؟» سألَ هنري.

«لأسبابٍ ماديةٍ»، أجابَ توم على الفورِ ثمَّ أضاف: «على أيِّ حالٍ لن نبدأ ببنائها قبلَ خمسةِ أعوامٍ. إن استمرَّت أحوالُ الدير بالازدهارِ كما هي منذُ عامٍ، وتحت إدارة رئيسِ الديرِ فيليب، سيكون بإمكاننا تحملُ كلفةِ بناءِ مجازات بين الجناحين». بجوابهِ هذا أثنى توم على فيليب، وأجاب على السؤالِ في آنٍ معاً، وشعرَ أنَّه ذكي.

أومأ هنري موافقاً وقال: «البدءُ بالبناءِ بشكلٍ متواضعٍ، وترك مساحةٍ للتوسعِ لاحقاً خطةٌ عقلانيةٌ. فلتُرني نموذج الارتفاعِ».

جلبَ توم نموذج الارتفاع، ولم يُدل بأيِّ تعليقٍ الآن بما أنَّ هنري أظهرَ قدرةً على فهمِ ما كان ينظرُ إليه، وتأكد توم من هذا عندما قال هنري: «إنَّ الأبعاد مُرضيةٌ».

«شكراً لكَ»، قال توم، وبدا الأسقف راضياً عن كلِّ شيءٍ. أضافَ توم:

«ستكون كاتدرائيةً متواضعةً، ولكن أكثر إضاءةً وجمالاً من الكاتدرائيةِ القديمةِ».

«وكم سيستغرقُ الانتهاءُ منها؟»

«خمسةَ عشرَ عاماً إن لم تتعطل أعمالُ البناءِ».

«وهذا ما لن يحدث. هل يمكنكَ أن تريني كيف سيبدو شكلها... لشخصٍ يقفُ من الخارجِ».

وفهمَ توم ما أرادهُ الأسقف فقال: «تريد أن ترى رسماً».

«أجل».

«من كلِّ بدٍ». وعادَ توم مع الأسقفِ إلى الجدارِ الذي كان يقوم ببنائِهِ. ركعَ فوقَ لوحِ خلطِ الملاطِ ومدَّه في طبقةٍ مستويةٍ ثمَّ سوى السطحَ، وبطرفِ مجرفه رسمَ الطرفَ الغربي للكنيسةِ على الملاطِ. كان يعلم أنَّه ماهرٌ في هذا. راقبهُ الأسقفُ، وحاشيتهُ، وجميعُ الرهبان، والمتطوعون القريبون بانبهارٍ. لطالما بدت القدرةُ على الرسمِ لمن يعجزون عنه كمعجزةٍ، وخلالَ دقائقَ معدودةٍ كان توم قد رسمَ الواجهة الغربية، وبواباتها المقنطرة الثلاث، ونافذتها الكبيرة، والأبراج التزينيية. كانت حيلةً بسيطةً، ولكن لا تفشلُ أبداً في إبهارِ الناسِ.

«مذهل»، قال الأسقف هنري عندما انتهى توم من الرسمِ. «فلتكن بركةُ الرَّبِّ إلى جانبِ مهارتك».

ابتسم توم. كان هذا الإعلان القوي بمنزلة تأكيدٍ صريحٍ على مكانتهِ كرئيسِ البنائين.

قال رئيسُ الديرِ فيليب: «سيادة الأسقف هل ترغبُ بتناول بعضِ الشرابِ قبلَ البدءِ بمراسمِ الصلاةِ؟»

«بكلِّ سرورٍ».

شعرَ توم بالراحةِ. ها هو اختباره ينتهي، وينجح فيهِ.

«ربما يمكنكَ مرافقتي إلى منزلِ رئيسِ الديرِ هناك»، أشارَ فيليب على الأسقفِ، ولحقَ بقيةُ الزوارُ بهنري. عصرَ فيليب ذراعَ توم وهمسَ له في بهجةٍ مكتومةٍ: «لقد نجحنا!»

حالما غادرهُ الوفدُ تنفسَ توم الصعداء، وشعرَ بالرضا والفخرِ. «أجل»، فكر في نفسهِ. «لقد نجحنا. وعلى الرغمِ من تماسكِ الأسقفِ الظاهرِ فإنَّه

كان منبهراً جداً، بل مذهولاً. من الواضح أنَّ ويلارن قد حضَّره لمشهدٍ من التراخي والعجزِ، ولذلك كانت الحقيقةُ صادمةً. في النهايةِ يبدو أنَّ سحرَ ويلارن قد انقلبَ عليهِ، وعززَ انتصارَ فيليب وتوم».

وبينما كان غارقاً في لجةِ النصرِ النزيهِ الذي حققه سمعَ توم صوتاً مألوفاً يقول له: «مرحباً أيّها البنَّاء توم».

استدارَ توم ورأى إيلين.

وحلَّ الآن دورُ توم لينبهرَ ويُذهل. كانت كارثةُ الكاتدرائيةِ تشغلهُ، ولم يفكر بإيلين طوالَ اليومِ. حدَّقَ إليها في سعادةٍ. لم تتغير قط، وما زالت تبدو تماماً كما بدت في اليوم الذي غادرت فيهِ الديرَ؛ نحيلةً وسمراء بشعرٍ داكنٍ يتحرك كأمواجٍ على شاطئ، وبعينين عسليتين مشعتين تخترقان الروحَ. ابتسمت له بفمها ذي الشفتين الممتلئتين اللتين تجعلانهِ دوماً يفكرُ بتقبيلها.

تملكتهُ رغبةٌ في معانقتها، ولكنه قاومَ الأمرَ وبشيءٍ من الصعوبةِ قال: «مرحباً يا إيلين».

وقال له شابٌ بجانبها: «مرحباً يا توم».

نظرَ توم إلى الشابِ بفضولٍ.

قالت له: «ألا تتذكر جاك؟»

«جاكَ»، قال توم مذهولاً. بدا الفتى مختلفاً كثيراً فقد غدا أطول بقليلٍ من والدتهِ، وله بنيةٌ عظميةٌ ستقول عنها الجدَّات إن رأينها إنَّ الفتى ينمو بشكلٍ مفرطٍ. ما زال لجاك الشعر الأصهب اللامع، والبشرة البيضاء، والعينان الزرقاوان، ولكن ملامحه تغيرت، وباتت أقرب لأن تكون جذابةً، وربما في يومٍ من الأيامِ قد يصبح وسيماً.

عادَ توم بنظره إلى إيلين، ولبرهةٍ غرقَ في متعةِ النظرِ إليها. أراد أن يقولَ لها إنَّه اشتاقَ إليها كثيراً، وإلى درجةٍ لا يمكن تصورها، وكادَ أن يقولَ هذا، ولكن شجاعتهُ خانته وبدلاً من ذلكَ قال لها: «حسناً، أينَ كنتِ؟»

«كنا نعيشُ حيث عشنا على الدوامِ، في الغابةِ»، أجابته.

«وما الذي دفعكِ إلى العودةِ اليوم بالتحديد، ومن بينِ جميعِ الأيامِ؟»

«سمعنا بدعوةِ رئيسِ الديرِ، وشعرنا بفضولِ معرفةِ أحوالكَ، ولم أنسَ أنني وعدتكَ بالعودةِ في يومٍ من الأيامِ».

«أنا مسرورٌ جداً لأنَّكِ عُدتِ»، قال توم. «كنتُ أتوقُ إلى رؤيتكِ».
نظرت بحذرٍ وقالت. «حقاً؟»
كانت هذهِ هي اللحظة التي انتظرها توم، وخططَ لها لعام، ولكن ها هو الخوفُ يتملكه الآن. حتَّى الآن عاشَ على الأملِ، وإن رفضَتهُ إيلين فهذا يعني أنَّه سيخسرها إلى الأبد. كان خائفاً من البدءِ بالكلامِ ولذلك خيَّمَ الصمتُ بينهما. أخيراً أخذَ نفساً عميقاً وقال: «أصغي إلي. أريدكِ أن تعودي إلي. من فضلكِ لا تقولي شيئاً إلى أن تسمعي ما لدي لقولهِ. أرجوكِ».
«حسناً»، قالت بحياديةٍ.
«إنَّ فيليب رئيسُ ديرٍ طيب، وأحوالُ الديرِ تزدهر، ويعود الفضلُ في هذا إلى إدارتهِ الجيدةِ. إن عملي هنا مضمونٌ، ولن نضطر إلى العودةِ إلى الطرقاتِ مجدداً أبداً. أعدكِ».
«لم يكن هذا...»
«أعلم، ولكن أريد إطلاعكِ على كلِّ شيءٍ».
«حسناً».
«بنيت منزلاً بغرفتين، ومدخنةٍ في القريةِ، ويمكنني توسيعهُ، ولن نضطرَّ إلى العيشِ في الديرِ».
«ولكن فيليب يملكُ القريةَ».
«يدين فيليب لي حالياً»، ولوحَ توم بيدهِ مشيراً إلى المشهدِ من حولهِ. «وهو يعلمُ أنني لا أستطيعُ إنجازَ هذا من دونكِ. إن طلبتُ منه المغفرة سيغفرُ لكِ ما فعلتهِ، وسيعتبرُ العام الذي قضيته منفيةً عن المدينةِ كفارةً كافيةً. لا يمكنه حرماني من هذا، خاصةً اليوم ومن بينِ جميعِ الأيامِ».
«وماذا عن الصبيين؟» سألته. «هل يُفترضُ بي أن أشاهد آلفريد يريقُ دمَ جاك في كلِّ مرَّةٍ يغضبُ فيها؟»
«أعتقدُ أنه لدي الجواب على ذلكَ»، قال توم. «إنَّ آلفريد بنَّاءٌ الآن، وسأجعلُ جاك متدرباً عندي. بهذهِ الطريقةِ لن يستاءَ آلفريد من عطالةِ جاك، ويمكنكِ تعليم آلفريد القراءةَ والكتابةَ حتَّى يشعرَ الصبيان أنهما متساويان. سيكونان عاملين ومتعلمين».
«لقد فكَّرت جيداً بكلِّ هذا، أليسَ هذا صحيحاً؟» سألتهُ.

«أجل».

وانتظر توم ردها. لم يكن يوماً ماهراً في الإقناعِ بل كلّ ما يجيدُ فعلهُ هو توضيحُ الأمورِ أمامَ الآخرين. لو أنّه فقط يستطيع توضيح الأمرِ برسم! شعرَ أنّه قدّمَ حلّاً لكلِّ شيءٍ قد تعترضُ عليهِ، ولذلكَ يجب أن توافق الآن إلا أنّها بدت مترددةً.

«أنا لستُ واثقةً من هذا»، قالت له.

وهنا فقد رباطةَ جأشهِ وقال: «أوه يا إيلين لا تقولي هذا». كان يخشى أن ينخرطَ في البكاءِ أمامَ كلِّ أولئكَ الناس، وكانت الدموع تخنقهُ إلى درجةٍ شعر معها بصعوبةٍ في الكلامِ. «أحبكِ جداً. أرجوكِ لا تتركيني مجدداً»، تضرَّعَ إليها. «ما ساعدني على تحملِ كلِّ شيءٍ هو الأملُ بعودتكِ. لا يمكنني تحملُ الحياةِ من دونكِ. لا تُغلقي بوابات الجنةِ. ألا ترين أنني أحبكِ ومن كلِّ قلبي؟»

وهنا تغيرَ سلوكها على الفورِ وهمست: «لمَ لم تقل هذا إذاً؟» واقتربت منه فعانقها ثمَّ قالت له: «وأنا أحبكَ أيضاً أيّها الأحمقُ الغبي».

شعرَ توم بركبتيه تخونانه من الفرحةِ، وفكرَ في نفسهِ: «إنَّها تحبني. تحبني حقاً». عانقها بقوةٍ ثمَّ نظرَ إلى وجهها وقال: «هلّا تزوجتِ بي يا إيلين؟»

رأى دموعاً في عينيها، ولكنها كانت تبتسمُ أيضاً. «أجل يا توم سأتزوج بكَ»، قالت له، ونظرت إليهِ.

جذبها نحوه بقوةٍ، وقبَّلها على فمها. كان يحلمُ بهذا طوال عام بأكملهِ. أغلقَ عينيهِ، وركزَ على التلامسِ المبهج لشفتيها الممتلئتين بشفتيهِ. كان فمها مفتراً قليلاً، وشفتاها رطبتين، وشعرَ بمتعةٍ ولذةٍ كبيرتين في القبلةِ نسي معها نفسه لبرهةٍ إلى أن قال له أحدٌ بالقربِ منهما: «لا تبتلعها يا رجل!»

ابتعدَ عنها وقال: «نحنُ في كنيسةٍ!»

«لا أبالي»، قالت بمرحٍ ثمَّ قبلتهُ مجدداً.

***

فكرَ وليم بمرارةٍ وهو في منزلِ رئيسِ الديرِ يشرب من نبيذ فيليب المخفف بالماءِ، ويأكل المربى الذي أعدَّه مطبخُ الديرِ أنَّ رئيسَ الديرِ فيليب تفوقَ عليهم مجدداً. أخذَ وليم بعضَ الوقتِ ليقدّرَ روعةَ واكتمالَ نصرِ فيليب. لم

يكن هناك أيُّ عيبٍ في تقييم الأسقفِ ويلارن الحقيقي للوضعِ؛ فقد كان فيليب يعاني من نقصٍ في المالِ، وسيواجهُ صعوبةً كبيرةً في بناءِ كاتدرائيةِ كينغزبريدج، ولكن ذلكَ الراهب الماكر حققَ تقدماً حقيقياً، واستعان بكبير بنائين، وبدأ بأعمالِ البناءِ، ونجحَ على حينِ غرَّةٍ في حشدِ قوةِ عملٍ هائلةٍ لخداعِ الأسقفِ هنري الذي انبهرَ، وكما يجب، بما رآه، وكلّ هذا بسببِ التوصيف السوداوي المسبق الذي رسمهُ ويلارن للوضعِ.

والراهبُ الملعون يعلمُ أنَّه ربحَ أيضاً، ولم يحاول إخفاءَ ابتسامة النصرِ التي ارتسمت على وجههِ. وها هو الآن غارقٌ في الحديثِ مع الأسقفِ هنري، ويتحدثُ بحماسةٍ عن أنواعِ الخرافِ، وأسعارِ الصوفِ، وهنري يُصغي إليهِ بعنايةٍ، بل وباحترامٍ، وفي الوقتِ عينهِ يتجاهلُ بوقاحةٍ والدةَ ووالدَ وليم اللذين كانا أهمَّ من رئيسِ ديرٍ عادي.

سيندمُ فيليب على هذا. لا أحد يتفوق على عائلةِ هاملي وينجو بفعلتهِ، وهم لم يصلوا إلى المكانةِ التي وصلوا إليها اليوم لأنهم سمحوا للرهبانِ بالتفوقِ عليهم. لقد أهانهم الإيرل السابق بارثيميلو، ومات في سجنِ الخونةِ، ولن يكون مصيرُ فيليب أفضل من مصير بارثيميلو.

سيندمُ أيضاً البنَّاء توم على تجاوزِ عائلةِ هاملي، ولم ينسَ وليم كيفَ تحدَّاه توم في دورستيد بإمساكِ رأسِ جوادهِ، وإجباره على دفعِ المالِ للعمالِ، وها هو الآن قد ناداه وبكلِّ قلَّةِ احترامٍ: «اللورد الشاب وليم». يبدو أنَّه حليف فيليب الآن، ويبني الكاتدرائيات وليسَ مجرد بيوت الأسياد. سيتعلَّم توم أنَّ العملَ مع عائلة هاملي أفضل من التحالفِ مع أعدائها.

جلسَ وليم طوالَ الوقتِ يغلي من الغضبِ إلى أن نهضَ الأسقف هنري، وأعلن أنَّه جاهز لأداءِ صلاةِ عيدِ العنصرةِ. أشارَ فيليب إلى راهبٍ مبتدئ فهرعَ الشاب خارجاً من الغرفةِ، وبعدَ دقائق معدودةٍ قُرِعَ جرسٌ.

غادروا منزلَ رئيسِ الديرِ. في المقدمةِ سارَ الأسقفُ هنري ثم الأسقف ويلارن ثمَّ رئيسُ الديرِ فيليب ثمَّ الناس العاديون. كان الرهبان ينتظرونهم في الخارجِ، واصطفوا وراءَ فيليب ثمَّ ساروا، ولذلكَ اضطرت عائلةُ هاملي إلى السيرِ في المؤخرةِ.

ملأ المتطوعون كاملَ النصف الغربي من ساحةِ الديرِ، وجلسوا على

الجدرانِ والأسطح. صعدَ هنري على منصةٍ في وسطِ موقعِ البناءِ، واصطفَ الرهبان وراءه في المكانِ الذي سيصبح موقعَ جوقةِ الترتيلِ في الكاتدرائيةِ الجديدةِ. أمَّا عائلةُ هاملي، وبقيةُ الناس العاديين في حاشيةِ الأسقفِ فقد شقوا طريقهم، ووقفوا في المكانِ الذي سيصبحُ لاحقاً صحنَ الكنيسةِ.

وبينما كانوا يأخذون مواقعهم وقع نظره على آليانا.

بدت مختلفةً. كانت في ثيابٍ رخيصةٍ، وخشنةٍ، وترتدي قبقاباً خشبياً، وشعرها الكثيفُ رطب من العرقِ. ما زالت تبدو جميلةً جداً إلى درجةِ شعرَ معها وليم بحلقةِ يجف. حدَّق إليها في عجزٍ عن الإشاحةِ ببصرهِ حتَّى عندما بدأت الصلوات، وتردّدَ صوتُ ألفِ شخصٍ في ساحةِ الديرِ وهم يكررون: «أبانا».

يبدو أنَّها شعرت بنظرتهِ الحادةِ لأنَّها بدت مضطربةً، ومتململةً ثمَّ أخذت تحدقُ حولها كأنَّها تبحث عن شيءٍ، وأخيراً التقت أعينهما، وعلا وجهها تعبيرٌ ينمُ عن الهلعِ، والخوفِ. تراجعت إلى الوراءِ على الرغمِ من أنَّها تبعدُ عنه ما يزيد على عشرِ ياردات، ويفصلهما الكثير من الناس. جعلها خوفها مغريةً أكثر، وشعرَ بجسدهِ يستجيب لهذا الخوفِ بطريقةٍ لم يشعر بها منذُ عامٍ. اختلطت الشهوةُ التي شعرَ بها نحوها مع شعورهِ بالاستياءِ من افتتانه بها. احمرَّت، وأطرقت بناظريها كأنَّها شعرت بالخزي. تحدثت باقتضابٍ إلى فتى قربها، وأدركَ وليم أنَّه شقيقها ريتشارد دون أدنى شكٍ، وتذكرَ وجههُ في لجةِ الذكرى المحمومةِ في القلعةِ، ثمَّ استدارت آليانا، واختفت وسطَ الحشدِ.

شعرَ وليم بخيبةِ الأملِ، وأرادَ اللحاقَ بها، ولكنه لا يستطيع فعلَ هذا وهو في منتصفِ الصلاةِ، وأمامَ والديهِ، وأسقفين، وأربعين راهباً، وألف مُصلٍ، ولذلك عادَ لينظرَ إلى الأمامِ في خيبةٍ. ها هو يخسرُ فرصةَ اكتشافِ مكانَ سكنها.

وعلى الرغمِ من اختفائها، فإنَّها لم تفارق ذهنه، وفكر في نفسهِ أن انتصابَ عضوهِ في الكنيسةِ خطيئةٌ.

نظرَ إلى والدهِ ولاحظَ أنَّه بدا مغتاظاً. «انظري!» قال بيرسي لريغان. «انظري إلى تلكَ المرأة!»

في البدايةِ اعتقدَ وليم أنَّ والده يتحدث عن آليانا، إلا أنَّ آليانا كانت قد اختفت بحلول الآن. عندما نظرَ وليم إلى حيثُ كان ينظرُ والده رأى امرأةً في حدودِ الثلاثين من العمرِ، ورغمَ أنَّها لم تبدُ شبقةً كآليانا فإنها بدت رشيقةً، ومتوحشةً بشكلٍ لافتٍ. كانت تقفُ قريباً من كبير البنَّائين توم، وظنَّ وليم أنَّها على الأغلبِ زوجةُ البنَّاءِ التي حاولَ شراءها في الغابةِ في أحدِ الأيامِ منذُ عامين. وتساءل في نفسهِ كيفَ لوالديهِ أن يعرفاها.

«هل هذهِ هي؟» قال والدهُ.

أدارت المرأة رأسها كأنَّها سمعتهم يتحدثون عنها، ونظرت نحوهم مباشرةً. رأى وليم مجدداً عينيها العسليتين اللتين تخترقان الروح.

«إنَّها هي. يا إلهي!» قالت والدتهُ بصوتٍ كالهسيس.

صدمت نظرةُ المرأة والدهُ فشحبَ وجهه المورد، وبدأت يداه ترتعشان وقال: «نجنا يا يسوع المسيح. اعتقدتُ أنَّها ميتةٌ».

وهنا فكرَ وليم في نفسه: «ما الأمرُ الآن بحقِ الشيطان؟»

***

خشي جاك حصول ما حصلَ.

طوال عامٍ كاملٍ علمَ أنَّ والدتهُ افتقدت البنَّاء توم فهي لم تعد هادئةً كما كانت قبلاً، وغالباً ما ارتسمت على وجهها نظرةٌ حالمةٌ وذاهلةٌ، وأحياناً في الليلِ تلهثُ كأنَّها تحلمُ، أو تتخيلُ ممارسة الحبّ مع توم. طوال هذا الوقتِ علمَ جاك أنَّها ستعود، وها هي الآن توافق على البقاءِ.

وكره جاك هذهِ الفكرةَ.

لطالما كانا سعيدين بعضهما مع بعض فقد أحبَّ والدته ووالدته أحبتهُ، ولم يكن هناك من يتدخلُ بينهما.

لم تكن الحياةُ في الغابةِ مثيرةً جداً، وافتقدَ فتنةَ الحشودِ، والمدنِ التي رآها خلالَ الفترةِ المؤقتةِ التي قضاها مع عائلةِ توم. افتقدَ مارثا، وبما يدعو للدهشةِ كان يُزجي ساعات المللِ في الغابةِ بأحلامِ اليقظةِ عن تلكَ الفتاةِ التي اعتقدَ أنَّها «أميرة» رغمَ علمهِ أنَّ اسمها آليانا. كانَ أيضاً مهتماً بالعملِ مع توم، واكتشافِ الطريقةِ التي تُبنى فيها المباني، ولكنه علمَ أيضاً أنه بالعودةِ

سيخسرُ حريته، وأنَّ الناس سيخبرونه بما عليه فعلهُ، وأنَّ عليهِ العمل سواء أراد أم لم يرد، وسيكون عليهِ مشاركةُ والدتهِ مع بقيةِ العالمِ.

وبينما كان جالساً على الجدارِ قربَ بوابةِ الديرِ يفكرُ بكلٍّ هذا في حزنٍ ذُهلَ لرؤيةِ الـ «أميرة».

أغمضَ عينيه، وفتحهما مجدداً ليتأكد مما رآه. كانت تشقُّ طريقها عبرَ الحشدِ باتجاهِ البوابةِ، وعلائم الكربِ على وجهها. بدت أجملَ مما يتذكرها. في آخر مرةٍ رآها كان لها جسدٌ بناتي مكورٌ ومثيرٌ تحتَ ثيابها الباهظةِ، غيرَ أنَّها الآن أكثرُ نحولاً، وأقرب للمرأةِ منها للفتاةِ، وقد التصقَ ثوبها القطني المشبعُ بالعرقِ بجسدها كاشفاً عن ثديين ممتلئين، وأضلاعٍ تحتهُ، وبطنٍ مسطحٍ، ووركين ضيقين، وساقين طويلتين. كان وجهها ملطخاً بالطينِ، وشعرها الكثيف غير مرتب. بدت مستاءةً، وخائفةً من شيءٍ ما، ولكن هذا أضفى بريقاً إلى وجهها. فُتن جاك لرؤيتها، وشعرَ بإحساسٍ غريبٍ في عضوهِ لم يختبره قبلاً.

لاحقها بنظراتهِ، ومن دونِ تفكيرٍ انتقلَ من الجلوسِ على الجدار والتحديق إليها إلى اللحاقِ بها عبرَ البوابةِ. لحقَ بها في الشارعِ خارجاً. كانت تفوح منها رائحةٌ كالمسكِ، وبدت كأنَّها كانت تعملُ بجدٍ. تذكرَ أنَّ رائحتها كرائحةِ الزهورِ.

«هل من خطبٍ ما؟» سألها.

«لا، ما من خطبٍ»، أجابته بغلظةٍ، وغذَّت الخطو.

سارَ معها وقال لها: «أنتِ لا تتذكرينني. في آخر مرةٍ التقينا فيها شرحتِ لي كيفَ يولد الأطفالِ».

«أوه فلتصمت، ولتغرب بعيداً!» صرخت بهِ.

وقفَ جاكَ، وسمحَ لها بمتابعةِ سيرها. شعرَ بالخيبةِ وأنَّه تفوه بشيءٍ خاطئ.

عاملتهُ كما تعامل طفلاً مزعجاً. كان في الثالثة عشرة، وإلى فتاةٍ في الثامنة عشرة بدا لها طفلاً.

رآها تتوجه إلى منزلٍ، وتُخرجُ مفتاحاً مربوطاً بخيطٍ جلدي حولَ عنقها، وتفتح البابَ.

كانت تعيش هناك!

هذا يغيرُ كلَّ شيء.

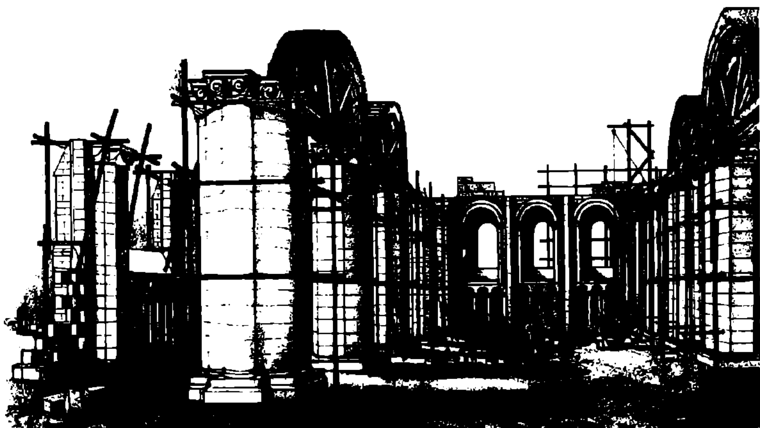
وفجأةً لم تعد فكرةُ تركِ الغابةِ والعيشِ في كينغزبريدج سيئةً. سيرى «الأميرة» كلَّ يومٍ، وستعوضهُ رؤيتها عن الكثير.

لم يتحرك من مكانهِ وظلّ يراقبُ البابَ إلَّا أنَّها لم تظهر مجدداً. كان الوقوفُ في الشارعِ على أملِ رؤيةِ أحدٍ بالكادِ يعرفهُ تصرفاً غريباً، ولكنه لم يرغب بالتحرك من مكانهِ، وشعرَ بنفسهِ ومن الداخلِ ينوء تحتَ عبءِ إحساسٍ جديدٍ. لم يعد هناك ما يهم سوى الـ «أميرة». شغلت كلَّ تفكيرهِ، وفتنتهُ، وتلبَّستهُ.

كان واقعاً في غرامها.

الجزء الثالث

من عام 1140 وحتَّى عام 1142



الفصل الثامن

- 1 -

لم تكن العاهرةُ التي اختارها وليم جميلةً، ولكن راقه حجمُ ثدييها الهائلين وشعرها الكثيف. خطت المرأةُ نحوه تتمايل بوركيها في غُنجٍ، واكتشفَ وليم أنَّها أكبر بقليلٍ مما اعتقدَ. ربما كانت في الخامسةِ والعشرين، أو في الثلاثين من العمرِ، ورغمَ أنَّ ابتسامتها بدت بريئةً فإنَّ نظرتها كانت قاسيةً وحذرةً. كان والتر التالي، واختار فتاةً ضئيلةً وهشَّة المظهرِ لها جسدٌ صبياني وصدرٌ مسطحٌ. عندما انتهى وليم ووالتر من الاختيار تقدَّم الفرسان الأربعة الآخرون.

كانت وتيرةُ الحربِ الأهليةِ التي تصاعدت منذُ عامٍ بين الملكِ ستيفن ومنافستهِ مود، أو من تُدعى بالإمبراطورة، هادئةً الآن. لحقَ وليم ورجالهُ بالملكِ ستيفن إلى الجزء الغربي الجنوبي من إنكلترا، وكانت إستراتيجية ستيفن فعَّالةً ولكن غريبةً؛ فهو قد يُهاجمُ أحدَ معاقلِ مود بحماسٍ هائلٍ، ولكن إن لم يحقق نصراً مُبكراً يملّ على الفورِ من الحصارِ، ويرغب بالمضي قُدماً. لم تكن مود نفسها قائدةَ الثوارِ بل أخاها غير الشقيق روبرت الذي كان إيرل غلوستر، وفشلَ ستيفن حتَّى الآن في جرّهِ إلى مواجهةٍ مباشرةٍ. لم تكن حرباً حاسمةً مع كثرةِ التحركات وتراجع القتالِ المباشر، وهذا ما جعلَ الرجالَ قلقين.

كان منزلُ الدعارةِ مقسوماً إلى غرفٍ صغيرةٍ تفصلها ستائر، وفي كلِّ غرفةٍ فراشٌ من القشِّ. رافقَ وليم وفرسانُه النسوةَ إلى ما وراءِ الستائرِ. عدَّلت عاهرةُ وليم الستارةَ من أجلِ الخصوصيةِ ثمَّ نزعت قميصها، وكشفت عن

ثدييها. وكما توقع وليم كانا ثديين كبيرين، ولكن بحلمتين كبيرتين، وعروقٍ بارزةٍ كما في ثديي امرأةٍ أرضعت أطفالاً. خابَ أملُ وليم غيرَ أنَّه جذبها نحوه، وأمسكَ بثدييها، وعصرهما، وقرصها من حلمتيها. «برفقٍ»، قالت له بنبرةٍ احتجاجيةٍ بسيطةٍ ثمَّ عانقتهُ، وجذبته من وركيهِ، وبدأت تفركُ نفسها بهِ، وبعدَ بضعِ دقائقَ وضعت يدها بين جسديهما، وتحسست عضوه.

وأطلقَ وليم لعنةً فجسده لم يستجب.

«لا تقلق»، همست له. أثارت لهجتها المتعالية غضبهُ، ولكنه لم يتفوه بكلمةٍ عندما أفلتته، وركعت ثمَّ رفعت مقدمةَ ردائهِ، وبدأت العملَ بفمها.

في البدايةِ راقَه الشعور، واعتقدَ أنَّ كلَّ شيءٍ سيكون على ما يرام، ولكن بعدَ الاندفاعِ الأولي فقد الاهتمامَ مجدداً. أخذَ يراقبُ وجهها فهذا يثيره أحياناً، ولكنه لم يرَ سوى خيبته عليهِ، وبدأ الغضب يتملكهُ، وجعلهُ يفقد انتصابه أكثر.

توقفت وقالت له: «حاول أن تسترخي»، وعندما عادتْ إلى ما كانت تفعلهُ مصَّت قضيبه بقوةٍ آلمته. سحبَ عضوهُ فقشطت أسنانها بشرةَ عضوهِ الحساسةَ فصرخَ من الألمِ، وصفعها بظاهرِ يدهِ على وجهها فشهقت وسقطت جانباً.

«عاهرةٌ خرقاء»، صرخَ في وجهها. كانت مستلقية على الفراشِ عندَ قدميهِ، وتحدقُ به في خوفٍ. ركلها ركلةً عشوائيةً من الضيقِ أكثر من الأذى فأصابتها في بطنها. كانت الضربة أقوى مما أرادها فصرخت المرأة في ألمٍ مضاعفٍ.

وأدركَ هنا أن جسدهُ أخيراً بدأ يستجيبُ.

ركعَ وأدارها على ظهرها ثمَّ باعدَ بينَ ساقيها. حدَّقت إليهِ وفي عينيها تجلى ألمٌ وخوفٌ. رفعَ تنورةَ فستانها حتَّى الخصرِ، ووجدَ الشعرَ بين ساقيها كثيفاً ومُجعداً. لم يكن انتصابُ عضوهِ كاملاً، وكان الخوفُ قد بدأ يغادرها. خطرَ ببالهِ أنَّها ربما كانت تحاولُ المماطلة عن قصدٍ كي تُطفئ رغبتهُ، ولا تضطر إلى خدمتهِ، وأثارت الفكرةُ غضبهُ فلكمها على وجهها بقوةٍ.

صرخت، وحاولت تحرير نفسها من تحتهِ فألقى بكاملِ وزنهِ عليهِ وثبتها، ولكنها استمرَّت بمقاومتهِ، والصراخ. كانَ عضوهُ الآن منتصباً بالكاملِ، وحاولَ أن يُباعد بينَ ساقيها بالقوةِ، ولكنها قاومتهُ.

تحركت الستارةُ جانباً ودخلَ والتر الذي لم يكن يرتدي شيئاً سوى جزمتهِ وقميصهِ الداخلي وعضوه ناتئ إلى الأمامِ كساريةِ علمٍ. دخلَ فارسان آخران يدعيان آغلي جرفيز وهيو آكس وراءَ والتر.

«ثبّتوها من أجلي أيّها الفتية»، قال وليم لهم.

وركعَ الفرسان الثلاثة حولَ العاهرةِ، وثبتوها أرضاً.

أخذَ وليم موقعهُ ليخترقها، ولكنه توقفَ لبرهةٍ مستمتعاً بالترقبِ.

قال والتر: «ما الأمرُ يا سيدي؟»

«غيرت رأيها عندما رأت حجمهُ»، قال وليم مع ابتسامة.

وغرقَ الرجالُ في الضحكِ. اخترقَ وليم العاهرةَ، واستمتعَ بوجودِ أناسٍ يراقبونهُ، وبدأ يدفعُ بعضوهِ إلى الداخلِ والخارجِ.

قال والتر: «قاطعتني عندما كنتُ على وشكِ وضعهِ».

ورأى وليم أنَّ والتر لم يُرضِ رغبته بعد فقال له: «ضعه في فمها فهي تحبُّ هذا».

«سأجرب»، قال والتر، وغيرَ وضعيتهُ ثمَّ أمسكَ المرأة من شعرها، ورفعَ رأسها. بحلولِ الآن كانت المرأةُ مرتعبةً جداً على الإتيان بأيّةِ حركةٍ، ولذلك تعاونت على الفورِ. ورغمَ أنّه لم يعد هناكَ حاجةٌ لمساعدةِ جرفيز وهيو في تثبيت المرأةِ فإنّهما بقيا للمشاهدةِ وبدوَا مأخوذين؛ فهما على الأغلبِ لم يشاهدا امرأةً يضاجعها رجلان في آنٍ معاً من قبل. وليم أيضاً لم يرَ هذا قبلاً، وكان الأمرُ ممتعاً، ومثيراً للفضولِ. بدا والتر كأنّه شعرَ بالمثلِ لأنّه بدأ بعدَ دقائقٍ بالتنفسِ بصعوبةٍ، والتحركِ كأنّه مصابٌ بالتشنجِ ثمَّ قذفَ. كان وليم يراقبهُ، وقذفَ هو الآخر بعده بثانيةٍ أو ثانيتين.

بعدَ برهةٍ نهضَ وليم ووالتر على أقدامهما. كان وليم ما يزالُ يشعرُ بالحماسةِ، وقال لجرفيز وهيو: «لمَ لا تضاجعانها أنتما أيضاً؟» أحبَّ فكرةَ تكرارِ العرضِ.

ولكن الرجلين لم يكونا راغبين بهذا.

«لدي فتاةٌ صغيرةٌ بانتظاري»، قال هيو.

«وأنا أيضاً»، قال جرفيز.

نهضت العاهرةُ، وعدَّلت ثوبها. لم تكن معالم وجهها مفهومةً، وقالَ لها وليم: «لم يكن الأمرُ سيئاً، أليسَ كذلك؟»

وقفت قبالته، وحدَّقت إليه لوهلةٍ ثمَّ زمَّت شفتيها، وبصقت. شعرَ وليم أنَّ وجهه مغطى بسائلٍ دافئ ولزجٍ. لقد أبقت مني والتر في فمها. أغشت المادةُ بصرهُ، وفي غضبٍ رفعَ يدهُ ليضربها، ولكنها كانت قد انسلت من بين الستائرِ.

انفجرَ والتر وبقيةُ الفرسانِ ضاحكين. لم يكن الأمرُ مضحكاً لوليم، ولكنه لا يستطيع ملاحقةَ فتاةٍ والمني يُغطي وجهه، وأدركَ أنَّ الطريقةَ الوحيدةَ التي يمكنه فيها الحفاظ على ماءِ وجهِهِ هي التظاهر بعدمِ الاهتمامِ، ولهذا انفجرَ ضاحكاً هو الآخر.

قال آغلي جرفيز: «حسناً يا سيدي. آملُ ألا تحملَ بطفلٍ والتر الآن!» وانفجروا جميعاً ضاحكين. حتَّى وليم رأى الدعابةَ مضحكةً. خرجوا جميعاً من الغرفةِ الصغيرةِ معاً متكئين بعضهم على أكتافِ بعض وهم يمسحون الدموع من أعينهم من شدةِ الضحكِ. حدَّقت بقيةُ الفتياتِ إليهم في قلقٍ فقد سمعنَ صراخَ عاهرةِ وليم، وكنَّ خائفات من المتاعبِ. أخرجَ زبونٌ أو زبونان رأسيهما من وراءِ الستائرِ، وحدَّقا في فضولٍ. قال والتر: «إنَّها أول مرةٍ في حياتي أرى فيها فتاةً تقذفُ!» وانخرطوا جميعاً في الضحكِ مجدداً.

وجدَ وليم أحد مرافقيه في الخارجِ ينتظره، والقلقُ بادٍ على وجههِ. كان مجرَّد فتى، وربما لم يدخل إلى منزلِ دعارةٍ من قبلٍ. ابتسم الفتى في توترٍ وترددٍ بالانضمامِ إلى جوقةِ ضحكهم.

قال له وليم: «ما الذي تفعلهُ هنا أيّها الأحمقُ المتجهم؟»

«وصلتكَ رسالةٌ يا سيدي»، قال المرافقُ.

«حسناً، لا تُضيع المزيدَ من الوقتِ، وأطلعني عليها».

«أنا آسفٌ جداً يا سيدي»، قال الفتى في رعبٍ شديدٍ اعتقدَ معهُ وليم أنَّ الفتى سيستدير على أعقابهِ ويركض.

«ما الذي يؤسفكَ أيّها الغبي؟» زمجرَ وليم في وجههِ. «أخبرني بالرسالةِ!»

«لقد توفي والدكَ»، قال الفتى متلعثماً، وانخرطَ في البكاءِ.

حدَّقَ وليم إليهِ مصعوقاً. «ميتٌ»، فكرَ في نفسهِ. «ميتٌ؟» ثمَّ صرخَ بغباءٍ: «ولكنهُ في أتمِّ صحةٍ!» صحيحٌ أنَّ والدهُ لم يكن قادراً على القتالِ في المعاركِ، ولكن هذا لم يكن مفاجئاً لرجلٍ في عقدهِ الخامسِ تقريباً. استمرَّ المرافقُ بالبكاءِ. تذكرَ وليم كيفَ بدا والدهُ في آخر مرةٍ رآه فيها. كان قوياً، ومورِدَ الوجهِ، وحسنَ الشهيةِ، وغضوباً. كان مليئاً بالحياةِ كما يجدرُ بأيِّ رجلٍ أن يكون، وكان هذا منذُ... وهنا أدركَ بشيءٍ من الصدمةِ أنَّه مضى عام على آخر مرَّةٍ رأى فيها والدهُ.

«ما الذي حدثَ؟ ما الذي حدثَ له؟» سألَ وليم المرافق.

«تعرَّضَ إلى نوبةٍ يا سيدي»، قال المرافقُ وهو ينشجُ.

نوبةٌ.

بدأ وليم يستوعب الخبرَ. والدهُ ميتٌ. ذلكَ الرجلُ الضخم والقوي، والعنيف، والغضوب ممددٌ بلا حولٍ ولا قوةٍ على بلاطةٍ حجريةٍ في مكانٍ ما...

«يجب أن أعود إلى الديارِ»، قال وليم على حينِ غرَّةٍ.

وهنا قالَ له والتر بلطفٍ. «عليكَ أن تطلبَ إذنَ الملكِ أولاً».

«أجل هذا صحيح»، قال وليم سارحاً. «يجبُ أن أطلبَ الإذنَ». كان عقلهُ في حالةِ تخبطٍ.

«هل أنقدُ صاحبةَ بيتِ الدعارةِ المالَ؟» سألَ والتر.

«أجل»، قال وليم، وأعطى والتر محفظةَ المالِ. وضعَ أحدهم العباءةَ على كتفِ وليمِ، وهمسَ والتر بشيءٍ للمرأةِ التي تدير بيتَ الدعارةِ ثمَّ أعطاها بعضَ المالِ. فتحَ هيو آكس البابَ لوليم، وخرجوا جميعاً.

عبروا شوارعَ المدينةِ الصغيرةِ في صمتٍ. كان وليم في حالةِ انفصالٍ غريبةٍ كأنَّه يراقبُ كلَّ شيءٍ من الأعلى. عجزَ عن استيعابِ فكرةِ أنَّ والدهُ لم يعد موجوداً، وعندما اقتربوا من المركزِ حاولَ تمالكَ نفسِهِ.

بسببِ افتقارِ المدينةِ إلى قلعةٍ، وقاعةِ نقابةٍ أقامَ الملكُ ستيفن بلاطه في كنيسةٍ حجريةٍ بسيطةٍ جدرانها من الداخلِ مطلية بالأحمرِ، والأزرقِ، والبرتقالي الزاهي. في وسطِ القاعةِ موقدٌ يجلسُ بقربهِ ملكٌ أسمر وسيمٌ على

عرشٍ خشبي في وضعيةِ استرخائهِ المعتادةِ مادَّاً ساقيهِ أمامَهُ. كان في ثيابِ الجنديةِ، وينتعل جزمةً عاليةً، ويرتدي سترةً جلديةً، وبدلاً من التاج يضع خوذةً. شقَّ وليم ووالتر طريقهما عبرَ حشودِ المُلتمسين قربَ باب الكنيسةِ، وأومآ برأسيهما للحراسِ المشغولين بإبعادِ جموعِ الشعبِ عن البابِ، ومشيا بخطى واسعة إلى الدائرةِ الداخليةِ للبلاطِ. وجدا ستيفن يتحدث إلى إيرلٍ وصلَ حديثاً، ولكن حالما لاحظَ وليم قطعَ الحديثَ على الفورِ قائلاً: «وليم يا صديقي. سمعتَ الخبرَ إذاً».

انحنى وليم وقال: «أجل يا مولاي الملك».

وقف ستيفن وقال: «تعازي الحارَّةِ». ووضع ذراعهُ على كتفِ وليم لوهلةٍ ثمَّ أنزلها.

جلبَ تعاطفُ الملكِ معهُ باكورةَ الدموعِ إلى عينيه وقال: «أطلبُ منكَ الإذنَ بالعودةِ إلى الديارِ».

«أمنحكَ الإذنَ بطواعيةٍ، ولكن ليسَ بسعادةٍ»، قال الملكُ. «سنفتقدُ ساعدكَ القوي».

«شكراً يا مولاي».

«وسأمنحكَ أيضاً الوصايةَ على شايرنغ، وعلى كلِّ عوائدها إلى أن تُحلَّ مسألةُ نقلها. عُد إلى الديارِ، وادفن والدكَ، ولتعد في أسرعِ وقتٍ ممكنٍ».

انحنى وليم مجدداً وانسحبَ، وعادَ الملكُ إلى حديثهِ مع ضيفهِ. احتشدَ رجالُ البلاطِ حولَ وليم لتعزيتهِ، وبينما كانَ يتلقى التعازي شغلهُ ما قاله الملك. منحه الملكُ الوصايةَ على شايرنغ إلى أن «تُحلَّ مسألةُ نقلها»، ولكن ما هي هذهِ المسألة؟ كان وليم وحيدَ والدهِ، ولذلكَ لا يمكن أن يكونَ هناكَ مشكلةٌ حيالَ الأمرِ. حدَّقَ إلى الوجوهِ من حولهِ، وأشرقت عيناه عندما رأى كاهناً شاباً. كانَ الكاهنُ من بينِ أكثرِ الكهنةِ معرفةً في بطانةِ الملكِ الدينية. جذبَ وليم الكاهنَ نحوه، وسألهُ بهدوءٍ: «بحقِ الشيطان يا جوزيف ما الذي عناه الملك بـ «مسألةِ نقلها»؟»

«هناكَ مُطالبٌ آخر بالمنصبِ؟» أجابَ جوزيف.

«مُطالبٌ آخر؟» كررَ وليم في ذهولٍ. لم يكن لديهِ إخوةٌ نصفُ أشقاء، ولا لقطاء، ولا أبناءُ عمومٍ. «ومن يكون هذا المُطالب؟» سألَ وليم.

أشارَ جوزيف إلى شخصٍ واقفٍ وظهره لهم. كانَ برفقةِ القادمين الجدد ويرتدي ثيابَ مرافقٍ.

«ولكنه ليسَ فارساً حتَّى!» قال وليم بصوتٍ عالٍ. «كان والدي إيرل شايرنغ!»

سمعهُ المرافق واستدارَ ثمَّ قال: «ووالدي أيضاً كان إيرلَ شايرنغ».

للوهلةِ الأولى لم يعرف وليم المرافق. كان شاباً وسيماً في الثامنة عشرة عريضَ المنكبين، وحسنَ الهندام جداً بالنسبةِ إلى مرافقٍ، ويحمل سيفاً رائعاً، ويقف بطريقةٍ تعكسُ ثقةً إن لم تكن غروراً. ولكن ما أذهلَ وليم أكثرَ من أيِّ شيءٍ آخر هو أنَّ الشاب نظرَ إليهِ بحقدٍ أسود أرسلَ القشعريرةَ في أوصالهِ.

كان وجهُ الشابِ مألوفاً، ولكن بطريقةٍ غريبةٍ، وعجزَ وليم حتَّى الآن عن تذكرهِ إلى أنَّ رأى نُدبةً عميقةً في أذنِ المرافقِ اليمنى حيثُ كانت الشحمةُ مقطوعةً. عادتَ الذكرى إلى وليم كومضةٍ سريعةٍ، ورأى قطعةً من اللحم الأبيض تسقطُ على صدرٍ محمومٍ لعذراء مرتعبةٍ، وسمعَ صوتَ صبي يصرخُ من الألمِ. كان ريتشارد ابن الخائنِ بارثيميلو، وشقيق آليانا. بات الفتى الصغير الذي أُجبر على مشاهدةِ رجلين يغتصبان شقيقتهُ رجلاً قوياً ببريقِ انتقامٍ في عينيهِ، وفجأةً شعرَ وليم بخوفٍ رهيبٍ يتملكهُ.

«أنتَ تتذكر، أليسَ كذلك؟» قال ريتشارد بشيءٍ من التشدقِ لم يُخفِ معه الغضب البارد الذي يعتمل في صدرهِ.

أومأ وليم برأسهِ وقال: «أتذكر».

«وأنا أيضاً يا وليم هاملي»، قال ريتشارد. «وأنا أيضاً».

***

جلسَ وليم على الكرسي الكبير عندَ رأسِ الطاولةِ حيثُ اعتادَ والدهُ الجلوسَ. لطالما عرفَ أنَّه سيشغلُ هذا الكرسي في يومٍ من الأيامِ، وتخيلَ أنَّه سيشعرُ بقوةٍ كبيرةٍ عندما يفعلُ هذا، ولكنه في الحقيقةِ شعرَ بشيءٍ من الخوفِ. خشي أن يقولَ الناس إنّه لم يكن كوالدهِ، وألا يعاملوه بذات الاحترام.

جلست والدتهُ إلى يمينهِ. اعتادَ وليم مشاهدتها تجلس كلما جلسَ والده

على هذا الكرسي، ومراقبتها وهي تتلاعبُ بمخاوفهِ، ونقاط ضعفه لتحصلَ على مُبتغاها، وعزمَ على عدمِ السماحِ لها بفعلِ هذا معه أيضاً.

إلى يسارهِ جلسَ آرثر. كان رجلاً هادئ الطباعِ أشيبَ الشعرِ، وشغلَ منصبَ مديرِ المقاطعةِ منذُ أيامِ بارثيميلو كإيرل. عندما كان والد وليم الإيرل استعانَ بآرثر لأنَّ الرجلَ يمتلكُ معرفةً جيدةً بالملكيةِ، ولكن وليم نظرَ بعينِ الشكِّ إلى هذا المنطقِ؛ لأنَّ خدمَ الآخرين أحياناً يلتزمون بطرائقِ رؤسائهم السابقين.

«لا يمكنُ للملكِ ستيفن أن يُنصبَ ريتشارد إيرلاً»، قالت والدتهُ في غضبٍ. «إنَّه مجرَّد مرافقٍ!»

«لا أفهم حتَّى كيفَ وصلَ إلى هذا الحالِ»، قال وليم بغيظٍ. «اعتقدت أنَّ والدهما تركهما مُعدمين، ولكنه يرتدي ثياباً فاخرةً، ويحمل سيفاً جيداً. من أينَ حصلَ على المال؟»

«رفعَ مكانتهُ من تجارةِ الصوفِ»، قالت والدتهُ. «ولديهِ كلّ ما يحتاجُ من المالِ، أو بالأحرى أختهُ آليانا. سمعتُ أنَّها تاجرةٌ».

إذاً، آليانا وراءَ هذا كلهِ. لم ينسها وليم، ولكن بعدَ اندلاعِ الحربِ لم يفكر فيها كثيراً إلى أن التقى بريتشارد، ومنذئذٍ لم تفارق أفكاره. تخيلها عذبةً، وجميلةً، وضعيفةً، ومغريةً تماماً كما كانت قبلاً، وكرهها بسببِ سطوتها عليهِ.

«إذاً، آليانا ثريةٌ الآن؟» سأل وليم متظاهراً باللامبالاةِ.

«أجل، ولكنكَ تُقاتلُ إلى جانبِ الملكِ منذُ عامٍ، ولا يمكنهُ حرمانكَ من إرثكَ».

«يبدو أنَّ ريتشارد حاربَ بشجاعةٍ أيضاً»، قال وليم. «تحريت عن الأمرِ، وأسوأ ما علمتهُ هو أنَّ الملكَ علمَ بشجاعتهِ».

تغيرت معالمُ وجه والدتهِ، وبدت غارقة في التفكيرِ.

«إذاً فهو يمتلكُ فرصةً»، قالت والدتهُ.

«أخشى هذا».

«حسناً، يجبُ أن نحاربهُ، ونمنعه».

وبشكلٍ آلي سألها وليم: «ولكن كيف؟» كان قد قررَ ألا يسمحَ لها باستلامِ زمامِ الأمورِ، ولكن ها هو الآن يسمحُ لها.

«يجب أَن تعودَ إلى الملكِ بقوةٍ أكبر من الفرسانِ، وأسلحةٍ جديدةٍ، وجيادٍ أفضل، والكثير من المرافقين والجنودِ».

أرادَ وليم مخالفتها الرأي، ولكنها كانت على حقٍ. في نهايةِ المطافِ سيُقدمُ الملكُ المنصبَ إلى الرجلِ الذي يقدمُ له دعماً أكبر بغضِ النظرِ عن حيثياتِ القضيةِ.

«ولكن هذا ليسَ كلَّ شيءٍ»، تابعت والدتهُ. «يجب أن تهتمَّ بأمرِ مظهركَ، وسلوككَ كإيرل حتَّى يبدأ الملكُ برؤيتكَ كإيرل، ويحسمَ أمرهُ».

ورغمَ محاولته عدم الوقوع في حبائل والدتهِ فإن كلامها أثار اهتمامهُ فسألها: «وكيفَ لي أن أبدو وأتصرف كإيرل؟»

«قدّم رأيكَ في كلِّ شيءٍ. في الطريقةِ التي يجبُ أن يتابع فيها الملكُ الحربَ، وفي أفضل التكتيكات لكلِّ معركةٍ، والوضع السياسي في الشمال، والأهمُّ من هذا كلهِ مسألة قدراتِ وولاءات بقيةِ الإيرلات. تحدث إلى كلِّ إيرلٍ عن آخر. أخبر إيرل هانتنغدون أنَّ كونتَ ويرنيه مُقاتلٌ عظيمٌ، وأخبر أسقفَ إيلاي أنَّكَ لا تثقُ بمأمورِ لينكولن. وسيقول الناسُ للملكِ: «وليم من شايرنغ مع الكونت ويرنيه» أو أن «وليم شايرنغ وأتباعهُ ضد مأمورِ لينكولن». إن بدوتَ قوياً سيرتاحُ الملكُ لقرارِ منحكَ المزيدَ من القوةِ».

لم يقتنع وليم بهذا الكلام، واستدار مُخاطباً الوكيل: «أعتقدُ أنَّ حجمَ جيشي سيرجحُ كفَّتي. كم لدينا في الخزينةِ من مالٍ يا آرثر؟»

«لا شيء يا سيدي»، قال آرثر.

«ما الذي تتحدث عنه بحقِ الشيطان؟» قال وليم بغلظةٍ. «لا بدَّ أن يكون فيها بعضُ المالِ. ما هو المبلغ؟»

كان لآرثر هيئةٌ متعاليةٌ بعضَ الشيءِ وبدا كأنَّه لا يخشى وليم أبداً. «أيُّها اللورد، لا يوجد مالٌ في الخزينة».

أرادَ وليم أن يخنقهُ حتَّى الموت.

«هذهِ شايرنغ!» صرخَ وليم بصوتٍ عالٍ كفايةً لجعل الفرسان وموظفي القلعةِ عندِ نهايةِ الطاولةِ يحدقون إليهما. «لا بدَّ أن يكون هناك مالٌ».

«بالطبع أيّها اللورد المالُ يأتي على الدوامِ»، قال آرثر بلطفٍ. «ولكنهُ يذهبُ أيضاً، خاصةً في أوقاتِ الحربِ».

أمعنَ وليم النظرَ إلى وجهِ آرثر الشاحبِ والمحلوق بعنايةٍ. كان آرثر لطيفاً جداً، وتساءل وليم في نفسهِ إن كان الرجلُ نزيهاً، ولكن لم يكن هناك من سبيل للتأكدِ من الأمرِ، وتمنّى وليم لو أنّه يمتلكُ عينين قادرتين على اختراقِ قلبِ رجلٍ ومعرفة ما فيهِ.

أدركت والدتهُ ما كان يفكرُ فيهِ.

«آرثر صادقٌ»، قالت له دونَ أن تعبأ لوجودِ الرجل قبالتها، وتابعت: «إنّه عجوزٌ وكسولٌ، وله طرائقهُ، ولكنه صادقٌ».

كان وليم مصدوماً. لم يمضِ على جلوسهِ على الكرسي سوى بضع دقائق وها هي سُلطته تتزعزعُ كأنّها تحت تأثير تعويذةٍ. شعرَ وليم أنّه ملعون بالبقاء، ومهما بلغَ من العمرِ، صبياً بينَ الرجالِ، وفي ضعفٍ قال وليم: «كيفَ حدثَ هذا؟»

قالت والدتهُ: «كان والدكَ مريضاً طوال أفضلِ فترةٍ في العام، ورأيت كيفَ أهملَ الأمورَ، ولم أنجح في إجبارهِ على القيامِ بأيِّ شيءٍ حيالَ الأمرِ».

تفاجأ وليم عندما تيقنَ أنَّ والدتهُ لم تكن عظيمةَ القدرةِ كما تخيلها رغمَ أنّه لا يتذكرها أبداً تعجز عن الحصول على مرادها. استدارَ وليم نحو آرثر وقال: «نملك أفضل الأراضي الزراعيةِ في المملكةِ فكيفَ لنا أن نكون مفلسين؟»

« تواجه بعضُ المزارعِ المتاعب، والعديدُ من المستأجرين متأخرون عن دفعِ إيجاراتهم».

«ولكن لماذا؟»

«العذرُ الشائعُ الذي أتلقاه هو أنَّ الشباب لا يريدون العملَ في الزراعةِ بل الهجرة إلى البلدات».

«إذاً يجب أن نوقفهم!»

هزَّ آرثر كتفيهِ وقال: «إن عاشَ أحدُ الأقنانِ في بلدةٍ لعامٍ يصبحُ رجلاً حرّاً. هذا هو القانون».

«وماذا عن المستأجرين الذين لا يدفعون الإيجارات؟ ما الذي فعلتهُ بشأنهم؟»

«وما الذي نستطيع فعله؟» أجاب آرثر. «إن حرمناهم من مصدرٍ رزقهم لن يتمكنوا من الدفعِ لنا أبداً؛ ولذلكَ يجب أن نصبرَ عليهم، ونأمل أن يكون حصادهم وفيراً حتَّى يعوضوا عما تخلفوا عن دفعهِ».

أحسَّ وليم أنَّ آرثر يتحدث بمرحٍ حولَ عدمِ قدرتهِ على حلِّ هذهِ المشاكلِ. انتابه الغضب، ولكنه لجمه لبعضِ الوقتِ قائلاً: «حسناً، إنَّ كان الشباب يهاجرون إلى البلدات ماذا عن إيجاراتِ المنازلِ في شايرنغ؟ لا بدَّ أننا نحصل على بعضِ المالِ من الإيجاراتِ».

«من الغريبِ حقاً أنَّنا لا نحصل»، قال آرثر. «هناك الكثير من المنازلِ الفارغةِ في شايرنغ، وهذا يعني أنَّ الشباب توجهوا إلى بلدات أخرى».

«أو أنَّ الناس كذبوا عليكَ»، قال وليم. «أعتقدُ أنَّك ستقول لي أيضاً إنَّ عوائدَ سوقِ شايرنغ، وسوقِ الصوفِ قد انخفضت أيضاً؟»

«أجل...»

«إذاً، لماذا لا ترفعُ الإيجارات والضرائبَ؟»

«لقد رفعناها أيُّها اللورد بناءً على طلبِ والدكَ الراحل، ولكن المدخول استمرَ بالهبوطِ».

«إن لم تكن الملكيةُ منتجةً إلى هذا الحدِّ فكيفَ عاشَ فيها بارثيميلو إذاً؟» قال وليم وقد نفد صبره.

وكان لآرثر جوابٌ على هذا أيضاً. «كان لديهِ أيضاً المقلع الذي عادَ عليهِ بالكثيرِ من المالِ».

«والمقلعُ الآن بيدِ ذلكَ الراهبِ الملعونِ»، قال وليم وهو يرتجف غضباً. حتَّى عندما يحتاجُ إلى التباهي يُخبرونهُ أنَّه مفلسٌ، وكان الموقفُ بالنسبةِ إليه خطيراً. منحه الملكُ الوصايةَ على شايرنغ، وكان هذا بمنزلة اختبارٍ له. إن عادَ إلى البلاط بجيشٍ أصغر فسيبدو جاحداً، بل حتَّى غير مخلصٍ للملكِ.

علاوةً على ذلكَ لا يمكنِ أن تكون الصورةُ التي رسمها آرثر صحيحةً تماماً، وشعرَ وليم بالثقةِ من أنَّ الناس يخدعونهُ، بل يضحكون عليهِ من وراءِ

ظهرهِ أيضاً، وأثارت هذهِ الفكرةُ غضبهُ. قررَ ألا يقبل بالأمرِ، وأن يُثبت لهم أنهم مُخطئون. سيكون هناكَ حمامُ دمٍ قبلَ أن يقبلَ بالهزيمةِ.

«لديكَ عذرٌ على كلِّ شيءٍ»، قال وليم لآرثر وتابع: «والحقيقةُ هي أنَّك وخلالَ مرضٍ والدي سمحتَ للملكيةِ بالتدهورِ في الوقتِ الذي كان عليك فيهِ أن تكون أكثر تيقظاً».

«ولكن أيُّها اللورد...»

وتحدَّثَ وليم بصوتٍ عالٍ: «أغلق فمكَ، أو سأجلدكَ».

شحبَ وجه آرثر من الخوفِ، ولاذ بالصمتِ.

قال وليم: «بدءاً من الغدِ سنتجول في الملكيةِ، ونزور كل قريةٍ أملكها ونخيف المستأجرين. قد لا تعرف كيفَ تتعاملُ مع الفلاحين المتباكين والكاذبين، ولكنني أعرفُ، وعاجلاً أم آجلاً سنعرفُ إن كانت ملكيتي مفلسةً أم لا. إن اكتشفتُ أنَّكَ كاذبٌ أقسمُ بالربِّ أنَّك ستكون أولَ من أرسلهم إلى المشنقةِ».

***

اصطحبَ وليم آرثر، ومرافقه والتر، وأربعة فرسانٍ آخرين قاتلوا إلى جانبهِ طوالَ العام الفائتِ وهم آغلي جرفيز، وهيو آكس، وغيلبرت دي رينز، ومايلز دايس. كانوا رجالاً ضخاماً، وعنيفين، وسريعي الغضب، ومستعدين دوماً للانخراطِ في القتالِ. امتطوا أفضلَ جيادهم، وتسلحوا من رؤوسهم حتَّى أخمصِ أقدامهم لإخافةِ الفلاحين. يؤمن وليم أنَّ الرجلَ الذي لا يهابهُ الناس عاجزٌ.

كان يوماً حاراً من أواخر أيامِ فصلِ الصيفِ وسنابل القمحِ في الحقولِ متسامقةٌ وناضجةٌ. أثارَ مشهدُ الوفرةِ والثروةِ أمامَ عيني وليم غضبهُ أكثر من حقيقةِ أنَّه كان مُفلساً. هناكَ من يسرقهُ، ويجبُ أن يخيفهُ كيلا يكرر فعلتهُ. عندما أُلحقَ العار ببارثيميلو فازت عائلتهُ بملكيةِ شايرنغ، ومع ذلك فهم في فقرٍ مدقعٍ، وابن بارثيميلو يملكُ مالاً أكثر منه! تضايقَ جداً من فكرةِ أنَّ الناس يسرقونه، ويضحكون على جهلهِ، وكان ضيقه أشبه بوجعٍ في المعدةِ، ومع تقدمهِ في رحلتهِ تعاظمَ غضبهُ.

كان قد قررَ البدء بقريةِ نورثبروك الصغيرة والبعيدةِ بعضَ الشيءِ عن

القلعةِ فالفلاحون فيها مزيجٌ من الأقنانِ والأحرارِ. كان الأقنان مُلكاً لوليم، ولا يستطيعون القيامَ بشيءٍ دونَ إذنهِ، ويدينون له بأيام عملٍ في أوقاتٍ معينةٍ من العام، إضافةً إلى حصةٍ من محاصيلهم، أمَّا الأحرار فيدفعون له الإيجار بمالٍ أو بمنتوجات. في هذهِ القريةِ خمسةُ أحرار متأخرين عن دفعِ إيجاراتهم. اعتقدَ وليم أنَّهم كانوا يفكرون بالتملصِ من الدفعِ بسببِ بُعدِ قريتهم عن القلعةِ، ولهذا رأى أنَّه من الأفضلِ البدءُ بإرهابهم من هنا.

كانت رحلةً طويلةً، وعندما وصلوا إلى القريةِ كانت الشمسُ في كبدِ السماءِ. هناكَ ما يقارب العشرين، أو الثلاثين منزلاً حولَ ثلاثةِ حقولٍ كبيرةٍ حُصدت جميعها الآن. قريباً من المنازلِ، وعلى تُخومِ أحدِ الحقولِ ثلاثُ أشجارِ بلوطٍ قريبة بعضها من بعض لاحظ وليم وهو يقتربُ مع رجالهِ أنَّ معظمَ سكانِ القريةِ يجلسون في ظلِّ أشجارِ البلوطِ يتناولون غداءهم. عندما بات وليم على بُعدِ عدَّةِ مئاتٍ من الياردات وكز جوادهُ فانطلقَ الجواد عدواً، ولحقَ بهِ رجاله ثمَّ توقفوا جميعاً أمامَ الفلاحين وسطَ غمامةٍ من الغبارِ.

وبينما كان الفلاحون ينهضون على أقدامهم، ويبتلعون خبزهم القاسي، ويحاولون مسحَ أعينهم من الغبارِ، لاحظَ وليم في ارتيابٍ مشهداً درامياً مثيراً للفضولِ. كان هناك رجلٌ في منتصفِ العمرِ بلحيةٍ سوداء يتحدث بلطفٍ، ولكن بإلحاحٍ إلى فتاةٍ ممتلئةٍ، ومورِدةِ الخدين تحملُ طفلاً ممتلئاً، ومورد الخدين أيضاً. انضمَّ شابٌ إليهما، ولكن سرعان ما أرسلهُ الرجلُ الأكبر عمراً بعيداً، ثمَّ غادرت الفتاةُ، وأخذت الطريقَ باتجاهِ المنازلِ في احتجاجٍ، واختفت وراءَ غمامةِ الغبارِ. أثارَ المشهدُ اهتمامَ وليم. كان هناك شيءٌ خبيثٌ في المشهدِ، وتمنَّى لو أنَّ والدتهُ برفقتهِ لتفسرهُ له.

قررَ وليم ألا يفعلَ شيئاً حيالَ الأمرِ الآن، وتوجهَ بالحديثِ إلى آرثر قائلاً بصوتٍ عالٍ بما يكفي ليسمعه الجميع: «يوجد خمسةُ مستأجرين متأخرين عن الدفعِ، أليسَ هذا صحيحاً؟»

«أجل أيُّها اللورد».

«ومن أسوأهم؟»

«آثلستان متخلفٌ عن الدفعِ منذُ عامين، ولكن حالفه حظٌ عاثرٌ مع خنازيرهِ...»

قاطعَ وليم آرثر قائلاً: «ومن هو آثلستان؟»

وتقدَّم رجلٌ طويل بكتفين محنيتين في منتصفِ عقدهِ الرابعِ، وبشعرٍ بدأ يخفُّ، وعينين دامعتين.

قال وليم: «لمَ لا تدفع لي الإيجار؟»

«أيُّها اللورد، أرضي صغيرة، وبعد هجرة أولادي إلى البلدةِ للعملِ لم يعد لدي من يساعدني، إضافة إلى حمى الخنازير التي...»

«مهلاً»، قال وليم. «إلى أين ذهبَ أبناؤكَ؟»

«إلى كينغزبريدج أيّها اللورد. ذهبوا للعملِ على الكاتدرائيةِ الجديدةِ هناك، وللزواجِ كما يجدر بالشبابِ أن يفعلوا، وأرضي لا تكفيهم لإعالةِ عوائلهم».

قال وليم لنفسه إنَّه يجب أن يتذكر في المستقبل أنَّ الشباب يتوجهون للعملِ على كاتدرائيةِ كينغزبريدج. «أرضكَ كبيرةٌ كفايةً لإعالةِ عائلةٍ واحدةٍ بطريقةٍ ما، ومع ذلك لم تدفع الإيجار».

وعادَ آثلستان إلى الحديثِ عن الخنازير. حدَّقَ وليم إليهِ بحقدٍ، ومن دون أن يصغي إلى كلمةٍ واحدةٍ مما كان يقوله، وفكر في نفسهِ: «أعلمُ لمَ لم تدفع. علمتَ أنَّ سيدكَ مريض، وقررتَ أن تغشهُ؛ لأنَّه عاجزٌ عن المطالبةِ بحقوقهِ، وهذا ينطبقُ على المتأخرين الأربعة الآخرين. أنتم تسرقوننا ونحنُ ضعفاء!»

ولبرهةٍ شعرَ بالشفقةِ على نفسهِ. كان واثقاً من أنَّ أولئك الخمسةَ يضحكون في سرهم على ذكائهم، ولكنهم سيتعلمون الدرسَ.

«غيلبرت، هيو. أمسكا بهذا الفلاح وثبتاهُ!» قال وليم بهدوءٍ.

كان آثلستان ما زال يتكلم عندما ترجّلَ الفارسان عن جواديهما، واقتربا منه تدريجياً، وهنا خفتَ صوت الرجل وهو يتحدثُ عن قصةِ حمى الخنازير. أمسكهُ الفارسان من ذراعيهِ فشحبَ وجهه من الخوفِ.

توجه وليم بالحديثِ إلى والتر بالصوتِ الهادئ ذاته: «هل لديكَ قفازات من الزرد؟»

«أجل أيّها اللورد».

«فلترتدهما، ولتُعلّم آثلستان درساً، ولكن احرص على أن يبقى حيَّاً كي يخبرَ البقيةَ».

«أجل أيّها اللورد»، قال والتر، وأخذَ من سرجِ جوادِهِ زوجاً من القفازات الجلديةِ التي خيطت في منطقةِ البراجمِ وباطن منطقةِ الأصابعِ بسلاسلِ معدنيةٍ. ارتدى والتر القفازين على مهلٍ بينما راقبهُ بقيةُ الفلاحين في رهبةٍ، وبدأ آثلستان يئنُّ من الهلعِ.

ترجّلَ والتر عن جوادِهِ، وتوجه إلى آثلستان ثمَّ لكمه على معدتِهِ بيدِهِ المُقفزةِ فصدرَ عن اللكمةِ صوتٌ عالٍ ومقززٍ. تكورَ آثلستان على نفسِهِ من قوةِ الضربةِ، وعجز عن الصراخِ. رفعه كلٌّ من غيلبرت وهيو، ولكمه والتر على وجهِهِ فتدفقَ الدمُ من فمِهِ وأنفِهِ. صرخت امرأةٌ من بين المتفرجين، وهي على الأغلب كانت زوجة آثلستان، ثمَّ قفزت على والتر وهي تصرخُ: «توقف! اتركه وشأنهُ! لا تقتلهُ!»

دفعها والتر بعيداً، وأمسكت بها امرأتان ثمَّ سحبتاها إلى الوراءِ. استمرَّت المرأةُ بالصراخِ ومقاومتهما بينما بقيةُ الفلاحين يراقبون في صمتٍ غاضبٍ والتر يضربُ آثلستان بشكلٍ ممنهجٍ إلى أن ارتخى جسدُ الأخير، وغطَّت الدماء وجهه، وأغلقَ عينيهِ غائباً عن الوعي.

«أفلتاه»، قال وليم أخيراً.

أفلتَ غيلبرت وهيو آثلستان فخرَّ الرجلُ على الأرضِ كجثةٍ. أفلتت المرأتان زوجته التي ركضت نحوه تنتحبُ، وركعت إلى جوارِهِ. خلعَ والتر قفازيهِ، ونظفَ السلاسلَ المعدنيةَ من الدمِ، وقطعِ اللحمِ العالقةِ.

بحلولِ الآن كان وليم قد فقدَ اهتمامهُ بآثلستان، ونظرَ حوله إلى القريةِ. رأى بناءً خشبياً حديثاً بطابقين عندَ حافةِ الجدول الذي يمرُّ بالقريةِ.

أشارَ وليم إلى البناءِ وسألَ آرثر: «ما هذا؟»

«لم أره قبلاً أيّها اللورد»، قال آرثر بتوترٍ.

اعتقدَ وليم أنَّ آرثر يكذبُ وقال: «هذهِ مطحنةٌ مائيةٌ، أليس كذلك؟»

هزَّ آرثر كتفيهِ، ولكن لامبالاته لم تبدُ مقنعةً، وقال: «لا أتخيل شيئاً آخر غيرها قربَ جدولٍ».

وتساءل وليم في نفسِهِ كيفَ لآرثر أن يتصرفَ بهذهِ الوقاحةِ بعدَ أن رأى فلاحاً يُضربُ حتّى الموتِ بأمرٍ من وليم، وبشيءٍ من اليأس قال وليم: «هل يُسمح لأقناني ببناءِ المطاحنِ من دونِ إذني؟»

«لا أيّها اللورد».
«وهل تعلمُ سببَ تحريمِ هذا؟»
«حتّى يطحنوا الذرة في مطاحنِ اللوردِ، ويدفعوا له أجرَ الطحنِ».
«ويستفيدَ اللورد».
«أجل يا سيدي»، أجابَ آرثر بتلكَ النبرةِ المتعاليةِ لشخصٍ يشرحُ أمراً بسيطاً لطفلٍ صغيرٍ. «ولكن إن دفعوا غرامةً على بناءِ مطحنةٍ فسيستفيدُ اللورد بالمثلِ أيضاً».
أثارت نبرةُ آرثر غضبَ وليم وقال: «لا، لن يستفيدَ منها بالمثلِ أيضاً. لا يساوي مبلغ الغرامةِ المبلغ الذي سيدفعهُ الفلاحون في مطحنةِ اللورد، ولذلك أحبوا بناءَ المطاحنِ ومنعهم والدي من فعلِ هذا». ومن دونِ منحِ آرثر فرصةً للرَّدِ همزَ وليم جوادهُ، واتجه إلى المطحنةِ. لحقَ بهِ فرسانه ثمَّ الفلاحون في حشدٍ غير منظمٍ.
ترجَّل وليم عن جوادهِ. لم يكن هناك شكٌّ الآن في أنَّ البناءَ مطحنة فهناك عجلةٌ مائيةٌ كبيرةٌ يحركها ضغطُ حركةِ مياه الجدول السريعةِ، وحرَّكت العجلةُ قضيباً يدخلُ في الجدارِ الجانبي للمطحنةِ. كان بناءً خشبياً متيناً، ومصمماً كي يدوم، ومن الواضح أنَّ من بناه توقع استخدامهُ مجاناً لسنواتٍ.
وقفَ الطحَّان على بابِ المطحنةِ المفتوحِ، وقد ارتسمَ على وجههِ تعبيرٌ براءةٍ مزيفٍ. خلفهُ غرفةٌ مُكدسةٌ بأكياسِ حبوبٍ في صفوفٍ مرتبةٍ. انحنى الطحَّان لوليم بتهذيبٍ، ولكن وليم تساءل في نفسهِ إن كان هناك شيءٌ من الاحتقارِ في نظرتهِ، ومجدداً انتابهُ ذلكَ الإحساسُ المؤلمُ أنَّ أولئكَ الناس يعتقدون أنَّه نكرةٌ، وعاجزٌ عن فرضِ سلطتهِ وإرادتهِ عليهم، وهذا جعلهُ يشعرُ بالعجز. غلى في داخلهِ من السخطِ، واليأسِ فصرخَ في الطحَّان بغضبٍ شديدٍ: «ما الذي جعلكَ تعتقدُ أنَّك ستنجو بفعلتكَ هذهِ؟ هل تعتقدُ أنني غبي؟ هل هذا هو الأمرُ؟ هل هذا ما تعتقده؟» ثمَّ لكمَ الطحَّان في وجههِ.
أطلقَ الطحَّان صرخةَ ألمٍ مُبالغاً فيها، ورمى بنفسهِ على الأرضِ دونَ داعٍ.
وطأه وليم، ودخلَ المطحنة. في الطابقِ العلوي منها كان قضيبُ العجلةِ المائيةِ موصولاً بمجموعةٍ من التروسِ الخشبيةِ فوقَ رحى الطحنِ، والحبوبُ المطحونةُ تمرُّ عبرَ أنبوبٍ كبيرٍ إلى منخلِ الطحينِ في الطابقِ الأرضي. كان

الطابقُ العلوي الذي يحملُ وزنَ رحى الطحنِ مدعوماً بأربعةِ جذوعٍ خشبيةٍ متينةٍ مقطوعةٍ من غابةِ وليم -من دونِ إذنِه دونَ شكٍ- ولذلكَ إنْ دُمرت الجذوع فسيتهاوى البناءُ بأكمله.

خرجَ وليم. كان هيو آكس يحملُ سلاحهُ المعروف بهِ وهو الفأس فقال له وليم: «أعطني فأسَ القتال خاصتكَ»، ونفذَ هيو أمرهُ. عادَ وليم إلى الداخلِ، وبدأ بضربِ الدعاماتِ الخشبيةِ للطابقِ العلوي، ومنحهُ صوتُ نصلِ الفأسِ وهو يهوي على الخشبِ داخلَ المبنى الذي بناه الفلاحون بعنايةٍ في محاولةٍ لخداعهِ، والتملص من أجورِ الطحنِ رضا عظيماً، وفكرَ بوحشيةٍ أنّهم الآن لن يضحكوا عليهِ.

دخلَ والتر إلى المطحنةِ ليتفرج. كان وليم قد أحدثَ ثُلماً عميقاً في إحدى الدعاماتِ، وقطعَ أخرى حتّى منتصفها، وبدأت المنصة في الأعلى التي تحملُ وزنَ رحى الطحنِ الكبيرِ بالاهتزازِ.

قال وليم لوالتر: «أحضر حبلاً»، وخرجَ والتر.

قطعَ وليم الدعامتين الباقيتين بالعمقِ الكافي، وكان المبنى على وشكِ أن يهوي. عادَ والتر مع الحبلِ فربطَه وليم إلى إحدى الدعاماتِ ثمَّ جرَّه إلى الخارجِ، وربطهُ حولَ عنقِ جوادهِ الحربي.

راقبَ الفلاحون ما يجري في صمتٍ وتجهمٍ.

عندما انتهى وليم من ربطِ الحبلِ سأل: «أين الطحّان؟»

اقتربَ الطحّان وهو ما يزالُ يتظاهر أنّه شخصٌ مظلومٌ.

قال وليم: «جرفيز، خذهُ وقيده في الداخلِ».

وهنا حاولَ الطحّان الهربَ، ولكن غيلبرت وضعَ قدمه أمامه، وجعلهُ يتعثرُ ثمَّ جلسَ فوقهُ. ربطَ جيرفيز يدي وقدمي الطحّان بحبالٍ جلديةٍ، ثمَّ حملَ الفارسان الطحّان الذي كان يصارع، ويتضرع طلباً للرحمةِ.

تقدَّمَ أحدُ سكانِ القريةِ من وسطِ الحشدِ وقال: «لا يمكنكَ أن تفعلَ هذا. إنَّها جريمةُ قتلٍ، ولا يمكن للوردِ أن يقتلَ الناس».

أشارَ وليم إلى الرجلِ بإصبعٍ مرتعشٍ وقال: «إن تفوهتَ بكلمةٍ أخرى فسأضعكَ معهُ في الداخلِ».

ولبرهةٍ بدا الرجلُ كأنَّه يتحداه، ثمَّ بدا كأنَّه فكرَ جيداً بالأمرِ فابتعدَ.

خرجَ الفارسان من الطاحونةِ، وسارَ وليم مع جوادهِ إلى أنَّ شدَّ ما بقي من الحبلِ، ثمَّ صفعهُ على كفلهِ فاندفعَ الجوادُ، وشدَّ الحبل معه.

داخلَ الطاحونةِ بدأ الطحَّان يصرخ، وكانت صرختهُ مروعةً، وأشبه بصرخةِ رجلٍ مرعوب يعلمُ أنَّه خلالَ الدقائقِ القليلةِ القادمةِ سيُسحقُ حتَّى الموت.

حرَّكَ الجواد رأسهُ محاولاً التخلصَ من الحبلِ المربوطِ حولَ عنقهِ. صرخَ وليم بالجوادِ، وركلهُ على ردفهِ كي يشدَّ الحبلَ أكثر ثمَّ صرخَ على فرسانهِ: «شدوا الحبلَ أيُّها الرجال!» وأمسكَ الرجال الأربعة بالحبلِ المشدودِ، وسحبوه مع الجوادِ. بدأت أصواتُ الفلاحين تعلو في احتجاجٍ، ولكن ما من أحدٍ منهم تجرَّأ على التدخلِ، أمَّا آرثر فقد تنحى جانباً في تقززٍ.

أصبحت صرخاتُ الطحَّان أكثر حدَّةً، وتخيلَ وليم الخوفَ العظيم الذي يعيشهُ الرجلُ وهو ينتظرُ موتهُ المحتوم، وفكر أنَّ ما من أحدٍ من أولئكَ الفلاحين سينسى انتقام عائلة هاملي.

علا صريرُ الدعامةِ الخشبيةِ، ثمَّ أصدرت فرقعةً عاليةً، وانكسرت. شدَّ الجوادُ الحبلَ، وتركه الفرسان، وبدأت إحدى زوايا السقفِ تميل، وهنا أخذت النساء يولولن. بدت جدران الطاحونةِ كأنَّها تهتزُّ، وعلت صرخاتُ الطحَّان ثمَّ سُمعَ صوتُ تحطمٍ هائلٍ عندما مالَ الطابق العلوي، وتوقفَ الصراخُ فجأةً. اهتزت الأرضُ عندما استقرت رحى الطحنِ على أرضيةٍ نخلِ الطحينِ، وتشققت الجدرانُ، وماد السقفُ بسرعةٍ تحولت معها الطاحونةُ إلى كومةٍ من الخشبِ مع رجلٍ ميتٍ في الداخلِ.

وهنا بدأ وليم يشعرُ بشعور أفضل.

ركضَ بعضُ القرويين إلى الركام، وبدأوا بنبشِ البقايا في جنونٍ. إن كانوا يأملون بالعثورِ على الطحَّان حيَّاً فسيصابون بخيبةِ أملٍ. سيكون مشهدُ جسدهِ المسحوقِ مقززاً، وسيكون هذا للأفضل.

نظرَ وليم من حولهِ، ورأى الفتاةَ الموردةَ الخدين مع الطفلِ المورد الخدين في نهايةِ الحشدِ كأنها تحاول التواري عن الأنظارِ. تذكر وليم كيفَ أنَّ الرجلَ ذا اللحيةِ السوداء –والدها على الأغلب– حاولَ إبقاءها بعيدةً عن

الأنظارِ، وقررَ وليم أن يحلَّ هذا اللغزَ قبلَ مغادرةِ القريةِ. عندما التقت عيناه بعينيها أشارَ إليها بالتقدمِ. نظرت الفتاةُ إلى الوراءِ على أملِ أنه كان يقصد شخصاً آخر.

«أنتِ»، قال وليم. «تعالي إلى هنا».

رآها الرجلُ ذو اللحيةِ السوداءِ، وزمجرَ في ضيقٍ.

قال وليم: «من زوجكِ أيتها المرأة؟»

قال الأب: «إنَّها لا تملك...»

ولكن جوابهُ جاءَ متأخراً لأنَّ الفتاةَ قالت: «إدموند».

«إذاً، أنتِ متزوجةٌ ومن يكون والدكِ؟»

«أنا»، قال الرجلُ ذو اللحيةِ السوداءِ. «أدعى ثيوبولد».

استدارَ وليم نحو آرثر وقال: «هل ثيوبولد رجلٌ حرٌ؟»

«إنَّه قنٌ أيّها اللورد».

«في حالِ زواجِ ابنةِ قنٍ أليسَ من حقِ مالكها التمتع بها في ليلةِ زفافها؟»

صُدمَ آرثر وقال: «أيُّها اللورد، لا وجود لهذا العرفِ البدائي في هذا الجزءِ من العالمِ».

«صحيح»، قال وليم. «وبدلاً من هذا يدفعُ الأبُ غرامةً. كم دفعتَ يا ثيوبولد؟»

«لم يدفع شيئاً يا سيدي ولكن...» قال آرثر.

«لم يدفع! ولديها طفلٌ سمينٌ، ومورد الخدين!»

قال ثيوبولد: «لم نملك المال وقتها أيّها اللورد، وكانت حاملاً بطفلِ إدموند، ولذلك اضطرت إلى الزواجِ منه، ولكننا نستطيع الدفعَ الآن فقد حصدنا المحصولَ».

ابتسمَ وليم للفتاةِ وقالَ لها: «دعيني أرى الطفل».

حدَّقت الفتاة إلى وليم في خوفٍ.

«هيا، أعطني إياه».

بدت الفتاةُ خائفةً، ولم تستطع إجبارَ نفسها على تسليمهِ الطفل فاقتربَ منها وليم، وأخذَ الطفلَ بكلِّ لطفٍ. امتلأت عينا الفتاةِ بالرعبِ، ولكنها لم تقاوم وليم.

بدأ الطفلُ بالصراخ. حملهُ وليم لبرهةٍ ثمَّ أمسكهُ من كاحليهِ بيدٍ واحدة، وفي حركةٍ سريعةٍ قذفهُ عالياً في الهواءِ.

صرخت الفتاةُ كبانشي[1] وهي تحدقُ إلى الطفلِ في الهواءِ.

ركضَ الأب وبذراعين ممدودتين التقطَ الطفلَ عندما سقطَ.

وبينما كانت الفتاةُ تنظرُ إلى الأعلى وتصرخُ، أمسكَ وليم بثوبها ومزقهُ. كان جسدها شاباً، ووردياً، ومكوراً.

أمسكَ الأبُ بالطفلِ.

استدارت الفتاةُ كي تهرب، ولكن وليم أمسكها ورماها أرضاً.

سلَّمَ الأبُ الطفلَ إلى امرأةٍ، واستدارَ نحو وليم.

قال وليم: «بما أنني لم أحصل على مستحقاتي من ليلةِ الزفافِ ولم تُدفع لي الغرامة فسآخذُ ما هو لي الآن».

واندفعَ الأبُ نحوهُ.

سحبَ وليم سيفهُ.

وتوقفَ الأبُ.

حدَّق وليم إلى الفتاةِ الممدّدةِ على الأرضِ وهي تحاول سترَ نفسها بيديها فأثاره خوفها. «وعندما أنتهي منها سيستمتع بها فرساني أيضاً»، أضاف بابتسامةِ رضا.

– 2 –

خلال ثلاثِ سنواتٍ تغيرت كينغزبريدج كثيراً، ولم تعد تشبه ما كانت عليهِ قبلاً.

لم يزرها وليم منذُ أحدِ عيد العنصرةِ عندما أحبطَ فيليب، وجيشُ المتطوعين خطةَ الأسقفِ ويلارن بيغاد. آنذاك لم يكن في القريةِ سوى أربعين، أو خمسين منزلاً خشبياً موزَّعة قبالةَ بابِ الديرِ، وعلى طولِ الطريقِ الموحلِ إلى الجسرِ، أمَّا الآن وعندَ اقترابهِ من القريةِ عبرَ الحقولِ المتموجةِ،

1- في الموروث الشعبي السلتي تعني كلمة البانشي سيدة التلال البرية. يُقال إنها روحٌ رسولةٌ من عالمٍ آخر، ويُعدُ ظهورها أو عويلها نذيراً بقدومِ الموتِ. (المترجمة)

رأى وليم أنَّ أعدادَ المنازلِ تضاعفت ثلاث مرَّاتٍ على الأقلِ، وأحاطت بسورِ الديرِ الحجري الرمادي كهُدبٍ بني، وغطت كاملَ المساحةِ بين الديرِ والنهرِ. لاحظَ أنَّ العديد من هذهِ المنازلِ كبيرٌ، وضمنَ ساحةِ الديرِ لاحت أبنيةٌ حجريةٌ جديدةٌ، وكانت جدرانُ الكنيسةِ قد ارتفعت بوتيرةٍ سريعةٍ. هناك أيضاً رصيفان جديدان بجانبِ النهرِ. لقد تحولت كينغزبريدج من قريةٍ إلى بلدةٍ.

بالنظرِ إلى المكانِ الآن تحقق وليم من الشكوك التي ساورتهُ منذُ عودتهِ إلى الديارِ من الحربِ. وبينما كان يدورُ على ملكيتهِ يجمع الإيجارات المتأخرةِ، ويُرعب الأقنان المتمردين، سمعَ الكثيرَ من الأحاديث عن كينغزبريدج، وعن هجرةِ الشبان ممن لا يملكون الأراضي إلى هناك للعملِ، وعن إرسال العائلات الموسرةِ أبناءها إلى مدرسةِ الديرِ، وبيع مُلاك الأراضي الصغيرةِ البيضَ والجبنَ إلى العمالِ في موقعِ البناءِ، وذهاب الجميعِ إلى هناك في الأعيادِ على الرغمِ من عدمِ وجودِ كاتدرائيةٍ فيها بعد. اليوم عيد القديس ميخائيل، ويصادفُ هذا العام يومَ أحدٍ. كان صباحاً خريفياً باكراً إلَّا أنَّ الجو كان معتدلاً، والطقسُ اللطيف ملائماً للسفرِ. سيكون هناكَ حشدٌ كبيرٌ من الناسِ، وهذا يعني أن وليم سيكتشف ما جذبهم للقدومِ إلى كينغزبريدج.

رافقه أعوانهُ الخمسةُ في رحلتهِ. كانوا قد قاموا بعملٍ ممتاز خلالَ تجوالهم على القرى، ووصلت أخبارُ جولةِ وليم بسرعةٍ غريبةٍ إلى بقيةِ القرى. بعدَ الأيام القليلةِ الأولى من جولةِ وليم عرفَ الناسُ ما يمكن توقعهُ، وعندما يقترب وليم من أيَةِ قريةٍ يُرسل السكان الأطفال والشابات إلى الغاباتِ للاختباءِ. شعرَ وليم بالرضا لأنَّه نجحَ في بثِّ الخوف في قلوبِ الناسِ، ولأنَّه أجبرهم على معرفةِ مقامهم الحقيقي، وباتوا الآن يعلمون أنَّ زمامَ السيطرة بيدهِ.

عندما اقتربت مجموعتهُ من كينغزبريدج حثَّ جوادهُ على الإسراعِ، وفعلَ بقيةُ مرافقيهِ المثلَ. يؤمن وليم أنَّ الدخولَ إلى أيِّ مكانٍ بجيادٍ سريعةٍ يُبهر الناسَ فيبتعدون عن الجيادِ الكبيرةِ إلى جانبِ الطريقِ في رعبٍ، أو يقفزون إلى الحقولِ.

اندفعوا فوقَ الجسرِ الخشبي بضجةٍ كبيرةٍ، وتجاهلوا جابي التعرفةِ، ولَكِن عندما وصلوا إلى طريقٍ ضيقٍ أعاقت تقدمهم عربةٌ محملةٌ ببراميل الكلسِ يجرها ثوران ضخمان ببطءٍ فاضطرّوا إلى الإبطاءِ بسرعةٍ.

خلال سيرهم وراءَ العربةِ إلى أعلى التلِ حيثُ يقعُ الدير نظرَ وليم حولهِ، ورأى الكثير من المنازلِ الحديثةِ المبنيةِ على عجلٍ في المساحاتِ التي تفصل بينَ المنازلِ القديمةِ، ولاحظَ مطعماً، وحانةً، ودكان حدادةٍ، ودكان إسكافي. كان جو الازدهارِ في البلدةِ واضحاً، وشعرَ وليم بالحسدِ.

لم يكن هناك الكثير من الناسِ في الشوارعِ، واعتقد أنهم قد يكونون في الديرِ.

لحقَ وليم مع فرسانهِ بالعربةِ التي تجرها الثيران عبرَ بواباتِ الديرِ. لم يكن هذا الدخول الذي يرغبُ بهِ، وشعرَ بالقلقِ من أن يلاحظَ الناس أنه سارَ وراءَ عربةٍ ويضحكوا عليهِ، ولكن لحسنِ الحظِ لم ينظر إليه أحد.

بالمقارنةِ مع البلدةِ التي بدت مهجورةً غصَّت ساحةُ الديرِ بالنشاطِ والحركةِ.

أوقفَ وليم جوادهُ، ونظرَ حوله محاولاً فهمَ المشهد أمامهُ. كان هناك الكثيرُ من الناس، والأعمالِ إلى درجةِ أنَّ وليم وجدَ المكانَ مخيفاً بطريقةٍ ما، ثمَّ لاحظَ أنَّه مُقسمٌ إلى ثلاثةِ أقسام.

في القسمِ الأقربِ إليهِ وهو الطرفُ الغربي لساحةِ الديرِ سوقٌ نُصبت فيه أكشاكٌ في صفوفٍ أنيقةٍ من الشمالِ إلى الجنوبِ، وتجول العديدُ من الناسِ في الممرّاتِ بينها يشترون الطعامَ، والشرابَ، والقبعاتِ، والأحذية، والسكاكين، والأحزمة، وفراخ البطِ، والكلاب، والقدور، والأقراط، والصوف، والخيوط، والحبال، والكثير من الحاجيات الضروريةِ والكماليةِ. لم يكن هناك شكٌ في أنَّ حالَ السوقِ مزدهرٌ، وأن كلَّ العملاتِ المعدنيةِ من بنساتٍ وأنصافِ البنسات والفارذينغ التي تنتقلُ من يدٍ إلى أخرى تزيد من أموالِ البلدةِ.

فكرَ وليم بمرارةٍ أنَّه لا عجبَ في أنَّ سوقَ شايرنغ متدهورٌ. فهنا، في كينغزبريدج، سوقٌ بديلٌ ومزدهرٌ. وفي الوقتِ الذي يجبُ أن تذهبَ فيهِ إيجاراتُ الأكشاكِ، وتعاريفُ المزودين، والضرائب على المبيعاتِ إلى خزينةِ إيرل شايرنغ تذهبُ إلى خزائنِ ديرِ كينغزبريدج.

ولكن إقامةَ سوقٍ يحتاجُ إلى رخصةٍ من الملكِ، وكان وليم واثقاً من أنَّ رئيسَ الديرِ فيليب لم يحصل على رخصةٍ، وهو الأغلب يخطط للتقدمِ بطلبِ حالما يُقبضُ عليهِ بالجرمِ كما فعلَ طحَّان نورثبروك. لسوءِ الحظِ لن تتاح لوليم فرصةٌ تلقين فيليب الدرس ذاتهُ الذي لقَّنهُ للطحَّانِ.

بعدَ السوقِ هناكَ منطقةٌ هادئةٌ ملاصقةٌ للممراتِ المسقوفةِ. كانَت في ما سبق نقطةَ التقاطعِ في الكنيسةِ القديمةِ، ورأى فيها وليم مذبحاً تحتَ مظلَّةٍ، وأمامَ المذبحِ وقفَ راهبٌ بشعرٍ أبيض يقرأ في كتابٍ. على الجانبِ الآخر من المذبحِ وقفَ الرهبان في صفوفٍ مرتبةٍ يرتلون التراتيل، ولكن بسبب بُعدهم، وضجةِ السوقِ لم يكن صوتهم مسموعاً. هناكَ أيضاً مجموعةٌ صغيرةٌ من المُصلين، ربما كانوا يؤدون صلاةَ ما بعد الظهر، وهي خاصةٌ بالرهبانِ كما يعتقدُ وليم لأنَّ الجميع سيتوقف عن العملِ والبيعِ في السوقِ من أجلِ صلاةِ عيدِ القديس ميخائيل.

على الجانبِ الأبعد من الديرِ -الطرفِ الشرقي منه- كان موقع بناءِ الكاتدرائيةِ الجديدةِ، وفكرَ وليم في ضيقٍ أنَّ فيليب ينفقُ كلَّ أرباحهِ من السوقِ على هذا المكانِ. يصل ارتفاعُ الجدران إلى ثلاثين أو أربعين قدماً، وبدأت حدود النوافذ، وأقواسِ المجاز المُقنطر تظهر. اكتظَّ الموقع بالعمالِ، ورأى وليم أنَّ مظهرهم غريب ثمَّ أدركَ بعد وهلةٍ أنَّ السببَ في هذا ثيابهم الملونةِ. حتماً لم يكونوا عمَّالاً عاديين لأنَّ العمال المأجورين لن يعملوا في يومِ عطلةٍ. كانوا متطوعين.

لم يتوقع وليم أن يرى الكثير منهم. انخرطَ مئاتُ الرجالِ والنساءِ في حملِ الحجارةِ، وتقطيع الأخشابِ، وجرِّ البراميل، وسحبِ أحمالِ الرملِ من النهرِ. كانوا يعملون من أجلِ الحصولِ على الغفرانِ على خطاياهم.

لاحظَ وليم بحسدٍ أنَّ رئيسَ الديرِ الماكرِ نظَّمَ الأمورَ ببراعةٍ، ومن سيأتي للعملِ على الكاتدرائيةِ سيُنفقُ المالَ في السوقِ، ومن سيأتي إلى السوق سيعملُ في الكاتدرائيةِ لبضعِ ساعاتٍ، ويحصل على غفرانٍ على خطاياه، أي من هذهِ اليد إلى اليدِ الأخرى.

ركلَ وليم جوادهُ ليتقدم ثمَّ عبرَ المقبرةَ باتجاهِ موقعِ البناءِ، والفضول لمعاينته عن كثبٍ يأكلهُ.

توزعت الأعمدةُ الثمانيةُ الضخمةُ على صفين متوازيين من أربعةِ أعمدةٍ على كلا الجانبين. تخيلَ وليم من بعيد أنَّ هناك أقواساً تصلُ الأعمدةَ بعضها ببعض، ولكنه أدركَ أنَّ الأقواسَ لم تبنَ بعد، وأنَّ ما يراه هو القوالب الخشبية التي لها شكلُ أقواسٍ حيثُ لن ترُصف حجارتها إلا بعد أن يجفَّ الملاطُ. لا تصلُ القوالب إلى الأرضِ بل تدعمها قوالبُ التيجان الناتئة أعلى الأعمدةِ.

بالتوازي مع المجازِ المقنطرِ كانت الجدران الخارجية للممراتِ ترتفع مع فراغاتٍ محددةٍ للنوافذِ. في المنتصفِ، وبينَ كلِّ نافذةٍ ينتأ كتفٌ من الحائطِ، وبالنظرِ إلى نهايات الجدران رأى وليم أنَّ هناك جدراناً خارجيةً، وأخرى داخليةً والفراغُ بينها مملوءٌ بالركامِ والملاطِ.

كانت السقالات مصنوعةً من أعمدةٍ متينةٍ مربوطة بعضها إلى بعض، وبينها منصاتٌ مصنوعةٌ من أغصانٍ مرنةٍ، وقصبٍ مجدولٍ.

أدركَ وليم أنَّ مالاً كثيراً أُنفقَ هنا.

تجولَ حولَ القسم الخارجي للمذبحِ، ولحقَ بِهِ فرسانهُ. قبالة الجدارِ رأى أكواخاً بأسقف مائلةٍ، وورشاً، ومساكن للحرفيين، وكانت معظمها الآن مغلقةً. ما من بنَّاءٍ أو نجارٍ سيعملُ اليومَ في البناءِ، أو صُنعِ القوالبِ. على أيِّ حالٍ كانَ رئيسا البنائين والنجارين يشرفان على عملِ المتطوعين، ويشيران عليهم أين يضعون الحجارةَ، والخشبَ، والرملَ، والكلسَ الذي يجلبونهِ من ضفةِ النهرِ.

تجول وليم من الطرفِ الشرقي للكنيسةِ إلى الطرفِ الجنوبي حيثُ اعترضهُ مبنى للرهبانِ، ثمَّ استدارَ عائداً وهو في حالةِ ذهولٍ من شدةِ دهاءِ رئيسِ الديرِ فيليب الذي جعلَ رئيسي البنائين والنجارين لديه يعملان يومَ الأحدِ مع عمالٍ لن يدفعَ لهم مالاً.

وبينما كان وليم يفكرُ بأمرِ فيليب وقعَ نظره على رئيس الديرِ المسؤولِ بشكلٍ كبيرٍ عن تدهورِ أحوالِ شايرنغ. كانت مزارعه تفقدُ عمالها الشباب الذين أتوا إلى هنا للعملِ في البناءِ؛ ولذلك أخذ نجمُ بلدةِ شايرنغ -جوهرة المقاطعةِ- بالأفولِ مع صعودِ نجمِ كينغزبريدج. السكان هنا يدفوعون إيجاراتٍ لفيليب وليسَ لوليم، ومن يشترون ويبيعون البضائع في هذا السوقِ

يساهمون في مدخولِ الديرِ، وليسَ في مدخولِ شايرنغ، وفيليب يملكُ الخشبَ، ومزارعَ الخرافِ، والمقلع وجميعها جلبت الثراءَ للإيرل السابقِ.

عادَ وليم ورجالهُ أدراجهم إلى الساحةِ، وتوجهوا إلى السوقِ. كان قد قررَ إلقاء نظرةٍ أقرب فحثَّ جوادهُ بينَ الحشدِ، ولكنه لم يستطع التقدمَ كثيراً؛ فالناس لم يتفرقوا ويبتعدوا عن طريقهِ خائفين. عندما دفعهم بالجوادِ نظروا إلى وليم في ضيقٍ وانزعاجٍ أكثر مما نظروا في خوفٍ، وابتعدوا عن الطريق على مهلهم، وبشيءٍ من التعالي أيضاً. لا أحد هنا خائفٌ منه، وأثارَ هذا توترهُ. عندما لا يكون الناس خائفين فلا يمكن توقع ما الذي يمكنهم القيام بهِ.

كلما تقدَّمَ إلى الأمامِ تراجعَ إلى الوراءِ هو وفرسانهُ، وأصابته حركةُ الحشدِ البطيئةِ باليأسِ. كان المشي أسرع، ولكنه كان واثقاً من أن أولئكَ الحثالة –سكان كينغزبريدج– سيكونون متعالين بما يكفي لدفعهِ.

كان في منتصفِ الممرّ عندما رأى آليانا.

شدَّ وليم لجامَ جوادهِ فجأةً، وحدَّقَ إليها مسحوراً.

لم تعد آليانا تلكَ الفتاة النحيلة، والمُجهدة، والمرتعبة التي ترتدي قبقاباً كما رآها في أحدِ عيدِ العنصرةِ منذُ ثلاثةِ أعوامٍ؛ فوجهها الذي أرهقهُ التوترُ آنذاك قد امتلأ مجدداً، وفاضَ مظهرها بالسعادةِ، والصحةِ، وكانت عيناها تشعان مرحاً، وخُصلُ شعرها تتمايلُ حولَ وجهها عندما تُحرّكُ رأسها.

بدت جميلةً جداً إلى درجة شعرَ معها برأسهِ يدور من الرغبةِ.

كانت في ثوبٍ قرمزي مطرزٍ بفخامةٍ، ويداها الحيويتان مزدانتين بالخواتمِ. إلى جانبها وقفت امرأةٌ أكبر عُمراً بدت كخادمةٍ. قالت له والدتهُ إنَّ ريتشارد أصبحَ مرافقاً، وانضمَ إلى جيشِ الملكِ ستيفن مع أسلحةٍ جيدةٍ، وأنَّه يمتلكُ الكثيرَ من المالِ. اللعنةُ عليها. كانت فتاةً مُعدمةً، وفقيرةً، ومُفلسةً فكيفَ نجحت بتحقيقِ كلّ هذا؟

وقفت عندَ كشكٍ يبيع إبراً من العظمِ، وخيوطاً حريريةً، وكشتبانات، وأغراضاً أخرى خاصة بالحياكةِ، وتتحدّث عن البضائعِ بحيويةٍ مع بائعٍ يهودي قصير بشعرٍ داكنٍ، وقد اتخذت وضعيةً حازمةً، ولكنها كانت مسترخيةً وواثقةً من نفسها. لقد استعادت وقفتها التي امتلكتها عندما كانت ابنةَ إيرل.

بدت أكبرَ عمراً. بالطبعِ كانت أكبر عُمراً فقد كان وليم في الرابعةِ والعشرين، وهذا يعني أنَّها الآن في الواحدةِ والعشرين، ولكن مظهرها أوحى بشيءٍ آخر. لم تبدُ كطفلةٍ بل كبالغةٍ.

رفعت نظرها والتقت أعينهما.

في آخر مرةٍ التقت فيها أعينهما احمرَّت خجلاً وهربت، ولكنها الآن بقيت في مكانها، وبادلتهُ النظرات.

حاولَ الابتسام لها.

وعلا وجهها تعبيرُ ينمّ عن احتقارٍ قاسٍ.

شعرَ وليم بنفسهِ يحمرُّ خجلاً. كانت تعاملهُ بغطرسةٍ، واحتقارٍ تماماً كما عاملته منذُ خمسةِ أعوام. لقد أذلّها وانتهكها، ولكنها لم تعد خائفةً منه. أرادَ التحدثَ إليها، وأن يقولَ لها إنّه سيكرر مجدداً ما فعلهُ بها، ولكنه عجزَ عن الصراخِ من فوقِ رؤوسِ الحشدِ، وجعلتهُ نظرتها المباشرةُ يشعرُ بالصَغارِ. أرادَ أن ينظر إليها بهزءٍ، ولكنه لم ينجح، وعلمَ أنَّ ما ارتسمَ على وجههِ تقطيبةٌ غبيةٌ. مكروباً ومُحرجاً استدارَ وليم، وحثَّ جواده على المضي، ولكن الحشدَ مجدداً أبطأ تقدمهُ وهو يغذُّ السيرَ بعيداً عنها، وشعرَ بنظرتها تحرقُ عنقهُ من الوراءِ كقرصةٍ مؤلمةٍ.

وعندما وصلَ إلى نهايةِ السوقِ أخيراً التقى برئيسِ الدير فيليب.

وقفَ الرجلُ الويلزي القصير بذقنٍ ناتئٍ بشدةٍ ويداه على وركيهِ. لم يعد فيليب ذلكَ الرجل النحيل كما كان سابقاً، وما بقي من شعرهِ الخفيفِ قد بدأ، وبشكلٍ سابقٍ لأوانه، يتحول من الأسودِ إلى الرمادي، ومعه لم يعد يبدُ صغيراً جداً على منصبهِ. كانت عيناه الزرقاوان تشتعلان غضباً. «أيُّها اللورد وليم!» ناداه فيليب بنبرةِ تحدٍ.

أجبرَ وليم نفسه على نزعِ آليانا من عقلهِ، وتذكرَ أنَّه أتى لتوجيهِ تهمةٍ إلى فيليب. «أنا سعيدٌ لأنني مررت بكَ يا رئيسَ الديرِ».

«وأنا»، قال فيليب بغضبٍ، ولكن خيَّمَ ظلُّ تكشيرةٍ مرتابةٍ على حاجبهِ.

«أنتَ تقيمُ سوقاً هنا»، قال وليم بلهجةٍ اتهاميةٍ.

«وماذا في الأمرِ؟»

«على حدِ علمي لم يمنحك الملكُ ستيفن، ولا أيُّ ملكٍ آخر، رخصةَ إقامةِ سوق في كينغزبريدج».

«كيفَ تجرؤ؟»

«أنا أو أيُّ شخصٍ آخر...»

«أنتَ»، صرخَ فيليب مقاطعاً إياه. «كيف تجرؤ على القدومِ إلى هنا، والتحدثِ عن رخصةٍ. أنتَ، يا من قضيتَ الشهرَ الفائت تجولُ المقاطعةَ، وتحرق، وتسرق، وتغتصب، وتقتل!»

«لا علاقة لهذا...»

«كيفَ تجرؤ على دخولِ الديرِ والتحدثِ عن رخصةٍ!» صرخَ فيليب، وتقدَّمَ مشيراً بإصبعهِ فتحرَّك جواد وليم جانباً من التوترِ. بطريقةٍ ما كان صوتُ فيليب أقوى وأعلى من صوتِ وليم، ولذلكَ وجدَ الأخير نفسهُ عاجزاً عن التفوهِ بكلمةٍ. لفَّ حشدٌ من الرهبانِ والعمالِ المتطوعين، وزبائن السوقِ المكانَ لمشاهدةِ الشجارِ. تابعَ فيليب كلامه بذات الحميَّةِ: «بعدَ كلِّ ما فعلتهُ هناك أمرٌ واحدٌ يسعكَ قولهُ وهو ‹أبتاه لقد عصيت›. يجب عليكَ أن تركع على ركبتيكَ في هذا الديرِ، وتطلب الغفران إن أردت النجاةَ من نيرانِ الجحيمِ».

شحبَ وجه وليم؛ فالحديث عن الجحيم يملأه برعبٍ لا يمكنه السيطرةُ عليهِ. حاولَ في يأسٍ أن يقاطعَ فيليب قائلاً: «وماذا عن سوقكَ؟ وماذا عن سوقكَ؟»

ولكن فيليب بالكادِ سمعهُ من سعارِ السخطِ الذي تملَّكه، وصرخَ بوليم: «اطلب المغفرةَ عن الفظائعِ الرهيبةِ التي اقترفتها».

كان وليم مرتعباً جداً، وصدَّقَ أنَّه سيحترق في الجحيم إن لم يركع ويصلي أمامَ فيليب الآن. يعلمُ أنه يدينُ باعترافٍ لأنَّه قتلَ الكثيرين في الحربِ، وفوقها الخطايا التي ارتكبها خلالَ جولتهِ في المقاطعةِ. ماذا لو ماتَ قبلَ أن يعترف؟ وبدأ يشعرُ بالاضطرابِ عندما فكرَ بألسنةِ نارِ الجحيم الأبديةِ وسكاكين الشياطين الحادَّةِ.

تقدَّم منه فيليب وهو مازال يشير بإصبعهِ ويصرخ: «على ركبتيكَ!»

تراجعَ وليم بجوادِهِ، ونظرَ حولَه في يأسٍ، ووجد أنَّ الحشدَ قد بدأ يحاصرهُ. كان فرسانهُ خلفهُ مربكين وعاجزين عن اتخاذ قرارٍ حولَ كيفيةِ التعاملِ مع تهديدٍ روحي من راهبٍ أعزل. لم يكن بوسعه احتمالُ المزيد من الإذلالِ بعدَ الطريقةِ التي عاملتهُ بها آليانا. كان هذا يفوق طاقتهُ على الاحتمال. جذبَ اللجام فوقفَ جواده الحربي الضخم على قائمتيه الخلفيتين بشكلٍ خطيرٍ تراجعَ معه الحشدِ إلى الوراءِ هرباً من الحوافرِ العملاقةِ. وعندما ضربت حوافر الجوادُ الأمامية الأرضَ مجدداً همزهُ وليم بقوةٍ كبيرةٍ فاندفع الجواد إلى الأمامِ، وتفرَّق حشدُ المتفرجين. همزَ وليم جوادهُ مجدداً فانطلقَ الجوادُ كالسهمِ. ومسربلاً بالخزي خرجَ وليم من بواباتِ الدير وفرسانه خلفه كقطيعٍ من الكلابِ المزمجرةِ تطارده امرأةٌ عجوزٌ بمكنسةٍ.

***

على الأرضيةِ الحجريةِ الباردةِ للمصلى الصغير في قصرِ الأسقفِ اعترفَ وليم بخطاياه وهو يرتعش خوفاً. أصغى إليهِ الأسقفُ ويلارن في صمتٍ، وارتسم على وجههِ التقزز وهو يُصغي إليه يعددُ ما ارتكبهُ من جرائمٍ، واعتداءاتٍ، واغتصاباتٍ. وحتَّى أثناءَ الاعترافِ امتلأ قلب وليم بالكره تجاهَ الأسقفِ المتكبرِ بيديهِ البيضاوين النظيفتين المطويتين فوقَ صدرهِ، ومنخريهِ الأبيضين الرقيقين والمنفرجين قليلاً كأنَّه يشمُّ رائحةً نتنةً في الهواءِ المتربِ. ما مزَّقَ وليم هو اضطرارهُ إلى التضرعِ إلى ويلارن كي يحصل على الغفرانِ. كانت ذنوبهُ كبيرةً جداً لا يمكن معها لكاهنٍ عادي أن يمنحهُ الغفران عليها؛ ولذلك ركعَ وليم والخوف يتملكهُ بينما أمره ويلارن بإشعالِ شمعةِ «حتَّى يومِ القيامةِ» في مصلى قلعةِ شايرنغ، ثمَّ أخبرهُ أنَّ خطاياه غُفرت.

وبدأ خوف وليم ينقشعُ كضبابٍ.

خرجَ الرجلان من المصلى إلى القاعةِ الكبيرةِ ذات الجو الضبابي، وجلسا قربَ النارِ. كان الجو ينتقل من الخريفي إلى الشتوي، ولذلك كان المنزلُ الحجري الكبيرُ بارداً. أحضرَ خادمٌ من المطبخِ خبزاً ساخناً بالعسلِ والزنجبيل، وأخيراً بدأ وليم يشعرُ بالراحةِ.

ولكنه تذكرَ مشكلتهُ الأخرى وهي ابن بارثيميلو، ريتشارد، الذي يطالبُ

بالملكيةِ. كان وليم فقيراً جداً على حشدِ جيشٍ كبيرٍ كفايةً لإذهالِ الملكِ، ورغم أنَّه جمعَ مبلغاً مُعتبراً من المالِ خلالَ الشهرِ الفائت، فإنه لم يكن كافياً.

تأوه وليم وقال: «ذلكَ الراهب الملعون يمتصُّ دماءَ شايرنغ».

أخذَ ويلارن بيدِهِ الشاحبةِ ذات الأصابعِ الطويلةِ كالمخالبِ بعضَ الخبزِ وقال: «كنتُ أتساءل كم سيستغرقك من وقتٍ للوصولِ إلى هذهِ النتيجةِ».

بالطبعِ وصلَ ويلارن إلى هذهِ النتيجةِ قبلَ وليم بكثيرٍ. كان متفوقاً جداً، ولم يرغب وليم بالتحدث إليهِ أكثر، ولكنه أرادَ رأيه في قضيةٍ قانونيةٍ.

«هل منحَ الملكُ كينغزبريدج رخصةَ إقامةِ سوقٍ؟» سأل وليم.

«على حدِّ علمي لم يفعل هذا».

«إذاً، فيليب يخرقُ القانون».

هزَّ ويلارن كتفيهِ النحيلتين المسربلتين بالسوادِ وأجاب: «أعتقدُ هذا».

بدا ويلارن غير مهتم، ولهذا اندفعَ وليم قائلاً: «إذاً عليهِ أن يُغلقهُ».

ابتسمَ ويلارن ابتسامة متعاليةً وقال: «لا يمكنكَ معاملته كما تعاملُ قِناً زوَّجَ ابنتهُ من دونِ إذنكَ».

احمرَّ وليم خجلاً. كان ويلارن يشير إلى أحد الذنوبِ التي اعترفَ بها للتو.

«كيف يمكن التعامل معه إذاً؟»

قال ويلارن مُفكراً: «إقامةُ الأسواقِ امتيازٌ يمنحهُ الملكِ، ولو أننا في وقتِ سلمٍ لكان تعاملَ مع القضيةِ بنفسهِ».

هزَّ وليم كتفيهِ باستهزاءٍ. على الرغمِ من ذكاءِ ويلارن فإنَّه لا يعرف الملكَ كما يعرفهُ وليم. «حتَّى في أوقاتِ السلمِ لن يشكرني الملكُ إن أبلغتهُ بأمرِ سوقٍ غير مرخصٍ»، قال وليم.

«حسناً إنَّ مفوضةُ في الأمورِ المحليةِ مأمورُ شايرنغ».

«وماذا بوسعِ مأمورِ شايرنغ فعلهُ؟»

«يمكنهُ إصدار أمرٍ قضائي بحقِّ الديرِ في محكمةِ المقاطعةِ».

هزَّ وليم رأسهُ وقال: «هذا آخر شيءٍ قد أرغبُ بهِ لأنَّ المحكمة ستفرضُ غرامةً، وسيدفعها الدير وسيستمر السوقُ. سيكون الأمرُ أشبه بمنحِ السوقِ رخصةً».

«المشكلةُ هي غيابُ الحججِ اللازمةِ لحرمانِ كينغزبريدج إقامةَ سوقٍ».

«لا، بل هناك حجة»، قال وليم بسخطٍ. «إنَّه يسرقُ زبائن سوقِ شايرنغ».

«تبعدُ شايرنغ عن كينغزبريدج رحلةَ يومٍ كاملٍ».

«يمكن للناسِ أن يسيروا مسافةً أطول».

هزَّ ويلارن كتفيهِ مجدداً، وهنا أدركَ وليم أنَّ ويلارن يهزُّ كتفيهِ عندما يكون له رأي آخر. قال ويلارن: «ينصُّ العرفُ على أنَّ المرء يقضي ثلثَ اليومِ سيراً إلى السوقِ وثلثاً آخر في السوقِ والثلث الأخير على طريقِ العودةِ إلى المنزلِ، وبذلك فإنَّ سوقَ الدير يخدمُ من يحتاجون لثلثِ يوم للوصولِ إليهِ، وهي مسافة تُقدر بسبعةِ أميالٍ. إن كان هناك سوقان، والمسافةُ بينهما أكثر من أربعةِ عشر ميلاً فهما لا يُضاربان بعضهما على بعض. تبعدُ شايرنغ عن كينغزبريدج عشرين ميلاً، ولذلك يحقُّ لكينغزبريدج قانونياً أن يكون لها سوق، والملكُ سيوافق على هذا».

«الملكُ يفعلُ ما يحلو له»، انفجرَ وليم في ضيقٍ لجهلهِ بهذا القانونِ؛ فقد جعلت هذهِ المعلومةُ موقفَ رئيسِ الديرِ فيليب أقوى.

قال ويلارن: «على أيِّ حالٍ، لن نتعامل مع الملك بل مع المأمورِ»، وتابعَ بوجهٍ عابسٍ: «يُمكن للمأمورِ أن يطلبَ من الديرِ الامتناع عن إقامةِ سوقٍ غير مرخصٍ».

«هذهِ مضيعةٌ للوقتِ»، قال وليم باحتقارٍ وأضاف: «لا أحد يعبأ بأمرٍ إن لم يكن مدعوماً بتهديدٍ».

«فيليب قد يفعل».

لم يصدق وليم ما سمعهُ وسأل: «ولماذا؟»

ارتسمت على شفتي ويلارن الشاحبتين ابتسامة هازئةٌ وقال: «لستُ واثقاً من أنني أستطيع شرحَ الأمرِ لكَ. يعتقدُ فيليب أنَّ الملك هو القانون».

«يا لها من فكرةٍ غبيةٍ»، قال وليم في ضيقٍ. «الملكُ ملكٌ».

«أخبرتكَ أنَّكَ لن تفهم».

أثارت لهجةُ ويلارن المتعاليةُ غضبَ وليم فنهضَ، وتوجهَ إلى النافذةِ. في الخارجِ رأى قمةَ أقرب تلةٍ، وأعمالَ الحفر التي بدأها ويلارن على

قلعتهِ منذُ أربعةِ أعوامٍ. كان ويلارن يأملُ ببناءِ القلعةِ من مالِ شايرنغ، ولكن فيليب أحبطَ مخططاتِهِ، وها هو العشبُ، وأكوامُ الترابِ، والعليق الآن تُغطي الحفر. تذكرَ وليم أنَّ ويلارن رغبَ ببناءِ القلعةِ من حجارةِ مقلعِ شايرنغ، ولكن فيليب يستحوذ على المقلع حالياً.

قال وليم مُفكراً: «إن استعدتُ مقلعي يمكنني استخدامهُ كضمانةٍ، وأقترض المال لحشدِ جيشٍ».

«إذاً لمَ لا تستعيدهُ؟» قال ويلارن.

هزَّ وليم رأسهُ وقال: «حاولت قبلاً».

«وفيليب تغلَّبَ عليكَ، ولكن لا يوجد رهبان هناك الآن، وهذا يعني أنكَ تستطيعُ إرسال مجموعةٍ من الرجالِ لطردِ قاطعي الحجارةِ».

«وكيف سأمنع فيليب من العودةِ كما فعلَ في المرةِ السابقةِ؟»

«ابنِ سوراً عالياً حولَ المقلع، وعيّن عليهِ حارساً دائماً».

أثارت الفكرةُ اهتمامَ وليم، وفكرَ أنَّ هذا الحل منطقي، وسيضع حداً نهائياً لمشكلتهِ، ولكنه فكرَ بدافعِ ويلارن وراء اقتراحِ هذا الحل. حذرتهُ والدتهُ من هذا الأسقف عديم الضميرِ، وقالت له: «الأمرُ الوحيدُ الذي تحتاج لمعرفتهِ عن ويلارن بيغاد هو أنّه لا يقوم بشيٍ ما لم يكن محسوباً بعنايةٍ، ولا يتصرف بعفويةٍ، أو تهورٍ، أو بشكلٍ عرضي، أو لا لزوم له. والأهمّ من هذا كله هو أنَّه لا يقوم بشيءٍ بدافعِ الكرمِ». ولكن ويلارن يكره فيليب، وقد أقسمَ على منعه من بناءِ كاتدرائيتهِ، وهذا دافعٌ كافٍ.

نظرَ وليم إلى ويلارن بإمعانٍ. كان منصب الأخير غير مستقر؛ فقد أصبحَ أسقفاً بعمرٍ صغيرٍ، ولكن كينغزبريدج كانت مغمورةً وفقيرةً على ويلارن الذي يرغب بتسلق سُلمِ المناصبِ. كان رئيسُ الدير، وليسَ الأسقف، من فازَ بالثروةِ والشُهرةِ، وها هو ويلارن الآن يذوي في ظلِّ فيليب تماماً كما يذوي وليم أيضاً. كلاهما يملكُ الدافعَ لتدميرِ فيليب.

قرر وليم مجدداً أن يتجاوز كرهه لويلارن من أجلِ مصالحهِ البعيدةِ الأمدِ.

«حسناً»، قال وليم. «قد ينجح هذا، ولكن ماذا لو اشتكى فيليب إلى الملكِ؟»

قال ويلارن: «يمكنكَ القولُ للملكِ إنَّك أردت الانتقام من فيليب لإقامتهِ سوقاً غير مرخص».

أومأ وليم برأسِهِ وقال: «أيُّ عذرٍ يكفلُ عودتي إلى الحربِ مع جيشٍ كبيرٍ سيكون كافياً».

لمعت عينا ويلارن في خبثٍ وقال: «لدي شعورٌ أنَّ فيليب لن يتمكن من بناءِ تلكَ الكاتدرائيةِ إن اضطرَّ إلى شراءِ الحجارةِ بسعرِ السوقِ، وإن توقفت أعمالُ البناءِ فستتدهور أحوال كينغزبريدج، وهذا سيحلُّ جميع مشاكلكَ يا وليم».

قررَ وليم أنَّه لن يُظهرَ لويلارن الامتنان بل قال: «أنتَ حقاً تكره فيليب؟»

«إنَّه يعيقني»، قال ويلارن، ولكن وليم لمحَ في ويلارن وحشيةً صرفةً تحتَ ظاهر الهدوءِ والرزانةِ.

عادَ وليم إلى موضوعهِ قائلاً: «لا بدَّ أن يكون هناك ما يُقارب الثلاثين عاملاً في المقلع، وبعضهم مع زوجاتهم وأطفالهم».

«إذاً».

«قد تُراقُ دماءٌ».

نظرَ ويلارن إلى وليم رافعاً حاجبيه السوداوين وقال: «حقاً؟ إذاً يجب أن أمنحك غفراناً».

- 3 -

انطلقوا تحتَ جُنحِ الليلِ كي يصلوا إلى المقلعِ بحلولِ الفجرِ. حملوا معهم مشاعل، وأجفلَ هذا الجياد. إضافةً إلى والتر، والفرسان الأربعة اصطحبَ وليم معهُ ستة جنودٍ، وخلفهم سارت مجموعةٌ من الفلاحين ستحفر الخندق وتبني السور.

يؤمن وليم إيماناً كبيراً بأهميةِ التخطيط العسكري الدقيق، وبهذهِ الطريقةِ أثبتَ وليم ورجالهُ أنفسهم للملكِ ستيفن، ولكنه الآن لم يضع خطةَ قتالٍ. كانت عمليةً بسيطةً، وسيكون من المهين أن يقوم بالإعدادِ لها كمعركةٍ حقيقيةٍ. لا يمكن للعاملين في قطعِ الحجارةِ، وعوائلهم أن يواجهوا مثلَ هذهِ القوةِ، وعلى أيِّ حالٍ يتذكرُ وليم أنَّ كبير قاطعي الحجارةِ... هل كان اسمه

أوتو؟ أجل، أوتو بلاكفيس - رفضَ القتال في أولِ يومٍ أخذ فيهِ البنَّاء توم رجالهُ إلى المقلع.

كان صباحاً بارداً من صباحات شهرِ كانون الأول، والضبابُ عالقٌ بالأشجارِ كأسمالِ الفقراءِ على حبلِ الغسيلِ. لطالما كره وليم هذا الوقت من العامِ؛ فالجو باردٌ في الصباحِ وعند هبوطِ الظلامِ، والقلعةُ رطبة على الدوامِ، ويُقدم الكثير من اللحمِ والسمكِ المملحين، ووالدتهُ في مزاجٍ عكرٍ والخدمُ أفظاظ، ويغدو فرسانهُ ميالين إلى إحداثِ المتاعبِ، ولذلكَ سيكون هذا القتالُ البسيطُ متنفساً لهم، ومتنفساً له فقد رتبَ أمرَ استدانةِ مئتي جنيه من يهودٍ في لندن مقابلَ ضمانةِ المقلعِ، ومع نهايةِ هذا اليومِ سيؤمن مستقبلهُ.

عندما باتوا على بُعدِ ميلٍ من المقلعِ توقفَ وليم، واختار رجلين ثمَّ أرسلهما مشياً على الأقدامِ في الطليعةِ.

«قد يكون هناك حارسٌ أو كلابٌ»، حذرهما وليم. «لذلكَ جهزا قوسيكما بسهمين».

بعدَ مسافةٍ قليلةٍ أخذَ الطريقُ منعطفاً إلى اليسارِ ثمَّ انتهى فجأةً أمامَ طرفٍ منحدرٍ لتلَّةٍ مشوهةٍ. هذا هو المقلع، ووجدهُ وليم هادئاً. على الطريقِ أمسكَ الرجلان اللذان أرسلهما وليم في الطليعةِ بفتى يرتعد خوفاً. يبدو أنَّه متدربٌ يقوم بأعمالِ المراقبةِ، وعند قدميهِ كلبٌ ينزفُ حتَّى الموتِ بسببِ سهمٍ في عنقهِ.

اقتربت فرقةُ الإغارةِ دون بذلِ أيِّ جهدٍ للتقدمِ بهدوءٍ. توقفَ وليم وتفحصَ المكان. لاحظَ أنَّ قسماً كبيراً من التلةِ قد اختفى منذُ آخر مرةٍ رآها فيها. وصلت السقالات عالياً إلى نقاطٍ بعيدةٍ، وإلى الأسفلِ في حفرةٍ عميقةٍ فُتحت أسفلَ التلةِ، وكُدست حجارةٌ بأشكالٍ وأحجامٍ مختلفةٍ قربَ الطريقِ. هناك عربات خشبية كبيرة بعجلاتٍ عملاقةٍ مُحملة بالحجارة وجاهزة للانطلاقِ. كان كلُّ شيءٍ مغطى بالغبارِ الرمادي، بما في ذلك الشجيرات والأشجارِ، وهناكَ منطقةٌ كبيرةٌ من الغابةِ قد نُظفت ففكر وليم في نفسهِ بغضبٍ: «هذهِ غابتي». إضافةً إلى هذا رأى عشرةَ أو اثني عشر بناءً خشبياً، وبعضها مع حدائق خضارٍ صغيرةٍ، وأحدها بزريبة خنازير. كان المكان أشبه بقريةٍ صغيرةٍ.

لا بد أنَّ الحارس كان نائماً، وكلبهُ أيضاً.

تحدثَ وليم إليه قائلاً: «ما عدد الرجالِ هنا أيُّها الفتى؟»

بدا الفتى خائفاً، ولكنه نظرَ بشجاعةٍ وأجابَ: «أنتَ اللورد وليم، أليسَ كذلك؟»

«أجب على السؤالِ أيُّها الفتى، أو سأقطع رأسكَ بسيفي».

شحبَ وجهُ الفتى من الخوفِ، وأجابَ على السؤالِ بصوتٍ متحدٍ ومرتعشٍ: «أتحاول سرقةَ المقلعِ من رئيسِ الديرِ فيليب؟»

وفكرَ وليم في نفسهِ: «ما خطبي؟ لا يمكنني أن أخيفَ طفلاً نحيلاً لم تنبت لحيتهُ بعد! لمَ يعتقدُ الناس أنهم قادرون على تحدي سلطتي؟» وقال وليم بصوتٍ كالهسيس: «هذا المقلعُ ملكي! ولتنسَ أمرَ رئيسِ الديرِ فيليب؛ فهو لا يستطيع مساعدتكَ الآن. أجبني، ما عدد الرجالِ؟»

وبدلاً من الإجابةِ أمالَ الفتى رأسهُ إلى الوراءِ وبدأ يصرخ: «النجدة! احذورا! هجوم! هجوم!»

وضعَ وليم يدهُ على سيفهِ، ولكنه ترددَ عندما نظرَ إلى المنازلِ. ظهرَ وجهٌ خائفٌ من وراءِ بابٍ، وقررَ أن ينسى أمرَ المتدربِ. خطفَ مشعلاً من أحد رجالهِ، وهمزَ جوادهُ.

توجه إلى المنازلِ رافعاً الشعلةَ عالياً، وسمعَ رجالهُ من ورائهِ يلحقون بهِ. فُتحَ بابُ أقربِ كوخٍ، وظهرَ رجلٌ بعينين ناعستين في قميصٍ داخلي. رمى وليم الشعلةَ من فوقِ رأسِ الرجلِ فاستقرَّت على قشِّ الأرضيةِ في الداخلِ، واشتعلت النيران على الفورِ. أطلقَ وليم صيحةَ نصرٍ، وتجاوزَ الكوخَ.

تابعَ وليم التقدم عبرَ مجموعةٍ صغيرةٍ من المنازلِ، ومن خلفهِ اندفعَ رجاله يصرخون، ويرمون المشاعل على الأسقف القشّية. فُتحت الآن جميعُ الأبوابِ، واندفع رجالٌ، ونساءٌ، وأطفالٌ مذعورون يصرخون وهم يحاولون تفادي حوافر الجياد، وركضوا في المكانِ مرتعبين بينما النيران تستعرُ. توقفَ وليم عندَ حافةِ الساحةِ، وراقبَ المشهدَ لبرهةٍ. تحررت جميعُ الحيوانات الآن، واندفعُ خنزيرٌ مرتعبٌ في المكانِ بشكلٍ أعمى، بينما وقفت بقرةٌ في وسطِ المكانِ تحرّك رأسها الغبي بحيرةٍ من جهةٍ إلى أخرى. حتّى الشباب المولعون عادةً بالقتالِ بدوا مضطربين وخائفين. إنَّ الفجر أفضلُ وقتٍ للقيامِ بمثلِ هذهِ الغاراتِ؛ فعندما يكون الناس نصف عراةٍ يسلبهم عريهم النزعة للعنفِ.

خرجَ رجلٌ داكن البشرةِ بشعرٍ أسود أشعث من أحدِ الأكواخِ متنعلاً جزمةً، وبدأ بإعطاء الأوامرِ.

لا بدَّ أنَّه أوتو بلاكفيس. لم يكن بوسعِ وليم سماع ما كان يقوله الرجلُ، ولكنه تكهنَ من حركاته أنَّه يطلبُ من النساءِ، والأطفالِ الاختباءَ في الغابةِ. كان يتحدث إلى الرجالِ أيضاً، ولكن ما الذي كان يقوله لهم؟ وبعدَ برهةٍ اكتشفَ وليم ما قاله أوتو للرجالِ. ركضَ شابان إلى كوخٍ بعيدٍ عن الأكواخِ الأخرى وفتحا قفلَ البابِ الخارجي. دخلا وخرجا يحملان مطارقَ ثقيلةً من النوعِ الذي يستخدمهُ قاطعو الحجارةِ. أشارَ أوتو إلى الرجالِ الآخرين للذهابِ إلى الكوخِ ذاتِهِ الذي تبينَ الآن أنَّه كوخُ المعداتِ. إنَّهم يتجهزون للقتالِ.

قبلَ ثلاثةِ أعوامٍ مضت رفضَ أوتو القتال من أجلِ فيليب، فلماذا غيَّرَ رأيهُ الآن؟

أيًّا يكن سببُ تغييرهِ لرأيِهِ فسيموت من أجلِهِ، وابتسمَ وليم بتجهمٍ ثمَّ سحبَ سيفهُ.

بات هناك الآن ستةُ أو ثمانيةُ رجالٍ مسلحين بالمطارقِ، والفؤوسِ الطويلةِ. حثَّ وليم جوادهُ، واندفعَ باتجاهِ المجموعة التي كانت عندَ بابِ كوخِ المعداتِ فتفرقوا مُبتعدين عن طريقهِ، ولكنه لوحَ بسيفهِ وأصابَ أحدهم بجرحٍ عميقٍ في أعلى ذراعهِ فألقى الرجل بفأسهِ.

انطلقَ وليم بجوادهِ سريعاً ثمَّ استدار. كان يتنفسُ بصعوبةٍ، وينتابه شعورٌ جيدٌ؛ ففي حميةِ القتالِ لا مكان للخوف بل للمتعة فقط. رأى بعضُ رجال وليم ما حدث، ونظروا إليهِ من أجلِ الإرشادات. أشارَ إليهم باللحاقِ بهِ، ثمَّ انطلقَ باتجاهِ قاطعي الحجارةِ مجدداً. لن يكون بوسعهم تفادي ستةِ فرسانٍ بسهولةِ تفادي فارسٍ واحدٍ. ضربَ وليم اثنين آخرين، ورغمَ أنَّه كان يتحرك بسرعةٍ كبيرةٍ تمنعه من التوقفِ لإحصاءِ أعداد المصابين والقتلى، فإنَّه عرفَ أنَّ العديدَ منهم سقط تحتَ سيوفِ رجالهِ.

عندما استدارَ مجدداً كان أوتو يحشدُ قواتهِ. هاجمَ فرسانهُ مجدداً فتفرَّقَ قاطعو الحجارةِ باتجاهِ المنازلِ المحترقةِ، وأدركَ وليم بندمٍ أنَّه كان تكتيكاً ذكياً. لحقَ الفرسان بالرجالِ ولكن سيسهلُ على قاطعي الحجارةِ تفادي

الفرسان وهم متفرقون، علاوةً على هذا جفلت الجياد من نيرانِ الأكواخ. لاحقَ وليم رجلاً أشيبَ الشعرِ يحملُ مطرقةً، وأخطأه مرَّاتٍ عديدةً قبلَ أن يتجنبه الأخير من خلال الركضِ إلى منزلٍ بسقفٍ مشتعلٍ.

أدركَ وليم أنَّ أوتو سببُ المشكلة؛ فهو من يمنحُ قاطعي الحجارة الشجاعة، وينتظمهم، ولذلك إن قتله فسيستسلم الآخرون. شدَّ وليم لجام جوادِهِ، وتوقفَ للبحثِ بنظرهِ عن الرجلِ ذي البشرةِ الداكنةِ. كان معظمُ الأطفال والنساءِ قد اختفوا، باستثناء طفلين في الخامسةِ من العمرِ وقفا في منتصفِ ساحةِ القتالِ رافعين أيديهما ويبكيان. اندفعَ فرسان وليم بين المنازل في إثرِ قاطعي الحجارةِ، ولكنِ وليم تفاجأ عندما رأى أحدَ الجنودِ يقعُ أرضاً بضربةِ مطرقةٍ، وينزفُ متألماً. شعرَ وليم بالإحباط فهو لم يتوقع وقوع ضحايا من جانبهِ.

ركضت امرأةٌ من أحدِ المنازلِ المحترقةِ صارخةً بشيءٍ لم يتمكن وليم من سماعهِ. كانت تبحث عن أحدٍ ما، وأخيراً رأت الطفلين وحملت كلَّ واحدٍ منهما على ذراعٍ. وعندما ركضت هاربةً كادت تصطدمُ بأحدِ رجالِ وليم وهو غيلبرت دي رينز فرفع الأخيرُ سيفهُ ليضربها. وفجأة خرجَ أوتو من وراءِ أحدِ الأكواخِ ملوحاً بفأسهِ الطويلِ. أمسكَ أوتو بالسلاحِ بمهارةٍ، ونجحَ بقطعِ قدمِ غيلبرت من الفخذِ بل أصابَ السرجَ الخشبي تحتها. وقعت الساقُ المقطوعةُ على الأرضِ وصرخَ غيلبرت ثمَّ سقطَ عن جوادهِ.

لن يعود قادراً على القتالِ بعدَ هذا.

كان غيلبرت فارساً مهماً، ولذلكَ اندفعَ وليم بغضبٍ باتجاه أوتو. كانت المرأة والطفلان قد اختفوا، وأوتو يُصارع لإخراجِ نصلِ الفأسِ من السرجِ الخشبي، وعندما رفعَ ناظريهِ رأى وليم قادماً نحوه، ولو أنَّه هربَ في تلكَ اللحظةِ لنجا بحياتهِ، ولكنه بقي وتابعَ شدَّ الفأسِ فتحررَ وهنا كادَ وليم ينالُ منه. رفعَ وليم سيفهُ، وبقي أوتو في مكانهِ ثمَّ رفعَ فأسهُ. وفي اللحظةِ الأخيرةِ أدركَ وليم أنَّ أوتو وجه فأسه إلى الجواد، وأنّه قد يصيب الجواد قبل أن يقترب منه وليم ويضربهُ بسيفهِ، ولذلكَ شدَّ وليم لجامَ جوادهِ بقوةٍ فتوقفَ الجواد فجأةً، وتراجع إلى الوراءِ مشيحاً برأسهِ بعيداً عن أوتو. وقعت الضربةُ على عنقِ الجوادِ وغاصَ النصلُ عميقاً قليلاً في عضلاتهِ القويةِ.

انبثقَ الدمُ كنافورةٍ وسقطَ الجوادُ، ولكن قبلَ أن يصلَ الأرضَ كان وليم قد سقطَ عن ظهرهِ.

أثارَ هذا غضبَ وليم الشديد. كان جوادُ الحربِ قد كلَّفه ثروةً، ونجا من معاركِ عامٍ من الحربِ الأهليةِ، ولذلكَ كانت خسارتهُ بفأسِ قاطعِ حجارةٍ أمراً باعثاً على الجنونِ. قفزَ وليم فوقَ جثةِ الجوادِ، واندفعَ بغضبٍ نحو أوتو رافعاً سيفهُ.

لم يكن أوتو ضحيةً سهلةً فقد رفعَ فأسهُ حاملاً إياه بكلتا يديهِ، واستعانَ بمقبضهِ المصنوعِ من لُبِ خشبِ البلوطِ لصدِّ ضرباتِ سيفِ وليم. ضربَ وليم بقوةٍ أكبر دافعاً بأوتو إلى الوراءِ. وعلى الرغمِ من عمرهِ، فإنَّ أوتو كان رجلاً قوياً، وبالكاد زعزعتهُ ضربات وليم. أمسكَ وليم سيفهُ بكلتا يديهِ وضربَ بقوةٍ أكبر، ومجدداً أعاقهُ مقبضُ الفأسِ المتين، ولكن هذهِ المرة انغرزَ نصلُ سيف وليم في خشبِ المقبض، وهنا بدأ أوتو يتقدم ووليم يتراجع. ضربَ وليم بسيفهِ بقوةٍ محاولاً ألا يعلقَ النصلُ بمقبضِ الفأسِ، ولكن أوتو بدأ الآن يكيلُ له.

وفجأةً شعرَ وليم بالخوفِ على حياتهِ.

رفعَ أوتو فأسهُ، وتراجع وليم إلى الوراءِ متفادياً الضربة، ولكن عقب قدمهِ علقَ بشيءٍ، وترنحَ ثمَّ سقطَ على ظهرهِ فوقَ جثةِ جوادهِ ووسطَ بركةٍ من الدماءِ الحارةِ ولكن دون أن يقع سيفهُ من يدهِ. وقفَ أوتو فوق وليم رافعاً فأسهُ، وعندما رأى وليم السلاح يهوي تدحرجَ جانباً في هلعٍ، ولكنه شعرَ بالهواءِ الناجمِ عن سقوطِ نصلِ أوتو قريباً من وجههِ، ثمَّ وقفَ على قدميهِ، وضربَ أوتو بسيفهِ.

عادةً ما يتحركُ الجندي بشكلٍ جانبي عندما يسحبُ سلاحهُ عن الأرضِ فهو يعلمُ أنَّ أكثر اللحظاتِ حرجاً هي عندما يكيلُ ضربةً ويُخطئ، ولكن أوتو لم يكن جندياً بل مجرد أحمق شجاع يقفُ بيدٍ على مقبضِ الفأسِ والأخرى ممدودةٌ من أجلِ التوازن تاركاً جسدهُ المفتوح هدفاً سهلاً. كانت ضربةُ وليم سريعةً وأصابت أوتو. اخترقَ طرفُ السيفِ صدر أوتو، ودفعَ وليم بالسيفِ بقوةٍ؛ فانزلق النصلُ بينَ أضلاعِ الرجلِ، وأفلتَ أوتو الفأسَ من يدهِ، وعلا وجهه تعبيرٌ يعرفهُ وليم جيداً: إنّه المفاجأة، وفتحَ فمهُ كأنَّه رغبَ بالصراخِ، ولكن لم يصدر عنه صوتٌ، وفجأةً تحولت بشرتهُ إلى اللونِ الرمادي. كانت

نظرةَ رجلٍ تلقى ضربةً قاتلةً. أقحمَ وليم سيفهُ بقوةٍ أكبر من بابِ الضمانةِ ثمَّ سحبهُ. نظرَ أوتو إلى الأعلى، وظهرت بقعةٌ حمراء زاهيةٌ على مقدمةِ قميصهِ، وكبرت بسرعةٍ كبيرةٍ ثمَّ سقطَ.

استدارَ وليم إلى الوراءِ لمعاينةِ المشهد، ورأى عاملين يهربان بعدَ رؤيةِ قائدهما يُقتلُ. وبينما كانا يركضان صرخا بالآخرين، وتحولَ الكرُّ إلى فرٍ، ثمَّ لاحقَ فرسانه الهاربين.

وقفَ وليم في مكانهِ ساكناً يتنفسُ بصعوبةٍ. لقد واجههم عمالُ المقلعِ! نظرَ إلى غيلبرت فوجدهُ مستلقياً بلا حركةٍ وسطَ بركةٍ من الدماءِ، وعيناه مُغلقتان. وضعَ وليم يدهُ على صدرِ غيلبرت، ولكنه لم يشعر بأيِّ نبضٍ. لقد ماتَ غيلبرت.

تجولَ وليم حولَ المنازلِ المحترقةِ يعدُّ الجثث، وأحصى ثلاثة قتلى من قاطعي الحجارةِ، إضافةً إلى امرأةٍ وطفلٍ يبدو أنَّ الجيادَ قد وطأتهما، أمَّا من جانبِ وليم فقد جُرحَ ثلاثةُ جنودٍ وقتلت وأصيبت أربعةُ جيادٍ.

عندما فرغَ وليم من إحصاءِ الخساراتِ وقفَ قربَ جثةِ جوادهِ الحربي. لطالما أحبَّ هذا الجواد أكثر مما أحبَّ معظمَ الناس. عادةً ما كان يشعر بعدَ المعاركِ بالسعادةِ، ولكنه شعرَ الآن بالإحباطِ. كان الأمرُ أشبه بفوضى عارمة، وتحولت هذهِ العمليةُ البسيطةُ لطردِ مجموعةٍ من العمالِ العاجزين إلى معركةٍ حاميةِ الوطيسِ، وبخسائر عاليةٍ.

لاحقَ الفرسان العمالَ حتَّى الغابةِ فالجياد هناك لن تعود قادرةً على اللحاقِ بهم؛ ولذلك عادوا أدراجهم. توجهَ والتر إلى حيث وقفَ وليم، ونظرَ إلى جثةِ غيلبرت على الأرضِ ثمَّ رسمَ الصليبَ على صدرهِ وقال: «قتلَ غيلبرت رجالاً أكثر مما قتلتُ أنا».

«لا يوجد من أمثالِهِ كثرٌ كي أفقدهم في خلافٍ مع راهبٍ ملعونٍ»، قال وليم بمرارةٍ. «هذا دونَ أن آتي على ذكرِ الجيادِ التي خسرناها».

«من كان يفكّر أنَّ هذا قد يحدث!» قال والتر. «قاتل أولئك الرجال بشراسةٍ أكبر من متمردي روبرت غلوستر».

هزَّ وليم رأسهُ في تقززٍ وقال: «لا أعلم»، ثمَّ نظرَ إلى الجثثِ من حولهِ وأضاف: «ما الذي اعتقدوا أنّهم يقاتلون من أجلهِ بحقِ الجحيمِ؟»

الفصل التاسع

- 1 -

اجتمعَ معظمُ الأخوةِ في السردابِ من أجلِ صلاةِ الفجرِ ولم يبقَ في المهجعِ سوى شخصين: جوني إيتبنس الذي كان يكنسُ الأرضيةَ عندَ طرفِ الغرفةِ الطويلةِ، وجوناثان عند الطرفِ الآخرِ يلعبُ لعبةَ المدرسةِ.

توقفَ رئيسُ الديرِ فيليب عندَ المدخلِ، وراقبَ جوناثان. كان في الخامسةِ تقريباً، ويفورُ ثقةً، وجاذبيةً طفوليةً فتنت الجميعَ، وما زال جوني يُلبسهُ رداءً رهبانياً مُصغراً. كان جوناثان اليوم يتظاهر أنَّه مُعلّمُ الرهبان المبتدئين، ويعطي دروساً إلى صفٍ من الطلابِ المُتخيلين. «هذا خطأ يا غودفري!» قال جوناثان بعبوسٍ مشيراً إلى المقعدِ الفارغِ. «لن تحظى بالغداءِ إن لم تتعلم لفعالك!» كان يعني بـ «لفعالك» أفعالك. ابتسم فيليب بُحبٍ فقد أحبَّ هذا الفتى جداً كأنَّه ابنهُ، وكان جوناثان مصدرَ البهجةِ الصرفةِ الوحيد في حياتهِ.

يركضُ الطفلُ في أنحاءِ الديرِ كجرو صغيرٍ يُربت عليهِ جميعِ الرهبان ويدللونهُ، وكان بالنسبةِ إلى معظمهم أشبه بحيوانٍ أليفٍ، أو لعبةٍ مسليةٍ، ولكنه كان أكثر من ذلك بالنسبةِ إلى جوني وفيليب. أحبَّه جوني كأمٍ، أمَّا فيليب، وعلى الرغمِ من محاولتهِ إخفاءَ الأمرِ، فإنّه شعرَ كأنَّه أبٌ للصبي. فيليب نفسهُ ومنذُ نعومةِ أظفارهِ تربَّى على يدِ رئيسِ ديرٍ عطوفٍ، ولذلكَ كان من الطبيعي جداً أن يكررَ الدورَ ذاتهُ مع جوناثان. لم يقم قط بدغدغتهِ، أو الركض وراءهُ كما فعل الرهبان، بل قصَّ عليهِ حكايا من الإنجيل، ولعب معه لعبةَ العدِّ، ولم يُبعده عن ناظريه قط.

دخلَ فيليب إلى الغرفةِ، وابتسمَ لجوني ثمَّ جلسَ على المقعدِ مع فتيةِ المدرسةِ المُتخيلين.

«صباح الخيرِ يا أبتاه»، قال جوناثان برزانةٍ. كان جوني قد علَّمه التصرَّفَ بتهذيبٍ جمٍّ.

قال فيليب: «ما رأيكَ بارتيادِ المدرسة؟»

«أنا أعرفُ اللاتينية»، قال جوناثان في تباهٍ.

«حقاً؟»

«أجل. اسمع: أومينوس بلفيوس بيفوس تيفوس نومايْن باتري آمين».

حاولَ فيليب ألا يضحك وقال: «يبدو باللاتينيةِ، ولكنه ليسَ كذلك. سيعلمكَ الأخ أوزمود، مُعلّمُ الرهبان المبتدئين، كيف تتحدثها كما يجب».

بدا جوناثان مُحبطاً بعضَ الشيءِ عندما اكتشفَ أنَّه لا يجيد اللاتينية وقال: «على أيِّ حالٍ أستطيعُ الركضَ بسرعةٍ كبيرةٍ. انظر!» وركضَ بسرعةٍ كبيرةٍ في الغرفةِ من جهةٍ إلى أخرى.

«رائع!» قال فيليب. «هذا سريعٌ حقاً».

«أجل، ويمكنني أن أركض بسرعةٍ أكبر...»

«ليسَ الآن»، قال فيليب وتابع: «أصغِ إلي لبرهةٍ. سأغيب لفترةٍ».

«هل ستعود غداً؟»

«لا، ليسَ بهذهِ السرعةِ».

«الأسبوع القادم؟»

«ولا حتَّى الأسبوع القادم».

حدّقَ جوناثان بنظرات فارغةٍ فما يزال يعجز عن فهمِ ما هو أبعد من الأسبوعِ القادمِ، وهنا خطرَ له سؤالٌ محيرٌ آخر: «ولكن لماذا؟»

«يجب أن أقابل الملك».

«أوه». وهذا أيضاً لم يكن يعني الكثيرَ إلى جوناثان.

«وأريدكَ في غيابي أن ترتاد المدرسة، أتريد هذا؟»

«أجل».

«تكاد تبلغ الخامسة، وعيد ميلادك الأسبوع القادم. لقد أتيتَ إلينا في أولِ يومٍ من العامِ».

«ومن أينَ أتيت؟»

«أرسلك الرَّب الذي يرسلُ كلَّ شيءٍ».

علمَ جوناثان أنَّ هذا لم يكن جواباً حقيقياً، ولذلكَ ألحَّ قائلاً: «ولكن أين كنتُ قبلاً؟»

«لا أعلم».

اكفهرَّ وجه جوناثان، ولكن التكشيرةَ على وجههِ الصغيرِ والخالي من الهمومِ بدت مضحكةً جداً. «لا بدَّ أنني كنتُ في مكانٍ ما».

أدركَ فيليب أنَّ أحداً في يومٍ من الأيامِ سيُخبر جوناثان عن الطريقةِ التي يولد بها الأطفالُ، وعبسَ عندما عبرت هذهِ الفكرة ذهنهُ. لحسن الحظِ لن يحصل هذا الآن، وهنا غيرَ فيليب الموضوع قائلاً: «خلالَ غيابي أريد أن تتعلمَ العدَّ حتَّى المئة».

«يمكنني العد»، قال جوناثان. «واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة ثمانية تسعة عشرة أحد عشر اثنا عشر ثلاثة عشر أربعة عشر خسعشر ستسعشر سبسعشر...»

«ليسَ سيئاً»، قال فيليب. «ولكن الأخ أوزموند سيعلمكَ المزيد. يجب أن تلزمَ الهدوءَ في الصفِ، وتطيعه في كلّ ما يطلبهُ منكَ».

«سأكون الأفضلَ في المدرسةِ!» قال جوناثان.

«سنرى»، قال فيليب، وتفحصهُ لبرهةٍ. كان فيليب مأخوذاً بتطورِ الطفلِ، وبالطريقةِ التي يتعلمُ فيها الأشياء، والعبارات التي تصادفه. إنَّ إصرارهُ الحالي على تحدثِ اللاتينيةِ، أو العدِّ، أو الركضِ بسرعة مثار عجبٍ، وتساءل فيليب في نفسه إن كان هذا فاتحةً ضروريةً لعمي. علمٍ حقيقيةٍ. لا بدَّ أنَّها تخدمُ غاية ما في خطةِ الرَّبِّ، وفي يوم من الأيام سيغدو جوناثان رجلاً، ولكن كيف سيكون آنذاك؟ وشعرَ فيليب بنفاد صبرهِ لرؤيةِ جوناثان بالغاً، ولكن هذا سيأخذ الوقت ذاتهُ الذي ستأخذهُ الكاتدرائية حتَّى تكتمل.

«أعطني قبلةً ثمَّ ودعني»، قال فيليب.

رفعَ جوناثان وجهه، وقبَّله فيليب على خدّهِ الطري ثمَّ قال جوناثان: «وداعاً يا أبتاه».

«وداعاً يا بني»، قال فيليب.

وفي طريقهِ خارجاً ضغطَ فيليب على ذراعِ جوني إيتبنس بعطفٍ، وخرجَ.

كان الرهبان قد بدأوا بمغادرةِ السردابِ متوجهين إلى قاعةِ الطعامِ. ذهبَ فيليب في الاتجاه المعاكسِ، ودخلَ السرداب للصلاةِ على نيةِ النجاحِ في مهمتهِ.

فُطرَ قلبهُ عندما أخبروه بما حدثَ في المقلعِ. قُتلَ خمسةُ أشخاصٍ، ومن بينهم فتاةٌ صغيرةٌ. اختبأ فيليب في منزلهِ، وبكى كطفلٍ صغيرٍ. قُتلَ خمسةٌ من رعيتهِ على يدِ وليم هاملي، وعصابتهِ المتوحشةِ. كان فيليب يعرف جميعَ من توفوا: هاري من شايرنغ الذي عملَ كقاطعِ حجارةٍ لمصلحة اللورد بيرسي، وأوتو بلاكفيس الرجلُ الأسمر المسؤول عن المقلعِ منذُ البدايةِ، وابنهُ الوسيم مارك، وزوجةُ مارك آلوين التي تعزفُ على القربةِ في الأماسي، ونورما حفيدةُ أوتو البالغة سبعةَ أعوامٍ والمفضلةُ لديه. كانوا أناساً طيبين، ومؤمنين، ومُجدين في العملِ، ومن حقهم توقع السلم والعدالةِ من أسيادهم. لقد قتلهم وليم كما يقتلُ ثعلبُ الدجاجَ، وهذهِ جريمةٌ على درجةٍ كبيرةٍ من الفظاعةِ يمكن للملائكةِ أن تبكي بسببها.

حزنَ عليهم فيليب جداً، وتوجهَ إلى شايرنغ ليطالبَ بالعدالةِ لهم، ولكن المأمور رفضَ صراحةً القيام بأيِّ شيءٍ حيال الأمرِ. «لدى اللورد وليم جيشٌ صغيرٌ فكيفَ لي أن أعتقلهُ؟» قال المأمور أوستس. «يحتاجُ الملكُ إلى الفرسانِ لمواجهةِ مود، وإن علمَ أنني سجنتُ أفضلَ رجالهِ فما الذي سيكون موقفهُ؟ إن وجهتُ تهمةَ القتلِ إلى وليم سأُقتلُ على الفورِ على يدِ فرسانهِ، أو سيعلقني الملكُ ستيفن لاحقاً على المشنقةِ بتهمةِ الخيانةِ».

وهنا أدركَ فيليب أنَّ العدالة أولى ضحايا الحروبِ الأهليةِ.

أخبره المأمور أنَّ وليم قدَّمَ شكوى رسمية بخصوصِ سوقِ كينغزبريدج.

لمن السخافةِ بحقٍ أن ينجو وليم من تهمةِ القتلِ في الوقتِ الذي يواجه فيه فيليب تهمةً شكليةً. شعرَ فيليب بالعجزِ. صحيحٌ أنَّه لا يملك إذناً بإقامةِ سوقٍ، وهذا في صحيحِ العبارةِ عملٌ لا أخلاقي ولا يجوز أن يحدث أو يستمر؛ فهو رئيسُ ديرِ كينغزبريدج وكلُّ ما يملكهُ هو سلطتهُ الأخلاقية. يستطيع وليم استخدام جيشه من الفرسانِ، والأسقف ويلارن اللجوء إلى معارفهِ من أصحابِ المناصبِ العليا، ويُمكن للمأمورِ أن يدَّعي امتلاكه

السلطةَ الملكيةَ، ولكن فيليب لا يملكُ سوى سلطة القولِ بصوابِ هذا وبخطأ ذاك، وإن خسرَ هذا الموقع فسيصبح عاجزاً، ولذلكَ طلبَ إيقافَ السوقِ.

وتركه هذا في موقفٍ يائسٍ.

كانت مواردُ الديرِ قد تحسّنت بشكلٍ كبيرٍ، والفضلُ في هذا يعودُ إلى إدارةِ الأمورِ بقبضةٍ قويةٍ من جهةٍ، وعوائدِ السوقِ المتزايدةِ باطرادٍ وتربيةِ الخرافِ من جهةٍ أخرى، ولكن فيليب أنفقَ كلَّ بنسٍ جناه الديرُ على البناءِ، واستدانَ مالاً كثيراً من يهودِ وينشستر، وهو لم يدفع هذهِ الديون بعد. وها هو وبضربةٍ واحدةٍ يخسرُ مصدرَ الحجارةِ المجاني، ويتراجعُ مدخولهُ من السوقِ، والمتطوعون الذين يأتون للشراءِ من السوقِ والعملِ في موقعِ البناءِ سيتقلص عددهم على الأغلبِ. سيضطرُ إلى تسريحِ نصفِ البنَّائين، ويتخلى عن أملِ إنهاءِ بناءِ الكاتدرائيةِ في حياتهِ، وهو لم يكن مستعداً لقبولِ هذا.

تساءل في نفسهِ إن كانت هذهِ الكارثة من عملِ يديهِ، هل كانت ثقتهُ أكبر من اللازمِ؟ هل كان طموحاً جداً؟ كان المأمور أوستس قد قال له الكثير في هذا الشأنِ. «أحلامكُ أكبرُ من إمكاناتك يا فيليب». وقال بغضبٍ: «تديرُ ديراً صغيراً، وأنت رئيسُ ديرٍ صغيرٍ، وتريد التغلب على الأسقفِ والإيرل والمأمورِ. حسناً، لن تتمكن من فعلِ هذا؛ فنحنُ أقوى منكَ، وكلُّ ما تفعلهُ هو إثارةُ المتاعبِ». كان أوستس رجلاً قبيحاً بأسنانٍ غير متساويةٍ، وضمادةٍ على إحدى عينيهِ، ويرتدي رداءً قذراً مُصفرّاً، وعلى الرغمِ من أنّه لم يكن شخصيةً مبهرةً، فإنَّ كلماتِهِ طعنت فيليب في الصميمِ. يعي فيليب وبشكلٍ مؤلمٍ أنَّ عمالَ المقلعِ لم يكونوا ليموتوا لو أنّه لم يُعادِ وليم هاملي، ولكن لم يكن بوسعهِ سوى أن يكون عدواً لوليم هاملي. إن لم يعادهِ سيعاني أناسٌ أكثر كالطحّان الذي قتلهُ وليم، وابنةِ القنِّ التي اغتصبها وليم وفرسانهُ. كان على فيليب أن يستمرَّ بمحاربتهِ.

ولهذا تعينَ عليهِ الذهاب لمقابلةِ الملكِ.

كرهَ فيليب فكرةَ مقابلةِ الملكِ؛ فقد قابلهُ قبلاً في وينشستر منذُ أربعةِ أعوامٍ، ورغمَ أنّه حصلَ على مرادهِ آنذاك فإنّه شعرَ بالضيقِ الشديدِ من تواجدِهِ في البلاطِ الملكي؛ فقد كانت بطانةُ الملك مجموعةً من المخادعين، وعديمي الضميرِ ممن يتنافسون على اهتمامهِ، ويتقاتلون على حظوتهِ،

ولطالما عدَّ فيليب مثلَ أولئك الناسِ وضيعين، وجديرين بالازدراءِ. كانوا يريدون الحصولَ على الثروةِ والمكانةِ التي لا يستحقونها. لم يفهم تماماً اللعبةَ التي يلعبونها؛ ففي عالمهِ كانت الطريقةُ المثلى للحصولِ على شيءٍ هي باستحقاقهِ عن جدارةٍ، وليسَ بتملقِ من يعطي هذا الشيء، غير أنَّه الآن لا يملك خياراً آخر سوى الدخول إلى عالمهم ولعب لعبتهم. الملكُ وحده من يستطيع منحَ فيليب الإذنَ بإقامةِ السوقِ، وما من شخصٍ آخر غيره الآن قادرٌ على إنقاذِ الكاتدرائية.

انتهى فيليب من الصلاةِ، وغادرَ السردابَ. كانت الشمسُ قد بدأت تبزغُ، واكتست الجدران الرمادية للكاتدرائيةِ الجديدةِ بوهجٍ وردي، والبنَّاؤون الذي يعملون من الفجرِ حتَّى الغروب بدأوا العملَ، وفتحوا أبوابَ مساكنهم، وبدأوا يشحذون معداتهم، وخلط أول دفعةٍ من الملاطِ. لم تؤثر خسارةُ المقلعِ بعد على سيرِ العملِ، لأنَّهم ومنذُ البدايةِ كانوا يكدسون الحجارةَ بوتيرةٍ أسرع من وتيرةِ البناءِ، ولديهم الآن أكوامٌ ستكفيهم لأشهرٍ عديدةٍ.

كان وقتُ المغادرةِ قد حانَ وقد انتهى فيليب من كلِّ الترتيباتِ. إنَّ الملك في لينكولن، وسيسافرُ فيليب بصحبةِ ريتشارد شقيق آليانا. بعدَ مشاركتهِ في الحربِ لعامٍ كمرافقٍ رقى الملكُ ريتشارد إلى منصبِ فارسٍ. كان قد عادَ إلى كينغزبريدج لتزويد نفسهِ بما يحتاجهُ، وهو الآن في طريقهِ للانضمامِ إلى الجيشِ الملكي مجدداً.

أبلت آليانا بلاءً مذهلاً كتاجرةِ صوفٍ، وهي لم تعد تبيعُ الصوفَ إلى فيليب الآن بل تتاجرُ بشكلٍ مباشرٍ مع الباعةِ الفلمنكيين. في الحقيقةِ أرادتْ هذا العام شراءَ إنتاجِ الديرِ بأكملهِ من الصوفِ، ورغمَ أنَّها ستدفعُ سعراً أقل من سعرِ الفلمنكيين، فإنَّها كانت مستعدةً لإعطاء فيليب المال مُقدماً، ولكن فيليب رفضَ عرضها. كان تقديمها لمثلِ هذا العرض أكبر دليلٍ على نجاحها.

أثناءِ سيرهِ إلى الإسطبلاتِ لمحها فيليب برفقةِ شقيقها مع حشدٍ أتى لتوديع المسافرين. امتطى ريتشارد جواداً حربياً كستنائي اللونِ لا بدَّ أنَّه كلَّفَ آليانا عشرين جنيهاً. كبرَ ريتشارد، وتحولَ إلى شابٍ وسيمٍ عريض المنكبين، وما من شيءٍ شوَّه تعابير وجههِ غير ندبةٍ عميقةٍ في أذنهِ اليمنى. لا بدَّ أنه خسرَ شحمةَ أذنهِ في مسايفةٍ ما. ارتدى ثياباً مذهلةً باللونين الأحمر والأخضر،

وحملَ سيفاً جديداً، ورمحاً، وفأس حربٍ، وخنجراً، أمَّا أمتعتهُ فكانت على ظهرِ جوادٍ آخر رَبط لجامه برسنِ جواده الذي يمتطيهِ، ورافقهُ أيضاً جنديان على فرسين سريعين، ومرافقٌ على جوادٍ قصيرِ القوائمِ.

رأى فيليب آليانا تبكي، ولم يكن بوسعهِ الجزم بسببِ دموعها. هل كانت تبكي لرؤيةِ أخيها يُغادر؟ أم لأنَّها فخورةٌ بأحوالهِ الطيبةِ؟ أم لأنَّها خائفةٌ من عدمِ عودتهِ أبداً؟ ورأى فيليب أنَّها ربما تبكي للأسبابِ الثلاثةِ معاً. كان قد حضرَ بعضُ القرويين للوداعِ، بمن في ذلكَ أصغر الشبابِ والفتيةِ. لم يكن هناكَ أدنى شك في أنَّ ريتشارد كان بطلهم. كان الرهبان بينَ الحشدِ أيضاً وقد أتوا ليتمنوا لرئيسِ ديرهم رحلةً آمنةً.

جلبَ خدمُ الإسطبلِ جوادين أحدهما جوادٌ صغيرٌ كي يمتطيهِ فيليب، وجوادٌ آخر قصير القوائمِ لحملِ متاعهِ المتواضعِ، الذي كان أغلبه طعاماً من أجلِ الرحلةِ. تركَ البنَّاؤون معداتهم، وتوجهوا أيضاً لوداعِ المسافرين، وفي مقدمتهم سارَ البنَّاء المُلتحي توم وابن زوجتهِ الأصهب الشعرِ جاك.

عانقَ فيليب نائبهُ ريميجوس بطريقةٍ رسميةٍ، وودعَ بحرارةٍ ميليوس وكوثبرت، ثمَّ امتطى جوادهُ بحزنٍ فهو سيجلسُ على هذا السرجِ الصلب لوقتٍ طويلٍ. ومن فوقِ جوادهِ باركهم جميعاً. أثناءَ خروجِ فيليب وريتشارد جنباً إلى جنب من بواباتِ الديرِ لوحَ الرهبان، والبنّاؤون، والقرويون وهم يلهجون بكلماتِ الوداع.

عبروا شارعاً ضيقاً في البلدةِ وهم يلوحون للناسِ الذين وقفوا على أبوابِ منازلهم لمشاهدةِ موكبِ المسافرين ثمَّ عبروا الجسرَ الخشبي إلى طريقٍ بينَ حقولٍ. بعدَ وهلةٍ حدَّقَ فيليب إلى الوراءِ من فوقِ كتفيهِ، ورأى الشمسَ تبزغُ من بينِ نوافذِ الطرفِ الشرقي غير المنتهي للكاتدرائيةِ الجديدةِ. إن فشلَ في هذهِ المهمةِ فلن ينتهي من بناءِ الكاتدرائيةِ أبداً. بعدَ كلّ ما مرَّ بهِ عجزَ عن تحمل فكرةِ الهزيمةِ الآن، وهنا استدارَ وركزَ على الطريقِ أمامهُ.

***

تقعُ مدينةُ لينكولن على تلةٍ، ودخلها فيليب وريتشارد من الجنوبِ عبرَ شارع قديمٍ، ومزدحمٍ يدعى شارع إيرماين. رأيا من بعيدٍ على قمةِ التلةِ أبراجَ الكاتدرائيةِ، وأسوارَ القلعةِ. ورغم أنَّه ما زال أمامهما ثلاثةُ، أو أربعةُ أميالٍ

حتَّى يصلا فإنَّ فيليب تفاجأ عندما وصلا إلى بوابةِ المدينةِ، وفكرَ في نفسهِ أنَّ الضواحي حتماً واسعةٌ جداً، ويزيد تعدادُ سكانِ المدينةِ على الآلافِ.

في عيدِ الميلادِ وقعت المدينةُ في قبضةِ رانولف تشستر، أقوى رجلٍ في شمالِ إنكلترا وأحد أنسباءِ الإمبراطورةِ مود، ورغمَ أنَّ الملكَ وضعَ يدهُ على المدينةِ مجدداً، فإنَّ القلعةَ ما زالت تحتَ سيطرةِ قواتِ رانولف. وخلالَ اقترابهما من المدينةِ الآن علمَ فيليب وريتشارد أنَّ المدينةَ في وضعٍ غريبٍ لكونها بيدِ جيشين معاديين متمركزين داخلَ أسوارها.

خلالَ رحلةِ الأسابيع الأربعةِ الماضيةِ لم يشعر فيليب بالقربِ من ريتشارد. كان شقيقُ آليانا شاباً غاضباً كارهاً لعائلةِ هاملي، ومصمماً على الانتقامِ، وتحدثَ بالأمرِ مع فيليب كأنَّ الأخير شاركهُ الشعورَ ذاتهُ. يختلفُ فيليب وريتشارد في أسبابِ كرههما لعائلةِ هاملي؛ ففيليب يكرهُ العائلةَ بسببِ ما اقترفته بحقِ رعيته، والتخلص منها سيجعلُ العالم مكاناً أفضل، أمَّا ريتشارد فقد كان مقتنعاً أنَّه لن يشعر بشكلٍ أفضل حيال نفسهِ ما لم يهزم عائلةَ هاملي، ولذلك كان دافعهُ أنانياً صرفاً.

كان ريتشارد شاباً شجاعاً جسدياً، وعلى جهوزيةٍ دائمةٍ للقتالِ، ولكنه كان ضعيفاً من نواحٍ أخرى؛ فقد كان يُخطئ بمعاملةِ الجنودِ كمساوين له أحياناً، وكخدمٍ في مرَّاتٍ أخرى. في الحاناتِ كان يحاولُ تركَ انطباعٍ جيدٍ بشراءِ الجعةِ للغرباءِ، ويتظاهر بمعرفتهِ الجيدةِ بالطرقاتِ، في الوقتِ الذي لا يكون فيه واثقاً من صحةِ معرفتهِ، وأحياناً يذهبُ بهم على طريقٍ خاطئ لأنَّه عاجزٌ عن الاعتراف أنَّه ارتكبَ خطأً. بحلولِ الوقتِ الذي وصلوا فيهِ إلى لينكولن أدركَ فيليب أنَّ آليانا تساوي عشرة أشخاصٍ من أمثال ريتشارد.

عبروا بحيرةً كبيرةً مكتظةً بالسفنِ، ثمَّ عندَ أسفلِ التلةِ عبروا النهرَ الذي يشكلُ الحدَّ الجنوبي للمدينةِ. يبدو أن تجارةَ المدينةِ قائمةٌ على أعمالِ الشحنِ، وإلى جانبِ الجسر هناكَ سوقٌ للسمكِ. عبروا بوابةً أخرى محميةً، وأصبحوا الآن خارجَ منطقةِ الضواحي، وداخلَ المدينةِ المكتظةِ. أمامهم امتدَّ شارعٌ ضيقٌ ومزدحمٌ بشكلٍ جنوني ينتهي إلى أعلى التلةِ. اكتظَّ الطريقُ على كلا جانبيه بالمنازلِ الحجريةِ في دلالةٍ واضحةٍ على ثراءِ سكانِ المدينةِ.

كانت التلةُ شديدةَ الانحدارِ إلى درجة أنَّ الطوابق الأرضية لمعظمِ المنازلِ كانت فوقَ مستوى الأرضِ من جهةٍ وتحتهُ من جهةٍ أخرى.

شغلت ورشات الحرفيين، والدكاكين كل المساحةِ أسفلَ التلةِ، ولم يكن هناك مساحةٌ مفتوحةٌ سوى أراضي المقابرِ بجانبِ الكنائس التي كانت كلّ واحدةٍ منها مُختصةً بسوقٍ ما: سوقٌ للذرةِ، وسوقٌ للدجاجِ، وسوقٌ للصوفِ، وسوقٌ للجلدِ وبضائع أخرى. شقَّ فيليب، وحاشية ريتشارد الصغيرة طريقهم بصعوبةٍ عبرَ حشودِ سكانِ المدينةِ، والجنودِ، والحيوانات، والعرباتِ، وأدركَ في ذهولٍ أنَّه يسيرُ فوقَ حجارةٍ. كان الطريقُ بأكملهِ مرصوفاً! وفكرَ في نفسهِ أنَّ أهلَ المدينةِ أثرياء جداً لرصفهم الطريق بالحجارةِ كما يفعلون في القصور أو الكاتدرائيات. وعلى الرغمِ من أنَّ الطريقَ كان زلقاً بعضَ الشيءِ بسببِ المخلفاتِ وروثِ الحيواناتِ، فإنَّه كان أفضل بكثيرٍ من أنهارِ الطينِ التي تُغرقُ شوارعَ معظمِ المدنِ شتاءً.

وصلوا إلى أعلى التلةِ، وعبروا بوابةً أخرى إلى المدينةِ الداخلية الآن. فجأةً تغيرَ الجو عليهم؛ فقد غدا أكثرَ هدوءاً وتوتراً. إلى يسارهم تماماً كان مدخلُ القلعةِ، ووجدوا البابَ الكبير المدعمَ بالحديدِ عندَ المدخلِ مُحكمَ الإغلاقِ. كان هناكَ أخيلةٌ غير واضحة المعالمِ تتحركُ عندَ فتحاتِ رمي السهامِ في منزلِ الحرسِ، وحُرَّاسٌ في دروعٍ يتجولون على شرفاتِ الأسوارِ، وخوذهم اللامعة تعكسُ أشعةَ الشمسِ الضعيفةِ. راقبهم فيليب يتجولون، ولاحظَ أنَّهم لم يتحدثوا بعضهم إلى بعض، أو يتمازحوا، أو يضحكوا، أو ينحنوا من فوقِ السورِ ليصفروا للفتياتِ العابراتِ، بل كانوا منضبطين، وحذرين، ومُخيفين.

إلى يمين فيليب، وعلى بعدِ ربعِ ميلٍ من بوابةِ القلعةِ واجهةُ الكاتدرائيةِ الغربيةُ. لاحظ فيليب على الفورِ أنَّه وعلى الرغمِ من قُربِ الكاتدرائيةِ من القلعةِ فإنَّ الملك اتخذها مركزاً عسكرياً له، وهناكَ صفٌ من الحراسِ يقطعُ الطريقَ الضيقَ بين منازلِ الكهنةِ والكنيسةِ، وبعدَ صفِ الحراسِ رأى فيليب الفرسان والجنود يدخلون ويخرجون عبرَ المداخلِ الثلاثةِ للكاتدرائيةِ، وأنَّ المقبرة تحولت إلى معسكرٍ للجيش مع خيامهِ، ونارِ الطبخِ، والجيادِ التي ترعى في المرجِ. لم يكن هناك أبنية رهبانية؛ فكاتدرائية لينكولن لا يديرها رهبان بل كهنة يعيشون في منازل عادية قربَ الكنيسةِ.

كانت المساحةُ بينَ الكاتدرائيةِ والقلعةِ فارغةً إلا من فيليب ومجموعتِهِ، وفجأةً أدركَ فيليب أنَّهم أثاروا انتباه الحرَّاس على جانبِ الملكِ والحرَّاس على الأسوارِ المعاديةِ. كانوا في أرضٍ محايدةٍ بينَ المعسكرين، وهي على الأغلب النقطةُ الأخطر في لينكولن. نظرَ فيليب حوله، ورأى أن ريتشارد والبقية قد تقدموا فلحقَ بهم على عجلٍ.

سمحَ لهم حُرَّاسُ الملكِ بالدخولِ على الفورِ؛ فقد كان ريتشارد شخصيةً معروفةً. تأملَ فيليب بإعجابٍ الواجهة الغربية للكاتدرائيةِ. كانت قنطرةُ المدخلِ طويلةً جداً، ورغمَ أنَّ القناطرَ الأخرى على جانبيها بنصفِ طولها فإنَّها بمثلِ روعتها. بدا المدخلُ كمدخلٍ إلى الجنةِ، وهو كذلكِ بطريقةٍ ما، وهنا قررَ فيليب أن يكون لواجهة كاتدرائيةِ كينغزبريدج الغربية قناطر طويلةٌ.

تركوا الجيادَ مع المرافقِ، ثمَّ شقَّ فيليب وريتشارد طريقهما عبرَ المعسكرِ، ودخلا الكاتدرائيةَ. في الداخلِ كان المكان أكثر ازدحاماً مما كان في الخارجِ فقد تحولت الممرّات إلى إسطبلاتٍ لمئاتِ الجيادِ المربوطةِ إلى أعمدةِ المجازِ المقنطرِ، واكتظَّ صحنُ الكنيسةِ برجالٍ مسلحين، وأماكن الطهي والنومِ. كان البعضُ يتحدثُ بالانكليزيةِ، وغيرهم بالفرنسيةِ، والقليل بالفلمنكيةِ وهي اللغة التي يتحدثُ بها تجارُ الصوفِ في إقليم الفلاندرز. عموماً خيَّمَ الفرسان هنا في الداخلِ، والجنود في الخارجِ. ساءَ فيليب رؤية رجالٍ كثر يلعبون لعبةَ الطاحونةِ مقابل المالِ، بل وساءهُ أكثر رؤيةُ بعضِ النساءِ في ثيابٍ خفيفةٍ على فصلِ الشتاء. كُنَّ يُغازلن الرجال بطريقةٍ اعتقدَ معها فيليب أنهنَّ نساءٌ آثماتٌ، أو لا سمح الرَّبُّ، عاهرات.

تجنَّبَ فيليب النظرَ إليهن بأن انشغلَ بمعاينةِ السقفِ. كان سقفاً خشبياً جميلاً، ومطلياً بألوانٍ زاهيةٍ، ولكنه كان عرضةً لخطر الاحتراقِ بسببِ كثرةِ الناسِ الذين يطبخون في صحنِ الكنيسةِ. لحقَ فيليب بريتشارد فيما الأخيرُ يشقُّ طريقهُ بينَ الحشدِ. على عكس فيليب بدا ريتشارد مرتاحاً، ومطمئناً، وواثقاً وهو يُلقي بالتحياتِ على البارونات، واللوردات، ويصفع الفرسان على ظهورهم في تحببٍ.

رأى فيليب حبلاً يفصلُ المعبرَ، والطرفَ الشرقي للكاتدرائيةِ، وفكرَ أنَّهم على ما يبدو تركوا الطرف الشرقي للكهنةِ، والمعبر للملكِ.

كان هناك صفٌ آخر من الحراسِ خلفَ الحبلِ، وحشدٌ من رجالِ البلاد، ثمَّ حلقةٌ داخليةٌ من الإيرلات، والملكُ ستيفن في الوسطِ جالساً على عرشٍ خشبي. بدا الملكُ أكبرَ عمراً مقارنةً بآخر مرَّةٍ رآه فيها فيليب منذُ خمسةِ أعوامٍ في وينشستر، ولاحظَ أيضاً تجاعيدَ على وجههِ، وبعضَ الشعرِ الرمادي في شعرهِ الأصهبِ، وكان أكثرَ نحولاً بعدَ عامٍ من القتالِ المستمرِ. كان يتحدثُ بحميةٍ مع بعضِ إيرلاتهِ، ويخالفهم بغضبٍ. اقتربَ ريتشارد في طرفِ الحلقةِ الداخليةِ للإيرلاتِ ثمَّ انحنى انحناءةً رسميةً كبيرةً للملكِ. حدَّقَ الملكُ إليه، وعندما عرفهُ قال بصوتٍ مدوٍ: «ريتشارد من كينغزبرديج! سعيدٌ بعودتكَ!»

«الشكرُ لكَ يا مولاي الملك»، قال ريتشارد.

تقدَّمَ فيليب، ووقفَ بجانبِ ريتشارد، ثمَّ انحنى ذات الانحناءةِ.

قال ستيفن: «هل أحضرتَ معكَ راهباً كمرافقٍ؟» وانفجرَ رجالُ البلاطِ ضاحكين.

«هذا رئيسُ ديرِ كينغزبريدج يا مولاي»، قال ريتشارد.

نظرَ ستيفن إلى فيليب مجدداً، ورأى الأخير في عيني الملكِ أنَّه عرفهُ. «بالطبعِ، أعرفُ رئيسَ الديرِ... فيليب»، قال ستيفن بنبرةٍ أقلَّ حرارةٍ من نبرتهِ عندما حيَّا ريتشارد. «هل أتيتَ للقتالِ معنا؟» سألَ ستيفن، وضحكَ رجالُ البلاطِ مجدداً.

سُرَّ فيليب لأنَّ الملك عرفَ اسمهُ. «أنا هنا لأن إرادةَ الربِّ بإعادةِ بناءِ كاتدرائيةِ كينغزبريدج تحتاجُ إلى تدخلٍ عاجلٍ من مولاي الملك».

«يجبُ أن أعرفَ كلَّ شيءٍ عن الموضوعِ»، قاطعهُ ستيفن بعجلةٍ. «تعالَ لمقابلتي في الغدِ فسيكون لدينا ما يكفي من الوقتِ»، ثمَّ استدارَ نحو إيرلاتهِ متابعاً الحديثَ بصوتٍ واطئ.

انحنى ريتشارد وانسحبَ، وقامَ فيليب بالمثلِ.

***

لم يتسنَ لفيليب التحدث إلى الملكِ في اليوم التالي، ولا في اليومِ الذي بعده، ولا حتَّى بعدَ يومين.

قضى الليلةَ الأولى في حانةٍ، ولكنه تضايقَ من رائحةِ اللحمِ المشوي العالقةِ في الجو، وضحكاتِ النساءِ الخليعات. لسوءِ حظهِ لا يوجد ديرٌ في

المدينةِ، وعادةً كان الأسقفُ سيعرضُ عليهِ مكاناً للمبيتِ، ولكن الملكَ شغلَ قصرَ الأسقفِ، وجميعُ المنازلِ حولَ الكاتدرائيةِ مكتظةٌ بأفرادِ حاشيةِ ستيفن. في الليلةِ التاليةِ خرجَ فيليب من البلدةِ إلى ما بعد ضاحيةِ ويغفورد حيثُ يوجدُ ديرٌ مع مشفى للمصابين بالجذامِ. هناك تناول فيليب الخبزَ القاسي، وجعةً مخففةً على العشاءِ، وتمددَ على فراشٍ قاسٍ على الأرضيةِ في صمتٍ عند غروبِ الشمسِ وحتَّى منتصفِ الليلِ، ثمَّ شاركَ في الصلواتِ حتَّى الصبحِ، وتناولَ إفطاراً من عصيدةٍ مخففةٍ من دونِ ملحٍ، وشعرَ بالسعادةِ.

توجهَ إلى الكاتدرائيةِ باكراً حاملاً معهُ المرسوم الثمين الذي مُنحَ الديرُ بموجبهِ الحقَّ بأخذِ الحجارةِ من المقلعِ. ويوماً بعدَ يومٍ فشلَ في لفتِ نظرِ الملكِ، وعندما تحدَّثَ ملتمسو العرائضِ بعضهم مع بعض عمن يمتلكُ حظوةً عند الملكِ ومن لا يملك، بقي فيليب مُتخفظاً.

علمَ فيليب سببَ إبقائه منتظراً؛ فالكنيسةُ بأكملها على خلافٍ مع الملكِ لأنَّه لم يفِ بوعودِهِ الكريمةِ التي أغدقها مع بدايةِ عهدِهِ، بل أصبحَ شقيقهُ هنري أسقف وينشستر عدواً له عندما دعمَ ستيفن مرشحاً آخر لمنصبِ كبيرِ أساقفةِ كانتربري، وأحبطت هذه الخطوةُ ويلارن بيغاد الذي أملَ بالصعودِ على حسابِ هنري، غير أنَّ خطيئةَ ستيفن الكبرى في عينِ الكنيسةِ هي اعتقالهُ روجر، أسقفَ سالزبيري، وابني أخيهِ، أسقفي لينكولن وإيلاي، في يومٍ واحدٍ بتهمةِ بناءِ قلعةٍ دونَ رخصةٍ. اعتبرت الكنيسةُ فعلةَ ستيفن تدنيساً للمقدساتِ، وانفجرَ بركان غضبٍ في كاتدرائيات، بل وفي أديرةِ، المملكةِ برمتها. آلمَ هذا ستيفن، وقالَ إنَّ رجالَ الرَّبِّ ليسوا بحاجةٍ إلى القلاعِ، وأنهم إن بنوا قلاعاً فلا يمكن وقتئذٍ معاملتهم كرجالٍ للرَّبِّ. كان رجلاً نزيهاً، لكن ساذجاً.

تصالحَ الملكُ ورجالُ الدينِ، ولكن الملكَ ستيفن فقد حماسةَ الإصغاءِ إلى التماساتِ رجالِ الدينِ، ولهذا تعينَ على فيليب الانتظار. استغلَّ الفرصةَ ليتأمل؛ فلم يكن يتاحُ له الكثيرُ من الوقتِ لفعلِ هذا وهو في الديرِ، وافتقدَ بشدةٍ هذه العادة. وها هو الآن، وعلى حينِ غرَّةٍ، باتَ مُتفرغاً لساعاتٍ طويلةٍ، ولذلكَ قضاها غارقاً في التأملِ.

في نهايةِ المطافِ منحهُ الملتمسون الآخرون مساحةً واسعةً كفايةً

ليجلس متأملاً، وبات صعباً على ستيفن الآن أن يستمرَّ بتجاهلهِ. في صباحِ اليومِ السابعِ في مدينةِ لينكولن، وبينما كان فيليب غارقاً في التأملِ بسمو سرِّ الثالوث المقدسِ، أدرك أنَّ أحدهم يقفُ أمامهُ مباشرةً، وينظر ويتحدثُ إليهِ، وهذا الشخصُ هو الملكُ.

«هل أنتَ نائم بعينين مفتوحتين يا رجل؟» قال ستيفن بلهجةٍ تشي بمزيجٍ من المرحِ والضيقِ.

«آسفٌ يا مولاي فقد كنتُ أفكرُ»، قال فيليب ثمَّ انحنى.

«لا تهتم. أرغبُ باستعارةِ ثيابكَ».

«ماذا؟» كان فيليب متفاجئاً جداً، ونسي آدابَ التحدثِ إلى الملكِ.

«أرغبُ بالتجولِ في القلعةِ، وإن كنتُ في ثيابِ راهبٍ فلن يطلقوا السهامَ علي. هيا، فلتدخل إلى أحد المُصليات، ولتخلع رداءكَ».

لم يكن فيليب يرتدي تحتَ ردائهِ سوى قميص داخلي ولذلك سأل: «ولكن يا سيدي، ما الذي سأرتديهِ أنا؟»

«نسيتُ أنكم الرهبان متواضعون في ثيابكم»، قال ستيفن، وفرقعَ بأصابعهِ لفارسٍ شابٍ ثمَّ أضاف: «روبرت أعرني سترتكَ بسرعةٍ».

خلعَ فارسٌ شابٌ يتحدثُ إلى فتاةٍ سترتهُ بحركةٍ سريعةٍ، وأعطاها إلى الملكِ مع انحناءةٍ، ثمَّ أومأ إلى الفتاةِ إيماءةً سوقيةً، وضحكَ أصدقاؤهُ، وهللوا.

قدَّمَ الملكُ ستيفن السترةَ إلى فيليب.

دخلَ فيليب إلى مصلى القديسِ دانستان، وفي صلاةٍ سريعةٍ طلبَ العفو من القديسِ، ثمَّ خلعَ رداءهُ، وارتدى سترةَ الفارسِ القرمزيةِ القصيرة. استغربَ نفسهُ في هذهِ الثيابِ فهو معتاد على الثيابِ الرهبانيةِ مُذ كان في السادسةِ، وشعرَ أنَّه لو ارتدى ثياباً نسائيةً الآن فلن يكون شعورهُ مختلفاً عن ارتداءِ هذهِ الثياب. خرجَ من المصلى، وسلَّمَ الرداءَ الرهباني إلى ستيفن، فلبسهُ الأخير على الفورِ.

ذُهلَ فيليب عندما قال له الملكُ: «رافقني إن أحببتَ، ويمكنكَ أن تطلعني على قصةِ كاتدرائيةِ كينغزبريدج».

أُخذَ فيليب بهذا العرضِ، وللوهلةِ الأولى أرادَ الرفض فلم يكن الآن محمياً بردائهِ الديني؛ ولذلك قد يحاولُ أحدُ الحراسِ على أسوارِ القلعةِ رميةُ بسهمٍ، ولكن في الوقتِ عينهِ ستتسنى له فرصةُ الانفرادِ بالملكِ لوقتٍ طويلٍ وكافٍ لشرحِ قصةِ المقلعِ والسوقِ، وقد لا يحصلُ على فرصةٍ مماثلةٍ كهذهِ.

أمسكَ ستيفن عباءتهُ القرمزيةَ ذات الياقةِ والحوافِ الفرائيةِ البيضاء ثمَّ قال لفيليب: «ارتدها حتَّى تصرفَ انتباههم وأهدافهم عني».

وقفَ بقيةُ رجالِ البلاطِ في صمتٍ يراقبون ما يجري، ويتساءلون عمَّا سيحدثُ الآن.

أدركَ فيليب أنَّ الملك محقٌ في ما اقترحهُ، وأنَّ فيليب لا عملَ له هنا في معسكرٍ مسلحٍ، ولا يمكنه أن يتوقع منحهُ امتيازاتٍ على حسابِ رجالٍ يخاطرون بحياتهم من أجلِ الملكِ. لم يكن في اقتراحِ الملكِ ظلمٌ، وإن لم يقبل به فقد يعود إلى الديارِ خالي الوفاضِ، ويتخلى عن كلِّ أملٍ باستعادةِ المقلعِ، وإعادةِ فتحِ السوقِ. كان عليهِ قبول هذا التحدي، ولهذا أخذَ نفساً عميقاً وقال: «قد تكون إرادةُ الرَّبِّ أن أموتَ لحمايةِ الملكِ»، ثمَّ أخذَ العباءةَ القرمزيةَ وارتداها.

سرت همهمةُ عجبٍ بينَ الحشدِ، والملكُ نفسهُ بدا مذهولاً. كان الجميعُ قد توقعَ من فيليب التراجعَ، وحالما ارتدى فيليب العباءةَ شعرَ بالندمِ على فعلتهِ، ولكنه ألزمَ نفسهُ الآن، ولم يعد بوسعهِ التراجع.

استدارَ ستيفن، وتوجهَ إلى البابِ الشمالي، فلحقَ بهِ فيليب. حاولَ بعضُ رجالِ البلاطِ اللحاقَ بهما، ولكن ستيفن لوحَ بيدهِ كي يبقوا في أمكنتهم، وقال: «حتَّى الراهبُ قد يجذبُ الانتباهَ إن كان كاملُ البلاطِ الملكي برفقتهِ»، ثمَّ وضعَ قلنسوةَ رداءِ فيليب على رأسهِ، وخرجَ إلى المقبرةِ.

خلال عبورهما المعسكرِ لفتت عباءةُ فيليب الفاخرة الكثيرَ من الأعين الفضولية، وافترضَ الرجالُ أنَّ فيليب بارون، وتفاجأوا لعدمِ معرفتهم بهِ. سببت له هذهِ النظرات شعوراً بالذنبِ؛ فقد كان وبطريقةٍ ما محتالاً، غير أنَّ ما من أحدٍ نظرَ إلى ستيفن.

لم يتوجها على الفورِ إلى البوابةِ الرئيسيةِ للقلعةِ بل عبرا متاهةً من الطرقِ الضيقةِ، وخرجا إلى كنيسةِ سان بول إن ذا بيل في الطرفِ الشمالي الشرقي

للقلعةِ. كانت القلعةُ مبنيةً على تُخمٍ كبيرٍ، ويحيطها خندقٌ جافٌ. هناك منطقةٌ مفتوحةٌ تُقدرُ مساحتها بخمسين ياردة بينَ حافةِ الخندقِ وأقربِ بناءٍ إليهِ. سارَ فيليب على العشبِ وهو يتفحصُ الجدارَ الشمالي للقلعةِ، ولكنه بقي قريباً من القسمِ الخلفي للمنازلِ على طرفِ المنطقةِ المفتوحةِ. أجبرَ ستيفن فيليب على التزامِ جهةِ اليسارِ حيثُ تقعُ القلعةُ. كانت المنطقةُ المفتوحةُ مهمةً فهي تمنحُ الرماةَ مجالاً لرؤيةِ أيِّ أحدٍ يقتربُ من الأسوارِ. لم يكن فيليب خائفاً من الموتِ، بل من الألمِ، والفكرةُ التي شغلت بالهُ طوالَ الوقتِ هي شدةُ الألمِ الذي قد يتسببُ بهِ سهمٌ.

«هل أنتَ خائف؟» قال ستيفن.

«مرتعبٌ»، أجابَ فيليب بصدقٍ، ولكن بسببِ التهورِ الذي يأتي مع الخوفِ أضافَ بجرأةٍ: «وماذا عنكَ؟»

ضحكَ الملكُ من جرأةِ فيليب، ولكنه اعترفَ: «قليلاً».

تذكرَ فيليب أنَّ هذهِ فرصتهُ للتحدثِ عن الكاتدرائيةِ، ولكن لم يكن قادراً على التركيز وحياتهُ على المحكِّ. لم تفارق القلعةُ ناظريهِ، وتفحص أسوارها بحثاً عن جندي يصوبُ سهماً نحوه.

شغلت القلعةُ كاملَ الطرفِ الجنوبي الغربي للمدينةِ الداخليةِ، وكان سورها الغربي جزءاً من سورِ المدينةِ، ولذلكَ إن أرادَ المرءُ معاينتها كلها سيتعين عليه مغادرةُ المدينةِ. قادَ ستيفن فيليب عبرَ البوابةِ الغربيةِ ثمَّ خرجا من ضاحيةِ نيولاند حيثُ أكواخُ الفلاحين المبنيةُ من القصبِ والطينِ مع حدائقَ كبيرةٍ كما في المنازلِ القرويةِ. عصفت ريحٌ قارسةٌ عبرَ حقولٍ مفتوحةٍ تقعُ بعدَ منطقةِ المنازلِ. استدارَ ستيفن جنوباً دون أن يبتعد عن أطرافِ القلعةِ. أشارَ إلى بابٍ صغيرٍ في جدارِ القلعةِ وقال: «أعتقدُ أنّ رانولف تشستر تسللَ من هذا البابِ خارجَ القلعةِ، وهربَ عندما سيطرت على المدينةِ».

كان خوفُ فيليب هنا قد تراجع بعد رؤيةِ أناسٍ على الطريقِ، غير أنَّ الحراسةَ على هذا الجزءِ من السورِ لم تكن أقلَّ شدةً؛ فسكانُ القلعة يخشون هجوماً من داخلِ المدينةِ وليسَ من خارجها. أخذَ فيليب نفساً عميقاً ثمَّ انبرى قائلاً: «إن قُتلتُ هلَّا سمحتَ لكينغزبريدج بإقامةِ سوقٍ، وأجبرت وليم هاملي على إعادةِ المقلعِ؟»

لم يُجب ستيفن على الفورِ بل تابع السير مع فيليب أسفلَ التلِ إلى الطرفِ الجنوبي الغربي للقلعةِ، ونظرَ إلى الساحةِ. من مكانهما بدت القلعةُ منيعةً جداً. تابعا السيرَ قليلاً، واستدارا باتجاهِ مدخلٍ آخر ثمَّ دخلا أطرافَ المدينةِ كي يعاينا الجانب الجنوبي للقلعةِ. شعرَ فيليب بالخطرِ مجدداً؛ فلم يعد خفياً على أحدٍ داخل القلعةِ أنّهما في رحلةِ استطلاعٍ، وبذلك باتا هدفاً شرعياً، خاصةً الرجل في العباءةِ القرمزيةِ. وكي يصرفَ ذهنهُ عن خوفهِ أخذَ يعاين المكانَ، ورأى فتحاتٍ صغيرةً في السورِ. كانت فتحاتُ مراحيض ولرمي الفضلاتِ والقاذورات من السورِ إلى الخارجِ، تلك القاذورات التي تبقى مكومةً هناك إلى أن تتحلل، وهذا بالطبعِ يفسرُ الرائحةَ النتنةَ في الأجواءِ. حاولَ فيليب ألا يتنفس بعمقٍ، وغذَّ السيرَ.

وجدا في الطرفِ الجنوبي الشرقي برجاً آخر، ولكن أصغر. بحلولِ الآن كان فيليب وستيفن قد دارا الساحةَ من ثلاثةِ جوانبٍ. تساءل فيليب في نفسهِ إن كان ستيفن قد نسي سؤاله، وخشي من طرحه مجدداً مخافةَ أن يجدَ الملكُ في إلحاحهِ إهانةً.

وصلا إلى الشارعِ الرئيسي، ودخلا وسطَ المدينةِ ثمَّ استدارا مجدداً، ولكن قبلَ أن يتسنى الوقتُ لفيليب كي يشعرَ بالراحةِ مجدداً، مرَّا ببوابةٍ أخرى تُفضي إلى المدينةِ الداخليةِ، وبعدَ دقائقٍ أصبحا في المنطقةِ المحايدةِ بينَ الكاتدرائيةِ والقلعةِ. ذُعرَ فيليب عندما توقفَ الملكُ هناك.

استدارَ الملكُ للتحدث إلى فيليب بزاويةٍ تسمحُ له بمعاينةِ القلعةِ من فوقِ كتفيهِ. كان ظهرُ فيليب غير المحمي والمكسو بقماشٍ قرمزي وفرائي مكشوفاً للبوابةِ المدججةِ بالحرّاسِ ورماةِ السهام. تجمّدَ فيليب في مكانهِ متوقعاً أن يُصيبهُ في ظهرهِ سهمٌ أو رمحٌ في أيّةِ لحظةٍ، وبدأ يتعرقُ على الرغمِ من الريحِ القارسةِ التي عصفت بالمكانِ.

«أعطيتكَ المقلع منذُ سنواتٍ، ألم أفعل هذا؟» قال الملكُ.

«ليس تماماً»، أجابَ فيليب من بينَ أسنانهُ التي كانت تصرُّ من الخوفِ. «أعطيتنا حقَّ أخذِ الحجارةِ من أجلِ الكاتدرائيةِ، ولكنكَ أعطيتَ المقلع لبيرسي هاملي، وابن بيرسي طردَ عمالي، وقتلَ خمسةً منهم بمن فيهم امرأةٌ وطفلٌ، وهو الآن يمنعنا من الدخولِ».

«لا يجب أن يقومَ بمثلِ هذهِ الأعمالِ، خاصَّةً إن كان يرغب بأن يصبحَ إيرل شايرنغ»، قال ستيفن مُفكراً، وارتفعت معنويات فيليب ولكن بعدَ وهلةٍ قال الملكُ: «اللعنة، لا أرى منفذاً إلى هذهِ القلعةِ».

«من فضلكِ اطلب من وليم فتحَ المقلع مجدداً»، قال فيليب. «إنَّه يتحداك، ويسرقُ من الرَّبِّ».

بدا ستيفن كأنَّه لم يسمع ما قاله فيليب وتابع: «لا أعتقد أنَّهم يملكون الكثيرَ من الرجالِ في الداخلِ»، ثمَّ تابعَ بذات النبرةِ التي تشي بغرقهِ في التأملِ: «أعتقدُ أنَّ معظمهم على الأسوارِ من بابِ استعراضِ القوةِ. ما خطبُ السوقِ؟»

وقررَ فيليب أنَّ وقوفهُ وظهرهُ مفتوحٌ إلى سريَّةٍ كاملةٍ من رماةِ السهامِ جزءٌ من اختبارِ الملكِ. مسحَ فيليب العرقَ عن جبينهِ بالجزءِ الفرائي من كُمِّ عباءةِ الملكِ ثمَّ قال: «مولاي الملك، يأتي الناس من جميعِ أنحاءِ المقاطعةِ كلَّ أحدٍ للصلاةِ في كينغزبريدج، وللعملِ من دونِ أجرٍ في موقعِ البناءِ. في البدايةِ، أتت مجموعةٌ من الرجالِ والنساءِ إلى الموقعِ لبيعِ فطائرِ اللحمِ، والنبيذ، والقبعاتِ، والسكاكين إلى العمال المتطوعين، وتدريجياً كبرَ السوقُ، وأنا الآن أطلبُ منكَ رخصةً لإقامتهِ بشكلٍ قانوني».

«هل ستدفعُ ثمنَ الرخصةِ؟»

يعلمُ فيليب أنَّ دفعَ ثمن رخصةٍ أمرٌ اعتيادي، ولكنه يعلمُ أيضاً أنَّ الرخصةَ قد تُمنح إلى شخصيةٍ دينيةٍ. «أجل يا مولاي سأدفع ما لم تتكرم وتمنحنا إياها عطيةً لإعلاءِ مجدِ الرَّبِّ».

هنا وللمرةِ الأولى نظرَ ستيفن إلى فيليب بشكلٍ مباشرٍ وقال: «أنتَ رجلٌ شجاعٌ لوقوفكَ هنا، والعدو من خلفكَ والتفاوض معي».

بادلهُ فيليب النظرةَ المباشرةَ ذاتها، وقال بشجاعةٍ لم يكن يشعر بها في داخلهِ: «إن أرادَ الرَّبُّ لحياتي أن تنتهي الآن فما من شيء قد يُنقذني، أمَّا إن أرادني أن أعيشَ، وأبني كاتدرائية كينغزبريدج فلا يُمكن لعشرةِ آلافِ رامٍ أن يصيبني بسهمٍ».

«كلامٌ بليغٌ!» قال ستيفن، وربَّتَ بيدهِ على كتفِ فيليب، ثمَّ استدارَ باتجاهِ الكاتدرائيةِ. بعثَ شعورُ الراحةِ الضعفَ في أوصالِ فيليب، وسارَ إلى جانبِ

ستيفن وهو يشعر براحةٍ متعاظمةٍ مع كلِّ خطوةٍ يخطوها بعيداً عن القلعةِ. بدا كأنَّه نجحَ في الاختبارِ، ولكن عليهِ الحصول على التزامٍ صريحٍ من الملكِ ففي أيِّ لحظةٍ من الآن سيطوقهُ رجالُ البلاطِ، ويفصلونه عن الملكِ مجدداً. وعندما عبرا خطَ الحرَّاسِ تجرَّأ فيليب بكلِّ شجاعةٍ على القولِ: «مولاي الملك إن تكرمت، وكتبتَ رسالةً إلى مأمورِ شايرنغ...»

ولكن أحدهم قاطعهُ. كان أحدَ إيرلات الملكِ وبدا متوتراً وهو يقول: «روبرت غلوستر في طريقهِ إلى هنا يا مولاي الملك».

«ماذا؟ كم يبعد؟»

«إنَّه قريبٌ جداً، ولا يبعد أكثر من مسيرِ يومٍ على الأكثر».

«لمَ لم يتم تحذيري؟ أرسلت رجالاً إلى كلِّ المناطقِ».

«أخذوا طريق فوسي، ثمَّ انحرفوا عن الطريقِ، وها هم يقتربون عبرَ الحقولِ المفتوحةِ».

«ومن برفقتهِ؟»

«جميعُ الإيرلات والفرسان الذين خسروا أراضيهم في السنتين الماضيتين، وبرفقتهِ رانولف تشستر أيضاً...»

«بالطبعِ سيكون ذلكَ الكلبُ الخائن برفقتهِ».

«أحضرَ معه جميعَ فرسانهِ، إضافةً إلى حشدٍ من الويلزيين المتوحشين».

«وما عددهم؟»

«حوالي الألف».

«اللعنة إنهم يفوقوننا عدداً بمئةِ رجلٍ».

بحلولِ الآن اندفعَ العديدُ من الباروناتِ، واحتشدوا حولَ الملكِ. تحدَّثَ إيرلٌ آخر قائلاً: «مولاي، إنَّه قادمٌ من جهةِ الحقولِ، ولذلكَ سيضطرُ إلى قطعِ النهرِ...»

«أحسنتَ التفكيرَ يا إدوارد!» قال ستيفن. «خُذ رجالكَ إلى ضفةِ النهرِ، وحاول أن تؤخرهُ. ستحتاجُ إلى رماةٍ أيضاً».

«كم يبعدون الآن؟ هل من أحدٍ يعلم؟» سأل إدوارد.

وقال الإيرل الأول: «قال الكشَّاف إنَّهم قريبون جداً، وقد يصلون إلى النهرِ قبلكَ».

«سأنطلقُ على الفورِ»، قال إدوارد.

«رجلٌ صالحٌ!» قال الملكُ ستيفن، وضربَ بقبضةِ يدهِ اليمنى على راحةِ اليسرى ثمَّ أضاف: «وأخيراً سأواجه روبرت غلوستر في ساحةِ المعركةِ. كم أتمنى لو أنني كنتُ أمتلكُ المزيدَ من الرجالِ، ولكن أفضلية مئةِ رجلٍ ليست بالكبيرةِ».

أصغى فيليب إلى كلِّ هذا في صمتٍ كئيبٍ. كان على وشكِ الحصولِ على موافقةِ ستيفن، وها هو انتباه الملكِ يتحولُ إلى أمرٍ آخر، ولكن فيليب لم يكن مستعداً للاستسلامِ وهو مازال يرتدي عباءةَ الملكِ القرمزيةَ. خلعَ العباءةَ وناولها قائلاً: «من الأفضلِ أن نعودَ إلى أدوارنا يا مولاي الملك».

أومأ ستيفن سارحاً. تقدمَ أحدُ رجالِ البلاطِ من وراءِ الملكِ، وخلعَ عنهُ الرداءَ الرهباني. سلَّمَ فيليب الرداءَ الملكي ثمَّ قال: «سيدي تبدو متعاطفاً جداً مع طلبي».

بدا ستيفن متضايقاً لتذكيره بالموضوعِ، وهزَّ كتفيهِ تحتَ عباءتهِ، وكان على وشكِ قولِ شيءٍ عندما سمعوا صوتاً جديداً.

«مولاي الملك!»

وتعرَّفَ فيليب على الصوتِ فغاصَ قلبهُ في صدرهِ. استدارَ ورأى وليم هاملي.

«وليم يا بني»، قال الملكُ بصوتِ حماسي يستخدمهُ مع مقاتليهِ. «أتيتَ في الوقتِ المناسبِ!»

انحنى وليم وقال: «مولاي، أحضرتُ خمسين فارساً ومئتي مقاتل من شايرنغ».

وهنا أدركَ فيليب أن آمالهُ الآن ذهبت أدراجَ الرياحِ.

بدا ستيفن مسروراً وقال بحرارةٍ: «يا لكَ من رجل صالح! هذا سيجعلنا متفوقين على العدو!» ثمَّ وضعَ ذراعهُ حولَ كتفي وليم، وسارَ معهُ إلى داخلِ الكاتدارئيةِ.

بقي فيليب في مكانهِ يراقبهما، وفكرَ بمرارةٍ أنَّه كان قريباً جداً من النجاحِ، ولكن يبدو أنَّ جيشَ وليم أهمُّ من العدالةِ. ناولَ رجلُ البلاطِ الذي ساعدَ الملكَ على خلعِ الرداءِ الكهنوتي فيليب رداءهُ فأخذهُ الأخير، ثمَّ لحقَ الأولُ

بالملكِ وحاشيتهِ إلى القلعةِ. ارتدى فيليب رداءهُ الكهنوتي وهو غارقٌ في الخيبةِ. نظرَ إلى البواباتِ المقنطرةِ الضخمةِ للكاتدرائيةِ. كم أملَ ببناءٍ مثلها في كينغزبريدج، ولكن الملك أخذَ جانبَ وليم هاملي. كان الملك أمامَ خيارٍ واضحٍ: إما العدالةُ لفيليب، أو أفضليةُ جيشِ وليم، ولكنه فشلَ في اختيارهِ.

لم يكن أمامَ فيليب سوى أمل واحد الآن، وهو أن يُهزمَ الملكُ ستيفن في المعركةِ القادمةِ.

– 2 –

أقامَ الأسقفُ القداسَ في الكاتدرائيةِ، وكان لون السماء وقتها يتغير من الأسود إلى الرمادي. بحلول هذا الوقتِ أُسرجت الجيادُ، وارتدى الفرسان ستراتِ الزردِ، وتناولَ الجنودُ الطعامَ وكميةً من النبيذِ القوي لملء قلوبهم بالشجاعةِ.

ركعَ وليم هاملي في صحنِ الكاتدرائيةِ مع بقيةِ الفرسانِ والإيرلاتِ، بينما جيادُ الحربِ تضربُ الأرض بحوافرها وتصهل في الممرّاتِ، ومُنحوا الغفران عن أعمالِ القتلِ التي سيرتكبونها اليوم.

جعلَ الخوفُ والحماسةُ وليم مرحاً. إن انتصرَ الملك اليوم سيكون له الفضلُ في ذلكَ، وسيقول الرجالُ إنَّ التعزيزات التي أحضرها رجّحت كفةَ الميزان لمصلحتهِ... يمكن لأيِّ شيءٍ أن يحدث، وسرت قشعريرةٌ باردةٌ في أوصالهِ وهو راكعٌ على الأرضيةِ الحجريةِ الباردةِ.

كان الملكُ في الصفِّ الأمامي في رداءٍ أبيض جديدٍ، ويحملُ شمعةً في يدهِ. وعندما قُدمَ القربانُ انكسرت الشمعة، وانطفأت شعلتها. ارتجفَ وليم من الرعبِ. كان هذا نذيرَ سوءٍ. أحضرَ كاهنٌ شمعةً أخرى، وأخذَ الشمعةَ المكسورةَ. ابتسم ستيفن بلا مبالاةٍ، ولكن شعوراً عظيماً بالرهبةِ لم يفارق وليم، وعندما نظرَ حولَهُ رأى أنَّ الآخرين شعروا بالمثل أيضاً.

بعدَ انتهاءِ مراسمِ القداسِ ارتدى الملكُ درعهُ بمساعدةِ خادمٍ، وسترةً من الجلدِ والزردِ تصلُ حتَّى الركبتين، ومفتوحةً في المنتصفِ عندَ الحوضِ من الأمامِ والخلفِ حتَّى يتمكن من الجلوسِ على السرجِ. زرَّ الخادم السترةَ حتَّى عنقِ الملكِ ثمَّ وضع قبعةً ضيقةً مع قلنسوةٍ طويلةٍ من الزردِ لتغطيةِ شعرهِ

الأصهبِ وحمايةِ عنقهِ، وفوقَ القبعةِ وضعَ خوذةً حديديةً مع مكانٍ للتثبيت على الأنفِ. كان لجزمتهِ الجلديةِ حواف من الزردِ، ومهمازان مدبّبان.

عندما وضعَ الملكُ درعهُ احتشدَ الإيرلات حوله. وهنا عملَ وليم بنصيحةِ والدتهِ، ولحقَ بهم كأنَّه واحدٌ منهم، وشقَّ طريقهُ بينَ الحشدِ لينضمَّ إلى المجموعةِ التي أحاطت بالملكِ. أصغى وليم إلى ما كانوا يقولونهُ لبرهةٍ، وأدركَ أنَّهم كانوا يحاولون إقناعَ ستيفن بالانسحابِ، وتركِ لينكولن للمتمردين.

«مقارنةً بمود فأنت تسيطرُ على أراضٍ أكثر، ويمكنكَ حشدُ جيشٍ أكبر»، قال رجلٌ عجوزٌ، ورأى وليم أنَّه اللورد هيو. «فلتذهب جنوباً ولتحشد تعزيزاتٍ ثم عُد متفوقاً عليهم عدداً».

بعدَ أن رأى وليم نذيرَ شؤمٍ في انكسارِ الشمعةِ تمنَّى لو أنَّ الملك ينسحب، ولكن يبدو أنَّ الملكَ لم يملك الوقتَ لمثلِ هذا الكلامِ ولذلكَ قال بمرحٍ: «إننا أقوياءٌ بما يكفي لهزيمتهم الآن. أين روحكم القتاليةُ؟» ثمَّ ثبَّتَ على خصرهِ حزاماً بسيفٍ على جانبٍ، وخنجرٍ على الجانبِ الآخر، وكل منهما كان في غمد من الخشبِ والجلدِ.

«الجيشان متكافئان جداً وهذا في منتهى الخطورةِ»، قال رجلٌ طويلٌ بشعرٍ قصيرٍ أشعث ولحيةٍ مشذبةٍ بعنايةٍ. كان الرجلُ إيرل مقاطعة سوري.

علمَ وليم أنَّ حجة إيرل سوري ضعيفةٌ، ولن تنجح في إقناعِ ستيفن؛ فالملكُ فارسٌ شجاعٌ. «متكافئان جداً؟» أعادَ الملكُ ما قاله الإيرل باحتقارٍ. «إذاً، أفضلُ خوضَ معركةٍ متكافئةٍ»، وارتدى قفازاتٍ جلديةٍ بشبكةٍ من الزردِ عندَ الأصابعِ، ثمَّ ناوله الخادمُ درعاً خشبياً طويلاً بطبقةٍ من الجلدِ. علَّقَ الملكُ حزامَ الدرعِ حولَ عنقهِ، ورفعهُ بيدهِ اليسرى.

«ليسَ لدينا ما نخسرهُ إن انسحبنا الآن»، أصرَّ هيو، «فنحن حتَّى لا نسيطرُ على القلعةِ».

«سأخسرُ فرصةَ لقاءِ روبرت غلوستر على أرضِ المعركةِ»، قال ستيفن ثمَّ تابع: «إنَّه يتجنبني منذُ عامين، ها قد تسنت لي الفرصةُ أخيراً لمواجهةِ هذا الخائنِ. لن أنسحبَ حتَّى وإن كنا متكافئين».

جلبَ سائسٌ جوادَ الملكِ، وعندما كان ستيفن على وشكِ امتطائه

سُمعت جلبةٌ عندَ بابِ الطرفِ الغربي من الكاتدرائيةِ، وتقدَّم فارسٌ راكضاً عبرَ صحنِ الكنيسةِ مسربلاً بالدماءِ والطينِ. انتابَ وليم حدسٌ سيئ، وشعرَ أنَّ الفارس لا يحمل أخباراً طيبةً. عندما انحنى الفارسُ للملكِ عرفهُ وليم. كان أحدِ رجالِ إدوارد الذي أُرسلَ لحمايةِ القناةِ المائيةِ.

«وصلنا متأخرين يا مولاي»، قال الرجلُ بغلظةٍ وهو يتنفسُ بسرعةٍ: «عبرَ العدو النهرَ».

كانت هذهِ إشارةً سيئةً أخرى، وفجأةً شعرَ وليم بالبردِ يسري في أطرافهِ. لم يعد الآن بين العدو ومدينةِ لينكولن سوى الحقول المفتوحة.

بقي ستيفن مشدوهاً جداً لبرهةٍ، ولكنه تمالكَ نفسهُ بسرعةٍ وقال: «لا يهم! هذا يعني أننا سنواجهه في وقتٍ أقرب!» وامتطى جوادهُ الحربي.

على سرجِ جوادِ الملكِ فأسٌ حربية، وسلَّم الخادم الملكَ رمحاً خشبياً برأسٍ معدني لامعٍ مختتماً بذلكَ عدتهُ الحربيةَ. أطلق ستيفن صوتاً لحثِّ الجواد فامتثلَ وبدأ يتحرَّك.

وبينما عبرَ الملكُ صحنَ الكاتدرائيةِ امتطى الإيرلات والبارونات والفرسان جيادهم، ولحقوا به في موكبٍ، وفي الخارجِ انضمَّ إليهم الجنود. عندما يتسللُ الخوفُ إلى قلوبِ الرجالِ، ويبدأون بالبحثِ عن فرصةٍ للتملصِ، فإنَّ مسيرهم بشموخٍ في جو رسمي وسكانُ البلدةِ يراقبونهم سيجعلُ الهربَ على أصحابِ القلوبِ الضعيفةِ صعباً.

تزايدت أعدادهم مع انضمامِ ما يقاربُ المئة أو أكثر من سكانِ المدينةِ: خبازون سمينون، وحائكون ببصرٍ حاسرٍ، وصانعو جعةٍ ثمالى في دروعٍ بسيطةٍ وعلى جيادٍ قصيرةِ القوائمِ وأفراسٍ سريعةٍ. كان انضمامهم دليلاً قاطعاً على عدمِ شعبيةِ رانولف.

لن يتمكنَ الجيش من عبور القلعةِ لأنَّه سيكون هدفاً لرماةِ السهامِ على الأسوارِ، ولذلكَ غادروا القلعةَ من البوابةِ الشماليةِ التي تدعى بوابةَ نيوبورت آرك، واتجهوا غرباً حيثُ ستقعُ المعركةُ.

عاينَ وليم المكانَ بدقةٍ، وأدرك أنَّ الجانب الجنوبي من المدينةِ يميلُ بشدةٍ باتجاهِ النهرِ، إلَّا أنَّ هنا على الجانبِ الجنوبي نتوءاً جبلياً طويلاً ينحدرُ بلطفٍ نحو مرجٍ، واستنتجَ على الفورِ أنَّ ستيفن اختارَ المنطقةَ الصحيحة

للدفاعِ عن المدينةِ؛ فمهما تقدَّمت قواتُ الأعداء ستبقى في منطقةٍ منخفضةٍ بالنسبةِ إلى جيشِ الملكِ.

عندما باتَ ستيفن على بُعدِ ربعِ ميلٍ أو أكثر عن المدينةِ صعدَ كشافان التلَّ بسرعةٍ، وعندما لمحا الملكَ توجها نحوه بشكلٍ مباشرٍ. اقتربَ وليم ليسمعَ تقريرهما.

«العدو يقتربُ بسرعةٍ يا مولاي»، قال أحدُ الكشافةِ للملكِ.

تفحَّصَ وليم المنطقةَ، ورأى كتلةً سوداء في الأفقِ تتحركُ ببطءٍ باتجاههم. كان العدو يقتربُ، وشعرَ بالخوفِ يسري في أوصالهِ. حاولَ التخلص من هذا الخوفِ بهزِّ رأسهِ، ولكنَّ الخوف لازمهُ، وعرفَ أنَّه سيفارقهُ عندما يبدأ القتال.

قال الملكُ ستيفن: «ما هي مواقعهم؟»

«رانولف وفرسانه في الوسطِ يا مولاي»، قال الكشاف وتابع: «وجميعهم من المشاة».

تساءل وليم في نفسهِ كيفَ تمكن الكشاف من معرفة هذا. لا بدَّ أنَّه ذهبَ إلى معسكرِ العدو، واسترقَ السمعَ إليهم وهم يُصدرون الأوامرَ، وهذهِ جرأةٌ كبيرةٌ منه.

«رانولف في الوسطِ؟» سألَ ستيفن. «كأنَّه القائد وليسَ روبرت!»

«روبرت غلوستر على الخاصرةِ اليسرى مع جيشٍ يُطلق على نفسهِ اسمَ 'المحرومون من الميراثِ'»، تابع الكشاف. يعلمُ وليم أنهم استخدموا هذهِ التسمية لأنَّ جميعهم خسروا أراضيهم بعدَ نشوبِ الحربِ الأهليةِ.

«إذاً، سلَّمَ روبرت قيادةَ المعركةِ إلى رانولف»، قال ستيفن متأملاً. «هذا مؤسفٌ فأنا أعرفُ روبرت جيداً - بل ترعرعت معهُ- ويمكنني التكهنُ بتكتيكاتهِ، ولكن رانولف غريبٌ عني. لا يهم، ولكن من على الخاصرةِ اليمنى؟»

«الويلزيون يا مولاي».

«رماةُ سهامٍ على حدِّ علمي»، قال الملكُ. كان سكانُ جنوب ويلز مشهورين بمهاراتهم في صناعةِ السهامِ والأقواسِ.

«ليسوا رماةَ سهامٍ»، قال الكشَّاف ثمَّ أضاف: «بل حشدٌ من الغوغاءِ بوجوه ملونةٍ، ويغنون أغاني بربريةً، ومسلحون بالمطارقِ والهراوات، وقلَّةٌ قليلةٌ منهم على الجياد».

«لا بدَّ أنَّهم من شمال ويلز»، قال ستيفن غارقاً في التفكير. «أعتقدُ أنَّ رانولف أعطاهم وعداً بالسماحِ لهم بنهبِ المدينةِ. فليكن الرَّبُّ في عون مدينةِ لينكولن إن دخلوها، ولكنهم لن ينجحوا. ما اسمكَ أيّها الكشّاف؟»

«روجر ويلقبونني لاكلاند»، قال الرجلُ.

«لاكلاند؟ يجبُ أن تحصلَ على عشرةِ فدادين من الأرضِ لجلبكَ هذا التقرير».

شعرَ الرجلُ بالسعادةِ وقال: «شكراً لكَ يا مولاي!»

«والآن»، قال ستيفن، واستدارَ نحو الإيرلاتِ لتوزيعِ المواقعِ عليهم. توترَ وليم، وتساءل في نفسهِ عن الدورِ الذي سيكلفهُ بهِ الملكُ. «أين اللورد آلان من بريتاني؟»

تقدَّمَ آلان إلى الأمامِ. كان آلان قائدَ قوةٍ من مرتزقةِ بريتون، وهم رجالٌ غرباء يقاتلون من أجلِ المالِ، وولاؤهم لأنفسهم فقط.

قال ستيفن للورد آلان: «سأضعكم أنتَ ورجال بريتون الشجعان في الخطِ الأمامي إلى يساري».

فهمَ وليم ما رمى إليهِ الملكُ من هذا التكتيكِ. أرادَ وضعَ مرتزقةِ بريتون في مواجهةِ الغوغائيين الويلزيين. سيكون غير الموثوق بهم في مواجهةِ غير المُنضبطين.

«وليم إيبري»، نادى الملكُ.

«أجل يا مولاي الملك»، قال رجلٌ داكنُ البشرةِ يحملُ رمحاً على جوادٍ حربي أسود. كان وليم إيبري قائد مجموعةٍ أخرى من المرتزقةِ الفلمنكيين، ويُقال إنَّهم أكثرُ إخلاصاً من المرتزقةِ البريتونيين.

قال ستيفن: «ستكون إلى يساري، ولكن خلفَ قواتِ آلان».

استدارَ قائدا المرتزقةِ على عقبيهما، وعادا إلى موقعِ الجيشِ لتنظيمِ قواتهما. تساءل وليم في نفسهِ عن الموقعِ الذي سيضعهُ فيهِ الملكُ، وتمنى ألا يضعهُ في الخطوطِ الأماميةِ. لقد قامَ بما يكفي لينالَ حظوةَ الملكِ من خلالِ إحضارِ جيشهِ، وسيناسبهُ اليوم التموضع في مكانٍ آمنٍ وهادئ ومحمي في مؤخرةِ الجيشِ.

قال ستيفن: «أمَّا إيرل ورشستر، وسوري، ونورثهامبتون، ويورك، وهيرتفورد مع فرسانكم فستشكلون خاصرتي اليمنى».

ومرَّةً أخرى فهمَ وليم ما رمى إليهِ الملكِ من هذا الموقعِ. سيواجه الإيرلات وفرسانهم الذين سيكونون على جيادهم روبرت غلوستر والنبلاءَ «المحرومون من الميراثِ»، ومعظمهم سيكونون على الجيادِ أيضاً. شعرَ وليم بخيبةِ الأملِ لأنَّه لم يكن مع الإيرلات، فهل نسي الملكُ أمرهُ؟

«سأقفُ في الوسطِ راجلاً مع المُشاةِ»، قال ستيفن.

وهنا شعرَ وليم أنَّه يخالفهُ الرأي للمرةِ الأولى؛ فقد كان من الحكمةِ البقاءُ على صهوةِ الجوادِ لأطولِ فترةٍ ممكنةٍ. كان رانولف في مقدمةِ الجيشِ الغازي، وقد قال لهم الكشَّاف إنَّه راجلٌ، ولأنَّ ستيفن يحبُّ القتالَ بنزاهةٍ فقد أراد مواجهةَ عدوهِ راجلاً أيضاً.

«أمَّا معي في الوسطِ فسيأتي وليم من شايرنغ ورجالهُ»، قال الملك.

عند سماعهِ هذا شعرَ وليم أنَّه ممزقٌ بين البهجةِ والرعبِ. كان شرفاً عظيماً أن يتمَّ اختيارهُ ليُقاتل إلى جانبِ الملكِ، وعرفَ أنَّ هذا سيُرضي والدتهُ، ولكنه سيكون في موقعٍ خطيرٍ، وأسوأ ما في الأمرِ هو أنَّه سيكون راجلاً، وسيكون تحتَ ناظري الملكِ الذي سيُقيّم أداءه. يجب أن يتظاهرَ بالشجاعةِ، ويهجم على العدو بدلاً من تجنبِ القتالِ وعدمِ الخوضِ فيهِ إلَّا إن كان مضطراً؛ فقد كان هذا تكتيكه المُفضل.

«سيقفُ سكانُ لينكولن المخلصون في المؤخرةِ»، قال ستيفن. يجمعُ هذا التكتيك بينَ الشفقةِ والحسِّ العسكري السليم. على أيِّ حالٍ لن يفيدهم وجودُ السكانِ كثيراً، ولكن ضررَ تموضعهم في مؤخرةِ الجيشِ سيكون محدوداً، ولن تلحق بهم خسائر كبيرة.

رفعَ وليم رايةَ إيرل شايرنغ وكان هذا اقتراحُ آخر من اقتراحاتِ والدتهِ. نظرياً، لم يكن يحقُّ له رفعُ العلمِ لأنَّه لم يكن الإيرل، ولكن الرجالَ الذين كانوا برفقتهِ اعتادوا على اللحاقِ بالعلمِ. إن سارت الأمورُ على ما يُرام فسيصبح في نهايةِ اليومِ إيرل شايرنغ.

احتشدَ رجالهُ من حولهِ، ووقفَ والتر إلى جانبهِ بثباتٍ وثقةٍ كما يفعلُ دوماً، وكذلكَ آغلي جرفيز وهيو آكس ومايلز دايس، وبدلاً من غيلبرت

الذي قُتلَ في المقلعِ رافقهم غيوم دي سانت كلير، وكان شاباً فرنسي الأصلِ نضرَ الوجهِ ولكنه شرسٌ.

نظرَ وليم حوله واستشاطَ غضباً عندما رأى ريتشارد من كينغزبريدج في درعٍ جديدٍ لامعٍ وعلى صهوةِ جوادٍ مذهلٍ. كان برفقةِ إيرل سوري، ورغمَ أنَّه لم يُحضر معه جيشاً كما فعلَ وليم فإنَّه بدا مذهلاً بنضارةِ وجههِ، وحيويتهِ، وشجاعتهِ، وإن أبلى جيداً اليوم فقد يفوز بحظوةِ الملكِ، من يدري؟ فلا يمكن التكهن بنتيجةِ المعاركِ ولا بالملوكِ.

ولكن من جهةٍ أخرى قد يُقتلُ في المعركةِ، وإن حدثَ هذا فستكون ضربةَ حظٍ. شعرَ وليم بشهوةٍ كبيرةٍ لأن يحدثَ هذا أكثرَ مما اشتهى أيَّةَ امرأةٍ.

نظرَ باتجاهِ الغربِ، ورأى العدو يقتربُ.

***

وقفَ فيليب على سطحِ الكاتدرائيةِ يعاين مدينةَ لينكولن كأنَّه ينظرُ إلى خريطةٍ. أحاطت المدينةُ القديمةُ بالكاتدرائيةِ أعلى التلةِ. بدت الشوارعُ مستويةً، والحدائق مرتبةً بينما استقرَّت القلعةُ على طرفها الجنوبي الغربي. شغلَ الجزءُ الجديدُ الصاخبُ، والمزدحم المنحدرَ الجنوبي بينَ المدينةِ القديمةِ ونهر ويثام. عموماً، كانت هذهِ المنطقةُ تفيضُ بالحركةِ التجاريةِ، لكن أطبقَ عليها اليوم صمتٌ هلعٌ كغطاءِ تابوتٍ، واحتشدَ الناسُ على أسطحِ المنازلِ لمشاهدةِ سيرِ المعركةِ. يمرُّ النهرُ الذي يدخلُ المدينةَ منَ الشرقِ بأسفلِ التلةِ ثمَّ يتسع سريرهُ مُشكلاً ميناءً طبيعياً يُدعى بريفيلد بوول تطوقهُ أرصفةٌ مائيةٌ تغصُّ بالسفنِ والقوارب. إلى الغربِ من ميناءِ بريفيلد بوول قناةُ فوسدايك، وعلمَ فيليب أنَّها تصلُ حتَّى نهرِ ترينت. ومن مكانهِ في الأعلى تأملَ فيليب بإعجابٍ امتدادَ القناةِ لأميالٍ. يقولُ الناسُ إنَّها بُنيت في العصورِ القديمةِ.

كانت المعركةُ على حافةِ القناةِ، وراقبَ فيليب جيشَ الملكِ ستيفن يزحفُ خارجَ المدينةِ في حشدٍ غير منظمٍ، وبالتدريج ينتظمُ إلى ثلاثةِ فيالقٍ عندَ الحافةِ الصخريةِ. علمَ فيليب أنَّ ستيفن وضعَ الإيرلات على خاصرتهِ اليمنى، وذلكَ لأنَّ جهتهم بدت ملونةً جداً من ستراتهم الحمراءِ والصفراءِ وراياتهم الزاهية، وكانوا أيضاً أكثر من تحرَّكَ في المكانِ؛ فقد

كانوا يُلقون بالأوامرِ، ويُقدمون المشوراتِ، ويضعون الخططَ، أمَّا خاصرةُ الملكِ اليسرى التي تمتدُ من المنحدرِ وحتَّى حافةِ القناةِ فقد كان رجالها في ثيابٍ رمادية وبنية كامدةٍ، وعدد جيادها أقلّ مقارنةً بعددِ جيادِ الخاصرةِ اليمنى، وأقلّ حركةً في المكانِ ليُحافظوا على طاقتهم، وهذا يعني أنَّهم كانوا المرتزقة.

في الأفقِ حيثُ لا تعود القناةُ مرئيةً، وتتداخلُ مع الأشجارِ توزعَ جيشُ المتمردين في الحقولِ كسربِ نحلٍ. في البدايةِ بدا له أنَّهم لا يتحركون، ولكن عندما أمعنَ النظرَ مجدداً اكتشفَ أنَّهم يقتربون، وعندما ركزَ نظرةُ بشكلٍ أفضل رأى حركتهم. تساءل في نفسهِ عن مدى قوتهم، ولكن كلَّ الدلائلِ أشارت إلى أن الجانبين متكافئان في القوةِ.

لم يكن بوسعِ فيليب القيامُ بشيءٍ للتأثير على نتيجةِ المعركةِ، وقد كرهَ أن يكونَ في مثلِ هذا الموقفِ. حاولَ أن يهدئ روحهُ، ويتخلص من إحساسهِ بالهلاكِ. إن أراد الرَّبُّ لكاتدرائيةِ كينغزبريدج أن تُبنى فسيساعدُ روبرت غلوستر على هزيمةِ الملكِ ستيفن اليومَ حتَّى يتسنى له الطلبَ من الإمبراطورة مود المنتصرة السماح له بوضعِ يدهِ مجدداً على المقلعِ، وفتحِ السوقِ. وإن انتصرَ ستيفن، وهُزمَ روبرت فسيقبلُ فيليب بمشيئةِ الرَّبِّ، ويتخلى عن خططهِ الطموحةِ، ويتركَ كينغزبريدج تهوي مجدداً في لجةِ التهالكِ والنسيانِ.

لكن ورغمَ محاولاتهِ الحثيثةِ كيلا يفكرَ بهذهِ الطريقةِ فإنَّه تمنَّى فوزَ روبرت.

عصفت رياحٌ قويةٌ بأبراجِ الكاتدرائيةِ، وهددت أكثر المتفرجين نحولاً بقذفهم عن السطحِ إلى المقبرةِ في الأسفلِ. كانت الرياحُ قارسةً جداً؛ ولذلكَ أحكمَ فيليب عباءتهُ حولهُ.

لم يعد يفصلُ بينَ الجيشين المتحاربين الآن سوى ميل واحد.

***

توقفَ جيشُ المتمردين عندما باتَ على بعدِ ميلٍ واحدٍ من الخطِ الأمامي لجيشِ الملكِ. كانت رؤيةُ كتلةِ الجيشِ من دونِ تبينِ تفاصيلهِ أمراً مضنياً؛ فقد أراد وليم أن يتحققَ من شدةِ تسلحهم، وإن كانوا مرحين، أو

غاضبين، أو متعبين، أو مترددين بل وحتّى معرفةِ طولِ قاماتهم. استمروا بالزحفِ ببطءٍ، ومن كانوا في المؤخرةِ ومدفوعين بالتساؤلات ذاتها التي راودت وليم اندفعوا إلى الأمامِ لإلقاءِ نظرةٍ على العدو.

في جيشِ الملكِ اصطفّ الإيرلات مع فرسانهم على جيادهم، ورفعوا دروعهم كأنّهم في مباراةٍ وعلى وشكِ البدءِ بمبارزةٍ. أرسلَ وليم على مضضٍ جميعَ الراكبين على الجيادِ في فيلقهِ إلى المؤخرةِ، وطلبَ من المرافقين ألا يعودوا إلى المدينةِ بل الانتظار مع الجيادِ في حال احتاجَ إليها من أجلِ الهربِ، ورغم أنّها كانت خطتهُ فإنه لم يُفصح عنها. إن خسروا المعركة فمن الأفضلِ له أن يهرب على أن يموتَ.

سيطرَ على المكان هدوءٌ كأنَّ القتال لن يشتعلَ أبداً، وتراجعت الريح، وهدأت الجيادُ رغمَ أن الرجال لم يكونوا كذلكَ. خلعَ الملكُ ستيفن خوذتهُ، وحكَّ رأسهُ، وبدأ وليم يشعرُ بالضيقِ. لم يكن القتالُ ما جعلهُ يشعرُ بالغثيانِ بل التفكيرُ فيهِ.

فجأةً ومن دونِ سببٍ واضحٍ توترت الأجواء مجدداً، وعلت صرخةُ حربٍ من مكانٍ ما، وجفلت جميعُ الجيادِ. علت صرخةُ تهليلٍ، ولكنها تراجعت بسرعةٍ من هديرِ حوافرِ الخيلِ. بدأت المعركةُ، وشمَّ وليم رائحةَ الخوفِ الحمضيةَ الشبيهةَ برائحةِ العرقِ.

نظرَ حولهُ في محاولةٍ يائسةٍ لفهم ما يحدث، ولكن الوضع كان فوضوياً، ولأنّه كان راجلاً لم يكن بوسعهِ رؤيةُ شيءٍ في محيطهِ القريبِ. بدا له أنَّ الإيرلات على يمينهِ بدأوا المعركةَ، وانقضوا على العدو، وهذا يعني أنَّ القوى على الطرفِ الآخر -جيش الإيرل روبرت والنبلاء «المحرومون من الميراثِ»- قد فعلوا المثلَ وهاجموا أيضاً. وهنا سمعَ صيحةً من اليسارِ. استدارَ وليم، ورأى الفرسان الراكبين بينَ مرتزقةِ بريتون ينطلقون بجيادهم إلى الأمام. بعد ذلك علت صيحةٌ متعطشةٌ للدماءِ من الجانبِ المقابلِ لجيشِ العدو الذي كان مؤلفاً من الغوغائيين الويلزيين، ولم يعد بوسعِ وليم الآن رؤيةُ صاحبِ الأفضليةِ في المعركةِ.

وأضاعَ أثرَ ريتشارد أيضاً.

من وراءِ الخطوطِ الخلفيةِ للعدو انهالت السهامُ كأسرابِ طيورٍ،

وتساقطت في أرجاءِ المكانِ. رفعَ وليم درعهُ فوقَ رأسهِ. لطالما كره السهام لأنَّها تفتكُ بعشوائيةٍ.

أطلقَ الملكُ ستيفن صيحةَ حربٍ، وبدأ الهجومَ. رفعَ وليم سيفهُ، وركضَ منادياً رجالهُ للحاقِ بهِ، ولكن الراكبين على الجياد على يمينهِ ويسارهِ طوقوه، وحالوا بينهُ وبينَ العدو.

على يمينهِ أتاه ذلكَ الصوتُ الذي يصمُّ الآذانَ لضربِ المعدنِ بالمعدنِ، وامتلأ الجو برائحةٍ معدنيةٍ يعرفها جيداً. انضمَّ الإيرلات والنبلاء «المحرومون من الميراثِ» إلى المعركة، ولم يعد بوسعِ وليم رؤيةُ شيءٍ سوى رجالٍ وجيادٍ تصطدمُ، وتدورُ، وتهاجمُ، وتسقطُ، واختلطَ صهيلُ جيادِ الحربِ المهيبةِ بصرخات الحربِ. ورغمَ أنَّ وليم كان في وسطِ المعمعةِ فإنَّه كان قادراً على سماعِ الصرخاتِ المخيفةِ والمُقشعرةِ لجرحى يتألمون، وتمنَّى أنّ يكون ريتشارد بينهم.

نظرَ وليم إلى يسارهِ، وهلعَ عندما رأى مرتزقةَ بريتون يتراجعون أمامَ هراواتِ وفؤوسِ البرابرةِ الويلزيين الذين بدوا كأنَّهم مصابون بالسعارِ، وهم يصرخون ويوقعون بعضهم من شدةِ الحماسةِ للوصولِ إلى العدو. قد يكون الدافعُ وراءَ هذه الحماسةِ طمعهم في نهبِ المدينةِ، أمَّا مرتزقةُ بريتون الذين لا يحفزهم شيءٌ أكثر من الحصولِ على أجرهم الأسبوعي فكانوا يقاتلون بشكلٍ دفاعي ويتقهقرون، وشعر وليم بالتقززِ.

كان اليأسُ قد تمكنَ منه فهو لم يوجه ضربةً واحدةً حتَّى الآن. ومحاطاً بفرسانهِ وأمامهُ جيادُ الإيرلات ومرتزقةُ بريتون اندفعَ إلى الأمامِ قليلاً إلى جانبِ الملكِ. رغمَ أنَّ القتالَ كان على أشدهِ: جيادٌ متهاويةٌ، ورجالٌ يُقاتلون وجهاً لوجه بشراسةِ القططِ، وأصواتُ السيوفِ التي تصمُّ الآذان، ورائحةُ الدمِ المراقِ المثيرةُ للغثيانِ، غيرَ أنَّ وليم والملك ستيفن كانا، ولبرهةٍ من الزمنِ، عالقين في منطقةٍ هادئةٍ.

***

رأى فيليب كلَّ شيءٍ إلَّا أنَّه لم يفهم شيئاً مما رآه، ولم يكن لديهِ أدنى فكرة عمَّا كان يجري. بدا الأمرُ برمتهِ أشبه بفوضى: وميضُ السيوفِ، والجياد المندفعةُ، وراياتهم المرفرفةُ والمتهاويةُ، وأصواتُ المعركةِ التي

حملتها الريحُ وكممها المدى. كان الأمرُ محبطاً إلى درجةٍ جنونيةٍ. رجالٌ يسقطون قتلى على أيدي رجالٍ، وآخرون يتابعون القتالَ، وفيليب عاجزٌ عن معرفةِ من المنتصرِ ومن المهزوم.

نظرَ كاهنٌ من كهنةِ الكاتدرائيةِ إلى فيليب الواقف بجوارهِ وسأله: «ما الذي يحدثُ؟»

هزَّ فيليب رأسهُ وأجاب: «لا أفهم ما يجري».

وبينما كان يجيبُ على سؤالِ الكاهنِ رأى حركةً إلى يسارِ ساحةِ القتالِ. رأى رجالاً يهربون باتجاهِ القناةِ المائيةِ. كانوا مرتزقةً مهلهلي الثيابِ، وعلى حدِ علمِ فيليب كانوا مقاتلين إلى جانبِ الملك، وهذا يعني أنهم يهربون. رأى أيضاً رجالَ قبائلَ بوجوهٍ مطليةٍ في الجيشِ المهاجمِ يركضون في إثرِ المرتزقةِ، ووصلَ إلى مسامعِ فيليب تهليلُ نصرٍ أطلقه الويلزيون، وارتفعت معنويات فيليب. كان الثوار ينتصرون.

في الجانبِ الآخر لاحظَ فيليب تغييراً كبيراً. إلى اليمين رأى الرجال على صهواتِ الجيادِ يقاتلون، وبدا له أنَّ جيشَ الملكِ يتقهقر. في البدايةِ كانت التحركات خفيفةً ثمَّ باتت مستقرة لتتسارع وتيرتها أخيراً، وبينما فيليب يتابع المجريات لاحظَ أنَّ التقهقر تحولَ إلى هزيمةٍ، والكثيرُ من رجالِ الملكِ استداروا على أعقابهم، ولاذوا بالفرارِ من ساحةِ المعركةِ.

ابتهجَ فيليب. لا بدَّ أن هذهِ إرادةُ الرَّبِّ.

هل انتهى الأمرُ بهذهِ السرعةِ؟ كان المتمردون يتقدمون على كلا الخاصرتين، ولكن المركز مازال متماسكاً، والرجال الذين أحاطوا بالملكِ على كلا الطرفين قاتلوا بشراسةٍ. هل سيتمكنون من إيقافِ تقدمِ المتمردين؟ قد يتواجه ستيفن وروبرت غلوستر وجهاً لوجه؛ فأحياناً المواجهةُ بين القائدين تحسمُ المعركة بغضِ النظرِ عما يجري على أرضِ المعركةِ، ولكن يبدو أنَّ الأمرَ لم يحدث بعد.

***

تغيرَ المدُّ بسرعةٍ مرعبةٍ. رغمَ أنَّ الجيشين متكافئان، ويُقاتلان بشراسةٍ، فإن الأمور تغيرت، وبدأ رجالُ الملكِ يفرّون بسرعةٍ. شعرَ وليم بإحباطٍ كبيرٍ؛ فإلى يسارهِ رأى مرتزقةَ بريتون يهربون أسفلَ التلِّ باتجاهِ القناةِ، والويلزيين

في إثرهم، وإلى يمينهِ كان الإيرلات على صهواتِ جيادهم ومع راياتهم ينتقلون من القتالِ إلى الفرارِ، والعودةِ إلى مدينةِ لينكولن، أمَّا الوسطُ فما يزال صامداً، والملكُ ستيفن في المركزِ يضربُ بشجاعةٍ، ورجال شايرنغ من حولهِ يقاتلون كقطيعٍ من الذئابِ، ولكن الموقفَ بأكملهِ لم يكن مستقراً. إن استمر الرجالُ على الخاصرتين بالتقهقرِ؛ فسيضطرُ الملكُ إلى الاستسلامِ. أراد وليم من ستيفن أن ينسحبَ، ولكن الملك شجاعٌ أكثر مما هو حكيم، ولذلك تابعَ القتال.

شعرَ وليم أنّ المعركةَ بأكملها انتقلت إلى الخاصرةِ اليسرى. نظرَ حوله، ورأى المرتزقة الفلمنكيين يتقدمون في أعقابِ الويلزيين الذين اضطروا إلى التوقفِ عن مطاردةِ مرتزقةِ بريتون أسفلَ التلِّ، والتراجع للدفاعِ عن أنفسهم. اشتبكَ الطرفان لبعضِ الوقتِ، ثمَّ اندفعَ رجالُ رانولف تشستر الذين كانوا في وسطِ الخطِ الأمامي لجيشِ المتمردين، وهاجموا المرتزقة الفلمنكيين الذين وجدوا أنفسهم الآن محاصرين بين رجالِ رانولف والويلزيين.

عندما رأى الملكُ ستيفن هذا حثَّ رجاله على التقدمِ إلى الأمامِ. اعتقدَ وليم أنَّ رانولف قد ارتكبَ غلطةً بهذهِ الحركةِ لأنَّ قواتِ الملكِ كانت قريبةً من رجالِ رانولف الآن، وهذا يعني أنهم حوصروا الآن من قبلِ المرتزقةِ الفلمنكيين من جهةٍ، ورجالِ الملكِ من جهةٍ أخرى.

فجأةً سقطَ أحدُ فرسانِ وليم أمامهُ، وأدركَ الأخيرُ أنَّه باتَ الآن في وسطِ ساحةِ القتالِ.

اندفعَ مقاتلٌ من الشمالِ رافعاً سيفاً مدمى باتجاهِ وليم، ولكن وليم صدَّ الضربةَ بسهولةٍ فهو لم يُقاتل بعد، وخصمهُ متعبٌ من القتالِ. ضربَ وليم الرجلَ على وجههِ، ولكنه لم يصبهُ، وصدَّ ضربةً أخرى من سيفِ خصمهِ، ثمَّ رفعَ سيفهُ عالياً متظاهراً أنَّه سيكيلُ ضربةً لخصمهِ، ثمَّ وكما توقعَ وليم وجهَ الرجلُ الآخر ضربةً أخرى، ولكن وليم تفاداها. وممسكاً بسيفهِ بكلتا يديهِ وجهَ وليم ضربةً إلى كتفِ الرجلِ الآخرِ فاخترقت الضربةُ درعَ الرجلِ، وكسرت عظمَ ترقوتهِ ليسقطَ عن جوادهِ.

ابتهجَ وليم لبرهةٍ بهذهِ الضربةِ، وشعرَ أنَّ رعبهُ اختفى ثمَّ زأرَ بصوتٍ عالٍ: «تقدَّموا أيّها الكلاب!»

تقدَّم رجلان إلى مكانِ الفارسِ الذي سقطَ، وهاجما وليم معاً. صدَّهما وليم، ولكنه اضطرَّ للتراجعِ إلى الوراءِ.

شعرَ وليم باندفاعِ مُقاتلين إلى يمينِهِ اضطرَّ معه أحدُ فرسانِهِ إلى الاستدارةِ، والدفاعِ عن نفسِهِ من أحدِ الرجلين، وكان مقاتلاً بوجهٍ محمرٍ يحملُ ساطوراً، ويبدو كجزارٍ مسعورٍ، أمَّا الرجلُ الآخر فقد هاجم وليم الذي ابتسم في وحشيةٍ واندفعَ نحوه. هلعَ خصمُ وليم، ووجهَ ضربةً عشوائيةً إلى رأسِه. أحنى وليم رأسهُ ثمَّ طعنَ الرجلَ في الفخذِ تحتَ طرفِ سترةِ الزردِ فسقطَ الأخير أرضاً.

ومجدداً لم يعد هناك أمامه أحدٌ ليقاتلهُ فوقف ثابتاً بأنفاسٍ مبهورةٍ. اعتقدَ لوهلةٍ أنَّ جيشَ الملكِ سيتقهقرُ، ولكنه تقدَّم إلى الأمامِ، وبدا الآن أنَّه يمتلكُ أفضليةً على كلا الجانبين. نظرَ وليم إلى يمينِهِ في عجبٍ من دفقِ المقاتلين الذي شتتَ انتباهَ أحد خصميهِ، وذُهلَ عندما اكتشفَ أنَّ سكانَ مدينةِ لينكولن يقاتلون العدو بضراوةٍ، ربما بدافع حمايةِ منازلهم وممتلكاتهم، ولكن من كان يدفعُ بهم إلى القتالِ بعدَ هروبِ جميعِ الإيرلات على الخاصرةِ اليمنى، وانتابه اليأسُ عندما عرفَ الجواب على سؤالِهِ. رأى ريتشارد على جوادِهِ الحربي يحثُّ رجالَ المدينةِ، وغاصَ قلبُ وليم في صدرِهِ. إن رأى الملكُ هذا العملَ الشجاع الذي يقومُ بِهِ ريتشارد؛ فسيذهبُ كلُّ ما فعلهُ وليم أدراجَ الرياحِ. نظرَ وليم إلى ستيفن، ورأى أنَّ الملكَ ينظرُ إلى ريتشارد، ويلوحُ له في تشجيعٍ، فأطلقَ وليم لعنةً ساخطةً.

خففَ تقدّمُ سكانِ المدينةِ من الضغطِ على الملكِ، ولكن هذا لم يدم طويلاً. إلى يسارِهِ طوقَ رجالُ رانولف المرتزقة الفلمنكيين، وها هو رانولف الآن يستديرُ ويتوجه إلى وسطِ القواتِ المدافعةِ، وفي الوقتِ عينهِ اندفعت قواتُ النبلاء «المحرومون من الميراثِ» باتجاه ريتشارد وسكانِ المدينةِ، واستعر القتال.

هجمَ رجلٌ ضخمٌ يحملُ فأساً حربيةً على وليم، ولكن الأخير تفادى الضربةَ بخوفٍ مفاجئ على حياتِهِ. ومع كلِّ ضربةٍ بالفأسِ وجهها له الرجلُ الضخمُ تراجعَ وليم خطوةً إلى الوراءِ. أدركَ وليم الآن أنَّ جيشَ الملكِ بأكملِهِ يتراجعُ معهُ. إلى يسارِهِ وفي حركةٍ مذهلةٍ بدأ الويلزيون برمي

الحجارةِ، ورغمَ أنَّها حركةٌ غبيةٌ فإنَّها كانت فعَّالةً؛ لأنَّ وليم الآن بات عليهِ تجنب الحجارةِ المتطايرةِ، وحماية نفسهِ من العملاقِ ذي الفأسِ الحربية في الوقتِ عينهِ. انتابَ وليم اليأس، وراودهُ شعورٌ أنَّ عددَ مقاتلي جيشِ المتمردين زادَ عن ذي قبلٍ، وتفوقَ على جيشِ الملكِ. شعرَ وليم بخوفٍ هستيري يصعدُ إلى حلقهِ، وأدركَ أنَّ المعركةَ تتجه إلى نهايةٍ خاسرةٍ، وأنَّه عرضةٌ للموتِ. كان على الملكِ أن يهربَ الآن، ولكن لماذا يستمر بالقتالِ؟ إنَّه عملٌ جنوني فقد يُقتل... بل جميعهم قد يُقتلون. رفعَ خصمُ وليم فأسهُ عالياً، ولوهلةٍ تغلبت غريزةُ القتالِ في وليم على الخوفِ، وبدلاً من التراجعِ تقدمَ، وضربَ الرجلَ الضخمَ في وجههِ. أصابَ سيفهُ الرجلَ في عنقهِ تحتَ ذقنهِ، فأعملَ وليم سيفهُ بقوةٍ أكبر. أغلقَ الرجلُ عينيهِ، ولوهلةٍ شعرَ وليم براحةٍ عظيمةٍ. سحبَ سيفهُ، وتراجعَ إلى الوراءِ متجنباً الفأسَ الذي سقطَ الآن من يدِ الرجلِ الميتِ.

ألقى وليم نظرةً سريعةً على الملكِ الذي لا يبعدُ عن يسارهِ سوى بضع ياردات، ورآه يضربُ بسيفهِ خوذةَ رجلٍ فانكسرَ السيف كغصنٍ. شعرَ وليم بارتياحٍ، وفكرَ في نفسهِ أنَّ المعركةَ انتهت الآن فالملكُ سيتراجعُ وينقذ حياتهُ كي يتابع القتال في يومٍ آخر، ولكن يبدو أنَّ وليم عجَّلَ في آمانيهِ لأنَّه، وعندما استدارَ نصفَ استدارةٍ ليهربَ، رأى أحدَ سكانِ المدينةِ يقدمُ للملكِ فأسَ حطابٍ بمقبضٍ طويلٍ، وخابَ أملُ وليم عندما رأى ستيفن يأخذ السلاحَ، ويتابع القتالَ.

شعرَ وليم بإغراءِ الهربِ، ولكن عندما نظرَ إلى يمينهِ رأى ريتشارد راجلاً، ويُقاتلُ كمجنونٍ، يهاجمُ ويضربُ على كلا الجانبين وإلى الوسطِ. لا يمكن لوليم أن يهربَ، وغريمهُ ما زال يُقاتل.

هوجمَ وليم مجدداً، وهذهِ المرة من قبلِ رجلٍ قصيرٍ خفيف الحركةِ في درعٍ خفيفٍ، وسيفٍ يلمع تحتَ أشعةِ الشمسِ. عندما اشتبكَ الرجلان، أدركَ وليم أنَّ خصمهُ مقاتلٌ عظيمٌ، ووجدَ نفسهُ مجدداً يدافعُ عن نفسهِ، وخائفاً على حياتهِ، وقد استنزفت معرفتهُ أنَّ المعركةَ خاسرةٌ رغبتهُ بالقتالِ. صدَّ الضربات السريعةَ التي وجهها المقاتل له متمنياً لو أنَّه يستطيع سحقَ درعِ الرجلِ بضربةٍ قويةٍ واحدةٍ. وعندما رأى فرصةً لفعلِ هذا ضربَ بسيفهِ،

ولكن الرجلَ الآخر صدَّ الضربةَ، وشعرَ وليم بخدرٍ في يدهِ اليسرى. لقد أصيبَ، وشعرَ بالغثيان من شدةِ الخوفِ. استمرَّ بالتقهقرِ تحتَ وابلِ ضرباتِ المقاتلِ، ولكن شعرَ باختلالِ غريبٍ في التوازنِ كأنَّ الأرضَ من تحتهِ تميدُ، وتأرجح درعه من رقبتهِ فقد كان عاجزاً عن حملهِ بيده اليسرى المعطوبةِ. ولأنَّ الرجل القصير أدركَ أنَّه حققَ نصراً تابعَ الهجومَ. رأى وليم الموتَ ماثلاً أمامهُ، وتملكهُ خوفٌ كبيرٌ على حياتهِ.

وفجأةً ظهرَ والتر إلى جانبهِ.

تراجعَ وليم إلى الوراءِ، ولوحَ والتر بسيفهِ الذي حملهُ بكلتا يديهِ. جاءت حركةُ والتر مباغتةً، وأصابت الرجلَ بضربةٍ قطعتهُ كشجيرةٍ. وفجأةً شعرَ وليم بالضعفِ من شدةِ الراحةِ، ووضعَ يدهُ على كتفِ والتر.

«لقد خسرنا!» صرخَ بهِ والتر. «فلننسحب!»

تمالكَ وليم نفسهُ، ورأى أنَّ الملكَ مازال يُقاتل رغمَ أنَّ المعركة خاسرةٌ. إن استسلمَ الآن، وحاولَ الفرارَ يمكنهُ العودةُ إلى الجنوبِ، وحشدُ جيشٍ آخر، ولكن كلما أمعنَ في القتالِ زادت احتماليةُ تعرضهِ للقتلِ، أو وقوعهِ في الأسرِ، وهذا يعني أمراً واحداً، وهو أنَّ مود ستكون الملكة.

وقفَ وليم ووالتر بظهريهما بعضهما لبعض. لمَ يتصرف الملكُ بغباءٍ؟ لقد أثبتَ شجاعتهُ، ولكن البسالة ستجلبُ موته، ومجدداً شعرَ وليم بإغراءِ التخلي عن الملكِ، ولكن ريتشارد مازال يقاتلُ محافظاً على ثباتِ الخاصرةِ اليمنى، وملوحاً بسيفهِ على الجانبين حاصداً الرجالَ كقابضِ الأرواحِ. «ليسَ بعد»، قال وليم لوالتر. «أبقِ عينكَ على الملكِ».

تقهقروا ببطءٍ، وبات القتالُ الآن أقلَّ ضراوةً بعدَ أن أدركَ الرجالُ أنَّ نهايةَ المعركةِ قد حُسمت، ولم يعد هناكَ من داعٍ للمخاطرةِ. اشتبكَ وليم ووالتر مع فارسين، ولكن الفارسين أرادا دحرهما أكثر مما أرادا قتلهما، وقاتل وليم ووالتر بشكلٍ دفاعي. ورغمَ الضرباتِ القويةِ التي تبادلوها فما من أحدٍ عرَّضَ نفسهُ للخطرِ.

تراجعَ وليم إلى الوراءِ، وألقى نظرةً على الملكِ، ورأى فجأةً حجرةً كبيرةً تطيرُ عبرَ ساحةِ القتالِ وتصيبُ خوذةَ ستيفن. ترنّحَ الملك وسقطَ على ركبتيهِ. توقفَ خصمُ وليم عن توجيهِ الضرباتِ، ونظرَ إلى حيثُ نظرَ وليم.

أسقطَ الملكُ ستيفن الفأسَ من يدهِ، وركضَ فارسٌ من جيشِ المتمردين باتجاهِهِ وسحبَ الخوذةَ عن رأسِ الملكِ ثمَّ صرخَ في ظفرٍ: «الملكُ! أمسكتُ بالملكِ!»

استدارَ وليم ووالتر وبقيةُ الجيشِ الملكي على أعقابهم وبدأ الفرُّ.

***

ابتهجَ فيليب أيما ابتهاجٍ. بدأ التقهقر في وسطِ جيشِ الملكِ ثمَّ امتدَّ إلى الخاصرتين، وفي لمحِ البصرِ باتَ الجيشُ الملكي بأكمله في حالةِ فرٍ. هذه عقوبةُ الملكِ ستيفن على ظُلمهِ.

اندفعَ المهاجمون في إثرِ المتقهقرين. كان هناكَ ما يقارب الأربعين أو الخمسين جواداً يُمسكُ بها المرافقون في مؤخرةِ الجيشِ الملكي. قفزَ بعضُ الهاربين على الجيادِ للهربِ عليها، ولكن ليسَ باتجاهِ المدينةِ بل نحو الريفِ المفتوحِ.

تساءل فيليب في نفسهِ عمَّا حصلَ للملكِ.

بدأ سكانُ مدينةِ لينكولن ممن وقفوا على الأسطحِ لمشاهدةِ مجريات المعركةِ ينزلون بسرعةٍ. اختفى الأطفالُ، والحيوانات، وبعضُ العائلاتِ داخلَ المنازلِ، وأُغلقت النوافذ، والأبواب بالرتاجِ، أمَّا القوارب في البحيرةِ فتحركت باضطرابٍ. كان بعضُ سكانِ المدينةِ يحاولون الفرار عن طريقِ النهرِ، وبدأ الناس بالتدفقِ إلى الكاتدرائيةِ طلباً للجوءِ.

وعندَ كلِّ مدخلٍ إلى المدينةِ اندفعَ الناسُ لإغلاقِ البواباتِ المدعمةِ بالحديدِ، وفجأةً اندفعَ رجالُ رانولف من القلعةِ في مجموعتين من الواضحِ أنَّ هذا كان جزءاً من خطةٍ أُعدَّ لها مُسبقاً. إحدى المجموعتين توجهت إلى بوابةِ المدينةِ، وشقت طريقها بين الناسِ، وهي تضربهم على كلا الجانبين ثمَّ أعادت فتح البواباتِ، وسمحت للمتمردين الغازين بالدخولِ.

قررَ فيليب النزولَ عن سطحِ الكاتدرائيةِ، ولحقَ بهِ البقيةُ، وكان معظمهم من رجالِ الدينِ في الكاتدرائيةِ. عبروا جميعاً مدخلاً خفيضاً يُفضي إلى البرجِ الصغيرِ، وهناكَ التقوا بالأسقفِ ورئيسِ الأساقفةِ اللذين كانا في أعلى البرجِ. اعتقدَ فيليب أنَّ الأسقفَ ألكسندر بدا خائفاً، وشعرَ بالأسفِ عليهِ فهو سيحتاجُ إلى الشجاعةِ اليوم.

هبطوا جميعاً الدرجَ الحلزوني الطويلَ والضيقَ، وخرجوا إلى صحنِ الكنيسةِ من الطرفِ الغربي. كان قد وصلَ مئةُ شخصٍ من سكانِ المدينةِ حتَّى الآن، وتدفقَ المزيد عبرَ المداخلِ الثلاثةِ الكبيرةِ. تفحصَ فيليب المكانَ، ورأى فارسين ملطخين بالدماءِ والطينِ يندفعان بسرعةٍ على جواديهما إلى فناءِ الكاتدرائيةِ. لم يترجلا عن جواديهما بل اندفعا إلى داخلِ الكنيسةِ، وعندما رأيا الأسقفَ صرخَ أحدهما قائلاً: «أُسرَ الملكُ!»

طارَ قلبُ فيليب فرحاً. لم يُهزم ستيفن، بل أُسرَ وهذا يعني أنَّ القواتِ الملكيةِ في جميعِ أرجاءِ المملكةِ ستتفكك الآن لا محالة، وبدأت تداعيات الحدثِ تتأرجحُ ككرةٍ في مخيلةِ فيليب، ولكن قبلَ أن يصلَ إلى خلاصةِ هذهِ التداعياتِ سمعَ الأسقفِ آلكسندر يصرخُ: «أغلقوا الأبواب!»

بالكادِ كان فيليب قادراً على تصديقِ ما سمعهُ وصرخَ: «لا! لا يمكنكَ فعلُ هذا!»

حدَّقَ الأسقفُ نحوهُ بوجهِ خطفَ الخوفُ والرعبُ اللون منه. في البدايةِ لم يُفلح في تذكر فيليب رغمَ أنَّ الأخير قدَ زارهُ بشكلٍ رسمي، من بابِ اللياقةِ، ولكنهما لم يتحدثا منذُ تلكَ الزيارةِ، ولكن ها هو آلكسندر، وبعد جهدٍ واضحٍ، يتذكرهُ.

«هذهِ ليست كاتدرائيتكَ يا رئيسَ الديرِ فيليب بل كاتدرائيتي. أغلقوا الأبوابَ!» وانطلقَ العديدُ من الكهنةِ لتنفيذِ أوامرهِ.

ارتاعَ فيليب من هذا السلوكِ الأناني من قبلِ رجلِ دينٍ.

«لا يمكنكَ منعُ الناسِ من الدخولِ»، صرخَ فيليب بغضبٍ. «فقد يُقتلون!»

«إن لم نُقفل الأبوابَ فقد نُقتلُ نحن!» صرخَ آلكسندر بهستيريةٍ.

أمسكهُ فيليب من ياقةِ ردائهِ وقالَ له بصوتٍ كالفحيح: «لا تنس من تكون. لا يفترضُ بكَ أن تكون خائفاً، ومن الموتِ بالتحديدِ. فلتتمالك نفسكَ».

«ابتعد عني!» صرخَ آلكسندر.

اندفع بضعة كهنةٍ لإبعادِ فيليب عن آلكسندر فصرخَ بهم فيليب: «ألا ترون ما يفعله؟»

وأجابه أحدُ الكهنةِ: «إن كنتَ شجاعاً إلى هذهِ الدرجةِ فلمَ لا تخرجُ بنفسكَ وتحميهم؟»

حررَ فيليب نفسهُ من قبضتهم وقال: «وهذا بالضبطِ ما سأقومُ بهِ».

استدار فيليب على عقبيهِ. رأى البوابةَ الوسطى الكبيرةَ على وشكِ أن تُغلق فهرعَ عبرَ صحنِ الكنيسةِ. كان هناكَ ثلاثةُ كهنةٍ يغلقون البوابةَ بينما الناسِ يحاولون المرورَ عبرَ الشقِ الضيقِ. حشرَ فيليب نفسهُ عبرَ هذا الشقِ، وخرج قبلَ أن تُغلق البوابةُ.

خلالَ الدقائقِ القليلةِ التاليةِ كان حشدٌ من الناسِ قد تجمَّعَ في الرواقِ. أخذَ الرجالُ والنساءُ بالقرعِ على البابِ للسماح لهم بالدخولِ، ولكن ما من جوابٍ على تضرعاتهم أتى من داخلِ الكنيسةِ.

فجأةً أصيبَ فيليب بالخوفِ مما رآه على وجوهِ الناسِ، وشعرَ بنفسهِ يرتجفُ. لقد واجهَ جيشاً منتصراً من قبل عندما كانَ في السادسةِ من العمرِ، وعاودهُ الآن ذلكَ الهلع الذي شعرَ بهِ آنذاك. عادت إليهِ ذكرى اقتحامِ الجنديين منزلَ والديهِ قويةً وواضحةً كأنَّها حدثت البارحة. تجمَّدَ فيليب في مكانهِ، وحاولَ منعَ نفسهِ من الارتجافِ خوفاً وسطَ الحشدِ المهتاجِ حوله. مرَّ وقتٌ طويلٌ على آخرِ مرَّةٍ عذَّبهُ فيها هذا الكابوسُ. كان قد رأى شهوةَ الدم على وجهي الجنديين، وكيفَ اخترقَ السيفُ والدتهُ، والمشهدَ الرهيبَ لأمعاءِ والدهِ تخرجُ من بطنهِ، وعاوده مجدداً ذلكَ الرعبُ المبهمُ، والجنوني، والهستيري، والطاغي، ثمَّ دخلَ راهبٌ من البابِ يحملُ بيدهِ صليباً، وهنا توقفَ الصراخُ. علَّمهما الراهبُ كيفَ يُغلقان عيون والدتهما ووالدهما حتَّى يناما نومهما الطويل، وتذكرَ كأنَّه استفاقَ للتو من حلمٍ أنَّه لم يعد طفلاً خائفاً الآن بل رجلٌ بالغٌ وراهب، وكما قامَ رئيسُ الديرِ بيتر بإنقاذهِ هو وأخيهِ من ذلكَ اليومِ الرهيبِ منذُ سبعةٍ وعشرين عاماً سيقوم فيليب الآن، بقوةِ إيمانهِ وعونِ الرَّبِّ، بمساعدةِ الخائفين على حيواتهم.

أجبرَ نفسهُ على أخذِ خطوةٍ إلى الأمام، ووجدَ بعدَ ذلكَ الخطوةَ التاليةَ أقلَّ صعوبةً من التي سبقتها بقليلٍ، أمَّا الثالثة فكانت سهلةً.

عندما وصلَ إلى الشارعِ الذي ينتهي إلى البوابةِ الغربيةِ كاد حشدُ السكانِ الهاربينِ أن يطيحَ بهِ أرضاً: رجالٌ وصبيةٌ يركضون حاملين صررَ مقتنياتهم الثمينة، وعجائز يلهثون من التعبِ، وفتيات يصرخن، ونساء يحملن على أذرعهن أطفالاً يزعقون. دفعَ بهِ الحشدُ إلى الوراءِ بضع ياردات، ولكنه

صارعَ ليشقَّ طريقهُ عكسَ التيارِ. كانوا متوجهين إلى الكاتدرائيةِ، وأرادَ أن يخبرهم أنَّ الكاتدرائية مغلقةٌ، وعليهم التزام منازلهم وإحكام غلقِ الأبوابِ، غيرَ أنَّ الصراخَ عمَّ المكانَ، وما من أحدٍ كان يُصغي.

تقدَّم ببطءٍ على طولِ الشارعِ فقد كان يتحركُ عكسَ اتجاهِ الناسِ. عندما قطعَ بضعَ يارداتٍ رأى مجموعةً من أربعةِ رجالٍ على ظهورِ الجيادِ يندفعون عبرَ الشارعِ. كانوا السببَ في هذا التدافعِ الجماعي. ألصقَ بعضُ الناسِ أنفسهم بجدران المنازلِ متجنبين حوافرَ الجيادِ، ولكن العديد لم ينجح في الهربِ في الوقتِ المناسبِ، وسقطوا تحتَ حوافرِ الجيادِ. أصيبَ فيليب بالهلعِ عندما رأى هذا، ولكن لم يكن بوسعهِ القيامُ بشيءٍ حيالهُ، وتفادى الجيادَ باللجوءِ إلى زقاقٍ. بعدَ أن عبرت مجموعةُ الرجالِ على الجيادِ خلا الشارعُ من الناسِ.

امتلأ الشارعُ بجثثٍ كثيرةٍ، وعندما خرجَ فيليب من الزقاقِ الذي لجأ إليهِ رأى إحدى الجثثِ تتحركُ، وكانت لرجلٍ في منتصفِ العمرِ في عباءةٍ قرمزيةٍ. كان الرجلُ يحاول الزحفَ على الأرضِ رغمَ أنَّ قدمهُ مصابةٌ. اندفعَ فيليب عبرَ الشارعِ باتجاهِ الرجلِ كي يحملهُ، ولكن قبلَ أن يصلَ إليهِ ظهرَ رجلان في خوذتين حديديتين ودرعين خشبيين، وقال أحدهما للآخر: «هذا الرجلُ حيٌّ يا جيك».

ارتجفَ فيليب من الخوفِ، وخُيل إليه أنَّ سلوكهما وصوتيهما وثيابهما، بل وحتَّى وجهيهما، كوجهي الجنديين اللذين قتلا والديهِ.

قال الرجلُ الذي يُدعى جيك: «انظر إلى عباءتهِ الحمراء. يمكننا أسرهُ والمطالبة بفديةٍ»، ثمَّ استدارَ ووضعَ أصابعهُ في فمهِ، وصفرَ فأتى رجلٌ ثالثٌ ركضاً. «خُذ صاحبَ المعطفِ الأحمرِ إلى القلعةِ وقيِّدهُ».

لفَّ الرجلُ الثالثُ ذراعيهِ حولَ صدرِ الرجل المصابِ وجرَّه؛ فبدأ الرجلُ يصرخ ألماً عندما ارتطمت ساقهُ بحجارةِ الشارعِ.

صرخَ فيليب قائلاً: «توقف!» توقف الرجال لبرهةٍ يُحدقون إليه ثمَّ ضحكوا، وتابعوا ما يفعلونهُ.

صرخَ فيليب مجدداً، ولكنهم تجاهلوه مجدداً، وراقبَ بعجزٍ الرجل المصابَ يُجرُّ عبرَ الشارعِ. خرجَ جندي آخر من أحدِ المنازلِ مرتدياً معطفاً

فرائياً طويلاً يحملُ ستةَ صفائح من الفضةِ تحتَ ذراعِهِ. رآه جيك، ولاحظَ الغنيمةَ التي يحملها.

«هذهِ منازلُ أغنياء»، قال لرفيقِهِ. «علينا أن ندخلَ إلى أحدها ونبحثَ فيها».

توجهَ الرجالُ إلى بابٍ موصدٍ لمنزلٍ حجري، وكسروا البابَ بفأسٍ حربيةٍ.

شعرَ فيليب بالعجزِ، ولكنه لم يكن مستعداً للاستسلام. غيرَ أنَّ الرَّبَّ لم يضعهُ في هذا الموقفِ لحمايةِ ممتلكاتِ رجلٍ غني، ولذلكَ تركَ جيك ورفاقه، وهرعَ باتجاهِ البوابةِ الغربيةِ. اندفعَ المزيدُ من الجنودِ عبرَ الشارعِ، واختلطَ بهم رجالٌ قصار القامةِ ببشرةٍ داكنةٍ ووجوهٍ ملونةٍ وفي معاطف من جلودِ الخرافِ ومسلحين بالهراواتِ. أدركَ فيليب أنَّ أولئكَ الرجال من القبائلِ الويلزيةِ، وشعرَ بالخجلِ لأنَّ أولئك الهمج من أبناءِ موطنهِ. ألصقَ نفسهُ بجدارِ أحدِ المنازلِ في محاولةٍ لإخفاءِ نفسهِ.

خرجَ جنديان من أحدِ المنازلِ الحجريةِ يجرَّان رجلاً بلحيةٍ بيضاء على رأسِهِ قلنسوة صغيرة. وضعَ أحدُ الجنديين سكينهُ على عنقِ الرجلِ وقال: «أين مالكَ أيّها اليهودي؟»

«لا أملكُ مالاً»، قال الرجلُ في تضرعٍ.

وفكرَ فيليب أنَّ ما من أحدٍ سيصدقُ هذا. كان يهودُ لينكولن مشهورين بثرائهم، علاوةً على هذا، يعيشُ هذا الرجلُ في منزلٍ حجري.

خرجَ جندي آخر يجرُّ امرأةً من شعرها. كانت المرأةُ في منتصفِ العمرِ، وهي على الأرجح زوجةُ اليهودي. صرخَ الجندي الأول: «أخبرنا عن مكانِ المالِ، أو سأطعنها في فرجها بسيفي»، ثمَّ رفعَ تنورةَ المرأة كاشفاً عن شعر عانتها الرمادي، ورفعَ خنجراً طويلاً فوقَ فرجها.

كان فيليب على وشكِ التدخلِ، ولكن الرجلَ العجوز استسلمَ على الفورِ قائلاً على عجلٍ: «لا تؤذوها. المالُ في القسم الخلفي من المنزلِ. إنَّه مدفونٌ في الحديقةِ قربَ كومةٍ من الحطبِ. أرجوكَ دعها وشأنها».

عادَ الجنود الثلاثة إلى المنزلِ، وساعدت المرأةُ الرجلَ في النهوضِ على قدميهِ. اندفعت مجموعةٌ أخرى من الجنودِ على ظهورِ الجيادِ عبرَ الشارعِ الضيقِ؛ فاندفع فيليب بنفسهِ بعيداً عن الطريقِ، وعندما نهضَ لاحظَ أنَ اليهوديين اختفيا.

رأى فيليب فارساً في درعٍ يركضُ عبرَ الشارعِ نجاةً بحياتِهِ، وفي إثرِهِ أربعةُ رجالٍ ويلزيين. أمسكَ الويلزيون بالفارسِ عندما اقتربَ الأخيرُ من فيليب. ضربَ قائدُ المطاردين الهارب بسيفِهِ فأصابه في ربلةِ ساقِهِ. لم تبدُ الإصابةُ لفيليب خطيرةً، ولكنها كفيلةٌ بإعاقةِ الشابِ، وإيقاعِهِ أرضاً. وصلَ مطاردٌ آخر في إثرِ الأولِ، وأمسكَ فأسهُ الحربية ليقتل الفارس.

شعرَ فيليب بقلبِهِ يخرجُ من صدرِهِ وخرجَ من مكمنِهِ صارخاً: «توقف!»

رفعَ الرجلُ فأسهُ.

اندفعَ فيليب نحوهُ.

لوحَ الرجلُ بالفأسِ، ولكن فيليب دفعهُ في اللحظةِ الأخيرةِ، فاستقرت ضربةُ الفأسِ على أرضيةِ الشارعِ المرصوفةِ على بُعدِ قدمٍ من رأسِ الضحيةِ. استعادَ المُهاجمُ توازنه، ونظرَ إلى فيليب في ذهولٍ. بادلهُ فيليب النظراتِ، وهو يحاول ألا يرتجفَ من الخوفِ، وأن يستعيد كلمةً أو كلمتين بالويلزيةِ. وقبلَ أن يقومَ فيليب والمهاجم بأيَّةِ حركةٍ وصلَ بقيةُ المهاجمين. اندفعَ أحدهم باتجاه فيليب، وقذفهُ بعيداً فوقع على ظهرِهِ، وربما هذا ما أنقذَ حياةَ فيليب كما تبينَ له بعدَ وهلةٍ. عندما تمالكَ فيليب نفسهُ كان الجميعُ قد نسي أمرهُ، وانشغلوا بذبحِ الشابِ المسكين على الأرضِ وبوحشيةٍ رهيبةٍ. نهضَ فيليب على قدميهِ، ولكنه كان قد تأخرَ كثيراً؛ فقد كانَ الويلزيون يُعملون مطارقهم وفؤوسهم في جثةِ الشابِ. رفعَ فيليب ناظريهِ إلى السماءِ وصرخَ بغضبٍ: «إن لم يكن بوسعي إنقاذ أحدٍ اليوم فلماذا أرسلتني إلى هنا؟»

وجاءَ جوابُ الرَّبِّ على سؤالِهِ في صرخةٍ سمعها من منزلٍ قريبٍ. كان منزلاً حجرياً وخشبياً بطابقٍ واحدٍ، ولكنه لم يكن باذخاً كبقيةِ البيوتِ في الشارعِ. وجدَ فيليب البابَ مفتوحاً فدخلهُ ركضاً. كان هناك غرفتان تفصلهما قنطرةٌ، والأرضية مفروشة بالقشِّ. وجدَ فيليب امرأةً مرتعبةً في الزاويةِ تحتضنُ طفلينِ، وثلاثةَ جنودٍ وسطِ المنزلِ يواجهون رجلاً ضئيلَ البنيةِ وأصلع، وشابةً في الثامنةِ عشرة ممدّدة على الأرضيةِ بثوبٍ ممزقٍ، وأحدُ الجنودِ راكعٌ فوقها يحاول فتحَ ساقيها. لا شك أنَّ الرجلَ الأصلعَ يحاول منعهم من اغتصابِ ابنتِهِ. عندما دخلَ فيليب اندفعَ الأبُ نحو أحدِ الجنودِ،

ولكن الجندي دفعهُ فتراجع الأبُ إلى الوراءِ مترنحاً ثمَّ أغمدَ الجندي سيفهُ في بطنِ الأبِ، وصرخت المرأةُ في الزاويةِ كالمجنونةِ.

صرخَ فيليب: «توقفوا!»

نظرَ الجميعُ إليهِ كأنَّهم ينظرون إلى رجلٍ مجنونٍ.

وبصوتهِ الآمرِ قال: «ستذهبون إلى الجحيم إن اقترفتم هذهِ الفعلة!»

ورفعَ الجندي الذي قتلَ الأبَ سيفهِ كي يضربَ فيليب.

«مهلاً»، قال الرجلُ على الأرضِ الذي أمسكَ بساقي الفتاةِ. «من أنتَ أيّها الراهب؟»

«أنا فيليب من غويند رئيسُ ديرِ كينغزبريدج، وباسمِ الرَّبِّ أطالبكم بتركِ هذهِ الفتاة وشأنها إن كانت لأرواحكم الفانية أيَّةُ قيمةٍ لديكم».

«رئيسُ ديرٍ! هذا ما اعتقدتهُ»، قال الرجلُ على الأرضِ وتابع: «يمكننا أسرُهُ والمطالبة بفديته».

شهرَ الجندي الأول سيفهُ وقال: «إلى الزاويةِ مع المرأةِ حيثُ يجبُ أن تكون».

«إيَّاكَ ووضع يدكَ على ثوبِ راهبٍ»، قال فيليب بصوتٍ حاول أن يخرجَ مخيفاً، ولكنه سمعَ رنَّةَ يأسٍ فيهِ.

«خُذهُ إلى القلعةِ يا جون»، قال الجندي على الأرضِ الذي لا يزال فوقَ الفتاةِ، وبدا كأنَّه قائدهم.

«فلتذهب إلى الجحيم»، قال جون. «أريد مضاجعتها أولاً»، ثمَّ أمسكَ فيليب من ذراعهِ، وقبلَ أن يتمكن فيليب من مقاومتهِ رماه الجندي إلى الزاويةِ بجانبِ الأمِّ فترنحَ ولكنه تمالك نفسهُ.

رفعَ رجلٌ يدعى جون مقدمةَ سترتهِ، ورمى بنفسهِ فوقَ الفتاةِ.

أدارت الأمُّ رأسها جانباً، وبدأت تنتحبُ.

قال فيليب: «لن أقبلَ بمشاهدةِ هذا»، ووقفَ ثمَّ أمسكَ المغتصبَ من شعرهِ، وأبعدهُ عن الفتاةِ فزمجرَ الجندي من الألمِ.

رفع جندي ثالثٌ هراوته. رأى فيليب الضربةَ قادمةً، ولكن متأخراً لأنَّها أصابتهُ على رأسهِ. لوهلةٍ شعرَ بألمٍ مُبرحٍ ثمَّ تسربل كلُّ شيءٍ من حولهِ بالسواد، وفقدَ الوعي قبلَ أن يقعَ أرضاً.

***

قِيد السجناءُ إلى القلعةِ، وأودعوا في أقفاصٍ خشبيةٍ متينةٍ أشبه ببيوتٍ صغيرةٍ بطولِ ستةِ أقدامٍ، وعرضِ ثلاثةِ أقدامٍ، وبارتفاعٍ لا يزيد عن قامةِ رجلٍ إلَّا قليلاً، ولم تكن الجدران مصمتةً بل عبارةً عن مجموعةٍ من القضبانِ العموديةِ والقريبةِ بعضها من بعض تسمحُ للسجَّانِ بمراقبةِ السجناءِ في الداخلِ. عادةً، تُستخدمُ هذهِ الأقفاصُ لسجنِ اللصوص، والمجرمين، والمهرطقين، ولا يوضع في أيِّ قفصٍ أكثر من شخصين، ولكن المتمردين اليوم وضعوا ثمانية، وأحياناً عشرةَ أشخاصٍ، في كلِّ قفصٍ، ولكن كان لا يزال هناك فائضٌ من السجناءِ لذلك قاموا بتقييدهم بالحبالِ، وحشروهم في زاويةِ المكانِ. كان بوسعِ أولئكَ الهرب بكلِّ سهولةٍ، ولكنهم لم يفعلوا فقد كانوا بأمانٍ أكبر هنا مقارنةً بالخارجِ.

جلسَ فيليب في إحدى زوايا القفصِ يعاني من صداعٍ رهيبٍ، ويشعرُ أنَّه لم يتصرَّف بُحمقٍ فحسب بل وفشل في مسعاه. في نهايةِ المطافِ أدركَ أنَّه عاجزٌ وجبانٌ، وليسَ أفضل من الأسقفِ آلكسندر نفسهِ فهو لم ينقذ روحاً واحدةً اليومَ، بل عجزَ عن صدِّ ضربةٍ، ولم يجعل سكانَ لينكولن بحالٍ أفضلٍ. وعلى عكسِ رئيسِ الديرِ بيتر، عجزَ فيليب عن مواجهةِ العنفِ، وفكرَ في نفسهِ أنَّه لم يكن مثلَ الأبِ بيتر قط.

ولكن أسوأ ما في الأمرِ أنَّه خلالَ محاولتهِ مساعدةَ سكانِ المدينةِ ضيَّعَ على نفسهِ فرصةَ الفوزِ بامتيازاتٍ من الإمبراطورةِ مود عندما تصبحُ ملكةً فهو الآن سجينها، وهذا يعني أنَّه محسوبٌ على قواتِ الملكِ ستيفن، وسيتعين على ديرِ كينغزبريدج دفعُ فديةٍ لتحريرهِ، ومن المستبعدِ أن تعلمَ مود بما حدثَ حقاً، وعندها ستنحازُ ضدَّ فيليب. شعرَ بالغثيانِ، والخيبةِ، والندمِ الشديدِ.

على مدارِ اليوم لم يتوقف مدُّ السجناءِ، ورغمَ أنَّ دفقَ السجناءِ بدأ يتراجع مع هبوطِ الظلامِ، فإنَّ نهبَ المدينةِ استمرَّ خارجَ أسوارِ القلعةِ، ووصلت فيليب أصوات الصراخِ، والصياحِ، والتدميرِ خارجَ السورِ. مع اقترابِ منتصفِ الليلِ تراجع الضجيجُ، وهذا يعني أنَّ الجنودَ ثملوا من النبيذ المسروقِ، واكتفوا من أعمالِ العنفِ، والاغتصابِ لليوم فتوقفوا عن إحداثِ المزيدِ من الدمارِ. وصلَ بعضهم إلى القلعةِ يترنحون من الثمالةِ، ويتفاخرون

بانتصاراتهم، ويتجادلون فيما بينهم، ويتقيأون على العشبِ، ثمَّ يقعون أرضاً فاقدين الوعي أو نائمين.

فيليب أيضاً نامَ رغمَ عدمِ وجودِ مساحةٍ كافيةٍ ليستلقي. تكوَّمَ في الزاويةِ، وظهرهُ للقضبانِ الخشبيةِ لقفصهِ. استيقظَ عندَ الفجرِ يرتجفُ من البردِ، ولكن حدةَ ألمِ رأسهِ خفَّت، وتحولَ الألم إلى وجعٍ خفيفٍ. وقفَ في مكانهِ ليحرّك ساقيهِ، وحرَّك ذراعيهِ على كلا جانبيهِ ليُدفئ نفسهُ. كانت مباني القلعةِ مكتظةً بالناسِ، ومن أبوابِ الإسطبلات المفتوحةِ رأى فيليب رجالاً نائمين في مرابطِ الجياد، والجياد رُبطت في الخارجِ، ولمحَ أرجلاً خارجَ بابِ المخبزِ وسردابِ المطبخِ، أمَّا الثلةُ القليلةُ من الجنودِ غيرِ السكارى فقد نصبوا خياماً، وسرحت الجيادُ في أرجاءِ المكانِ. في الطرفِ الجنوبي الشرقي لمجمعِ القلعةِ بناءُ القلعةِ نفسها، كانت قلعةً داخلَ قلعةٍ، ومبنيةً فوقَ مرتفعٍ عالٍ، وجدرانها الحجرية الضخمة تطوقُ ستةَ أو سبعةَ أبنيةٍ خشبيةٍ. لا بدَّ أنَّ إيرلات وفرسان الطرفِ الرابحِ نائمون هناك بعدَ أن انتهوا من الاحتفالِ بانتصارهم.

عادَ فيليب بتفكيرهِ إلى تداعياتِ معركةِ البارحةِ. هل وضعت معركةُ البارحة نهايةً للحربِ الأهليةِ؟ ربما. كان لستيفن زوجة تدعى الملكة ماتيلدا، وقد تتابع ماتيلدا القتال بالنيابةِ عن زوجها. كانت ماتيلدا كونتيسة بولن، وبمساعدةِ فرسانها الفرنسيين سيطرت على قلعةِ دوفر عند بدايةِ الحربِ، وهي الآن تسيطرُ على كِنت بالنيابةِ عن زوجها، ولكنها قد تجدُ صعوبةً في حشدِ دعمِ الباروناتِ وستيفن أسيرُ مود. قد تتمكنُ من الاحتفاظِ بكِنت لبعضِ الوقتِ، ولكن من المستبعدِ أن تحققَ أيَّةَ مكاسب.

أمَّا مود فلم تنته مشاكلها بعد. يتعين عليها أن تُمتّنَ نصرها العسكري، وتكسبَ قبولَ الكنيسةِ بها، وأن تتوجَ في ويستمنستر، ولكن بشيءٍ من التصميمِ، وبعضِ الحكمةِ قد تنجح في الجلوسِ على العرشِ.

كانت هذهِ أخبارٌ جيدةٌ لكينغزبريدج، ولكن على فيليب أن يخرجَ من هنا أولاً وقبلَ أن يوصمَ كداعمٍ لستيفن.

رغمَ أنَّ الشمس لم تبزغ بعد، غيرَ أنَّ الهواء غدا أكثرَ دفئاً مع ضوءِ الفجرِ الضعيفِ. بدأ رفاقُ فيليب في الأسرِ يستيقظون تباعاً وهم يتأوهون من الآلام

والأوجاعِ. جمعيهم كانوا مصابين بطريقةٍ أو بأخرى، وآلمتهم إصاباتهم أكثر بعدَ قضاءِ ليلةٍ في البردِ، ومن دونِ شيءٍ فوقَ رؤوسهم سوى سقفِ القضبانِ الخشبيةِ للقفصِ. كان بعضهم من أثرياءِ المدينةِ، وآخرون فرساناً أُسروا في المعركةِ. عندما استيقظَ معظمُ السجناءِ سألَ فيليب: «هل من أحدٍ يعرفُ ما الذي حدثَ لريتشارد من كينغزبريدج؟» أملَ فيليب، ومن أجلِ خاطرِ آليانا، أن يكون ريتشارد قد نجا.

قال رجلٌ بضمادةٍ مُدماةٍ حولَ رأسهِ: «قاتلَ كأسدٍ، وحشدَ سكانَ المدينةِ، وهجمَ عندما بدأت الأمور تسوء».

«هل نجا أم لم ينجُ؟»

هزَّ الرجلُ رأسهُ المُضمَّد على مهلٍ وقال: «لم أره في نهايةِ المعركةِ».

«ماذا عن وليم هاملي؟» سألَ فيليب، وفكرَ في نفسهِ أنَّ عدمَ نجاةِ وليم ستجلبُ له راحةً مباركةً.

«كان إلى جانبِ الملكِ معظمَ الوقتِ، ولكنه هربَ في النهايةِ. رأيتهُ يهربُ على جوادٍ عبرَ الحقولِ وفي إثرهِ جماعته».

«آه»، قال فيليب في خيبةِ أملٍ، وشعرَ أنَّ مشاكلهُ تتعقد، ولن تُحل بسهولةٍ.

توقفَ الحديثُ، وخيَّمَ الصمتُ على القفصِ. في الخارجِ بدأ الجنودُ يتحركون ويتأوهون من آثارِ ما بعدِ الثمالةِ، ويحصون غنائمهم، ويتفقدون أسراهم في الأقفاصِ، ويجلبون الإفطارَ من المطبخِ. تساءل فيليب إن كانَ السجناء سيحصلون على طعامٍ، ثمَّ أدركَ أنَّهم إن لم يحصلوا على طعام سيموتون، ولن يحصلَ سجَّانوهم على الفدياتِ، ولكن من سيتولى مسؤوليةً إطعامِ كلِّ أولئك الناس؟ وهنا أذهلتهُ فكرة أنَّه قد يقضي مدةً طويلةً هنا. سيتعين على آسريه إرسال رسالةٍ إلى كينغزبريدج للمطالبةِ بفديةٍ، وسيرسلُ الأخوةُ أحدهم للتفاوضِ معهم لإطلاقِ سراحهِ. من سيكون؟ سيكون أفضلَ شخصٍ لهذهِ المهمةِ ميليوس، ولكن ريميجوس –نائبَ رئيسِ الديرِ وهو المسؤول عن سيرِ الأمورِ في غيابِ فيليب– قد يُرسلُ أحدَ أعوانهِ، أو قد يأتي بنفسهِ. سيقوم ريميجوس بكلِّ شيءٍ على مهلهِ فهو لا يقوم أبداً بعملٍ سريعٍ وحاسمٍ، حتَّى وإن كان يصبُّ في مصلحتهِ. وهذا يعني أنَّ الأمرَ قد يأخذُ أشهراً، وغدا فيليب أكثرَ تجهماً عندما فكرَ باحتمالِ حدوث هذا.

كان السجناءُ الآخرون محظوظين أكثر منهُ فبعدَ شروقِ الشمسِ تدفقت زوجاتٌ، وأطفالٌ، وأقاربُ المأسورين إلى القلعةِ، في خوفٍ وترددٍ بدايةً ثمَّ بمزيدٍ من الثقةِ، للتفاوضِ على فديةِ أحبائهم. سيتفاوضون مع الآسرين لبعضِ الوقتِ، ويعترضون بحجةِ أنَّهم لا يملكون المالَ. سيعرضون مجوهراتٍ رخيصةً، أو أغراضاً أخرى قيّمةً، ثمَّ سيصلون إلى اتفاقٍ ويغادرون ليعودوا بعدَ قليلٍ مع الفديةِ المتفقِ عليها، وغالباً ما تكون مبالغ نقدية؛ فتكبرُ كومةُ الغنائمِ، وتفرغُ الأقفاصُ.

بحلولِ منتصفِ النهارِ كان نصفُ الأسرى قد غادرَ، وتكهنَ فيليب أنهم كانوا من سكانِ المدينةِ، أمَّا من بقي فكانوا من مدنٍ بعيدةٍ، ومعظمهم فرسان أُسروا خلالَ المعركةِ، وتيقنَ فيليب من هذا عندما أتى مأمورُ القلعةِ إلى الأقفاصِ، وسألَ عن أسماءِ من بقي. كان معظمُ من بقي فرساناً من الجنوب، ولاحظَ فيليب سجيناً في قفصٍ وحدهُ مقيداً بإحكامٍ كأنَّ من قيَّدهُ أرادَ الحرصَ على عدمِ هروبهِ. حدَّقَ فيليب إلى هذا السجينِ المميزِ بعضَ الوقتِ، ثمَّ أدركَ أنَّه يعرفهُ.

«انظروا!» قال فيليب للرجالِ الثلاثةِ الذين شاركوه القفصَ. «هذا الرجلُ وحده في القفصِ، هل هو من أعتقدُ؟»

نظرَ الرجالُ الثلاثةُ إلى حيثُ أشارَ فيليب، وقال أحدهم: «بحقِ المسيحِ، إنَّه الملكُ»، ووافقهُ الرجلان الآخران.

حدَّقَ فيليب إلى الرجلِ ذي الشعرِ الأصهبِ المُلطّخ بالوحلِ والمقيدِ من يديهِ وقدميهِ بأصفادٍ خشبيةٍ غير مريحةٍ. بدا كأيِّ سجينٍ آخر. البارحة كان ملكَ إنكلترا، ورفضَ منحَ كينغزبريدج رخصةَ إقامةِ سوقٍ، وها هو اليوم عاجزٌ عن المغادرةِ بدونِ إذنِ أحدهم. ورغمَ أنَّ الملكَ نالَ ما استحقهُ، فإنَّ فيليب شعرَ بالأسفِ عليهِ.

مع بدايةِ فترةِ ما بعد الظهرِ قُدّمَ الطعامُ إلى المساجين، ورغمَ أنَّه كان بقيّةَ الغداءِ الذي قُدمَ إلى المقاتلين، غيرَ أنَّ المساجين انقضوا عليهِ بنهمٍ. عندما وصلَ الطعام بقي فيليب في مكانِهِ، وسمحَ للآخرين بتناولِ معظمهِ فقد كانَ يعتبرُ الجوعَ ضعفاً جسدياً يجبُ مقاومتهُ بينَ الفترةِ والأخرى، وعدَّ أيَّ فترة صيام إجبارية فرصةً لكبحِ شهواتِ الجسدِ.

بينما انهال المساجين على قصْعةِ الطعامِ غدا المكانُ على حينِ غرَّةٍ مُكتظاً، ورأى فيليب مجموعةً من الإيرلاتِ تخرجُ من القلعةِ، ولاحظَ فيليب وهم يهبطون درجَ القلعةِ ويسيرون عبرَ المجمعِ أنَّ اثنين منهم تقدَّما المجموعة قليلاً، وتلقيا معاملةً لبقةً، وفكرَ أنَّهما لا بد أن يكونا رانولف تشستر وروبرت غلوستر، ولكن فيليب لم يعرف من رانولف ومن روبرت.

اقتربَ الرجلان من قفصِ ستيفن.

«طابَ يومكَ يا نسيبي روبرت»، قال ستيفن مشدداً على كلمةِ «نسيب».

أجابَ أطولُ الرجلين قامةً: «لم أكن أريدكَ أن تقضي الليلةَ في الأصفادِ، وطلبتُ نقلكَ، ولكن يبدو أن أمري لم يُطع. على أيِّ حالٍ يبدو لي أنَّكَ نجوتَ».

وهنا ابتعدَ رجلٌ في ثيابِ كاهنٍ عن المجموعةِ، واقتربَ من قفصِ فيليب. في البدايةِ لم يُعرهُ فيليب أيَّ اهتمامٍ لأنَّ ستيفن كان يسأل عن مصيرهِ الآن، وأرادَ فيليب أن يسمعَ الجواب. وهنا سألَ الكاهن: «من منكم رئيسُ ديرِ كينغزبريدج؟»

«أنا»، أجابَ فيليب.

وتحدثَ الكاهنُ إلى أحدِ الجنودِ الذين أسروا فيليب وأحضروه إلى هنا: «حررهُ».

ذُهلَ فيليب مما سمعهُ فهو لم يرَ هذا الكاهن في حياتهِ أبداً. لا بدَّ أنَّهم عرفوا بوجودهِ من الجردِ الذي قامَ بهِ المأمور هذا الصباح ولكن لماذا حرروه؟ سيكون مسروراً بالخروجِ من القفصِ، ولكنه لم يكن مستعداً بعد للاستسلامِ لهذهِ السعادة فهو لا يعلمُ ما الذي ينتظرهُ.

احتجَّ الجندي قائلاً: «ولكن هذا سجيني!».

«لم يعد كذلك»، قال الكاهن ثمَّ أضاف: «حررهُ».

«ولمَ قد أحررهُ من دونِ فديةٍ؟» سألَ الجندي بعدائيةٍ.

وهنا أجابهُ الكاهنُ بذاتِ العدائيةِ: «أولاً، لأنَّه ليسَ مقاتلاً في جيشِ الملكِ، ولا مواطناً من هذهِ المدينةِ، ولذلك بأسركِ إياه تكون قد اقترفتَ جريمةً. ثانياً، لأنَّه راهبٌ، وأنتَ مذنبٌ بتدنيسِ المقدساتِ لأسركَ رجلاً

يخدمُ الرَّبَّ. وثالثاً، لأنَّ سكرتير الملكةَ مود يأمركَ بإطلاقِ سراحهِ، وإن رفضتَ القيامَ بهذا سينتهي بكَ الأمرُ في القفصِ بدلاً منه وبلمحِ البصرِ، ولذلكِ أسرع وأخرجه».

«حسناً»، قال الجندي متذمراً.

شعرَ فيليب بخيبةِ الأملِ. أملَ ألَّا تعلمَ مود أبداً بأمرِ أسرهِ هنا، وإن طلبَ سكرتير مود مقابلته الآن فسيذهبُ أملهُ هذا أدراجَ الرياحِ. خرجَ فيليب من القفصِ محبطاً، وهو يشعرُ أنَّه وصلَ إلى القاعِ.

«رافقني»، قال الكاهنُ.

لحقَ فيليب بالكاهن وهو يسأله: «هل سيُطلقُ سراحي؟»

«أعتقدُ هذا»، أجابَ الكاهنُ وقد بدا متفاجئاً بسؤالِ فيليب. «ألا تعلمُ من ستُقابلُ الآن؟»

«ليسَ لدي أدنى فكرة».

ابتسمَ الكاهنُ وقال: «سأدعهُ يُفاجئكَ إذاً».

عبرا المُجمع، وصعدا درجَ القلعةِ الذي يُفضي إلى البوابةِ. خلالَ هذا الوقتِ أعملَ فيليب ذهنهُ جيداً، ولكنه عجزَ عن معرفةِ السببِ الذي قد يجعلُ سكرتيرَ مود مُهتماً بأمرهِ.

لحقَ فيليب بالكاهنِ عبرَ البوابةِ. داخلَ ساحةِ القلعةِ الحجريةِ ذات الشكلِ الدائري هناك منازل من طابقين على طولِ القسمِ الداخلي من جدارِ الساحةِ، وفي الوسطِ فناءٌ صغيرٌ مع بئرٍ. قادَ الكاهن فيليب إلى أحدِ هذهِ المنازلِ.

داخل المنزلِ وقفَ كاهنٌ آخر أمامَ نار الموقدِ وظهرهُ إلى البابِ. كان له البنية ذاتها التي لفيليب، وكان قصيراً ونحيلاً، وله الشعرُ الأسود ذاتهُ، ولكن رأسه لم يكن محلوقاً، وشعره لم يكن رمادياً. كان الظهرُ مألوفاً. وهنا عجزَ فيليب عن تصديقِ حظهِ، وارتسمت ابتسامة عريضةٌ على وجههِ.

استدارَ الكاهنُ، وكانت عيناه زرقاوين كعيني فيليب، ويبتسمُ الابتسامةَ ذاتها أيضاً.

فتحَ الكاهنُ ذراعيهَ وقال: «فيليب».

«أوه، المجدُ للرَّبِّ!» قال فيليب مذهولاً وأضاف: «فرانسيس!»

تعانقَ الشقيقان، واغرورقت عينا فيليب بالدموعِ.

- 3 -

بدت قاعةُ الاستقبالِ الملكية في قلعةِ وينشستر مختلفةً جداً الآن فقد اختفت الكلابُ، والعرشُ الخشبي البسيط، والمقاعدُ، وجلودُ الحيواناتِ المعلقةُ على الجدرانِ، وبدلاً منها عُلقت أقمشةٌ مطرزةٌ، وفُرشت الأرضيةُ بسجاجيد ملونَّةٍ، وكانت هناكَ أيضاً أوعيةٌ من المُربياتِ، وكراسٍ مطلية، وفاحت من المكانِ رائحةُ الزهورِ.

لم يشعر فيليب يوماً بالراحةِ في البلاطِ الملكي، ووجودهُ الآن في بلاطٍ ملَكي أنثوي كان كافياً لجعلهِ يرتجفُ من شدةِ التوترِ. كانت الإمبراطورةُ مود أملهُ الوحيد في استعادةِ المقلعِ، وإعادةِ فتحِ السوقِ، ولكنه لم يكن واثقاً من أنَّ هذه المرأة المتغطرسة والعنيدة ستأخذُ قراراً عادلاً في المسألةِ.

جلست الإمبراطورةُ على عرشٍ ذهبي بنقوشٍ دقيقةٍ. كانت في ثوبٍ أزرق اللون كزهرةِ الجريسِ. بدت طويلةً ونحيلةً، وفي عينيها الداكنتين نظرةٌ متكَبرةٌ ومباشرةٌ، وشعرها أسود ولامعٌ. فوقَ فستانها ارتدت سترةً حريريةً حتَّى الركبةِ بخصرٍ مزمومٍ وتنورةٍ واسعةٍ. لم تكن هذه الصيحة معروفةً في إنكلترا إلى أن أدخلتها مود، وباتت رائجةً الآن. ورغمَ أنَّها بقيت متزوجةً من زوجها الأول لأحدَ عشر عاماً، ومن زوجها الثاني لأربعةَ عشرَ عاماً، فإنَّها لم تبدُ كأنَّها في عقدها الرابعِ. رغمَ أنَّ الناس أفرطوا في مدحِ جمالها، غير أنَّ فيليب رآها جلفةً وعدائيةً. لم يتمتع يوماً بحكمٍ جيدٍ على جاذبيةِ النساءِ ولذلك كان، بطريقةٍ أو بأخرى، حصيناً حيالَ الأمرِ.

انحنى فيليب، وفرانسيس، ووليم هاملي، والأسقف ويلارن لها، وبقوا في أماكنهم منتظرين. تجاهلتهم لبعضِ الوقتِ، وتابعت حديثها إلى إحدى وصيفاتها. بدت المحادثةُ تافهةً فقد كانتا تضحكان بظرافةٍ، ولم تتوقف مود لتحيةِ زوارها.

رغم أنَّ فرانسيس يعملُ معها، ويراها كل يومٍ تقريباً، فإن علاقتهما لم تكن جيدةً. كان شقيقها روبرت -سيدُ فرانسيس السابق- قد أرسله برفقتها

عندما وصلت إلى إنكلترا بحجةِ أنها بحاجةٍ إلى سكرتيرٍ ممتازٍ. على أيِّ حالٍ لم يكن هذا دافع روبرت الوحيد للتخلي عن فرانسيس. أرادَ روبرت من فرانسيس أن يكون صلةَ وصلٍ بينه وبينَ مود، ويمنعها من القيامِ بأمورٍ طائشةٍ. يشيعُ في حياةِ البلاطِ الملكي أن يخون الأخوةُ بعضهم بعضاً، ولذلكَ كان دورُ فرانسيس الحقيقي هو تصعيب الأمورِ على مودِ كيلا تقومَ بأيَّةِ حركاتٍ غادرةٍ. علمت مود بهذا، وقبلت بِهِ، ولكن علاقتها بفرانسيس بقيت مضطربةٍ.

كان قد مضى شهران على معركةِ لينكولن، وخلالَ هذهِ الفترةِ سارت جميعُ الأمورِ في مصلحة مود؛ فالأسقفُ هنري رحَّبَ بها في وينشستر -وبذلك خانَ شقيقهُ الملك ستيفن- وحشدَ مجلساً كبيراً من الأساقفةِ، ورؤساءِ الأديرةِ لانتخابها ملكةً، وهي الآن تتفاوض مع مُجمعِ لندن لترتيب أمر تتويجها في ويستمنستر، وملكُ اسكتلندا ديفيد، وهو بالمناسبةِ عمها، سيزورها قريباً زيارةً ملكيةً رسميةً.

دعمَ الأسقفُ ويلارن الأسقفَ هنري بقوةٍ، ووفقاً لفرانسيس، أقنعَ ويلارن وليم هاملي بتغيير موقفهِ، فأعلنَ الأخير عن ولائهِ لمود، وها هو قد أتى اليوم لتحصيل جائزتهِ.

وقفَ الرجالُ الأربعة: وليم مع داعمهِ الأسقف ويلارن، ورئيسُ الدير فيليب مع راعيهِ فرانسيس. كانت هذهِ المرة الأولى التي يرى فيها فيليب مود، ولم يرتح لمظهرها، وعلى الرغمِ من الهالةِ الملكيةِ التي تحيطُ بها فإنَّها بدت متهورةً.

انتهت مود من حديثها مع الوصيفةِ، واستدارت نحوهم وقد ارتسمت على وجهها نظرةٌ ظافرةٌ كأنَّها بها أرادت القولَ لهم إنَّهم غير مهمين، وإنَّ وصيفتها أولى باهتمامها. حدَّقت مود نحو فيليب بشكلٍ مباشرٍ لبعضِ الوقتِ بدأ معها فيليب يشعرُ بالحرجِ ثمَّ قالت: «حسناً يا فرانسيس هل أحضرت أخاكَ التوأم؟»

أجابها فرانسيس: «شقيقي فيليب، ورئيسُ ديرِ كينغزبريدج يا مولاتي».

انحنى فيليب لها مجدداً وقال: «أنا عجوزٌ أشيب على أن أكون توأماً يا مولاتي». كانت ملاحظةُ فيليب من النوعِ المبتذلِ والمتواضعِ، وعادةً ما

يجدها أفرادُ البلاطِ مسليةً غير أنَّ مود رمقتهُ بنظرةٍ قاسيةٍ وتجاهلتها، وقررَ فيليب أن يتخلى عن التصرفَ بهذهِ الطريقةِ.

استدارت مود نحو وليم وقالت: «والسير وليم هاملي الذي قاتلَ بشجاعةٍ ضدي في معركةِ لينكولن، ولكنه أدركَ الآن خطأ خيارهِ».

انحنى وليم لها، وارتأى بحكمةٍ إبقاءَ فمهِ مُغلقاً.

استدارت مود إلى فيليب وقالت: «أنتَ تطلبُ مني أن أمنحكَ رخصةَ إقامةِ سوقٍ».

«أجل يا مولاتي».

قال فرانسيس: «ستذهبُ عوائدُ السوقِ إلى بناءِ الكاتدرائيةِ يا مولاتي».

«في أيِّ يومٍ من أيامِ الأسبوعِ ترغبُ بإقامةِ سوقكَ؟» سألت مود.

«الآحاد».

رفعت مود حاجبيها المشذبين في عجبٍ وقالت: «عموماً، يعارضُ رجالُ الدينِ إقامة السوقِ يومَ الأحدِ، ألا يُلهي السوقُ الناسَ عن الكنيسةِ؟»

«ليسَ في حالتنا»، قال فيليب ثمَّ أضافَ: «يأتي الناس للعملِ على بناءِ الكاتدرائيةِ، وحضورِ صلاةِ الأحدِ، ويقومون أيضاً بأعمالِ الشراءِ والبيعِ».

«إذاً، أنتَ تقيمُ السوقَ حالياً؟» سألت بنبرةٍ حادَّةٍ.

أدركَ فيليب أنَّه اقترفَ خطأً، وشعرَ برغبةٍ في ركلِ نفسهِ على هذهِ الفعلةِ.

وهنا انبرى فرانسيس إلى إنقاذهِ قائلاً: «لا يا مولاتي، إنَّهم لا يقيمون السوقَ حالياً. في البدايةِ افتتحوه بشكلٍ غير رسمي، ولكن رئيسَ الديرِ فيليب أمرَ بإيقافهِ إلى أن يحصلَ على رخصةٍ».

كان ما قالهُ فرانسيس الحقيقة، ورغمَ أنَّها لم تكن كاملةً فإنَّ مود قبلت بها. أخذَ فيليب يُصلي في سرّه، ويطلب الغفران لفرانسيس على عدمِ قولهِ الحقيقةَ كاملةً.

قالت مود: «ألا يوجد سوقٌ آخر في المنطقةِ؟»

وهنا تحدَّثَ وليم قائلاً: «أجل. يوجدُ سوقٌ آخر في شايرنغ، وسوقُ كينغزبريدج يعرقلهُ».

قال فيليب: «ولكن شايرنغ تبعدُ عن كينغزبريدج عشرين ميلاً!»

قال فرانسيس: «مولاتي، وفقَ القانون يجبُ أن تكونَ المسافةُ بين أيِّ سوقين أربعةَ عشرَ ميلاً على الأقلِ، ولذلك لا يمكن أن يكون هناك منافسةٌ بينَ سوقِ شايرنغ وسوقِ كينغزبريدج».

أومأت مود برأسها، وبدت كأنَّها قبلت بحكم فرانسيس القانوني في هذهِ المسألةِ. فكرَ فيليب في نفسهِ أنَّ الأمور إلى الآنَ تسيرُ في مصلحتهِ، ويبدو أنَّه سيحصلُ على مرادهِ.

قالت مود: «أنتَ أيضاً تطلبُ الحقَّ بأخذِ الحجارةِ من مقلعِ إيرل شايرنغ».

«إننا نملكُ هذا الحقَّ منذُ سنواتٍ عديدةٍ ولكن وليم مؤخراً طردَ عمالنا وقتلَ خمسة...»

«من أعطاكَ الحقَّ بأخذِ الحجارةِ؟» قاطعتهُ مود.

«الملك ستيفن...»

«الغاصب».

وهنا سارعَ فرانسيس إلى القولِ: «مولاتي، يعتبرُ رئيسُ الدير فيليب كلَّ المراسيم التي أصدرها المدعي ستيفن غير نافذة إلى أن تقرري عكسَ هذا».

لم يكن فيليب متفقاً مع ما قاله فرانسيس، ولكنه رأى في الاعتراضِ عليهِ عملاً غير حكيم.

وهنا سارعَ وليم إلى القولِ: «أغلقتُ المقلعَ انتقاماً على إقامتهِ سوقهِ غير الشرعي!»

فكرَ فيليب في نفسهِ أنَّه لمن المذهل أن تكون حججُ قضيةٍ ما فيها ظلمٌ صريحٌ في كفتين متساويتين أمامَ بلاطٍ ملكي.

قالت مود: «الخصامُ برمتهِ سببه غباء حكمِ ستيفن منذُ البدايةِ».

وهنا تحدَّثَ الأسقفُ ويلارن للمرةِ الأولى قائلاً بتملقٍ: «وأنا أتفقُ معكِ بقوةٍ يا مولاتي».

«إنَّ منحَ المقلعِ إلى شخصٍ، والسماح لآخر باستخدامهِ من شأنهِ خلقُ متاعبٍ»، قالت مود. «يجب أن يكون المقلعُ مُلكاً لشخصٍ واحدٍ فقط».

فكرَ فيليب أنَّ كلامها صحيحٌ، وأنَّها إن التزمت بروحِ حكمِ ستيفن الأصلي سيكون المقلعُ مُلكاً لديرِ كينغزبريدج.

تابعت مود كلامها: «وقراري هو أنَّ المقلع مُلكٌ لحليفي النبيل السير وليم».

غاصَ قلبُ فيليب في صدرهِ. من دونِ الحجارةِ المجانيةِ من ذلكَ المقلعِ لن يستمر ببناء الكاتدرائيةِ، وسيتعين عليهم إبطاءُ عمليةِ البناءِ إلى أن يؤمنَ فيليب المالَ لشراءِ الحجارةِ، والسببُ في هذا كلّهِ هذهِ المرأة المزاجية! شعرَ فيليب بنفسهِ يغلي غضباً.

قالت مود: «على أيِّ حالٍ يجبُ أن تحصلَ بلدةُ كينغزبريدج على حقِّ إقامةِ سوقٍ تماماً كسوقِ شايرنغ».

ارتفعت معنوياتُ فيليب مرَّة أخرى. لن تكون عوائد السوقِ كافيةً لشراءِ الحجارةِ، ولكنها ستكون ذات عونٍ كبيرٍ في بناءِ الكاتدرائيةِ، ورغمَ أنَّه سيضطرُ إلى البحثِ عن طرقٍ لجمعِ المالِ مجدداً تماماً كما حدثَ عندما بدأ ببناءِ الكاتدرائيةِ، فإنَّه سيتمكن من متابعة البناءِ.

قدمت مود لكلِّ طرفٍ شيئاً مما طلبهُ، وهذا يعني أنَّها قد لا تكون حمقاء كما اعتقدَ في البدايةِ.

قال فرانسيس: «هل ستكون حقوقُ سوقِ كينغزبريدج كحقوقِ سوقِ شايرنغ يا مولاتي؟»

«هذا ما قلتهُ».

لم يفهم فيليب سببَ تكرار فرانسيس لما قالتهُ مود؛ فمن الشائعِ أن تشير الرخصُ إلى الحقوقِ التي تتمتعُ بها كلُّ بلدةٍ، وتُحفظُ بشكلٍ مكتوبٍ. سيتعين على فيليب التحققُ من مرسومِ سوقِ شايرنغ وما جاءَ فيهِ فقد يجدُ فيهِ عوائق، أو ربما امتيازاتٍ إضافيةً.

قالت مود: «كلاكما حصلَ على شيءٍ ما. حصل وليم على المقلع، ورئيسُ الديرِ فيليب على السوقِ، وسيدفعُ كلٌّ منكما لقاءَ هذا مئةَ جنيهٍ. هذا كلُّ شيءٍ»، أنهت كلامها واستدارت.

بوغتَ فيليب عندما سمعَ بأمرِ المئةِ جنيه؛ فالديرُ، وفي هذهِ اللحظةِ، لا يملكُ مئةَ بنسٍ، فكيفَ له أن يجمعَ هذا المبلغ؟ يحتاجُ السوقُ إلى سنواتٍ لجمعِ مئةِ جنيهٍ. كانت ضربةً قاضيةً لبرنامجِ البناءِ. وقفَ فيليب يحدقُ إلى مود، ولكن يبدو أنَّها كانت غارقةً في الحديثِ مع وصيفتها مجدداً. وكزهُ فرانسيس، وفتحَ فيليب فمهُ ليتكلم، ولكن فرانسيس وضعَ إصبعاً على شفتيهِ وقالَ فيليب: «ولكن...» فهزَّ فرانسيس رأسهُ بقوةٍ.

علمَ فيليب أنَّ فرانسيس على حقٍ فأرخى كتفيهِ مهزوماً، وفي يأسٍ وعجزٍ استدارَ، وغادرَ البلاط الملكي.

***

انبهرَ فرانسيس عندما أخذهُ فيليب في جولةٍ في ديرِ كينغزبريدج. «أتيتُ إلى هنا منذُ عشرِ سنواتٍ، ولكن المكان كان أشبهَ بخرابةٍ»، قال فرانسيس بفظاظةٍ ثم أضاف: «ولكنكَ أعدتَ الحياةَ إليهِ».

كان أكثرَ ما أبهرَ فرانسيس غرفةُ التدوين التي انتهى توم من العملِ عليها عندما كان فيليب في لينكولن. كانت غرفةً صغيرةً إلى جانبِ قاعةِ الاجتماعات بنوافذ كبيرةٍ، وموقدٍ مع مدخنةٍ، وصفٍ من المكاتب للكتابةِ، وخزانةٍ كبيرةٍ من خشبِ البلوطِ للكتبِ، وهناك أربعةُ رهبانٍ في الغرفةِ يقفون إلى المكاتبِ العاليةِ، ويكتبون على رقٍ بأقلام من الريشِ. كانوا ينسخون عن الكتبِ. أحدهم يعملُ على نسخِ مزمور داوود، وآخر على إنجيل متى، وآخر على كتابِ «حُكمِ القديس بنيديكت»، والأخُ تيموثي يعملُ على كتابةِ تاريخِ إنكلترا. بدأ تيموثي الكتابَ بقصةِ خلقِ العالمِ؛ ولذلكَ خشي فيليب أن يموت الراهب المُسنُ قبل أن ينهيَهُ. كانت غرفةُ التدوين صغيرةً فلم يرغب فيليب باستنزافِ مخزونِ الحجارةِ، ولكنها كانت دافئةً، وجافةً، وحسنةَ الإضاءةِ تماماً كما أرادها. «إنَّه لأمرٌ مُخزٍ ألَّا يملك الدير سوى القليل من الكتبِ بسببِ غلاءِ ثمنها، ولذلكَ ارتأيتُ أنَّ هذه هي الطريقةُ الوحيدة لزيادةِ مجموعةِ كُتبنا»، شرحَ فيليب لفرانسيس.

في السرداب أقيمت ورشةٌ يعلّم فيها أحدُ الرهبان العجائز راهبين صغيرين كيفيةَ شدِّ جلدِ الخروفِ لصُنعِ رقٍ، وكيفَ يصنعان حِبراً ويشدان كتاباً.

قال فرانسيس: «ستتمكنُ من بيعِ الكتبِ أيضاً».

«أوه، أجل. ستعود علينا غرفةُ التدوين بأضعافٍ مضاعفةٍ من كلفتها».

غادرا المبنى، وعبرا الممرّاتِ المسقوفةَ. كان الآن الوقتُ المخصص للدراسةِ، ولذلك انشغلَ معظمُ الرهبانِ في القراءةِ، والقليلُ منهم في التأمل، وأبدى فرانسيس تشكيكاً بقيمةِ التأملِ، وأشارَ إلى أنَّه أشبه بأخذِ غفوة. في الطرفِ الشمالي الغربي عشرون صبياً يرددون الأفعال باللاتينيةِ. توقفَ فيليب، وأشارَ إلى أحدهم ثمَّ قال: «أترى الفتى الصغير في نهايةِ المقعدِ؟»

قال فرانسيس: «من يكتبُ على لوحٍ، وطرفُ لسانهِ ناتئٌ؟»
«أجل، هذا هو الطفلُ الذي وجدتهُ في الغابةِ».
«ولكنهُ كبيرٌ جداً!»
«إنَّه في الخامسةِ والنصف، وهو واعدٌ».
هزَّ فرانسيس رأسهُ في عجبٍ وقال: «كم يمرُّ الوقتُ بسرعةٍ! كيفَ هو؟»
«أفسدهُ الرهبان بدلالهم، ولكنه سينجو كما نجونا أنا وأنتَ».
«ومن هم التلاميذ الباقون؟»
«رهبانٌ مبتدئون، وأبناءُ تجارٍ، وسادةٌ محليون يتعلمون الكتابةَ والحساب».
غادرا الممرّات المسقوفة، وتوجها إلى موقعِ البناءِ. كان العملُ في الطرفِ الشرقي من الكاتدرائيةِ الجديدةِ قد تجاوزَ نصفهُ، وبلغَ ارتفاعُ الصف الكبير والمزدوج للأعمدةِ الضخمةِ أربعين قدماً، وانتهى أيضاً العملُ على القناطرِ بينَها، وفوقَ المجاز المُقنطرِ بدأت معالمُ شرفةِ المنبرِ تتضحُ، وعلى كلا جانبي المجازِ بُنيت الجدران المنخفضةُ للممرِ مع كتائفها الناتئةِ. خلالَ تجوالهما في الموقعِ رأى فيليب أنَّ البنَّائين يبنون أنصافَ القناطرِ التي ستصلُ قمةَ هذهِ الكتائفِ بأعلى شرفةِ المنبرِ حتَّى تحمل الكتائفُ وزنَ السقفِ.
صُعقَ فرانسيس مما رآه، وقال لفيليب: «لقد فعلتَ كل هذا يا فيليب؛ غرفةُ التدوين، والمدرسةُ، والكنيسةُ الجديدةُ، وكلّ هذهِ البيوتِ الجديدةِ في البلدةِ. أنتَ صاحبُ الفضلِ في كلِّ شيءٍ».
تأثرَ فيليب بكلامِ فرانسيس فهو لم يسمع هذا الكلام من أحدٍ قبلاً، ولو أنَّه سُئلَ لأجابَ بأنَّ الرَّبَّ من باركَ جهودهُ، ولكن في قرارةِ نفسهِ علمَ أنَّ كلامَ فرانسيس صحيحٌ، وأنَّ هذهِ البلدة المزدهرة والمزدحمة من صُنعهِ. أضفى هذا الإقرار بمُنجزه على وجههِ بريقاً دافئاً، خاصةً أنَّ مصدره أخوه الصغير الراقي والساخر.
رآهما البنَّاء توم فتوجه نحوهما.
«لقد حققت تقدماً مبهراً»، قال فيليب له.
«أجل، ولكن انظر إلى هذا»، قال توم، وأشارَ إلى الطرفِ الشمالي الشرقي من ساحةِ الدير حيثُ أكوامُ حجارةِ المقلعِ. عادةً، هناك صفوفٌ من

مئاتِ الحجارةِ المكومةِ، ولكن الآن لم يكن هناك سوى خمسة وعشرين حجراً مُبعثرة على الأرضيةِ.

«لسوءِ الحظِ استنفد تقدمنا المُبهرُ مخزون الحجارةِ لدينا»، قال توم.

تبخرت سعادةُ فيليب عندما سمعَ هذا. إنَّ كلَّ ما حققهُ حتَّى الآن في خطرٍ بسببِ حُكمِ مود الظالمِ.

تجولوا على طولِ الطرفِ الشمالي لموقعِ البناءِ حيثُ يعمل البنَّاؤون جالسين على نحتِ الحجارةِ، وتشكيلها بمطارقهم وأزاميلهم. وقفَ فيليب خلفَ أحدِ الحرفيين وراقبَ عملهُ. كان الحرفي يعملُ على تاجٍ وهو الحجرُ ذو النقوشِ النافرةِ أعلى العمودِ. استخدمَ البنَّاءُ مطرقةً خفيفةً، وإزميلاً صغيراً لنحتِ الأوراقِ على التاجِ. كان العملُ دقيقاً جداً، وبدت معه الأوراق نافرةً جداً. تفاجأ فيليب عندما اكتشفَ أنَّ الحرفي هو الشاب جاك ابنُ زوجةِ توم.

«اعتقدتُ أنَّ جاك ما زالَ متدرباً»، قال فيليب.

«إنَّه كذلك»، أجابهُ توم، وعندما باتوا بعيدين عن مرمى سمعِ جاك، أضافَ توم: «الفتى مميزٌ بحقٍ. لدي عمالٌ ينحتون الحجارةَ قبلَ أن يولدَ جاك، ولكن ما من أحدٍ فيهم يضاهيهِ مهارةً»، وأفلتَ ضحكةً فيها شيءٌ من الحرجِ ثمَّ أضاف: «بل وهو ليسَ ابني حتَّى!»

كان ابن توم الحقيقي آلفريد رئيس بنائين، ولديه مجموعةٌ خاصةٌ من المتدربين والعمالِ، ولكن فيليب يعلمُ أنَّ آلفريد ومجموعتهُ لا يقومون بالأعمالِ الدقيقةِ، وتساءل فيليب في نفسهِ عن شعورِ توم حيال هذا.

عادَ توم إلى الحديثِ عن مشكلةِ دفعِ رخصةِ السوق قائلاً: «بالتأكيد سيعودُ السوقُ بالكثيرِ من الأموالِ».

«أجل، ولكن لن يكون العائدُ كافياً. ففي بدايتهِ لن يعود علينا بأكثر من خمسين جنيهاً سنوياً».

أومأ توم في تجهمٍ وقال: «يمكننا شراءُ الحجارةِ بهذا المبلغِ».

«يمكننا لو لم نكن مضطرين لدفعِ مئةِ جنيهٍ إلى مود».

«ماذا عن الصوفِ؟»

كانت حظائرُ فيليب مكدسةً بالصوفِ الذي سيبيعهُ في سوقِ شايرنغ بعدَ

بضعةِ أسابيعٍ، وسيعود عليهِ المخزون بمئةِ جنيهٍ. «كنتُ أخططُ لدفعهِ إلى مود مقابلَ الرخصةِ، ولكن إن فعلتَ هذا فلن يبقى لدي مالٌ لأجورِ الحرفيين في العامِ القادمِ».

«هل يمكنكَ الاقتراض؟»

«حاولت، ولكن اليهود رفضوا إقراضي. عندما كنتُ في وينشستر سألتهم، ورفضوا إقراضي المال بحجةِ أنني قد لا أتمكن من إيفائهِ».

«وماذا عن آليانا؟»

ذُهلَ فيليب فهو لم يفكر قط باقتراضِ المالِ منها. كانت تملكُ صوفاً أكثر منهُ، وقد تكسبُ من سوقِ الصوفِ مئتي جنيهٍ. «ولكنها ستحتاجُ إلى المالِ من أجلِ المعيشةِ. علاوةً على هذا لا يسمحُ للمسيحيين بتقاضي فائدةٍ، وهذا يعني أنَّها لن تربحَ شيئاً إن أقرضتني المالَ. رغمَ أنَّ...» وبينما كان يتحدث خطرت له فكرةٌ جديدةٌ. تذكرَ أنَّ آليانا عرضت عليهِ شراءَ كاملِ مخزونهِ السنوي من الصوفِ. قد يتمكن من الوصولِ إلى اتفاقٍ معها. «على أيِّ حالٍ أعتقدُ أنني سأتحدثُ إليها في هذا الشأنِ»، قال فيليب ثمَّ أضاف: «هل هي في منزلها الآن؟»

«أعتقدُ ذلك. رأيتها هذا الصباح».

«هيا يا فرانسيس. أنتَ على وشكِ مقابلةِ شابةٍ مُذهلةٍ»، قال فيليب. ترك الأخوان توم، وهرعا عبرَ ساحةِ الديرِ باتجاهِ البلدةِ. تمتلكُ آليانا منزلين متجاورين قبالة الجدارِ الغربي للديرِ، وعاشت في أحدهما، واستخدمت الآخر كمخزنٍ للصوفِ. كانت ثريةً جداً، ولذلك لا بدَّ من أنَّها تستطيعُ مساعدةَ الديرِ على دفعِ المبلغِ الكبير الذي طلبتهُ مود لرخصةِ السوقِ. وهنا بدأت فكرةٌ معينةٌ تتبلور في ذهنِ فيليب.

وجدا آليانا في الحظيرةِ تشرفُ على إفراغِ حمولةِ عربةٍ مُكدسةٍ بالصوفِ يجرها ثورٌ. كانت في سترةٍ من القماشِ المُقصبِ تصلُ حتَّى الركبتين كسترةِ الإمبراطورةِ مود، وشعرها مرفوعٌ إلى الأعلى تحتَ قلنسوةٍ كتانيةٍ بيضاء. بدت حازمةً كما هي عادةً، والرجلان اللذان يُفرغان حمولة العربةِ يُنفذان تعليماتها دونَ اعتراضٍ. احترمها الجميعُ رغمَ أنَّها، وبما يدعو للعجبِ، لم تملك أصدقاءَ مُقربين. حيَّت فيليب بحرارةٍ وقالت له: «عندما سمعتُ

بمعركةِ لينكولن خشيتُ أن تكونَ قد قُتلتَ فيها!» ورأى فيليب في عينيها اهتماماً حقيقياً فتأثرَ لأنَّ الناس كانوا قلقين عليهِ. وقدَّمها فيليب إلى فرانسيس.

«هل نلتَ العدالةَ في وينشستر؟»

«ليسَ تماماً»، أجابَ فيليب وتابعَ: «منحتنا الإمبراطورة مود حقَّ إقامةِ سوقٍ، وحرمتنا من استخدامِ المقلعِ. سيعوضُ أحدهما عن الآخرِ، ولكنها طلبت منا مبلغاً مقابلَ الرخصةِ ومقدارهُ مئة جنيه».

بدت آليانا مصدومةً مما سمعتهُ وقالت: «هذا رهيبٌ! هل أخبرتها أنَّ عوائدَ السوقِ ستذهبُ إلى بناءِ الكاتدرائيةِ؟»

«أجل لقد فعلت».

«ولكن من أينَ ستجلبُ المئةَ جنيه؟»

«اعتقدتُ أنَّه بوسعكِ المساعدة».

«أنا؟» قالت آليانا كأنَّها بوغتت.

«بعدَ بضعةِ أسابيع ستبيعين صوفكِ إلى التجار الفلمنكيين، وسيكون بحوزتكِ مئتا جنيه أو أكثر».

بدت آليانا مضطربةً وقالت له: «وسيسرني أن أعطيكَ إياه، ولكنني أحتاجُ المالَ من أجلِ شراءِ صوفِ العامِ المقبلِ».

«أتتذكرين أنكِ عرضتِ عليَّ شراءَ مخزوني من الصوفِ؟»

«أجل، ولكن الوقتَ قد تأخرَ الآن فقد أردتُ شراءهُ مع بدايةِ الموسمِ. علاوةً على هذا تستطيعُ بيعهُ بنفسكَ».

«كنتُ أفكرُ»، قال فيليب وتابع: «هل يمكنكِ شراءُ صوفِ العام القادم؟»

تجهمت آليانا وأجابته: «ولكنكَ لم تحصل عليهِ بعد».

«هل يمكنني بيعكِ إياه مُقدماً؟»

«لا أفهم كيفَ يمكنُ لهذا أن يحدث».

«الأمرُ بسيطٌ. ستعطيني المال، وأنا سأعطيكِ الصوف في العامِ القادمِ».

بدت آليانا حائرةً في كيفيةِ التعاملِ مع هذا العرضِ الذي لا سابقَ له في هذهِ التجارة، وحتَّى فيليب لم يسمع بهِ قط لأنه قد اخترعهُ لتوه.

تحدثت آليانا بهدوءٍ وبتركيز قائلةً: «سأضطرُ إلى عرضِ سعرٍ أقل بقليل

مما قد تحصلُ عليهِ إن بعتهُ العام القادم. على أيِّ حالٍ، قد ترتفعُ أسعارُ الصوفِ في أيِّ وقتٍ من الآن وحتّى الصيفِ القادمِ كما هو الحالُ منذُ أن بدأت العملَ في هذا المجالِ».

«إذاً سأخسرُ القليلَ، وستربحينَ القليلَ»، قال فيليب ثمَّ أضافَ: «ولكنني سأتمكن من متابعةِ العملِ على بناءِ الكاتدرائيةِ لعامٍ آخر».

«وما الذي ستفعلهُ في العامِ القادمِ؟»

«لا أعلم. قد أبيعك صوف العام الذي يليهِ».

أومأت آليانا برأسها وقالت: «هذا منطقي».

أمسكَ فيليب بيديها، ونظرَ في عينيها وقال لها بحرارةٍ: «إن فعلتِ هذا يا آليانا ستنقذين الكاتدرائيةَ».

قالت آليانا في رزانةٍ تامةٍ: «لقد أنقذتني مرَّةً، ألا تتذكر؟»

«أجل».

«إذاً سأردُّ لكَ الجميلَ».

«بارككِ الرَّبُّ!» ومن فرطِ امتنانهِ لها عانقها، ثمَّ تذكرَ أنَّها امرأةٌ فابتعدَ عنها على الفورِ. «أنا عاجزٌ عن شكركِ كفايةً. كنتُ قد وصلتُ إلى طريقٍ مسدودٍ»، قال لها.

ضحكت آليانا وقالت: «لا أعتقدُ أنني أستحقُّ كلَّ هذا الامتنانِ فأنا على الأرجحِ سأبلي جيداً في هذهِ الصفقةِ».

«آملُ هذا».

«فلنشرب نخبَ الصفقةِ»، قالت آليانا ثمَّ أضافت: «بعد أن أدفعَ لسائقِ العربةِ».

أفرغَ العاملان العربةَ، وكدَّسا الصوفَ بعنايةٍ. تراجعَ فيليب وفرانسيس إلى الوراءِ، بينما دفعت آليانا لسائق العربةِ أجرهُ. كانت الشمسُ قد بدأت تغربُ، وبدأ عمالُ البناءِ بالعودةِ إلى منازلهم. شعرَ فيليب أنَّه استعادَ بهجتهُ. ها هو ورغمَ كلِّ العقباتِ التي صادفتهُ يعثرُ على طريقةٍ لمتابعةِ بناءِ الكاتدرائيةِ.

«شكراً للرَّبِّ على آليانا»، قال فيليب.

«لم تخبرني أنَّها جميلةٌ جداً»، قال فرانسيس.

«جميلةٌ؟ أعتقدُ أنَّها كذلك»، أجابَ فيليب.

ضحكَ فرانسيس وقال: «فيليب أنتَ أعمى! إنَّها من أجملِ النساءِ اللواتي رأيتهن أبداً، وجمالها كفيلٌ بجعلِ الرجلِ يتخلى عن الكهنوتِ».

رمقَ فيليب فرانسيس بنظرةٍ حادةٍ وقال: «لا يجب أن تتحدث بهذهِ الطريقةِ».

«آسف».

عادتَ آليانا، وقفلت بابَ الحظيرةِ ثمَّ دخلوا إلى منزلها. كان منزلاً كبيراً بمدخلٍ رئيسي، وغرفةِ نومٍ منفصلةٍ. في الزاويةِ برميلُ جعةٍ، وقطعةُ لحمٍ كاملة متدليةٌ من السقفِ، وغطاءٌ قطني على الطاولةِ. دخلت خادمةٌ في منتصفِ العمر، وسكبت النبيذَ من دورقٍ في كؤوسٍ فضيةٍ للضيفين. كانت آليانا تعيشُ في رخاءٍ، وتساءل فيليب في نفسهِ إن كانت آليانا جميلةً إلى هذا الحدِّ، فلمَ لم تتزوج بعد؟ لم يكن هناك نقصٌ في الراغبين بالزواجِ منها فقد تودَدَ إليها كل أعزبٍ مقتدرٍ في المقاطعةِ، ولكنها رفضتهم جميعاً. كان ممتناً جداً لها إلى درجةِ أنَّه أرادها أن تكون سعيدةً.

كان ذهنُ آليانا مشغولاً بتفاصيلِ الصفقةِ، ولذلكَ قالت بعدَ أن شربوا نخبَ الصفقةِ: «لن أتمكنَ من إعطائكَ المال إلا بعدَ انتهاءِ سوقِ شايرنغ».

استدارَ فيليب نحو فرانسيس وسأله: «هل بوسعِ مود الانتظار؟»

«إلى متى؟»

«سيُقامُ السوقُ بعدَ ثلاثةِ أسابيع من يومِ الخميس».

أومأ فرانسيس برأسهِ وأجاب: «سأخبرها، وستنتظر».

حلَّت آليانا قلنسوتها، وهزت شعرها الأسود المموج ثمَّ أطلقت تنهيدةَ تعبٍ وقالت: «باتَ النهار قصيراً جداً وغير كافٍ لإنهاءِ كلِّ الأعمال. أحتاجُ إلى شراءِ المزيدِ من الصوفِ، ولكن يجب أن أؤمن ما يكفي من العرباتِ لإيصالهِ إلى شايرنغ».

قال فيليب: «وسيكون لديكِ مخزونٌ أكبر في العامِ القادمِ».

«أتمنى لو كان بوسعي جعلُ التجار الفلمنكيين يأتون إلى هنا. سيكون هذا أسهلَ بكثير من نقلِ الصوفِ إلى شايرنغ».

وهنا تدخلَ فرانسيس قائلاً: «ولكنكِ تستطيعين».

حدَّقَ فيليب وآليانا إليه ثمَّ قال فيليب: «كيف؟»

«فلتُقم سوقَ صوفٍ هنا».

وبدأ فيليب يفهم ما رمى إليه فرانسيس فسأله: «هل نستطيع؟»

«أعطتك مود حقوقَ السوقِ ذاتها التي يملكها سوقُ شايرنغ. كتبتُ المرسومَ بنفسي. إن كان بوسعِ شايرنغ إقامة سوقٍ للصوفِ، تستطيعُ أنتَ أيضاً إقامة سوقٍ للصوفِ».

قالت آليانا: «هذا سيكون رائعاً! ولن نضطر وقتها إلى نقلِ كل الأكياسِ إلى شايرنغ، بل سنُتاجرُ هنا، ونشحن الصوفَ بشكلٍ مباشرٍ إلى إقليم الفلاندرز».

«هذا ليسَ كلَّ شيءٍ»، قال فيليب بحماسةٍ وتابع: «يمكنُ لسوقِ الصوفِ أن يعودَ علينا خلال أسبوعٍ واحدٍ ما سيعود علينا بهِ سوقُ الأحدِ في عامٍ كاملٍ. بالطبعِ لن نتمكن من إقامتهِ هذا العام فلا أحد يعلم بهِ بعد، ولكننا نستطيع نشرَ الخبرِ في سوقِ شايرنغ هذا العام. سنقول للجميعِ إننا سنقيمُ سوقنا في العامِ القادمِ، وسنحرصُ على أن يعرفَ جميع الزبائن بالتاريخِ...»

قالت آليانا: «سيحدثُ هذا فرقاً كبيراً. أنا وأنتَ أكبر باعةِ صوفٍ في المقاطعةِ، وإن انسحبنا سيتقلصُ حجمُ سوقِ شايرنغ إلى النصفِ».

قال فرانسيس: «سيخسرُ وليم هاملي المالَ، وسيتحول إلى ثورٍ غاضبٍ».

لم يكن بوسعِ فيليب منعُ نفسهِ من الارتجافِ تقززاً فقد كان وليم كالثورِ حقاً.

«فليفعل»، قالت آليانا ثمَّ أضافت: «أعطتنا مود الإذنَ بافتتاح السوقِ، وسنفتتحهُ ما لم يقم وليم بشيءٍ حيالَ الأمرِ».

«أتمنَّى ألا يفعل شيئاً»، قال فيليب بحماسةٍ. «أتمنَّى هذا من كلِّ قلبي».

الفصل العاشر

- 1 -

بحلولِ الظهرِ من يومِ عيدِ القديس أوغستين انتهى العملُ في موقعِ البناءِ. تنفسَ معظمُ البنَّائين الصعداء لدى سماعهم جرسَ منتصفِ النهارِ؛ فعادةً ما يعملون من الفجرِ حتَّى الغروب على مدارِ الأسبوعِ، باستثناءِ أيامِ الآحادِ، ولذلك كانوا يتوقون إلى الراحةِ أيامَ الأعيادِ. على أيِّ حالٍ كان جاك منغمساً جداً في عملِهِ، ولم يسمع الجرسَ.

كان عملُ جاك نحتَ تشكيلاتٍ مدورةٍ وناعمةٍ في الصخرةِ القاسيةِ. يملكُ الحجر إرادةً خاصةً بهِ، وإن حاولَ جاك إجبارهُ على فعلِ شيءٍ فلن يقومَ بهِ، بل سيقاومهُ، وسينزلقُ إزميلُ جاك من يدهِ، أو ينغرزُ عميقاً جداً، ويُفسد التشكيل الذي يقوم بهِ، ولكن حالما يتعرَّفُ على الكتلةِ الصخريةِ أمامهُ يسهلُ عليهِ تغييرها، وكلما كانت المهمةُ أصعب أُخذَ جاك بها أكثر إلى أن بات يشعرُ الآن أنَّ أعمالَ الزخرفةِ التي يطلبها توم سهلةٌ جداً. بدأت الأشكالُ المتعرجةُ، والمُعينةُ، والحلزونيةُ، والشبيهة بالأنيابِ، والأفاريز المدورةُ العاديةُ تضجرهُ، بل حتَّى تلكَ الأوراق التي طلبها توم بدت له جامدةً ومُكررةً. أرادَ أن ينحتَ أوراقاً لها شكلٌ واقعي، مرنةً وغير متسقةٍ، وأن ينسخَ أشكالاً مختلفةً من أوراقٍ حقيقيةٍ كأوراقِ البلوطِ، والدردارِ، والبتولا، ولكن توم لم يسمح له بفعلِ هذا. كانت أمنيته الحقيقية أن ينحتَ مشاهد من الحكايا؛ كحكاية آدم وحواء، وداوود وجالوت، ويوم القيامةِ، ووحوشاً، وشياطين، وأناساً عراة، ولكنه لم يجرؤ على طلبِ هذا من توم.

في نهايةِ المطافِ أتى توم، وأجبره على التوقفِ عن العملِ قائلاً: «اليوم

عطلةٌ أيها الفتى. علاوةً على هذا أنتَ ما زلتَ متدرباً، وأريدكَ أن تساعدني على جمعِ معداتي، ووضعها في السقيفةِ قبلَ موعدِ الغداءِ».

وضعَ جاك مطرقتهُ وإزميلهُ جانباً، وبكلِّ عنايةٍ وضعَ الحجرَ الذي يعملُ عليه في سقيفةِ توم ثمَّ طافَ أرجاء الموقعِ مع توم يجمعان المعداتِ. كان المتدربون الآخرون يرتبون المكانَ، ويكنسون بقايا الحجارةِ، والرملِ، وقطع الملاطِ الجافةِ، ونشارةَ الخشبِ التي تملأُهُ. التقطَ توم فرجارهُ ومسطرتهُ بينما جمعَ جاك عصا القياسِ والشاقول ثمَّ نقلا كلَّ هذهِ المعداتِ إلى السقيفةِ.

في السقيفةِ يحتفظُ توم بقضبانٍ حديديةٍ طويلةٍ مربعة الجوانبِ بشكلٍ مستو، وجميعها بأطوالٍ واحدةٍ. وضعوا هذهِ القضبان على مشكاةٍ خشبيةٍ خاصةٍ لها قفلٌ؛ فقد كانت قضبانُ القياسِ أداةً حيويةً.

خلالَ طوافهما حولَ الموقعِ لالتقاطِ ألواح خلطِ الملاطِ والمجارفِ غرقَ جاك في التفكيرِ بهذهِ القضبانِ الحديديةِ وسألَ توم: «ما طولُ القضيبِ؟»

سمعهُ بعضُ البنَّائين وضحكوا. غالباً ما وجدوا أسئلة جاك مسليةً.

قال إدوارد القصير وكان بنَّاءً عجوزاً بقامةٍ قصيرةٍ وجلدٍ مشدودٍ وأنفٍ معقوفٍ: «القضيبُ قضيبٌ»، وضحكَ البناؤون مجدداً.

يستمتعُ البناؤون بإغاظةِ المتدربين، خاصَّةً إن رأوا في هذا فرصةً لاستعراضِ رفعةِ معرفتهم. كره جاك أن يضحكَ الناسُ على جهلهِ، ولكنه تحمَّلَ هذا لأنَّه كان فضولياً جداً.

«لا أفهم»، قال جاك بأناةٍ.

«الإنشُ إنشٌ، والقدمُ قدمٌ، والقضيبُ قضيبٌ»، تابع إدوارد.

«إذاً، القضيبُ وحدةُ قياسٍ ثابتةٍ»، فكر جاك في نفسهِ ثمَّ سأل: «كم قدماً في القضيب؟»

«آه! هذا يعتمد على المكان. في لينكولن ثمانيةَ عشرَ قدماً، وفي إيست أنجيلا ستةَ عشرَ قدماً».

وقاطعَ توم إدوارد بجوابٍ شافٍ: «هنا في الموقعِ طولُ القضيبِ ثمانيةَ عشرَ قدماً».

وهنا قالت امرأةٌ في منتصفِ العمرِ تعمل بنَّاءةً: «في باريس يستخدمون العِصي بدلاً من القضبان».

ووضح توم لجاك: «مخططُ الكنيسةِ بأكملهِ قائمٌ على القضبانِ. أحضر لي واحداً وسأريكَ. لقد حانَ الوقتُ لتفهمَ مثلَ هذهِ الأمورِ»، ثمَّ ناولَ جاك مفتاحاً.

توجه جاك إلى السقيفةِ، وأخذَ قضيباً من على المشكاةِ. كان القضيبُ ثقيلاً بحقٍ. أحبَّ توم شرحَ الأمور، وجاك أحبَّ الإصغاء. كان لمخططِ البناءِ نمطٌ مثيرٌ للاهتمامِ، وأشبه بنسيجٍ معطفٍ من القماشِ المُقصبِ، ولذلكَ كلما فهمَ جاك عنِ الأمرِ أكثر زاد افتتانهُ بهِ.

وقفَ توم في الممرّ عندَ النهايةِ المفتوحةِ لمذبحِ الكنيسةِ غير المكتمل حيثُ يقع التقاطعُ ثمَّ أخذَ القضيبَ، ووضعهُ على أرضيةِ الممرّ. «من الجدارِ الخارجي وحتَّى منتصفِ عمودِ المجازِ المقنطرِ قضيبٌ كاملٌ»، قال توم ثمَّ رفعَ القضيب وحرَّكهُ الحركةَ ذاتها مرَّة أخرى إلى الأمامِ. «ومن هنا حتَّى وسطِ الصحنِ قضيبٌ»، ثمَّ رفعهُ مجدداً، وحرَّكهُ بالطريقةِ نفسها أيضاً إلى أن وصلَ إلى منتصفِ العمودِ المقابلِ. «يبلغُ عرضُ الصحنِ قضيبين»، وحرَّكَ القضيبَ مرّةً أخرى إلى أن وصلَ إلى الجدارِ في آخر الممرّ. «أمَّا كاملُ الكنيسةِ فعرضها أربعةُ قضبانٍ».

«أجل»، قال جاك وتابع: «وطول كلِّ حجيرةٍ فيها قضيب».

بدا توم متضايقاً بعضَ الشيءِ وسألهُ: «ومن أخبركَ بهذا؟»

«لا أحد. إنَّ حجيراتِ الممرّاتِ مربعةٌ، وإن كان عرضها قضيباً فلا بد أنَّ يكون طولها قضيباً».

«لا بدَّ»، قال توم ثمَّ أضافَ: «يجبُ أن تكون فيلسوفاً». كان في صوتهِ مزيجٌ من الفخرِ والضيقِ؛ فهو سعيدٌ لأنَّ جاك سريعُ البديهةِ، ولكنه استاءَ لأنَّ الفتى يفهمُ أسرارَ البناءِ بسهولةٍ.

لم ينتبه جاك المفتون بالمنطقِ الساحرِ للأمرِ إلى ما شعرَ بهِ توم وتابعَ كلامهُ: «إذاً، طولُ الحجيرةِ أربعة قضبانٍ، وهذا يعني أنَّ عرضَ الكنيسةِ بأكملها عندما تنتهي سيكون اثني عشرَ قضيباً»، وهنا خطرَ له خاطرٌ آخر وسأل: «كم سيكون ارتفاعها؟»

«ستةَ قضبانٍ. ثلاثة للمجازِ المقنطرِ، وواحد للشرفةِ، واثنان لصفِ النوافذِ العلويةِ»، أجاب توم.

«ولكن ما الهدف من استخدامِ القضبانِ في قياسِ كلِّ شيءٍ؟ لمَ لا تبنى الكنيسةُ كالمنزلِ بشكلٍ اعتباطيٍ؟»

«أولاً، بناؤها بهذهِ الطريقةِ أرخص. جميعُ قناطرِ المجازِ المقنطرِ متناظرةٌ، والغرضُ من ذلكَ إعادةُ استخدامِ القوالب ذاتها؛ فكلما قلَّ اختلافُ الحجومِ والأشكالِ صنعنا قوالب أقل، وقِس على ذلكَ. ثانياً، البناءُ بهذا الأسلوب يُبسطُ كلَّ شيءٍ نقومُ بهِ، بدءاً بالمخطط الأصلي -بما أنَّ كل شيءٍ قائمٌ على طولِ القضيبِ- وحتَّى طلاء الجدران حيثُ سيسهلُ علينا تقديرُ كميةِ الطلاءِ التي قد نحتاجها. عندما تكون الأشياءُ بسيطةً ستكون الأخطاءُ أقل، والأخطاءُ هي الجزء الأكثرُ تكلفةً في عمليةِ البناءِ. ثالثاً، عندما يعتمدُ كلُّ شيءٍ على القياسِ بالقضيبِ، ستبدو الكنيسةُ متناسبةَ الأبعادِ، والتناسبُ جوهرُ الجمالِ».

أومأ جاك برأسهِ مفتوناً، ووجدَ في صعوبةِ إدارةِ عمليةٍ طموحةٍ ودقيقةٍ، كعمليةِ بناءِ كاتدرائيةٍ، سحراً ما بعدهُ سحرٌ، وفي فكرةِ أنَّ مبدأي التناسبِ والتكرارِ قد يُبسطا عمليةَ البناءِ، ولكنه لم يقتنع في أنَّ جوهرَ الجمالِ كامنٌ في التناسبِ؛ فقد كان يتمتعُ بالأمورِ الجامحةِ، والمنبسطةِ والعشوائيةِ، كالجبالِ العاليةِ، وأشجارِ البلوطِ العتيقةِ، وشعر آليانا.

***

تناولَ جاك غداءه بشراهةٍ وبسرعةٍ ثمَّ غادرَ القرية شمالاً. كان يوماً دافئاً من أيامِ الصيفِ الأولى، ولذلك سارَ حافي القدمين. منذُ أن انتقلَ مع والدتهِ إلى كينغزبريدج وأصبحَ عاملاً تمتعَ بينَ الفينةِ والأخرى بالعودةِ إلى الغابةِ. في البدايةِ قضى معظمَ وقتهِ في الغابةِ محاولاً التخلصَ من فائضِ الطاقةِ الذي لديهِ بالركضِ، والقفزِ، وتسلّقِ الأشجارِ، واصطيادِ البطِّ بالمقلاع. حدثَ هذا خلالَ فترةِ نمو جسدهِ الجديدِ، واعتيادهِ عليهِ. باتَ الآن أطول وأقوى، ولكنَّ متعةَ الجسدِ الجديدِ قد اضمحلَّت، وأصبحَ الآن يمشي في الغابةِ يفكرُ في أمورٍ وأسئلةٍ كالسببِ الذي يجعل التناسب في البناءِ جوهرَ الجمالِ، ولمَ تبقى الأبنيةُ واقفةً، وكيفَ سيكونُ شعورهُ إن داعبَ ثديي آليانا.

لسنواتٍ عديدةٍ عبدَ جاك آليانا، وبقيت ذكرى أول مرة يراها فيها وهي تهبط الدرجَ إلى القاعةِ في قلعةِ إيرل شايرنغ، واعتقاده وقتها أنَّها أميرةٌ خارجةٌ من حكايةٍ، محفورة في ذهنهِ. بالنسبةِ إليهِ كانت شخصيةً بعيدةً لا يمكن الوصول إليها، ورغمَ أنَّها تحدَّثت إلى رئيسِ الديرِ فيليب، والبنَّاءِ توم، واليهودي مالاتشي، وآخرين من أثرياءِ ومتنفذي كينغزبريدج، فإنَّ جاك لم يكن لديهِ سببٌ للتوجهِ إليها بالحديثِ، ولذلك اكتفى بالنظرِ إليها جالسةً تحتَ الشمسِ أمامَ منزلها في ثيابٍ فرائيةٍ باهظةٍ خلالَ الشتاءِ، وفي أفضلِ الأثوابِ القطنيةِ، وشعرها المتمرد يطوقُ وجهها الجميل صيفاً. قبلَ خلودهِ إلى النومِ يتخيلها عاريةً أمامهُ، ويطبعُ قبلةً رقيقةً على فمها.

خلالَ الأسابيعِ القليلةِ الماضيةِ لم يعد تخيلها كافياً، وأثارَ الأمرُ اكتئابهُ. لم تعد مراقبتها عن بعدٍ، والإصغاءِ إلى أحاديثها مع الآخرين، وتخيلُ ممارسةِ الحبِّ معها أمراً مُشبعاً، وأرادَ للحلمِ أن يصبحَ حقيقةً.

لم يكن هناك نقصٌ في الفتياتِ اللواتي كُنَّ في مثلِ عمرهِ وقد يمنحنهُ الشيء الحقيقي. دارت بين المتدربين في الكاتدرائيةِ الكثيرُ من الأحاديث عن أكثرِ فتياتِ كينغزبريدج شبقاً، وإلى أيِّ مستوى قد يصلُ المرءُ مع كلِّ واحدةٍ منهن. معظمهن كُنَّ مصممات على البقاءِ عذراوات إلى أن يتزوجن تماماً كما جاءَ في تعاليمِ الكنيسةِ لكن، وعلى حدِّ قول المتدربين، هناكَ أمورٌ معينةٌ يمكنهن القيامُ بها والبقاء عذراوات. اعتبرت جميعُ الفتياتِ جاك شاباً غريبَ الأطوارِ بعضَ الشيءِ، وشعرَ جاك أنَّهن على الأغلبِ مصيباتٌ في هذا، ولكن واحدةً أو اثنتين منهن وجدتا غرابتهُ جذابةً. في أحدِ أيامِ الأحدِ بعدَ الكنيسةِ بدأ جاك حديثاً مع فتاةٍ تدعى إيديث، كانت أخت أحد المتدربين معهُ، ولكن عندما تحدَّثَ معها عن حبهِ لنحتِ الحجارةِ أخذت تقهقه. في الأحدِ التالي خرجَ للتنزهِ في الحقولِ مع فتاةٍ أخرى تدعى آن، وكانت فتاةً شقراء وابنةَ خياطٍ. لم يتحدث كثيراً معها، ولكنه قبَّلها ثمَّ اقترحَ عليها الاستلقاء أرضاً وسطَ حقلٍ من الشعيرِ الأخضرِ. قبَّلها مجدداً ثمَّ تحسسَ ثدييها؛ فبادلتهُ القبلةَ بحماسةٍ، ولكن بعدَ وهلةٍ ابتعدت عنه وسألته: «من تكون؟» في تلكَ اللحظةِ كان جاك يُفكرُ بآليانا، وصُعقَ عندما سمعَ سؤال آن. حاولَ أن يتفادى الإجابةَ بأن قبَّلها مجدداً، ولكن آن أشاحت بوجهها

بعيداً وقالت: «أيّاً تكن هذهِ الفتاة فهي محظوظةٌ»، ثمَّ عادا إلى كينغزبريدج، ولكن قبلَ أن ينفصلا قالت له آن: «لا تُضع وقتكَ في محاولةِ نسيانها. إنَّها معركةٌ خاسرةٌ. إنَّها المرأةُ التي ترغبُ بها، ومن الأفضلِ أن تحاولَ الحصولَ عليها»، ثمَّ ابتسمت بحُبٍ وأضافت: «تملكُ وجهاً جميلاً، وقد لا يكون الأمرُ بالصعوبةِ التي تتخيلها».

شعرَ جاك بالسوءِ بعدَ هذهِ المعاملةِ اللطيفةِ من آن، وهذا لأنَّ المتدربين قالوا عنها إنَّها شبقة، وقد أخبرهم جاك مسبقاً أنّه سيحاولُ مداعبتها. بدا له الآن أنَّ مثل هذا الكلام صبياني، وشعرَ بالخجلِ من نفسهِ، ولكن إن أخبرَ آن باسم المرأةِ التي تشغلُ بالَه فلم تكن لتشجعهُ بكلِّ هذهِ الحماسةِ. كان جاك وآليانا غير مناسبين بعضهما لبعض أبداً؛ فآليانا في الثانيةِ والعشرين وهو في السابعة عشرة، وكانت ابنةَ إيرل أمَّا هو فكان لقيطاً، وهي تاجرةُ صوفٍ ثرية، وهو مجرَّد متدربٍ مُعدم، ولكن أسوأ ما في الأمرِ هو أنّها مشهورةٌ بسببِ عددِ الخاطبين الذين رفضتهم؛ فكلُّ لوردٍ محترمٍ في المنطقةِ، وابن تاجرٍ مُقتدرٍ أتى إلى كينغزبريدج لخطبِ ودِّها، ولكنهم جميعهم عادوا إلى ديارهم خائبين، ولذلكَ لم يكن لدى جاك الذي لا يملكُ شيئاً سوى «وجههِ الجميلِ» أيُّ حظٍ بالفوزِ بها.

ولكنه شارك آليانا بشيءٍ واحدٍ ألا وهو حبهما للغابةِ، وكانا غريبين جداً حيالَ الأمرِ. عادةً، يُفضلُ الناسُ أمانَ الحقولِ والقُرى، ويبتعدون عن الغاباتِ، ولكن آليانا غالباً ما تتنزهُ في الغاباتِ القريبةِ من كينغزبريدج، وهناك منطقةٌ معزولةٌ محددةٌ تحبُّ الجلوسَ فيها. كان قد رآها هناك مرَّةً أو مرَّتين، ولكنها لم تلمحهُ؛ فقد كان يسيرُ بخفةٍ كما تعلَّمَ في طفولتهِ خلال بحثهِ عن الطعامِ في الغابةِ.

توجهَ اليوم إلى تلكَ البقعةِ في الغابةِ دونَ أدنى فكرةٍ عمَّا سيفعلهُ إن وجدها هناك. كان يعلمُ أنَّه يرغبُ بالجلوسِ إلى جانبها، ومداعبةِ جسدها. أرادَ التحدثَ إليها، ولكنه لم يعرف ما الذي قد يقوله لها. كان الحديثُ إلى فتياتٍ في مثلِ عمره أسهل فمثلاً مازحَ إيديث قائلاً لها: «لا أصدّقُ أيّاً من الأمورِ المريعةِ التي يقولها أخوكِ عنكِ»، وبالطبعِ أرادت إيديث أن تعرفَ هذهِ الأمورَ المريعةَ التي قالها أخوها عنها، أمَّا مع آن فكان واضحاً: «هل

ترغبين بالتنزهِ في الحقولِ معي بعدَ هذا الظهرِ؟» ولكن عندما حاولَ التفكيرَ بجملةٍ لكسرِ الجليدِ مع آليانا خانه ذكاؤهُ؛ فهو لم يكن قادراً على التخلصِ من فكرةِ أنَّها من جيلٍ أكبر. كانت متزنةً ومسؤولةً جداً، ولكنه يعلمُ أنَّها لم تكن كذلكَ طوالَ الوقتِ. يتذكرها عندما كانت في السابعة عشرة، وأنها كانت لعوباً، ولكن منذئذٍ قاست الكثيرَ من الأهوال، إلَّا أنَّه عرفَ أنَّ الفتاة اللعوب مازالت موجودةً داخلَ هذهِ المرأةِ الرزينةِ، وهذا ما جعله يُفتتن بها أكثر.

بدأ الآن يقتربُ من البقعةِ. كانت الغابةُ هادئةً في هذه الفترةِ الحارّةِ من النهارِ. تحرَّكَ بصمتٍ عبرَ الشجيراتِ فقد أرادَ النظرَ إليها قبلَ أن تراه، علاوةً على هذا، كان لا يزالُ غير واثقٍ من أنَّه يمتلكُ الجرأةَ على الاقترابِ منها، ولكن أكثرَ ما خشيهُ هو إجفالها. كان قد تحدثَ إليها يومَ عودتهِ إلى كينغزبريدج، وحدثَ هذا أحدَ عيدِ العنصرةِ عندما أتى المتطوعون للعملِ على الكاتدرائيةِ. آنذاك تفوّه بأمورٍ خاطئةٍ، وكانت النتيجةُ أنَّه بالكادِ تحدَّثَ معها خلالَ السنواتِ الأربع الماضيةِ، ولذلك عقدَ عزمه الآن على عدمِ تكرارِ الأمرِ.

بعدَ برهةٍ وصلَ إلى شجرةِ بتولا فوقفَ وراءها ورأى آليانا.

اختارت مكاناً جميلاً بشكلٍ استثنائي فهناك شلالٌ صغيرٌ ينتهي في بركةٍ عميقةٍ تحيطُ بها حجارةٌ نمت عليها طحالب. ألقت الشمسُ أشعتها على أطرافِ البركةِ، وعلى بُعدِ ياردةٍ أو ياردتين تحتَ فيءِ أشجارٍ بتولا تخللتهُ بقعُ أشعةِ الشمسِ جلست آليانا تقرأ.

ذُهلَ جاك مما رآه. امرأةٌ تقرأ كتاباً في العراءِ؟ الوحيدون القادرون على القراءةِ هم الرهبان، والعديد منهم عاجزٌ عن قراءةِ أي شيءٍ آخر غير الصلواتِ. بدا الكتابُ غريباً أيضاً فقد كانَ أصغر من المجلداتِ الموجودةِ في مكتبةِ الديرِ كأنَّه مصنوعٌ خصيصاً للنساءِ، أو لمن يرغبُ بحملهِ. من فرطِ المفاجأةِ نسي خجلهُ، وشقَّ طريقهُ عبرَ الشجيرات ثمَّ خرجَ إلى البقعةِ التي جلست فيها آليانا قائلاً: «ما الذي تقرأينه؟»

جفلت آليانا، ونظرت إليه برعبٍ واضحٍ في عينيها. أدركَ أنَّه اقترفَ عملاً أخرق بإخافتها، وخشي أن يكون قد أجفلها كما فعلَ منذُ أربعةِ أعوامٍ. سارعت آليانا إلى وضعِ يدها تحتَ كُمِّ ثوبها. تذكرَ جاك أنَّها تحملُ سكيناً

تحتَ كُمها، وربما مازالت تفعلُ هذا، ولكن عندما عرفتهُ تراجعَ خوفها بسرعةٍ. بدت مسترخيةً، ولكنه تكدرَ عندما رأى شيئاً من الضيقِ على وجهها، وانتابَه شعورٌ أنَّ وجودهُ غيرُ مرَّحبٍ بهِ. أرادَ أن يستديرَ على عقبيهِ، ويختفي في الغابة، ولكن هذا سيجعلُ الحديثَ معها مرَّةً أخرى أكثَرَ صعوبةً، ولذلكَ كابرَ على نظرةِ العداءِ التي رمقتهُ بها.

«أنا آسفٌ لأنني أخفتكِ»، قال لها.

«أنتَ لم تُخفني»، عاجلتهُ قائلةً.

علمَ أنَّ هذا لم يكن صحيحاً. قررَ عدمَ مجادلتها ولذلكَ كررَ سؤالهُ: «ما الذي تقرأينهُ؟»

وضعت الكتاب على ركبتيها وحدقت إليهِ ثمَّ تغيرت تعابير وجهها مجدداً. كانت حزينةً الآن. «اشترى لي والدي هذا الكتابَ في آخرِ رحلةٍ له إلى النورماندي وقبل بضعةِ أيامٍ على سجنهِ».

اقتربَ جاك أكثر ونظرَ إلى الصفحةِ المفتوحةِ ثم قال: «إنَّه بالفرنسيةِ!»

«كيفَ علمتَ؟» سألتهُ في ذهولٍ. «هل يمكنكَ القراءةُ؟»

«أجل، ولكن اعتقدتُ أنَّ جميعَ الكتبِ باللاتينيةِ».

«جميعها تقريباً، ولكن هذا مختلفٌ فهو قصيدة تدعى ‹مغامراتِ الإسكندرِ›».

وفكرَ جاك في نفسهِ: «لقد نجحتُ. أنا أتحدثُ إليها. هذا رائعٌ! ولكن ما الذي سأقوله الآن؟ كيفَ يمكنني الاستمرارُ بهذا الحديثِ»، وهنا سألها: «آه... حسناً وما قصتهُ؟»

«تدورُ الحكايةُ عن ملكٍ يدعى الإسكندر الكبير وكيفَ أنّه غزا أراضي مدهشة في الشرقِ حيثُ تنمو الأحجارُ الكريمةُ على عرائشِ العنبِ ويمكن للنباتاتِ التحدث».

أثارَ الموضوع اهتمامَ جاك ونسي معهُ قلقهُ: «وكيفَ يمكنُ للنباتات التحدث؟ هل تملكُ أفواهاً؟»

«هذا غيرُ مذكورٍ».

«هل تعتقدين أنَّها حكايةٌ حقيقيةٌ؟»

نظرت إليهِ باهتمامٍ، وحدَّقَ في عينيها الداكنتين الجميلتين. «لا أعلم»،

قالت له ثمَّ أضافت: «لطالما تساءلت في نفسي عن صحةِ الحكايا، ولكن معظم الناسِ لا يهتمون بصحتها بل بسماعها».

«باستثناءِ الكهنةِ. إنهم يؤمنون أنَّ الحكايا المقدسة حقيقية».

«حسناً، بالطبعِ هي حقيقيةٌ».

شككَ جاك في صحةِ القصصِ المقدسةِ تماماً كما شككَ في صحةِ أيَّة قصةٍ، ولكن والدتهُ التي علَّمتهُ التشكيك في هذهِ الأمورِ علَّمتهُ أيضاً التحفظَ حيالَ الأمرِ، ولذلكَ لم يجادل آليانا. جاهد طوالَ الوقتِ كيلا ينظر إلى ثدييها اللذين كانا على مدِ نظرهِ تماماً، وعلمَ أنَّه إن أنزلَ ناظريهِ ستعلمُ أنَّه ينظرُ إليهما. حاولَ التفكيرَ بشيءٍ لقولِه وارتجلَ قائلاً: «أعرفُ الكثيرَ من الحكايا. أعرفُ حكايةَ ‹نشيد رولاند›[1] وحكايةَ ‹رحلةِ حجِ ملك إنكلترا وليم الثالث›...»

«ما الذي تعنيهِ بقولكَ إنَّك تعرفها؟»

«يمكنني إنشادها؟»

«كشاعرٍ متجولٍ؟»

«وما هو الشاعرُ المتجول؟»

«رجلٌ يتجولُ ويروي الحكايا على شكلِ شعرٍ».

كان هذا جديداً على جاك ولذلك قال: «لم أسمع عن مثلِ هذا الرجلِ قبلاً».

«هناكَ الكثيرُ منهم في فرنسا. في صغري كنتُ أرافقُ والدي خارجَ البلادِ، ولطالما أحببت الشعراء المتجولين».

«ولكن ماذا يفعلُ الشاعرُ المتجولُ؟ يقفُ في الشارعِ ويتحدث؟»

«يعتمدُ هذا على جمهورهِ. يذهبُ الشعراءُ المتجولون إلى منازلِ السادةِ في الأعيادِ، ويؤدون في الأسواقِ والمعارضِ، ويرفهون عن الحجاجِ خارج الكنائسِ، ويكون للباروناتِ أحياناً شعراؤهم الخاصون».

1- ملحمة شعرية مؤلفة من 4004 أبيات شعر ويُقال إنها وضعت بين عام 1140 و1170. تتحدثُ الملحمة عن معركةِ ممرّ رونسفالِ التي وقعت في عام 778 خلال غزو شارلمان لإسبانيا بهدفِ طردِ المسلمين منها. بطلُ الملحمةِ مقاتلٌ يدعى رولاند وهو من أقرباءِ شارلمان. (المترجمة)

وهنا خطرَ لجاك أنَّه لا يتحدثُ إلى آليانا فقط بل ويجري معها محادثةً لن يجريها مع أيَّةِ فتاةٍ في كينغزبريدج. باستثناءِ والدتِهِ، كان واثقاً من أنَّه وآليانا الوحيدان في البلدةِ اللذان يعرفانِ القصائد الفرنسية الرومانسية. كان بينهما قاسمٌ مشتركٌ، وهما الآن يتناقشان فيهِ، ووجدَ الفكرةَ ممتعةً جداً إلى درجةِ أنَّه نسي ما كانا يتحدثان بهِ، وشعرَ بالاضطرابِ والغباءِ.

لحسنِ حظهِ تابعت آليانا الكلامَ قائلةً: «عادةً، يعزفُ الشاعرُ على كمنجةٍ وهو يروي الحكاية. يعزفُ بإيقاعٍ سريع وعال عندما يصلُ إلى الجزء الذي فيهِ معركةٌ، وببطءٍ وجمالٍ عندما يتحدث عن عاشقين، وبشكلٍ أخرق عندما يصلُ إلى مقطعٍ مضحكٍ».

أحبَّ جاك فكرة وجودِ موسيقى في الخلفيةِ للتشديد على النقاطِ الهامةِ في الحكايةِ. «أتمنى لو أنَّه بوسعي العزفُ على الكمنجةِ»، قال لها.

«هل يمكنكَ حقاً أن تنشدَ الحكايا؟» سألتهُ.

لم يكن قادراً على التصديقِ أنَّها مهتمةٌ بهِ، وتطرحُ عليهِ أسئلةً. بدا وجهها عندما يحركه الفضولُ أكثر جمالاً.

«علَّمتني إياها أمّي»، قال لها ثمَّ أضاف: «فقد اعتدنا العيشَ وحدنا في الغابةِ، وكانت تكررُ على مسامعي الحكايا».

«ولكن كيفَ لكَ أن تتذكرها؟ بعضها يحتاجُ إلى أيامٍ لتنتهي».

«لا أعلم. إنَّ الأمر أشبه بتذكرِ طريقٍ في الغابةِ؛ فالمرء لا يتذكرُ الغابةَ بأكملها ولكن أينما ذهبَ يعلمُ الوجهةَ». نظرَ مجدداً إلى الكتابِ في ذهولٍ ثمَّ جلسَ على العشبِ قربها وألقى نظرةً أقرب.

«القافيةُ مختلفةٌ»، قال لها.

لم تفهم ما عناه بكلامهِ وسألتهُ: «كيف ذلك؟»

«إنَّها أفضل. في حكايةِ (نشيد رولاند) تقابلُ كلمةُ «سيفٍ» كلمةَ «جواد» أو «ضائع» أو «كرة»، أمَّا في كتابكِ فكلمةُ «سيف» تُقابلها كلمة «جيش» وليسَ كلمة «جواد» وكلمة «عَيْن[1]» بدلًا من كلمةِ «ضائع» وكلمة «طَي» بدلاً من «كرة». إنَّها قافيةٌ مختلفةٌ ولكنها أفضل بكثيرٍ. أحببتها».

1- مفرد أعيان (المترجمة)

«هلَّا...» قالت وقد بدت خجلةً. «هلَّا أنشدت لي بعضَ الأبياتِ من حكايةِ (نشيد رولاند)؟

تحرَّك جاك في مكانهِ وغيرَ وضعيتهُ كي يتمكن من النظرِ إليها مباشرةً. أثارت فيهِ حدةُ نظرتها وشرارةُ التوقِ في عينيها الساحرتين شعوراً بالاختناقِ فابتلعَ ريقه وبدأ:

شارل العظيم[1]، سيدُ وملكُ فرنسا،
حارب في إسبانيا سبعَ سنين
غازياً النجودَ والسهولَ.
لم ينجُ منه حصنٌ واحدٌ
أو يصمد سورُ مدينةٍ أو بلدةٍ
إلا سرقسطة، على قمةِ جبلٍ،
بملكها مارسيليه السرقسطي؛
خادم محمد علناً، ومُتعبد أبولو سِرَّاً،
ولكنه لم يكن آمناً
حتَّى في مكمنه العالي.

توقفَ جاك وقالت آليانا: «أنتَ تعرفها! أنتَ تعرفها بحقٍ! تماماً كما يعرفها الشاعرُ المتجولُ».

«هل فهمتِ ما عنيتهُ بشأنِ القافيةِ؟»

«أجل، ولكن الحكاية تعنيني أكثر من القافية»، قالت بعينين تبرقان سروراً ثمَّ أضافت: «أنشد المزيد».

شعرَ جاك كأنَّه على وشكِ الإغماءِ من السعادةِ وقالَ لها بضعفٍ: «إن أحببتِ هذا»، ثمَّ نظرَ في عينيها، وبدأ بالمقطعِ الثاني.

– 2 –

كانت اللعبةُ الأولى خلالَ احتفالاتِ عيدِ منتصفِ الصيفِ تناولَ خبزِ «ما عدد[2]؟»، وكالعديد من ألعابِ العيدِ الأخرى كان فيها شيءٌ من التطيرِ

1- شارلمان

2- أحد طقوسِ الاحتفالِ بعيد ليلةِ منتصفِ الصيفِ حيثُ يتناول الناس الخبز ويطرحون أسئلةً من نوعِ «ما عدد ؟ أو كم سنةً؟» (المترجمة)

لم يستسغهُ فيليب، ولكنه إن حاولَ منعَ كلِّ طقسٍ من طقوسِ الأديانِ القديمةِ فسيُحرَّم على الناسِ ممارسةُ نصفِ تقاليدهم، وسينتهي الأمرُ بهم إلى تحدي سُلطتِهِ، ولهذا تساهلَ سراً مع معظمِها، وأخذَ موقفاً صارماً من تقليدٍ أو اثنين.

جلسَ الرهبانُ إلى طاولات وضعت في حديقةِ الطرفِ الغربي من ساحةِ الديرِ، وبدأ خدمُ المطبخ بنقلِ قدورٍ تغلي عبرَ الفناءِ. ولأنَّ رئيسَ الديرِ سيدُ البلدةِ فمن واجبهِ إقامةُ وليمةٍ لمستأجريهِ أيامَ العطلِ الهامَّةِ، وكانت السياسة التي اتبعها فيليب في هذا الأمرِ هي تقديم الطعامِ بكرمٍ والتقتير في المشروبِ، ولذلكَ امتنعَ عن تقديمِ النبيذِ، واكتفى بالجعةِ المخففةِ بالماءِ. على الرغمِ من سياستِهِ هذهِ فإن ما يقارب الخمسةَ أو الستةَ أشخاصٍ يُفرطون في الشربِ في كلِّ مناسبةٍ من هذهِ المناسباتِ.

جلسَ أعيانُ بلدةِ كينغزبريدج إلى طاولةِ فيليب، ومن بينهم البنَّاءُ توم وعائلتهُ، وكبار الحرفيين من بينهم آلفريد أكبرُ أبناءِ توم، والتجار ومن بينهم آليانا، وامتنعَ اليهودي مالاتشي عن القدوم إلى الوليمةِ إلا أنَّه سيشترك في الاحتفالاتِ لاحقاً بعد انتهاءِ الصلواتِ.

طلبَ فيليب من الجميعِ التزامَ الصمتِ، وتلا صلاةَ شكرٍ ثمَّ ناولَ توم رغيفاً من الخبزِ. مع مرورِ السنينِ كان تقديرُ فيليب لتوم يزداد أكثر فأكثر؛ فقد كان الأخيرُ من القلةِ التي تشعر بالمسؤوليةِ حيال ما تقوله، وتنفذُ ما تعدُ بهِ. لطالما تعامل توم مع المفاجآت، والكوارثِ، والأزماتِ بهدوءٍ حيثُ يزنُ الأمورَ وعواقبها ويُقيّم الأذى، ويخطط لأفضلِ الحلولِ. حدَّقَ فيليب إلى توم بحبٍ. بدا توم اليوم مختلفاً عن الرجلِ الذي دخلَ الديرَ منذُ خمسةِ أعوامٍ يستجدي عملاً. آنذاك كان متعباً ورثَّ الثيابِ، ونحيلاً جداً إلى درجةِ أنَّ عظامهُ كانت ناتئةً تحتَ جلدهِ المسفوعِ من العواملِ الجويةِ. خلالَ السنواتِ الماضيةِ امتلأ جسمهُ، خاصةً بعدَ عودةِ امرأتهِ. لم يكن سميناً، ولكن بنيتهُ الضخمةَ امتلأت الآن، وغادرت عينيه تلكَ النظرةُ اليائسةُ. كان في ثياب باهظة فقد ارتدى سترةً من قماشٍ لينكولن الأخضر، وحذاءً جلدياً طرياً، وحزاماً بإبزيمٍ فضي.

يجب على فيليب طرح سؤالٍ سيجيبُ عليهِ من يأخذُ الخبزَ منهُ.

«كم عاماً سيستغرقُ إنهاءُ الكاتدرائيةِ؟» سألَ فيليب توم.

تناولَ توم قضمةً من الخبزِ المخبوزِ مع بذورٍ قاسيةٍ صغيرةٍ، ثمَّ بصقَ البذروَ والجميعُ من حولهِ يعدُّها. يحدثُ أحياناً خلال ممارسةِ هذهِ اللعبةِ أن يتناول المرءُ قضمةً مليئةً بهذهِ البذورِ، ويكتشف الجميعُ أنَّ ما من أحدٍ بينهم يعرفُ العدَّ لأعدادٍ عاليةٍ، ولكن اليوم وبوجودِ جميعِ التجارِ والحرفيين لم يكن هذا ليحدث. عدَّ الحاضرون ثلاثين حبَّةً. تظاهرَ فيليب أنَّه محبطٌ وقال توم: «سأعيشُ طويلاً!» فضحكَ الجميعُ.

مررَ توم الخبزَ لزوجتهِ إيلين. لطالما توخى فيليب الحذرَ في حضورِ هذهِ المرأةِ فقد كانت كالإمبراطورةِ مود تملكُ سلطاناً على الرجالِ، وهذا النوع من السُلطانِ أحسَّ معه فيليب بالعجزِ عن تحديهِ. في اليومِ الذي طُردت منه إيلين من الديرِ ارتكبت عملاً شنيعاً، وما زالَ فيليب حتَّى اليوم يستحضرهُ في ذهنهِ. اعتقدَ أنَّه لن يراها مجدداً، وهلعَ عندما عادت. استجداه توم ليصفحَ عنها مجادلاً بذكاءٍ أنَّ الرَّبَّ يستطيعُ أن يغفرَ لها، وهذا يعني أن فيليب لا يملكُ الحق في رفضِ هذا. ارتابَ فيليب في صدقِ توبةِ المرأةِ، ولكن توم طلبَ منهُ الصفحَ عنها في اليومِ الذي أتى فيهِ المتطوعون، وأنقذوا الكاتدرائيةَ، ولذلكَ وجدَ فيليب نفسهُ يُلبي طلبَ توم رغماً عنه. تزوجا في كنيسةِ الأبرشيةِ، وكانت كنيسةً خشبية صغيرة في القريةِ وأقدم من الديرِ نفسه. ورغمَ أنَّها، ومنذُ ذلكَ الوقتِ، أظهرت سلوكاً حسناً ولم تُعطِ فيليب سبباً واحداً للندمِ على قرارهِ غيرَ أنَّه لم يرتح لها قط.

سألها توم: «ما عدد الرجال الذين تحبينهم؟»

أخذت إيلين قضمةً صغيرةً من الخبزِ فضحكَ الجميعُ على هذا. في هذهِ اللعبةِ عادةً ما تكون الأسئلةُ ملغومةً بعضَ الشيءِ، ويعلمُ فيليب أنَّه لو لم يكن حاضراً لتصرفوا ببذاءةٍ.

عدَّت إيلين ثلاثةَ بذورٍ، وتظاهرَ توم أنَّه غاضبٌ بشدةٍ.

«سأخبركَ عن الثلاثةِ الذين أحبهم»، قالت إيلين، وتمنَّى فيليب في قرارةِ نفسهِ ألا تتفوهِ بأمرٍ مهينٍ. «الأول توم، والثاني جاك، والثالث آلفريد».

صفقَ الجميعُ على ذكاءِ ردها، ودارَ رغيفُ الخبزِ حولَ الطاولةِ. كان الآن دورُ مارثا ابنة توم. كانت مارثا الآن فتاةً في الثانية عشرة وخجولةً، وتنبأ لها الخبزُ الذي تناولتهُ أنَّها ستتزوجُ بثلاثةِ رجالٍ، ولكن هذا بدا أمراً بعيداً.

مررت مارثا الخبزَ إلى جاك، ولاحظَ فيليب أنَّ عينيها لمعتا في حبٍ فأدركَ أنَّها كانت تعبدُ أخاها غير الشقيقِ، وتراه بطلاً.

أثارَ الشابُ اهتمامَ فيليب. في طفولتِهِ كان جاك طفلاً قبيحاً بشعرٍ برتقالي كالجزرِ، وبشرةٍ شاحبةٍ، وعينين زرقاوين جاحظتين، ولكنه الآن شابٌ بملامح متناسقةٍ، وباتَ وجههُ جذاباً جداً إلى درجةٍ كفيلةٍ بإدارةِ الرؤوسِ نحوه، ولكن عندما يغضب يغدو متوحشاً كوالدتِهِ، ولم يكن منضبطاً جداً، ولا يفهم معنى الطاعةِ. كانَ غيرَ كفؤ كبنَّاءٍ عاملٍ؛ فبدلاً من تزويد البنائين بالملاطِ والحجارةِ بشكلٍ دائمٍ ومنتظمٍ يحاولُ تكويمَ ما يحتاجونهُ ليومٍ كاملٍ ثمَّ يختفي ليفعلَ أمراً آخر. كانَ يختفي على الدوامِ، وفي إحدى المراتِ قررَ أنَّ ما من حجرة في الموقعِ تناسبُ النقشَ الذي كان عليهِ القيام بهِ، ولذلكَ ومن دونِ أن يخبرَ أحداً توجهَ إلى المقلعِ، واختارَ الحجرةَ التي أحبها، وجلبها معهُ بعدَ يومين على ظهرِ جوادٍ قصيرِ القوائمِ كان قد استعارهُ، ولكن الناس سامحوه على تجاوزاتِهِ، ويعود هذا في جزءٍ منه إلى كونهِ نحاتاً استثنائياً ومحبوباً جداً، ويعتقدُ فيليب أنَّ جاك ورثَ هذهِ السمة عن والدتِهِ دونَ أدنى شكٍ. لم يفكر فيليب كثيراً في ما سيفعلهُ جاك في المستقبل، ولو أنَّه انضمَّ إلى الكنيسةِ لأصبحَ أسقفاً بكلِّ سهولةٍ.

سألت مارثا جاك: «كم من السنواتِ أمامكَ حتَّى تتزوج؟»

تناولَ جاك قضمةً صغيرةً، وبدا واضحاً أنَّه يرغبُ بالزواجِ باكراً. تساءل فيليب في نفسهِ إن كان الفتى مُغرماً. شعرَ جاك بالخيبةِ عندما اكتشفَ أن قضمةَ الخبزِ مليئةٌ بالبذورِ، وبينما كانَ البقيةُ يعدون البذورَ علت علائمُ السخط على وجهه. عدّوا واحداً وثلاثين بذرةً وقال جاك مُحتجاً: «سأكون في الثامنةِ والأربعين من العمرِ!» اعتقدَ الجميعُ أنَّ ما قالهُ مضحكٌ جداً باستثناءِ فيليب الذي قامَ بالحسابِ، وذُهلَ من سرعةِ جاك في الحسابِ، التي لا يتمتعُ بها حتَّى أمين صندوقهِ ميليوس.

كان جاك يجلسُ إلى جانبِ آليانا، وهنا أدركَ فيليب أنَّه رآهما معاً كثيراً هذا الصيف، وفكرَ في نفسهِ أنَّ السببَ ذكاؤهما المشترك. لم يكن هناك كثر في كينغزبريدج ممن يشاركون آليانا ذكاءها ويستطيعون التحدث إليها، وعلى الرغمِ من أساليبِ جاك المُتعنّتة، فإنَّه أكثر نضجاً من بقيةِ المتدربين.

رغم هذا كان فيليب مهتماً بصداقتهما رغم الفرق العمري الكبير بينهما الذي يصلُ إلى خمسِ سنواتٍ.

مررَ جاك الخبزَ إلى آليانا، وطرحَ عليها السؤال ذاته الذي طرحته مارثا: «كم من السنواتِ أمامكِ حتّى تتزوجي؟»

تأوه الجميعُ في خيبةِ أملٍ فإعادة طرحِ السؤالِ أمرٌ سهلٌ جداً في الوقتِ الذي يُفترضُ باللعبةِ أن تكشفَ عن ذكاءٍ وظرافةِ اللاعبين، ولكن آليانا المشهورة بعددِ خاطبيها الخائبين أثارت ضحكهم عندما تناولت قضمةً كبيرةً من رغيفِ الخبزِ في إشارةٍ إلى عدمِ رغبتها بالزواجِ أبداً، ولكن حركتها هذهِ لم تكن ناجحةً لأنّها لم تبصق سوى بذرةٍ واحدةٍ.

«إن كانت ستتزوج في العامِ القادمِ فهذا يعني أنَّ العريسَ لم يأتِ بعد»، فكر في نفسهِ. بالطبعِ لم يكن يؤمن بقوةِ التنبؤ التي يملكها الخبز، وكلّ المعطياتِ تشيرُ إلى أنّها ستموتُ عجوزاً عانساً، غير أنّها، ووفقاً للإشاعاتِ، لم تكن عذراء، وقالَ الناسُ إنَّ وليم هاملي أغواها، أو اغتصبها.

مررت آليانا الخبزَ إلى شقيقها ريتشارد، ولكن فيليب لم يسمع السؤال الذي طرحتهُ فقد كان غارقاً في التفكيرِ بآليانا، وبالنكسةِ التي تعرضا لها. لقد فشلا، وبشكلٍ غير متوقعٍ، في بيعِ الصوفِ هذا العام. ورغمَ أنَّ الفائض لم يكن كبيراً، أقل من عُشرِ مخزون فيليب، فإنَّ الأمرَ كان مُحبطاً. بعدَ ذلكَ خشي فيليب من تراجعِ آليانا عن صفقةِ صوفِ العامِ القادمِ التي كانت بينهما، ولكنها التزمت بالصفقةِ، ودفعت له مئةً وسبعة جنيهاتٍ.

كان الخبرُ الأهمُّ في سوقِ صوفِ شايرنغ هذا العام هو إعلان فيليب عن إقامة سوقٍ للصوف في كينغزبريدج العام القادم. رحّب معظمُ الناسِ بالفكرةِ لأنَّ وليم هاملي تقاضى إيجاراتٍ وتعاريف باهظةً جداً في سوقِ شايرنغ، وقد خططَ فيليب لتقاضي أجورٍ أقل من أجورِ وليم الذي لم يُعلن عن موقفهِ بعد حيالَ هذا الخبرِ.

عموماً، كان لدى فيليب شعورٌ طيبٌ حيالَ مستقبلِ وضعِ الديرِ مقارنةً بوضعهِ قبلَ ستةِ أشهرٍ؛ فقد تجاوزَ أزمةَ إغلاقِ المقلعِ، وأحبطَ محاولةَ وليم إغلاقَ سوق كينغزبريدج، وعادت أحوالُ سوقِ الأحدِ لتزدهرَ مجدداً، وتمكنَ من دفعِ ثمنِ الحجارةِ الباهظةِ التي جلبها من مقلعٍ قربَ مارلبورو.

خلالَ هذهِ الفترةِ المتأزمةِ ورغمَ كلِّ الأخطار التي أحدقت بأعمالِ بناءِ الكاتدرائيةِ فإنّها استمرت دونَ توقفٍ. لم يعد هناك ما يقلقُ فيليب سوى عدم تتويج مود حتَّى الآن رغم أنَّها كانت صاحبة السلطةِ، ومن دونِ منازعٍ، وحصلت على مباركةِ الأساقفةِ، ولكن سلطتها ستظلُ قائمةً على قوتها العسكريةِ إلى أن تتوجَ رسمياً كملكةٍ. في هذهِ الأثناءِ تسيطرُ زوجةُ الملكِ ستيفن على مدينةِ كِنت ومُجمعُ لندن ما يزالُ متردداً، ولذلك فإنَّ ضربةَ حظٍ عاثرٍ واحدة، أو قراراً خاطئاً كفيلٌ بإطاحتها تماماً كما أطاحت معركةُ لينكولن بالملكِ ستيفن، وإن حدثَ هذا فستعمُّ الفوضى.

قال فيليب لنفسهِ إنَّ عليهِ الحفاظ على تفاؤلِهِ، ونظرَ إلى الناسِ من حولهِ وإلى الطاولةِ. كانت اللعبةُ قد انتهت، وبدأ الحاضرون بتناول غدائهم. كانوا رجالاً ونساءً صادقين، وطيبين، ومُجدين في العملِ، ويذهبون إلى الكنيسةِ، ولذلك سيعتني بهم الرَّبُّ.

تناولوا عصيدةً من الخضروات، وسمكاً مشوياً مُتبلاً بالبهارِ والزنجبيلِ، وتشكيلةً من لحمِ البطِ، وكاسترد ملوناً بشكلٍ فاتنٍ بخطوطٍ حمراء وخضراء. بعدَ الانتهاءِ من وجبةِ الغداءِ حملوا كراسيهم إلى موقعِ بناءِ الكنيسةِ من أجلِ مشاهدةِ المسرحيةِ.

نصبَ النجارون في الممرّاتِ الجانبيةِ للطرفِ الشرقي ستارتين، وأغلقوا بهما المساحةَ بينَ جدارِ الممرّ وأولِ عمودٍ من أعمدةِ المجاز المقنطرِ، وأخفوا بكفاءةٍ الحُجيرةَ الأخيرةَ من كلِّ ممرّ. كانَ الرهبان الذين سيؤدون أدوار المسرحيةِ خلفَ الستائرِ بانتظارِ الدخولِ إلى وسطِ صحنِ الكنيسةِ وتمثيلِ القصةِ. دخلَ الراهبُ الذي يؤدي شخصيةَ القديس أدولفوس، وكان بلا لحيةٍ وله وجهٌ ملائكي، واستلقى ملفوفاً بما يشبه الكفنَ على طاولةٍ في أقصى طرفِ الصحنِ متظاهراً أنَّه ميت وهو يحاول ألا يقهقه.

انتابت فيليب مشاعر مختلطةٌ حيالَ المسرحيةِ تماماً كمشاعرهِ حيالَ لعبةِ الخبزِ؛ فكلا اللعبتَين يمكن أن تأخذا وبكلِّ سهولةٍ مساراً مختلفاً، وتسقطا في دركِ التهتكِ والبذاءةِ، ولكن الناس أحبوها جداً إلى درجةٍ أنَّه لو لم يسمح بها لأقاموا مسرحيةً خاصةً بهم خارجَ الكنيسةِ، وإن حدثَ هذا ولم تكن تحتَ رقابتِهِ فستغدو فاسقةً جداً. علاوةً على هذا كان أكبرُ المتحمسين

لها الرهبان الذين يؤدون الأدوار. يبدو أنَّ ارتداءَ الأزياءِ، والتظاهر أنهم أشخاصٌ آخرون، والتصرف بحماقةٍ، بل وبشكلٍ تدنيسي، تعطيهم متنفساً ما، وقد يكون السببُ في هذا أنَّهم يعيشون حياةً رزينةً.

عادةً ما تُقام قبلَ المسرحية صلاةٌ، ويحرصُ أمين غرفةِ المقدساتِ على أن تكون صلاةً قصيرةً ثمَّ يقدّم فيليب موجزاً قصيراً عن حياةِ القديس أدولفوس الطاهرةِ ومعجزاته، ويجلس على كرسيهِ وسطَ الحضورِ لمتابعةِ العرضِ.

من وراءِ الستارةِ اليُسرى خرجت شخصيةٌ كبيرةٌ. للوهلةِ الأولى بدت في ثيابٍ فضفاضةٍ وزاهيةٍ، ولكن بعدَ نظرةٍ فاحصةٍ سيكتشفُ المرءُ أنَّها قطعُ قماشٍ لُفَّت حوله وثُبتت، أمَّا الوجه فكان مطلياً، وفي يدهِ حقيبةُ مال منتفخة. كانت هذهِ شخصيةُ البربري الثري. سرت همهمةُ استحسانٍ عندما ظهرت الشخصية ثمَّ لحقتها موجةٌ من الضحكِ عندما أدركَ الناس أنَّ الممثلَ الذي يرتدي هذا الزي هو الراهبُ السمين برنارد -طبَّاخُ الدير- وهم يعرفونهُ جيداً ويحبونهُ.

اختالَ برنارد في مشيتهِ جيئةً وذهاباً كي يتسنى للجميعِ تقدير مظهرهِ، واندفعَ باتجاهِ الأطفالِ في الصف الأمامي باعثاً الرعبَ فيهم بما يكفي لدفعهم إلى الصراخ. توجهَ برنارد إلى المذبحِ، ونظرَ حوله كأنَّه يريدُ التأكدَ من أنَّه وحده ثمَّ وضعَ كيسَ المالِ وراءه، ثمَّ استدارَ، ونظرَ شزراً نحو الجمهورِ وقالَ بصوتٍ عالٍ: «سيخشى أولئكَ المسيحيون الأغبياء سرقةَ مالي لأنَّهم يعتقدون أنَّ القديسَ أدولفوس يحميه. هاها!» ثمَّ اختفى وراءَ الستارةِ.

من الجانبِ المقابلِ دخلت مجموعةٌ من الخارجين عن القانون في ثيابٍ مهلهلةٍ، ويحملون سيوفاً وفؤوساً خشبيةً، ووجوههم مطليةٌ بالسخامِ والطباشير. جالوا في صحن الكنيسةِ كأنهم خائفون إلى أن رأى أحدهم كيسَ المالِ وراءَ المذبحِ. تجادلوا في ما بينهم حول ما إن كانوا يستطيعون سرقةَ المالِ أم لا. جادلَ أحدُ الخارجين عن القانون الصالحين أنَّ سرقةَ المالِ ستجلبُ لهم الحظَّ العاثر، وقال أحد الخارجين عن القانونِ الطالحين إنَّ قديساً ميتاً لا يستطيع أذيتهم. في نهايةِ المطافِ أخذوا المالَ، وتجمعوا في الزاويةِ لعدهِ.

ظهرَ البربري مجدداً، واستشاطَ غضباً عندما اكتشفَ أنَّ ماله مفقود

وبدأ يبحثُ عنه. اقتربَ من قبر القديسِ أدولفوس، ولعنهُ على فشلهِ في حمايةِ كنزهِ.

وفي تلكَ اللحظةِ نهضَ القديسُ من قبرهِ.

ارتجفَ البربري بشدةٍ من الهلعِ، ولكن القديسَ تجاهلهُ، واقتربَ من الخارجين عن القانونِ، وبما يشبه السحرَ رمى بهم أرضاً بإشارةٍ من إصبعهِ. تظاهرَ الممثلون أنَّهم يعانون من سكراتِ الموتِ، وتلووا على الأرض بشكلٍ مرعبٍ وعلى وجوههم نظراتٌ رهيبةٌ.

عفا القديسُ عن الخارج عن القانون الصالحِ الذي أعادَ المالَ الآن إلى مكانهِ وراءَ المذبحِ، وبعدَ هذا استدارَ القديس نحو الجمهور وخاطبهم قائلاً: «فليكن هذا تذكيراً لكلِّ من يشككُ بقدرةِ القديس أدولفوس!»

هللَ الحشدُ وصفقَ، ووقفَ الممثلون في صحنِ الكنيسةِ يبتسمون بحياءٍ لبرهةٍ. بالطبعِ كان الغرضُ من العرضِ أخلاقيّاً، ولكن فيليب علمَ أنَّ الأجزاء التي تمتّعَ بها الحاضرون هي الأجزاءُ المريعةُ، وغضبُ البربري، وسكراتُ موتِ الخارجين عن القانونِ.

عندما تراجعَ تصفيقُ الحاضرين وقفَ فيليب، وشكرَ الممثلين، وأعلنَ عن بدءِ السباقات في المرجِ قربَ ضفةِ النهرِ.

***

في هذا اليوم أدركَ جوناثان البالغ من العمرِ خمسةَ أعوامٍ أنَّه لم يكن أسرعَ عدَّاءٍ في كينغزبريدج. شاركَ في سباقِ الأطفالِ في ردائهِ الرهباني الصغير، وأثارَ موجةً من الضحكِ بين الحاضرين عندما رفعَ رداءهُ إلى خصرهِ، وركضَ ومؤخرتهُ الصغيرة مكشوفةً للجميعِ، ولكنه نافسَ أطفالاً أكبرَ عمراً منه، وأنهى السباقَ في المرتبةِ الأخيرةِ. عندما أدركَ أنَّه خسرَ ارتسمَ على وجهه تعبيرٌ يشي بالصدمةِ، والخيبةِ الشديدةِ. فطرَ منظره قلبَ توم فحملهُ محاولاً مواساته.

كانت العلاقةُ بين توم ويتيم الديرِ تتطورُ تدريجياً، ولم يتساءل أحدٌ في القريةِ عن السببِ الخفي وراءَ هذهِ العلاقةِ. يقضي توم اليومَ بأكملهِ في ساحةِ الديرِ حيثُ يركضُ جوناثان بحريةٍ، ولهذا من الطبيعي أن يريا بعضهما كثيراً. كان توم في عمرٍ لم يعد فيهِ ولداه في ذلكَ العمرِ اللطيفِ، ولكن لم يكونا

كبيرين كفايةً لمنحهِ أحفاداً، ولذلك أبدى أحياناً اهتماماً وحباً نحو أطفالِ الآخرين. يعتقدُ توم أنَّ ما من أحدٍ سيخطر ببالهِ التشكيكُ بعلاقةِ الأبوةِ التي تربطهُ بجوناثان؛ فالناسُ يعتقدون أنَّ فيليب والد جوناثان الحقيقي، وهذا افتراضٌ منطقي رغمَ أن فيليب سيهلع دون شكٍ إن سمعَ بهذهِ الأقاويل.

لمحَ جوناثان آرون -أكبر أبناءِ اليهودي مالاتشي- فحررَ نفسهُ من بينِ ذراعي توم، وذهبَ للعبِ مع صديقهِ ناسياً الخيبةَ التي مُني بها في السباقِ.

عندما حان وقتُ المتدربين ليتسابقوا أتى فيليب، وجلسَ على العشبِ بجانبِ توم. كان يوماً مشمساً وحارًّاً فتجمعت قطراتُ العرقِ على رأسِ فيليب المحلوقِ. كان إعجابُ توم بفيليب يزدادُ عاماً بعد عام. نظرَ توم إلى المكانِ حوله، إلى السباقِ بينَ الشبابِ، وإلى العجائز النائمين في الفيءِ، والأطفال يرشقون بعضهم بالماءِ في النهر، وفكرَ في نفسهِ أنَّ فيليب المسؤول عن كلِّ هذا. كان يحكمُ القريةَ بعدالةٍ، ويحددُ أماكن بناءِ المنازلِ الجديدةِ، ويحلُّ الخلافاتِ، ويوظفُ معظمَ الرجالِ، والعديد من النساءِ أيضاً، إمَّا كعمالِ بناءٍ أو كخدمٍ في الديرِ، وفوقَ هذا يديرُ الديرَ الذي كانَ القلبَ النابضَ لهذا الجسدِ، وصارعَ البارونات الجشعين، وفاوضَ الملوكَ، وحيَّدَ الأسقفَ. وكلُّ هؤلاء الناس الحسني التغذيةِ الذين يمارسون الرياضةَ تحتَ أشعةِ الشمسِ يدينون بازدهارِ أحوالهم، بطريقةٍ أو بأخرى، لفيليب، وكان توم أولهم.

يعي توم بقوّةٍ عمقَ اعتدالِ فيليب، وذلكَ من خلالِ عفوهِ عن إيلين. أن يغفر راهبٌ عن عملٍ كالعملِ الذي قامت بهِ إيلين أمرٌ استثنائي، وعنى هذا الكثيرَ لتوم؛ فعندما نفيت إيلين خيَّمَ شعور بالوحدةِ على متعةِ بناءِ الكاتدرائيةِ، وبعدَ عودتها عادت إليهِ بهجتهُ. كانت ما تزالُ عنيدةً، وتدفعهُ إلى الجنونِ، وتحبُّ افتعالَ المتاعبِ، وعصبيةً، ولكن يبدو أنَّ كلَّ هذا كان تافهاً مقارنةً بالشغفِ الذي تحملهُ في داخلها، ويضيء حياته كشمعةٍ.

شاهدَ توم وفيليب السباقَ الذي يتوجبُ فيهِ على الصبيةِ السيرُ على أيديهم وفازَ فيهِ جاك.

«الفتى استثنائي»، قال فيليب.

«قليلون من يستطيعون السيرَ بهذهِ السرعةِ على أيديهم»، قال توم.

ضحكَ فيليب وقال: «أجل، ولكنني لم أعنِ بكلماتي مهارتهُ البهلوانية».

«أعلم»، أجابَ توم. لوقتٍ طويلٍ تركَ ذكاءُ جاك توم ممزقاً بين شعورهِ بالبهجةِ والألم. تمتعَ جاك بفضولٍ حيوي حيالَ مهنةِ البناءِ، وهذا أمرٌ افتقدهُ ابنه آلفريد. استمتعَ توم بتعليم جاك أسرارَ المهنةِ، ولكن الأخير افتقرَ إلى اللباقةِ، وكان يُجادلُ من هم أكبر منه. غالباً ما يكون من الأفضلِ أن يخفي المرءُ تفوقه، ولكن جاك لم يتعلم هذا، حتّى بعدَ كلِّ سنواتِ اضطهادِ آلفريد له.

«يجب أن يتعلم الفتى»، تابع فيليب كلامهُ.

عبسَ توم فقد كان جاك متدرباً وهذا يعني أنَّه يتعلم. «ما الذي تقصدهُ؟» سأله توم.

«يجب أن يتعلم الكتابةَ بخطٍ جميلٍ، ويدرس القواعد اللاتينية، ويقرأ أعمالَ قدماءِ الفلاسفةِ».

زادت هذهِ الإجابةُ من حيرةِ توم وسأل: «وما الفائدة من هذا إن كان سيصبح بنَّاءً؟»

نظرَ إليهِ فيليب بشكلٍ مباشرٍ وقال له: «هل أنتَ واثقٌ من هذا؟ هذا الفتى لا يقوم بما هو متوقع منهُ».

لم يكن توم قد فكرَ بهذا قبلاً؛ فهناك شبانٌ يتحدون التوقعات المنتظرة منهم كأبناءِ الإيرلات الذين يرفضون القتالَ، وأطفال الملوك الذين يدخلون إلى الأديرةِ، وأطفال الفلاحين اللقطاء الذين يصبحون أساقفةً. كان فيليب مُحقاً في أنَّ جاك من هذا النوعِ.

«حسناً، ما الذي تعتقد أنَّه سيصبح في المستقبلِ؟» سألَ توم.

«يعتمدُ هذا على ما سيتعلمهُ»، قال فيليب ثمَّ أضافَ: «ولكن أريدهُ أن ينضمَّ إلى الكنيسةِ».

تفاجأ توم بما سمعهُ. لم يكن قادراً على تخيلِ جاك كرجلِ دينٍ، وعلى نحوٍ غريبٍ شعرَ توم بشيءٍ من الغُبنِ من هذا الاقتراحِ فقد كان يتطلع إلى أن يصبحَ جاك معلّمَ بناءٍ، وسيشعرُ توم بخيبةِ أملٍ عظيمةٍ إن اختارَ الفتى مساراً مختلفاً في الحياةِ.

لم يلحظ فيليب الضيقَ الذي انتابَ توم بل تابعَ كلامهُ قائلاً: «يحتاجُ الرَّبُّ إلى أفضلِ وألمعِ الشبابِ للعملِ من أجلِ إعلاءِ كلمتهِ. انظر إلى أولئكَ

المتدربين، وكيفَ يتنافسون للقفزِ عالياً، جميعهم يمكن أن يُصبحوا نجارين، أو بنَّائين، أو قاطعي حجارةٍ، ولكن من فيهم يُمكن أن يصبحَ أسقفاً؟ واحد فقط، وهذا الشخصُ هو جاك».

فكرَ توم في نفسهِ أنَّ هذا صحيحٌ، وأنَّ جاك يملكُ فرصةً في الكنيسةِ برعايةٍ قويةٍ من فيليب، وأنَّ عليهِ انتهاز الفرصةِ لأنَّها ستوفرُ له ثراءً، وقوةً أكبر مما قد تعدهُ بِهِ مهنة البناءِ، ولذلكَ تابع توم على مضضٍ: «ما الذي تفكرُ فيهِ بالتحديدِ؟»

«أريد لجاك أن يدخل الديرَ كراهبٍ مبتدئ».

«كراهبٍ!» قال توم، وبدا له الأمرُ أكثرَ استحالةً من أن يصبحَ جاك كاهناً؛ فالفتى لا يحتملُ انضباطَ العملِ في موقعِ البناءِ فكيفَ له أن يتأقلم مع الحياةِ الرهبانيةِ الصارمةِ.

«سيقضي معظمَ وقتهِ في الدراسةِ»، قال فيليب. «سيتعلم كلَّ شيءٍ يمكنُ لمعلمِ الرهبان المبتدئين أن يعلمهُ إياه، بل سأعطيه دروساً بنفسي».

وفقاً للأعرافِ عندما يدخل فتى الديرَ راهباً يُقدمَ الأبوان تبرعاً سخياً إلى الديرِ، ولذلك تساءل توم في نفسهِ عن التكلفةِ التي سيدفعها مقابلَ هذا العرضِ.

تكهن فيليب بما كان يجولُ في ذهنِ توم وقال له: «لا أتوقعُ منكَ أن تقدمَ عطيةً إلى الديرِ. يكفي أن تقدمَ ابناً إلى الرَّبِّ».

ما لا يعرفهُ فيليب هو أنَّ توم قد قدَّم فعلاً ابناً إلى الرَّبِّ. كان الصغير جوناثان الآن يلعبُ عندَ ضفةِ النهرِ، وقد رفعَ رداءهُ مرَّةً أخرى، ولفَّه حولَ خصرهِ، ولكن توم علمَ أنَّ عليهِ قمعَ مشاعرهِ حيالَ الأمرِ. كان عرضُ فيليب سخياً، وبدا أنَّه يريد جاك بشدةٍ. هذهِ فرصةٌ كبيرةٌ لجاك، وسيكون أيُّ أبٍ مستعداً لتقديمِ ذراعهِ اليمنى مقابل تأمين مثلِ هذهِ الفرصةِ. انتابَ توم شيءٌ من السخطِ لأنَّ هذهِ الفرصة الرائعة تُقدم إلى ابنِ زوجتهِ بدلاً من ابنهِ الفريد، ولكنه قمعَ هذا السخطَ لإحساسهِ بتفاهتهِ. الأحرى بهِ أن يكون سعيداً من أجلِ جاك، ويشجعه، ويأمل أن يتعلم الفتى الانضباط في الحياةِ الرهبانيةِ.

«يجب القيام بهذا قريباً قبلَ أن يقعَ في غرام فتاةٍ ما»، أضافَ فيليب.

أومأ توم برأسهِ، ونظرَ عبرَ المرجِ حيثُ سباقُ النساءِ في أوجهِ. راقبَ توم

السباقِ، وبعدَ وهلةٍ أدركَ أن إيلين كانت في المقدمةِ، وآليانا وراءها تماماً، ولكن عندما وصلتا إلى خطِ النهايةِ كانت إيلين متقدمةً على آليانا بقليلٍ، ورفعت يديها في إشارةٍ إلى فوزها.

أشارَ توم إلى إيلين قائلاً: «ولكنني لست الشخص الذي تحتاجُ إلى إقناعهِ»، ثمَّ أضاف: «بل هي».

***

تفاجأت آليانا عندما تغلَّبت إيلين عليها. على الرغمِ من أنَّ الأخيرةَ بدت صغيرةً جداً على أن يكون لديها ولدٌ في السابعة عشرة، غيرَ أنَّها كانت أكبرَ منها بعشرِ سنواتٍ على الأقلِ. ابتسمت المرأتان بعضهما لبعض وهما تلهثان والعرقُ يتصببُ منهما عندَ خطِ النهايةِ. لاحظت آليانا أنَّ ساقي إيلين مشدودتان، وقويتان ومكتنزتان. يبدو أنَّ الحياة في الغابةِ قد جعلتها قويةً.

تقدَّمَ جاك ليهنئ والدتهُ على الفوزِ، وبالنظرِ إليهما لاحظت آليانا أنَّ الأمَّ وابنها مغرمان بعضهما ببعض. كان مظهرهما مختلفاً فقد كانت إيلين سمراء، وعيناها عسليتين وغائرتين، أمَّا جاك فكان أصهب بعينين زرقاوين، وتكهنت آليانا أنَّه يشبه والدهُ. لا يعرف أحدٌ شيئاً عن والدِ جاك – زوجِ إيلين الأول. ربما كانا خجلين منه.

وقفت آليانا تراقبهما، وخطرَ ببالها أنَّ جاك حتماً يُذكر إيلين بالزوجِ الذي فقدتهُ، وقد يكون هذا سببَ حبها الشديد له؛ فهذا الابن كل ما تبقى لها من الرجلِ الذي عشقتهُ. يمكنُ للشبهِ الجسدي أن يكون عاملاً قوياً جداً في تذكير المرء بمن فقدهم فقد كان شقيقها ريتشارد أحياناً بنظرةٍ أو إيماءةٍ ما يذكرها بوالدها. ورغمَ أنَّها كانت وقتئذٍ تشعرُ بدفقٍ من العاطفةِ تجاههُ فإنَّها، في الوقتِ عينهِ، تتمنى لو أنَّ شخصية ريتشارد أكثرُ شبهاً بشخصيةِ والدها.

تعلمُ آليانا أنَّها لا يجبُ أن تستاءَ من ريتشارد؛ فقد نفذَ ما هو مطلوب منه بذهابهِ إلى الحربِ وقتالهِ بشجاعةٍ، ولكن آليانا في هذهِ الأيام، ورغمَ أنَّها امتلكت الثروة، والأمان، والمنزل، والخدم، والثياب الفاخرة، والجواهر الجميلة، ومكانةً محترمةً في البلدةِ، لم تكن راضيةً جداً، ولو أنَّ أحداً سألها فستجيبهُ أنَّها سعيدة، ولكن تحتَ هذا الظاهرِ كانت تعاني من سقم خفي. لم تخب حماستها تجاه عملها، ولكنها أحياناً في الصباحِ تساورها الشكوكُ

حيالَ جدوى اختيار هذا الفستان أو ذاك، هذهِ الحُلية أو تلك، وتقول لنفسها إن لم يكن هناك من يهتم بشكلها فلمَ قد تهتم بهذهِ التفاصيل. وللمفارقةِ بدأت تشعر بعدمِ الثقةِ بجسدها؛ فعندما تسيرُ تشعرُ بثدييها يتحركان، أو عندما تذهبُ إلى شاطئ النساءِ عندَ ضفةِ النهرِ للاستحمامِ تشعرُ بالحرجِ من كثافةِ شعرِ جسدها، وعندما تمتطي جوادها تفكرُ بأجزاء جسدها التي تلامسُ السرجَ. كان شعوراً غريباً جداً كأنَّ متطفلاً يتلصص عليها طوالَ الوقتِ، ويحاول النظرَ إلى ما تحتِ ثيابها وتعريتها، ولكن لم يكن هذا المتطفل سواها هي نفسها. كانت هي، نفسها، تنتهكُ خصوصيتها.

استلقت على العشبِ تلهثُ والعرقُ يتقطرُ من بين ثدييها وفخذيها. وفي ضيقٍ عادت بتفكيرها إلى المشكلةِ الأهم وهي عجزها عن بيعِ صوفها هذا العام. لم يحدث هذا بسببِ خطأ اقترفته؛ فجميعُ التجارِ عانوا من المشكلةِ ذاتها، ولم ينجحوا في بيعِ صوفهم بمن فيهم رئيسُ الديرِ فيليب الذي كان، وعلى عكسِ آليانا، هادئاً جداً حيالَ الأمرِ برمتهِ. فكرت بما ستفعله بكلِّ هذا الصوفِ، وقررت أنَّها يجب أن تحتفظَ بهِ حتَّى العام القادم، ولكن ماذا لو فشلت في بيعهِ مجدداً. لم تكن تعرف متى يبدأ الصوف الخام بالتلفِ، وفكرت أنَّه قد يجف، ويغدو هشاً ولا يعود بالإمكان بيعهُ.

إن تدهورت الأمور كثيراً ستعجزُ عن إعانةِ ريتشارد. كلَّفها رسمهُ فارساً كثيراً، وغدا جوادهُ الحربي الذي كلفها عشرين جنيهاً رعديداً بعدَ معركةِ لينكولن، ولم يعد نافعاً، وعاجلاً أم آجلاً سيحتاج ريتشارد إلى جوادٍ آخر. تستطيع آليانا الآن شراءَ جوادٍ جديدٍ، ولكن ليسَ من دونِ التسببِ بفجوةٍ في مواردها. شعرَ ريتشارد بالحرجِ من اعتمادهِ عليها؛ فلم يكن هذا وضعاً طبيعياً بالنسبة إلى فارسٍ، وأملَ أنَّ يغتنمَ ما يكفي لإعالةِ نفسهِ، ولكنه مؤخراً حاربَ لمصلحة الطرفِ الخاسرِ، ولذلكَ إن أرادَ أن يستعيدَ لقبَ والدهِ يجبُ أن تبقى أحوال آليانا مزدهرةً.

في أسوأ كوابيسها ترى نفسها تخسرُ أموالها، وتعود هي وأخوها فقيرين جداً، وفريسةً سهلةً للكهنةِ المخادعين، والنبلاءِ الجشعين، والخارجين عن القانون المتعطشين للدماء، وينتهي بهما المطاف في زنزانةٍ نتنةٍ كالزنزانةِ التي رأت فيها والدها لآخر مرةٍ، مُقيدين بالسلاسل إلى الجدارِ ويحتضران.

وعلى عكسِ هذا الكابوسِ حلمت أيضاً بالسعادةِ. في هذا الحلمِ رأت نفسها وريتشارد في منزلهما القديم في القلعةِ؛ ريتشارد يحكمُ بحكمةٍ كوالدها، وهي تساعده كما ساعدت والدها في الترحيبِ بالضيوفِ البارزين، وإظهارِ حُسنِ الضيافةِ، والجلوس إلى يسار والدها عندَ رأسِ طاولةِ الغداءِ، ولكن هذا الحلمَ مؤخراً بات يتركها غير مكتفية.

هزَّت رأسها لتنفضَ عنها هذا المزاج السوداوي، وفكرت بالصوفِ مجدداً. إنَّ أسهلَ طريقةٍ للتعاملِ فيها مع هذا الموقفِ هي عدمُ القيام بشيء. يمكنها تخزين فائضُ الصوفِ حتَّى العام القادم، وعندها إن عجزت عن بيعهِ ستقبلُ بالخسارةِ، وبوسعها تحملها، ولكن هذا الحل لم يُقص خطراً بعيداً وهو تكرار الأمرِ في العام القادم، وأن يكون ما حدث هذا العام بدايةَ مسارِ انحدارٍ، ولذلك بدأت تفكر بحلولٍ أخرى. كانت قد حاولت بيعَ الصوفِ إلى نسَّاجٍ في كينغزبريدج، ولكن الرجلَ اشترى كفايتهُ من الصوفِ.

وخطرَ ببالها الآن، وهي تنظرُ إلى نساءِ كينغزبريدج وهنَّ يسترحن بعدَ السباقِ، أنَّ معظمهن يعرفن نسجَ القماشِ من الصوفِ الخام، وعلى الرغمِ من أنَّه عملٌ مملٌ فإنَّه كان بسيطاً؛ فالفلاحون يقومون بهِ منذُ بدءِ الخليقةِ. في البدايةِ يجبُ تنظيف الصوفِ، وتمشيطهُ لتخليصهِ من العُقدِ ثمَّ غزلهُ ولفه في كراتٍ، وبعدها تُحاكُ الكراتُ إلى قماشٍ ثمَّ يُدعك القماشُ المُحاكُ بقُطبٍ واسعةٍ كي ينكمش ويتسمَّك من أجلِ استخدامهِ في صنعِ الثيابِ. تستطيع نساءُ البلدةِ القيام بهذا العمل مقابلَ بنسٍ في اليوم، ولكن ما المدة التي سيستغرقها هذا العمل؟ وما سعرُ القماشِ بعدَ نسجهِ؟

سيتيعن عليها تجريب كميةٍ صغيرةٍ ثمَّ، وفي حال نجحَ الأمرَ، يمكنها الاستعانةُ بالعديدِ من سكانِ البلدةِ للقيامِ بهذا العملِ في أماسي الشتاءِ الطويلةِ.

ومع هذهِ الفكرةِ الجديدةِ نهضت بحماسةٍ. كانت إيلين مستلقيةً إلى جانبها، وجاك يجلسُ على الجانب الآخر من إيلين. التقت نظراتهُ بنظرات آليانا فارتسمَ شبحُ ابتسامة على وجههِ، وأشاحَ بنظرهِ كأنَّه أُحرِجَ قليلاً لأنّها أمسكت بهِ ينظرُ إليها. كان جاك فتى غريباً، ورأسهُ مليئاً بالأفكارِ. تتذكره آليانا طفلاً صغيراً بمظهرٍ غريبٍ، وجاهلاً بطريقةِ إنجابِ الأطفالِ، وعندما أتى للعيشِ في كينغزبريدج بالكاد لاحظته، ولكنه الآن مختلفٌ جداً كأنَّه

شخصٌ جديدٌ ظهرَ من مكانٍ ما على حينِ غرةٍ، أو زهرة تفتحت في صباحٍ ما في أرضٍ كانت قاحلةً البارحة فقط. لم تعد تراه ذلكَ الصبي الغريبَ الشكلِ، وفكرت بابتسامةٍ لاهيةٍ على وجهها أنَّ الفتيات ربما يرينهُ وسيماً جداً. امتلك ابتسامة جميلةً دونَ أدنى شكٍ، ولكن شكلهُ لم يلفتها بقدرِ ما لفتتها مخيلتهُ المذهلةُ. اكتشفت أنَّه لا يعرف فقط كلَّ أبياتِ القصائد الروائيةِ، وبعضها بالآلافِ، بل يستطيع ارتجالَ بعضها، ولذلك كانت عاجزةً عن التمييز بينَ الأبياتِ التي يستحضرها من الذاكرةِ وتلك التي يرتجلها. لم تكن قدرتهُ على سردِ هذهِ القصص الأمر الوحيد الغريب فيه بل أيضاً فضوله حيال كلِّ شيءٍ، وافتتانه بالأشياءِ التي يعتبرها الآخرون مُسلماتٍ. في أحد الأيام تساءل عن مصدرِ ماءِ النهرِ قائلاً: «سنوياً وعلى مدارِ ساعات اليوم تتدفق آلاف الغالوناتِ من الماءِ قرب كينغزبريدج، ولا بدَّ أن هذا كان يحدث قبلَ ولادتنا، وقبلَ ولادةِ أهلنا، وقبلَ ولادةِ أهلِ أهلنا؛ فمن أينَ يأتي كلّ هذا الماء؟ هل هناك بحيرةٌ هائلةٌ تُغذيه؟ لا بدَّ أنَّ مساحةَ هذهِ البحيرةِ تعادل مساحةَ إنكلترا! ماذا لو جفت هذهِ البحيرةُ في يومٍ من الأيام؟» كان على الدوامِ يتفوه بمثلِ هذهِ الأمورِ، وبعضها كان أقلَّ غرابةً، وهذا جعلَ آليانا تدرك أنَّها تاقت إلى الأحاديث الفكريةِ فمعظمُ سكانِ كينغزبريدج لا يتحدثون إلّا عن الزراعةِ، أو الرذيلةِ، ولم تكن مهتمةً بأيٍّ من هذين الموضوعين. بالطبعِ كان رئيسُ الدير فيليب مختلفاً عنهم، ولكنه لا يسمح لنفسهِ بالانغماسِ في حديثٍ لاهٍ؛ فهو مشغولٌ على الدوامِ بأمورِ بناءِ الكاتدرائيةِ، أو الرهبان، أو البلدةِ. ساورت آليانا شكوك في أنَّ البنَّاء توم شخصٌ ذكي أيضاً، ولكنه فضَّلَ التفكير على الحديثِ. كان جاك أولَ صديقٍ حقيقي تحظى بهِ، وعلى الرغمِ من يفاعتهِ فإنّها وجدت في اكتشافها له حدثاً مذهلاً، وكلما غادرت كينغزبريدج وجدت نفسها تتطلعُ قُدماً للعودةِ كي تتحدث معهُ.

تساءلت آليانا عن مصدرِ أفكار جاك، وقادها السؤال إلى إيلين. يا لغرابةِ هذهِ المرأةِ لتربيتها طفلاً في الغابةِ! تحدَّثت آليانا إلى إيلين، ووجدت فيها توأماً روحياً؛ امرأةً مستقلةً، ومكتفيةً، وغاضبةً بطريقةٍ ما من الطريقةِ التي عاملتها بها الحياةُ. وفجأةً وبشكلٍ عفوي سألت آليانا إيلين: «كيفَ علمتِ بهذهِ القصص يا إيلين؟»

«من والدِ جاك»، أجابت إيلين من دون تفكيرٍ ثمَّ ارتسمت على وجهها نظرةٌ حذرةٌ، وهنا علمت آليانا أنَّها لا يجب أن تطرح المزيد من الأسئلةِ في هذا الشأن.

وهنا خطرَ لها خاطرٌ آخر. «هل تعرفين كيفَ تنسجين القماش؟»

«بالطبع»، قالت إيلين. «الجميعُ يعرفُ كيفيةَ نسجِ القماشِ».

«هل تقبلين بنسجِ القماشِ مقابلَ المالِ؟»

«ربما. ولكن ما الذي تفكرين بهِ؟» سألت إيلين.

شرحت لها آليانا فكرتها. بالطبعِ لم تكن إيلين بحاجةٍ إلى المالِ بما أنَّ توم يعمل، ولكن خامرَ آليانا شكٌّ بأنَّ إيلين ترغب بكسب المالِ بنفسها.

ويبدو أنَّ شكَّ آليانا كان في محلهِ لأنَّ إيلين قالت: «أجل، سأجربُ هذا».

في هذهِ اللحظةِ تقدَّمَ آلفريد ابن زوجِ إيلين. كان آلفريد كوالده عملاقاً ولحيتهُ الكثَّة تُغطي معظمَ معالم وجههِ، ولكن عينيه الضيقتين منحتاه هيئةَ المخادعِ. ورغم أنَّه يستطيع القراءة، والكتابة، والجمعَ فإنَّه كان غبياً. على أيِّ حالٍ كانت أحواله مزدهرةً، لديهِ فريقٌ من البنَّائين والمتدربين والعمال، وقد لاحظت آليانا أنَّ الرجال الضخام غالباً ما يكسبون مواقع سلطةٍ بغضِّ النظرِ عن مدى ذكائهم. بالطبعِ كان لدى رئيس العمال آلفريد أفضليةٌ أخرى، وهي قدرتهُ الدائمة على تأمين العملِ لعمالهِ بما أنَّ والده كبير بنَّائي كاتدرائيةِ كينغزبريدج.

جلسَ آلفريد قربَ آليانا. بدت قدماه في جزمةٍ جلديةٍ ثقيلةٍ لها لون رمادي من غبارِ الحجارةِ ضخمتين. نادراً ما تتحدث آليانا إليه رغمَ أنَّهما يملكان الكثيرَ من القواسمِ المشتركةِ؛ فقد كانا الشابين الوحيدين من الطبقةِ الثريةِ في كينغزبريدج، وهذهِ الطبقةُ تعيشِ في المنازلِ الأقرب إلى جدارِ الديرِ، ولكن لطالما وجدت آليانا آلفريد مملاً.

وعلى نحو مفاجئ قال آلفريد: «يجب أن تكون الكنيسةُ حجريةً».

يبدو أنَّ آلفريد توقعَ منهم استنتاج ما عناه بهذهِ الملاحظةِ، ولذلك فكرَّت آليانا لبعضِ الوقتِ ثمَّ قالت: «هل تعني بكلامكَ كنيسةَ الأبرشيةِ؟»

«أجل»، أجابَ آلفريد كأنَّ الأمرَ لم يكن بحاجةٍ إلى توضيحٍ أكثر.

في الآونة الأخيرةِ باتوا يستخدمون كنيسة الأبرشيةِ كثيراً بدلاً من سردابِ الكاتدرائيةِ الذي بات بمنزلة كنيسة للرهبانِ. كانت كنيسة الأبرشيةِ بناءً خشبياً قديماً بسقفٍ من القشِّ وأرضيةٍ قذرةٍ، وكانت ضيقةً وخانقةً على أعدادِ سكانِ كينغزبريدج المتزايدةِ.

«أنتَ على حقٍ»، قالت آليانا وأضافت: «يجب أن نحظى بكنيسةٍ حجريةٍ».

نظرَ آلفريد إليها كأنَّه توقعَ منها أن تضيفَ شيئاً، وتساءلت آليانا في نفسها عمَّا أرادها أن تقول.

وهنا قالت إيلين التي كانت على الأغلب معتادةً على إقناعهِ بتوضيحِ الأمورِ: «ما الذي تفكرُ فيهِ يا آلفريد؟»

«كيفَ بدأ بناءُ الكنائسِ؟» سأل آلفريد ثمَّ أضاف: «أعني أننا لو أردنا كنيسةً حجريةً فما نحن فاعلون؟»

هزَّت إيلين كتفيها وقالت: «لا أملك أدنى فكرة».

قطبت آليانا حاجبيها، واقترحت على آلفريد: «يمكنكَ أن تؤسس نقابةَ أبرشية». كانت نقابةُ الأبرشيةِ أشبه بجمعية من الناس يقيمون وليمةً بين الفترةِ والأخرى، ويجمعون المالَ بعضهم من بعض، وعادةً ما يشترون بهذا المال الشموع للكنيسةِ، أو يساعدون الأرامل واليتامى في المنطقةِ. لا تمتلكُ القرى الصغيرة نقاباتٍ، ولكن كينغزبريدج لم تعد قريةً صغيرةً.

«كيفَ نستطيعُ القيام بهذا؟» قال آلفريد.

«سيتكفل أعضاءُ النقابةِ بالكنيسةِ الجديدةِ»، قالت آليانا.

«إذاً، يجب أن نؤسس نقابةً»، قال آلفريد.

تساءلت آليانا في نفسها إن كانت قد أساءت الحكمَ عليهِ. لم يبدُ لها يوماً كشخصٍ تقي، وها هو الآن يحاولُ جمعَ المالِ من أجلِ بناءِ كنيسةٍ جديدةٍ. قد يكون شخصاً أعمق مما تخيلت، ثمَّ أدركت أنَّ آلفريد متعهد البناءِ الوحيدِ في كينغزبريدج، ولهذا كان على ثقةٍ من أنَّه سيحصلُ على عقدِ بناء الكنيسةِ. قد لا يكون ذكياً، ولكنه ماكرٌ كفايةً.

على الرغمِ من هذا أحبَّت آليانا الفكرةَ. كانت كينغزبريدج تتحولُ إلى بلدةٍ، وعادةً ما تحوي البلدات على عدَّةِ كنائس، وبوجود بديلٍ عن

الكاتدرائيةِ لن يسيطرَ الديرُ بشكلٍ كاملٍ على البلدةِ. حالياً كان فيليب سيداً لا منازع له على البلدةِ، وكان طاغيةً خيّراً، ولكن آليانا توقعت أن يأتي وقت قد يرغبُ فيهِ تجارُ المدينةِ بامتلاكِ كنيسةٍ بديلةٍ.

قال آلفريد: «هل يمكنكِ أن تشرحي فكرةَ النقابةِ إلى الآخرين؟»

كانت آليانا الآن قد تعافت من جهدِ السباقِ، ورغمَ كرهها لتركِ صحبةِ إيلين وجاك من أجلِ صحبةِ آلفريد، فإنَّها كانت متحمسةً جداً حيالَ فكرتهِ. علاوةً على هذا سيكون من الفظاظةِ رفضُ عرضهِ.

«بكلِّ سرورٍ»، قالت ونهضت ثمَّ غادرت برفقتهِ.

***

عندما غربت الشمس أشعلَ الرهبانُ المشاعلَ، وبدأوا بتقديمِ الجعةِ المنكهةِ بالزنجبيلِ. أرادَ جاك أن يطرحَ على والدتهِ سؤالاً بعد أن باتا وحدهما الآن، ولكنه كان متوتراً، ثمَّ بدأ أحدهم بالغناءِ، وعلمَ أنَّها ستنضمُ في أي لحظةٍ، ولهذا قالَ على عجلٍ: «هل كان والدي شاعراً متجولاً؟»

نظرت إليه ولكن ليسَ في ضيقٍ بل بدهشةٍ. «من علَّمكَ هذهِ الكلمة؟» سألته ثمَّ أضافت: «أنتَ لم تُصادف شاعراً متجولاً قبلاً».

«آليانا. كانت تذهبُ إلى فرنسا برفقةِ والدها».

حدَّقت الأمُّ عبرَ المرجِ الغارقِ في الظلمةِ وقالت: «أجل، لقد كان شاعراً متجولاً، وأخبرني بكلِّ تلكَ القصائدِ تماماً كما أخبرتكَ بها. هل تستحضرُ أمامَ آليانا هذهِ القصائدَ؟»

«أجل»، أجابها جاك ببعضِ الحرجِ.

«أنتَ تحبها حقاً».

«هل هذا واضحٌ؟»

ابتسمت له بحنانٍ وقالت: «لي فقط على ما أعتقد. إنَّها أكبر منكَ بكثيرٍ».

«خمسة أعوامٍ...»

«ولكنكَ ستحظى بها. أنتَ تشبهُ والدكَ، وستحظى بأيَّةِ امرأةٍ تريد».

رغم أنَّ جاك شعرَ بالحرجِ من موضوعِ آليانا، غير أنَّه سُرَّ بالتحدثِ عن والدهِ، وتاقَ إلى سماعِ المزيدِ، ولذلك تضايقَ عندما رأى توم قادماً نحوهما

في تلكَ اللحظةِ. جلسَ توم وبدأ بالكلامِ على الفورِ: «كنتُ أتحدثُ مع رئيسِ الدير فيليب عن جاك». ورغمَ أنَّ توم تحدثَ بمرحٍ، غيرَ أن جاكَ شعرَ بتوترٍ في نبرتهِ، وعلمَ أنَّ متاعب تلوح في الأفقِ. «يقترح فيليب أن يتعلم الصبي»، تابع توم.

قالت إيلين بسخطٍ متوقعٍ: «إنَّه متعلمٌ. يستطيعُ القراءة، والكتابة بالإنكليزيةِ، والفرنسية، ويعرفُ الحسابَ، ويمكنهُ إلقاءُ دواوين من الشعرِ...»

«لا تحاولي إساءةَ فهم ما أقوله عن عمدٍ»، قال توم بحزم. «لم يقل فيليب أنَّ جاك جاهل، على العكسِ قال عنه إنَّه ذكي جداً، ويجب أن يتابع تعليمهُ».

لم يُسر جاك بهذهِ الإطراءاتِ فهو يشارك والدتهُ عدمَ ثقتها برجالِ الدينِ. لا بدَّ أنَّ هناك فخاً في الأمرِ.

«يتابع تعليمهُ؟» قالت إيلين باحتقارٍ. «ما الذي يقصدهُ ذلكَ الراهبُ بمتابعةِ تعليمهِ؟ سأخبركَ. اللاهوت. اللاتينية. الخطابة. والميتافيزيقيا. الخراء».

«لا تتسرعي في رفض الأمرِ»، قال توم بلطفٍ. «إن قبلَ جاك بعرضِ فيليب فسيرتاد المدرسة، ويتعلم الكتابةَ بسرعةٍ وبخطٍ جميلٍ، ويدرس اللاتينية واللاهوت، وكلَّ المواد التي قُلت عنها أنَّها خراء، ويصبح موظفاً لمصلحة إيرلٍ أو أسقفٍ، وبذلك قد يصبح رجلاً ثرياً وقوياً، وكما يقول المثل البارونات ليسوا جميعاً أبناء بارونات».

نظرت إيلين شزراً وعلى نحو خطيرٍ ثمَّ سألتهُ: «تقولُ إنَّ فيليب قدَّم له عرضاً، ولكن ما هو هذا العرضُ بالتحديد؟»

«أن يصبح راهباً مبتدئاً».

«على جثتي!» صرخت إيلين ووقفت قافزةً على قدميها. «لن تحظى الكنيسةُ الملعونةُ بابني! أولئكَ الكهنة المخادعون والكاذبون أخذوا والدهُ مني، ولكنهم لن يأخذو ابني أيضاً. أقسمُ بجميعِ الأربابِ أنني سأطعنُ فيليب في بطنهِ قبلَ حدوث هذا».

كان توم قد رأى الأمَّ في نوبةِ غضبٍ من قبلٍ، ولذلكَ لم يُدهش كما كان يحدثُ معه قبلاً، وقالَ بهدوءٍ: «بحقِ الشيطانِ ما خطبك يا امرأة؟ حصلَ الفتى على عرضٍ رائعٍ».

كان جلُّ اهتمامِ جاك مُنصباً على ما عنتهُ والدتهُ بقولها «أولئكَ الكهنة المخادعون والكاذبون أخذوا والدهُ». أرادَ أن يسألها، ولكنه لم يحظَ بفرصةٍ.

«لن يصبح راهباً!» صرخت إيلين.

«إن لم يكن يرغب بهذا فهو غير مضطر لفعلِه»، قال توم.

قطَّبت إيلين حاجبيها وقالت: «ذلك الملعون رئيسُ الديرِ بارعٌ في الحصولِ على ما يريدهُ».

استدارَ توم نحو جاك وسأله: «يجب أن تقولَ شيئاً حيالَ الأمرِ يا فتى. ما الذي تريدُ فعلهُ في حياتكَ؟»

لم يكن جاك قد فكرَ بهذا السؤال بشكلٍ واضحٍ، ولكنه أجابَ من دونِ ترددٍ كأنَّه أخذَ قرارهُ منذُ وقتٍ طويلٍ: «سأصبحُ كبيرَ بنائين مثلكَ، وسأبني أجملَ كاتدرائيةٍ في العالمِ».



عندما غاصَ قرصُ الشمسِ الأحمرِ وراءَ خطِ الأفقِ كان الوقت قد حان لآخر طقسٍ من طقوسِ عيد ليلةِ منتصفِ الصيفِ الذي يُدعى «الأماني العائمة». كان بحوزةِ جاك عقبُ شمعةٍ، وقطعةٌ خشبيةٌ. نظرَ إلى إيلين وتوم وهما يحدقان إليهِ في حيرةٍ بعد أن فاجأهما بيقينهِ حيالَ مستقبلهِ، وهو أيضاً كان متفاجئاً مثلهما.

بعدَ أن رأى جاك أنَّ ما من شيءٍ آخر يمكن أن يُقال قفزَ على قدميهِ، وركضَ عبرَ المرجِ باتجاهِ النارِ التي أُضرمت في الهواءِ الطلقِ. أشعلَ غصناً صغيراً من النارِ، وأذابَ قاعدةَ الشمعةِ قليلاً، وثبَّته على قطعةِ الخشبِ ثمَّ أشعلَ الفتيلَ. فعلَ معظمُ سكانِ القريةِ الأمرَ عينهُ، ومن لم يكن بوسعهِ شراء شمعةٍ صنعَ ما يشبه القاربَ من العشبِ ونبات السّمار الجافِ، وصنعوا فتيلاً في المنتصفِ من الأعشابِ المجدولةِ.

لاحظَ جاك أنَّ آليانا وقفت قريبةً منه، ووهجُ النارِ الأحمرِ يؤطرُ وجهها. بدت غارقةً في التفكيرِ وبشكلٍ عفوي سألها: «ما الذي ستتمنينه يا آليانا؟»

أجابته بسرعةٍ ومن دونِ تفكيرٍ: «السلام» ثمَّ بدت مرتاعةً بعضَ الشيءِ، وابتعدت.

تساءل جاك في نفسهِ إن كان مجنوناً لوقوعهِ في غرامها. كانت تستلطفهُ

جداً، وقد أصبحا صديقين، إلا أنَّ فكرةَ الاستلقاءِ معاً عاريين، وتقبيل أحدهما لبشرةِ الآخر المهتاجةِ بعيدةٌ عن تفكيرها بقدرِ قربها من تفكيرِهِ.

حالما بات الجميعُ جاهزين ركعوا عندَ ضفةِ النهرِ أو خاضوا في المياهِ الضحلةِ حاملين شموعهم بذؤاباتها المتراقصةِ، وتمنَّوا أمانيهم. أغلقَ جاك عينيهِ بقوةٍ متخيلاً آليانا مستلقيةً على السريرِ وثدياها فوقَ الغطاءِ وتمد ذراعيها له وهي تقول له: «ضاجعني يا زوجي»، ثمَّ وبعنايةٍ وضعَ الجميعُ أطواف شعلاتهم في النهرِ. إن غرق الطوفُ، أو انطفأت الشمعة، فهذا يعني أنَّ الأمنية لن تتحقق. حالما أفلت جاك قطعةَ الخشبِ الصغيرةَ تحركت بسرعةٍ. ورغمَ أنَّ القاعدةَ الخشبيةَ غارت تحتَ الماءِ غيرَ أنَّ الشعلةَ بقيت مرئيةً. راقبَ جاك طوفهُ بتوترٍ لبعضِ الوقتِ ثمَّ أضاعَ مسارهُ بينَ مئاتِ الأنوارِ المتراقصةِ على سطحِ الماءِ. تابعت الأماني العائمةُ مسارها أسفلَ النهرِ إلى أن اختفت عندَ منعطفٍ، وغابت عن الأنظارِ.

– 3 –

قضى جاك ذلك الصيف بأكملهِ يروي الحكايا لآليانا.

في البدايةِ كانا يلتقيان في الفُرجةِ قربَ الشلالِ الصغيرِ في الغابةِ بين الفينةِ والأخرى من أيامِ الآحادِ ثمَّ بات لقاؤهما منتظماً. أخبرها عن شارلمان وفرسانهِ، وملك إنكلترا وليم الثالث، والعرب المسلمين، وبات مأخوذاً جداً بالقصصِ وهو يرويها لآليانا التي أحبَّت مراقبةَ تقلبات تعابيرِ وجههِ. كان يُبدي سُخطاً حيالَ الظلمِ، وهلعاً من الخيانةِ، وحماسةً تجاهَ شجاعةِ الفرسانِ، وحزناً إلى درجةِ البكاءِ عندما يقع موتٌ بطولي. وجدت آليانا مشاعرهُ جذابةً وتأثرت بها جداً. كانت بعضُ القصائدِ طويلةً جداً لتُستحضر في جلسةٍ واحدةٍ بعدَ الظُهرِ، وعندما اضطر إلى روايةِ حكايةٍ على أجزاءٍ يعمدُ على الدوامِ إلى التوقفِ في لحظةٍ تتوترُ فيها الأحداثُ حتَّى تقضي آليانا الأسبوعَ بأكملِهِ متسائلةً عمّا سيحدث بعد ذلك.

لم تخبر آليانا أحداً عن هذهِ اللقاءات، ولم تعرف سبباً لعدمِ قيامها بهذا. ربما لأنَّ ما من أحدٍ سيفهم فتنةَ هذهِ القصصِ. أيّاً يكن السببُ فقد جعلت الناس يعتقدون أنَّها تذهبُ في نزهتها المعتادةِ في ظهيرةِ الآحادِ، ومن دونِ

استشارتها فعلَ جاكُ المثلَ، وتطورَ الأمرُ إلى مرحلةٍ لم يكن بوسعهما إخبارُ أحدٍ بالأمرِ دونَ أن يخاطرا بالاعترافِ بأمرٍ قد يُشعرهما بالحرجِ، ولهذا وباتفاقٍ ضمني، باتت لقاءاتهما سريَّةً.

في أحدٍ من تلك الآحادِ وعلى سبيلِ التغييرِ قرأت له آليانا من كتابِ «مغامرات الإسكندر». وعلى عكسِ قصائدِ جاكِ الآسرةِ والمتقنةِ عن أحداثٍ سياسية عالمية، ووفيات مفاجئة في ساحاتِ المعاركِ كان كتابُ آليانا عن علاقات الحب والسحرِ. انبهرَ جاك بعناصرِ القصِّ الجديدةِ، وفي الأحدِ التالي بدأ يروي عليها مغامرةً رومانسيةً جديدةً من اختراعهِ.

كان يوماً حاراً من أيامِ شهرِ آب/ أغسطس وقد ارتدت آليانا ثوباً قطنياً خفيفاً، وانتعلت صندلاً، وباستثناءِ رقرقةِ مياهِ الشلالِ، وصوتِ جاك المتصاعدِ والمنخفضِ سيطرَ السكونُ والصمتُ على الغابةِ. بدأ جاك حكايتهُ بطريقةٍ تقليديةٍ مع فارسٍ ضخمٍ وقوي وشجاعٍ في المعاركِ يحملُ سيفاً سحرياً، وبصددِ مهمةٍ صعبةٍ وهي السفرُ إلى أقاصي الأراضي الشرقيةِ، وإحضارُ عريشةٍ تُثمرُ ياقوتاً، غير أنَّ مسارَ الحكاية تغيرَ بسرعةٍ بعد أن قُتلَ الفارسُ، وباتت الحكايةُ تتمحور حولَ مرافقهِ الشجاع وهو شابٌ في السابعة عشرة شجاعٌ ولكنه فقير وواقعٌ في غرامِ ابنةِ الملكِ الجميلةِ. في الحكايةِ تعهّد المرافق، رغمَ يفاعتهِ وقلة خبرتهِ وعدم امتلاكهِ سوى جوادٍ قصيرٍ أرقش وقوسٍ، بإنهاءِ المهمةِ التي كُلّفَ بها سيّدُه الفارس.

وبدلاً من القضاءِ على العدو بضربةٍ مهيبةٍ من سيفٍ سحري كما يفعلُ البطلُ عادةً في مثلِ هذهِ القصصِ حاربَ المرافقُ بيأسٍ، وخسرَ المعارك، ولم يربح إلَّا بضرباتِ حظٍ أو دهاءٍ، ونجا من الموتِ بشقِ النفسِ، وفي أغلبِ الأوقاتِ، وعلى عكسِ فرسان شارلمان الشجعان، شعرَ البطلُ بالخوف من الأعداءِ الذين واجههم، ولكنه لم يتخلَ قط عن مهمتهِ، وكما كانت مهمتهُ ميئوساً منها كان حبهُ للأميرةِ أيضاً.

وجدت آليانا نفسها مفتونةً بشجاعةِ المرافقِ أكثر مما فتنتها قوةُ سيدهِ، وعضَّت على أصابعها من التوترِ عندما توجهَ المرافقُ إلى أرضِ الأعداءِ، وشهقت عندما كادَ سيفُ العملاقِ يصيبهُ، وتأوهت في حزنٍ عندما استلقى المرافقُ لينام وهو يحلمُ بالأميرةِ البعيدةِ، وبدا لها حبهُ جزءاً من قوتهِ.

في نهايةِ المطافِ أذهلَ المرافقُ البلاطَ الملكي بأكملهِ بعودتهِ إلى الديارِ مع العريشةِ التي تُثمر ياقوتاً. «ولكن المرافق لم يهتم كثيراً»، قال جاك مفرقعاً أصابعهُ بازدراءٍ ثمَّ تابع: «بكلِّ أولئكَ البارونات والإيرلات، فلم يكن يعنيه سوى شخص واحد. في تلكَ الليلةِ تسللَ المرافقُ إلى غرفةِ الأميرةِ، وتجنَّبَ الحرَّاس بخدعةٍ ماكرةٍ تعلمها خلالَ رحلتهِ إلى الشرقِ، ووقفَ أخيراً قبالةَ سريرها محدقاً إلى وجهها»، ثمَّ نظرَ جاك في عيني آليانا وقال: «استفاقت الأميرةُ على الفورِ، ولكنها لم تكن خائفةً. مدَّ المرافقُ يدهُ وأمسكَ بيدها». أمسكَ جاك بيدِ آليانا بكلتا يديهِ. تسمَّرت آليانا بقوةِ نظرةِ جاك وقوةِ حبِّ المرافقِ، وبالكادِ لاحظت أنَّ جاك يُمسكُ يدها. «وقال لها: 'أحبّكِ حُباً جماً' وقبَّلها على شفتيها»، ثمَّ انحنى جاك وقبَّلَ آليانا. لامست شفتاه شفتيها برقّةٍ شديدةٍ بالكادِ شعرت معها آليانا بالقُبلةِ. حدثَ الأمرُ بسرعةٍ، وتابعَ جاك القصةَ على الفورِ: «وغرقت الأميرةُ في النومِ». فكرت آليانا في نفسها: «هل ما حدث حقيقي؟ هل قبلني جاك؟» لم تكن قادرةً على تصديقِ ما حدث، ولكن ملمسَ فمهِ على فمها لازمها. «في اليومِ التالي طلبَ المرافقُ من الملكِ تزويجهُ الأميرة مكافأةً له على جلبِ العريشةِ». وقررت آليانا في نفسها أنَّ جاك قبَّلها من دونِ تفكيرٍ، وأنَّ ما حدثَ جزءٌ من القصةِ. إنَّه حتماً لم يدرك ما قامَ بهِ، ولذلكَ ستنسى أمرَ ما حدث. «رفضَ الملكُ طلبَ المرافقِ وفطرَ قلبه دافعاً برجالِ البلاطِ إلى الضحكِ عليهِ. في ذلكَ اليوم امتطى المرافقُ جوادهُ الأرقشِ بنيَّةِ تركِ البلدِ، ولكنه أقسمَ على العودةِ في يوم من الأيام، وفي ذلكَ اليوم سيتزوج من الأميرةِ الجميلةِ»، وهنا توقفَ جاك وأفلتَ يد آليانا.

«وماذا حدثَ بعد هذا؟» سألت آليانا.

«لا أعلم»، أجاب جاك ثمَّ أضاف: «لم أفكر بهذا بعد».

***

انضمَّ جميعُ كبارِ مواطني كينغزبريدج إلى نقابةِ الأبرشيةِ. كانت فكرةً جديدةً عليهم، ولكنهم أحبوا فكرةَ أن كينغزبريدج الآن بلدةٌ ولم تعد مجرد قريةٍ، وشعروا بالفخرِ أن يَطلبَ منهم، عليةُ القومِ، دفعَ كلفةِ بناءِ كنيسةٍ حجريةٍ.

اختارت آليانا وآلفريد أعضاءَ النقابةِ، ونظَّموا أولَ غداءٍ للنقابة في منتصفِ شهرِ أيلول/ سبتمبر. غابَ رئيسُ الديرِ فيليب الذي أبدى عداءً

تجاه المشروع، ولكن لم يكن عداؤهُ كبيراً كفايةً لمنعهِ، وغابَ أيضاً البنّاء توم احتراماً لمشاعرِ فيليب، ومالاتشي لكونهِ يهودياً.

في هذهِ الأثناءِ أنهت إيلين نسجَ رزمة قماشٍ من فائضِ صوفِ آليانا. كان القماشُ خشناً وبلا لونٍ، ولكنه من نوعيةٍ جيدةٍ لأرديةِ الرهبانِ، ولذلك اشتراه وكيلُ مؤنِ الديرِ كوثبرت. وعلى الرغمِ من رخصهِ فإنَّ ثمنهُ كان ضعفَ ثمنِ الصوفِ الخامِ، وحتّى بعد أن دفعت آليانا بنساً لإيلين عن كلِّ يومِ عملٍ، خرجت آليانا بربحٍ مقداره نصفُ جنيه. عبَّرَ كوثبرت عن رغبتهِ في شراءِ المزيدِ من القماشِ بهذا السعرِ، ولذلكَ اشترت آليانا فائضَ صوفِ فيليب، وأضافتهُ إلى مخزونها، واستعانت بالمزيد من الناسِ، معظمهم من النساءِ، لنسجهِ. وافقت إيلين على نسجِ رزمةٍ أخرى من القماشِ، ولكنها قالت إنَّ دعكهُ صعبٌ جداً، وهذا ما قاله الآخرون أيضاً.

تعاطفت آليانا معهم فقد كان دعكُ القماشِ عملاً صعباً، وتذكرت معلمَ الدعكِ الذي قابلتهُ في وينشستر، وطلبت منه إعطاءها هي وريتشارد عملاً. كان لدى المعلمِ عاملان يضربان القماشَ بالعصي، وامرأةٌ تسكبُ الماءَ فوقهُ. تتذكرُ آليانا يدي المرأةِ المُحمرتين والخشنتين، وعندما وضعَ الرجالُ رزمةً من القماشِ الرطبِ على ظهرِ ريتشارد خرَّ الأخيرُ على ركبتيهِ من ثقلهِ. يُمكنُ لمعظمِ الناسِ دعكُ كميةٍ قليلةٍ من القماشِ لاستخدامها في صنعِ الثيابِ لهم ولعوائلهم، ولكن حجمَ العمل لدى آليانا سيحتاجُ إلى رجالٍ أقوياءٍ يعملون طوالَ اليومِ. طلبت آليانا من نساجيها أن ينسجوا القماشَ، وقالت لهم إنَّها ستستعين برجالٍ لدعكهِ، أو ستبيعهُ إلى معلمِ دعكٍ في وينشستر.

أُقيمَ اجتماعُ النقابةِ في الكنيسةِ الخشبيةِ، ورتبت آليانا أمورَ الطعامِ، ووزعت مهامَ الطبخِ على الأعضاء بُحكمِ أنَّ معظمهم يمتلكون خادماً على الأقلِّ في منازلهم. نصبَ آلفريد ورجالهُ طاولةً طويلةً من ألواحٍ ومناصب، واشتروا جعةً قويةً، وبرميلاً من النبيذِ.

***

جلسَ الجميع على جانبي الطاولةِ، وليسَ عندَ رأسها أو أسفلها، فقد كان الجميعُ متساوين داخلَ النقابةِ. ارتدت آليانا ثوباً حريرياً بلونٍ أحمر داكن، وزينتهُ بدبوسٍ ذهبي مُطعم بياقوتةٍ، وسترةً رمادية داكنةً وطويلةً حتّى الركبتين

مع أكمامٍ واسعةٍ. تلا كاهنُ الأبرشيةِ صلاةَ شكرٍ. كان مسروراً لإنشاءِ نقابةٍ فالكنيسةُ الجديدةُ ستُعلي من مقامهِ، وستُضاعفُ مدخولهُ.

قدَّم آلفريد ميزانيةً وجدولاً زمنياً لبناءِ الكنيسةِ الجديدةِ. تحدَّثَ كأنَّه من وضعَ المخططَ، ولكن آليانا علمت أنَّ توم قامَ بمعظمِ العملِ. وفقاً لآلفريد سيستغرقُ بناءُ الكنيسةِ عامين وبكلفةٍ تسعين جنيهاً. اقترحَ أن يدفعَ كلُّ عضو من الأعضاءِ الأربعين في النقابةِ ستةَ بنساتٍ أسبوعياً، وبالنظرِ إلى وجوهِ الحاضرين علمت آليانا أنَّ المبلغَ المطلوب أكبر بقليلٍ من قدرةِ البعضِ على دفعهِ. وافقَ الجميعُ على الدفعِ، ولكن آليانا اعتقدت أنَّ عليهم توقعَ تخلّفِ عضو أو عضوين عن الدفعِ.

تستطيعُ آليانا دفعَ المبلغِ بسهولةٍ، وعندما نظرت حولها أدركت أنَّها كانت أثرى الحاضرين، ومن بينِ أقليةِ النساءِ الثرياتِ أيضاً؛ فبالإضافةِ إليها هناكَ صانعةُ الجعةِ المشهورةُ بجعتها القويةِ والجيدةِ، وخياطةٌ تعمل لديها خياطتان وبعضُ المتدربات، وأرملةُ صانعِ أحذيةٍ تديرُ عملَ زوجها بعدَ أن تركها. كانت آليانا أصغر أولئك النسوةِ، وآلفريد الذي يصغرها بعامٍ أو عامين، أصغر الرجالِ.

اشتاقت آليانا إلى جاك فهي لم تسمع بعد الجزء الثاني من قصةِ المرافقِ الشابِ. كان اليومُ عطلةً، وستكون مسرورةً جداً بلقائهِ في الفُرجةِ. ربما مازال بإمكانها لقاؤهُ لاحقاً.

تحولَ النقاشُ حولَ مائدةِ الطعامِ إلى موضوعِ الحربِ الأهليةِ. كانت الملكةُ ماتيلدا -زوجةُ ستيفن- قد قاتلت بضراوةٍ غير متوقعة، ووضعت يدها مؤخراً على مدينةِ وينشستر، وأسرت روبرت غلوستر. كان روبرت شقيقَ الإمبراطورةِ مود وقائدَ قواتها العسكريةِ. يقولُ بعضُ الناسِ إنَّ مود قائدةٌ صوريةٌ، وإنَّ القائدَ الحقيقي للتمردِ هو روبرت. على أيِّ حالٍ، وبالنسبةِ إلى مناصري روبرت، كان وقوعهُ في الأسرِ بسوءِ وقوع الملكِ ستيفن أسيراً لمود. أدلى جميعُ الحاضرين بوجهاتِ نظرٍ مختلفةٍ عن المسار الذي ستأخذهُ الحرب الآن.

كان المشروب الذي قُدم خلالَ الوليمةِ أقوى من المشروبِ الذي يقدمهُ رئيسُ الديرِ فيليب، ومع مرورِ الوقتِ بدأ السكارى يتصرفون بفظاظةٍ. فشلَ

كاهنُ الأبرشيةِ في ضبطِ الموقفِ، ربما لأنَّه نفسهُ كان ثملاً كالبقيةِ، أما آلفريد الذي جلسَ إلى جانبِ آليانا فقد بدا مشغولَ البالِ، ولكنه أيضاً كان ثملاً. لم تكن آليانا مغرمةً بالشرابِ القوي، ولذلك لم تتناول سوى كأسٍ من عصيرِ التفاحِ مع غدائها.

عندما أنهوا معظمَ الطعامِ على الطاولةِ اقترحَ أحدهم نخبَ آلفريد وآليانا. أشرقَ وجه آلفريد وهو يشكرُ صاحبَ الاقتراحِ. بعدَ النخبِ بدأ الغناءِ، وتساءلت آليانا في نفسها إن كانت تستطيعُ المغادرة دونَ أن يلحظها أحد.

قال لها آلفريد: «كلانا أبلى جيداً».

ابتسمت آليانا وقالت: «أتساءل عن عددِ الذين سيستمرون بدفعِ المستحقات أسبوعياً وحتَّى هذا الوقتِ من العامِ القادمِ».

لم يرغب آلفريد بسماعِ أَيَّةِ شكوكٍ أو تقييماتِ اليوم، ولذلك كررَ قائلاً: «كلانا أبلى جيداً. إننا فريقٌ جيدٌ»، ورفعَ كأسهُ لها ثمَّ شربَ وأضافَ: «ألا تعتقدين أننا فريقٌ جيدٌ؟»

«إننا كذلكَ حتماً»، قالت له ممازحةً.

«لقد استمتعت بهذا»، تابع آلفريد. «فعلُ هذا... أعني النقابة».

«وأنا استمتعتُ أيضاً»، قالت بتهذيبٍ.

«حقاً؟ هذا يسعدني جداً».

نظرت إليهِ بإمعانٍ أكبر، وتساءلت في نفسها عن سببِ تشديدهِ على هذا التفصيلِ. كان كلامهُ واضحاً ودقيقاً دونَ أن يكون هناك ما يشي أنَّه ثملٌ حقاً.

«كان أمراً جيداً»، قالت له بحياديةٍ.

وضعَ يدهُ على كتفها. لطالما كرهت أن يلمسها أحدٌ، ولكنها درَّبت نفسها على ألا تجفل عندَ حدوثِ هذا لأنَّ الرجالَ عندها سيشعرون بالإهانةِ.

«أخبريني بأمرٍ»، قال لها بصوتٍ واطئ وحميمي. «ما الذي تبحثين عنهُ في الزوجِ؟»

فكرت آليانا بأسى أنَّه حتماً لا ينوي طلبَ الزواجِ منها، ولذلك أجابتهُ جوابها المعتاد: «لا أحتاجُ إلى زوجٍ؛ فأخي يسبب لي ما يكفي من المتاعبِ».

«ولكنكِ بحاجةٍ إلى الحبِّ»، قال لها.

شعرت بالامتعاضِ.

كانت على وشكِ إجابتِهِ، ولكنه سارعَ إلى رفعِ يدِهِ لمنعها. لطالما أغضبتها هذهِ العادة الذكوريةُ. «لا تقولي لي إنَّكِ لستِ بحاجةٍ إلى الحبِّ»، قال لها. «الجميعُ يحتاجُ إلى الحبِّ».

حدَّقت إليهِ في ترقُّبٍ. تعلمُ جيداً أنَّ الناس يعتقدون أنَّها غريبةُ الأطوارِ لعدمِ رغبتها بالزواجِ؛ فمعظمُ النساءِ حريصات على الزواجِ، وإن كُنَّ عازبات وفي الثانيةِ والعشرين لن يكن حريصات وحسب بل يائسات للحصولِ على زوجٍ، وتساءلت في نفسها إن كانت تعاني من خطبٍ ما. كان آلفريد شاباً مناسباً، وأحواله مزدهرةً، ونصفُ فتياتِ كينغزبريدج يرغبن بالزواجِ منه. ولوهلةٍ فكرت بما سيكون عليهِ الوضعُ لو قبلت بآلفريد زوجاً، ولكن عندما تخيلت قضاءَ بقيةِ حياتها معهُ، وتناولَ العشاءِ كلَّ يومٍ والذهاب إلى الكنيسةِ معاً، وإنجاب أطفالهِ، وجدت الفكرةَ مروعةً، وشعرت أنَّها تفضلُ العيشَ وحيدةً، ولذلكَ هزَّت رأسها في رفضٍ. «لا تفكر بالأمرِ يا آلفريد»، قالت له بحزمٍ. «لستُ بحاجةٍ إلى زوجٍ لأحصلَ على الحبِّ، أو على أيِّ شيءٍ آخر».

لم يُثنِ هذا الجواب آلفريد بل قال لها: «أحبكِ يا آليانا. جعلني العملُ معكِ سعيداً حقاً. أحتاجكِ. هلَّا تزوجتِ بي؟»

ها هو يُفصحُ عن الأمرِ صراحةً، وشعرت آليانا بالأسى لأنَّها ستضطرُ الآن إلى رفضهِ بشكلٍ رسمي، ولكن وفي الوقتِ عينهِ علمت أن الرفضَ بلطفٍ لن يكون مُجدياً؛ فالرجالُ يعتبرون الرفضَ اللطيفَ دليلَ ترددٍ، ولذلك قررت ألا ترفضهُ بلطفٍ. «لا، لن أتزوجَ بكَ»، قالت له. «أنا لا أحبكَ، ولم أستمتع بالعملِ معكَ، ولن أتزوجَ بكَ حتَّى وإن كنتَ الرجلَ الوحيدَ على وجه الأرضِ».

بدا متألماً. لا بدَّ أنَّه اعتقدَ أنَّ فرصتهُ قويةٌ، وكانت آليانا واثقةً من أنَّها لم تقم بشيءٍ لتشجيعهِ بل عاملتهُ كشريكٍ مساوٍ لها، وأصغت إليهِ عندما تحدَّثَ، وتحدثت إليهِ بصراحةٍ ومن دونِ مراوغةٍ، وأدت مهامها، وتوقعت منه تأدية مهامهِ، ولكن بعض الرجالِ يعتبرون ذلكَ تشجيعاً.

«كيفَ يمكنكِ قولُ هذا؟» دمدمَ آلفريد.

تنهدت آليانا. ها هي جرحتهُ، وشعرت بالأسى عليهِ، ولكنه بعد قليلٍ سيشعرُ بالسخطِ، ويعاملها كأنَّها وجهت له اتهاماً ظالماً ثمَّ سيقنعُ نفسهُ أخيراً

أنَّها أهانتهُ من دونِ سببٍ صريحٍ ويهينها. لا يتصرف جميعُ الخاطبين بهذهِ الطريقةِ، ولكن بعضهم يفعلُ هذا، وكان آلفريد من هذا النوعِ، ولذلكَ علمت أنَّه يتوجب عليها المغادرة.

وقفت وقالت: «أقدرُ لكَ عرضكَ، وأشكركَ على الشرفِ الذي منحتني إياه. من فضلكَ احترم رفضي، ولا تعرض علي هذا مجدداً».

«أفترضُ أنَّكِ ستهربين لمقابلةِ أخي الصغير المتعالي»، قال بقُحَّةٍ ثمَّ أضافَ: «لا يمكنني أن أتخيلَ أنَّه يمنحكِ متعةً كبيرةً».

احمرَّت آليانا خجلاً، وأدركت أنَّ الناس لاحظوا صداقتها مع جاك. لا بدَّ أنَّ آلفريد فسرَ هذهِ الصداقة بطريقةٍ قذرةٍ. حسناً، ستهربُ لملاقاةِ جاك، ولن تسمح لآلفريد بمنعها. انحنت وألصقت وجهها بوجهِ آلفريد؛ فجفلَ الأخيرُ من حركتها، ثمَّ وبكلِّ هدوءٍ وتروٍ قالت له: «فلتذهب.. إلى .. الجحيم»، ثمَّ استدارت وغادرت.

***

يقيمُ رئيسُ الديرِ فيليب محكمةً في سردابِ الكنيسةِ مرَّةً واحدةً في الشهرِ. في ما مضى لم تكن المحكمةُ تقام سوى مرَّة كلَّ عامٍ، وحتَّى آنذاك لم تأخذ مجرياتها اليومَ بأكملهِ، ولكن منذئذٍ تضاعفت أعدادُ سكانِ كينغزبريدج وتضاعفت معها حالاتُ خرقِ القانونِ.

علاوةً على ذلكَ كانت طبيعةُ الجُنحِ نفسها قد تغيرت. في السابقِ تمحورت حولَ الأراضي، والمحاصيل، والمواشي كأن يقوم فلاحٌ جشعٌ بالتعدي سراً على أرضِ جارهِ، ويقتطع منها لزيادةِ مساحةِ أرضهِ، أو يسرق عاملٌ كيسَ ذرةٍ من الأرملةِ التي يعملُ لديها، أو أن تقوم امرأةٌ فقيرةٌ تملكُ الكثيرَ من الأطفالِ بحلبِ بقرةٍ ليست ملكها، أمَّا الآن فكانت معظمُ الجرائمِ لها علاقةٌ بالمالِ. فكرَ فيليب بهذا وهو يتابع مجريات محكمتهِ في أولِ يومٍ من أيامِ شهرِ كانون الأول/ ديسمبر. كان هناك متدربون سرقوا المالَ من معلميهم، وزوجٌ سرقَ مدخراتِ والدةِ زوجتهِ، وتجارٌ تعاملوا بعملةٍ مزورةٍ، ونساءٌ ثريات بخسنَ خدمهنّ البسطاء أجورهم الأسبوعية التي بالكادِ يمكن القول عنها إنَّها أجور. لم تحدث مثلُ هذهِ الجُنحِ في كينغزبريدج قبلَ خمسةِ أعوامٍ، وذلكَ لأنَّ ما من أحدٍ امتلكَ المال.

في أغلبيةِ الجُنحِ قضى فيليب بفرضِ غراماتٍ. يستطيع معاقبة المتهمين بجلدهم، أو تقييدهم بالسلاسلِ، أو سجنهم في زنزانةٍ تحتَ مهجعِ الرهبانِ، ولكن مثلَ هذهِ العقوبات باتتَ نادرةً ومخصصةً فقط لجرائمِ العنفِ. امتلك أيضاً الحقَّ بشنقِ السارقين، والديرُ يملكُ مشنقةً خشبيةً متينةً، ولكن فيليب لم يستخدمها حتَّى الآن، وتمنى سرَّاً ألا يضطر إلى فعلِ هذا. معظمُ محاكماتِ الجرائمِ الخطيرةِ كالقتلِ، أو صيدِ غزلانِ الملكِ، أو النهبِ على الطرقاتِ من اختصاصِ المحكمةِ الملكيةِ في شايرنغ، ويحكمُ فيها المأمورُ إيستس الذي أحبَّ إعدام الناس.

عُرضت على فيليب اليوم سبعُ قضايا طحنِ الذرة من دونِ تصريحٍ. مؤخراً بُنيت مطحنةٌ مائيةٌ في الدير إلى جانبِ المطحنةِ القديمةِ بعد أن باتَت كينغزبريدج الآن بحاجةٍ إلى مطحنتين، إلا أنَّ استخدامَ المطحنةِ الجديدةِ مأجورٌ، وهذا يعني أنَّه على الجميع إحضارُ الذرةِ إلى الدير لطحنها. قانونياً، لم يكن يُسمح للفلاحين في أيِّ منطقةٍ من البلدِ بطحنِ الذرة في المنزلِ، بل عليهم الدفعُ إلى سيدهم كي يطحنها لهم، ولكن في السنواتِ الأخيرةِ كبرت كينغزبريدج، وأخذت المطحنةُ القديمةُ تتعطلُ باستمرارٍ فاضطرَ فيليب إلى غضِّ النظرِ عمن طحنوا بطريقةٍ غير شرعيةٍ، ولكن كان عليهِ ردعهم الآن.

كانَ أمامهُ لوحٌ بأسماءِ الجانحين وقرأها على الملأ، اسماً تلو الآخر، بدءاً بأثراهم.

«ريتشارد لونغإيكر. يقول الأخ فرانسيسكس إنَّك تملكُ مطحنةً كبيرةً ويُشغلها رجلان». كان فرانسيسكس طحانَ الديرِ.

تقدَّم مزارعٌ ميسور الحالِ وقال: «أجل يا سيدي رئيسَ الديرِ، ولكني حطمتُ المطحنة الآن».

«ادفع ستين بنساً. إينيد صانعةُ الجعةِ. لديكِ مطحنةٌ يدويةٌ في مصنعكِ، وشوهد ابنك إيريك يستخدمها، ولذلك فهو متهمٌ أيضاً».

«أجل يا سيدي»، قالت إينيد وكانت امرأةً بوجهٍ مُحمرٍ وكتفين قويتين.

«وأينَ المطحنة اليدوية الآن؟» سألها فيليب.

«رميتها في النهرِ يا سيدي».

لم يصدقها فيليب، ولكن لم يكن بوسعهِ القيامُ بشيءٍ حيالَ الأمرِ. «غرامتكِ أربعة وعشرون بنساً، وغرامةُ ابنكِ اثنا عشرَ بنساً. الدباغ والتر؟»

وتابعَ فيليب قراءةَ الأسماءِ من القائمةِ، وفرضِ غرامات وفقاً لحالاتهم الجرميةِ إلى أن وصلَ إلى أفقرهم: «الأرملة غودا؟»

تقدَّمت امرأةٌ عجوزٌ بوجهٍ صغيرٍ، وثيابٍ سوداء كالحةٍ.

«رآكِ الأخ فرانسيسكس تطحنين الذرة بحجرٍ».

«ليس لدي مالٌ لأطحنَ في مطحنةِ الديرِ يا سيدي»، قالت المرأةُ بامتعاضٍ.

«ولكنك تملكين بنساً لشراءِ الذرةِ»، قال فيليب ثمَّ أضافَ: «ويجب أن تُعاقبي كالبقيةِ».

«هل ترضى أن أتضورَ جوعاً؟» قالت بتحدٍ.

تنهدَ فيليب، وتمنَّى من أعماقهِ لو أنَّ الأخَ فرانسيسكس لم يرَ غودا تخرقُ القانون. «متى كانت آخر مرةٍ ماتَ فيها أحدٌ في كينغزبريدج جوعاً؟» قال فيليب، ونظرَ حوله إلى المواطنين المجتمعين. «هل من أحد بينكم يتذكرُ آخرَ مرةٍ ماتَ فيها شخصٌ من الجوعِ في بلدتكم؟» وتوقفَ عن الكلامِ لبرهةٍ كأنَّه ينتظرُ جواباً ثمَّ أضاف: «أعتقدُ أنَّ هذا حدثَ قبلَ عهدي».

قالت غودا: «توفي ديك شورتهاوس الشتاء الماضي».

تذكرَ فيليب الرجل فقد كان متسولاً ينامُ في حظائر الخنازيرِ والإسطبلات. «سقطَ ديك في الشارعِ في منتصفِ الليلِ لأنَّه كان ثملاً، وتوفي متجمداً من البردِ عندما أثلجت»، قال فيليب. «لم يتضور جوعاً، ولو أنَّه كانَ صاحياً بما يكفي لدخلَ إلى الدير، ولم يكن ليتجمد. إن كنتِ جائعةً لا تخدعيني بل تعالي إليَّ كي أُحسنَ إليكِ. إن كانت كبرياؤكِ لا تسمحُ لكِ، وتفضلين خرقَ القانونِ فعليكِ تحملُ العقوبةِ كالبقيةِ، هل سمعتني؟»

«أجل يا سيدي»، قالت المرأة العجوز بتجهمٍ.

«غرامتكِ فارذينغ واحد»، قال فيليب. «انتهت المحاكمات».

وقفَ فيليب، وصعدَ الدرجَ الذي يصلُ بينَ السردابِ والطابقِ الأرضي.

سارَ العملُ على بناءِ الكاتدرائيةِ الجديدةِ، وكما يحدثُ عادةً قبلَ شهرٍ أو أكثر على عيدِ الميلادِ، ببطءٍ شديدٍ. غُطيت حوافُ وقممُ المناطقِ غير

المنتهيةِ بالقشِّ والروثِ من إسطبلاتِ الديرِ لحمايةِ الحجارةِ من الصقيع. يقول البناؤون إنَّهم لا يستطيعون العملَ خلالَ الشتاءِ بسببِ الصقيع، وسألَ فيليب توم عن سببِ عدمِ كشفِ الجدرانِ في الصباحِ، وتغطيتها مجدداً في الليلِ بما أنَّ الصقيعَ لا يحدث نهاراً، فأجابه الأخير أنّ الجدران التي تُبنى شتاءً تتهدم، وصدَّقَ فيليب هذا، ولكنه لم يعتقد أنَّ للصقيعِ دوراً في الأمرِ بل السبب الحقيقي هو أنَّ الملاط يأخذُ شهوراً عديدةً ليستقرَّ ويتصلَّبَ كما يجب، ولذلك فإنَّ استراحةَ الشتاءِ تسمحُ له بالتصلبِ قبلَ متابعةِ أعمالِ البناءِ في العامِ الجديدِ. لهذا السببِ أيضاً يتطيرُ البناؤون من رفعِ البناءِ أكثر من عشرين قدماً في العامِ الواحدِ ويعتبرونه فألاً سيئاً؛ فأعمالُ البناءِ في الأسفلِ قد تتشوه بفعلِ وزنِ الحجارةِ التي تضافُ فوقها قبلَ أن يجفَّ الملاط.

تفاجأ فيليب عندما رأى جميع البنائين مُجتمعين في ما سيصبحُ مذبحَ الكنيسةِ الجديدةِ. توجهَ إليهم ليشاهد ما يفعلونه.

كانوا يعملون على قنطرةٍ خشبيةٍ، وقد وضعوها باستقامةٍ ودعموها بعصي على كلا الجانبين. علمَ فيليب أنَّ القنطرةَ الخشبيةَ تدعى القالب، والغرضُ منها دعمُ حجارةِ القنطرةِ خلالَ بنائها. كان البناؤون الآن يركّبون القنطرةَ على الأرضِ، من دونِ ملاطٍ، للتأكد من أنَّ الحجارةَ تتناسب بعضها مع بعض. رفعَ المتدربون والعاملون الحجارةَ فوقَ القالبِ بينما وقفَ البناؤون ينظرون إلى القنطرةِ ويدرسونها.

التقت نظرات فيليب بنظرات توم وقال الأول: «ما هذا؟»

«إنَّها قنطرةُ شرفةِ المنبرِ».

رفعَ فيليب ناظريه عالياً بشكلٍ عفوي. كان العملُ على المجازِ المقنطرِ قد انتهى العام الماضي، وسينتهي العملُ على شرفةِ المنبر العام المقبل، ولن يتبقى سوى بناء الجزء العلوي من الكنيسةِ حيثُ النوافذ العلويةُ قبلَ البدءِ ببناءِ السقفِ. وبما أنَّ الجدران مغطاةٌ الآن فقد عملَ البنَّاؤون على قطعِ الحجارةِ، وتجهيزها من أجلِ العامِ المقبلِ. إن كانت هذهِ القنطرة مناسبةً فستُقطعُ حجارةُ بقيةِ القناطرِ وفقَ النمطِ عينِه.

كان المتدربون، بمن فيهم جاك ابن زوجة توم، يُجمّعون القنطرة من كلا الجانبين بحجارةٍ لها شكلُ إسفين تُدعى «لبنات العقد»، ورغمَ أنَّ

القنطرةَ ستكون عاليةً فإنَّها ستحوي على أفاريز مزخرفة بدقةٍ، وهذا يعني أنَّ كلَّ حجرٍ، وعلى كلِّ سطحٍ مرئي منه، سيحوي على خطٍ من النقوشِ المسننةِ، وخطٍ من الدوائر الصغيرة الشبيهة بالميداليات، أمَّا الخط السفلي فسيكون عبارةً عن تعريقاتٍ محدبةٍ ومقعرةٍ. عندما تُجمع الحجارةُ معاً ستبدو الزخارف كثلاث أقواسٍ متتابعةٍ: قوسٌ بزخرفةٍ مسننةٍ، وأخرى كالمداليات، والأخيرة بتعريقاتٍ محدبةٍ ومقعرةٍ، وستُعطي الناظر انطباعاً أنَّ القنطرة مؤلفةٌ من عدةِ أطواقٍ متتاليةٍ، ولكنها في الحقيقةِ ليست سوى مجموعة من الحجارةِ الشبيهة بالأسافين المصفوفةِ جنباً إلى جنب. على أيِّ حالٍ يجب أن توضعَ الحجارةُ بدقةٍ، وإلا فلن تنطبقَ الزخارف بعضها مع بعض، وسيُفسدُ هذا وهمَ الأطواقِ الثلاثةِ المتتابعةِ.

راقبَ فيليب جاك وهو يضع الحجر التتويجي المركزي[1] في مكانهِ. ها هي القنطرةُ قد اكتملت الآن. أخذَ أربعةُ بنَّائين مطارقهم، وضربوا الأوتادَ التي ترفعُ القالبَ الخشبي فوقَ الأرضِ بضعة إنشات ثمَّ وبشكلٍ مفاجئ وصادمٍ انهارَ القالبُ الخشبي، وعلى الرغمِ من عدمِ استخدامِ الملاطِ بينَ الحجارةِ فإنَّ القنطرةَ بقيت ثابتةً، وهنا نخرَ البنَّاءُ توم في رضا.

شدَّ أحدهم كُمَّ فيليب فاستدارَ الأخير ورأى راهباً شاباً. «لديك زائرٌ يا أبتاه وهو بانتظاركَ في منزلكَ»، قال الراهب.

«شكراً لكَ يا بني»، قال فيليب وتركَ البنائين. إن قادَ الرهبان الزائرَ إلى منزلِ رئيسِ الديرِ لينتظرهُ فهذا يعني أنَّه شخصيةٌ مهمةٌ. عبرَ فيليب الساحةَ ودخلَ إلى منزلهِ.

كان الزائرُ شقيقهُ فرانسيس، وعانقهُ فيليب بُحبٍ. بدا فرانسيس مهموماً وقال له فيليب: «هل قدموا لكَ طعاماً؟ تبدو مرهقاً».

«شكراً. لقد قدموا لي بعضَ الخبزِ واللحمِ. قضيت الخريفَ بأكملهِ بينَ بريستول حيثُ سُجنَ الملك ستيفن وروشستر حيثُ كان الإيرل روبرت مسجوناً».

1- الحجر التتويجي هو لبنةٌ من لبناتِ العقدِ تقع على الزاوية الرأسيّة على قمّة قوس البناء أو القنطرةِ. في كلتا الحالتين، يُعتبرُ الحجر التتويجي القطعة النهائيّة التي تُوضع أثناء البناء ثمَّ تغلق جميع الحجارة في وضع يسمح للقوس أو للقنطرةِ بتحمّل الأوزان. (المترجمة)

«لمَ تقول (كان مسجوناً)؟» سألَ فيليب.

أومأ فرانسيس برأسِهِ وقال: «كنتُ أفاوضُ لمبادلةِ السجينين: ستيفن مقابلِ روبرت. عُقدت صفقةُ التبادلِ في عيدِ القداسِ، وعادَ الملكُ ستيفن الآن إلى وينشستر».

تفاجأ فيليب بما سمعهُ وقال: «يبدو لي أنَّ الإمبراطورة مود عقدت صفقةً سيئةً بمبادلةِ ملكٍ مقابلَ إيرل».

هزَّ فرانسيس رأسهُ وقال: «إنَّها عاجزةٌ من دونِ روبرت؛ فلا أحد يحبها أو يثقُ بها، ويبدو أنَّ كلَّ الدعمِ الذي حظيت به يتداعى، ولذلك توجبَ عليها استرجاع روبرت. الملكةُ ماتيلدا ذكيةٌ فهي لم تقبل بشيءٍ آخر سوى استرجاعِ الملكِ ستيفن، وتمسكت بمطلبها إلى أن حصلت عليهِ أخيراً».

توجه فيليب إلى النافذةِ ونظرَ خارجاً. كان المطر قد بدأ ينهمرُ، وخيوط المطرِ الباردِ تسقطُ مائلةً على موقعِ البناءِ، وبدت الجدران العالية للكاتدرائيةِ كالحةً، والسطوحُ القشّيةُ لمنازلِ الحرفيين تقطرُ ماءً.

«ما الذي يعنيهِ هذا؟» سأل فيليب.

«هذا يعني أنَّ مود ستعود للمطالبةِ بالعرشِ لأنَّ ستيفن متوج أصلاً أمَّا هي فلم تتوج حتَّى الآن».

«ولكن مود من أعطتني رخصةَ إقامةِ السوقِ».

«أجل، وقد تكون هذهِ مشكلةٌ».

«هل باتت رخصتي غير صالحة؟»

«لا، فهي حاكمٌ شرعي في عينِ الكنيسة، وحقيقةُ أنَّها لم تتوج لن يُشكلَ فرقاً، ولكن يستطيعُ ستيفن سحبَ الرخصةِ».

«أستخدم عوائدَ السوقِ لسدِ ثمنِ الحجارةِ»، قال فيليب بقلقٍ. «لا يمكنني متابعة البناءِ من دونهِ. هذهِ أخبارٌ سيئةٌ حقاً».

«أنا آسف».

«ماذا عن المئةِ جنيهِ التي دفعتها لمود؟»

هزَّ فرانسيس كتفيهِ وقال: «سيقول لك ستيفن أن تستعيدها من مود».

شعرَ فيليب بالغثيانِ وقال: «ذلكَ المال مالُ الرَّبِّ وقد أضعتهُ».

«لم تُضعهُ بعد»، قال فرانسيس ثمَّ تابع: «فلم يسحب ستيفن رخصتكَ بعد، وهو لم يُظهر قط اهتماماً بالأسواقِ».

«قد يضغطُ عليهِ الإيرل وليم».

«لقد غيرَ وليم ولاءهُ، أنسيت؟ تحالف مع مود، ولذلكَ لن يكون له تأثيرٌ كبيرٌ على ستيفن بعدَ الآن».

«آمل أن تكون مُصيباً في ما قلتهُ»، قال فيليب بحماسةٍ. «أرجو من الرَّبِّ أن تكون كذلك».

***

أصبحَ الجو بارداً جداً على الجلوسِ في الفُرجةِ، ولذلك باتت آليانا تزور منزلَ البنَّاءِ توم في الأماسي. عادةً في مثلِ هذا الوقتِ يذهبُ آلفريد إلى الحانةِ، وفي المنزلِ يتواجد توم وإيلين وجاك ومارثا. كانت أحوال توم الآن جيدةً، وأصبح لديهم كراسٍ، ونارٌ قويةٌ في الموقدِ والكثير من الشموعِ. عملت إيلين وآليانا على نسجِ الصوفِ، ورسمَ توم المخططات والرسومات بحجرٍ حادٍ على ألواحٍ مصقولةٍ، وتظاهر جاك بصُنعِ الأحزمةِ، أو السلال، أو شحذِ السكاكين، ولكنه قضى معظمَ الوقتِ يحدقُ سِرَّاً إلى وجهِ آليانا على ضوءِ الشمعةِ، ويراقبها وهي تحركُ شفتيها، أو يُمعنُ النظرَ إلى عنقها وهي تشربُ كأساً من الجعةِ. ضحكوا كثيراً ذلكَ الشتاءِ. أحبَّ جاك إضحاكَ آليانا، ولأنَّها متحفظةٌ ومنضبطةٌ عموماً فقد كان إضحاكها أمراً مبهجاً، وأشبهَ برؤيتها عاريةً. فكر على الدوامِ بأمورٍ لتسليتها كتقليد الحرفيين في موقعِ البناءِ فكان يتحدث بلكنة بنَّاءٍ باريسي، أو يمشي كحدادٍ كسيحٍ. وفي إحدى المرَّات اخترعَ حكايةً عن الحياةِ مع الرهبانِ، وألصقَ بكلِّ راهبٍ خطيئةً يمكنُ تصديقها. كانت خطيئةُ ريميجوس الغرور، والطباخ برنارد الشره، ومسؤول نُزل الضيوف الثمالة، أمَّا بيير مسؤول الانضباطِ فخطيئتهُ الشهوة. كانت مارثا تضحك حتَّى تطفرَ الدموع من عينيها، وحتَّى توم القليلُ الكلام ابتسم.

وفي إحدى هذهِ الأمسياتِ قالت آليانا: «لا أعرف إن كنتُ سأتمكن من بيعِ كلِّ هذا القماشِ».

بوغتَ الجميعُ بما قالتهُ وسألتها إيلين: «إذاً، لماذا تنسجينهُ؟»

«لم أتخلَ عن الأملِ بعد»، قالت آليانا وتابعت: «ولكنني أواجه مشكلةً فقط».

رفعَ توم نظرهُ عن لوحِهِ وقال: «اعتقدت أنَّ الديرَ يرغبُ بشراءِ كلِّ القماشِ».

«هذهِ ليست المشكلةَ بل عجزي عن إيجادِ من يقومِ بدعكِ القماشِ. لن يرغب الديرُ ولا أحدٌ آخر بشراءِ قماشٍ قِطبةُ رخوة».

قالت إيلين: «إنَّ دعكَ القماشِ عملٌ يكسرُ الظهرَ، ولا يفاجئني عدمُ رغبةِ أحدٍ القيامَ بهِ».

«ألا يمكنكِ الاستعانةُ برجالٍ للقيامِ بهذا العملِ؟» اقترحَ عليها توم.

«لن أجدهم في بلدةِ كينغزبريدج المزدهرةِ بما أنَّ أحوال الجميع جيدة. في البلداتِ الكبيرةِ عمال دعك محترفون، ولكن معظمهم يعملون لمصلحة نسَّاجين، ويُمنع عليهم دعكُ القماشِ لمنافسي معلميهم. علاوةً على ذلكَ سيكلفني كثيراً نقلُ القماشِ بالعربةِ إلى وينشستر، وإعادتهِ إلى كينغزبريدج».

«إنَّها مشكلةٌ حقيقيةٌ»، أقرَّ توم ثمَّ عادَ إلى رسوماتهِ.

وهنا خطرت ببالِ جاك فكرةٌ فقال: «من المؤسفِ أنَّكِ لا تستطيعين استخدام الثيران لهذا العملِ».

ضحكَ الجميعُ وقال توم: «ويمكنكَ أيضاً محاولة تعليمِ ثورٍ بناءَ الكنائسِ».

«أو مطحنةٍ»، تابعَ جاك. «عادةً ما تكون هناك طرقٌ سهلةٌ للقيامِ بأصعبِ الأعمالِ».

«إنَّها تريدُ دعكَ القماشِ وليسَ طحنَه»، قال توم.

لم يكن جاك يُصغي إلى توم وتابع كلامه: «نستخدمُ آلةَ رفعٍ وبكراتٍ لرفعِ الحجارةِ إلى السقالةِ العاليةِ».

قالت آليانا: «لو أنَّ هناك آليةً ذكيةً لدعكِ هذا القماشِ فسيكون هذا رائعاً».

فكرَ جاك أنَّها ستكون مسرورةً جداً إن تمكنَ من حلِّ مشكلتها، ولذلكَ عزمَ على إيجاد طريقةٍ.

قال توم: «سمعتُ عن طاحونةِ ماءٍ تُشغلُ منفاخَ كيرٍ، ولكنني لم أرها».
«حقاً!» قال جاك وأضاف: «هذا يُثبت ما قلته!»
تابع توم: «تدور عجلةُ الطاحونةِ وتدور معها الرحى، وهذا يعني أنَّ إحداهما تدير الأخرى، ولكن مضربَ الدعكِ يتحرك إلى الأعلى والأسفل. لا يمكنكَ صنعُ عجلةٍ مائيةٍ تُحرك المضربَ إلى الأعلى والأسفل».
«ولكن منفاخَ الكيرِ يتحرك إلى الأعلى والأسفل».
«صحيح، صحيح، ولكنني لم أرَ ذلكَ الكير قط بل سمعت حكايةً عنه».
حاولَ جاك تخيلَ آليّةِ المطحنةِ. ستدفعُ قوةُ الماءِ بعجلةِ الطاحونةِ للدوران، ومحورُ العجلةِ متصلُ بعجلةٍ أخرى داخلَ المطحنةِ، وداخلَ العجلةِ العموديةِ مسننات متداخلةٌ مع مسنناتِ عجلةٍ أفقيةٍ، وهذهِ العجلة تُحرك الرحى.
«يُمكن لعجلةٍ عموديةٍ أن تديرَ عجلةً أفقيةً»، دمدمَ جاك مُفكراً بصوتٍ عالٍ.
ضحكت مارثا وقالت: «جاك توقف! لو أنَّ دعكَ القماشِ ممكنٌ باستخدامِ المطاحنِ لكان الأذكياء فكروا بهذا قبلاً».
تجاهلها جاك وتابع: «يُمكن تثبيت مضارب التنظيف إلى محورِ العجلةِ، وسيكون القماشُ على مستوى أفقي حيثُ ينزلُ المضرب».
قال توم: «ولكن المضارب ستضرب مرّةً ثمَّ تعلق، وتتوقف العجلة. أخبرتكَ أنَّ العجلة تدور أمَّا المضارب فتتحرك للأعلى والأسفل».
«لا بدَّ أن يكون هناك طريقة»، قال جاك بعنادٍ.
«لا توجد طريقةٌ»، قال توم بنبرةٍ حازمةٍ يستخدمها لإنهاءِ الحديثِ في موضوعٍ ما.
«أراهن أنَّ هناك طريقةً ما»، دمدمَ جاك بتحدٍ، ولكن توم تظاهر بعدمِ سماعهِ.

***

في الأحدِ التالي اختفى جاك.
ذهبَ إلى الكنيسةِ صباحاً، وتناولَ غداءهُ في المنزلِ، ولكنه لم يعد بحلولِ موعدِ العشاءِ. كانت آليانا في مطبخها تُعدُّ مرقاً كثيفاً من لحمِ الخنزيرِ والملفوفِ مع الفلفلِ الأسود عندما أتت إيلين باحثةً عن جاك.

«لم أره منذُ صلاةِ القداسِ هذا الصباح»، قالت آليانا.

«اختفى بعدَ الغداءِ واعتقدت أنَّه برفقتكِ»، قالت إيلين.

شعرت آليانا ببعضِ الحرجِ لأنَّ إيلين افترضت على الفورِ أنَّ جاك برفقتها. «هل أنتِ قلقةٌ؟»

هزَّت إيلين كتفيها وقالت: «الأمُّ تقلقُ على الدوامِ».

«هل تشاجرَ مع آلفريد؟» سألت آليانا بتوترٍ.

«طرحتُ السؤال ذاتهُ ونفى آلفريد الأمرَ»، قالت إيلين متنهدةً. «لا أعتقد أنَّه أصيبَ بأذى فقد فعلَ هذا قبلاً، ويمكنني القولُ أنَّه سيكررُ الأمرَ مجدداً فأنا لم أعلمهُ قط الالتزام بالوقتِ».

في وقتٍ لاحقٍ من تلكَ الليلةِ، وقبلَ موعدِ النومِ زارت آليانا منزلَ توم لتسألهم عن جاك، ولكنهم أخبروها أنَّه لم يعد بعد. خلدت إلى النومِ قلقةً. كانت وحدها في المنزلِ فقد كان ريتشارد في وينشستر. فكرت بجاك وأنَّه ربما سقطَ في النهرِ وغرقَ، أو حدث شيء من هذا القبيلِ. كم سيكون هذا مروعاً لإيلين فقد كان ابنها الوحيد. ترقرقت الدموعُ من عيني آليانا عندما فكرت بحزنِ إيلين على خسارةِ جاك، ثمَّ فكرت في نفسها أنَّ بكاءها على حزنِ شخصٍ آخر حيالَ أمرٍ لم يحدث بعد عملٌ غبي. تمالكت نفسها، وحاولت التفكير بأمرٍ آخر. كان فائضُ القماشِ أكبرَ مشاكلها، وعادةً ما تقضي نصفَ الليلةِ تفكرُ بعملها. ولكن جاك لم يفارق بالها. ربما كسرَ قدمهُ في الغابةِ، وهو الآن عاجزٌ عن الحركةِ.

في نهايةِ المطافِ استسلمت آليانا إلى نومٍ قلقٍ. استفاقت عندَ الفجرِ وهي ما تزالُ تشعرُ بالتعبِ. ارتدت عباءةً ثقيلةً فوقَ قميصِ نومها، وانتعلت جزمتها الفرائيةَ ثمَّ خرجت للبحثِ عن جاك.

لم تجدهُ في الحديقةِ خلفَ الحانةِ حيثُ ينامُ الرجالُ الثمالى عادةً فوقَ الروثِ النتنِ كيلا يتجمدوا من البردِ. نزلت عن الجسرِ، وسارت على طولِ ضفةِ النهرِ إلى أن وصلت إلى مكان ينعطفُ فيهِ النهرُ، وتتراكمُ بقاياه. كانت عائلة من البطِ تُنقبُ بينَ قطعِ الخشبِ، وأحذيةٍ باليةٍ، وسكاكين صدئة، وعظام عفنة عندَ ضفةِ النهرِ، وشكرت الرَّبَّ لأنَّها لم تجده هناك.

صعدت التلَّ مجدداً باتجاهِ ساحةِ الديرِ حيثُ بدأ البناؤون يوم عملهم. عثرت على توم في سقيفتهِ وسألتهُ في رجاءٍ: «هل عادَ جاك؟»

هزَّ توم رأسهُ وقال: «ليسَ بعد».

وفي طريقها خارجَ السقيفةِ دخلَ معلمُ النجارين والقلقُ بادٍ على وجهه ثمَّ قال: «اختفت جميعُ المطارقِ».

«هذا غريب»، قال توم. «كنتُ أبحثُ عن مطرقةٍ ولم أعثر على واحدةٍ».

مدَّ آلفريد رأسه من البابِ وقال: «أين حشواتُ البناءِ؟»

حكَّ توم رأسهُ وقال بحيرةٍ: «يبدو أنَّ كلَّ المطارق في الموقعِ قد اختفت»، ثمَّ تغيرت تعابير وجههِ وقال: «أراهن أنَّ ذلكَ الفتى جاك وراءَ الأمرِ».

وفكرت آليانا في نفسها: «بالطبعِ. مطارق ودعك القماشِ. المطحنة».

لم تقل شيئاً لتوم عمَّا فكرت بهِ بل غادرت سقيفتهُ، وهرعت عبرَ ساحةِ الديرِ متجاوزةً المطبخَ باتجاهِ الطرفِ الجنوبي الغربي حيثُ توجدُ قناةٌ مائيةٌ تصلُ بالنهرِ، وتُديرُ مطحنتين واحدة قديمة والأخرى جديدة. عندما رأت عجلةَ المطحنةِ القديمة تدور تحققت من شكوكها ودخلت.

ما وجدتهُ آليانا في الداخلِ حيَّرها وأفزعها. كان هناك صفٌ من المطارقِ المُثبتةِ إلى محورٍ أفقي. خُيلَ إليها أنَّ المطارق، وبقوتها الخاصةِ، ترتفع كجيادٍ ترفع ناظريها من فوقِ المعالفِ، ثمَّ تهبطُ مجدداً، وتضربُ في آنٍ واحدٍ بخبطةٍ مهيبةٍ كادت تجعلُ قلبها يتوقف. أطلقت صرخة من شدةِ الصدمةِ. رفعت المطارق رؤوسها كأنَّها سمعت صرختها ثمَّ ضربت مجدداً فوقَ قطعةٍ من قماشها. كان ما يقارب الإنش أو الاثنين من القماشِ في ماءِ ترعةٍ خشبيةٍ مسطحةٍ من النوعِ الذي يستخدمهُ عمالُ الملاطِ للخلطِ في موقعِ البناءِ. أدركت آليانا أنَّ المطارقَ تدعك القماش، ورغمَ أنَّ الآلة بدت حيَّةً بشكلٍ مخيفٍ فإنَّ خوفها تراجعَ الآن. ولكن كيفَ فعلَ هذا؟ نظرت إلى الآلة، ورأت المحورَ الذي ثُبتت إليهِ المطارقُ موازياً لمحورِ عجلةِ المطحنةِ، وهناك لوح خشبي مُثبتٌ إلى محورِ العجلةِ يدرو مع دوران المحورِ، وعندما يدور اللوحِ يلمسُ مقابضَ المطارقِ دافعاً بها إلى الأسفلِ وبرؤوسها إلى الأعلى. ومع استمرارِ دورانِ اللوحِ تحررت المقابضُ وضربت المطارق القماشَ في الترعةِ. كان هذا ما تحدَّثَ عنه جاك في تلكَ الليلةِ: مطحنةٌ تدعكُ القماشَ.

سمعت صوتَ جاك يقول: «يجب أن تكون المطارق ثقيلةً حتَّى تضرب بقوةٍ»، فاستدارت ورأته. بدا متعباً ولكن على وجههِ نظرةُ ظفرٍ. «أعتقدُ أنني حللتُ مشكلتكِ»، قال لها مبتسماً بخجلٍ.

«أنا سعيدةٌ جداً لأنَّك على ما يرام لقد قلقنا عليكَ كثيراً!» قالت له، ومن دون تفكيرٍ عانقتهُ وقبَّلتهُ. كانت قبلةً سريعةً كلمسةٍ، وعندما تباعدت شفتاهما أحاطَ خصرها بلطفٍ، ولكن بثباتٍ، وجذبَ جسدها إلى جسدهِ فوجدت نفسها تنظرُ في عينيهِ مباشرةً. في هذهِ اللحظةِ عجزت عن التفكيرِ بشيءٍ آخر غير سعادتها لأنَّه على قيدِ الحياةِ وسالمٌ. عصرته بحبٍ، وفجأةً شعرت أنَّ جلدها غدا حساساً جداً، وأنَّها تشعرُ بخشونةِ قميص نومها الكتاني والفراء الناعمِ لجزمتها، وبوخزٍ في حلمتيها المضغوطتين على صدرهِ.

«هل كنتِ قلقةً علي؟» سألها.

«بالطبعِ! وبالكادِ نمتُ من القلقِ».

كانت تبتسمُ بسعادةٍ، ولكنه بدا رصيناً جداً، وبعد برهةٍ أصيبت بعدوى مزاجهِ، وتأثرت بغرابتهِ. كان بوسعها سماع دقاتِ قلبها، وشعرت بأنفاسها تتسارع. خلفها كانت المطارقُ تضربُ بصوتٍ واحدٍ، وتهتزُ مع كلِّ ضربةٍ الكتلة الخشبية للمطحنةِ. خُيلَ إليها أنَّ صدى الاهتزازِ يترددُ في داخلها.

«أنا بخيرٍ»، قال لها. «كلُّ شيءٍ على ما يرام».

«أنا سعيدةٌ جداً»، كررت ولكن بصوتٍ كالهمسِ.

رأتهُ يُغلق عينيهِ، وينحني برأسهِ نحو رأسها ثمَّ شعرت بفمهِ على فمها. قبَّلها بلطفٍ. كانت شفتاه ممتلئتين، وشعرُ لحيتهِ ناعماً. أغلقت عينيها كي تركز على هذا الشعورِ. تحركت شفتاه عكسَ حركةِ شفتيها فافترت شفتاها بشكلٍ طبيعي، وفجأةً شعرت ببشرةِ فمها تغدو حساسةً جداً لأدقِّ لمسةٍ وأدنى حركةٍ. داعبَ الجزءَ الداخلي من شفتها العليا بلسانهِ، وشعرت بالسعادةِ تغمرها بقوةٍ أرادت معها الصراخ. شدَّ جسدها إلى جسدهِ، ولامسَ صدرها الطري صدرهُ المشدود، وشعرت بعظامِ وركيهِ تغوصان في بطنها. غادرها شعورُ الراحةِ على سلامتهِ والسعادةِ لعثورها عليهِ هنا، وانتابها شعورٌ جديدٌ. ملأها وجودهُ الجسدي بنشوةٍ شعرت معها برأسها يدور، وفيما أحاطت جسدهُ بذراعيها رغبت بلمسه

أكثر، بتحسسِ المزيدِ منهُ، بالاقترابِ منهُ أكثر وأكثر، ففركت ظهرهُ بيديها. رغبت بتحسسِ جلدهِ، ولكن ثيابه أحبطت محاولاتها. ومن دونِ تفكيرٍ فتحت فمها، ودفعت بلسانها بينَ شفتيهِ فأصدرَ صوتاً حيوانياً قصيراً أشبه بأنينٍ مكمومٍ من اللَّذةِ.

فُتحَ بابُ المطحنةِ بقوةٍ فابتعدت عن جاك بسرعةٍ. شعرت بالصدمةِ كأنَّها كانت غارقةً في النومِ، وأيقظها أحدهم بصفعةٍ. شعرت بالروعِ مما كانا يفعلانهِ. كانا يتبادلان القبلِ، ويلامسان بعضهما بعضاً كعاهرةٍ وسكيرٍ في حانةٍ. تراجعت إلى الوراءِ وهي تشعرُ بالخزي والحرجِ. من بينِ جميعِ الناسِ كان آلفريد من فتحَ البابَ وساءها هذا كثيراً. كان قد عرضَ الزواجَ عليها منذُ ثلاثةِ أشهرٍ، ورفضتهُ بغطرسةٍ، وها هو الآن يراها تتصرفُ كعاهرةٍ شبقةٍ. حدَّقَ إليها آلفريد بمزيجٍ من الشهوةِ والبغضِ. كانت نظرتهُ تشبه جداً نظرةَ وليم هاملي. شعرت بالتقززِ من نفسها لأنها منحت آلفريد سبباً ليزدريها، وبالغضبِ من جاك لتورطهِ في الأمرِ.

أشاحت بنظرها ونظرت إلى جاك، وعندما التقت أعينهما بدا لها مصدوماً فأدركت أنَّ غضبها كان واضحاً على وجهها رغماً عنها.

تحولَ تعبيرُ السعادةِ الذاهلةِ الذي ارتسم على وجهِهِ إلى تعبيرِ حيرةٍ وألمٍ. عادةً كان هذا كفيلاً بإذابةِ قلبها، ولكنها الآن كانت متضايقةً جداً، وكرهته على ما أجبرها على القيامِ بهِ. وبلمحِ البصرِ صفعتهُ على وجههِ. لم يتحرك، ولكنها رأت الألم في نظرتهِ. احمرَّت وجنتهُ حيثُ صفعتهُ، ولأنَّها لم تكن قادرةً على تحملِ رؤيةِ الألم في عينيهِ أشاحت بنظرها.

لم يكن بوسعها البقاءُ أكثر فركضت نحو البابِ، وصوتُ المطارقِ يصمُّ أذنيها. تنحى آلفريد جانباً بسرعةٍ وقد بدا مرتعباً. تجاوزتهُ وخرجت من البابِ. كان البنَّاء توم في الخارجِ مع حشدٍ صغيرٍ من عمالِ البناءِ. أتى الجميعُ إلى المطحنةِ لمعرفةِ ما يجري. تجاوزتهم آليانا بسرعةٍ من دون التحدثِ إليهم. حدَّقَ إليها شخصٌ أو شخصان بفضولٍ، وجعلها هذا تشتعلُ خزياً، غيرَ أنَّهم كانوا مهتمين أكثر بصوتِ المطارقِ القادمِ من المطحنةِ. استعادَ الجانبُ المنطقي من عقلِ آليانا فكرةَ أن جاك حلَّ مشكلةَ دعكِ القماشِ، ولكن فكرةَ قضائهِ الليل بطولهِ وهو يقوم بشيءٍ

من أجلها مزقتها. عبرت الإسطبلات وخرجت من بوابةِ الدير. سارت في الشارع وهي تتعثرُ وتتزحلقُ في الوحلِ إلى أن وصلت إلى منزلها.

عندما دخلت وجدت ريتشارد في المنزلِ جالساً إلى طاولةِ المطبخِ مع رغيفٍ من الخبزِ وكأسٍ من الجعةِ.

«عادَ ستيفن ملكاً»، قال لها ثمَّ أضاف: «اندلعت الحربُ مجدداً، وأنا أحتاجُ إلى جوادٍ جديدٍ».

- 4 -

مرَّت ثلاثةُ شهورٍ على تلكَ القُبلةِ، ومنذئذٍ بالكاد تحدثت آليانا إلى جاك.

فطرَ الحزنُ قلبهُ. لم يكن هناك أدنى شكٍ أنَّها قبَّلتهُ كأنَّها تحبهُ، وبعدَ مغادرتها للمطحنةِ كان واثقاً من أنَّه سيُقبلها بتلكَ الطريقةِ مجدداً. سارَ في الأرجاءِ كالدائخِ من نشوةِ التفكيرِ أنَّ آليانا تحبهُ. آليانا تحبني! آليانا تحبني! لقد داعبت ظهرهُ، ووضعت لسانها في فمهِ، وضغطت بثدييها على صدرهِ. عندما تجنبتهُ في البدايةِ اعتقدَ أنَّها كانت محرجةً فحسب، ومن غيرِ الممكن أنَّها لا تحبه بعدَ تلكَ القُبلةِ. انتظرها لتتجاوزَ حرجها، وبمساعدةِ نجارِ الديرِ جعلَ آلةَ دعكِ القماشِ أقوى وأمتن على الطاحونةِ القديمةِ، وتمكنت آليانا من دعكِ قماشها. شكرتهُ بصدقٍ على ما فعلهُ من أجلها ولكن ببرودٍ، وتجنبت النظرَ في عينيهِ.

استمرَّ تجاهلها لأسابيع عديدةٍ وهنا اضطرَ جاك إلى إقناعِ نفسهِ أنَّ هناك خطباً ما، وغمرتهُ خيبةُ أملٍ كبيرةٍ شعرَ معها أنَّه سيغرقُ في الندمِ. انتابتهُ الحيرةُ، وتمنَّى بيأسٍ لو أنَّه كان أكبر عمراً وأكثر خبرةً مع النساءِ حتَّى يعرف إن كان سلوكها طبيعياً أم غريباً، وإن كان عابراً أو دائماً، وإن كان عليهِ تجاهلهُ أو مجابهته. ولأنَّه كان حائراً وخائفاً من التفوهِ بأمرٍ خاطئ، وتصعيدِ الأمورِ ارتأى عدمَ القيامِ بشيءٍ، وشعرَ بالتفاهةِ والغباءِ والعجزِ. شعرَ أنَّه غبي لاعتقادهِ أنَّ أكثرَ النساء جاذبيةً وأصعبهن منالاً في المنطقةِ قد تكون واقعةً في غرامِه، هو الفتى العادي. لقد قامَ بتسليتها بقصصهِ ودعاباتهِ، ولكن حالما قبَّلها كرجلٍ هربت. يا لحمقهِ لأنَّه أملَ بحدوثِ شيءٍ بينهما!

بعدَ مرور أسبوعٍ أو أكثر على القولِ لنفسهِ إنَّه أحمق بدأ شعورُ الغضبِ

يتملكهُ، وبات نزقاً في العملِ، ولذلكَ لزمَ الناسُ الحذر في التعاملِ معه، وعاملَ مارثا أختهُ غير الشقيقة بدناءةٍ فشعرت الأخيرةُ بالألمِ ذاتهُ الذي شعرَ بهِ بسببِ آليانا. في ظهيرةِ أيامِ الآحادِ أنفق كلَّ أجرهِ على المراهنةِ في حلبةِ صراعِ الديوكِ، وأخرجَ كلَّ شغفهِ في عملهِ. كان وقتها ينحتُ الطنوفَ وهي حجارةٌ ناتئةٌ تبدو كأنَّها تدعمُ الأقواس، أو الجزء الأوسط من العمودِ الذي لا يصلُ إلى الأرضِ. عادةً ما تُزخرفُ الطنوفُ بأوراقٍ، ولكن هناك بديلاً متعارفاً عليهِ وهو نحتُ رجلٍ يبدو كأنَّه يرفعُ القوسَ بيديهِ أو بظهرهِ. أجرى جاكْ بعضَ التعديلاتِ على النمطِ المتعارف عليهِ، وأتت النتيجة النهائية تجسيداً لإنسانٍ متلوٍ بشكلٍ مريعٍ وعلى وجههِ ارتسمَ تعبيرُ شخصٍ متألمٍ ومدانٍ كأنَّه سيقضي الأبديةَ تحتَ وطأةِ وزنِ الحجرِ. علمَ جاكَ أن عملهُ مذهلٌ فما من أحدٍ يستطيعُ نحتَ شخصٍ مُتألمٍ، وعندما رأى توم المنحوتة هزَّ رأسهُ كأنَّه ممزقٌ بينَ الإعجابِ بدقّة العملِ، أو الاعتراضِ على غرابتهِ، وفُتنَ فيليب بالعملِ. لم يعبأ جاكْ بما فكرَ بهِ الآخرون، وشعرَ أنَّ من سيكره العمل أعمى دونَ شكٍ.

في أحدِ أيامِ الإثنين خلالَ فترةِ الصيامِ، وبينما كان الجميعُ نزقين لعدمِ تناولِ اللحمِ منذُ ثلاثةِ أسابيع، أتى آلفريد إلى العملِ وعلى وجهه نظرةُ ظفرٍ. كان قد ذهبَ إلى شايرنغ البارحة، ولكن جاكْ لم يعلم ما الذي فعلهُ هناك. بدا آلفريد راضياً عن رحلتهِ.

عندَ منتصفِ الصباحِ وخلالَ فترةِ الراحةِ فتحت صانعةُ الجعة إينيد برميلاً من الجعةِ في وسطِ مذبحِ الكنيسةِ وباعتهُ إلى البنَّائين. أخرجَ آلفريد بنساً من جيبهِ ونادى على جاكْ قائلاً: «أنت، جاكْ ابن توم، أحضر لي بعضَ الجعةِ».

وفكرَ جاكْ في نفسهِ: «إذاً، سيكون الأمرُ عن والدي»، وتجاهلَ آلفريد.

قال أحدُ النجارين وكان رجلاً عجوزاً يُدعى بيتر: «من الأفضلِ أن تُنفذ ما يُطلبُ منكَ أيّها المُتدرب». كان يُفترضُ بالمتدربين أن يطيعوا المُعلمين على الدوامِ.

«أنا لست ابن توم»، قال جاكْ. «توم زوج والدتي وآلفريد يعلمُ هذا».

«أيّاً يكن فلتنفذ ما يطلبهُ منكَ»، قال بيتر بلهجةٍ عقلانيةٍ.

وعلى مضضٍ أخذَ جاكْ مالَ آلفريد، ووقفَ في صفِ الانتظارِ. «والدي

يُدعى جاك تشيربورغ»، قال بصوتٍ عالٍ ثمَّ أضافَ: «يمكنكَ أن تنادي جاك جاكسن إن أردتَ تمييزي عن الحداد جاك».

قال آلفريد: «جاك اللقيط أقربُ إلى الحقيقةِ».

وهنا قال جاك بصوتٍ عالٍ: «هل تساءلتم يوماً لمَ لا يعقدُ آلفريد رباطَ جزمتهِ؟» ونظرَ الجميع إلى قدمي آلفريد، وتيقنوا من أنَّ أربطةَ جزمتهِ الثقيلةِ والموحلةِ محلولةً. «حتَّى يتمكن من استخدامِ أصابعِ قدمهِ في العدِّ بسرعةٍ في حال كان العددُ أكبر من عشرة». ابتسمَ الحرفيون، وضحكَ المتدربون، وسلَّم جاك بنسَ آلفريد إلى إينيد لتعطيهِ إبريقاً من الجعةِ ثمَّ حملهُ إلى آلفريد، وسلَّمه إياه بانحناءةٍ ساخرةٍ. كان آلفريد منزعجاً ولكن ليسَ كثيراً فما زال لديهِ ما يضيفهُ. ابتعدَ جاك وشربَ جعتهُ مع المتدربين على أملِ أن يتركهُ آلفريد وشأنهُ.

ولكن هذا لم يحدث لأنَّه وبعدَ برهةٍ قصيرةٍ لحقَ بهِ آلفريد وقال: «لو أنَّ جاك تشيربورغ والدي لما تعجلتُ وتباهيت بأنه والدي. ألا تدركُ من يكون جاك تشيربورغ؟»

«كان شاعراً متجولاً»، قال جاك بصوتٍ يعكس في ظاهرهِ ثقةً ولكن في باطنهِ خوفاً مما سيقوله آلفريد. «أعتقدُ أنَّك لا تعرف ما هو الشاعرُ المتجول»، أضاف جاك.

«إنَّه لصٌّ»، قال آلفريد.

«فلتصمت أيُّها الأحمق»، استدارَ جاك، وارتشفَ جعتهُ، ولكنه ابتلعها بصعوبةٍ. لا بدَّ أن هناك سبباً يدفعُ بآلفريد إلى قولِ هذا.

«ألا تعلمُ كيفَ مات؟» ألحَّ آلفريد.

فكرَ جاك في نفسهِ: «إذاً، هذا ما في الأمرِ. هذا ما علمهُ آلفريد في شايرنغ البارحة، ولهذا ترتسمُ على وجههِ هذهِ الابتسامة الغبية». استدارَ جاك ونظرَ إلى آلفريد ثمَّ قال: «لا، لا أعرف كيفَ مات والدي يا آلفريد، ولكن أعتقد أنَّك ستخبرني».

«لقد شُنقَ كما يُشنقُ أيُّ لصٍ حقيرٍ».

أطلقَ جاك صيحةَ ألمٍ، وفي صميمهِ علمَ أنَّ آلفريد يقول الحقيقةَ لأنه بدا واثقاً جداً من نفسهِ، وعاجزاً عن الإتيانِ بمثلِ هذهِ الكذبةِ، وهنا فهمَ جاك سببَ قلةِ كلامِ والدتهِ عن أبيهِ. خشي جاك لسنواتٍ عديدةٍ حدوثَ أمرٍ كهذا،

ولذلك تظاهرَ طوالَ الوقتِ أنَّ ما من خطبٍ في أمرِ والدهِ، وأنَّه لم يكن لقيطاً بل لديه والدٌ حقيقي، وباسمٍ حقيقي. في الحقيقةِ خشي أن يكتشفَ ما هو مُخزٍ في حياةِ والدهِ، وأنَّ السخريةَ التي طالتهُ بسببِ هذا صحيحةٌ، وأنَّ لديه ما يخجلُ منه حقاً. كان في حالةٍ مزريةٍ فرفضُ آليانا له جعلهُ يشعرُ بالتفاهة والوضاعةِ، وها هي حقيقةُ والدِه تصيبهُ كصفعةٍ.

وقفَ آلفريد في مكانهِ مبتسماً ومسروراً جداً من نفسهِ فقد طابَ له تأثيرُ فضحِ هذا السرِّ، وأثارَ هذا غضبَ جاك الشديد. كانت حقيقةُ إعدامِ والدهِ سيئةً كفايةً، ولم يكن بوسعهِ تحمل سعادة آلفريد بهذا الأمرِ، ومن دونِ تفكيرٍ رشقَ جاك الجعةَ في وجهِ آلفريد المُبتسمِ.

سارعَ بقيةُ المتدربين الذين راقبوا المشادة بين الأخوين غير الشقيقين باستمتاعٍ إلى الابتعادِ عنهما خطوةً أو خطوتين إلى الوراءِ. مسحَ آلفريد الجعةَ عن عينيهِ بسرعةٍ، وزأرَ في غضبٍ ثمَّ وجهَ لكمةً كبيرةً وسريعةً بالنسبةِ إلى رجلٍ ضخمٍ مثلهُ. أصابت اللكمةُ خدَّ جاك بقوةٍ كبيرةٍ، وبدلاً من الألمِ شعرَ جاك بالخدرِ، وقبلَ أن يتمكن من القيامِ بردٍ كان آلفريد قد عاجلهُ بضربةٍ على أنفهِ. آلمتهُ الضربة جداً، وشعرَ جاك أنَّه لن يتمكن من التنفسِ مجدداً. تلوى على نفسهِ، وسقطَ أرضاً فركلهُ آلفريد على رأسهِ بجزمتهِ الثقيلةِ، ولوهلةٍ لم يرَ جاك شيئاً أمامهُ سوى ضوء أبيض.

تدحرجَ جاك، وجاهدَ للوقوفِ على قدميهِ، ولكن يبدو أن آلفريد لم ينته منه بعد. وبينما كان جاك يحاول النهوض شعرَ أنَّ أحدهم أمسكه، وبدأ يتلوى. كان مرتعباً جداً. لن يعاملهُ آلفريد برحمةٍ، وسيسحقهُ إن لم يتمكن من الهربِ، ولوهلةٍ شعرَ جاك بقبضةِ آلفريد تُطبق عليه بقوةٍ عجزَ معها عن تحريرِ نفسهِ، ولكن في اللحظةِ التي رفعَ فيها آلفريد يده لتوجيهِ لكمةٍ أخرى حرر جاك نفسه من قبضتهِ.

ركضَ جاك بسرعةٍ، وجرى آلفريد في إثرهِ. تفادى جاك برميلَ كلسٍ ثمَّ رماه أرضاً كي يعيقَ آلفرد فأُريقَ الكلس على الأرضيةِ. قفزَ آلفريد فوقَ البرميل، ولكنه اصطدمَ ببرميلِ ماءٍ، وكان هذا أيضاً أمراً مزعجاً لأنَّ الماء عندما يمتزج بالكلسِ يفور بشدةٍ ويُصدرُ صوتاً كالهسيس. عندَ رؤيةِ هذا المشهدِ بدأ بعضُ البنائين يصرخون في احتجاجٍ، ولكن آلفريد لم يسمعهم،

أمّا جاكُ فلم يكن يفكر بشيءٍ سوى الهرب من آلفريد. ركضَ جاكُ وكان ألمهُ الآن قد تضاعفَ، وما يزالَ نصفَ أعمى بسببِ الركلة في رأسِهِ.

لحقَ بهِ آلفريد، ووضعَ قدمهُ أمامَه فتعثرَ. وقعَ جاكُ على وجههِ، ولم يفكر بشيءٍ وهو يتدحرج أرضاً إلا أنَّه ميتٌ لا محالة، وأنَّ آلفريد سيقتلهُ الآن. أمسكَ جاكُ بسُلمٍ ووضعه قبالةَ سقالةٍ عاليةٍ على المبنى بينما وقفَ آلفريد متوعداً. كان جاكُ أشبه بأرنبٍ محاصرٍ وقد أنقذهُ السُلم. وبينما كان آلفريد في إثرهِ تفاداه جاكُ مُتسلقاً السلّمَ كجُرذٍ في مجرورٍ.

شعرَ جاكُ بالسُلمِ يهتز، وعلمَ أن آلفريد في إثرهِ. عادةً ما يسبقُ جاكُ آلفريد في الركضِ، ولكنه اليوم كان دائخاً، ويعاني من صعوبةٍ في التنفسِ. وصلَ إلى الأعلى، ووقفَ على السقالةِ. تعثرَ واصطدمَ بالجدارِ. كانت الحجارةُ قد رُصفت هذا الصباح، والملاطُ ما يزالُ رطباً. اصطدمَ جاكُ بالجدارِ بقوةٍ فتحرَّكَ قسمٌ كاملٌ منه، ومالت ثلاثةُ أو أربعة حجارةٍ، ثمَّ مال بشكلٍ جانبي. اعتقدَ جاكُ أنَّه سيقع معه فأمسكَ بالحافةِ ونظرَ إلى الأسفلِ. رأى الحجارة تتدحرج على ارتفاعِ ثمانين قدماً ثمَّ تقع على أسطحِ أكواخ بأسقفٍ مائلة عندَ أسفلِ الجدارِ. استقامَ وتمنَّى في نفسهِ ألا يكون هناكَ أحدٌ في الأكواخ. في هذهِ الأثناءِ وصلَ آلفريد إلى أعلى السُلم، وتقدَّمَ باتجاهِهِ على السقالةِ المُتقلقلةِ.

كان آلفريد يلهثُ، وبدا وجههُ مُحمراً وعيناه تشتعلان كرهاً. لم يخامر جاكُ شكٌ أنَّ آلفريد سيقتلهُ وهو في هذهِ الحالةِ، وأنَّه إن أمسكَ بهِ فسيلقيهِ من فوقِ الحافةِ.

تقدَّمَ آلفريد، وتراجعَ جاكُ إلى الوراءِ فداسَ على شيءٍ طري، وأدركَ أنَّه داسَ على كومةٍ من الملاطِ. وهنا خطرت له فكرةٌ فتوقفَ على الفورِ، وأخذَ حفنةً من الملاطِ، ورماها في وجهِ آلفريد.

أعمى الملاطُ آلفريد، وتوقفَ عن التقدمِ ثمَّ هزَّ رأسهُ محاولاً التخلص منه. حظي جاكُ أخيراً بفرصةٍ للهربِ فركضَ إلى أقصى طرفِ السقالةِ بنيَّةِ هبوطِ السُلمِ، والهربِ عبرَ ساحةِ الدير، وقضاء بقيةِ اليومِ مُختبئاً في الغابةِ، ولكنه أصيبَ بالهلعِ عندما اكتشفَ عدمَ وجودِ سُلمٍ عندَ الطرفِ الآخرِ من السقالةِ. لا يستطيعُ النزولِ عن السقالةِ لأنَّها لا تصلُ إلى الأرضِ، ومبنيةٌ على عوارضَ مثبتةٍ داخلَ فجواتٍ في الجدارِ. كان محاصراً الآن.

نظرَ إلى الوراءِ، واكتشفَ أن آلفريد مسحَ الملاطَ عن عينيهِ، وانطلق في إثرهِ.

لم يكن هناك من طريقةٍ للنزولِ.

عندَ الطرفِ غيرِ المنتهي من الجدارِ حيثُ يلتقي مذبح الكنيسةِ بالجناحِ بُنيت الحجارةِ بشكلِ درجٍ، وكلُّ صفٍ منها أقصرُ من الذي تحته بقليلٍ في ما يشبه سُلماً ولكن بدرجاتٍ ضيقةٍ. كان أكثرُ العمالِ حُباً للتحدي يستخدمونها أحياناً كبديلٍ لصعودِ السقالةِ. وبقلبٍ واجفٍ صعدَ جاك أعلى الجدارِ، وسارَ على طوله بحذرٍ، ولكن بسرعةٍ، وهو يحاول عدمَ النظر إلى أسفلٍ، واكتشاف الارتفاع الذي قد يسقط عنه إن انزلقَ. وصلَ إلى أعلى القسمِ الشبيهِ بالدرجِ، وتوقفَ عندَ الحافةِ ثمَّ نظرَ إلى الأسفلِ، وشعرَ بالدوارِ. نظرَ إلى الوراءِ من فوقِ كتفيهِ، ورأى آلفريد وراءهُ على الجدارِ فبدأ يهبط.

لم يفهم جاك عدمَ خوفِ آلفريد فهو لم يكن شجاعاً يوماً. يبدو أنَّ كراهيتهُ كبحت شعورهُ بالخوفِ. وبينما كان يهبطُ الدرجاتِ الشاهقةَ ركضاً رأى آلفريد في إثرهِ. كانا على ارتفاعِ عشرين قدماً عن الأرضِ. عندما أدركَ جاك أنَّ آلفريد يقتربُ منه ومدفوعاً بيأسهِ قفزَ على السطحِ القشيِّ لمنزلِ أحدِ النجارين ثمَّ قفزَ من على السطحِ إلى الأرضِ، ولكن القفزة كانت سيئةً فلوى كاحلهُ، وسقطَ على الأرضِ.

وقفَ وهو يترنحُ، وخلالَ الوقتِ الذي أضاعهُ في السقوطِ تمكن آلفريد من اللحاقِ بهِ إلى الأرضِ والركضِ باتجاهِ الكوخِ، ولأجزاءٍ من الثانيةِ وقفَ جاك وظهرهُ إلى الجدارِ فتوقف آلفريد يراقبهُ. شعرَ جاك بترددٍ رهيبٍ ثمَّ فكرَ بالتحركِ جانباً، والدخولِ إلى الكوخِ.

كان الكوخُ فارغاً من الحرفيين فقد كانوا مُتجمعين حولَ برميلِ إينيد، وعلى المقاعد المطارق، والمناشير، والأزاميل، وقطعِ الخشبِ التي يعملون عليها. في الوسطِ قطعةٌ خشبيةٌ كبيرةٌ لقالبٍ جديد ستُستخدمُ لبناءِ قوسٍ، وفي الخلفِ قبالةَ جدارِ الكنيسةِ نارٌ مشتعلةٌ من نشارةِ الخشبِ، وبقايا المواد الخام التي يستخدمها النجارون.

لم يكن هناك مخرجٌ.

استدارَ جاك وواجه آلفريد. كان مُحاصراً، ولوهلةٍ شلّه الرعبُ ثمَّ تغلبَ

شعورُ الغضبِ على الرعبِ، وفكرَ في نفسهِ: «لا يُهمني إن قُتلتُ ما دمتُ قادراً على جرحِ آلفريد قبلَ موتي». ولم ينتظر آلفريد ليضربَهُ بل أخفضَ رأسهُ وهاجمهُ. كان غاضباً جداً إلى درجةٍ أعماه غضبهُ عن استخدامِ قبضتيهِ واندفع بكلٍّ بساطةٍ نحو آلفريد.

لم يتوقع آلفريد هذا البتة، وصدمَ جاك بجبهتِهِ فمَ آلفريد. كان جاك أقصرَ قامةً بإنشين أو ثلاثة وأكثرَ خفةً من آلفريد، ولكن عزمَ الضربةِ دفعت بآلفريد إلى الوراءِ. استعادَ جاك توازنهُ، ورأى الدم على شفتي آلفريد فشعرَ بالرضا.

لوهلةٍ وقعَ آلفريد في قبضةِ المفاجأة، وفي هذهِ الأثناءِ وقعَ نظرُ جاك على مطرقةٍ خشبيةٍ كبيرةٍ أُسندت إلى مقعدٍ. تعافى آلفريد من الصدمةِ واندفعَ باتجاهِ جاك فرفعَ الأخير المطرقةَ وضربَ بها بكلِّ وحشيةٍ. تراجعَ آلفريد إلى الوراءِ متفادياً ضربةَ المطرقةِ، وفجأةً بات جاك صاحبَ الأفضلية في هذا القتالِ، وشجعهُ هذا على اللحاقِ بآلفريد، وهو يفكرُ بذلكَ الإحساسِ الممتعِ للخشبِ يُهشّمُ عظامَ آلفريد، وهذهِ المرة وضعَ كلَّ قوتهِ في الضربةِ، ولكنه أخطأ آلفريد مجدداً، وأصابَ دعامةَ سقفِ الكوخِ.

لم يكن الكوخ متينَ البناءِ فما من أحدٍ يعيشُ فيهِ، ولا يستخدم إلَّا ليعملَ فيهِ النجارون عندما تمطر. عندما ضربَ جاك الدعامةَ بالمطرقةِ تحرَّكت، ولأنَّ الجدران الرخوةَ المبنية من الأغصان المجدولةِ لا تدعم البناءِ مالَ السقفُ القشي. نظرَ آلفريد عالياً في رعبٍ ورفعَ جاك مطرقتهُ، فتراجعَ آلفريد عبرَ البابَ، ولوحَ جاك بالمطرقةِ نحوه مجدداً. تفادى آلفريد الضربةَ، ولكنه تعثرَ فوقَ كومةٍ من الخشبِ، وسقطَ أرضاً بقوةٍ. رفعَ جاك المطرقةَ عالياً بنيةِ توجيهِ ضربةٍ قاضيةٍ، ولكنه شعرَ بقبضةٍ قويةٍ تُحكم ذراعيهِ. نظرَ إلى الوراءِ ورأى رئيسَ الديرِ فيليب بوجهٍ يرعدُ غضباً. انتزعَ فيليب المطرقةَ الخشبية من قبضةِ جاك.

وراءَ رئيسِ الديرِ وقعَ سقفُ الكوخِ. نظرَ جاك وفيليب إلى الوراءِ، وشاهدا السقف القشي يهبطُ فوقَ النارِ. اشتعلَ الكوخُ بسرعةٍ، وبعد وهلةٍ تحول إلى كتلةٍ ناريةٍ مُتلظيةٍ.

ظهرَ توم، وأشارَ على ثلاثةِ عمالٍ قريبين منه: «أنتَ وأنتَ وأنتَ أحضروا برميلَ الماء من أمام دكانِ الحدادِ». وتحدثَ إلى ثلاثة آخرين: «بيتر، رولف، دانييل أحضروا الدلاء. أمَّا بقيةُ المتدربين فلترموا بالترابِ فوق النار. بسرعةٍ!»

خلالَ الدقائقِ القليلةِ التاليةِ كان الاهتمامُ مُنصباً على إطفاءِ النار، ونسي الجميعُ أمرَ آلفريد وجاك. ابتعدَ جاك عن طريقهم، ووقفَ يراقبُ في ذهولٍ وعجزٍ، أما آلفريد فقد وقفَ على مسافةٍ بعيدةٍ عنه بعض الشيء. وفكرَ جاك غير مصدقٍ أنَّه كان على وشكِ تهشيمِ رأسِ آلفريد بمطرقةٍ، وبدا له الأمر برمتِهِ غير حقيقي. عندما أطفأوا النارَ بمزيجٍ من الماءِ والترابِ كان جاك ما يزالُ في حالةِ صدمةٍ ذاهلةٍ.

وقفَ رئيسُ الديرِ ينظرُ إلى الفوضى وهو يتنفسُ بصعوبةٍ من الجهدِ الذي بذلهُ ثمَّ قال لتوم: «انظر إلى هذا». كان غضبه عارماً. «دُمرَ كوخٌ، وأُفسدَ عملُ النجارين، وذهبَ برميل من الكلسِ هباءً، وانهار قسمٌ كاملٌ من الحجارةِ الجديدةِ».

أدركَ جاك أن توم في ورطةٍ. كان المسؤول عن النظامِ في الموقعِ، ولذلك وجه له فيليب اللومَ على الضررِ، وما جعلَ الأمرَ أسوأَ مما هو عليه هو أنَّ مسببي المتاعب ولداه.

وضعَ توم يدهُ على ذراعِ فيليب بلطفٍ وقال: «سيتدبرُ البناؤون الأمرَ».

لم يُهدئ هذا الكلامُ من غضبِ فيليب الذي انفجرَ قائلاً: «أنا سأتدبرُه فأنا رئيسُ الديرِ، وجميعكم تعملون تحتَ إمرتي».

«إذاً، فلتسمح للبنَّائين بالتداولِ قبلَ أخذِ أيَّةِ قراراتٍ»، قال توم بصوتٍ هادئ وعقلاني. «قد نصلُ إلى اقتراحٍ يناسبكَ، وإن لم يناسبك فلكَ مُطلقُ الحريةِ للقيامِ بما تريدهُ».

بدا فيليب متردداً حيالَ القبولِ بهذهِ المبادرةِ، والتخلي عن الأمرِ، ولكن الأعراف كانت إلى جانبِ توم فالبنَّاؤون مسؤولون عن الانضباطِ بينهم، وبعدَ فترةِ صمتٍ وجيزةٍ قال فيليب وهو ما يزالُ يغلي غضباً: «ولكن أيّاً يكن ما تقررهُ لا أريد ابنيك معاً في هذا الموقعِ. يجب أن يغادر أحدهما».

ألقى توم نظرةً تفيضُ غضباً أسود على كلٍّ من جاك وآلفريد ثمَّ استدارَ، وتوجهَ إلى أكبرِ أكواخِ البنَّائين.

أدركَ جاك وهو يلحقُ بتوم إلى الكوخِ أنَّه في ورطةٍ حقيقيةٍ. عادةً، عندما يؤدب البناؤون بعضهم بعضاً، غالباً ما تكون التعديات الافراطُ في الشُربِ خلالَ العملِ، أو سرقةَ الموادِ، ولذلكَ كانت العقوبةُ المعتادةُ فرضَ غرامةٍ.

عموماً، كانت عقوبةُ الشجارِ بينَ المتدربين تقييد المتشاجرين بالسلاسل ليومٍ، ولكن آلفريد لم يكن متدرباً، وعادةً ما لا تُحدثُ الشجاراتُ الضرر الذي أحدثهُ آلفريد وجاك. يمكنُ لمجلسِ البنائين أن يطردَ العضو الذي يعملُ بأجرٍ أقل من الحدِ الأدنى، ويمكن للمجلسِ أن يعاقبَ العضو الذي يرتكبُ الزنى مع زوجةِ بناءٍ آخر، ولكن جاك لم يعلم بهذا قبلاً. نظرياً، قد يلقى المتدربون عقوبةَ الجلدِ، وعلى الرغمِ من التلويحِ بهذهِ العقوبةِ أحياناً فإنَّ جاك لم يشهد عليها قط.

اجتمعَ كبار البنَّائين في الكوخِ الخشبي. جلسوا على المقاعدِ، وأسندوا ظهورهم إلى الجدارِ الذي كان في الحقيقةِ جدارَ الكاتدرائيةِ. عندما اكتملَ عددهم قال توم: «صاحبُ العملِ غاضبٌ، وغضبهُ مبررٌ فقد تسببَ هذا الحدثُ بالكثيرِ من الأضرارِ المُكلفةِ، والأسوأ من هذا هو أنَّه جلبَ العارَ علينا نحن البنائين. يجبُ أن نتعاملَ بحزمٍ مع المُلامين. هذهِ الطريقةُ الوحيدةُ التي ستمكننا من استعادةِ سمعتنا الجيدةِ كبنائين فخورين ومنضبطين، كأسيادٍ على أنفسنا كما نحن أسيادٌ في مهنتنا».

«كلامٌ بليغٌ»، نادى الحدادُ جاك، وسرت همهمةٌ بالموافقةِ بينَ الحاضرين.

«لم أرَ سوى نهاية الشجارِ»، قال توم ثمَّ أضاف: «هل رأى أحدكم بدايتهُ؟»

«آلفريد استفزَ الفتى»، قال النجارُ بيتر الذي نصحَ جاك بإطاعةِ آلفريد وإحضارِ جعتهِ.

وقالَ بنَّاءٌ شابٌ يدعى دان يعملُ مع آلفريد: «رشقَ جاك الجعةَ في وجهِ آلفريد».

«ولكن الفتى استُفز»، قال بيتر. «فقد أهانَ آلفريد والدَ جاك الحقيقي».

نظرَ توم إلى آلفريد وسأله: «هل فعلتَ هذا؟»

«قلتُ أنَّ والدهُ كان لصاً»، أجابَ آلفريد وتابع: «وما قلتهُ صحيحٌ. أخبرني المأمور إيستس البارحةَ أنَّ والدَ جاك أُعدمَ في شايرنغ».

قال الحدادُ جاك: «من المؤسفِ أن يضطرَّ معلمُ حرفةٍ إلى لجمِ نفسهِ عن قولِ ما يريدهُ لأنَّ المتدربَ لن يحب ما سيسمعهُ».

سرت همهمةٌ بالقبول، وهنا أدركَ جاك بأسى أنَّه، ومهما حدثَ، لن ينجو

من الأمرِ بسهولةٍ، وفكرَ أنَّه قد يُصبح مجرماً كوالدهِ، وينتهي بهِ الأمرُ على حبلِ المشنقةِ أيضاً.

قال النَّجار بيتر الذي نصَّبَ نفسهُ الآن مُدافعاً عن جاك: «أصرُّ على القولِ إنَّه في حال بذلَ معلمُ حرفةٍ جهداً لإغضابِ متدربٍ فإنَّ الأمرَ سيكون مُختلفاً».

«أياً يكن الحال يجبُ أن يُعاقب المتدرب»، قال الحدادُ جاك.

«لا أرفضُ هذا»، قال بيتر ثمَّ أضاف: «ولكنني أعتقد أنَّ المعلمَ يجبُ أن يُعاقب أيضاً. يتوجب على المعلمين اللجوءُ إلى حكمةِ سنواتِ الخبرةِ لإحلالِ السلامِ والتناغمِ في موقعِ البناءِ، وإن كانوا من يبدأون الشجارات فسيكونون قد فشلوا في مهمتهم».

بدا أنَّ البعضَ وافقَ بيتر على ما قاله، ولكن دان الذي يدعمُ آلفريد قال: «إنّه لمن الخطير أن يُصفح عن متدربٍ لأنَّ المُعلم لم يكن لطيفاً معه فالمتدربون يعتقدون دوماً أنَّ المُعلمين غير لطفاء؛ ولذلكَ إن جادلتَ من هذا المنطلق يا بيتر سينتهي الأمرُ بالمُعلمين إلى تجنبِ التحدثَ إلى متدربيهم خوفاً من اتهامِ المتدربين لهم بعدمِ التصرفِ بلباقةٍ».

لَقي كلامُ دان استقبالاً حاراً أثارَ تقززَ جاك، وفضحَ سُلطةَ المعلمين التي يجبُ دعمها بغضِ النظرِ عن حيثيات القضيةِ، وتساءل في نفسهِ عن العقوبةِ التي سينالها. لم يكن يملكُ المال لدفعِ غرامةٍ، وكرهَ فكرةَ تقييدهِ بالسلاسل. ما الذي سيكون رأي آليانا بهِ عندما تعرف؟ سيكون سيئاً حقاً أن يُجلد، وفكرَ أنَّه مستعدٌ لطعنِ من قد يحاولُ جلدهُ.

قال توم: «لا يجب أن ننسى أن رئيسَ الديرِ غاضبٌ جداً، ويقول إنَّه لن يقبل بوجود كلٍّ من آلفريد وجاك في الموقع معاً، ولذلك يجب أن يغادر أحدهما».

«هل يمكننا إقناعهُ بالعدولِ عن الأمر؟» سأل بيتر.

بدا توم غارقاً في التفكيرِ ثمَّ قالَ بعدَ فترةٍ صمتٍ وجيزةٍ: «لا».

صُدمَ جاك فهو لم يأخذ إنذارَ رئيسِ الديرِ فيليب على محملِ الجدِ، ولكن يبدو أنَّ توم فعلَ هذا.

قال دان: «إن كان على أحدهما المغادرة فأثقُ أنَّه لن يكون جدال حول

من يجب أن يُغادر». عملَ دان لمصلحة آلفريد، وليسَ لمصلحة الديرِ بشكلٍ مباشرٍ، وإن اضطرَّ آلفريد إلى المغادرةِ فسيضطرُ دان إلى المغادرةِ معهُ.

ومجدداً بدا توم غارقاً في التفكيرِ ثمَّ قال: «لا، لا جدل»، ثمَّ نظرَ إلى جاك وقال: «يجب أن يغادر جاك».

أدركَ جاك أنَّه فشلَ حقاً في تقديرِ عواقبِ الشجارِ، وعجز عن التصديق أنَّهم سيطردونهُ. تساءل في نفسهِ كيفَ ستكون حياتهُ إن لم يعمل على كاتدرائيةِ كينغزبريدج؛ فقد كانت الشيء الوحيد الذي اهتمَّ لأجلهِ بعدَ أن تقوقعت آليانا على نفسها. كيفَ له أن يترك العملَ على الكاتدرائيةِ؟

قال النجارُ بيتر: «قد يقبلُ الديرُ بتسويةٍ كأن يُجبر جاك على التوقفِ عن العملِ لشهرٍ».

وفكرَ جاك في نفسهِ: «أجل من فضلكم».

«التسويةُ ضعيفةٌ»، قال توم. «يجبُ أن يكون قرارنا حازماً. لن يقبل رئيسُ الديرِ فيليب بأقل من هذا».

«فليكن كذلكَ»، قال بيتر مستسلماً. «ستفقدُ هذهِ الكاتدرائية نحاتاً هاماً وموهوباً موهبةً لم يرَ أحدٌ منا نظيراً لها من قبل، وكلُّ هذا لأنَّ آلفريد لا يمكنهُ أن يُبقي فمهُ اللعين مُغلقاً»، وأبدى العديد من البنائين موافقتهم على شعورِ بيتر، وشجعهُ هذا على المتابعةِ: «أحترمكَ أيّها البنَّاء توم بل أكثر مما احترمتُ أيَّ كبير بنَّائين عملتُ معه، ولكن لا بدَّ لي من القولِ إنَّك تغضُّ النظرَ عن ابنكَ الغبي».

«رجاءً من دونِ إهاناتٍ»، قال توم. «فلنلتزم بوقائعِ القضيةِ».

«حسناً»، قال بيتر. «أقولُ بضرورةِ معاقبةِ آلفريد».

ولمفاجأةِ الجميعِ قال توم: «أوافقكَ»، وفكرَ جاك أنَّ توم تأثرَ بملاحظةِ بيتر حولَ غضِّهِ النظرَ عن سلوكِ آلفريد. «يجب أن يُعاقبَ آلفريد».

«لماذا؟» قال آلفريد بسخطٍ ثمَّ أضاف: «لأنني ضربتُ مُتدرباً؟»

«إنَّه ليسَ متدربكَ بل متدربي»، قال توم. «وأنتَ لم تضربهُ فحسب بل لاحقتهُ في أرجاءِ الموقعِ. ولو أنَّك تركتهُ يهرب لما أُريقَ الكلسُ، ولا وقعت الحجارةُ، ولا أُحرقَ كوخُ النجارين، ولكان بوسعكَ تأديبهُ عندَ عودتهِ. لم يكن هناك من داعٍ لكلِّ ما قمتَ بهِ».

ووافقه البناؤون.

وهنا قالَ دانَ الذي نصَّبَ نفسه متحدثاً عن آلفريد: «آملُ أنكَ لا تقترحُ طردَ آلفريد من مجلسِ البنَّائين لأنَّني، ومن بينِ الجميعِ، لن أقبلَ بحدوثِ هذا بل وسأحاربهُ».

«لا»، قال توم. «تكفيني خسارةُ متدربٍ موهوبٍ، ولا أريد خسارةَ بنَّاء موثوق يديرُ مجموعةَ بنَّائين يُعتمد عليهم. يجب أن يبقى آلفريد، ولكن عليهِ دفعُ غرامةٍ».

بدت الراحةُ على وجوه رجالِ آلفريد.

«غرامةٌ كبيرةٌ»، قال بيتر.

«أجرَ أسبوع» اقترحَ دان.

«أجرَ شهرٍ»، قال توم وأضاف: «أشكُ أنَّ رئيسَ الديرِ فيليب سيقبلُ بأقلِّ من هذا».

وقال العديد من الرجال: «أجل».

«أيّها الأخوة البناؤون، هل جميعنا متفقون على هذا؟» قال توم مستخدماً الكلشيه المتعارف عليها.

«أجل»، أجابوا جميعاً.

«إذاً، سأُطلع رئيسَ الديرِ على قرارنا، أمَّا بقيتكم فمن الأفضلِ أن تعودوا إلى أعمالكم».

راقبَ جاك ببؤسٍ الجميعِ وهم يخرجون. ألقى آلفريد نظرةَ ظفرٍ مُعتدّةً على جاك. انتظرَ توم إلى أن غادرَ الجميع وقال لجاك: «فعلتُ كل ما بوسعي، وآمل أن تتفهم والدتكَ هذا».

«لم تقم بشيءٍ من أجلي!» انفجرَ جاك. «لم تتمكن من إطعامي، ولا إكسائي، ولا إيوائي في منزلٍ. كنا سعداء قبلَ قدومكَ، ولم نتضور جوعاً».

«ولكن في النهايةِ...»

«أنتَ حتَّى لم تتمكن من حمايتي من ذلكَ الحيوان الغبي الذي تناديهِ ابنكَ!»

«لقد حاولت...»

«لم تكن لتحصل على هذا العملِ لو لم أحرق الكاتدرائية بنفسي!»

«ما الذي قلتهُ؟»

«أجل، أنا من أحرقَ الكاتدرائية القديمة».

شحبَ وجه توم وقال: «كان ذلكَ بسببِ البرقِ...»

«لم يحدث برقٌ في تلكَ الليلةِ فقد كانت السماءُ صافيةً، ولم يُشعلُ أحدٌ ناراً في الكاتدرائيةِ أيضاً. أنا من أشعلَ النارَ في السقفِ».

«ولكن لماذا؟»

«حتَّى تحصل على عملٍ، ولا تموت أمي في الغابة».

«ولكنها لم تكن...»

«زوجتكَ الأولى ماتت، أليسَ كذلك؟»

ازداد شحوبُ وجهِ توم، وفجأةً بدا أكبر عُمراً. أدركَ جاك أنَّه تسببَ لتوم بجرحٍ كبيرٍ. لقد فازَ بالجدالِ، ولكنه على الأغلبِ خسرَ صديقاً، وشعرَ بالمرارةِ والحزنِ.

همسَ توم: «اخرج من هنا».

وغادرَ جاك.

سارَ مبتعداً عن الكاتدرائيةِ بجدرانها العاليةِ والدموعُ في عينيهِ. ها هي حياته تُدمر في دقائقَ معدودةٍ، وعجز عن التصديقِ أنَّه لن يعودَ إلى هذهِ الكنيسةِ أبداً. استدارَ عندَ بوابةِ الدير، ونظرَ إلى الوراءِ. كان هناكَ الكثيرُ من الأمورِ التي خططَ لها فقد أرادَ نحتَ مدخلٍ كاملٍ بنفسهِ، وأرادَ إقناع توم بوضعِ تماثيل حجرية لملائكةٍ عالياً عندَ صفِ النوافذ العلويةِ، ووضعَ تصميماً مُبتكراً لمجاز مقنطرٍ مسدودٍ في الجناحين لم يرهِ لأحدٍ بعد. لن يكون بوسعهِ القيامُ بأيٍّ من هذهِ الأمورِ الآن. شعرَ بالغُبنِ الشديدِ، وامتلأت عيناه بالدموعِ.

شقَ طريقهُ إلى المنزلِ شبهَ أعمى من غمامةِ الدموعِ في عينيهِ. وجدَ والدتهُ ومارثا جالستين إلى طاولةِ المطبخِ. كانت والدتهُ تُعلّمُ مارثا الكتابةَ بحجرٍ حادٍ على لوحٍ. تفاجأتا لرؤيتهِ عائداً، وقالت مارثا: «لم يحل وقتُ الغداءِ بعد».

قرأت والدتهُ وجهه وسألتهُ بقلقٍ: «ما الأمر؟»

«تشاجرتُ مع آلفريد وطُردتُ من الموقعِ»، قال بتجهمٍ.
«ألم يُطرد آلفريد أيضاً؟» سألت مارثا.
هزَّ جاك رأسهُ نفياً.
«هذا ظلمٌ!» قالت مارثا.
قالت والدتهُ في ضيقٍ: «وما الذي تشاجرتما حوله؟»
قال جاك: «هل أُعدمَ والدي في شايرنغ بتهمةِ السرقةِ؟»
شهقت والدتهُ.
اكتسى وجه والدتهِ بالحزنِ وقالت: «لم يكن لصاً، ولكن أجل، أُعدمَ في شايرنغ».
كان جاك قد سئمَ غموضَ والدتهِ حيالَ والدهِ وقالَ لها بفظاظةٍ: «لمَ لم تخبريني بالحقيقةِ؟»
«لأنها تحزنني!» قالت والدتهُ وانفجرت باكيةً. أصيبَ جاك بالهلعِ عندما رأى دموعها.
لم يرها تبكي يوماً فهي على الدوامِ تبدو قويةً. كاد ينهارُ معها أيضاً، ولكنه ابتلعَ دموعهُ، وأصرَّ عليها قائلاً: «إن لم يكن لصاً فلماذا أُعدمَ؟»
«لا أعلم!» صرخت والدتهُ. «لم أعلم البتة ولا هو أيضاً. قالوا إنَّه سرقَ كأساً مطعّمة بالجواهرِ».
«ممن سرقهُ؟»
«من هنا، من ديرِ كينغزبريدج».
«كينغزبريدج! هل كان رئيسُ الديرِ فيليب من اتهمهُ؟»
«لا، لا. لقد حدثَ الأمرُ قبلَ عهدِ فيليب بوقتٍ طويل»، أجابت إيلين، ونظرت إلى جاك من بينِ دموعها. «لا تبدأ بسؤالي عمن اتهمهُ، وعن سببِ اتهامهِ. لا تقع في هذا الفخِ فقد تقضي بقيةَ حياتكَ تحاول فهمَ ظُلمٍ وقعَ قبلَ ولادتكَ. لم أربّكَ على الانتقام كيلا تجعلهُ محورَ حياتكَ».
على الرغمِ ممّا قالتهُ إيلين فإنَّ جاك أقسم في نفسهِ على متابعةِ البحثِ في وقتٍ لاحقٍ، ولكن كلَّ ما أراده الآن هو أن تتوقف والدتهُ عنِ البكاءِ. جلسَ بجانبها على المقعدِ، وأحاطها بذراعيهِ قائلاً: «حسناً، يبدو أنَّ الكاتدرئية لن تعودَ محورَ حياتي بعدَ الآن».

قالت مارثا: «وما الذي ستفعلهُ الآن يا جاك؟»

«لا أعلم. لا يمكنني العيشُ في كينغزبريدج، أليس هذا صحيحاً؟»

بدت مارثا ذاهلةً وسألتهُ: «ولِم لا؟»

«حاولَ آلفريد قتلي وطردني توم من الموقعِ، ولذلكَ لن أعيشَ معهما. على أيِّ حالٍ، أنا رجلٌ، ويجب أن أترك أمي».

«ولكن ما الذي ستفعلهُ؟»

هزَّ جاك كتفيهِ وقال: «الشيء الوحيد الذي أعرفهُ هو البناء».

«يمكنكَ العملُ على بناءِ كنيسةٍ أخرى».

«أعتقدُ أنني سأحبُ جداً العملَ على كاتدرائيةٍ كهذهِ الكاتدرائيةِ»، قال جاك بقنوطٍ، وفكرَ في نفسهِ: «ولكنني لن أحبَّ امرأةً أخرى كما أحببت آليانا».

قالت والدتهُ: «كيفَ تمكنَ توم من فعلِ هذا بكَ؟»

تنهدَ جاك وقال: «لا أعتقدُ أنَّه أرادَ طردي، ولكن رئيسَ الديرِ فيليب قالَ له إنَّه لن يقبل بأن أعمل أنا وآلفريد معاً في الموقعِ».

«إذاً، ذلكَ الراهبُ الملعون السببُ في هذا!» قالت والدتهُ بغضبٍ ثمَّ أضافت: «أقسمُ...»

«كان متضايقاً من الضررِ الذي أحدثناه».

«أتساءل إن كانَ بالإمكانِ إقناعهُ بالعدول عن الأمرِ».

«ما الذي تعنيهِ؟»

«يُفترضُ بالرَّبِّ أن يكون رحيماً... ولذلك يفترضُ أن يكون الرهبانِ رحماء مثلهُ».

«هل تعتقدين أنني يجبُ أن ألتمسَ إلى فيليب؟» سألها جاك وقد تفاجأ بالمسارِ الذي أخذهُ تفكيرُ والدتهِ.

«كنتُ أفكرُ بالتحدث إليه بنفسي»، قالت إيلين.

«أنتِ!» قال جاك مصعوقاً فقد وجدَ تصرفها كأمٍ مستعدةٍ لطلبِ الرحمةِ من فيليب غريباً جداً، وهذا لا يعني سوى شيء واحدٍ وهو أنَّها متضايقةٌ جداً.

«ما رأيكَ؟»

تذكرَ جاك أنَّ تومَ قال إنَّ فيليب لن يكون رحيماً حيالَ المسألةِ، إلَّا أنَّ همَّ توم الأساسي كان قيام المجلسِ بأخذِ قرارٍ حاسمٍ حيالَ ما حدثَ، ولأنَّ

توم وعدَ فيليب أنَّهم سيكونون حازمين فلم يكن بوسعهِ التماس الرحمةِ من فيليب، ولكن وضعَ والدتهِ مختلفٌ، وبدأ جاك يشعرُ بشيءٍ من الأملِ؛ فقد لا يضطرُ في نهايةِ المطاف إلى المغادرةِ والبقاءِ في كينغزبريدج قريباً من الكاتدرائيةِ وآليانا. كان قد توقفَ عن الأملِ بأن تبادله الحب، ولكنه كرهَ فكرةَ المغادرةِ لأنَّه لن يعود قادراً على رؤيتها مجدداً.

«حسناً»، قال جاك. «لنذهب للالتماسِ إلى رئيسِ الديرِ فيليب. ليسَ لدينا ما نخسرهُ سوى كبريائنا».

وضعت والدتهُ عباءتها، وخرجا معاً تاركين مارثا جالسةً إلى الطاولةِ قلقةً.

لم يكن جاك ووالدتهُ يسيران جنباً إلى جنبٍ كثيراً، ولذلكَ صدمهُ أن يرى الآن أنَّها بدت قصيرةً جداً مقارنةً بهِ، وفجأةً شعرَ بحبٍ كبيرٍ نحوها فها هي مستعدةٌ للقتالِ من أجلهِ كهرَّةٍ. أحاطها بذراعهِ وعانقها فابتسمت له كأنَّها علمت بما فكرَ فيهِ.

دخلا إلى ساحةِ الدير ثمَّ توجها إلى منزلِ رئيسِ الديرِ. قرعت والدتهُ على البابِ ودخلت. وجدت توم بصحبةِ رئيسِ الديرِ فيليب، وبالنظرِ إلى وجهيهما علمَ جاك على الفورِ أنَّ توم لم يُخبر فيليب بأمرِ إحراقِ الكاتدرائيةِ القديمةِ، وكان هذا مدعاةً لراحتهِ، وهو على الأغلبِ لن يبوحَ بالسرِّ الآن، وهذا يعني أنَّ سرّه بأمانٍ.

عندما رأى توم إيلين ارتسمَ القلقُ مع شيءٍ من الخوفِ على وجههِ. تذكرَ جاك ما قاله له توم: «فعلتُ كل ما بوسعي، وآمل أن تتفهم والدتكَ هذا». لا بدَّ أنَّ الأخيرَ قصدَ بكلامهِ آخرَ مرَّةٍ تشاجرَ فيها جاك وآلفريد، وكيفَ تركتهُ إيلين على إثرِ ما حدثَ. لا بدَّ أنَّه الآن خائفٌ من تكرارِ الأمرِ.

نظرَ جاك إلى فيليب، ورأى أنَّ الغضبَ قد غادره الآن. ربما هدأ بعدَ سماعهِ قرارَ المجلسِ، ويشعرُ بشيءٍ من الذنبِ حيالَ قسوتهِ.

قالت الأمُّ: «أتيتُ إلى هنا لأطلبَ منكَ الرحمة يا رئيسَ الدير فيليب».

وانفرجت أسارير توم على الفورِ.

قال فيليب: «أنا مُصغٍ».

قالت الأمُّ: «أنتَ تقترحُ إبعادَ ابني عن كلِّ ما يحبهُ: منزلهُ، وعائلتهُ، وعملهُ».

وفكرَ جاكْ في نفسهِ: «وعن المرأةِ التي يعبدها».

قال فيليب: «هل فعلتُ هذا؟ اعتقدتُ أنَّه طردَ من العملِ فقط».

«لم يتعلم أيَّ مهنةٍ أخرى غير البناءِ؛ ولذلك لن يجد عملاً في كينغزبريدج، وتحدي بناءِ تلكَ الكنيسةِ الكبيرةِ قد تملَّكهُ، وإن لم يعد للعملِ فيها فسيذهب إلى أي مكانٍ تُبنى فيهِ كاتدرائية. سيذهبُ إلى القدسِ إن كان هناكَ تماثيل ملائكةٍ وشياطين لينحتها»، وفكرَ جاكْ في نفسهِ كيفَ لها أن تعلمَ كلَّ هذا فهو بالكادِ فكرَ بهذا، ولكن ما قالتهُ كان صحيحاً. أضافت إيلين: «وقد لا أراه مجدداً»، وارتجفَ صوتها في النهايةِ. فكرَ جاكْ في نفسهِ مشدوهاً من قوةِ حُبها، وعلمَ أنَّها لن تلتمسَ لنفسها كما التمست له الآن.

بدا فيليب متعاطفاً معها، ولكن كان توم من أجابها. «لا يمكن أن نسمحَ لجاكْ وآلفريد بالعملِ معاً في نفسِ الموقع»، قال لها بعنادٍ. «فهما سيتشاجران مجدداً وأنتِ تعلمين هذا».

«يمكن لآلفريد أن يغادر»، قالت إيلين.

بدا توم حزيناً وقال: «ولكن آلفريد ابني».

«ولكنه في العشرين من العمر ولئيمٌ كذُبٍ!» على الرغمِ من أنَّ والدتهُ تحدثت بحزمٍ، فإنَّ الدموعَ بللت خديها. «إنَّه لا يهتمُ لأمرِ هذهِ الكاتدرائيةِ البتةِ، ويمكنه بكلِّ سرورٍ بناءُ منازل الجزارين والخبازين في وينشستر أو شايرنغ».

«لا يمكن للمجلسِ طردُ آلفريد، والإبقاءُ على جاكْ»، قال توم ثمَّ أضافَ: «علاوةً على هذا، القرارُ في المسألةِ قد حُسمَ».

«ولكنه قرارٌ ظالمٌ!»

وهنا تحدثَ فيليب قائلاً: «قد يكون هناك حلٌ آخر».

ونظرَ الجميعُ إليهِ.

«قد تكون هناك طريقةٌ ليبقى بها جاكْ في كينغزبريدج، بل وتكريس نفسهِ للكاتدرائيةِ من دونِ التشاجرِ مع آلفريد».

تساءل جاكْ في نفسهِ عمَّا يرمي إليهِ فيليب، وبدا له الأمرُ رائعاً جداً على أن يكون حقيقياً.

«أحتاجُ إلى شخصٍ يعملُ معي»، تابع فيليب. «أقضي الكثيرَ من الوقتِ

في اتخاذِ قراراتٍ دقيقةٍ بشأنِ عمليةِ البناءِ. أحتاجُ إلى مساعدٍ يمكنه العملَ كموظفٍ يديرُ الأعمال. سيتعاملُ مع معظمِ الاستفساراتِ بنفسهِ، ولن يناقشني سوى في الأمورِ الهامةِ جداً، وسيتابعُ أمورَ المالِ والموادِ الأوليةِ، ويتولى عملياتِ الدفعِ للمزودين وسائقي العرباتِ والأجور أيضاً. يُتقن جاك القراءة والكتابة ويحسب أسرعَ من أي أحدٍ التقيتهُ...»

«ويفهمُ كلَّ جوانبِ البناءِ»، أضافَ توم. «فقد حرصت على هذا».

شعرَ جاكَ برأسهِ يدور. هذا يعني أنَّه يستطيعُ البقاء! وسيعملُ كموظفٍ يديرُ كلَّ الأعمالِ. لن يتمكن من نحتِ الحجارةِ، ولكنه سيشرفُ على التصميمِ بأكملهِ بالنيابةِ عن فيليب. كان عرضاً مذهلاً، وسيتعين عليهِ التعامل مع توم كشخصٍ مساو له. إنَّه يعلمُ أنَّه أهلٌ لهذهِ المهمةِ، وتوم يعلمُ هذا أيضاً.

كانت هناك عقبةٌ وحيدةٌ في الأمرِ وعبَّرَ عنها جاك قائلاً: «لا يمكنني العيشُ مع آلفريد بعدَ الآن».

قالت إيلين: «لقد حان الوقت ليعيش آلفريد في منزلٍ خاصٍ. ربما إن تركنا فسيعملُ بجدٍ على إيجادِ زوجةٍ».

قال توم: «تستمرين بإيجادِ أسبابٍ للتخلصِ من آلفريد. لن أرمي بابني خارجَ منزلي!»

«لم تفهما أنتما الاثنين»، قال فيليب وأضاف: «لم تفهما عرضي حقاً. لن يعيشَ جاك معكما». وتوقفَ عن الكلامِ لبرهةٍ. رغمَ أنَّ جاكَ تكهنَ بما هو قادمٌ إلّا أنَّ الأمرَ جاءَهُ كآخرِ وأكبرِ صدمةٍ له هذا اليوم.

«سيتعين على جاك العيشَ هنا في الديرِ»، ونظرَ إليهم مُقطباً كأنَّه لم يستوعب سببَ عدمِ فهمهم لقصدهِ.

ولكن جاك فهمَ ما قصدهُ فيليب، وتذكرَ ما قالتهُ والدتهُ في عيدِ ليلةِ منتصفِ الصيفِ: ‹ذلك الملعون رئيسُ الديرِ بارعٌ في الحصولِ على ما يريدهُ›. كانت على حقٍ؛ فها هو فيليب يجددُ عرضهُ الذي قدَّمه آنذاك، غير أنَّ الأمرَ هذهِ المرةِ كان مختلفاً. يواجه جاك الآن خياراً قاسياً بينَ تركِ كينغزبريدج، والتخلي عن كلِّ ما يحبهُ، أو البقاءِ وفقدان حريتهِ.

«بالطبعِ لا يمكن للمشرف أن يكون رجلاً من العامةِ»، أنهى فيليب كلامهُ كأنَّه يوضحُ ما هو واضحٌ أصلاً. «ولذلك يتعين على جاك أن يصبحَ راهباً».

- 5 -

في الليلةِ السابقةِ على افتتاحِ سوقِ صوفِ كينغزبريدج الأوّل بقي رئيس الديرِ ساهراً كعادتهِ بعد انتهاءِ صلاةِ منتصفِ الليلِ، ولكن بدلاً من قضاءِ الوقتِ في القراءةِ، أو التأملِ في منزلهِ ذهبَ في جولةٍ في ساحةِ الديرِ. كانت ليلةً صيفيةً دافئةً، والسماءُ صافية ومُقمرة؛ ولذلك لم تكن هناك حاجةٌ إلى حملِ مصباحٍ.

باستثناءِ أبنيةِ الديرِ، والممراتِ المسقوفةِ التي تُعتبرُ مناطق مقدسةً حُجزَ المكانُ بأكملهِ للسوقِ، وفي كلِّ زاويةٍ من زواياه الأربع حُفرت مراحيضُ كبيرةٌ حتَّى لا يلوثَ الناسُ المكان، وحُجبت المراحيضُ بستائرٍ احتراماً لمشاعرِ الرهبانِ. نُصبت مئات الأكشاكِ، وكان أبسطها مجرد مناضد خشبيةٍ مرتجلةٍ على حاملٍ، غير أنَّ أغلبيتها كانت أكثرَ إتقاناً، وكانت هناك لوحات تحملُ أسماءَ أصحابِ الأكشاكِ، وصوراً للسلعِ التي يبيعونها، وطاولات منفصلة للوزنِ، وخزائن مُقفلة، أو سقيفة صغيرة لتخزين المنتجاتِ، كان لبعضِ الأكشاكِ خيامٌ تستخدم للاتقاء من مياهِ المطرِ، أو للقيامِ بأعمالٍ سرية بعيداً عن الأنظارِ. كانت معظمُ الأكشاكِ المتقنةِ أشبه ببيوتٍ صغيرةٍ مع مساحاتِ تخزينٍ كبيرةٍ، ومناضد عديدةٍ، وطاولاتٍ وكراسٍ حيثُ يمكنُ للتجارِ الترحيبُ بزبائنهم المهمين، وتقديمُ واجبِ الضيافةِ. تفاجأ فيليب بوصولِ طليعةِ نجاري التجارِ قبلَ أسبوعٍ تماماً على بدءِ السوقِ، وطالبوا بإرشادهم إلى أماكن نصبِ الأكشاكِ. قضوا أربعةَ أيامٍ في بنائها، ويومين لملئها بالبضائعِ.

في البدايةِ خططَ فيليب لوضعِ الأكشاكِ في جادتين واسعتين على الجانبِ الغربيِ من ساحةِ الديرِ تماماً كما يفعل بأكشاكِ السوقِ الأسبوعي، ولكنه أدركَ أنَّ هذا لن يكون كافياً. وصلت جادتا الأكشاكِ الآن إلى الطرفِ الشمالي من الكنيسةِ والطرفِ الشرقي من الساحةِ، وقريباً جداً من منزلِ فيليب، ونُصبت المزيدُ من الأكشاكِ في الممرّاتِ بينَ أعمدةِ الكنيسةِ الجديدةِ غيرِ المنتهيةِ. لم تكن جميعُ الأكشاكِ مخصصةً للمتاجرةِ بالصوفِ بل لبيعِ شتى المنتجاتِ، من الخبزِ القاسي إلى الياقوت.

تجولَ فيليب بينَ صفوفِ الأكشاك تحتَ ضوءِ القمرِ. كانت جميعها

جاهزةً الآن، ومعظمها مكدّساً بالبضائعِ؛ ولذلك لن يُسمح بنصبِ أكشاكٍ جديدةٍ اليوم. جمعَ الديرُ ما يزيد على عشرة جنيهات بين إيجاراتٍ وتعاريف، والبضائعِ الوحيدةُ التي ستُجلبُ في يومِ السوقِ هي الأطعمةُ المطبوخةُ والطازجةُ من خبزٍ، وفطائرَ ساخنةٍ، وتفاحٍ مشوي، وحتّى براميل الجعةِ جُلبت إلى السوقِ البارحة.

خلالَ تجوالهِ شعرَ فيليب أنّه محطّ نظرِ عشراتِ العيونِ الناعسةِ، وتلقى العديد من التحياتِ الناعسة أيضاً. لن يترك أصحابُ الأكشاكِ بضائعهم الثمينة من دونِ حراسةٍ، ونامَ معظمهم على طاولاتهم، أمّا الأثرياء منهم فكلفوا خدمهم بهذهِ المهمةِ.

قد لا يعرف فيليب بالضبط كم سيجني من هذا السوقِ، ولكن يعرف أنَّ نجاحه مضمون. شعرَ بالثقةِ من أنَّ السوق سيحقق توقعاتهِ، وسيجني منه خمسين جنيهاً. خلالَ الأشهرِ القليلةِ الماضية ومع استعارِ الحربِ الأهليةِ مجدداً دون رجحان كفةُ أيٍّ من الطرفين انتابه الخوفُ أحياناً حيالَ احتمالِ عدمِ إقامةِ السوقِ، إلا أنَّ رخصتهُ لم تبطل بعد. حاولَ وليم هاملي تخريب السوقِ بطرقٍ عديدةٍ. طلبَ من المأمورِ منعهُ، ولكن المأمور طلبَ تفويضاً من أحدِ الملكَين المتنازعين، ولم ينجح وليم في الحصولِ على هذا التفويضِ. حظرَ وليم المستأجرين لديهِ من بيعِ الصوفِ في كينغزبريدج، ولكن معظمهم باعَ الصوفَ إلى تجارٍ من أمثالِ آليانا في سوقِ الصوفِ، ولذلك عادَ هذا الحظرُ على آليانا بمزيدٍ من الأرباحِ، ثمَّ أعلنَ وليم في النهايةِ عن تخفيضِ إيجاراتِ وتعاريفِ الأكشاكِ في سوقِ الصوفِ في شايرنغ لتصبح مماثلةً لتعاريف فيليب، ولكن الزبائن وكبارَ التجارِ كانوا قد وضعوا خططهم، ولم يعد هناك مجالٌ للتغيير.

من جهةِ الشرقِ توهجت السماءُ الآن مُعلنةً بذلكَ عن حلولِ صباحِ هذا اليومِ الكبيرِ. لم يعد بوسعِ وليم فعلُ المزيدِ فالباعةُ سيكونون هنا مع بضائعهم، وبعدَ قليلٍ سيبدأ الزبائن بالتدفقِ. فكرَ فيليب في نفسهِ أنَّ وليم سيكتشف في نهايةِ المطاف أنَّ سوقَ كينغزبريدج لن يُضارب على سوقِ شايرنغ كما خشي؛ لأنَّ أسعارَ الصوفِ ترتفعُ عاماً بعد عامٍ، وهذا يعني أنَّ كلا السوقين سيحققان أرباحاً.

طافَ فيليب الساحةَ بأكملها ثمَّ توجهَ إلى الزاويةِ الغربيةِ حيثُ تقعُ المطاحنُ، وبركةُ تربيةِ الأسماكِ. وقفَ هناك لبرهةٍ يراقبُ الماءَ يجري قربَ المطحنتين الساكنتين. كان الشابُ جاك مسؤولاً عن هذا. يملكُ الفتى عقلَ مبدعٍ، وسيكون هذا العقل مفيداً جداً للديرِ. ها هو الآن قد استقرَّ، وتأقلمَ بشكلٍ جيدٍ كراهبٍ مبتدئ، ورغمَ أنه اعتبرَ الصلوات مصدرَ إلهاءٍ عن بناءِ الكاتدرائيةِ، وليسَ العكس، فإنَّه سيعلمُ قيمتها في نهايةِ المطافِ. كان للحياةِ الرهبانيةِ تأثير مُرضٍ، واعتقدَ فيليب أنَّ للرَّبِّ غايةً من إرسالِ جاك، وعاشَ فيليب على أملٍ أن يأخذَ جاك في يومٍ من الأيامِ منصبهُ كرئيسٍ لديرِ كينغزبريدج.

***

نهضَ جاك عندَ الفجرِ، وتسللَ خارجَ مهجعِ الرهبانِ قبلَ مراسمِ صلاةِ الفجرِ ليقومَ بآخرِ جولةٍ تفقدية على موقعِ البناءِ. كان هواءُ الصباحِ بارداً ونقياً كمياهِ نبعٍ عذبٍ. سيكون يوماً مشمساً ودافئاً وجيداً للأعمالِ، وللديرِ على حدٍ سواءٍ.

طافَ حولَ جدرانِ الكاتدرائيةِ، وبحثَ عن أيَّةِ أدواتٍ، أو قطعٍ يجري العملُ عليها لوضعها في الأكواخِ، والإقفال عليها. كان توم قد بنى سوراً خشبياً بسيطاً حولَ أكوامِ الخشبِ، والحجارةِ لحمايةِ الموادِ الأوليةِ من الأذيات التي قد يُلحقها الزوار الثملون دونَ قصدٍ. لم يرغبوا في أن يتسلق المتهورون البناءَ، ولذلكَ وضعت السلالم في مأمنٍ، وبعيداً عن الأنظارِ، وأغلقت مداخلُ السلالم الحلزونيةِ داخلَ الجدرانِ بأبوابٍ مؤقتةٍ، ووضعت على الأطرافِ العاليةِ من الجدرانِ غيرِ المنتهيةِ والشبيهه بدرجٍ عوائق خشبيةٌ. سيتجولُ بعضُ معلمي الحرفِ في الموقعِ خلالَ اليومِ، ويحرصون على عدمِ وقوعِ أيِّ أذى.

بطريقةٍ أو بأخرى نجحَ جاك في التملصِ من مراسم كثيرةٍ بحجةِ أنَّ لديهِ على الدوامِ ما يفعلهُ في الموقعِ. لم يحملِ بغضَ والدتهِ تجاهَ الدينِ المسيحي، ولكنه بشكلٍ أو بآخر، لم يكن مُهتماً بهِ، ولم يُبدِ حماسةً تجاههُ، إلَّا أنَّه كان مستعداً للتظاهرِ بالحماسةِ إن كان هذا يخدمُ أغراضهُ. حرصَ على حضورِ صلاةٍ واحدةٍ على الأقلِّ كلَّ يومٍ، وعادةً ما تكون الصلاة التي

يحضرها رئيسُ الدير، أو مُعلمُ الرهبانِ المبتدئين، لأنَّ هذين الراهبين الكبيرين سيلحظان حضورهُ أو غيابهُ. لم يكن بوسعهِ احتمال حضورِ جميعِ هذهِ المراسمِ، ووجدَ في نمطِ حياةِ الرهبانِ غرابةً وتشوهاً لا يمكن للعقلِ أن يتخيلهما. يقضي الرهبان نصفَ حياتهم في ألمٍ وضيقٍ يمكنُ تجنبهُ بكلِ سهولةٍ، والنصفَ الآخر يدمدمون بالهراءِ لساعاتٍ، ليلاً ونهاراً، في كنائسَ فارغةٍ، ويرفضون عن قصدٍ كلَّ ما هو جيدٌ كالفتياتِ، والرياضةِ، والأطايب والحياةِ العائليةِ، ولكن جاك اكتشفَ أنَّ أسعدَ أولئك الرهبان من وجدَ عملاً يحققُ رضاً كبيراً كخطِّ المخطوطاتِ، وكتابةِ التاريخِ، والطبخِ، ودراسةِ الفلسفةِ أو، كما في حالةِ فيليب، الانتقال بكينغزبريدج من قريةٍ مغمورةٍ إلى بلدةٍ بكاتدرائيةٍ مزدهرةٍ.

لم يُحب جاك فيليب، إلّا أنّه أحبَّ العملَ معهُ، أمّا مشاعرهُ تجاه رجالِ الرَّبِّ فبقيت كمشاعرِ والدته تجاههم. كان يشعرُ بالحرج من تقوى فيليب، ولم تعجبهُ عصمتهُ الصارمة، ولم يثق بنزعتهِ للإيمان أنَّ الرَّبَّ سيهتمُ بكلِّ شيءٍ قد يعجزُ فيليب عن التعامل معهُ، ولكن العملَ مع فيليب كان جيداً. كانت أوامرهُ واضحة، وأعطى لجاك حريةَ أخذِ قراراتٍ بنفسهِ، ولم يلم أيّاً من خدمهِ على أخطائهِ.

لم يمضِ سوى ثلاثةِ أشهرٍ على دخولِ جاك إلى الديرِ، ولذلك لن يُطلب منه القيامُ بنذورهِ قبلَ تسعةِ شهورٍ أخرى. كانت النذورُ الثلاثة هي الفقرُ والتبتلُ والطاعةُ. لا يشبه نذرُ الفقرِ ما يوحي بهِ اسمهُ فلا يملك الرهبان ممتلكاتٍ شخصيةٍ، ولا أموالاً خاصةً، ولكنهم عاشوا حياةَ السادةِ أكثر مما عاشوا حياةَ الفلاحين الفقراءِ. كانوا يتناولون طعاماً جيداً، ويحظون بثيابٍ دافئةٍ، ويعيشون في مبان حجرية. أمّا بالنسبةِ لنذرِ التبتلِ فقد اعتقدَ جاك، وبكلِّ مرارةٍ، أنّه لن يجد مشكلةً فيه، وشعرَ برضا باردٍ من نوعٍ ما عندما أخبرَ آليانا شخصياً أنّه سيدخلُ الدير، ورأى كيفَ ارتسمَ على وجهها تعبيرُ الصدمةِ والذنبِ، ولكنه الآن وعندما يعاني من نزقٍ مزعجٍ بسببِ غيابِ الصحبةِ الأنثويةِ يفكرُ بالطريقةِ التي عاملتهُ بها آليانا، ولقاءاتهما الغراميةِ السريَّةِ في الغابةِ، ولياليهما الشتويةِ، والمرتين الوحيدتين اللتين قبّلها فيهما ثمَّ يتذكرُ كيفَ عاملتهُ ببرودٍ وبقسوةٍ شديدتين، ووقتئذٍ يشعرُ أنّه لا يريد أيّةَ

علاقةٍ بالنساءِ. على أيِّ حالٍ وجدَ جاك نذرَ الطاعةِ أصعبَ النذورِ الثلاثةِ، وعرفَ هذا منذُ أن دخلَ الديرَ. كان سعيداً بتلقي الأوامرِ من فيليب الذي كان شخصاً ذكياً ومُنظماً، إلَّا أنَّ طاعةَ نائبهِ الغبي ريميجوس، ومسؤول نزل الضيوفِ الثملِ دوماً، أو أمينِ غرفةِ المقدساتِ المتعالي كانت أمراً صعباً.

على أيِّ حالٍ كان ما يزالُ يفكرُ بأخذِ النذورِ، ولكنه لم يكن مضطراً للالتزامِ بها؛ فكلُّ ما كان يهمهُ حقاً هو بناءُ الكاتدرائيةِ. غرقَ حتَّى رأسهِ في مشاكلِ الموادِ، والبناءِ، والإدارةِ، بل اضطرَّ في أحدِ الأيامِ إلى مساعدةِ توم في تصميمِ طريقةٍ للتحققِ من أنَّ عدد الحجارةِ التي تصلُ إلى الموقعِ هو ذاتهُ الذي يغادرُ المقلع، وقد كانت هذهِ مشكلةً عويصةً لأنَّ عمليةَ النقل تأخذُ بين يومين إلى أربعةِ أيامٍ، ولهذا لم يكن بالإمكانِ القيامُ بإحصاءٍ يومي بسيطٍ. وفي يومٍ آخر اشتكى البناؤون من أنّ النَّجارين لا يصنعون قوالب جيدةً، ولكن أصعبَ هذهِ المشكلات كانت المشكلات الهندسيةِ ككيفيةِ رفعِ أطنانٍ من الحجارةِ إلى أعلى الجدرانِ باستخدامِ آليةٍ مؤقتةٍ تُثبت إلى السقالات غير الثابتة. تباحث البنَّاء توم مع جاك في هذهِ المشاكل كشخصين متساويين. بدا توم كأنَّه غفرَ لجاك كلامهُ القاسي عندما قال له الأخير إنَّه لم يفعل له شيئاً، ويبدو أنَّه نسي اعترافَ جاك بإحراقِ الكاتدرائية القديمة. عموماً، كان عقلُ جاك، حتَّى خلالَ الصلواتِ المملةِ، مشغولاً بمسألةٍ ما معقدةٍ في البناءِ أو التخطيطِ. كانت معارفهُ تتراكمُ بسرعةٍ ويوماً بعد يوم، وبدلاً من قضاءِ سنواتِ حياتهِ ينحتُ الحجارةَ تعلمَ تصميمَ الكاتدرائياتِ، وهذا أفضلُ تدريبٍ قد يحصلُ عليهِ أحدٌ يرغبُ أن يصبح مُعلماً في البناءِ، ومن أجلِ هذا كان جاك مستعداً للتضحيةِ بالنومِ، وحضورِ عددٍ لا يحصى من صلواتِ منتصفِ الليلِ.

بدأت الشمسُ تبزغُ الآن من وراءِ الجدارِ الشرقي لساحةِ الديرِ، وكلُّ شيءٍ في المكانِ منظمٌ. بدأ أصحابُ الأكشاكِ ممن قضوا الليلةَ في أكشاكهم ينهضون، ويطوون أفرشتهم، ويرتبون بضائعهم فقريباً سيصلُ أوائلُ الزبائنِ. مرَّ خبازٌ بالقربِ من جاك حاملاً صينيةً من الأرغفةِ الطازجةِ على يدهِ. أسالت رائحةُ الخبزِ الطازجِ لعابه فاستدارَ عائداً إلى الديرِ، وتوجه إلى قاعةِ الطعامِ حيثُ سيقدم الطعام قريباً.

***

كان أوائلُ الزبائنِ أفراد عائلاتِ أصحابِ الأكشاكِ وسكانِ البلدةِ. بدا الجميع متحمسين لإلقاءِ نظرةٍ على أولِ سوقٍ للصوفِ في كينغزبريدج أكثر مما كانوا مهتمين بشراءِ شيءٍ. ملأ البخلاءُ منهم بطونهم بالخبز القاسي والعصيدةِ قبلَ مغادرةِ منازلهم حتَّى لا يشعروا بإغراءِ شراءِ الحلويات المُتبلةِ والملونةِ بشكلٍ مبهرجٍ في أكشاكِ الأطعمةِ، أمَّا الأطفال فطافوا في المكانِ ذاهلين ومأخوذين بكميةِ الأشياءِ المغريةِ، وباكراً وصلت عاهرةٌ متفائلةٌ بشفتين حمراوين وجزمةٍ حمراء، وتجولت في المكانِ موزعةً الابتسامات على رجالٍ في منتصفِ العمرِ، ولكن ما من أحدٍ منهم كان مهتماً بالمضاجعةِ في مثلِ هذا الوقتِ من اليومِ.

راقبت آليانا كلَّ هذا من كشكها الذي كان من بينِ أكبرِ الأكشاكِ في السوقِ. خلالَ الأسابيعِ القليلةِ الماضيةِ حصلت على كاملِ الإنتاجِ السنوي لديرِ كينغزبريدج من الصوفِ، وهو الصوف الذي دفعت ثمنهُ مئةً وسبعةَ جنيهاتٍ الصيفَ الماضي، واشترت الصوف من المزارعين أيضاً. هذا العام أتى الكثيرُ من باعةِ الصوفِ لأنَّ وليم هاملي منعَ مستأجريهِ من بيعهِ في سوقِ كينغزبريدج، ولهذا باعوه إلى التجار، ومن بين جميعِ أولئكَ التجار حصلت آليانا على أكبرِ قسمٍ لأنَّها تعيش في كينغزبريدج حيثُ سيُقام السوقُ. كانت قد أبلت جيداً جداً حتَّى إنَّه لم يعد لديها مالٌ لشراءِ المزيدِ فاستدانت أربعين جنيهاً من اليهودي مالاتشي، واستمرت بشراءِ الصوفِ، وشغلَ مخزنها الآن نصفَ المساحةِ الخلفيةِ من كشكها، وكان يحوي الآن على مئةٍ وستين كيساً من صوفِ أربعين ألفَ خروفٍ، وبكلفةِ مئتي جنيهِ، ولكنها ستبيعُ هذا المخزون بثلاثمئةِ جنيهِ، ويعادلُ هذا أجرَ بنَّاءٍ ماهرٍ لما يزيد على قرنٍ من الزمنِ. عندما فكّرت بالأرقامِ ذُهلت من حجمِ عملها الكبيرِ.

لم تتوقّع قدومَ زبائنها قبلَ منتصفِ النهارِ. لن يزيدَ عددهم على الخمسةِ أو الستةِ، وهم يعرفون بعضهم، وستتذكر معظمهم بما أنها التقتهم في السنواتِ السابقةِ. ستُقدم لكلٍّ واحدٍ منهم كأساً من النبيذ، وتجلسُ وتتحدث معهم لبعضِ الوقتِ، ثمَّ ستعرض عليهم الصوفَ، وسيطلبون منها فتحَ كيسٍ أو اثنين، ولكن ليسَ من أعلى الكومةِ بالطبعِ. سيضعون أيديهم عميقاً في الكيسِ ويُخرجون قبضةً من الصوف ثمَّ سيُعاينون خيوطَ الصوفِ

لتحديدِ طولها، وسيفركونها بينَ أصابعهم لاختبارِ نعومتها ثمَّ سيتشممونها. أخيراً سيقوم كلُّ واحدٍ منهم بعرضٍ شراءِ المخزون كلهُ بسعرٍ زهيدٍ جداً، وسترفضُ أليانا ثم ستعرضُ السعرَ الذي تريدهُ. سيهزُّ التاجرُ رأسهُ بالنفي ثمَّ سيحتسيان كأساً آخر من النبيذ.

ستكررُ آليانا هذا الطقسَ مع كلِّ تاجرٍ، وبحلولِ منتصفِ النهارِ ستكون قد قدمت الغداءَ للكثير منهم. سيعرضُ عليها أحدهم شراءَ كميةٍ كبيرةٍ من الصوفِ بسعرٍ ليسَ أعلى بكثيرٍ عن الذي عرضهُ، وبالمقابلِ ستعرضُ عليهِ سعراً أقل بقليلٍ مما طلبت. مع أوائلِ فترةِ الظهرِ ستبدأ بعقدِ الصفقاتِ، وستكون الصفقةُ الأولى بسعرٍ منخفضٍ، وسيُطالب بقيةُ التجارِ بصفقةٍ مماثلةٍ، ولكنها سترفض، وسترفع السعرَ تدريجياً طوالَ فترةِ ما بعدَ الظهرِ لأنَّها إن رفعت السعرَ على الفورِ سيتباطأ العملُ، وسيبدأ التجار بالتفكيرِ بملء مخازنهم من مكانٍ آخر. إن طلبت أقل مما هم مستعدون لدفعهِ ستعلمُ عندئذٍ النسبةَ التي اتفقوا عليها بين بعضهم. ستعقدُ كلّ صفقةٍ على حدة، وسيبدأ خدمها في ملء أكياسٍ كبيرةٍ من الصوفِ على عرباتٍ بعجلاتٍ خشبيةٍ ضخمةٍ تجرّها الثيران بينما هي تزنُ أكياسَ المالِ، وكلُّ كيسٍ سيحوي على جنيهٍ من البنساتِ الفضيةِ والجيدراتِ[1].

لم يكن هناك شكٌ أنَّها اليوم ستحظى بمالٍ لم تملكهُ قبلاً فلديها الآن ضعف مخزونها، وأسعارُ الصوف ارتفعت. قررت أنَّها ستشتري ما ينتجهُ رئيسُ الدير فيليب من صوفٍ مُقدماً كما فعلت العام الماضي، وخططت سِرّاً لبناءِ منزلٍ حجري بأقبيةٍ واسعةٍ لتخزينِ الصوفِ، وقاعةٍ أنيقةٍ ومريحةٍ، ودرجٍ جميلٍ، وغرفة نومٍ خاصةٍ بها. كان مستقبلها مضموناً، وكانت واثقةً من أنَّها ستدعمُ ريتشارد ما دامَ بحاجتها، وسيكون كلُّ شيءٍ مثالياً.

رغمَ هذا، وبما يدعو للدهشةِ، شعرت ببؤسٍ حقيقي يُطبقُ بقبضتهِ عليها.

***

مضت أربعُ سنواتٍ على عودةِ إيلين إلى كينغزبريدج، واعتبرها توم أسعدَ أربعِ سنواتٍ في حياته.

1- عملة فضية أو ذهبية هولندية بقيت قيدَ الاستخدام إلى أن استبدلت باليورو عام 2002. (المترجمة)

رغمَ أنَّ ألمَ فراقِ آغنيس ما زال يرافقهُ ويؤلمه، فإنّه انحسرَ مع مرورِ السنينِ، ولم يعد توم يشعرُ بحرجِ الرغبةِ في الانخراطِ في البكاءِ بينَ الفينةِ والأخرى، ومن دونِ سببٍ واضحٍ. ما زالَ يحاورها في سرهِ، ويخبرها عن الأطفالِ، ورئيسِ الديرِ فيليب والكاتدرائيةِ، ولكن هذهِ الحوارات غدت أقلَّ تواتراً عن ذي قبلِ. لم تؤثر ذكراها الحلوةُ-المرّةُ على حُبهِ لإيلين؛ فهو يعيشُ في الحاضرِ، وبالنسبةِ إليهِ كانت رؤيةُ إيلين، ولمسها، والتحدُّثُ إليها، والنوم معها مُتعاً يوميةً.

جُرحَ توم جرحاً عميقاً في اليومِ الذي تشاجرَ فيهِ جاك وآلفريد؛ فعلاوةً على اتهام جاك له أنَّه لم يهتم يوماً بِهِ اعترفَ لهُ بسرٍ رهيبٍ وهو أنَّه من أحرقَ الكاتدرائيةَ القديمةَ، وجرَّاءَ هذا تألمَ لأسابيع عديدةٍ، ولكنه في النهايةِ أقنعَ نفسهُ أنَّ جاك لم يكن مُصيباً في اتهامهِ، وتوقفَ عن الشعورِ بالضيقِ مما حدثَ.

كان بناءُ كاتدرائيةِ كينغزبريدج أكبرَ عملٍ مُرضٍ يقومُ بهِ في حياتهِ فقد كان مسؤولاً عن التصميمِ والتنفيذِ، ولم يتدخل أحدٌ في عملهِ، أو يلومه عندما تسوء الأمورُ. وكلما نظرَ إلى الجدرانِ المرتفعةِ، والقناطر المتناغمةِ، والأفاريز الأنيقةِ بنقوشِها المميزةِ فكرَ أنَّه المسؤول عن وجودِ كلِّ هذا، وأنَّه أبلى جيداً.

أمَّا الكابوس الذي كان يراودهُ قبلاً حولَ عدمِ إيجاد عملٍ والتشردِ على الطرقاتِ فقد بات وراء ظهرهِ فلديهِ الآن صندوقٌ متينٌ مليءٌ حتَّى الحافةِ بالبنساتِ الفضيةِ، ومدفونٌ تحتَ أرضيةِ مطبخهِ، ولكنه كلَّما تذكرَ تلكَ الليلةَ الباردةَ جداً عندما أنجبت آغنيس جوناثان وماتت يرتجفُ. كان واثقاً من أنَّ الأمورَ لن تسوءَ إلى هذا الحدِ مجدداً.

كان أحياناً يتساءل عن سببِ عدمِ إنجابهِ أطفالاً من إيلين فكلاهما يملكان أطفالاً، ولم يكن هناك نقصٌ في فرصِ الإنجابِ، وحتَّى بعدَ مرورِ أربعةِ أعوامٍ على زواجهما ما زالا يمارسان الحبَّ كلَّ ليلةٍ، ولكن الأمرَ لم يسبب له حزناً كبيراً بسببِ وجودِ الصغير جوناثان الذي كان قرَّةَ عينهِ.

من تجاربهِ السابقةِ يعلمُ توم أنَّ أفضلَ طريقةٍ للتمتعِ بسوقٍ هي بمرافقةِ طفلٍ صغيرٍ؛ ولذلكَ بحلولِ منتصفِ الصباحِ، وعندما بدأت حشودُ السوقِ بالتدفقِ بحثَ عن جوناثان. كان الفتى نفسهُ جذاباً في ثيابهِ الرهبانيةِ الصغيرةِ،

ومؤخراً طلبَ حلقَ رأسهِ كما يحلقهُ الرهبان، وسمحَ له فيليب بذلكَ. كان فيليب مغرماً جداً بالفتى، وبدا الصغيرُ، وأكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى، كراهبٍ صغيرٍ جداً. قدمَ إلى السوقِ الكثيرُ من الأقزامِ الحقيقيين، وقد افتتنَ جوناثان بهم. سارعَ توم إلى إبعادهِ عن قزم أحاطَ بهِ حشدٌ لمشاهدتهِ يكشفُ عن عضوهِ بالحجمِ الطبيعي. إضافةً إلى الأقزامِ حضرَ مشعوذون، وبهلوانات، وموسيقيون، وأدَّوا عروضهم أمامَ الحشودِ ثمَّ مرروا القبعات على الناسِ لجمعِ المالِ. تجولَ أيضاً العرَّافون، والجراحون، والعاهرات بحثاً عن زبائن، وكانت هناك عروضٌ لاستعراضِ القوةِ، ومسابقات مصارعةٍ، وألعابُ مقامرةٍ. ارتدى الناس ثياباً زاهيةَ اللون، ومن كانوا ميسوري الحالِ ضمَّخموا شعرهم بالروائحِ والزيوتِ. بدا الجميعُ كأنَّهم يملكون المالَ، وعلت في الأجواءِ خشخشة العملاتِ الفضيةِ.

كان قتالُ الدبِّ على وشكِ البدء، وجوناثان الصغير الذي لم يرَ دباً قبلاً فتنهُ المشهد. غطَّت الندوبُ فراءَ الدبِّ البني في أماكنَ عديدةٍ في دلالةٍ واضحةٍ على أنَّه نجا من معركةٍ سابقةٍ واحدةٍ على الأقلِّ. أحاطت بخصره سلسلةٌ ثقيلةٌ مثبتةٌ إلى وتدٍ دُقَّ عميقاً في الأرضِ. تجولَ الدبُّ في المكانِ على قوائمهِ الأربع بقدرِ ما سمحَ له طولُ السلسلةِ مُحملقاً بغضبٍ إلى الحشودِ المنتظرةِ. رأى توم شيئاً من الدهاءِ في عينِ هذا الوحشِ، ولأنَّه رجلٌ يحبُ المقامرةَ راهنَ على الدبِّ.

وفي إحدى الزوايا ومن صندوقٍ مُغلقٍ أتت أصواتُ نباحٍ متوحشةٍ. كانت الكلابُ في الصندوقِ، ورائحةُ العدو وصلتها الآن. بين الفينةِ والأخرى يتوقف الدبُّ، وينظرُ إلى الصندوقِ، ويشخرُ فيعلو النباحُ ويغدو هستيرياً.

كان مالكُ الحيوانات يجمعُ الرهانات، وبدأ جوناثان يفقدُ صبرهُ، وعندما كان توم على وشكِ مغادرة العرضِ فتحَ المالكُ قفلَ الصندوقِ. وقفَ الدبُّ على قائمتيه الخلفيتين، وتحرَّك بقدر ما سمحت له السلسلةُ ثمَّ شخرَ.

صرخَ المالكُ بشيءٍ، وفُتحَ الصندوقُ.

اندفعت خمسةُ كلابِ صيدٍ رشيقةٍ وسريعةٍ بأفواهٍ مفتوحةٍ تكشفُ عن أسنانٍ صغيرةٍ وحادَّةٍ مباشرةً نحو الدبِّ الذي انقضَّ عليها ببراثنهِ الضخمةِ. أصابَ أحدَها ورماه في الهواء، وهنا تراجعت بقيةُ الكلابِ إلى الوراءِ.

اندفعَ الحشدُ إلى الأمامِ من شدَّةِ الحماسةِ، وتفقدَ توم جوناثان فرآه في المقدمةِ، ولكنه بعيدٌ كفايةً عن متناولِ الدبِّ. وبحركةٍ ذكيةٍ تراجعَ الدبُّ إلى الوراءِ إلى حيثُ نُصبَ الوتدُ فارتخت السلسلةُ، وهذا يعني أنَّه إن انقضَّ فلن يعيقهُ قصرها، ولكن الكلاب كانت ذكيةً، لأنَّها وبعدَ هجومها الأول والاعتباطي نظَّمت نفسها مجدداً، وتحلَّقت في دائرةٍ. تحركَ الدبُّ بانفعالٍ كأنَّه يدرسُ كلَّ الاحتمالات دفعةً واحدةً.

اندفعَ أحدُ الكلابِ وهو ينبحُ بشراسةٍ فتقدَّمَ الدبُّ لملاقاتهِ وضربهِ، ولكن الكلبَ تراجعَ إلى الوراءِ بسرعةٍ وبعيداً عن متناولِ الدبِّ، وهنا انقضت بقيةُ الكلابِ على الدبِّ ومن كل الجهاتِ. لوحَ الدبُّ ببراثنهِ حوله كي يُبعدها. هللَ الحشدُ عندما غرزت ثلاثةُ كلابٍ أنيابها في ردفِ الدبِّ الذي استقامَ على قائمتيهِ الخلفيتين، وزأر من الألمِ. هزَّ الدبُّ الكلابَ فابتعدت وتفرَّقت.

جربت الكلاب الحركةَ ذاتها مجدداً، واعتقدَ توم أنَّ الدبَّ سيُهزم. اندفعَ أولُ كلبٍ قريبٍ فسارعَ الدبُّ إلى مهاجمتهِ، ولكن الكلبَ تراجعَ، وعندما انقضت بقيةُ الكلابِ استدارَ الدبُّ على الفورِ وضربَ أقربها إليهِ فأصابَ جانبهُ ببراثنهِ. هللَ الحشدُ للدبِّ بذات الحماسةِ التي هللوا بها للكلابِ. تركت مخالبُ الدبِّ الحادةُ على جلدِ الكلبِ الحريري ثلاثةَ جروحٍ عميقةٍ داميةٍ. بدأ الكلبُ ينبحُ من الألمِ، وغادرَ ساحةَ القتالِ للعقِ جروحهِ، وهنا أخذَ الحشدُ يسخرُ ويستهجنُ.

أحاطت الكلابُ الأربعةُ الباقيةُ الدبَّ بحذرٍ، ورغمَ أنَّها تنقضُّ بسرعةٍ بينَ الفينةِ والأخرى فإنَّها تتراجع قبلَ أن يوجه لها الدبُّ ضربةً بمخلبهِ. صفقَ أحدٌ ما بيديهِ تصفيقاً بطيئاً فقامَ أحدُ الكلابِ بهجومٍ من المقدمةِ مندفعاً كالبرقِ ومتفادياً براثنَ الدبِّ ثمَّ انقضَّ على عنقهِ. جُنَّ جنون الحشدِ عندما غرزَ الكلبُ أنيابهُ البيضاء في مخلب الدبِ الضخمِ، وهنا هاجمت بقيةُ الكلابِ. زأرَ الدبُّ بوحشيةٍ ثمَّ قذفَ بالكلبِ الذي عضَّ رقبتهُ بضربةٍ من مخلبهِ فسقطَ الكلبُ أرضاً وتدحرجَ. لوهلةٍ عجزَ توم عن متابعةِ ما يحدث وسطَ معمعةِ الحيواناتِ الفرائيةِ. ابتعدت ثلاثةُ كلابٍ، ووقفَ الدبُّ على قوائمهِ الأربع فسحقَ كلباً على الأرضِ حتَّى الموت.

تصاعدت حماسةُ الحشدِ فقد أقصى الدبُّ كلبين، وتركَ ثلاثةً، ولكنه

كان ينزفُ من ظهرهِ وعنقهِ وقائمتيهِ الخلفيتين، وبدا مرتعباً. توقفت الكلابُ عن النباحِ، وبدأت تحيطُ بالدبِّ في صمتٍ، ولكنها أيضاً بدت خائفةً. كانت قد تذوقت طعمَ الدمِ، واشتعلت فيها شهوةُ القتلِ.

عاودت الكلاب الهجومَ بالطريقةِ ذاتها. اندفعَ أحدُ الكلابِ إلى الأمامِ فضربهُ الدبُّ كيفما اتفقَ ثمَّ تراجعَ الكلب، بعد ذلك استدار الدبُّ لمواجهةِ الكلبِ الثاني الذي تراجعَ بعيداً عن متناوله، وفعلَ كلبٌ ثالثٌ المثلَ. أخذت الكلابُ، الواحد تلو الآخر، تتقدمُ وتتراجعُ، والدبُّ يتحركُ ويستديرُ طوالَ هذا الوقتِ، ومع كلِّ هجمةٍ كانت الكلابُ تقتربُ قليلاً من الدبِّ إلى أن باتت قريبةً من مخالبهِ. ولأنَّ الجمهور عجزَ عن رؤيةِ كلّ ما يحدث اشتعلت فيه الحماسةُ. كان جوناثان ما يزالُ في المقدمةِ على بُعدِ عدَّةِ خطواتٍ من توم، وبدا مصعوقاً وخائفاً بعضَ الشيءِ. عادَ توم بنظرهِ إلى ساحةِ القتالِ في الوقتِ الذي ضربَ فيهِ الدبُّ أحدَ الكلابِ بينما اندفع آخر بينَ قائمتيهِ الخلفيتين الضخمتين وعضَّه في بطنهِ الطري فأطلقَ صوتاً كالصراخِ. ركضَ الكلبُ من تحتهِ هارباً، واندفعَ كلبٌ آخر نحو الدبِّ فضربهُ وكادَ يصيبهُ، ثمَّ انقضَّ الكلبُ ذاتهُ على بطنِ الدبِّ مجدداً، ولكنه هذهِ المرة وقبلَ أن يفرَّ فتحَ جُرحاً كبيراً في بطنِ الدبِّ فزأرَ الأخيرُ، ووقفَ على قوائمهِ الأربعِ مجدداً. لوهلةٍ اعتقدَ توم أنَّ أمرَ الدبِّ قد انتهى، ولكنه كان مُخطئاً لأنَّ الدبَّ ما يزال قادراً على القتالِ. عندما اندفعَ الكلبُ التالي ضربهُ الدبُّ ضربةً عاديةً، وعندها رأى الكلبَ الثاني قادماً استدارَ بسرعةٍ مفاجئةٍ، وضربهُ ضربةً قويةً أرسلتهُ في الهواءِ. هلّلَ الحشدُ من شدةِ الحماسة. استقرَّ الكلبُ على الأرضِ ككيسٍ من اللحمِ. راقبَ توم المشهدَ لبعضِ الوقتِ، وأدركَ أنَّ الكلبَ ما يزال حيّاً، ولكنه عاجزٌ عن الحركةِ، ربما كُسرَ ظهرهُ. تجاهلهُ الدبُّ الآن بما أنَّه بات عاجزاً وبعيداً عن متناولهِ.

لم يبقَ سوى كلبين، وكلاهما انقضَّا على الدبِّ وتراجعا مرَّاتٍ عديدةً إلى أن باتا قريبين جداً من متناولهِ وبدآ بتطويقهِ وهما يتحركان بسرعةٍ أكبر وأكبر. استدارَ الدبُّ على كلا الجانبين كي يُبقيهما تحت أنظارهِ. تقدَّم الكلبان وضيَّقا الخناقَ على الدبِّ. كانت الأرض تحتَ براثنِ الدبِ الكبيرةِ قد تحولت إلى وحلٍ بفعلِ الدماءِ، وبطريقةٍ أو بأخرى بدت النهايةُ وشيكةً.

أخيراً هاجمَ الكلبان معاً. عضَّ أحدهما الدبَّ من عنقِهِ، والآخر عضَّهُ في بطنِهِ، وبحركةٍ أخيرةٍ يائسةٍ ضربَ الدبُّ الكلبَ الذي عضهُ في عنقِهِ فانبثقت نافورةٌ مخيفةٌ من الدماءِ. وهنا صرخَ الحشدُ في استحسانٍ. في البدايةِ اعتقدَ توم أنَّ الكلبَ قتلَ الدبَّ، ولكن العكس ما حدث لأنَّ الدماء كانت دماءَ الكلبِ الذي سقطَ الآن أرضاً بعنقٍ منحورٍ. استمرَّ الدمُ بالتدفقِ لبعضِ الوقتِ ثمَّ توقفَ. مات الكلبُ، ولكن في هذهِ الأثناءِ كان الكلبُ الأخير قد مزَّقَ بطنَ الدبِّ وبدأت أحشاؤهُ تخرج. ضربَ الدبُّ الكلبَ ضربةً ضعيفةً، ولكن الكلبَ تجنبها، وهاجمَ مجدداً ممزقاً أحشاءَ الدبِّ أكثر. ترنحَ الدبُّ، وبدا كأنَّه على وشكِ السقوطِ، وهنا تصاعدَ صياحُ الحشدِ. كان مشهدُ أحشاءِ الدبِّ الممزقةِ مقززاً. استجمع الدبُّ قواه، وضربَ الكلبَ مجدداً فأصابهُ، ورماه جانباً والدمُ يسيلُ من جرحٍ في ظهرِهِ، ولكن الجرحَ كانَ سطحياً، والكلبُ يعلمُ أنَّ أمرَ الدبِّ قد انتهى، ولذلك عادَ إلى الهجومِ، وعضَّ أحشاءَ الدبِ ليُغمضَ الحيوانُ الضخمُ عينيهِ أخيراً، ويخرّ صريعاً.

تقدَّم مالكُ الدبِ، وأمسكَ بالكلبِ المنتصرِ من طوقِهِ، ثمَّ خرجَ جزارُ كينغزبريدج ومتدربهُ من الحشدِ وبدأ بتقطيعِ لحمِ الدبِ. فكرَ توم أنَّهما اتفقا على السعرِ مع المالكِ مُسبقاً. أمَّا من ربحوا الرهانَ فطالبوا بأموالهم، وأرادَ الجميع التربيت على ظهرِ الكلبِ الناجي. نظرَ توم إلى حيثُ وقفَ جوناثان ولم يره.

كان الفتى على بُعدِ عدةِ ياردات عنهُ خلالَ قتالِ الدبِّ، فكيفَ له أن يختفي الآن. لا بدَّ أنَّ هذا حدثَ عندما كانت المعركةُ في أوجها، واهتمامُ توم مُنصباً على المشهدِ. شعرَ بالضيقِ من نفسهِ، وبحثَ عن جوناثان بينَ الحشدِ. كان توم أطول من جميعِ الحاضرين، ويستطيعُ الرؤيةَ بشكلٍ جيدٍ من فوقِ رؤوسهم، علاوةً على هذا ستكون ملاحظةُ جوناثان بردائهِ الرهباني، ورأسهِ الحليق سهلةً، ومع ذلك لم يجد توم لجوناثان أثراً.

لا يمكن أن يتعرضَ الطفلُ إلى أذى كبيرٍ في ساحةِ الديرِ، ولكن قد يشاهد أموراً لا يريدهُ رئيسُ الديرِ أن يراها كالعاهرات اللواتي يخدمن زبائنهن قبالةَ جدارِ الديرِ. نظرَ توم من حولهِ ثمَّ رفعَ ناظريهِ عالياً نحو سقالاتِ بناءِ الكاتدرائيةِ، وأصيبَ بالهلعِ عندما رأى جسداً صغيراً في رداءٍ رهباني.

انتابهُ الرعبُ، وأرادَ الصراخَ بجوناثان قائلاً: «لا تتحرك أو ستقع!» ولكن ضجةَ السوقِ ستبتلعُ صراخَه، ولن يسمعهُ الطفل، ولذلكَ شقَّ طريقهُ بين الحشودِ باتجاهِ الكاتدرائيةِ. كان جوناثان يركضُ على طولِ السقالةِ كأنَّه مأخوذٌ بلعبةٍ خياليةٍ، وغير واعٍ لخطرِ الانزلاقِ والوقوعِ عن حافةٍ ارتفاعها ثمانون قدماً والموت.

كبحَ توم رعباً شعرَ بهِ يصعدُ من حلقه كقيءٍ مُرٍّ.

لا ترتكزُ الدعامةُ على الأرضِ بل على أخشابٍ ثقيلةٍ مُثبتةٍ في فجواتٍ في الجدارِ حُفرت لهذا الغرضِ، وكانت ناتئةً بمقدارِ ستةِ أقدامٍ أو أكثر. ثُبتت عصي متينة فوقها، وفوقَ العصي منصاتٌ مصنوعةٌ من لحاءِ الشجرِ اللَّدنِ، والأغصانِ المجدولةِ. عادةً، يصعدُ البناؤون إلى هذهِ السقالات عبرَ الأدراجِ الحلزونيةِ داخلَ الجدرانِ، ولكن هذهِ الأدراجِ كانت مغلقةً اليوم، فكيفَ صعدَ جوناثان إلى الأعلى؟ لم يكن هناك سلالم لأنَّ توم حرصَ على إزالتها أولاً، وتحققَ جاك من بعده. لا بدَّ أنَّ الطفلَ صعدَ على طرفِ الجدارِ الشبيهِ بالدرجِ. ورغمَ أنَّ هناكَ قطعاً خشبية فوق حجارةِ الجدارِ الشبيهِ بالدرجِ لمنعِ تسلقها، إلا أنَّ جوناثان تسلقها بطريقةٍ ما. كان الصبي شديد الثقةِ بنفسهِ رغمَ أنَّه ما يزال يقع أرضاً مرةً واحدةً على الأقلِّ في اليومِ.

وصلَ توم إلى أسفلِ الجدارِ، ونظرَ إلى الأعلى بخوفٍ فوجدَ جوناثان يلعبُ بسعادةٍ على ارتفاعِ ثمانين قدماً. تملَّكَ الخوفُ قلبَ توم كقبضةٍ باردةٍ، وصرخَ بأعلى صوتهِ: «جوناثان!»

بوغتَ الناس من حولهِ بصراخهِ، ونظروا إلى الأعلى لمعرفةِ سببِ صراخهِ، وعندما لمحوا الطفلَ على السقالةِ أشاروا إلى أصدقائهم لمشاهدةِ ما يحدث.

لم يسمع جوناثان صراخَ توم فوضعَ الأخيرُ كفيهِ على جانبي فمهِ وصرخَ مجدداً: «جوناثان! جوناثان!»

سمعَ الطفلَ صراخَ توم هذهِ المرَّةَ لأنَّه نظرَ إليهِ ولوح له.

صرخَ توم: «فلتنزل!»

بدا جوناثان كأنَّه على وشكِ القيامِ بما أمرهُ بهِ توم، ولكن عندما نظرَ إلى المسافةِ التي يتوجب عليه سيرها، ودرجِ الحجارةِ المنحدر جداً الذي عليهِ هبوطهُ غيَّرَ رأيهُ.

«لا يمكنني!» أجاب الطفلُ، ووصلَ صوتهُ إلى الأسفل حيثُ احتشدَ الناسُ.

أدركَ توم أنَّ عليهِ الصعود، وإنزالهُ لذلكَ صرخَ قائلاً: «ابقَ في مكانكَ إلى أن أصلَ إليكَ!» ثمَّ أزالَ قطعتين خشبيتين من فوقِ الأحجارِ السفليةِ للجدار الشبيهِ بالدرجِ، وبدأ بتسلقهِ.

على الرغم من أنَّ عرضَ الجدارِ في الأسفلِ يصلُ إلى أربعةِ أقدام فإنَّه يضيقُ كلما ارتفعَ. تسلَّقَ توم بجَلدٍ، ورغمَ شعورهِ بإغراءِ الإسراعِ فإنَّه أجبرَ نفسهُ على التزامِ الهدوءِ. عندما حدَّقَ إلى الأعلى رأى جوناثان جالساً على طرفِ السقالةِ، وساقاه القصيرتان للأسفلِ.

في الأعلى أصبحَ عرضُ الجدارِ قدمين، إلَّا أنَّها كانت مسافةً كافيةً للسيرِ فوقها بجرأةٍ تماماً كما فعلَ توم. سارَ على طولِ الجدارِ، وقفزَ فوقَ السقالةِ ثمَّ حملَ جوناثان بينَ ذراعيهِ، وهنا اكتسحهُ شعورٌ بالراحةِ.

«أيُّها الفتى الأحمق!» قال توم بصوتٍ يفيضُ بالحبِّ وعانقهُ جوناثان.

بعدَ وهلةٍ نظرَ توم إلى الأسفلِ مجدداً، ورأى بحراً من الوجوهِ المرفوعةِ إلى الأعلى. كان هناكَ ما يُقاربُ مئةَ شخصٍ يراقبون ما يحدث، وربما اعتقدوا أنَّه أحدُ عروضِ السوقِ كقتالِ الدبِّ.

قال توم لجوناثان: «حسناً فلننزل الآن». وأفلتَ الصبي على الجدارِ ثمَّ قال: «سأسيرُ وراءكَ فلا تخف».

لم يقتنع جوناثان وقال: «أنا خائفٌ»، ثمَّ رفعَ ذراعيهِ ليحملهُ توم، وعندما أبدى الأخيرُ تردداً انخرطَ الطفلُ في البكاءِ.

«لا تهتم، سأحملكَ»، قال توم الذي لم يكن سعيداً بفعلِ هذا، ولكن جوناثان كان حزيناً جداً، ولا يمكن الوثوق بهِ كي يسير على هذا العلو. صعدَ توم إلى الجدارِ، وركعَ بجانبِ جوناثان ثمَّ حملهُ واستقامَ مجدداً.

عانقَ جوناثان توم بقوةٍ.

تقدَّم توم إلى الأمامِ، ولكن ولأنَّه يحملُ الطفلَ لم يكن بوسعهِ رؤيةُ موطئ قدمهِ، ولم يكن هناكَ ما يمكن القيام بهِ حيالَ الأمرِ؛ ولذلك وبقلبٍ واجفٍ سارَ على طولِ الجدارِ بحذرٍ وبانتباهٍ شديدين لموطئ قدميهِ. لم يكن خائفاً على نفسهِ غير أنَّ الطفلَ بينَ ذراعيهِ كان مرتعباً، وأخيراً وصلَ توم إلى

بدايةِ جانبِ الجدارِ الشبيهِ بالدرجِ. في الأعلى لم يكن جانبُ الجدارِ أوسع، ولكن مع كلِّ خطوةٍ قامَ بها توم بدا جانبُ الجدارِ، وبطريقةٍ ما، أقلّ انحداراً وهدأ توم أكثرَ. عندما وصلَ توم إلى مستوى الطابقِ العلوي أصبحَ جانبُ الجدارِ بعرضِ ثلاثةِ أقدامٍ فتوقفَ حتَّى تهدأ دقاتُ قلبهِ.

نظرَ من فوقِ ساحةِ الديرِ وبلدةِ كينغزبريدج باتجاهِ الحقول، ورأى شيئاً حيَّره. كانت هناك غمامةٌ من الغبارِ على طريقِ كينغزبريدج، وعلى بُعدِ ميلٍ من البلدةِ، وبعدَ وهلةٍ أدركَ أنَّه كان ينظرُ إلى جيشٍ كبيرٍ من الرجالِ على ظهورِ الجيادِ يقترب بسرعةٍ من البلدةِ. حدَّقَ إلى المدى بدقةٍ أكبر محاولاً معرفة هويتهم. اعتقدَ في البدايةِ أنَّه تاجرٌ ثري جداً، أو مجموعةٌ من التجار مع حاشيةٍ كبيرةٍ، ولكن عددهم كان كبيراً، وفي مظهرهم شيء يوحي أنَّهم لم يكونوا تجاراً. حاولَ التفكير بالسببِ الذي جعلهُ يعتقد أنَّهم لم يكونوا تُجاراً، وعندَ اقترابهم أكثر رأى أن بعضهم يركبُ جياداً حربيةً، وأغلبهم يرتدي خوذاً، ومُسلحون من رؤوسهم حتَّى أخمصِ أقدامهم.

وفجأةً تملَّكَ الرعبُ من توم.

«بحقِّ يسوع، من أولئك الناس؟» قال توم بصوتٍ عالٍ.

«لا تقل يسوع»، أنَّبه جوناثان.

أيّاً كانوا فهذا يعني أنَّ المتاعب قادمةٌ.

هبط توم الجدارَ بسرعةٍ. هللَ الحشدُ عندما قفزَ أخيراً على الأرضِ، ولكنه تجاهلهم. تساءل في نفسهِ عن مكانِ إيلين والأطفالِ، ونظرَ حوله، ولكنه لم يرَ أحداً منهم.

حاولَ جوناثان التملُّصِ من بين ذراعيهِ، ولكن توم أمسكهُ بقوةٍ، وبما أنَّ أصغرَ أبنائهِ معهُ الآن فإنَّ أولَ شيءٍ سيقومُ بهِ هو إيصاله إلى مكانٍ آمنٍ، ثمَّ سيبحثُ عن البقيةِ. شقَّ طريقهُ بينَ الحشدِ باتجاهِ البابِ الذي يُفضي إلى الممرّاتِ المُقنطرة. كان البابُ موصداً من الداخلِ للحفاظِ على خصوصيةِ الديرِ خلالَ السوقِ.

قرعَ توم على الباب وصرخَ: «افتحوا! افتحوا!»

ولكن ما من ردٍ.

لم يكن توم واثقاً من وجودِ أحدٍ في الممرّاتِ، ولكن لم يكن لديهِ وقتٌ للتكهنِ، ولذلكَ تراجعَ إلى الوراءِ ووضعَ جوناثان أرضاً ثمَّ رفعَ قدمهُ اليمنى في جزمةٍ كبيرةٍ، وركلَ البابَ فتشققَ الخشبُ حولَ القفلِ. ركلَ مجدداً وبقوةٍ أكبر فانفتحَ الباب. على الطرفِ المقابلِ ظهرَ راهبٍ طاعنٌ في السنِ وعلى وجههِ علائمُ الدهشةِ. حملَ توم جوناثان، ووضعهُ في الداخل ثمَّ قال للراهبِ العجوز: «أبقهِ في الداخلِ فهناك متاعبُ قادمةٌ».

أومأ الراهبُ بحُمقٍ، وأمسكَ بيدِ جوناثان.

أغلقَ توم البابَ.

كان عليهِ الآن العثورُ على بقيةِ عائلتهِ وسطَ حشدٍ من آلافِ الناسِ.

انتابَ توم الرعبُ عندما فكرَ بصعوبةِ واستحالةِ المهمةِ التي عليهِ القيام بها. وعندما عجز عن رؤيةِ وجهٍ مألوفٍ أمامهُ صعدَ على برميلِ جعةٍ فارغٍ ليرى بشكلٍ أفضل. كان الوقتُ الآن منتصفَ النهارِ والسوقُ في ذروتهِ، والحشودُ تتحركُ كنهرٍ بطيءٍ على طولِ الممرّاتِ بينَ الأكشاكِ، وهناك دواماتٌ من الناس الجائعين حولَ باعةِ الطعامِ والشرابِ. انتابهُ اليأسُ ثمَّ نظرَ من فوقِ أسطحِ المنازلِ، ورأى أنَّ الغزاة وصلوا إلى أطرافِ الجسرِ وغذّوا عدوهم. هلعَ عندما رأى مشاعلاً في أيدي الجنود فهذا يعني الخراب.

وفجأةً رأى جاك قربهُ ينظرُ باستغرابٍ ويسألهُ: «لمَ تقفُ على برميلٍ؟»

«هناك متاعب قادمةٌ»، عاجلَ توم إلى الردِّ ثمَّ أضاف: «أين والدتكَ؟»

«في كشكِ آليانا، ولكن ما هي هذهِ المتاعبُ؟»

«متاعبٌ سيئةٌ. أين آلفريد ومارثا؟»

«مارثا مع أمي، وآلفريد يشاهد قتالَ الديوكِ، ما الأمر؟»

«اصعد ولترَ بنفسكَ»، قالَ توم ومدَّ يدهُ لجاك. على حافةِ البرميلِ وأمامَ توم وقفَ جاك ولكن بعدمِ ثباتٍ، وعندما رأى الغزاةَ يعبرون الجسرَ إلى القريةِ قال: «يا يسوع المسيح! من يكونون؟»

ألقى توم نظرةً على قائدهم وكان رجلاً ضخماً على صهوةِ جوادٍ حربي. عرفهُ على الفورِ من شعرهِ الأشقرِ وبنيتهِ الضخمةِ وقال: «وليم هاملي».

عندما وصلَ الغزاةُ إلى المنازلِ أشعلوا أسطحَ البيوتِ القشيَّةَ بمشاعلهم وهنا صرخَ جاك: «إنهم يحرقون البلدةَ!»

«هذا أسوأ مما توقعتهُ»، قال توم ثمَّ أضاف: «فلتنزل».

وقفزا معاً أرضاً.

«سأحضرُ أمي ومارثا»، قال جاك.

«خُذهما إلى الممرّاتِ المسقوفةِ»، سارع توم إلى القولِ. «إنَّه المكان الوحيد الآمن الآن. إن عارضَ الرهبان قُل لهم اللعنةُ عليكم».

«وإن أقفلوا البابَ؟»

«اكسر القفلَ، هيا بسرعة وسأذهب أنا لإحضارِ آلفريد. أسرع».

ركَضَ جاك إلى كشكِ آليانا، وتوجهَ توم إلى حلبةِ مصارعةِ الديكةِ وهو يدفعُ الناسَ عن طريقهِ بغلظة. أبدى العديد من الرجالِ اعتراضاً على دفعهم، ولكنه تجاهلهم، وصمتوا عندما رأوا حجمَ توم، ونظرةَ الإصرارِ على وجههِ. لم يطل الوقتُ حتَّى وصلَ الدخان إلى ساحةِ الديرِ. شمَّ توم الرائحةَ، ولاحظَ أنَّ شخصاً أو شخصين يتشممان الهواءَ في فضولٍ. لم يكن لديهِ سوى بضع دقائق قبلَ أن يعمَّ الهلعُ المكانَ.

كانت حلبة مصارعةِ الديكةِ قريبةً من بوابةِ الديرِ حيثُ احتشدَ جمهورٌ كبيرٌ وصاخبٌ. دفعَ توم الناسَ بحثاً عن آلفريد. في منتصفِ الحلبةِ حفرةٌ غير عميقةٍ بعرضِ بضعةِ أقدامٍ، وفي الحفرةِ ديكان يُمزقان بعضهما بعضاً بمنقاريهما ومخالبهما الحادَّةِ، وقد امتلأ المكان بالريشِ والدماءِ. وجدَ توم آلفريد في مقدمةِ الحشدِ مستغرقاً في المشاهدةِ، ويصرخُ بملء صوتهِ مُشجعاً أحدَ الطائرين المسكينين. شقَّ توم طريقهُ بعنفٍ بينَ الحشدِ المكتظِّ، وأمسكَ آلفريد من كتفهِ ثمَّ صرخَ: «تعال!»

«راهنت بستة بنساتٍ على الديكِ الأسود!» ردَّ آلفريد على والدهِ صارخاً.

«يجب أن نغادرَ المكان على الفورِ!» صرخَ توم، وفي تلكَ اللحظةِ مرَّت سحابةٌ من الدخانِ فوقَ الحلبةِ فقال توم: «ألا تشمُّ رائحةَ نارٍ؟»

وصلت كلمةُ «نارٍ» إلى مسامعِ واحدٍ أو اثنين من الموجودين فنظرا إلى توم في فضولٍ. عادت الرائحةُ مجدداً وشموها.

شمَّ آلفريد الرائحة أيضاً وسألَ: «ما هذا؟»

«البلدةُ تحترقُ!» قال توم.

وفجأةً سارع الجميعُ إلى المغادرة، وتفرَّقَ الرجالُ في جميعِ الجهاتِ وبدأوا بالتدافعِ. في الحلبةِ قتلَ الديكُ الأسود الديكَ البني، ولكن لم يعد أحدٌ مهتماً بالنتيجةِ الآن. انطلقَ آلفريد في الاتجاهِ الخاطئِ فأمسكهُ توم وقال له: «سنذهبُ إلى الممرّاتِ المسقوفةِ فهو المكان الوحيد الآمن».

بدأ الدخانُ يتحركُ في موجاتٍ عظيمةٍ، وانتشرَ الرعبُ وسطَ الحشدِ. كان الجميعُ متوتراً، ولكن ما من أحدٍ عرفَ ما يجبُ القيامُ بهِ. نظرَ توم من فوقِ الرؤوسِ، ورأى الناس يندفعون خارجَ بوابةِ الديرِ، ولكن البوابةَ كانت ضيقةً. لم يكن الخارج أكثر أماناً من ساحةِ الديرِ. على أيِّ حالٍ هناك كثيرون خطرت لهم ذات الفكرةِ التي خطرت لتوم الذي وجدَ نفسهُ هو وآلفريد يشقان طريقهما بصعوبةٍ وسطَ مدٍ من الناسِ الهاربين بهلعٍ في الاتجاهِ المعاكسِ، ثمَّ وبشكلٍ مفاجئٍ أخذَ المد منحنى جانبياً وتفرَّقَ الجميع. نظرَ توم من حولهِ ليكتشفَ السببَ في هذا التغيير، ورأى طليعةَ الغزاةِ تدخلُ ساحةَ الديرِ.

وهنا تحولَ الحشدُ إلى غوغاء.

كان مشهدُ الغازين مُرعباً، أمَّا جيادهم الضخمة والمرتعبة بقدرِ الحشدِ نفسهِ فقد اندفعت، وتراجعت، وهاجمت الناسَ يمنة ويسرة وفي الوسطِ. أخذَ الرجالُ ذوو الخوذِ، والمُسلحون بالهراواتِ، والمشاعلِ يضربون الرجالَ والنساءَ والأطفال، ويُضرمون النارَ في الأكشاكِ، والثيابِ، وشعرِ الناسِ. كان الجميعُ يصرخُ. اندفعَ المزيدُ من الرجالِ المُسلحين عبرَ البوابةِ، واختفى المزيدُ من الناسِ تحتَ الحوافرِ الضخمةِ. صرخَ توم في أذنِ آلفريد قائلاً: «توجه إلى الممرّات المسقوفةِ. أريدك أن تتأكد من أنَّ الجميعَ بأمانٍ هناك. اركض!» ودفعهُ فانطلقَ آلفريد.

توجهَ توم إلى كشكِ آليانا، وفي طريقهِ تعثرَ بأحدهم وكادَ أن يسقطَ أرضاً إلا أنَّه خرَّ على ركبتيهِ، وقبلَ أن يتمكن من النهوضِ رأى جواداً حربياً مندفعاً نحوه. لاحظَ توم أنَّ أذني الجواد إلى الوراءِ ومنخريهِ منفرجان وبياضَ عينيهِ ينضح رعباً، وفوقَ رأسِ الجوادِ رأى وجهَ وليم هاملي السمين وقد ارتسمت عليهِ تكشيرةُ كرهٍ وظفرٍ. هنا وفي ومضةٍ سريعةٍ استعادَ توم

روعةَ معانقةِ إيلين مجدداً. ركلهُ الجوادُ في منتصفِ رأسهِ، وشعرَ توم بألمٍ رهيبٍ ومرعبٍ في جمجمتهِ كأنَّها على وشكِ الانفجارِ ثمَّ تسربلَ العالمُ من حولهِ بالسوادِ.

***

عندما شمَّت آليانا رائحةَ الدخانِ اعتقدت أنَّه دخانُ الغداءِ الذي ستقدمهُ للتجارِ.

أمامَ مخزنها جلس ثلاثةُ زبائن فلمنكيون إلى الطاولةِ في العراءِ. كانوا رجالاً سماناً بلحى سوداء، ويتحدثون الإنكليزيةَ بلكنةٍ ألمانيةٍ ثقيلةٍ، ويرتدون ثياباً مصنوعةً من قماشٍ فاخرٍ بجودةٍ رائعةٍ. كان كلُّ شيءٍ يسيرُ على ما يرام، وكانت على وشكِ البدءِ بالبيعِ، ولكنها قررت تقديمَ الغداءِ أولاً كي تمنحَ الزبائن فرصةً للقلقِ بشأن المفاوضاتِ لاحقاً. على أيِّ حالٍ ستكون سعيدةً عندما تصبحُ هذهِ الثروةُ الكبيرةُ من الصوفِ مُلكاً لشخصٍ آخر. وضعت صحنَ شرائحِ لحمِ الخنزير المشويةِ مع العسلِ أمامَهم، وألقت نظرةً متفحصةً عليهِ. كان اللحمُ مطهواً بشكلٍ مثالي، وحوافه الدهنية بُنية ومقرمشة. سكبت المزيدَ من النبيذِ. تشممَ أحدُ الزبائنِ الهواءَ، ونظروا جميعاً حولهم في قلقٍ. وهنا شعرت آليانا بخوفٍ مفاجئ. كانت الحرائقُ أسوأ كوابيسِ تجارِ الصوفِ. نظرت آليانا إلى إيلين ومارثا اللتين كانتا تساعدانها في تقديمِ الغداءِ ثمَّ سألتهما: «هل تشمان رائحةَ دخانٍ؟»

وقبلَ أن تتمكن إيلين ومارثا من الإجابةِ على سؤالِ آليانا ظهرَ جاك. لم تكن آليانا معتادةً على رؤيتهِ في ردائهِ الرهباني، وشعرهُ الأصهب مُحلوقٌ من الأعلى كما يفعلُ الرهبان. لاحظت على وجههِ الجميلِ نظرة قلق، وشعرت برغبةٍ مفاجئةٍ في احتضانهِ بينَ ذراعيها، وتقبيلهِ حتَّى تختفي التقطيبةُ عن جبهتهِ، ولكنها استدارت على الفورِ عندما تذكرت كيفَ أنها خذلت نفسها معهُ في الطاحونةِ القديمةِ قبلَ ستةِ أشهرٍ، وهي ما تزالُ تحمرُّ خجلاً في كلّ مرَّةٍ تتذكرُ فيها تلكَ الحادثة.

«هناك متاعب قادمةٌ»، صرخَ جاك بإلحاحٍ. «يجبُ أن نلجأ إلى الممرّاتِ المسقوفةِ في الديرِ».

نظرت إليهِ آليانا وسألتهُ: «ماذا يحدث؟ هل هناك حريقٌ؟»

«إنَّه الإيرل وليم هاملي وجنودهُ»، أجابها جاك.

وفجأةَ شعرت آليانا ببرودِ الموتِ يسري في أوصالها وفكرت: «وليم! مجدداً!»

قال جاك: «أضرموا النارَ في البلدةِ. سيتوجه توم وآلفريد إلى الممرّاتِ المسقوفةِ. رافقيني لو سمحتِ».

وبفظاظةٍ ألقت إيلين بوعاءِ الخضروات الذي حملتهُ على الطاولةِ أمامَ زبونٍ فلمنكي ذاهلٍ. «حسناً»، قالت إيلين، وأمسكت مارثا من ذراعها ثمَّ قالت: «فلنذهب».

ألقت آليانا نظرةً هلعةً إلى مخزنها الذي يحتوي على صوفٍ يُقدرُ بمئاتِ الجنيهاتِ. كان عليها أن تحميهُ من النار، ولكنها لم تعرفْ كيفَ ستتمكن من فعلِ هذا. التقت نظراتها بنظراتِ جاك فقد كان ينظرُ إليها مُنتظراً. غادرَ الزبائن الطاولةَ على عجلٍ، وقالت آليانا لجاك: «اذهب. سأعتني بكُشكي».

قالت إيلين: «جاك! هيا!»

«دقيقة فقط»، قال واستدار نحو آليانا.

رأت آليانا إيلين تتردد، وبدا واضحاً أنها ممزقةٌ بين إنقاذِ مارثا وانتظارِ جاك، ونادتهُ مجدداً: «جاك! جاك!»

استدارَ نحوها وقال: «أميِّ! خُذي مارثا إلى الممرّاتِ المسقوفةِ!»

«حسناً! ولكن من فضلكَ أسرع!» قالت له وغادرت مع مارثا.

قال جاك لآليانا: «البلدة تحترقُ، وستكون الممرّات المسقوفةُ المكان الوحيد الآمن لأنَّها مبنية من الحجارةِ. بسرعةٍ... رافقيني».

كانت آليانا قد بدأت تسمعُ الصراخَ القادمَ من جهةِ بوابةِ الديرِ، وفجأةً غطى الدخانُ كلَّ شيءٍ. نظرت حولها وهي تحاول فهم ما يجري، وشعرت بالخوفِ يملأها من الداخلِ؛ فكلُّ شيءٍ عملت من أجلهِ لستة أعوامٍ موجودٌ في ذلكَ المخزن.

قال جاك: «آليانا! رافقيني إلى الممرّاتِ المسقوفةِ. سنكون بأمانٍ هناك!»

«لا أستطيع! لا يمكنني تركُ صوفي!» صرخت قائلةً.

«فليذهب صوفكِ إلى الجحيمِ!»

«إنَّه كلُّ ما أملك!»
«لن يكون مفيداً إن لم تكوني حيَّةً».
«من السهلِ عليكَ قولُ هذا، ولكنني قضيتُ سنواتٍ وأنا أحاولُ الوصولَ إلى هذا الوضع...»
«آليانا! من فضلكِ!»
وفجأةً بدأ الناسُ خارجَ الكشكِ يصرخون في رهبةٍ. كان الغزاةُ قد دخلوا إلى ساحةِ الديرِ، واندفعوا عبرَ الحشدِ دونَ اهتمامٍ بمن يطؤونهُ، وأضرموا النيران في الأكشاكِ. وفي محاولات الناسِ اليائسةِ لتجنبِ حوافرِ الجيادِ والمشاعلِ سحقوا بعضهم بعضاً. تدافعَ الناسُ قبالة الواجهةِ الخشبيةِ الرقيقةِ لكشكِ آليانا؛ فتداعى على الفورِ، وتدفقَ الناسُ باتجاهِ المساحةِ المفتوحةِ أمامَ المخزنِ، وقلبوا الطاولات بصحون الطعام وكؤوسِ النبيذ فوقها؛ فاضطرَ جاك وآليانا إلى التراجعِ إلى الوراءِ. اندفعَ مهاجمان باتجاهِ الكشكِ. لوحَ أحدهما بهراوةٍ وآخر بمشعلٍ. شقَ جاك طريقهُ أمامَ آليانا في محاولةٍ لحمايتها. نزلت الهراوةِ على رأسِ آليانا، ولكن جاك وضعَ ذراعهُ فوقها لحمايتها فأصابت الهراوةُ معصمَ يدهِ. شعرت آليانا بالضربةِ رغمَ أنَّ جاك من تلقاها. عندما رفعت ناظريها رأت وجه المهاجم الثاني.
كان وليم هاملي.
وصرخت آليانا.
نظرَ إليها لبرهةٍ، والشعلةُ في يدهِ، وبريق النصرِ في عينيهِ، ثمَّ همزَ جوادهُ، واندفعَ باتجاهِ مخزنها.
«لا!» صرخت آليانا.
صارعت للفكاكِ من الحشدِ الطاحنِ والمتدافعِ والعنيفِ حولها، بمن فيهم جاك، وتحررت في النهايةِ ثمَّ اندفعت باتجاه مخزنها. كان وليم هاملي قد انحنى من فوقِ سرجِ جوادهِ، وقرَّبَ مشعلهُ من كومةِ أكياسٍ من الصوفِ. «لا!» صرخت آليانا مجدداً، ورمت بنفسها عليهِ في محاولةٍ لإيقاعهِ عن جوادهِ فدفعها جانباً، وسقطت أرضاً. رفعَ مشعلهُ مجدداً، وقرَّبه من أكياسِ الصوفِ. التقطَ الصوفُ النارَ التي استعرت بصوتٍ كزئيرٍ مهيبٍ. تراجعَ جوادُ وليم إلى الوراءِ، وصهلَ في خوفٍ من ألسنةِ اللهبِ، وفجأةً ظهرَ جاك،

وسحبَ آليانا بعيداً. همزَ وليم جوادهُ خارجاً من المخزنِ بسرعةٍ. نهضت آليانا على قدميها، وأمسكت بكيسٍ فارغٍ، وحاولت إخمادَ النيرانِ فقال لها جاك: «آليانا، ستُقتلين!» كانت حرارةُ النارِ قد أصبحت مؤلمةً. أمسكت آليانا بكيسٍ من الصوفِ لم يكن مُشتعلاً، وحاولت إبعاده، وفجأةً سمعت سعيرَ النارِ في أذنيها، وشعرت بحرارةٍ شديدةٍ في وجهها، وأدركت في رعبٍ أنَّ شعرها يحترقُ، وبعدَ لحظةٍ شعرت بجاك يرمي نفسهُ عليها، ويُطفئ شعرها بشدِها بقوةٍ نحو جسدهِ إلى أن انتهى الأمرُ بكليهما أرضاً. شدَّها بقوةٍ لبرهةٍ ثمَّ أرخى ذراعيهِ. ورغمَ أنَّها شمَّت رائحةَ الشعرِ المحترقِ فإنَّه لم يعد مشتعلاً. رأت آليانا أنَّ وجهَ جاك محترقٌ وقد اختفى حاجباه. أمسكها من أحدِ كاحليها، وأخرجها من البابِ. استمرَّ بجرّها رغمَ مقاومتها إلى أن باتا في أمانٍ بعيداً عن النيران.

نظرت آليانا إلى منطقة كشكها ورأتها فارغةً. كان جاك قد أفلتها الآن، وحاولت النهوضَ، ولكنه أمسكها وثبتها أرضاً. استمرَّت بمقاومتهِ وهي تُحدقُ بجنونٍ إلى النيرانِ تأكلُ تعبَ وجهدَ سنواتٍ، كلَّ ثروتها وأمانها، إلى أن لم يعد لديها القوةُ على مقاومتهِ فبقيت في مكانِها وهي تصرخ.

***

كان فيليب في السردابِ تحتَ مطبخِ الديرِ يعدُّ المالَ مع كوثبرت وايتهيد عندما سمعا الضجةَ. نظرَ الراهبان بعضهما إلى بعض في تجهمٍ ثمَّ نهضا لرؤية ما يحدث.

حالما خرجا من بابِ السردابِ كانا أمامَ مشهدِ شغبٍ.

هلعَ فيليب عندما رأى الناس يركضون في جميعِ الجهاتِ، ويتدافعون، ويسقطون، ويطؤون بعضهم بعضاً، والرجالُ والنساءُ يصرخون، أمَّا الأطفال فكانوا يبكون. كان الهواءُ عابقاً برائحةِ الدخانِ، وبدا الأمرُ كأنَّ الجميع يحاولُ مغادرةَ ساحةِ الديرِ، وباستثناءِ البوابةِ الرئيسةِ كانت الفتحةُ الوحيدةُ هي بينَ المطبخِ والطاحونةِ؛ فلا وجود لجدارٍ هناك بل خندق مائي يجرُّ المياه من بركةِ الطاحونةِ إلى مصنعِ الجعةِ. أرادَ فيليب تحذيرَ الناسِ من خوضِ الخندقِ، ولكن ما من أحدٍ كان يُصغي.

لم يكن هناك شكٌّ أنَّ سببَ هذا التدافعِ حريقٌ، بل وحريقٌ كبيرٌ. كان

الهواءُ عابقاً بالدخانِ. ملأ الخوفُ فيليب؛ فمع وجود كلِّ هذا العددِ من الناسِ معاً ستكون المذبحةُ مروعةً، ولكن ما الذي يمكنُ القيامُ بهِ؟

كان عليهِ أولاً أن يعرف ما الذي يجري؛ ولذلكَ هرعَ عبرَ الدرجِ إلى بابِ المطبخِ ليرى بشكلٍ أوضح، ولكن ما رآه ملأهُ رعباً.

رأى بلدة كينغزبريدج بأكملها تحترقُ.

وأفلتَ صرخةَ رعبٍ ويأسٍ.

كيفَ لهذا أن يحدث؟

ولكن عندما رأى الجنود يهاجمون الحشدَ بمشاعلهم أدركَ أنَّ الأمرَ ليسَ حادثةً، وللوهلةِ الأولى اعتقدَ أنَّ معركةً بين طرفي الحربِ الأهليةِ المتنازعين اندلعت هنا في كينغزبريدج، ولكن الجنود هاجموا المواطنين وليسَ بعضهم بعضاً. لم تكن هذهِ معركة بل مجزرة.

رأى فيليب رجلاً أشقرَ الشعرِ على جوادٍ حربي عملاقٍ يسحقُ الناسَ أمامه. كان وليم هاملي.

شعرَ فيليب بالحقدِ يصعدُ من بطنهِ إلى حلقهِ، وشعرَ أنَّه على وشكِ فقدانِ عقلهِ عندما فكرَ أنَّ القتلَ والدمارَ الدائرين من حولهِ مقصودان، ودافعهما الجشعُ والغرور.

«أراكَ يا وليم هاملي!» صرخَ فيليب بأعلى صوتهِ.

ومن فوق أمواجِ الصراخِ سمعَ وليم اسمهُ يُنادى فشدَّ رسنَ جوادهِ، ونظرَ إلى فيليب، وعندها التقت أعينهما.

صرخَ فيليب: «ستذهبُ إلى الجحيمِ بسببِ فعلتكَ هذهِ!»

ارتسمَ على وجهِ وليم تعبيرٌ يفضح شهوةً للقتلِ. حتَّى التهديدُ بأكثرِ شيءٍ يخافه لم يكن له تأثيرٌ عليهِ اليوم. كان أشبه برجلٍ مجنونٍ. لوحَ وليم بمشعلهِ في الهواءِ كأنَّه رايةٌ وصرخَ قائلاً: «هذا هو الجحيمُ أيّها الراهب!» ثمَّ اندفعَ بجواده متابعاً طريقهُ.

***

فجأةً اختفى الجميع. اختفى جميعُ المهاجمين والحشودِ. أفلتَ جاك آليانا ووقفَ. شعرَ بيدهِ اليُمنى خدرةً، وتذكرَ أنَّه تلقى ضربةً عندما كان يحمي آليانا. كان سعيداً لأنَّ يدهُ آلمتهُ، وأملَ أن تؤلمهُ لوقتٍ طويلٍ كتذكارٍ على ما حدثَ.

بدا المخزنُ المشتعلُ كجحيمٍ مستعرٍ تطوقهُ نيرانٌ صغيرةٌ، وأرضٌ مفروشةٌ بالجثثِ بعضها تتحركُ، وبعضها تنزفُ، وبعضها ساكنٌ. وباستثناءِ صوتِ النارِ عمَّ الهدوء المكان. غادرَ الغوغاء، وتركوا وراءهم موتاهم وجرحاهم. لم يرَ جاك ساحةَ قتالٍ قبلاً، ولكنه تخيلَ أنَّها ستكون شبيهةً بهذهِ.

انخرطت آليانا في البكاءِ، ووضعَ جاك يدهُ على كتفها للترويحِ عنها فأبعدتها. لقد أنقذَ حياتها، ولكنها لم تعبأ بهذا؛ فكلُّ ما كان يهمها هو صوفها الملعون الذي التهمتهُ النيران الآن. حدَّقَ إليها لوهلةٍ، وسيطرَ عليهِ شعورٌ بالحزنِ. كان معظمُ شعرها قد احترقَ، ورغمَ أنَّها لم تعد تبدو جميلةً فإنَّه ما زالَ يحبها. آلمتهُ رؤيتها مكلومةً وعجزهُ عن التخفيفِ عنها.

كان واثقاً من أنَّها لن تحاول العودة إلى المخزنِ الآن، ولأنَّه كان قلقاً على عائلتهِ تركها، وانطلقَ للبحثِ عنهم.

شعرَ بألمٍ في وجهه فوضعَ يدهُ على خدهِ، وشعرَ بلسعةٍ عندَ لمسهِ. لا بدَّ أنَّه احترقَ أيضاً. نظرَ إلى الجثثِ على الأرضِ، وأراد القيام بشيءٍ للجرحى، ولكنه لم يعلم من أينَ يبدأ. بحثَ عن وجوهٍ مألوفةٍ بينَ الغرباءِ وهو يأملُ ألا يرى أحداً يعرفهُ، وفكرَ أنَّ والدتهُ ومارثا تقدَّمتا الحشدَ إلى الممرّاتِ المسقوفةِ. هل عثرَ توم على آلفريد؟ واستدارَ باتجاهِ الممرّاتِ المسقوفةِ ثمَّ رأى توم.

كان جسدُ زوجِ والدتهِ مسجى على الأرضيةِ الطينيةِ وساكناً، وبدت معالمُ وجههِ واضحةً بل وبدا وجهه حتَّى حاجبيه مُطمئناً، ولكن جبهتهُ كانت مفتوحةً وجمجمتهُ مُهشمةً بالكاملِ. ارتاعَ جاك عندما رأى هذا، وعجزَ عن استيعابِ الأمرِ. لا يمكن أن يكون توم ميتاً، ولكن هذا الجسدُ الذي أمامهُ لا يمكن أن يكون لشخصٍ حيٍّ. أشاحَ جاك بنظرهِ بعيداً ثمَّ نظرَ مجدداً. إنَّه توم، وكان ميتاً.

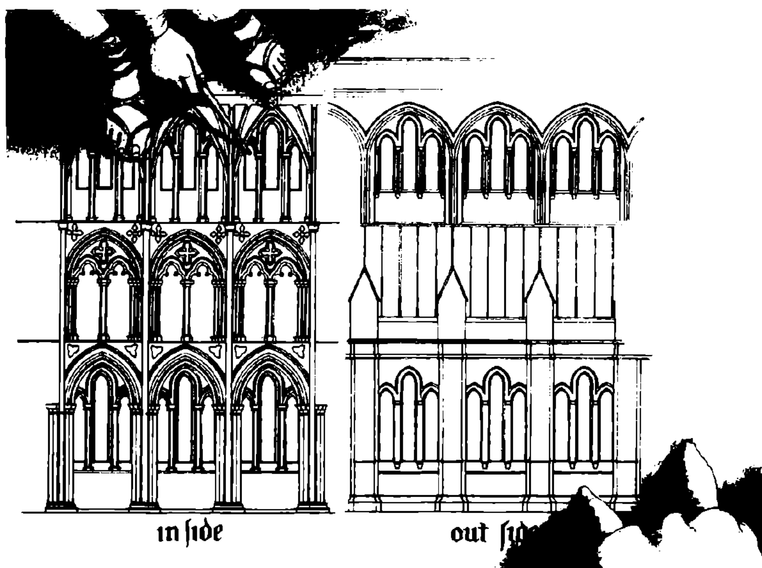
ركعَ جاك بجانبِ الجثةِ، وشعرَ برغبةٍ في فعلِ شيءٍ، أو قولِ شيءٍ، ولأول مرةٍ في حياتهِ فهمَ السببَ الذي يدفعُ الناسَ إلى الصلاةِ على الموتى. «ستشتاقُ إليكَ أمي بقوةٍ»، قال جاك، وتذكرَ حديثهُ الغاضب مع توم عندما تشاجرَ مع آلفريد. «معظمُ ما قلتهُ لم يكن صحيحاً»، قال جاك، وبدأت الدموع تترقرقُ من عينيهِ. «أنتَ لم تخذلني، بل أطعمتني، ورعيتني،

وأسعدت والدتي بحقٍ»، وفكرَ جاك أنَّ هناك ما هو أهمُ بكثيرٍ من كلٍّ هذا. لقد قدمَ له توم ما هو أهمُّ من الأمورِ العاديةِ كالطعامِ، والمأوى. قدَّم له شيئاً فريداً، شيئاً لا يمكنُ لرجلٍ آخر أن يقدمهُ له، شيئاً لم يكن والدهُ الحقيقي ليعطيه إياه، شيئاً يشبه الشغفَ... المهارةَ... الفن... الطريقة في الحياةِ.

«أعطيتني الكاتدرائية»، همسَ جاك في أذنِ الرجلِ الميتِ ثمَّ أضاف: «شكراً لك».

الجزء الرابع

من عام 1142 وحتَّى عام 1145



الفصل الحادي عشر

-1-

أفسدَ دعاءُ فيليب على وليم بهجةَ نصره، وبدلاً من الشعورِ بالرضا والسرورِ تملَّكهُ رعبٌ من الذهابِ إلى الجحيمِ بسببِ ما اقترفه في كينغزبريدج.

آنذاك أجابَ وليم على فيليب بشجاعةٍ وسخريةٍ قائلاً: «هذا هو الجحيمُ أيُّها الراهب!»، ولكنه وقتئذٍ كان مأخوذاً بحماسةِ الهجومِ. بعدَ أن انتهى الهجوم، وغادرَ مع رجالهِ البلدةَ المشتعلةَ، وأبطأت جيادهم، وهدأت ضرباتُ قلوبِ الجنودِ، وبات لديهِ الوقت ليفكرَ بالغارةِ، وبعددِ الناسِ الجرحى، والحرقى، والقتلى الذين تركهم في كينغزبريدج، استعادَ وليم وجهَ فيليب الغاضب، وإصبعهُ المرفوعة مباشرةً إلى السماءِ، واللعنة في كلماتهِ: «ستذهبُ إلى الجحيمِ بسببِ فعلتكَ هذهِ!»

عندما هبطَ الظلام تملَّكَ وليم الاكتئابُ، وأرادَ رجالهُ التحدثَ عن العمليةِ التي قاموا بها، وإعادةِ إحياءِ أبرزِ أحداثها، والتحدثِ ببهجةٍ عن المذبحةِ، ولكنهم سرعان ما لاحظوا مزاجه العكر فلزموا الصمتَ بكآبةٍ. قضوا الليلةَ في منزلِ أحدِ أكبرِ المستأجرين لدى وليم، وعلى العشاءِ شربَ الرجالُ في تجهمٍ حتَّى الثمالةِ، ولأنَّ المستأجر -صاحبَ المنزلِ- يعلمُ ما يشعرُ بهِ الرجالُ بعدَ معركةٍ أحضرَ بعضَ العاهراتِ من شايرنغ، ولكنهن لم يقمن بعملٍ جيدٍ. لم يغمض لوليم جفنٌ طوالَ الليلِ. كان مرتعباً من الموتِ في نومهِ، والذهاب إلى الجحيم.

في صباحِ اليومِ التالي، وبدلاً من العودةِ إلى قلعةِ شايرنغ، توجهَ وليم

لمقابلةِ الأسقفِ ويلارن. عندما وصلَ لم يجدهُ في قصرهِ بل وجدَ كبيرَ الكهنةِ بولدوينَ الذي أخبرَ وليم أنّ الأسقف سيعودُ ظهرَ هذا اليومِ. انتظرَ وليم ويلارن في المصلى وهو يُحدقُ إلى الصليبِ على المذبحِ، ويرتجفُ على الرغمِ من أنَّ الوقت صيفٌ والجو حارٌ.

عندما وصلَ ويلارن أخيراً أرادَ وليم أن يقبلَ قدميهِ.

دخلَ الأسقفُ إلى المصلى في ردائهِ الأسود وقالَ ببرودٍ: «ما الذي يجري هنا؟»

نهضَ وليم على قدميهِ محاولاً إخفاءَ رعبِهِ الشديدِ تحتَ ظاهرِ رباطةِ جأشٍ وقال: «أحرقت بلدةَ كينغزبريدج...»

«أعلم»، قاطعهُ ويلارن. «لم أسمع عن شيءٍ آخر غير هذا طوالَ اليومِ. ما الذي تلَبَّسك لتفعلَ هذا؟ هل أنتَ مجنون؟»

بوغت وليم بردّ فعلِ ويلارن. على الرغمِ من أنَّه لم يستشر ويلارن في أمرِ الغارةِ مُسبقاً إلّا أنّه كان واثقاً من أنَّ ويلارن سيوافق على الأمرِ لأنَّه يكره كلَّ شيءٍ له علاقةٌ بكينغزبريدج، وبرئيسِ الديرِ فيليب على وجهِ الخصوصِ، ولذلكَ توقعَ وليم ألا يكون ويلارن سعيداً فحسب بل مُبتهجاً. قال وليم: «دمرَّت أسوأ أعدائكَ، وأنا بحاجةٍ إلى الاعترافِ بذنوبي».

«لا يُفاجئني هذا الكلام»، قال ويلارن، «يُقال إن أكثرَ من مئةِ شخصٍ ماتوا حرقاً»، ثم ارتجفَ وأضاف: «يا لها من طريقةٍ رهيبةٍ للموتِ».

«أنا جاهزٌ للاعترافِ»، قال وليم.

هزَّ ويلارن رأسه وقال: «لا أعرف إن كان بوسعي منحكَ الغفران».

وأفلتت صرخةُ رعبٍ من فمِ وليم ثمَّ قال: «ولِم لا؟»

«أنتَ تعلمُ أنَّني وأسقفَ وينشستر هنري عدنا إلى صفِّ الملكِ، ولا أعتقدُ أنَّ الملكَ سيرحبُّ بمنحي الغفران لمناصر للملكةِ مود».

«اللعنةُ عليكَ يا ويلارن، أليسَ أنتَ من أقنعني بتغيير تحالفي؟!»

هزَّ ويلارن كتفيهِ وقال: «فلتغيره مرَّةً أخرى».

أدركَ وليم أنَّ ويلارن يريدهُ أن يغير تحالفه مجدداً، ويتحالف مع الملكِ ستيفن الآن، وأنَّ ارتياعَ ويلارن إزاءَ إحراقِ كينغزبريدج مزيفٌ، ومجرَّد

وسيلةٍ للتفاوضِ، وعقدِ صفقةٍ. حالما أدركَ وليم هذا، شعرَ براحةٍ عظيمةٍ، فهذا يعني أنَّ ويلارن لا يعارضُ منحهُ الغفران بدافعِ الحقدِ على فعلتهِ. فكرَ وليم في نفسهِ بأمرِ تغيير التحالفاتِ مجدداً، ولوهلةٍ التزمَ الصمتَ وهو يُقلبُ الأمرَ بكلِّ هدوءٍ.

«لم يحقق ستيفن شيئاً سوى النصر طوالَ هذا الصيف»، تابع ويلارن كلامهُ. «ومود تتوسل إلى زوجها للعودةِ من النورماندي، ولكنَّه لن يعود. إنَّ الأمورُ تسيرُ في صالحنا».

وفجأةً خطرَ ببال وليم خاطرٌ رهيبٌ، وهو أن ترفضَ الكنيسةُ منحهُ الغفران على جرائمهِ، ويتهمهُ المأمورُ باقترافِ جريمةٍ، ويدعمِ الملكُ المنتصرُ ستيفن المأمورَ والكنيسةَ، ويُحاكم ويُعدم...

«فلتفعل مثلي، ولتحذو حذو الأسقفِ هنري؛ فهو يعلم كيفَ يحقق مصالحه»، أصرَّ ويلارن وتابع: «إن نجحت الأمورُ كما هو مخططٌ لها فتصبح وينشستر أسقفية، وسيصبحُ هنري رئيسَ أساقفتها، وهذا منصبٌ مكافئ لمنصبِ رئيسِ أساقفةِ كانتربيري، ومن يعلم، عندما يتوفى هنري قد أصبح رئيسَ الأساقفةِ بعدهُ. علاوةً على ذلك لدينا كاردينالات إنكليز، وفي أحدِ الأيامِ قد يكون بابا روما إنكليزياً...»

حدَّقَ وليم إلى ويلارن، وعلى الرغمِ من خوفهِ بدا مأخوذاً بلمعةِ الطموحِ التي اكتسحت وجهَ الأسقفِ الجامدِ. هل يمكن أن يصبحَ ويلارن أسقفاً؟ كلّ شيءٍ ممكن، ولكن التبعاتِ المباشرةَ لمطامحِ ويلارن كانت أهم بكثير. أدركَ وليم أنَّه مجرَّد بيدقٍ في اللعبةِ التي يلعبها ويلارن. اكتسبَ ويلارن، ومعهُ الأسقف هنري، مكانةً وهيبةً من خلالِ إقناعِ وليم وفرسان شايرنغ بتغيير ولاءاتهم في الحربِ الأهليةِ، وهذا هو الثمن الذي يتعين على وليم دفعهُ كي تغضَّ الكنيسةُ الطرفَ عن جرائمهِ.

«هل تعني...؟» قال وليم بصوتٍ أحسَّه خشناً فسعلَ، وتحدَّثَ مجدداً: «هل تعني أنَّك ستسمعُ اعترافي إن أقسمتُ بالولاءِ للملكِ ستيفن، وعدتُ إلى صفهِ مجدداً؟»

اختفى البريقُ من عيني ويلارن، وعادَ وجههُ خالياً من أيِّ تعبيرٍ وقال: «هذا بالضبط ما عنيتهُ بكلامي».

لم يكن لدى وليم أيُّ خيارٍ، وعلى أيِّ حالٍ من الأحوالِ لم يكن لديهِ سببٌ يمنعهُ من الرفضِ. كان قد أقسمَ بالولاءِ لمود عندما كانت الطرفَ الرابح في الحربِ، وهو مستعدٌّ لتقديمِ ولائهِ إلى ستيفن بما أنَّ الغلبةَ بيدهِ الآن. كان مستعداً للموافقةِ على أيِّ شيءٍ من شأنهِ تحريرهُ من رعبهِ الشديدِ من الجحيمِ.

«موافقٌ»، قال وليم من دونِ مزيدٍ من الترددِ. «ولكن سارع إلى أخذِ اعترافي».

«حسناً»، قال ويلارن. «فلنصلي».

حالما بدآ بالصلاةِ شعرَ وليم بوطأةِ الذنبِ تنزلُ عن كاهليهِ، وشيئاً فشيئاً استعادَ بهجتهُ بانتصارهِ. عندما خرجَ من المصلى رأى رجالهُ أنَّ معنوياتِهِ ارتفعت مجدداً، وهللوا على الفورِ. قالَ لهم إنَّهم سيقاتلون مجدداً إلى صفِ الملكِ ستيفن، وبما يُرضي مشيئةَ الرَّبِّ، كما قال له الأسقفُ ويلارن، فأشاروا إلى أنَّ هذا يستدعي الاحتفالَ، وطلبَ ويلارن تقديمَ النبيذِ.

أثناءَ انتظارهم الغداءَ قال وليم: «يجب أن يمنحني ستيفن لقبَ الإيرل بشكلٍ رسمي الآن».

«يجبُ عليهِ»، وافقهُ ويلارن. «ولكن هذا لا يعني أنَّه قد يفعلُ هذا».

«ولكنني عدتُ للقتالِ إلى صفهِ!»

«ريتشارد من كينغزبريدج لم يتخلَ عنهُ قط!»

وهنا سمحَ وليم لنفسهِ بالابتسامِ بخيلاءٍ والقولِ: «أعتقدُ أنَّ ريتشارد لم يعد تهديداً».

«حقاً؟ كيف؟»

«لا يملكُ ريتشارد أَيَّةَ أراضٍ، ولولا أموالُ أختهِ لم يكن ليصبحَ فارساً، أو يمتلك حاشيةً».

«هذهِ حالةٌ غريبةٌ، ولكن يبدو أنَّها ناجحةٌ حتَّى الآن».

«ولكن أختهُ لم تعد تملكُ المالَ فقد أشعلتُ مستودعها البارحة. عادت فقيرةً، وريتشارد معها أيضاً».

أومأ ويلارن في موافقةٍ وقال: «إذاً، إنَّها مسألةُ وقتٍ فقط قبلَ أن يختفي عن الأنظارِ، وعندها ستصبح رسمياً إيرلَ شايرنغ».

جهزَ الغداءُ. جلسَ رجاله عندَ نهايةِ طاولةِ الطعامِ، وأخذوا يتوددون

إلى غاسلات القصرِ، بينما جلسَ وليم عندَ رأسِ الطاولةِ مع ويلارن، ورئيس الشمامسةِ. وبعدَ أن استرخى وليم الآن حسدَ رجالهُ لأنّهم كانوا مع الغاسلات فقد كانت صحبةُ رئيسِ الشمامسةِ مملةً.

قدَّمَ كبيرُ الكهنةِ بولدينِ إلى وليم صحناً من البازلاءِ وقالَ: «أيّها اللورد وليم كيفَ ستمنعُ البقيةَ من القيامِ بما قامَ بهِ رئيسُ الديرِ فيليب، وفتح سوقٍ للصوفِ؟»

تفاجأ وليم بالسؤالِ وقال: «لن يجرؤ أحدٌ!»

«قد لا يجرؤ راهبٌ آخر على فعلِ هذا، ولكن قد يفعلها إيرل».

«سيحتاجُ إلى رخصةٍ».

«وقد يحصلُ عليها إن قاتلَ في صفِ الملكِ ستيفن».

«لن يحدثَ هذا في هذهِ المقاطعةِ».

«بولدوين على حقٍ يا وليم»، قال الأسقف ويلارن ثمَّ أضافَ: «هناك بلداتٌ كبيرةٌ على امتدادِ شايرنغ كبلدةِ ويلتن وديفايزيز وويلز ومارلبورو وويلنغفورد، وجميعها تستطيع إقامة سوقٍ...»

«أحرقت كينغزبريدج، ويمكنني حرقُ أيِّ مكانٍ آخر»، قالَ وليم بانزعاجٍ ثمَّ تجرَّعَ النبيذَ. أغضبهُ حقاً أن يلقى نصرهُ هذا الشجبَ.

اقتطعَ ويلارن قطعةَ خبزٍ طازجةً، ولكنه لم يأكلها. «كينغزبريدج هدفٌ سهلٌ»، جادلَ ويلارن. «فلا تحميها أسوارٌ، ولا قلعةٌ، ولا حتَّى كنيسةٌ كبيرةٌ يُمكنُ للناسِ اللجوء إليها، ويديرها راهبٌ من دونِ فرسانٍ أو جنودٍ. كينغزبريدج غير حصينةٍ، ولكن هذا ليسَ حال معظم البلداتِ».

أضافَ رئيسُ الكهنةِ بولدوين: «عندما تنتهي الحربُ الأهليةُ، أيّاً يكن المنتصر فيها، لن تتمكن من إحراقِ أيَّةِ بلدةٍ كما فعلتَ بكينغزبريدج والنجاة بفعلتكَ لأنَّ مثلَ هذا العملُ سيعدُّ خرقاً لسلمِ الملكِ، وما من ملكٍ في الأحوالِ العاديةِ سيغضُّ النظرَ عن مثلِ هذهِ الفعلةِ».

فهمَ وليم قصدهما، وأثارَ هذا غضبهُ. «إذاً، كان الأمرُ برمتّهِ مضيعةً للوقت»، قال وليم، ووضعَ سكينهُ على الطاولةِ. شعرَ بألمٍ في معدتهِ من شدةِ التوتر، وعجزَ عن متابعةِ الأكلِ.

قال ويلارن: «بالطبعِ إن أقصيتَ آليانا كتاجرةِ صوفٍ فسيكون هناكَ مكانٌ شاغرٌ».

لم يفهم وليم ما عناه ويلارن بكلامهِ ولذلكَ سأله: «ما الذي تعنيهِ؟»

«هذا العام اشترت آليانا معظمَ صوفِ المقاطعةِ، ولكن ما الذي سيحدثُ في العامِ القادمِ؟»

«لا أعلم».

تابع ويلارن كلامهُ كأنَّه غارقٌ في أفكارهِ: «باستثناءِ رئيسِ الديرِ فيليب؛ فإنَّ جميعَ مُنتجي الصوفِ في الأرجاءِ هم إمَّا مستأجرون عند الإيرل أو الأسقفِ. وأنتَ إيرلٌ فِعلي، وأنا أسقفٌ. إن أجبرنا جميعَ المستأجرين لدينا على بيعنا الصوفَ سنتحكمُ بثُلثي تجارةِ الصوفِ في المقاطعةِ، وسنبيعُ الصوفَ في سوقِ شايرنغ، وهذا لن يتركَ مجالاً لإقامة سوقٍ آخر في حال أرادَ أحدهم الحصول على رخصةٍ».

رأى وليم على الفورِ أنَّها فكرةٌ مذهلةٌ.

«وسنجني مبالغ ماليةً كالتي كانت آليانا تجنيها»، أشارَ وليم.

«حقاً»، قال ويلارن، وأخذَ قضمةً صغيرةً من اللحمِ أمامهُ ومضغها مُفكراً ثمَّ أضافَ: «أحرقتَ كينغزبريدج، ودمرَّتَ أسوأ أعدائكَ، وأمَّنْت مصدرَ دخلٍ جديدٍ لنفسكَ. هذا ليسَ بالعملِ السيئ في يومٍ واحدٍ».

أخذَ وليم جرعةً كبيرةً من نبيذهِ، وشعرَ بالدفءِ في بطنهِ. نظرَ إلى نهايةِ الطاولةِ، ووقعَ نظرهُ على فتاةٍ ممتلئةٍ بشعرٍ داكنٍ تبتسمُ بخجلٍ لاثنين من رجالهِ. ربما سيحظى بها الليلةَ، وهو يعرفُ كيفَ سيحدثُ هذا. سيُحاصرها في زاويةٍ ويرميها أرضاً، ويرفعُ تنورتها، وسيتذكرُ آليانا، وتعبيرُ الرعبِ واليأسِ الذي ارتسمَ على وجهها وهي تشاهدُ ألسنةَ اللهبِ تأكلُ صوفها، وعندها سيتمكنُ من مضاجعةِ الفتاةِ. فكر وليم بهذا مُبتسماً، وأخذَ شريحةً أخرى من لحمِ فخذِ الغزالِ.

***

هزَّ إحراقُ كينغزبريدج فيليب في الصميمِ، وتركتهُ حركةُ وليم المباغتة، ووحشيةُ الهجومِ، والمشاهدُ المرعبةُ للحشود الهلعةِ، والمذبحةُ الرهيبةُ، وعجزُه عن القيامِ بشيءٍ حيالَ الأمرِ مصعوقاً.

ولكن أسوأ ما حدثَ كانَ موتَ البنَّاءِ توم. كان حِرفياً ماهراً في صنعتِهِ، ومعلماً في كلِّ جوانبها، ويُفترض بِهِ أن يديرَ بناءَ الكاتدرائيةِ إلى أن تنتهي. كان أيضاً من أعزِّ أصدقائِه خارجَ الديرِ، ويتحدثان مرَّةً واحدةً على الأقلِّ كلَّ يومٍ، ويجاهدان لإيجادِ حلولٍ للمشاكلِ الكثيرةِ التي تواجههما في هذا المشروعِ الضخمِ. تمتعَ توم بمزيجٍ من الحكمةِ والتواضعِ جعلت العملَ معهُ ممتعاً، ولذلكَ وجدَ فيليب صعوبةً في تصديقِ موتِهِ.

شعرَ فيليب بالعجزِ عن فهمِ أيِّ شيءٍ، وأنَّه فقدَ قوتهُ الحقيقية، ولم يعد كفؤاً لإدارةِ شيءٍ، حتَّى زريبةِ أبقارٍ، فكيفَ له الآن أن يديرَ بلدةً بحجمِ كينغزبريدج. لطالما آمن أنَّه إن بذلَ أفضلَ ما أمكنهُ، وعملَ بنزاهةٍ، وآمنَ بالرَّبِّ فإنَّ كلَّ شيءٍ سيكون على ما يرام، ولكن يبدو أنَّ إحراق كينغزبريدج أثبتَ العكسَ؛ فها هو يفقدُ كلَّ حماستِهِ، ويجلسُ في منزلِهِ في الديرِ طوالَ اليومِ يراقب الشمعةَ وهي تذوبُ فوقَ المذبحِ الصغيرِ دون أن يفعلَ شيئاً، ويغرق في لجةِ أفكارٍ كئيبةٍ وغير مترابطةٍ.

كان الشابُ جاك من اهتمَّ بكلِّ الأمورِ؛ فقد نقلَ الجثثَ إلى السردابِ، ووضعَ الجرحى في مهجعِ الرهبان، ونظَّمَ حملةَ إطعامٍ طارئةٍ للأحياءِ في المرجِ على الجانبِ الآخرِ من النهرِ. كان الطقسُ دافئاً، ولذلكَ نامَ الجميعُ في العراءِ. في اليومِ التالي على المجزرةِ نظَّمَ جاك سكانَ البلدةِ الذاهلين مما حصلَ في فرقٍ من العمالِ، وطلبَ منهم تنظيفَ ساحةِ الديرِ من الرمادِ والبقايا، وفي هذهِ الأثناءِ طلبَ كوثبرت وايتهيد وأمين الصندوقِ ميليوس مؤناً وطعاماً من المزارعِ المجاورةِ، وفي اليومِ الثاني دُفنت الجثثُ المئةُ والثلاث والتسعون في قبورٍ على الجانبِ الشمالي من ساحةِ الديرِ.

اكتفى فيليب بإصدارِ الأوامرِ التي اقترحها جاك، وقد أشارَ الأخيرُ إلى أنَّ معظمَ سكانِ القريةِ نجوا من الحريقِ بأضرارٍ ماديةٍ قليلةٍ، معظمها كانت أكواخاً وبعضُ قطعِ الأثاثِ، ولكن المحاصيل ما زالت في الحقول، والمواشي في المراعي، ومدخراتِ الناسِ المدفونةَ في أمكنتها تحتَ مواقدِ منازلهم لم تصلها النيران التي لم تلتهم سوى ما فوقَ مستوى الأرضِ، غير أنَّ أكبرَ المتضررين كانوا التجارَ أصحاب المخازنِ. دُمرَ بعضهم كآليانا، أمَّا

من دفنوا جزءاً من فضتهم سيتمكنون من الوقوف على أقدامهم مجدداً. اقترحَ جاك البدءَ بإعادةِ بناءِ البلدةِ على الفورِ.

وبناءً على اقتراحِ جاك أعطى فيليب إذناً خاصاً بقطعِ الأخشابِ من غاباتِ الدير بغرضِ إعادةِ بناءِ المنازل، ولكن لأسبوعٍ واحدٍ فقط. ونتيجةً لهذا خلت كينغزبريدج من عوائلها لسبعةِ أيامٍ لأنَّ الجميعَ خرجَ لقطعِ الخشبِ من أجلِ المنازلِ الجديدةِ. خلالَ هذا الأسبوع طلبَ جاك من فيليب أن يضعَ مخططاً جديداً للبلدةِ، وحظيت الفكرةُ باهتمامِ فيليب، وأخرجتهُ من حالةِ اكتئابه.

عملَ فيليب على المخططِ من دونِ توقفٍ لأربعةِ أيام. قررَ أنَّ المنازَلَ المحيطة بأسوارِ الديرِ ستكون منازلَ الحرفيين الأثرياء، وأصحابِ المتاجرِ وستكون كبيرةً، وتذكرَ فيليب تصميمَ شوارعِ وينشستر المتقاطعةِ، وخططَ أن يكون لشوارعِ بلدةِ كينغزبريدج الجديدة ذات التصميمِ المريحِ: شوارع عريضة وواسعة كفاية لمرورِ عربتين معاً، وتفضي إلى النهرِ مع شوارعِ فرعيةٍ أضيق. ستكون كلُّ قطعةِ أرضٍ يُبنى عليها بعرضِ أربعة وعشرين قدماً، وهذا يعني أنَّ واجهاتها ستكون كبيرةً مقارنةً بمنازلِ البلداتِ، وستكون بطولِ مئة وعشرين قدماً كي تكون هناك مساحة كافية لبناءِ حديقةٍ خلفيةٍ جيدةٍ ومرحاضٍ، وحديقةِ خضارٍ، وإسطبل، وزريبة أبقار أو خنازير، أمَّا الجسرُ الذي أُحرقَ فسيبُنى بدلاً منهُ جسرٌ جديدٌ يبدأ عندَ نهايةِ الشارعِ الرئيسي الذي سيمرُّ بالبلدةِ حتَّى بوابةِ الكاتدرائيةِ أعلى التلةِ تماماً كما في مدينةِ لينكولن. سيكون هناك طريقٌ رئيسي آخر من بوابةِ الدير حتَّى رصيفِ النهرِ ثمَّ أسفلَ المجرى وحولَ منعطفِ النهرِ، وبهذهِ الطريقةِ ستصلُ المؤن إلى الديرِ دونَ المرورِ بالشارع الرئيسي الآخر حيثُ يتسوقُ الناسُ. ستكون هناك منطقةٌ جديدةٌ تماماً من المنازلِ الصغيرةِ حولَ رصيفِ النهرِ. سيعيشُ الفقراءُ أسفلَ الديرِ عندَ مجرى النهرِ، ولن يلوثوا المياهَ العذبةَ التي تصله.

ساعدت إعادةُ تخطيطِ البلدةِ فيليب على التخلصِ من حالةِ العجزِ التي عاشها، ولكن في كلِّ مرَّةٍ رفعَ ناظريهِ عن رسومهِ اجتاحهُ الغضبُ والحزنُ على الناسِ الذين فقدوا أرواحهم في الهجومِ، وتساءلَ في نفسهِ إن كان وليم هاملي الشيطان بحقٍ؛ فقد تسببَ ببؤسٍ لا يمكن لأيِّ بشري أن يتسببَ بهِ. رأى فيليب العجزَ والقنوطَ على وجوهِ أهلِ البلدةِ إبانَ عودتهم من الغابةِ

مع حمولاتِ الخشبِ. كان جاك والرهبان الآخرون قد وضعوا مخططَ البلدةِ الجديدةِ على الأرضِ، وحددوا الأماكن بالأوتادِ والحبال، واختارَ الناسُ الأراضي التي سيبنون عليها منازلهم، ولكن بينَ الفينةِ والأخرى يقول أحدهم بحزنٍ: «ولكن ما الفائدةُ؟ فقد تُحرقُ مجدداً في العامِ القادمِ». ولو أنَّ هناك أملاً بتحقيقِ العدالةِ، والاقتصاصِ من المعتدين لما شعرَ الناس بهذا القنوطِ. كان فيليب قد كتبَ إلى ستيفن، وِمود، والأسقف هنري، وكبيرِ أساقفةِ كانتربري، والبابا، ولكنه علمَ أنَّ فرصةَ محاكمةِ رجلٍ قوي كوليم في وقتِ الحربِ ضعيفةٌ جداً.

كانت قطعُ الأرضِ الكبيرة على مخططِ فيليب مطلوبةً جداً على الرغمِ من إيجاراتها العاليةِ، ولهذا غيَّرَ مخططهُ من أجلِ إتاحةِ المزيدِ منها. لم يرغب أحدٌ في بناءِ منزلهِ في القسمِ الفقيرِ، ولكن فيليب قررَ أن يتركَ المخططَ على حالهِ في حال احتاجه في المستقبلِ. بعدَ عشرةِ أيامٍ على الحريقِ بدأ العملُ على بناءِ المنازلِ الخشبيةِ الجديدةِ في معظمِ الأراضي، وبعدَ أسبوعٍ آخر كان العملُ عليها قد انتهى. حالما انتهى الناسُ من بناءِ منازلهم بدأ العملُ مجدداً على بناءِ الكاتدرائيةِ. ولأنَّ البنائين تقاضوا أجورهم، وأرادوا إنفاقها فُتحت المتاجرُ مجدداً، وأحضرَ أصحابُ الأكشاكِ البيضَ والبصلَ إلى البلدةِ، وغاسلات الأطباقِ والثيابِ عملن لمصلحة أصحابِ المتاجرِ والحرفيين، وهكذا، ويوماً بعدَ يومٍ، بدأت مياه الحياةِ العملية في كنيغزبريدج تعودُ إلى مجراها الطبيعي.

ولأنَّ الكثيرين فقدوا أرواحهم في الحريقِ بدت البلدة كبلدةِ أشباحٍ؛ فكلُّ عائلةٍ خسرت فرداً منها على الأقلِّ؛ طفلاً، أو أماً، أو زوجاً، أو أُختاً، ولكن كانت الصدمةُ الأكبرُ في كلِّ هذا من نصيبِ الصبي جوناثان ذي الستةِ أعوامٍ. كان الصغيرُ يطوف ساحةَ الديرِ كروحٍ ضائعةٍ، وفي نهايةِ المطافِ أدركَ فيليب أنَّه افتقد توم الذي يبدو أنَّه قضى الكثيرَ من الوقتِ مع الصبي دونَ أن يلاحظَ أحدٌ هذا، وبمجرد أن فهم فيليب الأمرَ خصصَ ساعةً من وقتِهِ كلَّ يومٍ من أجلِ جوناثان يخبره فيها بالقصصِ، ويلعبان ألعابَ العدِّ، ويُصغي إلى هذرِه.

كتبَ فيليب إلى جميعِ رؤساءِ الأديرةِ البينديكتيةِ في إنكلترا وفرنسا،

وطلبَ منهم ترشيحَ بنَّاءٍ ليحلَّ مكان توم. في الأحوالِ العاديةِ يستشيرُ رئيسُ الديرِ أسقفهُ في مثلِ هذهِ الأمورِ لأنَّ الأساقفة يسافرون إلى بقاعٍ بعيدةٍ، ومن المرجحِ أنَّهم سمعوا عن بنَّائين ماهرين، ولكن الأسقفَ ويلارن لن يساعدَ فيليب. في الحقيقةِ كان الخلافُ الدائمُ بين فيليب وويلارن السببَ في شعورِ فيليب بالوحشةِ خلالَ تأديةِ عملهُ.

أثناءَ انتظارِ فيليب جوابَ رؤساءِ الأديرةِ انضوى الحرفيون بشكلٍ أتوماتيكي تحتَ قيادةِ آلفريد؛ فقد كان ابن توم وكبيرَ بنَّائين، وكان لديهِ لبعضِ الوقتِ فريقٌ شبه مستقلٍ في موقعِ البناءِ. لسوءِ الحظِ لم يمتلك آلفريد ذكاءَ توم، ولكنه كان مُتعلماً وسلطوياً، ولذلكَ تدريجياً ملأَ مكانَ والدهِ الراحل.

بدا لفيليب الآن أنَّ هناك عدداً من المشاكلِ والتساؤلات حولَ عمليةِ البناءِ أكبر مما كان في عهدِ توم، وطرحَ آلفريد مسائل ومشاكل دوماً عندما لا يكون جاك في الجوارِ. كان هذا طبيعياً دونَ شكٍ؛ فجميعُ سكانِ كينغزبريدج يعلمونَ أنَّ الأخوين غير الشقيقين يكرهان بعضهما بعضاً. وكانت النتيجةُ أن فيليب وجدَ نفسه متضايقاً من الأسئلةِ التي لا تنتهي عن تفاصيلِ البناءِ.

ولكن مع مرورِ الأسابيع ازدادت ثقةُ آلفريد بنفسهِ، وأتى في أحدِ الأيامِ إلى فيليب قائلاً: «ألا تفضلُ أن يكونَ سقفُ الكاتدرائيةِ مُقنطراً؟»

في تصميمِ توم الأصلي السقفُ فوقَ وسطِ الكنيسةِ خشبي، ولكنه حجري مُقنطر فوقَ الممرّاتِ الجانبيةِ الضيقةِ. «أجل، سأحبُّ هذا»، قال فيليب ثمَّ أضاف: «ولكن قررنا أن يكون السقفُ خشبياً من أجلِ توفيرِ المالِ».

أومأ آلفريد برأسهِ وقال: «المشكلةُ هي أنَّ السقفَ الخشبي يمكن أن يحترق على عكسِ السقفِ الحجري المنيعِ أمام النيران».

أمعنَ فيليب النظرَ إلى آلفريد لبرهةٍ متسائلاً في نفسهِ إن كان قد استهان بهِ؛ فهو لم يتوقع قط أن يقدّمَ الأخيرُ إضافةً إلى مخططِ والدهِ، ومثلُ هذا الاقتراحِ قد يقدمهُ جاك، ولكن فكرة أن تكون الكنيسةُ منيعةً من الاحتراقِ خاصةً بعدَ احتراقِ البلدةِ بأكملها بدت مذهلةً.

ويبدو أن آلفريد كان يفكرُ بالأمرِ عينهِ لأنَّه قال: «المبنى الوحيد الذي نجا من الحريقِ هو كنيسةُ الأبرشيةِ».

كان سقفُ كنيسةِ الأبرشيةِ التي بناها آلفريد حجرياً. وهنا خطرَ ببالِ فيليب عقبةٌ: «هل ستتحملُ الجدران الوزنَ الزائدَ للسقفِ الحجري؟»

«سيتعين علينا تعزيزُ الكتائفِ التي قد تبدو بارزةً أكثر من اللازمِ ولكن هذا كلُّ شيءٍ».

أدركَ فيليب أن آلفريد قد فكرَ بالأمرِ جيداً وسأله: «وكم ستكون التكلفةُ؟»

«بالطبعِ ستُكلفُ أكثر على المدى الطويلِ، وسيستغرقُ إنهاءُ الكاتدرائيةِ ثلاثةَ أو أربعةَ أعوامٍ إضافيةً، ولكن الأمرَ لن يؤثر على ميزانيتكَ السنويةِ».

عندَ سماعهِ هذا أحبَّ فيليب الفكرةَ أكثر، ولكنه سألَ: «هل يعني هذا أننا سننتظرُ عاماً إضافياً حتَّى نتمكنَ من استخدامِ مذبحِ الكنيسةِ للصلواتِ؟»

«لا، سواء أكانَ السقفُ حجرياً أم خشبياً لن نبدأ العملَ عليه قبل أن يجف ويقسو ملاطُ صفّ النوافذِ العليا في الربيعِ القادمِ، ووقتئذٍ سنتمكن من وضعِ المزيدِ من الوزنِ عليهِ. عادةً، يستغرقُ بناءُ السقفِ الخشبي وقتاً أقل ببضعةِ شهور من بناءِ السقفِ الحجري، ولكن في كلتا الحالتين سيكون المذبح مسقوفاً بحلول نهايةِ العامِ القادمِ».

فكرَ فيليب في الأمرِ ووازنَ بين أفضليةِ السقفِ الحجري، وانتظارِ أربع سنواتٍ أخرى حتَّى انتهاءِ عمليةِ البناءِ، وكلفة إضافية لأربعِ سنواتٍ. بدت له التكلفة الإضافية مشكلةً بعيدةً في المستقبلِ وأمَّا مكسب الأمانِ فكان في الحاضرِ.

«سأناقشُ هذه الفكرة مع الأخوةِ في الاجتماعِ»، قال فيليب وأضاف: «ولكنها تبدو فكرةً جيدةً لي».

شكرهُ آلفريد وخرجَ، وبعدَ ذلكَ جلسَ فيليب يحدقُ إلى البابِ، ويتساءلُ في نفسه إن كان يحتاج حقاً إلى كبير بنائين الآن.

***

أقامت بلدةُ كينغزبريدج احتفالاً شجاعاً في عيدِ الحصادِ[1]. صباحاً صنعت كلُّ عائلةٍ في البلدةِ رغيفاً من الخبزِ؛ فالحصادُ انتهى ولذلكَ كان الطحينُ رخيصاً ووفيراً، ومن لم يمتلكْ فرناً في منزلهِ خبزَ الرغيفَ في فرنِ

1- يُصادفُ العيدُ في الأولِ من شهرِ آب/ أغسطس. (المترجمة)

الجيرانِ، أو في الأفرانِ الكبيرةِ التابعةِ للديرِ ولخبازي البلدةِ كبيغي باكستر وجاكيت نوفن. بحلولِ منتصفِ النهارِ امتلأ الجو برائحةِ الخبزِ الطازجِ، وأسالت الرائحة لعابَ الجميعِ. عُرِضَ الخبزُ على طاولاتٍ نُصبت في المرجِ على الضفةِ الأخرى من النهرِ، وتجولَ الناسُ حولَ الطاولات يعاينون الأرغفةَ بإعجابٍ. لم يكن هناك رغيفٌ يشبه الآخر. العديدُ من هذهِ الأرغفةِ احتوى على الفواكه أو التوابل، ولكنْ هناكَ أيضاً أرغفة بالبرقوق، وأخرى بالزبيب، وخبز الزنجبيلِ، والخبز السُكري، وخبز البصلِ، وخبز الثومِ وكثيرٌ غيرها. كان بعضها بلونٍ أخضر من البقدونسِ، أو بلونٍ أصفر من صفارِ البيضِ، أو أحمر من صبغة خشبِ الصندل، أو أرجواني من عبادِ الشمسِ، والأشكالُ أيضاً كانت متنوعةً؛ فهناكَ خبزٌ مثلثي، ومخروطي، ومدور، ونجمي، وبيضوي، وهرمي، ومزماري، ولفائف، بل حتَّى على شكل الرقم (8)، ولكن هناك من كان أكثرَ طموحاً وصنعَ أرغفةً على شكلِ أرانب، ودببة، وقرود، وتنانين، ومنازل، وقلاع، غير أنَّه وبإجماعِ الجميعِ كان أجملَ هذهِ الأرغفةِ الرغيف الذي صنعتهُ إيلين ومارثا والذي يحاكي الكاتدرائيةِ الجديدةِ وفقَ تصميم الراحل توم.

فُجعت إيلين بموتِ توم، وناحت كروحٍ معذبةٍ ليلاً ونهاراً دونَ أن ينجحَ أحدٌ في التخفيفِ عنها. والآن، وبعد مرور شهرين على الحدثِ، بدت مُضناةً وغائرةَ العينين، ولكن يبدو أنَّها ومارثا ساعدتا بعضهما بعضاً، ومنحهما صنعُ خبزٍ على شكلِ الكاتدرائيةِ شيئاً من السلوانِ.

قضت آليانا وقتاً طويلاً في تأملِ خُبزِ إيلين، وتمنت في أعماقها لو أنَّها تنجحُ في إيجادِ العزاءِ في شيءٍ ما كما فعلت إيلين. لم يكن لديها حماسة حيالَ القيامِ بأيِّ شيءٍ. عندما بدأ الناس يتذوقون الخبزَ تنقلت من طاولةٍ إلى أخرى بلا مبالاةٍ دونَ أن تتذوقَ شيئاً منه. لم تكن راغبةً بشيءٍ ولا حتَّى ببناءِ منزلٍ لها إلى أن طلبَ منها رئيسُ الديرِ فيليب أن تعودَ إلى رشدها، وأحضرَ لها آلفريد الخشبَ، وكلَّفَ بعضاً من رجالهِ بمساعدتها. كانت ما تزالُ تأكلُ في الديرِ كلَّ يومٍ هذا إن تذكرت أن تأكلَ أصلاً. لم تكن لديها طاقةٌ. وإن فكرت بالقيامِ بشيءٍ من أجلِ نفسها كأن تصنعَ مقعداً للمطبخِ من بقايا الخشبِ، أو تُنهي العملَ على جدران بيتها من خلالِ ملء تجاويفِ

الخشبِ بطمي من النهرِ، أو صُنعِ فخاخٍ لصيدِ العصافيرِ حتَّى تُطعمَ نفسها تتذكر كيف عملت بجدٍ إلى أن أصبحت تاجرةَ صوفٍ، وكيفَ أنَّ هذا كلَّه دُمرَ بسهولةٍ فتفقدُ حماستها مجدداً. وهكذا مرَّت أيامٌ لم تنهض فيها حتَّى وقتٍ متأخرٍ، وإن جاعت ذهبت إلى الديرِ لتناولِ الغداءِ، وقضاءِ بقيةِ اليومِ تراقبُ جريان مياهِ النهرِ، وعندما يهبطُ الظلامُ تخلدُ إلى النومِ فوقَ القشِّ على أرضيةِ منزلها الجديدِ.

اليوم وعلى الرغم من حالةِ السقمِ التي كانت فيها علمت أنَّ الاحتفالَ بعيدِ الحصادِ لا يعدو أكثرَ من مجردِ استعراضٍ. أُعيدَ بناءُ البلدةِ، وعادَ الناسُ إلى مزاولةِ أعمالهم كما في السابقِ، ولكن ما زالت المجزرةُ تُلقي بظلالها الطويلةِ على الناسِ، وكان بوسعِ آليانا أن تستشعر تحتَ ظاهرِ التعافي بخوفٍ عميقٍ ودفينٍ. أبلى معظم الناسِ أفضلَ من آليانا في التظاهر أنَّ كلَّ شيءٍ على ما يرام، ولكن في الحقيقةِ لم يكن شعورهم الداخلي مختلفاً عن شعورها بأنَّ كلَّ هذا غير دائمٍ، وأيّاً يكن ما يبنونه الآن سيُدمرُ في المستقبلِ.

ومن مكانها راقبت بنظراتٍ فارغةٍ أكوامَ الخبزِ، وهنا رأت أخاها ريتشارد. كان يعبرُ الجسرَ خارجَ البلدةِ ممسكاً برسنِ جوادهِ. غادرَ ريتشارد البلدةَ قبلَ المجزرةِ للقتالِ إلى جانبِ ستيفن، ولذلك أذهلهُ مظهرُ البلدةِ.

«ما الذي حدثَ هنا بحقِ الشيطانِ؟» سألها ثمَّ أضاف: «لم أعثر على منزلنا. البلدةُ برمتها تغيرت!»

«أتى وليم هاملي إلى هنا يومَ افتتاحِ سوقِ الصوفِ مع جيشٍ من الجنودِ وأحرقَ البلدةَ»، أجابتهُ آليانا.

شحبَ وجه ريتشارد من الصدمةِ، واحمرّت الندبةُ في أذنهِ اليُمنى. «وليم!» قالَ بصوتٍ كالفحيحِ. «ذلكَ الشيطان!»

«لدينا منزلٌ جديدٌ»، قالت آليانا ببرودٍ. «بناه عمالُ آلفريد، ولكنه أصغر من السابقِ، ويقعُ عندَ رصيفِ النهرِ».

«ما الذي حدثَ لكِ؟» قال مُحدقاً إليها. «أنتِ شبه صلعاء وبلا حاجبين».

«اشتعلَ شعري في الحريق».

«لم يقم...»

هزَّت رأسها وقالت: «لم يفعلها هذهِ المرة».

أحضرت إحدى الفتيات لريتشارد خُبزاً مالحاً ليتذوقهُ فأخذَ البعضَ منه، ولكنه لم يتناوله؛ فقد كانَ مصعوقاً بما سمعهُ ورآه حتَّى الآن.

«على أيِّ حالٍ أنا سعيدةٌ لأنَّكَ بخيرٍ»، قالت آليانا.

أومأ ريتشارد برأسهِ وقال: «يزحفُ ستيفن باتجاهِ أوكسفورد حيثُ تتمركز مود، ويُمكن أن تنتهي الحرب في وقتٍ قريبٍ، ولكنني بحاجةٍ إلى سيفٍ جديدٍ، وأتيتُ لآخذَ المال»، أنهى كلامهُ، وتناولَ بعضَ الخبزِ فاختفى الشحوب من وجههِ. «بحقِّ الرَّبِّ هذا الخبزُ طيبُ المذاقِ. هلّا حضَّرتِ لي بعضَ اللحمِ».

وفجأةً شعرت آليانا بالخوفِ منه، وعلمت أنَّه سيكون غاضباً جداً منها، ولكنها لم تملك الطاقةَ على مواجهتهِ وقالت: «ليسَ لدي لحمٌ».

«إذاً، فلتشتريه من الجزارِ!»

«لا تغضب يا ريتشارد»، قالت له وبدأت ترتعشُ.

«أنا لستُ غاضباً»، أجابها بضيقٍ ثمَّ سألها: «ما خطبكِ؟»

«احترقَ جميعُ الصوفِ في الحريقِ»، قالت له وحدَّقت إليهِ في خوفٍ بانتظار أن ينفجرَ في وجهها.

امتقعَ وجه ريتشارد، ونظرَ إليها ثمَّ ابتلعَ اللقمةَ ورمى قشرةَ الرغيفِ ثمَّ سألها: «كلّه؟»

«كلّهُ».

«لكن لا بدَّ أنَّك احتفظتِ ببعضِ المالِ».

«لا».

«ولم لا؟ فأنتِ تحتفظين على الداومِ بصندوقٍ كبيرٍ من البنساتِ تحت الأرضيةِ...»

«لم أفعل هذا في أيار/ مايو بل أنفقت المالَ كلَّهُ على شراءِ الصوفِ. كلّ بنسٍ منه صرفتُه، بل واستدنتُ أربعين جنيهاً من المسكينِ مالاتشي، ولا يمكنني الآن أن أردَّ له المبلغَ. لا أستطيع شراء سيف جديد لك، بل ولا حتَّى قطعةَ لحمٍ من أجلِ عشائكَ. نحن مُعدمان تماماً».

«إذاً، كيفَ سأتمكن من مواصلةِ ما أقومُ بِهِ؟» صرخَ بغضبٍ، وشعرَ جوادهُ بنبرةِ الغضبِ في صوتهِ فبدأ يتململ في مكانهِ في ضيقٍ.

«لا أعلم!» قالت آليانا دامعةَ العينين. «لا تصرخ أنتَ تخيفُ الجوادَ»، وبدأت تبكي.

«وليم هاملي من قامَ بهذا»، قال ريتشارد من بينِ أسنانهِ. «أقسمُ بجميعِ القديسين أنني في يومٍ ما سأذبحهُ كخنزيرٍ سمينٍ».

تقدَّم آلفريد منهما، وكانت لحيتهُ الكثَّة ممتلئةً بفتاتِ الخبزِ، وفي يدهِ قطعةٌ من رغيفٍ كبيرٍ.

«جرّب هذا»، قال آلفريد لريتشارد.

«لستُ جائعاً»، أجابَ ريتشارد بقحةٍ.

نظرَ آلفريد إلى آليانا وقال: «ما الخطب؟»

وأجابه ريتشارد قائلاً: «لقد أخبرتني للتو أنَّها مُعدمةٌ».

أومأ آلفريد: «الجميعُ خسرَ، ولكن آليانا خسرت كلَّ شيءٍ».

«أنتَ تدركُ ما الذي يعنيهِ هذا بالنسبةِ إلي»، قال ريتشارد مُخاطباً آلفريد، ولكنه في الوقتِ عينهِ ألقى نظراتٍ اتهاميةً على آليانا. «لقد انتهى أمري. إن لم يكن بوسعي استبدالُ أسلحتي، ولا الدفعُ إلى رجالي، ولا شراءُ الجيادِ لن أتمكنَ من القتالِ إلى جانبِ الملكِ ستيفن، وسأبقى فارساً ولن أصبحَ إيرل شايرنغ».

قال آلفريد: «يمكنُ لآليانا الزاوجُ برجلٍ ثري».

ضحكَ ريتشارد بسخريةٍ: «لقد رفضت كلَّ من تقدمَ إلى خطبتها».

«قد يعودُ أحدهم، ويطلبُ يدها مجدداً».

«أجل»، قال ريتشارد بابتسامةٍ هازئةٍ وقاسيةٍ ثمَّ أضافَ: «يمكننا أن نرسلَ الرسائلَ إلى كلٍّ من رفضتهم، ونخبرهم أنَّها خسرت كلَّ مالها، وأنَّها ترغبُ بإعادةِ النظرِ في عرضهم...»

«يكفي»، قال آلفريد ووضعَ يدهُ على ذراعِ ريتشارد فصمتَ الأخيرُ. استدارَ آلفريد إلى آليانا ثمَّ قال لها: «أتتذكرين ما قلتهُ لكِ منذُ عامٍ خلالَ عشاءِ نقابةِ الأبرشيةِ؟»

غاصَ قلبُ آليانا في صدرها عندما سمعت ما قاله آلفريد، وعجزت عن التصديقِ أنَّه يطرحُ الموضوعَ مجدداً. لم تكن تملكُ الطاقةَ على مواجهته الآن.

«أتذكر»، قالت له ثمَّ أضافت: «وآمل أنّك تتذكرُ جوابي».

«ما زلتُ أحبكِ»، قال آلفريد.

بدا ريتشارد مذهولاً بما سمعهُ.

تابعَ آلفريد كلامه: «ما زلتُ أرغبُ بالزواجِ منكِ يا آليانا، هلَّا تزوجتِ بي؟»

«لا!»، قالت آليانا، وأرادت قولَ المزيد لوضعِ حدٍ نهائي للأمرِ، ولكنها كانت متعبةً جداً. نظرت إلى آلفريد وريتشارد مراراً، وفجأةً شعرت بعدم قدرتها على تحمل الأمرِ أكثرَ من هذا، فأشاحت بنظرها بعيداً، وهرعت بعيداً عن المرجِ ثمَّ عبرت الجسرَ باتجاهِ البلدةِ.

كانت غاضبةً جداً من آلفريد لتكرارِ عرضهِ أمامَ ريتشارد؛ فهي لم ترغب لأخيها أن يعرف بالأمرِ. مرَّت ثلاثةُ أشهرٍ على الحريقِ؛ فلمَ يكرر آلفريد عرضهُ الآن؟ يبدو أنه انتظرَ عودة ريتشارد، وقامَ بحركتهِ حالَ وصولهِ.

عبرت الشوارعَ الجديدةَ الخاليةَ الآن بما أن الجميع في الديرِ يتناولون الخبزَ. كان منزلُ آليانا في الحي الفقير الجديدِ عندَ رصيفِ النهرِ، ورغمَ أنَّ الإيجاراتِ هناك رخيصةٌ فإنَّ آليانا لم يكن لديها أدنى فكرةٍ عن الطريقةِ التي ستؤمن بها مبلغَ الإيجارِ.

لحقَ بها ريتشارد على ظهرِ جوادهِ، ونزلَ عنهُ ثمَّ سارَ بجانبها. «تفوحُ البلدةُ بأكملها برائحةِ الخشبِ الجديدِ»، قال لها بهدفِ فتحِ حديثٍ ثمَّ أضاف: «وكلُّ شيءٍ نظيفٌ جداً».

كانت آليانا قد اعتادت على مظهرِ البلدةِ الجديدِ، ولكن ريتشارد يراها للمرةِ الأولى، ولذلك بدت نظيفةً بشكلٍ غريبٍ. كانت النارُ قد أخذت معها الخشبَ الرطبَ وعفنَ البيوتِ الأقدم، والسطوح القشية المليئة بالسخامِ من دخانِ الطبخِ في الأكواخِ، والإسطبلاتِ القديمة ذات الروائح المقززةِ، وأكوام الروثِ القديمة النتنة. غطت المكانَ رائحةُ الجِدَّةِ: خشبٌ جديدٌ، وقشٌ جديدٌ، وأغصان سمارٍ جديدةٌ على الأرضيةِ، بل حتى طلاء أبيضُ على

جدرانِ منازلِ الأثرياءِ. يبدو أنَّ النارَ قد خصَّبت التربةَ فقد تفتحت الزهورُ البريةُ في أغربِ الأماكنِ. أشارَ أحدهم إلى أنَّ عدداً أقل من الناسِ أصببَ بالمرضِ منذُ الحريقِ، وأكّد هذا النظريةَ التي قال بها العديدُ من الفلاسفةِ وهي أنَّ الأمراض تنتقلُ بالروائحِ النتنةِ.

كانت آليانا غارقةً في التفكيرِ، ولم يقل ريتشارد شيئاً.

«ماذا؟» قالت له أخيراً.

«أقول إنني لم أعلم أنَّ آلفريد طلبَ منكِ الزواجَ العامَ الفائت».

«وقتئذٍ كنتَ مشغولاً بأمورٍ أهم، وحدثَ هذا عندما وقعَ روبرت غلوستر في الأسرِ».

«لطفٌ من آلفريد أن يبني لكِ منزلاً».

«أجل، وهذا هو المنزلُ»، قالت ونظرت إليهِ وهو ينظرُ إلى المنزل. بدا مصعوقاً، وشعرت بالأسى عليهِ. لقد عاشَ في قلعةِ إيرلِ، وحتّى المنزل السابق الذي عاشا فيهِ كان أقلَّ من المستوى الذي اعتادَ عليهِ، وعليهِ الآن أن يعتادَ على هذا النوعِ من المنازلِ التي يسكنها العمالُ والأراملُ عادةً.

أمسكت آليانا بلجامِ الجواد وقالت: «تعالَ، هناك مكان للجوادِ في الخلفِ». وقادت الجوادَ الضخمَ عبر المنزلِ المؤلفِ من غرفةٍ واحدةٍ إلى البابِ الخلفي حيثُ توجدُ أسيجةٌ خفيضةٌ بنيت كيفما اتفقَ لفصلِ الأفنيةِ الخلفيةِ بعضها عن بعض. ربطت آليانا الجوادَ إلى عارضةِ السياجِ ثمَّ بدأت تنزعُ عنهُ السرجَ الخشبي الثقيلَ. كان العشبُ البري يكسو الأرضَ المحترقةَ كأنَّ أحداً ما بذرهُ. معظمُ الناسِ حفروا مراحيض لهم، وزرعوا الخضرواتِ، وبنوا زرائبَ الخنازير، أو أقنانَ الدجاجِ في الأفنيةِ، ولكن فناءَ بيتِ آليانا ما زالَ على حالهِ.

بقي ريتشارد في المنزل، ولكن لم يكن هناك الكثير ليتفقدهُ، وبعدَ برهةٍ لحقَ بآليانا إلى الخارجِ وقال: «إنَّ المنزلَ شبه خالٍ فما من أثاثٍ، ولا قدورٍ، ولا أوعيةٍ...»

«لا أملكُ مالاً»، أجابت آليانا بسأم.

«لم تقومي بأيِّ شيءٍ في الفناءِ أيضاً»، قال ريتشارد، وهو ينظرُ من حولهِ بتقززٍ.

«لا أملكُ طاقةً»، أجابتهُ بعبوسٍ، وسلَّمتهُ السرجَ الضخمَ ثمَّ دخلت إلى المنزلِ.

جلست على الأرضيةِ، وأسندت ظهرها إلى الحائطِ. كان المكان بارداً، وتناهى إلى سمعها صوت حركة ريتشارد وهو يهتمُ بالجوادِ. بعدَ مرورِ بضعِ دقائق على جلوسها في مكانها رأت جرذاً يتشممُ بأنفهِ تحتَ القشّ. لا بدَّ أنَّ الحريقَ قد قضى على آلافِ الفئرانِ والجرذانِ، ولكنها بدأت تظهرُ مجدداً. نظرت آليانا من حولها تبحثُ عن شيءٍ لتقتلهُ بهِ، ولكن ما من شيءٍ في الجوارِ، علاوةً على هذا كان الجرذُ قد اختفى مجدداً.

فكرت في نفسها: «ما الذي سأفعلهُ الآن. لا يمكنني العيشُ على هذهِ الحال لبقيةِ حياتي»، ولكن فكرة البدءِ بمشروعٍ جديدٍ أتعبتها. كانت قد أنقذت نفسها وأخاها من العوزِ قبلاً، ولكن الجهدَ الذي بذلتهُ لتحقيقِ هذا استهلكَ كلَّ طاقتها، ولم تكن قادرةً على فعلِ هذا مجدداً. سيتعينُ عليها إيجادُ طريقةٍ غير متعبةٍ للحياةِ يتحكمُ بها شخصٌ آخر، وتعيش حياتها من دونِ أخذِ قراراتٍ أو مبادراتٍ. فكرت بالعاهرةِ كيت في وينشستر التي قبَّلتها على شفتيها، وعصرت ثدييها، وقالت لها: «يا فتاتي العزيزة لن تحتاجي إلى المالِ أبداً، بل لن تحتاجي إلى أيِّ شيءٍ آخر. إن عملتِ معي فسنغدو نحن الاثنتين ثريتين». وفكرت آليانا في نفسها: «لا، هذا لن يحدث. لن يحدثَ أبداً».

دخلَ ريتشارد حاملاً السرجَ وقال: «إن لم تكوني قادرةً على العنايةِ بنفسكِ من الأفضلِ أن تعثري على من يعتني بكِ».

«لدي أنتَ لتعتني بي».

«لا يمكنني أن أعتني بكِ!» احتجَّ ريتشارد.

«لِم لا؟» وقدحت شرارةُ غضبٍ من عينيها ثمَّ أضافت: «لقد اعتنيتُ بكَ لستةِ أعوامٍ!»

«وأنا خلالها كنتُ أحاربُ بينما أنتِ تبيعين الصوفَ».

وفكرت آليانا في نفسها: «وذبحت خارجاً عن القانونِ، ودفعت كاهناً مخادعاً أرضاً، وأطعمتكَ، وكسوتك، وحميتكَ في الوقتِ الذي كنتَ تخافُ من كلِّ شيءٍ وترتعبُ»، ولكن شرارةَ الغضبِ انطفأت وقالت بكلِّ بساطةٍ: «بالطبعِ كنتُ أمزح».

نخرَ كأنَّه لم يكن واثقاً من أن ملاحظتها مهينة أم لا ثمَّ هزَّ رأسه في ضيقٍ وقال: «على أيِّ حالٍ، لا يجب أن تتسرعي في رفضِ عرضِ آلفريد».

«أوه، بحقِ الرَّبِّ، فلتصمت»، قالت له.

«ما خطبُ آلفريد؟»

«ليسَ هناك خطبٌ في آلفريد. ألا تفهم؟ أنا من أعاني من خطبٍ».

وضعَ ريتشارد السرجَ أرضاً، وأشارَ بإصبعهِ قائلاً: «هذا صحيح، وأنا أعلم ما هو. أنتِ أنانيةٌ، ولا تفكرين إلّا في نفسكِ».

رغمَ أنَّ كلامهُ كان ظالماً جداً، غيرَ أنَّها كانت متعبةً جداً على الشعورِ بالغضبِ. امتلأت عيناها بالدموع، واحتجَّت في بؤسٍ: «كيفَ يمكنكَ قولُ هذا؟»

«لأنَّ كلَّ شيءٍ سيكون على ما يرام إن تزوجتِ بآلفريد، ومع هذا أنتِ ترفضين».

«لن يساعدكَ زواجي بآلفريد».

«بل سيساعدني».

«كيف؟»

«قال لي آلفريد إنّه سيساعدني على متابعةِ القتالِ إن أصبحتِ زوجتَه. سأضطرُ إلى قطعِ بعضِ النفقاتِ فلن يكون بوسعهِ دفعُ أجورِ جنودي، ولكنه وعدني بما يكفيني من أجلِ الجيادِ، والأسلحةِ الجديدةِ، وأجر مرافقي».

«متى؟» سألت آليانا ذاهلةً. «متىَّ تحدثتما في هذا الأمرِ؟»

«الآن، في الديرِ».

شعرت آليانا بالإحراجِ، ومن بابِ اللباقةِ تظاهر ريتشارد بالخجلِ بعضَ الشيء. كان الرجلان يتفاوضان عليها كأنَّهما تاجرا جيادٍ. نهضت على قدميها، ومن دونِ كلمةٍ أخرى غادرت المنزلَ.

عادت إلى الديرِ، ودخلت إلى الساحةِ من المدخلِ الجنوبي ثمَّ قفزت من فوقِ خندقِ ماءٍ يمرُّ بالطاحونةِ القديمةِ. كانت الطاحونةُ هادئةً اليومَ كما هي في أيام العطلِ، ولولا هذا لما تمكنت من السيرِ إلى هذهِ المسافة والطاحونةُ تعملُ لأنَّ صوتَ المطارقِ وهي تدعكُ القماشَ تسببُ لها الصداعَ دوماً.

وتماماً كما توقعت وجدت ساحةَ الديرِ خاليةً، وموقع البناءِ هادئاً؛ ففي مثلِ هذهِ الساعةِ من النهارِ يذهب الرهبان إلى الدراسةِ، أو أخذِ قسطٍ من الراحةِ، وجميعُ سكانِ البلدةِ في المرجِ اليوم. تجولت في المقبرةِ التي تقعُ شمالَ موقعِ البناءِ، وأفصحت القبورُ المُعتنى بها جيداً بصلبانها الخشبيةِ الأنيقةِ، وباقاتِ زهورها النضرةِ عن حقيقةِ عدم تعافي البلدة من المجزرةِ. وقفت قربَ شاهدِ قبرِ توم المزين بتمثالِ ملاكٍ رخامي بسيطٍ صنعهُ جاك، وغرقت في الأفكار: «منذُ سبعةِ أعوامٍ رتبَ لي والدي زواجاً مناسباً تماماً. لم يكن وليم هاملي طاعناً في السنِ، ولا قبيحاً، ولا فقيراً، وستسارع أيَّةُ فتاةٍ في مكانتها إلى القبولِ بهِ، ولكنني رفضتهُ وحلت عليَّ المتاعبُ من بعدها: تعرضت قلعتنا إلى الهجومِ، وسُجنَ والدي، وأصبحنا أنا وأخي بلا مالٍ، بل حتَّى كينغزبريدج لم تنجُ، وها هي أُحرقت وقُتلَ توم بسببِ تعنتي».

وبشكلٍ ما بدا لها موتُ توم أسوأ جميعِ هذهِ الأحزانِ، ربما لأنَّه كان محبوباً من الكثيرين، أو ربما لأنَّه كان بمنزلة الأبِ الثاني الذي يخسرهُ جاك.

«وها أنا أرفضُ عرضاً آخر مناسباً، ما الذي يعطيني الحقَ لأكون نيَّقةً؟ تسببت بما يكفي من المتاعبِ لأنني نيقةٌ، ويجب أن أقبلَ بآلفريد، وأكون ممتنةً لأنني لستُ مضطرةً للعملِ مع العاهرةِ كيت».

ابتعدت عن القبورِ، وعبرت موقعَ البناءِ. وقفت في ما سيصبحُ يوماً معبرَ الكاتدرائيةِ الجديدةِ، ونظرت إلى مذبحِ الكنيسةِ. كان العملُ منتهياً، ولم يبقَ سوى السقفِ، والبناؤون يستعدون للبدءِ بالمرحلةِ التاليةِ وهي بناءُ جنحي الكنيسةِ. كان مخططُ العملِ قد بدأ، وعلى كلا جانبيها زُرعت أوتادٌ تصلُ بينها حبالٌ لتحديدِ أماكن البناءِ، وقد بدأوا فعلاً بحفرِ الأساساتِ. ألقت الجدران العالية في شمسٍ ما بعد الظهرِ ظلالاً طويلةً. كان الطقس معتدلاً، ولكن الجو في الكاتدرائيةِ بدا بارداً. تأمَّلَت آليانا طويلاً صفوفَ القناطرِ المدورةِ الكبيرةِ عندَ المستوى الأرضي، والصغيرةِ بعدها، والمتوسطةِ في الأعلى. كان هناك شيءٌ مرضٍ في هذا التناغمِ الدقيقِ في كلِّ قنطرةٍ ودعامةٍ.

إن كان آلفريد مستعداً لتمويلِ ريتشارد فهذا يعني أنَّه ما زال أمامَ آليانا فرصةٌ للوفاء بوعدها لوالدها بأن تعتني بريتشارد إلى أن يسترجعَ شايرنغ،

ولذلكَ علمت في صميمِ قلبها أنَّ عليها الزواج بآلفريد، ولكن لم تكن قادرةً على مواجهةِ الأمرِ.

سارت على طولِ الممرّ الجانبي الجنوبي ويدها على طولِ الجدارِ تتحسسُ ملمسَ الحجارةِ الخشن، وتمررُ أظافرها بينَ الشقوقِ السطحيةِ التي تركتها أزاميلُ البنَّائين المسننةُ. هنا في الممرّاتِ تحتَ النوافذِ كانت الجدران مزخرفةً بسلسلةٍ من الأعمدةِ والقناطرِ الملتصقةِ بالحائطِ كصفٍ من القناطرِ المُغلقةِ. لم يكن لهذا الصفِ أيُّ غرضٍ سوى إضافةِ مسحةِ تناغمٍ عامٍ، وهذا ما شعرت بهِ آليانا عندما نظرت إلى المبنى. بدا كلُّ شيءٍ في كاتدرائيةِ توم في مكانهِ المناسبِ. ربما كانت حياتها كذلكَ؛ كلُّ شيءٍ فيها مرسومٌ وفقَ مخططٍ كبيرٍ، وهي في هذا المخططِ كبنَّاءٍ غبي يريدُ وضعَ شلالٍ في مذبحِ الكنيسةِ.

في الطرفِ الجنوبي الشرقي من الكنيسةِ مدخلٌ واطئ يُفضي إلى درجٍ حلزوني ضيقٍ، ومن دونِ تفكيرٍ دخلت آليانا من البابِ، وصعدت الدرجَ. عندما غابَ البابُ عن ناظريها دونَ أن ترى نهايةً للدرجِ الحلزوني في الأعلى بدأت تشعرُ بالغرابةِ لأنَّ الدرجَ بدا بلا نهايةٍ، ولكنها أخيراً رأت ضوءَ النهارِ من شقِّ نافذةٍ في الجدار يسمحُ لضوءِ الشمسِ بالدخولِ وإنارةِ الدرجِ. وأخيراً خرجت من السُلمِ الحلزوني إلى رواقٍ واسعٍ فوقَ الممرّ. لم يكن في الرواقِ نوافذ تُطلُّ على الخارجِ، ولكنه من الداخلِ يطلُّ على سقفِ الكنيسةِ المفتوحِ. جلست على حافةِ إحدى القناطرِ الداخليةِ، وأسندت ظهرها إلى العمودِ. شعرت بالحجرِ الباردِ يُداعبُ خدها، وتساءلت في نفسها إن كان جاك قد نحتَ هذا الحجرَ، ثمَّ فكرت أنَّها لو سقطت من هذا الارتفاع فقد تموت، ولكنه لم يكن عالياً كفايةً، ولذلكَ قد ينتهي بها الأمرُ بكسرِ قدميها، والبقاء في مكانها تعاني من الألمِ إلى أن يعثرَ عليها الرهبان.

قررت أن تتسلقَ صفَّ النوافذِ العلويةِ فعادت إلى الدرجِ الحلزوني للبرجِ التزييني وصعدته. رغمَ أن الطريقَ إلى الأعلى هذهِ المرة كان أقصر، فإنَّها وجدتهُ مُرعباً، وشعرت بقلبها عندما وصلت إلى الأعلى يدقُّ بسرعةٍ وبصوتٍ عالٍ. قفزت إلى ممرّ صفِ النوافذِ العلويةِ الشبيه بنفقٍ في الجدارِ. سارت على حافةِ هذا النفقِ إلى أن وصلت إلى الحافةِ الداخليةِ

للنافذةِ العلويةِ. تمسكت جيداً بالعمودِ وسطَ النافذةِ، الذي يقسمها إلى قسمين. عندما نظرت إلى الأسفلِ على ارتفاعِ خمسة وسبعين قدماً بدأت ترتجفُ.

سمعت خطى أقدامٍ على السُلمِ الحلزوني للبرجِ التزييني، ووجدت نفسها تتنفسُ بصعوبةٍ كأنَّها كانت تركضُ. لم ترَ أحداً، وتساءلت في نفسها إن كان أحدهم قد تسللَ وراءها محاولاً مباغتتها. وبدأت تسمعُ وقعَ الخطى على طولِ معبرِ النوافذِ العليا فأفلتت العمودَ الذي أمسكت بهِ، وأخذت تتأرجحُ على الحافةِ، وهنا ظهرَ شخصٌ عندَ الحافةِ. كان جاك. شعرت بقلبها يخفقُ بصوتٍ عالٍ أحسَّت بنفسها تسمعهُ.

«ما الذي تفعلينهُ؟» سألها بقلقٍ.

«كنتُ... كنتُ... كنتُ أعاين التطورات على كاتدرائيتكَ».

أشارَ إلى تاجِ العمودِ فوقَ رأسها وقال: «أنا من صنعهُ».

نظرت إلى الأعلى، ورأت منحوتةً لرجلٍ يبدو كأنَّه يحملُ القوسَ على ظهرهِ، وجسدهُ ملتو كأنَّه يعاني من الألمِ. حدَّقت آليانا إلى المنحوتةِ في ذهولٍ فهي لم ترَ شبيهاً لها في حياتها، ومن دون أن تفكرَ قالت: «هذا ما أشعرُ بهِ».

عندما عادت بنظرها إليه كان قد أصبحَ بجانبها. أمسكَ ذراعها بلطفٍ، ولكن بإحكامٍ ثمَّ قال: «أعلم».

نظرت إلى الأسفلِ، وفجأة ملأتها فكرةُ السقوطِ من هذا العلو بالرعبِ إلى درجةِ الغثيانِ. شدَّها جاك من ذراعها، وسمحت له أن يقودها إلى معبرِ النوافذِ العلويةِ.

سارا إلى السُلمِ الحلزوني وهبطاه إلى أن أصبحا في الطابقِ الأرضي. شعرت آليانا بالضعفِ؛ فاستدارَ جاك نحوها وقال بلهجةٍ أرادَ بها أن يبدأ حديثاً: «كنتُ أقرأُ في الممرّاتِ المسقوفةِ، ونظرت إلى الأعلى، ورأيتكِ في صفِ النوافذِ العلويةِ».

نظرت إلى وجههِ الشاب القلقِ والرقيقِ، وتذكرت سببَ هروبها من الجميعِ والبحثِ عن العزلةِ هنا. كانت تتوقُ إلى تقبيلهِ، ورأت ذات التوقِ في عينيهِ. شعرت أنَّ كلَّ شيءٍ في جسدها يدفعها إلى رمي نفسها بينَ

ذراعيهِ، ولكنها علمت ما يجبُ عليها القيامُ بهِ. أرادت أن تقولَ: «أحبُّكَ كعاصفةٍ رعديةٍ، كأسدٍ، كغاضبٍ مغلوبٍ على أمرهِ»، ولكن بدلاً من هذا قالت له: «أعتقدُ أنني سأتزوجُ من آلفريد».

حدَّقَ إليها مصعوقاً ثمَّ اكتسى وجههُ بحزنِ شخصٍ حكيمٍ يفوقهُ عمراً. اعتقدت أنَّه على وشكِ الانخراطِ في البكاءِ، ولكنه لم يبكِ، وبدلاً من ذلكَ امتلأت عيناه بالغضبِ، وفتحَ فمهُ ليقولَ شيئاً ولكنَّه غيرَ رأيهُ، وترددَ ثمَّ تحدثَ أخيراً.

تحدثَ بصوتٍ باردٍ كريحِ الشمالِ الباردةِ قائلاً: «إذاً، من الأفضلِ لو أنَّكِ قفزتِ من النافذةِ العلويةِ».

أشاحَ بنظرهِ بعيداً عنها، وسارَ عائداً إلى الديرِ.

«لقد خسرتهُ إلى الأبدِ»، فكرت آليانا في نفسها، وشعرت كأنَّ قلبها تحطمَ في صدرها.

– 2 –

تسللَ جاك من الديرِ في يومِ عيدِ الحصادِ. لم يكن هذا بحدِ ذاتهِ جرماً خطيراً، وفعلَ هذا مرَّاتٍ عديدةً من قبل. علاوةً على هذا، فإنَّ خروجهُ من الديرِ للتحدثِ إلى امرأةٍ عازبةٍ جعلَ الأمرَ أكثرَ سوءاً. ناقشَ الرهبانُ هذا التجاوز الذي قامَ بهِ جاك خلالَ اجتماعِ اليومِ التالي، وحُكمَ عليهِ بالحجزِ داخلَ مباني الديرِ، وهي الممرّاتُ المسقوفةُ والسرداب، ومُنعَ من الانتقال بينَ هذهِ المباني من دون رفقة أحدِ الرهبان.

ولكن جاك بالكادِ اهتم للأمر. كان محطماً من القرارِ الذي أطلعتهُ عليهِ آليانا، ولذلك لم يُشكل الأمرُ فرقاً بالنسبةِ إليهِ، ولو أنَّه تعرَّضَ إلى الجلدِ، وليسَ إلى الحجزِ، لواجه العقوبةَ باللامبالاةِ نفسها.

بالطبعِ لم يكن قادراً على العملِ في موقعِ بناءِ الكاتدرائيةِ، ولكن على أيِّ حالٍ كان تسلُّم آلفريد زمامَ البناءِ قد جرَّد الأمرَ من أيَّةِ متعةٍ، وها هو الآن يقضي فتراتِ ما بعد الظهرِ في القراءةِ، وقد قطعَ بلغتهِ اللاتينيةِ أشواطاً كبيرةً، وبات قادراً على قراءةِ أيِّ شيءٍ، ولو ببطءٍ، ولأنَّه يُفترض به أن يقرأ لتحسين لاتينيتهِ، وليسَ لأيِّ غرضٍ آخر، سُمحَ له بأخذِ أيِّ كتابٍ أراده. وعلى

الرغمِ من صغرِ حجمِ المكتبةِ فإنّها احتوت على العديدِ من كتبِ الفلسفةِ والرياضيات، وانغمسَ جاك فيها بكلِّ حماسةٍ.

غيرَ أنَّ معظمَ ما قرأهُ كان مُحبطاً. كانت هناك صفحاتٌ كثيرةٌ عن سلاسلِ الأنسابِ، وروايات مكررةٌ عن معجزاتٍ قامَ بها قديسون ماتوا منذُ زمنٍ بعيدٍ، وعددٌ لا يحصى من التكهنات اللاهوتيةِ، وأول كتابٍ استساغه جاك كان عن التاريخ الكاملِ للعالمِ منذُ بدءِ الخليقةِ وحتَّى إنشاءِ ديرِ كينغزبريدج، ولكنه عندما انتهى منه شعرَ أَنَّ ما من شيءٍ فيهِ غريبٌ عنه، وبعدَ فترةٍ أدركَ أنَّ الكتابَ يدَّعي روايةَ أحداثٍ خوارقيةٍ بينما في الحقيقةِ مثلُ هذهِ الأحداثِ تجري في كلِّ مكانٍ، وفي جميعِ الأزمنةِ، وليسَ في كينغزبريدج وإنكلترا فقط، بل في النورماندي، وآنجو، وباريس، وروما، وإثيوبيا، والقدس، ولذلكَ لا بدَّ أنَّ الكاتبَ أغفلَ الكثيرَ من الأحداثِ. بغضِ النظرِ عن هذا التفصيلِ منحَ الكتابُ جاك شعوراً لم يشعرهُ من قبلٍ، وهو أنَّ الماضي أشبه بقصةٍ تتطور أحداثها، والعالم ليسَ لغزاً لا نهايةَ لهُ بل محدودٌ، ويمكنُ استيعابهُ.

ولكن ما أثارَ اهتمامهُ أكثرَ من أيِّ شيءٍ آخر هو الأحاجي. يطرحُ أحدُ الفلاسفة سؤالاً حولَ قدرةِ رجلٍ ضعيفٍ على تحريكِ حجرٍ ثقيلٍ بواسطةِ عتلةٍ. لم يطرح جاك على نفسهِ مثلَ هذا السؤالِ قبلاً فلم يبدُ له كسؤالٍ غريبٍ، ولكن السؤال الآن أخذَ يعذبه، وفي إحدى المرَّاتِ قضى أسابيع عديدةً في مقلعِ الحجارةِ، وتذكرَ أنَّهم كانوا يجدون صعوبةً في تحريكِ حجرٍ باستخدامِ عتلةٍ بطولِ قدمٍ فلجأوا إلى استخدام عتلةٍ بطولِ قدمين. وتساءل جاك في نفسهِ عن سببِ عجزِ الشخصِ عن تحريكِ حجرٍ باستخدامِ عتلةٍ قصيرةٍ، ولكنه قادرٌ على تحريكهِ بعتلةٍ أطول، وقادهُ السؤالُ إلى سؤالٍ آخر. يستخدمُ بناؤو الكاتدرائيةِ آلةَ بعجلةٍ دوارةٍ لرفعِ الحجارةِ وقطعِ الخشبِ الكبيرةِ إلى السقفِ، وسيكون الحملُ في نهايةِ الحبلِ ثقيلاً جداً على رجلٍ واحدٍ ليحملهُ بيديهِ الاثنتين، ولكن الرجلَ نفسهُ يستطيعُ تحريكَ العجلةِ التي تلُفّ حبلَ آلةِ الرفعِ، وسحبَ الحملِ إلى الأعلى. كيف يحدثُ هذا؟

رغمَ أنَّ مثلَ هذهِ التساؤلاتِ ألهتهُ لبعضِ الوقتِ، فإنّ تفكيره عاد دوماً إلى آليانا. كان يقفُ في الممرّاتِ المسقوفةِ، وأمامهُ على منصةِ القراءةِ كتابٌ ضخمٌ، ويتذكرُ ذلكَ الصباح في المطحنةِ القديمة عندما قبّلها. مازال يتذكرُ

كلَّ تفصيلٍ ودقيقةٍ من تلكَ القبلةِ، من اللمسةِ الأولى الرقيقة على الشفتين إلى ذلكَ الإحساس المثيرِ للسانها في فمِهِ، وكيفَ ضغطَ بجسدهِ على جسدِها من الفخذين وحتَّى الكتفين كي يشعرَ باستدارةِ ثدييها ووركيها. كانت ذكرى قويةً، ولذلك وبمجردِ استعادتها شعرَ أنَّه يعيشها مجدداً.

تساءل جاك في نفسهِ عن سببِ تغيرِ آليانا، وكان ما زال مقتنعاً أنَّ القبلةَ حقيقية، وبرود آليانا اللاحقَ مزيفٌ. شعرَ أنَّه يعرفها جيداً، وأنَّها مُحبَّةٌ، وشهوانيةٌ، ورومانسيةٌ، وصاحبةُ مخيلةٍ ودافئةٌ، ولكنها أيضاً طائشةٌ، ومستبدةٌ، ورغم أنَّها تعلَّمت الصرامة فإنّها لم تكن باردةً، أو قاسيةً، أو متحجرةَ القلبِ، ولم تكن من النوعِ الذي يتزوجُ برجلٍ لا تحبهُ من أجلِ المالِ. ستكون تعيسةً، وستندم على هذا، وستمرضُ من البؤسِ. كان يعلمُ هذا علمَ اليقين، وهي أيضاً، وفي صميمها، تعلمُ هذا.

في أحدِ الأيامِ كان جاك في غرفةِ التدوين. في الغرفة معه كان خادمُ الديرِ يكنسُ الأرضيةَ ثمَّ توقفَ الرجل كي يستريح وقالَ متكئاً على مكنستهِ: «إذاً، سيكون هناكَ احتفالٌ كبيرٌ في عائلتكَ».

كان جاك يتفحصُ خريطة للعالمِ مرسومةً على رقٍ فرفعَ نظرةُ عنها عندما سمعَ هذا الكلامَ. كان المتحدثُ رجلاً عجوزاً متغضنَ الوجهِ وضعيفاً جداً على القيامِ بأعمالٍ صعبةٍ. لا بدَّ أنَّه اعتقدَ أنَّ جاك شخصٌ آخر، ولذلكَ قال: «ولماذا تقول هذا يا جوزيف؟»

«ألا تعلم؟ شقيقكَ سيتزوجُ».

«ليسَ لدي أشقاء»، قال جاك بميكانيكيةٍ إلَّا أنَّ الخوفَ تملكه الآن.

«أخوكَ غير الشقيقِ إذاً»، قال جوزيف.

«لا، لم أكن أعلم»، قال جاك، وكان عليهِ أن يطرحَ السؤالَ التالي فصرَّ على أسنانهِ وطرحهُ: «ومن سيتزوج؟»

«تلكَ المدعوة آليانا».

إذاً، كانت مصممةً على القيامِ بالأمرِ. لطالما ساورهُ سِراً شيءٌ من الأملِ في أن تغيرَ رأيها. أشاحَ بنظرهِ بعيداً حتَّى لا يرى جوزيف اليأسَ على وجههِ، وقال بصوتٍ حاولَ أن يبدو حيادياً: «حسناً، حسناً».

«أجل، لطالما كانت مغرورةً ومُعتدةً بنفسها إلى أن خسرت كلَّ شيءٍ في الحريقِ».

«هل تعرف موعد الزفاف؟»

«غداً. سيتزوجان في كنيسةِ الأبرشيةِ الجديدةِ التي بناها آلفريد».

غداً!

ستتزوجُ آليانا بآلفريد غداً. حتّى الآن عجز جاك عن التصديقِ أنَّ الأمرَ سيحدث حقاً، ولكن ها هي الحقيقةُ الآن تأتيهِ كقصفِ الرعدِ: ستتزوجُ آليانا في الغدِ، وستنتهي حياته مع زفافها.

عادَ بنظرهِ إلى الخريطةِ أمامهُ على منصةِ القراءة. ما الذي يهم إن كان مركزُ العالمِ القدسَ أو ويلنغفورد؟ هل سيكون أكثرَ سعادةً إن علمَ آليةَ عملِ الرافعات؟ لقد أخبرَ آليانا أنّه من الأفضلِ لها القفزُ من نافذةِ الكاتدرائيةِ العليا على الزواجِ من آلفريد، وما كان يجدرُ به القولُ أنّه هو أيضاً يجدرُ بهِ القفز من النافذةِ.

كان يحتقرُ الديرَ، ويشعرُ أنَّ حياتهُ كراهبٍ طريقةٌ خاطئةٌ للعيشِ. إن لم يكن قادراً على العملِ على الكاتدرائيةِ، وإن كانت آليانا ستتزوجُ من شخصٍ آخر فلن يكون لديهِ ما يعيشُ من أجلهِ.

ما ساءهُ أكثر هو علمهُ بالحياةِ التي سيعيشها أيُّ أحدٍ مع آلفريد تحتَ سقفٍ واحدٍ، ولم يكن هذا بسببِ كرههِ له. هناك بعضُ الفتياتِ اللواتي سيرضيهن الزواجُ من آلفريد، ومنهن إيديث التي قهقهت عندما تحدثَ جاك إليها عن مدى حبهِ لنحتِ الحجارةِ. لن تتوقع فتاةٌ كإيديث الكثيرَ من آلفريد، وستكون سعيدةً بمجاملتهِ، وطاعتهِ ما دامَ كان ميسوراً وأحبَّ أطفالهما، ولكن آليانا ستكره كلَّ هذا، بل ستكره كلَّ دقيقةٍ مع آلفريد، وستشمئز من خشونتهِ الجسديةِ، وستحتقرهُ على أساليبهِ المتنمرةِ، وستقرفُ من وضاعتهِ، وستجد غباءَهُ باعثاً على الجنونِ. سيكون زواجها من آلفريد أشبهَ بدخولِ الجحيمِ.

«لمَ لا ترى هذا؟» تساءل جاك في نفسهِ مُحتاراً. «ما الذي يجري في عقلها؟ سيكون أيُّ حلٍ آخر أفضل من الزواجِ برجلٍ لا تحبهُ. لقد أحدثت جلبةً كبيرةً عندما رفضت الزواجَ من وليم هاملي منذُ سبعةِ أعوامٍ، وها هي الآن تقبلُ بسلبيةٍ عرضاً مماثلاً من شخصٍ آخر غير مناسبٍ. فما الذي يجري في عقلها؟»

وقررَ أنه يريدُ أن يعرفَ.

كان عليهِ أن يتحدثَ إليها، وليذهب الديرُ إلى الجحيمِ.

لفَّ الخريطة، ووضعها في الخزانةِ ثمَّ توجهَ إلى البابِ. كان جوزيف ما يزالُ متكئاً على مكنستهِ. «هل ستغادر؟» سألَ جوزيف جاك. «اعتقدت أنَّه يفترضُ بكَ البقاءُ هنا إلى أن يأتي مسؤولُ الانضباط لأخذكَ».

«يمكنُ لمسؤولِ الانضباط أن يذهبَ إلى الجحيمِ»، قال جاك وخرجَ.

وعندما خرجَ إلى الممشى الشرقي للممراتِ المسقوفةِ التقت عيناه بعيني رئيسِ الديرِ فيليب الذي كان قادماً من موقعِ البناء، فاستدارَ جاك بسرعةٍ، ولكن فيليب ناداه قائلاً: «جاك! ما الذي تفعله؟ يُفترضُ بكَ أن تكونَ في الحجزِ».

لم يكن جاك في هذهِ اللحظةِ مستعداً لاحترامِ الانضباطِ الرهباني، ولذلكَ تجاهلَ فيليب، وسارَ في الاتجاهِ المعاكس باتجاهِ الممرّ الذي يُفضي إلى الممشى الجنوبي والمنازل الصغيرة المبنية عندَ رصيفِ النهرِ، ولكن حظهُ في تلكَ اللحظةِ لم يكن إلى جانبهِ لأنَّ الأخَ بيير –مسؤول الانضباط– خرجَ من الممرّ مع اثنين من نوابهِ. عندما رأى الرهبان الثلاثةُ جاك توقفوا في مكانهم، وعلا وجهَ بيير القمري الشكلِ تعبيرٌ ينُمُّ عن سخطٍ ذاهلٍ.

نادى فيليب: «أوقف هذا الراهبَ المبتدئ أيّها الأخ مسؤولَ الانضباط!»

رفعَ بيير يداً لإيقافِ جاك، ولكن جاك دفعه فاحمرَّ وجه بيير غضباً. أمسكَ بيير بذراعِ جاك فجذبَ الأخيرُ ذراعهُ، وحررها ثمَّ لكمَ بيير على أنفهِ. صرخَ الأخير من الغضبِ أكثر مما صرخَ من الألمِ، ثمَّ انقضَّ نائبا بيير على جاك.

صارعَ جاك كمجنونٍ، وكادَ يُفلتُ، ولكن عندما تعافى بيير من الضربةِ على أنفهِ انضمَّ إلى النائبين، وصارعَ الرهبانُ الثلاثةُ جاك وثبتوه أرضاً. استمرَّ جاك بالتلوي محاولاً التحررَ منهم. كان غاضباً جداً لأنَّ هذا الهراءَ الرهباني يمنعهُ من القيامِ بأمرٍ مهم جداً، ألا وهو التحدثُ إلى آليانا، ولذلك استمرَّ بالقولِ: «اتركوني أيّها الأغبياءُ الحمقى!» وجلسَ النائبان فوقهُ. استقامَ بيير، ومسحَ الدمَ عن أنفهِ بكُمِ ردائه، وهنا ظهرَ فيليب إلى جانبهِ.

رغمَ غضبِ جاك فإنَّه رأى فيليب أشدّ غضباً منه، بل وأشدّ غضباً من أيّةِ مرةٍ يراه فيها في حياتهِ. «لن أقبلَ بهذا التصرفِ من أيِّ أحدٍ»، قال بصوتٍ

فولاذي. «أنتَ راهبٌ مبتدئ وستطيعني»، ثمَّ استدارَ نحو بيير وقال له: «ضعهُ في غرفةِ التأديبِ».

«لا!» صرخَ جاك. «لا يمكنكَ فعلُ هذا!»

«بل يمكنني»، قال فيليب بغضبٍ.

كانت غرفةُ التأديبِ زنزانةً صغيرةً من دونِ نوافذ، وتقع في الطرفِ الجنوبي من السردابِ تحتَ المهجعِ بجانبِ المرحاضِ. تستخدمُ الزنزانةُ بشكلٍ أساسي لسجنِ من يخرقون القانون إلى أن تبتَّ محكمةُ رئيسِ الديرِ في وضعهم، أو يُنقلون إلى سجنِ المأمورِ في شايرنغ، ولكنها أحياناً تستخدمُ لسجنِ الرهبانِ الذين يخرقون الانضباط بشكلٍ خطيرٍ كممارسة الرذيلة مع خدمِ الديرِ.

لم يكن السجنِ الانفرادي ما أفزعَ جاك بل حقيقة أنَّه لن يتمكنَ من مغادرتهِ للتحدثِ مع آليانا. «أنتَ لا تفهم!» صرخَ جاك في وجهِ فيليب ثمَّ أضاف: «يجبُ أن أتحدثَ إلى آليانا!»

كان هذا أسوأ شيءٍ قد يقولهُ لأنَّ غضبَ فيليب استعرَ أكثر وقال باهتياجٍ: «لأنَّك تحدثتَ إليها منذُ البدايةِ عوقبتَ».

«ولكن يجبُ أن أتحدثَ إليها!»

«الشيءُ الوحيدُ الذي عليكَ تعلُّمهُ هو الخوفُ من الرَّبِّ، وإطاعةُ رؤسائكَ».

«أنتَ لستَ رئيسي أيّها الغبي الأحمق! أنتَ لا شيء بالنسبةِ لي. دعوني أذهب، اللعنةُ عليكم!»

«خذوه!»، قال فيليب بتجهمٍ.

بحلولِ الآن كان قد تجمَّعَ حشدٌ صغيرٌ من الرهبانِ، وقاموا جميعاً بحملِ جاك من تحت ذراعيهِ ورجليهِ. تلوى جاك بينَ أيديهم كسمكةٍ عالقةٍ في صنارةٍ، ولكن عددهم كان كبيراً، ولذلك لم يتمكن من تحريرِ نفسهِ من قبضتهم. لم يكن قادراً على تصديقِ ما يحدث. حملوه وهو يركلُ ويقاوم على طولِ الممشى باتجاهِ بابِ غرفةِ الطاعةِ، ثمَّ فتحَ أحدهم بابَ الغرفةِ وقالَ الأخُ بيير بتشفٍ: «ألقوه هنا!» أرجحوه إلى الوراءِ ثمَّ رموهُ في الهواءِ فحطَّ

فوقَ أرضٍ حجريةٍ. نهضَ على قدميهِ، وأماكن الرضوض التي أصابتهُ كانت ما تزالُ خدرةً. اندفعَ باتجاهِ البابِ، ولكنه أُغلقَ في وجههِ في اللحظةِ التي وصلَ إليهِ فاصطدمَ بهِ، ثمَّ سمعَ الرتاجَ الحديدي الثقيلَ يُغلق من الخارجِ، والمفتاح يدورُ في القفلِ.

ضربَ جاك على الباب بكلِّ قوتهِ، وهو يصرخُ بهستيريةٍ: «دعوني أخرج! يجب أن أمنعها من الزواجِ بهِ! دعوني أخرج!» ولكن ما من مجيبٍ. استمرَّ بالصراخِ، وتحولَ صراخهُ إلى استجداء ثمَّ إلى أنينٍ، وأخيراً إلى همسٍ. انخرطَ في البكاءِ من شدَّةِ غضبهِ ويأسهِ.

في نهايةِ المطافِ جفَّت دموعُه، وعجزَ عن البكاءِ أكثر.

ابتعدَ عن البابِ. لاحظَ أنَّ الزنزانةَ لم تكن حالكةَ الظلمةِ، وأنَّ ضوءاً تسلل من تحتِ البابِ ساعده على رؤية محيطهِ، وإن لم يكن بشكلٍ واضحٍ. تحسّسَ الجدران بيدهِ، وعلمَ من نمطِ قطعِ الحجارةِ أنَّ الزنزانةَ مبنيةٌ منذُ وقتٍ طويلٍ. لم يكن هناك شيءٌ مميزٌ فيها. كانت بعرضِ ستةِ أقدامٍ مع عمودٍ في زاويةٍ وسقفٍ مقنطرٍ. بدا له أنَّها كانت في ما مضى جزءاً من غرفةٍ أكبر، ولكن فُصلت بحائطٍ، وتحولت إلى سجنٍ. عند أحدِ الجدران اكتشفَ مساحةً تشبهُ فتحة نافذةٍ ضيقةٍ، ولكنها كانت مغلقةً بإحكامٍ، وحتى إن كانت مفتوحةً فقد كانت صغيرةً جداً، ولا يمكن لأحدٍ الهربُ منها. كانت الأرضيةُ الحجريةُ رطبةً، وسمع جاك تحتها هديرَ جريان مياهٍ مستمرٍ فأدركَ أنَّ القناة المائية تحتَ الديرِ والقادمة من بركةِ الطاحونةِ إلى المراحيضِ تمرُّ تحتَ الزنزانةِ، ولهذا كانت الأرضية حجرية وليست طينية.

شعرَ أنَّه مستنزفٌ تماماً. جلسَ على الأرضية، وأسندَ ظهرهُ إلى الجدارِ مُحدقاً إلى الضوءِ تحتَ شقِّ البابِ، والذي ذكرهُ بالعالم الخارجي البعيد المنال. كيفَ وصل إلى هذهِ الحالةِ؟ لم يؤمن يوماً بالأديرةِ، ولم ينوِ قط تكريسَ حياتهِ لرَّبٍّ لا يؤمن بهِ حقاً. أصبحَ راهباً مبتدئاً كي يبقى في كينغزبريدج قرب من أحبَّ. فكّرَ أنَّه يستطيعُ المغادرةَ إن شاء، وأرادَ هذا الآن أكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى، ولكنه لا يستطيع فقد كان سجيناً.

«سأخنقُ رئيسَ الديرِ فيليب حالما أخرجُ من هنا، حتَّى وإن أعدموني بعدَ ذلكَ»، فكّرَ في نفسهِ.

قادتهُ هذهِ الفكرةُ إلى سؤالٍ آخر وهو متى سيُطلقون سراحهُ. سمعَ الجرسَ يُقرعُ إيذاناً بموعدِ العشاءِ. يبدو أنهم ينوون إبقاءهُ هنا طوالَ الليلِ، أو ربما يناقشون أمرهُ الآن. سيقولُ أسوأ الرهبانِ بإبقائهِ في السجنِ لأسبوعٍ، وسيكون بيير وريجيموس من أوائلِ الداعين إلى عقوبةٍ متشددةٍ بحقهِ، أمَّا من يحبونه فسيقولون إنَّ قضاءَ ليلةٍ واحدةٍ عقوبةٌ كافيةٌ. ما الذي سيقوله فيليب؟ كان يحبُّ جاك، وربما مازالَ غاضباً منه حتَّى الآن، خاصةً بعد أن صرخَ في وجههِ قائلاً: «أنتَ لستَ رئيسي أيّها الغبي الأحمق! أنتَ لا شيء بالنسبةِ لي». لن يوافقَ فيليب على أن يحظى المتشددون بما يريدونهُ. كان أملهُ الوحيد هو أن يرغبوا بطردِ جاك من الديرِ على الفورِ كأقصى عقوبةٍ، وقد يتمكن وقتها من التحدثِ إلى آليانا قبلَ الزفافِ، غير أنه كان واثقاً من أنَّ فيليب سيُعارضُ هذا؛ لأنه سيعتبرُ طردهُ اعترافاً منه بالهزيمةِ.

بدأ الضوءُ القادمُ من تحتِ شقِ البابِ يخفتُ، وهذا يعني أنَّ الظلامَ في الخارجِ هبط. تساءل جاك في نفسهِ كيفَ يلبي السجناءُ نداءَ الطبيعةِ في الزنازين. لم يعثر على دلو لقضاءِ حاجتهِ. كان غريباً جداً أن يُغفلَ الرهبان مثلَ هذا التفصيل فهم يؤمنون بأهميةِ النظافةِ، حتَّى بالنسبةِ إلى الخطأةِ. عادَ إلى تفحصِ الأرضيةِ مجدداً، وبدقةٍ، إلى أن عثرَ على حفرةٍ صغيرةٍ في إحدى زوايا الزنزانةِ. كان صوتُ المياه الجاريةِ عندَ الحفرةِ أقوى، وتكهنَ أنَّ الحفرةَ تنتهي في القناةِ الأرضيةِ للمراحيضِ على الأرجحِ.

بعدَ قليلٍ على اكتشافهِ سمعَ صوتَ مصراع يُفتح فقفزَ على قدميهِ. رأى وعاءً وقطعةً من الخبزِ يوضعان عندَ العتبةِ. لم يرَ جاك وجه الرجلِ الذي وضعهما هناك وسأل: «من أنتَ؟»

«لا يُسمح لي بالتحدثِ معكَ»، قال الرجلُ بلهجةٍ رتيبةٍ، ولكن جاك عرفَ صاحبَ الصوتِ. كان الراهب العجوز المدعو لوك.

«لوك، هل قالوا إلى متى سيُبقونني هنا؟» صرخَ جاك.

وكررَ لوك الكلام الذي قاله قبلاً: «لا يُسمح لي بالتحدثِ معكَ».

«من فضلكَ يا لوك. أخبرني إن كنتَ تعلم!» توسل جاك ولم يعبأ إن بدا مثيراً للشفقةِ.

أجابَ لوك في همسٍ: «قال بيير بإبقائكَ لأسبوعٍ، ولكن فيليب قررَ أن يُبقيكَ ليومين»، وأقفلَ لوك المزلاجَ.

«يومان!» قال جاك في قنوطٍ. «ولكنها ستكون متزوجةً بحلولِ ذلكَ الوقتِ!»

لم يكن هناك جوابٌ.

وقفَ جاك في مكانهِ ساكناً يُحدقُ إلى الفراغِ. كان الضوءُ القادمُ من تحتِ شقِّ البابِ أقوى مقارنةً بالعتمةِ الحالكةِ التي تُغطي الزنزانةَ، ولذلكَ عجزَ عن الرؤيةِ لبضعِ دقائق إلى أن اعتادت عيناه على الظلمةِ. امتلأت عيناه بدموعٍ جديدةٍ، وعجزَ عن الرؤيةِ أمامهُ مجدداً.

استلقى على الأرضيةِ. لم يكن هناكَ ما يمكنه القيامُ بهِ. سيبقى سجيناً هنا حتَّى يومِ الإثنينِ، وبحلولِ يومِ الإثنين ستكون آليانا زوجةَ آلفريد، وستنام على سريرهِ، وسيزرعُ بذورهُ فيها، وشعرَ بالغثيانِ عندما فكرَ بهذا.

سرعانَ ما حلَّ الظلامُ الدامسُ في الخارجِ. تحسسَ طريقهُ إلى العتبةِ، وشربَ منَ الوعاءِ الذي وضعهُ له لوك. كان الوعاء يحوي على الماءِ. أخذَ قطعةً من الخبزِ ثمَّ وضعها في فمهِ، ولكنه لم يكن جائعاً، وبالكادِ تمكن من ابتلاعِ اللقمةِ. شربَ بقيةَ الماءِ، واستلقى مجدداً.

لم ينم، ولكنه غفا إغفاءةً أشبهَ بغشيةٍ. وفيما يشبه الحلمَ أو الرؤية رأى نفسهُ يعيشُ مجدداً أوقاتَ ما بعدَ الظهيرةِ أيامَ الأحد صيفاً مع آليانا عندما قصَّ عليها حكايةَ المرافقِ الذي أحبَّ الأميرةَ، وذهبَ للبحثِ عن العريشةِ التي تُخرجُ الياقوتَ.

عندَ منتصفِ الليل قُرعَ الجرسُ فاستفاقَ من غشيتهِ. ولأنه كان معتاداً على الجدولِ الرهباني، بقي صاحياً على الرغمِ من أنَّه في الأيامِ العاديةِ كان سيشعرُ بالنعاسِ بعدَ الظهرِ، وبخاصةٍ إن تناولَ اللحمَ على الغداءِ. سينهضُ الرهبان من أسرّتهم الآن، ويصطفون في رتلٍ ثم سيسيرون من المهجعِ إلى الكنيسةِ، وسيعبرون فوقِ جاك، ولكنه لم يسمع شيئاً، وهذا يعني أنَّ الزنزانةَ معزولة، وبعدَ فترةٍ قصيرةٍ خُيّلَ إليهِ أنَّه يسمعُ الجرسَ مجدداً إيذاناً بصلاةِ التسابيحِ التي تُقام الساعة الواحدة صباحاً. كان الوقتُ يمرُّ بسرعةٍ على الصباحِ الذي ستتزوجُ فيهِ آليانا.

خلالَ هذهِ الساعاتِ القليلةِ، وعلى الرغمِ من بؤسهِ، استسلمَ للنومِ.
استفاقَ مُجفلاً عندَما شعرَ بوجودِ أحدٍ في الزنزانةِ معهُ.
وتملكهُ الذعرُ.
كانت الزنزانةُ حالكةَ الظلمةِ، وصوتُ المياهِ الجاريةِ ما زالَ عالياً.
«من أنتَ؟» قال جاك بصوتٍ مرتعشٍ.
«أنا، لا تخف».
«أمّاه!» قال جاك، وشعرَ أنَّه على وشكِ الإغماءِ من الراحةِ. «كيفَ دخلتِ إلى هنا؟»
«أتى الراهبُ العجوز جوزيف، وأخبرني بما حدثَ»، أجابت بصوتٍ عادي.
«الزمي الهدوءَ فقد يسمعكِ الرهبان».
«لا، لن يسمعوني. يمكنكَ أن تغني وتصرخ هنا دونَ أن يسمعكَ أحدٌ في الأعلى. أنا أعلم فقد قمتُ بهذا قبلاً».
كان رأسهُ مليئاً بالأسئلةِ، ولم يعرف من أينَ يبدأ. «كيفَ دخلتِ إلى هنا؟ هل البابُ مفتوحٌ؟» وتحرَّك باتجاهها متحسساً إياها بيدين ممدودتين أمامهُ ثمَّ قال: «أوه، أنتِ مُبتلةٌ!»
«تجري القناةُ المائيةُ تحتَ الزنزانةِ. هناك حجرٌ متقلقلٌ في الأرضيةِ».
«كيفَ علمتِ بهذا؟»
«قضى والدكَ عشرةَ شهورٍ في هذهِ الزنزانةِ»، قالت له بصوتٍ فضحَ مرارةَ سنواتٍ.
«والدي؟ هذهِ الزنزانة؟ عشرةَ أشهرٍ؟»
«في ذلكَ الوقتِ علَّمني كلَّ تلكَ الحكايا».
«ولماذا كان في الزنزانةِ؟»
«لم نعرف قط»، أجابته باستياءٍ. «خطفوه، أو اعتقلوه من النورماندي وأحضروه إلى هنا، ولكن حتَّى هو لم يعرف إن كان مخطوفاً أو معتقلاً. لم يتحدث بالإنكليزيةِ أو اللاتينيةِ، ولم يكن لديهِ أدنى فكرة عن مكانهِ. عملَ في الإسطبلاتِ لعامٍ أو أكثر، وهكذا التقيتُ بهِ». غدا صوتها رقيقاً مع الذكريات والحنينِ. «أحببتهُ من اللحظةِ الأولى. كان لطيفاً جداً، وبدا خائفاً وتعيساً

جداً، ولكنه غنَّى كعصفورٍ. لم يتحدث معه أحدٌ لأشهرٍ، وسرَّ أيما سرورٍ عندما قلتُ له بضعَ كلماتٍ بالفرنسيةِ، وأعتقدُ أنَّه أحبني لهذا السببِ فقطِ». ومجدداً عادَ صوتها قاسياً من شدَّةِ الغضبِ. «بعدَ فترةٍ وضعوه في هذهِ الزنزانةِ، وعندئذٍ اكتشفت كيفَ أدخلُ إلى هنا».

وهنا خطرَ لجاك أنَّ والديه أنجباه هنا على هذهِ الأرضيةِ الحجريةِ، وتسببت له هذهِ الفكرة بالإحراجِ، ولكنه كان سعيداً لأنَّ المكانَ مظلمٌ ولا يمكنه هو ووالدتهُ أن يريا بعضهما بعضاً. «ولكن لا بدَّ أن والدي فعلَ شيئاً ليتعرضَ إلى الاعتقالِ»، قال جاك.

«لم يجد جواباً على هذا السؤالِ، لكنهم في النهايةِ اخترعوا له جريمةً. كان أحدهم قد أعطاهُ كأساً مُطعمة بالجواهرِ، وطلبَ منه المغادرةَ. بعدَ ميلٍ أو أكثر اعتقلوه، ووجهوا له تهمةَ سرقةِ الكأسِ ثمَّ أُعدمَ»، أجابت إيلين باكيةً.

«ومن فعلَ هذا؟»

«مأمور شايرنغ ورئيسُ ديرِ كينغزبريدج... لا يهم من المسؤول».

«وماذا عن عائلةِ والدي؟ لا بدَّ أنَّ لدي جدَّين وأعماماً وعمَّات...»

«أجل، عائلةُ والدكَ في فرنسا كبيرةٌ».

«ولماذا لم يهرب ويعود إلى هناك؟»

«حاولَ الهرب في إحدى المرَّاتِ، ولكنهم أمسكوا بهِ، وأعادوه وعندئذٍ وضعوه في هذهِ الزنزانةِ. بالطبعِ كان بوسعهِ المحاولةُ مجدداً عندما اكتشفنا طريقةً للدخولِ إلى هنا، ولكنه لم يعرف طريقَ العودةِ إلى الوطنِ، ولا التحدثَ بالإنكليزيةِ، وكان فقيراً، ولذلك لم تكن لديهِ فرصٌ جيدةٌ. أعلمُ الآن أنَّه كان عليهِ الهرب آنذاك، ولكننا في ذلكَ الوقتِ لم نفكر قط أنَّهم قد يعدمونهُ».

احتضنَ جاك والدتهُ كي يروح عنها. كانت تقطرُ ماءً، وترتجفُ، ولذلك يجب إخراجها من هنا حتَّى تجف. ومصدوماً أدركَ أنَّها إن خرجت فهو يستطيع الخروجَ أيضاً. كان قد نسي أمرَ آليانا خلالَ حديثِ والدتِه عن والده، ولكنه أدركَ الآن أنَّ أمنيتهُ بالخروجِ قد تتحقق، وقد يتمكن من التحدثِ إلى آليانا قبلِ زفافها.

«أريني الطريقَ»، قال لها على حينِ غرَّةٍ.
تنشقت بأنفها وابتلعت دموعها ثمَّ قالت: «أمسك بذراعي وسأقودكَ».
عبرا الغرفةَ ثمَّ شعر جاك أنَّ والدتهُ تهبطُ. «فلتخفض رأسكَ في القناةِ»، قالت له. «خُذ نفساً عميقاً، ودع رأسكَ تحتَ الماءِ ثمَّ ازحف عكسَ التيارِ وليسَ معه حتَّى لا ينتهي بكَ المطافُ في مراحيضِ الرهبانِ. ستشعرُ بضيقٍ في النفسِ عندما تكادُ تصل، ولذلكَ حافظ على هدوئكَ، وازحف، وستخرج وقتها»، واستمرت بالنزولِ إلى أن اختفت.
عثرَ على الحفرةِ ونزلَ. على الفورِ لامست قدماه المياه، وعندما وقفَ كانت كتفاه لا تزالان خارجَ الحفرةِ داخلَ الزنزانةِ، ولذلكَ وقبلَ أن يُخفضَ نفسهُ أكثرَ عثر على حجرِ الحفرةِ، وأعادهُ إلى المكان عمداً بقصدِ إثارةِ حيرةِ الرهبانِ عندما يفتحون البابَ، ويرون الزنزانةَ فارغةً.
كانت المياه باردةً. أخذَ جاك نفساً عميقاً، ونزلَ على ركبتيه ويديهِ، ثمَّ زحفَ عكسَ التيارِ. تحرَّك بأقصى سرعةٍ ممكنة، وأثناءَ زحفهِ تخيلَ المباني التي زحف تحتها كالممرِّ، وقاعةِ الطعامِ، والمطبخ والمخبز. لم يكن الطريق طويلاً، ولكنه شعرَ بهِ لا ينتهي. حاولَ رفع رأسهِ، ولكن صدَمهُ بسطحِ القناةِ. انتابه الرعبِ، ولكنه تذكرَ ما قالتهُ له والدتهُ، وعرفَ أنَّه يوشكُ على الوصولِ. استمرَّ بالزحفِ إلى أن شعرَ أنَّ الضوءَ بات فوقهُ ثمَّ وقفَ، وعبَّ من الهواءِ المنعشِ بكلِّ امتنانٍ. حالما عادَ تنفسهُ إلى إيقاعهِ الطبيعي خرجَ من الخندقِ.
كانت والدتهُ قد غيرت ثيابها، وبدلاً من الثيابِ الرطبةِ ارتدت ثوباً نظيفاً وجافاً. كانت قد أحضرت له ثياباً جافةً أيضاً، ووضعتها في كومةٍ أنيقةٍ قربَ ضفةِ النهرِ، وهي نفسها الثياب التي اعتادَ ارتداءها منذُ نصفِ عامٍ: قميص كتاني، وسترة صوفية خضراء، وبنطال رمادي، وجزمة جلدية.
أدارت والدتهُ ظهرها، وخلعَ جاك الرداءَ الرهباني الثقيلَ ثمَّ نزعَ الصندلَ من قدميهِ، وارتدى ثيابهُ القديمةَ على عجلٍ.
رمى بالثيابِ الرهبانيةِ في الخندقِ؛ فهو لن يرتديها مجدداً.
«ما الذي ستفعلهُ الآن؟» سألتهُ والدتهُ.
«سأذهبُ إلى منزلِ آليانا».
«على الفورِ؟ ما زالَ الوقت باكراً جداً».

«لا يمكنني الانتظار».

أومأت برأسها وقالت: «كُن لطيفاً معها فهي مجروحةٌ».

انحنى جاك ليقبلَ والدتهُ، ولكن وبشكلٍ عفوي، لفها بذراعيهِ واحتضنها.

«لقد أخرجتني من السجنِ» قالَ لها ضاحكاً ثمَّ أضافَ: «يا لكِ من أُمٍ!»

ابتسمت، ولكنه رأى الدموعَ في عينيها.

ودَّعها مُعانقاً إياها بقوةٍ ثم ابتعدَ.

رغمَ أن الصبحَ قد بدأ ينبلجُ، ولكن جاك لم ير أحداً في الجوار. كان اليوم أحداً، ولأن الناس لا يستطيعون العمل فيه انتهزوا الفرصةَ للنومِ إلى ما بعد شروقِ الشمسِ. لم يكن جاك واثقاً من أنَّه يجب أن يخاف إن رآه أحدٌ أم لا. هل يملكُ رئيسُ الديرِ فيليب الحقَّ بمطادرةِ راهبٍ مبتدئ هاربٍ وإجبارهِ على العودةِ؟ وحتَّى إن كان يملكُ هذا الحقَّ فهل سيرغبُ باستخدامهِ؟ لم يعلم جاك. على أيِّ حالٍ كان فيليب القانونَ في كينغزبريدج وقد تحدَّاه جاك، ولهذا لا بدَّ أنَّ المتاعب ستحدث، ولكن جاك الآن لم يكن مهتماً بأكثر مما سيحدثُ خلالَ الدقائقِ القليلةِ القادمةِ.

وصلَ إلى منزلِ آليانا الصغيرِ ثمَّ خطرَ له أن ريتشارد قد يكون في المنزلِ. تمنَّى ألا يكون موجوداً، ولكن لم يكن هناك ما يسعهُ القيامُ بِهِ حيالَ الأمرِ. توجهَ إلى البابِ، وقرعَ عليهِ بلطفٍ.

وضعَ رأسهُ على البابِ، وأصغى، ولكنه لم يسمع شيئاً من الداخلِ. قرعَ مجدداً بقوةٍ أكبر، وهذهِ المرة سمعَ صوتَ حركةٍ فوقَ القشِّ كأنَّ أحدهم تحرَّك.

«آليانا!» همسَ لها.

سمعها تتوجه إلى البابِ وبصوتٍ خائفٍ تقول: «أجل؟»

«افتحي البابَ!»

«من؟»

«أنا جاك».

«جاك!»

حلَّت فترةُ صمتٍ قصيرةٌ بقي خلالها جاك مُنتظراً.

***

أغلقت آليانا عينيها في يأسٍ، واتكأت برأسها على البابِ، وخدّها على الخشبِ القاسي. فكرت في نفسها: «لا، ليسَ جاك، ليسَ اليوم، وليسَ الآن».

وأتاها صوتهُ مجدداً في همسٍ خفيضٍ ومُلحٍ: «آليانا، من فضلكِ افتحي البابَ بسرعةٍ! إن أمسكوا بي فسأعودُ إلى الزنزانةِ!»

كانت قد سمعت أنَّهم وضعوه في الزنزانةِ فقد انتشرَ الخبرُ في البلدةِ. يبدو أنَّه هربَ، وأتى إليها مباشرةً. شعرت بقلبها يخفقُ بسرعةٍ، وعجزت عن طردهِ الآن.

رفعت رتاجَ البابِ، وفتحتهُ.

كان شعرهُ الأصهب رطباً وملتصقاً على رأسهِ كأنَّه مستحمٌّ. ارتدى ثياباً عاديةً، وليسَ رداءَ الرهبانِ.

ابتسمَ لها كأنَّ رؤيتها أفضلُ شيءٍ حدثَ له، ثمَّ عبسَ وقال: «كنتِ تبكين».

«لماذا أتيتَ إلى هنا؟» سألتهُ.

«كان يجبُ أن أراكِ».

«سأتزوج اليومَ».

«أعلم، هل يمكنني الدخول؟»

علمت أنَّ السماحَ له بالدخول لم يكن عملاً صائباً، ولكنها فكرت أنَّها في الغدِ ستكون زوجةَ آلفريد، وهذهِ فرصتها الأخيرة للتحدثِ إلى جاك على انفرادٍ وقالت لنفسها: «لا يهمني إن لم يكن العملَ الصائب». فتحت البابَ فدخلَ جاك ثمَّ أغلقتهُ مجدداً، ووضعت الرتاجَ.

وقفا بعضهما قبالةَ بعض، وبدأت آليانا الآن تشعرُ بالحرجِ. حدَّقَ إليها بتوقٍ يائسٍ، وبنظرةِ رجلٍ يحتضرُ عطشاً أمام شلالٍ.

«لا تنظر إليَّ بهذهِ الطريقةِ»، قالت له وأشاحت بنظرها.

«لا تتزوجي من آلفريد»، قال جاك.

«يجب أن أتزوجَ بهِ».

«ستكونين بائسةً».

«أنا بائسةٌ الآن».

«انظري إلي من فضلكِ».

أدارت وجهها نحوه ثمَّ رفعت ناظريها.

«أخبريني من فضلكِ عن سببِ قيامكِ بهذا»، قال لها.

«ولماذا لا أفعلُ هذا؟»

«بسببِ الطريقةِ التي قبَّلتني بها في الطاحونةِ القديمةِ».

أشاحت بنظرها إلى الأسفلِ، وشعرت بنفسها تحمرُّ من الخجلِ. في ذلكَ اليوم سمحت لنفسها بفعلِ ما فعلت، ومنذئذٍ وهي تشعرُ بالخجلِ، وها هو الآن يستخدمُ هذا ضدها، ولكنها لم تقل شيئاً فلم يكن لديها ما تدافعُ بهِ عن نفسها.

قال: «بعدَ ذلكَ أصبحتِ باردةً معي».

لم ترفع ناظريها عن الأرضِ.

«كنا صديقين مُقربين»، تابع كلامهُ مؤنباً. «طوالَ ذلكَ الصيفِ في فُرجتكِ في الغابةِ قربَ الشلالِ وقصصي. كنا سعيدين جداً. لقد قبَّلتك مرَّةً هناك، ألا تتذكرين؟»

بالطبعِ تتذكر على الرغم من تظاهرها طوالَ الوقتِ أنَّ الأمرَ لم يحدث، وها هي الذكرى الآن تذيبُ قلبها، وتدفعها إلى النظرِ إليهِ بعينين دامعتين.

«ثمَّ عملت على جعلِ الطاحونةِ تدعكُ قُماشكِ»، قال لها. «كنتُ سعيداً جداً لأنني تمكنتُ من مساعدتك في عملكِ، وكنتِ سعيدةً عندما رأيتِ هذا، ثمَّ تبادلنا القبلَ مجدداً، ولكنها لم تكن قبلةً سريعةً كالأولى، بل شغوفةً هذهِ المرة». وفكرت آليانا: «أوه، يا إلهي، كانت كذلك»، واحمرّت خجلاً مجدداً، وبدأت أنفاسها تتسارعُ، وتمنَّت لو أنَّه يتوقف عن الكلامِ، ولكنه لم يفعل: «عانقنا بعضنا بقوةٍ كبيرةٍ، وتبادلنا قبلةً طويلةً. فتحتِ فمك...»

«توقف!» صرخت بهِ.

«لماذا؟» قال لها بخشونةٍ. «ما الخطب في هذا؟ لماذا أصبحتِ باردةً؟»

«لأنني كنتُ خائفةً!» أجابته دونَ تفكيرٍ ثمَّ انفجرت باكيةً. دفنت وجهها بين يديها، وبدأت تنشجُ، وبعدَ برهةٍ شعرت بيديهِ على كتفيها وهي تتنهد، ولكنها لم تقم بأيِّ ردِ فعلٍ. عانقها بلطفٍ فأنزلت يديها عن وجهها، وبكت على سترتهِ الخضراءِ.

ثمَّ أحاطت خصرهُ بذراعيها.

أراحَ جاك خدَّه على شعرها القبيح والمشعثِ الذي ما يزالُ قصيراً بعدَ الحريقِ، ثمَّ مسَّدَ ظهرها كأنَّها طفلةٌ. ثمَّ داعبَ ظهرها كأنَّها طفلةٌ. أرادها أن تبقى على هذهِ الوضعيةِ إلى الأبدِ، ولكنه أبعدها عن صدرهِ حتَّى يتمكن من النظرِ إليها وقال لها: «لماذا يرعبكِ الأمرُ؟»

كانت تعلمُ السببَ، ولكنها لم تخبرهُ، بل اكتفت بهزِّ رأسها، وتراجعت خطوةً إلى الوراءِ، غيرَ أنَّه أمسكها من معصميها، وأبقاها قريبةً منه.

«أصغي إلي يا آليانا»، قال لها ثمَّ أضافَ: «فلتعلمي أنني عانيت بسببِ ما حدثَ. شعرتُ أنَّكِ تحبينني، ولكنكِ عاملتِني كأنَّكِ تكرهينني، وها أنتِ الآن ستتزوجين من أخي غير الشقيقِ. لا أعلمُ، ولا أفهم مثل هذهِ الأمور فأنا لم أُغرم من قبل. الأمرُ مؤلمٌ جداً، ولا يسعني إيجادُ الكلماتِ لوصفِ سوئهِ. ألا تعتقدين أنه يجب عليك توضيح سبب معاناتي من كلِّ هذا؟»

عندما فكرت أنَّها وفي الوقتِ الذي أحبتهُ فيه جداً آذتهُ إلى هذهِ الدرجةِ شعرت بندمٍ كبيرٍ، وبالخجل من الطريقةِ التي عاملتهُ بها. لقد دمرت حياتهُ ومع ذلك عاملها بلُطفٍ. كان يستحقُّ سماعَ تفسيرٍ، ولذلك تمالكت نفسها، وقالت: «جاك. منذُ زمنٍ بعيدٍ تعرضت إلى أمرٍ شديدِ الفظاعةِ، وأجبرتُ نفسي لسنواتٍ على نسيانهِ وعدم التفكيرِ بهِ مجدداً، ولكن عندما قبَّلتني بتلكَ الطريقةِ عاودني الأمرُ، ووجدت نفسي عاجزةً عن تحملهُ».

«ما هو؟ ما الذي حدثَ لكِ؟»

«بعدَ أن سُجنَ والدي عشنا في القلعةِ -أنا وريتشارد وخادمٌ يُدعى ماثيو- وفي إحدى الليالي أتى وليم هاملي وطردنا».

نظرَ إليها شزراً وسألَ: «وماذا حدثَ؟»

«قُتلَ المسكين ماثيو».

علمَ أنَّها لم تكن تقول الحقيقةَ كاملةً ولذلكَ سألها: «ولماذا؟»

«ما الذي تعنيه؟»

«لماذا قُتلَ خادمكِ؟»

«لأنَّه حاولَ إيقافهما»، أجابت آليانا، وبدأت الدموع تسيلُ على وجهها الآن. شعرت بحلقها يخونها كلما حاولت الكلامَ كأنَّ الكلمات تخنقها. هزَّت رأسها بيأسٍ، وحاولت أن تشيحَ بنظرها، ولكن جاك لم يسمح لها.

وبصوتٍ لطيفٍ كقبلةٍ قال لها: «إيقافهما عن فعل ماذا؟»

وفجأةً شعرت آليانا أنَّها تستطيعُ إخبارهُ بما حدثِ، وعاودتها الذكريات كفيضانِ نهرٍ. «لقد أجبراني»، قالت له ثمَّ أضافت: «أمسكني السائسُ، وثبتني أرضاً ثمَّ اعتلاني وليم، ولأنني قاومتهُما قطعا قطعةً من أذنِ ريتشارد، وقالا لي إنهما سيقطعان المزيدَ». نشجت آليانا الآن من الراحةِ والامتنانِ الذي لا يعرفُ حدوداً لأنَّها تمكنت أخيراً من التحدثِ عن الأمرِ. نظرت في عيني جاك وقالت: «ولذلكَ فتحتُ ساقي، وضاجعني وليم بينما أمسكَ السائسُ بريتشارد، وأجبرهُ على المشاهدةِ».

«أنا آسفٌ جداً»، همسَ جاك. «سمعتُ إشاعاتٍ، ولكنني لم أتخيل قط... عزيزتي آليانا، كيفَ أمكنهما فعلُ هذا بكِ؟»

شعرت آليانا بضرورةِ إخبارهِ بكلِّ شيءٍ: «ثمَّ عندما انتهى وليم من مضاجعتي ضاجعني السائسُ أيضاً».

أغلقَ جاك عينيهِ، وارتسمَ على وجههِ توترٌ وشحوبٌ.

تابعت آليانا: «ثمَّ، وكما تعلم، عندما قبَّلتني أردتك أن تضاجعني، وهذا جعلني أفكرُ بوليم هاملي وسائسهِ. شعرت بالرعبِ والخوفِ وهربتُ، ولذلك عاملتكَ بحقارةٍ، وجعلتكَ بائساً. أنا آسفةٌ».

«أسامحكِ»، همسَ لها، وجذبها نحوه. لم تعترض على معانقته لها هذهِ المرة؛ فقد كانَ الأمرُ باعثاً على الراحةِ.

شعرت بهِ يرتجفُ وسألتهُ بقلقٍ: «هل أثيرُ اشمئزازكَ؟»

نظرَ إليها وقال: «أعبدكِ»، ثمَّ أحنى رأسهُ وقبَّلها.

تجمَّدت في مكانها؛ فلم يكن هذا ما توقعته. ابتعدَ قليلا عنها ثمَّ قبلها مجدداً، وشعرت بملمسِ شفتيها على شفتيهِ ناعماً جداً، ولأنَّها كانت ممتنةً له، وأرادت مبادلتهُ الودَّ زمَّت شفتيها قليلاً ثمَّ أرختهما مجدداً في استجابةٍ خجولةٍ على قبلتهِ. شجعتهُ بحركتها هذهِ فحرَّكَ شفتيهِ فوقَ شفتيها، وشعرت بحرارةِ أنفاسهِ على وجهها، وعندما فتحَ فمهُ قليلاً ابتعدت على الفورِ.

بدا مجروحاً وسألها: «هل كانت سيئةً؟»

في الحقيقةِ لم تعد خائفةً كما كانت قبلاً، وها هي قد أخبرتهُ بالحقيقةِ الرهيبةِ التي أخفتها، ولم يشمئز منها، بل بقي لطيفاً معها كما عاملها دوماً.

أمالت رأسها، وقبَّلها مجدداً. لم يكن هذا مخيفاً. لم يكن هناكَ أي تهديدٍ، أو عنفٍ، أو إكراهٍ، أو حقدٍ، أو تسلطٍ، بل العكسُ تماماً. كانت قبلةً بمتعةٍ متبادلةٍ.

افترت شفتاه، وعندما شعرت بطرفِ لسانهِ توترت. أخذَ يداعبُ شفتيها بطرفِ لسانهِ، واسترخت مجدداً، ثمَّ بدأ يمصُّ شفتها السفلى فشعرت برأسها يدور قليلاً.

قال لها: «هلَّا كررتِ ما قمتِ بهِ المرّةَ الماضية؟»

«وما هو؟»

«سأريكِ. افتحي فمكِ. قليلاً فقط».

وفعلت ما طلبهُ منها ثمَّ شعرت بلسانهِ مجدداً يلامسُ شفتيها، ويمرُّ من بينِ أسنانها إلى أن عثرَ على لسانها، وهنا ابتعدت.

«هذا»، قال لها. «هذا ما فعلتهِ».

«هل قمتُ بهذا؟» قالت مصدومةً.

«أجل»، قال مبتسماً ثمَّ وعلى حينِ غرَّةٍ بدا رزيناً. «لو أنَّكِ تقومين به مجدداً فإنَّ هذا سيعوضُ عن كلِّ أحزانِ الشهورِ التسعةِ الماضيةِ».

أمالت رأسها مجدداً، وأغلقت عينيها، ثمَّ شعرت بفمهِ على فمها. فتحت شفتيها بترددٍ وبتوترٍ ثمَّ دفعت لسانها داخل فمهِ، وأثناء هذا تذكرت شعورها عندما قامت بهذا في الطاحونة القديمةِ، وعاودتها تلكَ الإثارةُ، وملأت كيانها بالرغبةِ والحاجةِ إلى احتضانهِ، ولمسِ جلدهِ وشعرهِ، وتحسسِ عضلاتهِ وعظامهِ، وأن تكون داخلهُ، وأن يكون داخلها. التقى لسانها بلسانهِ، وبدلاً من الشعورِ بالحياءِ، وبشيءٍ من النفورِ، شعرت بالحماسةِ للقيامِ بأمرٍ حميمي كلمسِ لسانهِ بلسانها.

تسارعت وتيرةُ تنفسهما، وأمسكَ جاك رأسها بكلتا يديهِ، وهي بدورها داعبت ذراعيهِ وظهره ثمَّ وركيهِ، وتحسست عضلاتهِ المشدودةَ، ثمَّ شعرت بقلبها يخفقُ بسرعةٍ. وأخيراً أفلتتهُ وهي تلهثُ.

نظرت إليهِ، ورأته مُحمرَّ الوجهِ ويلهث، والرغبةُ تضيءُ وجهه. بعدَ قليلٍ انحنى إلى الأمامِ مجدداً، ولكن بدلاً من تقبيلها أمسكَ ذقنها ورفعهُ ثمَّ قبَّل بشرةَ عنقها فسمعت نفسها تتأوه من المتعةِ، ثمَّ نزلَ بشفتيهِ إلى

الأسفلِ، وداعبَ أعلى ثدييها. شعرت بحلمتي ثدييها تحت القماشِ الخشنِ لقميصِ النومِ الكتاني ناهدتين وناعمتين بشكلٍ لا يُحتمل. أطبقَ بشفتيهِ على إحدى الحلمتين، وشعرت بحرارةِ أنفاسهِ فوقَ جلدها فهمست له بخوفٍ: «بلطفٍ»، فقبَّلَ حلمتها فوق قُماش الرداءِ، ورغمَ أنَّه كان لطيفاً قدرَ الإمكان، فإنَّها شعرت بالنشوةِ حادةً كعضَّةٍ فشهقت.

ثمَّ انحنى على ركبتيهِ أمامها.

ضغطَ بوجههِ على عضوها، وكلّ النشوةِ التي أحسَّت بها حتَّى الآن في ثدييها انتقلت فجأةً إلى عضوها. أمسكَ بطرفِ رداءِ النومِ، ورفعه حتَّى خصرها. راقبت ردَّ فعلهِ في خوفٍ فلطالما شعرت بالحياءِ من كثافةِ الشعرِ على عانتها، ولكنه لم يشمئز بل انحنى، وقبَّلها بلطفٍ على عانتها كأنَّ هذا أروعُ عملٍ في العالمِ.

ركعت على ركبتيها أمامه، وأنفاسها الآن استحالت شهقاتٍ كأنَّها كانت تركضُ لمسافةٍ طويلةٍ. أرادته بشدةٍ، وشعرت بحلقها جافاً من الرغبةِ. وضعت يديها على ركبتيهِ ثمَّ زلقت إحدى يديها تحتَ سترتهِ. لم تلمسْ قضيبَ رجلٍ في حياتها، ولكنها شعرت بقضيبهِ حاراً، وجافاً، وقاسياً كلوحٍ. أغلقَ جاك عينيهِ وتأوهَ بقوةٍ وهي تستكشف طولَ قضيبهِ بأطرافِ أصابعها. رفعت سترتهُ وانحنت ثمَّ قبّلت قضيبهُ تماماً كما قبّلَ عانتها، بلمسةٍ رقيقةٍ من الشفتين. كانت نهايةُ القضيبِ منتفخةً ومشدودةً كطبلٍ ورطبةً بسائلٍ ما.

وفجأةً تملكتها رغبةٌ بأن تريهِ ثدييها فنهضت. فتحَ عينيهِ، وراقبتهُ ينظرُ إليها. خلعت قميصَ نومها بسرعةٍ ورمتهُ. وقفت الآن عاريةً تماماً، وشعرت بحرجٍ شديدٍ، ولكنه كان حرجاً جيداً، وعرياً ممتعاً. حدَّقَ جاك إلى ثدييها مسحوراً وقال: «إنَّهما جميلان جداً».

«أتعتقدُ هذا؟» قالت له. «لطالما اعتقدتُ أنَّهما كبيران جداً».

«كبيران جداً!» قال كأنه يستهجنُ أمراً مشيناً. مدَّ يدهُ اليمنى، وتحسسَ ثديها الأيسر مُداعباً بأطرافِ أصابعهِ بشرتهُ بكلِّ لطفٍ. راقبته وأرادتهُ أن يلمسها بقوةٍ أكبر فأمسكت كلتا يديهِ بيدها، وضغطت بهما على ثدييها.

«بشدةٍ أكبر»، قالت له بصوتٍ مبحوحٍ. «أريد أن تكون اللمسة أقوى».

أشعلتهُ كلماتها فبدأ يعصرُ ثدييها، ثمَّ أمسكَ بحلمتيها بينَ أصابعهِ،

وقرصهما قرصةً مؤلمةً قليلاً فأثارَ هذا جنونها، وشعرت بنفسها الآن عاجزةً عن التفكيرِ، وتملكها الشعورُ بجسدهِ وجسدها.

«اخلع ثيابكَ»، قالت له. «أريدُ أن أراكَ».

خلعَ سترتهُ، وقميصهُ الداخلي، وجزمتهُ وبنطالهُ، وركعَ أمامها مجدداً، وخصلاتُ شعرهِ الأصهبِ الذي بدأ يجفُ بدت مبعثرةً. كان جسدهُ نحيلاً وأبيض، وعظامُ كتفيه ووركيهِ ناتئةً، وبدا جسدهُ لدناً ورشيقاً، شاباً ونضراً، وانتصبَ قضيبهُ وسطَ شعرٍ أصهب كشجرةٍ، وفجأةً رغبت بتقبيلِ صدرهِ فانحنت، وداعبت بشفتيها حلمتي صدرهِ فتصلبتا كما تصلبتا حلمتا ثدييها، ثمَّ أخذت تمُصّهما بلطفٍ. رغبت أن يشعرَ بالمتعةِ ذاتها التي أعطاها إياها، وهنا بدأ يُمسدُ شعرها.

أرادته أن يضاجعها بسرعةٍ.

رأت أنَّه لم يكن واثقاً مما عليهِ القيامُ بهِ الآن فسألتهُ: «جاك، هل أنتَ بتول؟»

هزَّ برأسهِ، وبدا أحمق بعضَ الشيءِ.

«يُسعدني هذا»، قالت له بحماسةٍ. «يسعدني هذا جداً».

أمسكت بيدهِ، ووضعتها بين ساقيها. شعرت بعانتها منتفخةً وحساسةً، وأتتها لمستهُ صادمةً. «تحسسني»، قالت له فحرَّك أصابعهُ مستكشفاً. «تحسسني في الداخلِ»، قالت له، وبترددٍ دفعَ إصبعه داخلها. كانت رطبةً من الرغبةِ، وقالت له بتنهيدةِ رضا: «هنا ستضعُ قضيبكَ»، ثمَّ أبعدت يدهُ، واستلقت على ظهرها فوقَ القشِّ.

استلقى جاك فوقها مستنداً إلى أحدِ مرفقيهِ ثمَّ قبَّلها على شفتيها. شعرت بهِ يدخلها ببطءٍ ثمَّ توقفَ فسألتهُ: «ما الأمرُ؟»

«أشعرُ بهِ صغيراً جداً»، قال لها. «أخشى أن أؤذيكِ».

«ادفع بقوةٍ أكبر»، قالت له. «أريدكَ بقوةٍ لا يهمني معها الألمُ».

وشعرت بهِ يدفع، وآلمها هذا أكثر مما توقعت، ولكن الألم لم يدم سوى لحظةٍ، ثمَّ شعرت بامتلاءٍ رائعٍ. نظرت إليهِ فسحبَ عضوهُ قليلاً، وأقحمهُ مجدداً، ودفعت هي بدورها. ابتسمت له، وقالت في عجبٍ: «لم أعلم قط

أنَّ الأمرَ جميلٌ إلى هذهِ الدرجةِ». أغلقَ عينيهِ كأنَّ السعادة التي شعرَ بها أكبر مما يمكنهُ احتماله.

بدأ يتحركُ بإيقاعٍ، وبعثت حركةُ قضيبهِ المستمرةُ دفقاً من المتعةِ في داخلها. سمعها تُطلقُ شهقاتٍ منتشيةً في كلِّ مرَّةٍ يتلامسُ فيها جسداهما. فأخفضَ صدرهُ حتَّى لامسَ حلمتيها، وباتت تشعرُ بأنفاسهِ الحارةِ، فغرزت أصابعها في ظهرهِ المشدودِ. تحولت شهقاتها المستمرةُ إلى صرخاتٍ، وفجأةً أرادتْه أن يُقبلها فدفنت يديها في شعرهِ، وجذبت رأسهُ نحو رأسها. قبَّلته على شفتيهِ بقوةٍ ثمَّ أقحمت لسانها في فمهِ وحرَّكتهُ بسرعةٍ أكبرِ. أطارَ وجودُ قضيبهِ في فرجها، ولسانها في فمهِ عقلها من النشوةِ، وشعرت بهزّةِ متعةٍ عظيمةٍ تسري في أوصالها. كانت هزةً قويةً جداً، أشبهَ بالسقوطِ عن ظهرِ الجوادِ، ودفعتها إلى الصراخِ عالياً، ثمَّ فتحت عينيها، ونظرت في عينيهِ، ونطقت باسمهِ فاكتسحتها هزةٌ ثانية وثالثة. شعرت بجسدهِ يتشنجُ، وصرخَ هو بدورهِ أيضاً ثمَّ شعرت بسائلٍ حارٍ يُقذفُ داخلها. أثارها هذا أكثر وأكثر، وأخذت تهتزُ من النشوةِ مرةً بعدَ أخرى إلى أن توقفت عن العدِّ، وبدأ الشعورُ يخفتُ، وتسترخي تدريجياً.

كانت متعبةً جداً وعاجزةً عن التحدثِ أو التحركِ، ولكنها شعرت بجاك يُلقي بجسدهِ فوقَ جسدها، وبعظام وركهِ فوقَ عظامِ وركها، وصدره المسطح فوقَ ثدييها الطريين، وفمهُ قريبٌ من أذنها، وأصابعهُ في شعرها. في جزءٍ من عقلها سمعت نفسها تقول: «إذاً، هذا ما يجبُ أن يكون عليهِ الأمرُ بين الرجالِ والنساءِ، وما يجعله مثارَ جلبةٍ. بسببِ هذا يُحبُّ الأزواجُ والزوجات بعضهم بعضاً».

بدأ تنفسُ جاك يعودُ إلى إيقاعهِ الطبيعي وجسدهُ يسترخي إلى أن استرخى تماماً ونامَ.

أدارت رأسها وقبَّلت وجهه. لم يكن ثقيلاً جداً. أرادتهُ أن يبقى فوقها إلى الأبدِ.

وهنا تذكرت.

اليومَ زفافها.

وفكرت في نفسها: «رباه، ما الذي فعلتهُ؟»

وبدأت تبكي.

بعدَ برهةٍ استيقظَ جاك.

قبَّلَ الدموعَ على وجنتيها برقةٍ شديدةٍ.

قالت له: «أوه، جاك. كم أرغب بالزواجِ منكَ».

«إذاً، فلنتزوج»، قال بصوتٍ ينمُّ عن رضا عميقٍ.

أساءَ فهمَ قصدِها، وزاد هذا من تعقيد الموقفِ.

«ولكننا لا نستطيع الزواج»، قالت له وانهمرَتِ الدموع من عينيها.

«ولكن بعد هذا...»

«أعلم...»

«بعدَ هذا، يجبُ أن تتزوجي بي!»

«لا يمكننا الزواجُ»، قالت له. «لقد فقدتُ كلَّ مالي وممتلكاتي».

أسندَ نفسهُ على مرفقيهِ وقال بشراسةٍ: «أملكُ يدين، وأنا أفضلُ نحاتِ حجارةٍ في المنطقةِ».

«لقد طُردتَ...»

«لا فرق. يمكنني العملُ في أيّ موقعِ بناءٍ في العالم».

هزَّت رأسها في بؤسٍ وقالت: «هذا لا يكفي. يجبُ أن أفكرَ بريتشارد».

«لماذا؟» قال بسخطٍ. «ما علاقةُ كلِّ هذا بريتشارد؟ يمكنهُ الاعتناء بنفسهِ».

وفجأةً بدا لها جاك صبياً، وشعرت بفارقِ العمرِ بينهما. كان أصغرَ منها بخمسةِ أعوامٍ، وما زال يعتقدُ أنَّه يملكُ الحقَّ بأن يكون سعيداً. قالت له: «عندما كان والدي يحتضرُ أعطيتهُ وعداً بالاهتمام بريتشارد إلى أن يصبحَ إيرلَ شايرنغ».

«ولكن هذا قد لا يحدث أبداً!»

«ولكن الوعد وعد».

بدا جاك محتاراً، وتدحرجَ من فوقها فانزلقَ قضيبهُ الرخو من فرجها، وساورها إحساسٌ بالفقدِ كالألمِ، وقالت لنفسها بحزنٍ إنَّها لن تشعرَ بهِ داخلها مرةً أخرى.

قال لها: «أنتِ لا تعنين ما تقولينهُ. الوعود كلماتٌ فحسب، ولا يمكن مقارنتها بما قمنا بهِ. هذا حقيقي. هذا أنا وأنتِ». ونظرَ إلى ثدييها ثمَّ مدَّ يدهُ، وداعبَ شعرَ عانتها. جفلت فقد شعرت بلمستهِ كضربةِ سوطٍ، وعندما رأى هذا توقفَ.

لوهلةٍ شعرت بدافعٍ للقولِ: «أجل، فلنهرب معاً الآن»، ولو أنَّه استمرَّ بمداعبتها بتلكَ الطريقةِ لقالت هذا، ولكن المنطقَ عادَ إليها وقالت: «سأتزوج بآلفريد».

«لا تتفوهي بأمرٍ سخيفٍ».

«إنَّه الحلُّ الوحيد».

حدَّقَ إليها ثمَّ قال: «لا أصدقكِ».

«هذهِ هي الحقيقة».

«لا يمكنني الاستسلام. لا يمكنني. لا يمكنني»، وتكسرَ صوتهُ وهو يكبحُ إجهاشةً.

حاولت أن تجادلهُ بالمنطقِ كما جادلت نفسها: «كيفَ لي أن أحنثَ بوعدي لوالدي لأقدمَ لكَ وعداً بالزواجِ؟ إن حنثتُ بوعدٍ سيكون الوعدُ الثاني بلا قيمةٍ».

«لا يهمني؛ فأنا لا أريدُ وعودكِ. أريد أن نكون معاً طوال الوقتِ، ونمارسَ الحبَّ متى شئنا».

كانت نظرتهُ إلى الزواجِ نظرةَ شابٍ في الثامنة عشرة، ولكنها لم تقل له هذا، ولو أنَّها كانت حرَّةً لقبلت هذا بكلِّ سعادةٍ.

«لا يمكنني القيامُ بما أريدهُ»، قالت بحزنٍ. «هذا ليسَ قدري».

«وما تقومين بهِ خاطئ»، قال لها. «أعني أنَّه عملٌ شريرٌ. إنَّ التخلي عن سعادةٍ كهذهِ أشبه برمي جوهرةٍ في المحيطِ، وهذا أسوأ من الخطيئةِ».

صدمتها، وعلى نحو غير متوقعٍ، فكرةُ أنَّ والدتها كانت ستوافق جاك على هذا، ولكنها لم تكن واثقةً كيفَ لها أن تعلمَ بهذا. طردت هذه الفكرة من رأسها وقالت: «لا يمكنني أن أكون سعيدةً أبداً، حتَّى معكَ، وأنا أعلمُ طوالَ الوقتِ أنني حنثتُ بوعدي لوالدي».

«أنتِ تهتمين لأمرِ والدكِ وأخيكِ أكثر مما تهتمين لأمري»، قال لها بلهجةٍ عدوانيةٍ تسمعها منه لأولِ مرَّةٍ.

«لا ...»

«ماذا إذاً؟»

رغمَ أنَّه كان يجادلها فإنَّها فكرت في السؤالِ بجديةٍ. «أعتقدُ أنَّني أعتبرُ وعدي لأبي أهمّ من حبي لكَ».

«هل هذا صحيح؟» قال في تشكيكٍ. «هل هو كذلكَ حقاً؟»

«أجل، إنَّه كذلكَ»، قالت بحزنٍ وخرجت كلماتها كرنين جرسِ جنازةٍ.

«إذاً ليسَ هناك ما يمكنُ قوله».

«...أريد القولَ فقط إنني آسفةٌ».

نهضَ على قدميهِ، وأدارَ ظهرهُ لها ثمَّ أمسكَ بقميصهِ. حدَّقت إلى جسدهِ الطويل والنحيل. كان هناك الكثيرُ من الشعرِ الأصهبِ الضارب إلى اللونِ الذهبي على ساقيهِ. ارتدى قميصهُ وسترتهُ بسرعةٍ ثمَّ ارتدى جوربيه، وانتعلَ حذاءهُ. حدثَ كل هذا بسرعةٍ.

«ستكونين تعيسةً جداً»، قال لها.

حاولَ أن يتصرفَ بحقارةٍ معها، ولكنه فشلَ لأنَّها شعرت بالشفقةِ في صوتهِ.

«أجل سأكون تعيسةً. من فضلكَ هلَّا قلتَ لي إنَّك تحترمُ قراري؟»

«لا»، أجابها من دونِ ترددٍ. «لا أحترمهُ بل أحتقركِ على أخذهِ».

بقيت في مكانها عاريةً تنظرُ إليه وتنتحبُ.

«يجدرُ بي الذهاب»، قال واختنقَ بآخرِ كلمةٍ.

«أجل، فلتذهب».

توجهَ إلى الباب.

«جاك!»

واستدارَ.

قالت له: «فلتتمنَّ لي حظاً طيباً يا جاك».

رفعَ رتاجَ البابِ وقال: حظاً...» ثمَّ توقفَ عاجزاً عن إكمالِ الجملةِ.

أطرقَ ناظريهِ أرضاً ثمَّ نظرَ إليها مجدداً، وخرجَ صوتهُ هذهِ المرَّةَ كالهمسِ. «حظاً طيباً».

ثمّ خرجَ.

***

بعد وفاة توم أصبحَ منزلُه منزلَ إيلين، ولكنه ما يزال أيضاً منزلَ آلفريد، ولذلك، وفي هذا الصباحِ امتلأ البيت بالناسِ ممن أتوا للمساعدةِ في تحضيرِ وليمةِ العرسِ التي تنظمها مارثا -شقيقةُ آلفريد البالغةُ من العمرِ ثلاثةَ عشرَ عاماً- وتشرفُ عليها بحزنٍ والدةُ جاك. كان آلفريد هناك يحملُ منشفةً في يدهِ؛ فقد كان على وشكِ الذهابِ إلى النهرِ للاستحمامِ. تستحمُّ النساءُ مرَّةً كلَّ شهرٍ، أمَّا الرجال فمرَّتين في العام: في عيدِ الفصحِ وفي عيدِ القديسِ ميخائيل، ولكن وفقاً للأعرافِ يستحمُ الرجالُ صباحِ يومِ زفافهم. عندما دخلَ جاك سادَ الصمتُ المكانَ.

قال آلفريد: «ما الذي تريدهُ؟»

«أريدكَ أن تُلغي الزفافَ»، أجابَ جاك.

«اخرج من هنا»، قال آلفريد.

أدركَ جاك أنَّه بدأ بدايةً سيئةً، وأنَّه لم يكن عليهِ افتعال مواجهةٍ فما كان يقترحهُ يصبُّ في مصلحة آلفريد أيضاً، ولكنه لا يرى هذا.

«آلفريد، إنَّها لا تحبكَ»، قال جاك بكلِّ لطفٍ ممكنٍ.

«أنتَ لا تعرفُ شيئاً عن هذا أيّها الفتى»، أجابهُ آلفريد.

«بل أعرف»، أصرَّ جاك. «إنَّها لا تحبكَ، وستتزوج منكَ من أجلِ ريتشارد، وهو الوحيدُ الذي سيُسرُ بهذا الزواجِ».

«عُد إلى الديرِ»، قال آلفريد ببغضٍ. «ولكن أين رداؤكَ الكهنوتي؟»

أخذَ جاك نفساً عميقاً. لم يكن أمامهُ سوى قول الحقيقةِ الكاملةِ: «آلفريد، إنَّها تحبني».

توقعَ جاك من آلفريد أن يغضبَ عندَ سماعهِ هذا، ولكن بدلاً من هذا ظهرت ابتسامة ماكرةٌ على وجههِ، وشعرَ جاك بالحيرةِ من معناها. وتدريجياً بدأ يفهمُ فقالَ غيرَ مصدقٍ: «أنتَ تعلمُ. أنتَ تعلمُ أنَّها تحبني، ولا يُهمُّك هذا! أنت تريدها سواء أحبتك أم لم تحبكَ. تريدُ أن تحظى بها».

غدت ابتسامة آلفريد الماكرةُ أكثرَ وضوحاً ومكراً، وعلمَ جاك أنَّ ما قالهُ الحقيقة، ولكن هناك المزيد، وعرفَ هذا بالنظرِ إلى وجهِ آلفريد، وهنا خامرَ جاك شكٌّ غير معقول. «لماذا تريدها؟» سأله. «هل تريدُ الزواجَ منها كي تحرمني منها؟» وعلا صوتهُ من الغضبِ. «تريدُ الزاوجَ بها بدافعِ الكرهِ؟» ارتسمت على وجهِ آلفريد الغبي نظرةُ ظفرٍ ماكرةٍ، وعلم جاك على الفورِ أنَّه كان محقاً مجدداً، وحطَّمه هذا. كانت فكرة قيامِ آلفريد بكلٍّ هذا بدافعِ الخبثِ الصرفِ، وليست شهوتهُ نحو آليانا أكبر من قدرتهِ على الاحتمال.

«اللعنةُ عليكَ، من الأفضلِ أن تُعاملها بالحسنى!» صرخَ جاك.

وضحكَ آلفريد.

عندما أدركَ جاك أخيراً شدةَ خُبثِ آلفريد شعرَ بهِ يصيبهُ كلكمةٍ. لن يُعامل آلفريد آليانا بالحسنى، وسيكون هذا انتقامهُ الأخير من جاك. سيتزوج آلفريد من آليانا، وسيجعلها تعيسةً. «أيّها القذر»، قال جاك بمرارةٍ. «أيّها الحشرة. أيّها القذر. أيّها القبيح الغبي والشرير. أيّها الحشرةُ الملعونةُ».

وأخيراً تمكن احتقارُ جاك من آلفريد الذي رمى بالمنشفةِ أرضاً، واندفعَ نحو جاك بنيَّةٍ لكمه. كان جاك مستعداً له، وتقدَّم إلى الأمامِ لضربهِ، وما كان من والدةِ جاك إلا أن وقفت بينهما، ورغمَ أنَّها كانت أقصرَ قامةً منهما فإنَّها أوقفتهما.

«آلفريد. اذهب واستحم».

هدأ آلفريد على الفورِ، وأدركَ أنه انتصرَ اليوم دون أن يضطرَّ إلى قِتال جاك. ففضحت ابتسامة الاعتدادِ بالنفسِ التي ارتسمت على وجههِ ما فكرَ بهِ، وغادرَ المنزلَ.

قالت إيلين: «ما الذي ستفعلهُ يا جاك؟»

اكتشفَ جاك أنَّه كان يرتجفُ من الغضبِ، واضطرَّ إلى أخذِ شهيقٍ وزفيرٍ قبلَ أن يتمكنَ من الكلامِ. أدركَ أنَّه لن يتمكن من إيقافِ الزفافِ، ولكنه أيضاً لا يستطيع البقاءَ والمشاهدة، ولذلكَ قال: «يجبُ أن أغادرَ كينغزبريدج».

رأى الحزنَ على وجهِ والدتهِ ولكنها أومأت برأسها قائلةً: «خشيتُ أن تقولَ هذا، ولكنه القرارُ الصائب».

تناهى إليهم صوتُ جرسِ الديرِ وقال جاك: «في أيِّ لحظةٍ الآنَ قد يكتشفون أنني هربتُ».

قالت له بصوتٍ خفيضٍ: «أسرع واختبئ عندَ النهرِ قربَ الجسرِ، وسأحضرُ لكَ بعضَ اللوازمِ».

«حسناً»، قال جاك وخرجَ.

وقفت مارثا بينهُ وبينَ البابِ والدموع تنهمرُ على خديها. عانقها جاك فعانقتهُ، وعصرتهُ بقوةٍ. كان جسدها كجسدِ الصبيان مسطحاً، وناتئ العظامِ.

«فلتعد يوماً ما»، قالت له بانفعالٍ شديدٍ.

قبّلها بسرعةٍ، وخرجَ.

اكتظت الشوارع الآن بالناس، وهم إمَّا يجلبون الماءَ، أو يستمتعون بهذا الصباحِ الخريفي المعتدلِ. يعلمُ معظمُ الناسِ أنَّ جاك كان راهباً مبتدئاً فالبلدةُ ما تزال صغيرةً، والجميعُ يعرفون بعضهم بعضاً ويعرفون أخبارهم؛ ولذلك تفاجأوا لرؤيتهِ في ثيابٍ عاديةٍ، ولكن ما من أحدٍ فيهم أوقفهُ، واستجوبهُ. هرعَ أسفلِ التلِ، وعبرَ الجسرَ، وسارَ على طولِ حافةِ النهرِ إلى أن وصلَ إلى دغلةِ قصبٍ فقرفصَ هناكَ، وراقبَ الجسرَ بانتظارِ قدومِ والدتهِ.

لم يكن لديهِ أدنى فكرة عن المكانِ الذي سيذهبُ إليه. قد يسيرُ بشكلٍ مستقيمٍ إلى أن يصلَ إلى بلدةٍ يبنونَ فيها كاتدرائيةً، ويستقر هناك. كان صادقاً عندما قال لآليانا إنَّه سيبحثُ عن عملٍ، ولديهِ ما يكفي من المعرفةِ الكفيلةِ بتأمين عملٍ له في أيِّ مكانٍ. وحتَّى إن لم يكونوا بحاجةٍ إلى عمالٍ سيعرض على كبيرِ البنَّائين كيفَ ينحتُ الحجارةَ، وسيعطيهِ الرجلُ عملاً على الفورِ، ولكن ما الفائدة من كلِّ هذا فهو لن يحبَّ امرأةً أخرى بعدَ آليانا، ولا كاتدرائيةً أخرى بعد كاتدرائيةِ كينغزبريدج. أرادَ أن يبني هنا، وليسَ في أيِّ مكانٍ آخر.

ربما سيعودُ إلى الغابةِ، ويستلقي هناك إلى أن يموت. بدت له فكرةً جيدةً فقد كان الطقسُ معتدلاً، والأشجار بلونٍ أخضر وذهبي. سيموتُ بهدوءٍ وسلامٍ، سيكون ندمهُ الوحيدُ هو عدم معرفتهِ المزيد عن والدهِ.

وهو يتخيلُ نفسهُ مستلقياً فوقَ سريرٍ من أوراقِ الخريفِ يختبرُ الموتَ بهدوءٍ رأى والدتهُ تعبرُ الجسرَ وتقودُ جواداً.

نهضَ وركضَ نحوها. كان الجوادُ مُهرتها الكستنائية اللونِ.

«أريدكَ أن تأخذَ مُهرتي»، قالت له.

أمسكَ جاك يدها، وعصرها في امتنانٍ.

اغرورقت عيناها بالدموعِ وقالت: «لم أُجِد يوماً الاعتناءَ بكِ. في البدايةِ ربيتكَ في الغابةِ ثمَّ جعلتكَ تتضورُ جوعاً مع توم، وأجبرتكَ على العيشِ مع آلفريد».

«لقد أحسنتِ الاعتناءِ بي يا أماه»، قال لها ثمَّ أضافَ: «مارستُ الحبَّ مع آليانا هذا الصباح، ويمكنني الآن الموتُ بسعادةٍ».

«أيّها الفتى الأحمق»، قالت له ثمَّ أضافت: «أنتَ تشبهني. إن لم تكن مع من تحب فلن تقبل ببديلٍ عنهُ».

«هل أنتِ كذلك؟» سألها.

أومأت برأسها وقالت: «بعدَ وفاةِ والدكَ اخترتُ العيشَ وحيدةً على العيشِ مع من هو أقلُّ منه. لم أرغب برجلٍ آخر إلى أن التقيت بتوم، وحدثَ هذا بعدَ أحدَ عشرَ عاماً على وفاةِ والدكِ»، ثمَّ أفلتت يدها من يدِهِ وأضافت: «أخبركَ بهذا لأنني أريدك أن تعلمَ أنَّ الأمرَ قد يأخذُ أحدَ عشرَ عاماً، ولكنكَ ستحبُ امرأةً أخرى في يوم ما. أعدكَ بهذا».

هزَّ رأسهُ وقال: «يبدو لي أنَّ هذا غير ممكن».

«أعلمُ»، قالت، ونظرت من فوقِ كتفيها نحو البلدةِ بتوترٍ ثمَّ أضافت: «من الأفضلِ أن تغادر».

توجهَ إلى المهرةِ ولاحظَ أنَّ الخرجين مُنتفخان. «ما الذي في الخرجين؟» سألها.

«في هذا الكيسِ بعضُ الطعامِ والمالِ وزِق من النبيذِ»، أجابت ثمَّ قالت: «والآخر يحوي على معداتِ توم».

تأثرَ جاك. كانت والدتهُ قد أصرَّت على الاحتفاظِ بمعداتِ توم بعدَ وفاتهِ للذكرى، وها هي الآن تعطيهِ إياها.

عانقها وقال لها: «شكراً لكِ».

«إلى أين ستذهب؟» سألتهُ.

وفكرَ مجدداً بوالدهِ ثمَّ سألها: «أين يروي الشعراءُ المتجولون حكاياهم؟»

«على طريقِ الحجِّ إلى سانتياغو دي كومبوستيلا[1]».

«أتعتقدين أنَّ الشعراء المتجولين سيتذكرون جاك تشيربورغ؟»

«قد يتذكرونه. أخبرهم أنه يشبهكَ».

«أين تقعُ بلدةُ كومبوستيلا؟»

«في إسبانيا».

«إذاً، سأذهبُ إلى إسبانيا».

«إنَّها بعيدةٌ يا جاك».

«أمتلكُ الوقت الكافي».

وضعت ذراعيها حوله وعانقتهُ بقوةٍ. تساءل في نفسهِ عن عددِ المراتِ التي فعلت له هذا طوال ثمانية عشرَ عاماً عندما كانت تهدهدهُ بسببِ جرحٍ في ركبتهِ، أو لإضاعتهِ لعبتهُ، أو لخيبةِ أملٍ صبيانيةٍ من شيءٍ ما، أو لحزنٍ كبيرٍ كما يحدث الآن. فكرَ بكلِّ الأمورِ التي قامت بها من أجلِه، من تربيتهِ في الغابةِ إلى إخراجهِ من زنزانةِ الديرِ. لطالما كانت مستعدةً للقتالِ كهرَّةٍ من أجلِ ابنها، ولذلكَ آلمهُ فراقها.

أفلتته وامتطى المُهرةَ.

نظرَ وراءهُ إلى كينغزبريدج. عندما وصلَ إليها لأولِ مرّةٍ كانت قريةً مغمورةً بكاتدرائيةٍ قديمةٍ ومتداعيةٍ أشعلَ النارَ فيها، ولم يعرف أحدٌ بالأمرِ سواه. وها هي كينغزبريدج الآن بلدةٌ صغيرةٌ مكتظةٌ بالسكانِ ومعتدةٌ بذاتها، ولكن هناك بلدات أخرى، ورغمَ أن مغادرة هذا المكانِ مؤلمةٌ، فإنَّه كان أمامَ المجهولِ، وعلى وشكِ الانطلاقِ في مغامرةٍ، وخفّفَ عليهِ هذا ألمَ مغادرة كلِّ ما أحبَّه.

قالت له والدتهُ: «جاك، أرجوك عُد في يومٍ من الأيامِ».

«سأعود».

«أتعدني؟»

«أعدكِ».

1- بلدةٌ في إسبانيا يقعُ فيها ضريحُ يعقوب الزبدي أحدُ حواريي المسيح. (المترجمة)

«إن نفد المالَ منكَ قبلَ أن تجدَ عملاً فلتبع المُهرة وليسَ المعدات»، قالت له.

«أحبكِ يا أمي»، قال لها.

انهمرت دموعها وقالت له: «اعتن بنفسكَ يا بني».

همزَ المُهرةَ وابتعدَ. استدارَ ولوحَ لها فلوحت له أيضاً ثمَّ همزَ الجواد الذي انطلقَ خبباً، ولكنه هذهِ المرة لم ينظر إلى الوراءِ.

***

عادَ ريتشارد إلى كينغزبريدج في يومِ الزفافِ.

قال إنَّ الملك قد منحهُ، وبكلِّ سخاءٍ، إجازةً ليومين، وإنَّ الجيش الملكي في أوكسفورد يُحاصرُ القلعةَ التي تمركزت فيها مود، ولم يكن هناك ما يمكن للفرسانِ القيامُ بهِ في هذهِ المرحلةِ.

«لا يمكنني تفويت حفل زفاف أختي»، قال ريتشارد، وفكرت آليانا بمرارةٍ: «أنتَ تريدُ أن تتأكدَ بأمِّ عينكِ أنني سأتزوجُ حتَّى تحصل على ما وعدكَ بهِ آلفريد».

على الرغمِ من هذا كانت سعيدةً بقدومهِ. أرادتهُ أن يرافقها في الكنيسةِ، ويُسلمها إلى آلفريد لأنَّها لا تملكُ أحداً آخر غيرهُ ليفعل هذا.

ارتدت قميصاً كتانياً جديداً، وفستاناً أبيض من أحدثِ الصيحاتِ. لم يكن هناك ما يمكنها القيامُ بها حيالَ شعرها المحروقِ، إلَّا أنّها عقصت الخصلَ الطويلةَ منه في جدائل، وربطتها بشرائط حريرية بيضاء أنيقة، وأعارتها إحدى الجارات مرآةً. بدت شاحبةً، وفضحت عيناها سهدَ ليلتها السابقةِ. حسناً، لم يكن هناك ما يمكن القيامُ بهِ حيالَ الأمرِ. راقبها ريتشارد وعلى وجههِ نظرةٌ بلهاء بعضَ الشيءِ كأنَّه شعرَ بتأنيبِ الضميرِ، وأخذَ يتحرَّك في مكانهِ متململاً. ربما كان يخشى أن تلغي الزفاف في اللحظةِ الأخيرةِ.

تمرُّ لحظاتٌ تشعرُ فيها آليانا بإغراءِ القيامِ بهذا، وتخيلت نفسها تسيرُ مع جاك يداً بيدٍ خارجَ كينغزبريدج لبدءِ حياةٍ جديدةٍ في مكانٍ آخرِ، حياة بسيطة من العملِ النزيهِ، والحريةِ من أغلالِ الوعودِ القديمةِ، والآباءِ الموتى، ولكن يا له من حلمٍ غبي! لا يمكن لها أن تكونَ سعيدةً أبداً إن تخلَّت عن شقيقها.

عندما وصلت إلى هذهِ الخلاصةِ تخيلت نفسها تتوجهُ إلى النهرِ، وتُلقي بنفسها فيهِ، ورأت نفسها جثةً هامدةً في ثوبِ زفافٍ مُشبعٍ بالماءِ في مجرى النهرِ، ووجهها للأعلى، وشعرها يطفو حولَ رأسها، ثمَّ أدركت أنَّ الزواجَ من آلفريد أفضلُ من هذا المصيرِ، وعادت إلى نقطةِ البدايةِ، وهي أنَّ هذا الزواجَ أفضل حلٍ لجميعِ متاعبها.

كم سيحتقرُ جاك هذهِ الطريقة في التفكيرِ.

وقُرعت أجراسُ الكنيسةِ.

وقفت آليانا.

لم تتخيلْ قط أن يحدثَ زفافها بهذهِ الطريقةِ. عندما كانت فتاةً تخيلت نفسها تمسكُ بذراعِ والدها، وتسير من ساحةِ القلعةِ حتَّى الجسر المتحرك باتجاهِ الكنيسةِ في الجزءِ السفلي للقلعةِ، وفرسان، وجنود، وخدم، ومستأجرو والدها محتشدون في أرجاءِ القلعةِ يهللون، ويتمنون لها الحظَّ السعيدَ، وفي أحلامِ يقظتها لم يكن وجهُ العريسِ الذي ينتظرها في الكنيسةِ واضحاً، ولكنها علِمت أنَّه يعبدها، ويجعلها تضحك وهي نفسها تعتقدُ أنَّه رائعٌ. ما من شيءٍ في حياتها سارَ كما توقعته. أمسكَ ريتشارد ببابِ البيتِ الصغيرِ، وخرجت إلى الشارعِ.

تفاجأت عندما رأت بعضَ الجيران بانتظارها أمامَ أبوابِ منازلهم لرؤيتها تذهبُ إلى الكنيسةِ، وعندما خرجت من بيتها قال لها العديدُ منهم: «باركك الرَّبُّ» و«حظاً موفقاً!» شعرت بامتنانٍ كبيرٍ لهم، ورشّوا عليها حبوبَ الذرةِ خلالَ سيرها في الشارعِ من أجلِ جلبِ الخصوبةِ. ستحظى بأطفالٍ وسيحبونها.

كانت كنيسةُ الأبرشيةِ على الجانبِ الآخر من البلدةِ في قسمِ الأثرياءِ حيثُ ستنامُ آليانا هذه الليلة. سارا بجانبِ الديرِ. سيؤدي الرهبان صلواتهم الآن في السردابِ، ولكن رئيسَ الديرِ فيليب وعد بأن يأتي إلى وليمةِ الزفافِ، ويُبارك الزوجين السعيدين. أملت آليانا أن يحضرَ فلطالما كان مصدرَ قوةٍ مهمٍ في حياتها منذُ ذلكَ اليومِ -قبلَ ستةِ أعوامٍ- عندما اشترى الصوفَ منها في وينشستر.

وصلا إلى الكنيسةِ الجديدةِ التي بناها آلفريد بمساعدةِ توم، ووجدا

الناس محتشدين خارجها. سيُعقد القرانُ في الرواقِ باللغةِ الإنكليزيةِ ثمَّ ستتلى الصلاةُ باللاتينيةِ داخلَ الكنيسةِ. حضرَ جميعُ من عملَ مع آلفريد، وكذلك معظمُ من عملَ مع آليانا في الحياكةِ قبلَ الحريقِ. هللوا جميعاً عندما وصلت آليانا.

وقفَ آلفريد مُنتظراً بجانبِ أختهِ مارثا وبنَّاءٍ يعمل معه يدعى دان. ارتدى آلفريد سترةً قرمزيةً جديدةً، وجزمةً نظيفةً، وبدا شعرهُ الداكن طويلاً ولامعاً كشعرِ إيلين. وهنا أدركت آليانا أنَّ إيلين ليست موجودةً، وشعرت بخيبةِ الأملِ، وعندما كانت على وشكِ سؤالِ مارثا عن سببِ غيابِ زوجةِ أبيها خرجَ الكاهنُ من الكنيسةِ وبدأت المراسمُ.

فكرت آليانا بحياتها، وكيفَ بدأت طوراً جديداً منذُ ستةِ أعوامٍ عندما قدَّمت وعداً لوالدها، وها هي الآن تبدأ مرحلةً جديدةً مع وعدٍ لرجلٍ آخر. نادراً ما كانت تفعل شيئاً من أجلِ نفسها، ولكنها قامت باستثناءٍ صادمٍ هذا الصباح مع جاك، وعندما استعادت ما جرى بينهما وجدت صعوبةً في تصديقهِ. بدا لها الأمرُ كحُلمٍ، أو كإحدى قصصِ جاك الخياليةِ، حدثاً لا صلة له بالحياةِ الحقيقيةِ. لن تخبرَ أحداً عمَّا حدثَ، وسيبقى هذا سرها الجميل الذي ستبقيهِ لنفسها، وتتذكره بينَ الحينِ والآخر بسريَّةٍ كالبخيل الذي يُعدُّ أموالهُ المخفيةَ في عتمةِ الليلِ.

وصلا إلى تقديمِ النذورِ، وبإشارةٍ من الكاهنِ قالت آليانا: «آلفريد، ابن البنَّاءِ توم، أقبلُ بكَ زوجاً، وأعدكَ أن أكون لكَ وفيةً مدى الحياةِ»، وعندما انتهت أرادت البكاء.

بعد هذا أتى دور آلفريد ليُقدم نذورهُ، وعندما بدأها سُمعت ضجةٌ عند أطرافِ الحشدِ، فنظرَ شخصٌ أو شخصان إلى الوراءِ. التقت عينا آليانا بعيني مارثا وهمست الأخيرةُ: «إنَّها إيلين».

تجهمَ الكاهنَ وقال: «آلفريد وآليانا أنتما الآن متزوجان في عينِ الرَّبِّ وليبارك...»

لم ينته من جملتهِ لأنَّ صوتاً قوياً خلفَ آليانا قال: «أنا ألعنُ هذا الزفافَ!»

كانت إيلين.

وشهق أفرادُ الأبرشيةِ في هلعٍ.

حاولَ الكاهن متابعةَ المراسم: «وليبارك...» ثمَّ توقفَ وقد شحبَ وجههُ ورسمَ إشارةَ الصليبَ.

استدارت آليانا، ورأت إيلين خلفها وقد ابتعد الحشدُ عنها. كانت تحملُ ديكاً صغيراً حياً بيدٍ، وباليدِ الأخرى سكيناً طويلةً على نصلها دم، ومن عنقِ الديكِ المنحورِ انبجسَ الدمُ كنافورةٍ. «فليحلَ البلاءُ على هذا الزواج»، قالت إيلين، وشعرت آليانا بكلماتها ترسلُ الخوفَ في قلبها. «فليكن زواجاً تعساً ومريراً يملأهُ الحقدُ والحرمان والندمُ. فليُبتلى هذا الزواج بالعقمِ»، وعندما تلفظت بكلمة «عقم» رمت بالديكِ النازفِ عالياً في الهواءِ فصرخَ العديدُ من الناسِ، وتراجعوا إلى الوراءِ، ولكن آليانا بقيت في مكانها. طارَ الديكُ في الهواءَ راشقاً الدمَ، وهبط على آلفريد الذي تراجعَ إلى الوراءِ مرعوباً، ثمَّ استقرَ المخلوق المخيفُ على الأرضِ يتخبطُ وهو ما زالُ ينزفُ.

عندما رفعَ الجميعُ أنظارهم كانت إيلين قد اختفت.

***

وضعت مارثا أغطيةً كتانيةً نظيفةً وبطانيةً صوفيةً جديدةً على السريرِ الكبير المحشو بالريشِ، الذي كان قبلاً سريرَ توم وإيلين، ولكنه بات الآن سريرَ آلفريد وآليانا. لم يرَ أحدٌ إيلين بعدَ الزفافِ، وكانت الوليمةُ كئيبةً كنزهةٍ في يومٍ باردٍ حيثُ انشغلَ الجميعُ بالأكلِ والشرب بصمتٍ وتجهمٍ بسببِ عدمِ وجودِ شيءٍ آخر ليقوموا بهِ. غادرَ جميعُ الضيوفِ عندَ غروبِ الشمسِ، ومن دونِ تلكَ الدعاباتِ المعتادةِ حولَ ليلة العرس الأولى. كانت مارثا في غرفتها على سريرها الصغير، وعادَ ريتشارد إلى منزلِ آليانا الصغير الذي أصبحَ منزلهُ الآن.

تحدَّثَ آلفريد عن بناءِ منزلٍ حجري لهما في الصيفِ المقبلِ، وتفاخرَ بالأمرِ أمامَ ريتشارد خلالَ الوليمة. «سيكون هنا مخدعٌ وقاعةٌ وسردابٌ»، قال آلفريد ثمَّ أضاف: «عندما ترى زوجةُ صائغ الفضةِ جون المنزلَ سترغبُ بمنزلٍ مثلهُ، وعاجلاً أم آجلاً، سيرغبُ جميعُ الرجالِ الميسورين بمنازل حجرية».

«هل وضعتَ التصميمِ؟» سألَ ريتشارد، وشعرت آليانا بنبرةِ تشكيكٍ في صوتهِ، ولكن يبدو أنَّ ما من أحدٍ غيرها شعر بها.

«لدي تصاميم والدي القديمةُ، وهي مرسومةٌ بالحبرِ على رقٍ. أحدُ هذهِ التصاميم للمنزل الذي كان يبنيهِ لآليانا ووليم هاملي، وسأعتمدهُ».

أشاحت آليانا بنظرها بعيداً في تقززٍ. كيفَ يمكن لأحدٍ أن يكون عديمَ اللباقةِ إلى هذا الحدِّ، ويأتي على ذكرِ هذا الموضوعِ في يوم زفافها؟ تصرَّف آلفريد بصخبٍ طوالَ فترةِ ما بعدَ الظهرِ، وصبَّ النبيذَ، وألقى بالنكاتِ، وتغامزَ بخبثٍ مع زملائهِ في العملِ. بدا سعيداً بحقٍ.

وها هو الآن يجلسُ على حافةِ السريرِ يخلعُ جزمتهُ بينما تحلُّ آليانا الأشرطة من شعرها. كانت حائرةً بشأنِ لعنةِ إيلين. ورغمَ أنَّها صدمت بها، ولم تعلم ما الذي كان يجري في ذهنِ إيلين، ولكنها، وبطريقةٍ ما، لم تخف منها كما خافَ بقيةُ الناسِ.

ولكن هذا لم يكن حالُ آلفريد لأنَّه، وحالما حطَّ الطائرُ المذبوحُ فوقه، بدأ يتلعثم. أمسكه ريتشارد من سترتهِ، وهزهُ بقوةٍ إلى أن عادَ إلى رشدهِ بسرعةٍ، ولم يعد هناك ما يشي بخوفهِ سوى استمراره بالضربِ على ظهورِ الآخرين، والتهليل عندَ شربِ الجعةِ خلال الوليمة.

أمَّا بالنسبةِ إلى آليانا فشعرت بهدوءٍ غريبٍ، ورغمَ أنَّها لم تكن متحمسةً لما كانت على وشكِ القيامِ بهِ مع آلفريد، فإنّها، وعلى الأقلِ، لم تكن مُجبرةً عليهِ. قد يكون الأمرُ مقززاً، ولكنه لن يكون مهيناً؛ فلن ينام معها سوى رجل واحد، ولن يشاهدها سواه.

خلعت ثوبها.

وقال آلفريد: «بحقِ المسيحِ هذهِ سكينٌ طويلةٌ».

حلَّت رباطَ السكينِ حولَ ساعدها، وصعدتَ السريرَ في قميصها الداخلي.

أخيراً خلعَ آلفريد جزمتهُ وسروالهُ ووقف.

رمقها بنظرةٍ شهوانيةٍ وقال: «اخلعي رداءكَ الليلي. يحقُّ لي أن أرى ثديي زوجتي».

ترددت آليانا أمامَ فكرةِ التعري لكن، وبطريقةٍ ما، سيكون من الغباءِ رفضُ أول طلبٍ له. أذعنت وجلست على السريرِ ثمَّ خلعت رداءها، وهي تكبحُ بقوةٍ ذكرى تعريها أمامَ جاك هذا الصباحِ، واختلافِ الأمرِ.

«يا لهما من ثديين جميلين!» قال آلفريد ثمَّ توجهَ نحوها، ووقفَ بجانبِ السرير، وأمسكَ ثديها الأيمن. كانت يدهُ الضخمةُ خشنةً وأظافرهُ قذرةً. عصرَ ثديها بقوةٍ فتأوهت من الألمِ. ضحكَ آلفريد، وأفلتها. تراجعَ إلى الوراءِ، وخلعَ سترتهُ ثمَّ علَّقها على الخُطافِ، وعادَ إلى السرير ثمَّ سحبَ الغطاءَ عنها.

ابتلعت آليانا لعابها بصعوبةٍ فهي لم تشعر بهذا الضعفِ قبلاً. كانت عاريةً وهو يحدقُ إليها. قال: «يا إلهي إنَّه فرجٌ مُشعرٌ»، ووضعَ يدهُ بينَ ساقيها. تجمدت، ولكنها أجبرت نفسها على الاسترخاءِ، وباعدت بينَ ساقيها. «فتاةٌ مطيعةٌ»، قال لها وأقحمَ إصبعهُ في داخلها؛ فتألمت لأنَّها لم تكن رطبةً. لم تفهم الأمرَ. كانت هذا الصباح مع جاك رطبةً وزلقةً. زمجرَ آلفريد، وأقحمَ إصبعهُ أكثر.

شعرت برغبةٍ في البكاءِ. وعلى الرغمِ من علمها بأنَّها لن تستمتعَ بالأمرِ فإنّها لم تتوقع من آلفريد معاملةً قاسيةً. لم يُقبلها بعد، وفكرت في نفسها: «ليس أنه لا يحبني فحسب، بل لا يتسلطفني أيضاً. بالنسبةِ إليه أنا مجرد جواد يافعٍ وجيدٍ يوشكُ على امتطائهِ. في الحقيقةِ كان سيعاملُ الجوادَ بشكلٍ أفضل، وكان سيربّتُ عليهِ، ويمسدهُ إلى أن يعتادَ عليهِ، ويتحدثُ معهُ بلطفٍ إلى أن يهدأ»، وكبحت دموعها قائلةً لنفسها إنَّها من اختارَ هذا، وما من أحدٍ أجبرها على الزواجِ منه، وأنَّها ستحتملُ الأمرَ الآن.

«جافةٌ كحفرةِ منشارٍ[1]»، دمدمَ آلفريد.

«أسفةٌ»، همست آليانا.

أبعدَ يدهُ وبصقَ عليها مرتين ثمَ فركَ البصاقَ بينَ ساقيها. بدا لها عملهُ حقيراً جداً، وعضَّت على شفتها ثمَّ أشاحت بنظرها.

باعدَ بينَ فخذيها فأغمضت عينيها، ولكنها أجبرت نفسها على فتحهما والنظرِ إليهِ قائلةً لنفسها: «اعتادي على هذا لأنَّك ستقومين بهِ لبقيةِ حياتكِ». صعدَ آلفريد على السريرِ، وركعَ بينَ ساقيها. رأت على وجههِ تقطيبةً. وضعَ

1- حفرةٌ توضعُ جذوعِ الأشجارِ فوقها لتُقطع بمنشارٍ له مقبضين. يمسكُ رجلٌ في الحفرةِ بإحدى القبضتين بينما يقفُ آخر فوقَ الحفرةِ ويمسكُ بالمقبضِ الآخر. (المترجمة)

يداً بينَ ساقيها ليباعدهما، واليدُ الأخرى تحتَ قميصهِ الداخلي. رأت يدهُ تتحرك تحتَ القميصِ ثمَّ ازدادت التقطيبةُ.

«بحقِ المسيحِ»، دمدمَ. «أنتِ باردةٌ ولا تثيرينني. إنَّ الأمرَ أشبه بتحسسِ جثةٍ».

بدا لها من الظلمِ أن يلومها على هذا. «لا أعلم ما الذي يجبُ عليَّ فعله!» قالت له دامعةَ العينين.

«بعضُ الفتياتِ يستمتعن بالأمرِ»، قال لها.

وفكرت في نفسها: «يستمتعن بهِ! مستحيل!» ثمَّ تذكرت كيفَ أنَّها في هذا الصباحِ تأوهت، وصرخت من المتعةِ، ولكن بدا له أنَّ ما فعلتهُ هذا الصباحَ، وما ستفعلهُ الآن أمران مختلفان.

هذا غباءٌ.

بينما كان آلفريد يفركُ قضيبهُ تحتَ القميصِ جلست وقالت له: «دعني أفعلُ هذا»، ومدَّت يدها إلى عضوهِ فشعرت به رخوا وبارداً. لم تعرف ما الذي عليها القيامُ بهِ. أخذت تعصرهُ بلطفٍ ثمَّ تمسدهُ بينَ أطرافِ أصابعها، ثمَّ نظرت إلى وجه آلفريد، وبدا لها غاضباً. تابعت ما كانت تفعله، ولكن من دونِ فائدةٍ.

«بسرعةٍ أكبر»، قال لها.

بدأت تفركُ بسرعةٍ، ورغمَ أنَّ عضوه بقي رخواً فإنَّه بدأ يحرّك وركيهِ كأنَّه يستمتع بالأمرِ. شجعها هذا، وبدأت تسرع أكثر، وفجأةً أطلقَ صرخةَ ألمٍ، وسحبَ عضوهُ. لقد فركتهُ بشدةٍ كبيرةٍ. «أيتها البقرةُ الغبيةُ!» قال لها وضربها على وجهها بظاهرِ يده فأسقطها جانباً.

استلقت على السريرِ تنشجُ من الألمِ والخوفِ.

«أنتِ غير نافعة. أنتِ ملعونةٌ!» قال لها بغضبٍ.

«لقد بذلت جهدي!»

«أنتِ عاهرةٌ باردةٌ»، قال، وبصقَ ثمَّ أمسكها من ذراعيها، ورفعها، وألقاها عن السريرِ فسقطت على الأرضيةِ المفروشةِ بالقشِّ.

«هذا ما أرادته تلكَ الساحرة اللعينة إيلين»، قال آلفريد ثمَّ أضافَ: «لطالما كرهتني».

تدحرجت آليانا، وركعت على الأرضيةِ ثمَّ حدقت إليهِ. لم يبدُ لها أنَّه سيضربها مجدداً؛ فهو لم يعد يشعرُ بالغضبِ بل بالمرارةِ. «يمكنكِ البقاءُ هناك»، قال لها. «أنتِ غير نافعةٍ لي كزوجةٍ، ولذلك لا تنامي على سريري. أنتِ كلبةٌ، ولذلك نامي على الأرضيةِ»، ثمَّ توقفَ لبرهةٍ وتابع: «لا يمكنني تحمل نظراتكِ إلي!» قال لها بنبرةٍ خائفةٍ، ونظرَ حولهِ يبحثُ عن الشمعةِ، وعندما عثرَ عليها ضربها فأوقعها أرضاً، وأطفأها.

استلقت آليانا في العتمةِ بلا حراكٍ. سمعت آلفريد يتحرَّك على الفراشِ المحشو بالريشِ، ويسحبُ البطانيةَ، ويغيرُ أماكنَ الوسائدِ. كانت خائفةً، حتَّى من التنفسِ. تقلَّبَ في السريرِ طويلاً، ولكنه لم ينهض ولم يتحدث إليها. في نهايةِ المطافِ هدأ، وبات تنفسهُ منتظماً. عندما تأكدت من أنَّه نامَ زحفت عبرَ الغرفةِ، وهي تحاول عدمَ إصدارِ صوتٍ فوقَ القشِّ، ووجدت طريقها إلى الزاويةِ. تكورت على نفسها هناك، واستلقت صاحيةً. ورغمَ محاولتها كبحَ دموعها كيلا توقظهُ فإنَّها استسلمت في نهايةِ المطافِ وبدأت تنشجُ بهدوءٍ. ربما سمعها تبكي، ولكنه لم يُبدِ أيَّ ردٍّ فعلٍ. بقيت آليانا على هذهِ الحالةِ -مستلقيةً على القشِّ في الزاويةِ تبكي- إلى أن استسلمت أخيراً للنومِ.

الفصل الثاني عشر

– 1 –

قضت آليانا الشتاءَ بأكملهِ صريعةَ المرضِ.

تلفّعت بعباءتها كلَّ ليلةٍ، ونامت نوماً قلقاً على الأرضيةِ أسفل سرير آلفريد، وخلالَ النهارِ شكت من تعبٍ غريبٍ لا علاج له مع شعورٍ بالغثيانِ أحياناً. ورغمَ أنَّها لم تتناول سوى القليل من الطعامِ، فإنّ وزنها ازداد، وكانت واثقةً من أن ثدييها يكبران ووركيها أيضاً، وخصرها يزدادُ عرضاً.

كان يُفترضُ بها أن تديرَ منزلَ آلفريد غير أنَّ مارثا قامت بكلِّ شيءٍ تقريباً، وعاشَ ثلاثتهم في وضعٍ لا يحسدون عليهِ. لم تحب مارثا شقيقها يوماً، وها هي آليانا الآن تمقتهُ بشدةٍ، ولذلك لم يكن غريباً قط أن يقضي آلفريد جلَّ وقتهِ بعيداً عن المنزلِ: نهاراً في العملِ، وفي الحانةِ ليلاً. اشترت مارثا وآليانا الطعامَ، وطبختاه من دونِ حماسةٍ، وصنعتا القماشَ في الأماسي. كانت آليانا تتطلع إلى قدوم فصلِ الربيعِ عندما يغدو الجو دافئاً بما يكفي لتزورَ فُرجتها السريةُ في الغابةِ بعدَ الظهرِ من أيامِ الآحاد. ستستلقي هناك في سلامٍ، وتحلم بجاك.

في هذهِ الأثناءِ كان عزاؤها الوحيد هو شقيقها. اشترى ريتشارد جواداً أسود سريعاً، وسيفاً جديداً، وبات لديهِ مرافقٌ على جوادٍ قصيرٍ، ورغمَ حاشيتهِ المتواضعةِ فإنَّه عادَ مجدداً إلى القتالِ مع الملكِ ستيفن. استمرَّت الحربُ حتَّى العام الجديدِ، وهربت مود من قلعةِ أوكسفورد لتُفلتَ مُجدداً من بين يدي ستيفن، ووضعَ شقيقها روبرت يدهُ مرةً أخرى على ويرهام، واستمرت حالةُ الكرِّ والفرِ بين الجانبين، وكلُّ جانب يربح قليلاً ويخسرُ قليلاً، ولكن آليانا كانت تفي بوعدها، وشعرت بالرضا حيال هذا.

في الأسبوعِ الأولِ من العامِ الجديدِ أتى مارثا الطمث لأولِ مرَّةٍ. صنعت لها آليانا شراباً دافئاً مع الأعشابِ والعسلِ لتسكينِ آلامِ التشنجاتِ، وأجابت على كلِّ أسئلتها حولَ هذه اللعنةِ التي تصيب النساء، ثمَّ ذهبت لإحضارِ صندوقِ الخرقِ التي تستخدمها، ولكنها لم تجد الصندوقَ في المنزلِ فأدركت في نهايةِ المطافِ أنَّها لم تجلبهُ من منزلها القديم بعدَ زفافها.

ولكن مرَّ على زفافها ثلاثةُ أشهرٍ.

هذا يعني أنَّ الطمثَ لم يأتها منذُ ثلاثةِ أشهرٍ.

منذُ يومِ زفافها.

منذُ أن مارست الحبَّ مع جاك.

تركت آليانا مارثا جالسةً قربَ نارِ المطبخِ تحتسي شرابَ العسلِ، وتُدفئ أصابعَ قدميها، وسارت عبرَ البلدةِ إلى منزلها القديم. رغم أنَّ ريتشارد لم يكن في المنزلِ، فإنَّها امتلكت المفتاح. عثرت على صندوقِ الخرقِ، ولكنها لم تعد على الفورِ بل جلست قربَ الموقدِ الباردِ ملتفعةً بعباءتها، وغارقةً في أفكارها.

تزوجت بآلفريد في عيد القديس ميخائيل، وها هو عيد الميلادِ قد مضى. إنَّهما متزوجان منذُ ثلاثةِ أشهرٍ، وهذا يعني أنَّها يجبُ أن تحيضَ ثلاثَ مرَّاتٍ، ومع ذلكَ ها هو صندوقِ الخرقِ الخاصِّ بها على الرَّفِ إلى جانبِ حجرِ الشحذِ الذي يستخدمه ريتشارد لشحذِ سكاكين المطبخِ. أخذت الصندوق، ووضعتهُ على حُجرها ثمَّ مررت إصبعها فوقَ خشبهِ الخشنِ فالتقطت إصبعها غباراً. لُم يُلمس الصندوق منذُ زمنٍ طويلٍ.

ولكن أسوأ ما في الأمر هو أنَّها لم تُضاجع آلفريد قط.

بعدَ تلكَ الليلةِ الأولى المخيفةِ حاولَ معها مجدداً ثلاثَ مرَّاتٍ. مرَّةً في الليلةِ التاليةِ ثمَّ بعدَ أسبوعٍ، ومجدداً بعدَ شهرٍ ووقتئذٍ كان مخموراً، ولكنه عجزَ دوماً عن القيامِ بالأمرِ. في البدايةِ كانت آليانا تشجعهُ بدافعِ الواجبِ، ولكن مع كلِّ فشلٍ يُمنى بهِ يزدادُ غضبهُ أكثر من ذي قبلٍ، ولذلكَ باتت ترتعبُ منه، وارتأت أنَّه من الأسلمِ تجنبهُ، والابتعاد عن طريقهِ بأن ترتدي ثياباً مُنفرةً، وتحرص على ألا يراها تخلعُ ثيابها حتَّى ينسى الأمرَ. وها هي الآنَ تتساءل في نفسها إن كان عليها المحاولةُ بجدٍ أكثر، ولكنها علمت ضمناً أنَّ هذا لن

يشكلَ فرقاً فالأمرُ ميئوس منه. لم تعرف سبباً لهذا. قد يكون السببُ لعنةَ إيلين، أو ربما كان آلفريد عاجزاً حقاً، أو ربما بسببِ ذكرى جاك، ولكن آليانا كانت واثقةً من أنَّ آلفريد لن يمارسَ الحبَ معها حالياً.

وهذا يعني أنَّه سيعلمُ أنَّ الطفلَ ليسَ طفله.

حدَّقت ببؤسٍ إلى الرمادِ القديمِ الباردِ في موقدِ منزلِ ريتشارد، وتساءلت في نفسها عن سببِ الحظِ السيئ الذي يرافقها. ها هي تحاولُ الاستفادة من هذا الزواجِ المريعِ قدرَ الإمكان، ولكن، ولحظها السيئ، حملت من رجلٍ آخر رغمَ أنَّها لم تُضاجعهُ سوى مرَّة واحدة.

لم يكن هناكَ فائدةٌ من الشعورِ بالشفقةِ على نفسها بل عليها أن تقرر ما عليها القيامُ بهِ.

وضعت يدها على بطنها. تعلمُ الآن سببَ ازديادِ وزنها، وشعورها بالغثيانِ، والتعبِ الدائمِ؛ ففي أحشائها إنسانٌ صغيرٌ. ابتسمت لنفسها، وفكرت أنَّه من الجميل حقاً أن تُنجبَ طفلاً.

هزَّت رأسها، وقالت لنفسها إنَّ الأمرَ ليسَ جميلاً لأنَّ آلفريد سيثورُ غضباً. لم تعرف ما الذي سيفعلهُ بها؛ فقد يقتلها، أو يطردها، أو يقتل الطفل. وفجأةً انتابها الهلع من أن يحاول آلفريد أذيَّة الطفلِ بركلها على بطنها. أخذت تتعرقُ عرقاً بارداً، ومسحت قطراته التي تجمعت فوقَ حاجبها.

«لن أخبرهُ»، فكرت في نفسها.

ولكن هل ستتمكنُ من إبقاءِ الحملِ سِرَّاً؟ ربما. كانت الآن قد اعتادت على ارتداءِ الثيابِ الفضفاضةِ، وقد لا تسمن كثيراً؛ فبعضُ النساءِ لا يسمنَّ كثيراً خلالَ حملهن، علاوةً على هذا، كان آلفريد أضعفَ الرجالِ ملاحظةً. لا شكَّ أنَّ النساءِ الأكثرَ خبرةً في البلدةِ سيتكهنَّ أنَّها حامل، ولكن يمكنها الوثوق بأنَّهن سيُبقين الأمرَ لأنفسهن، ولا يتكلمن بهِ، أو لا يتحدثنَ إلى رجالهن في الأمرِ، وقررت أنَّها قد تستطيع الاحتفاظَ بالطفلِ إلى حينِ ولادتهِ.

ولكن ما الذي سيحدثُ بعدَ هذا. حسناً، سيكون المخلوقُ الصغير قد أتى إلى هذا العالمِ بأمانٍ. لن يكون آلفريد قادراً على قتلهِ بركلِ آليانا على بطنها، ولكنه سيعلمُ آنذاك أنَّه ليسَ طفلهُ. لا بدَّ أنَّه سيكره الطفلَ المسكينَ، وسيراه كطعنةٍ دائمةٍ لرجولتهِ، وهذا يعني أنَّ الثمنَ سيكون باهظاً جداً.

لم تفكر آليانا في ما هو أبعدُ من هذا.

«أتساءلُ إن كان صبياً أم فتاةً»، فكرت في نفسها.

وقفت حاملةً صندوقَ الخُرقِ النظيفةِ من أجلِ مارثا، وفكرت بسأمٍ: «أُشفقُ على مارثا لأنَّها من الآن فصاعداً ستعاني من لعنةِ النساءِ».

***

قضى فيليب الشتاءَ غارقاً في التفكيرِ بمتاعبِهِ.

تسببت له لعنةُ إيلين التجديفية بالذعرِ، وخاصَّةً أنَّها ألقتها في كنيسةٍ، وخلال مراسمِ عقد القرانِ. لم يكن لديهِ أدنى شكٍ الآن أنَّها ساحرة، وندمَ على غبائهِ لمسامحتها لسنواتٍ على إهانتها كتابَ «حُكم القديس بينديكت». لم يفطن وقتئذٍ أنَّ المرأة التي تفعلُ هذا لا يمكن أن تتوبَ حقاً. على الرغمِ من هذا، فإنَّ إحدى إيجابياتِ الموقفِ هو أنَّ إيلين غادرت كينغزبريدج، ولم يرها أحدٌ منذُ الزفافِ، وكان لدى فيليب أملٌ كبيرٌ بألَّا تعود أبداً.

بدت آليانا تعيسةً جداً بعدَ زواجها من آلفريد، ولكن فيليب لم يصدق أنَّ لعنةَ إيلين السببُ في هذا. لم تكن معرفته بالحياةِ الزوجيةِ جيدةً، ولكنه يستطيع التكهنَ أنَّ امرأةً ذكيةً، وواسعةَ المعرفةِ، وحيويةً مثلَ آليانا لن تجدَ سعادةً في الحياةِ مع شخصٍ بليدٍ وضيقِ الأفقِ كآلفريد، سواء أكانا زوجين أم غير ذلكَ.

ولم يكن لديهِ شكٌّ الآن أنَّه كان على آليانا الزواجُ من جاك، وعندما فهمَ هذا شعرَ بالذنبِ لأنَّ تمسَّكه الشديد بجاك جعلهُ يفشلُ في إدراك ما يحتاجهُ الفتى بحقٍ. لم يكن جاك مؤهلاً لحياةِ الرهبانيةِ، وقد اقترفَ فيليب خطأً بإجبارهِ على هذا، وها هي كنيغزبريدج الآن تخسرُ ذكاءَ جاك وطاقته.

يبدو أنَّ جميعَ الأمورِ ساءت منذُ كارثةِ سوقِ الصوفِ؛ فالديرُ الآن غارقٌ في الديون، بل أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، واضطرَّ فيليب إلى تسريحِ نصفِ عمالِ موقعِ البناءِ لأنَّه لم يعد يملك المالَ لدفعِ أجورهم، وتبعاً لذلكَ تقلَّصَ عددُ سكانِ البلدةِ، وهذا يعني أنَّ سوقَ الأحدِ بات أصغر، وتراجع مردودُ فيليب من إيجاراتهِ. كانت كينغزبريدج الآن في داومةٍ ستُفضي بها إلى الدركِ.

اكتشفَ أنَّ جوهرَ المشكلةِ معنويات سكانِ البلدةِ؛ فعلى الرغمِ من إعادةِ بناءِ منازلهم، وعودتهم إلى مزاولةِ مهنهم الصغيرةِ لم يكن لديهم

ثقةٌ بالمستقبلِ. وأيّاً كان ما خططوا له، أو بنوه فقد اعتبروه مؤقتاً، ويمكنُ لوليم هاملي أن يمحيَه عن وجهِ الأرضِ إن فكرَ بشنِّ هجومٍ جديدٍ. كان هذا الإحساسِ الخفي بعدمِ الأمانِ ماثلاً في قلوبِ الجميعِ، وشلَّ معهُ جميعَ المشاريع.

في نهايةِ المطافِ أدركَ فيليب أنَّ عليهِ القيامُ بشيءٍ لوضعِ حدٍ لهذه الحال، ولذلكَ كان بحاجةٍ إلى مبادرةٍ كبيرةٍ تُثبت للعالمِ عموماً، ولسكانِ كينغزبريدج خصوصاً، أنَّ البلدةَ تناضلُ للعودةِ إلى مسارها القديمِ، ومن أجل هذا قضى ساعاتٍ كثيرةً في الصلاةِ والتأملِ محاولاً إيجادَ المبادرةِ التي يجب عليهِ القيام بها.

كان في حاجةٍ ماسَّةٍ إلى معجزةٍ. عندما كانت عظامُ القديسِ أدولفوس قادرةً على شفاءِ أميرٍ من الطاعون، وتحويلِ ماءِ بئرٍ مالح إلى ماءٍ عذبٍ يتدفقُ الناسُ إلى كينغزبريدج بهدفِ الحجِّ، ولكن القديس لم يقم بأيَّةِ معجزاتٍ منذُ سنواتٍ، وتساءل فيليب في نفسهِ أحياناً إن كانت طرقهُ العمليَّةُ في إدارةِ الدير أزعجت القديس. بدا له أنَّ المعجزات تحدثُ في أماكن يكون فيها الحكمُ أقلَّ عقلانيةً، والجو العامُ مشحوناً بالحماسةِ الدينية، هذا إن لم يكن إلى حد الهستيريا الحقيقية، ولكن فيليب نشأ في ديرٍ متواضعٍ اعتادَ فيهِ رئيسهُ -الأبُ بيتر- أن يقولَ: «صلّ لحدوثِ المعجزاتِ، ولكن ازرعِ الملفوفَ أيضاً».

كانت كاتدرائيةُ كينغزبريدج رمزاً للحياةِ والعملِ في البلدةِ. لو أنَّها فقط تكتملُ بمعجزةٍ! في إحدى المرَّات صلَّى طوالَ الليلةِ من أجلِ معجزةٍ، ولكن في الصباحِ لم يكن الحال مُختلفاً، والمذبح ما زالَ من دونِ سقفٍ، ومفتوحاً، وأطراف جدرانهِ العاليةِ متعرجة بانتظارِ أن تتصلَ بجدرانِ جناحي الكنيسةِ.

لم يستعن فيليب بعد بكبير بنَّائين جديدٍ؛ فقد صُدمَ من الأجورِ الكبيرةِ التي طلبوها، ولم يدرك حتَّى هذا الوقتِ كم كان زهيداً أجرُ توم. على أيِّ حالٍ أدار آلفريد ما تبقى من القوةِ العاملةِ من دونِ صعوبةٍ حقيقيةٍ. بعدَ زاوجهِ أصبحَ آلفريد شخصاً نكداً كرجلٍ يهزمُ الكثيرَ من المنافسين ليصبحَ ملكاً ثم يجد في الأمرَ عبئاً ثقيلاً ومُتعباً، ولكنه كان مسيطراً، وحازماً، ومحطَّ احترامِ بقيةِ الرجالِ.

تركَ رحيلُ توم فراغاً كبيراً لا يمكن لأحدٍ ملؤهُ. لم يفتقدهُ فيليب كرئيسٍ

بنَّائيهِ بل كصديقٍ. كان توم مُهتماً ببناءِ الكنائسِ، واستمتعَ فيليب بالحديثِ معه حولَ ما يجعلُ بعضَ الأبنيةِ صامدة، وأخرى تنهار. لم يكن توم رجلاً ورعاً على نحو استثنائي، ولكنه كان بينَ الفينةِ والأخرى يطرحُ على فيليب أسئلةً لاهوتيةً، وهذا يعني أنَّه كان يتعامل مع دينِهِ بالذكاءِ ذاتِهِ الذي يتعاملُ بِهِ مع عملِهِ. وبطريقةٍ ما وجدَ فيليب في عقلِ توم نظيراً لعقلِهِ، ولذلك اعتبرهُ ندّاً له. لم يكن هناك كُثرٌ من أمثالِ تومٍ في حياةِ فيليب. كان جاك، وعلى الرغمِ من يفاعتهِ، أحدَ القلائلِ الذين وجدَ فيهم فيليب أنداداً له، وآليانا أيضاً، ولكن نجمها أفلَ بعد زواجها المؤسفِ، أمَّا كوثبرت وايتهيد فقد بدأ يطعنُ في السنِ، وأمينُ الخزانةِ ميليوس دائم الغيابِ عن الديرِ بسببِ رحلاتِهِ إلى مرابي الخرافِ لإحصاءِ الفدادين، والنعاجِ، وأكياسِ الصوفِ. في الوقتِ المناسبِ سيجذبُ ديرٌ يغلي بالحركةِ والحيويةِ في بلدةٍ مزدهرةٍ الطلاب كما تجذبُ الجيوشُ الغازية المُقاتلين، وتطلَّعَ فيليب قُدماً إلى قدومِ ذلكَ الوقتِ، ولكن هذا لن يحدث ما لم يجد طريقةً لإحياءِ كينغزبريدج.

«كانَ شتاءً معتدلاً»، قال آلفريد في أحدِ الصباحاتِ بعدَ عيدِ الميلاد ثمَّ أضاف: «يمكننا مباشرةُ أعمال البناءِ أبكر من المعتادِ».

وبدأ فيليب يُفكر. سينتهون من العملِ على بناءِ قنطرةِ القُبةِ هذا الصيف، وعندها سيتمكنون من استخدامِ المذبح، ولن تعودَ كينغزبريدج بلدةً من دونِ كاتدرائيةٍ. يعدُّ المذبح أهمَّ جزءٍ في الكنيسةِ؛ فالمذبح العالي والرفات المقدس يقعان في أقصى الطرفِ الشرقي الذي يدعى بـ «بيت الكاهن»، بينما ستجرى معظمُ المراسمِ في منطقةِ جوقةِ المرتلين حيثُ يجلسُ الرهبان، أمَّا بقيةُ الكنيسةِ فلن تُستخدم إلَّا أيام الآحادِ والأعيادِ. حالما يُرسم المذبحُ سيتحولُ موقعُ البناءِ إلى كنيسةٍ، سواء أكانت مكتملةً أم لا.

من المؤسفِ حقاً أنَّ عليهِ الانتظارَ لعامٍ كاملٍ إلى أن يحدثَ هذا. وعدهُ آلفريد بالانتهاءِ من العملِ على القُبةِ المُقنطرةِ مع نهايةِ فصلِ البناءِ في تشرين الثاني/ نوفمبر، ولكن بشرطِ أن يكون الطقسُ جيداً وقتئذٍ، ولكن عندما أخبره أنّه سيتمكن من البدءِ باكراً هذا العام تساءل فيليب في نفسهِ ما إذا كان آلفريد قادراً على الانتهاءِ في وقتٍ أبكر بكثير مما اقترحهُ. سيكون افتتاحُ الكنيسةِ هذا الصيف كفيلاً بإذهالِ الجميعِ. هذهِ هي المبادرة التي يبحثُ

عنها. سيكون أمراً يُفاجئ المقاطعةَ بأكملها، ويجعلها تدرك أنَّ ما من أحدٍ قادر على إحباطِ كينغزبريدج لوقتٍ طويلٍ.

«هل يمكنكَ الانتهاءُ من البناءِ بحلولِ عيدِ العنصرةِ؟» سأل فيليب على الفورِ.

تنشَّق آلفريد الهواء من بينِ أسنانهِ، وارتسمت على وجههِ علائمُ الشكِّ. «إنَّ بناءَ القُبةِ المقنطرةِ من أكثرِ الأعمالِ تطلباً للمهارةِ. لا يمكننا الاستعجالُ فيهِ، ولا السماحُ للمتدربين بالعملِ عليهِ».

فكرَ فيليب في ضيقٍ أنَّ والد آلفريد كان سيجيب بالإيجابِ أو النفي ثمَّ قال: «فلنفرض أنني زودتكَ بعمالٍ إضافيين من رهباني، هل سيكون هذا مفيداً؟»

«قليلاً. ما نحتاجهُ حقاً هو إلى المزيدِ من البنَّائين».

«ربما أستطيعُ أن أؤمنَ لكَ بنَّاءً أو بنَّاءين»، قال فيليب بتهورٍ؛ فالشتاءُ المعتدلُ يعني موسمَ جزٍّ صوفٍ باكرٍ، ولهذا يمكنهُ أن يأملَ ببيعِ الصوفِ قبلَ موعدهِ المعتادِ.

«لا أعلم»، قال آلفريد دونَ أن تغادرَ علائمُ الشكِّ وجهه.

«فلنفرض أنني سأقدم للبنائين علاواتٍ؟» قال فيليب ثمَّ أضاف: «أجر أسبوعٍ إضافي إن انتهى بناءُ القُبةِ المُقنطرةِ بحلولِ عيدِ العنصرةِ».

«لم أسمع بأمرٍ كهذا من قبل»، قال آلفريد كأنَّه تلقى اقتراحاً غير لائقٍ.

«حسناً، هناك مرَّةٌ أولى لكلِّ شيءٍ»، قال فيليب بنزقٍ؛ فقد أثارَ حذرُ آلفريد غضبه. «ما رأيكَ؟»

«لا يمكنني أن أجيبكَ»، قال آلفريد بعدمِ اكتراثٍ ثمَّ أضاف: «سأطرحُ الأمرَ على الرجالِ».

«اليوم؟» قال فيليب بنفاد صبرٍ.

«اليوم»، أجابه آلفريد.

وتعينَ على فيليب أن يرضى بهذا الآن.

***

وصلَ وليم هاملي وفرسانهُ إلى قصرِ الأسقفِ ويلارن خلفَ عربةٍ مكدسة

بأكياسِ الصوفِ ويجرها ثور. كان موسمُ جزِّ الصوفِ قد بدأ. حذا ويلارن حذو وليم، واشترى الصوف من المزارعين بأسعارِ العامِ الماضي متوقعاً بيعها بسعرٍ أكبر هذا العام. لم يواجه أيٌّ منهما مشكلةً في إجبارِ مستأجريهم على بيعِ الصوفِ لهما، والقلةُ ممن اعترضوا طُردوا، وأُحرقت مزارعهم، وبعد ذلك لم يكن هناك أيُّ مُعترض.

عندما دخلَ وليم من البوابةِ حدّقَ إلى أعلى التلةِ حيثُ أسوارُ القلعةِ التي لم يُنهِ الأسقفُ بناءها منذُ سبعِ سنواتٍ تقفُ شاهدةً على تفوقِ رئيسِ الديرِ فيليب بالحيلةِ على ويلارن. ولكن حالما يبدأ ويلارن بجمع المالِ من أعمالِ المتاجرةِ بالصوفِ قد يستكملُ عمليةَ بناءِ القلعةِ. خلال عهدِ الملك هنري لم يكن الأساقفة بحاجةٍ إلى ما هو أكثر من سياجٍ خشبي بسيطٍ خلفَ خندقٍ صغيرٍ يحيطُ بقصورهم، ولكن الآن، وبعدَ خمسةِ أعوامٍ من الحربِ الأهليةِ، بدأ الناس ممن لم يكونوا إيرلات، أو أساقفة يبنون قلاعاً منيعةً.

وبينما كان وليم يترجّلُ عن جوادِهِ في الإسطبلاتِ فكرَ بحزنٍ أنَّ الرياحَ تهبُّ بما يشتهي ويلارن؛ فقد بقي الأخير مُخلصاً للأسقفِ هنري، وغيَّرَ تحالفاتِه معهُ، وبذلك أصبحَ أحدَ أخلص حلفائِهِ، وعلى مدارِ السنواتِ ازدادت ثروةُ ويلارن من الدفقِ المستمرِ للممتلكاتِ والامتيازاتِ، حتى إنه زارَ روما مرَّتين.

شعرَ وليم بالحزن لأنَّه لم يمتلك حظ ويلارن. كان قد جارى الأخير في تحالفاتِهِ، ووفرَ أعداداً كبيرةً من المقاتلين لكلا الطرفين المتحاربين في الحربِ الأهليةِ، إلَّا أنَّه لم يصبح بعد إيرل شايرنغ. شغلَ الأمرُ تفكيرهُ طوالَ فترةِ توقفِ القتالِ، وأثار غضبهُ الشديد فقررَ أن يواجهَ ويلارن بهذا الشأن.

صعدَ وليم درجَ مدخلِ القاعةِ برفقةِ والتر، ولحقَ بهما بقيةُ الفرسانِ. كان الحارس عندَ البابِ مُسلحاً، وكانت هذهِ علامةٌ أخرى من علائمِ تغيرِ الأوضاعِ في البلدِ. وجدَ وليم الأسقفُ ويلارن جالساً على كرسي كبير وسطَ الغرفةِ كما يفعلُ على الدوامِ، وذراعاهِ وساقاه النحيلتان في وضعيةٍ بدا معها ويلارن كأنَّه أُلقي بهِ على الكرسي. وقفَ بولدوين الذي أصبحَ رئيسَ الشمامسةِ الآن بجانبِهِ، وأوحت وقفتهُ أنَّه ينتظرُ تعليماتٍ. كان ويلارن يحدقُ إلى النارِ غارقاً في التفكيرِ، ولكنه رفعَ نظرهُ فجأةً عندما اقتربَ وليم.

شعرَ وليم في داخلِهِ وهو يحيي ويلارن ويجلس بذلكَ الازدراءِ الأليفِ نحو الرجل. كان منظرُ يدي ويلارن النحيلتين والناعمتين، وشعره الأسود اللامع، وبشرته البيضاءِ الشاحبةِ، وعينيه الكامدتين اللتين تشعَّان حِقداً باعثاً على القشعريرةِ. جسَّد ويلارن كلَّ شيءٍ كرهه وليم في أيِّ إنسانٍ – الشرّ، والضعف الجسدي، والتعالي، والذكاء.

يعلمُ وليم جيداً أنَّ ويلارن يبادلهُ الشعور، وأنَّه عاجزٌ عن إخفاءِ تقززهِ منه كلما رآه يدخلُ. استقامَ ويلارن في جلستِهِ، وطوى ساعديهِ، وزمَّ شفتيهِ قليلاً، ثمَّ ارتسمَ شبحُ تكشيرةٍ على وجههِ كأنَّه شعرَ بألمٍ مفاجئٍ في المعدةِ.

تحدَّثا عن الحربِ لبعضِ الوقتِ، وكانت المحادثةُ رسميةً ومُربكةً، وشعرَ وليم بالراحةِ عندما قطعها رسولٌ أتى حاملاً رسالةً مكتوبةً في لفافةٍ، ومختومةً بالشمعِ. أرسلَ ويلارن الرسولَ إلى المطبخِ ليتناول الطعام، ووضعَ الرسالةَ دونَ أن يفتحها.

انتهزَ وليم الفرصةَ لتغييرِ الموضوعِ وقال: «لم آتِ إلى هنا للتحدثِ عن المعاركِ بل أتيتُ لأخبركَ أنَّ صبري بدأ ينفد».

رفعَ ويلارن حاجبيهِ، ولم يقل شيئاً. كان الصمتُ جوابهُ المعتاد على الأسئلةِ غير المريحةِ.

تابعَ وليم: «مضى ما يُقارب ثلاثةَ أعوامٍ على وفاةِ والدي، ولكن الملكَ ستيفن لم يجعلني إيرلاً بشكلٍ رسمي، وهذا مشينٌ».

«أوافقكَ الرأي»، قال ويلارن بفتورٍ، وأخذَ يلعبُ برسالتِهِ متفحصاً الختمَ، والشريطَ الذي يلفها.

«جيدٌ»، قال وليم وتابع: «لأنَّه يجب أن تقوم بشيءٍ ما حيالَ الأمرِ».

«عزيزي وليم لا يمكنني أن أجعلكَ إيرلاً»، أجاب ويلارن.

علمَ وليم أنَّ ويلارن سيتصرف على هذا النحو، ولذلك قررَ مسبقاً عدمَ القبولِ بهِ. «سيسمعكَ شقيقُ الملكِ إن تحدثت إليهِ».

«ولكن ما الذي سأقوله له؟ أنَّ وليم هاملي خدمَ الملكَ بأمانةٍ؟ إن كان هذا الكلامُ صحيحاً؛ فالملكُ يعرفهُ، وإن لم يكن صحيحاً فهو يعرفهُ أيضاً».

لم يكن وليم نِداً لويلارن في الجدالِ، ولذلكَ تجاهله ببساطةٍ وقال: «أنتَ تدينُ لي بهذا يا ويلارن بيغاد».

بدا ويلارن غاضباً بعضَ الشيءِ، وأشارَ إلى وليم بيدِهِ التي حملَ بها الرسالةَ ثمَّ قال: «لا أدينُ لكَ بأي شيءٍ فأنت على الدوامِ، وحتَّى عندما تنفذُ طلباتي، تعملُ بما يخدم مصالحكَ؛ ولذلك ليسَ بيننا أيُّ جميلٍ أو معروفٍ».

«أقول لكَ إنني لن أنتظر أكثر من هذا».

«وما الذي ستفعلهُ؟» قال ويلارن بشيءٍ من السخريةِ.

«حسناً، سأذهبُ أولاً لمقابلةِ الأسقفِ هنري بنفسي».

«وماذا بعد؟»

«وسأخبره أنَّك تجاهلت التماسي، ولذلك سأتحالفُ مع الإمبراطورةِ مود»، قال وليم، وسرَّ عندما رأى وجهَ ويلارن يتغير، ويحلُّ محلَّ شحوبهِ الخفيفِ نظرةٌ تفضحُ شيئاً من الدهشةِ.

«هل ستغيرُ مجدداً؟» قال ويلارن مشككاً.

«فقط أكثرُ منكَ بمرةٍ»، أجابَ وليم في جسارةٍ.

اهتزَّ شموخ وبرود ويلارن بهذا الكلامِ، ولكن ليسَ كثيراً. لقد استفادَ ويلارن كثيراً من قدرتهِ على جرِّ وليم وفرسانهِ لتغييرِ تحالفاتِ الأسقف هنري؛ ولذلك إن أصبحَ وليم مستقلاً فجأةً سيكون الأمرُ بمنزلة ضربةٍ له، ولكنها لن تكون ضربةً قاتلةً. أمعنَ وليم النظرَ إلى وجهِ ويلارن، وهو يفكرُ في هذا التهديدِ. يستطيع وليم قراءةَ ما يجولُ في عقلِ الرجلِ الآخرِ، وربما كان ويلارن يفكرُ أنَّه يريدُ الحفاظَ على وليم، ولكنه أيضاً كان يتساءل عن الجهدِ الذي عليهِ بذلهُ لفعلِ هذا.

ولكسبِ الوقتِ كسرَ ويلارن ختمَ الرسالةِ، وفتحها، وبينما كان يقرأها ارتسمَ الغضبُ على وجنتيهِ الشاحبتين وقالَ بصوتٍ كالفحيح: «اللعنة على هذا الرجل».

«ما الأمر؟» سألَ وليم.

ومدَّ ويلارن يدهُ بالرسالةِ.

أخذَ وليم الرسالةَ وأخذَ يقرأ ببطءٍ: «إلى .... أقدسِ... الأساقفةِ...»، ولكن ويلارن اختطفَ الرسالةَ من يدهِ، وقد ضاقَ ذرعاً ببطءِ وليم في القراءةِ ثمَّ قال: «إنَّها من رئيسِ الديرِ فيليب، وهو يخطرني أنَّ مذبحَ الكاتدرائيةِ الجديدةِ سينتهي بحلولِ عيدِ العنصرةِ، ويطلبُ مني بكلِّ قحَّةٍ أن أترأسَ المراسمَ».

تفاجأ وليم بما سمعهُ وقال: «ولكنه كيفَ نجحَ في ذلكَ؟ اعتقدتُ أنَّه سرَّحَ نصفَ بنَّائيهِ!»

هزَّ ويلارن رأسهُ وقال: «ما يهمُّ الآن ليسَ كيفَ نجحَ بل حقيقةُ أنَّه تعافى مما ألمَّ بهِ»، ورمقَ وليم بنظرةٍ مُعبرةٍ. «بالطبعِ هو يكرهكَ، ويعتقدُ أنَّك شيطانٌ في هيئةِ إنسانٍ».

وتساءل وليم في نفسهِ عمَّا يدورُ الآن في عقلِ ويلارن الشيطاني. «وماذا في الأمرِ؟» سألَ وليم.

«ستكون ضربةً مؤلمةً لفيليب إن رُسمتَ إيرلاً في يومِ عيدِ العنصرةِ»، أجاب ويلارن.

«لن تقومَ بهذا من أجلي بل نكايةً بفيليب»، قال وليم في سأمٍ، ولكنه في الحقيقةِ بدأ يشعرُ بالأملِ.

«قد لا أنجح في فعله»، قال ويلارن. «ولكنني سأتحدثُ إلى الأسقفِ هنري»، ورفعَ ناظريهُ إلى وليمٍ في ترقبٍ.

ترددَ وليم، ولكنه أخيراً، وعلى مضضٍ، دمدمَ: «شكراً لكَ».

***

أتى الربيعُ في ذلكَ العامِ بارداً وكئيباً، وفي صباحِ يومِ عيدِ العنصرةِ هطلَ المطرُ. استيقظت آليانا في الليلِ على وجعٍ في الظهرِ استمرَّ بإزعاجها بشكلٍ متقطعٍ. جلست في المطبخِ الباردِ تجدلُ شعرَ مارثا قبلَ الذهابِ إلى الكنيسةِ بينما تناولَ آلفريد فطوراً دسماً من الخبزِ الأبيضِ، والجبنةِ الطريةِ، والجعةِ القويةِ. وفجأةً شعرت بألمٍ كطعنةٍ حادةٍ في ظهرها جعلتها تتوقفُ، وتستقيمُ لبرهةٍ بوجهٍ مكفهرٍ. لاحظت مارثا التغيرَ عليها وسألتها: «ما الأمرُ؟»

«ألمٌ في الظهرِ»، أجابت آليانا باقتضابٍ فلم ترغب بمناقشةِ الأمرِ، وأرادتها أن تظن أنَّ السببَ هو النومُ على الأرضيةِ في الغرفةِ الخلفيةِ المفتوحةِ. ما من أحدٍ عرفَ بأمرِ الطفلِ، حتَّى مارثا.

وقفت مارثا، وأحضرت حجراً ساخناً من الموقدِ. استلقت أليانا، ولفَّت مارثا الحجرَ بقطعةِ جلدٍ قديمةٍ محترقةٍ، ووضعتهُ على ظهرِ آليانا. أراحها الحجرُ الساخنُ على الفورِ. أخذت مارثا تجدلُ شعرَ آليانا الذي نما مجدداً في كتلةٍ من الخصلِ الداكنةِ والكثيفةِ. كانت آليانا تشعرُ الآن بالراحةِ.

بعدَ اختفاءِ إيلين باتت آليانا ومارثا مُقربتين جداً؛ فقد فقدت المسكينةُ مارثا والدتها، وزوجةَ والدها، وشعرت أليانا أنَّهما بديلٌ تعسٌ لهما. علاوةً على هذا لم تكن تكبرُ مارثا سوى بعشرةِ أعوامٍ، ولذلك كان الدورُ الذي لعبتهُ حقاً هو دورُ الأختِ الكبرى، ولكن ما أثارَ حيرتها هو أنَّ أكثرَ شخصٍ افتقدتهُ مارثا كان جاك.

ولكن الجميع افتقدَ جاك.

تساءلت آليانا في نفسها عن مكانِ جاك الآن. قد يكون قريباً جداً، ويعملُ على بناءِ كاتدرائيةٍ في غلوستر أو سالسبيري، أو ربما توجهَ إلى النورماندي، أو ربما ذهبَ إلى أمكنةٍ أبعد كباريس، أو روما، أو القدس، أو حتَّى مصر. وكلما تذكرت قصصَ الحجِّ إلى أماكن بعيدةٍ كهذهِ الأماكن تتخيلُ جاك في صحراءٍ رمليةٍ ينحتُ حجارةَ حصنِ أحدِ العربِ المسلمين تحتَ أشعةِ الشمسِ المُغشيةِ للنظرِ، وتتساءلُ في نفسها إن كان يفكرُ بها في هذهِ اللحظةِ.

قطعَ سلسلةَ أفكارها صوتُ وقعِ حوافرٍ في الخارجِ، وبعد وهلةٍ دخلَ ريتشارد يقودُ جوادهُ، وكلاهما يقطران عرقاً ويغطيهما الوحلُ. أخذت آليانا بعضَ الماءِ الساخنِ من فوقِ الموقدِ إلى شقيقها كي يغسلَ يديهِ ووجههُ بينما قادت مارثا الجوادَ إلى الحديقةِ الخلفيةِ، ثمَّ وضعت آليانا خُبزاً ولحماً بارداً على طاولةِ المطبخِ أمامَ ريتشارد، وسكبت له كأساً من الجعةِ.

سألَ آلفريد ريتشارد: «ما أخبارُ الحربِ؟»

جففَ ريتشارد وجههُ بخُرقةٍ وجلسَ ليتناولَ إفطارهُ ثمَّ قال: «هُزمنا في ويلتن».

«هل أُسرَ ستيفن؟»

«لا، هربَ كما هربت مود من أوكسفورد، وهو الآن في وينشستر ومود في بريستول يلعقان جراحهما، ويعملان على تمتين قبضتهما على مناطقِ سيطرتهما».

فكرت آليانا في نفسها أنَّ الأخبار لم تتغيّر؛ فأحدُ الطرفين أو كلاهما يحققُ نصراً صغيراً بينما الطرفُ الآخرُ يُمنى بخسارةٍ صغيرةٍ. لا يبدو أن هذه الحربَ ستضعُ أوزارها في أيِّ وقتٍ قريبٍ.

نظرَ ريتشارد إلى آليانا وقال لها: «لقد ازدادَ وزنكِ».

أومأت آليانا برأسها ولم تقل شيئاً. كانت في شهرها الثامن، ولكن ما من أحدٍ علمَ بهذا، ومن حسنِ حظها أنَّ الطقسَ ما زالَ بارداً وبوسعها ارتداءُ ثيابٍ شتويةٍ واسعةٍ لتغطيةِ بطنها. بعدَ بضعةِ أسابيع سيأتي الطفلُ، وستظهرُ الحقيقةُ، وهي حتَّى الآن لا تعرفُ ما الذي ستقومُ بهِ وقتئذٍ.

سمعوا صوتَ جرسِ الكنيسةِ يدعو الناسَ إلى حضورِ القدَّاسِ. ارتدى آلفريد جزمته، ورمقَ آليانا بنظرةِ تساؤلٍ حيالَ ما إن كانت سترافقهُ.

«لا أعتقدُ أنني أستطيعُ الذهاب إلى الكنيسةِ فأنا أشعرُ بسقمٍ شديدٍ»، قالت آليانا.

هزَّ آلفريد كتفيهِ بلامبالاةٍ، ونظرَ إلى شقيقِ آليانا ثمَّ قال: «يجبُ أن تأتي يا ريتشارد. الجميع هنا اليوم، وستقامُ أولُ صلاةٍ في الكنيسةِ الجديدةِ».

لاحت علائمُ الدهشةِ على ريتشارد وقال: «هل انتهيتم من بناءِ القبةِ المُقنطرةِ؟ اعتقدتُ أنَّ العملَ سيأخذُ العامَ بأكملهِ».

«عجَّلنا بعد أن عرضَ رئيسُ الديرِ فيليب على العمال أجرَ أسبوعٍ إضافي إن انتهوا من العملِ على القُبةِ المُقنطرةِ في عيدِ العنصرةِ. عمل العمالُ بسرعةٍ مذهلةٍ، ولكن مع ذلكَ لم ننتهِ سوى اليومِ، وفككنا القوالبَ هذا الصباح».

«يجب أن أرى هذا»، قال ريتشارد، ووضعَ آخر لقمةِ خبزٍ ولحمٍ في فمهِ ثمَّ وقفَ.

قالت مارثا لآليانا: «أتريدينني أن أبقى إلى جواركِ؟»

«لا، شكراً. اذهبي، أنا بخير. سأستلقي، وأرتاح بعضَ الوقتِ».

ارتدى آلفريد وريتشارد ومارثا عباءاتهم ثمَّ غادروا المنزلَ، أمَّا آليانا فقد لفَّت حجراً ساخناً في قطعةٍ من الجلدِ، وتوجهت إلى الغرفةِ الخلفيةِ. استلقت على سرير آلفريد، ووضعت الحجرَ الساخن تحتَ ظهرها. منذُ زواجها وهي تعيشُ في حالةِ كسلٍ رهيبةٍ. كانت قبلاً مدبرةَ منزلٍ ومن بين أكثرِ تجارِ الصوفِ في المنطقةِ انشغالاً، ولكنها الآن تجدُ مشقةً في إدارةِ منزلِ آلفريد رغمَ أنَّه لم يكن لديها عملٌ آخر غير هذا العملِ.

استلقت على السريرِ لبرهةٍ تشعرُ بالأسى على نفسها، وتتمنى لو أنَّها تغفو قليلاً، ولكنها فجأةً صدمها سيلُ ماءٍ دافئٍ بينَ ساقيها. كان أشبهُ بالبولِ، ولكنه

لم يكن بولاً، وبعدَ برهةٍ تحولَ السيلُ الخفيف إلى ما يشبهُ الدفق فجلست باستقامةٍ على السريرِ. عرفت ما الذي يعنيهِ هذا: ماءُ الرأسِ نزلَ، والطفلُ قادمٌ.

تملَّكها الرعبُ. كانت بحاجةٍ إلى المساعدةِ، ولذلك نادت بأعلى صوتها على جارتها: «ميلدريد! ميلدريد! تعالي إلى هنا!» ثمَّ تذكرت أنَّ الجميعَ ذهبَ إلى الكنيسةِ لحضورِ القدّاسِ.

خفَّ دفقُ الماءِ، ولكنَّ سريرَ آلفريد كان مبللاً جداً، وفكرت في خوفٍ أنَّه سيغضبُ كثيراً عندما يرى هذا، ثمَّ تذكرت أنَّه سيكون غاضباً أصلاً عندما يعلمُ أنَّ الطفلَ ليسَ طفلهُ، وفكرت في نفسها: «يا إلهي، ما الذي سأفعلهُ الآن؟»

عاودها ألمُ الظهرِ مجدداً، وأدركت أنَّ هذا ما يُسمونهُ بالطَلقِ. نسيت الآن أمرَ آلفريد؛ فقد كانت على وشكِ وضعِ الطفلِ. شعرت بخوفٍ كبيرٍ من القيامِ بالأمرِ وحدها، وأرادت أن يكون إلى جانبها أحدٌ، ولذلكَ قررت أن تتوجه إلى الكنيسةِ.

أنزلت ساقيها عن السريرِ، ولكن انقباضاً تملكها فتوقفت، وتلوى وجهها من الألمِ إلى أن اختفى الألم، ثمَّ نزلت عن السرير، وغادرت المنزلَ.

سارت في الشارعِ مترنحةً، والأفكارُ تعصفُ في رأسها كدوامةٍ. عندما وصلت إلى بابِ الديرِ عاودها الألمُ مجدداً، واضطرت إلى الاتكاءِ مجدداً على الجدارِ، وهي تصرُّ على أسنانها إلى أن تراجع الألم ثمَّ دخلت إلى ساحةِ الديرِ.

اجتمعَ معظمُ سكانِ البلدةِ في الدهليز العالي للمذبحِ، والدهاليز الواطئةِ للممرين الجانبيين. كان المذبح في أقصى الزاويةِ، وبدا مظهرُ الكنيسةِ الجديدةِ غريباً. يُفترض أن يكون للسقفِ الحجري المدورِ سطح خشبي مُثلثي فوقهُ، ولكنه بدا كرأسِ رجلٍ أصلع من دونِ قبعةٍ. وقفَ المُصلون بظهورهم إلى آليانا.

عندما دخلت الكاتدرائية مترنحةً كان الأسقفُ ويلارن قد نهضَ ليتحدث، وفي ما يشبه الكابوس رأت وليم هاملي واقفاً إلى جانبِهِ، واخترقت كلمات الأسقفِ ويلارن كربها: «.... بفخرٍ وسعادةٍ كبيرتين أعلنُ لكم أنَّ الملكَ ستيفن قد سمَّى اللورد وليم رسمياً إيرلَ شايرنغ».

رغمَ ألمِ وخوفِ آليانا في اللحظةِ الحاليةِ فإنّ حالةً من الرعبِ تملكتها

عندما سمعت بهذا الخبر. منذُ ستةِ أعوامٍ، ومنذُ ذلكَ اليومِ الرهيبِ عندما رآيا والدهما في سجنِ وينشستر، كرَّست آليانا حياتها من أجلِ استعادةِ أملاكِ عائلتها، ونجت هي وريتشارد من اللصوصِ، والمُعتدين، والحريقِ، والحربِ الأهليةِ، وفي كثيرٍ من الأوقاتِ شعرا أنَّ النصرَ سيكونُ من نصيبهما، ولكن ها هما يخسران.

همهمَ المصلون في غضبٍ فجميعهم عانوا من أفعالِ وليم وما زالوا يعيشون في خوفٍ منه؛ ولذلك لم يكونوا سعداء برؤيتهِ يُكرَّم من قبلِ الملكِ الذي يُفترضُ بهِ أن يحميهم. نظرت آليانا حولها باحثةً عن ريتشارد لمعرفةِ ردِّ فعلهِ على هذهِ الضربةِ القاصمةِ، ولكنها لم ترهُ.

وقفَ رئيسُ الديرِ فيليب ووجهه يفورُ غضباً، وبدأ بغناءِ الترانيم، ثمَّ لحقَ بهِ المصلونَ، وبدأوا الغناءَ بفتورٍ. استندت آليانا إلى أحدِ الأعمدةِ عندما شعرت بانقباضٍ جديدٍ. لم يلحظها أحدٌ، وبطريقةٍ ما جعلتها الأخبارُ السيئةُ تهدأُ، وقالت في نفسها: «أنا أنجبُ طفلاً، وهذا ليسَ بالأمرِ الجللِ بل يحدثُ كلَّ يومٍ. أحتاجُ إلى العثورِ على مارثا، أو ريتشارد، وهما سيتكفلان بكلِّ شيءٍ».

انحسرَ ألمها وهي تشقُّ طريقها بينَ المُصلين باحثةً عن مارثا. رأت مجموعةً من النساءِ في الدهليز الواطئ فشقَّت طريقها نحوهن. حدَّق إليها الناسُ في فضولٍ، ولكن اهتمامهم كان مُنصباً على أمرٍ آخر، على ضجةٍ غريبةٍ أشبهُ بالقعقعةِ. في البدايةِ كانَ صوتُ القعقعةِ خفيضاً، ومتداخلاً مع الغناءِ، ولكن سرعان ما طغى صوتُ القعقعةِ على أصواتِ المغنين.

وصلت آليانا إلى مجموعةِ النساءِ اللواتي كُنَّ ينظرنَ من حولهن باحثات عن مصدرِ الضجةِ. وضعت آليانا يدها على كتفِ إحداهنَّ وسألتها: «هل رأيتِ شقيقةَ زوجي مارثا؟»

نظرت المرأةُ إليها، وعرفتها آليانا؛ فقد كانت هيلدا زوجةَ الدبَّاغ. «أعتقدُ أنَّ مارثا على الجانبِ الآخر»، قالت هيلدا ثمَّ أصبحَ صوتُ القعقعةِ أعلى وإلى درجةٍ تصمُّ الآذان؛ فأشاحت بنظرها.

نظرت آليانا إلى حيثُ نظرت هيلدا. في وسطِ الكنيسةِ كان الجميعُ ينظرون إلى أعلى الجدرانِ، ومدَّ الناسُ في الممرّاتِ الجانبيةِ رؤوسهم

من بينِ قناطرِ المجازِ لرؤيةِ ما يحدث. أطلقَ أحدهم صرخةً، ورأت آليانا صدعاً في الجدارِ البعيدِ يمتدُ بينَ نافذتين من النوافذِ العلويةِ. وبينما كانت تنظرُ سقطت قطعُ حجارةٍ كبيرةٍ فوقَ الحشدِ وسطَ الكنيسةِ. علت أصوات الصراخِ والصياحِ، وبدأ الجميع بالهربِ.

شعرت آليانا بالأرضِ تميدُ من تحتَ قدميها، وحتّى خلال محاولتها شقَّ طريقها خارجَ الكنيسةِ كانت تعي أنَّ قممَ الجدرانِ العلويةِ تتباعدُ، والقناطر المدورة تتصدعُ. زوجةُ الدباغ التي كانت أمامها سقطت أرضاً. تعثرت آليانا بجسدِ هيلدا، وسقطت فوقها، وبينما كانت تحاول النهوض هطلَ عليها مطرٌ من الحجارةِ الصغيرةِ، ثمَّ رأت سقفَ الممرّ الواطئ يتصدع وينهار. شعرت آليانا بشيءٍ يسقطُ على رأسها ثمَّ أُغمي عليها.

***

كان فيليب قد بدأ مراسمَ القداسِ بفخرٍ وامتنانٍ؛ فعلى الرغمِ من ضيقِ الوقتِ فإنَّ العملَ على القُبةِ المُقنطرةِ قد انتهى في الوقتِ المناسبِ.

في حقيقةِ الأمرِ لم تُسقف سوى ثلاث حجيراتٍ من حجيراتِ المذبحِ؛ فلا يمكن سقفُ الحجيرةِ الرابعةِ قبلَ الانتهاءِ من بناءِ التقاطع ووصل جدران المذبحِ ذات الأطرافِ المتعرجةِ بجناحي الكنيسةِ، ولكن سقف الحجيراتِ الثلاث كان كافياً. نُظفت الكنيسةُ من معداتِ البنَّائين، وأكوامِ الحجارةِ، والأخشابِ، وأجزاءِ السقالاتِ، وأكوامِ البقايا والنفايات، وكُنِسَ المذبحُ ونُظفَ، ووفقَ الأعرافِ طلى الرهبانُ الحجارةَ بدهانٍ أبيضٍ، ورسموا خطوطاً حمراء مستقيمة على طولِ الملاطِ كي يبدو المكانُ أكثرَ أناقةً مما هو في الحقيقةِ، ورغمَ أنَّهم نقلوا المذبحَ، وعرشَ الأسقفِ من السردابِ فإنَّ رفاتَ القديسِ أدولفوس داخلَ التابوتِ الحجري بقي في مكانه في الأسفلِ لأنَّ نقله يتطلبُ مراسم مهيبةً تدعى بالـ «النقلِ»، وسيقومون بهذهِ العملية في ذروةِ صلاةِ اليومِ. مع بدءِ المراسمِ، والأسقفُ على عرشِهِ، والرهبانُ مُصطفّون خلفَ المذبحِ، وسكانُ البلدةِ محتشدون في وسطِ الكنيسةِ، وفي الممرّاتِ الجانبيةِ. غمرَ فيليب شعورٌ بالامتلاءِ، وشكرَ الرَّبَّ في سرِّهِ على نجاحهِ في إنهاءِ الجزءِ الأولِ والحسَّاسِ من عمليةِ إعادةِ بناءِ الكاتدرائيةِ.

عندما قامَ ويلارن بالإعلان عن أنَّ وليم أصبحَ إيرلاً استشاطَ فيليب

غضباً، ولم يكن لديه شكٌ أنَّه خططَ لهذا كي يشوشِ على سكانِ البلدةِ انتصارهم هذا اليومِ، ويذكرهم أنَّهم ما زالوا تحتَ رحمةِ سيِّدهم المتوحِّشِ، وعندما علا صوتُ القعقعةِ كان فيليب يبحثُ بجنونٍ على ردِّ الفعلِ المناسبِ على هذا الإعلانِ.

كان الأمرُ أشبهَ بكابوسٍ يزورُ فيليب في نومِهِ أحياناً حيثُ يرى نفسَه يسيرُ على سقالة عاليةٍ جداً، وبثقةٍ شديدةٍ بأمانها، ولكنه بعدَ قليلٍ يلحظُ عقدةً محلولةً في الحبالِ التي تربطُ قُضبانَ السقالةِ بعضها ببعض. لم يكن الأمرُ خطيراً جداً، ولكنه عندما انحنى لشدِّ العقدةِ مالت القطعةُ الخشبيةُ التي وقفَ عليها، قليلاً في البدايةِ، ولكن بما يكفي ليفقدَ توازنهُ ثمَّ، وبلمحِ البصرِ، سقط عبرَ الفراغِ الشاسعِ من أعلى مذبحِ الكاتدرائيةِ ووقعَ أرضاً بسرعةٍ مرعبةٍ، وهو يعرفُ حقَّ المعرفةِ أنَّه ميتٌ لا محالةٍ.

بدايةً، شعرَ بالحيرةِ حيالَ صوتِ القعقعةِ، ولوهلةٍ اعتقدَ أنَّه صوتُ الرعدِ، ولكن الصوتَ علا أكثر، وتوقفَ الناسُ عن الغناءِ. حتَّى هذا الوقتِ اعتقدَ فيليب أنَّ الصوتَ سببهُ ظاهرةٌ غريبة سيتضحُ مصدرها بعدَ قليلٍ، ولن تتعدى تبعاتها أكثر من مقاطعةِ مراسم الصلواتِ، ثمَّ نظرَ إلى الأعلى.

في الحجيرةِ الثالثةِ حيثُ أُزيلَ القالبُ هذا الصباح لاحظَ تصدعات في الحجارةِ أعلى الجدران على مستوى النوافذ العلويةِ. ظهرت هذهِ التصدعات بشكلٍ مفاجئ وخاطفٍ، وامتدت من نافذةٍ إلى أخرى كأنَّها أفاعٍ تظهرُ على حينِ غرَّةٍ. في البدايةِ شعرَ فيليب بخيبةِ الأملِ؛ فقد كانَ سعيداً بانتهاءِ العملِ على مذبحِ الكنيسةِ، ولكنه عندما رأى التصدعات فكّرَ أنَّ عليهِ القيام بإصلاحاتٍ، وسيقول له جميعُ من انبهرَ جداً بعملِ البنَّائين: «في العجالةِ الندامة». عندما بدا له أنَّ الجدران تميلُ باتجاهِ الخارجِ، أدركَ، وفي رهبةٍ شديدةٍ، أنَّ عواقبَ الأمرَ أكبرُ من مقاطعةِ الصلواتِ، وأنَّ كارثةً تلوحُ في الأفقِ.

ظهرت التصدعات في القنطرةِ المزخرفةِ، وبدأ أحد الحجارة الكبرى ينفصلُ عن بقيةِ الحجارةِ ثمَّ سقط أرضاً. بدأ الناسُ يصرخون مرتعبين، ويحاولون تفادي الحجرةِ الكبيرةِ، وقبلَ أن تتسنى الفرصةُ لفيليب للاطمئنان على الناسِ تساقطَ المزيدُ من الحجارةِ. دبَّ الفزعُ في أوصالِ

المُصلين، وبدأوا بالدفعِ والتدافعِ، والسقوط فوقَ بعضهم، وهم يحاولون تفادي الحجارة المتساقطةِ. وهنا خطرَ لفيليب خاطرٌ غريبٌ، وهو أنَّ ما يحدث الآن هجومٌ آخر من قبلِ وليم هاملي على كينغزبريدج، ولكنه عندما نظرَ إلى وليم في مقدمةِ حشدِ المُصلين، ورآه يضربُ الناسَ من حولهِ، والرعبُ بادٍ على وجههِ في محاولةٍ للنجاةِ بحياتهِ أدركَ أنَّ وليم لن يفعلَ هذا لنفسهِ.

حاول معظمُ الناسِ الابتعاد عن المذبحِ، ومغادرة الكاتدرائيةِ من الطرفِ الغربي المفتوحِ، ولكن هذا الطرف من الكنيسةِ -الطرف المفتوح- كان الجزء الذي ينهار. رأى فيليب أنَّ المشكلةَ في الحُجيرةِ الثالثةِ، أمَّا الحجيرةُ الثانيةُ فقد بدت قنطرتها متماسكةً، وخلفهُ في الحجيرةِ الأولى حيثُ اصطفَّ الرهبان بدت القنطرةُ متينة، وعلى ذلك الطرفِ كانت الجدرانُ المقابلةُ والمتصلةُ بالواجهةِ الشرقيةِ للكاتدرائيةِ متماسكةً.

وقعَ نظرُ فيليب على الصغيرِ جوناثان وجوني إيتبنس متكورين على نفسيهما في أقصى الممرّ الشمالي، وفكرَ فيليب أنَّهما في أمانٍ أكثرَ من أيِّ مكانٍ آخر ثمَّ فكرَ أنَّ عليهِ محاولة قيادةِ بقيةِ رعيتهِ إلى مكانٍ آمنٍ. «اذهبوا في هذا الاتجاه!» صرخَ فيليب. «جميعكم! تحركوا في هذا الاتجاهِ!» وسواء سمعوا صراخهُ، أم لم يسمعوه بدا له أنَّ ما من أحدٍ اهتمَّ.

في الحجيرةِ الثالثةِ بدأ القسم العلوي من الجدرانِ يتداعى، ويهوي باتجاهِ الداخلِ، والقنطرة بأكملها تنهارُ، وتتساقطُ حجارةٌ كبيرةٌ وصغيرةٌ كحباتِ بَردٍ قاتلةٍ فوقَ رؤوسِ المُصلين الخائفين. اندفعَ فيليب إلى الأمامِ، وأمسكَ بأحدِ سكانِ البلدةِ ثمَّ صرخَ: «عُد!» ودفعَ بالرجلِ باتجاهِ الطرفِ الشرقي من الكنيسةِ. رأى الرجلُ الرهبانَ جاثمين قبالة أقصى جدارٍ فهرع باتجاههم. كررَ فيليب ما فعلهُ مع الرجلِ والمرأتين، وهنا أدركَ الناسُ من حولهم ما يقومُ بهِ فيليب فتحركوا باتجاهِ الطرف الشرقي للكنيسةِ، ومن دونِ تدافعٍ. بدأ بقيةُ الناسِ يعون الفكرةَ، ومن كانوا في مقدمةِ حشدِ المُصلين تحركوا شرقاً. ألقى فيليب نظرةً سريعةً على الحجيرةِ الثانيةِ، وهلعَ عندما رأى أنَّها على وشكِ أن تُلاقي مصيرَ الحجيرةِ الثالثةِ؛ فقد انتشرت ذات الصدوع الأفعوانيةِ بينَ النوافذِ العلويةِ والقنطرةَ فوقَ رؤوسهم. استمرَّ فيليب بدفعِ

الناسِ باتجاهِ الطرفِ الشرقي الآمن عالماً أنَّ كلَّ من يدفعهُ يُنقذُ حياتهُ. شعرَ بمطرٍ من قطعِ الملاطِ المتساقطةِ ينهمرُ فوقَ رأسهِ الحليقِ ثمَّ بدأت الحجارةُ بالتساقطِ. تفرَّقَ الناسُ، ولجأ بعضهم إلى الممرّاتِ الجانبيةِ، وآخرون احتشدوا قبالةَ الجدارِ الشرقي، ومن بينهم الأسقفُ ويلارن، بينما ما زال البقيةُ يحاولون الخروجَ من الطرفِ الغربي زاحفين فوقَ الركامِ والجثثِ في الحجيرةِ الثالثةِ. وقع أحد الحجارةِ المتساقطةِ على كتفِ فيليب. كانت الضربةُ سريعةً، ولكن مؤلمةً. وقفَ وحيداً في الحجيرةِ الثانيةِ بينما الجميعُ على أطرافِ منطقةِ الخطرِ. فكرَ أنَّه قام بكلِّ ما بوسعهِ الآن، وركضَ باتجاهِ الطرفِ الشرقي للكنيسةِ.

عندما وصلَ إلى الطرفِ الشرقي استدارَ مجدداً ونظرَ إلى الأعلى. كانَ قسمُ النوافذ العليا في الحُجيرةِ الثانيةِ قد بدأ بالتساقطِ، وانهارت القنطرةُ فوقَ المذبحِ وفقَ نمطَ الانهيارِ ذاتهِ الذي انهارت فيهِ الحجيرةُ الثالثةُ، ولكن الضحايا هذهِ المرة كانوا أقل لأنَّ الناسَ الآن ابتعدوا، وهربوا، ولأنَّ أسقفَ الممرّاتِ الجانبيةِ بدت متماسكةً على عكسِ جدرانِ الحجيرةِ الثالثةِ. جميعُ من كانَ في الطرفِ الشرقي تراجعوا إلى الوراءِ، والتصقوا بالجدارِ، وأنظارهم إلى الأعلى يراقبون القنطرةَ، وإن كانَ الانهيار سيصلُ إلى الحُجيرةِ الأولى. بدا أنَّ صوتَ تساقطِ الحجارةِ الآن أقل صخباً، ولكن غمامةً من الغبارِ والحجارةِ الصغيرةِ غطت المكان لبضعِ دقائقٍ عجز الجميع خلالها عن رؤيةِ أيِّ شيءٍ. حبسَ فيليب أنفاسهُ، وعندما انقشعَ الضبابُ باتَ قادراً على رؤيةِ القنطرةِ مجدداً. كانت القنطرةُ قد انهارت فوقَ حافةِ الحُجيرةِ الأولى غيرَ أنَّ انهيارها توقفَ الآن وبدا ما تبقى منها متماسكاً.

تراجعَ الغبارُ، واستقرَّ، وعمَّ الهدوء المكانَ. حدَّقَ فيليب مشدوهاً إلى كنيستهِ المُدمرةِ، التي لم يبقَ منها سليماً سوى الحُجيرةِ الأولى. كانت جدرانُ الحُجيرةِ الثانيةِ متماسكةً حتَّى مستوى شرفةِ المنبرِ، ولكنَ في الحجيرتين الثالثةِ والرابعةِ لم يبقَ شيءٌ سوى الممرّات الجانبيةِ التي كانت متضررةً بشدةٍ، أمَّا أرضيةُ الكنيسةِ فقد استحالت إلى كومةٍ من الركامِ والجثثِ الهامدةِ وأجسادٍ تتحركُ بضعفٍ. ها هي سبعُ سنواتٍ من العملِ، ومئاتُ الجنيهاتِ، وعشراتُ القتلى، ربما مئاتٌ، تذهبُ هباءً خلالَ بضعِ لحظاتٍ رهيبةٍ. تحسر

فيليب على كلِّ العملِ الضائعِ، وعلى الأرواحِ التي زُهقت، وعلى الأيتامِ والأراملِ الذين خلَّفتهم هذهِ الكارثة، وامتلأت عيناه بدموعٍ مريرةٍ.

همسَ صوتٌ غليظٌ في أذنهِ قائلاً: «هذا ما تأتى عن عجرفتكَ اللعينة يا فيليب!»

استدارَ فيليب، ورأى الأسقفَ ويلارن بثيابه السوداء المُغبرةِ الآن يحدِّقُ إليهِ في ظفرٍ، وهنا شعرَ فيليب كأنَّه تلقى طعنةً. إنَّ رؤيةَ كارثةٍ كهذهِ تفطرُ القلبَ، ولكن تلقي اللومَ عليها أمرٌ لا يُمكنه احتمالهُ. أرادَ أن يقولَ له: «لم أبذل سوى أفضل ما بوسعي!» ولكن الكلمات خانتهُ، وبدا له أنَّ صوته خانه، وعجزَ عن الكلامِ.

وقعَ نظرهُ على جوني إيتبنس والصغير جوناثان يخرجان من مكانهما في الممرّ، وفجأةً تذكرَ مسؤولياتهِ. سيكون لديهِ ما يكفي من الوقتِ لاحقاً للتفكيرِ، وتحملِ اللومِ، فحالياً هناك عشراتُ الجرحى وكثيرٌ من العالقين تحتَ الركامِ. كان عليهِ أن ينظّم عمليةَ إنقاذٍ. حدَّقَ إلى الأسقفِ ويلارن، وقال بضراوةٍ: «ابتعد عن طريقي!» ابتعدَ الأسقفُ المشدوه عن الطريقِ، وقفزَ فيليب من فوقِ المذبحِ.

«أصغوا إلي!» نادى فيليب بأعلى صوتهِ. «يجب أن نهتمَّ بالجرحى، وننقذَ الناس العالقين تحتَ الركامِ، ودفن الموتى، والصلاةِ على أرواحهم. سأقوم بتعيين ثلاثة قادةٍ لتنظيمِ سيرِ هذهِ العمليةِ»، ثمَّ نظرَ إلى الوجوهِ حولهِ يُحصي الأحياءَ والسليمين، ولمحَ آلفريد فقال: «البنّاءُ آلفريد مسؤول عن إزالةِ الركامِ، وإنقاذِ العالقين، وعلى جميع البنّائين والحرفيين العملَ معهُ».

عندما نظرَ إلى الرهبانِ شعرَ بالراحةِ لأنَّ أخلصَ أصدقائهِ –ميليوس– لم يكن مصاباً. «أمَّا أمين الصندوقِ ميليوس فسيكون المسؤول عن نقلِ الجثثِ، والمصابين خارجَ الكنيسةِ، وسيحتاجُ إلى مساعدين شبان وأقوياء، والمُعالج راندولف سيهتمُ بالجرحى حالما يتمُّ إخراجهم من هذهِ الفوضى، ويمكن لكبارِ السنِ مساعدتهِ، وبالأخصِّ النساءُ العجائز. حسناً، فلنباشر». وقفزَ من أعلى المذبحِ. سرت همهمةٌ بينَ الناسِ الذين بدأوا بإعطاءِ الأوامرِ، وطرحِ الأسئلةِ.

توجه فيليب نحو آلفريد ووجدهُ منهاراً وخائفاً. إن كان اللومُ في هذا

سيقعُ على أحدٍ؛ فسيقعُ عليهِ لأنَّه كبيرُ البنائين، ولكن الوقتَ الآن لم يكن مناسباً لتبادلِ التُهمِ. قال فيليب لآلفريد: «نظّم عمالكَ في فرقٍ، وأرسل كلَّ فرقةٍ للعملِ على منطقةٍ معينةٍ».

لوهلةٍ بدا وجه آلفريد شاحباً ثمَّ استعاد لونه الطبيعي وقال: «أجل، حسناً. سنبدأ بالطرفِ الغربي، وسننقلُ الركامَ إلى الخارجِ».

«جيدٌ»، قال فيليب وتركه وهو يشقُّ طريقهُ بينَ الحشدِ باتجاه ميليوس. كان ميليوس يقول للناسِ: «احملوا المصابين بعنايةٍ خارجَ الكنيسةِ، وضعوهم على المرج، أمَّا الموتى فاحملوهم إلى الطرفِ الشمالي». تحرَّك فيليب بعيداً عن ميليوس، وهو على ثقةٍ من أنَّ الأخيرَ سيقومُ بعملهِ على أكملِ وجهٍ، ثمَّ رأى المُعالج راندولف يصعدُ فوقَ الركامِ، وسارعَ فيليب إلى اللحاق بهِ. اختارَ كلا الرجلين موطئ أقدامهما بعنايةٍ فوقَ أكوامِ الحجارةِ. خارجَ الطرفِ الغربي من الكنيسةِ وقفَ حشدٌ من الناسِ ممن هربوا قبلَ انهيار الحجيرة الثانية ونجوا من الإصابةِ. «استعن بأولئكَ الناس»، قال فيليب لراندولف ثمَّ أضاف: «أرسل أحداً إلى المستشفى ليجلبَ معداتكَ ولوازمكَ، واطلب من آخرين التوجه إلى المطبخِ، وجلب ماءٍ ساخنٍ. اطلب من وكيلِ المؤنِ أن يعطيكَ نبيذاً قوياً كي يستعيد الضعفاءُ قواهم. ولتحرص على وضعِ الموتى والمصابين في صفوفِ مرتبةٍ مع مسافاتٍ بينها كيلا يقع المساعدين فوقَ الأجسادِ».

نظرَ فيليب حولهِ، ورأى أنَّ الناجين قد بدأوا بالعملِ، والعديدُ ممن لجأوا إلى الطرفِ الشرقي السليم من الكنيسةِ لحقوا بفيليب فوقَ الركامِ، وبدأوا ينتشلون الموتى والجرحى. كان هناك مصابٌ، أو مصابان دائخان من الصدمةِ قد بدآ ينهضان على أقدامهما من دونِ مساعدةٍ. رأى فيليب امرأةً عجوزاً جالسةً على الأرضِ، وعلائمُ الحيرةِ على وجهها. عرفها فيليب؛ فقد كانت مود سيلفر أرملةَ صائغ الفضةِ. ساعدها على النهوضِ، وقادها بعيداً عن الركامِ. «ماذا حدثَ؟» سألتهُ مود دونَ أن تنظرَ إليه. «لا أعلمُ ما الذي حدثَ».

«ولا أنا يا مود»، قال فيليب.

عندما استدارَ لمساعدةِ شخصٍ آخر رنَّت كلماتُ الأسقفِ ويلارن في

أذنهِ مجدداً: «هذا ما تأتى عن عجرفتك اللعينة يا فيليب!» آلمه الاتهامُ في الصميمِ، واعتقدَ أنَّ ويلارن قد يكون مُحقاً. لطالما اندفعَ باتجاهِ تحقيقِ المزيدِ والأفضلِ وبشكلٍ سريعٍ؛ فقد أصرَّ على آلفريد ليُنهي العملَ على القنطرةِ تماماً كما أصرَّ على إقامةِ سوقِ الصوفِ، وعلى الحصولِ على مقلعِ إيرل شايرنغ، وكانت النتيجةُ في الأمثلةِ الثلاثة كارثيةً: ذُبحَ عمالُ المقلعِ، واحترقت كينغزبريدج، وهذهِ الكارثةُ الآن. لم يكن هناك مجالٌ للشكِّ أنَّ الملام هنا طموحه. لطالما أبلى الرهبانُ جيداً بعيشِ حياة الاعتكافِ، وقبولِ محنِ ونكسات هذا العالمِ بوصفها دروساً في الصبرِ من الرَّبِّ.

وبينما كان فيليب يساعدُ في نقلِ الجرحى المتألمين، وجثثِ الموتى خارجَ الكنيسةِ المُدمرةِ، قررَ في نفسهِ أنَّه في المستقبلِ سيتركُ الطموحَ والإصرارَ للرَّبِّ، وأنَّه سيقبلُ، ومن دونِ اعتراضٍ، بما يجلبهُ. إن أرادَ الرَّبُّ كاتدرائيةً فسيؤمن مقلعاً، وإن أُحرقت البلدةُ بسببِ سوقِ الصوفِ؛ فهذهِ إشارةٌ منه على أنَّ هذه ليست إرادته، وانهيارُ الكنيسةِ الآن إشارةٌ منه أنَّ إعادةَ بنائها ليست مشيئته، ولذلك لن يعيدَ بناءها.

عندما وصلَ فيليب إلى هذا القرارِ رأى وليم هاملي.

كان إيرل شايرنغ الجديد جالساً على الأرضيةِ في الحجيرةِ الثالثةِ قربَ الممرّ الشمالي بوجهٍ عفَّره الغبارُ، ويرتعشُ من الألمِ بسببِ قدمِهِ العالقةِ تحتَ حجرةٍ كبيرةٍ. وبينما كان فيليب يحاولُ إزاحةَ الحجرِ تساءل في نفسهِ عن العبرةِ من قبضِ الرَّبِّ على أرواحِ العديد من الناسِ الطيبين، والإبقاءِ على روحِ وحشٍ كوليم.

كان وليم يثيرُ هرجاً ومرجاً بسببِ ألمٍ في قدمِهِ، وباستثناءِ هذهِ الإصابةِ كان بخيرٍ. ساعدوه في النهوضِ على قدميهِ. اتكأ على كتفِ رجلٍ ضخمٍ في حجمِهِ، وبدأ يشقُّ طريقهُ، وهو يثبُ على قدمِهِ السليمةِ، وهنا سُمعَ بكاءُ طفلٍ.

سمعَ الجميعُ البكاءَ، ولكن لم يكن هناكَ أطفالٌ في الأرجاءِ. نظرَ الجميعُ من حولهم في حيرةٍ. سمعوا البكاءَ مجدداً، وأدركَ فيليب أنَّه قادمٌ من تحتِ كومةٍ كبيرةٍ من الحجارةِ في الممرّ. «هنا!» نادى بصوتٍ عالٍ، والتقت عيناه بعيني آلفريد فأومأ له ليوافيَه. «يوجد طفلٌ حي تحتَ الأنقاضِ»، قال فيليب لآلفريد.

أصغى الجميعُ إلى صوتِ البكاءِ، وبدا أنَّه لرضيعٍ صغيرٍ جداً لا يتعدى عمرهُ الأشهرَ. «أنتَ على حقٍ»، قال آلفريد. «لنُزحْ بعضَ هذهِ الحجارةِ الكبيرةِ»، وانبرى بمساعدةِ فريقهِ على إزاحةِ الحجارةِ من الكومةِ التي تسدُّ الممرّ المقنطرَ للحُجيرةِ الثالثةِ. انضمَّ فيليب إليهم، وهو يتساءل عن المرأةِ التي قد تكون أنجبت في الأسابيعِ القليلةِ الماضيةِ. بالطبعِ لن يعلم من هذه المرأة التي أنجبت حديثاً، رغمَ أنَّ البلدةَ غدت أصغر في العامِ الماضي، لكن مثل هذا الحدثِ لا يزال كبيراً بما يكفي ليعلمَ بهِ.

توقفَ بكاءُ الرضيعِ فجأةً. وقفَ الجميعُ وأصغوا، ولكن البكاءَ لم يتكرر. عاودوا العملَ بعنادٍ مُحركين الحجارةَ. كان عملاً خطيراً لأنَّ تحريكَ حجرٍ من مكانهِ قد يتسببِ بتساقطِ حجارةٍ أخرى، ولهذا كلَّفَ فيليب آلفريد بهذهِ المهمةِ. على أيِّ حالٍ لم يكن آلفريد حذراً كما تمنَّاه فيليب أن يكون؛ فقد سمحَ للجميعِ بالعملِ كيفما اتفقَ، وسحبوا الحجارةَ من دونِ خطةٍ متكاملةٍ، ولذلكَ وفي مرحلةٍ ما تحرَّكت الكومةُ بأكملها على نحو خطيرٍ، وصرخَ فيليب: «توقفوا!»

توقفَ الجميعُ عن العملِ. أدركَ فيليب أنَّ صدمةَ آلفريد بالانهيارِ كبيرةٌ جداً، وجعلتهُ عاجزاً عن تنظيمِ الناسِ بشكلٍ مناسبٍ، وهذا يعني أنَّه على فيليب القيام بالأمرِ بنفسهِ. قال فيليب: «إن كان أحدٌ على قيدِ الحياةِ تحتَ هذهِ الكومةِ؛ فلا بدَّ أنَّ شيئاً يحميهِ، ولذلكَ إن تحركت الكومةُ قد يتحركُ معها ما يحميهِ، ويُقتل هذا الشخص بسببِ جهودنا في إنقاذهِ، لذلك دعونا نعمل بحذرٍ وعنايةٍ». أشارَ إلى ثلاثةِ بنائين يقفون بعضهم قربَ بعض وخاطبهم قائلاً: «أنتم الثلاثة، تسلقوا الكومةَ، وأزيحيوا الحجارةَ من الأعلى، وبدلاً من نقلها بعيداً بأنفسكم مرروها من أحدكم إلى الآخر، ونحن سنتكفلُ بنقلها بعيداً».

عاود الرجالُ العملَ، ولكن هذهِ المرة وفقَ خطةِ فيليب، وبدت وتيرةُ الحركةِ أسرع وأكثرَ أماناً.

كان الرضيع الآن قد توقفَ عن البكاءِ، ولذلكَ شعروا بالحيرةِ حيالَ الجهةِ التي يجبُ عليهم العملُ فيها. قاموا بتنظيفِ مساحةٍ واسعةٍ بعرضِ الحُجيرةِ تقريباً. كان جزءٌ من الركامِ من القُبةِ المُقنطرةِ المُنهارةِ، إلَّا أنَّ سقفَ

الممرّ مُنهارٌ بشكلٍ جزئي، ولذلكِ بينَ الأنقاضِ خشبٌ وألوح القُبةِ الحجريةِ إضافة إلى الحجارةِ والملاطِ.

انكبَّ فيليب على العملِ بحميةٍ، وأرادَ للطفلِ أن ينجو. وعلى الرغمِ من علمهِ أنَّ العشراتِ قد ماتوا، فإنَّ الرضيعَ بدا له أكثرَ أهميةً. إن تمَّ إنقاذهُ فسيبقى هناكَ أملٌ في المستقبلِ. وبينما كان فيليب يرفعُ الحجارةَ، ويسعلُ، وقد أعماهُ الغبار صلَّى في سِرَّهِ كي يجدَ الطفلَ حيّاً.

وأخيراً ومن فوقِ كومةِ الركامِ تمكنَ فيليب من رؤيةِ الجزء الخارجي من جدارِ الممرّ، وطرفٍ من أطرافِ نافذةٍ عميقةٍ في الجدارِ. بدا له أنَّ هناك فراغاً خلفَ الركامِ، وقد يكون أحدهم على قيدِ الحياةِ داخلَ هذا الفراغ. تسلَّقَ أحدُ البنَّائين بحذرٍ شديدٍ الكومةَ، ونظرَ إلى الفراغِ ثمَّ صاحَ في عجبٍ: «يا يسوع!»

تجاهلَ فيليب تجديفَ البنَّاءِ وسألهُ: «هل الرضيعُ بخير؟»

«لا يمكنني رؤيته»، قال البنَّاء.

أرادَ فيليب أن يسأل البنَّاء عمَّا رآه، أو ربما يجبُ أن يلقي نظرةً بنفسهِ، ولكن الرجلَ تابعَ إزاحةَ الحجارةِ بحميَّةٍ جديدةٍ، ولذلكَ لم يكن هناك ما يمكن لفيليب القيام بهِ سوى الاستمرار بالمساعدةِ مدفوعاً بفضولٍ قاتلٍ.

تراجع مستوى الكومةِ بسرعةٍ كبيرةٍ، وكان هناك حجر كبير على المستوى الأرضي يحتاج إلى ثلاثةِ رجالٍ لتحريكه. عندما أزاحَ الرجالُ الحجر الكبير رأى فيليب الطفلَ.

كان الرضيعُ حديثَ الولادةِ ببشرةٍ بيضاء، وملطخاً بالدمِ وبغبارِ الركامِ، ولكن فيليب رأى أنَّ شعرَ رأسهِ بلونٍ جزري فاقعٍ، والحبلُ السري الذاوي ناتئ من منتصف بطنهِ الصغير المدور. نظرَ فيليب عن كثبٍ، ورأى أنَّه صبي. كان الطفلُ على صدرِ امرأةٍ يرضعُ، وطارَ فيليب فرحاً عندما علمَ أنَّ الطفل ما زالَ على قيدِ الحياةِ، ثمَّ نظرَ إلى المرأةِ، ووجدَ أنَّها على قيدِ الحياةِ أيضاً. التقت عينا فيليب بعيني المرأةِ فابتسمت له ابتسامة متعبةً وسعيدةً.

كانت آليانا.

***

لم تعد آليانا إلى منزلِ آلفريد قط.

أخبرت الجميعَ أنَّ الطفلَ لم يكن طفلهُ، وأشارت إلى شعرهِ الأصهب في دليلٍ قاطعٍ على أنَّه بلون شعر جاك، ولكن آلفريد لم يحاول أذية الطفلِ، أو أذيتها، واكتفى بالقولِ إنَّه لن يستقبلهما في بيتهِ.

عادت آليانا للعيشِ مع شقيقها ريتشارد في منزلها الصغيرِ الذي يقعُ في الحي الفقيرِ من البلدةِ. كانت تشعرُ براحةٍ كبيرةٍ لأنَّ انتقامَ آلفريد، وعلى عكسِ ما توقعت، لم يكن عنيفاً، وكانت أيضاً سعيدةً لأنَّها لن تعودَ إلى النوم أرضاً عندَ أسفلِ سريرهِ ككلبةٍ، غير أنَّها، وبشكلٍ رئيسي، كانت مبتهجةً وفخورةً جداً بطفلها الجميلِ. كان شعرُ الطفلِ أصهب، وعيناه زرقاوين، وبشرته ناصعة البياضِ، وذكَّرَها كثيراً بجاك.

بقي سببُ انهيارِ الكنيسةِ مجهولاً، ولكن تداول الناسُ الكثيرَ من النظريات حولَ الأمرِ. قال البعضُ إنَّ آلفريد لم يكن رئيسَ بنائين ماهراً، بينما ألقى آخرون اللومَ على فيليب لاستعجالهِ في بناءِ القُبةِ المُقنطرةِ بحلولِ عيدِ العنصرةِ، وقال بعضُ البنَّائين إنَّ القوالب أُزيلت قبلَ أن يجفَّ الملاطُ جيداً، بينما قال بنَّاءٌ عجوزٌ إنَّ الجدران لم تكن مُجهزةٌ لحملِ وزنِ سقفٍ حجري.

قُتلَ تسعة وسبعون شخصاً، من بينهم أشخاصٌ ماتوا لاحقاً متأثرين بإصاباتهم، وقالَ الجميعُ إنَّ العددَ كان يمكن أن يكون أعلى لو لم يقد رئيسُ الديرِ فيليب الكثيرين إلى الطرفِ الشرقي من الكنيسةِ. كانت مقبرةُ الديرِ ممتلئةً منذُ حريقِ سوقِ الصوفِ في العام الماضي؛ ولذلكَ دُفنَ معظمُ الموتى في مقبرةِ كنيسةِ الأبرشيةِ، وقال الجميعُ إنَّ الكنيسةَ ملعونةٌ.

أخذَ آلفريد جميعَ بنَّائيهِ إلى شايرنغ حيثُ بنى منازل حجريةً لسكانِ البلدةِ الأثرياء، وانتقلَ بقيةُ الحرفيين من كينغزبريدج. في حقيقةِ الأمر لم يُصرف أحدٌ من العملِ، واستمرَّ فيليب بدفعِ الأجورِ، ولكن لم يكن هناكَ أيُّ أعمالٍ في المكان سوى تنظيفِهِ من الركامِ، وبعد بضعةِ أسابيع غادرَ الجميعُ البلدةَ، وتوقفَ المتطوعون عن القدومِ أيامَ الآحادِ، ولم يعد السوقُ أكثر من مجرَّد بضعةِ أكشاكٍ مثيرةٍ للشفقةِ، وحزمَ اليهودي مالاتشي وعائلتهُ متاعهُم وممتلكاتهم في عربةٍ كبيرةٍ يجرُّها ثوران، وغادرَ البلدةَ بحثاً عن بلدةٍ أثرى.

أجّر ريتشارد جوادهُ الأسود الأصيل إلى مزارعٍ، وعاشَ هو وآليانا على عائدِ

الإيجارِ. لم يكن قادراً على الاستمرارِ كفارسٍ من دونِ دعمِ آلفريد، علاوةً على هذا لم يعد هناك أيُّ فائدةٍ من الاستمرارِ في القتالِ بعد أن أصبح وليم إيرل شايرنغ. كانت آليانا ما تزال تشعرُ أنَّها مُلزمةٌ بوعدها لوالدها، ولكن لا يوجد الآن أيُّ طريقةٍ للوفاءِ بهذا الوعدِ. غرقَ ريتشارد في حياةِ الكسلِ؛ فقد كان ينهضُ متأخراً، ويجلسُ في الشمسِ معظمَ اليومِ، ويقضي الأماسي في الحانةِ.

بقيت مارثا في منزلِ أخيها، وعاشت وحدها مع خادمةٍ عجوزٍ، إلا أنَّها قضت معظمَ الوقتِ مع آليانا، وساعدتها في الاعتناء بالطفلِ، خاصةً أنَّه يشبهُ جاك الذي عشقتهُ. أرادت مارثا من آليانا أن تُسمي الطفلَ جاك، ولكن آليانا أبدت تردداً لسببٍ جهلته هي نفسها.

أمَّا بالنسبةِ لآليانا فقد كانت غارقةً في وهجِ الأمومةِ طوالَ الصيف، ولكن عندما حلَّ موسم الحصادِ، وباتَ الطقسُ ألطف بقليلٍ، وغدت الأماسي أقصر بدأت تشعرُ بالسخطِ.

وكلما فكرت بالمستقبلِ كان جاك حاضراً في ذهنها. غادرَ جاك كينغزبريدج دون أن تعرفَ الوجهةَ التي أخذها، وهو على الأغلبِ لن يعود، ولكنه ما زالَ يرافقها، ويسيطرُ على أفكارها، وتتخيلهُ مليئاً بالحياةِ والطاقةِ، وتشعرُ بوجودهِ بقوةٍ كأنَّه لم يغادر إلّا بالأمسِ. فكّرت بالانتقالِ إلى بلدةٍ أخرى، والادعاء أنَّها أرملة، أو محاولةِ إقناعِ ريتشارد بالعملِ، وجني المالِ بطريقةٍ ما، ثمَّ فكرت بالقيامِ بأعمالِ الغزلِ، أو الغسلِ، أو الخدمة في منزلِ أحدِ سكانِ البلدةِ الأثرياءِ على الرغم من قلّتهم، ولكنها ومع كلُّ فكرةٍ جديدةٍ تتخيلُ جاك يضحكُ في إزدراءٍ ويقول: «لا شيء سيرضيكِ من دوني». كانت ممارسةُ الحبِّ مع جاك صباحَ زفافها أكبرَ خطيئةٍ ارتكبتها، ولم يكن لديها أدنى شكٍ الآن أنَّها ستُعاقبُ على فعلتها هذهِ، ولكنها في أوقاتٍ أخرى اعتبرت فعلتها الشيء الوحيد الصائب الذي قامت بهِ طوالَ حياتها، وكلما نظرت إلى طفلها عجزت عن إجبارِ نفسها على الشعورِ بالندمِ على خطيئتها. على الرغم من هذا كلّه شعرت بالاستياءِ. لم يكن وجودُ الطفلِ كافياً؛ فقد شعرت أنَّ شيئاً ما في حياتها ناقصٌ وغير مكتملٍ. بدا لها منزلها صغيراً جداً، وكينغزبريدج بلدةٌ نصف ميتةٍ، والحياةُ هادئة أكثر من اللزوم، وبدأت تشعرُ بالضيقِ من الطفلِ، وعاملت مارثا بفظاظةٍ.

عندما انتهى فصلُ الصيفُ أعادَ المزارعُ الجوادَ إليهم؛ فهو لم يعد بحاجةٍ

إليهِ، وفجأةً وجدَ ريتشارد وآليانا نفسيهما من دونِ مدخولٍ. وفي يومٍ من أول أيامِ الخريفِ توجهَ ريتشارد إلى شايرنغ لبيعِ درعهِ. أثناءَ غيابهِ، وبينما كانت آليانا تتناولُ تفاحةً على الغداءِ بغرضِ توفيرِ المالِ دخلت والدةُ جاك إلى المنزلِ.

«إيلين!» صاحت آليانا في ذعرٍ أكثر مما هو من المفاجأةِ؛ فقد لعنت إيلين زفافاً كنسياً، وقد يعاقبها رئيسُ الديرِ فيليب إن رآها.

«أتيت لرؤيةِ حفيدي»، قالت إيلين بهدوءٍ.

«ولكن كيفَ علمتِ...؟»

«ستصلكُ الأخبارُ حتَّى وإن عشتِ في الغابةِ»، قالت إيلين ثمَّ توجهت إلى المهدِ في الزاويةِ، وحدَّقت إلى الطفلِ النائمِ. رقَّت ملامحها وقالت: «حسناً، ما من شكٍ بهويةِ والدِ هذا الطفلِ. هل هو بصحةٍ جيدةٍ؟»

«لم يعان من شيءٍ البتةِ، ورغمَ أنَّه صغيرٌ فإنَّه قوي»، قالت آليانا بفخرٍ ثمَّ أضافت: «كجدتهِ»، ثمَّ ألقت على إيلين نظرةً فاحصةً، ولاحظت أنَّ بنيتها أكثر متانةً مما كانت عليه عندما غادرت، وبشرتها أكثر اسمراراً. ارتدت سترةً جلديةً قصيرةً تكشفُ عن ربلتي ساقيها السمراوين، وكانت حافيةَ القدمين. بدت شابةً ورشيقةً. يبدو أنَّ حياةَ الغابةِ تلائمها. فكرت آليانا أنَّها لا بدَّ أن تكونَ في الخامسةِ والثلاثين.

«تبدين بصحةٍ جيدةٍ»، قالت آليانا.

«أفتقدكم جميعاً»، قالت إيلين. «أفتقدكِ، وأفتقدُ مارثا، بل حتَّى شقيقكِ ريتشارد. أفتقدُ جاك، وأفتقدُ توم»، واكتسى وجهها بالحزنِ.

ولأنَّ آليانا كانت ما تزالُ تشعرُ بالقلقِ على سلامتها سألتها: «هل رآكِ أحدٌ وأنت قادمةٌ إلى هنا؟ ربما ما زالَ الرهبان راغبين بمعاقبتكِ».

«ما من راهبٍ في كينغزبريدج يمتلكُ الجرأة على اعتقالي»، قالت إيلين بابتسامةٍ ثمَّ أضافت: «ولكنني توخيتُ الحذرَ، ولم يرني أحدٌ». حلَّ صمتٌ قصيرٌ نظرت فيهِ إيلين بإمعانٍ إلى آليانا إلى أن بدأت الأخيرةُ تشعرُ بالحرجِ من النظرةِ الفاحصةِ التي ترمقها بها إيلين بعينيها العسليتين الفضوليتين، وأخيراً قالت إيلين: «أنتِ تهدرين حياتكِ».

«ما الذي تقصدينهُ؟» سألت آليانا، وقد أصابت كلماتُ إيلين وتراً حساساً في داخلها.

«يجب أن تذهبي للبحثِ عن جاك».

شعرت آليانا بما يشبه الأملَ اللذيذ، وقالت: «ولكنني لا أستطيع».

«ولماذا؟»

«أولاً، لأنني لا أعرفُ إلى أين يجب أن أذهب».

«أنا أعرفُ».

شعرت آليانا بقلبها يخفقُ بسرعةٍ؛ فقد اعتقدت أنَّ ما من أحدٍ يعلمُ إلى أينَ ذهبَ جاك، وبدا للجميعِ كأنَّه اختفى عن وجهِ الأرضِ، ولكنها الآن باتت تتخيلهُ في مكانٍ ما محددٍ وحقيقي، وغيَّرَ هذا كلَّ شيءٍ. قد يكون في مكانٍ قريبٍ، ويمكنها عندها أن تريه طفلهُ.

قالت إيلين: «أنا على الأقلِّ أعلمُ إلى أينَ توجه».

«إلى أين؟» عاجلت آليانا إلى سؤالها.

«إلى سانتياغو دي كومبوستيلا».

«يا إلهي»، قالت آليانا، وتملَّكها حزنٌ وإحباطٌ شديدان. كانت كومبوستيلا بلدةً في إسبانيا دُفنَ فيها الحواري يعقوب، والوصولُ إليها يأخذُ شهوراً عديدةً، وقد يكون جاك بحلولِ وصولها إلى هناك قد انتقلَ إلى الجانبِ الآخر من العالمِ.

قالت إيلين: «أرادَ مقابلةَ الشعراء الجوالين على الطريق، والاستفسار عن والدهِ».

أومأت آليانا في حزنٍ. لقد فهمت الأمرَ الآن. لطالما كره جاك عدم معرفتهِ سوى القليلِ عن والدهِ. قد لا يعود من رحلتهِ؛ ففي مثلِ هذهِ الرحلاتِ الطويلةِ سيعثرُ على كاتدرائيةٍ يرغبُ بالعملِ عليها، ويستقر هناك، وربما في رحلةِ بحثهِ عن والدهِ سيكون قد خسرَ ابنهُ.

«إنَّها بعيدةٌ جداً»، قالت آليانا. «لكن أرغبُ جداً في اللحاقِ بهِ».

«ولمَ لا تفعلين هذا؟» سألت إيلين. «يقصدُ آلاف الحجاجِ البلدةَ بغرضِ الحجِّ، فلمَ لا تذهبين أنتِ أيضاً؟»

«أعطيتُ والدي وعداً بأن أعتني بريتشارد إلى أن يصبح إيرلاً»، أجابت آليانا وتابعت: «ولا يمكنني أن أتركهُ الآن».

نظرت إيلين إلى آليانا بارتيابٍ وسألتها: «وكيفَ تتخيلين نفسكِ أنَّكِ

تساعدينهِ في هذهِ اللحظةِ؟ أنتِ فقيرةٌ، وأصبح وليم إيرل شايرنغ. لقد خسرَ ريتشارد فرصتهُ في استعادةِ شايرنغ، وستكونين بلا فائدةٍ له في كومبوستيلا كما أنتِ الآن في كينغزبريدج. كرَّستِ حياتكِ لذلكَ الوعدِ التعسِ، ولكن لم يعد بوسعكِ الآن القيامُ بأيِّ شيءٍ للوفاءِ بهِ، ولا أعتقدُ أنَّ والدكِ، في مثلِ هذهِ الأحوالِ، سيعاتبكِ على ذلكَ. إن أردتِ رأيي فأنا أعتقدُ أنَّ أعظمَ شيءٍ قد تقومين بهِ من أجلِ ريتشارد الآن هو التخلي عنه لبعضِ الوقتِ حتَّى يتعلمَ الاستقلاليةَ وإدارةَ شؤونهِ بنفسهِ».

فكرت آليانا أنَّ ما قالتهُ إيلين صحيحٌ، وأنَّها، سواء بقيت في كينغزبريدج أم لم تبقَ، لم تكن ذات فائدةٍ لريتشارد في اللحظةِ الراهنةِ. هل هذا يعني أنَّها حُرَّةٌ الآن؟ حُرَّةٌ في الذهابِ للبحثِ عن جاك؟ ولمجردِ التفكيرِ بهذا شعرت بقلبها يطيرُ فرحاً.

«ولكن لا أملكُ مالاً للذهابِ إلى كومبوستيلا»، قالت آليانا.

«ماذا بشأنِ الجوادِ الأصيلِ الضخم؟» سألتها إيلين.

«ما زلنا نملكهُ...»

«فلتبيعيهِ».

«لا يمكنني. إنه ملكٌ لريتشارد».

«بحقِّ الرَّبِّ من اشتراه له؟» سألت إيلين بغضبٍ. «هل عملَ ريتشارد بجدٍ لسنواتٍ في تجارةِ الصوفِ؟ هل فاوضَ الفلاحين الجشعين، والباعة الفلامنكيين العنيدين؟ هل جمعَ ريتشارد الصوفَ، وخزَّنهُ، ونصبَ كشكاً في السوقِ لبيعهِ؟ لا، إذاً لا تقولي لي إنَّه جواد ريتشارد».

«سيغضبُ كثيراً...»

«هذا جيد. لنأمل أن يكون غضبهُ عظيماً بما يكفي لدفعهِ إلى العملِ لأولِ مرَّةٍ في حياتهِ».

أرادت آليانا أن تجادلها إلَّا أنَّها لزمت الصمتَ. كانت إيلين على حقٍ؛ فقد اعتمدَ عليها ريتشارد في كلِّ شيءٍ. وفي الوقتِ الذي كان يُقاتلُ فيه من أجلِ إرثهِ كانت مجبرةً على العملِ لإعالتهِ، ولكنه الآن لم يعد يُقاتلُ، ولهذا لم يعد بوسعهِ مطالبتها بشيءٍ.

وهنا تخيلت لقاءَ جاك مرَّةً أخرى، وتخيلت وجههُ، وهو يبتسمُ لها.

سيُقبلان بعضهما بعضاً، وشعرت بشيءٍ من حرارةِ المتعةِ في فرجها ثمَّ أدركت أنَّه يزداد رطوبةً لمجرد التفكيرِ بجاك، وشعرت بالإحراجِ.

قالت إيلين: «بالطبع السفرُ خطيرٌ».

ابتسمت آليانا وقالت: «هذا الأمرُ الوحيدُ الذي لستُ قلقةً بشأنهِ. كنتُ أسافرُ، وأتنقلُ مُذ كنتُ في السابعة عشرة من عمري، ويمكنني الاعتناءُ بنفسي».

«على أيِّ حالٍ، هناك أناسٌ كثرٌ على الطريقِ إلى كومبوستيلا، ويمكنكِ الانضمامُ إلى مجموعةٍ كبيرةٍ من الحجاج، وبذلك لن تضطري إلى السفرِ وحدكِ».

تنهدت آليانا وقالت: «أتعلمين لو لم يكن معي الطفلُ لفكرتُ بالأمرِ».

«بل يجب أن تذهبي من أجلِ الطفلِ»، قالت إيلين ثمَّ أضافت: «إنَّه بحاجةٍ إلى أبٍ».

لم تفكر آليانا بالأمرِ من هذهِ الزاويةِ، واعتقدت أنَّ الرحلةَ من أجلها وحدها، ولكن ها هي الآن تفهم أنَّ الطفل بحاجةٍ إلى جاك تماماً كما هي بحاجةٍ إليهِ، وبسببِ انشغالها اليومي بحاجاتِ الطفلِ لم تفكر قط بمستقبلهِ، وفجأةً شعرت أنَّ عدم معرفةِ الطفلِ بوالدهِ اللامع، والفريد، والعبقري بشكلٍ محببٍ ظلمٌ كبيرٌ.

أدركت أنَّها كانت تُقنعُ نفسها بالذهابِ، وشعرت برعشةِ خوفٍ.

وهنا خطرت لها عقبةٌ في هذهِ الخطةِ: «لا يمكنني أخذُ الطفلِ إلى كومبوستيلا».

هزَّت إيلين كتفيها وقالت: «لن يعرفَ الفرقَ بينَ إسبانيا وإنكلترا، ولكن ليسَ عليكِ أخذهُ معكِ».

«ولكن أين سأتركهُ؟»

«يمكنكِ أن تتركيهِ معي. سأسقيهِ حليبَ الماعزِ، وأطعمهُ العسلَ البري».

هزَّت آليانا رأسها وقالت: «لا أحتملُ الابتعادَ عنه فأنا أحبّهُ جداً».

«إن كنتِ تحبينهُ إلى هذهِ الدرجةِ»، قالت إيلين ثمَّ أضافت: «إذهبي للبحثِ عن والدهِ».

– 2 –

عثرت آليانا على سفينةٍ في ويرهام. عندما ذهبت إلى فرنسا برفقةِ والدها في صِغرها صعدت على متنِ إحدى السفن النورمانديةِ الحربيةِ، وكانت من النوعِ الطويلِ والضيقِ بمقدمةٍ، ومؤخرةٍ عاليةٍ ومدببةٍ، وعلى كلا جانبيها صفٌ من المجاذيف، وشراعٍ جلدي مُربع، أمَّا هذهِ السفينةُ التي ستأخذها إلى النورماندي فقد كانت شبيهةً بالسفنِ الحربيةِ، ولكن بدنها أعرض وأعمق من أجلِ حملِ البضائعِ. كانت السفينةُ قادمةً من إقليم بوردو، وراقبت آليانا البحَّارة الحُفاة يُفرغون صناديق كبيرةً من النبيذ الذي سيذهب إلى أقبيةِ الأثرياءِ.

علمت آليانا أنَّ عليها تركَ طفلها، ولكن الأمرَ فطرَ قلبها، وفي كلِّ مرةٍ نظرت فيها إليه تعيدُ إلى ذهنها حججَ تركهِ وراءها، وتعزمُ مجدداً على المضي قُدماً في رحلتها، ولكن هذا لم يُفدها في شيءٍ فهي لم ترغب بالابتعادِ عنهُ.

رافقتها إيلين إلى ويرهام، وهناك انضمَّت آليانا إلى راهبين من دير غلاستونبيري متوجهين إلى النورماندي لمعاينةِ أملاكِ الديرِ فيها. هناك ثلاثةُ ركابٍ آخرين على متنِ السفينةِ؛ مرافقٌ شابٌ قضى أربعَ سنواتٍ مع قريبٍ إنكليزي، وهو الآن عائدٌ إلى منزلِ أهلهِ في تولوز، وبنَّاءان شابان سمعا أنَّ الأجور أعلى والفتيات أجمل على الجانبِ الآخر من البحرِ. في صباحِ يومِ الإبحارِ انتظرَ الجميعِ في حانةٍ إلى أن ينتهي البحَّارةُ من تحميلِ السفينةِ بسبائك القصدير الكورنيللي. شربَ البنَّاءان الكثيرَ من الجعةِ، ولكن لم تبدُ الثمالةُ عليهما، أمَّا آليانا فعانقت طفلها، وبكت في صمتٍ.

وأخيراً جهزت السفينة، وحان وقتُ المغادرةِ. كانت آليانا قد اشترت مُهرةً رمادية قويةً من شايرنغ، ولكن المُهرة لم ترَ البحرَ قبلاً، ورفضت صعودَ السُلم اللوحي إلى السفينةِ إلى أن تعاونَ المرافقُ والبنَّاءان بحماسة، ونجحا أخيراً في وضعِ المهرةِ على ظهرِ السفينةِ.

اغرورقت عينا آليانا بالدموعِ إلى درجةِ العمى وهي تُعطي طفلها إلى إيلين. أخذت إيلين الطفلَ ولكنها قالت: «لا يمكنكِ القيامُ بهذا، لقد أخطأت في اقتراحِ هذا الخيارِ عليكِ».

بكت آليانا مجدداً وقالت: «ولكن جاك»، ونشجت ثمَّ أضافت: «لا يمكنني العيشُ من دونِ جاك. أنا أعرفُ هذا. يجبُ أن أبحث عنهُ».

«أوه، أجل»، قالت إيلين. «أنا لا أقولُ لكِ أن تتخلي عن الرحلةِ بل إنّك لا تستطيعين تركَ طفلكِ. خذيهِ معكِ».

شعرت آليانا بفيضِ امتنانٍ وبكت أكثر: «هل تعنين ما تقولينهُ حقاً؟»

«كان سعيداً طوالَ الرحلةِ، وحتَّى وصولهِ إلى السفينةِ، وهذا يعني أنَّ الأمرَ لن يختلفَ عليهِ طوالَ الرحلةِ، علاوةً على هذا فإنه لا يحبُّ حليبَ الماعزِ».

وهنا قال قبطانُ السفينةِ: «هيا أيتها السيدتان لقد علا المدُّ».

أخذت آليانا الطفلَ، وقبَّلت إيلين ثمَّ قالت لها: «شكراً لكِ، أنا سعيدةٌ جداً».

«حظاً موفقاً»، قالت إيلين.

استدارت آليانا، وصعدت السُلمَ إلى السفينةِ.

أبحرت السفينةُ على الفورِ، وابتعدت شيئاً فشيئاً إلى أن باتت إيلين بعيدةً جداً، وأشبه بنقطةٍ على الرصيفِ البحري. حالما خرجوا من مرفأ بوول انهمرَ المطرُ، ولم يكن هناك ملجأ لتحتمي بهِ آليانا من المطرِ فجلست في القعرِ مع الأحصنةِ والبضائعِ. لم تؤمن لها المنصةُ التي جلسَ عليها المجدّفون حمايةً كاملةً من المطرِ، ولكنها تمكنت من إبقاءِ الطفلِ جافاً تحتَ عباءتها، الذي يبدو أنَّ حركةَ السفينةِ هدهدتهُ فغطَّ في النومِ. عندما حلَّ الظلام، ورست السفينةُ انضمَّت آليانا إلى الراهبين في صلاتهما، ثمَّ استسلمت لنومٍ متقطعٍ جالسةً، والطفلُ بينَ ذراعيها.

في اليوم التالي رسوا في ميناءِ بارفلور، وعثرت آليانا على سكنٍ في أقربِ بلدةٍ، وكانت تدعى تشيربورغ. قضت يوماً كاملاً تجولُ في البلدة، وتتحدثُ إلى أصحابِ النُزلِ والبنَّائين وتسألهم عن بنَّاءٍ إنكليزي شاب بشعرٍ أصهبٍ، ولكن ما من أحدٍ عرفهُ. كان هناك الكثيرُ من النورمانديين الصُهب، ولذلك قد لا يكونون لاحظوه، أو ربما نزل جاك في ميناءٍ آخر.

على الرغمِ من أنَّ آليانا لم تتوقع اقتفاءَ أثرِ جاك على الفورِ فإنَّها شعرت بالإحباطِ. في اليومِ التالي انطلقت جنوباً. سافرت برفقةِ بائعِ سكاكين، وزوجتهِ السمينةِ المرحةِ، وأطفالهم الأربعة. تحركوا ببطءٍ شديدٍ، وكانت آليانا سعيدةً بذلكِ من أجلِ الحفاظِ على طاقةِ مُهرتها لأنَّها ستحملها لمسافةٍ طويلةٍ جداً. على الرغمِ من أمانِ السفرِ برفقةِ عائلةٍ فإنَّها أبقت سكينها الطويلة

والحادة مُثبتةً تحتَ كُمها الأيسر. لم تبدُ ثريةً. كانت ثيابها دافئةً، ولكن لم تكن فاخرةً، ومُهرتها بدت قويةً أكثر مما بدت سريعةً. حرصت على وضعِ بضعِ قطعٍ نقديةٍ في محفظتها للحاجةِ، ولكنها أخفت عن الأنظارِ الحزامَ المليء بالمالِ حولَ خصرها تحتَ عباءتها، وأطعمت طفلها خفيةً كيلا يرى الرجال ثدييها.

في تلكَ الليلةِ شعرت آليانا بسعادةٍ غامرةٍ بسببِ ضربةِ حظٍ كبيرةٍ. توقفوا في قريةٍ صغيرةٍ تدعى ليسيه، وهناك قابلت آليانا راهباً تذكرَ بوضوحٍ كبيرٍ بنَّاءً إنكليزياً شاباً افتتنَ بالطريقةِ الثوريةِ الجديدةِ في بناءِ القُبةِ المُقنطرةِ لكنيسةِ الديرِ. شعرت آليانا بالبهجةِ، وتذكرَ الراهب أنَّ جاك قال له إنَّه رسا في ميناءِ أونفلور، وهنا عرفت سببَ عدم عثورها عليهِ في تشيربورغ. على الرغمِ من مرورِ عامٍ كاملٍ على الحدثِ غيرَ أنَّ الراهبَ تحدَّثَ بطلاقةٍ عن جاك، وبدا واضحاً أنَّه مفتون بهِ. سُرَّت آليانا كثيراً بالتحدثِ إلى شخصٍ رأى جاك وقابلهُ، وكان هذا بمنزلة تأكيدٍ على أنَّها على الطريقِ الصحيحِ.

في نهايةِ المطافِ تركت آليانا الراهبَ، واستلقت لنيلِ قسطٍ من الراحةِ على أرضيةِ نُزلِ الضيوفِ في الديرِ. وبينما استسلمت للنومِ عانقت طفلها بقوةٍ، وهمست في أذنهِ الورديةِ الصغيرةِ: «سنعثرُ على والدكَ».

***

مرضَ الطفلُ في مدينةِ تورز.

كانت تورز مدينةً ثريةً، وقذرةً، ومكتظةً، ومئات الجرذان تسرحُ في متاجرِ الحبوبِ قربَ نهر اللوار. امتلأت المدينةُ بالحُجاجِ فقد كانت تورز نقطةَ انطلاقٍ متعارفاً عليها بين حجاجِ سانتياغو دي كومبوستيلا، علاوةً على هذا كان عيدُ سان مارتن -أوَّل أسقفٍ لتورز- عيداً بارزاً، ولذلكَ أتى العديدون إلى كنيسةِ الديرِ لزيارة ضريحهِ. اشتهرَ القديسُ مارتن بتمزيقهِ عباءته إلى قسمين، وإعطاءِ جزءٍ منها إلى متسولٍ عارٍ، وبسببِ العيدِ امتلأت النُزلُ والمساكن؛ فاضطرت آليانا إلى القبولِ بأيِّ مكانٍ، ولذلكَ نزلت في حانةٍ متهالكةٍ عندَ رصيفِ النهرِ تُديرها أُختان عجوزان جداً وضعيفتان على الاهتمامِ بنظافةِ الحانةِ.

في البدايةِ لم تقضِ الكثيرَ من الوقتِ في غرفتها بل تجولت في شوارع

المدينةِ حاملةً الطفلَ على ذراعيها تسألُ عن جاك، ولكنها سرعان ما اكتشفت أنَّ المدينةَ تكتظُ بالزوارِ على الدوامِ، ووجدَ أصحابُ النزلِ صعوبةً في تذكرِ حتَّى نزلاءِ الأسبوعِ الماضي، ولذلك لم يكن هناك جدوى من السؤالِ عن شخصٍ أتى إلى هنا قبل عامٍ. على الرغمِ من ذلكَ توقفت عندَ كلِّ موقعِ بناءٍ، وسألت العاملين إن كانوا قد استعانوا ببناءٍ إنكليزي شاب بشعرٍ أصهب يُدعى جاك، ولكن جواب جميعهم كان بالنفي.

شعرت بخيبةِ الأملِ؛ فهي لم تسمع شيئاً عنهُ منذُ مغادرتها بلدة ليسيه، ولكنه إن التزمَ بخطتهِ في التوجهِ إلى كومبوستيلا فهو حتماً سيمرُّ بمدينةِ تورز، وهنا شعرت آليانا بالخوفِ من أن يكون قد غيَّرَ رأيهُ.

توجهت مع الناسِ إلى كنيسةِ سان مارتن، وهناك رأت فريقاً من البنَّائين يقوم بأعمالِ إصلاحٍ واسعةٍ. توجهت إلى رئيسِ البنَّائين، وكان رجلاً ضئيلَ البنيةِ بشعرٍ خفيفٍ وذا طبعٍ شكسٍ، وسألتهُ إن كان قد استعانَ ببنَّاءٍ إنكليزي.

«أنا لا أستعين بالإنكليز أبداً»، عاجلها الرجلُ قبلَ أن تُنهي سؤالها ثمَّ أضاف: «البنَّاؤون الإنكليز غير ماهرين».

«ولكن هذا البنَّاء ماهرٌ»، قالت له وأضافت: «ويتحدث الفرنسية ببراعةٍ لن تعرفَ معها أنَّه إنكليزي. شعرهُ أصهب...»

«لا، لم أره قط»، قال الرجلُ بفظاظةٍ واستدارَ.

عادت آليانا إلى غرفتها في الحانةِ وهي تشعرُ ببعضِ الكآبةِ. كانت معاملةُ كبير البنَّائين الفظَّة من دونِ سببٍ وجيهٍ مُحبطةً جداً.

في تلكَ الليلةِ أصيبت بمغصٍ شديدٍ، ولم يغمض لها جفنٌ على الإطلاقِ. في اليومِ التالي شعرت بتعبٍ شديدٍ على الخروجِ، ولذلك قضت اليومَ بأكملهِ مستلقيةً على السرير في الحانةِ وسطَ رائحةِ النهرِ النتنةِ القادمةِ من النافذةِ، ورائحةِ النبيذِ المُراقِ، وزيتِ الطبخِ من الطابقِ الأرضي، وفي صباحِ اليومِ التالي مرضَ الطفلُ.

استفاقت على بكاءِ الطفلِ، ولكنه لم يكن بكاؤه بكاء الجائع والمُلح المعتاد بل بكاءً واهياً، وضعيفاً، وحزيناً. كان يعاني من المغصِ ذاتهُ الذي عانت منهُ آليانا، ومن الحمى أيضاً. أغلقَ عينيهِ الزرقاوين الحيويتين في ألمٍ، وضمَّ يديهِ الصغيرتين في قبضتين، وكان جلدهُ مُحمراً ومليئاً بالبُقعِ.

ولأنَّه لم يمرض قبلاً لم تعلم آليانا ما يجبُ عليها القيام بِهِ.

أعطتهُ ثديها فرضعَ بشراهةٍ لوهلةٍ، ولكنه بكى مجدداً ثمَّ عادَ إلى الرضاعةِ، ولكن يبدو أنَّ الحليب لم يُرحهُ قط.

طلبت آليانا من خادمةٍ شابةٍ لطيفةٍ في الحانة الذهاب إلى الديرِ لشراءِ بعض الماءِ المقدسِ. كانت قد فكرت في الإرسالِ بطلبِ الطبيبِ، ولكنهم دوماً يلجؤون إلى فصدِ الدمِ، ولم تكن مقتنعةً أنَّ فصدَ الدمِ سيُساعدُ طفلها.

عادت الخادمةُ مع والدتها. أحرقت والدةُ الخادمةِ باقةً من الأعشابِ الطبيةِ الجافةِ في وعاءٍ حديدي، وأطلقت الأعشابُ المحترقة رائحةً لاذعةً امتصت معها الروائحَ السيئة التي غطت المكان. «سيشعرُ الطفلُ بالعطشِ، ولذلكَ أرضعيهِ متى شاءَ»، قالت المرأةُ ثمَّ أضافت: «وأنتِ أيضاً أكثري من الشُربِ حتَّى يكون لديكِ ما يكفي من الحليب. سيكون هذا مفيداً لكما».

«هل سيكون على ما يرام؟» سألتها آليانا بقلقٍ.

نظرت المرأةُ إليها بتعاطفٍ وقالت لها: «لا أعلمُ يا عزيزتي. عندما يكون الأطفالُ في مثلِ هذا العمرِ لا يمكنني الجزم. عادةً ما ينجون من مثلِ هذهِ الأمراضِ، وأحياناً لا ينجون. هل هذا طفلكِ الأول؟»

«أجل».

«تذكري أنَّه بوسعكِ على الدوامِ إنجابُ المزيد».

وفكرت آليانا في نفسها: «ولكن هذا طفلُ جاك، وأنا خسرتُ جاك». إلَّا أنَّها أبقت هذهِ الفكرةَ لنفسها، وشكرت المرأة ثمَّ دفعت لها ثمنَ الأعشابِ الطبيةِ.

بعدَ أن غادرت المرأةُ والخادمة مدّدت آليانا الماءَ المقدس بماءٍ عادي، وبللت قطعةً من القماشِ بهِ ثمَّ وضعتهُ على رأسِ الطفلِ.

بدا لها أنَّ وضعهُ يزدادُ سوءاً مع مرورِ الوقتِ. كانت أليانا تقدم له ثديها كلما بكى، وغنَّت له كلما صحا، وعندما يعود إلى النومِ تضعُ له خُرقةً مبللةً بالماءِ المقدسِ على رأسِهِ. رضع باستمرارٍ، ولكن بشكلٍ متقطعٍ، ولحسنِ الحظِ كان حليبها غزيراً كالمعتادِ. كانت ما تزالُ مريضةً، وتتناولُ الخبزَ الجاف، والنبيذ المخفف بالماءِ. مع مرورِ الوقتِ بدأت تشعرُ بكرهٍ للغرفةِ

ذات الجدران الجرداء والملوثةِ ببيضِ الذبابِ، وألواحِ الأرضيةِ الخشنةِ، والبابِ بحجمهِ الذي لا يناسبُ إطارهُ، والنافذةِ الوضيعةِ. لم يكن في المكانِ سوى أربع قطعِ أثاثٍ: السرير المخلوع، وكرسي بثلاث قوائم، ومشجب للثياب، وشمعدان بثلاث شُعبٍ يوضعُ على الأرضِ، ولكن لا يوجد فيهِ إلَّا شمعة واحدة.

عندما هبطَ الظلام أتت الخادمةُ، وأشعلت الشمعةَ ثمَّ نظرت إلى الطفلِ النائمِ على السريرِ وهو يلوح بذراعيهِ وساقيه، ويبكي بحزنٍ.

«الصغير المسكين»، قالت الخادمة. «لا يفهم سببَ شعورهِ بالسوءِ».

انتقلت آليانا من الكرسي إلى السرير، ولكنها أبقت على الشمعةِ مضيئةً حتَّى تتمكن من رؤيةِ الطفلِ. خلالَ الليلِ ناما بشكلٍ متقطعٍ، وعندَ الفجرِ أصبحَ تنفسُ الطفلُ خفيفاً، وتوقفَ عن البكاءِ والحركةِ.

بدأت آليانا تبكي بصمتٍ. لقد فقدت أثرَ جاك، وها هو طفلها سيموت هنا، في منزلٍ يعجُّ بالغرباءِ، وفي مدينةٍ بعيدةٍ عن الوطنِ. لن يكون هناك جاك آخر، ولن تنجب طفلاً آخر، وقد تموتُ معهُ أيضاً، ولكن عندئذٍ سيكون هذا للأفضلِ.

عندما انبلجَ الصباحُ نفخت على الشمعةِ، وأطفأتها ثمَّ استسلمت للنومِ من التعبِ.

استيقظت فجأةً على صوتِ ضجةٍ قويةٍ في الطابقِ الأرضي. كانت الشمسُ قد أشرقت، وضفةُ النهرِ تحتَ النافذةِ اكتظت بالناسِ الصاخبين جداً. وجدت الطفلَ ساكناً سكونَ الأمواتِ، ووجهه هادئاً أخيراً، وهنا شعرت بقبضةِ خوفٍ باردٍ تُطبقُ على قلبها. لمست صدرهُ، ولكنه لم يكن ساخناً ولا بارداً فشهقت في خوفٍ، ولكن الطفلَ أطلقَ تنهيدةً عميقةً مرتعشةً، وفتحَ عينيهِ. كادَ يُغمى عليها من الراحةِ.

أمسكتهُ وعانقتهُ ثمّ بدأت تبكي بحرارةٍ. أدركت أنَّه تعافى، وأنَّ حرارتهُ عادت طبيعيةً، ولم يعد في ضيقٍ. وضعته على ثديها فأخذَ يرضعُ بنهم ودونَ توقفٍ، وعندما جفَّ ثديها نقلتهُ إلى الآخرِ، ورضعَ منه إلى أن جفَّ أيضاً ثمَّ غطَّ في نومٍ عميقٍ وهانئ.

أدركت آليانا أنَّ أعراضَ مرضها انحسرت أيضاً ولكنها مازالت تشعرُ

ببعضِ التعبِ. نامت إلى جانبِ الطفلِ حتَّى منتصفِ النهارِ، وأطعمتهُ مجدداً ثمَّ نزلت إلى الغرفةِ العموميةِ في الحانةِ، وتناولت غداءً مكوناً من جُبنِ الماعزِ والخبزِ الطازجِ وقليل من لحمِ الخنزيرِ المقددِ.

قد يكون الماءُ المقدسُ من ضريحِ القديسِ مارتن ما جعلَ الطفلَ يشفى، ولذلكَ بعدَ الظهرِ توجهت إلى ضريحِ القديس مارتن وقدَّمت شكرها له.

عندما كانت في كنيسةِ الديرِ الكبيرةِ راقبت العمَّال يعملونَ، وفكرت بجاك، وأنَّه قد يتمكن من رؤيةِ ابنهِ، وتساءلت في نفسها إن كان قد غيَّر مسارَ رحلتهِ الأصلي. ربما كان في باريس ينحتُ الحجارةَ في كاتدرائيةٍ جديدةٍ هناك، وفي لجةِ هذهِ الأفكارِ انتبهت إلى طنفٍ جديدٍ يعمل البنَّاؤون على تثبيتهِ. كان منحوتاً على شكلِ رجلٍ يبدو كأنَّه يحملُ وزنَ العمودِ فوقَ ظهرهِ. شهقت بصوتٍ عالٍ، وعلمت على الفور، ومن دونِ أدنى شكٍ، أنَّ منحوتةَ الرجلِ المُضنك من عملِ جاك، وهذا يعني أنَّه كان هنا.

شعرت بقلبها يخفقُ بقوةٍ من شدةِ الحماسةِ. اقتربت من البنَّائين الذين كانوا يقومون بأعمالِ تثبيتِ الطنفِ. «هذا الطنف»، قالت آليانا بأنفاسٍ مبهورةٍ. «هل كان الرجلُ الذي نحته إنكليزياً؟»

أجابها بنَّاءٌ عجوزٌ بأنفٍ مكسورٍ: «هذا صحيح. إنه من صُنعِ جاك فيتزجاك. لم أرَ مثيلاً لهذا العملِ في حياتي قط».

«متى كان هنا؟» سألت آليانا حابسةً أنفاسها بينما حكَّ الرجلُ الشعرَ فوقَ فروةِ رأسهِ الدهنيةِ مُفكراً.

«لا بدَّ أنَّ هذا حدثَ منذُ عام. لم يُطل البقاء هنا؛ فالرئيسُ لم يستلطفهُ»، وهنا أكملَ بصوتٍ واطئ: «إن أردتِ الحقيقةَ، كان جاك ماهراً جداً، وقد أحرجَ الرئيسَ، ولذلكَ طرده الأخير»، ثمَّ وضعَ إصبعاً على طولِ أنفهِ في إشارةٍ إلى أنَّه يريدها أن تكتمَ السرَّ.

قالت آليانا بحماسةٍ: «هل قال لكَ إلى أين سيذهب؟»

نظرَ الرجلُ العجوز إلى الطفلِ وقال: «بالنظرِ إلى شعرِ هذا الطفل فأنا أعتقد أنَّه طفله».

«أجل، إنَّه طفلهُ».

«أتعتقدين أنَّ جاك سيُسر لرويتكِ؟»

وهنا أدركت آليانا أنَّ العاملَ اعتقدَ أنَّ جاك هاربٌ منها، ولذلكَ ضحكت وأجابتهُ: «أوه، أجل. سيُسرُ كثيراً لرؤيتي».

هزَّ العاملُ كتفيهِ وقال: «قالَ إنَّه سيتوجهُ إلى كومبوستيلا».

«شكراً لكَ!» قالت آليانا بسعادةٍ، وتفاجأ الرجلُ العجوزُ في سرورٍ عندما قبَّلتهُ.

***

تتقاطعُ جميعُ طُرقِ الحجِّ في فرنسا في بلدةِ أوستابا التي تقع عندَ سفحِ جبال البيرنيه. كانت مجموعةُ آليانا الأصليةُ المؤلفةُ من عشرين حاجاً قد تضخمت الآن، ووصلَ عددُ المسافرين إلى سبعين، وعلى الرغمِ من أنَّ المشي أنهكَ المجموعةَ، فإنَّها كانت مرحةً؛ ففيها بعضُ الميسورين، وبعضهم على الأغلب هاربٌ من وجهِ العدالةِ، وهناكَ أيضاً بعضُ السِكيرين، والعديد من الرهبانِ والكهنةِ. سافر رجالُ الدينِ من أجلِ غاياتٍ دينيةٍ، ولكن يبدو أنَّ معظمَ المسافرين حظوا بوقتٍ جيدٍ. ورغمَ وجودِ أناسٍ يتحدثون بلغاتٍ عديدةٍ، من بينها الفلمنكية، والألمانية، والأوكسيتانية التي يتحدث بها بعضُ سكان جنوبِ فرنسا، فإنَّ هذا لم يؤثر على التواصلِ بينهم. عبروا جبال البيرنيه وهم يغنون، ويمارسون الألعاب، ويروون الحكايا، وفي حالاتِ عديدةٍ، يدخلون في علاقاتٍ عاطفيةٍ.

لسوءِ الحظِ لم تعثر آليانا بعد مغادرةِ تورز على مَن يتذكرُ جاك. على أيِّ حالٍ خلالَ عبورها فرنسا لم تجد الكثيرَ من الشعراءِ المتجولين كما توقعت. قالَ لها أحدُ الحُجاجِ الفلمنكيين الذين قاموا بهذهِ الرحلةِ قبلاً إنَّ هناك الكثير منهم على الجانبِ الإسباني من الجبالِ.

كان الرجلُ على حقٍ ففي بامبلونا سُرَّت آليانا كثيراً عندما عثرت على شاعرٍ متجولٍ يتذكرُ لقاءه وحديثهُ مع رجلٍ إنكليزي بشعرٍ أصهبٍ يبحثُ عن معلوماتٍ عن والدهِ.

وخلالَ المسيرِ البطيء للحُجاجِ المُرهقين عبرَ شمال إسبانيا باتجاهِ الساحلِ التقت آليانا بالعديدِ من الشعراءِ المتجولين، ومعظمهم تذكروا جاك، وهنا أدركت بحماسةٍ متزايدةٍ أنَّ الكُلَّ أجمعَ على أنَّ جاك توجهَ

إلى كومبوستيلا، وما من أحدٍ منهم يتذكرُ أنَّه كان عائداً من كومبوستيلا بل متوجهاً إليها.

هذا يعني أنَّه ما زال هناك.

رغمَ أن السفرَ أرهقَ جسدها كثيراً، فإنَّ معنوياتها كانت عاليةً، وبالكادِ كانت قادرةً على كبحِ تفاؤلها خلالَ الأيامِ الأخيرةِ من الرحلةِ. رغمَ أنَّ الوقت كان منتصفَ الشتاءِ غيرَ أنَّ الطقسَ كان معتدلاً ومشمساً، والطفلُ الذي بلغَ الآنَ شهرهُ السادسَ كان بصحة جيدةٍ وسعيداً. شعرت آليانا بثقةٍ كبيرةٍ أنَّها ستعثرُ على جاك في كومبوستيلا.

ووصلت المجموعةُ إلى هناك في عيدِ الميلادِ.

توجهوا إلى الكاتدرائيةِ لحضورِ قداسِ العيدِ. كانت الكنيسةُ، وكما يحدثُ في مثلِ هذهِ المناسبةِ، مكتظةً بالمُصلين، ولذلكَ سارت آليانا في الأرجاءِ وبينَ أفرادِ الرعيةِ تُحدقُ إلى الوجوه، ولكنها لم تعثر على جاك. وفكرت أنَّها حتماً لن تجدهُ هنا لأنَّه لم يكن شخصاً متديناً جداً، بل وهو لا يذهبُ إلى الكنائس إلا من أجلِ العملِ. بحلولِ الوقتِ الذي عثرت فيهِ على مكانٍ للمبيتِ كان الظلامُ قد هبطَ. ذهبت إلى النومِ، ولكن بالكادِ أغمضَ لها جفنٌ من فرطِ السعادةِ لعلمها أنَّ جاك قد يكون على بُعدِ عدةِ خطواتٍ منها، وأنَّها غداً قد تراه وتُقبلهُ وتريه الطفل.

استيقظت آليانا مع أول خيوطِ الفجرِ. شعرَ الطفلُ بنفاد صبرها، ولذلك رضعَ في ضيقٍ، وعضَّ حلمتي ثدييها بلثته، ثمَّ غسلتهُ وحملتهُ على ذراعيها وخرجت.

عبرت آليانا طرقاتِ المدينةِ المُغبرةِ، وهي تتوقعُ رؤيةَ جاك في أيِّ لحظةٍ. سيتفاجأ كثيراً عندما يراها، وسيكون مسروراً جداً. عندما لم تعثر عليهِ على الطرقاتِ بدأت تدخلُ أماكنَ المبيتِ للسؤالِ عنه، وحالما بدأ الناسُ بالتوجهِ إلى أعمالهم ذهبت إلى مواقعِ البناءِ، وتحدثت إلى البنَّائين. كانت تعرفُ كلمةَ «بنَّاء» و«أصهب» باللهجةِ المحليةِ للمدينةِ، علاوةً على هذا كان سكانُ كومبوستيلا معتادين على الأجانب، ولذلكَ لم تجد مشكلةً في التواصلِ معهم. ولكنها عندما فشلت في العثورِ على أيِّ أثرٍ لجاك بدأت تقلق. لا بدَّ من أن الناس سيتذكرونه فهو من النوعِ الذي لا يمكن للمرء نسيانهُ بسهولةٍ.

حتماً عاشَ هنا لبضعةِ أشهرٍ، ولذلكَ بقيت متيقظة لأيِّ أثرٍ من آثارِ أعمالِهِ، ولكنها لم ترَ أيَّ أثرٍ.

بحلولِ منتصفِ الصباحِ التقت آليانا بصاحبةِ نُزلٍ في منتصفِ العمرِ شعثاءَ الشعرِ تتحدث الفرنسية، وأخبرتها المرأة أنّها التقت بجاك.

«فتى وسيم. أهو فتاكِ؟ ما من فتاةٍ محليةٍ نجحت في إيقاعِهِ بحبالها. وصلَ إلى هنا في منتصفِ الصيفِ، ولكنه للأسفِ لم يُطِل المكوثَ، ولم يُفصح عن وجهتِهِ أيضاً. لقد أحببتهُ. إن عثرتِ عليهِ قبليهِ قبلةً كبيرةً بالنيابةِ عني».

عادت آليانا إلى مسكنها، واستلقت على السرير تُحدقُ إلى السقفِ. كان الطفلُ يئنُّ، ولكنها تجاهلتهُ؛ فقد كانت مرهقةً ومحبطةً، وتشعرُ بالحنين إلى الوطنِ. هذا ليسَ عادلاً. لقد لحقت بهِ حتَّى كومبوستيلا، ولكن ها هو قد ذهبَ إلى مكانٍ آخر.

إن لم يعد عبرَ جبال البيرنيهِ غرباً فلم يبقَ سوى الشريط الساحلي للمحيط الذي يمتدُّ حتَّى نهايةِ العالم. لا بدَّ أنَّ جاك ذهبَ جنوباً، وهذا يعني أنَّ عليها متابعة السفرِ على صهوةِ مُهرتها الرماديةِ وطفلها على ذراعيها إلى قلبِ إسبانيا.

تساءلت في نفسها كم ستبعد عن الوطنِ قبلَ أن تنتهي رحلةُ حَجِها.

***

قضى جاك عيد الميلادِ مع صديقهِ رشيد الهارون في طليطلة. كان رشيد من أصلٍ عربي مُسلم، ولكنه عُمّدَ، وأصبحَ مسيحياً، وجنى ثروةً من استيراد التوابل، الفلفل الأسود على وجهِ التحديد، من الشرقِ. التقيا خلالَ صلاةِ الظهرِ في الكاتدرائيةِ العظيمةِ، وتمشيا معاً تحتَ شمسِ الشتاءِ الدافئةِ عبرَ الشوارعِ الضيقةِ والسوق العابق بالروائحِ في منطقةِ الأثرياءِ.

كان منزلُ رشيد بناءً حجرياً أبيضَ اللونِ ومُبهراً، وفي وسطهِ فناءٌ ونافورةٌ، أما ممرّاتُ الفناءِ المقنطرة التي تؤمن الفيء فذكرت جاك بالممرات المسقوفةِ في ديرِ كينغزبريدج. إنَّ وظيفةَ هذهِ الممرّاتِ المسقوفةِ في إنكلترا تأمين ملجأ من الريحِ والمطرِ، أمَّا هنا فكانت بغرضِ التخفيف من حرارةِ الشمسِ.

جلسَ رشيد وضيوفهُ فوقَ وسائد على الأرضيةِ، وتناولوا الطعامَ إلى

طاولةٍ واطئةٍ. اهتمَّت بخدمتهم زوجاتُ وبناتُ الرجالِ إضافةً إلى العديد من الخادماتِ اللواتي كانت صفةُ وجودهن في المنزلِ مثيرةً للريبةِ، ولكن بما أنَّ رشيد مسيحي، ولا يمكنهُ أن يحظى إلّا بزوجةٍ واحدةٍ، راود جاك شكٌ أنَّ رشيد تلاعب بصمتٍ على استنكارِ الكنيسةِ حيالَ وجود محظياتٍ.

في منزلِ رشيد المضياف كانت نساؤهُ أكثرَ ما يفتنُ فيه فقد كُنَّ جميلاتٍ جداً. كانت زوجتهُ امرأةً رشيقةً كمنحوتةٍ ببشرةٍ سمراء داكنة وملساء، وشعرٍ أسود لامع، وعينين عسليتين لامعتين أيضاً، أمَّا بناته الثلاث فقد كُنَّ نُسخاً أكثر نحولاً عن والدتهن. كانت الكبرى مخطوبةً إلى أحدِ الحاضرين وهو ابن تاجرِ حريرٍ من المدينةِ. «ابنتي ريَّا ابنةٌ مثاليةٌ»، قال رشيد بينما دارت ريَّا حولَ الطاولةِ تحملُ وعاءً يحوي على ماءٍ مُعطرٍ كي يغسلَ الضيوفُ أيديهم. «إنَّها يقظةٌ ومطيعةٌ وجميلةٌ. أنتَ محظوظ يا جوزيف». أومأ جوزيف –خطيبُ ريَّا– برأسهِ في تأكيد على حُسنِ حظهِ.

أمَّا الابنةُ الثانيةُ فلم تكن متكبرةً وحسب بل وقحة، ويبدو أنَّها تمتعضُ من الثناءِ الذي تناله أختها. نظرت هذهِ الابنة إلى جاك وهي تسكبُ في كأسهِ مشروباً من إبريقٍ نحاسي فسألها: «ما هذا؟»

«مشروب طبي بنكهةِ النعنع»، قالت بامتعاضٍ. كانت تكرهُ خدمتهُ لاعتقادها أنَّها ابنة رجلٍ عظيم، أمَّا هو فمجرَّد غريبٍ فقيرٍ.

أمَّا الابنةُ الثالثةُ فكانت تُدعى عائشة، وقد أحبَّها جاك أكثرَ من أختيها. خلالَ الأشهرِ الثلاثةِ التي قضاها هنا تعرَّفَ عليها جيداً. كانت في الخامسة أو السادسة عشرة، ضئيلةَ البنيةِ وحيويةً، وتبتسمُ على الدوامِ، ورغمَ أنَّها كانت أصغرَ منهُ بثلاثةِ أو أربعةِ أعوامٍ فإنَّها لم تبدُ طفلةً بل تمتعت بذكاءٍ وقادٍ وحيوي. كانت تطرحُ عليهِ أسئلةً لا تنتهي عن إنكلترا، وعن أسلوبِ الحياةِ المُختلفِ هناك، وغالباً ما تسخرُ من السلوكيات المجتمعيةِ في طليطلة، والذوقِ السيئ للمسيحيين الحديثي الثراءِ، وكانت أحياناً تجعلُ جاك يغرقُ في نوباتٍ من الضحكِ. وعلى الرغمِ من أنَّها أصغرُ بناتِ رشيد سِناً فإنّها كانت أقلَّهن براءةً، وعرفَ جاك هذا من النظرةِ التي ترمقه بها وهي تنحني فوقهِ لوضعِ طبقِ الروبيانِ المتبلِ على الطاولةِ بطريقةٍ تفضح مجوناً خفياً. التقت أعينهما، وقالت له في تقليدٍ بارعٍ لأسلوبِ أختها المُتعجرفِ:

«مشروب صحي بنكهةِ النعنع»، فقهقه جاك. عندما يكون بصحبةِ عائشة غالباً ما ينسى أمر آليانا، ولساعاتٍ متواصلةٍ.

ولكن عندما لا يكون في منزلِ رشيد يفكرُ بآليانا كأنَّه تركها بالأمس. كانت ذكرياتهُ عنها حاضرةً وقويةً رغمَ أنَّه لم يرها منذُ أكثر من عامٍ، وكان قادراً على استعادةِ أيِّ تعبيرٍ من تعابيرها متى أرادَ: ضحكتها، وغرقها في التفكيرِ، وتعبير الشكِّ على وجهها، والقلقِ، والرضا، والدهشةِ، ولكن أوضحَ تعبيرٍ يتذكرهُ كان الشغفَ. لم ينسَ جسدها، وما زالَ يتذكرُ استدارةَ ثدييها، والملمسَ الناعمَ لبشرةِ باطنِ فخذها، وطعمَ قبلتها، ورائحتها وهي مُستثارةٌ، وغالباً ما كان يشعرُ بالتوقِ إليها.

وليعالج نفسهُ من هذا التوقِ العقيمِ إليها يتخيل أحياناً ما كانت آليانا تفعلهُ في تلكَ اللحظةِ. كان يتخيلها تخلعُ عن آلفريد جزمته في نهايةِ اليومِ، وتجلسُ معه إلى مائدةِ الطعامِ، وتمارس الحبَّ معهُ، وتُرضع صبياً صغيراً شبيهاً به. كانت مثلُ هذهِ الرؤى تعذبهُ، ولا تعالج توقهُ وشوقهُ إليها.

اليوم عيدُ الميلادِ، ولا بدَّ أنّ آليانا تشوي وزةً، وتزينها بريشها على طاولةِ الطعامِ. سيكون هناك أيضاً مشروب الباسيت المصنوع من الجعةِ والبيض والحليب وجوزةِ الطيبِ. كانت الأطباقُ أمامَ جاك الآن مختلفةً تماماً عمَّا اعتادَ تناولهُ في إنكلترا. أطباقٌ شهيةٌ يسيلُ لها اللعابِ من لحمِ الحملِ المتبلِ بتوابل غريبة، وأرز مخلوط بالمكسراتِ، وسلطات بعصيرِ الليمونِ وزيتِ الزيتونِ. تطلَّبَ جاك بعضَ الوقتِ ليعتادَ على الطعامِ الإسباني. لا يقدمون هنا قطعاً كبيراً من لحمِ البقرِ، أو فخذِ الخنزيرِ، أو الطرائدِ التي لا تخلو وليمةٌ في إنكلترا منها، ولا يستهلكون قطعاً كبيرةً من الخبزِ. لم يكن لديهم مراعٍ غزيرةٍ لرعي قطعانٍ كبيرةٍ من المواشي، أو التربةِ الخصبةِ لزراعةِ القمحِ بسنابلهِ المتماوجةِ، ولذلكَ عوضوا عن كميةِ اللحمِ القليلةِ باختراعِ طرقٍ للطهي بكافةِ أنواعِ التوابلِ، ومقابلَ الخبزِ الذي يحتلُ مكانةً أساسيةً في الطعامِ الإنكليزي كانت لديهم تشكيلةٌ واسعةٌ من الخضارِ والفواكه.

عاشَ جاك في طليطلة مع مجموعةٍ صغيرةٍ من الكهنةِ الإنكليز، وكان جزءاً من جمعيةٍ دارسين دولية تضمُ يهوداً ومسلمين ومسيحيين عرباً. كان الإنكليز مشغولين بترجمةِ الكتبِ الرياضيةِ من العربيةِ إلى اللاتينيةِ

حتَّى يتمكن المسيحيون من قراءتها. سادَ بين الإنكليز جو من الحماسةِ المحمومةِ وهم يكتشفون وينقبون في كنوز ما تعلَّمهُ العربُ، ورحبوا دونَ اعتراضٍ بوجودِ جاك كمُتعلمٍ؛ فقد قبلوا في دائرتهم كلَّ من أرادَ فهم ما يفعلونهُ، وشاركهم حماستهم نحوهُ. كانوا أشبه بفلاحين قضوا سنواتٍ في زرعِ محصولٍ في تربةٍ فقيرةٍ ثمَّ، وعلى حينِ غرَّةٍ، انتقلوا إلى وادٍ بتربةٍ رسوبيةٍ خصبةٍ. تخلى جاك عن البناءِ ليدرسَ الرياضيات، ولم يكن مُضطراً للعملِ من أجلِ المالِ؛ فقد قدَّم له الكهنةُ سريراً لينامَ عليهِ، ووجبةَ الطعامِ التي أرادها، ورداءً وصندلاً عندما احتاج.

كان رشيد أحدُ رعاتِهم، وبوصفهِ تاجراً دولياً تحدَّث بعدَّة لغاتٍ، وتصرَّفُ كشخصٍ كوزموبوليتي. في منزلِه تحدَّثَ بالقشتاليةِ، وهي لغة إسبانيا المسيحية بدلاً من اللغة المستعربية[1]، وكان جميعُ أفرادِ عائلتهِ يتحدثون بالفرنسيةِ، وهي لغة النورمانديين الذين كانوا من التُجارِ المُهمين. على الرغمِ من أن رشيد تاجر فإنَّه كان مفكراً جباراً ويتمتع بفضولٍ كبيرٍ. ولأنَّ رشيدَ أحبَّ التحدثَ إلى العلّامين ومناقشتهم في نظرياتهم، أحبَّ جاك على الفورِ، وباتَ الأخيرُ يتناولُ الغداء في منزلِهِ مرَّاتٍ عديدةً في الأسبوعِ.

حالما بدأوا بالأكلِ سألَ رشيد جاك: «ما الذي علَّمكَ إياه الفلاسفةُ هذا الأسبوع؟»

«أقرأ هذا الأسبوع كتاب إقليدس». كان كتابُ إقليدس «عناصر الهندسة» من أوائلِ الكتبِ التي تُرجمت.

«إقليدس اسم عربي غريب»، قال إسماعيل شقيق رشيد

«إنَّه يوناني»، وضح جاك ثمَّ أضافَ: «ولدَ وعاشَ قبل ميلادِ المسيح. أضاعَ الرومان عملهُ، ولكن المصريين احتفظوا بهِ، ولهذا وصلَ إلينا باللغةِ العربيةِ».

«والآن يترجمهُ الإنكليز إلى اللاتينية!» قال رشيد. «هذا مذهلٌ بحقٍ».

«ولكن ما الذي تعلمتهُ؟» سألَ جوزيف خطيبُ ريًّا.

1- اللغة المستعربية (الموزاربية) إحدى اللغات التي تكلَّمَ بها المسيحيون الإسبان في شبهِ الجزيرةِ الإيبريةِ إبان الحكمِ الإسلامي، وهي لغة رومانسية تحوي على الكثير من المفردات العربيةِ. (المترجمة)

أبدى جاك تردداً في الحديثِ عن هذا فشرحهُ سيكون صعباً، ولكنه حاول توضيحهُ لهم بطريقةٍ عمليَّةٍ. «علَّمني زوجُ والدتي الذي كان بنَّاءً القيام بحساباتٍ هندسيةٍ معينةٍ؛ كتقسيمِ الخطِّ إلى نصفين، ورسمِ زاوية قائمة، مربعٍ داخلِ مربعٍ آخر بحيثُ تكونَ مساحةُ الأصغر نصفَ مساحةِ الأكبر».

«وما الفائدة من مثلِ هذهِ المهاراتِ؟» قاطعهُ جوزيف بنبرةٍ فيها شيءٌ من الاحتقارِ؛ فقد كان يعتبر جاك مُحدثَ نعمةٍ، ويغارُ من اهتمامِ رشيد بأحاديثِهِ.

«مثلُ هذهِ الحسابات أساسيةٌ في عمليةِ تخطيطِ البناءِ»، أجابَ جاك بلُطفٍ متظاهراً أنَّه لم يلحظ نبرةَ الاحتقارِ في كلامِ جوزيف. «انظر إلى هذا الفناءِ. إنَّ مساحةَ الممرّاتِ المقنطرةِ على الحوافِ هي ذاتها تماماً مساحة المنطقةِ المفتوحةِ في الوسطِ. تُبنى مُعظمُ الأفنيةِ الصغيرةِ وفقَ هذا المبدأ، بما في ذلكَ الممرّات المسقوفةِ في الأديرةِ، وهم يفعلون هذا لاعتقادهم أنَّ مثلَ هذه النسب مريحةٌ جداً. إن كان القسمُ الأوسط أكبر سيبدو المكان أشبهَ بسوقٍ، وإن كان أصغر سيبدو كفتحةٍ في القبةِ المُقنطرةِ. ولكن كي ينجح البنَّاءُ في تحقيقِ هذهِ النسبِ عليه رسم القسم المفتوح في الوسطِ بأبعادٍ تعادلُ نصفَ مساحةِ كاملِ البناءِ.

«لم أعلم هذا قبلاً!» قال رشيد بابتهاجٍ فقد كان يجدُ متعةً في تعلُّمِ شيءٍ جديدٍ.

«يشرحُ إقليدس سببَ فاعليةِ مثلِ هذهِ التقنياتِ»، أضافَ جاك ثمَّ تابع: «على سبيلِ المثالِ إن جزءي الخطِّ المقسومِ متساويان لأنَّهما يُشكلان جانبين متطابقين لمثلثين متناسبين».

«متناسبين؟» استفسرَ رشيد.

«متطابقين».

«آه، فهمت».

ولكن جاك عرفَ أنَّ ما من أحدٍ آخر بين الحاضرين، باستثناءِ رشيد، فهمَ ما قالهُ.

وهنا قال جوزيف: «ولكنك، وحتَّى قبل أن تقرأ كتابَ إقليدس، تستطيعُ القيامَ بمثلِ هذهِ الحسابات الهندسيةِ، ولذلكَ لا أرى أنَّك حصدتَ أيَّة فائدةٍ إضافيةٍ من قراءتهِ».

احتجَّ رشيد قائلاً: «الإنسانِ يحصدُ على الدوامِ فائدةً من خلالِ فهمهِ لشيءٍ ما».

وهنا قال جاك: «علاوةً على هذا، وبما أنني الآن أفهم المبادئ الهندسيةَ يمكنني أن أصلَ إلى حلولٍ لمشاكل جديدة حيَّرت زوجَ والدتي». بدأ جاك يشعرُ بالإحباطِ من هذا الحديثِ فقد نزلَ عليهِ كتابِ إقليدس كوحي مفاجئ، ولكنه عجزَ عن إيصالِ الأهميةِ المثيرةِ لمثلِ هذهِ الاكتشافاتِ الجديدةِ، ولذلكَ غيرَ مسارَ الحديثِ بطريقةٍ ما. «ولكن أكثر ما يثير في كتاب إقليدس منهجه»، قال جاك وتابع: «فهو يأخذُ خمسَ مُسلماتٍ، ويستنبطُ منها منطقياً كلٍّ شيءٍ آخر».

«أعطني مثالاً على إحدى هذهِ المُسلمات»، قال رشيد.

«الخط المستقيم لا نهاية له».

«لا يمكن لهذا أن يكون صحيحاً»، قالت عائشة وهي تمررُ صحناً من التينِ.

بوغتَ الضيوفُ بعضَ الشيءِ عندَ سماعِ فتاةٍ تنضَمُّ إلى النقاشِ، ولكن رشيد ضحكَ بسماحةٍ؛ فقد كانت عائشة الابنة المفضلةَ لديهِ.

«ولكن لماذا؟» سألها والدها.

«يجب أن يكون له نهاية في مرحلةٍ ما»، أجابتهُ.

قال جاك: «ولكن في مخيلتكِ قد يمتدُّ إلى ما لانهايةٍ».

«في مخيلتي يمكنُ للماءِ أن يتدفقَ باتجاهِ أعلى التلةِ، وللكلابِ أن تتكلم باللاتينيةِ»، عاجلتهُ بالرَّدِ.

دخلت والدتها إلى الغرفةِ وسمعت ردها. «عائشة!» قالت بصوتٍ فولاذي. «اخرجي».

ضحكَ جميعُ الرجالِ الحاضرين. عبست عائشة، وغادرت الغرفة، وهنا قال والدُ جوزيف: «أيّاً يكن من سيتزوجها ستتعبهُ!» ضحكَ الجميعُ، وضحكَ جاك معهم ثمَّ لاحظَ أنَّ الجميعَ ينظرُ إليهِ كأنَّ الدعابةَ موجهةٌ إليهِ.

بعدَ أن انتهوا من الغداءِ عرضَ رشيد على الضيوفِ مجموعتهُ الخاصة بالألعابِ المتحركةِ. كان يمتلكُ حوضاً يمكن فيه خلطُ الماءِ بالنبيذ

وفصلهما، وساعةً مائيةً مذهلةً تحدد ساعاتِ اليومِ بدقةٍ خارقةٍ، وإبريقاً يعيدُ ملء نفسهِ من دونِ أن يطفح أبداً، وتمثالاً خشبياً صغيراً لامرأةٍ بعينين مصنوعتين من بلورٍ غريبٍ يمتصُّ الماء في حرارةِ النهارِ، ويفرزهُ في برودةِ الليلِ؛ فتبدو معهُ المرأة كأنَّها تبكي. شارك جاك رشيد افتتانهُ بهذه الألعابِ، ولكن أكثرَ ما فتنهُ بينها تمثالُ المرأةِ المنتحبةِ؛ فآليةُ عملِ الألعابِ الأخرى بدت بسيطةً بعدَ الشرحِ، ولكن ما من أحدٍ فهمَ حقاً الآلية التي يعملُ بها التمثال.

جلسوا في الممرّاتِ المقنطرةِ للفناءِ بعدَ الظهرِ إمَّا يلعبون بالألعابِ، أو يأخذون قيلولةً، أو يتحدثون بكسلٍ. تمنَّى جاك لو أنَّه كان من عائلةٍ كبيرةٍ كهذهِ العائلةِ ولديهِ أخوات، وأعمام، وأهل أزواج، ومنزل عائلي يمكنهم جميعاً زيارتهُ، ومكانة محترمة في بلدةٍ صغيرةٍ. وفجأةً تذكرَ المحادثة بينه وبينَ والدتهِ في الليلةِ التي هربَ فيها من زنزانةِ الديرِ. كان قد سألها عن أقرباءِ والدهِ، وقالت له آنذاك: «أجل، لديهِ عائلة كبيرة في فرنسا»، وقال لنفسه: «أجل لدي عائلة كبيرة كهذهِ العائلةِ، ولدي أعمامٌ وعمّاتٌ، وربما أبناءُ وبناتُ عمومةٍ في مثلِ عُمري، ولكن كيف سأعثرُ عليهم؟»

شعرَ كأنَّه سفينة طافية من غير مرساةٍ، ورغمَ أنَّه قادرٌ على النجاةِ أينما ذهب فإنَّه لم يشعر بالانتماءِ إلى مكانٍ محددٍ. عملَ كنحاتٍ وبنَّاءٍ، وكان راهباً ورياضياً، ولكنه لم يعلم أيُّ شخصية من هذهِ الشخصياتِ شخصيتهُ الحقيقية، وقد لا تكون أيّة واحدةٍ منها. يتساءلُ في نفسهِ أحياناً إن كان عليه أن يصبح شاعراً متجولاً كوالدهِ، أو خارجاً عن القانونِ كوالدتهِ. كان في التاسعةَ عشرة مشرداً، وبلا أصلٍ، أو عائلةٍ، أو هدفٍ في الحياةِ.

لعبَ الشطرنجَ مع جوزيف، وفازَ عليهِ ثمَّ أتى رشيد، وقال لجوزيف: «دعني أجلس مكانكَ يا جوزيف. أرغب بسماعِ المزيدِ عن إقليدس».

أطاعَ جوزيف، وتخلَّى عن مكانهِ لوالدِ زوجتهِ المستقبليةِ ثمَّ ابتعدَ فقد سمعَ كلَّ ما احتاجَ سماعهُ عن إقليدس.

جلسَ رشيد وقال لجاك: «هل أنتَ مستمتعٌ بوقتكَ؟»

«كرم ضيفاتكَ لا نظير له»، قال جاك بلطفٍ وهدوءٍ فقد تعلَّم أساليب اللباقة في طُليطلة.

«شكراً لكَ، ولكني كنتُ أقصدُ وقتكَ في دراسةِ إقليدس».

«أجل. لا أعتقدُ أنني نجحتُ في توضيحِ أهميةِ كتابه. كما ترى...»

«أعتقدُ أنني أفهمُ أهميتهُ»، قال رشيد. «فأنا مثلكَ أحبُّ المعرفةَ من أجلِ المعرفةِ بحدِ ذاتها».

«أجل».

«ولكن على الإنسان أن يجدَ سبيلاً لتأمين لقمةِ العيشِ».

لم يفهم جاك الرابطَ بينَ هذهِ الملاحظةِ وإقليدس، ولهذا انتظر من رشيد أن يستفيض، ولكن الأخيرَ أسندَ ظهرهُ، وأغمضَ عينيهِ نصفَ إغماضةٍ، وبدا راضياً بمقاسمةِ الصمتِ مع شريكِ. وهنا بدأ جاك يتساءلُ في نفسهِ إن كان رشيد يعاتبهُ لعدمِ عملهِ في مجالِ التجارةِ ولذلك قالَ في نهايةِ المطافِ: «أعتقدُ أنني سأعودُ إلى عملي كبناءٍ في يومٍ ما».

«هذا جيد».

ابتسمَ جاك وقال: «عندما غادرتُ كينغزبريدج على صهوة مُهرةِ والدتي، وعدَّةِ زوجها في حقيبةٍ على كتفي، اعتقدت وقتها أنَّ بناءَ الكنائسِ يتّمُ بطريقةٍ واحدةٍ فقط: جدران سميكة، وقناطر مدورة، ونوافذ صغيرة، وسقف مقنطر خشبي أو حجري ذو شكلٍ أسطواني، والكاتدرائيات التي رأيتها على طريقي من كينغزبريدج حتى ساوثهامبتون لم تكن مختلفةً، ولكن عندما وصلتُ إلى النورماندي تغيرت حياتي».

«أتخيلُ هذا»، قال رشيد بنعاسٍ. بدا غير مُهتمٍ، ولذلكَ استعاد جاك تلكَ الأيام في صمتٍ. بعدَ وصولهِ إلى أونفلور بساعاتٍ بحثَ عن كنيسةِ ديرِ جوميج، وكانت أعلى كنيسةٍ يراها في حياتهِ، ولكن ما عدا ذلك لم تكن بقناطرها المدورةِ وسقفها الخشبي مختلفةً عن بقيةِ الكنائسِ التي رآها قبلاً، ولكن في قاعةِ الاجتماعِ بنى رئيسُ الديرِ أورسو سقفاً حجرياً بطريقةٍ ثوريةٍ، وبدلاً من الشكل الأسطواني المدور والخالي من أيِّ تفاصيل أو القُبةِ المُقنطرةِ كان للسقفِ دعائم كالأضلاع تبدأ من أعلى الأعمدةِ وتتلاقى فوقها. كانت هذهِ الدعائم سميكةً وقويةً، والمساحات المثلثيةُ بينها رفيعةً وأكثر خفَّةً. وضحَ له الراهب المسؤول عن الأبنيةِ في الدير أنَّ بناءَ القُبةِ المُقنطرةِ بهذهِ الطريقةِ أسهل؛ فالأضلاعُ تُبنى أولاً ثمَّ يغدو بناءُ بقيةِ الأقسامِ

أكثرَ بساطةً. كانت مثلُ هذهِ القناطرِ خفيفةً. أملَ الراهبُ بسماعِ أخبارٍ من جاك عن تقنيات بناءٍ جديدةٍ من إنكلترا، واضطرَ جاك إلى تخييبِ أمله، ولكن إعجاب جاك الصريح بالقُبةِ المُقنطرةِ ذات الأضلاعِ أسعدَ الراهبَ فأخبرهُ بوجودِ كنيسةٍ في ليسيه، وهي لم تكن بعيدةً جداً، سقفها بالكاملِ مُقنطرٌ بهذهِ الطريقةِ.

توجهَ جاك إلى ليسيه في اليومِ التالي، وقضى طوالَ فترةٍ ما بعدِ الظُهرِ في الكنيسةِ يتأملِ بإعجابٍ القبة المُقنطرة. ما أذهلهُ حقاً هو أنَّ الأضلاع تمتد من أعلى القُبةِ حتَّى تيجانِ الأعمدةِ، وتبدو كأنَّها تُبرزُ بوضوحٍ كيف تحمل أقوى أجزاءِ البناءِ وزنَ القُبةِ، ومنطقَ البناءِ بأكملهِ.

توجه جاك بعدَ ذلكَ جنوباً إلى مقاطعة آنجو، وقامَ بأعمالِ إصلاحٍ في كنيسةِ ديرٍ في تورز دونَ أن يجدَ مشقةً في إقناعِ كبيرِ البنَّائين هناك بإعطائهِ عملاً. كانت أدواتُ البنَّاءِ التي بحوزتهُ دليلٌ على أنَّه بنَّاء، وبعدَ يوم من العملِ أدركَ الرئيسُ أنَّه بنَّاءٌ جيدٌ. يبدو أنَّه لم يُغالِ عندما تفاخرَ أمامَ آليانا أنَّه قادرٌ على الحصولِ على عملٍ في أيِّ مكانٍ في العالمِ.

ومن بينِ الأدواتِ التي ورثها جاك عن توم كانت مسطرتهُ التي لا يملكها سوى كبار البنَّائين. عندما رأى بقيةُ البنَّائين المسطرةَ معه سألوه كيفَ له أن يصبح كبيرَ بنَّائين وهو ما يزال يافعاً. في البدايةِ أرادَ القول لهم إنَّه لم يكن كبير بنَّائين ثمَّ قررَ أنَّه كان كبير بنائين؛ فقد كان يديرُ موقعَ بناءِ كاتدرائيةِ كينغزبريدج عندما كان راهباً ويستطيعُ رسمَ مخططاتٍ مثل توم. عندما اكتشفَ رئيسُ البنَّائين الذي عملَ تحتَ إمرتهِ جاك أنَّه استعانَ بمنافسٍ حقيقي له شعرَ بالضيقِ. في أحدِ الأيامِ اقترحَ جاك على الراهب المسؤول عن أعمالِ البناءِ تعديلاً، ورسمَ له التعديل على أرضيةِ التخطيطِ، وهنا بدأت المتاعبُ. كان كبيرُ البنَّائين مقتنعاً أنَّ جاك يسعى لسلبهِ عمله، وبدأ يبحث عن عيوبٍ في عملِ جاك، ويكلفهُ بمهام مملةٍ كتقطيعِ حجارةٍ عاديةٍ.

سرعان ما عادَ جاك إلى الترحالِ مجدداً، وتوجهَ هذهِ المرة إلى ديرِ كِلوني الذي يعدُّ مركزَ الإمبراطورية الرهبانية في المملكةِ المسيحيةِ، ومع أخويةِ كِلوني بدأ طقسُ الحجِّ الشهير الآن إلى قبرِ سانت جيمس في كومبوستيلا. وعلى طولِ الطريقِ إلى كومبوستيلا بُنيت كنائس مكرسةٌ للقديس جيمس،

وللأديرةِ الكِلونيةِ،، وللاهتمامِ بالحُجاجِ. وبما أنَّ والد جاك كان شاعراً متجولاً على طريقِ الحجِّ؛ فمن المرجحِ جداً أنَّه زارَ كلِوني.

ولكن يبدو أنَّ والدهُ لم يزر كِلوني؛ فلم يكن فيها أيُّ شعراءٍ متجولين، ولم يوفق جاك إلى معرفةِ أيِّ شيءٍ عن والدِهِ فيها.

على الرغمِ من ذلك لم تكن رحلته قط مضيعةً للوقتِ، لأنَّه حتَّى اللحظة التي دخلَ فيها إلى كنيسةِ ديرِ كِلوني لم يرَ سوى القناطر نصفِ الدائريةِ، وكان كلُّ سقفٍ مُقنطرٍ أشبهَ بنفقٍ، أو بصفٍ طويلٍ من الأقواسِ الدائرية المتراصّةِ، أو المقنطرةِ كنقطةِ التقاءِ قناتين. لم تكن الأقواس في كِلوني نصفَ دائرية.

كانت أقواسها مدببةً.

رأى جاك أقواساً مدببةً في المجازات الرئيسيةِ المُقنطرةِ، وكانت أقواسُ القُبةِ المُقنطرةِ في الممرّاتِ الجانبيةِ مدببةً أيضاً، ولكن أكثر ما أبهرهُ في البناءِ هو أنَّ القُبةَ الحجرية المُقنطرةَ فوقَ صحنِ الكنيسةِ لها شكلٌ أسطواني مع أقواسٍ مدببةٍ. لطالما قِيل لجاك إنَّ الدائرةَ أقوى الأشكال لأنَّها مثاليةٌ، وأنَّ القوسَ المدور متين لأنَّه جزءٌ من دائرةٍ، ولذلكَ اعتقدَ أنَّ الأقواسَ المدببةَ ضعيفةٌ. في حقيقةِ الأمر أخبرهُ الرهبانُ في دير كِلوني أنَّ الأقواسَ المدببةَ قويةٌ جداً مقارنةً بالأقواسِ القديمةِ المدورةِ، ويبدو أنَّ الكنيسةَ في كِلوني خيرُ دليلٍ على هذا، وعلى الرغمِ من وزنِ حجارةِ سقفها الحجري المُقنطرِ فإنَّها لم تكن عاليةً جداً.

لم يُطل جاك البقاءَ في كِلوني بل تابعَ رحلتهُ جنوباً على طريقِ الحجِّ، ولكنه انحرف عنه كلَّما تملكتهُ رغبةٌ مفاجئةٌ. مع بدايةِ الصيفِ اكتظَّ طريقُ الحجِّ بالشعراءِ المتجولين سواء في البلدات الكبرى، أو قربَ الأديرةِ الكِلونيةِ. سردَ أولئك الشعراءِ قصصاً شعريةً على حشودِ الحجاجِ أمامَ الكنائسِ، وعندَ الأضرحةِ المقدسةِ، وأحياناً عزفوا على الكمانات تماماً كما أخبرتهُ آليانا. سألَ جاك كلَّ شاعرٍ رآه إن عرفَ جاك تشيربورغ، ولكن جميع من سألهم أجابوا بالنفي.

لم تفشل أيَّة كنيسةٍ رآها على طريقهِ من جنوب غرب فرنسا وحتَّى شمال إسبانيا في إثارةِ دهشتهِ، ولاحظَ أنَّ جميعَ هذهِ الكنائسِ أعلى من نظيرتها الإنكليزيةِ. كان لبعضِها أسقف أسطوانيةٌ بأقواسٍ، وكلُّ قوسٍ في

سقفِ الكنيسةِ يمتد من دعامةٍ إلى أخرى مقابلة لها، وهذا بدورهِ جعل بناءَ الحجيراتِ على مراحل، بدلاً من بنائها دفعةً واحدةً، ممكناً. علاوةً على هذا غيّرت هذهِ التقنيةُ من مظهرِ الكنيسةِ بأن أبرزت الحدودَ الفاصلةَ بينَ الحُجيراتِ، وبدت الكنيسةُ كأنَّها سلسلة من أجزاءٍ متماثلةٍ كشرائحِ الخُبزِ، وأضفى هذا مظهرَ تناسقٍ منطقي على المساحةِ الداخليةِ الضخمةِ.

وصلَ جاك إلى كومبوستيلا بحلولِ منتصفِ الصيفِ، وتفاجأ بوجود أماكن في العالمِ المناخ فيها حارّاً إلى هذه الدرجة. في سانتياغو رأى كنيسةً طويلةً تحبسُ الأنفاسَ، ورغمَ أنَّ صحنها كان لا يزالُ قيدَ الإنشاءِ، فإنَّه رأى أنَّ لسقفها التصميم الأسطواني المقوس ذاتهُ، ومن سانتياغو توجهَ جنوباً.

كانت الممالكُ الإسبانية تحتَ حُكمِ العربِ المُسلمين حتَّى وقتٍ قريبٍ، ولذلكَ ما زالَ المسلمون يهيمنون على معظم الجنوبِ الإسباني، جنوبَ طليطلة بالتحديد. سُحرَ جاك بالأبنيةِ العربيةِ الإسلاميةِ، وفتنه ارتفاعها، ومساحاتها الداخلية الرطبة، وممراتها المقنطرة والمسقوفة، وحجارتها الناصعة البياضِ إلى درجةِ أنّها تُغشي البصرَ تحتَ أشعةِ الشمسِ، ولكن ما أثارَ اهتمامهُ حقاً اكتشافه القُبةَ المُقنطرة ذات الأضلاعِ والأقواسِ المدببةِ في العمارةِ الإسلاميةِ. ربما أخذَ الفرنسيون عن المسلمين هذهِ التقنية.

في قيظِ فترةِ ما بعد الظهيرةِ في طليطلة وهو يُصغي دونَ تركيزٍ إلى ضحكاتِ النساءِ في مكانٍ ما بعيد داخلَ المنزلِ الكبيرِ الرطبِ، فكّر جاك أنَّه لن يعملَ أبداً على كنيسةٍ ككنيسةِ كينغزبريدج، وأنَّه ما زال راغباً ببناءِ أجملِ كاتدرائيةٍ في العالمِ، غير أنَّها لن تكونَ ضخمةً وقويةً كحصنٍ، بل أرادَ استخدام التقنياتِ الجديدةِ كالسقفِ ذي الأضلاعِ والأقواسِ المدببةِ، ولكنه علمَ أنَّه لن يستخدمَ هذهِ التقنيةَ بالطريقةِ التي صممت لتُستخدم؛ فما من كنيسةٍ رآها حتَّى الآن استفادت من كل الإمكانياتِ المتاحةِ لهذهِ التقنيةِ. في ذهنهِ كان قد بدأ يرسمُ صورةً لكنيسةِ أحلامهِ، ورغمَ أنَّ التفاصيل لم تكن واضحةً، فإنَّ الشكلَ الخارجي كان واضحاً تماماً في مخيلتهِ. ستكون كنيسةً واسعةً، وحسنةَ التهويةِ، وإضاءتها قوية لأنَّها ستتدفقُ من نوافذها الكبيرةِ، وستكون القُبةُ المُقنطرةُ عاليةً جداً كأنَّها تصلُ إلى السماواتِ.

وفجأةً قال رشيد: «ستحتاج ريَّا وجوزيف إلى منزلٍ. إن كنت مستعداً لبنائهِ ستحصلُ على المزيدِ من عروضِ العملِ».

بوغتَ جاكُ بما قاله رشيد. كان بناءُ المنازلِ آخر شيءٍ قد يفكرُ بهِ، ولكنه سأله: «أتعتقد أنهما يريدانني أن أبني لهما منزلهما؟»

«ربما».

حلَّ صمتٌ طويلٌ آخر، وخلاله فكرَ جاك بحياتهِ كبنَّاءِ منازل للتجارِ الأثرياءِ في طليطلة.

وأخيراً بدا رشيد كأنَّه استيقظَ من نومهِ فاستقامَ في جلستهِ، وفتحَ عينيهِ على اتساعهما ثمَّ قال: «أستلطفكَ يا جاك فأنتَ رجلٌ نزيهٌ، ومقارنةً بمعظمِ من أعرفهُم حديثكَ جديرٌ بالاهتمامِ. آملُ أن نبقى أصدقاء على الدوامِ».

«وأنا كذلكَ»، قال جاك في شيءٍ من الدهشةِ من هذا التقديرِ المفاجئ.

«أنا مسيحي، وهذا يعني أنني لا أحبسُ نساءَ بيتي كما يفعلُ أخوتي المسلمون، ولكن من جهةٍ أخرى أنا عربي، وهذا يعني أنني لا أعطيهم... اعذرني، الحرية التي تمارسها الأخريات. أسمحُ لهنَّ بلقاءِ ضيوفي من الرجالِ، والتحدث إليهم في منزلي، بل أسمحُ للصداقاتِ بينهم، ولكن في مرحلةٍ ما عندما تنضجُ هذهِ الصداقةُ، وتتحولُ إلى شيءٍ أكبر، كما يحدثُ عادةً بينَ الشبانِ والشاباتِ، عندها أتوقعُ من الرجلِ أن يجعلَ العلاقةَ رسميةً، وما عدا ذلكَ أعدّهُ إهانةً».

«بالطبع»، قال جاك.

«عرفتُ أنَّك ستفهمني»، قال رشيد، ووقفَ ثمَّ وضعَ يدهُ بودٍ على كتفِ جاك. «لم يمنَّ الرَّبُّ عليَّ بابنٍ، ولكن لو أنني حظيتُ بواحدٍ فسيكون مثلكَ».

وبشكلٍ عفوي قال جاك: «ولكن أكثر سمرةً على ما أعتقد».

ولبرهةٍ نظرَ رشيد إلى جاك نظرةً تخلو من أي تعبيرٍ ثمَّ انفجرَ ضاحكاً مُجفلاً بقيّةَ الضيوفِ الموزعين في أرجاءِ الفناءِ. «أجل! أكثرَ سمرةً!» قال بمرحٍ، ودخلَ إلى المنزلِ وهو ما زال يقهقه.

بدأ الضيوف الأكبرُ سِناً يغادرون المنزلَ، وجو فترةِ ما بعد الظهرِ يغدو أكثرَ لطفاً. جلسَ جاك وحيداً يفكرُ بما قالهُ له رشيد. لم يكن هناك أدنى شكٍ أنَّ رشيد عرضَ عليهِ صفقةً للتو. إن تزوجَ من عائشة فسيجعلُ منه بنَّاءً

لمنازلِ الأثرياءِ في طليطلة، ولكن في الوقتِ ذاتهُ حذَّره. إن لم يكن ينوي الزواجَ منها فعليهِ الابتعاد. مقارنةً بالإنكليز يتصرفُ الإسبان بحذرٍ، ولكن إن اضطروا فلن يتورعوا عن توضيح ما يريدونه صراحةً.

عندما يفكرُ جاك بوضعهِ يعجزُ أحياناً عن تصديقهِ. تساءل في نفسهِ إن كانت هذهِ هويته. هل هو جاك جاكسن الابن اللقيط لرجلٍ أُعدمَ، أم الطفل الذي ترعرعَ في الغابةِ، أم البنَّاء المتدرب، أم الراهب الهارب؟ هل تلقى حقاً عرضاً بالزواجِ من ابنةٍ جميلةٍ لأحد التجار العرب الأثرياء بالإضافة إلى ضمانةِ العملِ كبنَّاءٍ في هذهِ المدينةِ الهادئةِ؟ بدا له الأمرُ أقربَ للخيالِ منه للحقيقةِ، بل كان يستلطفُ الفتاةَ أيضاً.

كانت الشمسُ قد بدأت تغربُ وغطى الفيء الفناءَ، ولكن لم يبقَ في الممرّ المقنطرِ سواه وجوزيف. وبينما كان يتساءلُ في نفسهِ إن كان الأمرُ قد خطّطَ له مُسبقاً ظهرت ريَّا وعائشة، وهنا تأكدَ من أنَّه أصابَ في ما توقعهُ. على الرغمِ من التشددِ الظاهري حيال أيِّ تواصلٍ جسدي بينَ الفتاتين والشابين، فإنَّ والدتهما على علمٍ تامٍ بما يحدثُ، وعلى الأغلب رشيد يعلمُ بهذا أيضاً، ولذلكَ منح الوالدان العشاق بعضَ لحظاتِ الخلوةِ ثمَّ، وقبلَ أن يتطورَ الأمرَ بشكلٍ جدي، ستدخلُ الأمُّ إلى الفناءِ متظاهرةً أنَّها غاضبةٌ جداً، وتأمرُ الفتاتين بالدخولِ إلى المنزلِ.

على الجانبِ الآخرِ من الفناءِ كانت ريَّا وجوزيف قد بدآ على الفورِ بتقبيل بعضهما بعضاً. عندما اقتربت عائشة منه وقفَ. كانت في ثوبٍ أبيض طويلٍ حتَّى الأرضِ من القطنِ المصري، وهو نسيجٌ لم يره جاك قبلَ وصولهِ إلى إسبانيا. كان القماش أنعم من الصوفِ، وأكثر رهافةً من الكتانِ. وبينما كانت عائشة تمشي التصقَ الفستان بجسدها، وبدا لجاك أنَّ بياضهُ يتلألأ تحت ضوءِ الشمسِ، ويجعل عيني عائشة تبدوان أكثرَ دُكنةً. وقفت قربهُ تبتسمُ بشقاوةٍ، وقالت له: «ما الذي قاله لكَ؟»

وتكهنَ جاك أنها عنت بكلامها والدها، وأجابها: «وعدني أنَّه سيؤمن مستقبلي كبنَّاءٍ منازل».

«يا له من مهرٍ!» قالت بازدراءٍ. «لا أصدقُ هذا! كان يمكنهُ على الأقلِّ عرضُ المالِ عليكَ».

كان جاك قد لاحظ وبشكلٍ غير مباشرٍ أنَّ عائشة لا تحتملُ مواربةَ العربِ التقليديةِ، ووجدَ الأمرَ لطيفاً. «لا أعتقدُ أنني أرغبُ ببناءِ المنازلِ»، قال لها.

وفجأةً بدت رصينةً وسألتهُ: «هل تستلطفني؟»

«أنت تعلمين أنني أستلطفكِ».

تقدَّمت خطوةً إلى الأمامِ، ورفعت وجهها، وأغلقت عينيها ثمَّ وقفت على أطرافِ أصابعِ قدميها وقبَّلتهُ. كانت تفوحُ منها رائحةُ المِسك والعنبر. فتحت فمها، وأقحمت لسانها بين شفتيهِ بدلالٍ، وبشكلٍ غريزي أحاطَها بذراعيهِ، وأراحَ يديهِ على خصرها. كان القماشُ القطني خفيفاً جداً إلى درجةِ أنَّ جاك شعرَ أنَّه يلمسُ جلدها العاري. أمسكت يدهُ، ورفعتها إلى ثديها. كان جسدها متيناً ومشدوداً، وثديها صغيراً أشبه برابيةٍ صغيرةٍ مع حلمةٍ صغيرةٍ صلبةٍ أعلاه. عندما أصبحت مستثارةً تحرَّك صدرها للأعلى والأسفل. صُدمَ جاك عندما شعرَ بيدها تتحركُ بينَ فخذيهِ. عصرَ حلمتها بينَ أطرافِ أصابعهِ فشهقت، وابتعدت عنه لاهثةً، فأفلتَ يديهِ.

«هل آلمتكِ؟» سألها جاك في همسٍ.

«لا!» أجابته.

فكرَ بآليانا وشعرَ بالذنبِ ثمَّ أدركَ أنَّه شعور غبي، وتساءل في نفسهِ عن سببِ شعورهِ أنَّه يخونها وهي متزوجة من رجلٍ آخر غيرهِ.

نظرت عائشة إليهِ لوهلةٍ، وعلى الرغمِ من أنَّ الظلامَ قد بدأ يهبطُ فإنَّه رأى على وجهها رغبةً جارفةً. أمسكت بيده ووضعتها مجدداً على ثديها.

«افعلها مجدداً، ولكن بقوةٍ أكبر»، ألحَّت عليهِ.

تحسسَ حلمةَ ثديها ثمَّ مالَ إلى الأمامِ ليقبلها، ولكنها تراجعت إلى الوراءِ، وراقبت وجههُ وهو يُداعبها. عصرَ حلمتها بُلطفٍ ثمَّ بقوةٍ كما طلبت منه. انحنت إلى الوراءِ كي يبرزَ ثدياها وتنتأ حلمتاها الصغيرتان تحتَ قُماشِ فستانها. أحنى جاك رأسهُ فوقَ ثديها وقبضَ على الحلمةِ تحتَ القماشِ القطني بشفتيهِ، ثمَّ وبشكلٍ غريزي عضَّ عليها بأسنانهِ فسمعها تشهقُ شهقةً عميقةً.

شعرَ برعشةٍ تسري في أوصالها. أمسكت برأسهِ، ورفعته من فوقِ ثديها

ثمَّ ضغطت على جسدهِ. أمالَ رأسهُ فوقَ رأسها وقبَّلتهُ بجنونٍ كأنَّها أرادت تغطيةَ وجههِ بفمها. جذبت جسدهُ إلى جسدها، وخرجت من حلقها أصواتٌ مهتاجةٌ قصيرةٌ. شعرَ جاك بالاستثارةِ وبالذهولِ، بل حتَّى بشيءٍ من الخوفِ فهو لم يختبر مثلَ هذا في حياتهِ قط، واعتقدَ أنَّها على وشكِ بلوغِ ذروةِ نشوتها إلَّا أنَّ والدةَ عائشة قاطعتهما.

صاحت والدتها من المدخلِ: «ريَّا! عائشة! ادخلا إلى المنزلِ في الحالِ!»

رفعت عائشة نظرها إليهِ وهي تلهثُ ثمَّ قبَّلته مجدداً، وضغطت على شفتيه بقوةٍ آلمتهُ. ابتعدت عنهُ، وقالت له بصوتٍ كالفحيحِ: «أحبّكَ»، ثمَّ ركضت إلى داخلِ المنزلِ.

راقبها جاك وهي تدخلُ، ولحقت بها ريَّا بخطى أكثر رزانةٍ. ألقت والدتهما نظرةَ استهجانٍ عليهِ وعلى جوزيف ثمَّ لحقت بالفتاتين إلى الداخلِ، وأوصدت البابَ بعزمٍ وراءها. وقفَ جاك مُحدقاً إلى البابِ الموصدِ وهو يحاول استيعاب ما يعنيهِ كلُّ ما حدث.

عبرَ جوزيف الفناءَ، وقاطعَ سلسلةَ أفكارهِ قائلاً وهو يغمزُ بتواطؤ: «يا لهما من فتاتين جميلتين!»

أومأ جاك برأسهِ ذاهلاً، وتحرَّك باتجاهِ البوابةِ برفقة جوزيف، وبينما كانا يعبران المدخلَ المُقنطر ظهرَ فجأةً ومن العدمِ خادمٌ، وأغلقَ البوابةَ خلفهما.

قال جوزيف: «مشكلةُ أن تكون مخطوباً هي أنَّك تعاني دوماً من رغبةٍ مؤلمةٍ بين ساقيك»، ولكن جاك لم يُبدِ رداً، ثمَّ أضاف جوزيف: «سأذهبُ إلى بيتِ العاهرات لأخففَ ألمي». كان بيت العاهرات يُدعى «منزلُ فاطمة»، وعلى الرغمِ من اسمهِ العربي فإنَّ معظمَ الفتياتِ فيهِ كُنَّ فاتحات البشرةِ، وتعرفةُ العاهرات العربيات القليلات فيه باهظة جداً.

«أتريدُ القدومَ معي؟» سأل جوزيف.

«لا، إنَّ ألمي مختلفٌ عن ألمكَ. طابت ليلتكَ»، أجابَ جاك ثمَّ ابتعدَ على عجلٍ. لم يكن جوزيف، وحتَّى في أحسنِ الأحوالِ، الرفيق المفضَّل لديهِ، علاوة على هذا كان الليلة في مزاجٍ عكرٍ.

غدا هواء الليلِ أكثرَ برودة وهو في طريقهِ إلى المُجمعِ حيثُ ينتظره سريرٌ غير مريح في المهجعِ. شعرَ أنَّه على منعطفِ طريقٍ؛ فها هو يتلقى

عرضَ قضاءِ حياةٍ من الراحةِ والرخاءِ، وكلُّ ما عليهِ فعلهُ هو نسيان أمرِ آليانا، والتخلي عن طموحهِ في بناءِ أجملِ كاتدرائيةٍ في العالمِ.

في تلك الليلةِ حلمَ بعائشة، وأنها زارتهُ وجسدها العاري مُضمخ بزيتِ عطرٍ، وأخذت تفركُ نفسها بهِ، ولكنها لم تسمح له بمضاجعتها.

استيقظَ في صباحِ اليومِ التالي وقد حسمَ قرارهُ.

***

لم يسمح الخدم لآليانا بدخولِ منزلِ رشيد الهارون. تساءلت في نفسها إن كان السببُ وقوفها أمامَ البوابةِ الخارجيةِ في سترةٍ مُعفرةٍ بالترابِ، وحذاءٍ مهترىءٍ، وطفلٍ على ذراعيها كالمتسولين. «أخبروا رشيد الهارون أنني أبحث عن صديقه جاك فيتزجاك من إنكلترا»، قالت بالفرنسية وهي تتساءل في نفسها إن كان الخدمُ السُمرُ سيفهمون كلامها. همهمَ الخدمُ فيما بينهم بلهجةٍ عربيةٍ ما ثمَّ توجه خادمٌ طويلٌ أسود البشرةِ له شعرٌ كصوفِ خروفٍ أسود إلى داخلِ المنزلِ.

تململت آليانا في مكانها متوترةً بينما رمقها بقيةُ الخدمِ بنظراتٍ مباشرةٍ. رغمَ رحلةِ الحجِ الطويلةِ فإنَّها لم تتعلم الصبرَ. بعدَ أن فشلت في العثورِ على جاك في كومبوستيلا أخذت الطريقِ باتجاهِ وسطِ إسبانيا إلى مدينة سلمانكا، ولكن ما من أحدٍ هناك تذكرَ شاباً بشعرٍ أصهب مهتم بالكاتدرائياتِ، أو الشعراءِ المتجولين، ولكن راهباً لطيفاً أخبرها عن مُجمع من الدارسين الإنكليز في طليطلة، وعلى الرغمِ من أنَّ الأملَ في إيجادِ جاك هناك ضعيف فإنَّ طليطلة لم تكن بعيدةً جداً، ولذلكَ توجهت إليها.

في طليطلة كانت بانتظارها حيرةٌ وخيبةُ أملٍ أخرى. صحيحٌ أنّ جاك كان في المدينةِ، ويا لها من ضربةِ حظٍ موفقةٍ! ولكن هذا الحظّ الجيد لم يكتمل؛ فقد علمت أنَّه غادرها. كانت قد بدأت تلحقُ بهِ، ولم يعد يفصلهما سوى سفرِ شهرٍ، ولكن ما من أحدٍ عرفَ الوجهة التي أخذها.

عندما كانت في كومبوستيلا تكهنت بسهولةٍ أنَّه توجهَ جنوباً لأنَّها أتت من الشرقِ، وهناك بحرٌ إلى الشمالِ والغربِ، ولكن لسوءِ الحظِ هنا لم يكن الكثير من الاحتمالاتِ، ربما توجه إلى الشمال الشرقي عائداً إلى فرنسا، أو إلى الغربِ باتجاهِ البرتغالِ، أو إلى غرناطة في الجنوبِ، أو ربما عندما وصلَ

إلى الساحلِ الإسباني صعدَ على متنِ سفينةٍ متوجهةٍ إلى روما، أو تونس، أو الإسكندريةِ، أو بيروت.

قررت آليانا أن تستسلم وتتوقف عن البحثِ إن لم تجد دليلاً قوياً على الوجهةِ التي أخذها بعدَ مغادرتهِ طليطلة، فقد كانت متعبةً جداً، وبعيدةً كثيراً عن الديارِ، ولم يعد لديها سوى القليلِ من الطاقةِ والعزمِ، ولم يعد بإمكانها الاستمرارُ بالسفرِ على أملٍ ضعيفٍ بالنجاحِ. كانت مستعدةً للاستسلامِ، والعودة إلى إنكلترا، وهناك ستحاول نسيان أمر جاك إلى الأبد.

خرجَ خادمٌ آخر من المنزلِ الأبيضِ، ولكن هذا الخادم كان في ثيابٍ فاخرةٍ أكثر وتحدَّث بالفرنسيةِ. نظرَ إلى آليانا بتمعن وخاطبها بتهذيبٍ: «هل أنتِ، صديقةٌ للسيدِ جاك؟»

«أجل، أنا صديقةٌ قديمةٌ من إنكلترا. أرغب بالتحدثِ إلى رشيد الهارون».

ونظرَ الخادم إلى الطفلِ.

قالت آليانا: «أنا من أقرباءِ جاك». لم تكذب تماماً في قولها هذا لأنَّها كانت زوجةُ أخي جاك غير الشقيق، وهذهِ صلةُ قرابةٍ.

فتحَ الخادمُ البوابةَ على مصراعيها وقال لها: «تفضلي بمرافقتي».

دخلت آليانا في امتنانٍ، ولو أنَّها مُنعت من الدخولِ لكانت هذهِ نهايةُ الرحلةِ بالنسبةِ إليها.

لحقت آليانا بالخادم، وعبرت فناءً جميلاً بنافورةِ ماءٍ تخدقُ. تساءلت في نفسها عمَّا شدَّ جاك إلى منزلِ هذا التاجرِ الثري، وبدت لها أنَّ نشوءَ صداقةٍ بينهما أمرٌ غير وارد. هل كان جاك يروي لهُ الحكايا في فيءِ الممرّ المقنطرِ؟

دخلَ الخادم وآليانا إلى منزلٍ فخمٍ بغرفٍ باردةٍ وعاليةِ السقفِ، وأرضياتٍ مرصوفةٍ بالحجارةِ والرخام، وأثاثٍ بنقوشٍ وتنجيدٍ فخمٍ. عبرت مع الخادم ممرّين مقنطرين وباباً خشبياً ثمَّ شعرت أنَّها باتت في قسمِ النساءِ. رفعَ الخادمُ يدهُ في إشارةٍ لها كي تنتظر، وسعلَ سعلةً خفيفةً.

بعدَ برهةٍ انسلت إلى الغرفةِ امرأةٌ عربيةٌ طويلةٌ في رداءٍ أسود رافعةً طرفَ ثوبها أمامَ فمها في بادرةٍ يُمكن اعتبارها مهينةً في جميع البلدانِ.

نظرت المرأةُ إلى آليانا وسألتها بالفرنسيةِ: «من تكونين؟»

أجبرت آليانا نفسها على شدِّ قامتها والرد بكلٍّ تعجرفٍ: «أنا الليدي آليانا ابنةُ إيرل شايرنغ. هل أتشرفُ بمخاطبةِ زوجةِ بائعِ الفلفلِ رشيد؟» كانت ماهرةً في ممارسةِ هذهِ اللعبةِ كأيِّ أحدٍ آخر.

«وما الذي تريدنهُ؟»

«أرغبُ بمقابلةِ رشيد».

«إنَّه لا يستقبلُ النساء».

وهنا أدركـت آليانا أنَّها لا تملكُ أدنى فرصة في أن تتعاون معها هذهِ المرأة. على أيِّ حالٍ، لم يكن لديها مكانٌ آخر تذهبُ إليهِ، ولهذا استمرَّت بالمحاولةِ، وأصرَّت على طلبها قائلةً: «قد يرغبُ بالتحدثِ إلى صديقٍ لجاك».

«هل جاك زوجكِ؟»

«لا»، أجابت آليانا مترددةً وأضافت: «إنَّه أخو زوجي».

بدت المرأةُ مرتابة في صحةِ كلامها. لا بد أنَّها كمعظمِ الناسِ اعتقدت أنَّ جاك جعلها تحملُ منه، وتخلى عنها، ولذلك تبحثُ عنه بغرضِ إجبارهِ على الزواجِ بها، وإعالة الطفلِ.

استدارت المرأة نصفَ استدارةٍ، ونادت بلغةٍ لم تفهمها آليانا. بعدَ وهلةٍ دخلت ثلاثُ شاباتٍ إلى الغرفةِ، ولم يكن هناك شك أنهنَّ بناتها. تحدثت إليهن بذات اللغةِ، وثلاثتهن حدَّقن إلى آليانا ثمَّ تبادلن حديثاً سريعاً ميزت آليانا فيهِ اسم جاك يتكررُ باستمرارٍ.

شعرت آليانا بالحرجِ وبإغراء النكوصِ على عقبيها والخروجِ، ولكن هذا سيعني أنَّها تخلت عن بحثها. أولئكَ النسوة الأربع المريعات أملها الأخير، ولذلك رفعت صوتها مقاطعةً حديثهن وقائلةً: «أين جاك؟» أرادت أن يبدو سؤالها آمراً ولكن، ولخيبةِ آملها، بدت كأنَّها تتضرعُ.

صمتت الفتياتُ.

«لا نعلمُ إلى أين ذهب»، قالت الأمُّ.

«متى رأيتهِ آخرَ مرَّةٍ؟»

ترددت الأم، وبدت غير راغبةٍ في الإجابةِ على السؤالِ، ولكنها بالكادِ

كانت قادرةً على التظاهرِ أنَّها لا تعلم متى رأتهُ آخرَ مرَّةٍ، وأجابت على مضضٍ: «غادرَ طليطلة بعدَ يومٍ من عيدِ الميلادِ».

أجبرت آليانا نفسها على الابتسامِ ابتسامة ودودة وسألتها: «هل تتذكرين أيَّ شيءٍ قالهُ عن المكان الذي سيتوجه إليهِ؟»

«أخبرتكِ أنني لا أعرفُ إلى أين ذهبَ».

«ربما قالَ شيئاً لزوجكِ».

«لا، لم يقل شيئاً».

شعرت آليانا بالإحباطِ، وانتابها إحساسٌ أنَّ المرأة تعرفُ شيئاً وتخفيهِ عنها، ويبدو أنَّها لا تنوي الإفصاح عنهُ. وفجأةً شعرت آليانا بالضعفِ والتعبِ، وبعينين دامعتين قالت: «جاك والد طفلي. ألا تعتقدين أنَّه سيرغبُ برؤيةِ ابنه؟»

وهنا بدأت أصغرُ الفتياتِ بقولِ شيءٍ، ولكنَّ والدتها قاطعتها، وتبادلا حديثاً قصيراً وغاضباً. بدا أنَّ الأمَّ وابنتها تمتلكان المزاجَ الناري ذاتهُ، ولكن الفتاة في النهايةِ استسلمت.

انتظرت آليانا، ولكن ما من أحدٍ أضافَ شيئاً، وحدقت النسوة الأربع إليها بكلِّ بساطةٍ. كنَّ بلا ريبةٍ عدائيات، ولكنهنَّ أيضاً مهتماتٍ جداً، ولم يكنّ على عجلةٍ من أمرهن لصرفها. على أيِّ حالٍ شعرت آليانا أنَّ بقاءها هنا عقيم، وأنَّ عليها المغادرة والعودة إلى مسكنها ثمَّ القيام بترتيباتِ رحلةِ العودةِ الطويلةِ إلى كينغزبريدج. أخذت نفساً عميقاً، وجعلها هذا تتحدث بصوتٍ هادئ ورابط الجأشِ: «شكراً لكِ على حسنِ الضيافةِ».

بدت الأمُّ محرجةً بعضَ الشيءِ.

وغادرت آليانا الغرفة.

كان الخادمُ يحومُ في الخارجِ، وسارَ إلى جانبها مرافقاً إياها عبرَ المنزلِ. اغرورقت عيناها بالدموعِ. كانت محبطةً إلى درجةٍ لا تطاق لعلمها أنَّ رحلتها فشلت بسببِ خُبثِ امرأةٍ.

قادها الخادمُ عبرَ الفناءِ، وعندما وصلا إلى البوابةِ سمعت آليانا وقعَ خطى وراءها. نظرت إلى الوراءِ، ورأت صغرى البناتِ في إثرها فتوقفت وانتظرت، وبدا الخادم مرتبكاً.

كانت الفتاةُ قصيرةَ القامةِ، ونحيلةً، وجميلةً ببشرةٍ سمراء وعينين داكنتين جداً إلى درجةِ السوادِ. ارتدت فستاناً أبيض جعلَ آليانا تشعرُ بثيابها قذرةً جداً ومعفرةً بالترابِ. تحدثت الفتاةُ بفرنسيةٍ ركيكةٍ وقالت باندفاعٍ: «هل تحبينهُ؟»

ترددت آليانا، وأدركت أنَّ ما من شيءٍ في كرامتها بقي لتخسرهُ فاعترفت: «أجل، أحبُّه».

«هل يُحبكِ؟»

كانت آليانا على وشكِ أن تجيبها بالإيجابِ، ولكنها أدركت أنَّها لم تره منذ أكثر من عامٍ، ولذلكَ أجابت: «كان يُحبني».

«أعتقدُ أنَّه يُحبكِ»، قالت الفتاةُ.

«وما الذي يجعلكِ تقولين هذا؟»

اغرورقت عينا الفتاةِ بالدموعِ وقالت: «أردتهُ أن يكون لي، وكدتُ أن أحظى به»، ثمَّ نظرت إلى الطفلِ وأضافت: «الشعرُ الأصهب والعينان الزرقاوان». ثمَّ انحدرت الدموعُ من عينيها على وجنتيها السمراوين الناعمتين.

حدَّقت آليانا إليها، وفهمت سببَ استقبال الأم العدائي لها. أرادت الأمَّ لجاك أن يتزوج من هذهِ الفتاةِ، ورغمَ أنَّ مظهرها يوحي أنَّها لم تتجاوز السادسة عشرة، فإنَّها بدت شهوانيةً، وهذا جعلها تبدو أكبرَ عُمراً. وهنا تساءلت آليانا في نفسها عمَّا حدثَ بينها وبين جاك.

«(كدتِ) تحصلين عليهِ؟» سألت آليانا.

«أجل»، أجابت الفتاةِ بتحدٍ وتابعت: «أعلمُ أنَّه استلطفني، وقد فطرَ قلبي عندما غادر، ولكنني أفهم السببَ الآن». وهنا فقدت رباطَ جأشها، وتغضنَ وجهها من الحزنِ.

تتعاطفُ آليانا من أيَّةِ امرأةٍ تقعُ في حُبِ جاك وتخسرهُ. وضعت يدها على كتفِ الفتاةِ كأنَّها تخفف عنها، ولكن كان هناك ما هو أهمُّ من التعاطفِ، ولذلك عاجلت إلى سؤالها: «أصغي إلي. أتعلمين إلى أين ذهبَ؟»

رفعت الفتاةُ ناظريها وأومأت وهي تجهشُ بالبكاءِ.

«أخبريني».

«إلى باريس»، قالت لها.

باريس!

شعرت آليانا بفرحٍ طاغٍ فها هي تقفي أثرهُ مجدداً، ولم تكن باريس بعيدةً جداً، والرحلةُ ستكونُ على طريقٍ مألوفٍ لها. لم يعد يفصلها عن جاك سوى رحلة شهرٍ، وشعرت بطاقتها تتجددُ. فكرت في نفسها: «سأعثرُ عليهِ في نهايةِ المطافِ. أعلمُ أنني سأنجحُ».

«هل ستذهبين إلى باريس الآن؟» سألتها الفتاة.

«أجل بالطبع»، أجابت آليانا. «قطعت كلَّ هذهِ المسافةِ، ولن أتوقف الآن. أشكركِ على إخباري بمكانهِ. شكراً لكِ».

«أريدهُ أن يكون سعيداً»، قالت الفتاةُ ببساطةٍ.

تمللَ الخادمُ مُتبرماً. لا بد أنَّه اعتقدَ أنَّه قد يتورط في المتاعبِ بسببِ هذا. قالت آليانا للفتاةِ: «أمن شيءٍ آخر قاله؟ أيُّ طريقٍ سيسلكهُ؟ أيَّ شيءٍ قد يُساعدني».

«أرادَ الذهابَ إلى باريس بعد أن أخبره أحدهم أنَّهم يبنون كنائس جميلة هناك».

أومأت آليانا برأسها في تأكيدٍ.

«وأخذَ معهُ السيدة الباكية».

لم تعلم آليانا ما الذي قصدتهُ الفتاة بالسيدةِ الباكيةِ ولذلك سألتها: «السيدة الباكية؟»

«أعطاه والدي السيدة الباكية».

«سيدة؟»

هزَّت الفتاة رأسها. «لا أعرفُ الكلمة المناسبة. سيدة. تبكي. من العينين».

«أتعنين لوحةً؟ لوحةً لسيدةٍ؟»

«لا أفهم»، قالت الفتاةُ، ونظرت إلى الوراءِ بقلقٍ ثمَّ قالت: «يجب أن أعود إلى الداخلِ».

أيّاً تكن هذهِ السيدة الباكية لم تعتبرها آليانا تفصيلاً مُهماً.

«شكراً لكِ على المساعدةِ»، قالت آليانا.

انحنت الفتاة، وقبلَّت الطفلَ على جبينهِ فسقطت دموعها على وجنتيهِ المكتنزتين ثمَّ رفعت رأسها، ونظرت إلى آليانا، وقالت لها: «أتمنى لو أنني كنتُ مكانكِ»، ثمَّ استدارت، وركضت عائدةً إلى داخل المنزلِ.

***

يقعُ مسكنُ جاك في شارع بوشيري في ضواحي باريس على الضفةِ اليُسرى من نهرِ السين. عندَ الفجرِ أسرجَ جوادهُ وانطلقَ، وعندما وصلَ إلى نهايةِ الشارعِ استدارَ يمنةً، وعبرَ بوابةَ البُرجِ التي تحمي جسرِ بتيت بونت الذي يصلُ البر بجزيرةٍ وسطَ النهرِ. كانت هناكَ منازل خشبيةٌ على كلا جانبي الجسرِ، وفي المساحاتِ التي تفصلُ بينَ هذهِ المنازلِ مقاعد حجريةٌ يجلسُ عليها في وقتٍ متأخرٍ من الصباحِ مُعلمون مشهورون يُدرّسون في الهواءِ الطلقِ. يُفضي الجسرُ إلى شارع غيفيري - الشارع الرئيسي على الجزيرةِ. اكتظَّت المخابز على طولِ هذا الشارعِ بطلابٍ يشترون الفطورَ اشترى جاك فطيرةً محشوةً بلحم الحنكليس المطبوخِ.

انعطف يساراً قبالةَ الكنيسة ثمَّ يميناً عندَ قصرِ الملكِ، وعبرَ جسر غراند بونت الذي يُفضي إلى الضفةِ اليمنى من نهر السين. كان الصرَّافون والصاغة قد بدأوا بفتحِ دكاكينهم الصغيرة والحسنةِ البناءِ على كلا الجانبين، وعندَ نهايةِ الجسرِ دخلَ جاك من بوابةٍ إلى سوقِ السمكِ ووجده مُكتظاً. شقَّ طريقه عبرَ الحشدِ، وأخذَ طريقاً موحلاً باتجاهِ بلدةِ سان دينيه.

عندما كان في إسبانيا سمعَ من أحدِ البنَّائين المسافرين عن رئيسِ الديرِ سوجير والكنيسةِ الجديدةِ التي يبنيها في بلدةِ سان دينيه. خلالَ رحلتهِ شمالاً عبرَ فرنسا في ذلكَ الربيع، وعملهِ لبضعةِ أيامٍ هنا وهناك من أجلِ المال، ترددَ اسمُ سان دينيه كثيراً. يبدو أنَّ البنَّائين هناكَ يستخدمون تقنياتٍ جديدةً في مزيجٍ لافتٍ جداً بين القُبةِ المُقنطرةِ ذاتِ الأضلاعِ والأقواسِ المدببةِ.

تابعَ المسيرَ على ظهرِ جوادهِ لأكثر من ساعةٍ، وعبرَ حقولاً وعرائشَ عنبٍ. لم يكن الطريقُ مرصوفاً، ولكن هناك آثاراً على طولهِ تدلُّ عليهِ. يمتدُّ الطريق عبرَ هضبةِ مونتمارتر بآثارِ معبدٍ روماني على قمتها، ثمَّ يدخلُ عبرَ قريةِ كلنينكور التي تبعد ثلاثة أميالٍ عن قرية سان دينيه.

كان دينيه أولَ أسقفٍ في مدينةِ باريس، ويقالُ إنَّ رأسهُ قُطعَ في مونتمارتر

ثمَّ سارَ حاملاً الرأسَ المقطوع بين يديهِ باتجاهِ الريفِ إلى أن وصلَ إلى هذهِ البقعةِ ثمَّ سقطَ ميتاً في النهايةِ. دفنتهُ امرأةٌ ورعةٌ، وبُني ديرٌ فوقَ قبرهِ، وتحولت كنيسةُ الديرِ إلى مقبرةٍ لملوكِ فرنسا.

كان رئيسُ الدير الحالي سوجير رجلاً متنفذاً وطموحاً. أصلحَ الرجلُ حالَ الدير، وها هو الآن يقومُ بتجديدِ الكنيسةِ.

دخلَ جاك إلى البلدةِ، وأوقفَ جواده وسطَ السوقِ ثمَّ نظرَ إلى الواجهةِ الغربيةِ للكنيسةِ، ولكنه لم يرَ واجهةً ثوريةً بل واجهةً تقليديةً وعاديةً مع برجين توأمين، وثلاثة مداخلِ بقناطر مدورةٍ. أحبَّ الطريقةَ الفجةَ التي برزت فيها الدعائم من الجدارِ، ولكنه لم يقطع كلَّ هذهِ المسافةِ كي يرى هذا.

ربطَ جوادَه إلى حاجزٍ أمامَ الكنيسةِ واقتربَ. كانت التماثيل أمامَ البواباتِ الثلاث متقنَةَ الصنعِ؛ فقد بدت مفعمةً بالحياةِ ومنحوتةً بدقةٍ. تابعَ جاك طريقهُ إلى داخلِ الكنيسةِ.

حالما دخلَ جاك الكنيسةَ تغيرَ المشهدُ أمامهُ على الفورِ. رأى ممرّاً أو رواقاً خفيضاً قبلَ الوصولِ إلى صحنِ الكنيسةِ، وعندما نظرَ إلى القُبةِ المُقنطرةِ شعرَ بالحماسةِ. كان البناؤون قد استخدموا مزيجاً بين القُبةِ المُقنطرةِ ذات الأضلاعِ والأقواس المدببةِ، ولاحظ جاك على الفورِ أنَّ التقنيتين انسجمتا بعضهما مع بعضٍ بشكلٍ ممتازٍ؛ فقد أبرزت الأضلاعُ التي لها ذات خطِ الأقواسِ المدببةِ جمالَ الأخيرةِ.

ولكن كان هناكَ ما هو أكثر من هذا. بين الأضلاعِ، وبدلاً من شبكةِ الملاطِ والركامِ قطعَ البناؤون حجارةً كحجارةِ الجدران. ولأنَّ القبةَ متينةٌ، ولا ترتكزُ على الحجارةِ أدركَ جاك أنَّها على الأغلبِ أقلَّ سماكةٍ، وهذا يعني أنَّها أخفُّ وزناً.

وبينما كان ينظرُ بإمعانٍ إلى الأعلى رافعاً رأسهُ عالياً جداً إلى أن آلمهُ عنقهَ لاحظَ تفصيلاً لافتاً آخر في هذا المزيج. يُمكن لقوسين مدببين بعرضين مُختلفين أن يكونا بذاتِ الارتفاع من خلالِ تعديل انحناء القوسِ، وهذا بدورهِ أضفى على الحجيرةِ تناسقاً. بالطبعِ يُمكن تطبيق مثل هذهِ التقنيةِ على الأقواسِ المدورةِ لأنَّ ارتفاعَ القوسِ نصفِ الدائري يعادل عرضهُ، ولهذا يجب أن يكون القوسُ الأعرض أعلى من القوسِ الأضيق، مما يعني أنَّ على

الأقواسِ الضيقةِ في الحُجيرةِ المُستطيلةِ، ومقارنةً بالأقواسِ الأعرض، أن تبدأ من نقطةٍ عاليةٍ في الجدارِ حتَّى تلتقي رؤوسُ الأقواسِ العريضةِ والضيقةِ عند مستوى واحد، وبالتالي تصبح القبةُ مستويةً. عموماً، ينتج عن هذا خللٌ في توازنِ الشكلِ، ولكن هذهِ المشكلة لم تكن موجودةً هنا.

أخفضَ جاك رأسهُ كي يريح عنقهُ. شعرَ بسعادةٍ غامرةٍ كأنَّه توِّجَ للتو ملكاً، ورأى أنَّ هذهِ هي الطريقةُ التي يجبُ أن تُبنى بها الكاتدرائيات.

عاينَ جاك الآن بنيةَ الكنيسةِ الأساسيةِ. بدا الصحن قديماً جداً رغم أنَّه كان طويلاً وعريضاً نسبياً. لم يكن هناك شك أنَّه مبنيّ منذُ سنواتٍ عديدةٍ، ومن قبلِ بنَّاءٍ غيرِ البنَّاءِ الحالي؛ فقد كان شكلُ الصحنِ تقليدياً، ولكن عندَ المعبرِ لاحظَ درجاً يُفضي إلى السردابِ، والمقابر الملكيةِ دونَ أدنى شكٍ، ودرجاً آخر إلى الأعلى باتجاهِ مذبحِ الكنيسةِ الذي بدا كأنَّه عائم فوقَ الأرضيةِ. من هذهِ الزاويةِ، وبسبب ضوءِ الشمسِ المُبهرِ والقادم من النوافذِ الشرقيةِ، بدا البناءُ مُعتماً، واعتقدَ جاك أنَّ العملَ على الجدرانِ لم ينتهِ، وأنَّ ضوءَ الشمسِ يمرُّ عبرَ الفراغاتِ.

سارَ على طولِ الممرّ الجنوبي للمعبرِ، وعندما اقتربَ من المذبحِ شعرَ أنَّه على وشكِ رؤيةِ شيءٍ مُذهلٍ بحقٍ. فعلاً، وعلى الرغمِ من ضوءِ الشمسِ القوي داخلَ الكنيسةِ فإنَّ القبةَ المُقنطرةَ بدت مُكتملةً، ولم يكن هناك فراغاتٌ في الجدرانِ، وعندما انتقلَ من الممرّ إلى المعبرِ لاحظَ أنَّ أشعةَ الشمسِ تدخلُ إلى الكنيسةِ عبرَ صفٍ من النوافذِ الطويلةِ زجاجُ بعضها ملونٌ. ملأ كل هذا الضوءِ الكنيسةَ الفارغةَ والشاسعةَ بالدفءِ والنورِ. لم يستوعب جاك قط وجودَ كل هذا العددِ من النوافذِ، وبدا له أنَّ النوافذ أكثر من الجدران. كان مأخوذاً بما رآه، وشعرَ أنَّه لا يمكن لهذا أن يحدث إلا بفعلِ سحرٍ.

سرت في جسدهِ قشعريرةُ رعبٍ عندما فكرَ بالسحرِ. صعدَ الدرجَ إلى المذبحِ ثمَّ وقفَ أعلى الدرجِ، وحدَّقَ إلى مزيجِ خيوطِ الشمسِ الملونةِ والحجارةِ التي كانت أمامهُ، وتدريجياً بدأ يدرك أنَّه رأى مثيلاً له قبلاً، ولكن في مخيلتهِ. لطالما تخيلَ الكنيسةَ التي يحلمُ ببنائها على هذا الشكلِ: نوافذ كبيرة، وسقف مقنطر عالٍ يكادُ يصل إلى السماواتِ، ومغمورة بنورِ الشمسِ والهواء كأنَّه بفعلِ سحرٍ.

ولكن بعدَ قليلٍ رأى الأمرَ بشكلٍ مختلفٍ. فجأةً بدا كلُّ شيءٍ منطقياً، وفي لحظةِ إلهامٍ حقيقي فهمَ ما الذي فعلهُ رئيسُ الدير سوجير والبنَّاء.

إنَّ مبدأ القُبةِ المُقنطرةِ ذاتِ الأضلاعِ قائمٌ على بناءِ سقفٍ ببضعة أضلاعٍ قويةٍ مع فراغاتٍ بينها تُملأ بموادّ أخف، وقد طبّقوا هذا المبدأ على البناءِ بأكملهِ. كان جدارُ المذبحِ مكوناً من بضعِ دعائم قويةٍ تربطها بعضها ببعض نوافذ، ولم يكن المجازُ المقنطرُ الذي يفصلُ المذبح عن الممرّاتِ الجانبيةِ جداراً بل صفاً من الدعائمِ التي تتصلُ بعضها ببعض بواسطةِ أقواسٍ مدببةٍ تاركةً مساحةً كبيرةً كفايةً ليدخل نورُ الشمسِ إلى وسطِ الكنيسةِ، وكان الممرّ بحدِّ ذاتهِ مُقسماً إلى نصفين مع صفٍ من الأعمدةِ الرفيعةِ.

هنا استخدموا مزيج الأقواسِ المدببةِ والقبةِ المُقنطرةِ ذات الأضلاعِ الذي استخدموه في الردهةِ. اتضحَ له الآن أنَّهم جربوا التقنيةَ الجديدةَ في الردهةِ أولاً ثمَّ في داخلِ الكنيسةِ، وبالمقارنةِ مع الردهةِ بدت الأخيرةُ أقلَّ انسيابية؛ فقد بدت الأضلاع والأفاريز ثقيلةً والأقواس صغيرةً جداً، أمَّا هنا، في داخلِ الكنيسةِ، فكلَّ شيءٍ بدا رفيعاً وخفيفاً ولطيفاً وحسنَ التهويةِ، كانت السلسلةُ البسيطةُ من الأفاريز رفيعةً، والأعمدة الصغيرة طويلةً ورفيعةً أيضاً.

باستثناءِ الأضلاعِ التي أبرزت بجلاءٍ أن الدعائم والأعمدةَ تحمل كاملَ وزنِ البناءِ بدا كلُّ شيءٍ رقيقاً جداً على البقاءِ مُنتصباً، وهذا خير دليل على أنَّ البناءَ الكبير لا يحتاج إلى جدرانٍ سميكةٍ بنوافذ صغيرةٍ ودعائم ضخمةٍ، بل توزيع وزنِ البناءِ بدقةٍ على هيكلٍ من الأعمدةِ، وعندئذٍ يمكن بناءُ بقيةِ البناءِ من الحجارةِ والزجاجِ الخفيفين، بل ويمكن ترك مساحاتٍ فارغةٍ فيهِ. بدا جاك مسحوراً بما يراه كأنَّه يقعُ في الحبِّ. عندما تعرَّف على إقليدس نزلَ عليهِ كوحي، ولكن ما رآه أمامه الآن أكثر من مجردِ وحي؛ إنَّه جميلٌ أيضاً. لطالما حلمَ بكنائس كهذهِ الكنيسةِ، وها هو الآن ينظرُ إلى إحداها، ويلمسها، ويقفُ تحتَ قبتها العاليةِ.

تجولَ جاك في الطرفِ الشرقي المقنطرِ كأنَّه يسيرُ في نومهِ، وعاينَ القبةَ المقنطرةَ للممرِ الثنائي. فوقَ رأسهِ رأى الأضلاعَ تميلُ كأغصانِ أشجارٍ حقيقيةٍ في غابةٍ. وهنا، وكما في الردهةِ، كانت حشوة الفراغات بينَ أضلاعِ السقفِ من الحجارةِ والملاطِ بدلاً من الركامِ والملاطِ الأسهل مزجاً،

ولكن الأثقل وزناً. في الممرّ وفي الجدارِ الذي يُشرف على الخارج نوافذ كبيرةٌ بقممٍ مدببةٍ كقمم الأقواسِ، وأتى زجاجُ النوافذِ الملونِ كإضافةٍ على ثوريةِ التصميمِ المعماري. لم يرَ جاك في إنكلترا نوافذ بزجاجٍ ملون، ولكنه رأى العديد منها في فرنسا، إلا أنَّها كانت نوافذ صغيرةً وتقليديةً، ولذلك لم يؤدِ فيها الزجاجُ الملونُ وظيفتهُ بالكاملِ. أمَّا هنا فلم يكن تأثيرُ أشعةِ شمسِ الصباحِ المنسكبةِ عبرَ صفوفِ النوافذِ بزجاجها الملونِ جميلاً... بل يحبسُ الأنفاس.

ولأنَّ الكنيسةَ مبنيةٌ بشكلٍ دائري فقد مالت الممرّاتُ الجانبيةِ، والتقت عندَ الطرفِ الشرقي في ممرّ نصف دائري. سارَ جاك على طولِ الممرّ نصفِ الدائري، وبينما كان يتأملُ المكان بإعجابٍ وجدَ نفسهُ يعود إلى المكان الذي بدأ منه.

وهناك رأى إمرأةً.

عرفها.

ابتسمت له.

وشعرَ بقلبِهِ يتوقف.

***

وضعت آليانا كفَّها فوقَ حاجبيها فقد أغشى ضوءِ الشمسِ القادمِ من النوافذِ في الطرفِ الشرقي للكنيسةِ بصرها، وكرؤيةٍ سارَ الشخصُ في وهجِ أشعةِ الشمسِ الملونةِ باتجاهها، وبدا لها كأنَّه مشتعلٌ، وعندما اقترب أكثر رأت أنَّه جاك.

شعرَت آليانا أنَّها على وشكِ الإغماءِ.

تقدَّمَ منها ووقفَ أمامها. بدا نحيلاً جداً، ولكن في عينيهِ لمعة من دفقِ المشاعرِ التي غمرته. ولبعضِ الوقتِ حدَّقا بعضهما إلى بعض في صمتٍ.

وعندما تحدَّث جاك أخيراً خرجَ صوتهُ أجش: «هل هذهِ أنتِ بحقٍ؟»

«أجل»، أجابتهُ في صوتٍ كالهمسِ. «أجل يا جاك. هذهِ أنا بحقٍ».

كانت شدةُ التوترُ بينهما أكبر مما يمكن لآليانا احتمالهُ، ولذلك انخرطت في البكاءِ. أحاطها بذراعيهِ، وعانقها والطفلُ على ساعديها يفصلُ بينهما.

ربَّتَ على ظهرها وهو يُهدهدها كطفلةٍ: «لا تبكي، لا تبكي». اتكأت عليه، وشمَّت على ثيابهِ رائحة الغبار المألوفة. عندما سمعت صوتهُ العزيز هدأت، وتركت دموعها تنهمر على كتفهِ الناحلِ.

وأخيراً نظرَ إلى وجهها وقال: «ما الذي تفعلينهُ هنا؟»

«أبحثُ عنكَ»، أجابتهُ.

«تبحثين عني؟» قال مشككاً ثمَّ أضاف: «ولكن كيفَ عثرتِ علي؟»

مسحت آليانا دموعها، وتنشقت بأنفها ثمَّ أجابت: «لحقت بكَ»

«ولكن كيف؟»

«سألتُ الناس عنكَ وما إن كانوا التقوا بكَ. كان معظمهم بنَّائين، ولكنني سألتُ بعضَ الرهبان، ومالكي الفنادقِ».

نظرَ إليها في عجبٍ وسألها: «أتعنين بكلامكِ أنكِ ذهبتِ إلى إسبانيا؟»

أومأت برأسها وقالت: «كومبوستيلا وسلمانكا ثمَّ طليطلة».

«منذُ متى وأنتِ على طريقِ السفرِ؟»

«منذُ تسعةِ أشهرٍ».

«ولكن لماذا؟»

«لأنني أحبُّك».

بدا مضطرباً، وامتلأت عيناه بالدموعِ ثمَّ همسَ: «وأنا أحبُّكِ أيضاً».

«هل تحبني حقا؟ أما زلت تحبني؟»

«أجل».

علمت أنَّه صادقٌ، ورفعت وجهها إلى الأعلى فانحنى إلى الأمامِ فوقَ الطفلِ، وقبَّلها بلطفٍ، وعندما لامست شفتاه شفتيها شعرت برأسها يدور.

وهنا بكى الطفلُ.

أفلتت جاك، وأخذت تهدهدُ الطفلَ قليلاً إلى أن هدأ.

«ما اسم هذا الطفل؟» سألَ جاك.

«لم أسمّه بعد».

«ولِم لا؟ لا بدَّ أنَّه عمرهُ أكثر من عامٍ!»

«أردتُ مشورتكَ أولاً».

«أنا؟» قالَ جاك في تجهمٍ وتابع: «وماذا عن آلفريد؟ إنه الأبّ...» ثمَّ لجمَ نفسهُ. «لماذا...؟ هل هو... طفلي؟»

«انظر إليهِ»، قالت له.

نظرَ جاك إلى الطفل. «شعرهُ أصهب... لا بدَّ أنَّ عاماً وثلاثةَ أشهرٍ قد مرَّت منذُ...»

أومأت آليانا برأسها.

«يا إلهي»، قال جاك وقد بدا مصعوقاً «...ابني»، وابتلعَ لعابهُ بصعوبةٍ.

راقبت آليانا بترقبٍ وجهَ جاك وهو يستوعب الخبرَ. هل هذهِ نهايةُ حريةِ مرحلةِ الشبابِ؟ ولاحظت أنَّ معالمَ وجههِ غدت رزينةً. عادةً، يكون أمامَ الرجلِ تسعةُ أشهرٍ حتَّى يعتاد على فكرةِ أنَّه سيصبحُ والداً، ولكن في حالةِ جاك فإنَّ عليهِ استيعاب الأمر دفعةً واحدةً. نظرَ جاك إلى الطفلِ مرَّةً أخرى وابتسمَ أخيراً ثمَّ قال: «ابننا. أنا سعيدٌ جداً».

تنهدت آليانا بسعادةٍ. يبدو أنَّ الأمورَ سارت على ما يرامُ في نهايةِ المطافِ.

وهنا لمعَ خاطرٌ مفاجئ في ذهنِ جاك وسألها: «ماذا عن آلفريد؟ هل يعلم...؟»

«بالطبعِ. لم يكن عليهِ سوى النظر إلى الطفلِ. علاوةً على ذلكَ...» وشعرت بالحرجِ. «علاوةً على هذا، ألقت والدتكَ لعنةً على زواجنا، ولم يتمكن آلفريد أبداً من ... أنتَ تعلمُ... القيام بالأمر».

ضحكَ جاك بغُلظةٍ وقال: «هذهِ هي العدالةُ الحقَّة».

لم يطب لآليانا أنَ جاك وجدَ متعةً في الأمرِ.

«كان الأمر قاسياً علي»، قالت له بنبرةِ عتابٍ.

تغيرَ وجهُ جاك على الفورِ وقال لها: «أنا آسفٌ. ما الذي فعلهُ آلفريد؟»

«عندما رأى الطفلِ طردني من المنزلِ».

بدا جاك غاضباً وسألها: «هل آذاكِ؟»

«لا».

«أيّاً يكن فهو حقيرٌ».

«يُسعدني أنَّه طردنا، أنا والطفل، فبسببِ هذا أتيتُ للبحثِ عنكَ، وها

قد عثرتُ عليكَ الآن. أنا سعيدةٌ جداً إلى درجةٍ أنني لا أعرف ما يجب علي القيام بهِ».

«كنتِ شجاعةً جداً»، قال جاك. «أعجز عن التصديق أنَّكِ قطعتِ كلَّ هذهِ المسافةِ لتلحقي بي!»

«وأنا مستعدةٌ لفعلها مجدداً»، قالت له بحماسةٍ.

قبَّلها مجدداً، وهنا أتاهما صوتٌ يقول بالفرنسية: «إن كنتما مُصرين على الاستمرارِ بهذا السلوكِ الخليعِ في الكنيسةِ فلتبقيا في الصحنِ من فضلكما».

كان راهباً شاباً.

«أعتذرُ أيّها الأب»، قال جاك، وأمسكَ بذراعِ آليانا ثمَّ نزلا الدرجَ وعبرا الجناح الجنوبي للكنيسةِ. قال جاك لآليانا: «كنتُ راهباً لبعضِ الوقتِ، وأعلم أنَّ الرهبان يجدون صعوبةً في رؤيةِ حبيبين يُقبلان بعضهما بعضاً».

«حبيبان سعيدان. هذا ما نحنُ عليهِ»، فكرت آليانا في نفسها.

عبرا الكنيسةَ، وخرجا إلى ساحةِ السوقِ المكتظةِ. بالكادِ كانت آليانا قادرةً على التصديقِ أنَّها تقفُ في العلنِ أمامَ الناسِ وجاك إلى جانبها. كانت السعادةُ أكبر مما يمكنها احتمالها.

«حسناً. ما الذي علينا القيام بهِ الآن؟» قال لها.

«لا أعلمُ»، قالت مُبتسمةً.

«لنأخذ رغيفاً من الخبزِ وقارورةً من النبيذ، ونتوجه إلى الحقولِ لتناولِ الغداءِ».

«تبدو فكرةً مثاليةً».

توجها إلى الخبازِ وبائعِ النبيذِ ثمَّ اشتريا قطعةً من الجُبنِ من امرأةٍ تديرُ متجراً لبيعِ مشتقاتِ الألبان في السوقِ، وتوجها حالاً على صهوةِ جواديهما خارجَ القريةِ باتجاهِ الحقولِ. لم تُشح آليانا ناظريها عن جاك غير مُصدقة أنَّه حقيقي، وعلى صهوةِ جوادٍ بجانبها يتنفسُ ويبتسمُ.

وهنا سألها: «كيفَ يتدبرُ آلفريد أمرهُ في إدارةِ موقعِ البناءِ؟»

«آوه، أنا لم أخبركَ!» قالت آليانا التي نسيت أنَّ جاك كان بعيداً عن كينغزبريدج لوقتٍ طويلٍ. «وقعت كارثةٌ رهيبةٌ. انهارَ سقفُ الكنيسةِ».

«ماذا؟!!» صاحَ جاك مشدوهاً فجفلِ جوادهُ، وتحرَّك في مكانهِ خائفاً. «ما الذي حدث؟» سألها.

«ما من أحد يعلم. أنهوا العملَ على أسقفِ ثلاث حجيراتٍ بحلولِ عيدِ العنصرةِ ثمَّ انهار كلُّ شيءٍ خلالَ مراسمِ صلاةِ العيد. كان الأمرُ رهيباً وقُتلَ في الحادثِ تسعة وسبعون شخصاً».

«هذا رهيبٌ»، قال جاك في تأثرٍ واضحٍ. «كيفَ تلقى رئيسُ الديرِ فيليب الأمرَ؟»

«على نحو سيئ. تخلى عن مشروعِ البناءِ، ويبدو كأنَّه فقد همته، وهو لا يفعلُ شيئاً في هذهِ الأيامِ».

وجدَ جاك صعوبةً في تخيلِ فيليب على هذهِ الحالةِ. لطالما كان فيليب شخصاً مفعماً بالحماسةِ والعزمِ. «وما الذي حدثَ للحرفيين الذين يعملون في موقعِ البناءِ؟»

«غادروا جميعهم كينغزبريدج، وانتقلَ آلفريد للعيشِ في شايرنغ، وهو الآن يبني المنازلَ هناك».

«لا بدَّ أنَّ كينغزبريدج فرغت من نصفِ سكانها».

«لم تعد بلدةً. إنَّها تعود إلى سابقِ عهدها كقريةٍ».

«أتساءلُ عن الخطأ الذي اقترفهُ آلفريد ليحدث هذا؟» قال جاك متحدثاً إلى نفسه وإلى آليانا في آنٍ معاً. «لم تكن القبةُ المقنطرةُ في التصميمِ الأصلي الذي وضعهُ توم، ولكن آلفريد بنى الكتائف بشكلٍ أكبر حتَّى تحمل كلَّ الوزنِ، وهذا يعني أنَّ الأمورَ كانت على ما يرامُ».

أيقظهُ الخبرُ من سَكرةِ لقاءِ آليانا، وتابعا طريقهما في صمتٍ، وبعدَ مسافةِ ميل أو أكثر خارجَ سان دينيهِ ترجّلا، وربطا رسني الجوادين تحتَ فيء شجرةِ دردارٍ، وجلسا عندَ طرفِ حقلِ قمحٍ أخضر قربَ جدولٍ صغيرٍ لتناولِ غدائهما. احتسى جاك جرعةً من النبيذِ، وتمطَّقَ بشفتيهِ بعدها ثمَّ قال: «لا يمكن مقارنةُ النبيذِ الفرنسي بالنبيذِ في إنكلترا»، ثمَّ قسَّمَ رغيفَ الخُبزِ، وأعطى آليانا بعضاً منه.

حلَّت آليانا بحياءٍ أربطةَ مقدمةِ ثوبها، وأعطت الطفلَ ثديها. لاحظت أنَّ جاك ينظرُ إليها فاحمرَّت خجلاً. تنحنحت وتكلمت لتُخفي حرجها: «ما الاسم الذي تريدُ إعطاءهُ للطفلِ؟» ثمَّ أضافت بارتباكٍ: «ربما جاك؟»

«لا أعلم»، قال جاك وغرقَ في التفكيرِ ثمَّ قال: «جاك اسم والدي الذي لم أعرفهُ، ولذلك قد يجلب الاسم على الطفلِ سوءَ الحظِ. إنَّ أقربَ اسم لوالدٍ حقيقي بالنسبةِ لي هو البنَّاء توم».

«أتريد أن تسميه توم؟»

«أعتقدُ هذا».

«اسم توم يليقُ برجلٍ ضخم، ما رأيكَ باسم تومي؟»

أومأ جاك برأسهِ وقال: «فليكن كذلك».

جاهلاً بأهميةِ هذهِ اللحظةِ استسلمَ تومي للنومِ بعد أن رضعَ حتَّى الشبعِ. وضعتهُ آليانا على الأرضِ، ووضعت تحتَ رأسهِ منديلاً كوسادةٍ، ثمَّ نظرت إلى جاك. شعرت بالارتباكِ فقد أرادته أن يُمارسَ الحبَّ معها هنا، على العشبِ، ولكنها كانت واثقةً من أنَّه سيشعرُ بالصدمةِ إن طلبت منه هذا، ولهذا اكتفت بالنظرِ إليهِ على أملٍ.

قال لها جاك: «إن أخبرتكِ بأمرٍ أتعدينني ألا تظني بي سوءاً؟»

«حسناً».

بدا مُحرجاً وقال: «منذُ أن رأيتكِ، وأنا بالكاد قادر على التفكير بأيِّ شيءٍ غير جسدكِ العاري تحتَ ثوبكِ».

ابتسمت وأجابته: «لن أظنَّ بكَ سوءاً بل يُسرني هذا».

حدَّقَ إليها في جوعٍ.

قالت له: «أحبُّ عندما تنظرُ إليَّ بهذهِ الطريقةِ».

ابتلعَ لعابهُ بصعوبةٍ.

فتحتَ آليانا ذراعيها فاقتربَ منها وعانقها.

مضى قرابةَ العامين منذُ أن مارسا الحبَّ للمرةِ الأولى والوحيدةِ. في ذلكَ الصباحِ اكتسحتهما الرغبةُ والندمُ، وها هما الآن، عاشقان في حقلٍ. وفجأةً شعرت آليانا بالقلقِ، وتساءلت في نفسها إن كان الأمرُ سيجري على ما يرامُ، وكم من الرهيبِ إن حدثَ خطبٌ ما بعدَ كلِّ هذا الوقتِ.

استلقيا على العشبِ جنباً إلى جنبٍ يُقبلان بعضهما بعضاً. أغمضت آليانا عينيها، وفتحت فمها. شعرت بيدهِ التوَّاقةِ على جسدها تستكشفهُ بعجالةٍ

فشعرت برعشةٍ في عضوها. قبّلها جاك على جفنيها وعلى طرفِ أنفها ثمَّ قال: « آلمني التوقُ إليكِ طوالَ هذا الوقتِ، وكلَّ يومٍ».

عانقتهُ بقوةٍ وقالت له: «أنا سعيدةٌ جداً لأنني عثرتُ عليكَ».

في الهواءِ الطلقِ وتحتَ أشعةِ الشمسِ وجدولِ الماءِ يخدقُ قريباً منهما مارسا الحبَّ بهدوءٍ وسعادةٍ، أمَّا تومي فقد نام طوالَ الوقتِ وعندما استيقظَ كانا قد انتهيا.

***

لم يبكِ تمثالُ المرأةِ الباكيةِ منذُ أن غادرَ جاك إسبانيا. لم يفهم جاك حتَّى الآن آليةَ عملهِ، ولذلك لم يعرف سببَ عدمِ بكائهِ خارجَ البلدِ الذي صُنعَ فيهِ، ولكنه اعتقد أنَّ دموعَ التمثالِ تنهمرُ عندَ هبوطِ الظلامِ بسببِ الهواء البارد المفاجئ، وقد لاحظَ أنَّ غروبَ الشمسِ في المناطقِ الشماليةِ يحدثُ بشكلٍ تدريجي مقارنةً بالمناطقِ الجنوبيةِ، ولذلك لم يكن هناك شكٌّ أن المشكلةَ هي بُطءُ هبوطِ الظلامِ. على الرغم من هذا كلِّهِ احتفظَ بالتمثالِ الذي كان كبيراً جداً على حملهِ، إلَّا أنَّه بقي تذكاراً من طليطلة يذكرهُ برشيد، وبعائشة أيضاً رغمَ أنَّه لم يخبر آليانا بذلكِ. عندما أرادَ البنَّاء في كنيسةِ سان دينيهِ صُنعَ نموذجٍ للعذراءِ جلبَ جاك التمثال الخشبي إلى كوخِ البنَّاءِ، وتركهُ هناك.

كان الديرُ قد أعطى جاك عملاً في بناءِ الكنيسةِ. لم يكن العملُ على المذبحِ الجديدِ الذي فُتنَ جاك بهِ مُكتملاً، وكان يجبُ الانتهاءُ منهُ بحلولِ مراسمِ الافتتاحِ في منتصف الصيفِ، ولكن رئيس الديرِ النشط خططَ لإعادةِ بناءِ صحنِ الكنيسةِ وفقَ الأسلوب الثوري ذاتهِ، ولذلكَ استعان بجاك لنحتِ الحجارةِ مُقدماً قبلَ البدءِ بالعملِ.

استأجرَ له الدير منزلاً في القريةِ، وانتقلَ إليهِ مع آليانا وتومي. في أولِ ليلةٍ لهما في المنزلِ مارسا الحبَّ خمسَ مرَّاتٍ، وبدا العيشُ معاً، كزوجٍ وزوجة، كأكثر شيءٍ طبيعي في العالمِ، وبعدَ مرورِ خمسةِ أيامٍ شعرَ جاك كأنَّهما يعيشان معاً منذُ زمنٍ طويل. لم يسألهما أحد إن كانا معاً بمباركةِ الكنيسةِ أم لا.

كان كبيرُ البنَّائين في كنيسةِ سان دينيهِ بلا منازعٍ أعظمَ بنَّاءٍ يلتقيهِ جاك أبداً. عندما انتهوا من العملِ على المذبحِ الجديدِ، وبدأوا بالتحضيراتِ لإعادةِ بناءِ

صحنِ الكنيسةِ أخذَ جاك يراقبُ كبيرَ البنائين لفهمِ كلّ شيءٍ يقومُ بهِ، ولاحظَ أنَّ التفوق التقني في البناءِ هنا من عملِ كبيرِ البنّائين، وليسَ رئيسِ الديرِ. عموماً، كان سوجير من أنصارِ الأفكارِ الجديدةِ، ولكنه كان مهتماً بالزخرفةِ أكثر من اهتمامهِ بالبنيةِ، وكان مشروعهُ الأثير بناءَ ضريحٍ جديدٍ لرفاتِ القديس دينيهِ ولرفيقيهِ: ريستسكوس وإيليوتيرس. ورغمَ أنَّ الرفات كانَ في السردابِ فإنَّ سوجير خططَ لوضعهِ في المذبحِ الجديدِ كي يكون أمامَ مرأى جميع الناسِ. ستوضع التوابيت الثلاثة في قبرٍ حجري مكسو بالرخامِ الأسود، أمَّا أعلى القبرِ فسيكون هناك مجسمٌ مصغرٌ للكنيسةِ مصنوعٌ من الخشبِ ومطلي بالذهبِ، وفي الصحنِ والممراتِ الجانبيةِ للمُجسمِ المصغرِ ثلاثةُ توابيت فارغة، كلُّ واحدٍ منها لشهيدٍ من الشهداءِ الثلاثةِ. سيوضع القبرُ في وسطِ المذبحِ الجديد، وسيكون متصلاً بظهرِ المذبحِ العالي الجديد. كان المذبحُ وقاعدةُ القبرِ في مكانهما الآن، ومُجسم الكنيسةِ في كوخِ النجارين حيثُ يعملُ أحدُ الحرفيين بجدٍ وعنايةٍ على طلي الخشبِ بطلاءِ ذهبي باهظٍ جداً. لم يكن سوجير من النوع الذي يقبلُ بالعملِ كيفَما اتفقَ بل يذهبُ بهِ إلى الأخيرِ.

كان رئيسُ الديرِ شخصاً جباراً في التنظيمِ، وهذا ما لاحظهُ جاك عندما بدأت وتيرةُ التحضيرات لمراسمِ الافتتاحِ تتسارعُ. دعا سوجير الجميع دونَ استثناءٍ، ومعظمهم قبلَ الدعوةِ بمن فيهم ملكُ وملكةُ فرنسا، وتسعة عشرَ من رؤساءِ الأساقفةِ والأساقفةِ، ومن بينهم كان كبير أساقفةِ كانتربري. نقلَ الحرفيون هذهِ الأخبارَ الطيبةَ خلال عملهم على الكنيسةِ فانتشرت بينَ الناسِ. غالباً ما كان جاك يرى سوجير في ردائهِ الرهباني المنزلي الصُنعِ يجولُ حولَ الديرِ مُلقياً بالأوامر على حشدٍ من الرهبانِ يلحقون بهِ كما تلحقُ صغارُ البطِ بأمّها، وذكرَه برئيسِ دير كينغزبريدج فيليب. كان سوجير يشبه فيليب؛ فكلاهما أتى من بيئةٍ فقيرةٍ، ونشأ في الديرِ، وسوجير قامَ أيضاً بما قامَ بهِ فيليب عندما أصبحَ رئيسَ الديرِ، وأعادَ تنظيمِ مواردِ الديرِ، وتشددَ في إدارةِ ممتلكاتهِ حتّى يزدادَ مدخولُه، وكفيليب أيضاً، أنفقَ سوجير مالاً إضافياً على أعمالِ البناءِ، وكانت شخصيتهُ كشخصيةِ فيليب مُفعمةً بالنشاطِ، وحيويةً، وحازمةً.

غيرَ أنَّ فيليب، وكما أخبرتهُ آليانا، لم يعد الشخصَ الذي كان عليهِ قبلاً.

وجدَ جاك صعوبةً في تخيلِ فيليب هادئاً، وبدا له هذا مستحيلاً تماماً كتخيلِ ويلارن بيغاد لطيفاً. على أيِّ حالٍ قاسى فيليب سلسلةً من الخيباتِ الرهيبةِ؛ ففي البدايةِ أُحرقت البلدةُ، وارتعدت أوصال جاك عندما تذكرَ ذلك اليوم الرهيب: الدخانُ، والرعبُ، والرجالُ الرهيبون على صهواتِ الجيادِ يحملون مشاعل، والخوفُ الأعمى الذي سيطرَ على الحشدِ الهستيري. ربما خسرَ فيليب آنذاك كلَّ حماستِهِ، والبلدةُ أيضاً فقدت قوتها بعدَ الحادثِ. يتذكر جاك الأمرَ جيداً، وكيفَ سيطرَ جو من الخوفِ، والقلقِ على المكانِ كرائحةِ تحللٍ بعيدة ولكن واضحة. لا شكَّ أنَّ فيليب أرادَ من مراسمِ تدشينِ المذبحِ الجديد أن تكون رمزاً لأملٍ جديدٍ لكينغزبريدج، ولكن الأمرَ انتهى بكارثةٍ أخرى، ولهذا استسلمَ أخيراً.

الآن وبعدَ أن غادرَ البناؤون كينغزبريدج، وتراجع السوق، وتقلَّصَ عددُ السكانِ بدأ الشبابُ ينتقلون إلى شايرنغ كما أخبرتهُ آليانا. بالطبعِ لم تكن المشكلةُ سوى مشكلة معنوياتٍ؛ فما يزالَ الديرُ السيدَ على كلّ ممتلكاتهِ بما في ذلكَ قطعان الخرافِ التي تجلبُ عليهِ مئات الجنيهاتِ سنوياً. ولو أنَّ القضيةَ قضيةُ مالٍ لوجدَ فيليب طريقةً لتمويلِ إكمالِ مشروعِ البناءِ. بالطبعِ لن يكون الأمرُ سهلاً لأنَّ البنائين متطيرون جداً حيالَ العملِ على كنيسةٍ انهارت قبلاً، ولن يكون رفعُ معنوياتِ وحماسةِ السكانِ المحليين مجدداً أمراً سهلاً لكن، وبالنظرِ إلى ما أخبرتهِ به آليانا، يبدو أنَّ المشكلةَ الحقيقيةَ هي فقدان فيليب لعزمهِ ومعنوياتهِ، وفي صميمهِ تمنَّى جاك لو أنَّه يستطيعُ القيامَ بشيءٍ ليعيدهما إليهِ.

في هذهِ الأثناءِ، وقبلَ يومين أو ثلاثةِ أيامٍ على مراسمِ التدشين، بدأ الأساقفةُ، ورؤساءُ الأساقفةِ، والدوقات، والكونتات بالتدفق إلى سان دينيه. وقام جميعُ عليةِ القومِ بجولةٍ على موقعِ بناءِ الكنيسةِ، ورافقَ سوجير بنفسهِ أهمَّ الزوارِ، أمَّا الأقلُّ أهميةٍ منهم فقد رافقهم الرهبانُ أو الحرفيون. كان الجميعُ مأخوذاً بالإضاءةِ داخلَ البناءِ الجديد، وبضوءِ الشمسِ الذي دخلَ من النوافذِ الكبيرةِ بزجاجها الملوّن. وبما أنَّ كلَّ مسؤولٍ كنسي في فرنسا سيرى هذا فكرَ جاك أنَّهم على الأرجحِ سيتبنون الأسلوبَ الجديدَ، وسيزدادُ

الطلبُ على البنَّائين العاملين في كنيسةِ سان دينيه، وهذا يعني أنَّ القدومَ إلى هنا حركةٌ ذكيةٌ، بل أذكى مما تخيلَ؛ فقد رفعت من حظوظهِ في الحصولِ على فرصة تصميمِ وبناءِ كاتدرائيةٍ بنفسهِ.

وصلَ الملك لويس يوم السبت برفقةِ زوجتهِ ووالدتهِ، ونزلوا في منزلِ رئيسِ الديرِ. في تلكَ الليلةِ استمرَّت الصلوات الليليةُ من الغسقِ حتَّى الفجرِ، وعندما أشرقت الشمسُ كان هناك حشدٌ من الفلاحين والمواطنين الباريسيين خارجَ الكنيسةِ بانتظار رؤيةِ أعظمِ تجمعٍ للشخصيات الدينيةِ والمتنفذة، ومعظمهم لم يكونوا قد رأوا مثلَ هذا التجمع قبلاً. حالما انتهت آليانا من إطعام تومي انضمّ جاك مع آليانا إلى الحشدِ، وفكرَ في نفسهِ أنَّه في يومٍ من الأيام سيقول لتومي: «أنتَ لن تتذكر على الأغلب، ولكن عندما كان عمركَ عاماً رأيتَ ملكَ فرنسا».

اشتريا الخبزَ وعصيرَ التفاح من أجلِ الفطور، وتناولاه وهما ينتظران بدء العرضِ. بالطبعِ لا يُسمح للحشدِ بدخولِ الكنيسةِ، وحرصَ جنودُ الملكِ على إبعاده، ولكن جميعَ الأبوابِ كانت مفتوحةً؛ فاحتشدَ الناسُ في زُمرٍ، واسترقوا النظرَ إلى الداخلِ. اكتظَّ صحنُ الكنيسةِ بالنبلاءِ والنبيلات، ولحسنِ الحظِّ كانَ المذبح عالياً ببضعةِ أقدامٍ بسببِ السردابِ الكبيرِ تحتهُ، فتمكنَ جاك من مشاهدةِ المراسمِ.

في أقصى طرفِ الصحنِ رأى جاك هرجاً ومرجاً، وفجأةً أحنى جميعُ النبلاءِ رؤوسهم، ومن فوقِ هذهِ الرؤوس المَحنيةِ رأى جاك الملكَ يدخلُ الكنيسةَ من جهةِ الجنوبِ. ورغمَ أنَّه لم يرَ وجهَ الملكِ جيداً، فإنَّ رداءهُ الأرجواني ألقى ألقاً حيوياً من حولهِ وهو يسير باتجاهِ منتصفِ المعبرِ، ويركعُ أمامَ المذبحِ الأساسي.

لحقَ بالملكِ على الفورِ رؤساءُ الأساقفةِ والأساقفةُ، وكانوا جميعاً في أرديةٍ بيضاء ساحرةٍ ومطرزةٍ بخيوطٍ ذهبيةٍ، وكلُّ أسقفٍ حملَ صولجانهُ الرسمي معهُ. يُفترضُ بالصولجان أن يكون صولجاناً بسيطاً، غير أنَّ العديدَ من الصولجانات كانت مُطعمةً بجواهر بديعةٍ، وجعلَ هذا صفَّ الأساقفةِ يلمعُ كجدول ماءٍ جبلي تحتَ أشعةِ الشمسِ.

ساروا جميعاً ببطءٍ عبرَ الكنيسةِ، وصعدوا الدرجَ إلى المذبحِ ثمَّ أخذوا

أماكنهم المحددةَ لهم قبلاً حولَ جرنِ المعموديةِ الذي، وكما عرفَ جاك خلالَ مراقبتِهِ التحضيراتِ للمراسمِ، يحوي على الكثيرِ من الماءِ المُقدسِ.

خلالَ تلاوةِ الصلواتِ وغناءِ الترانيمِ سادَ الهدوء. في الخارجِ بدأ الحشدُ يتململُ، وتضايق تومي. انتهت الصلوات والترانيم، وتحرَّكَ الأساقفةُ في صفٍ مجدداً.

غادروا الكنيسةَ من البوابةِ الجنوبيةِ، وغابوا في الممرّاتِ المسقوفةِ. أُصيبَ المتفرجون بالخيبةِ، ولكن الأساقفةَ ظهروا مجدداً خارجَ أبنيةِ الديرِ، وتقدموا باتجاه واجهةِ الكنيسةِ. حملَ كلُّ أسقفٍ مكنسةً صغيرةً تُسمى «مرشّة» ووعاءً يحوي على ماءٍ مقدسٍ، وساروا معاً يغنون، ويغمسون مرشّاتهم في الماءِ ثمَّ يرشقون بهِ جدران الكنيسةِ. اندفعَ الحشدُ إلى الأمامِ على أملِ الحصولِ على مباركةٍ، وللمسِ أرديةِ رجالِ الدين البيضاء، ولكن جنودَ الملكَ ضربوا الناس بالهراوات مُجبرين إياهم على التراجعِ إلى الوراءِ.

شقَّ رتلُ الأساقفةِ طريقهُ بمهابةٍ على طولِ الطرفِ الشمالي للكنيسةِ، ولحقَ بهِ الناسُ وهم يطأون القبورَ في المقبرةِ. كان بعضُ المُتفرجين قد توقعوا حدوثَ هذا قبلاً؛ فأخذوا مواقعهم هنا، ورغم أنَّهم قاوموا ضغطَ تدفقِ القادمين الجدد، فإنَّ عراكاً أو عراكين نشبا.

عبرَ الأساقفةُ الرواقَ الشمالي، وتابعوا في نصفِ دائرةٍ باتجاهِ الطرفِ الشرقي -القسم الجديد- للكنيسةِ. هناك بنى الحرفيون أكواخهم، وورشهم. بدأ الحشدُ يندفعُ باتجاه الأكواخِ الخشبيةِ المرتجلةِ مهددين إياها بتسويتها أرضاً. وحالما غابَ قائدُ رتلِ الأساقفةِ داخلَ الد استماتَ أكثرُ أفراد الحشدِ هستيريةً، وبدأوا يدفعون الناس بعزمٍ أكبر، وو. جنودُ الملكِ هذا بعُنفٍ متصاعدٍ.

بدأ جاك يشعر بالقلقِ وقال لآليانا: «لا يعجبني ما يحدثُ».

«كنتُ على وشكِ قولِ هذا»، أجابت آليانا ثمَّ أضافت: «لنبتعد عن الحشدِ».

وقبلَ أن يتمكنا من التحرّكِ نشبَ شجارٌ بينَ جنود الملكِ، ومجموعةٍ من الشبابِ في مقدمةِ الحشدِ. انبرى جنودُ الملكِ إلى ضربِ الشباب بهراواتهم وبكلِّ عنفٍ، إلا أنَّ الشباب، وبدلاً من التراجع إلى الوراءِ، قاوموهم. هرعَ

آخر الأساقفةِ إلى الممرّاتِ المسقوفةِ وهو يرشُّ الماء المقدس برتابةٍ على آخر قسمٍ من أقسامِ المذبحِ. عندما غابَ الأساقفة عن الأنظارِ تحولَ اهتمامُ الحشدِ إلى جنودِ الملكِ، ورمى أحدهم حجراً فأصابَ أحدَ الجنودِ على جبهتِهِ إصابةً مباشرةً. علت صيحات التهليلِ من الحشدِ عندما وقعَ الجندي أرضاً، وسرعان ما تطور الأمرُ إلى عراكٍ بالأيدي. هرعَ الجنود ممن وقفوا أمامَ واجهةِ الكنيسةِ الغربيةِ للدفاعِ عن رفاقهم.

كان الشجار قد بدأ يتحولُ إلى شغبٍ.

خلالَ الدقائقِ القليلةِ التاليةِ لم تنجح المراسمُ داخلَ الكنيسةِ في تشتيتِ اهتمامِ المتشاجرين. علمَ جاك أنَّ الأساقفة والملكَ نزلوا الآن إلى السردابِ لجلبِ رفاتِ القديس، ثمَّ سيتجولون به في الممرّاتِ المسقوفةِ، ولكن لن يُخرجوه من الأبوابِ، وأيضاً لن يخرجَ الزوار النبلاء قبلَ انتهاء المراسمِ. لم يتوقع رئيسُ الدير سوجير مثلَ هذا الحشدِ من المتفرجين، ولذلك لم يقم بالترتيبات اللازمةِ لإرضائهم. ها هو الحشدُ متضايقٌ، ويشعرُ بالحرِّ؛ فقد كانت الشمسُ الآن في كبدِ السماءِ، وأرادَ الناسُ التنفيسَ عن ضيقهم.

على عكسِ جمهور المتفرجين كان جنودُ الملكِ مسلحين. في البدايةِ كانت الغلبةُ للجنودِ ثمَّ خطرت ببالِ أحدِ المتفرجين فكرةٌ عبقريةٌ، وهي اقتحام أكواخِ الحرفيين بحثاً عن أسلحةٍ. خلعَ شابان بابَ كوخِ البنَّائين، وبعد وهلةٍ خرجا يحملان في أيديهما مطارق ثقيلةً. كان هناك بناؤون بينَ الحشدِ، وشقَّ بعضهم طريقه بينَ الناسِ باتجاهِ الكوخِ لمنعِ الناسِ من الدخولِ، ولكنهم لم ينجحوا، ودفعهم الحشدُ جانباً.

حاولَ جاك وآليانا التراجع إلى الوراءِ بعيداً عن الحشدِ، ولكن الناس خلفهما استمروا بدفعهما بقوةٍ إلى الأمامِ فوجدا نفسيهما عالقين. احتضنَ جاك تومي بقوةٍ إلى صدرهِ واضعاً ذراعيهِ خلفَ ظهرِ الطفلِ، وغطى رأسهُ الصغير بكفيهِ وهو يصارعُ في الوقتِ عينهِ للبقاءِ قريباً من آليانا. رأى جاك رجلاً ضئيلَ البنيةِ بلحيةٍ سوداء وله مظهرٌ ماكرٌ يخرجُ من كوخِ البنَّائين حاملاً تمثالَ المرأةِ الباكيةِ. فكرَ جاك في نفسهِ بألم: «لن أرى التمثالَ بعدَ الآن»، غير أنّه كان مشغولاً جداً بمحاولةِ الهربِ من الحشدِ كيلا يسحقه على الاهتمامِ بأن يسرقهُ أحدٌ.

بعدَ كوخِ البنَّائين اقتحمَ الحشدُ كوخَ النجارين. بحلولِ الآنَ لم يعد لدى الحرفيين أيُّ أملٍ في حمايةِ أكواخهم، ولذلكَ لم يقوموا بأيَّةِ محاولةٍ لكبحِ جماحِ الحشدِ. وجدَ المُقتحمون كوخَ الحدادين منيعاً جداً، ولكنهم نجحوا في تحطيمِ الجدار المُتقلقل لكوخِ بنَّائي السقفِ، وسرقوا الأدواتِ الحادةَ التي استخدمها العمالُ في تقطيعِ، وتثبيت صفائح الرصاصِ، وهنا أدركَ جاك أنَّ الأمرَ لن ينتهي دونَ وقوعِ قتلى.

على الرغمِ من جهودهِ للابتعاد عن الحشدِ فإنَّه وجد نفسهُ يتقدم باتجاهِ الرواقِ الشمالي حيثُ كان القتالُ على أشدِّهِ، ولاحظَ جاك أنَّ اللصَّ ذا اللحيةِ السوداءِ عالقٌ مثلهُ، ويحاولُ الهربَ بغنيمتهِ مُحتضناً التمثالَ إلى صدرهِ كما احتضن جاك تومي، ولكن الحشدَ كان يدفعُ الرجلَ أيضاً باتجاهِ الرواقِ الشمالي.

وفجأةً لمعت فكرةٌ في ذهنِ جاك فسلَّم تومي إلى آليانا قائلاً: «ابقي بقربي»، ثمَّ أمسكَ باللصِّ، وأخذَ منهُ التمثال. قاومهُ اللصُّ لبرهةٍ، ولكن من جهةٍ كان جاك أضخم منه، ومن جهةٍ أخرى انصبَّ اهتمامُ اللصِّ الآن على سلامتهِ أكثر من التمثالِ، ولذلكَ بعدَ شيءٍ من المقاومةِ أفلتَ التمثال.

رفعَ جاك التمثال فوقَ رأسه وبدأ يصرخ: «المجد لمريم العذراء!» في البدايةِ بدا أنَّ ما من أحدٍ لاحظَه، ولكن بعدَ قليلٍ لفتَ نظرَ شخصٍ أو شخصين. «لا تلمسوا الأمَّ المباركةَ!» صرخَ جاك بأعلى صوتهِ، وفي تطيرٍ من لمسِ التمثال تراجع الناسُ من حولهِ، وأفسحوا له مجالاً. كانت الفكرةُ قد بدأت الآن تنضجُ في ذهنِه ولذلكَ تابع: «إنَّ تدنيسَ صورة العذراءِ خطيئةٌ!» ورفعَ التمثال عالياً فوقَ رأسهِ ثمَّ تقدَّمَ باتجاهِ الكنيسةِ. شعرَ جاك بدفقٍ من الأملِ عندما فكرَّ أنَّ الأمرَ قد ينجح. توقفَ العديدُ من الناسِ عن الشجارِ لمشاهدةِ ما يحدث.

نظرَ جاك خلفه، ورأى آليانا عاجزةً عن القيامِ بشيءٍ بسببِ تدافعِ الحشدِ، ولكن يبدو أنَّ الشغبَ بدأ الآن يتراجع وبسرعةٍ. تحرَّكَ الحشدُ إلى الأمامِ مع جاك، وكررَ الناس كلمات جاك في همهماتٍ تفيضُ خشيةً: «إنَّها أمُّ الرَّبِّ... المجد لمريم... أفسحوا الطريقَ أمامَ تمثالِ العذراءِ المباركةِ...» ما أرادهُ الناس هو عرضٌ، وها هو جاك الآن يقدمه لهم، ولذلكَ توقفَ القتالُ تقريباً

باستثناءِ شجارين أو ثلاثةٍ عندَ أطرافِ الحشدِ. تقدَّم جاك بوقارٍ ومأخوذاً بالسهولةِ التي تمكن بها من إيقافِ الشغبِ. ابتعدَ الناسُ من طريقهِ، ووصلَ إلى الرواقِ الشمالي للكنيسةِ، وهناك، في الفيء البارد للمدخلِ، وضعَ التمثال أرضاً بكلِّ جلالٍ. كان ارتفاعُ التمثالِ يتجاوزُ القدمين بقليلٍ، ولذلكَ بدا أكثرَ إبهاراً عندما وضعهُ جاك أرضاً.

احتشدَ الناسُ حولَ البوابةِ في ترقبٍ، ولكن جاك كان حائراً الآن حيالَ ما يجب عليهِ القيام بهِ، وفكرَ أنَّ الناس على الأغلبِ يرغبون بسماعِ عظةٍ. تصرَّفَ كرجلِ دين بحملهِ التمثال عالياً، والصراخِ بصوتٍ جهوري ومتوعدٍ، إلَّا أنَّ هذه كانت حدود إمكاناتهِ الدينيةِ. شعرَ بالخوفِ مما قد يفعلهُ الحشدُ الآن إن أحبطهُ.

وفجأةً علت شهقةٌ جماعيةٌ.

نظرَ جاك خلفهُ. كان بعضُ النبلاءِ من المصلين قد احتشدوا في الجناحِ الشمالي ينظرون خارجاً، ولكن جاك لم يرَ شيئاً يبررُ دهشةَ الحشدِ الواضحة.

«معجزةٌ!» قال أحدهم وانضمَّ إليه آخرون يصيحون: «معجزةٌ! معجزةٌ!»

نظرَ جاك إلى التمثالِ ثمَّ فهمَ سببَ دهشتهم. كان الماء يترقرقُ من عيني التمثالِ، وفي البدايةِ صُدمَ بالأمرِ تماماً كما صُدمَ الحشدُ، ولكنه تذكرَ نظريتهُ حولَ أنَّ تمثالَ المرأةِ يبكي عندما ينتقلُ بشكلٍ مفاجئ من الدافئ إلى الباردِ كما يحدث خلالَ هبوطِ الظلامِ في المناطقِ الجنوبيةِ. وها هو التمثالُ الآن يُنقلُ من حرارةِ شمسِ الخارجِ إلى برودةِ الرواقِ الشمالي للكنيسةِ، وتسببَ هذا بانهمارِ دموعهِ، ولكن بالطبعِ الحشدُ لا يعلمُ هذا، وكلّ ما رأوه أمامهم تمثالٌ يبكي، ولذلكَ ذُهلوا مما رأوه.

رمت امرأةٌ تقفُ في المقدمةِ عملةً نقديةً تعادلُ بنساً فضياً فرنسياً عندَ قاعدةِ التمثالِ، وهنا شعرَ جاك بالرغبةِ في الضحكِ عالياً. ما الفائدةُ من رمي المالِ أمام قطعةٍ من الخشبِ؟ ولكن تلقين الكنيسةِ للناسِ حيالَ الأمورِ الدينيةِ كان عميقاً إلى درجةِ أنَّ ردَّ فعلهم التلقائي على أيِّ حدثٍ مقدسٍ هو تقديمُ المالِ. حذا العديدُ من الناسِ حذو المرأةِ ورموا المالَ.

لم يفكر جاك أبداً أنَّ اللعبةَ التي أعطاه إياه رشيد قد تجلبُ له المالَ، في حقيقةِ الأمرِ لم يكن المال لجاك لأنَّ الناس لن يقدموا المالَ إذ علموا أنَّه سيذهبُ إلى جيبِ جاك، ولكن التمثالَ سيحققُ ثروةً لأيةِ كنيسةٍ.

وهنا أدركَ جاك فجأةً ما عليهِ القيام بهِ.

لمعت الفكرةُ في ذهنهِ، وبدأ يتحدثُ حتَّى قبلَ أن يستوعب تبعات الأمرِ. خرجت الكلماتُ في فمهِ، والفكرةُ ما تزالُ تتبلور في ذهنهِ: «العذراءُ الباكيةُ ليستَ مُلكي بل مُلكُ الرَّبِّ». عمَّ الصمتُ بينَ الحشدِ؛ فقد كانت هذهِ العظةَ التي انتظروها. ومن خلفِ جاك كان الأساقفةُ يغنون داخلَ الكنيسةِ، ولكن الحشد لم يكن مهتماً بهم في هذهِ اللحظةِ. «كانت مخبأةً في أراضي المسلمين لمئاتِ السنين»، تابع جاكَ دونَ أن يكون لديهِ أدنى فكرة عن تاريخِ التمثال، ولكن بدا له أنَّ هذا التفصيلَ غير مهم لأنَّ الكهنةَ أنفسهم لم يبحثوا عن كتبٍ في صدقِ قصصِ المعجزاتِ ورفاتِ القديسين. «قطعت أميالاً طويلةً، ولكن رحلتها لم تنته بعد لأنَّ وجهتها هي كاتدرائيةُ كينغزبريدج في إنكلترا».

التقت عيناه بعيني آليانا، ولاحظَ أنَّها تحدقُ إليه في ذهولٍ. قاومَ إغراءَ غمزها بأنَّه يخترع هذهِ التفاصيلَ خلالَ الحديثِ.

«إنني مكلفٌ بمهمةٍ روحيةٍ، وهي إيصالها إلى كينغزبريدج حيثُ سترقدُ في سلام». وبينما نظرَ إلى آليانا خطرت ببالهِ فكرةٌ رائعةٌ نزلت عليهِ كوحي فقال: «كُلِّفت بالعملِ ككبير بنَّائين في الكنيسةِ الجديدةِ في كينغزبريدج».

فغرت آليانا فمها من الدهشةِ. أشاحَ جاك بنظرهِ بعيداً عنها، وتابع كلامهُ قائلاً: «تريدُ العذراء الباكية بناءَ كنيسةٍ جديدةٍ أكثرَ بهاءً من أجلها في كينغزبريدج، وبعونكم سأبني ضريحاً لها، ضريحاً جميلاً كالمذبح الجديدِ الذي بُني هنا من أجلِ رفاتِ القديس دينيه».

أطرقَ جاك بنظرهِ أرضاً، وحدَّقَ إلى المالِ المُلقى على الأرضِ، وتبلورت فكرتهُ نهائياً. «ستُستخدم أموالكم في بناءِ الكنيسةِ الجديدةِ. ستمنح العذراء بركاتها لكلِّ رجلٍ، وامرأةٍ، وطفلٍ يقدمُ لها عطيةً لمساعدتها على بناءِ مرقدها الجديد».

حلَّ الصمتُ بينَ الناسِ لبرهةٍ ثمَّ بدأ الناسُ برمي المالِ على الأرضِ عندَ قاعدةِ التمثالِ، وكلُّ من قدَّم عطيةً صاحَ بشيءٍ. بعضهم قال: «هللويا» أو «المجدُ للرَّبِّ»، وآخرون طلبوا البركاتِ، وآخرون كانوا أكثرَ دقةً في مطلبهم كـ «ساعدي روبرت على التعافي»، أو «فلتحمل آن»، أو «مُني علينا بحصادٍ

جيدٍ». تفحصَ جاك وجوهَ الناسِ، ووجدهم متحمسين وسعداء ومعنوياتهم مرتفعةً. اندفعوا إلى الأمامِ، ودفعوا بعضهم من شدةِ الحماسةِ لتقديم المالِ إلى العذراءِ الباكيةِ. نظرَ جاك أرضاً، وراقبَ في دهشةٍ المالَ يتكدسُ عندَ قدميهِ كالثلجِ.

***

على طولِ الطريقِ من سان دينيهِ وحتَّى تشيربورغ حققَ تمثالُ العذراء الباكيةِ التأثيرَ ذاتهُ في كلِّ بلدةٍ وقريةٍ. خلالَ موكبهم على الطريقِ الرئيسي تجمَّعَ الناسُ أمامَ الكنائس، وعندها أخذوا التمثالَ إلى مكانٍ باردٍ في المبنى، وحالما بكى تدافع الناسُ لإلقاءِ المالِ من أجلِ بناءِ كاتدرائيةِ كينغزبريدج.

كادوا يفقدون التمثال في البدايةِ؛ فعندما تفحصَ الأساقفةُ ورؤساءُ الأساقفةِ التمثالَ قالوا عنهُ إنَّه معجزةٌ حقاً، وأرادَ رئيسُ الديرِ سوجير أن يحتفظَ بهِ في كنيسةِ سان دينيه، وعرضَ على جاك جنيهاً لقاءَ التمثالِ ثمَّ عشرَ جنيهات، وأخيراً خمسين جنيهاً، ولكن عندما أدركَ أنَّ جاك لم يكن مُهتماً بالمالِ هددهُ بأخذِ التمثالِ منه بالقوةِ إلَّا أنَّ ثيوبولد -كبير أساقفةِ كانتربيري- منعهُ من فعلِ هذا؛ فقد رأى الأخيرَ في التمثالِ مصدراً لدرِ المالِ، وأرادهُ أن يذهبَ إلى كينغزبريدج التي تقعُ ضمنَ نطاقِ أبرشيتهِ. استسلمَ سوجير للأمرِ، ولكن بوقاحةٍ، وعبَّر عن تحفظاتهِ الدينيةِ حيالَ مصداقيةِ المعجزةِ.

أخبرَ جاك حرفيي كنيسةِ سان دينيهِ أنَّه سيؤمن العمل لمن سيلحق بهِ إلى كينغزبريدج، ولم يكن سوجير مسروراً بهذا أيضاً. في الحقيقةِ وعملاً بالمثلِ الشائع عصفورٌ باليدِ أفضلُ من عشرةٍ على الشجرةِ، بقي مُعظمُ الحرفيين، ولكن بعض الحرفيين، وكانوا إنكليزاً، شعروا بإغراءِ اللحاقِ بجاك والعودةِ إلى إنكلترا، بينما نشرَ الآخرون الخبرَ؛ فقد كان واجباً على البنَّائين إطلاع زملائهم البنَّائين على أماكنِ البناءِ الجديدةِ. خلالَ أسابيع قليلةٍ بدأ بناؤون من جميع الأراضي المسيحيةِ بالتدفقِ إلى كينغزبريدج بالطريقةِ ذاتها التي انتقلَ بها جاك إلى ستةٍ أو سبعةِ مواقع بناءٍ مختلفةٍ خلالَ العامين المُنصرمين. سألت آليانا جاك عمَّا سيفعلهُ إن رفضَ ديرُ كينغزبريدج تعيينهُ كبيرَ البنَّائين فيها. لم يكن لدى جاك أدنى فكرة عمَّا سيفعلهُ؛ فقد قامَ بهذا الإعلانِ بشكلٍ مفاجئ، ولم يكن لديهِ خطط بديلة في حال لم تسر الأمورُ كما خططَ لها.

بعدَ أن أعلنَ رئيسُ الأساقفةِ ثيوبولد أنَّ تمثالَ العذراء الباكيةِ مُلكٌ لإنكلترا لم يسمح لجاك بالتصرفِ بهِ كما يشاء، ولذلكَ أرسلَ كاهنين من حاشيتهِ -رينولد وإدوارد- لمرافقةِ جاك وآليانا في رحلتهما. في البدايةِ تضايقَ جاك من هذا الترتيبِ، ولكنه سرعان ما استلطفَ الرجلين. كان رينولد شاباً بوجهٍ يفور صحةً وشباباً، ويحبُّ المجادلة، وثاقبَ النظرِ، وأبدى اهتماماً كبيراً في الرياضيات التي تعلمها جاك في طليطلة. أمَّا إدوارد فكان رجلاً أكبرَ عمراً، ولطيفَ المعشرِ، ونهماً بعضَ الشيء. كان عملُ الرجلين الأساسي هو الحرصُ على ألا تذهب التبرعاتِ إلى جيبِ جاك. في الحقيقةِ أنفقَ الكاهنان بحريَّةٍ من التبرعاتِ لدفعِ تكاليفِ السفرِ، أمَّا جاك وآليانا فقد دفعا من مالهما الخاص، ولهذا كان من الأفضلِ لو أنَّ رئيسَ الأساقفةِ وثَقَ بجاك.

مرَّوا ببلدةِ تشيربورغ في طريقهم إلى ميناءِ بارفلور حيثُ سيصعدون إلى سفينةٍ باتجاه ويرهام. شعرَ جاك أنَّ هناك خطباً ما قبلَ أن يصلَ إلى قلبِ البلدةِ الساحليةِ الصغيرةِ.

لم يُحدق الناس إلى تمثالِ العذراءِ، بل إلى جاك.

ولاحظَ الكاهنان الأمرَ بعدَ وهلةٍ.

كانوا يحملون التمثالَ على حاملٍ ثلاثي خشبي كما يفعلون عادةً عندما يدخلون أيّةَ بلدةٍ. وعندما بدأ الناس يلحقون بهم همسَ رينولد لجاك بصوتٍ كالهسيس: «ما الذي يجري؟»

«لا أعلم»، أجاب جاك.

«إنَّهم مُهتمون بكَ أكثر مما هم مُهتمون بالتمثالِ! هل أتيتَ إلى هذهِ البلدةِ قبلاً؟»

«أبداً».

وهنا قالت آليانا: «يبدو أنَّ كبارَ السنِ من ينظرون إلى جاك، أمَّا الأصغر عُمراً فهم ينظرون إلى التمثالِ».

كانت آليانا على حقٍ. نظرَ الأطفالُ والشباب إلى التمثالِ بفضولٍ طبيعي، أمَّا من كانوا في منتصفِ العمرِ فحدَّقوا إلى جاك الذي نظرَ إليهم بالمثلِ، ولاحظ أنَّهم مُرتعبون منه. رسمَ أحدهم إشارةَ الصليب على صدرهِ.

«ما الذي لديهم ضدّي؟» تساءل جاك بصوتٍ عالٍ.

وكما يحدثُ عادةً جذبَ موكبهم متفرجين على الفورِ، إلّا أنّهم حالما وصلوا إلى ساحةِ السوقِ مع حشدٍ من صفين وضعوا تمثالَ العذراءِ أرضاً أمامَ الكنيسةِ. كان للهواءِ رائحةُ المياهِ المالحةِ، والسمكِ الطازجِ. دخلَ العديدُ من سكانِ البلدةِ إلى الكنيسةِ. عادةً، بعدَ أن يضعوا التمثال أمامَ الكنيسةِ يخرجُ رجالُ الدينِ، ويتحدثون إلى رينولد وإدوارد اللذين يقدمان لهم شرحاً للوضعِ، ثمَّ يُدخلون التمثالَ إلى الكنيسةِ، وهنا يبدأ التمثالُ بالبكاءِ. لم يفشل التمثالُ في البكاءِ سوى مرّةٍ واحدةٍ. حدثَ هذا في أحدِ الأيامِ الباردةِ حينَ أصرَّ رينولد على الأمرِ رغمَ تحذيرِ جاك أنَّ التمثال لن يبكي، ومنذئذٍ باتا يأخذان برأيهِ ونصيحتهِ.

كان الطقسُ اليوم مناسباً لبكاءِ التمثالِ، إلا أنَّ هناك خطباً ما فقد لاحَ خوفٌ متطيرٌ على وجوهِ البحارةِ والصيادين المسفوعةِ من الشمسِ والرياحِ. أحسَّ الشبابُ بقلقِ الكبارِ، ولسببٍ ما غدا الحشدُ بأكمله مرتاباً وعنيفاً. لم يقترب أحدٌ من الموكبِ الصغيرِ لطرحِ الأسئلةِ حولَ التمثالِ بل وقفوا بعيداً يتحدثون بأصواتٍ خفيضةٍ كأنهم ينتظرون حدوثَ أمرٍ ما.

وأخيراً خرجَ كاهنٌ من الكنيسةِ. عادةً، في البلداتِ الأخرى يقترب الكهنةُ في فضولٍ حذرٍ، غيرَ أنَّ هذا الكاهن خرجَ كطاردِ أرواحٍ يحمل بيدٍ صليباً وقربان الماءِ المقدسِ في يدهِ الأخرى. قال رينولد: «ما الذي يعتقدُ أنّه فاعلٌ... يطردُ الشياطين؟» تقدَّمَ الكاهنُ، وهو يغني شيئاً باللاتينيةِ ثمَّ اقتربَ من جاك وقال له بالفرنسية: «آمركُ، أيتها الروح الشريرةُ، بالعودةِ إلى قصرِ الأرواحِ!

«أنا لست شبحاً أيّها الغبي!» صرخَ جاك بعدَ أن فقد أعصابهُ.

تابع الكاهنُ: «باسم الأبِّ والابن والروحِ القُدسِ...»

«إننا في مهمةٍ لمصلحة كبير أساقفةِ كانتربري»، احتجَّ رينولد وتابع: «وقد باركنا».

قالت آليانا: «إنَّه ليسَ شبحاً فأنا أعرفهُ مُذ كان في الثانية عشرة من العمرِ».

وهنا بدا الكاهن مُحتاراً وقال: «أنتَ شبحُ رجلٍ من هذهِ البلدةِ ماتَ قبل أربعة وعشرين عاماً». وعبَّرَ العديدُ من الناسِ في الحشدِ عن موافقتهم على كلامهِ. تابع الكاهن تعويذةَ طردِ روحِ الشيطانِ.

«أنا في العشرين من العمرِ»، قال جاك. «وربما أشبه الرجلَ المتوفى».

خرجَ أحدهم من بينِ الحشدِ قائلاً: «أنت لا تشبههُ فقط بل تبدو مثلهُ تماماً كما كان في اليومِ الذي توفي فيهِ».

همهمَ الحشدُ في خوفٍ، ونظرَ جاك إلى مُحدثهِ وقد فقد أعصابهُ الآن. كان رجلاً في عقدهِ الرابعِ بلحيةٍ رماديةٍ، ويرتدي ثيابَ حرفيّ ميسورٍ، أو تاجرٍ صغيرٍ. لم يبدُ من النوعِ الهستيري، ولذلكَ خاطبهُ جاك بصوتٍ مُتلعثمٍ: «من بصحبتي يعرفونني. اثنان منهما كاهنان، والمرأةُ زوجتي، والطفلُ ابني. هل هم أشباحٌ أيضاً؟»

بدا الرجلُ مُرتاباً.

وهنا تحدثت امرأةٌ بشعرٍ أشيب وقفت قربَ الرجلِ قائلةً: «ألم تعرفني يا جاك؟»

جفلَ جاك كأنَّه لُسعَ، وانتابهُ الآن شعورٌ بالخوفِ.

«كيفَ تعرفين اسمي؟» سألها.

«لأنني والدتكَ»، أجابت المرأةُ.

«أنتِ لستِ والدته!» قالت آليانا، وشعرَ جاك بنبرة رعبٍ في صوتها. «أنا أعرفُ والدتهُ، وأنتِ لستِ والدتهُ! ما الذي يحدثُ هنا؟»

«سحرٌ شيطاني»، قال الراهب.

«على رسلكَ»، قال رينولد. «قد يكون جاك قريبَ الرجل المتوفى. هل كان للرجلِ أطفال؟»

«لا»، قال الرجلُ ذو اللحيةِ الرماديةِ.

«هل أنتَ واثقٌ من هذا؟»

«لم يتزوج قط».

«هذا لا يعني بالضرورةِ أنَّه لا يملكُ أطفالاً».

أطلقَ شخصٌ أو شخصان ضحكةً مكبوتةً فرمقهما الكاهنُ بنظرةٍ قاسيةٍ.

قال الرجلُ ذو اللحيةِ الرماديةِ: «ولكن الرجلَ توفي منذُ أربعة وعشرين عاماً، وهذا الشخص المدعو «جاك»، يقولُ إنَّه في العشرين فقط».

«كيفَ توفي الرجلُ؟» سألَ رينولد.

«غرقاً في البحرِ».

«هل عثرتم على جثتِهِ؟»
حلَّ صمتٌ.
أخيراً قال الرجلُ ذو اللحيةِ الرماديةِ: «لا، لم نعثر على جثتِهِ قط».
«هل رآها أحدٌ؟» قالَ رينولد بنبرةٍ عاليةٍ الآن بعدَ أن شمَّ رائحةَ نصرٍ قريبٍ.
لم يُجب أحدٌ.
استدارَ رينولد نحو جاك وسأله: «هل ما يزال والدكَ على قيدِ الحياةِ؟»
«لقد توفي قبلَ أن أولد».
«وماذا كان يعمل؟»
«كان شاعراً متجولاً».
شهقَ الحشدُ، وقالت المرأةُ ذاتُ الشعرِ الأشيب: «كان ابني جاك شاعراً متجولاً».
«ولكن جاك هذا بنَّاءٌ»، قال رينولد. «ورأيتُ عملهُ. على أيِّ حالٍ قد يكون ابنَ الشاعرِ المتجولِ جاك»، ثمَّ استدارَ إلى جاك وسألهُ: «وماذا كان والدكَ يُدعى؟ الشاعر المتجول جاك كما أعتقد».
«لا، كان يدعونهُ جاك تشيربورغ».
أعادَ الكاهن الاسم، ولكن لفظهُ بالفرنسيةِ: «جاك تشيغبورغ».
صُعقَ جاك الآن. لم يفهم قبلاً اسمَ والدهِ، ولكن الاسم الآن باتَ واضحاً. كالعديدِ من المسافرين والرحالةِ حملَ والدهُ اسمَ البلدةِ التي أتى منها.
«أجل»، قال جاك في عجبٍ. «بالطبع. جاك تشيغبورغ».
ها هو، وبعدَ أن فقدَ الأملَ لوقتٍ طويلٍ في العثورِ على والدهِ، يقتفي أثرَه أخيراً. كان قد ذهبَ إلى إسبانيا، إلَّا أنَّ ضالتهُ كانت هنا – على ساحلِ النورماندي. لقد أنهى المهمةَ التي أتى من أجلها، وشعرَ برضا كبيرٍ كأنَّه يزيحُ عن كاهلِهِ عبئاً ثقيلاً يحملهُ منذُ وقتٍ طويلٍ.
«إذاً، كلُّ شيءٍ باتَ واضحاً الآن»، قال رينولد، ونظرَ من حولهِ إلى الحشدِ في ظفرٍ. «جاك تشيغبورغ لم يغرق بل نجا، وذهبَ إلى إنكلترا. عاشَ هناكَ لوقتٍ من الزمنِ، وحملت منه إحدى الفتياتِ ثمَّ توفي. أنجبت الفتاةُ فتى وأسمتهُ على اسمِ والدِهِ. جاك الذي أمامنا في العشرين، وهو يشبه والده

تماماً عندما كان الأخيرُ في الرابعةِ والعشرين وقبلَ أن يُغادرَ البلدةَ»، ثمَّ نظرَ رينولد إلى الكاهنِ وقال له: «لا داعي لطردِ الأرواحِ هنا أيّها الأبُّ؛ فهذا لمُّ شملٍ عائلي».

مدَّت آليانا يدها إلى يدِ جاك وعصرتها. كان جاك مذهولاً، وأرادَ طرحَ مئاتِ الأسئلةِ، ولكنه لم يعلم من أينَ يبدأ، وأخيراً انتقى بعشوائيةٍ أحدَ هذهِ الأسئلةِ: «لمَ كنتم واثقين من أنَّه ميتٌ؟»

«جميعُ من كان على متنِ سفينةِ وايت شيب غرق»، قال الرجلُ ذو اللحيةِ الرمادية.

«سفينة وايت شيب؟»

«أتذكرُ سفينةَ وايت شيب»، قال إدوارد وتابع: «كانت كارثةً مشهورةً. غرقَ فيها وريثُ العرشِ، وباتت مود الوريثة، ثمَّ أصبح ستيفن ملكنا».

قال جاك: «ولكن لماذا كان على متنِ هذهِ السفينةِ؟»

وهنا أجابت المرأةُ العجوزُ التي تحدثت قبلاً: «للترفيهِ عن النبلاءِ أثناءَ الرحلةِ»، ثمَّ نظرت إلى جاك وقالت: «لا بدَّ أنَّك ابنهِ. حفيدي. أنا آسفة لأنني اعتقدت أنَّكَ شبحٌ. أنتَ نسخةٌ طبق الأصلِ عنهُ».

«كان والدكَ أخي»، قال الرجلُ ذو اللحيةِ الرمادية ثمَّ أضاف: «أنا عمّكَ غيوم».

وببهجةٍ غامرةٍ أدركَ جاك أنَّه وجد العائلة التي تاق طويلاً للحصول عليها. عثرَ على عائلةِ والدهِ، ولم يعد وحيداً في العالمِ. ها هو يعثرُ على جذورهِ أخيراً.

«حسناً، هذا ابني تومي»، قال جاك وأضاف: «انظرا إلى شعرهِ الأصهب».

نظرت المرأةُ العجوز إلى الطفلِ بحنانٍ ثمَّ قالت مصدومةً: «يا إلهي! أصبحت جدَّة كبيرة!»

وضحكَ الجميعُ.

قال جاك: «أتساءل كيفَ وصلَ والدي إلى إنكلترا؟»

الفصل الثالث عشر

-1-

«فقال الرَّبُ للشيطانِ: ‹هل جعلتَ قلبكَ على عبدِي أيوب؟ لأَنَّهُ ليس مِثلهُ فِي الأرضِ›» وصمتَ فيليب لبرهةٍ كي يُحدثَ ما قاله تأثيراً على الحاضرين. بالطبعِ لم يكن يُترجمُ بل يروي حكايةَ أيوب كأَنَّها حكايةٌ عاديةٌ. «‹قُل لي أليس رجُلاً كاملاً ومُستقيماً، يتَّقِي الله ويحيدُ عن الشَّرِّ›[1]، وأجابه الشيطان: ‹بالطبعِ يعبدكَ فقد أعطيتهُ كلَّ شيءٍ. انظر إليهِ، سبعةُ أبناءٍ وثلاثُ بناتٍ، وسبعة آلاف خروفٍ وثلاثة آلاف جملٍ وألف ثورٍ وخمسمئةِ حمارٍ. لهذا هو رجل صالحٌ›، وقال الرَّبُّ: ‹إذاً، خُذ منه كلَّ شيءٍ وشاهد ما سيحدث›، وهذا ما فعلهُ الشيطان».

خلالَ العظةِ بقي ذهنُ فيليب مشغولاً برسالةٍ غريبةٍ وصلتهُ هذا الصباحِ من كبيرِ أساقفةِ كانتربيري. بدأت الرسالةُ بتهنئتهِ على حصولهِ على العذراءِ الباكيةِ العجائبيةِ، ولم يعرف فيليب ما الذي قصدهُ رئيسُ الأساقفةِ بالعذراءِ الباكية، ولكنه كان واثقاً من أنَّها ليسَت بحوزتهِ. وعبَّرَ رئيسُ الأساقفةِ عن سعادتهِ لاستئنافِ فيليب أعمالَ بناءِ الكاتدرائيةِ الجديدةِ، ولكن فيليب لم يستأنف أعمالَ البناءِ بل كان ينتظرُ إشارةً من الرَّبِّ ليفعلَ هذا، وخلالَ هذا الوقتِ أقامَ مراسمَ قداسِ الأحدِ في كنيسةِ الأبرشيةِ الصغيرةِ. وأخيراً، امتدحهُ رئيسُ الأساقفةِ على نباهتهِ في اختيارِ كبيرِ البنَّائين الذي عملَ على بناءِ المذبحِ الجديدِ في كنيسةِ سان دينيهِ. بالطبعِ كان فيليب قد سمعَ بأمرِ ديرِ سان دينيهِ، ورئيسهِ المشهورِ سوجير -أقوى رجلِ دينٍ في المملكةِ

1- سفر أيوب، 1: 8.

الفرنسيةِ- ولكنه لم يعلم شيئاً عن المذبحِ الجديدِ هناك، ولم يقم بتعيين رئيسِ بنّائين جديدٍ. واعتقدَ فيليب أنَّ الرسالةَ موجهةٌ إلى شخصٍ آخر، وأُرسلت إليهِ بالخطأ.

«ولكن ما الذي قالهُ أيوب عندما خسرَ كلَّ ثروتهِ وفقدَ جميعَ أولادهِ؟ هل لعنَ الرَّبَّ؟ هل عبدَ الشيطانَ بدلاً منه؟ لا لم يفعل بل قال: 'عرياناً خرجتُ من بطنِ أمّي، وعرياناً أعودُ إلى هناك. الرَّبُّ أعطى والرَّبُّ أخذَ، فليكن اسمُ الرَّبِّ مباركاً'[1]، هذا ما قالهُ أيوب، وعندها قال الرَّبُّ للشيطانِ: 'ألم أُخبرك؟ ولكن الشيطان قال: 'ما زالَ معافى، أليسَ كذلك؟ يمكن للإنسانِ أن يحتملَ أيَّ شيءٍ إن كان بصحةٍ جيدةٍ'، وعندها أدركَ الرَّبُّ أنَّ عليهِ جعلَ أيوب يعاني ليُثبتَ للشيطانِ رأيه ولذلكَ قال له: 'اسلبهُ عافيتهُ وسترى ما سيحدث'، وعندها أمرضَ الشيطانُ أيوب و«ضربهُ بقرحٍ رديءٍ من باطنِ قدمهِ إلى هامتهِ'[2]».

في صبا فيليب كانت العظاتُ نادرةً في الكنائسِ ولكنها بدأت تصبحُ شائعةً مؤخراً. لقد عارضَ بيتر رئيسُ الدير الذي ترعرعَ فيه فيليب العظاتِ قائلاً إنَّها تُغري الكاهن بالانغماسِ. ووفقاً للنظرةِ التقليديةِ يُفترضُ بأفرادِ الرعيةِ أن يكونوا مجرَّد جمهورٍ يشهدُ بصمتٍ على الطقوسِ المقدسةِ السريةِ، ويسمع الكلماتِ اللاتينيةَ من دونِ فهمها وكلهُ ثقةٌ، ثقةٌ عمياء، بقوةِ شفاعةِ الكاهنِ، ولكن الآراءَ تبدلت، والمفكرون الأكثر تقدماً الآن لم يعودوا يعتبرون الرعيَّةَ مشاهدين صامتين خلالَ مراسم غامضةٍ عنهم. باتَ على الكنيسةِ الآن أن تأخذَ دوراً أساسياً في حياتهم اليومية، وأن تكون حاضرةً في محطاتِ حيواتهم، من العمادةِ إلى الزواجِ إلى ولادةِ الأطفال إلى مسحهم بالزيتِ عندَ المرضِ، وأخيراً إلى دفنهم في مقبرةٍ مباركةٍ. قد يكونون سادةً، أو قضاةً، أو عمالاً، أو زبائن. وباطرادٍ باتَ متوقعاً من الناسِ أن يتصرفوا بمسيحيةٍ كلَّ يومٍ، وليسَ أيام الآحاد فقط، فقد كانوا، وفقاً للنظرةِ العصريةِ الجديدةِ، بحاجةٍ إلى ما هو أكثرُ من الطقوسِ؛ كانوا بحاجةٍ إلى تفسيراتٍ، وأحكامٍ، وتشجيعٍ، وعظاتٍ.

1- سفر أيوب، 1: 21.

2- سفر أيوب، 2: 7.

«أعتقدُ أنَّ الشيطانَ أجرى الحديثَ ذاتهُ مع الرَّبِّ بخصوصِ كينغزبريدج»، قال فيليب وتابع: «أعتقدُ أنَّ الرَّبَّ قال للشيطانِ: ‹انظر إلى سكان كينغزبريدج، أليسوا مسيحيين أتقياء؟ انظروا إليهم كيفَ يعملونَ بجدٍ طوال الأسبوعِ في حقولهم، وورشهم ثمَّ يقضون طوال يومِ الأحدِ يبنون لي كاتدرائيةً جديدةً. أخبرني، أليسوا أناساً صالحين؟› وقال الشيطان: ‹إنَّهم أتقياءٌ لأنَّ أحوالهم طيبةٌ. لقد منحتهم حصاداً وافراً وطقساً رائعاً، وزبائن لمتاجرهم، وأماناً من أذى الإيرلاتِ الأشرارِ، ولكن إن حرمتهم من كلٍّ هذا سينحازون إلى صفي›، وعندها قال له الرَّبُّ: ‹ما الذي تريدُ فعلهُ.› أجاب الشيطان: ‹حرقُ البلدةِ›، وقال الرَّبُّ له: ‹فليكن. أحرق البلدةَ وشاهد ما سيحدث›، وهنا أرسلَ الشيطان وليم هاملي لإشعالِ النيرانِ في سوقِ الصوفِ في بلدتنا».

لطالما وجدَ فيليب في قصةِ أيوب عزاءً كبيراً؛ فقد عملَ بجدٍ طوالَ حياتهِ لتنفيذ إرادةِ الرَّبِّ بأقصى ما بوسعهِ، ولكنه مثلُ أيوبِ كوفئ على ذلكَ بالحظِّ السيئ، والفشلِ، والخزي. ولأنَّ الغرضَ من العظةِ رفعُ معنوياتِ سكانِ المدينةِ اكتشفَ فيليب أنَّها غير نافعة، على أيِّ حالٍ، لم تنته القصةُ بعد.

«وعندها قال الرَّبُّ للشيطانِ:‹انظر الآن! لقد أحرقت البلدةَ على بكرةِ أبيها، ولكنهم سيستمرون ببناءِ كاتدرائيتي الجديدةِ، ولذلك أخبرني الآن، أليسوا أناساً صالحين؟!› ولكن الشيطان قال: ‹لقد تساهلتُ معهم كثيراً؛ فقد نجا معظمُ السكانِ من الحريقِ، وسرعان ما أعادوا بناءَ منازلهم الخشبيةِ الصغيرة. دعني أنزلُ عليهم كارثةً حقيقيةً، وعندها سترى ما سيحدث.› تنهدَ الرَّبُّ وقال: ‹وما الذي أنتَ فاعلهُ الآن؟› فقال الشيطانُ: ‹سأجعلُ سقفَ الكنيسةِ الجديدةِ ينهارُ فوقَ رؤوسهم› وهذا ما فعله الشيطان كما نعرفُ جميعاً».

نظرَ فيليب حولهِ إلى الرعيةِ، ورأى أنَّ عدداً قليلاً من الحاضرين لم يفقدوا عزيزاً في ذلكَ الانهيارِ الرهيبِ. رأى الأرملة ميغ التي فقدت زوجها الطيِّب، وثلاثةَ أبناءٍ ضخامٍ وأقوياء، وهي لم تتفوه بكلمةٍ واحدةٍ منذ الانهيار وابيضَّ شعرها. وقعَ نظرهُ على آخرين شُوهوا من بينهم بيتر بوني الذي هُشمت ساقهُ اليُمنى، وباتِ أعرج. كان بيتر يعملُ مروضَ جيادٍ، وبات

الآن يعملُ لمصلحة أخيهِ في صُنعِ السروجِ. بالكادِ كانت هناك عائلةٌ في البلدةِ لم تتأثر بهذا الحدثِ. ورأى فيليب رجلاً جالساً على الأرضِ يتألم، وبدا كسيحاً، فعبسَ وتساءل في نفسهِ عمن يكون هذا الرجلُ؛ فهو حتماً لم يُصب بهذهِ الإعاقةِ من انهيارِ السقفِ، وفيليب لم يره قط من قبل، ثمَّ تذكرَ أنَّهم أخبروه بوجودِ متسولٍ كسيحٍ في البلدةِ ينامُ في خرابِ الكاتدرائيةِ، وأنَّ فيليب أمرَ باعطائهِ سريراً في منزلِ الضيوفِ.

كان قد انشغلَ مجدداً عن العظةِ، ولذلك عادَ إليها قائلاً: «ولكن ما الذي فعلهُ أيوب؟ قالت له زوجتهُ: ‹فلتلعن الرَّبَّ ولتمت›، ولكن هل فعلها أيوب؟ لا، لم يفعلها. هل فقدَ إيمانهُ؟ لا لم يفقده. خابَ أملُ الشيطانِ في أيوب، وأقول لكم...» وهنا رفعَ فيليب يدهُ بحركةٍ دراميةٍ للتشديدِ على ما سيقولهُ: «وأنا أقول لكم إنَّ أملَ الشيطان سيخيبُ أيضاً في سكانِ كينغزبريدج! لأننا باقون على عبادةِ ربنا الأوحد تماماً كما فعلَ أيوب طوالَ المحنِ التي ألمّت بهِ».

وتوقفَ فيليب مجدداً حتَّى يستوعبَ الحاضرون ما قالهُ، ولكنه علمَ أنَّه فشلَ مجدداً في إثارةِ اهتمامهم. ورغمَ أن الاهتمامَ كان واضحاً على وجوهِ الحاضرين، فإنَّهم لم يكونوا متأثرين. في الحقيقةِ لم يكن فيليب يوماً واعظاً مُلهماً بل رجلاً بسيطاً، ومتواضعاً، ولذلك لن ينجحَ في أسرِ الرعيةِ بقوةِ شخصيتهِ. صحيحٌ أنَّ ولاءَ الناسِ له تعاظمَ، ولكن هذا لم يحدث على الفورِ، بل تدريجياً، مع مرورِ الوقتِ، وبعدَ أن فهموا الطريقةَ التي يعيش فيها، وما حققهُ. أحياناً، يجدُ الناسُ الإلهام في عملهِ، ولكن هذا حدثَ في الأيامِ الخوالي، ولذلك لم ينجح يوماً بإلهامهم بكلامهِ.

على أيِّ حالٍ كان قد وصلَ إلى أفضلِ جزءٍ من الحكايةِ. «ولكن ما الذي حدثَ لأيوب بعدَ أن أنزلَ عليهِ الشيطانُ أشد المحنِ؟ حسناً لقد منَّ عليهِ الرَّبُّ بأضعاف ما منحهُ أصلاً! في البدايةِ كان لديهِ سبعةُ آلاف خروف؛ فبات لديهِ الآن أربعة عشر ألفاً، والجِمالُ الثلاثةُ آلاف أصبحت ستةَ آلاف، وأنجبَ أربعةَ عشرَ صبياً، وستَ بناتٍ».

ولكن الحشدَ بدا لا مبالياً بما قالهُ فيليب الذي تابع: «وفي يومٍ من الأيامِ ستعود أحوالُ كينغزبريدج مزدهرةً، وستتزوج الأرملات مجدداً، وسيعثرُ

الأراملُ على زوجاتٍ، ومن فقدوا أطفالهم سينجبون غيرهم، وستمتلئ شوراعنا بالناسِ، ومتاجرنا بالخُبزِ، والنبيذِ، والجلدِ، والنحاسِ الأصفرِ، والأبازيم، والأحذيةِ، وفي يومٍ من الأيامِ سنعيدُ بناءِ كاتدرائيتنا».

ولكن المشكلةَ الحقيقيةَ هي أنَّه هو نفسهُ لم يكن واثقاً من صدقِ هذا الكلامِ، ولهذا لم يبدُ مُقنعاً؛ لذلك لا عجب أنَّ الرّعيةَ لم تتأثر بما قالهُ.

أطرقَ فيليب بنظرهُ إلى الكتابِ الثقيلِ أمامه، وترجمَ من اللاتينيةِ إلى الإنكليزية: «وعاشَ أيوب بعدَ هذا مئةً وأربعين سنةً، ورأى بنيهِ وبني بنيهِ إلى أربعةِ أجيالٍ[1]. ثمَّ مات أيوب شيخاً وشبعان من الأيَّامِ[2]». ثمَّ أغلقَ فيليب الكتابَ.

تناهت إلى فيليب ضجةٌ في نهايةِ الكنيسةِ الصغيرةِ، ورفعَ ناظريهِ عن الكتابِ في ضيقٍ. كان يعي أنَّ عظتهُ لم تُحدث التأثير الذي أملَ بهِ، إلَّا أنَّه أرادَ من الجمهورِ في نهايتها التزام لحظاتٍ من الصمت. كان بابُ الكنيسةِ مفتوحاً، وجميعُ الجالسين في الخلفِ ينظرون خارجاً، ورأى فيليب حشداً كبيراً في الخارجِ، وفكرَ أنَّهم حتماً سكانُ كينغزبريدج ممن لم يحضروا الصلواتِ في الكنيسةِ، ولكنه تساءل في نفسهِ عمَّا يحدث.

خطرت ببالهِ عدةُ احتمالاتٍ، كأن يكون شجارٌ قد نشبَ، أو ربما حريقٌ، أو ربما أحدهم يحتضرُ، أو جيشٌ كبيرٌ من الفرسان يقتربُ، إلَّا أنَّه لم يكن مستعداً أبداً لما سيحدثُ لاحقاً. في البدايةِ دخلَ كاهنان يحملان تمثالَ امرأةٍ على لوحٍ يغطيهِ قماشٌ مطرزٌ من النوعِ الذي يوضعُ على المذبحِ. وبالنظرِ إلى سلوكهما الوقور بدا لفيليب أنَّ التمثالَ يمثلُ شخصيةً مقدسةً، وعلى الأغلبِ شخصيةَ العذراء. ومن خلفِ الراهبين تقدَّم شخصان إلى داخلِ الكنيسةِ وكانا مبعثَ المفاجأةِ الأكبر لفيليب.

كانا آليانا وجاك.

نظرَ فيليب إلى جاك بُحبٍ ممزوجٍ بالسخطِ، وفكرَ فيليب أنَّه، ومنذُ اليومِ الأولِ الذي وصلَ فيهِ إلى هنا احترقت الكاتدرائيةُ القديمةُ، وكلُّ شيءٍ ارتبطَ

1- سفر أيوب، 42: 16

2- سفر أيوب، 42: 17

به لم يكن طبيعياً. لكن فيليب كان مسروراً جداً بدخولِ جاك أكثر مما كان متضايقاً منه، وعلى الرغمِ من كلِّ المتاعبِ التي تسببَ بها الفتى فإنَّه كان مثيراً للاهتمامِ. «فتى؟» فكرَ فيليب في نفسِهِ، وهو ينظرُ إليه. لم يعد جاك فتى، وعلى الرغمِ من أنه غابَ لعامين فإنَّه بدا أكبر بعشرةِ أعوام، وفضحت عيناه سأماً ومعرفةً. إلى أين ذهبَ؟ وكيف عثرت عليهِ آليانا؟

انتقلَ الموكبُ إلى وسطِ الكنيسةِ، وقررَ فيليب عدمَ القيامِ بشيءٍ، والاكتفاءِ بمراقبةِ ما سيحدث. علت همهمةٌ حماسيَّةٌ من الناسِ عندما رأوا جاك وآليانا، ثمَّ علا صوتٌ جديدٌ أشبه بهمهمةِ عجبٍ وقال أحدهم: «إنَّها تبكي!»

وكررَ آخرون ما قاله كأنَّهم يبتهلون: «إنَّها تبكي! إنَّها تبكي!»

حدَّق فيليب إلى التمثالِ، ولم يكن هناك أدنى شك أنَّ ماءً ينزلُ من العينين، وفجأةً تذكرَ رسالةَ كبيرِ أساقفةِ كانتربري الغامضة حولَ العذراءِ الباكيةِ العجائبيةِ. إذاً، هذا ما عناه في رسالتِهِ، أمَّا بالنسبةِ إلى مسألة كونِ البكاءِ عجائبياً؛ فقد قررَ فيليب أن يحكمَ على الأمرِ بنفسِهِ. لاحظَ أنَّ العينين تبدوان كأنهما مصنوعتان من الحجرِ، أو ربما من الكريستالِ، بينما باقي التمثالُ من الخشبِ، وقد يكون لهذا علاقةٌ بنزولِ الماءِ منهُ.

استدارَ الكاهنان، ووضعا اللوحَ أرضاً أمامَ الرعيةِ، ثمَّ بدأ جاك الكلامَ.

«وصلني تمثالُ العذراءِ الباكيةِ من بلدٍ بعيدٍ جداً»، استهلَّ جاك. امتعضَ فيليب من تسلُّمِ جاك زمام مراسم الصلواتِ، ولكنه قررَ عدمَ التهورِ بالتدخلِ سريعاً والسماحِ لجاك بقولِ ما لديهِ، غيرَ أنَّه، وفي الوقتِ عينه، كان مهتماً بما يحدثُ. «أعطاني عربي مُعمَّدٌ هذا التمثال»، تابعَ جاك، وهمهمت الرعيةُ في عجبٍ. عادةً ما يكون العربُ في مثلِ هذهِ القصصِ أعداءً برابرة ببشرةٍ سوداء، والقليلُ فقط يعلمون بوجود مسيحيين عرب. «منذُ البدايةِ وعلى الرغم من أنني سألتُ نفسي عن سببِ إعطائهِ التمثال لي، ولكنني حملته معي لمسافةٍ طويلةٍ». كان جاك قد فتنَ الرعيةَ الآن كأنَّه ألقى بتعويذةٍ عليهم، وفكرَ فيليب في حُزنٍ أنَّ جاك أمهرُ منه في الوعظِ؛ فقد كانت الحماسةُ بينَ الرعيةِ تتعاظمُ الآن. «ولكنني أدركت أنَّها أرادت العودة إلى الديارِ، ولكن أين تقعُ ديارها؟ وفي نهايةِ المطافِ أدركت أنَّها تريد الذهابَ إلى كينغزبريدج».

ومن شدةِ الدهشةِ والعجبِ علا الهرجُ والمرجُ بينَ الرعيةِ. شككَ فيليب

في صحةِ ما سمعهُ؛ فهناك فرقٌ بين الطريقةِ التي يعملُ بها الرَّبُّ، والطريقةُ التي يعملُ بها جاك، وهنا تكمنُ ميزةُ الأخير، ولكن فيليب استمرَّ على صمتهِ.

«ولكنني عندها فكرتُ إلى أين سآخذها في كينغزبريدج؟ ما الضريح الذي ستحظى بهِ في كينغزبريدج؟ وفي أيِّ كنيسةٍ سترقدُ في سلام؟» تابع جاك ثمَّ نظرَ من حولِه إلى الجدرانِ البيضاءِ العاديةِ داخلَ كنيسةِ الأبرشيةِ كأنَّه يقول: «لن تفي هذهِ الكنيسةُ بالغرضِ»، ثمَّ قال: «وخيلَ إلي أنَّها تتحدثُ إليَّ بصوتٍ عالٍ قائلةً: «أنتَ، جاك جاكسن. ابنِ لي ضريحاً. ابنِ لي كنيسةً»».

وهنا فهمَ فيليب ما خططَ له جاك. أرادَ لتمثالِ العذراءِ أن يكون الشرارةَ التي ستشعلُ حماسةَ الناسِ مجدداً حيالَ بناءِ الكاتدرائيةِ الجديدةِ، وهي ستحققُ الغرضَ الذي فشلت فيه العظةُ التي قدمها فيليب للتو عن أيوب، ولكن فيليب سألَ نفسه هنا: «هل هذهِ إرادةُ الرَّبِّ، أم إرادةُ جاك؟»

«ولذلكَ سألتها: 'بماذا سأبنيهما فأنا لا أملكُ مالاً'، وأجابتني: 'سأؤمنُ لكَ المالَ'. وانطلقنا بمباركةِ ثيوبولد كبير أساقفةِ كانتربري». نظرَ جاك إلى فيليب عندما سمَّى رئيسَ الأساقفةِ، وفكرَ فيليب أنَّ جاك أراد إيصالَ رسالةٍ إليه بقولهِ إنّه حصلَ على دعمٍ كبيرٍ في ما يفعلهُ.

عادَ جاك بنظرهِ إلى الرعيةِ وقال: «وعلى طولِ الطريقِ من باريس، وعبرَ النورماندي، والبحرِ حتَّى كينغزبريدج قدَّم مسيحيون أتقياء المالَ من أجلِ بناءِ ضريحٍ للعذراءِ الباكية»، وهنا استدعى جاك شخصاً من الخارجِ.

بعدَ وهلةٍ دخلَ عربيان بعمامتين، وسارا بوقارٍ إلى داخلِ الكنيسةِ يحملانِ على كتفيهما صندوقاً مُصفحاً بالحديدِ.

تراجعَ سكانُ البلدةِ إلى الوراءِ في خوفٍ، بل وحتَّى فيليب ذُهل مما يحدث. نظرياً، يعلم فيليب أنَّ العربَ أصحابُ بشرةٍ سمراءٍ، ولكنه لم يرَ عربياً في حياتهِ حتَّى الآن، ولذلك أثارَ المشهد دهشتهُ. وعلى نحو لافتٍ كان العربيان يرتديان أرديةً فضفاضةً بألوانٍ زاهيةٍ، وسارا بينَ أفرادِ الرعيةِ المذهولين ثمَّ ركعا أمامَ العذراءِ، ووضعا الصندوقَ أرضاً بكلِّ وقارٍ.

صمتَ الجميعُ حابسين أنفاسهم بينما فتحَ جاك الصندوقَ بمفتاحٍ ضخمٍ ثمَّ رفعَ غطاءَ الصندوقِ. مدَّ الناس رؤسهم لينظروا، وفجأةً قلبَ جاك الصندوقَ.

علت ضجةٌ أشبهَ بصخبِ شلالِ ماءٍ، وتدفقت البنسات الفضيةُ -مئاتُ البنساتِ الفضيةِ بل الآلاف- من الصندوقِ. احتشدَ الناس حولَ المالِ يحدقون في عجبٍ؛ فهم لم يروا مثلَ هذا المبلغِ من المالِ قبلاً.

وهنا قالَ جاك بصوتٍ عالٍ ليطغى على أصواتِ الدهشةِ. «أحضرتُ المالَ إلى الديار، وأنا أقدمهُ الآن من أجلِ بناءِ الكاتدرائيةِ الجديدةِ»، ثمَّ استدارَ، ورمقَ فيليب بنظرةٍ مباشرةٍ، وأومأ برأسهِ إيماءةً بسيطةً كأنَّه يقول له: «تسلَّم المال».

لطالما كره فيليب أن يتلاعب بهِ أحدٌ بهذهِ الطريقةِ، ولكنه في الوقتِ عينهِ اضطرَ إلى الاعترافِ في نفسهِ بدهاءِ الطريقة التي تمَّ فيها الأمر، ولكنه قررَ أنَّ هذا لا يعني أنَّه سيستسلمُ لهذا التلاعبِ. قد يهللُ الناسُ للعذراءِ الباكيةِ، ولكن فيليب من سيقررُ إن كانت سترقدُ في كاتدرائيةِ كينغزبريدج إلى جانبِ رفاتِ القديس أدولفوس، وهو لم يقتنع بعد بالأمرِ.

كان بعضُ سكانِ البلدةِ قد بدأوا بطرحِ الأسئلةِ على العربيين، ونزلَ فيليب عن المنبرِ، واقتربَ ليسمع عن قربٍ ما يُقال. «أتيت من بلدٍ بعيدٍ جداً»، قالَ أحدُ العربيين. تفاجأ فيليب أنَّ الرجلَ تحدثَّ بإنكليزيةِ صيَّاد من دوريست، غير أنَّ معظمَ سكانِ البلدةِ لا يعلمون أنَّ للعربِ لغةً خاصةً بهم.

«وما اسمُ بلدكَ؟» سألَ أحدُ الحاضرين.

«بلدي يدُعى أفريقيا»، أجابَ العربي، ولكن فيليب يعلمُ جيداً أنَّ هناك أكثر من بلدٍ في أفريقيا، وأخذَ يتساءلُ من أيِّ بلدٍ من بلدانِ أفريقيا أتى هذا العربي. سيكون من الرائعِ لو أنَّ هذا البلد مذكور في الإنجيلِ كمصر، أو إثيوبيا.

مدَّت فتاةٌ صغيرةٌ بحذرٍ إصبعاً، ولمست يدَ الرجلِ السمراء فابتسم لها. اعتقدَ فيليب أنَّ الرجلَ، وباستثناءِ لونِ بشرتهِ، لم يبدُ مختلفاً عن الحاضرين. تشجعت الفتاةُ وسألت: «وكيفَ هي أفريقيا؟»

«فيها صحارى شاسعة وأشجارُ تين».

«وما هو التين؟»

«إنَّه فاكهةٌ تشبهُ الفراولة، وطعمها كالإجاص».

وفجأةً انتابَ فيليب شكٌ فسألَ الرجلَ: «أخبرني أيّها العربي، ما اسمُ المدينة التي ولدتَ فيها؟»

«دمشق»، أجابَ الرجل.

وهنا تأكدَ فيليب من أنَّ شكهُ كان في محلهِ وغضبَ، ثمَّ لامسَ ساعدَ جاك، وأخذهُ جانباً. وبهدوءٍ ولكن بصوتٍ يشتعلُ غضباً قال فيليب لجاك: «ما هذه اللعبة التي تمارسها هنا؟»

«ما الذي تعنيهِ؟» قال جاك محاولاً التظاهر بالبراءةِ من التهمةِ.

«هذان الرجلان ليسا عربيين. إنَّهما صيَّادان من ويرهام بصبغةٍ بنيةٍ على وجهيهما وأيديهما».

ولكن جاك لم يبدُ متضايقاً من فضحِ فيليب له بل ابتسم، وقال: «كيفَ عرفتَ؟»

«لا أعتقدُ أنَّ الرجلَ رأى ثمرةَ تين في حياتهِ، ودمشق لا تقعُ في أفريقيا. ما الذي ترمي إليهِ من وراءِ هذهِ الخدعةِ؟»

«إنَّها خدعةٌ بيضاء»، قال جاك مبتسماً ابتسامة فاتنةً.

«لا وجودَ لشيءٍ اسمهُ خدعةٌ بيضاء»، قال فيليب ببرودٍ.

«حسناً»، قال جاك، ولاحظَ أنَّ فيليب كان غاضباً بحقٍ فتابع في جديَّةٍ: «إنَّ الغرضَ من فعلتي هذهِ هو ذاته الغرضُ المُراد من لوحةٍ مأخوذةٍ من قصةٍ في الإنجيلِ. إنَّها ليست القصة الحقيقية بل مجرَّد تصوير لها. إنَّ الغرضَ من الرجلين الأسمرين من دورسيتشاير هنا هو التشديدُ بدراميةٍ على حقيقةِ أنَّ العذراء الباكية أتت من أراضي العربِ».

ابتعدَ الكاهنان وآليانا عن الحشدِ حولَ تمثالِ العذراءِ، وانضموا إلى فيليب وجاك، ولكن فيليب تجاهلهم وقال لجاك: «أنتَ لن تخافَ من رسمةِ أفعى. الرسمُ كذبةٌ، والرجلان «العربيان محتالان».

«تمكنا من جمعِ مالٍ أكثر عندما ضممناهما إلينا»، قال جاك.

نظرَ فيليب إلى كومةِ البنساتِ على الأرضيةِ وقال: «على الأغلبِ سيعتقدُ سكانُ البلدةِ أنَّ المالَ كافٍ لبناءِ كاتدرائيةٍ. يبدو لي أن المبلغَ يصلُ إلى مئةِ جنيهٍ، وأنتَ تعلم أنَّ هذا لا يُغطي كلفةَ البناءِ لعامٍ واحدٍ».

«هذا المالُ يشبه العربيين اللذين استأجرتهما»، قال جاك وتابع: «إنَّه رمزي، وأعلمُ أنَّك تملكُ المالَ للبدءِ بالبناءِ».

كان كلامُ جاك صحيحاً. لم يكن هناك ما يمنع فيليب من بناءِ الكاتدرائيةِ، وستكون العذراءُ الباكيةُ مجرَّد وسيلةٍ لبعثِ الحياةِ في كينغزبريدج؛ فهي ستجذبُ الناسَ إلى البلدةِ، حُجاجاً، وطلاباً، بل وحتَّى فضوليين عاطلين عن العملِ. ستكون بمنزلة القلبِ الجديدِ النابض بالحياةِ لسكانِ البلدةِ، وستُعتبرُ فألَ خيرٍ. كان فيليب ينتظرُ إشارةً من الرَّبِّ، ولذلك أرادَ بقوةٍ أن يُصدّقَ أنَّ هذهِ هي الإشارةُ التي انتظرها، ولكنه لم يشعر بها كإشارةٍ سماويةٍ بل كحيلةٍ من قبلِ جاك.

وقالَ أصغرُ الراهبين عُمراً: «أدعى رينولد، وهذا إدوارد وكلانا نعمل لمصلحة كبير أساقفةِ كانتربري الذي أرسلنا لمرافقةِ العذراءِ الباكيةِ».

قال فيليب: «إن كانت لديكما مباركةٌ من رئيسِ الأساقفةِ فلمَ احتجتما إلى عربيين مزيفين لإضفاءِ مصداقيةٍ إلى العذراء؟»

ارتسمَ على وجهِ إدوارد شيءٌ من الخجلِ، وقال رينولد: «كانت فكرةُ جاك، ولكني أعترف أنني لم أرَ سوءاً في الأمرِ. بالتأكيدِ أنتَ لا تشكُّ بمصداقيةِ العذراءِ يا فيليب؟»

«يجب أن تناديني أبتاه»، انفجرَ فيليب في وجههِ وتابع: «إنَّ عملكما لمصلحة رئيسِ الأساقفةِ لا يخولكما مخاطبةَ من هم أعلى منكما بتعالٍ. وجوابي على سؤالكَ هو: أجل. أنا أشككُ بمصداقيةِ العذراءِ، ولن أسمح بوضعِ هذا التمثالِ في كاتدرائيةِ كينغزبريدج إلَّا بعد أن أقتنعَ أنَّه غرضٌ مقدسٌ».

«هذا تمثالُ خشبي يبكي؟» قال رينولد ثمَّ تابع: «ما المعجزةُ الأكبر التي تريدها؟»

«رغمَ أنَّ سببَ البكاءِ غير مفهومٍ، فإنَّه لا يبدو معجزة. إن تحول الماءِ الجاري إلى جليدٍ صلبٍ أمرٌ غامضٌ، ولكنه ليسَ عجائبياً».

«سيخيبُ أملُ رئيسِ الأساقفةِ كثيراً إن رفضت العذراء؛ فقد خاضَ معركةً مع رئيسِ الديرِ سوجير لمنعهِ من وضعِ يدهِ عليها لمصلحة كنيسةِ سان دينيه».

وهنا فكرَ فيليب أنَّ رينولد يهدده، غيرَ أنَّ على الشاب أن يجتهدَ أكثر لإخافةِ فيليب، ولذلكَ قالَ بلطفٍ: «أنا واثقٌ تمامَ الثقةِ أنَّ رئيسَ الأساقفةِ لن يرغب بقبولي العذراءَ قبلَ أن أقومَ بالاستقصاءات الروتينيةِ حولَ مصداقيتها».

وهنا شعروا بحركةٍ عندَ أقدامهم فنظرَ فيليب أرضاً، ورأى الكسيح الذي لمحهُ أثناءَ الصلواتِ. كان الرجلُ المسكين يجرّ نفسَه على الأرضيةِ وقدميهِ من ورائه محاولاً الاقترابَ من التمثالِ، ولكن أينما اتجه أعاقهُ الحشدُ، وبشكلٍ غريزي ابتعدَ فيليب من أمامِ الكسيحِ حتَّى يمر. كان الرجلان العربيان يمنعان الناس من لمسِ التمثالِ، ولكنهما لم يلحظا الكسيحَ. رأى فيليب كيفَ مدَّ الرجلُ يدهُ. عادةً، كان فيليب يمنعُ الناس من لمسِ الأغراضِ المقدسةِ، ولكنه لم يقبل بعد بالتمثالِ كغرضٍ مقدسٍ؛ ولذلك لم يفعل شيئاً لمنعِ الكسيحِ من لمسهِ. وعندما لمسَ الكسيحُ حافةَ ثوبِ العذراء أطلقَ صرخةَ ظفرٍ مفاجئةً وقال: «أشعرُ بها! أشعر بها!»

ونظرَ الجميعُ إليه.

«أشعرُ بالقوةِ تعودُ إليَّ!» تابع الكسيح الصراخَ.

حدَّقَ فيليب في ريبةٍ إلى الرجلِ، وعلمَ ما الذي سيحدثُ الآن. أحنى الرجلُ ساقاً ثمَّ أخرى. سرت شهقةٌ جماعيةٌ من حشدِ المتفرجين. مدَّ الرجلُ يدهُ، وأمسكها أحدهم ثمَّ، وبشيءٍ من الجهدِ، وقفَ باستقامةٍ.

أثارَ الحشدُ صخباً أشبهَ بتنهيدةِ شبقٍ.

وصرخَ أحدهم قائلاً: «حاول أن تمشي!»

قامَ الكسيحُ متكئاً على يدِ الشخصِ الذي ساعدهِ بأخذِ خطوةٍ ثمَّ أخرى. راقبهُ الناسُ في صمتٍ مُطبقٍ. عندما خطا الخطوة الثالثةَ تعثرَ، وشهقَ الناسُ، ولكن الرجلَ استعادَ توازنهُ، وتابعَ المشي.

هللَ الحشدُ.

عبرَ الرجلُ الكسيحُ صحنَ الكنيسةِ، ولحقَ بهِ الناسُ، وبعدَ بضعِ خطواتٍ انطلقَ راكضاً. وصلَ التهليلُ إلى ذروتهِ عندما ركضَ من بابِ الكنيسةِ إلى الخارجِ، ومعظمُ أفرادِ الرعيةِ في إثرهِ.

نظرَ فيليب إلى الكاهنين. بدا رينولد مذهولاً بينما الدموعُ انهمرت على وجهِ إدوارد، وأدرك فيليب أنَّ لا علم ولا دخلَ لهما بما حصلَ للتو، وهنا التفتَ فيليب إلى جاك وقالَ لهُ في غضبٍ: «كيفَ تجرؤ على القيامِ بهذهِ الخُدعةِ؟»

«خدعة؟» قال جاك وتابع: «ولكن أيَّة خُدعةٍ؟»

«لم يظهر هذا الرجلُ في المنطقةِ إلّا منذُ بضعةِ أيام، وبعدَ يومٍ أو يومين سيختفي. لن يراه أحدٌ مجدداً بعد أن تمتلئ جيوبهُ بأموالكَ. أعلمُ كيفَ تسيرُ مثلُ هذهِ الأمور يا جاك. للأسفِ، أنتَ لستَ أولَ شخصٍ يحاولُ تزييفَ معجزةٍ. لم يكن كسيحاً البتة، أليس هذا صحيحاً؟ إنه صيَّاد آخر جلبتهُ معكَ من ويرهام».

وتأكدَ فيليب من صحةِ اتهامهِ عندما رأى نظرةَ الذنبِ على وجهِ جاك.

قالت آليانا: «أخبرتكَ يا جاك ألا تحاولَ القيامَ بهذهِ الخدعة».

صُعِقَ الكاهنان عندما سمعا بهذا، وبوغتا بما حدثَ تماماً. اشتعلَ رينولد غضباً، واستدارَ نحو جاك وانفجرَ في وجههِ قائلاً: «لا تملك الحقَّ في القيامِ بهذا!»

شعرَ فيليب بالحزنِ والغضبِ في آنٍ معاً، ورغبَ من صميمِ قلبهِ أن تكون العذراءُ حقيقيةً لأنَّها ستمكنهُ من إعادةِ إحياءِ الديرِ والبلدةِ، ولكن هذا ما لن يحدث. نظرَ من حولهِ في الكنيسةِ الصغيرةِ، ولم يبقَ سوى حفنة من المُصلين يحدقون إلى التمثالِ، وقال لجاك: «لقد تجاوزتَ حدَّك هذهِ المرَّة».

«الدموع حقيقية، ولا خدعةً فيها أبداً»، قال جاك ثمَّ تابع: «ولكن أعترف أنَّ استخدامَ الكسيحِ غلطةٌ».

«بل أسوأ من الغلطةِ»، قال فيليب بغضبٍ. «عندما يعلمُ الناس الحقيقة سيرفضون تصديقَ كلّ المعجزاتِ».

«ولماذا قد يعلمون بالحقيقةِ؟»

«لأنني سأخبرهم أنّ العذراء لن توضع في الكاتدرائيةِ، وقد اتخذت الآن قراراً لا رجعةَ فيهِ».

قال رينولد: «أعتقدُ أنّك تعجّلت...»

«عندما أريدُ رأيكَ أيّها الشاب فسأطلبه»، انفجرَ فيليب في وجههِ.

صمتَ رينولد، ولكن جاك تابعَ: «هل أنتَ واثقٌ من أنّكَ تملكُ الحقَّ في حرمانِ الناسِ من العذراءِ؟ انظر إليهم»، وأشارَ إلى حفنةِ المُصلين ممن بقوا في الكنيسةِ. كانت الأرملةُ ميغ من بينهم راكعةً أمامَ التمثالِ، والدموعُ تترقرقُ على وجهها. وأدركَ فيليب أنَّ جاك لا يعلمُ أنَّ ميغ فقدت عائلتها بأكملها في انهيارِ السقفِ الذي بناه آلفريد. لامست مشاعرُ ميغ قلبَ فيليب، وتساءل في نفسهِ إن كان جاك على حقٍ في ما قالهُ. «لمَ قد أحرمُ الناسَ من هذا؟» قال لنفسه وأجابَ بصرامةٍ «لأنَّه خدعةٌ. لقد آمنوا بقوةِ التمثالِ لأنهم رأوا فيه معجزةً، ولكنها معجزةٌ مزيفةٌ». وتمالك نفسهُ وقلبهُ.

ركعَ جاك بجانبِ ميغ وتحدَّث إليها: «لمَ تبكين؟»

«إنَّها بكماء»، قال فيليب.

وهنا قالت ميغ: «لقد عانت العذراء كما عانيتُ، وهي تفهمني».

صُعقَ فيليب عندما سمعها تتكلمُ.

قال جاك: «أترى؟ خففَ التمثالُ من معاناتها... ولكن إلى ماذا تنظرُ؟»

«إنَّها بكماء»، كرر فيليب وأضاف: «لم تتفوه بكلمةٍ واحدةٍ منذُ أكثرَ من عامٍ».

«هذا صحيح!» قالت آليانا. «أصيبت ميغ بالبُكمِ بعدَ وفاةِ زوجها وأبنائها في حادثةِ انهيارِ السقفِ».

«هذهِ المرأة؟» قال جاك. «ولكنها...»

بدا رينولد مضطرباً: «أتعني بقولكَ أنَّها معجزة؟ معجزةٌ حقيقيةٌ؟»

نظرَ فيليب إلى وجهِ جاك، ورآه مصدوماً أكثرَ من أيِّ أحدٍ آخر، وعلمَ أنَّ لا خديعة هنا.

تأثرَ فيليب بشدةٍ. ها هي يدُ الرَّبِّ تتحركُ، وتصنعُ معجزةً، وشعر بنفسه يرتجفُ قليلاً. «حسناً يا جاك»، قال فيليب بصوتٍ مرتعشٍ. «رغمَ كلّ ما فعلتهُ لتشويهِ العذراءِ الباكيةِ، ولكن يبدو أنَّ الرَّبَّ أرادَ صنعَ المعجزاتِ من خلالها».

ولبرهةٍ عجزَ جاك عن إيجادِ الكلماتِ المناسبةِ.

أشاحَ فيليب بنظرهِ بعيداً عنه، وتوجه نحو ميغ. أمسكها بيديها، وبلطفٍ ساعدها على الوقوف. «لقد عافاكِ الربُّ يا ميغ»، قال لها بصوتٍ مرتعشٍ من فيضِ المشاعرِ التي اعتملت في صدرهِ. «يمكنكِ بدءُ حياةٍ جديدةٍ الآن». وتذكرَ أنَّه وعظَ اليومَ بقصةِ أيوب، ولهذا أسعفتهُ الكلماتُ: «وقد منَّ الرَّبُّ على أيوبَ في النهايةِ بأكثر مما فعلَ في البدايةِ...» كان فيليب قد أخبرَ سكان كينغزبريدج أنَّ الأمرَ ذاتهُ ينطبقُ عليهم، وفكّر في نفسهِ وهو ينظرُ إلى وجهِ ميغ المُنتشي والمُخضلِ بالدموعِ: «أتساءل إن كانت هذهِ هي بدايةُ النهايةِ».

***

عندما قدَّم جاك تصميمهُ الخاص بالكاتدرائيةِ الجديدةِ علا الهرجُ والمرجُ في قاعةِ الاجتماعاتِ.

أطلعَ جاك فيليب على الرسومِ قبلَ الاجتماعِ، ووضعهُ الأخيرُ مسبقاً في صورةِ أنَّها ستتسبب بمتاعبٍ. في باكورةِ أحدِ الصباحاتِ حملَ جاك إلى منزلِ رئيسِ الدير المخططَ، والرسم المنظوري على قطعةِ جصٍّ بإطارٍ خشبي. نظر، فيليب وجاك، إلى المخططِ، والرسمِ المنظوري في ضوءِ الصباحِ الباكرِ وقال فيليب: «ستكون أجملَ كنيسةٍ في إنكلترا، ولكننا سنواجه المتاعبَ في إقناعِ الرهبانِ».

مُذ كان راهباً مبتدئاً يعلمُ جاك أنَّ ريميجوس وأعوانهُ سيُعارضون أيَّ مخططٍ قد يُحبهُ فيليب على الرغمِ من مرورِ ثمانيةِ أعوامٍ على هزيمةِ فيليب له في الانتخابات. قد لا يحظى ريميجوس وأعوانه بدعمٍ كبيرٍ من الغالبيةِ الساحقةِ للأخوةِ، إلا أنَّ فيليب لم يكن واثقاً من أنهم لن يتلقوا دعماً هذهِ المرة فقد كان الأخوةُ متحفظين، ومثلُ هذا التصميمِ الثوري قد يثيرُ خوفهم. على أيِّ حالٍ لم يكن هناك ما يمنعُه من عرضِ المخططاتِ عليهم، ومحاولةِ إقناعهم. لا يُمكن لفيليب الموافقة على مخططِ الكاتدرائيةِ دون الدعم الكاملِ من غالبيةِ الرهبان.

في اليومِ التالي حضرَ جاك اجتماعِ الرهبان، وقدَّم مخططهُ. وضعت الرسوم على مقعدٍ قبالة السورِ، واحتشدَ الرهبانِ للنظرِ إليها. وخلال تفحصهم التفاصيل سرت همهمةُ نقاشٍ بينهم ثم سرعان ما تحولَ إلى هرجٍ ومرجٍ. شعرَ جاك بالإحباط؛ فقد كانت نبرةُ الأحاديثِ ساخطةً وأقرب للغاضبةِ. علا الصخبُ أكثر عندما بدأوا يُجادلون بينَ معارضين ومدافعين.

بعدَ برهةٍ طلبَ منهم فيليب التزامَ الهدوء والنظام وهدأوا. طرحَ أمينُ الخزنةِ ميليوس سؤالاً اتفقوا عليهِ مُسبقاً: «لماذا الأقواس مدببة؟»

«إنَّها تقنيةٌ جديدةٌ يستخدمونها في فرنسا»، أجاب جاك وأضاف: «ورأيتها في العديدِ من الكنائسِ، والأقواس المدببة أقوى، وسأتمكن بواسطتها من بناءِ كنيسةٍ عاليةٍ. سيكون صحنُ الكنيسةِ أعلى صحنٍ في إنكلترا».

وبالنظرِ إلى وجوههم عرفَ جاك أنَّهم أحبّوا الفكرةَ.

وقال راهبٌ آخر: «النوافذ كبيرةٌ جداً».

«لسنا مُضطرين إلى بناءِ جدرانٍ سميكةٍ»، قال جاك. «فقد أثبتوا في فرنسا أنَّ الدعائمَ تحملُ وزنَ البناءِ، خاصةً إن كانت القُبةُ ذات أضلاعٍ، أمَّا النوافذ الكبيرةُ فلها تأثيرٌ خلَّابٌ. في كنيسةِ سان دينيه اختارَ رئيسُ الديرِ زجاجاً ملوناً مزداناً بالرسومِ، وبفضلِ ذلكَ باتت أشعةُ الشمسِ والهواءُ يدخلان إلى الكنيسةِ، وبالتالي أصبحت الكنيسةُ أكثرَ إضاءةً مقارنةً بظُلمةِ وعتمةِ الكنائس هنا».

كان العديدُ من الرهبان يومئون برؤسهم موافقين، وفكرَ جاك في نفسهِ أنَّهم قد لا يكونون متحفظين جداً كما اعتقدَ.

ولكن آندرو الكشماس تحدثَ الآن قائلاً: «منذُ عامين كنتَ راهباً مبتدئاً في ديرنا، وعوقبت لأنّك ضربتَ رئيسَ الديرِ، وتهرَّبت من العقوبةِ بالهربِ من الزنزانةِ. وها أنتَ تعود، وتريد إخبارنا بالطريقةِ التي يجب أن نبني بها كنيستنا».

وقبلَ أن يتمكن جاك من الرَّدِ احتجَّ أحدُ الرهبانِ الشبانِ: «لا صلةَ بينَ الأمرين! إننا نناقش التصميم، وليسَ ماضي جاك!»

حاولَ العديدُ من الرهبان التحدثَ في الوقت عينهِ، وبعضهم بدأ يصرخُ. أجبرهم فيليب على الصمتِ، وطلبَ من جاك متابعةَ الإجابةِ على الأسئلةِ.

كان جاك قد توقعَ شيئاً كهذا ولذلك أتى مستعداً له. «ذهبت في رحلةِ حجٍ إلى سانتياغو دي كومبوستيلا لأكفرَ عن تلكَ الخطيئةِ، أيّها الأب آندرو، وآمل أن يكون إحضار العذراء الباكية لكم تعويضاً لكم على إثمي»، قال بخنوعٍ. «لم يكن قدري أن أصبحَ راهباً، ولكن آمل أن أخدمَ الرَّبَّ بطريقةٍ مختلفةٍ، بأن أكون بنَّاءَهُ».

وبدوا كأنهم قبلوا بجوابِهِ.

على أيِّ حالٍ لم يكن آندرو قد فرغَ لأنَّه طرحَ سؤالاً آخر رغمَ معرفتهِ المسبقةِ بالجوابِ: «ما عُمركَ؟»

«عشرون عاماً».

«إنَّك صغيرٌ جداً على أن تكونَ كبيرَ بنَّائين».

«يعرفني جميعُ الحاضرين فقد عشتُ هنا مُذ كنتُ صبياً». وفكرَ في نفسهِ وهو يشعرُ بالذنبِ: «مُذ أن أحرقتُ الكنيسةَ»، ولكنه تابعَ قائلاً: «قضيتُ مرحلةَ تدريبي تحتَ إشرافِ كبيرِ البنَّائين السابق، ورأيتم عملي، وعندما أصبحت راهباً مبتدئاً عملتُ مع رئيسِ الدير فيليب، والبنَّاء توم في الإشرافِ على العملِ، ولذلك وبكلِّ تواضعٍ أطلبُ منكم، أيّها الأخوة، أن تحكموا علي من عملي، وليسَ من عُمري».

كان جاكَ قد حضَّر لهذا مُسبقاً أيضاً، ورأى أنَّ أحدَ الرهبان ابتسم لكلمةِ «بتواضعٍ»، وأدركَ أنَّه ارتكبَ غلطةً بسيطةً فالجميعُ يعرفه جيداً ويعلمون أنَّ التواضعَ ليس من شيمهِ.

ولكن سرعان ما استغلَ آندرو هذهِ الغلطةَ قائلاً: «بتواضعٍ؟»، وبدأ وجهه يحمرُّ من غضبهِ المصطنعِ. «لم يكن تواضعاً شديداً من قبلكَ عندما أعلنتَ للبنَّائين في باريس قبلَ ثلاثةِ أشهر أنَّك كبيرُ البنَّائين هنا».

ومجدداً علا هرجٌ ومرجٌ بسببِ ردودِ الأفعالِ الساخطةِ بين الرهبانِ. تأوهَ جاك في سرِّهِ، وتساءل في نفسهِ كيفَ لآندرو أن يعلمَ بهذا التفصيل. لا بدَّ أنَّ رينولد وإدوارد باحا بالسرِّ. حاولَ جاكَ ألا يهتمَّ بالأمرِ قائلاً بعدَ أن تراجعت ضجةُ الأصواتِ: «أردت بذلك إقناع بعض الحرفيين بالقدوم إلى كينغزبريدج لأنَّهم سيكونون خيرَ عونٍ وأيّاً يكن رئيسُ البنَّائين. لا أعتقدُ أنَّ وقاحتي ألحقت أيَّ ضررٍ»، وابتسمَ ابتسامتهُ الفاتنة ثمَّ أضاف: «ويؤسفني أنني لست متواضعاً»، ولكن لم يكن ردُّ الفعلِ على ما قالهُ جيداً.

أخرجهُ أمين الخزنةِ ميليوس من الورطةِ بسؤالٍ جاهزٍ آخر: «ما الذي تنوي فعلهُ بالمذبحِ الحالي فهو لم ينهر بالكاملِ؟»

«تفحصتهُ بعنايةٍ»، قال جاك. «يمكنُ إصلاحهُ. إن قبلتم بي رئيساً للبنَّائين اليومَ سأحرصُ على جعلهِ قيدَ الاستخدامِ خلالَ عامٍ، علاوةً على هذا،

ستتمكنون من متابعةِ استخدامهِ حتَّى أثناءَ عملي على بناءِ جناحي الكنيسةِ والصحنِ وفقَ التصميمِ الجديدِ، وأخيراً، عندما ينتهي العملُ على الصحنِ أقترحُ أن نهدمَ المذبحَ، ونبني مذبحاً جديداً منسجماً مع بقيةِ الكنيسةِ».

وهنا سألَ آندرو: «وما هي الضمانة التي تقدمها بعدم انهيارِ المذبحِ القديمِ مجدداً؟»

«ما تسببَ بانهيار السقف الحجري الذي بناه آلفريد هو عدمُ وجودهِ في المخططِ الأصلي. لم تكن الجدرانُ قويةً بما يكفي لحملهِ، ولذلكَ أقترحُ أن نعودَ إلى مخططِ توم الأصلي، ونبني سقفاً خشبياً».

سرت همهمةٌ تنمُ عن الدهشةِ. لطالما كانت مسألةُ انهيار السقفِ مثارَ جدلٍ. وقال آندرو: «ولكن آلفريد عملَ على زيادةِ حجمِ الكتائفِ لحملِ الوزنِ الزائدِ للسقفِ الحجري».

أثارَ الأمرُ حيرةَ جاك أيضاً، ولكنه اكتشفَ جوابهُ. «ولكنها لم تكن قويةً كفايةً، خاصةً في الأعلى. إن تفحصت البقايا سترى أنَّ المنطقةَ التي مالت هي منطقةُ النوافذ العلوية لأنَّ البنيةَ لم تكن مدعمَّةً كفايةً على ذلكَ المستوى».

بدا الرهبان راضين بهذا الجواب، وشعرَ جاك أنَّ قدرتهُ على تقديمِ أجوبةٍ شافيةٍ قد رفعت من مكانتهِ كرئيسِ بنَّائين.

وهنا وقفَ ريميجوس. تساءل جاك في نفسهِ طوال الوقتِ متى سيشارك ريميجوس في النقاشِ. «أريدُ أن أقرأ على الأخوةِ في القاعةِ آيةً من الكتابِ المقدسِ»، قال بطريقةٍ مسرحيةٍ، ونظرَ إلى فيليب الذي أومأ موافقاً.

توجهَ ريميجوس إلى منصةِ القراءةِ، وفتحَ كتابَ الإنجيل الضخم. في هذهِ الأثناءِ راقبَ جاك الرجلَ، ورأى أنَّ شفتيه الرقيقتين تتحركان بتوترٍ، وعينيهِ الزرقاوين الدامعتين جحظتا قليلاً مما جعلهُ يبدو ساخطاً. كان ريميجوس تجسيداً حيَّاً للنقمةِ؛ فطوالَ سنواتٍ خلت اعتقدَ أنَّ قدرهُ أن يكون قائداً للرجالِ، ولكنه في الحقيقةِ لم يتمتع بشخصيةٍ قويةٍ، وها هو الآن محكومٌ عليهِ بقضاءِ بقيةِ حياتهِ في خيبةٍ، والتسببِ بالمتاعبِ للأخيارِ من الرجالِ. «سفرُ الخروج»، قال ريميجوس بنبرةِ ترتيل وهو يُقلِّبُ بينَ الصفحاتِ. «الإصحاحُ العشرون، الآية الرابعة عشرة»، وتساءل جاك في نفسهِ عمَّا يخطط له ريميجوس الذي قرأ الآن: «لا تَزنِ»، ثمَّ أغلقَ الكتابَ بصوتٍ قوي، وعادَ إلى مكانهِ.

وبنبرةٍ تنمُ عن شيءٍ من الحنقِ قال له فيليب: «ربما تستطيعُ إخبارنا أيّها الأخ ريميجوس عن سبب اختياركَ لهذهِ الأيةِ القصيرةِ، ونحن في خضمِّ الحديثِ عن مخططاتِ البناءِ؟»

أشارَ ريميجوس إلى جاك بإصبعهِ كأنَّه يتهمهُ ثمَّ قال بنبرةٍ وعيدٍ: «لأنَّ الرجلَ الذي يريدُ أن يكون كبيرَ البنَّائين لدينا يعيشُ في الخطيئةِ».

عجزَ جاك عن تصديقِ أنَّ ريميجوس جديٌّ حيال ما قالهُ، ولذلك أجابهُ في سُخطٍ: «صحيحٌ أن الكنيسةَ لم تبارك اتحادنا بسببِ ظروفٍ خاصةٍ، ولكننا سنتزوجُ حالما أرادت».

«لا يمكنكَ»، قال ريميجوس في ظفرٍ وتابع: «آليانا ما زالت متزوجةً».

«ولكن اتحادهما لم يكتمل».

«هذا غير مُهمٍ. لقد عقدا قرانهما في الكنيسةِ».

«ولكن إن لم تسمح لي بالزواجِ منها فكيفَ ستمنعني من ارتكابِ الزنا؟» سألَ جاك في غضبٍ.

«هذا يكفي!» كان فيليب المتحدث. نظرَ جاك إليه، ولاحظَ أنَّ فيليب بدا غاضباً جداً. «جاك، هل تعيشُ في الخطيئةِ مع زوجةِ أخيكَ؟» سألَ فيليب.

بوغتَ جاك وسأله: «ألم تعلم؟»

«بالطبعِ لم أعلم»، زمجرَ فيليب وتابع: «هل تعتقد أنني سأسكتُ عن هذا لو أنني علمتُ؟»

سادَ الهدوء على القاعةِ فقد بدا صراخ فيليب فيها أمراً غريباً، وأدركَ جاك أنَّ فيليب واقعٌ في ورطةٍ حقيقيةٍ. بالطبعِ كان إثمهُ مسألةً شكليةً، ولكن يُفترضُ بالرهبان أن يتشددوا في مثلِ هذهِ الأمورِ. لسوءِ الحظِ، زادت حقيقةُ جهلِ فيليب بأمرهِ وأمر آليانا من الطينِ بلَّةً، ومكَّنت ريميجوس من مباغتة فيليب، وجعلهُ يبدو كأحمق، وعلى فيليب الآن أن يتصرفَ بحزمٍ، ويُثبت أنَّه متشددٌ.

قال جاك ببؤسٍ: «ولكنكَ لن تتخلى عن بناءِ الكنيسةِ كي تعاقبني».

وهنا قال ريميجوس في بهجةٍ: «عليكَ أن تتخلى عن المرأة».

«اغرب عن وجهي يا ريميجوس»، قال جاك ثمَّ أضاف: «إنَّها والدةُ طفلي الذي يبلغُ من العمرِ عاماً».

استقرَّ ريميجوس في جلستهِ، وارتسمت نظرةُ رضا على وجههِ.

قال فيليب: «جاك، إن تحدثت مجدداً بهذهِ الطريقةِ في قاعةِ الاجتماعاتِ سأضطرُّ إلى طردكَ».

وعلى الرغمِ من علمهِ أنَّه يجب أن يهدأ، فإنّ جاك لم ينجح. «ولكن الأمر سخيف! أتطلبُ مني أن أتخلى عن امرأتي وطفلنا! هذا ليسَ عملاً أخلاقياً بل التفافٌ».

تراجعَ غضبُ فيليب بعضَ الشيءِ، ورأى جاك في عينيهِ ذلكَ البريق الأليف للتعاطفِ. «جاك، قد تكون مقاربتكَ لوصايا الرَّبِّ عمليةً، ولكننا نفضلها أن تكون صارمةً، ولهذا نحن رهبان. ولا يمكن أن تكونَ بنَّاءً في كنيستنا إن كنتَ تزني»، قال فيليب.

وهنا تذكرَ جاك آيةً في الإنجيلَ. «قال المسيحُ: 'من كان منكم بلا خطيئةٍ فليرمها بحجرٍ'[1]».

أجابهُ فيليب: «أجل، ولكن المسيحَ قال للزانيةِ: 'إذهبي ولا تخطئي أيضاً'[2]» ثمَّ استدارَ نحو ريميجوس وقال: «أعتقدُ أنَّك الآن ستسحبُ اعتراضكَ إن لم يكن هناك زنى».

«بالطبع!» قال ريميجوس.

على الرغمِ من غضبِ وتعاسةِ فيليب غيرَ أنَّ جاك لاحظَ أنَّه غلبَ ريميجوس ببراعةٍ، وبأن جعلَ الزنى القضيةَ المحوريةَ، وبذلك تهرَّب من إشكاليةِ مسألةِ التصميمِ الجديدِ، ولكن جاك لم يكن مستعداً لمجاراتهِ فقال: «ولكنني لن أهجرها».

قال فيليب: «قد لا تضطرُ لذلكَ لوقتٍ طويلٍ».

توقفَ جاك فقد باغتهُ بما قاله فيليب وسألهُ: «ما الذي تعنيهِ؟»

«يمكنكَ الزواجُ من آليانا إن أُبطلَ زواجها الأول».

«أسينجح هذا؟»

«يُفترض أن يحدثَ بشكلٍ أوتوماتيكي إن لم يكتمل الزواج أبداً كما قلتَ».

1- إنجيل يوحنا، 7:8

2- إنجيل يوحنا، 11:8

«وما الذي يجبُ عليَّ القيامُ بهِ؟»

«أن تقدّمَ التماساً إلى المحكمةِ الكنسيةِ. عادةً ما يقيمُ الأسقفُ ويلارن هذا النوع من المحاكمات، ولكن في هذهِ الحالةِ سيتعين عليكَ الذهابُ بشكلٍ مباشر إلى كبيرِ أساقفةِ كانتربري».

«وهل سيوافق رئيسُ الأساقفةِ؟»

«من العدلِ أن يوافقَ».

ولاحظَ جاك أن جواب فيليب لم يكن حازماً. «ولكن في هذهِ الأثناءِ علينا أن نعيشَ منفصلين؟»

«إن أردت أن تكون كبير بنَّائي كاتدرائيةِ كينغزبريدج فالجواب هو نعم».

قال جاك: «أتطلبُ مني أن أختارَ بين أكثر شيئين أحبهما في العالمِ».

قال فيليب: «ولكن ليسَ لوقتٍ طويلٍ».

شيءٌ ما في صوتِ فيليب دفعَ جاك إلى رفعِ ناظريهِ بسرعةٍ. كان صوتُ فيليب ينمّ عن تعاطفٍ حقيقي، وأدركَ جاك أنّ فيليب يشعرُ بأسفٍ حقيقي لاضطرارهِ إلى فعل هذا مما جعلَ جاك يشعرُ بغضبٍ أقل وحزنٍ أكبر.

«كم يطول الأمرُ؟» سأل جاك.

«قد يأخذُ عاماً».

«عاماً!»

«ليسَ عليكما العيشُ كلٌّ في بلدةٍ»، قال فيليب ثمَّ أضاف: «ما زالَ بوسعكَ أن ترى آليانا والطفل».

«أتعلم أنَّها ذهبت إلى إسبانيا للبحثِ عني؟» قال جاك. «هل يمكنكَ تخيلُ هذا؟» ولكن الرهبان لا يفهمون ما قد يفعلهُ الحبُّ، ولذلكَ أضافَ بمرارةٍ: «والآن يجبُ أن أخبرها أننا سنعيشُ منفصلين بعضنا عن بعضٍ».

وقفَ فيليب ووضعَ يداً على كتفِ جاك ثمَّ قال: «أعدكَ أنَّ الوقتَ سيمرُّ بأسرع مما قد تتخيلُ بما أنّك ستكون مشغولاً ببناءِ الكاتدرائيةِ الجديدةِ».

– 2 –

على مدارِ السنواتِ الثماني الماضية اتسعت الغابةُ وتغيرت. اعتقدَ جاك أنَّه لن يتوه في المنطقةِ التي عاشَ فيها وحفظها عن ظهرِ قلبٍ غيرَ أنَّه كان

مُخطئاً. كانت الطرقُ القديمةُ قد اختفت بفعلِ النباتاتِ، والطرقُ الجديدةُ التي طرقتها الغزلان، والخنازير، والخيولُ البريةُ بينَ الأجماتِ، والجداولُ أيضاً غيرَّت المسارَ، وسقطت أشجارٌ قديمةٌ، ونمت أشجارٌ جديدةٌ فتيةٌ وباسقةٌ. بدا أنَّ كلَّ شيءٍ تقلَّصَ؛ فالمسافات بدت أقرب، والهضابُ أقلَّ انحداراً. ولكن أكثرَ ما أذهلهُ هو شعورهُ أنَّه غريبٌ عن المكانِ. عندما حدَّقَ إليهِ غزالٌ يافعٌ في ذهولٍ عبرَ الفُرجةِ في الغابةِ لم ينجح جاك في تذكر إلى أيِّ قطيعٍ من الغزلانِ ينتمي، أو أين كانت أمّه، وعندما طارَ سربٌ من البطِّ عجزِ جاكُ عن تذكرِ المسطحِ المائي الذي طارَ منه، أو سببِ طيرانهِ، وكان متوتراً لأنَّه لا يعرفُ أين يختبئ الخارجون عن القانونِ الآن.

قطعَ معظمَ الطريقِ من كينغربريدج إلى هنا على ظهرِ الجوادِ، ولكنه ترجّلَ عنهُ عندما ابتعدَ عن الطريقِ الرئيسي فقد كانت أغصانُ الأشجارِ واطئةً جداً، ولا يستطيع الدخولَ وهو على ظهرِ الجوادِ. أثارت فيهِ العودة إلى أراضي الطفولةِ حزناً غير عقلاني. لم يُقدّر قيمةَ الحياةِ البسيطةِ وهو لم يدرك هذا إلَّا الآن. تذكر أنَّ أعظمَ شغفِ عاشهُ وقتئذٍ كان الفراولة البرّية التي نمت على أرضيةِ الغابةِ. علمَ أنَّها تنضجُ صيفاً لأيام معدودةٍ؛ فيتناول منها قدرَ ما شاءَ. أمَّا الآن فكلُّ شيء في حياتهِ غدا إشكالَياً: علاقتهُ المضطربة مع رئيسِ الديرِ فيليب، وحبّه التعس لآليانا، وطموحهُ الكبير ببناءِ أجملِ كاتدرائيةٍ في العالم، وحاجتهُ المُلحةِ لمعرفةِ حقيقةِ ما حدثَ لوالدهِ.

تساءل في نفسهِ إن كانت والدتهُ تغيرت كثيراً خلالَ العامين اللذين غابَ فيهما، وكان يتطلعُ قُدماً إلى رؤيتها مجدداً. لقد تأقلم بشكا متازٍ في بلدتهِ، ولكن وجود شخصٍ في الحياةِ مستعدٌ على الدوامِ للقتالِ من اجلهِ أمرٌ باعثٌ على الطمأنينةِ، وكم افتقدَ نعمةَ هذا الشعور.

قضى اليومَ بأكملهِ يشقُّ طريقهُ باتجاهِ المكانِ الذي عاشَ فيهِ مع والدتهِ في الغابةِ. كان الظلامُ في مثلِ هذا اليومِ الشتائي قد بدأ يحلُّ سريعاً، وهذا يعني أنَّه قريباً يجب أن يتوقف عن البحثِ عن كهفهما القديمِ، ويحاول إيجاد ملجأ يقضي فيهِ الليلةَ. سيكون الليلُ بارداً، وفكرَ جاك في نفسهِ: «لمَ أنا قلقٌ؟ اعتدتُ قضاءَ كلِّ ليلةٍ في الغابةِ».

وفي النهايةِ عثرت عليه والدتهُ.

كان على وشكِ الاستسلامِ. بدا الدربُ الضيقُ عبرَ النباتات الذي تطرقهُ على الأغلب الثعالبُ، وحيوانات الغرير كأنَّه يختفي في دغلٍ، ولذلكَ لم يكن أمامهُ حلٌّ سوى النكوصِ على عقبيه، والعودةِ من حيثُ أتى، وعندما استدارَ عائداً مع جوداهِ التقى بوالدتهِ وجهاً لوجه.

«نسيتَ ضرورةَ التحركِ في الغابةِ بهدوءٍ»، قالت له. «سمعتُ وقع تحركاتكَ من على بُعدِ ميلٍ».

ابتسمَ جاك، واكتشفَ أنَّ والدته لم تتغير.

«مرحباً يا أمَّاه»، قال لها وقبَّلها على وجنتها ثمَّ وفي موجةِ مشاعر فياضةٍ عانقها.

تحسست وجهه وقالت: «أنتَ أكثرُ نحولاً مما كنت عليهِ قبلاً».

أمعنَ النظرَ إليها، ولاحظ أنَّها ما تزال سمراء، وبصحةٍ تامةٍ، ومازال شعرها كثيفاً وداكناً، ومن دون شعرةٍ بيضاء واحدة، مازال لعينيها اللون العسلي الفاتح ذاته الذي يخترقُ روحهُ.

«لم تتغيري»، قال لها.

«إلى أين ذهبتَ؟» سألتهُ.

«إلى كومبوستيلا بل وأبعد، لقد ذهبت إلى طليطلة».

«لحقت بكَ آليانا...»

«وعثرت علي. شكراً لكِ».

«يسرني هذا»، قالت، وأغمضت عينيها كأنَّها تتلو صلاةَ شُكر ثمَّ أضافت: «أنا مسرورةٌ جداً».

قادتهُ عبرَ الغابةِ إلى الكهفِ، واكتشفَ أنَّه لا يبعدُ عن المكان الذي التقيا فيه سوى ميل واحد. يبدو أنَّ ذاكرتهُ لم تكن بهذا السوءِ. في الكهفِ وجدَ موقداً بنارٍ قويةٍ، وثلاثةَ مشاعل من نباتِ السّمارِ. قدَّمت له كوباً من عصيرِ التفاحِ، والعسلِ البري، ثمَّ شوت بعضَ الكستناء. عرفَ جاك ما قد تحتاجهُ أمُّه في الغابةِ ولا يمكنها صنعهُ، ولذلكَ جلبَ لها سكاكين، وحبلاً، وصابوناً، وملحاً. بدأت والدتهُ تسلخُ أرنباً بريّاً، وقال لها: «كيفَ هي أحوالكِ يا أمَّاه؟»

«أنا بخير»، قالت ثمَّ نظرت إليهِ، وأدركت أنَّ السؤال جديٌّ. «أنا حزينةٌ على البنَّاءِ توم، ولكنه ميتٌ الآن، ولستُ مهتمةً بالزواجِ من رجلٍ آخر».

«وما عدا ذلكَ هل أنتِ سعيدةٌ؟»

«أجل ولا. اعتدت على العيشِ في الغابةِ، وأحبّ الوحدةَ. لم أعتد أبداً على أوامر الرهبانِ الفضوليين حيال الطريقة التي يجب أن أتصرف بها، ولكنني أشتاقُ إليكَ، وإلى مارثا، وآليانا، وأتمنى لو أقضي مزيداً من الوقتِ مع حفيدي»، قالت مبتسمةً ثمَّ تابعت: «ولكنني لا أستطيعُ العودةَ إلى كينغزبريدج بعدَ أن لعنتَ زواجاً كنسياً. لن يسامحني رئيسُ الديرِ فيليب على فعلتي. على أيِّ حالٍ لستُ نادمةً على ما فعلتهُ لأنني تمكنتُ من لمِّ شملكَ أنتَ وآليانا أخيراً»، ونظرت إليهِ من فوقِ الأرنب الذي كانت تسلخهُ بابتسامةٍ راضيةٍ. «أخبرني، كيفَ تجدُ حياتكَ كزوجٍ؟»

«حسناً»، أجاب جاك بترددٍ. «لم نتزوج لأنَّ الكنيسةَ ما زالت تعتبرُ آليانا متزوجةً من آلفريد».

«لا تكن غبياً، ما الذي تعرفهُ الكنيسة عن الحب؟»

«حسناً، إنَّها تعرفُ أنَّ آلفريد وآليانا متزوجان، ولن تسمح لي ببناءِ الكاتدرائيةِ الجديدةِ وأنا أعيشُ مع زوجةِ رجلٍ آخر».

اشتعلت عيناها غضباً ثمَّ قالت: «إذاً، هل تركتها؟»

«أجل، ولكن إلى أن يُبطلَ الزواجُ».

وضعت والدتهُ جلدَ الأرنبِ جانباً، وأمسكت بيدها المغطاةِ بالدمِ سكيناً حادةً، وبدأت بتقطيعِ اللحم ورمي القطعِ في قدرِ طهي يغلي فوقَ النارِ. «فعلَ معي رئيسُ الديرِ فيليب الأمرَ ذاتهُ عندما كنت مع توم»، قالت وهي تُقطعُ اللحمَ النيء بحركاتٍ سريعةٍ. «وأعلم لمَ يغضبُ غضباً مسعوراً من الناسِ الذين يمارسون الحبَّ. إنّه يفعلُ هذا لأنَّه ممنوعٌ من فعلهِ، ويكره حريةَ الآخرين في التمتعِ بما هو مُحرَّمٌ عليهِ. بالطبعِ عندما يتزوجُ الناسُ في الكنيسةِ لا يمكنهُ القيامُ بشيءٍ حيالَ الأمرِ، ولكن إن لم يكونوا متزوجين فسينتهزُ الفرصةَ للتخريب عليهم، وتمنحهُ السلطةُ على فعلِ هذا شعوراً أفضل حيال نفسهِ». قطَّعت ساقي الأرنب ورمتهما في دلو خشبي ممتلئ بالقمامةِ.

أومأ جاك برأسهِ. اضطرَّ إلى قبولِ حُكم فيليب، وفي كلِّ مرَّةٍ قبَّل فيها آليانا قبلةً ما قبلِ النومِ، ويتركها عندَ البابِ شعرَ بالغضبِ من فيليب، ولهذا تفهمَ غضبَ والدتهِ الدائمَ من فيليب.

«ولكن الأمرَ لن يدوم إلى الأبدِ»، قال لها.

«وما هو شعورُ آليانا حيال الأمرِ؟»

قطبَ جاك حاجبيهِ وقال: «ليسَ جيداً، ولكنها تعتقدُ أن الأمرَ غلطتها منذُ البدايةِ لقبولها بالزواج من آلفريد».

«وهو كذلك، ولكنها أيضاً غلطتكَ لأنكَ تريد بشدةٍ بناءَ الكنائسِ».

شعرَ جاك بالأسفِ لأنَّ والدتهُ لا تشاطرهُ موقفه من موضوع بناءِ الكنائس. «أمَّاه، ما من بناءٍ في العالم يستحقُ مشقةَ العملِ عليه غيرُ الكنائس، فهي أكبر، وأعلى، وأجمل، وأصعب، وتحوي على زخارف، وتماثيل أكثر من أيِّ بناءٍ آخر».

«وأنتَ لن يرضيكَ بناءُ أيِّ شيءٍ أقلَّ شأناً».

«هذا صحيح».

هزَّت رأسها في حيرةٍ وقالت: «لن أعلمَ أبداً من أينَ أتتَك فكرةُ أنَّ العظمةَ قدركَ»، ورمت ببقيةِ الأرنبِ في القدرِ ثمَّ بدأت تنظفُ الجزءَ الداخلي للجلدِ فهي ستستخدمُ فراءهُ. «أنتَ حتماً لم ترثهُ من أجدادكَ».

كانت هذهِ الإشارةُ التي انتظرها جاك وقال: «أميِّ عندما كنتُ مسافراً علمت شيئاً عن أجدادي».

توقفت عن التنظيفِ ونظرت إليه ثمَّ: «ما الذي قلتهُ؟»

«عثرتُ على عائلةِ أبي».

«يا إلهي!» قالت وأسقطت جلدَ الأرنبِ من يدها. «كيفَ فعلتَ هذا؟ أين هم؟ وكيفَ هم؟»

«هناك بلدةٌ في النورماندي تدعى تشيربورغ، ومن هناك أتى والدي».

«كيفَ يمكنكَ أن تكون واثقاً من هذا؟»

«يبدو أنني أشبه والدي كثيراً، وإلى درجةِ اعتقدوا معها أنني شبح».

رمت والدتهُ بنفسها على كرسي، وشعرَ جاك بالذنبِ لأنَّه صدمها بهذهِ الأخبارِ، ولكنه لم يتوقع أن تُصدمَ إلى هذهِ الدرجةِ وقالت: «كيفَ... كيف هم أهلهُ؟»

«والدهُ متوفى، ولكن أمَّه ما زالت على قيدِ الحياةِ. حالما عرفت أنني لم

أكن شبحَ والدي عاملتني بلطفٍ شديدٍ، أمَّا شقيقهُ الأكبرُ فهو نجارٌ، ولديه زوجة وثلاثةُ أطفالٍ... أبناءُ عمي». ابتسم جاك وأضاف: «أليسَ هذا جميلاً؟ لدينا أقارب».

يبدو أنَّ هذهِ الملاحظةَ أزعجتها فقد بدت حزينةً وقالت: «يؤسفني يا جاك أنني لم أربِّكَ في بيئةٍ طبيعيةٍ».

«أنا لستُ آسفاً»، أجابها بمرحٍ. شعرَ بالخجلِ من نفسهِ عندما عبَّرت والدتهُ عن ندمها؛ فلم يكن هذا من طبعها. «ولكنني سعيدٌ لأنني التقيتُ أبناءَ عمي، رغمَ أنني لن أراهم مجدداً أبداً، ولكن من الجيدِ أن أعلم بوجودهم».

أومأت بحزنٍ وقالت: «أتفهمُ هذا».

أخذَ جاك نفساً عميقاً وقال: «يعتقدون أنَ والدي غرقَ في البحرِ منذُ أربعةٍ وعشرين عاماً. كان على متنِ سفينةٍ تدعى وايت شيب، وقد غرقت قبالةَ ساحلِ بارفلور. غرقَ جميعُ من كان عليها باستثناءِ والدي على ما يبدو، وبطريقةٍ ما لم يعلموا هذا فهو لم يعد إلى تشيربورغ قط».

«بل أتى إلى كينغزبريدج»، قالت والدتهُ.

«ولكن لماذا؟»

تنهدت وقالت: «تعلَّقَ ببرميلٍ طافٍ حملهُ إلى شاطئ قربَ قلعةٍ ثمَّ دخلَ إلى القلعةِ ليبُلغَ عن تحطم السفينةِ. كان هناك الكثيرُ من الباروناتِ المتنفذين في القلعةِ، وعندما دخلَ أُصيبوا بذعرٍ شديدٍ. وبعدَ أسابيع أو ربما أشهرٍ، لم يكن والدكَ على تحديدِ المدَّةِ بالضبطِ، انتهى بهِ الأمرُ في كينغزبريدج».

«هل قال شيئاً عن حادثةِ الغرقِ؟»

«لم يقل سوى أنَّ السفينةَ غرقت بسرعةٍ كبيرةٍ كأنَّ فجوةً كانت فيها».

«يبدو أنَّهم أرادوا إسكاتهُ بطريقةٍ ما».

أومأت برأسها وقالت: «وعندما أدركوا أنَّهم لا يستطيعون إبقاءهُ سجيناً إلى الأبدِ قتلوه».

ركعَ جاك أمامها، وأجبرها على النظرِ إليهِ، وبصوت ارتعشَ من قوةِ الانفعالِ سألها: «ولكن من كانوا، يا أمَّاه؟»

«طرحت عليَّ هذا السؤال قبلاً».

«وأنتِ لم تجيبيني عليهِ».

«لأنني لم أردكَ أن تقضي بقيةَ حياتكَ تثأرُ لموتِ والدكَ!»

شعرَ جاك أنَّ والدتهُ ما زالت تعاملهُ كطفلٍ، وتكتمُ عنه المعلوماتِ السيئةَ. حاولَ أن يهدأ ويتصرف كبالغٍ فقال: «سأقضي بقيةَ حياتي أبني كاتدرائيةِ كينغزبريدج، وأنجب الأطفال من آليانا، ولكن أريد أن أعلمَ سببَ إعدامِ والدي، والوحيدون الذين يملكون الجواب على هذا هم الرجال الذين شهدوا زوراً ضدهُ، ولهذا يجبُ أن أعلم من هم».

«آنذاك لم أعرف أسماءهم».

علمَ أنَّها تحاولُ التملصَ من تقديمِ الجوابِ، وأثارَ هذا غضبهُ. «ولكنكِ تعلمين الآن!»

«أجل، أعلمُ»، قالت دامعةَ العينين، وأدركَ أنَّ الأمرَ مؤلمُ لها بقدرِ ما هو مؤلمٌ له. «وسأخبركَ لأنني أعرفُ أنَّك لن تتوقفَ أبداً عن سؤالي عنهم»، تنشقت بأنفها، ومسحت دموعها.

انتظرَ جوابها في توترٍ.

«كانوا ثلاثةَ رجالٍ: راهبٌ وكاهنٌ وفارسٌ».

أمعنَ جاك النظرَ إليها وسألها: «وما هي أسماؤهم؟»

«ستسألهم عن سببِ شهادتهم زوراً؟»

«أجل».

«وتتوقعُ منهم أن يخبروك؟»

«قد لا يفعلون، ولكنني سأنظرُ في أعينهم عندما أسألهم، وعندئذٍ سأعرفُ ما أرغبُ بمعرفتهِ».

«ولكن حتَّى هذا قد لا يكون ممكناً».

«أريدُ المحاولة يا أمَّاه!»

تنهدت وقالت: «الراهب كان رئيسَ ديرِ كينغزبريدج».

«فيليب؟»

«لا، ليسَ فيليب. حدثَ هذا قبلَ زمنهِ. كان رئيسَ الديرِ الراحل جيمس».

«ولكنه ميتٌ».

«أخبرتكَ أنَّك قد لا تستطيعُ استجوابهم».

زرَّ جاك عينيهِ وقال لها: «ومن الآخران؟»

«الفارس بيرسي هاملي إيرل شايرنغ».

«والدُ وليم!»

«أجل».

«وهذا أيضاً ميتٌ!»

«أجل».

انتابَ جاك شعورٌ رهيبٌ أنَّ ثلاثتهم سيكونون موتى، وأنَّ السرَّ سيُدفنُ معهم. «ومن كان الكاهنُ؟»

«اسمه ويلارن بيغاد، وهو أسقفُ كينغزبريدج».

تنهدَ جاك بارتياحٍ ورضا عظيمين ثمَّ قال: «وهو ما زال على قيدِ الحياةِ».

***

بحلولِ عيدِ الميلادِ انتهى العملُ على بناءِ قلعةِ الأسقفِ ويلارن، وفي أحدِ الصباحاتِ الباكرةِ من العامِ الجديد توجه وليم هاملي مع والدتهِ إلى القلعةِ. لمحا القلعةَ على قمةِ الجبلِ المقابلِ لوادٍ. كانت تُطلُّ على الريفِ المجاورِ كنقطةِ مراقبةٍ منيعةٍ.

أثناء عبورهما الوادي مرَّا بالقصرِ القديمِ الذي تحولَ الآن إلى مستودعِ صوفٍ. غطَّت عوائدُ الصوفِ معظمَ تكاليفِ بناءِ القلعةِ الجديدةِ.

صعدا المنحدرَ اللطيفَ على الجانبِ الآخر من الوادي ثمَّ أخذا طريقاً عبرَ فتحةٍ في السورِ الطيني، وعبرا خندقاً جافاً ليصلا أخيراً إلى بوابةٍ وسورٍ حجري. بالنظرِ إلى الأسوارِ، والخندقِ، والسور الحجري بدت القلعةُ منيعةً جداً مقارنةً بقلعةِ وليم، وبالعديدِ من قلاعِ الملكِ.

داخلَ الفناءِ الداخلي للسورِ ارتفعت القلعةُ الهائلةُ بشكلها المربعِ وطوابقها الثلاثةِ عالياً جداً بدت معها الكنيسةُ الحجريةُ قربها كقزمٍ. ساعدَ وليم والدتهُ على الترّجّلِ عن جوادها، وتركا الفرسان ليعتنوا بالجيادِ في الإسطبلاتِ ثمَّ صعدا الدرجَ الذي يُفضي إلى القاعةِ الرئيسيةِ.

كان الوقتُ الآن منتصفَ النهار، ولذلك لا بدَّ أنَّ الخدمَ في القاعةِ يُجهزون الطاولةَ من أجلِ الغداءِ. وقفَ بعضُ الشمامسةِ، والكهنةِ،

والموظفين، والمتسكعين في المكانِ بانتظارِ الغداءِ. انتظرَ وليم وريغان إلى أن صعدَ وكيلُ القلعةِ إلى غرفةِ نومِ الأسقفِ وأخطرهُ بوصولهما.

في صميمِ وليم اشتعلت غيرةٌ ضاريةٌ وموجعة. كانت آليانا واقعةً في الحبِّ، والمقاطعةُ بأكملها تعرفُ هذا. لقد أنجبت طفلاً من علاقةِ حُبٍ، وطردها زوجها من منزلهِ فحملت طفلها، وسافرت للبحثِ عن الرجلِ الذي تحبهُ ثمَّ عثرت عليهِ بعدَ أن دارت نصفَ الأراضي المسيحيةِ. انتشرت القصَّةُ في جميعِ أنحاءِ جنوبِ إنكلترا، وفي كلِّ مرَّة سمعها وليم شعرَ بالغثيانِ من شدَّةِ الكرهِ، ولكنه قال لنفسه إنَّ عليهِ التفكير بطريقةٍ للانتقامِ.

نزلَ أحدهم من غرفةِ نومِ الأسقفِ، وقادَ وليمَ وريغان على الدرجِ إلى غرفةِ ويلارن، وهناك وجداه جالساً إلى الطاولةِ مع بولدوين الذي ترقّى الآن إلى مرتبةِ رئيسِ الشمامسةِ. كان رجلا الدين يعدَّان المالَ فوقَ قطعةِ قماشٍ بمربعاتٍ، ويضعان البنساتِ الفضيةِ في أكوامٍ من اثني عشرة قطعةٍ، ويُحركانها من المربعات السوداءِ إلى المربعاتِ البيضاءِ. وقفَ بولدوين، وانحنى لليدي ريغان، ثمَّ أبعدَ جانباً قطعةَ القماشِ، والبنساتِ الفضيةِ.

نهضَ ويلارن عن الطاولةِ، وتوجهَ إلى كرسي قربَ المدفأةِ. تحرَّك بسرعةٍ كعنكبوتٍ، وشعرَ وليم ببغضٍ قديمٍ مألوفٍ يعاوده. على أيِّ حالٍ كان قد قررَ التصرف بمداهنةٍ؛ فمؤخراً سمعَ عن النهايةِ الرهيبةِ لإيرل هيرفورد الذي تشاجرَ مع أسقفِه فحُرمَ كنسياً من حقوقهِ؛ وعندما مات دُفنَ في أرضٍ غير مباركةٍ من قبلِ الكنيسةِ. عندما تخيلَ وليم جسدهُ مدفوناً في أرضٍ غير مباركةٍ ومباحةٍ لكل أنواعِ العفاريت والوحوشِ التي تسكنُ باطنَ الأرضِ ارتعدَ من الرعبِ، وقررَ أنَّه لن يتجادلَ مع أسقفهِ أبداً.

بدا ويلارن أكثرَ شحوباً ونحولاً مما كان عليه يوماً، وبدت ثيابُه السوداء عليهِ كغسيلٍ مُعلقٍ على حبلٍ ليجفَّ. لم يبدُ عليهِ التغيير رغمَ أنَّ وليم نفسهُ قد تغيرَ؛ فقد باتَ النبيذُ والطعام لذّتي الحياةِ الأساسيتين بالنسبةِ إليهِ، ومع نهايةِ كلّ عامٍ يغدو أسمن بقليلٍ رغمِ أسلوب حياتهِ النشطةِ، وخلالَ السنواتِ السبعِ الماضيةِ استبدل درعَ الزردِ الذي يرتديهِ مُنذ أن بلغَ الواحد والعشرين مرتين.

كان ويلارن قد عادَ مؤخراً من يورك بعدَ رحلةٍ دامت ستةَ أشهرٍ، ولذلكَ سألهُ وليم بتهذيبٍ: «هل كانت رحلتكَ موفقةً؟»

«لا»، أجاب ويلارن وتابع: «أرسلني الأسقفُ هنري إلى هناك كي أحلَّ خلافاً عمرهُ أربعةَ أعوامٍ حولَ من يجب أن يكونَ كبيرَ أساقفةِ يورك، ولكنني فشلتُ في مهمتي، وما يزال الخلافُ قائماً».

وفكرَ وليم أنَّه كلَّما قلَّ الكلامُ في الأمرِ كان هذا للأفضلِ ولذلكَ قال: «في غيابكَ حدثت مستجداتٌ كثيرةٌ، خاصةً في بلدةِ كينغزبريدج».

«في بلدةِ كينغزبريدج؟» قال ويلارن في دهشةٍ. «اعتقدتُ أنَّ أمرَ كينغزبريدج انتهى إلى الأبدِ».

هزَّ وليم رأسهُ وقال: «حصلوا على العذراءِ الباكيةِ».

بدا ويلارن كأنَّه مستفزٌ وسألَ: «ما الذي تتحدثُ عنهُ بحقِّ الشيطان؟»

وهنا أجابت والدةُ وليم قائلةً: «إنَّها تمثالٌ خشبي للعذراءِ يستخدمونهُ في المواكبِ، وأحياناً ينزلُ من عينيها دمعٌ. يعتقدُ الناسَ أنَّها عجائبية».

«إنَّها عجائبية»، قال وليم. «تمثالٌ يبكي».

رمقَ ويلارن وليم بنظرة احتقارٍ.

قالت ريغان: «سواء أكان عجائبياً أم لم يكن، آلاف الناس زاروا كينغزبريدج خلالَ الأشهرِ القليلةِ الماضيةِ ليروه، وفي هذهِ الأثناءِ استأنفَ رئيسُ الدير فيليب أعمالَ البناءِ. أصلحوا المذبحَ، وبنوا سقفاً خشبياً، وبدأوا بالعملِ على بقيةِ الكنيسةِ، وحفروا أساساتِ المعبرِ، ووصل بعضُ البنَّائين الجدد إلى كينغزبريدج من باريس».

«باريس؟» تساءل ويلارن.

قالت ريغان: «ستُبنى الكنيسةُ وفق أسلوبِ بناءِ كنيسةِ سان دينيهِ، أيّاً يكن اسمها».

أومأ ويلارن برأسهِ وقال: «أقواسٌ مدببةٌ. سمعتُ عنها في يورك».

لم يكن وليم يعبأ بالأسلوبِ الذي ستُبنى بهِ كاتدرائيةُ كينغزبريدج، ولذلك قال: «ولكن الشُبان يتركون العملَ في حقولي، ويذهبون للعمل في كينغزبريدج، وأعادوا فتحَ سوقِ كينغزبريدج يومَ الأحدِ مجدداً، وهذا يؤثر على أعمالِ سوقِ شايرنغ... إنَّها القصةُ القديمةُ ذاتها!» ونظرَ مُربكاً إلى ريغان وويلارن متسائلاً إن كانا يشكان بامتلاكهِ دافعاً خفياً، ولكن لم يلحظ أيَّة ريبةٍ على وجهيهما.

قال ويلارن: «أسوأ غلطةٍ ارتكبتها في حياتي أنني ساعدتُ فيليب كي يصبحَ رئيسَ الديرِ».

«عليهم أن يتعلموا أنَّهم لا يستطيعون فعلَ هذا»، قال وليم.

نظرَ ويلارن إلى وليم بإمعانٍ وسألهُ: «ما الذي تنوي فعلهُ؟»

«سأحرقُ البلدةَ مجدداً»، قال وليم وفكرَ في نفسه: «ثمَّ سأقتلُ آليانا وحبيبها»، ونظرَ إلى نارِ المدفأةِ حتَّى لا تلتقي عيناه بعيني والدِته، وتقرأ أفكارهُ.

«لستُ واثقاً من أنَّك تستطيعُ القيامَ بهذا»، قال ويلارن.

«لقد فعلتها من قبلٍ فلماذا لا أستطيعُ فعلها مجدداً؟»

«في المرةِ السابقةِ كانت لديكَ حُجةٌ مُقنعةٌ وهي سوقُ الصوفِ».

«وهذهِ المرة لدي الحجة ذاتها؛ فهم لم يحصلوا على إذنِ الملكِ ستيفن بإقامتهِ».

«الأمرُ ليسَ سواء. كان فيليب يغامرُ بإقامتهِ سوقَ الصوفِ، وأنتَ هاجمتهُ على الفورِ. أمَّا سوقُ الأحد فهو يُقامُ في كينغزبريدج منذُ ستةِ أعوامٍ، والبلدة تبعدُ عن شايرنغ عشرين ميلاً، وهذا يعني أنَّ السوق شرعي».

كبحَ وليم غضبهُ ورغبتهُ بالقولِ لويلارن أن يكفّ عن التصرُّفِ كامرأةٍ عجوزٍ ضعيفةٍ، وأنَّ هذا لن يكون مفيداً.

أثناءَ هذا وبينما كان وليم يكبحُ غيظهُ دخلَ الوكيلُ إلى الغرفةِ، ووقفَ بصمتٍ عندَ البابِ فسألهُ ويلارن: «ما الأمرُ؟»

«وصلَ رجلٌ، وهو يصرُّ على مقابلتكَ يا سيدي الأسقف. يدعى جاك جاكسن وهو بنَّاءٌ من كينغزبريدج، هل أطردهُ؟»

شعرَ وليم بقلبه يخفقُ بسرعةٍ؛ فهذا الرجلُ حبيبُ آليانا. كيف لهذا أن يحدثُ؟ كيفَ للرجلِ أن يأتي في الوقتِ الذي يخططُ فيهِ لقتلهِ؟ ربما امتلكَ قدراتٍ خارقةً، وعندما فكرَ وليم بهذا أصابه الذعرُ.

«من كينغزبريدج؟» قال ويلارن في اهتمامٍ.

قالت ريغان: «إنَّه رئيسُ البنَّائين هناك، وهو من أحضرَ تمثالَ العذراءِ الباكيةِ من إسبانيا».

«هذا مثيرٌ للاهتمامِ»، قال ويلارن. «فلنتفحصهُ»، ثمَّ وجهَ كلامهُ إلى الوكيلِ قائلاً: «دعهُ يدخل».

حدَّقَ وليم إلى البابِ في رعبٍ متطيرٍ، وتوقع دخولَ رجلٍ طويلٍ ومخيفٍ في عباءةٍ سوداء، وأن يشيرَ هذا الرجلُ إليهِ بإصبعِ اتهامٍ، ولكن عندما دخلَ جاكَ من البابِ، صُدمَ وليم من يفاعتهِ، وتخيلَ أنَّه بالكادِ أتمَّ عامهُ العشرين. كان أصهب، وعيناه الزرقاوان حذرتين، ولاحظَ وليم أنَّهما رمشتا عندما وقعَ نظره عليهِ، وتوقفتا قليلاً عندَ ريغان؛ فبثور وجهها المرعبةُ تلفتُ نظرَ أيِّ شخصٍ لم يعتد عليها، ثمَّ استقرَّت أخيراً على ويلارن. لم يبدُ على البنَّاءِ أنَّه خائفٌ ومرتعبٌ لتواجدهِ في حضرةِ أقوى شخصيتين في المقاطعة، وباستثناءِ لامبالاتهِ المفاجئةِ لم يبدُ مخيفاً جداً.

شعرَ ويلارن بما شعرَ بهِ وليم حيالَ السلوكِ المتمردِ للبنَّاءِ الشابِ، ولذلكَ قال له بصوتٍ متغطرسٍ وباردٍ: «حسناً أيّها الفتى، ما الذي تريدهُ مني؟»

«الحقيقة»، قال جاك وتابع: «ما عدد من رأيتهم يُعدمون؟»

حبسَ وليم أنفاسهُ. كان سؤالُ جاك صادماً ووقحاً. نظرَ إلى البقيةِ، ورأى والدتهُ تنحني إلى الأمامِ، وتنظرُ بتقطيبةٍ مُرَكّزة على جاك كأنَّها تحاول التذكّرَ أين رأتهُ قبلاً، أمَّا ويلارن فقد بدا مستمتعاً ولكن بفتورٍ.

قال ويلارن: «هل هذهِ أحجية؟ رأيت ما يكفي لأهتمَّ بأمر عدِّهم، وسيكون هناك إعدامٌ آخر إن لم تتحدث باحترامٍ».

«أرجو المعذرة يا سيدي الأسقف»، قال جاك دون أن يبدو خائفاً من التهديدِ. «أتتذكرهم جميعاً؟»

«أعتقدُ هذا»، قال ويلارن بصوتٍ فضحَ اهتماماً لم يرده أن يظهر. «أفترضُ أنَّك مهتمٌ بشخصٍ بعينهِ».

«منذُ عشرين عاماً في شايرنغ شاهدت عمليةَ إعدامِ رجلٍ يُدعى جاك تشيربورغ».

سمعَ وليم والدتهُ تحاولُ كبحَ شهقةٍ كادت تُفلت منها.

«كان شاعراً متجولاً»، تابعَ جاك. «هل تتذكرهُ؟»

فجأةً شعرَ وليم بالتوترِ يسيطرُ على المكانِ. كان هناكَ شيءٌ مخيفٌ بشكلٍ غير طبيعي في جاك، وبدا واضحاً أن هذا أثّرَ على ويلارن ووالدتهِ.

«أعتقدُ أنني أتذكرهُ»، قال ويلارن، وأحسَّ وليم من نبرةِ صوتِ ويلارن أنَّ الأخير يحاول جاهداً التحكمَ بنفسهِ، وتساءل في نفسهِ عمَّا يجري.

«أعتقدُ أنَّك تتذكرُ»، قال جاك بنبرةٍ وقحةٍ مجدداً. «وجهتم تهمةً إلى رجلٍ بناءً على شهادةِ ثلاثةِ رجالٍ. اثنان منهما متوفيان الآن، أمَّا الثالث فهو أنتَ».

أومأ ويلارن برأسهِ: «سرقَ غرضاً من ديرِ كينغزبريدج... كأسَ القُربان المطّعمة بالجواهرِ».

لاحت في عيني جاك الزرقاوين نظرةٌ قاسيةٌ وقال: «ولكنه لم يرتكب مثلَ هذا العملِ».

«أمسكته بنفسي والكأسُ في يدهِ».

«لقد كذبتَ».

ولبرهةٍ حلَّ الصمتُ في الغرفةِ، وعندما تكلَّمَ ويلارن مجدداً تحدَّثَ بلهجةٍ عاديةٍ، ولكن تعابير وجهِه بدت صلبةً كالحديدِ. «يمكنني أن آمرَ بقطعِ لسانكَ على قولكَ هذا».

«أريد معرفة سببَ قيامكَ بهذا»، قال جاك كأنَّه لم يسمع تهديدَ ويلارن المروّع. «يمكنكَ أن تكونَ صريحاً هنا بما أنَّ وليم حليفك، ووالدتهُ تعرفُ بالأمرِ».

نظرَ وليم إلى والدته، وتأكد من صحةِ كلامِ جاك عندما لاحظ أنَّها تبدو كأنَّها تعلم بما حدثَ. شعرَ وليم بالحيرةِ، وعلى عكسِ ما توقعَ يبدو أنَّ زيارة جاك لا علاقةَ لها أبداً بوليم وخططِه السريَّة لقتلِ حبيبِ آليانا.

وهنا قالت ريغان: «أنتَ تتهمُ الأسقفَ بالشهادةِ زوراً!»

«لن أتحدثَ بهذهِ التهمةِ أمامَ الناسِ»، قال جاك ببرودٍ. «فأنا لا أملكُ دليلاً، وعلى أيِّ حالٍ لستُ مُهتماً بالانتقامِ. أرغبُ فقط بفهمِ السببِ الذي دفعكَ إلى إعدامِ رجلٍ بريءٍ».

«اخرج من هنا»، قال ويلارن ببرودٍ.

أومأ جاك برأسهِ كأنَّه توقعَ هذا، ورغمَ أنَّه لم يحصل على جوابٍ فإنَّ وجهه اكتسى بنظرةِ رضا، كأنَّ شكوكه كانت في محلّها.

كان وليم ما يزالُ حائراً حيال الموضوعِ بأكملهِ ولذلك، وبدافعٍ عفوي، قال: «انتظر قليلاً!»

استدارَ جاك عندَ البابِ، ونظرَ إليه بعينيهِ الزرقاوين الساخرتين.

«ما...» وابتلعَ وليم لعابهُ ثمَّ تمالكَ نفسهُ وصوتهُ وسأل: «ما الذي يهمُّكَ في الأمرِ؟ لماذا أتيتَ إلى هنا وطرحتَ هذهِ الأسئلة؟»

«لأنَّ الرجلَ الذي أُعدمَ والدي»، قال جاك وخرجَ.

سادَ صمتٌ بينَ الثلاثةِ. إذاً، حبيبُ آليانا، وكبيرُ البنَّائين في كينغزبريدج ابن لصٍ أُعدمَ في شايرنغ، وفكرَ وليم في نفسهِ: «ما الأمرُ الجللُ في هذا؟» غير أنَّ والدتهُ بدت قلقةً، وبدا ويلارن مضطرباً بحقٍ.

في نهايةِ المطافِ قال ويلارن بمرارةٍ: «طاردتني تلكَ المرأة لعشرين عاماً». عادةً ما يكون ويلارن متحفظاً جداً، ولذلكَ صُدمَ وليم عندما رآه يعبرُ عن مشاعره.

«اختفت بعد انهيارِ الكاتدرائيةِ»، قالت ريغان ثمَّ أضافت: «واعتقدتُ أننا لن نراها مجدداً».

«وها هو ابنها أتى لمطاردتنا»، قال ويلارن بنبرةٍ تفضحُ خوفاً حقيقياً.

قال وليم: «لمَ لا تقيدهُ بالأغلالِ وتسجنهُ على اتهامهِ لكَ بالشهادةِ زوراً؟»

رمقَ ويلارن وليم بنظرةِ احتقارٍ ثمَّ قال: «ابنكِ أحمق لعينٌ يا ريغان».

وهنا أدركَ وليم أنَّ تهمةَ الشهادةِ زوراً حقيقيةً، وإن نجحَ جاك في كشفها فقد يكتشفها آخرون. «هل من أحدٍ آخر يعلمُ بهذا؟»

قالت ريغان: «اعترف جيمس –رئيسُ الديرِ السابق– بالشهادةِ زوراً قبلَ وفاتهِ إلى نائبهِ ريميجوس، ولكن الأخير كان على الدوامِ إلى صفنا في مواجهةِ فيليب؛ ولذلكَ فهو لا يُشكلُ أيَّ خطرٍ. ولا بدَّ أنَّ والدةَ جاك تعلمُ ببعضِ التفاصيل، ولكن ليسَ الحقيقةَ كاملةً، وإلّا كانت استخدمت المعلوماتِ بحلولِ الآن، ولكن جاك سافرَ إلى الخارجِ، وربما علمَ بأمرٍ لم تعلمهُ والدتهُ».

رأى وليم في هذهِ القصَّة القديمةِ والغريبةِ فرصةً لتحقيقِ مرادهِ، وقالَ أولَ شيءٍ خطرَ ببالهِ: «فلنقتل جاك جاكسن».

هزَّ ويلارن رأسهُ في ازدراء.

قالت ريغان: «سيجذبُ هذا الأنظارَ إليهِ، وإلى التهمةِ التي يوجهها».

شعرَ وليم بخيبةِ أملِ والدتهِ، وبدا له الأمرُ كأنَّه أمرٌ إلهي. عندما خيَّمَ

الصمتُ على المكانِ فكرَ بالأمرِ ثمَّ خطرت ببالِهِ فكرةٌ جديدةٌ وقال: «ليسَ بالضرورةِ».

رمقهُ ويلارن وريغان بنظرةِ شكٍ.

«يمكنُ قُتلُ جاكَ ومن دونِ لفتِ الأنظارِ»، أصرَّ وليم.

«حسناً، فلتخبرنا بالطريقةِ إذاً»، قال ويلارن.

«يُمكن التخلص من جاكَ أثناءَ الهجومِ على كينغزبريدج»، قال وليم، وشعرَ بالرضا عندما رأى نظرةَ الاحترامِ المفاجئ على وجهي ويلارن وريغان.

***

تجولَ جاكَ مع رئيسِ الديرِ فيليب في موقعِ البناءِ بعدِ ظُهرِ أحدِ الأيامِ. بحلول الآن انتهوا من تنظيف المذبحِ المنهار، ووضعوا الركام في كومتين ضخمتين على الجانبِ الشمالي من ساحةِ الديرِ، ووضعوا سقالاتٍ جديدةً، وبدأ البناؤون بإعادةِ بناءِ الجدرانِ المتهدمةِ، وبجانبِ مشفى الديرِ كانت كومةٌ كبيرةٌ من الخشبِ.

«إنَّكَ تحققُ تقدماً سريعاً في العملِ»، قال فيليب.

«ولكن ليسَ بالسرعةِ التي أريدها»، أجاب جاكَ.

عاينا أساساتِ جناحي الكنيسةِ. في حُفرٍ عميقةٍ عملَ أربعون أو خمسون عاملاً على جرفِ الوحلِ، ووضعوه في دلاءٍ، بينما عمالٌ آخرون على المستوى الأرضي، أي فوقهم، رفعوا الدلاءَ من الحُفرِ باستخدام روافع. وفي مكانٍ قريبٍ عملوا على تكديس حجارةٍ غير متساوية كأساساتٍ.

قادَ جاكَ فيليب إلى كوخهِ. كان أكبر بكثيرٍ من كوخِ توم، وجانبٌ منه مفتوح بأكملهِ من أجلِ دخولِ ضوءِ الشمس، ونصفُ الأرضيةِ مُغطاة بالرسوم والتصاميم. كان جاكَ قد وضعَ ألواحاً خشبيةً على الأرضِ، وصنعَ حولها إطاراً خشبياً أعلى ببضعِ إنشاتٍ من الألواحِ المحيطةِ بهِ ثمَّ صبَّ الجصَّ إلى أن امتلأ الإطار حتَّى حافتهِ، وحالما يقسو الجص بما يكفي للمشي فوقهُ يرسمُ عليهِ التصاميم باستخدامِ أداةٍ حديديةٍ بطرفٍ حادٍ. على هذهِ الأرضيةِ وضع جاكَ تفاصيلَ البناءِ. استخدمَ فرجاراً، ومساطر، ومثلثات بزوايا قائمة. في البدايةِ بدت خطوطُ الرسمِ بيضاء وواضحةً، ولكن عندما بهتَ الجصُّ

غدت رماديةً، وسهَّلَ هذا على جاك وضعَ رسومٍ جديدةٍ فوقَ الرسومِ القديمةِ من دونِ أيِّ تداخلٍ. كان جاك قد جلبَ معهُ هذهِ الفكرة من فرنسا.

وفي ما تبقى من الكوخِ لم يكن هناك سوى مقعدٍ يجلسُ عليهِ جاك أثناءَ عمله في الخشبِ وصُنعِ القوالبِ التي سيستخدمها البناؤون لنحتِ أشكالِ الحجارةِ. كان ضوءُ النهارِ قد بدأ يخفت، ولم يعد بإمكانِ جاك العمل على القوالبِ، ولذلك وضعَ أدواتِهِ جانباً.

التقطَ فيليب قالباً وسأل: «وما هو هذا القالب؟»

«من أجلِ قاعدةِ العمود».

«يبدو أنَّكَ جهزتَ الأمورَ مسبقاً».

«لا أطيقُ صبراً حتَّى أبدأ أعمالَ البناءِ».

في الأونةِ الأخيرةِ باتت أحاديثهما مقتضبةً وعمليةً.

وضعَ فيليب القالبَ من يدهِ وقال: «يجب أن أذهبَ للصلاةِ»، ثمَّ استدارَ.

«وأنا سأذهبُ لزيارةِ عائلتي»، قال بنبرةٍ جارحةٍ.

توقفَ فيليب، واستدارَ كأنَّه على وشكِ قولِ شيءٍ، ولكنه بدا حزيناً وغادرَ.

أقفلَ جاك صندوقَ معداتِهِ، وهو يفكرُ أنَّ ملاحظتهُ الأخيرة لفيليب غبيةٌ. لقد قبلَ العملَ بشروطِ الأخير، ولذلكَ لم يكن هناك فائدةٌ من الشكوى حيال الأمرِ الآن، ولكنه شعرَ بغضبٍ مقيمٍ تجاه فيليب، ولم ينجح دوماً في إخفائهِ.

خرجَ من ساحةِ الديرِ وكانت السماءُ مُكتسيةً بحُمرةِ شمسِ الغروبِ. توجه إلى المنزلِ الصغيرِ في حيِّ الفقراءِ حيثُ عاشت آليانا مع شقيقها ريتشارد. ابتسمت آليانا بسعادةٍ عندما رأت جاك يدخل، ولكنهما لم يُقبلا بعضهما بعضاً فقد توقفا عن لمسِ بعضهما بعضاً حتَّى لا يُستثارا، ويشعرا بالإحباطِ، أو يستسلما للرغبةِ، ويُخاطرا بالإمساك بهما يخرقان وعدهما لرئيسِ الديرِ فيليب.

كان تومي على الأرضِ يلعبُ. يبلغُ الآن عاماً ونصف العام، وهو حالياً مهووس بوضعِ الأغراضِ بعضها داخلَ بعض. كانت أمامهُ أربعة، أو خمسة مناديل مطبخٍ وهو يحاولُ بلا كللٍ وضعَ الصغيرة داخلَ الكبيرة، والكبيرة داخلَ الصغيرة. ذُهلَ جاك من أن تومي لا يعلمُ وبشكلٍ غريزي أنَّ وضعَ

وعاءٍ كبيرٍ داخلَ وعاء صغير غير ممكنٍ، ولكن يبدو أنَّ هذا أمر يُفترضُ بالبشرِ تعلمه. كان تومي يواجهُ صعوبةً في فهمِ العلاقات المكانيةِ تماماً كما وجد جاك صعوبةً في تخيلِ أمرٍ؛ كشكلِ حجرٍ في قنطرةٍ.

أثارَ تومي افتتانَ جاك، وقلقهُ أيضاً؛ فحتَّى الآن لم يشعر جاك بالقلقِ قط حيالَ قدرتهِ على إيجادِ عملٍ، والحفاظِ عليهِ، وإعالةِ نفسهِ. جالَ فرنسا من دون خوفٍ حيالَ احتمالِ وقوعه فريسةَ الفاقةِ أو الجوعِ، ولكنه أراد الآن تأمين المستقبلِ. كانت الحاجةُ إلى العنايةِ بتومي أقوى من حاجتهِ إلى العنايةِ بنفسهِ، ولأولِ مرَّةٍ في حياتهِ كانت لديهِ مسؤوليات.

وضعت آليانا إبريقاً من النبيذ، وكعكعةً مخبوزةً مع التوابل على الطاولةِ ثمَّ جلست قبالة جاك الذي سكبَ كوباً من النبيذِ، واحتساه بنهمٍ. وضعت آليانا قطعةً من الكعكعة أمامَ تومي، ولكنه لم يكن جائعاً ففتتها على الأرضية المفروشةِ بنباتِ السمَّارِ.

قالت آليانا: «جاك، أحتاجُ إلى مزيدٍ من المالِ».

تفاجأ جاك وسألها: «أعطيتكِ اثني عشرَ بنساً منذُ أسبوعٍ. أنا أجني أربعة وعشرين بنساً فقط».

«أنا آسفة»، قالت له. «أنت تعيشُ وحدكَ، ولا تحتاجُ إلى الكثيرِ من المالِ».

فكرَّ جاك أنَّ كلامها غير منطقي فاعترضَ قائلاً: «ولكن أجورَ العمال الأسبوعية لا تتجاوز ستّةَ بنساتٍ، وبعضهم يملكون خمسة أو ستة أطفالٍ!»

بدت آليانا متضايقةً وقالت: «جاك، لا أعلمُ كيفَ تديرُ زوجاتُ العمالِ منازلهن؛ فأنا لم أتعلم هذا، وأنا لا أنفق أيّاً من المالِ على نفسي، ولكنكَ تتناول العشاءَ هنا كلَّ يومٍ وريتشارد...»

«وماذا عن ريتشارد؟» قال جاك بغضبٍ. «لمَ لا يعيلُ نفسهُ؟»

«لم يضطر إلى فعل ذلك يوماً».

شعرَ جاك أنَّ آليانا وتومي عبثان كافيان، ولذلكَ قال: «لم أكن أعلمُ أنَّ ريتشارد مسؤوليتي!»

«حسناً، إنَّه مسؤوليتي»، عاجلتهُ قائلةً ثمَّ أضافت: «وعندما تكفَّلتَ بي تكفّلت به أيضاً».

«لا أتذكرُ أبداً أنني قلتُ هذا!» قال بغضبٍ.

«لا تغضب».

ولكن الوقتَ كان قد تأخرَ لأنَّ جاك قد غضبَ فعلاً. «ريتشارد في الثالثةِ والعشرين، وهو أصغر مني بعامين فكيفَ أكون أنا من يعيلهُ؟ لمَ يجبُ عليَّ تناول الخبز الجاف صباحاً حتَّى أجني ما يكفي من المالِ لجلبِ لحمٍ مقددٍ لريتشارد؟»

«أيّاً يكن، أنا حامل».

«ماذا؟»

«سأنجبُ طفلاً آخر».

تبخّرَ غضبُ جاك وأمسكَ بيدها قائلاً: «هذا رائعٌ!»

«هل أنتَ سعيد؟» سألتهُ ثمَّ أضافت: «خشيتُ أن تغضبَ».

«أغضب! أنا مسرورٌ جداً! لم أرَ تومي عندما كان صغيراً جداً، وسأختبرُ هذا مع الطفلِ الجديدِ».

«ولكن ماذا عن المسؤوليات الإضافية التي ستترتبُ عن هذا والمال؟»

«أوه، اللعنةُ على المالِ. كنتُ متضايقاً لأننا مضطران للعيشِ بعيداً بعضنا عن بعض. لدينا ما يكفي من المالِ. سيكون لدينا طفلٌ آخر... آمل أن تكون فتاةً». وفكرَ بشيءٍ ثمَّ اكفهرَّ وجهه: «ولكن متى...؟»

«لا بدَّ أن هذا قد حدثَ قبلَ أن يُجبرنا رئيسُ الديرِ فيليب على العيشِ منفصلين».

«ربما في عيدِ القديسين»، قال بابتسامةٍ. «أتتذكرين تلكَ الليلة؟ لقد امتطيتِني كجوادٍ...»

«أتذكر»، قالت في خجلٍ.

حدَّقَ إليها بهيامٍ وقال: «أرغبُ بمضاجعتك الآن».

ابتسمت وقالت: «وأنا أيضاً».

أمسكا بأيدي بعضهما من فوقِ الطاولةِ.

وهنا دخلَ ريتشارد.

فتحَ البابَ على مصراعيهِ ثمَّ دخلَ بوجهِ مُحمرٍ من الحرِّ ومغطى بالغبارِ يقودُ جواداً مُتعرقاً.

«أحملُ أخباراً سيئةً»، قال لاهثاً.

رفعت آليانا تومي عن الأرضيةِ حتَّى لا يطأهُ الجوادُ بحوافرهِ، وسألَ جاك ريتشارد: «ما الذي حدثَ؟»

«علينا جميعاً مغادرةُ كينغزبريدج بحلولِ الغدِ»، أجاب ريتشارد.

«ولكن لماذا؟» سألَ جاك.

«ينوي وليم هاملي إحراقَ البلدةِ مجدداً يومَ الأحد».

«لا!» صرخت آليانا.

تجمَّدَ جاك في مكانهِ، واستعاد ما حدثَ منذُ ثلاثةِ أعوامٍ عندما اقتحمَ رجالُ وليم سوقَ الصوفِ بمشاعلهم المُتلظيةِ، وهراواتهم الضخمةِ. تذكرَ حجمَ الرُعبِ، والصراخِ، ورائحةَ اللحمِ المُحترقِ، وتذكرَ جثةَ زوجِ والدتهِ على الأرضِ، وجبهتهُ المُهشمة، وشعرَ بالغثيانِ الشديدِ.

«كيفَ علمتَ بهذا؟» سأل جاك.

«كنتُ في شايرنغ، ورأيتُ بعضاً من رجالِ وليم يشترون أسلحةً من متجرِ صانعِ الدروعِ».

«هذا لا يعني...»

«هناك المزيد. لحقت بهم إلى حانةٍ، وأصغيتُ إلى أحاديثهم. طرحَ أحدهم سؤالاً عن تحصيناتِ كينغزبريدج، وأجابَ آخر أنَّ كينغزبريدج لا تملكُ أيَّةَ تحصيناتٍ».

قالت آليانا: «يا إلهي! إذاً، هذا حقيقي»، ونظرت إلى تومي ثمَّ وضعت يدها على بطنها. رفعت نظرها، والتقت عيناها بعيني جاك. كانا يفكران بالأمرِ عينهِ.

تابعَ ريتشارد كلامه: «ولاحقاً تحدثت إلى بعضهم. كانوا شباباً لا يعرفونني. أخبرتهم عن معركةِ لينكولن، وما إلى هناكَ وأنني أبحثُ عن فرصةٍ للقتالِ، فأشاروا عليَّ بالذهابِ إلى قلعةِ شايرنغ، ولكن يجب أن أذهبَ اليومَ لأنَّهم سيغادرون غداً للقتالِ يومَ الأحد».

«الأحد!» قال جاك بصوتٍ كالهمسِ من شدةِ الخوفِ.

«توجهت إلى قلعةِ شايرنغ لأتأكدَ حقاً مما قالوه».

قالت آليانا: «كانَ هذا عملاً خطيراً يا ريتشارد».

«ورأيـت هناك كلَّ الدلائلِ التي كنتُ أبحثُ عنها: رسلٌ يدخلون ويخرجون، وأسلحةٌ يتمُّ شحذها، وجيادٌ تُدربُ، وعُددُها تُنظف... ووقتئذٍ لم يعد لدي أدنى شكٍ حيالَ صحةِ الأمرِ». وبصوتٍ يفيضُ حقداً أنهى ريتشارد كلامه: «شرُّ وليم لا يعرفُ حدّاً، ولذلكَ يريدُ اقترافَ المزيدِ»، ووضعَ يدهُ على أذنهِ اليُمنى متحسساً النُدبةَ الحمراء بتوترٍ.

لوهلةٍ أمعنَ جاك النظرَ إلى ريتشارد. صحيحٌ أنَّ ريتشارد عاطلٌ عن العملِ ومُبذرٌ إلّا أنّه يُمكن الوثوق بحُكمهِ في المسائلِ العسكريةِ، ولذلكَ إن كان وليم يخطط للإغارةِ على كينغزبريدج؛ فإنَّ ريتشارد على الأغلبِ محقٌّ في تخمينهِ. «هذهِ كارثةٌ»، قال جاك كأنَّه يتحدث إلى نفسهِ. منذُ ثلاثةِ أعوامٍ أُحرقَ سوقُ الصوفِ، ومنذُ عامين انهارت الكاتدرائيةُ فوقَ رؤوسِ الرعيةِ، والآن هذا. سيقول الناسُ إنَّ الحظَّ السيئ عاودَ كينغزبريدج، وحتّى إن تجنبوا سفكَ الدماءِ بالهربِ من البلدةِ، فإنَّها ستُدمر، ولن يرغب أحد في العيشِ هنا، أو القدومِ إلى السوقِ، أو العملِ فيها، بل قد يتسبب الأمرُ في إيقافِ أعمالِ بناءِ الكاتدرائيةِ.

قالت آليانا: «يجبُ أن نُخبرَ رئيسَ الديرِ فيليب على الفورِ».

أومأ جاك برأسهِ وقال: «لا بدَّ أنَّ الرهبان يتناولون العشاءَ الآن. لنذهب».

حملت آليانا تومي، وهرعوا باتجاهِ الديرِ في ضوءِ الغسقِ.

قال ريتشارد: «عندما ينتهي بناءُ الكاتدرائيةِ يمكنهم إقامةُ السوقِ في الداخلِ».

«ولكنهم يحتاجون الآن إلى مدخولِ السوقِ من أجلِ تكاليفِ بناءِ الكاتدرائيةِ»، أجاب جاك.

انتظرَ ريتشارد مع آليانا وتومي في الخارجِ بينما دخلَ جاك إلى قاعةِ طعامِ الرهبانِ. كان هناك راهبٌ يقرأ بصوتٍ عالٍ باللاتينيةِ بينما البقيةُ يتناولون الطعامَ في صمتٍ. ميزَ جاك النصّ الذي يقرأه؛ فقد كان من سفرِ الرؤيا. وقفَ عندَ البابِ، والتقت عيناه بعيني فيليب الذي بدا متفاجئاً لرؤيتهِ، ولكنه نهضَ عن الطاولةِ، وتوجهِ إليهِ مباشرةً.

«أحملُ أخباراً سيئةً»، قال جاك بحدَّةٍ ثمَّ أضاف: «سأدع ريتشارد يُطلعكَ عليها».

تحدثوا في عتمةِ المذبحِ المرمم، وكانت عتمةً شبيهةً بعتمةِ كهفٍ. أطلعَ ريتشارد فيليب على التفاصيل باختصارٍ، وعندما انتهى قال فيليب: «ولكننا لا نقيمُ سوقَ صوفٍ بل مجرَّد سوقٍ كبيرٍ».

قالت آليانا: «إننا على الأقلِّ نملكُ فرصةَ إخلاءِ البلدةِ، وعدمِ تعريض أحدٍ إلى الأذى، وستتمكن من إعادةِ بناءِ منازلنا كما فعلنا في المرةِ السابقةِ».

«هذا صحيح ما لم يقرر وليم بملاحقةِ اللاجئين»، قال ريتشارد بحدةٍ. «وأنا لا أستبعد قيامَهُ بهذا».

«حتَّى وإن هربنا جميعاً فستكون هذه نهايةَ سوقِ كينغزبريدج»، قال فيليب عابساً ثمَّ تابع: «سيخاف الناسُ من نصبِ أكشاكهم في كينغزبريدج بعد هذا».

قال جاك: «وهذا يعني نهايةَ مشروعِ بناءِ الكاتدرائيةِ. خلالَ السنواتِ العشر المنصرمةِ أُحرقت الكنيسةُ مرَّةً، وانهارت، وقُتلَ العديدُ من البنَّائين عندما أُحرقت البلدةُ، ولذلكَ أعتقدُ أنَّ حدوثَ كارثةٍ أخرى سيقضي على كلِّ شيءٍ وسيقولُ الناسُ إنَّ المدينةَ منكوبةٌ».

بدا فيليب مكروباً، ورغمَ علمِ جاك أنَّ فيليب لم يبلغ الأربعين بعد فإنَّ التجاعيد قد بدأت تظهرُ على وجهه، وبدا شعرُ غرَّتهِ الكهنوتية رمادياً أكثر مما هو أسود. على أيِّ حالٍ لمعت عيناه الزرقاوان بطريقةٍ خطرةٍ وهو يقول: «لن أقبل بهذا، فأنا لا أعتقدُ أنَّها إرادةُ الرَّبِّ».

تساءل جاك في نفسهِ عمَّا عناه فيليب بكلامهِ، وكيفَ أنَّه «لن يقبلَ بهذا»، يُمكنُ للدجاجِ أن يعترضَ قدرَ ما شاءَ على الثعلبِ، ولكن هذا لن يغيرَ مصيرها قيدَ أنملةٍ. «وما الذي ستفعلهُ إذاً؟» سألَ جاك مُشككاً. «ستُصلي للرَّبِّ أن يقعَ وليم عن سريرهِ الليلةَ ويكسرَ عنقهُ؟»

تحمَّسَ ريتشارد لفكرةِ المقاومةِ وقال: «فلنقاتل. لِم لا؟ هناك المئات منا. سيُحضرُ وليم معهُ خمسين رجلاً، وفي أحسنِ الأحوالِ قد يأتي مئة، ورغمَ هذا ستبقى الكفةُ راجحةً لمصلحتنا لأننا أكثرُ عدداً».

احتجَّت آليانا قائلةً: «وما عدد الذين سيُقاتلون من سكان البلدةِ؟»

هزَّ فيليب رأسهُ، وقال في أسفٍ: «لا يُمكن للرهبانِ أن يُقاتلوا، ولا يمكنني أن أطلبَ من سكانِ البلدةِ التضحيةَ بحيواتهم في الوقتِ الذي لا يمكنني فيهِ المخاطرةُ بحياتي».

قال جاك: «ولا يمكنكَ أيضاً الاعتمادُ على رجالي؛ فالقتال ليسَ من مواصفاتِ عملهم».

نظرَ فيليب إلى ريتشارد الذي كان أقربَ خبيرٍ عسكري موجود. «هل توجد طريقةٌ يمكننا فيها الدفاعُ عن البلدةِ من دونِ الدخول في معركةٍ؟»

«ليسَ من دونِ أسوارٍ حولَ البلدةِ»، قال ريتشارد. «فليسَ هناكَ ما يفصلُ بينَ سلاحِ عدونا وأجسادنا».

«أسوارٌ»، قال جاك وغرقَ في التفكيرِ.

قال ريتشارد: «يمكننا أن نتحدى وليم ونحلَّ المسألةَ بمعركةٍ واحدةٍ؛ معركةٍ بينَ بطلين، ولكن لا أعتقدُ أنَّه سيقبلُ بهذا».

«ولكن أسواراً حولَ البلدةِ ستفي بالغرضِ؟»

قال ريتشارد بنفاد صبرٍ: «قد تكون خيرَ عونٍ لنا في هذهِ المسألة لكن ليسَ الآن بل في المستقبلِ. لا يمكننا بناءُ جدرانٍ بينَ ليلةٍ وضحاها».

«ألا نستطيع؟»

«بالطبعِ لا، لا تكن...»

«اصمت يا ريتشارد»، قال فيليب بقسوةٍ، وحدَّق إلى جاك في ترقبٍ قائلاً: «ما الذي تفكرُ فيه؟»

«بناءُ سورٌ ليسَ بالأمرِ الصعبِ»، قال جاك.

«تابع».

كان ذهنُ جاك في دوامةِ أفكارٍ، وأصغى البقيةُ إليهِ في ترقبٍ. «لا حاجة إلى أقواسٍ، أو أسقفٍ مقنطرةٍ، أو نوافذ، أو أسقفٍ... يمكننا بناءُ سورٍ خلالَ الليل إن توفرت اليدُ العاملةُ والمواد»، قال جاك.

«ومما سنبنيهِ؟» سأل فيليب.

«فلتُلقِ نظرةً من حولكَ»، قال جاك. «لدينا حجارةٌ جاهزةٌ من أجلِ بناءِ الأساساتِ، وكومةٌ من الخشبِ أعلى من منزلٍ، وفي المقبرةِ هناك كومةٌ من رُكامِ الكاتدرائيةِ، وأسفلَ ضفةِ النهرِ كومةٌ كبيرةٌ من الحجارةِ وصلتنا للتو من المقلعِ. لا تنقصنا المواد».

«والبلدةُ ممتلئةٌ بالبنَّائين»، قال فيليب.

أومأ جاك برأسِهِ وقال: «يُمكن للرهبانِ أن يُنظموا الأمورَ بينما يقوم البنَّاؤون بعملهم، أمَّا بالنسبةِ إلى حاجتنا من العمالِ فلدينا البلدة بأكملها». كان يفكرُ ويتحدثُ في آنٍ معاً. «يجبُ أن يمتد السورُ على طولِ ضفةِ النهرِ القريبةِ. سنفكك الجسرَ، وسنضطرُ إلى بناءِ السورِ على طولِ التلِّ عندَ تخومِ الحيِّ الفقيرِ إلى أن يلتقي بالسورِ الشرقي للديرِ... وحتَى الشمالي.... ويعود ليمرَّ عبرَ التلِّ إلى الأسفلِ ثمَّ إلى ضفةِ النهرِ مجدداً. لا أعلم إن كان لدينا ما يكفي من الحجارةِ لهذا...»

قال ريتشارد: «ما من ضرورةٍ لأن يكون السورُ من الحجارةِ كي يكون فعَّالاً. يُمكن حفرُ خندقٍ، واستخدامُ التربةِ التي أُخرجت منهُ لبناءِ متراسٍ، وسيفي هذا بالغرضِ بخاصةٍ في الأماكن التي سيُهاجم فيها العدو أعلى التلةِ».

«سيكون السور الحجري أفضل دونَ شكٍ»، قال جاك.

«سيكون أفضل ولكنه ليسَ أساسياً؛ فالغايةُ من بناءِ سورٍ هي إجبارُ العدو على التمهلِ، وبذلك يُصبح في وضعٍ مكشوفٍ، وهذا بدورهِ سيُمكن المدافع من رميهِ من وراءِ السورِ المحمي».

«رميهِ؟» قالت آليانا. «بماذا؟»

«بالحجارةِ، أو الزيت المغلي، أو السِهام. في كلِّ منزلٍ من منازلِ البلدةِ هناك قوسٌ وسهامٌ...»

سرت قشعريرةٌ في جسدِ آليانا وقالت: «إذاً، القتالُ حتمي».

«ولكنه لن يكون وجهاً لوجه».

شعرَ جاك أنَّ الحيرةَ تمزقهُ. في أسوأ الاحتمالاتِ كان الحلُّ الأسلم هو لجوء الجميعِ إلى الغابةِ على أملِ أن يكتفي وليم بإحراقِ منازلِ البلدةِ، ولكن حتَّى مع هذا الحلِّ ما يزال هناك خطر قيام وليم ورجالهُ بملاحقةِ سكانِ البلدةِ إلى الغابةِ وتصيدهم. هل سيكون الخطرُ في البقاءِ في البلدةِ وراءَ سورٍ أكبر؟ إن ساءت الأمورِ، وعثرَ وليم ورجالهُ على طريقةٍ ما لاختراقِ السورِ ستقعُ مجزرةٌ مهولةٌ. نظرَ جاك إلى آليانا وتومي، وفكرَ بالجنينِ في أحشاءِ آليانا. «هل هناك حلٌّ وسطي؟» سأل جاك. «يمكننا إخلاءُ المدينةِ من النساءِ والأطفالِ بينما يبقى الرجالُ للدفاعِ عنها من وراءِ السورِ».

«لا، شكراً لكَ»، قالت آليانا بحزمٍ. «هذا حلٌّ سيئٌ. إن لم ينفع السورُ، ومات الرجال؛ فلن يعود هناك من يحمينا».

وأدركَ جاك أنَّها كانت على حقٍ. لن يكون سورُ البلدةِ مفيداً من دونِ أناسٍ يدافعون من ورائهِ، ولا يمكن تركُ النساءِ والأطفالِ في الغابةِ مكشوفين؛ فقد يتخلى وليم عن خطةِ إحراقِ البلدةِ، ويتوجه إلى الغابةِ لقتلِ النساءِ فيها».

قال فيليب: «جاك، أنتَ بنَّاء، هل يمكنكَ بناءُ سورٍ في يومٍ واحدٍ؟»

«لم أبنِ سورَ بلدةٍ من قبلٍ»، قال جاك وتابع: «بالطبعِ لن نضطرَ إلى وضعِ خططِ بناءٍ ورسومٍ بل سنُكلف كلَّ بنَّاءٍ بقسمٍ، ونتركَ سيرَ الأمرِ لحكمتهِ. ورغم أنَّ الملاط، وبحلولِ صباحِ الأحدِ، لن يكون قد جفَّ بعد، وسيكون أسوأ سورٍ في إنكلترا، إلا أننا نستطيع إنجازه».

استدارَ فيليب نحو ريتشارد وقال: «شهدت معاركَ. إن بنينا سوراً هل يمكننا صدُّ وليم؟»

«بالتأكيد»، قال ريتشارد. «فقد خططَ وليم لغارةٍ بهدفِ إحراقِ البلدةِ، ولم يخطط لحصارها. ولذلكَ إن وجدَ البلدة محصنَّةً فسيعجز عن اقتحامها وإحراقها».

وأخيراً نظرَ فيليب إلى آليانا وقال: «بما أنَّه لديك طفلٌ، وأنتِ من الضعفاءِ ما رأيكِ؟ هل يجب أن نهربَ إلى الغابةِ على أمل ألا يلحقَ بنا وليم، أم نبقى هنا، ونبني السورَ لصدِّهِ؟»

حبسَ جاك أنفاسهُ في ترقّبٍ.

«المسألةُ ليست مسألةَ أمانٍ» قالت آليانا بعد فترةِ صمتٍ وجيزةٍ. «فيليب، كرَّست حياتكَ من أجلِ هذا الديرِ، أمَّا أنت يا جاك فبناءُ كاتدرائيةٍ حُلمكَ. إن هربنا ستخسران كلَّ شيءٍ تعيشان من أجلهِ. أمَّا بالنسبةِ إلي شخصياً فأنا أرغبُ، ولسببٍ خاصٍ، برؤيةِ شوكةِ وليم تُكسر، ولهذا سأبقى».

«حسناً»، قال فيليب ثمَّ تابع: «سنبني السورَ إذاً».

***

مع هبوطِ الظلامِ قامَ جاك وريتشارد وفيليب بجولةٍ على ضوءِ المصابيحِ على حدودِ البلدةِ لتحديد ما يجبُ عليهم القيامُ بهِ. تقعُ البلدةُ على تلٍ غير مرتفعٍ كثيراً، ويحفّ بها النهرُ من جهتين. كانت ضفةُ النهرِ طينيةً جداً، ولا يمكن بناءُ سورٍ فوقها من دونِ أساساتٍ قويةٍ؛ ولذلكَ اقترحَ جاك بناءَ السورِ

هناك من الخشبِ بدلاً من الحجارةِ، وأبدى ريتشارد رضاه عن هذا الخيارِ قائلاً إنَّ العدو لا يمكنهُ مهاجمة السورِ من جهةِ النهرِ لأنَّ هذا أمرٌ مستحيلٌ.

أمَّا على الجانبين الآخرين فسيكون السورُ سواتر ترابيةً بسيطةً مع خندقٍ، وقالَ ريتشارد إنَّ هذا سيكون فعَّالاً لأنَّ الأرضَ منحدرةً، وسيضطرُ العدو إلى الهجومِ صعوداً، أمَّا في المناطقِ التي كانت فيها الأرضُ مستويةً فسيضطرون إلى بناءِ سورٍ حجري.

طافَ جاك البلدةَ، واستدعى البنَّائين من منازلهم، وأخرجَ بعضهم من أسرَّتهم، والبعضُ الآخر من الحانةِ. شرحَ لهم الوضعَ الطارئ، والطريقة التي ستتعاملُ بها البلدةُ حيالَ الأمرِ ثمَّ طافَ معهم حدودَ البلدةِ، وكلَّف كلَّ بنَّاءٍ بالعملِ على قسمٍ محددٍ. كلَّف النجارين ببناءِ السورِ الخشبي، والبنَّائين ببناء الجزء الحجري منه أمَّا حفرُ السواتر فسيكونُ من مهامِ المُتدربين والعُمال. طلبَ من كلِّ رجلٍ تحديدَ منطقتهِ بالأوتادِ والحبالِ قبلَ أن يخلدوا إلى النومِ حتَّى يفكروا وهم يستسلمون للنوم بكيفيةِ بنائهِ. سرعان ما بدا محيطُ البلدةِ كأنَّه محددٌ بخطٍ مُنقطٍ من الأضواءِ المتراقصةِ التي استخدمها الحرفيون ليضعوا عليها مخطط العملِ. أشعلَ الحدادُ النارَ في الكيرِ، وعملَ طوالَ الليلِ على صُنعِ المجارفِ. تسببَ هذا النشاطُ الليلي غير المعتادِ بتعطيلِ طقسِ وقتِ النومِ على معظمِ سكانِ البلدةِ، وقضى الحرفيون وقتاً لا بأسَ بهِ يشرحون لسكانِ البلدةِ الناعسين ممن أتوا للاستفسارِ ما كانوا يقومون بهِ، أمَّا الرهبانُ الذين خلدوا إلى النومِ بحلولِ هبوطِ الظلامِ فقد ناموا في نعيمِ جهلهم بما يحدثُ.

عندَ منتصفِ الليلِ، وعندما كان الحرفيون يُنهونَ العملَ على التحضيراتِ التي كُلفوا بها، وتوجه معظمُ سكانُ البلدةِ إلى أسرَّتهم للنومِ، أو للتحدثِ بالأمرِ في حماسةٍ مكمومةٍ تحتَ الأغطيةِ. استفاقَ الرهبان وتوجهوا للصلاةِ إلَّا أنَّها كانت سريعةً، ثمَّ قُدمَ لهم الخبزُ والجعةُ في قاعةِ الطعامِ بينما أطلعهم فيليب على ما يجب عليهم القيامُ بهِ غداً. وزعهم في فرقٍ، وعيَّن فرقةً لكلِّ بنَّاءٍ سيعطيهم التعليمات بخصوصِ أعمالِ الحفرِ، ورفعِ وجلبِ وحملِ الموادِ. أكّد لهم فيليب أنَّ أولويتهم الأساسية هي الحرصُ على تزويدِ البنَّائين بالموادِ الأوليةِ من حجارةٍ وملاطٍ وخشبٍ وأدواتٍ.

خلالَ حديثِ فيليب مع الرهبانِ تساءل جاك في نفسهِ عمَّا كان وليم هاملي يفعلهُ الآن. تبعدُ شايرنغ عن كينغزبريدج رحلةَ يومٍ واحدٍ إن تقدَّمت الجيادُ بسرعةٍ، ولكن وليم لن يحاولَ إجهادَ جيشهِ قبلَ وصولهِ إلى البلدةِ. سينطلقون فجرَ هذا اليوم، ولن يتحركوا بعضهم مع بعض بل بشكلٍ منفصلٍ، وسيحرصون على إخفاءِ أسلحتهم ودروعهم مخافةَ إثارة ريبةِ أحدٍ. سيلتقون سِرَّاً في فترةٍ ما بعدِ الظهرِ في مكانٍ يبعدُ ساعةً أو ساعتين عن كينغزبريدج، وقد يكون هذا المكانُ منزلَ أحدِ كبارِ المستأجرين عند وليم. مساءً سيشربون الجعةَ، ويشحذون أسلحتهم، ويخبرون بعضهم بعضاً بقصصٍ مروعةٍ عن انتصاراتٍ سابقةٍ، وعن شُبان شُوهوا، وعجائز سُحقوا تحتَ حوافرِ الجياد، وفتياتٍ ونساءٍ اغتصبنَ، وتعرضن لأفعالٍ جنسيةٍ شنيعةٍ، وأطفالٍ قُطعت رؤوسهم، ورُضَّعٍ بُقرت بطونهم بأطرافِ السيوفِ بينما أمهاتهم يصرخنَ في كربٍ، ثمَّ سيهاجمون كينغزبريدج في صباحِ اليومِ التالي. ارتعشَ جاك من الخوفِ، ورغم أنَّه قال لنفسهِ: «ولكننا هذهِ المرَّة سنوقفهم»، فإنَّه كان فزعاً.

أُعطي كلُّ فريقٍ من الرهبانِ موقعاً عندَ السورِ، وموقعاً للتزودِ بالموادِ الأوليَّةِ، ثمَّ ومع أولِ شعاعٍ للفجرِ في الأفقِ شرقاً انطلقوا إلى المناطقِ المُكلفين بها وهم يقرعون على الأبوابِ، ويوقظون السكان بينما جرسُ الديرِ يرنُّ بإلحاحٍ.

عندما أشرقت الشمس كانت عمليةُ بناءِ السورِ في أوجها. عملَ الشُبانُ والنساءُ بينما من هم أكبر عُمراً جلبوا الطعامَ والشرابَ، وقضى الأطفالُ حاجياتٍ، وأوصلوا الرسائلَ. تجولَ جاك في الموقع بلا توقفٍ يراقبُ تقدَّمَ العملِ بقلقٍ، وأخبرَ المسؤولَ عن مزجِ الملاطِ أن يستخدمَ كميةً أقل من الكلسِ كي يجفَّ الملاطُ بشكلٍ أسرع، ورأى نجاراً يصنعُ سوراً من خشبِ السقالاتِ؛ فطلبَ من العمالِ أن يزودوه بالخشبِ من كومةٍ مختلفةٍ، وحرصَ على أن تلتقي الأجزاءُ المختلفةُ للسورِ بدقةٍ، وألقى بالدعاباتِ، وابتسمَ، وشجَّعَ الناسَ باستمرارٍ.

عندما أصبحت الشمسِ في كبدِ سماءٍ زرقاء صافيةٍ بات واضحاً أنَّ اليومَ سيكون حارَّاً، ولهذا حرصَ مطبخِ الديرِ على تقديمِ براميلِ الجعةِ، ولكن فيليب طلبَ تخفيفها بالماءِ، وأبدى جاك موافقتهُ على هذا القرارِ لأنَّ الناس

عملوا بجدٍ، وسيشربون كثيراً في مثلِ هذا الطقسِ ولم يكن يريدهم أن يستسلموا للنومِ بسببِ الجعةِ القويةِ.

على الرغمِ من الخطرِ الرهيبِ المُحدقِ بهم فإنَّ جواً غريباً من البهجةِ سادَ المكان. كان الأمرُ أشبهَ بأحدِ أيامِ الأعيادِ عندما تقومُ البلدةُ بأكملها بنشاطٍ ما معاً؛ كصُنعِ الخبزِ في عيد الأولِ من آب/ أغسطس، أو صُنعِ أطوافٍ صغيرةٍ للشموعِ وإطلاقها في النهرِ في عيدِ ليلةِ منتصفِ الصيفِ. بدا الناسُ كأنَّهم نسوا الخطرَ الذي يدفعهم للقيامِ بهذا العملِ، ولكن فيليب رأى بعضَ الناسِ يغادرون البلدةَ سِرَّاً. ربما توجهوا إلى الغابةِ، أو على الأغلبِ ذهبوا إلى أقاربهم في القرى المجاورةِ والبقاءِ عندهم، وباستثناءِ أولئكَ القلَّةِ اختارت الغالبيةُ العظمى من سكانِ البلدةِ البقاءَ.

عندَ الظهرِ قرعَ فيليب الجرسَ مجدداً، وتوقفَ الناسُ عن العملِ من أجلِ الغداءِ. قامَ فيليب بجولةٍ على السورِ مع جاك بينما تناول العمالُ الطعام. على الرغمِ من كلِّ العملِ الذي قاموا بهِ حتَّى الآن فإنَّ وتيرةَ التقدمِ بدت لهما بطيئةً؛ فالسورُ الحجري ما زالَ واطئاً، والسواتر الترابيةُ ما تزالُ بارتفاعِ روابٍ خفيضة، وهناك فجواتٌ كبيرةٌ في السورِ الخشبي.

عندَ نهايةِ الجولةِ قال فيليب: «هل سننتهي من العملِ في الوقتِ المحددِ؟»

كان جاك يتعمد البقاءَ مرحاً ومتفائلاً طوالَ الصباحِ، ولكنه أجبرَ نفسهُ الآن على تقديمِ تقييمٍ واقعي.

«بهذا المُعدلِ لن ننتهي»، قال بإحباطٍ.

«ما الذي يمكننا القيامُ بهِ لتسريعِ العملِ؟»

«عادةً، الطريقةُ الوحيدةُ للبناءِ بشكلٍ أسرع هي البناءُ بشكلٍ سيئ».

«إذاً فلنبنِ بشكلٍ سيئ. ولكن كيفَ سنفعلُ هذا؟»

فكرَ جاك قليلاً ثمَّ قال: «حالياً البناؤون من يبنون السورِ، والنجارون يصنعون الأسيجةَ، والعمال يقومون بأعمالِ الحفرِ، وسكانُ البلدةِ يحملون ويحضرون المواد، ولكن معظمَ النجارين قادرون على بناءِ سورٍ مستوٍ، ومعظمُ العمالِ يستطيعون بناءَ الأسيجةِ، ولهذا فلنجعل النجارين يساعدون البنَّائين في بناءِ السورِ الحجري، ولنطلب من العمالِ بناءَ الأسوارِ، ولندع سكان البلدةِ يحفرونَ الخندقَ ويصنعون السواتر، وحالما تسيرُ الأمورُ

بشكلٍ سلسٍ بعدَ هذهِ التغييرات يمكنُ للرهبان تركُ أعمالِ التنظيمِ، وتقديم يدِ العونِ».

«حسناً».

خلالَ فترةِ ما بعدِ الظهرِ بدأ التعبُ ينالُ من الناسِ، خاصةً أولئك الذين عملوا طوالَ الليلِ، وتبخرَ الجو الاحتفالي الذي أحاطَ بالمكان صباحاً، وتابعَ العمالُ عملهم بعزمٍ ولكن بوجوهٍ مُكفهرةٍ. بدأ السورُ يرتفع، والخندقُ يزداد عُمقاً، والفجواتُ في السياجِ تختفي. توقفوا عن العملِ لتناولِ العشاء، وعندما بدأت الشمس تغيبُ وراءِ خطِ السماءِ الغربي استأنفوا العملَ.

عندما هبطَ الظلامُ لم يكونوا قد انتهوا من العملِ.

نظَّمَ فيليب حراسةً، وطلبَ من الجميعِ، باستثناءِ الحُرَّاسِ، أخذَ قسطٍ من النومِ لبضعِ ساعاتٍ، وقال إنَّه سيقرعُ الجرسَ في منتصفِ الليلِ، وخلدَ سكانُ البلدةِ المُرهقين إلى النومِ.

ذهبَ جاك إلى منزلِ آليانا، ووجدها وريتشارد صاحيين.

قال جاك لآليانا: «أريدكِ أن تأخذي تومي وتختبئي في الغابةِ».

شغلت الفكرةُ بالَ جاك طوالَ اليومِ، ورغمَ أنَّه في البدايةِ رفضها، ولكن مع مرورِ الوقتِ لم تفارق ذهنهُ تلك الذكرى الرهيبة لذلكَ اليومِ الذي أحرقَ فيهِ وليم سوقَ الصوفِ، ولذلكَ قررَ في النهايةِ أن يطلبَ منها المغادرة.

«أفضلُ البقاءَ»، قالت بحزمٍ.

«آليانا، لستُ واثقاً من نجاحِ الأمرِ، ولا أريدكِ أن تتواجدي هنا في حال تجاوزَ وليم السورَ»، قال جاك.

«ولكنني لا أستطيعُ المغادرة، وأنتَ تنظمُ أمرَ بقاءِ الجميع للقتالِ»، حاججتهُ بعقلانيةٍ.

ولكن قلقَ جاك كان أكبرَ من أيِّ حجةٍ منطقيةٍ. «إن ذهبتِ الآن فلن يعرفَ أحدٌ بهذا».

«ولكنهم سيعرفون في نهايةِ المطافِ».

«وعندئذٍ سيكون الهجومُ قد انتهى».

«ولكن فكر بالعارِ بعدَ ذلكَ».

«اللعنةُ على العارِ!» صرخَ جاك في غضبٍ ويأسٍ لعجزهِ عن إيجادِ الكلماتِ المناسبةِ وإقناعها. «أريدكِ أن تكوني بأمانٍ!»

استيقظَ تومي على صوتهِ الغاضبِ وانخرط في البكاءِ؛ فحملتهُ آليانا وهدهدتهُ ثمَّ قالت: «أنا لستُ واثقة من أنني سأكون بأمانٍ في الغابةِ أيضاً».

«لن يُفتشَ وليم الغابةَ. فما يهمهُ هو البلدة».

«قد يكون مُهتماً بي».

«يمكنكِ الاختباءُ في الفُرجةِ. فلا أحد يذهبُ إلى هناك».

«ولكن قد يجدها وليم صدفةً خلالِ بحثهِ عني».

«أصغِ إلي. ستكونين بأمانٍ أكبر هناك. أنا أعلمُ هذا».

«ولكنني أرغبُ بالبقاءِ هنا».

«لا أريدكِ أن تبقي هنا»، أجابها بقسوةٍ.

«ولكنني سأبقى على أيِّ حالٍ»، أجابتهُ بابتسامةٍ متجاهلةً قسوتهُ المقصودة.

كبحَ جاك نفسهَ كيلا يُطلقَ السبابَ. يعلم أنَّ الجدالَ معها يغدو عقيماً حالما تحسمُ أمرها. كانت عنيدةً كحمارٍ، ولذلكَ بدأ يترجاها: «آليانا، أنا خائفٌ مما قد يحدثُ غداً».

«وأنا خائفةٌ أيضاً»، قالت له ثمَّ تابعت: «ولذلكَ أعتقدُ أننا يجبُ أن نخاف معاً».

علمَ جاك أنَّ عليهِ الاستسلامِ بلباقةٍ، ولكن قلقهُ كان عظيماً. «اللعنةُ عليكِ إذاً»، قال بغضبٍ وخرجَ.

وقفَ في الخارجِ يتنفسُ هواءَ الليلِ، وبعدَ مرورِ بضعِ دقائقٍ هدأت أعصابهُ. كان ما يزالُ يشعرُ بالقلقِ، ولكنهُ أدركَ الآن أنَّ الغضبَ منها حماقةٌ فقد يموتان في صباحِ الغدِ.

عادَ إلى الداخلِ، ووجدها واقفةً في المكانِ الذي تركها فيهِ، وعلائم الحزنِ على وجهها. «أحبُّكِ»، قال لها، وعانقها، وبقيا متعانقين لفترةٍ طويلةٍ.

عندما غادرَ جاك منزلَ آليانا كان القمرُ عالياً في سماءِ الليلِ. حاولَ أن يُهدئ من روعهِ بالتفكيرِ أنَّ آليانا قد تكون على حقٍ، وأنَّها قد تكون بأمانٍ

أكبر هنا مما قد تكون عليهِ في الغابةِ، علاوةً على ذلكَ سيعرفُ على الأقلِّ إن كانت في خطرٍ، ويبذلَ جهدهُ لحمايتها.

علمَ أَنَّه لن يغمضَ له جفنٌ حتَّى وإن تمددَ على السريرِ. تملكهُ خوفٌ سخيفٌ من أن يظلَّ الجميعُ نائمين حتَّى بعدَ منتصفِ الليلِ، وألّا يصحوا إلا فجراً عندما يُغير رجالُ وليم على البلدةِ، ويذبحون السكانَ، ويحرقونها. تجول بقلقٍ على أطرافِ البلدةِ، وأدرك أنَّ بلدةَ كينغزبريدج وبما يدعو للعجب لم يكن لها حدود حتَّى اليوم. وصلَ ارتفاعُ السورِ الآن إلى الخصرِ، وهذا لم يكن كافياً، أمَّا الأسيجة ورغم أنَّها كانت عاليةً فإنَّ هناك فجواتٍ كبيرةً كفايةً ليدخلَ منها مئةُ رجلٍ خلالَ لحظاتٍ. لم تكن السواتر الترابية عاليةً كما يجب وما يزالُ جوادٌ جيدٌ قادراً على تسلقها. ما زال هناك الكثير للقيامِ بهِ.

توقفَ في المكانِ الذي كان فيهِ الجسرِ وقد فككوه الآن، ووضعوا أجزاءهُ في الديرِ. نظرَ جاك إلى الماءِ المضاءِ بنورِ القمرِ، ورأى خيالاً يقتربُ على طولِ السياجِ الخشبي. ارتعشَ في خوفٍ متطيرٍ، ولكنه اكتشفَ أنَّه رئيسِ الديرِ. يبدو أنَّ النوم جافاه أيضاً.

في هذهِ اللحظةِ شعرَ جاك أنَّ الضغينةَ التي يكنّها لفيليب تماهت مع خطرِ هجومِ وليم، ولم يعد يشعر بالعدائيةِ نحو فيليب.

«إن نجونا من هذا الهجوم سيتعين علينا بناءُ هذا السورِ بعنايةٍ وببطءٍ»، قال جاك.

«أوافقكَ»، قالَ فيليب بحماسةٍ. «يجب أن يكون هدفنا تطويقُ المدينةِ بسورٍ حجري خلالَ عامٍ».

«وبالتحديدِ هنا، حيثُ الجسرُ، سأبني بوابةً وبرجاً مُحصناً حتَّى نُبعدَ الناسَ دونَ أن نضطرَّ إلى تفكيكِ الجسرِ».

«إن تنظيم تحصينات البلدةِ ليس بالأمرِ الذي نبرعُ فيها نحن الرهبان».

أومأ جاك برأسهِ؛ فهو يعلمُ أنَّ الرهبان لا يُفترض بهم التورط في أعمالٍ عنيفةٍ أيّاً يكن نوعها.

«ولكن إن لم تُنظِّم الأمور بنفسكَ فمن سيفعل؟» سألَ جاك.

«ماذا عن ريتشارد شقيق آليانا؟»

بوغتَ جاك بهذا الاقتراح، ولكن بعدَ برهةٍ من التفكيرِ أدركَ أنَّها فكرةٌ عبقريةٌ. «سيُبلي حسناً في هذا، وسيشغلُ نفسَهُ في أمرٍ، ويتوقف عن التسكع، ولن أضطرَ إلى إعالتِهِ أيضاً»، قال جاك بحماسةٍ، ورغماً عنه نظرَ إلى فيليب باحترامٍ ثمَّ قال: «أنتَ لا تتوقف، أليسَ كذلك؟»

هزَّ فيليب كتفيهِ وقال: «أتمنى لو أنَّ جميعَ مشاكلنا تُحلُّ بهذهِ البساطةِ».

وعادَ جاك إلى موضوعِ السورِ قائلاً: «أعتقدُ أنه ومنذُ الآن ستصبح كينغزبريدج بلدةً مُحصَّنةً».

«ليسَ للأبدِ بل حتَّى قيامةِ المسيحِ».

«من يدري»، قال جاك وهو غارقٌ في التأملِ. «قد يأتي وقتٌ لا يعودُ فيهِ الهمجُ من أمثالِ وليم هاملي أصحاب سُلطةٍ، ويحمي القانونُ الناسَ العاديين بدلاً من استعبادهم، ويعملُ الملكُ على إحلالِ السلامِ بدلاً من شنِّ الحروبِ. فكر في الأمرِ. قد يأتي زمنٌ لن تحتاج فيهِ البلداتُ الإنكليزيةُ إلى أسوارٍ!»

هزَّ فيليب رأسه وقال: «يا لها من فكرةٍ رائعةٍ! ولكن هذا لن يحدث أبداً قبلَ يوم القيامةِ».

«لا أعتقدُ هذا».

«لا بدَّ أنَّ الوقتَ اقتربَ من منتصفِ الليلِ. لقد حان الوقتُ لنعاودَ العملَ».

«فيليب، قبلَ أن تذهب...»

«ماذا؟»

أخذَ جاك نفساً عميقاً وقال: «لا يزال لدينا وقتٌ لتغيير خطتنا، وإخلاءِ المدينةِ الآن».

«هل أنتَ خائف يا جاك؟» سألَ فيليب بنبرةٍ قاسيةٍ.

«أجل، ولكن ليسَ على نفسي بل على عائلتي».

أومأ فيليب برأسِهِ وقال: «فلتنظر إلى الأمرِ من هذهِ الزوايةِ: إن غادرتَ الآن فستكون على الأغلبِ بأمانٍ في الغدِ، ولكن وليم سيأتي في يومٍ آخر. إن سمحنا له بالنجاةِ بفعلتِهِ غداً سنعيشُ في خوفٍ دائمٍ منهُ. أنتَ وأنا وآليانا وتومي الصغير أيضاً الذي سيكبرُ خائفاً من وليم، أو من أشخاصٍ كوليم».

وفكرَ جاك أنَّ فيليب على حقٍ. إن أرادَ الآباء لأطفالهم أن يكبروا أحراراً فيجبُ عليهِم التوقف عن الهربِ من أمثالِ وليم.

تنهدَ جاك وقال: «حسناً».

ذهبَ فيليب لقرعِ الجرسِ بينما بقي جاك في مكانه يفكرُ أنَّ فيليب وبصفتِهِ الحاكم هنا يحافظُ على السلمِ، ويُحقُّ العدلَ، ولا يضطهد الفقراءَ، ولكن هل يتطلبُ هذا بقاءهُ متعفّفاً؟

قُرِعَ الجرس، وأضاءت الأنوارُ من وراءِ نوافذِ المنازلِ المغلقةِ، وخرجَ الحرفيون يفركون أعينهم، ويتثاءبون. بدأوا العملَ بوتيرةٍ بطيئةٍ، ووقعت بعضُ الملاسنات بينَ العمالِ، ولكن فيليب طلبَ من مخبزِ الديرِ العملَ، وسرعان ما حصلَ الجميعُ على الخبزِ الساخنِ والزبدةِ وابتهجوا.

عندَ الفجرِ قام جاك وفيليب بجولةٍ أخرى، وهذهِ المرَّةَ تفحصا الأفقَ المُظلمِ بقلقٍ بحثاً عن علائم على وصولِ الجنودِ. يكادُ العملُ على حاجزِ النهرِ ينتهي بسببِ تعاونِ النجارين معاً لإنهاءِ الأجزاءِ الأخيرةِ منهُ، أمَّا على الجانبين الآخرين فقد وصلَ فيهما ارتفاعُ السواتر الترابيةِ إلى قامةِ رجلٍ، ومنحها الخندق أمامها ارتفاعاً إضافياً لثلاثةِ أو أربعةِ أقدام. يمكنُ لرجلٍ أن يصعدها، ولكن بصعوبةٍ ويجب أن يكون راجلاً. كان ارتفاعُ السورِ أيضاً بطولِ قامةِ رجلٍ، غير أنَّ صفوفَ الحجارةِ الأخيرةِ كانت ضعيفةً تماماً بسببِ عدمِ جفافِ الملاطِ بعد. على أيِّ حالٍ لن يعلمَ العدو بهذا إلى أن يحاولَ تسلّقَ السورِ، وفي تلكَ المرحلةِ قد يصبح السورُ الضعيفُ عائقاً أمام تقدمهِ.

باستثناءِ الفراغاتِ في السورِ الخشبي يكاد العملُ ينتهي، ولذلكَ أصدرَ فيليب أوامر جديدةً. أمرَ المواطنين المسنين والأطفال باللجوءِ إلى الديرِ، وسرَّ جاك بهذا لأنَّ آليانا ستضطرُ إلى البقاءِ مع تومي، وسيكون الاثنان بعيدين عن الخطوطِ الأماميةِ. أشارَ فيليب أيضاً إلى الحرفيين باستئنافِ أعمالِ البناءِ، ولكن بعدَ أن أخذَ بعضَ عُمالهم، ونظَّمهم في سَرايا عسكريةٍ تحتَ قيادةِ ريتشارد، وكُلفت كلُّ مجموعةٍ بحمايةِ القسمِ الذي بنتهُ من السورِ، أمَّا سكانُ البلدةِ من الرجالِ والنساءِ ومن امتلكوا أقواساً فأخذوا مواقعهم عندَ السورِ لرمي العدو بالسهامِ، أمَّا من لم يمتلك أسلحةً أشار عليهم فيليب بتجهيزِ أكوامٍ من الحجارةِ لِرمي العدو بها. كان الماءُ المغلي

من الأسلحةِ الأخرى المفيدةِ، ولذلك جُهزت قدورٌ منها لسكبها على المهاجمين في نقاطٍ استراتجيةٍ. امتلكَ العديدُ من سكانِ البلدةِ سيوفاً، ولكنهم لن يستخدموها إلّا في حالِ أصبحَ القتالُ مباشراً، وهذا بعدَ اختراقِ العدو للسورِ الذي سيذهبُ جُهدُ بنائهِ عندئذٍ أدراجَ الرياحِ.

لم ينم جاك منذُ يومين، ولذلك عانى من صداعٍ، وشعرَ كأنَّ رملاً في عينيهِ. جلسَ على السطحِ القشّي لمنزلٍ قربَ النهرِ، وراقبَ الأفقَ بينما النجارون يُنهون العملَ على السورِ بعجلةٍ. وفجأةً أدركَ أنَّ رجالَ وليم قد يطلقونَ سهاماً مشتعلةً فوقَ السورِ في محاولةٍ لإحراقِ البلدةِ بعدَ عجزهم عن اختراقِ السورِ، ولذلك نهضَ بقلقٍ عن السطحِ، ونزلَ ثمَّ هرعَ أعلى التلِّ باتجاهِ ساحةِ الدير، وهناك وجدَ ريتشارد واكتشفَ أنَّ الأخيرَ فكرَ بهذا الاحتمالِ، وطلبَ من الرهبان تجهيزَ براميل مياه ودلاء، ووضعها في نقاطٍ استراتجيةٍ على امتدادِ حدودِ البلدةِ.

وأثناءَ مغادرتهِ الديرَ سمعَ ما خُيلَ إليه صرخات تحذيرية.

شعرَ بقلبهِ يخفقُ بقوةٍ، وتسلقَ سطحَ إسطبلٍ ثمَّ نظرَ غرباً باتجاه الحقولِ. رأى على بُعدِ ميلٍ، على الطريقِ الذي يُفضي إلى الجسرِ، سحابةَ غبارٍ تفضحُ اقترابَ مجموعةٍ كبيرةٍ من الجنودِ.

حتَّى هذهِ اللحظةِ أحاطَ شيءٌ من الوهم بالأمرِ، ولكن ها هم الآن الرجالُ الذين يريدون إحراقَ كينغزبريدج قد وصلوا ويعبرون الطريقَ. وفجأةً باتَ الخطرُ حقيقياً بشكلٍ رهيبٍ.

شعرَ جاك برغبةٍ مفاجئةٍ في البحثِ عن آليانا، ولكن لم يكن لديهِ وقتٌ؛ فقفزَ عن السطحِ، وهبطَ التّلةَ ركضاً باتجاهِ ضفةِ النهرِ. كانَ حشدٌ من الرجالِ يعملون على سدِّ الفجوةِ الأخيرةِ من السورِ، راقبهم جاك وهم ينصبون أوتاداً في الأرضِ، ويُنهونَ ملء الفراغاتِ، وتسمير الألواحِ في الخلفِ. باستثناءِ من لجأوا إلى قاعةِ الطعامِ في الديرِ كانَ جميعُ سكانِ البلدةِ هنا. بعدَ وصولِ جاك بعدّةِ لحظاتٍ أتى ريتشارد مسرعاً وهو يصرخُ: «لا يوجدُ أحدٌ على الجانبِ الآخرِ من البلدةِ! قد تتسللُ مجموعةٌ أخرى من ورائنا! عودوا إلى مواقعكم بسرعةٍ!» وتحرَّك الجميعُ بينما دمدمَ ريتشارد لجاك: «لا يوجد انضباطٌ... لا يوجدٌ انضباطٌ على الإطلاقِ!»

حدَّق جاك عبرَ الحقول، وراقبَ سحابةَ الغبارِ تقتربُ، وأشكال الجنودِ تتضحُ. بدوا له كشياطين من الجحيمِ عازمين بجنونٍ على القتلِ والتدميرِ. إنهم موجودون لأنَّ الإيرلات والملوكَ بحاجةٍ إليهم، وفكرَ جاك في نفسهِ أنَّ فيليب غبي في أمورِ الحبِّ والزواجِ، ولكنهُ وجدَ طريقةً لإدارةِ مجتمعٍ كاملٍ، ومن دونِ مساعدةِ مثلِ أولئكَ المقاتلين البرابرة.

كان التفكيرُ بمثلِ هذهِ الأمورِ، وفي هذهِ اللحظةِ، أمراً غريباً. هل هذا ما يفكرُ بهِ الرجالُ عندما يصبحون على مشارفِ الموتِ؟

اقتربَ الجنودُ أكثر، وكانوا أكثرَ عدداً بخمسين جندياً مما توقعَ ريتشارد. استنتجَ جاك أن العددَ يكادُ يقتربُ من المئةِ. كانوا متوجهين إلى الجسرِ، ولكنهم بدؤوا يُبطئونَ، وارتفعت معنويات جاك عندما رآهم يوقفون جيادهم فجأةً، ويتوقفون عندَ المرجِ على الجانبِ الآخرِ من النهرِ. وفيما كان الجنودُ يحدقونَ عبرَ النهرِ إلى السورِ الجديدِ الذي يطوقُ البلدةَ سمعَ جاك أحداً بقربهِ يضحكُ ثمَّ انضمّ إليهِ شخصٌ لينتشرَ الضحكُ بينَ الجميعِ كالنارِ في الهشيمِ. غرقَ مئتا رجلٍ وامرأةٍ في الضحكِ من منظرِ الجنودِ المُحرجين والعالقين على الضفةِ الأخرى من النهرِ دون أحدٍ ليقاتلوه.

ترجَّل العديدُ من أولئكَ الجنودِ عن جيادهم واحتشدوا. اعتقد جاك، وهو ينظرُ عبرَ ضبابِ الصباحِ الخفيفِ، أنَّه لمحَ الشعرَ الأشقرَ والوجهَ المُحمر لوليم هاملي وسط المجموعةِ، ولكنه لم يكن واثقاً من دقةِ ما رآه.

بعدَ وهلةٍ امتطى الرجالُ جيادهم مجدداً، وانتظموا ثمَّ غادروا. هللَ سكانُ كينغزبريدج بصوتٍ عالٍ، ولكن جاك لم يكن و[illegible] من أنَّ وليم استسلمَ فهم لم يعودوا من الطريقِ الذي أتوا منه، وبدلاً من ذلكَ توجهوا إلى أعلى النهرِ. وهنا وقفَ ريتشارد بجانبِ جاك وقال له: «إنَّهم يبحثون عن معبرٍ مائي. سيعبرون النهرَ، ويقطعونَ الغابةَ، ويباغتوننا من الجانبِ الآخرِ. أخبر الجميعَ بهذا».

ركضَ جاك على طولِ السورِ مُطلعاً الجميعَ على ما أخبرهُ بهِ ريتشارد. كانت الأجزاء الشمالية والشرقية للسورِ مبنيةٌ من الحجارةِ أو الترابِ، ولكن النهرَ لا يمرُّ هناك بل على الجانبِ الآخر المتصل بالسورِ الشرقيِ لساحةِ الديرِ، الذي يقع على بُعدِ عدَّةِ خطواتٍ من قاعةِ طعامِ الديرِ حيثُ لجأت

آليانا وتومي. كان ريتشارد قد وضعَ تاجرَ الخيول أوزلد وديك، ريتشارد ابن الدَّباغ على سطحِ مستشفى الديرِ، وحملَ كلا الرجلين قوسيهما وسهامهما. كانا أفضلَ رماةِ البلدةِ. بعدَ ذلكَ توجه جاك إلى الزاويةِ الشماليةِ الشرقيةِ، ووقفَ على أحدِ السواترِ الترابيةِ ثمَّ نظرَ عبرَ الحقولِ باتجاهِ الغابةِ حيثُ توقعَ خروج رجال وليم.

علت الشمسُ في كبدِ السماءِ، وكان نهاراً حاراً وصافياً. قدَّم الرهبانُ للناسِ المرابطين على طولِ السورِ الخبزَ والجعةَ. تساءل جاك في نفسهِ إلى أيِّ مدى قد يذهبُ وليم أعلى النهرِ؛ فهناك مكانٌ على بُعدِ ميلٍ يمكنُ فيهِ لجوادٍ جيدٍ أن يقطعَ النهرَ، ولكن الغريبَ عن المنطقةِ سيراه خطيراً، وهذا يعني أنَّ وليم سيقطعُ مسافةً أبعد لضمانِ الوصولِ إلى معبرٍ مائي ضحلٍ.

تساءل جاك في نفسهِ عن شعورِ آليانا الآن، وأرادَ الذهابَ إلى قاعةِ الطعامِ لرؤيتها، ولكنه ترددَ بمغادرةِ السور لأنَّه لو فعلَ هذا فسيفعلُ البقيةُ مثلهُ، وسيبقى السور من دونِ حمايةٍ.

وبينما كان يكبحُ إغراءَ الذهابِ لرؤيةِ آليانا في قاعةِ الطعامِ سمعَ صرخةً ورأى الجنودَ.

رآهم يخرجون شرقاً من الغابةِ، وعجزَ جاك عن رؤيتهم جيداً بسببِ وهجِ الشمسِ في عينيهِ. لا شكَّ أنَّ الأمرَ مقصودٌ، وبعدَ برهةٍ أدركَ أنَّهم لا يقتربون بل يُهاجمون. لا بدَّ أنَّهم عسكروا في الغابةِ بعيداً عن الأنظارِ، وعاينوا المكانَ ثمَّ خططوا للهجومِ. شعرَ جاك بالتوترِ من شدَّةِ الخوفِ. لم يكونوا قادمين بنيَّةِ معاينةِ السورِ والمغادرةِ بل اختراقهِ.

اندفعت الجيادُ عبرَ الحقلِ، وأطلقَ واحد أو إثنين من سكان القريةِ السهامَ على المهاجمين. صرخَ ريتشارد الواقف قربَ جاك بغضبٍ: «ما زالوا بعيدين! انتظروا إلى أن يصبحوا في الخندقِ حتَّى لا تخطئوهم». لم يسمعهُ سوى القليل منهم، وسقطَ وابلٌ خفيفٌ من السهامِ هدراً على براعمِ الشعيرِ الخضراء في الحقلِ. فكرَ جاك في نفسهِ: «كقوةٍ عسكريةٍ وضعنا ميئوسٌ منه، ولذلك فإنَّ السورَ أملنا الوحيد».

حملَ جاك بإحدى يديهِ حجراً، وبالأخرى مقلاعاً كالذي استخدمهُ في صباه لصيدِ البطِّ من أجلِ الغداءِ، وتساءل في نفسهِ إن كان ما يزالُ يحتفظُ

بمهارتهِ في الرمي. أدركَ أنَّه يُمسك المقلاعِ بقوةٍ فأجبرَ نفسهُ على إرخاءِ قبضتهِ. كانت الحجارةُ سلاحاً فعّالاً لصيدِ البطِّ، ولكنها تبدو ضعيفةً جداً أمامَ الرجالِ المُسلحين على جيادهم الكبيرةِ المندفعةِ بسرعةٍ كالرعدِ. ابتلعَ جاك لعابهُ بصعوبةٍ من شدةِ التوترِ. رأى بعضَ جنودِ العدو يحملون أقواساً وسهاماً مشتعلةً، وبعدَ وهلةٍ أدركَ أنَّ الجنود الذين يحملون الأقواس يتجهون إلى الجزء الحجري من السورِ، أمَّا الآخرون فقد توجهوا إلى السواتر الترابيةِ، وهذا يعني أنَّ وليم استنتجَ أنَّه لا يستطيعُ اختراقَ السورِ الحجري، ولم يُدركْ أنَّ الملاطَ ما يزال حديثاً، ويمكنه إطاحةُ السورِ بيدهِ. نجحوا في خداعهِ، واستمتعَ جاك بشعورٍ لحظي بالانتصارِ.

وصلَ المهاجمون إلى الأسوار.

أطلقَ سكانُ البلدةِ السهامَ بشراسةٍ، وتساقطَ مطرٌ من السهامِ السريعةِ فوقَ الجنودِ، وعلى الرغمِ من عدمَ دقةِ تصويبهم فإنَّهم نجحوا في حصدِ بعضِ الضحايا. وصلت جيادُ الجنودِ الآخرين إلى الخندقِ. بعضها توقفَ أمامَ الخندقِ، وبعضها الآخر نزله ثمَّ صعدَ إلى الجانبِ الآخرِ. قبالةَ المكان الذي وقفَ فيهِ جاك رأى جندياً ضخماً في سترةٍ مهترئةٍ من الزردِ يقفزُ من على صهوةِ جوادهِ فوقَ الخندقِ، ويستقرُ على مرتفعٍ خفيضٍ على الجهةِ المقابلةِ ويصعدهُ. وضعَ جاك حصاةً في مقلاعهِ ورمى. كانت رميتهُ جيدةً كما كانت في السابقِ، وأصابت الحصاةُ الجوادَ الذي كان يصارعُ للوقوفِ على الأرضِ غيرِ المستقرةِ للمرتفعِ في أنفهِ فصهلَ من الألمِ، وتراجع إلى الوراءِ، واستدارَ. ورغمَ أنَّ الجوادَ ابتعدَ فإنَّ الجندي رمى بنفسهِ، ورفعَ سيفهُ.

كانت معظمُ الجيادِ قد استدارت عائدةً إمَّا بإرادتها أو لأنَّ راكبيها حثوها على العودةِ على أعقابها، ولكن كان هناك الكثيرُ من الجنود ممن هاجموا راجلين، وآخرون استداروا استعداداً للقيام بهجومٍ جديدٍ. ألقى جاك نظرةً إلى الوراءِ، ورأى العديدَ من الأسطحِ القشيَّةِ مشتعلةً على الرغمِ من محاولاتِ عاملاتِ الإطفاءِ اللواتي كُنَّ من شاباتِ البلدةِ على إخمادها. وهنا عبرت فكرةٌ رهيبةٌ في ذهنِ جاك. قد لا ينجح الأمر في نهاية المطافِ.

على الرغمِ من المحاولاتِ البطوليةِ خلالَ الساعاتِ الست والثلاثين

الماضيةِ فإنَّ أولئكَ الجنود البرابرة سيخترقون السورَ، ويحرقونَ البلدةَ، ويدمرون الناسَ.

ارتعبَ كثيراً من تصاعدِ الوضعِ إلى قتال مباشرٍ؛ فهو لم يتعلم القتالَ قط، ولم يستخدم سيفاً في حياتِه، ولم يمتلك واحداً، وكانت تجربتهُ الوحيدةُ في مجالِ القتالِ عندما أشبعهُ آلفريد ضرباً، وشعرَ وقتئذٍ بالعجزِ.

هجمَ الجنودُ ممن كانوا على صهواتِ الخيل مجدداً، أمَّا من هربت جيادهم فصعدوا السواتر راجلين. انهالَ وابلٌ من الحجارةِ والسهامِ على الجنودِ، وضربَ جاك بمقلاعهِ بانتظامٍ؛ فقد كان يضع الحصاةَ ويرمي ويكررُ الأمرَ كأنَّه آلةٌ. سقطَ العديدُ من المهاجمين تحتَ هذا الوابلِ، وأمامَ جاك تماماً سقطَ أحدهم عن جوادهِ وفقدَ خوذتهُ كاشفاً عن شعرٍ أشقرٍ. كان وليم هاملي نفسهُ.

لم تصل الجيادُ إلى أعلى السواترِ الترابيةِ، ولكن بعضَ الرجالِ وصلوا راجلين، وارتعبَ جاك عندما رأى أنَّ سكانَ البلدةِ اضطروا إلى الاشتباك معهم، وواجهوا سيوفَ ورماحَ المهاجمين بالعصي والفؤوسِ. وصلَ بعض المهاجمين إلى قمةِ السواتر، ورأى جاك ثلاثةً أو أربعةً من سكانِ البلدةِ قربهُ يُصرعون. امتلأ قلبهُ بالرعبِ؛ فقد كان سكانُ البلدةِ يخسرون.

أحاطَ كلُّ ثمانيةٍ أو عشرةِ أفرادٍ من سكانِ البلدةِ بمهاجمٍ، وانهالوا عليهِ بالعصي، وضربوه بلا رحمةٍ بالفؤوسِ، ورغمَ أنَّ العديدَ منهم جُرحوا فإنَّ المُهاجمين قُتلوا على الفورِ، ثمَّ بدأ سكانُ البلدةِ في دفعِ بقيةِ المهاجمين باتجاهِ أسفل السواترِ. تراجعَ المهاجمون، وأولئك الذين بقوا على صهواتِ جيادهم داروا في المكانِ بحيرةٍ بينما استمرت المناوشاتُ المفتوحةُ على السواترِ. أخذَ جاك استراحةً سريعةً لاهثاً وممتناً على هذا الوقتِ المستقطعِ، وانتظرَ في رهبةٍ الخطوة التالية التي سيقوم بها العدو.

رفعَ وليم سيفهُ في الهواءِ، وصرخَ عالياً ليجذبَ انتباهَ رجالِه، ثمَّ لوحَ بسيفِه بحركةٍ دائريةٍ لحشدهم ثمَّ أشارَ إلى السورِ الحجري. أعادَ الرجالُ تنظيمَ أنفسهم، وحضروا أنفسهم للهجومِ على السور مجدداً.

ورأى جاك في ذلكَ فرصةً.

التقطَ حصاةً ووضعها في مقلاعهِ، ووجهها بدقةٍ نحو وليم.

طارت الحصاةُ في الهواءِ بتلكَ الدقةِ المستقيمةِ التي يمتلكها أيُّ بنَّاءٍ، وأصابت وليم في منتصفِ جبهتهِ بقوةٍ كبيرةٍ سمعَ معها جاك ارتطامَ الحجرِ بالعظمِ.

ووقعَ وليم أرضاً.

بدا الرجالُ حائرين ثمَّ انفرطَ الهجومُ.

قفزَ رجلٌ أسمر ضخمٌ عن جوادِهِ وركضَ نحو وليم. اعتقدَ جاك أنَّ الرجلَ السائسُ والتر الذي يرافقُ وليم على الدوامِ. ركعَ والتر وهو ما يزالُ ممسكاً بعنانِ جوادهِ بجانبِ جسدِ وليم المُسجى أرضاً. لوهلةٍ تمنَّى جاك أن يكون وليم ميتاً، ولكن الأخيرَ تحرَّك، وساعدهُ والتر على الوقوفِ على قدميهِ. بدا وليم دائخاً، والجميعُ على كلا جانبي القتالِ يراقبون الرجلين، ولبعضِ الوقتِ توقفَ وابلُ الحجارةِ والسهامِ.

امتطى وليم الذي ما زالَ يبدو دائخاً جوادَ والتر بمساعدةِ الأخيرِ ثمَّ صعدَ وراءهُ. لبرهةٍ أصيبَ الجميعُ بالحيرةِ، وتساءلوا في أنفسهم إن كان وليم سيتمكن من متابعةِ القتالِ. وهنا لوحَ والتر بسيفهِ بحركةٍ دائريةٍ كي يحتشد المهاجمون ثمَّ، وبشكلٍ باعثٍ على راحةٍ لا توصف، أشارَ والتر بسيفهِ إلى الغابةِ.

همزَ والتر جوادهُ وانطلقَ مُبتعداً.

لحقَ بقيةُ الجنودِ بوالتر، ومن كانوا يُقاتلون استسلموا، وتراجعوا، وركضوا عبرَ الحقلِ وراءَ قائدهم، وفي إثرهم سقطت بضعةُ حجارةٍ وسهامٍ وسطَ حقلِ الشعيرِ.

هللَ سكانُ البلدةِ.

نظرَ جاك من حولهِ وهو يشعرُ بالدوارِ، ويتساءلُ في نفسهِ إن انتهى الهجوم، وعجزَ عن تصديقِ الأمرِ. كانت النيرانُ قد أُخمدت فقد نجحت النساءُ في السيطرةِ عليها أمَّا الرجالُ فرقصوا على السواتر، وعانقوا بعضهم بعضاً. صعدَ ريتشارد باتجاهِ جاك وضربهُ على ظهرهِ قائلاً: «لقدَ نجحَ السورُ يا جاك... لقد نجحَ سوركَ».

احتشدَ سكانُ البلدةِ والرهبانِ حولَ الرجلين، وأراد الجميعُ تهنئة جاك وتهنئة بعضهم بعضاً.

«هل غادروا حقاً؟» سألَ جاك.

«أجل»، أجابَ ريتشارد وأضاف: «ولن يعودوا مجدداً، خاصةً بعدَ أن اكتشفوا أنَّنا عازمون على حمايةِ بلدتنا المسورةِ. يعلمُ وليم أنَّ اقتحام بلدةٍ مسورةٍ بسكانٍ عازمين على القتال غير ناجح إلَّا بمساعدةِ جيشٍ كبيرٍ، وحصارٍ قد يمتد لستةِ أشهرٍ».

«إذاً، انتهى الأمرُ»، قال جاك بحُمقٍ.

شقَّت آليانا وتومي على ذراعيها طريقها بينَ الحشدِ. عانقها جاك بقوةٍ. كانوا جميعاً على قيدِ الحياةِ، ومع بعضهم، وشعرَ بالامتنانِ على هذا.

وفجأةً شعرَ جاك بنعاسٍ فقد كان صاحياً منذ يومين. أراد الاستلقاءَ، ولكن لم يكن هذا ممكناً؛ فقد حملهُ بنَّاءان شابان على أكتافهما وسط صيحاتِ تهليلٍ ثمَّ تحركا، ولحقَ بهم الحشدُ. أرادَ جاك أن يقولَ لهم إنَّه لم يكن من أنقذهم، بل هم من أنقذوا أنفسهم، ولكنه علمَ أنَّهم لن يُصغوا إليهِ لأنَّهم أرادوا بطلاً. عندما انتشرَ الخبرُ في أرجاءِ البلدةِ، وأدركَ الجميع أنَّهم انتصروا غدا التهليلُ مدوياً، وفكرَ جاك في نفسهِ أنَّهم عاشوا لسنواتٍ في خوفٍ من وليم هاملي، وها هم اليومَ يظفرون بحريتهم من هذا الخوفِ. حملوا جاك على الأكتافِ، وداروا بهِ في أرجاءِ البلدةِ في مسيرةٍ احتفاليةٍ، وهو يلوحُ ويبتسم للجميعِ، ويتوقُ إلى اللحظةِ التي يريح فيها رأسهُ، ويغلقُ عينيهِ، ويغرقُ في نومٍ هانئٍ.

– 3 –

كان سوقُ الصوفِ في شايرنغ هذا العام أكبر وأفضل من الأعوامِ السابقةِ، واكتظت الساحةُ أمامَ كنيسةِ الأبرشيةِ حيثُ تُقامُ الأسواقُ، وتُجرى الإعداماتُ أيضاً، بالأكشاكِ والناسِ. رغمَ أنَّ الصوف السلعةُ الأساسيةُ هنا فإنّ كلَّ ما يُمكن أن يُشترى أو يُباع في إنكلترا عُرِضَ أيضاً: سيوفٌ جديدةٌ لامعةٌ، وسروجٌ مزخرفةٌ، وخنازير صغيرةٌ وسمينةٌ، وجزمٌ حمراء، وكعكُ الزنجبيلِ، وقبعاتٌ قشيَّةٌ. جالَ وليم مع الأسقفِ ويلارن في السوقِ، ورغمَ أنَّه وصلَ إلى استنتاجٍ أنَّ السوقَ سيدرُّ عليهِ مالاً أكثر من ذي قبلٍ، فإنّه لم يجد بهجةً في الأمرِ.

كان ما يزالُ مشمئزاً من نفسهِ على الإذلالِ الذي لحقَ بهِ بعدَ هزيمتهِ في

كينغزبريدج. توقعَ مهاجمة بلدةٍ مفتوحةٍ، وإحراقها بسهولةٍ، ولكنه في ذلكَ الهجومِ خسرَ جنوداً وجياداً، واضطرَّ إلى التراجعِ من دونِ تحقيق شيءٍ، وأسوأ ما في الأمرِ علمهُ أنَّ بناءَ السورِ من عملِ جاك، حبيب آليانا، والرجل الذي يرغبُ بقتلهِ.

على الرغمِ من فشلهِ في قتلِ جاك فإنَّه ما زال عازماً على الأخذِ بثأرهِ.

كان ويلارن يفكرُ بأمرِ كينغزبريدج أيضاً ولذلكَ قال: «مازلت لا أفهم كيفَ بنوا السورَ بهذهِ السُرعةِ».

«على الأغلب لم يكن سوراً متيناً»، قال وليم.

أومأ ويلارن برأسهِ وقال: «ولكنني واثقٌ من أنَّ رئيسِ الديرِ فيليب مشغولٌ الآن بتحسينهِ. لو كنتُ مكانهُ لحرصت على جعلِ الجدرانِ أقوى وأعلى، بل سأبني برجاً، وأعينُ حارساً ليلياً. لقد ولَّت أيامُ إغارتكَ على كينغزبريدج».

وافقهُ وليم الرأي ولكنه تظاهرَ بعكسِ هذا قائلاً: «ما زالَ بوسعي محاصرة البلدةَ».

«هذهِ مسألةٌ مختلفةٌ. قد يغضُّ الملكُ النظرَ عن إغارةٍ سريعةٍ، ولكنَّ حصاراً طويلاً يُمكن فيهِ لسكانِ البلدةِ إرسالُ رسالةٍ إلى الملكِ يطلبون فيها حمايته... لن يكون هذا عملاً مناسباً».

«لن يقوم ستيفن بشيءٍ ضدي»، قال وليم. «فهو يحتاجني». لم يحاجج وليم عن قناعةٍ فقد قررَ أنَّه في النهايةِ سيُذعن لوجهةِ نظرِ الأسقفِ، ولكنه أرادَ لويلارن أن يجتهدَ في إقناعهِ كي يشعر أنَّه مُلزم لوليم بطريقةٍ ما، وعندئذٍ سيُقدم وليم الطلبَ الذي يُلقي بظلالهِ الثقيلةِ عليهِ.

خرجت امرأةٌ نحيلةٌ وقبيحةٌ تدفعُ أمامها فتاةً جميلةً في الثالثة عشرة تقريباً وتبدو كابنتها. رفعت الأمُّ طرفَ ثوبِ الفتاةِ الفضفاضِ كاشفةً عن ثديين صغيرينِ غير ناضجين بعد. «ستون بنساً»، همست الأمُّ، وشعرَ وليم بالرغبةِ تتحركُ في أحشائهِ، ولكنه هزَّ رأسهُ رافضاً، وابتعدَ عنها.

دفعتهُ الفتاةُ العاهرةُ إلى التفكيرِ بآليانا فقد كانت أكبرَ منها بقليلٍ عندما اغتصبها. ورغم أنَّ هذا حدثَ قبل عشرةِ أعوامٍ، فإنَّه منذئذٍ لم يتمكن من نسيانها. قد لا يتمكن من الحصولِ عليها لنفسهِ، ولكنه ما زالَ قادراً على منعِ أيِّ أحدٍ من الحصولِ عليها.

كان ويلارن غارقاً في أفكارهِ، وبالكادِ نظرَ أمامهُ وهو يسير، ولكن الناسَ ابتعدوا عن طريقهِ كأنَّهم ارتعبوا من لمسِ أطرافِ ردائهِ الأسودِ، وبعدَ برهةٍ قال: «هل سمعتَ أنَّ الملكَ سيطرَ على فارينغدن؟»

«كنتُ معهُ»، كانت السيطرة على فارينغدن أكثرَ الانتصاراتِ حسماً في هذهِ الحربِ الأهليةِ الطويلةِ. أسرَ ستيفن مئات الفرسانِ، وحصلَ على الكثيرِ من الأسلحةِ، ودفعَ بروبرت غلوستر إلى التراجعِ حتَّى ويست كاونتي. كان الانتصارُ حاسماً إلى درجةِ أنَّ رانولف تشيستر، عدو الملكِ القديمِ في الشمالِ، ألقى بأسلحتهِ وأقسمَ بالولاءِ للملكِ.

قال ويلارن: «بما أنَّ وضعَ ستيفن الآن باتَ أكثرَ أماناً فهو لن يغضَّ الطرفَ عن قيامِ باروناتهِ بحروبهم الخاصةِ».

«ربما»، قال وليم متسائلاً في نفسهِ إن كانت هذهِ اللحظةَ المناسبةَ لعرضِ طلبهِ، ولكنه ترددَ فقد كان مُحرجاً. إن الطلبَ الذي أرادهُ من ويلارن سيفضحُ شيئاً ما في روحهِ، وكرهَ وليم فعلَ هذا أمامَ رجلٍ متحجر القلبِ كالأسقفِ ويلارن.

«يجب أن تتركَ كينغزبريج وشأنها، على الأقلِّ لبعضِ الوقتِ»، تابعَ ويلارن. «لديكَ الآن سوقُ الصوفِ السنوي، والأسواقُ الأسبوعية رغمَ أنَّها الآن أصغر مما كانت عليهِ سابقاً، وبيدك تجارةُ الصوفِ، وأكثر الأراضي خصوبةً في المقاطعةِ، إمَّا تحت إدارتكَ المباشرةِ أو بإدارةِ مستأجريكَ. ووضعي أيضاً أفضل مما كان عليهِ سابقاً. لقد حسّنْت ملكياتي، ورشَّدتُ أراضي المُستأجرة، وبنيتُ قلعةً، ولم أعد مُضطراً إلى المخاطرةِ بقتالِ رئيسِ الديرِ فيليب في هذهِ الفترةِ السياسيةِ الخطيرةِ».

كان الناسُ في أرجاء الساحةِ يُعدون ويبيعون الطعامَ، ولذلكَ عبقَ الهواءُ بروائحِ الحساءِ المُتبلِ بالبهاراتِ، والخبزِ الطازجِ، والحلويات، ولحم الخنزيرِ المسلوقِ، واللحمِ المقددِ المقلي، وفطائر التفاحِ. شعرَ وليم بالغثيانِ من هذهِ الروائحِ وقال: «فلنذهب إلى القلعةِ».

غادرَ الرجلان ساحةَ السوقِ، وصعدا التلةَ باتجاهِ القلعةِ حيثُ سيُقدم لهما المأمورُ الغداءَ، وعندَ بوابةِ القلعةِ توقفَ وليم وقال: «ربما أنتَ على حقٍ بأمرِ كينغزبريدج».

«يسرّني أنَّكَ تعتقدُ هذا أيضاً».

«ولكني ما زلتُ أرغبُ بالانتقامِ من جاك، وبوسعك مساعدتي في هذا إن شئت».

علا أحدُ حاجبي ويلارن في عجبٍ، ولاحَ على وجههِ تعبيرٌ ينمُّ عن رغبةٍ بالإصغاء، ولكن دون أن يلزمهُ هذا الإصغاء بشيء.

وتابع وليم: «قدَّمت آليانا طلباً بإبطالِ زواجها».

«أجل، أعلمُ هذا».

«وما هي النتيجةُ برأيكَ؟»

«يبدو أن الزواجَ لم يكتمل».

«هل هذا كلُّ ما يتطلبهُ الأمرُ؟»

«على الأغلب. وفقاً لغراتيان، وهو رجلٌ متعلمٌ التقيته قبلاً، يقوم الزواج على القبولِ المشتركِ من كلا الطرفينِ، ولكن غرايتان يشددُ أيضاً على الاتحاد الجسدي الذي «يُكملُ» الزواجَ، وهو في هذا الشأن يقولُ إنَّ الرجلَ لو أرادَ الزواجَ بامرأةٍ، ولم يعاشرها ثمَّ تزوج بأخرى وعاشرها فإنَّ الزواج الثاني، الزواج الذي حدثت فيهِ المعاشرةُ، هو الزواج الشرعي. لا بدَّ أنَّ الفاتنةَ آليانا قد ذكرت هذا في طلبها، هذا إن طلبتَ المشورةَ خلالَ تقديمها للطلبِ، وأتخيلُ أنَّها طلبت مشورةَ رئيسِ الديرِ فيليب».

كان وليم قد ضاقَ ذرعاً بهذا الكلامِ النظري ولذلكَ قال: «إذاً سيحصلون على إبطالِ للزواجِ».

«ما لم يُقدم أحدٌ حجةً تطيحُ بُحجةِ غراتيان. في الحقيقةِ هناك حُجتان؛ الأولى لاهوتية، والأخرى عملية. الحجةُ اللاهوتية هي أن تعريفَ غراتيان يسيء إلى قصةِ زواجِ يوسف ومريم بما أنَّ الزواجَ لم يكتمل بالمعاشرةِ، أمَّا الحُجةُ العمليةُ فتقفُ وراءها أسبابٌ سياسيةٌ أو اقتصادية غايتها دمجُ الأملاكِ، ومثلُ هذهِ الزيجاتِ عادةً ما تُرتبُ بين طفلين غير قادرين جسدياً على إتمامِ الزواجِ. إن توفيت العروسُ أو العريسُ قبلَ سنِ البلوغِ، ووفقاً لتعريفِ غراتيان، عندئذٍ يمكنُ إبطالُ الزواجِ، وهذا بدورهِ سيتأتى عن تبعاتٍ سيئةٍ في حالة الزيجات القائمة على مصالح سياسية أو مادية».

شعرَ وليم بالعجزِ عن متابعةِ سماعِ هذهِ الجدالاتِ اللاهوتيةِ الملتويةِ ولكنه عرفَ جيداً كيفَ تحلُّ في النهايةِ. «ما تعنيهِ بقولكَ أنَّ الجدالَ قد يذهبُ في كلا الاتجاهين».

«أجل».

«والاتجاهُ الذي تذهبُ فيهِ يعتمدُ على من يضغطُ أكثر».

«أجل. في حالةِ آليانا لا يوجد شيءٌ على المحكِّ، لا مُلكيات، ولا أحلاف، ولا تحالفات عسكرية. ولو أنَّ هناك شيئاً أكبر على المحكِ، وشخصاً ما كرئيسِ الأساقفةِ على سبيلِ المثالِ قدَّمَ حُجةً قويةً ضدَّ غراتيان؛ فقد يتمُّ رفضُ طلبِ إبطالِ الزواجِ»، قال ويلارن وألقى نظرةً فاحصةً على وليم جعلتِ الأخيرَ يرغبُ في التلوي على نفسهِ من الخجلِ. «أعتقدُ أنني أعرفُ ما الذي تريدُ طلبهُ مني».

«أريدكَ أن تعارضَ إبطالَ الزواجِ».

ضيَّقَ ويلارن عينيهِ ناظراً إلى وليم وقال: «لا أفهمُ حقاً ما إن كنتَ تحبُّ هذه المرأةَ المسكينةَ، أم تكرهها».

«ولا أنا»، قال وليم. «ولا أنا أيضاً».

***

جلست آليانا على العشبِ في فيء شجرةِ زانٍ خضراء ضخمةٍ، وقطيراتُ ماءِ الشلالِ ترتدُّ من على الصخورِ وتستقر على قدميها. هنا في هذهِ الفُرجةِ أخبرها جاك بكلِّ تلكَ القصصِ، وهنا أيضاً قبلها القبلةَ الأولى بسرعةٍ وبشكلٍ عرضي ووقتئذٍ أقنعت نفسها أنَّه لم يقبلها. هنا وقعت في حبِّ جاك، ورفضت الاعترافَ به، حتَّى لنفسها، وها هي الآن تتمنى من كلِّ قلبها لو أنَّها منحت نفسها له آنذاك، وتزوجتهُ، وأنجبت أطفالهُ وأصبحت، ورغمَ كلِّ الظروفِ، زوجتهُ.

استلقت كي تريحَ ظهرها الذي آلمها. كان الوقتُ الآن ذروةَ الصيفِ، والهواءُ ساكناً وحارّاً. كان حملها مُتعباً، وما يزالُ أمامها ستةُ أسابيع حتَّى تلد. اعتقدت أنَّها قد تكون حاملاً بتوأمٍ، ولكنَّ الركلات التي شعرت بها كانت في مكانٍ واحدٍ، وعندما وضعت مارثا أذنها على بطنِ آليانا لم تسمع سوى دقاتِ قلبِ طفلٍ واحدٍ.

كانت مارثا تعتني بتومي عصرَ هذا اليومِ حتَّى يتسنى لجاك وآليانا الالتقاء في الغابةِ، والانفراد قليلاً للتحدثِ في أمرِ مستقبلهما. كان رئيسُ الأساقفةِ قد رفضَ طلبَ إبطالِ الزواجِ، ويبدو أنَّ الأسقفَ ويلارن من أبدى اعتراضهُ في هذهِ المسألةِ. قال لهما فيليب إنهما يستطيعان تقديمَ الطلبِ مرَّةً أخرى، ولكن يجب أن يعيشا منفصلين حتى آنذاك، وقال أيضاً إنَّه مثلهما يرى في الأمرِ ظُلماً، ولكنه خَلصَ إلى القولِ إنَّها مشيئةُ الرَّبِّ، وشعرت آليانا أنَّ الأمر حقدٌ من الرَّبِّ أكثر مما هو مشيئةٌ.

تماماً كما كانت آليانا تحملُ بطفلٍ يتحرك في أحشائها، حملت معها مرارةَ الندمِ أينما ذهبت. في بعضِ الأحيانِ تشعرُ بهذا الندمِ قوياً، وفي أحيانٍ أخرى تنساه، ولكنه لا يفارقها أبداً، وغالباً ما يتسببُ بإيلامها إلَّا أنَّ ألمهُ بات أليفاً. ندمت على إيذاءِ جاك، وعلى ما فعلتهُ بنفسها لرفضها حبَّه، بل وندمت على معاناةِ الحقودِ آلفريد الذي يعيشُ الآن في شايرنغ، ولم يزر كينغزبريدج قط. تزوجت بآلفريد لسببٍ وحيدٍ، وهو دعمُ ريتشارد كي يستعيد إرثَ والدهِ، ولكنها فشلت في تحقيقِ هدفها، وراحَ حبها الحقيقي لجاك ضحيةَ الأمرِ. كانت في السادسةِ والعشرين، وحياتها مُحطمة، وكلُّ هذا كان من صُنعِ يديها.

عادتَ بذاكرتها في حنينٍ إلى أيامها الأولى مع جاك عندما التقتهُ، وهو ما يزالُ مجرَّد صبي صغيرٍ غريب الأطوارِ، وحتَّى بعدَ أن كبرَ لم تتغير نظرتها نحوهُ، وبقي في نظرها مجرَّد صبي، إلا أنَّها بقيت تراقبهُ. رفضتْ كلَّ من تقدَّمَ لها، ولكنها لم تفكر قط بجاك كخطيبٍ لها، ولهذا سمحت له أنْ يتعرَّف عليها، وتساءلت في نفسها عن سببِ مقاومتها لحبهِ. كانت تعشقهُ، ولم يكن من متعةٍ في حياتها تضاهي متعةَ النومِ معهُ، ومع ذلكَ وفي وقتٍ مضى رفضت بإصرارٍ مثلَ هذهِ السعادةِ.

كلما عادت بذاكرتها بدت لها حياتها قبلَ جاك فارغةً، وما من شيءٍ فيها سوى حمى العملِ لبناءِ تجارةِ الصوفِ، ولكن الآن تبدو لها تلكَ الأيامُ خاليةً من أيِّ متعةٍ، كقصرٍ فارغٍ، أو طاولةٍ فوقها صحونٌ فضيةٌ، وأكوابٌ ذهبيةٌ، ولكن من دونِ طعامٍ.

سمعت وقعَ أقدامٍ ونهضت على الفورِ. كان جاك. بدا نحيلاً ورشيقاً

كهرٌ هزيلٍ. جلسَ قربها وقبَّلها على فمها برقّةٍ. كانت تفوحُ منهُ رائحةُ العرقِ وغبار الحجارةِ.

«الطقسُ حارٌ»، قال لها ثمَّ تابع: «فلنسبح في الجدولِ».

كان إغراءُ الدعوة لا يُقاوم.

خلعَ جاك ثيابهُ. راقبتهُ، وحدَّقت إليهِ في جوعٍ. لم تره عارياً منذُ أشهرٍ. كان الشعرُ الأحمرُ على ساقيهِ كثيفاً، ولكن ليسَ على صدرهِ. نظرَ إليها في دعوةٍ لتتعرى، ولكنها شعرت بالخجلِ؛ فهو لم يرها عاريةً خلال حملها. حلَّت ياقةَ ثوبها الكتاني، ورفعتهُ ببطءٍ من فوقِ رأسها. راقبت تعابيرَ وجههِ في خوفٍ من أن يكرهَ منظرَ جسدها المنتفخِ، ولكنه لم يبدِ أيَّ اشمئزازٍ، بل على العكسِ ارتسمَ على وجههِ تعبيرٌ يشي بالإعجابِ، وفكرت في نفسها أنَّه كان عليها توقع هذا، وأن تعلمَ أنَّه سيحبها بذاتِ القوةِ وكيفما كانت.

وفي حركةٍ سريعةٍ ركعَ على الأرضِ أمامها، وقبَّلَ جلدَ بطنها المشدودَ فضحكت من الحرجِ. لامسَ سُرَّتها وقال: «سُرَّتكِ بارزةٌ».

«علمتُ أنَّك ستقولُ هذا!»

«كانت أشبه بغمازةٍ وهي الآن تشبهُ الحلمةَ».

شعرت بالخجلِ. «لنسبح»، قالت له، وفكرت أنَّ حرجها سيكون أقل في الماءِ.

كانت البركةُ قربَ الشلالِ بعُمقِ ثلاثةِ أقدامٍ. انزلقت آليانا في الماءِ، وشعرت بهِ بارداً بشكلٍ لذيذٍ على جلدِها الساخنِ، وارتعشت من المتعةِ. اقتربَ جاك منها؛ فلم يكن هناك مساحةٌ كبيرةٌ للسباحةِ لأنَّ عرضَ البركةِ لا يتجاوزُ بضعةَ أقدامٍ. غمرَ جاك رأسهُ تحتَ الماء، وغسلَ شعرهُ من غبارِ الحجارةِ. شعرت آليانا بالراحةِ في الماءِ فقد خففَ عنها وزنَ حملها، وبدورها غمرت رأسها تحتَ الماء، وغسلت شعرها.

وعندما أخرجت رأسها من الماءِ قبَّلها جاك.

غمغمت، وضحكت وهي تلهثُ وتفركُ عينيها ثمَّ قبَّلها مجدداً. أفردت يديها كي تتوازن، وعندما أطبقت قبضتها على ما يشبه القضيبَ القاسي المنتصب بين ساقي جاك كسارية شهقت من اللَّذةِ.

«لقد اشتقتُ إلى هذا»، همسَ لها جاك في أذنها، وخرجَ صوتهُ خشناً يفورُ بالشبقِ وبشعورٍ آخر قد يكون الحزنَ.

شعرت آليانا بحلقها جافاً من الرغبةِ وقالت: «هل سنحنثُ بوعدنا لفيليب؟»

«سنفعلُ الآن وإلى أبدِ الآبدين».

«ما الذي تعنيهِ؟»

«لن نعيشَ بعدَ اليومِ منفصلين بل سنغادر كينغزبريدج».

«وماذا تخططُ؟»

«سأذهبُ إلى بلدةٍ أخرى، وأبني كاتدرائيةً أخرى».

«ولكنكَ لن تكون كبيرَ البنَّائين، ولن تعملَ على تصميمكَ».

«قد أحظى في يوم من الأيامِ بفرصةٍ ثانيةٍ فمازلتُ شاباً».

علمت آليانا أنَّ الأمرَ ممكنٌ، ولكن كلّ الدلائلِ تشيرُ إلى عكسِ ذلكَ، وبدورهِ علمَ جاك هذا أيضاً. حرَّكت التضحيةُ التي يُزمعُ القيامَ بها من أجلها الدموعَ في عينيها. لم يُحبها أحدٌ بهذهِ الطريقةِ من قبلٍ، ولن يفعلَ أحد ذلكَ أبداً، ولذلكَ لم تكن مستعدةً لجعلهِ يتخلى عن كلِّ شيءٍ.

«لن أفعلَ هذا»، قالت له.

«ما الذي تعنينه؟»

«لن أغادرَ كينغزبريدج».

بدا غاضباً وسألها: «ولماذا؟ إن غادرنا يمكننا العيشُ معاً كزوجٍ وزوجة في أيِّ مكانٍ نذهبُ إليهِ ولن يهتمَّ أحدٌ لأمرنا، بل يمكننا الزواجُ في كنيسةٍ».

لمست وجههُ وقالت له: «أحبّك كثيراً، وإلى درجةِ أنني لن أسمحَ لنفسي بسلبكَ كاتدرائية كينغزبريدج».

«أنا من قررَ هذا».

«جاك، أنا أحبكَ لعرضكَ هذا علي، ولكن حقيقة أنَّكَ مستعدٌ للتخلي عن حُلمِ حياتكَ للعيشِ معي ... تكادُ تفطرُ قلبي. لا أريدُ أن أكونَ المرأةَ التي تسلبكَ العملَ الذي تحبهُ، ولستُ مستعدةً لمجاراتكَ في هذا لأنَّ هذا سيرمي بظلالٍ ثقيلةٍ على حياتنا. قد تسامحني، ولكنني لن أسامحَ نفسي إن سمحتُ لكَ».

بدا جاك حزيناً وقال: «أعلمُ أنني لن أستطيعَ تغييرَ قرارِكِ، ولكن ماذا نحن فاعلان؟»

«سنجرِّبُ إبطالَ الزواجِ مجدداً، وسنعيشُ مُنفصلين».

بدا جاك بائساً.

أنهت آليانا كلامها قائلةً: «وسنأتي كلَّ أحدٍ إلى هنا، ونحنثُ بوعدنا».

ضغطَ بجسدهِ على جسدها وشعرت بهِ يُستثارُ مجدداً. «كلَّ أحدٍ؟» سألها.

«أجل».

«قد تحملين مجدداً».

«سنجربُ حظنا، وأنا سأعاودُ العملَ على تصنيعِ القماشِ كما فعلت سابقاً. اشتريت صوفَ فيليب غير المباع مجدداً، وسأعملُ مع سكانِ البلدةِ على غزلهِ وحياكتهِ ثمَّ سأقومُ بدعكهِ في الطاحونةِ».

«وكيفَ دفعتِ لفيليب؟» سألها متفاجئاً بما أخبرتهُ بهِ.

«لم أدفع له بعد. سأدفعُ له بالقماشِ عندما أنتهي منهُ».

أومأ جاك برأسهِ وقال بمرارةٍ: «وهو وافقَ على هذا لأنَّه يريدكِ أن تبقي هنا حتَّى أبقى معكِ».

أومأت آليانا برأسها: «ولكنه سيحصلُ على قماشٍ رخيصٍ بالمقابلِ».

«اللعنةُ على فيليب، إنَّه دوماً يحصلُ على ما يريدهُ».

وبعد أن رأت آليانا أنَّها ربحت الجدالَ قبَّلتهُ وقالت: «أحبُّكَ».

قبَّلها على ظهرها، وداعبَ جسدها بيديهِ، وتحسسَ مناطقها السريَّةَ بتوقٍ، ثمَّ توقفَ وقال: «ولكن أريدُ أن أكونَ معكِ كلَّ يومٍ، وليسَ أيامَ الآحادِ فقط».

قبَّلتهُ على أذنهِ وقالت له: « في يومٍ من الأيامِ سنكون معاً طوالَ الوقتِ. أعدكَ بذلكَ».

تحرَّكَ وراءها، ورفعها حتَّى أصبحت ساقاه تحتَ ساقيها؛ فباعدت فخذيها وطافت بلطفٍ فوق حضنهِ. داعبَ ثدييها بيديهِ، ولعبَ بحلمتيها المتفختين، ثمَّ اخترقها أخيراً فارتعشت من اللَّذةِ.

مارسا الحبَّ ببطءٍ ولطفٍ في البركةِ الباردةِ، وهديرُ الشلالُ يصمُّ آذانهما. طوقَ جاك بطنها المنتفخ بذراعيهِ، وبيدهِ الخبيرةِ داعبها بينَ ساقيها،

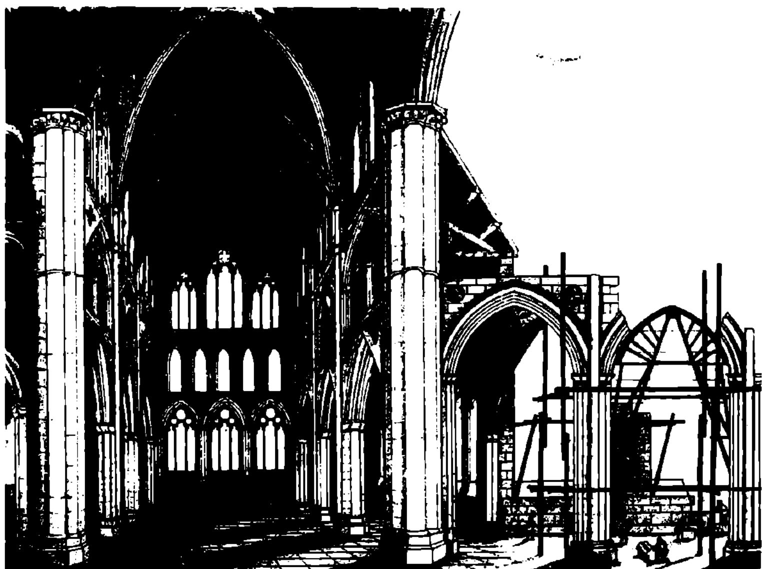
وعضوه في داخلها يخرجُ ويدخلُ. لم يفعلا هذا قبلاً، لم يمارسا الحبَّ بهذهِ الطريقةِ. داعبها في كلِّ مناطقها الحساسةِ في آنٍ معاً، وكان الشعورُ مُختلفاً جداً، واللّذةُ أقوى ومختلفةً كالاختلافِ بينَ الألمِ الحادِ والخفيفِ، ولكن قد يكون السببُ في ذلكَ هو أنَّها كانت حزينةً. بعدَ وهلةٍ سمحت لنفسها بالاستسلامِ للذةِ التي تصاعدت، ووصلت معها إلى ذروةٍ مباغتةٍ كادت ترعبها. كانت تقلصاتُ اللذةِ قويةً جداً ودفعتها إلى الصراخِ.

وبينما كانت تلتقطُ أنفاسها بقي عضوهُ في داخلها منتصباً، ولكن دونَ أن يصلَ إلى الذروةِ. كان جاك هادئاً الآن وقد توقفَ عن الحركةِ. أدركت أنَّه لم يصل بعد، ولذلك بدأت تتحركُ مجدداً كي تشجعه، ولكنه لم يستجب. أدارت رأسها إلى الوراءِ، وقبَّلتهُ من فوقِ كتفها، ولكنها شعرت بالماء على وجهه دافئاً.

كان يبكي.

الجزء الخامس

من عام 1152 وحتَّى عام 1155



الفصل الرابع عشر

- 1 -

أنهى جاك العملَ على الجناحين- الامتدادين الشبيهين بالصليب داخلَ الكنيسةِ – وشعر بالرضا التام عن كلِّ شيءٍ فيهما. طوَّرَ الأفكارَ التي أُستخدمت في بناءِ كنيسةِ سانت دينيه بأن جعلَ كلَّ شيءٍ أطول وأرفع: النوافذ، والأقواس، والقبّة المقنطرة. ارتفعت الأجزاءُ الوسطى من الدعائمِ على طولِ البهو مُشكلةً بذلكَ أضلعَ القُبةِ المُقنطرةِ ثمَّ علت بشكلٍ منحنٍ لتلتقي بعضها مع بعض في منتصفِ السقفِ، وأغرقت النوافذُ الطويلةُ المدببةُ داخلَ الكنيسةِ بالضوءِ. كانت الأفاريزُ جميلةً ودقيقةً، والزخارفُ أشبه بعرائش من الأوراقِ الحجريةِ.

على الرغم من كلّ هذا وجدَ صدوعاً في منطقةِ النوافذِ العلويةِ.

في صباحٍ ربيعي مُشرقٍ وقفَ جاك في أعلى نقطةٍ في ممرّ منطقةِ النوافذِ العلويةِ يتأملُ أعلى الجناحِ الشمالي. كان مصدوماً ومُحتاراً. على الرغم من كلِّ حكمةٍ، وخبرةِ البنّائين في جعلِ البناءِ قوياً فإنَّ صدعاً فضحَ ضعفاً فيهِ. كانت القبةُ المُقنطرةُ أعلى من أيّةِ قبةٍ رآها جاك، ولكن ليسَ بكثيرٍ. لم يرتكب الخطأ الذي ارتكبهُ آلفريد ببناءِ قبةٍ حجريةٍ فوقَ هيكلٍ غير مُجهزٍ لتحملِ وزنها، ولكن مع ذلكَ ظهرت صدوعٌ في منطقةِ النوافذِ العلويةِ، ومني بالفشلِ ذاتهُ الذي مُني بهِ آلفريد. كان واثقاً من أنَّه لم يُخطئ في الحساباتِ كآلفريد، وأنَّ المسؤول عن هذا عنصرٌ جديدٌ في البناء إلّا أنَّه لم يعلم ما هو بالضبط.

لم يكن الأمرُ خطيراً، ليسَ على المدى القصير، فقد ملأوا الصدوعَ

بالملاطِ، ولم تظهر الصدوع مجدداً. كان المبنى آمناً، ولكن ضعفهُ أفسدَ جمالهُ على جاك الذي أراد لهذهِ الكنيسةِ أن تصمدُ حتَّى يومِ القيامةِ.

غادرَ منطقةَ النوافذِ العلويةِ، ونزلَ عبرَ الدرجِ الحلزوني إلى البهو حيث نصبَ أرضيةً للرسمِ في زاويةٍ يصلها ضوءٌ قوي من إحدى نوافذِ الرواقِ الشمالي. بدأ يرسمُ قاعدةَ عمودٍ من أعمدةِ صحنِ الكنيسةِ. في البدايةِ رسمَ مُعيناً ثمَّ مربعاً داخلَ المُعينِ ثمَّ دائرةً داخلَ المربعِ. سيرتفعُ الجزءُ الأوسط من الدعامةِ من الزوايا الأربع للمعين وبعدها سيتفرع في الأعلى شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً على شكلِ أقواسٍ أو أضلعٍ، أمَّا الأجزاءُ التي سترتفعُ من زاويا المربعِ فسترتفعُ إلى الأعلى لتصبحَ فيما بعد أضلعاً مقنطرةً، وتمتدُ بشكلٍ قِطري فوقَ صحنِ الكنيسةِ المقنطرِ من جهةٍ وفوقَ الممرّ المقنطرِ من جهةٍ أخرى، أمَّا الدائرة في المنتصفِ فكانت قلبَ الدعامةِ.

كانت جميعُ رسوماتِ جاك قائمةً على أشكالٍ بنسبٍ هندسيةٍ بسيطةٍ وأخرى بنسبٍ ليست بسيطةً كنسبةِ الجذر التربيعي اثنين للجذرِ التربيعي ثلاثةَ. تعلَّمَ جاك كيفيةَ حسابِ الجذرِ التربيعي في طليطلة، ولكن معظم البنَّائين يعجزون عن حسابهِ، وبدلاً من ذلك استخدموا حسابات هندسية بسيطةٍ. يعلم أولئكَ البناؤون أنَّهم إن رسموا دائرةً حولَ زوايا مربعٍ فإنَ قطرَ الدائرةِ سيكون أكبر من ضلعِ المربعِ، وهذا يعادلَ الجذرَ التربيعي لاثنين على واحد. تعدُّ نسبة الجذر التربيعي لاثنين على واحد من أقدمِ الصيغِ المعماريةِ؛ لأنَّها تعادل في الأبنيةِ البسيطةِ نسبةَ العرضِ الخارجي للعرضِ الداخلي، ولهذا كانت الجدران تُبنى سميكةً.

على أيِّ حالٍ كان عملُ جاك أكثرَ تعقيداً بسببِ الأهميةِ الدينيةِ للأرقامِ، فقد قررَ رئيسُ الديرِ فيليب تكريسَ الديرَ لمريمِ العذراءِ لأنَّ العذراءَ الباكيةَ حققت للديرِ معجزاتٍ أكبر من تلكَ التي حققها القديس أدولفوس، ولهذا طلبَ من جاك استخدامَ الرقمين سبعة وتسعة؛ فكلاهما يرمزُ إلى مريم العذراء، وبناءً على ذلكَ صممَ جاك صحنَ الكنيسةِ بتسع حُجيراتٍ. بعدَ الانتهاءِ من بناءِ كلِّ شيءٍ سيُبنى المذبح بسبعِ حجيراتٍ. سيكون للمجازاتِ المتشابكةِ والمخفيةِ في الممرّاتِ الجانبيةِ سبع قناطرٍ، قنطرةٌ في كلِّ حُجيرةٍ، وسيكون للواجهةِ الغربيةِ تسعُ نوافذ رفيعة ومدببة. لم يكن لجاك رأي في

مسألةِ الأهميةِ اللاهوتيةِ للأرقامِ، ولكنه شعرَ أنَّ استخدامَ هذين الرقمين بانسجامٍ تامٍ سيُضفي تناغماً على الكنيسةِ عندما تنتهي.

وقبلَ أنْ يُنهي العملَ على رسمِ قاعدةِ العمودِ قاطعهُ كبيرُ بنَّائي السقفِ قائلاً له إنَّه يواجه مشكلةً، وأرادَ منه حلَّها.

لحقَ جاكْ بالرجلِ عبرَ الدرجِ الحلزوني متجاوزاً منطقةَ النوافذِ العلويةِ إلى منطقةِ السقفِ. سارا عبرَ القبابِ المدورةِ التي تشكلُ جوانبَ قُبةِ السقفِ المُضلعةِ، وفوقهما كان بنَّاؤو السقفِ يفردونَ الألواحَ المعدنيةَ الرصاصيةَ، ويُثبتونها بالمساميرِ إلى العوارضِ الخشبيةِ، وقد بدأوا العملَ من الأسفلِ إلى الأعلى حتَّى لا تتداخل الألواح العلويةُ مع الألواحِ السفليةِ، وبذلكَ يحمون الكنيسةَ من مياهِ الأمطارِ.

رأى جاكْ على الفورِ المشكلةَ التي أشارَ إليها كبيرُ بنائي السقفِ. كان جاكْ قد رسمَ قبَّةً مستدقةً في المنطقةِ الواطئةِ بينَ سطحين مائلين، إلَّا أنَّه تركَ لأحدِ كبارِ البنَّائين مهمةَ تصميمِ القُبةِ، ولكن البنَّاء نسي فتحَ تصريفٍ لمياهِ المطرِ في السطحِ عبرَ أو تحتَ القبةِ المُستدقةِ. كان على البنَّاءِ أن يغيرَهُ، وأشارَ جاكْ على كبير بنائي السقفِ بإطلاع معلم البناءِ على الأمرِ ثمّ عادَ إلى عمله على رسمِ قاعدةِ العمودِ في الأسفلِ.

ذُهلَ جاكْ عندما رأى آلفريد بانتظارهِ هناكْ.

لم يتحدث جاكْ إلى آلفريد منذُ عشرةِ أعوامٍ، ولم يره سوى بينَ الفينةِ والأخرى ومن بعيدٍ في شايرنغ أو وينشستر، ولكن آليانا لم تره قط منذُ تسعةِ أعوامٍ رغمَ أنَّهما مازالا متزوجين، في عينِ الكنيسةِ على الأقلِ. تزوره مارثا في منزلهِ في شايرنغ مرَّةً كلَّ عامٍ، وفي كلِّ مرةٍ تعودُ بالخلاصةِ ذاتها ألا وهي أنَّ أحوالهُ مزدهرةٌ من بناءِ المنازلِ لمواطني شايرنغ، وأنَّه يعيشُ وحيداً، ولم يتغير قيدَ أنملةٍ.

ولكن جاكْ الآن لم يلحظ علائمَ الرخاءِ عليهِ بل علائم التعبِ والانهزامِ. لطالما كان آلفريد رجلاً ضخماً وقوياً غيرَ أنَّه الآن بدا هزيلاً بوجهٍ ناحلٍ، وعظامُ يدهِ التي يزيحُ بها شعرهُ عن عينيهِ بارزة، ولم تعد يدهُ ضخمةً كما كانت في ما مضى.

قال آلفريد: «مرحباً يا جاكْ».

ورغمَ أن تعابيرَ وجههِ بدت عدائيةً فإنَّه تحدَّثَ بنبرةٍ مُداهنةٍ، وكان هذا المزيجُ بينَ عدائيةِ ملامحهِ والمداهنةِ في صوتهِ مُنفراً.

«مرحباً يا آلفريد»، قال جاك بحذرٍ وتابع: «في آخرِ مرَّةٍ رأيتكَ فيها كنتَ ترتدي سترةً حريريةً وبدوتَ سميناً».

«كان هذا منذُ ثلاثةِ أعوامٍ قبلَ أولِ حصادٍ سيئٍ».

«إذاً، هذا ما حدث».

تسببت آخرُ ثلاثةِ مواسمِ حصادٍ سيئٍ على التوالي بمجاعةٍ. تضورَ الأقنانُ جوعاً، والعديدُ من مستأجري الأراضي أصيبوا بالفاقةِ، وهذا يعني أنَّ مواطني شايرنغ لم يعودوا قادرين على بناءِ منازل حجريةٍ جديدةٍ ومذهلةٍ، ويبدو أنَّ آلفريد مرَّ بأوقاتٍ عصيبةٍ أيضاً.

قال جاك: «ما الذي أحضركَ إلى كينغزبريدج بعدَ كلِّ هذه السنواتِ؟»

«سمعتُ أنَّك تبني جناحي الكنيسةِ، وأتيتُ لألقي نظرةً»، قال آلفريد، وفضحت نبرةُ صوتِه احتراماً وحقداً في آنٍ معاً. «أينَ تعلَّمتَ البناءَ بهذهِ الطريقة؟»

«في باريس»، قال جاك بإيجازٍ فلم يكن راغباً بمناقشةِ هذهِ المرحلةِ من حياتهِ مع الشخص الذي دفعهُ إلى منفاه.

«حسناً»، قال آلفريد بارتباكٍ ثمَّ قالَ بلامبالاةٍ مدروسةٍ: «أنا مستعدٌ للعملِ هنا لتعلمِ بعضِ هذهِ الحيلِ الجديدةِ».

بوغتَ جاك بما سمعهُ، وفكّرَ في نفسهِ: «كيفَ يمكنُ لآلفريد أن يمتلكَ وقاحةَ طلبِ عملٍ مني؟» وفي محاولةٍ لتضييعِ الوقتِ قال جاك: «وماذا عن عُصبتك الصغيرةِ؟»

«أنا وحدي الآن»، قال آلفريد، وهو ما يزالُ يحاولُ التحدث بطريقةٍ عرضيةٍ. «لم يعد هناك عملٌ كافٍ لعُصبةٍ من البنَّائين».

«على أيِّ حالٍ لسنا بحاجةٍ إلى أحدٍ الآن»، قال جاك بطريقةٍ عرضيةٍ أيضاً وتابع: «طاقمنا مكتملٌ».

«ولكنه يسعكَ الاستفادةُ من بنَّاءٍ ماهرٍ على الدوام، أليسَ كذلكَ؟»

شعرَ جاك بنبرةِ استعطافٍ في صوتِ آلفريد، وأدركَ أنَّه كان يائساً، ولذلكَ قررَ أن يكون صريحاً معه فقال: «بعدَ الحياةِ التي قضيناها معاً يا آلفريد أنا آخر شخصٍ قد تطلبُ منه المساعدةَ».

«في الواقعِ أنتَ آخر شخصٍ أطلبُ منه»، قال آلفريد بصراحةٍ أيضاً وتابع: «طرقت جميعَ الأبوابِ، ولكن لم أُفلح في إيجادِ عملٍ بسببِ المجاعةِ»

فكرَ جاك بكلِّ الأوقاتِ التي أساءَ فيها آلفريد إليهِ، وكيفَ عذَّبهُ وضربهُ. لقد أجبرهُ آلفريد على دخولِ الديرِ، وتركِ موطنهِ وعائلتهِ، والهربِ إلى الخارجِ. لم يكن لديهِ سببٌ قد يدفعهُ لمساعدتهِ، بل في الحقيقةِ كانت لديهِ كلُّ الأسبابِ الكافيةِ للشماتةِ بهِ.

قال جاك: «لن أقبلَ بكَ حتَّى وإن كنتُ بحاجةٍ إلى بنَّائين».

«هذا ما اعتقدتهُ»، قال آلفريد بعنادِ ثورٍ ثم تابع: «ولكن أبي من علَّمكَ كلَّ شيءٍ تعرفهُ الآن، والفضلُ له في أنَّكَ الآن كبيرَ بنَّائين فهلَّا ساعدتني كرمى له؟»

«كرمى لتوم»، فكّرَ جاك، وشعرَ فجأةً بتأنيب الضميرِ. حاولَ توم بطريقتهِ الخاصةِ أن يكون زوجَ أمٍ صالح، ورغمَ أنَّه لم يكن لطيفاً أو مُتفهماً فإنَّه عاملَ جاك كما عاملَ ولديهِ، وكان صبوراً وكريماً في تقديمِ علمهِ ومهاراتهِ له. علاوةً على هذا، أسعدَ والدته في معظمِ الأوقاتِ، وهنا فكّرَ جاك أنَّه الآن كبيرُ بنَّائين ناجح، وأحوالهُ مزدهرةً، وفي طريقهِ لتحقيقِ طموحهِ ببناءِ أجملِ كاتدرائيةٍ في العالمِ، وها هو آلفريد فقيرٌ وجائعٌ وبلا عملٍ، أليسَ هذا انتقاماً كافياً؟

وأجابَ بينهُ وبينَ نفسهِ: «لا، ليسَ كافياً».

ولكن عريكتهُ لانت في آخر المطافِ.

«حسناً»، قال جاك. «كرمى لتوم سأقبلُ بكَ».

«شكراً لكَ»، قال آلفريد، وعلا وجههُ تعبيرٌ غير مفهومٍ. «هل أبدأ الآن؟»

أومأ جاك برأسهِ وقال: « نقوم الآن ببناءِ أساساتِ صحنِ الكنيسةِ، فلتنضم إليهم هناك».

مدَّ آلفريد يدهُ. ترددَ جاك لبرهةٍ ثمَّ صافحهُ، ووجدَ قبضته قويةً كما عهدها.

وغادرَ آلفريد.

وقفَ جاك يحدِّقُ إلى رسمِ قاعدةِ العمودِ في الصحنِ. كان الرسم بالحجمِ الطبيعي حتَّى يتمكّن كبيرُ النجارين من صُنعِ قالبِ خشبي فوقَ

الرسمِ مباشرةً، وبعدها سيستخدمُ البنَّاؤون القالبَ لاختيارِ الحجارةِ المناسبةِ ونحتها.

فكرَ جاكُ في ما حدثَ، وإن كان قد أخذَ القرارَ الصائبَ ثمَّ تذكَّرَ القبَّةَ التي بناها آلفريد وانهارت، وقررَ ألا يستعينَ بآلفريد في الأعمالِ الصعبةِ كبناءِ القبابِ أو القناطرِ، بل سيُكلفهُ بعملٍ واحدٍ ألا وهو بناءُ جدرانٍ مستقيمةٍ وأرضياتٍ.

وبينما كان غارقاً في تأملهِ سمعَ صوتَ الجرسُ يُقرع إيذاناً باستراحةِ الغداءِ فوضعَ من يدهِ أداةَ الرسمِ الحادةِ، وهبطَ الدرجَ الحلزوني إلى الطابقِ الأرضي.

يذهبُ البناؤون المتزوجون إلى منازلهم لتناولِ الغداءِ أمَّا العازبون فيتناولون الغداءَ في الكوخ. في بعضِ مواقعِ البناءِ يُقدمُ الغداءُ لتجنبِ تغيب العمال بسببِ كسلٍ ما بعد الظهرِ أو الثمالةِ، ولكن الطعام الذي يقدِّمه الرهبان هنا عادةً ما يكون متقشفاً، ولهذا فضَّل معظمُ عمالِ البناءِ تناول طعامهم على طعامِ الرهبانِ.

يعيشُ جاكُ مع أختهِ غير الشقيقةِ مارثا في منزلِ توم القديم، وكانت تتصرفُ كمدبرةٍ لمنزلهِ، وإضافةً إلى هذا اعتنت بتومي وابنةِ جاكُ، التي أسموها سالي، أثناءَ انشغالِ آليانا، وعادةً ما تعدُّ مارثا الغداءَ لجاكُ وللطفلين وتنضم آليانا إليهم أحياناً.

عندما غادرَ الدير، وسارَ على عجلٍ إلى المنزلِ خطرَ له خاطرٌ مفاجئٌ. هل يتوقع آلفريد أنَّه يستطيعُ العودةَ إلى المنزلِ للعيشِ مع مارثا التي كانت أختهُ من أبيهِ وأمِّهِ؟ لم يفكر جاكُ بهذه المسألةِ عندما قبلَ بآلفريد عاملاً لديهِ.

وفكرَ بعدَ وهلةٍ أنَّ خوفهُ خوفٌ غبي. لقد ولَّت تلكَ الأيامُ التي يمكنُ فيها لآلفريد أن يتنمرَ عليهِ؛ فهو الآن كبيرُ بنائي كاتدرائيةِ كينغزبريدج، وإن قررَ أنَّ آلفريد لا يستطيع الانتقال إلى المنزلِ؛ فلا يمكن لآلفريد الانتقالُ إليهِ.

خامرَهُ شكٌ أنَّه قد يجدُ آلفريد جالساً إلى طاولةِ المطبخِ في المنزلِ، وشعرَ بالراحةِ عندما لم يجده. وجدَ آليانا تراقبُ الطفلين وهما يأكلان بينما مارثا تحرّكُ قدراً فوقَ النارِ، وفي المكانِ تفوحُ رائحةٌ يخنةِ لحمِ الحملِ يسيل لها اللعاب.

طبعَ قبلةً سريعةً على جبينِ آليانا. كانت الآن في الثالثةِ والثلاثين إلَّا أنَّها بدت أصغرَ بعشرةِ أعوامٍ، ومازالَ شعرها البني الداكن كثيفاً، ومازالت شفتاها ممتلئتين، وعيناها داكنتين وجميلتين، ولكن عندما تتعرى تظهرُ آثارُ الزمنِ والولادةِ على جسدِها؛ فلم يعد ثدياها المُذهلان والعارمان ناهدين، وكان وركاها أعرض، وبطنها لم يعد مسطحاً ومشدوداً كالسابقِ.

نظرَ جاك إلى ثمرتي جسدِ آليانا بحُبٍ. كان تومي البالغُ تسعةَ أعوامٍ فتى معافى بشعرٍ أحمر، وبنيتهُ ضخمة بالنسبةِ إلى فتى في مثلِ عمرهِ، أمَّا سالي فقد كانت في السابعةِ، وتمتلكُ شعرَ والدتها الداكن. رآها جاك تبتسمُ بسعادةٍ وقد ظهرت فجوةٌ بين أسنانها الأماميةِ تماماً كالفجوةِ التي كانت بينَ أسنانِ مارثا عندما قابلها جاك للمرةِ الأولى منذُ سبعةَ عشرَ عاماً. يذهبُ تومي إلى المدرسةِ في الديرِ كلَّ صباحٍ ليتعلمَ القراءةَ والكتابةَ ولكن، ولأنَّ الرهبان لا يقبلون بالفتياتِ، فقد تكفّلت آليانا بتعليمِ سالي.

جلسَ جاك إلى الطاولةِ، وأنزلت مارثا القدرَ عن النارِ ثمَّ وضعتهُ على الطاولةِ. كانت مارثا فتاةً غريبةً؛ فعلى الرغمِ من أنَّها تجاوزت العشرين من العمرِ فإنَّها لم تظهر أيَّةَ رغبةٍ في الزواجِ. لطالما كانت متعلقةً بجاك، ويبدو أنها الآن قانعةٌ بلعبِ دورِ مدبرةِ منزلهِ.

كان الوضعُ العائلي في منزلِ جاك وبلا منازعٍ الأغربَ من نوعهِ في المقاطعةِ. كانا، هو وآليانا، من كبارِ المواطنين في البلدةِ؛ فقد كان جاك كبيرَ بنَّائي الكاتدرائيةِ، وآليانا أكبرُ مُصنّعٍ للقماشِ خارجَ وينشستر، والجميعُ يُعاملهما كزوجين، ولكن مع ذلكَ حُرّمَ عليهما المبيتُ معاً، وعاشا في بيتين مُنفصلين - آليانا مع شقيقها ريتشارد في منزلِهِ، وجاك مع أختهِ غير الشقيقةِ.

في ظهيرةِ كلِّ أحدٍ يختفي كلٌّ من جاك وآليانا، غيرَ أنَّ الجميعَ -باستثناءِ رئيسِ الديرِ فيليب طبعاً- عرفَ ما كانا يفعلانهِ في غيابهما. أمَّا والدةُ جاك فمازالت تعيشُ في كهفٍ في الغابةِ بسببِ تهمةِ ممارسةِ السحرِ التي مازالت تلاحقها.

بينَ الفينةِ والأخرى يشعرُ جاك بغضبٍ عارمٍ لعجزهِ عن الزواجِ بآليانا؛ فيستلقي في سريرهِ ليلاً وقد جافاه النوم، ويُصغي إلى شخيرِ مارثا في الغرفةِ المجاورةِ، ويفكرُ في نفسهِ أنَّه في الثامنةِ والعشرين، ومع ذلك ينامُ وحيداً،

وفي اليومِ التالي يغدو عكرَ المزاجِ مع رئيسِ الديرِ فيليب، ويرفضُ جميعَ الاقتراحاتِ والطلباتِ التي تُقدمُ خلالَ اجتماعِ الرهبانِ واصفاً إياها بغير العمليَّةِ أو بالمكلّفةِ جداً، ويرفضُ أيضاً مناقشةَ البدائلِ، أو الحلولَ الوسطيةَ كأنَّ الطريقةَ الوحيدةَ لبناءِ الكاتدرائيةِ هي طريقتهُ، ولكن فيليب آنذاك يتجنبهُ لبضعةِ أيامٍ إلى أن تنحسرَ عاصفةُ غضبهِ.

آليانا أيضاً لم تكن سعيدةً، وكانت تصبُّ جامَ غضبها على جاك. كانت تضيقُ ذرعاً بهِ ولا تعود تحتملهُ، وتنتقدُ كلَّ شيءٍ يقوم بهِ، وتضعُ الطفلين في السريرِ ليناما حالما يدخل المنزلَ، وتحتجُ أنَّها غير جائعةٍ عندما يجلسُ لتناولِ الطعامِ، ولكنها بعدَ يومٍ أو يومين تنخرطُ في البكاءِ، وتعتذرُ له، ويعودان سعيدين مجدداً إلى أن يتكرّرَ الوضعُ مجدداً، ويغدو الضغطُ كبيراً عليها.

سكبَ جاك بعضَ اليخنةِ في وعاءٍ، وبدأ يأكل.

«خَمنا من أتى إلى الموقعِ هذا الصباحِ»، قال جاك وتابع: «آلفريد».

أوقعت مارثا غطاءَ القدرِ المعدني على الأرضيةِ الحجريةِ فصدرَ عنهُ صوتٌ عالٍ. نظرَ جاك إليها، ورأى الخوفَ على وجهها ثمَّ استدارَ نحو آليانا، ورأى شحوباً على وجهها.

قالت آليانا: «ما الذي يفعلهُ في كينغزبريدج؟»

«يبحثُ عن عملٍ. أعتقدُ أنَّ المجاعةَ جلبت الفقرَ على تُجارِ شايرنغ فتوقفوا عن بناءِ منازلَ حجريةٍ كالسابقِ. اضطرَّ آلفريد إلى حلِّ عصبته لعجزه عن إيجادِ عملٍ».

«آملُ أن تكون قد رميتهُ خارجاً ككلبٍ»، قالت آليانا.

«قال لي إنني يجبُ أن أعطيَه عملاً كرمى لتوم»، قال جاك في توترٍ. لم يتوقع أن يكون ردُّ فعلِ المرأتين على الخبرِ صادماً إلى هذهِ الدرجةِ. «وأنا في الحقيقةِ أدينُ إلى توم بكلِّ شيءٍ».

«هراء»، قالت آليانا، وقال جاك لنفسهِ إنَّها تعلَّمت هذا التعبيرَ من والدتهِ.

«حسناً لقد منحتهُ عملاً»، قال جاك.

«جاك!» صرخت آليانا وتابعت: «كيفَ أمكنكَ هذا؟ لا يمكنكَ أن تسمحَ لذلكَ الشيطان بالعودةِ إلى كينغزبريدج».

بدأت سالي تبكي، وحدَّقَ تومي في ذهولٍ إلى والدتهِ.

قال جاك: «آلفريد ليسَ شيطاناً، إنَّه جائعٌ ومُعدمٌ، وأنقذتهُ كرمى لذكرى والدهِ».

«لن تشعرَ بالأسى عليهِ لو أنَّه أجبركَ على النومِ على الأرضِ أسفلَ سريرهِ ككلبٍ لتسعةِ أشهرٍ».

«لقد فعلِ بي ما هو أسوأ، ولتسألي مارثا».

قالت مارثا: «وأنا أيضاً».

قال جاك: «وقررت أنَّ رؤيتهُ على هذهِ الحالةِ انتقامٌ كافٍ لي».

«حسناً، إنَّه ليسَ كافياً لي!» انفجرت آليانا. «بحقِّ المسيحِ أنك مخبولٌ يا جاك جاكسن، وأشكر الرَّبَّ أحياناً لأنني لستُ متزوجةً بكَ».

جرحَهُ كلامُها فأشاحَ بنظرهِ. علمَ أنَّها لم تعنِ ما قالتهُ ولكن كلامها كان مؤلماً حتَّى وإن قالتهُ خلالَ فورة غضبٍ. التقطَ ملعقتهُ، وبدأ يأكل، ولكنه وجدَ صعوبةً في ابتلاعِ الطعامِ.

ربتت آليانا على رأسِ سالي، ووضعت قطعةَ جزر في فمها فتوقفت عن البكاءِ.

نظرَ جاك إلى تومي الذي كان ما يزالُ يحدِّقُ إلى آليانا في رعبٍ.

«كُل يا تومي»، قال جاك. «الطعامُ لذيذٌ».

وتناولوا غداءهم في صمتٍ.

***

في ربيعِ العامِ الذي أنهوا فيهِ العملَ على جناحي الكنيسةِ قامَ رئيسُ الدير فيليب بجولةٍ على ممتلكاتِ الديرِ في الجنوبِ. كان بحاجةٍ إلى موسمِ حصادٍ جيدٍ بعدَ سلسلةٍ مواسم سيئةٍ؛ ولذلكَ أرادَ تفقدَ أحوالِ المزارعين.

اصطحبَ فيليب معه يتيم الديرِ جوناثان الذي باتَ الآن شاباً طويلاً وذكياً وخجولاً في السادسة عشرة من العمرِ. وكما حصلَ مع فيليب عندما كان في مثلِ عمرهِ بدا له أنَّ الشاب جوناثان لم يساورهُ أيُّ شكٍ حيالَ ما يريدُ القيامَ بهِ في حياتهِ. كان قد أنهى تعلّمَ الرهبنةِ، وقدَّمَ نذورهُ، وبات الآن يُدعى بالأخِ جوناثان. كان جوناثان كفيليب مهتماً بخدمةِ الرَّبِّ بشكلٍ عملي، ولذلكَ

عملَ كنائبٍ لكوثبرت وايتهيد وكيل المؤنِ العجوزِ. شعرَ فيليب بفخرٍ كبيرٍ بالفتى؛ فقد كان ورعاً ومُجدّاً ومحبوباً.

رافقهما شقيقُ آليانا ريتشارد الذي وجدَ أخيراً في كينغزبريدج مكاناً ملائماً له. بعدَ أن انتهوا من بناءِ السورِ اقترحَ فيليب على نقابةِ الأبرشيةِ تعيين ريتشارد رئيساً للحرسِ، ومسؤولاً عن أمنِ البلدةِ. نظَّمَ ريتشارد حرَّاسَ السورِ ليلاً، ونظَّمَ أمورَ صيانةِ وتحسينِ أسوارِ البلدةِ، وفي الأيامِ التي يُقامُ فيها السوقُ والأعيادُ كان مخولاً باعتقالِ مُفتعلي المتاعبِ والسَكارى. غدت مثلُ هذهِ المهام أساسيةً بعدَ أن تحولت القريةُ إلى بلدةٍ، خاصةً أنَّ هناكَ أموراً لا يُسمح للرهبانِ بالقيامِ بها، وبهذا وفي نهايةِ المطافِ أثبتت نقابةُ الأبرشيةِ، التي عدَّها فيليب في البدايةِ تهديداً لسلطتهِ، أنَّها ذاتُ نفعٍ. كان ريتشارد سعيداً، ورغمَ أنَّه الآن في حدودِ الثلاثين فإنَّ الحركةَ والخفَّةَ اللتين يتطلبهما عملهُ في حمايةِ البلدةِ جعلتاهُ يبدو شاباً.

تمنَّى فيليب لو أنَّ وضعَ آليانا مستقرٌ كوضعِ شقيقها. إن كان هناك شخصٌ ظلمتهُ الكنيسة؛ فهذا الشخصُ هو آليانا. كان جاك الرجلَ الذي تُحبهُ ووالدَ طفليها، ولكنَّ الكنيسةَ أصرَّت على بقائها متزوجةً من آلفريد على الرغم من أنَّ زواجها لم يكتمل، ولم تتمكن من الحصولِ على إبطالٍ لهذا الزواجِ بسببِ حقدِ الأسقفِ. كان الأمرُ مُخزياً، وشعرَ فيليب بالذنبِ رغم أنَّه لا يد له في الأمرِ.

وفي طريقِ عودتهم إلى كينغزبريدج عبرَ الغابةِ في صباحٍ ربيعي مشرقٍ قال الشابُ جوناثان: «أتساءلُ لمَ يجوّع الربُّ الناسَ».

كان سؤالاً سيطرحهُ كلُّ راهبٍ شابٍ عاجلاً أم آجلاً، وهناك أجوبةٌ كثيرةٌ عليهِ. قال فيليب: «لا تُلقِ باللومِ على الرَّبِّ في حدوثِ المجاعةِ».

«ولكن الرَّبَّ من أرسلَ الطقسَ الذي تسببَ بسلسلةِ مواسم حصادٍ سيئةٍ».

«لم تحدث المجاعةُ بسببِ الحصادِ السيئ»، قال فيليب. «فلطالما مرَّ موسمُ حصادٍ سيئٍ كلَّ بضعةِ أعوامٍ، والناس وقتها لم يجوعوا، ولكن ما يميزُ هذهِ الأزمةَ هو أنَّها أتت بعدَ سنواتٍ عديدةٍ من الحربِ الأهليةِ».

«ولماذا هذا مهمٌ؟» سألَ جوناثان.

وأجابَ ريتشارد من خبرتهِ كجندي: «الحربُ سيئةٌ على الزراعةِ؛

فالمواشي تُذبح لإطعامِ الجيوشِ، والمحاصيلُ تُحرقُ كيلا يستفيد منها العدو، والمزارعُ تُهملُ بسببِ انشغالِ الفرسانِ بالحربِ».

أضافَ فيليب: «وعندما يكون المستقبلُ مجهولاً لا يعود الناس مستعدين لاستثمارِ الوقتِ والطاقةِ في تنظيفِ أراضٍ جديدةٍ، وتربيةِ المواشي، وحفرِ القنواتِ، وبناءِ الحظائر».

«ولكننا في الديرِ لم نتوقف عن القيامِ بكلِّ هذهِ الأعمالِ»، قال جوناثان.

«الوضعُ مختلفٌ في الأديرةِ. يُهملُ معظمُ المزارعين مزارعهم خلالَ القتالِ، ولهذا عندما ساءت الأحوالُ الجويةُ لم يكونوا في وضعٍ جيدٍ لتجاوزِ هذهِ العقبةِ، أمَّا الرهبان فيتعاملون مع الأمورِ بنظرةٍ أبعد، ولكن لدينا مشكلة أخرى غير المجاعة. لقد تراجعت أسعار الصوفِ بسببِ الأوضاع الحاليةِ».

«لا أرى صلةً بينَ الأمرين»، قال جوناثان.

«أعتقدُ أنَّ السببَ في ذلكَ عدمُ قدرةِ الناسِ الجائعين على شراءِ الأقمشةِ».

كانت هذهِ المرةُ الأولى في حياةِ فيليب التي لا ترتفعُ فيها أسعارُ الصوفِ سنوياً، وبسببِ هذا تراجعت وتيرةُ أعمالِ البناءِ، وتوقفوا في الديرِ عن قبولِ رهبانٍ مبتدئين، وأُقصي النبيذُ واللحم الأحمر من قائمةِ طعامِ الرهبانِ. «لسوءِ الحظِّ هذا يعني أننا سنقتصدُ في الوقتِ الذي يتدفقُ فيهِ المزيد والمزيد من الناسِ المُعدمين إلى كينغزبريدج بحثاً عن عملٍ».

قال جوناثان: «وينتهي بهم الأمرُ في طابورٍ أمامَ بوابةِ الديرِ يستجدون الخبزَ القاسي والحساءَ».

أومأ فيليب برأسهِ في حُزنٍ. فطرَ قلبهُ مشهدُ رجالٍ كانوا أقوياءَ في وقتٍ مضى يستجدونَ الخبزَ لعدمِ وجودِ عملٍ لهم. «ولكن لا تنسَ أن الحربَ تقف وراءَ كلِّ هذا، وليسَ الأحوال الجوية»، قال فيليب.

وبحماسةِ الشبابِ قال جوناثان: «آملُ أن يكون هناكَ مكانٌ في الجحيمِ لكلِّ الإيرلات والملوكِ الذين يجلبون على الناسِ مثلَ هذا البؤسِ».

«آمل هذا... فليحفظنا القديسون من هذا؟»

ومن بين الشجيراتِ اندفعَ شخصٌ غريبٌ بسرعةٍ نحو فيليب. كانت ثيابهُ

مهلهلة، وشعرهُ مشعثاً، ووجهه مسودٌ من القذارةِ. اعتقدَ فيليب أنّهَ رجلٌ فقيرٌ يركضُ هرباً من خنزيرٍ بري هائجٍ، أو ربما دبٍ هاربٍ.

تابعَ الرجلُ الركضَ، ورمى بنفسهِ على فيليب.

تفاجأ فيليب جداً إلى درجةِ أنّه وقعَ عن جوادهِ.

رمى المهاجمُ بنفسهِ فوقَ فيليب. فاحت من الرجلِ رائحةٌ كرائحةِ الحيواناتِ، وصدرت عنهُ أصواتٌ كأصواتها؛ فقد كان يدمدمُ بلا توقفٍ بأصواتٍ غير مفهومةٍ. تلوى فيليب، وركلَ الرجلَ الذي بدا كأنَّه يحاولُ الإمساكَ بالحقيبةِ الجلديةِ التي يحملها على كتفهِ، وهنا أدركَ فيليب أنَّ الرجلَ يحاول سرقتهُ. لم يكن في الحقيبةِ سوى كتابِ سفرِ نشيدِ الأنشادِ. قاومه فيليب باستماتةٍ محاولاً التحرّرَ منه، ولكن ليسَ لأنَّه كان مهتماً بشكلٍ خاصٍ بالكتابِ بل لأنَّ اللصَّ كان قذراً بشكلٍ لا يُحتمل.

كان حزامُ الحقيبةِ عالقاً بفيليب، ولأنَّ اللصَّ رفض إفلاتهُ تدحرجا على الأرضِ الصلبةِ. حاول فيليب التحرّرَ منهُ، ولكن اللصّ أمعنَ في شدّهِ محاولاً الوصول إلى الحقيبةِ، وبطريقةٍ ما شعرَ فيليب أنَّ جوادهُ هربَ.

فجأةً ظهرَ ريتشاردِ، وأبعدَ اللصَّ عن فيليب الذي تدحرجَ مبتعداً، وجلسَ باستقامةٍ، ولكنه ولبرهةٍ عجزَ عن النهوضِ. كان دائخاً ومأخوذاً بما حدثَ. تنشقَ فيليب هواءً نقياً، وشعرَ بالراحةِ لتحررهِ من رائحةِ اللصِّ المقززةِ، ثمَّ تحسسَ جسدهُ بحثاً عن رضوضٍ أو كسورٍ، وعندما لم يجد شيئاً استدارَ نحو الآخرين.

بطحَ ريتشارد اللصَّ أرضاً، ووضعَ قدماً على لوحِ كتفهِ وطرفَ سيفهِ على عنقهِ من الخلفِ، أمّا جوناثان فقد أمسكَ بعنانِ الجوادين، وعلائم الاضطراب على وجهه.

كان فيليب يشعرُ بالضعفِ؛ ولذلك نهضَ على قدميهِ ببطءٍ. فكرَ في نفسهِ أنّه عندما كان في مثلِ عمرِ جوناثان، وأنّى سقطَ عن الجوادِ يسارع إلى امتطائهِ على الفورِ.

قال ريتشارد: «إن أبقيتَ هذا الصرصار تحتَ أنظاركَ فسأذهبُ لإعادةِ جوادكَ»، وقدَّمَ إلى فيليب سيفهُ.

«حسناً»، قال فيليب وأبعدَ السيفَ عنه ثمَّ قال: «لن أحتاجَ إليهِ».

ترددَ ريتشارد ثمَّ أعادَ سيفهُ إلى غمدهِ. بقي اللصُّ في مكانهِ دونَ حراكٍ، وبدت ساقاه النحيلتان تحتَ سترتهِ الطويلةِ كغصنين رفيعين أسودين. كان حافي القدمين أيضاً. لم يتعرضْ فيليب قبلاً إلى خطرٍ حقيقي كهذا الخطرِ. كان الرجلُ ضعيفاً جداً حتَّى على خنقِ دجاجةٍ. انطلقَ ريتشاردِ في إثرِ جوادِ فيليب.

عندما رأى اللصُّ ريتشارد يبتعد توترَ، وعلمَ فيليب أنَّ الرجلَ سيحاولُ الهربَ فأوقفهُ قائلاً: «هل ترغبُ ببعضِ الطعامِ؟»

رفعَ اللصُّ رأسهُ، ونظرَ إلى فيليب كمن ينظرُ إلى رجلٍ مجنونٍ.

توجهَ فيليب إلى جوادِ جوناثان، وفتحَ الخرجَ ثمَّ أخرجَ رغيفاً من الخبزِ، واقتطعَ منهُ ثمَّ قدَّمَ نصفهُ إلى اللصِّ. أمسكَ الرجلُ بالخبزِ في دهشةٍ كبيرةٍ ثمَّ حشا معظمهُ في فمهِ على الفورِ.

جلسَ فيليب أرضاً، وراقبَ الرجلَ وهو يأكلُ كحيوانٍ، ويحاولُ ابتلاعَ أكبر قدرٍ من الطعامِ كأنه خشيَ أن يُسلبَ منهُ. في البدايةِ اعتقدَ فيليب أنَّ الرجلَ عجوزٌ، ولكنه عندما نظرَ إليهِ بشكلٍ أفضل الآن أدركَ أنَّه شابٌ، وقد يكون في الخامسةِ والعشرين.

عادَ ريتشارد مع جوادِ فيليب، وشعرَ بالسخطِ عندما رأى اللصَّ جالساً ويأكلُ فقال لفيليب: «لمَ قدَّمت له طعامنا؟»

«لأنَّه يتضور جوعاً»، أجابَ فيليب.

لم يُجب ريتشارد، ولكن ارتسمَ على وجههِ تعبيرٌ بما معناه أنَّ الرهبان مجانين.

عندما أنهى اللصُّ تناولَ الطعامِ سألهُ فيليب: «ما اسمكَ؟»

بدا الرجلُ حذراً، وترددَ في الإجابةِ على السؤال. وهنا خُيلَ إلى فيليب أنَّ الرجلَ لم يتحدث إلى مخلوقٍ منذُ وقتٍ طويلٍ، إلا أنَّ الرجلَ أجاب أخيراً: «ديفيد».

وفكرَ فيليب في نفسهِ: «إنَّه على الأقلِّ ما زالَ عاقلاً»، ثمَّ قال للرجلِ: «ما الذي حدثَ لكَ يا ديفيد؟»

«خسرتُ مزرعتي في الحصادِ الأخيرِ».

«ومن سيدكَ؟»

«إيرل شايرنغ».

وليم هاملي.

لم يبدُ على فيليب العجبُ لسماعهِ هذا. فشلَ آلافُ المستأجرين وعلى مدارِ ثلاثةِ مواسم حصادٍ متتاليةٍ في دفعِ إيجاراتهم. سامح فيليب ببساطةٍ كل من تخلَّفَ من مستأجريهِ عن دفعِ الإيجاراتِ لأنَّه إن طردهم فسيأتون للاستجداءِ من الديرِ، ولكنّ سادةً آخرين، وبشكلٍ خاصٍ الإيرل وليم، استغلوا الأزمةَ، وطردوا المستأجرين، ووضعوا أيديهم على المزارعِ، وكانت النتيجةُ زيادة في أعدادِ الخارجين عن القانونِ الذين يعيشون في الغابةِ، ويعتاشون على سرقةِ المسافرين، ولهذا تعيَّنَ على فيليب أخذُ ريتشارد معهُ كحارسٍ شخصي.

«وماذا عن عائلتكَ؟» سألَ فيليب اللصَّ.

«أخذت زوجتي الطفلَ معها، وعادت إلى منزلِ والدتها، وأنا لم يعد لي مكانٌ أذهبُ إليهِ».

كانت قصةً شائعةً، وقال فيليب: «إنَّ وضعَ يدكَ على راهبٍ خطيئةٌ يا ديفيد، والعيشُ من السرقةِ خطيئةٌ أيضاً».

«ولكن كيفَ سأعيش؟» بكى الرجلُ.

«إن أردت البقاءَ في الغابةِ فمنَ الأفضلِ أن تصيدَ العصافيرَ والأسماك».

«لا أتقنُ الصيدَ!»

«وأنتَ لا تتقنُ السرقةَ أيضاً!» قال فيليب. «ما هي فرصةُ نجاحكَ في السرقةِ إن لم تمتلك سلاحاً في مواجهتنا نحنُ الثلاثة، وريتشارد هنا مسلحٌ من رأسهِ إلى أخمصِ قدميهِ؟»

«كنتُ يائساً».

«حسناً في المرةِ القادمةِ التي تكون فيها يائساً اذهب إلى الديرِ حيثُ يمكنُ للفقير دوماً الحصول على ما يأكله»، أنهى فيليب كلامهُ، ونهضَ على قدميهِ، وهو يشعرُ بطعمِ الكذبةِ التي تفوه بها للتو مُرَّاً. يعلمُ أنَّ الأديرةَ لا تستطيعُ أبداً إطعام كلِّ الخارجين عن القانونِ، ولهذا لم يكن هناكَ من بديلٍ آخر لأولئكَ الناس سوى السرقة، ولكن يبقى دورهُ في الحياةِ التشجيعَ على العيشِ بنزاهةٍ، ومن دونِ أعذارٍ، وتبريراتٍ لاقترافِ الخطايا.

عندما لم يعد لديه أيُّ شيءٍ آخر قد يفعلهُ لهذا الرجلِ التعسِ أخذَ عنانَ جوادِهِ من ريتشارد، وصعدَ على سرجِهِ. فكرَ في نفسِهِ أنَّ رضوضَ السقطةِ قد تؤلمهُ لأيامٍ قادمةٍ. «اذهب في طريقكَ ولا تخطئ»، قال فيليب مُقتبساً كلامَ المسيحِ ثمَّ همزَ جوادهُ ليتحركَ ويتابع طريقهُ.

«أنتَ طيبٌ أكثر من اللازمِ»، قال ريتشارد بعد أن انطلقَ وراءَ فيليب على صهوةِ جوادِهِ.

هزَّ فيليب رأسهُ في حُزنٍ وأجابهُ: «المشكلةُ الحقيقيةُ هي أنني لستُ طيباً كفايةً».

***

في الأحدِ السابقِ لعيدِ العُنصرةِ تزوجَ وليم هاملي.

وكانَ الزواجُ فكرةَ والدتهِ.

لاحقتهُ والدتهُ لسنواتٍ كي يعثرَ على زوجةٍ، وينجبَ وريثاً، ولكنه كان على الدوامِ يؤجلُ الأمرَ. أضجرته النساءُ بطريقةٍ لم يفهمها، ولم يرغب حقاً في فهمها، وكنَّ يوترنهُ. ورغمَ أنَّه أخبرَ والدتهُ مراراً وتكراراً أنَّه سيتزوجُ قريباً فإنَّه لم يفعل شيئاً حيالَ الأمرِ قط.

في نهايةِ المطافِ اختارت له عروساً بنفسها.

كانت الفتاةُ تدعى إليزابيث، وهي ابنةُ هارولد ويماوث الفارس الثري، وأحد أقوى مناصري ستيفن. قالت له والدتهُ إنَّه يستطيعُ، وبقليلٍ من الجهدِ، إيجادَ عروسٍ أفضل، وإنّه يستطيعُ الزواجَ بابنةِ إيرل، ولكنه لم يكن مستعداً لشغلِ بالهِ بالأمرِ، ولذلكَ اكتفى بإليزابيث.

التقى وليم بإليزابيث في بلاطِ الملكِ في وينشستر، ولاحظت والدتهُ أنَّه كان يحدّق بها. كانت جميلةَ الوجهِ بشعرٍ بني فاتحٍ وكثيفٍ، وصدرٍ عارمٍ، ووركين ضيقين. كانت من النوعِ الذي يُفضلهُ وليم.

وكانت في الرابعة عشرة من العمرِ.

كلما حدَّق وليم إليها تخيلَ لقاءها في ليلةٍ مُظلمةٍ، وإمساكها بالقوةِ، ومضاجعتها رغماً عنها في أحدِ الأزقةِ الخلفيةِ في مدينةِ وينشستر. لم يفكر بالزواجِ منها قط، ولكن والدتهُ قررت على الفورِ أنَّ والدها ملائم لهم،

والفتاة نفسها طفلةٌ مطيعةٌ، وتنفذُ كلَّ ما يُطلبُ منها. وبعدَ أن طمأنتهُ والدتهُ أنَّ الذّلَّ الذي جلبتهُ آليانا على العائلةِ لن يتكرّرَ رتبت لقاءً بينهما.

كان وليم قلقاً جداً. في المرَّةِ الأخيرةِ التي فعلَ فيها هذا كان شاباً غرّاً في العشرين من العمرِ، وابن فارسٍ يُقابلُ شابةً نبيلةً متعاليةً، غيرَ أنَّه الآن رجلٌ متمرسٌ في السابعةِ والثلاثين، وإيرل شايرنغ منذُ عشرةِ أعوامٍ. شعرَ بالغباءِ لأنَّه متوترٌ من لقاءِ فتاةٍ في الرابعة عشرة.

ولكن الفتاة نفسها كانت أكثر توتراً منهُ ومستميتةً لإرضائهِ؛ ولذلكَ تحدَّثت بحماسةٍ عن منزلها، وأصدقائها، وجيادها، وكلابها، وأقاربها بينما جلسَ وليم بصمتٍ يراقبُ وجهها، ويحاولُ تخيلها عاريةً.

زوجهما الأسقفُ ويلارن في كنيسةِ قلعةِ شايرنغ، وأُقيمت وليمةٌ كبيرةٌ استمرت ليومٍ. حسبَ الأعرافِ وفي مثلِ هذهِ المناسبة يجبُ على وليم دعوة كلّ شخصيةٍ مهمةٍ في المقاطعةِ، وكان سيُحرجُ بشدةٍ إن لم يُقم وليمةً عامرةً. قاموا بشيّ ثلاثةِ ثيرانٍ، وعشراتِ الخرافِ والخنازيرِ في مُجمعِ القلعةِ، وشربَ الضيوفُ كلَّ ما في أقبيةِ القلعةِ من الجعةِ، وعصيرِ التفاحِ، والنبيذِ. أشرفت والدةُ وليم على الاحتفالِ، وعلى وجهها المشوهِ ارتسمت نظرةُ انتصارٍ، أمَّا الأسقفُ ويلارن فقدَ وجدَ الاحتفالاتِ السوقية مقززةً، ولذلكَ غادرَ عندما بدأ عمُّ العروسِ بقصِّ حكايا مضحكةٍ عن المتزوجين حديثاً.

عندَ هبوطِ الليلِ توجهت العروسُ والعريسُ إلى غرفتهما تاركين الضيوف لمرحهم الصاخب. كان وليم قد حضرَ الكثيرَ من حفلاتِ الزفاف، ويعلمُ الأفكارَ التي تدورُ في عقولِ الشبابِ من الضيوفِ، ولهذا طلبَ من والتر الوقوف خارجَ الغرفةِ، وأغلقَ رتاجَ البابِ لمنعِ أيِّ إزعاجٍ.

خلعت إليزابيث سترتها وحذاءها، ووقفت في قميصها الكتاني. «لا أعلمُ ما الذي يجب علي القيام بهِ»، قالت له ببساطةٍ. «سيتيعن عليكَ أن تُعلّمني».

لم يكن هذا ما تخيلهُ وليم. توجهَ نحوها، ورفعَ وجهها إلى وجههِ ثمَّ قبَّلها على شفتيها الرقيقتين، ولكن القبلةَ بطريقةٍ ما فشلت في إثارتهِ فقال: «اخلعي قميصكِ، واستلقي على السريرِ».

خلعت إليزابيث قميصها الداخلي. كانت ممتلئةً، ولثدييها العارمين

حلمتان غير مدورتين تماماً، وعلى المثلثِ بينَ ساقيها شعرٌ بني أزغب. أطاعتهُ، وتوجهت إلى السريرِ، ثمَّ استقلت على ظهرها.

خلعَ وليم حذاءهُ، وجلسَ على السريرِ بجانبها ثمَّ عصرَ ثدييها بيديهِ، ووجدَ بشرتَها ناعمةً. لم تكنِ هذهِ الفتاةُ الحلوةُ والمطيعةُ والبشوشةُ المرأةَ الشبقةَ التي تجعلُ حلقهُ يجفُّ وهي تئنّ وتتعرقُ تحتهُ، وهنا شعرَ أنَّه خُدعَ.

وضعَ يدهُ بينَ فخذيها فباعدت رجليها على الفورِ ثمَّ أقحمَ إصبعهُ داخلها فشهقت متألمةً، ولكنها قالت على الفورِ: «لا بأس فأنا لا أمانع».

تساءل في نفسهِ لبرهةٍ إن كان يقومُ بالأمرِ على نحو خاطئ، وساورته رؤيةٌ آنيةٌ لمشهدٍ مختلفٍ كلاهما فيهِ مستلقيان جنباً إلى جنبٍ يتداعبان، ويتحدثان، ويتعرفان بعضهما على بعض تدريجياً. على أيِّ حالٍ شعرَ أخيراً بالإثارةِ عندما شهقت متألمةً، ولذلكَ وضعَ شكوكهُ جانباً، وأقحمَ إصبعهُ في داخلها بقوةٍ أكبر، وهو يراقبُ وجهها بينما نازعت مُحتملةً الألم في صمتٍ.

نهضَ وليم عن السريرِ، وركعَ بينَ ساقيها. لم يكن عضوهُ منتصباً بشكلٍ كاملٍ فأخذَ يفركهُ لينتصبَ أكثر؛ ولكن الأمر لم يكن مجدياً كثيراً. كان واثقاً من أنَّ ما جعلهُ عاجزاً هو ابتسامتها الملعونة، ولذلكَ أقحمَ إصبعين بدلاً من إصبعٍ في داخلها فأطلقت صرخةً قصيرةً من الألمِ، وشعرَ وليم أنَّ الأمورَ تحسنت إلَّا أن العاهرة الغبية ابتسمت مجدداً فصفعها بقوةٍ جعلها تصرخُ، وأدمى شفتها. فكرَ وليم في نفسهِ أنَّ هذا ما يجبُ أن تكون عليهِ الأمور.

ضربها مجدداً.

وبدأت تبكي.

وبعد ذلكَ سار كلُّ شيءٍ على ما يرام.

***

في الأحدِ التالي كان عيدُ العنصرةِ، وأتى جمهورٌ كبيرٌ إلى كينغزبريدج لحضورِ الصلواتِ في الكاتدرائيةِ حيثُ سيترأسُ الأسقفُ ويلارن المراسمَ. ستكونُ أعدادُ الحاضرين أكبرَ من المعتادِ فقد أراد الجميع إلقاءَ نظرةٍ على الجناحين الجديدين بعد انتهاءِ العملُ عليهما مؤخراً، وتقول الإشاعاتُ إنَّهما مُذهلان. هناك سيستعرضُ وليم عروسَهُ أمامَ الناسِ العاديين فهو لم يزر كينغزبريدج منذُ أن بنوا السورَ، وفيليب لا يستطيع منعهُ من دخولِ الكنيسةِ.

ولكن قبلَ يومين على عيدِ العنصرةِ توفيت والدتهُ.

كانت في الستين، وحدثَ الأمرُ بشكلٍ مفاجئ. شعرت ريغان بضيق في النفسِ بعدَ الغداءِ يومَ الجمعةِ، ولذلكَ خلدت إلى النومِ باكراً، ولكن قبلَ بزوغِ فجرِ اليومِ التالي بقليلٍ أتت خادمتها لإيقاظِ وليم، وأخبرتهُ أنَّ والدتهُ تتألم. نهضَ من سريرهِ، وتوجهَ وهو نصفُ نائم، ويفركُ وجههُ، إلى غرفتها، وهناك وجدها تشهقُ بشكلٍ رهيبٍ، وتحاولُ التقاطَ نفسٍ، وعاجزةً عن الكلامِ، وفي عينيها نظرةُ هلعٍ.

بعثت شهقاتها المُختلجةُ الرهيبة وعيناها المفتوحتان في رعبِ الهلعِ في وليم. لم تفارقهُ بنظرها كأنَّها توقعت منهُ القيام بشيءٍ ما. كان خائفاً جداً إلى درجةِ أنه قررَ مغادرةَ الغرفةِ، وعندما استدارَ ليغادرَ رأى الخادمةَ عندَ البابِ، وشعرَ بالحرجِ من خوفهِ فأجبرَ نفسهُ على النظرِ مجدداً إلى والدتهِ. بدا شكلُ وجهها في الضوءِ المتذبذبِ للشمعةِ الوحيدةِ في الغرفةِ كأنَّه يتغيرُ باستمرارٍ. غدا تنفسها الأجشُّ والصعبُ أعلى وأعلى إلى أن شعرَ بهِ وليم يملأ رأسهُ، وتساءل في نفسهِ لمَ لم يوقظ صوتها القلعةَ بأكملها. وضعَ يديهِ على أذنيهِ كيلا يسمعه، ولكنه استمرَّ في سماعهِ. بدت كأنَّها تصرخُ بهِ تماماً كما فعلت عندما كان فتى وتوبخهُ بعنفٍ، وجنونٍ، وغضبٍ، وبفمٍ مفتوحٍ، وعينين مسعورتين، وشعرٍ مشعثٍ. غدا الآن أكثر ثقةً أنَّها تطلبُ منه شيئاً، وشعرَ بنفسهِ يعودُ صغيراً، وقصيراً، ويتملكهُ رعبٌ تامٌ لم يشعر بهِ مُذ كان طفلاً. كان رعباً سببه علمهُ أنَّ الشخصَ الوحيدَ الذي أحبَّه هو هذا الوحشُ الشرسُ. لطالما سارت الأمورُ على هذا النحو: تناديهِ ليأتي إليها، أو يبتعدَ، أو يمتطي الجواد، أو يترجل عنه، وعندما يتلكأ في إطاعةِ أوامرها تصرخُ بهِ، ووقتئذٍ يرتعبُ كثيراً، ويعجزُ عن فهمِ ما تطلبهُ منه لينتهي الموقفُ بنوبةٍ هستيريةٍ تأخذُ فيها بالصراخِ عالياً، ومن الرعبِ يغدو وليم أعمى وأصم وأبكم.

غير أنَّ هذهِ المرة كانت مختلفةً عن غيرها.

في هذهِ المرةِ ماتت.

بدايةً أغلقت عينيها. وهنا شعرَ وليم بالهدوءِ، ثمَّ وبشكلٍ تدريجي غدا تنفسها سطحياً، وعلى الرغمِ من الثآليلِ على وجهها، فإنَّ وليم رآه رمادياً،

وحتَّى الشمعةُ بدت كأنَّها تخفتُ، ولم تعد الظلالُ المتحركة في الغرفةِ تخيفه ثمَّ توقفت ريغان عن التنفسِ أخيراً.

«ها هي، إنَّها بخيرِ الآن، أليسَ كذلكَ؟» قال وليم.

وانخرطت الخادمةُ في البكاء.

جلسَ وليم بجانبِ السريرِ ينظرُ إلى وجهِ والدتهِ الساكنِ. هرعت الخادمةُ لإحضارِ كاهنٍ الذي قال لوليم بغضبٍ: «لمَ لم ترسل ورائي في وقتٍ أبكر؟» ولكن وليم بالكادِ سمعهُ، ولزمَ جانبَ والدتهِ حتَّى شروقِ الشمسِ، وعندئذٍ طلبت منه الخادمات مغادرةَ الغرفةِ كي يُكفنّها. نزلَ وليم إلى القاعةِ حيثُ كان سكانُ القلعةِ من فرسانٍ وجنودٍ ورجالِ دينٍ وخدمٍ يتناولون فطوراً خفيفاً. جلسَ إلى الطاولةِ بجانبِ عروسهِ الشابةِ، وشربَ بعضَ النبيذِ. لم يتحدث معه أحدٌ سوى فارسٍ أو فارسين، ووكيل القلعةِ، ولكنه لم يُجب عليهم إلى أن أتى والتر أخيراً، وجلسَ بجانبه. لازمهُ والتر لسنواتٍ عديدةٍ، وهو يعلمَ متى يجبُ عليهِ التزامُ الصمتِ.

وبعدَ برهةٍ قال وليم: «هل الجيادُ جاهزة؟»

بدا والتر متفاجئاً وسأله: «جاهزةٌ من أجلِ ماذا؟»

«من أجلِ الرحلةِ إلى كينغزبريدج. تستغرقُ الرحلةُ يومين، ويجبُ أن نغادرَ هذا الصباح».

«بالنظرِ إلى الوضعِ لم أتصور أنَّك تريدُ الذهابَ...»

ولسببٍ ما أثارَ هذا الكلامُ غضبَ وليم الذي انفجرَ قائلاً: «وهل قلتُ إننا لن نذهب؟»

«لا يا سيدي».

«إذاً، سنذهبُ».

«أجل يا سيدي»، قال والتر ونهضَ ثمَّ قال: «سأجهزُ الأمورَ على الفورِ».

بحلولِ منتصفِ الصباحِ انطلقَ وليم، وإليزابيث، والحاشيةُ المعتادةُ من فرسانٍ، وسائسين. شعرَ وليم كأنَّه في حلمٍ، وخُيلَ إليه أنَّ المناظرَ تعبرهُ وليسَ العكسَ. كانت إليزابيث إلى جانبهِ بوجهها المرضوضِ وقد لزمت الصمتَ. عندما توقفوا اهتمَّ والتر بكلِّ شيءٍ، وفي كلِّ وجبةٍ

تناولوها أكلَ وليم قليلاً من الخبزِ، وشربَ كؤوساً كثيرةً من النبيذِ، وليلاً نامَ نوماً قلقاً.

مع اقترابهم من البلدةِ لاحت كاتدارئيةُ كينغزبريدج من بعيدٍ عبرَ الحقولِ الخضراءِ. كانت الكاتدرائيةُ القديمةُ خفيضةً وعريضةً بنوافذ كعيونٍ خرزيةٍ تحتَ حاجبين مقوسين، غير أنَّ الكنيسةَ الجديدةَ بدت مختلفةً تماماً رغمَ أنَّ العملَ عليها لم ينته بعد. بدت عاليةً ورفيعةً، ونوافذها كبيرة بشكلٍ لا يُصدق، ومع اقترابهم أكثر رأى وليم أنَّ مباني الديرِ حولَ الكاتدرائيةِ تبدو قزمةً مقارنةً بها. لم يكن للكاتدرائيةِ القديمةِ يوماً مثلُ هذا التأثيرِ.

اكتظَّ الطريقُ بالمسافرين على الجيادِ، أو مشياً باتجاهِ كينغزبريدج؛ فقد كانَ عيدُ العنصرةِ شعبياً جداً لأنَّه يأتي أول الصيفِ، وكان الطقسُ لطيفاً، والطرقُ جافة. هذا العام كان عددُ الحاضرين أكبرَ من الأعوامِ السابقةِ فقد أثارت بدعةُ البناءِ الجديدِ فضولَ الناسِ.

قطعَ وليم وحاشيتهُ على صهواتِ جيادهم الميلَ الأخيرَ خبباً مُفرقين المسافرين الغافلين على الطريقِ ثمَّ عبروا الجسرَ الخشبي المتحركَ فوقَ النهرِ في قعقعةٍ عاليةٍ. تعدُّ كينغزبريدج الآن من أكثرِ البلداتِ تحصيناً في إنكلترا. يطوقها سورٌ حجري متينٌ بمتراسٍ ذي شرفاتٍ كشرفاتِ قلعةٍ، وحيثُ كان الجسرُ سابقاً يُفضي إلى الشارعِ الرئيسي مباشرةً هناك برجٌ حجري، وأبوابٌ ثقيلةٌ جداً، ومُدعَّمةٌ بالحديدِ، ورغمَ أنَّها مفتوحةٌ الآن فإنَّها بلا شكٍ تُغلقُ ليلاً، وفكرَ وليم في نفسهِ أنَّه لن يتمكن من إحراقِ البلدةِ بعدَ الآن.

حدَّقَ الناسُ إليهِ، وهو يعبرُ الشارعَ الرئيسي باتجاهِ الديرِ. بالطبعِ يحدّقُ الناسُ إلى وليم طوالَ الوقتِ لأنَّه الإيرل، ولكنهم اليومَ أبدوا اهتماماً بعروسهِ الشابةِ التي كانت إلى يسارهِ بينما سارَ والتر إلى يمينهِ كما يفعل عادةً.

دخلوا إلى ساحةِ الديرِ، وترجّلوا عن جيادهم. تركَ وليم جوادهُ في عهدةِ والتر، واستدارَ نحو الكنيسةِ. كان الطرفُ الشرقي الذي يُمثلُ أعلى قمةِ الصليبِ في أقصى طرفٍ من الساحةِ وبعيداً عن الأنظارِ، أمَّا الطرف الغربي الذي يمثلُ أسفلَ الصليب فلم يُبنَ بعد، ولكنه محددٌ بالأوتادِ والحبالِ بل بدأوا بوضعِ بعضِ الأساساتِ، وبينَ هذين الطرفين يقعُ القسمُ الجديدُ -طرفا الصليبِ- جناحا الكنيسةِ الشمالي والجنوبي والمعبرُ الذي

يقعُ بينهما. كانت النوافذ كبيرةً بحقٍ وكما بدت من بعيدٍ، ولم يرَ وليم بناءً كهذا في حياتهِ.

«إنَّها مذهلةٌ»، كسرت إليزابيث صمتها الخنوعَ قائلةً.

وهنا تمنى وليم لو أنَّه لم يجلبها معهُ.

ومفتوناً بما رآه تجولَ وليم في الصحنِ بينَ صفوفِ الأوتادِ والحبالِ وإليزابيث وراءهُ. كانت الحجيرةُ الأولى في الصحنِ نصفَ منتهيةٍ، وبدت كأنَّها تدعمُ القنطرةَ المستدقةَ الضخمةَ التي تشكلُ مدخلَ المعبرِ. عندما دخلَ وليم من تحت هذهِ القنطرةِ المُذهلةِ وجد نفسه في المعبرِ المكتظِّ بالناسِ.

كان البناءُ الجديدُ خيالياً فقد بدا عالياً جداً، ورفيعاً، وممشوقاً، وهشَّاً جداً كأنَّ لا جدران فيهِ، ولا شيءَ يحملُ السقفَ سوى صفٍ من الدعائمِ الرفيعةِ التي ارتفعت بامتشاقٍ إلى الأعلى. وكبقيةِ الموجودين رفعَ وليم نظرهُ عالياً، ورأى أنَّ الدعائم تمتدُ حتَّى السقفِ المنحني ثمَّ تلتقي عندَ أعلى القبةِ المقنطرةِ كأنَّها أغصانٌ باسقةٌ لصفٍ من أشجارِ الدردارِ الناضجةِ في الغابةِ.

وبدأت الصلواتُ.

لم يكن المذبحُ في مكانهِ المعتادِ بلِ قرب نهايةِ مكانهِ القديم. وقفَ الرهبانُ خلفهُ كي يراهم أفرادُ الرعيةِ ممن كانوا في المعبرِ وجناحي الكنيسةِ ولكن، وعلى الرغمِ من ذلك، استمرَّت الحشودُ بالتوافدِ إلى الصحنِ غير المنتهي بعد. شقَّ وليم طريقهُ إلى الأمامِ فقد كان صاحبَ امتيازٍ، ووقفَ قربَ المذبحِ مع بقيةِ نبلاءِ المقاطعةِ الذين هزّوا رؤوسهم له في تحيةٍ، وبدأوا يتهامسون بينَ بعضهم.

بدا السقفُ الخشبي المطلي للمذبحِ القديم متعارضاً مع القنطرةِ الشرقيةِ العاليةِ للمعبرِ. لا بدَّ أنَّ البنَّاءَ ينوي هدمَ المذبحِ في نهايةِ المطافِ، وبناءَ واحدٍ جديدٍ منسجمٍ مع تصميم الكنيسةِ الحالي.

حالما عبرت هذهِ الفكرةُ خاطرَ وليم وقعَ نظرهُ على البنَّاءِ – جاك جاكسن. بدا شيطاناً وسيماً بلحيتهِ الصهباءِ، وسترتهِ الخمريةِ المُطرزةِ عندَ الأطرافِ والياقةِ كستراتِ النبلاءِ. بدا راضياً عن نفسهِ، ولا شكَّ أنَّ السببَ في هذا يعودُ إلى بناءِ الجناحين بسرعةٍ، ووفقَ تصميم افتتنَ به الجميعُ. كان يُمسكُ بيدِ فتى في التاسعةِ يبدو كنسخةٍ عنهُ. أدركَ وليم في صدمةٍ أنَّ الطفلَ طفلُ آليانا،

وشعرَ بوخزةِ حسدٍ حادةٍ، ثمَّ لمحَ آليانا نفسها تقف وراءَ جاك بقليلٍ، وشبحُ ابتسامة فخرٍ على وجهها. شعرَ وليم بقلبهِ يخفقُ بقوةٍ؛ فقد بدت جميلةً كما عهدها دوماً. كانت إليزابيث بديلاً تعساً، ونسخةً كالحةً عن آليانا الحقيقيةِ، والمُفعمةِ بالحياةِ. رأى وليم على ذراعيها طفلةً صغيرةً في السابعةِ، وتذكرَ أنَّها أنجبت طفلاً ثانياً من جاك على الرغمِ من أنَّهما لم يتزوجا.

أمعنَ وليم النظرَ إلى آليانا، ولاحظَ أنَّها لم تعد جميلةً تماماً كالسابقِ؛ فقد كانت هناك تجاعيد حولَ عينيها، وخلفَ ابتسامتها الفخورةِ شيءٌ من الحزنِ. بعدَ كلِّ هذهِ السنواتِ لم تتمكن من الزواجِ بجاك، وفكرَ وليم في نفسهِ بكلِّ رضا أنَّ السببَ في ذلكَ هو أنَّ الأسقفَ ويلارن لم يحنث بوعدهِ لوليم، وأحبطَ محاولاتِ إبطالِ زواجها من آلفريد، وعندما فكرَ بهذا شعرَ ببعضِ العزاءِ.

رأى وليم ويلارن عندَ المذبحِ يرفعُ الآن خبزَ القربان فوقَ رأسهِ كي يراهُ جميعُ أفرادِ الرعيةِ. ركعَ مئاتُ الناسِ على رُكبهم، وفي هذهِ اللحظةِ أصبحَ الخبزُ جسدَ المسيحِ. لطالما ذُهلَ وليم من تحولِ الخبزِ إلى جسد المسيحِ، ولم يكن لديهِ أدنى فكرة عمَّا يجعلهُ كذلكَ.

انتقلَ تركيز وليم لبرهةٍ إلى الصلواتِ، وراقبَ الحركاتِ الغامضة للكهنةِ، وأصغى إلى الكلماتِ اللاتينيةِ غير المفهومةِ، ودمدمَ ما يحفظهُ من ردودٍ معروفةٍ. كان الشعور بالدوارِ الذي رافقهُ منذُ البارحةِ ما زالَ يلازمهُ، والكنيسةُ السحريةُ الجديدةُ حيثُ أشعةُ الشمسِ تتمايلُ بينَ الأعمدةِ الرائعةِ كثَّفت هذا الشعورَ، وجعلتهُ يشعرُ كأنَّه في حُلمٍ.

عندما شارفت الصلواتُ على نهايتها استدارَ الأسقفُ ويلارن لمخاطبةِ أفرادِ الرعيةِ قائلاً: «سنصلي الآن لروحِ الكونتيسةِ ريغان هاملي والدةِ إيرل شايرنغ وليم التي توفيت ليلةَ الجُمعةِ».

علت همهمةٌ بينَ الناسِ عندما سمعوا الخبرَ، إلَّا أن وليم حدَّق إلى الأسقفِ في رعبٍ فقد أدركَ أخيراً ما كانت تحاول قوله له أثناء احتضارها. كانت تريده أن يُحضرَ كاهناً، ولكن وليم لم يرسل وراءه بل راقبها، وهي تموتُ، وتغلقُ عينيها، وهو يسمع تنفسها يتوقف. لقد تركها تموتُ من دونِ اعترافٍ. كيفَ أمكنهُ القيامُ بهذا؟ هذا يعني أنَّ روحها، ومنذُ ليلةِ الجمعةِ في الجحيمِ تعاني العذابات التي أمعنت في وصفها له مرَّاتٍ عديدةٍ، ومن

دونِ صلواتٍ لإنقاذِ روحها! كان قلبهُ مثقلاً بذنبٍ شديدٍ شعرَ بهِ يتحركُ ببطءٍ في قلبهِ ويميتهُ. كيفَ سمحَ لهذا أن يحصل، كيف تركها تتعذبُ في ذلكَ المكانِ الرهيبِ، وتتشوه روحها بخطاياها تماماً كما شوهت البثورُ وجهها في الوقتِ الذي كانت تتوقُ فيهِ روحها إلى سلامِ الجنةِ؟

«ما الذي سأفعلهُ الآن؟» قال بصوتٍ عالٍ، وحدَّقَ إليهِ الناسُ من حولهِ في عجبٍ.

عندما انتهت الصلواتُ غادرَ الرهبانُ الكنيسةَ في رتلٍ، وبقي وليم على ركبتيهِ راكعاً أمامَ المذبحِ. خرجَ بقيةُ الحاضرين متجاهلين إياه باستثناء والتر الذي بقي قريباً منه يراقبهُ وينتظرُ. كان وليم يُصلي من كلِّ قلبهِ، وصورةُ والدتهِ حاضرة في ذهنهِ، وهو يكرّرُ صلاةَ «أبانا»، وصلواتٍ أخرى يتذكرها. وبعدَ وهلةٍ أدركَ أنَّ هناكَ أموراً أخرى يمكنه القيامُ بها لتخليصِ روحِ والدتهِ المعذبةِ. يمكنهُ إشعالُ الشموعِ، والدفعُ للكهنةِ والرهبانِ كي يصلوا لها بشكلٍ منتظمٍ، ويمكنهُ بناء مصلى خاص على روحها، ولكن كلّ هذهِ الأفكار بدت غيرَ كافيةٍ، وخُيلَ إليهِ أنّه يراها أمامهُ تهزُّ رأسها مجروحةً وخائبةً وتقول: «إلى متى ستتركُ والدتكَ تتعذبُ؟»

شعرَ وليم بيدٍ على كتفهِ، ورفع ناظريهِ. كان الأسقفُ ويلارن يقفُ أمامهُ في ردائهِ الأحمرِ الجميلِ الذي يرتديهِ في عيدِ العُنصرةِ. نظرَ بعُمقٍ في عيني وليم، وشعرَ الأخير أنّه لم يعد لديه أيَّةَ أسرارٍ بعدَ هذهِ النظرةِ الثاقبةِ.

«لماذا تبكي؟» سألَ ويلارن.

وأدرك وليم أنَّ وجههُ رطبٌ من الدموعِ فقال: «أين هي؟»

«ستُطهرُ في النارِ».

«هل تتألمُ؟»

«ألماً عظيماً، ولكن يمكننا أن نُسرّع خلاصَ أرواح أحبتنا من ذلكَ المكانِ الرهيبِ».

«سأفعلُ أيَّ شيءٍ»، قال وليم وهو ينشجُ. «فلتخبرني بما يجب أن أفعله فحسب!»

ولمعت عينا ويلارن في طمعٍ ثمَّ قال: «ابنِ كنيسةً، ولتكن كهذهِ الكنيسة، ولكن في شايرنغ».

***

يتملكُ آليانا غضبٌ دفينٌ كلَّما مرَّت بالأراضي التي كانت في يومٍ من الأيامِ مُلكاً لوالدها، وتغضب أكثر كلما رأت القنواتِ مسدودةً، والأسيجة مُحطمةً ومهجورةً، وحظائر الأبقار مُهدمةً، وتحزن على مشهدِ المراعي الجرداء، ويفطر قلبَها منظرُ القرى المهجورةِ. لم تكن مواسمُ الحصادِ السيئةُ المسؤولةَ عن كل هذا؛ فأراضي شايرنغ قادرةٌ على إطعامِ كلِّ سكانها حتَّى بعدَ ثلاثةِ أعوامٍ من الحصادِ السيئ، ولكنها كانت تدارُ بشكلٍ سيئ. لم يكن لدى وليم هاملي أدنى فكرة عن كيفيةِ إدارةِ أراضيه. اعتبرها صندوق كنزٍ، وليست أرضاً يأكلُ منها آلافُ الناسِ. عندما لا يكون لدى أقنانه أيُّ طعامٍ يجوعون، وعندما يعجزُ مستأجروه عن دفعِ الإيجارات يطردهم. منذُ أنْ أصبح وليم الإيرلِ تقلصت المساحةُ الزراعيةُ بسببِ عودةِ بعضِ الأراضي التي أُخذت من مستأجريها إلى حالتها الطبيعيةِ، ولم يتمتع بالذكاءِ الكافي ليُدركَ أنَّ الأمرَ لا يصبُّ في مصلحتهِ على المدى الطويل.

غير أنَّ أسوأ ما في الأمرِ شعورها بالمسؤولية أيضاً تجاه ما يحدث. إنَّها مُلكيةُ والدها، وقد فشلت هي وريتشارد في استعادتها بعد أن أصبحَ وليم الإيرلَ. عندما خسرت كلَّ أملٍ باستعادتها استسلمت هي وريتشارد، إلَّا أنَّ شعورَ الفشلِ ما زالَ يعتملُ في صدرها، ولم تنسَ الوعدَ الذي قطعتهُ لوالدِها.

في طريقها من وينشستر إلى شايرنغ مع عربةٍ مُحملةٍ بالخيوطِ الصوفيةِ وبرفقةِ سائقِ عربةٍ مفتولِ العضلاتِ يحملُ سيفاً في حزامهِ تذكرت أنَّها في ما مضى عبرت الطريقِ ذاتهُ مع والدها. كان وقتئذٍ يستصلحُ أراضي زراعيةً باستمرارٍ من خلالِ تنظيفِ أراضٍ من الغابةِ، أو تجفيف المستنقعاتِ، أو فلاحةِ السهولِ، وفي السنواتِ السيئةِ خزَّنَ دوماً ما يكفي من بذور الذرة لتقديمها لمن لم يسمح لهم الجوعِ بتخزين ما يحتاجونهُ، ولم يُجبر يوماً المستأجرين لديهِ على بيعِ حيواناتهم، أو محاريثهم لدفعِ الإيجارِ لأنَّه يعلمُ أنَّهم لن يتمكنوا من زراعةِ الأرضِ في العامِ القادم. لطالما تعاملَ مع الأراضي بشكلٍ جيدٍ، وحافظَ على قدرتها الإنتاجيةِ تماماً كما يعتني المزارعُ الماهرُ ببقرةٍ حلوبٍ.

في كلِّ مرَّةٍ تتذكرُ فيها آليانا تلكَ الأيامَ الخوالي، ووالدها الذكيّ والفخور والعنيد بجانبها تشعرُ بألمٍ كجُرحٍ. ساءت حياتها بعدَ أن اعتقلوه،

وكلُّ شيءٍ فعلتهُ بعدَ ذلكَ بدا لها فارغاً. كانت الفترةُ التي عاشتها في القلعةِ مع ماثيو، والذهابُ إلى وينشستر على أملِ مقابلةِ الملكِ، بل حتَّى نضالها لدعمِ ريتشارد خلال مشاركتهِ في الحربِ الأهليةِ أشبه بحُلم. حققت ما رآه الناسُ نجاحاً، وأصبحت تاجرةَ صوفٍ معتبرة، ولكن هذا لَم يجلب لها سوى سعادة مزيفة. صحيح أنَّها وجدت طريقها في الحياةِ، وأسست لنفسها مكانةً في المجتمعِ منحتها الأمنَ والاستقرار إلا أنَّها في الصميمِ بقيت متألمةً وضائعةً إلى أن دخلَ جاك إلى حياتها.

دمّر عجزها عن الزواجِ بجاك كلَّ شيءٍ بعدَ ذلكَ، وباتت تكرهُ رئيسَ الدير فيليب بعد أن كانت تعتبرهُ مُنقذها ومُعلمها، وتوقفت عن تجاذبِ أطرافِ حديثٍ مرحٍ وودي معه منذُ سنواتٍ. بالطبعِ لم يكن عدم حصولها على إبطالٍ لزواجها من آلفريد غلطةَ فيليب، ولكنه هو من أصرَّ على أن يعيشا منفصلين، ولم يكن بوسعِ آليانا منعُ نفسها من الشعورِ بالسخطِ نحوهُ.

أحبَّت طفليها، ولكنها قلقت عليهما لأنهما كانا يكبران في منزلٍ غير طبيعي، وأبٍ يغادرُ عندَ موعدِ النومِ. لحسنِ الحظِّ وحتَّى الآن لم يظهر عليهما أيُّ تأثيرٍ سيئٍ بسببِ هذا الوضعِ الغريبِ؛ فقد كان تومي فتى قوياً ووسيماً يحبُّ كرةَ القدمِ، والسباقاتِ، ولعبَ لعبة الجنودِ، أمَّا سالي فكانت طفلةً لطيفةً وحنونةً تقصُّ الحكايا على دُماها، وتعشقُ مراقبةَ جاك وهو يعمل على أرضيةِ الرسمِ. كانت حاجاتهما الدائمة وحُبهما البسيط العنصرَ الطبيعي الوحيدَ في حياة آليانا الغريبة.

لم يكن هناك ما يمنعها من متابعةِ العملِ؛ فقد كانت تاجرةً بطريقةٍ ما، ومنذُ أن أصبحت راشدة، وحالياً عشرات الرجال والنساء في قُرى متفرقةٍ يغزلون، وينسجون في منازلهم لمصلحتها. منذُ بضعةِ أعوامٍ ماضيةٍ كانوا بالمئاتِ، ولكن أعدادهم تراجعت الآن؛ فقد كانت تعاني من تبعاتِ المجاعةِ تماماً كالجميعِ، ولم يعد هناك جدوى من صنعِ قماشٍ لن تتمكن من بيعهِ، ولكن حتَّى لو تزوجت من جاك كانت ستستمر بعملها المستقلِّ عنه.

استمرَّ رئيسُ الدير فيليب بالقولِ لها إنَّها قد تحصلُ على إبطالِ الزواجِ في أيِّ يومٍ، إلا أنَّها وجاك يعيشان هذهِ الحياةَ الجنونيةَ منذُ سبعةِ أعوامٍ طويلةٍ، ويتناولان الطعامَ، ويربيان طفليهما معاً، ولكن ينامان منفصلين.

شعرت آليانا أنَّ شقاءَ جاك أشدُّ إيلاماً من شقائها. كانت تعشقهُ، ولا أحد يعلمُ مدى حُبها له سوى والدته إيلين التي رأت كلَّ شيءٍ. أحبتهُ لأنَّه أعادها إلى الحياةِ. كانت أشبهَ بيرقةٍ داخلَ شرنقةٍ، وأخرجها جاك منها لتصبح فراشةً. كانت ستقضي بقيةَ حياتها جاهلةً بمتعِ وآلامِ الحبِّ لو أنَّه لم يقتحم عليها فُرجتها السريَّةَ في الغابةِ، ويشاركها قصصهُ الشعريةَ، ويُقبلها قبلةً رقيقةً جداً ثمَّ، وعلى مهلٍ وبكلِّ رقةٍ، يوقظ الحبَّ الهاجع في قلبها. وعلى الرغمِ من يفاعتهِ فإنَّه كان صبوراً ومتسامحاً جداً معها، ومن أجلِ هذا ستحبهُ على الدوامِ.

أثناء عبورها الغابةَ تساءلت في نفسها إن كانت ستلتقي بوالدةِ جاك، إيلين، في طريقها. كانوا يرونها بينَ الفينةِ والأخرى، في أحدِ الأسواقِ في إحدى البلداتِ، ولكنها مرَّةً كل عامٍ تتسللُ إلى كنيغزبريدج عندَ الغسقِ، وتقضي الليلَ مع حفيديها. كانت آليانا تشعرُ بصلةٍ روحيةٍ مع إيلين؛ فكلتاهما غريبتا الأطوار وامرأتان غير نمطيتين. ها هي تخرجُ آليانا من الغابةِ دونَ أن ترى إيلين.

عندما مرَّت بالأراضي الزراعيةِ تفقدت المحاصيل الناضجة في الحقولِ، وخَلُصت إلى أنَّ الحصادَ سيكون جيداً. لم يكن الصيفُ جيداً بسببِ تساقطِ الأمطارِ وبرودةِ الطقسِ، بل لأنَّ ما من فيضانات حدثت، وما من أمراضٍ أصابت المحاصيل كما حصلَ في الأعوامِ الثلاثةِ الماضيةِ. شعرت آليانا بالامتنانِ على هذا فقد كان هناك آلافُ الناسِ الذين يعيشون على شفا الجوعِ، وشتاءٌ سيئ آخر قد يقتلهم جميعاً.

في وسطِ قريةِ مونكفيلد التابعةِ لإيرل شايرنغ توقفت آليانا ليشربَ الثوران من البركةِ. كانت القريةُ كبيرةً حقاً، ومحاطةً بأفضلِ الأراضي في المقاطعةِ، وفيها كنيسةٌ حجريةٌ وكاهنٌ. على أيِّ حالٍ لم يكن سوى نصفِ الحقولِ مزروعاً هذا العام، وبدا هذا النصف الآن مغطى بسنابلِ القمحِ الصفراءِ، أمَّا النصفُ الآخر فقد غزتهُ الأعشابُ الضَّارةُ.

توقفَ مسافران آخران أيضاً عندَ البركةِ وسطَ القريةِ ليشربَ جواداهما. نظرت آليانا إليهما بحذرٍ. لطالما كان انضمامُ مسافرين آخرين على الطريقِ أمراً جيداً فهذا يؤمن حمايةً مشتركةً، ولكن الأمرَ قد يكون خطيراً

أيضاً، خاصَّة بالنسبةِ إلى النساءِ. لاحظت آليانا أنَّ سائقَ عربتها يطيعُ كلَّ أوامرها عندما يكونان وحدهما، ولكن في حضرةِ رجالٍ آخرين ينحو إلى التمردِ عليها.

على أيِّ حالٍ كانَ أحدُ المسافرين عندَ بركةِ المياهِ في قريةِ مونكفيلد امرأةً. أمعنت آليانا النظرَ إلى المرأةِ، وأدركت أنَّها كانت فتاةً أكثر مما كانت امرأةً، وأنَّها مألوفةٌ أيضاً. لقد رأت هذهِ الفتاة في كاتدرائيةِ كينغزبريدج في عيدِ العنصرةِ. إنَّها الكونتيسة إليزابيث زوجةُ وليم هاملي.

بدت الفتاةُ إليزابيث تعيسةً وخاضعةً. كانت برفقةِ جندي بدا كحارسها الشخصي. فكرت آليانا في نفسها أنَّ قَدرها كان سيكون كذلكَ لو أنَّها تزوجت من وليم، وشكرت الرَّبَّ في سرِّها على تمردها، وعدمِ زواجها منه.

أومأ الجندي رأسهُ بلباقةٍ لسائقِ العربةِ، ولكنه تجاهلَ آليانا، وقررت آليانا ألا تقترحَ عليهما السفرَ معاً.

خلالَ الاستراحةِ اربدَّت السماءُ، وعصفت ريحٌ قاسيةٌ.

«عاصفةٌ صيفيةٌ»، قال سائقُ آليانا بإيجازٍ.

نظرت آليانا إلى السماءِ في قلقٍ. لم تمانع التبللَ بماءِ المطرِ، ولكن العاصفةَ ستُبطئ من تقدمهما، وقد تجد نفسها مع سائقها في العراءِ عندَ هبوطِ الظلامِ. وعندما سقطت قطرات من المطرِ قررت آليانا على مضضٍ أنَّه يتعينُ عليهما الالتجاءُ إلى مكانٍ ما.

قالت الكونتيسةُ الشابةُ لحارسِها: «من الأفضلِ أن نبقى هنا قليلاً».

«لا يمكنني هذا»، قال الحارسُ بغَلظةٍ. «إنَّها أوامرُ السيدِ».

استشاطت آليانا غضباً عندما سمعت الرجلَ يتحدثُ إلى الفتاةِ بهذهِ الطريقةِ وخاطبتهُ قائلةً: «لا تكن أحمق! يُفترضُ بكَ أن تعتني بسيدتكَ!»

نظرَ الحارسُ إلى آليانا متفاجئاً، وسألها بوقاحةٍ: «وما شأنكِ أنتِ في الأمرِ؟»

وأجابتهُ آليانا بنبرةٍ أرستوقراطيةٍ: «سيكون المطرُ غزيراً أيّها الأحمقُ، ولا يمكنكَ أن تطلبَ من سيدةٍ متابعة السفرِ في مثلِ هذا الطقسِ لأنَّك إن فعلت فسيجلدكَ سيدكَ على غبائكَ»، ثمَّ استدارت آليانا نحو الكونتيسة إليزابيث.

كانت الفتاةُ تنظرُ بحماسةٍ إلى آليانا، وبدت سعيدةً لوجودِ أحدٍ يقفُ في وجهِ حارسها المتنمرِ. حالما بدأت السماءُ تمطرُ بقوةٍ حسمت آليانا قرارها وقالت لإليزابيث: «رافقيني».

وقبلَ أن يقومَ الحارسُ بأيَّةِ حركةٍ كانت آليانا قد أمسكت بيدِ الفتاةِ، وابتعدت معها. انصاعت الكونتيسة إليزابيث لآليانا وهي تبتسمُ كطفلٍ يخرجُ من المدرسةِ. شعرت آليانا أنَّ الحارس قد يلحقُ بهما، وينتزع إليزابيث من يد آليانا، ولكن في تلكَ اللحظةِ لمعَ برقٌ قوي، وتحولَ وابلُ المطر إلى عاصفةٍ. بدأت آليانا تركضُ وهي تسحبُ إليزابيث معها. هرعتا عبرَ المقبرةِ إلى منزلٍ خشبي بجانبِ الكنيسةِ.

كان البابُ مفتوحاً فركضتا إلى الداخلِ. افترضت آليانا أنَّ هذا منزلُ الكاهنِ، وكانت على حقٍ؛ فحالما دخلتا وقفَ رجلٌ مُتجهمٌ في سترةٍ سوداءٍ يرتدي صليباً صغيراً في سلسلةٍ حولَ عنقهِ. تعلمُ آليانا أنَّ واجبَ الضيافةِ عبءٌ يرزحُ تحتهُ الكثيرُ من كهنةِ الأبرشياتِ، خاصَّةً في الوقتِ الحالي، ولأنَّها توقعت منه أن يصدَّهما بادرتهُ بحزمٍ: «أنا ورفاقي بحاجةٍ إلى ملجأ».

«على الرحبِ»، قال الكاهنِ من بينِ أسنانهِ وهو يصرُّ عليها.

كان منزلاً بغرفتين، وزريبةٍ جانبيةٍ بسقفٍ مائلٍ من أجلِ الحيواناتِ. ورغمَ أنَّ الحيوانات كانت محبوسةً في الداخلِ فإنَّ المكان لم يكن نظيفاً، وعلى الطاولةِ برميلٌ من النبيذ. وحالما جلستا نبحَ عليهما كلبٌ بشراسةٍ.

ضغطت إليزابيث على ذراعِ آليانا وقالت: «جزيلُ الشكرِ لكِ»، ورأت أليانا في عينيها دموعاً ثمَّ تابعت إليزابيث قائلةً: «كان رانولف سيُجبرني على متابعةِ الطريقِ. إنَّه لا يُصغي إليَّ أبداً».

«لم أفعل شيئاً»، قالت آليانا وتابعت: «أولئكَ الرجال الضخام والأقوياء ضعفاء في الحقيقةِ». تفحصت آليانا إليزابيث ثمَّ أدركت في رعبٍ أنَّ الفتاةَ المسكينة تشبهها جداً في المظهرِ. أن تكونَ الفتاة زوجةَ وليم فهذا أمرٌ سيءٌ، ولكن أن تكون أيضاً بديلةً لامرأةٍ أخرى فلا بدَّ أنَّ هذا سيكون أشبَه بالجحيمِ على الأرضِ.

قالت إليزابيث: «أنا إليزابيث من شايرنغ. من تكونين؟»

«اسمي آليانا، وأنا من كينغزبريدج»، قالت آليانا في خوفٍ من أن تعرفها إليزابيث من اسمها، وتدركَ أنَّها المرأةُ التي رفضت الزواجَ من وليم هاملي.

ولكن إليزابيث صغيرةٌ جداً على تذكرِ تلكَ الفضيحةِ التي حصلت منذُ سنواتٍ بعيدةٍ، ولذلك اكتفت إليزابيث بالقولِ: «يا له من اسمٍ غريبٍ».

ومن الغرفةِ الخلفيةِ دخلت امرأةٌ قذرةُ المظهرِ وقبيحةٌ، وقد شمرَّت كُميها عن ذراعيها السمينين. نظرت إليهما بتحدٍ ثمَّ عرضت عليهما كأساً من النبيذِ. تكهنت آليانا أنَّها زوجةُ الكاهنِ، وهو على الأغلبِ يعرّفها إلى الناسِ بصفتها مدبرة منزلهِ لأنَّ زواجَ رجالِ الدينِ ممنوع، نظرياً على الأقلِّ. تسببت زوجاتُ الكهنةِ بالكثيرِ من المتاعبِ؛ فقد كان إجبارُ الرجل على التخلي عن الزوجةِ عملاً قاسياً يجلبُ عموماً العارَ على الكنيسةِ. وعلى الرغمِ من أنَّ الناس يقولون بتعففِ الكهنةِ فإنَّهم عادةً ما يتسامحون في حالاتٍ معينةٍ، خاصَّة إن كانوا يعرفونَ المرأةَ، ولهذا ما زالت الكنيسةُ تغضُّ الطرفَ عن مثلِ هذهِ العلاقاتِ العاطفيةِ، وفكرت آليانا في نفسها: «كوني ممتنةً أيتها المرأةُ فعلى الأقلِّ أنت تعيشين مع رجلكِ».

دخلَ حارسُ إليزابيث وسائقُ العربةِ مُبتلين من المطرِ.

وقفَ رانولف أمامَ إليزابيث وقال لها: «لا يمكننا التوقف».

تفاجأت آليانا عندما انصاعت إليزابيث على الفورِ قائلةً: «حسناً»، ووقفت.

«اجلسي»، قالت لها آليانا، وسحبتها إلى مكانها ثمَّ وقفت أمامَ الحارسِ، ورفعت إصبعاً في وجههِ، وقالت: «إن سمعتُ كلمةً أخرى منكَ فسأنادي على سكانِ القريةِ ليأتوا لإنقاذِ كونتيسة شايرنغ، وإن لم تكن تعلمُ كيفَ يجبُ أن تُعاملَ سيدتكَ فهم يعلمون».

ورأت آليانا أنَّ رانولف يفكرُ ملياً بهذا التهديدِ. كان يستطيعُ التعاملَ مع إليزابيث وآليانا والسائقِ والكاهنِ أيضاً، ولكنه سيكون في ورطةٍ إن انضمَّ إليهم سكانُ القريةِ.

وفي نهايةِ المطافِ قال: «ربما تُفضلُ الكونتيسةُ متابعةَ الطريقِ»، ونظرَ إلى إليزابيث بعدائيةٍ.

وبدت الفتاةُ مرتعبةً.

قالت آليانا: «حسناً، أيتها السيدةُ النبيلةُ يريد رانولف وبكلِّ تواضعٍ أن يعلمَ ما تريدينهُ».

نظرت إليزابيث إليها.

«أخبريهِ فقط بما تريدينهُ»، شجعتها آليانا وتابعت: «إنَّ واجبهُ إطاعة أوامركِ».

ومنحَ أسلوبُ آليانا في الكلامِ إليزابيث الشجاعةَ فأخذت نفساً عميقاً وقالت: «سنرتاحُ هنا. فلتذهب ولتهتمَّ بالجيادِ يا رانولف».

زمجرَ رانولف في إذعانٍ وخرجَ.

راقبتهُ إليزابيث وعلائم الدهشةِ على وجهها.

قال السائق: «سيهطلُ مطرٌ غزيرٌ كالبولِ».

تجهمَ الكاهنُ من سوقيةِ السائقِ، وقال بصرامةٍ: «أنا واثقٌ من أنَّه سيكون مطراً عادياً». لم يكن بوسعِ آليانا منعُ نفسها من الضحكِ، وانضمّت إليها إليزابيث. انتابَ آليانا شعورٌ أنَّ الفتاةَ لا تضحكُ كثيراً.

عندما غدا صوتُ هطولِ المطرِ أعلى كقرعِ طبولٍ نظرت آليانا من البابِ المفتوحِ. لم تكن الكنيسةُ الحجريةُ تبعدُ عنهم سوى بضعِ ياردات، ولكن وابلَ المطرِ حجبها، وهنا أدركت أنَّها ستكون عاصفةً مطريةً قويةً.

قالت آليانا للسائقِ: «هل وضعتَ العربةَ في منطقةٍ محميةٍ؟»

أومأ السائق وقال: «مع الثورين».

«هذا جيدٌ. لا أريدُ للصوفِ أن يبتل».

لمعَ البرقُ، ولحقَ بهِ ذلكَ الصوتُ الهادرُ للرعدِ.

«لن يكون هذا مفيداً للمحاصيلِ»، قال الكاهن.

فكرت آليانا أنَّه كان على حقٍ فما يحتاجونهُ الآن ثلاثةُ أسابيع من الطقسِ المشمسِ.

لمعَ البرقُ، وقصفَ الرعدَ مجدداً، وهزَّت هبةُ ريحٍ قويةٌ البيتَ الخشبي. شعرت آليانا بماءٍ باردٍ يقطرُ على رأسها، وعندما نظرت إلى الأعلى رأت أن التسرَّب مصدرهُ السقف القشي فغيَّرت مكانها بعيداً عنه. بدا هطولُ المطرُ غزيراً من بابِ البيتِ المفتوح الذي يبدو أنَّ ما من أحدٍ أراد إغلاقهُ. كانت آليانا مستمتعةً بمشاهدةِ العاصفةِ، ويبدو أنَّ الجميعَ شاركها هذا.

نظرت آليانا إلى إليزابيث، ورأتها شاحبةً فطوقتها بذراعها. كانت ترتجفُ رغمَ أنَّ الطقسَ لم يكن بارداً ثمَّ عانقتها آليانا.

«أنا خائفةٌ»، همست إليزابيث لها.

«إنَّها مجرّد عاصفةٍ»، قالت آليانا.

غدا المكانُ في الخارجِ مظلماً جداً. اعتقدت آليانا أنَّ موعد العشاءِ قد حان ثمَّ تذكرت أنَّها لم تتناول الغداءَ بعد، وأدركت أنَّ الوقت ما يزالُ ظُهراً. نهضت عن كرسيها، وتوجهت إلى البابِ ثمَّ نظرت إلى السماءِ ورأتها بلونٍ رمادي داكنٍ. لم تشهد في حياتها مثلَ هذا الطقسِ صيفاً. عصفت الريحُ بقوةٍ، وعندما لمعَ البرقُ كشفَ عن الكثيرِ من الأشياءِ التي لعبت بها الريحُ أمامَ المدخلِ: بطانية، وشجيرة صغيرة، ووعاء خشبي، وبرميل فارغ.

عادت إلى الداخلِ، وجلست في مكانها، وهي تشعرُ بشيءٍ من القلقِ. اهتزَّ المنزلُ مجدداً، واهتزَّ معه العمودُ الرئيسي في المنتصفِ الذي يحملُ أطرافَ السقفِ. كان هذا المنزلُ من أفضلِ منازلِ القريةِ، وإن لم يكن ثابتاً ومتيناً في العاصفةِ فهذا يعني أنَّ بعضَ المنازلِ الأضعفِ ستكون عرضةً لخطرِ الانهيارِ. نظرت إلى الكاهنِ وقالت: «إن ساءت الأمور أكثر فسيتعين عليكَ جمعُ سكانِ القريةِ واللجوء إلى الكنيسةِ».

«لن أخرجَ في مثلِ هذا الطقسِ»، قال الكاهن ثمَّ ضحكَ ضحكةً سريعةً.

حدَّقت إليهِ آليانا في ريبةٍ وقالت: «إنهم رعيتكَ، وأنتَ راعيهم».

نظرَ إليها الكاهن بقحةٍ وقال: «أنا موظفٌ عندَ أسقفِ كينغزبريدج، وليسَ عندك، ولن أقومَ بعملٍ غبي لمجرَّد أنَّك تطلبينهُ مني».

قالت آليانا: «على الأقلِّ ضع ثيران الحراثةِ في الملجأ».

في أيَّةِ قريةٍ تعدُّ ثيرانُ الحراثةِ الثمانيةِ أثمنَ ممتلكاتها، ومن دونها لا يستطيع الفلاحون زراعة أراضيهم. لا يمكنُ لكل فلاح شراء ثمانيةَ ثيرانٍ خاصةٍ بهِ، ولذلكَ كانت الثيران ملكيةً عامةً، ولأنَّ رخاءَ الكاهنِ يعتمدُ على هذهِ الثيرانِ فلا بدَّ أنَّه سيقدّرُ قيمتها.

قال الكاهنُ: «لا نملكُ ثيران حراثةٍ».

شعرت آليانا بالحيرةِ وسألتهُ: «ولماذا؟»

«اضطررنا إلى بيعِ أربعةِ ثيران لدفعِ الإيجار ثمَّ ذبحنا البقيةَ من أجلِ الأكل خلال الشتاءِ».

إذاً، لهذا كانت نصفُ الأراضي مزروعةً، ولم يزرعوا سوى الأراضي ذات التربةِ الخفيفةِ باستخدامِ الجيادِ والقوةِ البشريةِ لجرِّ المحراثِ. أغضبها الخبرُ جداً. لمن القسوةِ والغباءِ أن يُجبرَ وليم أولئكَ الناسَ على بيعِ ثيرانِ الحراثةِ؛ فهذا يعني أنَّهم سيجدون صعوبةً في دفعِ إيجارِ هذا العام أيضاً حتَّى وإن كان الطقسُ جيداً. وهنا شعرت آليانا برغبةٍ في أخذِ وليم من عنقهِ وخنقهِ.

عصفت ريحٌ قويةٌ مجدداً، واهتزَّ معها كاملُ المنزلِ، وفجأةً بدا كأنَّ أحدَ جوانبِ المنزلِ يتحرَّكُ ثمَّ يرتفعُ قليلاً مُنفصلاً عن الجدارِ، ومن خلالِ الفتحةِ بينَ السقفِ والجدارِ رأت آليانا السماء الداكنة، والبرقَ اللامع متشعباً فيها.

حالما تراجعت الرياح، وعادَ السقفُ إلى مكانهِ فوقَ الدعائمِ نهضت آليانا عن كرسيها. أدركت الآن أنَّ الوضعَ باتَ خطيراً، ولذلك بدأت تصيحُ بالكاهنِ بصوتٍ عالٍ بسببِ ضجةِ العاصفةِ قائلةً: «على الأقل اذهب وافتح بابَ الكنيسةِ!»

بدا الكاهنُ مستاءً، ولكنه أذعنَ. أخذَ المفتاحَ من صندوقٍ ثمَّ ارتدى عباءتهُ وخرجَ ليختفي بعدها خلف وابلِ المطرِ. بدأت آليانا تنظمُ البقيةَ قائلةً: «أيّها السائق أدخل العربةَ والثوران إلى الكنيسةِ. رانولف أحضر جواديكما. إليزابيث رافقيني».

ارتدوا عباءاتهم وخرجوا، ولكنهم وجدوا صعوبةً في المشي بشكلٍ مستقيمٍ بسببِ الرياح القويّةِ؛ فأمسكوا بعضهم بأيدي بعض، وشقوا طريقهم بصعوبةٍ عبرَ المقبرةِ. تحولَ وابلُ المطرِ إلى وابلِ بردٍ، وأخذت حباتُ البرد الكبيرةِ ترتطمُ وترتدُّ عن شواهدِ القبورِ. في زاويةِ المقبرةِ رأت آليانا شجرةَ تفاحٍ جرداء تماماً كما يحدثُ في فصلِ الشتاءِ. كانت العاصفة قد جرَّدتها من أوراقها وثمارها، وفكرت آليانا في نفسها أنَّ التفاحَ سيكون شحيحاً في المقاطعةِ هذا الخريف.

وأخيراً وصلوا إلى الكنيسةِ ودخلوها. وحالما دخلوا شعروا أنَّهم أصيبوا بالصممِ من الهدوءِ المفاجئ في الداخلِ. كانت الريح ما زالتُ تعولُ في الخارجِ، والمطرُ ينهمرُ بقوةٍ على السطحِ، ولكنهم الآن باتوا في مكانٍ أكثر آماناً. كان بعضُ القرويين قد وصلوا وعباءاتهم تقطرُ ماءً، وقد أحضروا معهم ممتلكاتهم الثمينةَ، ووضعوا دجاجهم في أكياسٍ، وكتَّفوا خنازيرهم، وقادوا

أبقارهم. كانت الكنيسةُ مُظلمةً ولكن البرقَ أضاءها بينَ الفينةِ والأخرى. بعدَ وهلةٍ قادَ السائقُ عربةَ آليانا إلى الداخلِ، ولحقَ بهِ رانولف مع الجوادين.

قالت آليانا للكاهنِ: «لنضع الحيوانات في القسمِ الغربي، والناس في القسم الشرقي قبل أن تتحولَ الكنيسةُ إلى زريبةٍ». كان الجميعُ الآن قد تقبلَ آليانا كشخصٍ مسؤول عن الوضعِ، ولذلكَ أطاعها الكاهنُ بإيماءةٍ من رأسهِ. توجهَ الكاهنُ إلى الرجالِ، وتحدَّثَ إليهم بينما توجهت آليانا إلى النساءِ ونظمتهن. وبالتدريجِ بدأ الناسُ يبتعدون عن الحيواناتِ. أخذت النساءُ الأطفالَ إلى المذبحِ الصغيرِ، وربطَ الرجالُ الحيواناتِ إلى الأعمدةِ في الصحنِ. كانت الجيادُ مرتعبةً، وتنظر بشكلٍ وحشي وتثبُ، أمَّا الأبقارُ فجثمت في أمكنتها. احتشدت عائلاتُ القرويين في جماعاتٍ، وبدأوا يتناولون الطعام والشراب، وقد جهزَّوا أنفسهم لإقامةٍ طويلةٍ.

كانت العاصفةُ عنيفةً جداً إلى درجة أن آليانا اعتقدت أنَّها ستنحسرُ قريباً، ولكن بدلاً من ذلك أخذت تسوء أكثر فأكثر. توجهت آليانا إلى النافذةِ، ولكن بالطبعِ لم يكن لنوافذِ هذهِ الكنيسةِ زجاجٌ بل قماشٌ كتاني شفافٌ وقد استحالَ الآن إلى مُزقٍ فوقَ الإطارِ. رفعت آليانا نفسها حتَّى إفريز النافذةِ لإلقاءِ نظرةٍ إلى الخارجِ، ولكنها لم ترَ شيئاً سوى المطر.

خارج جدرانِ الكنيسةِ استعرت الريحُ، وغدا عويلها أقوى، وهنا بدأت آليانا تتساءل في نفسها إن كانت الكنيسةُ آمنةً أيضاً، فنهضت وقامت بجولةٍ سريَّةٍ داخلَ المبنى. كانت قد قضت ما يكفي من الوقتِ مع جاك لتعرفَ الفرقَ بين البناءِ الجيدِ والرديء، وشعرت بالراحةِ عندما أدركت أنَّ البناءَ جيدٌ ومتقنٌ، ولا وجود لصدوعٍ، ومبني من حجارةٍ كاملةٍ، وليسَ من الركامِ. كان بناءً متيناً كجبلٍ.

أشعلت مدبرةُ منزلِ الكاهنِ شمعةً، وهنا أدركت آليانا أنَّ الظلامَ هبطَ الآن لكن، وبسببِ العاصفة، لم يعرفوا الليلَ من النهارِ. تعب الأطفال من الركضِ عبرَ الممرّاتِ؛ ولذلك تلفعوا الآن في عباءاتهم، وغطُّوا في النومِ، ووضعَ الدجاجُ رأسَه تحتَ أجنحتهِ ونامَ. جلست إليزابيث وآليانا جنباً إلى جنب على الأرضيةِ، وأسندتا ظهريهما إلى الجدارِ.

كان الفضولُ يأكلُ آليانا لتعرفَ المزيدَ عن هذهِ الفتاةِ المسكينةِ التي

تلعبُ الدور الذي رفضت لعبهُ منذُ سبعةَ عشرَ عاماً، ولذلكَ ومن دونِ حرجٍ سألتها: «عندما كنتُ فتاةً عرفتُ وليم، كيفَ هو الآن؟»

«أحتقرهُ»، قالت إليزابيث بعنفوانٍ.

وشعرت آليانا بأسفٍ كبيرٍ عليها.

سألتها إليزابيث: «وكيفَ تعرفينهُ؟»

أدركت آليانا أنَّها فضحت نفسها، ولذلكَ قالت: «إن أردتِ الحقيقةَ، عندما كنت في عمركِ، أو أصغر خُطبتُ إليهِ».

«حقاً! لماذا لم تتزوجي به؟»

«رفضتهُ، وقد دعمني والدي في هذا، ثمَّ حدثت متاعب رهيبةٌ... وتسببتُ في سفكِ الكثيرِ من الدماءِ. على أيِّ حالٍ كلُّ هذا أصبحَ من الماضي».

«رفضتهِ!» قالت إليزابيث في سرورٍ وتابعت: «أنتِ شجاعةٌ جداً. أتمنى لو أنني كنتُ مثلكِ»، وفجأة بدت حزينةً مجدداً. «ولكنني عاجزةٌ حتَّى عن الوقوف في وجهِ خدمي».

«ولكن يمكنكِ فعلُ هذا»، قالت آليانا.

«كيف؟ إنَّهم لا يعيرونني أهميةً لأنني في الرابعة عشرة».

فكّرت آليانا في المسألةِ بعنايةٍ ثمَّ أجابت بدقةٍ: «بدايةً، عليك أن تكوني حاملةَ أوامرِ زوجكِ إليهم. في الصباحِ اسأليهِ عمَّا يريدُ تناولهُ، ومن يريدُ أن يلتقي، وأيُّ جوادٍ يرغبُ بامتطائهِ، أسئلةً من هذا القبيلِ، ثمَّ توجهي إلى مسؤولِ المطبخِ، والوكيلِ في القاعةِ، ومسؤولِ الإسطبلِ، وأبلغيهم بأوامرِ الإيرل. سيكون زوجكِ ممتناً لكِ، وسيغضبُ من أيِّ شخصٍ يتجاهلكِ، وهكذا سيعتادُ الناسُ على تنفيذِ كلِّ ما تطلبينهُ. ولتنتبهي إلى من يساعدكِ بحماسةٍ، ومن يساعدكِ على مضضٍ، ولتحرصي على أن يكون الناسُ المتعاونين المفضلين لديكِ وإعطائهم الأعمال التي يحبونها، أمَّا غير المتعاونين فكلفيهم بالأعمالِ القذرةِ. عندها سيدركُ الناسُ أنَّ في طاعةِ الكونتيسة مكسباً، وسيحبونكِ أكثر من وليم رغمَ أنّه أصلاً ليسَ محبوباً إلى هذهِ الدرجةِ. في نهايةِ المطافِ ستصبحين صاحبةَ سُلطةٍ كما هو حالُ معظمِ الكونتيسات».

«أنت تجعلين الأمرَ يبدو سهلاً»، قالت إليزابيث في حزنٍ.
«لا، إنَّه ليسَ سهلاً، ولكنكِ صبورةٌ، ولا تُحبطين بسهولةٍ. يمكنكِ فعلُ هذا».
«أعتقدُ أنني أستطيع»، قالت إليزابيث بعزمٍ. «أعتقدُ حقاً أنني أستطيع».
وأخيراً غطتا في النومِ. بينَ الفينةِ والأخرى تعولُ الريحُ بقوةٍ فتستيقظ عليها آليانا، وتنظرُ من حولها في ضوءِ الشمعةِ المتذبذبِ، وعندها ترى أنَّ معظمَ البالغين في المكانِ يفعلون مثلها وقد جلسوا باستقامةٍ، وعندما يغفون قليلاً يستيقظون فجأةً مرةً أخرى. مكتبة سُر مَن قرأ
قرابةَ منتصفِ الليلِ استفاقت آليانا مُجفلةً، وأدركت أنَّها نامت لساعةٍ أو أكثر. كان الجميعُ من حولها يغطُّ في النومِ. غيَّرت وضعيتها، واستلقت على ظهرها أرضاً، وأحكمت عباءتها حولها. رغمَ أنَّ العاصفةَ في الخارج لم تهدأ بعد، فإنَّ حاجةَ الناسِ إلى النومِ تغلَّبت على خوفهم. كان صوتُ المطرِ يضربُ جدرانَ الكنيسةِ أشبهَ بصوتِ أمواجٍ تتكسرُ على شاطئ، وبدلاً من أن تبقيها صاحيةً هدهدتها واستسلمت معها للنومِ.
ومجدداً استفاقت آليانا مُجفلةً. تساءلت في نفسها عمَّا أيقظها، وأصغت، وهنا أدركت أنَّ ما أيقظها هو الهدوء في الخارجِ. لقد انتهت العاصفةُ.
تسللُ ضوءٌ رمادي ضعيفٌ من النوافذِ، وكان جميعُ القرويين ما زالوا نياماً.
نهضت آليانا، وأيقظت حركتها إليزابيث التي استفاقت على الفورِ.
نهضتا معاً، وتوجهتا إلى بابِ الكنيسةِ ثمَّ فتحتاه، وخرجتا.
كان المطرُ قد توقفَ، والريحُ تحولت إلى نسيمٍ خفيفٍ. لم تكن الشمسُ قد أشرقت بعد، وسماءُ الفجرِ بلون لؤلؤي رمادي. نظرت آليانا وإليزابيث من حولهما في الضوءِ الضعيف ولكن الصافي.
لم يكن هناك من أثرٍ للقريةِ.
باستثناءِ الكنيسةِ لم يبقَ مبنى واحد في القريةِ. بدت المنطقةُ بأكملها كأنَّها مُهّدت أرضاً، وقبالةَ جدارِ الكنيسةِ استقرَّت بضع قطعِ خشبيةٍ ثقيلةٍ. ما عدا هذا لم يكن هناكَ ما يدل على وجودِ منازل سوى حجارةِ المدافئ الموزعةِ هنا وهناك وسط بحرٍ من الوحلِ. على أطرافِ ما كان البارحةَ قريةً خمسُ أو

ستُ أشجارٍ بلوطٍ وشجرة كستناء بالغة. ورغمَ أنَّ الأشجار ما زالت صامدةً في مكانها فإنَّها خسرت الكثيرَ من الأغصانِ، أمَّا الأشجارُ الأصغر فلم يكن لها أيُّ أثرٍ.

وفي حالةِ صدمةٍ من هذا الخرابِ الكاملِ سارت آليانا وإليزابيث في ما كان البارحةَ شارعاً في القريةِ. كانت تغطيه القاذورات، والأخشابُ المتكسرةُ، والطيورُ الميتةُ. وصلتا إلى أولِ حقل قمح، وخُيلَ إليهما كأنَّ قطيعاً ضخماً من الحيواناتِ سحقه ليلاً. كانت السنابلُ الناضجةُ قد سويت أرضاً، أو كُسرت، أو قُلعت، أو جرُفت، أمَّا التربةُ فقد بدت كأنَّها فُلحت، وامتلأت بمياهِ المطرِ.

هلعت آليانا من هذا المشهدِ ودمدمت: «يا إلهي، ما الذي سيأكلهُ الناس؟»

نظرتا عبرَ الحقلِ، ورأتا الدمارَ في كلِّ مكانٍ. صعدتا هضبةً منخفضةً، وتفحصتا المناطق المجاورةَ من الأعلى، وإلى كلِّ جهةٍ نظرتا رأتا محاصيل مُدمرةً، وخرافاً ميتةً، وأشجاراً مقلوعةً، ومروجاً تحولت إلى مستنقعاتٍ، ومنازل سويت بالأرضِ. كان الدمارُ مروعاً، وأثارَ في آليانا شعوراً رهيباً بالمأساة. كان المنظرُ مروعاً كأنَّ الرَّبِّ مسحَ بيدهِ إنكلترا، وسوَّاها أرضاً مدمِّراً كلَّ شيءٍ صنعهُ الإنسان، باستثناءِ الكنائسِ.

وكذلك أيضاً كان الدمارُ صادماً لإليزابيث التي قالت: «هذا رهيبٌ. لا يسعني تصديقُ ما أراه. لم يبقَ شيءٌ».

أومأت آليانا بتجهم، وكررت وراءَ إليزابيث: «لم يبقَ شيء»، ثمَّ أضافت: «ولن يحصد الناسُ هذا العام».

«وما الذي سيفعلونهُ؟»

«لا أعلم»، أجابت آليانا بمزيجٍ من الشفقةِ والخوفِ، وتابعت: «ولكنه سيكون شتاءً دموياً».

– 2 –

بعد أربعةِ أسابيع على العاصفةِ، وفي أحدِ الصباحاتِ طلبت مارثا من جاك مزيداً من المالِ. تفاجأ جاك بطلبها؛ فقد كان يعطيها ستةَ بنساتٍ أسبوعياً من أجلِ إدارةِ شؤونِ المنزلِ، ويعلمُ أنَّ آليانا تعطيها المبلغَ ذاتهُ

أيضاً، وبهذا المبلغ تُطعمُ أربعةَ بالغين وطفلين، وتزود المنزلَ بالحطبِ ونباتِ السُمَّارِ. ولأنَّ هناك الكثيرَ من العائلاتِ الكبيرةِ في كينغزبريدج التي تعيشُ على ستةِ بنساتِ أسبوعياً، وتكفيها للطعامِ والكساءِ والإيجارِ، سألها عن سببِ حاجتها للمزيدِ.

بدت مارثا محرجةً وقالت: «ارتفعت جميعُ الأسعارِ، وبات الخبَّازُ يطلبُ بنساً عن رغيفِ الخبزِ الذي يبلغُ وزنهُ أربعةَ باوندات و...»

«بنساً! لرغيفٍ بهذا الوزنِ!؟» كان جاك غاضباً جداً. «من الأفضلِ أن نبني فرناً، ونصنعَ خبزنا».

«حسناً، أحياناً أعدُّ الخبزَ بالمقلاةِ».

«هذا صحيح»، قال جاك، وأدركَ الآن أنهم تناولوا هذا الخبزَ مرتين أو ثلاثاً خلالَ الأسبوعِ الماضي.

قالت مارثا: «ولكن سعرَ دقيقِ القمحِ ارتفعَ أيضاً، ولهذا لم أتمكن من توفيرِ الكثيرِ من المالِ».

«يجبُ أن نشتري الذرة، ونطحنها بأنفسنا».

«هذا ممنوع. يُفترضُ بنا استخدام مطحنةِ الديرِ، على أيِّ حالٍ الذرةُ غالية أيضاً».

«بالطبع»، قال جاك، وأدركَ أنه كان يتحدثُ بغباءٍ. كان الخبزُ مادةً غاليةً بسببِ غلاءِ الدقيقِ، وكان الدقيقُ غالياً لأنَّ الذرة غالية، والذرة غالية لأنَّ العاصفة قضت على محصولِ الذرةِ. لم يكن هناك مخرجٌ من الأمرِ. لاحظَ جاك أنَّ مارثا تبدو مضطربةً؛ فلطالما تضايقت عند رؤيته متضايقاً. ابتسم لها ليُثبتَ لها أنَّ كلَّ شيءٍ على ما يرامُ، وربَّتَ على كتفها ثمَّ قال: «إنَّها ليست غلطتكِ».

«تبدو متضايقاً».

«ليسَ منكِ»، قال بصوتٍ يفضح شعوراً بالذنبِ. يعلمُ أنَّ مارثا مستعدةٌ لقطعِ يديها قبلَ أن تجرّب خداعهُ. لم يفهم قط السببَ الذي يجعلها مخلصةً له إلى هذهِ الدرجة. إن كان السببُ الحبَّ فلا بدَّ أن تكون قد سئمت منه الآن لأنَّها والعالم أجمع يعلم أنَّ آليانا حُبُّ حياتهِ. فكرَ مرَّةً في إرسالها بعيداً

لإجبارها على التخلصِ من هذهِ النزوة، ولكنه علمَ في صميمهِ أنَّ الأمرَ لن ينجح بل سيتسبب بتعاستها، ولهذا تركها وشأنها.

مدَّ يدهُ إلى داخل سترتهِ، وأخذَ محفظتهُ ثمَّ أخرجَ ثلاثةَ بنساتٍ فضيةٍ وقال: «سأعطيكِ اثني عشرَ بنساً أسبوعياً لتديري الأمورَ بها». كان المبلغُ كبيراً؛ فقد كان يقبضُ أربعةً وعشرين بنساً أسبوعياً، ويحصلُ أيضاً على علاواتٍ، وشموعٍ، وأرديةٍ، وأحذيةٍ.

تجرَّعَ بقيةَ الجعةِ في كأسهِ وخرجَ. منذُ العاصفةِ والطقسُ غريبٌ، فقد كان بارداً جداً على مثلِ هذا الوقتِ من بدايةِ فصلِ الخريفِ. هرعَ جاك عبرَ الشارعِ ودخلَ إلى ساحةِ الديرِ. لم تكن الشمسُ قد بزغت بعدِ، ولم يصل إلى الموقعِ سوى بضعة حرفيين. توجه جاك إلى صحنِ الكنيسةِ لتفحصِ الأساساتِ. لحسنِ الحظِ كان العملُ عليها قد انتهى تقريباً لأنَّهم قد يتوقفون عن العملِ بالملاطِ باكراً هذا العام بسببِ برودةِ الطقسِ.

نظرَ عالياً إلى الجناحين الجديدين. كانت الصدوعُ فيهما قد أفسدت عليهِ سعادتهُ بما بناه؛ فقد ظهرت مجدداً بعدَ يومٍ على العاصفةِ الهوجاءِ، وخابَ أملهُ بشدةٍ. كانت عاصفةً غريبةً، ولكن كنيستهُ مصممة للنجاةِ من مئاتِ العواصفِ. أخذَ يهزُّ رأسهُ في حيرةٍ، وصعدَ الدرجَ الحلزوني إلى بهو منطقةِ النوافذِ العلويةِ. تمنَّى لو أنَّه يستطيعُ التحدثَ إلى أحدِ ما بنى كنيسةً مشابهةً، ولكن ما من أحدٍ في إنكلترا بنى مثلَ هذهِ الكنيسةِ، بل حتَّى في فرنسا لم يبنوا كنائس بهذا الارتفاعِ.

لم يتوجهْ إلى أرضيةِ الرسمِ بل تابع صعودَ الدرجِ إلى السطحِ. كانوا قد انتهوا من وضعِ الألواحِ المعدنيةِ، ورأى القبةَ المستدقةَ التي أعاقت مرور مياه المطرِ، ولكنها الآنَ زودت بقناة تصريفٍ كبيرةٍ تمرُّ عبرَ قاعدتها. كان الجو في الأعلى عاصفاً إلى درجةٍ أنَّه كلما اقتربَ من حافةٍ حاول التمسكَ بشيءٍ ما كيلا يقعَ. لن يكون أوَّل بنَّاءٍ يقعُ عن السطحِ، ويلقى حَتفهُ بسببِ الريحِ التي يبدو أنَّها على الدوامِ أقوى في الأعلى مما هي على الأرضِ. في الحقيقةِ، يبدو أنَّ سرعةَ الريحِ تزدادُ بشكلٍ غير متناسبٍ مع الارتفاعِ...

وقفَ في مكانهِ يحدّقُ إلى الفراغِ... تزدادُ سرعةُ الريحِ بشكلٍ غير متناسبٍ مع الارتفاعِ... هذا هو جوابُ الأحجيةِ. لم يكن وزنُ القبةِ المُقنطرةِ ما تسببَ بالصدوعِ بل ارتفاع البناءِ. وعلى الرغم من ثقته بقوةِ الكنيسةِ التي بناها ولكن

يبدو أنه غفلَ عن التفكيرِ بأمرِ الرياحِ. كانت الجدرانُ العاليةُ عرضةً دوماً لتأثير العواصفِ، ولأنَّها عالية جداً فإنَّ الريحَ كفيلةٌ بالتسببِ بالصدوعِ. ومن مكانهِ على السطحِ، وهو يشعرُ بقوةِ الريحِ، تخيلَ تأثيرها على البنيةِ المتوازنةِ بقوةٍ تحتهُ. كان يعرفُ البناءَ جيداً إلى درجةِ أنه يشعرُ بأيِّ ضغطٍ عليهِ كأنَّ جدرانهُ جزءٌ من جسدهِ. عصفت الريحُ بالكنيسةِ من كل الجوانبِ، وكانت تدفعُ معها جاك أيضاً، لكن ولأنَّ الكنيسةَ لا تميلُ تصدَّعَت.

كان على ثقةٍ تامةٍ أنَّه عثرَ على التفسيرِ الذي بحثَ عنهُ مطولاً، ولكن ماذا عن الحلِّ؟ يحتاجُ الآن إلى تمتين منطقةِ النوافذِ العلويةِ كي تصمدَ في وجهِ الريحِ، ولكن كيف؟ إنَّ بناءَ أفاريز ضخمةٍ على الجدرانِ من شأنه أن يشوهُ الخفة والانسيابية الرائعتين اللتين عمل بجدٍ على إنجازهما.

ولكن إن كان هذا ثمنَ جعلِ البناءِ قائماً سيتعين عليهِ التضحيةُ.

هبطَ الدرجَ مجدداً. على الرغمِ من أنَّه فهمَ أخيراً المشكلةَ إلا أنَّه فقد حماستهُ لأنَّه في الحلِّ تدميرٌ لحُلمهِ، وفكرَ في نفسهِ أنَّه على الأغلبِ كانَ متعجرفاً وواثقاً جداً من قدرتهِ على بناءِ أجمل كاتدرائيةٍ في العالمِ. لمَ سمحَ لنفسهِ بالاعتقادِ أنَّه سيُبلي أفضلَ من أيِّ أحدٍ آخر؟ ما الذي جعلَهُ يعتقدُ أنَّه مميزٌ؟ وقال لنفسهِ إنَّه كان عليهِ أن يُقلّدَ تصميمَ مُعلمٍ آخرِ، وأن يرضى بهِ.

وجدَ جاك فيليب بانتظارهِ عندَ أرضيةِ الرسمِ، وعلى وجههِ ارتسمت تكشيرةُ قلقٍ. كان الشعرُ الرمادي حولَ رأسِ فيليب الحليق مشعثاً، وبدا كأنَّه لم يغمض له جفنٌ طوالَ الليلِ.

«يجبُ أن نُخفضَ الإنفاقَ»، قال فيليب من دونِ تمهيدٍ. «لم يعد لدينا مالٌ كافٍ لمتابعةِ أعمالِ البناءِ بالوتيرةِ الحاليةِ».

لطالما خشي جاك من حدوثِ هذا. كان الإعصارُ قد دمَّر المحاصيلَ في معظمِ مناطقِ جنوبِ إنكلترا، ولذلكَ كان جاك واثقاً من أنَّ تأثيرهُ سيصلُ إلى مواردِ الديرِ. لطالما أثارَ الحديثُ عن خفضِ الإنفاقِ قلقهُ، وفي أعماقهِ خشي أنّ تتباطأ أعمالُ البناءِ كثيراً، ولا يعيشُ ليرى كاتدرائيتهُ منتهيةً، ولكنه لم يسمح لهذا الخوفِ أن يظهرَ على وجههِ بل قال لفيليب بطريقةٍ عرضيةٍ: «على أيِّ حالٍ الشتاءُ على الأبوابِ، ووتيرةُ العملِ تتباطأ دوماً خلال هذا الوقت. وهذا العام سيحلُّ الشتاءُ باكراً».

«هذا غير كافٍ»، قال فيليب بتجهمٍ وتابع: «أريدُ خفضَ الإنفاقِ إلى النصفِ، وعلى الفورِ».

«إلى النصفِ!» قال جاك مشدوهاً فقد بدا له الأمرُ مستحيلاً.

«ويجب أن تبدأ بتسريحِ العمالِ لفصلِ الشتاءِ منذُ اليوم».

كان الأمرُ أسوأ مما تخيلهُ جاك. عادةً ما يغادرُ العمال الصيفيون مع بدايةِ شهرِ كانون الأول/ ديسمبر، ويقضون أشهرَ الشتاءِ في بناءِ المنازلِ الخشبيةِ، أو صُنعِ المحاريث والعرباتِ من أجل عوائلهم، أو لكسبِ المالِ منها. لن تكون العوائلُ هذا العام مسرورةً بعودتهم. قال جاك: «ألا تعلمُ أنّك ترسلهم إلى منازل سكانها يتضورون جوعاً الآن؟»

حدَّق إليهِ فيليب في غضبٍ.

«بالطبعِ أنتَ تعلمُ»، قال جاك وتابع: «أعتذرُ عن السؤالِ».

قالَ فيليب مُكرهاً: «يجب أن تفعلَ هذا الآن لأنَّه وفي أحدِ أيام السبتِ في منتصفِ الشتاءِ سيقفُ جميعُ العمالِ في الصفِّ لأخذِ أجورهم، ولكن لن يكون أمامك سوى صندوق فارغ».

هزَّ جاك كتفيهِ في يأسٍ وقال: «لا أشكُّ أنَّ هذا ما سيحدث».

«ولكن هذا ليسَ كلّ ما في الأمرِ»، قال فيليب مُحذراً. «من الآن فصاعداً لن نستعين بأحدٍ جديدٍ، حتَّى لاستبدالِ من يغادرون».

«إننا لم نستعن بأحدٍ منذُ أشهرٍ».

«لقد استعنتَ بألفريد».

«ولكن الأمرَ مختلفٌ»، قال جاك في حرجٍ ثمَّ أضاف: «حسناً لن نستعين بأحدٍ بعدَ الآن».

«ولن تقوم بالترقيةِ».

أومأ جاك برأسهِ موافقاً. بينَ الفينةِ والأخرى يطلبُ متدربٌ أو عاملٌ ترقيتهُ إلى بنَّاءٍ، أو قاطعِ حجارةٍ، وإن أجمعَ الحرفيون على أنَّه يمتلكُ المهاراتِ الكافيةِ يترقى، ويضطرُ الديرُ إلى رفعِ أجرهِ. قال جاك: «الترقيةُ امتيازُ مجلسِ البنَّائين».

«أنا لا أحاولُ تغيير القوانين»، قال فيليب. «أنا أطلبُ من البنَّائين أن يؤجلوا كلَّ الترقياتِ إلى أن تنتهي المجاعة».

«سأعرضُ الأمرَ عليهم»، قال جاك على مضضٍ، وانتابه شعورٌ أنَّ متاعب تلوحُ في الأفقِ.

وتابع فيليب قائلاً: «ومن الآن فصاعداً لن تعملوا في أعيادِ القديسين».

كانت أعيادُ القديسين كثيرةً، ومن حيثُ المبدأ تعدُّ أيامَ عطلٍ. كان حصول العمال على أجرٍ مقابلَ العملِ فيها خاضعاً للمفاوضاتِ. في كينغزبريدج إن جاءَ عيدان في أسبوعٍ واحدٍ فسيكون أول عيدٍ عطلةً مدفوعةَ الأجرِ، والثاني عطلةً اختياريةً ولكن غير مأجورة إن لم يعملوا، ولذلكَ اختار معظمُ الناسِ العملَ في العطلةِ الثانيةِ. ولكن الآن لن يعود للناس مثلُ هذا الخيار، وستصبحُ العطلةُ الثانيةُ عطلةً إجباريةً غير مدفوعةٍ.

شعرَ جاك بالضيقِ لأنَّه سيضطر إلى شرحِ كلِّ هذهِ التغييراتِ أمامَ مجلسِ البنَّائين، ولذلكَ قال لفيليب: «قد يكون من الأفضلِ أن أعرضَ عليهم الأمر في نقاشٍ بدلاً من طرحهِ كأمرٍ منتهٍ».

هزَّ فيليب رأسهُ وقال: «سيعتقدون أنَّ الأمرَ قابلٌ للتفاوضِ، وأنَّ بعض المقترحاتِ قد تخفف. سيقترحون العملَ نصفَ أعيادِ القديسين، وسيسمحون بعددٍ محدودٍ من الترقياتِ».

كان فيليب على حقٍ وقال جاك: «ولكن أليسَ هذا منطقياً؟»

«بالطبع منطقي»، قال فيليب مغتاظاً وتابع: «ولكن المشكلة أنَّه لا إمكانية لمثلِ هذهِ التعديلاتِ، وأنا أصلاً قلقٌ من ألا تكون هذهِ الإجراءات كافيةً، ولذلكَ لا يمكنني القيامُ بأيِّ تنازلات».

«حسناً»، قال جاك وقد فهم الآن أنَّ فيليب لم يكن في مزاجٍ للتفاوض. «هل من شيءٍ آخر؟» أضاف بحذرٍ.

«أجل، توقف عن شراءِ الموادِ، ولتعملْ على ما لديكَ من حجارةٍ، وحديدٍ، وخشبٍ».

«إننا نحصلُ على الخشبِ مجاناً»، احتجَّ جاك.

«ولكننا ندفعُ أجر نقلهِ إلى هنا بالعربةِ».

«صحيح، حسناً»، قال جاك، وتوجه إلى النافذةِ ثمَّ نظرَ إلى الحجارةِ، وجذوعِ الأشجارِ المكدسةِ في ساحةِ الديرِ، ولكنه لم ينظرْ ليعاينها فهو يعرف الكميةَ التي يملكها بل ألقى نظرةً لا إراديةً وقال بعدَ وهلةٍ: «لن

تكون هذهِ مشكلة»، ثمَّ أضاف: «مع انخفاضِ أعدادِ القوةِ العاملةِ سيكون لدينا ما يكفي من الموادِ حتَّى الصيفِ القادمِ».

تنهدَ فيليب في سأمٍ وقال: «قد لا نتمكن من الاستعانة بعمالِ الصيفَ القادمَ. يعتمد هذا على سعرِ الصوفِ، ولذلكَ من الأفضلِ أن تضعهم في صورةِ الوضعِ».

أومأ جاك برأسهِ وسأله: «هل الوضعُ سيئ إلى هذهِ الدرجةِ؟»

«إنَّه الأسوأ. إنَّه أسوأ ما شهدتهُ في حياتي»، قال فيليب وأضاف: «ما يحتاجهُ البلدُ الآن ثلاثة أعوامٍ من الطقسِ الجيدِ وملكاً جديداً».

«آمين»، قال جاك.

استدار فيليب عائداً إلى منزلهِ، وقضى جاك الصباحَ يُفكرُ في طريقةِ للتعاملُ فيها مع هذهِ التغييرات. هناك طريقتان لبناءِ صحنِ الكنيسةِ، إمَّا ببناءِ كلِّ حجيرةٍ على حدة بدءاً من المعبرِ باتجاهِ الغربِ، أو بنائهِ على مراحلٍ: بناءُ أساسِ الصحنِ بأكملهِ من الأسفلِ إلى الأعلى. كانت الطريقةُ الثانيةُ أسرع من الأولى، ولكنها تتطلبُ عدداً أكبر من البنَّائين، وهذا ما نوى جاك القيام بهِ، ولكنه اضطرَّ الآن إلى تغييرِ مخططهِ، وسيكون بناءُ كلِّ حُجيرة على حدة مناسباً مع انخفاضِ القوةِ العاملةِ، إلَّا أنَّ لهذا الأمرِ ميزةً أخرى؛ فأيُّ تعديلٍ قد يرغبُ في إدخالهِ على التصميمِ سيختبر مقاومتهُ للرياحِ في حُجيرةٍ أو حُجيرتين قبلَ تطبيقهِ على كاملِ البناءِ.

وفكرَ جاك أيضاً بالتأثيرِ البعيد الأمد للكارثةِ الماليةِ الحاليةِ. قد تتراجع وتيرةُ العملِ أكثر فأكثر على مدارِ سنواتٍ، وتخيلَ نفسهُ يكبرُ، ويشيب، ويضعف قبلَ أن يحققَ طموحَ حياتهِ، وفي نهايةِ المطافِ يموت، ويُدفن في مقبرةِ الديرِ، وفي ظلِّ كاتدرائيةِ غير منتهيةٍ.

عندما قُرِعَ جرسُ الظهرِ توجه جاك إلى كوخِ البنَّائين. كان الرجالُ جالسين إلى الطاولةِ يتناولون الجبنةَ، ويحتسون الجعةَ، ولاحظَ للمرةِ الأولى أنَّ الكثيرَ منهم لا يأكلُ الخبز. سألَ جاك البنَّائين الذين عادةً ما يذهبون إلى منازلهم لتناولِ الغداءِ أن يبقوا لبعضِ الوقت.

«إنَّ الديرَ في ضائقةٍ ماليةٍ»، قال جاك.

«لم يسبق لي أن عرفتُ ديراً لم يُعان من ضائقةٍ في وقتٍ من الأوقات»، قال بنّاءٌ عجوزٌ.

نظرَ جاك إلى الرجلِ الذي كان يُدعى إدوارد تونوز[1] بسبب ثؤلولٍ على وجههِ بحجمِ أنفهِ. كان قاطع حجارةٍ ماهراً وخبيراً في القياسات، ويستعين جاك بهِ على الدوامِ في قطعِ الأعمدةِ، والحجارةِ الأسطوانيةِ. قال جاك: «يجدرُ بنا الاعتراف أنَّ هذا الديرَ يديرُ الأمورَ المالية على نحو أفضلٍ من معظمِ الأديرةِ، ولكن رئيسَ الديرِ فيليب لا يمكنهُ تجنب العواصفِ، ولا مواسمِ الحصادِ السيئةِ، ولذلك فهو بحاجةٍ إلى تخفيضِ النفقاتِ. سأخبركم بكلِّ شيءٍ قبلَ أن تتناولوا غداءكم. بدايةً، لن نشتري المزيد من الحجارة أو الخشبِ».

كان الحرفيون في الأكواخِ المجاورةِ قد انضموا للإصغاء إلى جاك، وقال أحدُ النجارين ويدعى بيتر: «الخشبُ الذي لدينا لا يكفينا للشتاءِ».

«سيكفينا»، قال جاك وتابع: «سنبني ببطءٍ لأنه لن يكون لدينا سوى عدد قليل من الحرفيين، وسيبدأ تسريحُ العمالِ للشتاءِ اليوم».

علمَ جاك على الفورِ أنَّه أفسدَ الأمرَ؛ فقد علَت الاحتجاجات من جميعِ الأطرافِ، وتحدَّث العديدُ من الرجال في آنٍ معاً. فكر جاك في نفسهِ أنَّه كان عليهِ إخبارهم بالأمر بكلِّ هدوءٍ ولطفٍ، ولكنه لم يمتلك أيَّة خبرةٍ في هذا المجالِ. ورغمَ أنَّه يشغلُ منصبَ كبيرِ البنَّائين منذُ سبعةِ أعوامٍ، فإنَّ الدير آنذاك لم يكن يعاني من أزمة مالية.

ومن بين الأصواتِ التي علت وسطَ هذهِ المعمعةِ كان صوتُ بيير الباريسي، وكان بنَّاءً فرنسياً أتى برفقةِ جاك من كنيسةِ سانت دينيه، ورغمَ أنَّه يعيشُ في كينغزبريدج منذُ ستةِ أعوامٍ فإنَّ لغتهُ الإنكليزية لم تكن ممتازةً، وساهمَ غضبهُ في جعلِ لكنتهِ أثقل إلّا أنَّ هذا لم يمنعهُ من القولِ: «لا يمكنكَ طرد العمالِ يومَ الثلاثاءِ».

«هذا صحيح»، قال جاك بلاكسميث وتابع: «أعطهم مهلةً حتَّى نهايةِ الأسبوعِ على الأقلِّ».

1- ذو الأنفين (المترجمة)

انضمّ أخو جاك غير الشقيق آلفرد إلى الحديثِ: «أتذكرُ أنَّ والدي كان يبني منزلاً لإيرل شايرنغ، وأتى ويل هاملي لطردِ الطاقم بأكملهِ، ولكن والدي أخبرهُ أنَّ عليهِ إعطاء العمال أجرَ أسبوعٍ كاملٍ، وأمسكَ برأسِ جوادهِ لمنعهِ من المغادرةِ فاضطرَّ وليم أخيراً إلى إعطائهم المال».

فكرَ جاك في نفسهِ: «شكراً على عدمِ المساعدةِ يا آلفريد»، ثمَّ قال مراوغاً: «انتظروا حتَّى تسمعوا بقيةَ الخبرِ. من الآن وصاعداً لن تعملوا في أعيادِ القديسين، ولن تكون هناك ترقياتٍ».

أشعل هذا الإعلان غضبهم أكثر، وقال أحدهم: «هذا غير مقبول»، وكررَ العديدون وراءه: «غير مقبول، غير مقبول».

وجدَ جاك الوضعَ مُستفزاً، وقال: «ما الذي تتحدثون عنه؟ الديرُ لا يملكُ المالَ، ولهذا لن تحصلوا على أجوركم؛ فما الفائدة من ترديد كلمةٍ «غير مقبولٍ» كصفٍ من طلابِ المدرسةِ يتعلمون اللاتينيةِ».

تحدَّث إدوارد تونوز مجدداً قائلاً: «لسنا طلاب مدرسةٍ بل مجلس بنَّائين، والمجلس يملكُ الحقَّ في الترقيةِ، ولا يستطيعُ أحدٌ حرماننا من هذا».

«وماذا لو لم يكن هناك مالٌ لدفعِ الزيادةِ؟» اندفعَ جاك قائلاً.

وقال أحدُ البنَّائين الشبان: «لا أصدقُ هذا».

كان الشاب دان من بريستول وهو أحدُ العمالِ الصيفيين. لم يكن قاطعَ حجارةٍ ماهراً، إلَّا أنَّه بارع في رصفِ الحجارةِ بدقةٍ وسرعةٍ.

قال جاك لدان: «كيفَ يسعكَ القول إنَّك لا تصدق هذا؟ ما الذي تعرفهُ عن موارد الديرِ الماليةِ؟»

«بالنظرِ إلى ما أراه فأنا أعرفُ»، أجابَ دان. «هل يتضور الرهبانُ جوعاً؟ لا، هل يوجد شموعٌ في الديرِ؟ أجل. هل لديهم نبيذٌ في المخازنِ؟ أجل. هل رئيسُ الديرِ حافي القدمين؟ لا. إذاً، لديهم المال، ولكنهُ لا يرغبُ بالدفعِ لنا».

وافقهُ العديدون بصوتٍ عالٍ. في الحقيقةِ كان دان مُخطئاً في أمرٍ واحدٍ وهو توافر النبيذِ، ولكن ما من أحدٍ سيُصدق جاك الآن فقد أصبحَ بالنسبة لهم ممثلاً عن الديرِ. كان هذا ظلماً فهو غير مسؤول عن قراراتِ رئيسِ الديرِ.

«أصغوا إلي. أنا أخبركم بما أخبرني بهِ رئيسُ الديرِ، ولا أضمنُ لكم أنَّ

هذهِ هي الحقيقة، ولكن إن قال لنا رئيسُ الديرُ إنَّه لا يملكُ مالاً كافياً، ولم نصدقهُ فما الذي يسعنا القيامُ بهِ؟

«يمكننا التوقف عن العملِ جميعاً»، قال دان ثمَّ أضاف: «على الفورِ».

«هذا صحيح»، قال بنّاءٌ آخر.

وفي رعبٍ أدركَ جاك أنَّ الأمورَ قد بدأت تخرجُ عن السيطرةِ الآن. «مهلاً»، قال جاك وهو يبحثُ بيأسٍ عن شيءٍ ليقولَهُ، ويهدِّئ من حرارةِ الأجواءِ. «لنعد إلى العملِ الآن، وسنحاول بعدَ ظُهرِ اليومِ إقناعَ رئيسِ الدير فيليب بإجراءِ تعديلاتٍ على خطتهِ».

«لا أعتقدُ أنَّ الأمرَ سينجح»، قال دان.

لم يكن جاك قادراً على تصديقِ ما يحدث، ورغمَ أنَّه توقعَ مواجهة الكثيرِ من التهديداتِ خلال بناءِ كنيسةِ أحلامهِ، فإنّه لم يتوقع قط أن يأتي التهديدُ من الحرفيين، ويُخربوا عليهِ حلمهُ. «لمَ لا يجب أن نعمل؟» قال جاك وأضاف: «ما الفائدةُ من عدمِ العملِ؟»

قال دان: «بالنظرِ إلى الوضعِ فإنَّ نصفَ الموجودين هنا قلقٌ حيال عدم الحصولِ على أجرِ بقيةِ الأسبوعِ».

«وهذا يخالف كلَّ شيءٍ في العرفِ والممارسةِ»، قال بيير. كان مصطلحُ «العرفِ والممارسةِ» يستخدمُ في المحاكم.

قال جاك في يأسٍ: «على الأقلِّ تابعوا العمل إلى أن أتحدثَ إلى رئيسِ الديرِ في الأمرِ».

قال إدوارد تونوز: «إن أكملنا العملَ هل ستضمنُ لنا حصولنا على أجرِ كاملِ الأسبوعِ؟»

بالنظرِ إلى مزاجِ فيليب الحالي علمَ جاك أنَّه لا يستطيعُ تقديمَ مثل هذهِ الضمانةِ. خطرَ له أن يقول أجل ويدفع لهم المالَ بنفسهِ إن اضطرَّ إلى ذلكَ، ولكنه أدركَ أنَّ كاملَ مدخراتهِ لن تكفي لدفعِ أجورِ أسبوعٍ هنا، ولذلكَ قال: «سأبذلُ قصارى جهدي لإقناعهِ، وأعتقدُ أنَّه سيوافق».

«هذا غير كافٍ بالنسبةِ إلي»، قال دان.

«وبالنسبةِ لي أيضاً»، قال بيير.

قال دان: «لا ضمانة، لا عمل».

أُصيبَ جاكُ بالإحباطِ عندما جاءت الموافقةُ جماعيةً.

أدركَ الآن أنَّه إن استمرَّ بمعارضتهم فسيفقدُ ما تبقَّى من سُلطتهِ عليهم. «يجبُ أن تكون كلمةُ المجلسِ واحدةً»، قال جاك منتقياً الكلماتِ المتعارف عليها. «هل نؤيد جميعاً إيقاف العملِ؟»

وعلت صيحةٌ واحدةٌ بالموافقةِ.

«إذاً، فليكن»، قال جاك في إحباطٍ وتابع: «سأُطلعُ رئيسَ الديرِ على هذا».

***

توجه الأسقفُ ويلارن إلى شايرنغ مع جيشٍ صغيرٍ من المرافقين. كان الإيرل وليم بانتظارهِ في رواقِ الكنيسةِ المُطل على ساحةِ السوقِ. عندما رأى وليم هذا امتقعَ وجهه في ذهولٍ فقد توقعَ زيارةً عاديةً لمعاينةِ الموقعِ، وليسَ زيارةً رسميةً، وتساءل في نفسهِ عمَّا يخططُ له الأسقفُ الماكرُ الآن.

كان برفقةِ ويلارن رجلٌ غريبٌ على صهوةِ جوادٍ بني مخصي. كان الرجلُ طويلاً وممشوقَ القوامِ، وحاجباه أسودين وسميكين، وله أنفٌ كبيرٌ معقوفٌ، وعلى وجههِ ارتسمَ تعبيرٌ ينمُّ عن الاحتقارِ بدا كأنَّه لا يغادرهُ، ورغمَ أنَّ الرجلَ كان إلى جانبِ ويلارن كأنهما من المكانةِ ذاتها، فإنَّه لم يكن في ثياب أسقفٍ.

عندما ترجَّلَ الرجلان عن جواديهما عرَّف ويلارن بالغريبِ قائلاً: «أيّها الإيرل وليم، هذا بيتر ويرهام، وهو رئيسُ شمامسةٍ عند كبير أساقفةِ كانتربري».

فكرَ وليم في نفسهِ أنَّه لا يوجد سببٌ لقدومِ بيتر إلى هنا، ولكن لا بدَّ أنَّ ويلارن يخططُ لأمرٍ ما.

انحنى رئيسُ الشمامسةِ لوليم وقال: «أيّها اللورد وليم، أخبرني أسقفكَ عن عطيتكَ الكريمةِ للكنيسةِ الأمِّ».

وقبلَ أن يجيبهُ وليم أشارَ ويلارن إلى كنيسةِ الأبرشيةِ وقال: «ستُهدمُ هذهِ الكنيسة، وتبنى كنيسةٌ جديدةٌ مكانها يا رئيسَ الشمامسةِ».

«هل استعنتم بكبير بنَّائين؟» سألَ بيتر.

تساءل وليم في نفسهِ عن سببِ اهتمامِ رئيسِ شمامسةٍ من كانتربيري بكنيسةِ الأبرشيةِ في شايرنغ ثمَّ قال لنفسهِ إنَّه ربما يتصرفُ باهتمامٍ بدافعِ اللباقةِ.

«لا لم أجد كبير بنَّائين بعد»، قال ويلارن. «هناك الكثيرُ من البنَّائين الباحثين عن عملٍ، ولكنني لم أنجح في جلبِ بنَّاءٍ من باريس. يبدو أن العالمَ بأسرهِ يرغبُ ببناءِ كنيسةٍ ككنيسةِ سانت دينيه، والطلبُ على البنائين الذين يعرفون بناءَ مثلها كبيرٌ».

«قد يكون هذا مُهماً»، قال بيتر.

«هناك بنَّاءٌ قد يتمكن من المساعدةِ، وهو ينتظرُ لقاءنا لاحقاً».

ومجدداً أُصيبَ وليم بالحيرةِ، وتساءل في نفسهِ عن سببِ اعتقادِ بيتر أنَّ بناءَ الكنيسةِ يجبُ أن يكون وفقَ تصميمِ كنيسةِ سانت دينيه.

قال ويلارن: «بالطبعِ ستكون الكنيسةُ الجديدةُ أكبر بكثيرٍ من الكنيسةِ القديمةِ، وستأخذ مساحةً كبيرةً من الساحةِ هنا».

لم يُعجبْ وليم بكلامِ ويلارن عن مساحةِ الكنيسةِ، وأبدى اعتراضهُ قائلاً: «لا يمكنني السماحُ للكنيسةِ أن تأخذَ مساحةً كبيرةً من السوقِ».

بدا ويلارن مغتاظاً كأنَّ وليم تحدَّثَ قبلَ أن يحينَ دورُه.

«ولِم لا؟» سألَ ويلارن.

«كلُّ إنشٍ من الساحةِ يعود علي بالمالِ خلالَ أيام السوق».

بدا ويلارن كأنَّه في مزاجٍ للمجادلةِ، ولكن بيتر قال بابتسامةٍ: «لا يجبُ أن نُعطلَ نافورةَ المالِ».

«هذا صحيح»، قال وليم. كان وليم من سيدفعُ تكاليفَ بناءِ الكنيسةِ الجديدةِ. لحسنِ الحظِ لم يؤثر عامٌ رابعٌ من الحصادِ السيئ على مدخولهِ كثيراً فقد دفعَ صغارُ الفلاحين إيجاراً عينياً، والعديدُ منهم أعطوا وليم حصتهُ من المنتوجات وكانت كيساً من الذرةِ وإوزتين، رغمَ أن أولئكَ الفلاحين عاشوا على حساءِ دقيقِ البلوطِ. كانت قيمةُ كيسِ الذرةِ حالياً أعلى بعشرِ مرَّاتٍ من قيمتهِ قبلَ خمسةِ أعوام، وهذهِ الزيادةُ في الأسعار عوضت وليم عن فشلِ فلاحين آخرين في دفعِ الإيجارات، وعن والأقنان الذين لم يعودوا مُنتجين لأنَّهم يتضورون جوعاً، وبذلك كانت لديهِ الموارد الكافية لتمويل بناءِ الكنيسةِ الجديدةِ.

توجهوا إلى ما وراء الكنيسةِ، وكانت مساحةً مسكونةً لا تعود سوى بمدخولٍ محدودٍ.

قال وليم: «يمكننا بناءُ هذهِ الكنيسة هنا بعدَ هدمِ كلِّ هذهِ المنازل».

«ولكن معظمها مساكن رجالِ دينٍ»، اعترضَ ويلارن.

«سنؤمن منازل لرجالِ الدينِ».

بدا ويلارن مستاءً، ولكنه لم يُضف شيئاً في هذا الخصوصِ.

عندَ الطرفِ الشمالي من الكنيسةِ وقفَ رجلٌ عريضُ المنكبين في حدودِ الثلاثين. أحنى الرجل رأسه لهم، ومن ثيابهِ تكهنَ وليم أنَّه حرفي، ثمَّ قال رئيسُ الشمامسةِ بولدوين ورفيق ويلارن المُقرَّب: «هذا هو الرجلُ الذي أخبرتكَ عنهُ يا سيدي الأسقف. يُدعى آلفريد من كينغزبريدج».

للوهلةِ الأولى لم يبدُ آلفريد كرجلٍ لافتٍ بل أشبه بثورٍ ضخمٍ وقوي وغبي، ولكن بعدَ وهلةٍ سيلحظُ المرءُ على وجهه نظرةً ماكرةً شبيهةً بنظرةِ ثعلبٍ أو كلبٍ ماكرٍ.

قال رئيسُ الشمامسةِ بولدوين: «آلفريد ابن البنَّاءِ توم، أوَّلُ بنَّاءٍ لكاتدرائيةِ كينغزبريدج، وهو نفسهُ عملَ ككبيرٍ للبنائين هناك إلى أن أقصاه أخوه غير الشقيق».

وهنا أدركَ وليم أنَّ آلفريد ابنُ البنَّاءِ توم الذي تزوجَ من آليانا، ولكنه لم يُعاشرها ويكتمل زواجه بها. نظرَ وليم إلى الرجلِ الآن باهتمامٍ كبيرٍ، ولو أنَّه لم يعرفهُ لما تكهنَ أنَّ الرجلَ عاجزٌ؛ فقد بدا معافى وطبيعياً، ولكن يُمكن أن يكون لآليانا تأثيرٌ سيئٌ على الرجالِ.

كان رئيسُ الشمامسةِ بيتر يقول: «هل عملتَ في باريس وتعلمتَ أسلوبَ كنيسةِ سانت دينيه؟»

«لا...» أجاب آلفريد.

«ولكن يجبُ أن نبني الكنيسةَ وفقَ هذا الأسلوبِ الجديدِ».

«أعملُ حالياً في كاتدرائيةِ كينغزبريدج، وأخي -كبير البنَّائين هناك- جلبَ معه من باريس الأسلوبَ الجديد، وتعلَّمتهُ منهُ».

تساءل وليم في نفسهِ كيفَ نجحَ ويلارن في تحريضِ آلفريد، ومن دونِ إثارةِ الشبهاتِ، ثمَّ تذكرَ أنَّ نائب رئيسِ ديرِ كينغزبريدج ريميجوس إحدى أذرع ويلارن هناك. لا بدَّ أنَّ ريميجوس من رتبَ لهذا اللقاءِ.

وتذكرَ وليم شيئاً بخصوصِ كينغزبريدج ثمَّ قال لآلفريد: «ولكن سقفَ كنيستكَ تهدَّمَ».

«لم يكن هذا خطأي»، قال آلفريد ثمَّ قال: «لقد أصرَّ رئيسُ الديرِ فيليب على تغييرِ التصميمِ».

«أنا أعرفُ فيليب»، قال بيتر بصوتٍ يقطرُ سُمَّاً ثمَّ أضاف: «إنَّه رجلٌ عنيدٌ ومتعجرفٌ».

«وكيفَ تعرفهُ؟» سألَ وليم.

«منذُ سنواتٍ بعيدةٍ كنتُ راهباً في صومعةِ سان جون إن ذا فوريست، وكان فيليب رئيسَ الصومعةِ آنذاك»، قال بيتر بمرارةٍ. «وعندما انتقدتهُ على تراخيهِ أرسلني لجمعِ الصدقاتِ بهدفِ إبعادي عن طريقهِ». بدا لوليم أنَّ حقد بيتر على فيليب لا يزالُ قوياً، ولا شكَّ أنَّ ويلارن لعبَ على هذا الوترِ الحساسِ.

قال وليم: «على أيِّ حالٍ وأيَّاً تكن الحجةُ لا أريد الاستعانةَ ببنّاءٍ انهارَ بناؤهُ».

قال آلفريد: «باستثناء جاك جاكسن أنا البنَّاء الوحيد في إنكلترا الذي يعرفُ نمطَ البناءِ الجديدِ».

قال وليم: «لا تهمني كنيسةُ سان دينيه، ويمكنني إنقاذ روحُ أمي المسكينة بكنيسةٍ تقليديةٍ».

تبادلَ الأسقفُ ويلارن ورئيسُ الشمامسةِ النظراتِ، وبعدَ وهلةٍ تحدَّثَ ويلارن إلى وليم بصوتٍ خفيضٍ: «في يومٍ من الأيامِ ستتحولُ هذهِ الكنيسة إلى كاتدرائيةِ شايرنغ».

وهنا اتضحَ كلُّ شيءٍ لوليم. كان ويلارن ولسنواتٍ عديدةٍ يُخططُ لنقلِ كرسي الأسقفيةِ من كينغزبريدج إلى شايرنغ، ولكن رئيسَ الدير فيليب أحبطَ مخططهُ، وها هو ويلارن الآن يريدُ إحياءَ مخططهِ، ويبدو أنَّه الآن سيعمل على الأمرِ بجديةٍ أكبر. في المرةِ الماضيةِ طلبَ من كبير أساقفةِ كانتربري نقلَ الكرسي بكلِّ بساطةٍ، ولكنه هذهِ المرة سيبني كنيسةً جديدةً، كنيسةً كبيرةً ومهيبةً بما يكفي لتتحولَ إلى كاتدرائيةٍ، وفي نفسِ الوقتِ سيبني تحالفاً مع بيتر داخلَ دائرةِ رئيسِ الأساقفةِ قبلَ أن يُقدمَ طلبهُ. رأى وليم أنَّه لا ضيرَ من

كلٍّ هذا، ولكن كلَّ ما أراده هو بناءُ كنيسةٍ من أجلِ والدتهِ لتسهيلِ عبورِ روحها من نيرانِ الجحيمِ. ورغمَ أنَّ وليم استاءَ من محاولةِ ويلارن استغلال الأمرِ، فإنه من جهةٍ أخرى فكرَ أنَّ وجودَ الكاتدرائيةِ هنا سيعود على شايرنغ بفائدةٍ كبيرةٍ، وسيستفيدُ وليم من الأمرِ.

وهنا قال آلفريد: «هناك أمرٌ آخر».

سأله ويلارن: «وما هو؟»

نظرَ وليم إلى الرجلين. كان آلفريد أكبر، وأقوى، وأكثرَ شباباً من ويلارن، ويمكنهُ الإطاحة بالأخير أرضاً بضربةٍ واحدةٍ من يديهِ اللتين وضعهما وراءَ ظهرهِ، ومع ذلكَ كان آلفريد يتصرفُ كأنَّه الرجلُ الضعيفُ في هذهِ المعادلةِ. لو أنَّ هذا حدثَ منذُ سنواتٍ لغضبَ وليم من سيطرةِ كاهنٍ أبيض البشرةِ ونيقٍ على رجلٍ قوي، ولكن الأمر لم يعد مصدرَ إزعاجٍ له الآن؛ فقد اقتنعَ أنَّ العالم بأسرهِ يسيرُ على هذا النحو.

قال آلفريد بصوتٍ منخفضٍ: «يمكنني إحضارُ كل القوةِ العاملةِ في كاتدرائيةِ كينغزبريدج معي».

وفجأةً نظرَ الرجالُ الثلاثةُ إليهِ في اهتمامٍ.

«كرر ما قلتهُ»، قال ويلارن.

«إن استعنت بي ككبير بنَّائين فسأحضر جميع الحرفيين في كاتدرائيةِ كينغزبريدج معي».

قال ويلارن بحذرٍ: «وكيفَ لنا أن نثقَ بأنَّك تقول الحقيقة؟»

«لا أطلبُ منكَ أن تثقَ بي»، قال آلفريد وتابع: «امنحني العملَ بشكلٍ مشروطٍ، وإن لم أنجح في تحقيقِ ما وعدتكَ بهِ سأغادرُ من دونِ أجرٍ».

كان الرجالُ الثلاثة، وعلى اختلافِ أسبابهم، يكنون الكره لرئيسِ الديرِ فيليب، ولذلك جذبتهم على الفورِ فكرةُ توجيهِ ضربةٍ له.

أضافَ آلفريد: «العديدُ من أولئكَ البنائين عملوا في كنيسةِ سانت دينيه».

قال ويلارن: «ولكن كيفَ ستُحضرهم معكَ؟»

«هل هذا مهمٌ؟ سأكتفي بالقولِ لكَ إنَّهم يفضلونني على جاك».

فكرَ وليم في نفسهِ أنَّ آلفريد كذبَ في هذا الشأنِ، وبدا له أنَّ ويلارن

اعتقدَ هذا أيضاً؛ فقد أمالَ الأخيرُ رأسهُ، ورمقَ آلفريد بنظرةٍ طويلةٍ وهازئةٍ. على أيِّ حالٍ بدا آلفريد كأنَّه يقول الحقيقة، وأيّاً يكن السبب الذي دفعهُ إلى إدعاءِ هذا فإنَّه بدا مُقتنعاً بقدرتهِ على جلبِ حرفيي كينغزبريدج معهُ إلى هنا.

قال وليم: «إن أتوا معكَ جميعاً إلى هنا فسيتوقف العملُ في كينغزبريدج».

«أجل»، قال آلفريد. «سيتوقف».

نظرَ وليمِ إلى ويلارن ثمَّ إلى بيتر وقال: «قد نحتاجُ إلى مناقشةِ الأمرِ باستفاضةٍ أكبر، ولذلكَ من الأفضلِ أن يتناولَ آلفريد الغداءَ معنا».

أومأ ويلارن موافقاً وقال لآلفريد: «اتبعني إلى منزلي. إنَّه يقعُ على الجانبِ الآخر من ساحةِ السوقِ».

«أعلم أينَ هو»، قال آلفريد وأضاف: «فأنا من بنيتهُ».

***

ليومين على التوالي رفضَ رئيسُ الديرِ فيليب مناقشةَ أمرِ إضرابِ العمالِ، وجعله الغضبُ عاجزاً عن الكلامِ، وكلَّما رأى جاك استدارَ، وابتعدَ عنه.

في اليومِ الثالثِ وصلت إلى الديرِ ثلاثُ عرباتٍ من الدقيقِ من إحدى طواحين الديرِ البعيدةِ. كان برفقةِ العربةِ جنودٌ فقد كان الدقيقُ حالياً كالذهبِ. تفقدَ الأخُ جوناثان العربةَ بصفتهِ نائب أمين المؤنِ العجوز كوثبرت وايتهيد، وراقبه جاك وهو يعدُّ الأكياسَ. لطالما اعتقدَ جاك أنَّ وجه جوناثان يبدو مألوفاً بشكلٍ غريبٍ؛ فقد كان يُذكرهُ بأحدٍ يعرفهُ جيداً، ولكن لا يستطيع تحديدهُ. كان جوناثان طويلاً ونحيلاً بشعرٍ بني فاتح، ورغمَ أنَّه لا يشبه فيليب أبداً الذي كان قصيراً، وهزيلاً، ولحيتهُ سوداء، فإنَّه في نواحٍ أخرى يشبهُ والدهُ البديل؛ فقد كان الفتى جادّاً، وعصامياً، وحازماً، وطموحاً، ومحبوباً رغمَ تشددهِ حيالَ مسألةِ الفضيلةِ. أحبَّه الناس كما أحبوا فيليب.

إن كان فيليب يرفضُ الكلام حالياً فقد يكون الحديثُ مع جوناثان أفضلَ خيارٍ بديلٍ.

راقب جاك جوناثان وهو يدفع للجنودِ ولسائقي العرباتِ. كان شخصاً كفوءاً، وعندما طلبَ منهُ سائقو العربةِ مالاً أكثر، كما يفعلون دائماً، رفضَ

طلبهم بهدوءٍ، ولكن بحزمٍ. وهنا خطرَ ببالِ جاك أنَّ التعليم الرهباني يمنح الرهبان مهارات القيادةِ.

القيادة.

أُفتضحَ عيبُ جاك في هذا المجالِ مؤخراً فقد سمحَ لمشكلةٍ أن تتحولَ إلى أزمةٍ بسببِ تعاملهِ الأخرق مع الرجالِ، وفي كلِّ مرةٍ فكرَ فيها بذلكَ الاجتماعِ لعنَ نفسهُ على عجزهِ، وعزمَ على إيجادِ طريقةٍ لتصحيحِ الأمورِ.

حالما غادرَ سائقو العرباتِ متذمرين توجه جاك بشكلٍ عرضي نحو جوناثان وقال له: «فيليب غاضبٌ جداً بشأنِ الإضرابِ».

ولوهلةٍ بدا جوناثان كأنَّه على وشكِ قولِ شيءٍ بغيضٍ فقد كان هو نفسهُ غاضباً، ولكن أسارير وجههِ انفرجت في النهايةِ وقال: «قد يبدو غاضباً ولكنه في الصميمِ مجروحٌ».

أومأ جاك برأسهِ وقال: «إنَّه يأخذُ الأمرَ على محملِ الجدِّ».

«أجل فهو يشعرُ أنَّ الحرفيين انقلبوا عليهِ في وقتِ الشدَّةِ».

«أعتقدُ أنَّهم فعلوا هذا بطريقةٍ ما»، قال جاك وتابع: «ولكن فيليب ارتكبَ خطأً كبيراً بمحاولتهِ تغييرَ قوانين العملِ قسراً».

«ولكن ما البديل؟» عاجلهُ جوناثان بالسؤالِ.

«كان بإمكانهِ مناقشةُ الأزمةِ مع العمالِ منذُ البدايةِ، وربما كانوا اقترحوا عليهِ بعضَ الحلولِ الاقتصاديةِ. لا يسعني لوم فيليب لأنني ارتكبت الخطأ ذاتهُ».

وأثارَ هذا فضولَ جوناثان الذي قال: «كيف؟»

«أعلمتُ الرجال بخطةِ التقشفِ من دونِ مقدماتٍ وبشكلٍ غير لبقٍ كما أعلمني بها فيليب».

أرادَ جوناثان أن يثورَ غضباً كفيليب، ويضعَ اللومَ في الإضرابِ على العُمالِ، ولكنه وعلى مضضٍ فكرَ بالوجهِ الآخرِ للأمورِ. قررَ جاك ألا يضيفَ شيئاً فقد أوصلَ لجوناثان ما أرادَ إيصاله.

تركَ جاك جوناثان، وعادَ إلى أرضيةِ الرسمِ، وعندما أخذَ أداةَ الرسمِ فكّرَ أنَّ المشكلةَ في الأمرِ هي أنَّ صانعَ السلامِ في البلدةِ هو فيليب الذي عادة ما يكون القاضي بينَ الآثمين، والحكم في الخلافاتِ، ولهذا من المُحبط أن

يكون فيليب الآن طرفاً في نزاعٍ، وأن يكون غاضباً ومُتعنتاً، وتأكلهُ المرارةُ. سيتعين على أحدٍ آخر أن يحققَ السلامَ هذهِ المرة، ولم يوفق جاك في التفكيرِ بأحدٍ كفؤ غيرهُ، ولأنَّه كبيرُ البنائين فقد كان الوسيطَ بينَ الطرفين، ولا يمكن التشكيكُ بدوافعهِ فهو يريدُ متابعة أعمالِ البناءِ.

قضى جاك بقيةَ اليومِ يفكرُ بطريقةٍ للقيام بهذهِ المهمةِ، والسؤال الذي استمرَّ بطرحهِ على نفسه هو: ما الذي سيفعلهُ فيليب لو كان في مكاني؟

في اليومِ التالي شعرَ جاك أنَّه جاهز لمواجهةِ فيليب.

كان نهاراً بارداً ورطباً. توارى جاك في موقعِ البناءِ المهجورِ مع بدايةِ فترة ما بعد الظهرِ وقد وضعَ قلنسوةَ عباءتهِ فوقَ رأسه لإبقائهِ جافاً، تظاهرَ أنَّه يتفحّص الصدوعَ -المشكلة التي لم تُحل بعد- وانتظر إلى أن رأى فيليب يهرعُ من منزلهِ إلى الممرّاتِ المقنطرةِ، وحالما دخلها فيليب لحقَ بهِ جاك على الفورِ.

يتركُ فيليب بابهُ مفتوحاً على الدوامِ. قرعَ جاك على البابِ ودخلَ ثمَّ رأى فيليب راكعاً على ركبتيهِ أمامَ مصلى صغير في الزاويةِ. فكر جاك في نفسهِ أنَّ فيليب لا يكتفي من الصلاةِ أبداً، فهو لا يقيمها معظمَ النهارِ ونصفَ الليلِ في الكنيسةِ فحسب بل في منزلهِ أيضاً. لم يكن هناك نارٌ في المدفأة؛ فقد كان هذا جزءاً من خطةِ التقشفِ الخاصةِ بفيليب. انتظرَ جاك بصمتٍ إلى أن نهضَ فيليب واستدارَ ثمَّ قال: «يجب أن ينتهي هذا».

امتقعَ وجهُ فيليب الذي عادةً ما يعكسُ ودّاً وقالَ ببرودٍ: «لا أرى صعوبةً في وضعِ حدٍ لهم. يمكنهم العودةُ إلى العملِ عندما يريدون».

«بشروطكَ».

لم يُجب فيليب، واكتفى بالتحديقِ إلى جاك.

قال جاك: «لن يعودوا إلى العملِ بشروطكَ، ولن ينتظروك طويلاً حتَّى تفهم منطقَ الأمرِ»، ثمَّ أضافَ على عجلٍ: «أو ما يعتقدون أنَّه منطقٌ».

«لن ينتظروا طويلاً؟ قال فيليب. «وإلى أين سيذهبون عندما يتعبون من الانتظارِ؟ لن يجدوا عملاً في أيِّ مكانٍ آخر. أتعتقدُ أنَّ هذا المكان هو المكانُ الوحيد الذي يُعاني من المجاعةِ؟ ضربت المجاعة إنكلترا بأسرها، وجميعُ مواقعِ البناءِ تُجري خطط تقشفٍ».

«إذاً، ستنتظرهم إلى أن يعودوا زاحفين إليكِ، ويستجدون مغفرتكَ»، قال جاك.

أشاحَ فيليب بنظرهِ بعيداً وقال: «لا أريد لأحدٍ أن يزحف. لا أعتقدُ أنني فعلتُ شيئاً قد يجعلكَ تتوقعُ مني مثلَ هذا التصرُّفِ».

«لا، ولهذا أتيتُ لرؤيتكَ»، قال جاك. «أنا أعلمُ أنَّك لا تريدُ إذلالَ أولئكَ الرجالِ فهذا ليسَ من شيمكَ. علاوةً على هذا، إن عادوا إلى العملِ وهم يشعرون بالهزيمةِ والاستياءِ فسيعملون على نحو سيءٍ لسنواتٍ قادمةٍ، ولهذا، ومن وجهةِ نظري بل ومن وجهةِ نظركَ أيضاً، يجبُ أن نسمحَ لهم بحفظِ ماءِ وجههم، وهذا يعني القيامَ بتنازلاتٍ».

حبسَ جاك أنفاسهُ في ترقبٍ بعد هذا الخطاب الكبير الذي حضر له فقد كانت هذهِ اللحظةَ الحاسمةَ فيهِ. إن لم يتأثر فيليب بما سيقوله الآن فسيكون المستقبلُ قاتماً.

أمعنَ فيليب النظرَ إلى جاك لبرهةٍ، ورأى الأخيرُ على وجهِ رئيسِ الديرِ ما يشي بصراعٍ بين قلبهِ وعقلهِ ثمَّ رقَّت ملامحهُ أخيراً وقال: «من الأفضلِ أن نجلسَ».

كبحَ جاك تنهيدة راحةٍ كادت تفلتُ منه وجلسَ. كان قد خططَ لما أراد قوله الآن فهو لا يريد تكرارَ قلةِ لباقتهِ وعفويتهِ في الكلامِ كما حدثَ خلالَ اجتماعهِ مع البنَّائين. «لستَ بحاجةٍ إلى تعديلِ قراركَ بتعليقِ شراءِ الموادِ»، بدأ جاك. «وكذلكَ قراركَ بخصوصِ الاستعانةِ بعمالٍ جددٍ؛ فما من أحدٍ اعترضَ عليهِ. وأعتقدُ أننا نستطيعُ إقناعهم بالقبولِ بعدمِ العملِ في أعيادِ القديسين إن قبلت بتنازلاتٍ في نواحٍ أخرى»، توقفَ جاك عن الكلامِ كي يستوعبَ فيليب ما قالهُ. كان حتَّى الآن يُقدم لفيليب، ولا يطلبُ منه شيئاً.

أومأ فيليب برأسهِ وقال: «حسناً، وما هذهِ التنازلات؟»

أخذَ جاك نفساً عميقاً وقال: «شعرَ الرجالُ بمهانةٍ كبيرةٍ من اقتراحِ منعِ الترقياتِ، وهم يعتقدون أننا نحاولُ انتزاعَ امتيازاتِ مجلسِ البنَّائين».

«شرحتُ لكَ أنني لا أنوي فعلَ هذا»، قال فيليب في نبرةٍ تفضحُ تبرَّماً.

«أعلمُ أعلمُ»، قال جاك على عجلٍ وأضاف: «بالطبعِ لم تكن تنوي، وأنا أصدقكَ، ولكنهم لا يصدقونكَ». وعلت وجه فيليب نظرةٌ تشي أنَّ هذا

الكلامَ جرحه. كيفَ يمكنُ لأحدٍ أن يشكك بهِ؟ وقال جاك: «ولكن هذا أصبحَ من الماضي، وسأقترحُ تسويةً لن تكلفكَ شيئاً».

وهنا بدا فيليب مُهتماً.

تابعَ جاك كلامه: «اسمح لهم بمتابعةِ قبولِ طلباتِ الترقيةِ، ولكن قُم بتأجيلِ دفعِ الزيادةِ لعامٍ»، وفكر جاك في نفسهِ: «اعترض على هذا الآن إن استطعتَ».

«هل سيقبلون بهذا؟» قال فيليب في تشكيكٍ.

«الأمرُ يستحقُ المحاولة».

«ولكن ماذا لو لم أستطع دفعَ الزيادات بعدَ عامٍ؟»

«فلتحل كلَّ مشكلةٍ في وقتها».

«أنتَ تعني بكلامكِ أن أفاوضهم مجدداً بعدَ عامٍ».

هزَّ جاك كتفيهِ وقال: «إن اضطررتَ إلى ذلكَ».

«فهمت»، قال فيليب بإبهامٍ. «هل من شيءٍ آخر؟»

«بقي لدينا المشكلة الأهم والأكبر وهي التسريحُ المباشر لعمالِ الصيفِ»، تحدَّث جاك في صراحةِ الآن؛ فهو لا يستطيع تزيين هذهِ المشكلةِ لفيليب. «لم يحدث قبلاً ولا في أيِّ موقعِ بناءٍ في المملكةِ المسيحيةِ أن سُرّح العمالِ بشكلٍ فوري. بالشكلِ الطبيعي تعدُّ أقرب مهلةٍ نهايةَ الأسبوعِ»، وكيلا يشعرَ فيليب بالغباءِ أضافَ جاك: «ولكن أنا المُلام في هذا لأنني لم أُحذركَ مُسبقاً».

«إذاً، يجب أن أوظفهم ليومين آخرين؟»

«لا أعتقدُ أنَّ هذا سيكون كافياً الآن»، قال جاك. «لو أننا تعاملنا مع المسألةِ بشكلٍ مختلفٍ منذُ البدايةِ لنجونا بفعلتنا، ولكنهم الآن يريدون المزيدَ من التنازلات».

«أعتقدُ أنَّك تفكرُ بشيءٍ محددٍ».

وكان فيليب مُحقاً. لقد فكرَ جاك بأمرٍ، وكان هذا الامتياز الحقيقي الوحيد الذي اضطرَّ لطلبهِ. «الوقتُ الآن بدايةُ شهرِ تشرين الأول/ أكتوبر، وعادةً ما نُسرّح عمالَ الصيفِ مع بدايةِ كانون الأول/ ديسمبر. لنقم بتسويةٍ وليكن الموعد منتصفَ تشرين الثاني/ نوفمبر».

«ولكنك لم تقدم لي سوى نصف ما طلبتهُ».

«قدمتُ لكَ أكثر من النصفِ. مازلتَ مستفيداً من إيقافِ شراءِ الموادِ، وتأجيلِ زيادةِ أجورِ الترقياتِ لعامٍ، ومسألةِ العملِ خلالَ أعيادِ القديسين».

«ولكنها بقايا».

أرجعَ جاك ظهرهُ إلى الوراءِ في حزنٍ. لقد بذلَ قصارى جهدهِ، ولم يعد لديهِ ما يُحاججُ بهِ فيليب، ونضبت لديهِ جميعُ سُبل الإقناعِ. رمى بسهمهِ ولكن فيليب مازالَ متعنتاً، واستعد جاك للقبولِ بالهزيمةِ. نظرَ إلى وجهِ فيليبِ القاسي وانتظرَ.

ألقى فيليب على المذبحِ في الزاويةِ نظرةً طويلةً وصامتةً لبعضِ الوقتِ، ثمَّ عادَ بنظرهِ أخيراً إلى جاكَ وقال: «يجبُ أن أعرضَ الأمرَ على الرهبان».

طارَ جاك فرحاً. على الرغمِ من أنَّه لم يحقق نصراً فإنَّه بات قريباً منه. لن يطلبَ فيليب من الرهبانِ التشاورَ بأمرٍ هو غير موافقٍ عليه أصلاً، وفي أغلبِ الأحيانِ، هذا إن لم يكن دائماً، يوافقُ الرهبان على ما يريدهُ فيليب.

«آمل أن يقبلوا»، قال جاك في خنوعٍ.

نهضَ فيليب ووضعَ يداً على كتفِ جاك، وابتسمَ لأولِ مرَّةٍ منذُ فترةٍ طويلةٍ ثمَّ قال: «إن طرحتُ عليهم المسألةَ بهذهِ الطريقة المُقنعةِ فسيوافقون».

تفاجأ جاك من هذا التغيير المفاجئ في مزاجِ فيليب وقال: «كلما أسرعنا في إنهاءِ الأمرِ كانت وطأةُ التأثير الطويل الأمد أقلَّ علينا».

«أعلمُ. أغضبني الأمر جداً، ولكنني لا أريدُ أن أتجادلَ معكَ»، قال فيليب ثمَّ وفي مبادرةٍ مفاجئةٍ مدَّ يدهُ لجاك.

صافحهُ جاك، وشعرَ بالراحةِ.

قال جاك: «هل أطلب من البنائين الحضور إلى المجلسِ صباحاً لسماعِ قرارِ الرهبانِ؟»

«أجل، من فضلكَ».

«سأقومُ بهذا على الفورِ»، قال جاك، واستدارَ مغادراً.

قال فيليب: «جاك».

«أجل؟»

«شكراً لكَ».

أومأ جاك برأسِهِ وخرجَ. سارَ تحتَ المطرِ ناسياً وضعَ القلنسوةِ على رأسِهِ من فرطِ سعادتِهِ.

***

بعدَ ظُهرِ ذلكَ اليومِ توجهَ جاك إلى منازلِ الحرفيين، وأخبرهم بأمرِ الاجتماعِ غداً صباحاً، أمَّا العازبون منهم والعمالُ الصيفيون فقد كانَ معظمهم في الحانةِ. على أيِّ حالٍ لم يكونوا ثمالى لأنَّ ثمنَ الجعةِ ارتفعَ كما حدثَ مع بقيةِ الموادِ، ولذلك لم يكن بوسعهم تحملَ كلفةِ الشربِ حتَّى الثمالةِ. عثرَ جاك عليهم جميعاً باستثناءِ آلفريد الذي اختفى منذُ يومين، ولكنه عادَ عندَ الغسقِ. دخلَ آلفريد إلى الحانةِ وعلى وجهِهِ البليدِ نظرةُ ظفرٍ غريبةٍ. لم يقل شيئاً عن المكانِ الذي كان فيهِ، وبدروهِ جاك لم يسألهُ بل تركهُ ليشرب مع بقيةِ الرجالِ ثمَّ توجه لتناولِ العشاءِ مع آليانا والطفلين.

في صباحِ اليومِ التالي بدأ جاك الاجتماع قبلَ مجيء رئيسِ الديرِ إلى كوخِ البنائين. أرادَ أن يضعهم في صورةِ الوضعِ، وتماماً كما فعلَ مع فيليب جاءَ مستعداً وقد جهزَ لما سيقولهُ بحذرٍ شديدٍ وحرصٍ على ألا تفسد أيُّ قلةِ لباقةٍ قضيتهُ، ومجدداً حاولَ معالجةَ الأمور كما سيفعلُ فيليب لو أنَّه كان في مكانِهِ.

وصل جميعُ الحرفيين إلى كوخِ البنائين باكراً فقد كانت لقمةُ عيشهم على المحكِّ. لاحظَ جاك أنَّ عاملاً أو اثنين من الشبانِ جاءا بعيونٍ مُحمرَّةٍ، وتكهنَ جاك أنَّ الحانةَ بقيت مفتوحةً حتَّى وقتٍ متأخرِ الليلةَ الماضية، وأنَّ بعضهم نسي فقرهُ وشربَ حتَّى الثمالة. كان التعاملُ مع البنائين الشبان والعمال الصيفيين أصعب من الحرفيين الأكبر عمراً الذين يُفكرون على المدى البعيد، أمَّا مجموعة الحرفيين من النساءِ، وعلى صغرها، فهي تتصرفُ على الدوامِ بحذرٍ، وبنظرةٍ محافظةٍ، وتدعم أيَّة تسويةٍ.

«سيطلبُ منا رئيسُ الديرِ فيليب معاودة العملِ، وسيعرضُ علينا تسويةً»، بدأ جاك كلامهُ وتابع: «وقبلَ أن يأتي يجدرُ بنا مناقشةُ ما نحنُ مستعدون لقبولهِ ورفضهِ رفضاً قاطعاً، وإلى مدى نحنُ مستعدون للتنازلِ».

رأى جاك بضعةَ رؤسٍ تهتزُ بالموافقةِ.

وهنا أجبرَ نفسهُ على التحدثِ بنبرةٍ غاضبةٍ بعضَ الشيءِ: «من وجهةِ

نظري أعتقدُ أننا يجبُ أن نرفضَ التسريحَ الفوري للعمال»، ثمَّ ضربَ بقبضتهِ على المقعدِ كأنَّه بذلكَ يشددُ على أنَّه لن يتراخى في هَذا المطلبِ، وهنا عبَّرَ العديدُ من الحاضرين عن موافقتهم بصوتٍ عالٍ. يعلمُ جاك أنَّ هذا المطلب بالتحديد لن يوافق عليهِ فيليب، ولكنه أرادَ لأولئكَ المتمردين أن يدافعوا عن تقاليد المهنةِ إلى أن يدرك فيليب في النهايةِ أن الرياح لا تهبُّ بما تشتهي سفنهُ.

«علينا أيضاً أن نحمي حقَّ المجلسِ في الترقياتِ لأنَّ مُعلمي الحرفِ فقط من يقررون إن كان العاملُ ماهراً أم لا». ومجدداً لجأ جاك إلى الخداعِ من خلالِ جرِّ العمالِ إلى التركيزِ على الجانب غير المالي للترقياتِ على أملِ أن يكونوا جاهزين عندما يفوزون بهذهِ النقطةِ في نقاشهم مع رئيسِ الديرِ للقيام بتنازلٍ في مسألةِ الدفعِ.

«أمَّا بالنسبةِ لمسألةِ العملِ في أعيادِ القديسين فأنا محتارٌ بين موقفين. عادةً ما يخضعُ العملُ في أيامِ العُطلِ للتفاوضِ، وعلى حدِّ علمي لا يوجد عرفٌ وممارسةٌ عامةٌ بهذا الشأنِ»، ثمَّ استدارَ نحو إدوارد تونوز وقال: «ما رأيكَ في هذهِ المسألةِ يا إدوارد؟»

«تختلفُ الممارسةُ من موقعٍ إلى آخر»، قال إدوارد وقد سُرَّ لأنَّ جاك استشارهُ في الأمرِ. أومأ جاك برأسهِ مُشجعاً إياه على المتابعةِ، وبدأ إدوارد بشرحِ الأساليب المختلفةِ للتعاملِ مع مسألةِ العملِ في أعيادِ القديسين. فكرَ جاك في نفسهِ أنَّ الاجتماعِ سيسيرُ وفقَ ما أراده، ولذلكَ قررَ أنَّ متابعةَ النقاشِ والتطرقَ إلى مسألةٍ غير إشكاليةٍ يصيبان الرجالَ بالسأمِ، ويسلبانهم الطاقة على المواجهةِ لاحقاً.

على أيِّ حالٍ أتى صوتٌ من الخلفِ مُقاطعاً مونولج إدوارد عن أساليب التعاملِ مع مسألةِ العملِ خلالَ أعيادِ القديسين. «كلَّ هذا الكلام لا محلَّ له».

نظرَ جاك، ورأى أنَّ المتحدثَ العاملَ الصيفي دان من بريستول ثمَّ قال: «كلٌّ على حدة من فضلكَ، ولتدع إدوارد يُنهي كلامهُ أولاً».

ولكن ردع دان لم يكن بالأمرِ السهلِ: «لا تشغل بالكَ بكلِّ هذا. ما نريدهُ الآن هو زيادةُ أجورنا».

«زيادةً؟» استشاطَ جاك غضباً من هذا الكلامِ السخيفِ.

ولكنه فوجئ بالدعمِ الكبيرِ الذي لاقاه كلامُ دان. قال بيير: «هذا صحيح، نريدُ زيادةً. باتَ ثمنُ رغيفِ الخبزِ بنساً، أمّا الدجاجةُ التي كانت بثمانيةِ بنساتٍ فقد أصبحت الآن بأربعة وعشرين بنساً! وأراهنكَ أنَّ ما من أحدٍ بيننا تناولَ جعةً قويةً منذُ أسابيع. أصابَ الغلاءُ كلَّ شيءٍ، ومع ذلكَ مازلنا نتقاضى الأجرَ ذاتهُ، وهو اثنا عشرَ بنساً أسبوعياً، ولدينا عائلات لنطعمها بهذا المبلغ».

شعرَ جاك بقلبِهِ يغوص في صدرهِ. كان كلُّ شيءٍ يسيرُ بشكلٍ جيدٍ إلى أن تحدَّثَ دان، وأفسدَ استراتجيتهُ. كبحَ جاك نفسهُ كيلا يصطدم مع دان وبيير، وعرفَ أنَّه سيحظى بتأثيرٍ أكبر إن بدا مُنفتحاً. «أوافقكما»، قال جاك وبدت المفاجأة واضحةً على وجهيهما. «ولكن ما هي فرصنا في النجاحِ بإقناعِ فيليب بزيادةِ أجرنا في الوقتِ الذي يعاني فيهِ الديرُ من مشكلةٍ في السيولةِ؟»

لم يُجب أحدٌ على هذا، وبدلاً من هذا قال دان: «نحتاجُ إلى أربعةٍ وعشرين بنساً أسبوعياً لنبقى على قيدِ الحياةِ، وحتَّى مع هذا المبلغِ سيكون وضعنا أسوأ مما كان عليهِ قبلاً».

شعرَ جاك بالإحباطِ وبالحيرةِ، وتساءل في نفسهِ عن سببِ خروج هذا الاجتماعِ عن سيطرتهِ.

قال بيير: «أربعة وعشرون بنساً أسبوعياً»، وأومأ العديدون برؤوسهم موافقين.

وهنا خطرَ لجاك أنَّه ليس الوحيد الذي أتى إلى هذا الاجتماعِ باستراتجيةٍ مُسبقةٍ. رمقَ جاك دان بنظرةٍ فاحصةٍ وسألهُ: «هل ناقشتم المسألةَ قبلَ الاجتماعِ؟»

«أجل، الليلةَ الماضيةَ في الحانةِ»، قال دان بتحدٍ ثمَّ أضاف: «هل من مشكلةٍ في هذا؟»

«بالطبعِ لا يوجد مشكلةٌ، ولكن هلَّا لخصته لنا، نحن ممن لم نحظَ بشرفِ حضورِ النقاش البارحةَ؟»

«حسناً»، قال دان، وبدا الرجالُ الذين لم يكونوا في الحانةِ البارحةَ مستائين، ولكن دان لم يبدُ نادماً، وعندما أوشكَ على فتحِ فمهِ للتحدثِ دخلَ رئيسُ الديرِ فيليب. ألقى جاك على فيليب نظرةً سريعةً وفاحصةً، ورأى

أنَّه بدا سعيداً. التقت عينا فيليب بعيني جاك، وأومأ له إيماءةً خفيفةً. شعرَ جاك بالسعادةِ. يبدو أنَّ الرهبان وافقوا على التسويةِ التي طرحها جاك، وأرادَ إيقافَ دان عن متابعةِ كلامه، ولكنه تأخرَ لأنَّ الأخيرَ كان يقول بصوتٍ عالٍ: «نريدُ أن يصبحَ أجرُ الحرفيين أربعة وعشرين بنساً أسبوعياً، واثني عشرَ بنساً للعمالِ، وثمانيةَ وأربعين بنساً لكبارِ الحرفيين».

نظرَ جاك إلى فيليب مجدداً، ورأى النظرة الراضية على وجههِ تفارقهُ الآن ويعود وجههُ عبوساً، وغاضباً، ومتحدياً.

«مهلاً»، قال جاك. «هذهِ ليست وجهةِ نظرِ المجلسِ بل مطلبٌ أحمق صاغتهُ مجموعةٌ من السكارى في الحانةِ».

«لا، إنَّه ليسَ كذلكَ»، قال صوتٌ جديدٌ. كان آلفريد المتحدث هذهِ المرة. «أعتقدُ أنَّ معظمَ الحرفيين يدعمون مطلبَ مضاعفةِ الأجرِ».

حدَّقَ جاك إلى آلفريد وهو يغلي غضباً، وقال: «منذُ بضعةِ أشهرٍ رجوتني لأعطيكَ عملاً، وها أنتَ الآن تُطالبُ بمضاعفةِ الأجرِ. كان الأجدرُ بي ترككَ تتضورُ جوعاً».

وهنا قال فيليب: «وهذا ما سيحدثُ لجميعكم إن لم تعودوا إلى جادةِ الصوابِ».

أرادَ جاك بقوةٍ تجنُّبَ مثل هذا الكلامِ الذي ينطوي على تحدٍ، ولكن الآن، وبعد أن انهارت استراتيجيتهُ بالكاملِ، لم يجد بديلاً عنه.

قال دان: «لن نعودَ إلى العملِ بأجرٍ أقل من أربعة وعشرين بنساً، وهذا كلُّ ما لدينا لقولهِ».

وردَّ رئيسُ الديرِ فيليب بغضبٍ: «مستحيلٌ. هذا حلمٌ غبي، ولن أناقشهُ حتّى».

«ونحن أيضاً لن نناقشَ أيَّ أمرٍ آخر غيرهُ»، قال دان. «لن نعملَ بأقل من هذا الأجرِ، ولا حتى تحت أيِّ ظرفٍ من الظروفِ».

قال جاك: «هذا غباء! كيفَ يُمكنكَ أن تجلسَ هنا وتقولَ إنَّك لن تعملَ بأقلّ من هذا الأجرِ؟ أنتَ لن تعمل أبداً أيّها الأحمق؛ فلا يوجدُ مكانٌ آخر تذهبُ إليهِ لتعملَ».

«هل هذا صحيح؟» قال دان.

وحلَّ الصمتُ على المجلسِ بأكملهِ.

وفكرَ جاك في يأسٍ: «يا إلهي! إذاً، هذا ما في الأمرِ. لديهم خيارٌ آخر».

«هناك مكانٌ آخر يسعنا الذهابُ إليهِ»، قال دان ووقفَ ثمَّ تابع: «وبالنسبةِ إلي فأنا سأذهبُ منذُ الآن».

«ما الذي تتحدثُ عنه؟» قال جاك.

علت وجهُ دان نظرةُ ظفرٍ وقال: «عُرِضَ عليَّ العملُ في موقعٍ جديدٍ في شايرنغ. سيبنون كنيسةً جديدةً، وسيُعطون الحرفيين هناك أجراً أسبوعياً مقدارهُ أربعة وعشرون بنساً».

نظرَ جاك من حولهِ وقال: «هل من أحدٍ آخر تلقى العرضَ ذاتهُ؟»

ارتسمَ الخجلُ على وجوهِ الحاضرين.

قال دان: «قُدمَ العرض لنا جميعاً».

شعر جاك بأنه مُحطمٌ. إذاً، الأمرُ برمتهُ مخططٌ له. لقد تعرَّضَ للخيانةِ، وشعرَ بالغباءِ والغبنِ في آنٍ معاً. فشلَ في قراءةِ الوضعِ، وتحولَ ألمهُ إلى غضبٍ، وبحثِ عن شخصٍ ليلومهُ ثمَّ صرخَ: «من هو؟ من هو الخائن؟» ونظرَ من حولهِ إلى الحاضرين. لم ينظر في عينهِ سوى بعضهم، ولكن شعورهم بالخزي لم يواسهِ. شعرَ أنَّه عاشقٌ مرفوض بازدراءٍ وصرخَ مجدداً: «من جلبَ هذا العرضَ من شايرنغ؟ من سيكون كبيرَ البنَّائين في شايرنغ؟» ومسحَ الحاضرين بنظرهِ إلى أن استقرَّ أخيراً على آلفريد. بالطبعِ كان آلفريد. وهنا شعرَ جاك بالغثيانِ من شدة التقزز. «آلفريد؟» قال جاك باحتقارٍ. «ستتركونني للعملِ تحتَ إمرةِ آلفريد؟»

لم يُجب أحد، وخيَّم الصمتُ على المكانِ، ولكن دان قال أخيراً: «أجل، سنعملُ تحتَ إمرتهِ».

أدركَ جاك الآن أنَّه هُزمَ، ولذلكَ قال بمرارةٍ: «فليكن إذاً. تعرفونني وتعرفون أخي، ولكنكم اخترتم آلفريد. تعرفون رئيسَ الديرِ فيليب، وتعرفون الإيرل وليم، ومع ذلك اخترتم وليم، ولذلكَ كلُّ ما يسعني قولهُ لكم الآن هو أنكم تستحقون ما سيحدثُ لكم».

الفصل الخامس عشر

- 1 -

«فلتقص عليَّ حكايةً»، قالت آليانا. «لم تعد تُخبرني بالقصصِ، أتتذكر كيف كنتَ تفعلُ هذا قبلاً؟»

«أتذكر»، أجاب جاك.

كانا في فُرجتها السريَّةِ في الغابةِ في أحدِ الأيامِ من أواخر الخريفِ، ولذلكَ بدلاً من الجلوسِ في الفيءِ قربَ جدولِ الماءِ أشعلا ناراً تحتَ نتوءٍ صخري. كان الجو غائماً، وبارداً، ومُظلماً من بعدِ ظهرِ ذلكَ اليومِ، ولكن ممارسةَ الحبِّ أدفأتهما، وفرقعت النارُ التي أشعلاها بمرحٍ. كانا عاريين تحتَ عباءتهما.

فتحَ جاك عباءةَ آليانا وتحسسَ ثديها. لطالما اعتقدت آليانا أنَّ ثدييها كبيران جداً، وأحزنها أنَّهما لم يعودا ناهدين ومتينين بعدَ الحملِ والإنجابِ، ولكن يبدو أنَّ جاك أحبَّهما، وكان هذا مبعثَ راحةٍ كبيرةٍ لها.

قال لها: «سأقصُّ عليكِ حكايةَ أميرةٍ تعيشُ في قلعةٍ عاليةٍ»، وتحسسَ حلمةَ ثديها بُلطفٍ، «وعن أميرٍ يعيشُ في قلعةٍ أخرى عالية»، ثمَّ تحسسَ الثدي الآخر. «كلُّ يومٍ يُحدقان بعضهما إلى بعض من نافذتي سجنيهما، ويتوقان إلى عبورِ الوادي الفاصلِ بينهما»، واستقرَّت يدهُ على الفالق بينَ ثدييها ثمَّ نقلها بشكلٍ مفاجئ إلى الأسفلِ. «ولكن بعدَ ظُهرِ كلِّ أحدٍ يلتقيان في الغابةِ!» شهقت آليانا بحدةٍ وقد بوغتت ثمَّ ضحكت على نفسها.

كانت لقاءات ما بعدِ الظهرِ أيام الآحادِ بمنزلة لحظاتٍ ذهبيةٍ وسطَ حياةٍ تتداعى بسرعةٍ.

تسببَ الحصادُ السيءُ وهبوط أسعارِ الصوفِ بخرابٍ اقتصادي؛ فقد انتهى أمرُ العديدِ من التجارِ، وغدا سكانُ البلداتِ عاطلين عن العملِ، وتضور الفلاحون جوعاً. لحسنِ الحظِ كان جاك ما يزالُ يكسبُ أجراً، وبمساعدةِ مجموعةٍ صغيرةٍ من الحرفيين عملَ على بناءِ أول حُجيرةٍ في الصحنِ، ولكن آليانا توقفت تماماً عن صناعةِ القماشِ. كانت الأمور هنا أسوأ من بقيةِ مناطقِ جنوبِ إنكلترا بسببِ الطريقةِ التي تعاملَ بها وليم مع المجاعةِ.

بالنسبةِ إلى آليانا كان هذا أسوأ ما في الأمرِ. استشرسَ وليم في طرقهِ لتحصيلِ المالِ من أجلِ بناءِ كنيستهِ الجديدةِ في شايرنغ، تلك الكنيسة التي كرَّسها لذكرى والدتهِ الشريرةِ وشبه المجنونةِ؛ فطردَ الكثيرَ من مستأجريهِ بسبب تأخرهم في دفعِ الإيجارِ، وباتت الآن بعضُ أفضلِ أراضي المقاطعةِ بوراً، وتسببَ هذا في زيادةِ شُحِ محصول الذرةِ. علاوةً على ذلكَ عملَ وليم على تخزين أكبرِ قدرٍ من الذرةِ كي يرتفع سعرها أكثر. لم يكن لديهِ سوى عددٍ قليلٍ من الموظفين وما من أحدٍ ليعيلهُ، ولهذا استفادَ حقاً، وعلى المدى القصير، من المجاعةِ، إلا أنَّه وعلى المدى الطويلِ سيتسببُ بأذى للملكيةِ لا يمكن إصلاحهُ، ولن تعود قادرةً على تأمين طعامِ سكانها. تتذكرُ آليانا كيف كانت شايرنغ أيامَ والدها مقاطعةً غنيةً بالأراضي الخصبة، والبلداتِ المزدهرةِ، وكلما فكرت بالأمر ملأ الحزنُ قلبها.

لسنواتٍ عديدةٍ نسيت آليانا أمرَ وعدها هي وشقيقها لوالدها في السجنِ؛ فمنذُ أن أصبحَ وليم هاملي الإيرل، وأصبح لديها عائلة باتت فكرةُ استعادةِ ريتشارد لإرثِ والدهِ كحلمٍ بعيدٍ. حتَّى ريتشارد نفسهُ رضي بعملهِ كرئيسٍ للحرسِ، بل تزوجَ من ابنة نجارٍ محلي، ولكن ولسوءِ حظِّ الفتاة المسكينةِ لم تكن صحتها جيدةً، وتوفيت العامَ الماضي تاركةً إياه من دونِ أطفالٍ.

منذُ أن بدأت المجاعةُ وفكرةُ استعادة ملكيةِ شايرنغ تشغلُ بال آليانا. لو كان ريتشارد الإيرل لساعدتهُ على القيامِ بالكثيرِ من أجلِ تخفيفِ المعاناةِ التي جلبتها المجاعةُ على الناسِ، ولكن كلّ هذا كان مجرَّد حُلمٍ؛ فقد كان وليم محبوباً من قبلِ الملكِ ستيفن الذي كانت له الغلبةُ في الحربِ الأهليةِ، ولا يبدو أنَّ هناكَ أملاً بتغييرِ هذا.

عندما تستلقي مع جاك على العشبِ ويمارسان الحبَّ في الفُرجة السريَّةِ

تتبخرُ من رأسها كلُّ هذهِ الآمالِ الخائبةِ. منذُ بدايةِ علاقتهما، وكلّ واحد منهما ظمآن إلى جسد الآخر. لن تنسى آليانا كيفَ صُدمت بشهوتها، ولكن ليسَ في البدايات وحسب بل وحتَّى الآن، ورغمَ أنَّها في الثالثةِ والثلاثين، وتسببت الولادتان في جعلِ مؤخرتها أكبر، ولم يعد بطنها مشدوداً كسابقِ عهدهِ، ولكن رغبة جاك بها ما تزال قويةً جداً إلى درجةِ أنَّهما يمارسان الحبَّ ثلاث أو أربع مرَّاتٍ كلَّ أحدٍ.

بدأت الآن دعابتهُ عن الغابةِ تتحولُ إلى مداعبةٍ لذيذةٍ فأخذت آليانا وجهه بيديها وقبَّلتهُ ثمَّ سمعت صوتاً.

تجمدا في مكانيهما. كانت الفُرجةُ بعيدةً قليلاً عن الطريقِ الرئيسي ومخفيةً وراءَ دغلٍ، ولم يقاطعهما أحدٌ قط باستثناءِ غزالٍ شاردٍ، أو ثعلبٍ جريءٍ أحياناً. حبسا أنفاسهما وأصاخا السمعَ. أتاهما الصوتُ ذاتهُ مرَّةً أخرى، ولكن بنبرةٍ مُختلفةٍ. أصغيا مجدداً، وسمعا صوتَ خشخشةٍ كأنَّ مجموعةً كبيرةً تتحركُ في الغابةِ.

بحثَ جاك عن جزمتهِ، ووجدها مُلقاةً على الأرضِ. تحرَّك بهدوءٍ ثمَّ قفزَ إلى الجدولِ بخفةٍ، وملأ حذاءهُ بالماءِ ثمَّ أطفئ النارَ بها. خمدت النار، وصدرَ عنها صوتٌ كالهسيسِ، ثمَّ تصاعدَ منها خيطٌ رفيعٌ من الدخانِ. تحرَّك جاك بهدوءٍ نحو الأجمةِ ودخلها برأسٍ منخفضٍ ثمَّ اختفى.

ارتدت آليانا قميصها الداخلي، وسترتها، وجزمتها ثمَّ التفعت بعباءتها مجدداً.

عادَ جاك بالهدوءِ الذي غادرَ بهِ وقال: «خارجون عن القانونِ».

«كم يبلغُ عددهم؟» همست له.

«عددهم كبير، ولكن لم أتمكن من إحصائهم جميعاً».

«إلى أين هم ذاهبون؟»

«إلى كينغزبريدج»، وأمسكَ بيدها ثمَّ قال: «اسمعي».

رفعت آليانا رأسها لتصغي جيداً، وسمعت صوتاً من البعيدِ لجرسِ ديرِ كينغزبريدج يُقرعُ بسرعةٍ وبعجالةٍ في إشارة تحذيريةٍ. شعرت آليانا بقلبها يتوقف من الخوفِ وقالت: «جاك... الطفلان!»

«يمكننا أن نسبقَ الخارجين عن القانونِ إن عبرنا طريقَ مادي بوتم ثمَّ النهر قربَ غابةِ الكستناءِ».

«فلنسرع إذاً!»

أمسكَ جاك بذراعِ آليانا، وأصاخ السمعَ لبرهةٍ. لطالما كان قادراً على سماعِ أشياء في الغابةِ لا تسمعها، والسببُ في ذلكَ نشأتهُ في البريَّةِ. انتظرته إلى أن قالَ أخيراً: «أعتقدُ أنَّهم عبروا».

غادرا الفُرجةَ، وبعدَ برهةٍ وصلا إلى الطريقِ، وعندما لم يريا أحداً عبراه باتجاهِ الغابةِ على الجهةِ الأخرى ثمَّ اتخذا طريقاً مخفياً. تركت آليانا تومي وسالي مع مارثا، وكانوا يلعبون لعبةَ الطاحونةِ ودافئين أمامَ موقدٍ بنارٍ قويةٍ. لم تكن واثقةً من طبيعةِ الخطرِ، ولكنها ارتعبت من حدوثِ شيءٍ ما قبلَ أن تصلَ إلى الطفلين. ركضا عندما تمكنا من ذلكَ، ولكن آليانا شعرت بالإحباطِ لأنَّ الأرضَ كانت وعرةً جداً، ولذلك كان الحلُّ الأفضل هو السيرُ بسرعةٍ، ولاحظت أنَّ جاك يسيرُ بخطواتٍ واسعةٍ. كان عبور هذا الطريقِ أصعب بكثير من الطريقِ الرئيسي، ولهذا لا يطرقهُ الناسُ كثيراً على الرغمِ من أنَّه الأقصر.

انزلقا عبرَ منحدرٍ شديدٍ يُفضي إلى منطقةِ مادي بوتم. عادةً ما يُقتلُ الغرباءُ الغافلون في هذهِ المنطقةِ، ولكن لا خطرَ عليهما لأنَّهما يعرفان الطريقَ في المنطقةِ. على أيِّ حالٍ يبدو أنَّ قدمي آليانا علقا في الوحلِ المُشبع بالماءِ وأعاقتا تقدمها السريعِ في طريقها إلى تومي وسالي. على الجانبِ الآخر من منطقةِ مادي بوتم هناك منطقةٌ لعبورِ النهرِ. وصلَ الماءُ البارد إلى ركبتي آليانا، وخلَّصها من الوحلِ العالقِ في قدميها.

حالما عبرا النهرَ باتَ الطريقُ مستقيماً، ومع اقترابهما من البلدةِ وصلهما صوتُ الجرسِ أعلى. وفي محاولةٍ لرفعِ معنوياتها فكرت آليانا أنَّه وأيّاً يكن الخطرُ الذي تتعرضُ له البلدةُ فعلى الأقلِ يبدو أنَّها قد تلقت تحذيراً. عندما خرجا من الغابةِ إلى المرجِ على الضفةِ الأخرى للنهرِ من كينغزبريدج وصلَ عشرون أو ثلاثون فتى كانوا يلعبون كرةَ القدم في قريةٍ مجاورةٍ في الوقتِ نفسهِ وهم يصيحون بغلظة، ويتعرقون رغمَ برودةِ الجو.

هرعوا جميعاً عبرَ الجسرِ. كانت البوابةُ مُغلقةً، ولكن الناسَ على السورِ

رأوهم وعرفوهم عندما اقتربوا، وفتحوا مدخلاً صغيراً. أبعدَ جاك وآليانا الفتيةَ عن طريقهما ليمرا أولاً. عبرا المدخل الصغير خافضي الرأسِ. شعرت آليانا براحةٍ كبيرةٍ لعودتها إلى البلدةِ قبلَ وصولِ الخارجين عن القانون.

هرعا لاهثين عبرَ الشارعِ الرئيسي للبلدةِ، ووجدا السكان على الأسوارِ يحملون الرماحَ والأقواسَ، وقد جهزوا أكوامَ الحجارةِ. كانوا أيضاً قد جمعوا الأطفال، ووضعوهم في الديرِ، وتكهنت آليانا أنَّ مارثا ذهبت مع تومي وسالي إلى هناك، ولذلك توجهت هي وجاك إلى ساحةِ الديرِ على الفورِ.

أصيبت آليانا بالذهولِ عندما رأت في فناءِ مطبخِ الديرِ والدةَ جاك، وعلى الرغم من أنَّها ما تزال رشيقةً وسمراء كالسابقِ، وفي الرابعةِ والأربعين فقط فإنَّ الشيبَ غزا شعرها الطويل، وبدأت التجاعيد تظهرُ حولَ عينيها. كانت تتحدثُ بحماسٍ إلى ريتشارد، أمَّا رئيسُ الدير فيليب فكان بعيداً يقود الأطفال إلى قاعةِ الاجتماعِ في الكاتدرائيةِ، ولا يبدو أنَّه رأى إيلين بعد.

بالقربِ منهما وقفت مارثا مع تومي وسالي. تنهدت آليانا في راحةٍ، وعانقت طفليها.

قال جاك: «أماه، لمَ أنتِ هنا؟»

«أتيتُ لتحذيركم. هناك عصابةٌ من الخارجين عن القانون قادمةٌ للإغارةِ على البلدةِ».

«رآيناهم في الغابةِ»، قال جاك.

سمعهُ ريتشارد وسأله: «أرأيتهم؟ كم عددهم؟»

«لستُ واثقاً، ولكنهم كُثر ولا يقلّون عن مئةٍ أو ربما أكثر».

«ما الأسلحة التي يحملونها؟»

«هراواتٍ، وسكاكين، ومنجلاً أو منجلين، ولكنها في الأغلبِ هراواتٍ».

«من أيِّ جهةٍ قادمون؟»

«من الشمالِ».

«شكراً، سأُلقي نظرةً من فوقِ السورِ».

قالت آليانا: «مارثا، خُذي الطفلين إلى قاعةِ الاجتماعاتِ»، ثمَّ لحقت بريتشارد، وكذلكَ فعلَ جاك وإيلين.

هرعوا عبرَ الشوارعِ واستمرَّ الناس بسؤال ريتشارد عمَّا يحدث.

«خارجون عن القانون»، أجابهم ريتشارد بشكلٍ مقتضبٍ ومن دونِ أن يُبطئ الخطو.

فكرت آليانا أنَّ ريتشارد الآن في أفضلِ أحوالِهِ. فلو أنَّها طلبت منه الخروجَ للعملِ وكسبِ لقمةِ عيشهِ فسيكون عاجزاً، ولكنه في الحالات العسكريةِ الطارئةِ كان هادئاً ومتزناً وكفوءاً.

وصلوا إلى السورِ الغربي للبلدةِ، وصعدوا السُلمَ إلى الأعلى. كانت هناك أكوامٌ من الحجارةِ موزعة بانتظامٍ لضربِ المهاجمين، وسكانُ البلدةِ ممن حملوا السهامَ والأقواس أخذوا مواقعهم على السورِ. كان ريتشارد منذُ وقتٍ قد أقنعَ نقابةَ البلدةِ بإجراءِ تدريبات طوارئ كلَّ عامٍ. وعلى الرغمِ من معارضتهم الفكرةَ في البدايةِ، فإن التدريبات باتت أشبه بطقسٍ كطقسِ ليلةِ منتصفِ الصيفِ استمتعَ بهِ الجميع، وها هم الآن يحصدون ثمارَ هذهِ التدريبات؛ فسكان البلدةِ تحركوا بسرعةٍ وبثقةٍ عندَ سماعِ جرسِ الإنذارِ.

نظرَت آليانا بخوفٍ عبرَ الحقولِ باتجاهِ الغابةِ، ولكنها لم ترَ شيئاً.

قال ريتشارد: «لا بدَّ أنكما سبقتماهم إلى هنا بكثيرٍ».

قالت آليانا: «ما سبب قدومهم إلى هنا؟»

قالت إيلين: «أتوا للسطو على مخازنِ الديرِ لأنه المكانُ الوحيدُ في المنطقةِ الذي يتوفر فيهِ الطعام».

«بالطبعِ».

كان الخارجون عن القانون أناساً جوعى سلبهم وليم أراضيهم، ولم يعد لديهم وسيلةٌ للعيشِ سوى النهب. لم يكن في القرى العزلاء الكثير ليُسرق، هذا إن وجدَ أصلاً، فلم يكن حالُ الفلاحين بأفضل من حالِ الخارجين عن القانون، ولم يتوفر الطعام بكثرةٍ سوى في مخازن الحبوبِ التابعةِ للأسيادِ.

وبينما كانت تفكرُ بهذا رأت الخارجين عن القانون.

خرجوا من أطرافِ الغابةِ كما تخرجُ الجرذان من تحتِ كومةِ قشٍ محترقةٍ. اندفعوا تباعاً عبرَ الحقلِ باتجاهِ البلدةِ، وعددهم يُقدَّر بالمئةِ. كانوا أشبه بجيشٍ صغيرٍ، وهم على الأغلبِ أملوا بمباغتةِ البلدةِ وعبورِ البوابةِ، ولكن

عندما سمعوا صوتَ جرسِ الإنذارِ أدركوا أن خُطتهم فشلت. على أيِّ حالٍ استمروا بالتقدمِ مدفوعين باليأسِ من شدَّةِ الجوعِ. أطلقَ رجل أو اثنان السهامَ بشكلٍ مبكرٍ فصرخَ ريتشارد: «توقفوا! لا تبذروا السهامَ!» في المرةِ السابقةِ التي تعرضت فيها كينغزبريدج إلى هجوم كان تومي يبلغ العام والنصف وآليانا حاملاً بسالي، ولذلكَ لجأت إلى الديرِ آنذاك مع كبارِ السنِّ والأطفالِ، ولكنها هذهِ المرة بقيت على السورِ لمساعدةِ سكانِ البلدةِ على دحرِ الخطرِ، وحذت بقيةُ النساءِ حذوها فقد كان عددهن يساوي عددَ الرجالِ تقريباً.

مع اقترابِ الخارجين عن القانونِ شعرت آليانا أنَّها ممزقةٌ. على الرغمِ من قُربها من الديرِ فإنّ المهاجمين قد يخترقون السور في مرحلةٍ ما، ويصلون إلى الديرِ قبلها، أو قد تُصاب خلالَ القتالِ، وتعجزُ عن حمايةِ الطفلينِ. كان جاك وإيلين معها، وهذا يعني أنَّهما إن قُتلا لن يبقى أحدٌ للعنايةِ بتومي وسالي غير مارثا. وفي عجزٍ عن حسمِ رأيها بقيت آليانا مترددةً بين البقاء والذهاب إلى جانبِ طفليها.

وصلَ الخارجون عن القانونِ الآن إلى الأسوارِ، وانهالَ عليهم وابلٌ من السهامِ، وهذهِ المرَّة لم يطلب ريتشارد من الرماة الانتظار. أصابت السهامُ الخارجين عن القانون لأنهم لم يكونوا يحملون دروعاً. لم يكونوا مُنظمين، واندفعوا كحيواناتٍ جامحةٍ باتجاهِ السور ولذلكَ حالما وصلوا عجزوا عن معرفةِ ما عليهم القيام بهِ فما كان من سكانِ البلدةِ إلا أن رشقوهم بالحجارةِ من بينِ فتحاتِ أعلى السورِ. هجمَ العديدُ من أولئكَ الخارجين عن القانون على البوابةِ بهراواتهم. تعلمُ آليانا أنَّ البوابةَ مصنوعةٌ من خشبِ البلوطِ، ومدعَّمة بالحديدِ، ولذلك سيأخذُ تحطيمها الليلَ بطولهِ. في هذهِ الأثناءِ كان الجزارُ آلف، وصانع السروجِ آرثر يناوران لسكبِ قدرٍ من الماءِ المغلي، جلباه من مطبخِ أحدهما من على سطحِ السورِ فوقَ البوابةِ.

تحتَ آليانا مباشرةً بدأت مجموعةٌ من الخارجين عن القانونِ بصُنعِ هرمٍ بشري، وعلى الفورِ سارعَ جاك وريتشارد إلى رميهم بالحجارةِ. وبعدَ التفكيرِ بطفليها حذت آليانا حذويهما، وانضمت إليهما إيلين أيضاً. قاومَ الخارجون عن القانون اليائسون مطرَ الحجارةِ لوهلةٍ، ولكن أحدهم أُصيبَ في رأسهِ، وتداعى الهرم فاستسلموا جميعاً.

وبعدَ وهلةٍ وصلتهم صرخات ألمٍ من جهةِ البوابةِ الشماليةِ عندما انسكبَ الماءُ المغلي على رؤوسِ من هاجموا الباب.

وهنا أدركَ بعضُ الخارجين عن القانونِ أن زملاءهم الموتى والجرحى فريسةٌ سهلةٌ فبدأوا بتجريدهم من ملابسهم. اشتبكَ المصابون بجروحٍ طفيفةٍ، وتعاركَ الناهبون المتنافسون على ممتلكاتِ الموتى. شاهدت آليانا في تقززٍ ما يجري. كان أشبه بما يحدث في مسلخٍ، مسلخٍ وضيعٍ بحقٍ. مع تراجعِ وتيرةِ الهجومِ، واشتباكِ المهاجمين بعضهم مع بعضٍ ككلابٍ تتعاركُ على عظمةٍ توقفَ سكان البلدةِ عن رمي الحجارةِ.

استدارت آليانا نحو ريتشارد وقالت: «إنَّهم غير مُنظمين أبداً، ولذلك ليسوا بالتهديدِ الحقيقي».

أومأ برأسهِ وقال: «ولكن ببعضِ المساعدةِ قد يصبحون خطيرين لأنهم يائسون، غير أنَّهم ليسوا كذلكَ الآن لأنَّهم لا يملكون قائداً».

وفجأةً صُدمت آليانا بفكرةٍ. «جيشٌ يحتاج إلى قائدٍ»، قالت آليانا، ورغمَ أنَّ ريتشارد لم يُبدِ أيَّ ردٍ إلَّا أنَها بدت متحمسةً جداً للفكرةِ. كان ريتشارد قائداً ماهراً، ولكنه من دونِ جيشٍ، والخارجون عن القانونِ جيشٌ من دونِ قائدٍ، ومقاطعةُ شايرنغ تتداعى...

تابع بعضُ سكانِ البلدةِ رمي الحجارةِ والسهامِ على الخارجين عن القانون، وأوقعوا المزيدَ من القتلى بين ناهبي الجثثِ في الأسفلِ. كانت هذهِ الضربة القاصمة للخارجين عن القانونِ لأنَّهم بعدها بدأوا بالانسحابِ وذيولهم بينَ قوائمهم كقطيعٍ من الكلابِ، وينظرون إلى الوراءِ في ندمٍ. وهنا فتحَ أحدهم البوابةَ الشماليةَ، واندفعَ حشدٌ من الشبانِ بسيوفٍ مسلولةٍ وفؤوسٍ في إثرِ فلولِ جيشِ الخارجين عن القانونِ. كان الجيشُ قد هربَ، ولكن البعضَ وقعَ بأيدي الشُبانِ، وقُتلَ.

استدارت إيلين في تقززٍ وقالت لريتشارد: «كان عليكَ إيقافُ أولئكَ الفتية عن ملاحقتهم».

«يحتاجُ الشُبان إلى سفكِ بعضِ الدماءِ بعدِ معركةٍ كهذهِ»، قال ريتشارد وأضاف: «علاوةً على ذلكَ كلما قتلنا منهم تقلَّصَ عددُ من سيهاجمون في المرةِ القادمةِ».

فكرت آليانا في نفسها أنَّ فلسفةَ ريتشارد فلسفةُ جندي، ولكن لو أنَّ حياتها كانت تحتَ تهديدٍ يومي لتصرَّفت مثلَ أولئكَ الشبان، ولحقت بالخارجين عن القانونِ، وذبحتهم، ولكن كل ما أرادتهُ الآن هو القضاء على الأسبابِ التي تدفعُ الناس إلى الخروجِ عن القانونِ، وليسَ القضاء على الخارجين عن القانون أنفسهم.

طلبَ ريتشارد من أحدهم قرعَ جرسَ الأمانِ في الديرِ، وأعطى تعليماتٍ بحراسةٍ مشددةٍ لهذهِ الليلةِ مع فرقِ حرسٍ جوالةٍ إضافةً إلى الحرسِ الثابتين، أمَّا آليانا فتوجهت إلى الديرِ، وأخذت مارثا والطفلين ثمَّ اجتمعَ الجميع في منزلِ جاك.

سُرَّت آليانا لأنَّ الجميع كانوا حاضرين: جاك وطفلاهما ووالدةُ جاك وشقيقها ومارثا. كانوا أشبه بعائلةٍ طبيعيةٍ، وكادت آليانا تنسى أنَّ والدها توفي في زنزانةٍ، وأنَّها متزوجةٌ بشكلٍ قانوني من أخي جاك غير الشقيقِ، وأنَّ إيلين خارجةٌ عن القانونِ و...

هزَّت رأسها، وقررت أنَّه لا فائدة ترجى من التظاهرِ أنَّ هذهِ العائلة طبيعيةٌ.

توجه جاك إلى برميلِ الجعةِ، وملأ إبريقاً ثمَّ سكبه في كؤوسٍ كبيرةٍ. شعرَ الجميع بالتوتر والحماسةِ بعدَ الخطرِ الذي واجهوه. أشعلت إيلين ناراً في الموقدِ، وقطَّعت مارثا قرنبيطاً في قدرٍ لإعدادِ حساءٍ للعشاءِ. في الأيام الخوالي وفي يومٍ كهذا لكانوا شووا نصفَ خنزيرٍ.

شربَ ريتشارد كأسهُ دفعةً واحدةً ومسحَ فمهُ ثمَّ قال: «سنتعرضُ إلى مزيدٍ من هذهِ الغاراتِ قبل نهايةِ فصلِ الشتاء».

قال جاك: «الأجدر بهم أن يهاجموا مخازن الإيرل وِليم، وليسَ مخازن رئيسِ الديرِ فيليب لأنَّ وليم من يتسببُ في إفقارِ الناسِ».

«إن لم يعملوا على تحسين تكتيكاتهم لن يحققو نجاحاً في الإغارةِ على مخازنِ وليم كما لم ينجحوا في الإغارةِ على مخازننا. إنَّهم أشبه بقطيعٍ من الكلابِ»

قالت آليانا: «يحتاجون إلى قائدٍ».

قال جاك: «فلتُصلي للرَّبِّ ألا يحصلوا عليهِ لأنَّهم سيغدون خطيرين جداً وقتئذٍ».

قالت آليانا: «قد يقودهم قائد للهجومِ على مخازن وليم بدلاً من مخازننا».

«لا أفهم ما ترمين إليهِ»، قال جاك وتابع: «هل هذا ما سيفعلهُ القائدُ معهم؟»

«سيفعلون إن كان ريتشارد قائدهم».

وصمتَ الجميعُ.

كانت الفكرةُ قد نضجت في ذهنِ آليانا الآن بل كانت واثقةً من نجاحها. ستتمكن هي وريتشارد من الوفاءِ بوعدهما لوالدهما، ويمكن لريتشارد أن يُدمرَ وليم، ويصبح الإيرل، ويحل السلام والازدهار على المقاطعة مجدداً.. وكلما أمعنت التفكيرَ في الأمر تحمَّست له أكثر.

«وصلَ عددُ الغوغائين اليومَ إلى مئةٍ»، قالت آليانا ثمَّ استدارت نحو إيلين وسألتها: «كم يبلغُ عددُ الموجودين في الغابةِ؟»

«عددهم لا يحصى»، قالت إيلين وأضافت: «مئات وألوف».

انحنت آليانا فوقَ طاولةِ المطبخِ، ونظرت في عيني ريتشارد مباشرةً. «فلتكن قائدهم»، قالت بحماسةٍ وتابعت: «نظّمهم وعلّمهم كيفَ يُقاتلون ثمَّ ضعَ خططاً للهجومِ وأرسلهم لقتالِ... وليم».

وبينما كانت تتحدث أدركت أنَّها كانت تطلبُ منه وضعَ حياته على المحكِ، وتملكها الذعرُ؛ فقد يُقتل خلالَ محاولتهِ استعادة إرثهِ والوفاءَ بوعده لوالدهِ.

ولكن ريتشارد لم تراودهُ مثلُ هذهِ المخاوف وقال لها: «يا إلهي يا آلي قد تكونين على حقٍ. يمكنني أن أحظى بجيشٍ، وأقودهم ضدَّ وليم».

رأت آليانا وجه ريتشارد يشتعلُ كرهاً قديماً، ولاحظت أنَّ الندبةَ على أذنهِ حيثُ بُترت شحمةُ أذنهِ تحمرُّ، وهنا كبحت آليانا بقوةٍ تلكَ الذكرى القديمةَ والرهيبةَ التي طفت الآن على سطحِ ذاكرتها.

كانت الفكرةُ قد بدأت تروق لريتشارد، وقال بحبورٍ: «يمكنني أن أستولي على قطعانِ وليم، وأسرقَ الخرافَ، وأصيدَ غزلانهُ، وأُغيرَ على مخازنهِ، وأسرقَ مطاحنهُ. يا إلهي! لو كنتُ أملكُ جيشاً لجعلتُ وليم الحشرة يعاني».

فكرت آليانا أنَّ ريتشارد كان جندياً طوالَ حياته، وأنَّ هذا قدرهُ. وعلى

الرغمِ من خوفها على حياتهِ فإنَّها ابتهجت كثيراً لفكرةِ حصوله على فرصةٍ ثانيةٍ للوفاءِ بوعدهِ.

وهنا فكرَ ريتشارد بعقبةٍ وقال: «ولكن كيف سنتمكن من إيجادِ الخارجين عن القانونِ؟ إنَّهم مختبئون على الدوامِ».

«سأجيبكَ على هذا»، قالت إيلين وتابعت: «على الطريقِ إلى وينشستر هناك طريقٌ فرعي بينَ الأجماتِ يقودُ إلى مقلعٍ مهجورٍ معروفٍ باسم مقلع سالي. هناك ستجدُ معقلهم».

وقالت سالي البالغة من العمرِ سبعةَ أعوامٍ: «ولكنني لا أملكُ مقلعاً».

ضحكَ الجميع.

وحلَّ الصمتُ مجدداً.

بدا ريتشارد متحمساً جداً ومُصمماً. «حسناً»، قال بحزمٍ وأضاف: «إلى مقلع سالي إذاً».

***

«كنا نعمُل ذلكَ الصباحِ على إزالةِ جذعِ شجرةٍ كبيرٍ أعلى التلَّةِ»، قال فيليب. «وعندما عُدنا وجدت أخي فرانسيس يقفُ هنا تماماً في حظيرةِ الماعز، وأنت على ذراعيهِ. لم يتجاوز عمركَ آنذاك اليومَ».

بدا جوناثان حزيناً؛ فقد كانت هذهِ لحظةً مهيبةً بالنسبةِ له.

تفحصَ فيليب ديرَ سان جون إن ذا فوريست، ولاحظَ أنَّ خطَّ الغابةِ قد تراجعَ ولم يعد هناك الكثيرُ من الأشجارِ على مدِّ النظرِ؛ فعلى مدارِ السنواتِ نظَّفَ الرهبان مساحاتٍ كبيرةً من الغابةِ، وبات الديرُ الآن محاطاً بالحقولِ، وإضافةً إلى هذا بات العديدُ من مبانيهِ حجرياً: قاعة اجتماعاتٍ، وقاعةُ طعام، ومهجعٌ إضافةً إلى مجموعةٍ من الحظائرِ الخشبيةِ، ومعامل لإنتاجِ الألبانِ والأجبانِ، وهو الآن بالكاد يشبه الديرَ الذي كان عليهِ قبلَ سبعةَ عشرَ عاماً، حتَّى الناسُ فيهِ كانوا مختلفين أيضاً. يشغلُ الآن العديدُ من الرهبانِ الشُبانِ مناصب في كينغزبريدج. أصبحَ وليم بوفيس الذي أمسكَ بهِ فيليب منذ سنوات يقذف كراتِ الشمعِ الساخنةِ على مُعلمِ الرهبانِ المبتدئين الأصلع رئيسَ الديرِ هنا، أمَّا مثير المتاعبِ بيتر ويرهام فقد ذهبَ إلى كانتربري، وهو يعملُ لمصلحة رئيسِ شمامسةٍ طموحٍ يُدعى توماس بيكيت.

«أتساءل كيف يبدوان»، قال جوناثان وأضاف: «أعني والديّ».

تألمَ فيليب لحال جوناثان؛ فهو نفسهِ فقدَ والديهِ، ولكن ليسَ قبلَ السادسةِ، ولذلك ما زال يتذكرهما جيداً. كانت والدتهُ هادئةً وحنونةً، ووالده طويلاً ولحيتهُ سوداء، وكان شجاعاً وقوياً، غير أنَّ جوناثان لم يعرف والديهِ قط، وكلُّ ما يعرفهُ عنهما هو أنَّهما لم يرغبا بهِ.

«يمكننا تكهن الكثير عنهما»، قال فيليب.

«حقاً؟» قال جوناثان بحماسةٍ، وسألَ: «ماذا؟»

«أنهما فقيران»، قال فيليب. «فالأثرياء لا يتخلون عن أطفالهم لأسبابٍ ماديةٍ، ولا بدَّ أنَّهما كانا بلا أصدقاءٍ أيضاً لأنَّ الأصدقاء سيعرفون إن كان المرء سيحظى بطفلٍ، وسيطرحون أسئلةً عندما يختفي الطفلُ. لا بدَّ أن والديك كانا يائسين؛ فاليائسون فقط من يحتملون فكرةَ التخلي عن طفلٍ».

تلوى وجهُ جوناثان وهو يحاولُ كبحَ دموعهِ. أرادَ فيليب أن يبكي عنه؛ فقد كان هذا الفتى، وكما يقول الجميعُ، يشبهه جداً. تمنى فيليب لو أنَّه يستطيع تقديمَ بعض العزاءِ له، وقول أشياء لطيفةٍ وجميلةٍ عن والديهِ، ولكن كيفَ له أن يقولَ له إنَّ والديهِ أحباه في الوقتِ الذي تخليا فيهِ عنه في الغابةِ، وتركاه ليموت هناك؟

قال جوناثان: «ولكن لمَ يسمح الربُّ بحدوثِ مثلِ هذهِ الأمورِ؟»

وهنا رأى فيليب فرصةً وانتهزها قائلاً: «متى بدأت بطرحِ مثل هذا السؤال فسوف ينتهي بك الأمرُ حائراً، ولكن في هذهِ الحالةِ أعتقدُ أنَّ الجواب واضحٌ. أرادكَ الرَّبُّ لخدمتهِ».

«أتعتقدُ هذا حقاً؟»

«لطالما آمنت بهذا، وأخبرتكَ بذلكَ قبلاً، بل وقلتهُ للرهبانِ هنا في اليومِ الذي عثرنا فيهِ عليكَ. أخبرتهم أنَّ الرَّبَّ أرسلكَ لغايةٍ ما، ولذلك من واجبنا خدمةُ الرَّبِّ وتربيتكَ حتَّى تصبح جاهزاً لأداءِ المهمةِ التي أرسلكَ من أجلها».

«أتساءل إن كانت والدتي تعرفُ هذا».

«إن كانت مع الملائكةِ فهي تعرفُ».

«وما هي المهمةُ التي أرسلني من أجلها الرَّبُّ برأيكَ؟»

«يحتاج الرَّبُّ إلى رهبان متنورين، وكتبةٍ، وموسيقيين، ومزارعين. يحتاج إلى رجالٍ يقومون بالأعمالِ كوكيلِ المؤن، ورئيسِ الدير والأسقفِ، ويحتاجُ أيضاً إلى من يتاجر بالصوفِ، ويشفي المرضى، ويُعلم صبيان المدرسةِ، ويبني الكنائسَ».

«يصعبُ علي تخيلُ أنّه رسمَ لي دوراً في الحياةِ».

«لا يمكنني أن أتخيل أنَّه بذلَ كلَّ هذا الجهدِ إن لم يكن قد رسمَ لكَ دوراً»، قال فيليب بابتسامةٍ وتابع: «على أيِّ حالٍ قد لا يكون الدور عظيماً، أو بارزاً بالمعايير الأرضيةِ. ربما يريدكَ أن تصبحَ واحداً من أولئكَ الرهبانِ الهادئين، رجلاً متواضعاً تكرسُ حياتكَ للصلاةِ والتأملِ».

اكفهر وجه جوناثان وقال: «أعتقد أنَّه قد يريدُ هذا».

ضحكَ فيليب وقال: «ولكن لا أعتقد أنَّه يريدكَ لمثلِ هذا الدورِ؛ فالرَّبُّ لن يصنعَ سكيناً من الخشبِ، أو قميصاً نسائياً داخلياً من جلدِ الأحذيةِ. أنتَ غير مناسبٍ لحياةِ الهدوءِ، والرَّبُّ يعلمُ هذا. أعتقدُ أنه يريدكَ أن تقاتلَ من أجله لا أن تغني له».

«آمل هذا من كلِّ قلبي».

«ولكني أعتقد أنَّه يريدكَ الآن أن تذهب إلى الأخِ ليو وتعرفَ كم لديهِ من الجبنِ لمخزنِ ديرِ كينغزبريدج».

«حسناً».

«سأتحدثُ إلى أخي في قاعةِ الاجتماعِ، ولا تنسَ إن سألكَ أيٌّ من الرهبانِ عن فرانسيس تحفّظ قدرَ الإمكانِ».

«لن أتفوه بحرفٍ».

«فلتذهب الآن».

عبرَ جوناثان حديقةَ الديرِ بسرعةٍ، وقد غادرهُ المزاجُ العكرُ، وعادت إليهِ حماستهُ الطبيعية قبلَ أن يصلَ إلى معملِ الألبانِ. راقبهُ فيليب إلى أن اختفى عن الأنظارِ داخلَ المبنى وقال في نفسهِ: «كنتُ مثلهُ في يومٍ من الأيام، ولكنني لم أكن بمثلِ ذكائهِ».

سارَ فيليب في الاتجاهِ المعاكس متوجهاً إلى مبنى قاعةِ الاجتماعِ. أرسلَ له فرانسيس رسالةً يطلبُ فيها لقاءهُ بشكلٍ سري، ولذلكَ وبالنسبةِ إلى رهبان كينغزبريدج فإنَّ فيليب ذهبَ إلى الصومعةِ في الغابةِ في زيارةٍ روتينيةٍ، ولكن بالنسبةِ إلى الرهبان هنا لم يكن إخفاءُ الأمرِ ممكناً، ولكنهم كانوا معزولين جداً، وما من أحدٍ ليتحدثوا إليهِ في الأمرِ، باستثناءِ رئيسِ الصومعةِ الذي يزور كينغزبريدج، وطلبَ منه فيليب أن يعدهُ بالتكتمِ على أمرِ الزيارةِ.

وصلَ فيليب وفرانسيس هذا الصباح، ورغمَ أنَّهما لا يستطيعان الإدعاءَ أنَّ لقاءهما محضُ صدفةٍ فإنَّهما تظاهرا أنَّهما نظَّما أمرَ اللقاءِ من أجلِ رؤيةِ بعضهما بعضاً كأخوين. حضرا القداسَ معاً، وتناولا الغداء مع الرهبانِ، ولم تتسنّ لهما فرصة التحدثِ بعضهما إلى بعض سوى الآن.

كان فرانسيس بانتظارهِ في قاعةِ الاجتماعاتِ، وقد جلسَ على مقعدٍ حجري قبالةَ الجدارِ. لا يعرف فيليب شكلهُ قط فلم يكن في الأديرةِ مرايا، ولهذا يحسبُ عمرهُ، ويُقدر شكلهُ بالنظرِ إلى التغيراتِ التي تتطرأ على هيئةِ أخيهِ الذي يصغرهُ بعامين. كان فرانسيس في الثانيةِ والأربعين، وظهرت في شعرهِ الأسودِ بضعُ شعيراتٍ فضيةٍ، وأحاطت التجاعيد بعينيهِ الزرقاوين الفاتحتين. كان أكثرَ امتلاءً حولَ العنقِ والخصرِ مما كان عليهِ في آخرِ مرَّةٍ رآه فيها فيليب الذي قال لنفسهِ إنَّ شعرَهُ حتماً أكثر شيباً من شعرِ أخيهِ، وإنَّه أقلُّ امتلاءً منه، ولكنه حارَ حيال من امتلك تجاعيد أكثر.

جلسَ فيليب إلى جانبِ فرانسيس، ونظرَ عبرَ الغرفةِ المُثمنةِ الزوايا.

قال فرانسيس: «كيفَ هي الأحوال؟»

«سيطرَ الهمجُ مجدداً»، قال فيليب ثمَّ تابع: «والديرُ يعاني من مشكلةٍ في السيولةِ، والعملُ على الكاتدرائيةِ توقف تقريباً، وحال كينغزبريدج في تردٍ مستمرٍ، ونصفُ سكان المقاطعةِ يُعانون من الجوعِ، ولم يعد السفرُ آمناً».

أومأ فرانسيس برأسهِ وقال: «هذا هو وضع جميعِ المناطقِ في إنكلترا».

«ربما ستصبحُ سيطرةُ الهمجُ دائمةً»، قال فيليب بحزنٍ شديدٍ. «قد ينتصرُ الجشعُ على الحكمةِ في محاكمِ الرَّبِّ، أو يغلبُ الخوفُ الرحمةَ في قلب الإنسان الذي يحملُ سلاحاً».

«عادةً أنتَ لست متشائماً».

«منذُ بضعةِ أسابيعِ تعرضنا إلى هجومٍ من الخارجين عن القانون. كانت محاولةً بائسةً، فحالماً قتلَ رجالُ البلدةِ بعضهم بدأوا يقاتلون بعضهم بعضاً، وعندما انسحبوا خرجَ شبانُ البلدةِ لمطاردةِ التعساء المساكين، وقتلوا كلَّ من وضعوا أيديهم عليهِ. كان الأمرُ مقززاً».

هزَّ فرانسيس رأسهُ وقال: «إنَّه أمرٌ يصعبُ فهمهُ».

«أعتقدُ أنني أفهمهُ. كانوا فزعين، ولم يكن بوسعهم التخلص من خوفهم إلا بعدَ سفكِ دماءِ الناسِ الذين أفزعوهم. رأيتُ هذا في عيني الجنديين اللذين قتلا أبي وأمي. لقد قتلا والدينا لأنَّهما كانا خائفين، ولكن ما الذي قد يمحو خوفهم؟»

تنهّدَ فرانسيس وقال: «السلام والعدل والرخاء، وهذهِ أمورٌ يصعبُ تحقيقها».

أومأ فيليب برأسهِ وقال: «حسناً، كيفَ هي أموركَ؟»

«أنا أعملُ لمصلحة هنري، ابن الإمبراطورةِ مود».

كان فيليب قد سمعَ عن هنري وسألَ فرانسيس: «كيف هو؟»

«إنَّه شابٌ ذكي جداً وحازم. والدهُ المتوفّى كونتَ آنجو، وإضافةً إلى ذلكَ فهو دوق النورماندي لأنَّه أكبرُ أحفادِ الملك هنري الراحل – ملك إنكلترا ودوق النورماندي. إنَّه متزوجٌ من إلينور آكيتين ولذلك فهو الآن دوق آكيتين أيضاً».

«إنَّه يسيطرُ على أرضٍ أكبر من الأراضي التي يسيطرُ عليها ملكُ فرنسا».

«تماماً».

«ولكن كيفَ هو؟»

«متعلمٌ، ومُجدٌ، ونشيطٌ، وقوي الإرادةِ، ولكنه يملكُ غضباً مخيفاً».

«أتمنى أحياناً لو أنَّ غضبي مخيفٌ»، قال فيليب وأضاف: «فهذا سيُجبرُ الناس على توخي الحذرِ في حضرتي، ولكن الجميع يعلمُ أنني عقلاني على الدوامِ، ولذلكَ لا تكون طاعتي هادئةً مقارنةً برئيسِ ديرٍ قد ينفجرُ غضباً في أيِّ وقتٍ».

ضحكَ فرانسيس وقال: «فلتبقَ على طبيعتكَ»، ثمَّ تابعَ بجديةٍ مجدداً: «جعلني هنري أدرك أهميةَ شخصيةِ الملكِ. خُذ ستيفن على سبيلِ المثالِ. إن حُكمهُ على الأمورِ سيئٌ، وهو يبدو كصاحب عزيمةٍ ولكنه يستسلم في نهايةِ

المطافِ. إنَّه شجاعٌ إلى درجةِ الحماقةِ، ويصفح عن أعدائهِ طوالَ الوقتِ، ولذلكَ من يخونونهُ لا يخاطرون كثيراً بخيانتهِ لأنَّهم يستطيعون التعويلَ على رحمتهِ، ولذلك يُصارع ومن دونِ نجاحٍ منذُ ثمانيةَ عشر عاماً ليسيطرِ على بلدٍ كان عندما تسلَّمهُ مملكةً متحدةً. أمَّا هنري، ومقارنةً بستيفن، فهو يسيطرُ بقوةٍ على كلِّ دوقياتهِ المستقلةِ سابقاً ومقاطعاتهِ».

صُعقَ فيليب بهذا الكلامِ وسألَ فرانسيس: «لمَ أرسلكَ هنري إلى إنكلترا؟»

«لأتفقدَ وضعَ المملكةِ».

«وما الذي وجدتهُ؟»

«أنَّ القانون غائبٌ، والناس يتضورون جوعاً، والبلد منكوبٌ بالعواصفِ، والحربُ دمَّرتهُ».

أومأ فيليب برأسهِ مُفكراً. كان الشاب هنري دوق النورماندي لأنَّه أكبرُ أبناءِ مود التي كانت الابنةَ الشرعيةَ الوحيدةَ للملكِ هنري الراحل، الذي كان أيضاً دوقَ النورماندي وملكَ إنكلترا.

لذلكِ ونظراً إلى المحتدِ النبيلِ للشابِ هنري فهو يستطيعُ المطالبة بالتاجِ الإنكليزي.

كانت والدتهُ قد طالبت بذات الأمرِ، وواجهت معارضةً لأنَّها امرأةٌ، ولأنَّ زوجها من آنجو، ولكن هنري ليسَ ذكراً فحسب بل يملكُ ميزةً إضافيةً وهي أنَّه نورماندي من جهةِ والدتهِ، وآنجيني من جهةِ والدهِ.

قال فيليب: «هل سيحاول هنري المطالبةَ بالتاج الإنكليزي؟»

«يتوقف هذا على تقريري له»، قال فرانسيس.

«وما الذي ستخبرهُ بهِ؟»

«أنَّ الوقتَ لفعلِ هذا لن يكون أفضل من الآن».

«الحمدُ للرَّبِّ»، قال فيليب.

– 2 –

في طريقهِ إلى قلعةِ الأسقفِ ويلارن توقفَ وليم في مطحنةِ كاوفورد التابعة له. كان الطَّحّان ولفريك رجلاً عبوساً في منتصفِ العمرِ، ويمتلكُ الحقَّ بطحنِ كلِّ الذرةِ المزروعةِ في القرى المحيطةِ، التي يبلغُ عددها إحدى

عشرة قرية. كان الأجرُ الذي يتقاضاه على طحنِ كلٍّ عشرين كيساً كيسين، واحدٌ له وآخر لوليم.

توجه وليم إلى هناك لتسلّمِ مستحقاتهِ. على الرغم من أنَّه لا يفعلُ هذا عادةً فإنَّ الأوقات لم تكن عاديةً، وبات الآن يزودُ كلَّ عربةٍ مُحملةٍ بالدقيقَ، أو أيّ شيءٍ يؤكل، بمرافقةٍ مُسلحةٍ. علاوةً على هذا، ومن أجلِ استغلالِ رجالهِ قدر الإمكانِ بات يأخذُ معهُ وحيثما ذهب مع حاشية فرسانهِ عربةً أو اثنتين لجمعِ كلّ ما يُمكن جمعهُ من مستحقاتهِ.

أتى تصاعدُ جرائمِ الخارجين عن القانونِ كأثرٍ جانبي سيئٍ على سياستهِ الصارمةِ تجاهِ مستأجريهِ ممن عجزوا عن دفعِ إيجاراتهم. عموماً، لم يكونوا أكفاء كلصوصٍ تماماً كما لم يكونوا أكفاء كمزارعين، وتوقعَ وليم أنَّ يموتَ معظمهم خلالَ الشتاءِ. في البدايةِ صدقت توقعاته؛ فلم يستهدف الخارجون عن القانونِ سوى المسافرين وحدهم، وممن لم يمتلكوا سوى القليل لسرقتهِ، أو قاموا بغاراتٍ غير منظمةٍ على أهدافٍ مُحصنةٍ، غيرَ أنَّ تكتيكاتهم تحسَّنَت مؤخراً، وباتوا يهاجمون دوماً بأعدادٍ تتفوق بمرتين على أعدادِ قوى الدفاعِ. كانوا يهاجمون عندما تمتلئ المخازن، وهذا يعني أنَّهم يقومون بجولاتٍ استطلاعيةٍ في البدايةِ ثمَّ يشنون غاراتٍ مفاجئةً وسريعةً مدفوعين بشجاعةِ اليأسِ. على أيّ حالٍ، لا يبقون طويلاً للاشتباكِ؛ فحالما يُمسكُ الواحد منهم بخروفٍ، أو قطعةٍ من لحمِ خنزيرٍ أو جبنٍ، أو كيسٍ من الدقيقِ، أو كيسٍ من الفضةِ يهربُ. لم يكن هناك فائدةٌ من اللحاقِ بهم لأنَّهم يختفون في الغابةِ، ويتفرقون في اتجاهاتٍ مختلفةٍ. لا بدَّ أنَّ أحداً ما يقودهم، ويعطيهم هذهِ الأوامر، وهو يقومُ بهذا كما كان وليم ليفعل لو كان مكانهُ.

أذَلَّ الخارجون عن القانونِ وليم، وجعلوه يبدو كمهرجٍ عاجزٍ عن السيطرةِ على مقاطعتهِ، وما زادَ الطينةَ بلَّةً هو أنَّهم نادراً ما سرقوا من أحدٍ آخر غيره. بدا له أنَّهم يتحدونهُ عن سابقِ إصرارٍ وترصّدٍ. لطالما كره وليم الشعور بأنَّ الناس يضحكون عليهِ سِرَّاً؛ فقد قضى حياتهُ يفرضُ على الناس احترامهُ واحترامَ عائلتهِ، ولكن ها هي عصابةُ الخارجين عن القانونِ تقوّضُ كلَّ الجهد الذي بذله لتحقيق هذا.

ولكن أكثرَ ما أثارَ مرارةَ وليم هو ما كان الناسُ يقولونه عنه من وراءِ

ظهرِهِ. قالوا عنه إنَّه استحقَّ ما يحدثُ معه بسببِ معاملتِهِ القاسيةِ لمستأجريهِ الذين يأخذون بانتقامهم منه الآن، وكيفَ أنَّه جلبَ هذا على نفسهِ. كان مثلُ هذا الكلام يجعلهُ يجنُّ غضباً.

بدا سكانُ قريةِ كاوفورد مصعوقين وخائفين عندما رأوا وليم وفرسانهُ يدخلون القريةَ. ألقى نظرةً عابسةً على الوجوهِ الناحلةِ والخائفةِ التي حالما ظهرت من مداخلِ المنازلِ اختفت مجدداً. كان أولئكَ الناس قد أرسلوا كاهنهم ليلتمسَ لهم أمامَ وليم كي يسمحَ لهم بطحنِ ذراهم هذا العام قائلين إنهم عاجزون عن منحِ الطحانِ أجرهُ، الذي يُقدرُ بعُشرِ ما يطحنونه، وشعرَ وليم بإغراءِ قطعِ لسانِ الكاهنِ على هذا الطلبِ الوقحِ.

كان الطقسُ بارداً، وتجمدت حواف بركةِ المطحنةِ، أمَّا ناعورةُ المطحنةِ فكانت ساكنةً، وما من صوتٍ لحجرِ الطحنِ. خرجت امرأةٌ من المنزلِ بجانبِ المطحنةِ، وعندما نظرَ إليها وليم شعرَ بالرغبةِ تتحركُ فيهِ. كانت في العشرين تقريباً، ولها وجهٌ جميلٌ، وشعرٌ داكنٌ وكثيفٌ، وعلى الرغمِ من المجاعةِ فإنَّ ثدييها كانا كبيرين وفخذيها قويين، وعندما خرجت من المنزلِ كانت على وجهها نظرةٌ وقحةٌ، ولكنها حالما لمحت فرسان وليم اختفت تلكَ النظرة، وهرعت عائدةً إلى الداخلِ.

«لم تستلطفنا»، قال والتر. «لا بدَّ أنَّ نظرها وقعَ على جرفيز»، وعلى الرغمِ من أنَّها نكتةٌ قديمةٌ فإنهم ضحكوا جميعاً عليها.

ربطوا الجيادَ. لم تكن هذهِ المجموعة من المرافقين هي ذاتها التي رافقت وليم عندَ بدايةِ الحربِ الأهليةِ. بالطبعِ ما زالَ والتر برفقتهِ، وكذلكَ آغلي جرفيز وهيو آكس، ولكن غيلبرت توفي في المعركةِ الدمويةِ المفاجئةِ مع رجالِ المقلعِ، وحلَّ محلهُ غيوم، وخسرَ مايلز ذراعه في قتالٍ بالسيوفِ بسببِ لعبةِ النردِ في حانةٍ في نوريش، وانضم لويس إلى المجموعةِ. ورغمَ أنَّهم لم يعودوا صبيةً فإنَّهم تصرفوا كصبيةٍ في مزاحهم، وثمالتهم، ومقامرتهم، وعهرهم. كان وليم قد توقفَ منذُ زمنٍ عن عدِّ الحاناتِ التي دمروها، واليهود الذين عذبوهم، والعذارى اللواتي فضوهنَّ.

خرجَ الطَّحانُ من منزلِهِ، وعلى وجهه تعبيرٌ يشي بذلكَ النكدِ الذي تسببَ في عدمِ شعبيةِ الطحانين عموماً، ولكن علائم القلقِ الآن طغت على

علائم النكدِ. لم يتضايق وليم من هذا فقد أحبَّ أن يُصابَ الناسُ بالقلقِ عند رؤيتهِ.

«لم أكن أعلمُ أنَّه لديكَ ابنةٌ يا ولفريك»، قال وليم وهو ينظرُ شزراً. «أنتَ تخفيها عني».

«إنَّها زوجتي ماغي»، قال الطحان.

«هراء، زوجتكَ عجوزٌ شمطاءٌ. أنا أتذكرها».

«توفيت زوجتي ماي في العام الماضي يا سيدي، وتزوجتُ مجدداً».

«أيّها الكلبُ العجوز القذر!» قال وليم مبتسماً. «لا بدَّ أنَّ هذه الزوجة أصغرُ منكَ بثلاثين عاماً».

«خمسة وعشرين...»

«هذا يكفي. أينَ الدقيق؟ كيسٌ لي عن كلِّ عشرين كيساً».

«إنَّها هنا يا سيدي، هلَّا تفضلت بالدخولِ».

دخلوا جميعاً إلى المنزلِ ومنه إلى المطحنةِ. لحقَ وليم وفرسانهُ بولفريك عبرَ المنزلِ المؤلفِ من غرفةٍ واحدةٍ. كانت زوجةُ الطحانِ الشابةِ راكعةً أمامَ الموقد تضعُ الحطبَ، وفي وضعيةِ الانحناءِ هذهِ كان قماشُ سترتها مشدوداً على مؤخرتها، ولاحظَ وليم أنَّ وركيها ممتلئان. بالطبعِ ستكون زوجةُ الطحانِ آخرَ شخصٍ قد يجوع في زمنِ المجاعةِ.

توقفَ وليم، وحدَّقَ إلى مؤخرتها. ابتسم الفرسانُ، وتململَ الطحانُ في مكانهِ. نظرت الفتاةُ إلى الوراءِ، وأدركت أنَّهم يحدقون إليها فوقفت مضطربةً.

غمزها وليم وقال لها: «أحضري لنا بعضَ الجعةِ يا ماغي فالرجالُ عطشى».

دخلوا إلى المطحنة من مدخل داخلَ المنزلِ. كانت أكياسُ الدقيقِ مُكدسةً فوقَ أرضيةِ المطحنةِ المدورةِ، ولكن عددها لم يكن كبيراً. عادةً ما يكون ارتفاعُ أكياسِ الدقيقِ بطولِ قامةِ رجلٍ بالغٍ.

«هل هذا كلُّ ما لديك؟» سألَ وليم.

«كان الحصادُ سيئاً أيّها اللورد»، قال ولفريك في توترٍ.

«أين حصتي؟» سألَ وليم.

«هنا يا سيدي»، قال ولفريك، وأشارَ إلى كومةٍ من ثمانيةٍ أو تسعةِ أكياسٍ.

«ما هذا؟» قال وليم بوجهٍ مُحمرٍّ من الغضبِ. «هل هذهِ حصتي؟ جلبتُ معي عربتين وهذا ما لديك لي؟»

اكتسى وجهُ ولفريك بحزنٍ شديدٍ، وقال: «أنا آسف يا سيدي اللورد».

أحصى وليم عددَ الأكياسِ وقال: «إنَّها تسعةُ أكياسٍ فقط».

«هذا كلُّ ما لدي»، قال ولفريك، وكان على وشكِ الانخراطِ في البكاءِ. «يمكنكَ أن ترى حصتي إلى جانبِ حصتكَ، إنَّ العددَ...»

«أنتَ كلبٌ كاذبٌ»، قال وليم بغضبٍ. «لا بدَّ أنكَ قُمتَ ببيعِ...»

«لا يا سيدي اللورد»، أصرَّ ولفريك وتابع: «هذا كلّ ما لدي حقاً».

دخلت ماغي إلى المطحنةِ تحملُ صينيةً فوقها ستةُ أقداحٍ من الجعةِ. قدَّمت الجعةَ إلى الفرسانِ فأخذوها، وشربوها بنهمٍ، ولكن وليم تجاهلها فقد كان غاضباً جداً على شُربِ الجعةِ؛ ولذلكَ وقفت تنتظرهُ حاملةً القدحَ الأخيرَ على الصينيةِ.

«ما هذا؟» قال وليم لولفريك وهو يشيرُ إلى بقيةِ الأكياسِ المُكدسةِ على طولِ الجدرانِ والتي يبلغُ عددها خمسةَ عشر أو ثلاثين.

«إنَّها أكياسُ الفلاحين أيّها اللورد، ويمكنكَ أن ترى علاماتِ المالكين على الأكياسِ...»

كان كلامُ الطحَّان صحيحاً لأنَّ كلَّ كيسٍ حملَ رمزاً أو حرفاً. بالطبعِ قد يكون الأمرُ خدعةً، ولكن لم تكن هناك من طريقةٍ ليعرفَ بها وليم الحقيقةَ، ووجدَ في هذا أمراً باعثاً على الجنونِ، غيرَ أنَّ الرضوخَ لم يكن من شيمهِ أيضاً.

«لا أصدقكَ»، قال وليم وأضاف: «أنتَ تسرقني».

ولكنَّ ولفريك أصرَّ بكلِّ احترامٍ على صدقهِ قائلاً بصوتٍ مرتعشٍ: «أنا صادقٌ أيّها اللورد».

«ما من طحَّانٍ صادقٍ أبداً».

«أيّها اللورد...» قال ولفريك، وابتلعَ لعابهُ بصعوبةٍ ثمَّ تابع: «أيّها اللورد لم أخدعكَ قط، ولا حتَّى في ذرَّةِ ذُرةٍ واحدةٍ...»

«أراهنكَ أنَّك تسرقني وبكلِّ وقاحةٍ».

بدأ العرقُ يسيلُ على وجهِ ولفريك على الرغمِ من الطقسِ الباردِ فمسحه عن جبهتِهِ بكُمِهِ ثمَّ قال: «أنا مستعدٌ لأن أُقسمَ بالمسيحِ وكلِّ القديسين...»

«أغلق فمكَ».

وصمتَ ولفريك.

كان غضبُ وليم يشتدُّ أكثر فأكثر، ولكنه لم يقرر بعد ما الذي يريدُ القيامَ بِهِ حيالَ الأمرِ. أرادَ أن يتسببَ لولفريك بندبةٍ رهيبةٍ، قد يطلب من والتر أن يضربهُ بكفوفِ الزردِ، أو ربما يأخذُ بعضاً من حصتهِ... ثمَّ وقع نظرهُ على ماغي حاملةً الصينيةَ وقدحُ الجعةِ فوقها. كان وجهها الجميلُ قد تجمَّدَ من الخوفِ، وصدرها الفتي والعارم يرتفعُ وينخفضُ تحتَ سترتها المُغطاةِ بالدقيقِ، وهنا خطرَ ببالهِ أفضلُ عقابٍ قد يُلحقهُ بولفريك.

«أمسك بالزوجةِ»، قال وليم لوالتر من زاويةِ فمهِ ثمَّ قال لولفريك: «سأعلمكَ درساً».

رأت ماغي والتر يتحرَّك باتجاهها، ولكنها تأخرت كثيراً في الهربِ لأنَّهما عندما استدارت أمسكها والتر من ذراعها، وسحبها، فسقطت الصينيةُ من يدها، وانسكبت الجعةُ على الأرضيةِ. حاولت التملص، ولكن والتر لوى ذراعها وراءَ ظهرها وثبتها. كانت ترتجفُ من الخوفِ.

قال ولفريك بصوتٍ مرتعبٍ: «دعها من فضلكَ».

أومأ وليم لولفريك برأسهِ إيماءةً تفيض رضاً. كان ولفريك على وشكِ مشاهدة زوجتِهِ تُغتصبُ من قبلِ عددٍ من الرجالِ، وسيكون عاجزاً عن إنقاذها. في المرةِ القادمةِ سيحرصُ على أن يكون لديهِ ما يكفي من الذُرةِ لإرضاءِ سيدهِ.

قال وليم: «في الوقتِ الذي نضطرُ فيهِ إلى شدِّ أحزمتنا حولَ أجسادنا من النحولِ زوجتكَ تسمنُ من الخبزِ المصنوعِ من الدقيقِ الذي تسرقهُ مني يا ولفريك. لنرَ مدى سمنتها، ما رأيكَ؟» وأومأ وليم لوالتر.

أمسكَ والتر بياقةِ سترةِ ماغي، وشدَّها بقوةٍ فتمزقت السترةُ وسقطت أرضاً. تحتَ السترةِ ارتدت ماغي قميصاً كتانياً يصلُ إلى ركبتيها، وكان صدرها العارمُ يرتفعُ ويهبطُ وهي تلهثُ من الخوفِ. وقفَ وليم أمامها، ولوى والتر ذراعها بقوةٍ أكبر اضطرت معهُ إلى إحناءِ ظهرها إلى الوراءِ من

شدةِ الألمِ فبرزَ ثدياها أكثر. نظرَ وليم إلى ولفريك ثمَّ وضعَ يديهِ على ثدييها، وبدأ يعبثُ بهما فوجدهما طريين وثقيلين.

تقدَّم ولفريك إلى الأمامِ خطوةً وقال: «أيّها الشيطان...»

«ثبتوه»، صاحَ وليم، وأمسكَ لويس بالطحّان من ذراعيهِ وثبّتهُ.

مزّقَ وليم قميصَ الفتاةِ الداخلي.

شعرَ وليم بحلقهِ يجفُّ من الرغبةِ وهو يحدّقُ إلى جسدها الأبيضِ الشهواني.

قال ولفريك: «من فضلكَ لا تفعل...»

وشعرَ وليم بالإثارةِ أكثر ثمَّ قال: «ثبّتها أرضاً».

وبدأت ماغي تصرخُ.

فكَّ وليم حزامَ سيفهِ، ورماه أرضاً بينما أمسكَ الفرسان بماغي من ذراعيها وساقيها. ورغمَ أنَّه لم يكن لديها أيُّ أملٍ بمقاومةِ أربعةِ رجالٍ أقوياءٍ فإنَّها استمرَّت بالتلوي والصراخِ، وأحبَّ وليم هذا. كان ثدياها يهتزان معها، وفخذاها يتحركان، ويفتحان ويُغلقان، يُخفيان ويكشفان فرجها. ثبّتها الفرسان الأربعة على أرضيةِ المطحنةِ.

ركعَ وليم بينَ ساقيها ورفعَ طرفَ سترتهِ ثمَّ نظرَ إلى الزوجِ، ورآه مضطرباً ويحدّق في رُعبٍ، ويدمدمُ بطلبِ الرحمةِ في صوتٍ لم يكن بالإمكانِ سماعهُ بسببِ صراخِ ماغي. استمتعَ وليم باللحظةِ: منظرُ المرأةِ المرعوبةِ التي ثبتها الفرسان أرضاً، وزوجها يشاهدُ ما يحدث.

ثمَّ لمعت عينا ولفريك باتجاهٍ آخر.

أحسَّ وليم بالخطرِ. كان جميعُ من في الغرفةِ يحدّق إليهِ وإلى الفتاةِ؛ ولذلك الشيء الوحيد الذي قد يحول اهتمامَ ولفريك هو احتمالُ وصولِ مساعدةٍ. أدارَ وليم رأسهُ ونظرَ إلى المدخلِ.

وفي تلكَ اللحظةِ سقطَ شيءٌ ثقيلٌ وصلبٌ على رأسهِ.

زأرَ وليم من الألمِ، ووقعَ فوقَ الفتاةِ فاصطدمَ رأسهُ برأسها، وفجأةً سمعَ صراخَ رجالٍ كُثر، ومن زاويةِ عينهِ رأى والتر يقعُ أرضاً أيضاً كأنَّه تلقى ضربةً بهراوةٍ. أفلتَ الفرسان ماغي، وعندما نظرَ وليم إلى وجهها رأى عليهِ علائم الصدمةِ والراحةِ ثمَّ بدأت تتحركُ تحتَهُ فأفلتها، وتدحرجَ بعيداً عنها.

كان أوّلَ شيءٍ رآه فوقهُ رجلاً متوحشاً يحملُ فأسَ تحطيبٍ، وفكرَ وليم في نفسه: «يا إلهي من يكون هذا؟ والدُ الفتاةِ؟» ورأى غيوم ينهض ويستدير، غيرَ أنَّ فأساً نزلَ بقوةٍ على عنقِ غيومِ المكشوف، واخترقَ النصلُ الحادُ لحمه عميقاً ثمَّ سقطَ غيوم على وليم ميتاً، وغطى دمهُ سترةَ وليم.

دفعَ وليم الجثةَ بعيداً عنه، وعندما نظرَ إلى الأعلى مجدداً رأى أنَّ الطحَّان يتعرضُ لهجومِ حشدٍ من الرجالِ المهلهلين، والمشعثين، والقذرين، والمسلحين بالهراواتِ والفؤوسِ. كان عددهم كبيراً، وأدركَ وليم أنَّه في ورطةٍ. تساءل في نفسهِ إن كان سكانُ القريةِ قد أتوا لإنقاذِ ماغي. كيفَ يجرؤون! وقررَ أنَّه وقبلَ نهايةِ هذا اليومِ سيُعدمُ بعضهم، ومدفوعاً بغضبهِ الشديدِ نهضَ على قدميهِ، ومدَّ يدهُ إلى سيفهِ.

ولكن سيفهُ لم يكن بحوزتهِ فقد رماه أرضاً كي يتمكن من اغتصابِ المرأةِ.

كان هيو آكس وآغلي جرفيز ولويس يُقاتلون بشراسةٍ حشداً كبيراً من المتسولين على ما يبدو. على الرغمِ من وقوعِ العديدِ من الفلاحين قتلى، ولكن يبدو أنَّ الفرسان الثلاثة يُدفعون إلى داخلِ المطحنةِ. رأى وليم ماغي العارية تشقُّ طريقها عبرَ الحشدِ عندَ البابِ باهتياجٍ، وهي تصرخُ، وعلى الرغمِ من اضطرابهِ وخوفهِ فإنَّه شعرَ برغبةٍ خائبةٍ بتلك المؤخرةِ البيضاءِ المستديرةِ ثمَّ رأى ولفريك يدخل في عراكٍ بالأيدي مع بعضِ المهاجمين، وتساءل وليم في نفسهِ: «لماذا يتعاركُ الطحَّان مع الرجالِ الذين أتوا لإنقاذِ زوجتهِ؟ ما الذي يحدثُ بحقِّ الجحيمِ؟»

نظرَ وليم حولهِ باضطرابٍ يبحثُ عن سيفه، ورآه على الأرضِ عندَ قدميهِ فأمسكهُ وسحبهُ ثمَ تراجعَ إلى الوراءِ ثلاثَ خطواتٍ مبتعداً عن ساحةِ القتالِ لبرهةٍ. ألقى نظرةً على ما يحدث، وأدركَ أنَّ معظمَ المهاجمين لا يقاتلون بل يحملون أكياسَ الدقيقِ، ويهربون بها، وهنا بدأ وليم يفهمُ ما يحدث. لم تكن هذهِ عمليةَ إنقاذٍ من قبلِ قرويين غاضبين بل غارة من خارجِ القريةِ، ولم يكونوا مُهتمين بماغي، ولم يعرفوا أن وليم وفرسانه داخلَ المطحنةِ، بل كلُّ ما أرادوه هو اقتحام المطحنةِ، وسرقة دقيقِ وليم.

اتضحت له الآن هويةُ أولئكَ المهاجمين. كانوا خارجين عن القانونِ.

وهنا شعرَ وليم بدافعٍ لاستغلالِ هذهِ الفرصةِ، وصدِّ هذا القطيعِ المتوحشِ الذي ينشرُ الرعبَ في أرجاءِ المقاطعةِ، ويفرغُ مخازنها.

فاقَ المهاجمون فرسانه عدداً فقد وصلَ عددهم إلى العشرين. ذُهلَ وليم من شجاعةِ الخارجين عن القانون. عادةً ما يهربُ الفلاحون كالدجاجِ أمامَ مجموعةٍ من الفرسان، سواء أكانوا يفوقون الفرسان عدداً بمعدلِ اثنين إلى واحد، أو عشرة إلى واحد، ولكن أولئكَ الناس قاتلوا بضراوةٍ، ولم يُحبطهم سقوط قتلى في صفوفهم، وتراجع عددهم، بل بدوا مستعدين للموتِ إن تطلَّبَ الأمرُ هذا، وربما كان السببُ في ذلكَ علمهم أنَّهم سيموتون من الجوعِ ما لم ينجحوا في سرقةِ الدقيقِ.

انخرطَ لويس في قتالٍ مع رجلين في آنٍ معاً، وأتى رجلٌ ثالثٌ من ورائهِ، وضربهُ بمطرقةِ نجارٍ ذاتِ رأسٍ معدني. سقطَ لويس أرضاً، وبقي في مكانهِ. ألقى الرجلُ الثالثُ بمطرقتهِ، والتقطَ سيفَ لويس. لم يبقَ الآن سوى فارسين في مواجهةِ عشرين رجلاً، ولكن والتر قد بدأ يتعافى من الضربةِ التي تلقاها على رأسهِ، وسحبَ سيفهُ ثمَّ دخلَ في معمعة القتالِ، ووليم بدورهِ رفعَ سيفهُ، وانضمَّ إليهم.

شكَّلوا أربعتهم فريقاً قوياً اضطرَّ معه الخارجون عن القانونِ إلى التراجعِ إلى الوراءِ، والاستماتةِ في صدِّ نصالِ السيوفِ اللامعةِ بهراواتهم وفؤوسهم، وبدأ وليم يفكرُ أنَّ معنوياتهم قد تتزعزع، ويهربون كالدجاجِ، ولكن أحدهم صرخَ: «الإيرل الشرعي!»

بدت الصرخةُ كنداءٍ لحشدِ المهاجمين لأنَّهم صعَّدوا القتالَ، وقاتلوا بشراسةٍ وهم يكررون: «الإيرل الشرعي، الإيرل الشرعي!» بعثت هذهِ الصرخةُ في قلبِ وليم الرعبَ على الرغمِ من أنَّه كان يقاتلُ من أجلِ حياتهِ، وأدركَ أنَّ من يقودُ هذا الجيش وضعَ نُصبَ عينهِ أخذَ لقبِ وليم. قاتلَ وليم بشراسةٍ أكبر كأنَّ هذهِ المناوشة ستحدد مستقبله كإيرل.

رأى وليم أنَّ نصفَ الخارجين عن القانونِ فقط يُقاتلون، أمَّا البقية فانشغلوا بنقلِ الدقيق، وقد تحولَ القتالُ الآن إلى تبادلٍ ثابتٍ للطعناتِ، وصدٍّ، وضربٍ، وتفادٍ. وكالجنودِ الذين يعلمون أنَّ إشارةِ الانسحابِ قريبةٌ بدأ الخارجون عن القانون يُقاتلون بحذرٍ، وبطريقةٍ دفاعيةٍ.

خلفَ صفِّ الخارجين عن القانونِ المقاتلين كانت بقيتهم تنقلُ آخرَ كيسِ دقيقٍ من المطحنةِ، وهنا بدأوا ينسحبون من بابِ المدخلِ الذي يُفضي إلى المنزلِ. أدركَ وليم أنَّه، ورغم ما حدثَ الآن، فإنَّ الخارجين عن القانون سيهربون بمعظمِ الدقيقِ، ولن يطول الوقتُ قبلَ أن تعرفَ المقاطعةُ بأكملها أنَّهم سرقوا وليمَ أمامَ عينيهِ، وسيتحولُ إلى أضحوكةٍ. غذَّت هذه الفكرةُ غضبهُ فانهالَ على خصمهِ بشراسةٍ ثمَّ، وبضربةٍ تقليدية، وجه له طعنةً في قلبهِ.

ولكن أحد الخارجين عن القانون، وبضربةِ حظٍ، طعنَ هيو في كتفهِ اليسرى فبات الأخيرُ عاجزاً عن متابعة القتالِ. عندَ المدخلِ لم يبقَ سوى خارجين عن القانون اثنين يعيقان تقدَّمَ الفرسان الثلاثة المتبقين. كان هذا بحدِّ ذاتهِ مُهيناً. وفي حركةٍ تفضحُ عجرفةً كبيرةً لوحَ أحدُ الخارجين عن القانونِ في اتجاهِ الآخر ثمَّ اختفى، أمَّا الرجلُ الآخر فتراجعَ إلى الوراءِ إلى داخلِ الغرفةِ الوحيدةِ في منزلِ الطحَّانِ.

لم يكن في الممرّ مساحةٌ كافيةٌ سوى لفارسٍ واحدٍ ليُقاتلَ الخارجَ عن القانونِ. تقدَّم وليم دافعاً بمنكبيهِ والتر وجرفيز جانباً. أرادَ أن يقاتلَ هذا الرجل بنفسهِ. وحالما اصطدم سيفاهما أدركَ وليم على الفورِ أنَّ هذا الرجل لم يكن فلَّاحاً مطروداً من أرضهِ بل مُقاتلاً عتيداً كوليم، وهنا ولأولِ مرَّةٍ نظرَ وليم إلى وجهِ الرجلِ، وصُدمَ صدمةً عظيمةً كادَ معها أن يُفلتَ سيفهُ، ويوقعهُ أرضاً.

لم يكن غريمهُ سوى ريتشارد من كينغزبريدج.

كان وجه ريتشارد يفورُ حقداً، ورأى وليم الندبةَ على أذنهِ المشوهةِ، ولكنه ارتعبَ من قوةِ حقدهِ أكثر مما ارتعبَ من سيفهِ المسلولِ. لطالما اعتقدَ وليم أنَّه حطَّمَ ريتشارد نهائياً عندما أصبحَ إيرلاً، ولكن ريتشارد عادَ الآن على رأسِ جيشٍ من الصعاليكِ وجعلَ من وليم أضحوكةً.

هجمَ ريتشارد على وليم بقوةٍ مُستغلاً حالةَ الصدمةَ التي كان فيها الأخير. تفادى وليم الضربةَ ثمَّ رفعَ سيفهُ، وصدَّ ضربةً أخرى، وتراجع إلى الوراءِ. تقدَّم ريتشارد أكثر، ولكن وليم كان محمياً جزئياً بالمدخلِ؛ ولذلك لم يتمكن من طعنهِ، ولكنه نجحَ في دفعِ وليم إلى الوراءِ إلى أن باتَ الأخيرُ يقفُ على أرضيةِ المطحنةِ، وريتشارد في المدخلِ. على أيِّ حالٍ اندفعَ كلٌّ

من والتر وجرفيز الآن باتجاهِ ريتشارد الذي، وتحتَ ضغطَ الرجالِ الثلاثةِ، تراجع إلى الوراء مجدداً. حالما تراجع ريتشارد عبرَ المدخلِ، وتفادى كلّاً من والتر وجرفيز باتَ وجهاً لوجهٍ مع وليم.

أدركَ وليم أنَّ ريتشارد في وضعٍ سيئ لأنَّه حالما استقرَّ وجدَ نفسهُ يُقاتلُ ثلاثةَ رجالٍ في آنٍ معاً، وهذا يعني أنَّه عندما يُصاب وليم بالتعبِ سيعطي مكانهُ لوالتر. يستحيلُ على ريتشارد أن يُقاتل الرجالَ الثلاثةَ إلى أجلٍ غير محدودٍ. كانت معركةً خاسرةً، وفكرَ وليم في نفسهِ أنَّه اليوم قد يتمكن من إنهاءِ الذُّلِ الذي لحقَ بهِ، بل قد يتمكن من قتلِ أقدمِ وألدِّ أعدائهِ.

لا بدَّ أنَّ ريتشارد كان يُفكرُ بالأمرِ ذاتهِ، وعلى الأغلب وصلَ إلى النتيجةِ ذاتها، ولكن لم يبدُ عليهِ أيُّ تعبٍ، أو إحباطٍ، بل ابتسم لوليم ابتسامة متوحشةً وجدها الأخيرُ مخيفةً ثمَّ اندفعَ ريتشارد باتجاهِ وليم بطعنةٍ طويلةٍ. تفادى وليم الطعنةَ، وتعثرَ فاندفعَ والتر للدفاعِ عن وليم من ضربةٍ قاضيةٍ ولكن بدلاً من أن يتابعَ ريتشارد القتالَ استدارَ على عقبيهِ، وهربَ.

نهضَ وليم، واصطدمَ والتر بهِ بينما كان جرفيز يحاول تجاوزهما. تطلَّبَ الأمر من ثلاثتهم وهلةً كي يبتعدوا عن بعضهم، ولكن في هذه اللحظةِ عبرَ ريتشارد الغرفةَ الصغيرةَ، وخرجَ وصفقَ البابَ وراءهُ. انطلقَ وليم في إثرهِ، وفتحَ البابَ. كان الخارجون عن القانون يهربون، وفي ضربةٍ مُذلّةٍ أخيرةٍ لوليم أخذوا جوادهُ وجيادَ فرسانهِ. عندما اندفعَ وليم خارجَ المنزلِ رأى ريتشارد على جوادهِ الحربي العظيم الذي تبلغ قيمتهُ فديةَ ملكٍ. من الواضح أنَّ رسنَ الجواد قد فُكَّ قبلاً، وصُدمَ وليم بشكلٍ مهينٍ عندما فكرَ أنَّها المرةُ الثانية التي يسرقُ فيها ريتشارد جوادهُ الحربي. همزَ ريتشارد خاصرتي الجوادِ فوقفَ الحيوان على قائمتيهِ الخلفيتين، فهو لم يكن لطيفاً مع الغرباءِ، ولكن ريتشارد فارسٌ ماهرٌ؛ ولذلكَ نجحَ في البقاءِ على صهوتهِ ثمَّ شدَّ الرسنَ، وأعادَ الجواد إلى وضعهِ الطبيعي. في تلكَ اللحظةِ اندفعَ وليم بسرعةٍ ليطعنَ ريتشارد بسيفه إلَّا أنَّ الجوادَ كان يشبُّ، ولذلكَ فشلَ وليم في إصابةِ ريتشارد واستقرت ضربتهُ في السرجِ الخشبي، ثمَّ انطلقَ الجوادِ مندفعاً بسرعةٍ عبرِ شارعِ القريةِ في إثرِ بقيةِ الخارجين عن القانونِ.

راقبهم وليم يبتعدون بغضبٍ كبيرٍ.

وفكرَ بما قالوه عن الإيرل الشرعي.

استدارَ وليم، ورأى والتر وجرفيز يقفان وراءهُ. كان هيو ولويس مصابين، ولكنه لم يعلم مدى سوءِ إصابتهما، أمَّا غيوم فقد مات، ولطخت دماؤهُ سترةَ وليم. أُهين وليم إهانةً عظيمةً، وبالكادِ سيتمكنُ من رفعِ رأسهِ بعدَ الآن.

لحسنِ الحظِّ كان سكانُ القريةِ قد هربوا، ولم يبقوا ليروا غضبَ ولبم، والطحَّانُ وزوجتهُ اختفيا أيضاً. أخذَ الخارجون عن القانونِ جميعَ جيادِ الفرسان تاركين وراءهم العربتين والثيران.

نظرَ وليم إلى والتر وقال: «هل رأيته؟ آخر واحدٍ؟»

«أجل».

كان والتر قد اعتاد على التحدثِ بإيجازٍ عندما يكون سيَّده غاضباً.

قال وليم: «إنَّه ريتشارد من كينغزبريدج».

أومأ والتر برأسهِ.

«وكانوا ينادونهُ بالإيرل الشرعي»، أنهى وليم كلامهُ.

لم يقل والتر شيئاً.

عادَ وليم إلى المنزلِ، ودخلَ إلى المطحنةِ.

وجدَ وليم هيو جالساً يضغطُ بيدهِ اليسرى على كتفهِ اليمنى، وبدا شاحباً.

قال وليم: «كيفَ تشعر؟»

«الجرحُ غير مؤلم»، قال هيو وتابع: «من أولئكَ الناس؟»

«خارجون عن القانونِ»، أجابَ وليم بإيجازٍ ثمَّ نظرَ من حولهِ، ورأى سبعة أو ثمانيةَ خارجين عن القانون مطروحين أرضاً موتى أو جرحى، ثمَّ لمحَ لويس على ظهرهِ بعينين مفتوحتين. في البدايةِ اعتقدَ وليم أنَّ لويس ميتٌ، ولكن الرجلَ رمشَ بعينيهِ.

قال وليم: «لويس».

رفعَ لويس رأسهُ، ولكنه بدا مضطرباً فلم يكن قد استعاد رشدهُ بعد.

قال وليم: «هيو، ساعد لويس على الصعودِ على إحدى العرباتِ، والتر احملَ جثةَ غيوم إلى العربةِ الأخرى»، ثمَّ خرجَ وتركهما ليقوما بمهمتهما.

قد لا يمتلكُ الفلاحون في القريةِ جياداً، ولكن الطحَّان يمتلك جواداً

أرقش قصيرَ القوائمِ. كان الجوادُ يرعى العشبَ الخفيفَ عندَ ضفةِ النهرِ. عثرَ وليم على سرجِ جوادِ الطَّحان، ووضعهُ على الحيوانِ.

ولم يطلِ الوقتُ إلى أن غادرَ وليم قريةَ كاوفورد على جوادِ الطحَّان، ووالتر وجرفيز يقودان العربتين اللتين تجرهما الثيران.

لم تنجح الرحلةُ إلى قلعةِ الأسقفِ ويلارن في التخفيف من حدَّةِ غضبهِ، بل كلَّما أمعنَ التفكيرَ بما حدثَ تعاظمَ غضبهُ أكثر. يكفيهِ سوءاً أن يتحداه الخارجون عن القانون، ولكن أن يكون عدوهُ القديم ريتشارد قائداً لهم؛ فقد كان هذا أسوأ بكثير، ولم يكن بوسعهِ احتمالُ فكرةِ أنَّهم نادوه بالإيرل الشرعي. إن لم يُوضع حدٌّ لهم قريباً جداً فسيستخدمهم ريتشارد في هجومٍ مباشرٍ عليهِ. بالطبعِ لن يكون استحواذ ريتشارد على مكانةِ وليم بهذهِ الطريقةِ عملاً قانونياً، ولكن انتاب وليم شعورٌ أنَّه لو قدَّمَ شكوى بخصوصِ هجومٍ غير قانوني فلن يلقَى تعاطفاً، بل وحقيقةُ أنَّه تعرَّضَ إلى كمينٍ وهُزمَ وسُرقَ من قبلِ الخارجين عن القانون ستجعلُ المقاطعةَ بأكملها، وخلال وقتٍ قصيرٍ، تضحكُ عليه، وهذا أسوأ ما في المشكلةِ. ها هو وليم، وعلى حينِ غرَّةٍ، يشعرُ أنَّ قبضتهُ على مكانتهِ كإيرلٍ مهددةٌ، وبشكلٍ حقيقي.

كان عليهِ قتلُ ريتشارد، ولكن المشكلة هي كيفيةُ إيجادهِ. فكرَ في المشكلةِ على طولِ الطريقِ إلى قلعةِ الأسقفِ وعندما وصلَ أدركَ أنَّ الحلَّ بيدِ الأسقفِ ويلارن.

***

دخلوا إلى قلعةِ الأسقفِ في موكبٍ مُضحكٍ كمواكب أيامِ الأسواقِ. كان الإيرل على ظهرِ جوادٍ أرقشٍ وقصير القوائم، وفارساهُ يقودانَ العربةَ. ألقى وليم أوامر صارمةً على رجالِ الأسقفِ، وأرسلَ أحدهم لإحضارِ المُعالجِ من أجلِ هيو ولويس، وآخر لإحضارِ قسٍ كي يُصلي على روحِ غيوم، أمَّا جرفيز ووالتر فقد دخلا إلى المطبخِ لتناولِ الجعةِ، ووليم إلى القلعةِ، وأدخلوهُ على الفورِ إلى القسمِ الخاص من القلعةِ. لطالما كرهَ وليم طلبَ أيِّ شيءٍ من ويلارن، ولكنه بحاجةِ الآن إلى مساعدةِ ويلارن لإيجادِ ريتشارد.

وجدَ وليم الأسقفَ يقرأ مخطوطةَ حساباتٍ، وكانت قائمةً طويلةً جداً

من الأرقامِ. رفعَ ويلارن نظرهُ، ورأى الغضبَ على وجهِ وليم ثمَّ وبلهجةٍ عابثةٍ لطالما أغضبت وليم سألهُ: «ما الذي حدثَ؟»

صرَّ وليم على أسنانهِ وأجاب: «عرفتُ هوية قائدِ أولئكَ الشياطين الخارجين عن القانون».

نظرَ ويلارن إلى وليم في ذهولٍ.

«إنَّه ريتشارد من كينغزبريدج»، تابع وليم.

«آه»، قال ويلارن، وأومأ برأسهِ في تفهمٍ ثمَّ أضاف: «بالطبعِ فهذا أمرٌ منطقي».

«هذا أمرٌ خطيرٌ»، قال وليم في غضبٍ. لطالما كره وليم طريقةَ ويلارن الهادئة والتأملية في التعاملِ مع مثلِ هذهِ الأمورِ. «إنَّهم ينادونهُ بالإيرل الشرعي»، قال وليم، ورفعَ إصبعاً في وجهِ ويلارن ثمَّ قال: «وأنتَ بالتحديدِ لا تريدُ لهذهِ العائلةِ أن تستحوذَ على شايرنغ مجدداً؛ فهم يكرهونكَ، وهم أصدقاء عدوك القديم رئيسِ الديرِ فيليب».

«حسناً فلتهدأ»، قال ويلارن بتعالٍ. «أنتَ على حقٍ. لا يجب أن نسمح لريتشارد بالسيطرةِ على شايرنغ».

جلسَ وليم، وقد بدأ يشعر الآن أنَّ كاملَ جسدِهِ يؤلمهُ. بات مؤخراً يشعرُ بتبعاتِ القتالِ بطريقةٍ لم يشعر بها قبلاً فقد كانت عضلاتهُ تؤلمهُ، وتتقرحُ يداه، وتظهرُ رضوضٌ في الأماكن التي يسقطُ عليها. فكّرَ في نفسهِ: «أنا في السابعةِ والثلاثين فقط، فهل بدأت أشيخ؟» ثمَّ قال وليم: «يجب أن أقتلَ ريتشارد. وحالما أقضي عليه سيعود الخارجون عن القانون إلى ما كانوا عليه، مجرد غوغاء بائسين».

«أوافقكَ».

«إنَّ قتلهُ سهلٌ، ولكن المشكلة في إيجادهِ. يمكنكَ أنتَ مساعدتي في هذه المهمةِ».

فركَ ويلارن طرفَ أنفهِ المستدقِّ بإبهامهِ ثمَّ قال: «لا يسعفني تفكيري بطريقةٍ لمساعدتكَ».

«أصغِ إلي. إن كانوا مُنظمين فهم على الأغلبِ يمتلكون معقلاً في مكانٍ ما».

«لا أفهم ما الذي تعنيهِ بكلامكِ. إنَّهم في الغابةِ»، قال ويلارن.

«عموماً، لن يكون إيجاد الخارجين عن القانونِ في الغابةِ بالأمرِ السهلِ لأنَّهم يعيشون متفرقين، ومعظمهم لا يقضي ليلتين متتاليتين في مكانٍ واحدٍ. إنَّهم يُشعلون النارَ في أيِّ مكانٍ، وينامون على الأشجارِ، ولكن إن أردتَ أن تُنظمَ مثلَ أولئكَ الناسِ سيتوجب عليكَ جمعهم في مكانٍ ما، ويجب أن يكون هذا المكان معقلاً دائماً».

«إذاً علينا أن نعرفَ مكانَ اختباءِ ريتشارد».

«تماماً».

«وكيفَ تقترحُ أن نقومَ بهذا؟»

«هنا يأتي دوركَ».

نظرَ ويلارن إلى وليم في ارتيابٍ.

تابع وليم: «أراهنكَ أنَّ نصفَ سكانِ كينغزبريدج يعرفون مكانهُ».

«ولكن لمَ قد يخبرنا سكانُ كينغزبريدج بمكانهِ، وجميعهم في الأصل يكرهوننا».

«ليسَ الجميع»، قال وليم. «ليسَ كلهم».

***

لطالما اعتبرت سالي عيدَ الميلادِ عيداً رائعاً.

كانَ معظمُ طعامِ عيدِ الميلادِ المميزِ حُلواً: خُبز الزنجبيلِ المخبوز على شكلِ دُمى، وعصيدة القمحِ مع البيضِ والعسلِ، والتوت، ونبيذ الإجاصِ الحلو الذي يجعلها تضحكُ كثيراً، وطبق أمعاءِ الخنزيرِ، أو الغزلانِ، أو الأحشاء التي تُسلق لساعاتٍ ثمَّ تُخبز في فطيرةٍ حلوةٍ، ورغم أنَّهم هذا العام لم يصنعوا الكثير من هذهِ الأطباقِ بسببِ المجاعةِ فإنَّ سالي استمتعت بالعيدِ حقاً.

أحبَّت تزيين المنزلِ بنَباتِ الإيكلس، ونبتةِ التقبيلِ، وكانت القُبل تضُحكها أكثر من نبيذِ الإجاصِ. عادةً يجلبُ أول رجلٍ بشعرٍ أسود يدخلُ البيتَ الحظَّ معه، ولهذا تعينَ على والدِ سالي البقاء في المنزلِ طوالَ صباحِ عيدِ الميلادِ لأنَّ شعرهُ الأصهب قد يجلبُ الحظَّ السيئ للناسِ. أحبَّت سالي أيضاً مسرحيةَ عيدِ الميلادِ في الكنيسةِ، وأحبَّت مراقبةَ الرهبانِ في ثيابِ

الحكماءِ، والملائكةِ، والرعاةِ، وكانت تغرقُ في نوبةِ ضحكٍ عندما ترى كلّ الأصنامِ تنهار مع وصولِ العائلةِ المقدسةِ إلى أرضِ مصر.

غيرَ أنَّ أفضلَ جزءٍ في الاحتفالات بالنسبةِ إليها كان الأسقف الفتى. في اليومِ الثالثِ من عيدِ الميلادِ يُلبس الرهبانُ أصغرَ راهبٍ مبتدئٍ ثيابَ أسقفٍ، ويتعين على الجميعِ إطاعة أوامرِهِ.

احتشدَ معظمُ سكانِ البلدةِ في ساحةِ الديرِ ينتظرون خروجَ الأسقفِ الفتى. كان الفتى دوماً ما يُكلف المواطنين الأكبر عمراً والأكثر وقاراً بمهامّ حقيرةٍ كإحضارِ الحطبِ، أو تنظيفِ حظائرِ الخنازيرِ، ويُغدقُ جداً باحترامِهِ أو بإهانتِهِ لأولئكَ الذين يكونون في مواقعِ سُلطةٍ. في العامِ الماضي أمرَ الفتى الأسقف أمينَ الذخائرِ بنتفِ دجاجةٍ، وكانت النتيجةُ مضحكةً جداً لأنّ أمينَ الذخائر لا يعرف كيفَ ينتفُ دجاجةً، وانتهى الأمرُ بالريشِ متطايراً في كلِّ مكانٍ.

هذا العام خرجَ الفتى الأسقف برزانةٍ كبيرةٍ. كان فتى في الثانية عشرة بابتسامةٍ شقيةٍ، وقد ارتدى ثوباً حريرياً قرمزي اللونِ، وحملَ صولجاناً خشبياً. حملهُ راهبان على كتفيهما، ووراءهما سارَ بقيةُ الرهبانِ. صفّقَ الجميعُ وهللوا. كان أولَ شيءٍ فعلهُ الفتى هو أن أشارَ إلى رئيسِ الديرِ فيليب وقال له: «أيّها الفتى! اذهب إلى الإسطبلِ ومشّط الحمار!»

غرقَ الجميعُ في الضحكِ لأنَّ الحمار العجوز شكسٌ، ولم يُمشط من قبل، وقال رئيسُ الديرِ فيليب بابتسامةٍ بشوشةٍ: «حاضر يا سيدي الأسقف»، ثمَّ انطلقَ للقيامِ بمهمتهِ.

«إلى الأمامِ»، أمرَ الأسقفُ الفتى فتحرَّكَ الموكبُ خارجَ ساحةِ الديرِ، ولحقَ بهِ سكانُ البلدةِ. كان بعضُ الناسِ قد اختبأوا، وأغلقوا أبوابهم خوفاً من أن يطلبَ منهم الأسقف الفتى القيام بمهامّ مزعجةٍ، ولكنهم فوتوا على أنفسهم كلَّ المتعةِ. كانت عائلةُ سالي بأكملها حاضرةً: والدتها ووالدها، وشقيقها تومي، وعمتها مارثا بل حتَّى خالها ريتشارد الذي عادَ فجأةً الليلةَ الماضيةَ.

وكما تقتضي التقاليد قادهم الأسقفُ الفتى أولاً إلى الحانةِ، وهناكَ طلبَ جعةً مجانيةً لهُ وللرهبانِ المبتدئين، وقدَّم له صاحب الحانةِ الجعةَ بكلِّ لباقةٍ.

وجدت سالي نفسها جالسةً على مقعدٍ بالقربِ من أحدِ الرهبانِ الكبارِ،

الأخ ريميجوس. كان ريميجوس رجلاً طويلاً وغير ودودٍ، ولم تتحدث سالي معهُ قبلاً، ولكن ريميجوس ابتسم لها وقال: «إنَّه لأمرٌ لطيفٌ أن يعود خالكِ إلى المنزلِ لقضاءِ عيدِ الميلادِ».

قالت سالي: «قدَّم لي قطةً خشبيةً صغيرةً نحتها بسكينهِ».

«هذا لطيفٌ، أتعتقدين أنَّه سيبقى طويلاً؟»

عبست سالي وقالت: «لا أعلم».

«أعتقدُ أنَّه سيغادرُ قريباً».

«أجل، إنَّه يعيشُ في الغابةِ الآن».

«أتعلمين أينَ؟»

«أجل، في مكانٍ يُدعى مقلعُ سالي. كاسمي»، أجابت سالي، وضحكت.

«إذاً، يعيش هناك»، قال الأخُ ريميجوس وأضاف: «هذا أمرٌ مثيرٌ للاهتمامِ».

عندما أنهى الجميعُ شرابهم قال الأسقفُ الفتى: «والآن سيقومُ أمينُ الذخائرِ آندرو والأخُ ريميجوس بغسيلِ الثيابِ بالنيابةِ عن الأرملةِ بول».

أطلقت سالي ضحكةً عاليةً، وصفقت بيديها. كانت الأرملةُ بول امرأةً ممتلئةً بوجهٍ موردٍ، وتعملُ غاسلة ثيابٍ. لا بدَّ أن الراهبين النيّقين سيكرهان غسلَ الثيابِ الداخليةِ والجواربَ القذرةَ لأناسٍ لا يغيّرونها إلَّا مرَّةً كلّ ستةِ أشهرٍ.

غادرَ الحشدُ الحانةَ، وحملوا الفتى الأسقفَ في موكبٍ إلى منزلِ الأرملةِ بول الذي يقعُ عندَ رصيفِ النهرِ. انخرطت الأرملةُ في نوبةِ ضحكٍ احمّرّ معها وجهها أكثر عندما أخبروها بمن سيقوم بأعمالِ الغسيلِ عنها.

حملَ آندرو وريميجوس السلَّةَ الثقيلةَ المليئةَ بالثيابِ القذرةِ من المنزلِ إلى ضفةِ النهرِ. فتحَ آندرو السلَّةَ أمام ريميجوس، وقد ارتسمَ على وجههِ تعبير يشي بتقززٍ كبيرٍ سحبَ أولَ قطعةٍ من السّلّةِ. وهنا صاحت امرأةٌ شابةٌ بحيويةٍ: «حاذر أيّها الأخُ ريميجوس وأنت تغسل فهذا قميصي الداخلي!» احمرَّ ريميجوس خجلاً، وضحكَ الجميعُ. تظاهرَ الراهبان اللذان كانا في منتصفِ العمرِ بالشجاعةِ، وبدآ بغسلِ الثيابِ في مياهِ النهرِ بينما أخذَ سكانُ البلدةِ يعطونهما النصائحِ، ويصيحون بكلماتِ التشجيعِ. رأت سالي أنَّ

آندرو ضاقَ ذرعاً من الأمرِ، ولكن على وجهِ ريميجوس ارتسمَ تعبيرٌ يشي بالرضا.

***

في شايرنغ جلبوا كرةً حديديةً ضخمةً مُعلَّقةً بسلسلةٍ إلى سقالةٍ خشبيةٍ كأنشوطةِ مشنقةٍ. كان هناك أيضاً حبلٌ مربوطٌ إلى الكرةِ، وهذا الحبلُ ملفوفٌ على بكرةٍ على الدعامة العموديةِ للسقالةِ، ويتدلّى إلى الأسفلِ حيثُ أمسكهُ عاملان. عندما سحبَ العاملان الحبلَ ارتفعت الكرةُ إلى الأعلى وإلى الوراءِ إلى أن لامست البكرةَ، وباتت السلسلةُ على امتدادِ ذراعِ السقالةِ الأفقي.

أتى معظمُ سكانِ شايرنغ لمشاهدةِ ما يحدث.

أفلتَ الرجلان الحبلَ فسقطت الكرةُ الحديديةُ، وتأرجحت، وضربت جدارَ الكنيسةِ ضربةً رهيبةً اهتزَّ معها الجدارُ، وشعرَ وليم باهتزازِ الأرضِ تحتَ قدميهِ. فكّرَ في نفسهِ كيفَ سيكون الأمرُ لو أنّه علّقَ ريتشارد على الجدارِ في المكانِ الذي ضربتهُ الكرةُ للتو. لا بدَّ أنّه سيُسحقُ كحشرةٍ.

جذبَ العاملان الحبلَ مجدداً، وأدركَ وليم أنّه حبسَ أنفاسهُ عندما وصلت الكرةُ إلى أعلى البكرةِ. أفلتَ الرجلان الحبلَ، وتأرجحت الكرةُ، وهذهِ المرة أحدثت شِرخاً في الجدارِ الحجري، وصفّقَ الحاضرون.

كانت آليةً عبقريةً.

سُرَّ وليم لأنَّ العملَ في الموقعِ حيثُ سيبني الكنيسةَ الجديدةَ مستمرٌ، إلّا أنَّ اليوم شغلت بالهُ مسائل أكثرُ أهميةً. نظرَ حولَهُ باحثاً عن الأسقفِ ويلارن، ولمحهُ بجانبِ البنّاءِ آلفريد. اقتربَ وليم منهما، وسحبَ الأسقفَ جانباً ثمَّ قال: «هل وصلَ الرجلُ؟»

«ربما»، قال ويلارن وتابع: «رافقني إلى منزلي».

عبرا ساحةَ السوقِ وقال ويلارن: «هل أحضرت جيشكَ؟»

«بالطبعِ. مئتا رجلٍ وهم على أهبةِ الاستعدادِ في الغابةِ خارجِ البلدةِ».

عندما دخلا إلى منزلِ ويلارن شمَّ وليم رائحةَ لحمِ خنزيرٍ مسلوقٍ فسالَ لعابهُ على الرغمِ من أنّه كان على عجلةٍ من أمرهِ. حالياً معظمُ الناسِ يقتصدون في الطعامِ، ولكن بالنسبةِ إلى ويلارن فقد كانت مسألةُ مبدأ ألا

يسمح للمجاعةِ بإجبارهِ على تغييرِ أسلوبِ حياتهِ. ورغمَ أنَّ الأسقفَ لا يأكلُ كثيراً غيرَ أنَّه أرادَ للجميعِ أن يعلمَ أنَّه كان غنياً وقوياً جداً على التأثر ببضعةِ مواسمِ حصادٍ سيئةٍ.

كان منزلُ ويلارن منزلاً ريفياً بواجهةٍ تقليديةٍ ضيقةٍ مع قاعةٍ في الأمامِ، ومطبخٍ خلفهُ، وحديقةٍ خلفَ المنزلِ مع مرحاضٍ، وخليةِ نحلٍ، وزريبةِ خنازير. شعرَ وليم بالراحةِ عندما رأى الراهبَ بانتظارهما في القاعةِ.

قال ويلارن: «طابَ يومكَ أيّها الأخُ ريميجوس».

قال ريميجوس: «طابَ يومكَ يا سيدي الأسقف. طابَ يومكَ أيّها اللورد وليم».

نظرَ وليم بحماسةٍ إلى الراهبِ، ولاحظَ أنَّه رجلٌ متوترٌ بوجهٍ متغطرسٍ، وعينين زرقاوين بارزتين. كان وجههُ مألوفاً بطريقةٍ غريبةٍ فقد رآه وليم قبلاً وسطَ الرهبان الحليقي الرأسِ خلالَ القداسِ في كاتدرائية كينغزبريدج. يعلمُ وليم منذُ سنواتٍ طويلةٍ أنَّ ريميجوس جاسوسُ ويلارن في معسكرِ رئيسِ الديرِ فيليب، ولكنها المرَّة الأولى التي يتحدثُ فيها إلى الرجلِ.

«هل حصلتَ على المعلوماتِ التي طلبناها؟» سأل وليم.

«ربما»، أجابَ ريميجوس.

خلعَ ويلارن عباءتهُ ذاتِ الحوافِ الفرائيةِ، وتوجهَ إلى الموقدِ لتدفئةِ يديهِ. أحضرَ خادمٌ نبيذَ ثمارِ الخُمان[1] في كؤوسٍ فضيَّةٍ. أخذَ وليم كأساً وشربهُ دفعةً واحدةً وهو ينتظرُ بنفاد صبرٍ مغادرة الخادمِ.

تجرَّعَ ويلارن من كأسهِ بعضَ النبيذِ، ورمقَ ريميجوس بنظرةٍ حادةٍ. حالما غادرَ الخادمُ قال ويلارن للراهبِ: «ما هو العذرُ الذي قدمتهُ لمغادرةِ الديرِ؟»

«لم أقدم عذراً»، أجابَ ريميجوس.

نظرَ إليهِ ويلارن رافعاً حاجبيهِ في عجبٍ.

«لن أعودَ إلى الديرِ»، قال ريميجوس في تحدٍ.

«ولماذا؟»

أخذَ ريميجوس نفساً عميقاً وأجاب: «أنتَ تبني كاتدرائيةً هنا».

1- الخُمان نبات برّيّ يشبه التوت البرّي وله فوائد طبيَّة. (المترجمة)

«إنَّها مجرَّد كنيسةٍ».
«ستكون كبيرةً جداً، وأنتَ تخططُ لجعلها كاتدرائيةً في نهايةِ المطافِ».
تردد ويلارن قبلَ أن يجيب ثمَّ قال: «فلنفرض جدلاً أنَّكَ على حقٍ».
«لا بدَّ للكاتدرائيةِ من مجلسٍ يديرها، إمَّا مجلسُ رهبانٍ أو كهنةٍ».
«إذاً؟»
«أريد أن أكونَ رئيسَ الديرِ».
فكرَ وليم أنَّه ما قاله ريميجوس منطقي.
قال ويلارن بنبرةٍ لاذعةٍ: «أنتَ واثقٌ جداً من أنَّك ستحصلُ على هذا المنصبِ إلى درجةِ أنَّكَ تركت كينغزبريدج دونَ إذنِ فيليب أو حتّى عذرٍ».
بدا ريميجوس متضايقاً، وتعاطفَ معهُ وليم فمزاجُ ويلارن الهازئ كفيلٌ ببثِ القلقِ في أيِّ أحدٍ. «آملُ ألا أكون قد بالغت في ثقتي» قال ريميجوس.
«قد لا تكون إن أرشدتنا إلى مكانِ ريتشارد».
«أنا أعلمُ مكانهُ...»
قاطعهُ وليم بحماسةٍ قائلاً: «رجلٌ صالحٌ! أين هو؟»
لزمَ ريميجوس الصمتَ، ونظرَ إلى ويلارن.
قال وليم: «هيا يا ويلارن، بحقِّ الرَّبِّ أعطِ الرجلَ المنصبَ!»
ولكن ويلارن بدا متردداً. يعلمُ وليم أنَّ ويلارن يكره أن يُكرههُ أحدٌ على فعلِ شيءٍ، ولكن ويلارن قال أخيراً: «حسناً، ستكون رئيسَ الديرِ».
«والآن، أين ريتشارد؟»
تابعَ ريميجوس التحديق إلى ويلارن وقال: «بدءاً من اليوم؟»
«بدءاً من اليومِ»، أجاب ويلارن.
التفتَ ريميجوس الآن إلى وليم وقال: «الديرُ ليسَ مجرَّد كنيسةٍ ومهجعٍ بل يحتاجُ إلى الأراضي والمزارعِ والكنائسِ التي تعود عليهِ بضرائبِ العشرِ».
«أخبرني عن مكانِ ريتشارد، وسأعطيكَ خمسَ قرى مع كنائس أبرشيتها لتنطلقَ في عملكَ»، قال وليم.
«ستحتاجُ المؤسسةُ إلى عقدٍ لائقٍ».
قال ويلارن: «لا تقلق ستحصلُ عليهِ».

قال وليم: «هيا يا رجل أخبرني. ينتظرني جيشٌ خارجَ البلدةِ. أين يقعُ مخبأ ريتشارد؟»

«في مكانٍ يُدعى مقلع سالي على طريقِ وينشستر».

«أعرفهُ»، قال وليم وكبحَ نفسهُ كيلا يهللَ في ظفرٍ. «إنَّه مقلعٌ مهجورٌ، وما من أحدٍ يذهب إليهِ».

«أتذكرهُ»، قال ويلارن وتابع: «فهو لم يُستخدم منذُ سنواتٍ. إنَّه مخبأ جيدٌ، ولن تعرفَ مكانهِ ما لم تكن تقصدهُ، وتبحثُ عنه حقاً».

«ولكنه فخٌ أيضاً»، قال وليم في سعادةٍ وحشيةٍ. «إنَّ جدرانهُ شديدةُ الانحدارِ من ثلاثِ جهاتٍ، ولذلك لن يكون بوسعِ أحدٍ الهروبَ. لن آخذَ أيَّ أسرى أيضاً»، وتعاظمت حماستهُ عندما تخيلَ المشهدَ. «سأذبحهم جميعاً كما يُذبح الدجاجُ في الأقنانِ».

نظرَ ويلارن وريميجوس إلى وليم بطريقةٍ غريبةٍ. «أتشعرُ بالغثيانِ أيّها الأخ ريميجوس؟» قال وليم في إزدراءٍ. «هل احتمال وقوع مجزرةٍ تصيبكَ بالغثيان يا سيدي الأسقف؟» وعرفَ وليم بالنظرِ إلى وجهيهما أنَّه قال الحقيقةَ. رغمَ أنَّ هذين الرجلين المتدينين بارعان في نصبِ المكائدِ، فإنَّه عندما يتطلبُ الأمرُ سفكَ الدماءِ سيحتاجان إلى رجالٍ من أمثالِ وليم.

«أعلمُ أنكما ستُصليان لي»، قال وليم باستهزاءٍ وغادرَ.

في الخارجِ كان وليم قد ربطَ جوادهُ الأسود الجديد. لم يكن هذا الجواد نظيراً لجوادهِ الحربي القديم الذي سرقه منه ريتشارد. امتطى وليم الجوادَ، وغادرَ البلدة. على الطريقِ كبحَ جماح حماستهِ، وفكرَ في هدوءٍ بالتكتيكاتِ التي سيستخدمها.

تساءل في نفسهِ عن عددِ الخارجين عن القانون في مقلعِ سالي. كانوا يقومون بغاراتٍ على صهواتِ الجيادِ، وعددهم في كلِّ غارةٍ يفوقُ المئةَ. لا بدَّ أن عددهم الإجمالي مئتان على أقلِّ تقديرٍ، وقد يصلُ إلى خمسمئةٍ وهذا يعني أنهم سيفوقون جيشهُ عدداً، ولهذا يجب أن يستغلَ نقاطَ الأفضليةِ لديهِ، وإحداها استخدامُ تكتيكِ المفاجأةِ، أمَّا الأخرى فهي الأسلحة. معظمُ الخارجين عن القانونِ يستخدمون الهراواتِ، والمطارق، والفؤوس في أفضلِ الأحوالِ، ولكنهم لا يملكون دروعاً. يمتلكُ الخارجون عن القانون

بضعةَ جيادٍ، ولكنها على الأغلبِ لن تكون مُسرجةً وجاهزةً في اللحظةِ التي يهاجمُ فيها وليم، علاوةً على هذا سيُرسلُ وليم بضعةَ رماةِ سهامٍ أعلى التلّ ليُطلقوا السهامَ على الموجودين داخلَ المقلعِ قبلَ بدءِ الهجومِ الرئيسي.

أمَّا الجزء الأهم في الخطة فكان منعُ أيّ خارجٍ عن القانونِ من الهربِ، ليسَ قبل أن يتأكدَ وليم من أنَّ ريتشارد أُسرَ أو قُتلَ، وقررَ أن يُكلفَ مجموعةً من أخلصِ رجالِهِ بملازمةِ مؤخرةَ الجيشِ، والفتكِ بأيِّ مخادعٍ يحاول الفرارَ.

انتظرَ والتر برفقةِ الفرسانِ والجنودِ في المكانِ الذي تركهم فيهِ وليم منذُ ساعتين. كان الرجالُ متحمسين، ومعنوياتهم مرتفعةً فقد توقعوا معركةً رابحةً، وبعدَ برهةٍ انطلقوا على طريقِ وينشستر.

سارَ والتر إلى جانبِ وليم من دونِ أن يتفوه بكلمةٍ. كان التزامُ الصمتِ من أعظمِ سماتِ والتر. لطالما وجدَ وليم أنَّ معظمَ الناسِ لا يكفون عن مخاطبتهِ حتَّى عندما لا يكون لديهم ما يقولونهُ، وربما كانوا يقومون بهذا بسببِ توترهم في حضرتهِ. احترم والتر وليم، ولم يكن يتوتر في حضرتهِ فقد كانا بمنزلة الصديقين القديمين.

شعرَ وليم بمزيجٍ أليفٍ من الترقبِ والحماسةِ والخوفِ. كان القتال الشيءَ الوحيدَ الذي يتقنهُ، وفي كلِّ مرَّةٍ يقومُ بهِ يُخاطرُ بحياتهِ، غير أنَّ هذهِ الغارةَ مميزةٌ؛ فاليوم ستتسنى له فرصةُ القضاءِ على الرجلِ الذي لازمهُ كشوكةٍ في خاصرتهِ لخمسة عشرَ عاماً.

عندَ الظهرِ توقفوا في قريةٍ كبيرةٍ كفاية ليكون فيها حانة. اشترى وليم للرجالِ خبزاً وجعةً، وقدموا الماءَ للجيادِ، وقبلَ أن يتحركوا مجدداً قدَّم تعليماته إلى الرجالِ.

بعدَ أن قطعوا بضعةَ أميالٍ أخذوا طريقاً جانبياً يتفرعُ عن طريقِ وينشستر. كان الطريقُ مخفياً، ولم يكن وليم ليلحظهُ لو لم يكن يبحثُ عنهُ. تمكنَ وليم من تقفيهِ بالنظرِ إلى النباتاتِ فقد كان الطريق أجرد وبعرضِ أربع، أو خمس ياردات، ومن دونِ أشجارٍ بالغةٍ.

أرسلَ وليم رماةَ السهامِ في المقدمةِ ليسبقوهم إلى الموقعِ، بينما تلكأ هو وبقيةُ الرجالِ وراءَ الرماةِ بقليلٍ. كان نهاراً صافياً من نهاراتِ شهرِ كانون الثاني/ يناير، وبالكادِ حجبت الأشجارُ الجرداء نور الشمسِ الضعيف. لم

يأتِ وليم إلى المقلع منذُ سنواتٍ، ولذلك لم يعلم بالضبطِ كم تبقى أمامهُ كي يصلَ إليهِ. على أيّ حالٍ، وحالما باتوا على بُعدِ ميل أو أكثر بقليلٍ عن الطريقِ لاحظَ وليم أن النباتات مسحوقةً، والأغصان مكسورةً، والوحل تحولَ إلى مخيضٍ، وهذا يعني أنَّ الطريقَ أُستخدمَ مؤخراً. سُرَّ كثيراً فهذا يعني أن ما أخبرهُ به ريميجوس صحيحٌ.

شعرَ بتوترٍ كتوترِ وترِ قوسٍ عندما أصبحت العلائمُ أكثرَ وضوحاً، ورأى نباتاتٍ سويت بالأرضِ، وفضلاتِ جيادٍ وبشر. يبدو أنَّ الخارجين عن القانون لم يحاولوا قط إخفاءَ آثارهم هنا، وبات وليم مقتنعاً الآن أنه سيجدهم. كان الخارجون عن القانون هنا، والمعركةُ على وشكِ البدءِ.

حالما أدركَ وليم أنَّ المعقلَ باتَ قريباً أصاخ السمعَ جيداً ففي أيِّ لحظةٍ سيبدأ رماةُ السهامِ بالرمي، وستعلو أصواتُ الصياحِ، واللعنات، وصرخات الألمِ، وصهيل الجيادِ المرتعبةِ.

قادهم الطريقُ إلى فسحةٍ خاليةٍ من الشجرِ، ورأى وليم أمامهُ، وعلى بُعدِ مئتي ياردةٍ، مدخلَ مقلع سالي، ولكنه لم يسمع أيَّ ضجيجٍ. أدركَ أنَّ هناك خطباً ما فرماةُ السهامِ لم يرموا، وشعرَ بقشعريرةِ خوفٍ تسري في أوصالهِ. ما الذي يحدثُ؟ هل تعرضَ رماةُ السهامِ إلى كمين، وقُتلوا على الفورِ من قبلِ الحرسِ؟ بالطبعِ لن يكون جميعهم قد قُتلَ.

لم يكن لديهِ وقتٌ للتفكيرِ في مثلِ هذهِ الأسئلةِ فقد كان على وشكِ الإطباقِ على معقلِ الخارجين عن القانونِ. همزَ جوادهُ ليُسرعَ، وحذا رجالهُ حذوهُ. اندفعَ الجميعُ كالرعدِ باتجاهِ المخبأ، وتبخرَ خوفُ وليم مع نشوةِ الهجومِ.

كان الطريقُ إلى داخلِ المقلعِ أشبه بوادٍ صغيرٍ ملتو، ولذلك لم يتمكن وليم من رؤيةِ ما بداخلِ المقلعِ وهو يقتربُ منه. نظرَ إلى الأعلى، ورأى بعضَ الرماةِ يقفون أعلى الجرفِ العالي ينظرون إلى الأسفلِ، وتساءل وليم في نفسهِ عن سببِ عدمِ رميهم للسهامِ، وهنا انتابهُ حدسٌ بقُربِ كارثةٍ، وكان سيستدير ويعود لو لم تكن الجياد مندفعةً في وضعيةِ الهجومِ، ولا يمكن إيقافها. وبسيفهِ في يمينهِ، ورسنِ جوادهِ في يسارهِ، ودرعهِ الذي يغطيهِ من عنقهِ اندفعَ وليم إلى داخلِ المقلعِ.

ووجده فارغاً.

شعرَ بخيبةِ الأمل تحلُّ عليهِ كلكمةٍ، وكان على وشكِ الانخراطِ في البكاءِ. بالنظرِ إلى الآثارِ على الطريقِ كان واثقاً من أنَّ الخارجين عن القانونِ هنا، وأطبقَ عليهِ شعورٌ مؤلمٍ باليأسِ.

وبينما كانت الجيادُ تُبطئ من عدوها لاحظ وليم أنّ المكانَ كان معقلَ الخارجين عن القانون حتَّى وقتٍ قريبٍ. كانت هناك أكواخٌ مرتجلةٌ من الأغصانِ والقصبِ، وبقايا نارٍ للطبخِ، وروثٌ، وفي إحدى زوايا المكانِ ما يشبه السياج المصنوع من الأغصانِ، ولا بدَّ أنَّه كان زريبةً للجيادِ. رأى وليم أيضاً آثاراً بشريةً: عظامُ دجاجٍ، وأكياسٌ فارغةٌ، وأحذيةٌ مهترئةٌ، وقدرٌ مكسورٌ. لاحظَ أنَّ الدخانَ من أحدِ مواقدِ الطبخِ ما زالَ يتصاعدُ، وشعرَ بدفقِ أملٍ جديدٍ. ربما غادرَ الخارجون عن القانونِ للتو، وهذا يعني أنَّه ما زالَ قادراً على الإمساكِ بهم، وهنا رأى شخصاً مُقرفصاً قربَ النارِ. اقتربَ وليم فوقفَ الشخصُ، ورأى أنَّه كان امرأةً.

«حسناً يا وليم هاملي»، قالت المرأةُ وتابعت: «متأخرٌ جداً كعادتكَ».

«أيتها البقرةُ الوقحةُ سأقتلعُ لسانكَ من فمكِ»، قال وليم.

«لن تجرؤ على لمسي»، أجابت المرأةُ بهدوءٍ. «لقد لعنتُ رجالاً أفضلَ منكَ»، ووضعت يدها على وجهها رافعةً ثلاثةَ أصابعٍ تماماً كما تفعلُ الساحراتُ. تراجعَ الفرسان إلى الوراءِ، ورسمَ وليم إشارةَ الصليبِ لحمايةِ نفسهِ، وبجرأةٍ نظرت المرأةُ إليهِ بعينين عسليتين مُفزعتين ثمَّ قالت: «ألا تعرفني يا وليم؟ ألا تتذكر أنَّك حاولت شرائي مرَّةً بجنيهٍ»، ثمَّ ضحكت وتابعت: «لحسنِ حظكَ أنَّك لم توفق في ذلكَ».

وهنا تذكرَ وليم هاتين العينين. إنَّها أرملةُ البنَّاءِ توم، ووالدةُ جاك جاكسن، والساحرةُ التي تعيشُ في الغابةِ. كان سعيداً حقاً لأنَّه لم ينجح في شرائها، وأرادَ الآن الابتعادَ عنها قدرَ الإمكانِ غيرَ أنَّه أرادَ أن يسألها سؤالاً أولاً.

«حسناً أيتها الساحرةُ، هل كان ريتشارد من كينغزبريدج هنا؟»

«كان هنا، ولكنه غادرَ منذُ يومين».

«وإلى أين ذهبَ إن كان بوسعكِ إخباري؟»

«أوه أجل، بوسعي إخباركَ»، قالت له وأضافت: «ذهبَ مع جيشِ الخارجين عن القانونِ للقتالِ إلى جانب هنري».

«هنري؟» قال وليم، وانتابهُ شعورٌ مريعٌ أنَّه يعرفُ هنري الذي قصدتهُ. «ابن مود؟»

«هذا صحيح»، أجابتهُ.

جمدَ وليم في مكانهِ. قد ينجحُ دوقُ النورماندي الشابِ والمفعم بالنشاطِ بتحقيقِ ما فشلت فيهِ والدتُه، ويهزم ستيفن، وهذا يعني أنَّ وليم سيُهزمُ معهُ.

«ما الذي حدثَ؟» سألها بقلقٍ. «ما الذي فعلهُ هنري؟»

«عبرَ البحرَ مع ستٍ وثلاثين سفينةٍ، وهو الآن في ويرهام»، قالت الساحرةُ ثمَّ أضافت: «يقولون إنَّه أحضرَ معه جيشاً قوامهُ ثلاثةَ آلافِ رجلٍ. إننا نتعرضُ للغزو».

– 3 –

كانت مدينةُ وينشستر مكتظةً وخطرةً وموتورةً فقد تمركزَ فيها كلا الجيشين: القواتُ الملكيةُ التابعةُ للملكِ ستيفن في القلعةِ، وقواتِ المتمردين التابعةِ للدوقِ هنري، بمن فيهم ريتشارد وجيشُ الخارجين عن القانونِ، خارجَ أسوارِ المدينةِ في منطقةِ سانت غيلز هيل حيثُ يُقام السوقُ السنوي في المدينةِ. مُنعَ على جنودِ الطرفين دخول المدينةِ، ولكن العديدَ منهم خرقَ هذا الحظر، وقضى الأماسي في الحاناتِ، وميادين مصارعةِ الديكةِ، والمواخير حيثُ ثملوا، واستغلوا النساءَ، واقتتلوا، وقُتلوا من أجلِ لعبةِ نردٍ، أو لعبةِ الطاحونةِ.

كانت الرغبةُ بالقتالِ قد فارقت ستيفن بعدَ وفاةِ أكبرِ أبنائهِ في الصيفِ، واستقرَّ الآن في القلعةِ الملكيةِ، أمَّا هنري فقد استقرَّ في قصر الأسقفِ، وأجرى ممثلوهما محادثاتِ السلامِ بالنيابةِ عنهما. مثَّلَ كبيرُ أساقفةِ كانتربري ثيوبولد الملك، ومثَّلَ وسيطُ السلطةِ القديمِ –أسقفُ وينشستر هنري– الدوق هنري، وفي كلِّ صباحٍ كان رئيسُ الأساقفةِ ثيوبولد والأسقف هنري يتشاوران في قصرِ الأسقفِ، وظهراً يقومُ الدوقِ هنري بالسيرِ في شوارعِ وينشستر مع ملازميهِ، بمن فيهم ريتشارد، ويتوجهون إلى القلعةِ لتناولِ الغداءِ.

عندما رأت آليانا الدوق هنري للمرةِ الأولى لم تصدق أنَّ هذا الرجل يسيطرُ على إمبراطوريةٍ بحجمِ إنكلترا. لم يكن يتجاوز العشرين من العمرِ،

وله بشرةُ فلاحٍ لفحتها الشمسُ وغزاها النمشُ. كان في سترةٍ داكنةٍ عاديةٍ من دونِ أيّ تطريزٍ، وكان شعرهُ الأصهبُ قصيراً. بدا كابن مزارعٍ مستقلٍ، وميسور الحالِ، ولكن بعدَ وهلةٍ لاحظت آليانا أنَّ هالةَ سُلطةٍ تحيطُ بالرجلِ. كان ممتلئاً، وقوياً، وعريضَ المنكبين، ورأسه كبيراً، ولكن الانطباع العنيف الذي تفرضهُ قوتهُ الجسدية تلطفه نظرةُ عينيهِ الرماديتين الحادةُ واليقظةُ، ورغمَ أنَّ الناس من حولهِ لم يقتربوا كثيراً منه، فإنَّهم عاملوه بألفةٍ حذرةٍ كأنَّهم خافوا من أن ينفجرَ غضباً في أيِّ لحظةٍ.

فكّرت آليانا أنَّ أجواءَ الغداءِ في القلعةِ مع وجودِ قائدي الجيشين المتنازعين إلى الطاولةِ ذاتها لن تكون لطيفةً بل موتورةً، وتساءلت في نفسها كيفَ يستطيع ريتشارد احتمال الجلوس إلى طاولةٍ واحدةٍ مع الإيرل وليم، ولو أنَّها كانت مكانهُ لأخذت سكينَ الطعامِ، وقطَّعت وليم بدلاً من تقطيع اللحم، ولكنها لم ترَ وليم سوى مرّة واحدة من بعيدٍ وبشكلٍ خاطفٍ، ولاحظت أنَّه بدا قلقاً ونكداً، وكان هذا فألَ خيرٍ.

أثناء اجتماع الإيرلات، والأساقفةِ، ورؤساءِ الأديرةِ في القلعةِ، اجتمعَ النبلاء الأقلُّ مرتبةً كالفرسانِ، والمأمورين، والبارونات العاديين، والقضاة، وآمري القلاعِ في فناءِ القلعة. لم يكن بوسعهم مغادرة العاصمةِ، ومستقبلهم ومستقبل المملكة على المحكِّ. قابلت آليانا رئيسَ الديرِ فيليب في معظمِ الصباحاتِ. في كلِّ يومٍ تُطلق إشاعات عديدةٌ ومختلفةٌ؛ ففي يومٍ يُجرّد جميعِ الإيرلات الذين يدعمون ستيفن من مناصبهم، وكان هذا يعني نهايةَ وليم، لتخرجَ إشاعةٌ في اليومِ التالي أن جميعهم استعادوا مناصبهم، وتتلقى آمال ريتشارد ضربةً مؤلمةً، ثمَّ تخرجُ إشاعةٌ مفادها أنَّ جميعَ قلاعِ ستيفن ستُهدم ليُقال بعدها إنَّ قلاع المتمردين ستُهدم، وبعدها يقولون إنَّ قلاعَ الجميع ستُهدم لينتهوا أخيراً إلى القولِ إنَّ ما من قلعةٍ ستُهدم. أشيعَ أيضاً أنَّ جميعَ أنصارِ هنري سيُصبحون فرساناً، وسيُمنحون مئةَ فدان من الأراضي. لم يكن ريتشارد يرغبُ بهذا بل أرادَ لقب إيرل شايرنغ.

لم يكن لدى ريتشارد أدنى فكرةٍ عن صحةِ أيٍّ من هذهِ الإشاعات، ورغمَ أنّه كان أحدَ الملازمين المقربين من هنري في المعاركِ فإنَّهم لم يُشركوه في تفاصيلِ المفاوضات السياسيةِ. في الوقتِ عينهِ كان فيليب على درايةٍ أكبر

بما يجري، غير أنَّه تكتم عن مصدر معلوماتِه، ولكنَّ آليانا تذكرت أنَّ فيليب لديه شقيقٌ، وهذا الشقيق يزور كينغزبريدج بينَ الفينةِ والأخرى، وهو يعملُ لمصلحة روبرت غلوستر، والإمبرطورةِ مود، وهو على الأغلب يعملُ الآن لمصلحة الدوقِ هنري.

أخبرهما فيليب أنَّهم يوشكون على الوصول إلى اتفاقٍ نهائي، وأنَّ الصفقةَ هي باستمرارِ ستيفن كملكٍ إلى أن يتوفى، ولكن هنري سيكون وريثهُ. أثارَ هذا الخبر قلقَ آليانا؛ فقد يعيش ستيفن لعشرِ سنواتٍ أخرى. ما الذي قد يحدث خلالَ هذهِ الفترةِ المؤقتةِ؟ بالطبعِ لن يعزل ستيفن إيرلاتهِ خلالَ فترةِ حكمهِ. كيفَ سيتمكن مناصرو هنري كريتشارد مثلاً من تحصيلِ مكافأتهم؟ هل سيتعين عليهم الانتظار؟

وعلمَ فيليب الجوابَ على هذهِ الأسئلةِ عصرَ أحدِ الأيامِ بعد مضي أسبوعٍ كاملٍ على تواجدهم في وينشستر. أرسل فيليب راهباً مبتدئاً وراءَ آليانا وريتشارد، وأثناء عبورهما الشوارع المزدحمةِ باتجاهِ ساحةِ الكاتدرائيةِ سيطرت على ريتشارد لهفةٌ وحشيةٌ أمَّا آليانا فسيطرَ عليها الذعر.

وجدا فيليب بانتظارهما في المقبرةِ، وتحدثوا بينَ شواهدِ القبورِ بينما الشمس تغربُ.

«وصلوا إلى اتفاقٍ»، قال فيليب دون تمهيدٍ وتابع: «ولكنه مربكٌ بعضَ الشيء».

لم يكن بوسعِ آليانا تحمل التوترِ، ولذلك عاجلت إلى سؤالِهِ: «هل سيكون ريتشارد إيرلاً؟»

حرَّك فيليب يدَهُ من جهةٍ إلى أخرى في حركةٍ تعني أنَّ الجواب قد يكون بالإيجابِ أو بالنفي. «الأمرُ معقدٌ، ولكنهم وصلوا إلى تسويةٍ. ستعود الأراضي التي أخذها المُحتلون إلى أصحابها الذين امتلكوها في زمنِ الملكِ الراحل هنري».

«هذا كلُّ ما أحتاجه!» قال ريتشارد على الفورِ. «كان والدي الإيرل في زمنِ الملكِ الراحلِ هنري».

«اصمت يا ريتشارد»، انفجرت آليانا في وجهِ ريتشارد ثمَّ استدارت نحوَ فيليب وقالت: «وما هو التعقيد في الأمرِ؟»

قال فيليب: «لا يوجد في الاتفاقيةِ ما ينصُّ على إجبارِ ستيفن على تنفيذِ الأمرِ، ولذلك أغلب الظن أنه لن تحدث أيَّةُ تغييرات إلى أن يموت ستيفن، ويصبح هنري الملك».

خابَ أملُ ريتشارد عندما سمع هذا وقال: «ولكن هذا يقضي على كلِّ شيءٍ!»

«ليسَ تماماً»، قال فيليب. «بل يعني أنَّك الإيرل الشرعي».

«ولكن يجب أن أعيشَ كخارجٍ عن القانونِ إلى أن يموت ستيفن بينما ذلكَ المتوحش وليم يحتلّ قلعتي»، قال ريتشارد بغضبٍ.

«لا تتحدث بصوتٍ عالٍ»، احتجّ فيليب عندما مرَّ كاهنٌ قربهم. «فما زال كلّ هذا سِرّاً».

كانت آليانا تغلي غضباً أيضاً وقالت: «لا أقبل بهذا. لستُ مستعدةً لانتظارِ موتِ ستيفن. انتظرتُ سبعةَ عشرَ عاماً، وقد اكتفيت من الانتظارِ».

قال فيليب: «ولكن ما الذي يمكنكِ فعلهُ؟»

وجهت آليانا كلامها إلى ريتشارد قائلةً: «البلدُ بأكمله يعترفُ بكِ إيرلاً شرعياً، وبما أنَّ ستيفن وهنري يُقران الآن أنَّك الإيرل الشرعي؛ لذلك عليكَ احتلال القلعة، واستعادة إرثك».

«لا يمكنني أن أحتلَّ القلعةَ فوليم سيحرص على تركها محميةً».

«أليسَ لديك جيشٌ؟» قالت آليانا مستسلمةً لقوةِ غضبها ويأسها. «لديكَ الحقُّ في القلعةِ، وتملكُ القوة على أخذِها».

هزَّ ريتشارد رأسهُ وقال: «على مدارِ خمسة عشر عاماً من الحربِ الأهليةِ أتعلمين عدد القلاع التي رأيتها تؤخذ بهجومٍ مباشرٍ؟ ولا واحدةٍ»، وكعادتهِ بدا ريتشارد مسيطراً وناضجاً عندما يتحدثُ عن الأمورِ العسكريةِ. «أؤكد لكِ أنَّ الأمرَ لم يحدث قط، ربما حدثَ في بلدةٍ، ولكن ليسَ في قلعةٍ. قد يستسلمون بعد حصارٍ، ولكن قد تصلهم التعزيزات قبلَ هذا. رأيتُ قلاعاً تحتلُ بالجُبنِ، والحيلةِ، والخديعةِ ولكن ليسَ بالقوةِ المباشرةِ».

لم تكن آليانا مستعدةً للقبولِ ببقاءِ الأمور على حالها. كان هذا هو الحلَّ الأخيرَ، وهي لم تعد قادرةً على هدرِ المزيد من الأعوامِ بالانتظارِ على أملٍ.

«ما الذي قد يحدث إن أخذتَ جيشكَ إلى قلعةِ وليم؟» قالت آليانا.

«سيرفعون الجسر المتحرك، ويُغلقون البواباتِ قبلَ أن ندخل. يمكننا أن نعسكر خارجاً، ولكن عندها سيأتي وليم مع جيشهِ لإنقاذِ القلعةِ، ويُهاجم مُعسكرنا. وحتَّى إن هزمناه لن نتمكن من السيطرةِ على القلعةِ لأنَّ مهاجمةَ القلاع صعبةٌ، والدفاعَ عنها سهلٌ، وهذا هو الغرض من وجودها».

خلالَ حديثِ ريتشارد كانت فكرةٌ في ذهنِ آليانا المضطربِ قد بدأت تختمرُ.

«بالجُبنِ، والحيلةِ، والخديعةِ»، قالت آليانا.

«ماذا؟»

«رأيتَ قلاعاً تُحتل بالجُبنِ، والحيلةِ، والخديعةِ».

«أوه، أجل».

«وهذا ما فعلهُ وليم عندما سيطرَ على قلعتنا منذُ سنواتٍ عديدةٍ؟»

قاطعها فيليب قائلاً: «كان الزمن آنذاك مختلفاً؛ فالبلد كان في حالةِ سلمٍ لخمسة وثلاثين عاماً تحتَ حكمِ الملكِ الراحلِ، وسيطرَ وليم على قلعةِ والدكِ مستخدماً عنصرَ المفاجأةِ».

قال ريتشارد: «بل استخدمَ الحيلةَ. دخلَ إلى القلعةِ خلسةً مع بضعةِ رجالٍ قبلَ أن يُقرع جرس الإنذارِ، ولكن رئيسَ الديرِ فيليب على حقٍ. لا يمكننا القيام بما قامَ بهِ وليم فقد غدا الناسُ أكثر حذراً هذهِ الأيامِ».

«يمكنني الدخول»، قالت آليانا بثقةٍ رغمَ أنَّها شعرت بقلبها يخفقُ بقوةٍ من شدةِ الخوفِ.

«بالطبعِ تستطيعين فأنتِ امرأةٌ»، قال ريتشارد. «ولكن لا يسعكِ القيامُ بشيءٍ عندما تدخلين، ولهذا سيسمحون لكِ بالدخولِ. أنتِ لست خطرةً».

«لا تكن متعجرفاً لعيناً»، انفجرت آليانا وتابعت: «قتلتُ لأحميكَ، وأنتَ لم تفعل شيئاً لي قط أيّها الخنزير الجاحد، لذلك لا تقل عني أنني لست خطرةً».

«حسناً، أنتِ خطرة»، قال ريتشارد في غضبٍ ثمَّ سألها: «ما الذي ستفعلينهُ حالما تدخلين القلعةَ؟»

تبخرَ غضبُ آليانا، وقالت لنفسها في خوفٍ: «ما الذي سأفعلهُ؟ اللعنةَ، أملكَ ما يكفي من الشجاعةِ، وسعةِ الحيلةِ كذلكَ الخنزير وليم».

«ما الذي سيفعلهُ وليم لو كان مكاني؟» قالت آليانا.

«سيحرصُ على بقاءِ الجسرِ المتحرك في مكانهِ، والبوابات مفتوحةً إلى أن تصل قواتِ الهجوم الرئيسية، وتدخل القلعةَ».

«وهذا ما سأقوم بهِ»، قالت آليانا وقلبها يخفقُ بقوةٍ.

«ولكن كيف؟» قال ريتشارد مشككاً.

وهنا تذكرت آليانا أنَّها ساعدت فتاةً في الرابعة عشرة أخافتها عاصفةٌ.

«تدين لي الكونتيسة بخدمةٍ»، قالت آليانا. «وهي تكره زوجها».

***

انطلقت آليانا، وريتشارد، وخمسون رجلاً من أفضلِ رجال ريتشارد خلال الليلِ. وصلوا إلى ضواحي قلعةِ شايرنغ عندَ الفجرِ، وتوقفوا في الغابةِ قبالةَ الحقولِ المحيطةِ بالقلعةِ. ترجَّلت آليانا عن جوادها، وخلعت عباءتها المصنوعةِ من الصوفِ الفلاندري، وجزمتها الجلديةَ الطرية ثمَّ ارتدت ثوباً خشناً كالذي ترتديهِ الفلاحاتِ، وانتعلت قبقاباً. قدَّم لها أحدُ الرجالِ سلةً مليئةً بالبيضِ الطازجِ فوقَ طبقةٍ من القشِّ، وعلَّقتها بذراعها.

نظرَ ريتشارد إليها من رأسها إلى أخمصِ قدميها ثمَّ قال: «ممتاز. فتاةٌ ريفيةٌ تحملُ منتجاتٍ إلى مطبخِ القلعةِ».

ابتلعت آليانا لعابها بصعوبةٍ. كانت البارحة تفورُ بالعزمِ والشجاعةِ، ولكنها الآن، وهي على وشك تنفيذِ مخططها، تشعرُ بالخوفِ.

قبَّلها ريتشارد على خدّها وقال لها: «عندما أسمعُ الجرسَ سأتلو صلاةَ «أبانا» ببطءٍ، ولمرةٍ واحدةٍ، وبعدها ستنطلقُ الفرقةُ المُتقدمةُ. سيكون عليك تهدئةُ الحراسِ ومنحهم إحساساً مزيفاً بالأمانِ إلى أن يتمكن عشرةٌ من رجالي من عبورِ الحقولِ، والدخولِ إلى القلعةِ دونَ التسببِ بإطلاقِ جرسِ الإنذارِ».

أومأت آليانا برأسها وقال: «فلتحرص على ألا تكشفَ المجموعةُ الأساسية عن غطائها إلى أن تعبرَ الفرقةُ المُتقدمةُ الجسرَ المتحرك».

ابتسمَ ريتشارد وقال: «سأقود المجموعة الأساسية. لا تقلقي وحظاً موفقاً». «ولكَ أيضاً»، قالت آليانا وانطلقت.

خرجت آليانا من الغابةِ، وعبرت الحقولَ المفتوحةَ باتجاهِ القلعةِ التي

غادرتها في ذلكَ اليومِ الرهيبِ منذُ ستةَ عشرَ عاماً. ولدى رؤيتها للمكانِ مجدداً عادت إليها تلكَ الذكرى الرهيبة لذلكَ الصباحِ حيث كان الهواءُ رطباً بعدَ العاصفةِ، والجوادان منطلقين عبرَ البوابةِ باتجاهِ الحقولِ المُشبعةِ بماءِ المطرِ. كان ريتشارد على الجواد الحربي، وهي على الجوادِ الأصغر، وكلاهما يشعرُ بخوفٍ رهيبٍ. رفضت كلَّ ما حدثَ معها، وأجبرت نفسها على تناسيهِ بأن غنَّت على وقعِ حوافر الجيادِ: «لا يمكنني أن أتذكر، لا يمكنني أن أتذكر، لا يمكنني أن أتذكر، لا يمكنني، لا يمكنني»، ونجحَ الأمرُ. ولوقتٍ طويلٍ بعدَ ذلكَ الصباحِ عجزت عن تذكرِ اغتصاب وليم لها، ورغمَ علمها بوقوعِ شيءٍ رهيبٍ فإنَّها لم تسترجع قط تفاصيله، ولكن عندما وقعت في غرامِ جاك عادت إليها الذكرى، وأرعبتها بشدةٍ إلى درجةِ أنَّها عجزت عن الاستجابةِ لحبهِ. الشكر للرَّبِّ أنّه كان صبوراً معها، وتأكدت من قوةِ حبه لها. لقد تحملَ الكثير، ولم يتوقف عن حُبها يوماً.

عندما اقتربت من القلعةِ استحضرت بعضَ الذكريات الجميلةِ لتهدئة نفسها. عاشت هنا مُذ كانت طفلةً مع والدها وريتشارد، وكانوا أثرياء وآمنين. لعبت على أسوارِ القلعةِ مع ريتشارد، وتسكعت في المطبخِ، وسرقت الفطائر الحلوة، وجلست إلى جانبِ والدها على العشاءِ في القاعةِ الكبيرةِ. فكرت في نفسها أنَّها آنذاك لم تعلم أنَّها كانت سعيدةً، ولم تكن لديها أدنى فكرة أنَّها محظوظةٌ جداً لأنَّها لم تكن خائفةً من شيءٍ.

وقالت لنفسها إنَّ تلكَ الأيام ستعود ابتداءً من اليومِ، وبعد أن تنجح في تنفيذِ مهمتها.

قالت بثقةٍ إنَّ الكونتيسة تدين لي بمعروفٍ، وإنَّها تكره زوجها، ولكن خلالَ مسيرهم مساءَ البارحةِ فكرَّت بكلِّ ما قد يسوء. أولاً، قد لا تتمكن من دخولِ القلعةِ أبداً؛ فقد يحدث أمرٌ يجعلُ القلعةَ مستنفرة، وقد يكون الحرَّاس مرتابين، أو قد لا تكون محظوظةً كفايةً لتتجاوز حرَّاس البواباتِ. وثانياً، عندما تدخلُ إلى القلعةِ قد لا تتمكن من إقناعِ إليزابيث بخيانةِ زوجها. لقد مرَّ عامٌ ونصفٌ منذ أن التقت بها آليانا في العاصفةِ، والنساءُ يعتدن على العيشِ مع أشرسِ الرجالِ مع مرورِ الوقتِ، وربما قبلت إليزابيث بقدرها الآن. ثالثاً، حتَّى وإن نجحت بإقناعِ إليزابيث فلم تكن واثقةً من أنَّها ستمتلكُ السلطةَ أو

الجرأة على فعلِ ما ستطلبهُ منها آليانا. عندما التقت بها آليانا كانت إليزابيث فتاةً صغيرةً خائفةً، وقد يرفضُ حرسُ القلعةِ إطاعةَ أوامرها.

شعرت آليانا باستنفارٍ غير طبيعي وهي تعبرُ الجسرَ المتحركَ. كان بوسعها رؤية وسماع كلِّ شيءٍ بوضوحٍ غريبٍ فقد استيقظَ سكانُ القلعةِ للتو، وتسكع بضعةُ حراسٍ ناعسين على الأسوارِ وهم يتثاءبون أو يسعلون، وجلسَ كلبٌ عجوزٌ عندَ المدخلِ يحكُّ نفسهُ. رفعت آليانا قلنسوتها لإخفاءِ وجهها كيلا يتعرف عليها أحدٌ، وعبرت المدخل.

وجدت عندَ البوابةِ حارساً قذراً يجلسُ على مقعدٍ ويأكلُ من قطعةِ خبزٍ كبيرةٍ جداً. كانت ثيابهُ مهلهلةً، وحزامُ سيفهِ مُعلقاً في غرفتهِ. وبقلبٍ واجفٍ وابتسامةٍ أخفت بها خوفها عرضت عليهِ سلَّة البيضِ.

لوحَ لها بيدهِ في نفاد صبرٍ كي تتابع طريقها.

عبرت آليانا العائق الأول.

كانت القلعةُ تفتقرُ إلى الانضباطِ وهذا طبيعي؛ فالقوةُ الموجودةُ فيها ضعيفةٌ لأنَّ أفضلَ الرجالِ ذهبوا إلى الحربِ، وهذا يعني أنَّ الإثارة والحماسة كانتا في مكانٍ آخر.

ولكن ليسَ اليوم.

كلُّ شيءٍ حتَّى الآن سارَ بشكلٍ جيدٍ جداً. عبرت آليانا المُجمع السفلي في توترٍ، وشعرت بغرابةٍ شديدةٍ وهي تسيرُ كغريبةٍ في المكانِ الذي كان في يومٍ من الأيامِ منزلها، وكدخيلةٍ على المكانِ الذي امتلكت فيهِ قبلاً حريةَ التحرّك كيفما شاءت. نظرت من حولها، وحرصت على ألا تبدو فضوليةً، وتلفتَ الأنظارَ إليها. كانت معظمُ البيوتِ الخشبيةِ قد تغيرت، وغدت الإسطبلات أكبر، ونُقلَ المطبخ من مكانهِ، وهناك مستودع أسلحةٍ حجري جديد. بدا المكان أكثر قذارةً مما كان عليهِ قبلاً، ولكن الكنيسةَ التي جلست فيها مع ريتشارد خلالَ تلكَ العاصفةِ الرهيبةِ مصدومين، وخدرين، ومتجمدين من البردِ، ما زالت في مكانها. لاحظت أنَّ بعضَ خدمِ القلعة بدأوا بمهامهم الصباحيةِ، وهناك جنديان يتجولان في المُجمعِ ولهما هيئةٌ خطيرةٌ، ولكن قد يكون السبب في ذلكَ إحساسها أنَّهما قد يقتلانها إن عرفا ما كنت تنوي فعلهُ.

إن نجحت الخطةِ فابتداءً من هذهِ الليلةِ ستعود سيدةَ هذهِ القلعةِ. ورغمَ أنَّ الفكرةَ مثيرةٌ، فإنَّها بدت غير حقيقية، وأشبه بحُلمٍ رائعٍ، ولكن مستحيل.

توجهت آليانا إلى المطبخِ، ووجدت فتى يُشعلُ النارَ، وفتاةً تُقطّعُ الجزرَ. ابتسمت آليانا بابتهاجٍ لهما ثمَّ قالت: «أربعاً وعشرون بيضةً طازجةً»، ثمّ وضعت السلَّةَ على الطاولةِ.

قال الفتى: «لم يستيقظ الطبَّاخ بعد. سيتعين عليكِ انتظارهُ حتَّى يصحو كي تأخذي المالَ».

«هل يمكنني الحصول على القليلِ من الخبز للفطورِ؟»

«في القاعةِ الكبرى».

«شكراً لكَ»، تركت سلتها وخرجت مجدداً.

عبرت الجسرَ المتحرك الثاني باتجاهِ المُجمعِ العلوي. ابتسمت للحارس عندَ البوابةِ الثانيةِ. كان شعرهُ شعثاً، وعيناه محتقنتين. رفعَ نظره إليها وقال بصوتٍ فيه تحدٍ عابثٍ: «إلى أين أنتِ ذاهبةٌ؟»

«للحصولِ على بعضِ الفطورِ»، قالت من دونِ أن تتوقف.

نظرَ إليها شزراً وناداها: «لدي شيءٌ يمكنكِ أكلهُ».

«ولكن قد أقضمهُ وأنتزعهُ»، أجابته من فوقِ كتفيها.

لم تُثر ريبةَ أحدٍ حتَّى الآن. ربما لم يخطر ببالهم أنَّ امرأةً قد تكون خطيرةً. يا لهم من أغبياء! يمكنُ للنساءِ فعلُ معظمِ ما يفعلهُ الرجال. عندما يذهبُ الرجالُ إلى الحروب، أو في الحملات الصليبيةِ من يبقى مسؤولاً وراءهم؟ هناك نساءٌ يعملن في النجارةِ، والصباغةِ، والدباغةِ، والخَبزِ، وتخميرِ الجعةِ. آليانا نفسها كانت من بينِ أهمِّ التجارِ في المقاطعةِ. كانت واجباتُ رئيسةِ ديرِ الراهبات تماماً كواجباتِ رئيسِ الديرِ، ألم تكن الإمبراطورة مود من أشعلت الحربَ الأهليةَ المستمرّةَ منذُ خمسةَ عشرَ عاماً؟! على الرغمِ من كلِّ ذلكَ أولئكَ الجنود الحمقى لم يتوقعوا أن تكون امرأةٌ عميلةً للعدو لأنَّ مثلَ هذا الأمرِ لم يكن عادياً.

صعدت درجَ القلعةِ ركضاً، ودخلت إلى القاعةِ الكبيرةِ، ولكنها لم تجد الوكيلَ عندَ البابِ، وقد يكون السببُ غيابُ سيدهِ عن القلعةِ، وفكرت آليانا

أَنَّها في المستقبلِ ستحرصُ على تواجدِ وكيلٍ عندَ البابِ سواءَ أكانَ السيد في القلعة، أم لم يكن.

وجدت آليانا ما يقارب العشرين شخصاً حولَ طاولةٍ صغيرةٍ. حدَّق إليها واحد أو اثنان، ولكن ما من أحدٍ آخر انتبه إليها. لاحظت أنَّ القاعةَ نظيفة، وفيها لمساتٌ أنثويةٌ كالجدران المطليةِ حديثاً بالكلسِ، ورائحة الأعشابِ العطرةِ الممزوجةِ بالقشِّ المفروش على الأرضيةِ. يبدو أنَّ إليزابيث تركت بصمتها بطريقةٍ ما، وهذهِ إشارةٌ واعدةٌ.

ومن دون أن تخاطبَ أحداً إلى الطاولةِ عبرت آليانا القاعةَ إلى الدرجِ في الزاويةِ متظاهرةً أَنَّها تملكُ كلَّ الحق بالتواجد هنا، غيرَ أَنَّها توقعت أن يوقفوها في أَيَّةِ لحظةٍ. وصلت إلى مطلعِ الدرجِ من دونِ أن تلفتَ نظرَ أحدٍ ثمَّ صعدت ركضاً إلى القسم الخاصِ في الطابق العلوي، وهنا سمعت أحدهم يقول في إثرها: «أنتِ هناك! لا يمكنكِ الصعودُ إلى الأعلى»، ولكن آليانا تجاهلت الصوتَ ثمَّ سمعت وقعَ أقدامٍ خلفها.

وصلت إلى الأعلى لاهثةً، وتساءلت في نفسها إن كانت إليزابيث في غرفةِ النومِ الرئيسيةِ التي شغرها والدُ آليانا قبلاً، أو تبيتُ في الغرفةِ التي كانت فيما سبق غرفةَ آليانا. ترددت لوهلةٍ، وقلبها يخفقُ بقوةٍ ثمَّ تكهنت أنَّ وليم قد ضجرَ بحلولِ الآن من وجودِ إليزابيث إلى جانبهِ على السريرِ كلَّ ليلةٍ، وهو على الأغلبِ سمحَ لها بامتلاك غرفةٍ خاصةً بها. قرعت آليانا على بابِ الغرفةِ الأصغر، وفتحت البابَ.

وأصابت في تخمينها.

وجدت إليزابيث جالسةً قربَ الموقدِ في ثوبها الداخلي تُمشطُ شعرها. رفعت إليزابيث ناظريها إلى الأعلى، وعبست ثمَّ تعرَّفت على آليانا.

«هذهِ أنتِ»، قالت إليزابيث، «يا لها من مفاجأةٍ!» وبدت مسرورةً لرؤيةِ آليانا.

سمعت آليانا وقعَ خطواتٍ ثقيلةٍ على الدرجِ من خلفها وقالت: «هل يمكنني الدخولِ؟»

«حتماً فأنت مرحبٌ بكِ!»

دخلت آليانا، وأغلقت البابَ وراءها على الفورِ ثمَّ عبرت الغرفةَ إلى

حيثُ جلست إليزابيث. اندفعَ رجلٌ إلى داخلِ الغرفةِ قائلاً: «أنتِ، من تعتقدين نفسكِ؟» وتوجهَ نحو آليانا للقبضِ عليها.

«قِف مكانك!» قالت آليانا بصوتٍ آمرٍ فتردد الرجلُ، وتابعت: «أتيتُ لرؤيةِ الكونتيسة ومعي رسالةٌ من الإيرل وليم، وكنتَ ستعلم بهذا لو كنتَ تحرسُ الباب بدلاً من ملء فمكَ بالخبزِ».

ارتسمت علائم الشعورِ بالذنبِ على وجهِ الرجلِ.

قالت إليزابيث: «لا بأس يا إدغار فأنا أعرفُ هذه السيدة».

«حسناً أيتها الكونتيسة»، قال إدغار، وخرجَ ثمَّ أغلقَ البابَ وراءهُ.

فكرت آليانا في نفسها: «لقد نجحت ودخلت».

نظرت من حولها بينما ضربات قلبها تعودُ إلى إيقاعها الطبيعي. لم تكن الغرفةُ مختلفةً جداً عمَّا كانت عليهِ عندما كانت غرفتها؛ فهناك بتلاتٌ جافةٌ في وعاءٍ، وسجادةٌ مزدانةٌ بالرسومِ معلقةٌ على الجدارِ، وبعضُ الكتبِ، وصندوق ملابس، والسريرُ في مكانهِ بل كان سريرَ آليانا نفسهُ، وعلى الوسادةِ لعبةٌ قماشيةٌ كالتي امتلكتها آليانا. وهنا شعرت آليانا أنَّها عجوز.

«كانت هذهِ غرفتي»، قالت آليانا.

«أعلم»، أجابت إليزابيث.

تفاجأت آليانا فهي لم تخبر إليزابيث عن ماضيها.

«عرفتُ كلَّ شيءٍ عنكِ منذُ تلكَ العاصفةِ الرهيبةِ»، شرحت إليزابيث وأضافت: «أحترمك جداً»، ولمعت عيناها في تقديرٍ بطولي لآليانا.

كانت هذهِ إشارةٌ جيدةٌ.

«وماذا عن وليم؟» قالت آليانا. «هل أنت أكثرُ سعادةً الآن بالعيشِ معهُ؟»

أشاحت إليزابيث بنظرها وقالت: «حسناً، لدي غرفتي الخاصة الآن، وهو بعيدٌ طوال الوقتِ. في الحقيقةِ كلُّ شيءٍ أفضل الآن»، وهنا بدأت تبكي.

جلست آليانا على السريرِ، وطوقت الفتاة بذراعيها. بكت إليزابيث، وشهقت شهقاتٍ عميقةً، ومتألمةً، وانهمرت الدموع على خديها، ومن بينِ الشهقاتِ قالت: « أنا... أكرهه! أتمنى... أن... يموت!»

شعرت آليانا بالشفقةِ عليها فقد كانت صغيرةً جداً، وكادت تبكي معها

أيضاً، وهي تعي بقوةٍ وعلى نحو مؤلم أنَّها كانت ستكون في مكانِ إليزابيث في يومٍ من الأيامِ. ربتت على ظهرِ إليزابيث كما كانت ستفعل مع ابنتها سالي.

في نهاية المطافِ هدأت إليزابيث، ومسحت وجهها الرطبَ من الدموعِ بكُمِ ثوبها الليلي ثمَّ قالت ببؤسٍ: «أنا خائفةٌ جداً من إنجابِ طفلهِ. أنا مرتعبةٌ لأنني أعلمُ أنه سيسيء معاملةَ الطفلِ».

«أفهمكِ»، قالت آليانا فهي نفسها خافت قبلاً من فكرةِ أن تكون حاملاً بطفلِ وليم.

نظرت إليزابيث بعينين متسعتين إلى آليانا وسألتها: «هل ما يقولونه صحيح؟ بأنّه...؟ هل فعلَ هذا بكِ حقاً؟»

«أجل، هذا صحيح. كنتُ في مثلِ عُمركِ عندما حصلَ هذا».

ولبرهةٍ نظرتا بعضهما في عيني بعض وقد قرَّبهما احتقارهما المشترك لوليم، وفجأة شعرت آليانا أنّ إليزابيث لم تعد تبدو كطفلةٍ.

قالت آليانا: «يمكنكُ التحررُ منه إن أردتِ، وبدءاً من اليومِ».

حدَّقت إليها إليزابيث، وسألت بحماسةٍ باعثةٍ على الشفقةِ: «هل هذا صحيح؟ هل هذا صحيح؟»

أومأت آليانا برأسها وقالت: «لهذا السببِ أنا هنا».

«هل يمكنني العودةُ إلى منزلي؟» سألت إليزابيث وقد امتلأت عيناها بدموعٍ جديدةٍ. «أيمكنني العودةُ إلى ويموث، وإلى والدتي، اليومَ؟»

«أجل، ولكن يجب أن تكوني شجاعةً».

«سأفعلُ أيَّ شيءٍ»، قالت إليزابيث وتابعت: «أيَّ شيءٍ! أخبريني فحسب».

تذكرت آليانا كيفَ شرحت لإليزابيث الطريقةَ التي يمكنها بها السيطرةُ على العاملين لدى زوجها، وتساءلت في نفسها إن كانت إليزابيث قد نجحت في تنفيذِ ما أوصتها بهِ. «هل ما زال الخدم يعاملونكِ بتعالٍ؟» سألتها دون مواربةٍ.

«يحاولون».

«ولكنكِ لا تسمحين لهم».

بدت محرجةً وقالت: «حسناً، أحياناً يفعلون، ولكنني في السادسةَ عشرة الآن، وأنا الكونتيسة منذُ عامين تقريباً... عملتُ بنصيحتكِ ونجحت!»

«اسمحي لي بأن أشرح»، بدأت آليانا كلامها وتابعت: «عقدَ الملكُ ستيفن معاهدةً مع الدوقِ هنري، ومن أحدِ بنودها عودة جميع الأراضي إلى ملّاكها الأصليين خلالَ عهدِ الملكِ الراحل هنري، وهذا يعني أنَّ شقيقي ريتشارد سيصبح إيرل شايرنغ بعد فترةٍ من الزمنِ، ولكن ريتشارد يريدُ أن يعودَ الإيرل الآن».

بدت إليزابيث مدهوشةً وقالت: «هل سيبدأ ريتشارد حرباً مع وليم؟»

«إنَّ ريتشارد الآن قريبٌ جداً من القلعةِ مع فرقةٍ صغيرةٍ من رجالِهِ. إن سيطرَ على القلعةِ اليوم فسيعتبرونه الإيرل، وسينتهي أمرُ وليم».

«لا يمكنني تصديقُ الأمرِ»، قالت إليزابيث. «لا يمكنني التصديق أنَّه حقيقي». وكان تفاؤلها المفاجئ مُحزناً أكثر مما كان بؤسُها الخنوع.

«عليكِ السماح لريتشارد بالدخولِ بسلامٍ»، قالت آليانا وتابعت: «وبعدَ أن ينتهي الأمرُ سنأخذكِ إلى منزلكِ».

بدت إليزابيث خائفةً مجدداً وقالت: «لست واثقةً من أن الرجالِ سينفذون أوامري».

هذا ما خشتهُ آليانا.

«من هو قائد الحرسِ؟» سألت آليانا.

«مايكل أرمسترونغ، وأنا لا أستطلفهُ».

«أرسلي بطلبِهِ».

«حسناً»، قالت إليزابيث، ومسحت أنفها ثم وقفت وتوجهت إلى البابِ. «مادج!» نادت بصوتٍ حادٍ، وسمعت آليانا رداً بعيداً. «فلتذهبي ولتحضري مايكل. أخبريهِ أن يأتي إلى هنا في الحال؛ فأنا أريدهُ في أمرٍ مستعجلٍ. أسرعي من فضلكِ».

عادت إلى الداخلِ، وبدأت ترتدي ثيابها على عجلٍ، وهي تُزرر السترةَ فوقَ القميصِ الليلي، وتعقدُ رباطَ جزمتها، وهنا أعطتها آليانا التعليمات بسرعةٍ: «اطلبي من مايكل قرعَ الجرسِ الكبير لاستدعاءِ الجميعِ إلى الفناءِ، وأخبريهِ أنَّكِ تلقيتِ رسالةً من الإيرل وليم، وأنَّك تريدين التحدثَ إلى الحرَّاسِ والجنودِ والخدمِ والجميع، وأنَّك لن تحتاجي سوى إلى بقاءِ ثلاثةِ أو أربعةِ حراسٍ خلال اجتماع البقيةِ في المُجمعِ السفلي. أخبريه أيضاً أنَّك

تنتظرين وصولَ مجموعةٍ من عشرةٍ أو اثني عشرَ رجلاً على جيادهم في أيِّ لحظةٍ حاملين رسالةً أخرى، وأنَّه يجب أن يأخذهم إليكِ حالما يصلون».
«أتمنى أن أتذكرَ كلَّ هذا»، قالت إليزابيث بقلقٍ.
«لا تقلقي. إن نسيتِ سأساعدكِ».
«هذا يجعلني أشعرُ بشكلٍ أفضل».
«كيفَ هو مايكل أرمسترونغ؟»
«قذرٌ، وفظٌّ، ويبدو كثورٍ».
«هل هو ذكي؟»
«لا».
«هذا أفضل»
وبعدَ برهةٍ دخلَ رجلٌ، وعلى وجههِ ارتسمَ تعبيرٌ ينمُّ عن الفظاظةِ. كان عنقهُ قصيراً، وكتفاه عريضتين جداً، وعندما دخلَ فاحت منه رائحةٌ قذرةٌ كرائحةِ زريبةِ خنازير. نظرَ مايكل إلى إليزابيث مستفهماً، ولاحَ على وجههِ ما يشي أنَّه ساخطٌ على إزعاجِها له.
«وصلتني رسالة من الإيرل»، بدأت إليزابيث.
مدَّ مايكل يدَه.
ارتعبت آليانا عندما أدركت أنَّها لم تفكر قبلاً بإعطاءِ إليزابيث رسالةً، وهذا يعني أنَّ الخدعةَ بأكملها قد تُكشف على الفورِ بسبب هذا الخطأ التافهِ. ألقت إليزابيث نظرةً يائسةً نحو آليانا التي نظرت حولها بجنونٍ وهي تفكرُ بشيءٍ لتقوله، وأخيراً نزلَ عليها الإلهام وقالت: «هل تستطيعُ القراءةُ يا مايكل؟»
نظرَ إليها بامتعاضٍ وقال: «سيقرأها الكاهن لي».
«تستطيعُ سيدتكَ القراءة».
ورغمَ أنَّ إليزابيث بدت مرعوبةً فإنَّها قالت: «سأعرضُ ما جاءَ في الرسالةِ أمامَ الرجال بنفسي يا مايكل. اقرعِ الجرسَ، واحشد الجميعَ في المُجمعِ، ولكن احرص على تركِ ثلاثةِ أو أربعةِ رجالٍ على الأسوارِ».
وحدثَ ما خشيت منه آليانا؛ فلم يكن مايكل يحبُّ تلقي الأوامرِ من إليزابيث، ونظرَ إليها بتحدٍ ثمَّ قال: «لمَ لا أخاطبهم أنا؟»

وهنا أدركت آليانا في قلقٍ أنَّها قد لا تنجح في إقناعِ هذا الرجلِ، وأنَّه قد يكون غبياً جداً على الإصغاءِ إلى المنطقِ. قالت آليانا: «أحضرتُ للكونتيسة خبراً هاماً جداً من وينشستر، وهي تريدُ إطلاع العاملين تحتَ إمرتها عليهِ بنفسها».

«حسناً، ما هو هذا الخبر؟» قال مايكل.

لم تتفوه آليانا بكلمةٍ، ونظرت إلى إليزابيث، ولاحظت أنَّ الخوفَ عاودها، ولكن آليانا لم تخبرها بما سيكون فحوى الرسالةِ المزيفةِ، ولهذا لم يكن بوسعِ إليزابيث الموافقة على طلبِ مايكل. في نهايةِ المطافِ تابعت إليزابيث الكلامَ ببساطةٍ كأنَّ مايكل لم يسألها شيئاً: «أخبر الحرَّاس أن يراقبوا وصولَ مجموعةٍ من عشرةٍ أو اثني عشرَ رجلاً على صهواتِ الجيادِ. سيحملُ قائدهم أخباراً جديدةً من الإيرل وليم، ولذلك يجب أن ترسله إلي على الفورِ. اقرع الجرسَ حالاً».

بدا مايكل رجلاً ميالاً إلى الجدالِ، ولذلكَ وقفَ ساكناً وعابساً بينما حبست آليانا أنفاسها من التوترِ.

«المزيدُ من الرُسل»، قال مايكل كأنّه وجدَ صعوبةً في فهمِ الأمر. «أتت هذهِ السيدة برسالةٍ، وسيأتي اثنا عشرَ رجلاً على صهواتِ الجيادِ برسالةٍ أخرى».

«أجل. هلَّا ذهبت الآن وقرعت الجرسَ؟» قالت إليزابيث، وشعرت آليانا في صوتها برعشة خوفٍ.

بدا مايكل مهزوماً، ورغمَ أنَّه لم يفهم ما كان يحدث، فإنّه لم يكن لديهِ ما يحتجّ بهِ أيضاً، وأخيراً قال متذمراً: «حسناً يا سيدتي»، ثمَّ خرجَ.

تنفست آليانا الصعداء.

قالت إليزابيث: «ما الذي سيحدث الآن؟»

«عندما يجتمعون في المُجمعِ ستخبرينهم عن اتفاقيةِ السلامِ بينَ الملكِ ستيفن والدوق هنري»، قالت آليانا. «وهذا سيُلهي الجميعِ عن الفرقةِ المتقدمة التي سيُرسلها ريتشارد. سيعتقد الحرَّاس أنَّهم رسلٌ من طرفِ الإيرل وليم، ولهذا لن يهلعوا على الفورِ، ويرفعوا الجسرَ المتحركَ. عليكِ الحرص على بقاءِ الجميع مهتماً بما تقولينهُ إلى أن تدخل الفرقةُ المتقدمةُ إلى القلعةِ، هل هذا واضح؟»

بدت إليزابيث متوترةً وقالت: «وماذا بعد؟»

«عندما أعطيكِ إشارةً قولي إنَّك تُسلمين القلعةَ إلى الإيرل الشرعي ريتشارد، وعندها سيكشفُ جيشُ ريتشارد عن غطائهِ، ويهاجم القلعة. وقتئذٍ سيدركُ مايكل ما يحدثُ، ولكن رجالهُ سيكونون مترددين في ولائهم لأنَّك أخبرتهم بأن يستسلموا، وأطلقت على ريتشارد لقبَ الإيرل الشرعي. ستكون الفرقةُ المتقدمةُ في الداخلِ لمنعِ أيِّ أحدٍ من محاولةِ إغلاقِ البواباتِ. سمعتا صوتَ قرعِ الجرسِ، وشعرت آليانا بألم في بطنها من شدةِ الخوفِ ثمَّ قالت: «بدأ الوقتُ ينفد منا، كيفَ تشعرين؟»

«بالخوفِ».

«وأنا أيضاً، هيا بنا».

خرجتا من القلعة، ونزلتا الدرجَ. لاحظت آليانا أنَّ لجرسِ برجِ البوابةِ الرنينَ ذاتهُ الذي كان عندما كانت فتاةً صغيرةً لاهيةً. كان نفس الجرسِ، ونفس الصوتِ، ولكن آليانا كانت مختلفةً. علمت أنَّ صوتَ الجرس سيعبرُ الحقولَ، ويصلُ إلى أطرافِ الغابةِ، وأنَّ ريتشارد سيبدأ الآن بتلاوةِ صلاة «أبانا» ببطءٍ في سرهِ قبلَ أن يُرسلَ فرقتهُ المتقدمة.

خرجت آليانا وإليزابيث من القلعةِ، وعبرتا الجسرَ المتحركَ الداخلي باتجاه المُجمع السفلي. بدت إليزابيث شاحبةً وخائفةً، ولكنها زمت شفتيها في عزمٍ. ابتسمت آليانا لإليزابيث كي تمنحها الشجاعةَ ثمَّ رفعت قلنسوتها مجدداً، وغطت وجهها مخافةَ أن يراها أحد، ورغمَ أنَّ ما من أحدٍ تعرَّفَ عليها بعد غير أنَّ وجهها كان معروفاً في جميعِ أرجاءِ المقاطعةِ، ولذلك عاجلاً أم آجلاً، سيتعرفُ عليها أحدهم. لو أنَّ مايكل أرمسترونغ علمَ من تكونَ لكان قال عنها إنَّها متواطئة، ولكنه رجلٌ معتوه لا يفقه شيئاً. ألقى العديدُ من الناسِ نظراتٍ فضوليةٍ عليها، ولكن ما من أحدٍ تحدَّثَ إليها.

توجهت آليانا مع إليزابيث إلى وسطِ المُجمعِ السفلي، ولأنَّ الأرضَ مُنحدرةٌ قليلاً هنا تمكنت آليانا من النظرِ من فوقِ رؤوسِ الحشدِ عبرَ البوابةِ الرئيسيةِ باتجاه الحقولِ في الخارجِ. يجب أن تكشفَ الفرقةُ المتقدمةُ عن غطائها الآن، ولكنها لم ترَ ما يدلّ على هذا بعد، وفكرت في خوفٍ: «يا إلهي! آمل ألا يكون هناك ما أعاقهم».

ستحتاجُ إليزابيث إلى شيءٍ لتقفَ عليهِ أثناءَ مخاطبتها للناسِ، ولذلكَ طلبت آليانا من أحدِ الخدمِ التوجه إلى الإسطبل، وجلبَ حجرٍ يُستخدم لامتطاءِ الجيادِ. أثناء هذا نظرت امرأةٌ عجوز إلى آليانا، وقالت: «إنَّها الليدي آليانا! كم تسرني رؤيتكِ!»

غاصَ قلبُ آليانا في صدرها، وعندما نظرت إلى المرأةِ عرفتها. كانت طباخةَ القلعةِ أيامَ والدها. أجبرت آليانا نفسها على الابتسام وقالت: «مرحباً يا تيلي، كيفَ حالكِ؟»

وكزت تيلي جارتها وقالت: «انظري إنَّها الليدي آليانا. لقد عادت بعد كلِّ هذهِ السنواتِ. هل ستكونين سيدتنا مجدداً؟»

لم ترغب آليانا لهذهِ الفكرةِ أن تصلَ إلى مايكل أرمسترونغ، ولذلكَ نظرت من حولها في قلقٍ، وشعرت بالسعادةِ عندما رأت مايكل بعيداً عن مرمى السمعِ، ولكن أحدَ الجنودِ سمعَ الحديثَ، وأخذَ يُحدقُ إلى آليانا مُقطباً. نظرت آليانا إليه متظاهرةً باللامبالاةِ. كان الرجلُ أعور، وهذا بلا شك سببَ وجودهِ هنا بدلاً من الذهابِ إلى الحربِ مع وليم. فجأة شعرت آليانا بالغرابةِ لأنَّ رجلاً أعور يُحدقَ إليها، وكبحت ضحكةً كادت تُفلت منها، ثمَّ أدركت أنَّها في حالةٍ شبه هستيريةٍ.

عادَ الخادمُ بالحجرِ، وتوقفَ الجرسُ الآن. أجبرت آليانا نفسها على التزامِ الهدوء بينما وقفت إليزابيث على الحجرِ، وصمتَ الحشدُ.

قالت إليزابيث: «عقد الملكُ ستيفن والدوق هنري اتفاقَ سلام».

توقفت وهللَ الحشدُ، أمَّا آليانا فلم تُفارق بنظرها البوابة وهي تفكرُ: «الآن يا ريتشارد، الآن، لا تتأخر!»

ابتسمت إليزابيث تاركةً الناسَ يهللون لبعضِ الوقتِ ثمَّ تابعت قائلةً: «سيبقى ستيفن ملكاً حتَّى موتهِ، وسيكون هنري خلفاً له».

نظرت آليانا إلى الحرَّاسِ على الأبراجِ وعندَ البوابةِ، ولاحظت أنَّهم بدوا مسترخين، ولكن أين ريتشارد؟

قالت إليزابيث: «ستجلبُ اتفاقيةُ السلام على حيواتنا الكثيرَ من التغييراتِ».

لاحظت آليانا الآن أنَّ الحرسَ متوترون، ورفعَ أحدهم يدهُ فوقَ عينيهِ مُحدقاً عبرَ الحقولِ بينما استدارَ آخر، ونظرَ إلى المُجمعِ كأنَّه يحاولُ لفتَ نظرِ القائدِ، ولكن مايكل أرمسترونغ كان يُصغي باهتمامٍ إلى إليزابيث.

«اتفقَ الملكُ الحالي والملك المستقبلي على أن تعودَ جميعُ الأراضي إلى أصحابها الأصليين خلالَ حُكمِ الملكِ الراحلِ هنري».

علت أصواتُ الناسِ وهم يُناقشون بعضهم مع بعض تأثيرَ هذا على وضعِ شايرنغ. لاحظت آليانا أنَّ مايكل أرمسترونغ بدا غارقاً في التفكير، ولكنها أخيراً لمحت من البوابةِ جيادَ فرقةِ ريتشارد المتقدمة، وفكرت في نفسها: «أسرع! أسرع!» ولكن الرجال تقدموا على جيادهم في خببٍ ثابتٍ كيلا يلفتوا أنظارَ الحرسِ.

قالت إليزابيث: «يجبُ أن نشكرَ الرَّبَّ على اتفاقيةِ السلام، ونصلي لأن يحكم الملكُ ستيفن بحكمةٍ في سنواتهِ الأخيرةِ، وأن يحافظَ الدوق على السلامِ إلى أن يأخذَ الرَّبُّ ستيفن إلى ملكوتهِ...» كانت إليزابيث تُبلي بشكلٍ رائعٍ إلا أنَّ علائم القلق بدت عليها كأنَّه لم يعد لديها ما تقوله.

في هذهِ الأثناء كانت أعين الحرسِ إلى الخارجِ يتفحصون الفرقةَ المتقدمة. أخطرهم مايكل مُسبقاً أنَّ مجموعةً كهذهِ ستأتي إلى القلعةِ، وطلبَ منهم أخذَ قائدها إلى الكونتيسةِ على الفور، ولهذا لم يكن عليهم القيامُ بأيِّ شيءٍ، واكتفوا بمراقبةِ تقدّمِ الفرقةِ في فضولٍ.

استدارَ الرجلُ الأعور، ونظرَ إلى البوابةِ ثم استدارَ، ونظرَ إلى آليانا مجدداً. تكهنت آليانا أنَّه توجسَ من العلاقةِ بين وجودها هنا، واقترابِ مجموعةٍ من الرجالِ على صهواتِ الجيادِ.

ويبدو أنَّ أحدَ الحراسِ على الأسوار قد أخذَ قرارهُ، واختفى في البرجِ.

كان الحشدُ قد بدأ يتململُ قليلاً، ورغمَ أنَّ إليزابيث تحدثت ببراعةٍ، فإنَّ الناسَ بدأوا يفقدون صبرهم، وأرادوا أخباراً هامةً. قالت إليزابيث: «بدأت هذهِ الحرب عندما ولدتُ، وككثيرٍ من الشبابِ في أرجاءِ المملكةِ كنتُ أتطلعُ لزمنٍ يحلُّ فيه السلمُ».

ظهرَ الحارسُ الذي كان على السورِ من قاعدةِ البرجِ، وهرعَ عبرَ المُجمعِ ثمَّ خاطبَ مايكل أرمسترونغ.

من البوابةِ رأت آليانا أنَّ الرجال ما زالوا على بُعدِ مئتي ياردةٍ عن القلعة، ولم تكن هذهِ بالمسافةِ القريبةِ كفايةً. شعرت أنَّها على وشكِ الصراخِ من اليأسِ، وأنَّها لم تعد قادرة على السيطرةِ على الموقفِ لوقتٍ أطول.

استدار مايكل أرمسترونغ، ونظرَ عبرَ البوابةِ مُقطباً، ثمَّ شدَّ الرجلُ الأعورُ كُمَّ مايكل وقال له شيئاً ثمَّ أشارَ إلى آليانا.

خافت آليانا من أن يُغلقَ مايكل البوابةَ، ويرفعَ الجسرَ المتحركَ قبلَ أن ينجح ريتشارد في الدخولِ، ولكنها كانت عاجزةً عن منعهِ القيامَ بأيِّ شيءٍ. تساءلت في نفسها إن كانت تملكُ الجرأةَ على رمي نفسها فوقهُ قبلَ أن يُصدرَ أوامرهُ. كانت ما تزالُ تلفُّ خنجرها حولَ ذراعها اليُسرى، ويمكنها قتلهُ. استدارَ مايكل بعيداً بحزمٍ، وهنا لمست آليانا ذراعَ إليزابيث بيدها.

«توقف يا مايكل!»قالت إليزابيث بصوتٍ كالفحيح.

فتحت إليزابيث فمها لتتكلم، ولكن الكلمات خانتها، وتسمَّرت في مكانها من الخوفِ، ثمَّ تغيرت تعابير وجهها، وأخذت نفساً عميقاً، ورفعت رأسها للأعلى، وتحدثت بصوتٍ سلطوي: «مايكل أرمسترونغ!»

استدار مايكل.

أدركت آليانا أنَّ ساعةَ الصفرِ قد حلَّت. لم يكن ريتشارد قريباً كفايةً، ولكن الوقتَ كان قد بدأ ينفد، ولذلك قالت لإليزابيث: «الآن! أخبريهم الآن!»

قالت إليزابيث: «أنا أُسلّم هذهِ القلعة إلى الإيرل الشرعي. ريتشارد من كينغزبريدج».

حدَّق مايكل إلى إليزابيث غيرَ مُصدقٍ وصرخَ: «لا يمكنكِ فعلُ هذا!»

قالت إليزابيث: «آمركَ برمي أسلحتكَ. لن تُسفك أيُّ دماءٍ هنا».

استدار مايكل وصرخَ: «ارفعوا الجسرَ المتحركَ! أغلقوا البوابات!»

هرعَ الرجال لينفذوا أمرَ رئيسهم، ولكن مايكل ترددَ قليلاً، لأنَّه وحالما وصلَ الرجالُ إلى البوابةِ المُدعمةِ بالحديدِ للمدخلِ المقنطرِ تقدّمت فرقةُ ريتشارد فوقَ الجسرِ المتحركِ، ودخلت إلى المُجمعِ. لم يكن معظمُ رجالِ أرمسترونغ في دروعهم، وبعضهم لا يحملُ السيوفَ حتَّى، ولهذا تفرقوا أمام الرجالِ على صهواتِ الجيادِ.

صرخت إليزابيث: «فليحافظ الجميع على الهدوءِ. ها هم الرُسل قد أتوا لتنفيذ أوامري».

أتت صرخةٌ من على الأسوارِ، ووضعَ أحدُ الحرَّاسِ يديهِ حولَ فمهِ وصرخَ: «مايكل! هجوم! إننا نتعرضُ إلى هجومٍ! إنهم كُثر!»

«خيانةٌ!» زأر مايكل ورفعَ سيفهُ، ولكن رجلين من رجالِ ريتشارد عاجلاه على الفورِ بسيفيهما اللامعين.

انبثقَ الدمُ من مايكل كنافورةٍ، وسقطَ أرضاً فأشاحت آليانا بنظرها بعيداً.

سيطرت مجموعةٌ من رجالِ ريتشارد على البوابةِ وغرفةِ سحبِ الجسرِ المتحركِ، ووصلَ اثنان منهما إلى الأسوار، واستسلم لهما رجال مايكل.

من البوابةِ رأت آليانا القوةَ الرئيسيةَ تتقدمُ عبرَ الحقولِ باتجاهِ القلعةِ، وشعرت بمعنوياتها ترتفعُ كشمسٍ في كبدِ السماءِ.

صرخت إليزابيث بأعلى صوتها: «هذا استسلامٌ سلمي. أعدكم أنَّ ما من أحدٍ سيتعرضُ إلى الأذى، ولتبقوا في أمكنتكم».

وقفَ الجميعُ في أمكنتهم بلا حراكٍ، وهم يُصغون إلى هديرِ جيشِ ريتشارد. بدا رجالُ مايكل مضطربين، وحائرين، ولكن ما من أحدٍ منهم قامَ بشيءٍ. لقد قُتلَ قائدهم، والكونتيسة طلبت منهم الاستسلام، أمَّا خدمُ القلعةِ فقد شلَّهم تسارع الأحداثِ.

عبرَ ريتشارد البوابةَ على صهوةِ جوادهِ الحربي.

كانت لحظةً عظيمةً، وشعرت آليانا بقلبها يكبر فخراً. بدا ريتشارد وسيماً، وبشوشاً، وظافراً. صرخت آليانا: «الإيرل الشرعي!» ورددَ وراءها الرجالُ الذين دخلوا القلعةَ مع ريتشارد وبعضُ الناسِ في المجمعِ أيضاً فقد كان معظمهم لا يحبون وليم. دارَ ريتشارد المُجمعَ ببطءٍ وهو يلوحُ ويهزُّ رأسهُ للمهللين.

فكرت آليانا بكلِّ ما مرَّت بهِ كرمى لهذهِ اللحظةِ. كانت في الرابعةِ والثلاثين، وقد قضت نصفَ حياتها تحارب من أجلِ هذهِ اللحظةِ. فكرت في نفسها: «حياتي بأكملها. هذا ما قدمتهُ من أجلِ هذهِ اللحظةِ». وتذكرت كيفَ كانت تحشو الصوفَ في الأكياسِ إلى أن تحمرَّ يداها وتنتفخا، وتنزفا،

وتذكرت الوجوه التي رأتها على الطريقِ، الوجوه الجشعة، والقاسية، والشهوانية لرجالٍ مستعدين لقتلها لو أظهرت أيةَ علامةِ ضعفٍ، وتذكرت كيفَ عاملت حبيبها جاك بقسوةٍ، وتزوجت بآلفريد بدلاً منه، وفكرت بتلكَ الشهور التي قضتها نائمةً على الأرضيةِ ككلبٍ أسفلَ سريرهِ، وكلُّ هذا لأنَّ آلفريد وعدَ بدفعِ ثمنِ أسلحةِ ودرعِ ريتشارد كي يتابع الأخير القتال من أجل استعادة قلعتهِ. «هذا من أجلكَ يا أبتاه»، قالت آليانا بصوتٍ عالٍ. لم يسمعها أحد فقد كانوا يهللون بصوتٍ أعلى من صوتها. «هذا ما أردتهُ»، خاطبت والدها الميت، وفي قلبها مزيجٌ من المرارةِ والفرح بالنصرِ. «وعدتكَ ونفذتُ وعدي. اعتنيتُ بريتشارد كي يحارب كلَّ هذهِ السنوات، وها نحن نعود إلى الديارِ، وريتشارد الإيرل. الآن...» تحول صوتها إلى صراخٍ، ولكن لأن الجميعَ يصرخ ما من أحدٍ سمعها أو لاحظَ الدموعَ التي انحدرت على خديها.

«ها أنا يا أبي أفي بوعدي لكَ. فلترقد في قبرك بسلامِ الآن، ودعني أكملُ حياتي في سلامٍ أيضاً».

الفصل السادس عشر

– 1 –

لم يتغير ريميجوس قط، وحتَّى عندما أُصيبَ بالفاقةِ بقي متعجرفاً. دخلَ إلى منزلِ وليم في قريةِ هاملي برأسٍ مرفوعٍ، ونظرَ بتعالٍ إلى الهيكل الخشبي الذي يدعمُ السقفَ فوقَ جدرانٍ مبنيةٍ من ألواحٍ خشبيةٍ ومزيجٍ من الترابِ، والطين، والرمل، والروثِ، والقشِّ، وإلى الموقدِ الذي لم يكن له مدخنة في وسطِ الأرضيةِ الترابية.

راقبهُ وليم يدخلُ وقال في نفسه: «ربما نفد مني الحظُّ، وانتهى بي الحالُ في وضعٍ مُزرٍ، ولكن وضعكَ يا ريميجوس مُزرٍ أكثر مني». لاحظَ وليم أنَّ صندلَ الراهبِ مُهترئ من كثرةِ إصلاحهِ، وأنَّ رداءه قذرٌ، وذقنه غير حليق، وشعرهُ مشعثٌ. لم يكن ريميجوس في يومٍ رجلاً سميناً إلا أنَّه الآن بدا أشدَّ هزالاً مما كان عليهِ في أيِّ وقتٍ مضى، وفشلَ تعبيرُ الإزدراءِ الذي ارتسمَ على وجههِ في إخفاءِ خطوطِ التعبِ، والهالات الضاربةِ إلى اللون الأرجواني تحتَ عينيه، وظهرهُ الذي لم يحدودب بعد بدا محنياً.

«باركَكَ الرَّبُّ يا بني»، قال ريميجوس لوليم.

ولكن وليم لم يكن مستعداً لاستقبالهِ ولذلك عاجله قائلاً: «ما الذي تريدهُ ريميجوس؟» وتعمَّد، وفي إهانةٍ صريحةٍ، ألا يناديهِ بـ «أبتاه» أو «أيّها الأخ».

جفل ريميجوس كأنَّه تلقى لكمةً، وتكهنَ وليم أنَّ الرجلَ تلقى بعضاً من هذهِ الإهانات منذُ أن تركَ الديرَ. «وضعَ الإيرل ريتشارد يدهُ على الأراضي التي أعطيتني إياها كرئيسٍ لديرِ شايرنغ»، قال ريميجوس.

«لا يُفاجئني هذا»، أجابَ وليم وتابع: «فكلُّ شيءٍ عاد إلى مُلَّاكه القدامى في عهدِ الملكِ الراحل».

«ولكن لم يبقَ لدي وسيلةٌ للعيشِ».

«أنتَ لست الوحيد. الكثيرون يعانون من هذا»، قال وليم بلا مبالاةٍ وتابع: «عليكَ العودةُ إلى دير كينغزبريدج».

شحبَ وجهُ ريميجوس من الغضبِ، وقال بصوتٍ خفيضٍ: «لا يمكنني فعلُ هذا».

«ولماذا؟» قال وليم مُعذباً إياه بالسؤالِ.

«أنتَ تعرفُ السببَ».

«هل سيقولَ لكَ فيليب إنَّه لم يكن عليكَ سحب الأسرارِ من فمِ الفتياتِ الصغيراتِ؟ هل يعتقدُ أنَّك خُنته بفضحِ مكان معقلِ الخارجين عن القانون؟ هل سيكون غاضباً منكَ لأنَّك أصبحت رئيسَ كنيسةٍ ستسلبُ كاتدرائيتهُ مكانتها؟ حسناً، أعتقدُ أنَّك لا تستطيعُ العودة».

«أعطني شيئاً»، التمسَ ريميجوس. «قريةً.. مزرعةً... كنيسةً صغيرةً!»

«ما من جوائز للخاسرين أيّها الراهب»، قال وليم بقسوةٍ، ولكنه كان مُستمتعاً بتعذيبِ ريميجوس. «في العالمِ خارجَ الديرِ لن يعتني بكَ أحدٌ. يأكلُ البطُّ الدودَ، وتصيد الثعالبُ البطَّ، والبشر يصطادون الثعالب، والشيطانُ يصطادُ الإنسان».

«وما الذي سأفعله الآن»، قال ريميجوس في صوتٍ أقرب للهمسِ.

ابتسمَ وليم وقال: «فلتستجدِ».

استدارَ ريميجوس على عقبيهِ، وغادرَ المنزلَ.

فكرَ وليم في نفسهِ: «مازلت مُتكبراً. لن يطول بكَ الأمر إلى أن تبدأ في الاستجداءِ».

سُرَّ وليم لرؤيةِ أحدهم في وضعٍ أسوأ من وضعهِ. لن ينسى أبداً الألم الرهيبَ الذي شعرَ بهِ عندما وقفَ أمامَ بوابةِ قلعتهِ، ومُنعَ من دخولها. كانت الشكوكُ قد ساورتهُ منذُ أن غادرَ مع بعضٍ من رجالهِ إلى وينشستر ثمَّ، وعندما أُعلن عن معاهدةِ السلام، تحولَ قلقهُ إلى ذعرٍ فانطلقَ مع فرسانهِ بأقصى سرعةٍ عائدين إلى قلعةِ شايرنغ. كان عددُ الحراس في القلعةِ صغيراً، ولهذا توقعَ أن يجدَ ريتشارد مُعسكراً في الحقولِ حول القلعةِ. حالما رأى

أن كلَّ شيءٍ يبدو آمناً شعرَ بالراحةِ، ولامَ نفسهُ على مبالغتهِ في ردِّ فعلهِ على اختفاءِ ريتشارد المفاجئِ.

ولكن عندما اقتربَ من القلعةِ أكثر، ورأى الجسرَ المتحرك مرفوعاً أوقفَ جوادهُ عندَ حافةِ الخندقِ وصرخَ: «افتحوا للإيرل!»

وهنا ظهرَ ريتشارد على السورِ وقال: «الإيرل في الداخلِ».

شعرَ وليم بالأرض تميدُ تحتَ قدميهِ. لطالما خاف من ريتشارد، ونظرَ إليهِ كمنافسٍ خطيرٍ، ولكنه لم يشعر يوماً بالضعفِ كما شعرَ بهِ وقتئذٍ. اعتقدَ أنَّ الخطرَ الحقيقي سيأتي بعدَ وفاةِ ستيفن وتربّع هنري على العرشِ، وهذا قد لا يحدث قبلَ عشر سنواتٍ، ولكن ها هو الآن في منزلِ عائلتهِ الوضيع يفكرُ بأخطائه، ويُقرُّ بمرارةٍ أنَّ ريتشارد كان ذكياً جداً، وخرجَ من الأمرِ كالشعرةِ من العجين، ولم توجه له تهمةُ خرقِ سلامِ الملكِ لأنَّ الحرب لم تضع أوزارها بعد، ومطالبتهُ بحقهِ كإيرل شايرنغ شرَّعتهُ شروطُ معاهدةِ السلامِ، ولم يكن لدى ستيفن الذي كبرَ، وتعبَ، وهُزمَ الآن طاقةٌ كافيةٌ للانخراطِ في مزيدٍ من المعاركِ.

وفي مبادرةٍ كريمةٍ من ريتشارد سرَّح جميع جنودِ وليم ممن أرادوا متابعة خدمتهِ. أطلع والدو الأعور وليم على الطريقةِ التي احتَّل بها ريتشارد القلعة، وثارَ ثائرتهُ عندما علم بخيانةِ إليزابيث، ولكن الدور الذي لعبتهُ آليانا في الأمرِ أهانهُ أكثر من خيانةِ زوجتهِ. ها هي الفتاة الصغيرة العاجزة التي اغتصبها، وعذَّبها، وطردها من بيتها كلَّ هذهِ السنواتِ تعود وتأخذُ بثأرها، وفي كلِّ مرَّةٍ يفكرُ فيها وليم بما حدثَ يشعرُ بحرقةٍ في معدتهِ كأنَّه شربَ خلَّاً.

في البدايةِ أرادَ وليم أن يُقاتل. كان بوسعهِ الإبقاء على جيشهِ والعيش في الريفِ، وتحصيل الضرائب والمؤنِ من الفلاحين، ويدخلَ في معركةِ كرٍّ وفرٍ مع غريمهِ، ولكن ريتشارد سيطرَ على القلعة، وكان الوقتُ في مصلحته بما أنَّ حليفَ وليم -الملكَ ستيفن- عجوزٌ ومهزومٌ أمَّا ريتشارد فكان مدعوماً من الدوقِ الشاب هنري، الذي سيصبحُ في نهايةِ المطافِ الملكَ هنري الثاني.

قررَ وليم أن يُقللَ من خسائرهِ بالعودةِ إلى قرية هاملي، وإلى منزلِ والديهِ حيثُ نشأ. كان والدهُ قد حصلَ على قريةِ هاملي والقرى المجاورة لها منذُ

ثلاثين عاماً، ولم تكن جزءاً من ممتلكاتِ شايرنغ، ولذلكَ لا يمكن لريتشارد المطالبة بها.

أملَ وليم أن يكون ابتعادهُ عن المتاعبِ كافياً لإرضاءِ ريتشارد في انتقامهِ، ويتركهُ وشأنهُ، وقد نجحَ في هذا حتَّى الآن، ولكن وليم كرهَ قرية هاملي، وكرهَ المنازلَ الصغيرة المتناسقة، والبط المهتاج في البركةِ، والكنيسةَ الحجرية الرمادية الكالحة، والأطفال ذوي الخدودِ الموردةِ، والنساء ذوات المؤخرات الكبيرة، والرجال الأقوياء الممتعضين. كرهَ القريةَ لأنَّها متواضعة وعادية وفقيرة، وترمزُ إلى فقدان عائلته السُلطةَ. راقبَ الفلاحين الكادحين يبدأون فلاحةَ الربيع، وخمَّن حصتهُ من محاصيلهم ذلكَ الصيفِ، ووجدها حصةً هزيلةً. ذهبَ للصيدِ في الغابةِ الصغيرةِ التي يملكها، ولكنه فشلَ في صيدِ غزالٍ واحدٍ، وقال له حارسُ الغابة: «لا يمكنكَ سوى صيدِ الخنازير البريَّةِ أيّها اللورد فقد اصطادَ الخارجون عن القانونِ الغزلان خلالَ المجاعةِ». أقامَ المحاكماتِ في القاعةِ الكبيرةِ في منزلهِ والريحُ تصفرُ عبرَ شقوقِ الجدران الخشبيةِ، وأصدرَ أحكاماً قاسيةً، وفرضَ غراماتٍ كبيرةٍ، وحكمَ وفقاً لأهوائهِ، ولكن هذا لم يجلب له سوى القليل من الرضا.

كان قد تخلى عن بناءِ الكنيسةِ الكبيرةِ الجديدةِ في شايرنغ فلم يعد بوسعهِ الآن حتَّى بناء منزلٍ حجري لنفسهِ. توقفَ البنَّاؤون عن العملِ عندما توقفَ عن دفعِ المال لهم، ولكنه لم يعرف ما الذي صارَ إليهِ أمرهم بعدَ ذلكَ، ربما عادوا إلى كينغزبريدج للعملِ مع رئيسِ الديرِ فيليب.

غيرَ أنَّ الكوابيسَ بدأت تطاردهُ الآن.

تشابهت جميع هذهِ الكوابيس بعضها مع بعض. رأى والدتهُ في الجحيم تنزفُ من أذنيها، وعينيها، وعندما تفتح فمها لتتحدث تخرجُ المزيدُ من الدماءِ، ويبعثُ المشهدُ فيهِ رعباً كبيراً. خلالَ النهارِ يحارُ في فهمِ العنصرِ المخيفِ لهذا الكابوس لأنَّ والدتهُ فيهِ لا تهددهُ بأيَّةِ طريقةٍ، ولكن في الليلِ يراودهُ مجدداً ويتملكهُ الخوفُ، ويجتاحهُ هلعٌ غير عقلاني، وهستيري، وأعمى. مرَّة عندما كان صبياً خاضَ في بركةِ ماءٍ، وفجأةً وصلَ إلى منطقةٍ عميقةٍ، ووجدَ نفسهُ تحتَ سطحِ المياهِ عاجزاً عن التنفسِ، وتملكته رغبةٌ قاتلةٌ باستنشاقِ الهواءِ. بقيت هذهِ الذكرى من أيامِ الطفولةِ راسخةً معهُ،

ولكن هذهِ الكوابيس كانت أسوأ منها، وبأشواطٍ كبيرةٍ. في الكابوس يستميتُ للابتعادِ عن وجهِ والدتهِ المُدمى، ولكن الأمر يبدو أشبه بمحاولةِ الركضِ بسرعةٍ فوقَ رمالٍ متحركةٍ، ليستيقظ بعدها، ويجد نفسهُ على الجانبِ الآخر من الغرفةِ في حالةِ صدمةٍ شديدةٍ، ويتعرقُ، ويئنُّ، وجسدهُ متصلبٌ ويؤلمهُ من توترهِ خلال النومِ، ووالتر إلى جانبهِ يحملُ شمعةً. ينامُ وليم في القاعةِ الكبيرةِ مع بقيةِ الرجالِ، ولكن مع ستارةٍ تفصلهُ عنهم فما من غرفِ نومٍ في البيت. «لقد صرختَ يا سيدي اللورد»، يهمسُ له والتر، ويتنفسُ وليم بصعوبةٍ وهو يُحدقُ إلى سريرهِ الحقيقي، والجدارِ الحقيقي، ووالتر الحقيقي بينما تأثيرُ الكابوس يتراجعُ ببطءٍ وإلى مرحلةٍ لا يعود فيها مخيفاً ثمَّ يقول لوالتر: «إنَّه مجرَّد حُلمٍ، فلتذهب»، ولكن وليم لا يغمضُ له جفنٌ بسببِ خوفهِ من الكابوس، وفي اليومِ التالي ينظر إليهِ رجالُهُ كأنه رجلٌ لُعنَ بتعويذةٍ سحريةٍ.

بعدَ بضعةِ أيامٍ على حديثهِ مع ريميجوس، وبينما كان وليم جالساً على الكرسي ذاتهِ في الغرفةِ العابقةِ بدخان الموقدِ دخلَ عليه الأسقف ويلارن.

بوغت وليم لرؤيةِ ويلارن. كان قد سمعَ أصواتَ جيادٍ، ولكنه اعتقدَ أنَّ والتر عادَ من المطحنةِ. عندما رأى الأسقف يدخل شعرَ بالحيرةِ حيال ما عليهِ القيام بهِ. لطالما كان ويلارن متعجرفاً، ومتعالياً، وعامل وليم على الدوام كشخصٍ غبي، وأخرق، وفظّ. شعرَ وليم بالإحراجِ من رؤيةِ ويلارن له وهو في هذهِ الحالةِ الحقيرةِ.

لم ينهض وليم لتحيةِ زائرهِ بل سأله بجفافٍ: «ما الذي تريدهُ؟» لم يكن لديه الآن أيُّ سببٍ قد يدفعهُ إلى التصرف بتهذيبٍ، وأرادَ لويلارن أن يعرفَ هذا بأسرع وقتٍ ممكنٍ.

تجاهل ويلارن وقاحةَ وليم وقال: «توفي المأمور».

في البداية لم يفهم وليم ما رمى إليه ويلارن، ولذلك سأله: «ما علاقتي بهذا؟»

«سيكون هناك مأمورٌ جديدٌ».

كان وليم على وشكِ الرَّد عليهِ قائلاً: «وماذا في هذا؟» ولكنه كبحَ نفسهُ. بدا ويلارن قلقاً حيال مسألةِ المأمور الجديدِ، وأتى إلى وليم للتحدثِ معهُ

فيها، وهذا يعني أمراً واحداً. على الرغمِ من الشكوك التي ساورت وليم فإنَّه شعرَ بالأملِ يملأه، ولكنه كبحَ هذا الأَملَ بعنفٍ فهو يعلمُ أنَّه عندما يكون لويلارن يدٌ في أمرٍ غالباً ما تُحبط آماله، وتكون الخيبةُ نصيبه.

«من تعتقدُ أنَّه سيكون المأمور الجديد؟» سأل ويلارن.

«أنتَ».

كان هذا الجواب الذي لم يجرؤ وليم على الأملِ بهِ، وتمنى لو أنَّه يستطيع تصديقه. يُمكن لمأمورٍ ذكي وقاسٍ أن يكون بأهميةِ إيرلٍ أو أسقفٍ، وهذا يعني أنَّ وليم ما زال يملكُ فرصةً لاستعادةِ ثروته وسلطته، ولكنه أجبرَ نفسهُ الآن على التفكيرِ بالعوائقِ. «ولم قد يمنحني الملكُ ستيفن هذا المنصبِ؟»

«لأنَّك دعمتهُ ضدَّ هنري، وبسببِ هذا خسرت لقبَ الإيرل. أتخيلُ أنَّه سيرغب بتعويضكَ عن خسارتكَ».

«ما من أحدٍ يقوم بشيءٍ بدافع الامتنانِ»، قال وليم مكرراً ما اعتادت والدتهُ قوله.

قال ويلارن: «أعتقدُ أنَّ ستيفن ليسَ سعيداً لكونِ إيرل شايرنغ رجلٌ يُقاتل ضدهُ، وقد يرغب في أن يكون المأمورُ من أنصارهِ ليحقق توازن قوى مع ريتشارد».

اتضحَ الأمرُ لوليم الآن، وشعرَ بالحماسةِ رغماً عنه، وبدأ يؤمن أنَّه قد يتمكن من الخروجِ من هذهِ الحفرةِ التي تُدعى قرية هاملي. سيحصلُ مجدداً على قوةٍ معتبرةٍ من الفرسان والجنود بدلاً من المجموعة المثيرةِ للشفقةِ التي يعيلها الآن، وسيترأس محكمة المقاطعةِ في شايرنغ، ويحبط خططَ ريتشارد.

«يعيشُ الشريف في قلعةٍ في بلدةِ شايرنغ»، قال وليم بلهفةٍ.

«ستعود رجلاً ثرياً»، أضاف ويلارن.

«أجل».

إنَّ منصبَ المأمور مربحٌ جداً في حال أُستغل كما يجب، وهذا يعني أنَّ وليم سيتمكن من جني المبالغ ذاتها تقريباً التي كان يجنيها عندما كان إيرلاً، إلا أنَّه تساءل في نفسهِ عن السببِ الذي دفعَ ويلارن إلى اقتراح هذا الأمرِ.

وبعدَ برهةٍ أجاب ويلارن على السؤالِ قائلاً: «ووقتئذٍ ستتمكن من تمويل بناءِ الكنيسةِ الجديدةِ».

إذاً هذا هو السببُ. لا يفعل ويلارن شيئاً من دونِ دافعٍ خفي، وهو يريد من وليم أن يكون المأمور حتَّى يتمكن من إكمالِ بناءِ الكنيسةِ، غير أنَّ وليم كان مستعداً للمضي قدماً في هذهِ الخطةِ، فربما تتوقفُ كوابيسُهُ عندما ينتهي من بناءِ الكنيسةِ.

«هل تعتقدُ أن هذا ممكن؟» سأل وليم بحماسةٍ.

أومأ ويلارن برأسهِ وقال: «سيُكلفكَ الأمر بعضَ المالِ دونَ شكٍ، ولكن أعتقد أنَّه ممكنٌ».

«المال؟» قال وليم بقلقٍ مفاجئ ثم تابع: «كم المبلغ؟»

«يصعبُ تحديدُ المبلغِ؛ ففي أمكنةٍ كلينكولن وبريستول تصلُ كلفةُ شراءِ منصبِ المأمور خمس أو ستَّ مئةِ جنيهٍ، ولكن المأمورين في تلكَ الأماكن أثرى من الكاردينلات، أمَّا في مكانٍ صغيرٍ كشايرنغ والمُرشح يحظى بدعمِ الملكِ، وهذا أمرٌ أستطيعُ التكفل بهِ، فقد يُكلف مئةَ جنيه».

«مئةَ جنيهٍ!» قال وليم في خيبةِ أملٍ. خشي منذُ البدايةِ من التعرضِ لخيبةِ الأملِ، وها هو الآن يصاب بها. «لو كنتُ أمتلكُ مئةَ جنيه هل كنتُ أعيش على هذا النحو!» قال وليم بمرارةٍ.

«يمكنكَ تأمين المبلغِ»، قال ويلارن بلا مبالاةٍ.

«ممن؟» قال وليم مصعوقاً بالفكرةِ وسألَ: «هل ستعطيني المال؟»

«لا تكن غبياً»، أجاب ويلارن في تعالٍ وحنقٍ، وتابع: «لهذهِ الحالات يوجد اليهود».

أدركَ وليم بمزيجٍ أليفٍ من الأملِ والسُخطِ أنَّ الأسقفَ على حقٍ، وللمرةِ الثانيةِ.

***

مضى عامان على ظهورِ الصدوعِ الأولى في الكاتدرائية، ولم يوفق جاك حتّى الآن في إيجاد حلٍّ للمشكةِ، والأسوأ من هذا أنَّ صدوعاً مشابهةً بدأت تظهر في الحُجيرةِ الأولى من صحنِ الكنيسةِ. أدركَ أنَّ التصميمَ يحوي على عيبٍ كبيرٍ؛ فعلى الرغمِ من أنَّ الهيكل قوي ويحملُ وزن القبةِ المُقنطرةِ، فإنَّه لم يكن قوياً كفايةً لمقاومةِ الرياحِ التي تعصفُ بقوةٍ أعلى الجدرانِ.

وقفَ جاك على السقالةِ العاليةِ جداً فوقَ الأرضِ يُحدقُ عن كثبٍ إلى

الصدوعِ الجديدةِ ويفكر. يحتاج إلى إيجاد طريقةٍ لتثبيت القسم العلوي من الجدار كيلا تؤثر عليه الريح.

فكرَ بالطريقةِ التي كان فيها القسم السفلي من الجدار قوياً. في القسمِ الخارجي من جدار الممرّ دعائم قويةٌ وثخينةٌ تربطها بجدارِ الصحنِ أنصافُ قناطر مخفيةٌ في سقفِ الممرّ، وأمَّنَت أنصافُ القناطرِ والدعائم دعماً للجدارِ ولكن إلى درجةٍ معينةٍ. كانت أشبه بكتائف بعيدةٍ.

ولأنَّ دعائم الجدران مخفية بدا الصحنُ مضاءً وجميلاً.

يحتاج إلى إيجادِ منظومةٍ تدعيمٍ مماثلةٍ لمنظومةِ القسم العلوي من الجدارِ. يمكنه بناء ممرّ بطابقين، وكتائف بعيدةٍ كما في القسمِ السفلي، ولكن هذا سيُعيق دخول الضوء عبرَ النوافذِ العلويةِ، وسيتعارض مع هدفِ الأسلوب المعماري الجديد بإدخالِ المزيد من الضوءِ إلى الكنيسةِ.

بالطبعِ لم يكن الممرّ وحدهُ الذي يقوم بكلِّ الدعمِ فللدعائم الثقيلةِ في الجدارِ الجانبي، وأنصافِ القناطرِ المتصلةِ دورٌ، ولكن الممرّ أخفى هذهِ العناصر البنيوية. لو أنَّه فقط يتمكن من بناءِ دعائم، وأنصافِ قناطر لدعمِ القسم العلوي من الجدار ولكن دون أن يضطر إلى إظهارها في الممرّ فسيتمكن من حلِّ المشكلةِ نهائياً.

ناداه صوتٌ من الأسفلِ.

اكفهرَّ وجهه فقد شعرَ أنَّه كاد يصل إلى حلٍ. نظرَ إلى الأسفلِ، ورأى رئيسَ الديرِ فيليب يناديه.

توجه إلى البرجِ، وهبطَ الدرجَ الحلزوني ثمَّ وجدَ فيليب بانتظارهِ في الأسفلِ يغلي غضباً.

«خاننا ريتشارد!» قال فيليب من دونِ مقدماتٍ.

تفاجأ جاك بما سمعهُ وسأل: «كيف؟»

لم يُجب فيليب على السؤال فوراً بل تابع غاضباً: «بعدَ كلِّ ما فعلتهُ من أجلهِ. اشتريتُ صوفَ آليانا عندما كان الجميعُ مصرّاً على خداعها، ولولا مساعدتي لما بدأت بعملها، وعندما ذهبَ عملها أدراجَ الرياحِ أعطيتهُ منصبَ رئيسِ الحرسِ، وفي شهرِ تشرين الثاني/ نوفمبر الفائت أطلعتهُ مُقدماً

على اتفاقيةِ السلامِ فتمكن من وضعِ يدهِ على القلعةِ. وها هو الآن وبعد أن استعادَ لقبَ الإيرلِ يحكمُ بتعالٍ، ويدير ظهرهُ إلي».

لم يرَ جاك فيليب غاضباً إلى هذهِ الدرجةِ قبلاً. بدا رأسه الحليق مُحمراً من شدَّةِ الغضبِ، وخرج البصاقُ من فمهِ وهو يتحدث.

«كيفَ خانكَ ريتشارد؟» سأل جاك.

ومجدداً تجاهل فيليب السؤال وتابع: «علمت دوماً أنَّ شخصيةَ ريتشارد ضعيفة فهو لم يكن يوماً ذا عونٍ كبيرٍ لآليانا بل أخذَ منها ما أرادهُ دون أن يلتفت يوماً إلى ما قد تحتاجه. لم أعتقد قط أنَّه سيكون شريراً».

«ما الذي فعلهُ بالضبطِ؟»

وأخيراً أطلعهُ فيليب: «رفضَ منحنا الإذنَ بالدخولِ إلى المقلع».

تفاجأ جاك بما سمعهُ. كانت فعلة ريتشارد تنمّ عن جحودٍ كبيرٍ.

«ولكن ما الذي قالهُ ليبررَ فعلتهُ؟» سأل جاك.

«أنَّ كلَّ شيءٍ يجب أن يعود إلى سابقِ عهدهِ عندما كان هنري الأول ملكاً، وأنَّ الديرَ حصلَ على إذنٍ باستخدامِ المقلعِ من الملكِ ستيفن».

وجدَ جاك جشعَ ريتشارد غريباً، ولكنه لم يغضب كما غضبَ فيليب. انتهوا من بناءِ نصفِ الكاتدرائيةِ باستخدام الحجارة التي اضطروا إلى شرائها، وسيتسمرون في تدبير أمورهم بطريقةٍ ما.

«نظرياً أعتقدُ أنَّ ريتشارد على حقٍ»، قال جاك مُجادلاً.

وثارت ثائرةُ فيليب هنا. «كيفَ يمكنكَ قول هذا؟»

«الأمرُ مماثلٌ لما فعلتهُ بي»، قال جاك. «بعدَ أن أحضرت لكَ العذراء الباكية، وجلبت لكَ تصميماً رائعاً للكاتدرائيةِ، وبنيت سورَ البلدةِ لحمايتكَ من وليم أخبرتني أنني لا أستطيع العيشَ مع أمّ طفليّ. أليس هذا جحوداً؟»

صُدمَ فيليب من هذهِ المقارنةِ، واحتجَّ قائلاً: «الأمرُ مختلفٌ. أنا لا أريدكما أن تعيشا منفصلين. ويلارن من يعيق حصول آليانا على إبطالٍ للزواجِ، والرَّبُ من قال إنَّكما لا يجبُ أن ترتكبَا الزنا».

«أنا واثقٌ من أنَّ ريتشارد سيقول الأمرَ عينهُ»، تابع جاك. «فهو لم يكن من أمرَ بعودةِ الممتلكات إلى أصحابها السابقين. إنَّه يُنفذ القانون فحسب».

قُرِعَ الجرسُ إيذاناً بفترةِ الظهرِ.

«هناك فرقٌ بينَ قانون الرَّبِّ وقانون الإنسان»، قال فيليب.

«ولكن يجب أن نراعي القانونين»، حاجج جاك. «وأنا الآن في طريقي لتناولِ الغداءِ مع أمِّ طِفليّ».

ابتعدَ جاك تاركاً فيليب في مكانِهِ حزيناً. لا يعتقدُ جاك أنَّ فيليب جاحدٌ كريتشارد، ولكنه شعرَ بالراحةِ عندما قال إنَّ فيليب جاحدٌ كريتشارد. قررَ أن يسألَ آليانا عن أمرِ المقلعِ فهي تعرفُ كيف تُقنع ريتشارد بتسليمِهِ إلى الديرِ.

غادرَ ساحةَ الدير وعبرَ الشوارعِ باتجاهِ المنزلِ الذي يعيشُ فيهِ مع مارثا. كانت آليانا مع الطفلين في المطبخِ. انتهت المجاعةُ بحصادٍ جيدٍ العام الماضي، ولم يعد الطعام شحيحاً جداً، ولذلك كان على الطاولةِ الآن خبز من دقيقِ القمحِ ولحمٌ مشوي.

قبَّل جاك الطفلين، وطبعت سالي على وجهه قُبلةً طفوليةً طريةً، ولكن تومي الذي يبلغ من العمرِ الآن أحدَ عشرَ عاماً ويتوق إلى أن يصبحَ بالغاً قدَّم له خده في حرجٍ. ابتسم جاك، ولم يقل شيئاً. يتذكّرُ أنَّه عندما كان في عمرهِ اعتقدَ أنَّ التقبيلَ سخيفٌ.

بدت آليانا متضايقةً. جلسَ جاك على المقعدِ قربها وقال: «فيليب غاضبٌ جداً لأنَّ ريتشارد لن يعطيه المقلع».

«هذا رهيبٌ»، قالت آليانا بهدوءٍ. «يا لجحودِ ريتشارد!»

«أتعتقدين أنَّه بوسعكِ إقناعه بتغيير رأيهِ؟»

«لا أعلمُ حقاً»، أجابت في شرودٍ.

قال جاك: «لا تبدين مهتمةً جداً بالمشكلةِ».

نظرت إليه بتحدٍ وقالت: «لا، لستُ مهتمة».

أدركَ أنَّها في مزاجٍ عكرٍ، ولذلكَ قال لها: «من الأفضلِ أن تخبريني بما يجولُ في ذهنكِ».

وقفت وقالت: «لنذهب إلى الغرفةِ الخلفيةِ».

رمقَ جاك فخذَ اللحمِ بحسرةٍ ثمَّ غادرَ الطاولةَ ولحقَ بآليانا إلى الغرفةِ الخلفيةِ. كعادتهما تركا البابَ مفتوحاً منعاً لإثارةِ الشكوكِ في حالِ دخولِ

أحدٍ إلى المنزلِ فجأةً. جلست آليانا على السريرِ مُقاطعةً ذراعيها تحتَ صدرها ثمَّ قالت: «وصلتُ إلى قرارٍ هام».

بدت حزينةً جداً إلى درجةِ أن جاك بدأ يشعر بالقلقِ.

«عشتُ معظمَ حياتي تحتَ ظلَّين»، بدأت كلامها وتابعت: «أحدهما وعدي لوالدي خلال احتضارهِ، والثاني علاقتي بكَ».

قال جاك: «وأنتِ الآن وفيتِ بوعدكِ لوالدكِ».

«أجل، ولذلك أريد التحرر من عبئي الآخر أيضاً. قررت أن أتركَكَ».

شعرَ جاك بقلبهِ يتوقف. علمَ أنَّها لا تتفوه بهذا الكلامِ بخفَّةٍ، وأنَّها جادةٌ. حدَّقَ إليها وقد خانته الكلمات. شعرَ بالاضطرابِ فهو لم يفكر قط أنَّها قد تتركهُ. كيفَ له أن يُغفلَ أمراً كهذا؟ وتفوه بأولِ شيءٍ يخطرُ ببالِهِ: «هل هناك شخصٌ آخر؟»

«لا تكن غبياً».

«لماذا إذاً؟»

«لأنني لم أعد قادرةً على تحملِ الأمرِ أكثر»، أجابتهُ واغرورقت عيناها بالدموعِ. «إننا ننتظرُ إبطالَ الزواجِ منذُ عشر سنواتٍ، وأعلمُ أنَّه لن يحصل يا جاك. سنعيشُ هكذا إلى الأبدِ ما لم نفترق».

«ولكن...»، ونظرَ حولَه كأنَّه يبحثُ عن شيءٍ لقولهِ. كان إعلانها مُحبطاً جداً، وشعرَ أنَّ الجدالَ فيه ميئوسٌ منه، وأشبه بمحاولةِ تفادي إعصارٍ، إلَّا أنَّه حاولَ على أيِّ حال قائلاً: «أليسَ هذا أفضل من لا شيءٍ؟ أفضل من الانفصالِ؟»

«لا إنَّه ليسَ كذلك».

«ولكن إن غادرتِ كيفَ لهذا أن يغيرَ شيئاً؟»

«قد ألتقي بشخصٍ آخر، وأقع في الحبِّ مجدداً، وأعيش حياةً طبيعيةً»، قالت وهي تبكي الآن.

«ولكنكِ ستبقين متزوجةً من آلفريد».

«ولكن ما من أحدٍ سيعرف أو يهتم. قد يزوجني كاهنُ أبرشيةٍ لم يسمع باسم البنَّاء آلفريد، أو يعتبر الزواج شرعياً إن علمَ بحيثياتهِ».

«لا أصدّقُ أنّكِ تقولين هذا. لا يسعني احتمالُ الأمرِ».

«عشر سنواتٍ يا جاك وأنا أنتظر. عشر سنواتٍ وأنا أنتظرُ الحصولَ على حياةٍ طبيعيةٍ معكَ. لن أنتظرَ أكثر».

وقعت الكلماتُ عليهِ كاللكماتِ. تابعت كلامها، ولكنه الآن لم يعد يفهم شيئاً مما كانت تقوله، وكل ما فكرَ بهِ هو الحياةُ من دونها، وهنا قاطعها قائلاً: «أنتِ تعلمين أنني لم أحبَّ أحداً آخر في حياتي».

جفلت كأنّها شعرت بألمٍ مُفاجئ، ولكنها تابعت كلامها: «أحتاجُ إلى بضعةِ أسابيع لترتيبِ كلِّ شيءٍ. سأستأجرُ منزلاً في وينشستر. أريدُ للطفلين أن يعتادا على الفكرةِ قبلَ أن تبدأ حياتهما الجديدة...»

«ستأخذين طفليّ»، قال بغباءٍ.

أومأت برأسها وقالت: «أنا آسفةٌ»، ولأولِ مرَّةٍ خلالِ الحديث بدت مترددةً. «أعلمُ أنّك ستفتقدهما، ولكنهما يحتاجان إلى حياةٍ طبيعيةٍ أيضاً».

لم يكن بوسعِ جاك احتمالُ الأمرِ أكثر، ولذلك استدارَ مُبتعداً.

قالت آليانا: «لا تُدر ظهركَ لي. يجب أن نتحدثَ في الأمرِ أكثر. جاك...»

وخرجَ دون أن يُجيبها.

سمعها تناديه: «جاك!»

عبرَ غرفةَ المعيشةِ دونَ أن ينظرَ إلى الطفلين، وغادرَ المنزلِ. ومن شدةِ اضطرابهِ عاد إلى الكاتدرائيةِ، فلم يكن لديهِ مكان آخر يذهب إليهِ. كان البناؤون ما يزالون في استراحةِ الغداءِ. عجزَ عن البكاءِ فقد كان الأمرُ أسوأ بكثير من أن يذرف عليه بضعَ دموعٍ، ومن دونِ تفكيرٍ صعدَ درجَ الجناحِ الشمالي حتّى الأعلى، ووقفَ على السطحِ.

كان النسيمُ في الأعلى أقوى مما كان في الأسفل. نظرَ جاك إلى الأسفلِ، وفكرَ أنّه لو سقطَ فسيقعُ على السقفِ المائلِ للممرِ على طولِ الجناحِ، وهو على الأغلب سيموت، ولكنه لم يكن واثقاً من هذا. سارَ باتجاهِ المعبرِ، ووقفَ حيثُ ينتهي السقفُ فجأةً بمنحدرٍ حادٍ. إن لم تكن بنيةُ الكنيسةِ متينةً، وآليانا ستتركهُ فلم يعد هناك ما يعيشُ من أجلهِ.

بالطبعِ لم يكن قرارها مُفاجئاً كما بدا للوهلةِ الأولى. كانت بائسةً لأعوامٍ،

كلاهما كانا بائسين، ولكنهما اعتادا على هذا البؤسِ. يبدو أنَّ استعادةَ قلعةِ شايرنغ انتشلتها من سباتها، وذكرتها بالأيامِ التي كانت فيها حياتها مُلكها، وقوضت وضعهما غير المستقرِّ أصلاً تماماً كما فعلت العاصفةُ بالصدوعِ في جدران الكاتدرائيةِ.

نظرَ إلى جدارِ الجناحِ وسقفِ الممرّ الجانبي. تخيلَ كتائف ثقيلةً ناتئةً من جدارِ الممرّ الجانبي، ونصفَ القنطرةِ تحتَ سقفِ الممرّ تربط كتائف أسفلِ منطقةِ النوافذ العلويةِ. ما حلُّ هذهِ المشكلة؟ كان غارقاً في التفكيرِ بحلِ هذا الصباح، ولكن فيليب قاطعهُ. هل الحلُّ بناءُ كتائف أطول، ربما بعشرين قدماً أخرى، مع نصفِ قنطرةٍ أخرى على طولِ الفجوةِ وحتَّى النقطةِ التي يظهر فيها التصدع على الجدارِ. ستعملُ القنطرةُ، والكتائف الطويلة على تثبيتِ النصف العلوي من الكنيسةِ، وتدعم الجدار في وجهِ الرياحِ.

قد يحلُّ هذا المشكلة، ولكن إن بنى ممرّاً بطابقين من أجلِ إخفاءِ الكتائفِ ونصف القنطرةِ الثانوية فقد يفقدُ الضوء، وإن لم يفعل...»

«وماذا في الأمرِ إن خسرتُ الضوءَ؟» قال في نفسهِ.

تملكهُ شعورٌ أنَّ ما من شيءٍ مهمٌ إلى هذهِ الدرجةِ خاصَّة أنَّ حياتهُ الآن تتداعى، وهو في هذا المزاجِ لم يجد عيباً في فكرة الكتائف الواضحةِ. من مكانهِ على السقفِ أمكنهُ وبكلِّ سهولةٍ تخيلها: صفاً من الأعمدةِ الحجريةِ القويةِ تعلو من الجدارِ الجانبي للممرِ، ومن أعلى العمودِ ترتفعُ نصفُ قنطرةٍ فوقَ المساحةِ الفارغةِ باتجاهِ منطقةِ النوافذِ العلويةِ. قد يضع تاجاً مزخرفاً على قمةِ كلِّ عمودٍ فوقَ النقطةِ التي تخرجُ منها القنطرةُ.

«أجل، هذا يبدو أفضل»، قال لنفسهِ.

كانَ بناءُ أجزاءِ تدعيمٍ كبيرةٍ في مكانٍ ستبدو فيه واضحةً جداً فكرةً ثوريةً، ولكن الأسلوبَ الجديدَ في البناءِ، وفي جزءٍ منه، يعتمدُ على إبراز الطريقةِ التي يرتفعُ فيها البناء.

على أيِّ حالٍ شعرَ أنَّ حدسهُ يقول له إنَّه محقٌّ.

وكلما أمعنَ التفكيرَ في الأمرَ أحبَّ الفكرةَ أكثر. تخيلَ الكنيسةَ من الزاوية الغربية حيثُ ستبدو أنصافُ القناطرِ كأجنحةِ رفِ طيورٍ منتظمٍ يوشك على الطيرانِ. ما من داعٍ لأن تكون أنصاف القناطرِ ضخمةً فما دامت متقنةَ الصنعِ

يمكنه جعلها نحيلةً، وأنيقةً، وخفيفةً ولكن قويةً كجناحِ طائرٍ. وفكرَ في نفسِهِ: «كتائف مجنحة في كنيسةٍ خفيفةٍ جداً إلى درجةٍ ستبدو معها الكنيسة كأنَّها تطير. أتساءل إن كان الأمرُ سينجح».

وفجأةً عصفت ريحٌ أفقدتهُ توازنهُ وتأرجحَ على حافةِ السقفِ. لوهلةٍ اعتقدَ أنَّه سيقع، ويلقى حتفهُ، ثمَّ استعادَ توازنهُ، وتراجع إلى الوراءِ وقلبهُ، يخفقُ بقوةٍ من الخوفِ.

وفي بطءٍ وحذرٍ عاد أدراجه عبر السطحِ إلى بابِ البرجِ ثمَّ نزلَ.

– 2 –

توقفَ العملُ على كنيسةِ شايرنغ، ووجدَ رئيسُ الديرِ فيليب نفسهُ يشعرُ بشيءٍ من الشماتةِ حيال الأمرِ. بعدَ كلِّ نظراتِ الخيبةِ التي رمقَ بها موقعَ بناءِ الكاتدرائية المهجورِ لم يكن بوسعهِ منع نفسهِ من الشعورِ بالسرور لأنَّ أعداءهُ لاقوا ذات المصير. لم يتمكن البنَّاء آلفريد سوى من هدمِ الكنيسةِ القديمةِ، ووضعِ أساساتِ الكنيسةِ الجديدةِ عندما فقدَ وليم لقبه ونضبَ ماله. قال فيليب لنفسهِ إنَّه لا يجب أن يفرحَ لخرابِ كنيسةٍ، ولكن من الواضح أنَّ الربَّ يريد للكاتدرائيةِ أن تكون في كينغزبريدج، وليسَ في شايرنغ، ويبدو أنَّ الحظ السيىء الذي مُني بهِ مشروع ويلارن إشارةٌ واضحةٌ على النوايا الإلهية.

وبما أنَّ أكبرَ كنائسِ شايرنغ الآن قد هُدمت عقدوا جلسات محكمةِ المقاطعةِ في القاعةِ الكبيرةِ في القلعةِ. سافرَ فيليب مع جوناثان الذي بات الآن مساعدهُ الشخصي بعدَ الفوضى التي صاحبت ارتدادَ ريميجوس. على الرغمِ من صدمةِ فيليب بخيانةِ ريميجوس فإنَّه سُرَّ برحيلِ الرجلِ فمنذُ أن هزمهُ في انتخاباتِ رئاسةِ الديرِ، والرجل كالشوكةِ في خاصرتهِ. غدا الدير بعدَ رحيلِ ريميجوس مكاناً أفضل.

أصبحَ ميليوس الآن نائب رئيسِ الديرِ، واستمرَّ أيضاً بمهامهِ كأمين الخزنةِ، وأصبحَ لديهِ طاقم من ثلاثةِ رهبان يعملون تحتَ إمرتهِ في الخزنةِ. يبدو أنَ رحيلَ ريميجوس أثارَ تساؤلات الجميعِ حيالَ ما كان ريميجوس يفعلهُ خلالَ اليومِ.

كان فيليب راضياً جداً بالعملِ مع جوناثان، واستمتعَ بتعليمهِ كيفيةَ إدارةِ

الدير، والطرق التي يسيرُ بها العالم، وأفضلَ أسلوبٍ للتعامل مع الناسِ. عموماً كان الفتى محبوباً جداً، ولكنه قد يتصرف بوقاحةٍ أحياناً، ويُضايق الناس المتوترين. كان عليهِ التعلم أنَّ من يعامله بعدائيةٍ يفعلُ هذا من ضعفٍ لأنَّه كلما شهدَ على عدائية أحدهم يغضب بدلاً من أن يتفهم ضعفِ هذا الشخص، وتقديم تطمينات.

كان جوناثان شاباً نبيهاً، وغالباً ما يُفاجئ فيليب بالسرعةِ التي يستوعبُ بها الأمور، وأحياناً يجد فيليب نفسَهُ واقعاً في خطيئةِ الغرورِ لأنَّ جوناثان يشبهه.

جلبَ فيليب جوناثان معه اليوم ليطَّلعَ الأخير على الطريقةِ التي تسير فيها مجريات محكمةِ المقاطعة، وأراد فيليب الطلبَ من المأمور إجبارَ ريتشارد عل فتحِ المقلعِ من أجلِ الدير. كان واثقاً من أنَّ ريتشارد مُخطئ قانونياً. إنَّ القانون الجديد الذي أعادَ المَمتلكاتِ إلى أصحابها في عهدِ الملكِ الراحلِ هنري لا يشمل ممتلكات وحقوقَ الديرِ؛ فالغرضُ من القانون هو السماح للدوقِ هنري باستبدالِ إيرلات ستيفن بإيرلاتِهِ، وذلك مكافأة على دعمِه، ولذلكَ من الواضحِ أنَّه لا يشمل ممتلكاتِ الأديرةِ. كان فيليب واثقاً من فوزِهِ، ولكن هناكَ عنصرٌ مفقودٌ ألا وهو أنَّ المأمور العجوز توفي، وسيُعلن عن بديلهِ اليوم. لا يعلم أحدٌ من سيكون المأمور الجديد، ولكن الجميع افترضَ أنَّ المنصبَ سيذهب إلى أحدِ الوجهاءِ الثلاثةِ أو الأربعةِ في شايرنغ: ديفيد بائع الحرير، أو ريس ويلش كاهن عملَ في بلاطِ الملكِ، أو غيلز لايونهارت وهو فارس يمتلكُ أراضي خارجَ البلدةِ، أو هيو اللقيط وهو الابن غير الشرعي لأسقفِ سالسبيري. أملَ فيليب أن يحصلَ ريس ويلش على المنصبِ، ولم يكن السببُ في هذا لأنَّ الأخير ويلزي مثلهُ بل لأنَّه على الأرجحِ سيأخذ جانب الكنيسةِ. لم يكن فيليب قلقاً جداً حيالَ الأمرِ لأنَّه اعتقدَ أنَّ أيَّ رجلٍ من الرجال الأربعة سيحكم لمصلحتهِ.

دخلَ فيليب وجوناثان إلى القلعةِ. لم تكن تعزيزات القلعةِ كبيرةً لأنَّ إيرل شايرنغ يمتلكُ قلعةً أخرى خارجَ البلدةِ، ونجمَ عن هذا نجاةُ بلدةِ شايرنغ، ولأجيالٍ عديدةٍ، من الغاراتِ والمعاركِ. كانت القلعةُ أقرب إلى المركزِ الإداري منها للقلعةِ، وتحوي على مكاتب، ومقرَّات المأمورِ ورجالهِ،

وزنازين للمجرمين. وضعَ فيليب وجوناثان جواديهما في الإسطبلِ، وتوجها إلى القاعةِ الكبرى التي تقع في أكبر مبنى.

كانت الطاولات قد وضعت على مناصبها وفقَ تشكيلةٍ تشبه الحرفَ (T) كما هي العادةُ، والجزء الأعلى في هذهِ التشكيلة مرفوعٌ على منصةٍ تطلُ على بقيةِ القاعةِ، أمَّا بقية الطاولات فقد رُتبت على جانبي القاعةِ حتَّى تكون الأطرافُ المتخاصمةُ بعيدةً بعضها عن بعض، وتتفادى إغراءَ العنف الجسدي.

عندما دخلَ فيليب وجدَ القاعةَ ممتلئةً، والأسقف ويلارن جالساً على المنصةِ ينظرُ بحقدٍ، ولكن فيليب تفاجأ عندما رأى وليم هاملي إلى جانبِ ويلارن، ويتحدث إليهِ من طرفِ فمهِ وهو يراقبُ الداخلين. تساءل فيليب في نفسهِ عمَّا كان وليم يفعله هنا فقد كان بعيداً عن الأضواءِ لتسعةِ أشهرٍ، وبالكادِ غادرَ قريتَه، وكحالِ جميعِ الناسِ تمنّى فيليب لو أنَّ وليم يبقى في قريتِهِ إلى الأبدِ، ولكن ها هو هنا الآن يجلسُ على المقعدِ كأنَّه ما زال الإيرل، وتساءل فيليب في نفسهِ عن المكيدةِ الشريرةِ والجشعةِ التي حضرها وليم وجلبها معه اليوم إلى محكمةِ المقاطعةِ.

جلسَ فيليب وجوناثان على مقعدٍ عند طرفِ القاعةِ، وانتظرا بدءَ الجلسةِ. كان جو القاعةِ يفيض تفاؤلاً فقد انتهت الحربُ، وعادت نخبةُ المقاطعةِ إلى الاهتمامِ بالأعمالِ التي تدرُ المال. ولأنَّ الأراضي خصبة سرعان ما كافأت الناس على جهودهم، وكلّ الدلائل تشير إلى أنَّ الحصاد سيكون وفيراً هذا العام. استعانَ فيليب بكلِّ البنَّائين ممن غادروا في ذروةِ المجاعةِ التي لم تترك سوى الأصغر عمراً، والأقوى، والأكثر صحةً، وها هم الناس الآن في القاعةِ الكبرى في قلعةِ شايرنغ يبدون مُفعمين بالأملِ، وبدا هذا واضحاً من الطريقةِ التي حرَّكوا بها رؤوسهم، ومن نبرةِ أصواتهم، وأحذيةِ الرجالِ الجديدةِ، وقبعاتِ النساءِ الفاخرةِ، وحقيقة أنَّهم ميسورون كفايةً ليمتلكوا شيئاً أتوا للدفاعِ عنهُ في المحكمةِ.

عندما دخلَ نائبُ المأمورِ مع الإيرل ريتشارد وقفَ الجميعُ. صعدَ الرجلان إلى المنصةِ ثمَّ وبينما الجميع ما يزال واقفاً قرأ النائبُ أمراً ملكياً بخصوصِ المأمورِ الجديدِ، وبينما كان النائب يقرأ المقدمةَ المعهودة في مثلِ

هذهِ الوثائق نظرَ فيليب من حولهِ إلى المرشحين الأربعة، وتمنّى في سرّه أن يتحلى الفائز بالشجاعةِ لأنَّه سيحتاجها للدفاعِ عن القانون من الشخصيات المحليةِ المتنفذةِ كالأسقفِ ويلارن، والإيرل ريتشارد، واللورد وليم. لا بدَّ أنّ المرشح الناجح يعرف بأمرِ اختيارهِ، ولم يكن هناك ما يمنعهُ من إبقاءِ الأمرِ سِرّاً، ولكن ما من أحدٍ من المرشحين الأربعةِ بدا مُفعماً بالسرورِ والحيويةِ. عادةً ما سيقفُ الفائز بالمنصبِ إلى جانبِ النائبِ وهو يقرأ الإعلان، ولكن في الأعلى لم يكن هناك سوى ريتشارد وويلارن ووليم، وهنا عبرت في ذهنِ فيليب فكرةٌ صادمةٌ وهي أنَّ وليم قد يكون المأمور الجديد، ثمَّ شعرَ برعبٍ أكبر عندما سمعَ النائب يقول: «... أُعين خادمي وليم هاملي مأموراً على شايرنغ، وآمر جميع الرجال بمساعدتهِ...»

نظرَ فيليب إلى جوناثان وقال: «وليم!»

وعلت أصواتُ المفاجأةِ والاستنكارِ من سكانِ البلدةِ.

قال جوناثان: «كيفَ فعل هذا؟»

«لا بدَّ أنَّه اشتراه».

«ومن أين جلبَ المال؟»

«استدانه كما أعتقد».

تحرَّك وليم باتجاهِ العرشِ الخشبي وسطَ الطاولةِ العاليةِ وهو يبتسم. يتذكره فيليب شاباً وسيماً في ما مضى، ورغمَ أنَّه ما زال في الثلاثين فإنَّه بدا أكبر عُمراً. كان سميناً جداً وبشرتهُ موردة من الإفراطِ في شربِ النبيذِ، وغابت عن وجههِ تلكَ النظرة التي تفضح قوةً وتفاؤلاً نابضاً بالحياةِ، وتجعلُ الوجوه الشابة جذابةً وحلَّ محلها نظرةُ شخصٍ غارقٍ في الملذاتِ.

حالما جلسَ وليم نهضَ فيليب.

نهضَ معهُ جوناثان أيضاً وهمسَ له: «هل سنغادر؟»

«الحق بي»، أجابهُ فيليب بصوتٍ كالهسيس.

حلَّ الصمت بين الحاضرين في القاعةِ، واستقرت العيون عليهما وهما يقطعان قاعةَ المحكمةِ. ابتعدَ الحشدُ من طريقهما إلى أن وصلا إلى البابِ، وخرجا ثمَّ علت همهمةُ تعليقاتٍ بعد أن أغلقا البابَ وراءهما.

قال جوناثان: «لن تكون لدينا فرصةٌ بالنجاحِ بعدَ أن أصبحَ وليم المأمور».

«بل أسوأ من ذلكَ»، قال فيليب. «لو أننا قدمنا قضيتنا لخسرنا حقوقاً أخرى على الأغلب».

«يا إلهي لم أفكر في هذا قط».

أومأ فيليب بتجهمٍ وقال: «بما أنَّ وليم المأمور الآن، وويلارن الأسقف، وريتشارد الخائن إيرلاً بات مستحيلاً على ديرِ كينغزبريدج أن يحصلَ على العدالةِ في هذهِ المحكمة. إنَّهم يملكون سلطةَ فعلِ ما يشاؤون».

بينما كان فتى الإسطبل يسرجُ جواديهما قال فيليب: «سألتمسُ إلى الملكِ كي يحولَ كينغزبريدج إلى منطقةٍ إداريةٍ، وبهذهِ الطريقةِ سيكون لدينا محكمة خاصة بنا، وسندفعُ ضرائبنا إلى الملكِ بشكلٍ مباشرٍ، ولن نكون في نطاقِ سُلطةِ المأمورِ».

«لطالما عارضت الأمرَ في الماضي»، قال جوناثان.

«عارضتهُ لأنّه يمنح سكانَ البلدةِ سُلطةً كسُلطةِ الدير، ولكنني أعتقدُ الآن بضرورةِ القبولِ به كثمنٍ لاستقلالنا لأنَّ البديل هو وليم».

«هل سيمنحنا الملكُ امتياز المنطقةِ الإداريةِ؟»

«قد يفعل، ولكن لقاء ثمنٍ، وإن لم يفعل فقد يفعل هنري عندما يصبح ملكاً».

امتطيا جواديهما، وغادرا البلدةَ مُحبطين.

عندما عبرا البوابةَ مرَّا بكومةٍ من القمامةِ وسط أرضٍ بور خارجَ البلدةِ، وبضعة عجائز ينبشون القمامةَ باحثين عن الطعامِ وخرقِ ثيابٍ كي يرتدوها أو يحرقوها للتدفئةِ. حدَّق إليهم فيليب من دون اهتمامٍ، ولكن أحد أولئكَ العجائز لفتَ انتباهه. كان شخصاً بقامةٍ طويلةٍ انحنى فوقَ كومةٍ من الخرقِ يُنقبُ فيها. شدَّ فيليب لجام جواده، وفعلَ جوناثان المثلَ.

«انظر»، قال فيليب.

نظرَ جوناثان إلى حيث نظرَ فيليب، وبعد وهلةٍ قال بهدوءٍ: «ريميجوس».

راقبه فيليب. يبدو أن ويلارن ووليم طرداه بعد أن نضبَ مالُ بناءِ الكنيسةِ الجديدةِ فهما لم يعودا بحاجةٍ إليهِ. خان ريميجوس فيليب، والديرَ،

وكينغزبريدج على أمل أن يكون رئيسَ كنيسةِ شايرنغ، ولكن جائزتهُ ذهبت أدراجَ الرياحِ.

خرجَ فيليب بجوادِهِ عن الطريقِ، وقطعَ الأرضَ البورِ باتجاه ريميجوس فلحقَ بِهِ جوناثان. فاحت من أرضِ المكبِّ رائحةٌ سيئةٌ، وعلقت في الأجواءِ كغمامةٍ. عندما اقتربَ فيليب لاحظ أنَّ ريميجوس بدا نحيلاً كثيراً، وعباءتهُ قذرةً، ويسيرُ حافي القدمين. كان في الستين، وقضى معظمَ حياتِهِ في الديرِ، ولذلك لم يُعلمهُ أحد كيفَ يعيشُ في ظروفٍ قاسيةٍ. رآه فيليب يسحبُ من القمامةِ زوجاً من الأحذيةِ الجلديةِ بثقبين كبيرين في النعلين، ولكن ريميجوس نظرَ إليهما كأنَّه عثرَ على كنزٍ مدفونٍ، وعندما كان على وشكِ تجربتهما رأى فيليب.

استقامَ وفضحت تعابير وجهه صراعاً بين شعورهِ بالعارِ والتحدي، وبعدَ وهلةٍ قال: «حسناً، هل أتيتَ إلى هنا للتشفي؟»

«لا»، قال فيليب برقةٍ. كان مظهرُ عدوهِ القديمِ مثيراً للشفقةِ، ولم يشعر نحوه سوى بالتعاطفِ. ترجّل فيليب عن جوادهِ، وأخذَ قارورةً من سرجِ جوادهِ ثمَّ قال: «أتيتُ لأقدِّم لكَ بعضَ النبيذِ».

لم يرغب ريميجوس بقبولِ النبيذِ، ولكنه كان جائعاً جداً على مقاومةِ العرضِ. ترددَ لوهلةٍ، ولكنه اقتنصَ القارورة، وشمَّ النبيذَ بريبةٍ ثمَّ وضعَ القربةَ على فمهِ. لم يكن في القارورةِ سوى نصف ليتر من النبيذِ، وتجرعهُ ريميجوس كلهُ خلالَ بضعِ لحظاتٍ ثمَّ أخفضَ يدهُ، وترنحَ قليلاً.

أخذَ فيليب القارورة منه، وأعادها إلى سرجِ جوادهِ. «من الأفضلِ أن تتناول بعضَ الطعامِ أيضاً»، قال فيليب وأخرجَ رغيفاً صغيراً من الخبزِ.

أخذَ ريميجوس الخبز، ودفعهُ كلهُ داخلَ فمهِ. يبدو أنَّه لم يأكل منذُ أيامٍ وربما لم يحظَ بوجبةٍ حقيقيةٍ منذُ أسابيعٍ. فكر فيليب في حزنٍ أنَّه قد يموتُ قريباً، وإن لم يكن من الجوعِ فمن العارِ.

أنهى ريميجوس الخبزَ بسرعةٍ وقال له فيليب: «هل تريدُ العودة؟»

سمعَ شهقةً عاليةً من جوناثان الذي، وكعددٍ كبيرٍ من الرهبان، تمنَّى ألا يرى ريميجوس مجدداً، وفكر أنَّ فيليب مجنون لتقديمِ مثلَ هذا العرضِ.

وشيءٌ ما من شخصيةِ ريميجوس القديمةِ خرجَ مع قولهِ: «أعود؟ في أيِّ منصبٍ؟»

هزَّ فيليب رأسهُ بأسى وقال: «لن تشغل أيَّ منصبٍ في ديري يا ريميجوس. عُد كراهبٍ عادي متواضعٍ، ولتطلب من الرَّبِّ المغفرةَ على خطاياك، وعش بقيةَ حياتكَ تصلي، وتتأملَ، وتُحضر روحكَ كي تدخلَ الجنةَ».

أمالَ ريميجوس رأسهُ إلى الوراءِ، وتوقعَ فيليب رفضاً هازئاً، ولكنه لم يكن كذلك. فتحَ ريميجوس فمهُ ليتحدث، ولكنه أغلقه مجدداً، وأطرقَ ناظريه أرضاً. وقفَ فيليب بثباتٍ وهدوءٍ يراقبُ ويتساءل في نفسهِ عمَّا سيحدث الآن. دامَ الصمتُ طويلاً حبسَ فيليب خلاله أنفاسهُ في ترقبٍ. عندما رفعَ ريميجوس ناظريه مجدداً كان وجههُ مُبللاً بالدموعِ.

«أجل من فضلكَ يا أبتاه»، قال ريميجوس. «أريد العودة إلى الديرِ».

شعرَ فيليب بالبهجةِ وقال: «رافقني إذاً. اصعد على جوادي».

بدا ريميجوس مدهوشاً.

قال جوناثان: «أبتاه! ما الذي تفعله؟»

قال فيليب لريميجوس: «هيا. افعل ما طلبتهُ منكَ».

هلعَ جوناثان وقال: «ولكن يا أبتاه، كيفَ ستكملُ رحلتكَ؟»

«سأسير»، قال فيليب بسعادةٍ. «على أحدنا أن يفعلَ هذا».

«دع ريميجوس يسير!» قال جوناثان بلهجةٍ غاضبةٍ.

«سأدعهُ يركب»، قال فيليب. «فقد منَّ عليهِ الرَّبُّ اليومَ بالرضا».

«وماذا عنكَ؟ أليسَ الرَّبُّ راضياً عنكَ أكثر من ريميجوس؟»

«يقول المسيحُ إنَّ بهجةَ الجنَّةِ تغدو أكبر عندما يدخلها خاطئ تائبٍ مقارنة بدخول تسعةٍ وتسعين شخصاً صالحين»، حاججه فيليب. «ألا تتذكر حكايةَ الولدِ المُبذرِ؟ عندما عادَ إلى المنزلِ ذبحَ له والدهِ العجلَ الذي كان يُسمنهُ. إنَّ الملائكة فرحةٌ اليوم بدموعِ ريميجوس، ولذلكَ أقلّ ما يمكنني فعلهُ هو إعطاؤهُ جوادي».

أمسكَ فيليب باللجامِ، وقادَ الجوادِ عبرَ الأرضِ البور باتجاهِ الطريقِ. لحقَ بهِ جوناثان وعندما وصلا إلى الطريقِ ترجّلَ جوناثان عن جوادهِ وقال: «من فضلكَ أبتاه فلتأخذ جوادي، ودعني أمشي!»

استدارَ فيليب نحوه، وتحدَّثَ بشيءٍ من الصرامةِ: «امتطِ جوادكَ، وتوقف عن مجادلتي، ولتفكر فقطَ بما حدثَ وبسببهِ».

بدا جوناثان مضطرباً، ولكن امتطى جوادهُ مجدداً، ولم يُضف كلمةً واحدةً.

استداروا باتجاه بلدةِ كينغزبريدج التي تبعدُ عن شايرنغ عشرين ميلاً. كان فيليب يشعرُ بشعورٍ رائعٍ فقد عوضته عودةُ ريميجوس عن خسارةِ المقلعِ، وقال لنفسهِ: «خسرتُ في المحكمةِ اليوم، ولكنني لم أخسر سوى حجارةٍ، أما ما ربحتهُ فهو أهمُّ وبأشواطٍ كثيرةٍ... لقد ربحت روحَ رجلٍ».

- 3 -

طفى التفاحُ الجديدُ الناضجُ في برميلِ الماءِ، ولمعَ لونهُ الأحمر والأصفر تحتَ أشعةِ الشمسِ التي غطت سطحَ الماءِ في البرميلِ. انحنت سالي ذات التسعة أعوامٍ والمتحمسةِ فوقَ حافةِ البرميل، ويداها وراء ظهرها تحاول التقاطَ تفاحةٍ بأسنانها، ولكن التفاحة تحرَّكت بعيداً، وغطست بوجهها في الماءِ. أخرجت رأسها وهي تتحدثُ بحيويةٍ، وتضحكُ بشدةٍ. ارتسمت ابتسامة واهيةٌ على وجهِ آليانا، ومسحت وجهَ فتاتها الصغيرةِ.

كان الجو بعدَ ظُهر هذا اليومِ من أواخرِ فصلِ الصيفِ دافئاً، ولأنَّ اليومَ عطلة عيدِ أحد القديسين تجمَّع معظمُ سكانِ البلدةِ في المرجِ قبالةَ النهرِ يلعبون لعبة التقاطِ التفاحِ. لطالما تمتعت آليانا بهذا النوعِ من المناسباتِ، ولكن فكرة أنَّ هذا سيكون آخر عيدٍ تقضيهِ في كينغزبريدج لم تفارقها، وألقت بظلالها على معنوياتها، ورغمَ أنَّها ما تزال عازمةً على تركِ جاك، ولكنها، ومنذُ أن أخذت قرارها، بدأت تشعرُ بألمِ الفقدِ.

كان تومي يحومُ قريباً من البرميل وناداه جاك: «هيا يا تومي فلتُجرب!»

«ليسَ بعد»، أجابه تومي.

علمَ تومي البالغ من العمرِ أحدَ عشرَ عاماً أنَّه أذكى من أختهِ، بل اعتقدَ أنَّه أذكى من معظمِ الناسِ أيضاً. راقبَ الأمورَ لبرهةٍ، ودرسَ تقنيات من نجحوا في التقاطِ التفاحِ. راقبتهُ آليانا وهو يراقب. كانت تحبُّه بشكلٍ خاصٍ؛ فقد كان جاك في مثلِ عمرهِ عندما التقتهُ لأول مرَّةٍ، وتومي يشبه جاك كثيراً، وأثارَ فيها النظرُ إليه الحنينَ إلى أيامِ الطفولةِ. أرادَ جاك من تومي أن يصبحَ بنَّاءً، ولكن تومي لم يُظهر حتَّى الآنَ أيَّ اهتمامٍ بالبناءِ، إلَّا أنَّ الوقت ما زال أمامهُ.

في نهايةِ المطافِ توجه تومي إلى البرميل، وانحنى فوقهُ ثمَّ أحنى رأسهُ ببطءٍ فاتحاً فمهُ، ودفعَ بالتفاحةِ التي اختارها تحتَ سطحِ الماءِ فغاصَ كاملُ وجههِ ثمَّ أخرجهُ ظافراً بتفاحةٍ بينَ أسنانهِ.

سيكون تومي ناجحاً في أيِّ شيءٍ يضعهُ نصبَ عينيهِ فقد ورثَ عن جدهِ الإيرل بارثيميلو بعضاً من خصاله، وكانت إرادتهُ عظيمةً، ولديهُ حسٌّ قوي بالصوابِ والخطأ.

أمَّا سالي فقد ورثت عن والدها طبيعتهُ الهادئةَ، وكرهه للقوانين البشريةِ، وعندما كان جاك يروي الحكايا للأطفال لطالما تعاطفت سالي مع الخاسرِ في الوقت الذي يُصدرُ فيهِ تومي حُكماً عليهِ. امتلكَ كل طفلٍ شخصيةَ أحدِ الأبوين، ومظهرَ الآخر. امتلكت سالي البشوشة تقاسيم آليانا، وشعرها الداكن الكثيف، أمَّا تومي الحازم فقد أخذَ عن والدهِ شعرهُ الأصهب، وبشرتهُ الفاتحة، وعينيه الزرقاوين.

وهنا صرخَ تومي: «ها هو خالي ريتشارد!»

التفتت آليانا إلى الوراءِ، ونظرت إلى حيثُ نظر تومي، ورأت شقيقها الإيرل قادماً عبرَ المرجِ مع مجموعةٍ من فرسانهِ ومرافقيهِ. هلعت آليانا عندما رأتهُ، وتساءلت في نفسها كيف امتلكَ الجرأةَ على القدومِ إلى هنا بعدَ ما فعلهُ بفيليب.

توجه ريتشارد إلى برميلِ التفاحِ وهو يبتسم للجميعِ ويصافحهم ثمَّ قال له تومي: «فلتجرب التقاطَ تفاحةٍ يا خالي. يمكنكَ أن تفعلَ هذا!»

وضعَ ريتشارد رأسهُ في البرميل ثم أخرجهُ وتفاحةٌ بين أسنانهِ البيضاء القويةِ، ولحيتهُ الشقراء تقطرُ ماءً، وفكرت آليانا أنَّ ريتشارد ماهرٌ في الألعابِ أكثر مما هو في الحياةِ.

ولكنها قررت ألَّا تسمحَ له بالتصرفِ كأنَّه لم يقترف شيئاً. قد يخافُ الآخرون من قولِ أيِّ شيءٍ له لأنَّه الإيرل، ولكنه بالنسبةِ إليها كان مجرَّد شقيقها الصغير الأحمق. توجه ريتشارد إليها ليُقبلها، ولكنها دفعتهُ بعيداً وقالت: «كيفَ أمكنكَ سرقةُ المقلعِ من الديرِ؟»

عندما لاحظَ جاك الأجـواءَ مشحونةً بينَ الشقيقين أمسكَ بيدي الطفلين، وانسحبَ.

بدا ريتشارد مجروحاً وقال: «أُعيدت الملكيات إلى أصحابها القدامى...»

«لا تحتج بهذا!» قاطعتهُ آليانا وقالت: «بعدَ كلِّ ما قدَّمه لكَ فيليب!»

«إنَّ المقلع جزءٌ من إرثي»، قال ريتشارد، وأخذها جانباً ثمَّ تحدثَ بصوتٍ خفيضٍ كيلا يسمعهُ أحد. «علاوةً على هذا أنا أحتاجُ إلى المالِ الذي أحصلُ عليهِ من بيعِ الحجارةِ يا آلي».

«وهذا لأنَّك لا تفعلُ شيئاً سوى الصيدِ طوالَ الوقتِ».

«ولكن ما الذي يسعني القيام بهِ؟»

«عليكَ العناية بالأراضي كي تجلبَ لكَ الثروةَ! هناكَ الكثير مما يجبُ القيامُ بهِ: إصلاحُ الأضرارِ التي تسببت بها الحربُ والمجاعةُ، وتطبيقُ طرقِ الزراعةِ الجديدةِ، وتنظيفُ الغاباتِ، وتجفيفُ المستنقعاتِ. بهذهِ الطريقةِ يمكنكَ أن تزيدَ من ثروتكَ، وليسَ بسرقةِ المقلعِ الذي قدَّمه الملك ستيفن إلى ديرِ كينغزبريدج».

«لم آخذ قط ما هو ليسَ ملكي».

«ولكنكَ لم تقم بأيِّ عملٍ آخر!» انفجرت آليانا. كانت غاضبةً جداً الآن، وبدأت تتفوه بأمورٍ من الأفضل لها أن تبقى طي الكتمانِ. «أنتَ لم تعمل من أجلِ أيِّ شيءٍ. أخذتَ مالي من أجلِ أسلحتكَ السخيفةَ، وأخذتَ ما قدَّمه لكَ فيليب، واستعدت لقبَ الإيرل والقلعةَ على طبقٍ من فضةٍ، وفي الوقتِ عينهِ أنتَ عاجزٌ عن إدارةِ ملكيةٍ دونَ أن تأخذَ أشياء ليست لكَ أصلاً!» ثمَّ أشاحت بنظرها، وابتعدت بسرعةٍ.

لحقَ بها ريتشارد، ولكن أحدهم قطعَ الطريقَ عليه ثمَّ انحنى له، وسأله عن أحوالهِ. سمعتهُ آليانا يردّ بتهذيبٍ على هذا الشخصِ، ويدخلُ في حديثٍ معه، وفكرت أنَّ هذا للأفضل؛ فقد قالت ما أرادت قوله، ولم تعد راغبةً بمجادلتهِ أكثر. وصلت إلى الجسرِ ثمَّ نظرت إلى الوراءِ، ورأت أنَّ أحداً آخر يتحدث إلى ريتشارد الآن. لوحَ لها كأنَّه أرادَ القولَ لها إنَّه يريدُ متابعة الحديث معها، ولكن أحدهم يعيقهُ الآن. رأت جاك وتومي وسالي يبدأون لعبةً بعصا وكرةٍ. حدَّقت إليهم وهم يلعبون معاً تحتَ أشعةِ الشمسِ، وشعرت أنَّها لا تستطيعُ تحملَ الفراقِ عنهم، ولكن ما الذي يمكنها أن تفعلهُ لتعيشَ حياةً طبيعيةً؟

عبرت الجسرَ، ودخلت البلدةَ. أرادت أن تبقى بمفردها لبعضِ الوقتِ.

استأجرت في وينشستر منزلاً كبيراً مع متجر في الطابقِ الأرضي، وغرفةِ معيشةٍ في الطابقِ العلوي، وغرفةِ نومٍ منفصلةٍ، ومخزنٍ كبيرٍ في نهايةِ الحديقةِ الخلفيةِ ستستخدمهُ لتخزين القماشِ، ولكن كلما اقتربَ وقتُ الانتقالِ شعرت برغبةٍ أقل في القيامِ بالأمر.

كانت شوارعُ كينغزبريدج حارَّةً ومُغبرّةً، والذبابُ الذي يعيشُ على تلالِ الروثِ الكثيرةِ يحومُ بكثرةٍ في الجو، أمَّا المتاجر فكانت مغلقةً، وأبوابُ البيوتِ موصدةً، ومع وجودِ الجميعِ في المرجِ بدت القريةُ مقفرةً.

توجهت إلى منزلِ جاك حيثُ سيأتي الجميعُ بعدَ الانتهاءِ من لعبةِ التقاطِ التفاحِ. كان بابُ المنزلِ مفتوحاً، وأثارَ هذا ضيقها ثمَّ سألت نفسها عمن تركَ البابَ مفتوحاً. امتلكت هي وجاك وريتشارد ومارثا نسخاً عن مفتاح المنزلِ. قد لا يكون هناك الكثير مما يمكن سرقتهُ في المنزلِ؛ فلم تكن آليانا تحتفظُ بالمالِ في المنزلِ فمنذُ سنواتٍ سمحَ لها فيليب بوضعهِ في خزينةِ الدير، ولكن المنزلَ سيكون ممتلئاً بالذبابِ الآن.

دخلت إلى المنزلِ. كان المكانُ مظلماً وبارداً، والذبابُ العادي يحومُ وسطَ الغرفةِ، والذبابُ الأزرقُ يتحركُ فوقَ الأغطيةِ، وبضعةُ يعاسب تطيرُ بحميةٍ فوقَ سدادةِ قدرِ العسلِ.

ثمَّ رأت آلفريد جالساً إلى الطاولةِ.

أطلقت آليانا صرخةَ رعبٍ قصيرةً ثمَّ تمالكت نفسها وقالت: «كيفَ دخلتَ إلى هنا؟»

«أملكُ مفتاحاً».

«لا بد أنَّه يحتفظُ بالمفتاحِ منذُ وقتٍ طويلٍ»، فكرت آليانا ثمَّ نظرت إليهِ، ولاحظت أنَّ كتفيهِ العريضتين ناحلتان، ووجهه يبدو منكمشاً.

قالت له: «ما الذي تفعله هنا؟»

«أتيتُ لرؤيتكِ».

اكتشفت آليانا أنَّها كانت ترتجفُ، ولكن ليسَ من الخوفِ بل من الغضبِ. «لا أرغبُ برؤيتكَ الآن، ولا حتَّى أبداً»، ثمَّ بصقت. «عاملتني

كما تُعامل الكلابَ ثمَّ وعندما أشفقَ عليكَ جاك، ومنحكَ عملاً خُنتَ ثقته، وأخذتَ كلَّ عمالهِ إلى شايرنغ».

«أحتاجُ إلى المالِ»، قال لها بمزيجٍ من التضرعِ والتحدي.

«فلتعمل إذاً».

«توقفت أعمالُ البناءِ في شايرنغ، ولا يمكنني الحصولُ على عملٍ هنا في كينغزبريدج».

«فلتذهب إلى لندن أو إلى باريس».

ولكنه أصرَّ بعنادِ ثورٍ قائلاً: «اعتقدتُ أنَّكِ قد تساعدينني».

«لا يوجدَ لكَ شيءٌ هنا، ولذلكَ من الأفضلِ أن تغادر».

«ألا تشعرين بالشفقةِ؟» قال لها بصوتٍ متضرعٍ غابَ فيهِ الآن أيُّ تحدٍ.

انحنت فوقَ الطاولةِ لتوازنِ نفسها وقالت: «ألا تستوعب يا آلفريد أنني أكرهكَ؟»

«لماذا؟» قال لها وبدا مجروحاً كأنَّ الأمرَ أتاه كمفاجأةٍ.

وفكرت في نفسها: «يا إلهي، كم هو غبي للتفكيرِ بهذا العذرِ» ثمَّ أجابته بتحفظٍ: «اذهب إلى الديرِ إن كنتَ تريدُ صدقةً. إنَّ قدرةَ رئيسِ الديرِ فيليب على الغفران أكبر من قدرتي».

«ولكنكِ زوجتي»، قال آلفريد.

كان هذا مفاجئاً، وقالت له بصوتٍ كالفحيح: «أنا لستُ زوجتك، وأنتَ لست زوجي. لم تكن قط زوجي. اخرج من المنزل الآن».

تفاجأت عندما أمسكَ بها من شعرها وقال لها: «أنتِ زوجتي»، ثمَّ شدَّها نحوه من فوقِ الطاولةِ وبيدهِ الحرَّةِ أمسكَ بثديها، وعصرهُ بقوةٍ.

بوغتت آليانا تماماً فقد كان هذا آخر شيءٍ توقعتهُ من رجلٍ نامت معه في غرفةٍ واحدةٍ لتسعةِ أشهرٍ دونَ أن يتمكن من مضاجعتها. صرخت، وابتعدت عنهُ، ولكنه أمسكَ شعرها بقوةٍ، وتمكن من شدها نحوه. «لن يسمع أحدٌ صراخكِ»، قال لها. «فالجميعُ في المرجِ على الضفةِ الأخرى من النهرِ».

وفجأةً شعرت بخوفٍ كبيرٍ. كانا وحدهما، وآلفريد قوي جداً. بعدَ كلّ السنواتِ التي خاطرت فيها بحياتها على طرقاتِ السفرِ ها هي تتعرضُ للهجومِ في المنزلِ، وعلى يدِ الرجلِ الذي تزوجته.

رأى آلفريد الخوفَ في عينيها وقال لها: «أنتِ خائفةٌ، أليسَ كذلك؟ ربما من الأفضلِ أن تحسني التصرف»، ثمَّ قبَّلها على فمها فعضَّت شفته بكلِّ قوةٍ، وصرخَ عالياً من الألمِ.

لم ترَ آليانا اللكمةَ التي عاجلها بها على خدها، وشعرت معها أنَّه حطَّمَ عظامها. لوهلةٍ زاغَ بصرها، وفقدت توازنها. ابتعدت عن الطاولةِ، ولكنها شعرت بنفسها تسقطُ أرضاً ولكن القشَّ على الأرضيةِ خففَ من قوةِ السقطةِ. هزَّت رأسها في محاولةٍ لاستعادةِ رشدها، ومدَّت يدها إلى الخنجرِ الذي تُثبته دوماً على ذراعها اليُسرى، ولكن قبلَ أن تتمكن من سحبه شعرت بكلا معصميها مُقيدين، وسمعت آلفريد يقول: «أعلمُ بأمرِ الخنجرِ الصغير. رأيتكِ وأنتِ تخلعين ثيابكِ، ألا تتذكرين؟» ثمَّ حرَّرَ يديها، ولكمها على وجهها مجدداً ثمَّ أمسكَ بالخنجرِ.

حاولت آليانا التملص منه، ولكنه جلسَ على ساقيها، ووضعَ يدهُ اليُسرى على عنقها فحرَّكت ذراعيها بقوةٍ لإبعادها، ولكنها فجأةً شعرت بطرفِ الخنجر فوقَ عينها تماماً.

«اهدأي أو سأفقئ عينكِ»، قال لها.

تجمَّدت في مكانها. كانت فكرةُ الإصابةِ بالعمى تخيفها فقد رأت رجالاً أُعموا كعقابٍ يتجولون على الطرقِ يتسولون، ويُحدقون بمحاجرهم الفارغةِ، والمرعبةِ إلى العابرين، والفتيةُ الصغار يُعذبونهم، ويقرصونهم، ويوقعونهم إلى أن ينفجروا غضباً ويحاولون عبثاً الإمساكَ بمعذبيهم مما يزيد من متعةِ اللعبةِ لأولئكَ الصغارِ. عادةً ما يموتُ أولئكَ بعدَ عامٍ أو عامين.

«اعتقدت أنَّ هذا سيجعلكِ هادئةً»، قال آلفريد.

تساءلت آليانا في نفسها عن سببِ قيامهِ بهذا فهو لم يبدُ قط أنَّه يشتهيها. هل يفعل هذا لأنَّه مهزومٌ وغاضبٌ، ولأنَّها ضعيفة؟ هل تمثلُ بالنسبةِ إليه العالمَ الذي يرفضُ مساعدتهُ؟

انحنى فوقها ليُثبتها، وكلتا ركبتيه على جانبي وركيها، والسكين فوقَ عينها. ومجدداً اقتربَ بوجههِ من وجهها وقال: «فلتحسني التصرَّفَ الآن»، ثمَّ قبلها مجدداً.

خرشت لحيتهُ غير المحلوقةِ بشرتها، وشمت في أنفاسهِ رائحةَ الجعةِ والبصلِ فأبقت فمها مغلقاً بقوةٍ.

«هذا ليسَ تصرفاً حسناً»، قال لها وتابع: «بادليني القبلةَ».

قبّلها مجدداً، وقرَّب طرفَ السكين من عينها أكثر. عندما لامسَ طرفُ السكين جفنها حرَّكت شفتيها، وأثارَ طعمُ فمهِ غثيانها. أقحمَ لسانهُ الخشن بينَ شفتيها، وشعرت كأنَّها على وشكِ التقيؤ ثمَّ حاولت بيأسٍ كبح هذا الشعور مخافةَ أن يقتلها آلفريد.

ابتعد عنها مجدداً، ولكنه أبقى طرفَ السكين على وجهها. «الآن، تحسسيه»، قال لها وأخذَ يدها ثمَّ وضعها تحتِ طرفِ سترتهِ فلمست عضوه. «أمسكيهِ، قال لها فأمسكت بهِ ثمَّ قال لها: «فلتفركيهِ بلطفٍ».

أطاعتهُ، وخطرَ لها أنَّها لو أمتعتهُ بهذهِ الطريقةِ فقد تتجنبُ مضاجعته. نظرت بخوفٍ إلى وجههِ، ورأته مُحمراً، وقد أغمضَ عينيهِ. داعبت عضوه من الأسفلِ إلى الأعلى، وهي تتذكرُ أنَّ جاك يُستثارُ حدَّ الجنونِ بهذا.

انتابها خوفٌ من أن يتسببَ هذا بحرمانها من التمتعِ بهذا الفعلِ مجدداً، وانحدرت الدموع من عينيها.

حرَّك آلفريد الخنجرَ مهدداً وقال: «لا تشدي بقوةٍ».

وركزت.

ثمَّ فُتحَ الباب.

شعرت آليانا بقلبها يخفقُ بقوةٍ من الأملِ. تسللَ شعاعٌ ساطعٌ عبرَ الغرفةِ، وأغشاها عبرَ دموعها. تجمَّد آلفريد، وسحبت آليانا يدها.

نظرَ كلاهما إلى البابِ، وتساءلت آليانا عمن كان، ولكن لم تستطع رؤيتهُ. ناشدت الرَّبَّ في سرِّها ألا يكون أيٌّ من الطفلين لأنَّها ستشعرُ بالعارِ. سمعتَ زئيراً غاضباً لرجلٍ فرمشت بعينيها كي ترى جيداً ثمَّ أدركت أنَّه شقيقها ريتشارد.

ريتشارد المسكين! وفكرت آليانا في نفسها أنَّ هذا أسوأ من أن يكون تومي. يمتلك ريتشارد ندبةً في أذنهِ اليسرى تذكرهُ بمشهدٍ رهيبٍ مماثلٍ شهدهُ عندما كان في الرابعة عشرة من العمر، وها هو الآن يشهدُ على آخر، كيفَ سيتمكن من احتمالِ الأمرِ؟

بدأ آلفريد ينهضُ على قدميهِ، ولكن ريتشارد كان أسرع منهُ. رأته آليانا

يعبرُ الغرفةَ الصغيرةَ بسرعةٍ، ويوجه ضربةً بقدمهِ على فكِّ آلفريد. وقعَ آلفريد بقوةٍ إلى الوراءِ قبالةَ الطاولةِ، واندفعَ ريتشارد نحوه، وأوقعِ آليانا من دونِ قصدٍ ثمَّ أخذَ يكيلُ لآلفريد الضربات بقدميهِ وقبضتيه. ابتعدت آليانا عن طريقهِ بسرعةٍ. اكتسى وجه ريتشارد بغضبٍ متوحشٍ، ولم ينظر إلى آليانا، وفهمت أنَّه لا يعبأ بأمرها. كان غاضباً جداً، ولكن ليسَ مما كان آلفريد يفعلهُ بآليانا بل مما فعلهُ وليم ووالتر بهِ منذُ ثمانية عشر عاماً. آنذاك كان ضعيفاً وعاجزاً غير أنَّه الآن رجلٌ ضخمٌ وقوي، ومقاتلٌ عتيدٌ، وها هو أخيراً يعثرُ على هدفٍ ليُفرغَ فيهِ كلَّ الغضبِ الجنوني الذي كبرَ في داخلهِ طوالَ هذهِ السنوات. لم يتوقف عن كيلِ الضرباتِ إلى آلفريد بكلتا قبضتيه، وترنَّح الأخيرُ إلى الوراءِ حولَ الطاولةِ وهو يحاول بعجزٍ صدَّ الضربات بساعديه أمامَ وجههِ. وأخيراً وجه ريتشارد ضربةً قويةً على ذقنِ آلفريد فسقطَ الأخير إلى الوراءِ.

استقرَّ آلفريد على القشِ، وهو ينظرُ إلى الأعلى مرعوباً، وآليانا بدورها كانت مرعوبةً من شدةِ عنفِ شقيقها فقالت له: «هذا يكفي يا ريتشارد!» ولكن ريتشارد تجاهلها، وتقدَّم لركلِ آلفريد ثمَّ وبشكلٍ مفاجئ أدركَ آلفريد أنَّه ما زالَ يحملُ خنجرَ آليانا في يدهِ. تفادى آلفريد الركلةَ، ووقفَ بسرعةٍ على قدميهِ ثمَ هجمَ على ريتشارد بالخنجرِ الذي بوغتَ بما حدثَ، وتراجعَ إلى الوراء. هجمَ آلفريد مجدداً، وأجبرَ ريتشارد على التراجع إلى الوراءِ عبرَ الغرفةِ. لاحظت آليانا أنَّ للرجلين البنيةَ، والطولَ ذاتهُما، ورغمَ أن ريتشارد مقاتل فإنَّ آلفريد كان مُسلحاً، وهذا يعني أن موازين القوى الآن متعادلةٌ. وفجأةً شعرت آليانا بالخوفِ على شقيقها. ما الذي سيحدث إن تغلَّبَ عليهِ آلفريد؟ ستضطرُ عندئذٍ إلى قتالِ آلفريد بنفسها.

نظرت حولها بحثاً عن سلاحٍ، ووقعَ نظرها على كومةٍ من الحطبِ بجانبِ الموقدِ فالتقطت حطبةً ثقيلةً.

اندفعَ آلفريد باتجاه ريتشارد مجدداً، وتفاداه الأخير ثمَّ وعندما كانت ذراعُ آلفريد ممدودةً أمسكه ريتشارد من معصمهِ وشدَّه. ترنّح آلفريد إلى الأمامِ فاقداً توازنهُ ثمَّ ضربه ريتشارد بكلتا قبضتيهِ دونَ توقفٍ وبسرعةٍ على وجههِ، وعلى جسدهِ. خلالَ هذا الوقتِ ارتسمت على وجهِ ريتشارد ابتسامة

متوحشةٌ، كانت ابتسامة رجلٍ يأخذُ بثأرهِ، وبدأ آلفريد ينشجُ، ورفعَ ساعديهِ مجدداً ليحمي نفسهُ.

ترددَ ريتشارد، وهو يتنفسُ بسرعةٍ. اعتقدت آليانا أنَّ الأمرَ انتهى، ولكن آلفريد هجمَ مجدداً وبسرعةٍ مفاجئةٍ، وهذهِ المرةِ جرح وجنةَ ريتشارد بالخنجرِ. تراجعَ ريتشارد إلى الوراءِ وقد بوغتَ، وتقدَّم آلفريد رافعاً الخنجرَ عالياً. رأت آليانا أنَّ آلفريد سيقتلُ ريتشارد، ولهذا ركضت باتجاههِ، وهي تلوحَ بالحطبةِ بكلِّ قوتها. ورغم أنَّها فشلت في إصابةِ رأسهِ فإنَّها أصابته في مرفقهِ الأيمن، وسمعت صوتَ الخشبِ يصطدمُ بالعظمِ. خدَّرت الضربةُ يدَ آلفريد فأوقعَ الخنجرَ من يدهِ.

كانت الطريقةُ التي انتهى بها الأمرُ سريعةً ومرعبةً.

انحنى ريتشارد، والتقطَ خنجرَ آليانا ثمَّ ومن دونِ توقفٍ ومباغتاً آلفريد طعنهُ في صدرهِ بقوةٍ كبيرةٍ.

غاصَ الخنجرُ في صدرِ آلفريد حتَّى مقبضهِ.

حدَّقت آليانا مرعوبةً إلى هذهِ الضربةِ الرهيبةِ. صرخَ آلفريد كخنزيرٍ مذبوحٍ، وعندما سحبَ ريتشارد الخنجرَ انبجسَ الدمُ من صدرِ آلفريد كنافورةٍ. فتحَ آلفريد فمهُ كي يصرخَ مجدداً، ولكن ما من صوتٍ خرجَ من فمهِ. شحبَ وجههَ ثمَّ تلونَ بلونٍ رمادي، وأغلقَ عينيهِ، وسقطَ على الأرضيةِ، وغطى الدمُ القشَّ.

ركعت آليانا بجانبهِ وجفنيه ما يزالان يرتعشان، ورغم أنَّه ما يزال يتنفس، فإنّه كان يحتضر. رفعت نظرها إلى ريتشارد الواقف فوقهما يلهثُ.

«إنَّه يحتضرُ»، قالت آليانا.

أومأ ريتشارد برأسه، ولكنه لم يبدُ متأثراً جداً ثمَّ قال: «رأيت رجالاً أفضل منه يموتون، وقتلت رجالاً لا يستحقون الموتَ بقدرهِ».

صُدمت آليانا من قسوتهِ، ولكنها لم تُضف شيئاً. تذكرت المرةَ الأولى التي قتلَ فيها ريتشارد رجلاً. حدثَ الأمرُ بعدَ أن سيطرَ وليم على القلعةِ، وكانت هي وريتشارد في طريقهما إلى وينشستر، وهاجمهما لصَّان. طعنت آليانا أحدَ اللصين ثمَّ أجبرت ريتشارد الذي كان وقتئذٍ في الخامسة عشرة

على الإجهازِ على الرجلِ، وفكرت في نفسها وهي تشعرُ بالذنبِ: «إن كان متحجرَ القلبِ فأنا السببُ».

نظرت آليانا إلى آلفريد مجدداً. فتحَ آلفريد عينيهِ، ونظرَ إليها، وهنا شعرت بالعارِ لأنَّها لم تشعر سوى ببعضِ الشفقةِ على هذا الرجلِ المحتضرِ، ولكن عندما نظرت في عينيهِ فكرت أنَّه هو نفسهُ لم يكن رحيماً، ولا سموحاً، ولا كريماً، وعاشَ حياتهُ في بغضٍ وكرهٍ، واستمتعَ بالخُبثِ وبالانتقامِ، وفكرت في نفسها: «كانت حياتكَ ستكون مختلفةً يا آلفريد لو أنَّك كنتَ لطيفاً مع أختكَ، وسموحاً مع أخيكَ غير الشقيق لأنَّه أذكى منكَ، وكان بوسعكَ أن تتزوجَ بدافعِ الحبِّ، وليسَ بدافعِ الانتقامِ، وكان بوسعكَ أن تكون أميناً ومخلصاً لرئيسِ الدير فيليب، وأن تكون سعيداً».

اتسعت عينا آلفريد فجأةً وقال: «ربَّاه هذا مؤلمٌ».

تمنَّت آليانا لو أنَّه يُسرع ويموت فوراً.

وأغلقَ آلفريد عينيهِ.

«لقد انتهى الأمرُ»، قال ريتشارد.

توقفَ آلفريد عن التنفسِ.

وقفت آليانا وقالت: «أنا أرملة».

***

دُفنَ آلفريد في مقبرةِ ديرِ كينغزبريدج كما أرادت شقيقتهُ مارثا فلم يكن له أقرباءٍ بالدمِ سواها، وكانت الوحيدة التي حزنت عليهِ. لم يعاملها آلفريد بشكلٍ جيدٍ يوماً، ولطالما لجأت إلى أخيها غير الشقيق جاك بحثاً عن الحبِ والحمايةِ. على أيِّ حالٍ أرادتهُ أن يُدفنَ في مكانٍ قريبٍ كي تتمكن من زيارةِ قبرهِ. عندما أنزلوا التابوتَ في القبرِ لم يبكِ أحدٌ سواها.

بدا جاك مرتاحاً جداً لأنَّ آلفريد أصبحَ خارجَ الصورةِ، وتومي الذي وقفَ إلى جانبِ آليانا بدا مهتماً جداً بكلِّ شيءٍ يجري؛ فقد كانت هذهِ أولَ جنازةٍ عائليةٍ، ولذلكَ كانت طقوسُ الموتِ جديدةً عليهِ، أمَّا سالي فبدت شاحبةً وخائفةً وهي تمسك بيدِ مارثا.

كان ريتشارد حاضراً، وأخبرَ آليانا خلالَ المراسمِ أنَّه أتى ليطلبَ المغفرةَ

من الرَّبِّ على قتلهِ زوجَ شقيقتهِ، وسارع إلى الإضافةِ أنَّه لا يشعرُ أنَّه اقترفَ ذنباً، ولكنه أرادَ أن يكون آمناً من غضبِ الرَّبِّ.

أمَّا آليانا التي ما زالَ وجهها مرضوضاً، ومنتفخاً من لكمةِ آلفريد الأخيرة تذكرت أولَ مرة التقت فيها بالرجلِ الميت. أتى إلى قلعةِ الإيرل مع ولدهِ البنَّاءِ توم، ومارثا، وإيلين، وجاك، وكان وقتئذٍ المتنمر في العائلةِ. كان ضخماً، وقوياً، وبليداً، ومخادعاً، ووقحاً. ولو أنَّ آليانا عرفت وقتها أنَّها ستتزوجُ منه لاحقاً لرمت بنفسها من أعلى سورِ القلعةِ؛ فهي لم تتخيل آنذاك أنَّها قد تلتقي بالعائلةِ مجدداً بعدَ أن غادرت القلعةَ، ولكن انتهى الأمر بها وبهذهِ العائلةِ في كينغزبريدج. أسست هي وآلفريد نقابةَ الأبرشيةِ التي أصبحت الآن مؤسسةً هامةً في البلدةِ. حدثَ هذا عندما تقدَّم آلفريد بطلبِ الزواجِ منها. آنذاك لم يخطر ببالها أنَّ دافعهُ الأكبر لفعلِ هذا عداوتهُ لأخيهِ غير الشقيق أكثر من رغبتهِ بها. رفضتهُ آنذاك، ولكنه لاحقاً عرفَ كيفَ يتلاعبُ بها، ويُقنعها بالزواجِ منه مقابل دعمِ شقيقها. كلما استرجعت هذهِ الذكريات شعرت أنَّ آلفريد استحقَّ كلَّ اليأسِ، والذلِ اللذين نالهما بزواجهِ منها. ولأنَّ دوافعه خسيسةٌ كانت مكافأته على هذا عدمَ حصولهِ على الحبِّ.

لم يكن بوسعِ آليانا منعُ نفسها من الشعورِ بالسعادةِ، ولم تعد مسألةُ مغادرتها كينغزبريدج والعيش في وينشستر مطروحةً فبوسعها هي وجاك الآن الزواج وعلى الفورِ، ولكنها كانت تتصرفُ برزانةٍ لأنَّها كانت في جنازةٍ، وأجبرت نفسها على التفكيرِ برزانةٍ، ولكنها شعرت بقلبها كأنَّه سينفجر من فرطِ البهجة.

أمَّا فيليب الذي امتلكَ قدرةً لا محدودةً على مسامحةِ من يخونه فقد وافقَ على دفنِ آلفريد.

وقفَ البالغون الخمسة والطفلان حولَ القبرِ المفتوحِ وهنا وصلت إيلين.

تجهمَ فيليب عندما رآها. لعنت إيلين زفافاً مسيحياً؛ ولذلك لم يكن مرحباً بها في الديرِ، ولكن لا يسعهُ منعها من حضورِ جنازةِ ابن زوجها. على أيِّ حالٍ كانت طقوسُ الدفنِ قد انتهت، ولذلكَ اكتفى فيليب بالمغادرةِ.

شعرت آليانا بالأسفِ على فيليب وإيلين؛ فهما شخصان طيبان، ومن المؤسفِ أنَّهما كانا عدوين. كانا طيبين ولكن كلٌّ بطريقةٍ مختلفةٍ، ولا يقبل الواحد منهما بالمعايير الأخلاقيةِ للآخر.

بدت إيلين أكبر عمراً، وازدادت خطوطُ التجاعيدِ على وجهها، وغطى المزيد من الشيب شعرها، ولكن عينيها العسليتين ما زالتا جميلتين. لم ترتد إيلين سوى سترةٍ جلديةٍ مُحاكةٍ على عجلٍ وحذاء، وبدت ذراعاها وساقاها سمراء وقوية. ركضَ تومي وسالي نحوها لتقبيلها، ولحقَ بهما جاك، وعانقها بقوةٍ.

عندما أعطت إيلين خدها إلى ريتشارد ليُقبلها قالت له: «لقد فعلت الصوابَ. لا تشعر بالذنبِ».

وقفت عندَ حافةِ القبرِ تنظر إلى الأسفلِ ثمَّ قالت: «كنتُ زوجةَ والدهِ، ولطالما تمنيت أن أجعلهُ سعيداً».

عندما ابتعدت عن القبرِ عانقتها آليانا.

ساروا جميعاً ببطءٍ، وقالت آليانا لإيلين: «هلّا بقيتِ لبعضِ الوقتِ وتناولتِ الغداءَ معنا؟»

«بكلِّ سرورٍ»، قالت ثمَّ عبثت بشعرِ تومي الأصهب. «أريدُ التحدثَ إلى حفيديّ. إنَّهما يكبران بسرعةٍ. عندما قابلت البنَّاءَ توم لأولِ مرةٍ كان جاك بعمرِ تومي الآن». كانوا الآن يقتربون من بوابةِ الديرِ. «عندما يكبرُ المرءُ يشعرُ أنَّ السنوات تمر بسرعةٍ. أعتقدُ...» وتوقفت في منتصفِ الجملةِ عن الكلامِ والمشي.

«ما الأمر؟» قالت آليانا.

حدَّقت إيلين إلى بوابةِ الديرِ المفتوحةِ. كان الشارع خارجَ البوابةِ خالياً من المارةِ، ولكن مجموعةً من الأطفالِ الصغارِ على الجانبِ المقابلِ وقفت تحدقُ إلى شيءٍ ما مخفي.

«ريتشارد!» قالت إيلين بحدةٍ ثمَّ تابعت: «لا تخرج!»

توقفَ الجميع، ورأت آليانا ما أثارَ ريبةَ إيلين. بدا الأطفال كأنَّهم يراقبون شيئاً، أو شخصاً يقفُ خارجَ بوابةِ الديرِ، ويتخفى وراءَ الجدارِ.

وجاءَ ردُّ فعلِ ريتشارد سريعاً. «إنَّه فخٌ»، قال ريتشارد، ومن دونِ أن ينتظرَ استدارَ، وركضَ.

وهنا برزَ رأسٌ بخوذةٍ من وراءِ عضادةِ البوابةِ. كان رأسَ جندي ضخمٍ.

عندما رأى الرجلُ ريتشارد يركض باتجاهِ الكنيسةِ صاحَ، واندفعَ إلى داخلِ ساحةِ الديرِ ثمَّ لحقَ بهِ ثلاثةٌ، أو أربعة، أو خمسةِ جنودٍ آخرين.

تفرَّقَ حشدُ الجنازةِ، ولكن الجنودَ تجاهلوهم، وركضوا في إثرِ ريتشارد. شعرت آليانا بالرعبِ والحيرةِ، وتساءلت في نفسها عمن يجرؤ على مهاجمةِ إيرل شايرنغ علناً، وفي الديرِ. حبست أنفاسها، وراقبتهم يطاردون ريتشارد عبرَ الساحةِ. قفزَ ريتشارد فوقَ جدارٍ واطئ يعملُ عليهِ البناؤون، وبدورهم مطاردوه قفزوا فوقهُ دونَ أن يهتموا لفكرةِ أنَّهم يدخلون الكنيسةَ. تجمَّد العمال في أماكنهم، ورفعوا مجارفَ التطيين، والمطارق، وتوقفوا عن العملِ عندما رأوا ريتشارد أولاً ثمَّ عندما رأوا مطارديه. وببديهةٍ سريعةٍ قامَ أحدُ المتدربين الصغارِ بوضعِ مجرفةٍ أمامِ أحدِ الجنودِ، وأوقعهُ ثمَّ هربَ، ولكن ما من أحدٍ آخر تدخلَ. وصلَ ريتشارد إلى البابِ الذي يُفضي إلى الممرّاتِ المسقوفةِ، وكان الجندي الأقربُ إليه قد رفعَ سيفهُ الآن. ولوهلةٍ انتابَ آليانا خوفٌ رهيبٌ من أن يكون البابُ موصداً، وألا يتمكن ريتشارد من الدخولِ. وجهَ الجندي القريب سيفهُ نحو ريتشارد ولكن ريتشارد فتحَ البابَ، ودخلَ فانغرزَ السيفُ في خشبِ البابِ الذي أوصدهُ ريتشارد وراءهُ.

وتنفست آليانا الصعداء.

تجمعَ الجنودُ أمامَ بابِ الممرّاتِ المسقوفةِ ينظرون إليه في حيرةٍ كأنَّهم أدركوا فجأةً أنَّهم كانوا في كنيسةٍ. رمقهم عمالُ الكاتدرائيةِ بنظراتٍ قاسيةٍ، ورفعوا مطارقهم وفؤوسهم. كان عددُ العمالِ يُقاربُ المئةَ أمَّا الجنود فكانوا خمسةً.

قال جاك في غضبٍ: «من أولئكَ الناسِ بحقِ الجحيمِ؟»

وأجابهُ صوتٌ من ورائهِ قائلاً: «إنَّهم رجالُ المأمورِ».

استدارت آليانا إلى الوراء فقد عرفت جيداً صاحبَ الصوتِ. وهناك عندَ بوابةِ ساحةِ الديرِ على صهوةِ جوادٍ أسود مهتاجٍ وليم هاملي مُسلحاً، وفي سترةٍ من الزردِ. عندما رأتهُ آليانا سرت القشعريرةُ في جسدها.

قال جاك: «اخرج من هنا أيّها الحشرةُ المعلونةُ».

احمرّ وليم غضباً من الإهانةِ، ولكنه لم يتحرك من مكانهِ بل قال: «أتيتُ لاعتقالِ ريتشارد».

«هيا اعتقلهُ. سيُمزقكُ رجاله إرباً».

«لن يعودَ لديهِ رجالٌ عندما يدخلُ السجنَ».

«ومن تعتقدُ نفسكَ لتقومَ باعتقالهِ؟ لا يمكن للمأمور أن يضعَ إيرلاً في السجنَ».

«يمكنهُ إن كان الإيرل متهماً بجريمةِ قتلٍ».

شهقت آليانا. فهمت الآن ما دار في عقلِ وليم الشيطاني وانفجرت قائلةً: «ما من جريمة».

«بل هناك جريمةٌ»، قال وليم. «لقد قتلَ الإيرل ريتشارد البنّاء آلفريد، ويجب أن أشرحَ لرئيسِ الديرِ فيليب الآن أنّه يؤوي قاتلاً».

همزَ وليم جوادهُ، وتجاوزهم باتجاه الطرفِ الغربي لصحنِ الكاتدرائيةِ الجديدةِ غير المكتملِ ثمَّ إلى فناءِ المطبخِ حيثُ يُستقبل الناسُ العاديون. راقبتهُ آليانا غير مصدقةٍ عينيها. كان شريراً جداً، وإلى درجةٍ لا يمكن تصديقها. قد يكون المسكين آلفريد الذي دفنوه للتو سيئاً بسببِ غباءٍ وضعفٍ في شخصيتهِ، ولكن سوءهُ كان دراميأً، أمَّا وليم فهو خادمٌ حقيقي للشيطان، وفكرت آليانا في نفسها: «متى سنتخلصُ من هذا الوحشِ؟»

انضمَّ الجنودُ إلى وليم في فناءِ المطبخِ، وخبطَ أحدهم على بابِ المطبخِ بمقبضِ سيفهِ. كان البناؤون قد تركوا موقعَ البناءِ الآن، واحتشدوا يُحدقون إلى الدُخلاءِ بنظرةٍ متوعدةٍ، وقد رفعوا مطارقهم وأزاميلهم الحادة. طلبت آليانا من مارثا أن تأخذَ الطفلين إلى المنزلِ ثمَّ وقفت هي وجاك مع البنّائين.

فتحَ رئيسُ الديرِ فيليب بابَ المطبخِ. كانت قامتهُ أقصر من قامةِ وليم، وفي ردائهِ الصيفي الخفيف بدا ضئيلاً جداً مقارنةً بالرجلِ الممتلئ في سترةِ الزردِ على صهوةِ الجوادِ، ولكن على وجههِ ارتسمت نظرةُ غضبٍ صارمٍ جعلتهُ يبدو مرعباً أكثر من وليم.

قال وليم: «أنتَ تؤوي هارباً من العدالة...»

قاطعهُ فيليب بصوتٍ هادرٍ: «غادر هذا المكان على الفورِ».

حاولَ وليم مجدداً: «يوجد مجرمٌ...»

«اخرج من ديري!»، صرخَ فيليب.

«أنا المأمور...»

«حتَّى الملك لا يحق له إدخال رجالٍ مسلحين إلى ديرٍ! اخرج! اخرج!»

بدأ البناؤون يتحدثون بعضهم إلى بعض في غضبٍ فنظرَ الجنودُ إليهم في توترٍ. قال وليم: «وحتَّى رئيسُ ديرِ كينغزبريدج يجب أن ينصاعَ لأوامرِ المأمورِ».

«ليسَ بهذهِ الطريقةِ! اطلب من رجالك مغادرةَ المكانِ، واتركَ أسلحتكَ في الإسطبلِ، وعندما تكون جاهزاً للتصرفِ كخاطئ متواضعٍ في بيتِ الرَّبِّ يمكنكَ دخول الدير، ويمكنُ لرئيسِ الدير وقتها الإجابة على أسئلتكَ».

تراجعَ فيليب إلى الوراءِ، ودخلَ ثمَّ صفقَ البابَ وراءهُ.

هللَ البنَّاؤون.

وجدت آليانا نفسها تهللُ معهم أيضاً. لطالما كان وليم رمزاً للسلطةِ والخوفِ، وشعرت بالسعادةِ لرؤيةِ رئيسِ الديرِ فيليب يتحداه.

ولكن وليم لم يكن مستعداً بعد لقبولِ الهزيمةِ. ترجّلَ عن جوادهِ، وببطءٍ حلَّ حزامَ سيفهِ، وسلَّمهُ إلى رجالهِ ثمّ تحدَّثَ إليهم بهدوءٍ فغادروا ساحةَ الدير آخذين معهم سيفهُ. راقبهم وليم إلى أن وصلوا إلى بوابةِ الديرِ ثمَّ استدارَ نحو بابِ المطبخِ مجدداً.

صاحَ قائلاً: «افتحَ الباب للمأمورِ».

وبعد فترةٍ قصيرةٍ فُتحَ البابُ. خرجَ فيليب مجدداً، وحدَّق إلى وليم واقفاً أمامهُ أعزل في الفناءِ ثمَّ إلى رجالهِ المحتشدين عند بوابةِ الدير، وعادَ بنظرهِ إلى وليم وقال: «حسناً؟»

«أنتَ تؤوي قاتلاً في الديرِ. سلِّمني إياه».

قال فيليب: «لم تحدث جريمةٌ في كينغزبريدج».

«منذُ أربعةِ أيامٍ قتلَ إيرل شايرنغ البنَّاء آلفريد».

«هذا ليسَ صحيحاً»، قال فيليب. «قتلَ ريتشارد آلفريد، ولكن الأمرَ لم يكن جريمةً. لقد أمسكَ بهِ ريتشارد في محاولةِ اغتصابٍ».

ارتجفت آليانا عندما سمعت هذا.

«اغتصاب؟» قال وليم. «من كان يحاول اغتصاب؟»

«آليانا».

«ولكنها زوجتهُ!» قال وليم في ظفرٍ. «كيفَ يُمكنُ لزوجٍ أن يغتصبَ زوجتهُ؟»

وفهمت آليانا إلى أين يذهب وليم بجدالهِ، وشعرت بالغضبِ يشتعلُ في داخلها.

قال فيليب: «ذلكَ الزواج لم يكتمل، وقد قدَّمت آليانا طلباً بإبطاله».

«ولكنها لم تحصل على الإبطالِ. تزوجا في كنيسةٍ، وما زالا متزوجين وفقَ القانونِ، وهذا يعني أنَّه لم يكن هناك اغتصابٌ بل على العكسِ»، ثمَّ استدار وليم فجأةً، وأشارَ إلى آليانا. «أرادت التخلصَ من زوجها لسنواتٍ، ونجحت أخيراً في اقناعِ شقيقها بمساعدتها على التخلصِ منه، وطعنهِ بخنجرها حتّى الموتِ».

شعرت آليانا بالخوفِ يُحكمُ قبضتهُ الباردةَ على قلبها. كانت كذبةً مشينةً، ولكن لشخصٍ لم يشهد على ما حدث فسيعتقدُ أنَّها قابلةٌ للتصديقِ وحقيقية. كان ريتشارد في مأزقٍ.

قال فيليب: «لا يمكن للمأمورِ أن يعتقلَ إيرلاً».

وأدركت آليانا أنَّ هذا صحيح، وأنَّها نسيت هذه الحقيقة.

وهنا أخرجَ وليم لفافةً وقال: «لدي أمرٌ ملكي باعتقالهِ بالنيابةِ عن الملكِ».

تحطمت آليانا عندما سمعت هذا. لقد فكرَ وليم بكلِّ شيٍ، ودمدمت: «كيفَ تمكن وليم من القيامِ بهذا؟»

«لقد تصرَّفَ بسرعةٍ كبيرةٍ»، أجابها جاك. «لا بدَّ أنَّه ذهبَ إلى وينشستر لمقابلةِ الملكِ حالما سمعَ بالخبرِ».

مدَّ فيليب يدهُ وقال: «دعني أرى الأمرَ الملكي».

مدَّ وليم يدهُ التي يحمل بها الأمرَ الملكي، ولكنه كان يقفُ بعيداً عن فيليب بعدَّةِ ياردات. بقيا على هذهِ الوضعيةِ لبعضِ الوقتِ دونَ أن يتحركَ أحدهما، وأخيراً استسلمَ وليم، وصعدَ الدرجَ ثمَّ سلَّم فيليب الأمرَ.

قرأ فيليب الأمرَ وأعادهُ ثمَّ قال: «هذا لا يعطيكَ الحقَّ بمهاجمةِ الدير».

«إنَّه يعطيني الحقَّ باعتقالِ ريتشارد».

«لقد طلبَ اللجوءَ».

«آه»، قال وليم دونَ أن تبدو عليهِ المفاجأة ثمَّ أومأ برأسهِ كأنَّه سمعَ تأكيداً على أمرٍ حتمي ثمَّ نزلَ درجتين أو ثلاثاً، وعندما تحدَّثَ حرصَ على رفعِ صوتهِ كي يسمعهُ الجميعُ بوضوحٍ: «فلتخبرهُ أنَّه سيُعتقل حالما يغادر الديرَ. سيتمركزُ ممثلون عني في البلدةِ، وخارجَ أسوارِ القلعةِ، ولتتذكروا...» ونظرَ من حولهِ إلى الحشدِ ثمَّ تابع: «تذكروا أنَّ من يحاولَ أذيةَ ممثلِ المأمور فإنَّه يؤذي موظفَ الملكِ»، واستدار نحو فيليب وقال: «أخبرهُ أنَّه يستطيع البقاءَ لاجئاً في الدير قدر ما شاء، ولكنه إن أرادَ المغادرة فسيواجه العدالةَ».

حلَّ الصمتُ، وهبطَ وليم الدرجَ ببطءٍ ثمَّ عبرَ فناءَ المطبخِ. بدت كلماتهُ لآليانا كحُكمٍ بالسجنِ. تفرَّقَ الحشدُ أمامهُ، وعندما مرَّ بالقربِ من آليانا رمقها بنظرةٍ متعجرفةٍ. راقبهُ الجميعُ وهو يتوجه إلى البوابةِ، ويمتطي جوادهُ. ألقى على رجالهِ أمراً، وابتعدَ تاركاً جنديين عندَ البوابةِ للمراقبةِ.

عندما عادت آليانا بنظرها رأت فيليب واقفاً بالقربِ منها ومن جاك. «اذهبا إلى منزلي»، قال فيليب بهدوءٍ، وأضاف: «يجب أن نناقشَ الأمرَ»، ودخلَ إلى المطبخِ.

انتابَ آليانا شعورٌ أنَّ فيليب مسرورٌ في سرِّهِ من أمرٍ ما.

انتهى الهرجُ والمرجُ، وعادَ البنَّاؤون إلى العملِ وهم يتحدثون بحميَّةٍ، أمَّا إيلين فتوجهت إلى المنزلِ للانضمامِ إلى حفيديها. سارت آليانا وجاك عبرَ المقبرةِ، وعبرَ أطرافِ موقعِ البناءِ ثمّ دخلا منزل فيليب. لم يكن فيليب قد وصلَ بعد فجلسا على مقعدٍ بانتظارهِ. شعرَ جاك بخوفِ آليانا على شقيقها فعانقها مواسياً.

نظرت آليانا من حولها، وأدركت أنَّ منزلَ فيليب يغدو مريحاً أكثر عاماً بعدَ آخر. مقارنةً بغرفةِ إيرل كان ما يزالُ يبدو فارغاً، وينقصهُ الأثاث، ولكن مظهره لم يعد متقشفاً كالسابقِ؛ فأمامَ المذبحِ الصغيرِ في الزاويةِ سجادةٌ صغيرةٌ من أجلِ ركبتي رئيسِ الديرِ خلالَ ليالي الصلواتِ الطويلةِ، وعلى الجدارِ خلفَ المذبحِ عُلّقَ صليبٌ فضي كبيرٌ مُطَعّمٌ بالجواهر لا بد أنَّ فيليبَ حصلَ عليهِ كهديةٍ. فكرت آليانا أنَّه لن يُضرَّ فيليب إن خففَ على نفسهِ بعضَ الشيءِ فهو يكبرُ في العمرِ، وربما يجب أن يخففَ على الآخرين أيضاً.

بعدَ وهلةٍ دخلَ فيليب مع ريتشارد الذي بدا حائراً ومُربكاً، وعاجلَ

إلى القولِ: «لا يُمكن لوليم فعلُ هذا! إنّه جنون! أمسكت بألفريد يحاول اغتصابَ أختي، ويحملُ سكيناً في يدهِ. لقد حاولَ قتلي!»

«فلتهدأ»، قال فيليب. «لنتحدث في الأمرِ بهدوءٍ، وحاول أن تهدأ كي تفهمَ مخاطرَ الأمرِ، هذا إن وجدت. لمَ لا نجلسُ جميعاً».

جلسَ ريتشارد، ولكنه تابعَ الكلام: «مخاطر؟ لا وجود لمخاطر. لا يمكن للمأمورِ سجنُ الإيرل حتّى وإن كان بتهمةِ ارتكابِ جريمةٍ».

«سيحاول فعل هذا»، قال فيليب. «لقد طلبَ من رجالهِ التمركزَ خارجَ الديرِ».

قامَ ريتشارد بحركةٍ رافضةٍ لهذا الكلامِ وقال: «يمكنني تجاوز رجالِ وليم وأنا معصوب العينين فهم ليسوا بمشكلةٍ، ويمكن لجاك أن ينتظرني خارجَ أسوارِ البلدةِ مع جوادٍ».

«وعندما تصلُ إلى القلعةِ؟» قال فيليب.

«الأمـرُ عينه. سأتسللُ، وأغافلُ رجالَ وليم، أو أطلبَ من رجالي استقبالي».

«يبدو هذا منطقياً»، قال فيليب ثمَّ أضاف: «ولكن ماذا بعد؟»

«لا شيء»، قال ريتشارد. «ما الذي يُمكن لوليم فعلهُ؟»

«حسناً، ما زالَ يملكُ أمراً ملكياً باستدعائكَ بتهمةِ ارتكاربِ جريمةٍ، وهذا يعني أنَّه سيحاول اعتقالكَ حالما تغادرُ القلعةَ».

«سآخذُ معي مرافقةً حيثما ذهبت».

«وعندما تُعقدُ المحاكمات في شايرنغ أو في أيِّ مكانٍ آخر؟»

«سأفعلُ الأمرَ عينه».

«ولكن هل سيُنفذُ أحدٌ أوامرك وهو يعلمُ أنَّك هاربٌ من وجهِ العدالةِ؟»

«من الأفضلِ لهم أن ينفذوا»، قال ريتشارد بتجهمٍ. «يجب عليهم أن يتذكروا كيفَ فرضَ وليم أوامرهُ عندما كان إيرلاً».

«قد لا يكونون خائفين منكَ كما كانوا خائفين من وليم. ربما يعتقدون أنّك لستَ متعطشاً لسفكِ الدماءِ، ولارتكابِ الشرورِ مثله، وآمل أن يكونوا على صوابٍ في هذا».

«لا تعول على الأمرِ».

اكفهرّ وجه آليانا فلم تكن معتادةً على فيليب متشائماً... ما لم يكن لديهِ دافعٌ خفي، وانتابها شكٌ أنَّ فيليب يُمهدُ الطريقَ لخطةٍ، وقالت لنفسها: «أراهن أنَّه يريدُ المالَ، وأنَّ مسألةَ مقلعِ الحجارة ستُطرحُ بطريقةٍ ما».

«ما يُقلقني حقاً هو الملك»، قال فيليب. «فرفضُ الأمرِ الملكي بمنزلة تحدٍ للملكِ. لو أنَّ هذا حدثَ قبلَ عامٍ لقلتُ لكَ افعلَ هذا وتحَّدهُ، ولكن الحربَ انتهت الآن، ولم يعد بوسعِ الإيرلات القيام بما يشاؤون».

قال جاك: «يبدو أنَّه عليكَ تنفيذ الأمرِ الملكي يا ريتشارد».

«لا يمكنهُ أن يفعلَ هذا»، قالت آليانا ثمَّ تابعت: «فهو لا يملكُ أملاً بالحصولِ على العدالةِ».

«إنَّها على حقٍ»، قال فيليب. «ستُعرضُ القضيةُ على المحكمةِ الملكيةِ، وستُقدم الوقائعُ كالتالي: حاول آلفريد أن يُخضع آليانا بالقوةِ، ودخلَ ريتشارد ثمَّ تعاركا، وقتلَ ريتشارد آلفريد. كلُّ شيءٍ يعتمدُ على التفسيرِ الذي سيُقدم، ولأنَّ وليم -داعم الملك ستيفن- صاحبَ الشكوى، وريتشارد أحدُ أكبرِ حلفاءِ الدوقِ هنري سيكون الحكمُ على الأغلبِ بتجريمِ ريتشارد. ما السبب الذي دفعَ ستيفن إلى التوقيعِ على هذا الأمرِ؟ ربما أرادَ الانتقامَ من ريتشارد لأخذهِ صفَّ عدوهِ، وأتى موتُ آلفريد كحُجةٍ ممتازةٍ ليثأر».

وهنا قالت آليانا: «يجبُ أن نلتمسَ إلى الدوقِ هنري ليتدخل».

وهنا أتى دور ريتشارد ليتحدث بتشاؤم: «لن أعتمدَ عليهِ في هذا. إنَّه في النورماندي. قد يكتبُ رسالةَ احتجاجٍ، ولكن لا يسعهُ القيامُ بشيءٍ آخر. يمكنه أن يأتي مع جيشٍ، ويقطعِ القناةَ، ولكنه إن فعلَ هذا فسيكون بذلكَ يخرقُ اتفاقيةَ السِلمِ، ولا أعتقدُ أنَّه سيُخاطرُ بهذا من أجلي».

شعرت آليانا بالبؤسِ والخوفِ وقالت: «أوه يا ريتشارد. لقد وقعت في حبائلِ خطةٍ ماكرةٍ، وكلُّ هذا لأنَّك حاولت إنقاذي».

رمقها بأكثرِ نظراتهِ سِحراً وقال لها: «وأنا مستعدٌ لفعلِ هذا مجدداً يا آلي».

«أعلمُ»، قالت آليانا، وعلمت أنَّه عنى ما قاله. على الرغمِ من جميعِ عيوبهِ فإنَّه كان شجاعاً، وبدا من الظلمِ أن يواجهَ مثلَ هذهِ الورطةِ العويصةِ بعدَ مرورِ وقتٍ قصيرٍ على نجاحهِ باستعادةِ إرثهِ. بالنسبة إلى آليانا كان شقيقها إيرلاً مُخيباً للآمالِ، مخيباً للآمالِ بشدةٍ، إلَّا أنه لا يستحق هذا.

«حسناً، ما هو الخيار؟» قال ريتشارد. «يمكنني البقاء هنا في الديرِ إلى أن يصبح الدوق هنري ملكاً، أو أُعدم بتهمةِ ارتكاب جريمةٍ. كنتُ سأصبحُ راهباً لو لم تكونوا أنتم الرهبان تأكلون الكثير من السمك».

«قد يكون هناك خيارٌ آخر»، قال فيليب.

نظرت آليانا إلى فيليب بحماسةٍ. ساورتها طوالَ هذا الوقتِ شكوك بأنَّ فيليب يخططُ لأمرٍ، وستكون ممتنةً جداً له إن خلَّصَ ريتشارد من هذهِ الورطةِ.

«يمكنكَ أن تقدمَ كفَّارةً على فعلِ القتلِ»، تابع فيليب.

«هل يتطلبُ الأمرُ أكلَ السمكِ؟» قال ريتشارد مُتهكماً.

«عنيتُ بكلامي الأراضي المقدسةَ»، قال فيليب.

صمتوا جميعاً عندما سمعوا هذا. كانت فلسطين تحتَ حُكمِ ملكِ القدسِ بولدوين الثالث -المسيحي من أصلٍ فرنسي- وتتعرضُ على الدوامِ إلى اعتداءات من الدولِ المسلمةِ المجاورةِ، خاصةً من مصرِ جنوباً، ودمشق شرقاً. إنَّ الذهاب إلى فلسطين حيثُ الرحلةُ إلى هناك تستغرقُ بينَ الستةِ أشهر إلى العامين والانضمامِ إلى الجيوشِ المدافعةِ عن المملكةِ المسيحيةِ الكفَّارة الكفيلة بإنقاذِ الإنسانِ من عذابِ الروحِ في الأخرةِ لاقترافهِ القتلَ. باغتَ آليانا شعورٌ مُغثٍ بالقلقِ عندما أدركت أنَّ من يذهبون إلى الأراضي المقدسةِ قد لا يعودون أحياءً، ولكنها اعتادت على القلقِ على ريتشارد عندَ ذهابهِ إلى الحروبِ لسنواتٍ، وربما لم تكن الأراضي المقدسةُ أخطر من إنكلترا. ستشعر بالقلقِ عليهِ في غيابهِ، ولكنها اعتادت على هذا القلقِ.

«إنَّ ملكَ القدسِ في حاجةٍ دائمةٍ إلى رجالٍ»، قال ريتشارد.

كلَّ بضعةِ أعوامٍ يُرسلُ البابا مبعوثين عنه للطوافِ في أنحاءِ البلدِ، وروايةِ قصصِ المعاركِ والبطولاتِ في سبيلِ الدفاعِ عن المملكةِ المسيحيةِ، وإلهام الشبابِ للذهابِ والقتالِ في الأراضي المقدسةِ.

«ولكنني لم أستعد إرثي إلَّا من فترةٍ قصيرةٍ»، قال ريتشارد. «من سيعتني بالأراضي في غيابي؟»

«آليانا»، أجابَ فيليب.

وفجأةً شعرت آليانا أنَّها تلهث لتأخذ نفساً. ما يقترحهُ فيليب هو أن تأخذَ آليانا مكان الإيرل، وتحكمَ كما حكمَ والدها... صعقها العرضُ لوهلةٍ، ولكن حالما تعافت من صدمتها علمت أنَّه الخيارُ الصائب. عادةً عندما يذهبُ رجلٌ إلى الحربِ تعتني زوجتهُ بالممتلكاتِ، ولا يوجد سببٌ قد يمنع الأختَ من القيامِ بهذا الدورِ في حالِ كان الإيرل أعزب. ستتمكن من إدارةِ الملكيةِ بالطريقةِ التي لطالما تخيلتها أنَّها الطريقةُ الصحيحةُ: بعدلٍ، ورؤيةٍ، ومخيلةٍ. ستقوم بكلِّ شيءٍ فشلَ ريتشارد بشكلٍ مخيبٍ في فعلهِ. عندما أمعنت التفكير بالأمرِ شعرت بقلبها يخفقُ بقوةٍ وسرعةٍ. ستحاولُ تطبيقَ الأفكارِ الجديدةِ، وستعتمد الفلاحةَ بالأحصنةِ بدلاً من الثيرانِ، وستزرع محاصيل الربيع كالشوفانِ والبازلاءِ في الأراضي المُراحةِ، وستُنظفُ أراضي زراعيةً جديدةً، وستبني أسواقاً جديدةً، وتفتح المقلعَ من أجلِ فيليب بعدَ كلّ هذا الوقتِ...

بالطبعِ كان فيليب قد فكرَ بكلِّ هذا، ومن بينِ جميعِ المخططات الذكيةِ التي وضعها طوالَ هذهِ الأعوامِ كانت هذهِ أذكى خططِهِ، وها هو بضربةٍ واحدةٍ يحلُّ ثلاثَ مشكلاتٍ: يُساعد ريتشارد على النجاةِ من حُكمِ الإعدامِ، ويضع مكانه حاكماً كفؤاً، ويستعيد المقلع أخيراً.

قال فيليب: «لا أملكُ أدنى شكٍ أنَ الملكَ بولدوين سيرحبُ بكَ، خاصَّةً إن ذهبتَ مع فرسانكَ ورجالكَ بعد أن تشجعهم على الانضمام معك، وسيكون الأمرُ كحملةٍ صليبيةٍ صغيرةٍ»، توقفَ فيليب لبرهةٍ من أجلِ التأثيرِ ثمَّ أضاف: «بالطبعِ لن يكون بوسعِ وليم أن يطالكَ هناك، وستعود بطلاً، وعندها لن يجرؤ أحد على إعدامكَ».

«الأراضي المقدسة»، قال ريتشارد، ولمعت عيناه ببريقٍ ليسَ له سوى معنى واحد: «الموت -أو- العظمة». فكرت آليانا أنَّ هذا ما يناسبهُ حقاً، فهوَ لم يكن يوماً ماهراً في إدارةِ الممتلكاتِ. كان جندياً، وأرادَ أن يُقاتل، ورأت على وجههِ تلكَ النظرة الحالمة. كان يتخيلُ نفسهُ في الأراضي المقدسةِ وراءَ متراسٍ رملي بسيفٍ في يدٍ، ودرعٍ بصليبٍ أحمرَ في الأخرى يصدُّ هجوم قبيلةٍ من الهمجِ الوثنيين تحتَ شمسٍ حارقةٍ.

كان سعيداً.

حضرَ جميعُ سكانِ البلدةِ حفلَ الزفافِ.

تفاجأت آليانا بحضورهم. لطالما عامل الناس آليانا وجاك كزوجين، واعتقدت آليانا أنَّ مسألةَ حفلةِ الزفافِ ستكون شكليةً. لم تتوقع حضور سوى مجموعةٍ من الأصدقاءِ، ومعظمهم أناسٌ في عمرها، وزملاء لجاك في العملِ، ولكن بدلاً من هذا أتى كلُّ رجلٍ وامرأةٍ وطفلٍ في كينغزبريدج. تأثرت بحضورهم، ورأت أنهم جميعاً بدوا سعداءَ جداً من أجلها. أدركت أنَّهم كانوا متعاطفين معها في محنتها طوالَ هذهِ السنواتِ على الرغمِ من أنَّهم وبلباقةٍ امتنعوا عن ذكرِ الأمرِ أمامها، وهاهم الآن قد أتوا ليشاركوها بهجتها بالزواجِ أخيراً من الرجلِ الذي تحبهُ منذُ وقتٍ طويلٍ. سارت عبرَ الشوارعِ متأبطةً ذراعَ شقيقها ريتشارد، ومذهولةً من الابتسامات التي لاحقتها، وثملةً من السعادةِ.

سيُسافر ريتشارد إلى الأراضي المقدسةِ غداً، وقد قبلَ الملكُ ستيفن بهذا الحلِّ، في الحقيقةِ بدا مرتاحاً جداً للتخلصِ من ريتشارد بهذهِ السهولةِ، ولكن المأمور وليم استشاطَ غضباً لأنَّ هدفهُ كان تجريدَ ريتشارد من لقبه، وها هو الآن يخسرُ فرصةَ فعلِ هذا. أمَّا ريتشارد فما زالت على وجهه تلكَ النظرةُ الحالمةُ، ولم يكن قادراً على الانتظار حتَّى ينطلقَ في رحلتهِ.

أثناءَ دخولها ساحةَ الديرِ فكرت آليانا أنَّ الأمورَ لم تجرِ كما أرادها والدها. لم يُرد لريتشارد أن يذهب للقتالِ في أرضٍ بعيدةٍ، ولا أن تمارس آليانا دورَ الإيرل، غيرَ أنَّها وعلى أيِّ حالٍ لم تعد تشعرُ أنَّها مُلزمةٌ بعيشِ حياتها وفقاً لرغباتِ والدها. إنَّه متوفى منذُ سبعة عشرَ عاماً، وهي الآن تعلمُ أمراً لن يفهمهُ والدها أبداً، وهو أنَّها ستلعبُ دورَ الإيرلِ بشكلٍ أفضل من ريتشارد.

كانت قد بدأت ببسطِ سُلطتها على القلعةِ، وقومت سلوكَ خدمها المتكاسلين بسببِ غيابِ الإدارةِ في القلعةِ لسنواتٍ، وأعادت تنظيمَ المخازنِ، وأمرت بطلاءِ القاعةِ الكبرى، وتنظيفِ المخبز، ومصنعِ الجعة. كان المطبخُ قذراً جداً إلى درجةٍ اضطرت معها إلى حرقهِ، وبناءِ مطبخٍ جديدٍ مكانهُ، وبدأت بدفعِ الأجور الأسبوعيةِ بنفسها في إشارةٍ واضحةٍ

إلى أنَّها صاحبةُ السلطةِ في المكانِ، وطردت ثلاثةَ جنودٍ لأنَّهم كانوا ثملين على الدوام.

أمرت أيضاً ببناءِ قلعةٍ جديدةٍ، وأن تكون على بُعدِ مسافةِ ساعةٍ واحدةٍ عن كينغزبريدج لأنَّ القلعة الحاليةَ كانت بعيدةً جداً عن الكاتدرائيةِ. وضعَ جاك تصميمَ القلعةِ الجديدةِ، وسينتقلون إليها حالما تجهز. في هذهِ الأثناءِ سيقضون الوقتَ بينَ القلعةِ في شايرنغ وكينغزبريدج.

كانت آليانا وجاك قد قضيا العديدَ من الليالي معاً في غرفةِ آليانا القديمةِ في القلعةِ بعيداً عن رقابةِ فيليب. كانا كعروسين جديدين غارقين في شغفٍ جسدي نهم، وقد يكون السببُ في أنَّهما وللمرةِ الأولى يحظيان بغرفةٍ لها بابٌ يُمكنُ إيصادهُ. كانت الخصوصيةُ رفاهيةً خاصةً بالسادةِ؛ فالجميعُ ينام ويضاجع في القاعةِ العموميةِ في الطابقِ السفلي، حتَّى الأزواجُ في منازلهم كانوا عرضةً لأن يشاهدهم الأطفالُ، أو الأقاربُ، أو الجيران العابرين؛ فالناسُ لا يُوصدون أبوابهم عندما يكونون في الداخل بل عندما يخرجون. لم تمتعض آليانا يوماً من الأمرِ، ولكنها الآن اكتشفت تلكَ المتعةَ الخاصةَ التي تجلبها المعرفةُ أنَّها قادرةٌ على فعلِ ما تريدهُ، ومن دونِ خطر أن يراها أحدٌ، وعندما فكرت ببعضِ الأمورِ التي قامت بها مع جاك خلالَ الأسبوعين الماضيين احمرَّت خجلاً.

كان جاك بانتظارها في صحنِ كنيسةِ الكاتدرائيةِ غير المُكتمل مع مارثا وتومي وسالي. عادةً ما يتبادل الزوجان النذورَ في رواقِ الكنيسةِ ثمَّ يدخلان لحضورِ القداسِ، ولكن اليوم ستكون الحُجيرةُ الأولى بمنزلة الرواقِ. كانت آليانا مسرورة لأنَّها ستتزوج في الكنيسةِ التي يبنيها جاك. كانت هذهِ الكنيسة جزءاً منه كثيابهِ التي يرتديها، وكالطريقةِ التي يُمارس بها الحبَّ. عندما تنتهي الكاتدرائيةُ ستشبهه، ستكون جميلةً، وبديعةً، ومُبهجةً ولا تشبه أيّ شيءٍ من الماضي.

نظرت إليهِ بُحبٍ. كان الآن في الثلاثين من العمرِ، ويبدو وسيماً بلحيتهِ الصهباءِ، وعينيه الزرقاوين. تذكرت أنَّه كان قبيحاً عندما كان صبياً، وآنذاك اعتقدت أنَّه لا يستحق حتَّى أن تلاحظهُ، ولكنه وقعَ في حبها منَ النظرةِ الأولى كما قال لها، وما زالَ يجفلُ في كلِّ مرةٍ يتذكرُ فيها كيفَ ضحكوا عليهِ عندما قالَ إنَّه لا يمتلكُ والداً. حدثَ هذا منذُ عشرين عاماً. عشرين عاماً...

لم تكن آليانا لتلتقي بجاك مجدداً لولا رئيسُ الدير فيليب الذي دخلَ الآن إلى الكنيسةِ من الممرّاتِ المسقوفةِ إلى الصحنِ والابتسامةُ على وجههِ. بدا فيليب سعيداً جداً لأنَّه سيتمكن من تزويجهما أخيراً، وفكرت آليانا بأولِ لقاءٍ لها مع فيليب. تذكرت بوضوحِ اليأسَ الذي شعرت بهِ عندما حاولَ تاجرُ الصوفِ خداعها بعدَ كلِّ الجهودِ والآلام التي قاستها لجمعِ كيسِ الصوفِ، والامتنانِ الكبيرِ الذي شعرت بهِ تجاه الراهبِ الشابِ ذي اللحيةِ السوداءِ عندما أنقذها قائلاً: «سأشتري منكِ الصوفَ في أيِّ وقتٍ...» كان فيليب أشيب الآن.

أنقذها ثمَّ كادَ يُدمرها عندما أجبرَ جاك على الاختيارِ بينها وبينَ الكاتدرائيةِ. إنَّه رجلٌ صارمٌ عندما يتعلقُ الأمرُ بالصوابِ والخطأ، وهو بذلك يشبه والدها. على أيِّ حالٍ، أرادَ فيليب أن يؤدي مراسمَ تزويجهما بنفسهِ.

ألقت إيلين بلعنةٍ على زواجها الأول، ونجحت اللعنةُ، وكانت آليانا سعيدةً بها. لو أن زواجها بآلفريد تمَّ لكانت ما تزال تعيشُ معهُ حتَّى الآن. من الغريبِ حقاً أن تفكرَ بما كان يمكن أن يحدث، وبعثت هذهِ الأفكار القشعريرةَ في أوصالها كأنَّها ترى أحلاماً سيئةً وتخيلاتٍ رهيبةً. تذكرت الفتاة العربيةَ الجميلةَ والمثيرةَ في طليطلة التي وقعت في حبِّ جاك. ماذا لو تزوجَ بها جاك؟ كانت آليانا ستصل إلى طليطلة، وطفلها على ذراعيها، وتجد جاك يعيشُ حياةً عائليةً، ويتشارك جسدهُ وعقلهُ مع امرأةٍ أخرى. كانت فكرةً مروعةً.

أصغت إلى جاك وهو يدمدمُ بصلاةِ أبانا، وفكرت في دهشةٍ أنَّها ومنذُ أن أتت للعيشِ في كينغزبريدج لم تلقِ بالاً له كما لم تلقِ بالاً لهرِّ تاجرِ الذرةِ، ولكنه اهتمّ لأمرها، وأحبَّها سِرّاً طوالَ هذهِ السنواتِ. يا لصبرهِ! شاهد كيفَ أتى أبناءُ سادةِ المقاطعةِ لخطبِ ودِّها، الواحد تلو الآخر، وعادوا خائبي الأملِ، أو متضايقين، أو متمردين. اكتشف هذا الفتى الذكي أنَّ الفوزَ بها لن يتحقق بالتوددِ، ولذلك تقرَّبَ منها طوالَ الوقتِ كصديقٍ، وليسَ كعاشقٍ، وقابلها في الغابةِ، وروى لها قصصاً، وجعلها تقعُ في حبهِ على غفلةٍ. تذكرت قبلتهما الأولى. كانت رقيقةً وعرضيةً، ولكنها انطبعت بقوةٍ على شفتيها لأسابيع لاحقةٍ. تذكرت قبلتهما الثانيةَ بوضوحٍ أكبر، وفي كلِّ مرةٍ تسمعُ

فيها صخبَ طاحونة دعكِ القماشِ تتذكر ذلكَ الاندفاعَ الغريب والمزعج والخفي للشهوةِ التي شعرت بها.

من بينِ الأمورِ التي تندمُ عليها في حياتها معاملتها الباردة لجاك بعدَ تلكَ القُبلةِ. لقد أحبَّها بقوةٍ وبإخلاصٍ، ولكنها كانت خائفةً، ولذلك رفضته، وتظاهرت أنَّ أمرهُ لا يُهمها، وآذاه هذا في الصميمِ إلّا أنَّه بقي على حبهِ لها. ورغمَ أن جُرحهُ شُفي غيرَ أنه تركَ مكانهُ ندبةً كما يحدثُ في أيِّ جرحٍ. كانت أحياناً ترى هذهِ الندبة في الطريقةِ التي ينظرُ إليها عندما يتجادلان، وعندما تتحدث ببرودٍ إليهِ وتبدو عيناه كأنَّه يريدُ القول: «أجل، أنا أعرفكِ. يمكنكِ معاملتي ببرودٍ وأذيتي، ولذلك يجب أن أبقى حذراً».

تساءلت آليانا في نفسها الآن إن كانت في عينيهِ نظرةٌ قلقةٌ وهو يُقدم نذورهُ لها بأن يحبها ويخلص لها لبقيةِ حياتهِ، وفكرت أنَّه يمتلكُ كلَّ الأسبابِ الكافيةِ ليشكَ بها. لقد تزوجت بألفريد، وكانت هذهِ أعظمَ خيانةٍ له، ولكنها عوضت عن هذهِ الخيانةِ بالسفرِ عبرَ نصفِ المملكةِ المسيحيةِ بحثاً عنه.

إنَّ مثلَ هذهِ الخيباتِ، والخياناتِ، والمصالحاتِ جزءٌ من الحياةِ الزوجيةِ، ولكنها هي وجاك عاشاها قبلَ الزفافِ. وها هي الآن، وأخيراً، تشعرُ بالثقةِ من أنَّها تعرفهُ، وأن ما من شيءٍ قد يفاجئها. يا لها من طريقةٍ غريبةٍ للقيامِ بالأمورِ، ولكن قد يكون من الأفضلِ لمثلِ هذهِ الأمورِ أن تحدث قبلَ تبادلِ النذورِ ثمَّ التعرف على الشريكِ لاحقاً. بالطبعِ لن يوافقها رجالُ الدينِ في هذا. في الواقعِ قد يرتعبُ فيليب إن علمَ ما يدور في ذهنها في هذهِ الأثناءِ، ولكن ما الذي يعرفهُ رجالُ الدين عن الحبِّ؟

قدَّمت نذورها، وبينما أعادت الكلمات وراءَ فيليب فكرت بجمال نذر «*وبجسدي أعبدكَ*». عرفت أنَّ فيليب لن يفهمَ هذا أبداً.

وضعَ جاك الخاتم في إصبعها، وفكرت في نفسها أنَّها انتظرت هذهِ اللحظةَ طوالَ حياتها. نظرا بعضهما في عيني بعض، وعرفت أنَّ شيئاً ما تغيرَ في داخلهِ. أدركت أنَّه وحتَّى هذهِ اللحظةِ لم يكن واثقاً منها، ولكنه الآن بدا راضياً جداً.

«أحبُّك»، قال لها. «وسأحبكِ إلى الأبدِ».

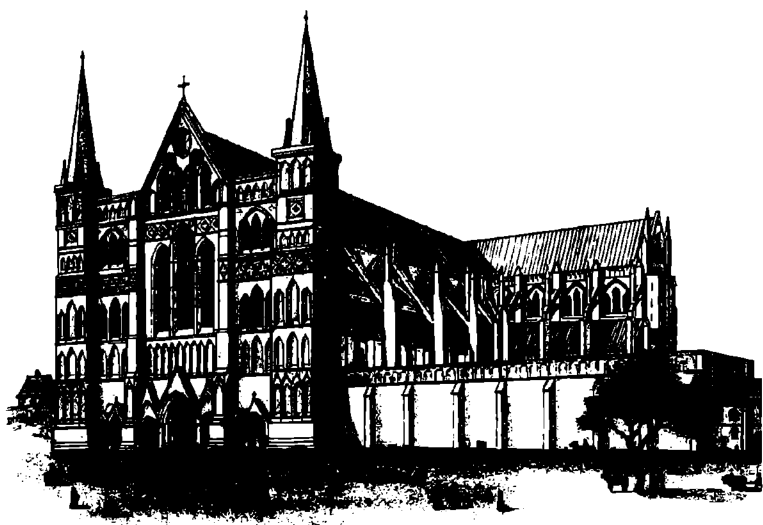
كان هذا نذرهُ.

رغمَ أن ما تبقى كان نذراً دينياً فإن جاك قدَّمَ نذرهُ الخاص بهِ، وأدركت آليانا أنَّها أيضاً لم تكن واثقة منه حتَّى الآن. خلالَ برهةٍ سيسيران في المعبرِ لحضورِ القداسِ، وبعدَ ذلكَ سيتلقيان التبريكاتِ من سكانِ البلدةِ ثمَّ سيأخذان سكان البلدةِ إلى منزلهما، ويقدمان لهم الطعامَ والجعةَ ويمرحان، ولكن هذهِ اللحظة بالتحديدِ كانت مُلكهما. علت وجه جاك نظرةٌ تقول: «أنا وأنتِ، معاً، دوماً»، وفكرت آليانا في نفسها: «وأخيراً».

وشعرت بسلامٍ كبيرٍ.

الجزء السادس

من عام 1170 وحتَّى عام 1174



الفصل السابع عشر

- 1 -

استمرَّت كينغزبريدج في ازدهارها، وتجاوزت حدودها جدران السورِ الأصلي الذي لم يعد يطوق الآن سوى أقلّ من نصفِ عددِ منازلها. منذُ خمسةِ أعوامٍ قررت نقابةُ الأبرشيةِ بناءَ سورٍ جديدٍ لتطويق بيوتِ الضواحي خارجَ البلدةِ القديمةِ، ولكن بيوتاً جديدةً بُنيت خارجَ السورِ الجديدِ الآن. في المرجِ على الجانبِ الآخر من النهرِ حيثُ يُقيمُ سكانُ البلدةِ احتفالات قُداسِ الرغيفِ، وعيد ليلةِ منتصفِ الصيفِ ظهرت قريةٌ صغيرةٌ تُدعى نيوبورت.

في الأحدِ البارد لعيدِ الفصحِ عبرَ وليم هاملي قريةَ نيوبورت ثمَّ الجسرَ الحجري الذي يُفضي الآن إلى الجزءِ القديمِ من كينغزبريدج. انتهى العملُ على كاتدرائيةِ كينغزبريدج ولذلك ستُرسم اليومُ. عبرَ بوابةَ المدينةِ المنيعةَ، وأخذَ الشارع الرئيسي الذي تمَّ رصفهُ مؤخراً. كانت جميعُ المنازلِ على كلا الجانبين حجريةً بمتاجر في الطابقِ السفلي، والقسم المنزلي في الطابقِ العلوي، وفكر وليم في نفسهِ بمرارةٍ أنَّ كينغزبريدج أكبر، وأكثرَ ازدحاماً مما كانت عليهِ شايرنغ في يومٍ من الأيامِ.

وصلَ إلى نهايةِ الشارعِ، واستدارَ باتجاهِ ساحةِ الديرِ. هناك وأمامه تماماً رأى السببَ في نهضةِ كينغزبريدج، وانحدارِ شايرنغ. كان يقفُ أمامَ الكاتدرائيةِ.

وكانت آخاذةً.

هناك صفٌ من الكتائفِ الأنيقةِ التي تدعمُ صحنِ الكنيسةِ المهول بطولهِ، وفي الطرفِ الغربي ثلاثةُ أروقةٍ ضخمةٍ مُعمدةٍ أشبه بمداخل عملاقةٍ، وفوقها

صفٌّ من النوافذِ الطويلةِ والرفيعةِ والمدببةِ في الأعلى، وعلى جانبيها أبراجٌ رفيعةٌ. كان التصميمُ ذاتهُ قد أُستخدمَ في بناءِ الجناحين قبلَ ثمانيةِ عشرَ عاماً، ولكن ها هو التصميمُ يبرزُ بكلِّ عظمةٍ وعلى مستوى أكبر. ليس لهذا البناءِ نظيرٌ في أيِّ مكانٍ في إنكلترا.

ما زالَ السوقُ يُقام في المكان ذاتهِ كلَّ أحدٍ، واكتظت الحديقة أمامَ بابِ الكنيسةِ بالأكشاكِ. ترجَّلَ وليم عن جوادهِ، وتركَ والتر ليهتمَ بجواديهما ثمَّ عبرَ الحديقةَ وهو يعرجِ باتجاهِ الكنيسةِ. كانَ في الرابعةِ والخمسين وسميناً، ويعاني من مرضِ النقرسِ في ساقيهِ وقدميهِ، وبسبب الألمِ المزمنِ كان على الدوامِ غاضباً.

بدت الكنيسةُ في الداخلِ أكثرَ إبهاراً؛ فقد بُني الصحنُ وفقَ أسلوبِ بناءِ الجناحين، ولكن رئيسَ البنَّائين قامَ ببعضِ التعديلاتِ على التصميمِ بأن جعلَ الأعمدةَ رفيعة أكثر والنوافذ أكبر، ولكن هذا لم يكن كلَّ شيءٍ. سمعَ وليم الناسَ يتحدثون عن زجاجِ النوافذِ الملونِ الذي صنعهُ حرفي جلبهُ جاك من باريس، وتساءل في نفسهِ عن سببِ كلِّ هذهِ الجلبةِ بسببِ زجاجٍ ملونٍ، وتخيلَ النوافذَ الزجاجية الملونةِ شبيهةً بالسجاجيد الملونةِ أو اللوحاتِ التي تُعلق على الجدران، ولكنه رأى الآن سببَ كلِّ هذهِ الجلبةِ. رأى ضوءَ الخارجِ يتسلل عبرَ الزجاجِ الملونِ مُنيراً الكنيسة بطريقةٍ سحريةٍ. امتلأت الكنيسةُ بالناسِ، وكانوا جميعاً ينظرون إلى الأعلى حيثُ النوافذ التي رُسمَت عليها قصصٌ من الإنجيلِ، وصوَّرت الجنةَ، والجحيمَ، وقديسين، ورُسلاً، وحواريين وبعضاً من سكانِ كينغزبريدج يُفترض أنَّهم دفعوا ثمنَ النوافذِ التي تصورهم. هناك رسمٌ لخبَّازٍ مع صينيةٍ فوقها أرغفةُ خبزٍ، ودباغٍ يحملُ جلوداً، وبنَّاءٍ مع فرجارهِ ومسطرتهِ، وفكرَ وليم بحسرةٍ أنَّ فيليب لا بدَّ حققَ ربحاً دسماً من هذهِ النوافذِ.

اكتظت الكنيسةُ بالناسِ ممن أتوا لحضورِ مراسمِ قداسِ عيدِ الفصحِ، وامتدَّ السوقُ إلى مدخلِ البناءِ كما يحدثُ عادةً. خلالَ عبورهِ الصحنَ عُرِضَ على وليم شراءُ جعةٍ باردةٍ، أو خبز الزنجبيلِ، أو مضاجعة سريعة قبالةَ جدارٍ لقاءَ ثلاثِ بنساتٍ. يحاولُ رجالُ الدير على الدوامِ، وإن كان من دونِ جدوى، منعَ الباعةِ المتجولين من دخولِ الكنائسِ غيرَ أنَّها كانت

مهمةً مستحيلةً. تبادلَ وليم التحياتِ مع أبرزِ سكانِ المقاطعةِ، ولكن وعلى الرغمِ من المغريات الاجتماعيةِ والشرائيةِ وجدَ وليم نفسهُ على الدوامِ يتأملُ الخطوطَ المتناسقةِ للمجازِ المقنطرِ. بدت القناطرُ والنوافذ والأعمدةُ بخطوطها المحفورةِ والأضلاعِ وأجزاء السقفِ المقنطر كأنَّها تشيرُ إلى السماءِ في تذكيرٍ دائمٍ بالغرضِ الذي بُني من أجلهِ هذا المكان.

كانت الأرضيةُ مرصوفةً، والأعمدةُ مطليةً، وكلُّ نافذةٍ زجاجيةٍ صقيلةً. كانت كينغزبريدج وديرها في حالةِ ثـراءٍ، والفضلُ في هذا يعودُ إلى الكاتدرائيةِ. في المُصلياتِ الصغيرةِ في الجناحين هناك شمعدانات ذهبية، وصُلبان مُطعمةٌ بالجواهرِ، وسكانُ المدينةِ أيضاً استعرضوا ثراءهم بستراتهم الزاهيةِ، ودبابيسهم، وأبازيم أحزمتهم الفضيَّةِ، وخواتمهم الذهبيةِ.

وقعَ نظرهُ على آليانا.

شعرَ وليم بقلبهِ يخفقُ بقوةٍ تماماً كما يحدثُ معه في كلِّ مرةٍ يراها. ورغمَ أنَّها تجاوزت عقدها الخامس الآن فإنَّها لا تزالُ جميلةً. كان شعرها قصيراً إلا أنَّه ما زالَ كثيفاً، وبدا بلونٍ بني أفتح كأنَّه بهتَ قليلاً مع مرورِ السنواتِ، وفي زاويةِ عينيها لديها تجاعيد جذابةٌ. كانت أكثرَ سمنةً من قبلِ، ولكن هذا لم يؤثر على جاذبيتها. ارتدت عباءةً زرقاء ببطانةٍ حمراء، وانتعلت حذاءً جلدياً أحمر. من حولها احتشدَ الناسِ بطريقةٍ تشي بالاحترامِ، ورغمَ أنَّها لم تكن كونتيسةً بل مجرَّد شقيقة إيرل استقرَّ في الأرضِ المقدسةِ، ولكن الجميع عاملها كأنَّها الإيرل، وهي بدورها تصرفت كملكةٍ.

أشعلت رؤيتها نيرانَ الحقدِ في أحشاءِ وليم. كان قد دمَّر والدها، واغتصبها، واحتلَّ قلعتها، وأحرقَ صوفها، ونفى شقيقها، ولكن في كلِّ مرةٍ يُحطمها تعودُ للوقوفِ على قدميها، بل تنجح في الوصولِ إلى مستوى أعلى من السلطةِ والثروةِ، أمَّا وليم فكان يطعنُ في السنِ، ويعاني من النقرسِ والسُمنةِ، وقد أدركَ الآن أنَّه قضى معظمَ حياتهِ تحتَ ربقةِ افتتانٍ قاتلٍ.

بجانبِ آليانا وقفَ رجلٌ طويلٌ أصهب اعتقدَ وليم للوهلةِ الأولى أنَّه جاك، ولكن عندما أمعنَ النظرَ جيداً لاحظَ أنَّ الرجلَ شابٌ، واستنتجَ أنَّه حتماً ابن جاك. كان الشابُ في ثيابِ فارسٍ ويحملُ سيفاً. إلى جانب الشابِ وقفَ جاك، وبدا أقصرَ من ابنهِ ببضعة إنشاتٍ، وخطُ شعرهِ الأصهب عن

الصدغين قد تراجعَ. إن لم تخنهُ ذاكرتهُ فإنَّ جاكَ أصغر من آليانا بخمسةِ أعوامٍ، ولكن التجاعيدَ برزت حولَ عينيهِ أيضاً. كان يتحدثُ بحيويةٍ إلى شابةٍ يبدو أنَّها ابنتهُ. كانت الفتاةُ شبيهةً بآليانا، وجميلةً بقدرها، ولكنها ربطت شعرها الكثيفَ إلى الوراءِ في ضفيرة، وارتدت ثياباً بسيطةً. إن كانت تمتلكُ تحتَ هذهِ الثيابِ جسداً مثيراً فقد حرصت على ألا يعرفَ أحدٌ هذا، وأخفتهُ تحتَ سترةٍ بنية بسيطةٍ.

عندما رأى وليم عائلةَ آليانا ميسورةً، ومُقتدرةً، وسعيدةً شعرَ باستيائهِ كنارٍ حارقةٍ في معدتهِ، وفكرَ أنَّ كلَّ ما يملكونهُ كان يجبُ أن يكون له، ولكنه لم يفقد الأملَ بعد بالانتقامِ.

عندما علت أصواتُ غناء مئاتِ الرهبانِ تراجعت الأحاديثُ، ونداءات الباعةِ المتجولين ثمَّ دخلَ رئيسُ الديرِ فيليب إلى الكنيسةِ على رأسِ رتلٍ طويلٍ من الرهبان. فكرَ وليم أنَّه لا يتذكرُ وجودَ هذا العددِ الكبيرِ من الرهبانِ. يبدو أنَّ أحوالَ الديرِ ازدهرت مع ازدهارِ البلدةِ. كان فيليب الآن في الستين، وأصلع تقريباً، وبديناً إلى درجةِ أنَ وجهه النحيلُ في وقتٍ مضى أصبحَ مدوراً. بدا راضياً جداً عن نفسهِ، وهذا ليسَ مدعاةً للعجبِ فقد كان بناءُ هذهِ الكاتدرائيةِ أول هدفٍ وضعهُ عندما أتى إلى كينغزبريدج منذُ أربعة وثلاثين عاماً.

عندما دخلَ الأسقفُ ويلارن في أبهى حللهِ سرت همهمةٌ بينَ الحشودِ. تجمَّد وجههُ الشاحب بعظامهِ البارزةِ في تعبيرٍ حياديٍ صارمٍ، ولكن وليم علمَ أنَّه يصرُّ على أسنانهِ من الغضبِ. كانت الكاتدرائيةُ رمزاً لانتصارِ فيليب عليهِ، ورغمَ أنَّ وليم كرهَ فيليب أيضاً فإنَّه في سرِّهِ كان مسروراً لرؤيةِ الأسقفِ ويلارن المتكبر، وعلى سبيلِ التغيير، متواضعاً.

نادراً ما يزور ويلارن كينغزبريدج فقد انتهى العملُ على كنيسةِ شايرنغ أخيراً، وفي داخلها مصلى خاص مُكرَّسٌ لذكرى والدةِ وليم. ورغمَ أنَّها لا تُقارن بحجمِ أو عظمةِ هذهِ الكاتدرائيةِ فإنَّ ويلارن جعلَ من كنيسةِ شايرنغ مقرَّهُ.

على أيِّ حالٍ ورغمَ كلِّ جهودِ ويلارن بقيت كينغزبريدج بلدةَ الكاتدرائيةِ. خلالَ الحربِ الأهليةِ التي استمرت ثلاثة عقودٍ بذلَ ويلارن كلَّ ما بوسعهِ

لتدميرِ فيليب، ولكن فيليب انتصرَ عليهِ في نهايةِ المطافِ. كانت علاقةُ الاثنينِ أشبه بعلاقةِ وليم وآليانا، وفي كلتا الحالتين انتصرَ الضعفُ والتردد على القوةِ والقسوةِ، ووجد وليم نفسهُ عاجزاً عن فهمِ الأمرِ.

كان الأسقفُ مُضطراً للقدومِ إلى هنا اليومِ من أجلِ مراسمِ الترسيمِ، ولو أنَّه لم يأتِ للترحيبِ بالضيوفِ المُحتفلين لَاُعتبرَ تصرفهُ غريباً. أتى أيضاً العديدُ من الأساقفةِ من أسقفياتٍ مجاورةٍ إضافةً إلى عددٍ من رؤساءِ الأديرةِ والأبرشياتِ البارزين.

لم يأتِ كبيرُ أساقفةِ كانتربري توماس بيكيت فقد كانَ في خضمِّ خصامٍ مع صديقهِ القديمِ الملك هنري. كان الخصامُ مريراً وعنيفاً إلى درجةِ أنَّ رئيسَ الأساقفةِ اضطرَّ إلى الهربِ من البلادِ، واللجوءِ إلى فرنسا. على الرغم من اختلافِ الملكِ ورئيس الأساقفةِ حولَ مجموعةٍ من القضايا القانونيةِ، فإنَّ خلافهما كان بسيطاً. هل يمكنُ للملكِ فعلُ ما يريدهُ؟ هل يجب أن يكون هناك حدودٌ وقيودٌ على سلطتهِ؟ كان هذا أيضاً خلافَ وليم مع رئيسِ الدير فيليب. كان وليم من أنصارِ قيامِ الإيرل بما يريدهُ، ومن دونِ قيودٍ لأنَّ هذا ما يعنيهِ منصبُ الإيرلِ، وكان هذا شعورُ هنري حيالَ منصبِ الملكِ أيضاً، أمَّا رئيسُ الديرِ فيليب وتوماس بيكيت فأرادا تقييدَ سُلطةِ الحُكامِ.

أمَّا بالنسبةِ إلى ويلارن فانضمّ إلى رجالِ الدينِ الذينَ ناصروا الملوك. كان يرى أنَّ السُلطةَ يجبُ أن تستغل، ولم تُزعزع الخسارات التي مُني بها على مدارِ ثلاثةِ عقودٍ من إيمانهِ أنَّه أداةٌ لتحقيقِ إرادةِ الرّبّ، ولا من عزيمتهِ الصلبةِ في تنفيذِ واجبهِ المقدسِ. كان وليم واثقاً من أنَّ ويلارن، وحتَّى خلال مراسمِ ترسيمِ كاتدرائيةِ كينغزبريدج، يبحثُ عن طريقةٍ ما لإفسادِ لحظةِ المجدِ على فيليب.

تحرَّكَ وليم في المكانِ طوالَ الصلاةِ فقد كان الوقوفُ بالنسبةِ إليه أصعبَ من المشي. عندما يذهب إلى كنيسةِ شايرنغ يحملُ له والتر كرسياً، وعندئذٍ يتمكن من الجلوسِ، والإغفاءِ لبعضِ الوقتِ، أمَّا هنا فيوجد أناسٌ كثرٌ ليتحدث معهم، وكانَ السواد الأعظم من الحاضرين يستغلون الحدثَ لعقدِ الصفقاتِ. تجولَ وليم في المكانِ يتملق أصحابَ النفوذِ، ويُرهب الضعفاء، ويجمعُ معلوماتٍ عن الجميعِ. ورغمَ أنَّه لم يعد يبعث الهلعَ في

قلوبِ الناسِ كما اعتادَ أن يفعلَ عندما كان إيرلاً، فلا تزالُ شخصيةُ المأمورِ مرهوبةً ومُحترمةً.

استمرَّت الصلوات لفترةٍ طويلةٍ. كانت هناك فترةٌ فاصلةٌ طويلةٌ ذهبَ فيها الرهبان إلى الخارجِ، ورشوا الماءَ المقدَّسَ على جدرانِ الكنيسةِ. وقبلَ نهايةِ المراسمِ أعلنَ رئيسُ الديرِ فيليب عن تعيين نائبٍ جديدٍ له وهو يتيم الديرِ الأخُ جوناثان. إنَّ جوناثان الآن في منتصفِ عقدهِ الثالث وهو طويلٌ جداً، ويُذكر وليم بالبنَّاءِ توم فقد كان الأخيرُ عملاقاً أيضاً.

وأخيراً انتهت المراسم، ولكن الضيوف البارزين بقوا في الجناحِ الجنوبي، واحتشدَ من حولهم نبلاءُ المقاطعةِ العاديون. توجهَ وليم وهو يعرجُ للانضمامِ إليهم. في الماضي اعتادَ وليم معاملةَ الأساقفةِ كمساوين له، ولكنه الآن باتَ مُضطراً للانحناءِ باحترامٍ للفرسانِ والملَّاكين الصغار. أخذَ الأسقفُ ويلارن وليم جانباً وسأله: «من يكون هذا النائبُ الجديد؟»

«إنَّه يتيمُ الدير»، أجابَ وليم وتابع: «ولطالما كانَ المفضَّل لدى فيليب».

«يبدو صغيراً جداً على أن يصبحَ نائبَ رئيسِ الديرِ».

«إنَّه أكبر من فيليب عندما أصبحَ الأخير رئيسَ الديرِ».

غرقَ ويلارن في التفكيرِ ثمَّ قال: «يتيم الديرِ! فتلذكرني بالتفاصيل».

«عندما أتى فيليب إلى هنا جلبَ طفلاً معه».

أشرقَ وجه ويلارن وهو يتذكر وقال: «بحقِّ الصليبِ، هذا صحيح! نسيتُ أمرَ طفلِ فيليب. كيفَ غابَ عن بالي هذا؟»

«حدثَ الأمرُ منذُ ثلاثين عاماً فمن يهتم».

رمقَ ويلارن وليم بنظرةِ إزدراءٍ يمقتها وليم كثيراً كأنَّ ويلارن أراد القول بها: «أيّها الثور الغبي، ألا يمكنكَ أن تفهمَ أمراً بهذهِ البساطةِ؟» وشعرَ وليم بالألمِ يطعنهُ في قدمهِ فغيَّرَ وضعيتهُ في محاولةٍ عقيمةٍ لتهدئتهِ.

قال ويلارن: «حسناً، ومن أينَ أتى الطفل؟»

ابتلعَ وليم استياءهُ وقال: «إن لم تخنِّي ذاكرتي عثروا عليهِ قربَ الصومعةِ القديمةِ في الغابةِ».

«جيد جيد»، قال ويلارن بحماسةٍ.

كان وليم ما يزالُ عاجزاً عن فهمِ ما يرمي إليهِ ويلارن، وسأله بتجهمٍ: «وماذا في الأمرِ؟»

«هل يمكنكَ القولُ إنَّ فيليب ربَّى الطفلَ كأنَّه طفلهُ؟»

«أجل».

«ونصَّبهُ نائبهُ الآن».

«من المفترضِ أنَّ الرهبان من انتخبوه. أعتقدُ أنَّه محبوبٌ جداً».

«من يصبحُ نائبَ رئيسِ الديرِ بعُمرِ الخامسةِ والثلاثين سيكون مرشحاً لمنصبِ رئيسِ الديرِ في نهايةِ المطافِ».

قررَ وليم أنَّه لن يقولَ لويلارن: «وماذا في هذا؟» وبدلاً من ذلكَ انتظرَ شرحَ ويلارن، وهو يشعرُ أنَّه تلميذٌ غبي.

وأخيراً قال ويلارن: «لا شك أنَّ جوناثان ابن فيليب».

انفجرَ وليم ضاحكاً. كان يتوقعُ من ويلارن أن يتفوه بفكرةٍ عظيمةٍ، ولكن بدلاً من ذلكَ أبدى هذهِ الملاحظة السخيفة، وشعرَ وليم بالرضا عندما رأى بشرةَ وجه ويلارن الشاحبة تحمرُّ قليلاً. قال وليم: «ما من أحدٍ يعرفُ فيليب قد يُصدقُ هذا. لقد ولدَ عجوزاً متشدداً. يا لها من فكرةٍ سخيفةٍ!» وضحكَ مجدداً. لا بدَّ أنَّ ويلارن اعتقد نفسهُ ذكياً جداً، ولكنه هذهِ المرة افتقدَ الحسَّ بالواقعِ.

وهنا نظرَ ويلارن بغطرسةٍ جليديةٍ وقال: «أقول إنَّ فيليب امتلكَ عشيقةً عندما دار الصومعة في الغابةِ، وعندما أصبحَ رئيسَ ديرِ كينغزبريدج اضطرَّ إلى تركِ المرأةِ، ولكن عشيقتهُ لم ترغب بالطفلِ وحدهُ من دونِ الأبِّ، ولهذا تركت الطفلَ معه، ولأنَّ فيليب عاطفي اضطرَ إلى العنايةِ بالطفلِ، ولهذا قالَ للناسِ إنَّه لقيطٌ».

هزَّ وليم رأسهُ وقال: «هذا غير معقول. قد يفعلها أيُّ أحدٍ ولكن ليس فيليب».

وتابع ويلارن: «إن كان الطفلُ لقيطاً كيفَ سيتمكن فيليب من إثباتِ هذا؟»

«لن يتمكن من إثباتِ هذا»، أقرَّ وليم، ونظرَ عبرَ الجناحِ الجنوبي للكنيسةِ باتجاهِ فيليب وجوناثان الواقفين بعضهما قربَ بعض يتحدثان إلى أسقفِ هيرفورد، وأضافَ وليم: «ولكنهما لا يُشبهان بعضهما بعضاً».

«أنتَ لا تشبه والدتكَ لحسنِ الحظِّ»، قال ويلارن.

«وما الهدفُ من هذا؟» سأل وليم ثمَّ تابع: «ما الذي تنوي فعلهُ حيالَ الأمرِ؟»

«أوجهُ له تهمةً أمامَ محكمةٍ كنسيةٍ»، أجابَ ويلارن.

سيكون الأمرُ مُختلفاً وقتئذٍ. ما من أحدٍ يعرفُ فيليب سيقتنعُ باتهامِ ويلارن له، ولكن قاضياً غريباً عن كينغزبريدج قد يجد الأمرَ منطقياً أكثر. وعلى مضضٍ أقرَّ وليم في نفسهِ أنَّ فكرةَ ويلارن لم تكن غبيةً تماماً. وكالعادةِ أثبت ويلارن نفسهُ أكثرَ دهاءً من وليم، وبالطبعِ ارتسمَ على وجههِ اعتدادٌ مزعجٌ، ولكن وليم كانَ متحمساً لاحتمالِ تدميرِ فيليب بهذهِ الطريقةِ.

«بحقِّ الرَّبِّ»، قال وليم بحماسةٍ. «أتعتقدُ أنَّ الأمرَ قد ينجح؟»

«هذا يعتمد على القاضي الذي سيرأسُ المحكمةَ الكنسيةَ، ولكن قد أتمكن من التدخلِ. أتساءلُ...»

نظرَ وليم عبرَ جناحِ الكنيسةِ إلى فيليب وإلى تلميذهِ الطويلِ بجانبهِ بابتسامةِ ظفرٍ. كان زجاجُ النوافذِ الملون يُلقي عليهما نوراً سحرياً كأنَّهما شخصيتان في حُلمٍ.

«يا إلهي! تهمةُ الزنى والمحاباة»، قال وليم بطربٍ.

«إن نجحنا في إثباتِ الأمرِ»، قال ويلارن في بهجةٍ. «ستكون هذه نهايةَ رئيسِ الديرِ اللعين».

***

ما من قاض عقلاني سيجدُ فيليب مذنباً بهذهِ التهمِ.

في الحقيقةِ لم يجد فيليب نفسه يوماً يقاوم بقوةِ إغراءَ الزنى، ومن خلالِ سماعِ الاعترافاتِ علمَ أنَّ بعضَ الرهبانِ يعانون بشدةٍ من الرغبةِ الجسديةِ، ولكنه لم يكن واحداً منهم. في وقتٍ مضى عندما كان في الثامنة عشرة راودتهُ بعضُ الأفكار الدنسةِ، ولكن هذهِ المرحلة لم تدم طويلاً، ولبقيةِ حياتهِ وجدَ العفَّة سهلةً. لم يمارس الفعلَ الجنسي يوماً، وهو على الأغلبِ عجوزٌ جداً الآن على القيامِ بهِ.

ولكن الكنيسةَ أخذت الاتهامَ بجديةٍ كبيرةٍ. سيُحاكم فيليب أمامَ محكمةٍ كنسيةٍ، وسيكون القاضي رئيسُ شمامسةٍ من كانتربري. أرادَ ويلارن

للمحكمةِ أن تقامَ في شايرنغ، ولكن فيليب حاربَ بنجاحٍ، ونقلها إلى كينغزبريدج لأنها وفي نهايةِ المطافِ بلدةُ الكاتدرائيةِ. في هذهِ الأثناءِ وضّبَ فيليب ممتلكاتهِ الشخصيةَ في منزلِهِ استعداداً لاستقبالِ رئيسِ الشمامسةِ الذي سينزلُ فيهِ.

علمَ فيليب أنَّه بريءٌ من تهمةِ الزنى، ومنطقياً هذا يعني أنَّه بريءٌ من تهمةِ المحاباةِ لأنَّ المرء لا يُمكن أن يُتهم بمحاباةِ ابنٍ ليسَ ابنه. على أيِّ حالٍ أمعنَ فيليب التفكيرَ بتهمةِ المحاباةِ، وتساءل في نفسهِ إن كان قد ارتكبَ خطأً بترقيةِ جوناثان. وكما الأفكارُ الدنسةُ ظلُّ خطيئةٍ أكبر قد يكون تفضيلُ يتيمٍ محبوبٍ ظلَّ محاباةٍ. يُفترضُ بالرهبانِ أن يتخلوا عن متعِ الحياةِ الأسريةِ، ولكن جوناثان كان بمنزلة الابن لفيليب فقد جعلهُ أمينَ المؤنِ في عمرٍ باكرٍ، ورقّاه إلى نائبِ ديرِ الآن. وسألَ فيليب نفسهُ: «هل فعلتُ هذا لإرضاءِ غروري ولمسرَّتي؟»

وفكرَ في نفسهِ: «حسناً، الجواب هو نعم».

أقرَّ في نفسهِ أنَّه شعرَ برضا كبير وهو يعلم جوناثان، ويراقبهُ يكبر، ويتعلمُ كيفيةَ إدارةِ شؤونِ الديرِ. ولكن حتَّى وإن كانت هذهِ الأمور مصدرَ مسرّةٍ كبيرةٍ له لا يمكنه نكرانُ حقيقةِ أنَّ جوناثان أقدرُ الإداريين الشباب في الديرِ. كان ذكياً، وتقياً، وصاحب مخيلةٍ وضميرٍ حيٍّ، ولأنَّه نشأ في الديرِ فهو لا يعرفُ أيَّ حياةٍ أخرى غيرها، ولم يتُق يوماً إلى الحريةِ منها، وفكرَ فيليب في نفسهِ: «نحنُ، أيتامُ الأديرةِ، أفضلُ رهبانٍ».

وضعَ كتاباً في حقيبتهِ، وكان إنجيلَ لوقا. يا له من خيارٍ حكيم! لطالما عاملَ جوناثان كابنٍ، ولكنه لم يرتكب أيَّةَ خطايا تستحقُّ مثولهُ أمامَ محكمةٍ كنسيةٍ، وتهمةُ الزنى تهمةٌ سخيفةٌ.

لسوءِ الحظِّ سيكون مجرَّد توجيهِ الاتهامِ إليه مُدمراً لأنَّه سينتقصُ من سلطتهِ الأخلاقيةِ، وسيكون هناكَ أناسٌ يتذكرون التهمةَ وينسون الحكمَ، وفي المرةِ القادمةِ التي يعظُ فيها الناسَ قائلاً: «يُحرَّمُ على الرجلِ اشتهاءَ زوجة جارهِ»، سيدورُ في ذهنِ بعضِ أفرادِ الرعيةِ: «ولكنكَ استمتعتَ بوقتكَ عندما كنتَ شاباً».

اندفعَ جوناثان إلى داخلِ الغرفةِ وهو يلهثُ. تجهمَ فيليب فلا يُفترضُ

بنائبِ رئيسِ الديرِ أن يقتحمَ الغرفَ لاهثاً، وكان فيليب على وشكِ تقديمِ محاضرةٍ أخلاقيةٍ عن كرامةِ أصحابِ المناصبِ الرهبانيةِ عندما قال جوناثان: «وصلَ رئيسُ الشمامسةِ بيتر».

«حسناً، حسناً»، قال فيليب بلهجةٍ لطيفةٍ. «أنا على وشكِ الانتهاءِ على أيِّ حالٍ»، وسلَّم الحقيبةَ إلى جوناثان ثمَّ أضاف: «خُذ الحقيبةَ إلى المهجعِ، ولا تركضْ فالديرُ مكانٌ للسلامِ والهدوء».

تلقى جوناثان من فيليب الحقيبةَ والتوبيخَ ولكنه قال: «لم أستلطف مظهرَ رئيسِ الشمامسةِ».

«أنا واثقٌ من أنَّه سيقضي بعدلٍ، وهذا كلُّ ما نرجوه»، قال فيليب.

فُتحَ البابُ مجدداً، ودخلَ رئيسُ الشمامسةِ. كان رجلاً طويلاً وممشوقاً في عمرِ فيليب تقريباً بشعرٍ أشيب خفيفٍ، وعلى وجههِ ارتسمَ مظهرٌ مُتعالٍ. بدا الرجلُ مألوفاً بطريقةٍ غريبةٍ.

تقدَّمَ فيليب مصافحاً إياه وهو يقول: «أنا رئيسُ الديرِ فيليب».

«أنا أعرفكَ»، قال رئيسُ الشمامسةِ بفظاظةٍ ثمَّ أضاف: «ألا تتذكرني؟»

عندما تذكرَ فيليب صاحبَ هذا الصوت الأجشّ غاصَ قلبهُ في صدرهِ. كان الرجلُ أحدَ أقدمِ أعدائهِ. «رئيسُ الشمامسةِ بيتر... بيتر ويرهام»، قال فيليب بتجهمٍ.

***

«كان مثيراً للمتاعبِ»، شرحَ فيليب لجوناثان بعدَ أن تركا رئيس الشمامسةِ ليرتاحَ في منزلِ رئيسِ الديرِ. «اشتكى دوماً من أننا لا نعملُ بجدٍ كافٍ، أو نأكلُ بنهمٍ، أو أن الصلوات قصيرةٌ، أو أنني متساهلٌ جداً. أنا واثقٌ من أنَّه أرادَ أن يكونَ رئيسَ الديرِ، ولكن كان سيصبح رئيساً كارثياً من كلِّ بدٍ، ولذلكَ عينتهُ مسؤولاً عن الصدقاتِ، واضطرَّ إلى قضاءِ نصفِ الوقتِ خارجَ الديرِ. فعلت ذلكَ للتخلصِ منه، وكان هذا للأفضلِ من أجلِ الديرِ ومن أجلي، ولكنني على ثقةٍ من أنَّه وحتَّى بعدَ مرورِ خمسة وثلاثين عاماً ما زال يكرهني». تنهدَ ثمَّ أضاف: «سمعتُ عندَ زيارتي إلى صومعةِ سان جون إن ذا فوريست بعدَ المجاعةِ أنَّ بيتر توجه إلى كانتربري، وها هو الآن القاضي في محكمتي».

جلسا في الممرّاتِ المسقوفةِ. كانَ الطقسُ لطيفاً، والشمسُ دافئةً. جلسَ خمسون فتى في ثلاثةِ صفوفٍ مختلفةٍ في الممرّ الشمالي يتعلمون القراءةَ والكتابةَ، وترددت همهمةُ أصواتهم في أرجاءِ الباحةِ وسطَ الممرّاتِ المسقوفةِ. يتذكرُ فيليب عندما لم يكن في الديرِ سوى خمسة تلاميذ يُدرّسهم مُعلمُ الرهبانِ العجوز، وفكرَ بكلِّ ما فعلهُ هنا: بناءُ الكاتدرائيةِ، وتحويلِ الديرِ الفقيرِ والمتهدمِ إلى ديرٍ ثري ومزدحمٍ وبارزٍ، وتوسيع بلدةِ كينغزبريدج. في الكنيسةِ حالياً أكثرُ من مئةِ راهبٍ في جوقةِ الترتيلِ يغنون خلالَ القداسِ، ومن مكانهِ نظرَ بافتتانٍ إلى النوافذِ العلويةِ الملونةِ والجميلةِ، ومن خلفهِ في الممرّ الشرقي بناءُ المكتبةِ الحجري الذي يحوي على مئاتِ الكتبِ من كل فروعِ المعرفةِ: علمِ اللاهوتِ، والفلكِ، والأخلاقِ، والرياضيات. أمَّا في العالَمِ الخارجي فكانت أراضي الديرِ تُدار باهتمامٍ مُنفتحٍ من قبلِ موظفين رهبان، وهي لا تعيل الديرَ فحسب بل مئاتِ المزارعين. هل سيُحرم من كلِّ هذا بسببِ كذبةٍ؟ هل سيُسلمُ الديرَ المزدهرَ والتقي إلى شخصٍ آخر يخدم كبيدقٍ في يدِ الأسقفِ ويلارن كرئيسِ الشمامسةِ المتملقِ بولدوين، أو الغبي بيتر ويرهام الذي يعتقد أنَّه أقوم الناس أخلاقياً، وينحدرُ الديرُ بسرعةٍ إلى حالةِ الفاقةِ والفقرِ التي كان عليها عندما وصلَ فيليب؟ هل ستتقلصُ قُطعان الخرافِ الكبيرةُ، وتتحولُ إلى مجردِ مجموعاتٍ من نعاج عجفاوات، وتعودُ المزارعُ بوراً، ويملأُ الغبار المكتبة من قلةِ الاستخدامِ، وتقعُ الكاتدرائيةُ الجميلةُ ضحيةَ الرطوبةِ والإهمالِ؟ لقد أعانني الرَّبُّ على إنجازِ الكثيرِ، ولا يسعني التصديقُ أنَّه يريدُ لكل هذا أن يذهبَ أدراجَ الرياحِ.

قال جوناثان: «ولكن لا يمكنُ لرئيسِ الشمامسةِ بيتر أن يجدكَ مذنباً».

«أعتقدُ أنَّه سيفعل»، قال فيليب بقلبٍ مُثقلٍ.

«كيفَ يسمحُ له ضميرهُ بفعلِ هذا؟»

«أعتقدُ أنَّه ما زالَ يشعر بالغُبنِ، وهذهِ فرصتُهُ ليُثبتَ أنني خاطئ، وأنَّه المتدين وليسَ أنا، وبطريقةٍ ما اكتشفَ ويلارن الأمرَ، وحرصَ على تعيين بيتر قاضياً في هذهِ القضيةِ».

«ولكن لا يوجد دليلٌ!»

«لن يحتاج إلى دليلٍ. سيستمع إلى الاتهامِ، وإلى الدفاعِ، وسيُصلي من أجلِ هدايةِ الرَّبِّ في حكمهِ ثمَّ سيُعلنُ الحُكمَ».

«فليهدهِ الرَّبُّ إلى الحقِّ».

«لن يُصغي بيتر إلى الرَّبِّ فلم يكن يوماً شخصاً يُصغي».

«ما الذي سيحدث؟»

«سأُعزلُ من منصبي»، قال فيليب بتجهم. «قد يسمحون لي بالبقاءِ هنا كراهبٍ عادي، وأكفرَ عن خطيئتي، ولكن مثلَ هذا الاحتمال مستبعدٌ. على الأرجحِ سيطردونني من الرهبنةِ كي لا يكون لي أيُّ نفوذٍ».

«وما الذي سيحدث عندئذٍ؟»

«بالطبعِ سيجرون انتخاباتٍ. لسوءِ الحظِّ سيكون للسياسةِ الملكيةِ دورٌ في هذا. إنَّ الملكَ هنري في حالةِ نزاعٍ مع كبيرِ أساقفةِ كانتربري توماس بيكيت، ورئيسُ الأساقفةِ في منفاه في فرنساً، ومعهُ نصفُ رؤساءِ شمامستهِ، أمَّا النصفُ الآخرُ فقد بقي هنا، وأخذَ جانبَ الملكِ. لا شكَّ أنَّ بيتر، ومعهُ الأسقفُ ويلارن أيضاً، من النصفِ الثاني. سيُقدمُ ويلارن اسماً، وسيدعمهُ بقيةُ رؤساءِ الشمامسةِ والملك. سيجدُ الرهبانُ هنا صعوبةً في معارضةِ انتخابِ هذا الشخصِ».

«ومن تعتقدُ أنَّه سيكون؟»

«كُن على ثقةٍ من أنَّ ويلارن يملكُ مرشحاً، وقد يكون رئيسُ الشمامسةِ بولدوين، أو بيتر ويرهام».

«يجب أن نقومَ بشيءٍ لمنعِ هذا!» قال جوناثان.

أومأ فيليب برأسهِ: «كلُّ شيءٍ ضدنا. لا يمكننا القيامُ بشيءٍ لتغييرِ الوضعِ السياسي. إنَّ الاحتمال الوحيد...»

«ما هو؟» قال جوناثان بنفاد صبرٍ.

كانَ الحلُّ ميئوساً منهُ إلى درجةِ أن فيليب شعرَ بعدمِ جدوى العبثِ بأفكارٍ مستحيلةٍ لأنَّ هذا سيزيدُ تفاؤلَ جوناثان ثمَّ يحبطه لاحقاً.

«لا شيء»، قال فيليب.

«ما الذي أردت قوله؟»

كان فيليب ما زالَ يُفكرُ بالأمرِ وقال: «هناك طريقةٌ لإثباتِ براءتي بشكلٍ قاطعٍ، وسيستحيلُ على بيتر أن يجدني مذنباً بعدهُ».

«وما الذي يعتبرهُ بيتر دليلاً قاطعاً؟»

«لا يمكنكَ أن تُثبتَ شيئاً لم يحدث. يجبُ أن نعثرَ على والديكَ الحقيقيين».

تحمسَ جوناثان على الفورِ قائلاً: «أجل، هذا هو! هذا هو الدليل الذي سيفي بالغرضِ!»

«على رسلكَ»، قال فيليب. «حاولت العثورَ عليهما قبلاً، ولن يكون الأمرُ سهلاً الآن، خاصةً بعدَ مرورِ كل هذهِ السنواتِ».

لكن جوناثان لم يكن مُستعداً لأن يستسلمَ للإحباطِ وقال: «ألا توجدُ أيُّ دلائل على المكانِ الذي أتيتُ منه؟»

«يؤسفني القولُ إنَّه لا يوجد»، قال فيليب في قلقٍ الآن من أن يكون قد رفعَ معنويات جوناثان عبثاً. ورغمَ أنَّ الفتى لا يمتلكُ أيَّةَ ذكرى عن والديهِ، فحقيقة أنَّهما تخليا عنهُ أزعجتهُ على الدوامِ. وها هو الآن يعتقدُ أنَّه قد يحلُّ اللغزَ، ويعثر على ما يؤكد أنَّهما أحبَّاه بحقٍ. كان فيليب واثقاً من أنَّ هذا سينتهي نهايةً مُحبطةً.

«هل استفسرت من الناسِ في الجوارِ؟» سألَ جوناثان.

«لا يعيشُ أحدٌ هناك، والديرُ في أعماقِ الغابةِ. ربما أتى والداكَ من منطقةٍ بعيدةٍ، من وينشستر ربما. لقد فكرتُ بهذا وقتئذٍ».

تابعَ جوناثان: «ألم ترَ مسافرين في الغابةِ آنذاك؟»

«لا»، قال فيليب متجهماً، وتساءل في نفسهِ إن كان هذا صحيحاً ثمَّ أنعشت ذاكرتهُ فكرةٌ غريبةٌ. في اليومِ الذي عثروا فيهِ على الطفلِ غادرَ فيليب الديرَ متوجهاً إلى قصرِ الأسقفِ، وفي طريقهِ تحدَّثَ إلى بضعة مسافرين، وفجأةً تذكرَ فقال: «حسناً، أجل، في الحقيقةِ التقيتُ بالبنَّاءِ توم وعائلتهِ».

أصيبَ جوناثان بالذهولِ وقال: «لم تخبرني بهذا قبلاً!»

«لم يبدُ لي أمراً مُهمّاً، وهو لا يزالُ غير مهم. قابلتهم بعدَ يومٍ أو يومين. استفسرت منهم، ولكنهم قالوا إنَّهم لم يروا أحداً قد يكون أباً أو أمّاً لطفلٍ لقيطٍ».

بدا جوناثان مُحبطاً. خشي فيليب أن يقود مسارُ الاستفسار إلى مزيدٍ من الاحباطِ لجوناثان؛ فهو لن يكتشفَ من هم أهلهُ، ولن يتمكن من إثباتِ براءةِ فيليب، غيرَ أن فيليب الآن بات عاجزاً عن إيقاف جوناثان.

«ولكن ما الذي كانوا يفعلونهُ في الغابةِ؟» تابع جوناثان.

«كان توم في طريقهِ إلى قصرِ الأسقفِ بحثاً عن عملٍ، ولكن انتهى بهِ الأمرُ هنا».

«أريدُ أن أستفسرَ منهم مجدداً».

«حسناً، ولكن توم وآلفريد متوفيان. مازالت إيلين تعيشُ في الغابةِ، ولا يعلمُ الرَّبُّ متى ستظهرُ مجدداً، ولكنكَ تستطيعُ التحدثَ إلى جاك، أو إلى مارثا؟»

«الأمرُ يستحقُ المحاولة».

فكرَ فيليب في نفسهِ أنَّ جوناثان محقٌ، وهو يمتلكُ حماسةَ وطاقةَ الشبابِ أمَّا هو فكانَ متشائماً ومُحبطاً. «فلتذهب وتسألهُ»، قال فيليب لجوناثان. «أصبحتُ عجوزاً ومتعباً، ولولا هذا لذهبتُ بنفسي. فلتذهب وتتحدث إلى جاك. قد يكون الأملُ ضعيفاً، ولكنه أملنا الوحيد».

***

على طاولةٍ خشبيةٍ كبيرةٍ غُسلت بالجعةِ لمنعِ الألوانِ من الامتزاجِ رسمٌ ملونٌ لنافذةٍ بالحجمِ الكاملِ، ويصور شجرةَ عائلةِ المسيح. التقطت سالي قطعةً زجاجيةً صغيرةً وسميكةً بلونٍ ياقوتي، ووضعتها على جسدِ أحدِ ملوكِ إسرائيل. لم يكن جاك واثقاً من هويةِ هذا الملكِ؛ فهو يعجزُ على الدوامِ عن تذكرِ الرمزيةِ المُعقدةِ للصورِ الدينيةِ. غمست سالي فرشاةً رفيعةً في وعاءٍ من الطبشورِ الممزوجِ بالماءِ، ورسمت أبعادَ الجسدِ -الأكتاف والذراعين وأطرافَ الرداءِ- على الزجاج.

في الموقدِ بجانبِ طاولتها قضيبٌ حديدي بمقبضٍ خشبي. أخذت القضيبَ من النارِ ثمَّ بسرعةٍ وبعنايةٍ مررت نهايتهُ المُحمرَّة على حدودِ الرسمِ ففرقع الزجاج على طولِ الخطِّ، وسارعَ متدربها إلى التقاطِ قطعِ الزجاجِ، وتسويةِ أطرافهِ بكمَّاشةٍ حديديةٍ.

أحبَّ جاك مشاهدةَ ابنتهِ خلالَ عملها. كانت سريعةً، ودقيقةً، وحركاتها مدروسةً. عندما كانت فتاةً صغيرةً فُتنت بعملِ صانعي الزجاجِ الذين جلبهم جاك من باريس، ومنذئذٍ وهي تقول إنَّ هذا ما تريدُ القيامَ بهِ عندما تكبر، وفكرَ جاك بأسفٍ أنَّ الناس عندما يزورون كاتدرائيةَ كينغزبريدج يُسحرون بزجاجِ سالي أكثر مما يُسحرون بعمارةِ والدها.

سلَّمها المتدربُ قطعةَ الزجاجَ التي عملَ على تسويتها، وبدأت برسمِ طياتِ الرداءِ على سطحِ القطعةِ باستخدامِ طلاءٍ مصنوعٍ من خامِ الحديدِ والبولِ والصمغ العربي، وفجأةً بدا الزجاجُ كقطعةِ قماشٍ ناعمةٍ ومنسدلةٍ. كانت ماهرةً جداً. أنهت العملَ بسرعةٍ، ووضعت قطعةَ الزجاجِ الملونةِ مع قطعٍ أخرى ملونةٍ، في وعاءٍ حديدي باطنهُ مطلي بالكلسِ. عندما يمتلئ الوعاءُ بالقطعِ سيُدخلُ إلى فرنٍ وستمزجُ الحرارةُ الطلاءَ بالزجاجِ.

رفعت سالي نظرها إلى جاك، وابتسمت له ابتسامة مقتضبةً ولكن ساحرةً ثمَّ التقطت قطعةَ زجاجٍ أخرى.

ابتعدَ جاك. كان بوسعهِ قضاءُ اليومِ بأكملهِ يراقبها، ولكنْ لديهِ عملٌ يقومُ بهِ. كان، وكما تقولُ آليانا، مفتوناً بابنتهِ، وعندما ينظرُ إليها غالباً ما يشعرُ بالذهولِ لأنَّه المسؤول عن وجودِ هذهِ الشابةِ الذكيةِ، والمستقلةِ، والناضجةِ، ويُسرُّ كثيراً لأنَّها حرفيَّةٌ ماهرةٌ.

ما يدعو للسخريةِ أنَّ جاك حاولَ على الدوامِ الضغط على تومي ليُصبحَ بنَّاءً، وأجبرهُ على العملِ في الموقعِ لبضعِ سنواتٍ، ولكن تومي كان مُهتماً بأمورٍ لا تعني جاك أبداً كالزراعةِ، وركوبِ الخيلِ، والصيدِ، والمبارزةِ، واضطرَّ جاك أخيراً إلى الاعترافِ بالهزيمةِ. خدمَ تومي كمرافقٍ عندَ أحدِ السادةِ المحليين، وأصبحَ فارساً في النهايةِ، ثمَّ منحتهُ آليانا ملكيةً صغيرةً من خمسِ قرى، وأثبتت سالي نفسها أنَّها الموهوبةُ في المنزلِ. تومي الآن متزوجٌ من أصغرِ بناتِ إيرل بيدفورد، ولديهما ثلاثةُ أطفالٍ. كان جاك جدَّاً الآن. أمَّا سالي وعلى الرغمِ من أنّها في الخامسةِ والعشرين فهي ما تزالُ عازبةً، وتتحلى بالكثيرِ من صفاتِ جدَّتها إيلين. كانت مستقلةً جداً.

تجول جاك حولَ الطرفِ الغربي من الكاتدرائيةِ، ونظرَ إلى البرجين التوأمين. كانا شبهَ مُكتملين الآن، والجرسُ البرونزي الضخمُ في طريقهِ إلى هنا من معملِ سبكِ الأجراسِ في لندن. لم يكن هناكَ الكثيرُ من العملِ حالياً. فيما سبقَ كان لديهِ جيشٌ من قاطعي الحجارةِ، والنجارين الأقوياءِ يبنون قوالب الحجارةِ، ويصنعون السقالاتِ، أمَّا الآن فقد تحولَ هذا الجيشُ إلى مجموعةٍ صغيرةٍ من النقَّاشين والرسامين ممن يقومون بأعمالٍ متعبةٍ ولكن على مستوى أصغر كنحتِ تماثيلِ المشكاتِ، وبناءِ القممِ التزيينةِ، وطلاءِ

أجنحةِ تماثيلِ الملائكةِ. توقف عن التصميم الآن إلا أنَّه بينَ الفينةِ والأخرى يصمم بناءً جديداً في الديرِ كمكتبةٍ، أو قاعةِ اجتماعاتٍ، أو أماكن لمبيتِ الحجاجِ، أو أبنية مخصصة للغسيلِ، أو صُنعِ الألبانِ. خلالَ هذا الوقتِ الذي قضاهُ جاك في إنجازِ أعمالٍ عاديةٍ عادَ إلى الحفرِ على الحجرِ لأولِ مرَّةٍ منذُ سنواتٍ عديدةٍ، وتاقَ إلى هدمِ المذبحِ القديمِ الذي بناه توم، وبناءِ طرفٍ شرقيٍ جديدٍ من تصميمهِ، ولكن رئيس الديرِ فيليب أرادَ الاستمتاع بالكنيسةِ كاملةً لعامٍ قبلَ بدءِ عملٍ جديدٍ؛ فقد شعرَ أنَّه طاعنٌ في السنِّ، وخشي جاك ألا يعيشَ الراهبُ العجوز ليرى المذبحَ الجديدَ بعدَ إعادةِ بنائهِ.

فكرَ جاك وهو يرى القامةَ الطويلةَ للأخِ جوناثان قادماً باتجاههِ من فناءِ المطبخِ أنَّ العملَ في الكاتدرائيةِ سيستمرُ بعدَ وفاةِ فيليب. سيكون جوناثان رئيسَ ديرٍ صالحاً، وربما صالحاً كفيليب. سُرَّ جاك عندما عرفَ أنَّ جوناثان سيكون خليفةً لفيليب فقد سمحَ له هذا بحريةِ التخطيطِ للمستقبلِ.

«أنا قلقٌ بشأنِ المحاكمةِ الكنسيةِ يا جاك»، قال جوناثان من دونِ مقدماتٍ.

قال جاك: «اعتقدتُ أنَّها مجرَّد جلبةٍ تافهةٍ».

«وأنا كذلكَ، ولكن يبدو أنَّ رئيسَ الشمامسةِ عدو قديمٌ لرئيسِ الديرِ فيليب».

«اللعنة. ولكن هذا غير مهم فهو حتماً لن يجدَ فيليب مُذنباً».

«يمكنهُ فعلُ ما يحلو له».

هزَّ جاك رأسهُ في تقززٍ. كان أحياناً يتساءلُ في نفسهِ كيف يُمكن لرجالٍ من أمثالِ جوناثان الإيمان بالكنيسةِ وهي في حالةِ فسادٍ مُخجلٍ. «ما الذي ستفعلهُ الآن؟»

«الطريقةُ الوحيدةُ لإثباتِ براءتهِ هي معرفةُ من هم والداي».

«ولكن الوقتَ قد تأخرَ على هذا!»

«هذا أملنا الوحيد».

تأثرَ جاك بعضَ الشيءِ بما قاله جوناثان فهذا يعني أنَّ فيليب وجوناثان يائسان.

«من أينَ ستبدأ؟»

«من عندكَ. كنتَ في منطقةِ صومعةِ سان جون إن ذا فوريست في الوقتِ الذي ولدتُ فيهِ».

«هل هذا صحيح؟» قال جاك دون أن يفهم ما رمى إليه جوناثان. «عشتُ هناك إلى أن بلغتُ الحاديةَ عشرة، ولا بدَّ أنني أكبرُ منكَ بأحدَ عشرَ عاماً...»

«يقولُ الأبُ فيليب إنَّه التقاكَ مع والدتكَ والبنَّاء توم وولديهِ بعدَ يومٍ على عثورهم علي».

«أتذكرُ هذا. آنذاك تناولنا كلَّ طعامِ فيليب من شدةِ جوعنا».

«حاول أن تتذكر. هل رأيتَ شخصاً مع طفلٍ، شابةً بدت حاملاً، قربَ المنطقةِ؟»

«مهلاً»، قال جاك في حيرةٍ ثمَّ تابع: «هل تقول إنَّهم عثروا عليكَ قربَ صومعةِ سانت جون إن ذا فوريست؟»

«أجل. ألم تعرف هذا؟»

لم يكن جاك قادراً على تصديقِ ما سمعهُ وأجابهُ ببطءٍ: «لا، لم أعلم هذا». كان ذهنهُ ما يزال يسبرُ أغوارَ اكتشافهِ. «عندما وصلنا إلى كينغزبريدج كنتَ هنا، وبالشكلِ الطبيعي افترضتُ أنَّه عثروا عليكَ في غابةٍ قريبةٍ من هنا»، وفجأةً شعرَ جاك بالحاجةِ إلى الجلوسِ. كانت هناكَ كومةٌ من بقايا البناءِ قربهُ فجلسَ عليها.

قال جوناثان في نفاد صبرٍ: «حسناً. هل رأيتَ أحداً في الغابةِ؟»

«أجل»، أجابَ جاك. «ولكن لا أعرفُ كيفَ أخبركَ بهذا يا جوناثان».

شحبَ وجه جوناثان وقال: «أنتَ تعلمُ شيئاً، أليسَ كذلكَ؟ ما الذي رأيتهُ؟»

«رأيتكَ يا جوناثان. هذا ما حدثَ».

وفغرَ جوناثان فاه من الدهشةِ وقال: «ماذ؟ كيف؟»

«كان الوقتُ فجراً، وكنتُ ذاهباً لصيدِ البطِّ. سمعتُ بكاءً، وعثرتُ على طفلٍ حديثِ الولادةِ ملفوفاً بعباءةٍ قديمةٍ ممزقةٍ قربَ رمادِ نارٍ تخبو».

حدَّقَ جوناثان إلى جاك وسألهُ: «هل رأيتَ شيئاً آخر؟»

أومأ جاك برأسهِ على مهلٍ وتابع: «كانَ الطفلُ فوقَ قبرٍ حديثٍ».

ابتلعَ جوناثان لعابهُ وقال: «قبرُ والدتي؟»
أومأ جاك برأسهِ.
ورغمَ أنَّ جوناثان بدأ ينتحبُ فإنَّه تابعَ الاستجواب: «وما الذي فعلتهُ؟»
«ذهبتُ لإحضارِ والدتي، ولكن عندما عُدنا إلى المكانِ رأينا كاهناً على جوادٍ قصيرِ القوائمِ يحملُ طفلاً».
«كان فرانسيس»، قال جوناثان في صوتٍ مخنوقٍ.
«ماذا؟»
ابتلعَ جوناثان لعابهُ بصعوبةٍ وأجابَ: «كان فرانسيس شقيقُ الأبِ فيليب الكاهن الذي عثرَ علي».
«ما الذي كان يفعلهُ هناك؟»
«كان في طريقهِ لرؤيةِ فيليب في صومعةِ سان جون إن ذا فوريست، وعثرَ علي».
«يا إلهي!» قال جاك وهو يُحدّقُ إلى الراهبِ الطويلِ الباكي والدموعُ على خديهِ، وفكرَ في نفسهِ: «أنتَ لا تعرفُ البقيةَ بعد يا جوناثان».
قال جوناثان: «هل رأيتَ رجلاً في الجوارِ؟ قد يكون هذا الرجل والدي».
«أجل»، قال جاك برزانةٍ. «أعلمُ من يكون والدكَ».
«أخبرني!» قال جوناثان بصوتٍ كالهمسِ.
«البنَّاء توم».
«البنَّاء توم؟» قال جوناثان، ورمى بنفسهِ على الأرضِ جالساً. «البنَّاء توم والدي!»
«أجل»، أجابَ جاك وهو يهزُّ رأسهُ مشدوهاً. «ها أنا أخيراً أدرك بمن تذكرني. أنتَ وتوم من أطولِ الناسِ الذين التقيتهم في حياتي».
«كان طيباً معي عندما كنت طفلاً»، قال جوناثان في نبرةٍ ذاهلةٍ. «اعتادَ اللعبَ معي، وكان يُحبني جداً. كنتُ أراه كثيراً كما أرى الأبَ فيليب»، وانهمرت الدموع من عينيهِ بغزارةٍ. «كان والدي. والدي»، ثمَّ رفعَ نظرهُ إلى جاك وسأله: «لماذا تخلى عني؟»
«اعتقدوا أنَّكَ ستموتُ في جميعِ الأحوالِ. لم يكن لديهم حليبٌ

لإطعامكَ، وأعلمُ أنَّهم أنفسهم كانوا يتضورون جوعاً. كانوا بعيدين جداً عن أيِّ قريةٍ أو بلدةٍ، ولم يعرفوا أنَّ الديرَ قريبٌ. لم يكن لديهم طعامٌ باستثناءِ القرنبيطِ، ولو أطعموكَ إياهَ لمُتَّ».

«إذاً، كانوا يحبونني».

استعادَ جاك الأمرَ في ذهنِهِ كأنَّه حدثَ البارحةَ: النار الذاوية، وتراب القبرِ الحديثِ، والطفل الوردي الصغير يُحرّكُ ذراعيهِ وقدميهِ داخلَ عباءةٍ رمادية قديمةٍ. ها هي الفُضلةُ البشريةُ الصغيرةُ كبرت، وتحولت إلى رجلٍ طويلٍ يجلسُ قبالتهُ ويبكي.

«أجل، لقد أحبوكَ»، أجاب جاك.

«لماذا لم يتحدث أحدٌ في الأمرِ؟»

«لا بد أنَّ توم شعرَ بالعارِ من فعلتِهِ»، قال جاك. «ووالدتي حتماً تعرفُ ما حدثَ. نحنُ الأطفالُ شككنا بشيءٍ غريبٍ، ولكن مُنعنا من ذكرِ الموضوعِ، ولهذا لم نربط بينَك وبين ذلكَ الطفلِ».

«لا بدَّ أن تومَ ربطَ بينَ الأمرين»، قال جوناثان.

«أجل».

«أتساءل عن السببِ الذي منعهُ من استعادتي؟»

«تركتهُ والدتي بعدَ قدومنا إلى هنا بفترةٍ قصيرةٍ»، قال جاك ثمَّ ابتسم بأسى وتابع: «كانت صعبةَ الإرضاءِ كابنتي سالي. ولو أنَّ توم حاولَ استعادتك فهذا يعني أنَّه سيضطرُ إلى إيجادِ مُرضعةٍ للعنايةِ بكِ، ولذلكَ أعتقدُ أنَّه فكرَ في نفسهِ أنَّ ما من سببٍ يستدعي أخذَكَ من الديرِ، وأنتَ تتلقى عنايةً جيدةً فيهِ».

أومأ جوناثان برأسهِ وقال: «لقد اعتنى بي الراحلُ جوني إيتبنس رحمةُ الرَّبّ على روحهِ».

«وبهذهِ الطريقةِ تمكنَ توم من رؤيتكَ أكثرَ. كنتَ تلعبُ في ساحةِ الديرِ طوالَ اليومِ، وهو يعملُ هنا. ولو أنَّه أخذكَ من الدير لبقيتَ في المنزلِ مع المُرضعةِ، ولتسنى له وقتٌ أقل معكَ. وأتخيلُ أنَّه مع مرورِ السنواتِ، وعندما كبرت كيتيمٍ في الديرِ، وبدوتَ سعيداً بهذهِ الحياةِ، بدا له من المنطقي والطبيعي أن يتركك. على أيِّ حالٍ غالباً ما يمنحُ الناسُ طفلاً من أطفالهم إلى الرَّبِّ».

«وطوالَ هذهِ السنواتِ وأنا في حيرةٍ في أمرِ والديّ»، قال جوناثان، وتألمَ جاك عليهِ. «حاولت أن أتخيلَ شكلهما، وطلبتُ من الرَّبِّ أن يسمحَ لي برؤيتهما، وتساءلت في نفسي إن أحباني، ولماذا تخليا عني. ها أنا الآن أعلمُ أنَّ والدتي توفيت بعدَ ولادتي، ووالدي كان قريباً مني طوالَ حياتِهِ»، وابتسمَ من بينِ دموعهِ ثمَّ قال: «لا يسعني أن أخبركَ بمدى سعادتي».

شعرَ جاكُ أنَّه على وشكِ البكاءِ أيضاً، وفي محاولةٍ لتغطيةِ حرجهِ قال لجوناثان: «أنتَ تشبه توم».

«هل هذا صحيح؟» قال جوناثان في سرورٍ.

«ألا تتذكرُ كم كان طويلاً؟»

«كان جميعُ البالغين بالنسبةِ لي آنذاك طوالاً».

«كانت لديهِ تقاسيم وجهٍ جميلةٌ ودقيقةٌ جداً مثلكَ، ولو أنَّك تتركَ لحيتكَ لتكهنَ الناسُ أنَّكَ ابنهُ».

«أتذكرُ يومَ وفاتهِ»، قال جوناثان. «أخذني في جولةٍ في السوقِ. شاهدنا قتالَ الدببةِ ثمَّ صعدتُ جدارَ مذبحِ الكنيسةِ، وكنتُ خائفاً جداً على النزولِ، ولهذا صعدَ وحملني ثمَّ أنزلني، ثمَّ رأى رجالَ وليم قادمين. وضعني في الممرّاتِ المسقوفةِ، وكانت تلكَ المرةَ الأخيرةَ التي رأيتهُ فيها على قيدِ الحياةِ».

«أتذكرُ هذا»، قال جاك. «راقبتهُ وهو ينزلُ وأنتَ على ذراعيهِ».

«لقد حرصَ على أن أكونَ في أمانٍ»، قال جوناثان في دهشةٍ.

«ثمَّ حرصَ على سلامةِ البقيةِ»، قال جاك.

«لقد أحبَّني بحقٍ».

وهنا جالَ في بالِ جاك خاطرٌ وقال: «سيُحدثُ هذا الاكتشافُ فرقاً كبيراً في محاكمةِ فيليب، أليسَ كذلك؟»

«نسيتُ أمرَ المحاكمةِ»، قال جوناثان. «أجل، يا إلهي سيُحدثُ هذا فرقاً!»

«هل لدينا دليلٌ لا يمكن دحضه؟» تساءل جاك. «رأيتُ الطفلَ والكاهنَ، ولكنني لم أرَ الطفلَ يُسلَّم إلى الديرِ».

«فرانسيس شاهدٌ، ولكنه شقيقُ فيليب ولذلكَ لن تكون شهادتهُ مقبولةً».

«ذهبت والدتي وتوم معاً في ذلكَ الصباح»، قال جاك ممعناً في التذكرِ.

«قالا إنَّهما ذاهبان للبحثِ عن الكاهن. لا بدَّ أنَّهما توجها إلى الديرِ ليتأكدا من سلامةِ الطفلِ».

«لو أنَّها تشهدُ بهذا في المحكمةِ فهذا كفيلٌ بإغلاقِ القضيةِ»، قال جوناثان بحماسةٍ.

«يعتقدُ فيليب أنَّها ساحرةٌ»، أشارَ جاك. «هل سيسمح لها بالشهادةِ؟»

«سنفرضها عليهِ، ولكنها تكره فيليب فهل ستقبلُ بالشهادةِ؟»

«لا أعلم»، قال جاك وأضاف: «فلنذهب ونسألها».

***

«الزنى والمحاباة»، صرخت والدةُ جاك. «من؟ فيليب؟» ضحكت ثمَّ قالت: «يا لها من تهمةٍ سخيفةٍ».

«أمّي، الأمرُ جدي»، قال جاك.

«لا يستطيع فيليب أن يزني حتَّى وإن وضعوه في برميلٍ مع ثلاثةِ عاهراتٍ»، قالت وتابعت: «فهو لا يعرف كيف يُضاجع».

بدا الحرجُ على وجهِ جوناثان وقال: «حتَّى وإن بدت التهمة سخيفة فإنَّ رئيسَ الديرِ فيليب في ورطةٍ حقيقيةٍ».

«ولمَ قد أساعد فيليب؟» قالت إيلين. «فهو لم يسبب لي سوى الألم».

كان جاك قد خافَ من حدوثِ هذا. يبدو أنَّ والدتهُ لم تسامح فيليب على التفريقِ بينها وبين توم. «لقد سببَ لي الألم أيضاً، وإن كان بوسعي الغفران تستطيعين ذلك أيضاً».

«لستُ من النوعِ الذي يغفرُ»، أجابتهُ.

«إذاً، لا تقومي بهذا من أجلِ فيليب بل من أجلي، فأنا أريدُ الاستمرار ببناءِ كينغزبريدج».

«لماذا؟ لقد انتهيتَ من بناءِ الكاتدرائيةِ».

«أرغبُ بهدمِ المذبحِ الذي بناه توم، وإعادةِ بنائهِ وفقَ الأسلوبِ الجديدِ».

«بحقِّ الرَّبِّ...»

«أمَّاه. إنَّ فيليب رئيسُ ديرٍ صالح. إن أقالوه فسيقيلون معهُ جوناثان ما لم تأتِ إلى كينغزبريدج وتقولي الحقيقةَ في المحاكمةِ».

«أكره المحاكمات»، أجابته. «لا خيرَ يأتي منها».

كانَ الأمرُ باعثاً على الجنونِ. إنَّها تملكُ الحلَّ لمشكلةِ فيليبِ، ويمكنها أن تُبرئ اسمه، ولكنها امرأةٌ عجوزٌ عنيدةٌ، وشعرَ جاكُ بالخوفِ من ألا ينجح في إقناعها.

وقررَ أن يحاول تحديها علَّها تقبل. «أعتقدُ أنَّ المسافة بعيدة على شخصٍ في مثلِ عمركِ»، قال بدهاءٍ ثمَّ أضاف: «كم عمركِ الآن؟ ثمانية وستون عاماً؟»

«اثنان وستون، ولا تحاول استفزازي»، انفجرت في وجههِ. «لياقتي أفضلُ من لياقتكَ يا فتى».

وفكرَ جاكُ في نفسهِ أنَّ هذا قد يكون حقيقياً. كان شعرها الآن قد ابيضَّ تماماً، وباتت تجاعيدُ وجهها عميقةً، ولكن عينيها الذهبيتين ما زالتا مُدهشتين كالسابقِ. نظرت إلى جوناثان، وسرعان ما عرفت من يكون وقالت: «حسناً، لا داعي لسؤالي عن سببِ قدومكَ إلى هنا. اكتشفتَ من هم أهلكَ، أليسَ هذا صحيحاً؟ بحقِّ الرَّبِّ، أنتَ طويلٌ وضخمٌ كوالدكَ». كانت ما تزالُ مستقلةً، وعنيدةً كالسابقِ.

«إنَّ سالي تشبهكِ»، قال جاكُ.

بدت مسرورةً وسألتهُ بابتسامةٍ: «هل هي كذلك؟ ولكن كيف تشبهني؟»

«تمتلكُ عنادكِ وتعنتكِ».

«أها»، قالت وبدت غاضبةً ثمَّ أضافت: «ستكون على ما يرام إذاً».

قررَ جاكُ أن يحاولَ استجداءها: «أمَّـاه من فضلكِ، رافقينا إلى كينغزبريدج، وأخبريهم بالحقيقةِ».

«لا أعلم»، قالت له.

قال جوناثان: «هناك أمرٌ آخر أرغبُ بطلبهِ منكِ».

تساءل جاكُ في نفسهِ عمَّا سيحدث الآن، وخشي أن يقول جوناثان شيئاً يستفزُ والدتهُ، خاصةً أنَّها تُستفزُ بسهولةٍ، ومن قبلِ رجالِ الدينِ على وجهِ التحديدِ، ولذلكَ حبسَ أنفاسهُ في ترقبٍ.

قال جوناثان: «هل يمكنكِ أخذي إلى قبرِ والدتي؟»

تنفسَ جاكُ الصعداء. لم يكن هناك خطبٌ في هذا الطلبِ، وبالكادِ يُمكن لجوناثان طلبُ شيءٍ ألطف من هذا.

توقفت إيلين عن التصرفِ بإزدراءٍ على الفورِ وأجابتهُ: «بالطبعِ يمكنني أخذكَ. أنا واثقةٌ من أنني أستطيعُ العثور عليهِ بعد كلِّ هذه السنوات».

كان جاك متردداً حيالِ تضييعِ الوقتِ على هذا الأمرِ؛ فالمحاكمةِ غداً صباحاً وما زالَ أمامهم طريقٌ طويلٌ للعودةِ، ولكنه شعرَ أنَّه يجب أن يسمح للقدرِ بأخذِ مجراه.

قالت إيلين لجوناثان: «أتريد الذهاب الآن؟»

«أجل، من فضلكِ إن كان هذا ممكناً».

«حسناً»، قالت ووقفت. أخذت عباءةً قصيرةً من فراءِ الأرانبِ، ووضعتها على كتفيها. أرادَ جاك أن يقولَ لها إنَّ الجو حارٌ جداً على ارتداءِ مثلِ هذهِ العباءةِ، ولكنهُ لجمَ نفسهِ؛ فالعجائز يشعرن بالبردِ على الدوامِ.

غادروا الكهفَ الذي تفوحُ منه رائحةُ التفاحِ المُخزنِ، ودخان الخشبِ المحترقِ، وشقوا طريقهم عبر الأجماتِ التي تُخفي مدخلهُ ثمَّ خرجوا إلى نورِ الشمسِ الربيعيةِ. تقدَّمت والدتهُ بثقةٍ، وحلَّ جاك وجوناثان رسنَ جواديهما ثمَّ لحقا بها. اضطرا إلى السيرِ، وقيادةِ جواديهما فقد كانت النباتات كثيفةً، ولم يكن بالإمكانِ امتطاء الجوادِ والسير عبرها. لاحظَ جاك أنَّ والدتهُ تسيرُ ببطءٍ أكبر من المعتادِ. يبدو أنَّ لياقتها لم تكن كاملةً كما ادّعت.

شعرَ جاك أنه لن يتمكن من إيجادِ الموقعِ حتَّى لو بحثَ عنهُ بنفسهِ. لقد مرَّ وقتٌ طويلٌ منذُ أن كان قادراً على التجولِ في الغابةِ بالسهولةِ التي يتجول بها في كينغزبريدج الآن، وبدت له الفسحاتُ الخاليةُ من الأشجارِ شبيهةً بعضها ببعض كما ستبدو بيوتُ كينغزبريدج متشابهةً لأيِّ غريبٍ. سارت والدتهُ متقفيةً آثارَ الحيواناتِ عبرَ الغابةِ الكثيفةِ، وبينَ الفينةِ والأخرى يتذكرُ جاك علامةً مرتبطةً بذكرى من الطفولةِ كشجرةِ بلوطٍ ضخمةٍ لجأ إليها هرباً من خنزيرٍ بري، أو وجارِ أرنب اصطادَ منه كثيراً، أو جدول أسماك سلمون مرقطة كان قادراً في ما مضى على صيدِ سمكةٍ منها بسرعةٍ. يشعر أحياناً أنَّه يعرفُ المكانَ، ولكن في أحيانٍ أخرى يشعر بالضياعِ مجدداً. لمن المذهلِ بحقٍ أنَّه وفي وقتٍ مضى شعرَ أنَّ هذا المكان منزلهُ، ولكنه الآن باتَ غريباً بغدرانهِ وأجماتهِ التي لم تعد تعني له شيئاً كما لا تعني حجارةُ عُقدِ البناءِ والقوالبِ شيئاً للفلاحين. ولو أنَّه آنذاك فكرَ بما سيؤول إليه حالهُ الآن لما اقتربت أكثرُ خيلاتهِ جموحاً من الحقيقةِ.

قطعوا عدَّةَ أميالٍ. كان نهاراً ربيعياً دافئاً، ووجدَ جاك نفسهُ يتعرَّقُ إلا أنَّ والدتهُ لم تخلع عباءةَ فراءِ الأرانبِ. بحلولِ منتصفِ ما بعدِ الظهرِ توقفت إيلين في فُسحةٍ ظليلةٍ. لاحظَ جاك أنَّها كانت تتنفسُ بصعوبةٍ، وبدت شاحبةً بعضَ الشيءِ، وقررَ أنَّ الوقتَ حان لمغادرتها الغابةَ والعيشِ معهُ ومع آليانا، وقررَ أن يبذلَ جهداً كبيراً في إقناعها بالأمرِ.

«هل أنتِ بخير؟» سألها.

«بالطبعِ أنا بخير»، انفجرت في وجههِ وتابعت: «لقد وصلنا».

نظرَ جاك حولهِ، ولكنه لم يتذكر المكان.

قال جوناثان: «هل هذا هو المكان؟»

«أجل»، أجابت إيلين.

قال جاك: «أينَ الطريق؟»

«هناك».

حالما رأى جاك الطريقَ بدأ يتذكرُ المكانَ، وغمرتهُ ذكرى الماضي كطوفانٍ. ها هي شجرةُ كستناءِ الجوادِ الكبيرةِ. آنذاك كانت جرداء، وغطَّت أرضيةَ الغابةِ بثمارها، ولكن الشجرةَ الآن مزهرةٌ، وبدت زهورها أشبه بشموعٍ بيضاء كبيرة. تتساقط الأزهار بينَ الفينةِ والأخرى في مطرٍ من البتلاتِ البيضاءِ.

«أخبرتني مارثا بما حدثَ»، قال جاك. «توقفوا هنا لأنَّ والدتكَ كانت متعبةً جداً على متابعةِ المشي. أشعلَ توم ناراً، وسلقَ بعضَ القرنبيطِ من أجلِ العشاءِ. لم يكن بحوزتهم لحمٌ. ولدتكَ والدتكَ هنا تماماً على الأرضِ، وأتيتَ بصحةٍ تامةٍ، ولكن خطباً ما حدثَ لها وتوفيت». كان هناك تلةٌ صغيرةٌ لا يتجاوز ارتفاعها بضعةَ أقدامٍ عندَ قاعدةِ الشجرةِ. «انظر»، قال جاك. «أترى هذا المرتفع؟»

أومأ جوناثان بوجهٍ متوترٍ من المشاعرِ المكبوحةِ.

«هذا هو القبر»، قال جاك ثمَّ انهمرَ مطرٌ من أزهارِ الشجرةِ، واستقرَّ فوقَ المرتفعِ مُغطياً إياه بسجادةٍ من البتلاتِ البيضاء.

ركعَ جوناثان بجانبِ القبرِ وبدأ يصلي.

وقفَ جاك صامتاً، وتذكرَ نفسهُ عندما عرفَ بأمرِ أقاربهِ في تشيربورغ. كانت تجربةً مُدمرةً. لا بدَّ أنَّ ما يمرُّ بهِ جوناثان الآن أصعبُ بكثيرٍ.

وأخيراً نهضَ جوناثان وقال برزانةٍ: «عندما أصبحُ رئيسَ الديرِ. سأبني ديراً صغيراً هنا مع كنيسةٍ، ونُزلٍ كي يجدَ المسافرون على هذا الطريقِ في المستقبلِ ملجأً لهم من بردِ الشتاءِ بدلاً من النومِ في العراءِ، وسأُكرسُ النُزلَ لذكرى والدتي»، ثمَّ نظرَ إلى جاك وقال: «لا أعتقدُ أنَّكَ تعرفُ اسمها، هل هذا صحيح؟»

«كان اسمها آغنيس»، قالت إيلين برقةٍ وتابعت: «كان اسم والدتكَ آغنيس».

***

قدَّمَ الأسقفُ ويلارن قضيَّةً مُقنعةً.

بدأ مرافعتهُ أمامَ المحكمةِ بالحديثِ عن يفاعة فيليب خلالَ تقدُّمهُ عبرَ المناصبِ بدءاً بمنصبِ أمينِ المؤنِ عندما كان في الواحدة والعشرين ثمَّ رئيس صومعةِ سان جون إن ذا فوريست بعمرِ الثالثة والعشرين ثمَّ رئيس ديرِ كينغزبريدج بعمرِ الثامنةِ والعشرين، وشددَ طوالَ الوقتِ على عُمرِ فيليب، ونجحَ بالإيحاءِ أنَّ من يتسلمون مناصب في هذا العمرِ المبكرِ يغدون متعجرفين، ثمَّ تحدَّثَ عن بُعدِ وعزلةِ صومعةِ سان جون إن ذا فوريست وعن الحريَّةِ والاستقلاليةِ التي يتمتعُ بها رئيسها. «بعدَ خمسةِ أعوامٍ تقريباً على استلامهِ المنصبَ ومع وجودِ أضعفِ وأبعدِ رقابةٍ من قد يُفاجأ باِمتلاكِ هذا الشاب الغرّ والشبق طفلاً؟» بدا ما قالهُ ويلارن مُقنعاً بشكلٍ مثيرٍ للغضبِ، وأرادَ فيليب أن يخنقهُ.

تابع ويلارن قائلاً إنَّ فيليب جلبَ جوناثان وجوني إيتبنس معه إلى كينغزبريدج، وأنَّ الرهبان كانوا مذهولين عندما وصلَ رئيسُ ديرهم الجديد مع طفلٍ وشخصٍ يرعاه. ما قاله ويلارن كان حقيقياً، ولبرهةٍ نسي فيليب مشكلتهُ، وكبحَ ابتسامة حنينٍ إلى الماضي.

قال ويلارن إنَّ فيليب لعبَ مع جوناثان عندما كان صغيراً، وعلَّمهُ، وجعلهُ مساعدهُ الشخصي لاحقاً كما قد يفعلُ أيُّ أبٍ مع ابنهِ، ولكن الرهبان لا يجب أن يكون لديهم أبناء. «لقد ترقّى جوناثان بعمرٍ باكرٍ كما حدثَ مع فيليب»، قال ويلارن. «بعدَ وفاةِ كوثبرت وايتهيد نصَّبَ فيليب جوناثان أمينَ المؤنِ رغمَ أنَّه لم يكن إلّا في الواحدة والعشرين. ألا يوجدُ بينَ المئةِ راهبٍ

أو أكثر في هذا الديرِ من هو أفضل من هذا الفتى ليكون أمينَ المؤنِ؟ هل فضَّل فيليب منحَ المنصبَ للحمهِ ودمهِ؟ وعندما غادرَ ميليوس إلى ديرِ غلاستونبيري كرئيسٍ له منح فيليب جوناثان منصبَ ميليوس. إنَّه في الثالثةِ والثلاثين، هل هو أكثرُ الرهبان هنا حكمةً وورعاً؟ أم هو ببساطة المفضل لدى فيليب؟

نظرَ فيليب حوله في الجناحِ الجنوبي للكاتدرائيةِ حيثُ تُجرى المحاكمة. جلسَ رئيسُ الشمامسةِ على كرسي كبير مزخرفٍ أشبه بالعرشِ، وحضرَ جميعُ العاملين لدى ويلارن، إضافةً إلى معظمِ رهبانِ كينغزبريدج. لم يكن هناكَ الكثيرُ مما عليهم القيام بهِ في الديرِ ورئيسهم يُحاكم. أتى إلى المحاكمةِ أيضاً جميع رجال الدين في المقاطعةِ، وكان معظمهم كهنة أبرشياتٍ متواضعين، وحضرَ أيضاً ممثلون من الأسقفياتِ المجاورةِ. كان جميعُ أفراد المُجمعِ الكنسي في جنوبِ إنكلترا ينتظرون سماع الحكمِ في هذهِ القضيةِ. بالطبعِ لم يكونوا مُهتمين بإثباتِ فضيلةِ فيليب من عدمها، بل بمتابعةِ العرضِ الأخيرِ للقوةِ بينَ رئيسِ الديرِ فيليب والأسقفِ ويلارن.

عندما جلسَ ويلارن تقدَّمَ فيليب. أدّى القسمَ أمامَ المحكمة ثمَّ بدأ يروي ما حدثَ في ذلكَ الصباحِ الشتائي منذُ سنواتٍ طويلةٍ. بدأ حديثهُ بالمشكلةِ التي تسببَ بها بيتر ويرهام؛ فقد أرادَ للجميعِ أن يعلم أنَّ بيتر متحيزٌ ضدَّه، ثمَّ طلبَ من فرانسيس أن يُخبرَ المحكمة كيفَ عثرَ على الطفلِ.

لم يكن جوناثان حاضراً. غادرَ بعد أن تركَ رسالةً مفادها أنّه ذهبَ في رحلةٍ بعدَ حصولهِ على معلوماتٍ جديدةٍ عن أهلهِ، وجاكْ أيضاً لم يكن حاضراً. استنتجَ فيليب أنَّ لرحيلهما علاقةٌ بإيلين – والدةُ جاك. يبدو أنَّ جوناثان خشي من أنّه إن بقي سيضطر للشرح لفيليب ما ينوي فعلهُ، وسيمنعهُ الأخير من الذهابِ في تلكَ الرحلةِ. يُفترضُ بهما أن يعودا هذا الصباح، ولكنهما لم يصلا بعد. لم يعتقدْ فيليب أنّه لدى إيلين ما يمكن أن تضيفهُ إلى قصةِ فرانسيس.

عندما أنهى فرانسيس كلامهُ بدأ فيليب بالحديثِ. «ذلكَ الطفلُ ليسَ طفلي»، قال ببساطةٍ. «أقسمُ أنّه ليسَ طفلي. أقسمُ على هذا بروحي التي ستعودُ إلى خالقها. لم أعرف أيّةَ امرأةٍ، ومازلت وحتّى هذا اليومِ مُتبتلاً

كما أوصانا الرسول بولس. إن كانت هذهِ الحقيقةِ فلماذا، وكما سألَ السيدُ الأسقفُ، أعاملُ هذا الطفل كأنَّه طفلي؟»

نظرَ فيليب حولهِ إلى المستمعين، وقررَ أنَّ فرصتهُ الوحيدة هي قولُ الحقيقةِ على أمل أن تتغلب كلمةُ الرّبِّ على صممِ بيتر الروحي. «عندما كنتُ في السادسةِ توفي والداي. قُتلا على يدي جنديين من جنودِ الملكِ هنري الراحل في ويلز، وأنقذنا، أنا وأخي، رئيسُ ديرٍ قريبٍ، ومنذُ ذلكَ اليومِ رعانا الرهبان. كنتُ يتيمَ الديرِ، وأعرفُ ماهيةَ هذا الشعورِ. أعلمُ كيفَ يتوقُ اليتيمُ إلى لمسةِ الأمِ على الرغمِ من محبتهِ للأخوةِ الذين يهتمون بهِ. علمتُ أن جوناثان سيشعرُ بوضعهِ غير طبيعي وغريب، وأنَّه لقيطٌ. كنتُ أشعرُ بالعزلةِ، وأنني مختلفٌ عن الجميعِ لأنهم يمتلكون آباءً وأمهاتٍ، وأنا يتيم. ومثلُ جوناثان شعرتُ بالخزي من نفسي لأنني أعيشُ على إحسانِ الآخرين، وتساءلت في نفسي عن الخطأ فيّ، وقلتُ لنفسي إنَّني يجب أن أُحرم مما يعتبرهُ الأخرون مُسلَّماً به. أعلمُ أنَّه يحلمُ ليلاً بالحضنِ الدافئِ والعطرِ والصوتِ الناعمِ لوالدتهِ التي لم يعرفها، والشخصُ الوحيد الذي أحبّه من دونِ قيدٍ أو شرطٍ».

بدا وجهُ رئيسِ الشمامسةِ بيتر جامداً كالحجرِ، وأدركَ فيليب أنَّه من أسوأ أنواعِ المسيحيين السيئين؛ فهو لا يرى سوى السلبياتِ، ويحاول فرضَ كلِّ التحريماتِ، ويصرُّ على كلّ أشكالِ النكرانِ، ويُطالب بعقوباتٍ قاسيةٍ على أيِّ إثمٍ أيّاً يكن، وفي الوقتِ عينهِ يتجاهلُ التعاطفَ الذي تنادي بهِ المسيحية، ويرفضُ الرحمةَ، ويعصي بفظاعةٍ أخلاقَ الحبِّ، ويهزأ علناً بأحكامِ اللطفِ التي دعا إليها المسيح، وفكرَ فيليب في نفسهِ أنَّ هذا ما كان عليهِ الفريسيون، ولا عجبَ أنَّ المسيحَ فضَّل تناولَ الطعامِ مع العامةِ والخطأة على تناولهِ معهم.

ورغمَ أنَّ فيليب أدرك في أسى أنَّ ما من شيءٍ قد يخترقُ درعَ ورع بيتر إلا أنَّه تابعَ كلامهُ قائلاً: «لم يُقدم أحدٌ لذلكَ الفتى الاهتمامَ كما فعلت، وكان والداه سيقدمانه له أيضاً لو أننا عثرنا عليهما. هل يوجد دليلٌ على إرادةِ الرَّبِّ...؟» كان يختتم كلامهُ عندما رأى جوناثان يدخل إلى الكنيسةِ مع جاك ومعهما الساحرةُ إيلين.

كانت طاعنةً في السنِّ وأصبحَ شعرها أبيض كالثلج والتجاعيدُ عميقة في وجهها، ولكنها كانت تسير كملكةٍ برأسٍ مرفوعٍ وعيناها بلونهما الذهبي الغريب تلمعان في تحدٍ. تفاجأ فيليب جداً بقدومها، وعجز عن الاتيانِ بأيٍّ اعتراضٍ.

سادَ الصمتُ على المحكمةِ عندما دخلت إيلين، ووقفت قبالة رئيسِ الشمامسةِ بيتر. تحدَّثت بصوتٍ عالٍ، وترددَ صوتُها في أرجاءِ الكنيسةِ التي بناها ابنها.

«أقسمُ بكلِّ ما هو مقدسٌ أنَّ جوناثان ابن زوجي الراحل البنَّاء توم من زوجتِهِ الأولى».

علت صيحاتُ عجبٍ من حشدِ رجالِ الدينِ، ولبرهةٍ لم يعد بالإمكان سماعُ ما يقال. كانَ فيليب مصدوماً بما سمعهُ، وحدَّقَ بفاهٍ مفتوحٍ من الدهشةِ إلى إيلين. البنَّاء توم؟ جوناثان ابن البنَّاءِ توم؟ وعندما نظرَ إلى جوناثان عرفَ على الفورِ أنَّ هذا الكلام صحيح. كانا متشابهين ولكن ليسَ بطولِ القامةِ فحسبٍ بل بتقاسيم الوجهِ. ولو أنَّ جوناثان يتركُ لحيتهُ لكان الشبه حقيقياً.

كانَ أولَّ ردِ فعلٍ له هو الشعورِ بالضياعِ؛ فحتَّى هذهِ اللحظةِ كان بالنسبةِ إلى جوناثان بمنزلة الأبِّ، ورغمَ أنَّ توم متوفى فإنّه والدُ جوناثان الحقيقي. غيَّرَ هذا الاكتشاف كلَّ شيءٍ، ولم يعد فيليب قادراً على اعتبارِ نفسهِ سرَّاً بمنزلة والدٍ لجوناثان، ولن يعود الأخير بمنزلة ابن له. كان جوناثان الآن ابن توم، وشعرَ فيليب أنَّه خسرهُ.

رمى فيليب بنفسهِ على المقعدِ. عندما هدأ الحشدُ مجدداً بدأت إيلين تروي القصةَ منذُ أن سمعَ جاك بكاءً، وعثرَ على طفلٍ حديثِ الولادةِ. أصغى فيليب في حالةِ ذهولٍ إلى إيلين وهي تروي كيفَ اختبأت هي وتوم وراءَ الأجماتِ يراقبان فيليب والرهبان عائدين من العملِ في فترةِ الصباحِ ليجدوا فرانسيس بانتظارهم مع طفلٍ حديثِ الولادةِ، وجوني إيتبنس يحاول إطعامهُ بغمسِ طرفِ خرقةٍ في دلو من حليبِ الماعزِ.

تذكرَ فيليب بوضوحٍ شديدٍ أنَّه عندما التقى توم صدفةً على الطريقِ بعدَ يومٍ أو يومين أبدى الأخيرُ اهتماماً عندما أخبرهُ فيليب عن الطفلِ اللقيطِ، وافترَضَ وقتها أنَّ اهتمامَ توم اهتمامٌ طبيعي من رجلٍ عطوفٍ يسمعُ قصةً مؤثرةً، ولكن في الحقيقةِ كان توم يستقصي عن مصيرِ ابنِهِ.

ثمَّ تذكرَ فيليب الحبّ الذي أغدقهُ توم على جوناثان في السنواتِ التاليةِ وهو يتحولُ من طفلٍ إلى صبي شقي، ولكن لم يلاحظْ أحدٌ هذا لأنَّ الديرَ بأكملهِ عاملَ جوناثان كأنَّه حيوانٌ أليف، علاوةً على هذا كان توم يقضي معظمَ الوقتِ في ساحةِ الديرِ، ولهذا كان سلوكهُ طبيعياً تماماً، ولكن الآن وعلى ضوءِ الاكتشافِ الجديدِ عرفَ فيليب أنَّ الاهتمام الذي أولاه توم إلى جوناثان كان خاصاً.

وحالما جلست إيلين أدركَ فيليب أنَّ براءتهُ أُثبتت. كانت شهادةُ إيلين مدمرةً جداً نسي معها فيليب أنَّه يُحاكم، والقصَّةُ التي روتها عن الولادةِ، والموتِ، واليأسِ، والألم، والأسرارِ القديمةِ، والحبِّ الذي يتحدى كلَّ الصعابِ جعلت قضيةَ عفَّةِ فيليب تبدو تافهةً. بالطبعِ لم تكن القضيةُ تافهةً لأن مستقبل الديرِ يتوقفُ عليها. قدَّمت إيلين الآن إجابات قاطعةً في هذهِ المسألةِ، ويبدو أنَّ المحكمةَ انتهت، ولم يعد هناك من داعٍ لمتابعتها. وفكرَ فيليب أنَّ بيتر ويرهام لن يتمكن من تجريمِه بعدَ الدليلِ الذي قدمتهُ إيلين، وها هو ويلارن يخسرُ مجدداً.

ولكن ويلارن لم يكن مستعداً لقبولِ الخسارةِ بعد على أيَّةِ حالٍ. أشارَ بإصبعهِ إلى إيلين مُتهماً وقال: «تقولين إنَّ البنَّاء توم أخبرك أنَّ الطفلَ الذي أُخذَ إلى الديرِ طفلهُ».

«أجل»، أجابت إيلين بحذرٍ.

«ولكن الشخصين الآخرين اللذين قد يُؤكدان روايتكَ، وأعني آلفريد ومارثا، لم يرافقاكِ إلى الديرِ».

«لا».

«وتوم ميتٌ، وهذا يعني أننا لا نملكُ سوى شهادتكِ أنَّ توم قالَ لكِ ما قاله. لا يمكنُ إثباتُ صحةِ روايتكِ».

«ما هو الإثباتُ الأكبر الذي تريدهُ؟» سألتهُ بحماسةٍ. «رأى جاك الطفلَ، وحملهُ فرانسيس. التقيتُ أنا وجاك بتوم وآلفريد ومارثا. أخذَ فرانسيس الطفلَ إلى الديرِ، وأنا وتوم تجسسنا على الدير. ما عددُ الشهودُ الذين تحتاجهم لتقتنع؟»

«لا أصدقكِ»، قال ويلارن.

«ألا تصدقني؟» قالت إيلين، وفجأةً رأى فيليب أنَّها غاضبةٌ غضباً عظيماً. «أنتَ لا تصدقني؟ ويلارن بيغاد الذي أعلمُ أنَّه حنثَ بقسمهِ لا تصدقني؟»

«ما الذي يحدثُ بحقِّ السماءِ؟» قال فيليب في نفسهِ، وأحسَّ أنَّ كارثةً على وشكِ الوقوعِ. شحبَ وجه ويلارن، وفكرَ فيليب أنَّ الأمرَ أكبرُ من هذا، وأنَّ ويلارن بدا خائفاً منه. شعرَ فيليب باضطرابٍ في أحشائهِ عندما رأى نظرةَ الضعفِ التي غطَّت وجه ويلارن فجأةً.

قال فيليب لإيلين: «كيفَ تعرفين أنَّ الأسقفَ قد حنثَ بقسمهِ؟»

«منذُ سبعٍ وأربعين عاماً وفي هذا الديرِ بالتحديدِ كان هناك سجينٌ يُدعى جاك تشيربورغ»، قالت إيلين.

وهنا قاطعها ويلارن قائلاً: «هذهِ المحكمةُ غير مَعنية بأحداثٍ جرت منذُ زمنٍ بعيدٍ».

قال فيليب: «بل تعنيها. وجهتَ لي تهمةَ ممارسةِ الزنى منذُ خمسٍ وثلاثين عاماً يا سيدي الأسقف، وطالبتني باثباتِ براءتي، ولا يمكن أن تتوقع منكَ المحكمةُ الآن أقلَّ من هذا»، ثمَّ استدارَ نحو إيلين وقال لها: «تابعي».

«لم يعلم أحدٌ سببَ وضعهِ في السجنِ، ولا حتَّى هو نفسهُ، ولكن عندما أُطلقَ سراحهُ أعطوه كأساً مُطعمة بالجواهرِ كتعويضٍ عن سنواتِ سجنهِ ظُلماً. بالطبعِ لم يُرد أخذَ الكأسِ؛ فلا يمكنهُ الاستفادةُ منها لأنَّها ثمينة جداً، ولا يمكن بيعهُا في السوقِ. تركَ جاك الكأسَ في الكاتدرائيةِ القديمةِ هنا في كينغزبريدج، ولكنهم سرعان ما اعتقلهُ ويلارن بيغاد الذي كان آنذاك مجرَّدَ كاهنٍ قروي متواضع ولكن طموح، وعلى نحو غريبٍ ظهرَت الكأسُ في حقيبةِ جاك تشيربورغ الذي اتهمَ ظُلماً بسرقةِ الكأسِ. حكموا عليهِ بعدَ أن شهد ضدَّه ثلاثةُ أشخاصٍ تحتَ القسمِ: ويلارن بيغاد، وبيرسي هاملي، ورئيسُ ديرِ كينغزبريدج جيمس، ثمَّ أعدموه».

سيطرَ على الحشدِ صمتٌ ذاهلٌ ثمَّ قال فيليب: «وكيفَ تعرفين بكلِّ هذا؟»

«كنتُ صديقةَ جاك تشيربورغ الوحيدة، وهو والدُ ابني جاك كبيرُ البنَّائين في هذهِ الكاتدرائيةِ».

سيطرَ الهرجُ والمرجُ على المحكمةِ، وحاولَ ويلارن وبيتر التحدثَ في الوقتِ عينهِ، ولكنهما لم يستطيعا رفعَ صوتيهما فوقَ الأصواتِ العاليةِ

لحشدِ رجالِ الدينِ. وفكرَ فيليب في نفسهِ أنَّ الناس أتوا ليشهدوا مواجهةً حاسمةً بينهُ وبينَ ويلارن، ولكنهم لم يتوقعوا حدوثَ هذا.

وأخيراً تحدَّث بيتر بصوتٍ عالٍ قائلاً في تشكيكٍ: «لمَ قد يتآمر ثلاثةُ مواطنين نزيهين على اتهامِ غريبٍ بريءٍ ظُلماً؟»

«من أجلِ المكسبِ»، أجابت إيلين. «فقد أصبحَ ويلارن بيغاد رئيسَ شمامسة، وأُعطي بيرسي قريةَ هاملي وقرى أخرى وأصبحَ ملَّاكاً، ولا أعلمُ بالجائزةِ التي حصلَ عليها رئيسُ الديرِ جيمس».

«يمكنني أن أجيبَ على هذا»، علا صوتٌ جديدٌ.

نظرَ فيليب من حولهِ مذهولاً، ورأى أنَّ المتحدثَ ريميجوس.

كان ريميجوس الآن قد تجاوزَ السبعين، وشعره ابيضَّ تماماً، ويظهرُ عليهِ الخرفِ أحياناً عندما يتحدث، إلَّا أنَّه الآن وبمساعدةِ عصاهِ وقف. كانت عيناه تبرقان، وتعابيرُ الجدِّ على وجههِ. بعدَ الخزي الذي لاقاه وعودتهِ إلى الديرِ ليعيشَ حياةً هادئةً ومتواضعةً نادراً ما كان يتحدث. تساءل فيليب في نفسهِ عمَّا سيحدثُ الآن، وصفَّ من سيأخذُ ريميجوس، وإن كان سينتهزُ الفرصةَ لطعنِ عدوهِ القديمِ فيليب في الظهرِ.

«يمكنني أن أخبركَ عن الجائزةِ التي حصل عليها رئيسُ الديرِ جيمس»، قال ريميجوس وتابع: «مُنحَ الديرُ قرىً في نورثولد، وساوثولد، وهاندرإيكر، إضافةً إلى غابةِ أولدن».

شحبَ وجهُ فيليب، ووجدَ صعوبةً في التصديقِ أنَّ رئيسَ الديرِ الراحلِ حنثَ بقسمهِ، وشهدَ زوراً مقابلَ بضعِ قرى.

«لم يكن جيمس في يومٍ من الأيام إدارياً جيداً»، تابع ريميجوس. «ولأنَّ الدير آنذاك كان في وضعٍ صعبٍ فأيُّ مدخولٍ إضافي كان سيعيننا»، توقفَ ريميجوس لبرهةٍ ثمَّ قالَ بحدَّةٍ: «ولكن الأذى الذي جلبهُ الأمرُ كان أكبر من فائدتهِ. أعاننا المدخولُ لفترةٍ من الزمن، ولكن رئيسَ الديرِ جيمس فقد احترامهُ لذاتهِ إلى الأبد».

وبينما أصغى فيليب إلى ريميجوس تذكرَ رئيسَ الديرِ السابقِ المهزوم والمُحبط، وفهمَ أخيراً سببَ وضعهِ.

قال ريميجوس: «لم يحنث جيمس بقسمهِ تماماً فهو لم يشهد سوى أنَّ

الكأسَ ملكٌ للديرِ، ولكنه علمَ أنَّ جاك تشيربورغ كان بريئاً، ومع ذلك لزمَ الصمتَ، وندمَ على فعلتهِ هذهِ بقيةَ حياتهِ».

فكرَ فيليب في نفسهِ: «لا شكَّ أنَّه ندمَ. لقد قبلَ رشوةً وهذهِ خطيئةٌ بالنسبةِ إلى راهبٍ». ها هي شهادةُ ريميجوس الآن تثبتُ صحةَ قصةِ إيلين، وتُجرّم ويلارن.

تابعَ ريميجوس كلامه: «لا بدَّ أنَّ بعضَ الرهبانِ الشيوخِ هنا اليوم يتذكرون وضعَ الديرِ قبلَ أربعين عاماً. كانَ متهالكاً، وفقيراً، وضعيفاً، ومُحبطاً، وكلُّ هذا بسببِ وطأةِ الذنبِ الذي شعرَ بهِ رئيسهُ. عندما كان جيمس على فراشِ الموتِ اعترفَ لي بخطيئتهِ. أنا أريد...» وتوقفَ ريميجوس عن الكلامِ فجأةً. لزمَ الجميعِ الصمتَ بانتظارِ ما سيقوله. تنهدَ الرجلُ العجوز وتابع: «أردتُ أخذ مكانهِ لأصلحَ الضررَ، ولكن الرَّبَّ اختارَ رجلاً آخر لهذهِ المهمةِ»، وتوقفَ مجدداً. بدا متعباً وهو يختمُ كلامَهُ قائلاً: «يجدرُ بي القولُ إنَّ الرَّبَّ اختارَ رجلاً أفضل»، ثمَّ رمى بنفسهِ على مقعدهِ فجأةً.

كان فيليب مصدوماً، ومشدوهاً، وممتناً. اثنان من ألدِّ أعدائهِ –إيلين وريميجوس– أنقذاه اليوم. مع كل هذهِ الاعترافاتِ والأسرارِ القديمةِ شعرَ فيليب أنَّه كان يعيش بعينٍ مفتوحةٍ وأخرى مغلقة. بدا الأسقفُ ويلارن شاحباً ويشتعلُ غضباً. لا بد أنَّه وبعدَ مرورِ كلِّ هذهِ السنواتِ اعتقد أنَّ سرَّه آمنٌ. انحنى ويلارن صوبَ بيتر، وهمسَ في أذنِ رئيسِ الشمامسة بشيءٍ وضجيجِ أحاديثِ الحاضرين يعلو.

وقفَ بيتر وصرخَ: «صمتاً!» سادَ الصمتُ الكنيسةَ ثمَّ أضافَ بيتر: «انتهت هذه المحاكمةُ».

«مهلاً!» كان جاك المتحدث الآن، وقالَ بحميَّةٍ: «هذا لا يكفي! أريدُ أن أعرفَ السببَ».

ومتجاهلاً جاك سارَ بيتر باتجاهِ البابِ الذي يُفضي إلى الممرّاتِ المسقوفةِ، ولحقَ بهِ ويلارن.

لحقَ بهما جاك وهو يصرخُ في وجهِ ويلارن: لماذا فعلتَ هذا؟ لقد كذبت تحتَ القسمِ، وماتَ رجلٌ بسببِ فعلتكَ. هل ستغادرُ القاعةَ دونَ أن تقول شيئاً؟»

نظرَ ويلارن أمامهُ بوجهٍ شاحبٍ، وشفتين مزمومتين، وعلى وجههِ غضبٌ مكبوتٌ. وعندما عبرَ البابَ صاحَ جاك: «أجبني أيّها الجبان الكاذب والفاسد والتافه! لماذا قتلتَ والدي؟»

ولكن ويلارن خرجَ من الكنيسةِ، وصفقَ البابَ وراءه.

الفصل الثامن عشر

- 1 -

كان الرهبان في قاعةِ الاجتماعاتِ عندما وصلت رسالة الملكِ هنري.

بنى جاك قاعةَ اجتماعات جديدةً تتسعَ للمئةِ والخمسين راهباً في الديرِ الآن، ومثلُ هذا العددِ من الرهبانِ في ديرٍ واحدٍ هو الأكبر في إنكلترا. كان للقاعةِ المدورةِ سقفٌ حجري مقبب، وصفوفٌ من الأدراجِ كالمقاعدِ ليجلس عليها الرهبان خلالَ الاجتماعِ، أمَّا أصحابُ المناصبِ الرهبانيةِ فجلسوا على مقاعدَ حجريةٍ عندَ الجدرانِ، وعلى مستوى أعلى من مستوى البقيةِ. كان لفيليب وجوناثان كُرسيان حجريان بنقوشٍ عندَ الجدارِ قبالة بابِ القاعةِ.

قرأ راهبٌ شابٌ الفصلَ السابع من كتابِ «حُكم القديسِ بنيديكت»: «يصلُ الراهبُ إلى المرحلةِ السادسةِ من التواضعِ عندما يقنعُ بكلٍّ ما هو وضيع ورديء...» وأدركَ فيليب هنا أنَّه لا يعرفُ اسمَ الراهبِ الذي يقرأ، وتساءل في نفسهِ إن كان السببُ أنَّه يطعنُ في السنِ، أم لأنَّ الديرَ باتَ كبيراً جداً. «يصلُ الراهبُ إلى المرتبةِ السابعةِ عندما لا يعترف فقط بلسانهِ أنَّه كانَ وضيعاً ومتعالياً مع الآخرين، بل ويؤمن أنَّه كان كذلكَ من صميمِ قلبهِ». أدركَ فيليب أنَّه لم يصل إلى هذهِ المرحلةِ من التواضعِ. حققَ الكثيرَ على مدارِ السنواتِ الاثنتين والستين التي عاشها بكثيرٍ من الشجاعةِ، والتصميمِ، والعقلِ، ولذلكَ احتاجَ إلى تذكير نفسهِ على الدوامِ أنَّ السببَ الحقيقي وراءَ نجاحهِ هو استمتاعهُ بمساعدةِ الرَّبِّ التي من دونها كانت جميعُ جهودهِ ستذهبَ أدراجَ الرياحِ.

إلى جانبهِ جلسَ جوناثان متململاً، فعندما يتعلقُ الأمـرُ بفضيلةِ

التواضعِ عانى جوناثان أكثر مما عانى فيليب، ولكن الغطرسة خطيئةُ القادةِ الصالحين. إنَّ جوناثان جاهزٌ الآن لتسلمِ الديرِ، وكان يتوقُ إلى هذا بفارغِ الصبرِ، فقد تحدَّثَ إلى آليانا، ورغبَ بتجربةِ الطرقِ الزراعيةِ الجديدةِ كالفلاحةِ باستخدامِ الجيادِ، وزراعةِ المحاصيلِ الربيعيةِ كالبازلاءِ والشوفان في الأراضي ذات التربةِ الفقيرةِ. وفكرَ فيليب أنَّ ثوريةَ الأمرِ كثوريةِ تربيةِ الخرافِ من أجلِ الصوفِ قبلَ خمسٍ وثلاثين عاماً.

علمَ فيليب أنَّ عليهِ التنحي، والسماحَ لجوناثان باستلامِ زمامِ إدارةِ الديرِ، وأنَّ عليهِ قضاءَ ما تبقى من سنواتِ حياتهِ في الصلاةِ، والتأملِ؛ فهذا ما كان ينصحُ بهِ الآخرين أغلبَ الوقتِ،، ولكنه الآن وهو عجوز وجاهزٌ للتقاعدِ شعرَ بالرهبةِ من حصولِ الأمرِ. كانت ملكاتهُ العقليةُ لا تزالُ سليمةً، وذهنهُ وقاداً كما كان دوماً. بدا لفيليب أنَّ قضاءَ حياةٍ في الصلاةِ والتأملِ كفيلٌ بسوقهِ إلى الجنونِ.

على أيِّ حالٍ لن ينتظرَ جوناثان إلى الأبدِ؛ فقد منحهُ الرَّبُّ كلَّ المهاراتِ اللازمةِ لإدارةِ ديرٍ كبيرٍ، ولم يكن هو نفسهُ يخططُ لإضاعةِ هذهِ المهاراتِ سدى. على مدارِ سنواتٍ زارَ العديدَ من الأديرةِ الصغيرةِ، وتركَ انطباعاً جيداً في كلِّ مكانٍ ذهبَ إليهِ، وفي أحدِ هذهِ الأيامِ قد يتوفى أحدُ رؤساءِ تلكِ الأديرةِ، وسيطلبُ الرهبانُ من جوناثان أن يُرشحَ نفسه خلفاً للرئيسِ، وسيجدُ فيليب صعوبةً في منحهِ الإذنَ.

عندما كان الراهبُ الشابُ الذي لم يُفلح فيليب في تذكرِ اسمِهِ يختتم قراءةَ الفصلِ سُمعَ قرعٌ على البابِ، ودخلَ حارسُ بابِ القاعةِ. تجهمَ مسؤولُ الانضباطِ -الأخُ ستيفن- فلا يُفترضُ بأحدٍ أن يُزعجَ الرهبان خلالَ الاجتماعِ. كانت مهمةُ مسؤولِ الانضباطِ، وكما يوحي اسمه، الحفاظُ على الانضباطِ، وكمعظمِ الرجالِ في هذا المنصبِ كان ستيفن متشدداً حيالَ الالتزامِ بالقواعدِ.

قال حارسُ بابِ القاعةِ بصوتٍ هامسٍ ولكن عالٍ: «وصلَ رسولٌ من الملكِ!»

قال فيليب لجوناثان: «فلتذهب وتستقصي الأمر من فضلكَ». سيُصرُّ الرسول على تسليمِ الرسالةِ إلى راهبٍ ذي منصبٍ عالٍ. خرجَ جوناثان من

القاعةِ، وبدأ الرهبان يهمسون فيما بينَهم. قال فيليب بحزمٍ: «هل تابعنا إلى قسمِ الوفياتِ؟»

وعندما بدأوا بالصلاةِ على أرواحِ الموتى تساءل فيليب في نفسهِ عمَّا يريدهُ الملكُ هنري الثاني من ديرِ كينغزبريدج. طوالَ السنوات الست الماضية وهنري يعاملُ الكنيسةَ بغباءٍ. بدأ الخلافُ حولَ سلطةِ المحاكمِ الكنسيةِ، ولكن تعنُّتَ الملكِ وتعصُّبَ كبير أساقفةِ كانتربري توماس بيكيت منعاهما من الوصولِ إلى تسويةٍ وتحولَ الخلافُ إلى أزمةٍ أُجبرَ بسببها بيكيت على الذهابِ إلى المنفى.

لسوءِ الحظِّ لم يحظَ بيكيت بدعمٍ بالإجماعِ من الكنيسةِ الإنكليزيةِ، وأخذ أساقفةٌ من أمثالِ ويلارن بيغاد جانبَ الملكِ بهدفِ كسبِ حظوةٍ عندهُ، ولكن البابا ضغطَ على هنري ليتصالح مع بيكيت، وربما كانت أسوأ تبعاتِ الخلافِ هو أنَّ حاجةَ هنري إلى دعمِ الكنيسةِ الإنكليزيةِ أعطت الأساقفة المُتعطشين للسلطةِ من أمثال ويلارن نفوذاً كبيراً في البلاطِ الملكي، لذلك رأىَ فيليب الآن في وصولِ رسالةٍ من الملكِ نذيراً بالسوءِ.

عادَ جوناثان، وسلَّمَ فيليب لفافة ورقٍ مختومةً بالشمعِ، وعلى الشمعِ علامةُ الختمِ الملكي الكبير. كان الرهبان يحدقون إلى الرسالةِ، وقررَ فيليب أنَّ الطلبَ منهم الآن التركيز على الصلاةِ على أرواحِ الموتى وهذهِ الرسالةُ بينِ يديهِ أمرٌ صعبٌ ولهذا قال: «حسناً. سنتابع الصلاةَ لاحقاً»، ثمَّ كسرَ الختمَ وفتحَ اللفافةَ. حدَّقَ إلى الديباجةِ ثمَّ سلَّمَ جوناثان الرسالةَ؛ فقد كان نظرهُ أفضلَ من نظرِهِ وقال له: «فلتقرأها من فضلكَ».

بعدَ ديباجةِ التحياتِ المعتادةِ كتبَ الملكُ: «بعدَ أن رشّحت اسم ويلارن بيغاد، أسقف كينغزبريدج الحالي، لمنصبِ أسقفِ لينكولن...» وطغى هديرُ تعليقات الرهبانِ على صوتِ جوناثان. هزَّ فيليب رأسهُ في تقززٍ. خسرَ ويلارن كلَّ مصداقيتهِ المحليةِ بعدَ الاعترافات والأسرارِ التي فُضحت في محاكمةِ فيليب، ولم يعد بوسعهِ الاستمرارِ كأسقفٍ، فأقنعَ الملكَ بترشيحهِ لمنصبِ أسقفِ لينكولن التي تعدُّ واحدةً من أغنى الأسقفيات في العالمِ. كانت أُسقفيةُ لينكولن ثالثَ أهمِّ أسقفيةٍ في المملكةِ بعدَ كانتربري ويورك، وإن تسلَّمَ ويلارن هذا المنصبَ فسيقترب جداً من استلامِ منصبِ رئيسِ

الأساقفةِ، وربما كان هنري يُجهز ويلارن ليتسلم المنصبَ بدلاً من توماس بيكيت. وجدَ فيليب فكرةَ تسلُّمِ ويلارن منصبَ كبير أساقفةِ كانتربري وقائدَ الكنيسةِ الإنكليزيةِ رهيبةً، وشعرَ معها بالغثيانِ من شدَّةِ الخوفِ.

عندما هدأ الرهبان تابع جوناثان: «وقد أوصيتُ رجالَ كنيسةِ لينكولن بانتخابهِ» وفكرَ فيليب في نفسهِ أنَّ الكلامَ أسهلُ من الفعلِ. كانت التوصيةُ الملكيةُ كالأمرِ تقريباً؛ فإن عارضَ رجالُ كنيسةِ لينكولن ويلارن، أو كان لديهم مُرشح أفضل سيسببون المتاعبَ للملك، ولكن على الأغلبِ سيحققُ الملكُ مرادهُ في نهايةِ المطافِ، إلا أنَّ النتيجة حتَّى ذلك ستبقى غير محسومة.

تابع جوناثان القراءة: «آمرُ مجلس رجالِ كنيسةِ ديرِ كينغزبريدج أن يعقدوا انتخاباً لأسقفِ كينغزبريدج، وأرشحُ لهذا المنصب خادمي بيتر ويرهام رئيسَ شمامسةِ كانتربري».

علَت صيحةُ احتجاجٍ من حشدِ الرهبانِ الحاضرين. جمدَ فيليب في مكانهِ من الخوفِ. إذاً بيتر المتعجرف والحانق والورع خيار الملكِ لمنصبِ أسقفِ كينغزبريدج. إنَّ بيتر من طينةِ ويلارن، وعلى الرّغمِ من أنَّ كلا الرجلين ورعان حقاً، ويخافان الرَّبَّ فإنَّهما لا يدركان أنهما غير معصومين عن الخطأ، ولهذا يريان في أمانيهما تنفيذاً لإرادةِ الرَّبِّ، ويسعيان إلى تحقيقِ أهدافهما بلا رحمةٍ. إن أصبحَ بيتر الأسقفَ سيقضي جوناثان حياتهُ يصارعُ من أجلِ العدالةِ والأخلاقِ في مقاطعةٍ يحكمها رجلٌ ظالمٌ بقبضةٍ حديديةٍ. وإن أصبحَ ويلارن رئيسَ الأساقفة فلن يعود هناك أيُّ أملٍ بالراحةِ.

تخيلَ فيليب مستقبلاً مُظلماً كظلامِ الحربِ الأهليةِ عندما صال وجال إيرلات من أمثالِ وليم بكلِّ حريةٍ، وأهملَ الكهنةُ الناسَ، وعادت الأديرةُ مجدداً إلى حالةِ الفقرِ والضعفِ التي كانت عليها قبلاً، وأثارَ هذا الخاطر غضبهُ.

ولكنه لم يكن الوحيد الذي أغضبهُ الأمرُ؛ فقد وقفَ مسؤول الانضباطِ ستيفن بوجهٍ مُحمرٍّ. «لن يحدث هذا!» صرخَ بأعلى صوتهِ رغمَ قاعدةِ التزامِ الهدوءِ والرصانةِ في قاعةِ الاجتماعاتِ التي فرضها فيليب.

هللَ الرهبان، ولكن جوناثان أثبتَ أنَه حكيم من خلالِ طرحِ سؤال مفصلي: «وما الذي يمكننا فعلهُ؟»

قال مسؤولِ المطبخِ برنارد الذي كان الآن أسمن من أيِّ وقتٍ مضى: «يجبُ أن نرفضَ طلبَ الملكِ!»

عبَّر العديدُ من الرهبانِ عن موافقتهم.

قال ستيفن: «يجب أن نكتبَ إلى الملكِ، ونخبره أنَّنا سننتخبُ من نشاء!» وبعد قليلٍ أضاف مرتبكاً: «بهدايةِ الرَّبِّ من كلِّ بدٍ».

قال جوناثان: «لا أؤيدُ رفضَ الأمرِ بهذا الشكلِ الصريحِ. إن عاجلنا في تحدي الملكِ سيعاجلنا بصبٍّ غضبهِ على رؤوسنا».

قال فيليب: «إنَّ جوناثان على حقٍ. قد يغفرُ الملكُ لرجلٍ يخسرُ معركةً معه، ولكن أمرهُ سينتهي إن فازَ عليهِ».

انفجرَ ستيفن: «ولكننا لن نستسلم!»

رغمَ أنَّ فيليب كان خائفاً وقلقاً كالبقيةِ، فإنَّه تظاهرَ بالهدوءِ وقال: «ستيفن، من فضلكَ لا تكن متطرفاً. بالطبعِ يجبُ أن نحاربَ هذا الطلبَ الرهيبَ، ولكن سنفعلُ هذا بهدوءٍ وبذكاءٍ، ونتجنبُ كما نفعلُ دوماً المواجهة المباشرة».

قال ستيفن: «ولكن ما الذي ستفعلهُ حيال الأمرِ؟»

«لستُ واثقاً مما يجبُ فعلهُ»، قال فيليب. في البدايةِ شعرَ فيليب بالإحباطِ، ولكنه بدأ الآن يشعرُ بالرغبةِ في القتالِ. لقد خاضَ هذهِ المعركةَ مراراً وتكراراً طوالَ حياتهِ. حاربها هنا في الديرِ عندما هزمَ ريميجوس، وأصبحَ رئيسَ الديرِ، وحاربها مع وليم هاملي وويلارن بيغاد في المقاطعةِ، وها هو الآن سيحاربها على مستوى البلدِ. سيتحدى الملك.

«أعتقدُ أنني سأسافر إلى فرنسا»، قال فيليب وتابع: «لمقابلةِ رئيسِ الأساقفةِ توماس بيكيت».

***

طوال حياتهِ وفي كلِّ أزمةٍ يواجهها لطالما تمكن فيليب من إيجادِ خطةٍ. وفي كلِّ مرَّةٍ يتعرضُ فيها شخصياً، أو ديرهُ، أو بلدتهُ إلى تهديدٍ من قوى الفوضى والوحشيةِ يُفكرُ بطريقةٍ للدفاعِ أو لردِّ الهجومِ. لطالما كان واثقاً من النجاحِ، ولكنه لم يشعر قط بالحيرةِ حيالَ ما عليهِ القيامِ بهِ حتَّى الآن.

ولكن عندما وصلَ فيليب إلى مدينة سِينس شرقَ جنوبِ باريس في مملكةِ فرنسا كان لا يزالُ في حيرةٍ من أمرهِ.

كانت كاتدرائيةُ سِينس أرحبَ بناءٍ يراه فيليب في حياتهِ. يبلغُ عرضُ صحنِ الكنيسة خمسين قدماً، ومقارنةً بكاتدرائيةِ كينغزبريدج تُعطي كاتدرائيةُ سِينس الانطباعَ بالسعةِ أكثرَ من الضياءِ.

إنَّها المرَّةُ الأولى التي يسافرُ فيها فيليب عبرَ فرنسا، وقد أدركَ الآن أنَّ هناكَ تنويعاً أكبر في شكلِ الكنائسِ حولَ العالم، وفهمَ التأثيرُ الثوري للسفرِ على تفكيرِ جاك. حرصَ فيليب على زيارةِ كنيسةٍ وديرِ سان دينيه عندما مرَّ بمدينةِ باريس، ورأى المكانَ الذي استقى منه جاك أفكارهُ، ورأى أيضاً كنيستين بكتائف نافرةٍ كما في كنيسةِ كينغزبريدج. بدا واضحاً أنَّ البنَّائين الآخرين واجهوا المشكلةَ التي واجهها جاك، ووصلوا إلى الحلِّ نفسهُ أيضاً.

ذهبَ فيليب للقاءِ وليم ذي اليدِ البيضاءِ -كبير أساقفةِ سِينس- وتحيتهِ. كان رجلَ دينٍ شاباً ورائعاً، وهو ابن أخِي الملكِ ستيفن الراحل. دعا وليم فيليب لتناولِ الغداء، وشعرَ الأخيرُ بالإطراءِ على هذهِ الدعوةِ، ولكنه اضطُرَّ إلى رفضها فما زالَ أمامه طريقٌ طويلٌ للقاءِ توماس بيكيت، وصبرهُ الآن قد بدأ ينفد. بعدَ القداسِ في الكاتدرائيةِ أخذَ طريقَ نهر يون خارجَ البلدةِ إلى الشمالِ.

لم يحمل فيليب معه متاعاً كثيراً، وبصفتهِ رئيساً لأغنى الأديرةِ في إنكلترا لم يكن برفقتهِ سوى جنديين للحمايةِ، وراهب شابٍ يدعى مايكل من مدينةِ بريستول مساعداً له، وحملِ جوادٍ من الكتبِ المُقدسةِ المنسوخةِ، والمصورةِ بجمالٍ في مكتبةِ ديرِ كينغزبريدج كي يُقدمها هدايا إلى رؤساءِ الأديرةِ والأساقفةِ الذين سيمرُّ بهم في رحلتهِ. تُعدُّ الكتبُ الباهظةُ الثمن هدايا مبهرةً، وتناقضت بشكلٍ صارخٍ مع تواضعِ حاشيةِ فيليب الذي فعلَ هذا عن قصدٍ كي يحترمَ الناسُ الديرَ وليسَ رئيسَ الديرِ.

خارجَ بوابةِ مدينةِ سينس وفي مرجٍ مُشمسٍ قربَ النهرِ وصلَ فيليب إلى ديرِ سانت كولومب المهيبِ حيثُ يعيشُ رئيسُ الأساقفةِ توماس منذُ ثلاثةِ أعوامٍ. حيَّا أحدُ كهنةِ توماس فيليب بحرارةٍ، ونادى على الخدم ليهتموا بالجيادِ والمتاعِ ثمَّ قادَ فيليب إلى نُزلِ الضيوفِ حيثُ يعيشُ رئيسُ الأساقفةِ.

فكّرَ فيليب في نفسهِ أنَّ المنفيين يشعرون بالسعادةِ عندما يستقبلون زواراً من الوطنِ، ولكن ليسَ لأسبابٍ عاطفيةٍ بل لأنَّ مثلَ هذهِ الزياراتِ إشارةٌ صريحةٌ على الدعمِ.

قُدمَ الطعامِ والنبيذُ لفيليب ومساعدهِ ثمَّ أُدخلا إلى منزلِ توماس. أدركَ فيليب أنَّ معظمَ رجالِ توماس كهنةٌ من الشبابِ الذكي. لم يمض وقتٌ طويلٌ حتَّى دخلَ مساعدهُ مايكل في جدالٍ مع أحدهم حولَ جوهريةِ خبزٍ ونبيذِ المناولةِ. تجرَّعَ فيليب نبيذهُ، وأصغى إلى الجدالِ دونَ أن يشاركَ فيهِ. في نهايةِ المطافِ قالَ أحدُ الكهنةِ لفيليب: «ما رأيكَ أيّها الأبُ فيليب؟ لم تقل شيئاً حتَّى الآن».

ابتسمَ فيليب وأجاب: «إنَّ القضايا اللاهوتية الشائكةَ آخر همومي».

«لماذا؟»

«لأنَّ حلَّها ليسَ طارئاً، ويمكن تركها بأمانٍ على الرفِّ».

«كلامٌ حسنٌ»، قال صوتٌ جديدٌ، ورفعَ فيليب ناظريه فرأى كبير أساقفةِ كانتربري توماس.

شعرَ فيليب على الفورِ أنّه في حضرةِ رجلٍ مميزٍ. كان توماس رجلاً طويلاً، ونحيلاً، ووسيماً بشكلٍ استثنائي، وكان جبينه عريضاً، وعيناه وقَّادتين، وبشرته فاتحة، وشعره داكناً. كانَ في الخامسةِ والخمسين، أي أصغر من فيليب بعشرةِ أعوام. وعلى الرغمِ من العثراتِ التي واجهتهُ فإنَّ وجهه بدا مُفعماً بالحيويةِ، والبهجةِ. لاحظ فيليب على الفورِ أنَّه رجلٌ جذابٌ، ويُفسرُ هذا جزئياً سببَ بزوغِ نجمهِ الكبيرِ رغمَ مُحتدهِ المتواضعِ.

ركعَ فيليب، وقبَّل يدهُ.

قال توماس: «أنا سعيدٌ بالتعرفِ عليكَ! لطالما أردتُ زيارةَ كينغزبريدج؛ فقد سمعتُ الكثيرَ عن ديركَ وكاتدرائيتكَ الجديدة المذهلة!»

شعرَ فيليب بالافتتانِ والإطراءِ وقال: «أتيتُ لرؤيتكَ لأنَّ كلَّ شيءٍ حققناه يهددهُ الملكُ».

«أريدُ أن أسمعَ عن الأمر على الفورِ»، قال توماس ثمَّ أضاف: «رافقني إلى غرفتي»، ثمَّ استدارَ ومشى.

لحقَ بهِ فيليب وهو يشعرُ بمزيجٍ من الرضا والرهبةِ.

قاده توماس إلى غرفةٍ صغيرةٍ بسريرٍ مصنوعٍ من الخشبِ والجلدِ ومفروش بأغطيةٍ كتانيةٍ ولحافٍ مُطرَّزٍ. رأى فيليب أيضاً فراشاً رقيقاً ملفوفاً في الزاويةِ، وتذكرَ القصصَ المتداولةِ حولِ توماس وعدمِ استخدامهِ للمفروشات الفاخرةِ التي يُقدمها لهُ مُضيفوه ثمَّ تذكرَ سريرهُ المريح في دير كينغزبريدج وشعرَ بالخجلِ من نفسهِ لأنَّه ينام قريرَ العينِ على سريرٍ مريحٍ، وكبيرُ أساقفةِ إنكلترا يفترشُ الأرضَ.

«بالحديثِ عن الكاتدرائياتِ»، بدأ توماس. «ما رأيكَ بكاتدرائيةِ سينس؟»

«مذهلةٌ»، قال فيليب. «من هو كبيرُ البنَّائين؟»

«وليم من سينس. آمل أن أنجحَ في استدراجهِ إلى كانتربري يوماً ما. فلتجلس ولتخبرني عمَّا يحدثُ في كينغزبريدج».

أطلعَ فيليب توماس على ما فعلهُ ويلارن ورئيسِ الشمامسةِ بيتر، وأظهرَ توماس اهتماماً كبيراً بكلِّ تفصيلٍ أخبرهُ بهِ فيليب، وطرحَ الكثيرَ من الأسئلةِ الذكيةِ. أدركَ فيليب أنَّ الرجلَ ليسَ وسيماً فحسب بل ذكي، وأنَّه بمعيَّةِ الذكاءِ وحُسنِ المظهرِ وصلَ إلى هذا المنصبِ الذي مكّنه من تحدي إرادةِ أقوى ملوكِ إنكلترا على الإطلاقِ. يُشاعُ أنَّه تحتَ مظهرهِ الفاتن في ردائهِ الأسقفي يرتدي مسوحاً، وذكَّرَ فيليب نفسهُ أنَّ توماس يرتدي أيضاً تحتَ هذا الظاهرِ إرادةً حديديةً.

عندما أنهى فيليب قصتهُ لاحظَ الحزنَ على وجهِ توماس الذي قال: «لا يمكن السماحُ بحدوثِ هذا».

«حقاً»، قال فيليب. شجعتهُ نبرةُ توماس الحازمة وأضاف: «هل نستطيعُ فعل هذا؟»

«لن نستطيع ما لم نستعد كانتربري».

لم يكن هذا الجواب الذي أملَ فيليب بسماعهِ. «ولكن ألا يمكنكَ أن تكتبَ إلى البابا في هذا الشأنِ؟ الآن؟»

«سأفعل»، قال توماس. «اليوم. أعدكَ أنَّ البابا لن يعترفَ برئيسِ الشمامسةِ بيتر كأسقفٍ لكينغزبريدج، ولكننا لا نستطيعُ منعَ بيتر من الانتقالِ إلى قصرِ الأسقفِ، ولا يمكننا أن نُعينَ رجلاً آخر».

صُدمَ فيليب مما سمعهُ، وشعرَ بالإحباطِ من حزمِ جوابِ توماس. طوالَ رحلتهِ إلى هنا أملَ أن ينجحَ توماس حيثُ فشلَ هو، ويُقدمَ له خطةً لإحباطِ مخططِ ويلارن، ولكن توماس الذكي فشلَ أيضاً، وكلّ ما قدمهُ هو أملٌ مشروطٌ بعودتهِ إلى كانتربري، وعندها ستكون له سلطةُ رفضِ تعييناتِ الأساقفةِ.

قال فيليب في حُزنٍ: «هل من أملٍ بعودتكَ قريباً؟»

«هناك بعضُ الأملِ إن كنتَ من النوعِ المتفائلِ»، أجابَ توماس. «وضعَ البابا معاهدةَ سلامٍ، ويُحثني أنا وهنري على الموافقةِ عليها. إنَّ الشروطَ مناسبةٌ لي فهي تمنحني ما كنتُ أجاهدُ لتحقيقهِ. يقول هنري إنَّه موافقٌ على الشروطِ، ولكنني أصررت على أن يُظهرَ صدقَ نواياه بمنحي قبلةَ السلامِ، ولكنه رفضَ». لاحظَ فيليب أن صوتَ توماس تغير، وأنَّ نبرتهُ العاليةَ والمنخفضةَ خلالَ الحديثِ تحولتِ إلى نبرةٍ رتيبةٍ، واختفت عن وجههِ نظرته الحيوية لتحل محلها نظرةُ كاهنٍ يعظُ في إنكارِ الذاتِ أمامَ حشدٍ من المصلينِ الغافلين. رأى فيليب في وجههِ العنادَ والكبرياءَ اللذين ساعداه على القتالِ طوالَ هذهِ السنواتِ.

«إنَّ رفضَهُ للقبلةِ دليلٌ على نيتهِ باستدراجي للعودةِ إلى إنكلترا، والتراجعِ عن شروطِ الاتفاقِ».

أومأ فيليب برأسهِ موافقاً. إنَّ قبلةَ السلامِ جزءٌ من طقوسِ القداسِ، ورمزٌ للثقةِ، ولا يعتبرُ أيُّ عقدٍ، زفافاً كان أم هدنةً، كاملاً من دونها.

«ما الذي يمكنني فعلهُ؟» قال فيليب في نفسهِ ثمَّ لتوماس.

«عُد إلى إنكلترا، ولتعلن أنَّكَ أصبحت من أنصاري»، قال توماس. «اكتب رسائل إلى زملائكَ رؤساءِ الأديرةِ والأبرشياتِ. أرسل وفداً من كينغزبريدج إلى البابا، والتمس إلى الملكِ، وقدّم عظاتٍ في كاتدرائيتكَ الشهيرةِ، وأخبر أهلِ البلدِ أنَّ الملك يستهزئ بأكبرِ كهنتهم».

رغمَ أنَّ فيليب أومأ برأسهِ موافقاً، ولكنه قررَ أنَّه لن يفعلَ هذا أبداً. ما يطلبهُ منه توماس هو الاصطفافُ مع معارضي الملكِ. قد يكون هذا مفيداً لمعنويات توماس، ولكنه لن يحققَ شيئاً لكينغزبريدج».

كانت لدى فيليب فكرةٌ أفضل. إن كان هنري وتوماس قريبين من الاتفاقِ

إلى هذهِ الدرجةِ؛ فقد لا يحتاجان إلَّا إلى دفعةٍ بسيطةٍ لعقدِ الصُلحِ، وفكّر فيليب بتفاؤلٍ أنَّه قد يتمكن من فعلِ شيءٍ حيالَ الأمرِ، وشعرَ بالتفاؤل مجدداً. سيكون الأمرُ صعباً، ولكن فيليب لن يخسر شيئاً.

في نهايةِ المطافِ لم يكن الخلافُ سوى على قُبلةٍ.

***

صُدمَ فيليب عندما رأى علائمَ التقدمِ في العمرِ على شقيقهِ فرانسيس.

كانَ شعرُ فرانسيس رمادياً الآن، وتحتَ عينيهِ انتفاخات، وبشرةُ وجههِ جافة، ولكنه كان في الستين الآن، ولهذا لم يكن الأمرُ باعثاً على الدهشةِ. على الرغمِ من آثارِ العمرِ احتفظَ فرانسيس باتقادِ عينيهِ ومرحهِ.

أدركَ فيليب أنَّ ما أزعجهُ هو عمرهُ؛ ففي كلِّ مرَّةٍ يرى فيها شقيقهُ يشعرُ أنَّه يطعنُ في السنِّ. لم ينظر في مرآةٍ منذُ سنواتٍ، ولذلكَ تساءل في نفسهِ إن كانت لديهِ انتفاخاتٌ تحتَ عينيه أيضاً، ولمسَ وجههُ ولكن التأكد من الأمرِ لم يكن سهلاً.

«كيفَ هو العملُ مع هنري؟» سألَ فيليب بفضولٍ؛ فقد كان كالجميعِ يرغبُ بمعرفةِ شخصيةِ الملكِ الخاصةِ.

«أفضل من مود»، قال فرانسيس. «رغم أنَّها أذكى فإنَّها أكثرُ شراً. أمَّا هنري فهو منفتحُ، ويمكنكَ أن تعرفَ دوماً ما يفكرُ بهِ».

جلسا في الممرّاتِ المسقوفةِ لديرِ بايو حيثُ يقيمُ فيليب قريباً من مكان تمركزِ بلاطِ الملكِ. يعملُ فرانسيس لمصلحة هنري منذُ عشرين عاماً. كان الآن رئيسَ مكتبِ المحفوظاتِ، أي المسؤولِ عن كتابةِ الرسائلِ والمراسيم الملكيةِ. كان منصباً مُهماً ومتنفذاً.

رددَ فيليب: «منفتح؟ هنري؟ قد لا يوافقك رئيسُ الأساقفةِ توماس الرأي».

«وهذا عيبٌ كبيرٌ آخر من عيوبِ توماسٍ»، قال فرانسيس بازدراءٍ.

فكرَ فيليب أنَّ فرانسيس لا يجب أن يستهزئ برئيسِ الأساقفةِ، ولذلكَ قال: «توماس رجلٌ عظيمٌ».

«يريدُ توماس أن يصبحَ الملكَ»، انفجرَ فرانسيس.

«ويبدو أنَّ هنري يريدُ أن يصبحَ رئيسَ الأساقفةِ»، ردّ فيليب.

حدَّقَ الأخوان بعضهما إلى بعض لوهلةٍ. فكرَ فيليب في نفسهِ أنهما، الأخوان، تجادلا في الأمرِ بهذهِ السرعةِ فلا عجبَ أنَّ الصراع بين هنري وتوماس شرسٌ، ثمَّ ابتسم وقال: «حسناً، لا يجب أن نتجادل أنا وأنتَ في هذا الشأنِ».

رقَّت معالمُ وجهِ فرانسيس وقال: «بالطبعِ لا يجب أن نتجادل. لا تنسَ أنَّ هذا الخلافَ ينغّصُ علي حياتي منذُ ستةِ أعوامٍ، ولذلكَ لا يمكنني أن أكون حيادياً مثلكَ».

أومأ فيليب برأسهِ وقال: «ولكن لمَ لا يقبلُ هنري بخطةِ السلامِ التي قدَّمها البابا؟»

«سيقبلُ بها»، أجابَ فرانسيس. «لا يفصلنا الكثير عن تحقيقِ الصلحِ، ولكن توماس يُطالبُ بالمزيدِ. إنَّه يُصرُّ على قبلةِ السلامِ».

«ولكن إن كان الملكُ صادقاً فلا يجب أن يرفضَ تقديمَ ضمانةِ قُبلةِ السلامِ؟»

رفعَ فرانسيس صوتَه وقالَ بنبرةٍ ضيقٍ: «إنَّها ليست من ضمنِ الخطةِ!»

«ولكن ما الضيرُ في أن يُقدمها هنري على أيِّ حالٍ؟» جادلَ فيليب.

تنهدَ فرانسيس وقال: «إنَّه مستعدٌ لتقديمها بسعادةٍ، ولكنه أقسمَ أمامَ العامةِ مرَّةً أنَّه لن يُعطي توماس قبلةَ السلامِ».

«الكثيرُ من الملوكِ يحنثون بأيمانهم»، جادلَ فيليب.

«أولئك ملوكٌ ضعفاء. لن يقبلَ هنري بحنثِ قسمٍ قدَّمه أمامَ العامةِ، ومثل هذا الأمرُ يجعلهُ مختلفاً عن الملكِ التعسِ ستيفن».

«إذاً، لا يجب أن تحاولَ الكنيسةُ إقناعهُ بالعكس»، أذعنَ فيليب على مضضٍ.

«ولكن لماذا إصرارُ توماس على القُبلةِ؟» سألَ فرانسيس بنبرةٍ تفضحُ ضيقاً.

«لأنَّه لا يثق بهنري. ما الذي يمنعُ هنري من التراجعِ عن الصفقةِ لاحقاً؟ ما الذي سيفعلهُ توماس حيالَ هذا؟ هل يعود إلى المنفى مجدداً؟ ورغمَ أن مناصريهِ أوفياء فإنَّهم تعبوا. لا يمكن لتوماس أن يعودَ إلى المنفى مجدداً، ولذلكَ قبلَ أن يقبلَ يجب أن تكون لديهِ ضماناتٌ قويةٌ».

هزَّ فرانسيس رأسهُ بحُزنٍ وقال: «أصبحت المسألةُ الآن مسألة كبرياء.

أعلمُ أنَّه لا نيةَ لهنري بخداعِ توماس، ولكنه لن يقومَ بشيءٍ رغماً عنهُ؛ فهو يكرهُ الشعور أنَّه مُكرهٌ على شيءٍ».

«أعتقدُ أنَّ هذا ينطبقُ على توماس أيضاً»، قال فيليب وتابع: «طالبَ بهذهِ القبلةِ، ولا يمكنه التراجع الآن»، ثمَّ هزَّ رأسهُ بسأمٍ. اعتقدَ فيليب أنَّ فرانسيس قد يقترحُ حلَّاً لجمعِ الرجلين، ولكن يبدو أنَّ المهمةَ مستحيلةٌ.

«ما يدعو للسخريةِ في الأمرِ برمتهِ هو أنَّ هنري مستعدٌ لتقبيلِ توماس بسعادةٍ بعدَ الصُلحِ»، قال فرانسيس. «ولكنه يرفضها كشرطٍ مسبقٍ».

«هل قال هذا؟» سألَ فيليب.

«أجل».

«ولكن هذا يغيرُ كلَّ شيءٍ!» قال فيليب بحماسٍ. «ما الذي قالهُ بالضبطِ؟»

«سمعتهُ بأذني يقول: ‹سأُقبلُ فمهُ، سأُقبلُ قدميهِ، وسأحضرُ القدَّاسَ الذي يقيمهُ عندما يعود›».

«سأُطلع توماس على هذا».

«أتعتقدُ أنَّ توماس قد يقبل؟» قال فرانسيس بحماسةٍ.

«لا أعلم»، أجابَ فيليب بحذرٍ فهو بالكادِ يجرؤ على الأملِ الآن. «إنَّها عقبةٌ صغيرةٌ. سيحصلُ توماس على القُبلةِ، ولكن في وقتٍ لاحقٍ بقليلٍ على الوقتِ الذي طالبَ بها».

«وهذهِ عقبةٌ صغيرةٌ أيضاً بالنسبةِ إلى هنري»، قال فرانسيس بحماسةٍ متزايدةٍ. «يمكنهُ منحُ القبلةِ، ولكن طواعيةً وليسَ قسراً. بحقِّ الرَّبِّ قد ينجحُ الأمرُ».

«يُمكن للصلحِ أن يتُمَّ في كانتربري، ويجبُ الإعلانُ مسبقاً عن الاتفاقيةِ كيلا يغيرَ أيُّ منهما رأيهُ في اللحظةِ الأخيرةِ. يُمكن لتوماس أن يقيمَ القدَّاسَ، وسيُقدمُ له هنري القُبلةَ، هنا في الكاتدرائيةِ»، وتابعَ فيليب في نفسهِ: «وعندها سيتمكن توماس من إحباطِ مخططاتِ ويلارن الشريرةِ».

«سأقترحُ هذا على الملكِ»، قال فرانسيس.

«وأنا سأقترحهُ على توماس».

قُرعَ جرسُ الديرِ، ووقفَ الشقيقان.

«كُن مُقنعاً»، قال فيليب. «إن نجحَ الأمرُ يُمكنُ لتوماس العودة إلى كانتربري، وإن عاد توماس فسينتهي أمرُ ويلارن بيغاد».

***

التقى هنري وتوماس في مرجٍ على ضفةِ نهرٍ يقع على الحدودِ بين النورماندي ومملكةِ فرنسا قربَ مدينتي فرتيفال وفيفيلوري. كان الملكُ هنري قد وصلَ مع حاشيتهِ قبل وصولِ توماس مع كبير أساقفة سينس. رأى فيليب شقيقهُ فرانسيس مع الملكِ على الجانبِ الآخرِ من المرجِ.

نظرياً، وصلَ كلٌّ من هنري وتوماس إلى اتفاقٍ. قبلا بالتنازلِ، وستُعطى قُبلةُ السلامِ في قداسِ المصالحةِ بعدَ عودةِ بيكيت إلى إنكلترا. على أيِّ حالٍ، لن يُعتبر الاتفاق ناجحاً ما لم يلتقِ الطرفان.

اندفعَ توماس على صهوةِ جوادهِ حتّى منتصفِ الحقلِ تاركاً جماعتهُ وراءه، وفعلَ هنري المثلَ بينما حبسَ الجميعُ أنفاسهم وراقبوهما.

تحدَّثا لساعاتٍ.

لم يتمكن أحدٌ من سماعِ ما يقولانهِ، ولكن الجميعَ تكهنَ بفحواه. كانا يتحدثان عن إساءاتِ الملكِ هنري للكنيسةِ، وكيفَ عصى الأساقفةُ الإنكليز توماس، وإشكاليةِ دساتير كليردون، ونفي توماس ودور البابا... في البدايةِ خشي فيليب أن يتجادلا بغضبٍ، ويبتعدا وهما أكثرَ عداوةً من ذي قبلٍ؛ فقد اقتربا من المصالحةِ قبلاً، وتقابلا بهذهِ الطريقةِ ثمَّ طرأ شيءٌ ما في مرحلةٍ ما، وتأذت كبرياءُ أحدهما، وتبادلا كلماتٍ قاسيةً، وافترقا، وكلُّ واحدٍ منهما يلومُ الآخر على عنادهِ. ولكنَ كلَّما طالَ أمدُ حديثهما غدا فيليب أكثرَ تفاؤلاً، ولو أنَّ أحدهما نوى الرحيلَ غاضباً لفعلَ هذا في وقتٍ أبكرٍ.

بدأت فترةُ ما بعدِ الظهيرةِ الصيفية تبردُ، وطالت ظلالُ أشجارِ الدردار، وغدا توترُ الأجواءِ مُضنياً.

وأخيراً حدثَ شيءٌ. تحرَّكَ توماس.

هل هو راحلٌ؟ لا. كان يترجلُ عن جوادهِ. ما الذي يعنيهِ هذا؟ راقبهُ فيليب حابس الأنفاسِ. ترَّجلَ توماس عن جوادهِ، واقتربَ من هنري ثمَّ ركعَ عندَ قدمي الملكِ.

انحنى الملكُ وعانقَ توماس.

هللَ رجالُ البلاطِ من كلا الطرفين، ورموا قُبعاتهم في الهواءِ.

شعرَ فيليب بالدموعِ تترقرقُ من عينيهِ. ها هو الخلافُ يُحلُّ بالمنطقِ والنيةِ الطيبةِ، وهذهِ الطريقة التي يجبُ أن تتم بها الأمورُ.

قد يكون هذا بشارةَ خيرٍ للمستقبلِ.

– 2 –

كان الوقتُ عيدُ الميلادِ، والملك يستعرُ غضباً.

شعرَ وليم هاملي بالخوفِ؛ فهو لا يعرفُ سوى شخصٍ واحدٍ بمزاجٍ كمزاجِ الملكِ هنري، وهذا الشخصُ هو والدتهُ، ووجدَ هنري مرعباً بقدر ما وجدَ والدته في حياتها. على أيِّ حالٍ كان هنري بمنكبيه العريضين، وصدرِهِ الغائرِ، ورأسِهِ الضخم رجلاً مرعباً، ولكن عندما يغضب تحمرُّ عيناه الزرقاوان، ووجهه المُنمشُ، وتتحولُ حالةُ الضيقِ التي ترافقهُ دوماً إلى غضبٍ، ويبدأ بذرعِ المكانِ جيئةً وذهاباً كذُبٍ مأسورٍ.

كانوا في بير لي روا وهو كوخُ صيدٍ يملكهُ هنري في متنزهٍ قربَ ساحلِ النورماندي. يُفترضُ أن يكون هنري سعيداً فهو يحبُّ الصيدَ أكثرَ من أيِّ شيءٍ آخر في العالمِ، وهذا مكانهُ المفضل، ولكنه كان يستشيطُ غضباً، والسببُ في ذلكَ كبير أساقفةِ كانتربري توماس.

«توماس! توماس! توماس! هذا كلُّ ما أسمعهُ منكم أيّها الأساقفةُ المزعجون! توماس فعلَ هذا. توماس يفعل ذاك. توماس أهانكَ. توماس عاملكَ بظلمٍ. سئمتُ من توماس!»

تفحَّصَ وليم خفيةً وجوهَ الإيرلاتِ، والأساقفةِ، والشخصياتِ الاعتباريةِ الأخرى حولَ طاولةِ عشاءِ عيدِ الميلادِ في القاعةِ الكبيرةِ. معظمهم كان متوتراً، ولم يبدُ الرضا سوى على وجهِ ويلارن بيغاد.

كان ويلارن قد تكهنَ بأنَّ النزاعَ بين هنري وتوماس سيتجددُ، وقال إنَّ فوزَ توماس كان حاسماً جداً، وإنَّ خطةَ السلامِ التي قدَّمها البابا أجبرت الملكَ على التنازلِ كثيراً، وهذا يعني أنَّ المزيدَ من الخلافاتِ ستندلعُ في المستقبلِ مع محاولةِ توماس المطالبةَ بالوعودِ الملكيةِ، ولكن ويلارن

لم يجلس مكتوفَ اليدين ينتظرُ حدوثَ هذا بل عملَ على تسريعِ الأمورِ، وبمساعدةِ وليم لم يتوقف ويلارن عنِ إعلامِ الملكِ بالشكاوى حيالَ ما فعلهُ توماس منذُ عودتهِ إلى إنكلترا: إنَّه يلفُّ الريفَ مع جيشٍ من الفرسانِ، ويزور أعوانهُ، ويحيكُ معهم خططاً ماكرةً، ويُعاقب رجال الدين الذين لم يدعموه عندما كان في المنفى. وزيَّنَ ويلارن هذهِ التقاريرَ قبلَ أن ينقلها إلى الملكِ، ولكن كانت هناك بعضُ الحقيقةِ في كلِّ ما قاله. على أيِّ حالٍ أذكى ويلارن نيران حريقٍ مستعرٍ أصلاً. جميعُ من تخلّى عن توماس طوالَ السنواتِ الستةِ الماضيةِ يعيشُ الآن في خوفٍ من انتقامهِ، ولذلك حرصوا على ذمهِ أمام الملك.

سُرَّ ويلارن عندما رأى غضبَ هنري. يحقُّ لويلارن أن يُسر فقد تسببت له عودةُ توماس بخسارةٍ أكبر من خساراتِ البقيةِ. أولاً، رفضَ رئيسُ الأساقفةِ دعمَ ترشيح ويلارن لمنصبِ أسقفِ لينكولن، وقدَّمَ توماس مرشَّحهُ لأسقفِ كينغزبريدج وكان رئيسَ الديرِ فيليب. إن حصلَ توماس على ما أرادهُ فسيخسرُ ويلارن كينغزبريدج ولينكولن، وسينتهي أمرهُ.

سيُعاني وليم من الأمرِ أيضاً. مع وجودِ آليانا في مكانِ شقيقها كايرل وذهاب ويلارن وحلول فيليب مكانهِ سيغدو وليم معزولاً، ومن دونِ حليفٍ واحدٍ في المقاطعةِ. لهذا السببِ انضمَّ وليم إلى ويلارن في البلاطِ الملكي، وتعاون معهُ على تقويضِ الانسجام المتزعزع أصلاً بينَ الملك هنري ورئيسِ الأساقفةِ توماس.

لم يتناول أحدٌ شيئاً من لحمِ البجعِ والإوز والطاووس والبط على الطاولةِ. عادةً ما يأكل وليم ويشربُ بشراهةٍ، ولكنه الآن كان يقضم الخبزَ، ويحتسي شرابَ البوسيه المكون من الحليب والجعةِ والبيض وجوز الطيبِ لتهدئةِ معدتهِ المضطربة.

ما أثارَ غضبَ هنري الآن خبرُ أنَّ توماس أرسلَ وفداً إلى تورز ليُقدمَ شكوى إلى البابا هناك بشأنِ عدمِ التزامِ هنري بجانبهِ من اتفاقيةِ السلامِ. قال أحدُ أكبر مستشاري الملكِ إنجيغور دي بون: «لن يحلَّ السلام إلا بعدَ إعدامِ توماس».

صُدمَ وليم بما سمعهُ.

وزمجرَ هنري: «هذا صحيح!»

بدا واضحاً لوليم أنَّ هنري أخذَ هذهِ الملاحظةِ كتعبيرٍ عن التشاؤم وليسَ كعرضٍ جدي. على أيِّ حالٍ شعرَ وليم أنَّ إنجيغور لم يتحدث بخفةٍ.

قال وليم مالفيسين بشكلٍ عرضي: «عندما كنتُ في روما، وفي طريقِ عودتي من القدسِ سمعتُ عن بابا أُعدمَ بسببِ إساءاتهِ الرهيبةِ. اللعنةَ، لا يمكنني تذكرُ اسمهُ الآن».

قال كبير أساقفةِ يورك: «يبدو أنَّه لا حل آخر مع توماس. ما دامَ على قيدِ الحياةِ سيستمرُ بالتحريضِ على الفتنةِ في البلادِ وخارجها».

بدا لوليم أنّ التصريحاتِ الثلاثةَ مُجهزة سابقاً، ونظرَ إلى ويلارن الذي تحدَّثَ في تلكَ اللحظةِ قائلاً: «يبدو أنَّ التماسَ الحسّ الأخلاقي لدى توماس غير مُجدٍ...»

«هدوءاً.. جميعكم!» زمجرَ الملك وتابع: «يكفيني ما سمعتهُ حتَّى الآن! إنَّ كلَّ ما تفعلونهُ هو الشكوى. متى ستنهضون عن مؤخراتكم، وتقومون بشيءٍ حيالَ الأمرِ؟» وتجرَّعَ من كأسِ الجعة ثمَّ صرخَ بغضبٍ: «طعمُ هذهِ الجعةِ كالبولِ!» ثمَّ دفعَ بكرسيهِ إلى الوراء فانبرى الجميعُ واقفين، ثمَّ وقفَ هنري، واندفعَ خارجَ الغرفةِ.

خلالَ الصمتِ القلقِ الذي سادَ القاعةَ بعدَ خروجِ هنري قال ويلارن: «أيّها السادة، لا يمكن للرسالةِ أن تكون أوضح من هذا. علينا القيامُ بشيءٍ حيالَ توماس».

وقال إيرل إسيكس وليم ماندفيل: «أرى أن نُرسلَ وفداً لإقناعِ توماس بالعودةِ إلى جادةِ الصوابِ».

«وماذا ستفعل إن رفضَ الإصغاء إلى المنطقِ؟» سأل ويلارن.

«أعتقدُ أننا نستطيعُ اعتقالهُ باسمِ الملكِ».

انخرطَ العديدُ من الحاضرين بالحديثِ بعضهم مع بعضٍ، وفي مجموعاتٍ صغيرةٍ. من اجتمعوا حولَ إيرل إسيكس كانوا يخططون لإرسالِ وفدٍ إلى كانتربري، ورأى وليم ويلارن يتحدثُ إلى اثنين أو ثلاثةٍ من الفرسانِ. لمحهُ ويلارن يُحدّقُ إليه فأومأ له لينضمَّ إليهم.

قال ويلارن: «لن يحققَ وفدُ وليم ماندفيل شيئاً لأنَّ توماس سيردّهم خائبين بكلِّ سهولةٍ».

رمقَ ريجينالد فيتزورس ويلارن بنظرةٍ حازمةٍ وقال: «يعتقدُ بعضنا أنَّ الوقتَ قد حان لأخذِ إجراءٍ أشد».

«ما الذي تعنيه؟» قال وليم.

«سمعتَ ما قالهُ إنجيغور».

اندفعَ ريتشارد لي بريتون وكان فتىً في الثامنة عشرة قائلاً: «الإعدام».

شعرَ وليم بالخوفِ عندما سمعَ هذا. إذاً، الأمرُ جدي. وحدَّقَ نحو ويلارن ثمَّ قال: «هل ستطلبُ مباركةَ الملكِ؟»

أجابه ريجينالد: «مستحيل. لا يمكن للملكِ أن يُعطي إذناً مُسبقاً بهذا»، وابتسمَ بمكرٍ. «ولكنه سيُكافئ خدمةُ المُخلصين بعدَ ذلك».

قال الفتى ريتشارد: «حسناً يا وليم، هل أنتَ معنا؟»

«لست واثقاً من هذا»، قال وليم في مزيجٍ من الحماسةِ والخوفِ. «يجب أن أفكّرَ في الأمرِ».

قال ريجينالد: «لا وقت للتفكيرِ لأننا سننطلقُ الآن. يجب أن نصلَ إلى كانتربري قبلَ وليم ماندفيل، أو سيعيقنا في تنفيذِ مخططنا».

توجهَ ويلارن بالكلامِ إلى وليم قائلاً: «يحتاجون إلى رجلٍ أكبر ليرشدهم، ويخطط للعمليةِ».

شعرَ وليم برغبةٍ قويةٍ بالموافقةِ. لن يحلّ هذا كلّ مشاكلهِ فحسب بل قد يعطيهِ الملكُ لقبَ الإيرل. «ولكن قتلَ كبير الأساقفةِ خطيئةٌ رهيبةٌ!» قال وليم.

«لا تقلق حيال هذا»، قال ويلارن. «سأمنحكَ الغفران».

***

أثناءَ عبورِ فرقةِ الاغتيالِ إنكلترا حامت فداحةُ ما يخططون للقيام بِهِ فوقَ وليم كغيمةٍ داكنةٍ، وعجزَ عن التفكيرِ بأيِّ شيءٍ آخر، بل وعجزَ عن الأكلِ والشربِ أيضاً. تصرَّفَ باضطرابٍ، وتحدَّثَ في شرودٍ، وبحلولِ الوقتِ الذي وصلت فيهِ السفينةُ إلى دوفر شعرَ أنّه مستعدٌّ للتخلي عن المخططِ.

مع حلولِ ليلِ الإثنين وبعدَ ثلاثةِ أيامِ على عيدِ الميلادِ وصلوا إلى قلعةِ سوالتوود في كِنت. كانت القلعةُ ملكاً لكبيرِ أساقفةِ كانتربري، ولكن خلالَ السنواتِ التي قضاها توماس في المنفى احتلَّها رانولف دي بروك، ورفضَ إعادتها الآن إلى توماس. في الحقيقةِ إحدى الشكاوى التي قدَّمها توماس إلى البابا عجزُ الملكِ هنري عن إعادةِ القلعةِ إليهِ.

منحَ رانولف وليم شجاعةً جديدةً.

في غيابِ كبيرِ الأساقفةِ نهبَ رانولف مدينةَ كِنت مستغلاً غيابَ السلطة تماماً كما فعلَ وليم قبلَ سنواتٍ كثيرةٍ. كان رانولف مستعداً للقيامِ بأيِّ شيءٍ لحمايةِ هذهِ الحريةِ التي يمتلكها الآن، وأبدى حماسةً لخطةِ الاغتيالِ، ورحَّب بفرصةِ المشاركةِ فيها، وعاجلَ إلى مناقشةِ تفاصيلها. بددَ أسلوبهُ العملي والمباشر غمامةَ الخوفِ المتطيرِ التي حامت فوقَ وليم، ومجدداً عادَ وليم إلى تخيلِ كيفَ سيكون عليهِ الوضعُ عندما يُصبحُ إيرلاً، ومن دونِ أحدٍ يُلقي عليهِ الأوامر.

سهروا الليلَ بطولهِ يخططون للعمليةِ. رسمَ رانولف بطرفِ سكينٍ على الطاولةِ مخططاً لساحةِ الكاتدرائيةِ، وقصرِ كبيرِ الأساقفةِ. على عكسِ بقيةِ الكاتدرائيات كانت الأبنيةُ الرهبانيةُ على الطرفِ الشمالي من الكنيسةِ بدلاً من الطرفِ الجنوبي كما في كينغزبريدج، وقصرُ كبيرِ الأساقفةِ عندَ الزاويةِ الشماليةِ الغربيةِ من الكنيسةِ، ويُمكن الدخولُ إليه من فناءِ المطبخِ. أثناءَ وضعهم للخطةِ أرسلَ رانولف إلى حاميتهِ –روشستر وبليتشنغلي– في دوفر، وطلبَ من فرسانهِ هناكَ موافاتهُ صباحاً على طريقِ كانتربري. مع بزوغِ الفجرِ خلدَ المتآمرون إلى النومِ لساعةٍ أو ساعتين.

بعدَ هذهِ الرحلةِ الطويلةِ كانت قدمُ وليم تؤلمهُ، وأملَ أن تكون هذهِ آخر عمليةٍ عسكريةٍ يقوم بها. إن كانت حساباتهُ صحيحةً فسيبلغ الخامسةَ والخمسين قريباً. باتَ عجوزاً جداً على القيامِ بهذهِ العملياتِ.

على الرغمِ من الإرهاقِ والتأثيرِ المريحِ لرانولف فإنَّه لم يغمض جفنٌ لوليم. كانت فكرةُ قتلِ كبيرِ الأساقفةِ رهيبةً جداً رغم أنَّ وليم حصلَ على الغفرانِ عليها مسبقاً، وخشي أن ينامَ فستزورهُ الكوابيسُ.

وضعوا خطةَ هجومٍ جيدةً، ولكن بالطبعِ سيحدثُ خطبٌ ما، دوماً ما

يحدثُ خطبٌ ما، ولكن الأهمَّ من هذا كله هو التحلي بالمرونةِ الكافيةِ للتعاملِ مع الأحداثِ غير المتوقعةِ. أيّاً يكن ما سيحدث لن تجد مجموعةٌ من المقاتلين المتمرسين صعوبةً في التغلب على حفنةٍ من الرهبانِ الرقيقين.

تسللَ من النوافذِ الشبيهةِ بالسهامِ ضوءُ الفجرِ الشتائي والرمادي، وبعد وهلةٍ نهضَ وليم كي يُصلي، ولكنه فشلَ.

نهضَ البقيةُ باكراً أيضاً، وتناولوا الإفطارَ معاً في القاعةِ. إضافةً إلى وليم ورانولف كان هناك ريجينالد فيتزورس الذي نصَّبهُ وليم قائداً على المجموعةِ المهاجمةِ، وريتشارد لو بريتون أصغر أفرادِ المجموعةِ، وولِيم تريسي أكبرهم، وهيو مورفيل أعلاهم مرتبةً.

ارتدوا دروعهم، وانطلقوا على جيادِ رانولف. كان نهاراً قارساً، والسماءُ داكنةً بغيومٍ رماديةٍ منخفضةٍ كأنَّها ستُثلج. أخذوا طريقَ ستون ستريت القديم، وخلالَ رحلتهم التي تستغرقُ ساعتين ونصفَ الساعة انضمَّ إليهم المزيد من الفرسانِ.

اجتمعوا في ديرِ سانت أوغستين خارجَ المدينةِ. طمَّنَ رانولف وليم إلى أنَّ رئيس الديرِ من أقدمِ أعداءِ توماس، ولكن وليم قررَ أن يقولَ لرئيسِ الديرِ إنَّهم أتوا لاعتقالِ توماس، وليسَ لقتلهِ، وكانت هذهِ الحجّةَ التي سيتذرعُ بها حتَّى اللحظةِ الأخيرةِ؛ فلا يجب أن يعرفَ أحدٌ باستثناءِ وليم، ورانولف، والفرسان الأربعة الذين عبروا فرنسا مع وليم الهدفَ الأساسي للعمليةِ.

وصلوا إلى الديرِ باكراً، وكان الرجالُ الذين استدعاهم رانولف بانتظارهم. قدَّمَ لهم الديرُ الغداءَ، وكان النبيذُ جيداً جداً فأكثروا الشربَ. أوعزَ رانولف إلى الجنودِ الذين سيحاصرون ساحةَ الكاتدرائيةِ بمنعِ أيّ شخصٍ من الهربِ.

لم يتوقف وليم عن الارتجافِ حتَّى عندما وقفَ قربَ الموقدِ في نُزلِ الضيوفِ. على الرغمِ من بساطة وسهولة العملية فإنَّ عقوبةَ الفشلِ فيها ستكون الموت. سيجدُ الملكُ طريقةً لتبريرِ قتلِ توماس، ولكنه لن يدعمَ أبداً الجريمةَ، وسيضطرُ إلى إنكارِ كلِّ معرفةٍ بها، وإعدامِ مرتكبيها. عندما أصبحَ وليم مأمورَ شايرنغ أعدمَ الكثيرَ من الناس، ولكنه كلما تخيلَ جسدهُ مُعلقاً في نهايةِ الحبلِ سرى الخوفُ في أوصالهِ.

صرفَ تفكيرهُ إلى الجائزةِ التي سيحصلُ عليها إن نجحَ في مهمتهِ. سيكون رائعاً أن يشيخ كايرل، وأنَّ يكون مُحترماً، ومرهوبَ الجانبِ، ومُطاعاً من قبلِ الجميع ومن دونِ طرحِ أسئلةٍ. قد يتوفى شقيقُ آليانا ريتشارد في الأرضِ المقدسةِ، ويعيدُ الملكُ هنري إليهِ ملكيته السابقةَ، وبعثت الفكرةُ الدفء في أوصالهِ أكثر مما فعلت نارُ الموقدِ.

غادروا الديرَ جيشاً صغيراً، ولم يواجهوا صعوبةً كبيرةً في العبورِ فقد كان رانولف يسيطرُ على هذا الجزءِ من مقاطعةِ كانتربري منذُ ستةِ أعوامٍ. كانت سيطرة رانولف على المنطقةِ أكبر من سيطرةِ توماس، ولهذا اشتكى الأخيرُ بمرارةٍ إلى البابا. حالما دخلوا إلى ساحةِ الديرِ انتشرَ الجنود، وسدّوا جميعَ المخارجِ.

ها هي العمليةُ تبدأ. قبلَ هذهِ اللحظةِ كان ما يزالُ بإمكانهم التراجع دونَ حدوثِ أيِّ ضررٍ، وفكرَ وليم وهو يرتعشُ رعباً أنَّ التراجعَ الآن لم يعد ممكناً.

تركَ وليم رانولف ليهتمَّ بأمرِ سدِّ المخارجِ، وانطلقَ مع مجموعةٍ صغيرةٍ من الفرسانِ والجنودِ. طلبَ من معظمِ الفرسانِ التمركز في المنزلِ الذي يقعُ قبالة مدخلِ ساحةِ الكاتدرائيةِ، وعبرَ مع من تبقى منهم البوابة. انطلقَ ريجينالد فيتزورس، وثلاثةُ متآمرين آخرين إلى فناءِ المطبخِ كزوارٍ رسميين، وليسَ كمهاجمين مُسلحين، ولكن وليم ركضَ باتجاهِ بيتِ حارسِ البوابةِ، وهددَ الحارس بالسيفِ لمنعهِ من القيامِ بشيءٍ.

ها هو الهجومُ يبدأ.

وفي خوفٍ أمرَ وليم جندياً بتقييدِ الحارسِ ثمَّ استدعى بقيةَ رجالهِ لينضموا إليهِ في بيتِ الحارسِ، وأغلقوا البوابةَ. لا يمكن لأحدٍ الآن الدخول أو الخروجُ فقد سيطرَ وليم على الديرِ.

لحقَ وليم بالمتآمرين الأربعة الآخرين إلى فناءِ المطبخِ، ووجدوهم في الإسطبلاتِ التي تقعُ شمالَ الفناءِ وقد ربطوا جيادهم إلى شجرةِ توتٍ في الوسطِ. نزعوا أحزمةَ سيوفهم، وخلعوا خوذهم للحفاظِ على ظاهرِ الزيارةِ السلميَّةِ.

لحقَ بهم وليم، ورمى بأسلحتهِ تحتَ الشجرةِ. نظرَ ريجينالد إليهِ مُستفهماً فقال له وليم: «كلُّ شيءٍ على ما يرام، والمكان بات معزولاً».

عبروا الفناءَ إلى القصرِ ثمَّ دخلوا إلى الرواقِ. كلَّفَ وليم فارساً محليّاً يُدعى ريتشارد بالبقاءِ في الرواقِ للحراسةِ، ودخلَ مع البقية إلى القاعةِ.

كانَ خدمُ القصرِ يتناولون الغداء، وهذا يعني أنَّهم انتهوا من تقديمهِ إلى توماس وحاشيتهِ من الكهنةِ والرهبانِ. وقفَ أحدُ الخدمِ وقال له ريجينالد: «إننا رجالُ الملكِ».

خيَّمَ صمتٌ على القاعةِ ولكن الخادم الذي وقفَ قال: «أهلاً أيّها السادة. أنا وكيلُ القاعةِ وليم فيتزنيل. ادخلوا من فضلكم. هل ترغبون ببعضِ الطعامِ؟»

وفكرَ وليم أنَّ الرجلَ يتصرف بودٍ كبيرٍ بالنظرِ إلى أنَّ سيدهُ على خلافٍ مع الملكِ. ربما كانَ يتظاهرُ بالودِّ.

«شكراً لكَ، لا نريدُ طعاماً»، أجابهُ ريجينالد.

«ما رأيكم بكأسٍ من النبيذِ بعدَ رحلتكم؟»

«لدينا رسالةٌ من الملكِ إلى سيّدِكَ»، قال ريجينالد بنفاد صبرٍ. «من فضلكَ أخبرهُ على الفورِ».

«حسناً»، قال الوكيلُ وانحنى. لم يكونوا مسلحين، ولهذا لا يمكن للوكيلِ منعهم من الدخولِ. نهضَ الرجلُ عن الطاولةِ وتوجَّه إلى أقصى القاعةِ.

لحقَ بهِ وليم والفرسان الأربعة، وعيونُ بقيةَ الخدم الصامتين تلحقُ بهم. كان وليم يرتجفُ تماماً كما يحدثُ معهُ قبلَ أي معركةٍ، وتمنَّى لو أنَّ القتالَ يبدأ لأنَّه حينها سيعلمُ أنَّه سيكون على ما يرامُ.

صعدوا جميعاً درجاً يُفضي إلى الطابقِ العلوي.

في الأعلى دخلوا إلى قاعةِ اجتماعٍ واسعةٍ مع مقاعد على طولِ الجدرانِ. كان هناكَ عرشٌ كبيرٌ إلى أحدِ الجدرانِ في الوسطِ، وجلسَ العديدُ من الكهنةِ في أرديةٍ سوداء ورهبان على المقاعدِ، ولكن العرشَ كان فارغاً.

عبرَ الوكيلُ الغرفةَ باتجاهِ بابٍ مفتوحٍ وقال بصوتٍ عالٍ: «رُسلٌ من الملكِ يا سيدي كبيرَ الأساقفةِ».

لم يُسمع جوابٌ، ولكن لا بدَّ أنَّ رئيسَ الأساقفةِ أومأ لأنَّ الوكيلَ أشارَ لهم بالدخولِ.

حدَّقَ الرهبانُ والكهنةُ في دهشةٍ إلى الفرسان وهم يعبرونَ الغرفةَ ويدخلون إلى الغرفةِ الداخليةِ.

كان توماس بيكيت جالساً على حافةِ السريرِ في ردائهِ الأسقفي، ولم يكن معهُ في الغرفةِ سوى شخص واحد، راهب يجلسُ عندَ قدمي توماس ويُصغي إليهِ. التقت عينا وليم بعيني الراهبِ، وصُدمَ وليم عندما أدركَ أنَّه فيليب رئيسُ ديرِ كينغزبريدج ثمَّ تساءل في نفسهِ عمَّا يفعلهُ فيليب هنا. لا بدَّ أنَّه أتى لطلبِ خدمةٍ. أُنتخبَ فيليب أسقفاً لكينغزبريدج، ولكنه لم يُرسم بعد بشكلٍ رسمي، وفكرَ وليم في نفسهِ بفرحٍ وحشي أنَّ فيليب لن يُرسمَ أبداً.

صُدمَ فيليب أيضاً لرؤيةِ وليم، ولكن توماس استمرَّ بالحديثِ متظاهراً أنَّه لم يلحظ وجودَ الفرسانِ، وفكرَ وليم أنَّها حركةٌ تنُمُّ عن قلةِ لباقةٍ مقصودةٍ. جلسَ الفرسان على الكراسي والمقاعدِ التي تحيطُ بالسريرِ. تمنَّى وليم لو أنَّهم لم يجلسوا لأنَّ الجلوسَ منحَ الزيارةَ طابعاً وديَّاً، وشعرَ أنَّه خسرَ حماستهُ بطريقةٍ ما. ربما هذا ما أرادهُ توماس.

وأخيراً نظرَ توماس إليهم دون أن ينهض لتحيتهم فقد كان يعرفهم جميعاً، باستثناءِ وليم. استقرَّ نظرهُ على هيو مورفيل أعلى الحاضرين مرتبةً وقال: «آه، هذا أنت يا هيو».

ولأنَّ وليم نصَّبَ ريجينالد مسؤولاً عن هذا الجزءِ من العمليةِ أجابَ الأخير على كبيرِ الأساقفة: «أتينا من طرفِ الملكِ الموجود حالياً في النورماندي. أتريدُ سماع رسالته علناً أم سِرَّاً؟»

وزعَ توماس نظراتِ ضيقٍ بينَ ريجينالد وهيو كأنَّه امتعضَ من التعاملِ مع شخصيةٍ صغيرةٍ في وفدٍ.

تنهدَ توماس وقال: «اخرج يا فيليب».

وقفَ فيليب، وتجاوزَ الفرسان، وعلائمُ القلقِ على وجههِ.

«ولكن لا تُغلق الباب»، قالَ توماس في إثرهِ.

عندما خرجَ فيليب قالَ ريجينالد: «باسمِ الملكِ أطالبكَ بالتوجهِ إلى وينشتسر للرَدِّ على التهمِ الموجهةِ إليكَ».

شعرَ وليم بالرضا عندما رأى الشحوبَ على وجهِ توماس. «إذاً هذا ما

آلت إليهِ الأمورُ»، قال كبيرُ الأساقفةِ بهدوءٍ، ورفعَ ناظريهِ. كان الوكيلُ عندَ البابِ فقال له توماس: «أدخل الجميعَ. أريدهم أن يسمعوا هذا».

دخلَ الرهبانُ والكهنةُ في رتلٍ، وبينهم كان فيليب. جلسَ بعضهم، ووقفَ آخرون على طولِ الجدرانِ. لم يُعارض وليم الأمرَ بل رحبَ بهِ فكلَّما زادَ عددُ الحاضرين كان هذا للأفضلِ لأنَّ هدفَ المواجهةِ غيرِ المسلحةِ هي وجودِ شهودٍ على رفضِ توماس الانصياعَ لأمرٍ ملكي.

عندما استقرَّ الجميعُ في أمكنتهم نظرَ توماس إلى ريجينالد وقال: «كرر ما قلتهُ لي».

«باسمِ الملكِ أطالبكَ بالتوجهِ إلى وينشتسر للرَدِّ على التهمِ الموجهةِ إليكَ»، أعادَ ريجينالد.

«وما هي التهمُ؟» سألَ توماس بهدوءٍ.

«الخيانة!»

هزَّ توماس رأسهُ وقال بهدوءٍ: «لا أقبل أن يُحاكمني هنري؛ فالرَّبُّ يعلم أنني لم أقترف جريمةً».

«جرَّدت موظفين ملكيين كنسيّاً».

«لم أفعل هذا بل البابا».

«وأوقفتَ أساقفةً آخرين عن عملهم».

«بل عرضتُ عليهم إعادةَ تنصيبهم بشروطٍ رحيمةٍ، ولكنهم رفضوا. ما يزال عرضي قائماً».

«وهددت العرشَ من خلالِ الاستخفافِ بتتويجِ ابنِ الملكِ».

«لم أفعلْ هذا. لا يملكُ كبيرُ أساقفةِ يوركَ الحقَّ بتتويجِ أحدٍ، ووبخهُ البابا على فعلتهِ الوقحةِ، ولكن ما من أحدٍ ألمحَ إلى أنَّ التتويج باطلٌ».

قال ريجينالد في ضيقٍ: «إنَّ هذا يُفضي إلى ذلكَ أيّها الأحمقُ اللعين».

«لقد اكتفيت!» قال توماس.

«لقد اكتفينا منكَ يا توماس بيكيت»، صرخَ ريجينالد. «بحقِّ جراحِ الرَّبِّ اكتفينا منكَ، ومن تعجرفكَ، وإثارتكَ للمتاعبِ، وخيانتكَ!»

وقفَ توماس وصرخَ: «يحتلُّ رجالُ الملكِ قلاعَ كبيرِ الأساقفةِ،

وإيجاراته يجمعها الملكُ، وهو مُلزمٌ بعدم مغادرة كانتربري، وأنتَ تقولُ لي الآن إنَّكَ اكتفيتَ؟»

حاولَ أحدُ الكهنةِ التدخل قائلاً لتوماس: «سيدي، لنناقش الأمرَ على انفرادٍ...»

«لماذا؟» انفجرَ توماس في وجهِ الكاهنِ. «إنَّهم يُطالبون بأمرٍ لا يجب أن أقومَ بهِ، ولا أنوي القيامَ بهِ».

جذبَ الصراخُ جميعَ من في القصرِ، ورأى وليم أنَّ مدخلَ الغرفةِ اكتظَّ بالمتفرجين، وقررَ أنَّ الجدلَ قد أخذَ وقتهُ الكافي؛ فلا يُمكن لأحدٍ أن يُنكرَ أنَّ توماس رفضَ أمراً ملكياً. أشارَ إلى ريجينالد بحركةٍ خفيةٍ، ولكن رئيسَ الديرِ فيليب لاحظها، ورفعَ حاجبيهِ في عجبٍ، وأدركَ الآن أنَّ ريجينالد ليسَ قائدَ المجموعةِ بل وليم.

قال ريجينالد بصيغةٍ رسميةٍ: «يا كبيرَ الأساقفةِ توماس أنت لم تعد تحتَ حمايةِ وسلامِ الملكِ»، واستدارَ مُخاطباً المتفرجين وأمرهم: «أخلوا الغرفةَ».

لم يتحرَّكْ أحد.

قال ريجينالد: «أيّها الرهبان أطالبكم باسمِ الملكِ أن تحرسوا كبيرَ الأساقفةِ وتمنعوه من الهربِ».

بالطبعِ لن يفعلوا هذا، ولم يردهم وليم أن يقوموا بهذا، بل على العكسِ أرادَ من توماس أن يحاولَ الهربَ لأنَّ هذا سيجعلُ قتلهُ سهلاً.

استدارَ ريجينالد نحو الوكيلِ وليم فيتزنيل الذي كان بمنزلة حارسٍ كبير الأساقفةِ الشخصي وقال: «أنا أعتقلكَ»، وأمسكَ بذراعهِ، وقادهُ خارجَ الغرفةِ. لم يقاوم الرجل، ولحقَ وليم وبقيةُ الفرسان بهما.

هبطوا الدرجَ ركضاً، وعبروا القاعةَ. كان الفارسُ المحلي ريتشارد ما يزالُ يحرسُ الرواقَ. لم يعرف وليم ما الذي يجبُ عليهِ فعلهُ بالوكيل وسألهُ: «هل أنتَ معنا؟»

كان الرجلُ مذعوراً وأجاب: «أجل، إن كنتم مع الملكِ».

استنتجَ وليم أنَّ الرجلَ مرتعبٌ جداً، وأيّاً يكن ولاؤهُ فلن يكون خطراً عليهم. قال وليم لريتشارد: «لا تجعلهُ يغيب عن ناظريكَ، ولا تسمح لأحد بمغادرةِ المبنى، وأبقِ بابَ الرواقِ مُغلقاً».

هرعَ وليم مع البقيةِ عبرَ الفناءِ إلى شجرةِ التوتِ، وبدأوا بارتداءِ خوذهم وسيوفهم على عجلٍ، فكرَ وليم في نفسهِ بخوفٍ: «سنقومُ بهذا الآن. ربّاه، سنقتلُ كبيرَ أساقفةِ كانتربري». كان قد مضى وقتٌ طويلٌ منذُ أن ارتدى وليم الخوذةَ، وكانت سترةُ الزردِ التي تحمي عنقهُ وكتفيهِ تعيقهُ. أخذَ يشتمُ، ويلعن أصابعهُ الخرقاء. لم يكن لديهِ وقتٌ الآن ليناور كي يرتديها، وهنا لمحَ فتىً يراقبهُ بفمٍ فاغرٍ وصرخَ بهِ قائلاً: «أنتَ، ما اسمكَ؟»

عادَ الفتى بنظرهِ إلى المطبخِ حائراً بينَ الإجابةِ على دعوةِ وليم أو الهربِ.

«روبرت يا سيدي»، أجابَ الفتى بعدَ قليلٍ. «يُنادونني روبرت بايب».

«تعال إلى هنا يا روبرت بايب وساعدني في هذا».

ومجدداً بدا الفتى متردداً.

نفد صبرُ وليم الآن وصرخَ به: «هيَّا تعال إلى هنا، أو بحقِّ دمِ المسيحِ سأقطعُ يدكَ بسيفي!»

وعلى مضضٍ تقدَّم الفتى. أشارَ عليهِ وليم كيفَ يجب أن يُمسكَ سترةَ الزردِ بينما ارتدى وليم الخوذةَ. وحالما نجحَ وليم في ارتدائها هربَ روبرت بايب، وفكَّرَ وليم لوهلةٍ أنَّ روبرت سيُخبر أحفادهُ بهذا.

كان للخوذةِ جزءٌ أمامي متحركٌ، وفتحةٌ للفمِّ تُغلقُ بسِيرٍ. عندما أغلقَ بقيةُ الفرسانِ هذهِ الأجزاءَ لم تعد وجوههم مرئيةً، ولكن وليم ترك هذين الجزءين من خوذتهِ مفتوحاً حتى أطولِ فترةٍ ممكنةٍ. أمسكَ كلُّ واحدٍ منهم سيفاً بيدٍ، وفأساً باليدِ الأخرى.

«هل أنتم جاهزون؟» قال وليم.

أومأوا جميعاً بالموافقةِ.

لن تكون هناك حاجةٌ كبيرةٌ للكلامِ الآن. لا مزيد من الأوامرِ الضروريةِ، ولا القراراتِ الإضافيةِ. سيعودون إلى الداخلِ الآن، ويقتلون توماس بكلِّ بساطةٍ.

وضعَ وليم أصابعهُ في فمهِ، وأطلقَ صفيراً حاداً.

ثمَّ أغلقَ القسمَ الأمامي للخوذةِ.

هرعَ جنديان من بيتِ الحارسِ، وفتحا البوابةَ الرئيسيةَ.

خرجَ الفرسان الذين طلبَ منهم التمركز في المنزلِ على الجانبِ الآخر من الطريقِ، ودخلوا إلى الفناءِ يصرخون كما أُشيرَ عليهم: «رجالُ الملكِ! رجالُ الملكِ!»

فتحَ الفارس ريتشارد والوكيل وليم فيتزنيل بابَ الرواقِ أمامَ وليم.

عندما دخلَ وليم استغلَّ اثنان من خدمِ كبيرِ الأساقفةِ انشغالَ ريتشارد ووليم فيتزنيل، وأغلقا الباب بينَ الردهةِ والقاعةِ.

اندفعَ وليم باتجاهِ البابِ بقوةٍ، ولكنه تأخَّر لأنَّ البابَ أُوصدَ بالرتاجِ. أطلقَ لعنةً وهو يفكرُ بهذهِ العقبةِ المُبكرةِ. انهال الفرسان على البابِ بالفؤوسِ، ولكنهم لم يحرزوا تقدماً كبيراً؛ فالباب مُجهزٌ لصدِّ أيِّ هجومِ. شعرَ وليم أنَّه يفقدُ السيطرة. وبينما كان يصارعُ بدايةَ رعبٍ يتملكهُ خرجَ من الرواقِ، وبحثَ عن بابٍ آخر، وذهبَ ريجينالد برفقتهِ.

لم يجدا شيئاً في هذا الجانبِ من المبنى، فتوجها إلى الطرفِ الغربي للقصرِ متجاوزين المطبخ المنفصل عن المبنى إلى البستانِ على الطرفِ الجنوبي. زمجرَ وليم فرحاً عندما وجدَ درجاً على الجدارِ الجنوبي للقصرِ يُفضي إلى الطابقِ العلوي. بدا كمدخلٍ خاصٍ إلى غرفةِ كبيرِ الأساقفةِ، وشعرَ وليم بالرعبِ يغادرهُ.

ركضَ وليم وريجينالد إلى أسفلِ الدرجِ، واكتشفا أنَّ نصفهُ العلوي مُدمرٌ وفي المكانِ معداتٌ حرفيةٌ وسُلمٌ كأنَّ أعمالَ الإصلاحِ تُجرى على الدرجِ. رفعَ ريجينالد السلمَ، وثبتهُ إلى جانبِ الدرجِ، وصعدَ متجاوزاً العتباتِ المُحطمةَ، ووصلَ إلى الأعلى حيثُ عثرَ على بابٍ يُفضي إلى شرفةٍ مخفيةٍ. راقبهُ وليم يحاول فتحَ الباب. كان الباب موصداً. بجانبِ البابِ نافذة مُغلقة بمصراعين. حطَّمَ ريجينالد المصراعين بضربةٍ من فأسهِ، ودخلَ ثُمَّ تحسسَ طريقهُ إلى الداخلِ، وفتحَ الباب، وتابع طريقهُ إلى الداخل.

وبدأ وليم يتسلق السُلم.

***

منذُ أن رأى فيليب وليم هاملي والرعبُ يتملكهُ، ولكن الكهنة والرهبان في حاشيةِ توماس استمروا بالتصرّفِ بخفَّةٍ إلى أن سمعوا الطرقَ على بابِ القاعةِ فارتعبوا، والعديدُ منهم اقترحوا اللجوء إلى الكاتدرائيةِ.

خاطبهم توماس بازدراءٍ قائلاً: «لجوء؟ ممن؟ من أولئك الفرسان؟ لا يمكن لكبيرِ الأساقفةِ أن يهربَ من بضعةِ متهورين».

فكرَ فيليب أنَّ توماس على حقٍ فسيكون لقبُ كبيرِ الأساقفةِ من دونِ قيمةٍ إن ارتعبَ صاحبهُ من بضعةِ فرسانٍ. يعتبرُ رجلُ الرَّبِّ الذي يعلم أنَّ خطاياه مغفورةً الموتَ كانتقالٍ سعيدٍ إلى مكانٍ أفضل، ولهذا لا يخاف من السيوفِ. على أيِّ حالٍ لا يجب، حتَّى على كبيرِ الأساقفةِ، التصرف بتهورٍ حيالَ سلامتهِ لأنَّ الأمرَ سيكون أشبه بدعوةٍ للهجومِ عليهِ. علاوةً على هذا، يمتلكُ فيليب معرفةً مباشرةً بشراسةِ ووحشيةِ وليم هاملي، ولهذا عندما سمعَ صوتَ تحطيمِ نافذةِ الشرفةِ قررَ أن يتصرَّف.

ألقى نظرةً من النوافذِ، ورأى أنَّ الفرسان يُحاصرون القصر، وبعثَ منظرهم مزيداً من الرعبِ في قلبهِ. اتضحَ له الآن أنَّ الهجوم مُنظمٌ بدقةٍ، وأنَّ المتواطئين قد جهزوا أنفسهم لارتكابِ العنفِ. عاجلَ فيليب إلى إغلاقِ بابِ الغرفةِ بالرتاجِ. راقبهُ البقيةُ في استرخاء وهو يتولى زمام الأمور. وعلى الرغمِ من نظرةِ الازدراء على وجهِ كبيرِ الأساقفةِ توماس فإنَّه لم يحاول إيقافَ فيليب.

وقفَ فيليب بجانبِ بابٍ، وأصاخ السمعَ فسمعَ صوتَ رجلٍ آتٍ من جهةِ الشرفةِ المخفيةِ، ويدخل إلى قاعةِ الاجتماعِ. تساءل في نفسهِ هنا عن متانةِ بابِ غرفةِ النومِ، ولكن الرجل لم يحاول مهاجمةَ البابِ بل عبرَ قاعةَ الاجتماعِ، ونزلَ الدرجَ. تكهنَ فيليب أنَّه في طريقهِ لفتحِ بابِ القاعةِ من الداخلِ كي يدخل بقيةُ الفرسان.

وهذا سيجعل توماس متقدماً على المهاجمين ببضع دقائقٍ.

في الجانبِ الآخرِ من غرفةِ النومِ بابٌ آخر شبه مخفي وراءَ السريرِ. أشارَ فيليب إلى الباب، وسألَ بعجالةٍ: «إلى أين يُفضي هذا الباب؟»

«إلى الممرّاتِ المسقوفةِ»، قال أحدهم وتابع: «ولكنه مُقفلٌ».

عبرَ فيليب الغرفةَ، وحاولَ فتحَ الباب ولكن وجده مُقفلاً فخاطبَ توماس: «هل تملكُ مفتاحهُ؟» ثمَّ أضافَ بعدَ ذلكَ. «يا سيدي كبير الأساقفةِ».

هزَّ توماس رأسهُ بالنفي وقال بهدوءٍ مثيرٍ للغضبِ: «لا أتذكرُ أنني استخدمتُ هذا الباب قط».

لم يبدُ البابُ قوياً جداً، ولكن فيليب كان في الثالثةِ والستين ولم تتطلب مهنتهُ منه يوماً استخدام القوةِ. تراجعَ فيليب إلى الوراءِ، وركلَ الباب. رغمَ أنَّ قدمهُ آلمتهُ فإنَّ البابَ تحرَّكَ من مكانهِ. صرَّ فيليب على أسنانه، وركلَ الباب بقوةٍ أكبر فانفتح.

نظرَ فيليب إلى توماس، ولاحظَ أنَّ الأخير ما يزال متردداً في الهربِ. ربما لم يستوعب بعد ما استوعبهُ فيليب، وأنَّ هذا العدد من الفرسان المُنظمين يعني وجود نوايا خطيرة. علمَ فيليب بحدسهِ أنَّ محاولةَ إخافةِ توماس كي يهرب لن تكون مثمرةً، وبدلاً من ذلكَ قال له: «حانَ الآن موعد صلاةِ المغربِ، ولا يجب أن نسمح لبضعةِ متهورين بتعطيلِ مسارِ العبادةِ».

ابتسمَ توماس الذي فهمَ الآن أنَّ فيليب قلبَ الطاولةَ عليهِ.

«حسناً»، قال توماس ونهضَ.

تقدَّم فيليب توماس وهو يشعرُ بالراحةِ لأنَّه نجحَ في دفعه إلى التحرُّكِ، وبالخوفِ من ألا يتحرك بالسرعة الكافيةِ. يُفضي الباب إلى درجٍ طويلٍ، ولم يكن هناك أيُّ ضوءٍ باستثناءِ الضوءِ القادمِ من غرفةِ نومِ كبيرِ الأساقفةِ. عندَ نهايةِ الدرجِ وجدَ فيليب باباً، وعندما حاولَ فتحهُ بالطريقةِ ذاتها التي فتحَ بها البابَ الأول وجدهُ أكثرَ متانةً، ولذلك بدأ بالطرقِ على البابِ والصراخِ: «النجدة! افتحوا الباب! أسرعوا! أسرعوا!» وسمعَ فيليب في صوتهِ نبرةَ رعبٍ، ورغمَ أنَّه حاولَ الحفاظ على هدوئهِ فإنّه شعرَ بقلبهِ يخفقُ بسرعةٍ، وعلمَ أنَّ فرسان وليم باتوا قريبين منهم.

انضمَّ إليهِ البقية، واستمرَّ فيليب بالقرعِ على البابِ والصراخِ. سمعَ توماس يقول: «من فضلكَ يا فيليب، تحَلَّ ببعضِ الكرامةِ»، ولكن فيليب لم يلتفت إليهِ فكلُّ ما أرادهُ هو حمايةُ كرامةِ كبيرِ الأساقفةِ، ولذلك لم تعنِ له كرامتهُ شيئاً.

وقبلَ أن يحتجَّ توماس مجدداً سمعوا صوتَ رتاجِ البابِ ومفتاحاً يتحرَّكُ ثمَّ فُتحَ الباب. زمجرَ فيليب من شدةِ الراحةِ. وراءَ الباب وقفَ وكيلا المؤنِ وهما في حالةِ ذهولٍ. قال أحدهما: «لم أعلم قط أنَّ هذا الباب يُفضي إلى مكانٍ».

اندفعَ فيليب بينهما على الفورِ ووجدَ نفسهُ في مخزنِ وكيلِ المؤنِ. شقَّ طريقهُ بينَ البراميل والأكياسِ باتجاهِ بابٍ آخر ثمَّ خرجَ عبرهُ إلى الهواءِ الطلقِ.

كان الظلامُ قد بدأ يهبط، ووجدَ فيليب نفسهُ في الممرّ الجنوبي للممراتِ المسقوفةِ. شعرَ براحةٍ كبيرةٍ عندما رأى في أقصى نهايةِ الممرّ باباً يُفضي إلى الجناحِ الشمالي لكاتدرائيةِ كانتربري.

كانوا الآن بأمانٍ... تقريباً.

كان عليهِ أن يقود توماس إلى الكاتدرائيةِ قبلَ أن يلحقَ بهم وليم وفرسانهُ.

خرج البقيةُ الآن من المخزنِ وقالَ فيليب لهم: «إلى الكنيسةِ، بسرعةٍ».

قال توماس: «لا يا فيليب. ليسَ بسرعةٍ. سندخلُ كاتدرائيتي بكلِّ كرامةٍ».

أرادَ فيليب الصراخَ ولكنه قال: «بالطبعِ يا سيدي»، وهو يسمع ذلكَ الصوت المشؤوم لوقعِ أقدامٍ ثقيلةٍ على الدرجِ المهجور. لا بد أنَّ الفرسان اقتحموا غرفةَ النومِ وعثروا على منفذِ الهربِ. علمَ فيليب أنَّ كرامةَ كبيرِ الأساقفةِ أفضلُ حمايةٍ له، ولكن لا ضرر من تجنبِ المتاعبِ.

«أينَ صليبُ كبيرِ الأساقفةِ؟» قال توماس وتابع: «لا يمكنني الدخول إلى الكنيسةِ من دونِ صليبي».

وزمجرَ فيليب في يأسٍ.

قال أحدُ الكهنةِ: «أحضرتُ الصليب. تفضل».

قال توماس: «فلتحملهُ، وتمشي أمامي كالعادةِ من فضلكَ».

حملَ الكاهن الصليبَ عالياً، وسارَ بسرعةٍ مضبوطةٍ باتجاه بابِ الكنيسةِ.

ولحقَ بهِ توماس.

وكما تقتضي الأعرافُ تقدَّمت الحاشيةُ كبير الأساقفةِ باتجاهِ الكاتدرائيةِ. كانَ فيليب آخرهم، وأمسكَ بالبابِ لتوماس. وبينما كان الأخير يدخل اندفعَ فارسان من مخزنِ المؤنِ، وركضا عبرَ الممرّ الجنوبي.

أغلقَ فيليب بابَ جناحِ الكاتدرائيةِ، ثمَّ عثرَ على مزلاجٍ في فجوةٍ في الجدارِ بجانبِ عضادةِ البابِ. أمسكَ فيليب بالمزلاجِ، وأحكمَ إيصادَ الباب.

استدار فيليب وهو يتنفسُ الصعداء، واتكأ على الباب.

كان توماس يعبرُ الجناحَ الضيّق باتجاهِ الدرجِ الذي يُفضي إلى الممرّ الشمالي للمذبحِ، ولكن عندما سمعَ صوتَ المزلاجِ توقفَ فجأةً، واستدار.

«لا يا فيليب»، قال توماس.

وغاصَ قلبُ فيليب في صدرهِ. «يا سيدي كبير الأساقفةِ...»

«هذهِ كنيسة وليست قلعة. ارفع مزلاج الباب».

اهتزَّ البابُ بعنفٍ بينما الفرسان في الخارجِ يحاولون فتحهُ. قال فيليب: «أخشى أنَّهم يريدون قتلكَ!»

«إذاً سينجحون على الأغلبِ سواء أغلقتَ البابَ أم فتحتهُ. أتعلم عدد الأبوابِ في هذهِ الكنيسةِ؟ افتحهُ».

علت ضرباتٌ صاخبةٌ على البابِ كأنَّ الفرسان يُهاجمون البابَ بالفؤوسِ.

«يمكنكَ الاختباء»، قال فيليب في يأسٍ. «هناك الكثيرُ من الأماكنِ. مدخلُ السرداب هناك، والظلامُ قد بدأ يهبط...»

«أختبئ يا فيليب؟ في كنيستي؟ هل ستفعل هذا؟»

حدَّق فيليب إلى توماس طويلاً ثمَّ أجابه أخيراً: «لا، لن أفعل».

«افتح الباب».

وبقلبٍ مُثقلٍ أزاحَ فيليب المزلاج.

اندفعَ الفرسان إلى الداخل. كانوا خمسة بوجوهٍ تخفيها خوذهم، ويحملون سيوفاً وفؤوساً. بدوا كقتلةٍ مرتزقة من الجحيم.

علمَ فيليب أنَّه لا يجب أن يخاف، ولكن منظرَ نصالِ أسلحتهم الحادةِ بعثَ الرعبَ في أوصاله.

صرخَ أحدهم: «أين خائنُ الملكِ والمملكةِ توماس بيكيت؟»

وصرخَ البقيةُ: «أين الخائن؟ أين كبيرُ الأساقفةِ؟»

كان الظلامُ قد هبطَ الآن، ولأنَّ ما من ضوءٍ في الكنيسةِ سوى ضوءِ الشموعِ فقط وأردية الرهبانِ سوداء لم يتمكن الفرسان من تمييزهم. غمرَ فيليب أملٌ مفاجئ بأن تمنع العتمةُ الفرسان من رؤيةِ توماس، ولكن الأخيرَ حطَّمَ أملهُ بأن نزلَ الدرجَ باتجاهِ الفرسانِ قائلاً: «أنا لستُ خائناً للملكِ بل كاهنُ الرَّبِّ. ما الذي تريدونهُ؟»

عندما وقفَ كبيرُ الأساقفةِ أمامَ الرجالِ الخمسةِ وسيوفهم المسلولةِ شعرَ فيليب فجأةً أنَّ توماس سيموت اليوم، وهنا.

لا بدَّ أنَّ حاشيةَ كبيرِ الأساقفةِ شعرت بالمثلِ لأنَّهم هربوا فجأةً. اختبأ بعضهم في ظُلمةِ المذبحِ، والقلّةُ توزعت في الصحنِ حولَ سكانِ البلدةِ الذين أتوا لحضورِ الصلاةِ، وأحدهم فتحَ باباً صغيراً وصعدَ درجاً حلزونياً. شعرَ فيليب بالتقززِ وصرخَ في إثرهِ: «يجب أن تُصلي لا أن تهرب!»

وهنا خطرَ لفيليب أنَّه هو قد يتعرضُ إلى القتلِ إن لم يهرب، ولكنه لم يرغب بتركِ كبيرِ الأساقفةِ وحدهُ.

قال أحدُ الفرسان لتوماس: «تبرَّأ من خيانتكَ!» وميَّزَ فيليب صوتَ ريجينالد فيتزورس الذي تسلَّمَ زمامَ الحديثِ منذُ البدايةِ.

«ليسَ لدي ما أتبرأ منه»، أجابَ توماس. «فأنا لم أُقدم على أيِّ خيانةٍ!» ورغمَ أنَّه كان هادئاً جداً فإنَّ وجههُ كان شاحباً، وأدركَ فيليب أنَّ توماس فهمَ ما فهمه البقية، وعرفَ أنَّه سيموت.

صرخَ ريجينالد بتوماس قائلاً: «اهرب، فأنتَ رجلٌ ميتٌ!»

ولكن توماس بقي في مكانهِ.

قال فيليب لنفسهِ إنَّهم أرادوه أن يركضَ هرباً لأنَّهم لا يستطيعون قتلهُ بدمٍ باردٍ.

ربما هذا ما أدركهُ توماس ولذلك وقفَ أمامهم دونَ أن يرفَّ له جفنٌ، ومتحدياً إياهم على لمسهِ. لبرهةٍ تجمَّدَ الفرسان في وضعيةِ القتلِ التي أخذوها. لم يكونوا مستعدين للقيامِ بالخطوةِ الأولى، وكبيرُ الأساقفةِ متمنع جداً عن الهرب.

كان توماس من كسرَ الصمتَ الفتَّاك بقولهِ: «أنا جاهزٌ للموتِ، ولكن لن تضعوا يداً على أيٍّ من رجالي، وكهنتي، ورهباني، وأفراد رعيتي».

كان ريجينالد أوَّلَ من تحرَّك ملوحاً بسيفهِ نحو توماس. اقتربَ بطرفِ سيفهِ شيئاً فشيئاً من وجهِ كبيرِ الأساقفةِ كأنَّه يتحدى نفسهُ على لمسِ كبيرِ الأساقفةِ بنصلهِ. وقفَ توماس في مكانهِ ثابتاً كحجرٍ، وقد ركزَّ نظرتهُ على الفارسِ وليسَ على السيفِ، وبحركةٍ سريعةٍ أوقعَ ريجينالد قبعةَ توماس.

فجأةً شعرَ فيليب بالأملِ مجدداً عندما أدركَ أنَّهم غير قادرين على إجبارِ أنفسهم على القيامِ بالأمرِ. كانوا خائفين من لمسهِ.

ولكنه كان مخطئاً لأنَّ عزيمةَ الفرسانِ تجددت مع وقوعِ قبعةِ كبيرِ الأساقفةِ، ربما توقعوا أن يضربهم الرَّبُّ إن لمسوا الرجلَ، وحقيقةُ أنَّ الرَّبَّ لم يفعل شيئاً حتَّى الآن منحتهم الشجاعة على القيامِ بما هو أسوأ.

«أخرجوه من هنا»، قال ريجينالد.

استلَّ الفرسان الآخرون سيوفهم، واقتربوا من كبيرِ الأساقفةِ.

أمسكَ أحدهم بتوماس من معصمهِ وحاولَ رفعهُ.

اجتاحَ اليأس فيليب عندما رأى أنَّهم نجحوا في لمسهِ أخيراً. لقد أتوا مستعدين لوضعِ أيديهم على رجلِ الرَّبِّ، وشعرَ فيليب بقوةِ وعمقِ شرّهم كأنَّه ينظرُ من فوقِ حافةٍ لا قاع لها. إنَّهم حتماً يعرفون أنَّهم ذاهبون إلى الجحيم على فعلتهم هذهِ، ومع ذلكَ تابعوا.

فقدَ توماس توازنهُ، وبدأ يلوحُ بيديهِ، ويقاوم. تقدَّم فرسانٌ آخرون، وحاولوا رفعهُ، وحملهُ. لم يبقَ أحدٌ من حاشيةِ توماس سوى فيليب وكاهن يُدعى إدوارد غريم، وكلاهما هرعَ لمساعدةِ توماس. أمسكَ فيليب بعباءةِ توماس بإحكام. استدارَ أحدُ الفرسانِ، وضربَ فيليب بقبضةٍ مقفَّزة بقفازِ من الزردِ فأصابته الضربةُ على صدغهِ، وسقطَ أرضاً وهو يشعرُ بالدوارِ.

عندما استعادَ فيليب وعيهُ كان الفرسان قد حرروا توماس. كان يقفُ الآن، ورأسهُ مطأطأ، ويداهُ مضمومتان في وضعيةِ الصلاةِ. رفعَ أحدُ الفرسانِ سيفهُ.

وهنا أطلقَ فيليب الذي كان ما يزالُ ملقىً أرضاً صرخةً طويلةً ويائسةً: «لا !!!!!!!!!!!!»

رفعَ إدوارد غريم ذراعهُ لصدِّ الضربةِ.

قال توماس: «أنا جاهزٌ للرحيلِ...»

وسقطَ السيفُ.

أصيبَ توماس وإدوارد، وسمعَ فيليب نفسهُ يصرخ.

شقَّ السيفُ رأسَ كبيرِ الأساقفةِ، وبترَ ذراعَ الكاهنِ. انبجسَ الدمُ من ذراعِ إدوارد، ووقعَ توماس على ركبتيهِ.

حدَّقَ فيليب شاحباً إلى الجرحِ المروعِ في رأسِ توماس.

سقطَ كبيرُ الأساقفةِ إلى الأمام على يديهِ اللتين لم تدعماه إلّا لوهلةٍ ثمَّ سقطَ بوجههِ على الأرضيةِ الحجريةِ.

رفعَ فارسٌ آخر سيفه وضربَ، وأفلتت من فيليب صرخةٌ مكلومةٌ. استقرَّت الضربةُ الثانيةُ في مكانِ الضربةِ الأولى، وفتحت جمجمةَ توماس. كانت الضربةُ قويةً إلى درجةِ أنَّ السيفَ انكسرَ إلى نصفين، ورمى الفارسُ بالجزءِ الباقي في يدهِ أرضاً.

تقدَّمَ فارسٌ آخر، وقامَ بعملٍ سيظلُ محفوراً في ذاكرةِ فيليب إلى بقيةِ حياتهِ. أقحمَ الفارسُ طرفَ سيفهِ في الرأسِ المفتوحِ، وأراقَ الدماغَ على الأرضيةِ.

شعرَ فيليب أنَّ ركبتيه بدأتا تخونانه فركع والهلعُ يسيطرُ عليهِ.

قال الفارس: «لن ينهضَ مجدداً فلنذهب!»

واستداروا جميعاً وركضوا خارجين.

راقبهم فيليب يركضون عبرَ الصحنِ، ويُفرقون الحشودَ بسيوفهم.

بعد أن غادرَ القتلةُ ساد المكان صمتٌ جليدي. كانت جثةُ كبيرِ الأساقفةِ ممددةً على الأرضيةِ بوجههِ للأسفلِ والجمجمة المشقوقة مع الشعرِ وإلى جانبها الدماغ كغطاءِ قدرٍ. دفنَ فيليب وجههُ بينَ يديهِ. هذهِ نهايةُ الأملِ. لم يستطع منعَ نفسهِ من التفكيرِ أنَّ المتوحشين فازوا، وانتابهُ شعورٌ بالدوارِ وانعدامِ الوزنِ كأنَّه يغرقُ ببطءٍ في بحيرةٍ عميقةٍ من اليأسِ. لم يعد هناك ما يمكن التعلّق بهِ، وفجأةً بات كل ما هو ثابتٌ متزعزعاً.

قضى فيليب حياتهُ بأكملها يحاربُ القوةَ الاستبداديةَ للرجالِ الأشرارِ وها هم، وفي الاختبارِ الأكبرِ، يهزمونه. تذكرَ عندما أتى وليم هاملي إلى كينغزبريدج ليُشعلها في المرةِ الثانيةِ كيفَ بنى سكانُ البلدةِ جداراً في يومٍ واحدٍ. كان نصراً عظيماً! وقتئذٍ هزمت القوةُ السلميةُ لمئاتِ الناس العاديين القسوةَ الصرفةَ للإيرل وليم، وتذكرَ أيضاً عندما حاولَ ويلارن بيغاد بناءَ كاتدرائيةٍ في شايرنغ كي يتحكم بها، ويحقق من ورائها غاياتهِ. عندئذٍ نجحَ فيليب في تعبئةِ الناسِ في المقاطعةِ بأكملها، وتدفقَ ما يزيدُ على الألفِ منهم إلى كينغزبريدج في ذلكَ الأحدِ المذهلِ لعيدِ العنصرةِ قبلَ ثلاثةٍ وثلاثين عاماً، ونجحوا بقوةِ حماستهم أن يهزموا ويلارن، ولكن الأملَ الآنَ لم يعد

موجوداً. لن يتمكن سكانُ كانتربري، ولا حتَّى سكانُ المعمورةِ المسيحيةِ، من إعادةِ توماس إلى الحياةِ.

راكعاً على الأرضيةِ الحجريةِ للجناحِ الشمالي لكاتدرائيةِ كانتربري رأى مجدداً الرجلين اللذين اقتحما منزلهُ، وذبحا والدتهُ ووالدهُ أمامَ عينيهِ منذُ ستةٍ وخمسين عاماً. لم يكن ما انتابه وهو يشعرُ بنفسهِ يعود طفلاً في السادسةِ الخوف، أو الحزن، بل الغضب. وفي عجزهِ عن إيقافِ أولئكَ الرجالِ الضخام، والغاضبين، والمتعطشين للدماءِ بات لديهِ طموحٌ غاضبٌ بتحطيمهم، وجعلِ سيوفهم مُثلمةً، وإعاقةِ جيادهم الحربيَّةِ، وإجبارهم على الخضوعِ لسلطةٍ أخرى أعلى من سلطةِ عنفِ الملوك. كان والداه مسجيين أرضاً عندما دخلَ رئيسُ الديرِ بيتر، وأراه الطريقةَ لفعلِ هذا. أوقفَ رئيسُ الديرِ الأعزلُ سفكَ الدماءِ من دونِ سلطةٍ غيرِ سلطةِ الكنيسةِ، وقوةِ طيبتهِ. ومنذئذٍ باتَ هذا المشهد ينبوعَ الإلهام في حياتهِ.

حتَّى هذهِ اللحظةِ آمن أنَّه، ومن يشبهونهُ يربحون، فقد حققوا بعضَ الانتصاراتِ البارزةِ على مدار خمسين عاماً، ولكنه الآن، وفي خريفِ عمرهِ، أثبتَ له أعداؤهُ أنَّ ما من شيءٍ تغير، وأنَّ انتصاراتهِ كانت مؤقتةً، والتقدّمَ الذي أحرزهُ وهمي. صحيح أنَّه ربحَ معارك، ولكن يبدو أنَّ القضيةَ ميئوسٌ منها. من قتلَ والدتهُ ووالدهُ آنذاك قتلَ رئيسَ الأساقفةِ في كاتدرائيةٍ، وأثبتَ بشكلٍ قاطعٍ أنَّ ما من سُلطةٍ يمكن أن تتغلبَ على طغيانِ رجلٍ يحملُ سيفاً.

لم يفكر قط أنَّهم قد يتجرأون على قتلِ كبيرِ الأساقفةِ توماس، وفي داخلِ الكنيسةِ، ولكنه أيضاً عندما كان صغيراً اعتقدَ أنَّ ما من أحدٍ قد يقتل والده. ها هم الرجالُ المتعطشون للدماءِ بسيوفهم وخوذهم في كلتا الحالتين يكشفون له عن الحقيقةِ المروعةِ، والآن، وهو في الثانيةِ والستين، ينظرُ إلى جثةِ توماس بيكيت، ويتملكهُ ذلكَ الغضب الطفولي الكبير وغير العقلاني لولدٍ في السادسةِ يرى والدهُ يُقتل أمام عينيهِ.

ووقفَ فيليب.

احتشدَ الناسُ حولَ جثةِ كبيرِ الأساقفةِ، وخيَّمَ على الكاتدرائيةِ جو جيَّاشٌ بالعواطفِ. بهدوءٍ اقتربَ الكهنةُ، والرهبانُ، وسكانُ البلدةِ مشدوهين ومرتاعين. شعرَ فيليب أنَّه تحتَ ظاهر الصدمة التي علت وجوههم يشتعلُ

غضباً كغضبهِ. كان أحدهم يدمدمُ بصلاةٍ أو يتأوه بصوتٍ مسموعٍ. انحنت امرأةٌ بسرعةٍ، ولمست الجثةَ كأنّها أرادت التبرك بها، وحذا العديدُ من الناسِ حذوها، ثمَّ رأى فيليب المرأةَ تجمعُ خفيةً بعضاً من الدّمِ في قارورةٍ كأنَّ توماس شهيدٌ.

بدأ رجالُ الدينِ الآن يستعيدون رشدهم. أخرجَ حاجبُ كبيرِ الأساقفةِ أوزبرت والدموعُ تترقرقُ على وجههِ سكيناً وقطعَ شريطاً من قميصهِ ثمَّ انحنى فوقَ الجثّةِ، وعلى نحو أخرق ومقززٍ أعادَ دماغَ توماس إلى داخلِ الجمجمةِ، وربطَ الرأسَ في محاولةٍ يائسةٍ للحفاظِ على كرامةِ شخصٍ كبيرِ الأساقفةِ التي استبيحت بهذا الشكلِ المروعِ. وبينما كان يقومُ بهذا العملِ علا أنينٌ جماعي خفيضٌ من الحشدِ المحيطِ بهِ.

أحضرَ بعضُ الرهبانِ حمَّالةً ثمَّ رفعوا جثةَ توماس عليها بلطفٍ. تقدَّمَ الكثيرون لتقديمِ يدِ المساعدةِ. رأى فيليب السلام على وجهِ كبيرِ الأساقفةِ الوسيم، ولم يكن هناك ما يدُلُّ على تعرضهُ لعملٍ عنيفٍ سوى خطٍ دمٍ رفيعٍ يمرُّ من صدغهِ الأيمن عبرَ أنفهِ إلى خدِّهِ الأيسر.

عندما رفعوا جثةَ توماس التقطَ فيليب السيفَ المكسور الذي قُتلَ بهِ توماس. كان ما يزالُ يُفكرُ بما فعلتهُ المرأة التي جمعت دماءَ كبيرِ الأساقفةِ في قارورةٍ كأنَّها دماءُ قديسٍ. كان لعملها البسيطِ هذا أهميةٌ عظيمةٌ، ولكن فيليب لم يكن واثقاً بعد من ماهيتها.

سارَ الناسُ وراءَ الحمَّالةِ كأنَّهم مدفوعون بقوةٍ خفيةٍ، وتحرَّك فيليب معهم وهو يشعرُ بالدافعِ ذاتِهِ الذي تملَّكهم. حملَ الرهبان الجثةَ عبرَ المذبحِ، ووضعوها بلُطفٍ على الأرضيةِ أمامَ المذبحِ العالي. راقبَ الحشدُ، والكثيرُ منهم منخرطٌ في الصلاةِ، كاهناً يجلبُ قطعةَ قماشٍ نظيفةٍ، ويُضمِّدُ الرأسَ بعنايةٍ ثمَّ يغطي الجرحَ بقُبعةٍ جديدةٍ.

مزَّقَ راهبٌ رداءَ كبيرِ الأساقفةِ الأسود والمُلطخ بالدماءِ. بدا الراهبُ حائراً حيالَ ما يجب عليهِ فعله بالرداءِ المُلطخِ ثمَّ استدارَ كأنَّه ينوي رميهُ جانباً فتقدَّمَ أحدُ سكانِ البلدةِ بسرعةٍ، وأخذهُ منه كأنَّه غرضٌ ثمينٌ.

وفي لحظةِ إلهامٍ اتضحت الفكرةُ التي كانت تدورُ بإبهامٍ في عقلِ فيليب. تعاملَ الناسُ مع توماس كشهيدٍ، وجمعوا بحماسةٍ دمهُ وثيابهُ كأنَّها تمتلك

تلك القوة الخوارقيةِ لرفاتِ قديسٍ. نظرَ فيليب إلى عمليةِ اغتيالِ توماس كهزيمةٍ سياسيةٍ للكنيسةِ، ولكن الناس لم ينظروا إليها بهذهِ الطريقةِ بل عدُّوها شهادةً. ورغمَ أنَّ موتَ شهيدٍ قد يبدو هزيمةً فإنَّه لم يفشل يوماً في تزويدِ الكنيسةِ في نهايةِ المطافِ بالإلهامِ والقوةِ.

عادَ فيليب إلى التفكيرِ بمئاتِ الناسِ الذين تدفقوا إلى كينغزبريدج لبناءِ الكاتدرائيةِ، وبالرجالِ والنساءِ والأطفالِ الذين عملوا معاً حتَّى الفجرِ لبناءِ سورِ البلدةِ، وانتابهُ شعورٌ متزايدٌ بالحماسةِ عندما فكرَ بتعبئةِ كلِّ أولئك الناسِ. ستكون صرخةُ غضبهم عاليةً ومسموعةً في جميعِ أرجاءِ العالمِ.

نظرَ فيليب إلى الرجالِ والنساءِ حولَ الجثةِ وإلى وجوههم التي تفضحُ خوفاً وهلعاً، وأدركَ أنَّهم لا يحتاجون إلا إلى قائدٍ.

هل هذا ممكنٌ؟

شعرَ أنَّ الحدث مألوفٌ له: جثةٌ مشوهةٌ، وحشدٌ من المتفرجين، وجنودٌ قريبون. وتساءل في نفسهِ أينَ رأى هذا قبلاً. وهنا شعرَ أنَّ المجموعةَ الصغيرةَ التي تتبع الرجل الميت ستقفُ في وجهِ قوةٍ واستبدادِ امبراطوريةٍ عظيمةٍ.

أجل. هكذا بدأت المسيحيةُ.

عندما وصلَ فيليب إلى هذا الاستنتاجِ علمَ ما يجبُ عليهِ فعلهُ الآن.

تحرَّكَ ووقفَ أمامَ المذبحِ ثمَّ استدارَ بمواجهةِ الحشد. كان السيفُ المكسورُ ما يزالُ في يدهِ. حدَّقَ الجميعُ إليهِ، وشعرَ للحظةٍ بالترددِ. هل يمكنني القيام بهذا؟ هل يمكنني البدءُ بحركةٍ، هنا والآن، قد تهزُّ عرشَ إنكلترا؟ نظرَ إلى وجوههم، وإضافةً إلى تعابيرِ الحزنِ والغضبِ رأى شيئاً من الأملِ.

رفعَ فيليب السيفَ عالياً.

«بهذا السيفِ ماتَ قديسٌ»، بدأ فيليب.

سرتْ همهمةٌ بالموافقةِ.

تشجَّعَ فيليب وتابع: «هنا، وفي هذهِ الليلةِ شهدنا على شهادةِ قديسٍ».

بدا الكهنةُ والرهبانُ متفاجئين. وكما حصلَ مع فيليب في البدايةِ عجزوا عن رؤيةِ أهميةِ عمليةِ القتلِ، ولكن سكانَ البلدةِ رأوها، وعبَّروا عن موافقتهم على ما قاله فيليب.

«يجب أن نخرجَ جميعاً، ونخبر العالم بما رأيناه»، وأومأ العديدُ من الناسِ بحماسةٍ. كانوا يُصغون إليهِ، ولكن فيليب أرادَ المزيد. أرادَ أن يُلهمهم. لم يكن الوعظُ يوماً إحدى نقاط قوتهِ، ولم يكن من أولئكَ الرجالِ الذين يجعلون الناسَ منتشين، أو يثيرون ضحكهم، أو بكاءهم، أو يقنعونهم باللحاقِ بهم إلى أيِّ مكانٍ. لم يعرف فيليب يوماً كيفَ يجعل صوتهُ يرتعش، ويجعل نورَ المجدِ يشعُّ من عينيهِ. كان رجلاً عملياً ودنيوياً، ولكنه الآن احتاجَ إلى التحدثِ كالملائكةِ.

«عاجلاً أم آجلاً سيعلمُ كلُّ رجلٍ، وامرأةٍ، وطفلٍ في كانتربري أنَّ رجالَ الملكِ قتلوا كبيرَ أساقفةِ كانتربري في الكاتدرائيةِ، ولكن هذهِ لن تكون سوى البدايةِ. سينتشرُ الخبرُ في جميعِ أرجاءِ إنكلترا ثمَّ في أرجاءِ المملكةِ المسيحيةِ».

نظرَ فيليب إلى الحشدِ، وعرفَ أن اهتمامهم بدأ يتراجع، ورأى الضيقَ والخيبةَ على بعضِ الوجوهِ.

صرخَ أحدُ الرجالِ قائلاً: «ما الذي يجبُ علينا فعلهُ؟»

أدركَ فيليب أنَّهم يحتاجون إلى القيام بعملٍ حقيقي وفوري. لا يمكن للمرءِ أن يدعو الناس إلى حملةٍ صليبيةٍ ثمَّ يطلب منهم الذهاب إلى النومِ.

حملة صليبية. فكرَ فيليب بهذا، وأدركَ أنَّها فكرةٌ جيدةٌ.

قال فيليب: «غداً سآخذُ السيفَ إلى روشستر، وبعدهُ إلى لندن. هل سترافقونني؟»

رمقهُ معظمُ الحاضرين بنظراتٍ فارغةٍ، ولكن بعضَ من كانوا في الخلفِ صاحوا: «أجل!» ثمَّ انضمَّ إليه شخصٌ أو شخصان.

رفعَ فيليب صوتهُ قليلاً قائلاً: «سنروي قصتنا في كلِّ بلدةٍ، وقريةٍ في إنكلترا. سنعرضُ السيفَ الذي قُتلَ بهِ القديس توماس على الناسِ، وسنريهم بقعَ الدمِ على ردائهِ الكهنوتي». راقتهُ الفكرة الآن، وسمحَ لغضبهِ أن يخرج أكثر بقليلٍ: «سنرفعُ صرختنا حتَّى يتردد صداها في جميع أرجاءِ المملكةِ المسيحيةِ، أجل، وتصل إلى روما. سنُحرضُ العالم المتحضر بأجمعهِ على أولئكَ المتوحشين الذين تآمروا لارتكابِ هذهِ الجريمةِ الشنعاءِ والتجديفيةِ!»

بحلولِ هذا الوقتِ صرخَ الجميع بالموافقةِ. انتظروا منهُ أن يُقدمَ لهم طريقةً للتعبيرِ عن مشاعرهم، وها هو يُقدمها لهم الآن.

«هذهِ الجريمة»، قالَ على مهلٍ وصوتهُ يعلو ويتحول إلى صراخٍ: «لن... تُنسى... أبداً!»

وصرخَ الحاضرون بالموافقةِ.

وفجأةً أدركَ فيليب إلى أين يجب أن يذهب من هنا.

«لنبدأ حملتنا الصليبية الآن!» قال لهم.

«أجل!»

«سنسيرُ في كلِّ شارعٍ في كانتربري حاملين هذا السيف!»

«أجل!»

«وسنُخبر كلَّ مواطنٍ داخلَ أسوار البلدةِ بما شهدناه الليلة!»

«أجل!»

«أحضروا الشموع والحقوا بي!»

رافعاً السيفَ عالياً تقدَّمَ فيليب عبرَ الكاتدرائيةِ.

ولحقَ بهِ الحشدُ.

في جذلٍ عبرَ فيليب المذبح، والمعبرَ ثمَّ صحن الكنيسةِ. سارَ بعضُ الرهبانِ والكهنةِ إلى جانبهِ. لم يكن بحاجةٍ إلى النظرِ وراءه؛ فقد كان يسمع وقعَ أقدامِ مئةِ شخصٍ يسيرون خلفهُ، وخرجَ من البوابةِ الرئيسيةِ.

لبرهةٍ ساورهُ قلقٌ عندما رأى عبرَ البستانِ المظلمِ الجنود ينهبون قصرَ الأسقفِ. إن واجهَ تابعوه الجنودَ فقد تتحولُ الحملةُ الصليبيةُ وقبلَ أن تبدأ إلى شجارٍ. وفي خوفٍ مفاجئٍ استدارَ بعيداً، وقادَ الحشد إلى أقربِ بوابةٍ تُفضي إلى الشارع.

بدأ أحدُ الرهبانِ بالترتيلِ. كانَ ضوء المصابيحِ والشموعِ يتسللُ من مصاريعِ المنازلِ، ولكن عندما مرَّ الموكب قربها فتحها الناسُ لمشاهدةِ ما يحدث. استفسرَ بعضهم من السائرين في الموكبِ، وانضمَ آخرون إليهِ.

استدارَ فيليب عندَ زاويةٍ، ورأى وليم هاملي.

كان وليم يقفُ أمامَ إسطبلٍ، ويبدو كأنَّه على وشكِ خلعِ سترةِ الزردِ قبل أن يمتطي الجواد، ويغادر المدينة. كانت برفقتهِ مجموعةٌ من الرجالِ، وجميعهم ينظرون بترقبٍ بعد أن سمعوا صوتَ الغناءِ، وتساءلوا عمَّا يجري.

عندما اقتربَ موكبُ الشموعِ بدا وليم حائراً في البدايةِ، ثمَّ رأى السيف

المكسور في يدِ فيليب وفهمَ على الفورِ ما يجري، ولوهلةٍ حدَّقَ في ذهولٍ وصمتٍ ثمَّ صرخَ: «أوقفوا هذا! آمركم أن تتفرقوا!»

لم يعبأ أحدٌ بهِ، وبدا الاضطرابِ واضحاً على وجوهِ رجالهِ؛ فعلى الرغمِ من أنهم يحملون سيوفاً فإنهم كانوا ضعفاءً أمامَ حشدٍ من مئةِ شخصٍ في حالةِ حدادٍ غاضبٍ.

خاطبَ وليم فيليب مباشرةً: «باسمِ الملكِ آمركَ بإيقاف هذا!»

مرَّ فيليب بجانبهِ، والحشدُ يدفعهُ من الوراءِ إلى الأمامِ ثمَّ صرخَ بهِ من فوقِ كتفهِ: «تأخرت كثيراً يا وليم! تأخرت كثيراً!»

– 3 –

توَّجهَ الصبيةُ إلى الساحةِ باكراً لمشاهدةِ الإعدامِ.

كانوا في ساحةِ السوقِ في شايرنغ يرجمون القططَ بالحجارةِ، ويضايقون المتسولين، ويتشاجرون بعضهم مع بعض عندما وصلت آليانا وحيدةً وراجلةً في عباءةٍ رخيصةٍ وقلنسوتها على رأسها كيلا يعرفها أحدٌ.

وقفت آليانا بعيدةً عن المشنقةِ تراقبها. لم تكن تنوي الحضورَ فقد حضرت الكثيرَ من الإعدامات على مرِّ السنين التي لعبت فيها دورَ الإيرل، ولكنها الآن، وبعدَ أن توقفت عن أداءِ الدورِ، اعتقدت أنَّها ستسرُّ إن لم ترَ رجلاً آخر يُعدم لبقيةِ حياتها، إلا أنَّ هذا الإعدامَ كان مختلفاً.

توقفت عن لعبِ دورِ الإيرل بعدَ أن قُتلَ شقيقها ريتشارد في سوريا. وبما يدعو للسخريةِ أنه لم يُقتل في معركةٍ بل في هزةٍ أرضيةٍ، ولم يصلها الخبر إلا بعدَ ستةِ أشهرٍ. لم ترهُ منذُ خمسةَ عشرَ عاماً، وها هي الآن لن تراه مجدداً. أعلى التلَّةِ حيثُ القلعة رأت آليانا بوابتها تُفتح، ويخرجُ السجين مع مرافقهِ ويلحقُ بهما إيرل شايرنغ الجديد – ابنها تومي.

لم يُنجب ريتشارد أبناءً لهذا ورثَ ابن شقيقتهِ منصبهُ. بعدَ فضيحةِ توماس بيكيت، وفي محاولةٍ من الملك لتجنبِ أيِّ صراعٍ منحَ تومي منصبَ إيرل شايرنغ على الفورِ. كانت آليانا قد سلَّمت الدورَ إلى الجيلِ الأصغر قبلَ ذلكَ، فقد حققت ما أرادتهُ، وعادت المقاطعة غنيةً، ومزدهرةً، وخرافها سمينةً، وحقولها خضراء، وطواحينها قويةً. تبنَّى العديدُ من المُلَّاكِ

المنفتحين طريقتها، وتحولوا إلى الفلاحةِ بالجيادِ التي أطعموها الشوفان المزروع في دورةٍ زراعيةٍ مُنظمةٍ، وكانت النتيجةُ أنَّ الأراضي باتت تُطعمُ أناساً أكثر مما كانت تُطعمُ قبلاً تحتَ إدارةِ والدها المتنور.

سيكون تومي إيرلاً جيداً فقد ولدَ لهذا الدور. رفضَ جاك هذهِ الحقيقة لوقتٍ طويلٍ، وأرادَ من ابنهِ أن يُصبح بنّاءً، ولكنه اضطرَّ في نهايةِ المطافِ إلى القبولِ بالحقيقةِ. لم يتمكن تومي يوماً من تقطيعِ الحجرِ في خطٍ مستقيم، ولكنه كان قائداً بالفطرةِ، وبعمرِ الثامنةِ والعشرين كان حازماً، وذكياً، ومُنصفاً، وصاحبَ عزيمةٍ. بات الآن يدعى بالإيرل توماس.

عندما تسلَّمَ تومي زمامَ الأمورِ توقعَ الناسُ من آليانا أن تبقى في القلعةِ، وتزعجَ زوجةَ ابنها، وتلعبَ مع أحفادها، ولكنها ضحكت على من قالوا هذا، فقد كانت تحبُّ زوجةَ تومي التي كانت إحدى بناتِ إيرل بيدفورد الصغيرات والجميلات، وعبدت أحفادها الثلاثة، ولكن في عمرِ الثانيةِ والخمسين لم تكن جاهزةً بعد للتقاعدِ. أخذت مع جاك منزلاً حجرياً كبيراً قربَ ديرِ كينغزبريدج في الحيِّ الذي كان في وقتٍ مضى الحي الفقير، ولكنه لم يعد كذلكَ الآن، وعادت إلى تجارةِ الصوفِ، والشراءِ، والبيعِ، والتفاوضِ بكلِّ طاقتها القديمةِ، وجني الكثير من الأموالِ.

وصلت فرقةُ الإعدامِ إلى الساحةِ، واستفاقت آليانا من أحلامِ اليقظةِ. أمعنت النظرَ إلى السجينِ وهو يعرجُ في طريقهِ إلى المشنقةِ، ويداهِ مقيدتان وراءَ ظهرهِ.

كان السجين وليم هاملي.

قامَ أحد ما في مقدمةِ الحشدِ بالبصقِ عليهِ. أتى جمعٌ غفيرٌ من الناسِ إلى الساحةِ، فقد كان الكثيرون سعداء بإعدامِ وليم، حتَّى أولئكَ الذين لم يكنّوا له ضغينةً اعتبروا إعدامَ مأمورٍ سابقٍ حدثاً غيرَ عادي، إلَّا أنَّ وليم تورطَ في أشنعِ جريمةٍ على الإطلاقِ.

لم تتخيلَ آليانا قط أن يكون لمقتلِ كبيرِ الأساقفةِ توماس هذا الصدى. انتشرَ الخبرُ كالنارِ في الهشيمِ في أرجاءِ المملكةِ المسيحيةِ، من دبلن إلى القدس، ومن طليطلة إلى أوسلو. أعلنَ البابا الحداد، وشملَ هذا الجزءَ الأوروبي من إمبراطوريةِ هنري، مما يعني أنَّ الكنائس أُغلقت، وباستثناءِ

التعميد لم تُجرَ أيُّ طقوسٍ. في إنكلترا بدأ الناسُ يحجّون إلى كانتربري كأنَّهم يحجون إلى ضريحِ سانتياغو دي كومبوستيلا، بل حدثت معجزاتٌ أيضاً فقد تلونَ الماءُ بدمِ الشهيدِ، ومُزقُ الرداءِ التي ارتداه توماس عندما قُتلِ شفت المرضى الذين أتوا من جميعِ أرجاءِ إنكلترا.

حاولَ رجالُ وليم سرقةَ الجثة من الكاتدرائيةِ، ولكن الرهبان سارعوا إلى إخفائها، وباتت الآن محميةً في مدفنٍ حجري، ويتعين على الحجاجِ إدخالُ رؤوسهم في فجوةٍ في الجدارِ لتقبيلِ التابوت الرخامي.

كانت هذهِ آخر جرائم وليم؛ فحالما عادَ إلى شايرنغ اعتقله تومي، واتهمهُ بتدنيسِ المقدساتِ، ووجدتهُ محكمةُ الأسقفِ فيليب مُذنباً. عادةً لا يجرؤ أحدٌ على محاكمةِ مأمورٍ لأنَّه موظفٌ ملكي، ولكن في هذهِ الحالةِ كان العكسُ هو الصحيح، فما من أحدٍ، بمن في ذلكَ الملك، سيجرؤ على الدفاعِ عن أحدِ قتلةِ بيكيت.

وكانت نهايةُ وليم وخيمةً.

حدَّقَ وليم بعينين متوحشتين وفمٍ مفتوحٍ يسيلُ منه اللعاب كأنَّه يتأوه بشكلٍ غير مسموعٍ، وكانت هناك بقعةُ بولٍ على مقدمةِ سترتهِ.

راقبت آليانا عدوها القديم يترنحُ بعماءٍ باتجاهِ المشنقةِ، وتذكرت الشاب المتعجرف والقاسي الذي اعتدى عليها قبلَ خمسة وثلاثين عاماً، ووجدت صعوبةً في التصديقِ أنَّه ينتهي إلى هذا المخلوق المتوحشِ، والمرعوبِ، والمتأوه أمامَ عينيها. حتَّى مظهر الفارسِ السمينِ والمصابِ بالنقرسِ والخيبةِ في أيامهِ الأخيرةِ لم يكن بسوءِ مظهرهِ الآن. حالما اقتربَ وليم من المشنقةِ بدأ يقاوم ويصرخ. جرَّه الجنودُ كأنَّهم يجرون خنزيراً إلى المسلخ. لم تشعر آليانا بالشفقةِ عليهِ بل بالراحةِ؛ فهو لن يتمكن بعدَ الآن من ترويعِ أحدٍ.

ركلَ وليم وصرخَ والجنود يرفعونهُ على عربةٍ يجرها ثورٌ. بدا كحيوانٍ غاضبٍ، ومتوحشٍ، وقذرٍ، ولكن صوتهُ وهو يتأوه، ويصرخ، ويهذر بصوتِ طفلٍ. احتاجوا إلى أربعةِ رجالٍ لإمساكهِ بينما وضعَ الخامس الأنشوطةَ حولَ عنقهِ. قاومَ كثيراً إلى درجةِ أنَّ الأنشوطةَ ضاقت على عنقهِ قبلَ أن يقع، وبدأ يقاومُ بكلِّ قوتهِ. تراجعَ الجنودُ إلى الوراءِ بينما تلوى وليم وهو يختنقُ ووجهه يتحولُ إلى اللون الأرجواني.

حدَّقت إليهِ آليانا شاحبةً؛ فحتَّى في قمةِ غضبها وكرهها له لم تتمنّ له ميتةً كهذهِ.

كان يختنق الآن ولذلك توقفَ عن إصدار أيِّ صوتٍ. وقفَ الحشدُ ساكناً، حتَّى الصبيةُ الصغار أبكمهم المنظرُ المريعُ.

ضربَ أحدهم على كفلِ الثورِ بسوطٍ، وتحرَّك الحيوان فسقطَ وليم أخيراً، ولكن السقطةَ لم تكسر عنقهُ بل تدلى من الحبلِ، وهو يختنقُ ببطءٍ. كانت عيناه مفتوحتين، وشعرت آليانا أنَّه يُحدّقُ إليها، وبدت لها التكشيرةُ التي ارتسمت على وجههِ، وهو يختنقُ ويتلوى من الألمِ مألوفةً لها، وأدركت أنَّها ذات التكشيرة التي ارتسمت على وجههِ عندما كان يغتصبها، وقبلَ أن يصلَ إلى الذروةِ. طعنتها هذهِ الذكرى كسكينٍ، وعجزت عن إجبارِ نفسها على إشاحةِ نظرها.

طالَ الأمرُ، ولكن الحشدَ بقي هادئاً طوالَ الوقتِ. غدا لون وجهِ وليم غامقاً أكثر فأكثر، وتوقفَ عن التلوي، وباتَ يرتعش فقط. وأخيراً رفعَ عينيهِ كأنَّه ينظرُ فوقَ جبهتهِ، وأغلقَ جفنيهِ، وهمدَ ثمَّ وبشكلٍ مقززٍ خرجَ لسانهُ المسود والمنتفخ من بينِ أسنانهِ.

مات الآن.

شعرت آليانا أنَّها مستنزفةٌ. غيَّر وليم حياتها، وفي مرحلةٍ ما قالت إنَّه دمَّر حياتها، ولكنه الآن ميتٌ، وعاجزٌ عن إيذائها، أو إيذاءِ أيِّ أحدٍ بعد الآن.

بدأ الحشدُ يغادر، وأخذَ الصبيةُ الصغارُ يقلدون الميت بأن تلووا، ورفعوا أعينهم، وأخرجوا ألسنتهم. صعدَ جنديٌ إلى المنصةِ، وقطعَ حبلَ المشنقةِ.

التقت عينا آليانا بعيني ابنها. بدا متفاجئاً جداً لرؤيتها هنا، وتوجه إليها على الفورِ ثمَّ انحنى وقبَّلها. فكرت في نفسها: «هذا ابني، ابني الكبير. ابن جاك». وتذكرت كيفَ كانت مرتعبةً من أن تكون حاملاً بطفل وليم. حسناً، يبدو أن بعضَ الأمورِ سارت على ما يرامُ.

«اعتقدتُ أنَّكِ لن تأتي إلى هنا اليوم»، قال تومي.

«كان عليَّ القدوم»، أجابتهُ وأضافت: «كان عليَّ أن أراه ميتاً».

بدا متفاجئاً فهو لم يفهم ما عنته، لم يفهمهُ تماماً.

وسرَّت لهذا فقد أملت ألا يفهمَ مثلَ هذه الأمور.
أحاطها بذارعِهِ، وغادرا السّاحةَ.
ولم تنظر آليانا إلى الوراءِ.

***

في يومٍ قائظٍ من أيامِ منتصفِ الصيفِ كان جاك وآليانا وسالي على شرفةِ المنبر في الجناحِ الشمالي الباردِ للكاتدرائيةِ يتناولون الغداءَ. جلسوا على جصِّ أرضيةِ الرسمِ الخاصةِ بجاك، وغناءُ الرهبانِ خلالَ صلاةِ الظهرِ في المذبحِ يصلهم كهدير شلالٍ بعيدٍ. تناولوا قطعَ لحمِ الحملِ الباردةِ مع خبز قمحٍ طازجٍ، وإبريقٍ حجري من جعةٍ ذهبيةِ اللونِ. كان جاك قد قضى الصباحَ بأكملِهِ يضعُ مخطط المذبح الجديد الذي سيبدأ العملَ عليهِ العامَ القادم، وسالي تُحدّق إلى رسمهِ وهي تقضمُ اللحمَ بأسنانها البيضاء الجميلة. عرفَ أنَّها بعدَ وهلةٍ ستأتي بملاحظةٍ ناقدةٍ. حدَّقَ إلى آليانا، ووجدَ أنَّها أيضاً قرأت وجهَ سالي، وعلمت ما الذي سيحدث الآن. تبادلَ جاك وآليانا النظرات التي يتبادلها الأبوان في لحظةِ تخاطر، وابتسما.

«لمَ رسمت الطرف الشرقي مدوراً؟» سألته سالي.

«اعتمدتُ في تصميمهِ على تصميمِ مذبحِ كنيسةِ سان دينيه»، أجاب جاك.

«وهل ستحقق فائدة من بنائهِ على هذا الشكلِ؟»

«أجل، كي يستمر الحجاجُ بالتحرُّكِ في المكانِ».

«إذاً، لا يوجد سوى هذا الصف من النوافذ الصغيرةِ».

عرفَ جاك أنَّ موضوعَ النوافذِ سيُطرح؛ فقد كانت سالي صانعة زجاجٍ. «نوافذ صغيرة؟» قال وهو يتظاهر بالسخطِ. «هذهِ النوافذ ضخمةٌ! عندما بنيتُ نوافذ بهذا الحجمِ في هذهِ الكنيسةِ اعتقدَ الناسُ أنَّ كاملَ المبنى سينهار من قلّة الدعائمِ».

«إن كانَ طرفُ المذبح مربعاً، سيكون لديك جدارٌ مستقيمٌ كبيرٌ يمكنكَ أن تضع فيه نوافذ كبيرةً حقاً»، تابعت سالي بإصرارٍ.

وفكرَ جاك أنَّ كلامها معقولٌ. وفقَ المخططِ الحالي سيكون المذبح بالعلو والاستدارةِ ذاتهما في طبقاته التقليدية: المجاز المقنطر، والمنبر،

والنوافذ العلوية. ولكن إن اعتمدَ الشكل المربع فستكون لديهِ فرصةٌ لتغييرِ هذا.

«قد تكونُ هناك طريقةٌ أخرى لدفعِ الحجاجِ إلى التحرك طوالَ الوقتِ»، قال جاك متأملاً.

«وستدخلُ أشعةُ شمسِ الفجرِ من النوافذِ الكبيرةِ»، قالت سالي.

تخيلَ جاك الأمرَ وقال: «يمكننا وضعُ صفٍ من النوافذِ الطويلةِ كما الرماحِ على حاملٍ».

قالت سالي: «أو نافذةً كبيرةً كزهرةٍ».

كانت فكرةً مذهلةً، وتخيلَ جاك أنَّ من سيقفُ في صحنِ الكنيسةِ، وينظرُ إلى الطرفِ الشرقي منها سيرى النافذة المدورة كشمسٍ ضخمةٍ تنفجرُ عبرَ قطعِ الزجاجِ وبألوانٍ مذهلةٍ. تأملَ جاك الأمرَ وقال: «يا ترى ما الثيمة التي سيعتمدها الرهبان لهذهِ النافذةِ؟»

«الناموس والأنبياء»، أجابتهُ سالي.

نظرَ إليها جاك بعجبٍ وقال: «أيتها الثعلبةُ الماكرةُ. ناقشت الفكرةَ مع رئيسِ الديرِ جوناثان، أليسَ هذا صحيح؟»

لاحَ شعورٌ بالذنبِ على وجهها، ولكن نجت من الإجابةِ على السؤالِ بوصولِ بيتر تشيزل. كان بيتر قاطعَ حجارةٍ، وهو شابٌ خجولٌ بشعرٍ أشقر يغطي جبهته حتَّى عينيهِ، ولكنه كان ينحتُ الحجارةَ بشكلٍ جميلٍ، وكان جاك مسروراً بالعملِ معهُ.

«ما الذي تريدهُ يا بيتر؟»

«في الحقيقةِ أبحثُ عن سالي»، قال بيتر.

«حسناً، وها قد عثرتَ عليها».

كانت سالي قد نهضت الآن، ونفضت فتاتَ الخبزِ عن مقدمةِ سترتها.

«سألقاكما لاحقاً»، قالت لوالديها، وعبرت مع بيتر المدخلَ المنخفضَ ثـمَّ هبطا الدرجَ الحلزوني.

تبادل جاك وآليانا النظرات.

«هل بدت مُحرجةً؟» سألَ جاك.

«آمل هذا»، قالت آليانا. «يا إلهي، إنَّها في السادسةِ والعشرين، وحان الوقتُ لتُغرمَ بأحدهم».

«حسناً، حسناً، كنتُ قد تخليت عن الأملِ بهذا. اعتقدتُ أنَّها تنوي البقاءَ عازبةً».

هزَّت آليانا رأسها وقالت: «ليسَ سالي. إنَّها شبقةٌ كأيَّة امرأةٍ، ولكنها نيقةٌ».

«هل هي كذلك؟» قال جاك وتابع: «على حدِّ علمي لا تصطفّ فتياتُ المقاطعةِ أمام بيتر تشيزل رغبةً بالزواجِ منه».

«فتياتُ المقاطعةِ يُغرمن برجالٍ ضخامٍ ووسيمين مثل تومي ممن يسحروهن وهم على ظهورِ جيادهم في عباءاتٍ مبطنةٍ بالحريرِ الأحمر، ولكن سالي مختلفةٌ عنهنَ. إنَّها تريدُ رجلاً ذكياً وحساساً، وبيتر مناسبٌ لها».

أومأ جاك برأسِهِ، ورغمَ أنَّه لم يفكر في الأمرِ فإنَّه شعرَ أنَّ آليانا كانت على حقٍ. «إنَّها كجدتها»، قال جاك. «فقد وقعت أمي في غرامِ شخصٍ غريبِ الأطوارِ».

«سالي تشبه والدتكَ، وتومي يشبه والدي»، قالت آليانا.

ابتسمَ جاك لها. كانت أكثر جمالاً من أيِّ وقتٍ مضى، ورغمَ خصلِ الشعرِ الرمادي في شعرها، وبشرة عنقها التي لم تعد ملساء كالمرمرِ، فإنَّها ومع مرورِ السنواتِ وفقدانها للامتلاءِ الذي اكتسبتهُ من الحملِ، غدت عظام وجهها أكثر بروزاً، ومنحها هذا جمالاً إضافياً يكادُ يكون هيكلياً. مدَّ جاك يدهُ ومررها على طولِ خطِّ الفكِّ.

«ككتائفي الناتئةِ»، قال لها.

وابتسمت.

أنزلَ يدهُ على عنقها ثمَّ إلى ثدييها اللذين تغيرا أيضاً. يتذكرهما جاك ناهدين، ويتحركان بخفةٍ، والحلمتان ناتئتان. عندما كانت حاملاً كبرَ ثدياها وحلمتاها، أمَّا الآن فكانا متدليين، وطريين، ويتحركان بلطفٍ من جهةٍ إلى أخرى، ولكنه أحبَّهما في كل مراحلِ تغيرهما، وتساءل في نفسهِ كيفَ سيكون شكلهما عندما تطعن في السنِّ أكثر. هل سيذويان ويتجعدان؟ وفكرَ أنَّه على الأغلبِ سيُحبهما آنذاك أيضاً. شعرَ بحلمتها تتصلبُ تحتَ ملمسِ أصابعهِ فانحنى صوبها وقبَّلها على شفتيها.

«جاك، إننا في الكنيسةِ»، دمدمت له.

«لا تهتمي بهذا»، قال لها، ومررَ يدهُ فوقَ بطنها ثمَّ على حِجرها.

وسمعا وقعَ أقدامٍ على الدرجِ.

سحبَ جاك يدهُ وهو يشعرُ بالذنبِ.

ابتسمت عندما رأت حرجهُ وقالت عابثةً: «هذا عقابُ الرَّبِّ لكَ».

«سأحاسبكِ لاحقاً»، همسَ لها بلهجةِ تهديدٍ مزيفةٍ.

وصلَ وقعُ الأقدامِ إلى أعلى الدرجِ، وخرجَ رئيسُ الديرِ جوناثان ثمَّ حيَّاهما برزانةٍ. بدا حزيناً وهو يقول: «جاك، أريدكَ أن تسمعَ شيئاً. هلَّا رافقتني إلى الممرّاتِ المسقوفةِ؟»

«بالطبعِ»، أجابَ جاك، ونهضَ على قدميهِ.

وتوجه جوناثان إلى بابِ الدرجِ الحلزوني ثمَّ نزلَ.

توقفَ جاك عندَ بابِ الدرجِ ومدَّ إصبعاً نحوها ثمَّ قال: «لاحقاً».

«هل هذا وعد؟» قالت مبتسمةً.

هبطَ جاك الدرجَ في إثرِ جوناثان ثمَّ عبرا الكنيسةَ إلى بابِ الجناحِ الجنوبي الذي يُفضي إلى الممرّاتِ المسقوفةِ. سارا في الممرّ الشمالي، وتجاوزا صبيةَ المدرسةِ الذين يحملون ألواح شمعٍ ثمَّ توقفا في الزاويةِ. أشارَ جوناثان برأسهِ، ونظرَ جاك إلى حيثُ أشارَ فرأى راهباً يجلسُ وحيداً على عتبةٍ حجريةٍ في منتصفِ الممرّ الغربي. أخفت قلنسوةُ الراهبِ وجهه، ولكنهما عندما توقفا استدار الرجلُ، ونظرَ ثمَّ أبعدَ ناظريهِ على الفورِ.

خطا جاك خطوةً إلى الوراءِ بشكلٍ لا إرادي.

كان الراهبُ ويلارن بيغاد.

قال جاك بغضبٍ: «ما الذي يفعلهُ هذا الشيطان هنا؟»

«يُجهزُ نفسهُ للقاءِ خالقهِ».

تجهمَ جاك وقال: «لا أفهم».

«إنَّه رجلٌ محطمٌ الآن»، قال جوناثان. «لم يعد لديه منصب، ولا سلطة، ولا أصدقاء. وأدركَ أنَّ الربَّ لا يريدهُ أن يكون أسقفاً عظيماً وقوياً، وفهمَ خطيئةَ الوسائلِ التي لجأ إليها. أتى إلى هنا مشياً، والتمسَ العودةَ إلى

الديرِ راهباً متواضعاً لقضاءِ ما تبقى من حياتهِ يطلبُ المغفرة من الرَّبِّ على خطاياه».

«أجدُ صعوبةً في تصديقِ هذا»، قال جاك.

«وأنا وجدت صعوبةً في البدايةِ»، قال جوناثان. «ثمَّ أدركتُ أنَّه كان على الدوامِ تقيّاً حقيقياً».

بدا جاك مرتاباً في صحةِ ما قاله جوناثان.

«أعتقدُ حقاً أنَّه كان ورعاً، ولكنه ارتكبَ خطأً فادحاً. آمنَ أنَّ الغايةَ تبررُ الوسيلةَ في خدمةِ الرَّبِّ، فأعطى لنفسهِ حريةَ القيامِ بأيِّ شيءٍ».

«بما في ذلكَ التآمر على قتلِ رئيسِ الأساقفةِ!»

رفعَ جوناثان يديهِ بحركةٍ دفاعيةٍ وقال: «الرَّبُّ من سيعاقبهُ، وليسَ أنا».

هزَّ جاك كتفيهِ بلا مبالاةٍ. كان فيليب سيقولُ هذا أيضاً، ولم يجد جاك سبباً يمنعُ ويلارن من العيشِ في الدير. على أيِّ حالٍ هكذا تسيرُ حياةُ الرهبانِ.

«ولماذا أردتني أن أراه؟»

«يريدُ أن يُخبركَ بالسببِ الذي دفعهُ إلى إعدامِ والدكَ».

وفجأةً شعرَ جاك بالفتورِ.

جلسَ ويلارن على العتبةِ بثباتِ حجرٍ وهو يحدقُ في الفراغِ. كان حافي القدمين، وكاحلاه العجوزان الأبيضان والهشان مرئيين تحتَ حافةِ ردائهِ الرهباني المتواضعِ. أدركَ جاك أنَّ ويلارن لم يعد مخيفاً. كان ضعيفاً، ومهزوماً، وحزيناً.

تقدَّم جاك ببطءٍ، وجلسَ على مقعدٍ يبعدُ ياردةً عن ويلارن.

«كان الملكُ الراحلُ هنري قوياً جداً»، بدأ ويلارن كلامهُ دونَ تمهيدٍ. «وانزعج منه بعض الباروناتِ لأنَّه قيَّدَ سلطتهم. أرادوا أن يكون الملك القادم أضعف، وكان لهنري ابنٌ يُدعى وليم».

كان ويلارن يتحدثُ عن أمرٍ حدثَ منذُ ماضٍ بعيدٍ ولذلك قال جاك: «حدثَ هذا قبلَ أن أولد».

«توفي والدكَ قبلَ ولادتكَ»، قال ويلارن بشيءٍ من غطرستهِ القديمةِ.

أومأ جاك وقال: «تابع إذاً».

«قررت مجموعةٌ من الباروناتِ قتلَ ابن هنري على أمل أن تسود حالةُ فوضى، ويكون لهم تأثيرٌ أكبر في اختيارِ الملكِ التالي».

تفحصَ جاك وجهَ ويلارن الشاحب والناحل باحثاً عن أي دليلٍ على الخداعِ، ولكن الرجلَ العجوز بدا متعباً، ومهزوماً، ونادماً. إن كانَ الرجلُ يخططُ لشيءٍ فلم يرَ جاك دليلاً على هذا. «ولكن وليم ماتَ في حادثةِ غرقِ سفينةِ وايت شيب»، قال جاك.

«لم يكن غرقُ السفينةِ حادثاً»، قال ويلارن.

صُدمَ جاك، وتساءل في نفسهِ إن كان هذا حقيقياً. هل قُتلَ وريثُ العرشِ لأنَّ مجموعةً من الباروناتِ أرادت ملكاً أضعف؟ ولكن هذا لم يكن صادماً أكثرَ من قتلِ كبيرِ الأساقفةِ.

«تابع»، قال جاك.

«أغرقَ رجالُ البارونات السفينةَ وهربوا على قاربٍ. غرقَ جميعُ من كانَ على السفينةِ باستثناءِ رجلٍ واحدٍ تعلَّقَ بقاربٍ احتياطي، ووصلَ إلى الشاطئ».

«كان هذا والدي»، قال جاك، وبدأ الآن يفهم إلى أين يذهبُ ويلارن بكلامهِ.

لاح شحوبٌ على وجهِ ويلارن وشفتيهِ. تحدَّثَ بانفعالٍ مُتجنباً النظرَ في عيني جاك. «جُرفَ قربَ شاطئ قلعةٍ تعودُ إلى أحدِ المتواطئين فأمسكوا بهِ. لم يكن الرجلُ ينوي فضحهم. في الحقيقةِ لم يُدرك قط أنَّ السفينةَ أُغرقت، ولكنه رأى أموراً كفيلةً بفضحِ الحقيقةِ للآخرين إن سُمحَ له بالتجولِ بحريةٍ، والتحدُّثِ عن تجربتهِ. لهذا اختطفوه، وجلبوه إلى إنكلترا، ووضعوه تحتَ وصايةِ أناسٍ يثقون بهم».

شعرَ جاك بحزنٍ عظيمٍ، وتذكرَ أنَّ والدتهُ قالت له إنَّ كلَّ ما أرادهُ والدهُ هو الترفيه عن الناسِ. استشعرَ جاك بأمرٍ غريبٍ في قصةِ ويلارن فسأله: «لماذا إذاً قتلوه؟»

«كان عليهم قتلهُ»، قال ويلارن ببرودٍ. «ولكنه كان رجلاً بريئاً، مجرَّد شاعرٍ متجولٍ، شخصاً يرفّه عن الناس، ولذلكَ لم ينجحوا في إجبارِ أنفسهم على القيامِ بهذا»، توقفَ وابتسمَ ابتسامة حزينةً ثمَّ تابع: «حتَّى أقسى الرجالِ يملكون وازعاً».

«إذاً، لماذا غيروا رأيهم؟»

«غيروا رأيهم عندما أصبحَ خطيراً. في البدايةِ لم يهدد بوجودهِ أحداً؛ فلم يتحدث بالإنكليزيةِ، ولكنه تعلَّمَ طبعاً، وبدأ يعقدُ صداقاتٍ، ولهذا سجنوه في الزنزانةِ تحتَ مهجعِ الرهبانِ، ثمَّ بدأ الناس يسألون عن سببِ سجنهِ، وأصبحَ الأمرُ مدعاةً للحرجِ. أدركوا أنَّهم لن يرتاحوا أبداً وهو ما يزالُ على قيدِ الحياةِ، ولهذا طلبوا منا أخيراً قتلهُ».

«بهذهِ البساطةِ»، فكرَ جاك ولكنه قال: «ولماذا أطعتموهم؟»

«كُنا طموحين، ثلاثتنا»، قال ويلارن، ولأولِ مرّةٍ طوالَ هذا الوقتِ يرى جاك على وجههِ التأثرَ. كان فمهُ يرتعشُ في تكشيرةٍ تشي بالندمِ. «بيرسي هاملي، ورئيسُ الديرِ جيمس، وأنا. كانت والدتكَ على حقٍ. تلقينا مكآفاتٍ على ما فعلناه. أصبحتُ رئيسَ الشمامسةِ، وكانت هذهِ بدايةً رائعةً لمسيرتي المهنيةِ في الديرِ، وأصبحَ بيرسي ملَّاكاً مُهماً، وحصلَ رئيسُ الديرِ جيمس على ممتلكاتٍ إضافيةٍ لمصلحة الديرِ».

«والبارونات؟»

«خلالَ الأعوامِ الثلاثةِ التاليةِ على غرقِ السفينةِ هوجمَ هنري من قبلِ فولك آنجو، ووليم كليتو في النورماندي، وملك فرنسا، ولفترةٍ من الزمنِ كان ضعيفاً، ولكنه هزمَ أعداءهُ، وحكمَ لعشرِ سنواتٍ إضافيةٍ. وأخيراً عندما توفي من دونِ وريثٍ ذكر وقعت الفوضى التي سعى إليها البارونات، ووصلَ ستيفن إلى الحُكمِ. خلالَ سنواتِ الحربِ الأهليةِ التي دامت لعقدين حكمَ البارونات مناطقهم كملوكٍ، ومن دونِ سُلطةٍ مركزيةٍ رادعةٍ».

«ووالدي توفي من أجلِ هذا».

«ولكنَّ الأمور لم تسر كما أرادوها بل ساءت. معظمهم توفي في ساحاتِ القتالِ، ومنهم من فقدوا أبناءهم أيضاً. والكذبةُ الصغيرةُ التي أطلقناها لتبريرِ قتلِ والدكَ أتت في نهايةِ المطافِ ولاحقتنا. لعنتنا والدتكَ بعدَ الإعدامِ، وكانت لعنتها جيدةً؛ فقد انتهى أمرُ رئيس الديرِ جيمس تحتَ وطأةِ الشعورِ بالذنبِ مما فعلهُ كما قالَ ريميجوس في محاكمةِ فيليب، وتوفي بيرسي قبلَ أن تظهرَ الحقيقة، ولكن ابنهُ أُعدمَ. وانظر إليَّ. ها أنا وبعدَ خمسين عاماً أدفعُ

ثمنَ حنثي بالوعدِ، وأخسر مسيرتي المهنية». بدا ويلارن شاحباً ومُتعباً كأنَّ صرامة انضباطِهِ الذاتي ترهقهُ بشدةٍ.

«كنا جميعاً خائفين من والدتكَ لجهلنا بما تعلمهُ. تبينَ لاحقاً أنَّها لم تعرف الكثير، ولكن ما عرفتهُ كان كافياً».

شعرَ جاك أنَّه مستنزفٌ تماماً كويلارن. ها هو يحصل على ما أرادهُ طوالَ حياتِهِ ويعلمُ حقيقةَ ما حدثَ لوالده، ولكنه وجدَ نفسهُ الآن عاجزاً عن الشعورِ بالغضبِ، أو الرغبةِ بالانتقامِ. ورغمَ أنَّه لم يعرف والدهُ الحقيقي فإنَّه امتلكَ توم الذي منحهُ حُبَّ البناءِ – ثاني أعظم شغفٍ في حياتِهِ.

وقفَ جاك. ولأنَّ كل هذا حدث في الماضي البعيدِ عجزَ عن البكاءِ؛ فقد حدثَ الكثيرُ بعدَ ذلكَ، ومعظمهُ كان جيداً.

نظرَ إلى الرجلِ العجوزِ النادمِ على المقعدِ. يا للسخريةِ! كان ويلارن الآن من يعاني من مرارةِ الندمِ، وشعرَ جاك بالشفقةِ عليهِ. رهيبٌ حقاً أن يصلَ المرءُ إلى هذا العمرِ، ويُدركَ أن حياتهُ بأكملها ذهبت هدراً. رفعَ ويلارن ناظريهِ، والتقت عيناه بعيني جاك لأولِ مرَّةٍ فجفلَ، وأشاحَ بنظرهِ كأنَّه تلقى صفعةً. لوهلةٍ عجزَ جاك عن قراءةِ ما دار في ذهنِ الرجلِ، ولكنه أدرك أخيراً أنَّ ويلارن رأى الشفقةَ في عينيه.

كانت شفقةُ الأعداءِ أسوأ إذلالٍ له.

– 5 –

عندَ البوابةِ الغربيةِ لمدينةِ كانتربري المسيحيةِ القديمةِ وقفَ فيليب في رداءِ أسقفٍ إنكليزي مزين برموزٍ ملكيةٍ ملونةٍ وجميلةٍ، ويحملُ صولجاناً مُطعماً بالجواهرِ قيمتهُ تعادل فديةَ ملكٍ.

انهمرَ المطرُ بغزارةٍ.

كان في السادسةِ والستين، وجعلهُ المطرَ يشعرُ ببردٍ ينخرُ عظامه. كانت هذه المرةَ الأخيرةَ التي سيُغامرُ فيها بالسفرِ، ولكنه لم يكن ليفوتَ عليهِ هذا اليومِ، ومهما كلَّفه الأمرُ. ستكون مراسم اليومِ تتويجاً لعملِ حياتِهِ.

مضت ثلاثةُ أعوامٍ ونيف على جريمة اغتيالِ كبيرِ الأساقفةِ التاريخيةِ، وخلالَ هذهِ الفترةِ الزمنيةِ القصيرةِ اكتسحت طائفة توماس بيكيت الصوفيةَ

العالم. لم يكن لدى فيليب أدنى فكرة عمَّا سيبدأهُ عندما قادَ موكبَ الشموعِ عبرَ شوارعِ كانتربري. رسمَ البابا توماس قدّيساً بسرعةٍ لا تصدق، وأصبحَ في الأراضي المقدسةِ فيلقٌ جديدٌ من الفرسان يُدعى فرسانُ القديسِ توماس. لم ينجح الملكُ هنري في محاربةِ هذهِ الحركةِ الشعبيةِ القويةِ، فقد كانت قويةً جداً على أن يواجهها فردٌ واحدٌ.

أمَّا بالنسبةِ إلى فيليب فإنَّ أهميةَ الظاهرةِ في فضحها جبروت الدولةِ. أثبتَ موتُ توماس أنَّه وفي الصراعِ بينَ الكنيسةِ والتاجِ فإنَّ الملكَ سيلجأ دوماً إلى القوةِ والعنفِ، ولكن طائفةَ توماس أثبتت أنَّ غلبةَ مثلِ هذهِ القوةِ كذبةٌ، وأنَّ سلطةَ الملكِ ليست مُطلقةً بل يُمكن لإرادةِ الناسِ أن تلجمها. حدثَ هذا كلّه خلالَ حياةِ فيليب، وهو لم يشهد عليه فحسب، بل ساعدَ على تحقيقه، ومراسم اليومِ ستحتفي بهِ.

كان هناك رجلٌ سمينٌ وقصيرٌ برأسٍ كبيرٍ يتوجه إلى المدينةِ تحتَ وابلِ المطرِ. لم يكن يرتدي حذاءً أو قبعةً، وتلحقُ بهِ مجموعةٌ كبيرةٌ من الناسِ على ظهورِ الجيادِ.

كان الرجلُ الملكُ هنري.

لزمَ الحشدُ الصمتَ كأنَّه في جنازةٍ بينما الملكُ المبللُ بماءِ المطرِ يخوضُ في الوحلِ باتجاهِ بوابةِ المدينةِ.

تقدّمَ فيليب إلى أن أصبحَ على الطريقِ، ووفقاً للخطَّةِ المُتفق عليها سيسيرُ أمامَ الملكِ الحافي حتّى الكاتدرائيةِ. لم يمشِ الملك بطريقتهِ المرحةِ المعتادةِ والمنضبطةِ بل لحقَ بفيليب مطأطئ الرأسِ في وضعيةٍ ترمزُ إلى التوبةِ. حدَّقَ سكانُ المدينةِ إلى ملكِ إنكلترا في هيئتهِ المتواضعةِ مصعوقين وصامتين، ولحقت حاشيةُ الملكِ بهِ، ولكن مع مسافةٍ فاصلةٍ.

قادهُ فيليب ببطءٍ عبرَ بوابةِ الكاتدرائيةِ. كانت الأبوابُ المهيبةُ للكنيسةِ المذهلةِ مفتوحةً على مصاريعها. دخلَ فيليب وهنري في موكبٍ وقورٍ من شخصين يُلخصان الأزمةَ السياسيةَ التي طبعت هذا القرن. كان صحنُ الكنيسةِ مُكتظاً بالناسِ. تفرَّقَ الحشدُ من أمام الرجلين وهم يهمسون بعضهم لبعض مصدومين من منظرِ أكثر ملوكِ المملكةِ المسيحيةِ فخراً مبللاً، ويدخلُ الكنيسةَ كمتسولٍ.

سارا ببطءٍ عبرَ الصحنِ ثمَّ نزلا الدرجَ إلى السردابِ. هناك وبجانبِ القبرِ الجديدِ للشهيدِ وقفَ رهبان كانتربري ينتظرون مع أعظمِ وأقوى أساقفةِ ورؤساءِ الأديرةِ في المملكةِ.

ركعَ الملكُ على الأرضِ.

لحقَ رجالُ البلاطِ بهنري إلى السردابِ. أمامَ الجميعِ اعترفَ هنري الثاني، ملكُ إنكلترا، بخطاياه، واعترفَ بلعبهِ دوراً غير مباشر في قتلِ القديس توماس.

عندما أنهى اعترافهُ خلعَ عباءتهُ كاشفاً عن سترةٍ خضراء ومسوحاً. ركعَ مجدداً، وأحنى ظهره إلى الأمامِ.

أخرجَ أسقفُ لندن عصا... لجَلدِ الملكِ.

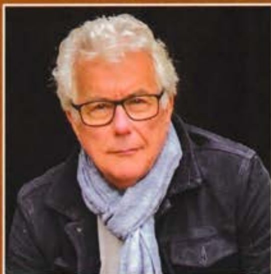
سيوجهُ كلُّ كاهنٍ للملكِ خمسَ ضرباتٍ، وكلُّ راهبٍ ثلاثةً. بالطبعِ لم تكن الضربات حقيقيةً بل رمزيةً، فقد حضرَ ثمانون راهباً، وإن وجهوا للملكِ ضرباتٍ حقيقيةٍ فسيقتلونهُ.

مررَ أسقفُ لندن عصاه بلطفٍ على ظهر الملكِ خمسَ مرّاتٍ، ثمّ التفتَ وسلَّمَ العصا لفيليب - أسقف كينغزبريدج.

تقدَّمَ فيليب إلى الأمامِ، وضربَ الملك. كان سعيداً جداً لأنَّه عاشَ ليشهد على هذهِ اللحظة، وفكرَ في نفسهِ أنَّ العالم، وبدءاً من اليوم، سيغدو مختلفاً.

المحتويات

بدأتُ أقرأ عن هذهِ الكنائسِ، ولكنَّ الكتبَ لم تكن كافيةً فقد كان هناك الكثيرُ من الحشو الجمالي حولَ رفعةِ هذه الكنائسِ ولكن ليسَ الكثير عن عمليةِ البناءِ، ثمَّ وقعَ بين يدي كتاب «بناؤو الكاتدرائية» لجان غيمبل. كان جان البطةَ السوداء في عائلةٍ من تُجارِ التحفِ الفنيةِ، وسَقماً مثلي من النقاشاتِ حولَ جماليات الكنائسِ، وإن كان للنافذةِ العلويةِ في الكنيسةِ دورٌ جمالي أم لا. تحدثَ جانُ في كتابهِ عن العمالِ المُعفرين بالترابِ، ومن سكنوا الأكواخَ خلال عملهم على هذهِ المباني المُذهلةِ، وقد اطلعَ على سجلاتِ الرواتبِ في الأديرةِ الفرنسيةِ، وأبدى اهتماماً بهويةِ البنائين والمبالغِ التي



تقاضوها، وهو أولُ شخصٍ يُلاحظ أنَّ أقليةً مُهمةً بين هذهِ الأسماءِ تعودُ إلى نساءٍ رغمَ أنَّ الكنيسةَ القروسطية متحيزةٌ جنسياً، ولكن يبدو أنَّ نساءً ورجالاً على حد سواء كانوا على قوائم العمالِ.

هناك كتابٌ آخر لجان غيمبل بعنوانِ «الآلةُ القروسطيةُ»، وعلمتُ منه أنَّ القرونَ الوسطى شهدت حركةَ ابتكارٍ سريعةً سُخِّرَت فيها الطواحين المائية في صناعاتٍ عديدةٍ، وسرعان ما بدأتُ أهتمّ بالحياةِ القروسطيةِ بشكلٍ عام، وبدأت أفهمُ كيف أن بناءَ كاتدرائياتٍ مهيبةٍ بدا أمراً صائباً للناسِ خلالَ القرونِ الوسطى.

لم يكن إيجاد تفسيرٍ لهذا بالأمرِ الهيّن بل أشبه بمحاولةِ فهم سببِ ضخِّ البشر في القرنِ العشرين للكثير من الأموال في مجالِ اكتشافِ الفضاءِ الخارجي. في كلتا الحالتين هناك شبكةٌ كاملةٌ من العواملِ كالفضولِ العلمي، والمصالحِ التجاريةِ، والمنافسةِ السياسيةِ، والمطامحِ الروحيةِ للبشرِ على كوكبِ الأرضِ، وخُيلَ إلي أنَّ الطريقةَ الوحيدةَ لرسم هذهِ الشبكةِ هي بتأليفِ روايةٍ.




9 789933 604066